موسوعة النابلسي للعلوم الإسلامية

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي

كتاب
أسماء الله الحسنى

تمهيد

أتمنى على القارىء الكريم قبل أن يشرع في قراءة موسوعة أسماء الله الحسنى ، أن يقرأ هذا التمهيد ليلم بعدد من الحقائق المتعلقة بمضمون هذه الموسوعة ، كمعنى الإحصاء الذي جعله النبي صلى الله عليه وسلم سببا لدخول الجنة ، والدعاء بأسماء الله الحسنى الذي جعله الله تعالى سببا للإستجابة ، وكيف أن الفهم العميق لأسماء الله الحسنى جعله الله تعالى سببا لفهم القرآن الكريم ، وفهمه والعمل به سبب النجاة في الدنيا والآخرة ، ومعرفة أسماء الله الحسنى سبب لتعظيم الله المنجي من عذاب الله ، ومعرفة أسماء الله الحسنى سبب للتحرر من سيطرة العباد وقهرهم ، ومعرفة أسماء الله الحسنى باعث قوي على التوبة النصوح ، التي هي سبب لسعادة الدارين ، وهذا ما سأعالجه في هذا التمهيد للكتاب .

* * *

أخرج البخاري في صحيحه ، عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

" إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحدا من أحصاها دخل الجنة "

يتضح من هذا الحديث أن أصل الدين معرفته ، فمستحيل أن تعرفه ثم لا تحبه ، وأن تحبه ثم لا تطيعه ، وأن تطيعه ثم لا تسعد بقربه ، في الدنيا والآخرة .

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : " من أحصاها " فالإحصاء يختلف عن العد ، لقوله تعالى :

﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً ﴾

[سورة مريم : الآية ٩٤]

فمن أحصاها فقد استوفاها ، أي أنه لا يقتصر على بعضها ، لكن يدعو الله بها كلها ، ويثني عليه بجميعها، فيستوجب الجنة .

أو من أطاق القيام بحق هذه الأسماء ، والعمل بمقتضاها ، وهو أن يعقل معانيها ، فيلزم نفسه بواجبها .

ومن معاني " أحصاها " : أنه عرفها على وجه التفصيل ، لأن العارف بها لا يكون إلا مؤمنا ، والمؤمن يدخل الجنة .

وقيل : أحصاها يريد بها وجه الله وإعظامه ، وقيل : معنى أحصاها : عمل بها ، فإذا قال " الحكيم " مثلا سلم لله في جميع أوامره ، وفي جميع أفعاله لأن جميعها مقتضاها الحكمة ، وإذا قيل " القدوس " ، استحضر كونه منزها عن جميع ما لا يليق بجلاله ، وقال بعض العلماء : معنى أحصاها أي : سلك

طريق العمل به ، فليوطن العبد نفسه على أن يصح له الإنصاف بها ، وما كان يختص بالله تعالى : كالجبار والعظيم فيجب على العبد الإقرار بها ، والخضوع لها ، وعدم التحلي بصفة منها ، وما كان فيه معنى الوعد نقف منه عند الطمع والرغبة ، وما كان فيه الوعيد نقف منه عند الخشية والرهبة ، فهذا معنى أحصاها وحفظها ويؤيده أن من حفظها عدا وأحصاها سردا ولم يعمل بها ، يكون كمن حفظ القرآن ولم يعمل بما فيه ، وقال بعضهم : وليس المراد بالإحصاء عدها ليس غير ، لأنه قد يعدها الفاجر ، وإنما المراد العمل بها ، وقال أبو العباس : يحتمل الإحصاء معنيين أحدهما : أن المراد تتبعها من الكتاب والسنة ، حتى يحصل عليها ، والثاني : العمل بها ، وتمام الإحصاء أن يتوجه إلى الله تعالى من العمل الظاهر والباطن بما يقتضيه كل اسم من الأسماء ، فيعبد الله بما يستحقه من الصفات المقدسة التي وجبت لذاته ، قيل : من حصلت له جميع مراتب الإحصاء حصل على الغاية ، قال أبو الحسن القابسي : أسماء الله وصفاته لا تعلم إلا بالتوقيف من الكتاب أو السنة أو الإجماع ، ولا يدخل فيها القياس ، ولم يقع في الكتاب ذكر عدد معين ، وثبت في السنة أنها تسعة وتسعون : قال تعالى :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ﴾

[سورة الأعراف : الآية ١٨٠]

قال أهل التفسير : من الإلحاد في أسمائه ، تسميته بما لم يرد في الكتاب أو السنة الصحيحة ، وأشار ابن القيم رحمه الله إلى أن الإحصاء مراتب ، وذكر بأنه لو قررنا أن المعنى هو حفظها ، فحفظ القرآن الكريم على سبيل المثال معروف ثواب حفظه ، كما قال صلى الله عليه وسلم : " الذي يقرأ القرآن وهو حافظ له مع السفرة الكرام البررة " فلو فرضنا أن منافقا حافظا للقرآن ، لكنه لا يحل حلاله ولا يحرم حرامه ، فهل ينفعه حفظه للقرآن ؟ وهل تنفعه تلاوته للقرآن ؟ فالقرآن حجة للمرء أو عليه ، فلذلك هذه الأسماء حينما تكون مجرد حفظ فقط لا ينفعه حفظها ، لكن يحفظها ويتأمل معانيها ويلزم نفسه بمقتضياتها .

* * *

لقد أمر الله تبارك وتعالى عباده بأن يدعوه بأسمائه فقال :

﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ﴾

[سورة الأعراف : الآية ١٨٠]

وفي القرآن الكريم في مواضع عدة أخبر الله سبحانه وتعالى عن جمع من أنبيائه أنهم يدعونه عز وجل بأسمائه وصفاته ، كقوله تعالى :

﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾

[سورة الأنبياء : الآية ٨٣]

ونرى ذلك في السنة ، فيما نقل عن النبي صلى الله عليه وسلم من أدعية دعا بها ، أو أمرنا أن ندعوا بها ، نجد كثيرا من النصوص فيها الدعاء بالأسماء والصفات ، ومن ذلك قوله صلى الله عليه وسلم :

" ما أصاب مسلما قط هم ، أو حزن ، فقال : اللهم إني عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك ، ناصيتي بيدك ، ماض في حكمك ، عدل في قضاؤك ، أسألك بكل اسم هو لك ، سميت به نفسك ، أو أنزلته في كتابك ، أو علمته أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبي ، ونور بصري، وجلاء حزني ، وذهاب همي ، إلا أذهب الله تعالى همه ، وأبدل مكان حزنه فرحا "

قالوا : يا رسول الله أفلا نتعلم هذه الكلمات ؟ قال : بلى ينبغي لمن سمعهن أن يتعلمهن .

والدعاء بأسماء الله وصفاته ينبغي أن يتناسب مع ما يدعو به المسلم ، كما قال أحد العلماء :

" يطلب بكل اسم ما يليق به ، تقول : يا رحيم ارحمني ، يا حكيم احكم لي ، يا رزاق ارزقني ، يا هادي اهدني " .

وقال ابن القيم : " يسأل في كل مطلوب باسم يكون مقتضيا لذلك المطلوب ، فيكون السائل متوسلا بذلك الاسم ، ومن تأمل أدعية الرسل وجدها مطابقة لهذا " .

* * *

حين تتأمل كتاب الله عز وجل لا تكاد تفقد الحديث عن الأسماء والصفات ، ففي سورة من السور ، أو صفحة من الصفحات ، تجد أحيانا سردا لأسماء الله عز وجل ، وصفاته ، وحديثا عن عظمة الله سبحانه وتعالى ، وأحيانا تأتي تعقيبا على آية من الآيات في وعد ، أو وعيد ، أو حكم شرعي ، أو عن أنبيائه ورسله ، أو حديثا عن المكذبين الضالين ، فلماذا هذا الحديث المستفيض في القرآن الكريم عن الأسماء والصفات ؟ أليس هذا موحيا بأهمية السماء ؟ ثم أليس موحيا بأن هناك واجبا آخر ينبغي أن تسعى إلى تحقيقه ؟ وألا نقف عند مجرد الإثبات وحده ، وهو أمر مهم ، بل الإنحراف فيه ضلال .

ثم إننا كثيرا ما نجد الآيات تختم بالأسماء والصفات ، وهي تختم ختما مناسبا بمعنى ما دلت عليه الآية ، ويحكى أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ قول الله عز وجل :

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة المائدة : الآية ٣٨]

فقال : هذا الأعرابي لست قارئا للقرآن ، ولكن عز فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع ، ولهذا تجد ختم الآية مناسبا لمعناها "

﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

[سورة المائدة : الآية ٣٨]

إذا ختم الآيات بالأسماء والصفات يعطينا دلالة على الإرتباط بين الاسم والصفة ، وبين ما سبق في الآية ثم تجد عجبا حينما تتأمل الفرق بين ما قد يبدو لنا أنها أسماء مترادفة وهي ليست كذلك ، فأحيانا يأتي (غفور رحيم) وأحيانا (غفور حليم) وبينهما فرق دقيق ، وأحيانا (عليم حكيم) وأحيانا (عليم حليم) وبينهما فرق دقيق ، ولو قرأت في كتب التفسير لوجدت عجبا في ذلك .

* * *

ومعرفة الأسماء الحسنى ، والصفات الفضلى سبب لتعظيم الله سبحانه وتعالى ، ذلك أن المسلم الذي يعلم أن الله حليم كريم ، وأنه عز وجل غفور رحيم ، وأنه شديد العقاب ، بطشه شديد ، وكيده متين، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ، إذا أراد شيئا إنما يقول له كن فيكون ، وحينما يعلم أن الله سميع بصير ، لا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء ، حين يعلم هذه الأسماء وتلك الصفات ، فإنه يزداد تعظيما له سبحانه وتعالى ، ويزداد خضوعا له ، فيسعد بقربه في الدنيا والآخرة .

* * *

فالمسلم حينما يعلم أسماء الله الحسنى ، وصفاته الفضلى ، يستهين بالمخلوقين ، ويشعر أن المخلوق لا يساوي شيئا، بل انظر إلى أثر هذا الأمر عند هود عليه السلام ، حينما عاداه قومه رد عليهم مستهينا بجبروتهم :

﴿ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آَلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾

[سورة هود : الآية ٥٣]

فعلم هود أنهم قوم لا يعرفون إلا منطق التحدي ، فقال لهم متحديا :

﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) ﴾

[سورة هود]

إن علمه بأن نواصي العباد بيد الله هو الذي دفعه إلى أن يستهين بجبروتهم وببطشهم .

وحين يدرك المسلم أن نواصي العباد بين يدي الله عز وجل يشعر أن المخلوق لا يساوي شيئا ، فلا يمكن أن يتوجه إلى المخلوق ، ولا يرجو منه نفعا ولا نوالا ، ولا يخشى منه منعا ولا بطشا .

* * *

حينما يعلم المسلم أن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار ، ويبسط يده يالنهار ليتوب مسيء الليل ، وحينما يعلم أن الله ينزل إلى السماء الدنيا فيقول : هل من سائل فأعطيه سؤله ؟
هل من مستغفر فاغفر له ؟حينها يقبل على الله عز وجل ، ويتوب إليه ويشعر أن الله رحيم رؤوف وأنه سيقبل التوبة .
أرجو الله جل وعلا أن يوفق قراء هذه الموسوعة لمزيد من معرفة الله تعالى فهي أصل الدين ، ولمزيد من الإلتزام بأمره ونهيه ، فهو أصل العمل الصالح وهما اصل سعادة الدارين .

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيد المرسلين ، سيدنا محمد المبعوث رحمة للعالمين.

وبعد ... فلهذا الكتاب الذي تم دفعه إلى الطباعة بتوفيق الله ، وعونه ...قصة !

فلقد تمنى علي بعض الأخوة الكرام قبل عشر سنين أن ألقي درسا أسبوعيا في جامع العثمان بدمشق، فاستجبت لرغبتهم ، لكنني وقعت في حيرة من حيث اختيار موضوع هذا الدرس ، وبعد التأمل والبحث وجدت أن أخطر شيء في الدين العقيدة ، لأنها إن صحت صح العمل ، وإن فسدت فسد العمل .

فهناك أناس فسدت عقيدتهم ، ففسدت أخلاقهم ، مرقوا من الدين ، كما يمرق السهم من الرمية ، تحقر صلاتك من صلاتهم ، وعبادتك من عباداتهم .

وهناك أناس لهم أعمال كجبال تهامة يجعلها الله يوم القيامة هباء منثورا ، إنهم يصلون كما نصلي ويقومون كما نقوم ، لكنهم إذا خلو بمحارم الله انتهكوها ، إنهم لم يخلصوا دينهم لله ، فالعمل لا يقبل إلا إذا كان خالصا وصوابا ، خالصا ما ابتغي به وجه الله ، وصوابا ما وافق السنة .

فتوجهت إلى موضوع العقيدة ...وتيقنت أن أخطر موضوعات العقيدة هو الإيمان بالله ، فهو أصل كل الأصول ، ومرجع كل الفروع ، ولعل من أبرز موضوعات الإيمان بالله ، هو شرح أسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ،ذلك أن الإنسان إذا اكتفى بأن يؤمن بأن الله خالق الأكوان ، من دون أن يطلب المزيد عن أسمائه وصفاته ، ومن دون أن يخضع لأمره ، ويحتكم لشرعه ، مثل هذا الإنسان لا يختلف كثيرا عن إيمان الذين اتخذوا من دون الله أولياء ، ثم قالوا :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾

[سورة الزمر : الآية ٣]

لقد رغبت أن يكون شرح الأسماء الحسنى – فضلا عما كتبه العلماء الأجلاء في مؤلفاتهم عن أسماء الله الحسنى – أن يكون الشرح بطريقة تعتمد على آيات الله في الآفاق ، وآيات الله في النفس الإنسانية ، وتعتمد على أفعال الله الدالة على وحدانيته وكماله ، أي أنني رغبت أن تكون آيات الله الكونية ، والتكوينية ، والقرآنية التي هي مظهر لأسمائه الحسنى ، وصفاته الفضلى ، مصدرا أساسيا للشرح ، ولا أدري مبلغ ما وقفت فيه من التعريف بالله رب العالمين من خلال هذه الطريقة، ولكن الذي أدريه أنني ما

ادخرت وسعا في تقريب هذه الأسماء من عقول الناس ، وقلوبهم فلعلها تكون سببا في معرفة الله المعرفة الحقة ، التي تنجي من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة ، وتسعد الإنسان في دنياه وأخراه .

وبعد أن تم شرح الأسماء الحسنى في درس أسبوعي في عدد من السنوات على وجه التقريب ولاقت قبولا حسنا في الأوساط الدينية ، وأذيعت مرات عديدة في عدد من الإذاعات الدينية ، في مجموعة من البلاد الإسلامية .

ثم تمنى علي إخوة آخرون أن تفرغ هذه الأشرطة على شكل نصوص تجمع في كتاب ، ذلك أن للشريط دورا في الدعوة إلى الله شديد الأثر ، وأن للكتاب دورا آخر طويل الأمد ، عندها ولدت فكرة هذا الكتاب ، إذن لم يكن هذا الكتاب تأليفا ، والتأليف له قواعده الصارمة ، وإنما كان تفريغا لتسجيلات لدروس عامة ألقيت في مسجد ، والدرس العام له خصائصه التي تعين على نجاحه ، ذلك أن المتحدث في الدرس العام يواجه أعمارا مختلفة ، وثقافات متعددة ، ونماذج بشرية متباينة ، فلا بد من تبسيط الفكرة ، وعرضها بأسلوب جذاب ، ولا بد من دعمها بأمثلة من واقع الحياة ، وبقصص من صميم المجتمع ، لأن الله جل جلاله أمرنا أن نتفكر في خلقه ، وهذه آياته الكونية ، وأن ننظر في أفعاله وهي آياته التكوينية ، وأن نتدبر في كتابه وهي آياته القرآنية ، ثم إن الدين يفسر الحياة بظواهرها الطبيعية ، والحيوية ، والنفسية ، والإجتماعية ، والفردية ، والجماعية ، ويعطي لسمو الإنسان وانحطاطه تفسيرا ، ولتماسك المجتمع وتفككه تعليلا ، ثم إنه يوجه الإنسان وهو المخلوق الأول إلى معالم طريق الحياة المثلى التي خلق من أجلها ، والتي تليق بإنسانيته ، والتي فيها حياة قلبه وروحه ، وليس القصد من هذه الدروس التي ألقيت في جامع العثمان بدمشق تقرير حقائق (أكاديمية) فحسب ، بقدر ما كان القصد تعريف النفس بربها ، وحملها على طاعته ، كي تسعد بقربه في الدنيا والآخرة ، فالعبادة طاعة طوعية ، تسبقها معرفة يقينية ، تفضي إلى سعادة أبدية ، فالإنسان من جبلته ، أنه إذا عرف الآمر ، ثم عرف الأمر ، تفانى في طاعة الآمر ، أما إذا عرف الأمر ، ولم يعرف الآمر ، تفنن في التفلت من أمره ، وهذه مشكلة العالم الإسلامي الأولى ، معرفة الأمر ، وضعف في معرفة الآمر ، فتعزيز معرفة الآمر ، من خلال معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى ، هو الهدف الأول من هذا المؤلف .

ولا بد من أن أشكر في نهاية المطاف ، كل الأخوة الكرام الذين ساهموا بشكل أو بآخر في إخراج هذا الكتاب إلى حيز الوجود ، وأخص بالذكر الذين صمموا برامج الحاسوب التي أفرغت فيها النصوص ، والذين أفرغوا الشريط على الكمبيوتر ، والذين راجعوا النصوص مع الشريط ، والذين دققوا النصوص لغويا ، والذين نفذوا التصحيح على الأصل ، ثم الذين نضدوا نصوص الكتاب وأخرجوه على الشكل الفني الذي هو عليه ، والذين راجعوا النصوص مراجعة أخيرة ، والذين نفذوا طباعته ، والقائمين على

دار المكتبي ، وعلى رأسهم صاحب الدار ، سواء منهم من أخذ أجرة أو ابتغى أجرا ، إلى كل هؤلاء الذين ساهموا في إخراج هذه الموسوعة إلى حيز التداول ، ممن أعرفهم وممن لا أعرفهم ، وما ضرهم أني لا أعرف بعضهم إذا كان الله يعرفهم ، إنهم فريق عمل دعوي ، إنهم جميعا مشمولون بقوله تعالى :

﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾

[سورة فصلت : الآية ٣٣]

وأرجو الله أن أكون واحد منهم ، وأشهد الله أنه لن ينالني من هذا الكتاب أي نفع مادي ، ما دمت حيا ، راجيا أن أكون من يبتغي وجه الله بعمله ، فلعل الله يقبلنا جميعا ، ويرحمنا جميعا .

وأنا أدعو الإخوة القراء ...أن يقدموا لي أثمن هدية ...وهي ملاحظتهم القيمة ، ونقدهم الموضوعي البناء، فما من أحد أصغر من أن ينقد وما من أحد أكبر من أن ينقد ، إلا صاحب القبة الخضراء ، الذي عصمه الله عز وجل ، وسيدنا عمر يقول أحب ما أهدى إلي أصحابي عيوبي ، وليس الذي يقبل النصيحة بأقل أجرا من الذي يسديها تقربا إلى الله ، فالدين النصيحة .

ثم إني أدعو الله جل وعلا أن يجزي عنا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الذي أرسله الله رحمة للعالمين، بشيرا ونذيرا خير ما جزى نبيا عن أمته ، وأن يجزي صحابته الكرام ، وأهل بيته الأخيار ، والطيبين الطاهرين ، الهادين المهديين ، أمناء دعوته ، وقادة ألويته ما هم أهله ، وأن يجزي الله والدينا ، ومشايخنا، ومن علمنا ، ومن له حق علينا ، خير الجزاء .

وفي الختام أعوذ بك يا رب أن يكون أحد أسعد بما علمتني مني ، وأعوذ بك أن أقول قولا فيه رضاك ألتمس به أحدا سواك ، وأعوذ بك من فتنة القول كما أعوذ بك من فتنة العمل ، وأعوذ بك أن أتكلف ما لا أحسن ، كما أعوذ بك من العجب فيما أحسن .

الدكتور محمد راتب النابلسي

١- اسم الله الملك :

بسم الله الرحمن الرحيم

إن من أسماء الله الحسنى: الملك، وإن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة قال تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣))

(سورة الحشر)

وقال تعالى:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤))

(سورة الفاتحة)

وعند السادة الشافعية يجب أن تقرأ في الركعة الأولى: مالك يوم الدين، وفي الركعة الثانية: ملك يوم الدين، وقد ورد هذا الاسم في آية أخرى قال تعالى:

(فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥))

(سورة القمر)

وفي آية رابعة قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران)

وفي آية خامسة قال تعالى:

(فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣))

(سورة يس)

تعريف الملك:

القدرة على التصرف إذاً هو من أسماء الذات، وهو من أسماء الأفعال، فيمكن أن يكون من أسماء الذات ومعناه: القدرة على التصرف، ويمكن أن يكون من أسماء الأفعال ومعناه المتصرف.

حديث قدسي:

((أنا ملك الملوك، ومالك الملوك، قلوب الملوك بيدي، فإن العباد أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العبادُ عصوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالسخط والنقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، وادعوا لهم بالصلاح، فإنّ صلاحهم بصلاحكم))

الله: ملك بل مالك الملوك ومعنى هذا أن أي شيء يُملّك مالكه الله سبحانه وتعالى، وقال بعض العلماء: الملك هو الذي يحكم ولا يملك، والمالك هو الذي يملك ولا يحكم، والله سبحانه وتعالى مالك وملك.

أحياناً يملك الإنسان الشيء ولا ينتفع به وليس من حقه أن يتصرف فيه، وأحياناً ينتفع فيه ويتصرف فيه ولا يملكه، وأحياناً يملك الشيء وينتفع به ويتصرف فيه وليس المصير له، مثال بيت يملكه ملكاً حراً شرعياً يسكنه، فإن صدر قرار استملاك يصبح مصيره ليس له، إذاً إذا قلنا إن الله سبحانه وتعالى هو مالك الملك: يملك الشيء ويتصرف به ومصيره إليه، فتكون أعلى درجات الملكية هي ملكية الله سبحانه وتعالى.

سئل أعرابي يملك قطيعاً من الغنم، لمن هذه ؟ قال: لله في يدي، فالمؤمن الصادق: بيته ومتجره، سيارته، خبرته، مكانته، شهاداته، يراها بملك الله عز وجل. مثال: أعلى طبيب في اختصاصه، إذا تجمدت خثرة في دماغه، يفقد ذاكرته فمصيره إلى مستشفى المجانين، إذاً مَن مالك الملك ؟ الله سبحانه وتعالى.

هذه العين التي ترى بها، من مالكها ؟ الله سبحانه وتعالى، هذه الأذن، هذا اللسان، هذه الحركة، هذه القوة، أيْ مِن لوازم الأيمان: أن ترى أن كل شيء بحوزتك هو ملك لله عز وجل سمح لك أن تتصرف به. لمن هذا القطيع يا فلان ؟ لله في يدي، وبيتك لله في يدك، ومتجرك لله في يدك، وسمعتك ومؤلفاتك وعقلك وذكاؤك لله في يدك.

الآن إذا قلنا: فلان ملك، نقصد بها حقيقةً أم مجازاً، العلماء قالوا: لا يمكن أن يملك حقيقةً إلا الله، وأيُّ وصف للملكية لغير الله فهو وصف مجازي وعلى سبيل المجاز فقط، لأن الملك هو الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود، فهل من ملك يستغني في ذاته عن كل موجود ؟ ألا يشرب، ألا يستنشق الهواء، ألا يأكل، ألا يشعر بحاجة إلى النوم، ألا يخاف، ألا يحزن، ألا يتمنى أن يكون له أعوان كثر، إذاً أي إنسان مفتقر في وجوده وفي صفاته إلى إنسان آخر، لا يمكن أن يكون ملكاً حقيقياً، الملك الحقيقي هو الله عز وجل، وإذا سمينا فلاناً ملكاً فهو من باب المجاز.

الملك الحقيقي الذي يستغني في ذاته وصفاته عن كل موجود ويحتاجه كل موجود، بل لا يستغني عنه شيء في شيء لا في ذاته ولا في صفاته، فهو ملك في ذاته، في وجوده، في صفاته، مستغنياً عن كل شيء، بحاجة إليه كل شيء، هذا هو الوصف الدقيق للملك ولا ينطبق إلا على الله عز وجل، إذاً الملك الحقيقي هو الله، وكل من يصف نفسه أنه ملك أو مالك هذه الدار أو مالك هذه الدكان أو مالك هذه التجارة أو صاحب هذه الشركة هذا من باب المجاز، أعرف حجمك الحقيقي رحم الله عبداً عرف حده فوقف عنده.

الله سبحانه وتعالى: مالك مُمَلِّك، الشخص الذي لا يستطيع أن يملكك فليس ملكاً، فمن لوازم هذا الاسم أن الله مالك مملك، والدليل قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران)

والملك الحقيقي الذي يملك هواه ولا يملكه هواه، والذي أُعتِق من أسْرِ نفسه وليس ملكاً لنفسه، قال تعالى:

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١))

(سورة يوسف)

هذه الآية دقيقة جداً: سيدنا يوسف يصف بأنّ الله قد آتاه الملك: أيُّ مُلْكٍ آتاه ! لعلكم ظننتم أنه كان أميناً على خزائن الأرض، أغلب علماء التفسير قالوا: لا، بل آتاه الملك الحقيقي فهذا الملك الذي يؤتيه الله لمن يشاء ملك زائل، وليس فضيلة يفتخر بها، فما هو الملك الحقيقي ؟ هو أنه ملك نفسه، لمجرد أن قال: معاذ الله حينما دعته امرأة ذات منصب وجمال، حينما قالت هيت لك قال معاذ الله، قال علماء التفسير: هذا هو الملك الحقيقي، الملك الذي لا يزول، الملك الذي تسعد به إلى الأبد، أن تملك نفسك ولا تملكك، أن ينقاد لك هواك ولا تنقاد له، إذا انقاد لك هواك وسيطرت عليه فأنت ملك، إذا سيطرت على نفسك فأنت ملك، إذا ملكت زمام نفسك فأنت ملك، إذا سيطرت على شهواتك فأنت ملك، إذا قدت نفسك إلى طريق الخير والسعادة فأنت ملك أما إذا قادتك نفسك إلى الضلال والشهوات والمعاصي والآثام أنت مملوك، إذا قادك عقلك أنت ملك، إذا قادك هواك فأنت مملوك، وشتان بين أن تكون ملكاً وبين أن تكون مملوكاً.

أحد أكبر زعماء أوروبا في الحقبة السابقة والذي حقق انتصاراً ساحقاً في الحرب العالمية الثانية له كلمة لا أنساها، قال: ملكنا العالم ولم نملك أنفسنا، نحن ضعاف أمام أنفسنا. شخصية كبيرة تغريه امرأة تعمل معه، تنهار نفسه أمام فتنتها. إذاً أنت مملوك، كل أهل الدنيا عندهم نقطتا ضعف مدمرتان: المال والنساء، أي يملك أشياء كثيرة وله إطلاع واسع، له قدرات عجيبة، ومع ذلك المرأة والدرهم والدينار تمتلكه، إذاً هو مملوك. لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَعَبْدُ الدِّرْهَمِ...))

(سنن ابن ماجة)

مملوك هو في خدمة المال ولم يجعل المال في خدمته، المال أصلاً مُسخر لك لكنك سُخِّرت له فأنت عبد له.

((تعس عبد الفرج تعس عبد البطن تعس عبد الخميصة.))

إذاً أنت مملوك، إذا قرأتم هذه الآية ترنموا بها:

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ)

الملك الحقيقي أن تملك نفسك لا أن تملكك، أن ينقاد لك هواك لا أن تنقاد له، أن تسيطر على شهواتك، أن تكون مع الحق حيث كان الحق، أن تكون وقّافاً عند كتاب الله، أن تعترف بالحق الذي لغيرك عليك وإن كان مراً، هذه هي البطولة الحقيقية، هذا ما اتجه إليه معظم المفسرين في قوله تعالى:

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١))

بعضهم قال: المَلِكُ: الذي ملك قلوب العابدين فأقلقها، الحقيقة أن الإنسان منذ أن عرف الله عز وجل، أو منذ أن بدأ في معرفة الله، دخل في دوّامة الحب، أصبح مشغولاً، أصبح عظيماً بعد أن كان تافهاً، يعني أن المؤمن قلق لا ينزاح عنه قلقه حتى يلقى الله عز وجل، هل اللهُ راض عني ؟ هل عملي وفق ما يرضي الله ؟ هل الله يحبني ؟ هل في عملي إخلاص ؟ هل في عملي زيغ ؟ هل هناك ما أرجوه غير الله عز وجل ؟

ومَلَكَ قلوبَ العارفين فأحرقها، المَلِكُ مَنْ إذا شاءَ مَلّك ومن إذا شاء أهلك:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢))

(سورة البروج)

إذا أعطى أدهش، وإذا حاسب فتّش، أعطانا قبل سنوات أمطاراً غزيرة دهشنا بها سبعين ضعفاً عن إنتاج السنوات السابقة من القمح وإذا انحبست أمطار السماء، فَمَنْ في الأرض كلها يستطيع أن يصدر قراراً بإنزال المطر ! ولو اجتمعت الأمم كلها، المجالس كلها، والقيادات كلها، وإذا انحبست الأمطار مات الزرع وتبعه الضرع وتبعه الإنسان.

فنحن عبيد لأننا مفتقرون لماء السماء:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْراً فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ (٣٠))

(سورة الملك)

اللهُ سبحانه وتعالى. المَلِكُ من إذا شاء ملّك وإن شاء أهلك، الملك الحق من لا ينازعه معارض، لا خصومات لا معارضون لا مُشَوشون منتقدون، ولا يمانعه ناقد فهو في تقديره منفرد، وبتدبيرهُ متوحِّد، ليس لأمره مرد ولا لحكمه رد، والمَلِكُ من دار بحكمه الفلك.

ذكر الله تعالى في آية واحدة خمسة بنود للملكية، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران)

العلماء فسروا المُلك أنه ملك الآخرة كما فسّروه ملك الدنيا، فإذا كنت مؤمناً، مستقيماً، صادقاً مخلصاً، لك عمل طيب فأنت ملك، ولكن مِن ملوك الدار الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ؟ والإمام علي يقول: **" الغنى والفقر بعد العرض على الله"**، وقال:

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

ولكن من تشاء ؟ إذا قال الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

ما معنى يهدي من يشاء ؟ يعني من شاء الهداية هداه الله.

" ويضل من يشاء "

من شاء الضلالة أضله الله، فالهداية والضلالة أصلهما هداية جزائية أو ضلال جزائي مبني على هداية أو ضلال اختياري، قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥))

(سورة الصف)

(تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ)

تؤتي الهداية من شاءها، وتنزع الملك ممن تشاء: رفض الدين، رفض رحمة رب العالمين، رفض وعده العظيم، أراد الدنيا، أراد شهواتها، ينصرف الإنسان إلى الملاهي، إلى شهواته، إلى دور اللهو، إلى معاصيه، إلى انحرافاته.

بالمناسبة مُلك الدنيا: يؤتيه الله لمن يحب ولمن لا يحب، وأما مُلك الآخرة فلا يأتيه إلا لمن يحب.

المعنى الثاني: ملك الدنيا، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥))

(سورة الأنعام: من الآية ١٦٥)

مَن مَلّكَكَ هذا البيت ؟ الله سبحانه وتعالى، لمن كان هذا البيت ؟ لفلان، كيف باعه ؟ ضاقت به الأمور فباعه، من الذي جعلك خليفة له في هذا البيت ؟ الله سبحانه وتعالى، هذا العمل من ولاّك إياه ؟ الله

سبحانه وتعالى، لماذا عُزل فلان ؟ بحكمة الله وتقديره، إذاً المعنى الآخر: تؤتي الملك مَنْ تشاء، المعنى الدنيوي، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ الّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ الأرض)

ما الحكمة ؟ لماذا أعطى فلاناً ومنع فلاناً ؟ وملّكَ فلاناً ونزع من فلان ؟ لماذا رفع فلاناً وخفض فلاناً؟ الجواب:

(لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً)

يمتحنك بالغنى وبالفقر، بالصحة وبالمرض، بالقوة وبالضعف، قال فإذا كان هذا العبد متمرداً فما الجواب، قال:

(إنّ رَبّكَ سَرِيعُ الْعِقابِ)

قال فإذا كان طائعاً فما الجواب ؟

(وَإِنّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمّ اهْتَدَى (٨٢))

(سورة طه: الآية ٨٢)

إذاً: جعلكم خلائف الأرض، ووزع الحظوظ توزيع ابتلاء وسوف تُوَزّعُ في الآخرة توزيع جزاء إذاً هو مالك الملك: إما أن يُمَلِكك ملك الآخرة أو ملك الدنيا أو ملك الآخرة والدنيا:

ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس بالرجل

***

(وتعز من تشاء وتذل من تشاء)

دخلنا في باب العز والذل، هنالك شيء دقيق جداً: إذا أعزك الله سخر لك أعداءك، وإذا أراد الله أن يذل عبداً ما، أذله أقرب الناس إليه.

(وَمَنْ يُهِنِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

اجعل لربك كل عزك يستقرّ ويثبُت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميّت

***

إذاً من لوازم أن الله مَلِك أنه هو الذي يعز وهو الذي يذل، فكن مع العزيز.

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضا من أحبنا

ولذ بحمانا واحتمي بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

إذاً فالذلُّ خير، ونزع المُلكِ خير، ولكن يسمى شراً من وجهة نظر الإنسان.

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ)

تصريف الكون، تسيير الكون، الأرض تدور حول الشمس بمدار اهليلجي بيضوي، مَن يجعلها على مسارها تماماً؟ هل في الكون كله قوة تستطيع أن تجعلها على مسارها لو خرجت ؟ إنها إن خرجت انتهت وجذبتها كواكب أخرى !!

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً(٤١))

(سورة فاطر)

يمسكها على مسارها، إذا خرج القطار عن سِكّته، طفل رضيع أو نملة صغيرة أو ذبابة حقيرة هل بإمكانها أن تعيده إلى السكة ؟

(وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ)

مَن جعل الأرض تسير في الثانية ٣٠ كم ؟ مَن جعلها تدور في الساعة ١٦٠٠ كم ؟ مَن جعلها بهذا الحجم ومن جعل بعدها عن الشمس بهذه المسافة ؟ هذا من اسم الله: الملك.

(تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢٧))

(سورة آل عمران: الآية ٢٧)

ظاهرة النبات، ظاهرة توالد الإنسان، تكاثر الحيوان، تكاثر النبات.

(تُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ)

بذرة الزيتون تبدو لك قطعة من الخشب كامن فيها شجرة بقوة هذه البذور، هذه أنماط الحياة، دورة الحياة، الشجرة يابسة في الشتاء كأنها خشب يأتيها الربيع فإذا هي خضراء.

مرة طلب سيدنا عمر من سيدنا عمرو بن العاص أن يصف له مصر وكان بليغاً، قال: يا أمير المؤمنين مصر طولها شهر، وعرضها عشر، يعني طولها مسيرة شهر وعرضها مسيرة عشرة أيام، يخط وسطها نهر ميمون الغَدَوات مبارك الرَّوْحات، يا أمير المؤمنين بينما هي عنبرة سوداء - ترابها أسود اللون لخصوبته - إذا هي درّة بيضاء - طواف النيل - إذا هي زبرجدة خضراء، فتبارك الله الفعال لما يشاء، وصف مصر في الشتاء وفي فيضان النيل وفي الربيع والصيف، وصف طولها ووصف عرضها.

إذاً مِن معاني الملك أنه يقلب النهار، ويخرج الحيّ من الميت ويخرج الميت من الحي، ومن معاني أنه يخرج الميت من الحي والحي من الميت: أن الكافر قد يلد مؤمناً وأن المؤمن قد يلد كافراً:

(وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ (٤٥) قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٤٦))

(سورة هود: الآيتان: ٤٥- ٤٦)

آخر بند في المُلْكية:

(وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ)

قد يرزق الإنسان الضعيف، وقد يفقر القوي الذكي، لذلك التجار يقولون ليس عند الله تاجر ذكي، ومن دعاء المؤمنين على الكافرين **" اللهم اجعل تدميرهم في تدبيرهم "** فالكافرُ يدبر فإذا هو يدمر نفسه. ولا ينفع ذا الجد منك الجد.

هناك سؤال: هل يملك العبد بالتمليك، لو أنّ إنساناً ملّكك شيئاً هل تملكه، كيف نناقش هذه الفكرة ؟ مالك هذه الدار، هذه المركبة، تملّكَ بالمكنيك كاملَ أربعٍ وعشرين قيراطاً، هذا كلام نقوله نحن، وليس هناك غلط كبير في هذا الكلام، العلماء قالوا بالحرف الواحد: الأصح أن الإنسان لا يملك ! لماذا ؟ لأن استقلاله بالتصرف في الغير فرع من كونه مستقلاً في نفسه، فإذا كان العبد لا استقلال له في نفسه وذاته البتة، فكيف يكون مستقلاً في تصرفه بالغير. ولهذا قال ربنا عز وجل مُعلماً رسولاً ومن بعده عباده:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨))

(سورة الأعراف)

إذا كان النبي لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، أفيملك النفع والضر للآخرين ؟ الجواب لا. مِن باب أولى، إذا كنتُ عاجزاً عن هداية ابني ! فهل بإمكاني أن أهدي ابنك ؟ مستحيل! فلذلك فالكلام القطعي والثابت أن الله سبحانه وتعالى هو المَلِك الحقيقي وأن الإنسان إذا ملك فملكيّةٌ مجازية فمثلاً قد يقول لك مستخدم في وزارة الخارجية: والله عينا فلاناً سفيراً ! هذا كلام مجازي، إنّ الذي عين فعلاً، ليس المستخدم بل الوزير. أما في الحقيقة المطلقة: الذي مُلّكَ هذا الإنسان هذا المنصب، هو الله سبحانه وتعالى. العبد مثلاً متى يكون مسافراً ؟ إذا سافر سيده، متى يكون مقيماً ؟ إذا أقام سيده، هل للعبد استقلال في حركته عن سيده ؟ لا، إذاً كلام قطعي: يجب أن تشعر وأنت تملك أوراق الملكية للبيت أن هذا البيت ملك الله عز وجل. في أية لحظة يمكن أن تبيعه، قد يتعطل جهاز بالجسم، فيقال لك: هذه العملية تكلفتها

٨٠٠ ألف ليرة ومصاريف سفر وإقامة، وبالعملة الصعبة، والنتيجة بيتك ثمن للعملية، فتعرضه للبيع، فسبحان مالك الملك ومثل آخر: كُلْية تكلفة زراعتها ١٠٠٠٠٠٠ ليرة، وكل شيء تملكه ثمن لهذه العملية، صمام القلب كلفته ٥٠٠ ألف ليرة، فالإنسان إذا عافاه الله فهو غني وغني بالمعنى الحقيقي.

هناك موضوع دقيق بعض الشيء، وقبل الوصول إليه، يقول تعالى:

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً عَبْداً مَمْلُوكاً لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقاً حَسَناً فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرّاً وَجَهْراً هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٧٥))

(سورة النحل)

إذا كان العبد مملوكاً لا يقدر على شيء، فهل يكون مالكاً ؟ أيْ متصرفاً في ملك الآخرين، هذا مستحيل! لكن ما بال الآية الكريمة تقول:

(فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤))

(سورة الروم)

فتبصّر يا أخي المؤمن، الأمر دائماً بيد الله فكيف نفسر قوله تعالى

(يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ (١٩))

(سورة الانفطار)

الآن، الأمر لله وفي آية أخرى:

(لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ)

وفي آية أخرى:

(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢))

(سورة الأنعام)

وفي آية أخرى:

(وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠))

(سورة القصص)

وفي الدنيا لمن الحكم ؟ أليس الحكم لله ؟ بلى، مثال آخر:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣))

(سورة هود)

وكما يقول الله تعالى:

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣))

(سورة الشورى)

بيدِ مَنْ كانت إذاً ؟ هنا العلماء وقفوا وقفة رائعة قالوا: الحقيقة أنّ الأمر بيد الله من قبل ومن بعد والحقيقة أن الحكم لله دائماً والحقيقة أنه إليه يرجع الأمر كله دائماً. لكن الكفار الغافلون الشاردون الضعاف يرون أنّ الأمر بيد زيد أو عبيد في الدنيا والحكم بيد فلان والأمر بيد فلان أما إذا كان يوم الدين كل الخلائق قاطبة ترى أن الأمر بيد الله وأن الحكم لله وأنه إلى الله تصير الأمور، فالبطولة أنْ ترى هذا الشيء في الوقت المناسب.

إذاً حتى الكفار والشاردون وحتى أعتى الكفرة سوف يرون أن الأمر بيد الله وأنّ الحكم لله وأنّه إليه يرجع الأمر كله. ولكنهم في الدنيا لا يرون الله عز وجل، يرون أولياء من دونه. يرون مراكز قوى في الحياة هم يعبدونها من دون الله. ويوم القيامة يرون الحقيقة.

إذاً القضية قضية وقت فقط، إما أن ترى الحق في الوقت المناسب قبل أن يفاجئك الموت أو لابد أن تراه يوم القيامة فيكون حسرة أية حسرة إذاً البطولة لا أن تنتظر إلى أن ترى مع الآخرين الحقائق، البطولة أن ترى الحقيقة في الوقت المناسب كي تستفيد منها.

هناك شيء آخر: لماذا لا يكون العبد مالكاً مطلقاً ؟ قيل: لأنه لا يستغني عن كل شيء: فلو فرضنا أنّ ملكاً عظيماً يستغني عن كل أفراد رعيته، فهل يستغني عن الهواء أو عن الماء أو عن الطعام أو عن الزواج؟ لذلك حين طلب هارون الرشيد الخليفة العباسي الذي ترامت أطراف دولته إلى أقاصي الدنيا. كأس ماء قال له وزيره وكان ذكياً يا أمير المؤمنين **بكم تشتري هذا الكأس لو منع عنك**، قال: **بنصف ملكي**، قال: **فإذا منع إخراجه**، قال: **بنصف ملكي الآخر**، قال إذاً ملكك يساوي كأس ماء.

في بعض متاحف القاهرة ملك من فراعنة مصر الكبار اسمه توت عنخ آمون كشفت مقبرته بأكملها، كما دفن معه طبعاً من الذهب والحلي والأغراض مالا سبيل لوصفه، ولكن وقفت عند نقطة واحدة: أن هذا الملك مات شاباً في الثامنة عشرة من عمره، حيث إنّ التابوت قصير جداً والجثة قصيرة جداً، قلت وقتها سبحان الله ! مهما كان الإنسان مالكاً ولديه من الثروات ما لديه تبقى الحياة بيد الله عز وجل، فمصر كلها كانت بيده، مقدرات مصر كلها بيده، ومع ذلك توفاه الله في الثامنة عشرة من عمره، فالمقبرة عامرة بالذهب وبشتى أنواع الحلي وبشيء تحار به العيون ومع ذلك مات في سن مبكرة فما أغنى مالُه ولا رَدّ الموت ملكه. إنه مُلك، ولكنّه عارية.

قال بعض الأمراء لبعض الصالحين وقد التقيا يوماً سلني حاجتك ؟ فقال له الصالح: إليّ تقول! قال الأمير: نعم، قال الصالح: لي عبدان هما سيداك. قال الأمير: ومن هما ؟ قال الصالح: الحرص والأمل؛ الحرص على الدنيا والأمل المديد هما عبدان عندي وهما سيداك، فقد غلبتهما وغلباك، وملكتهما وملكاك. فالإنسان يكون ملكاً إذا سيطر على شهواته.

بعض الصالحين قال: كنت أمر بعسفان فوقع بصري على امرأة جميلة، فمال إليها قلبي فاستعنت بالله واتقيت ومررت، فلما نمت تلك الليلة رأيت يوسف عليه السلام في المنام فقلت له: أأنت يوسف ؟ قال: نعم، فقلت الحمد لله الذي عصمك من امرأة العزيز، فقال لي: والحمد لله الذي عصمك من العسفانية، هذا هو الملك الحقيقي عندما تطيع الله عز وجل.

سيدنا يوسف لما مر بالقصر كان عبداً في القصر ثم صار ملكاً، جارية تعرفه عبداً ورأته في موكب الملك، فقالت سبحان الذي جعل العبيد ملوكاً بطاعته وسبحان الذي جعل الملوك عبيداً بمعصيته، فالحقيقة هي: مَن تحقق مِن ملك سيده كأنه ملك كل ملك سيده.

حُكي عن شفيق البلخي أنه قال: كان ابتداء توبتي أن رأيت غلاماً في سنِة قحطٍ يمزح زهواً والناس تعلوهم كآبة، فقلت له: يا هذا ما هذا المرح ؟ ألا تستحي ؟ أما ترى ما فيه الناس من المحن ؟ فقال لا يحق لي أن أحزن ولسيدي قرية مملوكة أدخر فيها كل ما أحتاج، فقلت في نفسي: إن هذا العبد لمخلوق ولا يستوحش لأن لسيده قرية مملوكة، فكيف يصح أن أستوحش أنا وسيدي مالك الملوك فانتبهت وتبت - الغلام لقنه درساً في التوبة - إذاً بعضهم يقول دبّر أو لا تدبر، فالمدبر هو الله سبحانه:

كن عن همومك معرضا وكل الأمور إلى القضا

وابشر بخير عاجــــل تنسى به ما قد مضـــى

فلرب أمر مسخـــــط لك في عواقبه رضـــى

ولربمـــا ضاق المضيـق ولربما اتسع الفضــــا

الله يفعل ما يشـــــاء فلا تكن معترضــــا

الله عودك الجميـــــل فقس على ما قد مضـــى

***

ولرُبّ نازلةٍ يضيق بها الغنى ذرعاً

نزلت وعند الله منها المخرجُ

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها

فُرجت وكنت أظنها لا تُفرجُ

***

سمعت أنه نزلت في إيطاليا العام الماضي أمطارٌ في ليلة واحدة تعادل أمطار العام بأكملِهِ وفي لحظة واحدة فإن الله عز وجل قادر على أن يرزقنا مطراً غزيراً يصبح المعدل فوق المعدل الطبيعي. ولو تأخر المطر، فالأمر بيد الله عز وجل، لكن لا تنسوا أنّ تقنين الله عز وجل تقنين تأديب لا تقنين عجز.

من آداب الإيمان بأن الله هو الملك، أن يكون العبد بما في يَدَي الله أوثق منه مما في يديه إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك مما في يديك، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، إذا أردت أن تكون أكرم الناس منزلةً فاتق الله.

الحاتم الأصم كان صائماً يوماً فلما أمسى قُدِّم إليه فطوره فجاء سائل فدفع ذلك الفطور إليه فَحُمِلَ إليه في الوقت ذاته طبق عليه كل ألوان الأطعمة فأتاه سائل آخر فدفع إليه كل ذلك، ففتح بصره فإذا دنانير في الوقت نفسه بين يديه، فلم يتمالك أن صاح: الغوث من الخَلفِ. وكان في جيرانه من يسمى " خلفاً " فتسارع الناس إليه وقالوا يا أخي لِمَ تُؤذى الشيخ وما زالوا به حتى جاءوا به إلى الشيخ وقالوا هذا خَلَف جاءك معتذراً، فقال إني لم أعْنيهِ إطلاقاً إنما عجزت عن شكر الله عز وجل على ما يعاملني به من الخلف فكلما أنفقت شيئاً أعطاني الله خيراً منه.

أحد الصحابة وهو عبد الرحمن بن عوف قالت عنه السيدة عائشة: **أخشى أن يدخل الجنة عبد الرحمن زحفاً لكثرة ماله، فقال هذا الصحابي الجليل والله لأدخلنّها خبباً (ركضاً) وما عليّ إذا كنت أنفق مائة في الصباح فيؤتيني الله ألفاً في المساء.**

قال من عرف أنّ الملك هو الله وحده: آنَفُ أن أتذلّلُ لمخلوق ؛ فإذا عرفتَ ما في إلاّ الله ملك أنفت أن تتذلل لمخلوق، وقال بعضهم: أيجمل بالحرّ أن يتذلل للعبيد وهو يجد ِمن مولاه ما يريد، أُطلبْ تعطِ، كن لي كما أريد أكن لك كما تريد، أيليق بك وقد عرفت أنّ الله هو الملك ولا ملك سواه أن تتذلل لسواه، مَنْ عرف الله لم يحتج إلى عَوْن المخلوقين وفتنتهم وبذا تستغني عن الناس، والاستئناس بالناس من علامات الإفلاس.

بشر الحافي رأى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب في النوم فقلت: يا أمير المؤمنين عظني فقال لي: **" ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء طلباً للثواب وأحسن من ذلك تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله"**، وإذا وثقت بالله عز وجل الله لا يخيبك، **من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.**

قيل لبعض الشيوخ أوصني، فقال: كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة، فقال وكيف أفعل ذلك ؟ قال: ازهد في الدنيا تكن ملكاً في الدنيا، استغن عن الرجل تكن نظيره واحتج إليه تكن أسيره، أحسن إليه تكن أميره، وإمّا كن ملكاً في الدنيا تكن ملكاً في الآخرة.

سئل حسن البصري: بمَ نلت هذا المقام، قال: **باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي.**

قال سفيان بن عيينة: بينما أنا أطوف بالبيت إذ رأيت رجلاً وقع في قلبي أنه من عباد الله الصالحين، فدنوت منه فقلت: هل تقول شيئاً ينفعني الله به، فلم يرد عليّ جواباً، ومضى في طوافه فلما فرغ صلى خلف المقام ركعتين، ثم دخل الحجر فجلس فجلست إليه، فقلت يا سيدي هل تقول لي شيئاً ينفعني الله به،

فقال هل تدري ماذا قال الله عز وجلُ: وقد سمع نداء الحضرة الإلهية: **أنا الحي الذي لا أموت هلمّوا إليّ أطيعوني أجعلكم أحياء لا تموتون.**

(عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ)

الإنسان أول ليلة في قبره يقول الله عز وجل له:

((عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبقَ لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

قال ألم تسمع ربك يقول:

((أنا الحي الذي لا أموت فإن أطعتموني جعلتكم أحياء لا تموتون في جنة عرضها السماوات والأرض، أنا الملك الذي لا أزول هلموا أطيعوني أجعلكم ملوكاً لا تزولون ملوك الدار الآخرة أنا الملك الذي إذا أردت شيئاً قلت له كن فيكون، هلموا أطيعوني أجعلكم كذلك أي كلما دعوتموني أجبكم، كلما سألتموني أعطيتكم أنا عند ظنكم:" ولئن سألني أحدكم لأعطينه ولئن دعاني لأجيبنه))

هذه بعض التعريفات والآداب والحدود في شأن اسم الله الملك.

٢ـاسم الله القدوس :

قال تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣))

[سورة الحشر]

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١))

[سورة الجمعة]

وقبل أن نمضي في الحديث عن هذا الاسم الجليل، أودُّ أن أقف وقفة يسيرة عند مقدمة ضرورية: كلكم يعلم أن الجماد كائن يشغل حيزاً، له طول وعرض، وارتفاع ووزن.. تعلمون ما الحجم ؟.. هناك نقطة، النقطة ليس لها حجم، فإذا تحركت شكلت خطاً، فإذا تحرك الخط شكّل سطحاً، فإذا تحرك السطح شكل حجماً.. نقطة، خط، سطح، حجم..

الجماد يشكل حجماً، يعني له طول، وعرض، وارتفاع، ووزن أما النبات، فيشكل حجماً، وينمو، أما الحيوان فيشغل حيزاً، وينمو ويتحرك، أما الإنسان فيشغل حيزاً، وينمو ويتحرك، ويفكر، ففي اللحظة التي يعطل فيها الإنسان فكره، وعقله، يكون قد انتهت إنسانيته، وعاد إلى طور البهيمية.. يعني مَن كانت حياته طعاماً وشراباً، ومتعاً مباحة وغير مباحة، وعملاً ومالاً، دون أن يفكر في الذي خلقه، في الذي أوجده، أين كان، أين سيكون، ما المصير ؟ فما قيمة الإنسان الذي يعطل فكره أو يستخدمه في غير ما خُلق له ؟..

يعني: من الممكن أن تشتري حاسوباً بعشرات الملايين، وتضع على هذا الحاسوب حاجاتك، ثم تجعله كالطاولة، أليس هذا غباءً شديداً؟ !.. أن تستخدم جهازاً بالغ التعقيد، يقدم لك خبرات كثيرة لو أعملته، تستخدمه كطاولة ؟..

فأما الذي يعطل عقله، أو يستخدمه في غير ما خُلق له، فهذا الإنسان ألغى إنسانيته، وتحركت فيه حيوانيته..

قلت هذه المقدمة، من أجل أن تعلموا أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان قوةً إدراكية..فما الذي يجب أن يدركه بها، ما الموضوع؟.. هنا السؤال.

قرأت قبل فترة، أن ما يُطبع في العالم في اليوم الواحد، لا يستطيع الإنسان أن يقرأه في أقل من خمسين عاماً، إذاً هناك موضوعات لا تُعد ولا تُحصى.. ما الذي آخذُ، وما الذي أدعُ ؟.. ما الذي أقرأُ، وما الذي لا أقرأ ؟.. ما الذي أطلع عليه، وما الذي أهمله ؟ هذا سؤال خطير.

إذاً لابد من الاصطفاء، لابد من أن تصطفي الموضوع الخطير والمعنى الخطير، الذي له علاقة بمصيرك.

يعني إنسان في مكتبة، أربعة جدران فيها كتب من الأرض وحتى السقف، وبعد أيام عنده فحص مصيري، إن نجح في هذا الامتحان سوف يترتب على نجاحه مكتسبات كثيرة، في هذه المكتبة كلها كتاب واحد مقرر، له علاقة بهذا الامتحان، إذاً من البديهي أن يدع كل هذه الكتب، وأن يقرأ هذا الكتاب.

إذاً فالإنسان أُودع فيه قوة الإدراك، أُودع فيه العقل:

" لمّا خلق الله العقل، قال أقبل فأقبل، ثم قال أدبر فأدبر، قال وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إلي منك، بك أعطي وبك آخذ".

إن سألتموني عن أعظم شيء خلقه الله في الكون، أقول لكم العقل لأنه مناط التكليف، لولا هذا العقل الذي أودعه فيك ما كلفك، والعقل وسيلة معرفة الله عز وجل.

قلنا في درس سابق، إن المشكلة: بما أن النفوس من طبيعة واحدة فلو أن أيَّ إنسان بعيد عن الله عز وجل عرف ما عرف المؤمن لأقبل على الله كما يقبل المؤمن، لو أن أي إنسان عرف ما عرفه رسول الله لأحب الله كما أحبه رسول الله، النفوس واحدة، والدليل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

[سورة النساء]

من طبيعة واحدة، من جبلة واحدة، من خصائص واحدة، مادامت طبيعة النفس واحدة التفاوت إذاً في ماذا ؟.. في العلم..

لذلك قالوا: يفعل الجاهل في نفسه ما لا يفعله عدوه به..

مزارع عنده حقل، مزروع نبات له ريع كبير، قُدِّرت هذه المساحة المزروعة بهذا النباتَ وَريعُها في الموسم الواحد يزيد عن مائتي ألف ليرة من البيوت المحمية، فاشترى دواءً كيمائياً، وحله من دون تعليمات الصانع، ورشّه.. كل هذا النبات مات من فوره، وخسر الموسم كله فهذا الإنسان الجاهل، إذ لم يقرأ التعليمات، فعل في نفسه ما لا يفعله عدوه به.

إذاً الأزمة أزمة معرفة، أزمة علم.. المشكلة الأخطر ؛ أن الإنسان حينما يأتيه الموت سيعرف كل شيء، وسينكشف له كل شيء، وسيرى الحقيقة، وسوف ينكشف له الغطاء.. لقد رأى فرعون ما رآه سيدنا موسى، ولكن بعد فوات الأوان..

المشكلة أن المعرفة ينبغي أن تكون في الوقت المناسب، يعني ينبغي أن تعرف ما يناسب في الوقت المناسب، ينبغي أن تصطفي من كل المعارف والمعلومات الشّيء المناسب، وأن تعرفه في الوقت المناسب.

والسؤال الجديد الآن: لماذا يجب أن نعرف الله ؟.. أليس هو غني عن المعرفة ؟ قال تعالى:

(إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨))

[سورة إبراهيم]

((.. يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا..))

[أخرجه مسلم الترمذي]

لماذا نعرف الله ؟.. نعرفه من أجل أن نعبده، ولن تعبده إلا إذا عرفته، ولماذا نعبده ؟.. من أجل أن نسعد به، من أجل أن يتحقق الهدف من خلقنا، قال تعالى:

(إِلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ لَأَمْلَأَنّ جَهَنّمَ مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩))

[سورة هود]

إذاً نعرفه، فنعبده، فنسعد به.. ولهذا قال ربنا عز وجل:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

[سورة الذاريات]

وإياك أن تغفل عن هذه الآية أبد دهرك !

العبادة كما تعرفون: طاعة طوعية، ممزوجة بمحبة قلبية، أساسها معرفة يقينية، تفضي إلى سعادة أبدية..

من بين ملايين ملايين ملايين ملايين ملايين إلى أن ينقطع نفسي.. من بين ملايين ملايين الموضوعات، ما الموضوع الأكثر أهمية ؟ أن تعرف الله عز وجل، لأنه كما يقول الله سبحانه، لمن يوضع في القبر أول ليلة:

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك، ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا، وأنا الحي الذي لا يموت))

يجب أن تعرفه لأن المصير إليه، لأنك راجع إليه، لأنك ستأتيه فرداً تتخلى عن كل شيء، كل المكتسبات التي حصّلتها في العمر، تفقدها في ثانية واحدة، ليس لك إلا الله !

((يا قيس، إن لك قريناً يدفن معك وهو حي، وتدفن معه وأنت ميت فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك))

إذاً من بين ملايين ملايين الموضوعات، ليس منها موضوع أكثر أهمية، من أن تعرف الله عز وجل، عرفت أنه خالق، وعرفت أنه رب، وعرفت أنه الإله الحق، وعرفت طرفاً من أسمائه الحسنى، وهذا الدرس بفضل الله، وتوفيقه، فيه جولة متواضعة، حول اسم جليل من أسماء الله الحسنى، ألا وهو اسم **القُدّوس**.

تعلّمنا في الجامعة ؛ أن المدرس الناجح هو الذي يستطيع أن يتكلم حديثاً، بأسلوب طلي جذاب ممتع، غني، لفترة طويلة من دون تحضير يعني معلومات عَقَلها، تَمَثّلها، تفاعل معها، عاشها، أصبحت في قلبه أصبحت تجري مع دمه، فإذا أراد أن يتكلم، فاللسان طليق والموضوع جذاب، إذاً ألا ينبغي إن سُئلت، ماذا تعرف عن الله؟ عن الذي خلقك عن الذي أنعم عليك بنعمة الإيجاد ؟ قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١))

[سورة الإنسان]

الذي أنعم عليك بنعمة الإمداد، أعطاك الهواء، أعطاك الماء أعطاك الغذاء، أعطاك الأهل، أعطاك الأولاد، أعطاك العقل، تجني به المال وأنعم عليك مرةً ثالثة بنعمة الإرشاد، هداك إليه، لو أنك سُئلت ماذا تعرف عن الله ؟.. ألا ينبغي أن يكون الحديث عن الله سلساً جذّاباً ممتعاً طلياً ؟ هنا السؤال..

فحينما عزمت وبالله التوفيق على أن أجعل كل درسين، درساً في أسماء الله الحسنى، هذا هو القصد، أن نعرف الله عز وجل، لأن المعرفة لابد من أن تنعكس انضباطاً في السلوك والتزاماً عند حدود الشرع، أنا لا أصدق أبداً أن يتعلم الإنسان شيئاً لا ينفذه، لأن الإنسان حينما يقرأ يتفاعل، وحينما يتعلم يتمنى أن يقطف ثمار هذا العلم..

الاسم الجليل من أسماء الله الحسنى هو اسم **القدوس**، ورد هذا الاسم في آيتين قرآنيتين ورد في قوله تعالى في سورة الحشر، الآية الثالثة والثلاثين:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣))

[سورة الحشر]

وورد في قوله تعالى:

(يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١))

[سورة الجمعة]

في سورة الجمعة الآية الأولى.

القُدّوس: على وزن فُعُول، وهو من القدس، والقُدُس: الطهارة والتقديس هو التطهير، والأرض المقدسة: الأرض المطهرة، وسُميت الجنة حظيرة القُدُس، لأنها مطهرة من آفات الدنيا، وسُمي سيدنا جبريل روح القدس، لأنه طاهر من العيوب في تبليغ الوحي، وفي قوله تعالى حكاية عن الملائكة:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ(٣٠))

[سورة البقرة]

ما معنى ونقدس لك ؟: يعني يا رب نحن نطهر أنفسنا، ونقدسها كي نكون أهلاً للإقبال عليك، وهذه مهمة الإنسان في الدنيا، يجب أن يقدس نفسه كي ينال مقعد صدق عند مليك مقتدر.

كلكم يعلم إذا دُعي إلى حفل كريم، أو إلى لقاء خطير، أو إلى مقابلة كريمة، كيف يعتني الإنسان بمظهره بثيابه، بألوان ثيابه، بكل حركاته وسكناته، فلذلك الملائكة يقولون:

(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠))

هل تصدقون أن مهمة الإنسان في الدنيا ؛ أن يطهر نفسه كي تغدو مؤهلة لتكون في جوار الله في الجنة، لأن الله طيب، ولا يقبل إلاّ طيباً.

((عبدي طهّرت منظر الخلق سنين..))

الإنسان يدهن بيته، يقول مدخل يحتاج إلى تعديل يرتب غرفة الاستقبال، يزين مركبته، يزين لباسه لماذا ؟.. هذا منظر الخلق.. يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((عبدي طهّرت منظر الخلق سنين، أفلا طهرت منظري ساعة))

والقلب منظر الرب.

(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ)

إذاً يجب أن يكون شغلك الشاغل أن تطهّر نفسك ؛ كي يُسمح لك أن تكون مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين يوم القيامة، وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

النقطة الدقيقة في هذا الدرس ربما تحتاج إلى شرح، جاء في تعريف هذا الاسم الجليل أن القدُّوس هو المنزّه عن كل وصف، من أوصاف الكمال، هنا المشكلة.. ؟ ما هذا الكلام يا أستاذ ؟ !. جواب هذا الكلام أن الإنسان حينما أدرك ذاته، رأى في نفسه كمالات ونواقص العلم كمال، الحلم كمال، الصبر كمال، السمع، البصر، الإرادة، الحياة هذه كمالات.. الجهل نقص، العمى نقص، الصمم نقص، الخرس نقص اللؤم نقص، الحقد نقص، الضجر نقص.. الإنسان رأى أن هناك كمالات، وهناك نواقص، فلما أراد أن يثني على الله عز وجل نسب إلى الله عز وجل الكمالات التي يعرفها هو إنّ الله سبحانه وتعالى القدُّوسٌ منزه عن الكمالات التي يتصورها الإنسان من عنده، كل ما خطر ببالك عن الله بخلاف ذلك، قال تعالى:

(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١١))

[سورة الشورى]

الله عز وجل ليس كالأب، ولا كالمعلم، أعظم من ذلك، الله رحيم كما يرحم الأب ابنه لا.. فالأب أحياناً يرحم ابنه رحمة من دون علم فيورده المهالك، الله رحيم عليم.

لذلك لما أراد الإنسانُ أن يثني على الله عز وجل فقد أثنى عليه بصفات الكمالات البشرية، قال: الله سبحانه وتعالى قدوس منزه عن كل وصف من صفات الكمال البشري، هو أعظم من ذلك، هو منزه عن صفات كمال الناس، ومن باب أولى منزه عن صفات النقائص، بل إنه منزه عن كل صفة تُتصور للخلق، كل شيء تصوره الإنسان عن الله عز وجل فهو منزه عن هذه الصفات.

ومن معاني الله أكبر، أنه كل ما عَرفتَ عن الله عز وجل، فالله أكبر من ذلك، أكبر مما عرفت، هذا معنى، منزه ومقدس عن كل صفة يمكن لإنسان أن يتصورها، منزه ومقدس عن كل صفة تشبه صفات الإنسان وتماثلها، ولولا أن الله سبحانه وتعالى سمح للإنسان أن يصفه بصفات كمال البشر، لكان وصفه بصفات كمال البشر ذنباً من الذنوب، تقول: الله رحيم، تقول: الله عادل، الله لطيف، الله حليم، إذا قلت: الله حليم يعني يأتي في بالك أن الإنسان قد يحلم، قد يُستفز فلا يغضب، هكذا.. هو قدوس عن هذه الأوهام، وعن هذه الصفات.. فهل صارت واضحة هذه ؟ أقبلتموها؟

رجل من العارفين بالله، قال لعارف آخر: يا فلان ألا تشتاق إلى الله عز وجل ؟ ومِنْ أمتع ما في الحياة مذاكرة العلم. عارف بالله سأل عارفاً بالله آخر: ألا تشتاق إلى الله ؟.. قال لا والله لا أشتاق إليه.. أعوذ بالله ما هذا الكلام ؟ قال لا والله لا أشتاق إليه، قال: ما هذا الكلام؟ أجابه، متى غاب عني حتى أشتاق إليه ؟.. متى غاب عني ؟

وآخر يسأل يا إمام متى كان الله ؟ قال ومتى لم يكن ؟.. متى لم يكن حتى تقول لي متى كان الله ؟.

الآن مرحلة أخرى القدُّوس هو المنزه عن كل وصف يدركه الحس عن كل تصور يتصوره الخيال، أو يسبق إليه الوهم، أو يختلج به الضّمير، أو يقضي به التّفكير.. أمّا أن تقول منزّه عن العيوب والنّقائص، فإنّ هذا يقترب من باب قلة الأدب مع الله عزّ وجل أو من باب ترك الأدب.

بربك لو كنت في حضرة إنسان عظيم، وقلت أنت: يا سيدي حدّثتُ الناس عنك، قال ماذا قلت لهم، قال: قلت لهم إن جنابك لست بكاذب! ما هذا ؟ أيقبل هذا ؟ هل تمدح ملكاً بأنه ليس كاذباً، قال: هذا من ترك الأدب، ألم تر في الملك شيئاً إيجابياً، نفيت عنه الكذب، وهناك قاعدة: إنّ نفي الشيء أحد فروع تصوره، إذا نفيت عن جهة نقيصةً، إذاً بالإمكان أن تقع منه هذه النقيصة، نفي الشيء أحد فروع

تصوّره، إذن من ترك الأدب أن تقول: الله سبحانه وتعالى منزّه عن النقائص، منزّه عن العيوب، هذا من ترك الأدب.

من تعريفات اسم القدُّوس أن القدوس من تقدست عن الحاجات ذاته. أمّا أنت فمحتاج، أنت فقير، كل شخصيتك، وعلمك وذكائك وقوة هيمنتك على الناس، وجلدك، وعلمك، كل هذه الصفات تتلاشى أمام شربة ماء.

قال له: **يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس إذا مُنع عنك**، قال **بنصف ملكي**، قال فإذا مُنع إخراجه قال: **بنصف ملكي الآخر.**

أنت مُحتاج إلى الهواء، فلو مُنع منك الهواء..

هذا الذي كان يقطع الصحارى، يجتاز الصحراء على ناقة عليها زاده وطعامه وشرابه تعب من السفر، جلس ليستريح، أفاق فلم يجد الناقة وعليها طعامه وشرابه، وهو في عُرض الصحراء، فأيقن بالهلاك، من شدة البكاء أخذته سنة من النوم، أفاق فرأى عن بعد شجرةً، فأشرق في نفسه نور من الأمر، هُرِعَ نحو الشجرة، فإذا إلى جانبها بركة ماء شرب منها حتى ارتوى، ثم تولى إلى الظل، فإذا كيس مملوء، ففرح به فرحاً عظيماً، وهو يحسب أن فيه خبزاً، ولكنْ يا للأسف، لقد فتح الكيس فلم يجد فيه إلا لآلئ، فصاح وا أسفاه هذه لآلئ، اللآلئ لها قيمة في المدينة ؟ لو كان في الكيس خبز ! أما وقد منع منك الخبز يقول وا أسفاه هذه ليرات ذهبية. ماذا أفعل بها في الصحراء ؟

في الحرب العالمية الثانية كما سمعت، الرغيف بيع بليرة ذهبية.

إذاً فالإنسان ضعيف، مفتقر إلى الهواء، مفتقر للماء، مفتقر للخبز مفتقر إلى الأهل، مفتقر لمن يؤنسه، مفتقر لمن يحبه، أنت فقير في الأصل، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥))

[سورة فاطر]

القُدُّوس: من تقدست عن الحاجات ذاته، صمد، وتنزهت عن الآفات صفاته.

والقدُّوس من تقدس عن مكان يحويه، لا يحويه مكان، وعن زمان يبليه.

قال لي أخ كريم، كان أستاذي قال لي سبحان الله، أنا من خمسين عاماً أنشط من الآن طبعاً، الإنسان في الستين غيُرُه بالثلاثين غيُرُه بالعشرين، بالسبعين، يعني الزمن يبليه، يحتاج إلى قطع غيار كثيرة يحتاج إلى نظارات، وأسنان، وشعر أحياناً، يحتاج إلى قطع غيار.

والقدُّوس من تقدس عن مكان يحويه، وعن زمان يبليه، وهو عزيز لا يرتقي إلى تصويره وَهْمٌ، ولا يطمع في جواز تقديره فَهْم، ولا تنبسط في ملكه يد من دون تقدير.

هو قدُّوس في ذاته، لكنَّهُ يقدّس عباده الطائعين.

أقول لك هذه الكلمة، فلان مقدس، المقدس هو الطاهر، تقديس بلا طهارة كلام فارغ، فلان مقدس يعني مستقيم، يعني عفيف، يعني طاهر يعني سليم الصدر، نواياه طيبة، ليس في قلبه غلّ، ولا حقد، ولا غشّ ولا تخونه عينه، ولا يسبقه لسانه، ولا يعطي أذنه للكلام غير المقبول لا يُقدس الإنسان إلاّ إذا تنزه عن النقائص.

قال: **القدُّوس** من قدس نفوس الأبرار عن المعاصي، وأخذ الأشرار بالنواصي.

القدُّوس من قدس قلوب أوليائه ؛ يعني كل إنسان له قلب صنوبري لا أعتقد أن إنساناً على وجه الأرض ما له قلب، لكنْ هناك قلب كالجوهر وقلب كالحجر.

(وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩))

[سورة الأعراف]

لكنِ الإنسانَ كلما اقترب من الله عز وجل، صار ذا قلبٍ كبير، ذا قلب صافٍ، قلبٍ ممتلئ حباً لله عز وجل.

يعني فرق كبير جداً بين قلب وقلب، قلب يلامس السماء رفعة، وقلب يلامس الحضيض ضَعَةً، قلب كالجوهر صفا ماؤه ورقّ، وقلب كالكدر القلوب أنواع، والقلب بيت الرب، ومحصلة إيمانك كله هذا القلب:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

[سورة الشعراء]

وهذا الدرس بفضل الله عز وجل، هدفه أن يسير الإنسان إلى قلب سليم، وأن يتعاهد قلبه.

قال: **القدُّوس** من قدس قلوب أوليائه عن السكون إلى المألوفات الإنسان مستهلَك، طعامه، وشرابه، وبيته، وأولاده، ورزقه، ودكانه ومتجره، ومعمله، ووظيفته، ومكانته وصحته، وقلبه، وشرايينه ومعمله.. مستهلَك، هموم الدنيا تستهلكه، لكن قلب العابد مُستَهلِك وليس مستَهلَكاً، يستهلك الدنيا بمعرفة الله، ولا يسمح لها أن تستهلكه المؤمن يقود هواه ولا ينقاد له، المؤمن يسيطر على نفسه، ولا يسمح لها بالسيطرة عليه، المؤمن يحتكم إلى القيم، ويحكمها، ولا يسخرها ولا يسخر منها، المؤمن له مرتبة أخلاقية لا يهبط عنها، وله مرتبة علمية لا يزيغ عنها، وله مرتبة جمالية، هكذا، المؤمن شخصية فذة.

قال: **القدُّوس** من طهّر نفوس العابدين بإبعادهم عن دنس المخالفات واتباع الشهوات، والقدُّوس من طهّر قلوب الزاهدين من حب الدنيا **والقدُّوس** من طهّر قلوب العارفين مما سواه.. طهر قلوب العابدين وطهّر قلوب الزاهدين، وطهر قلوب العارفين.

فالعابدون متصفون بطاعة الله، مقبلون على عبادته، متحرّقون إلى الإقبال عليه.

والزاهدون مقيمون على الاكتفاء بوعد الله، معرضون عما يوجب التهمة من ضمان الله.

إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك مِمّا في يديك.

إذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ربنا عز وجل قال:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩))

[سورة النمل]

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

[سورة آل عمران]

مشاعر القهر، مشاعر الخنوع، الذل لا يعرفها المؤمن الذي يعرف أنّ أمره كله بيد الله، وأن الله صاحب الأسماء الحسنى والصفات العلى.

لذلك النبي الكريم كان إذا ألم به خطب فماذا كان يقول:

((لا إله إلا الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله العليم الحكيم))

لا إله إلا اللهُ كلّ شيء بيدك يا رب وأنت رحمن رحيم..

لذلك لا يحزن قارئ القرآن، قارئ القرآن لا يمكن أن يحزن، لأن الأمر كله بيد الله، كن فيكون، ليس عند الإنسان محلات أقفرت، وشواغر خَلِيَتْ، والمِلاك وظائفه تعبأت، هذه المرتبة انحجزت. المهمة أخذها ثلاثة، وبقي مائة موظف قاعدين، عند الإنسان كل أمر محدود، وكله مقنن، أما ربنا عز وجل ففضله واسع عظيم.

العارفون إذا قاموا قاموا بالله، وإن نطقوا نطقوا بالله، وإن سكتوا سكتوا بالله، فكيفما دارت أوقاتهم، وتغيرت أحوالهم، فالغالب على قلوبهم ذكر الله.

مؤمن أنت عاهدت الله عز وجل، في السراء والضراء، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في عمل وبلا عمل، في زواج وبلا زواج لك بيت أو بلا بيت:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣))

[سورة الأحزاب]

قال بعض العارفين: **أذاقنا الله مما أذاقهم شمة، إنه ولي كل نعمة.**

طعم القرب، من ذاق عرف، الحديث شيء والذوق شيء، قل ألف مليون قطعة نقد ممكن، أملكها، شيء ثانٍ، كلمتها سهلة، الحديث عنها سهل أما أن تملكها شيء آخر.

وبعد، فكيف نقيم علاقتنا بهذا الاسم ؟ قالوا: من عرف هذا الاسم طهّر نفسه عن متابعة الشهوات، الله قدوس، هو مُنزه ؟.. يَستحيل إلا أن يكون مقدساً فإذا كنت تَطمع أن تكون مع الله دائماً، فعليك أن يكون إقبالك على الله، حقيقة واتصالك بالله حباً وذكراً، وبذا يحبك الله، الله قدوس، القدوس يحب المقدس.

إذاً من عرف هذا الاسم فلابد من أن يطهّر نفسه عن متابعة الشهوات يعني مرتبة الإحسان: اعبد الله كأنك تراه، خوفاً، حباً، فإن لم تكن تراه فإنه يراك.. حال المراقبة.

قال مَن عرف هذا الاسم طهر نفسه عن متابعة الشهوات، وطهر ماله عن الحرام والشبهات، ومن عرف هذا الاسم طهر وقته عن دنس المخالفات.. احرص على أن يراك حيث أمرك، وأن يفقدك حيث نهاك في وقت مجلس العلم أين أنت ؟ في بيت الله.. في وقت صلاة الجمعة أين أنت ؟.. فيما بين الفجر والشمس أين أنت ؟ على السرير أم على مصلاك، يجب أن يراك حيث أمرك، وأن يفقدك حيث نهاك، في هذه الطرقات المزدحمة بالنساء الكاسيات العاريات، هل أنت في هذا الطريق؟ لا والله، هو في بيت من بيوت الله.

احرص على أن يراك حيث أمرك، وأن يفقدك حيث نهاك.

قال: من عرف هذا الاسم طهر وقته عن دنس المخالفات، وطهر قلبه عن مسلك الغفلات، طهر روحه عن فتور المساكنات.

وأن تعتريه المساكنات يعني أن يركن إلى الزوجة، يركن إلى أولاده، أنه يأثرهم على مرضاة الله عز وجل.. يقولون: خليك قاعد معنا الآن، حاجتك دروس، أما شبعت دروساً، يركن إلى الأهل والأولاد، يركن إلى نزهة أعاقته عن مجلس علم، لكن من عرف هذا الاسم طهّر نفسه عن متابعة الشهوات، طهر ماله عن الحرام والشبهات، طهر وقته عن دنس المخالفات، طهر قلبه عن مسالك المخالفات، طهر روحه عن فتور المساكنات، طهر سرّه عن الملاحظات والالتفاتات.. فلان يراني ؟.. دخل المسجد ليصلي لقي إخواناً في المسجد، قام بكسل ليصلي، لله يقول أنا خاشع.. لا.. لا تلاحظ الخلق أبداً، لاحظ الخالق، هؤلاء لا ينفعونك إطلاقاً، أنت لك عند الله مكانة، لا يرفعها مدح المادحين، ولا يخفضها ذم الذامين.

أقول لك هذا المثل وأردده كثيراً: معك كيلو معدن، هو ذهب، ظنه الناس تنكاً، خير إن شاء الله، ثمنه موجود، لو كان معك كيلو تنك، بذكاء بارع، وطلاقة لسان، وقدرة إقناع أقنعت الناس أنه ذهب، خير إن شاء الله، لا إن قنعوا بأن التنك ذهب تربح، ولا إن اتهموك بأن ذهبك تنك تخسر، خيرك منك وشرك فيك.

قال: هذا الذي عرف اسم القدُّوس لا يتذلل لمخلوق ولا يذل نفسه التي بها ربه بل يسمو بها يعني اضرب مثلاً، وإن كان لا علاقة وشيجة له بالدرس، أحد أصحاب رسول الله صافح النبي عليه الصلاة

والسلام بيده اليمنى، بعد أن صافحه وأشرقت روحه، قال والله لا أمس بها شيئاً غير شريف، يعني عاش ثمانين عاماً وما مسّ بيمينه ذكره، لماذا، لأنه صافح بهذه اليمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، فصارت يده عند نفسه مقدسة.

طيّبْ هذه النفس التي عبدت ربها، هذه النفس التي أقبلت عليه سبحانه، أيليق بها أن تتذلل لمخلوق ؟.. وقد عرفت اسم القدوس، هذه النفس التي تقدست بمعرفة الله لا يمكن أن تتذلل لمخلوق، لذلك من جلس إلى غني فتضعضع له (أي تمسكن له) ذهب ثلثا دينه.

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

ويُعاب أن تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم.. لذلك سيدنا إبراهيم ماذا قال حينما جاءه سيدنا جبريل ؟ قال له ألك عند الله حاجة، وقد أوقدوا ناراً عظيمة، وألقوه بها، يا إبراهيم ألك عند الله حاجة، قال: علمه بحالي يغني عن سؤالي..

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً)

لو لم يقل الله: سلاماً لماتَ من البرد، قال سلاماً لو لم يقل على إبراهيم لصارت النار منذ أن وضع هذا النبي العظيم بهذه النار حتى الآن لصارت لا تحرق وفقدت خصيصتها. ولما عدنا نستفيد منها، بضع كلمات.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

لو لم يقل على إبراهيم لكانت النار لا تحرق أحداً إلى يوم القيامة، ولما وجدت في طبخ وسيلة، ولما تمكنت من صهر حديد، ولما نعمت في تدفئة مركزية، أو حلمت بمدفأة تدفأ بها انتهى.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠))

[سورة الأنبياء]

نعم برداً وسلاماً على إبراهيم فقط ! يعني إذا كان الله معك فمن عليك، المؤمن له معاملة خاصة عند الله عز وجل، والدليل:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧))

[سورة الأنبياء]

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨))

ولديك قانون:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨))

والله هذه الآية وحدها، تملأ النفس إشراقاً، تملأ النفس طمأنينة تملأ النفس عزة، تملأ النفس كرامةً.

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨))

قال: هذا الذي عرف اسم القدُّوس كيف يتذلل لمخلوق بهذه النفس التي تقدست بمعرفة الله عز وجل ؟ مستحيل أن يُذلّ نفسه إلاّ لله سبحانه

وهذا الذي عرف اسم القدوس لا يعظم مخلوقاً بالقلب الذي به شهده.. هذا القلب عظم الله عز وجل أن يعظم مع الله أحداً ؟.. مستحيل إلا أن يعظم أولياءه، لأن المؤدى واحد.

(يَحْلِفُونَ باللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢))

[سورة التوبة]

يعني إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله.

قال: هذا الذي عرف اسم القدُّوس يجب أن لا يبالي بما فقده بعدما وجده.. هل فهمتموها.. إنها واضحة. أحد الصالحين عرف الله عز و جل، تقدست روحه بمعرفة الله، وذاق طعم قربه، ولكنّ بيته صغير، بيته قبو أجرة، وظيفته متواضعة، معاشه قليل، زوجته وسط، له جيران متعبين، يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ ثم يقول والله ما نقصَنا شيء، هنا البطولة، إذا عرفته فعلاً لا ترى أنك خسرت شيئاً أبداً. مرض مزعج ألمّ به، وهذه مشيئة الله، رضيت بقضاء الله، لذلك طعم القرب ينسي كل شيء.

فليتك تحلو والحياة مريــــــــرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامــــــر وبيني وبين العالمين خــراب

إذا صح منك الوصل فالكــل هيــن وكل الذي فوق التراب تـراب

***

فلو شاهدت عيناك من حسننا الذي

رأوه لما وليت عنا لغيرنــــــــا

ولو سمعت إذناك حسن خطابنـــا

خلعْتَ عنك ثياب العجب وجئتنا

***

لذلك هذا الذي عرف اسم القدُّوس لا يبالي بما فقده بعدما وجده.

قرأت مرةً عن سيدنا الصديق رضي الله عنه، كلمة لا أنساها، ترى ذات يوم أحد الناس يندب حظه، يقول: زوجتي كبيرة، يقول لك: من سني أخذتها كيف هذه الغلطة غلطتها؟ ما الذي صار ؟. سيدنا رسول الله أخدها أكبر منه بخمس عشرة سنة، في سن أمّهِ بالضبط.

سيدنا الصديق ما ندم على شيء فاته من الدنيا قط، أحدهم لقي جوهرة ثمنها ثلاثمائة مليون، ونسي أن يأخذ الصدفات من على شاطئ البحر، جمع قليلاً من الأصداف وشيئاً من أحجار ذات لمعان، ألوانها غريبة، لقي جوهرة ثمنها ثلاثمائة مليون ونسي الصدفات. هل يندم ؟ لنْ يندم أبداً..

الآن: ولا يرجع قبل الوصول إليه بعدما قصده..

على الطريق مشى، ثم انتكس، لِمَ مَلّ، ولماذا ؟ إنه لا يملك بيتاً، يريد بيتاً يملكُهُ، ماشى على الطريق إلى الله عز وجل. غير متزوج، لم يلبث أن تزوج انقطع عن مجالس العلم، وجد ركونه إلى بيت وزوجة أكثر راحة وأدنى سعادة.

انظر لهذه الكلمة ما أدقها: ولا يرجع قبل الوصول إليه بعدما قصده.

أنت قصدت الله عز وجل، يجب أن لا يثنيك شيء، لا مشكلة ولا خطر، ولا وهم، ولا تهديد، ولا فقر، أبداً، هذا هو الصدق..

قال: من آداب من عرف هذا الاسم أن تسمو همته، إلى أن يطهره الله من عيوبه.

عنده عيوب في نفسه، المشكلة ـ يا إخوان ـ أن عيوب الجسد تنتهي مشكلتها عند الموت، مهما كانت من آفات، وأمراض، مثلاً أحدهم يده مصابة، والآخر بصره ضعيف وثالث آلام في ظهره، إذا جاء ملك الموت يُنهي كل المشكلات، ولم يعد لأحد من هؤلاء مشكلة أبداً.

كل أمراض الجسد تنتهي عند الموت، وكل أمراض القلب تبدأ عند الموت الناس نيام إذا ماتوا انتبهوا..

اللؤم الذي فعله إنسان في الدنيا مُخَدّر، أما إذا استيقظ عند الموت فحاله ساعة إذاً يكشفها معنى الحديث الشريف التالي، والآيات بعده:

إن العار كما ورد في الأحاديث الشريفة في الجامع الصغير:

((إن العار ليلزم المرء يوم القيامة، حتى يقول يا رب لإرسالك بي إلى النار أهون علي مما ألقى، وإنه ليعلم ما فيها من شدة العذاب))

آلام النفس، آلام الندم، الشعور بالخيبة، الشعور بالخسارة الكبرى

(قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً (١٠٤) أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (١٠٥) ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُواً (١٠٦))

[سورة الكهف]

قال: من آداب من عرف هذا الاسم، أن تسمو همته إلى أن يطهره الله من كل عيوبه، وأن يطهره عن دنس كل عاهاته، في جميع حالاته ويطهر قلبه من كل كدراته، وأن يرجع إلى الله تعالى بحسن الاستجابة في جميع أوقاته.

قال: فإن من طهّر لسانه عن الغِيبة، طهّر الله قلبه عن الغيْبة عنه ويصبح قريباً منه، ومن طهّر لله طرفه عن النظر بالريبة، طهّر الله سرّه عن الحجاب.

إذا الإنسان حجب بصره عن المحرمات، يكشف الله عن بصيرته فإذا أطلق بصره حجب عن بصيرته.

وإذا طهر لسانه عن اغتياب الناس، يقربه الله إليه..

يعني ملخص هذا الدرس:

(وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ)

يعني نطهّر أنفسنا كي نستحق أن نكون معك يا رب، في جنتك مع أوليائك، مع المؤمنين، مع الأنبياء مع الصديقين، مع الشهداء، مع الصالحين.

قال: حكي عن إبراهيم ابن الأدهم، أنه مرّ بسكران، مطروح على قارعة الطريق، وقد تقيأ، فقال في نفسه بأي شيء أصابته هذه الآفة وقد ذكر الله بهذا الفم، هذا اللسان ذكر الله، هذا الفم ذكر الله،هو ممتلئ زَبَداً قيئاً، ملقىً على قارعة الطريق، وكان إبراهيم شيخاً جليلاً عظيماً، فجاء بنفسه وغسل فمه، فلما أفاق السكران أُخبر بما فعله معه إبراهيم ابن الأدهم، فخجل الرجل السكران من الله تعالى، وتاب، وحسنت توبته فرأى إبراهيم في المنام كأن قائلاً يقول له، **يا إبراهيم طهّرت فمه من أجلنا، فطهرنا قلبه من أجلك..**

تأثرت من هذه القصة، يعني مثلاً لك ابن يأسان منه، حاولت أنْ يصلي ولو صلاة شكلية، جهدت حتى جعلته يصلي هذه الصلاة الشكلية، لعل الله عز وجل يتفضل عليك فيطهر قلبه.

أنت كن عند الأمر والنهي وعلى الله الباقي، قف في الصلاة متخشعاً لعل الله يتجلى عليك، حاول أن تصلي مع أولادك لعل الله سبيل الرشاد، طهر ظاهرهم لعل الله يطهر باطنهم لك الظاهر وعلى الله السرائر.

قال **يا إبراهيم لقد طهرتَ فمه من أجلنا فطهرنا قلبه من أجلك..** القصة لها تتمة، دخل مسجداً مرة، ورأى رجلاً يبكي بكاءً مراً، ويتهجد وينادي ربه، ويدعوه، أعجبته هذه الصلاة وهذا التهجد وهذا الخشوع قال: من أنت يا فلان ؟ من الرجل ؟ قال إن الذي هداني أخبرك بحالي ما قال لك يا إبراهيم طهرت فمه من أجلنا فطهرنا قلبه من أجلك، إن الذي هداني أخبرك بحالي..

لا تيأس، لو رأيت الإنسان في أقل درجات المعصية أو في أشدها، الصلحة مع الله ممكنة بلمحة..

" إذا رجع العبد إلى الله، نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنِّئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ".

يا أيها الإخوة الأكارم:

أختم درسي بهذه الكلمات فاحفظوها:

إن للحسنة ضياءً في الوجه، ونوراً في القلب، وسعةً في الرزق وقوةً في البدن، ومحبة في قلوب الخلق..

ألا يتمنى أحدنا أن يكون كذلك، وجه كالشمس منير، قلب مستنير سعة في الرزق، قوة في البدن، محبة في قلوب الخلق.

أحد العلماء بمصر عاش مائة وثلاثين سنة.. رجل من علماء دمشق رحمهم الله تعالى، عاش ستاً وتسعين سنة، ويروي عنه تلامذته أنه كان مستقيم القامة، حاد البصر، مرهف السمع، أسنانه في فمه، خدوده متوردة، قوي البنية، كلما سُئل، ما هذه الصحة ؟ يقول: **يا بني حفظناها في الصغر، فحفظها الله علينا في الكبر.**

اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا، وقوتنا ما أحييتنا.

قال: وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب والقبر، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، قال عليه الصلاة والسلام:

((قد يُحرم المرء الرزق بالذنب يصيبه))

ونقصاً في الرزق، وبغضاً في قلوب الخلق، والذنب ـ أيها الإخوة ـ والسيئة سببُ هوان العبد على ربه، وسقوطه من أعين خلقه.. هان الله على الناس فهانوا عليه.

آخر نصيحة، اتق الله باجتناب المحرّمات تكن من التوابين، وتورّع عن اقتحام الشبهات تكنْ من المتطهرين، وازهد فيما زاد عن قدر الضرورة تنجو من الحساب الطويل، وأقبل على خدمة مولاك تنل الثواب الجزيل.

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً.

كلمة قصيرة ـ أيها الإخوة الأكارم ـ لا يجوز أن تقف على قوله تعالى فويل للمصلين أليس كذلك ؟ المعنى فاسد، كما أنه لا يجوز أن تقف على قوله تعالى عند قوله **" مالا يفعلون"** بل لا بد من تمام الآية الأخيرة:

(إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ(٢٢٧))

[سورة الشعراء]

إذاً الشعر مضمونه يُقيّمه، فإذا كان في مدح رسول الله، مثلاً:

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة

كيف نمت من حبة وكيف صارت شجرة

فابحث وقل مـــــن أخرج منها الثمـــــرة

ذلك هو الله الذي أنعمه منهمـــــــــرة
ذو حكمة بالغـــة وقدرة مقتـــــــــدرة

***

هذا الشعر، فالشعر كما قال العلماء كلام حسنه حسن، وقبيحه قبيح ربنا عز وجل حينما وصف الشعراء وصف شعراء الجاهلية وغيرهم الذين تغزلوا فأفحشوا وآذَوْا واستثنى من بينهم الشعراء الذين آمنوا وأحسنوا المقالة كحسان بن ثابت الذي وقف شعره دفاعاً عن الإسلام ورسوله صلى الله عليه وسلم. واقرأ أواخر سورة الشعراء.

٣-اسم الله السلام .

ورد هذا الاسم في نص القرآن الكريم في قوله تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣))

(سورة الحشر)

وورد أيضاً في قوله تعالى:

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥))

(سورة يونس)

دعوة الله كلها ملخصة بدار السلام و ورد في قوله تعالى:

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١))

(سورة الواقعة)

وورد في قوله تعالى:

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (١٥))

(سورة مريم)

هذه الآيات التي وردت في كتاب الله عز وجل وورد فيها اسم السلام، ما معنى هذا الاسم؟ يقول العلماء: هذا الاسم معناه أنه جل جلاله ذو السلامة، ذو السلام أي ذو السلامة كأن تقول الرضاع من الرضاعة، هذا الاسم أساسه اللغوي السلامة ومعنى السلامة أي أن ذاته جل جلاله سلمت من كل عيب وسلمت صفاته من كل نقص وسلمت أفعاله عن الشر، ولكن لابد من وقفة دقيقة عند العبارات سلمت ذاته من كل نقص، وسلمت صفاته من كل عيب، وسلمت أفعاله من الشر، أليس في الأرض شرور ؟ فكيف يقول العلماء في شرح هذا الاسم العظيم من أسماء الله تعالى: سلمت أفعاله من الشر ؟.

في الإجابة على هذا السؤال، وأنا أعلق أهمية كبرى على هذه النقطة، لأنك إذا فهمتها فهماً صحيحاً أحسنت الظن بالله عز وجل وحسن الظن بالله ثمن الجنة، سلمت أفعاله عن الشر المطلق ؟ ما هو الشر المطلق الذي نفعله لذاته ؟ أي إذا كان في الإنسان التهاب حاد في الزائدة الدودية ألا يمسك الطبيب الجراح المشرط الذي نرجوه أن يجري لنا هذه العملية !! ألا يمسك هذا الطبيب المشرط ويشق اللحم وينفر الدم ويخدر هذا الإنسان فبعد أن ينتهي مفعول التخدير ألا يتألم هذا الإنسان، هل أردنا أن نجرحه حباً بجراحته ؟ هل أردنا أن نقطع هذا اللحم حباً بإيقاع الأذى ؟ أم أن هذا الطبيب الرحيم البارع أمسك المشرط وفتح البطن ليستأصِل هذه الزائدة الملتهبة وفي استئصالها يكون الشفاء والراحة، فإذا جاء إنسان ليطعن إنساناً آخر بالسكين بلا سبب وبلا ذنب نقول: هذا فعل الشر المطلق أي أوقع فيه الأذى لذات الأذى، أما حينما يفتح جدار البطن ليستأصل هذه الزائدة الملتهبة فهذا ليس شراً مطلقاً ؛ هذا هو

الشر الذي من أجل الخير، هذا هو الألم الذي من أجل الراحة، هذا هو فتح الجلد الذي هو من أجل راحة النفس، فلذلك حينما نقول: من معنى اسم الله السلام أنه ذو السلام والسلام من السلامة كما أن تقول الرضاع من الرضاعة.

إذاً أفعال الله ذاته منزهة عن كل عيب، صفاته منزهة عن كل نقص، أفعاله منزهة عن الشر المطلق، حينما توقع الشر لذات الشر فهذا شر مطلق.

يا أيها الأخوة الأكارم،

يجب أن تعتقدوا ويجب أن تؤمنوا أنه ليس في الكون كله شر مطلق، أتمنى على الله عز وجل أن يمكنني من توضيح هذه الحقيقة.

ليس في الكون شر مطلق. أما هناك شرور لا يعلمها إلا الله؟ لكن هذه الشرور لا بد منها من أجل إحداث النتائج الطيبة، خلق الإنسان ليسعد إلى الأبد فإذا انحرف عن هدفه فلا بد من تصحيح مساره، لا بد من معالجته، لا بد من دفعه، لا بد من ردعه، لا بد من فعل شيء يدفعه إلى هدفه النبيل، فالذي يؤمن بأن هناك شرور إنما تقع لذاتها فهذا لا يعرف الله أبدا، لقول الله عز وجل:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران: الآية ٢٦)

مثلا: هل في الأرض كلها أب إن رأى ابنه مارسَ انحرافا اقترف ذنبا خطيرا، أخذ شيئا ليس له، أخذ مالاً ليس له، كذب كذبة كبيرة اعتدى على أخيه، هل في الأرض كلها أب يقف مكتوف اليدين ؟ ألا يعالجه، ألا يوبخه، ألا يضربه، ألا يحذره، ألا يقرعه، و هل في الأرض كلها أب يأتي إلى ابنه الحبيب الذي لم يفعل شيئاً إطلاقا ويوقع به الأذى حبا بالأذى، هذا الأب منزه عنه، الأب العادي الذي لا يملك من الرحمة والحكمة شيئاً منزه عن هذه الصفة.

إذاً الشر المطلق لا وجود له في الكون، وما أصاب من مصيبة فبما كسبت أيديكم. وكلما كان الانحراف أشد كان العلاج أقصى.

شيء آخر. هذا أول تعريف جل جلاله من أسمائه السلام، سلمت ذاته من العيوب وسلمت صفاته من النقص وسلمت أفعاله من الشر المطلق إنّ كل شر تراه أعينكم هو شر موظف لمصلحة الإنسان البعيدة لا القريبة، مثال للمصلحة القريبة: شر قد يُفقِد الإنسان ماله كله وقد أصيب بمرض عضال، فذهب المال في العلاج فهذا الفقد للمال وهذا المرض العضال في نظر صاحبه شر خطير. ولكن حينما يخلق الإنسان لسعادة أبدية ويكون هذا العلاج في خدمة عودته إلى الله عز وجل وأنفق المال لهذه الغاية النبيلة فهذا هو الخير البعيد.

المعنى الثاني من أسماء الله أنه سلام أي ذو السلامة لعباده ليس في الوجود كله سلامة إلا معزوّة إليه.

الآن أدخل معكم في موضوع ؛ والله الذي لا إله إلا هو أتمنى من كل قلبي أن نسلك معا في فهم أسماء الله الحسنى فهما بمنهج واضح جدا، دعنا من التعاريف النظرية ؛ دعنا مما قاله العلماء، وما أَجَلّ ما قالوه عن اسم الله السلام، أنت كإنسان هل تستطيع أن تكتشف في هذا الكون حوادث آيات، أدلة، تؤكد أن الله سلام ؟ أنا سعيت ببعض الشواهد المنتزعة من حياتنا من أجسامنا مِمّا حولنا لأؤكد لكم أن هذا الكون كله ماهو إلا تجسيد لأسماء الله الحسنى، وما هو إلا مظهر لصفاته الفضلى.

مثلا: الإنسان إذا كسرت عظامه كيف تلتئم ؟ لا أحد يعرف إلا أن الخلية العظمية حينما تصاب بالعطب، والعظام حينما تنمو في بدايتها تنمو إلى أن تصل إلى حد رسمه الله لها لأن الله عز و جل باسط وقابض.

و من رحمة الله بنا أن الإنسان ينمو فإذا بلغ في نموه الحد المعتدل المقبول يقف النمو، وهناك مرض خطير جدا هو أن الإنسان ينمو دون توقف مرض العملقة ينمو بلا توقف، فرحمة الله عز وجل توقف نمو العظام عند هذا الحد، لكن خلايا العظام تنمو فإذا وصلت الحد الذي رسم لها تقف عن النمو. وقال العلماء: هذه الخلية العظمية تهجع وتنام، قد يمضي على نومها أربعون عاما فإذا كسرت عظمة إنسان استيقظت هذه الخلايا وأعادت بناء ذاتها والتأمت مع أخواتها ونحن لا ندري، لو أن العظم لا يلتئم ماذا نفعل ؟ لو أن عظم الإنسان إذا انكسر لا يلتئم ماذا نفعل ؟ فالتئام العظم يجسد اسم الله السلام، الله عز وجل خلقك في أحسن تقويم وخلق في طبيعة الجسم إمكانية الترميم والإلتئام والشفاء.

أنت إذا سرت على قدميك اللطيفتين ما الذي يضمن لك أن لا تقع؟ جهاز للتوازن أودعه الله في أذنك الداخلية ثلاث قنوات فيها سائل، فيها أهداب، فإذا ملت على أحد محوريك ارتفع السائل في مكان دون الآخر وهذه الأشعار الدقيقة أحست بالميل فأعطت أمرا إلى الدماغ كي تعود إلى ما كنت عليه، لولا هذا الجهاز الذي أودعه الله في الأذن الداخلية لاحتاج الإنسان إلى قدم قطرها سبعون سنتمتر، يحتاج إلى مركز استناد واسع، إذاً من أجل سلامتك جعل الله لك هذا الجهاز جهاز التوازن في الأذن، نعم من أجل سلامتك، ومن أجل سلامتك أنت أيها الإنسان جعل الله هذه الخلايا العظمية تهجع مديدا ثم تستيقظ لتلتئم.

الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان، في عظامه، من الداخل أعصاباً حسية بالغة الحساسية لماذا ؟ لماذا في نِقْيِ العظام أعصاب حس ليس لها معنى، فإذا كسر العظم تُبقي العظم على حالته لأن إبقاؤه على حالته هو ثلاثة أرباع العلاج، فجعل الله في نقي العظام ذلك العصب الحسي البالغ الحساسية من أجل سلامتك لأن اسمه السلام.

وأعصاب الحس في الأسنان من أجل أن تبادر إلى طبيب الأسنان فتعالج أسنانك قبل أن تفقدها كلها، فهذا العصب الحسي البالغ الحساسية في أسنان الإنسان من أجل سلامة الأسنان وهو تجسيد لاسم الله السلام.

جهاز المناعة، وهو حديث العالم اليوم، جيش عظيم أودعه الله في الدم: الكريات البيضاء بعض هذه الكريات تستطلع أحوال العدو وبعض هذه الكريات تصنع المصل المضاد بناء على استطلاع الكريات المستطلعة وبعضها تأخذ هذا السلاح المضاد الحيوي وتقاتل به الجرثوم وأنت لا تدري. من أجل سلامتك أودع الله فيك جهاز المناعة، هذه الكريات البيضاء التي بعضها لاستطلاع بنية العدو ومراكز ضعفه وبعضها لتصنيع المصول وبعضها لمحاربة الجرثوم إذا دخل معتديا على جسم الإنسان، وما مرض الإيدز الذي هو شغل العالم الشاغل إلا ضعف في جهاز المناعة، فمن أجل ماذا خلق الله جهاز المناعة في الإنسان ؟ من أجل سلامتك. إذاً هذا يجسد اسم الله السلام.

القلب: جعل الله عز وجل فيه مركز تنبيه كهربائي خاص به، ما من عضلة في جسم الإنسان إلا وتأتمر بعصب حسي وعصب محرك، الإنسان عصب حسي ينقل إحساس المحيط إلى الدماغ وعنده عصب محرك ينقل أوامر الدماغ إلى العضلات وهذه من بديهيات التشريح، كل عضلات الجسم تتحرك بأمر الدماغ لذلك الشلل من أين ؟ من الدماغ، إذا تضيق شريان في الدماغ في منطقة الحركة يصاب الإنسان بالشلل، إلا عضلة القلب إلا هذه العضلة فقد زودها الله جل جلاله بمركز توليد كهربائي خاص بالقلب ؛ لأن القلب خطر جدا، المشكلة أن هذا المركز مركز التوليد إذا تعطل فهناك مركز آخر يعمل بعده مباشرة والدول المتقدمة جدا عندها أجهزة توليد كهرباء احتياط فلو أن مراكز التوليد الأساسية أصابها خلل أو عطب تعمل المراكز الاحتياطية، في القلب ثلاثة مراكز توليد كهرباء خاصة بالقلب إذا تعطل الأول يعمل الثاني وإذا تعطل الثاني يعمل الثالث، لماذا خلق الله هذه الإحتياطات ؟ من أجل سلامتك.

قال لي طبيب متخصص في الكليتين: لو أننا جئنا بمبضع الجراح واستأصلنا الكلية الأولى وجئنا إلى الكلية الثانية واستأصلنا تسعة أعشارها بالمبضع، إن عشر الكلية الثانية يكفي لتصفية دم الإنسان، إذا الله عز وجل من أجل سلامتك أعطى كليتيك عشرين ضعفا عن حاجتك، هذا من أجل سلامتك، فإذا قرأت اسم الله " السلام " أي زودك بوسائل السلام هذا من معاني اسم الله العظيم جل جلاله.

الأوعية أوردة وشرايين لحكمة أرادها الله عز وجل. جعل الشرايين في داخل الأعضاء والأوردة في الظاهر، لإن الشريان موصول بالقلب مباشرة فإذا أصابه جرح فقد الإنسان دمه كله لأنه مثل المضخة، لو أن إنساناً فُتح شريانه هل تدري ما يكون. اصغ لطبيب الآن: وقال لي طبيب جراحُ أوعيةٍ: في أثناء بعض العمليات حينما يُفتح الشريان وإلى أن نُغلقَهُ بملقط فإنّ الدم يصل أحيانا إلى سقف الغرفة لشدة

الضغط، فهذا الشريان الذي أودعه الله في الإنسان حفاظا عليه وضمانا لسلامة صاحبه جعله في الداخل وجعل الأوردة في الخارج، فعندما تأخذ أبرة في العرق كما يقولون هذه ليست في الشريان ولكن في الوريد، من صمم الشرايين في الداخل والأوردة في الخارج ؟ اسم الله السلام ضمانا لسلامتك.

عندما يجوع الإنسان لدرجة يكاد يموت جوعا، أنت كإنسان عندك مواد غذائية ؛ عندك مثلا بقول حبوب وعندك دهون، فأنت مهما أوتيت من علم عظيم هل بإمكانك أن تحول هذا القمح إلى مواد دهنية إلى لحم ؟ هذا شيء فوق طاقة الإنسان ولكن الجسم مزود بآلية عجيبة جدا، بإمكانه أن يحول المواد النشوية إلى مواد دهنية عند الحاجة، فهذه المرونة في تحويل المواد من أجل سلامتك والإنسان عندما يجوع يستهلك شحمه وحينما يجوع بعد ذلك يستهلك عضلاته، في بعض حالات المجاعات العضلات تستهلك العضلة، لا يبقى في يده إلا جهازه العظمي وعليه الجلد، العضلات المخططة هذه تستهلك تؤكل، ماذا قال هذا الفتى الشاب لعبد الملك ابن مروان حينما دخل عليه فقال عبد الملك ابن مروان: حينما رأى الصغار في مجلسه غضب وقال لحاجبه: ما شاء أحد أن يدخل علي حتى هؤلاء الصبيان، فقال له: **"أيها الأمير إن دخولي عليك لن ينقص قدرك ولكنه شرّفني:** أصابتنا سنة أكلت الشحم -أذابت الشحم- وأصابتنا سنة أكلت اللحم وأصابتنا سنة ذقت العظم، أول شيء في الإنسان يُستهلك شَحْمُه وبعد ذلك تُستهلك عضلاته إلا عضلة القلب، من صمم هذا التصميم ؟ الإنسان إذا أردت أن تميته جوعا يستهلك كل عضلاته إلا عضلة القلب ضمانا لسلامته.

بل إن في مخزون الإنسان الغذائي مخزون لا يستهلك إلا عند المجاعات، الإنسان يجوع، ما معنى أنك جائع ؟ يعني مخزونك في الكبد نقص، المخزون الغذائي في الكبد لا في الشرايين لو فحصت دم إنسان جائع لوجدت النسب كلها نظامية في دمه، ولكن المخزون في الكبد هو الذي نقص، هذا كله من أجل سلامة الإنسان هذا معنى **" ذو السلامة "**

شيء آخر: الإنسان أحيانا ينام، وزن جسمه الذي فوق عظمه يضغط على العضلات التي تحت العظم هذا الضغط يسبب ضيق في التروية أودع الله في الإنسان مراكز تنبيه للإحساس بالضغط فإذا تنبهت هذه المراكز لضغط الجسم عليها ولضيق الأوردة والشرايين وضعف التروية، الدماغ يأمر الجسم وأنت نائم بالتقليب من شق إلى شق وهذا معنى قوله تعالى:

(وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَاراً وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨))

(سور الكهف)

والتقليب ذات اليمين وذات الشمال، مرة إلى اليمين ومرة إلى الشمال لئلا تقع من على السرير، هذا من أجل سلامتك.

وأنت نائم هذا الريق هذا اللعاب في الفم إذا ازداد أعطى تنبيها إلى الدماغ والدماغ أمر البلعوم فتجعل هذا اللعاب في المعدة وأنت نائم، هذا من اسم الله السلام.

أتمنى عليكم الآن أن نحاول أن نفهم أسماء الله الحسنى لا من خلال التعريفات النظرية التي أوردها بعض العلماء ولكن من خلال التفكرات اليومية لعل الله سبحانه وتعالى يفتح عليكم بهذا المجال، أي كلما فكرت في اسم من أسماء الله الحسنى، الأدلة لا تعد ولا تحصى، الله عزو جل جعل أخطر عضو عندك هو **" الدماغ "** أين وضعه ؟ في الجمجمة، ماذا جعل فيه ؟ أغشية بعضها فوق بعض، وماذا جعل بين الدماغ وبين الجمجمة ؟ سائل، ما وظيفة هذا السائل؟ هذا يمتص الصدمات، إذا تلقى إنسان ضربة على رأسه أو وقع على جمجمته، وإذا فسرنا الضربة بارتجاج في السائل، هذه الضربة أو هذا الضغط يوزع على سطح السائل كله، فإذا هو عشر الميليمتر فلا يتأثر، فالله جعل الدماغ في صندوق محكم وجعل الصندوق له مفاصل ثابته، هذة المفاصل الثابته تمتص بعض الصدمات، لولا هذه المفاصل المنكسرة لكان الإنسان لأقل ضربة تنكسر جمجمته، أما هذه المفاصل فإنها تتمفصل تمفصلاً متكيفاً مع شدة الضربة، فكلما تعرضت الجمجمة لصدمة تتداخل العظام مع بعضها ثم تعود لمكانها، هذا من أجل سلامتك.

أين جعل النخاع الشوكي ؟ في العمود الفقري أخطر شيء في الإنسان.

أين جعل القلب ؟ في القفص الصدري.

أين جعل الرحم ؟ في الحوض:

(ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣))

(سورة المؤمنون)

الرحم يقع في الوسط الهندسي تماما من جسم المرأة.

أين جعل معامل كريات الدم الحمراء وهي أخطر معامل في جسم الإنسان ؟ في نِقْيِ العظام، أترون كيف هي السلامة.

أين وضع العين ؟ في المحجر، العين جعل لها محجراً يقيها الصدمات ولو تلقى الإنسان ضربة على وجهه فالضربة لا تصل إلى العين، لأنها في حصن في كوة المحجر، فالعين في المحجر والدماغ في الجمجمة والنخاع الشوكي في العمود الفقري والقلب في القفص الصدري ومعامل كريات الدم الحمراء في نِقْيِ العظام والرحم في الحوض، ما هذا الإحكام البديع ؟

لماذا جعل الله عز وجل أنف الصغير الرضيع قاسيا ؟ لئلا يتطامن فيختنق الطفل، كلما كبر الطفل أصبح هذا الغضروف لينا، هذا من حكمة الله عز وجل، هذا الرحم إذا تقلص من أجل سلامة المرأة ماذا يحصل يتقلص تقلصا لطيفا. هذا هو الطلق، فإذا خرج الطفل إلى خارج الرحم تقلص الرحم تقلصا

حادا قاسيا لماذا ؟ قال: لأن الطفل حينما خرج من الرحم تقطعت عشرات ألوف الأوعية الشعرية فلو تقلص تقلصا لينا لماتت الأم من النزيف، يمسك الطبيب أو القابلة يجس الرحم فإذا كان صخريا تعد الولادة سليمة، لو أن هذين التقلصين عكسا لماتت الأم ولمات وليدها، لو جاء التقلص عنيفا لاختنق الوليد ولو جاء رخوا لماتت الأم، فمن أجل سلامة الأم وسلامة وليدها كان التقلص الأول لينا متزامنا متسارعا والتقلص الثاني عنيفا حادا قاسيا من أجل سلامة المرأة ووليدها.

والله أيها الأخوة الأكارم لو بقينا ساعات طويلة أياما عديدة وأشهراً مديدة وسنوات لا تنتهي ما انتهينا من اسم الله **"السلام"** إذا أردنا أن نأخذه من خلق الإنسان ومن خلق الحيوان.

هذه الحوينات، أحد إخواننا الأطباء جزاه الله خيرا ذكر لي قبل أيام أن هذا الحوين الذي خلقه الله في الخصيتين، هذا يتم خلقه خلال ثمانية عشر يوما هذا الحوين و يخزن في الخصيتين ويعطل فاعليته، فإذا خرج ليستقر في الرحم حينما يبدأ بالانطلاق من مكان تخزينه تبدأ فاعليته، ولولا هذه الصفة لكان كل الرجال عقيمين، يأتي العقم لأن هذا الحيوان له عمر وعمره عشر ساعات فإذا صنع في الخصيتين ولم يستهلك يموت، إذاً يُصنع ويتم صنعه ويُخزن وتُعطل فاعليته فإذا انطلق من تخزينه ليستقر في الرحم بدأت فاعليته وعاش عشر ساعات إلى أن يستقر في البويضة، هذا تصميم مَنْ ؟ تصميم الله عز وجل.

فأنا أتمنى عليكم وقد دخلنا في دروس أسماء الله الحسنى أتمنى عليكم أن ننحو في فهم هذه الأسماء منحى يوازي التعاريف النظرية والشواهد العملية و أن نفكر تفكيرا ذاتيا حرا في بعض مظاهر خلق الإنسان وخلق الحيوان وخلق النبات، هذه الشجرة التي عمرها خمسين سنة وأنت تأكل منها زيتوناً كل سنة لها تصميم، تصميمها أنك إذا غبت عنها وليس هناك مطر في السماء تستهلك ماء أوراقها، فإذا استهلكت ماء أوراقها كأنها تقول لك: يا صاحبي أنا عطشى تجد أوراقها ذبلت، إذا ترك أحدنا شجرة دون سقي أول ماء تستهلكه ماء أوراقها فتجد الأوراق قد ذبلت، فإذا لم تسق تستهلك ماء أغصانها فإذا لم تسق تستهلك ماء فروعها فإذا لم تسق تستهلك ماء جذعها فإن لم تسق تستهلك ماء جذورها وهذا آخر ماء تستهلكه.

لو أن الآية عُكست في تلك الشجرة وتركت الشجرة دون سقي أسبوعين لماتت، لأنها بدأت باستهلاك ماء الجذر ويبس الجذر ومن ثم ماتت الشجرة، إذا من صمم أن هذه الشجرة يجب أن تستهلك ماء أوراقها أولا من أجل أن تسقيها ؟ هذا تصميم الله للشجرة.

هذا النسغ الصاعد. هناك أوعية صاعدة وأوعية هابطة في الشجرة، فحينما تنمو هذه الشجرة تنمو عرضا ربما نموها العرضي ضيق من أوعيتها. لذلك هذه الأوعية ذات الحيوية البالغة للشجرة مدعمة بألياف حلزونية لئلا ينمو القشر ولحاء الشجرة على حسابه، من صمم هذا؟ الله سبحانه وتعالى. هذه

البذرة التي جعلها الله عز وجل آية تقاوم سنوات وسنوات، أخذوا قمحاً من الأهرامات و زرعوه فنبت، بذرة القمح كائن حي فيها رُشيم يعيش هذا الرشيم ستة آلاف عام تقريبا زرعت فأنبتت، الذي أراه أن أي شيء في الكون من النبات إلى الحيوان والماء، فالماء: إذا جمد الماء لو زادت كثافته لغاصَ في أعماق البحار ولانتهت الحياة من على سطح الأرض، لكن الماء العنصر الوحيد في الكون الذي إذا بردناه قلت كثافته وزاد حجمه فَطَفا، لو أنه عكس ما هو عليه الآن لأصبحت البحار كلها متجمدة ولانعدمَ البخر وانعدم المطر ومات الزرع ومات الحيوان وتبعه الإنسان، خاصة واحدة إئت بالماء برده ينكمش إلى درجة أربعة فوق الصفر مئوية تنعكس الآية ويزداد حجمه، هذا من اسم السلام من أجل سلامتنا، وحينما يزداد حجم الماء هو الذي يفتت التربة فالتربة أساسها صخري بهذا الماء أصبحت مفتتة إذاً فاقرأ معي قوله تعالى:

(وَالسّمَاءِ ذَاتِ الرّجْعِ (١١) وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصّدْعِ (١٢))

(سورة الطارق)

إذاً ازدياد حجم الماء عند التبريد هو الذي جعل الصخر ترابا من أجل سلامة الحياة، فإذا أردنا أن نعرف أسماء الله الحسنى من هذا المنحى من هذا الطريق طريق رائع جدا وواسع جدا وفي متناول كل منكم، أي واحد منكم بإمكانه بدءاً من كأس الماء إلى رغيف الخبز إلى أعضائه وأجهزته وخلاياه وأنسجته عليه أن يعرف أن اسم الله السلام واضح في خلقه بل في طعامه وشرابه، ربنا عز وجل قال:

(الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(٣))

(سورة الملك)

كله متقن:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الّذِي أَعْطَى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى (٥٠))

(سورة طه)

هجرة الطيور من أجل سلامتها، تقطع الطيور سبعة عشر ألف كيلومتر، تطير بعض أنواع الطيور ستاً وثمانين ساعة دون توقف، هل في الأرض كلها طائرة بإمكانها أن تطير ستاً وثمانين ساعة من دون تزود بالوقود ؟ غير ممكن **" أعطى كل شيء خلقه ثم هدى "**.

ذكرت بعض الأمثلة، بعضها من خلق الإنسان وبعضها من خلق النبات وبعضها من خلق الحيوان، السمكة زودها الله بجهاز تعرف فيه أين هي من سطح الماء، إذا أمسكت سمكة تجد في ثلثها الأعلى خط تحت الحراشف هذا خط مفرغ من الهواء. هي في أعماق البحر كلما هبطت نحو الأسفل ازداد الضغط على هذا الخط، وهذا جهاز الضغط في كل الغواصات، كل سمكة جهزها الله بجهاز ضغط، تعرف أين هي من سطح الماء كلما نزلت تعرف عمق ما وصلت إليه من أجل سلامتها.

أنظر إلى كل الحيوانات الأهلية التي هي من حولنا ترى أن سلامتها عجيبة هذا كله من اسم السلام. إذاً إما أنه سلمت ذاته من العيب وسلمت صفاته من النقص وسلمت أفعاله من الشر أو أنه ذو سلامة لخلقه، فليس في الوجود كله سلامة إلا وهي معزوة إليه أو سَلِمَ المؤمنون من عذابه أو هو ذو سلامة على أوليائه.

(قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى)

(سورة النمل: الآية ٥٩)

سلمت ذاته وسلم خلقه من كل أذى ومن كل ضرر.

العلماء قالوا: إن سلام ذاته من العيوب والآفات فهذا الاسم من صفات التنزيه و سلامه على أوليائه فهذا الاسم من أسماء الذات فإن أعطى السلامة للمؤمنين فهذا من صفات الأفعال،وسلامه إذاً إما من صفات التنزيه وإما من صفات الذات وإما من صفات الأفعال.

من معاني هذا الاسم أن ذكر الله عز وجل يورث الأمن والطمأنينة والسلامة والدليل قوله تعالى:

(أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨))

(سورة الرعد: الآية ٢٨)

في القلب وحشة، في القلب خوف، في القلب قلق لا يسكن هذا القلق ولا تسكن هذه الوحشة ولا يأنس إلا بذكر الله، وأنا أقول لكم هذه الكلمة: ابحثوا عن كل شيء، ليس في الأرض كلها شيء يمنحكم سعادة إلا أن تذكروا الله.

إن القلوب لتصدأ صدأ الحديد، قيل: وما جلاؤها ؟ قال: ذكر الله وتلاوة القرآن.

إذاً من أسماء الله السلام إنك إذا ذكرته شعرت بالسلام، إنك إذا ذكرته زال عنك الخوف، إنك إذا ذكرته زالت عنك الوحشة، إنك إذا ذكرته أنست به، إنك إذا ذكرته اطمأننت.

البعيدون عن الله عز وجل يأكل قلوبهم الخوف، يختل توازنهم ينسحقون لأنهم أشركوا بالله ما لم ينزل به عليهم سلطاناً فألقى الله في قلوبهم الرعب، أما علامة المؤمن فهو مطمئن.

إذاً من أسماء الله السلام إذا ذكرته يمنحك السلام، إذا ذكرته يمنحك الاطمئنان، إذا ذكرته تشعر بالقرب منه إذا ذكرته تشعر أنه يدافع عنك وأنك في رعايته وفي حفظه وفي تأييده وفي توفيقه وفي رعايته يدافع عنك.

من معاني اسم السلام أنك إذا اتصلت بالله عز وجل طهرت نفسك من العيوب وهنا ندخل في معانٍ دقيقة، وأول معنى أنّ ذاته جل جلاله تنزهت عن كل عيب وصفاته تنزهت عن كل نقص وأفعاله تنزهت عن كل شر، أي شر ؟ هذا الشر المطلق أما الشر الهادف ؟ فهذا علاج والعلاج دائما مر، من

المعاني الأخرى: أنه ذو سلامة أي يمنح السلامة لعباده إما في خلقهم كما تحدثنا قبل قليل وإما في نفوسهم فذكر الله يورث الأمن والطمأنينة والسلامة.

والآن فالاتصال بالله ينقي النفس من عيوبها من البخل من الشح من الحقد من الضغينة من الحسد من الكبر هذه الصفات الذميمة التي يشقى بها الإنسان إذا اتصلْتَ بالله عز وجل تتنزه أنت عنها، إذاً هو ذو سلام في جسمك أعطاك أعضاء وأجهزة وأعطاك خلايا وأنسجة ودقة بالغة في جهازك العظمي والعصبي والعضلي والدوران والشرايين والأوردة وإذا كنت خائفا وذكرته بث في قلبك السلام فإذا اتصلت به طهرك من كل العيوب والنقائص جعلك طاهر النفس من أسمائه السلام.

شيء آخر: الله سبحانه وتعالى يهدي عباده سبل السلام، كل إنسان له بيت وأسرة فممكن أن يكون في بيته خصام فيه شحناء فيه بغضاء فيه طلاق فيه أحيانا ضرب لزوجته، هذا البيت فيه شقاق فيه ضغينة فيه حقد فيه مشاجرة فيه نفور، فإذا اتبعت توجيهات القرآن الكريم ومنهج النبي يهديك الله سبل السلام في بيتك فترى البيت وديعاً فيه طمأنينة فيه راحة نفسية فيه مودة فيه مؤاثرة فيه محبة لأنك اتبعت ما جاء به النبي إذا دخلت إلى بيتك فسلم على أهلك بقولك السلام عليكم فيذهب الشيطان، إنّ الشيطان كما قلت لكم سابقا يدخل بيتا فإذا دخل صاحب البيت ولم يسلم قال لإخوانه: أدركنا المبيت، فيكون طوال هذه الليلة مشاكل، فإذا جلسوا إلى الطعام ولم يسموا الله قال: أدركنا العشاء، فإذا دخل صاحب البيت فلم يسلم وجلس إلى الطعام ولم يُسَمّ اللهَ قال الشيطان لإخوانه: أدركنا المبيت والعشاء في هذا البيت، وبعد اللهُ السلامُ يهديهم سبل السلام فقد أمرك أن تختار المرأة الصالحة فلما اخترتها لأنها صالحة سعدت بها وأسعدتها فإذا آثرت الجمال على الصلاح شقيت بك وشقيت بها، طبعا آثرت الجمال وحده، إنّ الجمال مطلوب ولكنك إن آثرته وحده على صلاحها أو على دينها شقيت بجمالها.

بعملك: إذا أنت تعاملت بالربى وتراكبت عليك ديون ضخمة وظهرت المشكلات وتوقف البيع فجأة وعليك سندات فأفلست، لو أنك اتبعت السنة النبوية وأمر الله عز وجل لما وقعت في مشكلة في دخلك.

إذاً في تجارتك يهديك سبل السلام في زواجك يهديك سبل السلام في علاقاتك بجيرانك يهديك سبل السلام هذا معنى السلام، فأنت إذا طبقت القرآن الكريم أوصلك في كل موضوع في كل حقل وفي كل جانب إلى السلام والله يدعو إلى دار السلام وهي الجنة، فالسلام مريح جدا فإنك تعيش في طمأنينة وتعيش براحة وتحس أن الله خالق الكون معك لا يتخلى عنك ولا يسلمك إلى عدوك يدافع عنك ويحفظك ويؤيدك وينصرك لكنك دفعت الثمن قال تعالى:

(وَقَالَ اللّهُ إِنّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنّكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلّ سَوَاءَ السّبِيلِ (١٢))

(سورة المائدة)

إذاً من معاني السلام أن ذكر الله يورث الأمن والسلام من معاني السلام أن الاتصال بالله عز وجل يكسب السلامة من العيوب والنقائص والأدران والحماقات والحقد والحسد والضغينة والعلو في الأرض والكبر. هذه الصفات الذميمة المهلكة إذا اتصلتَ بالله عز وجل نقاك منها.

من معاني السلام أنك إذا طبقت شرعه يهديك سبل السلام كقوله تعالى:

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: الآية ٩)

أي إذا طبقت الشرع يعطيك السلامة في الدنيا، وإذا أقبلت على الله يعطيك سلامة النفس، وإذا أطعته في كل مناحي حياتك يعطيك سلامة الآخرة، قال الله تعالى:

(هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السّلَامُ)

(سورة الحشر: الآية ٢٣)

تصاحب أحيانا شخصاً شريراً أو تشاركه في بعض أعمالك فيدمر لك حياتك، وقد يتزوج إنسان امرأة شريرة وفي هذا السياق حدثني شخص قال لي: إنه رآها في الملهى فأعجبته فتزوجها، بعد أن تزوجها نشب خلاف بينه وبينها ليست منضبطة، أنت من أين أخذتها ؟ من أين تزوجتها ؟ فذهبت إلى بيت أهلها، استرضاها فلما استرضاها أبت إلا أن تسجل عليه مبلغ مائة ألف ليرة لترجع إليه، رجعت إليه شكلا وأقامت عليه دعوى واتفقت مع المُبَلِّغ، وأخذت التبليغ من مبلغ المحكمة ولم تبلغه لزوجها ومضت مدة الدعوى وأصبح الحكم قطعيا، ثم سيق الزوج إلى السجن بتهمة التخلف عن دفع المهر المقدم.هكذا مجريات القضاء، فلما علم ذلك حاول قتلها وقتل أمها وأختها في ليلة واحدة وقتل نفسه، إصابتهم لم تكن قاتلة أخذوا للمستشفى ونَجَوّنَ الثلاث من الموت الأم وابنتها وأختها وهو أصبح تحت الثرى، ليس للإنسان سلام إذا تزوج امرأة أعجبته من مكان ساقط فدمرته. قصة واقعة هنا في دمشق قبل ستة أشهر.

أما إذا التزم أحدنا شرع الله عز وجل فإنه سبحانه يبارك له في زواجه وفي عمله وفي رزقه وفي صحته وفي أولاده يهديهم سبل السلام.

(إِنّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلّتِي هِيَ أَقْوَمُ)

(سورة الإسراء: الآية ٩)

(فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣))

(سورة طه)

يجب أن تعرف أن السلامة كلها أن تكون مع الله. السلامة كلها أن تكون وفق أمر الله. السلامة كلها في معرفة الله السلامة كلها في عبادته السلامة كلها في فهم كتابه السلامة كلها في تنفيذ شرعه السلامة كلها في الالتزام بما أمر.

الآن وردت كلمة السلام في القرآن بمعنى آخر قال الله تعالى:

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ)

(سورة يونس: الآية ٢٥)

ما هي دار السلام ؟ الجنة ليس فيها نغص ولا حسد ولا فيها مرض ولا فيها قلق ولا فيها خوف ولا فيها منازعة ولا فيها حروب ولا فيها شيء من هذا كله.

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ)

(سورة يونس: الآية ٢٥-٢٦)

هذه دار السلام،هذا معنى آخر.

السلام ورد في آية أخرى قال:

(وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١))

(سورة الواقعة: الآية ٩٠-٩١)

الله سبحانه وتعالى يخبرك عن سلامة هؤلاء، يقولون: نحن في صحة جيدة وفي سعادة كبرى، أصحاب اليمين في سلام هم في الجنة.

ورد أيضا في قوله تعالى:

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (١٥))

(سورة مريم)

قال بعض العلماء واسمه سفيان ابن عيينة: **أوحش ما يكون العبد في ثلاثة مواطن،** يوم ولد. كان في الرحم مسروراً ومرتاحاً من المتاعب والمشاكل وخرج إلى الدنيا، طبعا هو انتقل من مكان ضيق إلى مكان واسع ولكي يألف الدنيا يبكي فورا، أوحش ما يكون العبد في ثلاثة مواطن:

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (١٥))

يوم يموت يدع كل شيء زوجته وأولاده وبيته وغرفة نومه ومكتبته ومركبته ومحله التجاري وعنده يوم في الأسبوع يجتمع فيه مع أصحابه له أصدقاء وأصحاب، له رغباته وميوله توقف قلبه يأخذونه إلى القبر، خروج بلا عودة وترك كل ماذكرناه آنفاً.

هو الذي زين البيت ورتبه وعنده مكتبته الخاصة وغرفته الخاصة يضع فيها حاجاته الشخصية بعض الهدايا المهداة إليه يتمنى أهله أن يفتحوا درجه فلا يسمح لهم في حياته وعندما يسلم الأمانة يفتحون الدرج ويأخذون السيارة ويفتحون المحل ويرتبون ويبيعون ويشترون هكذا تجري الوقائع فلذلك:

(وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (١٥))

قالت: **يارسول الله أيعرف بعضنا بعضا يوم القيامة ؟**

قال:

((نعم يا أم المؤمنين إلا في ثلاثة مواطن، عند الصراط وعند الحشر وإذا الصحف نشرت.))

أي تقع عين الأم على ابنها تقول له: **يا ولدي ألم أجعل لك بطني وعاء وصدري سقاء وحجري وطاء هل من حسنة يعود عليّ خيرُها، يقول: آه يا أماه إنني أشكو مما أنت منه تشكين لا أستطيع**، سيدنا يحيى: وسلام عليه يوم ولد، أصعب يوم لديه ومثل ذلك ويوم يموت ويوم يبعث حيا. فأمّنه الله إذ قال:

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ)

فإن الانتقال من بيت لبيت صعب فقد ألف جيرانه وألف إخوانه وأحبابه والانتقال إلى بيت آخر شيء صعب فلذلك

(وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً (١٥))

(سورة مريم)

الآن ورد كلمة سلام في القرآن بمعنى آخر قال:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣))

(سورة الفرقان)

شاهد شخصّ سيدنا علياً في المنام فقال له: **سلاما سلاما**، استيقظ الشخص وهو سعيد جدا، وروى ما رأى على أحدهم فقال له: تفسير منامك أنك جاهل لقوله تعالى:

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣))

(سورة الفرقان)

مامعنى **" سلاما"** ؟ هناك أشخاص أصلحهم الله صالحون إذا خاطبهم شخص يقولون له سلام، ما سلام هذه ؟ العلماء قالوا معنى سلام: تكلموا كلاما لا عيب فيه لا خطأ فيه لا جهل فيه لا قسوة فيه لا تطاول فيه لا إهانة فيه لطيف رقيق. إن كلمة **"سلام "** وحدها لا تفيد ذلك الشخص الذي لعله أساء وأخطأ بل على الصالحين أن يعظوه وينصحوه.

(وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ)

(سورة آل عمران: الآية ١٥٩)

لا غلط فيه ولا جهل ولا مبالغة ولا كذب ولا تدليس ولا احتيال ولا غش ولا معاني مبطنة.

(وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣))

(سورة الفرقان)

ليس معنى ذلك: قل له سلام، قالوا: كلاما سليما من كل عيب من كل خطأ من كل جهل من كل قسوة من كل تطاول من كل عدوان من كل إهانة هذا معنى **"سلاما"**.

أيها الأخوة:

وبعد، فما واجب المؤمن بالنسبة لهذا الاسم ؟ المؤمن الحق من سلم من المخالفات الشرعية سرا وعلنا، وبرئ من العيوب ظاهرا وباطنا، قال الله عز وجل:

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ)

(سورة الأنعام: الآية ١٢٠)

ومن كان سليما من الذنوب بريء من العيوب ولتكن على هذا النحو علاقتنا باسم السلام، ليتحقق لنا معنى الآية الكريمة:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

(سورة الشعراء)

القلب السليم القلب البريء من الشك والشرك،

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تبعث الأموات قلت إليكما

إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكما

***

وإن شاء الله لا نكون على غلط، أما قول الشاعر فليس إيماناً وإنما هو ارتياب وشك:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آَمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا)

(سورة الحجرات: الآية ١٥)

فالسليم من برئ قلبه من الشك والشرك ومن النفاق والشقاق والرياء والمداهنة ومن سلمت نفسه من الشهوات وسلم عقله من الشبهات، لا شبهات في عقله ولا شهوات في نفسه وألقى الشك والشرك والنفاق والشقاق والرياء والمداهنة جانباً بل تحت قدميه.

الآن هذا واجب المؤمن من حيث اسم السلام أما ما حقه على الله هذه أهم نقطة في الدرس:

أنت آمنت وفكرت في الكون وتعرفت إليه واستقمت على أمر الله وحضرت مجالس علم وضبطت شهواتك وضبطت جوارحك وغضضت من بصرك عن محارم الله نزهت أذنك عن سماع الغناء لم تختلط مع النساء الأجنبيات وكنت ملتزماً ولم تخالف الشرع فما لك عند الله بعد اسمعوا ما قال العلماء في هذا الموضوع قالوا:

أي عبد طبق أمر الله عز وجل وأقبل عليه فحق المؤمن على الله أن يسلّمه. من ماذا ؟ قال: أن يسلمه في الدنيا من المؤذيات وأن ينيله ما فيها من الخيرات لك عند الله حق، هناك مصائب خطيرة جدا و أنت مؤمن والمؤمن حساس وربنا عز وجل بعلاج لطيف بينك وبينه ينبهك، ويكف عنك العذاب المهين العذاب الأليم العذاب العظيم كما يدفع فقراً يكاد يكون كفرا أو شقاقاً أو خيانة زوجية أو قتلاً، فالمؤمن حينما يستقيم على أمر الله يسلمه من المؤذيات وينيله من الخيرات.

الدنيا كلها متاع وخير متاعها المرأة الصالحة.

زوجته صالحة، أولاده أبرار، رزقه في بلده سمعته طيبة نظيفة وأخلاقه عالية محمود السيرة ومحبوب هذه من ثمرات الاستقامة، الله عز وجل اسمه السلام يسلمك من المؤذيات ويمنحك الخيرات هذه سلامة الدنيا.

فما سلامة الدين ؟ اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، قال: سلامة الدين في ثلاثة مقامات، في مقام الشريعة ومقام الطريقة ومقام الحقيقة.

في مقام الشريعة يسلم عقلك من البدع والشبهات ويسلم قلبك من الهوى والشهوات، لا يوجد في عقلك بدع ولا أغلاط كبيرة لا عقيدة زائغة ولا عقيدة فاسدة يسلم عقلك من البدع والشبهات ويسلّم نفسك من الشهوات ومن الهوى.

وأما في مقام الطريقة فعقله أمير على شهوته وعلى غضبه وليس أسيراً لهما. عقله هو الأمير ينقاد هواه لعقله ولا ينقاد عقله لهواه هذا سلامُة في مقام الطريقة.

وأما سلامتك في مقام الحقيقة فلا تلتفت إلا إلى الله.

لذلك: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده.

قال بعض العلماء: كيف يسلم الناس من لسانه ويده وهو لم يسلم من نفسه فهو أسير نفسه وأسير شهواته.

٤-اسم الله المؤمن:

أن تؤمن بوجود الله عز وجل يعني أنك لم تفعل شيئاً، لأن الشيطان نفسه ماذا قال حينما خاطب الله عز وجل ؟ قال: " ربِّ فبعزتك " فعبارة الشيطان تدل على إيمانه بالله، ورغم ذلك فهو رأس الكفر كله. فأن تؤمن بوجود الله فقط من دون أن تتعرف إلى أسمائه، إلى ربوبيته، إلى ألوهيته، إلى أسمائه الحسنى، إلى صفاته الفضلى، إلى مناحي عظمته ليس كافياً، أن تؤمن بالله خالقاً وكفى الأمر ليس كافياً أيضاً، فإنّ ربنا سبحانه وتعالى قال:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١))

(سورة العنكبوت)

إذاً من لوازم الإيمان بالله ومما يجب على المؤمن، أن يتعرف إلى أسماء الله الحسنى، أي أحياناً تعرف أنّض فلاناً جارٌ لك غير كافٍ لكن تحب أن تعرف عنه تفصيلات، تعرف عنه شيئاً من علمه، وشيئاً من أخلاقه، من أعماله، من تفوقه، هذا فيما بين الناس، فلا تكون المعرفة صحيحة إلا إذا عرفت الصفات و الأسماء، فلذلك من لوازم الإيمان بالله عز وجل أن تتعرف إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

في الدرس الماضي وفي درس اسم السلام بينت لكم بعض النواحي التي تبرز عظمة هذا الاسم و كلفتكم أن تفكروا بهذا الاسم بالذات وأن تأتوني بآيات دالة على اسم السلام: إنْ من خَلْق الإنسان أو من خلق المخلوقات الأخرى أو من النبات أو من عوامل الطبيعة، فهل عند أحدكم شيءٌ من هذا القبيل ؟

جعل الدماغ في صندوق عظمي تحقيقاً لسلامته ولو جعله كرة متصلة ما الذي يحدث ؟ عند أول صدمة تنكسر الجمجمة، أما عندما جعل هذه الجمجمة عدة قطع وجعل العلاقة فيما بين هذه القطع مفاصل متحركة ثابتة أي هناك تمفصل لا يزيد عن نصف ميلي فأية صدمة أصابت الرأس. فهذه الفواصل الدقيقة تمتص الصدمات وتنجو الجمجمة.

ولو جعل الدماغ في هذه الجمجمة مباشرة لانتقلت له الصدمات !! ماذا جعل الله عز وجل تحقيقاً لاسم السلام ؟ جعل سائلاً بين الجمجمة وبين الدماغ وهذا السائل يمتص الصدمة من جهة ويوزعها على كافة سطح الدماغ عندئذ لا تؤذيه، هذا من اسم السلام، الحقيقة ؛ أنّ الكون كله تجسيدُ وإظهار لأسماء الله الحسنى، كل أسماء الله تبدو لك من خلال الكون، ذات الله عز وجل لا نستطيع أن ندركها لقول الله عز وجل:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣))

(سورة الأنعام)

أن ترى ذات الله مستحيل، لكنك تستطيع أن تتعرف إلى ذاته من خلال خلقه، فالكون يدل على المكون، و النظام يدل على المنظم، والتسيير يدل على المسيِّر، والماء يدل على الغدير، والأقدام تدل على المسير، والبعر يدل على البعير، أفسماءٌ ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، ألا تدلان على الحكيم الخبير ؟

يا أيها الأخوة الأكارم لماذا يجب أن نعرف الله ؟ كي نعبده، ولماذا نعبده ؟ كي نسعد بقربه في الدنيا و الآخرة لأن الله سبحانه وتعالى في الأصل خلقنا ليسعدنا ولا نسعد إلا به ولا نستطيع أن نقبل عليه حتى نسعد، ولا نسعد إلا إذا كان عملنا طيباً، ولن يكون عملنا طيباً إلا إذا تعرفنا إلى عظمته، لذلك قال ربنا عز وجل في وصف بَعْض أهل النار:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣))

(سورة الحاقة)

أي يجب أن تعرف عظمة الله، إن لم تعرف عظمة الله لابد من أن تخترق حدوده ولابد من أن تتجاوز أوامره، أما إذا عرفت عظمة الله عز وجل وكنت أضرب لكم أمثلة كثيرة منها: جاءك أمر مكتوب والتوقيع للعريف فلان بسبعة واحدة، إن احترامك لهذا الأمر على قدر هذه السبعة وإذا كان سبعتين قد يكون الاحترام أكثر، وإذا كان ثمانية واحدة أو ثمانيتين أو نجمة.... كُلَّما عَلَت الرتبة يصبح الاهتمام أكبر، فكيف إذا كان قائد الفرقة أعطاك أمراً مثلاً. فالقصة كلها يجب أن تعرف من هو الله، كي تطيعه وتقبل عليه وترجو ما عنده، وتخاف وعيده، لن تخاف وعيده ولن ترجو ما عنده ولن تقبل عليه ولن تسعى إليه ولن تستسلم لقضائه ولن ترضى بحكمه إلا إذا عرفته، إذا عرفته رضيت بقضائه ورأيت حكمة ما بعدها حكمة، ورأيت علماً ورأيت رحمة ورأيت لطفاً ورأيت عطفاً ورأيت عدلاً، فكلما عرفته كلما استسلمت له وأقبلت عليه وخضعت له وائتمرت بأمره وانتهيت عن ما نهى عنه، أقبلت على عبادته وخدمت عباده، فنحن يجب أن نعرف الله، أما أن تقولوا: الله خالق الكون، هذه معرفة بسيطة لا تقدم ولا تؤخر، وهذه المعرفة لا تحجزك عن محارم الله، هذه المعرفة في مجموعها لا تحملك على طاعة الله، تقول الله خالق الكون ولك مخالفات كثيرة، تقول الله خالق الكون ولك انحرافات كثيرة، تقول الله خالق الكون ولك طموحات دنيوية كثيرة، أمّا إذا عرفت من هو الله وهذا هو الهدف من هذا الدرس وأن تزداد معرفتنا بالله لأنه كلما ازدادت هذه المعرفة كلما ازداد الخشوع والطاعة والخوف والإقبال والاستسلام و الرضا والانصياع والفداء والتضحية والإخلاص، أي إن حجم عملك بحجم معرفتك وحجم سعادتك بحجم عملك أي إنّ الدين كله يمكن ينضغط بثلاث كلمات: معرفة، طاعة، سعادة، على قدر معرفتك تطيع الله عز وجل وعلى قدر طاعتك تسعد به.

إذاً هذه الأسماء الحسنى لا ينبغي أن نعرف تعريفاتها الدقيقة فقط بل يجب أن نملك عشرات بل مئات بل ألوف الأدلة النابعة من الكون على هذه الأسماء، لذلك من علامة معرفتك بالله عز وجل أن ينطلق لسانك في الحديث عن أسمائه ساعات طويلة، حدّثنا عن اسم اللطيف أو عن اسم الرحيم أو عن اسم الملك أو عن اسم القدوس أو عن اسم السلام، فالذي أرجوه وأتمناه على الله عز وجل أن يملك أحدكم بحثاً ذاتياً وأن يكون له جولات في هذا الكون ليكتشف من هذا الكون الأدلة الناصعة على أسماء الله والأولى أن نبقى نجول في كل فترة أو في كل حين مع اسم من أسماء الله الحسنى، فيا أيها الأخ الكريم: إن وجود الدماغ في هذا الصندوق العظمي هذا من اسم السلام، و النخاع الشوكي في العمود الفقري من اسم السلام، ومعامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام من اسم السلام، والقلب داخل القفص الصدري من اسم السلام والعين في محجر العين من اسم السلام و الرحم في حوض المرأة من اسم السلام والجلد من اسم السلام والشريان في داخل العضلات والوريد في خارجها من اسم السلام وأول مولد كهربائي في القلب والثاني والثالث فإنْ تعطل الأول يعمل الثاني وإنْ تعطل الثاني يعمل الثالث هذا من اسم السلام وكلما سُدّ شريان فُتح شريان آخر هذا من اسم السلام و التئام العظام بعد طول نوم من اسم السلام و التئام الجروح من اسم السلام هذه أدلة كثيرة في خلق الإنسان، ومثال آخر من عالم النبات: الشجرة إذا انقطع الماء عنها تستهلك ماء الأوراق أولاً ثم ماء الفروع ثم ماء الأغصان ثم ماء الجذع ثم ماء الجذر من اسم السلام ولكل حيوان ما يقيه الحر والقر صوف الخروف من اسم السلام، أي أتمنى عليكم أن يجول هذا الفكر في الكون حتى تنتهوا من هذه الجولات إلى معرفة عميقة أو إلى مزيد من معرفة أسماء الله الحسنى.

ولو تكلم آخر على اسم السلام، فقال هناك قصة سيدنا موسى أيضاً من أفعال الله عز وجل عن اسم السلام لقوله تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧))

(سورة القصص)

لكان هذا المتكلم مصيباً ومنبهاً لغيره ومعلماً.

وهذه آية قرآنية تؤكد أيضاً اسم السلام الموجه لسيدنا إبراهيم قوله تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد)

هذا الحفظ أيضاً من اسم السلام.

والآن ننتقل في هذا الدرس إلى اسم آخر من أسماء الله الحسنى وهو المؤمن.

يا أيها الأخوة الأكارم:

لا يرضى ملك من الملوك أن يسمى أحد أفراد رعيته باسمه وهو من بني البشر يأكل كما نأكل ويشرب كما نشرب وينام كما ننام وله جسم ويعطش ويجوع و يغضب ويثور و يمرض ويموت أيْ فرقَ بين الملك وبين أحد الرعايا عنده من حيث التكوين الجسمي. ومع ذلك تأبى عزته و تَأبى كبرياؤه أن يُسمِّي أحد من أفراد رعيته اسمَهُ باسمه، ولكن الله سبحانه وتعالى سمانا بعد أن عرفناه وطبقنا أمره سمانا مؤمنين والمؤمنون جمع مؤمن وسمى نفسه المؤمن وذلك بقوله تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣))

(سورة الحشر)

لكن هذا الاسم يحتاج إلى وقفة، الله عز وجل مؤمن، ولكن مؤمن بماذا ؟ نحن مؤمنون بالله، ونحن مؤمنون برسول الله، مؤمنون باليوم الآخر، الله عز وجل مؤمن بماذا ؟ قالوا: المؤمن اسم فاعل من فعل أمِنَ يأمن أمناً وأماناً، فعل أمن له معنيان: المعنى الأول التصديق فعندما يقرأ الإمام سورة الفاتحة وعند انتهائه يقول المصلين جميعاً آمين أي يا رب نحن نصدق ما قال هذا الإمام ونحن معه، فإما من التصديق وإما من الأمن، فعل أمن إما من التصديق وهناك آية تؤكد على ذلك قال تعالى:

(قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ (١٧))

(سورة يوسف)

هذا من التصديق، وأما المعنى الآخر فمن الأمن قال تعالى:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤))

(سورة قريش)

فاسم الله تعالى المؤمن مأخوذ من التصديق أو من الأمن ؟ وكيف نفهم هذا الاسم بالمعنى الأول ؟ الحقيقة الإنسان قد يعرف ذاته وقد لا يعرف ذاته، فإذا لم يعرف ذاته وخاض في شيءٍ ولم يكن من مستواه يخسر خسارة كبيرة، نقول: آه لو عرفت ما عندك لما دخلت في هذه الورطة، فهذا الذي يقدم على شيء ليس في مستواه لا يعرف حقيقة ما عنده لا يعرف حقيقة إمكاناته، هذا لا يعرف ذاته أما هناك من يعرف ذاته حق المعرفة فتأتي الأفعال كلها وفق ما عنده هذا مثل ضربته لكم لتوضيح الحقائق فمن أول معاني المؤمن أن الله سبحانه وتعالى يعرف ذاته ويعرف أسماءه ويعرف كل ما عنده هذا معنى أوّل.

المعنى الثاني: أن الله سبحانه وتعالى يصدق رسله، بعث النبي محمداً رسولاً، صدقه أي جعل الناس يصدقونه بالمعجزة، بعث موسى نبياً وصدقه، أي جعل الناس يصدقونه بالمعجزة، أرسل سيدنا عيسى رسولاً فأعطاه معجزة كي يصدقه الناس بها، إذاً المعنى الثاني صدق. أي كل شيء وعد الله به المؤمنين يأتي فعله مصداقاً لوعده، وعدك بالحياة الطيبة فإذا عشت الحياة الطيبة فقد َصَدَقك بمعنى أن فعله جاء مصداقاً لوعده، أن يأتي فعل الله عز وجل مصداقاً لوعده يصدق أنبياءه أي يعطيهم الدلائل يجعل الناس يصدقونهم يعطي المؤمن دلائل، أنت أيها الأخ الكريم تقرأ القرآن ما الذي يجعلك تتشبث به وتتعلق به وتتمسك به ؟ لأن الأحداث التي تعيشها تأتي كلها مصدقة لهذا القرآن، إذا استقمت في البيع والشراء شعرت براحة ووفر الله لك دخلاً طيباً وساق الناس إليك وإذا كنت أميناً رفع الله اسمك بين الناس، فأي وعدٍ وَعَدَك الله به إذا أنت طبقت ما أنت مأمور به تأتي الحوادث كلها لتصدق لك هذا الوعد أو لترى أن هذا الوعد صادقاً، فمن معاني المؤمن أنه يجعل أنبياءه مُصَدّقين يدعمهم بالمعجزات يجعل قرآنه مُصَدّقاً بمعنى أنك إذا آمنت به وعملت عملاً صالحاً أذاقك الحياة الطيبة، ما الذي جعلك تصدق بكلامه هذه الحياة الطيبة، المعيشة الضنك تجعلك تصدق بهذه الآية، إذا اهتديت بهدى الله عز وجل في كل مناحي حياتك ترى أن الحوادث كلها تصدق ما جاء به القرآن الكريم، إذاً الله عز وجل مؤمن أي يجعل عباده مُصَدِّقين، لأن أفعال الله عز وجل كلها تأتي مصداقاً لوعده ولوعيده، قال:

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا إِنّ اللّهَ لَا يُحِبّ كُلّ خَوّانٍ كَفُورٍ (٣٨))

(سورة الحج)

لابد من أن تشعر بأن هناك حالات كثيرة تواجهك فَيُقَيّضُ الله لك إنساناً لا تعرفه يدافع عنك بإلهام من الله عز وجل، وحينما يقول الله عز وجل:

(قَالَ اهْبِطا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوّ فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(١٢٣))

(سورة طـه)

تشعر أنّكَ مهتدٍ وأن لك رؤية صحيحة وأن لك بصيرة نافذة وأن تفسيرك للحوادث صحيح لأنك اتبعت أمر الله عز وجل فجاءت الحوادث مصداقاً لما قاله الله عز وجل.

هذا معنى من معاني المؤمن، الحقيقة كما قلت قبل قليل أروع ما في الدين أنه يعطيك تفسيراً للكون والحياة والإنسان، ومهما عشت ومهما تبدلت الظروف ومهما ظهرت معطيات جديدة ومهما ظهرت أحداث جديدة كلها ضمن تأويل الله عز وجل لهذا الكون والحياة والإنسان، فأنت حينما تقرأ القرآن لن تُفَاجَأ بحادث لم يرد معك بالقرآن، لو مثلاً أعطيْتَ تفسيراً لظاهرة من الظواهر قد تُفاجَأ بعد حين أن هناك حدثاً أبطل نظريتك، وما أكثر ما جاء العلم بنظريات ثم جاءت الحوادث فأبطلتها، أما إذا قرأت

القرآن وهو من عند الله عز وجل لن يأتي حادث يكذب ما قرأت في القرآن، هذه نقطة دقيقة جداً فالقرآن جاء قبل أربعة عشر قرناً والعلم تطورَ تطوراً كبيراً جداً، ومعطيات القرآن صحيحة وثابتة منذ أن خلقت البشرية وإلى ما قبل خمسين عاماً في كفة ومنذ خمسين عاماً إلى الآن حدث تطور علمي رهيب جداً تجده في الكفة الأخرى، ومع كلِّ هذا التطور فليس في العلم حقيقة تخالف هذا القرآن.

معنى ذلك أنك إذا قرأت القرآن تطمئن، الأمور وحوادث الكون والمجرات والأنواء والنبات والحيوان والإنسان كل هذه الحركات تأتي مصدقة لكلام الله عز وجل، فالله مؤمن أي كلامه يجعلك تصدقه لأن أفعاله تصدق كلامه، هذا معنى من معاني المؤمن.

وإليك معنى آخر: هو أن الله سبحانه وتعالى يهب الأمن للإنسان، كيف ؟ هنا المعنى الدقيق، فلو أن الحديد تارة يكون قاسياً وتارة يكون ليناً تُنْشِئُ البناء وأنت خائف، لعل هذا الحديد بعد حين يصبح ليناً فيتداعى البناء، لقد جعل الله للحديد خصائص ثابتة دائماً فإذا وضعت هذا الحديد مع الأسمنت وأشَدْتَ البناء وأنت في الطابق التاسع تنام مطمئن، ما الذي جعلك تطمئن ؟ ثبات صفات الحديد لو أن صفات الحديد تبدلت لانهارَ البناء.

فيمكن أن نقول: ثبات خصائص المواد هو الذي يهب الأمن للناس، ثبات حركة الأرض هذا الجامع شُيد منذ سنوات عديدة فلو أن هناك اهتزاز أثناء الدوران كل هذه الأبنية سوف تنقض وتقع، فالأرض تتحرك بسرعة ٣٠ كيلو متر بالثانية وهناك سكون رهيب ومن أجل أن تعرف قيمة السكون الحركي تأتي الزلازل أحياناً على مدينة بأكملها ويصبح عاليها سافلها بثوانٍ قليلة، إذاً حركة الأرض مع سكونها واستقرارها مصداقاً لقوله تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٦١))

(سورة النمل)

أعطاك الأمان، اشتريت بيتاً في الطابق العاشر، تعرف أنه بيت مستقر، أما لو كان هناك اهتزاز ينتهي الأمان كله. ثم إنك لو اشتريت بذوراً تنبت نوعاً من النبات، ولا تستقيم الحياة لو لم يكنْ ثبات، وقمت بزراعة البطيخ مثلاً وكان الإنتاج بندورة لاختلطت الأمور وفسدت الحياة، فثبات البذور حيث كل بذر له خصائِصُهُ نِعمة ومِنّة وأمان، هناك شيء آخر غير الثبات، هناك آلاف الأنواع لكل نبات: هذا النوع إنتاجه مديد، وهذا النوع إنتاجه مبكر، وهذا النوع إنتاجه صناعي، هذا للنقل، هذا للاستهلاك، هذا للمائدة، هذا يقاوم أمراض معينة.... فحتى البذر نفسه له خصائص و الخصائص ثابتة، ما الذي يهبك الأمن وأنت تزرع ؟ ثبات الخصائص.

إذاً يمكن أن نقول إن ثبات خصائص المواد هو الذي يهب الإنسان الأمن، الشمس تشرق دائماً من الشرق لا يوجد مفاجآت لا يوجد دعاء شروق، يا رب الشمس لم تظهر اليوم أظهرها لنا! طمأنك، الشمس دائماً تشرق ودائماً تغيب و الأرض دائماً تدور ويكفي أن تأخذ ورقة من التقويم وأن تقرأ: الفجر الساعة الخامسة وثماني عشرةَ دقيقة و الشمس الساعة السادسة وثلاثين دقيقة، هذه منذ متى ؟ منذ خمس أو ستين عاماً و لمئة سنة قادمة ولألف سنة قادمة ولمئة ألف سنة قادمة إلى أن تنتهي الدنيا، دقة ما بعدها دقة على مستوى الدقائق والثواني.

أرض بأكملها تدور حول الشمس وهناك نجوم تضبط عليها الساعات هذه الساعات الشهيرة في العالم. يقول القائل ضبطتها على "بيغ بن"، هذه الساعات الشهيرة كيف تضبط ؟ إذا كانت هذه الساعات التي في أيدينا تضبطها على هذه الساعة الشهيرة، وهذه الساعة الشهيرة كيف تضبطها ؟ تضبط على حركة نجمٍ من النجوم.

إذاً ثبات الدوران، ثبات السرعة، ثبات الحركة، ثبات الزاوية، هذا يعطي الإنسان النظام الثابت يجعل فيه الأمن، إذاً من الممكن أن نقول: صفات المواد الحديدية ثابتة، شخص اشترى سواراً ذهبياً ودفع ثمنه عشرين ألفاً، بعد فترة تبدل نوع المعدن أصبح تَنَكاً. والله هذه مشكلة، الذهب ذهب والتنك تنك والحديد حديد والفضة فضة و القصدير قصدير والألمنيوم ألمنيوم، ثبات صفات المعادن هذه تهب الأمن للإنسان هذه نعمة لا نعرفها نحن لأنها مألوفة، يقولون: شدة القرب حجاب لأن هذه النعمة مألوفة جداً كأنها لم تكن مع أنها نعمة عظيمة، من أسماء الله عز وجل أنه مؤمن فهو مؤمن إذا قرأت كتابه جاءت الحوادث كلها مصداقاً لكلامه ومؤمن يهب الأمن للإنسان عن طريق ثبات صفات المواد.

ثبات الأنظمة، قانون الحركة ثابت، التمدد ثابت، قوانين الجسم كذلك تجد طبيباً في آخر الدنيا يصنع دواءً يستعمل في طرف آخر من أطراف الدنيا هذا الدواء يؤثر في هذا الجسد ما معنى ذلك ؟ أي أن كل أجساد بني آدم من بنية واحدة، فهناك أمن وأمان. مثلا القلب ؛ تجد طبيباً ذهب إلى أمريكا درس عن القلب، لو ذهب إلى إفريقيا إلى آسيا إلى أوقيانوسيا إلى أوروبا إلى أي مكان في العالم وفتح قلباً وجد شرايينه وأعصابه ومراكزه الكهربائية كلها بدقة تامة. هذا الثبات يكفي أن تُشَرّح إنساناً واحداً فكل إنسان إذا عالجته تكون بنيته وأعصابه وأوردته وشرايينه و عضلاته وفق هذا النموذج، ومع هذا أيضاً ثباتُ الأنظمةِ ثباتُ خصائصِ المواد، أحياناً الله عز وجل يعطي للمواد مضادات، النار محرقة والماء يُطفئ النار، أي أعطاك لكل شيء خطرَ ما يقضي عليه، كل شيء، الأدوية ! وباء نباتي هناك أدوية بإمكانها أن تقضي على هذا العنكبوت أو على هذا الفطر أو على هذه الحشرة، فالله عز وجل من أسمائه المؤمن أنه يهب الأمن للإنسان.

الألم سماه العلماء جهاز إنذار مبكر، فالإنسان يتلف سنه جزئياً فيتألم ألماً شديداً فيذهب إلى الطبيب فيصون هذا السن، لو لم يكن هناك عصب لما كان هناك وقاية لهذا السن، إذاً الألم من أجهزة الإنذار المبكر. فكل خطر من أخطار الدنيا جعل الله له وقاية.

الإنسان إذا استعان بالله عز وجل يقيه من زلات المعاصي لقوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥))

(سورة الفاتحة)

لذلك قال الأمام الشافعي: **" والله لو أن السماء من نحاس والأرض من رصاص والخلق كلهم عيالي لما خشيت فقرا "**، والحقيقة لو أردت أن ترى الفرق الجوهري بين حياة المؤمن وحياة غير المؤمن، لوجدت أن الصفة الأساسية الأمن قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٨١))

(سورة الأنعام)

تجد قلوبَ أهل الدنيا فارغة، عرضة للمخاوف، عرضة للمقلقات، عرضة للذعر، للخوف، لتوقع المصيبة، لكن ربنا عز وجل إذا آمنت به ملأ قلبك اطمئنانا، ملأ قلبك استقراراً، ملأ قلبك رضىً بقضائه، ملأ قلبك معرفة بكماله، هذا كله من أسماء المؤمن.

وهناك أمر آخر: كيف تأمن عذاب الله في الآخرة ؟ أعطاك الكون وأعطاك العقل وأعطاك الفطرة وأعطاك الشهوة وأعطاك الاختيار وأعطاك القوة وهذه كلها مقومات النجاة في الآخرة، أحيانا تشعر أن الله عز وجل إذا أقبلت عليه تأمن القلق وتأمن المرض وتأمن الضيق وتأمن التعب وتأمن الخوف فالله سبحانه وتعالى مصدر أمنٍ وأمانٍ للبشر، بعض الجهات تُقْلِقك ولكن اسم الله المؤمن، أي إذا سرت معه واتبعت أمره فأنت في أمن وسلام هذا المعنى الذي يليق بالله عز وجل فيما يتعلق بالمؤمن، هو يعرف ذاته.

يوجد إنسان لا يعرف إمكاناته بالضبط فقد يقدم على شيء ثم يندم يقول لم أكن أعلم، لكن ربنا عز وجل أسماؤه كلها حسنى وصفاته كلها فضلى وهو يعرفها كلها هذا المعنى الأول، مؤمن بذاته. كيف أنت مؤمن به هو مؤمن بذاته.

من الناس من يدري ويدري أنه يدري فهذا عالم فاتبعوه، منهم من يدري ولا يدري أنه يدري فهذا غافل فنبهوه، ومنهم من لا يدري ولا يدري أنه لا يدري فهذا شيطان فاحذروه، ومنهم من لا يدري ويدري أنه لا يدري فهذا جاهل فعلموه.

أنا أريد منهم من يدري ويدري أنه يدري، أنّ اللهَ عز وجل مؤمن، والمعنى الثاني من التصديق أي شيء وعدك الله سبحانه وتعالى به في القرآن فزوال الكون أهون على الله من أن تأتي الأحداث مخالفة لما وعدك به، وعدك بالنصر والنصر واقع لا محالة، وعدك أن يدافع عنك، وعدك أن يحفظك، وعدك أن يرزقك، وعدك أن يطمئنك، وعدك بالأمن وعدك بالتمكين وعدك بتمكين دينك وعدك بالاستخلاف وعدك أن يكون معك، قلت لكم في درس سابق أتمنى على الله عز وجل أن تستنبط من كتاب الله الآيات التي هي ثمار الإيمان في الدنيا، فكلما قرأت آية رأيت الحوادث جاءت لتحققها، إذاً فكلام الله حق، الأفعال كلها تصدق كلام الله عز وجل هذا المعنى الثاني.

المعنى الثالث أنه يهب الأمن، وبشكل بسيط نذكر العين فإذا قدت مركبتك في النهار تشعر بأنك مطمئن لأن الرؤيا بعيدة جدا، أما في الليل فيوجد الانبهار والأضواء فتشعر بقلق. فالقيادة في الليل يرافقها القلق وفيها مفاجآت فالضوء الموجود في المركبة لا يكشف كل شيء وأمده محدود فكلما كانت الرؤية أطول كان الأمن أكثر إذاً أعطاك العين كي ترى طريقك، أعطاك الأذن فإذا وجدت حركة في الليل فالأذن تكشفها. إذاً السمع المرهف أحد وسائل الأمان، العين أحد وسائل الأمان، الشم إذا أصدر الطعام رائحة كريهة معنى هذا أن الطعام فاسد فجعل الأنف فوق الفم كي يحصل لك الأمن الغذائي، أعطاك يداً تدفع بها الضر، أعطاك رجلاً تنتقل بها من مكان إلى آخر هذه كلها لتوفير الأمن لك، وهذا معنى آخر من معاني المؤمن.

الحقيقة كل درس كما تلاحظون نسأل أنفسنا هذا السؤال، يا رب أنت مؤمن أنا ما علاقتي بهذا الاسم ؟ أنت مؤمن كل الحوادث وكل الأفعال جاءت مصداقا لقرآنك شيء مريح هذا معنى والشيء الثاني وهبتني الأمن يا رب، وهبتنا الحواس، وهبتنا الأجهزة، ثبات خصائص المواد وثبات الأنظمة، قال لي طبيب قلب منذ يومين: لو كان قلب إنسان نحو اليمين وقلب إنسان آخر نحو اليسار وقلب بمكان آخر، درس هذا الطبيب القلب بأمريكا نحو اليسار وعند إجراء العملية وجد القلب على اليمين هذه لم يدرسها! فَبِنْيَةٌ واحدة للبشر كلهم حتى على مستوى الأعصاب الدقيقة جدا وهذا يعطينا قدرا كبيرا من الأمن، وكما قلت قبل قليل الأرض في دورتها حول نفسها دورانُها ثابت، في شروقها وغروبها ثابت، لكن الأمطار لم يجعلها ثابتة جعلها متبدلة هذا من أجل أن لا ننساه من أجل أن نصلي له من أجل أن نتوب من ذنوبنا، ربنا عز وجل ثبت أشياء وحرك أشياء، ثبت دورة الأرض حول نفسها ودورتها حول الشمس وثبت الشروق والغروب وثبت القمر وثبت الأنظمة والبذور والخصائص والبنى هذه كلها ثبتها و جعل الرزق بيده، فجعل الرزق وسيلة كي تعود إليه كي تقبل عليه كي تتوب من ذنبك هذا معنى.

السؤال الجديد: أن المؤمن ماذا ينبغي له أن يتخلق من أخلاق الله ؟

كما قال ورد في الحديث:

((تخلقوا بأخلاق الله))

أنت كمؤمن قالوا: أول شيء يجب عليك أن تفعله أن تأتي أفعالك كلها مصداقا لأقوالك، أنت كمؤمن حينما يكون هناك ازدواجٌ، شيء داخلي وشيء خارجي، شيء تعتقده وشيء تقوله موقف داخلي ربنا عز وجل ماذا قال:

(وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ إِنّ الّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ (١٢٠))

(سورة الأنعام)

ظاهرك: أنت مستقيم: صلاة، صوم، حج، زكاة، لكن باطنك أحياناً: الحسد، الغيبة، الكبر، النميمة، الكذب، الحقد، الضغينة هذه كلها من بواطن الإثم، إذاً أنت كمؤمن يجب أن يأتي عملك مصداقا لقولك بالضبط، يجب أن تكون موحداً، فلا يوجد ظاهر وباطن، ولا يوجد سريرة وعلانية، ولا يوجد موقف غير معلن وموقف معلن، أنت مؤمن يجب أن تأتي أفعالك كلها مصداقا لأقوالك، إذا أردت أن تتخلق بأخلاق الله وإذا أردت أن تكون بالمستوى الراقي يجب أنت تكون أفعالك كلها مصداقا لأقوالك هذه واحدة، الشيء الثاني يجب أن يأمنك الناس:

((عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ: وَاللّهِ لا يُؤْمِنُ وَاللّهِ لا يُؤْمِنُ وَاللّهِ لا يُؤْمِنُ، قِيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ اللّهِ ؟ قَالَ: الّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ.))

(صحيح البخاري)

هناك أشخاص مخيفون إذا تكلمت كلمة مثلاً لن تنام الليل خوفاً من عاقبتها يقال لأحدهم مثلا ابن حرام، والمؤمن مصدر أمن لا يمكن أن يأتيك من طرفه ضرر أو أذى أو مكيدة أو غدر أو قنص... أبداً، فهو مصدر أمان، تنام ناعم البال مطمئن النفس مرتاح الضمير حتى ولو زلت قدمك أمامه ولو تكلمت بكلمة غير لائقة أمامه لا يتخذ منك موقفاً، وفي الحديث القدسي يؤذيني ابن آدم، كيف يؤذيه ؟ يؤذيني إذ يسب الدهر وأنا الدهر أقلبه كيف أشاء ومع ذلك تجد الناس يعصونه جهرا ويسترهم والعبد ينسى وربي لا ينسى يعصونه جهراً ويسترهم ويرزقهم ويحفظهم أحياناً هذا شأن الله مع عباده، فأنت كمؤمن أول صفة من صفاتك يجب أن يأتي فعلك مصداقاً لقولك وأن تلغي من حياتك الازدواجية: الظاهر والباطن، العلانية والسريرة، أن تكون في جلوتك كخلوتك، هذا المعنى الثاني أن يأمن كل الناس جانبك، مثلاً زَوّجْتَ ابنتك لمؤمنٍ لا تخاف أن يجيع ابنتك ولا تخاف أن يظلمها ولا تخاف أن يفضحها ولا تخاف أن يضربها، المؤمن ما يأتي من جانبه كله خير، إنْ شاركتَ مؤمناً مرتاح، لا تخاف أن يلعب بالحسابات، يعمل لنفسه حساب خاص يعقد صفقة من وراء ظهرك لا تخاف، أصلحت جهازاً عند مؤمن لا تخاف أن يبدل هذه القطعة بقطعة أخرى وأنت لا تدري، يأخذ القطعة الجيدة ويعطيك القطعة

السيئة، يكذب عليك، المؤمن مأمون الجانب في صنعته، في حديثه، في عمله، في مهنته، في حرفته، في زواجه، في شراكته، هكذا المؤمن يؤمن جانبه،

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْمُسْلِمُ: مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ وَالْمُؤْمِنُ مَنْ أَمِنَهُ النّاسُ عَلَى دِمَائِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ))

(سنن الترمذي)

لا تخاف أن ينكر عليك المبلغ ولا يخطر لك هذا أبداً، لا تخاف أن يقول لك ليس لك عندي شيء ولو لم يكن معك وصل فذمته دقيقة جداً ويخاف الله عز وجل، إذاً أنت كمؤمن تؤمن بقوله تعالى:

(هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبّارُ الْمُتَكَبّرُ سُبْحَانَ اللّهِ عَمّا يُشْرِكُونَ (٢٣))

(سورة الحشر)

فالله مصدر أمان للعباد في أفعاله وفيما أعد لهم في الآخرة قال تعالى:

(لَا يَمَسّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨))

(سورة الحجر)

فأنت مؤمن إذا قيل لك هذه جهنم، تتقيها بالتفكر بالكون وبطاعة الله عز وجل، وفي الإقبال عليه في خدمة الخلق وبالبذل والتضحية وبأداء الصلوات وبصيام رمضان، فجعل لجهنم وسائلَ تأمن عذابها، وكذلك المؤمن مأمون الجانب، جارك يطمئن لك، زبون لك يطمئن لك تنصحه لا تكذب عليه لا تغشه، أتعطيه الحاجة وقد انتهى مفعولها وزورت التاريخ ؟ لا، أنت مأمون، الأنبياء مأمونون على رسالة السماء، والمؤمن مأمون على ما أتمن به، ابنتك أمانة عندك، زوجتك أمانة، أولادك أمانة، وهكذا، لكن الشيء الذي أتمناه عليكم أن تدعو الناس إلى الله عزوجل بحيث يأمنوا عذابه يوم القيامة حيث قيل: هذه صنعة الأنبياء وهذا أعظم أمن، ولو فرضنا شخصاً خائفاً أمّنته من الذي يخيفه، قلت فلان دعه لي يعني أنك أجَرْتَه، شخص خائف لا يملك أجور عملية جراحية، قلت له تَكْلِفَتُها سأدفعها لك اطمئِنْ. شيء جميل، فأنت ممكن أن تمنحه الأمن في الدنيا. لكن إن لم يكن مستقيماً يموت ولجهنم مصيره، فأعظم عمل تفعله أن تؤمنه من عذاب النار، أي أن تعرفه بالله عز وجل فإذا عرف الله واستقام على أمره وعمل الصالحات دخل الجنة، إذاً أعظم عمل تفعله في الدنيا أن تدعو الناس إلى الله عز وجل وإلى طاعته كي يأمنوا من عذابه يوم القيامة، إن عذاب الدنيا صعب جداً ولكن إذا أفضى بك عذاب الدنيا إلى جنة عرضها السماوات والأرض مقبول. أما أخطر شيء أن يقع الإنسان في النار لذلك أعظم عمل كما قلت قبل قليل وهي صنعة الأنبياء أن تكون سبباً لنجاة الناس من النار، إن الله عز وجل هو المؤمن وسمّى عباده الطائعين مؤمنين قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقاً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠))

(سورة آل عمران)

هو ملك الملوك ومع ذلك سمح لك أن تسمي نفسك مؤمناً وهو مؤمن مؤمن بذاته أولاً ثانياً تأتي أفعاله كلها مصدقة لأقواله، فأنت إذا قرأت القرآن لا تخشى المفاجآت لا تخشى أن تأتي الأحداث خلاف القرآن فتنفضحَ أمام الناس لا، لا تخشى إذا اعتقدت بما قاله الله عز وجل أن تأتي حقيقة علمية في المستقبل تكشف لك زيف هذه الآية. أعوذ بالله هذا شيء مستحيل لأن الله عز وجل مؤمن أفعاله تأتي مصداقاً لأقواله، المعنى الثالث يهبك الأمن: إنْ في حواسك وإن في أجهزتك و إن في أعضائك، إن في طعامك شرابك وإن في الهواء. الشيء الثمين موفور إن في ثبات خصائص المواد إن في ثبات طريقة النبات إن في بنية الأشياء إن في عملها في كل شيء.

الآن أنت كمؤمن يجب أن تأتي أفعالك مصدقة لأقوالك ويجب أن يأمن الناس جانبك، أي أنت مأمون لا يوجد مفاجآت من قبلك ولا غدر ولا إيقاع ولا فعل شيء من خلف ظهور الناس، أو تغدر بهم أو تفاجئهم بموقفك لا فالمسلمون على شروطهم.

نسمع كل يوم آلاف القصص عن غدر الناس بعضهم لبعض، نسمع مئات القصص عن خيانة الشركاء لشركائهم، عن خيانة الأزواج لأزواجهم، عن أفعال يندى لها الجبين، عن مقالب وغدر وإيقاع الأذى فليس هذا من أخلاق المؤمن لأن المؤمن جانبه مأمون.

((عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ وَاللَّهِ لا يُؤْمِنُ، قِيلَ وَمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ؟ قَالَ: الَّذِي لا يَأْمَنُ جَارُهُ بَوَايِقَهُ.))

(صحيح البخاري)

الآن آخر شيء، كيف نوفق بين اسم المؤمن وأن الله سبحانه وتعالى يقذف الخوف في قلوب العباد، هو مصدر أمن للخلق وفي الوقت نفسه قد يملأ قلوبهم خوفا:

(فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١))

(سورة القصص)

هنا السؤال دقيق جدا فالإنسان إذا أمن اطمأن للدنيا ونسي الله عز وجل وركن إليها، أعجبه ماله أعجبته قوته أعجبته مكانته أعجبه بيته، وشعر أن الدنيا مديدة وأنه في مركز قوي هذا أمن للدنيا، ما علاجه ؟ أن يقذف الله في قلبه الخوف، فإذا خاف هذا العبد والتجأ إلى الله عز وجل عندئذ يطمئن بالله، أي يخيفك كي يؤمنك ويفقرك كي يغنيك ويمنعك كي يعطيك ويضرك كي ينفعك ويُذِلك كي يعزك.

أسماء الله عز وجل المزدوجة قال العلماء: لا ينبغي إلا أن تذكر مثنى مثنى، أخذ منك بعض صحتك يقول الله عز وجل:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ،....))

(صحيح مسلم)

فإن أخذ بعض صحتك فيعوضك عن هذه الصحة التي أخذها بشيء من رحمته، تزور المريض فتجد نفسه صافيةً جداً ووجهه متألقاً إنه قريب من الله عز وجل، أخذ صحته قليلا وأعطاه الرحمة مقابلها، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي يضر لينفع ويذل ليعز ويخفض ليرفع ويمنع ليعطي ويخيف ليطمئن، يخوفك فإذا ابتعد الإنسان عنه وشرد على شرعه يمتلئ قلبه خوفا وهذا الخوف هو الدافع هو الذي يدفعه إليه، تخاف فإذا اقتربت من ظله شعرت بالطمأنينة إذاً نريد من الأخوة الأكارم بعض الأدلة من الآيات الكونية من خلق الإنسان ومن خلق الحيوان ومن خلق النبات شيئاً يبعث الطمأنينة في القلب، من فعل الله عز وجل أنه يبعث في قلب عباده الطمأنينة.

وأنا أنصح لكم أن هذه الأسماء الحسنى كتعاريف: موضوعٌ صغير جدا. كأدلة من الكون فهي موضوع كبير جداً، موضوع له آفاق واسعة لا تنتهي لأن الكون كله يؤكد أسماؤه الحسنى فكلما عَوّدت هذا الفكر أن يجول في الكون ليستنبط نمت قدراته وإمكاناته مثلا لو سألنا الأخوان الآن عن اسم اللطيف هل عندك دليل من خلق الإنسان على اسم اللطيف. فمثلا سقوط السن من الطفل الصغير بمنتهى اللطف. الهواء يحمل طائرة تحمل ثلاثمائة راكب ووزنها ثلاثمائة وخمسون طن، الهواء بيننا لا يحجب رؤية لا يعيق حركة لا تحس بثقله الهواء لطيف ومع أنه لطيف له وزن كبير جدا والدليل أنه له وزن كبير يحمل أوزاناً كبيرة. طائرة ثلاثمائة وخمسون طن ترتفع في الهواء فالهواء شيء لطيف وذو قوة اركب مركبة وأخرج يدك من نافذتها تشعر بقوة كبير جدا ومع ذلك الهواء لطيف فالهواء يؤكد اسم اللطيف، والماء شفاف لا لون له ولا طعم له ولا رائحة له نفوذ يتبخر بدرجات دنيا يعينك على كل حاجاتك هذا يؤكد اسم اللطيف، فيجب أن يكون عندنا لكل أسم أدلة كثيرة جدا ومشاهدات وآيات ووقائع وبينات وعلامات على هذا الاسم ونحن كلما مشينا في هذا الطريق تَوَسّعَ الأفق وازدادت عظمة الله في أعيننا وازداد خشوعنا له وازدادت طاعتنا له وإقبالنا عليه وهذا هو سر الإيمان، الإيمان شيء يستقر في القلب وينطق به اللسان وتؤكده الأعمال، الإيمان له ثلاث مظاهر: قناعة في القلب وإقرار باللسان وعمل بالأركان، تجد المؤمن أخلاقاً، المؤمن عفيفاً، المؤمن صادقاً، المؤمن أميناً، المؤمن رحيماً، والمؤمن عند وعده، المؤمن نظيف، المؤمن لا يبتغي رفعة. وصفات المؤمن صارخة، هذا من ناحية السلوك، أما لو شق على قلبه فتجد الطمأنينة والأمن والراحة النفسية والاستسلام لله والرضاء بقضاء الله والتوكل على الله عز وجل، لسانه ينطق بذكر الله ولسانه يبعث الأمن بالناس ويطمئنهم ويبث فيهم الحقائق

ويدلهم على الله عز وجل فلذلك اسم المؤمن هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن، ثلاثة معانٍ.

الخلاصة:

يعرف ذاته، وأفعاله تأتي مصدقة لأقواله، فأنت إذا آمنت بالله وقرأت كتابه لن تفاجأ بحوادث مخالفة لما في كتابه، الشيء الثابت يهبك الأمن من خلال خلقه ومن خلال أفعاله فأنت كمؤمن ينبغي أن تكون على صفتين أولاً أن تكون أفعالك مصدقة لأقوالك وثانياً أن يأمن الناس جانبك وإذا رأيت نقيض الأمن وهو الخوف، فهو من أجل أنْ يخيفك كي يؤمنك يأخذ منك كي يعطيك يخفضك كي يرفعك يذلك كي يعزك وهكذا......

٥-اسم الله المهيمن :

من منهج تدريس أسماء الله الحسنى نقاط ثلاثة:

النقطة الأولى: الحديث عن تعريف هذا الاسم.

النقطة الثانية: تطبيقاته العملية.

النقطة الثالثة: علاقة المؤمن به.

فمن معاني المهيمن الرقيب الشهيد الذي يعلم السر وأخفى، يعلم خائنة الأعين، يعلم ما تخفي الصدور، يعلم ما ظهر وما بطن، يعلم ما تعلن وما تسر، يرى الأشياء ويرى ما خلف الأشياء، يرى الظاهر ويرى الباطن.

ومن لوازم اسم المهيمن القدرة التامة على تحقيق مصالح ذلك الشيء علماً وقدرةً، في بني البشر من يعلم ولكنه لا يقدر، وفي بني البشر من يقدر ولكنه لا يعلم، ومن لوازم اسم المهيمن صفة ثالثة المواظبة والاستمرار، قد تعلم ولا تقدر حيث يقول العوام: " العين بصيرة واليد قصيرة "، وقد تقدر ولا تعلم. فالإنسان القوي والذي يتمتع بأعلى درجات القوة ولكنه لا يعلم موجود، وقد تعلم وتقدر وهذا النوع في بني البشر نادر الوجود أن تعلم وأن تقدر ولكن لا تضمن المستقبل. قد تكون على علم بما يجري تحت يديك على علم بما يجري حولك وأنت واثق بأن يدك تطول كل هذا الذي تحت سلطانك ولكن لا تدري ماذا يكون في المستقبل، أما إذا قلنا المهيمن اسم من أسماء الله الحسنى فمن لوازم المهيمن أنه يعلم، ولا نهاية لعلمه لاشيء يخفى عليه، فلو أن طبيباً فحص مريضة تشكو له من بعض أعضائها، و استرق النظر إلى عضو آخر فهذه خيانة وليس في الأرض كلها من يعلم هذه الخيانة إلا الله، يعلم خائنة الأعين، أي يعلم السر، علم ما كان وما يكون وما سيكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، يعلم السر وما يخفى عنك، يعلم الجهر وما تعلنه، يعلم السر وما تخفيه عن الناس، يعلم ما هو أخفى من السر ما يخفى عنك، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو معكم في خواطركم في صراعاتكم في نواياكم في طموحاتكم في حركاتكم في سكناتكم في سركم في جهركم في بواطنكم في علانيتكم يعلم كل شيء، بالمناسبة لن يستطيع الإنسان أن يهيمن إن لم يعلم بتلك المعلومات والملابسات المحيطة بموضوعه قبل كل شيء، لا يستطيع إنسان أن يهيمن على شيء ما مهما كان ضيقاً إن لم يعلم بكل ذلك يقولون: تقصّ الحقائق، يقولون: بثّ العيون، كيف تملك القرار إن لم تملك الحقيقة ؟ المهيمن يعلم.

ولكن ما نفع العلم إذا كنت لا تقدر ها أنت تعلم ولا تقدر، المهيمن يعلم وقادر على كل شيء لا يعجزه شيء ولا نهاية لتعلقات قدرته، كل الممكنات أي كل ما سوى الله من ضمن قدرته، ولكن قد تملك قد تعلم وقد تملك ولكن لا تعلم ما سيكون في الغد، قال تعالى:

(يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (٤٤))

(سورة النور: الآية ٤٤)

وقال تعالى:

(إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(١٤٠))

(سورة آل عمران:الآية ١٤٠)

من لوازم المهيمن طبعاً أسوق لكم هذه الفكرة لتأكيد المعنى، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا سافر يقول:

((اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد))

هل تعتقدون أن هذه الصفة يمكن أن تكون في إنسان ما، وأن يكون معك في السفر وفي الوقت نفسه أن يكون خليفتك في بيتك وأهلك وأولادك، مستحيل إما أنه معك وإما أنه في بيتك، لذلك قالوا هاتان الصفتان لا تجتمعان إلا لله عز وجل، هو معك بالحفظ والرعاية والتوفيق والتسديد والنصر والتأييد وهو في البيت مع أولادك معية علم وقدرة ورعاية في غيبتك يحفظهم من كل مكروه يحفظهم من كل حادث، هو معك وهو خليفتك في البيت.

أقول لكم من النادر أن يجتمع لإنسان العلم والقدرة، لذلك في المجتمعات البشرية أفراد تفوقوا في العلم ولكن يدهم قصيرة، وأفراد تفوقوا في القدرة ولكن علمهم محدود، لكن لو أنه، فرضاً، اجتمع لإنسان وهذا شيء نادر جداً كمال العلم مع كمال القدرة ولا بالخمسين مليون قد يوجد إنسان فيه كمال العلم مع كمال القدرة لكن ينقصه رؤية المستقبل، قد يأتي من هو أقوى منه فينتزع ما بيده، قد يأتي من هو أذكى منه، قد يأتي من هو أخبث منه فيأخذ ما بين يديه.

إذاً قد يجتمع العلم والقدرة ولا تملك المستقبل ولكن إذا قلت الله مهيمن معنى ذلك أنه يملك العلم الكامل:

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦))

(سورة الحجرات: الآية ١٦)

والقدرة الكاملة لا نهاية لتعلقات علمه ولا نهاية لتعلقات قدرته وليس في الكون جهة أخرى تشاركه في الحكم قوله:

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (٢٦))

(سورة الكهف: الآية ٢٦)

لو كان في الكون آلهة غير الله لفسدتا، إذاً لذهب كل إله بما خلق ولعَلا بعضهم على بعض، لا يوجد جهة أخرى تنافس أو تسيطر أو تقاوم أو تنازع أو تفسد، لذلك إذا اتكلت على المهيمن فهو الذي يعلم كل شيء وقادر على كل شيء وليس كمثله شيء.

ومن باب الموازنة: فالإنسان قد يملك ولا ينتفع، قد يملك بيتاً ثمنه أربعون مليون ليرة لكنه مؤجر قبل عام السبعين مثلاً يملكه ولا ينتفع به، وقد ينتفع ببيت لا يملكه، وقد ينتفع به ويملكه فجأة صدر قرار استملاك مصيره ليس بيده، أما إذا قلنا:

(وَلِلّهِ مُلْكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩))

(سورة آل عمران)

فالكون كلهُ مُلكُهُ مِلكا وتصرفاً ومصيراً.

أيها الأخوة الأكارم، جزء أساسي جداً من إيمانك بالله أن تعرف أسماءه الحسنى وصفاته الفضلى، وقد يسأل سائل عن هذا الحديث المتواتر هل هو حديث صحيح قاله النبي ؟:

((إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة))

نعم إنه صحيح ومتواتر، إياك أن تفهم كلمة أحصاها أنه عدّها، إياك أن تفهم كلمة أحصاها أنه قرأها أو حفظها أو عدها لا، أحصاها فهمها ونال نصيبه منها، إن لاحظتم في دروس سابقة كل اسم من أسماء الله الحسنى أنت كمؤمن لك منه نصيب فإن لم يكن لك نصيب من هذا الاسم فكأنك ما أحصيت هذه الأسماء لأن النبي علي الصلاة والسلام روي عنه قوله:

((تخلقوا بأخلاق الله))

فالمهيمن علم لا نهاية له وقدرة تامة ومواظبة واستمرار هذا معنى المهيمن، ولكن هناك أربعة معانٍ فرعية تضفي على هذا المعنى شيئاً نفيساً جداً:

المعنى الأول: إذا كان الله هو المهيمن ففي معاني هيمنته الحب والشفقة، أحياناً تقف الأم حول سرير ابنها المريض وهي تلاحظ حركاته وسكناته، هذه الوقفة الحانية المشفقة وقفة علم وقفة سيطرة ولكن بدافع نبيل بدافع الشفقة والعطف والحنان، فإذا قلنا فلان مهيمن بدافع الحقد وبدافع العنجهية والغطرسة والقوة والانتفاع والمناجزة وما إلى ذلك، فهذا استبداد وبطش إن وصف الإنسان بأنه مهيمن لها معنى أما إن وصف الله عز وجل بأنه مهيمن فمن معاني هيمنة الله عز وجل حبه وعطفه على عباده، النبي عليه الصلاة والسلام رأى امرأة تقبل ابنها فقال عليه الصلاة والسلام:

((أتلقي هذه المرأة بولدها إلى النار ؟))

قالوا: معاذ الله، النار حق وإحراقها حق ولهيبها حق، ولكن هذا شيء متعلق بذات الله عز وجل، قال:

((والذي نفس محمد بيده لله أرحم بعبده من هذه بولدها))

فهيمنة الله عز وجل هيمنة عطف وحب وشفقة ورحمة وحرص على سعادتك وعلى أخرتك وعلى مستقبلك، هذا المعنى الفرعي الأول علم وقدرة واستمرار، أما المعاني الفرعية للهيمنة: الحب والشفقة.
فلان مهيمن على هذا المستودع أي أمين عليه لا يدع حاجة تخرج منه بلا علم وبلا تسجيل وبلا مراقبة وبلا محاسبة، هيمنة الأمانة. ولندع المعنى الأول هيمنة الشفقة كالأم على ابنها.
والمعنى الثاني: هيمنة الأمانة، لذلك من معاني المهيمن الحافظ:

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤))

(سورة يوسف: الآية ٦٤)

ومعنى مهيمن أنك إذا كنت مع الله عز وجل واعتقدت بوجوده وأردت أن تحاور إنساناً فأنت المنتصر، الحوادث كلها تأتي مصدقة لك، كل إنسان يطرح نظرية أو يطرح فرضية أو يطرح مذهباً أو يطرح فكرة أو يطرح تفسيراً أو يطرح تحليلاً أو يطرح عقيدةً، الوقائع تثبت العقيدة التي جاء بها القرآن، فإذا كنت أنت مع القرآن فأنت المهيمن وأنت المنتصر.
أن تقول مثلاً:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦))

(سورة البقرة)

يمحق الله الربا، هذه آية كريمة وهذه عقيدتك، فالمرابي يقول لك العكس: أيعقل أن أجمد المال من دون أن أضعه في مصرف لأتقاضى عليه فائدة مجزية أعيش بها، أنت كمؤمن تطرح أن الله عز وجل يمحق الربا وهذا المُعرض الكافر يطرح نظرية أخرى وهي أن الإنسان لا بد من أن يستثمر ماله، الأيام تدور والوقائع تتجدد فإذا بهذا المرابي يمحق ماله، من الذي هيمن في هذا الموضوع ؟ أنت، أنت اعتقدت أن المرابي يمحق ماله، الأيام أكدت هذه الحقيقة فأنت المهيمن، أنت تعتقد أن الإنسان إذا غض بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوة في قلبه وانعكس هذا في حياته الزوجية، يقول لك آخر: لا هذه العين يجب أن تستمتع، فهذا الجمال لمن خلق ؟ لنا، فلا بد من إطلاق البصر وأن تملأ العين من هذه المناظر الحسنة الجميلة، تقول له: لا هذا أمر إلهي وهذه آية قرآنية، تدور الأيام فإذا بهذا الذي يمضي نهاره كله في الطرقات يملأ عينيه من الحرام قد أصيب بمرض ارتخاء الجفون، من الذي هيمن في هذا الموضوع ؟ أنت، أنت الذي هيمنت جاءت الوقائع تؤكد ما تعتقد من أن هذا أمر إلهي، أنت إذا اخترت فتاة لم تخترها إلا لدينها وعفافها وشرفها وصلاحها وأسرتها الصالحة وآثرت دينها على الجمال وعلى المال وعلى الحسب وعلى النسب وعلى الوجاهة في الدنيا، أنت انطلقت من أن هذا العمل هو طاعة لله عز وجل

قال سبحانه:

(وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ(٢٢١))

(سورة البقرة: الآية ٢٢١)

هو انطلق من شهوته وقال: الزوجة يجب أن تكون مِلْءَ العين جمالاً وفتنة كما أحب كما أشتهي ولا قيمة لقلة دينها، تدور الأيام هذا الذي اختار المرأة الصالحة لصلاحها ودينها ترى حياته الزوجية مستقرة وسعيدة ومفعمة بالمودة والمحبة، تتنامى سعادته ويبارك الله له في هذه الزوجة ويأتيه الأولاد، أما الذي آثر الجمال على الدين حياته قطعة من جحيم من الذي هيمن في الموضوع ؟ المؤمن، لذلك ربنا عز وجل يقول:

(تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (٨٣))

(سورة القصص)

إذن هذه صحيحة من معاني المهيمن أن هيمنة الله عز وجل هيمنة حب وشفقة وأن هيمنة الله عز وجل هيمنة حفظ وأمانة.

ومن معاني هيمنة الله عز وجل أن الله عز وجل يصدقك بأفعاله، أي شيء تعتقده ورد في القرآن الكريم. ومن معاني أن الله مهيمن أنك أنت المنتصر، وكلامك هو الصواب، واعتقادك هو الصحيح، والأفعال تأتي مصدقة لك، هذا معنى المهيمن كاسم من أسماء الله الحسنى، إذاً الهيمنة العلم الكامل، العلم التام والقدرة التامة والاستمرار والمواظبة، هذه المعاني الأساسية، أما المعاني الفرعية هيمنة حب لا هيمنة غطرسة وعنجهية وسيطرة كما يكون الإنسان، وهيمنة محافظة على المهيمَن عليه، أمين مستودع لا تأخذه في الله لومة لائم، وهيمنة تصديق لكل ما جاء به القرآن، هذا الجانب النظري من معنى المهيمن، علم وقدرة واستمرار، شفقة وحفظ وتصديق.

والآن بعض الأمثلة: هناك وقائع وشواهد وحقائق تعمق مفهوم هذا الاسم ومدلولاته. سيدنا موسى حينما قال الله له ولأخيه هارون:

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤))

[سورة طه]

فرعون وما أدراكم ما فرعون الذي ذبح أبناء بني إسرائيل واستحيا نساءهم من يجرؤ على أن يخاطبه، وعلى أن يبين حقيقة دعواه الزائفة في أنه إله، من يجرؤ ؟

(قالا رَبّنَا إِنّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قالَ لَا تَخَافَا إِنّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنّا رَسُولَا رَبّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبّكَ وَالسّلَامُ عَلَى مَنِ اتّبَعَ الْهُدَى (٤٧) إِنّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنّ الْعَذَابَ عَلَى مَنْ كَذّبَ وَتَوَلّى(٤٨))

[سورة طه]

إنني معكما أسمع وأرى وفرعون بيدي، إذاً إذا آمنت أن الله هو المهيمن تستسلم يرتاح قلبك، تطمئن نفسك، يستقر فؤادك، ترتاح أعصابك، الأمر بيد الله بعلمه وبقدرته، كل الخلق بيده ويعلم السر وأخفى.

سيدنا رسول الله عليه الصلاة والسلام حينما كان عند يهود خيبر وائتمروا أن يلقوا عليه حجرا فيقتلوه ويرتاحوا منه بزعمهم، من الذي أخبره أن يتحول عن هذا المكان ؟ الله عز وجل هم اتفقوا في غرفة محكمة الإغلاق، اتفقوا على ذلك والله عز وجل أخبره، معنى مهيمن هنا أنه علم ما يقولون.

عمير ابن وهب خرج مع صفوان ابن أمية وقال له عمير: أتمنى لو أذهب إلى المدينة فأقتل محمدا وأريحكم منه، لولا ديون ركبتني ولولا أولاد أخشى عليهم العنت، فقال له صفوان فورا: أما الديون التي عليك فهي عليّ بلغت ما بلغت وأما أولادك فهم أولادي فامض لما أردت، سقى سيفه سُمّاً ووضعه على عاتقه وامتطى راحلته وتوجه إلى المدينة، لقيه عمر ابن الخطاب فقال: هذا عدو الله عمير، قيده بحمالة سيفه وساقه إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقال: **يا رسول الله هذا عدو الله عمير جاء يريد شرا**، الله مهيمن، قال: **يا عمر أطلقه** فأطلقه، فقال له النبي: **ادنُ مني يا عمير** دنا منه، قال له: **سلم علينا**، قال: عمت صباحا يا محمد، قال له: **قل السلام عليكم**، قال: لست بعيد عهد بالجاهلية هذا سلامنا، قال له: **ما الذي جاء بك إلينا**، قال: جئت لأفك أخي من الأسر، فقال: **وهذا السيف الذي على عاتقك**، قال: قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر، فقال له: **ألم تقل لصفوان لولا ديون ركبتني وأولاد أخشى عليهم العنت لذهبت وقتلت محمدا وأرحتكم منه**، فقال: **أشهد أن لا إله إلا الله**، الله عز وجل مهيمن هذه المؤامرة التي أحيطت بكل أجواء الحذر والحيطة أبلغها الله عز وجل للنبي عليه الصلاة والسلام.

هذه المرأة التي جاءت تشكو النبي عليه الصلاة والسلام وتقول: يا رسول الله إن فلان تزوجني وأنا شابة ذات أهل ومال وجمال فلما نثرت له ما في بطني وتفرَقتْ أهلي عني وذهب مالي وكبرت سني قال: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد إن تركتهم إليه ضاعوا وإن ضممتهم إليّ جاعوا، فبكى عليه الصلاة والسلام رقة لها وعطفا وشفقة ورحمة وقال: **ما أظنك إلا قد بِنْتِ منه**، هذا طلاق فقال الله عز وجل:

(قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّهِ وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١))

(سورة المجادلة)

فكان عمر ابن الخطاب عملاق الإسلام كلما مر بهذه المرأة كان ينزل عن دابته إجلالا لها ويقف أمامها بأدب ويستمع لها، فقال له أحدهم: **أنت أمير المؤمنين وتستمع لهذه المرأة** ؟ قال: **كيف لا أستمع لها وقد استمع الله لها من فوق سبع سماوات**، معنى هذا أن الله مهيمن ويسمع كل شيء.

سيدنا موسى قال: أنا رسول الله، قالها فرعون، وكلمة فرعون تعني في وقته أعظم إنسان وأعظم دولة دولته، وأعظم حضارة حضارته وقال أنا ربكم الأعلى وجمع السحرة كلهم ووعدهم بالعطايا وبالمناصب من أجل أن يقهروا سحر موسى كما يَدّعون قال تعالى:

(قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى (٦٧) قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى (٦٨) وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى (٦٩))

(سورة طه)

من انتصر ؟ سيدنا موسى، الله مهيمن على كل شيء.

هذه كلها شواهد قرآنية على اسم المهيمن، علم وقدرة واستمرار، هيمنة شفقة وهيمنة حفاظ وهيمنة تصديق.

سيدنا إبراهيم جاءه جبريل وقد أوقدوا ناراً عظيمة، جمعوا حطباً أياماً وأسابيع أوقدوها وأركبوه بأرجوحة كي يسقط في وسطها، هم مسيطرون مهيمنون، بيدهم كل شيء ألسنتهم تردد مَنْ أشدُّ منّا قوة، **" أولم يعلموا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة "**، جاءه جبريل فقال: **يا إبراهيم هل لك من حاجة؟** قال: **منك لا**، قال جبريل **من الله**، قال: **علمه بحالي يغني عن سؤالي.** ثلاث كلمات، قلنا:

(يَا نَارُ)

- الله مهيمن -

(كُونِي بَرْداً)

بردا كان مات من البرد ووجدوه مجمدا، قال:

(وَسَلَاماً)

وقال:

(عَلَى إِبْرَاهِيمَ)

لو لم يقل على إبراهيم لعدم وجود النار في الأرض فتصبح النار لا تحرق إلى يوم القيامة، ثلاثة كلمات.

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠))

(سورة الأنبياء)

من المهيمن ؟ الله عز وجل.

ألم يقل: **علمه بحالي يغني عن سؤالي.**

أمُّ موسى، أعطني أماً تستطيع أن تضع ابنها فلذة كبدها في صندوق وتلقيه في اليمّ، الله عز وجل أمرها بأمرين ونهاها عن نهيين وبشرها بشارتين:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧))

(سورة القصص)

أرضعيه وألقيه في اليم. هذان أمران.

(وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي)

وهذان نهيان، البشارتان: إنا رادّوه إليك وجاعلوه من المرسلين، فهذا الصندوق من سَيّرَهُ إلى شط فرعون ؟ يعلم ويسيطر، وحينما فتح الصندوق من ألقى حبه في قلب امرأة فرعون ؟ الله عز وجل، إذاً الله مهيمن.

هذه القصص كلها تؤكد أسماء الله الحسنى، سيدنا يونس لا أعتقد مهما ضاقت بكم الأمور في الدنيا، لا أعتقد أن هناك مصيبة على وجه الأرض، تفوق أن تكون في ظلمة بطن الحوت مع ظلمة البحر مع ظلمة الليل، في ظلمة بطن الحوت، فإذا فتح الحوت فمه جمع أربعة أطنان من السمك كوجبة عشاء معتدلة ورضعته ثلاثمائة كيلو غرام من الحليب فتكون ثلاث رضعات ألف كيلو غرام، كل يوم يحتاج إلى طن حليب، والحوت تقريبا وزنه مائة وخمسون طناً، فجوفه غرفة، فسيدنا يونس نبي عظيم. فجأة يجد نفسه في ظلمة بطن الحوت وفي ظلمة الليل وفي ظلمة البحر

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧))

(سورة الأنبياء)

يا ترى هل في بطن الحوت جهاز فاكس أو جهاز تلكس أو هاتف أو إشارة أو كبل ماذا يوجد ؟ لا يوجد شيء، فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨))

(سورة الأنبياء)

ألا ترتاح نفسك إلى هذه القصة ؛ التي ختمت ببشارةٍ لكل مؤمن:

(وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨))

ففي أي عصر وأي زمان وفي أي مصر وفي أي ظرف مهما كان شديدا، الله مهيمن، أنت كن مع المهيمن وارتح مطمئناً إلى سلامة المصير.

انظر إلى الطفل الصغير وهو في حضن أمه لا يتكلم بشيءٍ إطلاقا، الأب يتمزق لتأمين المازوت ولتأمين الأدوات المدرسية والابن مرتاح يريد المجموعة الفلانية والفلانية والفلانية يعطي الطلبات وهو مرتاح، والأب يتمزق لتأمين هذه الأغراض فإذا كان الشخص مع المهيمن فهو على كل شيء قدير.

سيدنا زكريا لم يتكلم، على موضوع المهيمن قال:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (٣))

(سورة مريم)

جرب ابقَ صامتاً واطلب من الله طلباً بصدق وبإخلاص والطلب معقول من خيري الدنيا والآخرة، واجهد أن تبقى صامتا من دون أي كلمة بداخلك، تجد أن الله استجاب لك معنى هذا أنه سمعك وعلم سرك القضية لا تحتاج لرفع الصوت

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (٣))

(سورة مريم)

نداؤه الخفي اخترق السّبعَ الطباق فاستجاب الله لسيدنا زكريا لأن الله مهيمن.

في غزوة حنين، أصحاب النبي الذين خاضوا معه بدرا وأحدا والخندق و...... أصحاب رسول الله وهم ساكتون لم يتكلموا إطلاقا ويوم حنين:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ)

(سورة التوبة:الآية ٢٥)

لن نغلب اليوم من قلة عشرة آلاف صحابي ومعهم رسول الله بعد أن فتحوا مكة ودانت لهم الجزيرة من طرفها إلى طرفها الآخر ومع ذلك:

(فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥))

(سورة التوبة)

الله المهيمن، علم إعجابكم بأنفسكم فألقى في قلوبكم الخوف وقلوبكم في يدي الله. إمّا أن يملأها خوفا وإما أن يملأها طمأنينة، القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء، الله مهيمن.

الأمر كله بيد الله، سيدنا رسول الله بغار حراء و سيدنا الصديق إلى جانبه قال: يا رسول الله لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا، فقال:

((يا أبا بكر ما رأيك باثنين الله ثالثهما))

وفي المرة الثانية أصعب فقال له: لقد رأوني أي لقد وقعت عين أحد المطاردين على عين أبي بكر عين بعين فقال: لقد رأوني، قال: **يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:**

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨))

(سورة الأعراف)

الله مهيمن، دعوة إسلامية عظيمة حفظها الله بخيوط العنكبوت، وهذا من عظمة قدرة الله عز وجل أنه يحفظ أعظم شيء بأتفه سبب، الله مهيمن، وأحيانا يهلك إنسان بأتفه سبب، يحفظه بأتفه سبب، ليظهر لك كمال قدرته عز وجل.

في غزوة الأحزاب، الجزيرة العربية كلها اجتمعت على حرب محمد عليه الصلاة والسلام واليهود خانوا عهده معه وانكشف ظهره وبقي للإسلام ساعات، بقي الإسلام قضية زمن إلى أن قال أحدهم: أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته، الله عز وجل أرسل رياحاً عاتية أطفأت نارهم واقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم وكفى الله المؤمنين القتال، الله مهيمن، كل شيء بيده، الرياح بيده وصدق الله العظيم:

(وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ)

(سورة المدثر)

منخفض جوي يمنع الرؤية... بيده، رياح عاتية يعطل حركة الآليات... بيده، القلوب... بيده، يلقي فيها الخوف أو عدم الخوف.... بيده، كل شيء... بيده، باخرة من أضخم البواخر في العالم بنيت عام ألف وتسعمائة واثنتي عشرة، وقد بنيت طبقتين فلو ثقبت طبقة فالجدار الآخر يمنع غرقها، بنيت بلا زوارق نجاة ثقة بأنها لن تغرق، طبعت نشرة وكُتب في هذه النشرة: إن القدر لا يستطيع إغراق هذه الباخرة، من أفخر البواخر في العالم. قيل: فيها من الأثاث ومن الثريات ومن الفضيات ما لا سبيل إلى وصفه، المطاعم والصالات والأبهاء والغرف والمسابح.... أي هي مدينة عائمة، وفي أول رحلة من رحلاتها ركب فيها أغنى أثرياء أوربا، ويقال بأن حلي النساء تقدر بمئات الملايين، وفي عرض البحر ارتطمت بجبل ثلجي فشقها شطرين، وأرسلت إشارات الاستغاثة فظن كل من حولها من البواخر أن هذه الإشارات تعبير عن احتفالات تدشين السفينة وغرق جميع ركابها، وقبل سنة كما أذكر قرأت بحثا في مجلة العربي عثروا على مكانها ورأيت صورا لها في قاع البحر هذه الباخرة التيتانيك، قال وقتها أحد القساوسة: هذا درس السماء إلى الأرض.

قبل سنوات، دولة متقدمة جداً ممن يقول أهلها: مَنْ أشدُّ منّا قوة، صنعوا مركبة فضائية من المقرر أن تبقى في الفضاء سنة تقريبا، سبعة روّاد فضاء مع امرأة، والخطة أن تحمل هذه المرأة في الفضاء من أحد الرواد وأن تبقى في الفضاء تسعة أشهر وأن تلد في الفضاء ومعهم مُوَلِّد في المركبة ليكون أول

مولود يولد في الفضاء، وسَمّوا هذه المركبة تشالنجر أي المتحدي، بعد سبعين ثانية من إطلاقها أصبحت كرة من اللهب. منْ المهيمن ؟ ألم يقوموا بالعد التنازلي، ألم يضبطوا الأجهزة جهازاً جهازاً، أين المهيمن ؟ الله سبحانه وتعالى، كن مع المهيمن وارتح بالاً.

صديق لي حدثني أنه زار بستان في أحد أطراف دمشق والبستان مؤلف من قطعتين لأخوين شقيقين، وكان قمح الأخ الأول نامياً نمواً عجيباً، وقمح الآخر نموه ضئيل جدا، وهذا الصديق يعرف الله عز وجل فجاء للأول واستحلفه لماذا بستانك هكذا ؟قال: والله أعتني به كما يعتني أخي ببستانه، بل إن الذي يقوم على البستانين مُرابع واحد، ما السر؟ قال: لي أخ آخر متوفى وله أولاد أيتام ونويت في قلبي أن أعطي أولاد أخي الأيتام نصف غلة هذا البستان، والثاني على عكس الأول، هذه القصة تؤكد أن الله علم نية هذا البستاني فضاعف له غلته وعلم نية هذا فأنقصها هذا الآخر معنى المهيمن يعلم ويفعل.

وكذلك صديق آخر حدثني عن مجموعة مزارع في أطراف دمشق وهنالك بعض الرعاة الذين عندهم قطعان غنم يأتون لهذه المزارع لتشرب الغنم، فيطردون هذا الراعي مع غنمه، من هذه المزارع مزرعة واحدة تستقبل أيَّ راع وتسقي الغنم بنفس طيبة، أقسم لي رجل في هذه المنطقة أن سبعة مزارع جفت آبارها إلا هذا البئر حصرا والعائد لهذه المزرعة، ولم يكتفِ بأنه سمح للرعاة بل بنى أحواضاً كي ترتاح الغنم في أثناء شربها، لقد اشترى أحواضاً إكراماً لمن ؟ الله مهيمن: النبع بيده وتشالنجر بيده وتيتانيك بيده والسحاب بيده والبواخر بيده والحوت بيده، كل شيء بيده، فأحيانا الإنسان يكون في مكان فاقداً حريته وهو في مكان ناءٍ يخرج فيه ثعبان، وهذا الإنسان مؤمن على الأعم الأغلب تجد الثعبان واقفاً ولا يتحرك ولا ينقض عليه، أحياناً تجد كلباً عقوراً بقي بلا طعام أياماً عديدة فإذا واجه إنساناً تقياً يقف مكبّلا مَنْ المهيمن ؟ الله عز وجل.

الله عز وجل يقول:

(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢))

(سورة الزمر)

يقول لك سيطرة، الله هو المسيطر، كلُّ شيء خلقه اللهُ مُسيطِرٌ عليه، ولم يخلق شيئاً وتركه هملاً، لذلك:

(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢))

(سورة الزمر)

أحيانا الحريق، ينشب حريق في بعض أسواق دمشق ويأكل الأخضر واليابس في معظم الحوانيت إلا حانوتاً واحداً، تلتف النار حوله ولا تحرقه..... بيده النار.

قبل خمسين عاماً في هذه البلدة جاء جراد أكل الأخضر واليابس، يقول لي رجل توفي رحمه الله كان مكلفاً بضبط هذا الأمر ومراقبة أصحاب البساتين في جمع الجراد قال: رأينا الأشجار بلا قشر، الجراد أكل أوراقها وثمارها وقشرها الخارجي، ولكننا فوجئنا ببستان كأنه روضة من رياض الجنان، دخلنا عليه وطلبنا صاحبه، قلنا ما هذه؟ فقال: أنا أستعمل دواء، فامتلأنا غضباً وغيظا منه، معك دواء وتمنعه عن المسلمين، قال: يا سيدي هذا الدواء لا يستعملونه، هو الزكاة أنا أزكي عن هذا البستان.

هذه مشاهدات من واقع الناس وحياتهم. آلاف وملايين كل شيء بيد الله عز وجل، فالبطولة أن تعرف الله أن تعرفه هو المهيمن، إذا عرفته مهيمنا انقطعت آمالك ممن سواه، لا تتوسل لغيره، أنت فيما بينك وبينه في منتهى الخضوع في منتهى التذلل في منتهى الافتقار. إذاً أنت في جانبك الأمن كله.

أما مع الناس عزيز، إذا لم تعرفه مهيمنا وظننت بأن زيدا مهيمنا تصبح أمام زيد كالطفل الصغير، تبالغ في التذلل له ويبالغ في إهانتك تبالغ في الخضوع له ويبالغ في دوسك بقدمه لذلك:

" من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه ".

السؤال الآن أنت كمؤمن وهذه الفقرة الثالثة، الفقرة الأولى التعاريف النظرية لاسم المهيمن، كمال العلم وكمال القدرة والاستمرار، وهيمنة الله هيمنة حب وشفقة ورحمة وهيمنة حفاظ وهيمنة تصديق، ثلاث فقرات بالتعريف وثلاث إضاءات على هذا التعريف، هذا القسم النظري والقسم العملي شواهد:

أخ كريم أصيب قلبه بآفة، والأطباء هنا بدمشق أجمعوا أنه لا بد له من إجراء عملية في بلد أجنبي، ذهب إلى هناك وهو على طاولة الفحص، اغرورقت عيناه بالدموع وقال: يارب هذا القلب من صنعك وأتمنى أن لا يفتح وبكى، أجري الفحص الأول، الوضع سليم، هذه القصة منذ اثنتي عشرة سنة، وإلى الآن بأتم صحة، هذا الدسام التاجي الشريان الأبهر والشريان التاجي، الشرايين الفرعية التي كانت مسدودة من الذي قام بفتحها ؟ يد من فتحتها ؟ الله مهيمن على قلبك.

وهذه الكلية توقفت عن العمل، لماذا توقفت ؟ من أوقفها ؟ ومن حركها ؟. الله مهيمن، تأكد أن الأعصاب والكليتين والقلب والرئتين والشرايين والمعدة والأمعاء والقنوات الدائرية والسمع والبصر واللسان كل أعضائك بيد الله:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٦))

(سورة آل عمران)

هذه الخلايا من الذي يمنعها من أن تنمو نمواً خبيثاً ؟ الله عز وجل، ليس هنالك سبب واضح للسرطان حتى الآن، إنسان بأتم قوته وبأتم صحته وبأتم نشاطه، غذاء منتظم، رياضة حركة، فجأة نمو خبيث في جهة بجسمه، عظّمَ الله أجركم.

من المهيمن على هذه الخلايا ؟ يمنعها من أن تنمو نمواً خبيثا أو أن لا تنمو، الله عز وجل.

حتى الزوجة بيد الله عز وجل،الإمام الشعراني يقول:

" أنا أعرف مقامي عند ربي من أخلاق زوجتي "، أياما تجدها مَلَكاً. سبحان الخالق، ملكاً من السماء، وأياماً تفكر بهذه الساعة المشؤومة التي تعرفت بها عليها، بيد الله عز وجل يلين قلبها أو يقسو قلبها، يجعلها مطواعة أو عنيدة بيد الله عز وجل.

حتى الأولاد: حالهم الشيء نفسه، وزبائنك ومتجرك ورؤساؤك في الدائرة ومتبوعوك ومركبتك إذا أثنيت عليها وأثنيت على صانعها ونسيت الله أثناء حديثك عنها تقطعك في الطريق أمرها بيد الله عز وجل، أما الزلازل الجراثيم النبي قال:

((لا عدوى))

لكن هناك عدوى، ما معنى هذا الحديث ؟ أي إياك أن تعزو هذا الفعل إلى زيد أو عبيد، يجب أن يعزى المرض إلى الله عز وجل، فإذا أذن الله تفعل هذه الجراثيم فعلها وإن لم يأذن لا تفعل أبدا.

هذا القسم العملي وبقي القسم التطبيقي الأخير.

المؤمن إذا أردناه أن يتخلق بأخلاق الله يجب أن يعرف أحوال نفسه، يعرف نفسه، هل هي مريضة فيها انحراف وفيها كِبْر وفيها عُجْب وفيها غرور وفيها تجاوز للحدود ؟ إيمانه بالله كافٍ أم غير كافٍ ؟ يجب أن يعلم، أحوال قلبه، أحوال نفسه، أن يعلم دخله وإنفاقه للمال، تعامله مع الآخرين جوارحه مدى انضباطها، مِنْ تخلّق المؤمن بأخلاق الله المهيمن أن تعلم أنّ أحوالك مرضية عند الله أم غير مرضية، مستقيم أم غير مستقيم، يوجد بدخلك شبهة، يوجد بعلاقاتك حرمة، يوجد تقصير بالحقوق يجب أن تعلم، ولن تعلم إلا إذا حضرت مجالس العلم لأن العلم بالتعلم، هذه حرام يا أخوان وهذه حلال، هذا يجوز وهذه صفة مذمومة وهذه صفة ممدوحة، فأنت من حضور مجالس العلم تعلم فإذا تعلمت فقد حققت ثلث اسم المهيمن، الآن يجب أن تسعى كي تطهر نفسك من آفاتها، الجوارح من المعاصي، القلب من السوّى، تطهير القلب مما سوى الله، تطهير الجوارح من معاصي الله تطهير الفكر من عقائد زائغة من خرافات من أوهام، من خزعبلات، من حيل، من تزوير، يجب أن تطهر عقلك من كل عقيدة زائغة، وتطهر جوارحك من كل معصية وعليك أن تطهر قلبك مما سوى الله، هذا من تطبيق اسم المهيمن، أي أنه راقبَ قلبَه وأشرف على أغواره وأسراره واستولى على تقويم صفاته وهيئاته وقام بحفظها على الدوام، تصرفاته، نوبات نوبات، في يوم الجمعة مرتاح أو منشرح، السبت تفسد أخلاقي والأحد لا أصلي تأتي الجمعة أنت غير متخلق بأخلاق الله، عندك اتجاه نوبي. يجب أن تعلم أحوالك، يجب أن تقوّم أفعالك، يجب أن تثبت على هذه الاستقامة التامة، أنت عاهدت الله عز وجل العلم والإصلاح

والثبات. الأرقى من ذلك أن تدعو إلى الله وأن تعلم أحوال إخوانك أن فتسعى إلى تقويمهم وأن تبقى على عهدك مع الله من خلال تعاملك معهم.

أنْ تصلح نفسك من معاني قوله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١))

(سورة الأنفال)

أصلح نفسك، كيف تصلحها إن لم تعرف أمراضها إن لم تعرف انحرافاتها، إن لم تعرف تقصيرها، إن لم تعرف أدرانها إن لم تعرف مشكلاتها، إن لم تعرف مخالفاتها. المعرفةُ أساس، إذاً تحتاج إلى علم كي تعرف، وإلى إرادة كي تُصَحِّح، وإلى صدق كي تستمر، إذا فعلت هذا فقد تخلقت بأخلاق المهيمن. وبعدُ، مادام الله يراقبك، فما موقفك أنت ؟ الحياء من الله، من تطبيقات اسم المهيمن أن تستحي من الله، الله يراقبك يجب أن تستحي منه، الله قوي يجب أن تتوكل عليه، لا شريك له يجب أن تثق بالمستقبل:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد:الآية ١١)

ثلاثة تطبيقات يجب أن تعلم أحوال قلبك وأحوال نفسك وأحوال عقيدتك تصوراتك قِيَمُك يجب أن تصححها، لا بد من حضور مجالس العلم، يجب أن تملك إرادة قوية كي تصلح اعوجاجك، كي تقيم جوارحك على طاعة الله، يجب أن تملك الصدق كي تستمر على هذا، علم وإرادة وصدق هذا أول تطبيق.

ثاني تطبيق: مادام الله شهيداً عليك يجب أن تستحي منه

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

(سورة النساء)

ومادام الله مسيطراً يجب أن تتوكل عليه، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله ومادام الله لا شريك له وقال لك:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد:الآية ١١)

إذاً يجب أن تثق بالمستقبل، وأن الله عز وجل مادمت لم ُتغَيّر لن يُغَيّر، مادمت على طاعته قائما فأنت من خير إلى خير ومن درجة إلى درجة ومن منزلة إلى منزلة ومن رقي إلى رقي، هذا اسم المهيمن أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون قد وفقت إلى توضيح تعريفاته وتطبيقاته وشواهده.

٦-اسم الله العزيز:

هذا الاسم كثيرا ما يرد في نهاية الآيات وهو العزيز الحكيم، وقد كنت بيّنت لكم من قبله أن الإيمان بالله بوجوده لا يكفي، يجب أن تؤمن بوجوده، ويجب أن تؤمن بوحدانيته، وحدانيته في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله، ويجب أن تؤمن بكماله ومن الإيمان بكماله أن تتعرف إلى أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى.

إذاً أن يجول فكرك أو أن تستمع إلى حديث عن أسماء الله الحسنى هذا جزء أساسي جداً من الإيمان، فأنت مثلاً إذا تعرفت إلى إنسان رأيته أمامك موجودا فهل عرفته ؟ سألته عن اسمه قال لك اسمه. هل عرفته ؟ لا تعرفه إلا إذا وقفت على شمائله وعلى صفاته وعلى أخلاقه وعلى علمه وعلى ذكائه وعلى منجزاته، فلا تكون معرفة الله صحيحة ولا تامة إلا إذا عرفت أسماءَه، هذه المقدمة أسوقها من أجل أن تتأكدوا من قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ: إِنّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

(صحيح البخاري)

ومعنى إحصائها إذا عرفتها وعرفت مضامينها، عرفت ما ينبغي أن تفهمها وما تدل عليه، عرفت ما ينبغي أن تكون أنت عليها، عرفت أبعادها، إذاً درسنا اليوم عن اسم العزيز.

ورد هذا الاسم في آيات كثيرة من هذه الآيات، قال الله تعالى على لسان سيدنا عيسى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨))

(سورة المائدة)

لو أن الإنسان نسي كيف يتم الآية وقال: إن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم، تتناسب هكذا ولكن الآية " **وإن تغفر لهم فإنك العزيز الحكيم** "، لأن الإنسان مهما علا شأنه، إذا أراد أن يغفر لأحد زلته ربما حوسب، ربما سئل لماذا عفوت عن فلان ؟ لماذا لم تكلفه ؟ لماذا تساهلت معه ؟ لكن الله سبحانه وتعالى إذا غفر فهو العزيز.

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨))

هذه الآية الأولى، آية أخرى:

(وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧))

(سورة الجاثية)

آية ثالثة:

(يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨))

(سورة المنافقون)

آية رابعة:

(سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠))

(سورة الصافات)

آية خامسة حينما قال الشيطان:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨١))

(سورة ص)

اسم العزيز ورد في آيات كثيرة جدا، اخترت لكم من بين الآيات الكثيرة هذه الآيات.

الآن ما معنى هذا الاسم من حيث اللغة ؟

المعنى الأول: العزيز الذي لا مثيل له، ولا مشابه له، ولا نظير له، مِن فِعلِ عز يعز، تقول: عز الطعام أي أصبح قليلا أصبح نادرا، عز هذا الاختصاص ؛ اختصاص عزيز: أي نادر، خبرة عزيزة أي نادرة، معنى عز يعز أي ندر وجوده أو لا مثيل له ولا مشابه له ولا نظير له، اسم العزيز بهذا المعنى من أسماء التنزيه، الأسماء مصنفة: فهناك اسم تنزيهي وهناك اسم ذات وهناك اسم صفات وهناك اسم أفعال. فأسماء الله الحسنى إما أن تكون أسماء لذاته وإما أن تكون أسماء لصفاته وإما أن تكون أسماء لأفعاله. فعز يعز أي ندر يندر.

بشكل أوسع العزيز الذي لا مثيل له ولا ند له ولا نظير له. إذا كان الشيء نادرا قليل الوجود ليس متوافرا مع إمكان توافره نسميه عزيزا، فكيف بالذي يستحيل على العقل أن يصدق أن له نظيرا، إذاً، الله سبحانه وتعالى لا مثيل له ولا ند له ولا مشابه له إذاً هو عزيز وهذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: العزيز هو الغالب الذي لا يُغلب، الإنسان إذا غُلِبَ ليس عزيزا يصبح ذليلا وقد يبالغ المنتصر بإذلاله، قد يجري بعض التصرفات ليبالغ بإذلاله، فالغالب الذي لا يُغلب يسمى عزيزا، والعرب تقول من أمثلتها: من عز بز، أي مَنْ عز: مَنْ انتصر أخذ ما راق له. وعزني في الخطاب أي غلبني في الخطاب، إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال: اكفلنها وعزّني في الخطاب، أي غلبني. فالقاهر الذي انتصر وقد يغلب يسمى عزيزا فكيف بالقاهر الذي لا يمكن أن يغلب، من باب أولى فالله سبحانه عزيز بالمعنى الثاني، والدليل:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١))

(سورة يوسف)

أنت تريد وأنا أريد فإذا سلّمْتَ لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي في ما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، قال تعالى:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١))

لو علم الناس أن الله غالب على أمره لأطاعوه ولاتكلوا عليه ولأقبلوا عليه ولتركوا سواه.

المعنى الثالث: المعنى الثالث القوي الشديد، العزيز هو القوي الشديد، من عز يعز ندر يندر، عز يعز غلب يغلب، عز يعز قوي يقوى، والآية الكريمة:

(إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذّبُوهُمَا فَعَزّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ (١٤))

(سورة يس)

يقول: لك التعزيز، بعد أن تلقي الدرس تعززه بالتدريبات، مرحلة التعزيز أي ترسيخ المعلومات و تمكينها هذا المعنى الثالث.

المعنى الأول العزيز الذي لا مثيل له ولا ند له ولا مشابه له هذا من أسماء التنزيه، المعنى الثاني الغالب الذي لا يغلب هذا من أسماء الصفات، والمعنى الثالث القوي الشديد هذا من أسماء الصفات أيضا، فالقادر الذي قد يضعف يسمى عند الناس عزيزا، فكيف بالقادر الذي يستحيل أن يضعف من باب أولى، إذاً الله سبحانه وتعالى عزيز بهذا المعنى الثالث.

الآن يوجد معنى رابع دقيق جدا وربما كان المؤمنون في أمس الحاجة لفهم هذا المعنى، المعنى الرابع: العزيز بمعنى المُعِز، كأن تقول: الأليم بمعنى المؤلم، كأن تقول: جرح أليم أي جرح مؤلم، من معاني وزن فعيل بأنه بمعنى اسم الفاعل مُفْعِل. فالعزيز بمعنى المُعِز هذه من صفات الأفعال. أربع معاني لأسم العزيز، الأولى من أسماء التنزيه والثانية والثالثة من أسماء الصفات والرابعة من أسماء الأفعال، هو الذي يعز:

(قُلِ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران)

آخر ملوك الأندلس عندما غادر الأندلس بكى، فقالت له أمه عائشة: ابكِ مثل النساء ملكاً مضاعاً لم تحافظ عليه مثل الرجال، فما قيمة الإنسان إذا تخلى الله عنه ؟ فقال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنّ اللّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشّجَرُ وَالدّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النّاسِ وَكَثِيرٌ حَقّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ(١٨))

(سورة الحج)

جزء كبير جدا من حياتك متعلق بكرامتك، فإذا كنت مع العزيز أعزك الله:

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

هذه هي المعاني اللغوية لكلمة عزيز أو لاسم الله العزيز، لكن هناك تعريف أدق وأجمل: العزيز الذي يقل وجوده وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه في وقت واحد، قد يقل وجود شيء ما ولكن لا تشتد الحاجة إليه، يوجد معدن نادر جدا مع أنه نادر قليل الوجود لسنا بحاجة ماسة إليه، عندئذ لا يسمى هذا المعدن عزيزا، العزيز يجب أن تتوافر فيه صفات ثلاث: أن يقل وجود مثله، وأن تشتد الحاجة إليه، وأن يصعب الوصول إليه، قد تشتد الحاجة إلى شيء ولكنه غير نادر كالهواء، كلنا في أمس الحاجة إليه ولكنه متوافر، قد تشتد الحاجة إلى الماء والماء موجود في بعض البلاد بكثرة.

إذًا لابد أن يكون العزيز يقل وجوده وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، إذاً شيء عزيز يقال: عزيز المنال لا يدرك ولا ينال جانبه، هذه الصفات للشيء الذي يقل وجوده وتشتد الحاجة إليه ويصعب الوصول إليه، هذه الصفات لها صفات نقصان ولها صفات كمال، كلما كثر وجوده قلت عزته، وكلما قلت الحاجة إليه قلت عزته، وكلما سهل الوصول إليه قلت عزته، الآن كلما قل وجوده إلى أن يصبح واحدا، هذه صفة كمال في العزيز يقل وجوده ويقل وجوده حتى يصبح واحدا هذه أعلى صفة، وتشتد الحاجة إليه.

الإنسان أحيانا قد يحتاجه الناس، قد يحتاجه بعض الناس، كلما كثر الذين يحتاجونه أصبح عزيزا، فإذا احتاجه كل الناس هذا شيء نادر، لا يوجد إنسان يحتاجه جميع الناس، قد تجد ملكاً و تجد إنساناً يعيش في أطراف مملكته يعمل راعياً، مع أنه أحد رعايا هذا الملك لكنه ليس بحاجة إليه، يأكل ويشرب في خيمته من نتاج هذا الغنم الذي يملكه.

كلما اشتدت الحاجة إلى الشيء أصبح عزيزا، كمال هذه الصفة شيء دقيق جدا أن يحتاج إليه كل شيء في كل شيء، أنا قد أحتاج للطبيب عند المرض، ولكن لا أحتاجه عند النوم أنا أحتاج إلى سرير، قد أحتاج إلى هذا المدرس إذا كان ابني ضعيفاً في مادة الرياضيات فأنا بحاجة إليه، أما أن يحتاجه كل شيء ليس كل الناس فقط لا بل الناس والحيوان والنبات والجماد والذرات والمجرات أي يحتاجه كل شيء في كل شيء.

دققوا كل شيء في كل شيء. إذاً الله سبحانه وتعالى عزيز لأن قيام الشيء به، قيام المادة هذه مادة فيها نواة وفيها كهارب وفيها دوران لولا أن الله سبحانه وتعالى تجلى عليها لتوقفت، كن فيكون زل فيزول:

(اللّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢))

(سور آل عمران)

أي أن قوام كل شيء به، وهو مصدر حياة كل شيء.

إذا الله سبحانه وتعالى لا نقول تشتد الحاجة إليه، يحتاج إليه كل شيء في كل شيء، الشبكية مائة وثلاثون مليون مستقبل للضوء ما بين مخروط وعصية عشرة طبقات، العصب البصري تسعمائة ألف عصب، ما هذه المادة التي تتغير ماهيتها إذا جاءها الضوء، إذا تغيرت ماهيتها تولد عن هذا التغير تيار كهربائي ينقل الصورة إلى الدماغ، أنت محتاج لله عز وجل في عينك وفي أذنك وفي لسانك وفي دماغك وفي شرايينك، وأيُّ شيءٍ لم يبخل اللّه سبحانه وتعالى عليه يُصبح لاشيء، فأنت قائم بالله، عظامك عضلاتك المخططة والملساء أعصابك وأجهزتك كلها تعمل بالله، فلو أن الله سبحانه وتعالى حجب عنها تجلياته لأصبح الإنسان جثة هامدة، إذا يحتاجه كل شيء في كل شيء.

أول صفة. الذي يقل وجود مثله أما كمال هذه الصفة إلى أن يصبح واحدا، تشتد الحاجة إليه، كمال هذه الصفة يحتاجه كل شيء في كل شيء، يصعب الوصول إليه لا يمكن أن تحيط به ولا الأنبياء لا يعرف الله إلا الله، أن تصل إليه اتصال عبودية ممكن استقم على أمره واعمل الصالحات تصل إليه وهذا هو الوصول هذا هو الاتصال.

شاب خطب فتاة ابنة عالم هذا العالم قال له: مهر هذه الفتاة أن تحضر هذه الدروس فحضرها فاستغرق فيها فنسي الفتاة، أرسلت له كتابا: يا فلان نسيتنا، فقال: يا وصال كنت سبب الاتصال فلا تكوني سبب الانفصال.

يمكن أن تصل إليه، أن تصل كعبد أن تستقيم على أمره أن تفعل الصالحات أن تذكره كثيرا أن تخدم عباده كثيرا ممكن، أما أن تصل إليه وصول إحاطة وإدراك كامل هذا مستحيل ولا الأنبياء لا يعرف الله إلا الله.

فإذا خطر في بالك ما معنى العزيز ؟ فإنّ معنى العزيز: هو الفرد الذي يحتاجه كل شيء في كل شيء ويستحيل الوصول إليه، وصول إحاطة وإدراك أما وصول عبودية فممكن.

قال بعضهم: العزيز من ضلت العقول في بحار عظمته وحارت الألباب دون إدراك نعمته وكلت الألسن عن وصف كمالاته ووصف جماله. النبي عليه الصلاة والسلام لخص هذه الكلمات فقال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: فَقَدْتُ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَيْلَةً مِنَ الْفِرَاشِ فَالْتَمَسْتُهُ فَوَقَعَتْ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ وَهُوَ يَقُولُ: اللّهُمّ أَعُوذُ برِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ))

(صحيح مسلم)

والله أيها الأخوة الشيء الثابت أنه من عرف الله زهد فيما سواه، إذا عرفت الله لا يمكن أن تتضعضع لمخلوق، وعندها لا ترى مع عزة الله عزيزا، ولا ترى مع قدرة الله قديرا، ولا ترى مع حكمة الله حكيما.

ابن آدم اطلبني تجدنـي فإذا وجدتني وجدت كل شيء

وإن فتك فاتك كل شيء وأنا أحب إليك من كل شـيء

***

فلو شاهدت عيناك من حسننـــا الذي رأوه لما وليت عنا لغيرنـا

ولو سمعت أذناك حسن خطابنا خلعت عنك ثياب العجب وجئتنا

ولو ذقت من طعم المحبــة ذرة عذرت الذي أضحى قتيلا بحبنـا

ولو نَسمَتْ لك من قربنا نسمــة لَمِتّ غريبا واشتياقا بقربنـــــا

فما حبنا سهل

***

الله عزيز.

هذا الذي يتوهم بسذاجة أنه بركعتين وليرتين يدخل الجنة إنسان ساذج غبي، ومن يخطب الحسناء لم يغله المهر:

((قال سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ خَافَ أَدْلَجَ وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ أَلا إِنّ سِلْعَةَ اللَّهِ غَالِيَةٌ أَلا إِنّ سِلْعَةَ اللَّهِ الْجَنّةُ))

(سنن الترمذي)

قال تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢))

(سورة آل عمران)

وقتك الثمين، زبدة وقتك، قوتك يجب أن تصرفها في سبيل الله، مالك الذي جمعته بكدك وعرق جبينك يجب أن تنفقه في سبيل الله، ألا إن سلعة الله غالية، الله عزيز بالمعنى الطبيعي الفطري الله عزيز.

الآن من هو العزيز من العباد في ضوء هذا التعريف ؟ الأنبياء أعزة لماذا ؟ لأن الخلق كلهم بحاجة إليهم إلى علمهم، النبي عزيز لأن ربنا عز وجل أودع فيه سره أودع فيه علمه أودع فيه النبوة، هو طريق إلى الله هو باب الله، فالأنبياء أعزة لأن الله جعلهم أبواب رحمته وأبواب فضله وأبواب إحسانه وأبواب أنواره، لهذا عين إرضاء رسول الله هو عين إرضاء الله، ولهذا قرن الله اسم نبيه مع اسمه فالنبي عزيز لأن الناس جميعا في أمس الحاجة إليه في أمر دينهم ودنياهم.

الملك عزيز: إذا كان ملك بيده مقدرات الأمور كلها، بيده كل شيء، فالناس جميعا يقصدونه كبيرهم وصغيرهم، جليلهم وحقيرهم، فكلما اشتدت الحاجة إليك فأنت عزيز، لكن المؤمن إذا اشتدت الحاجة إليه يكون عزيزا لكنه متواضع، ولكن غير المؤمن إذا اشتدت الحاجة إليه يصبح لئيما.

يا أيها الأخوة الأكارم سُئل الإمام الحسن البصري: **بِمَ نِلت هذا المقام ؟** قبل الإجابة أقول لكم هذه الكلمة من القلب: لا يمكن أن تعرف الله وأن تطيعه، ثم تكون ذليلا لأحد أبداً، لا يمكن لأن الله عز وجل يقول:

((وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨))

(سورة المنافقون)

أنت مع العزيز وتذل بعد ذلك - لا - لن يكون هذا أبداً، ألا تقرأ في الدعاء يوميا كل صلاة صبح:

سبحانك إنه لا يذل من واليت ولا يعز من عاديت ؟

لا يوجد مؤمن تَعَرّفَ إلى الله عز وجل واستقام على أمره واصطلح معه إلا أراه الله معاملة خاصة يشعره أنه غال عليه وأنه يحبه قال تعالى:

((فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨))

(سورة الطور)

أحيانا تدعوه فيستجيب لك، تدعوه فيصرف عنك السوء، تدعوه فيلقي حبك في قلوب الخلق، تدعوه فيلين قلوب أعدائك، تدعوه فيلبيك، تسأله فيعطيك، تقسم عليه فيبرك.

فإذا الحسن البصري سؤل **بما نلت هذا العز ؟** قال: **بشيئين، باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي.**

لا تكون عزيزا إذا كنت طماعاً، حينما تطمع تصبح ذليلا، لمجرد أن تطمع فيما عند الناس تصبح ذليلا.

لذلك الناس إذا طمعت فيما عندهم كرهوك، ورب العزة إذا طمعت فيما عنده أحبك.

لا تسألن بني آدم حاجة وسل الذي أبوابه لا تغلق

***

الإنسان إن سألته حاجة غضب منك، ورب العزة إن لم تسأله غضب منك، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

عَنْ جُنْدَبٍ عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلّ نَفْسَهُ قَالُوا وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ قَالَ يَتَعَرّضُ مِنَ الْبَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ))

(سنن الترمذي)

وقال:

((ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس، فإن الأمور تجري بالمقادير))

((ارفع رأسك يا أخي لقد مَوّتّ علينا ديننا))

أبو جعفر المنصور دخل عليه أبو حنيفة في قضية فَأعجبه أن يأتيه هذا العالم الجليل الفقيه الكبير، قال: **يا أبا حنيفة لو تغشيتنا دائما**، نحن في استقبالك نعتز بك وأهلا بك، قال: **ولِمَ أتغشاكم وليس لي عندكم شيء أخافكم عليه وهل يتغشاكم إلا من خافكم على شيء،ليس لي عندكم حاجة.**

كلما قطعت طمعك من الناس أعزك الله، وكلما مرغت جبهتك في السجود لله أعزك الله.

أحد الخلفاء طلب عالماً من علماء المسلمين الكبار أن يأتيه لكي يعظه، فذهبوا إلى الإمام مالك فقالوا: **إن الخليفة يطلبك يا مالك،** قال: **لست بحاجة إليه، إن كان بحاجة إلي فليأتني،** قال الأمام مالك: **العلم يؤتى ولا يأتي،** فلم بَلّغوا هارون الرشيد مقالة مالك قال: **صدق أنا سآتيه** فلما جاءه قال: **أبلغوه لا أسمح له أن يتخطى رقاب الناس** يعني على الخليفة أن يجلس حيث انتهى به المجلس، كان عليه الصلاة والسلام يجلس حيث ينتهي به المجلس، بل إن الأبلغ من ذلك دخل عليه أعرابي، فما عرف مَنْ النبي ؟ قال: **أيكم محمد** ؟ ما هذا التواضع ليس له مكانة خاصة ؟ **أيكم محمد** ؟ قال له: **لقد أصبت أنا،** فلما جاءه هارون الرشيد وأجلسوه على كرسي، قال: **من تواضع لله رفعه، ومن تكبر وضعه،** فقال الرشيد: **خذوا هذا الكرسي،** العالم عزيز يجب أن تزهد فيما عند الناس، يجب أن تكون بعيدا عن دنياهم، يجب أن تعمل اكسب رزقك بيدك.

شخص سأل: كيف الطريق إليه ؟ قال: لو عرفته لعرفت الطريق إليه، كلمة بليغة.

إذا عرفت الله تعرف بالفطرة ماذا يرضيه، وكيف تقبل عليه، وكيف تستقيم على أمره، وكيف تضحي من أجله، وكيف تؤثره على كل شيء، قال له: كيف الطريق إليه ؟ قال: لو عرفته لعرفت الطريق إليه، قال له: لم أفهم كلامك، كيف أعبد من لا أعرفه، فقال: كيف تعصي من تعرفه، إنك تعصيه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه   هذا لعمري في المقال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعتــــه   إن المحب لمن يحب يطيـــع

***

قل شخص متى عرفت الله ؟ قال: والله ما عصيته منذ عرفته.

اسمعوا مني هذه الكلمة، والله الذي لا إله إلا هو لو تعلمت علم الثقلين بنية أن تكون ذا شأن في المجتمع وعصيت الله فيما بينك وبينه، فأنت لا تعرفه، لا تعرفه، لا تعرفه.

من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا اختلى، لم يعبأ الله بشيء من عمله أبدا، لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر إلى مَنْ اجترأت عليه، فلمجرد أن تعصي الله عز وجل يجب أن تعلم علم اليقين أنك لا تعرفه أبدا.

لو تخيلنا إنساناً يحمل أعلى شهادة شرعية، وله مائة مؤلف وهو ذو منصب ديني خطير، ودخلت عليه امرأة و تأمل فيها وملأ عينيه منها، وعنده مستخدم على الباب، لا يقرأ ولا يكتب لكنه قرأ قوله تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنّ اللّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠))

(سورة النور)

فغض بصره عنها فهذا عند الله عالم، والأول الذي ملأ عينيه من الحرام جاهل، لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ: كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللّهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

(سنن الدارمي)

دع هذه الكلمة في ذهنك دائما: لمجرد أن تعصيه فأنت لا تعرفه.

قيل: ما الأدب الذي يجب أن يتحلى به المؤمن حيال هذا الاسم ؟ الله عزيز ما موقف المؤمن حيال هذا الاسم ؟

قال: المؤمن إذا عرف العزيز لا ينبغي أن يعتقد لمخلوق إجلالاً، أديب جدا مع الناس، لكنه لا يمكن أن يعتقد لمخلوق إجلالاً، أي يجب أن تحقر الأقدار سوى قدره، وأن تمحو الأذكار سوى ذكره، قال عليه الصلاة والسلام:

((من تضعضع لغني ذهب ثلثا دينه))

لماذا ؟ قال: لأن الإيمان ما وقر في القلب وأقر به اللسان وصدقه العمل، فإذا أجللت غنياً لغناه، أجللته وانحنيت له وأثنيت عليه بما ليس فيه فقد أذهبت ثلثي دينك، والإيمان ثلاثة أشياء: الإيمان ما وقر في القلب وأقر به اللسان وصدقه العمل، فإذا كان العمل الظاهري تعظيم لإنسان لا يعرف الله وعظمته لأنه غني، فالنتيجة إذاً ذهب ثلثا دينك واذكر

((من تضعضع لغني ذهب ثلثا دينه))

لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((شرف المؤمن قيامه بالليل، وعزه استغناءه عن الناس))

عند المؤمن عزة لو وزعت على أهل بلدة لكفتهم، يرى أنه عبد لله وأن الله لن يضيعه ولن يسلمه ولن يتخلى عنه.

عندنا قاعدة ثابتة أنه إذا عَظُمَ القلبُ الربّ صَغُرَ الخلق في عينه، فإذا كان الله ليس عظيما في عينه كبر الخلق في عينه. هذا امتحان، فلان يقولها بملء فمه: يفعل ويترك، وعنده قدرة على كذا وكذا وكذا. فأنت لا تعرف الله إذاً، مادمت تُجِله كل هذا الإجلال فإنك لا تعرف الله، لأن الله عز وجل لو جَمّد قطرة من دمه في أحد شرايين مخه لأصبح مشلولا، لو أن الله عز وجل جمد بعض الدم في شرايين قلبه لمات بسكتة قلبية وقضى من فوره، والإنسان كلما ارتقى إيمانه كلما التفت إلى الله قال تعالى:

(فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١١))

(سورة يونس)

إذا عرفت أنه المُعِزّ، أي لو اجتمع الناس جميعا على أن يرفعوك درجة لا يستطيعون، أما إذا رفعك الله عز وجل درجة أو أكثر لا يستطيع أهل الأرض أن ينزلوك. ومعلوم: إذا عرفت أنه المعز لم تطلب العز إلا بطاعته.

قال بعضهم: لو اجتمع الخلق على أن يثبتوا لأحد عزاً فوق ما يثبته اليسير من طاعته لما قدروا، لا تُعَزّ إلا بطاعة الله، أعِزّ أمر الله يعزك الله، قال: لو اجتمع الخلق على أن يثبتوا لأحد ذلاً أكثر من اليسير من المعصية لم يقدروا، يوجد عامل واحد يرفعك ويخفضك هو الطاعة والمعصية، كلما أطعته ازددت عزا وكلما هان الله عليك هنت عليه، ويجب أن تفهموا أن حال المسلمين اليوم: هان الله عليهم فهانوا على الله.

أحيانا يقع الإنسان في خطأ كبير. يظن أن هؤلاء الذين يحسبون في العالم الإسلامي يظنهم مسلمين. والمسلم له صفات، فإذا أحسن بهم الظن وهم تاركو الصلاة ويكذبون ويأخذون ما ليس لهم عدواناً وقد يفعلون المعاصي كبيرها وصغيرها، هان الله عليهم فهانوا على الله، هاتان الكلمتان تلخصان كل ما يجري من أحوال المسلمين، هان الله عليهم فهانوا على الله.

على مستوى فردي إذا استقمت على أمر الله وإذا اعتمدت عليه وتوكلت عليه، فالله سبحانه وتعالى يعاملك معاملة خاصة أما إذا عصاه مجموع الأمة فالله سبحانه وتعالى لا بد من أن يؤدبهم لأنه إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني.

رجل ذهب إلى الحج، كان له شأن كبير رافقه عشرات الخدم والحشم، فكان هؤلاء الخدم في أثناء الطواف يبعدون الناس عنه تعظيما له، حج وطاف وسعى وانتهى حجه وعاد إلى بلده، راوي هذه القصة قال: وبعد حين وعند جسر في بغداد رأيت رجلا يشبه هذا الذي رأيته يطوف لكن رأيته في حالة زريه قميئة يمد يده للناس، يا ترى هذا فلان هو هو. ليس هو، دخل الشك في قلبه، فتقدم منه فقال: مالك تنظر إليّ، قال: كأنك تشبه فلاناً، قال: أنا هو، فقلت له: ما الذي جعلك في هذه الحال ؟ قال: إني تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه، الطواف حول الكعبة ليس فيه كبر، أنا فلان أنا علان أنا حجمي المالي

كذا لا يوجد كبر في هذا الموقف، في هذا الموقف أنت عبد لله عز وجل ولو كنت ملكا، قال تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه فوضعني الله في موضع يترفع الناس فيه.

الإنسان كلما أحاط نفسه بهالة من الكبر والاستعلاء هان وحطه الله جزاء وفاقاً، صفتان لا تقربهما الكبر والظلم، إن الله سبحانه وتعالى يغفر عشرات الذنوب بسهولة إلا ذنبين يبطش بصاحبهما الكبر والظلم، اثنان لا تقربهما: الإشراك بالله أي الكبر والإضرار بالناس أي الظلم.

الآن عندنا مشكلة. وهي ليست مشكلة. ولكنْ هكذا سميتها: كيف يقول الله عز وجل:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠))

(سورة فاطر:الآية ١٠)

أي العزة كلها له. هو العزيز، ونقرأ آيةً أخرى:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨))

يبدو أن هناك تناقضا بين الآيتين. هكذا يبدو، الجواب: إذا ابتغيت العزة بالإقبال على الله والاعتزاز به فأنت عزيز، لكن حينما قال الله عز وجل:

(فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً)

أي مهما أردت العزة بغير الله فأنت ذليل، إذا أردت العزة وأن تكون عزيزا عن غير طريق طاعة الله، عن غير طريق الاستقامة على أمره، عن غير طريق إعزاز أمر الله، فأنت ذليل.

سيدنا يوسف: كلكم يعلم أنه كان عبدا في قصر ملك مصر، كان عبداً وكان يؤمر، ووضع في السجن ثم أصبح عزيز مصر، مرة خرج في موكبه فرآه أحد العبيد وكان يعرفه أنه كان عبدا مثله، ثم أصبح عزيز مصر فقال: **سبحان من جعل العبيد ملوكا بطاعته، وجعل الملوك عبيدا بمعصيته.**

ولعله يقصد امرأة العزيز التي هانت بعد فعلتها واتهامها ليوسف حتى غدت كالعبيد هوانا وقد نسمع ونقرأ عن إنسان كان في أعلى درجات العز فلما بنى عزه على معصية الله جعله الله في أسفل السافلين.

إذاً شيء آخر سيدنا يوسف عندما قال:

(قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢٣))

(سورة يوسف)

جعله الله عزيز مصر.

والله سمعت قصة، لولا أن صاحبها حي يرزق، لما استطعت أن أصدقها: شاب حديث السن عنده مكتبة صغيرة في حي من أحياء دمشق وهي قصة قديمة جدا، فيبدو أن فتاة ساقطة تحرشت به وأغرته

فأغلق محله وتبعها، وكان هذا الشاب لسبب معين قد حج في سن مبكرة، وقبل سنوات وبينما وهو في طريق متابعته إياها تذكر حجته فقال: لا والله لا أفسد هذه الحجة، فركب الحافلة وعاد أدراجه إلى البيت. أيْ خشي الله وأطاعه، في اليوم التالي جاءه أحد وجهاء الحي من جيرانه فقال له: يا فلان هل أنت متزوج، فأجابه: لا والله يا سيدي، قال له: عندي فتاة مناسبة أبعث أهلك ليروها، فقال: ظننت أن له فتاة فيها علة لأنه هو الذي عرضها، قال: بعثت بأهلي ليخطبوها فرأوها في أحسن حال فوافقت، وما هي إلا أشهر حتى جعلني شريكه في عمله التجاري وأغلقت المحل السابق وبعته، طبعا العم توفي لكن الرجل لا يزال حي يرزق من كبار التجار، أنت قلت

(قالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنّهُ لَا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ (٢٣))

(سورة يوسف)

قِس على هذا كل شيء، مبلغ كبير فيه شبهة قل:

(قالَ مَعَاذَ اللّهِ إِنّهُ رَبّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنّهُ لَا يُفْلِحُ الظّالِمُونَ (٢٣))

(سورة يوسف)

يأتيك أضعاف مضاعفة، ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيرا منه في دينك ودنياك، أي شيء تدعه في سبيل الله لا بد من أن يعوضك الله خير منه في دينه ودنياه، أتحب أن تكون عزيزا ؟ أتحب أن تكون مكرما ؟ أتحب أن تكون محترما ؟ أتحب أن تكون مبجّلا ؟ بالغ في طاعة الله، كلما أطعته كلما رفعك وكلما خالفت أمره كلما وضعك، فإذا هان عليك هنت عليه وإذا عظّمت شعائره عظّمك.

فالذي ذهب إلى المدينة وزار قبر النبي عليه الصلاة والسلام يعلم ماذا أعني بهذا الكلام، ما من مخلوق على وجه الأرض أعزه الله عز وجل كرسول الله، لو أن إنساناً في حرم النبي عليه الصلاة والسلام ودخل الملك لا يراه ملكا، في الحرم النبوي لو دخل الملوك مجتمعين لا ترى أنهم ملوك في حضرة النبي عليه الصلاة والسلام، كان إذا دخل عليه العبد وأصابته رعدة يقول:

((هون عليك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة))

أناس يأتونه من أطراف الدنيا فإذا اقتربوا من مقامه يبكون وقد مضى على وفاته ألف وأربعمائة عام، ما هذا السر ؟ هل في الأرض كلها مخلوق أعزه الله كرسول الله، خذ صحابته سيدنا الصديق ماذا كان يفعل ؟ له جيران فقراء وكان يحلب لهم الشياة، فلما صار خليفة للمسلمين حزن أهلُ هذا البيت لأن منصبه الرفيع يمنعه أن يحلب لهم الشياة، في اليوم الذي تلا تسلمه منصب الخلافة طرق الباب، قالت الأم لابنتها: يا بنيتي افتحي الباب، قالت: يا أمي إن بالباب حالب الشاة جاء اليوم أيضا جاء ليحلب الشاة، ما هذا التواضع ؟ وما من صحابي أعزه الله وذكر اسمه في القرآن كسيدنا الصديق.

الملخص ، قانون، علاقة طردية. كلما زدته طاعة وتعظيما زادك عزا، وكلما تساهلت بأمره قلت: لا تدقق، إن الله غفور رحيم، الدين يسر، أنت مشددها كثيرا، افعل ما تشاء، كلما تساهلت في طاعته خفضك الله عز وجل وصرت لا شأن لك.

أي هؤلاء الذين علموا الناس، الأئمة الكبار كالإمام الشافعي وأبو حنيفة والصحابة الكرام اسم كل واحد منهم على كل لسان، بذكرهم تتعطر المجالس عظموا الله فخلّد ذكراهم.

سيدنا موسى في أوج عزه وفرعون يهون و يغرق. يقول الله عز وجل:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١))

(سورة يونس)

وصدق الله العظيم.

(وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

(سورة الحج)

سيدنا إبراهيم أرادوا به كيدا فقلنا:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩))

(سورة الأنبياء)

هذا هو العز. عِزُ الله لإبراهيم وموسى ويوسف كما علمت.

النبي عليه الصلاة والسلام، ما من مخلوق أعزه الله كرسول الله، وسيدنا الصديق، وسيدنا عمر قال: **كنتُ عميراً فأصبحتُ عمر فأصبحت أمير المؤمنين،** كان وقافا عند كتاب الله فرفعه الله سبحانه.

وكذلك سيدنا عثمان، سيدنا علي، وبالمقابل أبو جهل ما نهايته ؟ ما سُمْعَته ؟ ما قيمته ؟ أبو لهب، هؤلاء صناديد الكفار أين هم ؟ أما عكرمة ابن أبي جهل حينما تاب إلى الله تاب الله عليه فأصبح سيدنا عكرمة مع أنه له جاهلية وله موقفه المعادي لرسول الله.

لا أريد أن أطيل عليكم، فما من مخلوق على وجه الأرض إلا ويحب وجوده ويحب سلامة وجوده ويحب كمال وجوده ويحب استمرار وجوده، وجزء كبير جدا من وجودك أن تكون مكرما أن تكون عزيزاً، أن تكون مرهوبا، أن تكون سليما من كل هُون، وما من شيء يسبب لك الهوان كالمعصية أبدا.

فالعفيف عزيز، وحينما يطمع الإنسان بأعراض الناس ينظر إلى نسائهم نظرات ريبة يصبح ذليلاً، الإيمان عفة عن المطامع عفة عن المحارم.

الإيمان عفة، عفة عما في أيدي الناس وعفة عن أعراضهم، لهذا غض البصر من لوازم المؤمن، المؤمن محصن من أن يتبع شهوته، وكلما غض بصره زاده الله عزا وكلما غض بصره زاده سعادة

بأهله، خلق من خلق الله ؛ يخلق سعادة بين الزوجين المؤمِنَيْن لا يمكن أن تكون إلا بطاعة الله، يعيشان حياة ثرة غنية موفقة لأنها أطاعت ربها فيه وأطاع ربه فيها.

فمطلب العزة مطلب عام، ما من مخلوق إلا ويتمنى أن يكون عزيزا، والعزة ثمنها الطاعة وهذا الكلام موجه إلى الشباب، اصبر على الحرام يأتك الحلال، لا تفكر ولا تسمح لخاطرك أن تَرد عليه معصية وسوف توفق في عملك توفق في زواجك، سوف يجعل الله لك مخرجا، سوف ترزق من حيث لا تحتسب، سوف يرفع الله لك شأنك.

بعض الناس يموت فيسير في جنازته شخص أو شخصين هواناً لشأنه لمعصيته، و يموت عالِمٌ فيسير في جنازته مليون، أعزه الله، لماذا أعزه ؟ لأنه أعِزّ أمر الله، أعز أمر الله يُعزّك الله.

هذه حقائق ثابتة أيها الأخوة، فكل من يبتغي العزة بغير الله أدركه الهوان، فلو أن الإنسان اتخذ الله ولياً لأنجح وأفلح:

(وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (١١٣))

(سورة هود)

إذا ركنت لإنسان منحرف، رأيته قويا، رأيت عنده الدنيا، رأيت أنك إذا أطعته جاءك خير كثير، إذا ركنت إليه إذا نسيت الله عز وجل لن يأتيك الذل إلا من طرفه، لن يأتيك الضيم إلا منه تأديبا لك:

اجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

أحيانا يعتز الإنسان بقريب له، له شأنه يُفاجأ أن هذا القريب يتخلى عنه، يدخل عليه فيتجاهله، يعرض له قضية فيقول: لا أستطيع، أنا لا أخالف القوانين أبدا، هذا جزاء الذي ركن إليه. **" اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير ".**

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

(سورة فاطر)

وبعد فالقصص التي يمكن أن تروى في موضوع العزة والذلة أكثر من أن تحصى، وما من واحد منكم إلا من خلال معارفه وأقربائه ومحيطه وبيئته يعرف آلاف القصص، هذا الشاب الذي استقام على أمر الله رفعه الله في الدنيا قبل الآخرة:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦))

(سورة الرحمن)

قال معظم المفسرين: **" جنة في الدنيا وجنة في الآخرة، والدنيا قبل الآخرة.**

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨))

(سورة الطور:الآية ٤٨)

آخر حديث:

((من ابتغى أمراً بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى))

أي شيء أردت أن تناله من خلال معصية يجب أن تعلم علم اليقين أن هذا الشيء بعُد عنك، وأي شيء إذا أردت أن تناله عن طريق الطاعة فاعلم علم اليقين أنه اقترب منك

((من ابتغى أمرا بمعصية كان أبعد مما رجا وأقرب مما اتقى))

أي بالتجارة لا تكذب تربح وتربح وأنت صادق، إذا كنت محاميا لا تكذب يأتيك دخل وفير وأنت صادق وأنت مخلص. هذا الذي يعصي الله لينال الدنيا جاهل لا يعرف الله عز وجل

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

(سورة الأحزاب)

الله عز وجل مما وعد به المؤمن أن يحفظه، مما وعد به المؤمن أن يدافع عنه، مما وعد به المؤمن أن يرزقه، مما وعد به المؤمن أن يعزه والدليل:

(وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨) يعلمون)

انظر لو قال الله: العزة للمؤمنين لكان من الممكن أن يُفهم ولغير المؤمنين قد تكون عزة أما عندما قال: لله العزة، وجاء الاسم المجرور مقدماً على العزة فأفاد القصر والحصر، العزة وحدها إذاً لله فإذا أردتها فكن مع الله

كن مع الله ترى الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك من يمنعه ثم من يعطي إذا ما منعك

***

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا فإنا منحنا بالرضى من أحبنا

ولذ بحمانا واحتمي بجنابنا لنحميك مما فيه أشرار خلقنا

***

٧- اسم الله الجبار:

الله سبحانه وتعالى ذكره في آية:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣))

(سورة الحشر)

والإنسان أحياناً تتداخل عنده صفات الإنسان مع صفات الخالق فلابد من التوضيح بأن هناك صفات إذا نسبت وإلى الخالق فهي صفات كمال أما إذا نسبت إلى المخلوق فهي صفات نقص، فإذا وصفنا إنساناً بأنه جبار فهذه صفة نقص فيه لأن وجوده مستعار وجوده من الله عز وجل، خلق الإنسان ضعيفاً، خلق الإنسان عجولاً، خلق الإنسان هلوعا، هذا الإنسان الذي يوصف بأنه جبار هل بإمكانه أن يضمن استمرار حياته إلى ثانية واحدة ؟ عشرات الأشخاص كل يوم يموتون بسبب وبلا سبب ومع تقدم العلم أصبح يقول الطبيب سكته دماغية أو سكته قلبية أو هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين أو تشمّع الكبد.... ونحن بين أظهرنا أشخاص كثيرون كانت لهم آمال طويلة جداً كل هذه الآمال تبددت لأن خللاً طفيفاً جداً أصابهم.

لي قريب كان في صف رابع في الطب وكان من أذكى الطلاب ومن أصحهم جسماً ومن ألينهم عوداً يتمتع بصفات نادرة ومن أسرة ميسورة، فجأة شعر بوهن في جسمه وبضعف وبدا اصفرار في وجهه، الطبيب الأول قال هناك فقر في الدم، وكذلك أكد الطبيب الثاني، ليس لهذا الفقر أسباب، شاب في ريعان الشباب متفوق جداً وذكي جداً على مشارف التخرج من أسرة ميسورة أي فقر دم هذا ؟ ثم اكتشف في النهاية أن في طحاله نشاطاً زائداً......

الطحال أيها الأخوة مستودع للدم ومعمل احتياطي لكريات الدم ومقبرة لكريات الدم الميته ففي الثانية الواحدة يموت في جسم الإنسان مليونان ونصف كرية دم هذه الكريات التي ماتت تذهب إلى الطحال وفي الطحال وبطريقة اقتصادية تُهدّم هذه الكريات وتعاد إلى أصل تكوينها: حديد وهيموغلوبين، الحديد يرسل ثانية إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام ليعاد تصنيعه والهيموغلوبين يذهب إلى الكبد ويشكل الصفراء، أُخذت خزعة من طحال هذا الشاب أرسلت إلى بلد غربي متقدم كان الجواب أن الطحال يقوم بنشاط زائد يأخذ الكرية الحمراء الميتة ويحللها ويأخذ الحية ويحللها، فأصبح هناك نقص مستمر في كريات الدم الحمراء وانتهى أجله ومات في ريعان الشباب، فإذا قال أحدنا أنا! من أنت ؟ فالطحال ولأنه عمل بنشاط أكبر أنهى حياة الإنسان.

شخص آخر أصيب بمرض نادر فقر دم لا مُصّنِع أي معامل الكريات الحمراء تكف ذاتياً عن صنع الكريات ينتهي الإنسان، وأحياناً هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، وأحياناً تشمع في الكبد الإنسان لا

يطيق الحياة بلا كبد أكثر من ثلاث ساعات، وأحياناً نقطة دم تتجمد في بعض شرايين المخ في مكان يصاب بالصمم، في مكان يصاب بالعمى، في مكان يصاب بفقد الذاكرة، في مكان يصاب بالشلل، فهذا الذي يقول: أنا هو أحمق لمجرد أن يقول أنا، أما إذا وصف الإنسان بأنه جبار هذه صفة ذم في الإنسان لأن وجود الإنسان فيه افتقار إلى الله عز وجل، وجود الإنسان تابع لمشيئة الله، قوة الإنسان تابعة لمشيئة الله، محاكمة الإنسان تابعة لمشيئة الله، عقل الإنسان تابع لمشيئة الله، فإذا قلنا فلان جبار فإننا نصمه بالحمق لأنه يدعي ما ليس له، يدعي حجماً ليس بحجمه، يدعي قوة ليست بقوته، أما إذا وصفنا خالق الكون الواحد الأحد الفرد الصمد الحي القيوم الذي لا راد لحكمه إذا وصفنا خالق الكون بأنه جبار فهذه صفة مدح وصفة تنزيهية من جهة وصفة من صفات الذات لله عز وجل.

لا يحق للإنسان أن يتكبّر، أما ربنا عز وجل تكبره لأنه كبير فعلاً لأنه عظيم لأنه قوي لأنه خالق لأنه رب لأنه مسير.

هذه مقدمة أردت منها أن تتقبلوا أن يتصف إنسان بصفة فنعدها ذماً وأن يوصف خالق الكون بهذه الصفة فنعدها مدحاً.

نحن في حياتنا عندنا شيء من هذا القبيل يوصف الرجل بأنه كريم مدحاً وتوصف المرأة بأنها كريمة ذماً لأن المرأة إذا بذلت من مال زوجها دون إذنه وأتلفت ماله هذه صفة ليست صفة مدح، أحياناً نصف إنساناً بالتعقل وهو في موقع، وقد يكون هذا التعقل في موضع آخر صفة ذم.

على كلٍ كلمة الجبار لها معانٍ عدة:

المعنى الأول: الجبار هو العالي الذي لا يُنال، نقول نخلة جبارة لشدة ارتفاعها لا نستطيع قطف ثمرها، نقول ناقة جبارة يصعب ركوبها، والله سبحانه وتعالى يقول في قرآنه الكريم:

(قَالُوا يَا مُوسَى إِنّ فِيهَا قَوْماً جَبّارِينَ وَإِنّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنّا دَاخِلُونَ (٢٢))

(سورة المائدة)

أي عظماء أقوياء أشداء، أما إذا قلنا فلان جبار يعني لا يتواضع متعاظم متكبر لا ينقاد إلى أحد، مثل هذا الإنسان لابد من أن يقصمه الله عز وجل قصماً، لذلك ترون وتسمعون كل وقت وكل حين عن جبار من جبابرة الأرض قصمه الله عز وجل وجعله في أسفل سافلين لأن الكبرياء من صفات الله عز وجل و العظمة من صفات الله عز وجل فلا يحق لإنسان ضعيف منازعة الله هذه الصفات.

الجبار: نفهم اسم الجبار بالمعنى الأول هو الله عز وجل

فمن الجهل والتنطع والتطاول على حضرة الله عز وجل أن تظن أنه بإمكانك أن تفهم كل شيء عنه، هذه فكرة مغلوطة، عين العلم به عين الجهل به وعين الجهل به عين العلم به، والعجز عن إدراك

الإدراك إدراك، إذا قلت لا أعلم عن الله إلا في حدود ضيقة جداً فأنت عالم، أما إذا أردت أن تقنع الناس ببساطة أن بإمكانك أن تعرف كل شيء فهذا دليل عجز، هذا المعنى الأول من معاني اسم الجبار الإله العظيم الذي لا تناله الأفكار ولا تحيط به الأبصار ولا يصل إلى كنهه عقول العقلاء وهو من صفات التنزيه.

المعنى الثاني: العوام يعرفونه فلان جبر خاطر فلان، يا جبار الخواطر جابر عثرات الكرام، قول مشهور: ما عُبِدَ الله في الأرض بأفضل من جبر الخواطر، جبرت العظم، المجبر جبر العظم، الجبار بهذا المعنى هو المصلح للأمور، كلما حصل أمر حصلت مشكلة إن سلم شيء، تهدم شيء، افتقر إنسان تضعضع إنسان، يأتي خالق الكون وهو الجبار فيرأب الصدع ويلم الشمل ويغني الفقير ويجبر الكسير ويعطي المحروم ويرفع الذليل، لذلك كلما جئت الله عز وجل خاضعاً منكسراً جبرك، كلما جئته من باب الخضوع والتذلل والإنكسار جبر كسرك ولمّ شعثك ورأب صدعك وقوى ضعفك وأغنى فقرك وأعز ذلك.

أما الجبار فهو كثير الجبر نوعاً وكماً، تقول مثلا: جبار لإنسان أعطى مائة رجل فقير لم تقل له جابر بل جبار لأن عطاءه شمل مائة إنسان وإذا أعطى إنسان عطاء كبيراً لوحده أيضا جبار فإما لمبالغة النوع أو لكثرة العدد، على كلٍ الجبار هو المصلح إن جبر الفقير أغناه وإن جبر المريض شفاه وإن جبر الذليل أعزه وإن جبر الضعيف قواه وإن جبر الخائف أمّنه، فالجابر هو المصلح والجبار كثير الإصلاح كمّاً ونوعاً هذا المعنى الثاني.

إذاً قل يا جبار، يقول التجار: يا جبار، لأن بيع البضاعة عند التاجر جبر وربنا عز وجل ما ذكر من صفات التجارة إلا صفة واحدة فقال:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ(٢٤))

(سورة التوبة)

ما من منظر يتفتت له قلب التاجر كأن يرى بضاعته مكدسة في المستودع ولا أحد يسأله عنها، لذلك الله عز وجل حينما ذكر التجارة ذكر الشيء المؤلم عند التاجر، يا جبار أي يا رب أجعل هذه البضاعة نافقة وحبب الناس بها واجعلهم يقبلون عليها.

الدعاء الشهير الذي دعاه النبي عليه الصلاة والسلام:

((يا جابر كلَ كسير))

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((الحزانى في كنف الله، إن الله يحب كل قلب حزين، الحزانى معرضون للرحمة))

إذا كنت في خصومة وكنت أنت القوي واستعملت قوتك في الظلم فلست رابحا ولست منتصرا لأن هناك جبارا أعلى سوف يقصمك، أما إذا كنت الجانب الأضعف هناك الجبار الذي سيرحمك.

شريكان يتخاصمان أحدهما أقوى من الثاني القوي يطرد الضعيف ويبقى في المحل ليس هذا ربحاً ولا ذكاءً ولا شطارةً ولا قدرةً لأن الله مع الضعيف والله هو الجبار، سيجبر كسر الضعيف وهو الجبار سيقصم الظالم.

زوجان تخاصما أحدهما تجاوز حدوده، هنيئاً لمن كان الأضعف هنيئاً لمن كان المظلوم، لأن الله مع المظلوم في الزواج وفي الشراكة وفي أي تعامل.

أب غني ترك أرثاً كبيراً وترك أولاداً أحد أولاده قوي والآخرون صغار في السن دون السن القانونية، بذكاء أو بحيلة أو باحتيال الكبير استطاع أن يأخذ معظم الثروة له وحده وأن يخص إخوته الصغار بشيء قليل، الله جبار، فمازال أحد إخوته الصغار يوفقه الله عز وجل ويمده ومازال الله عز وجل يضعف هذا الأخ الكبير ويفقره ويسد الطرق في وجهه إلا أن اضطر الكبير أن يبيع الصغير كل ما أخذه من أبيه غصبا، ثم اضطر الكبير أن يعمل عند الصغير ومثل هذه القصص كثيرة جدا في كل الأسر، دائما الظالم، فالله جبار على الظالمين جبار للمظلومين، جبار على الأقوياء جبار للضعفاء، جبار على المتكبرين جبار للمتذللين.

فالجبار المصلح لكل الأمور، المظهر لدين الحق، الميسر لكل عسير، الجابر لكل كسير وهذه صفة من صفة أفعال الله عز وجل صفة فعل.

المعنى الثالث للجبار: الجبار بمعنى أنه جبره على كذا أي أكرهه على ما أراد بمعنى أجبره، الله عز وجل جبار مشيئته هي النافذة، أنت تريد وأنا أريد هكذا يقول الله عز وجل في الحديث القدسي:

((أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

فرعون قال: أنا ربكم الأعلى، وما أرى لكم من إله غيري، رأى في المنام أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه، كان حريٌ به أن يتوب إلى الله عز وجل وأن يعود عن غيه وعن ظلمه وعن كبره وعن ادعائه، خطر في باله أن يقتل كل أبناء بني إسرائيل وهكذا فعل، لا تستطيع قابلة في عصره إلا أن تخبر رجاله عن مولود ذكر ولد لبني إسرائيل فإذا أخفت قتلت هي مكانه، يذبح أبناءهم.

أما هذا الذي سيقضي على ملكه رباه في قصره الجبار الله عز وجل قهره وهو يغرق،

قال تعالى:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠) آَلْآَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١))

(سورة يونس)

أخوة يوسف أرادوا به كيدا فجعلوه في غيابة الجب، ما الذي حصل ؟ دخلوا عليه قال: **أنا يوسف و هذا أخي قد منّ الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين**، ما الذي حصل ؟ والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

الله جبار فقد أحبط مسعى إخوته الذين أرادوا أن يجعلوه في غيابة الجب أرادوا أن يقتلوه ثم صار عزيز مصر، إذاً الله جبار.

قوم إبراهيم أرادوا أن يحرقوه وأن ينتهوا من هذه الأسطورة والأمر بيدهم وهم أقوياء وجاؤوا بالنار وأوقدوها وأضرموها وألقوا إبراهيم عليه السلام وكان من الممكن أن يتفلت من أيديهم، كان من الممكن أن لا يعثروا عليه، كان من الممكن أن تأتي أمطار غزيرة تطفئ نارهم، كان من الممكن ألا يعرفوا من كسر هذه الأصنام لكن أراد الله عز وجل أن يعرفوا أنه كسرها وهو فتى وأن يعترف بفعلته وأوقدوا النيران وأشعلوها وألقوه فيها، الله جبار قال تعالى:

(قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠))

(سورة الأنبياء)

النبي عليه الصلاة والسلام أئتمروا على قتله، قاطعوه نكلوا بأصحابه ثم دخل عليهم فاتحاً وهم رهن إشارة منه، لو أعطى إشارة لقتلوا جميعاً قال: **ماتظنون أني فاعل بكم** قالوا: **أخ كريم وابن أخ كريم** قال: **اذهبوا فأنتم طلقاء**، الله جبار.

في الخندق ضاق الأمر إلى أن ظن أصحاب النبي أن الأمر قد انتهى حتى قال بعض الضعفاء منهم مايعدنا صاحبكم، أيعدنا صاحبكم أن تفتح علينا بلاد قيصر وكسرى وأحدنا لا يأمن أن يقضي حاجته ما الذي حصل، هبت الرياح العاصفة فقلبت قدورهم واقتلعت خيامهم وأطفأت نارهم قال تعالى:

(وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً (٢٥))

(سورة الأحزاب)

الله جبار أمره هو النافذ لا ينفذ في ملكه إلا أمره أبداً، بعضهم قال: هذا شجر الكينا إن حمل إجاصاً فأنا سأترك هذا العمل وقد قهر ووضعوا له هذا الثمر على هذا الشجر، فلا ينفذ في ملك الله عز وجل إلا مشيئته، وإلا إرادته أبداً.

أول معنى الجبار الشيء العالي الذي لايدرك من أسماء التنزيه فمن المستحيل أن تحيط بالله عز وجل حتى الأنبياء لم يعرفوا الله، عرفوا جانباً من الله عز وجل عرفوا طرفاً من كمالات الله، لكن لا يعرف الله إلا الله. هذا أول معنى المعنى الثاني الجبار المصلح الضعيف يجبره الكسير يجبره المظلوم يجبره الفقير يجبره هذا المعنى الثاني، أما المعنى الثالث هو الذي يجبر جميع الخلق على مشيئته إرادته أبداً.

والله لقد سمعت قصة من أخ كريم في المسجد قال لي: إن رجلاً معروفاً بالغنى الفاحش خطب ابنته مهندس، شاب أخلاقه عالية ذكي دخله دخل مهندس، فهذا العم يعمل في تجارة ناجحة جداً ورائجة جداً ويحصل منها مئات الملايين، تباحث الغني مع زوجته قائلاً: هذا المهندس فقير ليس في إمكانه أن يعيش مع ابنتنا رفض لفقره، لكن رفض باستعلاء ورفض بكبر، بقدرة قادر هذه التجارة الرائجة أساسها قانون هذا القانون أوقف العمل به، فجأة توقفت تجارته، فجأة أصبح تحت طائلة المطاليب هذا العم الغني تراجعت تجارته شيئاً فشيئاً إلى أن أصبح بحاجة إلى مصروف يومه، وأن يكون وسيطاً في أن يطلب ابنته مرة ثانية هذا المهندس الذي وفقه الله عز وجل ففتح مكتباً، ثم كان أن وافق هذا العم على تزويج ابنته من هذا المهندس، ثم عمل العم عند هذا المهندس موظفاً، هذه قصة والله وقعت في هذه البلدة ولكن لا أذكر الآن تفصيلاتها الدقيقة، القصة قديمة من عشر سنوات سمعتها، لكن هذا العم الغني المتعجرف المتكبر اضطر أن يعمل موظفاً عند صهره المهندس، الله جبار.

امرأة قالت لضرتها التي لا تنجب موتي غيظاً في بطني جنين وعلى يدي طفل وأمامي ولد، من يصدق أن هؤلاء الأولاد الثلاثة ماتوا تباعاً، وأن التي لا تنجب رزقها الله خمسة أطفال ذكور ؟ ! الله جبار، هذا الاسم بالتجارة ظاهر كثيراً، بالعلاقات الزوجية يظهر كثيراً، دائماً الضعيف المظلوم المقهور الكسير الحزين المستضعَف الله عز وجل معه دائماً يؤيده وينصره ويوفقه، كلما بلغني أن شريكين تخالصا، أقول أعرف من هو المظلوم من مستقبل الشريكين، فالذي وفقه الله عز وجل هو المظلوم والذي قصمه الله هو الظالم دائماً.

الزوجان طلقت امرأة من زوجها هو يدعي أنها زوجة سيئة وهي تدعي أنه زوج سيء أحياناً، في المستقبل إذا وفقت بزوج صالح أكرمها و وربط هو بزوجة سيئة أزعجته معنى ذلك أنه كان ظالماً لها.

والقصة التي تعرفونها أن رجلاً مع زوجته، طرق الباب طارق فتحت الباب فوجدت سائلاً وكان الزوج يأكل مع امرأته دجاجاً، رغبت أن تعطيه شيئاً من الطعام فنهرها وقال اطرديه، دارت الأيام طلقت هذه من زوجها وخطبها إنسان ميسور الحال وهما جالسان يأكلان هذا الطعام نفسه ولحكمة بالغة طرق الباب فانطلقت لتفتح الباب فاضطربت قال زوجها من الطارق ؟ قالت سائل قال لماذا اضطربت هي قصة قد تكون رمزية قالت أتدري من السائل إنه زوجي الأول الذي أمرني أن أطردك.

وفي كل زمان وفي كل مكان وفي كل عصر وفي كل مصر تجري مثل هذه القصص. غني يفتقر فقير يغتني ضعيف يقوى قوي يضعف، كم من إنسان كان في قبضة إنسان، يذيقه ألوان الإهانة والعذاب، فجأة وقع هذا القوي في قبضة المستضعف فإذا أقبلت الدنيا عليك فلا تتكبر.

والحقيقة كما أن الله عز وجل يعطي المال بشكل كبير فيدهش، وبإمكانه وبقدرته أن يأخذه دفعة واحدة فيدهش.

التقيت بإنسان أتعامل معه زرته في محل في حي الدويلعة قال لي والله يا أستاذ كنت صاحب معمل ألبسة جاهزة عندي ثلاث سيارات، واحدة للمعمل وواحدة للسفر الطويل وزنها كبير مريحة وواحدة للبلدة، وعندي حديقة لها ثلاثة موظفين يعملون بها وما دخل بيتي في حياتي الفاكهة إلا بأكبر كميات، وخدّام في البيت، رأيته في الدكان ينام على طاولة التفصيل، ويأكل علبة لحم ليس عنده صحن يضع فيه هذا اللحم يفتحها علبة سردين ويأكل منها، رأيته بأم عيني وحدثني عن قصته التي لا تصدق كيف كان وكيف أصبح، وهي قصة طويلة حتى أهله طردوه من البيت، فاضطر أن ينام في هذا المحل، وأن يأكل هذا الطعام الله جبار يقصم كل جبار.

أحياناً يكون زوج جباراً على زوجته الأكل دون ملح يضرب المائدة بقدمه ينكب الطعام كله، ينفلج يحتاج زوجته لا تصغي له فتنعكس الآية.

كان هناك طبيب جبار لا يوجد في دمشق غيره وهذه القصة منذ سبعين عاماً تقريباً، لا يخرج من العيادة إلا بـليرة ذهب وعربة لتنقله لعدم وجود المركبات في زمنه، وكان طبيباً نسائياً ولا يهمه أحد، المرأة التي تلد فقيرة، كانت أم غنية تملك المال أو لا تملكه، ذكر لي بعضهم أن فقراء الناس كانوا يضطرون لبيع الفراش من تحتها، ولادة عسرة وطبيب وحيد في البلد ولا يخرج من بيته إلا بـ ليرة ذهب وعربة.

بنى بناء بأرقى أحياء دمشق، والآن البناء موجود ومزخرف بالحجار من أندر الأبنية، بعدما بناه أصيب بالفالج تحمله أهله عدة أيام ثم أمرت الخانم زوجته أن يوضع في قبو البناء فوضعوه في القبو، وكانت تبعث له الطعام مع الخادمة فيسألها الخانم فتقول له: قلت لها ولم تأتي، وقد طلبها أول مرة والثانية والثالثة ولم تأتي فتقول له الخادمة: هذا طعامك أمامك ماذا تريد من الخانم. ثماني سنوات مشلول ويقدم له الطعام لكن رائحته الكريهة فاحت، نقل إلى بيت بعيد ليبقى هذا البناء أنيقاً وبعيداً عنه، وهو الذي بناه، قصته مشهورة جدا الله جبار، لم يكن يرحم المرأة الفقيرة فتبيع الفراش من تحتها والإنسان يتجبر ويتحكم بالناس أحيانا بعلمه حيث يقول لا يوجد غيري في هذا الاختصاص، وأحيانا يكون رجل بحاجة إلى هذا المخبر إلى هذا الطبيب فيعلم أنه إنسان محتاج فيتحكم به والله جبار مع الضعيف ضد القوي مع المظلوم ضد الظالم مع الفقير ضد الغني الظالم وليس كل غني ظالماً.

المعنى الثالث: الجبار: جبره على كذا أي أكرهه على ما أراد.

الجبار: هو الله عز وجل الذي أجبر الخلق على ما أراد وحملهم عليه، أرادوا أم لم يريدوا أحبوا أم لم يحبوا أي لا يجري في سلطانه إلا ما يريد ولا يحصل في ملكه إلا ما يشاء ينفّذ مشيئته على سبيل الإ جبار ولا تنفذ فيه مشيئة أحد، سبحان من تنزه عن الفحشاء فأجابه عالم آخر: قال سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء، فبعد المعنى الدقيق للجبار هل لكم علاقة مع غير الله عز وجل، هل يوجد جهة غير الله عز وجل أهل لأن تسأل أن تخاف ؟

أحد العارفين قال: **" يا رب عجبت لمن يعرفك كيف يرجو أحداً غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يستعين على أمر بأحد غيرك، وعجبت لمن يعرفك كيف يلتفت لأحد غيرك ".**

بعضهم قال: **الجبار من لا يرقى إليه وهم ولايشرف عليه فهم ولا يلحقه إدراك، ينفذ أمره في كل شيء ولا ينفذ فيه أمر شيء،** من أصلح الأشياء بلا إعوجاج وأمر بالطاعة بلا إحتياج، هذا من تعاريف اسم الجبار.

إذا كان الإنسان جباراً بالمعنى المذموم لا بد من أن يقصمه الله عز وجل، ويمكن للإنسان أن يتخلق بهذا الخلق من زاوية واحدة فقال: من لم يكن أسيراً لحب المال والجاه، فكل إنسان يحب المال هذه نقطة ضعف فيه أصبح ضعيفاً مفتاحه المال، وآخر تعظّمه فيلين معك هذا يحب الجاه، فكل إنسان أسير للمال أو الجاه ضعيف، فإذا تنزه الإنسان عن حب المال وحب الجاه أصبح جباراً بالمعنى الذي يليق بالإنسان، لم يعد إنساناً تستطيع أن تملك مفتاحه، فتصل إلى ما تريد عن طريق نقطة ضعفه. فالمؤمن الجبار لا يوصل إليه لا بالمال ولا بالمديح، لا تصل إليه إلا بالحق.

في كل شخص مهما كان قوياً نقطتا ضعف المال والنساء ولا يوجد إنسان يتآمر على إنسان إلا بهاتين النقطتين، إما بامرأة تغريه فيسقط وإما بمال يأخذه حرامًا فيسقط، فإذا كان الإنسان محصناً من المال والنساء لا يستطيع أعداؤه النيل منه.

فالجبار من الناس الذي يجبر الخلق بهيئته وصورته على أن يقتدوا به، يفيد ولا يستفيد ويؤثر ولا يتأثر هذا هو النبي عليه الصلاة والسلام، أي بلغ من الكمال درجة يفيد الخلق كلهم ولا يستفيد يؤثر فيهم ولا يتأثر غني عن المال.

قال له: لمن هذا الوادي ؟، فقال له: هو لك. قال: عجبت لك أتهزأ بي **!!**، قال: هو لك، قال: أشهد أنك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر، قال: لو كان موسى حيا ما وسعه إلا إتباعي.

إذاً الجبار إذا أمكن لإنسان أن يكون كريما فعليه أن يتنزه عن حب المال وعن حب المديح والجاه.

٨- اسم الله المتكبر:

لا بد من أن نعرف الله، و معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى جزء من معرفته، إنه موجود وإنه واحد وإنه كامل، لابد من معرفة أسمائه الحسنى وصفاته الفضلى لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ: إنّ لِلّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

(صحيح البخاري)

ولكن الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى لا يعرفه إلا الله هذه حقيقة يجب أن تكون بين أيدينا، لا يعرف الله إلا الله ونحن إذا أردنا أن نعرفه كمن يأخذ مخيطا ويغمسه في مياه البحر ثم لينزعه فلينظر بم يرجع ؟ هذا تشبيه ورد في الحديث الشريف قال عليه الصلاة والسلام:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غمس في مياه البحر))

فإذا كانت معرفة الله سبحانه وتعالى بحراً فمعرفة الإنسان لله عز وجل لا تزيد عن ما يحمل المخيط إذا غمس في مياه البحر، ولكن كما قال الإمام علي كرم الله وجهه: **" أخذ القليل خير من ترك الكثير"**

سؤال: هل بالإمكان أن نضرب بعض الأمثلة كي نتعرف إلى الله عز وجل ؟ أيجوز أن نضرب أمثلة منتزعة من حياتنا من أجل توضيح بعض الحقائق ؟

يجوز ولله المثل الأعلى، سآتيكم بالدليل، الدليل هو أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يعرفنا بذاته فضرب المثل فقال:

(ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨))

(سورة الروم)

ربنا سبحانه وتعالى من أجل أن يعرفنا بأنه لا إله إلا الله ولا شريك له ولا أحد يشركه في حكمه ضرب هذا المثل، إذاً يمكن أن أستخدم بعض الأمثال لمعرفة أسماء الله الحسنى والسبب أن اسم اليوم هو المتكبر، وكلمة المتكبر إذا أطلقت على إنسان تنفر النفس منه، ولكن المتكبر هو الله سبحانه وتعالى، فمن أجل أن أوضح لكم هذا الاسم أنا مضطر إلى أن أضرب بعض الأمثال:

إنسان بحاجة ماسة إلى مئة ألف ليرة ليجري بها عملية جراحية تحدد مصيره بالحياة، لابد من أن تجرى هذه العملية ولا بد من هذا المبلغ، ولا يملكه، توجه إلى رجل من أقربائه فقال: أمعك هذا المبلغ ؟ قال له: نعم معي هذا المبلغ وهو كاذب، وتوجه إلى إنسان آخر من أقربائه وسأله السؤال نفسه قال: أمعك هذا المبلغ ؟ قال: نعم معي وهو صادق، فالذي قال: نعم معي هذا المبلغ ولا يملكه هذا الكلام

يكون ناقصاً، ويدعي ما ليس له، والثاني لو أنه قال لقريبه لا ليس معي شيء وتواضع يعد ناقصاً، يجب أن يقول معي هذا المبلغ وخذ هذا المبلغ.

فالتكبر في الله كمال وفي العبد نقص لأن الله خالق الأكوان بيده ملكوت كل شيء كن فيكون وإليه يرجع الأمر كله لا نهاية لعظمته لا نهاية لكماله لا نهاية لعلمه لا نهاية لقوته، فإذا تكبر الله سبحانه وتعالى أي عرف أنه عظيم وهذا ينقلنا إلى اسم آخر من أسماء الله الحسنى وهو اسم المؤمن يعرف نفسه، إذا كنت تحمل أعلى شهادة في اللغة العربية وجلس إلى جانبك إنسان يحمل الإعدادية وقرأ النص أمامك فإذا في قراءته أغلاط كثيرة، وأنت مهما كنت متواضعا ألا تعرف أنك في اختصاصك متفوق وتحمل الدرجة العلمية وأن هذه القراءة كلها أغلاط ؟ نعم.

إذا بادئ ذي بدء إذا قال الجبان: أنا شجاع فهذه صفة نقص في حقه، وإذا قال البخيل: أنا كريم فهذا الكلام نقص في حقه، وإذا قال الجاهل: أنا عالم فهذا نقص في حقه، أما إذا قال العالم: أنا عالم وسأجيبك عن سؤالك رحمة بك هذا كمال، وإذا قال الشجاع: أنا شجاع وسأدافع عنك هذا كمال، وإذا قال الكريم: أنا كريم وخذ هذا كمال.

فعندما نقول: إن الله متكبر فهو من أسماء الكمال، وعندما تقول: فلان متكبر فالتكبر صفة نقص في الإنسان، هذه الحقيقة الأولى في هذا الدرس، أي الإنسان إذا قال: المتكبر الجبار المنتقم ينبغي أن يسأل أهل الذكر.

المتكبر هو الذي يرى الكل حقيراً بالإضافة إلى ذاته ولا يرى العظمة والكبرياء إلا لنفسه، فينظر إلى غيره نظر الملوك إلى العبيد.

الله خالق السماوات والأرض بيده ملكوت كل شيء إليه يرجع الأمر كله إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، فإذا كان الله متكبراً فهو يعرّف ذاته وهذا يتصل باسم آخر من أسمائه الحسنى ألا وهو المؤمن.

ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ هَنَّادٌ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي النَّارِ))

(سنن أبي داوود)

وفي رواية أخرى قصمته ولا أبالي.

بعض العلماء يقول: **" المتكبر من الكبرياء والكبرياء هو الملك "** قال تعالى:

(قَالُوا أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ(٧٨))

(سورة يونس)

فالمتكبر هو الملك الذي لا يزول سلطانه والعظيم الذي لا يجري في ملكه إلا ما يريد وهو الله الواحد القهار هذا معنى من معاني المتكبر.

معنى آخر المتكبر من الكبير والعظيم لقوله تعالى:

(فَلَمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنّ مُتّكَأً وَآتَتْ كُلّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنّ سِكّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنّ فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطّعْنَ أَيْدِيَهُنّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١))

(سورة يوسف)

ومعنى أكبرنه أي عظمنه ومعنى قطعن أيديهن كما قال العلماء جرحن أصابعهن.

الله متكبر أي كبير ليس لكبريائه نهاية وهو عظيم ليس لعظمته غاية، هذا المعنى الثاني من معاني المتكبر، والمعنى الثالث المتكبر هو الذي تكبر عن ظلم العباد والمتكبر هو الذي انفرد بالكبرياء والملكوت وتوحد بالعظمة والجبروت والمتكبر هو الذي بيده الإحسان ومنه الغفران والمتكبر الذي ليس لملكه زوال ولا لعظمته انتقال.

أيها الأخوة الأكارم: من معاني المتكبر العظيم ذو الكبرياء وأصل التكبر الامتناع وعدم الانقياد، الله سبحانه وتعالى طليق الإرادة، والمتكبر هو الذي تكبر عن كل نقص وترفع عن كل نقص وتعظم عن كل ما لا يليق به المتعالي عن صفات خلقه أيضا، كل هذه التعريفات لاسم المتكبر والله سبحانه وتعالى كما قلت قبل قليل لا بد من أن نعرفه لأننا إذا عرفناه أطعناه فقال تعالى:

(وَمِنَ النّاسِ وَالدّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨))

(سورة فاطر)

لا يصح عملنا إلا إذا عرفناه ولا نسعد في الدنيا والآخرة إلا إذا صح عملنا. ثلاث فقرات لا بد من أن نعرفه فإذا عرفناه أطعناه وإذا أطعناه سعدنا بقربه في الدنيا والآخرة.

إذا المتكبر المتعالي عن صفات خلقه كامل في ذاته، كامل في صفاته، كامل في أفعاله. النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((وَسَاقَ الْحَدِيثَ بِمِثْلِ حَدِيثِ هِشَامٍ عَنْ قَتَادَةَ وَزَادَ فِيهِ وَإِنّ اللّهَ أَوْحَى إِلَيّ أَنْ تَوَاضَعُوا حَتّى لا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَلا يَبْغِ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَقَالَ فِي حَدِيثِهِ وَهُمْ فِيكُمْ تَبَعًا لا يَبْغُونَ أَهْلا وَلا مَالا فَقُلْتُ فَيَكُونُ ذَلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللّهِ قَالَ نَعَمْ وَاللّهِ لَقَدْ أَدْرَكْتُهُمْ فِي الْجَاهِلِيّةِ وَإِنّ الرّجُلَ لَيَرْعَى عَلَى الْحَيّ مَا بِهِ إِلا وَلِيدَتُهُمْ يَطَؤُهَا))

(صحيح مسلم)

وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل:

((أحب ثلاث وحبي لثلاث أشد، أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد، وأحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد، وأحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد وأبغض ثلاث وبغضي لثلاث أشد، أبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد، وأبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد، وأبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد))

هل تصدقون أيها الأخوة أن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ عَلْقَمَةَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ))

(صحيح مسلم)

لماذا ؟ قال: لأن الكبر يتناقض مع العبودية لله عز وجل، أنت عبد وهو رب فإذا نازعته رداءه وإزاره قصمك ولا يبالي كما ورد في الحديث الشريف، الحديث الآخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَنْ تَوَاضَعَ لِلَّهِ دَرَجَةً رَفَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي عِلِّيِّينَ وَمَنْ تَكَبَّرَ عَلَى اللَّهِ دَرَجَةً وَضَعَهُ اللَّهُ دَرَجَةً حَتَّى يَجْعَلَهُ فِي أَسْفَلِ السَّافِلِينَ))

(سنن ابن ماجة)

النبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل مكة دخلها مطئطئ الرأس حتى كادت عمامته تلامس عنق بعيره تواضعا لله عز وجل، دخل عليه رجل أخذته رعدة فقال:

((هون عليك يأخي إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد بمكة))

تكبره وكبرياؤه ورفعته وعلاه ومجده وثناؤه وعلوه وبهاؤه كل ذلك إخبار عن استحقاقه لنعوت الجلال وتنزهه عن النقائص والآفات.

قال أحد العارفين بالله في المناجاة قال: **يا رب بماذا أتقرب إليك، فوقع في قلبه أن يا عبدي تقرب إلي بما ليس في، فقال: يا رب وما الذي ليس فيك، قال: الذل والإفتقار وهو من أقرب الأبواب إلى الله عز وجل ومن أنجحها أن تأتيه طائعاً.**

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنـــا فإنا منحنا بالرضى من أحبنـــا
ولذ بحمانا واحتم بجنابنــــا لنحميك مما فيه أشرار خلقنـــا
وعن ذكرنا لا يشغلنك شاغــل وأخلص لنا تلقى المــسرة والهنا
وسلم إلينا الأمر في كل ما يــكن فما القرب والإبعاد إلا بأمرنــــا
كن مع الله ترى الله معـــك واترك الكل وحاذر طمعـــك

ثم ضع نفسك بالذل لـــــــه قبل أن النفس قهرا تضــــعك

***

أحد العارفين بالله يقول: **بعد أن صلى العشاء والصبح في وقته دون أن يصلي قيام الليل: لأن أبيت نائما وأصبح نادماً أحب إلي من أن أبيت قائماً وأصبح معجباً، دخل في الكبر، ولو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر ؟** العجب.

طبعا لا يعرف اسم المتكبر إلا من جال فكره في الكون، يقول بعض العلماء: **" إن في الكون من المجرات ما يزيد عن مليون مليون مجرة، وفي كل مجرة ما يزيد عن مليون مليون نجم، وأن بين الأرض والقمر ثانية ضوئية واحدة والضوء يقطع في الثانية ثلاثمائة ألف كيلومتر، وبين الأرض والشمس ثماني دقائق وبين الأرض وأقرب نجم ملتهب أربع سنوات ضوئية "**، فإذا أردنا أن نقطع هذه المسافة بسيارة لاحتجنا إلى ما يقرب إلى خمسين مليون عام ذلك إذا الإنسان ركب مركبة واتجه نحو أقرب نجم ملتهب في الكون إلى الأرض، يحتاج إلى ما يقارب خمسين مليون عام، فما قولكم بنجم القطب الذي يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية ضرب ألف أي خمسين مليون ضرب ألف أي خمسين ألف مليون عام لنجم القطب أربعة آلاف سنة ضوئية، أربعة سنوات أربعة آلاف فما قولكم بالمرأة المسلسلة تلك المجرة الصغيرة التي تبعد عنا مليون سنة ضوئية فما قولكم بأحدث مجرة أكتشفت تبعد عنا ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦))

(سورة الواقعة)

يقول الإنسان: أنا، من أنت ؟ هذه المسافات أي هذه المجرة كانت في هذا المكان قبل ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية وهي الآن لا يعلم مكانها إلا الله.

قلت لكم من قبل أن بين الأرض والشمس مئة وثمانية وخمسين مليون كيلو متر وأن الشمس تكبر الأرض بمليون و ثلاثمائة ألف مرة وأن في برج العقرب نجماً صغيراً أحمر اللون متألقاً اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما هو المتكبر.

أيها الأخوة الأكارم: الكون مظهر لأسماء الله الحسنى وصفاته الفضلى لا تدركه الأبصار ولكن الكون بين أيدينا وهو يجسد ويظهر عظمة الله عز وجل قال تعالى:

(سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣))

(سورة فصلت)

من منا يصدق أن في اللقاء الزوجي الواحد يوجد ثلاثمائة مليون حوين ينطلق من الرجل وعلى كل حوين خمسة آلاف مليون معلومة وهذا الرقم دقيق جدا هذه المورثات لا ترى إلا بالمجهر، خلايا الدماغ مئة وأربعون مليار خلية سمراء اللون لم تعرف وظيفتها بعد، في الشبكية مئة وثلاثون مليون عصية ومخروط من أجل تحقيق الرؤية الدقيقة، في العصب البصري تسعمئة ألف عصب.

من منا يصدق أن الإنسان إذا ذهب إلى شمال الأرض إلى القطب المتجمد الشمالي حيث الحرارة سبعين تحت الصفر بإمكانه أن يرتدي معطفاً جيداً وأن يضع الأشياء التي تقيه البرد وليس بإمكانه أن يغطي عينيه؟ فإذا لامس الهواء الخارجي ماء العين تجمد، من وضع في ماء العين مادة مضادة للتجمد؟ هو المتكبر لم ينسَ هذه، إذا عاش الإنسان هناك بلا هذه المادة يفقد بصره فورا هو المتكبر، تفكر في خلق الله قال تعالى:

(إِنّ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللّيْلِ وَالنّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠) الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ (١٩١))

(سورة آل عمران)

من منا يصدق أن في دماغ الإنسان جهاز بالغ التعقيد يحسب تفاضل وصول الصوتين إلى الأذنين، يصل الصوت إلى الأذن اليمين إذا كان الصوت من اليمين قبل الأذن اليسار بـ واحد على ألف وست مئة وخمسة وعشرين جزءاً من الثانية وهذا الجهاز في الدماغ يحسب هذا التفاضل ويعرف الإنسان جهة الصوت ولولا هذا الجهاز لما عرفت جهة الصوت أبدا هو المتكبر.

أسماء الله عز وجل لا يمكن أن نعرفها إلا من خلال الكون من خلال هذه الآيات الدالة على عظمته، كل منا عنده مستودع للوقود السائل، فسعة المتر المكعب خمسة براميل من منا يصدق أن القلب يضخ في اليوم الواحد ثمانية أمتار مكعبة وأن قلب الإنسان الذي يعيش في عمر متوسط يضخ مايملأ أكبر ناطحة سحاب في العالم،

أتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

***

من منا يصدق أن في الكبد وظائف تزيد عن خمسة آلاف وظيفة وأن الإنسان دون كبد يعيش ثلاث ساعات فقط، إذا أردت أن أمضي في الحديث عن معجزات الله عز وجل وعن إعجاز الله في خلقه فالأمر لا ينتهي لكن الله تعالى لخص هذا كله حيث قال:

(وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١))

(سورة الذاريات)

أنت معك جهاز إيضاح معك وسيلة إيضاح مستمرة لو أمضيت في حياتك الدنيا تفكر في عظمة خلق الإنسان كما عرفت الله عز وجل.

هذا الذي يتكبر وهو من بني البشر كم هو ظالم لنفسه ؟ الله سبحانه وتعالى تلطف بنا قبل أسابيع حينما جاءت هزة أرضية خفيفة جداً، لو أنها كانت أشد لكانت أخبارنا في الآفاق، ثمانون ألف قتيل سبعون ألف جريح تحت الأنقاض، أبنية متهدمة هكذا جاءت نصف درجة ريختر لو كانت خمس درجات ريختر لم نكن الآن موجودين في هذا المجلس، على أي شيء نتكبر، نحن بلطف الله عز وجل، هزتان أرضيتان لا تبقي ولا تزر فعلام الكبر ؟ مدن رائعة مدن جميلة جدا أصبحت أثراً بعد عين في ثوانٍ فعلام الكبر ؟

حينما انحبست أمطار السماء وأصبح كأس الماء مهددا هُدِّدْنا بكأس الماء، هل في الأرض كلها جهة تستطيع أن تتخذ قراراً بإنزال الأمطار إلا أن الله سبحانه وتعالى تلطف بنا وأكرمنا وأرانا من آياته هو المتكبر من نحن ؟ هذه المركبة التي سموها إشلنجر المتحدي إسمها فيه سوء أدب مع الله عز وجل، فيها سبع رواد فضاء معهم رائدة فضاء أيضا لينجب ولد في الفضاء، الخطة كانت أن تحمل هذه المرأة من أحد هؤلاء الرجال وأن تنجب مولودا في الفضاء، ماهي إلا سبعون ثانية حتى أصبحت كرة من اللهب، علام الكبر ؟ من أنت ؟ أنت كن فيكون زل فيزول لا شيء، لذلك:

ومالي سوى فقري إليك وسيلة فلإفتقاري إليك فقري أدفـع

ومالي سوى قرعي لبابك حيلة فإذا رددت فأي باب أقـرع

***

وأنت في أعلى درجات العبودية مفتقر إلى الله عز وجل، وأنت في أوج قوتك وأوج صحتك وأوج علمك يجب أن تكون مفتقرا إلى الله سبحانه وتعالى، إذا أقدمت على عمل فقل: اللهم إني تبرأت من حولي وقوتي والتجأت إلى حولك وقوتك ياذا القوة المتين.

من منا يصدق (أنا أقول لكم هذه الأمثلة على أن الإنسان لا يصح له أن يتكبر فإذا تكبر فهو أحمق) نقطة من الدم لو تجمدت في بعض شرايين المخ في مكان يصاب بالشلل، كان معززاً مكرماً خفيفاً وضيعاً أصبح ملقاً على السرير أقرب الناس إليه يتمنى موته، على ماذا الكبر ؟ هذه النقطة لو تجمدت في مكان آخر لفقد الإنسان ذاكرته، حدثني أخ ابن أحد إخوتنا الكرام توفي والده وقبل وفاته فقد ذاكرته، خرج من معمله وبيته في المهاجرين وبقي يبحث عن بيته نصف ساعة لم يعرف بيته، من أنت بلا ذاكرة ؟ تفقد معلوماتك لا تبقى طبيبا.

دخل ابن على أبيه وهو صيدلي قال: من أنت ؟ قال: أنا ابنك يا أبتي، قال: لا أعرفك، فإذا كانت نقطة ما في مكان آخر فقد ذاكرته، بمكان ثالث أصبح لا يبصر، كل مافي الدنيا من جمال فقده، لا ألوان ولا جبال خضراء ولا بحار زرقاء ولا طفله الجميل لقد انتهى كل الجمال.

سمعت أن أحد الأدباء كان كفيف البصر وكان يقضي الصيف في النمسا في أجمل مكان، أنا أقول والله لو قضى الصيف في الصعيد في غرفة مكيفة كالنمسا تماما لأنه لا يرى شيئاً.

فالإنسان إذا غض بصره عن محارم الله وإذا باتت هذه العين خاشعة لله أغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى لا يفجعه بها، ألم تسمعوا قول النبي عليه الصلاة والسلام:

عَنْ عُثْمَانَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ:

((خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ))

(صحيح البخاري)

أحد علماء دمشق الكبار علّم ثلاثة أجيال، كان يرى أحداً في الطريق يقول له: يابني كنت أنت تلميذي وكان أبوك تلميذي وكان جدك تلميذي. بدأ بالتعليم في الثمانية عشر عاما من عمره وتوفي في الثامنة والتسعين، وكان مستقيم القامة حاد البصر مرهف السمع و أكرمه الله بأن زوجته عاشت مثله، كان يقال له: يا سيدي ما هذه الصحة ؟ يقول: **يا بني حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر**، من عاش تقياً عاش قوياً، ألا تحب أن يكون خريف عمرك رائعاً جداً ؟ إذا أردت أن تكون كريما على الله فاتق الله، إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، إذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك.

انظر إلى معامل كريات الدم الحمراء في نقي العظام هناك مرض خطير اسمه فقر الدم اللامصنع، هذه الخلايا هذه المعامل في نقي العظام تصنع في كل ثانية مليونين ونصف المليون كرية دم حمراء، أحيانا تتوقف عن العمل بلا سبب وهذا المرض اسمه فقر دم اللامصنع لماذا الكبر ؟ أنت مليون خطر يهددك، ماذا تفعل ؟

أعرف إنساناً كان من أولي اليسار وله مكانة مرموقة في البلد فقد بصره دخل عليه أحد أصدقائه قال له والله: يا فلان أتمنى أن لا أحمل هذه الدكتوراه وأن لا أكون في هذا المنصب وأن لا أكون في هذه البحبوحة وأن أقبع على الرصيف أتكفف الناس وأن يرد الله إلي بصري، هذه نعمة يجب أن نحفظها بطاعة الله عز وجل.

من أين يأتي هذا الورم ؟ الإنسان بكامل صحته فجأة تضطرب الخلايا في نموها فتكون القاضية !! هاتان الكليتان أحيانا تتوقفان فجأة عن العمل مرض اسمه هبوط مفاجئ في وظائف الكليتين، كل أسبوع مرتين في المشفى غسيل دم وشيء لا يحتمل... إذاً علام التكبر؟ هل تملك كليتيك ؟ هل تملك قلبك ؟

هل تملك دسامات القلب ؟ هل تملك الشريان التاجي المغذي للقلب ؟ هل تملك أن تبقى الأوعية في الدماغ واسعة لا تضيق ؟ هل تملك أعصاب الحس أن لا تتلف ولا تلتهب ؟ هل تملك أن لا تتكلس مفاصل الإنسان فيصبح قطعة واحدة ؟

هناك أمراض كثيرة جدا فعلام التكبر ؟ هل تملك هذا اللسان ؟ وأنت نائم يزداد لعابك في فمك فيذهب تنبيه إلى الدماغ بأن كمية اللعاب في الفم قد ازدادت يجب تفريغها، فيأمر الدماغ لسان المزمار فيفتح الفتحة عن الرئتين إلى المري فيسقط اللعاب في المري وأنت نائم، وأنت نائم يقلبك الله ثمان وثلاثين مرة وأنت لا تدري ذات اليمين وذات الشمال لكي لا تقع عن السرير هذه نعم الله عز وجل، تأمل فيها تحب الله عز وجل وتبادر إلى طاعته، لا تنظر إلى صغر الذنب ولكن انظر على من اجترأت.

فهذا ثقب البوتال في القلب لو لم يسد ماذا نفعل ؟ يحتاج الابن لمليون ليرة أجرة عمل جراحي، فتحة بين الأذينين هكذا قال لي بعض الأطباء فتأتي جلطة تغلقها، يد مَنْ داخل القلب؟ يد مَنْ جاءت وأغلقت هذه الفتحة ثقب بوتال، لو بقيت مفتوحة يبقى الطفل أزرق اللون لأن الدم ينتقل من أذين إلى أذين ولا يتصفى عن طريق الرئتين.

الإنسان يأتيه مولود كامل فيقول: يا رب لك الحمد، لو فيه زرقة ويحتاج لعمل جراحي يكلف مليون ليرة ماذا نفعل ؟ علام الكبر ؟

الله عز وجل قادر أن يجعلك تبيع بيتك ومتجرك من أجل عملية جراحية واحدة، علام الكبر ؟ أنا أؤكد على موضوع الكبر في حق الله كمال وفي حق العبيد نقصان.

أعرف صديقاً لي توفي بمرض اسمه نقص في الصفيحات الدموية، الإنسان من دون صفيحات دموية ينزف دمه كله من ثقب أبرة، يوجد في الدم هرمون للتجلط وهرمون للتميع من توازن هرمون التميع والتجلط يبقى هذا الدم بهذا الشكل السائل، لو زاد هرمون عن هرمون لأصبح الدم وحلاً في الأوعية ولو زاد الثاني أصبح الدم مائعا، من الذي نظم ؟ وأنت نائم ومرتاح، ربنا عز وجل لم يوكل الأمر إليك، فكرت بموضوع لو أن الإنسان يكلف بالتنفس، لا يستطيع أن ينام فيلغى النوم كليا، تكلمت مع أخ طبيب فقال لي: هذا مرض يقع أحيانا، من تعطل ؟ مركز التنبيه النوبي في البصلة السيسائية، يوجد دواء الآن راقٍ جدا ومرتفع الثمن جدا يجب أن يأخذ كل ساعة حبة طوال الليل، فيضع المنبهات، ويستيقظ كل ساعة يأخذ حبة ثم يعود إلى النوم، أهذه حياة ؟ وأنت لا تدري أنت نم وارتح، التنفس بأعيننا والقلب والرئتين والحركات، فالحديث عن إعجاز خلق الإنسانيطول، فالإنسان كلما ازداد علماً ازداد تواضعاً والدليل قول الله عز وجل:

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)

فالعلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشى الله عز وجل، فكن عالماً أو متعلماً أو مستمعاً أو محباً ولا تكن الخامسة فتهلك.

يقول الإمام الغزالي: **" العلم لا يعطيك بعضه إلا إذا أعطيته كلك فإذا أعطيته بعضك لم يعطك شيئاً ".**

فما من قيمة اعتمدها الله عز وجل بين خلقه إلا قيمة العلم، هناك مجموعة قيم يتفاضل بها الناس فيما بينهم المال والصحة والوسامة والقوة والذكاء أما قيمة العلم اعتمدها الله عز وجل في القرآن فجعلها قيمة وحيدة للترجيح بين خلقه فقال:

(أَمْ مَنْ هُوَ قَانِتٌ آَنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآَخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩))

(سورة الزمر)

ورد في بعض الأحاديث:

((تبارك الذي قسم العقل بين عباده أشتاتا، إن الرجلين ليستوي عملهما وبرهما وصومهما وصلاتهما ويختلفان في العقل كالذرة جنب أحد، وما قسم الله لعباده نصيباً أوفر من العقل واليقين))

لذلك ما من يوم ينشق فجره إلا ويقول: **يابن آدم أنا فجر جديد وعلى عملك شهيد فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة**، والسيدة رابعة العدوية سئلت: من الإنسان ؟ قالت: **هو بضعة أيام كلما انقضى يوم انقضى بضع منه.**

فالمتكبر هو الله وهي صفة كمال فيه، والإنسان إذا تكبر صفة غباء وجهل ونقص فيه.

٩- اسم الله الغفار :

ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في صيغ ثلاث: الصيغة الأولى ورد هذا الاسم على صيغة غافر قال تعالى:

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣))

(سورة غافر)

وورد أيضا على صيغة ثانية وهي الغفور، غافر وغفور قال تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨))

(سورة الكهف)

وقال تعالى:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤))

(سورة البروج)

وقال تعالى:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩))

(سورة الحجر)

وقال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣))

(سورة الزمر)

إلى آخر الآيات التي ورد فيها هذا الاسم على صيغة غفور.

الصيغة الثالثة وردت غفار على وزن فعال قال تعالى:

(وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢))

(سورة طه)

وقال تعالى:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢))

(سورة نوح)

ألا هو العزيز الغفار، غافر وغفور وغفار وردت هذه الأسماء كلها في القرآن الكريم، هذه الأسماء كلها مشتقة من مصدر واحد وهو المغفرة.

قال بعض العلماء: **" الإنسان إذا عصى الله عز وجل وصف في القرآن بأنه ظالم ووصف في القرآن بأنه ظلوم وبأنه ظلام "** فقال تعالى:

(ثُمّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢))

(سورة فاطر)

وقال تعالى:

(إِنّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(٧٢))

(سورة الأحزاب)

وقال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً) (إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ (٥٣))

(سورة الزمر)

فالمسرف ظلاّم على صيغة المبالغة، فإذا كان العبد ظالما فالله غافر وإذا كان ظلوما فالله غفور وإذا كان ظلاما فالله سبحانه وتعالى غفار، بأية صفة أتى بها العبد المعصية فهناك اسم لله عز وجل يقابل هذه المعصية.

النقطة الدقيقة في هذا الاسم أن صفات الإنسان متناهية، معنى متناهية: الإنسان فعل هذا الذنب ذنب له حجم، فعل هذه المعصية أخذ هذا المبلغ ارتكب هذه المخالفة مهما تكن المعاصي والذنوب فإنها متناهية تنتهي عند حد لكن مغفرة الله عز وجل ليست متناهية لا حدود لها وغير المتناهي يغلب المتناهي، إذا لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الكفور لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الجهول لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا الجحود.

إذا كان ذنبك متناهياً ومغفرة الله عز وجل ليست متناهية فمن الغباء والحمق والجهل والجحود وقلة العلم أن تيأس من رحمة الله، لذلك اليائس كافر اليائس جاهل اليائس جاحد.

شيء آخر في هذا الاسم أن الآيات التي وردت في هذا الإسم وردت مرة على صيغة الماضي

قال تعالى:

(قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلّا الّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنّ دَاوُودُ أَنّمَا فَتَنّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبّهُ وَخَرّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٣) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآَبٍ (٢٤))

(سورة ص)

ومرت أيضا على صيغة الفعل المضارع قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً(٤٨))

(سورة النسا ء)

(وَالّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذّنُوبَ إِلّا اللّهُ وَلَمْ يُصِرّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥))

(سورة آل عمران)

ووردت بصيغة الأمر، قال تعالى:

(رَبّنَا إِنّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبّكُمْ فَآمَنّا رَبّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفّرْ عَنّا سَيّئَاتِنَا وَتَوَفّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣))

(سورة آل عمران)

ووردت بصيغة المصدر قال تعالى:

(آمَنَ الرّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلّ آمَنَ بِاللّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥))

(سورة البقرة)

(وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسّيّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنّ رَبّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنّ رَبّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ(٦))

(سورة الرعد)

أي يغفر لك ما مضى ويغفر لك الآن ويغفر لك في المستقبل وهو ذو مغفرة، بأي زمن شئت هو غفار، لأي ذنب فعلت هو غفار، إن كان الإنسان ظالما فالله غافر وإن كان ظلوما فالله غفور وإن كان ظلاما فالله عز وجل غفار وإن فعل الذنب في الماضي غفر الله له وإن فعله الآن يغفر الله له وما سيفعل من ذنب في المستقبل فإن الله عز وجل يغفر بعد الدعاء، بأي شكل بأي زمن فإن الله سبحانه وتعالى غفور رحيم.

أسوق هذا الكلام ليعلم الأخ المؤمن أنه لا يقنط من رحمة الله عز وجل إلا اليائس إلا الجاهل إلا الجاحد إلا الكافر.

ولكن أيها الأخوة الأكارم: إذا توهم أحدكم أن غافراً اسم فاعل أما غفور صيغة مبالغة لاسم الفاعل أما غفار صيغة مبالغة المبالغة لاسم الفاعل، (الحقيقة التي أتمنى أن تكون بين أيديكم هو أن أسماء الله عز وجل لا تتفاوت أبدا)

إذاً كيف جاء هذا الاسم على هذه الصيغ ؟ هنا السؤال.

إذا الإنسان تناول الطعام يقال له في اللغة ؟ آكل، إذا جلس إلى الطعام فأكل خمسة أرغفة يقال له أكول على وزن فعول(وباللغة العامية أكّيل)يقال له أكول إذا تناول كمية كبيرة، إذا تناول وجبة خفيفة ولكن أكل في اليوم خمس مرات يقال له: أكول، إذا صيغة المبالغة ماذا تفيد؟ تفيد النوع وتفيد العدد، الحقيقة الأولى أن أسماء الله عز وجل لا تتفاوت، كلها في مستوى واحد لأن الله عز وجل مطلق.

الإنسان كان في مستوى وارتقى إلى مستوى أعلى ثم ارتقى إلى مستوى أعلى، كان ظالماً فعل ظلماً أشد أصبح ظلوماً فعل ظلما أشد صار ظلاماً، أما هذا المعنى لا يليق بحضرة الله عز وجل أبدا. لو أن فلاناً ارتكب سيئة غفرها الله له فهو غافر، فلان آخر غفر الله له فلان ثالث غفر الله له فلان عاشر غفر الله له العباد كلهم لو أذنبوا غفر الله لهم، جاءت صيغة غفار لا من حيث النوع ولكن من حيث العدد، لو فرضنا قلت فلان ليس أكولا إذا نفيت عنه أنه أكول هل نفيت عنه أنه يأكل ؟ لا. إذا قلت:

(وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ)

قد يقول قائل معلوماته محدودة وأفقه ضيق الله ينفي عن نفسه مبالغة الظلم ولا ينفي عن نفسه الظلم، فإذا قلت عن إنسان ليس أكولاً ليس معنى هذا أنه ليس آكلاً، قال: هذا لا يليق بحضرة الله عز وجل لأن صيغة المبالغة بأسماء الله لا تعني الكم بل تعني العدد، فكل عباده لو أنهم أذنبوا فالله عز وجل غفور، فصيغة فعول تعني المبالغة لافي المعنى لكن في العدد والدليل قوله تعالى

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦))

(سورة فصلت)

الظلام في حق الله تعني أنه لا يظلم جميع عباده ينعمون بعدالته.

شيء آخر: المغفرة في اشتقاقها اللغوي تعني الستر، فمثلا الغفر وبر الثوب، وبر الثوب يستر اللحمة والسدى ومغفر الرأس الشعر يستر جلد الرأس، فباللغة معنى الستر ولكن ربنا عز وجل كما يتضح لكم ذكر بعض المعاصي فقال مثلاً عن سيدنا موسى:

(قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١٦))

(سورة القصص)

سيدنا النبي عليه الصلاة والسلام:

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً (٢))

(سورة الفتح)

فلا يستقيم معنى المغفرة بمعنى الستر لكن يستقيم بمعنى الصفح والعفو والستر والصفح يلغيان الشيء بمعنى واحد فالمعنى الأول المغفرة الصفح العفو أي عدم إيقاع العقوبة، أي الله عز وجل غفور يمكن أن يعفو عنك فلا يوقع عليك العقاب.

المشكلة الأساسية هو أننا إذا قرأنا القرآن نقرأ بعضه وننسى بعضه الآخر، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣))

(سورة الزمر)

لا ينبغي أن تقف عند هذا المكان في الآية قال تعالى:

(وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤))

(سورة الزمر)

أي غفور لمن أقبل، غفور لمن تاب، غفور لمن رجع، غفور لمن أناب، غفور لمن أصلح، غفور لمن استغفر، أما أن يقيم الإنسان على معصية وينوي أن يبقى عليها ويقول الله غفور رحيم هذا من السذاجة والجهل وعدم الفهم:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠))

(سورة الحجر)

أي إما أن تأتيه طائعا وإما أن يدفعك إلى أن تأتيه، ربنا عز وجل قال في بعض الآيات أن الله تاب عليهم ليتوبوا ويوجد آيات تابوا فتاب الله عليهم، ما معنى توبة الرب إذا سبقت توبة العبد ؟ وما معنى توبة الرب إذا تأخرت عن توبة العبد ؟

قال بعض العلماء: **" إذا سبقت توبة الرب توبة العبد أي أن الله عز وجل ساق له من الشدائد والمحن والمصائب ما دفعه إلى التوبة فما أكثر التائبين على أثر مصيبة نزلت بهم "**، الله عز وجل تاب على العبد قبل أن يتوب أي ساق إليه الشدائد والمحن والبلايا بحيث يحمله على التوبة وإذا قال الله عز وجل:

(ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً (١١) وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً (١٢) وَبَنِينَ شُهُوداً (١٣) وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً(١٤))

(سورة المدثر)

حيثما جاءت كلمة ذرني يعني يا محمد إن لم يستجب فلان لك دعه لي أنا أسوق له من الشدائد ما أحمله على التوبة وهذه آيات دقيقة جدا فالله عز وجل من رحمته بنا يسوق لك إنساناً لطيفاً يقدم لك نصيحة هادئة لطيفة بينك وبينه يدعمها بالآيات والأحاديث والقصص فأنت إما أن تستجيب وإما أن لا تستجيب، فإن لم تستجب فالله سبحانه وتعالى عنده من الوسائل والأساليب والأدوية والطرائق والمضايقات والشدائد ما يدفعك إلى بابه دفعا، فأيهما أرقى لك أن تأتيه طائعا أو أن تأتيه بعد العصى، هذا ما فسره النبي عليه الصلاة السلام:

((عجب ربكم من قوم يساقون إلى الجنة بالسلاسل، كل بني آدم يدخلون الجنة إلا من أبى، قالوا: ومن يأبى يا رسول الله، قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى))

فأنت أخوف ما يجب أن تخاف منه أن تدعى إلى الله عز وجل دعوة هادئة لطيفة فيها ستر بينك وبين أخ كريم ينصحك بغض البصر، بتحرير الدخل، بترك الظلم، بترك العدوان، فإن لم تستجب فالله سبحانه وتعالى كفيل أن يسوق للإنسان من الشدائد ما يحمله على التوبة، هذا معنى التوبة إذا سبقت توبة الرب توبة العبد.

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أما إذا جاءت توبة الرب بعد توبة العبد فهي قبول التوبة **" تابوا فتاب الله عليهم "** أي قبِلَ توبتهم.

إذا الإنسان إذا قرأ عن المغفرة قال:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ......... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

(صحيح مسلم)

هذا معنى هذا الحديث القدسي أن الإنسان إذا عاد إلى الله طواعية ضَمِنَ حفظ الله له وتأييده وإكرامه فإذا أبى ولم يستجب عندئذ سيأتيه العذاب من حيث لا يشعر لذلك ربنا عز وجل يقول:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤))

(سورة الأنفال)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَاباً أَلِيماً وَيَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئاً وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩))

(سورة التوبة)

إن لم تأته طائعا دفعك إلى بابه دفعاً.

بعض العلماء قال: **" النبي عليه الصلاة والسلام قال حينما توجه إلى ربه قال: يامن أظهر الجميل وستر القبيح "**.

دققوا في هذا الدعاء: يامن أظهر الجميل، وستر القبيح، أي قبيح هذا ؟ خواطرك تأتيك خواطر لا يعلمها إلا الله خاطر قبيح جدا خاطر معصية، قد يأتي في بالك خاطر لا يرضي الله عز وجل، لكن ألا ترى أن الله سبحانه وتعالى جميل الستر كل خواطرك محجوبة عن الخلق، لك أن تفكر بما تشاء ولك أن يخطر على بالك ما تريد وأنت عند الناس في أعلى مكانة، لذلك قال بعض الشعراء:

والله لو علموا قبيح سريرتي لأبى السلام علي من يلقاني

ولأعرضوا عني وملوا صحبتي

***

شريكان إذا اطلع الأول على مايدور في خلد الثاني لفك معه الشركة، لو اطلع الزوج على ما يدور في بال زوجته لطلقها، لو اطلعت الزوجة على مافي ذهن زوجها لتركته، لو اطلع الأب على مايدور في بال ابنه عند تفكيره يموت أبيه لكرهه أعطني يدك لتقبيلها وفي باله خاطر آخر، لو اطلع الأب على ما يجول في خاطر ابنه لأبعده عنه. فالله عز وجل ستار جميل الستر هذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام حينما دعا ربه قال: يامن أظهر الجميل وستر القبيح.

أي أنت في حصن حصين كل خواطرك الداخلية كل المشاعر كل الأفكار كل الطموحات، هذه كلها مستورة، فهذا من معنى المغفرة أي ستر عن الناس العيوب الفكرية، وشيء آخر الإنسان دون جلد قبيح جداً، لو رأيت إنساناً على مستوى العضلات فقط مخيف، إنها عضلات متداخل بعضها ببعض، لو رأيت عضلات الوجه وحدها لوليت من الإنسان فراراً، عشرات العضلات المتداخلة والمستقيمة والمائلة لكن يأتي هذا الجلد فيجعل الوجه جميلاً، فربنا عز وجل ستر العضلات بالجلد، ويوجد فتحات بالجسم كلها مستورة وما تراه هو المنظر الأنيق المهفهف هذا من معنى: يامن أظهر الجميل وستر القبيح، الوجه الجميل

والمعنى الثالث أن المؤمن في الجنة يستر الله عنه ذنوبه، لو أن المؤمن اطلع على جاهليته لاحترق، شيء فوق طاقة البشر لأنه مع الكمال المطلق، لو أن مؤمناً تاب إلى الله توبة نصوحاً وغفر الله له إذا تذكر ما فعل في الجاهلية يحترق، فمن رحمة الله بالمؤمن أنه يستر عنه عيوبه وهذا ما فسره بعض العلماء في سر فناء الجسد، إن هذه الصور في الذاكرة فإذا فني الجسد بقيت النفس النفس طاهرة مقبلة مطهرة معطرة مرتبطة بالكمال الإلهي، أحد المؤمنين له جاهلية وتاب مادام حياً يرزق إذا تذكر جاهليته وكيف كان وفي أي مستوى كان في أي منطق في أي مخالفات في أي معاصٍ يحترق، يحرقه كماله، هذا في الدنيا.

قالوا لابد للمؤمن من ذلة أو قلة أو علة ما الذلة ؟ هذه ذلة الجاهلية التي كانت قبل أن يتوب إلى الله عز وجل، لو أن الإنسان تاب من معصيته وشفيت نفسه منها إذا تذكرها تحرقه في الدنيا، فمن رحمة الله للمؤمن أنه في الجنة يستر الله عنه ذنوبه كلها، أبدا لا يرى شيئاً. ربنا عز وجل في سورة غافر قال:

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣))

(سورة غافر)

قال بعض المفسرين: **" غافر الذنب إكراما وقابل التوب إنعاما وشديد العقاب بالكافرين وذي الطول أي ذي العطاء الكبير للسابقين والمقربين ".**

الحقيقة ثلاثة أسماء من أسماء الله الحسنى للمؤمنين وأسم واحد للكافرين، فربنا عز وجل غافر الذنب وقابل التوب ذي الطول شديد العقاب، فقال: غافر الذنب لمن ظلم نفسه وقابل التوب للمقتصد وذي الطول للسابق، فبعض المؤمنين مقصرون مخالفون بعضهم مستقيمون بعضهم متفوقون، فربنا عز وجل للمقصرين غافر الذنب وللمقتصدين قابل التوب وللسابقين ذي الطول وللكافرين شديد العقاب، لماذا كانت صفة واحدة من صفات الله عز وجل للكافرين لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الكفر ملة واحدة فماذا بعد الحق إلا الضلال))

الكفر واحد أما الإيمان مراتب.

قال: هذا الوحشي الذي قتل سيدنا الحمزة، هل تعتقدون بوجود عمل أشنع وأبشع وأقذر من أن يأتي وحشي عبد مقابل أن يعتق فيأتي بحربته ويبقر بها بطن سيدنا الحمزة عم النبي فقال بعد أن فعل ما فعل وعرف قبح جريمته هرب إلى الطائف وندم على فعلته وكتب إلى النبي عليه الصلاة والسلام فقال: يا رسول الله هل لي من توبة ؟ قاتل عم النبي وعم النبي عليه الصلاة والسلام من أحب الناس إليه سيدنا الحمزة سيد الشهداء، **" الله عز وجل بعمرة أو بزيارة المدينة المنورة له قبر قرب جبل أحد "** فقال: يا رسول الله هل لي من توبة ؟ قال: فنزل قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً(٤٨))

(سورة النساء)

قال: لعلي لا أدخل تحت هذه المشيئة

(وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ)

قال فنزل قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨) يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَاناً (٦٩) إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً(٧٠))

(سورة الفرقان)

قال: لعلي لا يكون عملي صالحاً فنزل قوله تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

أي لو جئتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي لا الله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد والعقيم الوالد والظمآن الوارد.

عندنا بعض التفسيرات اللطيفة لقوله تعالى

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

الله عز وجل لم يقل قل يا عبادي الذين فسقوا، قل يا عبادي الذين زنوا، قل يا عبادي الذين شربوا الخمر، قل يا عبادي الذين قتلوا، بل قال:

(يَا عِبَادِيَ)

(يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

فيها تلطف فيها ستر، فيها ستر لحالهم، تذوق الكلمات القرآنية.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا)

الشيء الثاني كلمة:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

يوجد في الآية شيء جميل جدا أي هذا العبد أضافه الله إلى ذاته، والله تحببا لعباده تسلية وتطمينا لهم وإكراما لهم نسبهم إلى ذاته.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ)

فزينتهم بنسبتهم إلى ربهم وقبحهم لا يعقل أن يغلب نسبتهم إلى ربهم لذلك حينما يقول لك الله عز وجل:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

يجب أن تفتخر يجب أن تطير إلى السماء حبا به وإقبالا عليه.

الشيء الآخر.

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا)

لم يقل في معصية ربهم لا، أسرفوا على أنفسهم أي هذه المعاصي ما أضروا بها أحداً أضروا بها أنفسهم ذات الله منزهة عن كل أذى.

((لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص من ملكي شيء))

فـ:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ)

لا على الله عز وجل، ذات الله منزهة.

(لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً)

دقق في الآية:

(إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

أي هو الغفور إن أذنبت أو لم تذنب، هو الغفور دون أن تذنب ولو أنك أذنبت فهذه هي صفته الثابته هذه صفته القديمة والسرمدية والأبدية، قال وأما قوله تعالى:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩))

(سورة الحجر)

قال مر النبي عليه الصلاة والسلام ببعض الصحابة فرآهم يضحكون فقال عليه الصلاة والسلام: **أتضحكون والنار بين أيديكم،** فحزنوا جدا، ثم رجع القهقرى فقال: جاءني جبريل عليه السلام وقال: يقول الله تعالى:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩))

أيها الأخ الكريم لا تكون في حالة نفسية صحيحة إلا إذا جمعت بين الخوف والرجاء، فإذا غلب الخوف حالة مرضية وإذا غلب الرجاء حالة مرضية وازن نفسك، يوجد في الدم هرمون التجلط وهرمون التميع إذا غلب هرمون التجلط رأيت الدم كالوحل في الأوردة والشرايين فيموت الإنسان فورا، وإذا غلب هرمون التميع سال الدم كله من ثقب صغير، في كلا الحالين الإنسان ميت ولا بد من التوازن الدقيق بين التجلط وبين التميع وبعلاقتك مع الله عز وجل يجب أن يكون هناك توازن دقيق جدا بين الرجاء والخوف، فأكثر الناس يقول: لا تدقق ولا تعقدها الله غفور رحيم هذا رجاء أبله، لو قرأت القرآن لوجدت أن الله سبحانه وتعالى يقول كثيراً ثم إن ربك للذين تابوا وآمنو وعملوا الصالحات إن ربك من بعدها لغفور رحيم، إذا راجعت القرآن الكريم ودققت الآيات التي وردت من بعدها، تجدها آيات كثيرة:

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣))

(سورة الأعراف)

فالتفاؤل والرجاء دون توبة دون استقامة تفاؤل أبله أحمق، والخوف إلى درجة الإنسحاق واليأس من رحمة الله هذا يأس قاتل ولن تسعد مع الله عز وجل إلا إذا جمعت بين الخوف والرجاء قال تعالى:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ(٩٠))

(سورة الأنبياء)

(قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣))

(سورة الأنعام)

قال نبئ يا محمد:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩))

قبل العباد جاءت شفاعة النبي وبعد العباد جاءت رحمة الله والعبد بين شفاعة وبين رحمة هذا من باب التطمين، ويقال أن أحد الخلفاء دخل عليه ولد ابنه وولد ابنته فقال لهما: أنتما ابن من ؟ فانتسب ابن بنته إلى أبيه وانتسب ابن ابنه إليه هكذا يروى وليس هذا الموقف كاملا، ملأ حجر ابن ابنه بالجواهر وملأ حجر ابن ابنته بالسكاكر، لأنه انتسب إليه، مغزى القصة أن الإنسان إذا قال: يا رب أنت ربي لا إله إلا أنت يا رب ليس لي أحد سواك، فانتسابك يرفعك عند الله عز وجل وربنا عز وجل أكرمك بهذا النسب فقال:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ)

فالذي يقرأ القرآن يجب أن يتذوق كيف أن الله سبحانه وتعالى نسب العباد إلى ذاته ويوجد أيضا تكرير قال تعالى:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩))

في الآية تكرار، بـ أنا، إني أنا، الياء ضمير المتصل بأني هو نفسه أنا إني أنا، لماذا التكرار؟ للتطمين.

(أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩))

بعضهم قال: **" غافر الذنب "** يمحو هذه السيئة من دفتر أعمالك، وأما الغفور يمسحها عند الملائكة وأما الغفار ينسيك أنت هذا الذنب، فإما أن تمحى من دفترك وإما أن ينساها الملك وإما أن تنساها أنت، هذا منتهى الكرم أن تأتي يوم القيامة وليس لك جاهلية وليس لك ذنب كمال في كمال، لذلك تسعد في جنة الله التي عرضها السماوات والأرض إلى أبد الآبدين.

إذا تاب الإنسان في سن مبكرة هذا رائع جداً، ولكن إذا عرف الله في سن متأخرة فلا مانع فضل الله كبير، وفي الحديث القدسي يقول الله عز وجل للعبد إذا تقدم سنه:

((عبدي كبرت سنك وانحنى ظهرك وضعف بصرك وشاب شعرك فستحي مني فأنا أستح منك))

والقصة التي أتلوها عليكم كثيراً ولا أنساها أحد شيوخ الأزهر الكبار رأى خطيب مسجد شاباً فتمنى أن يكون مثله عمره خمسة وخمسون عاما رجل من صعيد مصر أمي لا يقرأ ولا يكتب لكن لا تنسوا أن مراتب الله العليا لا لمن سبق ولكن لمن صدق، فساق دابته إلى القاهرة وسأل عن الأزعر وهو يقصد الأزهر، فالذي سأله رجل صالح قال له: يا أخي اسمه جامع الأزهر وليس جامع الأزعر فتح الله عليك فتوح العارفين، القصة سمعتها من أحد العلماء ثم قرأتها في كتاب والقصة ثابته وتكاد لا تصدق، هذا الإنسان الأمي الصعيدي الجاهل الذي تمنى على الله أن يكون عالماً وشيخاً جليلاً وساق حماره إلى الأزعر وصوبه له هذا البائع توجه إلى هذا المسجد وتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن وما زال يتقلب في مراتب العلم حتى عاش ستة وتسعين عاماً ولم يمت إلا وهو شيخ الأزهر، قصة ثابته لعل اسمه زكريا الأنصاري أحد شيوخ الأزهر السابقين، في الخامسة والخمسين فهذا العبد الرجل تاب إلى الله في سن الشيخوخة فإذا ناجى ربه يقول: يا رب لقد أبطأت في المجيء إليك تأخرت كثيراً.....

وإذا تاب المرء وذاق طعم التوبة يقول لك: قلبي محروق، كيف أمضيت هذا العمر في معصية الله عز وجل، بعد أن ذاق طعم الطهر طعم القرب طعم الإقبال على الله طعم العمل الصالح طعم العلم طعم الشرف يقول: ياليتني عرفت الله قبل هذه السن، في المناجاة يقول: يا رب لقد أبطأت في المجيء إليك، فوقع في قلبه أن يا عبدي لا تقل هكذا إنما أبطأ في المجيء إلي من مات ولم يتب، مادام قد بقي يوم واحد فإنك تستطيع التوبة، مادام القلب ينبض الأمل كبير، كلما بكرت كلما كان أفضل لكن إنما أبطأ في المجيء إلي من مات ولم يتب.

نحن كعبيد ما علا قتنا بهذا الاسم ؟ الله غفار وأنت ؟ ألا تنسى أخطاء الآخرين أبدا ولا تغفرها.

قال العلماء: حظ المؤمن من اسم الغفار أن يستر من غيره ما يستره الله منه، أدق حق يعنيك من اسم الغفار أن تستر من إخوانك المؤمنين وغير المؤمنين ما ستره الله منك.

امرأة زنت في عهد سيدنا عمر وأقيم عليها الحد ثم تابت وجاء من يخطبها، فجاء أخوها إلى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين جاء من يخطب أختي أفأخبره بذنبها وإقامة الحد عليها، غضب عمر رضي الله عنه أشد الغضب، قال: **والله لو أخبرته لقتلتك.**

فأنت كمؤمن لك أخ صديق ذلت قدمه وقع في معصية علمتها أنت لا ينبغي أن تذكرها لأحد إذا كنت مؤمناً وعرفت اسم الغفار، كما أن الله غفر لك وتاب عليك يجب أن تغفر لإخوانك وأن تستر ذنوبهم، والحديث الذي تعرفونه جميعا:

((الذنب شؤم على غير صاحبه، إن ذكره فقد اغتابه))

لك أخ وقع في ذنب إن تكلمت عن ذنبه فقد اغتبته وإن عيرته ابتليت به وإن رضيت منه هذا الذنب شاركته في الإثم، إذا أحدنا بلغه أن أخاه أكل مالاً حراماً يكفي أن يقول جيد ما فعل استطاع أن ييسر معيشته بهذه الكلمات يأثم معه، فثناؤه على معصيته، واستحسانه لعمله مشاركة في الإثم، واحتقاره بقوله كيف فعل هذا سوف يبتلى بهذا الذنب لأنه عيره به وذكر معصيته للناس استغابة له هذا على من لم يفعل الذنب فكيف بالذي فعل الذنب.

فمن تغافل عن المقابح وذكر المحاسن فهو ذو نصيب عظيم من هذا الشيء، عوّد نفسك أن تكون إيجابيا عوّد نفسك أن تذكر في الناس النواحي الإيجابية المحاسن، في تعاملك مع الناس تغافل عن عيوبهم وأبرز محاسنهم، يحبوك ومن الناس من يتغافل عن المحاسن كلها.

النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((اللهم إني أعوذ بك من جار سوء إن رأى خيرا كتمه وإن رأى شراً أذاعه، اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء إن أحسنت لم يقبل وإن أسأت لم يغفر))

من أقبح العادات في الإنسان أن يستر الجميل ويذكر القبيح وأن يستر المحاسن ويظهر القبائح أما المؤمن يتغافل عن القبائح ويبرز المحاسن، النبي الكريم قال: الشرف معوان.

عندك ابن تعرفه صادقاً أثنى على صدقه، من الآباء من يبحث أين الغلط في ابنه ويقول: أنت كذا وأنت كذا، دوماً يزرع اليأس في ابنه، ألا يحمل ابنك أية ميزة، قال: يا رسول الله: ماذا ينجي العبد من النار ؟ قال: **إيمان بالله**، قال: أمع الإيمان عمل، قال: **أن يعطي مما أعطاه الله**، قال: فإن كان لا يملك، قال: **أن يعين الأخرق**، قال: فإن كان لا يستطيع، قال: **فليأمر بالمعروف**، قال: فإن كان لا يحسن، قال: **أما تريد أن تدع لصاحبك من خير ؟**

لا يوجد إنسان كله أخطاء ولا ميزة له، عندك موظف كله سوء؟ أنا مسرور من أمانتك اطمئن، شخص دخل على النبي عليه الصلاة والسلام دخل على المسجد ليلحق ركعة مع رسول الله فركض وأحدث ضجة وجلبة وصخباً وضجيجاً وشوش على الصحابة صلاتهم فالنبي الكريم هكذا علمنا فقال له:

((عَنْ أَبِي بَكْرَةَ أَنَّهُ انْتَهَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ رَاكِعٌ فَرَكَعَ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الصَّفِّ فَذَكَرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا وَلَا تَعُدْ))

(صحيح البخاري)

قال: **" نثر الريح على الماء زرد "** أحد الشعراء الأمراء فلم يتمكن من إكمال البيت، وراءه جارية قالت له: **" ياله درعا منيعا لو جمد "** أعجب بذكائها وشاعريتها فتزوجها، ثم أصبح هذا الإنسان ملكاً من ملوك الأندلس وهو ابن عباد تزوجها وعاش معها حياة في أبهى قصوره، اشتهت مرة حياة الفقر فأرادت أن تسير في الطين فجاء بالمسك والكافور فجبلهما بماء الورد وقال: هذا طين دوسي فيه، ثم

جاء ابن كاشفين من إفريقية وحارب ملوك الطوائف وقضى عليهم وأودعهم في السجن، وساءت حاله وله قصيدة تبكي الإنسان، النتيجة قالت له مرة هذه الجارية التي أصبحت ملكة وأكرمها إكراما ما بعده إكرام قالت له مرة: ما رأيت منك خيراً قط، فأجابها: ولا يوم الطين ؟

عندك زوجة عندك ابن دوما تلومه وتذمه ألا يحمل أية ميزة، لقد حطمته، هذه الزوجة ألا تحمل أية ميزة أليست شريفة إذا ذهبت إلى عملك ألست مستريحا من عفتها وشرفها، فالإنسان لا يغفل عن ميزات الناس، النبي الكريم رأى صهره مع الأسرى، أتى ليقاتل رسول الله صهره زوج ابنته لم ينسَ أنه صهر ممتاز فقال: والله ما ذممناه صهرا.

أرقى شيء عند الله عز وجل أن تكون منصفاً حولك زوجة أولاد إخوان أصحاب وجيران وأتباع وموظفين، أنت تعلم ميزاتهم دوما وتعرفها حق المعرفة يحبونك جميعا، عندئذٍ يتقبلون منك أية ملاحظة وأي نقد، قال له: **" زادك الله حرصا ولا تعد".**

فأنت كمؤمن عليك أن تتخلق بأخلاق الله عز وجل، يوجد قصة رائعة جدا عندما جاء عكرمة مسلماً بالله ماذا قال النبي الكريم، قال: **" جاءكم عكرمة مسلما، فإياكم أن تذموا أباه ".** من أبوه ؟ أبوه أبو جهل أعدى أعداء النبي قال:

((فإن ذم الميت يؤذي الحي ولا يبلغ الميت))

أنت كمؤمن يجب أن تظهر الجميل وأن تستر القبيح، أما تصيّد الأخطاء وتصيُّد العيوب ليس هذا من أخلاق المؤمن هذا من أخلاق أهل الدنيا.

يروى أن سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام مر بجيفة ولا أعتقد أنه يوجد في الأرض أبشع لا في المنظر ولا في الرائحة من الجيفة، فقال أصحابه: ما أنتن ريحها، فقال عليه الصلاة والسلام: **بل ما أشد بياض أسنانها أنظروا ما أجمل أسنانها،** لعل مغزى هذه القصة، لن تكون أباً ناجحاً ولا معلماً ناجحاً ولا داعياً ناجحاً ولا تاجراً ناجحاً ولا مدير معمل ناجحاً ولا مدير مستشفى ناجحاً إلا إذا عرفت ميزات الذين حولك، ذكرتها وقدرتها بعدئذ وجه لهم ما شئت من النصائح فيقبلونها منك، أما إذا غفلت عن ميزاتهم وتتبعت أخطاءهم فهذا مما يبعدهم عنك.

على كلٍ هذا الاسم من أسماء الله الحسنى وكما تعلمون لا يعرف الله إلا الله هذه بعض الآيات والأحاديث التي وردت حول اسم الغفار ويجب أن يدفعنا اسم الغفار جميعا إلى طلب المغفرة من الله عز وجل. **اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعف عنا يا كريم،** هذا الدعاء كان من أحب الأدعية إلى النبي عليه الصلاة والسلام.

١٠- اسم الله القهار:

قبل أن أبدأ باسم جديد من أسماء الله الحسنى وهو اسم القهار ـ الغفار والقهار ـ لابد من وقفة قبلها عند حقيقة ثابتةٍ في الإنسان وهي أن الإنسان آتاه الله قوةً إدراكية تتمثل بحواسه وتتمثل بفكره وتتمثل بقلبه، فالحواس تشعر والفكر يدرك والقلب يعقل، الحواس الخمس مشتركة بين الإنسان وغيره من المخلوقات، هناك حيوانات ترى وتسمع وتدرك ببعض الحواس التي وهبها الله إياها المحيط الخارجي، ولكن الإنسان وحده ميزه الله بالفكر، ويسميه بعضهم العقل، ولا خلاف في ذلك، هذا خلاف لفظي، هذا الذي في الجمجمة هو الفكر، ربنا عز وجل أشار إليه في آيات كثيرة، قال:

(تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنّ السّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً (٣٦))

[سورة الإسراء]

إذا جاء الفؤاد مع السمع والبصر فهو الفكر، كل أولئك كان عنه مسؤولاً، وأعطى الله الإنسان قلباً يعقل به، والدليل قوله الله تعالى:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الّتِي فِي الصّدُورِ(٤٦))

(سورة الحج)

الآن ما الفرق بين الإحساس والإدراك والعقل ؟

الإحساس: أن ترى الضوء بعينك أو أن تسمع الصوت بأذنك أو أن تشم الرائحة بأنفك أو أن تشعر بالحرارة بجلدك، هذا هو الإحساس.

ولكن قد يضع طفل يده على أفعى يرى لها ملمساً ناعماً، يروق له منظرها يروق له ملمسها الناعم وهي أفعى، لو كان في سن أكبر وعرف ما الأفعى لكان له موقف آخر، إذاً هو رآها بعينه ولمسها بيده وما أدرك حقيقتها.

إذاً فرق بين الإحساس والإدراك، فالإدراك عن طريق الفكر...يمكنك أن تقرأ مقالة عن مضار التدخين وتدخن، الإدراك أحياناً لا يكفي للابتعاد عن الشيء، لكن في بعض الحالات إذا وصل الإدراك إلى درجة عقل القلب أبعاده عندئذ تكف عن هذا العمل.

الفرق الدقيق بين العقل وبين الإدراك، هو أن الشيء إذا كان ضاراً وابتعدت عنه معنى ذلك أنك عقلته، قد تدرك ولا تتخذ موقفاً، أما إذا عقلته لابد من أن تتخذ موقفاً من هذا الشيء، دائماً مع العقل موقف عملي، ومع الفكر إدراك، والإدراك قناعة.

تحرك الإنسان أحياناً شهواته لا قناعاته، فمعظم الناس يعرفون الحلال والحرام لأن الحلال والحرام كما قال عليه الصلاة والسلام:

((بيّن الحلال بيّن والحرام بيّن))

يعرفونه بعقولهم يعرفونه بفطرتهم ويعرفونه بما يلقى عليهم من مواعظ وخطب ودروس دينية، فلماذا يفعل الناس الحرام ؟ لأنهم ما عقلوا خطورته.

الحواس: تشعر تحس، والفكر يدرك والقلب يعقل، المعول عليه هو القلب، حينما تأخذ موقفاً عملياً، معنى ذلك أنك عقلت الحقيقة، والدليل قال الله تعالى:

(وَالَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢))

[سورة الأنفال]

دليل آخر، قال الله تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥٠))

[سورة القصص]

فالإنسان لا يمكن أن يسمى عاقلاً إلا إذا تُرجمت أفكاره إلى ممارسات، إلا إذا تُرجمت أفكاره إلى سلوك إلى مواقف، فالذي ينجي الإنسان يوم القيامة لا قناعاته ولكن تصرفاته وانضباطه والتزامه واستقامته وفعله وتركه.

إذاً بالحواس نحس، بالفكر ندرك، بالقلب نعقل، هذه الحواس وذاك الفكر وذاك القلب هي القوة الإدراكية في الإنسان، و لو أغفلنا جانباً الإنسان الإدراكي لصار بهيمة من البهائم فالإنسان لولا العلم لكان كالبهيمة تماماً.

الحقيقة الثانية التي أتمنى عليكم أن تعقلوها هو أن العلم في الإسلام ليس هدفاً بذاته قال عليه الصلاة والسلام:

((تعلموا ما شئتم فوالله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم))

قد يحصل انحراف في طلب العلم فيصبح العلم هدفاً بذاته، أما المؤمن دائماً يرى أن العلم لذاته غير مطلوب، ولكن العلم مطلوب لغيره، تتعلم من أجل أن تعمل من أجل أن تطبق وهكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((تعلموا ما شئتم فوالله لن تؤجروا حتى تعملوا بما علمتم))

وفي حديث آخر:

((كل علم وبال على صاحبه ما لم يعمل به))

في ضوء هاتين المقدمتين.. الإنسان فيه قوة إدراكية تتمثل بالحواس وبالفكر وبالقلب، والعلم في الإسلام ليس هدفاً لذاته بل هو وسيلة لتطبيق منهج الله عز وجل.

والحقيقة الثالثة هو أن في الإنسان جانب انفعالي، وفيه جانب إدراكي فيه جانب مادي، الجانب المادي: مشترك بين الحيوان والإنسان، الإنسان يأكل والحيوان يأكل، والإنسان يتعب وينام والحيوان يتعب وينام، بل إن أكثر الحيوانات تتفوق على الإنسان في بعض الخصائص.

اسم القهار: مرّ معنا سابقاً أن أسماء الله الحسنى لا تتغير في مستوياتها، الطبيب أحياناً يكون لديه معلومات محددة فيعالج مريضاً في ضوء معلوماته، وبعد ما يأخذ شهادة أعلى أصبحت معالجته أدق في ضوء ما كسبه من علم جديد فكلما ارتقى علمه ارتقى مستوى معالجته، إذا انطبق هذا على الإنسان فإن هذا لا يجوز أن ينطبق على أسماء الله الحسنى فأسماء الله الحسنى لا تفاوت فيها، فكيف يأتي اسم غير مبالغ به كالقاهر، لقوله تعالى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١)

(سورة الأنعام)

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦))

(سورة غافر)

وردت قاهر ووردت قهار، فكيف نوفق بين أن الله عز وجل أسماؤه لا تتفاوت وبين أن يأتي اسم غير مبالغ به واسم مبالغ به، هنا المشكلة.

قلت لكم من قبل أن الإنسان إذا أكل طعاماً يسمى آكلاً ولا يُسمى أكولاً إلا إذا أكل وجبة كبيرةً جداً أو إذا أكل مجموعةً من الوجبات المبالغة تكون تارةً بالنوع وتارةً بالعدد.

فأسماء الله الحسنى إذا وردت بصيغة المبالغة فالمقصود منها التكرار وليس النوع لأن مستوى أسماء الله الحسنى لا تتبدل، الإمام أبو حامد الغزالي قال: **ليس في الإمكان أبدع مما كان،** هو يقصد أنه ليس في إمكاني أبدع مما أعطاني.

فالله عز وجل حكيم في خلق النملة وفي خلق المجرة، حكيم في خلق أصغر المخلوقات وفي خلق أكبرها، عليم بكل شيء أسماؤه من حيث المستوى ثابتة لا تتبدل فإذا تبدلت فبحسب المخلوقات لا بحسب الخالق، ولكن إذا ورد اسم مبالغ به فهو لمبالغة التكرار.

الإنسان أحياناً يحارب عدواً ويقهره، وقد لا يتمكن أن يقهر عدواً ثانياً أو ثالثاً. أما إذا قال: ربنا الواحد القهار فيعني أن كل المخلوقات مقهورة بالنسبة إليه.

لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار.. على وزن فعّال.. وهو القاهر فوق عباده.

وقال تعالى:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١))

[سورة يوسف]

والله غالب على أمره، هذا مغزى قصة سيدنا يوسف، هذا المغزى موجز القصة بأكملها في تفصيل هذا المغزى.

قصة أخرى يتجلى فيها اسم القهار، سيدنا موسى مع فرعون، فرعون الذي أراد أن يذبح أبناء بني إسرائيل جميعاً ليمنع حدوث رؤيا قد رآها وهي أن طفلاً من بني إسرائيل سوف يقضي على ملكه، فالله عز وجل قهره بأن الطفل الذي سيقضي على ملكه رباه في بيته، والحقيقة كل أفعال الله عز وجل تصدر عن أسمائه أو أن أفعاله كلها فيها أسماؤه كلها وهذا ما يدعو إلى تفسير بعض الآيات التي ورد الحديث فيها عن ذات الله بضمير المفرد وبعض الآيات التي ورد الحديث فيها عن ذات الله بضمير الجمع.

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣))

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلاً(٢٣))

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤))

[سورة ق ـ سورة الإنسان ـ سورة طه]

إذا جاء مفرداً فللتعبير عن ذات الله، وإذا جاء جمعاً فللتعبير عن أن أسماء الله الحسنى جميعها واردةٌ في أفعاله، ونحن عندما نقسم أنه سميع، لطيف، بصير، قدير، قوي، حكيم، هذا تفصيل دراسي مدرسي أما الأسماء متداخلة في بعضها بعضاً، أحياناً ربنا عز وجل يجمع أسماءه في أسماء موجزة، فمثلاً:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

[سورة الرحمن]

فالجلال صفة تشعر بالعظمة والإكرام، صفة تشعر بالعطاء، فأنت في حياتك اليومية قد تتعامل مع إنسان تعظمه ولا تحبه، وقد تتعامل مع إنسان تحبه ولا تعظمه، والبطولة أن تجمع بين التعظيم والمحبة، فربنا عز وجل بقدر ما هو في جلال ورفعة وعظمة وعلو شأن وكبرياء وجبروت وقهر وقدرة وغنىً بقدر ما هو رحيم لطيف ودود كريم عفو غفورٌ هناك أسماء متعلقة بالجلال وهناك أسماء متعلقة بالإكرام، وقد وردت هذه الأسماء في آيتين، قال الله تعالى:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦))

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

[سورة الرحمن]

أحياناً في موضوع الاستقامة ربنا عز وجل يذكر اسمين فقط، مثلاً قال الله تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

[سورة الطلاق ـ آية ١٢]

اختار من كل أسمائه القدرة والعلم، لأنك لن تستقيم على أمره إلا إذا أيقنت أن علمه يطولك وأن قدرته تطولك، ففي موضوع الاستقامة أنت بحاجة إلى أن تؤمن باسمي العلم والقدرة، من أجل أن تستقيم وأن تعظم لا بد من أن تؤمن باسمه ذي الجلال والإكرام.

فاسم القهار إما أن يرد مباشرة، وهو القاهر فوق عباده.. لمن الملك اليوم، فيقول الله عن خلقه لله الواحد القهار.

هناك آية دقيقة جداً، يقول الله عز وجل:

(صِرَاطِ اللّهِ الّذِي لَهُ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣))

[سورة الشورى]

الإنسان يعجب !! هذا كلام الله فلما يقول الله:

(أَلَا إِلَى اللّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)

فهي أين كانت ؟ بيد من كانت ؟ المعنى المستنبط من هذه الآية أنها لم تكن بيده من قبل والآن أصبحت بيده، إذا قلنا صار الأمر في هذا الموضوع إلى زيد يعني أن زيداً لم يكن الأمر بيده من قبل ؛ فالواقع أن معظم الناس في عمى عن الحقيقية، فعامة الناس يرى أن الأمر بيد الأشخاص، وأن القرار بيد فلان وصاحب المتغيرات فلان وفلان يفعل، إذا رفعك فلان يرفعك إلى السماء، وفلان إذا غضب جعلك في أسفل سافلين، هذا كله شرك، هذا وهم الأعمى، لكن يوم القيامة جميع المخلوقات ترى أن الملك لله الواحد القهار، لكن في الدنيا لا يرى هذه الرؤيا إلا المؤمن أما في الآخرة فهذه الرؤية عامة شاملة.

بآيات وبشكل صريح، قال الله تعالى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨))

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلّهِ الْوَاحِدِ الْقَهّارِ (١٦))

[سورة الإنعام ـ سروة غافر]

وهذا الاسم ورد بشكل غير مباشر، فقال:

(وَاللّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنّ أَكْثَرَ النّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١))

[سورة يوسف]

يعني أمره هو النافذ... الحديث القدسي:

((عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيى بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي، وكنت عندي مذموماً...))

((أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلمت لي فيما أريد، كفيتك ما تريد وإذا لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

هذا الحديث القدسي يعطي معنى القهار، أمر الله هو النافذ، الأمور تدور وتدور.

هناك أشخاص يقرؤون بعض الكتب، التي تتحدث عن مكر اليهود في العالم، يقول لك هذا المخطط يهودي..

اليهود بشر يخططون يمكرون من أخبث خلق الله مكّارون خدّاعون ولكن الفعل ليس إليهم، الفعل فعل الله، فإذا آمنت بأنهم فعالون وأن كل ما يجري في العالم من تخطيطهم لقد ألّهتهم وأنت لا تدري، لكن أحياناً يقع في الأرض شيء مما خططوه، فالله عز وجل قد يستخدم نيتهم الخبيثة في تأديب بعض العباد بدليل قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩))

[سورة الأنعام]

حينما تقول: فلان يفعل ووقعت في الشرك وأنت لا تدري، والصواب أن تقول:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١))

((أنت تريد وأنا أريد فإذا سلمت لي في ما أريد كفيتك ما تريد وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

القهر في اللغة يعني الغلبة، قهره أي غلبه، أو صرف الشيء عن طبيعته طبيعة قوية قهرية، وجعلته ضعيفاً على سبيل الإلجاء، قال تعالى:

(الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩))

[سورة الضحى]

ودائماً وأبداً هناك أسماء إذا سمي الإنسان بها فهي صفة ذم، وإذا كانت من أسماء الله فهي اسم من أسماء الله الحسنى .

إنسان بحاجة إلى مساعدة وتوجه إلى إنسانين: الأول غني ممتلئ، والثاني فقير، فقال له: أنا أعطيك أنا أمنحك، هو لا يملك شيئاً كذب عليه، فهذا نقص بحقه، فلو قال له أنا لا أملك شيئاً أنا فقير، فالكمال بحقه

أن يكون صادقاً، أما الغني لو قال له أنا لا أملك شيئاً أنا فقير وهو يملك وبإمكانه أن يعينه فقد كذب وهذا نقص في حقه، فالمتكبر إذا لجأ إليه العباد يعطيهم كل حاجاتهم، قال الله تعالى:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (١١))

والقهار على وزن فعّال مبالغة من القاهر فيقتضي تكثير القهر التكثير العددي لأن التكثير النوعي لا يليق بحضرة الله تعالى.

كلكم يعلم أن لله عز وجل أسماء ذات وأسماء صفات وأسماء أفعال، قال العلماء: القهر قدرة على وصف مخصوص، كما أن الرحمة إرادة على صفة مخصوصة، والقاهر هو القادر على منع غيره أن يفعل بخلاف ما يريد، يعني صفة لله عز وجل في ذاته، قدرة على نحو مخصوص يمنع الآخرين عن أن يفعلوا ما يريدون، مشيئته هي النافذة، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، والاسم القهار له علاقة وشيجة بالتوحيد، الذي كما يقول العلماء، ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد.

فإذا قلنا أن اسم القهار هو قدرة على نحو مخصوص من أسماء الذات، وإذا قلنا هو فعل يمنع الآخرين عن أن يفعلوا ما يريدون فهو من أسماء الأفعال.

القهار، قال بعض المحققين إنه قهار للعدم، فالعدم ما سوى الله عز وجل، ما سوى الله كان عدماً فأوجده الله فهو ممكن، وهذا الشيء الموجود بقدرة الله عز وجل لا يستمر إلا بقدرة الله، قال الله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١))

[سورة فاطر]

السماوات والأرض هذا تعبير قرآني عن الكون، الكون كله كواكب ونجوم ومجرات، الكون كله يتحرك وإذا لم يكن يتحرك لأصبح الكون كله كتلة واحدة، والدليل أن هناك قوى التجاذب بين الكواكب والنجوم والمجرات والمذنبات، قوى التجاذب تقول إن النجم الأكبر يجذب الأصغر، وهذا الجذب يتناسب مع الكتلة ومع مربع المسافة، والقانون معروف " جداء الكتلتين مضروب بمربع المسافة " هذه قوة الجذب، قوة الجذب لا ترى بالعين كما لو جئت بمغناطيس ووضعت مسماراً وحركت المغناطيس يتحرك المسمار، فهناك قوة وجذب، وقوى التجاذب هذه أودعها الله في الكون لحكمة بالغة فلو لم يتحرك الكون لأصبح الكون كله كتلة واحدة، يعني الكوكب الأكبر جذب الأصغر، فما الذي يمنع ؟ فمثلاً أمسك وعاء ماء وأدره دائرية فإنك تستغرب، إذا كان في الأعلى وفيه ماء فلماذا لا ينزل الماء فقوة النبذ تمنعه من النزول، وكثير من الآلات أساسها القوة النابذة كتجفيف الثياب في الغسالات، وآلات

عصر الفواكه.. إذاً مع الدوران ينشأ قوة نابذة، هذه القوى النابذة تكافئ القوى الجاذبة، فلولا أن الكون يتحرك لأصبح كله كتلة واحدة.

الأرض تدور حول الشمس منذ ملايين السنين فلم تنجذب إلى الشمس قال الله تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١))

معنى أن تزولا، يعني أن تنحرف عن مسارها، والذي قهر هذه النجوم وجعلها تبقى على مسارها ؟ الله عز وجل، فالله عز وجل قهار للعدم، فهذا الشيء الذي خلقه أصله لا شيء إذاً هو أصله العدم سبقه العدم وينتهي إلى فناء، كل شيء يسبقه العدم وينتهي إلى فناء فهو ممكن، أما الله سبحانه وتعالى فهو واجب الوجود، لا أول له ولا آخر له، هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية.

ربنا سبحانه وتعالى قهار للعدم بمعنى أن هذا الممكن ممكن بقدرة الله وممكن بإمداد الله وممكن بتسيير الله، وفي أي لحظة يوقف الله عز وجل عن هذا الممكن تجليه وإمداده ينعدم الممكن، هذا معنى قوله تعالى

(اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لّهُ مَا فِي السّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ)

[سورة البقرة - آية ٢٨٥]

يعني قيام كل شيء في الكون بالله عز وجل، أول معنى من معاني القهر أن الله عز وجل قهر الممكن وجعله قائماً جعله مستمراً جعله موجوداً، قال الله تعالى:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الّذِي أَعْطَى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى (٥٠))

[سورة طه]

لو ترك وحده لكان معدوماً، فكأن جوهر الممكن أنه العدم ولولا قدرة الله القاهرة في الممكن لما كان هذا الممكن موجوداً، إذا فالكلمة الدقيقة **" كن فيكون، زلْ فيزول "**.

فأنت وجودك بالله عز وجل، والدليل أجهزة الإنسان، دماغه مثلاً مئة وأربعون مليار خلية، الإدراك الإحساس الذاكرة المحاكمة التصور التخيل الغدد الصماء، كل هذه الأجهزة أساسها أن الله عز وجل يتجلى عليك، وينقطع التجلي عن الإنسان عند الموت..

وازن بين إنسان في أوج نشاطه يتحرك يفكر يحاكم يتصرف يرى يسمع يشم يلمس يأخذ مواقف ينشئ مشاريع، يترك بصمات في المجتمع وبين جثة هامدة، الفرق بين الجثة الهامدة وبين هذا الإنسان الممتلئ نشاطاً وحيوية هو التجلي الإلهي هو القهار، الله عز وجل قهر المادة فجعلها تفكر وتسمع وتعقل وترى وتشم وتبصر وتمشي وتتحرك وتغضب وتفرح وتحزن، لو أن إنساناً وضع على ميزان قبل أن يموت بدقائق ومات فلا يخسر عند الموت شيئاً من وزنه، هي قوة الله عز وجل هذه الروح.

قال بعض المحققين القهار للعدم والوجود لأن الممكن لو ترك وحده لكان معدوماً فكأن ماهية الممكن تقتضي العدم إلا أنه سبحانه وتعالى منزه يقهر هذه الحالة ويبدل العدم للوجود.

مثلاً الشمس عمرها خمسة آلاف مليون سنة هذا عمر مديد وللشمس طاقة لا تخبو، هل عندنا على الأرض مصدر طاقة لا يخبو، شخص ملأ خزان الوقود بعد مئتي كيلو متر ينتهي، ملأ مستودع الوقود بمنزله بعد حين ينتهي، كل شيء ينتهي، أما هذه الشمس من خمسة آلاف مليون عام لا تنتهي، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني، إن أصغر كوكب في الفلك أضعاف جرم الأرض ثم إن هذه الأفلاك مع ما فيها من كواكب يمسكها الله تعالى بقدرته معلقة في الهواء كما قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١))

بعض العلماء يقولون بالحياة أربع مواد أساسية هي الماء والهواء والنار والتراب وهذه كلها متنافرة والله سبحانه وتعالى بقوته القاهرة ألف بينها، من معاني قهره أنه ألف بين المتنافرات، فأنت لا تستطيع أن تجعل البحر يحترق، والبحر ماء لكن ربنا عز وجل قال:

(وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ)

أسجر النار يعني أشعلها، كيف ؟ أنت بالماء تطفئ النار لكن هذا الماء هدروجين وأكسجين، الهدروجين من أشد العناصر احتراقاً والأكسجين من أشد العناصر مساعدةً على الاحتراق، حينما تشوي لحماً لماذا تهوي ؟ تحرك الأوكسجين فوق الفحم يزداد توهجه فالأكسجين يعين على الاشتعال والهدرجين يشتعل، والمحصلة ماء يطفئ النار، فالله عز وجل بقدرته يجعل من هذا البحر ناراً، فمن معاني قهر الله عز وجل أنه يؤلف بين الأشياء المتنافرة، وهذه العناصر الماء والهواء والنار والتراب كلها متنافرة ومع ذلك تأتلف في المخلوقات.

شيء آخر، إن الروح جوهر لطيف، روحاني نوراني والبدن جوهر كثيف مظلم وبينهما منافرة عجيبة ومع ذلك أسكن الله الروح في هذا الجسد بقهره.

مثلاً إن كان لديك معدن تريد لصقه يقال لك إن هذا المعدن لا يلتحم بلحام ألمنيوم يحتاج إلى لحام خاص، فهل يلتحم الألمنيوم بلحام حديد طبعاً لا لأنهما متنافران، فالله عز وجل جعل الروح نورانية خفيفة سماوية وجعل الجسم منشد للأرض ومع ذلك ألف بينهما في هذا الإنسان، فالإنسان جسد ونفس أحياناً تتلألأ نفسه يبدو هذا على وجهه أحياناً تظلم نفسه، يبدو هذا على وجهه. فالإنسان كائن فيه

عنصر سماوي وعنصر أرضي لكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه،، قال الله تعالى:

(أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨))

[سورة التوبة]

يعني اتجهت نحو الأرض اتجهت نحو الشهوات نحو الدنيا..

من معاني القهار أن الله تعالى يذل الجبابرة والأكاسرة تارةً بالأمراض، فترى ملكاً من كبار الملوك عقيماً وهو يحب زوجته، فهو يدفع ألوف الملايين على أن تنجب فلا تنجب.

ملك ثانٍ يصاب بمرض، ولا يشفى فيه ولو بذل الغالي والرخيص، فمن معاني القهار أن الله قهر العباد كلهم بالموت، لا نبي ولا رسول ولا قوي ولا غني ولا صحيح ولا مريض ولا فقير ولا رفيع ولا وضيع ولا ملك ولا وزير، إلا ويموت **" إنك ميتاً وإنهم ميتون"** وحتى ملك الموت يأتي دوره يقال له مت يا ملك الموت فيذوق طعم الموت، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((سبحان الله إن للموت لسكرات.))

الله تعالى يذل الجبابرة والأكاسرة تارةً بالأمراض وتارة بالنكبات وتارةً بالموت، قصة النمرود مع سيدنا إبراهيم مشهورة، لما أراد أن يذل إبراهيم وربه، فأرسل الله له أضعف مخلوق من مخلوقاته وهي البعوضة فدخلت من أنفه إلى جيوبه وبدأت تتحرش به فكان يرجو كل داخل عليه أن يضربه على رأسه، فبالضرب يسكن ألمه قليلاً، فالإنسان ضعيف.

إن العقول مقهورة عن الوصول إلى كنه صمديته والأبصار مقهورة عن الإحاطة بأنوار عزته، فإياك أن تقول أنا أدرك الله لأن من معاني الإدراك الإحاطة، فإذا أمسكت شيئاً صغيراً تعرف طوله وعرضه ووزنه، عقلك يصل إلى الله لكنك لا تستطيع أن تحيط به لأن الله عز وجل لا يعرفه إلا الله، قال الله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥))

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة الإسراء ـ سورة البقرة ـ آية ٢٥٥]

بالقدر الذي يشاء، فعقل الإنسان مقهور عن إدراك كنه صمديته فالإنسان العاقل لا يطمع أن يجيب عن كل سؤال متعلق بالله عز وجل فليس معناه أنه جاهل.

سأل إنسان آخر عن البحر فقال هذا البحر كم لتر ؟ نظر إليه وقال هذا بسيط ثمانية وستون مليون وسبعمائة وستة وستون لتر، هذا يكون جاهلاً ما دام أعطى رقماً، قال لك كم لتر حجم هذا البحر ؟ ليس لديك حجوم ولا مقاييس ولأعماق البحار، فلو سُئلت كم حجم هذا البحر فإذا أعطيت رقماً فتكون جاهلاً

وإذا قلت لا أدري فتكون عالماً، كلمة لا أدري هي العلم وكلمة أدري هي الجهل، لذلك قالوا عين العلم بالله هو عين الجهل به وعين الجهل به عين العلم به، فكلما قلت أدري وكل سؤال له عندي جواب وأنا أعلم كل شيء فهذا دليل قطعي على أنك لا تعلم، هذا ما يتعلق بذات الله عز وجل.

ربنا قهار فهناك حوادث لا تعلم كنهها فقل سبحان الله لا أدري ما حكمتها.

وبلد يقع فيها زلزال قتل فيه تسعون ألفاً، هناك حكمة ولكن لا أعرفها فعقلي قاصر عن إدراك الحكمة، ليس من المفروض أنه كلما وقع أمامي مشكلة أن أعطي التفسير البسيط، قد يكون التفسير البسيط ساذجاً، فإذا قلت أنهم أصيبوا بسبب بمعاصيهم، فهذا كلام إلى حد ما مقبول ولكن أحياناً المؤمن يُبتلى فالمؤمن له معاملة خاصة له ابتلاء ترقية درجات، فالأكمل أن لا تدعي أنك تعرف كل شيء، تعرف جناياه فمثلاً مرض الإيدز إن قلت أنه بسبب انحراف السلوك الأخلاقي عقاب عاجل للعصاة للفجار ممكن، لكن هناك أشياء صعب تفسيرها، فمثلاً: لماذا هذا الشعب فقير ؟ لعل الله عز وجل اقتضت حكمته ذلك.

المعنى السابع والشامل، إن جميع الخلق مقهورون في مشيئته، كما قال الله تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

[سورة الإنسان]

مثلاً عندك مائة جهاز في البيت كهربائيات، وعندك مفتاح الكهرباء الأساسي فإذا أغلقته فسوف تقف كل الأجهزة، البراد والغسالة فالقوى المحركة بيد الله عز وجل، لا يستطيع إنسان أن يتحرك إلا بمشيئة الله، إذاً هو القهار، قال الله تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

وبالجملة لا ترى شيئاً سواه إلا مقهوراً له تحت أعلام عزته ذليلاً في ميادين صمديته، هناك معاني أخرى للقهار، بعض العلماء يقول: **" القاهر هو الذي قهر نفوس العابدين "**، ولله المثل الأعلى تكون فتاة جميلة جداً والخاطب غارق إلى قمة رأسه في حبها، فتتحكم فيه لجمالها صاحب القوة كقوة المال، يتحكم في الضعاف، لذلك، قال الله تعالى:

(وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ(١٦٥))

[سورة البقرة]

كل القوى مصدرها من الله عز وجل، إذا أقبلت على الله تسعد أضعاف ما يسعد من أحبوا أناساً من بني جنسهم، إذا أقبلت على الله تغنى أضعاف ما يحس به الأغنياء في الدنيا، إذا أقبلت على الله تشعر بقوة أضعاف ما يشعر بها الموالون للأقوياء، لهذا قيل: **" إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن**

تكون أكرم الناس فاتق الله ".

القاهر الذي قهر نفوس العابدين فحبسها على طاعته، العباد لما أقبلوا على الله وصلوا سعدوا فحبسوا أنفسهم على طاعته، فالله قهرهم بجماله قهرهم بكماله قهرهم بتجليه، فالمحب لم يعد يريد من الدنيا شيئاً.

فما مقصودهم جنات عـــدن ولا الحور الحسان ولاالخيام

سوى نظر الحبيب فذا مناهم وهذا مطلب القوم الكـــرام

***

شاب تعرف على فتاة في دمشق فخاف أهله أن يقع في شباكها فأرسلوه إلى بلد أجنبي بعيد جداً ليدرس في الجامعة وأعطوه قسط الجامعة وكان مبلغاً كبيراً، أنفق كل هذا المبلغ على مخابرات هاتفية ليتصل بها، فهي قهرته بجمالها.

فلو عرفت الله عز وجل لقهرك جماله ولقهرك كماله، القاهر هو الذي قهر نفوس العابدين فحبسها على طاعته، والقاهر هو الذي قهر قلوب الطالبين فآنسها بلطف مشاهدته.

حظ المؤمن من اسم القهار ؟

إذا عرف المؤمن القهار فمتى ذلك أنه عرف حجم عبوديته، من عرف نفسه عرف ربه ومن عرف ربه عرف نفسه، كلمة سأفعل كذا وكذا وسأعطي وسأمنع، هذا كله يبتعد عنه المؤمن لأنه يتنافى مع اسم الله القهار.

ولكن يمكن أن يكون المؤمن قهاراً بمعنى خاص، أن يقهر شهوته وأن يقهر متعلقات شهوته، لأن شهوته هي أعدى أعدائه، فإذا قهر ميله وشهوته وهواه معنى ذلك انتصر على ذاته، وهذا معنى قوله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠))

[سورة الليل]

فكل إنسان ينساق مع شهواته وميوله وأهوائه، يتكلم كلاماً لا يرضي الله عز وجل يغتاب الناس يأخذ ما ليس له، وأي حركة يتحركها الإنسان دون منهج الله عز وجل معنى ذلك ينساق مع شهواته مع رغباته إذاً هو ما طبق في نفسه اسم القهار.

إذاً أن تقهر شهوتك التي هي أعدى أعدائك إن فعلت هذا قد حققت في نفسك هذا الاسم العظيم، بهذا الاسم تعرف ربك وبهذا الاسم تتخذ السبيل إلى طاعته ومحبته ومرضاته.

١١- اسم الله الوهاب :

بادئ ذي بدء، الإنسان عقل وقلب، بعقله يعرف الله وبقلبه يحبه، وهذا الاسم اليوم متعلق بالحب، وقبل أن أشرح معنى الوهاب لغة واصطلاحاً أضرب لكم مثلاً مُنتَزَعاً من حياتكم اليومية، قد يوجد شاب فقير جداً يعاني من شظف العيش ومن خشونة الحياة، لو أن إنساناً اختاره زوجاً لابنته، ابنته مهذبة متعلمة مؤمنة طيّعة، ومنحه منزلاً ومنحه َمْتجراً ومنحه مركبة، ألا يمتلئ قلب هذا الشاب حباً وحمداً وشكراً لهذا الرجل الذي أنعم عليه بكل هذه النعم ؟ هذا شأن الإنسان.

((يا داوود ذكّر عبادي بإحساني إليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

القصد من معرفة اسم الوهاب أن تحب الله عز وجل، لأنه لا إيمان لمن لا محبة له، ليس الإسلام حقائق ندركها وحسب، بل هو حقائق ومشاعر، أن يكون العقل مدركاً لوجود الله ولعظمته ولأسمائه الحسنى وأن يكون القلب مفعَماً بحب الله، سأضع بين أيديكم هذه الحقيقة: أقول لكم إنّ الذي يحرك الإنسان حبّه أكثر مما يحركه عقله، فالإنسان بدافع الحب يقدم الغالي والرخيص والنفس والنفيس، بدافع الحب يقدم كل شيء، بدافع العقل قد يقتنع وقد يعتقد وقد يوقن ولكن لا يتحرك.

لذلك فالدعاة إلى الله يجب أن يخاطبوا العقل والقلب في وقت واحد، ربما إذا أحدثوا في العقل القناعة فهذا نصف النجاح، أما إذا أحدثوا في الإنسان بالإضافة إلى قناعة العقل موقفاً أساسه الحب فهذا كل النجاح، أنت قبل كل شيء إنسان لك عقل ولك قلب، العقل إذا أعمَلْته في الكون عرفت الله، وإذا أدركت النعم الإلهية أحببته بقلبك، وإذا أحببت الله فقد أحسنت الاختيار، لا يُسمى الإنسان إنساناً إلا إذا أحب.

مرةً كنا في الجامعة وقد أحيل أحد الأساتذة إلى التقاعد وأقيمت له حفلة طيبة وهو أستاذ علم النفس، قال هذه الكلمة و لا أنساها:

" الإنسان الذي لا يشعر برغبة أن يُحِب و لا يشعر برغبة أن يُحَب فليس من بني البشر "

لا يمكن أن تُسَمّى إنساناً إذا كان قلبك صخراً، أو إذا كان قلبك جلموداً.

إذاً لا بد من أن تُحِبّ، الشيء الذي يلفت النظر هو أن أصحاب النبي عليهم رضوان الله، لماذا فعلوا المستحيلات ؟ لماذا باعوا أنفسهم لماذا قدموا كل شيء ؟ أحدنا لو جرحت يده أو أصبعه لصاح ولضمدها ولاعتذر عن لقاءآته ولأخذ إجازةً... سيدنا جعفر تأتيه ضربة سيف تقطع يمينه فيُمسك الراية بشماله، تأتيه ضربة سيف أخرى تقطع شماله فيمسك الراية بعضديه إلى أن يخِرّ شهيداً، ما هذا الحب؟!

الخنساء قبل أن تُسلم ملأت الدنيا صخباً وعويلاً على أخيها صخر، فلما توفي أولادها الأربع، استشهدوا في القادسية، ما زادت على أن قالت:

" الحمد لله الذي شرفني بقتلهم، وأرجو الله أن يجمعني معهم في مستقر رحمته ".

خُبيب بن عدي وهو على مشارف القتل، صلبه المشركون في جذع نخلة، تمهيداً لرميه بالسهام، قال له أبو سفيان: **أتحب أن يكون محمدٌ مكانك ؟..** الكلام الشائع الآن: " ألف أم ولا أمي ".. أتحب أن يكون محمدٌ مكانك ؟.. قال: **" والله ما أحب أن أكون في أهلي وولدي وعندي عافية الدنيا ونعيمها ويصاب رسول الله بشوكه "** ما هذا الحب ؟ اقرؤوا تاريخ الصحابة أيها الإخوة تجدوا العجب العجاب، تجدوا شيئاً لا يوصف.

سيدنا الصديق وهو خليفة رسول الله، من أعماله الطيبة أنه كان يحلب شياه جيرانه، يبدو أنه قد توفي الزوج وليس عندهم من يرعى شؤونهم، فكان يقوم بخدمة حلب شياههم، فلما صار خليفة ظن الجيران أنه سينقطع عن هذه الخدمة، طُرِقَ الباب فتحت البنت، قالت الأم: يا بنيتي من الطارق ؟ فقالت البنت: يا أمي جاء حالب الشاة ... ما هذا ؟ رئيس دولة، خليفة رسول الله.. الذي ظهر من الصحابة في عهدهم شيء لا يصدق، أساسه الحب، لأنهم أحبوا الله عز وجل.

وأنا أقول لكم: الذي يبذل ويضحي ويقف عند حدود الله ويتجشم المشاق في سبيل الله الذي حركه هو الحب، والذي يُسْعِد هو الحب، لن تَسْعَدَ إلا إذا أحببت الله عز وجل، والله سبحانه وتعالى بابه مفتوح. هناك شخصيات يفتح بابها لأناس دون أناس، يقبلون أناساً ولا يقبلون آخرين يُستَرضَون وقد لا يرضون، و لكن سبحانه وتعالى بابه مفتوح لكل الخلق.. **" إذا رجع العبد العاصي إلى الله، نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله ".**

إذا تأملنا في اسم الوهاب بحسب فطرتنا وبحسب جبلتنا القصد أن يمتلئ قلبنا حباً لله، فإذا امتلأ قلبنا حباً لله رأينا من معاملة الله لنا، رأينا من تجليه على قلوبنا رأينا من التوفيق، رأينا من السّداد، رأينا من الرشاد، رأينا من الشعور بالتفوق، رأينا من الشعور بالفلاح ما لا سبيل إلى وصفه.

إذاً الإيمان أساسه الحب، **" ألا لا إيمان لمن لا محبة له "**، هذا القلب متى يضطرب ؟ من علامة المؤمن أنه إذا ذُكِرَ الله وجل قلبه:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢))

(سورة الأنفال)

هذا من علامة القلب، فالإنسان لا يجامل نفسه ولا يتملّق نفسه، بل يتعهد قلبه ويتفحصه، ويسأل نفسه السؤال الحرج، أنا مَن أُحب، دائماً دعوى الحب كثيرة فكل يدعي وصلاً بليلى، لما كَثُر دعاة المحبة طالبهم الله بالدليل، قال الله تعالى:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

(سورة آل عمران)

نحن غارقون في النعم، لاحظْ نفسك لو ركبت سيارة عامة وبجانبك صديق دفع عنك ثلاث ليرات ونصف، تشكره و تبالغ في شكره وتخجل وقبل أن تنزل تدعوه إلى البيت، لأنه دفع عنك ثلاث ليرات ونصف.. راقب نفسك، لو أن إنساناً قدم لك هدية فإنك تذوب خجلاً أمامه، تعبر عن امتنانك وعن شكرك وعن محبتك وتوعده بزيارة وتدعوه لأنه قدم لك هدية، هكذا النفس البشرية.

((يا داود ذكر عبادي بإنعامي عليهم فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها))

فما الفرق بين المؤمن والكافر ؟ الكافر يبقى في النعمة والمؤمن ينتقل منها إلى المنعم.. معقول أن تدخل إلى بيت وأنت في حال جوع شديد ترى طعاماً نفيساً ألواناً منوعة، أطعمة فاخرة، مقبّلات، طعام من الدرجة الأولى، وراءه الحلويات وراءه الفواكه، تأكل بنهم وتنتهي من الطعام وتتجه نحو الباب وتخرج، هذا شأن الإنسان ؟، لا حظ نفسك لو أن أحداً دعاك إلى طعام فقبل أن تنتهي من الطعام تقول له أكل طعامك الأبرار أو تقول له نعمة دائمة أو أكرمتنا أكرمك الله، والله يديم عزك والله يبارك فيك، تتفنن بالعبارات، تذوب خجلاً.. لماذا إذا جاءتك نعمة من إنسان تذوب خجلاً وإذا أنعم الله عليك بنعم لا تُقدّر !!!

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨))

(سورة البلد)

ترى ابنك الصغير ترى أهلك ترى إخوانك ترى الغابات ترى الأشجار ترى الأزهار ترى من تحب ترى معالم الطبيعة ترى الألوان ترى الأشخاص، تسير في الطريق مرتاحاً مطمئناً، الطريق واضح أمامك، تقرأ، تطّلع تُطالع تنظر تستمتع:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩))

مرةً دخلت إلى عند إنسان لا يتكلم ويعمل في بخ(طلي)الأثاث وأردت أن أتكلم فأشار إلي أن أتحدث مع الصانع، فتكلمت مع الصانع، نظرت فرأيت لغة جديدة بينهما، فقال له يريد أن يبخّ غرفة نوم

بالإشارة قال للصانع هل يريد مواد مستوردة أم تصنيع محلي، وأنا ألاحظ هذا الحديث الطويل بالإشارة،، قال الله تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠))

(سورة البلد)

تتكلم وتعبر عن مشاعرك وعن أحوالك وعن قناعاتك، تقول أنا اليوم قرأت مقالة كذا، تعبر عن تفسير آية عن قصة ممتعة، تتصدر المجالس تتحدث مع أهلك وأولادك..

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠))

علمونا في الجامعة في التربية أن الإنسان حينما يولد لا يملك إلا منعكساً واحداً، والمنعكس كما تعلمون ربنا عز وجل خلقه تام، صُنْعُ الله الذي أتقن كل شيء، لو فرضنا أن أحدهم مسّك بجمرة لفافة، تسحب يدك قبل أن تفكر، فإذا جاء تنبيه عصبي بالحرارة يأتي الأمر لا من الدماغ بل من النخاع الشوكي، هذا يسمونه المنعكس الشرطي اكتشفه عالم يدعى **" بابلوف "**، فالإنسان حينما يولد ليس لديه إلا منعكس شرطي واحد، ولولا هذا المنعكس لما كنا في هذا المسجد، لما عاش إنسان لمجرد أن يولد الطفل يُعطى ثدي أمه يضع شفتيه على ثدي أمه، يُحكِم شفتيه على الثدي، ولو سمح للهواء أن يمر لا يستطيع الرضاعة لابد من إحكام شفتيه على حُلمة الثدي وبعدئذ يسحب الهواء، هذا منعكس معقد جداً، حينما يولد الإنسان يكون مزوداً بهذا المنعكس.

وما سوى ذلك من المفاهيم من التخيلات، يقول لك الطفل الصغير عن كل رجل أبوه، بعد حين يقول عمو، فصل بذهنه مفهوم الوالد ومفهوم العم، أول فترة كلُ رجلٍ أب وبعد ذلك يظهر عنده مفهوم الرجل، إنسان يَفصل مفهوم الرجل عن مفهوم العم والوالد، كيف تنشأ هذه المفاهيم ؟ يقول شجرة يتصور الطفل معنى الشجرة، لا يتصور برتقالة ولا جوز، يتصور مفهوم مجرد، شجرة، لو تتبعنا كيف تتشكل في الدماغ المفهومات والمصطلحات، كيف يتعامل الإنسان ويفكر، كيف يتعامل بالرموز، عالم قائم بذاته.

مائة وأربعون مليار خلية سمراء لم تعرف وظيفتها بعد في الدماغ فالدماغ عاجز عن فهم ذاته. فالفرق بين المؤمن والكافر أن المؤمن ينتقل من النعمة إلى المُنْعم، وغير المؤمن من الكفار والفُسّاق والفُجّار يستمتعون بالنعم أعلى استمتاع ولكنهم غفلوا عن المنعم وغَفْلَتهُم عن المنعم سوف تودي بهم إلى النار إلى أبد الآبدين. أما المؤمن فيفكر من أين هذه النعمة، كل أخ منكم يدخل إلى بيته يلقى زوجة و إنسان لها مشاعر لها تفكير، تجد الطعام جاهزاً والبيتَ نظيفاً، هذه هدية من الله عز وجل.

الإنسان في ساعة غفلة يقول أنا تزوجت وأنا كدّيت وسعيت بكد يميني وعرق جبيني وأسست هذا البيت وفرشْتَه وجمعت مهراً واخترت فلانة هذه هي الغفلة عن الله عز وجل، هذه الزوجة هدية قدمها الله لك، وهذا الطفل الذي يملأ بيتك سروراً وسعادةً مَن جعله بهذه النفسية اللطيفة؟ من جعله بريئاً من جعله ساذجاً ؟ لو كان الطفل الصغير يتعامل معك تعامل الكبير لن تحبه، إذا تكلمت معه كلمة، يخاصمك شهراً.. قد تؤنبه وتوبخه وبعد قليل يقبل عليك ويقبلك، من جعل الطفل بهذه النفسية من الصفاء بهذه الذاتية، من جعل الطفل بهذا الحب الذي أودعه الله عز وجل بقلبه لأمه وأبيه.

في علم النفس تجربة هي أن حياة الإنسان النفسية أساسها الدماغ هكذا يقول العلماء، فوجدوا طفلاً دماغه سائل، حالة نادرة، فصار يبكي فلما جاءت أمه سكت، معنى ذلك أن في الإنسان نفساً، هذه النفس حتى الآن لا يستطيع أحد أن يكشف حقيقتها، أساساً **" الإنسان ذلك المجهــول "** عنوان كتاب شهير محوره أن العالم الآن ما عرف إلا شيئاً طفيفاً عن طبيعة الجسد، أما طبيعة النفس لا تزال سراً مجهولاً، قال الله تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥))

(سورة الإسراء)

طبعاً هذه المقدمة، يعني إذا تحدثنا عن اسم الوهاب ورأيت النعم التي وهبك الله إياها يجب أن يكون منعكس هذا الدرس حباً، والحب من علامته الطاعة:

تعصي الإله وأنت تظهر حبـه ذاك لعمري في المقال شنيــع

لو كان حبك صادقاً لأطعتـــه إن المحب لمن يحب مطيــع

***

الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم الله الوهاب:

(رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨))

(سورة آل عمران)

(لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩))

(سورة الشورى)

(وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيّاً(٥))

(سورة مريم)

وَهَبَ، فعل ماض، يهب فعل مضارع، هَبْ فعل أمر، معقول أن إنساناً يأمر الله عز وجل، علماء البلاغة قالوا، الأمر إذا كان من أدنى إلى أعلى فهو دعاء:

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨))

(سورة آل عمران)

فإذا كان من مساوٍ إلى مساوٍ هذا التماس، مثلاً.. أنت موظف من المرتبة الأولى جالسٌ إلى الطاولة وأمامك بالغرفة نفسها موظف بالمرتبة الأولى لستَ رئيسه ولا هو رئيسك قلت له رجاءً، أعطني المسطرة مثلاً، هذا ليس أمراً ولا دعاء هذا التماس، فمن مساوٍ إلى مساوٍ التماس، لكن لو وجهت أمراً وأنت معلم إلى طالب أو من ضابط إلى ذي رتبة عالية إلى مرؤوسه فهذا اسمه أمر **" الأمر ـ الالتماس ـ الدعاء "** وهناك أمر إباحة، قال الله تعالى:

(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ)

(سورة البقرة ـ من الآية ١٨٧)

رجل استيقظ في السحور ليس جائعاً فإذا لم يأكل يكون قد عصى؟ لا قال العلماء هذا أمر إباحة:

(وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا)

(سورة المائدة: من الآية ٢)

لا أريد الصيد هذا أمر إباحة. وهناك أمر ندب:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢))

(سورة النور)

وهناك أمر وجوب:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦))

(سورة النور)

وهناك أمر تهديد:

(وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقاً (٢٩))

(سورة الكهف)

اكفر وانتظر ماذا يحصل لك، مثلاً تقول الأم لابنها اكسرها لترى تقول له اكسرها، قالت له اكسرها أمر تهديد، فالبلاغة ضرورية جداً لفهم كلام الله.

(رَبِّ هَبْ لِي)

معنى هب لي هذا دعاء، وهب يهب هب، صاروا حرفين، وهب فعل معتل الأول بالواو أيام يأتي الأمر حرف واحد، وقى يقي ق، قاف: هذه القاف فعل أمر وفَى يفي فِ، وأى يأي إِ همزة، فعل أمر.

سؤال: ما اسم الفاعل من هذا الفعل وهب ؟.. واهب، لكن ربنا وهّاب، وهاب صيغة مبالغة لاسم الفاعل.

أعطاك رجل قلم حبر، هذا اسمه واهب.. وإذا أعطاك مركبة قال لك هذه هدية، هذا لم يعد في نظرك واهب بل وهّاب، عندما يكون العطاء كبيراً نقول وهّاب، وإذا كان العطاء يومياً متنوعاً أو كبيراً نستخدم صيغة مبالغة اسم الفاعل.

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

ماذا وهبنا الله ؟، أول شيء وهبنا الله إياه هو نعمة الوجود، بقيود النفوس فلان بن فلان مقيم في مكان كذا " عمارة نارنجة خانة ٦٧ " فأنت موجود، لك اسم في السجلات، من وهبك نعمة الوجود، الله عز وجل.

إذاً أنت متمتع بوجودك متمتع بصحتك متمتع بالطعام بالشراب متمتع بزواجك متمتع ببيت، لك عمل

لك شأن اجتماعي، كلك، وجودك من وهبك إياه، الله عز وجل وهبك نعمة الوجود، أوجدك وأمدك بكل شيء. فمثلاً، كيف نتعامل مع الحجر بالحديد ؟ نريد أن نضع لسان " دلاية " بالحجر لغَلَق الحديد، إذا حفرت الحجر، وأدخلت الدلاية تنزل، لكن ربنا خلق لنا معدناً نصهره بدرجة قليلة، نصبه في الحفرة وحينما يبرد يتوسع ويثبت الحديد.

مرةً لفت نظري حديقة ألغيت وقد ثبتوا سور حديد على الحجر ولما أرادوا إلغاءها قصوا الحديد قصاً، سألت نفسي سؤالاً لماذا قص الحديد لماذا لم ينزع، فلما سألت قالوا قصهُ أهون ألف مرة من نزعه لأنه مثبت بالرصاص، فلو أن الله عز وجل ما خلق الرصاص، هل تستطيع أن تُعامِل الحديد مع الحجر. ولاحِظْ طبيب الأسنان يضع لك حشوة الضرس لونها أسود، ففيها رصاص، تتوسع. وخلق لك جبساً، تصنع إسفيناً في الحائط، تُدخل خشبة مع جبس، فعندما يبرد الجبس يتوسع، كل شيء يبرد ينكمش، لكن الله خلق مواد ومعادن على البرودة يزداد حجمها، هذا خلق وإمداد.

خلق ماءً، لا لون له ولا طعم ولا رائحة له، لو كان الماء لونه زهر، لضاق الإنسان بحياته، لو كان الماء حلواً، لأصبح الطعام وكل شيء حلواً، لو كان الماء لزجاً، بماذا يغسل الإنسان جسده وأشياءه، تصور ماء كالقطر... فقد جعله الله سائلاً لا لون ولا رائحة ولا طعم، لو كان الماء يتبخر بدرجة مائة.. تنظف البيت، بالشتاء يبقى للصيف حتى يبخر، فالماء يتبخر بدرجة أربعة عشر، اسفح كأس ماء في غرفة بعد ساعتين يتبخر، والماء يغلي بدرجة مائة لو كان يغلي بدرجة خمسمائة مثل الزيت لحُرِق الطعام في الطبخ.

من أعطى الماء خواصه ؟ يغلي بدرجة مائة يتبخر بدرجة أربعة، له سيولة عجيبة يسري في أدق المسامات، لا لون له لا طعم لا رائحة.

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

أنتحدث عن الكون كله، نتحدث عن العين عن الأذن، جاؤوا بإنسان وضعوا له بصيوان أذنه شمعاً لم يعرف من أين يأتي الصوت، هذا الصيوان لو أنك درسته دراسة هندسية، فيه سطح بكل اتجاه، من أين يأتي الصوت يواجه سطح يعكسه على الداخل، ولتتأكد ضع يدك فوق الصيوان ترى أن الصوت قوي عندك، فالصيوان يتلقى الأمواج ويعكسها إلى الداخل.

من أعطاك ذاكرة صوتية، فتعرف الأصوات وتتعرف عليها حتى على الهاتف ؟ وإذا سحقت قطعة زجاج تحت الباب، تنزعج وتخرج من جلدك فهذا اسمه الضجيج وتطرب لصوت العصفور وهذا اسمه النغم.

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

من جعل الطعام ذا رائحة طيبة، لو جعل الله الطعام المفيد رائحته كريهة والطعام غير المفيد رائحته طيبة، اللحم إذا تفسخ له رائحة لا تقابل.

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

كيفما تحركت، وجودك، المواد التي حولك، حواسك.

من وهبنا الشمس ؟ تدفع ثمن البيت مائة ألف زيادة إن كان قبلاً والبيت الشمالي أرخص بمائة ألف، الشمس، هذه الشمس لا تنطفئ قالوا إن عمرها خمسة آلاف مليون سنة، وطمأننا العلماء قالوا ستبقى خمسة آلاف مليون سنة أخرى ليس لنا مشكلة مع الشمس.

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

من جعل القمر في السماء تقويماً، لتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا.

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

من جعل الرياح تتحرك، تنشط، وتُنعش الإنسان، تتبدل الأجواء حينما يكون فيها تلوث أو غبار أو روائح كريهة، تحريك الرياح من نعم الله العظمى. تخزين المياه:

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢))

(سورة الحجر)

مرةً أجرينا حساب فلو أراد كل إنسان أن يخزن احتياجه من الماء عن سنة تقريباً لاحتاج إلى خزان يعادل مساحة بيته تماماً، فإذا كان بيتك مائة متر مربع فإنك تحتاج إلى خزان مائة متر مكعب، قال الله تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ)

تخزين المياه بالينابيع شيء لا يصدق، صنعوا خزان ماء في نبع الفيجة، قلدوا تقليداً التخزين الطبيعي، تحت الأرض أربعمائة متر عمقاً لا ضوء ولا صوت ولا شيء، من خزّنَ هذه الأمواه ؟، (أمواه جمع مياه).

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

تعريف الهبة ؟.. إذا قال رجل لآخر وهبتك هذا الكتاب بمائة ليرة هذا الكلام في الشرع عقد بيع، ما دام قال له وهبتك هذا الكتاب بمائة ليرة، فهذا عقد بيع ولا عبرة لكلمة وهبتك. وإذا قلت بعتك هذا الكتاب بلا ثمن، هذا عقد هبة، ما تعريف الهبة إذاً، **" تمليك بلا عوض "** لذلك بعض الناس حتى يتهربوا من ضريبة انتقال الملكية، صاروا يقبضون الثمن سراً والعلن هبة، فانتبهت الدولة ووضعت ضريبة على الهبة، فهذا ليس هبة، هذا بيع غير مصرح به، الهبة تمليك بلا عوض.

إذا رجل عنده ابنٌ متديّن خلوق بار بوالديه خدوم لطيف مهذب، فإذا قال أنا تعبت في تربية ابني كثيراً ربيته وعلمته وحرصت عليه، هذا الكلام صح أم خطأ ؟ أنا أقول لك إن هذا الكلام خطأ، قال الله تعالى:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلّاً هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤))

(سورة الإنعام)

فيعني بلا عوض، فإذا أعطاك الله ولداً بلا عوض فهذا هبة من الله وقد تكون أعظم إنسان، يأتيك ولد يحيرك يجعل حياتك شقاءً، وكثير من الأشخاص في أعلى مستوى من العلم ابناؤهم ضالون، سمعت عن إمام بالمسجد النبوي إذا ذُكِرَ بابنه يموت من البكاء، ابنه منحرف انحرافاً شديداً، ليس باليد، فإذا وهب الله لرجل ابناً صالحاً مطيعاً باراً فلابد أن يُقَبِّل الأرض شكراً لله عز وجل، فلا يعزيها لذكائه " أنا أب ناجح أنا فوق رأس أبني " إذا كان الابن منحرفاً فمهما كنت رقيباً عليه قد يتفلت منك، فكلمة:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ)

تعني أنه هذا عطاء بلا عوض فأنت لم تقدم شيئاً أنت تلقيت هذه الهبة من الله عز وجل.

إذاً الهبة عبارة عن التمليك بغير عوض، والوهاب صيغة مبالغة من وهب، بناءً على هذا التعريف هل يصح أن نقول إن فلاناً وهب فلاناً أتصدق إنساناً في الأرض يعطي شيئاً بلا عوض، لنفرضه مؤمناً كبيراً فعِوضَه الثواب من الله عز وجل، يطمع برضاء الله عز وجل، يقدم شيئاً بلا مقابل ؟ ينطلق إلى خدمة الناس بلا مقابل ؟ يسعف المريض بلا مقابل، يدرس حسبة يخطب حسبة، يخدم بيت الله حسبة، يقول لا أريد شيئاً، أأنت مصدق أنه لا يريد شيئاً ؟!

لو رجل قال لمعلم، علِم فلاناً دروساً خاصة، وخذ على كل درس مليون ليرة، تأخذها مني، ولا تأخذ شيئاً منه ولما ذهب أخذ من الطالب مائة ليرة، فلما أخذ مائة من الطالب فَقَد حقّه عند الأول.

فالذكي لا يطلب الأجر من الناس، بل يطلب الأجر من رب الناس فهل تصدق إنساناً يطلب شيئاً بلا عوض، أعلى عوض أن تطلب رضاء الله عز وجل، أن تطلب جنته، أن تطلب ما عنده، أن تطلب توفيقه، إذاً لا بد من عوض.

فلا يصح أن نقول فلان وهب إلا مجازاً، لكن الإنسان أحياناً يهب شيئاً وبنيته المديح، فهذا هو العوض، ثناء الناس عليه هو العوض أحياناً ينتخي أمام الناس فيدفع مبلغاً ضخماً لجمعية خيرية، ويتمنى أن يشيد الناس به، يقول أنا دفعت، أنا دفعت، يريد لوحة رخامية، يريد أن يقرأ اسمه ليُعرف صاحب السبيل، أو صاحب الخير، لماذا هذا الكلام، يريد عوضاً، إذاً تمليك بلا عوض، لا يصح إلا من حضرة الله عز وجل.

وشيء آخر إذا وهبك إنسان شيئاً فمن هو الواهب الحقيقي، فمن ألقى في قلبه أعطِ فلاناً ؟ الله عز وجل.

أحد العلماء الأجلاء في طرابلس الشام، يسكن في بيت أجرة ويبدو أن صاحب البيت أراد أن يخرجه من البيت والقانون معه، فأقام عليه دعوى واستحق الحكم، والعالِم ليس له بيت وهو رجل صالح، والقصة غريبة جداً، فأحد كبار أغنياء طرابلس رأى في المنام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال له اِشترِ لفلان بيتاً، وهذا الرجل ميسور الحال فما صدّق، بحث عنه حتى وجده، فقال له انتق أي بيت.

لا تظن أن إنساناً يعطي شيئاً إلا والله عز وجل ألقى في قلبه الدافع... أحياناً تكون أمام موظف يقول لك موافق، فإذا أردت الحقيقة فهذه من الله، فإذا كان الله يريد أن يؤدبك يخلق لك ألف عقبة، تحتاج المعاملة إلى توقيع، تحتاج إلى تصديق من السفارة السورية في الدولة الفلانية قال لي رجل: ثمان وثلاثين شاحنة أنزلوا بضاعتها لأنها غير مصدقة من السفارة السورية في الدولة الفلانية.

فإذا عاونك إنسان يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أن الله عز وجل ألقى في رَوع هذا الموظف أن يتساهل معك، ألقى عطفاً عليك في قلبه ألقى رغبة بمساعدتك.

بناءً على هذا ألا أشكر الموظف ؟ فإذا أحدهم قدم لك خدمةً ولم تشكره فهذا من الكفر لأنه أيضاً خدمك باختياره، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ))

لأن هذا الإنسان خدمك وهو واعٍ وعاقل وخدمك بمحض اختياره، لكن الله عز وجل ألقى في رَوعه ودفعه لخدمتك، فيجب أن تشكر الله أولاً على أنه ألقى في قلبه رغبة في خدمتك وأن تشكر هذا الإنسان ثانياً على أنه خدمك مختاراً والنبي الكريم يقول صلى الله عليه وسلم:

عَن ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

((مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ وَمَن اسْتَجَارَ بِاللَّهِ فَأَجِيرُوهُ وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ))

يعني يعرف المسلون يعرفون كلمة الله يجزيك الخير وأكثرَ الله خيرك، وإن شاء الله ما نحترمك هذا كله كلام فارغ، قدّم لك إنسان خدمة يجب أن تقدم خدمة مقابلها أما إذا كنت عاجزاً لا تملك، فالآن مقبول منك أن تقول جزاك الله عني خيراً، وهذه كبيرة جداً، إذا كنت فعلاً عاجزاً عن رد جميله عاجزاً عن مقابلة هديته بهدية، عاجزاً عن مقابلة خدمته بخدمة، إذا كنت فعلاً عاجزاً وقلت له جزاك الله عني كل خير مقبولة منك.

إياك أن تظن أن القضية تمر بكلمة تقولها " أكثر خيرك فضلت " أيكفي هذا هكذا علمك الإسلام، إنسان خدمك تقابله بكلمة أكثر الله خيرك ؟ كله دَين عليك.

تعلمت هذا من موقف لسيدنا ربيعة، فسيدنا ربيعة خدم النبي عليه الصلاة والسلام. بعد أيام قال له: **يا ربيعة سلني حاجتك،** قلت سبحان الله نبي الله، رسول الله، ألا يستحق أن تقدم له خدمات بلا مقابل، لقد رآها دَيناً عليه، هذا هو الكمال.

ولا تذكر أفعالك الطيبة ولا تنس كل فعل طيب أُسدي إليك، فإذا خدمت إنساناً فالكمال يقتضي أن تنسى هذا المعروف وكأنك ما فعلته أنت فعلتَه مع الله عز وجل،، قال الله تعالى:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (٩))

(سورة الإنسان)

أما إذا خدمك أحدٌ خدمة فإنه يعُدُّ جريمة إذا نسيت الفضل منه .

((من لم يشكر الناس لم يشكر الله))

مع اعتقادك أن هذا الذي جاءك عن طريق فلان من الله عز وجل، أولاً ألهمه ثانياً سمح له، ثالثاً مكنّه، فلو ألهمه وما سمح له، "يقول لك العين بصيرة واليد قصيرة " وأحياناً إنسان يحب أن يخدمك، لا يقدر، يقول لك " لم أستطع " هو راغب في خدمتك، ألهمه ولم يسمح له، فإذا إنسان قدم لك خدمة فهذه يجب ألا تُنسى. كما قال عليه الصلاة والسلام:

((من أسلم على يد رجل فله ولاؤه))

الإنسان يعطيك حاجة تنتهي بانتهاء الحياة، أما إذا ساق لك الله الهدى عن طريق إنسان، فهذا أعطاك شيئاً يستمر معك إلى أبد الآبدين فربنا عز وجل قال:

(ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَنْ يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْناً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣))

(سورة الشورى)

فإذا شرب الإنسان من نبع لا يبصق فيه.

أعلّمه الرماية كل يــوم فلما اشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافــي فلما قال قافية هجانــي

***

فإذا ساق الله له الهُدى عن طريق إنسان، لا يتنكر للفضل لا يتنكر للجميل، لا يقول ما استفدنا، فأنت لم تستفد لوحدك، هذا من لوازم الإيمان.

فالذي ألقى في روع الإنسان أن يخدمك هو الله والذي مكن هذا الإنسان أن يخدمك هو الله، الملهم هو الله والفعال هو الله.

ينادى له في الكون أنّا نحبه فيسمع من في الكون أمرَ محبنا

***

ألم يمرّ معك أن إنسان خدمك وتعجبت لماذا خدمك، لا يوجد معرفة سابقة معه، قد لان معك، يسر لك أمرك، تساهل معك، ألم يمر معك هكذا حادث، الله ألهمه، هو الملهم وهو الممكن وهو الفعال، إذاً موقفك السليم الموحِّد، بادئ ذي بدئ، أن تقول يا رب لك الحمد.

السيدة عائشة رضي الله عنه لما نزلت الآيات بتبرئتها قال لها أبوها قومي إلى رسول الله.. قالت لا والله لا أقوم إلا إلى الله. فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يقل شيئا، الأصل الله عز وجل برّأها، ثم قامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. رجلٌ قال ما شاء الله وشئت، قال: **أجعلتني مع الله نداً ؟ ما شاء الله فقط.**

قال بعض العلماء: **" الوهاب من يكون جزيل العطاء والنوال، كثير المن والأفضال "**، طبعاً المن هو العطاء، قال بعضهم: المن يفسد المن، جناس تام، يقيني بالله يقيني، إذا ملك لم يكن ذا هبة فدعه فدولته ذاهبة، المرء تحت طي لسانه لا تحت طيلسانه، هذا كله جناس تام، وقد مر بالقرآن الكريم جناس:

(وَيَوْمَ تَقُومُ السّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥))

(سورة الروم)

ساعة.. ساعة. قالوا الوهاب من يكون جزيل العطاء والنوال، كثير المن والأفضال واللطف والإقبال يعطي من غير سؤال ولا يقطع عن العبد فضله في كل حال.

والوهاب من يعطيك بلا وسيله وينعم عليك بلا سبب ولا حيلة.

والوهاب هو الذي يعطي بلا عوض ويميت بلا غرض.

نحن عبيد لله عز وجل، وكل ما نحن فيه فضل من الله عز وجل فيجب أن تعلم علم اليقين أن كل نعمة أصبحتَ بها فمن الله، وكلكم يعلم أن الشكر ثلاث مراتب، أول مرتبة أن تعلم أن هذه النعمة من الله هذا أحد أنواع الشكر، وأن يمتلئ قلبك حمداً لله هذا نوع آخر، وأن تنطلق لخدمة العباد وهذا أرقى أنواع الشكر، بالقرآن في آيات متعاكسة، تفهم هكذا وهكذا، قال الله تعالى:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلّا الْإِحْسَانُ (٦٠))

(سورة الرحمن)

يعني ياعبدي إذا استقمت على أمري وخدمت عبادي ودللتهم عليّ وراعيتهم ونصحتهم وعاونتهم وتكرمت عليهم، فقد أحسنت لعبادي هل أنساك من إحساني، هل جزاء إحسانك يا عبدي إلا أن أُحسن إليك ؟! الله شكور.

المؤمن إذا ما عاين من الله معاملة طيبة جداً ورآها أنها نظير استقامته وإخلاصه وخدمته، يكون عنده خلل كبير وإخلاصه ضعيف جداً، من علامة الإيمان أن ترى من آيات الله الدالة على فضله، أنت خدمت عباده، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه.

هناك آية ثانية، قال الله تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد)

القصص التي تؤكد أن الله وهاب كثيرة جداً في كل مكان وكل زمان لكن قصة وقعت لأحد إخوتنا الكرام يعمل في عمل دخله بالشهر ثلاثة آلاف، له آخ مؤمن فقد عمله، فقد دخله كلياً، فشكا له همه، فقال له تعال واعمل معي وخذ نصف الربح، وهو دخله ثلاثة آلاف، أقسم لي وهو صادق، أول شهر ربح عشرة أمثال الدخل السابق، عشرة أمثال.

(إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ)

لذلك أنفق بلالاً ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً.

لكن إياك أن تؤثر الخلق على الله، فتنفق من دينك إكراماً للناس فهذا ليس هبة، لا ينبغي أن تُؤْثر جهة دون الله على الله، والخير كله في المؤاثرة.

الشبلي أحد العلماء سأل بعض أصحاب أبي علي الثقفي، قال: **أي اسم من أسماء الله تعالى يجري على لسانك**، قال: **الوهاب، لأنه أحد هبات الله عز وجل هو وجودك.**

حظ الإنسان من هذا الاسم أن يبذل مما آتاه الله عز وجل، من علمه من خبرته من وقته من عضلاته من جهده من مكانته من جاهه، هذا الذي يستفاد من هذا الاسم.

١٢- اسم الله الرزاق:

ورد هذا الاسم في قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ (٥٨))

(سورة الذاريات)

والرزّاق كما تعلمون صيغة مبالغة، وإذا جاء اسم الله عزّ وجل بصيغة المبالغة فمعنى أنه يرزق العباد جميعاً مهما كثر عددهم ويرزق الواحد منهم رزقاً وفيراً لا حدود له، إما على مستوى مجموع المرزوقين، وإما على مستوى كمية الرزق، لذلك لم تأت الرازق بل أتت الرزّاق، لأنه يرزق كل العباد ويرزق العبد الواحد كل شيء، إذا أعطى أدهش.

وورد هذا الاسم في قوله تعالى على شكل فعل مضارع:

(وَكَأَيّنْ مِنْ دَابّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيّاكُمْ وَهُوَ السّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦٠))

(سورة العنكبوت الآية ٦٠)

ومن دعاء سيدنا داود عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، اللهم يا رازق البُغاث، (للبغاث قصة)، والبغاث فراخ الغراب، أضعف أنواع الطير، والمثل العربي الشهير: **" إن البغاث بأرضنا يستنسر"**، لشدة ضعفنا صار البغاث وهو أضعف الطيور صار أمامنا كالنسر.

هذا البغاث فرخ من فراخ الغراب فإذا انفقأت البيضة عنه خرج البغاث أبيض كالشحمة، يعني قطعاً من الشحم، فإذا رآه الغراب أنكره لبياضه، لأن الغراب أسود اللون، فيسوق الله تعالى له بعض الحشرات يتغذى عليها إلى أن ينبت ريشه ويسود لونه عندئذ يتعرف عليه الغراب.

فمن أغرب هذه القصص أن فراخ الغراب وهي البغاث عبارة عن شحمة بيضاء لا تقوى على شيء والله سبحانه وتعالى يسوق لها الرزق، إذاً ورد في بعض الأدعية يا رازق البغاث في عشه.

الحقيقة الرزق من الخطأ والسذاجة أن تحصره في الطعام والشراب قال:

(فَتَقَبّلَهَا رَبّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفّلَهَا زَكَرِيّا كُلّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧))

(سور آل عمران)

فقال العلماء: **" رزق الأبدان بالأطعمة ورزق الأرواح بالمعرفة "**، والمعرفة أشرف الرزقين فإذا خصك الله بدخل وفير أكلت به أطيب الطعام وخص عبداً آخر برزق المعرفة فاعلم علم اليقين أن العبد الآخر أكثر حظوةً عند الله منك لأنه منحه رزق النفوس رزق الأرواح وهي المعارف، قال الله عز وجل:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤))

(سورة القصص)

هذا هو الرزق.. وقد ورد في بعض الأحاديث:

((أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني))

وكأن النبي عليه الصلاة والسلام استعمل كلمة الطعام والشراب للرزق الروحي وهو أشرف أنواع الأرزاق.

يا أيها الإخوة الأكارم.. بشارة: من أسباب سَعة الرزق الصلاة.. ما الدليل.. قال الله عز وجل:

(وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقاً نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى (١٣٢))

(سورة طه)

استنباط من الآية لطيف جداً، فإذا أردت أن يزداد رزقك لن أقول لك صل فأنت مصلٍ إنما أقول لك أتقن صلواتك، فالخشوع من فرائض الصلاة لا من فضائلها، وربنا عز وجل حينما أثنى على المؤمنين، قال الله تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢))

(سورة المؤمنون)

ومن آداب العبودية أن يرجع العبد إلى ربه في كل ما يريد، في الأشياء النفيسة وفي الأشياء الخسيسة، هذا من آداب العبد مع الله عز وجل، أن يرجع إليه في كل شيء خسيساً كان أو نفيساً، أي إن الله يحب من العبد أن يسأله شسع نعله إذا انقطع.. ضيعتَ مفاتيح البيت قل اللهم يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه، اجمع بيني وبينهم، اِسأله الأشياء الخسيسة كما تسأله الأشياء النفيسة.. إذا أضعت مكان موعد اللقاء مثلاً..

ذكر لي أحد الأخوة توجه إلى المدينة المنورة ونسي العنوان الذي سوف يتوجه إليه فدعا الله في الطريق فساقه إلى البيت بشكل يسير بينما إنسان آخر بقي عشر ساعات ضائعاً عن مكان البيت.

إذاً اسأله الأشياء الخسيسة كما تسأله الأشياء النفيسة، وهذا من تمام العبودية لله عز وجل.

الدليل.. سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام ماذا سأل الله، قال رب أرني أنظر إليك، فهذا من الأسئلة النفيسة من أرقى الأسئلة، ولما جاع قال:

(إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ)

وهذا دليل على أن العبد يجب أن يسأل ربه كل شيء.

سيدنا علي رضي الله عنه يقول: **" لستَ مطالباً بطلب الرزق ولكنك أمرت بطلب الجنة "** فما الذي فعلته، تركت ما أمرت بطلبه وطلبت ما أُمرت بتركه، هذه مشكلة الناس، والله سبحانه وتعالى ضمن لهم الرزق بأدلةٍ كثيرة، قال الله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨))

(سورة الذاريات)

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٤٠))

(سورة الروم)

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١))

(سورة الأنعام)

(وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً (٣١))

(سورة الإسراء)

أدلة كثيرة.. قال الله تعالى:

(وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣))

(سورة الذاريات)

إذاً ربنا سبحانه وتعالى طمأننا بأنه تكفل لنا رزقنا، ومع ذلك يجهد الناس ويبيعون دينهم بعرض من الدنيا قليل من أجل الرزق.

((خلقت السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

تكّفل لنا بالرزق وأمرنا أن نسعى للدار الآخرة، فقال:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩))

(سورة النجم)

ما الذي يحصل، إن الذي كُلِفت في طلبه توانيت في طلبه والذي ضمنه لك سعيت إليه.

إذاً أقبلوا على ما كُلِفتم ودعوا ما ضُمِن لكم، سيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام يَقول فيما تروي بعض الكتب: **" لا تغتمّوا لبطونكم ".**

إنسان توفي أخوه وترك لهم خمسة أولاد ليس له مورد رزق، فصار يبكي، ثم التقى بشيخه فقال له ما بالك يا ولدي، قال توفي أخي وترك لي خمسة أيتام، قال ألم يترك لهم شيئاً، قال بلى شيئاً يكفيهم سنة قال جيد حينما تنتهي هذه المؤونة ابدأ بالبكاء. وتروي المقولة إن هذا الرجل توفي قبل أن ينتهي الرزق بثلاثة أشهر.

أعرفُ شخصاً سيُهدم منزله، لسبب تنظيمي، فضاج وزمجر وأرعد، وتمزق وبكى واستعطف، وقد وُعِدَ وَعْدَاً قطعياً بتأمين بيتٍ لائق له، رغم كل الوعود والمواثيق بقي مضطرباً وضَجِراً ومات بعد أشهر عدة قبل أن يهدم بيته.

الإنسان لا ينبغي له أن يهتم للشيء أكثر مما ينبغي.

قال بعض العلماء: **" الرازق من غذّى نفوس الأبدان بتوفيقه، وحلى قلوب الأخيار بتصديقه "**، دائماً الرزق رزقان رزق الأبدان ورزق النفوس، وقال عليه الصلاة والسلام:

((إذا أحرزت النفس قوتها اطمأنت))

وبعض العلماء فسر القوت برزق الأرواح، يعني إذا صليت صلاةً وأعجبتك، إذا صليت وبكيت إذا قرأت القرآن وخشع قلبك تطمئن فمعناها أنك قريب من الله عز وجل، وأن هناك حياة ونبض، وأن هناك شيئاً من الإخلاص حتى خشعت، إذاً إذا أحرزتِ النفس قوتها اطمأنت، بالمعنى الأول والمعنى الثاني.

قال بعض العلماء: **" الرزاق من خص الأغنياء بوجود الرزق "**، ترى الغنيّ أنّ المال بين يديه كثير، يأكل ما يشتهي يشتري أجمل بيت يقتني أجمل أثاث، يذهب إلى أي مكان يشاء، يختار أجمل مركبة، يختار أجمل الثياب، يختار أجمل المصايف. قال: **"الرزاق هو الذي خص الأغنياء بوجود الرزق، وخص الفقراء المؤمنين بشهود الرزاق "**.

أعطاك طعاماً وأعطى الغني طعاماً وشراباً وبيتاً ودخلاً ومركبة وأعطى الفقير المؤمن شهود الرزاق، إما أن تجد الأرزاق وإما أن تشهد الرزاق، المجموع ثابت، هناك نظرية رائعة جداً، معناها لو جمعت كل شيء أعطاك الله إياه وجمع الآخَرُ كل شيء أعطاه الله إياه لكان مجموع الاثنين واحداً، فإذا أخذ منك بعض البحبوحة عوضك عنها ببعض التجلي، وإذا أغرقك في النعيم المادي حرمك من نعيم القرب.

فهناك توازن يعبّرون عنه بأن المجموع واحد والمجموع ثابت، وهناك نظرية أخرى ليست في المعنويات في الماديات، فلو أعطى الإنسان علامة للزوجة والبيت علامة والدخل علامة ولوظيفته علامة ولصحته علامة ولوسامته علامة، تجد أن معظم الناس ينالون مجموع علامات واحد لكن متفاوتة فيما بينها، مثلاً ثمانية على الزوجة اثنان على الأولاد خمسة على الرزق فالمجموع خمس عشرة، اثنتان على الزوجة ثمان على الأولاد خمس على الرزق المجموع خمس عشرة، عشر على الرزق ثلاث زوجة اثنان على الأولاد المجموع خمس عشرة، فلو دققت ترى من له دخل أقل من حاجته هو منعم براحة البال التي لا يحلم بها من آتاه الله زرقاً وفيراً، يؤكد هذا قوله عليه الصلاة والسلام:

((خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً ومن أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر))

شيء آخر عن الرزق، الزرق أيها الإخوة في أدق تعاريفه هو ما يُنتَفع به: المال ينتفع به، العلم ينتفع به، الخلق ينتفع به، شعور القلب بالطمأنينة ينتفع به، في أدق تعاريف الرزق، الرزق ما ينتفع به.

جاء رجل إلى حاتم الأصم، فقال من أين تأكل، فقال من خزائنه فقال الرجل أيلقي الله عليك الخبز من السماء، فما هذا الكلام، قال: **" لو لم تكن الأرض له لألقى علي من السماء الخبز، يرزقني من الأرض "** هكذا تجد أن الإنسان حينما يطلب الرزق من الله عز وجل فالله يسوق له الرزق، يلتقي بإنسان صدفة يسأله أتعمل، يقول لا، يقول له هناك عمل.

الموضوع طويل وله آلاف الشواهد، قد ترزق من حيث لا تحتسب قد ترزق بسبب تافه جداً قد ترزق بنظرة، قد ترزق برسالة جاءتك خطأً قد ترزق ببضاعة كاسدة.

سمعت أن أحد تجار البزورية في الحرب العالمية الثانية باع السكر بزيادة قليلة فجاءت الضابطة فأغلقت المحل بالشمع الأحمر، إلى أن انتهت الحرب تضاعف السعر مائة ضعف فاغتنى إلى ولد ولده كما يقولون، فقد ترزق بشيء مزعج، فالله عز وجل هو الرزاق ذو القوة المتين.

الشيء الدقيق أنك إذا علمت أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين أفردته بالقصد، الناس أحياناً يتجهون إلى زيد إلى عبيد إلى فلان إلى هذه الجهة يطمعون ليأخذوا، ولكن إذا علمت أن الله وحده هو الرزاق تفرده بالقصد ولا تسأل أحداً سواه، تكسب العزة والكرامة والطمأنينة والحظوة عند الله عز وجل.

قيل لإنسان آخر من أين تأكل قيل من خزائن مَلِكٍ لا تدخلها اللصوص ولا يأكلها السوس، خزائن الله عز وجل مفتوحة وخزائنه مملوءة وخزائنه فيها كل شيء، والدليل. قوله تعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١))

(سورة الحجر)

من أسخف النظريات أن يقول الإنسان إن موارد الأرض تشح، إن الأرض مهددة بمجاعة، إن ازدياد السكان ازدياد هندسي، " مالتوس" يقول الانفجار السكاني سيوقع الناس بمجاعة كبيرة، هذه كلها كلمات من لا يعرف الله عز وجل، لأن كل تقنين أو تقتير أو تقليل في الرزق هو تقليل وتقنين من نوع التأديب لا من نوع العجز، والإنسان وحده إذا قنّن فعن عجز أما الإله إذا قنن فلغاية التأديب فقط.

امرأة أحد العارفين بالله قيل لها كيف يرزقك زوجك قالت زوجي ليس رزّاقاً بل كيّال.

فمن الأخطاء الشائعة أخطاء في التوحيد، يقولون فلان معيل، أي عنده عائلة كبيرة، والصواب فلان مُعال وليس مُعيل، المُعيل هو الله عز وجل، والناس كلهم على مائدة الرحمن.

كما قلت قبل قليل إن الله عز وجل خص الأغنياء بوجود الأرزاق وخص الفقراء بشهود الرزاق، فمن شهد الرزاق ما ضره ما فاته من الأرزاق، من علامة المؤمن أنه إذا عرف الله ووصل إليه ما تألم على شيء فاته من الدنيا قط، إذا تألمتَ ألماً شديداً وإذا احترق القلب حرقة لاذعة على شيء فاتك من الدنيا فهذه علامة أنك لا تعرف الله وأنك ما وصلت إليه، فلو وصلت إليه لما تألمت ولما حزنت على شيء فاتك من الدنيا إطلاقاً، وقد قيل إن سيدنا الصديق رضي الله عنه ما ندم على شيء فاته قط، أحياناً

تجلس مع إنسان تحس قلبه يحترق ندماً لأن هذه الأرض باعها ثم أصبح سعرها مائة ضعف، متألم ألماً شديداً ألماً لا حدود له - بل إن معظم الأمراض اليوم أمراض القلب والشرايين أمراض المعدة وأمراض الأعصاب وأمراض الأوعية، هذه الأمراض أكثرها بسبب الآلام والندم، دائماً يتألم، أما إذا شهدت الرزاق ما ضرك ما فاتك من الأرزاق.

ومن عرف أن الرزاق واحد قصده ولم يسأل أحداً سواه، كلكم يعرف القصة التالية أن أحد خلفاء بني أمية طلب عالماً جليلاً ليلتقي به، فالتقى به، فأراد هذا الخليفة أن يكرم هذا العالم، قال له سلني حاجتك، فقال والله إني لا أسأل غير الله في بيت الله، فهذا بيت الله أستحي أن أسأل أحداً سواه، فلما التقى به خارج المسجد قال له سلني حاجتك، قال والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها ؟ فلما أصّر عليه، قال أطلب منك الجنة، قال هذه ليست لي، قال إذاً ليس لي عندك حاجة.

هذا العِزّ عزة التعفف، فما أجمل أن يعطي الغني الفقير، والأجمل من ذلك أن يتعفف الفقير عن مال الغني وأن يقول الحمد لله.

قال بعض العلماء: **" كما أن الله لا شريك له في خلقه، لا شريك له في رزقه، كما أنه لا إله إلا الله،** أيضاً لا رازق إلا الله.

يقولون دائماً إذا أعطى أدهش.

ولو كانت الأرزاق تجري مع الحجى هلكن إذاً من جهلهن البهائم

***

ترى إنساناً ذكياً جداً رزقه قليل وقد تجد إنسان في منتهى البساطة والسذاجة رزقه وفير، فمعناها الرزق له عامل آخر غير عامل الذكاء وعامل السعي، لكن تأكدوا أن للرزق علاقة بالاستقامة، العوام يفهمون أن هذا الرزق مكتوب ولا حيلة لأحد في كسبه ودفعه، هذا الكلام صحيح من جانب واحد، فالله يقول:

(وَأَنْ لَوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦))

(سورة الجن)

(وَلَوْ أَنّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦))

(سورة الأعراف)

((قد يحرم المرء بعض الرزق في المعصية))

حديث شريف.. إذا أردنا أن نوضح هذه الحقيقة، مثلاً إذا رأيت أن ابنك ليس أهلاً لتملك المال، فإنك تعطيه الحد الأدنى، تعطيه مبلغاً يسيراً يكفي حاجاته الضرورية، أما إذا كان ابنك من أهل الصلاح،

ورعاً واستقامةً واتزاناً وحكمةً تقول له أبق معك الخمسمائة ليرة لا شيء عليك، أما خمسمائة لولد آخر يذهب لأماكن لا ترضي الله عز وجل تعطيه ثمن شطيرة ثمن ركوب سيارة، الحد الأدنى.. لذلك قال الله تعالى:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧))

(سورة الشورى)

الفكرة خطيرة وهامة جداً، التقنين تقنين تأديب لا تقنين عجز، أو الأصح من ذلك التقنين تقنين حكمة لا تقنين حاجة.

يروى في بعض الكتب أن سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، سأل الله في مناجاته، قال يا رب إني تعرض لي الحاجة الصغيرة أحياناً، أفأسألها منك أم أطلبها من غيرك، أي أن الإنسان أحياناً يحتاج شيئاً بسيطاً، فمرةً حدثني طبيب ناشئ أول ما فتح عيادة له ووالدته مريضة في دمشق وهو في بلد آخر، يحتاج لمبلغ معين، فقال يا رب أريد المبلغ الفلاني، فعلى خلاف العادة أتاه مريض وراء مريض.. إلى أن اجتمع المبلغ بكامله.

الإنسان أحياناً عليه دفع.. ليقل يا رب ليس عندي فأعطني، عوّد نفسك الطلب من الله فإذا رأيت الزوجة متصلبة برأيها فقل يا رب.. رأيت الشريك مزعج.. فقل يا رب لطفه.. وجدت الابن منحرف.. يا رب أدبه.. وجدت العمل مزعج.. فقل يا رب بدله لي، عوّد نفسك أن تسأل الله عز وجل كل شيء. قال يا رب إني لتعرض لي الحاجة الصغيرة أفأسألها منك أم أطلبها من غيرك ؟ فأوحى الله تعالى إليه، لا تسل غيري.

أحياناً الإنسان مع أخيه المؤمن يقول إكراماً له: إياك أن تسأل أحداً غيري، كلما سنحت لك حاجة تعال إلي وخذها مني، هذه منتهى المودة، فإنك إذا أحببت إنساناً حباً شديداً، فإنك لا ترضى أن يبذل ماء وجهه لغيرك، فإنك تقول له إياك وأستحلفك بالله أية حاجة تعرض لك فأْتِ إلي، وكأن الله عز وجل لشدة حرصه علينا وحبه لنا قال لا تسأل غيري.

يُحكى عن حماد بن مسلمة أنه قال، كان في جواري امرأة أرملة لها أيتام، وكانت ليلة ذات مطر، فسمعت صوتها، تقول يا رفيق أُرفق بحالي، قال فخطر ببالي أنها أصابتها فاقة، فصبرتُ حتى احتبس المطر، فحملتُ معي عشرة دنانير، وقرعت عليها الباب، فقالت: حماد بن مسلمة؟ **" يبدو أنه معروف بالصلاح "** فقلت نعم حماد، كيف الحال، فقلت في خير وعافية، احتبس المطر ودفي الصبيان، فقال خذي هذه الدنانير وأصلحي بها بعضَ شأنك.. عندها بنية صغيرة، صاحت هذه البنية، لا نريد يا حماد أن تكون بيننا وبين الله، ثم قالت لأمها لما رفعت صوتك بإظهار السر علمت أن الله يؤدبنا بإظهار الرفق على يد مخلوق.

أحياناً ينالك الخير من الله مباشرة ففيها عز، لا أحد له عليك مِنّة وأحياناً أنت تشتكي، فإذا اشتكيت لمؤمن قد يرّق لك قلب هذا المؤمن لكن الآن سيأتيك العطاء لا من الله مباشرة عن طريق هذا المؤمن فإذا اشتكيت إلى كافر يشمت بك وقد يعطيك، لكن هذا منتهى الإهانة أن يعطيك عن طريق كافر، فإذا كان هناك منظر يهز أعمق مشاعري أن أرى مؤمناً يتذلل أمام كافر، يبذل ماء وجهه، يتشكى، يتطامن يتضعضع، والآخر يشعر أنه لو الإيمان ينفع لما اشتكيت إلي، كأنه يشمت بك.

فمن اشتكى لمؤمن فكأنما اشتكى إلى الله، ومن اشتكى إلى كافر فكأنما اشتكى على الله، وأرقى أنواع الشكوى أن لا تشتكي..

((قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦))

(سورة يوسف)

أحدهم شعر بآلام بجسمه آلام لا تحتمل، لو قال لزوجته أو لبناته أو لأولاده، فإنهم يتعاطفون معه ويتأثرون، من يستطيع أن يوقف هذا الألم ؟ الله وحده.

هناك أشخاص يصبرون يكابرون، لا يحبون أن يُشركوا أحداً في مصيبتهم، هذا مستوى من المستويات، ولكن لا مانع إذا اشتكى الرجل لزوجته، هذا ليس موضوع حلال وحرام، ولكن هذا كلما رقت النفس وشفت، ترى أن الله عز وجل هو وحده يُشتكى إليه، **" قال يا إبراهيم ألك حاجة ؟ قال منك؟ قال لا من الله، قال علمه بحالي يغني عن سؤالي "**.

فالله يراك، ويعرف وضعك ودخلك يعرف ألمك يعرف مرضك يعرف مشكلتك مع زوجتك، يعرف مشكلتك مع شريكك، يعرف بعد بيتك، يعرف سوء الموصلات، يعرف أنك أوصلت فلان والوقود غالٍ.

فالله يعرف كل شيء. فالله يقدّر الليل والنهار، فكلما شفت نفسك وكلما أقبلت على الله تستغني به عما سواه، تشعر بعزة النفس فالمؤمن يمتلئ عزة يمتلئ إيماناً وغنى ونشوة وعزة وكرامة.

تحدث لي أن شخصاً مهماً يدنّي نفسه لعرض من الدنيا قليل، فمرة نظرت فوجدت أمام أحد المصارف ازدحام كبير، أكثر من خمسمائة شخص الساعة الثانية والنصف، بأشد أيام الحر، فسألت ما القصة، قالوا هناك تسجيل على السيارات، الساعة السادسة مساءً، فهم واقفون من الساعة الثانية بدورهم.

الإنسان أمام مصالحه وأمام المكاسب الدنيوية يتجشم المشاق، لكن أمام عباداته وأمام الأعمال الصالحة، فدائماً يميل إلى الراحة والى الكسل، **" قالت لأمها يا أمي، لما رفعت صوتك بإظهار السر علمت بأن الله يؤدبنا بإظهار الرفق على يد مخلوق "**. هناك دعاء بهذا المعنى **" يا رب ارحمني رحمة من عندك "**، من عند الله مباشرة، أحياناً ربنا يؤدب ولكن تأديب فيه ستر، آلام داخلية والمظهر ليس به شيء، وأحياناً مرض جلدي كلما التقيت مع إنسان " يقول لك خيراً إن شاء الله ما هي القصة، أين تعالجت، أنت تريد بالناقص كلمة، يعطيك الناس كلمة زائدة، أحياناً الإنسان لا يحب أن تنتشر

مشكلته بين الناس، ولكن الله أحياناً يرسل مشكلة من شأنها أن تنتشر، وأحياناً ربنا يؤدب الإنسان تأديباً داخلياً، تأديباً مباشراً

" يا رب اغفر لي مغفرةً من عندك "

أي يا رب إذا أردت أن تؤدبني فأدبني سراً، أي بينك وبين الله "، كيف ترى، هذا العقاب من هذا العمل..

حدثني شخص أثق بإيمانه وأعلم أنه يغض بصره عن محارم الله سافر إلى أوربا، قال في مطار لارنكا في قبرص، طائرة سويدية نزل منها نساء بزي واحد وعدد كبير جداً، قال كيف خانتني عيني ونظرت لا أدري، وبعد ذلك ركب سيارة أجرة ثم دفع للسائق أجرة بعملة أجنبية، فالسائق ساقه إلى مخفر شرطة، فدخل وتكلم مع عناصر الشرطة، خرج اثنان فأخذوه ووضعوه في قفص صغير، هو شخصية مهمة جداً وذاهب إلى مؤتمر ويتقن لغتين، فما هذا الذي وقع فيه، قال والله بكيت، فوقع في قلبه نداء **" لماذا نظرت إليهن ".**

فأحياناً الله عز وجل يغفر لك مباشرة من دون سجن ومن دون إهانة وأحياناً هناك عذاب مهين.

مرةً رأيت في الطريق شخصاً يرتدي أجمل الثياب وعمره من فوق الخمسين سنة، تقاوّل مع الشرطي، من أجل المرور، فجاء الضابط فلطمه لطمتين على وجهه، فالآن كلما أذكر المشهد أمام الناس يرتدي بدلة كحلي وأزرار معدن وأنيق جداً، قلت إن الله عز وجل عنده عذاب مهين وعنده عذاب أليم وعنده عذاب عظيم، وذلك في الآخرة، بالدنيا عذاب أليم عذاب مهين، هناك آلام للسرطان لا تحتمل، وآلام نوبات الرمل لا تحتمل، فالله قال:

(وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ)

المس عندما يلمس الإنسان المكواةَ احتياطاً يبلل يده بلعابه ويضع إصبعه على المكواة بأقصر زمن ممكن وبأبعد مكان ممكن، هذا هو المس، فربنا إذا مسنا بألم لا نحتمل فكيف إذا سلطه عليه، فالإنسان ضعيف.

بعضهم تسمو هممهم فلا يطلبون من الله إلا الحوائج النفيسة يقولون يا رب ارزقني الجنة، يا رب ارزقني أن أعرفك، يا رب لا تمتني قبل أن ترضى عني، دائماً طلباتهم متعلقة بالجنة والمعرفة وفهم القرآن وإتمام التفسير، وهناك أشخاص يقولون يا رب يخرج المستأجر من داري، يا رب.. فناس يطلبون أشياء نفيسة وناس يطلبون أشياء خسيسة، هذا اجتهاد.

هناك من يقول **" لا أطلب من مولاي غير مولاي، وأما الحقير أطلبه من الحقير "** أي لا أطلب من الله إلا الله، وإذا كان شيء حقير أطلبه من إنسان عادي.

يُحكى أن امرأة يحيى بن معاذ قالت ليحيى لقد رأيت العجب العجاب إن بنيتي طلبت مني شيئاً تأكله مع الخبز، فقلت لها سلي من الله قالت ابنتها **" إني أستحي من الله أن أسأله ما آكل "** هذا اجتهاد آخر، لك أن تأخذ بالأول أو بالثاني، ولكن الحديث الشريف:

((عَنْ ثابتٍ الْبُنَانِيّ أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قالَ: لِيَسْأَلْ أَحَدُكُمْ رَبّهُ حَاجَتَهُ حَتّى يَسْأَلَهُ الْمِلْحَ وَحَتّى يَسْأَلَهُ شِسْعَ نَعْلِهِ إذَا انْقطعَ))

وهناك تعليق، أن هذه الصبية الصغيرة تستحي أن تسأل الله مباحاً وهذا الشيخ الطاعن في السن لا يستحي أن يعصي الله.

والله هناك منظر لا يصدق إنسان في الستينات يلعب الطاولة في القهوة تارك للصلاة، وإنسان متصابٍ بالخمسينات يتزيّن أمام الفتيات أو واقف على محل أو على شرفة أو على طريق ينظر إلى النساء أو على مقهى رصيف جالس ينظر إلى النساء، شيء عجيب، قال عليه الصلاة والسلام في بقية هذا الحديث:

((... وأبغض العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد))

إن الله عز وجل يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر، أؤكد لك إذا أنت صليت صلاة صحيحة، أو إذا أكرمك الله بالحج مثلاً، وقف في عرفات وبكى حتى انتشى، يبقى أحياناً شهراً في نشوة هذا البكاء، أو هذا القرب أو هذه الرحمة، إذا صلى فرض صلاة وشعر أن هذه الصلاة جيدة، هذه الصلاة التي أرادها الله عز وجل شعر بخشوع فتح الله عليه في فهم ما تلا من قرآن، هذه أرزاق، إذا صام رمضان صياماً مقبولاً وشعر أن صيامه كان صحيحاً، ليس فيه معاصي، كان منيباً إلى الله فيه، وصلى التراويح بنشاط، يقول لي بعض الإخوة الأكارم لو كان التراويح خمسين ركعة نحن في سرور طبعاً صيامه صحيح مستقيم أثناء النهار، أكل قليلاً، نام قليلاً عصراً، جاء إلى التراويح نشيط.

قال إن الله يرزق الأرواح والسرائر كما يرزق الأشباح والظواهر وأرزاق القلوب الكشوفات والمعاني كما أن أرزاق الأجساد الغذاء والأحاظي، جمع حَظوةً، الكشوفات أي أن المؤمن يرى مالا يرى الآخرون عنده رؤيا، عنده شعور، يعرف جوهر الحياة، يعرف أين كان وإلى أين المصير، يعرف أثمن ما في الحياة.

أحياناً الإنسان يضيع وقته بأشياء تافهة وأحياناً يمضي وقته بأشياء ثمينة، وهذا أيضاً رزق، هناك نقطة ثانية، وهي عكس الرزق، فكما أن الله عز وجل يضيق على العبد رزقه، قال الله تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧) وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ (١٨) وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً (١٩) وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً(٢٠))

(سورة الفجر)

تراه ذكياً، يحمل شهادة عليا ودخله قليل، ليس له وظيفة ولا عمل هذا بتقدير الله عز وجل، فكما أن الله عز وجل، يضيّق على العبد رزقه المادي أحياناً يضيق عليه رزقه الروحي، يصلي صلاة لا معنى لها جوفاء ليس فيها خشوع، يشرد في الصلاة، قال لي شخص، إذا كنت غلطان بالمحاسبة لا أذكرها إلا في الصلاة، هناك أمر غير مسجل يصلي فيلقاها في الصلاة، قال لي بالصلاة كل المشكلات تأتي إلى خاطري، معناها هناك سد، كما أن الله عز وجل يضيق على العبد رزقه المادي أحياناً يضيق عليه رزقه الروحي، هذا التضييق له تفسيران، الأول أن هناك معصية هناك مخالفة هناك تقصير هناك حقوق لم تؤدِها، هذا الحجاب، كل معصية لها حجاب، وهناك تفسير آخر، قد تكون مستقيماً على أمر الله لكن هذا التضييق سببه التعطيش وصلتَ لمرتبة أنت راغب بأن تبقى فيها، والله عز وجل أراد لك أن ترتقي عن هذه المرتبة، فكيف تنتقل من مرتبة إلى مرتبة، يحجب الله عنك الأحوال والمواجيد والتجليات، تضج تقلق، تخاف تشمر وتعمل الصالحات، تصعد درجة، تعيش فيها فترة لا بأس بها ثم تألفها وترضى بها، لكن الله لا يرضى لك هذه الحالة المستمر، يحجب عنك الأحوال، فلا صلاتك صلاة ولا ذكرك ذكر ولا تلاوتك تلاوة، قلب متصحّر، مالٌ فيه ضيق واشمئزاز..

هو مستقيم، ولكن لا يوجد أحوال ولا سرور ولا تجليّات ولا مشكلة تنطلق إلى العمل الصالح فترفع مستوى عملك الصالح فتقفز قفزة إلى أن تبلغ أعلى درجة أرادها الله لك بهذه الطريقة، إذاً هذا تفسير قد يضيق الله على عبده رزق الأرواح.

قال أحدهم دخلت على داوود الطائي فرأيته منبسطاً، أحياناً ترى إنساناً طليقاً مسروراً مرحاً وجهه فيه تألق، على خده تورد في عينيه لمعان، طليق اللسان، حركاته خفيفة، هذه صفات المنتشي دائماً وقبل أن أتابع القصة لي هذه الملاحظة، أنت كمؤمن، إن سعدت بقربك من الله عز وجل فأنت مؤمن ورب الكعبة، إذا كانت نشوتك وسرورك وطلاقتك وراحة نفسك وجدتها بإقبالك وقربك، فهذه علامة إيمانك، أما إذا تألقت عيناك وتورد خداك وانطلق لسانك لأرباح حققتها أو لمكسب وصلت إليه فهذه علامة أخرى، فمن أنت ؟ أمِنْ أهل الدنيا أم من أهل الآخرة ؟ إذا سرك عطاء البشر فأنت من أهل الدنيا، أما إذا سرك عطاء الله عز وجل فأنت من أهل الآخرة.

قال دخلت على داود الطائي فرأيته منبسطاً، وكنت إذا دخلت عليه أراه منقبضاً، المؤمن إذا أنكر قلبه وضعفت صلته بالله عز وجل يصبح كاليتيم، تراه هادئاً، خير إن شاء الله، ما في شي، قال الحسن

البصري: **إذا تلوت القرآن وذكرتَ الله عز وجل وصليت ولم تجد شيئاً فاعلم أنك محجوب**، قال الله تعالى:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥))

(سورة المصففين)

ذاك حجاب الآخرة، ولكن في الدنيا حجاب، إذا شعرت أنك محجوب انتبه وابحث عن السبب، لعلك مقصر لعلك معتَدٌّ بنفسك لعلك مستغنٍ عن الله لعلك وقع في نفسك سوء ظن بالله وأنت لا تدري لعلك وقعت في سوء ظن بالنبي عليه الصلاة والسلام وأنت لا تدري، فإذا شعرت أن بينك وبين الله حجاب فابحث عن السبب وإياك أن يزداد الحجاب، والحجاب يرق ويثخن، فإذا كان الحجاب كثيفاً فالمشكلة خطيرة جداً، كما قال سيدنا عمر **" تعاهد قلبك "**، يعني راقب قلبك راقب أحوالك راقب طمأنينتك، لو أن إنساناً استيقظ بعد صلاة الشمس فإذا لم يشعر بانقباض فحالته خطيرة جداً، لكن إذا شعرت بانقباض شديد وألم وشعور بالخزي والعار من الله عز وجل وشعور بالضياع أما إذا قال مثل بعضها، شو صار، أيضاً هي مشكلة كبيرة جداً،

" دخلت على داوود الطائي فرأيته منبسطاً، وكنت إذا دخلت عليه أراه منقبضاً فقلت أي شيء حالك، فقال سقاني البارحة شرابَ أنسِهِ فأردت أن أجعل اليوم يوم عيد "، يعني صار له صلة بالله أقبَلَ على الله، شعر بنشوة الاتصال، هذا أجمل ما عنده فقال أردت أن أجعل ذلك اليوم يوم عيد لذلك إذا رجع العبد إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أنْ هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله.

نشوة المؤمن في تقربه من ربه، أقول لكم هذه الكلمة، يعني إذا سعد الإنسان في الدنيا فهذه علامة خطيرة، يجب أن تسعد بالله، وحقيقة ثانية لا يمكن أن تسعد إلا بالله، إذا سعد إنسان بما سوى الله **!!**

فالقرآن أليس كلام الله ؟ ربنا عز وجل قال:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آَيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى(١٢٦))

(سورة طه)

سأل رجل ما بال الملوك، كل شيء عندهم، الأغنياء، فأجاب عالم آخر قال: ضيق القلب، المعيشة الضنك للأغنياء أو للأقوياء ضيق القلب في قلوبهم من الضيق والتبرّم والشقاء ما لو وزع على أهل بلد كفاهم، لذلك فالله عز وجل قد يعطيك الدنيا ويأخذ منك راحة قلبك، وقد يعطيك راحة القلب ويسلب الدنيا منك، فالعبرة أن يكون قلبك غنياً بالله عز وجل.

قال سقاني البارحة شراب أنسه فأردت أن أجعل من ذلك اليوم عيداً فقلت أتأذن لي أن أحمل لك طعاماً حتى تفطر، فقال لست أشير إلى هذا وشتان بين شراب يدار على الكف وشراب يكون في موجب لطف وروية كشف، هناك شراب مادي وهناك شراب معنوي.

إذاً الرزاق هو الله عز وجل، والآن ما علاقتنا بهذا الاسم، وهذه مهمة جداً، أول شيء أن ترضى بقسمة الرزاق بدأ من أمك وأبيك أنت ابن فلان وفلانة، هذا تقدير الله عز وجل، أنا أبي ليس مثل أبي فلان انظر إلى أبي فلان راق جداً، أخلاقه عالية أنا أبي شرس أبي قاس أبي جاهل، أبي فقير، انظر إلى رفيقي أبوه غني أبوه مثقف ثقافة عالية، أبوه راق.

يجب أن ترضى بوالديك لأن هذا منتهى الحكمة، ويجب أن ترضى بشكلك، فالله أقامك بهذا الشكل، طول زائد، قصر، وسامة، دمامة صحة، ضعف، هكذا أقامك الله، فإذا اعترضت على الله فلست مؤمناً يجب أن ترضى عن اختيار الله لك من أي رجل وامرأة كان وجودك وبأي شكل كان وجودك، وعن رزقك وعن زوجتك، فالله اختار لك هذه الزوجة، أكثر الأشخاص غير المؤمنين يمضي كل حياته في عذاب يقول ما توفقت في هذه الزوجة، فالله اختارها لك، علم فيك خيراً فضمها إليك لعلك تهديها إلى الله، انظر إلى المؤمن عنده حسن ظن بالله، لو أن الله ساق له ولد سيئ لا يتبرم، يقول لك الله عز وجل هكذا اختار، لو زوجه امرأة سيئة، وفي القصة.. قال له أحدهم طلقها قال والله لا أطلقها فأغش بها المسلمين.

هذا يعني أن ترضى عن رزق الله لك، والمعنى الثاني أن تجعل يدك على مالك وأن تجعل مالك خزانة ربك، يدك على المال يد الأمانة لا يد الملك، قال الله تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً (٦٧))

(سورة الفرقان)

إذاً أول معنى من معاني الرزق أن ترضى بما قسمه الله لك، وإذا رضيت بما قسمه الله لك تكن أغنى الناس، المعنى الثاني، أن تجعل مالك مال ربك وأنت عليه أمين ولستَ مالكاً.

١٣- اسم الله الفتاح :

الفتاح على وزن فعّال، وصيغة فعال من صيغ مبالغة اسم الفاعل وحينما يصاغ اسم الله عز وجل الفتاح أو أي اسم آخر، حينما يصاغ صياغة مبالغة فالمعنى أن الله عز وجل يفتح كل الأبواب أو يفتح ما استعصى من الأبواب، إما مبالغة تكثير أو مبالغة نوع قد يستعصي باب.

قد يصاب الإنسان بمرض عضال، الأطباء جميعاً أعطوا قرارهم، لا شفاء لهذا المرض، لا أمل يرجى من هذا المريض، لا بد أن يموت بعد أيام لا تُجدي معه العملية ولا أن يسافر إلى بلاد الغرب ولا أن يفعل ولا أن يترك، باب الشفاء أُغلق وأُرْتِج وتواتر الإغلاق وتواترت آراء الأطباء.

أعرفُ صديقاً لي أنجب مولوداً بولادة عَسِرة، سحب الجنين من رحم الأم بآلة تستخدم في الولادة العسرة، حينما وضع الجهاز على رأسه وسحب أصيب دماغه بخلل، فصار هذا الطفل الصغير كلما مضى وقت قليل انتفض، فسأل صديقي أول طبيب قال له، هذه إصابة بالدماغ، لابد من أن يكون هذا الطفل أعمى، أو أبله أو مشلولاً، قلنا هذا الطبيب حديث عهد بالعلم، فسألنا أعلى طبيب أطفال في دمشق فقال الكلام نفسه، ما أضاف ولا أنقص، سألنا طبيباً ثالثاً ورابعاً وخامساً أُدخِل مستشفى الأطفال، وهذا الكلام ما تغير، لأن الاختلاجات أساسها إصابة الدماغ وإصابة الدماغ لا تُبرأ، لأن الخلية العصبية لا تنمو **"قاعدة"**.

لو أن الأعصاب تنمو لمات الإنسان ألماً، فمن رحمة الله بالإنسان أن أعصابه لا تنمو، فالأطباء جميعاً أجمعوا على أن هذا المولود لابد أن يكبَر ويبقى أبله أو مشلولاً أو أعمى، وصدقوني أن أباه كان يتمنى أن يموت طفله، لأن موت الطفل الصغير أهون بكثير من أن يكبر على هذه الحالة، ثم أُخِذَ إلى طبيب، وهذا الطبيب على شيء من الإيمان، قال لعل الله يشفيه، فأجرى تخطيطاً للدماغ، وأعطى الدواء وما هي إلا ستة أشهر حتى عاد الطفل كطفل سوي لا شيء يقلق في صحته، والآن عمره اثنتا عشرة سنة ويتحرك ويلعب ومتفوق في دراسته، لماذا اسمه الفتاح، لقد أغلقوا كل الأبواب، وربنا عز وجل فتح باب الشفاء.

المعنى البسيط إما أنه يفتح كل باب، يفتح لك باب الرزق يفتح لك باب العمل، يفتح لك باب الزواج، يفتح لك باب الراحة النفسية، يفتح لك باب التوفيق، يفتح لك باب الطمأنينة، يفتح لك باب العمل الصالح، يفتح لك باب الدعوة إلى الله.. أو أنّ أحد الأبواب التي استعصت على كل طبيب يفتحه الله عز وجل.

إذاً فتاح صيغة مبالغة اسم الفاعل الفاتح، الفاتح والفتاح، يفتح ما أغلق من الأبواب أو ما استعصى من الأبواب، أو يفتح كل باب، قال الله تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

(سورة فاطر)

يفتح رحمته، وما يمسك فلا مرسل له من بعده، يعني إذا أمسك ليس في الأرض كلها قوة تستطيع أن تفتح، وإذا فتح ليس في الأرض كلها قوة تستطيع أن تغلق، قوى الأرض مجتمعة ليس في إمكانها أن تفتح ما أغلقه الله ولا أن تغلق ما يفتحه الله، قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

إذاً الأمر بيد الله وحده، وإذا أيقنت أن الأمر بيد الله وحده لا بد من أن تتجه إليه، هذه الآية تترك صدىً طيباً جداً في نفس المؤمن، ما يفتح الله للناس من رحمة فلا مرسل لها، علاقتك محصورة مع الله عز وجل، ما سوى الله أشباح، لا تستطيع أن تقدم أو أن تؤخر، بل ما قولكم، إن النبي عليه الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق وهو النبي الرسول الذي يوحى إليه، وهو أكرم الخلق على الله قال الله تعالى قل لهم يا محمد: لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً، فإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، فلأن لا يملك لنفسه فلغيره من باب أولى، الله هو الفتاح.

يعني دائماً كلمة يرددها السلف الصالح كلما التقوا بإنسان متوثب متفتح مقبل، يقال لهذا الشاب **" فتح الله عليك فتوح العارفين "** فهي كلمة منوعة، الله يفتح لك باب رزق، الله يفتح لك باب علم الله يفتح لك باب كشف، الله يفتح لك باب قرب، الله يفتح لك باب رُقيّ، الله هو الفتاح، والكلمة الشهيرة **" فتح الله عليك يا ولدي فتوح العارفين "**.

الآية الأولى إذاً، قوله تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

الفتاح له معنى آخر مستنبط من قوله تعالى:

(قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩))

(سورة الأعراف)

أحياناً الأمور تشتبك، قوى تتصارع، فلان يدّعي أنه على حق فلان يكيل التُّهم للآخرين بغير حساب، الآخرون يكيلون له الصاع صاعين، ترى الحياة صراعات تبادل تهم، تبادل تهاترات، توزيع ألقاب

سيئة أو راقية، هذا يقول الشيخ محي الدين سلطان العارفين وهؤلاء يقولون الشيخ الأكبر، فمن هو الحَكَم، رجل عالم جليل عارف بالله، بعضهم وصفه بأنه سلطان العارفين، هؤلاء الصوفيون، وغير الصوفيين في الطرف المقابل، وصفوه بأنه الشيخ الأكبر، فمن هو الحَكم ؟ من عنده قول الحق ؟ من الذي يعرف حقيقة هذا الإنسان بالضبط هو الله عز وجل، فمعنى الفَتْح هنا معنى آخر معنى الحُكْم

(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا)

يعني كلٌّ يدعي أنه على حق، كلٌّ يكيل للطرف الآخر التُهم، هو مؤمن والآخرون كفار، هو مستقيم والآخرون منحرفون، هو قريب والآخرون ضالون، هذا على مستوى دين واحد، فكل دين يتهم الأديان الأخرى بأنها أديان ليست من عند الله، أو أديان منحرفة، واللا دينيين يتهمون أصحاب الأديان بالتخريف والغيبية والضعف، الدينيون يتهمون غير الدينين بأنهم كذا وكذا، فمن هو الحَكَم، من هو الذي له الكلمة الفاصلة، من هو الذي يقول أنتم على حق وأنتم على ضلال، الله عز وجل هو الفتاح، هذا المعنى الثاني مستنبط من قوله تعالى:

(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩))

ما علاقتك بهذا المعنى من هذا الاسم، يعني إن كنت على حق لا تخف لأن الله هو الفتاح، قد يقول الناس عنك الأقاويل، قد يتهمونك بتهم لا أساس لها من الصحة، إذا كنت على حق لا تخف، ولا تنس قوله تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩))

(سورة النمل)

(قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (٩١))

(سورة الأنعام)

إذا آمنت أن الله وهو الفتاح هو الحكم هو الذي يرفع ويخفض هو الذي يكشف الحقائق هو الذي يُجَلي الأمور، هو الذي يزيل الالتباس هو الله عز وجل، إذا آمنت بأنه هو الفتاح فلا تقلق، ولو أن الناس أساؤوا فهمَك، لو أن الناس أساؤوا الظن بك، لو أنهم اتهموك تهم باطلة لأسباب تافهة لا تخف، من عرف نفسه ما ضرّته مقالة الناس فيه.

ما الذي يُقلق الإنسان اليوم، يقلقه أنه متمزق بين جهات عديدة تصور موظف له عشرة أصحاب عمل، شركة فيها عشرة شركاء في معمل كبير وهو موظف عندهم، لو أن هؤلاء الشركاء متفقون متفاهمون، فعلى الرغم من ذلك كل شريك سيعطي هذا الموظف أمراً مناقضاً للآخر، الأول تعال، الثاني اذهب، الأول كن غداً في المكتب الثاني سافِر، الأول تأخّرْ بعد الغداء، الثاني تعال بعد الظهر واذهبْ باكراً،

هذا إذا كانوا متفاهمين، فكيف إذا كانوا متخاصمين، فكيف إذا كانوا شركاء متشاكسين، فالحياة لا تطاق أن يكون لك فيها شركاء كثيرون.

الإنسان المشرك أو غير المؤمن أو ضعيف الإيمان حياته ممزقة بين أن يُرضي رئيسه وبين أن يُرضي مرؤوسه، بين أن يُرضي زوجته، إن أرضى من حوله في العمل تغضب امرأته، وإن أرضاها يغضب شركاؤه، وإن أرضى جيرانه يغضب الله عز وجل، وإن امتنع عن حضور هذه الحفلة أغضب أقرباءه، حياة كلها تمزق، لكن المؤمن يعلم أن الفتاح هو الله، هو الحكم، إذا يرضي جهة واحدة ويستريح، ولا تنسوا قوله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

(سورة الشعراء)

أحد أكبر عذاب النفس أن تشرك بالله، أن تدعوَ مع الله إله آخر ليس معنى أن تدعو مع الله إله آخر أن تقول هذا الفلان إله فقط، بل أن تعامله كما تعامل الإله، أن تعتمد عليه أن تتكل عليه، أن تُعلّق عليه الآمال، أن تطيعه وتعصي خالق الكون، هذا معناه أنك اتخذته إلهاً، هذا المعنى الثالث.

المعنى الأول:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ)

الأبواب المغلقة كثيرة، يقال لك، الأبواب كلها مغلقة، الطرق كلها غير سالكة، كلما اتجهتُ إلى جهة أغلق الباب في وجهي، هذا تعبير يستعمله عامة الناس، من هو الفتاح هو الذي يفتح لك الأبواب المغلقة أو الأبواب المستعصية، أو الأبواب الكثيرة، وحينما يَطْهُر الإنسان حينما تصبح سريرته سليمة، حينما يستحق الإكرام تأتيه الدنيا وهي راغمة، **" أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه ومن خدمك فاستخدميه،** الحديث القدسي معروف:

((خلقت لك السماوت والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيعييني رغيف أسوقه لك كل حين، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعزتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البرية، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً))

إذا كنت في المستوى الذي يستحق الإكرام، إذا سرت في موجبات رحمة الله عز وجل تأتيك الدنيا وهي راغمة لذلك هذا الحديث الذي لا أنساه، قال عليه الصلاة والسلام:

((قَالَ خَرَجَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ مِنْ عِنْدِ مَرْوَانَ بِنِصْفِ النَّهَارِ قُلْتُ مَا بَعَثَ إِلَيْهِ هَذِهِ السَّاعَةَ إِلا لِشَيْءٍ سَأَلَ عَنْهُ فَسَأَلْتُهُ فَقَالَ سَأَلَنَا عَنْ أَشْيَاءَ سَمِعْنَاهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ فَرَّقَ اللَّهُ عَلَيْهِ أَمْرَهُ وَجَعَلَ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَلَمْ يَأْتِهِ

مِنَ الدُّنْيَا إِلا مَا كُتِبَ لَهُ وَمَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ نِيَّتَهُ جَمَعَ اللَّهُ لَهُ أَمْرَهُ وَجَعَلَ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ))

ما تعلق أحد بحب الدنيا إلا أُصيب منها بثلاث، شغل لا ينفكُّ عناه، وأمل لا يُدرَك منتهاه وفقر لا يُدرك غناه، لكن المؤمن قال الله:

(وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعاً حَسَناً إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣))

(سورة هود)

متاع المؤمن متاع حسن، معه راحة نفسية، ومعه أمل بجنة عرضها السماوات والأرض، ولكن متاع الكافر معه قلق، معه شعور بالمستقبل المجهول، شعور بأنه مُقدِم على مجهول، ولا سيما الموت حينما قال الله عز وجل دعاء إبراهيم:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦))

(سورة البقرة)

أجابه ربنا ومن كفر، فأمتعه قليلاً ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير، ما الفرق إذاً بين متاع المؤمن ومتاع الكافر ؟ متاع المؤمن معه راحة نفسية معه شعور أن الله عز وجل ادّخر له شيئاً في الآخرة، أما الكافر وهو في قمة استمتاعه في الدنيا يشعر بقلق من مجهول أقله الموت، أقله أن تسلب منه هذه النعمة، لذلك الدعاء الذي أدعوه أنا، اللهم إنا نعوذ بك من عضال الداء ومن شماتة الأعداء ومن السلب بعد العطاء، أصعب شيء أن يسلب منك شيء قد نلته من الله عز وجل، فالله عز وجل، من إكرامه للمؤمن يجعل خير عمره آخره يتعبه في أول حياته ولكن يريحه في آخره، أما أهل الدنيا يعزُهم في مقتبل حياتهم ثم يأتي العِقاب والذل والهوان والفقر، فالدعاء الشريف:

" اللهم اجعل خير عمرنا آخره وخير أيامنا يوم نلقاك، نلقاك وأنت راض عنا ".

(رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ (٨٩))

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩))

(سورة الأنعام)

الآن ما علاقتك بهذا الاسم، هذه الآية إذا فهمتها كما أراد الله عز وجل، فلو أنه قال ومفاتح الغيب عنده، هل حدث شيء، هو قال وعنده مفاتح الغيب، هل يستفاد معنى دقيق جداً من تقديم عنده، لو قال ومفاتح الغيب عنده فقد تكون عند غيره أيضاً، أما إذا قال:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

فالتقديم فيه قصر، فالغيب لا يعلمه إلا الله، وعنده مفاتح الغيب العوام يقولون كلمة، **" الذي عند الله ليس عند العبد "**، مرّ وقت قال الناس فيه لا يوجد أمطار جفاف دائم، العام الحالي بعض مجاري نهر بردى زرعت، في الغوطة لأن الناس استيأسوا من أن ترجع هذه المياه إلى مجاريها، جفاف مستمر، فجأة جاء بردى بشكل مخيف وبكميات مخيفة.

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

لا أقول لك كذب الناس، فلو قال الطبيب لم يعد هناك أمل في المريض، فلا تصدق، لأن:

إن الطبيب له علم يدل بـــه   إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلتــه   حار الطبيب وخانته العقاقيــر

***

على حسب عمر الإنسان، فإذا انتهى عمره وقال الطبيب لا يوجد أمل، فلا يوجد أمل، أما إذا كان يوجد بقية في حياته فلا.

أذكر طبيباً قال لمريض أربع ساعات ينتهي، اشترى أهله السواد وكتبوا النعوة، ثم شفاه الله عز وجل، هذا الإنسان عاش ثلاثين سنة والطبيب مات بعد اثني عشر عاماً

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

ليس من باب التكذيب، ولكن يتكلم الإنسان بحسب علمه، أما ما سيكون لا يعلمه إلا الله عز وجل، فمثلاً: هناك بلاد بالشرق آمنة مطمئنة رخاء مال، بترول، غنى، من يصدق أنها تلتهب في الحرب، ليس في الحسبان.

لبنان في عام ١٩٧٤ كانت جنة الله في الأرض، الأمن والرخاء والبذخ والترف، كل ما في العالم في هذا البلد، من يصدق الذين زاروها الآن قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً.

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

هناك تفسيرات إلهية، نحن نفهم التفسيرات الأرضية، على أنه صراع، حرب أهلية، مشكلة عربية، دولية ولكن هناك فهماً دينياً آخر، قال الله تعالى:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢))

(سورة النحل)

دائماً اعتمد التفسير القرآني للأحداث، هناك تفسير معين، هناك تفسير من زاوية معينة، تفسير عربي، تفسير دولي، هناك تفسيرات كثيرة جداً حتى هناك تفسير نسائي لأحداث لبنان، قلن **" أصابها عين "** أما يجب أن تعتمد التفسير الديني، قال الله تعالى:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢))

لبنان وغير لبنان، شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً.

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩))

هذه الآية إذا فهمتَها تكذِّب الدجالين، والكهان والسحرة والمنجمين والأفاكين، تسمع الآن في كل بلد متقدم جداً أن هناك فلكي أو عرّاف يأتيه كبار الشخصيات يسألونه عن مستقبلهم المالي مثلاً، أو الإداري أو السياسي، فلو قرؤوا هذه الآية لامتنعوا عنهم وعلموا كذبهم.

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩))

انتهى الأمر، لمجرد أن تسأل إنساناً عن الغيب فأنت لا تعرف الله لمجرد أن تطرح سؤالاً على كاهن تأكد أنك لا تعرف الله، والدليل قوله عليه الصلاة والسلام

((من أتى كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد))

كل هذا القرآن تكون كافراً به لأن الله عز وجل قال:

(قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠))

(سورة الأنعام)

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨))

(سورة الأعراف)

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧))

(سورة الجن)

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩))

هذا موقف الإنسان المؤمن، هذه الآية خطيرة جداً، فلو قرأت مقالة تتحدث عن تنبؤات عام كذا، أو الأعوام الميلادية يخرج الصحفيون وبعض المفكرين يتنبؤون بما سيكون في المستقبل، مثل هذه المقالات لا تقرأ لأنه:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ)

إلا إذا كان تنبوء لا من باب الجزم بل من باب التكهن، إنه احتمال أن العالم مقبل على أزمة معينة مقبل على كذا، ولكن عنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو، هذه الآية إذا فهمتها استرحت.

قالوا **" ما مضى فات، والمؤمل غيب، ولك الساعة التي أنت فيها "** أنت لا تملك إلا وقتك الحاضر، في هذا الوقت بالذات بإمكانك أن تتوب. كان يحضر عندنا في الجامع أخت كريمة، في جامع النابلسي، منذ ستة عشر عاماً، ولها صهر بعيد عن الدين بُعداً شديداً، بل إنه ينكر وجود الله عز وجل، فكانت تدعو ابنتها أن تدعوَ زوجها لهذا الدرس فسمعت أنها دعته أكثر من عامين، أن يحضر ولو درساً واحداً، قال مرة دخلت ابنتها على الدرس ففرحت فرحاً شديداً، قالت لها زوجك معك قالت نعم، كادت لا تصدق، هذا الرجل حضر درسين وبعدها أصابته أزمة قلبية، ونقل إلى المستشفى على شكل إسعاف، وهو على الحمالة، قال لأولاده، كل شيء قلته لكم في الماضي باطل، الحق هو ما جاء في القرآن... لا أنسى هذه الكلمات، ربّى أولاده على شاكلته على أنه لا إله، حضر درسين ووافته المنية، وهو على فراش الموت قال لأولاده، وله ولد مهندس، قال كل شيء قلته لكم باطل، الحق ما جاء في القرآن، نرجو الله أن يقبله.

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩))

ما مضى فات والمؤمل غيب ولك الساعة التي أنت فيها، لماذا قال بعض العلماء إن الحج على الفور، من أين انطلقوا، لأن الإنسان لا يعرف متى يموت، ما دام الحج فرضاً على المستطيع، فحينما تصبح مستطيعاً يجب أن تحج، لأن العمر ليس بيدك، قال صلى الله عليه وسلم:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَجَّلُوا إِلَى الْحَجِّ يَعْنِي الْفَرِيضَةَ فَإِنَّ أَحَدَكُمْ لا يَدْرِي مَا يَعْرِضُ لَهُ))

من مرض من مشكلة، من موت مفاجئ. قال الله تعالى:

(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦))

(سورة سبأ)

كلمة فتح باللغة تعني أن هناك شيء مغلق، فهل تقول لإنسان افتح هذا الباب وهو مفتوح، كلمة ليس لها معنى، فأنت لا تقول افتح إلا لما هو مغلق، كل شيء أغلق في وجهك يجب أن تذكر اسم الفتاح، حتى لو ضاعت مفاتيحك، لو ضاعت محفظتك، لو ضاع شيء ثمين، أغلق عليك مكانه.

حدثني أخ قال كنت ذاهباً إلى ميناء اللاذقية لتخليص بضاعة، ومعي مستندات كثيرة جداً، وهناك أشخاص كلفوني بإيصال مستندات إلى بعض الموظفين هناك، محفظة كلها مستندات، ذهبت إلى الكرنك لأركب، تفقدت هذه المحفظة الممتلئة بهذه المستندات لبضاعة وصلت إلى اللاذقية فلم أجدها، أقسم بالله أن الدم جف في عروقه، قال: اصفر وجهي، بضائع بالملايين له ولزملائه، قال وقفت على مدخل الكرنك وأدعو يا فتاح، قال وقفت ساعة كاملة لا يوجد عندي حل، وألغيت سفري، فما عدت أذكر السيارة التي أقلتني إلى الكرنك، ثم بدعاء شديد، وبدعاء فيه إلحاح، وقفت أمامي سيارة، قلت اذهب لا أريد الركوب، قال له السائق ألست الذي ركبت معي قبل قليل، قال له خذ هذه المحفظة، ببركة الدعاء، عادت المحفظة، هو لم يعد يتذكر أي سيارة ركب، والسائق بيد الله عز وجل، والسائق إذا أراد الله عز وجل يلهمه أن يعود، يلقي عطفاً في قلبه، يلقي خوفاً من الله، قال لي بعد ساعة، وقفت أمامي السيارة، وظننتها تعرض علي الركوب معها قلت لها إذهب، قال لي ألست الذي ركب معي قبل ساعة قلت له بلى أليست هذه محفظتك قلت بلى.

فإذا آمنت بالفتاح فكل شيء مغلق عليك تقول يا فتاح يا عليم، فليس قول بلا معنى كقول بعض العوام وهو متبرم من إنسان يقول له يا فتاح يا رزاق يا كريم، ليس هذا المعنى، في معنى آخر، مع الأسف الشديد هذه الكلمات الدينية الراقية الآن تستخدم استخداماً آخر، فإذا غضب أو ضجر يقول أشهد أن لا إله إلا الله منك، متى يتشهد حينما يغضب وإذا رأى إنساناً يغضب يقول له صل على النبي، قد يسب النبي صلى الله عليه وسلم، فإذا رجل أمامك يغلي غضباً فلا تقل له صل على النبي، إلا إذا كان مؤمناً، فإن كان مؤمناً يقول لك اللهم صل على النبي، يهدأ فعلاً، أما رجل بلا دين يغضب تقول له صلِ على النبي لا يفهم معناها. فيا فتاح يعني يا فاتح ما أغلق، ضيعت حاجة، هذه الوظيفة تحتاج واسطة ثقيلة وأنت ليس لك واسطة، يا فتاح، افتح مغلاق هذا الأمر، افتح قلب فلان، ألق في قلبه عطفاً علي، ألق في قلبه تفهماً لي، ألق في قلبه إنصافاً.

إذاً كلمة فتح معناه هناك شيء مغلق، وفاتح اسم فاعل، فتاح صيغة مبالغة لاسم الفاعل، صيغة مبالغة لِلكَم والعدد، للكم والنوع، فقضية مستعصية جداً تدعو بيا فتاح يا عليم، أبواب كثيرة، يا فتاح يا عليم. ومنه قوله تعالى:

(فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١))

(سورة القمر)

معناها كانت مغلقة، يقولون منخفض متمركز في قبرص اتجاهه إلى القطر، توقع هطول أمطار غزيرة، تتلبد السماء بالغيوم ولا تنزل أمطار، مرة ثانية، بعد يومين، توقع هطول أمطار، توقع هطول أمطار، أول جمعة ثاني جمعة، وثالث جمعة ورابع جمعة مضى أيلول تشرين ثاني لم ينزل أمطار، توقع هطول أمطار لا يوجد أمطار، بعدها توقع هطول أمطار بإذن الله بعدها:

(فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١))

معناها أن السماء مغلقة ومفتاحها بيد الله عز وجل، والفتح في الحرب الظفر، قال الله تعالى:

(فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١))

البلاد المفتوحة، كانت مغلقة محصنة، جيوش، قوى، فتحت الأبواب كلها فتحت للمسلمين، أصبحت بلاداً إسلامية، هذه البلاد كانت للرومان فتحت للمسلمين.

(فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١))

إذاً من معاني الفتاح، هو الحاكم بين الخلق، لأنه كلما استغلق أمر خلافي بينهم يفتحه الله عز وجل.
عندنا شيء آخر، هناك فتح لكبار المؤمنين، أي أن المؤمن أحياناً يفتح الله عليه يلقي في قلبه نوراً، يلقي في قلبه معرفة، يسميها بعض العلماء الكشف، يكشف الله عن بصيرته، يرى الحق حقاً والباطل باطلاً، يسميها علماء آخرون الإراءة، قال الله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥))

(سورة الأنعام)

أحياناً تشعر أنك لم تكن ترى فأصبحت ترى، رؤيا قلبية، أحياناً يرى الإنسان أن الكذب يربّحه هذا أعمى البصيرة، إلى أن يرى أن الصدق وحده هو الذي ينجيه، هذه رؤيا قلبية، يرى أن الاستقامة في الحياة هي سبب الكرامة، هذه رؤيا، بعض الناس يكذب ويغش ويخدع، ويظن نفسه ذكياً، لأنه أعمى القلب، فما هو الفتح بالمعنى الجديد ؟ الفتح أن يفتح الله على بصيرتك، أن يكشف الله على بصيرتك، أن يجعل بصيرتك صافية ترى بها الخير خيراً والشر شراً.

إذا بعض العلماء قالوا: **" الفتاح الذي فتح قلوب المؤمنين بمعرفته، وفتح على العاصين أبواب مغفرته، فإن كان عاصياً فالله عز وجل يفتح له باب المغفرة، وإن كان مؤمناً يفتح له باب معرفته ".**

أنت إذا سألت نفسك قبل خمس سنوات هل أنت في نفس المستوى أم شعرت أن لك رؤية جديدة لك بصيرة نافذة، لك إدراك أعمق، لك قيم أمتن، هذا هو الفتح، كلما كشف لك بعض الحقائق فتح عليك، إلى أن يفتح عليك الفتح المبين الذي لا معصية بعده.

المؤمن يتفاوت مع المؤمن باليقظة والغفلة، فهناك مؤمن أغلب وقته في غفلة، مؤمن بالله ولكن في غفلة، أما المؤمن الأرقى، أكثر وقته مع الله عز وجل، دائماً يدعوه، يستعيذ به يرجوه، يهتدي بهديه

يستلهمه، والله عز وجل يتجلى على قلبه، يلقي في قلبه نوراً يلقي في قلبه معرفةً، هذا معنى الفتح. فالفتح يستخدمه العلماء كثيراً، " **فتح الله عليك**، جاءه الفتح،

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١))

(سورة النصر)

أيضاً العوام، إذا فتح محل بالحمراء، وألبسة نسائية، والنساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، وعنده موظفون غارقون في شهوة النساء، يكتب على محله التجاري:

(إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ (١))

(سورة النصر)

هذا هو الفتح ؟ أن تربح، أن تبيع النساء الكاسيات العاريات وأن تدير معهن أحاديث أكثرها يدعو إلى الزنى، هذا هو الفتح المبين ؟ هذا الذي يشتري بآيات الله ثمناً قليلاً.

الله عز وجل فتح للنبي مكة المكرمة، فتح له دخل الناس في دين الله أفواجاً.

إذاً الفتاح الذي فتح قلوب المؤمنين بمعرفته وفتح على العاصين أبواب مغفرته، وقيل الفتاح الذي يعينك في الشدائد وينيلك وجوه الزوائد. يعينك في الشدة وفي الرخاء يرفعك، يعطيك عطاءاً زائداً، إذا هو فتاح.

بعضهم قال الفتاح هو الذي يفتح أبواب الخير على عباده، ويسهل عليهم ما كان صعباً، هذا الفتح يكون تارة في أمور الدين، يقول لك كتاب أقرؤه ولا أفهم عليه، صعب، بعد حين فتح الله على قلبه فيقرأ ويفهم، يقرأ ويتعمق، يقرأ ويستمتع، يقرأ ويحملق، يقرأ ويحفظ، يقرأ ويتكلم، الحكمة أجراها الله على لسانه، أول الأمر يقول لك كتاب لا أفهمه كأنني أنحت في صخر، ما هذا الكتاب، أقرأ القرآن لا أفهمه إطلاقا، أقرأ الحديث لا أفهمه، ثم جاء وقت آخر بدأ يفهم بدأ يتعمق بدأ يطرح سؤالاً، بدأ يأخذ الجواب، بدأ يحفظ، بدأ يتمتع، بدأ يدعو.

إذاً الله هو الفتاح، يفتح عليك أبواب العلم، يفتح عليك أبواب لسانك بالحكمة، فإذا أخلصت لله أنطق الله لسانك بالحكمة، أول أنواع الفتح يفتح عليك في أمور الدين وهو العلم، ويفتح عليك في أمور الدنيا، تكون فقيراً فيغنيك، تكون ضعيفاً فيقويك، تكون مظلوماً فينصرك على أعدائك، تكون مكروباً فيزيل هذه الكربة ويحل محلها الفرحة، لذلك فالإنسان إذا كان بعيداً عن الله عز وجل لا يمكن أن يسعد، قال الله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤))

(سورة طه)

الانقباض، سل أهل الدنيا، سل أصحاب مئات الملايين، سل من يملكون ألوف الملايين، سل من أوتي قوةً لا حدود لها، من أوتي مالاً لا حدود له، سلوهم، أستحلفكم بالله، قد يقولون نحن أشقى الناس قال الله تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤))

ماذا يعني فتاح، يفتح لك باب الأنس به، يفتح لك باب الإقبال عليه يفتح لك باب الرضوان، يفتح على قلبك باب الرضى، ترضى تكون ساكناً في بيت غرفة ونصف تحت الأرض، تقول الحمد لله، تدخل على رجل بيته خمسمائة متر، ثمنه ثلاثون مليون ليرة، يقول لك السوق مسموم، السنة خسران كذا مليون، يعني خف ربحه كذا مليون عنده مال إلى ولد ولده، تراه معكراً، أما الفقير فتح الله عليه باب الرضى، فتح الله عليه باب السكينة باب الشكر، الصحة طيبة الحمد لله، أنا أسعد الناس، وهذا الذي ما عرف الله عز وجل دائماً في ضيق في ضنك في سخط على الله عز وجل.

إذاً يفتح لك باب الدين بفتح العلم على قلبك، أو يفتح لك باب الدنيا إن كنت فقيراً يفتح لك باب الغنى، إن كنت ضعيفاً يفتح عليك باب القوة إن كنت مريضاً يفتح عليك باب الصحة، إن كنت مكروباً يفتح عليك باب الفرحة. قال بعض الشعراء: **يا فاتحاً لي كل باب مرتَج، "المرتج أي المغلق "** الله عز وجل يفتح الأبواب المغلقة يفتح الأبواب المرتجة.

يا فاتحاً لي كلَ بابٍ مرتجٍ إني لعفوِ منك عني مرتجٍ

فامنن عليَ بما يفيد سعادتي

***

قيل الفتاح هو الذي يفتح على النفوس باب توفيقه، يجب أن تعلم أن في القرآن آية واحدة لا ثاني لها، وهي قوله تعالى:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلّا بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨))

(سورة هود)

قال بعض العلماء **" لا يمكن أن يحدث شيء في الكون إلا بتوفيق الله تعالى "** فحينما اخترعوا " التشالنجر " المتحدي، أرادوا أن يجربوا تجربة فريدة، أن يخرج إلى الفضاء الخارجي في تسعة أشهر أو سنة سبعة رجال وامرأة كي تنجب المرأة وهي في الفضاء، وأعدوا لكل شيء عدته، ولكل جهاز جهازان، وقد ضبط الجهاز بعدّ تنازلي دقيق جداً وأطلقت المركبة إلى الفضاء وسماها أهل الدنيا المتحدي " التشالنجر " هذه المركبة بعد سبعين ثانية، أصبحت كتلة من اللهب، فالله ما فتح عليهم، أغلق عليهم باب التوفيق، فلذلك:

(وَمَا تَوْفِيقِي إلا بِاللّهِ)

فإذا فتحتَ محلاً تجارياً، إن أسست معملاً، إن أسست مدرسة، إن أزمعت الزواج، قُل يا فتاح، ولا تقل أنا خبير سأستخدم كل خبرتي سأستشير، سأسأل محامياً.

أعرف رجلاً، متبرماً دائماً، مشمئزاً دائماً، جمع وطرح وضرب وجد أنه إذا باع معمله، وبيته، ومحله التجاري في الحريقة بكذا مليون القصة قديمة، ويضعها في بنك في أوربا بالمائة ثمانية عشر، يعيش ملكاً في أوروبا، ثم نفّذ الخطة، باع المحل وباع المعمل وباع البيت وباع السيارة، ثم أخذ تأشيرة خروج، وذهب إلى أرقى بلد في العالم بالسويد، في باله أن يضع الأموال بالبنك ويشتري بجزء منها بيت وسيارة فخمة، ثم يعيش على فوائد المبلغ في بحبوحة، كيف ؟ إن وضع المبلغ في البنك يحتاج إلى وثيقة معينة، والمبلغ كبير جداً فوضعه باسم آخر، إما قريب أو صديق هناك، وفي اليوم التالي سأله تأدية المبلغ قال له مَن أنت؟ لا أعرفك، كل ثروته ضاعت بساعات، لتأمين وثيقة معينة، وفي اليوم التالي أنكره، فأين الذكاء ؟!

هذه أبقها في بالك، مع الله لا ينفع ذكاء **" لا ينفع حذر من قدر "** ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل.

(وَمَا تَوْفِيقِي إلا باللّهِ)

لن يقع شيء إلا بأمر الله.

علاقتك بهذا الدرس أن تسعى أن جاهداً كي يفتح الله على قلبك باب العلم، والشيء الثاني أن تفتح أنت على العباد باب خيراتك، لا تكن قابضاً، فكن باسطاً.

١٤- اسم الله العليم :

بادئ ذي بدئ أسماء الله كلها حسنى وكل اسم قائم بذاته ولا يتعلق اسم باسم ومع ذلك فبعض الأسماء أكثر تأثيراً في نفوس العباد من بعض الأسماء الأخرى، فاسم العليم كما قال عز وجل:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً(١٢))

(سورة الطلاق)

إذاً ربنا عز وجل اختار من بين أسمائه كلها اسمين العليم والقدير لأن الإنسان لن يستقيم على أمر الله إلا إذا أيقن أن علم الله يطوله وأن قدرته تطوله، واسم العليم مهم جداً في طريق الإيمان، لأنك إذا أيقنت أن الله يعلم ظواهر الأمور وبواطنها، يعلم سرك وجهرك يراك في خلوتك وفي جلوتك في حضرك وفي سفرك، يعلم نواياك كلها، يعلم ما يدور في خلدك، ما يجري في نفسك، ما تتمناه ما تصبو إليه ما تشتهيه إذا أيقنت أن الله يعلم لزمت جانب الاستقامة.

إذاً أكثر أسماء الله الحسنى تأثيراً في استقامتك اسم العليم، وأكثر أسماء الله الحسنى تأثيراً في استقامتك اسم القدير، والآية الكريمة تؤكد هذا المعنى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً(١٢))

من تعاريف العلم أن تكون هناك علاقة ثابتة بين شيئين، مقطوع بصحتهما عليها دليل، مطابقة للواقع، لكن علم الله عز وجل يختلف اختلافاً كلياً عن علم البشر، أضرب لكم بعض الأمثلة:

الله سبحانه وتعالى محيط بكل شيءٍ علماً، في ظاهر الأشياء وفي بواطنها، في دقيقها وفي جليلها، في أولها وفي آخرها، في فاتحتها وفي عاقبتها، ومع ذلك فعلم الله عز وجل من طبيعة أخرى.

مثالاً آخر: لو أن رجلاً عبقرياً اخترع آلة وجاء من بعده أجيال ودرسوا هذه الآلة وعرفوا دقائق صنعها واكتشفوا العلاقات فيما بين أجزائها واكتشفوا القوانين التي على أساسها بنيت هذه الآلة، علم الجيل اللاحق يختلف عن علم العبقري الذي اخترع الآلة، فعلم المخترع هو سبب وجود الآلة، علم المخترع سبق الآلة، لكن علم الدارس جاء بعد وجود الآلة وجاء استنباطاً من دقائقها، هذا المثل ضربه الإمام الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه (إحياء علوم الدين)، فأنت علمك مستنبط من الوجود من القواعد التي قعدها الله، من القوانين التي قننها الله، من السنن التي سنها الله، من الخصائص التي خص الله بها الأشياء، علم البشر مكتَسَب، مكتسب من الوجود من قوانينه من قواعده من سننه من علاقاته الثابتة، من خصائص الأشياء، لكن علم الله هو الذي قنن القوانين، هو الذي خصص الأشياء بخواصها، هو الذي سنن السنن، ففرق كبير بين أن تكتشف علاقةً ثابتة في شيء موجود وبين أن تخلف هذه

العلاقة، بين أن توجدها من العدم بين أن توجدها من قبل أن تكن موجودة، هذا الفرق...! فعلم البشر لاحِقٌ للوجود، كسبي، وعلم خالق البشر سابق للوجود وسببي.

مثل آخر: حينما ينشئ مهندس في العصور القديمة جسراً، وحينما يأتي الصيف يتصدع هذا الجسر، بسبب أن الحديد تمدد، إذاً يكتشفون أن هذا الحديد يتمدد بالحرارة، هذا القانون اكتشف، فلما اكتشف، في المراحل القادمة إذا صنعوا الجسر أو أنشئوا بناء يضعون فواصل تمدد، نقول علم البشر كسبي وعلم الله قديم.

وضعوا وقوداً سائلاً في شاحنة، هذا الوقود خاص بالطائرات، هذه الشاحنة سارت تحت الشمس المحرقة، فاشتعل هذا الوقود بفعل الشمس المحرقة، إذاً هذا الوقود يمكن أن يشتعل من دون أن تمسه النار بفعل حرارة الشمس الملتهبة، إذاً سيصنعون الآن لهذه الشاحنة التي تحمل الوقود السائل الخاص بالطائرات طبقة ثانية لتكون عازلاً لحرارة الشمس.. علم البشر مكتسب...!

أنا أضرب لكم بعض الأمثلة، لكنْ يجب أن تعلموا أن كل حقيقة وصل الإنسان إليها إنما هي عن طريق التجارب، وعن طريق الخطأ والصواب، وأكبر دليل إذا دخلت معرض سيارات وتأملت سيارة صنعت عام ألف وتسعمائة واثني عشر، ووازن بينها بين سيارة صنعت في عام ألف وتسعمائة وتسعين، ترى البون شاسعاً، العجلات من دون هواء الإضاءة بالفوانيس، علبة تبديل السرعة غير موجودة سرعة واحدة للمركبة، تشغيل المركبة من أمامها **" بالمناويل "** وازن بين مركبةٍ صنعت قبل مائة عام تقريباً وبين مركبة صنعت قبل عام تتأكد أن علم البشر علم كسبي، بينما علم الله علم أزلي.

إذاً العلم هو سبب وجود الأشياء، تعلّق علمه وتعلقت إرادته، وتعلقت قدرته بهذا الشيء فكان، إذاً علمه سبق هذا الشيء، بل أن علمه سبب لوجود هذا الشيء، بينما علم البشر لاحق للوجود.. هناك جبال وهناك أنهار وهناك بحيرات، عرفنا خصائص المياه عرفنا خصائص الهواء صنعنا الطائرة وفق خصائص الهواء، صُنعت الباخرة وفق قانون أرخميدس، الذي اكتشف.. إذاً كل معلومات الإنسان وكل علم الإنسان مستنبط من القواعد التي قعدّها الله ومن القوانين التي قنَنَها الله ومن السنن التي سنها الله ومن العلاقات الثابتة التي ثبتها الله، ومن الخصائص التي خص الله بها الأشياء، إذاً يجب أن تتأكد أنه من الخطأ الفاحش أن تظن أن علم الله كعلمنا.

أنت كإنسان يحكمك المكان والزمان، أنت وسط المكان والزمان تتحرك على أرض من مكان وفي ظرف من زمان، أنت يغلفك المكان والزمان، لكن الله عز وجل، خالق المكان والزمان، فخالق المكان والزمان لا يُسأل عنه متى كان لأنه خالق الزمان ولا أين هو لأنه خالق المكان، علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما سيكون وعلم مالم يكن لو كان كيف كان يكون... هذه واحدة.

أردنا أن نبين الفرق الجوهري بين علم الإنسان وبين علم الرحمن، علم قديم، علم يُعدُّ سبب وجود الأشياء، تعلق علمه وإرادته وقدرته بوجود هذا الشيء فكان هذا الشيء، وتعلق علمه وإرادته وقدرته بتخصيص هذا الشيء على شكل معين فكان هذا الشيء على شكل معين، وما القضاء والقدر في حقيقته إلا أن علم الله تعلق بشيء فكان كما أراد الله عز وجل.

لكنْ الآن أدخُل معكم في مثل آخر، الحقيقة هذا الموضوع موضوع واسع جداً ولا يعقل أن تكفيه خمسون دقيقة لتوضيحه، كل هذا الكون أثر من علم الله عز وجل، فأنت إذا اطّلعت أو قرأت أو تأملت في المركبة الفضائية التي صنعها الإنسان ووصل بها إلى القمر، هل تصدق أن علم البشر منذ أن وجد علم على أرض البشر، إنما ساهم هذا العلم كله في صنع هذه المركبة، كيف عرفوا أن هذه المركبة يجب أن تنطلق بسرعة كافيةٍ كي تتفلّت من الجاذبية الأرضية، وكيف درسوا حركة القمر وأن هذه المركبة يجب أن تنطلق بزاويةٍ مدروسةٍ دراسة من أعلى عقول علماء الرياضيات بحيث أنها تصل إلى القمر في مكانه الجديد بعد أيام ثلاثة هي التي استغرقتها المركبة في الوصول إلى القمر إذاً هناك علم الفلك وعلم الرياضيات، وكيف درست شروط الحياة على سطح الأرض وكيف توافرت كل هذه الشروط على سطح القمر.. البزة التي ارتداها رجال الفضاء كلفت ستة عشر مليون دولار، كي توفر لهم الضغط المناسب والهواء وضخ الهواء ليتكلموا، طبعاً لا أذكُر هذه التفصيلات إلا لأبينَ لكم أنك إذا رأيت مركبة انطلقت من الأرض ووصلت إلى القمر، فيجب أن تعلم علم اليقين أن علم الرياضيات منذ أن وجد وفي أرقى تطوراته ساهم في إيصال هذه المركبة إلى القمر وأنّ علم الفيزياء في أعلى تطوراته: **" النظرية النسبية والفضاء الأحدب والخطوط المنحنية، والسرعة والتسارع والجاذبية "** كلها ساهمت في إيصال هذه المركبة إلى القمر، وعلم الكيمياء وعلم وظائف الأعضاء وعلم الفيزيولوجيا، وعلم الطب: **" الضغط المناسب وضربات القلب المناسبة، الأوعية المناسبة "**، وكيف أن هذا الإنسان يعيش في جو انعدمت فيه الجاذبية، يعني شيئاً ليس لنا أن نفصل فيه في هذا الدرس ولكن لنعلم أن مركبة الفضاء تشف عن علم كبير جداً هو علم البشر كلهم مجتمعين في أعلى مستوى.

وإذا رأيت حقلاً من النفط وسط بحر الشمال اكتُشف، قد تسأل كيف اكتُشف هذا الحقل، بأي جهاز وعلى أي مبدأ، على مبدأ الليزر على مبدأ المغناطيس، على مبدأ الموجات، على أي مبدأ، وحينما اكتشف هذا الحقل في قعر بحر الشمال كيف وصلوا إليه ؟.. كيف غطسوا في الماء خمسة آلاف متر؟.. وكيف وصلوا إلى أرض البحر، وكيف حفروا خمسة آلاف متر أخرى ؟.. وكيف هذا الماء المالح لم يدخل في البئر، وكيف أنزلوا هذه المواسير وهذا الأنابيب، وكيف أفرغوا ماء البحر من هذه الأنابيب، وكيف حقنوا الإسمنت السائل، ألا تشعر أن هؤلاء الذين أنشؤوا منصة على بحر الشمال، تهبط عليها طائرات هليوكبتر وفيها شبه مدينة بيوت ومكاتب وإدارات كلها عائمة على البحر ودرسوا تلاطم

الأمواج وارتفاع الأمواج وعمق الأمواج، وتيارات البحر والملوحة وعلاقة الحديد بالملوحة، ومع ذلك في ليلةٍ عاصفةٍ هبت أمواجٌ عاتيةٌ فحطمت هذه القاعدة، إذاً الدراسة غير كافية.

تصنع طائرة تسقط بلا سبب، إذاً لابد من خلل في صنعها، ضربت هذين المثلين، قد تجد مثلاً ساعة صغيرةً مبرمجةً لمئتي عام تشعرك بأوقات الصلوات الخمس في أي بلد تشاء.. أنت في دمشق تضبطها على دمشق، فإذا هي تشعرك وقت صلاة الصبح وصلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقد برمجت لمائتي عام وفي كل مدن العالم ولا يزيد حجمها عن هذه الساعة، ألا تشعر أن الذي صنعها على مستوى رفيع من العلم.

أطلعني أخٌ على جهاز كمبيوتر صغير بحجم الكف، فيه خمسة وثلاثون ألف معلومة، يتسع لعشرة آلاف رقم هاتف، ولخمسة وثلاثين ألف معلومة وعنوان، ولك أن تستدعي هذه الأرقام بأقل من لمح البصر بحركة واحدة، إذا ضغط على أول حرف من اسم الشخص الذي تبحث عن رقم هاتفه يظهر على الشاشة، ألا تشعر **" والله الذي لا إله إلا هو ما أردت من هذه الأمثلة أن ألفت النظر إلى صانعيه وإلى المخترعين "** ولكن والله الذي لا إله إلا هو مرّة ثانية أن أعظم جهاز تطّلع عليه أن أعظم آلة تطلع عليها، يقول لك هذه آلة تعمل ذاتياً، هذه الآلة ألكترونية، هذا المجهر الالكتروني يُكّبر خمسة آلاف مرة، ترى النملة الصغيرة وكأنها فيل كبير، ترى المسام في الجلد وكأنها كهوف، ترى قطعة من جلد الإنسان وكأنها غابات الأمازون، هذا التكبير خمسة آلاف مرة، هذا الحاسوب المعقد الذي فيه خمسمائة ـ ستمائة ألف معلومة.

مرةً أحد الأخوة الأكارم أطلعني على كمبيوتر فيه القرآن الكريم، أيّ سؤال اسأله، سألته كم مرة وردت: لكم، والأنعام خلقها لكم، فأجابني فوراً أنها وردت مائة وثماني عشرة مرة، فسألته أين الآيات فجاءت الآيات وراء بعضها بعضاً، تحب أن تطبعها، بضغطة زر تطبعها على ورق.. سألته بسورة قاف، ما هو أكثر حرف تكرر فيها، وكنت أظن أنها القاف، فكان الجواب لا ليس بقاف، كله ديسك لا يزيد عن حجم الكف، فأنت أمام كمبيوتر أمام حاسوب، أمام منصة نفط أمام طائرة، أمام مركبة فضاء.. تذهل.!!.

هل تصدق أن كل هذه الآلات وكل هذه المخترعات لا يمكن أن تكون إلا شيئاً بدائياً جداً أمام جسمك، فهذا الدماغ أربعة عشر مليار خلية استنادية خلية قشرية فيها المحاكمة والتصور والتذكر والتخيل، فيها السمع والبصر والحس باللمس والضغط، فإذا ذهبتُ أتحدث لكم عن جسم الإنسان والله الذي لا إله إلا هو لا شك أنكم ترون أن أعقد آلة صنعت لا ترقى إلى آلة بدائية أمام هذا الجسم البشري.

فأنت أمام آلة صغيرة قد تعظم الآلة لصغر حجمها ولعظم مفعولها وقد تعظم الآلة لضخامة كتلتها، ألم تَشْدَه لمجرة تبعد عن الأرض ستة عشر ألف مليون سنة ضوئية وأن الضوء يقطع في الثانية الواحدة

ثلاثمائة ألف كيلومتر ؟، ألم تشده حينما تعلم أن في رأسك ثلاثمائة ألف شعرة وأن لكل شعرة عصباً ووريداً وشرياناً وغدة دهنية وغدة صبغية ألا تدهش ؟، ألا تُدهش إذا علمت أن في الدماغ مائة وأربعين مليار خلية استنادية لم تعرف وظيفتها بعد ؟، ألا تدهش إذا علمت أن في الشبكية مائة وثلاثين مليون مخروط وعصية وأن العصب البصري يمر فيه تسعمائة ألف عصب، بالدماغ بالأعصاب، بالقلب الذي يضخ في اليوم ثمانية أمتار مكعبة دون كلل أو ملل، الكليتان اللتان يمر فيهما الدم في اليوم خمس مرات ويقطع مائة كيلومتر، في الغدة النخامية التي إذا رأت خطراً أعطت أمراً إلى الكظر والكظر يصدر أربعة أوامر، أمر إلى القلب ليسرع في نبضه، وأمر إلى الرئتين لتسرعا في وجيبهما وأمر إلى الأوعية كلها كي تضيّق لمعتها ويتوفر الدم للحركة والهجوم، والى الكبد كي يطلق كميات السكر في الأوعية.

هل اطلعت على تركيب جسمك ؟، جسم الإنسان يتفق مع أحدث نظريات الميكانيك، هل تعلم أن عنق الفخذ يتحمل وزناً يزيد عن مئتي وخمسين كيلو لكل عظم، الإنسان بإمكانه أن يتحمل خمسمائة كيلو قبل أن تنكسر أضلاعه، ولو ذهبت ساعات طويلة أتحدث عن جسم الإنسان وساعات طويلة عن النبات، الورقة، قرأت مرةً في كتاب والله اقشعر جلدي، قال إن أعظم معمل صنعه الإنسان لا يرقى إلى هذه الورقة ورقة، إنها معمل، تأخذ ثمانية عشر معدناً محلولاً في الماء هذا النسغ الصاعد، في الورقة مادة اليخضور، في الورقة الفوتون الطاقة الشمسية، في الورقة الآزوت، في الورقة شلات الحديد، مع هذا النسغ الصاعد تصنع الورقة النسغ النازل، هذا النسغ يصنع الثمار ويصنع الأزهار.

هل عند الإنسان طاقة يحقن سائلاً تارةً يصبح خشباً تارةً صاجاً تارةً إسفنجاً تارةً، معقول..! السائل واحد والمواد مختلفة، قرأت مرةً أن هذا النسغ الصاعد يجري في أوعية، الشجرة إذا نمت عرضاً ربما ضاقت لمعة الأوعية فضعفت التروية، إذاً هذه الأوعية مدعّمة بألياف حلزونية لئلا تضيق لمعتها إذا نمت الشجرة.

هذا في النبات، الطيور: الطائر يرى ثمانية أمثال الإنسان، وبعض الكلاب تستمع بدقة تزيد عن مليون ضعف سمع الإنسان.

ماذا أقول عن الأسماك مليون نوع من السمك، عن الحوت الذي يزيد وزنه عن مائة وخمسين طناً، والذي فيه من اللحم ما يزيد عن خمسين طناً من اللحم وخمسين طناً من الدهن، وتسعين برميل زيت ورَضْعتُه الواحدة تزيد عن ثلاثمائة كيلو، ثلاث رضعات، طن في اليوم، وجبته الصغيرة أربعة طن، **" تسكيت جوعة ".**

ماذا أتحدث عن الأسماك الجميلة التي ترونها في أحواض الأسماك.. هذا كله علم الله عز وجل، قوانين علاقات أعمال دقيقة، هذا الماء يتمدد بالحرارة، شأنه شأن أي عنصر، فما الذي يحدث إذا بردناه إلى درجة خمس عشرة ثم عشر، خمس، أربع، يحدث المستحيل تنعكس الآية قرأت مقالة في مجلة العلوم

حول آلية عكس هذه الخاصة أن الماء قبل الدرجة زائد أربعة يتمدد بالحرارة وينكمش بالبرودة، كيف تنعكس الآية في هذه الدرجة، والله قرأت هذه المقالة مرتين وشعرت بصداع في رأسي لتعقيد الموضوع، من قنن هذا القانون ؟، كل حياة البشر مبنية على هذه الخاصة، لو أن الماء استمر بانكماشه مع التبريد لانتهت الحياة من على سطح الأرض، لأن البحار كلما تجمدت غاصت هذه الكتل إلى الأعماق لأن الشيء عندما يتجمد وينكمش تزداد كثافته، خلال فترة من الزمن تصبح البحار كلها متجمدة، ينعدم التبخر تنعدم الأمطار يموت النبات يموت الحيوان يموت الإنسان.

فقبل أن تقول الله يعلم أو لا يعلم، هناك موضوعات كثيرة جداً، كل هذا الكون مظهر لعلم الله عز وجل، أنا أردت أن أمثل أن منصة النفط في بحر الشمال لو أنك زُرتها بطائرة، وهبطتَ على سطحها رأيت مدينة، بيوت مكاتب أجهزة اتصال، مطار، وهذه منصة عائمة على سطح الماء، والأنابيب تصل إلى خمسة آلاف متر، وتحت سطح البحر إلى خمسة آلاف متر أخرى كيف وصلوا إلى النفط هناك وكيف ضخ هذا النفط، ألا تشعر أنك أمام عقول جبارة صممت هذه المنصة.

إن ركبت أكبر طائرة اختُرعت حتى الآن ألا تشعر أن هؤلاء الركاب الخمسمائة كأنهم في مدينة يركبون والمقاعد وثيرة يأتيهم الطعام ساخناً، يحلقون فوق ارتفاع يزيد عن ثلاثة وأربعين ألف قدم، وكيف أن هذه الطائرة يحملها الهواء والهواء ترونه هل يحمل طائرة، كم هي القوانين معقدة جداً في الطائرة، نحن نتصور بسذاجة بأن جناح الطائرة فيه بترول فيه الوقود، فلو أن الجناح مجوف وفيه بترول كما تظن، بمجرد أن تميل الطائرة كي تدور يميناً تسقط، فلا بد من حواجز وسط هذا الجناح كثيرة جداً وثقوب صغيرة ومضخات تضخ البترول إلى الجهة المعاكسة، هذا الجناح الحرارة في أعالي الجو خمسون درجة تحت الصفر وهناك بخار ماء.

مرة جلست مع طيار حدثني عن دقائق الطائرة الشيء الذي لا يصدق ألا تشعر أن هذه الطائرة وراءها عقل كبير ودماغ عظيم وعلوم كثيرة ودقة متناهية، إذا كنت أمام طائرة تشعر بالتعظيم لمخترعها، وأمام باخرة، يقال لك هذه الناقلة تحمل مليون طن، قوة محرك دفتها أربعة آلاف حصان، تحريك الدفة فقط، غير تحريك الناقلة، فما قولك بهذا الكون، قال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦))

(سورة الواقعة)

هناك أشخاص مساكين ما عرفوا من علم الله عز وجل إلا أنه يعلم أو لا يعلم، يعني هذا الاسم العظيم الذي يمكن أن تمضي كل حياتك في الوقوف على دقائقه، ضغَطَه بكلمة واحدة.

سوف نبدأ إن شاء الله تعالى الحديث عن هذا الاسم في بعض التفصيلات، قبل كل شيء أسماء الله الحسنى توقيفية، بمعنى أنه لا يجوز أن تشتق أنت اسماً من عندك، فالله عز وجل قال:

(إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْداً (١٥))

(سورة الطارق)

فلا يجوز أن تقول أن الله كائد..

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠))

(سورة الأنفال)

لا يجوز أن تقول الله ماكر، أسماء الله الحسنى توقيفية، لا نذكر منها إلا ما ورد في الكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة، هل يجوز أن يقال الله معلم ؟ لا.. هل يجوز أن يقال الله علامة ؟ لا.. أعوذ بالله ما أحد قال هذا الكلام، أجمعت الأمة على أنه لا يجوز أن تقول الله معلم، مع أن الله قال علمه شديد القوى، وعلّمك ما لم تكن تعلم، علم يعلم معلم، فلا يجوز أن تقول الله معلم، أجمعت الأمة على أن أسماء الله توقيفية، لا يجوز أن تَذكر منها إلا ما ورد في الكتاب والسنة وما أجمعت عليه الأمة.

هل يجوز أن يقال الله عارف ؟ لا.. الله يعرف، لا لأن كلمة عارف ويعرف وعرف، أقول أنا عرفت الشيء بعد أن جهلته، فكلمة يعرف يسبقها جهل، لا يليق بالله عز وجل أن تقول هو يعرف، بل هو يعلم، لأن كلمة يعلم لا يسبقها جهل، ليس قبل العلم جهل، فالعلم قديم عند الله عز وجل.

هل تقول الله فطن ؟ لا يكون، هل تقول الله عاقل ؟ لا، هل تقول الله ذكي ؟ أعوذ بالله، إذاً أسماء الله تعالى توقيفية لا يجوز أن تخترع اسماً ولا أن تشتق اسماً إلا أن يرد في الكتاب والسنة وإلا أن تجمع عليه الأمة.

الفرق الدقيق جداً بين علم الله وعلم البشر، إن علم الله سبحانه وتعالى بالأشياء غير مستفاد من الأشياء بل الأشياء مستفادة من علم الله، وعلم العبد بالأشياء مستفاد من الأشياء.

أقول لكم هذه الكلمة، شرف العبد العالم بسبب أن العليم اسم من أسماء الله الحسنى، تقول إنسان عالم أو عليم أو علامة، من أين جاءه الشرف، لأن الله عليم، للإنسان اسم لا أقول يشبهه حاشا لله، ليس كمثله شيء، لكن تقول الله عليم وهذا الإنسان عالم، من هنا جاء شرف العلم، أي أنت كما قال النبي تخلقت بأخلاق الله، إن الله عالم يحب كل عالم.

الآن عندنا سؤال، ما هو أشرف العلوم، أو كيف تكتسب العلوم شرفها ؟

إذا كان عند أحد علم بطريقة كسر أقفال المحلات، هل تحس أن هذا العلم شريف ؟ هذا سارق.

إذا عنده علم بوسائل تزوير العملة، عنده أجهزة معقدة وآلات تصوير ملونة وورق خاص، ودارس، وعنده كتب وعمل دورات، هل تُعظِّمُ هذا العلم، تزوير العملة مثلاً.

علم تهريب مخدرات مثلاً، أعوذ بالله، أحياناً يسلك المهربون في المخدرات أساليب وطرائق يعجز عن فهمها الأذكياء، وقال لي بعضهم إن تهريب المخدرات بنسبة عشر بالمائة يكشف صدفة أو بإخبار، لأن هؤلاء المهربين على مستوى رفيع جداً، فهل تُعظِّمُ هذا العلم ؟. لا بل تحتقره.

فلان يعلم أمراض القلب لأن الناس بحاجة إليه ترى أن هذا العلم مفيد، فهو أعلى، إذاً فمن أين يكتسب العلم شرفه ؟ من شرف المعلوم، فكلما شرُف المعلوم شرُف العلم.

إذا كان عند أحد معلومات دقيقة عن المغنيين والمغنيات، وعن أوقات استيقاظهم وعن أوقات نومهم وعن مسّاجهم وعن أغذيتهم وعن قضاء أيام عطلاتهم، فهل تحترمه.

أريد أن أؤكد أنه لا يرتفع العلم إلا إذا ارتفع المعلوم، إذا اعتمدنا هذا المبدأ فأعظم العلوم ما هو ؟، العلم بالله.

فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه، تعلمنا الفيزياء والكيمياء والرياضيات والطب والهندسة والفيزيولوجيا والمورفولوجيا والى..الخ، وعرفنا الله، هذه كلها مخلوقات والله هو الخالق، إذاً أشرف علمٍ أن تعرف الله لأن شرف العلم من شرف المعلوم ولا موضوع للعلم أعظم من ذات الله عز وجل.

والآن أن تعرف الطريق الموصل إلى الله، علم شريف، أن تعرف أمر الله، علم شريف، أن تعرف الأحكام الشرعية التي استنبطت من القرآن، علم شريف، أن تعرف أمراض القلب وكيف يسمو هذا القلب إلى ربه، هذا علم شريف، إذاً أشرف العلوم أن تعرف الله، ويليها في الدرجة العلوم الموصلة إلى الله.

إذاً في الكون حقيقة واحدة هي الله، وأي شيء يوصلك إليه فشرفه من شرف غايته، إذا تعلمت العربية كي تفهم كلام الله بدقة، فشرف هذا العلم مقتبسٌ من شرف الهدف النبيل.

نتابع الموضوع: الإمام الغزالي كما قلت لكم في أول درس ألقيته في هذا المسجد، قال: **" هناك علم بالله وعلم بأمره وعلم بخلقه "**، العلم بأمره وبخلقه علمان شأنهما كشأن أي علم يحتاجان إلى مدارسة إلى كتب إلى إلقاء إلى دروس إلى حقائق إلى حفظ إلى تذكر، وهذه العلوم تبقى في الذاكرة لكن العلم بالله من طبيعة أخرى هذا العلم ثمنه من غير طبيعته، العلم بالله لا يأتي بالمدارسة بل يأتي بالمجاهدة، ولا يبقى في الدماغ بل يسمو بالنفس، ثمنه باهظ ونتائجه باهرة جداً، إذاً العلم بالله أشرف العلوم وأقول لكم مطمْئِناً لكم، إن دروس هذا المسجد بالذات أسماء الله الحسنى، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يوفقني إلى إتمام أسماء الله الحسنى كلها.

إنه أشرف العلوم أن تعرف الله، أن تعرف اسم القدير اسم العليم اسم العزيز اسم الحكيم اسم الغفار اسم القهار اسم الملك اسم القدوس السلام المؤمن المهيمن..الخ

أن تعرف الله وأن تكون في المستوى الذي يريده الله، أن تكون مخلصاً محباً مستقيماً عالماً ورعاً متوكلاً، فالفضل لله عز وجل. دَرْسا هذا المسجد درسٌ يتعلق بذات الله ودرسٌ يتعلق بقلب الإنسان، ماذا ينبغي أن يكون عليه هذا القلب، من علم وإخلاص وحب وتوكل وصدق واستقامة، فكأن دروس هذا المسجد خلاصة العلوم كلها، لأن معرفة الله أشرف علم، وأن تكون في المستوى الذي يرضى الله عنه أشرف علم أيضاً، فدرس في أسماء الله ودرس في مدارج السالكين في إياك نعبد وإياك نستعين.

الآن إلى بعض التفصيلات:

أولاً: ورد العلم في القرآن بمعنى إثبات العلم لله، أحياناً تسأل: فلانٌ عالم أم غير عالم ؟ لا بل عالم، قال تعالى:

(إنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤))

(سورة لقمان)

إثبات علم:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥))

(سورة البقرة آية ٢٥٥)

إثبات علم:

(لَكِنِ اللّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً (١٦٦))

(سورة النساء)

(وَاللّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إلّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمّرُ مِنْ مُعَمّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إلّا فِي كِتَابٍ إنّ ذَلِكَ عَلَى اللّهِ يَسِيرٌ(١١))

(سورة فاطر)

إذاً هناك آيات كثيرة محورها إثبات العلم لله، **" إن الله عالم يحب كل عالم ".**

(وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إلا بِمَا شَاءَ)

الشافعي لما دخل عليه عالم تقليدي يريد أن يسفهه أمام تلاميذه، فقال يا **غلام هذا الذي تقوله ما سمعناه من أين جئت به، ما قاله أحد،** قال **يا سيدي أتعلمت العلم كله، فإن قال نعم أصبح جاهلاً،** لقول الله عز وجل:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إلّا قَلِيلاً (٨٥))

(سورة الإسراء)

قال هذا العلم من الشطر الذي لا تعرفه.

من يحيط بالعلم، يظل المرء عالماً ما طلب العلم فإذا ظن أنه قد علم فقد جهل، إذا قلتَ إني عالم فأنت جاهل بكل تواضع، بكل صراحة لذلك أنا أتمنى من إخواننا الكرام الذين لهم رغبات علمية جامحة ويحضرون مجالس علم ويحرصون على فهم كلام الله وعلى فهم السنة المطهرة، أتمنى عليهم إذا تحدثوا عن أنفسهم أن يقولوا نحن طلاب علم هكذا الأدب، ولقد سمعت هذه الكلمات من علماء كبار يقول: **" أنا طالب علم ".**

مرة ألّف أحد الناس كتاباً كتب عن نفسه أنه أحد علماء دمشق.. كان الأجداد، السلف الصالح يقولون عن أنفسهم، الفقير إليه تعالى، غفر الله له ذنبه آمين، وهناك أشخاص أحقر الورى أيضاً.

إذاً وردت بعض الآيات في القرآن بمحور إثبات العلم لله، يقول لك رسول الله أمي.. عميد جامعة من الجامعات، طُلب منه إحداث ماجستير في كلية الشريعة، فقال رئيس الجامعة لماذا الماجستير أنتم يا طلاب الشريعة نبيكم أمي، فأجابه عميد الكلية ولكنه يوحى إليه وحينما يوحى إلينا نستغني عن كل الجامعة، لذلك قال العلماء الأمية صفة كمال في حق رسول الله، وصفة نقص في حق غيره، إذا قلت عن إنسان هو أميّ يعني جاهل، أما إذا قلت عن النبي الكريم هو أمي يعني هو تنزه عن علم البشر، تنزه عن ثقافة عصره، تنزه عن معطيات الأرض، وعلّمه الله.

أحياناً يكون أحد الناس خريج جامعة يقول لك أنا معي بورد، فلان معه إف. آر. إس من إنكلترا، فلان معه أكريجيه من السوربون، يعطيها اسم مفخم يمطها قليلاً أو بورد، هذا هو الافتخار بالمعلم معناها، فإذا افتخرنا بأن فلاناً أستاذنا، نحن علمنا فلان نحن علّمنا فلان، اجلس مع المثقفين يفتخرون بأساتذتهم، فمن علم النبي ؟، الله سبحانه وتعالى خالق الكون علّمه.

يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أنْ دانت لك العلماء

****

يأتي إنسان عبقري ذكي جداً يأخذ خمسين حديثاً من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدرسهم ويحللهم ويدرس صياغتها بلاغتها مضامينها أبعادها مدلولاتها، يُمنح درجة الدكتوراه، فهُمْ خمسون حديثاً عن رسول الله، أصبح دكتور في الشريعة، يقول أنا معي دكتوراه، يكتب الدكتور في الشريعة، حتى يعرف الناس قدره.

إذاً: يا أيها الأمي حسبك رتبة في العلم أن دانت لك العلماء،

الأمية في حق رسول الله كمال، وفي حق غيره نقص، قال الله تعالى:

(وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ (٤٨))

(سورة العنكبوت)

الآن وردت آيات العلم في محور آخر، هذا المحور أن الله عالم قال الله تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧))

(سورة الجن)

(إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨))

(سورة فاطر)

المحور الأول أثبتنا العلم لله، المحور الثاني وصفنا ربنا بأنه عالم، المحور الثالث الله علاّم، كلمة علام على وزن فعال، صيغة مبالغة يعني كثير العلم، لنوضحها لكم، نقول فلان كاذب، يعني هو في هذا القول كاذب، يعني في حياته كلها تكلم كذبة واحدة يسمى في اللغة كاذب أما إذا كان يكذب كلما تنّفس يقال له كذّاب، إذاً صيغة كذاب تعني التكرار، التكثير، المبالغة، وأحياناً الذي يكذب كذبةً كبيرة جداً يقال له كذاب، رجل كذاب كبير وعنده عبد كلما كذب فضحه يقول له كذب ليس كذلك القصة، فضاق به ذرعاً واشترى له عباءة، فجلس في مجلس قال عندي أرض من بيروت إلى الشام، فخلع العبد العباءة، ولما رآه خلعها قال لكن عرضها مترٌ واحدٌ، قالوا له ضيقتها فقال هذا الذي ضيقها علي.

فلو أن الإنسان كذب في حياته كذبة واحدة يقال له كاذب، أما إذا كذب كلما تنفس يقال له كذّاب، مر بنا سابقاً أن صيغة المبالغة تعني النوع أو الكّم إما أنها كذبة كبيرة جداً وإما أنها كذبات كثيرة، إذاً صيغة فعال تعني الكثرة أو الضخامة، تعني مبالغة العدد أو مبالغة النوع، فإذا قلت إن الله عّلام الغيوب يعني كل الغيوب يعلمها، الله عز وجل مطلق يعلم كل غيب، يعلم مصير كل إنسان، وما تسقط من ورقة إلا هو يعلمها، فتصور نفسك في حقل زيتون في الخريف وكلما هبت نسمات من الرياح تساقطت أوراق الزيتون، فيها آية قرآنية:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩))

(سورة الأنعام)

علم ما كان وعلم ما يكون وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

المحور الرابع الأعلم:

(وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (٢١))

(سورة الكهف)

سيدنا الصديق مدحه أشخاص، اِسمعوا ماذا قال، هذا الصديق، هذا الذي لو وزن إيمان الخلق مع إيمانه لرجح، قال: **اللهم أنت أعلم بي من نفسي وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهم اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون،** هذا موقف الصديق حينما مُدح.

إذاً الله عز وجل أثبت العلم لذاته، ووصف نفسه بأنه عالم وأنه علام وأنه الأعلم لكن لا يصح أن تقول معلم، قال تعالى:

(قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢))

(سورة البقرة)

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤))

(سورة الرحمن)

(وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣))

(سورة النساء)

(فَوَجَدَا عَبْداً مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (٦٥))

(سورة الكهف)

ملاحظة على الهامش:

إذا قال الله عز وجل وعصى آدم ربه، قال العلماء لا يجوز أن تقول آدم عاصٍ، ليس لك الحق أن تشتق من فعل وعصى آدم ربه اسماً لسيدنا آدم، وإذا قال الله عز وجل:

(قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦))

(سورة القصص)

قال لا يجوز أن تقول موسى أجير، طبعاً هناك تعليلات لطيفة

أمر الله عز وجل لسيدنا آدم في الجنة أمرٌ إرشادي وليس أمراً تكليفياً، والمعصية على حقيقتها لا تكون إلا من أمرٍ تكليفي، فحينما أكل هذا النبي العظيم سيدُنا آدم، أكل التفاحة، لم يخالفْ أمراً تكليفياً بل خالف أمراً إرشادياً، فربنا قرب إلينا ما حدث قال:

(فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى(١٢١))

(سورة طه)

ليس لك أن تقول آدم عاصٍ، ولا أن تقول موسى أجير، هذه على هامش الموضوع، أيضاً ما ورد في حق الأنبياء يجب أن يكون كما ورد من دون تبديل أو اشتقاق أو تغيير.

آخر شيء **العالم والعلام والأعلم والمعلم،** كل هذه الأسماء مع أنها وردت في القرآن الكريم إلا إنها لم ترد في أسماء الله الحسنى، لم يرد في أسماء الله الحسنى إلا العليم، والعليم صيغة مبالغة أيضاً تفيد المبالغة في العدد وفي النوع.

آخر شيء أتمنى عليكم أن تقفوا عنده وقفة متأنية، ماذا نستفيد من اسم العليم، ورد في بعض الكتب أن الله عز وجل يقول:

((إن لم تعلموا أني أراكم فالخلل في إيمانكم، وإن علمتم أني أراكم فلِمَ جعلتموني أهون الناظرين إليكم ؟))

إذا كنت لا تعلم أن الله يراك فهذا ضعف في الإيمان كبير، وإذا كنت تعلم أن الله يراك فهذه حجة واهية عذر أقبح من ذنب، إذا علمت أن الله يراك لِمَ جعلت الله عز وجل أهونَ الناظرين إليك، قال الله تعالى:

(يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً (١٠٨))

(سورة النساء)

لذلك اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، وقال بعض العلماء: **" إنّ حال المراقبة أن تشعر أن الله معك دائماً وهذا الشعور يورثك الخشية والاستقامة**، ونعود إلى أول آية طرحناها في هذا الدرس:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

ولن تستقيم على أمره إلا إذا أيقنت أن علمه يطولك وأن قدرته تطولك

١٥- اسم الله القابض الباسط:

الحقيقة أن إخوةً كثيرين جداً ممن تابوا إلى الله توبة نصوحاً وممن اصطلحوا مع الله، دائماً يسألون هذا السؤال، فيقولون أحياناً نشعر بالسعادة والغبطة والسرور والانشراح بحيث نرى أنفسنا في الجنة وتأتي علينا ساعة أخرى فنشعر بالانقباض والضيق بحيث نتمنى الموت فما تفسير هاتين الحالتين ؟ الحقيقة إن الإجابة على هذا السؤال المتكرر الذي يعانيه كل مؤمن في هذا الدرس.

فمن أسماء الله تعالى أنه القابض والباسط و أول ملاحظة لا يجوز أن تقول إن الله قابض فقط، لأنك إذا قلت قابض فمعنى ذلك أنك تصفه بالمنع والبخل و لكن إذا قلت إنه قابض باسط، فمعنى ذلك أنك وصفته بالقدرة والحكمة، وإذا جمعت بين الاسمين فقد وصفت الله سبحانه وتعالى بالقدرة والحكمة، لأن الله عز وجل يقول:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٤٥))

(سورة البقرة)

وهكذا إذا أردت أن تعلل، يقبض ليبسط و يضر لينفع و يمنع ليعطي ويذل ليعز، فأنت سائر في طريق الصواب.

و الشيء الثاني معنى القبض باللغة هو الأخذ ؛ والبسط هو التوسيع والنشر، وهذان الشيئان وهذان الأمران يعمّان جميع الأشياء، فكل أمرٍ ضيقه الله عز وجل فقد قبضه، وكل أمر وسعه فقد بسطه، وإلى بعض أبواب القبض والبسط. اليمن: الرزق، قال الله تعالى:

(اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٦٢))

(سورة العنكبوت)

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧))

(سورة الروم)

فلا تقل فلان ذكي وثان عنده خبرات في التجارة رائعة جداً وثالث خطط ورابع مقتدر وآخر صاح، فالله عز وجل **يقبض ويبسط و يرزق ويسلب ويعطي ويمنع**، فإذا أراد أن يرزقك ألهمك الوسائل والأساليب والموضوعات والمواقف والتحركات المناسبة للربح، وإذا أراد أن يقبض وكنت غنياً فقد سرت في طريق الإفلاس وأنت لا تدري، وإذا أراد أن لا يرزقك لحكمة أرادها سد في وجهك كل الأبواب، إذ تكون ذكياً جداً ففي هذا العمل تسلم المحل وفي هذا العمل تفك الشراكة..

فإذا قال الله عز وجل:

(وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٤٥))

أو قال الله عزّ وجل:

(االلّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ)

فاعلم علم اليقين أن الله هو الرزاق، وهو الذي يسلب الرزق والعوام يقولون إذا أعطى أدهش وإذا حاسب فتش، لكن أيها الأخ الكريم إياك أن تظن أن البسط عند الله عز وجل فيه معنى الإسراف، وأن القبض فيه معنى البخل، وهذان المعنيان يجب أن لا يردَا عليك إطلاقاً، فإذا تحدثت عن أن الله يقبض ويبسط، فليس إذا قبض قبض بخلاً ولا إذا بسط بسط إسرافاً، بل يقبض عن حكمة و قدرة و علم و تقدير ويبسط عن إكرام وتوسعة وامتحان، فبسطه إكرام أو امتحان وقبضه معالجة أو وقاية، والدليل قول الله تعالى:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧))

(سورة الشورى)

هذا المعنى الأول متعلق بالرزق، والمعنى الثاني متعلق بالسحاب قال الله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفاً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨))

(سورة الروم)

هذا السحاب ينتشر في السماء كما يشاء الله عز وجل، وقد يقبضه عن قوم ويبسطه لقوم، مطرة واحدة في منطقة ثمانون مم في ليلة واحدة ومنطقة مم واحد، معنى هذا قبض عن هؤلاء وبسط لأولئك.

والمعنى الثالث، يقبض ويبسط في الأنوار والظلال، قال تعالى فيما يتحدث عن الليل والنهار:

(ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضاً يَسِيراً (٤٦))

(سورة الفرقان)

أين النهار إذا جاء الليل، وأين الإشراق والوضوح، وأين الليل إذا جاء النهار: تكون في وحشة وفي خوف وفي قلق، فتشرق الشمس فتحس بالراحة، وبالأنس والطمأنينة، إذاً يقبض ويبسط، يقبض النور ويبسطه.

والمعنى الرابع أن الله عز وجل يقبض الأرواح، فإذا قبض روحه أماته، وإذا بسطها أي أحياه، فالأرزاق والسحب والظلال والأنوار والأرواح يقبضها ويبسطها، و المعنى الخامس الأرض أيضاً يقبضها الله عز وجل قال الله تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧))

(سورة الزمر)

فبسط الأرض: أنه جعل الدنيا صالحة لحياتنا، وقبضها: أي ينهي عملها ووظيفتها.

والمعنى السادس أن الله سبحانه وتعالى يأخذ الصدقات أي يقبضها لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَصَدَّقَ مِنْ طَيِّبٍ تَقَبَّلَهَا اللَّهُ مِنْهُ وَأَخَذَهَا بِيَمِينِهِ وَرَبَّاهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ مُهْرَهُ أَوْ فَصِيلَهُ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَصَدَّقُ بِاللُّقْمَةِ فَتَرْبُو فِي يَدِ اللَّهِ أَوْ قَالَ فِي كَفِّ اللَّهِ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ فَتَصَدَّقُوا))

(مسند الإمام أحمد)

لكن الموضوع الحساس الذي نحتاجه جميعاً هو أن الله سبحانه وتعالى يقبض القلوب ويبسطها... والخوف والرجاء للمستقبل، فأنت دائماً تخاف من الله عز وجل أو ترجوه، و القبض والبسط للحاضر فأنت الآن في حالة قبض أم في حالة بسط ؟.. فإذا قلت لا أعرف فمعنى ذلك أنت خارج المدرسة، وخارج التعليم كله، فاسأل طالباً كم أخذت بالرياضيات، و كم أخذت باللغة العربية، فإذا قال لا أعرف فمعنى ذلك أنه خارج المدرسة كلياً، فالمؤمن الصادق بين حالتي القبض والبسط.

والحقيقة إذا قبض الله عنك الأحوال الطيبة، شعرت بالوحشة و بالضيق، وبالحرمان، و شعرت أنك مردود، ثم شعرت أنك مرفوض، ضن الله عليك بالتجلي، فقد تلوت القرآن وما شعرت بشيء وقمت إلى الصلاة وما شعرت بشيء، ثم أردت أن تذكر الله عز وجل فما شعرت بشيء، فهذه الحالة ما اسمها،إنها حالة قبض، إذ تحس أن الله عظيم وأن الله جلّ جلاله كبير ومتعال، ومن أنت حتى يتجلّى الله عليك فالله عز وجل مربٍ، فإذا بسط الله للإنسان الأحوال والسرور والانشراح والأنس وإذا استمر هذا الحال الطيب فتراه بعد حين يقصر في عباداته ويتهاون في صلواته، ويتكاسل في أعماله الصالحة، أما حينما يأتي القبض، فيأتي مع القبض الضجر و الضيق، فتقول **" يا رب لماذا أنا على هذا الحال "**، فيأتي مع القبض الخوف ثم القلق.

إذاً فربنا عز وجل يعالج المؤمن، ولكن هذا الكلام أقوله للمستقيم أما غير المستقيم فتأتيه حالة انقباض لا معالجة بل نتيجة طبيعية لمعاصيه، وكل معصية معها انقباض، حتى أن علماء النفس الأجانب، قالوا: إن المنحرفين يشعرون بكآبة.

والآن يسمي علماء النفس الأمراض الشائعة الوبائية في الشباب بأمراض الكآبة وأسبابها الانحراف عن الفطرة العالية التي فطروا عليها، وكل إنسان مفطور فطرة عالية فإذا انحرف عنها وأساء وتعدى وبنى متعهُ الرخيصة على حقوق الآخرين فيشعر بالانقباض والكآبة، وهذه خارج درسنا فأنا أتحدث عن المؤمنين المستقيمين الورعين، إذ أحياناً تصيبهم حالة الانقباض، وهذه حالة نسميها علاجاً من الله عز وجل، فالله عز وجل يقلب المؤمن بين القبض والبسط، فتراه أحياناً متفائلاً، طليق اللسان واضح السرائر، بشوش الوجه، وتشعر به أنه مبسوط، و أنه سعيد، يمشي واثقاً من مشيته، ويتحدث واثقاً من

حديثه، و هذه الحالة اسمها حالة البسط، فالله عز وجل تجلى على قلبه باسم الجميل، إذ جمّله فأحس بالجمال، والسعادة.

ولكن هنا يوجد منزلق، فعندما يشعر المؤمن أنه قريب من الله ومتفوق وفالح وناجح وفائز والناس مساكين ضعيفون، ضعيفو الهمة والعزيمة، ومقصّرون، وغارقون في المعاصي، وبعيدون منقطعون ومطرودون ملعونون، وهو وحده في سعادة، وهذا الشعور بالانبساط يأتـي معه أحياناً انزلاق، وعُجب، أو كِبْر أو تعالٍ أو استطالة على الآخرين، فالعلاج حالة أخرى مضادة وهي القبض، فترا بعد أيام مستكيناً فتقول له خير فيقول الحمد لله، لقد كان يمشي قفزاً على الطريق، ويقول الحمد لله، وهو الآن متضايق، ويعرف السبب إذ لا يوجد معصية.

و الدرس موجه للمؤمنين، فإذا كان الكلام لغير المؤمنين فنقول له لمّا عصيت الله عز وجل أشعرك بالضيق وخالفت فطرتك شعرت بالكآبة وهذا مرض، ولا يوجد إنسان يرتكب إثماً أو معصية إلا ويشعر أن الأرض لا تسعه على اتساعها، قال الله تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨))

(سورة التوبة)

فهؤلاء الذين أمر النبي عليه الصلاة والسلام أصحابه أن لا يكلموهم ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وظنوا ألاّ ملجأ من الله إلا إليه فحالة القبض للعاصي والمنحرف والمقصر.

و لو فرضنا أن الوالدة الجليلة طلبت منك حاجةً في منتصف الليل **" دواء "** مثلاً، فقلت لها لا أستطيع فإنني أشعر بحاجة للنوم، أو ليس هناك صيدلية تفتح أبوابها، فهذا الشعور بالذنب يورث كآبة، وهذا موضوع آخر، فإذا قصّر الإنسان في أداء واجباته، أو ارتكب معصية أو إثماً أو خرج عن خط الاستقامة أو اغتاب، أو أطلق لسانه في أعراض الآخرين، أو أكل ما ليس له، أو نظر ما لا يحق له أن ينظر، فإذا وقع في معصية أو مخالفة يشعر بالقبض، وهذا القبض ليس موضوع درسنا اليوم، هذا قبض المعصية.

وأنا أقول إن الإنسان إذا أطاع الله عز وجل وشعر بأنه تفوق وفاز وأن الله يحبه وأن الله يقربه وأن الله تجلى على قلبه وأنه قد ينزلق في هذا الحال، حال البسط، فيستعلي على الناس فيعتز بنفسه، ويعجب، وعندئذ علاج هذا الانزلاق حالة مضادة هي القبض، فتراه ساكتاً، أو يتلعثم لسانه، فيشعر بضيق، إذ يقوم ليصلي فما يشعر بطمأنينة و يقرأ القرآن فما ترتاح نفسه، فهذه الحالة علاج رباني لمن أعجب بنفسه، و تاه على عباد الله، و استطال باستقامته، هذه حالة القبض.

أما البسط، فحينا يتألم ويتضايق، ويشعر بالوحشة، ويتصحر قلبه، فقد ينزلق مع القبض إلى حالة مرضية وهي اليأس، فإذا شارف اليأس جاءت حالة مضادة وهي البسط، فاعلم أيها الأخ الكريم أنك بين حالتين، القبض والبسط، لأن الله هو القابض وهو الباسط فإذا كان القبض يناسبك قبضك إذ قبض الأحوال عنك، وضيّق عليك الدنيا و أشعرك بالسأم والضجر، وبالوحشة والبعد إذ أبى أن يتجلى على قلبك، وإذا اقتربت مع القبض إلى اليأس تجلى على قلبك فأشعرك بالقرب والأنس والسرور والانشراح، فأنت أيها المؤمن بين حالتي القبض والبسط، فما العلاج ؟ العلاج أنك إذا استحققت من الله حالة البسط، فإياك أن تنزلق منها إلى الغرور أو إلى الاستعلاء أو الإعجاب أو أن تستطيل على عباد الله.

إذاً مع البسط هناك منزلق هو الإعجاب

((لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أكبر))

فما الذي هو أكبر ؟ " **العجب** "، وإذا أصابتك حالة القبض، فما ينبغي أن تنزلق منها إلى اليأس.

إذاً: رب العالمين هو رب النفوس إذ يربي الأجساد بإمدادها بالمواد ويربي النفوس بتقليبها من حال إلى حال، قال الله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠))

(سورة الشعراء)

فأنت أيها المؤمن تتقلب من حال إلى حال، من حالة بسط إلى حالة قبض، وإلى بسط وإلى قبض، فأنت موضوع عناية الله عز وجل تربيته، فلذلك استسلم.

أما إذا جاءك القبض إثر معصية أو مخالفة أو عدوان أو انحراف، فهذا قبض المعصية وهذا موضوع آخر، فأية معصية وراءها إحساس بالكآبة وهذه هي الفطرة.

وربنا عز وجل لِمَ أودع فيك العقل ؟.. لتعرفه ! ولِمَ أودع فيك هذه الفطرة العالية ؟.. لتعرف خطأك. فبالعقل تعرف ربك وبالفطرة تعرف خطأك، إذ يأتي الانقباض

((وعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سِمْعَانَ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ فَقَالَ: الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ))

(صحيح مسلم)

واعلم أن معك ميزاناً، إذا كذب الإنسان أو اعتدى أو خان أو نظر نظرة لا تحق له أو استطال بلسانه أو فإن يشعر بالانقباض، وهذا إذا كان فيه إحساس.

و أحياناً تنطمس الفطرة، ويتعطل الميزان، فهذا الإنسان لا يعي الخير:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ: إنّ الْمُؤْمِنَ إذَا أذْنَبَ كَانَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ فِي قَلْبِهِ فَإنْ تَابَ وَنَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ صُقِلَ قَلْبُهُ فَإنْ زَادَ زَادَتْ فَذَلِكَ الرّانُ الّذِي ذَكَرَهُ اللّهُ فِي كِتَابِهِ (كَلا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ)))

(سنن الترمذي)

فالمعاصي تِلوَ المعاصي والمخالفات والانغماس في الدنيا والتطاول على خلق الله وترك العبادات وترك الذكر، و ينتهي بقلب مغلف:

(خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧))

(سورة البقرة)

إنّ ختمُ حكمي، فإذا امتلأ القلب من حب الدنيا، فليس هناك محل لشيء آخر فيه، إذاً ختم القلب ختماً حُكمياً، فالقبض والضيق والوحشة الناتجة عن المعاصي هذه علاجها الطاعات والتوبة أما القبض الذي ليس له سبب ظاهر لمن يمشي في طريق الإيمان فهذا القبض معالجة إلهية لطيفة، وقد قال العلماء في عدة مصادر **" إنه على المؤمن أن يصبر حتى تنجلي هذه الحالة بتقدير الله عز وجل "**.

وهناك تعريف لطيف جداً للقابض للقشيري، يقول: **" القابض الذي ملك زمام كل شيء "**، ومن معاني القابض القدير، فأحياناً أنت لا تستطيع أن تدس الحزن بقلب إنسان إذا كان سعيداً، ولو كلمته لا يبالي بكلامك، لكن ربنا عز وجل قدير ومعنى قدير أنه ملك زمام كل شيء يقبض ويبسط كيف يشاء يقبض العقل فلا يفهم يقول لك ما فهمت.

دخل طالب مغرور على امتحان، وهو صديق لي، فجاء سؤال مؤتمر برلين في التاريخ، قال بقيت ساعة وأنا أفكر أين عقد هذا المؤتمر؟ وهو اسمه مؤتمر برلين عقد في برلين..!، أحياناً يرى الشيء على خلاف ما هو عليه في الامتحانات، فالإنسان إذا اعتزّ بعقله وتاه بذكائه يرتكب حماقات يترفع عنها الحمقى، ليُرِيَهُ الله عز وجل أنه هو القابض، يقبض عنك الفهم، ويقبض العقل فلا يفهم ويقبض القلب فلا يغنم، تراه يقول: **" ضاق قلبي "**، هذه المشاعر ليس لها سبب واضح، فالبيت واسع والزوجة ممتازة والأولاد أصحاء والدخل يسير فلا مشكلة، ويقول:

" يضيق قلبي، وأكاد أموت ضيقاً " فتقول له قلبك بيده، القلب بين أصبعين من أصابع الرحمن، هو الذي يسعدك وهو الذي يقبض عنك كل سعادة. وقد ملك زمام كل شيء، إذْ يقبض العقل فلا يفهم، يقبض القلب فلا يغنم

وهناك قلب كبير، مفعم بالسعادة والرضى وبالإشراق الرباني وقلب متصحر، كالصخر لا يرحم ولا يلين ولا يتأثر ولا يبكي وإن يقبض القلب فلا يغنم ويقبض الصدر فلا يفرح، ويقبض الرزق فلا يمنح، " فيقول أرمي بالطلب يميناً فيرتد شمالاً "، وهذا أحد الشعراء المهجريين ترك لبنان إلى بلاد المهجر إلى أمريكا، فقال:

أغرب خلف الرزق وهو مشرق وأقسم لو شرقت راح يغرب

***

يعني فإذا أراد الله عز وجل ألا يرزقك لو ذهبت إلى أقصى الدنيا لو ذهبت إلى بلاد الغنى وإنك تعيش فيها فقيراً، وقد يرزقك في بلدك في أصعب الظروف، لأنه هو الرزاق، هذا هو الإيمان.

قال: ويقبض الروح فلا تفرح، فيأتي " **التشاؤم والسوداوية** " ويقبض النفس فلا تمرح، ولا يفرٌ من حكمه وقضائه خلق من خلقه، حكيم في فعله وتقديره، لذلك قال ربنا عزّ وجل:

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣))

(سورة الأعراف)

كلمة متين هذه صفة الأجسام التي تتحمل قوى الشد، وأما القساوة فصفة الأجسام التي تتحمل قوى الضغط، فالماس قاسٍ أما الفولاذ المضفور فمتين، ولذلك فبعض الحبال العظيمة تحمل الجسور الكبيرة فالتل فريك مثلاً على أي شيء يُحمل ؟ على حبال من الفولاذ المضفور فالفولاذ المضفور من أمتن المعادن والماس من أقساها، وربنا عزّ وجل وصفَ كيدَهُ بأنه متين، وكأن الله عز وجل شبه كيده بحبل متين لا يمكن أن يُقطع والكافر مربوط به، ولكن هذا الحبل مرخى فالكافر يتوهم أنه طليق، فهو يتحرك ويؤذي ويتكلم ويتبجّح ويتفلسف ويتحدى ويتطاول، ويوقع الأذى بزيد وعبيد وهو يظن أنه يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير، في لحظة واحدة يشد الله الحبل فإذا هو في قبضته، وهذا الحبل لا يمكن أن يُقطع، وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣))

و معنى القابض يمكن أن يغلق عليك عقلك، وأن يجعل قلبك متصحراً وأن يصيّر نفسك سوداوية المزاج متشائمة، وهناك حالات كآبة تدفع أصحابها إلى الانتحار، لكن المؤمن بالله عز وجل في منجىً من ذلك

رأي آخر للقشيري، قال " **القبض والبسط حالان يهذب الله بهما الذاكرين** "، ألم يقل النبي الكريم:

((أدبني ربي فأحسن تأديبي))

فأحد إخواننا الكرام عنده معمل متواضع، وأخ من إخوان المسجد علم أن هذا المعمل لفلان، في اليوم التالي ذهب إليه، وهو معمل يصنع ألبسة، يبيع في الجملة خمسمائة إلى ألف اثني عشرية، وهذا الأخ

دخل إلى هذا المعمل وطلب منه ست قطع فكأن هذا الطلب أهان صاحب المعمل، فقال أنا لا أبيع مفرقاً، فقال له شكراً، وانصرف خجلاً، فيقول صاحب المعمل لقد مرّت ثلاثة وعشرون يوماً وما دخل معملي إنسان ليشتري ! أما الآن فأبيع ولو قطعة واحدة و هذا تأديب الله عز وجل ! تتكلم كلمة في غير موضعها فيحجبك عنه أسبوعاً فتغلي ضجراً فإذا كان هناك تقصير أو تجاوز، فيأتي القبض، وما القبض إلا دليل على أن الله رفضك، أي رفض عملك، ورفض التصرف، فما أقبل على قلبك و ما تجلّى عليك، وهذا لمن عنده حساسية بالغة.

وهناك ميزان تزان به السيارات، تصعد فوقه فيسجل عشرين طناً، وهذا الميزان لا يزن أوقية بن، ولا خمسةٍ غرامات ذهب ولا ماسة ثلاثين قيراطاً، وإذ وضعت عليه كيساً وزنه مائة كيلو فلا يتحرك، وهناك أشخاص عندهم ميزان غير حساس، **" وهو لا يفكر بربه أبداً "**، وهذا الإنسان ليس موضوع درسنا.

أما المؤمن فبعد اللطف التام والوجهة إلى الله عز وجل يملك حساسية مفرطة، فإذا شعر أن قلبه في الصلاة غير مقبل يشعر أن هناك شيئاً، فلعله قال كلمة، أو خطر في باله خاطر لا يليق، أو أساء الظن بالله عز وجل ثم لعلّهُ تكلّمَ كلمة في غير محلِها مع إنسان فانكسرَ قلبه.

ولذلك أقسم ربنا عز وجل في القرآن الكريم، بالنفس اللوامة، فهناك نفس مطمئنة: هي نفس الأتقياء الصديقين، أهل الإحسان، وهناك نفس أمارة بالسوء: هي نفس العصاة، أما نفس المؤمن فلوامة، وهي دائماً في حساب مع نفسه عسير وفي مفاجأة، لعلي تكلمت كلمة، أو منعت هذا العطاء عن فلان، أو هل تألم فلان مني ؟ فهو دائماً في حالة حساب مع نفسه شديد، وهذا معنى النفس اللوامة.

قال: القبض والبسط حالان يهذب بهما عباده الذاكرين، ويفتح بهما عليهم أبواب العلم والحكمة، فإذا هجم القبض على أحدهم فإنه يهجم على صدره من أبواب الجلال وحكمة الكبير المتعال، وتكثر الخواطر فيشتد الخوف، ويتذوق العبد جلال الله عزّ وجل، فتمنع الذات الإلهية عن العبد وتحس بالجلال، وإذا اشتد عليه هذا الحال أي لطف الله به فعند ذلك المقدار الذي يطيقه ينفرج صدره بالبسط، وإذا هجم عليه حال القبض وشعر بالخوف فالله عز وجل حكيم لا يسحقه بل يعطيه قدراً من القبض يطيقه وعندئذ يأتيه حال البسط، وهذا كلام يتوجه إلى أناس لهم خبراتهم مع الله ولهم صفاؤهم ولطفه ولهم صدقهم و حرصهم على طاعة الله بل لهم ورعهم وعندئذ يصبح قلبهم ميزاناً دقيقاً وحساساً، ونرجو من الله عز وجل أن نملك هذا الإحساس.

أما قلنا: هناك ميزان لا يتأثر ولا يتحرك ولا بمائة كيلو هذا معد ليزين حجماً كبيراً ووازناً، كسيارة شاحنة، أما وهناك ميزان، ترى عنده الصائغ يغلق المروحة أثناء وزن الذهب لأن الهواء الصادر عنها يغير كفة الميزان وهناك ميزان لو وزنت به ورقة في وزن دقيق، ثم كتب على الورقة كلمة واحدة

رجحت الكفة، بوزن المداد، فكلما ارتقى المؤمن يَدِقُ ميزانه، فقل لي ما مستوى ميزانك أقل لك من أنت.

الميزان دائماً له حس زائد ناقص درجة، ولو فرضنا عندنا ميزان حرارة غال جداً وقسنا عليه ميزان حرارة رخيصاً يفرق درجة، نقول حس هذا الميزان زائد ناقص درجة، وحس هذا الميزان زائد ناقص غراماً، فكلما اشتد الحس قلّ الخطأ، والمؤمن كلما ارتقى أصبح عنده ميزان دقيق جداً في محاسبته نفسه، والكلمة التي أقولها دائماً، **" من حاسب نفسه في الدنيا حساباً عسيراً كان حسابه يوم القيامة يسيراً، ومن حاسب نفسه في الدنيا حساباً يسيراً كان حسابه يوم القيامة عسيراً ".**

وعن موضوع القابض الباسط، فأصحاب عليهم رضوان الله قالوا يا رسول الله غلا السعر فسعر لنا، فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله هو الخالق القابض الباسط المسعر))

والذين ضمنوا المشمش في الغوطة قدروه بسعر عشرين واشتروه بهذا السعر وباعوه بخمسٍ، والإنتاج كان غزيراً جداً، والكمية الكبيرة خفضت الأسعارفإذا قال النبي الله هو المسعر، فالكميات بيد الله. ومرةً في الجزيرة أنتج الكيس ثمانين كيس قمح، والعادة عشرة، أو خمسة عشر، وكل سنة يخرج موسم بكميات مذهلة، مرةً الزيتون ومرة البطاطا ومرة البصل و ترى الأسعار تنخفض إلى أرقام خيالية، فالله هو المسعر، والله القابض يقبض فتكون الكميات قليلة ـ فالأسعار عالية، فيبسط ـ فتكون كميات كثيرة ـ فالأسعار منخفضة، وإن الله تعالى هو الخالق القابض الباسط المسعر.

وقال بعضهم: القابض الذي يكاشفك فيقيك، والباسط الذي بجلاله يكاشفك بجماله فيبقيك، فأنت بين أن يقيك وبين أن يبقيك، وهو القابض الباسط، والقابض الذي يقبض الصدقات من أربابها فيربيها والباسط الذي يبسط النعمة وينميها ويهنيها، إذ يقبض الصدقات ويبسط النعم.

والقابض هو الذي يخوفك من فراقه، والباسط الذي يؤمنك بعفوه وإطلاقه، والإمام الغزالي يقول: **" القابض الباسط من العباد من ألهم بدائع الحكم وأوتي جوامع الكلم "**، فمثلاً، أنت داعية فإذا حدثت الناس عن رحمة الله و كرمه وعطائه وعفوه، وقلت لا تخافوا يا إخواني فالقضية سهلة والله غفور رحيم، ولا يسعنا إلا عفوه وكرمه، ومن نحن أمام عفو الله إذا جعل كل دعوته الجانب المشرق، ألا يكون حكيماً.

والإمام الغزالي كان يكتب كتاباً فوقفت دويدبة فانتظرها حتى شربت من مداد القلم فلما مات رآه أحد تلاميذه وقال **ياسيدي ما فعل الله بك،** قال **رحمني الله بهذه الدويدبة التي انتظرتها حتى شربت،** وكل عمله ليس له قيمه، إذ يلتبس عليك الأمر، فمثل هذا الكلام ليس فيه حكمة. فأنت ما علاقتك بالقابض الباسط ؟

تحدثنا عن الله عز وجل كيف يقبض الأرواح ويبسط الحياة ويقبض الأرزاق ويوسعها ويقبض القلوب. والآن السؤال أنت مؤمن فما علاقتك بهذا الاسم ؟ أي إذا دعوت إلى الله عز وجل يجب أن تجري موازنة دقيقة بين أن تطمع الناس برحمة الله وبين أن تيئسهم من عقابه، فاليأس مرض والطمع مرض، فإذا ذكرت الجانب الرحماني فقط وعفوه وكرمه وتجاوزه وحلمه، ولم تذكر عذابه وعقابه وإيلامه وما عنده من عذاب مقيم فلست محسناً ولست حكيماً في ذلك، إذاً اجمع بين القبض والبسط حتى في دعوتك إلى الله عز وجل، لأن الإنسان بحسب ما تلقمه وبحسب ما تغذيه، وماذا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِاللَّهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ عُذّبَتِ امْرَأَةٌ فِي هِرّةٍ حَبَسَتْهَا حَتّى مَاتَتْ جُوعًا فَدَخَلَتْ فِيهَا النّارَ قَالَ فَقَالَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لا أَنْتِ أَطْعَمْتِهَا وَلا سَقَيْتِهَا حِينَ حَبَسْتِيهَا وَلا أَنْتِ أَرْسَلْتِهَا فَأَكَلَتْ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ))

(صحيح البخاري)

ومعنى ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قد خوفنا، وقال مرة:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَجُلٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ كَثْرَةِ صَلاتِهَا وَصِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا غَيْرَ أَنّهَا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي النّارِ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنّ فُلانَةَ يُذْكَرُ مِنْ قِلّةِ صِيَامِهَا وَصَدَقَتِهَا وَصَلاتِهَا وَإِنّهَا تَصَدّقُ بِالأَثْوَارِ مِنَ الأَقِطِ وَلا تُؤْذِي جِيرَانَهَا بِلِسَانِهَا قَالَ هِيَ فِي الْجَنّةِ))

(مسند الإمام أحمد)

((وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْتَ إِنْ جَاءَ رَجُلٌ يُرِيدُ أَخْذَ مَالِي قَالَ فَلا تُعْطِهِ مَالَكَ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَاتَلَنِي قَالَ قَاتِلْهُ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلَنِي قَالَ فَأَنْتَ شَهِيدٌ قَالَ أَرَأَيْتَ إِنْ قَتَلْتُهُ قَالَ هُوَ فِي النّارِ))

(صحيح مسلم)

إنه أسلوب مخيف، إذ قال عن الذين ماتوا في الحرب وذلك هم في النار، قيل فقد مات في الحرب و الجهاد، قال هو في النار، كي يدعو أصحابه إلى أن يحاسبوا أنفسهم، فماذا أردتُ من هذا الجهاد، لعلي أردت سمعةً، أو جاهاً، أو غنائم، فأنت تقرأ أحاديث النبي فتعجب، فأحياناً تخاف خوفاً شديداً لسبب تافه وأحياناً تسمع النبي عليه الصلاة والسلام، يطمئنك ويبشرك ويلقي عليك من رحمة الله عز وجل الشيء الكثير.

فأنت الداعية اقتد بالنبي عليه الصلاة والسلام، وهناك دعاة كل حديثهم عن جهنم و دعاة كل حديثهم عن الجنة وعن الحور العين، فهؤلاء بهذا الحديث فقد أخطأوا وهؤلاء بهذا الحديث فقد أخطأوا، وكما أن الله قابض باسط فيجب أن تكون مرةً في دعوتك تخوف عباد الله من معصيته ومرةً تحببهم في طاعته.

وإليكم دليلاً آخر، ورد في بعض الأحاديث القدسية:

((أن سيدنا موسى قال يا رب أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال يا موسى أحبُ عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، فقال يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك، قال يا موسى ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

هنا الدِقة:

((ذكرهم بآلائي))

بهذه الآيات الدالة على عظمتي كي يعظموني وذكرهم بنعمي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني، إذاً لا بد من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيم لله من خلال الكون، ومحبةٌ له من خلال النعم، وخوفٌ منه من خلال النقم.

و أحياناً يريك ربنا إنساناً مصاباً بمرض خبيث، أو توقف كليتين فحياته جحيم ففي كل أسبوع تُغسل فيه الكليتان مرتين فيشعر منه بانقباض شديد وهناك أمراض وأوبئة وأمراض عضالة، وفقر شديد، والله عز وجل قد يمنع حتى يندفع الفقير إلى أن ينقب في القُمامة، والله بعيني هذه رأيت أناساً كثيرين يبحثون في القمامة عن شيء يأكلونه، ألم يُقلْ: **" إذا أعطى أدهش وإذا حاسب فتش ".**

((يا موسى ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي " ذكرهم بآلائي كي يعظموني، إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ، وذكرهم بنعمائي كي يحبوني، وذكرهم ببلائي كي يخافوني ".))

وهناك حالات كثيرة، يتجاوز فيها الإنسان وحده، فيؤذي مخلوقاً من مخلوقات الله عز وجل، فربنا عز وجل يدفِعه الثمن باهظاً، فمن حوله يرتدعون، ويخافون، فإذاً هذا البلاء بلاء ردعي، وهذا الإكرام إكرام تشجيعي، ولكنّ العطاء الكامل يوم القيامة، قال الله تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ (١٨٥))

(سورة آل عمران)

أما ربنا إذا أكرم إنساناً في الدنيا فهذا إكرام تشجيعي له ولغيره وإذا عاقب إنساناً فهو عقاب ردعي له ولغيره، فإذاً يجب أن يكون في القلب حب لله عز وجل وخوف منه وتعظيم له.

١٦- اسم الله المعز المذل :

لهذا الاسم مقدمة مهمة أرجو أن تكون واضحة في أذهانكم.

أولاً الإنسان حينما فطره الله عز وجل ؛ فطره على أسس، من هذه الأسس أنه خَلَقَ فيه دافع الجوع، وهذا الدافع هو سبب بقائه وسبب استمرار الحياة بالنسبة إليه، لولا هذا الدافع لترك الطعام والشراب وانهار جسمه ومات من دون أن يشعر بحاجة إلى تناول الطعام، فدافع الطعام والشراب هو الذي يدفعه دائماً إلى التزود بالطعام والشراب حفاظاً على وجوده أو حِفاظاً على حياته، هذا الدافع الذي أودعه الله بالإنسان معروف لدى الجميع.

أما بقاء الجماعة، بقاء الجنس البشري يحتاج إلى دافع آخر، إنه دافع الجنس، فما أودع الله في الرجل وفي المرأة على حد سواء من أن يتجه كل منهما إلى الآخر إلى أن يتم الاتصال وقد شرع الله له الزواج، هذا دافع آخر يدفع الإنسان إلى الحفاظ على بقاء النوع، فالطعام والشراب يضمن بقاء الفرد بينما دافع الجنس يضمن بقاء النوع.

لكن علماء النفس وجدوا أن في الإنسان دافعاً قوياً جداً لا يقل عن دافع الطعام والشراب ولا يقل عن دافع الجنس، هو دافع ما يُسمى بالشعور بالأهمية، أو تحقيق الذات أو تأكيد الذات، ويمكن أن نسميه في هذا الدرس العزة، فكل مخلوق لو توافر له الطعام والشراب ولو توافرت له الزوجة، يشعر أنه لا بد من أن يكون مهماً، لابد من أن يعتز لابد من أن يعتز ولو بجسمه ولو بماله، ولو بنسبه ولو بخبرته ولو بحرفته ولو بقدرته على الأذى، ولو بجبروته، هناك دافع فطري يدفع الإنسان على الاعتزاز، أن يؤكد ذاته، أن يشعر الآخرين بأنه إنسان خطير، بأنه متفوق أو بأنه عزيز.

السؤال الأول: لماذا أوجد الله في الإنسان دافع الطعام والشراب؟ الإجابة سهلة، حِفاظاً على بقاء الفرد، ولماذا أوجد الله في الإنسان دافع الجنس ؟ حفاظاً على بقاء النوع وإعمار الأرض.

أما لماذا خلق الله في الإنسان دافع الاعتزاز ؟ دافع تأكيد الذات، دافع الشعور بالأهمية ؟ فالإجابة عنه أيضاً سهلة، هذا عون من الله عز وجل للنفس البشرية لعل هذا الدافع يقيها من الانحراف.

الإنسان أحياناً يخاف على سمعته، يخاف على شرفه، يخاف على مكانته، يخاف على مرتبته، يخاف على درجته أن تُخدش وأن تُمرّغ بالوحل، أن يتحدث الناس عنه بالمكروه، بما هو مكروه، يخاف أن يُفتضح ويخاف أن يسقط من عين الناس، لولا هذا الدافع، دافع الاعتزاز لهانت على كل إنسان معصيته، لهان سقوطه ولهان عليه انحرافه ولهان عليه انغماسه في الوحول، طبعاً ليس معنى هذا أنه ليس في بني البشر من هانت عليه نفسه، الفطرة قد تشوّه والعزة قد تمرغ بالوحل، هذه حالات شاذة وحالات استثنائية ليست مناط الحكم، نحن حينما نقول الإنسان هكذا نقصد في الأعم الأغلب وفي الخط

العريض، أما في كل حكم هناك استثناءات وحالات خاصة في الطرف الأول والطرف الثاني لكن معظم الناس، مثلاً لو أن طفلاً في مدرسة رأى قلماً وأعجبه وضع القلم في جيبه، صاحب القلم اشتكى، المدرس سأل، لا أحد يجيب لو فرضنا أن هذا المدرس منع الطلاب من الخروج من الصف، وفتش الطلاب واحداً واحداً، وضبط هذا القلم في جيب أحد الطلاب، لو أن هذا الطالب في الصف الأول أو في الحضانة أو في أي صف، يشعر هذا الطالب وقد كشف أنه سرق قلماً وكذب، يشعر بآلام لا توصف يشعر بخجل شديد يشعر إن كان فصيحاً يتمنى أن الأرض تبتلعه، ما هذا الشعور ؟ هذا شعور الاعتزاز الذي أودعه الله في الإنسان.

أودع الله في الإنسان هذا الشعور من أجل أن يبتعد عن المعصية ترفعاً واعتزازاً وتأثماً، فنحن بادئ ذي بدء نقول أودع الله عز وجل في الإنسان دافع الطعام والشراب ودافع الجنس ودافع الاعتزاز الأسماء المتنوعة، الشعور بالأهمية أو تأكيد الذات أو إثبات الذات أو دافع الاعتزاز.

لو جلست إلى أي إنسان يقول لك أنا لي موقف لا ينسى، هذا يقول لك أنا فعلت كذا، أنا في مصلحتي الأول، صنعتي متقنة، ما من إنسان إلا يعتز إما بحرفته أو بمهنته أو بماله أو بصحته أو بقوته أو بنسبه أو بكذا وكذا.

إذاً ما أودع الله في الإنسان هذا الدافع إلا من أجل أن يقيه السقوط إلا من أجل أن يقيه الانحراف، إلا من أجل أن يقيه الفضيحة، قصة أرويها لكم سريعاً:

رجل منحرف متبذل متحلل من كل قيد اقتنى آلة تصوير فيديو وصوّر نفسه مع امرأته، بأوضاع متبذلة وأعاد الشريط إلى مكتب إعارة أشرطة بالخطأ، الشريط الذي صوّر فيه زوجته وضع خطأً في علبة من نوع الإعارة فلما أعاد الأشرطة فوجئ صاحب هذا المكتب بشريط جديد، طبع منه نسخ كثيرة ووزعه، إلى أن وصل الشريط إلى أخ هذا الإنسان، نظر فإذا أخوه وإمرأة أخيه في أوضاع متبذلة يندى لها الجبين، أعلم أخاه، هذا الإنسان صحته جيدة ودخله وفير مطمئن في بيته، اضطر هذا الإنسان إلى أن يبيع بيته في دمشق وأن ينتقل إلى حمص فِراراً من الفضيحة، ما الذي حرّك هذا الإنسان ؟ اعتزازه هذه فضيحة كبيرة جداً، الأشياء الخاصة تصبح منشورة بين الناس.

لهذا النبي ماذا قال ؟ قال:

((طوبى لمن وسعته السنة ولم تستهوه البدعة))

هذه بدعة وهناك أحاديث كثيرة جداً تؤكد على الناس، هذه العلاقات الحميمة الخاصة لا ينبغي أن يتحدث بها فكيف إذا صُوِرَت ؟ فما الذي يجعله أن يهجر ؟ جعله يهجر دمشق، الفضيحة، وقد يندفع الإنسان إلى الانتحار إذا شَعَرَ بالفضيحة، قصص كثيرة جداً، يكتشف أنه تلاعب أو أنه سرق وسوف يفضح على الملأ وعلى صفحات الجرائد، قد ينتحر.

إذاً: لا تستخفوا بهذا الدافع، دافع الاعتزاز دافع الشعور بالأهمية، دافع العزة، دافع تأكيد الذات، دافع إثبات الذات دافع كبير جداً وخطير وما أودعه الله في الإنسان إلا رحمة بالإنسان وما أودعه الله في الإنسان إلا حصناً له، ما أودعه الله في الإنسان إلا سياجاً منيعاً يحول بينه وبين السقوط.

الآن ربنا سبحانه وتعالى من أسمائه المعز ومن أسمائه المذل والحقيقة أنت تكون عزيزاً لمجرد أن طبقت أمر الله، مثلاً حينما تغض بصرك عن محارم الله حينما لا تخلو بامرأة أبداً حينما لا تكذب، حينما لا تقول ما ليس في قلبك لا يستطيع الناس أبداً أن يضعوك في موضع ذليل، لو أن إنسان دخل إلى بيت صديقه وصديقه ليس في البيت، ولو كان بريئاً يتحدث الناس عنه، يجرحه الناس، إذاً أنت لمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل، لمجرد أن تكون نزيهاً عفيفاً مستقيماً مطبقاً للشرع تكتسب عزة الشرع، هذه أول نقطة، يعني أنت عزيز لأنك مطيع لله عز وجل واسم الله المعز حينما أمرك بهذا المنهج حصّن سمعتك.

النبي عليه الصلاة والسلام، لا ينطق عن الهوى، قال:

((لا يخلون رجل بامرأة))

فأنت ما دمت مطبقاً لهذا الحديث لا يستطيع أحد في الأرض أن ينال منك ولا أن يتهمك ولا أن يمرغك في الوحل، ولا أن يلهج بين الناس بحديث شنيع عنك، لأنك طبقت أمر الله عز وجل، في تطبيق أمر الله عز وجل حفاظ على سمعتك وعلى كرامتك وعلى عزتك وعلى مكانتك وعلى شأنك.

إذاً: أول فكرة بالدرس إذا طبقت أمر الله عز وجل إذا استقمت على أمره، إذا وقفت الموقف الشرعي في كل موقف فأنت عزيز، النبي صلى الله عليه وسلم علمنا أشياء كثيرة، كان مع زوجته صفية رضي الله عنها، مر صحابيان جليلان في الطريق، قال: **على رُسلِكُمَا، هذه زوجتي صفية**، البيان يطرد الشيطان، فأنت إذا دخلت أو خرجت إذا وضحت وبيّنت هذه حرام، هذه حلال، هذه تجوز، هذه لا تجوز، لا أدخل لبيت ليس فيه رجل حتى لو كنت من أصحاب الحرف، إذا وجدت أنه في الدخول لهذا البيت لإصلاح صنبور الماء، خلوة، أنت كمؤمن لا تدخل ولك أن تضحي بأجر ذلك اليوم حِفاظاً على سمعتك وعلى عزتك وعلى كرامتك، هذا هو المعنى الأول، أي بمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل فأنت عزيز أمين فالأمين عزيز، عفيف العفيف عزيز، صادق الصادق عزيز تصور نفسك تكلمت بكلام فيه كذب في مجلس فدخل رجل يعرف الحقيقة، فقال ما الموضوع، ما الموضوع، فقال أصحابك، والله فلان حدثنا كذا وكذا، ينظر إليه، يقول أنت فعلت هذا، كنت معك أنا وقتها، ما الذي يحصل؟.. يذوب..

إذاً لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت صادقاً، لن تكونَ عزيزاً إلا إذا كنتَ عفيفاً، لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت أميناً، والدليل، لو أن ابنك رَجَاكَ أن تُجيبَ أصدقاءه على الهاتف أنه غير موجود وهو موجود وكذبت، لو أن أحداً في بني البشر لا يمكن أن يطلع على هذه الكذبة، فابنك موافق وهو الذي طلب

منك، تشعر أن هناك ضعفاً في شخصيتك، تشعر بانهيار جزئي، لا، قل له إبني مشغول، أو إبني مشغول بالدراسة يعتذر عن لقائك، هذا الصح، فأنت لن تكون عزيزاً إلا إذا كنت مستقيماً على أمر الله، العفيف عزيز الأمين عزيز، المستقيم عزيز، الصادق عزيز، المخلص عزيز، الواضح عزيز.

أما أي انحراف يتبعه ذُل الفضيحة، كشف أنك لست بصادق، جاءَكَ الذل، كشف أنك لست بحكيم جاءك اللوم، كشف أنك لست بأمين جاء سحب الثقة منك، كُشِفَ أنك لست بعفيف تشكك الناس فيك.

إذاً من أسماء الله المعز أنه أنزل على نبيه كتاباً وأنطقه ببيان، ونظّمَ نظاماً، وقنن قانوناً، وسنّ سُنَنَاً، وشرع شرائع إذا طبقتها بحكمة وبحذق وبدقة، أول ثمرة من ثمارها أنك تعيش بين الناس عزيزاً، لا يستطيع أحد أن يلوك سمعتك بلسانه، لا يستطيع مفتر أن يفتري عليك، لا يستطيع متهم أن يتهمك، لا يستطيع لأنه لا يوجد دليل، أما إذا هناك انحرافات، هناك اختلاط هناك أماكن غير صحيحة، أماكن مشبوهة، علاقات غير صحيحة هناك تداخلات قد تكون بريئاً، ولكن الناس يمضغونك بالأفواه، هذا المعنى الأول أن الله عز وجل يعزك من خلال شرعه، يكفي أن تطبق شرعه فأنت عزيز وإذا كنت عزيزاً حققت ثلث وجودك، أول ثلث الطعام والشراب، ثاني ثلث الزواج، ثالث ثلث تحقيق الذات تأكيد الذات الشعور بالعزة، وكما تعلمون سابقاً أنه لا يجوز أبداً أن تقول الله مذل، الله معز ومذل، بل إن الأصوب أنه يذل من أجل أن يعز.

مثلاً: أذكر أحد إخواننا الأكارم عنده محل تجاري، وعيّن موظف، ذلك الموظف ضعيف الوازع الديني، ضعيف الانضباط، من الصباح الساعة الثامنة وحتى الساعة الحادية عشر، وحده في المعمل فقد يأتي شخص يشتري منه حاجات بخمسمائة ليرة أو بألف ليرة، وهو زوج حديث وزوجته لها طلبات كثيرة، ضعف أمام نفسه فمن حين لآخر يضع مبلغ في جيبه دون أن يعلم صاحب المحل، صاحب المحل بالفراسة بالحاسة السادسة شعر أن المحل فيه نقص بالبضاعة وفيه نقص في الغلة، فماذا فعل صاحب المحل، رجا صديقاً له أن يأتي محله التجاري الساعة التاسعة ويشتري حاجات بخمسمائة ليرة ويدفع ثمنها نقداً ويذهب ويعود في الساعة الخامسة ليرجع البضاعة، فجاء صاحب المحل في الساعة الحادية عشر، وسلم على موظفه الكريم وسأله ماذا جرى في هذه الساعات الثلاث، قال له لا شيء، قال جاء أحد واشترى قال لا، حينما دخل هذا الشخص الساعة الخامسة وصاحب المحل وراء الطاولة والموظف، أمام الطاولة يريد أن يرجع البضاعة قال له أية بضاعة هذه قال له اليوم اشتريتها صباحاً الساعة التاسعة ما أعجبتني أسعارها غالية، قال له هل اشترى ؟ قال: نعم، ماذا حصل له، قال لي: والله لو نظرت إلى وجهه لرأيت دماً، ولا ترى جلداً، دم وجهه.

ألم يذله الله ؟ لماذا أذله ؟ ليحمله على التوبة، فإذا تاب واستقام على أمر الله صار عزيزاً، فالله عز وجل لا يضع الإنسان في موضع ذليل إلا من أجل أن يعالجه كي يعزه، لذلك الله عز وجل هو المعز

وهو المذل، وينبغي أن تقرأ هذين الاثنين معاً ويبغي أن تعتقد جازماً انه إذا أذل فمن أجل أن يعز، لكن البطل لا يحتاج إلى أن يذل كي يعز.

قلت لكم سابقاً الإنسان ممكن أن يكشف الحقائق بنفسه، ولكن قد يكشفها بعد فوات الأوان، وقد يكشفها وقد دفع حياته ثمناً لها، وقد يكشفها وقد دفع سعادته الزوجية ثمناً لها.

إنسان تزوج امرأة، دفعها إلى أن تعمل خارج البيت طمعاً براتبها دفعها إلى التحرر، دفعها إلى الاختلاط، فهو إنسان عصري، إنسان متفتّح العقل، إنسان واثق من زوجته إنسان.. إنسان.. إنسان، يقول بعد ذلك، حينما دفعها إلى الانفتاح وإلى الاختلاط وإلى التبدّل وإلى أن ترتدي ثياباً وفق أحدث الصرعات، صار اهتمامها به قليلاً، صار غيابها عن البيت كثيراً، اتصالاتها عديدة، فوجئ أنها اشترت بيتاً آخر، من دخل خاص جاءها، فوجئ أنها استغنت عنه، فقال بالحرف الواحد: أنا يلزمني ذبح على هذا التصرف الذي فعلته مع زوجتي، يحبها لكنها دفعها نحو التحرر فأحبت غيره، وانساقت مع غيره، واستغنت عنه، هذا الإنسان بربكم لو أنّ في دمه كريات حمراء وبيضاء وهو كذلك أنا أقول مع كل كرية حمراء وبيضاء كرية ثالثة يؤمن أنه كان مخطئاً في عمله، لكن متى عرف أنه مخطئ بعد فوات الأوان، بعد أن ضحّى بسعادته الزوجية، بعد أن ضحّى بأم أولاده، بعد أن افتقر إلى العُش الإسلامي في البيت.

أنا لا أريد هذه التجربة، أنا لا أريد أن تكون حكيماً بعد أن تدفع الثمن باهظاً، أنا لا أريد أن تكون حكيماً بعد أن تدفع معظم حياتك ثمناً لهذه التجربة، أما إذا اتبعت كتاب الله وسُنة رسولهِ في مقتبل حياتك فأنت تهتدي برأي الخبير، بحكم الخبير العليم، أي بين أن تستعمل هذه الآلة وفق هواك، يصيبها العطب، تُصلِح العطب، تدفع الثمن باهظاً يهبط مستواها، يهبط مردودها، لو أنك استعملت تعليمات الصانع لَصُنتَ هذه الآلة وأخذت منها أكبر مردود، لذلك لو أنك عرفت الحقيقة بعد فوات الأوان ليست هذه بطولة ولكن البطولة أن تعرفها في الوقت المناسب.

إذاً: يمكن أن تكون عزيزاً إذا اتبعت كلام الله، ويمكن أن تكون عزيزاً إذا أذلك الله عز وجل إثرَ انحراف وبعدها تبت من هذا الذنب، فأنت بين أنت تكون عزيزاً بعد ذل وبين أن تكون عزيزاً بعد علم، تعلّم وكن عزيزاً، وإيّاك أن تدفع ثمن عزتك ذلاً ومهانةً وإيلاماً.

قيل: الاسم المُعِز والمُذِل إسمان من أسماء الله تعالى، وصفتان من صفات فعله، نحن عندنا أسماء ذات وأسماء صفات وأسماء أفعال، الله عز وجل له ذات وله صفات وله أفعال، إذاً له أسماء ذات وله أسماء صفات وله أسماء أفعال، فمعظم العلماء يؤكدون أن اسم المعز والمذل من أسماء الأفعال، هما إسمان من أسمائه تعالى، وصفتان من صفات فعله، فإعزازه للعبد يكون في الدنيا والآخرة، لكن إياك أن تغتر بعز الدنيا، قد يكون عز الدنيا استدراجاً، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((ألا يا رب نفس طاعمة ناعمة في الدنيا، جائعة عارية يوم القيامة. ألا يا رب نفس جائعة عارية في الدنيا، طاعمة ناعمة يوم القيامة. ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين. ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم. ألا يا رب متخوض ومتنعم فيما أفاء الله على رسوله، ما له عند الله من خلاق. ألا وإن عمل الجنة حزن بربوة. ألا وإن عمل النار سهل بسهوة. ألا يا رب شهوة ساعة أورثت حزنا طويلاً.))

أحياناً ترى شخصاً حياته ناعمة جداً، منزل واسع مفروش بأجمل الأثاث، التكييف التدفئة، الديكور الجبصين، الثريات، كل شيء بأعلى مستوى، مركبته، مكتبه، دخله، تجارته، مكانته، ثيابه الأنيقة من أعلى مستوى، ما شاء الله، هذا طاعم شارب ناعم، وقد يكون مكانه في النار، وقد تجد إنسان خشن الثياب خشن الطعام خشن الشراب، منزله ضيق، حياته من الدرجة الخامسة، لكنه طائع لله عز وجل، العبرة في النهاية.

((ألا يا رب نفس طاعمةٍ ناعمةٍ في الدنيا جائعةٍ عارية يوم القيامة، ألا يا رب نفسٍ جائعةٍ عاريةٍ في الدنيا طاعمة ناعمةٍ يوم القيامة))

لكن:

((ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

أحياناً الإنسان بدافع من عزته الباطلة يعصي الله ليحافظ على مكانته، فلو كُنت بين أُناس فُجّار، بين أُناس منحرفين وأردت أن تماشيهم في معصيته حِفاظاً على مكانتك عندهم، أنت أكرمت نفسك أمامهم، ولكنك سوف تجعلها في الوحول يوم القيامة.

((ألا يا رب مكرم لنفسه وهو لها مهين، ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

قد تضع نفسك في الدنيا حفاظاً على دينك وحفاظاً على استقامتك، وحفاظاً على مرضاة ربك وحفاظاً على آخرتك، وحفاظاً على اتصالك بالله، قد تضع نفسك في موضع صعب جداً، قد تقول لا أفعل وهناك ضغط كبير أن تفعل، قد تقول لا أفعل وهناك إغراء كبير أن تفعل، حينما ترفض تأتيك عبارات التقريع والسخرية والتعليقات واتهامات.

((ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

قد تكون عضواً في لجنة يعرض عليك كذا وكذا، تقول لا أفعل هذا، حينما ترفض أن تفعل هذا، تُعزَل من هذه اللجنة، ويأتيك اللوم الشديد ويُقال لك إنك مجنون، ضيّعت فرصة العمر في أن تكون غنياً.

((ألا يا رب مهين لنفسه وهو لها مكرم))

النبي عليه الصلاة والسلام، قال:

((إذا أردت إنفاذ أمر تدبّر عاقبته))

مرة قرأت بحثاً لطيفاً، سألوا مائة زوج في بلد غربي، لماذا لا تخون زوجتك ؟ هذا اسمه استبيان في علم النفس، يعني هذا الذي لا يخون زوجته ما الذي دفعه إلى ذلك ؟ فجاء الجواب متنوعاً، بعضهم قال لا أستطيع يعمل معها في مكان واحد فهي تراقبه، فقال هذا أسخف جواب هو يتمنى ولكنه لا يستطيع.
أحياناً لا يستطيع تحمل الإثم، ولو أنه بينه وبين نفسه، إذا الإنسان فعل عمل شنيع، ولم يعلم به أحد، يواجه نفسه الآن ويواجه اللوم الداخلي، يواجه التحقير الداخلي، يواجه السقوط الداخلي، فجاء بعض الأجوبة، إنني لا أستطيع تحمل هذا الإثم، وجاء جواب آخر إنني أكره الخيانة، الثاني لو أنه تحمّلَ ألم الشعور بهذا الإثم لفعلها، لكن ابتغى راحة نفسه، لكن الثالث قال أنا أكره الخيانة، هذا أرقى جواب.
فالإنسان حينما يضع نفسه أحياناً بمواطن صعبة حِفاظاً على عزته البعيدة، أساساً هو الأغبياء دائماً يعيشون وقتهم، الأغبياء يعيشون لحظتهم، يعيشون ساعتهم، أما الأذكياء يعيشون مستقبلهم، فإذا أردتَ أن تعمل فحص ذكاء ترى إنساناً يعيش وقته، يهمل صحته، يهمل واجباته، تأتيه المتاعب تأتيه الهموم، تأتيه الأمراض، لكن الإنسان الأعقل، النبي صلى الله عليه وسلم قال:
((الكيس من دان نفسه وعمِلَ لِما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسَهُ هواها وتمنى على الله الأماني.))
كان في العصور العباسية أديب اسمه ابن المقفع، ألفَ كتاب كليلة ودمنة، هذا الكتاب مترجم عن اللغة الفارسية، كتاب فيه قصص حيوانات، ولكن فيها مواعظ بالغة، من هذه القصص أنه حدث عن سمكات ثلاث، قال كيّسة وأكيّس منها وعاجزة، كانت في غدير يعني غدير ماء، فيه سمكات ثلاث كيّسة، يعني عاقلة، وأكيّس منها أعقل وعاجزة، هذا الغدير له فتحة يتصل بها مع نهر، قال اتفق أن مر بهذا المكان صيادان، فأبصرا الغدير وأبصرا ما فيه من السمك، فتواعدا أن يرجِعا، ومعهما شباكهما ليصيدا ما فيه من السمك، قال فسمع السمكات قولهما **" القصة رمزية طبعاً "**، أما أكيّسهن، يعني أعقلهم، فإنها إرتابت وتخوفت **"كلمة خطيرة سيأتي الصياد ليصطادني ويأكلني "** أتبقى مستسلمة مرتاحة جالسة ؟ أما أعقلهم فإنها إرتابت وتخوفت وقالت العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها، هذا العاقل، خذ هذه القاعدة **" العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها "**، والأقل عقلاً حين وقوعها والأحمق بعد وقوعها، هذه الكيّسة قالت العاقل يحتاط للأمور قبل وقوعها ولم تعرج على شيء حينما سمعت هذه الكلمة لم تفعل شيئاً حتى خرجت من المكان التي يدخل منه الماء من النهر إلى الغدير فنجت وإستراحت وأراحت وانتهى الأمر، هذا العاقل.

وأما الكيّسة الأقل عقلاً، بقيت في مكانها حتى عاد الصيادان، يعني بسذاجة سوف أخرج من هنا حين يقدمون، فلما أرادت أن تخرج من حيث خرجت رفيقتها فإذا بالمكان قد سُد، أول شيء فعله الصيادان أنهما سدا المكان، فقالت فرطت وهذه عاقبة التفريط، لكنها لم تستسلم، غير أن العاقل لا يقنط من منافع الرأي، ذكية ولكنها أقل ذكاء من الأولى، ثم أنها تماوتت، فطفت على وجه الماء منقلبةً تارةً على بطنها

وتارة على ظهرها، فأخذها الصياد فوضعها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت في النهر فنجت " **ولكن تحطمت أعصابها، دفعت ثمناً باهظاً "**، وأما العاجزة، فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت وأكلت " **تراه ملبك عم يحوص "** العاقل قبل وقوعها، الأقل عقلاً مع وقوعها، العاجز بعد وقوعها.

أحياناً الله عز وجل يُعز الإنسان استدراجاً، يعني إن فعلت كذا نضعك في هذا المكان نعطيك هذا الشيء، شيء مغري، هذا الشيء يرفعك بين الناس، مبلغ كبير جداً تحل به كل مشاكلك، تأخذ بيت فخم تأخذ مركبة تزهو بين الناس، نضعك في هذا المكان، بهذا العمل يصبح لك هيّمنة على الآخرين نقويك نرفع شأنك، فقط افعل هذا، هذا عِزّ ولكن هذا العز استدراج، إيّاك أن تفعل، قل الله الغني، لو كنت في دائرة مظلمة لو كنت في زوايا النسيان وكنت طائعاً للواحد الديّان فأنت العزيز وأنت الرابح.

قال: فأما في الدنيا فقد يكون العِز بالمال وبالحال، بالمال، وبالجمال، وبالغنى، وبالقوة، وبالأعوان والأولاد، وبالزوجات، وبالمناصب، وبمتع الدنيا، وبالبيوت وبالبساتين، أحياناً الإنسان يكون عنده مقصف جميل، يدعو أصدقائه، ما شاء الله ما هذا الجمال يشعر بعِزّ، أنا عندي هذا المقصف أو عندي هذا البستان، فالإنسان يعتز بأشياء كثيرة ببيته أحياناً يعتز، قال هذا عِزّ الدنيا.

إجعل لربك كل عزك يستقر ويثبت فإذا

إعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

***

فحينما تعتز بشيء فانٍ فإن عزك باطل، إما بشخص ميت، أو بمتاع الدنيا لذلك من علامات قيام الساعة أن المرء في آخر الزمان قيمته متاعه فقط، كل مكانتك من ثمن بدلتك، " **سان لوران، خير إنشاء الله، صرت عظيم، كل مرتبتك من مساحة بيتك، من مكان بيتك "**، فالإنسان حينما يستمد عِزّهُ من الدنيا فقد وقع في متاهة كبيرة.

قال بعض العارفين: " **عز الدنيا بالمال وعز الآخرة بالحال "** لك حال فيه طهر ونقاء واستقامة وشوق ومحبة وقرب، هذا عِزّ الآخرة أما المال عز الدنيا.

قيل أن فتحاً الموصللي، كان قاعداً، فسُئِلَ عمّن يُتابع الشهوات كيف صفته، وكان بقربه صبيان، مع أحدهما خبز بلا إدام، ومع الآخر خبز وإدام، فقال الذي لم يكن له إدام لصاحبه أطعمني مما معك فقال بشرط أن تكون كلبي، فقال صاحبه نعم، فجعل خيطاً في عنقه يعطيه اللقمة في فمه ويجره من عنقه كما يُجر الكلب، فقال فتح الموصللي للسائل أما أنه لو أنه رضي بخبزه من دون إدام ولم يطمع في إدام صديقه لم يصر كلباً له.

قصة بليغة، قصة ثانية أو حديث ورد على لسان سيدنا داود أوحى الله تعالى إلى داود أن يا داود حذّر وأنذر أصحابك أكل الشهوات فإن القلوب المعلّقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبه.

وحُكِي عن بعضهم أن دخل على تلميذ له فقدم التلميذ خبزاً قفاراً ولم يكن له إدام، فأخذ يتمنى بقلبه أن ليت كان له إدام يقدمه إلى أستاذه فقام الأستاذ وقال تعال معي، فحمله إلى باب السجن، فرأى الناس يضربون ويقطعون ويعذبون، فقال الأستاذ لتلميذه ترى هؤلاء الذين لم يصبروا على الخبز وحده ماذا حل بهم، يعني سرقوا.

وقيل إن رجلاً خرج من السجن وفي رجله قيد يسأل الناس، قال أعطوني كسرة خبز، فقال له أحدهم لو قنعت بالكسرة لما وضع القيد في رجلك.

قصة رمزية، يُروى أن رجل وقف بباب أمير، فرأى خادماً يدخل بلا استئذان، يعني علم أن عفة هذا الخادم هو سبب هذا الحجاب المرفوع بينه وبين الأمير، يعني لا شيء يدق أعناق الرجال كالطمع لا شيء يذل الرجال كالطمع.

الله عز وجل مُعِزّ، مُعِزّ إذا طبقت شرعه، ومُعِزّ إذا استغنيت به عمّن سواه، لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

عن أبي هريرة قال:

((قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يحل لمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: يا رسول الله وما إذلاله نفسه ؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يقوم له.))

((اطلبوا الحوائج بعزة الأنفس؛ فإن الأمور تجري بالمقادير))

التخريج (مفصلا): تمام وابن عساكر عن عبد الله بن بسر

وأخرج الطبراني في الأوسط عن سهل بن سعد قال:

((جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد، عش ما شئت فإنك ميت، واعمل ما شئت فإنك مجزى به، واحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن الناس.))

فالعزة التي هي اسم من أسماء الله أيضاً صفة أساسية من صفات المؤمنين، لقوله تعالى:

(يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلّ وَلِلّهِ الْعِزّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٨))

(سورة المنافقون)

إذا كنت مؤمناً حقاً فأنت عزيز لأنك مع العزيز ولأنك على شرع العزيز ولأنك مفتقر للعزيز ومعتمد على العزيز والعزيز لن يخيب ظنك.

قال بعضهم إعزاز الله لعباده يكون بصحة قناعتهم فإن الذل كله في الطمع.

إذاً: المعز والمذل اسمان من أسماء الله الحسنى لصفتين من صفات أفعاله، وموقف العبد من هذين الاسمين أنه إذا طبق أمر الله صار عزيزاً، حكماً، بمصطلح الفقهاء تحصيل حاصل، يعني أمر الله فيه بذور عزة المطبق، والله عز وجل بأمره التكويني يعزك إذا اعتززت به واعتمدت عليه وأخلصت له وأقبلت عليه ولم تشرك به والمعز والمذل اسمان يجب أن نلفظهما معاً، والأصوب أن نقول يذل ليعز،

١٧- اسم الله الخالق:

بادئ ذي بدء يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١))

(سورة البقرة)

يُفهم من هذه الآية أن الخالق وحده ولا أحد سواه ينبغي أن تعبده فإذا توجه الإنسان إلى غير الخالق فقد ضلّ سواء السبيل، والخالق وحده هو الذي إذا عبدته سعدت بعبادته، وإذا عبدته نجوت من عذابه، وإذا عبدته أفلحت في حياتك وفُزت بعد مماتك، ودخلت الجنة وسعدت فيها إلى الأبد، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١))

في المعنى المألوف اليوم أن الصانع وحده هو الجهة الوحيدة التي يمكن أن تعطي تعليمات التشغيل، فمثلاً لديك آلة، فما الجهة المخوّلة والوحيده التي لها الحق أن تُصدر تعليمات التشغيل ؟ إنه الصانع، فلو أن آلة ثمينة تملكها واتّبعت في تشغيلها جهةً غير جهة الصانع فقد أفسدتها وأعطبتها وأضعفت مردودها وخسرتها، فببساطة بالغة يقول العقل: لا يعبد إلا الصانع، أي لا يُتبع إلا الصانع، ولا يُطاع إلا الصانع.

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

السؤال المفرود لماذا ؟ ألا يعلم من خلق، فهو عليم خبير حكيم يعرف طبيعة هذه النفس، وما يصلحها و يفسدها، وما يسعدها و يشقيها، وما يرفعها و يخفضها، و يطمئنها ويخيفها إنه هو الخبير، قال الله تعالى:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

(سورة فاطر)

أي إنسان واعٍ مَلك جهازاً له قيمته يحرص على سلامته ويسأل الخبراء المتخصصين دون غيرهم، فقد تشتري سيارة وتراها ذات مظهر أخّاذ ولكن تخاف أن يغدر بك البائع، وتسأل قبل شرائها عن خبير، فتقول له: انظر لي هذه السيارة ما قوتها ؟ وما طبيعة محركها ؟ وما وضعها العام ؟ وما سلامة هيكلها ؟ إذاً أنت في أمورك التي تتعامل معها يومياً تبحث عن الخبير، وتبحث عن العليم، وربنا عز وجل قال:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

فمثلاً في الحياة الزوجية، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْراً (١))

(سورة الطلاق)

أولاً نهى الرجال عن أن يُخرجوا زوجاتهم من بيوتهن إذا طُلّقن، ونهى النساء عن أن يخرُجْنَ مِن دون إذن أزواجهن إذا طلقن طلاقاً رجعياً، لأنه عليم بطبيعة النفس البشرية، فالرجل والمرأة كلاهما ذو ميل فطري نحو صاحبه، والنفس الفائرة قد تهدأ فورتها بعد حين، فإذا ابتعدا عن بعضهما، تفاقمت الأمور ودخلت جهات كثيرة على خط العلاقة الزوجية، وربما أفسدته، فإذا بقيت الزوجة في بيت زوجها فأكبر مشكلة في يومين أو ثلاثة تتضاءل بإذن الله، أما إذا خرجت الزوجة إلى بيت أهلها غاضبة فأصغر مشكلة تغدو كبيرة إذا تناولتها ألسنة كثيرة، فتفسد ما بقي صالحاً، فلذلك هذا قانون وضعه الخبير، و الصانع والعليم، والخالق، قال:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً(٣٤))

(سورة النساء)

فإذا كنت أفضل علماً وخلقاً وورعاً و تقى وقد أنفقت من مالك على زوجتك فلك القوامة، وإذا أردت أن تُفلح في إصلاح ما انخرق بينكما فعُد إلى كتاب الله ففيه الخير والفلاح، لقول الله عز وجل:

(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً(٩))

(سورة الإسراء)

ففي أي موضوع... حتى في شأن صحتك، وعلاقتك الخاصة جداً، و كسب رزقك، وفي شأن شيخوختك، عليك بهذا القرآن ففيه الهدى:

روى ابن عدي في الكامل عن أنس:

((من تعلم القرآن، متعه الله بعقله حتى يموت))

وقد استرعى نظري أحد الأطباء وهو يُعالج مريضاً مصاباً بتضيّق شرايين الدماغ، فصار إلى الحركة البطيئة، فقال هذا الطبيب عليكم أن تحدثوه، قلت وما السر في ذلك، قال إذا حدثتموه اضطُرَ أن يُجيب، فإذا أراد أن يجيب تنشطت خلايا الدماغ وتوسعت الشرايين في الدماغ قلت يا سبحان الله لقد صدق النبي عليه الصلاة والسلام، حين قال:

((من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

فدماغ المصلي و قارئ القرآن، و العابد لله عز وجل، في نشاط دائم، هل أذّن الظهر؟ وهل دخل الوقت؟ و كم ركعة ؟ أول ركعة، الثانية، الثالثة، الأولى مع قراءة، الثالثة بلا قراءة، فهو في نشاط دائم فإذا قرأ القرآن هنا إدغام وهنا إظهار وهنا إخفاء وهنا قلقلة وهنا مد طبيعي، فالذهن متقد دائماً يحاول أن يفَهمَ معاني الكلمات ومعاني الآيات، فالإنسان إذا قرأ القرآن فهو في نشاط دماغي دائم، إذاً:

((من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت))

قال تعالى:

(قالَ اهْبطا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى(١٢٣))

(سورة طه)

لا يضل عقله ولا تشقى نفسه.

(قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً فَإِمّا يَأْتِيَنّكُمْ مِنّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ(٣٨))

(سورة البقرة)

ونحن في الصفحات التالية ندور حول آية واحدة:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (٢١))

فأنت ليسَ لك حق أن تتبع إنساناً بعيداً عن الله عز وجل، إيّاك أن تستشير في أمورك شخصاً بعيداً عن كتاب الله، مقطوعاً عن الله عز وجل، لقوله تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الّذِينَ يَدْعُونَ رَبّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

(سورة الكهف)

(وَاتّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيّ ثُمّ إِلَيّ)

(سورة لقمان، من الآية ١٥)

إذاً: الجهة الوحيدة في الكون التي تستحق أن تطيعها وأن تعبدها هو الخالق جل وعلا، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (٢١))

وقد ذكرت من قبل أن الإنسان إذا تولى جهات أخرى يُصاب بهزات تبعثره وخيبة أمل، وإحباط، لأن أية جهة أخرى قد لا تعطيك الحقيقة، أو قد تعطيك الحقيقة مزوّرة، أو تنقل إليك فكرة مغلوطة لا يؤكدها الواقع، وولا يخفى على أحد أن طمأنينة المرء وسعادته تكمن في أن يعتقد ما صح نقله، وما قبِلَهُ العقل، وما أكدّتْه الفطرة، وما أيّده الواقع، واقعٌ ونقل وعقل وفِطرة، هذا هو الحق فإذا انطلقت أيها القاريء الكريم في حياتك وفي حركتك اليومية وفي نشاطك من نقل صحيح و عقل راجح ومن واقع دقيق و فِطرة سليمة، وإذا اجتمعت لديك هذه الخطوط الأربعة في دائرة واحدة فأنت مع الحق، والذي

يكون مع الحق لا يخيب ظنه ولا يحبط عمله ولا ينقطع رجاؤه ولن يُفاجأ بحدث لم يكن متوقعاً.
ومن الآيات التي تتحدث عن اسم الخالق، قول الله عز وجل:

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤))

(سورة الحشر)

فكلمة: **" الله "** عَلَم على الذات، أي أن الله سبحانه وتعالى هو الذات الموجودة الواحدة الكاملة، وأسماء الله الحسنى على كثرتها تعود إلى أصول ثلاثة، الله موجود، والله واحد، والله كامل.. فالله موجود واجب الوجود، والله واحد، واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، أما وإن الله كامل فأسماؤه كلها حُسنى وصفاته كلها فُضلى، لذلك لا غرابة إذ صاح أحد العارفين **" يا رب لا كرب وأنت الرب "** فالله موجود واجب الوجود، واحد، ليس من جهة ثانية.

أصعب ما في الحياة أن يتبعثر الإنسان بين جهتين، فيكون له رئيسان، هذا يأمره بكذا وهذا يأمره بكذا ولقد حدثني أحد الأصدقاء فقال: معمل يملكه ثلاثة شركاء، والثلاثة إخوة، فالعمال تمزقوا، فهذا الأخ يعطي أمراً ويجب أن يُنفّذ، وذاك الأخ يعطي أمراً آخر ويجب أن يُنفّذ، والأخ الثالث يعطي أمراً ثالثاً قد يتناقض أو قد لا يتسع وقت هذا العامل لتنفيذ الأوامر الثلاثة، فضطرب الأمور، وقد ذكر الله عز وجل هذا في كتابه الكريم، فقال

(ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٩))

(سورة الزمر)

و لماذا يشقى بعض الناس في الحياة ؟ لأنهم موزّعون بين جهات عديدة، إذ عليه أن يُرضي زوجته، وأن يُرضي أمه، و أن يُرضي من فوقه في العمل، وأن يُرضي فلاناً الذي تهدده، فهو يتبعثر لكنّ المؤمن يُرضي جهة واحدة وهذه الجهة الواحدة هي القوية وبيدها كل الجهات، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها))

اسألوا الأطباء فمعظم الأمراض لها أسباب نفسية، ومعروف عِندَ عامة الناس أن القرحة أساسها أزمات نفسية، وأمراض القلب في معظمها مردها إلى أزمات نفسيه، كذلك وهناك أمراض تُصيب الجهاز العصبي أسبابها أزمات نفسية أيضاً، والأمراض النفسيه في أصلها مشكلات يعانيها الإنسان، كما أن لدي معلومات حديثة مفادها ؛ أن هناك دراسات تؤكد أن معظم الأمراض العضوية لها أسباب نفسيه، وحينما يحاول الطب أن يفصل بين الأمراض العضوية والنفسية يقع في ضلال كبير، حتى إن

بعض أصدقائي حدثني أنه ذهب إلى بلد غربي لإجراء عملية جراحية في قلبه، فقال: دخلت علي ممرضة ذات مستوى رفيع، نسقت الأزهار في غرفتي وبينما هي تُنسّقها سألتني، ما مرضك ؟ قلت لها: عملية دسام في القلب، قالت: من الذي سيجري لك هذه العملية ؟ قالت: فلان، فدهشت، وقالت: فلان ؟! قلت: نعم، قالت: فلان قبل أن يجري لك هذه العملية، أجرى عشرة آلاف عملية مماثلة وكلها ناجحة ولم يخفق في واحدة، قال والله اطمأننت وارتحت، ما دام هذا الطبيب الذي اخترته ليجري هذه العملية من أمهر الأطباء في هذه البلدة ومن أشهرهم ومن أنجحهم وقد أجرى عشرة آلاف عملية دون أن يخفق في عملية واحدة ارتاحت نفسي، لكنه فوجئ وهو يسدد قائمة الحساب، أن القائمة تتضمن مبلغاً كبيراً مقابل رفع معنويات المريض عن طريق هذه الممرضة، وهي ليست ممرضة بل هي عالمة نفس، وظيفتها أن ترفع معنويات المريض، ومن أجل أن تستفيد العضوية من ثقة الإنسان في الشفاء كانت هذه العملية.

فقلت سبحان الله، النفس مهمة جداً، وأنا أؤكد أن أكثر الأمراض بالقلب أو بالشرايين، أو بضغط دم وعائي، أو ضغط دم عصبي، أطباء كثيرون ينصحون مرضاهم بنزهة وبأن يبتعد عن بلده وعن مشكلاته، فمثلاً يكون ذا تجارة وهناك صعوبات، وبضاعة مصادرة، وأسعار تنخفض، عندها يوعز الطبيب بكلمة واحدة أن أخِّروا الإجازة، ليتحسن الهدوء النفسي للمريض. فالضغط له علاقة بالنفس، والقلب والأعصاب، والمعدة كلها لها علاقة بالنفس، وهذا الارتباط الدقيق بين النفس والجسد هو أحدث ما يبحث عنه الطب اليوم، فلماذا كان المؤمن سعيداً ؟ لأن علاقته مع جهة واحدة، ولا يحتاج معها إلى حلف يمين، لا يحتاج معها إلى إيصال، ولا إلى شاهد، فالله مُطّلع، على ظاهرك وباطنك و حقيقتك ونياتك و مطامحك، وألخص الأمر كله بالعبارة الدقيقة التالية: الإيمان صحة وعافية، والمؤمن تبدو صحته طيبة، والسبب لأنه موحد قال الله تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

(سورة الشعراء)

جهة واحدة تستحق العبادة، كما أنها تستحق الطاعة، و الحب، والإخلاص وأن تعمل لها، وأن تفني شبابك من أجلِها، وأن تبذل كل عمرك في سبيلها، هي الذات الإلهية، لذلك لما قال ربنا عز وجل:

(وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦))

(سورة المدثر)

أي هو أهل أن تفني شبابك من أجله، وأن تمضي كل حياتك في خدمته، وأن تنفق مالك في سبيله، وأن تبذل كل ما تملكه في رضاه، وألخصها بكلمة واحدة: تضحية صادقة لكنها مجزية.

ولذلك فالإنسان عندما يستهلك نفسه استهلاكاً دنيوياً وينحدر إلى خريف العمر وهو قادم على حياة مجهولة، لا يملك من نقدِها شيئاً وقد أمضى حياته كلها في أشياء لا تنفعه في آخرته، فهو في ضياع ؛ فندائي صدى لنداء الله سبحانه:

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

الجهة الوحيدة التي تستحق الطاعة والعبادة والإخلاص والحب هي الله، فأنا لا أعتقد أن في الأرض رجلين تحابا كسيدنا الصديق وسيدنا رسول الله، ومع ذلك ماذا قال عليه الصلاة والسلام قال:

((لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي ولكن أخ وصاحب في الله، أما العلائق فكلها مع الله وحده.))

فأقول لكم سِرُّ السعادة أنك تعمل لوجه واحد، فتُرضي جهة واحدة وتبحث عن خالق عظيم فتصفيه كل نفسك، قال الله تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤))

(سورة الحشر)

فالخالق هو الله، صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى علم على الذات. وفي آية أخرى قال الله تعالى:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢))

(سورة الأنعام)

فالله سبحانه ؛ يحتاجه كل شيء في كل شيء فاعبدوه فلنلاحظ أن أمر العبادة يأتي في الأعم الأغلب في القرآن الكريم بعد اسم الخالق.

(اعْبُدُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ)

(خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ)

ومن ثم تطالعنا حقيقة أخرى: هو وحده **" الخالق "**، قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣))

(سورة فاطر)

عندما تَحاوَرَ سيدنا إبراهيم مع النُمرود قال إبراهيم: ربي الذي يحيي ويميت، فرد عليه متنطعاً: أنا أحْيي وأميت:

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨))

(سورة البقرة)

فكان النمرود الغباء كله، والضلال والضياع والكفر.

وحينما تشح الأمطار وتنحبس السماء، أقول لمن حولي: هل في الأرض كلها جهة بإمكانها أن تجتمع وأن تتخذ القرار بإنزال المطر ؟ لا. فليس لأحد حيلة إلا أن يجأر بالدعاء إلى الله عز وجل، والضراعة لاستنزال رحمة الله سبحانه وتعالى، إذاً هو الله الخالق.

(ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢))

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣))

(أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١))

(سورة يس)

أما صيغة **" الخلاّق "**، فهي صيغة مبالغة لاسم الفاعل يعني كثير الخلق وعظيم الخلق، إذ ترى مجرة بُعدُها عنّا ستة عشر ألف مليون كيلو متر، وقلب العقرب، يتسع للأرض والشمس مع المسافة بينهما، وأربعة أخماس الكرة الأرضية بحراً، وبعض أعماقه عشرة آلاف متر، إنه شيء مخيف، واصعد إلى بعض الجبال جبال الهمالايا مثلاً، يهولك ارتفاعها. وانظر إلى بعض الحيوانات، فالحوت الأزرق، مائة وخمسون طناً، ودمه تسعون برميلاً من زيت السمك، يستخرج من حوت واحد، من اللحم خمسون طناً، ومن الدهن خمسون طناً تقريباً وأحشاؤه خمسون طناً، فهل من خالق غير الله ؟

(بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ (٨١))

الأمازون ثلاثمائة ألف متر مكعب في الثانية، يمتد مجرى هذا النهر في البحر بما يزيد عن خمسة وثمانين كم دون أن تختلط مياهه بمياه المحيط هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه، ترى محرك ماءٍ بسيطاً يملأ الفضاء صخباً وضجيجاً، وقد يفسد عليك نزهتك و إذا كنت في مزرعة وتحتاج إلى ماء و أدرت المحرك فإنه يفسد عليك سكون المزرعة وجمال الطبيعة، قال الله تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨))

(سورة النمل)

كتل السحاب تتحرك محملة بألوف الأطنان ومع ذلك تمر بلا صوت، بل فيها الهدوء والبشرى قال الله تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ)

(سورةالروم: آية " ٤٦ ")

وقال الله تعالى:

(ثُمّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(١٤))

(سورة المؤمنون)

وهذه الآية ذات معانٍ كثيرة فمن بعض معانيها أن الإنسان أحياناً يصنع شيئاً يكون في البداية بسيطاً لكنه كلما ارتقى علمه وارتقت خبرته يكمُل عمله، وأكبر دليل انظر إلى مركبة صنعت في عام ألف وتسعمائة وإلى مركبة صنعت في عام ألف وتسعمائة وتسعين، فإنه لا يوجد نسبة للمقابلة الأولى، فانوسان في الأمام ومستودع زيت وسراج، تفتح باب البلور وتُشعِل الفانوس بالثقاب، من أجل أن ترى طريقك في الليل، والعجلات من دون هواء (صب كامل)، والتشغيل من الخارج بالمحرك، وحركة واحدة والمزمار، هذه صناعة عام ألف وتسعمائة، وبعض نماذجها للآن في المتاحف، وانظر إلى مركبة عام ألف وتسعمائة وتسعين فتفهم شيئاً كثيراً من أن الإنسان ارتقت صناعته وتكاملت أعماله، لضعف خبرته، إذاً فخبرته مكتسبة، لكن انظر إلى خلق الإنسان، فهل هناك إنسان معدّل ؟ إنسان نمط تسعين أو ثمانين، هذا **" s "** وهذا بدون **" s "**، ليس إلا نوع واحد وبدون أي تعديل، لأن علم الله قديم وأن خبرته قديمة، فما من مرة حمل أب ولده من يده فانخلعت يده، فالصنعة متقنة، والأربطة محكمة تماماً تحمل الجسم بالكامل، قال سبحانه:

(هَذَا خَلْقُ اللّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الّذِينَ مِنْ دُونِهِ)

(سورة لقمان: من آية " ١١ ")

وقال تعالى:

(بَلَى وَهُوَ الْخَلاّقُ الْعَلِيمُ (٨١))

(سورة يس)

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

فإذا كنت تريد أن تعمل موازنة بينَ ما يصنعه الإنسان وبين صنعة الواحد الديّان فإنك ترى فرقاً كبيراً، فأنجح طبيب أسنان إذا أراد أن يقلع لطفل سناً فلابد من إبرة تخدير باللثة ويبكي ويشتم الطفل ويتمرد، وأبوه يهدئه أما عندما يقلع الله ضرساً لطفل صغير كيف يقلعه ؟ يسقط مع الأكل، فقد ذاب جذر السن شيئاً فشيئاً وانقطع العصب.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾

اعمل موازنة، ولترَ الأشياء بحجمها الحقيقي، فآلة التصوير تحتاج إلى تحميض فيلم، يُقال لك غداً، ونظرك الأشياء لا يحتاج إلى تحميص، تنظر فتشاهد حالاً بالألوان وبالحجم الطبيعي مع الحركات، صوراً متحركة ملونة ! فأنت إذا نظرت بالعين المجرّدة، رأيت مائة إنسان أمامك دفعة واحدة وكل إنسان له لون عندك، بينما إن صورت في فيلم مائة رجل تقريباً يظهرون بلون واحد، فالعين المجردة تفرق بين درجتين إلى ثمانمائة ألف درجة باللون الواحد، فلو درّجنا اللون الأخضر ثمانمائة ألف درجة نجد العين السليمة تفرق بين كل درجتين.

إذاً:

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾

ميّز بين آلة التصوير وبين العين، تر فرقاً كبيراً جداً فمتى أُخذت المسافة والسرعة والفتحة؟ هناك فتحة وسُرعة ومسافة، فعينك بشكل عفوي وبشكل آلي تقيس المسافة، والعضلات الهدبية تضغط على الجسم البلوري ضغطاً بحيث يتقوّس تقوّساً يجعل الخيال على الشبكية هذه المطابقة، وهي من أعقد العمليات في العين، فكل إنسان ينظر إلى شيء دون الستين متراً يحتاج إلى مطابقة، فالمطابقة ؛ أن هذا الشيء لو اتجه نوره إلى العدسة لوقع الخيال إما بعد الشبكية أو قبلها، فحتى يقع خيال ظل الشيء على الشبكية لا بد من أن نعدل احديداب الجسم البلوري إما ضغطاً أو بسطاً، فهذه العضلات الهدبية فيها علم كبير جداً تُرى كم ميكروناً تضغط حتى يقع الخيال على الشبكية ؟ أعتقد أن عملية مطابقة العين من أعقد العمليات في جسم الإنسان.

﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤)﴾

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤)﴾

(سورة الأعراف)

طائرة تُباع من مصنع لدولة ما، فالمصنع لا علاقة له بحركة الطائرة، ها هي ذي تقصف مدينة، وتنقض على قرية، والمعمل باعها وانتهى أمره ولا علاقة له بها، لكن ربنا عز وجل ما من شيء خلقه إلا وأمرُه بيده، قال سبحانه:

﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤)﴾

والحقيقة أن القرآن الكريم كتاب العمر، وهو الكتاب المقرر، وأنا أتمنى على القرّاء الكرام إذا قرؤوا القرآن ومرت بهم كلمة الخلق فليبحثوا عن العلاقة بينها وبين ما قبلها وما بعدها، على جناح السرعة، **" هُوَ اللّهُ الْخَالِقُ "** خالق الكون هو الله رب العالمين علم على الذات صاحب الأسماء الحسنى والصفات الفضلى، خالق كل شيء، أي لا خالق آخر خلق أي شيء، هو خالق كل شيء فاعبدوه، هذا المعنى الإيجابي، أما المعنى السلبي، **" هل من خالق غير الله؟"**

(بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ (٨١))

يعني خلق الجبال وخلق المجرات.

أي إمّا كثرة الخلق عدداً، وإمّا عظمة الخلق نوعاً، وهذا معنى الخلاّق.

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

يعني عليك إجراء موازنة بينَ ما يصنعه الإنسان وما يصنعه الواحد الديّان.

(ألا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

مما يُطمئن الإنسان أن الذي يخلقه الله عز وجل يبقى رهن أمره، فأنت اطمئن أن كل من حولك وما حولك بيد الله عز وجل.

ومن ثم ندخل في بعض التفاصيل، ولنبدأ في تفسير كلمة الخلق، الخلق في اللغة جاء بمعنى الإيجاد والإبداع والإخراج من العدم إلى الوجود، سوف نتناول الآيات بشكل تفصيلي، الآية الأولى:

(ثُمّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظامَ لَحْماً ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

هذه الآية تقتضي كثرة الخالقين، وثبُتَ بالدلائل العقلية والسمعية أنه لا مُوجِدَ إلا الله تعالى، فوَجَبَ حملُ الخلق في هذه الآية على **" التقدير "**، أما أنت فتصنع من خشب ومن جلد مقعداً، فتكون قد قدرت كمية الخشب ونوعه وجودته ونوع الجلد ومتانته ولونه ونسّقت بينهما على شكل كُرسي، فأنت حينما صنعت هذا الكرسي لم توجده من عدم ولكن صنعته من مواد موجودة.

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

هذا مما تقتضيه هذه الآية.

والآية الثانية:

(إِنّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩))

(سورة آل عمران)

فالتراب موجود قبل الخلق، والخلق هو **" التقدير "**، أي قدّر كمية تراب معينة بنوعيتها وخصائصها وطريقتها وأسلوبها معين، فهُنا من خلال آيات كثيرة جداً يأتي الخلق بمعنى التقدير.

فالآية الأولى:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

والآية الثانية:

(إِنّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩))

ومعلوم أن المُراد من قوله:

(كُنْ فَيَكُونُ (٥٩))

هو الإيجاد من العدم، إذاً: خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، إذاً الإيجاد من العدم شيء والخلق شيء آخر.

بل إنّ بعض العُلماء يُفسّر قوله تعالى:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

أي خلق: قدر، ثم أمر: كن فيكون يعني أوجد من عدم.

والآية الثالثة على أن الخلق هو " **التقدير** "، فهناك سبب، لأن الله عز وجل يقول:

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤))

الخالق، ولله المثل الأعلى ولكن للتقريب، مهندس على الطاولة وعلى الورق صمم بناء، وعلمه كله وضعه في هذه الخارطة، الخارطة تضم: خارطة الأساسات، فالطابق الأول والطابق الثاني والدعائم الإسمنتية، والشُرُفات وكله على الورق، فالخلق تقديرٌ "الْخَالِقُ الْبَارِئُ "، أما البارئ فهو الإيجاد من عدم، كن فيكون، والآن جاء دور المتعهد فحفر الأساسات وصبها خرسانة، وأشاد الطابق الأول فوضع الإسمنت السائل فوق الحديد المسلّح إلى أن قام البناء، فالخلق هو التقدير، والبارئ هو الذي أوجد من عدم.

لكن البناء على الهيكل منظره قبيح جداً، فلابد من عمل آخر وهو إعطاء هذا البناء الشكل المقبول، فجاء دور الطيان ثم البلاط بالسيراميك، وأتى دور عامل الكهرباء وزيّنا الشرفات، والجدران من الداخل والخارج، فصار البناء جميلاً جداً، فبين أن تضع العلم كله في أصل البناء ثم أن تبنيه وتعطيه صورةً محببة وهذا ما جاء في كتاب الإحياء حول تفسير قوله تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ)

المصوّر إعطاء الصورة الخارجية، فالذي عنده أطلس تشريح، يرى فيه إنساناً كله عضلات، وهو منظر مخيف فعضلات الوجه بالعشرات، ويرى إنساناً كله أعصاب، وآخر كله أوعية وهناك صورة

هيكل عظمي، وانظر إلى الإنسان في آخر وضع بعد كسوته بالجلد تجده جميلاً وانزع الجلد عنه فهناك المنظر المخيف، فربنا أعطاه صورة جميلة.

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ)

وإن شاء الله تعالى لنا عودة أخرى لهذا الموضوع لأنه متعلق بالخالق البارئ المصور، و بشكل موجز فالخالق هو المُقدر، والبارئ هو الذي يوجد من عدم، والمصور هو الذي يعطي الصورة المناسبة لكل مخلوق، فهذا الإنسان خلق بعلم، فالقلب والعظام كلها خلقت علم، وبعد العلم هناك إيجاد، وبعد الإيجاد هناك صورة أعطاها الله هذا المخلوق كالبناء تماماً، وكجواب على سؤال يفرد نفسه وهو: ما الفرق بين خلق وفطر ؟

فأقول موضحاً أن الفرق بين الخلق والفطر:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

فاحال واضح كثيراً، لاحظ الطفلة الصغيرة ما الذي تفعله ؟ دع بُنْية جسمها وأعضائها وأنسجتها وأشكالها وخطوطها، فلها بُنْية خاصة، وميول خاصّة، دعني أطلق عليها البُنية النفسية، فهي تميل إلى تربية الأولاد، فقد تضع وسادة على يدها وتربت عليها، أما الطفل فقد يركب قضيباً يتخذه كحصان يعدو به، فلماذا اختار الطفل لعبة الحصان ؟ واختارت الفتاة مخدة (وسادة) جعلت منها رمزاً لوليد على يدها، يعني البُنى النفسية هي الفِطْرَةُ.

ترى الإنسان أنه يخاف:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١))

(سورة المعارج)

(وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً(١١))

(سورة الإسراء)

(خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧))

(سورة الأنبياء)

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (٢٨))

(سورة النساء)

البُنى النفسية، **يا داود ذكر عبادي بإحساني إليهم، فإن النفوس جبلت على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها.**

هذه بنية نفسيه، وبُنى جمع بنية، وللبنية النفسية خصائص، فالغنمة لها خصائص بجسمها وعضلاتها وجلدها وصوفها، وهذه البنية الجسمية. ولها خصائص بنفسيتها، يقال " مثل الغنمة " أي مطواعة، ذلولة،

قال الله تعالى:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢))

(سورة يس)

فأنت ترى أنها تنساق مع صاحبها إلى حيث يريد وكيفما يريد، وطبيعة الغنم أنها تجتمع مع بعضها بعضاً فلا يستطيع راعٍ أن يجمع خمسين كلباً مع بعضها فكل واحد في جهة أما قطيع الغنم فمع بعضه، هذه بُنى نفسيه، انظر إلى البقرة، وانظر إلى الجمل، يقال لك الجمل حقود، والحصان وفي، فخصائص نفس المخلوق من الفطرة، أما خصائص جسمه فمن الخَلق، أعود فأكرر: إن الشيء المتعلّق بجسمه وبأعضائه وبتشريحه وبوظائفه هذا متعلق بالخلق، وأما الذي يتعلق بخصائص نفسيته فهذا من الفطرة لذلك قال تعالى:

(فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا)

فالثعلب ماكر، والجمل حقود، وهكذا كل حيوان له خصائصه، وهناك حيوانات أهلية وحيوانات متوحشة، وحيوانات مفترسة،و حيوانات وديعة، وربنا قال:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ)

والخلاصة إذاً:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

فهذا يبرز أن الله سبحانه أعطى كل مخلوق خصائص نفسية في التعامل مع الآخرين، وأما الخلق فيبرز الخصائص المادية التي جعلها لكل مخلوق، والخلق تقدير، والبَرءُ هو الإيجاد من عدم، والتصوير هو إعطاء الشيء الصورةً التي أرادها الله سبحانه له.

١٨- اسم الله البارئ المصور :

مع الاسم الثامن عشر من أسماء الله الحسنى، ألا وهو **"الباريء المصور "** إذ حديثنا في الصفحات السابقة عن اسم الخالق الذي ورد في القرآن الكريم مقترناً مع اسم البارئ والمصور، فقد دَرَجَت الكتب التي تتحدث عن أسماء الله الحسنى على أن تشرح الأسماء الثلاثة معاً في سياق واحد، وقبل أن أنتقل إلى اسم الله البارئ المصور لابد من وقفة قصيرة مع اسم الخالق فتتساءل كيف يقول الله عز وجل:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

(سورة المؤمنون)

وكيف يقول في آية أخرى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣))

(سورة فاطر)

في الآية الأولى يُثبت الله عز وجل أن هناك خالقين كثيرين لكن الله أحسنهم، وفي الآية الثانية يقول هل من خالق غير الله ؟ هو ينفي عن طريق الاستفهام الإنكاري أن يكون في الكون خالق غير الله.

فالإنسان حينما يقرأ القرآن قراءة أولية، ولا يتعمّق في العلم ولا يسأل أهلَ الذِكر، وحينما يقف عند آية من الآيات المتشابهة ولا يحاول أن يسأل عنها فقد يشعر أن في القرآن تناقضاً، ولذلك فهؤلاء الغربيّون أو المستشرقون الذين درسوا ما في الشرق من أديان ومن ثقافات، هؤلاء قالوا إن في القرآن تناقضاً، وهذه نظرة ساذجة أولية لا تقف على قدميها، فالعلماء المحققون قالوا: **"إذا قال الله عز وجل:**

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

يعني ؛ أي إنسان أخذ مواد أولية من الأرض وصنع منها شيئاً، وعُزي الخلق عندئذٍ إلى الإنسان، فتعريفه كما يلي:الإنسان خالق إذ يصنع من شيء موجود شيئاً على مثال سابق "، فإذا قلت:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

فهؤلاء الذين يصنعون نماذج في بعض محلات الألبسة، ويضطرون إلى صنع تماثيل يضعون عليها الألبسة، فهذا التمثال إن كان من شمع أو من جبس أو من أية مادة، اجعله إلى جانب إنسان من لحم ودم ولاحظ الفرق بينهما فهذا إنسان فيه حياة وله فكر وقلب ومشاعر وهو ذكي يستنبط ويحاكم ويفكر ويتفاعل ويغضب، ويخاف ويرجو وله أوعية وشرايين وأعصاب، وعضلات ودماغ وجهاز عصبي،

فإذا وازنت بين من يصنع هذا التمثال كي توضع عليه الألبسة، وبين من يخلق هذا الإنسان من لحم ودم، فقُل:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

وإذا رأيت وردةً طبيعية تفوح برائحة زكية، فأنت تشعر أن قلبك قد هفا إليها، وإن باقة ورد تُضفي على المكان أنساً وفرحاً وسروراً، وإذا دُعي الإنسان إلى عقد قِران رأى الأزهار. وهذه النباتات الطيبة الرائحة بألوان مختلفة دقيقة جداً، ولا تعرفون قيمة التلوين إلا من خلال صنع الحكيم.. فالفراشات والأزهار هي الأساتذة لمهندسي التلوين، فلو نظرت إلى مركبة حديثة جداً، فإنك تجد ألوانها مقتبسة إمّا من زهرة أو من فراشة، يقول العوام **" هذا أصفر غير راكز "** وهذا لون زهر جميل جداً بينما يمكن تدريج اللون الواحد إلى ثمانمائة ألف درجة والعين البشرية تفرّق بين كل درجتين، وإذا وضعت في بيتك ورداً صناعياً، فبعد أسبوع تضيق ذرعاً به، ولا أعتقد إنساناً إلا بعد فترة أمسك بهذا الورد ووضعه في سلة المهملات، إذ لا يحتمله، رغم منظره الجميل وحجمه الكبير وألوانه الزاهية فالفرقٌ كبيرٌ بين الورد الطبيعي والورد الصناعي، وانظر إلى عين صُنعت لتكون وسيلة إيضاح، و إلى العين البشرية، ففيها مائة وثلاثون مليون عصية فالعصب البصري مؤلف من تسعمائة ألف عصب، فوازن بين آلة تصوير وبين العين، فالعين الواحدة في الثانية تلتقط عشرات الصور ولابد من أن تمحى الصورة الأولى لتأتي مكانها الصورة التالية، و لو أن الصورة تنطبع في العين وتبقى فالرؤية تستحيل كما أنها ترى الحركات والسكنات حتى إن الذي اخترع السينما، قامت لديه على مجموعة صور تُعرض تِباعاً في زمن قصير بحيث تتوهم أنها متحركة، لا. إنما هي صور ثابتة وجامدة، فكذلك العين لابد من أن تنطبع هذه الصورة على الشبكية أولاً، وبعد ذلك تُمحى وتأتي الصورة التي تليها وهناك عتبة للرؤية، وهذه العتبة تُريكَ الأشياء متحركة، فإذا وازنت بين العين وبين آلة تصوير، وبين وردة طبيعية و وردة صناعية وتمثال من شمع وإنسان حقيقي فمجال الموازنة كبير جداً، فإذا أردت أن ترى صنعة الإنسان فلاستخراج خمسة إنشات من الماء حينما تكون في بستان تسمع صوت المحرك يصم الآذان، أما حينما يهطل المطر مدراراً بكميات كبيرة جداً فلا صوت ولا صخب، قال ربنا عز وجل:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨))

(سورة النمل)

فالجبال تمر في سرعة السحاب بلا صخب ولا ضجيجها، فإذا قرأت قوله تعالى:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

(سورة المؤمنون)

إذا فلا غرابة أن يسمى الإنسان خالقاً لأنه صنع من شيء موجود شيئاً على مثال سابق، فإذا قلتك " **هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ؟!** " تفهم من هذه الآية أنه إذا عُزي الخلق إلى الله فالمعنى أن يخلق الله شيئاً من لا شيء على غير مثال سابق، وشتان بين الخلق على غير مثال سابق وبين من دأبه التقليد على مثال سبق، وعند الله لحم ودم وعظم وعصب وروح، وعند الإنسان صناعة متينة.

فليس في الكون كله إلا الله يستطيع أن يصنع شيئاً من دون شيء على غَيرّ مثال سابق، أما إذا قلت الإنسان يخلق لشيئ فتجد حقيقته واضحة في قول الله عز وجل:

(أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ)

(سورة آل عمران من الآية ٤٩)

أجل. كهيئة الطير وليس طيراً، ومن طين، لا من لحم ودم وروح، إذاً لا تناقض بين الآيتين إذ قال تعالى في الأولى:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

بينما قال تعالى في الثانية:

(هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ)

ولكن الشيء الذي يلفت النظر وسبق لي أن أوضحته أن في القرآن الكريم كلمات إذا جاءت مجتمعة فلها معنى، وإذا جاءت منفصلة عن بعضها فلها معنى آخر، مثلاً: الفقراء والمساكين، هاتان الكلمتان إذا اجتمعتا تفرقتا، وإذا تفرقتا اجتمعتا، أي إذا ذكر الله في القرآن كلمة المساكين فقط، فالمقصود عندئذٍ: الفقراء والمساكين، أما إذا ذكر كلمة الفقراء والمساكين معاً فالفقراء صنف والمساكين وبناءً عليه إذا وردت كلمة خالق وحدها معزوّة إلى الله عز وجل فهو الذي يوجد من العدم على غير مثال سابق، أما إذا قال الله عز وجل:

(هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ)

صار " **الخلق** " هو التقدير، و" **البَرء** " هو الإيجاد من عدم و " **التصوير** " إعطاء الصورة.

وبعد، فقد يسأل سائل: ما علاقتنا بهذه الأبحاث المتعلقة بأسماء الله الحسنى ؟ إنه وقت مناسب جداً لأن أجيب على هذا السؤال، فالإجابة: أنك إذا عرفت أن الله خالق فقط، فهذا تعرفه العامة كذلك إذ لو سألت عامّة الناس: مَن خلق الكون ؟ لقالوا: الله، ولكن لو سألتهم: ماذا تعرفون عن الله ؟لوجموا، وهذا ما لابد من بحثه. فأن تعزو خلق الكون إلى الله، هذه قضية أقرّ بها إبليس، والدليل قال:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨١))

(سورة ص)

فاعترف إبليس أن الله رب وعزيز، ولكن الاعتراف والإقرار لا يكفي، بل المهم هو: ماذا تعرف عن الله عز وجل ؟ وبذلك يظهر إيمانك بالله ودرجة إيمانك به، ولدينا مقياس دقيق وصائب، فهذا الإيمان إذا حملك على طاعة الله فهو كاف كي تنجو به من عذاب الله، أجل إذا حَمَلَكَ إيمانُكَ على طاعة الله فنَمّ قرير العين واطمئِن لأنه ينجيك أما إذا كان بحجمٍ لا يكفي أن يحمِلَكَ على طاعةِ الله فلذلك الضلال المبين أقول لكم كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ قَالَ رَبُّكُمْ عَزّ وَجَلّ لَوْ أَنّ عِبَادِي أَطَاعُونِي لأَسْقَيْتُهُمُ الْمَطَرَ بِاللّيْلِ وَأَطْلَعْتُ عَلَيْهِمُ الشّمْسَ بِالنّهَارِ وَلَمَا أَسْمَعْتُهُمْ صَوْتَ الرّعْدِ وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِنّ حُسْنَ الظّنّ بِاللّهِ عَزّ وَجَلّ مِنْ حُسْنِ عِبَادَةِ اللّهِ وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ قِيلَ يَا رَسُولَ اللّهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا قَالَ أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لا إِلَهَ إِلا اللّهُ))

(انفرد به أحمد)

إذاً، إذا اكتفيت أيها القاريء الكريم بمعرفة الله فالطريق أمامك لازال طويلاً، وليس المهم أن يعرف المرء ربه ولا حجم هذه المعرفة بل المهم مردودها، والمردود هو الطاعة لله عز وجل، ولذلك قال بعض العلماء:

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطّيّبُ وَالْعَمَلُ الصّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(سورة فاطر من الآية ١٠)

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطّيّبُ)

" ما الذي يجعله يصعد إلى الله عز وجل ؟ بالعمل الصالح الذي يرافقه، فلو أن الكلم الطيب خلا من عمل صالح لما صعد إلى الله عز وجل ".

إذاً: فالذي يرفعك هو عملك الصالح، وعملك الصالح أساسه حجم معرفتك، فمن الممكن أن نُعطي الإيمان كما يقولون حجماً مادياً لنتبيّن الحقيقة، فلو وضعنا الإيمان في كفة، ووضعنا الشهوات في كفة ورجحت كفة الشهوات فالإيمان لا يكفي، والصِراع قائم لا محالة.

وربنا عز وجل حينما وصف النبي عليه الصلاة والسلام قال:

(وَإِنّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ (٤))

(سورة القلم)

فالنبي متمكّن من أخلاقه، وقد انعدم أي صراع لديه، أما إذا كان حجم إيمانك بحجم شهواتك، أو كان وزن الإيمان الضاغط عليك كوزن شهواتك الضاغطة عليك، أي كان الوزنان متساويين فقد دخلت في الصِراع بينهما حتماً، أما إذا كان حجم إيمانك أكبر فتنجو من الصِراع وتكون من الفائزين وتقترب من معنى التمكن من الخُلُقْ العظيم.

وإذا كان حجم الشهوات أكبر فقد ولج المرء باب مدخل ثان، ونبدأ عندئذٍ بالسؤال التالي: لماذا أودع الله فينا الشهوات ؟.. فلنتصوّر أولاً أن الإنسان ليس فيه شهوات بل عنده عقل فقط وعقله يأمره أن يتجه إلى الله، فأين العبودية لله، لا تبدو عبوديتك ولا حبك ولا إخلاصك، ولا طاعتك، بل كل حقيقة الحياة الدنيا التي أساسها الابتلاء لا تظهر، إذا ليس لدى المرء شيء من الشهوات فلِحِكمةٍ أرادها الله عز وجل، أودع فيك أيها الإنسان شهوةً وأعطاكَ عقلاً، فالعقل له نِداء والشهوة لها نِداء، فإذا غَلَبَ نِداء الشهوة فسينطبق على هذا الإنسان قوله تعالى:

(حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠) فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(١٠٤))

(أَلَمْ تَكُنْ آَيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْماً ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(١٠٨))

(سورة المؤمنون)

أي غلبت علينا شهوتنا، التي أشقتنا، فسمّاها بنتائجها، غَلَبَت علينا شهواتنا التي كانت سبب شقائنا، وكنا قوماً ضالين:

(رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ(١٠٨))

(إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آَمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيّاً حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١))

(سورة المؤمنون)

إذاً لابد من معرفة أن في الإنسان دافعاً شهوانياً ووازعاً عقلياً فإذا غَلَبَ العقل على الشهوة نجا، وإذا غَلَبَتْ الشهوة على العقل هَلَك ولِحِكمَةٍ أرادها الله أنت مُمتحنٌ دائماً، مُمتحنٌ بين أن تنام وبين أن تُصلي، فالعقل يقول لك قم فصلِّ، والجسم يقول اخلُد إلى الفراش فأنتَ متعب، تسمع أذان الفجر، فيقول لك العقل قُم فصلِّ هذا وقت الصلاة والصلاة خير من النوم، ويقول لك الجسد ابقَ مستريحاً فقد سهرت طويلاً وأنت إنسان مُتعب، وعليك أن تقوم إلى عملك نشيطاً، فتصلي قضاءً، لاحظ نفسك دائماً فأنت بين نداء الشهوة ونداء العقل فإذا غَلَبَ عقلُكَ نجوت وسَعِدت، وإذا غلبت شهوتك أهلكت نفسك وشقيت.

لذلك هذا ما قاله الإمام علي كرم الله وجهه **" رُكب المَلَكُ من عقل بلا شهوة ورُكب الحيوانُ من**

شهوة بلا عقل، وركب الإنسان من كليهما فإن سما عقله على شهوته أصبح فوق الملائكة، وإن سمت شهوته على عقله أصبح دون الحيوان ".

وما تراه عيناك في الدنيا من انحراف الناس وسقوطهم في مهاوي الرذيلة وانغماسهم في الملذّات المُحرّمة، إنما هي معركة انتصرت فيها الشهوة:

(وَأَمّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبّهِ وَنَهَى النّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنّ الْجَنّةَ هِيَ الْمَأْوَى (٤١))

(سورة النازعات)

فلماذا وجدت أسماء الله الحسنى ؟ كي يكون أمر الله عز وجل عظيماً مستمداً من عظمة الله، لا حظ نفسك لو كنت في ثُكنة، فجاءك أمر من عريف، فالأمر له وقع عندك، لو جاء من عريف أول لكان له لوقع آخر، وكلما ارتفعت الرتبة كان وقع الأمر أشد، فلو جاءك أمر من قائد الجيش لبادرت إلى التطبيق خوف العقاب والمسؤولية، فإذاً المشكلة أن أمر الله بين الناس مبذول، والقرآن موجود والعلماء يشرحون كل أمر فلماذا يعصي الإنسان الله عز وجل ؟ لأنه لا يعرف حقيقة الآمر، فلو عرفه لَطبّقَ الأمر ؛ فإذا عرفنا أسماء الله الحسنى وعرفنا عظمة الله عز وجل عندئذ يعظُم عِندَنا أمرُه وإذا عظّمنا أمره بادرنا إلى تطبيقه، فلذلك: أرجحكم عقلاً أشدكم لله حباً.

((عَنْ مُسْلِمٍ عَنْ مَسْرُوقٍ قَالَ كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللّهَ وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ))

وحينما نتلو قوله تعالى:

(يَا أَيّهَا النّاسُ اعْبُدُوا رَبّكُمُ الّذِي خَلَقَكُمْ وَالّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (٢١))

(سورة البقرة)

إذاً لماذا تعبدونه ؟ لأنه الذي خلقكم، وهو سبحانه خالق ورب ومسير فيجب أن تؤمن أنه خالق ورب ومسيّر ويجب أن تؤمن أنه واحدٌ في خلقه، واحدٌ في ربو بيته، واحدٌ في تسييره، فوحدانية الخلق ووحدانية الربوبية، ووحدانية التسيير، هذه هي التي إذا أيقنت بها وعملت لتحقيقها وبمقتضى ما أمرك هذا الخالق نجوت وارتقيت. وبالمناسبة، ففهم الاسم شيء وأن تعيشه شيء آخر، أي إذا فهمت أن الله هو الخالق بمعنى أنه خلق الأشياء من غير شيء على غير مثال سابق، فقد تنطلق في الحياة مؤمناً بأن كل ما يجري من فعله وبإرادته. وأسماء الله الحسنى منها ما يكون على صيغ مبالغة اسم الفاعل فتعني الكثرة النوعية والعددية، لكنك إذا انطلقت في الحياة العملية، ورأيت زيداً وعُبيداً، وحوادث وأفعالاً، ونسيت أن الله هو الذي يخلق كل هذا ويفعله وتجري به إرادته، فعندئذٍ نقول لك أنت فهمت معنى الخالق ولكن لم تعش هذا الاسم ولم تفكر به. وبعد فإن السعادة الكبرى الحقيقية، ليست في فهم تعريفات هذه الأسماء ولكن في أن تعيشها، ولا يمكن لك ذلك إلا إذا اجتهدت وجاهدت نفسك وهواها، وفي

ممارسة العمل الصالح وبذل الغالي والرخيص والنفس والنفيس وعندئذ تُقبل على الله عز وجل، وإذا أقبلت عليه فهو يلقي في قلبك المعرفة والسكينة والطمأنينة، وعندئذ ترى الله في كل شيء.

لا أريد أن يبقى الدرس كما يقولون أكاديمياً، أي معلومات وتعريفات أملأ بها صفحات الكتاب، بل أريد أن يعيش أحدنا هذه الأسماء، وهذا ينقلنا إلى أنّ المعلم يختلف عن المربي فالمعلم إنسان يلقي على الناس حقائق، وأدلة، ومعلومات منظمة، ومبوبة، ومرتبة، ومصنفة مع أدلة قطعية، ونقلية، وعقلية، وواقعية، و فطرية، والبحث منظم ومبوّب، و ومبرمج، فهو والله موضوع لطيف، ولكن الذي يسعى إلى أن يصطبغ بصِبغة هذا العلم، والذي يسعى ؛ ليكون في مستوى هذه الأسماء ؛ وأن تمتزج بها نفسه لا أن يفهم تعريفاتها فقط، هو المربي، فأنت أيها القاريء الكريم حاول إذا علّمت الناس أن تكون مربياً؛ لأن كل مربٍّ هو في الأصل معلم، لكن المعلم وحده لا يكفي لملء فراغ النفوس والأفهام، فالكلمة الأخيرة إذاً ترتكز حول اسم الخالق بين أن تفهم تعريفه النظري، أو أن تفهم هذا الاسم، وأن تعيشه مدى الحياة. لقد ضربت على هذا مثلاً، مفاده أن الإنسان إذا قرأ قوله تعالى:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

(سورة الأحزاب)

وهذا أخ مستقيم على أمر الله، وله صديق غارق في معصية الله لكن هذا الصديق ذو بحبوحة كبيرة، ويغبطه صديقه المستقيم على ماله ورخائه وصحته الجيدة، بينما المستقيم يعاني من كذا وكذا، ويذكره إخوة له صادقون معه: أنت مستقيم وهو غير مستقيم وتقول هنيئاً له !!. فإذاً هذا وإن قرأ هذه الآية مرات ومرات:

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

ولم يعِش مفهوها ولا تأثر بمعناها فما فهم منها شيئاً.

إن الفرق كبير جداً بين أن تفهم أسماء الله الحسنى بحدودها وتعريفاتها والفرق بينها وبعض الأدلة وأقوال العلماء فيها، وبين أن تعيش هذه الأسماء، فإذا تأملّت الكون وعرفت الله عز وجل وبذلت جهداً كبيراً في طاعته، وفي التقرّب إليه فقد عاد عليك ذلك بالخير الكثير، وهو أنّ الله يملأ قلبك غنى، ونفسك بصيرةً، وترى عندئذٍ ما لا يراه الآخرون، وتسمع ما لا يسمعون فهذا هو التمييز، فإذا أردنا أن نُقرر حقيقة وهي أن هذه الأسماء الحسنى ينبغي ألا نكتفي بفهم مدلولاتها وحدودها، وأبعادها وتعريفاتها وما تعنيه في المعاني العامة والخاصة ولكن ينبغي أن نعيشها ونمتزج بها.

ولابد من أن يكون هناك اتصال بالله عز وجل، حتى تعيش، أيها القاريء الكريم، هذه الأسماء وحتى تشعر أنك مع الله دائماً، وإذا كان الله معك فمن عليك، هذا الذي قاله الإمام الغزالي، ومن ثم فلتعلم أن هناك عِلماً بأمر الله وعِلماً بخلق الله، وآخر بالله.

العلم بأمر الله وبخلق الله يحتاج إلى مدارسة كتابٍ نقرؤه ونحفظه ونفهمه: أي نعيد ونكرر ونتذكر ونكتب، ثم نؤدي فحصاً ونأخذ شهادة فهذه المُدارسة عن طريق الكتاب والقراءة والمراجعة والفهم والتلقي والإلقاء وما شاكَلَ ذلك، هذه المُدارسة تؤدي إلى حفظ المعلومات، ولكن أين تُحْفَظ ؟ إنها تُحْفَظ في الدماغ !.

ولكن المُجاهدة، وغض البصر، إنفاق المال، وبرّ الوالدين والصدقة النافلة غير الزكاة، وقيام الليل، وإتقان الصلوات، وكثرة الذِكر وتِلاوة القرآن فهذه اسمُها مجاهدة للنفس وطاعة لله، ثم إذا عَزَفْتَ عن رحلة لا تُرضي الله وعن حفلة لا تُرضي الله، وطعام شهي جداً ولكن حوله حوله مجتمع اختلاطٍ وقُلت: مَعَاذ الله، فهذه هي المُجاهدة للنفس لردها عن سُبل الهوى، أي أن تُجاهد نفسك وهَوَاك، ومن شأنِها أن تصلك بالله، وإذا اتصلت بالله عز وجل جاءتكَ أنواره وسكينته، وجاءتك السعادة، والبصيرة النافذة، فالإنسان المؤمن شخصية فذة، أي يتمتع برؤية صحيحة، فيرى حقائق الأشياء، وبواطِنَها، و ما تنطوي عليه و أبعادها الحقيقية و خلفياتها الغائبة عن معظم الناس، فهذه البصيرة خاصة بالمؤمنين ؛ لأن الله سبحانه وتعالى ألقى في قلوبهم النور والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢٨))

(سورة الحديد)

أجل، هذه خاصّة بالمؤمن، فإن الله يعطي السكينة أصفياءه المؤمنين بقدر، والمؤمن شخصية فذة، و حينما يجاهد نفسه وهواه يأتيه الجواب، وتأتيه ثمرات جهاده، وهي نورٌ في قلبه، وبصيرةٌ نافذة، فقلبٌ واثق بالله عز وجل، وكلامٌ سديد، وتفكيرٌ صحيح، وموقفٌ متوازن فهو شخصيةٌ واثقة بالله لا تنهار سريعاً لأنه حصل على هذه الثِمار، وأفاد مما فيها.

ولذلك فمعرفة الله عز وجل طريقها المُجاهدة، لكن معرفة شرعه أو معرفة خلقه فطريقها المُدارسة، فبين المُدارسة والمُجاهدة بونٌ شاسع، والمُدارسة لا تُكلف كثيراً فقد تحتاج إلى طاولة وكتاب وقلم، وقد تكون أنتَ في واد والكتاب في واد، ولهذا فقد يأخذ الإنسان أعلى الشهادات وهو غارق في أحط الشهوات، أما إذا جاهَدَ نفسه وهواه فقد اصطبغ بصِبغة الله عز وجل، أي شَعَرَ في نفسه سمواً وعن شهواته تنائِياً وتصعيداً، وفي ميولِهِ شرفاً فتُصبح هذه مقدّسة، وفي تفكيره دقة، وفي كلامه سداداً، وفي مواقفه أخلاقاً وشرفاً.

إذاً كل ثمار الدين تأتي من معرفة الله، ومعرفة الله ثمنها المجاهدة، فالذي يتمنى أن يعيش هذه الأسماء، لا أن يعرف مدلولاتها وأحكامها وأبعادها ومعانيها الدقيقة بشكل نظري فقط فعليه أن يعيش هذه الأسماء

بشكل عملي، وأحياناً المؤمن يرى يد الله تعمل في الخفاء، فكل شيء يشاهده أو كل قصة يسمعها أو كل حادث يراه، إنما يفهمه فهماً من خلال شعوره أن الله يرقبه ويصحبه، وأن الله خالق كل شيء.

إذاً: أردتُ في خِضَمّ الحديث عن أسماء الله الحسنى أن أقف وقفة قصيرة حول الجدوى التي تُعلّق عليها الآمال من معرفة أسماء الله الحسنى، فالمعلومات النظرية قضية سهلة جداً، فأي إنسان حتى من غير المسلمين، بإمكانه أن يقرأ و يحفظ، و يكتب، و يجيب و يأخذ شهادة بهذا الموضوع، أما أن تُجاهد نفسك وهواك كي تعقد مع الله صِلة، فهذه الصِلة إذا انعقدت أتاك منها كل خير، ولذلك يقول النبي:

((عَنْ أَنَسٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ الْحَسَدُ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النّارُ الْحَطَبَ وَالصّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النّارَ وَالصّلاةُ نُورُ الْمُؤْمِنِ وَالصّيَامُ جُنّةٌ مِنَ النّارِ))

(انفرد به ابن ماجة)

((والصلاة طهور))

((والصلاة حبور))

أما أنها طهور، فمستحيل للمصلي أن يحقد أو يتكبر أو يكون ذا أثرة أو يكون مستعلياً، وأنا أقول دائماً: للإعراض عن الله أعراض! ومِنْ أعراض الإعراض التكبر، والعلو والإستكبار والعنجهية والغطرسة وحب الذات، والدناءَة أحياناً، وأن تأخذ ما ليس لك،و أن تتمنى أن تكون فوق الناس جميعاً، هذه كلها أعراض الإعراض، فإذا حصل اتصال بالله عز وجل، عُدتَ إلى حجمك الحقيقي، حجم العبودية، وشعرت أن الله عز وجل عليك رقيب وأن الله معك، وفي الحديث الشريف:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النّبِيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الإِيمَانُ قَالَ الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ قَالَ مَا الإِسْلامُ قَالَ الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصّلاةَ وَتُؤَدّيَ الزّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ مَا الإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللّهَ كَأَنّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنّهُ يَرَاكَ))

(متفق عليه)

والنبي عليه الصلاة والسلام كان إذا نظر في المرآة يقول:

((عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يَقُولُ اللّهُمّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي))

(انفرد به أحمد)

فإذاً ليشَكَرَ الإنسان الله عز وجل على أن أعطاه قواماً ورأساً فيه سمع وبصر وفم ولسان وأنف، وهذا الخَلقُ السوي الكامل من نِعَم الله عز وجل كذلك حتى إذا جاءه مولود ورآه كامل الخِلقَة فهذا من فضل الله عز وجل أيضاً، وهذا هو معنى المصور، أي جعله صورةً حسنةً، فلو أن الوجه الحسن ـ كما قال عليه الصلاة والسلام ـ رجل لكان رجلاً صالحاً ولو أن الوجه السيئ رجل لكان رجلاً سيئاً.

إذاً: لازلنا في الحديث عن أن معرفة أسماء الله الحسنى من حيث إنها معلومات فهذا وجه، ومن حيث أن تسعى ؛ لأن تعقد صلة مع الله عز وجل وجه آخر ؛ لأنك عندئذ تعيش هذه الأسماء، وحينما تعيشها تشعر بعظمة هذا الدين، والإنسان وقته ثمين جداً، والعُمر لا يحتمل تجارب كثيرة خاطئة، قال عليه الصلاة والسلام لرجل كيف أصبحت يا زيد قال أصبحت أحب الله ورسوله... والحديث طويل: وكأني بأهل الجنة يتنعمون، وبأهل النار يتصايحون، وأصبحت بعرش ربي بارزاً.. قال عبد نَوّرَ الله قلبه بالإيمان عرفت فالزم.

فالإنسان معنيٌّ، أن يرى بعينيه أن هذا الكون من خلق الله وأن الله سبحانه وتعالى ربه، وأنّ الله سبحانه وتعالى مُسيّره، وأنّ كل شيء وقع أراده الله، وأن الله عز وجل أراده لحكمة بالغة، ولو لم يكن هذا الشيء لكان نقصاً في الحكمة وكان الله سبحانه وتعالى ملوماً من عباده يوم القيامة، قال تعالى:

(وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))

(سورة القصص)

فأسماء الله الثلاثة **الخالق والبارئ والمصور**، أسماء متلازمة متآلفة في غايتها تجمع بينها آصرة واحدة هي العلاقة الوشيجة لعملية الخلق ؛ خلقاً وبرءاً وتصويراً والمصور ؛ أن الله عز وجل أعطى كل شيء صورته، ليس معنى الصورة الشكل الخارجي بل القوام الكامل:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤))

(سورة غافر)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤))

(سورة التين)

فمعنى التصوير يعني أعطاك الشكل الكامل طولاً وعرضاً وارتفاعاً وعمقاً، فالنملة لها صورة، والفيل والحوت والإنسان، وكل مخلوق له صورة، والله سبحانه وتعالى هو المصور، يقول الله عز وجل:

(هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦))

(سورة آل عمران)

وهذا من معاني اسم المصور ؛ وأيضاً فهذا الجنين في بطن أمه حينما تشق عيناه ويشق سمعه، ويُعطى رأسُه حجماً، وجسمه حجماً وله جلد و أعضاء وحركات، فهذا من التصوير، وليس هناك فصل بين الخلق والتصوير إلا فصل نظري، فالخلق والتصوير يَتِمّان في وقت واحد.

١٩- اسم الله اللطيف :

قبل أن نبدأ بتعريف هذا الاسم لابد من مقدمة قصيرة: فعندما يعرض الإنسان لمعالجة بحث فينبغي أن نعود إلى الأهداف الكبرى، يحددها أولاً كأن يشير إلى: الهدف العام من بحثه، وإلى الهدف الخاص، لأنّ الباحث أحياناً تَزِلُّ قدمه وينحرف عن الهدف الكبير، وتشغله فروع البحث فتستأثر باهتمامه وينسى الغاية الأهم في معالجته للبحث المعني به، وقد تضيع الفكرة الرئيسية على القارئ. ونحن هنا مع أحد أسماء الله الحسنى، فالبحث هامٌ والغاية سامية ، وحذرنا من الانسياق وراء الفروع قائم إن شاء الله.

إن شرف العلم من شرف المعلوم، وهذه الحقيقة أكررها كثيراً في كتابي، فإذا درست موضوعاً حقيراً أو تافهاً أو سخيفاً، فهذه الدراسة، وتلك التمحيصات والتحقيقات والمتابعات بجملتها سخيفة لماذا؟ لأنّ الموضوع تافه و كلما شرُفَ الموضوع شرُفَ العِلم.

والسؤال المُلح دائماً: هل يُوازَن خالق مع مخلوق ؟ أو قديم مع حادث ؟ أو كامل كمالاً مطلقاً مع ناقص؟ لا. وحينما يتعرف المرء إلى أسماء الله الحسنى يتعرف إلى خالق الكون، وقد يَسأل سائل وما علاقتي بأسماء الله الحسنى ؟ فأقول الجواب أتى به رسول الله عليه الصلاة والسلام حين قال:

((تخلقوا بأخلاق الله))

قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً)

(سورة البقرة آية ٣٠)

فأنت أيها الإنسان خليفة الله في الأرض، ولن تُحققَ هذه الخِلافة إلاّ إذا تخلّقتَ بأخلاق الله عز وجل، فإذا عرفنا جانباً من أسماء الله الحسنى فينبغي أن نتساءل وما ما حظ المؤمن مِن معرفة هذا الاسم؟ وما حظه من معرفة اسم العزيز ؟ أقول: حظه أن يكون أنت عزيزاً، وابتغوا يا عباد الله العزة عند الله.

((عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يُذِلَّ نَفْسَهُ قَالُوا وَكَيْفَ يُذِلُّ نَفْسَهُ قَالَ يَتَعَرَّضُ مِنَ الْبَلاءِ لِمَا لا يُطِيقُ))

(أخرجه الترمذي وابن ماجة وأحمد)

" ابتغوا الحوائج بعزة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير "

وإننا في الصفحات التالية نطوف حول اسم اللطيف، والحقيقة التي أتمنى على كل إنسان أن تكون واضحة في ذهنه ؛ هي أن هذا الكون كله في أصل خلقه خُلِقَ وسُخر للإنسان تسخيرين: تسخير تعريف وتسخير تكريم، فالمرء قد يشرب الكأس من الماء، فيروى العروق ويلتذ به الجسم، ولكن هذا الماء خُلق لهدف أكبر من أن تشربه، خُلق لكي تعرف الله مَن خلاله، فمَن جعل الماء لا لون له ولا طعم ولا رائحة ؟ ومَن جعله ذا خاصية عالية في النفوذ ؟ ومَن جعله يتبخر في درجة منخفضة جداً أي في

الدرجة الرابعة عشرة ؟ ومَن جعله يحل المواد الكثيرة؟ ومَن جعله قِوام الخلية الحية ؟ إلخ...؟

فإذا عرفت أيها الإنسان الله من خلال الماء فقد حققت الهدف الكبير من خَلْق الماء أما إذا شربت كأس الماء وارتويت به ثم أغلقت دون عقلك الأبواب فقد حققت الهدف الصغير ؛ فالهدف الكبير أن تعرف الله من خلال الماء و الهواء والطعام، وأن تعرفه من خلال نفسك التي بين جنبيك، وأن تعرفه من خلال ابنك، ومن خلال كل شيء حولك، هذا كله بينه النبي عليه الصلاة والسلام في حديث موجز قصير جامع مانع، حينما رأى الهلال فقال:

((حَدّثَنَا قَتَادَةُ أَنّهُ بَلَغَهُ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ إِذَا رَأَى الْهِلالَ قَالَ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ هِلالُ خَيْرٍ وَرُشْدٍ آمَنْتُ بِالّذِي خَلَقَكَ ثَلاثَ مَرّاتٍ ثُمّ يَقُولُ الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي ذَهَبَ بِشَهْرِ كَذَا وَجَاءَ بِشَهْرِ كَذَا))

(أخرجه أبو داود)

إذا وقفت عزيزي القارئ أمام بائع أزهار وتأملت جمال الله عز وجل، من خلال جمال الزهرة وتأملت هذه الرائحة الفواحة العَطِرة، ورأيت في الزهرة تناسق الألوان وأنت تعلم علم اليقين أن هذا الزهر لا يؤكل، وإنما خُلِقَ خصيصاً لإمتاع عينك وأنفك، إذاً هذا مِن إكرام الله عز وجل لك، وإذا عرفته شكرته وعظمته.

لو قرأت كتاباً عن العسل وتملّكك العجب العُجاب من هذه النحلة: تلك الحشرة الاجتماعية، ذات النظام البديع، في مجتمعها الذي هو أرقى من المجتمعات البشرية ـ وهذا كلام علمي ـ فأي مجتمع بشري ديموقراطي، يعرف فيه كل مواطن ما له وما عليه، من حقوق وواجبات ؟ إن النظام لدى مجتمع النحل دقيق جداً، إذ لا ترقى إليه التنظيمات البشرية. إذ كل شيء في وقته وموقعه ومكانه وزمانه، فأرقى المجتمعات البشرية لا ترقى إلى مستوى النظام الاجتماعي عند النحل والنمل.

أجل، إذا قرأت كتاباً عن النحل، وشعرت أن الخالق جلّ وعلا أبدع في خلق النحل، فأدركك الخشوع وربما انهمرت عينك بالدموع، فأنت حققت الهدف الأكبر من خلق النحل ولو لم يكن دخلك يسمح أن تشتري شيئاً من العسل، بينما الذي أكل العسل حتى امتلأت حجراته وخلاياه منه ولم يفكر في هذه المادة التي أكرَمَ الله بها الإنسان عطّلَ الهدف الأكبر واستفاد من الهدف الأصغر.

إذاً اتفقنا على أن الكون مظهر لأسماء الله الحسنى.. وما دمنا نطوف حول اسم اللطيف، فهل ترى في الكون ما يدل على أنه لطيف ؟.. نعم فالهواء يحيط بنا من كل جانب، نستنشقه، ولو حركناه لشعرنا بوجوده، يحمل طائرة وزنها ثلاثمائة وخمسون طناً، منها مائة وخمسون هيكل الطائرة، ومائة وخمسون الوقود، وخمسون الركاب مع الحاجات ؛ فالهواء يحمل ثلاثمائة وخمسين طناً فهو إذاً شيء عجيب جداً.

وحينما تدخل المركبةُ الفضائية في الغلاف الجوي تصبح كتلةً من اللهب لاحتكاكها به، ومع ذلك إذا كنت على سطح الأرض فالهواء لا يُرى وليس له صوت إذا كان ساكناً، فهو موجود وكأنه غير موجود فلا يحجب الرؤية، وترى أخاك من خلاله، وتسمع صوته، إذاً الهواء لطيف، وربنا عز وجل يقول:

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩))

(سورة الشورى)

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤))

(سورة الملك)

اسم اللطيف له معانٍ كثيرة، أحد هذه المعاني أن الشيء الصغير الذي لا يُحس به لصغره يسمى لطيفاً، يعني مثلاً ائتِ بين يديك جهاز راديو، أدر مؤشره إلى إذاعة من الإذاعات، تستمع إلى نشرة الأخبار، فالكلام أين هو ؟ إنه موجودة في الجو المحيط، وبهذا الجهاز اللاقط التقطها، فهل تستطيع أن ترى بعينك موجات الإذاعة ؟ لا تراها بعينك، ولا تسمعها من دون جهاز استقبال ؟ وهل لها وزن ؟ لا، وهل لها رائحة ؟ لا، إذاً موجات الإرسال لطيفة، وموجودة، والدليل استماعك للجهاز الذي بين يديك، فإذا أزحت عنك الجهاز فإنك لا ترى شيئاً، ولا تسمع شيئاً ولا تشم شيئاً، إذاً هذا الإرسال موجود ولكن بلطف، وسأقرّب الأمثلة لأفهام القراء الكرام:

الإرسال موجود لكن بلطف، والهواء موجود لكن بلطف، أما الهواء إذا تحرّك بسرعة تزيد عن ثمانمائة كيلو متر في الساعة، فهذا الإعصار لا يُبقي شيئاً على سطح الأرض، وقد قرأت عنه في أمريكا بأن إنساناً هناك له فيلا، أي دار فخمة جداً، وله سيارة من الوزن الثقيل وأصاب هذه المدينة إعصار، فعثر على محرك سيارته بعد خمسة كيلو مترات من داره، ولم يجد لا للدار ولا للمركبة أي أثر، وهذا نتيجة حركة الهواء ! أما إذا سكن فلطيف جداً، إذ لا تراه بعينك، وليس له رائحة، ولا صوت ولا حِس.

إذاً معنى اللطيف بالمعنى اللغوي الشيء الصغير الذي لا يُحس به لصِغره، و هذا الشيء الصغير الذي لا يُحس به لصِغره يُسمى لطيفاً، وهذا الماء، لو أخذت منه نقطة من الكأس ووضعتها تحت المجهر، وكبِّرْت النقطة مئات المرات لرأيت فيها عشرات بل مئات بل ألوف الكائنات الحية، بينما يبدو أمامك ماء صافياً عذباً فراتاً رائقاً. لكن الكائنات التي فيه غير الضارة، وهي كائنات لطيفة، وما معنى لطيفة ؟ أي هي من الصِغر بحيث لا تراها من لطفها، فهذا معنىً من معاني لطيف.

ثم إن الهواء لطيف أي موجات الإرسال لطيفة، بلا رائحة ولا صوت ولا حس وغير مرئية، وهذا معنى آخر أيضاً. والكائنات الحية في هذا الكأس من الماء لطيفة، وإذا قلنا الله لطيف بعباده، فالله عز وجل معك يسمع صوتك، ويعلم ما في قلبك، و ما في رأسك من أفكار من وطموحات، و صراعات، و

آراء، ومعتقدات، و تصورات و تخيلات، ويعلم ما في قلبك من هموم و متاعب وآلام و ضغوط من خوف ومن قلق، ومع ذلك وجوده معك ليس ثقيلاً، تصوّر لو أن إنساناً لازَمَ إنساناً.. جلس فجلس معه، مشى فمشى معه، دخل إلى بيته فدخل معه، أكل فأكل معه، فإن بقي يلازمه خمسة أو ستة أيام يخرج من جلده، ويقول له صائحاً: إليك عني، انصرف بعيداً، وقد رأينا أنه لم يتكلم بأية كلمة، ولم ينتقد، ولم يعترض، ولم يطلب منك مطلباً ما ؛ إن ذلك الشخص بملازمته لك عبء عليك، لكنك تعلم أن الله معك دائماً، ولكن لا تُحِس بوجوده، فوجوده غير ثقيل عليك قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤))

(سورة الحديد)

(مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧))

(سورة المجادلة)

يعني كلمة لطيف، أن الله عز وجل من اللطف بحيث لا تراه ولا تسمعه ولكن تراه بعقلك، وهذا أحد المعاني لكلمة لطيف، لهذا جاء في الحديث الصحيح:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الْإِيمَانُ؟ قَالَ: الْإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ، قَالَ: مَا الْإِسْلَامُ ؟ قَالَ: الْإِسْلَامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ، قَالَ: مَا الْإِحْسَانُ ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ.))

" اللهم اجعلنا نخشاك حتى كأنا نراك "

إذاً: المعنى الأول أن الشيء الصغير الذي لا يُحس به لأنه بعيد، لدقة صِغره يسمى لطيفاً، ولما كان الله سبحانه وتعالى منزّهاً عن الجسمية ليس بجسم ولا صورة ولا متبعض ولا متجزّئ ولا متحيّز وكل ما خطر ببالك فالله خلاف ذلك، لا يُسأل عنه ؛ متى كان ؟ لأنه خالق الزمان ولا أين هو ؟ لأنه خالق المكان، فالله عز وجل منزّه عن الجسمية والتحيز والجهة. أين الله ؟ هنا فوق، يمين، وراء، يسار، أمام، في كل مكان مع كل شيء، لكن لا كشيء في شيء، محيط بكل شيء علماً مع كل شيء وفوق كل شيء وإلى جانب كل شيء ولكن لا يجوز أن تشير إليه بجهة، ولا أن تنسب إلى الله الجهة ولا الحيز وما معنى الحيّز ؟ مثلاً هذا الكأس يشغل حيزاً في الغرفة، وله وزن وارتفاع و قُطر وقد حجز على الطاولة مكاناً، و في الفراغ مكاناً وله وزن ؛ هذا هو الحيز، فربنا عز وجل ليس بمتحيز، أي لا يشغل حيزاً وليس له جهة يُشار إليها وليس له مكان ولا زمان ولما قال عز وجل:

(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً (٢٢))

(سورة الفجر)

أي وجاء أمر ربك، أي حينما يأتي البلاء. وأحياناً يكون الإنسان مُنحرفاً، مُسرفاً، يأتي كل يوم كاليوم السابق صحة وطعاماً وشراباً ومكانة اجتماعية، وقوة وطغياناً وسيطرة، ولكن فجأةً يأتيه مرضٌ عُضال لا يرى، أو قد يشعر بآلام شديدة في صدره أو في يده اليسرى مثلاً، فنقول وجاء ربك، يعني وجاء أمر ربك.

إذاً إذا قلت الله لطيف يعني الله عز وجل لا يشغل حيّزاً وليس له جهة، ولا مكان، ولا زمان، وليس بجسم ولا صورة، ولا متبعّض ولا متجزّئ ولا متحيّز، إلى آخر هذا التعريف.

ولما كان الله منزّهاً عن الجسميّة والجهة لم يحس به فأطلقوا اسم الملزوم له على اللازم، فوصفوا الله تعالى بأنه لطيف بمعنى أنه غير محسوس، وكونه لطيفاً بهذا الاعتبار، فهذا الاسم من صفات التنزيه أي سبحانه أن يكون له جسم، أو أن يكون متحيّزاً، أو أن يَشغُل مكاناً، سبحانه أن يُحيط به زمان، سبحانه.

إذاً: اسم اللطيف من أسماء التنزيه، فهو معك لكن بلا شعور، لا تُدركه الأبصار لأنه لطيف وهو يُدرك الأبصار، رآك، والدليل الصارخ: مع كل واحد منكم دليل.

وأحياناً تعمل عملاً لا يُرضي الله فتُحاسب عليه بعد قليل حساباً عسيراً ؛ إذاً رآك، وأحياناً تفكر في عمل لا يُرضي الله، تجد الله عز وجل قد عاقبك، لأنه عَلِمَ ما في نفسك، إنه لطيف لا تُحِس بوجوده، فوجوده ليسَ ثقيلاً عليك، لكنه موجود، يَحولُ بين المرء وقلبه، ويعلم السر وأخفى، و معنى وأخفى، أي وعَلِمَ ما لم يكن لو كان وكيف كان ويكون فإن كان دخلك ثلاثة آلاف في الشهر وأنت مستقيم، فيبارك الله لك فيه، أمّا هناك من دخله يساوي عشرين ألفاً، دونما استقامة ولا تقوى، أو قل إن دخله مائة ألف في الشهر فلا يكفيه، إنه يعلم لمَ وكيف، وماذا، وعلامَ، وهذه أحوالك أيها الإنسان فيعلم الله دون أن تراه، فالله لطيف، ولطيف اسم تنزيه، وفي الوقت نفسه لطيف لكنه موجود معك، فخواطرك ومشاعرك وأحاسيسك وطموحاتك وصراعاتك وآلامك، وضيق نفسك كله معروف عنده لكن من دون أن تشعر به.

إن المؤمن ما دام يَعبُد الله وكأنّ الله يراه فإنه يكون متأدباً حتى ولو كان وحده، وهو لا يرى الله بعينه لكنه يراه بعقله، وصحيح كلام العوام الذي يُقال كل يوم " يا أخي الله ما نشاف لكن بالعقل انعرف" فالمؤمنون وهم في فرشهم يتأدبون مع الله عز وجل، إذ يلاحظ أحدهم ثيابه كاملة، ويحب أن تكون حركته كلها أدباً، حتى إذا دخل الخلاء له دعاؤه، وحتى إذا دخل الحمام له موقف فيه أدب ؛ لأن الله يراقبه، والواقعة التالية إن صحّت فلا ينبغي أن يُستنبط منها حكم نلتزم به: فأحد العارفين كان ماداً رجليه، فسمع في قلبه نداء: يا فلان أهكذا تجالس الملوك، فنذر ألا يمد رجله ما عاش، هذه درجة عالية جداً جداً من الشعور بأن الله معك.

وأحد الصحابة يقول: **والله منذ صافحت يد النبي عليه الصلاة والسلام، ما مست يدي ذكري طول حياتي إكراماً لهذه المصافحة،** فكلما ارتقى إيمانك تشعُر أنّ الله معك.. **" يا موسى أتحب أن أكون جليسك، فصعق ثم قال: وكيف هذا يا رب، قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني وحيثما التمسني عبدي وجدني "**

وبعد، فكم من مصلٍ يقول: سَمِعَ الله لمن حمده، فهل عرفت معناها، يعني يا عبدي أنا أسمعك، فاحمدني ؛ فإن قلت: سمع الله لمن حمده، فأنا أسمعك وأصغي إليك،.. أين هو ؟ فلذلك إذا صليت فاعلم أنك بين يدي الله عز وجل، والسيدة عائشة تقول كان النبي يحدثنا ونحدثه، يجالسنا ونجالسه، فإذا حضرت الصلاة فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه، وهذا ما يجب أن يكون عليه كل مسلم.

ترى الإنسان يعتني بمظهره عناية مطلقة إذا دعيَ لمقابلة مسؤول مثلاً وهو إنسان مثله، يموت ويجوع ويعطش ويتعب ويغضب فكيف إذا وقف بين يدي الواحد الديّان ؟ فليعلم أن الله لطيف، موجود ولكن لطيف، وجوده لطيف وليس ثقيلاً، هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: اللطيف هو العالم بدقائق الأمور وغوامِضِها ويُقال فلان لطيف اليد إذا كان حاذقاً في صنعته، ومهتدياً إلى ما يشكل على غيره، وعلى هذا التفسير يكون الله لطيفاً بمعنى عليماً.

و قد تفهم الأمر بشكل ظاهري لا بخباياه، ولا بخلفياته، ولا بتحليلاته العميقة، ولا بالدوافع الخفية لهذا الأمر، فالإنسان كلما ارتقى عِلمُه يفهم البواطن ويفهم السِرّ، و مابين السطور، بل يفهم الدافع الحقيقي

أضرب مثلاً بأشخاصٍ غير مستقيمين: في أيام الشتاء جاءت صديقة زوجته، وهو جالس في غرفة الجلوس والمدفأة مشتعلة، فقال لها ولزوجته: تعالين إلى هنا، أدفأ لَكُنّ، وهل حقاً أدفأ لَهُنّ ؟ أم له هدف أبعد من ذلك، أن يطّلِعَ على هذه المرأة صديقة زوجته، من يعلم هذا الشيء ؟ الله عز وجل يعلم السر وأخفى.

وما معنى لطيف يعني يعرف دوافعك الحقيقية، وهذه المواقف الملتوية و السِرَ، والحِكمَة، وهو الذي يعلم دقائق الأمور، وبواطِنها و خلفيات الأشياء، وحقيقة كل أمرٍ، ويعلم ما خَفِيَ على معظم الناس. يقولون: لقد دخل رجل يوماً إلى بيت وارتكب الفاحشة مع امرأة وخرج، فلما علم الزوج تَبِعَهُ وهو في أشدِّ حالات الغضب، فهذا المُلاحق أمسك كفّه عدس ورماه به وقال له: خذه فالعوام قالوا: الذي يعرف يعرف، والذي لا يعرف ما الذي حدث يقول: كف عدس، يعني أنه يلحقه من أجل كف عدس.

الأمر أعمق من ذلك، أحياناً يكون قضية معقدة جداً، والإعلان عنها سهل ولكنها أخطر من ذلك.

فالذي يعلم بواطن الأمور ودقائقها وخفاياها، ومؤدياتها ومضاعفاتِها وما ينجم عنها وما أساسها، وما سِرُّها، وما أسبابها الحقيقية هو اللطيف هذا معنى ثان، يعني اسم اللطيف هنا بمعنى الذي يعلم كل شيء مهما دق وخفي.

فحجر في الطريق يمكن أن تكون تحته نملة صغيرة، ولها سراديبها و قوتها و مؤونتها.
وفي البحر بين طرطوس وأرواد عشرة كيلو مترات فكم من السمك هناك وما أنواعها ؟ إنك لا تعرف، أما الذي يعلم كل شيء ومهما دقّ ومهما جلّ فهو الله عز وجل، فاللطيف هو الذي يعلم دقائق الأشياء، وهذا هو المعنى الثاني.
المعنى الثالث: اللطيف هو البَرُّ بِعِبَادِهِ الذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويهيّء مصالحهم من حيث لا يحتسبون، فاليوم حر شديد مثلاً، فربنا عز وجل يهيّء لأهل هذه البلدة إنضاج فاكهتهم، وهم لا يعرفون، وبعد شهر ترى هذه الفاكهة معروضة في الأسواق بوضع جيد وجميل وطعم طيب ولذيذ، فمن أنضج هذه الفاكهة طوَال هذه المدة ؟ الله عز وجل، إنه لطيف بعباده، فساعة حر، وساعة برد، وساعة ماء غزير، وساعة ماء قليل، وأنت لا تدري فاللطيف بعباده هو البَرُّ بهم والذي يلطف بهم من حيث لا يعلمون، ويهيّء مصالحهم من حيث لا يحتسبون، ومن قول الله عز وجل:

(اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

ومنه يأتي المعنى الثالث أي البر بعباده.
لكن المعنى الرابع وهو من أروع المعاني التي قالها الإمام الغزالي، أن اسم اللطيف الذي يعلم دقائق الأمور وينقل عبده من حال إلى حال بلطف عجيب.
فهذا الطفل الصغير يجب أن يُغيّر أسنانه، لأنه لو نبتت له أسنان نهائية ثابتة وفمه صغير جداً، فمنظره بشع، فأسنانه كبيرة والفم صغير، ولو نبتت له الأسنان وهو يلتقم ثدي أمه فيمكن أن يؤذيها أذى مؤلماً لا تحتمله، فهذا الطفل يكون في السنة الأولى بدون أسنان ثم أسنان لبنية، ومن بعد، ربنا عز وجل يُبدّل لهذا الطفل أسنانه، فالله لطيف، ولا يوجد طبيب في الأرض يستطيع أن ينزع سناً لطفل من دون أن يبكي، حتى أن حقنة المخدر مؤلمة جداً، فيبكي منها و لكن ربنا عز وجل يذيب هذا السن شيئاً فشيئاً ثم يأكله الطفل مع اللقمة ولا يشعر بشيء، فمعنى لطيف كما قال الإمام الغزالي: **" هو من يعلم حقائق المصالح وغوامضها ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرفق دون العنف ".**
وأحياناً قد يُكرهُك الله على شيء ما، ليس فجأةً بل بالتدريج خلال خمس سنوات مثلاً، وتأتيك منه بعض المتاعب، أزاح منك بالمائة خمساً من محبته وبعد أسبوعين تأتي متاعب جديدة فيزاح بالمائة عشر، و بعد أسبوعين متاعب جديدة بالمائة خمس عشرة وبعد شهرين أو ثلاثة تقول زهقت روحي ولم أعد أطيق ذلك، فهناك شيء غير صحيح قد تعلقت به، فربنا عز وجل نزعه منك شيئاً فشيئاً بلطف.
على هذا النحو تم تحريم الخمرة ؛ إذ كان العرب متعلقين بها تعلقاً شديداً، فلو أمرهم أن يتركوا الخمرة بآية واحدة فربما ارتدّ بعضهم، أو نصفهم عن الإسلام، لكن الله لطيف، قال:

(وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٦٧))

(سورة النحل)

فقط.. ألطف إشارة إلى أن الخمر هي رزق ولكنه ليس حسناً، فقال:

(تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً)

مادة مُسكِرة، ورزقاً حسناً: تظنون أنه حسن وهو مسكر فليس بحَسَن، هذه أول إشارة. وبعد ذلك قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلَا جُنُباً إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ حَتَّى تَغْتَسِلُوا)

(سور النساء آية ٤٣)

يعني إن شربْتَ فلا عليك ولكن دعه عند الصلاة، وبعد ذلك قال:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩))

(سورة البقرة)

المنافع للذين يتاجرون بها ويعيشون على دخلها، ثم يقول الله عز وجل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٩٠))

(سورة المائدة)

فهو سبحانه لطيف حرّمَهَا بالتدريج، وكذلك قد يذهب شاب إلى الجامع فيسمع درساً ووعظاً، فيقول: والله إنه درس جميل، وأريد أن أداوم عليه و يكون على عشرين أو ثلاثين معصية، وربنا للطفه لا يذكره بها كلها، لكن الله اللطيف يذكره بواحدة منها بين الحين والحين. هذه حرام وهذه حرام، فلا حول ولا قوة إلا بالله، لقد كنت جاهلاً، فلعله يتركها ؟؟ ولو أعطيناه القائمة بالمعاصي كلها لترك الدين كله، ولكن اللطيف تدرج به واحدة واحدة، وبعد ستة أو ثمانية أشهر، ترك هذه وهذه وهذه، وربنا يُسخِّر لَهُ شخصاً يُذكِرُهُ بالأشياء بلطف، فهذه حرام يا أخي وهذه لا يجوز أن تأتيها، وهذا اللقاء لا يجوز، و هذا البيع فيه شبهة وهذه البضاعة لا يحل الإتجار بها فهي محرمة شرعاً. أتتاجر بطاولات نرد ؛ فإليك حديث النبي صلى الله عليك وسلم فيها:

((عَنْ سُلَيْمَانَ بْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ مَنْ لَعِبَ بِالنَّرْدَشِيرِ فَكَأَنَّمَا غَمَسَ يَدَهُ فِي لَحْمِ خِنْزِيرٍ وَدَمِهِ))

(أخرجه مسلم وأبو داود وابن ماجة وأحمد)

وبالتدريج ربنا يعالج الأمور، فربنا لطيف في العلاج، والإنسان أحياناً يغلب رجاؤه على خوفه، وربنا لطيف يخوفه، وأحياناً يغلب خوفه على رجائه وربنا لطيف يطمئنه.

العلم الدقيق مع التدريج في العمل، هذا هو الاسم الجامع المانع لاسم اللطيف، ويستحقه من يعلم حقائق المصالح وغوامضها ثم يسلك في إيصالها إلى مستحقها سبيل الرفق دون العنف، حين يجتمع له هذا العلم. وإليك مثلاً: إن الوالد إذا ارتكب ابنه مخالفة للشرع أو للأخلاق، فيمكن أن يعاقبه بعنفٍ وقسوة، ولكن الأجدى أن يتابعه ويراقبه ويشجعه ويكافئه ويعاقبه ويعرض عنه ويراوح في كل ذلك، وبعد شهرين أو ثلاثة يستقيم طواعية وقناعة، فأنت نقلته من حال التلبُّس بهذه المخالفة إلى حال التوبة منها بطريقة لطيفة من دون أن تُحطِمُهُ، أو تجرحه، أو تَسحَقَهُ، أو ترضّه رضاً ودون ألم وعنف، والمربي المؤمن لطيف، ينقل من يعالجه ويربيه من درجة إلى درجة بالرفق واللطف.

دخل رجل إلى المسجد فأحدث جلبة وضجيجاً وَشَوّشَ على المصلين يريد أن يلحق مع الرسول ركعة، فلما انتهى قال عليه الصلاة والسلام لهذا الذي أحدث جلبة وضجيجاً، زادك الله حِرصاً ولا تعد ! لقد ترفق به، ولذلك فإن الله رفيق يحب كل رفيق.

وإن الله يعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وعلموا ولا تعنفوا فإن المعلم خير من المعنف.

ومن لطف الله بعباده، أنه أعطاهم فوق الكفاية، وكلفهم دون الطاقة خمس صلوات كل صلاة ثلث ساعة، عشرون دقيقة بخمس صلوات أي مائة دقيقة ومجموعها ساعة وثلثان من أربع وعشرين ساعة، ولو كلّفَكَ بخمسين صلاة لما استطعت ! ثلاثين يوماً صياماً في السنة فلو كلفك ستة أشهر صياماً متتابعة لما أطقت.

الله لطيف بأوامره، لطيف بخلقه، فلو كانت هذه التفاحة تحتاج إلى منشار ومجموعة أدوات عند النجار لَشَق الأمر على الناس جميعاً، فأنت بسكين تأكلها، ولو كانت البيضة تحتاج إلى مفتاح ولم تجد المفتاح لقست الحياة وأتعبت أهلها، لنك على طرف الصحن تكسرها.

عنقود العنب تريد أن تسحبه نحو الأسفل فينسحق بيديك، ولكن بالعكس له مفصل، الله لطيف، إذا عملت حركة معاكسة باتجاه العنقود يصير بيدك، تُمسك الدراقة فتصبح بحركة في يدك، فربنا عز وجل لطيف، الفاكهة لها طعم ولها شكل ولها قِوام مقبول مع الأسنان، ولو كانت التفاحة بقِوام الصخر تماماً فما الطريقة إلى أكلها ؟ إننا نحتاج إلى مطحنة بحصٍ كي نصنع عصير تفاح، إذ لا نقدر على أكلها، فالتفاحة قِوامُها هشّ ممكن أن تأكلها بسهولة.

الذي دبّرَ الأمور هو الحكيم والذي أوجدها هو الجواد والذي رتبها هو المصوّر، والذي وضع كل شيء في موضعه هو العادل، أما الذي لم يترك فيها دقائق إلا وعرفها فهو اللطيف، واللطيف هو الذي أعطى العباد فوق الكفاية وكلفهم دون الطاقة، واللطيف الميسر لكل عسير الجابر لكل يسير، واللطيف من وفق للعمل في الابتداء وختمه بالقبول في الانتهاء، واللطيف هو الذي وليَ فستر، وأعطى فأغنى، وأنعم فأجزل، وعلم فأجمل.

أما حظ العبد من هذا الاسم فهو الرفقُ بعباد الله واللطف بهم في الدعوة إلى الله.

(اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٤٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلاً لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٤٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى(٤٦))

(سورة طه)

دخل أحدهم على ملك وقال له سأعِظُكَ بغِلْظَة، قال له ولِمَ الغِلْظَة يا أخي لقد أرسل الله من هو خير منك إلى من هو شر مني أرسل موسى وهارون إلى فرعون فقال لهما فقولا له قولاً ليناً.

فإذا عرفت شيئاً سيئاً فاستره وكن لطيفاً، وإذا تحركت نحو فعل شيء فكن بهذه الحركة لطيفاً، وإذا أردت إحداث شيء فاجعل لهذا الشيء برنامجاً لا يُثقل على صاحبه، فالنبي عليه الصلاة والسلام كان في قمة النشوة في صلاته مع ربه، ووراءه أصحابه، فسمع بكاء طفل صغير، فعلى غير عادته قرأ آية قصيرة رحمة بهذا الطفل واختصر الصلاة وسلّم، فإذا دعوت إلى الله عز وجل فكُنّ لطيفاً وكن ليناً وكُنْ رحيماً وقال بعض المحققين: العارف إذا أمر بالمعروف أمر برفق ناصحٍ لا بعنفِ معسرٍ، وكيف وهو مستبصر بسر الله تعالى.

وخلاصة بحثنا أن النبي عليه الصلاة والسلام في بعض ما ورد عنه يقول :

((تخلقوا بأخلاق الله))

فإذا كان الله لطيفاً في علمه، لطيفاً في وجوده، لطيفاً في تصرفاته فكن أنت أيضاً لطيفاً.

٢٠- اسم الله العدل :

لقد اتفقت الأمة على إطلاق هذا الاسم على الله تعالى وهو مصدر عَدَلَ يَعْدِل عدلاً فهو عادل، عُدِلَ عن اسم الفاعل عادل إلى المصدر العدل، فمن أسمائه جل جلاله ؛ الحَكَمُ العَدْلُ، هذا المصدر أقيم مقام الاسم، كأن تقول الرب بدل الراب، والبَر بدل البار، والرضا بدل الراضي، والعدل بدل العادل، إذاً فاعلم أن أحد أسماء الله الحسنى العدل.

الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى عدل في خلقه، وعدل في تشريعه وعدل في أمره التكويني، وفي أفعاله، أي عدل في خلقه وعدل في أمره وعدل في فعله، خلق وأمر وفعل فعدل فهو عدل.

عدل في خلقه، فمكان اليد مناسب جداً، و في موقع متوسط، و الشيء المعتدل الذي هو بين الإفراط والتفريط، فمفتاح الكهرباء مثلاً إذا وضع في مكان يتناسب مع أهل البيت، فالأب ييحرك يده إلى مستوى معين فيطالعه، و الأم والابن وجميع من في البيت يستعملونه براحة فهذا المكان معتدل، ولو كان مرتفعاً لاحتاج الأمر إلى سلم، ولو كان منخفضاً مع الأرض لاحتاج الأمر إلى أن ينبطح الإنسان ليتألق المصباح، أما أن يكون هذا المفتاح في مكان معتدل بين الارتفاع والانخفاض فهذا المكان اسمه مكان معتدل، والاعتدال من العدل والاعتدال هو التوسّط، ودائماً التوسّط هو الموقف الأكمل بين الإفراط والتفريط.

و لو أن الإنسان رأى في كأس الماء كل الكائنات الحية لما شرب الماء، فلو أن العين بلغت من الدقة بحيث ترى كل شيء لاستحالت حياتنا شقاءً، ولو أنّ العين بلغت من ضعف الرؤية ألا ترى الشيء الخطر لهلكنا، إذاً في الحالة الأولى إفراط وفي الثانية تفريط، فعتبة الرؤية لها حد معتدل، فالله سبحانه وتعالى عدل في خلقه.

وأما عن عتبة السمع، فهناك أصوات لا تسمعها، ولو سمعتها لما نمت الليل، فالموجات الصوتية تتخامد، وليست كالأمواج الكهرطيسية التي لا تتخامد، وقد أطلقت مركبة إلى كوكب المُشتري وبقيت مركبة الفضاء تطير في الفضاء بسرعة أربعين ألف ميل في الساعة، فقضت ست سنوات إلى أن وصلت، وأرسلت منه رسائل بالراديو، وكما يقولون فإن الأمواج الكهرطيسية لا تتخامد بل تبقى سِعَتُها هيَ هيَ، لذلك فهذه الأمواج الكهرطيسية هي سبب البث الإذاعي، والفاكس والتلكس، فالأمواج الصوتية العادية تتخامد، ولو كانت كالأمواج الكهرطيسية، لسمعت في دمشق وفي هذا المسجد كل صوت في الأرض، كصوت أمواج البحار، ومعامل الفولاذ، وانفجارات البراكين، ولأصبحت الحياة مستحيلة، إذاً عتبة السمع وتخامُد الأصوات هذا خلق معتدل، بين الضجر الذي لا يُحتمل وبين الضعف الذي لا يقابل إذاً:

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩))

(سورة القمر)

إذاً فبصرك بقدر، وسمعك بقدر، ورؤيتك بقدر، والإنسان أحياناً تُجرح يده فلو أمسك باب الثلاجة عندئذٍ لأحس بلسع الكهرباء الساكنة، ولو تناول طعاماً فيه حمض لتألم، فيقال لك: عرق ملح، ولو أن الأعصاب الحسية نمت أكثر مما هي عليه لأصبحت الحياة مستحيلة، وكذلك أعصاب الضغط وأعصاب الحس والسمع والرؤية والحركة.

فمفصل المرفق في مكان معتدل بحيث يمكن أن تأكل، ولو لم يكن هذا المفصل فلابد من أن تنبطح كالقطة، إذ تضع الصحن على الأرض وتنبطح وتأكله بلسانك، ولا يوجد طريقة ثانية فمكان المفصل معتدل.

وضع اليد على الكتف، فلو كانت على الورك إلى الأسفل مع القدم لفسد كثير من أمرك، أو لو أن العين في قمة الرأس أو في الظهر أو في الكف، لاختل نظام حياتك وعملك، فما معنى: الله خلقه ؟

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ(٨))

(سورة الإنفطار)

أي خلقك أيها الإنسان بحواسك وأعضائك وأجهزتك والغدد الصماء وجهاز الهضم والقلب والرئتين وكل ذلك باعتدال، إذاً فسوّاك فعدلك.

وكذلك تجد الاعتدال بخيوط النسيج، فلو أن الثوب يهترئ من لبسة واحدة لشق الحال على الناس. فليس معقولاً أن تتصور إنساناً اشترى قطعة جوخ وفصّلَهَا وأخذ قياسات، الحين بعد الحين، وبعد شهر استلمها صاحبها ثم لبسها لبسةً واحدةً واهترأت ! فترى الخيط له متانة معتدلة تلبسها سنة أو سنتين وتهنأ بها، ثم تهترئ، إذاً فالخيوط تماسكها باعتدال.

وهذه الدجاجة تعطي كل يوم بيضة، فلو أعطت كل شهر بيضة لكان البيض غالي الثمن كثيراً، و لو كان ثمن العلف للبقر يفوق ثمن حليبها فلا يُربي أحد بقراً، إذاً كمية الحليب التي تنتجها البقرة بالقياس إلى ثمن العلف باعتدال.

ويمكن أن تسير بهذا الطريق إلى مائة عام، فتشعر وتتحقق:

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩))

لا إفراط ولا تفريط ولا تهور ولا تقصير، ولا مبالغة ولا إيجاز، بل كل شيء خلقه الله باعتدال، فهو عدل في خلقه.

بُعد الأرض عن الشمس، باعتدال فلو أن الشمس أقرب لأصبحت الأرض فرناً، ولو أنها أبعد لأصبحت الأرض قبراً جليدياً، إذاً الشمس والقمر بحسبان والمسافات بمنتهى الدراسة الدقيقة.

والطفل يبقى في بطن أمه تسعة أشهر، ولو بقي خمس سنوات فأمر لا يُحتمل، ولو كان الحمل أسبوعاً واحداً لأصبح عندك مائتا ولد وهذا شيء لا يحتمل أيضاً، ولو كان المبيض عند المرأة ينتج البيوض إلى ما لا نهاية كالرجل لكنت تراها في الخامسة والثمانين حاملاً ويجيئها المخاض، وهي عجوز بلا أسنان، فالبيوض عدد معتدل وحينما تنفذ هذه البيوض في سن اليأس أي في الخامسة والأربعين إلى الخمسين فلا حمل من بعد، فهذه رحمة الله بالمرأة، فهو عدل في خلقه.

هذه أمثلة مرتجلة غير معدة مسبقاً، من خلق السماوات والأرض و الشمس و القمر والليل والنهار، ولو كان النهار خمسين ساعة وطاقتك ثماني ساعات، تفتح المحل وتغلقه وتذهب إلى البيت وتنام في النهار وغيرك يعمل، لا ينيمك الليل، تعود وتعمل مرة ثانية فحياة لا تحتمل ولو جعل النهار خمسين ساعة والليل خمسين ساعة تنام وتستيقظ وتعمل وتنام وتستيقظ وتعمل ولعمّ الخلل وانعدم النظام، قال تعالى:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١))

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢))

(سورة القصص)

إذاً: يجب أن تؤمن بأن طول الليل وطول النهار وبعد الشمس و القمر عن الأرض، وحجم القمر و الأرض كله عدل وبقدر:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩))

(سورة القلم)

ولو أن حجم الأرض خمسة أمثال حجمها الحالي، فوزنك يتضاعف خمسة أمثال وتصبح حركتك أشغالاً شاقة لأنّ وزن الإنسان متعلق بحجم الأرض، والدليل وزن الإنسان على سطح القمر سدس وزنه الحالي يهبط من ستين كيلو إلى عشرة.

إذاً: حجم الأرض وكثافتها وقوة جذبها وبُعدها عن الشمس وعن القمر وهي تجري وتدور، كل ذلك باعتدال، فسبحان من خلق فسوى.

وأما المحاصيل، فلو أن القمح ينضج تباعاً كالبطيخ، لاحتجنا إلى أن نمسك سنبلة سنبلة لنتبيّن هل نضجت فنقطعها أم لا فنتركها ؟ لكن السنابل تحتاج ثلاثة أشهر ثم تستحصد كلها دفعة واحدة وتجمع القمح في يوم واحد، أما الفواكه فتنضج تباعاً.

إذاً:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ(٨))

(سورة الإنفطار)

فالله سبحانه وتعالى عَدْلٌ في خلقه، أي خلقه في درجة مناسبة حكيمة معتدلة دقيقة مدروسة كما يقولون، وهذا الذي قاله الله عز وجل في الآية السابقة ؛ عدل في خلقه.

إذا استيقظت صباحاً وصليت الفجر وجلست كي تفكر فيمكن أن تمشي في هذا الباب الطيب الذي يزيدك معرفةً بالله إلى مسافات طويلة، فانظر كل شيء فأمره إلى الاعتدال !

تصوّر لو كان قِشرُ البندورةِ للبطيخ، فلن تأكل بطيخة في حياتك لأنها لا تنتقل معك من مكان إلى آخر، وتصوّر قشرَ البطيخ للبندورة، فتصير كلها قشراً.. القشر معتدل والحجم والقِوام و الطعم معتدل والحلاوة معتدلة فتصميم ربنا عجيب.

وقد يصنع الإنسان حلويات بعيارات غير دقيقة فتنبو على الذوق، أما ربنا عز وجل خلق فقدر فتأكل التفاح والإجاص والكمثرى والعنب والتين والبلح، وكله باعتدال

إذاً: أول معنى من معاني العدل عدل في خلقه، يعني خَلَقَهُ بِحِكمة بالغة، وهذه آية أخرى تعبر عن هذا المعنى نفسه:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ)

(سورة الأنعام من الآية ٧٣)

يعني بالحق بالدرجة الحكيمة، المعتدلة التي لا تزيد ولا تنقص، فتأمل خلقك، ثم تأمل طعامك ؛ وكذلك أجل نظرك في خلق الإبل: قال تعالى:

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤))

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨))

(سورة الطارق)

(أفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ (١٨) وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ (١٩) وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ(٢٠))

(سورة الغاشية)

هذا في خلقه فاعتبروا يا أولي الألباب.

والآن في أمره: أمرك أن تصوم ثلاثين يوماً في العام فلو أمرك أن تصوم ستة أشهر، فشيء فوق طاقة البشر، والدليل أن الإنسان يشعر أن آخر خمسة أيام من رمضان طويلة شاقة وكأن كل يوم شهر، فثلاثون يوماً هذا هو الحد المعتدل، وأمرك أن تُصلي خمس مرات فلو كانت خمسين صلاة وكل صلاة خمسون ركعة لما أطقنا ذلك فالأمر معتدل:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا)

(سورة البقرة من الآية ٢٨٦)

فالصيام إذاً معتدل، والحج في العمر مرة، والزكاة ربع العشر، فالشريعة عدل إذاً، ولكن انظر في قوانين البشر أن بعض الضرائب بالمئة ثمانون إلى ثلاث وتسعين فكم يشعر الإنسان أنه مغبون، بينما الزكاة ربع العشر، النسبة المعتدلة بالألف خمس وعشرون ليرة وبالمائة ليرتان ونصف، وفي مائة ألف ألفان وخمس مائة، وفي مليون خمسة وعشرون ألفاً فالرقم مقبول، ومعه راحة نفسية، فالزكاة، والصيام، والحج كلٌ باعتدال، وحتى الأوامر فمثلاً غُضّ من بصرك، فلو كان الإنسان يمشي في الطريق وفاجأه منعطفٌ حادٌ وفجأة مرت أمامه امرأة فعليه أن يغض من بصره، لا أن يكفه كلية، فكف الصر كلية فيه عَنت ومشقة، لكن الله لطيف بعباده فلم يقل لا تنظر بل قال:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

(سورة النور من الآية ٣٠)

ولو قال: غضوا أبصاركم. لهَلَكنا جميعاً، ولكن جاء الأمر:

(مِنْ أَبْصَارِهِمْ)

فإذا حصل مفاجأة غير متوقعة وبأقل من عُشر الثانية غضضت بصرك فلا شيء عليك، فالأمر معتدل.

أمرُ غض البصر معتدل، وأمر الزكاة معتدل، وأمر الصوم معتدل فإن سافرت رخّص لك بألا تصوم:

(أَيَّاماً مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ)

(سورة البقرة من الآية ١٨٤)

وإن كنت على سفر فصلِّ ركعتين فقط في الرباعية، اقصُر من الصلاة، والقصر عند السادة الأحناف واجب.

وأنت على موعد مع السيارة ومع الطائرة ومع المطار وفكرك مضطرب، فقال لك صلِّ الظهر

ركعتين، واجمع جمع تقديم وجمع تأخير فالشرع معتدل، والله عَدْلٌ في خلقه، وعَدْلٌ في أمره.

قبل أن نتابع الموضوع، فما حظ العبد من هذا الاسم ؟ نحن دائماً بأسماء الله الحسنى لنا هدفان كبيران، الهدف الأول أن نتعرف إلى الله، وهل في الحياة كلها موضوع أجدر من أن نعرف الله عز وجل، أي هذه الذات الكاملة التي ستبقى في جوارها إلى أبد الآبدين، والهدف الثاني طاعته لنسعد بقربه ورضاه وجنته.

وإذا أراد إنسان الزواج، فإنه يخطب عشر سنوات حتى يجد من يطمئن إليها لأنه كما يبو له أنه سيبقى معه العمر كله، أربعين أو خمسين سنة، وقال أحدهم: لمّا بدأت والدته تخطب له بقيت تخطب خمسة عشر عاماً، ثم استقرّ الرأيُ على فتاة كانت قد ولدت يوم خرجت والدته لأول مرة للخطبة ؛ ويقولون الزوجة رفيقة العُمر ولابد من الأناة والتروّي لاختيارها، فأنت سوف تعيش في جوار الله ورحمته إلى الأبد، وهل هناك ذاتٌ تستحق أن تعرفها غير الله عز وجل، وهل هناك موضوع أخطر من أن تعرف الله تعالت قدرته، فلذلك ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، فإذا قلت يا لطيف، يا رحيم يا غني يا قدير ألا ينبغي أن تعرف ما معنى قدير.

وهناك أشخاص كثيرون يصابون بمرض، فيقول الطبيب لأحدهم: ليس لك أمل في الشفاء فتراه ينهار**!** لأنه لا يعرف أن الله قادر على شفائه مهما يكن المرض عضالاً، ومهما يكن كلام الأطباء قطعياً، وهناك بنت مثلاً ولا أمل في شفائها والنتيجة الموت، ولكن ربنا عز وجل يخلق الشفاء إذا شاء ومتى شاء، فقد خلقه وشفيت، ويخلق من الضعف قوة، و من الضيق فرجاً، ومن اليأس مخرجاً، وعندما يقول الإنسان يا قدير وييأس فهو لا يعرف القدير، والذي نريد أن نقوله، هو أنك إذا عرفت القدير زالَ عنكَ اليأس، وأنا أؤكد أنك إذا أيقنت أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن يشفيك من أخطر مرض وبلا سبب فأنت ذا إيمانٍ حقاً ولا يأس مع الإيمان، يقول العارفون ويرددون: **" يا رب لا كرب وأنت الرب "**، وهل يتألم الإنسان والله موجود ؟ وهل يخاف والله موجود ؟ فهو يطمئنه، و ينصره و يقويه و يشفيه فاسمعوا كلام سيدنا إبراهيم في قوله تعالى:

(قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنْتُمْ وَآَبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢) رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣) وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآَخِرِينَ (٨٤) وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ(٨٥))

(سورة الشعراء)

يخلق، ويهدي، ويرزق، ويشفي، ويُحيي، ويميت، ويغفر؛ ذلكم الله رب العالمين لذلك: **" يا رب لا كرب وأنت الرب "**، وأكرر وأعيد هذا الكلام الدقيق ؛ لا يحق لمؤمن بالله أن يحزن، فالله معك فأحسن الظن والثقة بالله، قال تعالى:

(وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَّأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢))

(سورة المائدة)

فمثلاً إذا كان هناك شخص قوي نسبياً في المجتمع وقال لآخر: أنا معك فلا تخف، وهذا رقم هاتفي، طبعاً هذا معتدٍ فقد يمنعه وقد لا يمنعه، وقد، وقد،...، لكن المؤمن إذا طمأنه الله فالأمن محقق وقال سبحانه:

((وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ))

وبعد، فلماذا تتعلم أسماء الله ؟ من أجل أن تَسعَدَ بها، فتعرف أن الله رحيم لتعلم أن الله يعلم فهل تراقب نفسك، ولتعلم أن الله قدير وأنه غني... إلخ، إذاً حينما تعلم أن الله سبحانه وتعالى قادر على شِفائك من مرضك وأنت مؤمن إذاً فلا تيأس.

ولماذا كانت نِسَب الانتحار في أعلى مستوياتها في بلاد الغرب، لأنهم لا يعرفون الله من خلال أسمائه، بينما في بلاد مظاهرها الحضارية متواضعة، و الحياة فيها خشنة والأمور صعبة، ومع ذلك فالانتحار فيها نادر جداً !! والسبب الإيمان بالله عز وجل.

كان لنا أستاذ في الجامعة في علم النفس، فحضر مؤتمراً لأمراض النفس في أوروبا، وقال لنا: لقد قلت في المؤتمر إنّ نِسَبْ الأمراض النفسية في بلادنا قليلة جداً، والسبب أننا نؤمن بالله ونرضى بقضائه وقدره، والحقيقة أن المؤمن يسلم قياد نفسه لله ويقول: هكذا يريد الله، هذه مشيئة الله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذا ما يحول بينه وبين التوترات النفسية، وأجمل حديث:

((عَنْ أُسَامَةَ قَالَ كُنْتُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ جَاءَهُ رَسُولُ إِحْدَى بَنَاتِهِ وَعِنْدَهُ سَعْدٌ وَأُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَمُعَاذٌ أَنَّ ابْنَهَا يَجُودُ بِنَفْسِهِ فَبَعَثَ إِلَيْهَا لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلِلَّهِ مَا أَعْطَى كُلٌّ بِأَجَلٍ فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ))

(متفق عليه)

الذي أخذه له، والذي أعطاك تفضل به عليك، فإذا أيقنت أن لله ما أعطى وله ما أخذ فلا مشكلة إذاً.

موت طفل صغير في أسرة إيمانها ضعيف يسبب آلاماً لا تحتمل، بينما صحابي جليل له ابن مريض بمرض عُضال، فجاء من السفر وهو قلق عليه قال: يا فلانة كيف الصغير ؟ قالت له: هو في أهدأ حال، اطمئِنّ، فهم منها أنه قد شفي فأعدت له الطعام، وفي بعض الروايات تزينت له وفي الصباح قالت له: لو أن الجيران أعارونا عارية ثم استردوها أتغضب؟ قال: لا. قالت: وكذلك فعل الله بابننا، لما قالت له: في أهدأ حال يعني هو ميت، يقولون إنه ذهب إلى النبي عليه الصلاة والسلام وقص عليه الأمر الذي جرى كله، فقال عليه الصلاة والسلام: **" بارك الله لكما في ليلتكما "** وتروي الأخبار أنه أنجب غلاماً أنجب عشرة كلهم صاروا حفظة للقرآن.

إذاً ذاك حادث وفاة الابن في أسرة مسلمة، ولكن حادث وفاة الابن بأسرة غير مؤمنة، كثيراً ما تُجَنُ الأم فوراً، أو تكاد.

إذاً: معرفة أسماء الله من أجل أن نَسَعَدَ بها، وأنت مع الله إلى أبد الآبدين فإذا عرفته في الدنيا فهذا عين العقل، وذلك أن تعرفه قبل فوات الأوان، وأن تعرفه وأنت في حياتك الدنيا معافى صحيح الجسم، مسراً.

والشيء الثاني: ما حظك من هذا الاسم، أنت مؤمن فماذا تستفيد من هذه الأسماء ؟ والنبي الكريم يقول:

((تخلقوا بأخلاق الله))

فأمّا حظ العبد من هذا الاسم فهو أن يحترز عن طرفي الإفراط والتفريط، يعني لا إفراط ولا تفريط، ففي أفعال الشهوة يحترز عن الفجور الذي هو الإفراط وعن الجمود الذي هو التفريط.

و قد نجد إنساناً كما يُقال " زير نساء "، إنه غارق في الشهوة إلى قمة رأسه، عدواني، ينتهك أعراض الناس، هذا فجور، وقد تجد إنساناً كما قالت المرأة: **" يا أمير المؤمنين إن زوجي صوام قوام، لم ينتبه سيدنا عمر رضي الله عنه فقال: بارك الله في زوجك، فقال له أحدهم: إنها تشكوه يا سيدي ولا تمدحه فجاء به ونصحه، وقال له: إن لأهلك عليك حقاً "**

وتروي الكتب عن واقعة أخرى أيضاً مفادها أن السيدة عائشة دخلت عليها امرأة بحالة زرية مهملة نفسها، فسألتها عن حالها، فقالت إن زوجي صوام قوام مما يشغله عني، في النهار صائم وفي الليل قائم، فالنبي أرسل إليه وقال يا فلان: **أليس لك بي أسوة**، ونصحه أن يعطي كل ذي حق حقه، وفي اليوم التالي جاءت هذه المرأة إلى السيدة عائشة، كما تروي الأخبار عطرة نضرة، فسألتها عن حالها فقالت أصابنا ما أصاب الناس.

فإذاً: نحن حينما نعرف اسم العدل، نعرف كيف نتخلق بأخلاق الله على ضوء هذا الاسم قال العلماء: أن نحترز عن الإفراط وهو الفجور والتفريط وهو الجمود ونبقى في الوسط وهي العفة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ(٧))

(سورة المؤمنون)

هذا الموقف العدل في علاقتك بالزوجة.

أما مع الأولاد، فإياك أن تعطيهم عطاءً يفسدهم أو أن تحرمهم حرماناً يحقدون به عليك، فأعط الواحد منهم المبلغ الكافي، وأعطه حاجته، ولو أعطيته فوق حاجته فإنك قد أفرطت، ولو أعطيته أقل من حاجته فإنك قد فرطت، والقول: وقال صلى الله عليه وسلم لهند بنت عتبة وقد قالت له: إن أبا سفيان رجل شحيح وإنه لا يعطيني من النفقة ما يكفيني ويكفي بني إلا ما أخذت من مال بغير علمه فهل علي في ذلك جناح؟ فقال: **(خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف).** والكسوة: اللباس. وقوله: **" بِالْمَعْرُوفِ "** أي بالمتعارف في عرف الشرع من غير تفريط ولا إفراط .

وفي أفعال الغضب يُحترز عن التهور الذي هو الإفراط والجُبن الذي هو التفريط ويبقى غي حدٍ وسط وهو الشجاعة، وفي العقل يُحترز عن الدهاء والخبث والمكر والخداع أو عن البلاهة والغباء، ويبقى في حدٍ كما قال: **" لست بالخب ولا الخب يخدعني ".**

وأدقُّ موقف لستُ من الغباء بحيث أُخدَع ولا من الخبث بحيث أخدع. حينما قال الله عز وجل:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا)

أي في وضع معتدل بين الإفراط وبين التفريط.

وفي تربية الأولاد من السهل أن تكون عنيفاً، والعنف لا يحتاج إلى بطولة إن ضربته موجعاً إياه، حطمته، ومن ثم حقد عليك:

عن أبي هريرة: **" علموا، ولا تعنفوا، فإن المعلم خير من المعنف ".**

وأيضاً لا ترخِ له الحبل فيتجاوز حده، فالاعتدال أن يبقى ابنك راغباً فيك خائفاً منك.

(رغباً ورهباً)

وهذا حد دقيق جداً فدائماً الحالات المتطرفة سهلة، فلا تكن ليناً فتُعصر، ولا تكن قاسياً فتُكسر، والخير وأن تكون بينك وبين الناس شعرة إن شدوها أرخيتها وإن أرخوها شددتها فهذه هي البطولة، البطولة أن يكون الذي حولك في حيرة من أمرك، هم يرجونك ويخافونك في وقت واحد. قال تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً)

(سورة البقرة من الآية ١٤٣)

وبعد، فلنا وقفه عند العدل في أفعاله، لقد تحدثنا عن العدل في خلقه وعن العدل في أمره و بقي العدل في فعله، فيجب أن تعلم علم اليقين أن في الكون عدالة مطلقة، لكن قد تُفاجأ بسؤال، إن فلاناً مستقيم

بعمله التجاري فمحله التجاري كله منضبط، وأسعاره مسجلة، ومعتدلة، ولديه مستندات كاملة فجاءه موظف وافتعل مخالفة وكتبه ضبطاً وزجّهُ في السجن أليس هذا ظلماً صريحاً ؟

الجواب: هذه الحادثة بحد ذاتها هي ظلم ظاهري، أما لو ربطت حياة هذا الإنسان في بيته، مع أهله و جيرانه، ومع من هم دونه و مع من هم فوقه، وجمعت الحسابات كلها بعضها إلى بعض، لرأيت في هذا البلاء منتهى العدل وبالتعبير التجاري هناك حساب لا ظُلم فيه، أما حساب السندات هذه وحدها ففيها ظلم، ولكن وضمّهُ إلى ما فعله البارحة في البيت قبل أن ينام، فقد تخرج بالنتيجة ذاتها.

حادث جرت من عشر سنوات، اثنان تشاجرا في سوق مدحت باشا أحدهما معه سلاح فأطلق رصاصة، فأخطأت خصمه، وهناك من سمع الشجار فمد رأسه من دكانه فجاءت الرصاصة في عنقه قريباً من عموده الفقري، فَشُلّ تماماً.

فاستوقفني رجل وقال: يا أستاذ أنت تحدثنا عن عدالة الله، فما صنع هذا: إنه رجل صالح فتح دكانه ليسترزق ويسعى على عياله وهو يبيع أقمشة، ولا ذنب له، سمع شجاراً، فمد رأسه فجاءت هذه الرصاصة في عنقه قريباً من عموده الفقري فأصبح مشلولاً، فأين عدالة الله ؟ قلت: والله أنا أعرف أن الله عادل، ولكنك أطلعتني على فصل من فصول هذه الحادثة، ولعل لها فصولاً لا نعرفها، لا أنا ولا أنت وأنا أسلم لعدالة الله.

فو الله الذي لا إله إلا هو ؛ إنها من غرائب المصادفات، والأصح أنها ليست مصادفات: وهي أن صديقاً لي من حي الميدان حدثني بعد عشرين يوماً عن حادثة مثيلة، قال: لنا جار كان وصياً على أموال أولاد أخيه الأيتام وبقي لهم معه عشرون ألفاً ـ ثمن بيت ـ والحادثة قديمة وكان البيت ثمنه عشرون ألفاً فرفض أن يعطيهم هذا المبلغ فشكوه إلى أحد علماء الميدان، الشيخ حسين خطاب، فاستدعاه واستدعى أولاد أخوته، فأصرّ على عدم دفع المبلغ فقال الشيخ حسين رحمه الله بالحرف الواحد: يا بني هذا عمكم فإياكم أن تشتكوا عليه للقضاء، هذه الشكوى لا تليق بكم، ولكن اشكوه إلى الله " هذه الواقعة تمت الساعة الثامنة مساءً، في اليوم الثاني مد رأسه من الدكان فأصابته الرصاصة فشُلّ جسمه.

وهذه حكاية رمزية، يقولون إن شوحة (حدءة) قالت لسيدنا سليمان: اسأل لنا ربك هل هو مهول أم عجول ؟ نريد أن نتحرك، فلما سأل الله عز وجل، قال له ربنا: قل لها إنني مهول لا عجول فلتأخذ راحتها، هذه الشوحة رأت أناساً يشوون اللحم فخطفت من هذا اللحم إلى عشها، وقطعة جمر بقيت متعلقة بقطعة لحم فأحرقت العش كله، عادت إليه من توها، فقالت: يا سليمان الحكيم، ألم تقل لي قبل قليل إن الله مهول، هاهو ذا عجول، فلما سأل الله عز وجل قال قل لها هذا حساب قديم.

وقال لي رجل هل من المعقول أن يعاقبني الله على ذنب لم أفعله حتى الآن، قلت: هذا العقاب جزاء ذنب قديم، فيجب أن تؤمن بعدالة الله المطلقة:

عن قتادة قال: عقوبة بذنبك يا ابن آدم. قال: وذكر لنا أن نبي الله صلى الله عليه وسلم كان يقول:

((لا يصيب رجلا خدش عود، ولا عثرة قدم، ولا اختلاج عرق، إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر))

ومرة كنت راكباً مع أخ في سيارته، فتجاوّزَ حده مع سيارة فضربه فتوقعت من الذي ضربت سيارته أن يكون عصبي المزاج ويغضب ويعلو صوته فنزل، ونظر إليه وقال له: اذهب، وأنت مسامح، فاستغربت والله، وفوجئت بأن الحادث أدى إلى أضرار للآخر بهيكل السيارة والمحرك، فلما رجع صاحبي إلى سيارته رأيت على خده دمعة، قلت له: ما القصة يا فلان ؟ قال: والله: منذ سنة ضرب شخص سيارتي وفي سيارته نساء محجبات فكبر علي أن أزعجه وقلت له: سامحك الله. فربنا بعد عام عاملني كما عاملت ذلك الشخص وكال لي بالمكيال الذي كلت به لغيري.

يجب أن تبلغ درجة من اليقين أن اعمل:

" اعمل ما شئت فكما تدين تدان ".

البرُّ لا يَبلى والذنب لا يُنسى والديّان لا يموت، اعمل ما شئت، تكون باراً بوالديك فالله عز وجل يلهم أبناءك أن يكونوا بررة بك وإن تخدِمُ تُخدم، **" أنفق بلالاً ولا تخشى من ذي العرش إقلالاً "**، **" أنفقْ أنفقَ الله عليك "** ولا أعتقد إلا أن أكثر القراء لديهم من مثل هذه الوقائع والأحداث الكثيرة، والعبرة منها كلها: أنه كما تدين تدان، وكذلك اعمل ما شئت فإنك مجزي به.

وهذه الحادثة ذكرتها أكثر من مرة، لكن أعيدها للعبرة الصارخة التي فيها: رجل عنده زوجة يحبها وتحبه يأكلان دجاجاً، طُرق الباب فتحت فإذا سائلٌ يسأل، فهمّت أن تعطيه من هذا الدجاج فنهرها زوجها ومنعها أن تعطيه شيئاً، وقال اطرديه، نفذت أمره وطردته، وتمضي السنون فتسوء العلاقة بينهما ويشتد الخصام ويطلقها، فتقترن بزوج آخر وتعيش معه حياةً سعيدة وبعد خمس أو ست سنوات، وهي مع زوجها الثاني، وتأكل دجاجاً كما كانت تأكل مع الأول، طُرق الباب، فذهبت لتفتح الباب فاضطربت، قال زوجها: مالكِ ؟ قالت: سائل. قال: وليكن، قالت له: أتدري من هذا السائل إنه زوجي الأول، قال: أتدرين من أنا ؟ أنا السائل الأول.

طبعاً هذه حكايات لكن نحن نقتنص ما بها من عبرة، وأنا متأكد أنه لا يقع شيء في الأرض إلا وفق عدالة مطلقة، فدائماً إذا سمعت حكاية أو حادثة فيها ظلم، فسأنصحك هذه النصيحة قل لنفسك: لقد سمعت فصلاً أو عدة فصول من هذه الواقعة و بقي فصل لا أعرفه، ولو عرفته لرأيت العدالة المطلقة، فاعرف الفصل الأخير، دائماً ولا تتسرع، وتمهل ولا تحكم و قل: الله أعلم، وكفى بربك بعباده خبيراً بصيراً، الله يعلم ونحن لا نعلم.

و العوام لهم كلمات لا أحبها " إذا شفت الأعمى طبه مالك أرحم من ربه " لا أحبها، لا تقولوها إطلاقاً، ولا تعتقد أنه كُف بصره بسبب الظلم فارحمه وعاونه واخدمه وخفف عنه وهذا واجبك، ولكن لا تعتقد حرمانه نعمة البصر من ظلم قدمه، فالله عز وجل بيده الخير، لكن ليس في الإمكان أبدع مما كان.

فاعلم علم اليقين أن الله عز وجل عدل في خلقه، وعدلٌ في أمره وعدلٌ في فعله، أفعاله كلها عادلة، ولذلك أقول مرة ثانية:

((ما من عثرة ولا اختلاج عرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله عنه أكثر))

وشيء آخر:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠))

(سورة الشورى)

(وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِداً (٥٩))

(سورة الكهف)

وتقرأ عن زلزال أصاب البلدة الفلانية، فلعلك تفهم الزلزال فهماً مادياً من أنه اضطراب القشرة الأرضية، هذا الزلزال قوته ثمانية بمقياس رختر فأغادير في شمال إفريقيا كانت من أجمل مدن المغرب، تقع على البحر الأطلسي لكن فيها من الفسق والفجور والنوادي العارية، والملاهي الليلية، ودور البغاء والفنادق الغارقة في الإثم حتى قمتها مما لا سبيل إلى وصفه، فبمدة ثلاث ثوان أصبحت أغادير قاعاً صفصفاً لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً. فاعتقدْ جازماً أن الزلزال بحكمة ولحكمة يريدها الله سبحانه، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢))

(سورة النحل)

إذاً: فالله سبحانه وتعالى عدل في خلقه، وعدل في أمره وعدل في فعله ونحن **" المؤمنين "** ينبغي أن نقف بين الإفراط والتفريط وأن نكون معتدلين في كل أفعالنا.

٢١- اسم الله الحليم:

الاسم الذي نحن في رحابه الحليم، ومعلوم أن من أسماء الله الحسنى ما لا يُسمى الإنسان بها كاسم الخالق، ومن أسماء الله الحسنى ما يسمى الإنسان بها كالرحيم والحليم والعفو، فمِمَا يلفت النظر أن النبي عليه الصلاة والسلام فيما ورد عنه من أحاديث قال:

((الحلم سيد الأخلاق))

وقد قيل: كاد الحليم أن يكون نبياً.

فما هذه الصفة التي إذا اتصف بها العبد كاد أن يكون نبياً ؟ إنها الحلم و الحلم سيد الأخلاق، و الله سبحانه وتعالى حليم، أمّا الآية التي في القرآن الكريم والتي يُستنبط منها اسم الحليم:

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنّ اللّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً (٤٥))

[سورة فاطر آية ٤٥]

هذه الآية يُستنبط منها اسم الحليم وفي سورة النحل أيضاً الآية الواحدة والستين وكذلك قد يستنبط منها اسم الحليم.

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النّاسَ بِظُلْمِهِمْ)

إذاً هم ظالمون وهناك مؤاخذة، فما تعريف اسم الحليم ؟ هناك إنسان ظالم وهناك عقوبة لهذه الظلامة، والله سبحانه وتعالى حليم، فكيف تجلى حلمه ؟ هناك ظالم أو متلبس بذنب عاصٍ، وهناك عقوبة مختصة بهذا الظلم أو هذه المعصية.

لكن الله سبحانه وتعالى حليم بمعنى: أنه يؤخّر العقوبة، لماذا يؤخر العقوبة ؟ وهذا السؤال وجيه !! فلو أن الله سبحانه وتعالى عجّلَ العقاب لكل مذنب حين يقع في ذنب لما كان هناك حلم، ولو أن الله عز وجل أخّرَ العِقاب ويريد بعد تأخير العقاب أن يوقع بهذا الإنسان أشد العقاب، فقد قال العلماء: هذا هو الحقد، وحاشا لله فالحاقد يمتلئ شعوراً بالغيظ لكنه يؤخر تنفيذ عقابه لسبب أو لآخر، قد يكون ضعيفاً وحقده عن ضعف، وقد يكون قوياً ولكن يحب هذا الظالم لهذا المسيء أن تزداد إساءته ليأخذه بأكبر ذنوبه، فحينما يؤخّر إنسان العقوبة لضعفه فهو الحاقد، وحينما يؤخر إنسان العقوبة ليجعل خصمه يقع في ذنب أكبر فيوقع به أشد العقاب فهذا أيضاً حاقد وهو حاقد قوي، فهناك إذاً حاقد قوي وهناك حاقد ضعيف.

وتأخير العقاب من قبل الله عز وجل ليس له علاقة بهذا المعنى إطلاقاً، فلو أنه ألغى العِقاب فهل يسمى

حليماً ؟ لا. فماذا يُسمى إذاً ؟.. يسمى عفواً غفوراً، و إذا أخّرَ العِقاب ليُعطي هذا الإنسان فُرصة ليعود فهذا هو الحلم.

مثل بسيط يمكن أن يوضح هذه الحقيقة: أنشأنا مدرسة هدفها الأول التعليم والتهذيب والتربية والتثقيف والتقويم وما إلى ذلك، ولهذه المدرسة نظام داخلي، ومن بنود هذا النظام أن الطالب إذا غاب عن هذه المدرسة أسبوعين يُفصل، فلو أن المدير كلما رأى طالباً غاب أسبوعين فصله، لفصل كثيراً من الطلاب في فترة وجيزة، لكن هناك مدراء يحلمون، يطلب من الطالب أن يأتي بوليّه، وأن يأتي بتقرير طبي، يتغاضى أحياناً، يتغافل أحياناً، لا يُطالب الموجّه بتقديم بيان بالغائبين، لأن الهدف من إنشاء هذه المدرسة نبيلٌ جداً، ليس القصد أن يفصلهم ولكن القصد أن يعلمهم، لذلك ربنا عز وجل قال:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩))

(سورة طه)

ما هذه الكلمة ؟ لولا هذه الكلمة لكان لزاماً أن يوقع العقاب عليهم ويعجله، لولا هذه الكلمة لكان لزاماً أن يهلكهم، لولا هذه الكلمة لكان لزاماً أن يأخذهم، ما هذه الكلمة التي أخرّت العِقاب، وأخرّت الهلاك، وأخرّت الجزاء ؟ ما هذه الكلمة ؟.. إنها الرحمة أراد أن يرحمهم، و يؤكد هذه الحقيقة ؟ رحمتي سبقت غضبي، وسعت رحمتي كل شيء.

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦))

(سورة الأعراف)

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩))

(سورة هود)

(قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَاماً (٧٧))

(سورة الفرقان آية ٧٧)

لولا أنكم تعرفونه، وتدعونه في ضوء معرفتكم، ولولا الأمل في أن ترقوا، ولولا الأمل في أن تتوبوا، ولولا الأمل في أن تنجوا، فما يعبأ بكم ربي، لولا أنه يعبأ بكم لأوقع الهلاك والعِقاب والجزاء وانتهى الإنسان إلى بوار.

إذاً: من أسماء الله الحسنى أنه حليم، لا يُوقِع العِقاب فوراً، ما من مسلم إلا وهو يعلم أن صُلْحَ الحُدَيْبِيَة، في ظاهره مهانة للمسلمين، لأن فيه تنازلات وهم في حالات قوية، تنازلات أباها الصحابة، ورأوها نوعاً من الذُل ونوعاً من الإستسلام، وقد أدهشهم موقف النبي عليه الصلاة والسلام، والنبي لما رأى هذا الاستنكار قال: إنني أفعل ما أُؤمر بتوجيه من ربي، وأن أقبل بهذا الصلح، ثم جاء الجواب:

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

(سورة الفتح(٢٥))

في مكة أُناسٌ آمنوا خِفية، آمنوا بقلوبهم وبقوا مع قريش بأجسامهم، هؤلاء يعلمهم الله، لذلك أخّرَ فتح مكة كله، وأمر النبي أن يقبل بهذه الشروط التي تبدو مهينة من أجل أن يعطي هؤلاء فرصة كي يؤمنوا. إذاً أنت تتعامل مع الحليم.

((عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق فإن خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

((إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب))

وأسماء الله عز وجل منها ما هي أسماء ذات، ومنها ما هي أسماء صفات، ومنها ما هي أسماء أفعال، فيا ترى اسم الحليم اسم ذات أم اسم صفة أم اسم فعل ؟

لأنه أخّرَ العقوبة فهي صِفة فعل، فالله عز وجل يُحب عباده جميعاً.

((لو يعلم المُعرضون انتظاري لهم وشوقي إلى ترك معاصيهم لتَقطّعَت أوصالهم من حبي ولماتوا شوقاً إلي))

فالله سبحانه وتعالى كما قال على لسان السيد المسيح:

(تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦))

(سورة المائدة من الآية ١١٦)

وأحياناً الإنسان لا يُعاقِب، لكن من الداخل يغلي، يقول اشتهيت أن أُمزقه، فليس هذا هو الحلم، الحلم لو شققت صدر هذا المؤمن لرأيت فيه السلام، فيه الراحة، ليس في قلبه حقد ولا يتمني أن يقهر خصمه ويمزقه.

المؤمن العادي الحليم ينطوي على نفسٍ وديعة، صافية، مُسالِمة لا حقد فيها فكيف بالله رب العالمين ؟ لذلك إذا سمعتم في الحديث الشريف أو في القرآن الكريم أن الله قد غضب وقد لَعَنَ، فالله سبحانه وتعالى لا يبغض العبد بل يبغض فعله فقط، ويلعن فعله فقط.

ويحبه كحب الأم حينما يعود ابنها إلى الصواب، مرة ذكرت للقراء الكرام أن أحد العارفين وهو ذو النون المصري، شَعَرَ بضيق، وبتشتت، وشَعَرَ بضياع، فقال: **أين قلبي ؟ أين ضاع قلبي ؟** قلبي في ضياع، وفي طريقه في بعض أزقة المدينة رأى باباً يُفتح، ورأى أُماً تضرب ابنها ضرباً مبرحاً وتلقيه خارج البيت وتُغلق الباب، جلس هذا الطفل يبكي فأين يذهب ؟ إلى أي بيت يدخل ؟ من يسأل ليطعمه ؟ أين ينام ؟ فما كان منه إلا أن عاد إلى باب بيته، وجلس على عتبة الباب يبكي ويبكي، وكانت أمه من رحمتها الشديدة به تنظر إليه من ثقب الباب، فما كان منها إلا أن فتحت الباب وأخذت ابنها، ووضعته في حضنها وقالت: يا قرة عيني يا عزيز نفسي أنت الذي حملتني على ما تكره، لو أطعتني لما رأيت مني ما تكره، فصاح هذا العارف بالله: **وجدت قلبي وجدت قلبي.**

إذاً: فالحليم من أسماء الأفعال يعني: أخر العقوبة فقط، أما إذا قلنا الحليم من أسماء الذات أو أسماء الصفات فمعنى ذلك أن الله سبحانه وتعالى لا يحقد.

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَن النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَن اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا........ يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ))

(صحيح مسلم)

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨))

(سورة إبراهيم)

ولا يرضى لعباده الكفر.. وإن تشكروا يرضهُ لكم.

ربنا عز وجل أراد أن يُعرِّفنا بذاته، فجعل نظام الأبوة والأمومة وهو في ظاهره أبوة وأمومة وأولاد وتربية ومستقبل، وباطنه أن تتعرف إلى الله من باب المثل، سأنقلكم من هذا المثل إلى مثل أوسع: فكيف جعل ربنا عز وجل هذا الطعام الذي تأكله أعني لحم الضأن، لِحِكمةٍ أرادها جعل بُنية هذا الحيوان مشابهة تماماً لبنية الإنسان، فليس كل واحد منا طبيب، وليس لكُل واحد أن يرى ما في بطن الإنسان، فلن يتمكن من رؤية المعدة والكبد والأمعاء، والرئتين، والقلب والشرايين والأوردة والعضلات والأعصاب والأوتار والغدد والكليتين والمثانة والحالب والدماغ، والعين، ولا يُتاح لواحد منا أن يرى ذلك، ولكن يرى هذا كل يوم عند القصاب، تريد كلاوي، طحالاً بيضات غنم، أنواع اللحم، هنا عضلة مخططة، هنا عضلة ملساء هنا قفص صدري هنا عمود فقري، هنا نخاع، الإنسان يطلب النخاع ليستخلص ما فيه من لب، هذا اللب معامل تصنع كريات الدم الحمراء، فلِحِكمةٍ بالغة جعل هذه الأنعام لها بنية تشريحية فيزيولوجية تُشابه خَلْقَ الإنسان فمن لم يتعلم في كلية الطب تعلم عند بائع اللحم.

عودة لنظام الأبوة والأمومة هذا نظام فريد من نوعه، يا ترى الأب يهمل نفسه أحياناً ويسعى من أجل أولاده، الأولاد يقفون موقفاً قاسياً أحياناً فيه فظاظة غلظة، كلامٌ قاسٍ، لامبالاة، عقوق، وقلب الأب وقلب الأم معلّق بأولادهما، وفي أية لحظة قد يعود هذا الابن إلى أبيه تائباً، يعود إليه منيباً يقبله الأب ويفرح فرحاً كبيراً.

الذي أراه أن نظام الأبوة والأمومة له هدف أكبر من تربية الأولاد أن تتعرف إلى الله من باب المثل، كيف أن الأب لا يحقد، الأم لا تحقد، الأم كل حياتها من أجل أولادها، كل سعادتها من أجل إسعاد

أولادها، وحينما رأى النبي عليه الصلاة والسلام أُماً تقبّل ابنها، يبدو أنه سُئِل كيف يلقى الإنسان في النار مع أن الله أرحم الراحمين، أجابهم إجابة ذكية لطيفة ليست معقدة، رأى أماً تقبل ابنها على التنور فقال لأصحابه: **أتلقي هذه المرأة بولدها إلى النار،** قالوا معاذ الله، قال:

((والذي نفس محمد بيده لله أرحم بعبده من هذه المرأة بولدها.))

الأب لا يبتعد عن ولده، يُحلل شعوره تجاه ابنه والأم شاهدها معها، ألا وهو قلبها الرحيم الحاني، فمن أودع في هذا القلب الرحمة تستيقظ عشرات المرات في الليل من أجل وليدها، إن أصاب وليدها مكروه تبكي، تتمنى أن تعطيه من صحتها، من جسمها، من غذائها إذاً نظام الأسرة نظام له هدفان، هدف لتربية الأولاد وهدف أكبر بكثير أن تتعرف إلى طرف يسير جداً من رحمة الله عز وجل.

تُشاهد حادثاً تتجلى فيه رحمة الله كما تتجلّى فيه عناية الله سبحانه، ترى حادثاً مروّعاً وقد نجا الكُل بعناية الله وقدرته، قد ترى إنساناً في ساعة ضيق شديد فيأتيه الفرج، ويتبدده الكرب، وأحياناً يصل الإنسان إلى درجة اليأس فيأتيه الإكرام، لذلك قيل:

فلَرُبَّ نازلة يضيق بها الفتى ذرعـاً وعند الله منها المخـرج

نزلت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظن أنها لا تُفـــرج

* * *

وليست معركة الخندق بخافية عليك أيها القاريء الكريم، لكن الله عز وجل يمتحن المؤمنين ؛ إيمانهم وصبرهم، ومدى التجائهم إليه:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً وَجُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً (٩) إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا (١٠) هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً (١١) وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً (١٢))

(سورة الأحزاب)

لكنه بعد ذلك رحمهم، وأكرمهم ونصرهم وأعزهم ورفع شأنهم وأحبط أعداءهم، بعدما بدا للمؤمنين أن الإسلام انتهى أمره، وأن المعركة مع الكفار ليست معركة نصر أو هزيمة بل معركة حياة أو موت، معركة نكون أو لا نكون، هذا الذي حصل ويحصل فيكل معركة حاسمة.

وأكرر ؛ إن الله عز وجل حليم.. ومعلوم أنّ الله يُحب الكمال، إن الله طيبٌ ولا يقبل إلا طيباً، و الله سبحانه و تعالى يحب المحامد، وليحذر القراء الكرام أن يفهموا من هذا الحديث أن الله يحب أن يحمد، لا، بل إن الله يُحب الكمال، يُحب العمل الذي يُحمد عليه الإنسان، يُحب الحلم، يُحب الرحمة، يُحب الإنصاف يُحب العدل.

ومعلوم أيضاً أن النبي عليه الصلاة والسلام سيّد الخلق وحبيب الحق، ففي حياته امرأةٌ زنت وكان لابد من أن يُقام عليها الحد، والحد هو الرجم، فجاء أهلها إلى حب رسول الله، إلى أحب الناس إلى النبي وطلبوا منه أن يشفع لها عنده، من هو ؟ أسامة بن زيد، فجاء أسامة على استحياء وكلّمَ النبي عليه الصلاة والسلام في شأن هذه المرأة الزانية، يقال: تلون وجه النبي، وقال: **يا أسامة أتشفع في حد من حدود الله**، وفي رواية:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهَا أَنّ قُرَيْشًا أَهَمّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيّةِ الّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَكَلّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللّهِ ثُمّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمّ قَالَ إِنّمَا أَهْلَكَ الّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدّ وَايْمُ اللّهِ لَوْ أَنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

(صحيح البخاري)

فالله يُحب العمل الذي يُحمد صاحبه عليه، يعني يُحب مكارم الأخلاق.

((إن الله جواد يحب الجود ويحب معالي الأمور ويكره سفاسفها))

(أخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز)

إن الله يُحب أن تكون عالياً في نظر الناس.

الله عز وجل يحب الحليم لأنه حليم، و الحليم يحب الحليم، وعلاقتنا بهذا الاسم كمؤمنين، أن نكون حلماء، فما الطريق إلى الحلم؟ وهو سؤال جدير بالإجابة.

ما دامَ الله عز وجل يُحب المحامد، ومن محامده أنه حليم والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((تخلّقوا بأخلاق الله))

كيف أكون حليماً ؟ التفكر باسم الحليم طريق إلى أن نكون حلماء، هناك طريق آخر، أن يكون الإنسان متحلماً، أي يتصنع الحلم.

فكل واحد منا له مرتبة عند الله، لو فرضنا أن إنساناً مرتبته دُنيا، ووضع في ظرف فيه استفزاز، فأحياناً يدخل إلى البيت ولا يجد طعاماً، ولم يأكل قبل مغادرته صباحاً، وقد أمضى يوماً شاقاً، زوجته عند أهلها، وذهبت بلا إذن وعادت الساعة الثالثة، وقالت: لم أعد طعاماً لو دبرت أمرك، ببساطة وببرود، والزوج في غليان، فيصيح، ويتكلم كلمات قاسية، ويمكن أن يضرب، لكن المؤمن ماذا يفعل ؟ قال الله:

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاسِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤))

(سورة آل عمران من آية ١٣٤)

فالقرآن ذكر كظمُ الغيظ، وحث عليه وأثاب عليه والنبي سماه تحلّم، يعني ليتصنّع الحلم فهو من الداخل يغلي غليان البركان، فليتصنّع الحلم، وليضغط على أسنانه، كفعل الإنسان عندما يعطى إبرة البنج، فيمسك وسادة المقعد ويشد عليها، ويتحامل على نفسه، أما الصغير فقد يسب الطبيب، وفوراً يصيح، يبكي، هذه العملية، عملية كظم الغيظ، عملية السيطرة على الأعصاب هذه اسمها تحلّم، لكن، لو سألت نفسك لماذا كظمت غيظي ؟ فتجيب نفسك بنفسك: حباً بالله، تقرباً إليه، تنفيذاً لأمر نبيه، ومرة مع مرة مع مرة ستشعر أنّ الله عز وجل راضٍ عنك، إذ عاهدته على الحلم أو أن تتحلم.

وبعد، من خلال اتصالك بالله عز وجل تدرك أن مكارم الأخلاق مخزونةٌ عِندَ الله تعالى، فإذا أحبّ الله عبداً منحه خُلُقاً حسناً.

هناك حُلُم تطبع وحُلُم طبع، حُلُم التطبع هو التحلّم، عملية كظم غيظ، عملية ضبط الأعصاب، رغم الغليان من الداخل، ومع هذا الواقع المر فوراً أقول كما قال عليه الصلاة والسلام.

روي عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنه قال: **إنما العلم بالتعلم والحلم بالتحلم ومن يتحر الخير يعطه، ومن يتوق الشر يوقه، وثلاثة لا ينالون الدرجات العلا؛ من تكهن أو استقسم أو رجع من سفر من طيرة.**

يعني خُلُق الحلم الأصيل بدايته تكون بالتحلّم، تحلمت أول مرة والثانية والثالثة والرابعة والخامسة، فمن تراكم هذه المواقف البطولية، يكون الحلم لأنه: ليس الذي يقطع الطرق البطل إنما الذي يتقي الله البطل.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ))

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ مَرَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ تَبْكِي عِنْدَ قَبْرٍ فَقَالَ اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي قَالَتْ إِلَيْكَ عَنِّي فَإِنَّكَ لَمْ تُصَبْ بِمُصِيبَتِي وَلَمْ تَعْرِفْهُ فَقِيلَ لَهَا إِنَّهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَتَتْ بَابَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَلَمْ تَجِدْ عِنْدَهُ بَوَّابِينَ فَقَالَتْ لَمْ أَعْرِفْكَ فَقَالَ إِنَّمَا الصَّبْرُ عِنْدَ الصَّدْمَةِ الْأُولَى))

(صحيح البخاري)

منذ أيام توفي رجل، فدخل أحد ذويه وتكلّم كلمات بحق الله لا تليق، بعد نصف ساعة استعاد توازنه قال لا حول ولا قوة إلا بالله، رسب في الامتحان، أجل، رسب في الامتحان، ليقُلّ لا حول ولا قوة إلا بالله ألف مرة، ليقل سبحان الله يا رب لك الحمد، كله كلام لا طائل تحته الآن، إنما الصبر عند الصدمة الأولى، حين يتلقى الخبر ماذا يقول ؟ يا رب لك الحمد، فهذا نجح مائة على مائة لأن الحمد علم، تعرف أن الله حكيم، وأن أفعاله كلها كمال وكلها عدل وكلها رحمة، إذاً إنما الحلم بالتحلم، يعني إن تملك

أعصابك مرات متتابعة فموقف كله تصنع، وهو موقف تكلف، هذا الحِلم المتكلف هو حِلم المبتدئين، لكن والله الذي لا إله إلا هو بعد أن تكابد مواقف التحلم وتقبل على الله عز وجل مكابدةً، يصطبغ قلبك ببعض أسماء الله الحسنى ومنها الحِلم، ويصير حِلمكَ طبعاً، لو شققت صدر إنسان مؤمن متفوق رأيت في قلبه برداً وسلاماً، أحد الصحابة استفزّه شخص، وقسا معه بالكلمات، قال: إن كنت صادقاً فيما تقول غفر الله لي، وإن كنت غير ذلك غفر الله لك.

كم من رجل دمّر مستقبله في ساعة غضب، طلّق زوجته وله منها خمسة أولاد، وفي ساعة غضب ارتكب جريمة.

أعرف رجلاً عنده أجير، حدث بينهما خِلاف فطرده، وفي المستودع بضاعة غير نظامية، فاشتكى عليه، جاء المسئولون عن البضاعة غير النظامية وكتبوا مخالفة كلفته، والحادثة وقعت سنة ١٩٧٠م، ستمائة ألف تقدر بستة ملايين في أيامنا هذه، وهذا الرجل لديه مسدس، فأطلق النار فأصاب الأجير، حكموه ثلاثين سنة سجناً، كانت ساعة غضب، فهذه القضايا خطيرة جداً، كم من بيوت دُمِرَت، وأُسَر تَشَتَت، وشركة ناجحة جداً انتهت بدداً في ساعة غضب جراء كلمة من أحد الشريكين.

وفي ساعة غضب قد يرتكب الإنسان حماقة كبيرة، أما الحليم في بحر الأمان سلام داخله سلام خارجه أمره سلام، فلو شققت صدر مؤمن يتمتع بالحلم لرأيت في قلبه برداً وسلاماً.

سمعت عن زوج، زوجته جاهلة بأحكام الدين، وقفت عند بائع، من كلمة إلى كلمة، قالت راعنا نحن جيرانك، ولعل الكلمة من الخضوع بالقول ففهم شيئاً آخر من الكلام، فهم أنه ممكن أن يزورها بالبيت، فدخل إلى البيت ساعة غياب الزوج، فاستنجدت بزوجها عن طريق ابنها الصغير الذي قال له: عندنا رجل في البيت يا أبي، جاء زوجها بحالة غضب شديد، أغلق الباب وجاء بالشرطة، وفضح زوجته وطلّقها، ثم استفتاني يريد أن يردها ما الطريقة ؟، لقد ارتكب حماقة كبيرة جداً فقد أخطأت الزوجة لكنها بريئة، ولكن خطأك كان أفدح وأشنع. فأين أنت من حادثة الإفك وموقف رسول الله سلى الله عليه وسلم؟

والنبي علمنا لما سمع الخبر المؤلم وقذف السيدة عائشة وكيف بقي شهراً في أشد حالات الحلم وضبط الأعصاب، هذه السيرة كلها دروس فإذا كان الرجل غير حليم يصبح كالمتفجرات، يفجر نفسه: **" إنما الحلم بالتحلم، وإنما الكرم بالتكرم وإنما العلم بالتعلم ".**

تتحلم تتصنع الحلم تجعل نفسك حليماً تتكلف الحلم، تضغط على نفسك تكظم غيظك فتحدث لك صِلة بالله حقيقية، أنت تجاهد نفسك: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس والهوى تُقبل على الله عز وجل تصطبغ هذه النفس بأحد أسماء الله الحسنى وهو اسم الحليم ثم تصبح حليماً أصيلاً، حقيقة، ويزينك الحِلم قلباً وقالباً، ماذا قال الله:

(وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ (٤٥))

(سورة البقرة)

أول الأمر صبر، وبعده صلاة، والصلاة تأتي بخير ثم يأتي منها الحلم والرحمة والإنصاف.

النبي الكريم في الخندق ومعه ثلاثة آلاف صحابي أجلاء، والظرف الطبيعي برد شديد وخوف وجوع وما اجتمع في الجزيرة من قبل جيش يُعدّ عشرة آلاف مقاتل أبداً، جاء ليستأصل المسلمين من جذورهم، ومع ذلك كان النبي مع أصحابه في الخندق يحفرون ويتمترسون، وقد أصابهم جوع شديد، فقام صحابي جليل بلغ منه الجوع ما بلغ واستأذن النبي صلى الله عليه وسلم وذهب إلى البيت فهيأ طعاماً لرسول الله، من حبهم الشديد للنبي ما كان أحدهم يستسيغ أن يأكل لقمة وحده، ثم دعا النبي بقدر فيه شاة مذبوحة، وخبز من شعير مطحون، فماذا فعل النبي ؟ أيمكن أن يأكل النبي وحده مع نفر قليل من أصحابه، ويدع بقية أصحابه جوعى ؟ أبداً لا. وقال للجيش كله: إن أخاكم فلاناً يدعوكم إلى طعام، فهذا الصحابي ذاب كالشمعة خجلاً، أي طعام هذا لقد هيأ طعاماً لثلاثة نفر أو أربعة، وهناك آلاف، فالنبي ما كان له أن يفعل إلا ما فعل، لأنه رحيم بالناس، وهو كما وصفه الله تعالى:

(بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨))

(سورة التوبة)

لكن بعصر النفاق تجد مواقف ذكية جداً فترى بعض الناس يتصنع الرحمة، ويتصنع الحلم.. فمثلاً ذات ليلة واحدة من الليالي قطع تيار الكهرباء في مدينة بأمريكا، فارتُكبت مائتا ألف سرقة بليلة واحدة، مع كل هذا الانضباط الخارجي، لذلك عظمة الدين أنه يَخلِق في الإنسان وازعاً بينما القانون يَخلِق رادعاً، القانون دائماً ردعه خارجي ما دامت الطريق مراقبة، وفيها رادار، فالسرعة محدودة بثمانين كيلو متر في الساعة، وإذا خلت الطرقات من الرادار فالسرعة تزيد عن المئة وعشرين، ما دامت الصالة مراقبة تلفزيونياً لا يسرق أحد شيئاً وإلا فالسرقة شريعة القوم، فهذا القانون لا يستطيع إن أن يفعل في الإنسان إلا فعل الرادع، أما الدين ففيه وازع داخلي يرقى بالإنسان رقياً إلى مرتبة الملائكة.

كنت منذ يومين في حفل عيد مولد ألقيت فيه كلمة بدئت كما يلي: سيدنا عبد الله بن عمر رأى راعياً، أحب أن يمتحنه قال له: **بعني هذه الشاة وخُذ ثمنها**، قال: ليست لي، قال: **قل لصاحبها ماتت**، قال: ليست لي، قال: خذ ثمنها وقل له أكلها الذئب، قال: ليست لي. ولما ضاق هذا الراعي ذرعاً بالطلبات ؛ قال: **والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني فإني عنده صادق أمين ولكن يا هذا أين الله** ؟ هذا الراعي وضع يده على جوهر الدين.

لعلي الآن لا أرى مؤمناً يقول أين الله، لا في بيعه ولا في شرائه، ولا في حديثه ولا في وصفه وفي مدحه، ما دامت البضاعة كاسدة يمدحها ليبيعها، فماذا قال عليه الصلاة والسلام:

أخرج الأصبهاني عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((إن أطيب الكسب كسب التجار، الذين إذا حدثوا لم يكذبوا، وإذا وعدوا لم يخلفوا، وإذا ائتمنوا لم يخونوا، وإذا اشتروا لم يذموا، وإذا باعوا لم يمدحوا، وإذا كان عليهم لم يمطلوا، وإذا كان لهم لم يعسروا))

روي أن إبراهيم عليه السلام رأى رجلاً مشتغلاً بمعصية، فقال: اللهم أهلكه، فأوحى الله إلى إبراهيم أن يا إبراهيم لو أهلكنا كل عبد عصى لما بقي إلا القليل، ولكن إذا عصى أمهلناه، فإن تاب قبلناه فإن أصر أخّرنا العقاب عنه لعلمنا بأنه لا يخرج عن ملكنا.

هذا الصحابي الذي جاء النبي عليه الصلاة والسلام وأسلم وعاد إلى قومه وأقنع أمه وأباه وزوجه أن يسلموا وأسلموا، فلما اتجه إلى قومه رآهم غارقين في الزنى، فعاد إلى النبي وقال: يا رسول الله ادع الله عليهم أن يهلكهم، قال ما معناه: **لا يا أخي بل أدعو الله أن يغفر لهم وأن يرحمهم** فالنبي ما كان لعّاناً. طبعاً لو تُرك الأمر إلى الناس لأهَلَكَ بعضهم بعضاً ولكن الله يرحم.

يُروى أن شاباً كثير الذنوب ولكنه ما كان من المصرّين، بل كان يتوب ثم يرجع إلى الذنب فلما كثر ذلك منه قال الشيطان: إلى متى تتوب وتعود وأراد أن يُقنِطهُ من رحمة الله، فلما جاء الليل قام وتوضأ وصلى ركعتين ثم رفع بصره إلى السماء وقال يا من عصمت المعصومين، ويا من حفظت المحفوظين، ويا من أصلحت الصالحين إن عصمتني تجدني معصوماً، وإن أهملتني تجدني مخذولاً، ناصيتي بيدك وديوني بين يديك، يا مقلّب القلوب ثبت قلبي على دينك، فقال الله سبحانه وتعالى للملائكة: **يا ملائكتي أما سمعتم قوله، اشهدوا أني قد غفرت له ما مضى من ذنوبه.** فهذه الواقعة لها في القرآن ما يؤيدها ؟

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(٥٣))

(سورة الزمر)

(قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٣))

(سورة يوسف)

وموقف سيدنا يوسف، فيه من التواضع وصدق العبودية لله عزّ وجل، ما يشْدَه العقول: نبيٌّ عظيم، قال:

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ)

مرةً زارني أخ شاب أحبه، وكان شاباً مندفعاً وتائباً، حينما دخل بيتي أجهش بالبكاء، قلت خيراً، قال: أمد بصري مداً وأحدق بالنساء، قلت تُب إلى الله، قال تُبتُ كثيراً، كلما تُبت نقضتُ التوبة، قلت: أعوذ بالله، فلمع في خاطري أنه حينما تاب إلى الله من قبل توبة أولى واستقام على أمره شَعَرَ باعتداد واعتزاز فصار يقيّم الناس، كلما رأى رجلاً من أقربائه ينظر يتهمه بالفسوق والكفر والفجور، بينما يرى نفسه أنه مستقيم وبدأ يوزع على الناس ألقاباً، فربنا عز وجل أدبه، أضعف له مقاومته، إلى أن أصبح على أعتاب الله ذليلاً وعرف أنه ضعيف بنفسه، ولعله نسي أنه لا قوة لا له ولا لأحد إلا بالله، وغابت عنه الآية الأساسية بالفاتحة وهي أهم ما فيها وهي:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ (٥))

(سورة الفاتحة)

فلعله قال مدركاً:

(إِيّاكَ نَعْبُدُ)

ولم يقل بنفس الدرجة:

(وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ)

فلذلك الافتقار إلى الله عز وجل هو المعين.

وذَكَرَ مالك بن دينار أنه كان له جار وكان يتعاطى من الفواحش الكثير، وكان لأبي حنيفة جار مغنٍ، وهو تارك الصلاة ويشرب الخمر ويلهو بالغناء يومه كله، وكانت أغنيته المفضلة:

أضاعوني وأي فتىً أضاعوا ليوم كريهة وطعان خلس

***

فهذا المغني ملأ الحي صخباً وضجيجاً وآذى الجيران، وذات ليلة لم يسمع صوته، فسأل عنه، قالوا: أُلقيَ القبضُ عليه، بتُهمةٍ لاعلاقة لها بالغناء ولا بالخمر بتُهمةٍ أخرى متعلقة بالمحتسب، فأبو حنيفة النعمان بقدره العظيم وشأنه الجليل توجه إلى المحتسب رجاء أن يعفو عنه، المحتسب لم يتوقع أن يأتي أبو حنيفة بذاته، فإكراماً له أفرج عنه وعن كل من ألقي عليه القبض في ذاك اليوم، فساقه أبو حنيفة من يده قائلاً: يا فتى هل أضعناك، تقول: أضاعوني وأي فتىً أضاعوا.. وكان هذا الموقف سبب إسلامه وسبب توبته، فإذا حلمت على رجل عاصٍ فقد يكون حلمك سبب توبته، أما إذا كفّرته وفسقته ولعنته وسببته فقد يكون هذا الموقف سبباً لاستطالته في فجورهِ، والنبي لم يبعث لعاناً حتى نلعن الناس، ولسنا قضاة لنحاسب الناس، ولكننا دعاة إلى الله عز وجل.

عزيزي القارىء إن الحِلم حارس أمين يحول دون حماقات كبيرة جداً قد تتردى فيها وتكون عاقبتها مدمرة والعكس صحيح إذ قد يكون والحِلم سبباً لتكون هادياً وداعياً إلى الله سبحانه، والحِلم محبوب، إذ كاد الحليم أن يكون نبياً، و الحلم سيد الأخلاق.

بالحِلم تتبوّأ أسمى المكانة في قلوب الناس، فلهذا قال مالك بن دينار: كان لي جار يتعاطى من الفواحش الكثير وجيرانه يتأذون منه ويمقتونه، فشكوا منه إلي، فأحضرناه ونصحته إما أن تتوب وإما أن يرحل من المحلة، فأبى أن يفعل واحداً منهما، فقلنا: نشكوك إلى السلطان فقال السلطان يعرفني، فقلنا: ندعو الله عليك، فقال: الله أرحم بي منكم. فغاظني ذلك فلما أمسيت قمت وصليت ودعوت عليه، قال: فوقع في قلبي هاتف، لا تدع عليه، بل ادع له بالتوفيق. يبدو أن هذا الشاب تاب توبة نصوحاً وعاد إلى الله واتفق أن رآه مالك في موسم الحج يطوف ويبكي.

ومرة أخرى وواقعة أخرى شبيهه يقول مالك بن دينار بينما هو ماشٍ في الطريق رأى رجلاً مخموراً طرحته الخمرة أرضاً والزبد على شفتيه ويقول: الله، الله، وهو في حالة هذيان، فعظم على هذا الإمام الكبير أن يخرج هذا الاسم العظيم من فمٍ نجس، فتَلَطّفَ معه ومسح فمه وأكرمه رغم سكره، وبعد أن صحا قيل له: أتدري من اعتنى بك واهتم بحالك ؟ إنه الإمام مالك. ويبدو أن هذه العناية اللطيفة بهذا العاصي أثارت حساسية نفسه، فبكى تأثراً وندماً، وبالمناسبة فالعصاة أكثرهم فيم رقة تستجيش نفوسهم بالبكاء، ونام الإمام مالك ليلته تلك فسمع في منامه صوتاً يخاطبه: يا مالك طهّرت فمه من أجلنا فطهّرنا قلبه من أجلك، وخرج مالك إلى المسجد فرأى رجلاً يبكي ويصلي ويتهجد قال: من أنت يرحمك الله، قال إن الذي هداني أخبرك بحالي.

أقول لك عزيزي القارىء: إنك لا تعرف عمق شعور المؤمن الصادق إذا استطاع أن يهدي رجلاً ضائعاً منحرفاً شارب خمر مُلحِداً، ويعتقد بأن الله ليس عادلاً ناقماً، فإذا قدرت أن تُقنع إنساناً بعيداً وتروّضَه على طاعة الله، وتروّضَه شيئاً فشيئاً إلى أن يستقيم على الطريق الصحيحة فهذا عمل بطولي، بل إنك أنت البطل.

أحد العلماء قال لتلميذه كلمة ذات معنى إيجابي دقيق جداً، قال: **" يا بني الشخص الصالح الجيد لا يحتاجك في موعظة، وإنما يحتاجك السيّء المنحرف "** بطولتك ليست مع الصالحين ولكن بطولتك مع المنحرف ومع العاصي وهذا كله يحتاج إلى حِلم تتحلى به فالمنحرف يحتاج إلى صدر واسع وإلى رحمة الناس به لترده إلى الصواب، وتلك البغي التي رأت كلباً يلهث ويأكل الثرى من العطش سقته فغفر الله لها، نموذج للعودة إلى الله والعمل الصالح حتى ولو كان مع حيوان بهيم. قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم:

(رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (٨٣))

(سورة الشعراء)

فأجاب الله دعاءه بقوله فبشّرناه بغلامٍ حليم، والعلماء قالوا هذه الخلاصة: **" الحليم من كان صفّاحاً عن الذنوب ستاراً للعيوب "**، الحليم هو الذي غَفَرَ بعدما ستر، الحليم يحفظ الودّ ويُحسِنُ العَهد، ويُنجِزُ الوعد، الحليم يُسبِل سِتْرَ عفوهِ على العُصاة ويسحب ذيلَ عفوهِ على الفُجّار، الحليم الذي لا يستخفّهُ عصيانُ عاصٍ ولا يستفزّهُ طُغيانُ طاغٍ.

المؤمن الصادق إن رأى عاصياً، يرأف ويحنو ولا يتكبر، ويحدث نفسه: لعل هذا العاصي يتوب توبةً نصوحاً ويَصدُق مع الله أكثر مني فيسبقني، لا تحتقرنّ عاصياً ادعُ له بالهداية، وتلطف معه والطف به وما أمر وحشيّ عنك بخافٍ فقد فعل ما فعل، ولما رجع إلى الله تاب عليه.

وكذلك سهيل بن عمرو الذي تمنى سيدنا عمر أن يضرب عنقه بالسيف، حين قال له النبي اكتب: **هذا ما اتفقَ عليه محمد رسول الله**، قال لا أكتب **" رسول الله "** لو آمنا بك لما خالفناك، قل محمد بن عبد الله، كان في منتهى الغِلظة والقسوة، وسيدنا عمر همَّ أن يقتله، قال عليه الصلاة والسلام: **يا عمر لعلك ذات يومٍ تسمع منه كلاماً تحمده عليه**، والحقيقة قال كلاماً بعد موت النبي يُكتب بماء الذهب.

دخل عمير بن وهب على رسول الله والخنزير أحب إليه منه وخرج من عنده وهو أحب إليه من بعض أولاده.

نضرع إلى الله عزّ وجل أن يرزُقنا الحِلم. فهو زين، ونحن نتعلم أسماء الله الحسنى أملاً في أن نتخلّقَ بها، عملاً بقوله عليه الصلاة والسلام:

((تخلقوا بأخلاق الله))

٢٢-اسم الله الشكور:

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧))

(سورة إبراهيم)

مع الاسم الثاني والعشرين من أسماء الله الحسنى والاسم هو اسم **" الشكور "**.

الحقيقة أن تعرف أن الله خلق السماوات والأرض وكفى فأنت إذاً ما عرفته، لأن الإيمان بوجود الله يكاد يكون قاسماً مشتركاً بين الناس كلهم جميعاً يعني:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٥))

(سورة لقمان)

حتى الذين عبدوا الأصنام قالوا:

(أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣))

(سورة الزُمر)

إذا أقررت بوجود الله عزّ وجل، فأنت لم ترتفع عن أي مستوى من مستويات الناس العاديين، ولكن معرفة الله تقتضي أن تعرف أسماءه وما من معرفة لها علاقة وشيجة بحياتك الدنيا وبمآلك إلى الآخرة كمعرفة أسمائه الحسنى، فكلما ازددت معرفة به ازددت حباً له، وازددت استقامة على أمره، وازددت عملاً صالحاً تتقرب إليه، وازدادت سعادتك في الآخرة.

إذاً شيء في غاية الأهمية أن تتعرف إلى الله من خلال أسمائه الحسنى، اسم الشكور ثابت بالقرآن الكريم، قال تعالى:

(وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤))

(سورة فاطر)

وفي سورة الإسراء يقول الله سبحانه وتعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩))

(سورة الإسراء)

مشكور: اسم مفعول، من الشاكر ؟ هو الله عز وجل.

وفي آية ثالثة في سورة النساء يقول عز وجل:

(وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧))

(سورة النساء من الآية ١٤٧)

إذاً شكور وشاكر ومشكور، المشكور هو العبد، والله سبحانه وتعالى شاكر وشكور، وبعد فما تعني كلمة " **شَكَرَ** " باللغة ؟

الشكور مبالغة من شكر، ودائماً أسماء المبالغة إذا اقترنت بأسماء الله الحسنى فتعني إما عدد الشُكر أو حجم الشُكر، أما حجم الشُكر ؛ فأنت قد تعيش أنت في الدنيا لسنوات معدودات، سنوات قد تزيد على الستين سنة أو السبعين، فإذا أطعته في هذه السنوات المعدودات يَهَبُك حياةً أبدية لا تنقضي، وكلمة (أبد) هذه كلمة قد لا ننتبه إلى معناها، وها أنا ذا أُخاطب الإخوة الرياضين، الذين يدرسون الرياضيات، لو أن " واحداً " في دمشق ووضعنا أصفاراً وبين كل صفرين ميلمتر، وتابعنا الأصفار إلى حمص إلى حماة إلى حلب إلى أنقرة إلى موسكو إلى القطب الشمالي إلى المحيط الهادي إلى القطب الجنوبي إلى أفريقيا إلى إلى.... حتى عادت هذه الأصفار حول الأرض إلى أن استقرت على شمال " الواحد "، هذا الرقم كم هو ؟ هذا الرقم "واحد " في دمشق والأصفار حول الأرض، لو وُضِعَ هذا الرقم صورة لِكسر عادي وفي مخرج الكسر إشارة اللانهاية، هذا الرقم يساوي صفراً في الرياضيات، يعني: أي رقم مهما بدا لك كبيراً إذا قيسَ إلى اللانهاية فهو صفر، فأنت إذا عِشت في الدنيا سنوات معدودات، وفي هذه السنوات المعدودات أطعت الله عز وجل، ونهيت نفسك عن الهوى، وضبطت جوارحك، وحررت دخلك، وتعرّفت إلى الله، وجلست في مجالس العلم، وتلوت القرآن وفهمت القرآن، ودعوت إلى الله، وأنفقت من مالك ومن جاهك ومن علمك وجاء الأجل، إذا قِستَ هذه السنوات المعدودة إلى الحياة الأبدية فأنت ما فعلت شيئاً، فمعنى **" شكور"** أنه يعطيك على الشيء القليل الشيء الكثير.

أيعقل أن تدفع ربع ليرة سورية، لتشتري بها محلات شارع الحمراء على الطرفين ؟ الطوابق والمخازن والمستودعات، والحريقة وطريق الصالحية والبحصة وحمراء بيروت، وشارع بيكاديلي بلندن، وشارع كذا بفرنسا، هل من الممكن شرائها بربع ليرة ؟ أؤكد لكم أن كل عمل الإنسان إذا قيسَ بما أعدّ الله له من نعيمٍ مُقيم، والله إنه أقلّ من هذه النسبة.

انظر في هذه الشركات الكبرى في العالم، فقد سمعت عن شركة قالوا: عندها فائض هم في حيرة من توظيفه، مليار دولار، فائض ليس له وظيفة يوظف بها، هناك شركات كبرى في العالم ميزانياتها وأرباحها بِقَدَر ميزانيات مجموعة دول، هذه الشركة هل تُشتَرى بفرنك، بليرة ؟ ها أنا ذا أقول ومن دون أن أبالغ، إن ما أعدَه الله للمؤمن من نعيمٍ مُقيم نظير ما يُقدمه من طاعةٍ لله في الدنيا، كالنسبة بين ما قدّم وما سيأخذ وهي لا تتعدى أن تكون كمن يشتري إحدى أكبر الشركات في العالم بليرة سورية:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللَّهُ: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ.))

(صحيح البخاري)

هذا معنى " **الشكور** "، صيغة مبالغة لاسم الفاعل، عندنا " **شاكر** " وعندنا " **شكور** " صيغة المبالغة أنه يعطي اللانهاية، يعطي الأبد.

مرةً سمعت أن بعض القضاة في بلد معين ليس لهم رواتب، بل لديهم شيكات مفتوحة، أي مبلغ يرده يأخذه، لو طلب مبلغاً فلكياً يأخذه فوراً، معنى " **الشكور** " إذاً، أنه يعطي الشيء الذي لا نهاية له، الذي لا حدود له كما قال ربنا في الحديث القدسي:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر))

الحقيقة هذا الكلام نقرؤه كثيراً ونردده كثيراً ولكن لو وقفنا عند مدلول هذه الكلمة، كل واحد منا له دائرة مشاهدات، فأنت مثلاً إلى أين ذهبت ؟ تقول: ذهبت إلى لبنان وإلى الأردن وذهبت إلى الحج، وذهبت إلى مصر وإلى قبرص. فقط ؟ أجل، فقط.

بينما قد تجد شخصاً يعرف أمريكا، يعرف اليابان، يعرف روسيا يعرف أفريقيا وشخص آخر يعرف جنوب شرقي آسيا أيضاً، وتجد آخر ذهب إلى أستراليا وغير أولئك من ذهب إلى القمر، رواد الفضاء.

على كلٍ دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات لا شيء سمعت بالمريخ ولكن لم تذهب إليه، وسمعت بالمشتري وسمعت و بنجم القطب، وسمعت بألاسكا، وسمعت بسيبيريا وسمعت بالقطب الشمالي دائرة المشاهدات إذا قيست بدائرة المسموعات فهي لا شيء، أما دائرة الخواطر قد يخطر ببالك جبل طوله من هنا إلى الشمس، هذا خاطر، ما دام الخاطر ليس له واقع فالقضية سهلة، قد يخطر ببالك إنسان إذا وقف على الأرض اقترب من القمر، طوله ثلاثمائة ألف كيلو متر، هذا خاطر.

فعندما حدثنا النبي عليه الصلاة والسلام عن ربه في الحديث القدسي قال:

((أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر))

هذا معنى " **الشكور** "، نظير ثلاث وستين سنة عشتهما، انقضى خُمُسُهما حتى أصبحت مكلفاً، يعني هذه السنوات المعدودة كل يوم خمس صلوات كلما رأت عينك امرأةً غضضت البصر عنها، وكلما لاح لك مبلغ من شُبُهة قلت معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين، يعني مجموعة صلوات ومجموعة أيام صمتها، ومجموعة مواقف خِفت فيها من الله عز وجل فاستحققت هذا العطاء الكبير. وربنا عز وجل قال:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمُلْكاً كَبِيراً (٢٠))

(سورة الإنسان)

أحدهم قال لي: كنت ببلد أجنبي ودعانا مدير الشركة إلى قصره، فشدهنا إذ رأينا ما يفتن العقل والنظر، دخلنا في غابة بقيت السيارة منطلقة ربع ساعة في هذه الغابة المحيطة بقصره، بينما يحتاج المرء في بلدان كثيرة إلى مائة متر، بل سبعين متراً مساحة بيت يأوي إليه، في حين أن الغابة مساحتها مئات

الكيلو مترات، غابة صنوبر وبالمنتصف قصر كبير لا تقل هذا بيت، بل ملك كبير، قصر وحوله حديقة مترامية، غابة صنوبر، فربنا عز وجل قال:

(وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا)

الله سمى ما أعد لك في الجنة ملكاً كبيراً، هذا معنى **" الشكور"** يعني شيء لا يُقدّر بثمن، مقابل شيءٍ قليل جداً قدمته نلت به شيئاً كثيراً.

والمعنى الآخر لكلمة **" شكور "** هو المعنى العددي، يعني لا يمكن أن تقدم شيئاً لله عز وجل إلا ويشكرك عليه.

أعتقد أن أبا جهل بعيد البعثة، جاء بيت النبي عليه الصلاة والسلام، وطرق بابه، ففتحت فاطمة الزهراء وكانت بنتاً صغيرةً، قال: أين أبوكِ ؟ قالت: ليس هنا. فضربها بلا سبب، فلما عَلِمَ أبو سفيان أنّ أبا جهل ضرب هذه الفتاة الوديعة الصغيرة ولطمها على وجهها لأنها قالت أبي ليس في البيت، ذهب إلى بيت النبي وأخذ فاطمة الصغيرة الزهراء وحملها على يده وتوجّه إلى بيت أبي جهل وطرق الباب ففتح الباب، قال: اضربيه كما ضربك، أراد أن يثأر لكرامتها، لما علم النبي ذلك رفع يديه إلى السماء وقال: **اللهم لا تنسها لأبي سفيان،** لا تنسها له، والله عز وجل لم ينسها له، مع أنه حارب النبي عشرين عاماً في النهاية أسلم، ولما أسلم وكان النبي كريماً معه وحليماً، قال يا ابن أخي: **ما أحلمك وما أعقلك وما أوصلك وما أرحمك.**

ورد في بعض الكتب أن أبا لهب حينما علم بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام أعتق جارية، فقيل: إنه يخفف عنه العذاب كل يوم اثنين، وأنه أعتق أعتق هذه الجارية فرحاً بميلاد النبي عليه الصلاة والسلام، كل شيء محفوظ عند الله سبحانه يعني ولو أنقذت نملة، قال تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧))

(سورة النساء)

قد تخدم شخصاً، الخدمة لا يمكن أن يشكرك عليها إلا إذا عرفها، مثلاً، كأن تزور مريضاً، فتحمل هدية وتتوجه إليه، في مدخل البيت أخذها منك ابنه، ولم يبلغه، ثم جلست عند المريض فهل يعقل أن يشكرك هذا المريض بقوله (فضلت، شكراً) لا. طبعاً إنه لم يدر بالهدية، فكيف يشكر وهو لا يعلم، لذلك ربنا عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

فهو يعلم، يعلم أي عمل مهما بدا صغيراً، لو أنقذت فراشة، لو أنقذت نملة، لو رحمت إنساناً، لو أمّنت إنساناً خائفاً، أو هدأت من روع إنسان خائف، لو طمأنت إنساناً، لو أطعمت إنساناً جائعاً، كل شيءٍ محفوظ عِنْدَ الله، فكلمة **" شكور "** إما لحجم **" الشُكر "** وإما لعدد مرات الشُكر، وهي مبالغة اسم

فاعل.

قال العلماء: معنى " **الشكور** "، باللغة: الشُكر في الأصل الزيادة، فلان شكير أي عياله صغار، وشكير الشجر ما نبت في أصلها من القضبان الصغار، وناقة شكيرة وشَكْرى إذا كانت ممتلئة الضرع، وشكرت الأرض إذا كثر النبات فيها، ودابة شكور إذا أظهرت من السمن فوق ما تُعطى من العلف، وكل نبت يكتفي بالماء القليل فهو شكور، هذا ما ورد في كتب اللغة عن كلمة شكور.

أما الشكر في حق العباد فله طريقان، ويمكن أن نضيف لهما طريقاً ثالثة، شكر باللسان، وشكر بالعمل، ونقول لن يكون الشكر لا باللِسان ولا بالعمل إلا إذا عرفت النعمة، أساس الشُكر المعرفة، إذاً أنت تعرف ثم تشكر، لا تشكر ما لم تعرف.

فشكر العمل، مثلاً: هناك شخص قدم لك بيتاً، أو وظفك فهو إذاً قدّمَ لكَ شيئاً ثميناً، أو كُنتَ واقعاً في ورطةٍ كبيرة فأنقذك منها، ثم رأيت ابنه في الطريق، فإذا قدمت لهذا الصغير قطعة حلوى فهذه الحلوى في الحقيقة شُكر لوالده، فأنت عبّرت عن امتنانك من أبيه بإكرام ابنه، هذا بشكل مبسط.

لذلك فالمؤمن إذا أسدى للعباد خدمات، أو إذا رحم العباد أو أكرمهم، طمأنهم، أطعمهم، أسقاهم، كساهم، رحمهم، حينما تُسدي معروفاً لِمخلوق كائناً من كان، لِقطة، لجروٍ صغير، فقد ترى حيواناً قد مرض وتأخذه إلى مشفى بيطري أو إلى طبيب بيطري، فإذا أردت الحقيقة فهذا هو عين الشُكر، لأنك تُعبّر عن شُكركَ لله عز وجل وعن امتنانك له بخدمة مخلوقاته، وإذا أردت أن تعرف سِر العمل الصالح في الدنيا و لماذا المؤمن يعمل الأعمال الصالحة، ليس لها تفسير إلا أنها تعبير عن شُكر العبد لله عز وجل من خلال خدمة عباده، إذا نصحت زبائنك نصيحةً صادقة، فهذا شُكر منك لله، إذا رحمت الناس، إذا عطفت عليهم، إذا أنصفتهم، إذا خففت من مآسيهم، إذا مسحت جراحهم، إذا أمنتهم من خوفهم، إذا قدمت لهم المعونة، إذا فعلت أي عمل صالح هو في الحقيقة تعبير عن امتنانك لله عز وجل من خلال عباده ومألوف عند الناس بشكل واضح جداً أن تكرمَ الأب من خلال إكرام الابن، إذا رأيت رجلاً تحبه يصحبه ابنه فيمكنك كحد أدنى أن ترحب بالابن، كيف أنت يا عم ؟ ما اسمك ؟ بأي صف ؟ وإذا معك قطعة سُكر أعطيته إياها، وإذا وجدت لديك قلماً ثميناً، وهذا الإنسان له فضل عليك أعطيته القلم، وهذا طبيعي جداً وهو شكر عملي حقاً.

تُريد شيئاً يريح قلبك، تُريد لهذا الإنسان الذي أكرمك، أن تُعبّر عن امتنانك له، فتلقى أمامك ابنه وتكرمه، الله عز وجل غني عن العالمين، يطعم ولا يُطعم، مستحيل أن تقدم هدية إلى الله لكن ليس أمامك إلا عباده، كلهم عباده، حتى الكفار، حتى الذين أنكروا وجوده هم عباده إذا أحسنت إليهم فهذا عمل خيرٍ عند الله محفوظٌ، فإن كنت طبيباً وجاءك مريض، والمريض تعرفه غير مؤمن بالله ولا دين له، فهذا عبد لله أمامك يجب أن تقدم له كل شيء، كل ما في إمكانك لأنه عبد لله.

مثل آخر في مجال الحيوان، فإذا جاءك حيوانٌ يحتاج أن يأكل، فتطعمه، نعرف أناساً يطعمون الطيور ويشعر أحدهم بلذة عارمة وبسعادة، فيشتري ٢ كيلو أو ثلاثة من الحبوب، التي تصلح للطيور يضعها على السطح فترى سبعمائة أو ثمانمائة طير تسقط على السطح وتأكل يقول: كأني أتغذى أنا، شعور نبيل سامٍ، هؤلاء مخلوقات لله عز وجل، لذلك فالمؤمن وهو يقود مركبته يحرص حرصاً كبيراً على ألا يدهس بها مخلوقاً، فمثلاً لو دهس غنمة لقطع أصحابها عنقه، ويقطعون عليه الطريق، ثمنها ثمانية آلاف يغرمونه الثمن. لكن إذا دهس كلباً لا أحد يُحاسبه، ترى في الطرقات منها مئات مدهوسة، أما المؤمن فهو يعرف أن هذا الكلب حتى لو لم يكن ملكاً لأحد، ولو لم يكن هناك يحاسبه عليه، لكن يعلم أن الله ربه ويحاسبه، لذلك فالمؤمن يحرص حرصاً بالغاً على ألا يدهس حيواناً وإذا وقع منه من غير قصد يبادر إلى أداء صدقة فلعل الله سبحانه وتعالى يعفو عنه.

هذا هو الشُكر، فالشُكر بالأفعال أن تعمل عملاً صالحاً مع كل مخلوق وأنا أؤكد أنك إن تخدم المسلمين فقط أو إن تخدم المؤمنين فهذا أرقى وأجدى عن الله تعالى، أما أن تخدم إخوانك ممن تلتقي بهم في المسجد، فهذه نظرة ضيقة جداً جداً جداً ولا تُرضي الله كثيراً، بل يجب أن تخدم الخلق عامة.

حدثني أخ قال: رجل مُنعَم يركب سيارته الفخمة يمشي في طريق بين مدينة ومدينة رأى شاباً راكباً دراجة جنزيرها مقطوع والرجل له مكانته التجارية والاجتماعية، وسيارته فخمة ثمنها عشرات الملايين، وقف وأصلح له الدراجة، فكان هذا العمل سبب إسلام الشاب وإيمانه وأصبح من أخلص إخوانه لأنه أصلح له الدراجة.

إذاً، هذا هو الشُكر ؛ الإسلام نظرته أممية، وليست نظرته نظرة ضيقة، هذا مسلم وذاك غير مسلم، هذا مؤمن وذاك غير مؤمن، هذا من إخواننا وهو من جماعتنا، هذه كلها عنعنة جاهلية، إذا كنت فعلاً تعرف الله فهؤلاء جميعاً عبيده.

والله الذي لا إله إلا هو ما من مخلوق ترحمه إلا شكر الله لك.. قال: بغيّ، والبغيّ معروفة، رأت كلباً يأكل الثرى من العطش فسقته فشكر الله لها وغفر لها و الحديث الشريف يقول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: بَيْنَا رَجُلٌ يَمْشِي فَاشْتَدّ عَلَيْهِ الْعَطَشُ فَنَزَلَ بِئْرًا فَشَرِبَ مِنْهَا ثُمّ خَرَجَ فَإِذَا هُوَ بِكَلْبٍ يَلْهَثُ يَأْكُلُ الثّرَى مِنَ الْعَطَشِ فَقَالَ لَقَدْ بَلَغَ هَذَا مِثْلُ الّذِي بَلَغَ بِي فَمَلأ خُفّهُ ثُمّ أَمْسَكَهُ بِفِيهِ ثُمّ رَقِيَ فَسَقَى الْكَلْبَ فَشَكَرَ اللّهُ لَهُ فَغَفَرَ لَهُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللّهِ وَإِنّ لَنَا فِي الْبَهَائِمِ أَجْرًا قَالَ فِي كُلّ كَبِدٍ رَطْبَةٍ أَجْرٌ))

(صحيح البخاري)

ذات مرة رأيت في مزرعة قرب يعفور سمكاً، صاد بعض من في المزرعة سمكاً من هذا السمك وأرادوا فوراً أن ينظفوها، بحجة استغراقها وقتاً طويلاً لتموت، قلت: فما المانع أن تنتظر ولا تعذب

مخلوقاً، انتظر حتى تموت الأسماك، هو يريد أن يفتح البطن وهي حية، فهذا تعذيب لبعض خلق الله، أشاهد أحياناً بائع فراريج يذبح الفروج ويلقيه فوراً بماء يغلي، قبل أن يموت، إن هذا خطأ يحاسب الله عليه، فاحذر. قال تعالى:

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦))

(سورة الحج)

لماذا الدين ضروري ؟ هذا مخلوق، قدم جسمه لك، فوق هذا المعروف تسلقه حياً بالماء المغلي، بعد أن تذبحه وقبل أن يموت لاتضعه في البرميل الذي يغلي غلياناً، والله كبير وشديد العقاب، ففي الحديث الشريف:

((عَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذِّبْحَةَ وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ وَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ))

(صحيح مسلم)

هذا هو الشكر..

إذا عرفت الله عز وجل ورأيت فضله عليك، فقد عرفت كيف تتعامل مع مخلوقاته أياً كانت، أقرأ هذه الآية مثلاً:

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً (١١٣))

(سورة النساء)

والله إني أقرأها عشرات المرات ولا أشبع منها:

(وكان فضل الله عليك عظيماً)

أوجدك من عدم، عمرك الآن ثلاثون سنة، افتح كتاباً قد طبع سنة ألف وتسعمائة وثمانيةٍ وخمسين، فأثناء صف الحروف أين كنت أنت ؟ أكان لك وجود ؟ أكان لك ذكر ؟ أكان لك حجم ؟ أكان لك جرم ؟ أكان لك أهمية ؟ لم تكن موجوداً كلك، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١))

(سورة الإنسان)

فأنعَمَ الله عليك بنعمة الوجود، وأعطاك صورة قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤))

(سورة غافر)

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠))

(سورة البلد)

يقولون إن بشار بن برد خاط ثوباً عند خياط أعور، لبس الثوب تضايق منه لا قصير ولا طويل، قال له والله لأهجونك ببيت لا تعرفه أمدحاً كان أم ذماً قال:

خاط لي زيد قباء ليت عينيه سواء

***

قباء ثوب، ليت عينيه مثل بعضهما بعضاً، فيا ترى هذا مدح أم ذم، فالبيت قد يكون مدحاً ويصح أن يكون ذماً، عينان، وبالعينين ترى البعد الثالث، بعين واحدة حاول أن تدخل الخيط في ثقب إبرة، فسوف يأتي الخيط بعيداً عن الإبرة عشرة سانتيمرات بالعينين تلقى البعد الثالث، بالعينين العملية دقيقة جداً، مرتكز خيال العينين فيه انزلاق بسيط جداً، هذا الانزلاق يعطيك البعد الثالث.

له عينان يعني له شكل حسن، فالنبي الكريم كلما رأى وجهه في المرآة يقول:

((عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يَقُولُ: اللّهُمّ أَحْسَنْتَ خَلْقِي فَأَحْسِنْ خُلُقِي))

أعطاك صورة أعطاك عقلاً أعطاك قلباً ورئتين... ألخ، شكا لي رجل بعض همومه فقلت له: أتحتاج صماماً لقلبك ؟ قال لا، قلت له أتحتاج أن تغسل كليتيك كل أسبوع ؟ قال: لا، قلت: أنت في نعمة عظيمة إذاً فاحمد الله تعالى.

الذي ليس مضطراً أن يضع صماماً أو ليس بحاجة لإجراء عملية قثطرة في لندن ويدفع مليون ليرة، وليس مضطراً أن يغسل كليتيه كل أسبوع مرتين ويترقب الآلة هل تعطلت أولم تتعطل، وليس مضطراً أن يحمل غائطه بيده، وليس مضطراً وليس مضطراً...، فاليسجد لله ويقبل الأرض ويشكر الله عز وجل.

إن العبد إذا أطاع ربه ثم إن الرب تعالى كافأه على طاعته كان ذلك شكراً للعبد. فكيف بالجزاء الأوفى الذي سيجزي الله به عباده، فهذا يعنى أن الله شكور.

و الشكر المُفسّر بالثناء، يعني إذا عملت عملاً طيباً لك الجنة أنفقت من مالك لك جنة عرضها السماوات والأرض، أنفقت من وقتك أنفقت من خبرتك من علمك، عاونت، أخلصت، أتقنت عملك، ونصحت المسلمين، يعني قدمت الحد الأدنى، كأن تكون لك مهنة تتقنها ثم تعمل العمل بإتقانٍ وتأخذ أجراً معتدلاً، فالحد الأدنى أن تنفع المسلمين بطريقة ما.

إذا اشتريت قماشاً رديئاً(ستوك) من اليابان، صنعت منه قميصاً وبعته بمائة وخمسين ليرة، يعني بسعر زهيد مغرٍ، فلبسه من اشتراه مرتين وبحركة بسيطة تمزق وتلف، فأنت مؤذٍ! فاحرص على أن يكون عملك نافعاً لتنال شكر الله والعباد.

اشترى أحدهم كراسي للجلوس، ووضعها في غرفة الضيوف، ولأول سهرة جلسوا على كرسي انكسر، فهذا غش فاضح.

ومن غش المسلمين بل مَن غش الناس أياً كانوا يكن مسيئاً، الحد الأدنى أن تتقن عملك وتأخذ ثمناً معتدلاً وبها تكون قد قدمت خدمة للمسلمين، وصنعت معهم صنيعاً حسناً.

أحدهم اشترى جرابات صوف ثمن الزوج ستين ليرة أو سبعين، ما إن لبسهما ثلاث مرات حتى تقطعت فما السر ؟ فالخيط خيط " براتو " وهذا " شراطيط " من إيطاليا يعالجونها ويصنعون منها غزلاً، هذا الخيط غير جيد غير صالح للارتداء وجد جرابات سميكة وألوانها جميلة يدفع ثمنها ستين لَبِسَهُا ثلاث مرات انتهت، الذي يَغُش خلق الله فسيعاقبه الله، لِمَ تخدعهم و تبتز أموالهم ؟ رجل فقير أجره محدود، قطع من ثمن طعامه وشرابه واشترى هذه البذلة فمن أول غسلة انعدمت. ما هذا ؟ إنه غش وتعد على الآخرين. فاحذر، فالله تعالى يقول:

(وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا)

(سورة الشورى: من آية " ٤٠ ")

فالحد الأدنى أن تتقن عملك، وأن تتقاضى ثمناً معتدلاً، والحد الأعلى حدث ولا حرج، تطعم الطعام تعين الضعيف: **" ليس كل مصل يصلي إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكف شهواته عن محارمي، ولم يصر على معصيتي، وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك لي ".**

حدثني أخ والقصة قديمة منذ عقدين تقريباً أثناء أحداث لبنان قال: جئت من " الهامة " فرأيت رجلاً واقفاً في ضاحية " دُمر " أيام البرد الشديد حاملاً طفلاً صغيراً يلفه بسترته، وبجانبه امرأة، وكانت الساعة الثانية عشر ليلاً، فقلن أوصلهم لدارهم، وإذا بالطفل حرارته مرتفعة جداً، واحدة وأربعون درجة وهذان أبواه أتيا من لبنان أثناء أحداث لبنان، سكنا في بيت في دمر ولا يعرفان أحداً في الشام، قال أركبتهم بالسيارة وأخذتهم إلى طبيب مناوب عالج الصغير واشترينا الدواء من صيدلية مناوبة، ذهبنا إلى مشفى لأعطي الطفل إبرة، وانتهينا الساعة الرابعة صباحاً، بقيت أسبوعين أو ثلاث مغموراً بسعادة لا تُوصف.

يقول بعضهم: والله نحنُ نُريد السعادة، السعادة بين يديك، إذا أردت أن تَسعَد فأسعد الآخرين، كل واحد منا يذوق لذة الأخذ، هو يقبض المال فيفرح ويمرح ولكن ما أحد ذاق لذة العطاء، العطاء له لذة أكثر، العطاء تمسح به جراح أسرة، فمثلاً شخص لهفان تحل له مشكلته، بلا مأوى أمّنت له بيت، بلا زوجة ساعدته على الزواج، أو رجل مريض دللتَهُ على طبيب مُخلص لا يَغُشّهُ، لا يبتزّ أمواله، له قضية بالقضاء دللتَهُ على محامٍ صادق.

لا تعرف طعم السعادة حقاً إلا إذا خدمت الناس.

مرةً سمعت متهجداً، يقول: يا رب لا يحلو الليل إلا بالتهجد لك، ولا يحلو النهار إلا بخدمة عبادك. هذا إن كان صادقاً فيما يقول وفعلاً طبق ما يقول، هنيئاً له. وهكذا كن.

على المسلم أن يزور مريضاً أو أن يقدم معونة:

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا))

هذا الحديث الشريف لا أشبع منه.

صيام شهر من صيام رسول الله واعتكاف شهر..

((لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا))

الشُكر الثاني: أيها الإخوة أن تُثني على الله: يا رب أنت اللطيف، أنت الرحيم، أنت القوي، أنت الغني، أنت الرؤوف، يا رحمن الدنيا ورحيم الآخرة، يا غفار الذنوب، يا ستار العيوب، أنت الذي تعطي ولا تسأل، تحلُم ولا تعجل.

لسانك ينطلق: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، يعني إذا أثنيت على الله، هذا شُكر أيضاً.

يا ربي لقد خلقتني وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفُ عني، اللهم إني أسألك موجبات رحمتك.

يعني أن ينطلق لسانك بذكر الله بالثناء عليه، يا رحمن الدنيا والآخرة، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له السماوات والأرض وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أعوذ بك من أن تنزل بي سخطك أو أن تحل بي غضبك، لك العتبى حتى ترضى لكن عافيتك هي أوسع لي.

إذا رأيت مؤمناً من غير رواد جامعك ومن غير جماعتك، ورأيته مستقيماً محباً لله إن لم تحبه فلست مؤمناً، لما تُعمّق انتماءك فقط لجماعتك فأنت طائفي، أنت عُنصري محدود الأفق، بل عليك أن تنطلق إلى الناس جميعاً.. فالدعوة عامة..

((عَنْ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيّ أَنّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ وَعَظَنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللّهِ إِنّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا قَالَ قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلا هَالِكٌ....))

الإسلام للناس جميعاً، يجب أن تعمل تحت ضوء الشمس، لا مُعميات في الإسلام، كل شيء واضح، خالق الكون هذا كتابه وهذا منهجه وهذه سُنّة نبيه، فأنا أُلِح ألا يقتصر العمل الطيب على من يلوذ بك أو ممن تعرف من العباد، لا.. بل خيرك للناس كافة، ولا تدري في أية لحظة يُشرق في نفس هذا الإنسان الذي أسديت إليه الجميل ؛ فهذا هو الإيمان لعلّ الله عز وجل يهدي بك وأنت لا تدري.

فمثلاً كان لأبي حنيفة النعمان جارٌ مغنٍ تارك صلاة شارب خمر لا ينيمه الليل وطول الليل يغني:

أضاعوني وأي فتى أضاعوا ليوم كريهة وطعان خلس

***

ذات ليلة لم يسمع أبو حنيفة غناء في البيت المجاور، يعني أن المغني لديه عارض عرض له، تفقده فوجده في السجن لقضية ما، فذهب إلى مدير السجن وشفع له، مدير السجن لم يُصدّق، وجد الإمام الأعظم عنده في المكتب، فأطلق إكراماً له كل من أُلقي القبض عليهم في تلك الليلة، وهو في طريقه قال له: يا فتى هل أضعناك.. نسيناك، فكان هذا المعروف سبباً لتوبته.

اجتهادك وبطولتك ليس في إسداء خدمةٍ لمؤمن، المؤمن سوي مثلك، تجلس إلى مؤمن فتقول: لقد أقنعته، وهو قانع أصلاً قبل أن تؤثر فيه، إذا كنت بطلاً تُقنع إنساناً تارك صلاة، تُقنع إنساناً عنده شكوك بالله عز وجل، هُنا البطولة، أن تُدخل على المجتمع المؤمن عنصراً جديداً، تجلس إلى عدو للدين عنده شبهات ولا يعبأ بالعلماء ولا يعبأ بالدين تقنعه تحلم عليه وتعطيه الأدلة القطعية، ويرى منك خُلُقاً حسناً، لمدة شهر أو شهرين أو ثلاثة فيشرح الله صدره، ومن بعد يصلي ثم يتوب، ويأتي إلى المسجد، ويعتاد المساجد وحلقات العلم، فهذه البطولة حقاً وليست البطولة أن تُفسد الناس على شيوخها، ولا الشيوخ على تلاميذها لا. فأنت مهمتك أن تُحدث عنصراً جديداً في المؤمنين البطولة على قدر المشقة وبحجم العمل الإيجابي النافع.

مرة ذكرت لجلسائي كلمة قالها رجل يدعو إلى الله عز وجل، قال لتلميذه: يا بني السليم لا يحتاجُك، يحتاجك السقيم السيء، فالفهيم والذكي والمتفوق والورع والتقي والنقي، إذا حدثته عن الله فأبكيته فماذا فعلت ؟ عنده مشاعر ولديه عواطف صادقة فلما ذكرته تأثر، أما إذا كنت تستطيع أن تجلس مع البعيدين والمنكرين والمتشككين تمنحهم من علمك وأدلتك وحجتك، وتزيل عنهم كل الشبهات وتأخذ بيدهم درجة درجة، مرحلة مرحلة، تأخذ بيدهم، تعينهم، تكرمهم، حتى يحبوك، وترقى بالعليل والسقيم إلى السعادة فهذا العمل طيب مشكور.

وبعد، فإن الشُكر يكون بالثناء بالثناء، فالربّ سبحانه وتعالى إذا أثنى على عبده فقد شكره، أنت تثني على الله في مجالسك والناس يحبونك يحبونك لأحاديثك هذه ويمدحونك في غيبتك، هذا شُكر الله لك، إذا أحسنت للعباد يُحسن الله إليك:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠))

(سورة الرحمن)

والإمام الغزالي له كلمة، قال: **" إذا كان الذي أخذ فأثنى شكوراً فالذي أعطى وأثنى أولى أن يكون شكوراً ".**

فالذي قبض القبضة قال شكراً، والذي أعطاك، وبعد أن أعطاك وسمع ثناءك أثنى عليك، أيهما أحق أن يكون شكوراً أكثر، فالله الذي أعطى سبحانه وتعالى هو الشكور، فالذي أخذ فأثنى على الله يُعد شكوراً، أما الذي أعطى وأثنى مرتين هذا هو الشكور، مرةً أكرمه بعطاءٍ مادي، ومرةً أثنى عليه عند الخلق.
لذلك: وفي البخاري: يقول الله عز وجل:

((من ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم))

أنت تكلّمت بين خمسة طلاب أو ستة، والله عز وجل جعل ذكرك بين ثلاثة مئة رجل، فلما ذكرت قام أحدهم وتكلّمَ عنك كلاماً تعطّرَ المجلس بذكرك، الله شكور، أنت أثنيت على الله أمام خمسة أشخاص من عامة الناس، والله عز وجل أثنى عليك أمام عَلية القوم،

((ما ذكرني عبدي في نفسه إلا ذكرته في نفسي، ولا ذكرني عبدي في ملأ من خلقي إلا ذكرته في ملأ خير منهم))

هذا هو الشكور، إن عملت يعاملك بالإحسان فهو شكور، وإن تحدثت عن الله عز وجل يعاملك بالعرفان فهو شكور.

الشكر يتوجه لمن ؟ إما إلى الخالق وإما إلى المخلوق، ومن ثم فشكر الخالق مستحيل، أي أنك يستحيل عليه أن توفيه بشكرك له، لماذا ؟ قالوا: لأن شُكر النعمة مشروط بمعرفة هذه النعمة، وما دامت معرفة النعمة مستحيلة فالشُكر مستحيل، والدليل:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨))

(سورة النحل)

أعرف قريباً لي هو طالب طب في السنة الرابعةً، صحته جيدة جداً ووجهه نضر، أصابه فقر بالدم، غذاوه درجة أولى، ثم صار ينتقل من طبيب إلى طبيب إلى طبيب بقي ستة شهور، بعد ذلك قال له طبيب: لعل الطحال له مشكلة، فأخذوا عينة منه وفحصوه، فماذا في الطحال ؟ الطحال هو في الأصل مقبرة لكريات الدم الحمراء الميتة، فصار هذا الطحال يأخذ كرية حمراء حية يميتها حتى يضعها في المقبرة عنده، كمقبرة بنيناها حديثاً ولا يوجد موتى تعال إلى هنا اقتلوه وادفنوه، لأننا نُريد أن نملأها فكلها قبور فارغة هذا الطحال عبارة عن نصف أوقية من الحم، مهمته مستودع للدم ومقبرة للكريات الحمراء، اختل توازنه قليلاً فصار يأخذ كريات حية ويدمرها ليحللها ويبعث بها إلى الكبد والدم فتوفي قريبي. ما مرضه ؟ نشاط في الطحال زائد فقط.

وأنت عزيزي القارئ انظر إلى نعم الله عليك، فإذا أردت أن تجري إحصاء: فالطحال والكلية والكظر مركز التوازن، مركز توازن السوائل، مراكز عديده في جسمك، وبإيجاز: إنك إن تعد نعمة الله عليك لا تحصيها.

ما دام يستحيل عليك أن تعرف نعمة الله كما هي إذاً يستحيل أن تشكر الله حق الشُكر، لهذا ماذا قال النبي:

((سبحانك لا نحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك.))

الشكر مستحيل، أي توفي الله حقه من الشكر، مستحيل هذه واحدة.

الثانية: الشُكر نعمة من الله، فأنت تشكُر على نعمة والشُكر نفسه نعمة، فأنت في نِعم، يا رب كيف أشكرك وشُكرك لا يتم إلا بنعمة منك جديدة، إذاً أنت مفتقر إلى أن تكون شاكراً لله عز وجل.

هناك نقطة دقيقة وهامة: رؤية النعمة نعمة، الله عز وجل يعطيك مع استغنائه عنك، لكنك تشكُرَهُ مع افتقارك إليه وشتان بين هذا وذاك، وهناك أدلة كثيرة على أنه يستحيل أن تشكُر الله كما ينبغي، لكن أخذ القليل خير من ترك الكثير، وما دام مستحيلاً أن تشكُر الله كما ينبغي فلذلك قل: يا رب لا أحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك، يا رب ليس في قدرتي أن أشكرك كما ينبغي لكن أشكرك بقدر ما أعلم وبقدر ما أستطيع.

آخر ما ينبغي شد أفكار القارئ إليه بالموضوع يتلخص بالسؤال التالي والإجابة عليه: أسدى مخلوق إليك نعمة فلمن الشُكر ؟ الجواب: لله فقط. فهذا المخلوق الذي أكرمك مِن خلقه، أعطاه الله عز وجل قوةً وحياةً، والله عز وجل هو الذي سمح له أن يخدمك، كما ألهمه أن يخدمك، بماذا خدمك ؟ أعطاك مثلاً طعاماً، من خلق الطعام؟ الله عز وجل، أعطاك مالاً وهذا المال قيمته بقيمة مشترياته، من خلق النِعم ؟ الله عز وجل، أعطاك طعاماً كيف تأكل الطعام ؟ تحتاج إلى أجهزة ؟ إذاً الذي خلق والمُنعِم هو الله، والذي ألهَمَهُ هو الله، والذي مَكّنَهُ هو الله والذي خَلَقَ النِعمة التي هي موضوع عطائُك هو الله، والذي مكّنَكَ من أن تستفيد من هذه النعمة هو الله، إذاً الشُكر لله عز وجل، ولكن هذا المخلوق مادام مُخيّراً، إذاً يستحق أن تشكُرَهُ بعد الله عز وجل، فالشُكر لا تقل لله وفلان، بل قل لله ثم لفلان.

هذه (ثم) ضرورية جداً، الحمد لله على هذه النعمة التي أنعم الله بها علي ثم الشكر لفلان الذي جاءتني عن طريقه، لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أبِي سَعِيدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَنْ لَمْ يَشْكُرِ النّاسَ لَمْ يَشْكُرِ اللّهَ))

لو فرضنا جاءك معروف من جماد، رجل ماشٍ في طريق مر بشرفة من إسمنت ومشى تحتها فوقع حجر من آخر البناية عليه، هذه الشرفة تلقت الحجر، لولا هذه الشرفة لهلك، فهل يشكر الشرفة ويقول: الله يجزيك الخير لأنك في هذا المكان، هذه شرفة جامدة لا تعقل، إذا جاءك خير من جماد أو من حيوان أو من مخلوق غير مكلف فالشُكر لله فقط، أما إذا جاءك خير من مخلوق مكلّف مخيّر، قلت: ما دخله إن الله سخّرَهُ ليّ، فهذا منتهى الوقاحة ومنتهى الجحود، إذا جاءك الخير من إنسان مكلّف يجب أن تشكُرَ

الله لأنه خَلَقَهُ، وألهَمَهُ، وسَمَحَ لهُ، ومَكَّنُه، وخَلَقَ الله النِعمة التي بين يديه وجعلك تنتفع بها، كله لله لكن ما دام مخيّراً وقدّمَ لك هذه النِعمة باختياره إذاً نزجي له الشُكر ثانياً بعد الله عز وجل.

وبعد، وقفه أخيره بالموضوع وهي لطيفة ؛ موازنة بين نعمة أسداها الله إليك ونعمة أسداها زيد إليك، قالوا: أولاً إن إنعام الأمير مكدر من وجوه أحدها أنك ربما احتجت إلى شيء ولا يعطيك إيّاه لأنه محتاج إليه، مرة كنت في الحج احتجتُ إلى ليتر ماء، فسألت حاجاً قال: والله يلزمني الماء، شكراً فمعه حق لأن الماء يلزمه. فأنت قد تطلب من إنسان شيئاً هو بحاجة إليه، وإن كنت بالمطار مثلاً وأردت أن تكتب بطاقة وليس معك قلم، فتقول لواحد: إذا سمحت أريد قلمك، يقول لك: أحتاجُهُ والله، فأنت إذا طلبت من إنسان حاجة قد يكون هو محتاج إليها فلا يعطيك إياها، أما إذا سألت الله عز وجل، فإنه يلبيك ولا يمنعك، وهذا أول فرق.

الأهم من ذلك أنه يمكن لفلان أن يعطيك، ولكن فلاناً ليسَ حاضراً الآن، فأنت مسافر وهو بالشام وعطاؤه مستحيل لبعد المسافة بينكما أما الله فهو معك دائماً، هذه النقطة الثانية، النقطة الأولى قد يكون الشخص قادراً على العطاء لكن الشيء محتاج إليه قبلك، النقطة الثانية أنك قد لا تستطيع أن تصل إلى هذا المنعم لسبب ما.

النقطة الثالثة ؛ أنك إذا قصّرتَ مع إنسان فإنه يقطع عنك فوراً، لكن الله تعالى قال:

((عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

والأمير إذا أعطى يقول لك: اللحم الذي على أكتافك من خيري، معلم عنده أجير، يمنُ عليه، وإذا أعارَهُ بذلة، فإنه يمن عليه بها أمام الناس، ويفَضَحَهُ أمام الناس، كأن يقول له: حافظ عليها ولا تفسدها.

فأول نقطة أن الأمير قد لا يعطي لأنه بحاجة لهذا الشيء، وقد لا تستطيع أن تصل إليه، وإذا قصّرتَ في خدمته حَرَمَكَ هذا العطاء وقد يمنُ عليك.

وفي ختام معالجتنا للموضوع أقول: الشكور الذي إذا نَوّل أجزل، وإذا أطيع بالقليل قبل وهو الذي يقبل القليل ويعطي الجزيل، وهو الذي يقبل اليسير من الطاعات ويعطي الكثير من الدرجات، وقيل حقيقة الشُكر الغَيبة عن شهود النعمة بشهود المنعم.

الدول البعيدة العلمانية ماذا ترى بعينيها ؟ النعمة فقط، وكل شيء ثمين عندها وله ثمن بينما المؤمن ماذا يرى ؟ المُنعِم، وملخّص الدرس كله، أنك إذا استطعت أن تتجاوز النعمة إلى المُنعم فأنت شكور.

يسمع أحدنا النشرة الجوية أن هناك منخفضاً، وأمطاراً، وثلاثون ميلمتر مليمتر من الأمطار نزل، فهو في النشرة مع النعمة وفي النعمة، أما المؤمن يا رب لك الحمد، سمعتأنهم صلوا في دمشق صلاة الشُكر على هذه الأمطار، إذ وصل المعدل اثنى عشر ميلمتراً، في مطار دمشق والمزة، و ميلمتر واحد من قبل صارت ثلاثة عشر ميلمتراً. الحمد لله فهذا الشُكر ونحن بأمس الحاجة لهذا الوعظ لاقتناص العبرة.

٢٣- اسم الله الكريم :

هذا الاسم أيها القارئ الكريم له دلالات كبيرة، وجدير بالإنسان أن يتخلّق بهذا الاسم لأنه من الأسماء التي يمكن لكل امريءٍ أن يتخلّق بها فيرقى بها إلى الله سبحانه، وأسماء الله كما تعلمون، منها أسماء خاصة بالله عز وجل كالخالق، القديم، وهناك أسماء أمرنا أن نتخلق بها، واسم الكريم واحد منها.

اسم الكريم ؛ ثابت بنص القرآن الكريم، وسوف يتضح بعد قليل ما معنى اسم **" القرآن الكريم "**، وهو ثابت في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ (٦) الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ(٨))

(سورة الانفطار)

وهذه الآية تخاطب القلب والعقل معاً، وقد ورد هذا الاسم بصيغة اسم التفضيل في آية أخرى بقوله تعالى:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥))

(سورة العلق)

فالكريم في قوله تعالى:

(يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ)

والأكرم في قوله تعالى:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)

قبل أن نصل إلى ما تعنيه كلمة كريم في حق الله جل وعلا نريد أن نبدأ الحديث بما تعنيه كلمة كريم في التعامل اليومي، فكلمة كريم نستخدمها كثيراً، فقال العلماء: **" كل صفة محمودة تسمى كرماً على خلاف ما يظنه معظم الناس "**، من أن فلاناً كريم يعني أنه يعطي، وعطاؤه كثير.

فكلمة كريم شاملة واسعة: فالحلم كرم، السخاء كرم، اللطف كرم، الصبر كرم، المروءة كرم.. فالكرم يعني أيّة صفة حميدة يتصف بها الإنسان، بل إن الصفات الحميدة كلها تلخص بكلمة واحدة هي الكرم، بينما الصفات الخسيسة كلها تلخص بكلمة واحدة هي اللؤم.

وعلى النقيض الذل وهو: أن يقف الكريم بباب اللئيم، فالخسيس لئيم والمتكبر لئيم، والجحود لئيم، والذي يحب ذاته على حساب الآخرين لئيم، والبخيل لئيم، كل الصفات الخسيسة تجمعها كلمة لئيم، وكل الصفات المحمودة تجمعها كلمة كريم، فالناس رجلان ؛ كريم ولئيم.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

أعلمه الرماية كل يـوم فلما اشتد ساعده رمانــي

وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجانـــي

***

والواقع يثبت أن: الناس رجلان برٌّ كريم، وفاجر لئيم، هكذا قال عليه الصلاة والسلام..

فليس معنى كريم الذي يُعطي العطاء الكثير فقط، بل إن الحليم كريم، اللطيف كريم، الرحيم كريم، الصافي كريم، الودود كريم، المُنصف كريم، ومنه حجر كريم: اللؤلؤ، الألماس، الياقوت، المرجان.

محمد بشر وليس كالبشر بل هو ياقوتة والناس كالحجر

***

فالياقوت حجر لكنه كريم، والماس حجر لكنه كريم.

ومن معاني الكريم من كان كريم النسب، من هو الكريم بن الكريم ابن الكريم بن الكريم ؟ إنه سيدنا يوسف، قال عليه الصلاة والسلام:

((يوسف أكرم الناس))

أو نقول: فلان كريم الطرفين، يعني أمه كريمة وأبوه كريم، فقد حاز الشرف من طرفيه، من طرف أمه وأبيه.

من معاني الكريم من كان ذا صورة حسنة، والدليل قول الله عز وجل حينما وصف سيدنا يوسف، قال الله عز وجل:

(فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطّعْنَ أَيْدِيَهُنّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١))

(سورة يوسف)

فالكرم يُستعمل بمعنى النسب الشريف، ولا يُتحدث عن شرف النسب إلا بعد معرفة الله وتطبيق منهجه، فإذا تحدثنا عن النسب فقط ؛ فقد يعني نسب الدنيا المتعارف عليه عند الناس، فأبو لهب بن عبد المطلب جد النبي صلى الله عليه وسلم ؛ والقارئ الكريم يعرف من أبو لهب:

(تَبّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢))

(سورة المسد)

أنا جد كل تقي ولو كان عبداً حبشياً.

لا نتحدث عن النسب إلا بعد الإيمان، إذا أضيف النسب إلى الإيمان فهو نور على نور، أما قول الشاعر:

جمال الوجه مع قبح النفوس كقنديل على قبر المجوسي

***

فإنما يعزز المعنى من أن المرء الجميل الخلقة، لابد له من خلق ودين يجمله كذلك، فتتم الصورة حسنة صافية.

أما المقام الكريم ؛ فهو الجنة، فلا تعب هناك ولا نصب ولا خوف ولا حزن ولا حسد ولا تباغض، ولا شيء يزعج، ومن كان ذا مقام كريم في الجنة فقد فاز حقاً.

ومن معاني الكريم ؛ الشيء العزيز، الذي تشتد الحاجة إليه يحتاجه كل شيء في كل شيء، ويقلُ وجوده ولا يستغنى عنه إطلاقاً، والدليل قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣))

(سورة الحجرات)

والكريم الشيء الذي تكثر منافعه، قال تعالى:

(قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩))

(سورة النمل)

كتاب كريم ؛ كله منافع، كله فوائد، كله حقائق، كله توجيهات صائبة، كله خيرات، كله بركات، إذاً معنى القرآن الكريم صار واضحاً: لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، القرآن الكريم ليس فيه باطل ولا غلط، ليس فيه خلل ولا تناقض، وليس فيه مخالفة للواقع، ولا ضعف في أسلوبه، ولا إثاثة، ليس فيه معالجة سريعة، ولا معالجة متناقضة، قرآن كريم، خلا من كل شائبة، يعني المعنى الذي يجمع كل هذه المعاني، الكرم، يعني الكمال، قرآن كريم أي: خلا من كل عيب.

كذلك، نقول ناقة كريمة، أي غزيرة اللبن، درها كثير، والنبي عليه الصلاة والسلام حينما أرسل سيدنا معاذاً إلى اليمن، قال له:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمُعَاذِ ابْنِ جَبَلٍ حِينَ بَعَثَهُ إِلَى الْيَمَنِ: إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

(أخرجه البخاري أول الزكاة، ومسلم في الإيمان، وأبو داود باب في زكاة السائمة، والنسائي، وابن ماجة، وأحمد في المسند)

كرائم أموالهم ؛ يعني إن كان عنده بقرة يحرص عليها حرصاً شديداً فدعها له وخذ بقرة أخرى يختارها لك هو، لا كما يفعل بعض الناس، يأخذ ما يعجبه وهذا يتعارض مع السُنة الشريفة، فالسنة كما قال له:

((إياك وكرائم أموالهم))

وسُمي العنب كرماً لأنها فاكهة كثيرة الخير، ظل ظليل، وثمار يانعة وقطوف دانية، وغذاء جيد وفاكهة محببة.

أحياناً ينصب الناس خياماً على مداخل البيوت هذه الخيام من حين لآخر تتمزق، تعصف بها الرياح، تتلفها الأمطار، ولكن أناساً يزرعون الكرم على مداخل البيوت، فهذا الكرم ظل ظليل وفاكهة دانية ويانعة ومفيدة وإلى ما شاكل ذلك.

وإذا قلنا مكارم الأخلاق، يعني أفضلها وأحسنها وأرفعها وأسماها.. فهناك إذاً مكارم الأخلاق، والكرم وهو العنب، وهناك ناقة كريمة كثيرة الدّرّ، وهناك الكتاب الكريم، كثير الفوائد، وهناك الأحجار الكريمة الصافية من كل شائبة، وهناك العزيز، الشيء النادر، وهناك مقام كريم، وهناك الجمال الصوري:

(فَلَمّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنّ مُتّكَأً وَآتَتْ كُلّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنّ سِكّيناً وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنّ فَلَمّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطّعْنَ أَيْدِيَهُنّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلّهِ مَا هَذَا بَشَراً إِنْ هَذَا إِلّا مَلَكٌ كَرِيمٌ (٣١))

(سورة يوسف)

فإذا قلت: قرآن كريم يعني كتاب الله، فالله سبحانه وتعالى كماله مطلق وكلامه في كماله مطلق، فضل كلام الله على كلام خلقه كفضل الله على خلقه. وقال بعض الشعراء:

وحمل الزاد أقبح كل شيء إذا كان القدوم على الكريم

***

الآن إذا وصفنا الله سبحانه وتعالى، كما وصف هو نفسه، بأنه كريم:

(يَا أَيّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرّكَ بِرَبّكَ الْكَرِيم (٦))

[سورة الانفطار]

كلمة ما غرك، ما الغرور ؟.. الغرور أن ترى علبة مثلاً في الأرض فتظنها شيئاً ثميناً، تنكب عليها وتلتقطها، فإذا هي علبة فارغة، ظننت فيها قطعة ألماس أو ظننت فيها قطعة ذهب، أو ساعة ثمينة فانكببت عليها، فإذا هي علبة فارغة، هذه الحادثة اسمها الغرور، أنت اغتررت بها، هذا المعنى هل يمكن أن ينسحب على هذه الآية، لا..

(يَاأَيّهَا الإِنسَانُ مَا غَرّكَ بِرَبّكَ الْكَرِيم)

المعنى الذي يليق بهذه الآية هو أنك إذا ظننت أن هذا القاضي مثلاً يقبض الرشوة، فإذا أعطيته مالاً حكم لك وأنت ظالم، فأنت اغتررت بنزاهة هذا القاضي، فإذا قلنا

(يَاأَيّهَا الإِنسَانُ مَا غَرّكَ بِرَبّكَ الْكَرِيم)

يعني ظننت به غير الحق، وظننته غير عادل، وظننته غير رحيم، وظننته غير قدير، إذاً نفيت عنه القدرة والرحمة والعدل والإنصاف، بل هو لا ينسى عباده المؤمنين، وكما أنه لن يضع الذين أفنوا حياتهم في طاعته في النار، وكذلك لن يُكافئ الذين ناصبوه العِداء بالجنة، إذا ظننت بالله غير الحق ظن الجاهلية، فقد اغتررت بربك الكريم، لأنّ الله كريم فكيف تغتر به؟

التعريف الدقيق لاسم الكريم، هو الواجب الوجود المنزّه عن كل عدم وعن كل نقص، العزيز الذي لا إله غيره.

هذا الكلام يُلخّص بصفات ثلاث، وجوده ووحدانيته وكماله، فالله كريم يعني موجود وواحد وكامل. ومن ثم لابد من شرح هذه التعاريف الدقيقة لهذا الاسم العظيم:

الكريم ؛ هو الذي يبتدئ بالنعمة من غير استحقاق، تفضل علينا وأوجدنا دون أن يكون لنا حق في أن نوجد، ليس لنا حق عنده بل تفضل علينا وأوجدنا، فنعمة الإيجاد ابتدأها الله دون استحقاق منا، أنت كإنسان عندك موظف، وأخلص إخلاصاً شديداً، وقدّم جهداً طيباً ربما تكافئه، فهذه المكافأة، جاءت منك ليس ابتداءً ولكن عَقِبَ إحسانه وإخلاصه، مقابل شيء فعله، أما الكريم الحقيقي، الكريم المطلق هو الذي يبتدئ بالنعمة دون استحقاق، أوجدنا من دون اختيار، ومن دون طلب.

ويتبرع بالإحسان من غير سؤال، فإذا قلت يا كريم العفو.. ما هو العفو الكريم ؟.. قد يعفو عنك شخص، من حين لآخر يقول لك لا تنس أنك فعلت كذا، ثم بعد حين يذكرك: أنت فعلت كذا ؟ فتقول: نعم.. جزاك الله خيراً عفوت عني، من حين لآخر يذكرك بمساءتك، لكنك إذا قلت يا رب، يا كريم العفو، عفو الله عز وجل ليس معناه أن يلغي العقاب فحسب وليس معناه أن ينسي الناس ذنبك أيضاً، ولكن عفو الله معناه، أن ينسيك ذنبك، معنى دقيق جداً، يعني أنت صاحب الذنب، ومن كمال عفوه عنك أنه ينسيك ذنبك. **" إذا تاب العبد توبة نصوحاً أنسى الله حافظيه وملائكته، وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه، وأنساه هو نفسه ما فعل ".**

المؤمن ـ من كرم الله عز وجل ـ له جاهلية، و قد ينسى أن له جاهلية، فيعيش في جو لطيف، والله عز وجل يكرمه، هذا معنى كريم العفو.

ومن معاني الكريم أنه يستر الذنوب ويخفي العيوب، إنسان قد يلقى من إنسان آلاف الأعمال الطيبة، فإذا عثر ذات مرةٍ على نقص لديه، تشبث به وأظهره وأذاعه بين الناس، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((اللهم إني أعوذ بك من جار سوء، إن رأى خيراً كتمه، وإن رأى شراً أذاعه اللهم إني أعوذ بك من إمام سوء، إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر))

لكنّ الكريم يغفر الذنوب ويستر العيوب، حتى قال بعض العارفين، والله لو عرفوا قبيح طويتي لأبى السلام علي من يلقاني ولأعرضوا عني وملوا صحبتي.

فربنا عز وجل يظهر من عبده الكرم الجميل ويستر القبيح، فإذا قلت يا ستار، ستار العيوب، يجب أن يقشعّر جلدك، لأن الله سبحانه وتعالى إذا ستر.. ستر حقاً، أما الإنسان فلابد من أن يذكر هذا العيب بأن يهمسه بأذن إنسان آخر يقول: انتبه هذا الرجل فيه من العيوب كذا وكذا.. فهو بذلك ما ستره بل شهر به، لكن جميل الستر هو الله سبحانه وتعالى.

ومن المعني الجميلة أن الكريم متغافل، يتغافل، الكريم لا يغفل ولكنه يتغافل، قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢))

(سورة إبراهيم)

سمعت عن رجل كان مفتياً في هذه البلدة الطيبة، قبل أربعين أو خمسين سنة، وكان قاضياً، وجاءته امرأة فأثناء صعودها درج السلم صدر منها صوت كريه فخجلت خجلاً لا حدود له، فلما اقتربت منه، قال ما اسمك يا أختي، قالت له: فلانة، قال: لم أسمع، قالت له: فلانة، قال: لم أسمع ارفعي صوتك، فأنا سمعي ضعيف، فقالت هذه المرأة لأختها لم يسمعنا..

الكريم يتغافل، واللئيم يدقق بالعيوب، يتبّع العيوب.

النبي الكريم كان مع أصحابه في دعوة وليمة وتناولوا طعام الجزور ثم توضؤوا وصلوا الظهر جميعاً، يبدو أن أحد أصحاب رسول الله انتقض وضوءه من دون قصد، وعرف بعضهم ذلك، فلما أذّنَ العصر قال عليه الصلاة والسلام:

((كل من أكل لحم جزور فليتوضأ، قالوا: كلنا أكلنا يا رسول الله، قال: اذاً كلكم فتوضؤا))

لأنه كريم، تغافل عنه فاللئيم يتتبّع العوَر، يحمّر الوجوه، يحرج، يفضح فضّاح، طعّان، ليس المؤمن بطعّان ولا لعان ولا فاحشٍ ولا بذيء.

الكريم يتغافل واللئيم يتبع ويتحرى، والكريم ؛ إذا استغفره عباده غَفَرَ لهم ولا يذكرهم بأنواع معاصيهم وقبائحهم وفضائحهم.

مرةً وقفت بمنطقة مشرفة على دمشق، بيوت كثيرة، متقاربة، متراصة، وبعضها يضرب في علاء تعد الشام خمسة ملايين نسمة، تلوت قوله تعالى:

(وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧))

(سورة الإسراء)

هذه البيوت لا يعلم ما فيها من طاعات أو من معاصٍ إلا الله ومع ذلك يرزقهم ويعافيهم:

((عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

والكريم إذا أتاه عباده بالطاعات اليسيرة قابلهم بالثواب الجزيل.

إنسان يطعم لقمة، هذه اللقمة تصبح يوم القيامة كجبل أحد، لا أعتقد في الدنيا أن أحدٍ يقدم ليرة ويأخذ بدلاً منها خمسة آلاف مليون ليرة، بالآخرة تأخذ أكثر، أعطيت شيئاً يسيراً، قمت ببعض الطاعات أنفقت بعض مالك، ضبطت شهواتك، التزمت طريق الحق، فأعطاك الجنة وما فيها قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣))

(سورة آل عمران)

الله الكريم جعل هذا العبد الحقير، هذا العبد الضعيف، هذا العبد الذليل يرتفع، أجل، رفعه فقال:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٤٠))

(سورة البقرة)

فهل لنا عهد ؟ كأننا ند إلى ند، ولكن هذا من كرم الله عز وجل إذا خاطبنا، وحينما خاطبنا علّلَ أوامره، وتعليل الأوامر إكرامٌ لنا قال تعالى:

(اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ(٤٥))

(سورة العنكبوت)

الإنسان القوي يعطي أمراً لإنسان ضعيف دون تعليل افعل كذا فقط، ولكن الله عز وجل حينما أمرنا ذكر لنا التعليل كرماً منه وتطميناً لنا، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

(سورة البقرة)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣))

(سورة التوبة)

فلذلك جعلنا أهلاً لمعاهدته فقال:

(وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وإِيَّايَ فَارْهَبُونِي)

الله كريم، والكريم جعلنا أهلاً لمحبته، قال تعالى:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

(سورة المائدة من الآية ٥٤)

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدّاً (٩٦))

(سورة مريم)

الله الكريم أعطانا الدنيا كلها، والدليل قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٩))

(سورة البقرة)

أما الهواء، فهل الهواء في قائمة النعم عندكم ؟ أجل، نعمة بلا ثمن فأنت تستنشق الهواء في أي مكان، وكذلك الماء، هذا الذي تدفعه ثمن الطعام، هذا شيء رمزي، من منكم يُصدّق أنه يدفع ثمن التفاح، هذا ثمن خدمة التفاح، فالتفاح ليس له ثمن، فهذا الفلاح الذي اعتنى بهذا البستان وسقاه وسمّده وقطف الفواكه وجاء بها إلى السوق، فأجرته ثمن كيلو التفاح، أما التفاح فلا يُقدّر بثمن إذ هو من الله عز وجل.

والآخرة أيضاً ملّكها لعباده المؤمنين وسخّرَ الله سبحانه وتعالى ما في السماوات والأرض جميعاً منه، تسخير تكريم وتسخير تعريف.

الكريم هو الذي يعطي من غير مِنّة، من الصعب أن ترى إنساناً يعطيك بلا مِنّة، بل يقول لك " لحمك من خيري، أنا فضلت عليك، أنا أنقذتك من العدم، أنت كنت لا شيء ". لكن العطاء من الله سبحانه وتعالى من غير مِنّة.

ولا يحوجك إلى وسيلة، أحياناً لا تعطي الشخص حتى تستنفذ طاقاته: قدم طلب أولاً، هات هويتك، اذهب واحضر بعد أسبوع، تعال بعد يومين، سنجري تحقيق، يكره العطاء لشدة التحقيقات وكثرة التأجيلات والتأخيرات والتعقيدات والوثائق، أما الكريم لا يحوجك إلى وسيلة. والكريم لا يُقنط العصاة من توبة، قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣))

(سورة الزمر)

الكريم ؛ إذا أعطى أجزل، وإذا عصي أجمل.. حليم.

الكريم ؛ هو الذي لا تتخطاه الآمال.. أحياناً يأتيك إنسان ويعرض عليك حاجته، ويتذلل، ويبذل ماء وجهه، فترده بعدها، فيمحوك من قائمته، ويلغيك من مخيلته، لأنك خيّبت أمله، لكنك لا تجد إنساناً يسأل الله عز وجل ويخيبه فهذا مستحيل، لا تتخطاه الآمال.. إذا أولى فضلاً أجزله ثم ستره، يعني الإنسان الكريم إذا أعارك بذلته، فقد يقول لك أمام الناس: ارتديها لا شيء عليك، يفضحك أمام الناس. كثيراً ما تلاحظ مثل ذلك على شخص أعطى حاجة إلى إنسان آخر، أو أعاره إياها، فيمن بها أو يعرّض بآخذها.

والكريم دائم المعروف كثير النوال، ذو الطول والإنعام يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء، هذه كلها أوصاف قرآنية.

وإن الله حيّيٌ كريم، ومن حيائه وكرمه أنه يستحيي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما خائبتين.

" يا ابن آدم كبرت سنك وانحنى ظهرك، وضَعُفَ بصرك، وشاب شعرك فاستح مني فأنا أستحي منك.

وفي الحديث القدسي:

((ما أنصفني عبدي، أستحي أن أعذبه ولا يستحي أن يعصيني))

((وما قال عبد قط يا رب ثلاثاً إلا قال الله لبيك يا عبدي))

بل إنّ الكريم يغضب على من لا يسأله، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله عز اسمه كريم يحب مكارم الأخلاق ويبغض سفاسفها))

سفاسف الأمور يعني أن يرى شخصاً سخيفاً، والموضوع المعالج سخيف جداً وهو بخيل زيادة، وأناني، ومحور حياته مصالحه، هذه سفاسف الأمور، أما إذا اطلّع على قلبك فرآه قلباً يهتم لعامة المسلمين وقضاء حاجاتهم فهذا من مكارم الأخلاق، فالله عز وجل لا ينظر إلى صوركم، فهذا طويل وذاك قصير، هذا عيونه كبيرة، وذاك عيونه صغيرة، هذا ناتئ الوجنتين، والآخر غائر العينين، هذا حواجبه متصلة وغيره منفصلة، خده أسيل.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنّ اللَّهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ))

(صحيح مسلم)

والقلب محل نظر الرب.

قالوا: الكريم الذي لا يبالي كم أعطى ولا لمن أعطى، بل إن الكريم من إذا رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى.

أحياناً يقصد شخصاً إنساناً كريماً فيقول له: إياك أن تسأل أحداً غيري، حاجتك عند يمضمونة، فهذه أعلى درجة في الكرم، أنا أغضب لو سألت غيري.

تصوّر إنساناً محتاجاً والأمر كله بيد الله عز وجل، يقف أمام إنسان ضعيف حقير، لئيم يتذلل له، يبذل ماء وجهه أمامه، ثم يرده، ولكن الله سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين، فلذلك الكريم من إذا رُفعت حاجة إلى غيره لا يرضى.

الكريم من إذا جُفي عاتب وما استقصى، وعدك أحدهم أن يزورك، لم يأتِ، عاتبته، قال لك ابنتي كانت مريضة، ثم اتصلت بجاره فقال: صحيح كانت ابنته مريضة، هذا اسمه استقصاء، هو استحيا منك فقدّم عذراً، من الكرم ألا تستقصي الأمر، بل الاستقصاء في هذه المواقف مثلبة.

إنسان اعتذر منك فقل في نفسك: جاءني أخي متنصلاً من ذنبه، فاقبل منه محقاً كان أو مبطلاً، هناك أشخاص، عندهم نفسٌ طويل، فكلما اعتذر إنسان إليهم يتبعون الأمر ويلاحقونه ؛ يقولون: ظَهَرَ كذاباً،

ابنته غير مريضة، هو نسي الموعد واستحيا منك فاعتذر بمرض ابنته، فالكريم ؛ من إذا جُفي عاتب ولم يستقص.

حديث أسرّهُ النبي إلى بعض أزواجه، فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض، لن تكون كريماً إلا إذا غضضت البصر عن تسعة أشياء وحاسبت على العاشر، كثرة العتاب تورث البغضاء، فالكريم عرف بعضه وأعرض عن بعض.

الكريم ؛ لا يُضيّع من لاذ به، ولا يضيع من التجأ إليه، هذه تعاريف دقيقة جداً، الملخص يجب أن تعتمد على الله وحده، وأن تلتجئ إليه، وأن تُعلق عليه كل الآمال، وأن تقطع آمالك من البشر جميعاً، إذا كنت ترغب في أن تسعد في الدنيا والآخرة، فحيثما تعلقت بالبشر، واعتمدت عليهم وعقدت عليهم الآمال خيبوك.

رجل له صديق تولى منصباً رفيعاً، عرضت له حاجة، فذهب إليه، فأقسم بالله أنه وقف أمام مكتبه، ولم يقل له تفضل استرح، وعندما سأله عما يريد قال: كذا، قال: " ما في موافقة "، صديق، فهل أصابه مرض قصر البصر، فلم يعد يرى ؟ لكن الكريم يُغنيك عن الوسائل والشفعاء، واعلم أن المعروف بتمامه، أن تكرم إنساناً عفواً وسماحة، دون أن تمُنّ عليه، دون أن تضعه أمام عقبات تعجيزية. الكريم من إذا هجرته وصلك.

أحياناً تجد إنساناً بائساً مهتزاً فقيراً مثلاً، أموره مضطربة، متداخلة، فتنفر نفسه من الدين، تراه يترك الصلاة، لكن الله عز وجل لا يدعه، فقد يُكرمه رغبة في جبر خاطره، فيحل مشكلته، ويريه مناماً طيّباً، فالعبد هجر لكن الله عز وجل وصل.

الكريم من إذا هجرته وصلك، إذا مرضت عادك، إذا وافيت من سفر زارك، إذا افتقرت أحسن إليك، فمن أدقّ معاني الكرم، أنّ الكريم من بني البشر إذا رفعت إليه حاجة عاتب نفسه، لِمَ لمْ يبادرْ إلى قضائها قبل أن تسأله هذه الحاجة ؟ هذا واللهِ معنى دقيق.

أحياناً يكون لك أخ وافتقر، وكانت حالتك المادية جيدة، وهذا الأخ له كرامته ومكانته وعِزتَهُ ولكنه افتقر، يجوز أن ينسحق سحقاً ولا يسألك، لكن ربما سألك، فاعلم علم اليقين عندئذٍ أنك لما أحوجته إلى أن يسألك فقد أسأت إليه دققوا في هذا الكلام، إذا كنت كريماً فعلاً فعليك أن تتقصى شؤون إخوانك وأقربائك، وأخواتك ولا تُحوجهم إلى أن يسألوك، فالكريم فمن إذا رفعت إليه حاجةٌ عاتب نفسه لِمَ لمْ يبادرْ إلى قضائها قبل أن يسأل.

وبعد، فما حظ العبد من هذا الاسم ؟ قال العلماء: قد يتصف العبد بأنه كريم، هذا العبد الكريم إن ألحّ عليه أحد بطلب، أو زُرهُ وبقي في زيارته ثلاث ساعات مثلاً، فإنه يتأفف ويتضايق، ويسكت، ثم لا يلبث أن يقول للزائر: عندي موعد، فإذا ألح عليه بالطلب مرات عديدة يضجر، وقد ينهره، وقد يقسو

عليه، إذ لا يمكن أن يكون الإنسان كريماً كرماً مطلقاً، فكرم الإنسان كرم نسبي، ألا هكذا فلتعلم، لكنّ الكريم كرماً مطلقاً هو الله وحده، إن الله يحب المُلحين في الدعاء أحضر لي إنساناً واحداً يحب من يُلِّح عليه.. بل سيقول: يا أخي أضجرتني، سأخرج من جلدي منك، يا أخي اذهب عني.

هذا الإنسان الكريم، أما الله عز وجل **" إن الله يحب الملحين في الدعاء "** من لا يدعني أغضب عليه، الإنسان كي يكون كريماً يجب أن يتجاوز عن ذنوب المسيئين، ويجب أن يوصل النفع إلى جميع الخلق، أحياناً ترى بلداً متقدماً والمواطن في هذا البلد يحيى أرقى حياة، له حقوق كثيرة جداً، الطعام، الشراب، المسكن، أنواع الأطعمة، الحريات، لكن هذا البلد المتقدم الذي يوفر لمواطنيه حياة رفيعة المستوى، ينهش بلحوم بقية الشعوب، إذاً هؤلاء ليسوا كرماء هؤلاء أنانيون، إذ بنوا أمجادهم وحضارتهم ورفاه شعبهم وغِنى أبنائهم وتوافر الحاجات عندهم على نهب ثروات الآخرين، وعلى قهر الآخرين، وعلى سرقة ثرواتهم، هؤلاء ليسوا كرماء، لن تكون كريماً إلا إذا عمّ نفعك كل الناس وكل الخلق حتى الحيوانات.

عندهم في المداجن ؛ إذا كان إنتاج الصيصان أكثر مما هم بحاجة إليه يضعونه في حراق ويتلفونه، هكذا في أوروبا، نعم، هكذا التعليمات.

هل يفعل هذا مسلم ؟ صوص يُسبّح الله عز وجل تحرقه، ماذا عمل ؟ اجعله ينمو واذبحه وكله، واستفد منه ولك أجر بهذا العمل، أما أن تحرقه بنار الدنيا فهذا اللؤم كله.

لن تكون كريماً إلا إذا عمّ خيرُكَ الناس جميعاً وأنا أقول لكم والله إذا أسأت إلى مجوسي، أو إلى عابد صنم أو إلى مُلحد، والله هذه الإساءة إثمها أضعاف مضاعفة عن إساءتك لمسلم، لأن هذا عرف الدين من خلال إساءتك أنه عدوان، فأبعدته عن الدين بهذه الإساءة.

الكريم من بني البشر صفوح عن الذنوب ستّار للعيوب تارك للانتقام مسبغ للإنعام.

سمعت حادثة أن إنساناً كان على وشك أن يلقي كيس القمامة في الحاوية فرأى كيساً فيه حركة، دُهش، أخذ الكيس المتحرك ففتحه فإذا فيه طفل قد ولد حديثاً، يبدو أنه ألقي منذ نصف ساعة، أخذه إلى البيت، ثم أسرع به إلى المستشفى، ووضعه في الحاضنة، واعتنى به، إلى أن أصبح هذا الجنين طفلاً، أدخله المدرسة، حتى أنهى الابتدائية، ثم الإعدادي ثم الثانوي، سمعت أنه اعتنى به عناية كبيرة، والخبر انتهى إلى هكذا، فلو أن هذا الإنسان تابع العناية، حتى خرجه طبيباً مثلاً، وطلب اختصاصاً فأرسله إلى بلد متقدم وجاءه ببورد، ثم اشترى له عيادة، زوّجَهُ ابنته، أعطاه رأس مال، هذا الإنسان الذي لقي كل هذا الإنعام، ما موقفك ممن أنعم عليه؟.

هذه الحادثة ذكرتني بموقف الصحابي الجليل عبد الله بن رواحه، لما رأى صاحبيه قد استشهدا وهو على وشك موت سريع جداً قال:

يانفس إلا تقتلي تموتـــي   هــذا حمام الموت قد صليت

إن تفعلي فعلهما فقد رضيت   وإن توليت فقد شقيــت

***

أروي الحادثة إن صحت كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أخذ الراية أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قتل وإني لأرى مقامه في الجنة، ثم سكت النبي، فقالوا ما فعل عبد الله قال: ثم أخذها عبد الله وقاتل بها حتى قتل، وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه، يعني هبطت مكانته درجة في الجنة لأنه تردد..))

وعودة إلى هذا الجنين الذي كان في الحاوية، إذ بعد ما أصبح طبيباً معه بورد كما يتراءى لنا وبينما وهو راكب سيارة، شاهد عمه الذي التقطه من الحاوية، قال له: يا بني أوصلني إلى البيت، تردد خمس ثوان، ثم قال له إلى البيت. قال: نعم، تفضل. هذا التردد إجرام بحق هذا العم. كان في الحاوية وكان موته محققاً، صنع منه طبيباً يحمل شهادة بورد، فهذا إنسان فكيف خالق الأكوان ؟ من أنت ؟.. عندك في البيت كتاب قديم مطبوع سنة ألف وتسعمائة وثلاثين مثلاً وأنت ولدت في السنة التاسعة والثلاثين أو في الأربعين أو في الستين، فعندما صفوا الحروف ليطبعوه أين كنت أنت ؟.. عندما ألفه المؤلف أين كنت ؟ وقت باعوه أين كنت ؟ وقت أن نشروه أين كنت ؟

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١))

(سورة الإنسان)

فلذلك حق الله كبير كبير، قال الله سبحانه وتعالى في حق المنافقين:

(وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَداً وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ(٨٤))

(سورة التوبة)

فحينما اقترب أجل النبي أسرّ إلى سيدنا حذيفة سراً إذ ذكر له سبعة عشر اسماً وقال له هؤلاء إذا ماتوا لا تصلوا عليهم، لأنّ الله نهانا عن أن نصلي عليهم، هكذا الآية:

(وَلا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ)

فسيدنا حذيفة أمين سر رسول الله، ثم جاء سيدنا الصديق خليفة من بعده، ثم مات سيدنا الصديق، وجاء سيدنا عمر من بعده، سيدنا عمر عملاق الإسلام، الخليفة الراشد، ثاني الخلفاء الراشدين، جاء إلى حذيفة وقال له: **يا حذيفة أنشدك الله هل ذكر اسمي بينهم..** والله ما قالها تمثيلاً، لا والله، والله قالها صادقاً، قال له: **أنشدك الله هل ذكر اسمي بينهم** وذلك لِعظَم حق الله عليه، فقد خاف الله أن يكون قد زلت قدمه.

ثم قال: **لعلي مقصر، لعلي منافق، لو عثرت بغلة في العراق لحاسبني الله عنها،** جاءه ليلاً من أذربيجان رسول، كره أن يطرق بابه ليلاً، جاء للمسجد فرأى رجلاً يصلي ويبكي، ويقول: **يا رب هل قبلت توبتي حتى أهنئ نفسي أم رددتها حتى أعزيها** قال له: من أنت قال أنا عمر، قال: ألا تنام الليل، قال له يا أخي: **إن نمت ليلي كله أضعت نفسي أمام ربي، وإن نمت نهاري أضعت رعيتي،** في الصباح خيره أتحب أن تأكل مع فقراء المسلمين.. الفقراء يأكلون اللحم، أم تحب أن تأكل عندي ؟ لا بل آكل عندك يا سيدي، أنت الخليفة، ذهب به إلى بيته فما وجد عنده إلا الخبز والملح فقط، ثم قال له: ما الذي جاء بك إلينا ؟ قال جئتك بهذه الهدية من أذربيجان، علبة فيها حلوى، لكنها من الدرجة الأولى، قال: **أو يأكل عندكم هذا الطعام عامة المسلمين،** قال: لا. هذا طعام الخاصة، الطبقة الراقية، الغنية، فأرسل كتاباً إلى عامله على أذربيجان عنفه فيه وقال له: **كل مما يأكل عامة المسلمين** وقال له: **أعط هذه الهدية لفقراء المسلمين في المدينة، وحرام على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يطعمه فقراء المسلمين.**

ورأى عمر إبلاً سمينة في الطريق، فقال: **لمن هذه الإبل،** قالوا: هي لابنك عبد الله، قال: ائتوني به، قال له بقسوة لمن هذه؟ قال: هذه إبلي اشتريتها بمالي وبعثت بها إلى المرعى لتسمن. فهل أخطأت أو أسأت ؟ فقد اشتريتها بمالي، وأسمِّنُها لأبيعها وأرتزق بها، قال له: **ويقول الناس ارعوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين،** اسقوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، وهكذا تسمن إبلك يا ابن أمير المؤمنين. ولأنك أنت ابني سمنت هذه الإبل، ثم قال له: **بعْ هذه الإبل وخذ رأس مالك ورد الباقي لبيت مال المسلمين.**

ومرةً بينما هو جالس مع أصحابه، قال أحدهم: والله ما رأينا من هو خيرٌ منك بعد رسول الله، والله كلام لطيف كان عليه أن يقول: بارك الله فيك لكنه أحدّ إليهم النظر، حتى كاد أن يسحقهم بنظراته، إلى أن قال أحدهم: لا والله ؛ لقد رأينا من هو خير منك. قال: من هو ؟ قال: أبو بكر، فقال رضي الله عنه: **كذبتم جميعاً وصدق..** عدّ سكوتهم كذباً، قال: **والله كنت أضل من بعيري وكان أبو بكر أطيب من ريح المسك.**

هذا الذي سأل أحد عماله، قال: **ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارق أو ناهب،** قال: أقطع يده، قال له: **إذاً، من جاءني من رعيتك جائع أو عاطل فسأقطع يدك،** إن الله قد استخلفنا على خلقه لِنَسدَّ جوعتهم ونَستُرَ عورتهم ونوفر لهم حِرفَتَهُم، إن وفيناهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إن هذه الأيدي خُلقت لتعمل فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية. هذا الخليفة الذي قال لسيدنا حذيفة: **أنشدك الله هل ذكر اسمي بين أسماء المنافقين ؟** قال: **لا والله أنت أكرمنا وأنت أرحمنا،** وأنت كذا.. خجل سيدنا حذيفة، فهذا الكرم.

هذا الاسم الإلهي العظيم، أمرنا النبي عليه الصلاة والسلام أن نتخلّق بأخلاق الله، هذا الكرم، أن تصل من قطعك، وأن تعفو عمن ظلمك، وأن تعطي من حرمك، وأن يكون صمتك فكراً ونطقك ذكراً ونظرك عبرةً.

وبعد، فإني أسوق إليكم واقعتين بل أكثر من ذلك: إن سيدنا موسى حينما ناجى ربه، قال يا رب: **إنه لتعرض إلي الحاجة أحياناً فأستحي أن أسألك، أفأسأل غيرك** ؟ فأوحى الله إليه: **أن يا موسى لا تسأل غيري، وسلني حتى ملح عجينك وعلف شاتك.**

ربنا عز وجل يحب الملحين، لِمَ لا تسألوه في السجود في صلاة السحر ؟ لم لا تسألوه عن حاجاتكم كلها ؟

حُكِيَ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه جاءه إنسان ليلة يسأله حاجة، فقال: **يا غلام ارفع السراج،** ولما رفع السراج: قال **سلني حاجتك،** لماذا فعل هذا ؟ قال: **لئلا أرى في وجهه ذُلّ السؤال، حتى لا يُحرج، فلا يخجل إن عرفنا من هو،** هذا من كرم سيدنا علي.

وكذلك أحد العلماء، كان لا يناول الفقير شيئاً بيده، بل يضعه على الطاولة ثم يقول له: خذه. لئلا تكون يده عُليا ويد الفقير سفلى.

يُحكى عن أبان بن عياش **" أبان أحد الصحابة أما عياش ليس صحابياً "**، يحكى عن أبان بن عياش، أنه قال خرجت يوماً من عند أنس ابن مالك في البصرة، فرأيت جنازةً يحملها أربعة من الزنج، ولم يكن معهم رجل آخر، قلت سبحان الله، سوق البصرة وجنازة رجل مسلم لا يشيعها أحد فلأكونن خامسهم، **" إذا رأى رجل جنازة ومشي فيها فهذا حسن وله أجر ولو لم يعرف صاحبها المحمول وليتبعها حتى القبر، وإذا فتحوا النعش ورأى ماذا فُعل بهذا الميت وكيف وضع في القبر، وكيف أهيل التراب عليه، لأن في معالجة جسد خاوٍ لعبرة "**، فتتبع الجنازة، ثم قال: فمضيت معهم فلما وضعوها بالمصلى، قالوا لي: تقدم. قلت: أنتم أولى، قالوا كلنا سواء لا نعرفه، حتى دفنوه، وصليت عليه، وقلت لهم ما القصة، قالوا اسأل هذه المرأة، فهناك امرأة واقفة بعيداً فلما سألتها، قالت: هذا ابني كان مذنباً، وقال لي يا أماه إذا مت فلا تُخبري بوفاتي جيراني لئلا يشمتوا بي، واكتبي على خاتمي لا إله إلا الله محمد رسول الله واجعليه في كفني فلعلّ الله تعالى يرحمني، وضعي رجلك على خدي وقولي هذا جزاء من عصى الله، فإذا دفنتني فارفعي يديك إلى الله تعالى وقولي إني راضية عنه.

أعطاها معلومات دقيقة، لم تخبر أحداً، ووضعت رجلها على خده بعد الموت قالت هذا جزاء من عصى الله، تقول هذه المرأة فما رفعت يدي إلى السماء حتى سمعت صوته بلسان فصيح يقول: انصرفي يا أماه فقد قدمت على رب كريم.. هذا سِرّ القصة.

فإذا كان الإنسان يخاف الله عز وجل ويستحي منه فهذه فضيلة، أما الأكمل للإنسان أن يكون بالرخاء تائباً منيباً مستقيماً وباب رحمة الله واسع.

أرجو الله سبحانه وتعالى أن يتغمدنا برحمته، وأن يلهمنا أن نكون كرماء لأنه كريم، والكريم بالمعنى الموجز ما كان خالياً من كل شائبة فكتاب كريم ومقام كريم ورب كريم وإنسان كريم ومؤمن كريم.

يعني الكذب والنميمة والغيبة وتتبع العورات هذه كلها تقدح بكرم الإنسان بل ليسمح لي القارئ الكريم أن أقول: أن هذه المثالب سلبت صاحبه أي فضل وكرم، وأبقت عليه اللؤم وخزي الأحدوثة.

٢٤- اسم الله الحكيم :

قال تعالى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً)

(سورة البقرة: من آية " ٢٦٩ ")

مع الاسم الرابع والعشرين من أسماء الله الحسنى والاسم هو اسم الحكيم.

أيها القارئ الكريم، أسماء الله الحسنى كثيرة، وردت في الآثار الصحيحة أنها تسعة وتسعون اسماً، وأسماء الله كلها حُسنى، لأنّ الله سبحانه وتعالى موجود وواحد وكامل وكل صفات الله عز وجل يمكن أن تتلخص في عبارات ثلاث، موجود، واجب الوجود، واحد في ذاته، واحد في صفاته، واحد في أفعاله، كامل كمالاً مطلقاً، ولكن بعض هذه الأسماء أقرب للعبد من بعضها الآخر، فأقرب أسماء الله الحسنى إلى العباد اسم الرب، لأنه ربهم، قال تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨))

(سورة الطور)

ويعني هذا الحُكم حُكم المربي، حُكم الذي يعلم، وحُكم الرحيم، حُكم الحكيم، واسم الحكيم هو من أقرب الأسماء إلى الإنسان كذلك بالإضافة إلى اسم **" الرب "** كما بينت قبل أسطر قليلة.

لماذا قدّمت هذه المقدمة ؟ لأنّ الإنسان أحياناً يرى ما لا يُرضيه، إذ يسوق الله له ما لا يسره، وما لا يعجبه، فإما أن يسخط على ربه وعلى قضائه وقدره ؛ فهو الجهل المطبق، وإما أن يرضى عن ربه وعن قضائه وعن قدره فهو العلم السديد الرائع.

ولابد من أن يعلم الإنسان أنه ما من شيء يقع في الكون منذ أن خُلق هذا الكون وحتى نهايته إلا بإرادة الله، لأنه إذا وقع شيء من دون إرادته إذاً فليسَ الله هو القهار وليس هو الجبار وليس هو القوي وليس هو الغني، ويكفي أن يقع شيء واحدٌ في الكون من دون إرادته حتى تتعطل أسماؤه الحُسنى إذاً، لا يقع في الكون الذي هو ملكه، ولا يقع في ملكه إلا ما قد أراده.

وإني لأستميح القارئ الكريم عذراً لأن هذه الفكرة أعيدها كثيراً، ولأنّ الله سبحانه وتعالى يعيد الحقائق الأساسية في القرآن كثيراً، وأنت تقرأ الفاتحة في كل صلاة، تقرؤها وتعيدها منذ أن كُلفت بالصلاة وحتى نهاية الأجل، وتكررها عشرات المرات يومياً في صلاتك.

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢))

(الفاتحة)

ما من شيء وقع في الكون إلا أراده الله، وإذا أراد الله شيئاً وقع وليسَ في الكون مسيطر إلا الله، هذا هو التوحيد، إذ ليس في الكون إلا يدٌ واحدة هي المسيطرة وهي الحكيمة وهي القديرة، ترفع، و تخفض، و تُعطي، و تمنع، وتُعز، وتُذل، و تَبسُط و تقبض.

كل شيء وقع أراده الله وكل شيء أراده الله وقع، وإرادة الله متعلّقة بالحكمة، حتى يتضّح الأمر ؛ فقد يقول الإنسان شيئاً ليس قانعاً به إما بضغط، أو بإغراء، فإن قال كذا وكذا يرتقي، و أن يقل كذا وكذا مع الضغط عليه، فقد يكون قوله مجانباً للحِكمة، لأنه وقع في شِباك الإغراء أو في شِباك الإكراه، و الإنسان ضعيف بين الإغراء والإكراه، فتارةً يُكره وتارةً يُغرى، فإذا أُكره فَقَدَ الحِكمة، وإذا رغب فَقَدَ الحِكمة، إذاً ربما تصرف الإنسان تصرفاً غير حكيم لأنه قد ضُغط عليه أو أغريّ بشيءٍ من حِطام الدنيا، وقد يتصرف الإنسان تصرفاً غير حكيم لأنه قد يكون جاهلاً، فالطيشُ والحُمق والخرقُ يأتي من الجهل، فأنت بين جهل وبين ضغط وبين إغراء تفقد الحِكمة، ففي حالات الجهل والضغط والرغبة كثيراً ما يجانب الإنسان الحِكمة ويفقدها.

والجهل والإكراه والرغبة هذه حالات تستحيل على جلال الله عز وجل، فلا إله آخر يضغط، وكل رغبة وجهل وإكراه يغري لا اعتبار له.

إذاً: أفعال الله سبحانه وتعالى كُلُها متعلّقِة بالحِكمة، والحِكمة عند ربنا عز وجل متعلّقة بالخير المُطلق.

ولتأخذوا عني أيها القراء الكرام هذه الكلمات القليلة: إنّ كلّ شيء وقع أراده الله وإن كل شيءٍ أراده الله وقع، وإن أفعاله تتعلق بالحِكمة المُطلقة، وإن حِكمتَهُ المطلقة تتعلق بالخير المطلق، واللهِ لو أنّا فهمنا هذه الكلمات واستوعبناها وعقّلناها وعشنا معانيها لتلاشت كل الأحزان في حياتنا.

لكل شيء حقيقية، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، فالغلط مجاله بين البشر، أما في حق خالق البشر فهو يستحيل. والذي يبدو لك غلطاً وخطأً وظُلماً هو عند الله حِكمة بالغة، وإنني أضرب مثلاً:

فتاة نالت شهادة ثانوية وهي تبحث عن وظيفة، هناك مسابقة لوظيفة معلمة فتقدمت إليها، فطولبت بشهادة صحية فتوجهت إلى مستشفى حكومي لتفحص صدرها، فجاءت النتيجة أنها مصابة بمرض السل ! بكت وبكى من حولها، ومن حولها خافوا من العدوى فابتعدوا عنها وتركوها تأكل وحدها، وأعطوها أدوات خاصة بها، وتوجّسوا منها خيفة وازدادت بهذه العزلة ألماً إلى أن قررت أن تتوب إلى الله، وأن تصلي وأن تتحجب، ثم راجع أخوها المستشفى بعد حين، فإذا هم يعتذرون إذ هذه النتيجة ليست لها بل لغيرها، فهي سليمة! خطأ الموظف إذاً وظفه الله عز وجل كي تتوب هذه الفتاة.

وهناك أخت كريمة تحضر معنا الدروس في جامع النابلسي، هكذا سمعت وعلمت أنها كانت معارةً إلى بلد نفطي للتدريس، واختصاصها رياضيات، عُيّنت في مدرسة في أطراف المملكة، والمديرة أمرتها أن

تُدرّس تفسيراً وفقهاً، فقالت لها معتذرةً: اختصاصي رياضيات، فكيف تريدينني أن أدخل إلى صف ثالث ثانوي وأدرسهنّ تفسيراً وفقهاً ؟ وأنا لا أفقه شيئاً من هذه الموضوعات، قالت لها: إما أن تدخلي وتدرسي هذه المواد أو نلغي عقدك، فدخلت هذه المدرسة، وفتحت كتاب التفسير، وأول آيات التفسير آيات الحجاب، ولم تكن الفتاة تؤمن بالحجاب فقرأت الآيات و قرأت التفاسير، فانهمرت عيناها بالدموع: اعتذرت من الطالبات، وقالت لهن دعنني هذه الساعة مع نفسي واقرأن ما بدا لكن، وكانت توبتها حينما أُجبرت أن تقرأ هذه الآيات وأن تُفسّرها للطالبات، إذاً حُمقُ هذه المديرة وظفه الله عز وجل لصالح هذه المُدرِّسة.

يعني كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع، وإرادته متعلقة بالحِكمة المطلقة، وحِكمته متعلقة بالخير المُطلق، وهذه حادثة من حوادث، ولتعلم من قبل ومن بعد لو أن ورقة سقطت من شجرة فذلك لحِكمة بالغة.. فما قولنا فيما فوق هذه الحادثة، الظلم في النفوس فقط، والظالم سوط الله ينتقم به ثم ينتقم منه، ولذلك فكل قصة فيها عشرة فصول مثلاً، فقد نعرف فصلاً واحداً فلا يكفي، وقد نعرف فصلين أو ثلاثة أو أربعة وهذا لا يكفي، فلسنا مؤهلين أن نحكُم على هذه القصة إلا إذا عرفنا كل الفصول.

إذاً: أقرب اسم من أسماء الله الحسنى إليك، اسم الرب واسم الحكيم وقد تتساءل: لماذا فلان يُعاني من هذه المتاعب في جسده ؟.. فقُلْ لحِكمةٍ بالغة ولا تخف، ولو كان لديك وقت طويل ونفَس طويل وبحث دقيق لمتابعة أمره لوجدت أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان.

قد يتساءل آخر: لماذا فلان كان عقيماً ؟ لحِكمة بالغة.. ولماذا فلان مات في سن مبكرة ؟ لحِكمة بالغة.. لماذا فلان عاش عمراً مديداً ؟ لحِكمة بالغة.. ولماذا فلان كان غنياً ؟ لحِكمة بالغة.. ولماذا فلان كان فقيراً ؟ لحِكمة بالغة.. فأنا أذكر كل هذا وأنا واثق مما أقوله، وأي شيء أعجبك أو لم يعجبك فقل لابد من حِكمة بالغة، لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يُمكن أن يتصرّف بلا حِكمة، لأنه عليم، ولأنه واحد ولأنه موجود ولأنه كامل.

موجود واجب الوجود، فإذا قلت أين الله ؟.. فسؤالك يعني أنه غير موجود.. بل هو موجود.

(وَلَا تَحْسَبَنّ اللّهَ غَافِلاً عَمّا يَعْمَلُ الظّالِمُونَ إِنّمَا يُؤَخّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢))

(سورة إبراهيم)

هو موجود وواحد، وليس مع وجوده وجود، وكامل، ومن كماله أنه حكيم... هذه مقدمة.

وبعد، فكلمة الحكيم وردت في القرآن الكريم ثمانياً وثلاثين مرة، قال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٢٧))

(سورة لقمان)

وكذلك فهناك بحث قائم بذاته يحسن بنا أن نلفت نظر القارئ إليه. فحينما تأتي الأسماء مثنى مثنى:

(إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ)

(وَكَانَ اللَّهُ وَاسِعاً حَكِيماً (١٣٠))

(سورة النساء من الآية ١٣٠)

(وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (١٩))

(سورة الفتح)

(وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا)

(وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠))

(سورة الممتحنة)

(إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦))

(سورة يوسف)

(الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١))

(سورة هود)

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ (١٠))

(سورة النور)

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ (٤٢))

(سورة فصلت)

(إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١))

(سورة الشورى)

هكذا جاءت الأسماء في سياق الآيات القرآنية فأحذر أن تلتبس عليك الأمور، لأن هذا مزلق خطير ؛ مثل أن تقول حكيم لأنه عليم، فلا يمكن في علم التوحيد أن يُعلّق اسم على اسم، فحكيم لأنه حكيم، وعليم لأنه عليم، لا يفتقر اسم إلى اسم في أسماء الله الحسنى، واسع وحكيم، إذا قلت حكيم لأنه واسع، لا. ثم لا.. واسع لأنه واسع وحكيم لأنه حكيم.

وكلمة حكيم وُصِف بها القرآن الكريم، قال تعالى:

(الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (١))

(سورة يونس)

(يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢))

(سورة يس)

وقال سبحانه:

لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن

(كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤))

(سورة آل عمران)

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩))

(سورة البقرة)

وقال بعض العلماء في تفسير كلمة الحكمة: **" إن الحِكمة إذا قرنت بكلمة الكتاب، فهي سنة رسول الله "** وهذا أروع تفسير، وأدقّ تفصيل وأوضح تبيين هو كلام سيد المرسلين، والحِكمة أيضاً جُعلت أسلوباً في الدعوة إلى الله، قال تعالى:

(ادْعُ إِلِى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥))

(سورة النحل آية ١٢٥)

والحِكمة يمكن أن يؤتاها الإنسان، وأقول: لو أنّ الله عز وجل آتاك أجمل امرأة في الأرض ولم يؤتِكَ الحِكمة لجعلتها أسوأ امرأة، ولو أعطاك مال قارون ولم يؤتِكَ الحِكمة لبُدّد هذا المال ولكان حسرةً عليك يوم القيامة، ولو أعطاك صِحةً رائعة ولم يؤتِكَ الحِكمة لاستهلكت هذه الصحة في سفاسف الأمور، و لو أعطاك أولاداً نجباء ولم تكن حكيماً لكانوا زادك إلى النار. فأي شيء إذا أعطيته من دون حِكمة كان حسرةً عليك يوم القيامة، ولهذا قال الله عز وجل:

(يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُوْلُواْ الْأَلْبَابِ (٢٦٩))

(سورة البقرة)

فأنت بالحِكمة يمكن أن تكون أسعد الناس بدخلٍ قليل، وبالحُمق تشقى بالدخل الكثير، وبالحِكمة تَسعَد بزوجة من الدرجة الخامسة، وبالحُمق تشقى بزوجة من الدرجة الأولى. بالحِكمة ترقى بأولادٍ ضِعاف، وبالحُمق تسفل بأولادٍ نجباء، نعم.. لا يكون الرفق في شيء إلا زانه، ولا يُنزع من شيء إلا شانه.

لذلك أذكر وأكرر أن الله قد يؤتيك مال قارون وهو لا يحبك قال تعالى:

(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (٧٦))

(سورة القصص)

آتاه الله المال وهو لا يحبه، وقد تكون قوياً والله لا يحبك، قال تعالى:

(إنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤))

(سورة القصص)

إذاً: قد يؤتيك الله المال وهو لا يحبك، وقد يؤتيك الله القوة وهو لا يحبك، أما إذا أحبك فعلاً فسيؤتيك العلم والحِكمة، قال تعالى:

(وَلَمّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٤))

(سورة القصص)

فأنت من المؤمنين إن شاء الله تعالى فانظر بماذا تفضّلَ الله به عليك، إن تفضّلَ الله عليكَ بالحِكمة والعلم فهذا العطاء من نوع عطاء الأنبياء، وإن زادكَ مالاً فالحمدُ لله، وإن زادك صحة فالحمدُ لله، وإن زادكَ قوةً فالحمدُ لله، لكن الأصل أن تكون حكيماً عليماً.

يقول الإمام الغزالي رحمه الله تعالى: **" من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله عز وجل لا يُسمى حكيماً ".. " وهذا المعنى قائم بنفسي منذ أمد طويل"**

ولقد اجتمعت مرةً مع شخص يحمل شهادة الدكتوراه في التربية والدكتوراه في العلوم الفيزيائية، فحسبته جمع المجد من طرفيه دكتوراه في التربية، علوم إنسانية، ودكتوراه في العلوم الفيزيائية، وفي أثناء اللقاء أخبروني: أنه لا يصلي، وهو في الخمسين، والله الذي لا إله إلا هو سقط من عيني كما يسقط النجم إلى الأرض، أوكل هذا العِلم وأنتَ لا تُصلي ؟ فهذا الإله العظيم ألا يستحق أن تعبده ؟.

يقول الإمام الغزالي: **" من عرف جميع الأشياء ولم يعرف الله عز وجل لا يستحق أن يسمى حكيماً".**

وأنا بدوري أعبّر عن هذا المعنى بالشكل التالي، إن الذكاء ذكاءان، ذكاء جزئي وذكاء شمولي، فهذا من حيث الذكاء الجزئي طبيب متبحّر في العلوم دقيق الفهم لمّاح الحِكم، قوي الحافظة، ولكنه يعصي الله لأنه لم يُفكّر فيما بعد الموت، ولأنه لم يُفكّر فيمن خلقه، ولأنه لم يُفكّر في منهج هذا الخالق العظيم، ولأنه لم يطمح إلى مرضاة الله عز وجل، ولأنه لم يرَ عظمة الخلق ولم يرَ من خِلالها عظمة الخالق، فهو مدموغ بالغباء ولو كان من أذكى الأذكياء.

إذاً حق أن نقول: هناك ذكاء جزئي يتعلق بالجزئيات، وهناك ذكاء شمولي يتعلّق بالكليات، فأنت إذا غفلت عن ربك وخرجت عن منهجه وانغمست في الشهوات، ولو كُنتَ في اختصاصك في القِمة، و في فرعك العلمي في الأوج، ولو حصّلْتَ أعلى الشهادات، فإن دمغة الغباء سمتك الأولى.

و الناس هو معروف يهنئ بعضهم بعضاً دائماً، فتهنئةٌ بشراء منزل، وتهنئة بنيل منصب، وتهنئة بنيل شهادة عليمة، وتهنئة بمولود، وتهنئة بزواج، وتهنئة بشراء مركبة، وتهنئة بسفرة ببعثة إلى خارج

بلدك.. أما أنا فوالله لا أرى أن كلمة التهنئة تُقال على حقيقتها إلا إذا اصطلحتَ مع الله حقاً وصدقاً.
كان بعض الشيوخ إذا رأى تلميذه قد اصطلَحَ مع الله تماماً وأقبل عليه يقول له: هنيئاً لك يا ولدي.

(الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ (٧))

(سورة الإنفطار)

كيف تنساه ؟ وهذا بعض العارفين: يقول **" يا رب ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟ "**، هذا كلام بليغ ! وكذلك يقولون: إذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك.. فهذا كلام أبلغ.

والسؤال المطروح الآن هو: إذا تعلّمت علماً، فشرف المُتعلّم من شرف العِلم، ولو تصورّت إنساناً يقرأ في كتاب أصول سرقة البنوك مثلاً، فأنت تراه يقرأ كتاباً ويتعلّم ؛ ألا تحتقر هذا العلم ؟، ولو افترضناه كتاباً مؤلفاً حول طريقة تزوير العملة مثلاً وهو عاكف على هذا الكتاب ويدرسه بنهم وشغف، ويضع خطوطاً ويُلّخص فقراته ألا تحتقر هذا الجهد كله ؟ بلى، لأن هذا الموضوع دنيء وإجرامي.

إذاً: شرف المتعلّم من شرف العِلم الذي يتعلّمه، وكلما ارتقى العِلم ارتقى المُتعلّم، فمن الناس من يتعلم القوانين المتعلّقة بالفيزياء، وهناك قوانين الكيمياء، وقوانين الفَلَك، وقوانين الجيولوجيا، وقوانين التاريخ، والظواهر التاريخية، وقوانين النفس، وقوانين علم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الذرّة، وعلم الفيزياء، وعلم الكيمياء، طبعاً الفيزياء صوت وحرارة وكهرباء ومغناطيس وضوء، والكيمياء عضوية ولا عضوية فهذه كلها علوم قد تسمو بصاحبها.

فإذا كان المُتعلّم يعلو في نظر الناس كلما ارتقى علمُهُ، إذ يُقال لك فلان يحمل اختصاصاً نادراً، وفلان مثله، بينما خمسة آلاف حقوقي بلا عمل، فهذا حائز على شهادة الحقوق، والحقوق اختصاص رائع جداً، ولكن لكثرة الاختصاص ولعطالة أصحابه ربما رأيت هذا الفرع فرعاً سهلاً، وكلما كان الفرع أصعب منالاً وأعظم فائدةً، كان أجدى على صاحبه نفعاً، يطلب مثلاً ثمانين ألفاً بالشهر، فهو ذو اختصاص نادر.

أما هذا الذي تعرف إلى الله فما حاله ؟ فهذا السؤال وجيه حقاً، إن الذي تعرف إلى بعض الحقائق عن بعض المخلوقات يرقى في نظر الناس، فكيف إذا كان موضوع المعرفة هو الله ؟ فمثلاً إذا قرأت شعراً لأحد الشعراء ودرست الشعر وحللته، العاطفة والخيال والأسلوب والأفكار الدقيقة وتسلسل الأفكار وعمقها وواقعيتها كنت مرموقاً عند أهل الاختصاص، فكيف إذا حللت كلام الله عز وجل، فلذلك كلما ارتقى اختصاصك ارتقت مكانتك، فمن اشتغل بغير الله لا يُسمى حكيماً.

وما أكثر ما ذكرت أن كلّ علم ممتع، وهناك عِلمٌ ممتع ونافع، وهناك عِلمٌ ممتع ونافع ومُسعد، إن العلم بالله وحده هو العِلم المُمتع النافع المُسعد، والاختصاص النادر هو العلم المُمتع النافع، وأيّ علم مُمتع،

وأي كتاب إذا قرأته تستمتع به، لأن العلم ممتع، ونقل المعرفة عمل مقدّس، و كلما ارتقيت بهذه المعرفة إلى المستوى الذي يُرضي الله عز وجل كلما ارتفعت معه.

قال بعض العلماء: **" من عرف الله كان كلامه مخالفاً لكلام غيره "** وهل يمكن لإنسان يعرف الله أن يَسهرَ سهرةً إلى الساعة الواحدةُ ويكون الحديث خلالها عن الطعام مثلاً، فيستهلك خمس ساعات من عمره بدداً أو في لعب النرد أو في الشطرنج أو الطاولة، أو الحديث عن زيد أو عبيد، فمستحيل ذلك إلا عند صغار الهمم.

لكن **" من عرف الله عز وجل كان كلامه مخالفاً لكلام غيره "**، كلامه مقدّس، كلامه في الكُليّات، وفي الأصول، و في الأهداف الكبرى، وكلامه في السمو.. وكل إناء بالذي فيه ينضح.

كنت ضربت مثلاً، هناك أوعية تعبأ من أعلاها ولها صنبور في أسفلها، فأت لا تصدق أن يخرج من الصنبور سائل يخالف ما في هذا الإناء أبداً، فإن عبأته ماء يخرج من أسفله ماء وإن عبأته لبناً تجد لبناً، و إن عبأته ليموناً تلق ليموناً، وإن عبأته مثلاً ماء زهر، تجد ماء زهر، وإن عبأته ماء آسناً، خرج ماء آسناً فكل إنسان له منهل يَنهَلُ منه وله ما يَخرُجُ منه، والإنسان كلامه يتحدث عما فيه، ونفسه وعاء امتلأ.

فإذا كانت ثقافة الإنسان حصاد مجلات وقصص ومسلسلات، وتكلم، فتسمع يقول لك: فلانة طُلقت، وفلانة خانت زوجها، ونحو ذلك إذ ليس عنده شيء آخر، بل كل معلوماته مورد هذا الإناء الذي عبأه من أخبار هؤلاء الساقطين والساقطات، فلو أراد أن يتحدث لما فاض إلا بما امتلأ.

فلو أن الإنسان عبأ وعاءَهُ من أخبار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعبأه من دقائق السُنّة المطهرة، ومن بطولات من عاصر النبي عليه الصلاة والسلام، وعبأ وعاءَهُ من العلم الشريف الذي يرقى بالإنسان، ثم قيل له تفضل وتكلّم، فلن يتكلّم إلا بالحكم والدُرر والقرآن والحديث والتفسير والموعظة الحسنة والحقائق العلمية المتألقة والمشاعر الرقيقة، والموقف النبيلة، ولن يصدر عنه إلا الدر واللؤلؤ، فهذا الذي قاله الأسلاف ملأ به وعاء عقله: وكل إناء بالذي فيه ينضح.

وأخطر ما في الموضوع من أين تنهل ؟ ومن أين تشرب ؟ وما الذي يدخل إلى أذنك ومنه إلى قلبك ؟ وما الذي يدخل من بصرك ومنه إلى قلبك، لأن السمع والبصر نافذتان، فما تقرأ يعرفكَ ويدل عليك من أنت ؟ وما تسمعْ ؟ ينبّأ مَن أنت ؟ قُل لي من تُجالس أقُل لكَ من أنت؟ وقل لي من تصحب أقُل لكَ من أنت ؟ ومن تصادق أقل لك من أنت ؟ فالمرء على دين خليله، ومن شيخُك، أقُل لكَ من أنت ؟ فهؤلاء مناهل.

وهناك منهل ماء صافٍ، ومنهل ماء معسل، ومنهل ماء مزهر، ومنهل ماء آسن، فإذا كان الإنسان حديثه ساقطاً، ومزاحه جنسياً رخيصاً، وتعليقاته لاذعة، وكلماته بذيئة، فطابعها طابع المجاري الآسنة.

لأنه ينهل من مياه المجارير فإذا فاض بشيء فلن يخرج منه إلا ماء آسن تفوح منه رائحة الزنى والغدر والخيانة والأثرة والاستعلاء والعنجهية والقسوة، ولذلك فالإنسان منهي أن يتحدث عن أمثال هؤلاء، لأنّ الحديث عن المنحرفين يقبض القلب، وبينما الحديث عن الصالحين يُعطّر المجلس.

فمن حكم النبي عليه الصلاة والسلام:

((رأس الحكمة مخافة الله))

إن لم تخف الله عز وجل فأنت لا تعرف من الحكمة شيئاً.

الكيّس العاقل من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني، فالعاجز يعيش لحظته، ويعيش حظوظه، وميوله، و رغباته، أما الكيّس فيعيش حياة ما بعد الموت يُعِدُّ لها منذ الآن.

ما قلّ وكفى خير مما كثُرَ وألهى، سألت إنساناً كيف وضعك؟ فقال: وسط الحمد لله، لقد أصابتنا دعوةُ مَن دعا علينا، قلت: خير فمن دعا عليك ؟ قال رسول الله، قلت: ما هذا الكلام معاذ الله ؟ قال: ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

قلت: والله هذا صحيح ومعك حق، فعلاً، النبي يقول:

((من أحبني فاجعل رزقه كفافاً))

يعني ما يكفيه لا ما يطغيه، ولا ما يلهيه، أجل، ما يكفيه، إذ غاية كل حاجاتك أن تكون صحيح البدن مكتفياً، تقطُن في بيت، الحاجات الأساسية فيه موفورة ! هذا هو الغِنى، أمّا أن تفهم الغِنى أن يزداد الرقم الذي تملكه، فهذا ليس هو الغِنى. قال عليه الصلاة والسلام:

((من أصبح معافى في بدنهِ آمناً في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها.))

كُن ورعاً تكن أعبدَ الناس، وكُن قانعاً تكُن أشكر الناس، ومن حُسِنِ إسلام المرء تركُهُ مالا يعنيه، والسعيد من وُعِظَ بغيره، والصمت حِكمة وقليلٌ فاعِلُهُ، والقناعة كنز لا ينفد، والصبر نصف الإيمان، واليقين الإيمان كله، وهذه كلها من حكمة النبي عليه الصلاة والسلام.

والحقيقة هذه الحِكم مبذولةٌ بينَ أيدينا، فيمكن أن تشتري كتاباً في الحديث الشريف، فتجد الحكم كلها فيه ولكن بين أن تقتني الكتاب وتقرؤه شيء، وبين أن تعيش هذه الحِكمة شيء آخر، البطولة أن تعيش هذه الحِكم، و أن تطبقها إلى واقع و مشاعر ومواقف و سلوك.

الآن نعود إلى اسم الحكيم بالشكل المنهجي، لاسم الحكيم معانٍ ثلاثة أساسية:

المعنى الأول: اسم الحكيم على وزن فعيل، بمعنى مُفعل تقول جرح أليم بمعنى مؤلم، وفعيل بمعنى مُفعل، فحكيم بمعنى مُحكم ومعنى المُحكم المُتقن، والمتقن هو المقدِّر التقدير الصحيح.

فلو أن إنساناً قص قطعة خشب مثلاً بأقل من اثني مليمتر فإنك تنزعج لأنها قصرت ولو كان تقديره حكيماً وصحيحاً لجاءت الصنعة مُحكمةً من كلمة مُحكم فهي متعلقة بالتقدير، وكلما دقّ التقدير أُحكِمت الصنعة. تجد بعض الآلات غالية جداً ولا ترى فيها عيباً أبداً ولا نقصاً ولا لميلمتر واحد، فالآلات من الدرجة الخامسة، تراها ذات عيوب كثيرة، فيقال لك هذا النقص مثلاً لا يُؤثر، ونقصه مقبول، أو سلبيته طفيفة محتملة، فهذه ليست صنعة مُحكمة، إذ نرى الأجانب يأخذون عشرة أضعاف أو مائة ضعف عما نصنعه نحن وذلك لإتقان عملهم.

حدثني أخ يعمل في المنسوجات، قال إن آلة استقدمناها من بلد غربي نبيع الثوب كله من إنتاجها بمئتي ليرة، والآلة نفسها في بلد آخر نشتري المتر الواحد بسبعمائة ليرة ! المتر الواحد من إنتاج هذه الآلة بسبعمائة ليرة وبينما الثوب بأكمله بمئتي ليرة والآلة واحدة، والفرق هو الإتقان.

فلذلك معنى حكيم أي مُحكِم، ومعنى مُحكِم أي مُتقن، وأصل الإتقان من دقة التقدير، إذاً: ربنا عز وجل خلق كل شيء فقدره تقديراً قال تعالى:

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩))

(سورة القمر)

وأنت عد إلى جسمك، فالدم الذي تنبض به عروقك فيه ملح بنسبة سبعة بالألف إلى ثمانية، إذا قلّت النسبة عن هذا الرقم تنكمش الكريّات ويموت الإنسان، وإذا زادت تنفجر الكريات، من جعل نسبة الملح في الدم ثابتة ؟ الفضل لله عز وجل، إذ إن الكُلية إذا زادت نسبة الملح في الدم تفرز الزائد، وإذا قلّت تحتفظ وتدخر، يعني الكُلية هي التي تَزِن السائل الدموي أو البلازما بميزان دقيق.

هناك هرمون التجلّط يُفرِزُهُ الكبد، وهرمون التمييع، من إفراز الهرمونين معاً، ومن ثبات النسبة بينهما ثباتاً دقيقاً تنشأ ميوعة الدم وسيولته وقد قيل لو زاد هرمون التجلّط عن الحد الذي رسمه الله عز وجل لأصبح الدم كالوحل في الأوردة والشرايين ولمات الإنسان، ولو زادت نسبة هرمون التمييع عن حدها الذي رسمه الله عز وجل لنزف دم الإنسان كله من ثقب دبوس.

لي صديق توفي رحمه الله تعالى، زرته في المشفى، فوجدت أمام فمه لصاقات طبية لا أبالغ قرابة ثمانية سنتمتر، فقلت: خيراً إن شاء الله، قال عندي نقص في الصفائح الدموية، والصفائح الدموية تماماً مثل أحجار البناء، إذا حصل ثقب في البناء تسده، وهذا سببه رعاف أذهب معه الصفائح لديه، وكلما أزلت اللصاقات فالدم ينزف، إذ لم يبق في دمه صفائح دموية، وفي الميلمتر المكعب عادةً سبعمائة ألف صفيحة تقريباً، وهذه الصفائح تسد أي خرق في الأوردة.

إذاً: ما هذه الحِكمة ؟ وهذه معلومات قديمة ؛ وإخوتنا الأطباء الذين يدرسون حديثاً، يعرفون أشياء مذهلة، إنها حكمة الله الخالق الباريء.

وهناك زُمر نسيجية، أحدث رقم: ملياران ونصف مليار زُمرة نسيجية في العالم، ولا يوجد إلا إنسان واحد في الأرض له زُمرة نسيجية تُشبه زمرتك، وعلى النُّوَيّة خمسة آلاف مليون معلومة عُرف منها حتى الآن ثمانمائة معلومة فقط ! من المورثات وهذه حكمة، فإذاً ما معنى حكيم ؟ الحكيم يعنى مُحكِم، ومُحكِم بمعنى مُتقن، والمُتقن هو الذي قدّرَ الشيء فأحسنَ تقديره، قال تعالى:

(وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فقدّرَهُ تَقْدِيراً (٢))

(سورة الفرقان)

إذاً: معنى الحكيم الذي أحسن كل شيء خلقه، هذا معنى قول الله عز وجل:

(الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً مَا تَرَى فِي خَلْق الرّحْمَن مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ(٣))

(سورة الملك)

وبعد، انظر تر النملة في أكمل وضع، و الذبابة بأكمل وضع، والفيل بأكمل وضع، والمجرّة بأكمل وضع، والذرّة بأكمل وضع، وأيّ مخلوق بأكمل وضع هذا معنى الحكيم، وهذا هو المعنى الأول، الحكيم المُحكم. وتفسير هذا الاسم:

(الّذِي أحْسَنَ كُلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧))

(سورة السجدة)

(يَا أيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرّكَ بِرَبّكَ الْكَرِيمِ (٦) الّذِي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أيّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكّبَكَ(٨))

(سورة الانفطار)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤))

(سورة التين)

هذا معنى الحكيم، وسِرُ الحكيم:

(وَخَلَقَ كُلّ شَيْءٍ فقدّرَهُ تَقْدِيراً (٢))

(سورة الفرقان)

(إنّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩))

(سورة القمر)

ويسألونك مثلاً: هل قست ضغط عينك ؟ ما ضغط العين ؟ إنه شيء مذهل، إذ بالعين سائل، وهذا السائل لا بد من أن تجدده، فكيف يتجدد ؟ يصب عليه مورد وله فتحة في أسفله، فإذا سُدت هذه الفتحة تحتقن العين، ويزداد ضغطها فتضيق لمعة الشرايين المغذية لها، وأطباء العيون يقيسون ضغط العين. والدِقة بالغة جداً، فلقد حدثني أخ طبيب ؛ أنهم أثناء عمليات القلب المفتوح يعطون بوتاسيوم بِنِسَب

دقيقة جداً فلو زادت لمات المريض فوراً وقال لي: لو كنا نقوم بعملية لمريض وشخصت عيناه ومات فقد يقال: هناك خطأ بالبوتاسيوم، أو هناك شوارد بالدم.

الموضوعات لا أتحدث عنها حديثاً علمياً كأمثلة فقط، بل هناك دقائق بخلق الإنسان وهي أشياء فوق التصور. وهذا أول معنى من معاني الحكيم.

المعنى الثاني: الحِكمة عبارة عن معرفة أفضل المعلومات بأفضل العلوم، فهناك عِلمٌ مُطلق، والإنسان مهما تعلّم فإنه يقف على شاطئ بحر العلم، قال تعالى:

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦))

(سورة يوسف)

مهما تعلّم العالم المؤمن وارتقى علمه فإنه يقول: لم تبتل بعد قدماي ببحر المعرفة، ومن علامة العالِم الحقيقي أنه متواضعٌ، وكلما ازداد علماً ازداد تواضعاً، والإمام الشافعي رحمه الله تعالى يقول: **" كلما ازددت علماً ازددت علماً بجهلي"** فمن هو العليم عِلماً مُطلقاً ؟ الله لا غيره، الحكيم تُطلق على ذي العِلم المُطلق: العِلم الذي لا يعتوره خلل ولا جهل ولا شائبة، وما من إنسان يدّعي أنه بلغ العلم المُطلق، حتى في الحِرَف والمِهَن، وحتى الأطباء والعُلماء والمُهندسون، يرتكبون أغلاطاً كبيرة جداً، أما العِلم المُطلق فهو لله عز وجل، ولهذا يقول الإمام الغزالي **" لا يعرف اللهَ إلا الله "**.

المعنى الثالث: الحكيم هو الذي يتنزّه عن فِعل ما لا ينبغي، يعني هو الذي يضع الشيء المُناسب بالقَدَر المُناسب وفي الوقت المُناسب وبالمكان المُناسب، فهذا معنى الحكيم، إذ لا نستطيع أن ننطق بكلمة ولا حرف زيادة عما يجب، فأحياناً فنضع الشيء المُناسب ولكن بحجم غير مُناسب، وأحياناً أخرى نضع الشيء المُناسب بالقدْر المُناسب وفي وقتٍ غير مُناسب، وكذلك أحياناً نضع الشيء المُناسب بالقدر المُناسب وفي الوقت المُناسب و في مكان غير مُناسب، فالحكيم هو الذي يفعل ما ينبغي بالقدر الذي ينبغي وفي الوقت الذي ينبغي وبالمكان الذي ينبغي، فهذا هو الحكيم.

وبعد، فما حظك أيها الإنسان من اسم الحكيم. أن الحكيم من الأسماء التي يمكن أن يتحلّى بها الإنسان انطلاقاً من الحديث الشهير:

((تخلقوا بأخلاق الله))

فالمؤمن الحق حكيم، فحِكمَتُهُ من أين تأتي ؟ ومن أين يستقي حِكمَتَهُ ؟ من معرفته بالله.. فإن كان لديك آلة، معقدّة جداً و لديك تعليمات دقيقة عنها فأنت تكون حكيماً لو نفذت هذه التعليمات التي هي من عند الصانع، فالقضية سهلة جداً، و إذا قرأت القرآن وفهمته، وفهمت السُنّة المُطهرة فأنت بمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل وأمرَ النبي فأنت حكيم، فمثلاً، غضُ البصر حِكمة بالغة، فأنت إذا غضضتَ بصرك عن محارم الله فلابد من أن يبقى في حياتك امرأة واحدة، وليس مسموح لك غير زوجتك والحِكمة تقول

إنك تُقبل على هذه الزوجة إقبالاً يجعل الود بينكما متنامياً، فلو كانت لك منافذ أخرى لنشأت في البيت بعض المتاعب الزوجية.

وهناك نقطة مهمة جداً، وهي قاعدة في المنطق وهي: **" الانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به ".** فيمكن أن نأتي ببدوي ونعطيه سيارة من أحدث السيارات، وهو سائق ماهر، يتمتع بسرعتها وتكييفها وصوتها الناعم، وبكل ميزات هذه السيارة وهو لا يفقه شيئاً من أساليب صناعتها، و اليوم صار عند كل الناس أجهزة متقدمة كثيرة فالذي عنده مكيّف مثلاً هل يعرف مبدأ عمله ؟ إنه يكتفي بأن يكبس المفتاح ثم يقول لك: تكيّفنا، و الذي عنده براد هل يعرف مبدأ عمله ؟ ومن يركب طائرة وهي خلاصة علم البشرية كلها ؛ وكل من سافر فيها يقول لك حلقنا على ارتفاع أربعين ألف قدم وأكلنا طعاماً ساخناً، ورأينا الغيوم.. فالانتفاع بالشيء ليس أحد فروع العلم به، فأنت لمجرد أن تُطبّق أمرَ الله عز وجل سواء أعرفت حِكمَتَهُ أم لم تعرف ؟ أتعمقت في تحليلها أم لم تتعمق ؟ تقطف ثمارها كلها هذا الذي أريد أن أقوله لكم.. أَمَرَكَ بغضّ البصر فأطعت، وأَمَرَكَ أن تكون صادقاً، و الحِكمة كلها في الصدق، وكلما كنت صادقاً عند الناس ارتفع شأنك فشعرت بمكانة الرجل الصادق فأنت رأسُكَ مرفوع.

ذكرت قصة فيما سبق، أعدتُها وكررتها مراراً لأن فيها عبرةً بالغةً وهي أن سائق سيارة رأى امرأة ملفعة بعباءة فأشارت إليه فوقف، والسيارة من سيارات الأجرة طبعاً، قالت له: خذني إلى المكان الفلاني وفي منتصف الطريق خلعت ما عليها، وأعطته مبلغاً بالعملة الصعبة كبيراً جداً، و قالت خذه واقض حاجتي، أخذ المبلغ الضخم وقضى حاجتها وحاجته، وأعادها إلى مكان الانطلاق، وأعطته رسالة، فقرأها وذهل، إذ هنأته على أنه أصبح عضواً في نادي الإيدز، إنها مصابة بهذا المرض الخبيث، وتريد أن تنتقم من الناس جميعاً، ومعها عملة مزورة أيضاً، فذهب ليبدل هذا المبلغ بالعملة المحلية، فوقع تحت قبضة العدالة ! فقولوا بربكم أيمكن لمؤمن أن يقع في هذا الفخ ؟ ذاك مستحيل، إنه يخاف من الله.. ولا بد من صرفها بصورة من الصور.

فأنت حينما تُطبّق أمر الله حكيم، من دون لف أو مواربة أو تعقيدات، فالله أمرني ألا أكذب فلا أكذب، وألا أغش فلا أغش، أما تحليلات الغش: فهناك قانون اقتصادي، تروج به الدول الغنية بضاعتها فتعطي قروضاً للدول الفقيرة حتى ينشأ عندها قوة شرائية، ثم بعد ذلك تقع تلك الدولة تحت نير الديون للدول الكبرى فتستغلها أبشع استغلال لكن المسلم عندما يؤدي زكاة ماله، وكل غني يؤدي زكاة ماله كذلك، فينفرج الفقير ويصير ذا مال ويتمكن من أن يشتري قميصاً وبذلة وحذاء وحاجات زائدة وسيوسع على أهل بيته،دون أن يبتز أحداً أو يحمل أحداً ديوناً، ومن جهة أخرى عندما دفعت زكاة مالك قطفت كل ثمار الزكاة، فالقير صار بخير وأنت بخير ونلت ثواب الله الجزيل.

مؤلف غربي اسمه " ألكسي كارليل " ألفَ كتاباً (الإنسان ذلك المجهول) وبعد بحث طويل وجد أن نظام البشر لا يصلح إلا بزوجة واحدة، شريطة أن يقصر الرجل، طرفه عليها أي أن يَغُضّ بصره، فأنت من دون تعمق ومن دون أن تقرأ الكتب، حينما تَغُضّ بصرك ملتزماً بأمر الله تقطف كل ثمار هذه الحِكمة، فالإنسان يجب أن يكون حكيماً، وكيف يكون حكيماً ؟ يكفي أن يُطبّق أمر الله وأمر رسوله فقط.

اسأل طبيباً فيحدثك عشر ساعات عن الاعتلال بالطعام والشراب، فالمؤمن من دون أن يفهم كل هذه التفصيلات، فهو يعرف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((نحن قومٌ لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع))

انتهى الأمر، هذا هو الطب الوقائي كله، إذاً يمكنك أن تقطف ثمار كل المعارف بلا تعمُق.. حينما تطبق أمرَ الله، إذاً مَن هو الحكيم ؟ هو الذي طبّق تعليمات الصانع، هذا هو الحكيم.

أحياناً يكون له موقف ليس فيه تعليمات، إذ ينشأ ظرف ليس فيه نص آية ولا حديث حول هذا الموقف العارض، فالحِكمة تأتيك إلهاماً من الله. إذاً إما أن تكون الحكمة في أساسها نصاً قرآنياً أو حديثاً نبوياً تُطبقُهُ فتغدو حكيماً وإما أن تكون الحِكمة إلهاماً يُلقى في قلبك، لأنك تطلب رضاء الله عز وجل، وتتكلم الكلام المُناسب في الوقت المُناسب، مع من يُناسبُ في المكان المُناسب: تعطي وتمنع، وتغضب وترضى، وتصالح أو لا تصالح، فهذه المواقف المتجددة والتي ليس لها بين النصوص نص واضح متعلّق بها، تصل من الملائكة حينما يلقون في روع الإنسان بعض الإلهامات قال تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧))

(سورة القصص)

هذا وحيُ إلهام وليس بوحي رسالة، فأحياناً يقول لك: لم ذهبت وأنت لا تعرف ؟ فالله عز وجل يسوق لك الخير الكثير من حيث لا تدري أو يرد عنك أذىً أو شراً من حيث لا تدري أيضاً، فهذه هي الحِكمة، فكن مع الله دائماً، فإن واجهت موقفاً ليس فيه نص لتتصرف فالله عز وجل يُلهمُكَ الصواب، وهذا عين الذي قاله النبي عليه الصلاة والسلام:

((أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

إذاً أنت تكون حكيماً باتباع أمر الله وأمر النبي، وحينما تشعر بانقباض أو انشراح فهذا نوع من إلهام الله عز وجل لك، والإنسان كلما كان أكثر إيماناً كان أكثر حِكمةً، والنبي عليه الصلاة والسلام كانت حِكمته من أعلى مستوى، لأنه قريب مباشرة من الله عز وجل، ومن الناس من يمشي في طريق مليءٍ بالحفر والأكمات، والحشرات المؤذية، وعلى جانبيه أشجار ثمارها يانعة، فلو أن لديه مصباحاً كاشفاً

فهل يمكن أن يخطئ ؟ لا. إذ بالمصباح الكاشف يرى الحفرة فيتجنبها، ويرى الأكمة فيبتعد عنها، ويرى الثمرة فيأكلها ويرى الحشرة فيقتلها، فمن أين يأتي الحمق ؟ من العمى قال تعالى:

(فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦))

(سورة الحج من الآية ٤٦)

إني لأرى أحياناً أن إنساناً ما يطلّق زوجته بحُمق، وبلا أسباب موجبة في ساعة غضب، وهذا عَمَى حقاً، فإذاً الحمق أساسه العَمَى وهو يُردى، والحِكمة أساسها البصيرة في القلب، ونتائجها تردي:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى (١٢٦))

(سورة طه)

كان أعمى في الدنيا، فنسي أمر الله فآل إلى زوايا النسيان والإهمال، أما نحن المؤمنين إن شاء الله، فحِكمتُنا في اتّباع القرآن الكريم، وفي اتّباع السنة المطهرة، وكلما كنا أكثر إخلاصاً وأكثر ورعاً واستقامة ألهمنا الله رشدنا، **" اللهم ألهمنا رشدنا وخذ بنواصيها للمواقف الحكيمة ".**

أخيراً، إليكم أيها القراء الكرام قصة لعلكم تعرفونها جميعاً، حصلت منذ خمسين سنة لإمام وخطيب جامع الورد، إذ رأى في المنام النبي عليه الصلاة والسلام، فقال له عليه الصلاة والسلام: قل لجارك فلان إنه رفيقي في الجنة، وجاره سمّان، وهو الخطيب والعالم فتمنى لو أنه بمكان هذا الجار، طرق باب جاره، ودخل عليه وقال له: لك عندي بشارة، ولكن والله لا أقولها لك إلا إذا أطلعتني على حقيقة أمرك وماذا فعلت حتى حللت هذه المنزلة عند الله عز وجل، فامتنع عن الإجابة وبعد إلحاح شديد، قال: لقد تزوجت امرأة وفي الشهر الخامس تبيّن لي أنها حامل وحملها في الشهر التاسع، فعلمت أنها قد زلّت قدمها، فكان بإمكاني أن أُطلِقَها وأن أفضحها، وأن أسحقها، وأنا محق في ذلك، والناس يقروني، فجئت بمولّدة، فولدت غلاماً، وحملته تحت عباءتي، ودخلت إلى جامع الورد بعد أن نوى الإمام صلاة الفجر ووضعت هذا الغلام خلف الباب، واقتديت بالإمام، فلما انتهينا من الصلاة بكى المولود، فتحلّق المصلون حوله واندسست معهم، قلت ما الخبر، قالوا: مولود، فقلت: هاتوه أنا أتكفله، فأخذته أمام أهل الحي على أنني قد تبنّيته ودفعه لأمه التي ولدته قبل ساعات. ومن بعد، فهذا تصرف أهل التقوى، وهذا تصرف أهل الحكمة. وإنه لرجل حكيم.

٢٥- اسم الله الحق:

مع الاسم الخامس والعشرين من أسماء الله الحسنى والاسم هو اسم **" الحق "** وهذه الكلمة مُتداولة بكثرة كثيرة، والله سبحانه وتعالى هو الحق، وكلامه هو الحق، ووعده هو الحق، ووعيده الحق، وأفعاله حق.

وكلمة حق قبل أن نمضي في الحديث عنها لابد من ضرب الأمثلة: معك جهاز كهربائي، وبحاجة إلى طاقة كهربائية، توجهت إلى مأخذ كهربائي ووضعت فيه الشريط، فالآلة لم تتحرك، فهذا المأخذ ليس فيه كهرباء، فتوجهت إلى مأخذ آخر ووضعت فيه الشريط فدارت الآلة، أول مأخذ باطل، الثاني حق.. فما معنى الحق إذاً ؟..

الشيء الموجود موجود، الحقيقة أن الله هو الحق، وإذا توجهت إلى غيره فلن تجد شيئاً بل سراباً في سراب، وعودٌ كاذبة، وأقوال فارغة، و كلمات طنانة، لكنها هراء وهواء، وإذا توجهت إلى الله عز وجل وجدت كل شيء، فأول معنى من معاني الحق الشيء الموجود، وأول معنى من معاني الباطل الشيء المعدوم، والإنسان إذا وعدك وعداً ونفّذ وعده فوعده حق، فإن لم يُنفذ فوعده باطل، وإذا توهمت أن الجنّ بإمكانهم أن يفعلوا كذا وكذا فهذا مجرد وهم، وفي الحقيقة أن الله سبحانه وتعالى ما أعطى الجن قوةً أبداً، فاعتقادك أن الجن بإمكانها أن تفعل وأن تؤذي وأن ترفع وأن تخلص فهذا اعتقاد باطل، لأنه لا يُطابق الحقيقة، وإذا قُلت مثلاً: فلان بإمكانه أن يفعل شيئاً خارقاً فلعلك مخطيء، إذ هو في الحقيقة عبد مثلك لا يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك، فقولُك باطل، فالشيء الموجود واعتقاد وجودِهِ والاعتراف بوجودِهِ، هذا هو الحق، والشيء المعدوم أن يتوهّم الإنسان أن هذا الشيء موجود وهو ليس بموجوداً فهذا الوهم باطل، وأن تعتقد أن هذا الشيء موجود وهو غير موجود فهذا اعتقاد باطل، وإذا قلت إن هذا الشيء موجود وهو غير موجود فهذا قول باطل، والصواب أن الحق هو الموجود، والباطل هو المعدوم، والاعتقاد الحق حينما يوافق اعتقادُك الواقع فهو حق، وإذا خالف الواقع فهو باطل، والقول الحق حينما يوافق قولك الموجود فقولك حق، وحينما يخالف قولك الموجود فالقول باطل.

وأخطر ما في الحياة أن تتجه إلى جهة لا تملك شيئاً، وأخطر ما فيها أيضاً أن تعتقد اعتقاداً غير صحيح ليس له مرتكز واقعي أبداً، وأخطر كلام تقوله أن تنطق بشيء لا يرتبط بالواقع، فما الذي ضيّعَ الناس ؟ الباطل، وقد تعتقد اعتقاداً وبعد سنين طويلة ينكشف للعالم كله أنه اعتقاد باطل، وأن هذا المبدأ غير صحيح، وأن هذا المبدأ ما حقق نفعاً للإنسان، بل زاده شقاءً.

فإذا كنت مع الحق فأنت في سعادة كبيرة، لماذا ؟ لأنك مع الثابت ومع الموجود، وهذا ملخص الفكرة، أو هذه هي الخطوط العريضة لها.

والشيء الموجود إما أن يكون واجب الوجود أو ممكن الوجود فالخالق واجب الوجود، فلابد من أن يكون موجوداً، ولا يُمكن إلا أن يكون موجوداً، والعقل لا يقبل هذه الدِقة البالغة في الخلق من دون إلهٍ خالق، ومن دون إلهٍ مبدع، ومن دون إلهٍ مُصمم، أو إلهٍ حكيم، أو إلهٍ عليم أو إلهٍ قدير، فالموجود واجب الوجود، أما المُمكن فهو ما كان مُمكن الوجود، فنحن مثلاً مُمكن أن نكون أو لا نكون، ولا يكون وجودنا حقاً إلا إذا شاء واجب الوجود أن نكون، ولذلك ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

(وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢))

(سورة إبراهيم)

وعدُ الشيطان باطل، وأحياناً الشيطان يخوفك، وتخويفه باطل وأحياناً يَعِدُكَ بالفقر ووعده باطل، و القضية ليست قضية فكرة تتعلمها بل القضية قضية مصيرية، فإن كان لك مبلغ في حلب كبير جداً، ولن تقبضه إلا من الساعة الثانية عشرة حتى الساعة الواحدة من يوم السبت، وهذا المبلغ إذا قبضته يحل كل مشكلاتك، فإن توجهت إلى المحطة، وركبت قطاراً يوصلك إلى حلب، وصلت إلى غايتك، لكنك قد تخطئ وأنت راكب في هذا القطار عشرات الأخطاء ولكن ما دام هذا القطار في طريقه إلى حلب وسوف تصل إلى هذه المدينة قبل الساعة الثانية عشرة، فأنت في الحق، أما إذا ركبت قطاراً متجهاً إلى درعا في مسار معاكس لمدينة حلب فهذا القطار باطل لأنه لن يوصلك إلى هدفك، إنه قطار ولكن يتجه بك إلى عكس هدفك، و أنا أحاول أن أبدد كل حيرة من أجل توضيح هذا الأمر لأنه دقيق وعميق جداً، وقد يحتاج الإنسان لتوضيح الحقائق إلى ضرب الأمثلة.

الله هو الحق، و هذا الكون لأنّ الله خلقه هو حق، وكذلك لأنه موجود فهو حق و لكن هذا الشيء ممكن الوجود، فيمكن أن يكون ويمكن ألا يكون، لكن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، وأن تعتقد بوجوده فاعتقادُكَ حق، وأن تُقِرّ بوجودِهِ فإقرارُكَ حق، وإذا اعتقدتَ بأنّ زيداً من الناس بإمكانه أن ينفعك فاعتقادُكَ باطل، أو بإمكانه أن يضركَ فاعتقادُكَ باطل، وإذا قلت هذا فقولك باطل، فصار الموجود هو الحق، والاعتقاد بالوجود هو الاعتقاد الحق والإقرار بالوجود هو الإقرار الحق، وهذه الفكرة النيّرة تقودنا إلى فكرةٍ أخرى، بأنّ الحق في الكون لا يتعدد، بل أن الحق واحد، لقولِهِ تعالى:

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢))

(سورة يونس آية ٣٢)

فإن اعتقدتّ أحدٌ خِلاًف ما في هذا القرآن فهو بالدليل القطعي ضال، وعليه أن يقيل عثرة نفسه. و إذا اعتقد أن الأجل بحسب العناية بالصحة، والعناية بالصحة واجب، فإذا اعتقد أن الأجل متعلّق بذلك فهذا اعتقادٌ باطل، لأن الإنسان لا يموت إلا إذا انتهى أجله.

أخٌ كريم من إخواننا الكرام حدثني قصة، فقال أنا وُلِدتُ في بيتٍ ولي عمان فوالدي له غرفة، وعمي له غرفة، وعمي الآخر له غرفة، وفي الساعة الرابعة من يوم الثلاثاء ولدت في غرفتنا و الغرفة الملاصقة لها هي غرفة عمي، وفيها زوجته، وقد أصيبت بمرض عضال خطير، وأستُدعي أربعة أطباء لمعالجتها، ومن غرائب المصادفات أن الأطباء الأربعة اتفقوا على أنها لن تعيش أكثر من ساعة. فأنا ولدت وكبرت وترعرعت ودخلت المدرسة، وتخرجت فيها وعملت مع والدي، وتوفي والدي، وتزوجت، وانتقلت من بيت إلى بيت إلى بيت، واشتريت آخر بيت وهو الذي أسكنه وأقيم فيه، وأصبح عمري خمسة وأربعين عاماً وجاءت زوجة عمي لتزورني قبل أيام. فرغم قول الأربعة أطباء أنها ستموت بعد ساعة، فلقد عاشت بعد ذلك خمسة وأربعين عاماً، إذاً كلام الأطباء باطل.

إن الطبيب له علم يدل بــه إن كان للناس في الآجال تأخير

حتى إذا ما انتهت أيام رحلته حار الطبيب وخانته العقاقيـر

***

عزيزي القارئ ؛ هل تعرف من البطل ؟ البطل هو الذي يأتي اعتقادُهُ مطابقاً للواقع، ويأتي حديثه مطابقاً للواقع، وتأتي حركاته مطابقة لمنهج الله عز وجل، ولنا مثل في آلة غالية الثمن، معقدة التركيب، عظيمة النفع، وأنت حريص حِرصاً لا حدود له على أن تستعملها وَفْقَ تعليمات الشركة، فكيف بك وأنت المخلوق الأول ؟.

إذاً: كلمة (حق) ذات شأن وخطر وإني لأتمنى على كل أخ أن يراجع نفسه وحقيقة أفكاره عن الدين ليتبين هل هي صحيحة ؟ وهل معتقداته صحيحة ؟ وهل تصوراته عن الله صحيحة ؟ وهل مُعتقده بالنبي عليه الصلاة والسلام صحيح ؟ وهل آراؤه في القضايا المعاصِرة صحيحة ؟ وما قيمة رأيك أنت؟

ذكرت ذات مرةً أنه قد جرت حرب أهلية في بلد مجاور ودامت أربعة عشر عاماً، وانتهت والحمد لله هذه الحرب الأهلية ويُمكن وقد مضى عليها زمن، أن تُفسر تفسيراً عربياً فنقول: هذا البلد أصبح ساحة صِراع للقِوى العربية، ويمكن أن تُفسر هذه الأحداث الدامية تفسيراً طائفياً، كما يمكن أن تُفسر تفسيراً دولياً، إنه مركز مالي قوي جداً نافسَ مراكِزَ أُخرى، ويمكن أن تُفسر تفسيراً قرآنياً، دينياً، إلهياً، قال تعالى:

(وَضَرَبَ اللّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللّهِ فَأَذَاقَهَا اللّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ (١١٢))

(سورة النحل)

هذا التفسير الديني، تفسير خالق الكون لما حدث، فأي هذه التفاسير هو الحق ؟ إنه التفسير الديني. إذاً: إذا توجهت إلى تفسيرات أخرى فتكون في باطل،لقد حصل زلزال، فهُدمت مدينة بأكملها، هناك تفسير ساذج إذا يقال: إنه تصدع بالقشرة الأرضية أو التواءات داخلية، فهذا تفسير علمي، ولكن هذا التفسير لا يتناقض مع التفسير الديني، قال تعالى:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧))

(سورة هود)

فلن تكون بطلاً إلا إذا استطعت أن تتعرّف إلى الحق، وأن يكون اعتقادك حقاً، وأن يكون كلامُك حقاً، وأن تكون حركتُكَ حقاً.

وإذا كنت تعاني من مشكلات، وأن تفسِّر هذه المعاناة بقلة الحظ، فهذا تفسير باطل، وهناك تفسير آخر أن تقول لي حُسّاد كثيرون رموني بحسدهم، وهذا تفسر باطل أيضاً، لأنَه لا يستطيع أحد أن يَضُرَّ أحداً، إلا إذا كان مستحقاً أو غافلاً، ولكن إذا قلت ما من عثرة، ولا اختلاج عرق، ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم، وما يعفو الله عنه أكثر، فهذا التفسير حق، وأنت في اليوم الواحد أمام آلاف المقولات الباطلة، فالبطولة أن تتعرف إلى الحق وأن تعتقد الحق، وأن تَنطِق بالحق، ولن تكون على حق إلاّ إذا عرفته، ولن تعتقد به، ولن تَنطِق به إلا إذا عرفته، لذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((أصل الدين معرفة الله))

ومثلاً عن أصحاب الصنعات، فلو فرضنا إنساناً تصرّفَ في صنعته تصرُفاً خاطئاً، فنقول إن هذه الطريقة باطل، ولو أشاد إنسان بناء على الشاقول، فسوف نقول هذا البناء حق لأنه سيستمر، ولو أشاد بناء بلا شاقول فنقول هذا البناء باطل، لماذا ؟ لأنه سيسقط وينهار. فما هو الحق إذاً ؟ ؛ هو الشيء الموجود، ولكن يجب أن نضيف إلى ذلك شيئاً فعندما قال ربنا:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ(٨٥))

(سورة الحجر)

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨))

(سورة الروم آية ٨)

وآية:

(وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ(٢٦))

(سورة ص)

الباطل: هو الشيء الزائل، والحق: هو الشيء الموجود الثابت و من معاني الحق الشيء الموجود الثابت، والآن سنضيف شيئاً، الموجود حق، أمّا الدرجة الأعلى، فواجب الوجود، والدرجة الأعلى كذلك فدائم الوجود، فواجب الوجود ودائم الوجود، وهناك أعلى من ذلك، ولا موجود آخر معه، إنه واحد في وجوده، ثم انتهينا إلى درجة أعلى: كامل في وجوده. فهو واجب ودائم وواحد وكامل، هذه حقائق ثابتة عن الله عز وجل.

الله موجود، بل هو واجب الوجود، بل هو أبدي الوجود، لا شيء بعده، وهو واحد في وجوده، وكامل في وجوده. فإذا عرفته بهذه الصفات فقد عرفت كل شيء، وإن فاتتك هذه المعرفة فاتك كل شيء، والله ما حصّلتَ شيئاً، ولو ملكت أموال الدنيا، أو ارتقيت إلى أعلى مكانة في الحياة، ولو حصلت كل الشهوات وما عَرَفْتَ الحق، فلست بشيء، لأنّ وجودُكَ ليس ذاتياً، فلو كان وجودُكَ ذاتياً فليس هناك مانع، لكن وجودك مرتبط بواجب الوجود، فإذا شاء واجب الوجود وهو الله أن يُلغي وجودك فعندئذٍ تنهي أمرك كله.

لقد كنا مدعوين إلى عيد مولد في أحد مساجد دمشق، والذي دعاني وقدم لي بطاقة الدعوة، أحد إخواننا الأكارم، فتوجهت إلى مكان الحفل، وفي مدخله رجال عديدون يقفون لاستقبال المدعوين، صافحتهم واحداً واحداً، وسألت الذي دعاني في الطريق، من الذي أشرف على هذا المولد، قال لي: عمي فلان والد زوجتي، قلت له أين عمك ؟، قال هو في الداخل فلما دخلت صحن المسجد، رأيت رجلاً مُكتمل الرجولة، يرتدي الثياب الأنيقة مورد الوجه نشيطاً، ولم أكن أعرفه من قبل، فرحّبَ بي ترحيباً حاراً، وأفاض، فدخلت إلى مكاني في الحفل، وكان أحد الإخوة الأكارم يلقي كلمة، وأثناء إلقاء كلمته، تحرك اثنان من المدعوين، فما فهمت لِمَ تحركا، ثم ألقيت كلمتي التي استغرقت عشرين دقيقة، وبعد أن أنهيت كلمتي، جاء رجل وهمس في أذني أن هذا الذي استقبلك في صحن المسجد قد توفي، وما استمع إلى كلمتك.

لا تعجب فأنت ليس واجب الوجود بل أنت ممكن الوجود، والدليل واجب الوجود أنهى وجوده، بثانية، فقد كان ينتظر أن ألقي كلمة، فما استمع إليها، وبعد أن دخلت وقع ومات، و نحن والله لم نُصدّق، أُنهيَ الحفل، وذهبنا إلى المستشفى، ودخلنا إلى غرفة العناية المشددة فإذا هو مسجى، قد فاضت روحه إلى بارئها، فأنت ليس واجب الوجود بل ممكن الوجود، وأنت ليس حقاً، فالله هو الحق ولو كنت حقاً لسرى عليك قوله تعالى:

(فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ (٨٦) تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٨٧))

(سورة الواقعة)

نعم. إنني مدين، وكلنا مدينون.

وإذا هطلت الأمطار عمت الفرحة وشملت العباد والبلاد، لكن لو أن السماء انحبست،فما مصيرنا، وما وجودنا ؟ إذ ستجف الآبار والأنهار، والنباتات تصير إلى الذبول واليبس، والسؤال الذي يطرح نفسه، فهل وجودنا ذاتي ؟ لا، نحن وجودنا متعلِّق بمشيئة واجب الوجود، وفي المطر، وفي كل شاردة وواردة، وفي كل صغيرة وكبيرة.

وكم يكون هذا الإنسان غبياً إذا ظنّ أنه موجود وأنه واجب الوجود وأنه يعمل وأنه يكسب المال، فهذا هو الباطل، وهو اعتقاد باطل، فأنت كلما تعرفت إلى الله صَغُرَت نفسك في عينك وكَبُرَ في عينك الله سبحانه وتعالى، فمن هو المؤمن إذاً ؟ الذي لا يرى إلا الله.

(إِنّ الّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنّمَا يُبَايِعُونَ اللّهَ يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح)

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٧))

(سورة الأنفال)

(إِنّ الّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنّمَا يُبَايِعُونَ اللّهَ يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(وَلِلّهِ غَيْبُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبّكَ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ(١٢٣))

(سورة هود)

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

قد تسأل ؛ لماذا يتكلم فلان بما ليس قانعاً به ؟.. لأنه لم ير أنّ الله هو كل شيء، فلعله رأى الله عظيماً، كما رأى فلاناً عظيماً، فهو يرى أن زيداً وعُبيداً وفلاناً بإمكانهم أن يفعلوا و يرفعوا و يخفضوا، و ينفعوا و يضروا، و كلما نقص توحيدك ازداد شِركُك، فاعتقادك غير صحيح.

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

فالقضية أخطر بكثير من أننا استمعنا إلى محاضرة فذة معانيها مقنعة، مؤثرة، هادفة ثم تفرقنا إلى بيوتنا، إن جلل، فالأمر يتعلق بحياة أبدية، فهل أنت على حق وهل اعتقادُك حق، وهل تصوراتك حق،

أو أفعالك حق، ومواقِفُك حق، و هل أعطيت بالحق أم بالباطل؟ و هل منعت بالحق ؟ وغضبت بالحق ؟ و رضيت بالحق ؟.

هناك غضب بالحق ورضى بالحق، وإعطاء بالحق، وصِلة به أو قطيعة، وحينما تعرف الحق أنه واجب الوجود وأنه أبدي الوجود وأنه واحد في وجوده، وكامل في وجوده، و لا موجود سِواه، وإليه المصير، فعندئذٍ تقطع كل العلائق مع أي كان، وتتجه إلى الخالق. فالقضية أخطر بكثير من أن الإنسان حضر مجلس علم، وأخطر بكثير من أنه صلى ركعتين ودفع ليرتين، لأن الأمر أمر مصير أبديّ، والقضية قضية حق أو باطل، قال تعالى:

(فَذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٢))

(سورة يونس)

وشيء آخر ثم اعلم أيها القارئ العزيز أنك لو اعتقدت اعتقاداً ليس قطعياً، إذ سألك سائل: هل أنت مؤمن بالجنة ؟ فقلت: والله أغلب الظن أن هناك جنة، فهل علمت أن هذا اعتقاد باطل، ولن يغنيك شيئاً وهل أنت مؤمن أنّ الله عز وجل سيسألك عن كل صغيرة وكبيرة ؟ فقلت: لن يُدقق، ولن يحاسبنا إلا على قدر عقولنا.. فهذا اعتقاد باطل أيضاً، وهل أنت مؤمن بقوله تعالى:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩))

(سورة الزمر)

فالله سبحانه يخاطب النبي، أي يا محمد:

(أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩))

وقد تقول كما يقول بعضهم: لقد حكى لنا فلان حفظه الله ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لن يدخل الجنة حتى يُدخل كلّ عصاة أمته، فنحن إذاً والحمد لله مصيرنا معروف، فهذا اعتقاد باطل وإن هي إلا أماني، وإن هم إلا يظنون. ولا بد من مراجعة حساباتك، إذ الإنسان أحياناً ومن خلال دروس في المساجد متقطعة، ومن خلال خُطب غير دقيقة، ومن خلال أقوال في جلسات غير صحيحة، فيتسرّب الباطل إلى ذهنه وعند ذلك سوف يتصرف بالباطل. فمثلاً لِمَ تغش يا فلان ؟ فيقول: أنا عندي أولاد والنفقات باهظة فماذا أفعل ؟ فهذا كلام باطل، إذ غاب عن ذهنه أن الله هو الرزاق ذو القوة المتين، وإن لكل حسنةٍ ثواباً ولكل سيئةٍ عِقاباً، فأولى بك وأجدر أن تُنقح عقيدتك من كل غلط اتهم به الأنبياء:

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤))

(سورة يوسف)

فتبادر إلى القول: هذا نبي ولن يقع في الزنا، وإن هذا اعتقاد باطل، وهو التفسير للآية باطل.

(وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا)

همت بجذبه فهَمّ بدفعها، أو تقرأ: ولقد همت به وقف. ثم تقرأ: وهم بها لولا أن رأى برهان ربه، فهذا هو التفسير الحق، عن الأنبياء.

الله عز وجل يلقي نوراً في قلب المؤمن يُريهِ الحق حقاً والباطل باطلاً، أما بعض التفاسير تورد أنه رأى أباه في المحراب فقال له إياك، فهذا لا يستقيم، فنحن نريد التفسير الحق.

(لَوْ شِئْنَا لَآَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١٣))

(سورة السجدة)

فيجب أن تفهم القرآن فهم حق وليس فهم باطل، وأن تفهم كلام النبي فهم حق:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ))

(صحيح مسلم)

ماذا يعني بهذا الحديث ؟ هل تقترف الذنوب جزافاً ؟ ليس هذا هو المعنى... المعنى إذا بلغتم درجة لم تشعروا بذنوبكم فأنتم موتى، لذَهَبَ الله بكم فمن أمضى سهرة بالغيبة ونام مرتاحاً، فالنبي الكريم قال:

((الغيبة أشد من الزنا))

(رواه ابن أبي الدنيا والطبراني والبيهقي مرفوعا)

فإذا ارتكب الإنسان المعاصي ولم يشعر بشيء فهو ميّت، أما المؤمن فيملأ الليل بالعمل الصالح، فيجب عليك أن تكون عقيدتك صحيحة، عن الله عز وجل، والله قال:

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)

(سورة آل عمران من الآية١٥٤)

وهناك خلق كثير أكثر أفكارهم عن الله ورسوله مغلوطة، وأكثر تصوراتهم و معتقداتهم خاطئة، فمثلاً يقولون: إن رسول الله كان ماشياً في الطريق فطرق باب زيد، ففُتِحَ الباب، وبدت زوجته زينب من دون ثياب وقد وصل شعرها إلى أسفل ظهرها فأعجب بها النبي وقال سبحان الله، سبحان مُقلب القلوب !.. من قال لك إن هذه القصة صحيحة ؟ من قال هذا ؟ فهل نبي عظيم يفعل هذا ؟ فأنت إن كنت مؤمناً فلن تفعله، لذلك فهذه الخرافة باطلة، مدسوسة دساً على الإسلام ونبيه.

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

(سورة الحجر)

ويزعم أحدهم أن امرأة حسناء صلّت بين الصحابة، وهل يعقل أن تصلي امرأة بينهم ؟ و هي وضيئة و حسناء، وبعضهم صلى خلفها ليرى محاسنها في أثناء الركوع والسجود وبعضهم صلى أمامها، فنزل قوله تعالى:

(وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ)

إنه تفسير باطل، وقول سوس والصحابة أعظم من ذلك، وهؤلاء أصحاب رسول الله، فأنت ينبغي أن تعرف الحق، وأن تعرف ما يليق بالحق، وأن تعرف أسماء الله الحُسنى وصفاته الفُضلى، ويجب أن تعرف ما يليق بالأنبياء..

أما عن النبي داوود فيقولون: عنده تِسعَ وتسعونَ امرأة، وأحب زوجة أحد قوّاده، فقال قدموه قدموه في الحرب لعله يموت ونأخذ زوجته، فعاتبه الله عز وجل وقال: يا داوود أعرض عن الهوى، هذا تفسير غير صحيح، والصواب أن سيدنا داوود انشغل بعبادته عن حل مشكلات الخلق، فأرسل الله له ملكين تسورا المحراب، وافتعلا خصومة وسمع من الأول ولم يسمع من الثاني، وقال للأول متسرعاً: قد ظلمك، ليعود إلى مصلاه، فالهوى الذي نهي عنه هوى رفيع، هواه في الإقبال على الله عز وجل فيجب أن تُفسّر التفسير الذي يليق بالأنبياء، ويليق بهذا الدين العظيم، ونحن نريد أن نعتقد اعتقاداً صحيحاً، ونقول قولاً صحيحاً، وأن نُطبّق تطبيقاً صحيحاً لنكون على الحق.

وأعود فأقول: الحق ؛ هو القول المُطابق للواقع بدليل، أنك إذاً لا تقبل كلاماً غير صحيح، لا يُطابق الواقع، إذ هناك دجالون كثيرون، يزخرفون القول فيدعون مثلاً أن هذه علاقتها مع زوجها سيئة، فيقولون لها، إنك تحتاجين إلى خروف أسود وأبيض، تذبحينه لكي يحبك، فهذا كلام باطل، كله دجل وكذب، وليعلم كل مسلم أن بين أظهرنا كتاب الله القرآن الكريم، فالنأخذ بما فيه، إذ به انتصر الصحابة وفتحوا الأمصار، ونشروا الإسلام، والبعض يدعون إلى الله عز وجل عن طريق ضرب الشيش مثلاً، فماذا أفاد المسلمين ؟ ما أفادوهم بل ضلّوهم، ولو أن مريضاً يشكو آلاماً مبرّحِة في المعدة، وزار طبيباً، فقال له انتظر، ونصب حبلاً في العيادة، وصعد يمشي عليه فرأى المريض أعمالاً خارقة، وهو مريض ويحتاج إلى دواء وعلاج، فماذا يستفيد إذا سار الطبيب على حبل وكان بهلواناً.

سردت هذه الأمثلة وأطلت لأننا بحاجة إلى علاج، وإلى راحة نفسية وإلى توازن، وإلى سعادة و إلى حقيقة ثابتة لا تكشف الأيام أنها زائفة، ويمكن أن يعتقد المرء اعتقاداً ما إلى أمدٍ طويل وفي النهاية يظهر أن هذا الاعتقاد باطل، و لا أساس له من الصحة، وما سبّبَ إلا دمار الإسلام والمسلمين، إذاً كلمة الحق، الله هو الحق.

لابد من أن يعرف المسلم أن اعتقادكَ إذا كان مُطابقاً للواقع فهذا الاعتقاد حق وأنّ قولَكَ إذا كان مُطابقاً للواقع فهذا حق.

وما قولك إذا ركب أحدهم سيارة، فقيل له لمَ هذا الضوء وما فائدته، وهو ضوء صدر عن ساعة الزيت، فأجاب: إنه يتألّق ليُسليّك في الطريق، وليس له غاية أخرى، فهذا التفسير صحيح أم غلط ؟ وهل التصديق صحيح أم غلط ؟ وهل الكلام صحيح أم غلط ؟ كله غلط، لأنّ هذا لو تألّق وبقيت ماشياً لاحترق المحرك، فيكلفك خمسين ألفاً، أما لو تألّق ووقفت مباشرةً فيُكلِفُكَ مائة ليرة فقط.

يجب أن تكون معلوماتك، وتصوراتك، واعتقادك، ومواقفك، وعطاؤك ومنعك وصلتك وقطيعتك وغضبك وسرورك، كله بالحق، والنبي كان يمزح ولا يمزح إلا حقاً، فيمكن أن تمزح و لكن مزح حق، لا خدشاً لمشاعر إنسان، ولا تحقيراً لأحدٍ ولا تحقيراً لحِرفة أو مهنة، ويمكن أن تروي طُرفة ممتعة وأنت صادق وبحق، فالنبي كان يمزح، ولا يمزح إلا حقاً.

كلمة **" حق "** أتمنى على الله عز وجل أن تكون واضحة، وبالقرآن وردت مئات المرات، والله هو الحق، أما معنى إحقاق الحق، وأنّ كل ما سِوى الله لا وجود له إلا بالله، وفي أية لحظة إذا أراد الله لشيء أن يزول فإنه يزول، كن فيكون زُل فيزول، إذاً ما سِوى الله مُمكن الوجود وإذا وُجِدَ فبالله، وإذا استمر فبالله، وإذا انتهى فبالله، و هناك دعاء للنبي عليه الصلاة والسلام: **"اللهم أنا بك وإليك "**. موجز أنا بك: يعني قائم بك، والله سبحانه ماذا قال ؟ قال: قل اللهم مالك الملك، مالك الملك، وكل شيء يُمَلّك فالله مالكه فعينك ملكه، وأنت ترى بها ما دام قد سمح لك أن ترى بها، وفي أية لحظة لو شاء أن تفقدها لفقدتها بلا سبب فالله حق.

والسمع يُمَلّك، والأصل أن الله مالكه، واللسان يملك، حدثني أخ قال لي: بمشفى الأمراض العقلية، هناك مهجع خطير جداً، رقم ٦ هذا المهجع نزلاؤه كما خلقهم الله عز وجل، يمزقون كل ثيابهم، ويأكلون من نجاساتهم ودمائهم وشعورهم، أي شيء يوضع في هذا المهجع يُتلف، أقوياء البنية، لكن عقولهم معطّلة، فأنت لك مركز، ولك عمل، وتُتقن حرفة، وأنت قائم بالله، فلو أخذ ما أوهب انتهيت، وبيتك أنت عمرته، ورتبته وزيّنته فلو صار في عقلك خلل، فأهلك يطرقون أبواب المسئولين حتى يسمحوا لهم أن يضعوك في مستشفى الأمراض العقلية، ويتوسلون ويرجون. بينما كنت أنت الأب وأنت مالك البيت، وأنت الذي اشتريته ورتبته، لكنك الآن سلبت مل ما تملك، وفي أية لحظة قد يفقد الإنسان عقله، أو يفقد بصره، أو سمعه. و أنت عندك كليتان تعملان بانتظام، وإلى الآن لم يعرف الطب سبب هبوط وظائف الكليتين الفجائي، فجأةً تقف الكليتان عن العمل، فتصبح الحياة جحيماً، لا يُطاق، فيعرض على الطب كل أسبوع مرتين، وكل مرة سبع ساعات، مرة بهذه اليد ومرة بالأخرى، ومرة بالقدم، ويبقى بالمئة عشرون من حمض البول (الأوريه) بالدم، تُسبب لك مواقف عصبيّة صعبة ونرفزة وضيق نفس، أين آمالك، هل تملك كليتيك لا والله، وهل تملك دسام القلب لا والله، وهل تملك الشرايين التاجية وأن تبقى واسعة، وعندما تضيق تمشي مترين فتقع ولا تستطيع أن تُكمِل سيرك.

قال لي أخ: كنت أصعد إلى الطابق الرابع بسهولة فصرت إلى الثالث أتعب ثم إلى الثاني، ثم إلى الأول، ثم بعد درجتين أتعب، أجريت له عملية بكلفة مليون وما نجحت، فهل أنت تملك شرايين قلبك؟ لستَ بمالِكِها، وهل تملِك البنكرياس لتعطيك الأنسولين بشكل منتظم ؟ إنك لا تملكه، وإذا قصّرَ بواجبه هرولت مستغيثاً. أدركوني. أدركوني.

لي قريب في ريعان شبابه، أصيب بفقر الدم، وهو من أسرة غنية، وغذاؤه جيد والكريات ثلاثة ملايين بالميليمتر المكعب، كان يدرس الطب في الجامعة، إلى أن اكتشف أحدهم أنه يوجد خلل في الطِحّال، فأخذوا عينة إلى المخبر، فوجدوا الطِحال ليس مُقصِّراً.. بل يقوم بنشاط زائد، و الطحال مهمته إذا وجد كرية ميتة يحللها إلى هيموغلوبين وإلى حديد، فيرسل الحديد بطرود بريدية إلى نقي العظام ليُعاد تصنيعه مرةً ثانية، ويُرسل الهيموغلوبين إلى الكبد ليكون الصفراء فصفراء الكبد، وحديد نقي العظام أساسه تحلل كريات الدم الحمراء الميتة، فهذا الطِحّال نشيط بزيادة.. وكلما مات ميت أخذ كفنه فذهبَ إلى حي وقتله وأخذ ملابسه، هذا الطحال يقوم بنشاط زائد عن نشاطه الحقيقي، ووقضى الشاب لسوء عمل الطحال. بل قل انتهى أجله. والله حق.

فأنت حياتك مرهونة بسلامة الطحال بحيث لا يزيد نشاطه والأنسولين لا ينقص والدسام ألا يخطئ والشريان ألا يضيق، والكلية ألا تقف، والأعصاب والعضلات، واعلم أن نقطة دم في الدماغ تسبب الشلل، وأنتَ لا تملِكُ شيئاً:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران)

وأما عن وجودك أيها الإنسان وسعادتك، فأحياناً يعطيك الله الدنيا مع الانقباض، فكل المال ليس له قيمة، ولو أعطاك المال وسَلَبَ مِنكَ الطُمأنينة فحياتك في قلق، ولو أعطاك المال وسَلَبَ منك الصحة، أو الاستقرار والشعور بالأمن، فحياتك لا قيمة لها، قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٨١))

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢))

(سورة الأنعام)

أيها القارئ الكريم: أهم ما في حياتك أن تعرف الحقيقة ! ابتدأتُ الحديث معك أن لو كان لديك آلة وأنت مضطر لتشغيلها، وهي تحتاج إلى طاقة كهربائية، فتوجهت إلى مأخذ لا طاقة فيه، فهذا المأخذ باطل ثم توجهت إلى آخر فكان المأخذ الآخر صالحاً، إذاً هو حق، فالحق الشيء الموجود، بل هو واجب الوجود، و دائم الوجود، و واحد في وجوده، و كامل في وجوده، فهو واجب دائم واحد كامل، واعتقادك هذا حق، واعترافك هذا حق.

لذلك أعود فأقول: إن (الحق) ؛ كل قول وافق الواقع بدليل، أما بلا دليل فصار تقليداً فإذا قال أحدهم أشهد أن لا إله إلا الله، فحقيقة الكلام حق، وما الدليل ؟ إنه لا يعرف، فهذا كلام بلا دليل، فالحق أن يأتي كلامك مطابقاً للواقع مع الدليل.

وبعد، لو كان اعتقادكَ بالحق اعتقاداً غير قطعي، فلا قيمة له، قال تعالى:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢))

(سورة البقرة)

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥))

(سورة الحجرات)

فلو كان في اعتقادك ارتياب، أو تردد، أو عدم قطع، أو كان اعتقادك بالشيء ثلاثين بالمئة فما دون فهذا اسمه وهم، وإن كان اعتقادك خمسين أو حول خمسين بالمئة فهذا اسمه شك، وإذا كان اعتقادك سبعين بالمئة فما فوق فهو ظن، ولو كان اعتقادك تسعين بالمئة فهذا أطلقوا عليه " غلبة ظن "، أمّا إذا كان مائة بالمائة، فهذا هو الحق و إيمانك بالجنة والنار والحساب لابد أن يكون قطعياً، وأن المُرابي سوف يَمحَقُ الله ماله وأن الزاني سوف يَفتقر، وأن الذي يُطلق بصره لا بد من أن يشقى في بيته، وأنّ الذي له مال حرام سوف يُتلفه الله، وأن هناك وقفة بين يدي الله عز وجل، فإذا اعتقدت بهذه الأمور اعتقاداً قطعياً جازماً مائة في المائة، فأنت على حق، فالحق لا يتناسب معه الظن، ولا غلبة الظن ولا الشك ولا الوهم، قال المعري:

زعم المنجم والطبيب كلاهما لا تحشر الأجساد قلت إليكمـــا
إن صح قولكما فلست بخاسر أو صح قولي فالخسار عليكمـــا

***

هذه عقيدة باطلة، وقولهم إذا كان هناك آخرة نجونا، وإن لم توجد فما خسرنا شيئاً، فهذا ليس ديناً، بل هو شك ؛ وعدم تصديق بكلام الله.

الحق لا يتحمل وهماً ولا شكاً ولا ظناً ولا غلبة ظن، ولا يناسبه إلا القطع.

أكرر: الحق هو كل قول مقطوع به، موافق للواقع، وأي قول خالف الواقع فهو باطل فيمكن أن تنفي عن الدين آلاف الأفكار، وآلاف المعتقدات الزائفة، وآلاف القصص الباطلة، وكل شيء خالف الواقع كذلك.. عزل سيدنا عمر سيدنا خالداً، هذا الذي خاض مائة معركة أو زهاءها وفي كل هذه المعارك كان منتصراً، ففي كثير من كُتب التاريخ يَقول مؤلّفوها: كان بينهما حزازات في الجاهلية، فلما صار خليفة شفى غليله وعزله ! أهكذا كان أصحاب رسول الله ؟! لو كانوا كذلك والله الذي لا إله إلا هو ما

خرجوا من مكة، ولم يفتحوا مصراً واحداً.. وأنت تسمع تفاسير كثيرة جداً حول عزل عمر لخالد ولقد عثرت أخيراً على تفسير حق، جاء سيدنا خالد إلى سيدنا عمر، فقال له، يا أمير المؤمنين لِمَ عزلتني، فقال: والله إني أحبك يا أبا سليمان، فقال: لِمَ عزلتني، فقال: والله إني أحبك، فقال: لِمَ عزلتني، قال: **والله ما عزلتك يا ابن الوليد إلا مخافة أن يُفتتن الناس بك، لكثرة ما أبليت في سبيل الله.**

" كاد الناس يظنون أنك أنت الذي تنصرهم، خفت على العقيدة، فأردت أن أريهم أنني لو عزلتك يبقى النصر ما دمتم مؤمنين هذا التفسير للحادثة يليق بسيدنا عمر، ويليق بسيدنا خالد، وهذا تفسير حق"

وأحياناً تقرأ تفاسير للأحداث وتقرأ قصصاً غير صحيحة وغير معقولة، فتهتز بها الصورة المتألقة للصحابة الكرام، وهذا من عمل الشيطان وأهل الزيغ والباطل.

إذاً: الحق لا يقبل الشك ولا الوهم ولا الظن ولا غلبة الظن، ولا يقبل إلا القطع.

ونسمع من يقولون في زماننا: إن هذا الكلام واقعي إلى حد ما ! فقولهم: **" إلى حدٍ ما "** ليس حقاً، بل يحمل كل معاني الشك، وواقعي بالمائة ثمانين فليس حقاً، وواقعي بالمائة خمسين فليس حقاً، وواقعي نوعاً ما، فليس حقاً الحق واقعي مائة بالمائة، دائماً وأبداً.

وهو ما كان مقطوعاً به، وموافقاً للواقع، وعليه دليل، ولو ألغي الدليل لصار تقليداً، ولو اعتقدت تقليداً فعقيدتك غير مقبولة.

وإذا قبلنا التقليد بالعقيدة، كأن يقول لك إنسان: الله عز وجل ليس رحيماً وهذه الكوارث والمصائب والأمراض دليل على ذلك. فتقول صحيح وأنا سأقلدك الآن، فإذا كان يوم القيامة، فيقول لك الله عز وجل، لِمَ اعتقدت أنني غير رحيم تقول: يا رب أنا قلدت فلاناً هو قال كذلك فصدقته، فيقال لك: أين عقلك ؟ لذلك لا يمكن أن تقبل من الإنسان العقيدة بالتقليد، فلا تقبل بلا دليل ولا ترفض بلا دليل، بل عود نفسك المنهج العلمي، فإن حدثك أحد بقصة، فقل: ما مصدرها ؟ وإذا كنت ناقلاً فالصحة، إذا كنت مدعياً فالدليل، ولا يبنى شيء على أغلب الظن:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦))

(سورة الحجرات)

الحق يحتاج إلى دليل، وإلى مطابقة للواقع وإلى قطع، فإذا استطعتَ أن تعمل مراجعة لِكُلّ أفكارك وكُل مُعتقداتِك وكُل تصوراتِك حتى تجعل منها كلها مطابقة للواقع قطعيّة الثبوت وعليها دليل فأنت من الفائزين، وإن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((يا ابن عمر دينك دينك إنه لحمك ودمك، خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا))

فالله هو الحق، وكلامه هو الحق، والجنة حق، ومعنى حق موجودة، والنار حق، والحِساب حق، والعذاب حق، والصِراط حق والحوض حق، وغضُّ البصر حق، فما معنى حق ؟ أيْ لو طبقته عملياً لقطفت ثماره، والأمانة حق، فلو كنت أميناً لوثِقَ الناس بك فالأمانة غنىً، وأي شيء تُطَبِقُهُ، تقطِف ثِمارَهُ، فالوقت ثمين وغال والحياة لا تحتمل إلا التطبيق، وإن كنت من رواد المساجد، فإن لم تطبق ما تتعلم فلن تقطف شيئاً، وتكون كل حركاتك عشوائية، والتطبيق هو الجانب العملي. قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا)

وهذا الكلام مؤداه خطير، فمؤداه أن تتعامل مع الدين تعاملاً جديّاً، فتصل إلى الغاية والهدف. ثم انظر ملياً فحينما تقول إن في الدار الآخرة أبدية والحياة الدنيا زائلة فهل عملك يتوافق مع اعتقادك ؟ قد يكون الاعتقاد حقاً ولكن التطبيق باطل، وهل تقبل من طبيب أن يقول لك، إيّاك والدخان فإنه سرطان في الرئة وضيق في الشرايين، وجلطة وهو يُدخن أمامك، فهذا كلامه باطل ولو كان يوقن بما يقول ما فعل هذا.

إذاً: كلمة " **حق** " مدلولاتها كبيرة جداً، فالله هو الحق، ومعنى هو الحق ؛ لابد من أن يظهر الحق، وإن كنت على حق فلابُدّ من أن ينصرك ولو بعد حين، أما إن كنت على باطل فلا بد من أن يّخذِلك ولا بُدّ من أن يَفضَحك، فكُنّ مع الحق أبداً، وإلاّ فهناكَ خذلان وفضيحة ولكن المشكلة، التي أتمنى من الله عز وجل أن تكون واضحة عِندَ كل مسلم، هي أن الله عز وجل يُرخي الحبل، ومعنى يرخي الحبل، أي يمهلك إلى أمد بعيد أن تفعل ما تشاء وأنت سالم، وتتصرف باختيارك، ولو عاجلك بالعقوبة عند كل خطيئة لاستقمت ولكن استقامتك ليسن عن حبٍ لله عندئذ، ولا عن طاعةٍ له، بل تستقيم خوفاً منه، وعندئذ أنت لست مخيّراً بل مسيّرٌ، و معنى مخيّر أي يمكنك أن تأكل مالاً حراماً وتستمتع به سنوات طويلة وبعدئذ تلق العقوبة المرة، وتنوء تحتها وقس على ذلك الشيء الكثير من الحرام.

قال تعالى:

(كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣) ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ (٤) كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ (٥) لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ (٦) ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ (٧))

(سورة التكاثر)

كذلك إذا رأيت دخاناً وراء جدار فستحكُم مائة بالمائة أنه لا دُخان بلا نار، ثم ذهبت إلى خلف الجدار، فرأيت لسان اللهب، فمشاهدة الدخان عِلمُ اليقين، وعندما وقعت عينك على ذات النار فهذا عين اليقين، فإن قربت يدك منها فلسعتك بحرارتها فهذا حق اليقين، الحق مائة في المائة وهو يقين، عِلمُ اليقين وعين اليقين وحقُ اليقين.

(كَلا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ، لَتَرَوْنَ الْجَحِيمَ، ثُمّ لَتَرَوْنَهَا عَيْنَ الْيَقِينِ)

إذاً لا بُدّ من أن نتعرف إلى الحق، ولا بُدّ من أن نعتقد حقاً وأن نقول حقاً وأن نسلُكَ المنهج الصحيح لنكون على حق، وحتى نستحق أن يرفعنا الله عز وجل، وحينما يُحِقّ الله الحق يسمح لعباده الطائعين أن يرفعهم، وليس سوى الله عز وجل قال:

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٨))

(سورة القصص)

إذاً الملّخص الذي ينطق بالحق هو: يا رب ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك.

وهناك في الكون حقيقة واحدة وهي الله، كل شيء يُقرّبُكَ منها فهو حق، وكل شيء يُبعِدُكَ عنها فهو باطل، فعليك أن تعرف الله، وأن تعرف منهجه، وأن تُطبّقه، وهذا هو الحق، وما سِوى ذلك كله باطل، والمؤمن يرى بأم عينه، أن الباطل قد يصمد سبعين عاماً وبعدئذ يتهاوى كبيت العنكبوت، لأنه باطل فالفكرة باطلة والمبدأ باطل والتطبيق باطل. وإذا رأيت بأم عينك جداراً بُني بلا شاقول، فالمهندس لابُدّ قائلٌ: إن الجدار سينهار لا محالة، لأن بناءه باطل:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (٨١))

(سورة الإسراء)

إن الباطل من صفاته الثابتة أنه زَهَوق، وإن كان الاعتقاد باطلاً فهو زَهَوق، وإن كان السلوك باطلاً فهو زَهَوق.

٢٦- اسم الله الودود:

مع الاسم السادس والعشرين من أسماء الله الحسنى والاسم هو الودود، لقول الله عز وجل، في سورة البروج:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤))

(سورة البروج)

الله سبحانه وتعالى ودود..

الودود على وزن فعول، من صيغ مبالغة اسم الفاعل، واسم الفاعل وادّ والمصدر هو الودُّ، إذاً اسم الودود أصله من الودِّ، فماذا تعني كلمة ود ؟

في المعاجم ؛ الود هو الحب، ولماذا سُميَ الحب حباً ؟ قال الحب مأخوذ من حَبَب الأسنان، وحبب الأسنان صفاؤها وبياضها ونقاؤها، وأسنان بيض ناصعة نظيفة نقية صافية، فالذي يُحب الله عزّ وجل من خصائصه الصفاء والنقاء والطُهر والإخلاص.

والحُب مِن أحبّ البعيرُ ؛ أي استناخ، فالمُحب خاضع لمحبوبه ؛ فنأخذ من حبب الأسنان الصفاء والنقاء، ونأخذ من أحَبّ البعيرُ أي أناخ أي خضع، فإنّ المُحب لمن يحب يطيع، والمُحَب: مستعل، والمُحِب خاضع، والمحِب متواضع، والمُحب مُتذلل، والحُبُ هو القرطُ، والقرط ما تضعه النساء من الحلي في آذانهن، ومن شأن القرط أنه دائم التقلقل فالمُحِب يتقلّب في اليوم الواحد من عشرين إلى أربعين حال، أما هذا الذي يلزم حالاً واحدة فهو منافق ؛ فالمحِب يتقلب من الخوف إلى الرجاء، إلى السكينة إلى القلق إلى السرور إلى السعادة إلى الشعور بالخطر إلى القلق على محبوبه وما دام هناك حياة فله حركة، أما الميّت فهو ساكن، والذي مات قلبه تسكُن أحواله، إذاً من معانيه: والمُنافق يمضي عليه أربعون عاماً ولا يتغير، حالُه حال السكون، لكنّ الحياة فيها غليّان، وفيها تقلّب وفيها تغيّر من حال إلى حال. فالحُبُّ ؛ إذاً من معاينة: القرط، ومن شأن القرط التقلقل والتحرك.

والحَبّ ؛ من الحبة التي تنبت شجرة، فالحَب له ثمار يانعة مثلُ كلمة طيبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين.

وهذا يعني أنك إذا أحببت الله، فحُبُكَ لله عز وجل بذرة، تنبت شجرة وارفة الظِلال يانعة الثمار باسقة الأغصان، خيرها دائم وظِلُها كل هذه المعاني، الصفاء والنقاء والخضوع والتذلل والتقلقل، والنماء والخير العميم أي كل هذه المعاني مستفادة من الحب، لكن السؤال الدقيق هل الْودّ هو الحب ؟ إذا قلنا نعم فيأتي سؤال وما الفرق بينهما، وهل في اللغة اسمان مختلفان لمُسمىً واحد ؟، أم أنّ الاختلاف في المبنى دليل اختلاف المعنى؟، لا شك أن هناكَ فرقاً دقيقاً بين الحُب والود، الحب ما استقر في القلب، والود ما ظهر على السلوك، فإن كنت تُحب فلاناً فمشاعر الميل نحوه هي الحب، وابتسامتك في وجهه

هي الود، وإذا قدمت له هديةً فهي ود أو أعنته في مشكلة فهي ود، أو عُدته إذا مرض فهي ود أو قدمت له هديةً في زواجه فهي ود أو نصحته فذلك ود، فالمشاعر الداخلية هي الحب، والمسالك المادية هي الود فكل ودود محب، وليسَ كلُ مُحب ودوداً.

ويمكن لإنسان أن ينطوي على محبة ولا تظهر في سلوكه، و كل ودود مودته أساسها مشاعر الحب في قلبه، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

يعني كل هذا الكون تودَدٌ من الله إلى الإنسان، فالكون والمجرات والسماوات والأرض،و الشمس والقمر، والأمطار، ومليون نوع من السمك، ود وتسعمائة ألف نوع من الطيور، ود، والآلاف المؤلفة من أنواع الأزهار بشتّى الأشكال والروائح ود، وأنواع الفواكه ود وهذا الطفل الصغير الذي يملأ البيت حيوية ود، وهذه الزوجة التي صُمِّمَت تكريماً للإنسان، وهذا الزوج الذي خُلق تكريماً للمرأة ود، وهذا الصوف الذي خلقه الله لنا ليقينا برد الشتاء ود، و أيُّ شيء سُخرَ لهذا الإنسان هو في الأصل ود، و الخلق، والكون كله قد سخره الله لهذا الإنسان تسخير تعريف وتكريم، فالوَدود هو الذي يُنتقل حبه إلى سلوك.

وهنا تطالعنا حقيقة ملموسة وهي أن الإنسان إذا أحب يميل، فإذا ابتعد المحبوب ألَمّ بالمحبّ ألمّ، وهذا ألمُ الفِراق، وما من إنسان يودّع محبوباً في المطار إلا ويبكي، وما من أُم يفارُقها عنها ابنها إلا وتبكي فهل يصح هذا المعنى بالنسبة إلى الله عز وجل ؟،

إن علماء التوحيد قالوا: **" لا، فالميل الذي من شأنه الضعف والتحسر والألم، هذا لا يصح على الله عز وجل، ولكن الإنسان إذا أحب أحسن، وإذا أحب خضع وإذا أحب تذلل "**، فالإنسان هكذا يفعل، ولكن الله إذا أحب أحسن ورحم وأكرم، فحُب الله عز وجل للمؤمنين ثابت في القرآن الكريم والدليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤))

(سورة المائدة)

محبة الله عز وجل للمؤمن تعني حِفظه، وتأييده، ونصره وإكرامه، وإنزال الرحمة على قلبه، وإنزال السكينة، وإغناءَه بكل ما يحتاج، هذا هو الحب الإلهي أما حُب الإنسان لله عز وجل فيعني الميل فإذا جفاك ربك وأبعدك عن أنواره شعرت بألم لا يطاق.

فما حبنا سهل ولكن من ادعى سهولته قلنا له قد جهلتنـــا

فأيسر ما في الحب للصبّ قتله وأصعب من قتل الفتى يوم هجرنا

***

والإنسان إذا أحب الله مالَ إليه، وخَلَدَ إلى ظِلِهِ وإلى أنوارهِ وإلى تجليّاتهِ وإلى سكينته، وإلى الشعور بأن الله يحميه ويحفظه، لكن حُب الله للإنسان يعني التأييد والنصر والحفظ وما شاكل ذلك، أمّا الودّ فهو ما يتجسّد به الحب، وهذه مقدمة أظنها ضرورية ومفيدة، ونتجاوز المقدمة الآن إلى المعاني الدقيقة التفصيلية لمعنى الودود فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

الودود بوزن فَعول، والفعول هنا بمعنى فاعل، الوادّ، الذي يُكرم عباده، والذي تُعَدُّ نِعَمُهُ مظهراً لحُبهِ لعباده، فأنت مثلاً وبشكل بسيط إذا أحببت إنساناً ورأيت على ظهره نملة، فإنك تنجّيها عنه، وإذا أحببت إنساناً ورأيته يرتجف برداً فإنك تعطيه معطفك، وإذا أحببت إنساناً ورأيته بحاجة إلى شيءٍ ما فأنت تقدمه له، فالود هو المظهر المادي للحب وربنا عز وجل وهو الغفور الودود، والوادّ.

كل هذا الكون مظهر لحبه، وكل هذا الكون نوع من أنواع الود الإلهي، إنه تودّدَ إلينا بهذا الكون. ومن أجل ألاّ نبتعد عن هذا الموضوع كثيراً، فهذه الدواب ألا تأكل طوال حياتها الشعير فقط، فهو بالنسبة لها المقبلات وهو الحلويات وهو الفواكه، وليس لها غير الشعير والأعشاب أما الإنسان فيمكن أن يأكل إلى شهر كل يوم لوناً من الطعام، ويمكن أن يتذوّق أنواعاً كثيرة من الفواكه، ويمكن أن يستعمل الأزهار.

وإذا دخلنا إلى محل عطورات فشيء يأسِر ويدهش، إذ منها ألوف الأنواع، وكلها في الأصل من خلق الله عز وجل، فهذا الياسمين وهذا البنفسج وهذا الورد، وكل أنواع الروائح عطاءُ فيضٍ من خلق الله عز وجل.

خلَقَ هذه الروائح الطيبة، وخلق هذه الحاسة الدقيقة التي تتذوق هذه الروائح الطيبة، إذاً: خَلَقَ الشيء وخَلَقَ الجهاز المُستقبل لَهُ، وخَلَقَ هذه النِعمة وخَلَقَ ما يستقبِلُهَا، فهذا هو الود.

إذاً: هنا الودود يعني الوادّ، و الودود هو الذي يتودد إلى عباده بالنِعم، فإذا صحت الرؤية واستيقظَ القلب وتفتّحَت البصيرة، رأيت أنّ كل هذا الكون ما هو إلا تودد من الله إلى هذا الإنسان.

والآن أنت حينما تصلي وتصوم و تحج، وحينما تغض من بصرك وتتصدق، و تكون أميناً، و تنصح المسلمين، و تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتنفق من مالك، كل هذه الأفعال من اعتقادات إلى عبادات إلى معاملات إلى آداب، هي في حقيقتها تودد إلى الله عز وجل هو تودد إلينا بالكون، وأوجدنا بالخلق، وسخر لنا هذا الكون، وأعد لنا جنة عرضها السماوات والأرض، ونحن نتودد إليه بالإيمان به، وبعبادته وطاعته، وامتثال أمره، وبترك ما نهى عنه، وبالتخلّق بأخلاق نبيّه وبالبذل والعطاء، ويكون

الكون كله من قبل الله تودد إلى هذا الإنسان، وكل أعمال الإنسان الصالحة هي في حقيقتها تودد إلى هذا الخالق العظيم.

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ)

أي الواد، الذي يتودد إلى عباده بنعمه.

أسألك بالله عزيزي القارئ، لو دعاك أحدهم إلى بيته، ورأيت هذا البيت مُدقاً مسبقاً إكراماً لك، والماء العذب الزلال المُعطّر بماء الزهر والأرائك، والمشروبات اللذيذة المتقنة و الطعام النفيس العطر، والورود والهدايا، ألا تخجل، ألا تذوب حُباً له، ألا تشكره من أعماقك، ثم ألا تقول له: والله يا أخي، فضلت عليّ، والإنسان عبد الإحسان، ولماذا تتحسس إذ أدى إنسان عنك الإجرة في سيارة ؟ طوال الطريق تبقى خجلاً منه: وتقول يا أخي والله خجلتني.. كلها من أجل ليرتين، أو إن جاءك إنسان مهنئاً ومعه هدية، تحار كيف تُكرمه، ولماذا هذا التحسس بفضل الإنسان ؟ وهذا الفضل الإلهي وأوّله أنه ؛ خلقك من لا شيء، ألا يستحق منك كامل التحسس، قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١))

(سورة الإنسان)

هذا الفضل الإلهي من دون تحسس، ومن دون شكر، هل قلت من أعماق أعماقك ؟ يا رب لك الحمد على أن خلقتني، يا رب لك الحمد على أن عرّفتني بذاتك، يا رب لك الحمد على أن أعنتني على طاعتك، ثم يا رب لك الحمد على أن نوّرت قلبي بنورك، و يا رب لك الحمد على أن ألهمتني أعمالاً صالحة، فالله يقول لك: أنا سأسمع ؛ فقل وتكلّم لأسمعك، فتقول له سَمِعَ الله لمن حمده، ألا تفعل هذا في الصلاة ألا تقول سَمِعَ الله لمن حمده، يعني يا عبدي أنا أسمعك فيما تقول، ربنا لك الحمد والشُكر، وهناك من يقول: يا رب لك الحمد والشُكر والنعمة والرضا، هناك من يقول: يا رب لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً بعدد خلقك، يعني ما نَشَأَ بقلب الإنسان من شعور عميق بالحمد فلله عز وجل، واذكروا دائماً أنّ كل هذا الكون تودد إليك.

مرةً سافرت، فانتظرني شخص بالمطار و أخذني إلى بيته وخصص لي سائقاً وسيارة، وأنزلني بأفخم فندق في مكة المكرمة وبالمدينة كذلك، وعمل دعوتين أو ثلاثاً ودعا إليها عشرات الأشخاص وقدم معروفاً لا أنساه حتى الموت، و كلما جاء إلى الشام أحار كيف أُكرمه وكيف أُقدم له الهدايا و أدعوه، وهو إنسان استضافني عشرة أيام في موسم الحج.

فالنِعم الإلهية التي تترى على هذا الإنسان لا حصر لها، فعندما يدخل إلى الخلاء يُفرغ مثانته، من دون آلام و لا تمييل، ولا حصر بالبول، ولا صراخ، ولا إسعاف إلى المشفى، هذه نعمة عظيمة، بدأت بذكرها لأن كثيراً من الناس غافلون عنها. فهل من مذّكر.

والقلب يعمل بانتظام، والدسام يعمل بانتظام، الأوردة والشرايين والمعدة والأمعاء و الكبد والكليتان، وجهاز التنفس والأعصاب والإنسان يتمتع بنعمة عقله في رأسه وهذه من نِعم الله العظمى.

فكل هذا الكون تودُّد لهذا الإنسان، ويجب أن يكون لسان حال المؤمن:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢))

(سورة الأنعام)

فحياتي كلها، ووقتي كله، وطاقتي ومالي وإمكانياتي و علمي وأولادي، وبيتي في خدمة عبادك، ومهنتي في خدمة عبادك، ومالي امتثالاً لأمرك وإيماناً بك. وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان:

(قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢))

ذات مرةٍ رويتُ واقعة ؛ قسم منها واقعي والقسم الثاني تكملة إنّ رجلاً كان يريد أن يلقي بكيسٍ في حاوية القمامة، فوجد كيساً أسود يتحرك، فانتشله فإذا فيه طفل صغير وُلِدَ توّاً، هذه قصة واقعية في الشام فأخذه إلى دار التوليد، فأنعشوه في الحاضنة، حتى تحسنت صحته، ثم نقله إلى البيت واعتنى به عناية بالغة حتى صار في سن الدراسة، فأدخله إلى المدرسة، إلى آخره.

التكملة تابع تعليمه إلى أن تخرج طبيباً ثم بعثه للتخصص وعاد بشهادة البورد، فاشترى له بيتاً وعيادة، وزوجه، فهذا الطبيب اللامع حينما يعلم أن هذا الإنسان سبب حياته، واللهُ هو المُحيي، وسبب هذه المرتبة العليّة، كيف يكون موقفه منه ؟ إنه يقول له دائماً: أنا لا أنسى لك هذا الفضل حتى الموت. فأنت الشيء نفسه، لم تكن شيئاً مذكوراً خلقك تنعم من أول لحظة بهديتين نفيستين:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠))

(سورة البلد)

فأول هدية أنه حينما يولد الإنسان فيلهمه الله عز وجل عملية بالغة التعقيد هي المص، الآن ولد، وخلال دقائق يضع شفتيه على حلمة الثدي ويُحكم إغلاقهما ويسحب الهواء، فلولا أن الله يُلهمه هذا السلوك المُعقد لما كُنا على وجه الأرض جميعاً.

والهدية الثانية ؛ هي الأم، مَن هذا الكائن ؟ إنها الأم آية من آيات الله ؛ فوجودها من أجل ابنها، و أعصابها وإدراكها ومشاعرها إنها تتفاعل مع ابنها تفاعلاً عجيباً، وكأن هناك اتصالاً دائماً، فإذا كانت عند الجيران، تقول لقد استيقظ ابني، كيف عرفت ؟ لقد طفّ الحليب من ثديها.

فالأم هدية، والأب هدية، وقد قال لي رجل أنا خادم مخلص بلا أجرة، فما أريد في هذه الدنيا سوى طعامي وكسائي، إنني أتعب من أجل أولادي، فالأب خادم لأولاده، يشقى ليسعدوا، ويريد تأمين بيت لأحد أبنائه مثلاً يسعى ليزوج آخر وهكذا... فالأب هدية، والزوجة هدية والأولاد هدية.

هذا الهواء، وهذا الماء العذب الزلال، فكل ليتر ماء تكلف تحليته من خمسة إلى ستة ريالات في المملكة العربية السعودية، ستة ريالات تعني سبعين ليرة، فأنت تأخذ ماء عذباً زلالاً، ففي كل ثانية تستهلك دمشق ستة عشر متراً مكعباً من مياه عين الفيجة، ماء مُصفّى عذباً فراتاً، فالماء هدية من الله عز وجل.

وما تقول بأنواع الفواكه، أيضاً ؟ وكذلك منحك الله عقلاً فأتقنت أعمالك وسعدت به، فإتقان العمل كرامة، ولك دخل ثابت، فهذه حِرفة وكلّ له اختصاص، فهذا طبيب وهذا مهندس، فلذلك بحثنا هذا شامل شمولاً كبيراً جداً، فكل الكون تودد من الله إليك، ويجب أن تكون حياتك ومماتك ونُسُكَكَ وعبادتك ومالك لله قال أحدهم لشيخه: يا سيدي كم الزكاة ؟ فقال: يابني أعندكم أم عندنا ؟ قال: ما هذا السؤال ؟ مَن نحن ومَن أنتم ؟ قال: عندكم اثنان ونصف بالمائة، أما عندنا، أهل الحب فالعبد وماله لسيده.. فهل تتفهم هذا الكلام الذي تبدأ به صلاتك ؟

(قُلْ إِنّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣))

(سورة الأنعام)

هذا هو المعنى الأول

والمعنى الثاني ؛ أن يكون معنى كونه ودوداً أي يخلُق المودة بين خلقه، فمن ألقى حُب الأبناء في قلوب الأمهات ؟ ادخلْ مشفى الأطفال فإنك ترى منظراً يُبكّي، فالأم البدوية تبكي من أجل ابنها، والسافرة والمثقفة، والجاهلة، والمؤمنة المحجبة كلهن يبكين إنه نمط واحد، فكل هؤلاء الأمهات أودع الله في قلوبهن محبة تجاه أبنائِهنْ.

إذاً، أحد معاني كلمة: **" ودود"** ؛ أنه يخلق الود بين عباده، الأب أب، والابن ابن، والأخ أخ، والزوجة زوجة كلهم يتواددون فيما بينهم قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدّةً وَرَحْمَةً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ (٢١))

(سورة الروم)

من خلق هذه المودة ؟..

لي قريب كان مسافراً خارج القطر لأربع أو خمس سنوات وعنده في كل سنة إجازة شهر، فكل سنة ليتزوج، فلا يرى شيئاً مناسباً و تنتهي إجازته ثم يعود ويسافر، وبعد أن أمضى سنوات عدة توتر توتراً شديداً، ما هذه الظروف المعاكسة ؟ يقول هذا البيت لأهله مشكلة، و لهذه الفتاة مشكلة، وهذه لا تُناسب، وفي السنة الرابعة وفي آخر يوم بالإجازة وجد فتاة مناسبة، فأحبّ ألاّ يغادر إلاّ وقد عُقِدَ العقد، إذ والدته

تعرفت إليها عصراً، فتواعدوا في اليوم التالي ظُهراً أن يأتي موظف المحكمة ليعقد القران، إقلاع الطائرة الساعة الرابعة عصراً، فحدثوني أن هذه الفتاة حينما خرجت بعد أن عُقد قرانها على هذا الشاب قد بكت حتى ماتت من البكاء ! البارحة كان يوم الخطبة إنه يوم غريب، مداه أربع وعشرون ساعة إلا أنه كان يوماً عجيباً، وفي اليوم التالي كان الوداع فبكت هذه الخطيبة وبكت. ولما يمض على العقد إلاّ سويعات. قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

أول معنى هو يُودكم، بهذه الصحة بالنِعم بالماء بالطعام بالشراب بالفواكه، بالأسماك بالأطيار، وأحياناً ترى أسماك زينة وليست للأكل، ويكلف الحوض عشرة آلاف أو أكثر، ومنها أسود ومنها أخضر و منها خيوط فانظر هذه الأسماك، لماذا خُلقت ؟ من أجلك، ومن أجل أن تستمتع بمنظرها فقط وهذه العصافير الجميلة لماذا خُلِقت ؟.. وهذه الأصوات الرائعة لماذا خُلِقت ؟ هذه الروائح الزكية لماذا خلقت؟ وهذه الورود، صدقاً اطلّعت على كتاب من ثمانية عشر جزءاً، وهو كتاب كبير الحجم، وفي كل صفحة صورة وردة، ثمانية عشر جزءاً كل صفحة فيها صورة لنوع من أنواع الورود، و ليس ورود أبصال، وعندنا ورود وأبصال فقط، فلمن هذا ؟ أعطوْا الدابة وردة فأكلتها، فالذي أعطاها الوردة هو الغبي، فهذه للشم وليست للأكل، و ليس الورد للدواب.

و في الشتاء في غرفة الجلوس تُحب أن تستمتع بنباتات ضمن الغرف لا تحتاج في غوها إلى شمس، وهي تنمو وتتنامى، وهي جميلة إنها نباتات صالونات، وهناك نباتات للمياه، و نباتات للحقول. ثلاثمائة نوع عنب، التفاح أنواع منوّعة، أخ من إخواننا كان في إفريقيا، أحضر لي موزتين، من غينيا لِمَ هاتان ؟ قال هاتان لأجل القلي، ما هذا الكلام !!، هذا للطبخ فقط، وبينما الموز عندنا فاكهة للأكل، وعندهم للطبخ، ذقتها فوجدتها لا تؤكل، نيئة قليناها مثل البطاطا فهي طيبة شهية، فكم نوع خَلَقَ الله من الموز ؟ والقمح ثلاثة آلاف وخمسمائة نوع.

أنواع البرتقال، منها ماء، ومنها ناشف، وحلو وحامض كبير وصغير، وما وردي، كلها مودة من الله عز وجل، والنوع الواحد من الفاكهة أنواع منوعة، هذه المودة.

فالمعنى الأول أنّ الله يودك، والمعنى الثاني يخلق المودة بين خلقه، تدخل إلى سهرة في بيت أهلك فترى مودة، منها مزاح ومعاونة والإنسان كائن اجتماعي، فمن صممه هذا التصميم ؟، يقول لك: سهرنا إلى الثالثة، مسرورين بما بينهم من مودة بينهم، وأحياناً بحسب السن وبحسب الحِرفة، تجلس مع أطباء يتحدثون عشر ساعات في حرفتهم مسرورين، ومع المهندسين الشيء نفسه، مع المدرسين، يقول لك مزهواً الدرس الفلاني أتقنته والطلاب أعجبوا به، اجلسْ مع التجار يقولون لك: هذه الصفقة ممتازة

وهذه لم تربح وهذه أرباحنا فيها كانت خيالية كل مجتمع له حديث ممتع وله ترتيبات، فهذه هي المودة، خلق بين عباده الود.

المعنى الثالث بمعنى فعول: أي أن الله سبحانه وتعالى يتوددُ عبادُه إليه،و هو يتودد إلى عباده، وهو يخلق المودة في قلوب عباده بعضهم لبعض، فعباده يتوددون إليه، أي ثلاثة معانٍ دقيقة للود، من الله إلى عباده، ومن العباد إلى ربهم وبين العباد فيما بينهم. لهذا يقول عليه الصلاة والسلام:

((رأس العقل بعد الإيمان بالله التودد إلى الناس))

و أعقلُ عمل، أحكمُ عمل، وأذكى عمل يفعله المؤمن بعد أن يؤمن بالله أن يتودد إلى الناس، حتى يسري الحق إليهم، قال تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(١٥٩))

(سورة آل عمران)

قال الخليفة لأحد العلماء عِظْني: فقال له العالم: سأنصحك وسأغلظ عليك، قال: ولِمَ الغِلظَة يا أخي، لقد أرسل الله مَن هو خير منك إلى من هو شر مني ؛ لقد أرسل موسى وهارون إلى فرعون ومع ذلك قال لهما: فقولا له قولاً ليناً.. فلِمَ الغِلظَة ؟ من قال لك إن النصح يحتاج إلى غِلظَة ؟.

الإمام الرازي كان من كبار العلماء، إنه الفخر الرازي، وله هيبة كبيرة، وله موكب فخم، وقد كان في درسٍ من دروسه، فخرج من المسجد، ثياب أنيقة ومعه تلاميذه، ووجهه منير متألق مهيوب، فرآه يهودي، عامل مجارير، فقير مسحوق، جوعٌ على مرض على حرمان على فقر على احتقار الناس له، فنظر هذا اليهودي إليه وقال له: يا هذا يقول نبيكم الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر، فأي سجن أنت فيه وأي جنة أنا فيها، فقال له الإمام الرازي: **يا هذا ما أنا فيه إذا قيس إلى ما أعدّ الله للمؤمن فأنا في سجن، وما أنت فيه إذا قيس بما أعد الله للكافر من عذاب فأنت في جنة.** يُقال ثم إنه تفكر ملياً وقال أشهد ألا إله إلا الله، حقاً إنه جواب مفحم أي ما أنا فيه من هذا العِزّ إذا قيس إلى ما وعدني الله به من جنة عرضها السماوات والأرض فأنا في سجن.

وهكذا قال عليه الصلاة والسلام:

((انتقال المؤمن من الدنيا إلى الآخرة كما ينتقل الجنين من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا))

فالجنين يعيش في سبعمائة وخمسين سنتمتراً مكعباً بالضبط، والرحم تجويفه قبل الحمل حوالي سنتمترين مكعبين وكأنه لا يوجد تجويف، بل عبارة عن عضلة على شكل إجاصة، وجحمه أثناء الحمل أو بأعلى نسبة سبعمائة وخمسين سنتمتراً مكعباً، والإنسان إذا ولد ثم كبر وتجوّل يقول لك: والله كنا في أمريكا واستغرق سفرنا عشر ساعاتِ طيران، كان محبوساً في سبعمائة وخمسين سنتمتراً ثم طار في

الأجواء، فكيف ينتقل الإنسان من ضيق الرحم إلى سعة الدنيا، قالوا: المؤمن حينما يموت ينتقل من ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ولهم فيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين:

(إنّ أصْحَابَ الْجَنّةِ الْيَوْمَ فِي شُغُلٍ فاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتّكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَلَهُمْ مَا يَدّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قوْلاً مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ(٥٩))

(سورة يس)

هذه هي البطولة، أن يأتي هذا اليوم وأنت في منجاة، وأنت من أهل الجنة، نسعى كلنا ونجتهد، ونحضر دروس علم،و نغضّ بصرنا ونخاف من الله، ونضبط ألسنتنا، ونضبط جوارحنا، و نقرأ القرآن ونخدم بعضنا، حتى يأتي هذا اليوم الذي نسعد فيه.

فحظ العبد من هذا الاسم أن يتودد إلى العباد، فهنا طفل تودد إليه، وهناك كبير تودد إليه، وأكبر منك عامله بالاحترام، وأصغر مِنكَ فبالرحمة، وبمستواك فبالإحسان، هذا هو المؤمن، يجعل من إحسانه طريقاً إلى الدعوة إلى الله عز وجل.

وبعد، فهناك سؤال لا بد منه: هل الود هو الرحمة ؟ فهمنا أن الود هو الحب والحب مشاعر داخلية تنتقل إلى سلوك مادي، هذا هو الود، الود والمحبة وجهان لشيء واحد، مثل الإخلاص والعبادة، من الداخل إخلاص ومن الظاهر طاعة، فالشعور الداخلي حب، والسلوك العملي مودة.

وهل هناك فرق بين المودة والرحمة ؟، إنه: لفرق كبير فالرحمة متعلّقة بمخلوق ضعيف، بمخلوق يستجير، وبإنسان مريض وبإنسان مُعذب، بإنسان فقير، فأنت ترحمه ! أمّا الود فليس للضعيف فأنت حين تقدّم شيئاً إلى إنسان من دون أن يسألك، فابتداءً هذا هو التودد وأحياناً يطرق بابك إنسان، فيتوسل إليك ويقول: أقرضني أرجوك أسعفني، اقبلني عندك ضيفاً، أو أوصلني إلى هذا المكان، أو ارحمني خذني إلى الطبيب الفلاني، فهذا إنسان مستجير، وأنت إذا فعلت ما يناسب فما اسمك ؟ اسمك رحيم، وذاك مخلوق ضعيف استجار بك، أما إذا زُرتَ صديقاً في أوج صحته وقوته وشبابه، ومكانته، وقدمت له هدية بمناسبة زواجه، و هو لم يستجر بك، فالود ابتداء، وأمّا الرحمة فيسبقُها طلب والود لغير الضعيف، والفقير والمستجير، هناك فرق بين الود والرحمة، فربنا عز وجل حينما خلقنا كان ودوداً، ونحن لم نكن موجودين، فهو خلقنا وأكرمنا وأنعم علينا، مودته لنا ابتداء وهي أرقى بكثير.

ولقد قرأت قصة من أدق القصص، عن أحد ولاة العباسيين في الشام، إذ حدثت فتنة في الشام فضيّقوا الخِناق على الوالي فولّى هارباً مع بعض أعوانه، وتَبِعَهُ رجال ليقتلوه فدخل بيتاً واستجار به، وصاحب البيت أجاره، وبقي عنده أربعة أشهر، فأكرمه أبلغ إكرام ولم يسأله عن اسمه، ثم طلب أن يذهب إلى بغداد فجهز له عبداً ودابتين وفرساً وصندوق أمتعة، وطعاماً وشراباً، وألحقه بقافلة، وأكرمه إكراماً

منقطع النظير أربعة أشهر يقدم له كل شيء من دون أن يسأله عن اسمه، فلما أزمع السفر إلى بغداد وقد قدم له كل شيء، واعتذر منه يقوله: لعلّنا قصَّرنا في حقِك، ولم يعرف اسمه، وفي بغداد صار هذا الرجل الطريد في منصب صاحب الشرطة يعني وزير داخلية عند المنصور، وبينما كان في حضرة المنصور جاء الجنود برجل يكاد يموت من شدة التعذيب، فألقوه مكبلاً بالقيود في حضرة المنصور، وقالوا هذا فلان جئنا به، ويبدو أن الوقت متأخر فقال المنصور لصاحب شرطته، خذه في عهدتك إلى غد، وكان شخصاً خطيراً جداً، فطبعاً غداً سيُقتل، و لشدة حرص الأمير صاحب الشرطة على حياته على حياته أخذه إلى بيته، وقال له من أين أنت، قال أنا من الشام، قال: وما قصتك، قال: ثارت فتنة هوجاء في الشام وأُلصقت بي هذه التهمة وعُذبت وساقني المنصور إلى بغداد وسيقتلني غداً وأنا بريء، قال له: بارك الله في أهل الشام، أنا كنت في الشام مرةً وثارت فتنة كما تقول والتجأت إلى بيت وذكر له قصته مع صاحب ذاك البيت بشكل مفصّل، وقال: والله لا أتمنى على الله إلا أن يجمعني به لعلي أُقدم له بعض الجميل، قال: إن الله عز وجل قد أكرمك وجمعك به عن غير قصد، فأنا ذلك الرجل، ومن شدة الآلام والتعذيب فإن ملامحه قد تغيرت، يقولون: إن صاحب الشرطة أول شيء فعله وقف مرتعداً وطلب الحداد وقال له فُك قيوده، و فوراً فُكت قيوده، فأدخله الحمام وألبسه أحسن الثياب، وقال أنت حر فافعل ما تشاء، وأنا سأتحمل عنك غداً كل مسؤولية عند الخليفة، وهذا أقل ما أفعله معك، قال: والله لو توجهت إلى أي مكان فسوف يأتي بي ويقتلني، اذهب إليه، فلما دخل على المنصور قال له: أين فلان، والله لو قلت لقد هرب لأضربن عنقك، قال: هذا كفني تحت إبطي واسمع قصتي وافعل بي ما تشاء، قال: هذا الرجل فعل معي كذا وكذا يوم كنت والياً الشام، فيقول المنصور، أكرمك الله، لقد أكرمك وهو لا يعرفك، وأنت الآن فعلت معه ما فعلت وأنت تعرفه، لكني أنا الذي سأكافئه عنك، اذهب إليه واستقدمه إلي وأمّنْهُ، فالمنصور عيّنَهُ والياً على الشام، وانقلب أمره، من القتل إلى الولاية. فما هذا المعروف!!.؟

استرعى نظري في القصة، أنه أكرَمَكَ وهو لا يعرفُك، هذه هي المودة أما أنت فإكرامك له الآن ردُّ جميل لا أكثر، أنت مديون له ولو قدمت نفسك مكانه لما فعلت إلا القليل، هو قدم لك الحياة، فقد كنت مقتولاً، وأدخلك إلى البيت ودافع عنك وقدم لك كل شيء أربعة أشهر واعتذر منك وهو لا يعرفك، الأولى أبلغ من الثانية، قال له: مهما فعلت فلن تكافئه وأنا سأكافئه، واستقدمه، فاعتذر عن قبول الولاية بالشام فأرسل كتاباً إلى والي الشام أن يعتني به وأن يبالغ في إكرامه.. البر لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديّان لا يموت اعمل ما شئت كما تدين تدان.

لكن الإنسان إذا ما تحسس فضل الله عز وجل،

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ)

وفي سورة أخرى

(يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ)

وقال تعالى:

(قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ (١٧) مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ (١٨) مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ (١٩) ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ (٢٠) ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ (٢١) ثُمَّ إِذَا شَاءَ أَنْشَرَهُ (٢٢) كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ(٢٣))

(سورة عبس)

ماذا ينتظر الإنسان وماذا يفعل ؟ وما الذي منعه أن يتوب إلى الله؟ وما الذي يمنعه أن يصلي ؟ وأن يذكر الله عز وجل، وأن يفعل الخير مع الناس جميعاً.

ولقد حدثني أخ من إخواننا الكرام، عن حادثة، قال كنت راكباً سيارتي ومارا في ضاحية دمر، والحادثة قديمة منذ عشر سنوات أو أكثر فوجدت رجلاً في الساعة الثانية عشرة ليلاً واقفاً مع امرأة ويحمل أحدهما طفلاً صغيراً، قلت لعلهم غرباء أوْ لهم حاجة، فوقف وقال خيراً، فوجد الطفل بحرارة مرتفعة جداً، والأب والأم من لبنان هاربان من الأحداث وهو يسكن في منزل بالأجرة عند جيران، والابن مريض ولا يعرفان شيئاً في الشام، قال أركبتهم وبقيت معهم من طبيب إلى طبيب إلى مستشفى.. للمعالجة وتوفير العلاج، ولصيدلية مناوبة حتى الساعة الرابعة صباحاً وأرجعتهم إلى المكان الذي أخذتهم منه، ثم أقسم لي هذا الأخ الكريم أنه بقي أسبوعين وهو غارق في السعادة، يعني إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين.

لا يعرف طعم الإحسان إلا المُحسن، وسيدنا عمر كان يتمشى ذات ليلة في المدينة مع سيدنا عبد الرحمن بن عوف، فلما رأى قافلة في أطراف المدينة وقد نام أصحابها، قال لصاحبه تعال نحرسها لوجه الله إنهم تُجّار ومعهم متاع وبضاعة فبكى طفل صغير، فقال لأمه أرضعيه سكت الطفل، ثم بكى، فقام إليها وقال أرضعيه، أسكتته ثم بكى، فغضب فقام إليها وقال يا أَمَة السوء أرضعيه، قالت يا هذا ما شأنك بنا، إنني أفطمه وعمر لا يعطينا العطاء إلا بعد الفطام، **" العطاء يعني التعويض العائلي "** في زماننا، يقول سيدنا عمر قد ندّت منه صيحة وضرب رأسه وقال: **ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين،..** فكل هذا التعذيب مني وأنا السبب، لأن العطاء بعد الفطام وهي الآن تفطمه وتجيعه فأصدر أمراً فورياً أن العطاء بدءاً ساعة الولادة، ثم صلى الصبح وما سمع أصحابه من قراءته شيئاً لشدة بكائه، وكان يقول: **يا رب هل قبلت توبتي فأهنِّئ نفسي أم رددتها فأعزيها.**

المُحسن أسعد الناس، وقد قرأت كلمة في مجلة، وهي أربع كلمات فأحياناً تنتهي المقالة في المجلة ويبقى في صفحة منها فراغ فيزينونها بكلمة مثل هذه **" إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين.**

عزيزي القارئ اذكر دائماً: الله عز وجل مُحسن، ويحبك أن تكون محسناً.

٢٧-اسم الله التواب:

مع الاسم السابع والعشرين من أسماء الله الحسنى والاسم المقرر: التواب.

أخي القارئ الكريم: ما من عبد إلا وله خِبرة - إن صحّ التعبير - مع هذا الاسم، خبرة لا حدود لها.

قبل أن نتحدث عن معنى الاسم لغوياً، وعن صيغته، وعن تصريفاته، وعن معانيه المتعددة، وعن بعض الآيات التي ذكر فيها، قبل أن نفعل ذلك ؛ لا بد من عدة مقدمات تُلقي ضوءاً على حقيقة هذا الاسم.

مثلاً يمكن أن تُفتح ثانوية وتكون أنت مديرها، وأن يُسجل الطلاب فيها، وأن يوضع لهذه الثانوية نظام داخلي دقيق جداً، وأن تستقبل الطلاب، وأن تُلقى المحاضرات، وأن تُجرى المذاكرات، وأن تعين مواعيد الفحوص، وأن تُجرى الفحوص، وأن ينجح من يستحق النجاح ويرسب من يستحق الرسوب، وأنت في أعلى درجات العدل ؛ فإذا طلبت علامات الطلاب من مدرسيهم بعدَ شهر من بدء العام، وتابعت المُقصّر وجئت به ونصحته فلم يرعَوِ؛ فهددته، وأحضرت وليه، وضغطت عليه إلى أن غيّر خطته، وضاعف جهوده فإذا هو من الناجحين ؛ لكنك لو أهملت هذا الطالب وعاملته وفق النظام الداخلي، فأنت في أعلى درجات العدل، أما إذا تتبعت أحواله وقبل فوات الأوان، ووجّهته ونصحته وضغطت عليه حتى غيّر أسلوبه، وضاعف جهوده فاستحق النجاح فأنت الآن في أعلى درجات الرحمة.

إن طبقت عليه الأنظمة العادلة، فأنت في أعلى درجات العدل، لكنك إذا تتبعت أحواله، وذكّرته تارة، وهددته تارة، وشجعته تارة وكافأته تارة، وعاقبته تارة حتى استقام أمره وحتى استحق النجاح فنجح ؛ فأنت بهذه الطريقة عاملته بأعلى درجات الرحمة.

يُمكن أن تُرسل ابنك إلى بلدٍ غربي، وأن تُعطيه المبلغ الذي يلزمه، وأن تُهمل أخباره، ثم بعد خمس سنوات فوجئت بأنه قد ضيّع هذا المال على شهواته وأنه لم يدرس إطلاقاً، وعاد بخُفيّ حُنين. فتقول له: يا بني أنا بذلت من أجلك كل شيء وقدمت لك هذا المبلغ الضخم وضيّعتَه، فأنت في أعلى درجات العدل. ولكنك إذا تتبعت أخباره، وذهبت إليه تارةً واستقدمته تارةً، وقلّلت المصروف تارةً وهددته تارةً، ورغّبته تارةً، وشجعته تارةً، حتى عاد إليك بعد أربع سنوات وهو يحمل درجة الإجازة فقد عاملته فضلاً عن العدل بأعلى درجات الرحمة.

قد تعيّن موظفاً تحت التدريب مدة ستة أ شهر، فيمكن أن تراقبه فقط فكلما أخطأ سجلتها عليه خطيئته، حتى أصبح حجم أخطائه لا يحتمل ففصلته وأنت في بحبوحة لأن هذا الفصل كان ضمن الستة أشهر، فأنت ماذا فعلت ؟ عاملته وفق قيم العدل، فالعقد: ستة أشهر، تحت المراقبة والتجريب ؛ ولكنك إذا

أردت أن تعامل هذا الموظف بالرحمة، فكلما أخطأ تقول له: لا، هذا لا يصح وهذا هو الصحيح، فإذا هو يستقيم شيئاً فشيئاً، وبعد حين يعجبك وتتمسك به، شتان بين أن تعامل من حولك بالعدل، وبين أن تعاملهم فوق العدل بالرحمة.

فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان ومنحه العقل، وجعل الكون نعمةً، كلُّ ما فيه يدل على أسمائه الحسنى، وأعطاه العقل، وركّب فيه الفطرة، وزوّده بالشرع، وخيّره وأودع فيه الشهوات، وأعطاه قوة فيما يبدو، وتركه إلى أن يأتيه أجَلُهُ، فإذا هو من أهل النار. فالله عز وجل عامله بالعدل، لكنه لما كان في مقتبل حياته لو أنه اتجه إلى أن يسرق فأدبه الله عز وجل وخَوّفَهُ تارةً وأدبّه تارةً وضيّق عليه تارةً وجمعهُ مع أهل الحق تارةً وقبضه تارةً وشرح صدره تارةً إلى أن صلح هذا الإنسان وصار من أهل الجِنان، بماذا عامله الله عز وجل ؟ بالرحمة.

إذاً: اسم التواب من أين نفهمه ؟ من رحمة الله عز وجل فقد أعطانا العقل، وأعطانا الاختيار، وأودعَ فينا الشهوات، وخلقَ الكون دالاً على أسمائِه وصفاتهِ، مَنَحَنا قوةً فيما يبدو، وركّبَ فينا فِطرةً عالية وأرسل الرسل ومعهم الشرع:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦))

(سورة فصلت)

هذا هو العدل ؛ لكن الرحمة بالمتابعة، الله معك في كل خطراتك، معك في كل حركاتك، معك في كل تصوراتك، معك في كل طموحاتك، معك في سرّك، معك في جهرك، معك في خلوتك، معك في جلوتك، معك في كل حال من أحوالك، وكل شأن أنت فيه هو معك وله شأن، كل شأن أنت فيه فلله معك شأن يقابله ؛ إن كان شأنك الإعراض فشأنه التأديب، وإن كان شأنك الإقبال، فشأنه التجلّي، وإن كان شأنك العدوان، فشأنه العِقاب ؛ وإن كان شأنُك الإحسان ؛ فشأنه الإكرام. يعني المتابعة، فأنتَ لن تكون رحيماً إلا إذا تابعت من حولك المتابعة اليومية حتى في الدعوة إلى الله عزّ وجل فهناك عالِم وهناك مربٍ، فالعالِم يُلقي الدرس وانتهى الأمر لا يعنيه المجتهد ولا مَنْ يفهم، ولا من استوعب ولا من لم يستوعب، ولا من طبّق ولا من لم يُطبق، ولا من تقدّم ولا من تأخر ولا من حضر ولا من غاب، ألقى الدرس وانتهى الأمر، فهذا اسمه في عالم التدريس معلم. لكنّ المُربي هو الذي يُتابع، وذات يومٍ سألني سائل: فقال إنك تحدثنا عن علم الشريعة وعن علم الطريقة، وعن علم الحقيقة، فالأمر واضح تماماً عندي بين علم الشريعة وعلم الطريقة، ولكن ليس لدي الوضوح الكامل بين علم الطريقة وعلم الحقيقة ؟

أردت أن أشرح له فشعرت أن الموضوع دقيق جداً، فُألهمتُ مثلاً طَربَ له، قلت: جبل شامخ فيه تِلال ووديان ومسارب ومداخل وفي قمته قصر مُنيف فيه كل شيء تشتهيه النفس. هناك علماء ثلاثة: عالم يُبيّن لك أن في هذا القصر ثلاثمائة غرفة وفيه أبهاء مُدَفّأَة تدفئة مركزية وفيه تكييف، وفيه من أنواع

الطعام ما لذّ وطاب، وفيه حدائق وغرف نوم وثيرة، فهذا العالِم يُبيّن لكَ ما في القصر فهذا عالِم الشريعة، وقد قال لك: القصر مُدفأ وأنت تشعر بالبرد فيه طعام نفيس وأنت جائع، والقصر فيه راحة تامة وأنت مُتعب.

أما عالِم الطريقة فهو يعرف طريقاً لِهذا القصر من أين تذهب وفي أي مركبة تركب ؟ وكيف تُقدّم الوثائق عِندَ الحواجز وكيف تصل إلى هذا القصر ؟ يُبيّن لكَ طريق الوصول إليه وأنت واقف في مكانك، لكنّ عالِم الحقيقة هو الذي يأخذ بيدك ويُدخلك إلى القصر.

كلُ النعيم وكلُ الدفء، وكلُ الطعام الطيب، وكلُ الفرش الوثيرة، وكلُ الأمن، وكلُ المناظر الجميلة، وكلُ النباتات الرائعة، وكلُ الفواكه الطيبة، كلها في هذا القصر. والذي يأخُذ بيدك ويدخلك إلى هذا القصر، هو عالِم الحقيقة. والذي يَصِفُ لكَ الطريق إليه، هو عالِم الطريقة. والذي يَصِف لكَ القصر وما فيه وأنت في مكانك ؛ هو عالِم الشريعة. فإذا أردنا أن نبقى في مُصطلحات الإسلام فهناك إسلام، وهناك إيمان، وهناك إحسان.

الإحسان أن تدخل لهذا القصر وأن تستمع بما فيه، وفي الحقيقة هو الهدف الأخير وهو المعول عليه. فالله عزّ وجل خلقنا للجنة وخلقنا لسعادة أبدية:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ)

(الآية ١١٩ من سورة هود)

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

(سورة الذاريات)

هذا هو الهدف، فمن المُمكن أن تُخلق للجنة وأن يُعطيك الله العقل والفطِرة والاختيار والشهوة والكون والقوة والتشريع وانتهى الأمر. أنت تُلاحظ إنساناً يمشي في طريق متعرّج، في طريق العدوان في طريق الانغماس في الملذات متنكراً المنهج الإلهي، فهذا ينتهي به المصير إلى جهنم، لكن ما الذي يحصل ؟ أنّ ربنا عز وجل لا يدعه هكذا ؛ بل يتدخل، يلفت نظره ويُسمعه الحق، فإن لم يستجب يَسوق له بعض الشدائد فيما بينه وبينه، فإن لم يستجب يرفع مستوى الشِدّة، وسماه الله عذاباً صُعُداً.

والطبيب أحيانا يصف دواءً عيار ٢٥٠، فإن لم يستفد المريض يغيره إلى عيار خمسمائة، فإن لم يستفد تصبح سبعمائة وخمسين، ثم تصبح ألفاً. كلما كان تأثير الدواء ضعيفاً رفع الطبيب مستواه.

فما سبق بيانه كان ضرورياً قبل أن أشرح معنى التواب فالقضية قضية الرحمة، قضية أن الله عزّ وجل يُمكن أن يُعاملنا بعدلِه فنستحق النار، ولكنه إن عاملنا برحمته فإنّما يؤهّلنا لدخول الجنة، هذا هو التواب. يعني لم يتركَكَ ولكن تابعك وراقبك فأنت تحت سمعه وبصره يُحاسِبُكَ على كل حركةٍ، وعلى كل سكنةٍ، وعلى كل خاطر أكلت مالاً حراماً، مَحَقَ لك من مالك عشرة أمثال، أدّبك. اعتديت على

أعراض المسلمين فساقَ لك مُشكلة بغير حل فبقيت سنوات وأنت في ضيقٍ شديد ثم ألقى في روعك أن هذه المشكلة يا عبدي من هذا الذنب الوبيل فالموضوع موضوع التوبة وهو أنّ الله عزّ وجل يُربي عباده ليستحقوا الإكرام في الدنيا حتى إذا كان يوم القيامة كانوا من أهل الجِنان.

مُنطلق اسم التواب يبدأ من أنّ الله عزّ وجل يُعامل عِباده بالرحمة ؛ لو عاملهم بالعدل، لاستحقوا الهلاك. ولا أدري إذا كانت الأمثلة واضحة فأعود وأوجزها ثانية: يمكن أن أرسل ابني إلى بلدٍ أجنبي وأهمله ولي عليه حجة، يا بني أعطيتك كذا وكذا وأنت أهملت فماذا أفعل من أجلك.

يُمكن أن تُعيّن موظفاً تحت التدريب والتجريب لمدة ستة أشهر من دون أن تُراقِبَهُ، فإذا لم يعجبك صرفته، لكنك إذا كنت رحيماً ؛ كلما وقع في خطأ صححته له، وبعد شهرين أصبح يُرضيك فتمسكت به.

يُمكن أن تُنشيء ثانوية، وتضع لها نِظاماً داخلياً دقيقاً، وأن تُهمل الطلاب، هذا نجح، وهذا رسب، لكنك إذا استقدمت الكسول، وسألته عن تقصيره، ووجهته، ووبخته، وكلفته أن يُصحح، وأن يُضاعف جهوده، حتى استحق النجاح ؛ فأنت عاملته بالإحسان. هذه الأمثلة من أجل أن يتضّح معنى اسم التواب.

أيها القراء الكرام: كُلكُم يعلم أنّ التواب على وزن فعال وهي صيغة مبالغة اسم الفاعل، تقول مثلا: تائب مرة واحدة، تواب كثير التوبة. إذا ذكرنا أحد أسماء الله عز وجل بصيغة المبالغة فالمقصود أن الله عز وجل كثير التوبة على عباده أو أنه يتوب على عبده مهما كَبُرَ ذنبه، إمّا كمّاً أو نوعاً وهو شيء معروف عندكم.

واسم تواب من فعل تاب. تاب يتوب توبة وتوباً بمعنى رجع وآبَ بمعنى رجع، وأنابَ بمعنى رجع، وثابَ بمعنى رجع. تقول: ثابَ إلى رُشدِه. أيّ رجع إلى رُشدِه، وأنابَ إلى ربه وتابَ أي رجع، وآبَ أيّ رجع، تابَ وثابَ وآبَ وأنابَ كلُّ هذه الأفعال بمعنى رجع، إذا قُلنا: الله تواب، أي يعود على عباده بالخيرات، ويعود على عباده بالإحسان يعود على عباده بالرحمة وبالغُفران، هذا معنى أنّ الله عزّ وجل تواب وهو معنى من معاني تواب، ولكنّ المعنى الدقيق مُستنبط من قوله تعالى:

(ثُمّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنّ اللّهَ هُوَ التّوّابُ الرّحِيمُ (١١٨))

(سورة التوبة)

فما معنى تابَ عليهم ؟ تابَ عليهم يعني أنه ساقَ لهم من الشدائد كي يَحمِلَهُم على التوبة، لو تركهم هملاً، وأمدّهُم بصحةٍ جيدة وبأموالٍ كثيرة وأمطارٍ غزيرة وبلادٍ جميلة وهم غارقون في شهواتهم، في ملاهيهم في أفراحهم، في نواديهم، في سُكرهم وانحرافهم في كل الملذّات، فلو أن الله عزّ وجل تركهم هكذا ليس تواباً، ولكن يسوق لهم من الشدائد ليتوب عليهم.

أعرف رجلاً رَبحَ أرباحاً طائلة وأراد أن يُمتّع نفسه فأزمعَ السفر إلى أمريكا وكأنه يتمنى أن يفعل فيها ما يشتهيه وأن يغرق في بحر المعاصي، وهناك شعر بألم شديد في ظهره فتوجه إلى مستشفى، وصور عموده الفقري، فكانت نتيجة التشخيص ؛ ورمٌ خبيثٌ في النخاع الشوكي سمعت من أخيه تتمة الخبر بأنه لم تستطع قدماه على حمله حينما سمع الخبر، قطع رحلته وعاد إلى الشام ومن مسجد إلى مسجد ومن مجلس علم إلى مجلس إلى أن تاب إلى الله توبة نصوحاً..

هذا الذي ساقه الله إليه حمله على التوبة فلو أنه تركه هكذا بصحة جيدة وقوة ومال وغِنى وعاد من نزهته الجميلة بعد شهرين أو ثلاثة ليُتابع عمله التجاري وليُعيد الكرّة في العام القادم إلى أوربا وهكذا، فليس الله تواباً.

أعرف رجلاً ذكياً جداً لكنه يتفنن بالسُخريّة من الدين ومن رجال الدين، يَعُد الدين كله خُرافة، فابتلى فجأة بحالةٍ مرضية، وهو أستاذ فلسفة، وفجأة رأيته في حالة على غير ما أعرفه بها وهي حالة إنابة فلما سألته عن حاله قال: أنا وزوجتي منذ سنة تُبنا إلى الله توبة نصوحاً وتحجبّت زوجتي، واستقمْنا على أمر الله، وأنا أحضر عندك في المسجد مجالس العلم منذ ستة أشهر، فرحت له وبه فرحاً شديداً، ثم سألته ما السبب ؟ فقال: لي ابنة أصيبت بمرض خبيث في دمها وكنت أحبها حباً جماً وما زلت أعالجها في هذا البلد وذاك البلد حتى اضطررت إلى بيع بيتي، وفي نهاية المطاف راودني خاطر: أنك لو تبت إلى الله أنت وزوجتك لعلّ الله يشفيها، فتابا إلى الله وشفاها الله عزّ وجل، وقبل سنة دُعيت إلى حفل عقد قِران وألقيُت كلمة في هذا الحفل وقلت له: أهي هي ؟ قال: هي هي.

والله أيها الإخوة القراء: كل حادثة أو واقعة أسمعها أحِسُ أنّ رحمة الله عزّ وجل لا حدود لها، فلو ترك العباد على معاصيهم وانحرافاتهم وشرودهم عن الله عزّ وجل وانغماسهم في الملذّات وأكلِهم المال الحرام وتطاولهم على الحق، فلو تركهم هكذا لاستحقوا النار ولأدخلوها ولكنه يرحمهم. ومعنى ذلك أنّهُ يتوب عليهم أي يسوق لهم من الشدائد ما يحمِلُهُم بها على التوبة.

هُناك رجل همُّه الوحيد أن يُفسد عقائد المؤمنين، وهو يُؤمن في كل كُريّة في دمه أنه(لا إله)،وأن كل شيء متعلّق بالدين خُرافة بخُرافة وهو يجهد في إفساد عقيدة كل مؤمن، جاءته بنت صغيرة وأحبها حباً لا حدود له فارتفعت حرارتها، أخذها إلى الطبيب ووصف لها الدواء وبقيت حرارتها مرتفعة، ومن طبيب إلى طبيب إلى أن قال له أحد الأطباء الكبار: حالة ابنتك نادرة جداً في المئة ألف من الأطفال الصغار لا تشبه حالتهن حالة ابنتك، هذا مرض مستمر حتى الموت حرارتها أربعون بشكل مستمر وهو يؤمن أنه(لا إله)،فما استطاع تحمّلِ هذه الصدمة وبكى وتألم، وبعد حين اختل توازنه وصار يأتي بها إلى دائرته وهو شيء غير مقبول لكونه موظفاً، فخاف أن تموت في غيابه فلم يحتمل، تقول زوجته: بعد شهرين أو ثلاثة من استمرار حالتها المتردية قال لها: أريد أن أغتسل. ويبدو أنه

يغتسل لأول مرة في حياته اغتسل وقام ليصلي وهكذا قال حسب رواية زوجته، قال: يقولون إنكَ موجود فإن كنت موجوداً فإما أن تشفي ابنتي وإما أن تميتها وإما أن تميتني وقام وصلى ركعتين، بكى فيهما بكاء شديداً وهُما أول ركعتين في حياته وما إن سلّم من صلاته، حتى انخفضت حرارة ابنته، وشفاها الله.

من هذه الأحداث الواقعية الشيء الكثير ؛ فمرةً بعد انتهاء درس المساء قال لي شاب: أريد أن أُقابلك، فحدثني وقال: والله يا أستاذ ما من معصية تعرفها إلا وأنا أقترفها على وجه الإطلاق فأيّة معصية تخطر ببالك إلاّ وقد أقترفها، نشأت جاهلاً وعند رجل أكّدَ لي أنه(لا إله)،سَوّل له أن افعل ما شئت، ثم حدثني عن نجاحه في التجارة وعن أرباحه الطائلة وانحرافه وانحطاطه وسفرياته وقصته قصة طويلة معقّدة إلى أن عاجلته ضربة من الله عز وجل فحطمته فجأة فغدا بلا دخل، واعترته أمراض وبيلة أصابته وأولاده وزوجته، فلم يعد يملك ثمن الطعام ولا ثمن الدواء وتابع وصف ظروفه: والله كأنّ مطرقة تطرُقُ رأسي كلّ دقيقة إلى أن مررت بأحد المساجد وسمعت المؤذن يؤذن فدخلت المسجد وصليت لأول مرة في حياتي وبكيت بُكاء شديداً وعاهدت الله على التوبة. فهذه أحداث ووقائع وصلت إلى مسامعي خلاصتها أن الإنسان يجب أن يعلم أنه ما من رجل في الأرض إلا وله مع الله أوضاع وأحوال تنتهي بالإنابة وهذا معنى تواب **" إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب "...** أعرف كيف أداويهم.

وكثير من رواد المسجد سببُ مجيئهم إليه مشكلة كبيرة ساقهَا الله إليهم ففزعوا وأنابوا وارتجعوا وتابوا فقبِلَهُم الله عزّ وجل وتجلّى عليهم. وهناك أشخاص أصابهم مرضٌ عُضال، أحدهم خاطب الله عزّ وجل ضارعاً متوسلاً، وهو في غرفة العمليات لاستئصال الورم الخبيث قال: يا رب أعاهدك إن شفيتني من هذا المرض ألاّ أعصيك ما حييت. وشفاه الله من هذا المرض فبقي ثابتاً على عهده. فلولا هذا الورم الذي ساقه الله له ما كان ليتوب. صدقوني أيها القراء الكرام أنّ عشرات بل مئات بل آلاف الحكايات التي انتهت إلى سمعي مصادفة فكيف لو أنني تتبعت الأمر. هذا معنى التواب. يعني..

(تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

هيَ من أجمل آيات البحث. يعني ساق لهم من الشدائد ما يَحمِلُهُم بها على التوبة فَمَنْ هو البطل ؟ الذي يأتيه طوعاً والذي يأتيه وهو في الرخاء ؟ هذه هي البطولة ولتكن إذاً بطلاً.

وطبعاً بعد المصيبة فالتوبة مقبولة وجيدة وبارك الله لكلّ من تاب بعد مصيبة، ولكن الأكمل والأقوى أن تعرفه في الرخاء لا في الشِدة، أن تعرفه وأنت غني وأنت قوي.

إذاً فالمعنى الثاني: تواب: أيّ يسوق لعباده من الشدائد ما يحملهم على التوبة وأجمل الآيات:

(إِنَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٦٠))

(سورة البقرة)

وهذه آية ثانية:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

يعني إذا جاءت توبة الله قبل توبة العبد فتعني الشدائد التي يسوقها للعبد وإذا جاءت توبة الله بعد توبة العبد فتعني قبول التوبة. يحملك على التوبة ثم يقبل توبتك وأنت بين دافع إلى التوبة وبين قبول لهذهِ التوبة.

أنا أتمنى على كل أخ كريم أن يُجري مناقشة منطقية ويسأل نفسه فمثلاً شخص عمره ثمانون سنة لُيحاسب نفسه وليتذكر أنه ما قرّ يوماً هناك بتقصيرٍ أو انحرافٍ إلا وساقَ الله له شدة وأعاده إليه بعدها، فما بال أحدنا إذاً ينتظر الشدة أن تقع، إذاً فليُعدْ إلى الله بلا شدة وبلا تأديب وبلا مشكلة وبلا مصيبة وبلا تضييق، هذا هو الذكاء، وهذا هو العقل، وهذه هي الحِكمة. هذا كان من ابن الثمانين، أما الشباب فليأخذ العبرة من غيره، مما يقرأ ومما يسمع.

هُناكَ شيٌء آخر: قالوا: الله عزّ وجل يتوب على عبده ابتداء أي يسوق له من الشدائد ما يحمله على التوبة وأما تمام التوبة أن يقبَلَهَا منه وأن يُثبّته عليها، فمثلاً: لو قال عبد: يا رب أنا تُبتُ إليك، فهذا الذنب لا أقع فيه مرة ثانية، ولم يقل: يا رب ثبتني اللهم يا مثبّت القلوب ثبّت قلبي على دينك، ثبت قلبي على طاعتك. فلو قال أنا تبت واكتفى بمقاله هذا. وقال: لم يبق عليه شيء بعد ذلك ؟ فهذا الذي ينسب التوبة إلى نفسه ويعتدُّ بإرادته وبقدرته على متابعة التوبة ربما ضَعّفَ الله مقاومته، فوقع في الذنب مرةً أخرى. لذلك تمام التوبة قبولها والثبات عليها لأنّ الإنسان إذا تاب من ذنب ثم عاد إليه يختل توازنه وينهار، فلو فعلت هذا الذنب للمرة الألف قبل التوبة أهون من أن تفعله مرة واحدة بعد التوبة، دققوا، لأنك إذا فعلته بعد التوبة انهارت معنوياتك وشعرتَ كأنّ الطريق إلى الله عزّ وجل غير سالك. أما الشيء الذي يُلفت النظر قوله سبحانه وتعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧))

(سورة النساء)

" لَله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد ومن العقيم الوالد ومن الظمآن الوارد" أعرابي ركب ناقة عليها طعامه وشرابه، ثم جلس ليستريح فشردت عنه فأيقن بالهلاك فجلس يبكي حتى نام ثم أفاق فرأى الناقة عند رأسه فمن شدة فرحه اختل توازنه فقال: يا رب أنا ربك وأنت عبدي.:

يقول عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده المؤمن من هذا البدوي بناقته))

واللّه عزّ وجل يريد أن يتوب عليكم، إذا رَجَعَ العبدُ العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله. **" وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلا عَظِيمًا "**

جالسْ أهل الدنيا، جالسْ مع أهل الشهوات، جالسْ أهل الفجور هذا الفاجر وهذا العاصي يتمنى أن يَجُرّكَ إليه حتى إنه يقول له: ضعها برقبتي ومَنْ أنت حتى أضع خطيئتي برقبتك ؟ ثم يقول: الله تواب رحيم وغفور رحيم ولا تُدقق فالله لا يدقق فما هذا الكلام ! هذا ما يقوله الضال لمن يضل، فاسمع وله تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧))

يجب أن تُقدّس هذه الإرادة الإلهية، فالله عز وجل يُريد لكَ الخير، كما يريد لك السعادة الأبدية.

هذا الإنسان بعد حين سوف يُعذّب عذاباً لا يُحتمل، بينما هو الآن يركب مرحاً وفرحاً سيارة، وهناك إنسان بعد حين سينال أعلى مرتبة وهو الآن يمشي على قدميه ؛ التقيا في الطريق فمن هو الفائز؟ حسب الظاهر، الذي يركب المركبة الفاخرة، لكن الفائز بعين العقل هو الذي يمشي على قدميه.

تصوروا بيتاً فخماً جداً ثمنه مئة مليون فيه كل دواعي الترف وله طريق وعلى هذا الطريق إنسان يمشي على قدميه ليتملك هذا البيت، وإنسان آخر يركب مركبة فارهة باتجاه أن يُشنق في ساحة عامة. التقى هذا الذي يركب المركبة مع هذا الذي يمشي إلى هذا البيت على قدميه في الطريق فهنيئا لمن ؟ لمن يمشي على قدميه، بعيون رؤوسنا، فالتهنئة لراكب السيارة، أما بعيون عقولنا فالتهنئة لمن يمشي على قدميه، فالأمور بخواتيمها.

(قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠))

(سورة إبراهيم)

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ(١٢٦))

(سورة البقرة)

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧))

(سورة آل عمران)

(قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧))

(سورة النساء)

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٠) أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ (٦١))

(سورة القصص)

(مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦))

(سورة القلم)

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

(سورة السجدة)

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥))

(سورة القلم)

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١))

(سورة الجاثية)

كلام واضح كالشمس.

عزيزي القارئ: معنى الله تواب يعني يعود بالخير على عباده فالأمطار من التواب عاد بها علينا، والهواء الذي نستنشقه من التواب عاد به علينا، وهذه الأجهزة التي تعمل بانتظام من التواب عاد بها علينا وكل ما أنعم الله به علينا من التواب فهذا العنى الأول.

المعنى الثاني: تواب قبل التوبة بمعنى يسوق لعباده الشدائد:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧))

(سورة الأنعام)

انظروا إلى الآية ما أروعها بياناً ومعنىً وما أدقها، ما معنى هذه الرحمة ؟ قال:

(وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنْ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ)

هذه رحمته رحمته تقتضي ألا يَردَ بأسه عن القوم المجرمين، تصوّر ابناً ذكياً وأبوه عالم، فالابن مقصّر فضربه وضيّق عليه، حاسبه، زجره إلى أن نجح، تابع عليه المراقبة إلى أن صار طبيباً ونالَ أعلى الشهادات، وجلس في عيادته، وثلاثون زبوناً في الخارج وتصوير ومعانيات ودخلّ يومي من خمسين إلى ستين ألف، فيقول: جزى الله والدي كل خير على الضرب الذي ضربني إياه في الصِغَر فلولاه لما كنت اليوم طبيباً. فلو قال الابن: لا أريد الدراسة، فلم يزجره أبوه، بل تركه لأصبح يلهث وراء الناس فيقول: لماذا لم يضربني أبي، ولماذا لم يُضيّق عليّ، أو ينصحني، أو يطردني من البيت لماذا ؟ رحمة أبيه الساذجة ؛ مع جهل الابن في صغره تجعله يحقد عليه، وشدة والده الواعية ؛ تجعل الابن يذوب حباً له.

أمثلة بسيطة لو فرضنا أنّ إنساناً كان منحرفاً فضيّق الله عزّ وجل عليه وخوّفه وأرسل له شدائد إلى أن استقام على أمر الله، فذاقَ طعم القُرب ومعنى الهداية، وشَعَرَ بعمة الاستقامة فإنه يقول: يا رب لك الحمد على أن سُقت إليّ هذه الشدائد، والله إني ليسعدني أن أقول لكل مْن ابتلاهم الله ببعض المصائب:

ثقوا بالله بلا حدود أنه سيأتي وقت يكشف لك الله فيه عن سر هذه المصائب. فإن لم تذب كالشمعة حباً لله عز وجل ؛ فهذا الكلام هراء لكن ما شاء لله أن نتَقول، وإنما الأحداث تتكلم، واقرؤوا عن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي أخبارهم وعقابيلها المُثُلُ الواضحة.

فالإنسان يجب أن يعرف أن الله عزّ وجل تواب، ومعنى تواب يعني يحبنا، ودائماً نحن في العناية المشددة، في غرفة العناية المشددة تخطيط دائم، يرى فيه عدد النبض، والموجات بشكل مستمر، أنت في العناية المشددة، وأحوال القلب والأعراض على الشاشة، فمثلاً: إنسان يسير في الطريق تفكيره مضطرب، فيُصطدم بعمود، إلى أين تسير يا عبدي ؟ يكون ماشياً بشكل خطأ، أو نظر إلى امرأة لا تَحِلُ له فجأة تأتيه الصدمة، ويُشجُ رأسه، فالله عزّ وجل تواب، أكلَ مبلغاً بالحرام فيُضيّع الله له عشرة أمثاله ويُربيه، عامل أصلحَ عُطلاً في سيارة وأخذ من الزبون عشرة أمثال والزبون لا يعرف، فعاتبه جاره فأجابه: هكذا العمل وفي اليوم الثالث دخلت في عين ابنه نثرة بُرادة فتكلّفَ له ستة عشر ألف ليرة في الجامعة الأمريكية. فذهب الحادث بربحه الحرام وبالإضافة إلى التأديب.

أحد تجار الجملة جاءه شخص يريد شراء حاجات من عنده فطلب ست قطع فقط من ألبسة معينة، ولما كان هذا من شأنه أنه يبيع بالجملة فرآها إهانة له، وقال: أنا لا أبيع بالمُفرَق: فأقسم بالله من بعدها أنه مضى عليه ثلاثة وعشرون يوماً ولم يدخل إلى محله أو معمله إنسان. فالله عزّ وجل تواب.

انظر إلى النحاس كم هو جميل، من كثرة الطرق أصبح جميلاً وهكذا المؤمن كلما ازداد عليه الطرق يُصبح أديباً وكلامه يصير مضبوطاً وليسَ عِندَهُ كِبْرْ ولا تطاول، هذا معنى التأديب الإلهي وهو معنى التواب أي يُعالجك حتى تُصبح نقياً كالمَلَكِ تماماً.

((وعزتي وجلالي لا أ قبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله، أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر ؛ فاذا بقي عليه شيء، شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

أيها القراء الكرام: أرجو أن أكون موضع ثقتكم من أنني لكم ناصحٌ، وأمين إن شاء الله، وأقول وأكرر إن دعوتي مُلخّصة بكلمتين: **إما أن تأتيه راكضاً أو أن يأتي بك ركضاً.** ويعلم الله كيف يأتي بك، ويعلم كيف يخوفك ويعرف كيف يجعل ركبتيك ترتجفان، ويعلم كيف تسمع الخبر وتقع مغشيّاً عليك، فأقبل على الله طائعاً منيباً فهو الأجدى والأسلم.

أعرف رجلاً أسرَفَ على نفسه كثيراً وله جارٌ صالح نصحه فلم يرعو، ومات على معاصيه، ثم رؤي في المنام يرتدي ثياباً خشنة قميئة مهترئة ويدور حول بحرة ويقول: نصحني فُلان ما انتصحت يا ليتني انتصحت، لو أنه نصحكم فاسمعوا نصيحته، فالإنسان ما دام قلبه ينبض فيقول لك: التخطيط سليم فالتوبة مفتوحة، وما دام القلب ينبض فالباب مفتوح فأدرك بنفسك رحمة الله فهي قريبة.

قال لي صاحب معمل: قبل عشر سنوات كنت أفقد مالاً، أضع ألفين مثلاً في جيبي ثم لا أجد شيئاً، فهناك عامل يسرقني وبقيت شهراً أراقب والسرقة مستمرة بالمال والبضاعة، ثم توقفت السرقة، وبعد عشر سنوات طرق بابي شاب ملتح قال: أنا فلان هل عرفتني ؟ فقلت: نعم كنت عندنا في المعمل قال: كنت أسرق منك وتبت الى الله عزّ وجل، وها أنا بين يديك جئت لأردّ لك كل الذي أخذته منك. فقال له: والله نظير هذه التوبة وهذه الأوبة سامحتك ولك مكان في معملي إذا شئت أن ترجع.

ما دامَ القلب يَنبضْ، فالحل سهل وكله يستدرك ويصحح فممكن أن تؤدي الذِمم المُترتبة عليك سابقاً، ومُمكن أن تُعيد الحاجات لأصحابها، ومُمكن أن تستسمح من اغتبته. كله مُمكن فإما أن تأتيه راغماً وإما أن يحملك على أن تأتيه راغماً فالأولى أرقى وأشرف وأجمل وأحلى.

فالتوبة الأولى:

(ثم تاب عليهم ليتوبوا)

يحمل على التوبة والثانية:

(تابوا فتاب الله عليهم)

يعني قَبِلَ توبتهم، وإذا قَبِلَ توبتهم يعني ثبّتهم عليها.

خبر مسند أنه صلى الله عليه وسلم دعا لأمته عشية عرفة: واستغفر اللهَ لهم فأوحى الله إليه أني قد غفرت لهم ما بيني وبينهم ولم أغفر لهم ظلم بعضهم لبعض. ما بيننا مغفور لكن ما بينكم وبين العباد لا بد من أن يُصحح وهذا معنى قوله تعالى:

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

(سورة الأحقاف الآية: ٣١)

(يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ)

(سورة نوح الآية: ٤)

يعني بعض ذنوبكم.

أتمنى أن يكون لديّ متسع لنوسع هذا الموضوع بحثاً لكن يبدو لى أن الموقف العملي من قبل القارئ الكريم أبلغ من التفصيلات... وليحاسب كل إنسان نفسه حِساباً دقيقاً، وأسعد إنسان من التزم منهج الله في كُل أحواله، وأسعد إنسان من أطاع الله حقاً، وإن لنا في قوله تعالى ما يريح النفس ويشفيها.

(وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

(سورة الأحزاب)

كذلك ففي قوله تعالى التكريم والإكرام

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣))

(سورة الحجرات)

ألا يكفي المظلوم أن يكون ظالمه في معصية الله.

أيها القراء الكرام: معنى تواب أي لا يعاملك بالعدل فحسب بل إن الله يتابع عبده إلى أن يكنفه برحمته، فالأب الرحيم كل يوم ينادي ابنه ويسأله عن أعماله المدرسية وماذا كتب وحفظ ؟ أمّا أن يتركه حتى يرسب ويقول قدمت الذي علي فيجيبُهُ الابن: صحيح لكنك لم تكن رحيماً بل كنت عادلاً أمّا الرحيم الذي يُتابع.

ربنا عزّ وجل هو التواب حَمّلك الأمانة إذ حملتها وكلفك بالأمانة، ومنحك عقلاً وسخر لك كوناً وأعطاك اختياراً وأعطاك شهواتٍ وفِطرةً وشرعاً، ومع ذلك يُتابع أحوالك بالنصح مثلاً:

حدثني أخ كريم أنه كان بحاجة إلى مبلغ من المال، إذ وجد بيتاً ثمنه مغرٍ جداً بقيمة "٣٥٠٠٠ ل. س " والموضوع قديم، وهو معروض عليه بـ " ٢٥٠٠٠ ل.س" ومعه عشرة آلآف ويلزمه خمسة عشر ألفاً ومعه سندات مصرفية فذهب إلى المصرف ليحسم هذه السندات، والحسم رباً معكوس ومدير البنك ليس مسلماً بل ذميّاً. فقال له: يا أبا فلان، أنت مسلم وهذه حرام في دينكم، ابقَ نظيفاً. فقال: صرت أبكي، أنا أتلقى نصيحة من إنسان غير مسلم في أمر ديني. فقال: يا رب أعاهدك ألا أشتري هذا البيت ولا أعصيك، فقال لي: ثم توجهت من المصرف إلى محلي التجاري فوجدت صديقاً قديماً ينتظرني فقلت: خيراً فقال: أريد السفر لأحد بلدان الخليج ومعي ستون ألفاً لست بحاجة إليها، وأريد أن أودعها عندك لمدة سنتين وأُناشُدكَ الله أن تستعملها إن احتجت، أقسم بالله أنه بعد نصف ساعة من عودته من المصرف وقراره ألاّ يعصي الله. كان صديقه عنده وكان المبلغ بين يديه ليستخدمه حلالاً.

فالله سبحانه وتعالى حكيم فإن كان المرء يأتي بإشارة فلا ضرورةً لكلمة، وإن كان يأتي بكلمة فلا حاجة للضرب، كلما كان للإنسان حساسية فهو يفهم بالإشارة. وأحيانا يُحِس الإنسان بإنقباض فيقول: هناك في الأمر شيء. وهناك من الناس من يحتاج إلى تأديب علني أو عذاب مهين أوعذاب عظيم أوعذاب أليم فكلما ارتقت مكانة الإنسان عِندَ الله تكفيه الإشارة، فالحُر تكفيه الإشارة.

تواب: أي أنه لن يتركنا بل يُريدنا، نحن مطلوبون إليه خلقنا ليرحمنا، خلقنا ليُسعدنا في الدنيا والآخرة. فافهم أنّ الحُر تكفيه الإشارة، فإذا قصّرت يأتي بكَ، وأُحِسُّ أحيانا أن كثيرين قد تركوا مجالس العلم ثم لم يمض إلا أشهر حتى عادوا فلعله حدثت لهم مشكلة فيهرول أحدهم مسرعاً. فابقَ ثابتاً لأنّ الله يدعوك إليه ولا تكن كالقارب الصغير شأنه اضطراب باضطراب ولكن كالسفينة الراسخة:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣))

(سورة الأحزاب)

انتهى الأمر وغدا جلياً واضحاً فأنت عاهدت خالق الكون فإذا عاهدت الله على الطاعة وعلى تلقي العلم وخدمة الناس فابقَ ثابتاً. فأنا أقول لكل شخص: إذا امتحنك الله بالنزول فظهرت كَرّاتك جيدة فإننا نريد أن نراك بالصعود ارتقاءً إلى الله، فبادر.

هذا معنى اسم التواب، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يتوب علينا والنبي صلى الله عليه وسلم يقول:

((إذا رجع العبد العاصي إلى الله نادى منادٍ في السماوات والأرض أن هنئوا فلاناً فقد اصطلح مع الله))

٢٨- اسم الله الهادي:

مع الاسم الثامن والعشرين من أسماء الله الحسنى والاسم هو الهادي، والله سبحانه وتعالى، خَلَقَ ثمّ هدى.

شققنا الطريق، ثم وضعنا الشاخصات، صنعنا الآلة وأصدرنا كُتيّب التعليمات، الله سبحانه وتعالى خلق الكون ثم نوّره.

كلمة الهادي مأخوذة من فعل هدى، والهادي اسم فاعل، ما معنى هدى ؟ إن الله عز وجل يقول:

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢٥))

(سورة يونس)

يعني خُلِقتَ لِيُسعِدَكَ، لا سعادة تنقطع عند الموت، بل لِيُسعِدَكَ إلى الأبد، وما الحياة الدنيا إلا إعداد لهذه الحياة الأبدية، إذاً:

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

الصراط هو الطريق، الله عز وجل أعطى الإنسان حرية الاختيار ؛ فمن شاء الهُدى هداه إلى صراط يؤدي إلى دار السلام، خُلقت لدار السلام، دار السلام هي الجنة، خُلقت لدار السلام وأنت مُخيّر، فإذا اخترت دار السلام هداك الله إلى الصراط المستقيم الذي يوصلك إلى دار السلام، آيةٌ دقيقة المعنى جداً، لا تظنوا كما يظن بعض الناس أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس ليعذبهم، لا تظنوا أن هذه المصائب عشوائية ؛ وأن هذه المصائب مقررة من قِبَل الله عز وجل لإلجاء العباد إلى بابه قال تعالى:

(وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

ما معنى الهداية ؟ الهداية: الإمالة، هداه أي أماله، أي وجهه نحو الحق، فالهداية في اللغة معناها الإمالة، وتُسمى الهديةُ هديةً لأن من شأنها أن تُميل قلب المَهْدي إليه.

يقول الإمام الجنيد قال: **" اهدنا الصراط المستقيم ؛ يعني يا رب مِلْ بقلوبنا إليك، وأقم هِمَمنا بين يديك، واجعل دليلنا منك عليك "**، النقطة الدقيقة: هي أن الإنسان مُخيّر، ومعنى مُخيّر أمامه عِدة خيارات، قال تعالى:

(إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً (٣))

(سورة الإنسان)

مَن هو الداعية ؟ هو الذي يقنعك بأن تتجه إلى طريق الحق عن طريق ماذا ؟ عن طريق الإقناع، وعن طريق الدليل، وعن طريق التبيين، وعن طريق التوضيح ؛ فربنا عز وجل هو الهادي.

وبناء عليه فكم طريقة من الطُرق يهتدي بها الإنسان ؟.. بادئ ذي بدء فالله سبحانه هدى الإنسان إليه عن طريق الخلق، وأول مخلوقاته الكون، والله قوي، وفي الكون مظاهر قوته. وهو الغني وفي الكون

مظاهر الغِنى. وهو عليم وفي الكون مظاهر العِلم. وهو رحيم وفي الكون مظاهر الرحمة. يعني بإمكانك أن تقول: إنّ الكون مظهر لأسماء الله الحُسنى ولِصفاته الفُضلى. فإذا أردت أن تفكر في الكون وصلتَ إلى الله إنه صنعته، منه تصل إلى الصانع. إنه خلقه، منه تصل إلى الخالق، إنه كونه، منه تصل إلى المكوّن. إنه تنظيمه، منه تصل إلى المُنظِّم. به ترى العِلم، به ترى الحِكمة، به ترى القُدرة، به ترى اللُطف، به ترى العطف، به ترى الرحمة، به ترى الخِبرة، كل ما في الكون يدلُّ على الله عزّ وجل.

وقد تنظر إلى وردة فكأنّ الله سبحانه وتعالى تجلّى عليها باسم الجميل. فإذا رأيت البحر هائجاً، تجلّى الله عز وجل على البحر باسم الجبّار. تارةً ترى اسم الجبّار، تارةً ترى اسم القهّار، تارةً ترى اسم المُنتقم، تارةً ترى اسم العليم، تارةً ترى اسم الحكيم، تارةً ترى اسم العليّ الكبير. فكُلٌّ مظهر في الكون؛ يدلُ على اسمٍ من أسمائِه ؛ أو على كل أسمائه فكيف هدانا الله ؟، الله قال:

(قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآَيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠١))

(سورة يونس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ (٢٤))

(سورة عبس)

(فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨))

(سورة الطارق)

فإذا أردت أن تهتدي إلى الله فحسبُكَ الكون، وقد ورد في الأثر:

((حسبكم الكون معجزة))

هذا أول باب، ولكني أقول للقارئ الكريم: إن باب الكون أوسع أبواب الهُدى، وأقرب طُرق الهُدى ؛ لأنّ الكون يضعُك وجهاً لِوجه أمام قُدرة الله، وأمام عظمته، وأمام حِكمته، وأمام رحمته، وأمام عِلمِه وأمام خِبرته. فالله سبحانه وتعالى هداك بخلقه ؛ إذاً الهادي اسم من أسماء أفعاله.

أيها القارئ الكريم يمكنك أن تتأمل آلة وتقول: المهندس خِبرته رفيعة المستوى. وتقول: هذه الألوان التي أعطاها للآلة لطيفة فيها ذوق رفيع. تكتشف علمه، وتكتشف ذوقه، وتكتشف خبرته، لكن أحياناً مع الآلة نشرة، الآن ربنا عز وجل يهدي الإنسان لا بخلقه فحسب بل بكلامه، قال:

(إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥))

(سورة الحج)

(وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨))

(سورة التوبة)

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٧٧))

(سورة النحل)

(إنّ اللّهَ غفُورٌ رَحِيمٌ (١٨٢))

(سورة البقرة)

(وَهُوَ الْغفُورُ الْوَدُودُ (١٤))

(سورة البروج)

(إنّ رَبّي رَحِيمٌ وَدُودٌ (٩٠))

(سورة هود)

وفي الآيات التالية تبين الهدي بكلامه سبحانه وتعالى:

(اللّهُ الّذِي رَفعَ السّمَاوَاتِ بغيْر عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأجَلٍ مُسَمّى يُدَبّرُ الْأمْرَ يُفصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلّكُمْ بلِقاءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ (٢))

(سورة الرعد)

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأرْض وَمَا بَثّ فِيهمَا مِنْ دَابّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهمْ إذَا يَشَاءُ قدِيرٌ (٢٩))

(سورة الشورى)

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السّمَاوَاتِ وَالْأرْض وَاخْتِلَافُ ألْسِنَتِكُمْ وَألْوَانِكُمْ إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢))

(سورة هود)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ تَقُومَ السّمَاءُ وَالْأرْضُ بأمْرهِ ثُمّ إذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأرْض إذَا أنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥))

(سورة الروم)

(وَمِنْ آيَاتِهِ اللّيْلُ وَالنّهَارُ وَالشّمْسُ وَالْقمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشّمْس وَلَا لِلْقمَر وَاسْجُدُوا لِلّهِ الّذِي خَلَقهُنّ إنْ كُنْتُمْ إيّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧))

(سورة فصلت)

(وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَار فِي الْبَحْر كَالْأعْلَامِ (٣٢))

(سورة الشورى)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أنّكَ تَرَى الْأرْضَ خَاشِعَةً فإذَا أنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزّتْ وَرَبَتْ إنّ الّذِي أحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قدِيرٌ(٣٩))

(سورة فصلت)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ يُرْسِلَ الرّيَاحَ مُبَشّرَاتٍ وَلِيُذِيقكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بأمْرهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فضْلِهِ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦))

(سورة الروم)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أنْفُسِكُمْ أزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدّةً وَرَحْمَةً إنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقوْمٍ يَتَفكّرُونَ (٢١))

(سورة الروم)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمّ إذَا أنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠))

(سورة الروم)

أول بند من بنود الهُدى خلقُه، فالهادي اسم من أسماء أفعاله.

البند الثاني: أن الهادي اسم من أسماء ذاته، لأنه المُتكلّم، فالله مُتكلّم، والقرآن كلامه.

أحياناً تنظر لشيء رائع، ويقول لك صانع هذا الشيء: هذه صنعتها لكذا وهذه لكذا، وهذه المادة الأولية من أعلى مستوى، وهذه الآلة لأجل كذا، فقد أعطاك تعليمات من عنده مباشرةً، فالله سبحانه وتعالى يهدي بكلامه، إذاً الهادي اسم من أسماء ذاته كما أننا عرفنا أنه اسم من أسماء أفعاله.

إذاً: هداك بخلقه ؛ فالهادي اسم من أسماء أفعاله، وإذا هداك بكلامه ؛ فالهادي اسم من أسماء ذاته. اقرأ القرآن. القرآن يُبيّن لكَ أصل الخليقة، حقيقة الحياة الدنيا، ما بعد الدنيا، كما بيّن لك أسماء الله عز وجل، بيّن لك صفاته، بيّن لك أنبياءه السابقين واللاحقين، بيّن لك حكمة الوجود، أَمَرَكَ بالصلاة في القرآن، أَمَرَكَ بالصوم وبالزكاة وبالحج، بيّن لك لماذا تصلي.

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)

(الآية ٤٥ من سورة العنكبوت)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣))

(سورة البقرة)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣))

(سورة التوبة)

فالله سبحانه هو هادي، الله هداك بكلامه، فإذا أردت أن تقرأ القرآن ؛ فالقرآن باب إلى الله عزّ وجل. والكون باب ؛ لكن(الكون)لغة عالمية، يعني يراه ويقرؤه ويفهمه المُسلم وغير المُسلم، العربي وغير العربي، إفريقي، صيني، أمريكي، أوروبي، من أي مكان، الشمس ساطعة، النجوم زاهرة، الكواكب متألّقة، الماء عذب زلال، من جعله عذباً زلالاً بعد أن كان مِلحاً أجاجاً ؟ الكون يقرؤه كل إنسان، لكن القرآن يقرأه العربي.

على كُلٍ ؛ إذا تعمّق الإنسان في معرفة الله عزّ وجل، تعلّم العربية حُباً بالله عز وجل، وقد تجد شعوباً من غير العرب أتقنوا العربية لا لشيء إلا حُباً بالله عز وجل. كيفَ أنك اليوم إذا أردت أن تأخذ شهادة عُليا من بلدٍ أجنبي، بادئ ذي بدء تتعلم لغة ذاك البلد، يقول لك: سنتان لغة، أي تتعلم لغة البلد الأجنبي الذي قصدته لمدة سنتين.

طالب من طلابي نالَ بعثةً إلى تشيكسلوفاكيا، قال: تعلمتْ لغتهم خلال سنتين، من أجل شهادة دنيوية، من أجل حياة محدودة تعلمتَ لغة هؤلاء القوم كي تتعلم عِلمهم، لذلك إذا عرفت الله عزّ وجل، ورأيت أن كلامه شيء ثمين جداً، فلابد إنْ كنت غير عربي، من أن تجدَ نفسك مسوقاً إلى تعلم اللغة العربية. والإخوة الأكارم الأفارقة مثلاً، الأتراك الذين وفدوا إلى هذه البلدة الطيبة، لتعلّم أمور الدين ؛ تراهم

يتقنون اللغة العربية، بل إنهم ينزعجون انزعاجاً شديداً لو تكلمنا بكلمة واحدة باللهجة العامية خلال الدرس كله لا يفهمون إلا اللغة الفصحى.

إذاً، إذا بلغ حُبُكَ لله عز وجل حداً مُعيناً ؛ ترى نفسك مسوقاً إلى تعلُم اللغة العربية. إذاً فالقرآن ؛ باب آخر من أبواب الهُدى. الكون ؛ هداك بخلقه. والقرآن ؛ هداك بكلامه. وأرجو ألا تنسوا أنّ الله عزّ وجل جعل الكون كله في كفة، وجعل القرآن كله في كفة، قال:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١))

(سورة الأنعام)

فهذه الآية صريحة في ذكر خلق الكون.

لأنهما الكون والقرآن يدلان عليه، لأنهما يُشيران إليه، لأنهما يُظهران أسماءَه الحُسنى، وقال سبحانه في حديثه عن القرآن:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (١))

(سورة الكهف)

فالكتاب ؛ هدىً بياني ؛ والكون ؛ هدىً استدلالي.

لاحظ نفسك، أحياناً تشتري آلة من دون نشرة تعليمات تنظر إليها، تُدقق، تستنبط، تُحرك بعض مفاتيحها، تُشغلها، تُحرّك هذا المفتاح، انقطع التيار، تُحرّك هذا المفتاح علا الصوت أو انخفض ؛ إذاً هذا المفتاح للصوت، تُحرّك هذا المفتاح فيصبح الصوت صافياً، إذاً هذا للتصفية، تكتشف خصائصها بالتأمل والملاحظة، لكن إذا رأيت معها نشرة باللغة العربية تقرؤها.. مفتاح رقم واحد للصوت، الثاني للتصفية.. تَطَابُق، يُمكن أن تتأمل في هذه الآلة فتصل إلى بعض خصائصها ؛ لكنك إذا قرأت التعليمات التي أصدرها الصانع تصل إلى خصائصها الكاملة. إلاّ أن هناك ملاحظة ؛ فأنت من طريق التأمل تصل إلى أشياء كثيرةٍ جداً لكن ما كل شيء تصل إليه من خلال الكون.

الكون، يَدُل على وجود الله، يَدُل على عظمته، يَدُل على أسمائه لكن الكون لا يَدُلُك على الصلاة، مهما تأملت في الكون أين الصلاة ؟ أين ذكرُ خمس صلوات ؟ أين الفرائض ؟ أين السنن ؟ أين الزكاة ؟ أين الحج ؟ أين الصيام ؟ أين غضُ البصر ؟ هذه لابُدّ لها من منهج أنزله الله على نبيه عليه الصلاة والسلام. من اكتفى بالكون فقد أخذ شطر الدين، لكن لابُدّ من أن تهتدي بالكون جزئياً، ومن أن تهتدي بالقرآن كلياً.

القرآن يشتمل على أحكام، كما يشتمل على أوامر، وعلى نواهٍ وفيه منهج كامل، وفيه أخبار السابقين، وأخبار اللاحقين، فيه بيان للمستقبل البعيد، وفيه بيان عن ذات الله عزّ وجل. لا يكفي الكون وحده بل لا بد من أن يتكامل الكون مع القرآن.

دخلتَ إلى جامعة، تأملت في قاعاتها الفسيحة، تأملت في قاعات المحاضرات الكبيرة، تأملت في حدائقها الرائعة، تأملت في بيوت طلابها، تأملت في مخبرها، تأملت في مسرحها، تأملت في مكتبتها أخذك العجب العُجاب، لكن مهما تأملت في هذه الجامعة وفي أقواسها وقاعات محاضراتها، مهما تأملت في بيوت الطلاب وفي حدائقها وفي مكتبتها، لا يُمكن أن تصل إلى نظامها الداخلي، لا يُمكن أن تصل إلى طريقة النجاح والرسوب، لا يُمكن أن تصل إلى أسماء الأساتذة، تأمل في الجدران من هم مدرسو هذه الجامعة ؟ لابُدّ من كتاب تقرؤه في بيان الكليات، أقسام الكليات، رؤساء الأقسام، عُمداء الكليات، أسماء الأساتذة اختصاصاتهم ميزاتهم، موقع كل كلية، نِظامُها الداخلي، طريقة النجاح طريقة الرسوب طريقة الانتقال، طريقة الدرجات المقبول، امتياز، شرف، جيد، جيد جداً، هذا شيء لابُدّ من أن تقرأه في النظام الداخلي.

أنا أقول هذا الكلام وأريد منه أنك إذا فكرت في الكون عرفت عظمة الله عزّ وجل. أما إذا أردت أن تعرف منهجه، فلابُدّ من قراءة القرآن. والقرآن في أساسه موجز، فيه كُليّات الدين، جاء النبي عليه الصلاة والسلام فشرحه وبيّنه، فإذا فكرت في الكون عرفت أن لِهذا الكون خالِقاً عظيماً كبيراً عليماً قديراً حكيماً لطيفاً.. الخ.

لكنك إذا أردت أن تعبده، وإذا أردت أن تتقرب إليه، وإذا أردت أن يُحبك، فماذا تفعل؟ أنت الآن بحاجة إلى تعليمات من قِبَل الخالِق يقول لك صُمْ شهرَ رمضان، أدِ زكاة مالك، غُضَ بَصَرَك أحسِن إلى أخيك، أعفُ عنه، أنت الآن بحاجة إلى تعليمات هذا الخالِق أنت بعقلك عن طريق الكون آمنت بالخالِق، لكنك إذاً أردت أن تعرف منهج الخالِق، أمره ونهيّه، أخبار الأمم السابقة، ماذا يُريد منك، لماذا خُلقت ؟ فلابُد من أن تقرأ كتابه.

أذكّر القراء الكرام مرةً ثانية بمثال الجامعة، دخلت إلى الجامعة أطلعوك على قاعات المحاضرات، على بيوت الطلاب، على الحدائق الغنّاء، على الملاعب، على المكتبة الضخمة، أُعجِبتَ بها ؛ مهما تأملت في هذه الجامعة، فهل تعرف عن طريق التأمل والمشاهدة كم كُليّة فيها ؛ هل تعرف نظام النجاح فيها ؛ هل تعرف نظام الإقامة في بيوت الطلاب ؟ لا تعرف، هل تعرف من هم المدرسون ؟ لا تعرف، ما أسماء الكتب المقررة ؟ لا تعرف.

إذاً الكون ؛ يَدُلُكَ على وجود الله وعلى أسمائِه الحُسنى والقرآن يَدُلُكَ على منهجه، يعني إذا أردتَ أن تؤمن به ففكّر بالكون، وإذا أردت أن تعبده فاقرأ القرآن، بالكون تعرفه، وبالقرآن تعبده، لا يُغني أحدُهما عن الآخر. إذا قرأت القرآن ولم تفكر في الواحد الديّان كأنك ما قرأت القرآن لماذا ؟ لأن القرآن يأمُرُكَ أن تُفكر، فإذا لم تُفكر فقد عطلّت آيات التفكر في القرآن. إذا فكرت في الأكوان ولم تقرأ القرآن عرفت

الصانع، لكن كيف تُصلي وكيف تصوم ؟ أين أمرُه ؟ ما عباداته؟ ماذا يريد منك، فلا تعرف ذلك إلا بمطالعة منهجه المكتوب.

إذاً فالله هداك بالكون ؛ فالهادي اسم من أسماء أفعاله، وهداك بالقرآن ؛ فالهادي اسم من أسماء ذاته لأنّ الله مُتكلم، هداك بكلامه.

ومن َثمّ فبعدَ أن خَلَقَ الكون، والكون دلّكَ عليه، وأنزل القرآن والقرآن بيّنَ لك منهجه، وأمره، ونهيّه، وهناك حوادث، كما أن هناك تصرفات، شيء ما يحدث، أمطار تنهمر، سماء تُمطر، سماء لا تُمطر تأتي موجة صقيع:

(فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩))

(سورة القلم)

ترى محصولاً ثمنه ألف مليون بثلاث دقائق يتلف بالصقيع ونعوذ بالله من الصقيع، إذاً له أفعال، منها صقيع، ومنها رياح عاتية وأعاصير، وفيضانات، وبراكين، وزلازل، وكذلك أمراض وبيلة وقهر، وفقر هذه أفعاله. خلقُهُ يدلُ عليه، وكلامه يدل عليه، كما أن أفعاله تدل عليه:

(وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ (١١٧))

(سورة هود)

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠))

(سورة الشورى)

فلو فرضنا أن طالباً في المرحلة الإبتدائية ضرب زميل له فشكا للمعلم فعاقبه المعلم وضربه، اثم التقى بزميله فلم يضربه فالمُعلم لا يضربه ثم في لقاء ثالث ضرب زميله فالمُعلم عاد وضربه، مع بقاء المُعلم ساكتاً ألا يَستنبط هذا الطالب من ضرب المعلم له كلما ضرب زميله ؟ أن المعلم لا يُرضيه أن يضرب طالبٌ زميله ؟ إذاً علّمك لا بكلامه، ولا بخلقه علّمك بفعله. مَنَعَ زكاةَ مالِهِ فتَلَفَ مالُهُ بقدر زكاة ماله، هذا تعليم.

استطلت في أعراض الناس، فالناس استطالوا في عرضك هذه بتلك. تكبرت ؛ فأهانك الله. تواضعت ؛ فَرَفَعَكَ الله.أنفقت ؛ فعوّضَ الله عليك. بَخِلت، فأتلف الله مالَك. غضضت بصرك عن محارم الله، أسعَدَكَ الله في بيتك. أطلقت بصرك، أشقاك في بيتك كُنتَ مع الناس صادقاً، وثق الناس بك. كذبت عليهم، فَضَحَ أمركَ.

دعك الآن من كتاب الله، ودعك من خلق الله، تعال إلى أفعال الله، أفعال الله وحدها تُعلِمُكَ، مرةً ثانية ؛ المعلم ساكت لم يتكلّم ولا بكلمة حينما رآك وكزت زميلك وأنت خارج إلى الباحة ضربك على رأسك، في الساعة الثانية ما وكزته فلم يضربْك، في الساعة الثالثة، وكزته فضربك المعلم وهو ساكت، سكوته

كافٍ، وفِعلُه يُعلّم، أليس كذلك. طبعاً على هذه الفكرة ينطبق آلاف الوقائع، أفعال الله وحدها تُعلِمُك. خلقُه يُعلِمُك وكلامه يُعلِمُك، ربنا عز وجل قال:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩))

(سورة النمل)

شخص غشّ الناس صودرت أملاكه فلماذا صودرت ؟ دليل على أذيّته، هذا الذي نصحهم لماذا نمّى الله ماله ؟ هذا الذي أكرمهم لماذا أكرمه الناس ؟ هذا الذي أعطاهم لماذا أعطاه الله ؟

إذاً: هو الهادي بخلقه، والهادي بكلامه، والهادي بأفعاله هداك بخلقه وهداك بكلامه وهداك بأفعاله، لا أعتقد أنّ واحداً من الإخوة االقرّاء إلا وعلّمَهُ الله بالأفعال.. صليتَ الصُبح في جماعة، فشَعَرتَ طَوَالَ النهار أن كلامك سديد، وأن عقلك رشيد، وأن أحوالك عالية، وأن قلبَكَ عامر، وأن الناس قد هابوك، وأن الأمور مُيّسْرَةَ.

في اليوم التالي لم تُصلَ الصبح، فاتتك صلاة الفجر، فواجهتك مشاكل كثيرة: أول مشكلة بالطريق، الثانية بالمحل، الثالثة جاءك موظف تطاول عليك، الرابعة ذهبت إلى فلان فلم تجده.

لقد عَلّمَكَ بأفعالِهِ، يوم صليت الفجر في جماعة ؛ فأنت في حفظ الله وفي ذمته، فلما فاتتك صلاة الفجر، تلاحقت المشاكل في الطريق وفي العمل وفي البيت، هذا تعليم، الله يهديك إليه بأفعاله، تصدقت جاءتك دفعة لم تكن بالحسبان. سألك إنسان سؤالاً فأعطيته رغم أنك مُضطّر للمال فتح الله عليك رزقاً.

ذكر لي أخ كريم فقال: اتصلت بي أختي صباحاً، قالت لي أريد خمسة آلاف ليرة، قال معي المبلغ ولكني في ضيق شديد وعلي دفعات كبيرة، نشأ صراع في نفسه، ثم غلب نفسه وذهب إلى بيت أخته وأعطاها المبلغ وعاد إلى دكانه في سوق البزورية، فجاءه شخص، وقال أريد هذه السلعة وسَمّاها، قلت: ليست متوفرة لديّ، قال أين توجد ؟ قلت في المعمل الفلاني، فطلب مني أن أدله عليه، فذهبت معه ودللته عليه وعدت إلى محلي، مساءً أتاه صاحب المعمل وأعطاه مبلغاً من المال **" طبعاً هذا إذا حسبه على الزبون فيه شبهة أما إذا أعطاه من ربحه لا شيء فيه "** قال: أخذت ضعف ما قدمت لأختي صباحاً. ولا أعتقد أن أحداً ممن يقرأ هذا الكلام إلاّ ويلمس أن الله يوماً عامله بما يشبه معاملة ذلك الشخص، قال عليه السلام:

((أنفق بلالُ ولا تخشَ من ذي العرش إقلالاً))

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ قَالَ اللَّهُ أَنْفِقْ يَا ابْنَ آدَمَ أَنْفِقْ عَلَيْكَ))

أجل، علّمَكَ الله عز وجل بأفعاله، هو يُعلِّمُكُ باستمرار، لذلك عندما قال:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢))

(سورة البقرة)

يُعلِمُكَ بأفعالِه، لكنّ الإنسان حينما يفهم عن ربه ما يأمر وما ينهى، وحينما تنعقد صِلةٌ مباشرة، إدراكٌ مباشر، تجد أن هذه لتلك وهذا الصنيع لذاك الفعل.

شخص له استقامته، وله انضباطه، وله ورعه، سافر في أول رحلة بالطائرة، زلت قدمه فأطلق بصره، وصل إلى البلد الآخر فركب سيارة أجرى وأعطى السائق أجرته، فأخذه السائق إلى المخفر، العملة مزوّرة، فقال أنا عضو وفدٍ ومدعوٌ إلى مؤتمر في أعلى درجة، وإذا به في قفص اتهام. قال: والله دمعت عيني وكأنني عاتبت ربي، قال: وقع في قلبي **" لماذا أطلقت بصرك يا عبدي"**، بالأفعال عاملك. هداك بالخلق وهداك بالقرآن والآن هداك بالأفعال، هو الهادي، إذاً الهادي اسم من أسماء أفعاله، الهادي؛ بالخلق اسم من أسماء أفعاله، والهادي ؛ بالقرآن اسم من أسماء ذاته.

عزيزي القارئ لقد صممك الله تصميماً دقيقاً، مثال ذلك في بعض المحلات التجارية، تجد على البضاعة قسيمة بالسعر، و يوجد مادة على لصاقة السعر، إذا أخرجت هذه البضاعة دون أن تؤدي ثمنها وأنت خارج تحت قوس معين يصدر صوت عالٍ، أما إذا أديت ثمنها يعطل الموظف مفعول هذه المادة بمادة أخرى، فلو رأى واحد شيئاً، قليل الحجم غالي الثمن وضعه في جيبه ولم ينتبه، وخرج من هذا المحل، هذا القوس الذي يَخرج من تحته يُصدر صوتاً مزعجاً، كأنه يقول هذا سارق خذوه ؛ هذه البضاعة مُصممة تصميماً بحيث أنك إذا أخذتها من دون أداء ثمنها تصيحُ بك هذا من صنعة الإنسان، فالله سبحانه وتعالى صَمَمَ لكَ نفساً إذا أسأت تشعُر بالضيق، تُسميه وخز ضمير، تُسميه كآبة، تسميه ضيقاً، ضيق، كآبة، وخز ضمير، ضجر، ضاقت علي الأرض بما رَحُبَتْ صحيح متضايق طبعاً، لأنّ فِطرتك عالية، فأنتَ حينما أسأت خرجت عن قانون فِطرتِكَ، هكذا علّمَكَ بالفِطرة، علّمَكَ بخلقه وعلّمَكَ بكلامه، وعلّمَكَ بأفعاله، والآن علّمَكَ بالفطرة والدليل:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا (٨))

(سورة الشمس)

يعني ؛ إذا فَجَرَتْ، تعرف أنها فَجَرَتْ، وإذا اتقت، ارتاحت وبعد، فإن القارئ الكريم وأنا لا أُبالغ يُحس براحة نفسية لا تُقدر بثمن لأنه مطيعٌ لله فكيف يعرف ذلك ؟، لو أنه زلّت قدمه لا سمح الله، لو أنه أطلَقَ بَصَرَهُ، لو أنه فاته فرض صلاة، لو أنه كذب في كلمة، لو أنه اغتاب، لَشَعَرَ كأنه سقط من السماء إلى الأرض، يشعُر بالضيق، يُحس بالحِجاب يُحس أنّ الله أبعده، أنّ الله قلاهُ، أنّ الله لم يقبلْهُ، هذا التعليم الرابع ! هداية الفطرة، الآية الكريمة:

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠))

(سورة الروم)

إقامة وجهك للدين حنيفاً ؛ هو نفسه فِطرة الله التي فَطَرَ الناس عليها، فلا ترتاح إلاّ إذا عَرَفتَ الله، لأنَكَ إذا عرفته أويت إلى رُكنٍ وثيق، إذا وجد موظف في دائرة من الدرجة الخامسة، على أساس الشهادة الثانوية، لكن المديرَ العام صهُره زوج أخته، ترى أن هذا الموظف له وضع خاص، مُطمئن، يُحس بأمن عجيب بهذه الدائرة، لا يخشى لا من رئيسه المباشر ولا ممن هو أعلى من رئيسه ولا من المدير المعاون، كلهم مرتبطون بالأعلى والأعلى يضفي عليه ظله، فهذا إنسان مع إنسان يُحس بالأمن ؛ فكيف إذا كُنتَ مع الله، إذا كُنت مع الله فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ علّمَكَ بالفِطرَة، الإنسان متى يرتاح ؟ إذا أوى إلى الله، إذا شَعَرَ أن الله يحبه، إذا شعر أنه بعين الله إذا شعر أنه بِحِفظ الله، إذا شَعَرَ أنه يُحب الخلق إكراماً لله، إذا نام مساءً ولم يؤذِ مخلوقاً ولم يكن لأحد حق في عنقه، لم يبن مجده على أنقاض الناس، لم يبن ثروته على فقر أحد، لم يبن أمنه على خوف الناس، لم يبن حياته على موت غيره، كان مِعطاءً، كان خيّراً. إذاً أنت لك فِطرة قال تعالى:

(وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا)

إذا فجرت تعرف.

كنتُ في حفل عقد قِران تبعني شاب كريم، سألني سؤالاً حول موضوع حاك في صدره، فهو حينما فعل هذا الشيء المنكر جاء بمبررات غير صحيحة، لكنه حينما عاد إلى بلده، قال: والله ما أعجبتني هذه المبررات، كأنني رسبت في امتحان الله عز وجل، لم يُعلِمُه أحد ولا سأل أحداً ولكنه أدْرَكَ من تلقاء نفسهِ، أعني أدرك بفطرته.

إذاً: الله عز وجل هداك بخلقه، وهداك بكلامه، وهداك بأفعاله وهداك بالفِطرة. الله عز وجل له أساليب كثيرة في الهُدى، بل أحياناً يَهديك بالإلهام قال تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص الآية: ٧)

هذا وحي إلهام، يقول لك: اللهُ ألهمني أن أسافر، الله ألهمني ألاّ أشتري هذه الصفقة، الله ألهمني ألاّ أشارك فلاناً، الله ألهمني ألاّ أشتري هذا البيت، ما عندي دليل، بل هو إلهام، قال تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ(٧))

مرةً في أحد أيام الأعياد، عندي فراغ ونويت أن أذهب لأزور صديقي غربي دمشق، لكني فجأة وجدت نفسي أنساق إلى بيتي بصورة لا شعورية، وبلا سبب، ولا مُبرر، فما إن وصلت إلى البيت حتى فوجئت برجلٍ يأتيني من مكان بعيد من بلد في الشمال جاء لزيارتي في فترة العيد وليس له في الشام بيت آخر يبيت فيه، كيف ؟ هذا إلهام. عندما يستسلم الإنسان لله عز وجل يُلهمه الله، وإلهامات المؤمن كلها لصالحه، بينما إلهامات الكافر، أقول إلهامات الكافر مجازاً ومثله الفاسق، المُنحرف وإنما هي وساوس شيطانية، كلها لغير صالِحِهِ، يوسوس له أن يَعقد هذه الصفقة يُفلس من خلالها. يوسوس له أن يُشارك فلاناً يَنهَبُهُ، يوسوس له أن يفتتح مصلحة أو ينشئ مشروعاً فيكون سبب دماره وخسرانه. هذا وسواس شيطاني، أنت بين إلهام الرحمن أو وسوسة الشيطان، فإذا كنت مع الرحمن ألهمك، وإذا كانَ المرء مع الشيطان وسوَس إليه، هذه طريقة أخرى في الهدى، الله يُلهمك، لذلك قال تعالى:

(ثُمّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى (٤٠))

(سورة طه)

أحياناً يُلهمك أن تزور مثلاً هذا المسجد، أنا أتكلّم عن سابق تجربة، إذ ليس من أخٍ اهتدى إلى الله عزّ وجل عن طريق هذه الدروس إلاّ وكنت أسأله سؤالاً صغيراً، أقول له كيف اهتديت إلى هذا الجامع ؟ فأسمع قصصاً عجيبةً، مثلاً دخل شخص ليصلي المغرب مصادفة فرأى جمعاً فجلس، فكان هذا أول درس يحضره وما ترك بعده درساً، هناك إنسان اهتدى عن طريق صديق، عن طريق قريب، عن طريق صاحب عن طريق موعد أحياناً، هذا إلهام.

إذاً بخلقه، بكلامه، بأفعاله، بالفطرة، بالإلهام، كل هذا من فعل (الهادي)، الآن بالرؤيا الصالحة هناك أشخاص إذا رأوا رؤيا صالحة واضحة، صارخة، بارزة، هذه الرؤيا تحمِلُهم على طاعة الله عز وجل، وهذا شيء مؤيّد، لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((الرؤيا الصالحة جزءٌ من سِت وأربعين جزءاً من النبوة))

أي أنّ الله عز وجل إذا أراد أن يُعلِمَكَ شيئاً ما بطريق مباشر، بلا اِستنباط ولا تأمّل ولا إدراك، ولا من طريق الأفعال كما في هذه الآية:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ (١١))

(سورة الأنعام)

الكون.. تفكّروا في خلق السماوات والأرض، في الكون تفكّر والأفعال نظر، والقرآن تدبُّر، لكن أحياناً يُريد الله عز وجل أن يُعلِمَكَ إعلاماً، مباشراً، سريعاً، حازماً، واضحاً، فقد ترى نفسك تسير في طريق الهاوية، كأن الله يُحذِّرَكَ، يعني أحياناً تتساءل عن سؤال كبير، الله عزّ وجل يُجيبك عن هذا السؤال في الرؤيا.

كثير من الإخوة الكرام تكلموا لي قبل أن ينام أحدهم فنشأ عنده سؤال فقال: يا رب أنت ألهمني الصواب، فرأى رؤيا صالحة كأنها إجابة لهذا السؤال، إذاً هذا هُدى عن طريق الرؤيا، لكن هُنا نقطة دقيقة جداً، أيّةُ رؤيا خالفت أوامر الشرع ؛ **اسمعوا ما أقول** ؛ اركِلهَا بقدمك لأنّ الشرع هو الثابت وكل ما جاء في الرؤيا خِلاف القرآن الكريم من الشيطان، لو أن أحداً رأى رجلاً صالحاً، ويعتمُّ بعمّةٍ خضراء ووجهه يَشِعُ نوراً وقال له لا تصلِّ، نقول له هذه الرؤيا اركِلهَا بقدمك، لا تُصدق كل ذلك كلام فارغ، نحن عندنا مقياس الشرع، أيَة رؤيا تُخالف أوامر الله تُخالف شرعَ الله عزّ وجل، لا تعبأ بها، ولا تُقِم لها قيمة، ولا تأخذ بها، ولا تحفل بها فإنها، قطعاً، من الشيطان.

لكنّ الرؤيا التي من الرحمن لها خصائص، إذا كنت لا سَمَحَ الله مُنحرفاً، ورأيت رؤيا مُخيفة، فهذه من الرحمن قطعاً، وإذا كنت مُحسناً، ورأيت رؤيا مُبشّرة، هذه من الرحمن قطعاً.

فإذا كُنتَ مُحسناً، ورأيت رؤيا مُخيفة ؛ هذه من الشيطان لكي تخاف، وإذا كُنتَ لا سَمَحَ الله مُسيئاً، ورأيت رؤيا مُبشّرة ؛ هذه أيضاً من الشيطان الأصل الشرع واستقامتك، فهذه ثوابت.

بالمناسبة ؛ الرؤيا لا يُمكن أن تكون قاعدة، ولا يُمكن أن تكون دليلاً. إنها اتصال مباشر بين العبد وربه فقط، يعني شيء لا يجبر على فعلٍ ولا يُنقل أثره إلى غيره إنما هي شيء شخصي مَحضْ، هذه الرؤيا.

أحياناً يَهديك عن طريق خلقه، لا عن طريق مُخلوقاته عن طريق الأشخاص فمثلاً، يجمعك مع شخص يحكي لك موضوعاً، فحينما ألتقي مثلاً بإنسانٍ ويتكلّم هذا الإنسان، أشعر بطريقة أو بأخرى وأتساءل من الذي جمعني بهذا الإنسان ؟ هو الله، من الذي ألهمه ؟ هو الله، من الذي أنطقَهُ ؟ هو الله، يعني حينما تكون في طريق غير صحيح، ويأتي إنسان يُبيّن لكَ الصواب، فإني اعتقد اعتقاداً صحيحاً أنّ هذا الإنسان قد ساقهُ الله إليك لِيُبلِغَكَ ولِيُعّرفكَ، هذا أيضاً هُدى عن طريق الخلق.

وهناك هُدى من نوعٍ آخر، هذا الهُدى الانقباض والانبساط يقول لك انقبضت، أزمعت أن تسافر إلى جهة ما فشعرت بانقباض، أو شعرت بانشراح، أو الأمور تيّسرت أو تعسّرت، فالانقباض والتعسّير والانشراح والتيسّير هذا تعليم أيضاً، فإذا كان الله راضياً يكون هناك انشراح وتيسير، الله غير راضٍ وأنت مؤمن عِندَكَ حساسية وعِندَكَ إدراكٌ دقيق أنت مؤمن فأصبحَ هُناكَ انقباض وتعسير إذاً هذا شيء لا يُرضي الله عزّ وجل.

وكخلاصة أوجز بها الموضوع أقول: أحياناً يسلُب الله سبحانه وتعالى لُبّ عبده أي عقله ويُسيّرَهُ تسييراً سليماً في جهة ما، هذا أيضاً هُدى. فإذا قُلنا الهادي يعني هدانا بخلق الكون، وهدانا بالقرآن وهدانا بأفعاله وهدانا بالفِطرة، وهدانا بالإلهام، وهدانا بالرؤيا، وهدانا عن طريق الأشخاص، وهدانا عن طريق الانشراح والانقباض والتيسير والتعسير، ثمّ هدانا عن طريق التسيير المباشر. هذه كلها تعني أنّ الله هو الهادي قال تعالى:

(سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (١) الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى (٢) وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى (٣) وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى (٤) فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى (٥))

(سورة الأعلى)

العلماء لهم تفسيرات دقيقة للهُدى الإلهي، الهُدى أربعة أنواع:

أول هُدى الهُدى العام: الله عزّ وجل زوّدَكَ بحاسّة الشم تقول رائحة غاز. كيف هداك إلى وجود غاز وفيه خطر على البيت ؟ عن طريق الشم. أحياناً تسمع صوتاً في الغرفة الثانية، كيف هداك أن هناك حركة في البيت ؟ عن طريق السمع، أعطاك حاسة الشم، أعطاك حاسة السمع. أعطاك ملكة الاستدلال والتفكير، أعطاك عِلماً، أعطاك خِبرة أعطاك حواسَ خمساً، هذه كُلُها القدرات التي أودعها الله في المخلوقات هداهم إلى مصالحهم.

إئت بنملة ضع أصبعك أمامها تقف وتُغيّر طريقها، يعني أن الله أعطاها بصراً، أعطاها إدراكاً بأنّ هنا خطراً وهو حاجز، الله عزّ وجل هدى كل الحيوانات ؛ عن طريق الغريزة إلى مصالحها.

أحد الأشخاص كان في بستان، فرأى قنفذاً يأكل أفعى، أكل قطعة منها ثم تركها وذهب إلى نبات وأكل منه ورقة، ثم عاد، وأكل قطعة ثانية ثم ذهب إلى هذا النبات وأكل ورقة ثانية، فهذا البستاني أمسك النبات وقلعه، وأكل القنفذ قطعة ثالثة ثم ذهب للنبات فلم يجده فمات القنفذ من هداه إلى أن هذا النبات يتناسب مع هذا الطعام ؟ الله عزّ وجل.

مثلاً: لو أحضرنا أمهر رُبان في العالم، أعلى رُبان على وجه الأرض في علمه ومهارته يحمل شهادات عُليا وعنده ألفا ساعة قيادة سُفن، وعنده دراسات وعنده اختصاص، وعنده خِبرات، لو وضعناه على سفينة بلا بوصلة على ساحل فرنسا، وقلنا له: اتجه بها إلى مصب نهر الأمازون، لا أُبالغ إذا قلت ربما جاء البرازيلَ في جزئها الجنوبي، فلا مجال ولا بدون البوصلة إمكانية، ولو انحرف درجة في بدء مساره لانحرف في النهاية مسافة خمسمئة كيلو متر، أما سمك السلمون يتجه من سواحل الأطلسي إلى مصبات الأنهار في أمريكا، وكل سمكة وُلِدَتْ بمنبع نهر تتجه إلى مصب النهر، وهذه السمكة المتجهة ليست هي التي قدمت عند بدء الرحلة بل أمها هي التي جاءت إلى هنا، ثم وضعت بيضها وربما ماتت في مكانها الجديد، أما السمك الجديد بعد أن يخرج من البيوض يتجه نحو الشرق إلى سواحل فرنسا إلى حيث بدأت رحلة الأمهات فإذا كبرت عادت إلى مصبات الأنهار، قال تعالى:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠))

(سورة طه)

هذه هِداية، فأول هِداية: هِداية عامة، هُديَ الإنسان إلى طعامه ولباسه إذ صَنَعَ نسيجاً ولَبِسْ، صَنَعَ بيتاً، طها الطعام، طهي الطعام شيء معقد جداً، تأكل الأكلة فإذا كان فيها خلل تتضايق منها، من هداك

لوضع ملح وطحينة وكمون وفلفل وعصفر ؟ مَن ؟ إذاً لدينا هُدى، هُدى إلى كسب الرزق، هُدى إلى تأمين المعاش، هُدى إلى تأمين الحاجات، فهذا الهُدى الأول هِداية عامة.

الهُدى الثاني هِداية الإيمان، يهديك إليه، يهديك إلى كتابهِ يهديك إلى الحق.

الهُدى الثالث: هِداية التوفيق، قال تعالى:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣))

(سورة الكهف)

الهُدى الرابع: هِداية الجنة، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦))

(سورة محمد)

إذاً هناك هداية عامة، وهِداية الإيمان وهِداية التوفيق والهُدى إلى الجنة، هذا بعض ما يمكن أن يقال في موضوع اسم الهادي. لكن في ختام هذا البحث لابد من بيان قوله تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

هذه الواو تفيد أن الجملة ليست شرطية، ليس اتقوا الله يعلمْكم بل:.. واتقوا الله، لماذا لا تتقونه ؟ لأنه يُعلمكم، يُعلمكُم دائماً بالخلق، وبكلامه وبأفعاله وبالفِطرة وبالإلهام، وبالرؤيا وبالخلق، وبالقلب وبالانقباض والتيسير وبالتعسير وما إلى ذلك.

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

ولعله صار واضحاً أنه بتقوى الله تتحقق كل مفاهيم الهداية ومقوماتها للإنسان فيهتدي إلى ربه وليسعد إلى الأبد.

٢٩- اسم الله الرحمن الرحيم:

مع الاسم التاسع والعشرين من أسماء الله الحسنى والاسم هو الرحمن الرحيم، وقد عدّ بعض العلماء هذا الاسم: اسم الله الأعظم لقوله تعالى:

(قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١١٠))

(سورة الإسراء)

والحقيقة أن الرحمة التي نراها في الكون ما هي إلا تجسيد لاسم الرحمن ولابد أولاً من بعض التفاصيل وبعض التعريفات المتعلقة بهذين الاسمين ليتضح الفرق بين الاسمين منذ البدء، ولعل أحداً يسأل هذا السؤال: ما الفرق الدقيق بين الرحمن وبين الرحيم ؟ على كُلٍ سيأتي هذا تفصيله في ثنيات عرض الموضوع.

الرحمن الرحيم كما يقول الإمام الغزالي: **" اسمان مشتقان من الرحمة ".**

والرحمة تستدعي مرحوماً كما أن العلم يقتضي المعلوم، والرحمة تقتضي المرحوم ولا مرحوم إلا وهو محتاج، الإله لا يكون مرحوماً هو راحم، أما المخلوق فهو مرحوم لأنه ضعيف، ولأنه عاجز، ولأنه فقير لأن قيامه ليس بذاته بل قيامه بغيره، إذاً هو مرحوم، والعبد مرحوم لأنه عبد، والرب راحم لأنه رب، وأيُّ إنسان خرج عن دائرة العبودية ينسىَ أنه في حاجة ماسة إلى رحمة الله عز وجل، وهؤلاء الذين قالوا استغنينا عن رحمة السماء من قبل، جاءتهم سبع سنوات عجاف، مادمت عبداً فأنت مُفتقر إلى الله عز وجل، ما دمت عبداً فلا بد من أنك بحاجة إلى الرحمة، اللهم ارحمنا فإنك بنا رحيم، ولا تعذبنا فإنك علينا قدير.

الشخص الذي تنقضي بسببه حاجة المُحتاج، من غير قصد أو إرادة وعناية بالمُحتاج، لا يُسمى رحيماً، قد تنقضي حاجتك عن طريق شخص فهذا الشخص ما أراد أن يرحمك، ولا يريد أن يرحمك ولن يريد أن يرحمك، لكنه بشكل أو بآخر جاءت الرحمة عن طريقه من دون أن يدري، وهذه الجهة، ولو أنّ الرحمة جاءتك عن طريقها، لا تُسمى رحيماً لأن من لوازم الرحيم أنه يريد أن يرحم، لذلك قالوا: **" رب ضارّة نافعة ".**

أي أحياناً يوجد شخص يسوق الله لك الخير على يديه وهو لا يريد، بل هو يريد أن يوقع بك الأذى لكن الله سبحانه وتعالى يجعل هذه الإرادة الخبيثة في صالحك، إذاً الشيء الذي تنقضي بسببه حاجة المُحتاج من غير قصد ولا إرادة ولا عناية بالمُحتاج هذا الشيء لا يُسمى رحيماً. من عناصر الرحمة أن فاعلها يُريد الرحمة، هذا ينقلنا إلى موضوع دقيق هو أنك أحياناً لِسبب ما لا تريد أن ترحم، فلست رحيماً، أجل، لست رحيماً إلا إذا أردت وفعلت.

إذاً: والذي يدعي أنه يريد قضاء حاجة المُحتاج ولا يقضيها إن كان قادراً على قضائها لا يسمى رحيماً، لأنه لم يقضِها، ولو أراد إذاً وتمّت الإرادة لوفّى بها، وإن كان عاجزاً فقد يُسمى رحيماً باعتبار هذا الشعور الإنساني لكن هذه الرحمة ناقصة لأنها لم تتوج بالعمل.

إذاً من خلال هذا التعريف الدقيق أنت لن تكون رحيماً أي لن يرضى الله عنك ولن تكون عِندَ الله مقبولاً، ولن تكون عند الله محظياً، ولن يرفعك الله في درجات القُرب إلاّ إذا أردت وفعلت، أردت أن ترحم الناس وفعلت ما أردت، لذلك قالوا: **"المعروف بالتمام "**.

أحياناً تُعَزّ مصاباً وتتباكى أمامه وتُعبّر عن مشاعرك الإنسانية ولا تُقدّم شيئاً وهو مصاب، فما قيمة هذه المشاعر ؟ وما قيمة هذه الأحاسيس؟ وما قيمة هذه الدموع ؟ ما قيمة هذه المصافحة الحارة إن لم تقدم له شيئاً ؟ ما الذي يأسر قلبه ؟ إحسانُك.. أعرف أشخاصاً آخرين توفي والدهم وأتي الأقرباء الأغنياء ليعزوهم وليقدموا لهم أحرّ المشاعر وأشدّ المشاعر حُزناً وفي النهاية انصرفوا إلى بيوتهم وما قدّموا شيئاً.

فلذلك هذه المشاعر التي يُحِسُ بها الإنسان إن لم يتبَعْهَا عمل طيّب مع القدرة عليه لا قيمة لها، فقيمتها بما يتبَعْهَا من عمل طيب، هذه المشاعر لا قيمة لها ولا يُؤخذ بها يوم القيامة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللَّهِ فَأَعِيذُوهُ وَمَنْ سَأَلَكُمْ بِاللَّهِ فَأَعْطُوهُ وَمَنِ اسْتَجَارَ بِاللَّهِ فَأَجِيرُوهُ وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ))

(سنن النسائي)

أي أنّ هذه العبارات الحارة هذه العبارات الرنانة، العبارات الدافئة إن لم يتبَعْهَا بذل وعطاء وعناية فلا قيمة لها، أحياناً يأتي الابن لزيارة أمه يُقبّل يدها ويُقبّل قدمها وينصرف إلى بيته وإلى أولاده وإلى زوجته ولا يُقدّم لأمِهِ شيئاً إلا هذه العبارات المعسولة، هذا العمل لا يُعتدُ به لأنه مبني على موقف ذكي وليس موقفاً فيه تضحية مادية.

قال العلماء: **إنما الرحمة التامة أن تُفيض عطاءك على المُحتاج،** أن تريد وأن تفعل حتى تُسمى رحيماً، ولا تنسوا أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((تخلقوا بأخلاق الله))

الله سبحانه وتعالى رحيم، يعني إذا أمّنت حاجات الناس، مثلاً لك أقرباء أسبغت عليهم، أعطيتهم مما أعطاك الله عز وجل، قدّمت لهم بعض الحاجات في أوقاتها المناسبة، في أيام الشِدة كنت معهم، فهذا الذي يرقى بك عند الله عز وجل.

الآن: هُناك رحمةٌ عامة، وهناك رحمةٌ تامة، الرحمة التامة ما توافرت فيها الإرادة والعمل، الرحمة العامة ما أصابت المُستحق وغير المُستحق، يعني أحياناً تهطل أمطار غزيرة، هذه الأمطار تُفيد الناس جميعاً، فهذه الرحمة العامة، لكن الرحمة الخاصّة لا ينالُها إلاّ المُستحق.

أضرب لكم مثلاً يُقرّب المعنى، أب له خمسة أولاد، كل هؤلاء الأولاد يأكلون الطعام على المائدة، وكلهم يلبسون ثياباً، وكلهم ينامون على أسرّة وثيرة وفي غُرف دافئة، الأب يُعطي كل أولاده بالتساوي فرحمته عامة، لكن أحد هؤلاء الأولاد على قُرب شديد من الأب فهو يبر أباه براً شديداً وإخلاصه لأبيه ملموس، وذو وفاء متميز، فالأب أحياناً يَخُصّ هذا الابن بأشياء خاصّة.

يعني كما قال الله في الحديث القدسي:

((عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

مؤمن، وغير مؤمن تأكل وتشرب وتستمتع بالطعام والشراب والماء البارد والدفء والبرودة والمناظر الطبيعية، وتستمتع بالأهل والأولاد، وفي كل بيت أولادٌ صغار، والآباء يستمتعون بأبنائهم الصغار بحركاتهم وسكناتهم ولكن أن يتجلّى اللهُ على قلبك، وأن يملأ قلبكَ نوراً، وأن يُقربَكَ إليه، هذه رحمة خاصّة، هذه لا ينالُها إلا المُستحق، فلله في خلقه رحمة عامة ورحمة خاصة، الرحمة العامة ينالها كل الناس قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦))

(سورة البقرة)

يعني أن تستمتع بالحياة، وأن تأكل ألذّ الطعام، وأن تسكن في بيتٍ مريح، وأن تكون لك زوجة تروق لك، وأن يكون لك دخلٌ وفير وأن تشعر أنكَ متفوق على الناس، فإيّاك أن تظن هذه رحمة، لأنّ الله يُعطي الدنيا لمن يُحب ولمن لا يُحب، هذه رحمة عامة ينالُها كلُّ الناس:

((عبدي لي عليك فريضة ولك علي رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك))

تأكل وتشرب وتستمتع بالأهل والأولاد والطعام والشراب والبيت المريح والدفء والمكانة والسُمعة، والتألّق والنجاح، والتفوق، فليسَ هذا إيثاراً في الحقيقة، الإيثار أن يَخُصَكَ الله برحمةٍ خاصّة:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢))

(سورة يوسف)

الرحمة الخاصّة أن يتجلّى الله على قلبك، فتمر عليك ساعة لا تعدلها الدنيا وما فيها، يقول عليه الصلاة والسلام: لي ساعة مع ربي لا يسعني فيها نبي مرسل ولا ملك مقرب، أبيت عند ربي يطعمني ويسقين.

أيها الأخ الكريم: اسأل نفسك هذا السؤال، عطاؤك من الله من أي نوع، قد يكون العطاء من نوع عطاء

قارون، إن قارون كان من قوم موسى فبغى عليهم، وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحة لتنوء بالعصبة أولي القوة، وقد يكون عطاؤك من نوع عطاء فرعون، ولكن البطولة أن يكون عطاؤك من نوع عطاء سيدنا موسى، وسيدنا يوسف:

(وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٦))

(سورة يوسف)

هناك اجتباء، وهناك تقريب وهناك مقعد صدق عند مليك مقتدر وهناك نور يقذفه الله في قلبك، فترى به الخير خيراً والشر شراً هناك شعور أن الله يحبك، هناك مشاعر لو وزعت على أهل بلد لأسعدتهم، إنّ رجلاً من إخواننا الكرام ذهب لأداء فريضة الحج ولما عاد، قال لي كلمة وأظنه صادقاً فيما يقول: قال لي: والله ليس في الأرض من هو أسعد مني.. مبالغة، إلا أنه قال إلا أن يكون أحدٌ أتقى مني، وهو فقير ولا يملك من الدنيا سوى نقير، ومع ذلك أقسم بالله أنه ليس في الدنيا من هو أسعد منه إلا أن يكون أحدٌ أتقى منه، هذه الرحمة الخاصة، يعني قد يعطيك المال ويجعل قلبك ممتلئاً بالقلق، قد يعطيك الصحة وتكون أشقى الناس قد يبوئك أعلى مكانة في المجتمع ولا تكون عند الله مقبولاً، حينما قال النبي عليه الصلاة والسلام لسيدنا معاذ بن جبل قال:

أخرج ابن أبي شيبة وعبد الله بن أحمد في زوائد المسند عن أبي مسلم رضي الله عنه قال: لقيت معاذ بن جبل رضي الله عنه بحمص فقلت: والله إني لأحبك لله. قال: أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

((المتحابون في الله في ظل العرش يوم لا ظل إلا ظله، هذا عطاء أن يحبك سيد الخلق " اِرْمِ سعد فداك أبي وأمي هذا خالي فلْيُرني أحد خاله))

يعني إذا كانت لك مع الله مودة، سَهَرُ الليالي، غَضُّ البصر إنفاق الأموال، حضور مجالس العلم، في هذه الأجواء الباردة والطرقات الصعبة، حينما تسعى بشدة على رجليك إلى مجلس علم، حينما تتفقد اليتامى والفقراء والمساكين في ظلمات الليل، حينما تشمر وتنهض للعمل الصالح، حينما تقدم شيئاً ثميناً لأخيك المؤمن، كما قال عليه الصلاة والسلام:

((والله لأن أمشي مع أخ في حاجته خير لي من صيام شهر واعتكافه في مسجدي هذا))

هذه الجهود المتتابعة، المتراكمة، الكثيرة المديدة، هذه الجهود تتوج بما يسميه العارفون بالله بتجليات إذ يتجلى الله بها على قلبك فتشعر بالسعادة، لو جلست مع أناس مقطوعين عن الله عز وجل لرأيتهم مقهورين، لرأيتهم ضائعين، لرأيتهم شاردين، لرأيتهم حائرين، رأيت أمرهم فُرُطاً، رأيتهم متشككين، رأيتهم متشائمين، رأيتهم متمزقين، ترى الدنيا عندهم عريضة لكن الله حرمهم من سعادة القُرب.

وما أكثر ما ذكرت هذه الواقعة وكررتها: هذا الذي وقع في منزلق طفيف فوقع في الحجاب عن الله عز وجل، فصار ينتظر مصيبة بحسب ما يعلم، فلما تأخرت المصيبة ناجى ربه فقال يا رب لقد عصيتك ولم تعاقبني، فوقع في قلبه أن **يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر ألم أحرمك لذة مناجاتي.**

هذه الجهود لها مردودها الطيب، فمثلاً شاب في مُقتبل الحياة من المسجد إلى البيت إلى العمل، بينما بقية الشباب في سهراتهم المنحطة وفي أفلامهم الخسيسة وفي مزاحهم الرخيص، وفي لعبهم للقِمار، وفي إطلاق كلمات السوء في الطرقات للفتيات، أنت من البيت إلى المسجد ومن العمل إلى المسجد، من تلاوة القرآن إلى حديث رسول الله، ومن خدمة زيد إلى خدمة عبيد، هذا الإنسان مع هذه الجهود الكبيرة، عندئذ يجعل الله قلبه مستقراً لأنواره.

لذلك:

((أولياء أمتي إذا رُؤوا ذكر الله بهم))

بمجرد أن تقع عينك على مؤمن صادق الإيمان يُحس الناظر برعشة في قلبه، كأنه تذكر الله عز وجل، هكذا قال عليه الصلاة والسلام.

((أولياء أمتي إذا رُؤوا ذُكر الله بهم))

هذا الموضوع يُذكِرُنا بمعيّة الله العامة والخاصّة ما دُمنا قد تحدثنا عن رحمة الله العامة، العامة موجودة لجميع الناس، العامة أن تتنفس الهواء وتشرب الماء وتأكل الطعام، وتنام على فراش، والقلب منتظم والرئتان والكليتان، والعضلات والأعصاب والأولاد في البيت والزوجة والعمل، هذه رحمة عامة، هذه يستوي فيها المؤمن وغير المؤمن وقد تجد غير المؤمن متفوقاً كثيراً في هذه الأنواع على المؤمن، ولكن الرحمة الخاصة، حينما يُلقي الله في قلبك نوراً، حينما يُعلِمُكَ الله، ما اتخذ الله ولياً جاهلاً لو اتخذه لعلّمه، حينما يُلهمُكَ الله سواء السبيل، حينما يُلِهمُكَ الله رشدك، حينما يُقيّض الله لك مَن حولك لتكون معهم في معيّة وفي صحبة طيبة، حينما يجعل الله بركة في مواقعه وعند أهل الحُفّاظ لا عند أهل الجحود، هذه رحمة الله عز وجل، هذا يذكرنا بمعيّة الله العامة ومعيّته الخاصة، وذكرت من قبل أن الله مع كل مخلوق كائناً من كان بدليل قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤))

(سورة الحديد)

مع المؤمن والكافر والمُلحد والشقي والسعيد والعاصي والطائع والخسيس والقذر والنظيف والطاهر، مع كل هؤلاء، لكن هناك آيات:

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ (١٢٣))

(سورة التوبة)

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصّبْرِ وَالصّلَاةِ إِنّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ (١٥٣))

(سورة البقرة آية ١٥٣)

(وَقَالَ اللّهُ إِنّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنّكُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلّ سَوَاءَ السّبِيلِ (١٢))

(سورة المائدة)

البطولة أن تنال معيّته الخاصة، والبطولة أن تنال رحمته الخاصة، الرحمة العامة، أنت كأب لو أن أحد الأولاد لا سمح الله ولا قدّر كان عاقاً وقاسي الكلمات وحاد النظرات، هو متجهّم دائماً يرد الكلمة بعشر كلمات يأتي وقت الطعام تقول له بلسان المبغض: اجلس كُلْ، كُلْ لكني لا أحبك كُلْ، خُذْ ما تريد، خذ كل هذه الحاجات، لكن الابن البار نظرة حانية من أبيه لا تُقدّر بثمن، نظرة حانية منه، كلمة رضي الله عنك، هذه من قلب ممتن هذه لا يعدلها شيء، فلذلك أيها الإخوة القراء البطولة لا أن تنال رحمته العامة كأن تستنشق هواء وتأكل وتشرب وتنام وتتزوج وتعمل وتكسب المال، هذه قدر مشترك بين جميع الناس، لقول النبي الكريم:

((إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب))

لكنّ الشيء الذي يجب أن تسعى إليه هو رحمتَه الخاصة، بأن يُعلِمُكَ، وأن يُلقي في قلبك نوراً، وأن يُعلِمُكَ من تأويل الأحاديث، أن يُلهمُكَ الحِكمة، أن تضع الشيء المناسب بالقدر المناسب في الوقت المناسب في المكان المناسب مع الشخص المناسب، قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذّكّرُ إِلّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩))

(سورة البقرة)

أن يُعلِمَكَ وأن يُؤتيك الحكمة، وأن يرزُقُكَ طيباً، وأن يستعملك صالحاً، وما أكثر ما أذكّر أخوتي وجلسائي بالفكرة التالية:، إن رأيتُ إنساناً له عمل شريف يخدم به المسلمين أقول له: **" إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك ".**

لك مهنة شريفة مشروعة، تخدم بها الناس، تتقاضى أجراً معتدلاً تنصحهم، هذا عمل شريف، وظفك الله في بعض الوظائف الدينية جعلك تعلم الناس التجويد، فهذا جميل، جعلك تعلم الناس الفقه فهذا أجمل جعلك تعلم الناس القرآن، وجعل الخير على يديك، فهذه قاعدة، **إذا أردت أن تعرف مقامك فانظر فيما استعملك.**

انظر عملك، هل أساسه الرحمة بالناس أم الإضرار بهم، أساسه بث الأمن في الناس أم سلب الأمن من الناس أساسه العطاء أم الأخذ، أساسه الطمأنينة أم القلق أساسه أن ترحم أم أن تقسو، فلذلك يعني هناك أشخاص لو عُرِضَ عليهم مبالغ فلكية، على أن يكونوا في أعمال تقوم على إيذاء الناس لا يرضون.. بل يقول: معاذَ الله، الله الغني، الله الكريم، أنا أعيش على آلام الناس أنا أبني مجدي على أنقاضهم، أأبني غناي على فقرهم وأبني طمأنينتي على قلقهم، وأبني حياتي على موتهم، معاذَ الله، الله الغني.

إذاً: الرحمة الخاصّة مشروطة بالطاعة والمجاهدة وبذل المال ومعاونة الضعيف ورحمة اليتيم، ومعاونة الأرملة، وتفقّد الجيران وحضور مجالس العلم وغض البصر والذِكر والتلاوة، هذه قنوات تصلك من خلالها الرحمة الخاصّة وتشعر أنك إنسان متميّز، لك عند الله مكانة هذه المكانة تتبدى في اللُطف، وفي الحِفظ وفي الرعاية، لذلك قالوا معية الله الخاصة: النصر والتأييد والحفظ والتوفيق، تشعر بها، تلمسها بيديك فحينما يكون شخص أثيراً عند شخص ذي مكانة تراه يشعر بشعور عجيب كأنه فوق الناس جميعاً، فهو قريب من شخص مهم، وإذا التقطتْ له صورة بصحبة تلك الشخصية ازدهى نفْساً وتعاظمَ ويقول مثلاً البارحة كنا معاً على العشاء، فكيف إن كانت لك مع خالق الكون مودة ؟ قال تعالى:

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّاً (٩٦))

(سورة مريم)

كيف إذا كان اللسان طليقاً في ذكر الله، كيف إذا كان البيان ساطعاً في فهم كلام الله أو في تفسير كلام الله عز وجل، فيا أيها الإخوة القراء الكرام رحمة الله الخاصّة، تحتاج إلى مجاهدة، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر))

جهاد النفس والهوى..

الآن هناك شيء سنسميه تحفظاً ؛ الإنسان إذا رَحِمَ إنساناً يقول لك تمزّق قلبي لمنظره وبؤسه، فقد ترى طفلاً صغيراً واقفاً على قارعة الطريق الساعة الحادية عشرة في البرد الشديد ليبيع الخُبز أو غيره، ألا تشعر برحمة ؟ ألا تُحِسُ بتمزّق ؟ أين أهله ؟ لعلهم محتاجون فالواجب التخفيف عن هؤلاء وهذه رحمة.

إن المسلم إنسان يمتلئ قلبه بالرحمة ويدرك أنه من لا يَرحم لا يُرحم.. فإذا شعر رجل أنه سبب في شقاء الآخرين أو أنه يستطيع أن يخفف عن الآخرين آلامهم وبؤسهم ثم لم يفعل هذا الشعور يشقيه إلى الأبد...

التعليق: الإنسان عندما يقف أمام حالة بائسة يُحِسُ أنه يكاد يتفطّر قلبُهُ، يُحِسُ أنه يتمزق في أعماقِهِ، يُحِسْ بمشاعر رحمةٍ معينة، يا ترى رب العالمين، هل تعتريه هذه المشاعر، لا !! هو منزّه عن هذا لأنه إله، لكنه يرحم كل خلقه.

والشيء الثاني: عندما الإنسان يرحم مخلوقاً معذّباً فإنما يرحمه حتى يُريح نفسه مما اعتراه من مشاعر منغصة، فهذا ضعف فيه، لكنّ الله عز وجل يرحم لمصلحة المخلوق لا لمصلحة الراحم، نقطتان مهمتان يعني مشاعر الرحيم من بني البشر فالله سبحانه وتعالى مُنزّهٌ عن مثل هذه المشاعر، وحينما تندفع لرحمة مخلوق فاندفعك هذا كي تستريح، إذاً هذه الرحمة معلولة، أنت بهذا العطاء تبتغي راحة نفسك، لكنّ خالق الكون يرحم مخلوقاته ليرحمهم، لا يرحمهم ليتخلّص من شعور محصن اعتراه لا... فالله عز وجل مُنزّه عنه.

ثم إننا نلج باب موضوع دقيق جداً ؛ الفرق بين الرحمن والرحيم.

فبعض العلماء قال: الرحمن في ذاته، اسم من أسماء ذاته والرحيم في أفعاله وبعضهم قال الرحمن في الدنيا والآخرة، على كلٍ القضية تحتاج إلى تفصيل وإيراد أمثلة، أم وأب، وابن يده اسودّت، هذا مرض الموات وعلاجه قطع يد الابن، الأم ترفُض أشدّ الرفض أن تُقطع يده، الأب يُصر أشدّ الإصرار على قطع يده فأيهما أشدُ رحمة ؟ الأم تبكي وتصرخ، والأب ساكت مُصِرّ على قطع يده، لأن الأب عالم بالعقابيل والأم مُصِرّة على عدم قطع يده، الحقيقة الأب أشد رحمة لأنه بهذا الضرر المحدود ينفع كامل البدن، فيخلصه من أن يسري الداء ويتفشى في سائر الجسم، أما الأم فرحمتها المؤقتة بابنها تكون قد أودت به وأوردته المهالك فمعنى رحمن:

(يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً (٤٥))

(سورة مريم آية ٤٥)

وهذا سؤال كبير جداً، يا أخي الله رحيم، وهذه الزلازل وهذه الفيضانات، وهذه المجاعات، وهذه الحروب الأهلية في العالم وهذا القهر وهذا الفقر وهذه الأمراض الخطيرة، يحتار في أمرها المرء ويذهل دونها فهذه كلها التي تؤذي عينك مصدرها من الرحمن، لأنّ الرحمن يشمُل الدنيا والآخرة، الإنسان إذا مرض فهذا من مصائب الدنيا فقط ؛ فالفقر مُؤلم والمرض مُؤلم، والحرمان مُؤلم، والقهر مُؤلم، والذُلْ مُؤلم، أما إذا كان هذا الحرمان سبباً لعطاء مديد إذا كان هذا الإضرار سبباً لنفع طويل، إذا كان هذا القبض سبباً لبسط كثير، فهذا إذاً ضُرُّ لمنفعة لذلك إذا رأيت شيئاً أمراً مؤذياً فاعلم أن الله سبحانه وتعالى يَضُرّ لِينفع، ويأخُذ لِيُعطي ويبتلي لِيَجزي، ويُذِل لِيُعِز، ويقبض لِيَبسِط لذلك أجمل كلمة قالها بعض العارفين: **" الشر المطلق لا وجود له في الكون ".**

ما معنى الشر المطلق ؟ الشر الذي يُبتغى لذاته.

الأب الطبيب العالم الذي قلبه يمتلئ رحمة يصر على قطع يد ابنه، يتلافى الضرر الأكبر بالضرر الأصغر، هذا المثل يجب أن يكون واضحاً جداً عند الإخوة القراء الأكارم؛ كل أنواع المصائب في

الدنيا، كل أنواع الرزايا كل أنواع الابتلاء، هذا كله ضرر أقل تلافياً لضرر أشد هل هناك آية قرآنية تؤكد هذا المعنى، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١))

(سورة السجدة)

الله عزّ وجل رحيم ورحمن، رحيم يمتعك بالصحة، رحيم يمنحك المال، رحيم يوفر المأوى، رحيم يبث فيك الراحة النفسية، لكنه رحمن ينظر إلى آخرتك فيأخذ بيدك للعمل الصالح، وينظر إلى هذه الحياة الأبدية لتسعد بها، التي سوف تحياها، ولمصلحة هذه الحياة الأبدية ربما يُذهب كل مالك.

ذات مرةٍ قال لي شخص وأقسَم: أن له بيتاً تزيد مساحته عن خمسمائة متر، وله حدائق يقوم على أمرها والعناية بها موظفون وما أدخل إلى بيته فاكهة إلا بكميات كبيرة، وعنده طباخ وعنده خدم وعنده حشم وله ثلاث مركبات، وله تجارة واسعة وعنده معمل ألبسة، وبعد حين رأيته في بعض أحياء دمشق الفقيرة، قال أنا أنام على طاولة التفصيل وآكل من هذه العلبة، بلا صحن، كيف سُلب ماله كله.. قصة طويلة فإزاء هذه الواقعة هل نحن أمام رحمن أم رحيم ؟، رحمن، لأنّ هذا الشيء لمصلحة آخرته، كان لا يصلي، وكان يشرب الخمر، ويعتدي على أعراض الناس باعترافه الشخصي، فأراد الله عز وجل أن يَرُدَّهُ إليه سلبه كل المال. واللهِ الذي لا إله إلا هو، كل قصة تسمعها، تُعد هي بنفسها قرآناً لأنه ماذا قال الله عز وجل:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

فكأن هذه الحادثة تُجسّد هذه الآية، لذا أيها القارئ الكريم أن البطولة تأتي رَبَّك طوعاً، وأن تأتيه راغباً، وأن تأتيه مختاراً، وأن تأتيه بمبادرة منك، أن تأتيه وأنت صحيح، أن تأتيه وأنت شاب، أن تأتيه وأنت لك مكانة، أن تأتيه وأنت في وظيفتك لا بعد التقاعد، بعد أن ولت الدنيا وأصبحتَ هرماً، يتنقل من مسجد إلى مسجد لعله يبحث عن مكان مريح، وأنت في كامل عافيتك البدنية والمالية أغدُ إلى بيت الله واسع إلى مرضاة اللهَ.

رحمن الدنيا والآخرة، من أجل سعادتك في الآخرة قد يصرف عنك الدنيا كلها، والله يعلم وأنتم لا تعلمون، لكن اُدع الله عز وجل أن يرزقك الدنيا والآخرة، والدعاء القرآني:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١))

(سورة البقرة)

إنّ الله عز وجل يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧))

(سورة النساء)

إنّ الإمام الغزالي له كلمة رائعة جداً يقول:" **لعلك تقول ما معنى كونه تعالى رحيماً وكونه أرحم الراحمين، والرحيم لا يرى مبتلى ولا مضروراً ولا معذباً ولا مريضاً وهو يقدر على إماطة ما بهم إلا ويبادر إلى إماطته، والرب سبحانه وتعالى قادر على كفاية كل بلية، ودفع كل فقر وغمة، وإماطة كل مرض، وإزالة كل ضر والدنيا طافحة بالأمراض والمِحن والبلايا، وهو قادر على إزالتها جميعها ".**

لماذا لا يفعل ؟.. هُنا السؤال.. كم مصيبة في الأرض، كم ضائقة، كم من حالات صعبة جداً والله قادر وبيده كل شيء، كُنْ فيكون، قال الجواب: إنّ الطفل الصغير قد تَرُقُّ له أمه فتمنعه من الحجامة والأب العاقل يحمله عليها قهراً، والجاهل يظن أن الرحيم هي الأم دون الأب، والعاقل يعلم أن إيلام الأب إياه بالحجامة من كمال رحمته وعطفه وتمام شفقته، وأن الأم له عدو في صورة صديق.

الرحيم مع الجهل عدو في صورة صديق، أحياناً يقول الأب لابنه سأدعه ينبسط، فبعَثَه إلى إنكلترا وأعطاه مائتي ألف، أب ميسور اذهب يا بني وانبسط، هذا عدو.. إذا عاد الابن زانياً أو عاد شارباً للخمر أو عاد وهو يحتقر أمّته ويرى أن أولئك الذين كان عندهم هم الذين يحيون وحدهم في هذه الدنيا، وانتهى دينه إلى ضياع نهائياً، فهذا الأب عدو في صورة صديق، وكل إنسان يدعوك إلى أن تستمتع بالدنيا ولكن على حساب طاعة الله عز وجل فهذا عدو بصورة صديق.

لذلك ربنا عز وجل يقسو أحياناً لمصلحة آخرتك، قد يقول قائل: مصيبة، نعم ؛ تصيب الهدف، وأنا أقول دائماً الله عز وجل إذا أراد أن يداوي مخلوقاً يعلم كيف يداويه ومن أي زاوية أرد يداويه، من المكان الصعب، من المكان الحرج، من حيث هو مطمئن، يُؤتى الحذر من مأمنه، لا ينفع حذر من قدر.

طبيبُ قلبٍ في أمريكا، عدّ الجريَ هو الوقاية التامة للقلب وألّفَ مقالات وأجرى محاضرات وهو يجري في اليوم ساعتين أو أكثر وكأن الجري هو إله يحميه من كل مرض، مات وهو يجري. الجري مفيد جداً، وليس هذا غلطاً، لكن حينما ألّهَ الجري وعدّه هو السبب الكافي والشافي، فالله عز وجل خيّبَ ظنه.

ترى أحياناً إنساناً باختصاصه يُصاب، ما هو السبب ؟ لأنه متّكل على اختصاصه متّكل على علمه، متّكل على خبرته، فجاءه من مكان طمأنينته، من مكان أمنه.

هذا الموضوع دقيق الدلالات جداً، الله سبحانه وتعالى خلقك للآخرة، لذلك يمكن أن يضحي لك بدنياك كلها، من أجل آخرتك، لكن أنت إذا كنت مُفلحاً وموفقاً اطلب منه، واضرع إليه أن يجمع لك بين الدنيا والآخرة، يعني إئته طوعاً، ارغب فيما عنده حتى يُطمئِنُكَ في الدنيا والآخرة هذا معنى قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

إن الآية التالية يجب ألاّ تبرح أذهانكم أيها القراء الكرام اطلاقاً لا بنطوقها ولا بمضمونها:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

فالله غني لماذا يُفقرك ؟ لماذا يُضيّق عليك إلا حُباً بك ورحمة بك ودفعاً بك إلى باب عبوديته.
الكلمة اللطيفة كما قال بعضهم: الألم القليل إذا كان سبباً لِلذّةٍ دائمة ليس شراً بل هو خير.
قالوا: الرحيم هو الذي يريد الخير للمرحوم، وليس في الوجود شر إلا وضمنه خير، شرٌ مطلق لا يوجد في الكون.

مثلاً فتح البطن واللهِ عمل مزعج، إنسان أدخل المستشفى فأحضر الطبيب مشرطاً وذَبَحَ اللحم، نفر الدم، أخذتَ الملاقط، لقطتَ الأوعية كلها، أتيتَ بالمشدات شددْتها، دخلتَ للزايدة استأصلتها، هذا عمل ظاهره فيه قسوة ودماء، ولكن باطنه رحمة، لأنها إذا أهمل ثم انفجرت مشكلةٌ كبيرةٌ جداً، كالتهاب الزايدة فيبادر ذووه مباشرةً إلى المستشفى، أرحم الناس وأقرب الناس يقول: مباشرةً إلى المستشفى هناك فتح بطن، وقطع، ووصل، وخياطة، وتخدير، طبعاً هذه الرحمة ما دُمتَ تفهم أن كل المصائب التي تأتي هي من نوع فعل الطبيب الرحيم فأنت على حق.

لذلك ؛ أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو وأنا أرحم بعبدي من الأم بولدها.

وبعد، فقبل أن أختم البحث، هناك سؤال يلح علينا: إن خَطَرَ لك نوع من الشر لا ترى تحته خيراً، أو خَطَرَ لك أنّ تحصيل ذلك الخير كان ممكناً من دون اتباع أساليب الإيلام ؟ فماذا تفعل.

إنْ رأيت مصيبة هينة وأمرها بسيط، وإذا بدا لك نوع من الشر لا ترى تحته خيراً أو خطر لك أنه كان من الممكن أن يكون هذا الخير من دون ذلك الشر ؟ ما الجواب.. قال العلماء: فاتّهم عندئذٍ عقلك القاصر وقل أنا فهمي محدود وعقلي قاصر عن رؤية الغد، مستحيل أيها الإخوة مستحيل أن تكون مصيبة بالأرض بلا سبب، أو بلا خير ضمني، أو بلا هدف نبيل، أو بلا غاية عُظمى، لكن الشر المطلق لذات الشر فهذا شيء لا يُمكن أن يكون له وجود في الكون كله، فكل شيءٍ وقع أراده الله، وكل شيءٍ أراده الله وقع وإرادة الله عزّ وجل مُتعلقة بالحِكمة المُطلقة وحِكمته مُتعلقة بالخير المُطلق، والدليل:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران آية ٢٦)

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

لم يقل والشر، الإعزاز خير، الإذلال خير إيتاء المُلك خير، سلب المُلك خير، أما إذا قلت إن هذا الشر لا خير تحته أو لا خير وراءه، قالوا فإنّ: هذا مما تقصر العقول عن معرفته.

لقد أسمعت لو ناديت حيـــاً ولكن لا حياة لمن تنـادي

ونـار لو نفخت بها أضـــاءت ولكن أنت تنفخ في رمـاد

***

يعني إذا شخص آتاه الله عِلماً وبصيرةً وآتاه قُدرةً على تفسير المصائب تفسيراً يليق بذات الله عز وجل وأسمائه الحسنى، فهو راضٍ بقضائه وقدره، ويرى يد الله تعمل في الخفاء، ويرى يد الله فوق أيدي الناس، فإذا الإنسان ابتعد عن التوحيد يقع في آلام لا تُحتمل، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

(سنن الترمذي)

إنّ الإنسان إذا لم يُوّحد يقع في شقاء لا نهاية له، والتوحيد ألاّ ترى مع الله أحداً، وأن ترى كل شيء ينتهي إلى خير،

(بِيَدِكَ الْخَيْرُ)

وأن تدعو الله عزّ وجل أن يرحمك في الدنيا والآخرة، وأن يؤتيك في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

٣٠-اسم الله الكبير :

مع الاسم الثلاثين من أسماء الله الحسنى والاسم هو **" الكبير "** وبادئ ذي بدء، أبيّنُ أن من قوانين النفس الإنسانية، وأنها لا تُقبل إلا على كبير، وإلا على عظيم، لا تختار إلا الكبير، لا تُعجَب إلا بالعظيم هذا من خصائص النفس البشرية، لذلك حينما يتعرّف الإنسان إلى الله عزّ وجل ترتاح نفسه لأنّ فِطرتها كذلك، اختارت الكبير، اختارت الملك اختارت العظيم، اختارت الرحيم، اختارت القوي، اختارت العليم اختارت السميع، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٨٠))

(سورة الأعراف: ١٨٠)

هناك توافق بين خصائص النفس البشرية وبين أسماء الله الحسنى بمعنى أنّ في جِبِلّتِكَ تعظيماً للكبير، والله هو الكبير، وأنّ في جِبِلّتِكَ ميلاً للرحيم، والله هو الرحيم، وأنّ في جِبِلّتِكَ إقبالاً على الكريم والله هو الكريم، يعني كل أنواع الاضطراب وأنواع الضياع وأنواع التشتت تتبددُ إذا تعرفْتَ إلى الله عز وجل وتطمئن بعدها نفسك، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨))

(سورة الرعد: ٢٨)

وإني لأقول دائماً وأردد، ما من رجل على وجه الأرض إلا ويبحث عن شيئين، عن سلامته، وعن سعادته، ولو عَلِمَ الإنسان أن جِبِلّتَهُ، وطبيعته، وخصائص نفسه، ومبادئ تركيبة، قائمةٌ على حُب الكمال، والله هو الكامل كمالاً مطلقاً، لاتضحت له الحقيقة، وانتهى كل إبهام، فما الذي ينقّر النفس ؟ أن تتوقع الكمال في جهة ثم تفاجأ بأنها ليست كاملة، هؤلاء الذين يتعلقون بأشخاص ادّعوا الكمال وهم ليسوا كذلك يصابون بنكسة في حياتهم كبيرة جداً، لكن الإنسان إذا تعلق بالله عز وجل لن يُفاجأ بأن الله ليس كما اعتقد:

(وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ (٥٦))

(سورة المدثر: ٥٦)

أريد قبل أن نتحدث عن اسم الله الكبير، أن أُبيّن للقراء الكرام هذه الحقيقة: وهي: أنّ طبيعة النفس، وخصائص النفس، وجبلّة النفس وفطرة النفس، مفطورةٌ ومجبولة ومصنوعة ومبنية ومخلوقة على حُب العظيم، على حُب الكريم، على حُب القوي، على حُب العليم، على حُب الرحيم، فإذا تيّقنتْ أنّ الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلها حُسنى تعلّقتْ بها، وارتاحتْ نفسك واطمئن قلبك وسَعِدْتَ في دنياك

وأخراك، إذا توهمتَ أنه بالإمكان أن تسعد لثانية واحدة بغير الله فأنت واهم، هذا الذي يدعو إليه الدين قال سبحانه:

(كَلَّا إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ (٥٤))

(سورة المدثر: ٥٤)

الدين يُذكّر بأصول الفطرة ويجليّها، فمثلاً هذه السيارة، مصممة على أن تسير على طرق معبدة، كل شيء فيها ينتظم، وأنت ترتاح في قيادتها، ترتاح في تحريكها، تتملك زمامها، إذا هي سارت على طريق معبدة، فإنها صنعت لهذا الطريق، وصنع هذا الطريق لها، فحينا تخرج عن الطرق المعبدة، تشعر باضطراب، بخلل، باختلال توازن، بأصوات بعثرات، بمتاعب لا حصر لها، يعني أريد أن أقول؛ إذا عرف الإنسان اللهَ عز وجل اهتدى إلى فطرته، ووجد نفسه وجدتُ نفسي حينما أتعرف إلى ربي، خصائص النفس أساسها أنها تطمئن إذا عرفت العظيم لاحظ نفسك، في مجلس، مع أشخاص متعددين المُتكلم المُتألق الذكي القوي تجد نفسك طوال السهرة متجهاً إليه وأنت لا تدري قد تُغفل كل الحاضرين، قد لا تعبأ بهم، قد لاتنظر إليهم، لأنك مُركّب على حب العظيم، حُب الكبير، فإذا أيقنتَ أن الله هو الكبير وهو العظيم وهو الرحيم، وأن أسماءه كُلُها حُسنى توجهت إليه، ما هو الدين في حقيقته ؛ التفات إلى الله عز وجل، من هو الكافر، الذي أعرض عن الله وتوجّه إلى ما سِواه، هذا متجه إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، أو مالٍ يجمعه، أو منصبٍ يُحّصله، أو وجاهةٍ يُحققها، وهذا المؤمن مُتجهٌ إلى الله عز وجل.من الآيات الدالة على هذا الاسم العظيم قوله تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩))

(سورة الرعد: ٩)

(وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ(٢٣))

(سورة سبأ: ٢٣)

مرةً ثانية: فإذا كُنت في مجلس، وإذا كُنت في ندوة، أو كُنت مع مجموعة من الناس، وأنت لا تدري وأنت لا تشعر تتجه نحو العظيم نحو الأكثر عِلماً والأكثر فصاحة، والأكثر ذكاءً، والأكثر قُدرةً على إقناع الآخرين والأكثر شأناً، والأكثر جمالاً، هكذا، هذه جِبِلّة النفس وهذه طبيعتها، فإذا عرفت من هو الكبير أقبلت عليه، فكل سعادتك تتحقق إذا عرفت الكبير وأقبلت عليه.

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١))

(سورة الإسراء: ٢١)

الممرض غير الطبيب، والجندي غير اللواء، والبائع المتجول غير التاجر الكبير، فالتجار درجات، أهل العلم درجات، الممرض غير مدير المشفى:

((انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١))

عدد الدرجات أكبر، والمسافات بين الدرجات أكبر، نحن في الدنيا يستوي عظيم الشأن مع حقير الشأن في الطعام والشراب، كلنا تُشبِعُهُ لقيمات، كلنا يرتاح إذا دخل غرفة دافئة في الشتاء، هناك قواسم مشتركة كثيرة جداً بين أنواع الناس وأقسامهم، ولكنّ الله عز وجل يُبيّن أنّ مراتب الآخرة كثيرة جداً ومتفاوتة جداً، والمشكلة أن مراتب الدنيا لا تعني شيئاً لقرب زوالها وتحولها، وأن مراتب الآخرة تعني كُلّ شيء لدوامها وبقائها مراتب الدنيا تحول وتزول بالموت، في الموت يستوي الغني والفقير يستوي الصحيح والمريض يستوي الوسيم والدميم، يستوي القوي والضعيف، يستوي كبير القوم وصغيرهم، يستوي سُرات الناس وصعاليكهم عند الموت، إذاً هذه الدرجة التي تبوّأها لا تعني شيئاً لأنها لا تدوم، وقد يكون عظيم الشأن في الدنيا وعند الله فقيراً، وقد يكون عظيم الشأن عند الله حياته خشنة، ودخله محدود بيته صغير، وعياله كُثُر زوجته ليست كما يريد، قد يكون ذلك ولكن علو الدرجات في الآخرة تعني المقام السامي، إنها تعني مرتبته الحقيقية عند الله عز وجل، إنها تعني الخلود في هذه المرتبة إلى أبد الآبدين لذلك قال تعالى:

((انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآَخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً (٢١))

وكان عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ نُصَلِّي مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذْ قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنِ الْقَائِلُ كَلِمَةَ كَذَا وَكَذَا قَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ عَجِبْتُ لَهَا فُتِحَتْ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، قَالَ ابْنُ عُمَرَ فَمَا تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ ذَلِكَ))

(صحيح مسلم)

هذه الكلمات كلمات الإسلام كلمة أشهد ألاّ إله إلا الله، كلمة سبحان الله، كلمة الله أكبر، كلمة لا حول ولا قوة إلا بالله، كلمة إن شاء الله هذه الكلمات لها معانٍ عظيمة، لكن الناس مع استخدام هذه الكلمات استخداماً سيئاً أفقدوها معناها، يعني إن شاء الله، إذا أردت أن تخلف وعدك، إذا أردت ألا تُسدد ما عليك، تقول له إن شاء الله، غداً إن شاء الله، ليس هذا معناها إطلاقاً.

كلمة **" الله أكبر "** تقولها إذا رأيت مثلاً آلة مهولة صنعها أجنبي الله أكبر، فقد قلتَها في معرض التعجب، هذه ليس من شأنها أنْ تُقال بهذا الموطن، بل إذا رأيت آية من خلق الله عز وجل واستعظمت خالقها تقول الله أكبر، هذه الكلمات التي نرددها الله أكبر، سبحان الله، لا حول ولا قوة إلا بالله، هذه لو عرفنا معناها حقيقة لكُنا في حال غير هذا الحال لذلك ربنا عز وجل يقول:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦))

(سورة الكهف: ٤٦)

تساءل العلماء ما هُنّ الباقيات الصالحات ؟ قال بعضهم ؛ سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، فإذا قرأت الآية شعرت أنّ مَن عنده مالٌ كثير أو جاهٌ عريض أو حياةٌ ناعمة، فكلّ هذا شيء تافه أمام الله أكبر، سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ؟.. نعم لأنك إذا قلت سبحان الله حقيقة فقد سبّحته، وإن قلت الحمد لله حقيقة فقد حمدته، وإن قلت الله أكبر فقد كبّرته، وإن قلت لا إله إلا الله فقد وحدّته فإذا سبحته وحمدته ووحدته وكبّرته فقد عرفته، وإذا عرفته عرفت كل شيء وسعدت بهذه المعرفة إلى الأبد وهذه لا يداينها متاع الدنيا كله ولو كثر، أيها القارئ الكريم، الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣٧))

(سورة الجاثية: ٣٧)

إنّ الله عز وجل وصف نفسه أنه كبير، وأنه عظيم، وبأن له الكبرياء، وإذا أمرنا أن نُكبّره، وإذا أمرنا أن نُعظّمه، فإنما ذلك لكي نَسعَدَ به ونُقبل عليه، وكي نُحقق الهدف من خلقنا.

أحياناً قد ترى إنساناً يتحدث عن نفسه تيهاً وازدهاءً من أجل أن يفتخر عليهم، من أجل أن يتيه عليهم، لكن الله سبحانه وتعالى إذا قال: وهو الكبير المتعال، وله الكبرياء في السماوات والأرض، وإذا أمرنا أن نُكبّرهُ تكبيرا:

(وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣))

(سورة المدثر: ٣)

لكي نعرف قدره ومن ثم نسعد بهذه المعرفة وبعد، فلا بد لنا ليكون البحث شافياً من أن نتحدث عن: اشتقاقات هذا الاسم لتكون الإحاطة به احاطة شاملة شافية، هذا الاسم وَرَدَ على صيغ متعددة، وَرَدَ الكبير، وهو العليّ الكبير.. وَوَرَدَ المُتكبر، وثالثها الأكبر وهي صيغة مبالغة، قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢))

(سورة التوبة: ٧٢)

وقال تعالى:

(وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ (٤٥))

(سورة العنكبوت: ٤٥)

فالكبير والمتكبر والأكبر كلها تصب في ناة واحدةٍ، لكن وُجِدَ في الأثر أنه لا يكبر عليكم شيء ما دامت كلمتكم الله أكبر، فأنت قد تكذب لأنك تخاف من إنسان كبير، ففي حياة كل إنسان شخص بإمكانه فيما يبدو أن يفعل وألا يفعل وأن يعطيك أو أن يمنعك، أنت شئت أم أبيت لك حجم محدود، لك حجم

مالي محدود، لك حجم في القوة محدود، لك حجم في المراتب الاجتماعية محدود، هناك أقوى منك، هناك أكثر منك مالاً هناك أعظم منك جاهاً، فأنت كلما واجهت من هو أكبر منك، من هو أعظم منك من هو أشد منك قوةً، من هو أبرع منك حيلةً، من هو أسمى منك درجةً في العلم، وقلت الله أكبر فأنت اتجهت إلى من هو أكبر منه.

وقف مرةً رجل بين يدي الحجاج وكان مُقدِماً على قتله، فقال هذا الرجل: أيها الأمير ؛ أسألك بالذي أنت بين يديه أذلّ مني بين يديك، وهو على عقابك أقدرُ منك على عقابي.

يعني لا يكبر في نفسك شيء مادامت كلمة **" الله أكبر "** هي الأكبر أحياناً المرض يَكبُر، فإذا قلت الله أكبر، يعني الله قادر على شفائك التام من هذا المرض، أحياناً عدوك يكبر، تقول لا نستطيع مواجهته، فإذا قلت الله أكبر صَغُرَ هذا العدو، وإذا قلت الله أكبر صَغُرَ هذا المرض، وإذا قلت الله أكبر فإن حيلة خصمك المحكَمة تخفق، لذلك أنت معك سلاح لو عرفت قيمته لكنت في أعلى عليين، ولكن البلاء يكمن في أننا نردد بعض الكلمات، ولسنا في مستوى مضمونها ؛ تقوىً ويقيناً بل لقولها جوفاء مفرغة من مضمونها.

الكبير والمتكبر والأكبر والكبرياء، كل هذه الأسماء وردت مشتقة من اسم الكبير، المعنى الأول المتبادر لاسم الكبير أنه في مقابلة الصغير هذا شيء صغير وهذا شيء كبير، وهذا أكبر إلى آخره، جبل قاسيون جبل، لكنك إذا وازنته بجبل الشيخ فجبل الشيخ أكبر، وإذا وازنت جبل الشيخ بجبال الألب، فجبال الألب أكبر، وإذا وازنت جبال الألب بجبال الهملايا فجبال الهملايا أكبر.

الكبير يقابله الصغير.. إنسان ضارب آلة كاتبة في دائرة لابأس به فهو موظف، لكن أمام المدير العام هو صغير، والمدير العام أمام الوزير هو صغير، هناك مراتب في السُلطة، يوجد موظف عنده صلاحيات وموظف صلاحياته أكبر، معلم الصف أمام المدير صغير، مدير المدرسة أمام مدير التربية صغير، لأنّ مدير التربية يُسيطر على محافظة بأكملها ومدير التربية أمام وزير التربية صغير، الكبير ما يُقابل الصغير.

إنسان يملك مائة ألف، أمام صاحب المليون صغير، ومبلغ المليون أمام المائة مليون صغير، ومبلغ مائة المليون أمام الألف مليون صغير، فالكبير ما قابله الصغير، هذا هوالمعنى الأول، لكن لا يستقيم هذا المعنى في ذات الله عز وجل، لأنّ الله عز وجل تعالى عن المقدار والحجمية، ليس له مقدار وليس له حجم، الله مُنزّه عن أن يكون له حيز أو جهة أو مقدار أو حجم ؛ ليس بمتجزّئ ولا مُتبعِّض ولا بمُتناهٍ وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.

إذاً: ما معنى الكبير في حق الله عز وجل، قالوا: هناك الكبير في الدرجات العقلية فمثلاً قد تلتقط صورة لمجموعة أشخاص، وقد يكون أقوى إنسان بهذه الدائرة، أو أقوى إنسان بهذه المجموعة، وزنه

خمسة وخمسون كيلواً وإلى جانبه معاونه ووزنه مائة وثلاثون كيلواً فأيهما الكبير ؟ الصغير بحجمه هو الكبير، الأقوى يُعين، إذاً عندنا كبير بحسب الحجم وبحسب الوزن وعندنا كبير بحسب القوة وبحسب العلم، فربنا عز وجل إذا قلنا كبير تعالى عن أن يكون له حيز أو حجم أو مقدار، لكنّ الله سبحانه وتعالى في الدرجات العقلية هو الكبير.

الحق من زاوية هذا الاسم هو أكمل الموجودات وأشرفها، الذات الكاملة هو الكبير، يقول لك قائل: هذا كبير القوم، يعني أوجه شخص في القوم.

المعنى الثاني لكلمة كبير: يعني كبير بمعنى أنه كَبُرَ عن مشابهة المخلوقات، يعني الله عز وجل أكبر من أن يشبه خلقه، وأكبر من أن يشبهه أحد من خَلقه، كل ما يخطُر ببالك فالله بخلاف ذلك، كلمة كبير في حق الله عز وجل أنه ليس كمثله شيء، هو أكبر من ذلك.

حينما صوروا بعض قصص الأنبياء لم يتمكنوا من أن يأتوا برجل ويجعلونه نبياً، فليس هناك فتوى أساساً تجيز ذلك، لماذا ؟ لأنّ النبي عليه الصلاة والسلام أكبر وأعظم من أن يأتي إنسان ويمثل دوره، لذلك لا يمكن أن يظهر النبي في عمل فني، لأنّ الذي سيُمثلُه إنسان عادي والنبي أكبر من ذلك وأعظم من ذلك، هنا معنى الكبير يعني مُنزّه عن أن يُشبه خلقه.

أما الأكبر ؛ يعني أن الله عز وجل هو أكبر من كل خلقه، وهنا شيءٌ بديهي، لكنّ الإنسان قد يتجه إلى بعض المخلوقين تعظيماً لهم، فإذا أخبرناهم أن الله أكبر من هذا الذي تعبدونه أو تعظمونه من دون الله فليس القصد أن نقيم موازنة بين الله وبين خلقه، ولكن القصد أن نصرف هذا الإنسان عن الشرك إلى التوحيد، وعن الاتجاه إلى ما سِوى الله ونصرفه فقط إلى الاتجاه إلى الله عزّ وجل وأن كل مَنْ دونه لا يقارن به فإذا ذكرنا معنى الكبير من هذه الزاوية فلِكيْ نُوحّد الله ولا نُشرك به شيئاً.

لكنّ المعنى الآخر، كلمة الأكبر، يعني أكبر مما عرفت، مهما تعرّفت إلى الله عز وجل فهو أكبر مما تظن، مهما تخيّلت قدرة الله عز وجل فهي أكبر مما تخيلت، مهما تصورت رحمة الله عز وجل فهو أكبر رحمة مما عرفت، هذه كلمة **" الله أكبر "**.

لذلك فالنبي صلى الله عليه وسلم سنّ للمصلي أن يقول الله أكبر أيْ إذا أردت أن تصلي وساورتك وساوس وانشغلت بها، فإلى أين أنت ذاهب ؟ الله أكبر، فمثلاً إذا الإنسان ـ فرضاً من باب التمثيل ـ دخل إلى غرفة وزير، فإنّ رفعة منصبه، وكِبَرَ شأنه يدعو مَن عنده إلى النظر إليه لا إلى سِواه، أي أنه قلّ ما تجد إنساناً في حضرة عظيم يتشاغل عنه بسبحة أو بجريدة أو بحاجة، أو بنظر إلى أطراف الغرفة، لكنَ الذي هو معروف أنك إذا كنت في حضرة إنسان له قيمة فلا بُدّ أن تتجه إليه، فهذا معنى القول: **" الله أكبر "** أي اتجه إلى الله عز وجل، والمعنى الأدق من ذلك أكبر مما عرفت، يعني كلما تعرفْت إلى الله فهو أكبر، وهو أعظم.

قال العلماء: **" حظ العبد من هذا الاسم أن يُجالس العلماء، ويُصاحب الحكماء ويُخالط الكبراء ".**

هُنا الدِقة، أنت إنسانٌ لك شخصية، هذه الشخصية لها خصائص لك علم، لك مشاعر، لك خبرات، لك ذكريات، لك تجارب فإذا صاحبت من هو دونك فهذا شيء، وإذا صاحبت من هو في مستواك فذاك شيء آخر، وإذا صاحبت من هو فوقك فذلك شيء ثالث.

التوجيه ؛ **" جالس العلماء، وصاحب الحكماء، وخالط الكبراء ".**

لماذا لتقتبس منهم.. يعني أنت إذا صاحبت من هو في مستواك ليس في إمكانك أن تستفيد منه، وليس في إمكانه أن يستفيد منك، ندٌ لِندْ، لذلك ففي البلاغة عندنا دعاءٌ، وعندنا التماس، وعندنا أمرٌ، فالدعاء يأتي بصيغة أمر، والالتماس يأتي بصيغة أمر، والأمر أمر أيضاً، لكن إذا توجه الأمر من صغير إلى كبير فهو الدعاء، وإذا توجه الأمر من شخص إلى نِدّه فهو الالتماس، وإذا توجه الأمر من كبير إلى صغير فهو الأمر، فأنت إذا صاحبت من هو في مستواك يمكن أن تُمضي معه وقتاً ممتعاً ولكن ربما لن تستفيد منه شيئاً، تستمتع في الجلوس معه دون أن تستفيد منه، لأنه في مستواك وأنت في مستواه، خبراتكما مشتركة، معلوماتكما مشتركة لكنك إذا صاحبت مَن هو فوقك في العلم أو في المعرفة أو في القدر أو في الكمال، أو في الخبرة في الحياة، تستفيد منه، ما دام الإنسان مجبولاً على حُب العظيم أو حُب الكبير، إذاً عليك أن تُصاحب من تراه ثقة وأهلاً لصحبتك فتستفيد من علمه تارةً، ومن أدبه تارةً، ومن خبرته تارةً، ومن أسلوبه في الخطاب تارةً أخرى، هذِهِ بعض التوجيهات بالنسبة لحظ العبد من هذا الاسم.

وقال المحققون: العلماءُ على ثلاثة أقسام ؛ العلماء بأحكام الله فقط فقيه متفوّق بالفِقه، فأيُّ سؤالٍ طرحته عليه، يحبْك لقد ورد في حاشية كذا وفي المصنف الفلاني وفي الكتاب العلاني، مَعَ الحكم الشرعي لهذا السؤال هذا اسمه عالم بأحكام شرع الله فقط، إذاً هؤلاء العُلماء هم أصحاب الفتوى، إذا أردت أن تستفتي في شيء فاذهب إليهم، لأنهم متفوقون في معرفة أحكام الشريعة.

وهناك علماء بذات الله تعالى فقط، يَعرف الله عز وجل ويعرف أسماءه الحُسنى، يعرف صفاته الفُضلى، يعرف عَظَمَة الله عزّ وجل مُستقيمٌ على أمره، مُقبلٌ عليه، فهؤلاء الذين عَلِموا ذات الله فقط هم الحُكماء، إذاً هناك عُلماء وهناك حُكماء، ولقد سبق أن قلت: من ازداد علماً ولم يزدَدْ هُدىً لم يزدد من الله إلا بُعداً، يعني نمى علمه الشرعي ولم تنمُ معرفته بالله عز وجل، ولم تَرقَ عبادته إلى المستوى المطلوب فقصّرَ في معرفة الله، وفي طاعته وتفوق في الأحكام الشرعية، من ازداد علماً ولم يزدد هدىً لم يزدد من الله إلا بُعداً. لابُدّ من أن تتحرك على خطين اثنين، على خط معرفة الله ومعرفة أمره، وما أكثر ما ذكرت وكررت وأنا أتحدّث أو أكتب في هذا الموضوع، هناك عالِمٌ بالله، وهناك عالِمٌ بأمره، وهناك عالِمٌ بخلقه.أما العلماء بخلق الله عز وجل فهم العلماء المشهورون في الفيزياء وفي الكيمياء

والرياضيات والفلك والتاريخ وعِلم النفس وعِلم الاجتماع وفي هذه العلوم البحتة كالرياضيات التطبيقية كالكيماء العضوية وما إلى ذالك.

العِلمُ بخلق الله شيء، والعِلمُ بالله شيء، والعِلمُ بأمره شيء وعلامة العِلمُ بأمره أنك تُجيب عن أيّ سؤال مُتعلّق بأمره، وأما العِلمُ بذاته فعلامته طاعتك له، حينما تعصي الله عز وجل فأنت لا تعرفه.

فالعلماء هُم الذين عرفوا الأحكام الشرعية، وهم الذين يُقْصَدون في الفتوى، والحُكماء هم الذين عرفوا الله عزّ وجل وعلامة معرفتهم لله طاعتهم له وإقبالهم عليه، ووصولهم إليه، أما أجمل ما في الموضوع قول العلماء: إنّ الكبراء هم الذين عرفوا أحكام الله ؛ الأحكام الشرعية وعرفوا ذاته العليّة، هؤلاء الذين جمعوا بين الشريعة والحقيقة، هؤلاء هم الكبراء، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((أَخْبَرَنَا زَيْدٌ الْعَمِّيُّ عَنْ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ قَالَ يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ اعْمَلْ بِعِلْمِكَ وَأَعْطِ فَضْلَ مَالِكَ وَاحْبِسِ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِكَ إِلا بِشَيْءٍ مِنَ الْحَدِيثِ يَنْفَعُكَ عِنْدَ رَبِّكَ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ إِنّ الَّذِي عَلِمْتَ ثُمّ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ قَاطِعٌ حُجَّتَكَ وَمَعْذِرَتَكَ عِنْدِ رَبِّكَ إِذَا لَقِيتَهُ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ إِنّ الَّذِي أُمِرْتَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ لَيَشْغَلُكَ عَمّا نُهِيتَ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَةِ اللَّهِ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ لا تَكُونَنّ قَوِيًّا فِي عَمَلِ غَيْرِكَ ضَعِيفًا فِي عَمَلِ نَفْسِكَ يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ لا يَشْغَلَنّكَ الَّذِي لِغَيْرِكَ عَنِ الَّذِي لَكَ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَزَاحِمْهُمْ وَاسْتَمِعْ مِنْهُمْ وَدَعْ مُنَازَعَتَهُمْ، يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ عَظِّمِ الْعُلَمَاءَ لِعِلْمِهِمْ وَصَغِّرِ الْجُهّالَ لِجَهْلِهِمْ وَلا تُبَاعِدْهُمْ وَقَرّبْهُمْ وَعَلِّمْهُمْ....))

(سنن الدارمي)

الكبير من الناس هو الذي عرف الله حقّ المعرفة، وأقبل عليه حقّ الإقبال، وعرف أحكامه التكليفية حقّ المعرفة، فقد حصّلّ المجد من طرفيه، إنك إذا رأيت عالِماً بالله ومعلوماتُه في الشريعة ضعيفةٌ قد لا تُعجب به، وإن رأيت عالماً في الشريعة ومعرفته بالله لا تعجبك قد لا تُعجب به، لكنك إن رأيت من يجمع بين العِلمُ بالله والعِلمُ بأحكام الشريعة فهذا الكبير في تعبير النبي عليه الصلاة والسلام، وقديماً قالوا من تفقه ولم يتحقق، فقد تفسّق، ومن تحقق ولم يتفقه فقد تزنّدق..

يعني إذا تركت عِلمَ الشريعة جانباً ولم تستقم عقيدتك واعتمدت على التأمُل فقط ربما نطقت بما هو زندقة أو بما يشبه الزندقة، وإذا تعرّفت إلى أمر الله فقط ولم تعرف عظمته فربما خالفت أمره.

فنحنُ بين نموذجين، نموذج أتقن أحكام الشريعة وغَفَلَ عن أحكام الحقيقة، ونموذج عَرَفَ الحقيقة وما عَرَفَ الشريعة، لكنّ الكبراء هم الذين عرفوا الحقيقة والشريعة، تحققوا وتفقّهوا، عرفوا أحكام الله التكليفية، وعرفوا ذاته العليّة، فهذا حظ العبد من هذا الاسم، وللفائدة أرجو العودة للحديث الذي رواه زيد العمي في الصفحة السابقة.

وجدير بنا أنْ نقف في مطالعة هذا الاسم عند: **" العظيم الكبير "** إنّه ذو الكبرياء، والكبرياء عبارة عن كمال الذات، وكمال الذات أي كمال الوجود، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين اثنين، دوامه أزلاً وأبداً، فكل وجود يسبقه عدم ليس كاملاً، وكل وجود ينتهي إلى عدم ليس كاملاً، نحن كما نُسمّى في علم التوحيد (حادث) لأنه سبقنا عدم وسيأتي بعدنا العدم كل شيء هالك إلا وجهه، فالكبير ذو الكبرياء، والكبرياء كمال الذات وكمال الذات هي كمال الوجود، وكمال الوجود يرجع إلى شيئين ؛ دوامه أزلاً وأبداً أمّا الثاني ؛ فوجوده ذاتي، وسبب كل وجود، أما وجود مخلوقاته ليس ذاتياً، وجود مخلوقاته متوقف على مشيئته، كُنْ فيكون زُلْ فيزول، ما شاء اللهُ كان وما لم يشأ لم يكُنْ.

وبعد، فالوقوف عند هذا الاسم على مخلوقاته يجليّ الأمر واضحاً وهو مما يعين على فهم البحث: فمن تطبيقات هذا الاسم على العباد القول مثلاً: فُلان كبير، الحقيقة هنا معنى دقيق الدلالة جداً، فكلمة **" كبير "** إذا وصف بها الإنسان ليس الكامل في ذاته بل الذي تسري كمالاته إلى غيره يعني مُشعّاً، هنالك عُنصر خامل، وعُنصر مُشعٌ، وعُنصر فاعل وعُنصر منفعل، من هو الكبير من الناس، فمثلاً عالِم لكن ما علّمَ أحداً كامل ما كمّلَ أحداً، فهذا ليس كبيراً، أما إذا كنت عالماً ووصَلَ علمُك إلى الآخرين فأنت كبير عند الله عزّ وجل، إذا كنت كاملاً وسرى كمالُك إلى الآخرين، يعني تخلّقوا بأخلاقك، وتعلّموا من علمك، أيْ إذا فاض الإناء على غيره فهو الكبير، هذا معنى آخر من معاني الكبير من العباد، ألم يقل النبي عليه الصلاة والسلام الحديث:

((أَخْبَرَنَا زَيْدٌ الْعَمِّيُّ عَنْ بَعْضِ الْفُقَهَاءِ أَنَّهُ قَالَ يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ اعْمَلْ بِعِلْمِكَ وَأَعْطِ فَضْلَ مَالِكَ وَاحْبِسِ الْفَضْلَ مِنْ قَوْلِكَ إِلا بِشَيْءٍ مِنَ الْحَدِيثِ يَنْفَعُكَ عِنْدَ رَبِّكَ يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ إِنّ الّذِي عَلِمْتَ ثُمّ لَمْ تَعْمَلْ بِهِ قَاطِعٌ حُجّتَكَ وَمَعْذِرَتَكَ عِنْدِ رَبّكَ إِذَا لَقِيتَهُ يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ إِنّ الّذِي أُمِرْتَ بِهِ مِنْ طَاعَةِ اللّهِ لَيَشْغَلُكَ عَمّا نُهِيتَ عَنْهُ مِنْ مَعْصِيَةِ اللّهِ يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ لا تَكُونَنّ قَوِيًّا فِي عَمَلِ غَيْرِكَ ضَعِيفًا فِي عَمَلِ نَفْسِكَ يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ لا يَشْغَلَنّكَ الّذِي لِغَيْرِكَ عَنِ الّذِي لَكَ يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ جَالِسِ الْعُلَمَاءَ وَزَاحِمْهُمْ وَاسْتَمِعْ مِنْهُمْ وَدَعْ مُنَازَعَتَهُمْ يَا صَاحِبَ الْعِلْمِ عَظِّمِ الْعُلَمَاءَ لِعِلْمِهِمْ وَصَغِّرِ الْجُهّالَ لِجَهْلِهِمْ وَلا تُبَاعِدْهُمْ وَقَرّبْهُمْ وَعَلِّمْهُمْ))

إذاً الكبير الكامل في نفسه المُكمِلْ لغيرهِ، العالِم في نفسه المعلم لغيره أنت إذا بقيت وحدك ولو كنت في أعلى مستوى لست كبيراً عند الله يعني باللغة الواقعية أناني، أنت حصّلت معرفة واكتفيت بها، أنْتَ كمالاً واكتفيت به، لكن أين كمالُكَ ؟ إنْ لم يسر هذا الكمال إلى الآخرين ؟ لذلك الشيء الذي يلفت النظر أنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ(٣))

(سورة العصر)

" تواصوا بالحق "، يعني جزء كبير من نشاط المؤمن الدعوة إلى الله، فمثلاً رجل مؤمن إيماناً عالياً وزوجته جاهلة، وزوجته عاصية ويقول أنا لا علاقة لي بها، هي وشأنها، ألست مؤمناً ؟ بلى وإيمان عال ولا يُعنى بأولاده ولا يهتم بإيمانهم ولا يهتم باستقامتهم، شيءٌ لا يُصدق هو مؤمن إيماناً عالياً وله شريك لا يُصلي، وشارد وتائه وترضى به وتسكت عنه ولا يُقلقك أمره، إذاً: فلست عند الله كبيراً، لن تكون عند الله كبيراً إلاّ إذا سرى عِلمُكَ، وسرَتْ أخلاقُكَ، وسرت دعوتُكَ إلى الآخرين، هذا المعنى الذي ذكره بعضهم فيما تنطوي عليه كلمة كبير من العباد.

شيءٌ آخر مهم: هو أنّ الله عز وجل حينما يراك تُعظِمُهُ ولا تحفل بخلقه فأنت عنده مُقرّب، لكنه إذا رآك ترتعد فرائصك أمام كل إنسان وتنسى الواحد الديّان، تسعى إلى إرضاء الناس وتنسى رب الناس تخشى الناس ولا تخشى الله فأنت عند الله صغير.

وهذا شيء آخر: وهذه النقطة دقيقة الدلالة جداً، أحياناً يكون الإنسان مسلماً وموحِّداً، لكنه يخاف مما يخاف الناس دائماً، ويقول: ما هذه الحياة كلها خوف ؟ إذاً هذا الذي يخاف وماله حرام ودخله حرام وأفعاله منحرفة لابد من أن يخاف، وله أن يخاف، لكن المؤمن إذا ظنّ أنّ الله سيُعامِلُهُ كما يُعامِل أهل المعصية والفجور فقد وقع في سوء الظن بالله عزّ وجل، أنت تقع في سوء الظن بالله إذا ظننت أن الله سيُعامل المؤمن كما يُعامل الفاسق، وإني أقول: إذا خِفتَ أن تُعامَل كما يُعَامَل الفاسق الفاجر، فهذا الخوف عقوبة لك على سوءِ ظنكَ بالله، الله عزّ وجل يُحبُكَ أن تعتمد عليه، يُحبُكَ أن تثق به، يُحبُكَ أن تتوكل عليه، كما يُحبُكَ أن تعتز به.

اجعل لرب كل عزك يستقر ويثبـــــت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزك ميت

قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

(سورة آل عمران: ١٣٨)

يجب أن يُرافق الإيمانَ معنويات عالية، يُرافق الإيمان ثِقة بالله عزّ وجل، يُرافق الإيمان شعور بالتفوق، رأوا أحد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، يمشي مشية كأنها مشية كِبر، فقالوا: أكِبْرٌ في الإسلام ؟ قال لا هذا عِزُّ الطاعة، يعني أنت أحياناً حينما تُطيع الله عز وجل يجب أن تعتزّ بطاعتك.. يقول: أنا لا أشرب الخمر لأن لديّ مغص من قرحة في المعدة، لا، بل يجب أن يقول لا

أشرب لأن هذا شراب مُحرّم في ديني.. هذا أكمل، أتستحي بأمر الله عز وجل ؟ فهذا المسلم الذي يخاف الله عز وجل يذكر للناس ألف تبرير وتبرير لعدم شُربِه الخمر، على أنه مصاب بقرحة ونحو ذلك، ولا يجرؤ أن يقول: هذا حَرّمَه الله عز وجل، وأنا ملتزم، فهو مهزوم، ولكن إذا قلت أنا لا أشرب لأن الله حرّمَ شُربَ الخمر، وافعلوا ما تريدون انتهى الأمر إرتقيت في مدارج عزة الإيمان.

المقصود أن تعتزّ بالله، أن تَثِقَ به، أن تعتمد عليه، أن تتوكل عليه، هذا إذا كُنت تراه كبيراً، هذا إذا كانت كلمتك (الله أكبر) حقيقة فأنت تقول (الله أكبر)في الصلاة، وتسمع الله أكبر كل يوم خمس مرات في الأذان، وتقول الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، في كل حركة من حركات الصلاة الله أكبر، لذلك ذكرت مراراً في خطب الجمعة وأكدت على ما ذكرت إن الذي يقول (الله أكبر) ويطيع مخلوقاً ويعصي خالِقَهُ فكأنه ما قالها أبداً، ولو قالها بلسانه مائة ألف مرة، إذا قُلت (الله أكبر) وخشيت الناس ولم تَخشَ الله فما قُلت الله أكبر ولا مرة، إنّ الذي نسعى إليه، أن نَدَعَ الشكليّات، والكلمات الجوفاء والكلمات المستهلكة وأن نعود إلى أصل الدين وإلى جوهر الدين، مَن عصى خالِقَهُ، وأرضى مخلوقاً فما قال الله أكبر ولا مرة ولو رددها بلسانه مائة ألف مرة، فإن أرضى زوجتَه مثلاً وعصى ربه، فما قال الله أكبر، الحقيقة بلا مجاملة وبالكلمة الصريحة: إن رأيت رضاه أكبر عندك من رضاء الله عز وجل فلا حظ لك أبداً مما قلت، وحينما تطيع مخلوقاً وتعصي خالقك، فقد رأيت رضاء هذا المخلوق أكبر عندك من رضاء الله، وهذا واقع الكثيرين، لكن حينما تقول الله الكبير، الله الغني، ولا أفعل سوءاً ولو قُطِعْتُ إرباً إرباً، فالآن قلت الله أكبر.

وها نحن الآن قد دخلنا في صميم البحث، ودخلنا في التطبيق العملي ؛ فما جدوى أن تقول الله هو الكبير والمتكبر والكبير المتعال والعليّ الكبير وذو الكبرياء، والكبير الذي تعالى عن أن يشبه خلقه والكبير هو في الدرجات العقلية، فما جدوى كل هذه المعلومات الدقيقة عن اسم الكبير ما دُمتَ تتجه إلى المخلوق وتنسى الخالق، لذلك علامة المؤمن ألّا تأخذه في الله لومةُ لائم، ولا يرى أحداً أكبر من الله، وإذا قال الله أكبر فهو فعلاً أقوى الناس، لأنك إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، لذلك هناك امتحانات دقيقة في الحياة، خلاصتها أنّ الله عز وجل يضعُكَ أمام ظرفٍ صعب، قد تُغلَقْ الأبواب كلها في وجهك، يُفتح باب واحد، باب معصية، فإذا قلت ماذا أفعل لا حول لي ولا قوة، وأرجو الله ألا يؤاخذني، معنى ذلك رأيتَ حاجتك إلى هذا الشيء أكبر من رضوان الله تعالى، ويجب أن تعلم أنّ الآية التي قرآناها قبل قليل:

(قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥))

(سورة آل عمران)

هل تعلمون ما سياق هذه الآيات ؟ الحديث عن الجنة، يعني بعد أن ذكَرَ الله لنا في القرآن الكريم الحديث عن الأشجار وعن الجنات التي تجري من تحتها الأنهار وعن أنهار اللبن وعن أنهار العسل المُصفّى وعن الحور العين وعن الولدان المخلدين، وعن كلّ ما في الجنة من مباهج قال:

(وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ)

أيْ إذا كان الله راضياً عنك، وإحساسك بهذا الرضى أكبر عنده من كل شيء، فهذه أكبر غاية يسعى إليها المؤمن ويرجوها عند الله سبحانه.

وبعد فإن آخر ما ينبغي عليّ الإشارة إليه ؛ أقول: يعني إذا شعرت أن الله راضٍ عنك، فهذا الشعور أكبر غاية تتحقق لك في الأرض، كنتُ مرةً أقول ؛ حينما قال الله عزّ وجل، وحينما قرر في كتابه الكريم أنه رضي عن أصحاب رسول الله صلى فقال تعالى:

(لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً(١٨))

(سورة الفتح: ١٨)

قلت عندها والله ما في الأرض كلها لا في قديم الزمان ولا في حديثه ولا في المستقبل، ولا في كل القارات، ولا في شتى المجالات ولا في كل المناحي، من مرتبة أعظم من أن يرضى الله عنك، وما جدوى أن يرضي عنك المخلوقون جميعاً ولم يرض الله عنك ! ! ! ؟

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦))

(سورة الغاشية: ٢٤ ـ ٢٦)

ما ينفعك أن يرضى الناس جميعاً عنك، وما ينفعك أن تكون مُعظّماً عِندَ الناس كلهم ولست عند الله عظيماً ؟ فرضى الناس إلى زوال ولكنّ رضى الله باق أبداً.

(سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ (١٢٤))

(سورة الأنعام: ١٢٤)

(أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (١٠٥))

(سورة الكهف: ١٠٥)

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥))

(سورة المطففين: ١٥)

(وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩) أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلّاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥))

(سورة يس: ٥٩ ـ ٦٥)

ما قيمة الدنيا كلها، ولو أنك كنت تملك الدنيا بحذافيرها وليس لك عند الله شأن، سمعت عن شركة من الشركات الكبرى في العالم عندها فائض هي في حيرة من أمر توظيفه ؛ أربعة آلاف مليون دولار شركة سيارات، فائضُها النقدي الذي لا تعرف كيف توظفه أربعة آلاف مليون لو أن الدنيا كلها لك، لو أن هذه الشركة لك، لو أنّ القارات الخمس بما فيها من مصانع هي ملك لك ولم يكن الله عنك راضٍ فما قيمة الدينا كلها كلامٌ دقيق، يعني أنت أيها المؤمن قد تكون من عامة الناس في الحياة الاجتماعية أنت إنسان عادي، فإذا كُنتَ تعرف الله عز وجل وكان الله راضياً عنك، أنت عند الله عظيم الشأن، لذلك دخل على النبي رجل النبي هش له وبش، وقال أهلاً بمن أخبرني جبريل بقدومه، قال أومثلي ؟ !! من أنا ؟ قال: نعم يا أخي خامِلٌ في الأرض عَلَمٌ في السماء.

قد تكون طالباً، قد تكون موظفاً في الدرجة العاشرة، قد تكون مساعد كاتب، قد تكون صاحب محل صغير مساحته متر بمتر، لكنك تعرف الله ومُستقيم على أمره فأنت عند الله عظيم، لذلك حينما قال أحد العارفين بالله: **" والله لو يعلم الملوك ما نحن فيه لقاتلونا عليها بالسيوف ".**

والله كلامه صحيح، لو كشف الغطاء وعَلِم ملوك الأرض ما أنت فيه من مرتبة عليّة عِندَ الله لنافسوك وقاتلوك.. أمّا أهلُ الدنيا فهانَ أمرُ الله عليهم فهانوا على الله، ترى حياته تافهة عند الله، لم يُبالِ في أي أوديتها هلك، تراه يموت ميتة سيئة بشعة حقيرة، صنائع المعروف تقي مصارع السوء يموت كالجيفة، يموت وهو يعصي الله، يموت ولا يدري به أحد، لكن المؤمن له عند الله شأنٌ كبير.

أيها القارئ الكريم: إذا تحدثتُ عن اسم الله الكبير فمن أجل أن نعرف الكبير، ومن أجل أن نُطيعَه، ومن أجل أن نكون عنده من المقرّبين، ورأسُ القربى عند الله عزّ وجل طاعته، آخر كلمة أقولها في بحثي هذا، قال عمر: **يا سعد لا يغرّنّك أنه قد قيل خال رسول الله فالخلق كلهم عند الله سواسية، ليس بينه وبينهم قرابة إلا طاعتهم له.**

طاعتك عند الله هي كل شيء، وهي التي تُحدد مكانتك عند الله عزّ وجل، وأنت كمؤمن، وتعلم أن الله كبير، يجب أن تعتزّ بالله عز وجل وأن تثق بالله وأن توقن بأن لك معاملةً خاصّة، لقوله تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ)

٣١-اسم الله البديع:

مع الاسم الواحد والثلاثين من أسماء الله الحسنى والاسم هو **" البديع"** وقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم في قوله تعالى:

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (١١٧))

(سورة البقرة)

والبديع: على وزن فعيل بمعنى مُفعِل ؛ أي مُبدع السماوات والأرض. والإبداع: أن تصنع شيئاً على غير مثالٍ سابق، ومن دون أن تتلقى من أحد معلومة ما. وإذا أردنا أن نبحث فيما يصنعه الإنسان، فإنه من حيث يريد أو لا يريد، من حيث يشعر أو لا يشعر ؛ إنه يقلِّد، فإذا قال صنعت غواصة ؛ فلا شك أنها تقليد غير ناجح للسمكة. وإذا صنع طائرة ؛ فلا شك أنه تقليد غير ناجح للطائر.

وقد وقع تحت يَديّ كتابٌ موسوعيّ عن الطيور، وفي مقدمة الكتاب يقول المؤلف: إنّ أرقى طائرة صُنِعت حتى اليوم ؛ لا ترقى إلى مستوى الطائر، فالطائرة تقليد للطائر. والغواصة تقليد للسمكة. وأيُّ شيء صنعه الإنسان لو دققت فيه لرأيته قد قلّد به شيئاً مما في الطبيعة من إبداع الله تعالى، لكنّ الله سبحانه وتعالى خلق الكون على غير مثال سابق ؛ فمَن قال إنّ الأرض ينبغي أن تكون كُرة ؟ ومن قال إنّ الأرض ينبغي أن تدور حول نفسها، وأن تدور حول الشمس؟ ومن خلق الضوء ؟ من جعل الشمس منبعاً حرارياً وضوئياً ؟ من أعطى الماء صفاته وخصائصه ؟ ومن أعطى الهواء صفاته وخصائصه ؟ من أعطى كل عنصر خصائصه ؟ لو أنّ العناصر كلها تذوب في درجة واحدة ؛ أي تنصهر في درجة واحدة، لرأيت الكون كله غازاً، أو صلباً، أو مائعاً ؛ فلَوْ أنّ هذا الكون، وما فيه من مجرات، ومن كازارات، ومن مذنبات، ومن كواكب، ومن نجوم، بعدده ومسافاته البينيّة وحركته المتوازنة، هذا الكون بدقائقه، والأرض بما عليها، يعني مثلاً: على مرأى من الخلق كلهم، أوراقُ الأشجار؛ فهل تعتقد أنه في الإمكان أن ترسم لنا ورقة ليس لها أصل في الكون؟ أوراق كبيرة وصغيرة، مسننة وملساء وخشنة، انسيابية ومخططة، ذات لون داكن ولون فاقع وألوان متداخلة لو أردت أن ترسم أنواع الأوراق التي خلقها الله عزّ وجل، بل إنّ أوراق أيّةِ شجرة واحدة هل تتشابه ؟ **واللهِ يارب لو تشابهت ورقتا زيتون لما سُمّيتَ الواسع** هذا ما قاله أحد العارفين.

ومثلاً آخر وجوه البشر؟! أنا أضرب أمثلة كثيرة، هل في الأرض كلها والتي يعيش ستة الآف مليون إنسان على وجهها، هل في الأرض كلها وجه إنسان مشابه لوجه إنسان آخر ؟ مستحيل، والشيء الثابت الآن أنّ لِكُل إنسان رائحة خاصة ؛ وهذه الرائحة هي أساس معرفة الكلاب البوليسية للمُجرم، الإنسان له رائحة واحدة تميزه عن غيره ولا يتفق اثنان في رائحة جسميهما.

الجلد له رائحة عطرية ؛ هذه الرائحة لكل إنسان رائحة خاصة به. ولِكُل إنسان إيقاع صوتي خاص به. كم موجة ؟ ولِكُل إنسان قزحية خاصة به. ولِكُل إنسان بصمة خاصة به. ولِكُل إنسان تركيب دم خاص به " البلازما " ؛ بل إنّ أحدث البحوث أنّ هناك ما يسمى بالزُمر النسيجية ؛ يعنى نسيج الإنسان خاص به فكما أن الدم زُمرٌ زُمر، ولكن زمر الدم محدودة ؛ بينما الزُمر النسيجية غير محدودة، حتى الآن وصلوا إلى اثنين ونصف مليار زُمرة يعني لا يُشبهُكَ في الكون كله إلا إنسانٌ واحدٌ وقد يكتشفون بعد حين أنّ كل إنسان له زُمرة نسيجية واحدة. هذا الذي يدعو علماء الطب إلى تفسير ظاهرة أنّ هذا الجسم رفض هذه الكُلية، أن هذا الجسم رفض هذا العضو لاختلاف الزُمر النسيجية، أليس هذا إبداعاً ؟.

إبداع يعني إبداعاً لا حدود له، أما الإنسان لو أراد مثلاً أن يرسم وجهاً، فلو كلّفنا رسّاما أن يرسم وجهاً يرسم وجه اثنين.. ثلاثة مختلفة عن بعضها، وبعد ذلك ينضب الإبداع من ذهنه وتأتي رسوماته متشابهة، ومهندسو السيارات يصممون أشكال السيارات، مرة خطوط منحنية، مرةً خطوط متعامدة، مرةً خطوط انسيابية، وبعد حين يعودون إلى الشكل السابق فإبداعهم ينضب. أما الله سبحانه وتعالى بديع السماوات والأرض فهو واسع حكيم، أضرب بعض الأمثلة: فوجه الإنسان، ولون قزحية عينه، ورائحة جلده، وتركيب دمه، ونبرة صوته، وبصمة إبهامه هذه كُلُها هويات شخصيّة. فيما قبل كنا نعتقد أن البصمة وحدها هوية الإنسان، الآن أشياء كثيرة في الإنسان يتميّز بها عن غيره فالله سبحانه وتعالى بديع السماوات والأرض.

شيءٌ آخر هام جداً، لو أنك اطّلعت على أنواع الأسماك التي في البحار؛ لو تصفحت كتاباً مصوراً فيه أنواع الأسماك، لأخذك العَجَب العُجاب. فحتى الآن الإحصائيات بالنسبة للأسماك تفيد وجود مليون نوع من السمك، وأيُّ شكل يخطر في بالك موجود، سمكة على شكل كرة موجودة، على شكل سيف موجودة، شفافة موجودة، فسفورية موجودة لها أهداب موجودة، لها أرجل موجودة، سمكة على شكل مزهرية موجودة سمكة تدافع عن نفسها بأن تفرز مادة كالحبر تخفي وجودها موجودة سمكة تحارب أعداءها بالكهرباء بآلاف الفولطات موجودة، حيتان كبيرة موجودة، وأسماك صغيرة للزينة موجودة، لو أردت أن تقف عند تنوّع الأسماك فشيء مذهل ولا ينتهي، لا يُعدُ ولا يُحصى. لو أردت أن تقف عند أنواع الطيور؛ فأشكالها، وأصنافها، وأنواعها، وسلالاتها شيء يأخذ بالألباب. أنواع الألوان، أنواع الورود، وقد أطلعني أحد الأصدقاء على كتاب مؤلف من ثمانية عشر مجلداً كل مجلّد سماكتهُ لا تقلّ عن ثمانية سنتمتر وكل ورقة مخصصة لنوع من أنواع الأبصال كل هذا المجلد لأنواع الأبصال فقط بعضهم يقول: هناك ثلاثة آلاف نوع من أنواع القمح وقرب مدينة دوما بمحافظة دمشق هناك مركز للبحوث الزراعية أطلعني مهندس أنّ في هذا المركز ثلاثمئة نوع من العنب. وما من فاكهة وما من

خضرة وما من محصول وما من شجر مثمر إلاّ وهو مئات الأنواع بل آلاف الأنواع، هذا كله يُجسِّد اسم البديع، والأنواع لا تُحصى.

مرةً كنت بمعرض للحشرات بالقاهرة وهو بناء ضخم مؤلف من مجموعة قاعات، في كل غرفة وعلى الأربعة الجدران ثُبتت حشرات مصبّرة وليس هناك حشرة مثل أختها، ولا فراشة مثل أختها تنوع في الخلق لا يصدقه عقل، هذا معنى قول الله عزّ وجل:

(بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

أوراق الأشجار، أنواع الأشجار، أنواع الأخشاب، أنواع النباتات، أنواع الروائح، أنواع الأسماك، أنواع الأطيار، أنواع الفواكه ذرات الثلج ؛ لو أخذنا ذرّة الثلج وكبرناها تحت مجهر، لرأينا شكلاً لا يُصدّق، في منتهى الروعة، وما من ذرة تُشبه أختها ؛ لو أخذت عيّنات من آلاف الأماكن التي هطل عليها الثلج، كل ذرّة ثلج لها شكل خاص أليس هذا من فعل بديع السموات و الأرض؟

الحقيقة من معاني البديع ؛ من المعاني الأولى أنّه بديع في ذاته ومعنى بديع في ذاته ؛ أيْ لا يُشبهه شيء، أو ليس كمثله شيء. بديع في ذاته ليس كمثله شيء. وبديع في خلقه، فهو خلَق الخلق على غير شكل وعلى غير مثال سابق، ومن دون أن يُعلِمُهُ أحد. وبديع في أفعاله فالإنسان أحيانا يأخذ احتياطات جمّة لكن يُفاجأ بتصرف لم يكُن في الحسبان، فالبديع إذاً اسمٌ من أسماء الله، اسم لِذاتِهِ و اسمٌ لِصفاته واسمٌ لأفعاله.

التعاريف الدقيقة لهذا الاسم: مَن فعل فعْلاً لم يُسبق إليه قيل له: أبدع. وسُميّت البدعة بدعة لأنها لا أصل لها في الدين، وقد نقف وقفةً متأنية عِندَ البدعة.

البدعة لها معنيان: معنىً لغوي، ومعنىً شرعي ؛ فالمعنى اللغوي كل شيء جديد اسمه بدعة، والمعنى الشرعي ؛ من أحدث في الدين ما ليس فيه فهو مُبتدع: من ابتدع شيئاً يُيَسِّر على المصلين صلاتهم فهو شيءٌ جيّد، فنْقلُ الصوت بدعة، لكنها تقدم خدمات جُلى لرواد المساجد. مثلا تدفئة المكان تدفئة مركزية لم تكن من قبل هذه بدعة. تكييف المكان لم يكن من قبل هذه بدعة. فهناك بدعة حسنة ؛ حينما تُقدّم شيئاً مريحاً جيداً، يَحُلْ بعض مشكلات المجتمع، من دون أن يُخالف نصاً شرعياً فهذه بدعة حسنة. وأما البدعة السيئة فهي التي خالفت أمراً محرّماً فالبدعة اللغوية قد تكون صالحةً، وقد تكون طالحةً، وقد تكون حياديةً وقد تكون موقوفةً. ما معنى صالحة ؟ ما معنى طالحة ؟ ما معنى حيادية ؟ وما معنى موقوفة ؟ البدعة الموقوفة جهازٌ قد يُستخدم استخداماً جيداً، وقد يُستخدم استخداماً سيّئاً ؛ فمثلا لو أنّك اقتنيت آلة تصوير وصوّرت بها بعض المناظر الطبيعية، كبعض أنواع الأشجار، وكنت جغرافياً، وصورت بعض أنواع الخُلْجان، وأنواع الجُزر، وألّفت كتاباً ووضعته بين أيدي الطلاب ؛ فهذه الآلة استخدمتها في نقل مظاهر الطبيعة إلى كتب مدرسية، فهذه الآلة استخدمتها استخداماً مشروعاً ؛ فهي

بدعة لكنّ استخدامها الجيّد جعلها مقبولة. ولو أنّك صوّرت بها مناظر لا تُرضي بها الله عزّ وجلّ وطبعتها وروّجتها ؛ فهذا شيءٌ مُحرّم.

فإذاً هذه الآلة صالحة أو طالحة، وهذا موقوف على نوع استعمالها. وهناك بدعة حيادية ؛ لو اخترعت صنفاً من الطعام ؛ لو أضفت بعض التوابل إلى بعض المطعومات، وجعلت منه طبقاً لم يُصنع من قبل هذا لا حرام، ولا حلال ؛ مُباح، بدعة مُباحة. والبدعة المُحرّمة إذا اصطدمت مع نصٍ شرعيّ. وهذا كُلّهُ متعلّق في البدعة اللغوية ؛ يعني شيءٌ جديد لم يكن من قبل. أقرب مثل أضربه دائماً ؛ أن يجلس العريس يوم عرسه على كرسي إلى جانب زوجته أمام المدعوات، الكاسيات العاريات، المائلات، المُميلات وهو مُسلم ؛ مُسلم يجلس أمام جمع غفير من النساء الكاسيات العاريات المائلات المُميلات بحكم التقليد والعادة والضرورة، هذه بدعة مُحرّمة لأنها اصطدمت مع تحريم إطلاق البصر ومع تحريم إبداء الزينة أما إذا إنساناً وفرٌ لِرواد المسجد مايريحهم ؛ ولم يكن على عهد النبي كماءٍ ساخن في الشتاء، وماءٍ بارد في الصيف، فلم يكن على عهد النبي صلى الله عليه و سلم كذلك لا جامع مكيّف، ولا جامع مدفّأ تدفئةً مركزية، ولم يكن هذا الأثاث المريح.

فهذه بدعة ؛ لكنها صالحة تقدم خدمات لرواد المساجد، فرضاً لو أنه اخترع جهازاً يحلُ بعض المشكلات في بيتك لا علاقة له بالحرام والحلال هذه بدعة لكنها بدعة حسنة، أمّا وأن يقف الزوج أمام المدعوات فهذه بدعة سيئة، إذاً هناك بدعة موقوفة على نوع استعمالها، وهناك بدعة مباحة، وهناك بدعة حياديّة لا علاقة لها بالحلال والحرام.

والخلاصة إذاً أنّ عندنا بدعة موقوفة، وعندنا بدعة محرمة وبدعة حسنة هذه البدعة اللغوية ؛ ولكن دققوا في (لكن)! (لكن) إنّ البدعة في الدين حرام مائةً في المائة لماذا ؟ لأنّ الله عزّ وجلّ حينما قال:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٣))

(سورة المائدة)

الدين تام وكامل ؛ والتمام من حيث العدد، والكمال من حيث النوع. يعني عدد القضايا التي عالجها الدين تام، ولا يقبل الدين موضوعا جديداً، وطريقة المعالجة التي عالجها الدين طريقة كاملة، ولا يقبل الدين تعديلاً طفيفاً لطريقة المعالجة من قوله:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنْ اضْطُرّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فإذا ابتدعنا في الدين شيئاً ؛ إنْ في العقيدة، أو في العبادة، أو في المُعاملة، أو في الأخلاق، أو في السلوك ؛ فهذا بدعة محرّمة لقول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي خُطْبَتِهِ يَحْمَدُ اللَّهَ وَيُثْنِي عَلَيْهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ ثُمَّ يَقُولُ مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْهُ فَلا هَادِيَ لَهُ إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ وَشَرُّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بدعة وَكُلُّ بدعة ضَلالَةٌ وَكُلُّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ ثُمَّ يَقُولُ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ وَكَانَ إِذَا ذَكَرَ السَّاعَةَ احْمَرَّتْ وَجْنَتَاهُ وَعَلا صَوْتُهُ وَاشْتَدَّ غَضَبُهُ كَأَنَّهُ نَذِيرُ جَيْشٍ يَقُولُ صَبَّحَكُمْ مَسَّاكُمْ ثُمَّ قَالَ مَنْ تَرَكَ مَالا فَلِأَهْلِهِ وَمَنْ تَرَكَ دَيْنًا أَوْ ضَيَاعًا فَإِلَيَّ أَوْ عَلَيَّ وَأَنَا أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ))

(رواه الترمذي و أحمد)

كُلّ مُحدثةٍ بدعة وكُلّ بدعة ضلالة وكُلّ ضلالةٍ في النار، إذاً لدينا شيءٌ مهم جداً وهو أن الأديان قد تزوّر، المبادئ قد تزوّر، المذاهب قد تزوّر، الذي يضمن لي أنني وجهاً لوجه أمام دين جاءني كما نزل؟ فما الذي يضمن لي أن أتعامل مع دين هو الآن كما جاء في أوّل عهده ؟ أشياءٌ ثلاثة: ألاّ يُضاف إليه شيءٌ ؛ وألاّ يُحذف منه شيءٌ ؛ وألاّ يُؤوّل تأويلاً ما أراده المشرّع. إذا ألغيت التأويل الفاسد، وألغيت إضافة البدع، وألغيت حذف الأصول، فقد ضمنت أن يستمرّ الدين كما بدأ.

نحن كما تعلمون أيها القراء الكرام: إذا تحدثنا عن حظِّ العبد اسم الرحمن الرحيم، فالعبد له حظ أن يكون رحيماً لقول النبي الكريم صلى الله عليه وسلم:

((تَخَلَّقُوا بِأَخْلَاقِ اللَّهِ))

فحينما ندعو المؤمن أن يكون حليماً، ورحيماً، وعادلاً وعالماً ؛ هذه دعوة للتخَلّق بأخلاق الله. ولكن في هذا الاسم بالذات الدعوة المعاكَسَة، الدعوة ألاّ تكون مبتدعاً إن في عقيدتك، وإن في عبادتك، وإن في دعوتك، وإلاّ في سلوكك، وحينما تبتدع شيئاً لابُد من أن يكون هذا على حساب السنة تترك شيئاً وتأخذ شيئاً مكانه ؛ لأنّ المُسلم تَسَعَهُ السُنّة ولا تستهويه البدعة. البدعة كما قال العلماء: **" ماليس لها أصل في كتاب الله، ولا في سنة رسوله ولا في إجماع الأمّة "**، فمثلاً دعوة إلى الله أساسها أن تأتي بسيخ وأن تطعن به جسمك ليخرج من الطرف الآخر ؛ فإذا فعلت هذا صدّق الناس دعوتك ؟ فهل فعل هذا النّبي؟ هل ورد هذا في القرآن الكريم؟ هل ورد هذا في سنة النّبي ؟ هل ورد هذا في سيّر الصحابة ؟ هل ورد هذا في إجماع الأئِمة ؟ لا إذاً هي بدعة، وهذه الطريقة في الدعوة إلى الله بدعة يجب أن تُجتنب. فالبدعة ما ليس لها أصل في كتاب الله، ولا في سُنّةِ رسوله، ولا في إجماع المؤمنين يقول الله عزّ وجل:

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣))

(سورة النور)

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣))

إذا خالفت أمره، وقعت في فتنة الابتداع. وسيدنا الصديّق رضي الله عنه يقول **" إنما أنا متبع ولست بمبتدع "**، وبعضهم قال نصائح ثلاث لو أردت أن تكتبها على ظفر لوسعها: اتبع لا تبتدع، اتضع لا ترتفع، الورع لا يتسع. البذخ والترف وإنفاق المال من دون جدوى ؛ هذا من صفة الكُفار، لكنّ المؤمنين يقتصدون في كسب مالهم، وفي إنفاق مالهم.

(فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣))

ويقول الله عز وجل:

(وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا)

(الآية ٥٤ من سورة النور)

والله عز وجل يقول في آية ثالثة:

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)

(الآية ٢١ من سورة الأحزاب)

الأسوة الحسنة: أيْ اتباع السُنّة ؛ اقتدِ به في كل أطوار حياتك أي طبّق سنته، مَنْ أمّرَ السُنة على نفسه قولاً وفعلاً، ونَطَقَ بالحِكمة، فقد اتَّبَعَ السُنّة، وجعل النّبي عليه الصلاة والسلام أسوةً له. ومَن أمّر الهوى على نفسه نطق بالبدعة. لذلك أصحاب البِدع يُقال لهم أصحاب الأهواء إما أن تُحكِّم سُنّة النبي في حياتك، وإما أن تُحكِّم الهوى ؛ إذا حكّمت الهوى، أصبحت مُبتدعاً، وخرجت عن طريقة الرسول عليه الصلاة والسلام. وإذا حكّمت السنة في أفعالِك وأقوالِك وسيرتك. فقد كنت مقتدياً بهدي النّبي صلى الله عليه و سلّم. لا تنسوا أنّ النّبي عليه الصلاة و السلام يقول:

((قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا بُنَيِّ إِنْ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ لَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَافْعَلْ ثُمَّ قَالَ لِي يَا بُنَيِّ وَذَلِكَ مِنْ سُنَّتِي وَمَنْ أَحْيَا سُنَّتِي فَقَدْ أَحَبَّنِي وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ))

(رواه الترمذي)

((فمن أحّب سنتي فقد أحبني و من أحبني كان معي في الجنّة))

بعض العارفين يقول: **" أصول ديننا ثلاثة أشياء ؛ الاقتداء بالنّبي صلى الله عليه وسلّم في الأخلاق والأفعال، والأكل من الحلال، وإخلاص النيّة في جميع الأعمال "** وحينما قال الله عزّ وجلّ:

(وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨))

(سورة آل عمران)

الحِكمةُ: هي السُنّة. يُعلِمُه الكِتاب والحِكمة فالكتاب الأمر الإلهي، أمّا السُنّة كيف طبّق النّبي عليه الصلاة والسلام هذا الأمر الإلهي. وقال بعضهم في قوله تعالى:

(إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ)

(الآية ١٠ من سورة فاطر)

ما هو العمل الصالح ؟ قال بعضهم: الاقتداء برسول الله ؛ العمل الصالح هو أن تقتديَ برسول الله صلّى الله عليه وسلّم. وبعضهم قال: عمل قليل في سُنّةٍ خير من اجتهاد كثير في بدعة.

أيها القارئ الكريم: إذا كان الله سبحانه و تعالى بديع السماوات والأرض، هو الذي خلق السماوات والأرض على غير صورة سابقة ومن دون أن يعلِمه أحد، ابتدع ذوات الأشياء، وابتدع صفات الأشياء وابتدع خصائص الأشياء، وابتدع أحجامها، وأشكالها، وألوانها وحركتها، وسكونها، وابتدع الإنسان، وما حوله من حيوان، وما حوله من نبات، وأشكال لا تُعدّ ولا تُحصى ؛ من خلال تأمُلِكَ لآيات الله في الكون، تستنبط أن الله بديع السماوات والأرض. ويجب أن تعلم أيضاً أن الله سبحانه و تعالى واحدٌ في ذاته، معنى البديع: يعني الذي لا مثيل له والذي لا مُشابه له، والذي ليس كمثله شيء، ليس له مثل لا في ذاته ولا في صفاته، ولا في أفعاله، ولا في خلقه.

ومن ثم فما حظّ العبد من هذا الاسم ؛ ألاّ يكون مُبتدعاً. لكن هناك نقطة دقيقة جداً أتمنى أن نقف عندها قليلاً، الإنسان مُكرّم عند الله عزّ وجلّ ومن علامات تكريمه عند الله عزّ وجلّ ؛ أنّه خلقه فرداً لا مُشابِه له، وأنّه سَمَحَ له أن يكون مُشرّعاً عن طريق ماذا ؟ عن طريق الآيات ذات الطابع الاحتمالي أو الآيات الظنيّة الدلالة ؛ فالعلماء يجتهدون في فهم هذه الآية ذات الدلالة الظنيّة، إذاً كأنّ الإنسان سُمح له أن يُشرّع، أن يجتهد. أن يكون الإنسان مُجتهداً هذا من تكريم الله عزّ وجلّ. وهو فردٌ لا مثيل له هذا من تكريم الله عزّ وجلّ، وأن يُعطى الإنسان حُريّة الإرادة وهذا تكريمٌ من الله عزّ وجلّ، ومن أنواع تكريم الله عزّ وجلّ أنّ طبيعة خلق اللّه عزّ وجلّ- الآن دخلنا في ما له علاقة وشجية بالبحث طبيعة خلق اللّه عزّ وجلّ تُمكّن الإنسان من أن يُبدع في الخلق، فالآن يُقال لك هذا النبات هجين ؛ ما معنى هجين ؟ يعني هناك مخابر مستواها رفيع جداً يأخذون نباتاً ذا خصائص معيّنة ويُزاوجُونَه بنبات آخر له خصائص معيّنة يُنتج نباتاً ثالثاً بخصائص تجمع خصائص النباتين ثمّ يزاوجونه بنبات آخر إلى أن يصلوا إلى أصناف نادرة جداً.

طريقة الخلق، أو تصميم الخلق يُتيح للإنسان أن يبتدع، لقد سمعت أن هناك بقراً شامياً أصيلاً، البقرة الشامية معروفة، وهناك بقر هولندي، من تهجين هذين النوعين وُلدَ صنف يقدّم في اليوم ما يزيد عن ستين كيلواً من الحليب ! أليس هذا إبداعاً ؟ فالله عزّ وجلّ فيما يخص موضوع الحيوانات، موضوع النباتات أطلق يد الإنسان لتبدع، فهناك أشجار مقزّمة، شجر أرزّ كبير مقزّم في أصيص صغير، الآن هُناك أشجار مثمرة مقزّمة، الآن دخلت والقارئ الكريم في موضوع ؛ يتصل بموضوعنا من باب واحد، أنّ من تكريم اللّه لهذا الإنسان أنْ مكّنهُ مِن أنْ يُبدع، وهذا في الخلق، أمّا أن يبتدع في الدين ؛

فهذا محرّم لأنّ الدين كاملٌ. والدين توقيفي، فالدين هو ما جاء به النّبي ومن بعد وفاة النبي انقطع الوحي.

فنحن مسموح لنا أن نُبدع في الخلق، وليس مسموحاً لنا أن نُبدع في الدين ؛ لأنّ البدعة في الدين هي ضلالة قولاً واحداً ؛ كلُّ بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار، كل مُحدثةٍ بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. يقول عليه الصّلاة و السّلام:

((عَنْ أبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ خَالَفَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا خَلَعَ رِبْقَةَ الإِسْلامِ مِنْ عُنُقِهِ))

(رواه أحمد)

هل يوجد ابتداع هنا ؟ من خالف الجماعة شبراً، هناك آية أخرى هي أصلٌ في إجماع المسلمين، أتعرفونها ؟ هي قوله تعالى:

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (١١٥))

(سورة النساء)

فمن خالف الجماعة شبراً، فقد خَلِعَ ربقة الإسلام من عنقه. وقال ابن عبّاس: **" ما أتى على الناس عام إلاّ أحدثوا فيه بدعة، وأماتوا فيه سنّة "**

يعني كلما جاءنا عام أحدثت بدعة وأُميتت سنّة، إلى أن تصل إلى وقت والعياذ باللّه كُلُهُ بدع و حقيقة الدين خافية على معظم النّاس. أحياناً تجد من يرقص بثياب فضفاضة والطرابيش على الرؤوس فهل هذا من الدّين ؟! يموت شخص فيؤتي بفرقة الميلاوية ! وعملها وهذا رقص أحياناً نجد في مجالس الذّكر ما أنزل الله بها من سلطان ابتداع في ابتداع، أهكذا فعل النّبي عليه الصّلاة والسّلام ؟ أحياناً يصبح الدّين عند بعضهم أنغاماً، وعند بعضهم رقصاً، وعند بعضهم سلوكاًغريباً، وعند بعضهم تمتمات، وعند بعضهم خزعبلات، أهذا هو الدّين ؟!

أيّها القراء الكرام: البطولة أن تتعرّف إلى الدّين من ينابيعه الأصيلة وهي القرآن والسنّة ؛ فأي شيء جاءنا عن غير هذا الطريق فهو بدعة، ولاشك أنّ هذا العِلم دين فانظروا عمّن تأخذون دينكم ولينظر أحد أنه راجع إلى الله شاء أم أبى فليحذر.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤))

(سورة الصافات: ٢٤)

والسؤال عسير، والموقف رهيب.

ورد في بعض الأحاديث:

((من مشى إلى صاحب بدعة ليُوقِره فقد أعان على هدم الإسلام))

وقيل أيضاً:

((عَنْ أَيُّوبَ قَالَ قَالَ أَبُو قِلابَةَ لا تُجَالِسُوا أَهْلَ الأَهْوَاءِ وَلا تُجَادِلُوهُمْ فَإِنِّي لا آمَنُ أَنْ يَغْمِسُوكُمْ فِي ضَلالَتِهِمْ أَوْ يَلْبِسُوا عَلَيْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْرِفُونَ))

لا تجالس أهل الأهواء المبتدعين الذّين أحدثوا في الدّين ماليس فيه لأنّ سيّدنا الصدّيق رضي الله عنه كما قال عليه الصّلاة والسّلام:

((لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ أَهْلِ الأَرْضِ لَرَجَحَ بِهِمْ))

(رواه البيهقي في الشّعب)

وقال:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ قَالَ عُمَرُ لأَبِي بَكْرٍ يَا خَيْرَ النَّاسِ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ أَمَا إِنَّكَ إِنْ قُلْتَ ذَاكَ فَلَقَدْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَى رَجُلٍ خَيْرٍ مِنْ عُمَرَ))

(رواه الترمذي)

" ما طلعت شمسٌ على رجلٍ بعد نبيّ أفضل من أبي بكر" ومع ذلك ماذا قال سيّدنا الصدّيق "؟ قال: **" إنّني متّبع ولست بمبتدع - في خطبته الأولى - لقد وُلّيت عليكم ولست بخيركم إنْ أحسنت فأعينوني وإن أسَأت فقوّموني إنّما أنا متّبع ولست بمبتدع ".**

إذاً ينبغي أن نتّبع النّبي عليه الصّلاة والسّلام، ولنُراقب سلوكنا أيّة بدعة تأتينا يجب أن نسأل عن أصلها ؛ فإن لم يكن لها أصل فهي بدعة مردودة لا نقبلها. وقد قال بعض العلماء: **" من داهن مبتدعاً سلبه الله تعالى حلاوة السُّنَن "**؛ أي شخص مُبتدع بعقيدته، مُبتدع بسلوكه، مُبتدع بعبادته، حذف أشياء، وأضاف أشياء، وبالغ بأشياء، وأخفى الأشياء، وصار مبتدعاً، قال: **"من داهن مبتدعاً سَلبه الله تعالى حلاوة الإيمان "**، بل إنّه من ضَحِكَ إلى مُبتدع، نَزَعَ الله تعالى منه نور الإيمان مِن قلبه. من ضَحِكَ له، من جالسه، من داهنه، من صاحبه، وقال: من استهان بأدب من آداب الإسلام، عوقب بحرمان السنّة.

إذاً نحن في كل أسماء اللّه الحسنى ؛ حظّنا منها أن نتخلّق بأخلاق اللّه، إلاّ في هذا الاسم حظّنا منه ألاّ نبتدع في دينه شيئاً، سمح لنا أن نبتدع في الزّراعة، في النبات، في الحيوان، في خلط الألوان أحياناً في صهر المعادن، فمثلاً نحن بحاجة لمعدن خفيف جداً متين جداً ممكن أن نصنع هذا المعدن من خلط بعض المعادن، معدن خليط، أيٌ خلائط فهذه كلها ابتداع. إبداع: اختراع يعني أنّ اللّه عزّ وجلّ أعطى الأشياء خصائص، وسَمَحَ بالتّزاوج، وسَمَحَ بالتفاعل والاندماج، إذاً الإبداع في الصناعة والزراعة من فضل الله علينا ؛ مثلاً تقولون هذا البطيخ الأناناس، هذا بطيخ مُطعّم على نوع لم يكن من قبل. لقد صار هناك تهجين، عملية التهجين في النبات، والحيوان ماهي في الحقيقة إلاّ نوع من الابتداع. لكن الله عزّ

وجلّ لِوجود خصائص لكل نبات ولتصميم النبات بحيث يتزاوج سَمَحَ بالابتداع. أمّا في التّشريع، وفي الدين الابتداع كلّه حرام، قال العلماء: **" من استهان بالفرائض قيّض اللّه له مبتدعاً يذكر عنده باطلاً فيُوقِع في قلبه شبهة ".**

وختام المطاف:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

(سورة آل عمران)

فأنت قد تكون محقاً في تعاملك مع الأشخاص قد تقول عن شخص: بأبسط عبارة لعله غلطان، لعله مُخطئ، وأنا لا أتورّط معه ؛ فهذا شيء جميل. لكنّك إذا ثَبُتَ لك نص عن اللّه عزّ وجلّ، فالله عزّ وجل كتابه حقّ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. إذا ثبتت لك عن النّبي صلى الله عليه وسلم سُنّة صحيحة ؛ النّبي معصوم. يعني أنت لك جهتان يُمكن أن تطمئنّ إليهما ؛ كتاب اللّه، وسُنّة رسوله. وما سِوى ذلك موقوف على موافقته لكتاب الله و سُنّة رسوله.

كنت ولا زلت أضرب أمثلة دقيقة من أنّك أمام ثلاثة نصوص في حياتك ؛ لو امتدت بك الحياة قروناً طويلة فلن تتبدل ولن تتغير: أمام ثلاثة نصوص، فقط نص للّه عزّ وجلّ كتابه، ونص لرسوله، ونص لغير رسول الله ؛ أي إنسان كان، إذاً هناك نص للّه خالق الكون وهو القرآن. ونص لرسوله المعتمد وهو النّبي عليه الصّلاة والسّلام. ونصّ لأي مخلوق بعد النّبي. عالم كبير، فهيم، مثقّف، غير مثقف، شيخ، عَلَم من أعلام الأمّة، أيُّ إنسان ليس النّبي ؛ فهو صنف ثالث. أنت مع القرآن ليس لك إلاّ أن تفهمه لأنّه قطعّي الثبوت، ومع السُنّة ليس لك إلاّ أن تتحقق من صحّتها، لأنّ الحديث ظنّي الثبوت، وليس لك إلاّ أن تفهمه، ولكنّك فيما سِوى هذين النّصين، ولِيكُن مَن كان القائل، فعليك أن تتحقق من صِحّته وأن تحاول فهمه كما أراد صاحبه، وأن تُقيّمه بالكتاب والسُنّة، هذا هو الدّين هذا هو المقياس. إذاً فهذا البحث قادنا إلى موضوع البِدع فنحن يجب أن نتوقع أيّة بدعة دخلت على الدّين في غفلة الزمان ونحذر كل الحذر أنت بحاجة إلى مقياس، وبحاجة إلى مراجعة لكل معلوماتك، ولكل خِبراتك، وقياسه بالكتاب والسُنّة. أرجو الله سبحانه وتعالى أن أكون وفّيْت بعض الشيء من مناقشة موضوع هذا الاسم وبيانه حقيقته.

وكخلاصة مُوجزَةٍ للبحث أعود فأقول: لقد تحدثت في الصفحات السابقة عن اسم **" البديع"** فالله سبحانه وتعالى أبدع السماوات و الأرض جُملة وتفصيلاً، خصائص ماديّة خصائص معنويّة، على غير مثال سابق، ومن دون تعليم من أحد ابتدع الكون كله، وهو بديع، أي فرد في ذاته وفرد في صفاته، وفرد في أفعاله، وفرد في تشريعه، والإنسان له أن يبتدع في الخلق، في التصنيع، وفي مجال الزراعة كذلك في ما سمح الله به أن يفعله، ولكنه بالتأكيد ليس له أن يبتدع في التشريع ؛ لأنّ كل مُحدثةٍ بدعة،

وكُلّ بدعة ضلالة، وكُلّ ضلالة في النار. وفرّقنا بينَ البدعة بمعناها اللغوي، وبين البدعة بمعناها الديني والتي يؤكدها قول النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَن الْمُنْذِرِ بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أبيهِ قالَ قالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَنْ سَنّ سُنّةً حَسَنَةً فعُمِلَ بِهَا كَانَ لَهُ أَجْرُهَا وَمِثْلُ أَجْرِ مَنْ عَمِلَ بِهَا لا يَنْقُصُ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا وَمَنْ سَنّ سُنّةً سَيّئَةً فعُمِلَ بِهَا كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ لا يَنْقُصُ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْئًا))

(رواه مسلم)

وأمّا البدعة في الدين فسواء أن تُحدث في العقيدة، أو في العبادة أو في معاملات، أو في سُنن النبي المصطفى عليه الصلاة والسلام ما ليس فيها ؛ فهي محرمة قولاً واحداً.

٣٢- اسم الله الصبور:

مع الاسم الثاني والثلاثين من أسماء الله الحسنى، الاسم هو الصبور.

بادىء ذي بدء هذا الاسم لم يرد في القرآن الكريم، ولكنه ورد في السنة المطهرة، في الحديث الشريف الذي يتحدث عن الأسماء الحسنى، ولكنّ دلالات هذا الاسم وردت كثيراً في القرآن الكريم فالصبور هو الذي لا يُعجّل بالعقوبة لِمَنْ عصاه فهو يُمهل ولا يُهمل، وقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة جداً تتحدث عن مدلول هذا الاسم الذي ورد في السنة ولم يَرِدْ صراحةً في القرآن الكريم قال تعالى:

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً (٤٥))

(سورة فاطر)

الإنسان أحياناً، إذا تولى أمر عشرة أو أكثر، فحينما يغضب منهم يتمنى أن يُنزل فيهم أشدّ العقوبة،

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمى)

فتأخير العقوبة هو مدلول اسم الصبور، مرّت معنا آية من قبل وهي قوله تعالى:

(وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُسَمًّى (١٢٩))

(سورة طه)

يعني كان لِزاماً أن ينزل الله بالعُصاة أشد العقاب، وأن يُنهيَهم ويبيدهم، ولكنّ كلمة سبقت من الله عز وجل هي التي تجعل العقوبة متأخرة. فما هي هذه الكلمة ؟ هي: إن رحمتي سبقت غضبي، ما هذه الكلمة ؟ إن الله خلق الخلق ليرحمهم، ما الذي يؤخر إنزال العقوبات الحاسمة ؟ هو رحمة الله عزّ وجل؛ يعني كأن الله عزّ وجل يُعطي الناس فرصةً ليتوبوا، يُعطيهم فرصة ليرجعوا لِيُنيبوا ليصححوا ليستغفروا لذلك الله عز وجل قال:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣))

(سورة الأنفال)

فما دام الإنسان في استغفار فرحمة الله قريبة منه ومغفرته واسعة، حيث إن القصد هو إصلاحه، والقصد هو إسعاده، والقصد هو رحمته، أما لو أن القصد تطبيق القوانين ما ترك على ظهرها من دابة لو أن كل إنسان عصى الله عزّ وجل أنهاه الله عزّ وجل بعقوبة قاصمة ما ترك على ظهرها من دابة فتأخير العقاب مدلول اسم الصبور قال الله تعالى:

(وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا)

وهذه آية أخرى تدل على مدلول الصبور قوله تعالى:

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢))

(سورة الرعد)

إذاً: هذه الآية الثانية تُفيد أن الصبور هو الذي يؤخر العقاب ولكن يطالعنا هنا سؤال: هل يلتقي هذا الاسم مع اسم لله آخر؟ يتشابهان ويلتقيان في الدلالة هذا جميل ؛ نعم: **" الحليم"** إذاً اسم الصبور يلتقي مع اسم الحليم وهذا حسن. فكيف يفترقان ؟ وهل يتطابق ! اسم الصبور مع اسم الحليم تطابقاً تاماً ؟ طبعاً لا، إذاً يفترقان، فكيف يفترقان ؟ دقق في هذه الآية:

(وَلَقَدْ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا)

الله صبور

(ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ)

قالوا المُذنِب أشدّ أمناً مع الحليم منه مع الصبور، أي أن الصبور من شأنه تأخير العقاب، أما اسم الحليم فقد يلتقي مع اسم العفوّ لكنّ إنزال العقاب قد يستدعي التريث، أليس هناك حالات في الطب لابد من بتر عضو فاسد ؟ ولو كان الطبيب هو الأب فيقطع، ويجب أن تعلم أن الشيء الذي وقع لابُدّ مِن أن يقع، ولو لم يقع لكان عدم وقوعه نقصاً في الحِكمة ؛ الشيء الذي وقع لابُدّ من أن يقع، ووقوعه رحمةٌ وفضل وعدل ولطف وعفو وصبر، لذلك أحياناً يتحدث ربنا عن ذاته فيستخدم ضمير الجمع:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩))

(سورة الحجر)

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢))

(سورة يس)

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩))

(سورة القمر)

حينما يتحدث ربنا عز وجل عن ذاته يستخدم ضمير المفرد وأحياناً يستخدم ضمير الجمع:

(إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤))

(سورة طه)

الله عزّ وجل له ذات وله أسماء فإذا تحدث بضمير المُفرد فهو يتحدث عن ذاته، وإذا تحدث بضمير الجمع فإنما هو يتحدث عن أسمائه ويجب أن تعلم علم يقين أن أسماء الله كلها حُسنى، وكلها تشترك في أفعاله، فأفعاله فيها رحمة و فيها عدالة وفيها قوة وفيها غِنىً و فيها عِزة وفيها جبروت وفيها من أسماء الله الحسُنى ما فيها، آية ثالثة تؤكد مفهوم الصبر قوله تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨))

(سورة الحج)

فالإنسان أحياناً يختل توازنه حينما يرى كافراً قوياً شديداً عتيداً مستعلياً يزداد قوة ومنعة وغنىً وسيطرةً، وقد يسأل الإنسان نفسه: أين الله ؟ ربنا عزّ وجل بماذا يجيب عن هذا السؤال ؛ إذا رأيت الكافر يزداد قوةً وغِنىً وسيطرةً واستعلاءً وجبروتاً ويتحدى ويَسخَر ويستهزئ فاذكر فرعون، ألم يقل فرعون " **أنا ربكم الأعلى** " فأينَ الله ؟ بماذا أجاب الله عزّ وجل في القرآن الكريم عن هذا السؤال ؟ قال الله تعالى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧))

(سورة آل عمران)

إجابة أخرى قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤))

(سورة الأنعام)

جواب ثالث قوله تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢))

(سورة إبراهيم)

الله عزّ وجل ليسَ غافلاً لكنه متغافِلٌ يبدو وكأنه غافلٌ يعني أنّ الله عزّ وجل من أجل أن يكشف الإنسان على حقيقته يُملي له ويُعطي له من القوة ومن الشأن ومن الوجاهة ما يكشفه على حقيقته، فهل الإنسان العاقل يطمئن لقوّته؟ هل يطمئن لماله الوفير؟ هل يطمئن لمركزه القوي ؟ لا. أبداً، العاقل يطمئن لطاعة الله، يجب أن تطمئن حينما تُطيع الله عزّ وجل. أما إذا كُنت قوياً أو إذا كُنت غنياً أو إذا كُنت وجيهاً هذه أشياءٌ تُسلبْ في لحظة واحدة. عطاؤه عجيب.

زارني طبيب وذكر لي قصة وقعت قبل يومَين من زيارته أن فتاة متخلفة عقلياً تأخر كلامها سنتين، وفيها عِلّة في دماغها وهذه العِلّة ظهرت في مشيتها العرجاء، تشكو من ضعف في أعصابها الحركية وفي مصدرها بالدماغ وتشكو من تأخر في نِطقِها وهذه آفة مصدرها الدماغ ويكاد يكون الشفاء مستحيلاً، قبل يومين أو ثلاثة كُسِرت رجلها فأُخذت إلى مستشفى العظام وأعطيت مخدراً لشدة الألم الذي انتابها حين تَجبير عظمها بعدما انتهت العملية انطلقت في الكلام ومشت مشياً طبيعياً فجاء أبوها وقال ما هذا ؟ ما علاقة ما جرى لها بما صلح من نُطقِها ومن حركتها ؟ فالله على كل شيء قدير، يعني كسرُ هذه الرجل كان سبباً، ولعلّ هذا المخدر أيقظ مكاناً في الدماغ كان غافلاً، فربُنا عز وجل يُعطي ويدهش ويأخذ ويُدهش، أنا أعرف قريباً لي توفي بمرض غريب جداً هو أن الطحال يعمل بنشاط أكثر مما يجب أن يعمل. الطحال مقبرة ومعمل احتياطي للدم ومستودع للكريات الحمراء ؛ فالطحال معمل ومقبرة، فلو تعطلت معامل نقي العظام فالطحال يصنع الكريات الحمراء ؛ هذا الطحال من مهماته أن

يستقبل الكريات الميتة ليحللها في مقبرته ولِيُعاد تصنيعها من جديد في نقي العظام ؛ هذا الطحال عمل عملاً زائداً عن طاقته فصار يأخذ الكريات الحية فيميتها ثم يحللها فصار هناك فقر في الدم سببه ازدياد نشاط الطحال وتوفي بهذا المريض ؛ فأنت تحت رحمة الطحال إذا زاد نشاطه أو النُّخامية إن تعطل نشاطها ولذلك فالله عز وجل يقول:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ)

وإليك آيةٌ أخرى تدل على اسم الصبور قوله تعالى:

(وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ (١٨٢))

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣))

(سورة الأعراف)

ذات يوم سألتُ أحد الإخوة المختصين عن كلمة متين ؛ فمتين تستعمل في الفيزياء للتعبير عن قُوىَ الشد والقساوة، وتستعمل للتعبير عن الضغط، فالشيء الذي يتحمل قُوى ضغط يقال له قاسٍ، والشيء الذي يتحمل قُوى شد يقال له متين فما وجه علاقة كيد الله عزّ وجل وبين متانته ؟ قوله:

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣))

(سورة الأعراف)

فالإنسان لا يُمكن أن ينجو من قبضة الله ؛ كأن كيد الله حبل متين لا يُمكن أن ينقطع أبداً. وهذه آية خامسة قوله تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨))

(سورة الكهف)

وبعد، فهل مر معنا في السيرة موقف بدا فيه صبر الله عزّ وجل واضحاً ؟ لعله في الحديبية عندما أبرم صُلح الحديبيّة ؟ حيثُ إنّ الله عزّ وجل يعلم أن في كفار قريش رجالاً مؤمنين ونساءً مؤمنات يكتمون إيمانهم ولا يعلمهم المؤمنون ؛ فربنا عزّ وجل رحمة بهم وتأخيراً للعقوبة عن الكفار، أخّرَ فتح مكة من أجلهم هذا من اسم الصبور. هو صبور وقد أمرنا بالصبر قال تعالى:

(فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥))

(سورة الأحقاف)

وقال تعالى:

(وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ(٣٤))

(سورة الأنعام)

ما معنى:

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧))

(سورة المدثر)

هناك صبر لغير الله ؛ قد تكون إنساناً مستضعَفاً ولك عدو يُنكّل بك ولا تستطيع أن تفعل شيئاً فأنت صابر لا لأنك صبور بل لأنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً فليس هذا من الصبر الذي أمرنا الله تعالى به.

إنّما الصبر أن تكون قادراً على أن تفعل شيئاً ولكن إيمانك بالله عزّ وجل يلجمك وتصبر، فهذا معنى قوله تعالى:

(وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧))

وأحياناً يتوهم الإنسان أن بإمكانه أن يصبر، فإذا هو في بعض الحالات لا يصبر، كان يبدو أن بإمكانه أن يصبر فإذا هو ينفجر كيف نحل هذه المشكلة ؟ قوله:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧))

(سورة النحل)

أنت لا تصبر إلاّ إذا أعانك الله على الصبر، فهل هناك آية يرتفع بها الصبر إلى أعلى مستوى ؟ نحن عندنا قاعدة وهي أن العطف يقتضي التجانس ؛ إذ لا تستطيع أن تقول: اشتريت بيتاً و ملعقةً لعدم التناسب، هذا ولقد جُمع الصبر مع الصلاة وجُمع الصبر مع الحظ العظيم وجُمع الصبر مع الجزاء بغير حساب وجُمع الصبر مع الحق.

(إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ (٣))

(سورة العصر)

وإذا قرأنا الآية التي وردت في آخر آل عمران فلعلنا نتبين شيئاً من ذلك:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠))

(سورة آل عمران)

فالصبر معروف، أما المُصابرة أن تُعِينَ أخاك على الصبر لذلك قالوا لا تكن عونا للشيطان على أخيك وكُن عونا لأخيك على الشيطان ؛ أي أنت إذا أعنته وبيّنت له وخففت عنه مصابه، وواسيتَه بمالك فلعلّ في ذلك معاونةً لأخيك على الصبر وقال موسى لقومه:

(قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨))

(سورة الأعراف)

(اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا)

أما أوضح آية متعلقة بالصبر والتي معناها يُثلج الصدر هي قوله تعالى:

(وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧))

(سورة البقرة)

هذه المصائب لمن ؟ للمؤمنين، هذه المصائب خاصة للمؤمنين لنبلونكم أيها المؤمنون بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا، إذاً الصابر هو الذي يصبر على تربية الله له، فما معنى أنك صابر ؟ يعني أن الله يُربيك وأنت تفهم على الله عزّ وجل وتصبر، إذاً من هو الصابر ؟ هو إنسان راشد مثلاً يجلس على كرسي طبيب الأسنان فيعلم علم يقين أنه مُتقِن لصنعته وأنه دكتور وأن بحوثاً عديدة مرّ بها وأن أُناساً كثيرين أثنَوا عليه وأنه تعلّم عِلماً صحيحاً وأن يده فيها مرونة كبيرة وعنده وسائل جيدة وأن كل ما يفعله بك طبيب الأسنان هو في صالح أسنانك ؛ لذلك ولو آلمك في بعض الأحيان فلابُدّ من أن تصبر، فمن الذي يصبر إذاً ؟ هو الذي فهم على الطبيب، وَثِقَ من علمه ومن خبرته ومن نصيحته وهو يتحمل معالجة هذا الطبيب لأسنانه، هذا بشكل مُبسّط.

إذا هناك إنسان صابر. فنحن في واقع الحياة لدينا عِلل كثيرة وربنا عز وجل يتولى تربية هذه النفس، لذلك فاقرأ الحديث التالي وتأمل.

((وعزتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحب أن أرحمه إلا ابتليته بكل سيئة كان عملها سقماً في جسده أو إقتاراً في رزقه أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلغ منه مثل الذر فإذا بقي عليه شيء شددت عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمه))

النهاية السعيدة أن تصل إلى دار السلام بسلام، النهاية الموفقة أن تقول من أعماق أعماقك الحمد لله رب العالمين، النهاية التي ليس بعدها ولا قبلها ؛ أن ترث جنة عرضها السماوات والأرض، إذاً فالصابر إنسان فَهِمَ على الله عزّ وجل مراده.

تروي كتب السيرة أنّهُ بعد وفاة النبي، حدثت هناك اضطرابات وفتن وبدت بوادر ردّةٌ، ردّة كبيرة جداً؛ بل أصبحت المدينة مهددة بالخطر والنبي صلى الله عليه وسلم كان قد جهز جيشاً لفتح بلاد الشام أمّر عليه أسامة ورأى أصحاب النبي من الحكمة ألا ينفذ أبو بكر الخليفة هذا الجيش ؛ لأن البلاد مقبلة على فتنة داخلية فيها، وهناك اضطرابات داخلية، أيُعقل أن تذرّ الإضطرابات وتُرسل جيشاً لفتح الشام ؟ فهذا منطقياً غير مقبول ؛ فأصحاب النبي اضطربوا وتمنوا على سيدنا الصديق ألاّ يرسل هذا الجيش

وتهامسوا فيما بينهم وانتقل الخبر لسيدنا عمر، فسيدنا عمر جاء لِيُبلّغ سيدنا الصديق هذه الرغبة وتَبَنّاها، ولكن سيدنا الصديق أراد أن يُربي الأصحاب تربيةً حاسمة فما كان منه إلا أن أمسك بلحية عمر وهزّها هزاً شديداً وقال ثكلتك أمك يا ابن الخطاب ؛ أجبار في الجاهلية خوّار في الإسلام ؟! فلما رأى أصحاب النبي ما فعل الصديق بعمر ارتعدت فرائصهم وندموا على خواطرهم وانصاعوا لأمر سيدنا الصديق، لماذا صبر سيدنا عمر على أخذ الصديق بلحيته وهَزّها هزاً شديداً وقال له ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أجبار في الجاهلية خوّار في الإسلام ؟ لأنه فهم على سيدنا الصديق مراده البعيد.

ماذا قال ابن عطاء الله السكندري: **" إذا كَشَفَ الله لك حِكمته في المنْع عاد المنع عين العطاء "** فربما كان الإحسان من الله حِرمان وربما كان المنع من الله إحسان، فمتى يصبر الإنسان ؟ من الذي يصبر ؟ الذي يعرف الله عزّ وجل، أمّا الذي لا يعرف الله عزّ وجل فلا يصبر، بل بالعكس يُزمجر ويتكلّم كلاماً سيئاً يُسجّل عليه، علامةُ معرفتك بالله صبُرك على قضائه وقدره، لكن كلّ حسنةٍ بعشرِ أمثالها، وكل شيء له حساب، إلا أن الصابرين كما قال الله:

(قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(١٠))

(سورة الزمر)

فأما الصابرون فإنهم يوفوّن أجورهم بغير حساب ؛ فهذا المُحسن حينما صبر كأن لسان حاله يقول يا رب: عالجني كما تُريد وأنا أصبر، يا رب أنت ربي لا إله إلا أنت، أنت وليّ في الدنيا والآخرة، عالجني كما تريد أنا أصبر على معالجتك، كأن لِسان حال الصابر يقول يا رب أصبر في الدنيا ولا أصبر في الآخرة، القضية في الدنيا مقبولة، أما في الآخرة فالخزي لا يُحتمل ؛ والنبي عليه الصلاة والسلام قبَيل وفاته وقف بين أصحابه وخَطَبَ خُطبةً مؤثرةً قال:

((عَنْ أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ رَضِي اللّه عَنْه أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ إِنّ عَبْدًا خَيّرَهُ اللّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ وَقَالَ فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمّهَاتِنَا...))

(رواه البخاري والترمذي)

ثم قال: من كنتُ جلدتُ له ظهراً فهذا ظهري فليقْتَدْ مني، ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالي فليأخذ منه...إلخ، فقام رجل وقال يا رسول الله إنني منافق فادعُ الله أن يتوب عليّ، سيدنا عمر وقف وقفةً كما هي عادته وأراد أن يَبطِش بهذا الذي فضح نفسه ؛ قال له ثَكِلَتْكَ أُمك لِمَ فضحْت نفسك ؟ هنا بيت القصيد ! فقال له: يا عمر دعه فإن فُضُوحَ الدنيا أهون من فُضوح الآخرة ! يعني مثلا لو طالبٌ سرق قلم حبر وكُشِفَ أمره أمام رفيقه فهذا شيء قد يهون، أما إذا كُشِفَ أمره أمام طلاب الصف كلهم فهذا

شيءٌ آخر يعني فضيحة صارخة، أما إذا كُشِفَ أمره في الباحة أمام ثلاثين شعبة فهذا شيءٌ أكبر وفضيحة تنتشر كالنار في الهشيم.

فُضوح الدنيا أهون، أنت ساكنٌ في مدينة، في حي من الأحياء هناكَ من يعرفك وهم قِلّة، أما على رؤوس الأشهاد إذ يقف هؤلاء الفُساق والفجارمواقف الخزي والعار:

((عَنْ أبي ذَرّ قالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللّهِ ألاَ تَسْتَعْمِلُنِي قالَ فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي ثُمّ قالَ يَا أبَا ذَرّ إنّكَ ضَعِيفٌ وَإنّهَا أمَانَةٌ وَإنّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إلاّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقّهَا وَأدّى الّذِي عَلَيْهِ فِيهَا))

(رواه مسلم وأحمد)

قال له يا أبا ذر إنها أمانة. سيدنا أبو ذر قال يا رسول الله استعملني " عيّنْ لي وظيفة " قال: **يا أبا ذر إنك ضعيف وإنني أحب لك ما أحب لنفسي إنها أمانة وإنها خِزيٌ وندامة يوم القيامة**، أبو موسى السهلي قال: إنني منافق، قال: **دعه يا عُمر فُضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة**، فالصابر كأنه يقول عالِجْني يا رب قبل أن أموت، يا رب لا تمتني حتى تطهرني من ذنوبي ومن عيوبي ومن أدْراني، فالإنسان العاقل يجتهد لتنقية نفسه من كل مرض، لأن الله عز وجل يقول:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

(سورة الشعراء)

إذاً: إنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب والآية التي تتحدث عن الصبر قوله تعالى:

(وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦))

(سورة الأنفال)

هذه معيّة خاصّة أم عامة ؟ إنها معيّة خاصّة ؛ لأنّ المعيّة الخاصّة تعني التأييد والنصر والتوفيق و الحِفظ، حيثما وردت في القرآن الكريم معيّة خاصّة، تعني التأييد والنصر والتوفيق و الحفظ.

(وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦))

وقال جلّ شأنه:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦))

(سورة آل عمران)

مع الصابرين بالرعاية والحفظ والتأييد والتوفيق، والله عزّ وجل يوفيهم أجورهم بغير حساب، والله يُحبهم ويوفيهم أجرهم بغير حساب وهو معهم بالحِفظ والرعاية والتأييد والتوفيق، لماذا يُحبهم ؟ لأنهم قبِلوا معالجته، أحياناً أنسب شيء هو معالجة المرض من دون مخدّر، أما إذا رفض هذا الإنسان وصاح وتكلم كلاماً قاسياً، عندئذٍ يضطر الطبيب أن يسلك معه الطريق الأطول الأخطرَ في العلاج، ربنا عزّ

وجل حينما يرى عبداً صابراً معنى ذلك أن هذا العبد قد رضي بمعالجةِ الله له وأن يستسلم لقضائه وقدره هذا هو معنى الصبر.

الصبر شيء عظيم، والإنسان الغربي من شدة بُعدهِ عن الله يقف في حياته موقفين: إما أن ينال ما يصبو إليه وإما أن ينتحر ؛ فإذا فقد الشيء الذي يصبر يصبو إليه إضافة لِبُعده عن الله، فإمّا أن ينال طِلبته وإمّا أن يصاب بأمراض نفسية إذا لم ينتحر ؛ أمراض الإحباطِ، الكآبةِ السوداوية، انفصام الشخصية، هذه كلها أمراض نفسية، أساسها إنسان تعرض لمصائب وهو لا يعرف الله عزّ وجل، والأمراض النفسية أساسها عدم معرفة الله عزّ وجل.

إذاً الخلاصة بتمامها: إيّاك أن تصبر لغير الله، فعندئذٍ ليس لك من أجر، فمثلاً قد يُضايقك شخص قوي متسلط وأنت صابر، فالله عزّ وجل يقول:

(وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤))

(سورة الرعد)

دخلتم الجنة، ووصلتم إلى أعلى درجة يتمناها كل إنسان على وجه الأرض، وصلتم إلى دار السلام، إلى جنةٍ عرضُها السماوات والأرض، وصلتم إلى سعادة الأبد، وصلتم إلى نعيم مُقيم، وصلتم إلى دارِ لا خروج منها ولا قلق فيها، ولا مرض، ولا منافسة، ولا تحاسد ولا...، ومن بعد فهذه الجنة مهيأة لك ما ثمنُها ؟ قال:

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ)

صبركم كان ثمن الجنة.

(سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ)

انظر إلى صبر المؤمن، فالمؤمن دائماً في صبر، على المَرَض صابر، مشكلة في بيته صابر، يُعامَل بقسوة صابر دَخْله قليل صابر، مُنغِّصات في عمله صابر، إنه يرى قدرة الله عزّ وجل والإنسان إذا كان بإمكانه أن يمنع عنه الأذى ولا يمنع عنه الأذى فهو عاصٍ وليس بصابر، الصابر إذا كُنت لا تستطيع أن تُزيل عنك هذا الأذى الصبر عند استنفاذ الجُهد.

هناك قضية مزعجة وبإمكاني أن أعالجها لأخوتي القرّاء الكرام، فقد يقول قائل: هذا الأمر أو البلاء من قضاء الله وقدره، فمن قال لك ذلك، إن كان من قضاء الله وقدره فالحلّ يتم بقضاء الله وقدره كذلك: فهذا سيدنا عمر عندما قدم إلى الشام أيام وجود الطاعون بها فامتنع عن دخولها فقيل له يا أمير المؤمنين: أتفِرُّ من قضاء الله ؟ قال: **نعم أفر من قضاء الله إلى قضاء الله،** وقال لو: كنتَ تملك قطيعاً

من الغنم، وهناك أرض مُجدِبة وأرض مُخصبِة، أين سترعى غنمك ؟ إن رعَيْتها بالأرض المجدبة فبقضاء الله وإن رعيتها بالأرض المخصبة فبقضاء الله أنا أفِرٌ من أرضٍ مُجدبة بقضاء الله إلى أرضٍ مُخصِبة بقضاء الله، هذا هو التفكير العلمي، فإذا أمكن علاج الابن عند طبيب فلا يجوز الاستسلام بحُجّةِ أنه صابر، لا. بل نقول له: أنت مُقصّر ؛ إذ ليس هذا هو قضاء الله عزّ وجل، فحينما لا تملك حيلةً فعندئذٍ أنت معذور.

ماذا قال النبي الكريم في الطائف:

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس))

لقد اجتهد حينما خرج من مكة إلى الطائف لعلهم يؤمنون لكنه شكا قلة حيلته، وأنت كإنسان تقف أمام بعض الأمور عاجزاً ؛ لكن إذا أمكنك الحركة فيجب أن تتحرك، إلا أنك حينما تفقد الحيلة يأتي دور فالصبر إذاً الصبر يأتي لمّا تنعدم الحيلة.

سيدنا عمر أشار إلى أن الصبر نِعمةٌ من نِعَمْ الله الكُبرى، كان إذا أصابته مصيبة قال: **الحمد لله ثلاثاً ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، والحمد لله إذ ألهمتني الصبر عليها**، لأن الله عز وجل يقول:

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧))

(سورة النحل)

(وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ)

وإليك الآية الثانية أيها القارئ الكريم:

(وَمَا تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ (١٢٦))

(سورة الأعراف)

سيدنا أيوب ثبتت فيه آية - سبحان الله - أتذوّق منها الشيء الكثير، لِمَ حدثنا ربنا على صبره قال في هذه الآية:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٣))

(سورة ص)

(إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

أحيانا يبعث الله لك بلاءً لِيَرَى موقفك هناك شخص حدثني عن حادثة وقعت له قال: أوقفت سيارتي في كراج وكانت في وضع مائل والمكبح غير مُحكم فتراجعت ودخلت في سيارة حديثة وجديدة فأصيبت السيارة الأخرى بأضرار في هيكلها، فتغيرت ملامح صاحبها وأخذ يشتم الذات الإلهية ويشتم الأنبياء، فلما أُخِذَتْ إلى مكان التصليح عالجها المصلِّح بيده فعادت كما كانت، فهذه الكلمات النابية القاسية تدل على جهله بالله عز وجل.

على كُلِ الإنسان.

(إنّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

فالله يمتحن الإنسان يُتلف له شيئاً من حاجياته، يُحبط له بعضاً من مساعيه، يفشل في بعض غاياته هو تحت المراقبة ! سيدنا أيوب ماذا كان وضعه:

(إنّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً)

أجمل موقف يقفه المؤمن حينما يتلقى خبراً سيئاً أن يقول: الحمد لله رب العالمين، يا رب لك الحمد هذه حِكمتُك وهذا قضاؤك وهذا قدرك وأنا راضٍ بحِكمتك، اللهم ألهمني الصبر، هذا أعظم موقف يقفه المؤمن لاتظنَنّ أن الإنسان أيا كان لن يتعرض لمواقف فيها امتحان، لكنه حينما يقول الحمد لله فقد نجح.

الإيمان كله صبر وبعض الأحاديث تقول:

((الإيمان نصفان ؛ نصف صبر ونصف شكر))

ثم أني وجدت حديثاً شافياً جداً:

((الإيمان هو الصبر))

في الأساس الجنةُ لها ثمنٌ، وثمنها أن الله عزّ وجل ركّبَ في الإنسان طبيعة، وكل التكاليف عكس الطبيعة، ركّبَ فيك حُبّ المال وأمرك بإنفاق المال وركّبَ فيك حُبّ الراحة وأمرك بصلاة قبل طلوع الشمس وركّبَ فيك فضولية في أخبار الناس وأمرك أن تسكت عن الغيبة والنميمة، لو تتبعت أوامر الشرع لوجدت أنك لن تستطيع تطبيقها إلا إذا خالفت طبيعة نفسك، إذاً الدين كله صبرٌ، فمن هو الكافر؟ هو إنسان ينساق مع شهواته ومع أهوائه ومع ميوله وحظوظه ومصالحه، ومن هو المؤمن ؟ هو الذي عاكس هواه وشهوته وميوله وحظوظه وطبّقَ منهج ربه.

فإذا أردت أن تقول لي: الدين كله صبر ؟، أقول لك: نعم الإيمان هو الصبر والسماحة، الصبر سَلْبي، السماحة إيجابية، أن تصبر عن المعصية، وأن تصبر على الطاعة، وأن تصبر على الأمر التكويني ثلاثة مناهل: صبر عن المعصية وصبر على الطاعة وصبر على الأمر التكويني، فلذلك من السذاجة أن تَظُنّ أنّ الفقير فقط عليه أن يصبر فمن قال لك هذا ؟ إذا كان صبر الفقير عن موضوع واحد فالغني أشد حاجةً إلى الصبر من الفقير لماذا ؟ لأنّ الغني يمتلك خيارات كثيرة جداً لغناه وسعة دنياه، مثلاً إذا قُلنا للضعيف: اصبر، فالحقيقة أنّ القوي أشد حاجةً ألف مرة للصبر من الضعيف لأنّ الضعيف قدرته ضعية، أما أن القوي بإمكانه أن يفعل كل شيء لكنه إن خاف من الله عز وجل لم يفعل شيئاً، فهذا الدليل:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ (٣٥))

(سورة الأنبياء)

(وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً)

بالخير أنت مُمتحَن بالمال مُمتحن بالقوة مُمتحَن بالشباب، ولقد أمضيت أكثر من شهرين فيما أذكر في خُطب جامع النابلسي أعالج موضوع الصبر ؛ يعني شهرين أو ثلاثة حول الصبر، والنتيجة أن الدين كُلُهُ صبر، فمثلاً الشجاعة صبر بينما الهروب انسجام مع حب الحياة، إن الجسم يحتاج إلى استلقاء وراحة، جاء للبيت مساءً مُتعباً أكل ونام، هكذا كثير من الناس، أما المؤمن فعليه صلاة العشاء ؛ أكل وتوضأ وصلى الفرض والسُنّة والوتر فهذا صَبَر نام، وفي الساعة الواحدة ليلاً والفراش وثير والجو شتوي والفراش دافئ وغدُة يومُ عطلة ؛ فسمع أذان الفجر، الآن سيَصْبِر على ترك الفراش وينهض للصلاة، لو تتبعت الأمور فأنت مُمتحن في كل لحظة، مرت امرأة جميلة وفي ثياب فاضحة أنتَ إذا نظرتَ إليها فقد انسجمت مع شهوتك إلى النساء، أمّا إذا غضضت بصرك عنها غضاً حازماً فقد عاكست شهوتك، إذاً أنت صابر فما هو الصبر ؟ مخالفة شهوات النفس وأنت مُكلف أن تصبر في كُل دقيقة.

قال بعض العارفين **إذا أقامك الله في مقام الشكر فكُنْ من الشاكرين، وإذا أقامك في مقام الصبر فكُنْ من الصابرين،** المؤمن في الرخاء شكور وفي الزلازل صبور، قانع بالذي له، لا يأخذ ما ليس له في الرخاء شكور وفي الزلازل صبور، العوام يقولون: إذا إنسان صَبَر ضاع أمره ؛ لا لم يضيع أمره بل أخذ كل شيء وحقق النجاح قال تعالى:

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْراً وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣))

(سورة سبأ)

فأنتَ بينَ الشُكر والصبر، لكن أيها الإخوة الأكارم لابُدّ من التنويه إلى أن المؤمن يجب أن يطلب من الله العافية، وهذا مأخوذ من رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ قَالَ سَلْ رَبَّكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ثُمَّ أَتَاهُ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ قَالَ سَلْ رَبَّكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ثُمَّ أَتَاهُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ فَقَالَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ أَيُّ الدُّعَاءِ أَفْضَلُ قَالَ سَلْ رَبَّكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَإِذَا أُعْطِيتَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ فَقَدْ أَفْلَحْتَ))

(رواه الترمذي)

اللهم إنا نسألك العفو والعافية والمعافاة الدائمة في الدين والدنيا والآخرة. وفي الطائف قال عليه الصلاة والسلام:

((إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولك العُتبى حتى ترضى لكن عافيتك أوسع لي))

عزيزي القارئ: سل ربك العفو والعافية في الدنيا والآخرة فإذا أعطيت العافية في الدنيا وأعطيتها في الآخرة فقد أفلحت ونجحت إن شاء الله.

في ختام هذا البحث إن الله جل جلاله صبور على عباده وإن عَصَوْهُ، وهو يوافق اسم الرحمن جلّ جلاله قد وسِعت رحمته كل شيء في الدنيا والآخرة والله يقول الحق وهو يهدي إلى صراط مستقيم .

٣٣- اسم الله الله:

مع الاسم الثالث والثلاثين من أسماء الله الحسنى، والاسم هو قول الله عزّ وجل في القرآن الكريم:

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩))

(سورة محمد)

" فاعلم أنه لا إله إلا الله "، هذه الكلمة هي كلمة التوحيد فالإسلام كله والإيمان كله والإحسان كله جُمِعَ في هذه الكلمة، والمسلمون يرددون هذه الكلمة ترداداً كثيرا في كل وقت، وفي كل مناسبة إلى درجة أنهم غفلوا عن معناها، وحينما نقول أنّ هذه الكلمة شعار الإسلام فمعنى ذلك أن الدين كله أساسه قائم على هذه الكلمات، ألم يقل المولى عز وجل:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥))

(سورة الأنبياء)

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ)

لا إله إلا الله فحوى رسالات الأنبياء جميعاً، فالشيء الدقيق هو أنْ تضغط دينا بكامله، وأنْ تجمع الأديان السماوية، وأنْ تجمع رسالات الأنبياء جميعاً في كلمات معدودة وكلمة التوحيد هذه "لا إله إلا الله" نرددها كل يوم عشرات المرات بل مئات المرات ولو عرفنا حقيقتها لكنا في حال آخر غير هذا الحال، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ))

أفضل ما قلت أنا والأنبياء من قبلي:" ولا إله إلا الله " ولا إله إلا الله حِصنٌ مَن دخلها أَمِنَ من عذابه، لا إله إلا الله كلمة التوحيد وينبغي أن نقف عند هذه الكلمة ولستوحي منها دروسا كثيرة، لكن بادىء ذي بدء نقف عند المعنى اللغوي لهذه الكلمة ؛ لا إله إلا الله، يقول علماء التوحيد: **" الله عَلَمٌ على الذات الكاملة، علم الواجب الوجود وهو الله،وفي الكون ممكن الوجود وهو ما سوى الله وفي الكون مستحيل الوجود "**، فالله عَلَمٌ على الذات الكاملة على واجب الوجوب، عَلَم على الخالق،عَلَم على البارىء المصورالمسير العزيز الجبار المتكبر، أسماء الله الحُسنى كلها جُمعت في لا إله إلا الله،عَلَم على الذات، بعضهم قال: (الله) اسم الذات الأعظم على كلٍ كلمة، (الله) لها بحث مُستقلّ، لكن إذا أردت أن تشير إلى الذات الكاملة، إلى الواجب الوجود المتصف بصفات الوجود وصفات الكمال وصفات الوحدانية فهو (الله):علم على الذات جُمعت أسماء الله الحُسنى كلها في كلمة الله لذلك يا الله، يا أرحم الراحمين أو (الرحمن الرحيم) أو (الله)، بعضهم قال: اسم الله الأعظم (الله) وبعضهم قال (الرحمن الرحيم)، وبعضهم قال أي اسم تهتز له وتتفاعل معه فهو اسم الله الأعظم، على كلٍ في هذه الكلمة لا إله

إلا الله، الله علم على الذات الواجب الوجود أي أسماء الله الحُسنى كلها مجموعة في (الله) وبعدُ فما معنى إله ؟

في المعجم جاء: أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَة وأُلوهَة وأُلوهِيَة يعني عَبَدَ عبادة فأَلَهَ بمعنى عَبَدَ الإله المعبود، لكن أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً أيْ تحَيّرَ، أَلِهَ إليه أيْ لَجَأَ إليه، هذه هي المعاني المستفادة من معنى أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَة وأُلوهَة وأُلوهِيَة أي عَبدَ، فعَبَدَ ليس معناها أطاع، بل أطاعَ ومُضافٌ إليها معنىً آخر: أطاعَ وأحبّ ؛ "فأطاع ولم يحب" فليست هذه عبادة ؛ وأحب ولم يطع فهذا مستحيل. فغاية الحب مع غاية الطاعة هي العبادة.

فأحب وأطاع بمعنى (عَبَدَ)، مَن المعبود؟ هو الله، بعض ما يقوله العلماء حول هذه الكلمة: **" لا معبود بحق إلا الله "**، من الذي يستحق العبادة ؟ هو الخالق، إذاً لا خالق إلا الله، من الذي يستحق العبادة ؟ هو الرازق، هو المُعطي، هو المانع هو الرافع هو الخافض هو المُعِزّ هو المُذِلّ هو الفعّال لِمَا يُريد هو العزيز هو الجبار هو القهار، فإذا قُلت لا إله: لا معبود ؛ من هو المعبود ؟ هو الجبّار، مَن هو المعبود؟ هو القوي. من هو المعبود ؟ هوالمسيّر، من هو المعبود ؟ هو الخالق هو البارىء المصور الرازق المانع هو المعطي الرافع والخافض، فالذي يستحق العبادة هو الرازق، إذاً (لا إله): أي لامعبود لا رازق إلا الله فإذا قُلت لا إله إلا الله أيْ لا مُعطي ولا مانع ولا رافع ولاخافض ولا مُعِزّ ولا مُذِلّ ولا رازق ولا وهّاب ولا مُغْنٍ ولا مُبْدٍ ولا مُعيد كُلُ الأسماء الحُسنى إذا جُمعت هي الله ؛ أيْ هو المعبود.

إذاً: أَلَهَ يَأْلَهُ إِلَهَة وأُلوهَة أي عَبَد يَعبُد والعبادة هي غاية الخضوع مع غاية الحب ولن تُحب ولن تُطيع إلا إذا عرفت الله عزّ وجل فالعبادة ثلاث مراحل: معرفة وطاعة مع حب وسعادة.

المعنى الثاني: أَلِهَ، الأولى مضت وهي أَلَهَ، الثانية أَلِهَ ونحن بصددها الآن، أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً أيْ تحَيّرَ، الإنسان يتحيّر بمَن ؟ بالصغير أم بالكبير؟ بالجليل أم بالحقير؟ بالغني أم بالفقير ؟ فالتحيُّر من معاني العظمة تَحار به الألباب تَحارُ به العقول تَحارُ به النفوس تَحارُ به الأفئدة، إذاً من جهة هو معبود، فلماذا هو معبود ؟ لأنه خالق، ولماذا هو معبود ؟ لأنه رازق، لماذا هو معبود ؟ لأنه فعّال، لماذا هو معبود ؟ لأنه قوي، لماذا هو معبود ؟ لأنه مُحيي ومُميت، مُعِزّ ومُذِلّ...إلخ هذا المعنى الأول.

المعنى الثاني: لماذا هو معبود؟ عظمته تَحارُ فيها العقول أَلِهَ يَأْلَهُ أَلَهاً أيْ تحَيّرَ.

والمعنى الثالث: أَلِهَ إليه أي لجأ إليه يعني لا ملجأ لك أيها الإنسان إلا (الله)، فمعنى لا إله إلا الله لا معبود ولا عظيم ولا ملجأ إلا الله، طبعاً الإله هو الله لكن هذه اللام نافية للجنس، ما الفرق بين اللام النافية للجنس واللام النافية نفياً عادياً ؟

قد تقول مثلاً: لا طالبَ في الصف بل طالبة، فجنس الذكور ليس موجوداً أما إذا قلت لا طالبٌ في الصف بل طالبان، في الحالة الثانية نفيت أنت ماذا ؟ نفيت المُفرد، فاللام التي تنفي المفرد تُسمى اللام الحجازية، أما اللام التي تنفي الجنس تُسمى اللام النافية للجنس، فإذا قال لك أحدهم هل عندك خُبزٌ ؟

فقلت: لا خبزَ عندي، فالمقصود لا خبز ولا قمح ولا طحين ولا أي شيء من أنواع القمح لا خبزَ عندي بل لحم أما لا خبزٌ عندي فقد نفيت المفرد وقد يكون عندك أجناس القمح أما الخبز نفيته وحده.

إذاً (لا إلهَ) تنفي أن يكون في الكون إله غير الله عزّ وجل بعض العلماء قال: المعنى الأول قاله ابن عباس رضي الله عنه لا إله إلا الله أيْ لا نافع ولاضار ولا مُعِزّ ولا مُذِلّ ولا مُعطيَ ومانعَ إلا الله، هذا التفسير لابن عباس رضي الله عنه، وبعضهم قال: " لا إله يرجى فضله ولا إله يُخاف عدله ولا إله يُؤمن جَوْرُه ولا إله يُؤكل رزقه ولا إله يترك أمره ولا إله يُسأل مغفرته ولا إله يرتكب نهيه ولا إله يحرم فضله إلا الله الذي هو رب المؤمنين وغفار ذنوب المؤمنين وملجأ المؤمنين وستار المخطئين غاية رجاء الراجين ومنتهى مقصد العارفين ".

أنا أتمنى من الإخوة القرّاء الأكارم أن يتحققوا ويتوقفوا مليّاً عند هذه الكلمة، فهي كلمة الإسلام الأولى، هذه كلمة التوحيد، الدين كله مجموع في هذه الكلمة، قال بعضهم: (لا إله إلا الله) إشارةُ المعرفة والتوحيد بلسان الحمد والتسديد إلى الملك الحميد، أجل ؛ إشارة المعرفة والتوحيد.

تعلمون أنّ نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل التقوى، أنت إذا وحّدتَ واتقيت ملكت زمام أمرك، والحقيقة عندما تُوحّد أو تستقيم فلن تشعر أن هناك جهات أخرى تملك أمرك وإنك موزّع بينها جميعاً. فمتى توحِّد وجهتك إلى الله عزّ وجل؟ ومتى تعبده وحده ؟ متى تُطيعه وحده ؟ متى تُقبل عليه وحده ؟ متى ترجوه وحده ؟ متى تخافه وحده ؟ متى تطمع بعطائِهِ وحده ؟ إذا أيقنت أنه لا إله غيره.

قضية دقيقة جداً ما دام هُناك شعور بوجود جهة في الأرض بإمكانها أن تنفعك أو أنّ جهة أخرى بالأرض بإمكانها أن تضرك، فأنت في هذه الحالة لن تستطيع أن تعبد الله وحده، لذلك الله عزّ وجل لم يأمُرْكَ أن تعبده إلا بعد أن طمْأنك أنّ الأمر كله عائد إليه فلا إله إلا الله لك أن تفهمها على النحو التالي: الإله هو المعبود، ومن الذي يعبد الخالق:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١))

(سورة البقرة)

إذاً (لا إله إلا الله) أي لا معبود بحق إلا الله من الذي ينبغي أن يُعبد ؟ هو الرازق، من الذي ينبغي أن يُعبد ؟ هو المُعطي والمانع والرافع والخافض والمُعِزّ والمُذِلّ والقوي والقهّار والجبّار، فكُلُّ الأسماء الحُسنى بمجموعها تدل على أن صاحب الأسماء الحُسنى يستحق العبادة فهو المعبود هذا هو المعنى الأول.

أَلِهَ يَأْلَهَ أَلَهاً تحيّر، عظيم: الله عزّ وجل لا نهاية لقوته مهما عرفت عنه فهو أعظم، لا نهاية لجبروته لقوته لجماله لرحمته لعدالته لحبه لعباده أيْ منتهى النهايات هو الله سبحانه وتعالى.

والمعنى الثالث: لا ملجأ لك إلا الله ألِهَ إليه أيْ لجأ إليه وقال بعضهم: (لا إله) للرغبة إذا رغبت فالله وحده هو الذي ينبغي أنْ ترغب فيه و(لا إله) للرهبة إلا الله وإذا خِفت فينبغي ألاّ تخاف إلا الله، فإذا حدّثتك نفسك أن تخاف فليس في الكون كله جهة ينبغي أن تخاف منها إلا الله، وإذا حدّثتك نفسك أن تُحب فهناك في الكون أشياء جميلة وهناك أشخاص وهناك نساء وهناك أماكن وهناك بيوت وهناك مركبات إذا حدّثتك نفسك أن تُحب شيئاً ينبغي ألاّ تُحب إلا الله.

هذا المعنى الرابع أي لا إله للرغبة إلا الله ولا إله للرهبة إلا الله، فهو الذي يكشف الكُربة والدليل ما قاله النبي عليه الصلاة والسلام: " لا يخافنّ العبد إلا ذنبه ولا يرجُوَنّ إلا ربه " فحَالَة التوحيد مع المؤمن حالة مريحة، بالعكس حالة التوحيد هي الصحة النفسيّة وخِلاف التوحيد مرض فحينما يشعر شخص أن إنساناً من بني جلدته أمْره بيده وهو لا يُحبه وهو يتمنى تحطيمه هذا الشعور وحده شعور مَرَضيّ، شعور يسحق، شعور مُدمّر، أنت إذا أيقنت أن أمرك بغير يد الله عزّ وجل فهذا اليقين وحده يكفي لِسحق الإنسان، فينبغي إذا أردت أن تُحب ألاّ تُحب إلا الله وإذا راودك خوف فلا تخف إلا من الله وإذا أردت أن تعتمد على جهة فلا ينبغي أن تعتمد إلا على الله وإذا أردت أن تثق بجهة فلا ينبغي أن تثق إلا بالله.

كلمة معبود، تكفي لا معبود بحق. علماء السلف الصالح ضغطوا كل هذه المعاني بكلمة معبود، الذي يستحق العبادة، هل يستحق العبادة إنسانٍ فانٍ ؟ إنسان سَيَموت ؛ إنسان كان في العَدَم ثم حَدث ثم سيَنْتهي إلى عدم هذا لا يستحق العبادة.

رُوي عن عمران بن حصين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لي - قبل أن يُسلم - يا حصين كم تعبد من إله ؟ فقال أعبد ستاً أو سبعاً في الأرض وواحداً في السماء فقال عليه الصلاة والسلام وأيهم تعبد لرغبتك ورهبتك ؟ فقال الذي في السماء فقال عليه الصلاة والسلام فيَكْفيكَ إله السماء.

لا تحتاج أنت إلى آلهة الأرض، هذا هو سبب الصحة النفسية، فالإنسان أمره كله بيد جهة واحدة يسعى إليها، يُرضيها يخافها، يرجوها يُطيع أمرها، ثم قال يا حصين لو أسلمْتَ علّمتك كلمتين يَنفعانك فأسلمَ حصين ثم قال يا رسول الله علّمني هاتين الكلمتين؟ فقال اللهم ألهمني رشدي وأعذني من شر نفسي، ونص الحديث:

((عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأَبِي يَا حُصَيْنُ كَمْ تَعْبُدُ الْيَوْمَ إِلَهًا قَالَ أَبِي سَبْعَةً سِتَّةً فِي الأَرْضِ وَوَاحِدًا فِي السَّمَاءِ قَالَ فَأَيُّهُمْ تَعُدُّ لِرَغْبَتِكَ وَرَهْبَتِكَ قَالَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ قَالَ يَا حُصَيْنُ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَسْلَمْتَ عَلَّمْتُكَ كَلِمَتَيْنِ تَنْفَعَانِكَ قَالَ فَلَمَّا أَسْلَمَ حُصَيْنٌ قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِيَ الْكَلِمَتَيْنِ اللَّتَيْنِ وَعَدْتَنِي فَقَالَ قُلِ اللَّهُمَّ أَلْهِمْنِي رُشْدِي وَأَعِذْنِي مِنْ شَرِّ نَفْسِي))

(رواه الترمذي)

هذه بعض معاني كلمة لا إله إلا الله.

هناك موضوع لطيف حول هذه الكلمة، كلمة التوحيد، فلو أننا جمعنا الأحاديث التي تتحدث عن فضل لا إله إلا الله وهناك أحاديث كثيرة جداً كما أن هناك آثاراً عند السلف الصالح كثيرة جداً، طبعاً كما قلت في بداية البحث لا إله إلا الله لا يسبقها عمل ولا تترك ذنباً، كيف ؟ ننظر بالشِرك، فقبل أن تتحقق من أنه لا إله إلا الله أنت في حياتك آلهة كثيرة دعْك مما ينبغي أن يُقال في العالم الإسلامي، كُن مع الحقيقة هناك شخص مثلاً توحيده ضعيف في حياته، أشخاص كثيرون لهم تأثير عليه فإذا توجّه إليهم وسعى إلى إرضائهم وخاف من غضبهم وعلّقَ عليهم الآمال فهذا هو الشِرك، فإذا كنت ترجو زيدا وتخشى عُبيدا وتطمع بما عند فلان وتخاف من عِلاّن فالعمل الصالح الخالص لن يكون لله عزّ وجل.

لا يسبقها عمل، قبل أن تؤمن بلا إله إلا الله عملك مَشوبٌ بالشِرك ترجو غير الله وتخاف غير الله وتُعلّق الأمر على غير الله، وإذا تحققت منها لا تترك ذنباً، لماذا تعصي الله من أجل أن يرضى عنك زيد ؟، فَزَيْد بِيَدِ الله.

ولا أعتقد أن أحداً من القراء الكرام يخفى عليه ما رويته من قبل من أنّ أحد خلفاء بني أمية وهو يزيد بن معاوية أصدر توجيها إلى والي البصرة، وكان عند هذا الوالي حين وصل التوجيه الحسنُ البصري وهو من كبار التابعين فجاء التوجيه مخالفاً لِما ينبغي أن يكون، مخالفاً للحق فوقع الوالي في حيرة من أمره ! هذا الوالي قال للحسن البصري، ماذا أفعل ؟ أجابَهُ بكلمة واحدة تتلخص بكامل التوحيد، قال له **" اعلم أن الله يَمْنَعُك من يزيد، ولكن يزيداً لا يمنعك من الله "**.

إذاً هو المعبود فأنت حينما ترى إنساناً يعصي الله ليُرضي فلاناً ويُقصّر في أعماله الصالحة ليُرضي زيداً ويقترف الآثام ليُرضي عبيداً هذا توحيده ضعيف جداً، إذاً في الحياة اليومية أشخاص يراهم آلهة يراهم يستحقون العبادة ويستحقون الطاعة و يستحقون الخضوع ويستحقون الحب فما هو التوحيد ؟ أن تتخلص مما سِوى الله عزّ وجل مُطلقاً، لا حباً ولا كراهية ولا خوفاً ولا طمعاً ولا أملاً ولا إرضاءً.

أفضل الذِكر لا إله إلا الله، فالعدوٌ لما جاءته المِحنة فَزِعَ إلى هذا الذِكر، من هو هذا العدوّ ؟ فرعون، حينما أدركه الغرق فَزِعَ إلى كلمة التوحيد قال " آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل " أحياناً الكافر باعتبارأن بين يديه أوراقاً رابحة كثيرة ومنها أن ماله ينقذه، مركز قوي يُنْقذه، أتباعه يعينونه، فهؤلاء كلهم في نظره آلهة، فحينما يُقدّر الله له شيئاً كريهاً وكل هذه الآلهة التي توهّمها لا تستطيع أن تفعل شيئاً عندئذٍ يُسْقط في يده ويندم ويقول: لا إله إلا الله.

قد يظن الإنسان أن المال كل شيء في مقتبل حياته لكنه كلما امتد به العمر يرى أن حجم المال يصغُر إلى أن يُعِدّهُ شيئاً، ولكن ليس كل شيء فإذا جاء الموت لا يرى إلا الله وأن هذا المال عاريّة مستردَّة وأنّ الله ملّكه إياه ليتقرّب إليه،

أريد أن أوسع معنى الألوهية قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً (٤٣))

(سورة الفرقان)

" أرأيت من اتخذ إلهه هواه " إذا أحببت شيئاً وعصيت الله من أجله فقد عبدته، والعوام يقولون تزوج فتاة يعبدها، ما معنى يعبدها ؟ يُحبُها ويثق بها وَيْمَحضها كل إخلاصِهِ فيه وكل طاعته ولو أمرته بمعصية فالعِبادة كما أقول دائماً غاية الحب مع غاية الطاعة فإذا مَنَحت تلك الطاعة وذاك الحب لغير الله عزّ وجل فذاك هو الجهل، ولذلك فحينما قالوا: نهاية العلم التوحيد، فعندها ترى أن كل الخلق دُمىً يحركها الله عزّ وجل:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٦))

(سورة هود)

فقال إنّ هذا العدو، عدو الله عزّ وجل حينما أدركه الغرق لجأ إلى الله وقال:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آَمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آَمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠))

(سورة يونس)

أمّا ولي الله سيدنا يونس حينما ابتلعَهُ بطنُ الحوت ودخل في ظلمات ثلاث قال تعالى:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(٨٧))

(سورة الأنبياء)

لماذا قُبلت هذه الكلمة من سيدنا يونس ولم تُقبل من فرعون ؟ كلاهما في المحنة قال: لا إله إلا الله، العلماء قالوا: " فرعون ما عَرَفَ الله قبل المحنة لذلك ما نفعته عند المحنة، سيدنا يونس عَرَفَ الله قبل المحنة فلما جاءت المحنة نفعته هذه الكلمة هذا أول فرق "، فرعون ماذا قال:

(فَحَشَرَ فَنَادَى (٢٣) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى (٢٤))

(سورة النازعات)

أما يونس نادى وهو مكظوم:

(فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤))

(سورة الصافات)

عزيزي القارئ إني أدعوك لتلاحظ، جميع الناس، فحينما يقع أحدهم في مأزق، أو يعاني من مرضٍ عُضال، أو يتعرض لمشكلةٍ كبيرة أو أمامه شبح مصيبة، ينسى كُلَّ الشركاء ويتجه إلى الله وحده، فليته

عرف هذه الحقيقة وهو في الرخاء! أما حينما تداهمه المصيبة وحينما تحدق به مد لهمات الأمور وحينما يُسْقَط في يده فهو لا يرى إلا الله.

حدثني أخ صديق أنّ طائرة تُقِلُّ خبراء من بلاد ترفع شعار "لا إله" أي ؛ الله غير موجود، مُلحِدون، فهذه الطائرة مرت بسحابة مكهربة وفي أجواء هوائية عاصفة وفي طقس قاسٍ فصار بعضهم يقول يا الله، والقرآن ذكر ذلك الإنسان الذي إذا ركب البحر وهاج البحر وماج وأصبحت السفينة العظيمة كأنها ريشة في مهب الرياح فعندئذٍ ما رأى إلا الله، إذاً فواقعياً أنّ المؤمن يرى أن الله وحده بيده كل شيء هذا يؤكده قوله تعالى والآية دقيقة الدلالة جداً:

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣))

(سورة الشورى)

لنتساءل الآن: بيَدِ مَن كانت الأمور؟ كانت بيد الله ولا تزال بيد الله وهي دائماً بيد الله ولكن أهل الدنيا المُعرِضون يرَوْن الأمر بيد غير الله، أما المؤمن وهو في الدنيا يرى دائماً أن الأمر بيد الله، لذلك ماتعلّمت العَبيد أفضل من التوحيد.

هناك شيءٌ آخر: وهو أنّ سيدنا يونس قال " لا إله إلا أنت سبحانك" كلمة (أنت) يخاطبه وجهاً لوجهٍ، أما فرعون فماذا قال: " لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل "، سيدنا يونس قال: "لا إله إلا أنت" وكأنه يرى الله معه، أما فرعون سمع أنه يوجد إله لموسى بيده كل شيء فلما شرع في الغرق شعَر أن إله موسى هو الذي أغرقه فقال " آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل "، فذِكرُ ضمير الغائب دليل على أنه غير مُتحقق، لذلك اِعرفني في الرخاء أعرفْك في الشِدّة، قُبلتْ (لا إله إلا الله) من سيدنا يونس لأنه كان من المُسبحين ولم تُقبل من فرعون لأنه لم يكن من المُسبحين.

حينما تقع في محنة مهما كان مستوى إيمانك ومهما كان نوع عقيدتك ومهما كان مستوى توحيدك تقول: يا الله، لكن إذا كان إيمانك قبل المحنة عظيماً تقول يا الله لا إله إلا أنت، لك عنده رصيد، لك عنده سابقة عمل صالح، لك عنده معرفة برحمته، لك عنده معرفة بعَفوه بقُدرَته بحُبِّهِ، قال العلماء:

فرعون حينما ذكر هذه الكلمة (لا إله إلا الذي آمنت به بنو اسرائيل)ما قالها تعبداً بل قالها من أجل خلاصِه، شتّان بين من يضطر إلى الإيمان بالله وبين من يؤمن بالله طواعية.

إن كل إنسان يعلم أن العالم كان مقسوماً إلى شرق وغرب وإلى أُمم تقدّس الفرد وإلى أُمم تقدّس المجموع كِلا الفريقين تطرّفا وعادا إلى الوسط، والإسلام وسَطي لم يعودا إلى الإسلام إيماناً به ولا اعتقاداً بأنه منهج الله عزّ وجل ولكن طبيعة الظروف التي رافقت هذا التطرف ألجأتهم إلى الوسَطيّة، فالذين آمنوا بالفرد إيماناً مطلقاً على حِساب المجموع اضطروا أنْ يعودوا إلى حقوق المجموع، والذين

آمنوا بالمجموع على حِساب الفرد اضطروا إلى أن يرعوا حقوق الفرد، إذاً عادوا إلى الوسط هذا معنى قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(١٤٣))

(سورة البقرة)

"وكذلك جعلناكم أمة وسطاً "، ففِرعون حينما قال:لا إله إلا الله قبل أن يغرق قالها ليتخلّص من الغرق، هذا يُفسّر لنا أن بني إسرائيل حينما خرجوا من البحر رَأَوْا قوما يعكُفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ؟ ألم تروا أن البحر أصبح طريقاً يبَساً قال العلماء: إنهم آمنوا بموسى ليتخلصوا من فرعون، إيمانهم مشوب بمصلحة لذلك أرقى أنواع الإيمان أن تؤمن بأن الله عزّ وجل هو الخالق ويستحق العبادة، هذا ما قالته رابعة العدوية: **" إلهي ما عبدتك خوفاً من نارك ولا طمعاً في جنتك ولكنني رأيتك أهلا للعبادة "**

وما مقصودهم جنات عدن ولا الحور الحسان ولا الخيام

سوى نظر الحبيب فذا مُناهم وهذا مطلبُ القومُ الكرام

قال بعضهم إن كل الطاعات يرفعها مَلَكٌ إلى رب العِزة إلا كلمة لا إله إلا الله فتصعد وحدها وهذا معنى قوله تعالى:

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠))

(سورة فاطر)

هناك نقطة دقيقة الدلالة جداً مرت معي في حديث شريف - وقد ذكرته سابقا - " من ازداد علما ولم يزدد هدىً " - كأنّ هناك خطّ العلم وخط الهدى - خط العلم أن تقرأ كتاباً وتفهمه وتستوعبه وتحفظه، أن تستمع إلى محاضرة وأن تقف عند دقائقها وخطوطها الرئيسة والأدلة التي قيلت حول أفكارها، هذا هو العِلم: أن تقتبس معلومات، حقائق، أفكار، تصورات قناعات، فما هو الهدى إذاً ؟ من ازداد علماً ولم يزدد هدىً، خط الهُدى مُقصّر عن خط العِلم كأن الهُدى أن تعرف أن الله سبحانه وتعالى: لا إله إلا الله، لا إله إلا هو، أنْ توحده وتعبده، يمكن أن أقول لكم الدين كله أن توّحد الله وأن تعبده. في القرآن وردت قصص أنبياء كثيرين " وكلهم يول لومه أن اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ":

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ(٧٣))

(سورة الأعراف)

هذه الآية وردت مكررةً عشر مرات أو أقل: " اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ "، فصار ديننا أن تؤمن أنه لا إله إلا الله وأن تعبده، نهاية العلم التوحيد ونهاية العمل طاعة الله عز وجل.

روي في الأثر أن العبد إذا قال: لا إله إلا الله أعطاه من الثواب ما كان مقسوماً لكل كافر وكافرة من الجنة لو أنهما لم يكفرا، والسبب أنه عندما قال هذه الكلمة فكأنه قد رد على كل كافر وكافرة فلا جرم أن يستحق الثواب ماذا أمرنا الله عزّ وجل بالقرآن ؟

(فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩))

(سورة محمد)

" فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ " والعِلِم يقتضي البحث والدرس واليقين والتدقيق والتمحيص واستحضار الأدلة وانتهاء بقناعة ثابتة، أما الذي يبقى علمه في ترددٍ وفي شك فهذا ليس علماً:

(إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥))

(سورة الحجرات)

بعضهم قال في تفسير:

(حم (١) عسق (٢))

(سورة الشورى)

قال: الحاء حلمه وحكمه وحجته، والميم ملكه ومجده، والعَين عظمته وعلوه وعزته وعلمه وعدله، والسين سناؤه وسره، والقاف قهره وقدرته، يقول الله تبارك وتعالى: بحلمي وحكمتي وحجتي ومجدي وملكي وعظمتي وعدلي وعلمي وعزتي وعلوي وسري وثنائي وقدرتي وقهري لا أعذب في النار من قال لا إله إلا الله، لماذا لا يعذب ؟ لأنه عرف أن الأمر كله بيد الله عزّ وجل فاستقام على أمره،خلاصة هذا الدين أن عرف أن الأمر كله راجع إليه.

بالمناسبة أذكر للقراء الكرام بعض آيات التوحيد فهناك في القرآن آيات في التوحيد رائعة في الدلالة والبيان فمنها قوله تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣))

(سورة هود)

وقوله تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٦))

(سورة آل عمران)

" بيدك الخير إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " هذه الآية دليل على فكرة دقيقة جداً أنه لا يوجد في الكون شرُ مُطلق ومعنى الشر المُطلق الشر المُراد لذاته. أيضاً:

(بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦))

(سورة الزمر)

وقوله تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٧))

(سورة الأنفال)

وقوله تعالى:

(أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤))

(سورة الأعراف)

(الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل) أيُّ شيءٍ خَلَقَه أمره عائد إليه. وقوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١))

(سورة الإخلاص)

وقوله تعالى:

(وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٢٢))

(سورة العنكبوت)

وقوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً(١١٠))

(سورة الكهف)

وقوله تعالى:

(وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٢٢))

(سورة لقمان)

وقوله تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤١))

(سورة الرعد)

وقوله تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣))

(سورة هود)

وقوله تعالى:

((مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

(سورة فاطر)

وقوله تعالى:

((أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ(٦٣))

(سورة النمل)

وقوله تعالى:

((وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤))

(سورة الزخرف)

ومن الأحاديث:

((عَنْ طَلْحَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ كَرِيزٍ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَفْضَلُ الدُّعَاءِ دُعَاءُ يَوْمِ عَرَفَةَ وَأَفْضَلُ مَا قُلْتُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ))

(موطأ مالك)

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

(رواه الترمذي)

فإذا الإنسان قام بجمع الآيات التي في التوحيد وحفظها فهذا كنز قرآني كبير يبُث في المرء الاطمئنان، ويدرأ بعيداً أسباب الخوف دائماً فلا يشعر أن جهة في الأرض يمكن أن تلحق به الأذى وإذا شعر أن الله وحده بيده كل شيء وهو رحيم غني ودود قدير عليم فهذا الشعور مُسعد ومُطمئن.

من فوائد هذه الكلمة أن النبي عليه الصلاة والسلام فيما رواه ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة عند الموت وكأني أنظر إلى أهل لا إله إلا الله عند الصيحة ينفضون شعورهم من التراب يقولون الحمد الله الذي أذهب عنا الحزن ".

إذاً فالشيء المخيف جداً وهو القبر تحت التراب، الشيء المخيف حقاً الوحشة والغربة في القبر، ألم يقل المولى عز وجل:

((النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦))

(سورة غافر)

من ستة آلاف سنة: يعرضون عليها غدواً وعشياً، أما أهل (لا إله إلا الله) فلا وحشة في قبورهم، والقبر المُخيف يغدو روضة من رياض الجنة، لماذا ؟ لأنهم عرفوا الله فاستقاموا على أمره، ووحّدوه فاستقاموا على أمره.

كثيراً ما كنت أضرب المثل التالي: دخلت إلى دائرة حكومية فيها مئة موظف ومعك معاملة، لن يستطيع أحد أن يكتب لك موافق وتأخذ ثمار هذه المعاملة إلاّ المدير العام فهل يمكن أن تتجه لمن سواه؟ كأنْ ترجو آذِناً أو أن ترجو موظفاً بسيطاً ؟ مادامت صلاحية التوقيع للمدير فقط فأنت تتجه إليه وحده، وذكرت وما أكثر ما ذكرت لكم سابقا أن الله قال:

(إِنّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً(٤٨))

(سورة النساء)

ومن الممكن أن يكون لك مبلغٌ كبيرٌ في مدينة، وأن تركب القطار الذي يوصلك للمدينة ويمكن أن ترتكب ألف غلطة في القطار، لكن القطار في طريقه إلى المدينة وسوف يصل في الوقت المحدد وسوف تقبض هذا المبلغ، قد تركب في الدرجة السادسة وتكون ابتعت بطاقة من الدرجة الأولى قد تختار عربة فيها شبان أخلاقهم شرسة، قد تركب في جهة مخالفة لجهة سير القطار هذا ممكن ! قد تُحِس بالجوع الشديد ولا تدري أنه في بعض القاطرات مطعم، هذه كلها غلطات ولكن القطار في طريقه للمدينة وسوف يصل في الوقت المناسب وسوف تقبض هذا المبلغ.

إذاً: " إِنّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا " لكن هناك غلطة لا تُغتفر كأن تتجه إلى قطار خط سيره باتجاه معاكس ولا يوصلك إلى هذه المدينة المطلوبة، أو قطار متوقف لا علاقة له بالحركة إطلاقاً، هُنا المشكلة فالشِركُ بالله خطير، فلماذا خطير؟ لأنك تتجه لِمَا سِوى الله عزّ وجل، وما سِوى الله لن يغني غنك شيئاً ن فلماذا الإيمان إذاً عظيم؟ لأنك تتجه لمن بيده كل شيء.

إذاً: إذا أردتم أعزائي القراء الكرام التفصيل ففصلوا، و إذا أردتم الإيجاز فأوجزوا الإيجاز " لا معبود بحق إلا الله "، لا يستحق أحد أن تعبده إلا الله ولا إله إلا الله نهايةُ العلم، وطاعتُه نهايةُ العمل:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ أَوْ يُمْسِي اللّهُمّ إِنّي أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ وَأُشْهِدُ حَمَلَةَ عَرْشِكَ وَمَلائِكَتَكَ وَجَمِيعَ خَلْقِكَ أَنّكَ أَنْتَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ وَأَنّ مُحَمّدًا عَبْدُكَ وَرَسُولُكَ أَعْتَقَ اللّهُ رُبُعَهُ مِنَ النّارِ فَمَنْ قَالَهَا مَرّتَيْنِ أَعْتَقَ اللّهُ نِصْفَهُ وَمَنْ قَالَهَا ثَلاثًا أَعْتَقَ اللّهُ ثَلَاثَةَ أَرْبَاعِهِ فَإِنْ قَالَهَا أَرْبَعًا أَعْتَقَهُ اللّهُ مِنَ النّارِ))

(رواه أبو داود)

" ما من عبد يقول أربع مرات اللهم إني أشهدك وكفى بك شهيدا وأشهد حملة عرشك وملائكتك وجميع خلقك وإني أشهد أنك لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأشهد أن محمداً عبدك ورسولك إلا كتب الله له به عتقاً من النار "

ينقذه من النار، في الحقيقة بالعصور الأخيرة صرت تسمع كلاماً ليس له معنى، وصارت هناك شهادات مزوّرة، أما في الأصل حينما تشهد أنه لا إله إلا الله فهذا تراه رؤية حق وتؤمن إيمان صدق به وعندئذٍ تُطبّق أمَرالله عزّ وجل، وإذا كان آخر الزمان لم يكن لشيء من طاعة الناس فضل كفضل لا إله إلا الله لأن صلاتهم وصيامهم يشوبها أنواع من الرياء والسمعة ولا إخلاص في شيء منها، أما كلمة لا إله إلا الله فهي ذِكرُ الله والمؤمن لا يذكرها إلا من صميم قلبه، هذه من فوائد لا إله إلا الله والحقيقة أن الإنسان كي ينال شهادة علمية فلابُدّ من أن يبذل جهداً ملموساً ولذلك، فالكي يتحقق من هذه الكلمة فلابُدّ من بذل جهد وعناء فإنسان بدون جهد ومن دون تضحية بجزء من وقته الثمين ومن دون متابعة و تأمل وبحث فلن يصل إلى الإيمان بهذه الكلمة وإن لم يؤمن بها حقاً فعمله مشوب بالشِرك:

(قُلْ إِنْ كَانَ آَبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤))

(سورة التوبة)

فالإنسان متى يعصي الله عز وجل؟ إذا رأيت شيئا دون رضاه هو أثمنُ من رضاه، فمثلاً مَن يقول (الله أكبر) ويعصي ربه كأن أطاع زوجته وعصى ربه فرؤيته القلبية أنّ رضاها أثمن من رضى الله عزّ وجل، حينما تُؤْثِر شيئاً مما سوى الله على طاعة الله فأنت ترى هذا الشيء أكبر من الله لأنك جعلت إرضاء الله في الدرجة الثانية، وإرضاء هذا الشخص عندك أحق وأولى، فكلما تحقق الإنسان من كلمة لا إله إلا الله انضبط عمله واستقامت رؤيته وصحت.

كلمةُ التوحيد هذه، هي شِعار الإسلام، وهذه الكلمة التي يقولها الإنسان إذا دخل في الإسلام (لا إله إلا الله محمد رسول الله) فيها التوحيد والإيمان بالرسالة ثم الطاعة والإيمان بأنه لا إله إلا الله والإيمان برسالة النبي صلى الله عليه وسلم ثم عبادة الله من خلال طاعة الله ورسوله ثم يستقيم على ذلك ما عاش، فهذا هو الدين.

بقيت لدينا في البحث نقطة ذات بعد عملي تتلخص في السؤال التالي:

إذا رأيت المُستقيم قد أكرمه الله ورأيت المُرابي محَقَه الله ورأيت المُنحرف المُعتدي دمّره الله وإذا رأيت أن هناك أفعالاً مؤداها العدالة فهذا شيء يمكن أن يُرسّخ إيمانك(بلا إله إلا الله) فإيماننا يزداد

بهذه الكلمة عن طريق التفكّر في الكون أولاً وعن طريق تدبُر آيات الله ثانياً وعن طريق النظر في أفعال الله ثالثاً.

إلا أن التحفُّظ في آخر هذا البحث هو: أن الله سبحانه وتعالى جعل الدنيا دار عمل وجعل الآخرة دار جزاء، أما إذا جازى المسيء في الدنيا فهذا جزاء ردعي لبقية المسيئين وإذا أكرم المُحسن فهذا إكرام تشجيعي لبقية المُحسنين لكن الحساب الكامل نجده في قول الله تبارك وتعالى

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُور(١٨٥))

(سورة آل عمران)

٣٤- اسم الله النور :

مع الاسم الرابع والثلاثين من أسماء الله الحسنى، والاسم هو النور، النور من أسماء الله الحسنى التي وردت في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الصحيحة.

في اللغة النور هو الضوء أياً كان، لا نحب أن ندخل في تفسير النور العلمي الذي يعني:**" إشعاع "**، تفاعل في بنية الذرة، موجات تخرج من الذرة إلى الفضاء، وكيف أنّ الجسم إذا سارَ بسرعة الضوء أصبحت كتلته صفراً وحجمه لا نهائي، هذه موضوعات في الفيزياء لها مجال آخر.

على كُلٍ في اللغة النور هو الضوء أياً كان أو شعاعه، موجاته أو سطوعه، تألقه، هناك موجات لا تُرى بالعين، النور هو الضياء والسناء الذي يُعين على الإبصار، أنتم موجودون ولكم أعين ولكن هذه الأعين لا قيمة لها من دون هذا الضوء الذي يُعَدّ وسيطاً بينكم وبين المرئيات، النور والضياء والسناء الذي يُعين على الإبصار.

النور نوعان: دنيوي وأخروي.

الدنيَوي نوعان: ١- معقول بعَيْن البصيرة.

٢- محسوس بعَيْن البصر.

معقول بعين البصيرة: أحياناً تكون الفكرةُ الواضحةُ أو الأسلوب الذي تَعلّمه الإنسان في حل المشكلات، يُعَدّ نوراً مجازياً، أحيانا يعاني إنسان من مشكلة في آلة وعنده خبرة، يجعل هذا الشيء مكان هذا الشيء ويصل هذا الشيء بهذا الشيء فتعمل هذه الآلة، هذه الخبرة التي يملكها، أو هذا الأسلوب الجاهز في حل هذه المشكلة يمكن أن نسميَه نوراً.

فالنور نوعان: نور معقول بعين البصيرة، قد يواجه الإنسان مشكلة لا يستطيع أن يفعل شيئاً إزاءها كأنه في ظلام ثم تلمع في ذهنه فكرة فتُحل تلك المشكلة بهذه الفكرة، - فالفِكْر مُحاكمة، حكم استنباط استدلال - فتُحل له المشكلة فإذا شبهناها بالنور فالتشبيه صحيح، فالنور معقول بعَين البصيرة، ومحسوس بعين البصر، مِن هنا قالوا العلم نور، العلم يحرسك وأنت تحرس المال والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق.

العقل نور، القرآن الكريم نور، أوضح مَثَلٍ قارورة تحوي مادة كيميائية أنت لا تعرف هذه المادة، يا ترى أهي مادة تلتهب !؟ تنفجر ! سامة ! مادة مؤذية ! نافعة ! مخدّرة ! مسلطنة ! مادة في قارورة إذا كُتب على هذه القارورة لُصاقة كلور الصوديوم هذه الكلمة كأنها نور كأن شيئاً لا تراه سلّطت عليه ضوءاً فعرفته كذلك هذه اللُصاقة نور،فالنور مادة: محسوس ؛ معنوي ؛ معقول.

المحسوس كنور القمر وضوء الشمس، ومن النور المعقول قوله تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥))

(سورة المائدة)

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ)

الإنسان خُلق في الأرض لماذا خُلق؟ ماذا ينبغي أن يفعل ؟ أيأكل ويشرب وينام وانتهى الأمر ؟!، أم عليه مهمة لا يعرفها ؟ متى يموت ؟ لماذا يموت ؟ لماذا يعيش ؟ يُحسن، يُسيء يصدق يكذب، يُؤتَمن يخون ماذا يفعل ؟ يأتيه كتاب من الله يقول له أنت خُلقت لجنة عرضها السماوات والأرض أنت خُلقت في الدنيا لتعمل عملاً صالحًا يدخلك الجنة، أنت لا يُسعدك إلا أن تتصل بالله عزّ وجل، لا تَسلمَ إلا إذا أطعت الله، لا تسعد إلا بِقُرب الله، الله الذي خلق السماوات والأرض هو إلهٌ عظيم، ربٌ كريم، سميعٌ بصير، عليم قوي، مُجيب، هذا القرآن عرّفك بالله، عرّفك بالكون، عرّفك بحقيقة الحياة، عرّفك بحقيقة الإنسان، قال لك افعل ولا تفعل، بيّنَ لك الحلال والحرام، الخير والشر، الحق والباطل، ما ينبغي وما لا ينبغي، نشأةُ العالَم ومصيرُ العالَم، تاريخ الأمم والشعوب، قصص الأنبياء، مشاهد يوم القيامة. النور للمؤمن يورثه راحة لا يعرفها غيره إطلاقاً، كل الأمور واضحة عنده جلية، كل شيء واضح، يعرف أن لهذا الكون خالقاً ويعرف أن لهذا الكون مربّياً ولهذا الكون مسيّراً، وأن الله موجود وواحد وكامل وأنّ أسماءَه كلها حُسنى، وأنّ صِفاتِه كلها فُضلى، وأنّ الله عزّ وجل سميعٌ قريب، مجيبٌ رحيم، ودود، الدنيا مزرعة الآخرة، الإنسان يسعد بطاعة الله يشقى بمعصية الله هذا الكتاب الذي بين أيدينا يقدِّم لنا راحة لا تُعدّ ولا تُحصى لا تُوصف، راحة التوازن، أحيانا يعتري الإنسانَ غموضٌ فيبقى في قلق منه فإذا أتضح تبدد القلق، فالله سبحانه وتعالى يقول:

(قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (١٥))

(سورة المائدة)

هذا الكتاب هو النور،أحيانا تشتري آلة ولها تعليمات مثلا اضغط على المفتاح يحدث كذا ثم الثاني ثم الثالث فتظهر على الشاشة هذه الكلمة، افعل كذا افعل كذا، كأنك تمشي على طريق واضح مستقيم، فذلك القرآن الكريم نور، ومن النور المحسوس ذاك، والنور المعقول القرآن الكريم فهو نور معقول، فمن المحسوس كما علمت قوله تعالى:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٥))

(سورة يونس)

(جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً)

والإنسان قد يقف عند الشمس قليلاً، يُقدّر علماء الفلك أن عُمر الشمس لا يقل عن خمسة آلاف مليون عام وأنها لن تنطفئ قبل خمسة آلاف مليون عام وأنها تُصدر من الطاقة الحرارية والضوئية ما لا سبيل إلى وصفها، فبيننا وبين الشمس مئة وستة وخمسون مليون كيلو متر ومع ذلك لا تستطيع أن تتعرض لأشعة الشمس طويلا في الصيف فكيف أشعتها هناك ؟، لِسان اللهَب لا يقل عن مليون كيلو متر، الحرارة ستة آلاف درجة على سطحها، بينما في مركزها عشرون مليون درجة هذه تتسع لمليون وثلاث مئة ألف أرض من حجم أرض هذا جوفها، كنت أذكر دائما أنّ في بُرج العقرب نجماً أحمر اللون اسمه قلب العقرب يتسع للشمس والأرض مع المسافة بينهما:

(هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً)

(سورة يونس آية ٥)

مَن أبدع أصل النور ؟ الله عز وجل. إنّ النور تفاعُل يجري في مادة في بُنيتها النووية، هذا التفاعل يُنتج موجات، هذا النور ينتشر، هل له وزن ؟ ليس له وزن، حجمه لا نهائي كتلته صفر، بل إنّ بعض علماء الفيزياء يقولون إنّ أيّ جسم لو سار بسرعة الضوء، الضوء سرعته ثلاثمائة ألف كيلو متر بالثانية، أيُّ جسم لو أتينا بكتلة حديد استطعنا أن نقذفها بسرعة الضوء فتصبح نوراً وكتلتها صفر وحجمها لا نهائي، موضوع النور يحتاج لجلسات علمية خاصّة.

على كلٍ النور المحسوس كضوء الشمس والقمر فنورهما نور محسوس، والقرآن الذي فيه تعليمات الصانع نور معقول، التعليمات النظرية نور، البيان نور، الدليل نور، التفصيل نور، التوجيهات نور، الإمام الغزالي رحمه الله له تفسير عميق للنور: **فهو يعرف النور في حق الله تعالى بأنه ظاهر**، النور شيءٌ ظاهر، أحياناً ضوءٌ صغير جداً ضئيل جداً في الظلام الدامس يكون ظاهراً جداً، بعض الآلات نقطة مضيئة واضحة من بُعْد، فالنور الشيء الظاهر. أمّا أيُّ شيء ليس له إشعاع ليس ظاهراً، أحيانا يقود الإنسان سيارته بالليل يصدُر ضوءاً بعيداً، يرى نُقاط مُضيئة هذه بعض الحيوانات فالنور الشيء الظاهر، يقول الإمام الغزالي **" هو الظاهر الذي به كل ظهور، ظاهر مُظهر "** لعلّ النور الخافض جداً ظاهر لكنه ليس مُظهر، أحيانا قطعة فحم متأججة واضحة لكن هذه القطعة المتأججة لا تنير غرفة، أما مصباح كهربائي ينير غرفة.

فالإمام الغزالي يقول: **النور هو الشيء الظاهر الذي به كل ظهور،** فالنور هو الشيء الظاهر في نفسه المُظهر لغيره، مصباح تُسلِّطه على مكانٍ فترى السُجاد والكُرسي والقلم والورقة والمِحبرة والمُسجّلة فهذا المصباح أظهر غَيْرَهُ، ثم يقول هذا الإمام: العدم ظلام والحادِث نور، الشيء الموجود نور، والمعدوم ظلام،هذا معنى أعمق.

من لوازم الشيء الموجود أنه ظاهر مُنير من لوازم الشيء المعدوم أنه مُختفٍ، قال: مهما قوبل الوجود بالعدم كان الظهور علامة الوجود والخفاء علامة العدم، إذا قابلنا الوجود بالعدم كان الظهور علامة الوجود والخفاء علامة العدم، وقال:ولا ظلام أظلم من العدم، فالبريء عن ظلمة العدم بل عن إمكان العدم المُظهر لِكُلّ الأشياء من ظلمة العدم إلى نور الوجود يُسمى نوراً ؛ وهو الله المُنزّه عن ظلمة العدم، بل عن إمكان العدم، الظاهر لنفسه المُظهر لغيره من ظلمة العدم إلى نور الوجود يسمى نوراً وهو الله عز وجل وهو معنى قوله تعالى:

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنّهَا كَوْكَبٌ دُرّيّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيّةٍ وَلَا غَرْبِيّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللّهُ الْأَمْثَالَ لِلنّاسِ وَاللّهُ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥))

(سورة النور)

(اللّهُ نُورُ السّمَاوَاتِ)

ظاهر بذاته مُظهِرٌ لغيره ظاهر بذاته مُنزّه عن العدم، بل عن إمكان العدم، مُظهِرٌ غيرَه من ظُلمة العدم إلى ظُلمة الوجود، إنّ الذات الظاهرة المُظهرة هي النور وهي الله عزّ وجل والوجود نورٌ فائض على الأشياء كلها من نور ذاته، إذاً هو نور السماوات والأرض.

الإمام ابن عباس رحمه الله تعالى يقول: **النور الهادي الرشيد الذي يُرشد بهدايته من يشاء فيُبّين له الحق ويُلهمه اتباعه،** هُناك أشياء عويصة جداً يأتي مُخترع فيُعمِل ذهنه سنوات طويلة وفجأة تلمع أمامه فِكرة جديدة، هذه الفِكرة التي لمعت أمامه في رأي أهل الدين من إلهام الله عزّ وجل لأنّ الله نور قذف في قلبه وذهنه هذه الحقيقة فالتَمَعَتْ فسُمِي عند الناس مُكتشفاً أو مُخترعاً، وفي الحقيقة لقد تلقّى هذه الومضة من الله عزّ وجل.فالاختراع إذًا بارقة.

حدثني صديق عما يُسمّى بزرع الأسنان، جسم الإنسان كما تعلمون يرفض الأجسام الغريبة. مرةً وضع عالمٌ مِلقطًا من معدن معين على قطعة عظم ونسيه في المخبر، بعد حين التأم العظم حول المعدن فانتبه هذا العالم إلى أن هذا المعدن يمكن أن يدخل في فك الإنسان ويلتئم النسيج العظمي حوله هذه بارقة، فلقد أمكن الآن زراعة الأسنان بأن نضع وَتَداً ضمن الفك فنبني عليه سِناً فهذا إذاً بارقة، نظر هذا العالم إلى هذا المِلقط وقد وُضع على قطعة عظم بعد حين نما العظم عليه، لذا يقولون: إن الاختراع أو الإبداع قفزة في المجهول، لمعة في الذهن، إلهام من الله عزّ وجل والدليل كما قال الله عزّ وجل:

(وَمَا عَلّمْنَاهُ الشّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩))

(سورة يس)

(وَمَا عَلّمْنَاهُ الشّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ)

نفى عن نبيه الشِّعر بالمعنى المُخالف من أن الذين يُبدعون الشِّعر يُلهَمون من الله عزّ وجل معنى ذلك أنّ كُلّ اختراع وكُلّ اكتشاف هو في الحقيقة إلقاء من الله عزّ وجل في ذهن هذا العالم كبارقة أو ومضة إلاّ أنّ هذا الإلقاء يحتاج إلى ثمن، الثمن هو الصدق في البحث، لذلك قال بعض العلماء العبقرية تسعة بالمئة منها جهد وعرق وواحد بالمئة إلهام، فثمن هذه البارقة ثمن هذه الومضة ثمن هذه الفكرة الرائعة ثمن هذا الاكتشاف هو البحث الدؤوب، فالبحث الدؤوب هو ثمن هذا الاختراع.

وهذا ينتهي بنا إلى معنى آخر، هو معنى الصدق. الله عزّ وجل لا يتعامل مع الناس بتمنياتهم ولكن يتعامل بصدقهم وإخلاصهم، قال بعض العلماء: **" النور هو الهادي "** لو أن إنساناً أضاع إبرة في الليل ولا يوجد ضوء فلن يراها في الليل أما في النهار فسوف يراها لأنه اهتدى بنور الشمس، إذا اهتديت إلى حقيقة الإنسان وإلى سِرّ وجوده وإلى غاية وجوده فمن الذي هداك ؟ هو الله، إذاً الله نور وهو الهادي لا يَعْلَم العباد إلا ما علّمهم الله عزّ وجل ولا يُدركون إلا ما يَسَّرَ الله لهم إدراكه، فالحواس والعقل، وفطرته، وخلقه، وعطيته. النور هو الظاهر الذي ظهر به كل ظهور، فإن الظاهر في ذاته المُظهر لغيره يسمى نوراً وهو الله عزّ وجل.

قال بعض العارفين: **" النور هو الذي نوّر المعالم فأوجدها من العدم"**، فنقلُ الشيء من العدم إلى الوجود نور، وخصّصها بِتِلك المواهب في حضرة القِدم، الشيء له خصائص كُلُّ نبات، كُلُّ حيوان، كُلُّ جماد، كل المعادن ؛ لها خصائص، الله عزّ وجل الذي أبدعها من عدم وأظهرها إلى حيّز الوجود وأعطاها خصائِصها:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠))

(سورة طه)

الذهب مثلا لا يتأثر بكُل العوامل المحيطة به لا بماء ولا بملوحة ولا برطوبة ولا يتأكسد ولا يتأثر، أنا قرأت مقالة عن سفينة غَرِقتْ قبل مئة وعشرين عاماً، وعليها خمسة أطنان من الذهب استطاعوا أن يصلوا إليها الآن وأن يستخرجوا تلك السبائك، ولما استخرجت هذه السبائك صدِّقوني أيها الإخوة فكأنها صُبَّت الآن، مئة وعشرون سنة في قاع البحر والذهب هو هو لم يتأثر، الله عزّ وجل أعطى الذهب خصائص، أعطى الألماس خصائص، أعطى الفضة خصائص، أعطى الرصاص خصائص، أعطى الحديد خصائص، هناك شيء جديد، بالنور أَظهَر وخَصّص. الحديد لا يُصهر إلا في ألف وخمسمئة درجة، بينما الرصاص يُصهر في مئة درجة على موقد عادي ينصهر معدن الرصاص فكُل معدن ظهر وخُصِّص نُقِلَ من العدم إلى الوجود فأُعطيَ خصائصه، والنور هو الذي نوّر الموجود الظاهر بالشمس والكواكب، ونوّر عالم الأرواح برسول الله صلى الله عليه وسلم، العوام يقولون والحق معهم: هذه جلسة فيها نور فيها سرور فيها تجلٍّ، أحياناً تجد إنساناً موصولاً بالله عزّ وجل تشعر بأُنسٍ معه وبسرور كأنه

يُنعِشُك، هذا نور الله عزّ وجل، الله عزّ وجل خلق نوراً محسوساً نور الشمس والقمر وفي الليل عندنا إضاءة اصطناعية لكنه إذا تجلى على قلب الإنسان تألّق هذا القلب، طبعاً هناك آيات، وأدعوك ألاّ تقبلْ مني شيئاً ما بدون دليل:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩))

(سورة الأنفال)

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢٨))

(سورة الحديد)

فإذا طلبت مني أن أضغط الدين كله في كلمة قلت: المؤمن ذو نور والكافر أعمى قال الله:

(نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٨))

(سورة التحريم)

أما هؤلاء الكفار فهم في ظلمات بعضها فوق بعض، إذا أخرج يده لم يكد يراها، فالكافر في ظلام:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤))

(سورة طه)

ما كنتَ أعمى العينين في الدنيا ؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور، نوِّر القلوب برسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك:

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣))

(سورة التوبة)

الذي شعر به أصحابُ رسول الله من رسول الله شيءٌ لا يُوصف كانوا إذا جلسوا معه ارتاحت قلوبهم واطمأنت نفوسهم وكأنهم في جنة حتى إن بعض الصحابة رآه الصديق يبكي - اسمه حنظلة - قال له يا حنظلة ما لك تبكي ؟ إذا كنا مع رسول الله فنحن والجنة كهاتين وأشار بأصبعيه السبابة والوسطى مقترنتين قال له: فإذا عدنا إلى بيوتنا وعافسنا الأهل ننسى النبي صلى الله عليه وسلم فقال عليه الصلاة والسلام لما رفع الخبر إليه:

((نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا))

((عَنْ أبي عُثْمَانَ عَنْ حَنْظَلَةَ قَالَ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى كَانَا رَأْيَ عَيْنٍ فَقُمْتُ إِلَى أَهْلِي فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ أَهْلِي وَوَلَدِي فَذَكَرْتُ مَا كُنْتُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجْتُ فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ فَقُلْتُ يَا أَبَا بَكْرٍ نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ وَمَا ذَاكَ قُلْتُ كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْنَا الْجَنَّةَ وَالنَّارَ حَتَّى كَانَا رَأْيَ عَيْنٍ فَذَهَبْتُ إِلَى أَهْلِي فَضَحِكْتُ وَلَعِبْتُ مَعَ وَلَدِي وَأَهْلِي فَقَالَ إِنَّا لَنَفْعَلُ ذَاكَ قَالَ فَذَهَبْتُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ يَا حَنْظَلَةُ لَوْ كُنْتُمْ تَكُونُونَ فِي بُيُوتِكُمْ كَمَا تَكُونُونَ عِنْدِي لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلَائِكَةُ وَأَنْتُمْ عَلَى فُرُشِكُمْ وَبِالطُّرُقِ. يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً))

[رواه ابن سعد]

فالله نور إن اتصلت به أخذت من نوره المعنوي شعرت براحة، لك رُؤية صحيحة، الأمر كله ؛ أنّ إنساناً مؤمنا يرى رؤية صحيحة وإنساناً كافرًا أعمى، فالأعمى في متاهة والذي يرى رؤية صحيحة يتحرك على هُدى من ربه، قال العلماء: نوّر الله عالم الأرواح برسول الله صلى الله عليه وسلم ونوّر القلوب بأنواع الكتب، و نوّر العارفين بأنوار التجليّات، النور هو الذي نوّر قلوب الصادقين بتوحيدهم و نوّر أسرار المحبين بتأييده، وقيل: هو الذي حسّن الأبشار بالتصوير فأعطاك شكلاً جميلاً والأسرار بالتنوير، وقيل: هو الذي أحيا قلوب العارفين بنور معرفته و أحيا نفوس العابدين بنور عبادته، وقيل: هو الذي يَهدي القلوب إلى إيثار الحق واصطفائه ويَهدي الأسرار إلى مناجاته واجتبائه قال الله:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥))

(سورة النور)

المشكاة: كُوّةٌ في الجدار، فيها مصباح، المشكاة هي الصبر والمصباح هو القلب ؛ لا قلب الجسد بل قلب النفس:

(أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ(٤٦))

(سورة الحج)

(الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينوّر قلوبنا بنوره، المؤمن رؤيته واضحة تماماً مُرتاح من أيِّ مشكلة يُحسن التصرف، يملِك زمام الأمر، ينظر بنورٍ ساطع يكشف دقائق الأمور ملابسات الحوادث، يقف الموقف السليم، ينطِق بالكلمة المُناسبة، يفعل الفِعل المناسب، مرتاح ويُريح الآخرين، الإنسان إذا كان في عمىً أساء التصرف، أساء الكلام وأساء الحركة وأساء الموقف، يتخبّط خبطة عشواء، وهذا كله

واضح.

قال بعض العارفين: **" النور معناه الظاهر في نفسه"**، بوجوده الذي لا يقبل العدم، المظهر لغيره بإخراجه من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وجوده سبحانه وتعالى نورٌ فائض على الأشياء كلها وهو الذي مدّ جميع المخلوقات بالأنوار الحِسيّة والمعنوية، فعينك تحتاج إلى نور حسي وقلبك يحتاج إلى نور الوحي.

أيها الإخوة القراء الكرام: لقد وصلنا إلى موضوع أنا أَعُدّهُ من أخطر الموضوعات، فأنت لك عين ترى بها الأشياء ولك عقلٌ تُدرك به الحقائق، فإذا قُلت لك المعادن تتمدد بالحرارة، فأنت ترى ميزان الزئبق، ضع يدك عليه فالخط يرتفع وترى بعينك أنّ هذا المعدن الرجراج الزئبقي يتمدد بالحرارة لكن تقول: رأيت العِلم نافعاً فكيف ترى العِلم ؟ لا يُرى بالعَين لكن ترى إنساناً مُتعلماً مُتزّناً يُحسن التصرّف حكيماً سعيدًا في بيته يُحسن معاملة زوجته، يُحسن كسب المال، يُحسن معاملة الناس، مورده المالي حلال، تراه صادقاً أميناً محبوباً مُعززاً مُبجلاً، لأنه مُتعلم، لأنه حصّل عِلماً دينياً، لأنه عَرَفَ الله عزّ وجل فهو في سعادة، فتقول إذًا رأيت العِلمَ نافعاً، أما إنْ رأيت معدن الزئبق يتمدد فهذه رؤية حِسيّة، أما رأيت العِلمُ نافعاً فهذه رؤية قلبية.

لذلك رأى نوعان: القلبية تتعدى إلى مفعولين والحسية تتعدى إلى مفعول واحد، رأيت الشمس ساطعةً، ماذا تُعرب كلمة ساطعة ؟ حال، رأيت العِلمَ نافعاً مفعول به ثانٍ لأنّ رَأى القلبية تنصب مفعولين بينما رأى البصرية تنصب مفعولاً به واحداً والاسم المنصوب الثاني يُعدُ حالاً، فالرؤية الحسية أساسُها ضوء الشمس أو القمر أو الكهرباء، والرؤية العقلية المعنوية أساسُها نور الله عز وجل.

شكَوْت إلى وكِيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأنبأني بأن العلم نــــور ونور الله لا يُهدى لعــاص

***

إذاً أنت بحاجة لنور الشمس لترى عَينك الأشياء وأنت بحاجة لنور الله ليعرف عقلك حقائق الأشياء ماذا نستنبط من هذا ؟ أنّ الإنسان مهما كان ذكياً، مهما كان عبقرياً، مهما كان ألمعياً، إن لم يستعن بنور الله فهو في عمى، لذلك تجد بعض الناس وهُم في أعلى درجات الذكاء يرتكبون حماقات لا توصف، والإمام القشيري يرى أن الله تعالى سمّى نفسه نوراً لأنّ منه النور، هو منوّر الآفاق بالنجوم والأنوار ومنوّر الأبدان بآثار العبادات ومنوّر القلوب بالدلائل والحُجج.

سبحان الله، فإذا اتصل الإنسانُ بالله تجد على وجهه نوراً وقد يكون ملوناً، لكن يوجد نور في وجهه، فالنور الذي في وجه الإنسان - سيماهم في وجوههم من أثر السجود - بعضهم يفهم أن في جبهته أثر. لا، ثُمّ لا -كان النبي عليه الصلاة والسلام له وجه كالشمس، وتَصف بعض الأحاديث الشريفة أن

الواحدة من الحور العين لو أطلّت على أهل الأرض لغَلَبَ نور وجهها ضوء الشمس والقمر. ثم ها نحن قد انتهينا إلى معنى ثالث وهي أن العِبادة تُكسب الوجه نوراً لذلك

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣))

(سورة القيامة)

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ (٣٨) ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ (٣٩) وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ (٤٠) تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُولَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ(٤٢))

(سورة عبس)

إذاً العبادات تنوّر الوجه.

قالوا الطاعة هي زينة النفوس والأشباح، والمعارف زينة القلوب والأرواح، والله عزّ وجل يزيد قلب المؤمن نوراً على نور يُؤيده بنور البرهان ثم يؤيده بنور العرفان قال تعالى:

(نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥))

(سورة النور)

لتعلم أيها الأخ الكريم أن هناك برهانًا بيانيًا كما أنّ هناك عرفانًا إشراقيًا، أنت ممكن أن تعرف أن هذه المادة كلور الصوديوم من لصاقة، لكن هناك من يعرف هذه المادة من دون لُصاقة، هذه أرقى وأدق هناك إنسان عِلْمه أعمق يعرف كل خصائصها وكل مؤداها، هُناك نور إشراقي ونور بياني وقال بعضهم: الله جلّ جلاله يهدي القلوب بنوره إلى محاسن الأخلاق ليُؤْثِر العبد الحقّ ويدع الباطل.

إنّ للنور معاني كثيرة، ومن معاني النور الفرعية نور العِلم والمعرفة ؛ وهو انبلاج الحقيقة لنور المؤمن، لذلك عندنا في اللغة ظاهرة تُسمى الاشتقاق. فكما تعلمون أنّ في اللغة اسم وفعل، والفعل ماضٍ ومضارع وأمر والاسم: اسم ذات واسم معنى واسم الذات: هو أسماء الأشياء إنسان نبات حيوان جماد وأسماء المعاني هي المصادر، لكن عِندنا شيء اسمه اشتقاق كُبّار.فمثلا كلمة: عَلِمَ - عَين لام ميم - إذا غيّرت ترتيب هذه الحروف عَلِمَ لمع ملع أيضا عمل فهي ستة تقاليب كل هذه التقاليب الستة لابُدّ من أن يكون لها قاسمٌ مشترك بينها وهو الظهور بعد الخفاء عَلِمَ لمع ملع قاسمٌ مشترك بين كل التقاليب الثُلاثية هو الظهور بعد الخفاء هذا هو العلم ؛ إنه إشراقة معينة تشرق على قلوب مؤمنة.

إذّا هناك نور العلم والمعرفة وهو انبلاج الحقيقة إلى نور المؤمن العارف كأنها مشهودة أمام عَين اليقين كما يُعبّر أهل التصوف وقد ذُكر اسم النور منسوباً إلى الله تعالى في مواطن من كتاب الله وأشهرها قوله تعالى:

(اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)

(سورة النور آية٣٥)

قال بعضهم نوّرها بالشمس والقمر ونوّر القلوب بالحقائق:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١))

(سورة الأنعام)

نوّرَها بالشمس والقمر، هذا النور الحسي و نُور قلوَب المؤمنين بأنواره التي كشفت لهم الحقائق. يقول الإمام ابن عباس رضي الله عنه: **الله هادي أهل الأرض والسماوات**. مَثّل هُداه في قلب المؤمن كما يكاد الزيت الصافي يُضيء قبل أن تمسه النار فإذا مسته النار ازداد ضوءًا على ضوءٍ فيزداد نوراً على نور، في سورة التوبة قال تعالى:

(يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢))

(سورة التوبة)

إذا أراد إنسان أن يقاوم الحق فكأنه أراد أن يُطفيء نور الله عزّ وجل، وفي سورة الزُمر قال تعالى:

(أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢))

(سورة الزمر)

وفي السورة نفسها:

(وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩))

(سورة الزمر)

وفي سورة الصف:

(يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨))

(سورة الصف)

" مادة النور" وردت في كتاب الله في أكثر من أربعين مرة، بعض العلماء يرى أن النور هو اسم الله الأعظم، لكن يَرِد علينا سؤال وهو:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

(رواه الترمذي)

مِن بين هذه الأسماء اسم الله الأعظم لكنه غير معروف وغير مُحدد بعضهم قال: **" رب العالمين "** اسم الله الأعظم، وبعضهم قال: **" الرحمن "** اسم الله الأعظم، وبعضهم قال:**" الله "** اسم الله الأعظم، وبعضهم قال: **" النور "** اسم الله الأعظم، لماذا لم يُحدِّد ربنا اسمه العظيم ؟ من أجل أن تتعمق في كل أسمائه فيغلب على ظنك نتيجة المعالجة والتعمق في دراستها أن أحدها اسم الله الأعظم.

أيها القارئ الكريم:الإنسان يطلب العِلم ليكون قلبه منوّراً، كان عليه الصلاة والسلام يقول في دعائه:

((عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيِّ هُوَ: ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبّاسٍ، عَنْ أبيهِ، عَنْ جَدِّهِ ابْنِ عَبّاسٍ قالَ سَمِعْتُ نَبِيّ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ لَيْلَةَ حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ: اللّهُمّ اجْعَلْ لِي نُورًا فِي قَلْبي وَنُورًا فِي قَبْرِي وَنُورًا مِنْ بَيْنِ يَدَيّ وَنُورًا مِنْ خَلْفِي وَنُورًا عَنْ يَمِينِي وَنُورًا عَنْ شِمَالِي وَنُورًا مِنْ فَوْقِي وَنُورًا مِنْ تَحْتِي وَنُورًا فِي سَمْعِي وَنُورًا فِي بَصَرِي وَنُورًا فِي شَعْرِي وَنُورًا فِي بَشَرِي وَنُورًا فِي لَحْمِي وَنُورًا فِي دَمِي وَنُورًا فِي عِظَامِي اللّهُمّ أعْظِمْ لِي نُورًا وَأعْطِنِي نُورًا وَاجْعَلْ لِي نُورًا))

(رواه الترمذي)

إقبالُكَ على الله، اتصالُكَ به، دعاؤك له، طاعتك إياه، تُكسبك هذا النور وهذا النور من أثمن عطاءات الله عزّ وجل، إنسان منوّرٌ يرى الحقيقة أي أن قلبه مُنير، كذلك شخص سمعه منوّر فإذا استمع إلى كلام ما، فكأن عنده ميزانًا فيقول لك: هذا الكلام غلط وهذا صواب، بصره منوّرٌ إذا نظر إلى الجبل يرى عظمة الله عزّ وجل بينما الكافر ينظر إلى أعلى جبل يرى مناسيبة جميلة جداً كي يتزحلق على الثلج، لا يتعامل مع الأشياء إلا بالنفع، أما المؤمن يتعامل معها بالمعرفة، فإذا رأى نوراً إذْ في نظره عِبرة، إذا استمع قيّم تقييماً صحيحاً، فما كل شيء يسمعه يقبله، إذا تحرك فإلى الخير، في يده نور إذا أعطى يعطي بالعدل، في رجله نور إذا مشى مشى إلى طاعة الله عزّ وجل فمعنى النور أن يهديَك إلى ما يُرضي الله وثانياً: ويكون عندك ميزان فالنور ميزان وهدىً.

ورد في بعض الأدعية: إلهي أنت النور، والكُل في ظلام العدم، وأنت الظاهر وليس في الحوادث تأثير في القدم، أشرقْ على قلبي معنى اسمك النور، فأشهدَ بنورك الحقائق وأتجمل بالمعارف، وأدلهم على الرب الجوّاد إنك على كل شيء قدير وصلى الله على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

٣٥- اسم الله الحفيظ :

مع الاسم الخامس والثلاثين من أسماء الله الحسنى، والاسم هو الحفيظ، قبل أن نمضي في الحديث عن معناه اللغوي وعن آثاره في الآفاق وعن علاقته بالمؤمن لابُدّ من مقدمة.

الإنسان كما تعلمون مفطور على حُب وجوده، وعلى سلامة وجوده، فكم من التدابير التي يتخذها للحِفاظ على ماله، أو للحِفاظ على صحته، أو للحِفاظ على أولاده ؟ يعني جزءٌ كبيرٌ جداً من نشاط الإنسان في الدنيا في سبيل الحِفاظ على وجوده أو على سلامة وجوده أو على دخله أو على صحته أو على مُكتسباته أو على ما بيده، فالحِفاظ على الشيء لا يَقِلُّ عن تحصيله، فأنت في الأصل تُحصّل شيئاً وتُحافظ عليه، فنشاط الحِفاظ على ما أنت فيه لا يقل عن نشاط تحصيل هذا الذي بين يديك، فالإنسان حينما يحاول أن يُحافظ على حياته أو على سلامته أو على صحته أو على أولاده في حياته أو بعد مماته، حينما يُحاول الحِفاظ على دخله وإنتاجه وعلى بيعه ومكانته وسمعته، فهو يعمل وفق غرائزه ودوافعه.

أكرّر أن نشاط الحِفاظ على المكتبات لا يقلُّ عن النشاط الذي يُحصّل به ما تحت يديه، تُحصّل هذا الدخل وتُحافظ عليه، تُحصل هذه اللياقة البدنية وتُحافظ عليها، تُحصل هذه السُمعة وتُحافظ عليها، بل إنّ نشاط المُحافظة على الشيء ربما كان أكثر من نشاط تحصيله، فالإنسان أحياناً يصل إلى مرتبةٍ ومنصبٍ ويبذل أربعة أخماس وقته في الحِفاظ على هذا المنصب وكأن هذا الحِفاظ شُغله الشاغل، لذلك فالإنسان حينما ينسى دور الله عزّ وجل أو حينما ينسى اسم الله الحفيظ أو حينما ينسى أن الله هو الحافظ أولاً و آخرًا، حينما يتجاهل أن الحِفظَ وحده بيد الله وأنه مهما كُنت ذكياً، ومهما كنت أريباً، ومهما كنت ذا خبرة عريقة، مهما أخذت من الاحتياطات، مهما اتخذت من الأسباب، مهما أقمت من السدود، مهما حصّنت نفسك، إذا أراد الله بك شيئاً فلابُدّ من أن يصل إليك، فالحِفاظ الحقيقي لا يكون بأخذ الأسباب وحدها، بل بأخذ الأسباب والاعتماد على الله عزّ وجل فكم من إنسان دُمرت حياته من خطأٍ بسيط في صحته.

اليوم سمعت حادثة: إنسان مرض وكان مرضه معقولاً وليس خطيراً، ليس مرضا عضالاً، مرضٌ علاجه ممكن وهناك أدويةٌ فعالةٌ في شفائه، ذهب إلى صيدلي، الصيدلي غائب ومكانه موظف فأعطى الموظف لهذا المريض آخر، و الدواء الموصوف يعالج أشد، وذاك الدواء لأشد حالات اهتياج الأمعاء مغلف كي لا يؤدي إلى تخريش الجهاز الهضمي، فأُعطِي دواءً مكان دواء وقيل له ضع الحبة تحت لسانك، تفاقم هذا الأمر لدرجة أنه كاد أن يودي بحياته. فأنت مهما كنت ذكياً وذهبت إلى صيدلي وأعطاك دواءً استعملته، فقد يخطئ الصيدلي في تعيين الدواء فيُسبب الدواءُ المغلوط مضاعفات

للمرض.

فالإنسان فيه شيء فطري للحِفاظ، بدأت البحث بأن أكدت أن الإنسان مفطور على حُب وجوده، وهذا كلام واقعي وهناك كلام يُقال للاستهلاك كلام يُقال لغير ما أراد الله عزّ وجل، أما في الحقيقة أيّ إنسان على وجه الأرض مفطور على حُب وجوده وعلى حُب سلامة وجوده وعلى كمال وجوده وعلى استمرار وجوده. جزء كبيرٌ كبير من نشاطه يبذله في الحِفاظ على هذا المستوى إما على دخله أو على لياقته أو على صحته أو على مكانته أو على منصبه أو على سُمعته أو على ما بيده.

وحينما يتجاهل اسم الله الحفيظ، وحينما يتجاهل اسم الله الحافظ فقد يقع في سوء فعله:

(قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إلّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ (٦٤))

(سورة يوسف)

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا)

حينما يأخذ الإنسان بأسباب الحِفظ المادية وينسى أن مُسبب الأسباب هو الله عزّ وجل، حينما يأخذ بالأسباب المادية للحِفظ ويأتيه بأس الله من حيث لا يحتسب مما يجعل حياته كلها جحيماً لعِلّة تُصيب جسده، فمثلاً شخص حصّلَ دكتوراه وتزوج امرأةً غربية تروق له وعاد بها إلى بلده ووصل إلى أرفع المناصب ثم فَقدَ بصره فزاره صديق له، فقال له: والله يا فلان أتمنى ألاّ أحمل هذه الشهادة وألاّ أكون في هذا المنصب وألاّ أكون متزوجاً وأن أقوم على قارعة الطريق أتكفف الناس وأن يردّ الله إليّ بصري !

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا)

الإنسان عُرضةٌ لأخطار لا تنتهي في الدنيا والوقائع بين أيديكم، تجد إنسانا بأعلى درجات الذكاء، لكن غلطة بسيطة مثل أن يكون السائق نائمًا وأنت ماشٍ على اليمين فصدمته السيارة وأُصيب في عموده الفقري أدى إلى شللٍ كامل طول حياته فمن يحميه ويحفظه من الغوائل ؟ الله خير حافظا، فلا بد من التوكل حقا.

أردت أن يكون الاسم في بحثي اليوم اسم الحفيظ لأبيّن أنه مهما أخذ الإنسان بأسباب الحِفظ فقد يُؤتى الحذر من مأمنه، مثلاً كيف يُحصّن المال ؟ يجب أن يُحصّن المال لا بوضع أقفال والأقفال ذات الأرقام...لا.

((حصنوا أموالكم بالزكاة))

يجب أن تحفظ المال كما أرسل لك الله و بيّن الطريق لِحفظه، وليس كما يصل إلى علمك من أساليب، يعني أساليب مُعقدة جداً مبنية على التكنالوجيا وكذا.

أنا سمعت عن رجلٍ يعمل في الصياغة استورد صندوقَ حديدٍ من إحدى قارات الأرض، و له مواصفات تحتاج إلى كُتيّب لوصفها، إلكترون على تصفيح على...، واستطاع أُناس أن ينزلوا إلى دكانه بالليل وأن يثقبوا الصندوق من سقفه وأن يأخذوا كل ما فيه فقد اعتمد هو على هذا الصندوق في حِفظ ماله ونسي الله تعالى، طبعاً حِفظ المال بند من بنود هذا البحث، وهناك حِفاظ على الصحة...إلخ، حينما ينسى اللهَ عزّ وجل ويأخذ بكل أسباب حِفظ الصحة ويعتمد عليها يأتي عَطَب غير متوقع، أساساً هناك عشرات الأمراض بل مئات الأمراض حتى الآن لا تُعرف أسبابها، يُقال لك فقر دم غير مُصنّع، يعني معامل كريات الدم التي في نِقي العظام توقفت فجأةً بلا سبب عن صنع كريات الدم، الإنسان يحتاج كل أسبوع إلى ست مئة سنتمتر دم ما دان حيًّا أو يموت، إنّ كل الذكاء والاحتياطات لا تُجدي مع هذا المرض، وهذا المرض ليس له أسباب، فلو أخذ الإنسان بِكُلِّ أسباب الصحة إلاّ أنّ هناك أمراضًا ليس لها أسباب مادية .

رأيت شخصاً دنياه في درجة خيالية، ومع ذلك أصابه نمو زائد في دماغه، وانتهى إلى موت عاجل، فأنا أتمنى أن نستوعب جميعاً معنى اسم الحفيظ، فما لم يتولّ اللهُ جلّ في عُلاه حِفظَ صحتك وحِفظ سمعتك وحِفظ أهلك وحِفظ مالك فالخطر ماثل، أحيانا إبريق شاي يُحركه طفل فيُسكّبه على وجهه، فيصبح هذا الطفل مصدر شقاء لأمه وأبيه لمدة خمسين سنة، أليس كذلك ؟ إبريق شاي غلطة بسيطة جداً تُدمّر أُسرة، فمهْما حافظت على ما تملك ؛ من الأشياء المادية والمعنوية، وتجاهلت اسم الله الحفيظ، فاعتمادك على أسباب مادية اعتماد عجز و ضياع.

رويتُ قصةً مرات عديدة وها أنا ذا أعيدها ؛ شخص في أعلى درجات نجاحه الدنيوي، عدة مشاريع متنوّعة في البلدة وأرباحها مذهلة في أعلى مستوى، وصحته في غاية السلامة، وهو ذو مكانة اجتماعية وعلاقات رفيعة كما يقولون باللغة الدارجة: إيدْ طايْبَة وأعوان وأتباع وجيش من المنتفعين حوله، مكانة و تعظيم وجاه وأرباح وكل ستة أشهر بأوربا بأجمل فنادقها، حدث شيء قد لا يخطر على البال وهو أنه أراد أن يُصلح قطعة كهربائية، فعامل الكهرباء قال له: سأضعها لك في مكان مرتفع فهي أجمل فأجازه في رفعها، في اليوم التالي اضطُر أن يتعامل معها فصعد على الكرسي لعُلُوّها فانكسر الكرسي فوقع على مقعدته فنقل إلى المستشفى حوالي ثمانية عشر كان في عِداد الموتى وترك عشرين مليونًا بالعملة الصعبة، فهذا دُمِّرت حياته بأتفه الأسباب إذًا.

((حصِّنوا أموالكم بالزكاة))

حصِّن نفسك من المصائب بالاستقامة. هناك نقطة دقيقة الدلالة جداً وهي: يُؤتى الحذِر من مأمنه، ومن آيات الله العظيمة، أن طبيبًا مختصًا بالهضم والأم ومدروسة عنده بعمق وفهم، فيها فليكون آيةً للناس أُصيب بقَرْحَة وما نجا منها، بل أودت به، هناك طبيب بأمريكا ذكرته من قبل مؤمن بالجري يوميًا،

والجري نافع ورياضة ممتازة وجيدة، وأنا معه بهذا، يجري كل يوم ساعتين، كتب مقالات وأجْرَوا معه مقالات وكان يظن نفسه أنه آخر إنسان يموت بالقلب، فإذا مات كل من حوله فسيكون آخرهم، لأنه يجري كل يوم، وجعل اعتماده على الجري دون الله تعالى فأُصيب بنَوْبَة قاسية جداً وهو يجري، فكان فيها حتفه، لقد أخطأ إذ وكّل أمره للجري و الرياضة وجعله بديل حِفظ الله عزّ وجل وهذا لا يغني من الله شيئًا، هُنا دِقة العِلم مُمكن أن تجري وتلعب الرياضة وتنظم طعامك وتجتنب المواد الكيماوية، يُمكن أن تعتني بصحتك إلى أعلى درجة وهذا كله صحيح، لكن لا يعني أن تنسى الله عزّ وجل، أن تنسى أن الله هو الحافظ. وملخص الملخص: اعقل و توكل.

و الحديث الشريف التالي فيه عبرة ناطقة:

((أن يوم القيامة يقف رجلان أمام رب العزة يقول لأحدهما: عبدي أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه يقول يا ربي لم أنفق منه شيئا على أحدٍ مخافة الفقر على أولادي فيقول الله له ألم تعلم أني أنا الرزاق ذو القوة المتين))

إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم فقد جعل ثقته بالمال دون الله تعالى، فأردى أولاده، والله الذي لا إله إلا هو، حدثني رجل أثق به من إخواننا الكرام أنّ إنساناً كثيرة أملاكه أنواع أملاكه وعديدة من معامل إلى محلات تجارية إلى مزارع إلى بيوت بالمصايف إلى بيوت على شاطىء البحر، تُوفيَ وكان هدفه الأكبر تأمين المال لأولاده من بعده، ترك أموالاً لا تأكلها النيران، والقصة طويلة جداً، فخلال سنتين تكفف أولاده من بعده، إذ عقدوا صفقةً كبيرة جداً مع شخص خارج القطر وشحنوا البضاعة واختفى الشخص واضطروا إلى الاقتراض من جهات أخرى ثم عجزوا، والقصة كما قلت طويلة لكن المُهم كما أن الله عزّ وجل قادر وأنه إذا أعطى أدهش كذلك فهو إذا سلب أدهش، من كل شيء انقلب حالهم إلى لا شيء.

فالحِفظ كيف يكون ؟ أوجز للقراء الكرام: لن تَستَحِقّ حِفظ الله عزّ وجل إلا إذا طبقت منهجه فهناك مظلة فإذا طبقت منهج الله عزّ وجل فأنت تحت مظلة رعاية الله عزّ وجل.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلّ إلا ظِلُّهُ الإِمَامُ الْعَادِلُ وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ وَرَجُلانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ فَأَخْفَى حَتَّى لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ))

أنا أخشى ما أخشاه أن أخرج عن ظِلّ الله عزّ وجل كيف تخرج ؟ بالمعاصي، إذا كنت مستقيماً فأنت في ظِلّ الله، أنت في حِفظه، أنت في رعايته،

ولا ينسى أحد قول الله تعالى:

(إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَعُودُوا نَعُدْ وَلَنْ تُغْنِيَ عَنْكُمْ فِئَتُكُمْ شَيْئاً وَلَوْ كَثُرَتْ وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ(١٩))

(سورة الأنفال)

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آَمَنُوا قَاتِلُوا الّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ(١٢٣))

(سورة التوبة)

هذه معيّة خاصّة، وليست معيّة عامة، معك بالحِفظ، معك بالتأييد معك بالتوفيق، معك بالرعاية، معك بالإكرام تُحِس بشكلٍ صارخ أنّ الله يُحبك، وأن الله يحفظُك، وأن الله يُلهمُك، وأنه يُوفِّقُك، وأنه يُسدد خُطاك، وأنه مُنطِقكَ بالحق، وأنه يرفع لك شأنك، ويرفع لك ذِكرك هذه تلمسها لمس اليد، بل إني أقول: إن ارتباط المؤمن بالإيمان ارتباطه الشديد بالإيمان ليس لأن أفكاره في الإيمان مُقنعة لا. أجل هي مُقنعة والعقيدة صحيحة والأفكار سليمة والأمور واضحة، لكنّ الذي يَشُدُكَ إلى الله عزّ وجل ليس وضوح الأفكار ولا دقة البراهين، بل هذه المعاملة التي عاملك الله بها بعد أن اصطلحت معه، فأراك من فضله ومن لُطفه ومن عنايته ومن حِفظه ومن توفيقه.

فلذلك شعورك بالحِفاظ على ما في يديك هو شعور طبيعي وهذه فطرتك، لكن السلوك للحِفاظ على ما في يديلن يجعلك تنحو منحىً ماديًا، كأن ترى أنه لابُدّ من وضع الأقفال، ولابُدّ من تَملّق فلان، فبقائي بهذا المكان مرهون برضائه عني، فما الذي يُرضيه ؟ معصية الله، إذاً سأعصي الله من أجل أن يرضى حتى أبقى في مكانتي وهذا هو الجهل وهو الذي يقع فيه معظم الناس، هو يُريد أن يُحافظ على ما بيده عن طريق إرضاء الناس، يرضيه ويعصي الله فتجدّ ظروف لم تكن في الحُسبان وتقلِب الموازين ويغضب ذاك عليه من غير سبب ويخسر الدنيا والآخرة.

لذلك أكرر على سمع القارئ الكريم هاتين الكلمتين: من آثر دنياه على آخرته خسرهُما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهُما معاً، لكن حتى أكون واقعيًا ربنا عز وجل، وهذا يعرف من طريق تعامل رب العزة مع العباد أحياناً يُغلِق لك كلّ الأبواب إلا طريقاً واحداً مسموحاً وهو غير مشروع، هُنا الامتحان إذْ كُلُ الأبواب التي تُرضيه مغلقة وبابٌ واحد لا يُرضيه مفتوح على مِصرَاعيه، فماذا تفعل ؟ هُنا الامتحان. فإن قلت لن أعصي الله ولو قُطعت إرْباً إرْباً فأنت هكذا يا عبدي ؟ وأنا لن أتخلّى عنك وسأقلب لك كُلّ الموازين بحيث سيغدو عدوك صديقك، وسأُيَسّر لك أعمالك وستأتيك الدنيا وهي راغمة لأنك آثرت طاعتي على الدنيا، عندئذ تأتيك الدنيا وهي راغمة.

أي من آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً، أتمنى على الله عزّ وجل أن يُمكنني من توضيح هذه الحقيقة، فبالأسواق بين التجار قوانين إذْ هناك طريقة في البيع شائعة مُتعارف عليها وتحفظ بها مالك و تربح، لكن ربما هذه الطريقة فيها شُبْهَة في الدين فأنت إذا أردت تطبيق قواعد الدين في التعامل بهذه الطريقة تخسر، فاحذر أن تضحي بعلاقتك بربك و تأخذ بأساليب الناس الملتوية. فتخسر كل شيء.

هناك أخ من إخواننا قال لي: كنت أسكن ببيتٍ سيئ سيىء وكان هناك بيت عرض بخمس وعشرين ألف ليرة سورية طبعاً هذه القصة منذ زمن وهي طويلة جداً، وهذا البيت بأوصافة الجيدة ومساحته مئتا مترٍ مربع، طابق سادس، وهو في أمس الحاجة إليه، وكان معه خمسة عشر ألف ليرة سورية ولديه بعض السندات المصرفية فذهب للبنك ليقوم بحسمها،علمًا بأن حسم السند مُحرّم وهو ربًا معكوس، فقال له مدير المصرف: يا فُلان أنت مُسلم ودينك لا يسمح لك أن تتعامل بالربا ولا أتمنى أن تفعل هذا - الله جعله ينطق بالحق - ابق نظيفاً، فأقسم بالله أنه صار يبكي، يعني هذا ينصحني في ديني، فخرج من المصرف وقال لي عاهدت الله أن أدع هذه الصفقة مع أنها مُغرية جداً وأن أبقى في بيتي القديم المتداعي، فتحرّك من المصرف إلى دكانه فوجد صديقاً له ينتظره منذ نصف ساعة فأخبره بأنه على عجلة من أمره إذ سيسافر بعد وقت قريب، و يود أن يودعه مبلغاً من المال قدره ستون ألف ليرة وقال له: وأنشدك الله إنْ أردت أن تستعمله فلا بأس عليك وهو عندك أمانة لمدة سنتين، فانظر كيف جوزيَ هذا الشخص ؟ لما آثر مرضاة الله على منفعته صادقا مخلصا جاءه من الله فرج قريب.

شخص أُعطي أرضاً فسأل شيخاً له فقال: يا بُنيّ هذه ليست لك، هذه لفلان من الناس وهي غير مشروعةً لك، اذهب لصاحبها واشتر الأرض منه، فذهب إليه وطلب شراءها منه، وقال لي شيخي: يَحرُم عليّ أخْذُها، وليس معي ثمنها الآن إلا أنّ معي أساور زوجتي أبيعها وأتديّن، واطلب أنت ما تُريد ثمنًا لهذه الأرض، فنظر فيه وقال له، يا بُنيّ ذهب من أرضي أربعمئة دونم أرض ما جاءني أحد كما جئت أنت فاذهب وهذه هدية مني لك حلال زلال، موقفه الورع جعلها حلالاً له.

وليُصغ عزيزي القارئ سمعه لهذه الكلمة: زوال الكون أهون على الله من أن تدع شيئاً مخافةً فيه ثم يُضيّعك الله عزّ وجل، واللهِ زوال الكون أهون على الله من أن تقف موقفاً فيه مرضاة الله عزّ وجل ويتخلى عن نصرتك. يا رب أنا لا أعصيك ومهما بلغ الثمن لن أعصيَك. أتفعل هذا عن طيبِ خاطر وتضيع ؟ لا والله، لذلك توجد قوانين مُستنبطة من التعامُل اليومي، فهذا الذي توهّم أن بقاءه في هذا المكان مَنوط بإرضاء فُلان وفُلان، وجعلت إرضاءه عن طريق معصية الله عزّ وجل، فهذا الذي أرضيتَه وأسخطتَ الله عز وجل فلابُدّ من أن يَسخَط الله عليك ويُسخِط ذاك الإنسان عليك، وإذا أغضبت إنساناً من أجل طاعة الله فلابُدّ من أن يرضى الله عنك وأن يُرضِي عنك هذا الإنسان، ومن آثر دنياه

على آخرته خسرهما معاً، **ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً**، فموضوع الحِفظ يلخصه قول الله عزّ وجل إذ يقول في مُحكم كتابه:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

قد يسافر الإنسان فهل يضمن أثناء سفره ألا يصاب ابنه بحادث سيارة مثلاً ؟ هل يضمن ألا يقع خلل في بيته ؟ هل يضمن عدم دخول شخص معتدٍ لبيته في غيابه ؟ ؟وهل وهل وهل...، أمّا المؤمن إذا أزمع السفر دعا بهذا الدعاء: **" اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد "** تشعر أن أعصابك تخدّرت، لأنّ الله يملك البيت، يحفظ مالك وأولادك وأهلك وكل شيء ترى كيف حَفظَ الله لك ولدك من حادث خطير، لا تقل: نجا ب أعجوبة، فهذا كلام البله، هذا حِفظُ الله عزّ وجل، قال:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

لتعلم أن ما عند الله لن تناله إلاّ إذا اتبعت منهجه، حِفظ المال بتأدية الزكاة، حِفظ الجوارح بطاعة الله، عَين تغض عن محارم الله عَين تبكي من خشية الله هل ترثها ؟ لا بل ترثك، فهُناك فرقٌ بين أن ترثها وبين أن ترثك.

((عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ أَنّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ قَلّمَا كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاءِ الدّعَوَاتِ لأَصْحَابِهِ اللّهُمّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلّغُنَا بِهِ جَنّتَكَ وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدّنْيَا وَمَتّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلا تَجْعَلِ الدّنْيَا أَكْبَرَ هَمّنَا وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلا تُسَلّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا))

فالمؤمن مادام لسانه ينطق بالحق، وبصره ينظر إلى آيات الله لا إلى عورات المسلمين، وسمعه يستمع به الحق، مادام المسلم هكذا فأغلب الظن أن الله سبحانه وتعالى يحفظ له هذه الجوارح فهناك حالة تُسمى حالة الأمن، المؤمن يشعُر بأنّ الله عزّ وجل لن يُضيّعه. هذا معنى قوله تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ(٨١))

(سورة الأنعام)

إذاً:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا)

الأب دائما حريص على أولاده حرصًا لا حدود له لكن لو حصل خلل بالخلايا الداخلية و نمت هذه الخلايا نمواً عشوائياً، فالأب ماذا بيده أن يفعل ؟ بيده أن يتألم فقط، أما الإله كل شيء بيده

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا)

فالذي يحفظ هو الله عزّ وجل.

أقسم لي رجل بالله يقود سيارته في طريق طويل ونام وهو بسرعة عالية ورأى مناماً، واستيقظ في الوقت المناسب قبل أن يواجه حادثًا مُروّعًا مُدمِّرًا، إذا أنقذه الله من التردي في الهاوية.

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤))

(سورة يوسف)

فإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ تُلاحظ أنّ من حِكمة ربنا عزّ وجل أنه من اعتمد على ذاته واتكل على نفسه، من اعتمد على ذكائه، على ماله، على معارفه، على أصدقائه، على اتصالاته. مثل هذا الإنسان فبأتفه الأسباب يُدمَّر، وربنا عزّ وجل حينما يُدمّره على أتفه الأسباب ويفشوا أمره بين الناس.

((ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا جعلت الأرض هَوِيّاً تحت قدميه وقطّعت أسباب السماء بين يديه))

لذلك أقوى شيء يشدك إلى الدين معاملة الله لك بعد أن تصطلح معه إذ تشعُر أنك ضمن عناية وتوفيق وإلهام وتسديد وحِفظ وتأييد ونصرة، فالله يُلهمك مثلا ألاّ تسافر لوجود هلاك بذاك السفر، تجد إنساناً قبل يوم من الاجتياح سحب كل ماله وجاء إلى منطقته، بينما غيره خسر كل ماله بفارق يوم واحد فقط، من ألهمك ؟ الله عزّ وجل مِنْ قَبْلُ.

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا)

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

كفار قريش أليست معارضتهم لرسول الله كان هدفها الحِفاظ على ما هم فيه ؟ هذا أمر واقعي،وليس من باب القيل والقال، فزعماء قريش حينما عارضوا النبي وكفروا به وكادوا له وأخرجوه وحاربوه، واضطهدوا أصحابه أليس من أجل أن يحافظوا على مكانتهم في مكة وعلى زعامتهم وعلى أموالهم وعلى شأنهم في الجزيرة ؟ ما الذي حصل ؟ أنهم دُمروا وأنهم قُتّلوا وأنهم مُزّقوا وأنهم شُرّدوا من الذي انتصر عليهم ؟ رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه الذين اتّبعوه، وهذا شيء مُتكرر دائما يؤكده قوله تعالى:

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨))

(سورة الأعراف)

الأمور تدور وتدور ولا تستقر إلا على تكريم المؤمن وحِفظه.

(وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)

بعد كل هذا الإيضاح لا بد من الوقوف عند معاني الحفيظ. إن هذا الاسم له معنيان:

- المعنى الأول: حفيظ بمعنى عليم:

فالله لا ينسى، حفيظ لا ينسى، كُلُّ أعمالك وكل أقوالك وكل مواقفك وكل عطاءاتك وكل منعك وكل الصِراعات التي في ذهنك كل ما أنت فيه محفوظ عند الله عزّ وجل، الآن تجد من يقول لك الإضبارة سحبناها ونجونا من المخالفة بعد أن سحبنا الضبط، وانتهت المشكلة، أو أن الإضبارة اختفت وضاعت، فمثلا الآن هناك كمبيوتر وعن طريقه تصدر النتائج الجامعية فممكن لشخص أن يمحو كل النتائج لخمس آلاف طالب طبعاً، فلو فرضنا أن شخصاً محا كل ذاكرة الكمبيوتر فأين الطلاب ودراساتهم ونجاحاتهم لقد ضاع كل شيء، فمُمكن أن يكون إنسان أذكى من إنسان آخر يسحب الوثيقة أو يسحب الإضبارة أو يسحب التقرير يسحب الضبط، أمّا الله عزّ وجل حفيظ لا توجد قوة لإلغاء ما عنده، فكلٌّ محفوظ و مسجل. فهُنا شعورك أن أعمالك كلها مُسجلة، قال تعالى:

(لَقَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّذِينَ قَالُوا إِنّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ(١٨١))

(سورة آل عمران)

وما قولك إنّ الله عزّ وجل يوم القيامة يعرض أعمالك كُلّها عليك بصورها بوقائعها هذا معنى قوله تعالى:

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ (٩))

(سورة المطففين)

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

قال: مرقوم من الرّقْمِ وهو الوَشْم، ومرقوم من الرّقم، فكُلُّ مخالفة وصورتَها. فأبلغ طريقة بالمخالفات تأتي بالتنبيه فيقال لك: عليك مخالفة، ثم تُراجع ليعطوك الصورة، ألم تكن في هذا الطريق ؟؛ هذه سيارتك وهذه صورتها وهذا الضبط، فأرقى أنواع المخالفات أن تأتي المخالفة مع الصورة.

(كِتَابٌ مَرْقُومٌ)

أو مُرَقّم يستحيل أن تُنزع منه صفحة، مثل المالية هذا الدفتر صفحاته كذا، توقيعه كذا، بعت بيعاً ثم تقول سأنزع هذه الصفحة هذا لا يُمكن إذْ إنك ستجد صفحةً عند موظف المالية، فما قولك إن الله عز وجل يوم القيامة يَعرض عليك كل أعمالك، لماذا وقفت هذا الموقف ؟ **" وقفوهم إنهم مسؤولون "**.

قد تكون أعمال لها مظهر مقبول، لكنْ مخبؤُها غير مقبول، فربنا عزّ وجل يُطلعك على مخبئك، على نواياك، على حقيقتك، هذا معنى حفيظ، أول معنى حفيظ عليم، كل أعمالك مُسجلّة، فالسجلات العقارية بمدينة ما موضوعة بمكان، والمكان أصابه قصف فضاعت كُلُّ الأملاك، لا، لأنه كله مصور بميكرو

فيلم موضوع بأماكن حصينة، لو دُمر هذا البناء هذه السجلات كلها مصورة صورًا دقيقة جداً، مخبَّأة بمكان حصين، هذه كلها بعض معاني الحفيظ، الله حفيظ يعني كل شيء مُسجّل، يعلم كل شيء وربنا عزّ وجل يقول عن نفسه:

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢))

(سورة طه)

فالله سبحانه لا ينسى أبداً، فالحِفظ الأول ضد السهو والنسيان، وهو يعود إلى معنى العِلم فهو تعالى حفيظ للأشياء بمعنى أنه يعلمها جُملة وتفصيلاً علماً لا يتبدّل ولا يتغيّر لا بالزوال ولا بالسهو ولا بالنسيان، هذا المعنى الأول فأنت تعامُلُكَ مع الله عزّ وجل على أنه حفيظ، مُسجّلكما لو أدّيت مبلغًا لجهة و سجل لك في قيودها، هذا الموقف مُسجّل، فمثلا الابتسامة مُسجلّة، فإن ابتسمت ابتسامة في وجه إنسان خائف وطمْأنْتَه فهذه مُسجلّة، إنسان اعتذر لك وأنت قوي فقلت له: لا عليك أنا أودُك ولك مكانة عندي طمْأنْته وارتاح، نام المسكين مطمئنا فهذه مُسجلّة، ابتسامتك عطاؤك منعك كرمك تضحيتك هذه كلها عبادات مُسجلّة. وهذا هو المعنى الأول.

-المعنى الثاني: الحفيظ أيْ ضِدُّ التضييع:

الأول ضد النسيان والثاني ضد التضييع، فمعنى حفيظ أيّ الله عزّ وجل لا يُضيّع المؤمن بل يَحفَظ له عملَه ويكافئه عليه في الدنيا والآخرة فالمُستقيم موفّق ومن يغض بصره عن محارم الله كذلك،فالمكافأة سعادة زوجية، من يضبط لسانه سُمعتُه عالية، من يضبط جوارحه يحفظها الله له، اطّلع على استقامتك وعلى عملك وسجله لك هذا هو المعنى الأول، وكافأك عليه؛ إذّا عِلم ومكافأة، أما المعنى الثاني: حفظِ لك نتائج هذا العمل فلذلك الله عزّ وجل في القرآن يبشر المؤمنين:

إنّ هذه المعاني تنقسم إلى قسمين: الحِفاظ في الدُنيا والحِفاظ في الآخرة أن يحفظ لك دينك، تجد شخصاً له بداية رائعة ثم انتكس وترك الصلاة وانغمس في المعاصي والموبقات، لذلك إبراهيم عليه السلام قال:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥))

(سورة إبراهيم)

فإذا لم ينتكس الإنسان، وإذا لم تزل قدمه وإذا لم يعتقد عقيدةً زائغة، ولا تعلّق بأهل الكفر فهذا مِن فضل الله عليه، فالإنسان إذا قطع مرحلة بعيدة في مسيرة حياته وهو مُحافظ على إيمانه وعلى استقامته وعلى صِلته بالله عز وجل وعلى نقائه وعلى طُهره وعلى إخلاصه فهذه نعمة كبيرة جداً، كم من شخص بدأ بدايةً مُشرقة ثم انتكس، يؤكد هذا قوله تعالى:

(وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (٨٠))

(سورة الإسراء)

أناس كثيرون يدخلون مداخل شتى وهم صادقون، فإذا دخلوا هذه المداخل وتألقت أمامهم الدنيا أغرتهم وأجبرتهم وساقتهم إلى الضلالات وخرج كاذباً لقد دخل صادقاً وخرج كاذباً، دخل مخلصاً وخرج خائناً دخل مُطيعاً وخرج عاصياً دخل مُتعبداً وخرج متكبراً فلذلك الدعاء:

((وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَاناً نَصِيراً (٨٠))

(سورة الإسراء)

البطولة لا أن تدخل بل أن تخرج، فممكن أن يُدَل شخص على مسجد فيرجع إلى الله شيء جميل، تجده انسجم وتأثر وتفاعل، عارض طفيف واجهه كأن يتزوج فترك الدين كله ؛ زوجته لم تنسجم مع هذا الدين السميك بزعمها فترك دينه من أجل زوجته هذا خرج مخرجاً كاذباً، دخل صادقاً فخرج كاذباً.

فإذاً أحد معاني الحفيظ أن يحفظ الله لكَ دينك، أن تَسلَم عقيدتك من الشُبُهات ومن الشِرك الخفيّ ومن عقيدةٍ زائغة، وأن تسلم لك جوارحك من المعاصي و الآثام، أن يسلم لك دخْلك من الشبهات، لهذا سيدنا يوسف قال:

((قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٣))

(سورة يوسف)

إذاً يجب أن ينشأ عندك طلب من الله دائم يا رب احفظ لي ديني واستقامتي وإخلاصي لك ونقائي وحبي لك ولأنبيائك وللمؤمنين، وباعد بيني و بين أن أحب أهل الدنيا والكَفَرة والمُفسدين هذا المعنى الأول، والمؤمن متواضع، يقول لك نسأل الله أن يُتمم لنا بخير، يُقال إن الإمام أحمد حينما جاءه ملَك الموت كان يقول: لا. بعدُ، لا. بعدُ، لا. بعدُ، فمن حوله ما فهموا ما كان يقول، وظنوا أنه مات على غير الإيمان إمام كبير جليل، فرُئِي في المنام وسأله أحد تلاميذه: يا سيدي لمَكنت تقول هذا الكلام: لا. بعدُ فقال يا ُبني جاءني الشيطان وقال لي: نجوت مني يا أحمد، فقلت له: لا. بعدُ، حتى أُغادر الدنيا وأنا مؤمن.

فالإنسان معرّض لخطر الفساد تحت خطر إغراء الدنيا، أما إذا قال: أنا لا أغلط، ولن أدع هذا الطريق، فلعل فيه كِبر مما قد تَزلّ القدم معه، إذاً معنى الحفيظ أن يحفظ الله لك إيمانك وعقيدتك واستقامتك ورغبتك في الحق، لهذا سيدنا عمر كانت إذا أصابته مصيبة قال الحمد لله ثلاثا ؛ الحمد لله إذ لم تكن في ديني هذا هو الكلام الدقيق، الحمد لله ما شربت خمراً، وما ارتكبت معصية، وما كفرت وما نافقت، المال ليس له قيمة عندئذ.

هناك نقطة دقيقة الحساسية جداً وهي أن الإنسان إذا كان دينه غاليًا على قلبه و نفسه وأراد الله عزّ وجل أن يمتحنه بمصيبة فحينها ليس من مانع إذًا قال: إنّ ديني سليم والحمد لله إذ لم تكن المصيبة في

ديني وهذه أكبر نعمة، قد تجد شخصا ليس عنده مشكلة، ولكنه يشرب الخمر، ليس لديه مشكلة في دخله، ومعمله، وفي حياته اليومية وفي صحته وأولاده لكنه لا يصلي، هناك من ليس لديه أية مشكلة في الدنيا لكنه يعتقد أن الدين كله خرافة. هذه مصيبة، بل هي كبرى المصائب.

تُوفي قبل أيام شخص قال من يعرفه: إنّه خلال اثنين وخمسين سنة ما دخل إلى المسجد إلا مرة واحدة، دخل ليُصلّى عليه. هذه مصيبة قَدِمَ على مجهول، فالحمد لله إذ لم تكن في ديني، فهذا شيء مهم جداً مادامت القضية في الدنيا، فالدنيا زائلة أما بالدين فمشكلة فاقرة، والحمد لله إذ لم تكن أكبر منها، هناك مصيبة بالحديد يُجَلّسُ الحديدُ فهذه ليست بابنه فهي نعمة هناك مُصاب بالحديد يُجَلّسُ ثم يُبَخّ وتنحل المشكلة، احترقت غرفة نرمّمها ونَدهَنها، وهذه أهون مما لو كانت المشكلة بابنه أو بزوجته أو بصحته، والحمد لله إذ أُلْهمتُ الصبر عليها، فالصبر نعمة، فالصابر يعني أنه عالِم يعلم أنّ الله عزّ وجل صاحب الأمر كله، أفعاله كلها حكيمة فيها عدل وفيها رحمة وفيها لُطف وفيها تكريم ورأفة يا رب لك الحمد هكذا شئت وأنا راضٍ بقضائك هذا المؤمن، هذا إذًا معنى أول للحفيظ، ووردت آيات كثيرة فيما يخص حفظ الدين:

(وَلَوْلا أَنْ ثَبّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئاً قَلِيلاً (٧٤))

(سورة الإسراء)

إذاً فالله ثبتّه، والله يعصمك من الناس، ربّنا لا تُزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا، رب اشرح لي صدري ويسّر لي أمري، هذه كلها أدعيةُ القرآن أي أنت إذا كنت مؤمناً ومستقيماً وصادقاً ومُحباً للحق لك مجالِسُكَ العلمية اُطلبْ من الله عزّ وجل أن يحفظها عليك، في إحدى الحجّات التي أكرمني الله بها وأنا في الطواف قلت يا رب أنا أضعف خلقك شرفتني بخدمتك وخدمة عبادك، إن علمت صدقي في هذا فاحفظها لي واحفظني لها، يا رب احفظ هذه الدعوة، احفظها، وإن علمت خلاف ذلك فعالجني قبل أن أموت، فالإنسان لابُدّ أن يسأل الله عزّ وجل، يسأل الحفيظ أن يحفظ له إيمانه، دينَه وتألقه.

واللهِ أعرف رجلاً: طيلة عشرين سنة أو خمساً وعشرين وهو ينتمي في طريق الإيمان فأغرْته امرأة وسقط سقوطاً مُريعاً وترك الصلاة وجاءته المصائب من كل جهة ما حُفظ له دينه.

المعنى الثاني: أن يحفظ لك دُنياك، أهم شيء صحتك، وجودك، سلامتك، أهلك، أولادك، ومالك، قال تعالى:

(قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ باللّيْلِ وَالنّهَار مِنَ الرّحْمَن بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْر رَبّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢))

(سورة الأنبياء)

(لَهُ مُعَقّبَاتٌ مِنْ بَيْن يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْر اللّهِ)

(سورة الرعد)

(يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤))

(سورة التغابن)

كلمة من يكلؤكم ؟ من يرعاكم ؟ لا أشُك أن كُل واحد مِنّا كان على خطر أنقذه الله منه، يقال أحيانا: كان بيننا و بين الموت المحقق سنتمتر كدنا أن نهلك لولا أن لطف الله بنا، فهذا حِفظُ الله عزّ وجل.
هناك معنى ثالث وهو أنّ الله عزّ وجل إذا خلق الشيء، استمراره يحتاج إلى حِفظٍ من الله عزّ وجل والدليل:

(إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١))

(سورة فاطر)

فأنت مخلوق وبقاؤك بيد الله عزّ وجل، بقاء السماوات بيد الله بقاء الشمس بيد الله، بقاء الأرض بيد الله، بقاؤها على خط سيرها بيد الله، لأنهما إن زالتا ما يمسكهما من أحد من بعده ؟ هذا معنى الحفيظ فلابُدّ من أن تستسلم لله عزّ وجل، وأدقُّ ما في البحث أنك مفطور على حُب وجودك، وسلامة وجودك، وكمال وجودك، واستمرار وجودك، وجزءٌ كبيرٌ كبير من نشاطِك مصروف بالحِفاظ على ما أنت فيه، فإذا سلكت وسائل الحِفاظ المادية وغاب عنك اسم الله الحفيظ الذي بيده كل شيء فقد أخطأت الهدف وضللت الطريق ولن تنال حفظ الله عزّ وجل إلاّ إذا طبقت منهجه، لذلك لا ينفع حذر من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل ومما لم ينزل فادعوا الله عبادَ الله.

بقي علينا أن النبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ يَقُولُ بِاسْمِكَ رَبِّ وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ))

(رواه البخاري)

((كان إذا أوى إلى فراشه يقول:باسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه فإن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين))

فالإنسان إذا نام بين حالتين: إمّا أن يستيقظ وإمّا ألاّ يستيقظ، فإن لم يستيقظ فيسأل الله أن يرحمه كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم، وإن استيقظ يسأله بأن يحفظه ؛ أن يحفظ له دينه وأن يحفظ له دنياه،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِي الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ))

(رواه مسلم)

وأختم هذا البحث داعياً بما دعا به النبي صلى الله عليه و سلم:

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، واجعل الحياة زيادةً لنا في كل خير واجعل الموت لنا راحة من كل شر.

٣٦- اسم الله الولي :

مع الاسم السادس والثلاثين من أسماء الله الحسنى ألا وهو اسم الولي، الله سبحانه وتعالى ولي الذين آمنوا، وهو من أقرب الأسماء إلى المؤمن، والحياة كما ترون محفوفة بالمخاطر، يمكن أن تنقلب حياة الإنسان إلى كتلة من الشقاء لأتفه الأسباب فمن هي الجهة التي تحمي المؤمن وتحفظه وتربيه وترشده وترعاه وتؤيده وتنصره وتدافع عنه وتوقظه وتلفت نظره؟ الله هو الولي،هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في آيات كثيرة جداً، أول هذه الآيات وأوضحها:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّور وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النّور إِلَى الظّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧))

[البقرة: الآية ٢٥٧]

يعني فصاحب الأسماء الحسنى خالق الكون الرب المسير العليم الحكيم الرحيم الغني القوي، هذه الذات الكاملة هذه الذات التي لا حدود لقدرتها ولا لرحمتها ولا لقوتها ولا لغناها الله هو ذاته على علوّه وعظمته وجلاله، الله ولي الذين آمنوا، مثلا يمكن أن يكون بقصر العدل آلاف المحامين إلا أربعة أو خمسة في قمة هؤلاء، إذا سألت واحداً له قضية مَن محاميك؟ يقول لك فلان يذكر اسمه بملء فمه ويفتخر، المحامي الفلاني اللامع القدير المتمرس الخبير القوي صاحب الحجة صاحب الإطلاع هو وكيلي، ألا تكفينا آية؟ ألا تكفينا هذه الآية أنك إذا آمنت وإذا استقمت يصبح خالق الكون وليك، خالق السماوات والأرض هل لك خصوم ؟ كلهم بيده، حركتهم وأفكارهم وخططهم وقوتهم وأسلحتهم، كلها بيد الله عز وجل، فإذا كنت مع الله عز وجل من يستطيع أن يقف في وجهك؟ من يستطيع أن يكيد لك ؟ من يستطيع أن ينال منك؟ من يستطيع أن يقهرك ؟ من يستطيع أن يحيف عليك ؟ ألا تكفينا هذه الآية ؟

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّور وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النّور إِلَى الظّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧))

[البقرة: الآية ٢٥٧]

ما عليك إلا أن تؤمن، دعونا نقترب من طبيعة الحياة،هذا الذي له صلة بشخص قوي يعتز به، ويثني عليه، ويحتمي به، ويهدد به، ويستعلي به ويتطاول به، يقول لك، معي رقم هاتفه وهو الذي قال لي خبّرني عند كل بادرة، و الله عز وجل الذي رفع السماوات بغير عمدٍ يقول: لك إذا آمنت بي فأنا وليك، وأنا أُدافع عنك وأنا أنصرك، وأنا أحفظك وأؤيّدك وأنا أحميك وأنت بعيني.

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبّكَ فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبّحْ بِحَمْدِ رَبّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨))

[الطور: الآية ٤٨]

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النّور)

الكفر ظلمات بعضها فوق بعض، متاهات تُرّهات أضاليل أكاذيب حقائق مُزوّرة، أفكار هدامة تناقضات تمزقات، أفكار مهترئة لا تقف على قدميها، هذا هو الكفر أباطيل وظلمات، المعاصي ظلمة، الكفر ظلمة، الشرك ظلمة، فهذا مشرك على عاصٍ على ملحد على فاسق على منافق على منحرف على دجال على أناني على صاحب حظ، الله قال ظلمات بعضها فوق بعض، أما المؤمن يخرجه من الظلمات إلى النور، نور الحق، نور الهدى نور المنهج نور معرفة حقيقة الحياة وحقيقة الكون وحقيقة الإنسان وماذا قبل الدنيا ؟ وماذا في الدنيا ؟ وماذا بعد الدنيا ؟ هذه هي الآية:

(اللّهُ ولي الذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[سورة البقرة]

سيدنا يوسف ماذا فعل به إخوته ؟ ألقوْه في غيابة الجب، تآمروا على قتله، حسدوه ضاقت نفوسهم به، ومع أن الله عز وجل مكنهم أن يضعوه في غيابة الجب، ومع أن الله عز وجل أقدرهم على أن يضعوه في قعر بئر، لكن انظروا إذا كان الله ولي المؤمن كيف يكون المصير؟ صار عزيز مصر هذا الذي ألقي في البئر لِيَموت يقيناً، كيف أن الله ألهَم قافلة وأحوجها إلى الماء وأرسلت واردها فأدلى دلوه.

(وَجَاءَتْ سَيّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَذَا غُلَامٌ وَأَسَرُّوهُ بِضَاعَةً وَاللّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٩))

[يوسف: الآية ١٩]

قال يا بشرى هذا غلام وأسروه بضاعة وباعوه في مصر واشتراه العزيز وقال لامرأته أكرمي مثواه، إذا الله عز وجل تولى أمرك، واللهِ الذي لا إله إلا هو لا تستطيع قوى الأرض مجتمعةً أن ينالوا منك، وإذا تخلى الله عنك تنقضي الحياة على أتفه سبب، يموت حَتْفَ أنْفِه، ماذا قال سيدنا يوسف حينما توجّه إلى الله جل وَعَلاَ ؟، قال:

(رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ (١٠١))

[يوسف: الآية ١٠١]

(أَنْتَ وَلِيّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ)

فيا أخي المؤمن ناج ربك، قل له: يا رب ليس لي رب إلا أنت أنت وليي، حسبي الله ونعم الوكيل، لا حول ولا قوة إلا بالله،رضيت بالله ربا وبالإسلام ديناً، أليس لك مع الله ساعة مناجاة وابتهال وتضرع وخشوع وإقبال ودعاء ؟ هكذا ناجِهِ وتوسل إليه، لا تعتمد على زوجتك ولا على ولدك ولا على أخيك ولا على صديقك ولا على صحتك ولا على مالك.

أحد أطباء أمريكا الذين يُشار إليهم بالبنان، ومن اختصاص القلب، بعد دراسة طويلة وخبرات واسعة وتدريب، وجد أن الجري خير وقاية للقلب، فنشر المقالات وألقى المحاضرات وألف الكتب ومارس

الجري، واعتمد على الجري دون الله فمات وهو يجري أجل، الجري مفيد، وموته وهو يجري لا يُلغي قيمة الجريٍ، لكنك إذا اعتمدت على شيء أوتيت منه، يُؤتى الحذِر من مأمنه، تجد طبيبا ذا اختصاص بجهاز الهضم من الطراز الأول مُصابٌ بقَرْحَة لأنه يتوهم أنه طبيب يعلم ما ينبغي وما لا ينبغي اعتمد على علمه ولم يعتمد على الله عز وجل فأُصيب في اختصاصه وهذا من حكمة الله عز وجل.

أيها القراء الأكارم، أكاد أقول هناك حالتان لا ثالثة لهما: -وأنا واللهِ أعني ما أقول- أنت بين حالتين: إما أن يتولى الله أمرك، وإما أن يكلك إلى نفسك: يتولى الله أمرك إذا كنت عبداً له وافتقرت إليه وتوكلت عليه وأقبلت عليه، ويتخلى عنك أو يكلك إلى نفسك إذا قلت: أنا. ولا أدل على ذلك من قصتين شهيرتين عظيمتين قرآنيتين لمعركتين من معارك رسول الله صلى الله عليه و سلم:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣))

[آل عمران: الآية١٢٣]

وقوله تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥))

[التوبة: الآية ٢٥]

أنت في عملك وفي بيتك وفي اختصاصك ومع زوجتك وجيرانك ومع دراستك وكسبك للمال، حينما تعتمد على الله يتولى الله أمرك وحينما تعتمد على نفسك يكلك الله إليها، قال سيدنا يوسف: أنت ولي في الدنيا والآخرة دعاء لطيف، والمؤمنون ماذا يقولون ؟

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦))

[البقرة: من الآية ٥٢]

الإيمان ليس كلاما تسمعه ولا أفكاراً تعتقدها ولا طقوسا تؤديها، الإيمان اتصال بالله، وأن تكون حسن العلاقة مع الله عز وجل، تسأله وتناجيه تدعوه وتتوكل عليه ترجوه تستغفره

(ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢))

[الأنعام: الآية ٦٢]

ما معنى كلمة الحق؟ أي لا مولى بحق إلا الله، فالناس لضعف إيمانهم ولشركهم الخفي يعتقدون أن زيداً أو عُبيداً قوي ويَدْعَمُهم ويأخذ بيَدهم ويحفظهم،هذا ولي باطل، الولي الحق هو الله جلّ في علاه. أيُّ جهة دون الله إذا اتخذتها ولياً فأنت مبطل لأن الذي اتخذته ولياً باطل والباطل لا يقوم على قدميه، زائل.

(ثُمّ رُدُّوا إِلَى اللّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقّ)

اسمعوا قوله تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ مَوْلَى الّذِينَ آمَنُوا وَأَنّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١))

[محمد: الآية ١١]

مثلهما مثل طفلين أحدهما بلا أب ولا أم ولا مال ولا بيت، ينام بالطرقات و بالحدائق قلبه ممتلىء خوفاً، وآخر له أب مقتدر وعالم وديّن وغني وللطفل غرفة خاصة به، إذا مرض يؤخذ فوراً إلى الطبيب، ويقدم له أحسن دواء وأرقى مستشفى، إذا لم يحرز قصب السبق بالرياضيات يوفر له أساتذة يأتونه إلى البيت هذا الطفل له أب ولي يقوم عليه والآخر دون أب ولا أم ولا جهة تحميه، حالته تعيسة جداً هذا معنى قوله تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ مَوْلَى الّذِينَ آمَنُوا وَأَنّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١))

[محمد: الآية ١١]

ولله المثل الأعلى، فالكافر لا ولي له لأنه رفض أن يكون الله وليه وأدار ظهره للدين والقرآن، والحياة كلها مفاجآت ؛ تجد إنساناً بأعلى مكان وأعلى مرتبة وفجأةً يصبح أشلاء قال تعالى:

(ذَلِكَ بِأَنّ اللّهَ مَوْلَى الّذِينَ آمَنُوا وَأَنّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١))

[محمد: الآية ١١]

وقال تعالى:

(أَلَا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢))

[يونس: الآية٦٢]

والمعنى الأول للولي هو المُتَولي، والمتولي هو الذي يقوم بالأمر كولي اليتيم يرعاه بدراسته وصحته وجسمه وغدائه وطعامه وأخلاقه وعلمه، أيُّ خلل يسارع إلى معالجته يعطيه ويحفظه ويُوليه، الولي مِن الفعل تولى، وتولى الأمر: دَبَّرَهُ وأقام عليه، إذْ يستحيل أن يكون الابن بدمشق والأب بلندن ويربي الأب ابْنَهُ تربيةً جيّدة فالقرب من لوازم الولي ؟ أجل، القرب، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أيّةٌ امرأة قعَدَت على بيْت أوْلادِها فهي معي في الجنة))

ولا تستطيع المرأة أن تربي أولادها وهي غائبة عنهم لا طعام ولا عناية ولا غسيل ولا نظافة ولا تربية ولا دراسة، فالولي هو المُرَبي الذي يتولى شؤون عبده كلها، حاله كحال الصحة، فإذا الإنسان خالف منهج صحته هناك أجهزة الإنذار لا يموت مباشرة، فأجهزة الإنذار تنبهه، هذا أهمل أسنانه تأتيه آلام فالآلام جرس إنذار مبكِر، فربنا عز وجل تولى تربية أجسامنا ؛ فهذا النسيج اللحمي يلتئم حسب الظاهر من تلقاء نفسه، لكن لولا أن الله سبحانه وتعالى صممه بطريقة يلتئم بها لما التأم، هل سمعت مرةً أن شخصاً انكسرت سيارته والتأم الانكسار وحده؟! هل يتم هذا بعالم السيارات؟ أما بعالم البشر

فممكن، إذْ وظيفة الطبيب العظمي أن يضع العظمة بجانب العظمة وانتهى دوره ويتولى الله جل في علاه اِلتئامَ العَظْمَتَين إذْ الخلايا العظمية بعد اكتمال نُمُوِّ الإنسان تنام وتدخل في سُبات: ثلاثين سنة، خمسين سنة، فإذا حصل كسر تستيقظ ويَلتئِم الكسر، فالله هو الولي، يتولى أمورك يعتني بك ويربيك ويلاحظ أحوالك إقبالك وإدبارك وانحرافك واستقامتك وإخلاصك ورياءك ؛ بل إن الإنسان يُعالج في كل ثانية، لا يحدث شيء على وجه الأرض إلا بحكمة مطلقة وخير مطلق ومعالجة مطلقة، وهذا هو معنى:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا)

وهو ولي كل خلقه حتى الكافر، فالكافر يُتَولى ولكن بطريقة أخرى.

المعنى الثاني لكلمة ولي: الناصر، قوله تعالى:

(وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ(٧١))

[التوبة: الآية ٧١]

ينصر بعضهم بعضاً، وقوله تعالى:

(نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ (٣١))

[فصلت: الآية ٣١]

أيْ ننصركم على عدوكم في الدنيا والآخرة، وأولياء السلطان أنصاره، فالمعنى الأول: الولي هو المربي الذي يتولى أمر عباده جميعاً، والمعنى الثاني الولي: الناصر.

والمعنى الثالث: المُحِبُّ، والدليل قوله تعالى:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)

[البقرة: الآية ٢٥٧]

أيْ يحبهم، إذاً هو يرعاكم وينصركم ويحبكم، لكن لو فتحنا كتب اللغة على معنى الولي لوَجدنا أن الولي يُطلق على المُعْتِق و المُعْتَق أيْ على السيّد والعَبْد في وقت واحدٍ وعلى الناصِر وعلى الجار وعلى ابن العم وعلى الحليف وعلى القيّم بالأمر، فهذه المعاني المتباعدة المختلفة أليس لها خيط يضمها جميعاً ؟ قالوا المعنى الذي يجمعها جميعاً ؛ الولي: القريب والدليل حينما قال الله عز وجل:

(أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى (٣٤))

[القيامة: الآية٣٤]

و معنى أولى لك فأولى أيْ اقترب منك ما أنذرك الله به، ويكاد أن يتحقق، أيضاً قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ(١٢٣))

[التوبة: الآية ١٢٣]

فكل معاني الولاية تصل فيما بينها أواصر معنى واحد يجمعها، وهو أن الله جل في عُلاه مع عباده والدليل قوله تعالى

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤))

[الحديد: الآية ٤]

هذه المعية العامة وقوله تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦))

[التوبة: الآية٣٦]

هذه المعية الخاصة، موضوع القرب يحتاج إلى تفصيل.

إذا أمسك أحدهم مذياعاً موصولاً بمأخذ كهربائي وضمه إلى صدره وجعله بين جوانحه واشتد عليه أيهما أقرب إلى المذياع الذي ضمه بين جوانحه أم الكهرباء التي يعمل بها ؟ الكهرباء الذي تغذيه ولذلك

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦))

[ق: الآية١٦]

(ونحن أقرب إليه من حبل الوريد)

فمهما شعرت أنّ زوجتك أو ابنك أو جارك أو شريكك قريب، فالله عز وجل أقرب إليك من نفسك.

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤))

[الأنفال: الآية٢٤]

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

فالمراقبة أساسها الشعور أن الله معك أحياناً بالصيف يرتدي الإنسان قميصاً داخلياً فإذا طُرق بابه، فأول شيء يفعله أن يرتدي عباءته ويستحي أن يظهر أمام الضيف بقميص داخلي، من أرقى أحوال المؤمن حال المراقبة، فيوقن أن الله معه في خلوته وجلوته وفي سفره وحضره، والإيمان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، هذا هو حال المؤمن مع الله، هو حال الإحساس أن الله معه يستحي من الله عز وجل، لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما رأى مستأجراً استأجر أجيراً فأراد أن يغتسل فاغتسل أمام الناس عُرياناً فقال له النبي عليه الصلاة والسلام:

((خذْ أجارَتَكَ لا حاجة لنا بك إني أراك لا تستحي من الله))

بلغني أنه في بعض الدول التي تؤمن أنه (لا إله) والتي أزالها الله، أن طالبًا جامعيًا ذهب ليدرس في جامعتها فوجد مراحيضها بلا حواجز فمئة طالب يدخلون إلى هذا البهو الكبير، يقضون حوائجهم أمام بعضهم بعضاً، والحمامات كذلك كلهم لا يستحيون من الله، فالإنسان يظهر حياؤه في ستر عورته ويحرص على أن يظهر أمام الناس بأجمل مظهر، أما هذا الذي لا يبالي ولا يرعوي فهو إنسان لا يستحي من الله، قال له خذ أجارتك لا حاجة لنا بك، فإنني أراك لا تستحي من الله،فهذا نبينا عليه

الصلاة والسلام وهو سيد الخلق وحبيب الحق ما رُئِيَ مادًا رجليه قط في كل حياته، فالله قريب وهو الولي الحميد، تُوكل تربية ابنك إلى معلم يكون قاسياً يضربه ضرباً مبَرّحاً أو بالعكس يهمله، قد يكون هناك معلم يدخل إلى الصف يُلقي درسا ولا يعطي وظيفة، فالطالب طيلة السنة مستمع، و المعلم ألقى الدروس والطلاب في واد وهو في واد، ما أمسك بيده قلماً ولا شرح بيتاً شعرياً مثلا فهذا الطفل لا تنمو قدراته العلمية إذْ نمو العلم بالممارسة، فهذا ولي غير حميد.

و حظ المؤمن من هذا الاسم أن يكون ولياً لله عز وجل، والتعريف الدقيق هو:

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣))

[يونس: الآية ٦٣]

فإذا كنت تحب أن يكون الله وليك ؟ فكن وليه بالإيمان به والاستقامة على أمره، وعندها يصبح خالق الكون وليك.

تشعر أن الله هو الذي ساق لك هذا وصرف عنك هذا، وفرّج عنك وضيّق عليك..فأنت مؤمن لشعورك أن الله هو مربيك، لا لأنّ الإيمان منطقي كما يحلو لبعضهم أن يدّعي، حدثني أخ أنه ذهب نزهةً يومَ جمعةٍ من وعادته حضور درس علم في هذا اليوم ففقد في رحلته هذه وثائق سيارته ومبلغاً من المال، لقد ربّاه الله و لقنه درسا والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ))

أفضل خروج تخرجه من بيتك هو أن تتجه إلى مجلس علمٍ لا إلى صفقة، ولا جلسة، ولا مصلحة، ولا ضِيافة، فهناك أهداف الدنيا ممتنعة لأنه بيت الله عز وجل، إذا خرجت من بيتك متجهاً لمجلس علم، أتُحِبّ أن يكون الله وليك ؟إن كان كذلك وضعت الملائكة لك أجنحتها رضىً بما تصنع، وهذا ملخّص مفيد إن شاء الله تعالى.

الحياة ممتلئة بالمخاطر ومخيفة، وفيها منزلقات ؛ زرتُ صديقاً لي ببيته وهو في أوج صحته وفي أعلى درجات الترف بعد يومين شعر بضيق التنفس فإذا به يعاني من مرض خطير، فالإنسان بلحظة تصبح حياته جحيماً، إذا كنت صالحاً وألمّ بك مرض فقل الحمد لله، لكن المصيبة أن تكون غارقاً في المعاصي والشهوات، وحقوق العباد متعلقة برقبتك ويداهمك المرض العضال، فسيدنا عمر كان إذا أصابته مصيبة قال الحمد لله ثلاثاً: الحمد لله إذ لم تكن في ديني ؛ فإذا كان دخلك حلالاً وصلتك بالله قريبة فكل شيء من مصائب الدنيا هيّن، فهذه الصحابية الجليلة مات أبوها و وزوجها وأخوها وابنها بمعركة أُحد،وهي تقول ما فُعل برسول الله حتى رأته بأم عينيها فقالت: يا رسول الله كل مصيبة بعدك جَلَلٌ، فإذا كنت مستقيماً على شرع الله، دخلك حلال وتغض بصرك وتخشع في صلاتك وتتلو كتاب ربك ولك مجلس علم فكل مصيبة بعد هذا تهون، لي قاعدة ألتزمها في حياتي خلاصتها أنني ألا أيأس:

فإذا وقعت دوني مشكلة أقول هذه لاتتعدى اليومين إن شاء الله وهذه لا تتعدى ساعة فكل حال يزول مع الزمن، فكل مصائب الناس تجد أولها صعباً و آخرها سهلاً، مات شخص تحزن عليه وبعد شهرين تنساه، أذكر القارئ الكريم: إذا كنت مع الله كان الله معك.

و إذا أردت أن يكون الله وليك ينبغي أن تكون وليه، وكي تكون ولياً لله فالقضية سهلة جداً إذْ يكفي أن تكون مؤمناً به ومستقيماً على صراطه "

(أَلَا إِنّ أَوْلِيَاءَ اللّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢))

[يونس: الآية٦٢]

تواجه الشاب عدةُ عقبات فيما يخص مستقبله، هل هو مشرق أم عابس مكفهر ؟ هل زواجه ناجح ؟ هل ذريته صالحة ؟ إذا كان هذا الشاب مؤمناً بالله فإنه يقول:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلّا مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١))

[التوبة: الآية٥١]

كلمة هو مولانا لها معنى دقيق، أيْ: لن يصيبنا إلا الخير، فمادام الله هو مولانا فلن يصيبنا إلا الخير.

(اللّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٣))

[التغابن: الآية١٣]

بعضهم قال: الولي من نصر أولياءه وقهر أعداءه، والولي بحُسن رعايته منصور، والعدو بحكم شقاقه مقهور، والأمور تدور، وحياتنا لا تستقر إلا بنصر المؤمن وقهر الكافر، فالعبرة بالاستقرار، المؤمن يُبتلى لكن لا تستقر حياته إلا بإكرام الله له، والكافر تجده مشتتا وهناك ولا تستقر حياته إلا على الهلاك، إذا أردت الجواب الدقيق فراقب شيخوخة مؤمن وشيخوخة كافر، المؤمن كلما تقدمت سنه كلما ازداد عقلا وعلما ونوراً ومكانة بين أولاده وإخوانه وجيرانه ومجتمعه، أنظر إلى وجهه، والله إن النظر إلى وجه العلماء عبادة ! أنظر طِيبَ سريرته، وانظر إلى علاقاته الطيّبة، تراه عفُوًا سميحاً كريماً متواضعاً ثم انظر إلى إنسان أمضى عمره في الشهوات، انظر إلى شيخوخة عمره.

(وَاللّهُ خَلَقَكُمْ ثُمّ يَتَوَفّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ(٧٠))

[النحل: الآية٧٠]

لذلك لا يُعتَمد على فترة الشباب لأن المعوّل عليه خريف العمر، هناك رجل صالح ذهب إلى المدينة المنوّرة لِيُجاور النبي عليه الصلاة والسلام، قيل رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه يقول له: عملك في بلدك خير من مجاورتي إذا جاورتني تسعدُ ولا ترقى وتوقف عملك (في الحج نسعد جدًا عند رسول الله، أما في بلدنا نعمل الصالحات فنرْقى، هناك نأكل وننام ونزور ونبكي، ونعود إلى بلدنا، لكن في بلدنا نعين على الإنفاق، فهناك أماكن يسعد بها الإنسان ولا يرقى، وأماكن يرقى ويسعد) فعاد إلى

الشام وأسّس مدرسة دينيّة وهي موجودة حتى الآن، وعلّم فيها ثمانين عامًا حتى كان يقول لبعض تلاميذه: يا ابني كان أبوك تلميذي، وكان جدّك تلميذي !، وعاش ستّة وتسعين عامًا بقامة منتَصِبة، وبَصرٍ حادّ، وسمع مرهف، وأسنان منتظمة، ونشاط في الجسد، وقوّة في الروح، وكل من سأله: ما هذه الصحّة يا شيخ ؟ يقول: **يا بني حفظناها في الصِّغر، فَحَفظها الله علينا في الكبر!**

لا أظن أن إنساناً غض بصره عن محارم الله إلا حفظ الله له عينيه، وما أصغى بأذنيهِ لكلام الله ولكلام النبي العدنان إلا حفظ الله له سمعه، وآخَرُ سار إلى المساجد يحفظ الله له رجليه، وذاك أنفق بيده اليمنى صان الله يديه، واعلم أنَّهُ ما من عثرة ولا اختلاج عِرق ولا خدش عود إلا بما قدمت أيديكم وما يعفو الله عنه أكثر، فالولي بحُسن رعايته منصور والعدو بحكم شقاقه مقهور، يقول الناس: ذاك إنسان إنسان فطس، تعبيراً عن موته فهو غارق بالشهوات والزنا والانحراف، فإذا أمضى حياته بالمعاصي يكون هيّناً على الناس،

(فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ (٢٩))

[الدخان: الآية٢٩]

أما المؤمن فهو غالٍ على الله عز وجل وعلى الناس، لذلك صنائع المعروف تقي مصارع السوء، مرةً كنت متجها لسوق الحميدية وجدت شخصاً ميتاً، غِبْتُ ستة ساعات ورجعت ولم يأتِ قاضي التحقيق بعد، ومرة كنت بتعزية وجلس أمامي عالم جليل سألته عن صحته وحاله ثم قام من التعزية وخرج فشاهده شخص لا يعرفه- واحتراما لهذا العالم - أوصله بالسيارة إلى بيته، وبيته بالطابق الرابع وبعدها صعد ودخل بيته وغيّر ثوبه أسل روحه إلى ربه، فلو أراد أن يستأجر مركبة لما وصل، فسبحان الله ذاك مات بالطريق وهذا مات بفراشه، وتجد من يموت بالمرحاض، فصنائع المعروف تقي مصارع السوء، ألا تريد شَيْخوخة منوّرة ؟ وشَيخوخة فيها وقار، خالية من خرف فكن ولي الله، أسمعُ قِصصًا عن المتقدِّمين في السنّ زوجته تعيّره وأولاده يقولون له إذا تكلم: اصمت ! لقد سمعنا هذه القصة منك آلاف المرات، ويصبح عبئًا عليهم، فهذا لم يحفظ نفسه و جوارحه في الصِّغَر، لذا فاحْفظها في الصِّغَر يحفظها الله عليك في الكِبَر، فمن عاش تقياً عاش قوياً زرت عالماً عمره خمس و ثمانون سنة لا يزال قوياً، يذهب إلى عمله كل يوم، وله عمل رسمي فهنأته على نشاطه وسلامة جسمه، وهناك بعض العلماء في مصر عاش مئة وثلاثين سنة ويتمتّع بأعلى درجات الصحّة، فالقاعدة: الأتقى هو الأقوى والعاقبة للمتقين، والقضيّة واضحة تمامًا، من تعلم القرآن متعه الله بعقله حتى يموت، حدثني طبيب أن مريضاً أُصيب بضيق في الشرايين والحل هو أن يُكثر الناس الكلام معه كي يفكر فإذا فكر توسعت الشرايين وتغذى الدِّماغ أما قارىء القرآن والمصلي يحدث معهما نشاط ذهني من هذه الصلاة فقلما تجد إنساناً مصلياً ومن المكثرين لقراءة القرآن يصل إلى درجة الخرف.

(إنّ الّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللّهُ ثُمّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ ألّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنّةِ الّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢))

[فصلت: الآية٣٠]

أكثر شيء بحثنا هذا أن تكون ولياً لله، حتى تستحق أن يكون الله وليك والحياة مزرعة الآخرة، بها ترقى، وليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، فهذا الذي ينسحب من الحياة دراسة و عملًا وهو عبء على الآخرين فهو ليس كاملا في إيمانه، ولا من ترك آخرته لدنياه،أهمل الآخرة وغاص في الدنيا ثم فوجيء بالموت ولكن من أخذ من كليهما فإن الأولى مطية للثانية.

(اللّهُ وَلِيّ الّذِينَ آمَنُوا)

[البقرة: الآية ٢٥٧]

وقوله تعالى:

(فَاطِرَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصّالِحِينَ (١٠١))

[يوسف: الآية١٠١]

الله ولي الخلق جميعاً صالحهم وطالحهم، مؤمنهم وكافرهم، ولايته للصالحين إكرامهم، وولايته للكافر تربيته وتأديبه والدليل:

(فَإِنْ كَذّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧))

[الأنعام:الآية١٤٧]

(فَإِنْ كَذّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧))

[الأنعام:الآية١٤٧]

الآية الأولى:

(أَمِ اتّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ فَاللّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٩))

[الشورى:الآية٩]

فالله هو الولي و هذه تعني شيئاً بالبلاغة هذه تعني القصر أيْ لا ولي إلا الله، فمن اتخذ غير الله وليا بقي بلا ولي لأن ما سوى الله لا يُسمى ولياً.

الآية الثانية:

(وَهُوَ الّذِي يُنَزّلُ الْغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنْشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨))

[الشورى: الآية٢٨]

تحوي هذه الآية معنىً إضافياً، فأول آية:

(هُوَ الْوَلِيُّ)

أيْ لا ولي إلا الله، بينما الآية الثانية:

(وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ (٢٨))

تشير هذه الآية إلى أن ولاية الله مطلقة في كمالها، مثلاً قد تجد أماً مهملة وأباً مهملاً ومقصراً، أما الله عز وجل إذا تولى مؤمناً فولايته مطلقة في كمالها وصوابها.

الآية الثالثة:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آَمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧))

[البقرة: الآية٢٥٧]

تشير هذه الآية إلى أنه لا بد لك من ولي فإما أن يكون الله وليك وإما أن يكون الشيطان وليك، إما أن تتحرك بإلهام الملائكة من الله، وإما أن تتحرك بوساوس الشياطين، فلا بد من أن تكون عبداً، عبداً لله أو عبداً لعبدٍ لئيم، تجد الذين استنكفوا عن عبادة الله أذلهم الله أمام من هم أصغر منهم وحقرهم أمام الآخرين، فإما أن يكون الله وليك أو لا بد من أن يكون الشيطان وليك، فالشيطان يأمركم بالسوء والفحشاء وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون.

(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ)

يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً.

الآية الرابعة:

(إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩))

[الجاثية:الآية١٩]

الولاية هنا مجازية لا بمعناها الحقيقي وإنما بمعناها المعاكس، أيْ الظالمون يُورّط بعضهم بعضاً في التهلكة والهلاك قال الله عز وجل:

(وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (١٩))

و المتقون هم الطائعون، فالله يتولى المتقي والظالم يتولى الظالم.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آَمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١))

آية أخرى:

(إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦))

[الأعراف:الآية١٩٦]

إذا جاء التولي مع الصالحين كان ذلك تولياً بالإكرام، أما إذا لم يكن الإنسان صالحاً يتولاه الله بالمعالجة.

آية أخرى:

(وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ (٥٦))

[المائدة:الآية٥٦]

إذا نظرت في التاريخ طالعك: أبو جهل وأبو لهب وأمية ابن خلف ؛ هؤلاء ما مصيرهم؟ قُتِلوا في بدر ثم قذفوا في البئر، وخاطبهم النبي أمواتا فقال: لقد كذبتموني وصدقني الناس وأخرجتموني وآواني الناس، أَوَجَدتم ما وعد ربكم حقاً ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، والنبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه الكرام رفعهم الله مكاناً عليّا، اُنظر عبْر التاريخ فكل الذين والوا الله ورسوله أكرمهم الله عز وجل ورفع قدرهم وحفظهم والذين وَالوا الشيطان أُهلكوا ودُمِّروا وأصبحوا في مزبلة التاريخ ؛ إذا هي إحدى المنزلتين، إما في سجل الخالدين وإما في مزبلة التاريخ، الذي وقف مع الحق ونصر دين الله عز وجل نصره الله عز وجل:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

[يونس:الآية٦٢-٦٣]

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ)

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

فالله يعطيك في هذه الدنيا بعض النفحات وبعض التجليات وبعض المؤانسات والرصيد يوم القيامة:

(وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

[آل عمران:الآية١٨٥]

لكن لهم البشرى في الحياة الدنيا، حتى إن بعض العلماء قال: حينما قال النبي صلى الله عليه وسلم:

((أبو بكر في الجنة))

أيْ الآن في الجنة ؛ جنة القرب لأن المبشر بالجنة له جنة في الدنيا والدليل:

(وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦))

[الرحمن:الآية٤٦]

فالأولى في الدنيا، إذاً:

(لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ)

الآية الأخيرة:

(وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلَا تَفَرّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣))

[آل عمران:الآية١٠٣]

فبفضْل تولية الله للمؤمنين صاروا أولياء متحابين بعدما كانوا أعداء متباغضين.

وكذلك قوله:

(وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً (٤٥))

[النساء:الآية٤٥]

فالله عز وجل إذا تولى أمر قوم كفاهم، ولقد تقوم ذات يوم بزيارة طبيب ثم تقول والله ما استفدت شيئًا، أريد طبيبًا آخر، أو توكّل محاميًا فلا يعجبك فتريد آخر، لكن إذا تولاك الله تعالى فهو الذي يُطمئنُك قال تعالى:

(وَاللّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَائِكُمْ وَكَفَى بِاللّهِ وَلِيّاً وَكَفَى بِاللّهِ نَصِيراً (٤٥))

[النساء:الآية٤٥]

٣٧-اسم الله المحصي :

مع الاسم السابع والثلاثين من أسماء الله الحسنى، والاسم هو المحصي قال الله عز وجل في القرآن الكريم:

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً (٩٤))

[مريم:الآية٩٤]

أذكر القارئ الكريم بحديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم وطالما ذكرته في أبحاثي:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[رواه البخاري ومسلم]

يتوهم المتوهمون أن الإحصاء هو العد ؛ فمن عدها دخل الجنة، وهذا خطأ في فهم كلمة أحصاها، وهناك قاعدة وهي أن الشيء العظيم لا يصح أن يتوقف على شيء ضعيف، فهذه الأحاديث ليست صحيحة، فدخول الجنة التي خُلق الإنسان من أجلها والتي كُلِف أن يعرف الله وأن يستقيم على أمره لا تكون فقط بِعَدِّ هذه الأسماء، فليس معنى الإحصاء هو العد، وهناك قاعدة في اللغة وهي: الاختلاف في المبنى دليل على الاختلاف في المعنى، قال الله:

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً (٩٤))

فالعد شيء والإحصاء شيء آخر، فالعد معروف تقول: عندي ثلاثون كتاباً، أما الإحصاء أن تقول: قرأت كل هذه الكتب وفهمتها صفحة صفحة قيّمتها، وعرفت أخطاءها وصوابها وفوائدها ؛ فالإحصاء يعني العِلم الدقيق، ولو سألت عن عدد الموظفين في مؤسسة وقيل لك: مئة وثمانون فهذا عدٌّ، أما إن ذُكِرتْ لك أوصافُهم ؛ قدراتهم وكفاءاتهم أوضاعهم المعاشية، والاقتصادية والفكرية صار إحصاءً، فالإحصاء هو الذي يفيد العلم، فالمحصي هو اسم متعلق بعِلم الله عز وجل، لكن هناك مع الإحصاء جزئيات و تفاصيل ومعلومات دقيقة جداً، فالذي يملك معلومات كلية وإجمالية شمولية شيء، والذي يملك أدق المعلومات مع فروعها شيء آخر، فهذا الأخير هو الإحصاء، لذلك قالوا الإحصاء هو الإحاطة بتفاصيل كثيرة للأشياء وليس هو التعداد، وإذا قلت هذا أمر لا أحصيه أي لا أطيق ضبطه، والله سبحانه وتعالى هو المحصي الذي يحصي الأعمال و يعدها يوم اللقاء، فالإنسان لا يستطيع أن يعد كم يوماً عاشه وكم نزهة قام بها وكم كلمة لفظها لكن الله سبحانه وتعالى يعلم كل أعمالك بدقائقها وتفاصيلها ومناسباتها ودوافعها وأهدافها، كل هذا تراه يوم القيامة رأي العَيْن وهذا هو معنى المحصي.

الله هو المحصي أي هو الذي يحصي الأعمال ويهيئها بتفاصيلها ليوم القيامة أو ليوم الحساب أو ليوم الجزاء أو ليوم الثواب والعقاب، وقيل المحصي هو العليم بدقائق الأمور وبأسرار المقدور، هو

بالمظاهر بصير وبالبواطن خبير، وهو المحصي للطاعات والمحصي لجميع الحالات والمحصي لأنفاس الخلائق والخبير بخفي الوساوس وهو العليم بجميع الموجودات وعدد حركاتها وسكناتها وشؤونها، قال تعالى:

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٥٩))

[الأنعام: الآية٥٩]

فالإنسان إذا أيقن أن الله عز وجل يحصي عليه كل حركاته وكل أنفاسه وكل أفعاله وكل وساوسه وكل ما تنطوي عليه نفسه من نوايا وبواعث وأهداف وصراعات كان شأنه مع الله شأناً آخر، الإمام الغزالي يرى أن المحصي هو العالم -فأدق المعلومات وجزئياتها إذا أضيفت لعِلم الله عز وجل صار الاسم هو المحصي، والمحصي هو المطلق الذي ينكشف في علمه حدُّ كل معلوم،أحيانا تسأل شخصا سؤالا فيقول لك: لا أعرف، وآخر تسأله عن تقدير عدد الطلاب مثلا فيقول لك: لا بد من أن أراجع السِّجلات، فأكثر الناس لا يستطيعون طبعاً إذا كانوا صادقين الإدلاء بمعلومات دقيقة،لأنهم يفتقرون إلى سجلات ومحاسبين، لكن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شيء بدقة.

العبد إذا أمكنه أن يُحصي بعلمه بعض المعلومات فهو يعجز عن أكثرها، قال الله تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

لم يقل الله تعالى وإن **تعدوا نعم الله** وإنما جاءت بالمفرد، والسؤال هل النعمة الواحدة تُعد ؟ استنبط العلماء أن النعمة الواحدة لو أمضيت كل حياتك تَعُدُّ خيراتها وبركاتها ومنافعها تنقضي حياتك ولا تنقضي منافعها، فهذا من إعجاز القرآن الكريم

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ)

فأنتم عاجزون عن إحصائها فلأنْ تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى، كلكم يعلم أن الإنسان إذا رُزق مولودا تتابعت الهدايا الكثيرة يتمكن بسهرة واحدة أن يحصي مجموع هذه الهدايا، أما مكافأة أصحاب هذه الهدايا يحتاج إلى مال كثير، وإلى جهد كبير، وإلى أمد طويل، ففرق كبير بين إحصاء هذه الهدايا وبين المكافأة عليها، فربنا عز وجل أثبت لنا عجزنا عن عد النعم فما بالُكم عن شكر النعم**!** فأنتم عاجزون عن إحصائها فلأنْ تكونوا عاجزين عن شكرها من باب أولى، لذلك فالإنسان في موضوع الإحصاء يبدو ضعيفا جداً، فأيُّ مدير مثلا أراد أن يتخذ قراراً دقيقا في مؤسسة يحتاج إلى طاقم من المحاسبين والمستشارين، فمعنى الإحصاء في حديث رسول الله هو العِلم،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ))

[رواه البخاري ومسلم]

وقيل المحصي هو المحيط بكل شيء جملة وتفصيلاً لا تخفى عليه خافية لا في الأرض ولا في السماء، وقال بعض العلماء المحصي هو الذي بالظاهر راقب أنفاسك وبالباطن راقب حواسك، وقيل المحصي هو الحافظ لأعداد طاعتك العالم بجميع حالتك، فأنت أمام الله مكشوف ولا تخفى عليه من خلقه خافية أبداً.

(وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا)

فمن باب أولى كل حركاتك وسكناتك بعلم الله عز وجل، فلما أمر الله عز وجل أم موسى رضي الله عنها أن تلقي ابنها في اليم، كانت حركات الموجات وحركة الصندوق بعلم الله عز وجل وسَوْقه للشاطىء كان بعلم الله عز وجل، ونزول امرأة فرعون بالذات في هذه اللحظة بعلم الله عز وجل، فهذا هو الاحصاء ؛ علمٌ بالدقائق والتفاصيل، فأكثر الناس علمهم بالكليات والإجمال أما التفاصيل فيقول لك لا أعرف، فتركيب الدواء مثلا يمكن أن يقال عنه هو نافع لكذا، أما عن تفاصيله فعليك الرجوع إلى التعليمات الموجودة بالوصفة، إذاً العالم بالدقائق هو الذي يستلزم اسم المحصي، الإمام الرازي يقول: إن هذا الإحصاء راجع إلى علم الله سبحانه وتعالى بعدد أجزاء الموجودات وعدد حركاتها وسكناتها.

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦))

[هود:الآية٦]

فالدابة وردت نكرة في الآية، والتنكيرهنا تنكير شمول، أيُّ دابة على وجه الأرض ؛ نملة، حشرة جرثومة، فيروس، الذي لا يُرى حتى بالمجهر الإلكتروني، فأي شيء يدب على وجه الأرض فهو دابة، فكلمة: مِن تفيد استغراق أفراد النوع، دابةٌ دابةٌ استقصاءً، رزقها على الله ويعلم مستقرها ومستودعها، هذه الدابة أين مستقرها و مستودع رزقها ؟ إذا كان رزقها قمحاً فأين هو ؟ بالجزيرة مثلا أو ببلد ما أو مستورد ؟ يعلم مستقرها ومستودعها هذا هو المحصي.

ومن المعاني المهمة لكلمة المحصي هي: أن الله عز وجل يحصي لك أعمالك ؛ الصالحة والطالحة فكل شيء مسجل خيراً وشراً، أعمالك الجليلة مسجلة والصغيرة مسجلة، وهذا المعنى يجعلك إذا أحسست أنك مراقب وكل حركاتك مسجلة فهذا يستدعي أن تكون منضبطا، ونقف عند بعض الآيات التي ورد فيها لفظ المحصي، علما أن كلمة المحصي لم ترد في القرآن الكريم ولكن وردت مادة الإحصاء وفي مواضع كثيرة.

ففي سورة مريم:

(إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرَّحْمَنِ عَبْداً (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدّاً (٩٤))

[مريم:الآية٩٣-٩٤]

في سورة يس:

(إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآَثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢))

[يس:الآية١٢]

وفي سورة النبأ:

(وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَاباً (٢٩))

[النبأ:الآية ٢٩]

فكل هذه الآيات ورد فيها فعل الإحصاء، لذلك حظ العبد من هذا الاسم هو: أنه متى علم أن الله يحصي عليه كل حركاته وسكناته وخواطره وأنفاسه ونواياه شعر أن الله عز وجل بالمرصاد، وعليه أن يكون في وضع يستحي فيه من الله عز وجل، فيجب أن تراقب قلبك، ولتعلم أن الله عز وجل يراقبك، لذلك سيدنا عمر يقول: **" فتعاهَدْ قلبك "**، فنحن دائما نتعاهد أجسامنا، بحيث نسرع لوقاية أيّ عضو أُصيب، أما المؤمن فإنه يتعاهد قلبه كذلك ويخشى أن يرى الله عز وجل في قلبه شيئاً لا يرضيه، ولذلك قالوا القلب منظر الرب، وفي الحديث القدسي:

((عبدي طهرت منظر الخلق سنين أفلا طهرت منظري ساعة))

ومن الآداب التي ينبغي أن يتحلى بها المؤمن أن يحصي هو أيضاً أخطاءه ويحصي أفعاله ويحصي أيامه، ويحصي نِعَمَ الله عليه، فهناك شخص أعرفه يسجِّل أخطاءهُ ليستغفر الله عز وجل عند تذكرها ويُقابل كلّ خطيئة بعَمل صالح، مع أنّ الإحصاء بين العبد والربّ فيه فرق وبَون شاسع، ولكن يجب أن تُعلِّمَ نفسك أن تُحصي أيّامك، يقول: مضى من عمري كذا، فهل بقي لي بِقَدر ما مضى ؟! واللهِ هذا سؤال دقيق ونافع جدا، وهو سؤال محرج ؛ كيف مضَتْ هذه السنوات الأربعون، أو الثلاثون، إذًا مضى من عمري أكثر ممّا بقي، وهذا الذي مضى كلمْح البصر، فالذي بقي أقلّ، فكيف أشغل هذه الأيام والليالي ؟ كيف سأُنظِّم برنامجي ؟، وكيف سأطلب العلم ؟ وما العمل الذي سألقى به الله تعالى ؟ فالعبد إذا أحصى أخطاءه واستغفر الله منها كان هذا حافزاً لطاعة ربه وابتعاده من الغفلة، بعضهم دعا ربه سبحانه وتعالى فقال: إلهي أنت المحصي لحركات العباد والمحيط بعمل أهل الجفاء وأهل الوداد أحصيت جميع الأسرار في الإنسان وجمعت فيه سائر الأكوان، اكشف عن قلوبنا الحجاب حتى نشهد في أنفسنا أنوار المعطي الوهاب وامنحنا نور المراقبة حتى نراقب جميع أعمالنا ونحصي سائر أحوالنا إنك على كل شيء قدير.

الحقيقة أن أسماء الله الحسنى مهما تحدثنا عنها فلن نفيها حقّها لأن الله عز وجل لا نهاية لكماله، فمن أسماء الله الحسنى الأخرى: الحفيظ ربنا عز وجل قال:

(وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١))

[سبأ:الآية٢١]

اخترت هذا الاسم مع الاسم الأول لشدة العلاقة بينهما، فالله سبحانه وتعالى حفيظ ؛ حفظ لنا القرآن الكريم قال تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩))

[الحجر:الآية٩]

وهذا من النعم العظمى، تقرأ القرآن وأنت واثق أنه كلام الله حقاً، فالله هو الذي تولى حفظه حتى إنه قيل: لو أن الإنسان أخطأ في القرآن لصاح به الصبية في كل مكان، فهو المنقول بالتواتر، وحِفْظ الله له جعله مصونا عن تحريف المبطلين مهما كانت قوتهم، سمعت مرة أن الأجانب طبعوا خمسين ألف نسخة في تركيا وحذفوا كلمة واحدة وهي قوله تعالى:

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥))

[آل عمران:الآية ٨٥]

حذفوا كلمة[غير]فجُمعت كل تلك النسخ وحرّقت وهذا من تولي حفظ الله للقرآن الكريم، وحفظ الله هذا القرآن بأن سخر له علماء أجلاء، قوله تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)

[الرعد:الآية ١١]

(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

فهذا حفظ الله للإنسان كذلك بالإضافة لحفظ القرآن بأن سخر له ملائكة يحفظونه وربنا عز وجل يقول:

(إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧))

[هود:الآية٥٧]

والنبي عليه الصلاة والسلام علمنا أن نقرأ قبل النوم آية الكرسي وقال:

((لا يزال عليك من الله حافظ))

فقد تصيبك أخطار بالليل فالله هو الحافظ، ومعنى حفيظ كذلك: يحفظ الأعمال قال تعالى:

(وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ)

وهذا المعنى الثالث وهناك معانٍ أخرى في قوله تعالى:

(وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

وقوله:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إنّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً (٤١))

[فاطر:الآية٤١]

فهو سبحانه الذي يحفظ الوجود من الاضطراب ثم العدم،خلق الكون ويحفظ بقاءه وهذا هو معنى قوله تعالى:

(إنّ اللّهَ يُمْسِكُ السّمَاوَاتِ والأرْضَ أنْ تَزولا)

ومَن يحفظ للأرض توقيتها ومسارها ؟ هو الله جل جلاله.

وهو الذي يحفظ لك دينك ولو تخلى عنه لزلت به شبهة أو شهوة، فسلامة دين المرء دليل على حفظ الله له من كل سوء، ومن معنى الحفيظ: الوكيل، قال تعالى:

(فَإِنْ تَوَلّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إنّ رَبّي عَلَى كُلّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧))

[هود:الآية٥٧]

فمعنى الحفيظ ومعنى المحصي تجمعهما قواسم مشتركة، فالحفيظ حفظ لك القرآن الكريم، والحفيظ حفظك من شر ما خلق، ألا تقرأ قوله تعالى:

(قُلْ أعُوذُ بِرَبّ الْفَلَق (١) مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ (٢) وَمِنْ شَرّ غَاسِقٍ إذَا وَقَبَ (٣) وَمِنْ شَرّ النّفّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ (٤) وَمِنْ شَرّ حَاسِدٍ إذَا حَسَدَ(٥))

[سورة الفلق]

فعلى المؤمن أن يُعوّد نفسه قراءة المعوذات كل يوم، لكن هل هناك فرق بين الاستعاذة بالله واللياذ بالله؟

الاستعاذة من الشر واللياذ في الخير، لاذ بالله ليرزقه طفلاً، لاذ بالله ليرزقه رزقاً حسنا واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم، فالعياذ من الشر واللياذ في الخير، الإنسان يستعيذ أحيانا من الشيطان الرجيم ولا يرى نتيجة لهذه الاستعاذة فكيف نجيبه ؟ فالاستعاذة ليست مجدية إلا إذا كان القلب حاضراً، فإذا كانت الاستعاذة لفظية فهذه لا تقدم ولا تؤخر، وربنا عز وجل يقول:

(قُلْ أعُوذُ بِرَبّ الْفَلَق (١) مِنْ شَرّ مَا خَلَقَ (٢))

فهناك مخلوقات شريرة، يحمل الإيدز بأمريكا مئتان وأربعون ألف شخص مات منهم مئة وأربعون ألفاً، ومليون إنسان يحملون هذا المرض في مختلف أصقاع الأرض فهذا من شر ما خلق، ويقدرون أنه بعد خمس سنوات أو عشر سيصبح الرقم فلكياً، ولا يشغل العالم الغربي اليوم إلا هذا المرض، والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلَافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا...))

[رواه ابن ماجه]

" فما ظهرت الفاحشة في قوم حتى يُعلنوا بها إلا أصابتهم الأسقام التي لم تكن في أسلافهم "، النمو العشوائي للخلايا هو كذلك من الأمراض المزمنة التي تُحير العلماء، فهذا من يحفظك منه ؟ الله خير حافظا، الإمام الغزالي يقول: المؤمن يجتهد أن يحفظ نفسه من اتباع الشبهات والبدع، فحظك من هذا الاسم أن تحفظ نفسك من الشبهات والبدع، والبدع جدُّ خطيرة، وأخطر من هذا أن تحمل عقائد ليست صحيحة، فخطأً في العقيدة يَنسحب على جميع أعمالك، فالمؤمن دائما مع مراجعة نفسه، فالحفظ هنا هو حفظ نفسك من العقائد الزائغة، وكذلك أن تحفظ جوارحك من المعاصي والآثام، ومما يدفع المرء للمعصيةِ الشهوةُ والغضب، فهما سببا الطغيان. فالزنى معصية كبيرة جدا، ذكره الله تعالى بين موتين، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨))

[الفرقان: الآية ٦٨]

فجاء نفي الزنى عن المؤمنين بين النفي عن قتيلين فالزنى كالقتل تماماً، وكيفية التخلص من هذا هو البعد عن أسباب الزنى وليسَ الزنى ؛ وأسباب الزنى الخلوة و المصافحة والاختلاط و النظر هذه كلها تجعل بينك وبين الزنى هامشاً أمامياً، إذاً قوام الأمر حفظ النفس من عقائد مضلة والجوارح من أسباب الشهوات.

ذكر الله في القرآن عبدا من عباده اتصف باسم الحفيظ ؟ قوله تعالى

(قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥))

[يوسف:الآية٥٥]

فحينما قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((تخلقوا بأخلاق الله))

فهذا من التخلق بأخلاق الله، فالمؤمن من علاماته الحفظ ألا يضيع ما تحت وغير المؤمن من علاماته التَّيْه قال الله تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

[الكهف: الآية ٢٨]

فالمؤمن فطِن وكيّس قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ)

[النساء:الآية٧١]

إن الحفيظ هو الذي هداك إلى التوحيد وخصك في الخدمة بأنواع الحفظ والتسديد، إذا هداك الله إلى التوحيد وجعلك ممن تخدم الخلق فهذا من كرم الله عز وجل وتحقيقاً لاسم الحفيظ، وقيل أيضا: الحفيظ هو الذي صانك في حال المحنة عن الشكوى، وفي حال النعمة عن البلوى، فإذا راجت تجارتك فاحفظ دينك، وإذا كسرت فاحفظ مالك، ويحفظ الله المرء من الشياطين إذا استعاذ به المستعيذ، سيدنا موسى حينما رأى هذا القبطي وقد اعتدى عليه المعتدون قال:إن:

(هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ)

في بعض الأحيان يقوم بعضهم بارتكاب جريمة من أجل شيء زهيد، وعلى هذا يجب على الإنسان أن يستعيذ من ساعة الغفلة عن الله عز وجل، فالحفيظ يحفظ لك عقيدتك وجسمك وأهلك ومالك.

وهذا معنى آخر من معاني الحفيظ: أن الله سبحانه وتعالى لا ينسى قال تعالى:

(لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى)

فالإنسان قد ينسى ولكن الله تعالى منزه عن ذلك. الحفيظ أيضاً هو الذي يقوم بالرعاية والعناية. بعضهم قال:

يا حافظاً لوجود العالمينـــا فما   يحيد عن غاية نقضها خسرانا

وحافظ الخلق أن يلقوا بأنفسهم   إلى الهلاك زُرافات ووحـــدانا

خلقت فيهم عيونا يبصرون بها   وقد خلقت بهم للسمـــع آذانا

لو لم تكن أنت يا رباه حافظـهم   لم تشهد الأرض فوق الأرض إنسانا

***

العين حفظها الله لنا ؟ موضوعة في مكان محفوظ وآمن، افرض لو أنها وضعت على الجبين لفُقِئت منذ أول سقطة يسقطها الإنسان فسبحان الله الذي وضعها في مكان حصين مكين، كذلك الجمجمة بمفاصلها المتداخلة،الشرايين مكانها داخلي والأوردة مكانها خارجي فلو عُكس الأمر لصار الضغط عالياً فكل هذا من حفظ الله، إذا جاع الإنسان ؛ السبب الوحيد لجوعه هو: افتقاد كمية من السكر في الكبد وليس في الدم بديل، فلو جاء خبرٌ مفزعٌ لهذا الجائع لزال عنه الجوع، فمن حفظ الله لنا أنه جعل لنا الإحساس بالجوع يبدأ عندما تنقص كميات السكر في الكبد، ومن حفظ الله لنا أنه جعل لنا في العظام أعصابا حسية، فلو انعدمت لمشى الإنسان بعد انكسار رجله الكثير دون أن يشعر حتى تقطع رجله، وهذا من نعمة الله أن جعل لنا أعصابا حتى إذا أُصبنا تُرسل تنبيهات ألَم كي نبقى على حالنا ولا نتحرك

وكي يسهل العلاج بعد الكسر، ومِن حفظِه أن جعل كل الأطعمة السامة مُرّةً، فجسمنا يحمل مناعةً تحارب الجراثيم، فلو أمعن المرء النظر إلى جسمه لكفاه أن يدرك حقيقة حفظ الله لنا.

٣٨- اسم الله الخبير :

مع الاسم الثامن والثلاثين من أسماء الله الحسنى، والاسم هو الخبير، والخبير من أسماء الله الحسنى كما أنه لا يخفى على القراء الكرام أن أسماء الله كلها حسنى، قال تعالى:

(وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

[الأعراف: الآية ١٨٠]

ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، وكمال الله جل جلاله كمال مطلق، بينما كمال الإنسان كمال نسبي، فعدلُه مطلق، وقدرتُه مطلقة، ورحمتُه مطلقة، وعلمه مطلق.

ومن المعلوم عند القارئ الكريم أن الخبير صرفيا وزنه فَعِيل، ومن معاني فعيل مُفْعِل فخبير بمعنى مُخبر، ويراد به أنه متكلم، وأن القرآن كلام الله عز وجل، والمعنى الآخر للخبير هو الذي يعلم كل شيء ولا يغيب عن علمه صغيرة ولا كبيرة، وهو العالم بكُنْه كل شيء، ومطلع على كل حقيقة مهما دقت أو خفيت، العليم بدقائق الأمور لا تخفى عليه خافية، يعلم الداء والدواء، العلم بظاهر الأشياء وبواطنها بشكلها وحقيقتها وبجلائلها ودقائقها بما تراه عينك وبما يخفى عنها، يقول الإمام الغزالي: **الخبير هو الذي لا تغرب عنه الأخبار الباطنة، ولا يجري في الملك والملكوت شيء إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة ولا تسكن إلا بعلمه ولا تضطرب نفس ولا تطمئن إلا بعلمه**، وقيل الخبير: الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، ولا تتحرك حركة ولا تسكن ساكنة في السماء والأرض إلا يعلم مستقرها ومستودعها. لكن قد يسأل سائل أليس هذا هو العليم ؟ هذا كله يمكن أن يكون شرحا لاسم العليم فمالنا نتحدث عن اسم الخبير بما يشبه اسم العليم ؟ الحقيقة أن العلماء فرقوا بين العليم والخبير فالخبير يفيد معنى العليم، ولكن العليم لا يفيد معنى الخبير، لذلك اسم الخبير هو عليم ومع العلم شيء آخر، وسوف أُوضِّح عن طريق الأمثلة الفرق الدقيق بين العليم والخبير، وهناك آية في القرآن الكريم ورد فيها اسم الخبير، وسأجعلها أساسًا لهذا البحث، وقد ثبت في القرآن لفظ الخبير أكثر من أربعين مرة فقال تعالى:

(وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجاً يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْراً فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤))

[البقرة:الآية ٢٣٤]

لو أنني أمسكت هذا الكأس ووضعته في هذا المكان أنتم جميعاً رأيتم أنني نقلته من مكان لآخر فذا هو العلم، ولكن لماذا نقلته ؟

ما الدوافع التي حملتني على نقله، وما الخواطر التي خطرت ببالي حين نقلته، وماذا أبتغي بنقله، وما الباعث على نقله، علمُك أنه انتقل من مكانٍ لآخر هذا يسمى علماً.

أما الخبير إذا قال الله عز وجل:

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

يعني يمكن أن تعمل عملا لا يشك أحد من الخلق أنه عمل طيب، وتكون النية ليست طيبة فالله خبير بما تعمل، قد تدعي شيئاً وأنت على خلافه، وقد تريد شيئاً في الظاهر، ولكنك في الباطن لا تريده، وقد ترحب وأنت تبغض، وقد تغضب وأنت تحبّ، حقيقة العمل ومؤدّى العمل هي للخبير فهو الذي يعلم ذلك، فالخبرة العلم بدقائق الأمور وببواطنها وبواعثها وبأهدافها البعيدة وبما يخامر فاعلها من مَشاعر

آية ثانية:

(فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤))

[البقرة:الآية ٢٣٤]

من باب الطرفة نقول: هذه أسرة تزورهم، وذات يوم من أيام الشتاء صديقة زوجته تجلس مع زوجته في غرفة مجاورة، يقول الزوج تعالين إلى هنا فالغرفة هنا أدفأ، يا ترى هل هذا الذي ذكره هو الحقيقة، أم هناك شيء يخفيه ولا نعلمه ؟ فالله خبير والأعمال بحَجمها وتفاصيلها، وبواعثها وأهدافها وأبعادها و بمقاصدها وخلفياتها وجزئياتها لا يعلمها إلا الله، فالله هو الخبير، قال تعالى:

(إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمّاً بِغَمٍّ لِكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٥٣))

[آل عمران: الآية ١٥٣]

قد تجد إنساناً يعمل عملاً طيباً وربما ساق الله له بعض المصائب فتقول: لِمَ أصيب وأعماله طيبة ؟ أنت لا تعلم لأن الله هو الخبير، لم يَسُق الله له هذا الحادث إلا لحكمة بالِغةٍ ورحمة به، فالله بما تعملون خبير، مثلُ آخر ؛ طبيب له الحق أن يرى موضع الألم من المرأة، لكنه إن نظر إلى موضع آخر لا تشكو منه فهل على وجه الأرض جهة تكشف خيانة بصره؟ لا... إلا الله، قال تعالى:

(يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩))

[غافر: الآية ١٩]

وقال تعالى:

(مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢))

(سورة الحديد: الآية ٢٢)

فإذا أرسل الله عز وجل مصيبة فلا تحزنوا لمجيئها، ولا تفرحوا بما آتاكم فالله خبير بما تعملون، حكمة الله اقتضت أن يرسل عليكم هذه المصيبة، إنسان صالح هو في حركة انتقال من بيته إلى مسجده وبالعكس رزقه الله تعالى مبلغاً كبيراً من المال هل سيبقى على حاله أم يتغير ؟ هذا لا نعلمه، لكن الله

يعلمه فالله خبير بما تعملون، عَلِم ما كان وعلمَ ما يكون وعلمَ ما سيكون وعلمَ ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، إن من عباديَ من لا يصلحه إلا الفقر فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه، وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الغنى فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، فمن الذي يعلم حقيقة النفس، كنت مرة في طريقي فرأيتُ جداراً منهاراً بسبب هبوب عاصفة هوجاء بلغت سرعتها مئة وثمانين كيلومترا في الساعة، فهذا الذي بنى الجدار هل يعرف السرعة التي ينهدم فيها الجدار؟ لا يعرف ونحن إذا أردنا أن نعرف لا بد من التجارب، فبعض المعامل من أجل أن تعرف مقاومة الآلات، تضعها في ظروف صعبة بمركَبة تنتقل بسرعة مئة كيلو متر وأمامها جدار من الإسمنت المسلّح، طبعًا يحتالون على أن تنطلق من غير سائق ترتطم بهذا الجدار، فيختبرون مقاومة هذا المعدن وهذا الهيكل على سرعة مئة كيلو متر، ماذا فعل بها هذا الصّدم الشديد ؟ وإلى أي مكان وصل هذا الصّدم، ويبنون على هذه التجربة خبرتهم ! إن الإنسان الذي صنع هيكل مركبة وغلّفها وهيّأها، لا يعرف في حال اصطدامها بجدار مدى تأثير الجدار فيها إلا بعد الاختبار، فنحن لا نعلم إلا بالتجربة، فخبرة الله قديمة وخبرة، الإنسان مكتسبة، والدليل أن خلق الإنسان لم يطرأ عليه أيٌ تغيير منذ خلقه الله سبحانه وتعالى. فالبشر من العصور القديمة وحتى الآن لم يطرأ تغيير على خلقهم. بينما إذا نظرنا إلى سيارة صنعت سنة ألف وتسعمئة مثلا، ترى بينها وبين التي صنعت سنة ألف وتسعمئة وخمسة وتسعين بَوْناً شاسعاً غير معقول، فالقطار الأول الذي صنع قديماً ألزمهم أن يضعوا إنساناً أمامه كي يحذر الناس حينما يمشي ؛ فسرعته كانت تعادل سرعة الإنسان أما الآن فالقطار ينطلق بسرعة ثلاثمئة وستين كيلومترا في الساعة والتطورات لا زالت تأتي بالجديد، فالإنسان خبرته مكتسبة وحادثة أما الله فخبرته قديمة بدليل أن كل شيء خلقه الله خلقه منذ اللحظة الأولى في أبدع صورة وفي أكمل حال ولا زال على صورته وحاله، قال تعالى:

(وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ (٨٨))

[النمل: الآية ٨٨]

مرة كنت عند أحد إخواننا الكرام الذين يعملون بإصلاح السيارات ورأيت عندهم قطعة ميكانيكيّة مُلقاة على الأرض فقلتُ: ما قِصّة هذه القطعة ؟ فقال: جاءَت وجبة مركبات فيها هذه القطعة، وبعد عشرة آلاف كيلو مت من استعمال المركبة، تكسر من هذا المكان وأشار إليه، ويوجد فيها منطقة ضعيفة، والذي صمّم هذه الآلة لم يكن يتخيّل أنّ هذا المكان ضعيف على التحمّل وبذل الجهد، ومنها علمت أنّ كلّ تعديل يطرأ على مركبة أو على آلة دليل نقص في الخبرة، والنقص في الخبرة يتلافونه في العام القادم ! فالتطويرات التي تطرأ على خبرة الإنسان دليل على أن خبرته ناقصة ومكتسبة وحادثة، أما خلق الله الكامل والذي لا يزال كاملا وسيبقى كاملا دليل على أن خبرة الله قديمة، حليب الأم مثلا فقير

من الحديد وهو معدن أساسي جدا في تكوين خضاب الدم، لو فحصنا طحال وليد رضيع نجد أن فيه كمية حديد تكفيه عامين إلى أن يتمكن من أن يأكل غذاءً منوّعا، فمن فعل هذا ؟ الخبير، ولماذا جُعل ثقب بين الأذين والأذين في القلب، كشفه العالم بوتال وهذا الثقب وظيفته أنه مادام الطفل في بطن أمه ولا يلزمه هواء ولا يتنفس والرئة معطلة، لذلك بدل أن يدور الدم إلى الرئة ويعود إلى الأذين ينتقل من أذين إلى أذين، وحينما يولد الطفل تحدث له جلطة لتغلق هذا الثقب كما قال العلماء، وعندها تنتقل الدورة التي كانت من الأذين إلى الأذين فتصبح من الأذين إلى الرئة إلى البُطين كل هذا من صنع الخبير، ويلح علينا الآن سؤال هام ؛ لماذا لا نجد في أظافرنا وشعورنا أعصاباً حسية ؟ فلو كان الأمر كذلك لاحتجنا إلى الذهاب إلى المستشفى لتقليم أظافرنا وشعورنا ولاحتجنا إلى تخدير. فهذا هو الخبير الذي أعطى كل شيء خلقه، إذ لم يجعل أعصاب الحس في الأظافر ولا في الشعر ولكنّه جعل أعصاب الحس في العظام ! فإذا انكسر العظم تألم الإنسان أشد الألم، فالشعور بالألم أربعة أخماس العلاج ! كذلك لو دققت في خلق الإنسان وفي خلق الحيوان والنبات لرأيت العجب العجاب، لو ترك الفلاح الشجرة بلا سقيا ما الذي يحصل ؟ ستستهلك هذه الشجرة ماء الورق ثم ماء الغصن ثم ماء الفروع ثم ماء الجذع ثم ماء الجذور وآخر ماء تستهلكه هو الماء الذي في آخر الجذر، فلو كانت الشجرة تستهلك الماء ابتداءً من الجذور لماتت كل الأشجار لمجرد توقفنا عن سقياها مرة واحدة ولكن الله رحمة بنا جعل الدورة معاكسة، ولماذا ينكمش الماء إذا بردناه ؟ أما إذا وصل إلى درجة زائد أربعة فيزداد حجمه، هذه الظاهرة لولاها لما كانت حياة على سطح الأرض كل هذا من فعل الخبير، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ
(بِمَا تَعْمَلُونَ (٨))

[المائدة: الآية٨]

حتى العدْل مع الكافر قُربة إلى الله، قد تقرّبه إلى الإيمان حينما تعدل مع الكافر، فهل هذا ابتغاء مرضاتِ الله أو خوف من الإنسان ؟ من يكشف ما إذا كان هذا الإحسان صادراً عن خوف من الناس أو عن ابتغاء مرضاتِ الله ؛ هو الله سبحانه وتعالى:

(وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)

وفي آية أخرى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨))

[الأنعام:الآية١٨]

وقوله تعالى

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣))

[الأنعام:الآية ١٠٣]

لو احتال طبيب أسنان على قلع ضرس طفل فمهما يهون على الطفل ومهما يداعبه فإن الطفل يشعر بالألم، إما بألم الحقنة المخدِّرة أو بألم الضرس مباشرة، لكن الله الخبير إذا أراد تبديل أسنان هذا الطفل فهل يتألم هذا الطفل ؟ لا إطلاقاً فهو لا يشعر بسقوط أسنانه اللبنية وتبديلها.

ويقول الله تعالى:

(أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦))

[التوبة:الآية ١٦]

ورد اسم الخبير كما قلنا في أربعين آية من كتاب الله، والخبير هو الذي يعلم بالبواعث والخواطر، يعلم الخلفيات والملابسات ويعلم حقيقة كل شيء، ويعلم الاحتمالات فنحن البشر لا نعلم حقيقة الشيء إلا بالتجارب، حتى إذا أردنا صنع دواء نزرعه في الجراثيم كي نتعرف إلى مدى مفعوله، إما أن يقتل تلك الجراثيم فهو فاعل، وإما أن تبقى حية كما كانت فهو غير فاعل، فعلوم البشر كلها أساسها التجربة، لذلك سموه بالعلم التجريبي لكن علم الله وخبرته لا يفتقر إلى التجربة، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣))

[الحج:الآية ٦٣]

في مواضع كثيرة جاء اسم الخبير مقرونا باسم اللطيف فهناك علاقة بين الخبرة واللُّطف، آية أخرى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠))

[النور:الآية ٣٠]

فهذا الذي يغض بصره أمام الملأ ويتصنع ثم إذا اختلى بنفسه ومد بصره إلى الحرام، هل يستطيع أحد أن يعرف إخلاص هذا المرء ورياءه؟ لا أحد ولكن اللطيف الخبير أعلم بحاله من نفسه، لذلك قال تعالى في آخر الآية إن الله خبير بما يصنعون.

إذا علمت أن الله يعلم وهو خبير بسِرِّك وجهرك وسريرتك وعلانيتك وخَلَوَتِك وجَلْوَتَك وبواعثك وخواطرك ومقاصدك وخلفياتك والمؤدّى الذي تبتغيه من عملك، وعلمت أن الله خبير وأنك في قبضته، فما التطبيقات العملية لهذا الاسم ؟ أنت مكشوف أمامه ولا تخفى على الله منك خافية، علانيتك كسرّك، وجهرك كسِرّك، فهذا يجعلك تستقيم على طاعته وألّا تخشى معه أحداً آخر وهذه هي أول ثمرة للإيمان باسم الخبير يقول القشيري: من أدب المؤمن مع اسم الخبير أنه مَن عرف أن الله خبير بأفعاله وأقواله وأعماله كان محترزاً في أقواله وأعماله وواثقاً بجميع اختياره وأنه ما قُسم له لن يفوته ومالم يُقسم له لن

يُدركه، إذاً أولُ ثمرة الاستقامة والرضا والاستسلام، ومن أدرك وأيقن " **اسم الخبير** "يرى أن جميع الحوادث من الله سبحانه وتعالى، فتهون عليه الأمور بخلاف من يضيف بعض الحوادث إلى الحق وبعضها إلى الخلق، وأنه هو الفعال لما يريد وكل الأمور بيده، من خلال هذا نقول: إنك إذا أيقنت من " **اسم الخبير"** أنه هو المطلع على سرّك وهو عليم بِخَفيّ أمرك وما في صدرك يكفي لرفع همتك إليه واستحضار حاجتك في قلبك من غير أن تنطق بلسانك وهي فكرة دقيقة جداً، عِلْمكَ أن الله مُطّلِعٌ على قلبك يجعلك تناديه نداءً خفياً كما فعل سيدنا زكريا

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (٣))

[مريم: الآية ٣]

وبعضهم تجده يجهر بالدعاء وكأنه يناجي بعيداً، فالمؤمن إذا عرف اسم الخبير ناجاه في سرّه وسأله في سرّه ودعاه في سرّه، ولم يحتج لرفع صوته بالدعاء، قبل أن يُلقى إبراهيم في النار، قال له جبريل: **ألَكَ مِنْ حاجةٍ يا إبراهيم ؟** قال: **منك**، قال: **لا بل من الله**، فقال: **علمه بحالي يُغني عن سؤالي.** فإذا كنت يا الله معي في كل حالي فأنا في غنى عن حَمْل زادي، بعضهم ينصح المؤمنين أنّ مَن كانت به حاجة إلى الله أن يقرأ قوله تعالى:

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤))

[الملك:الآية ١٤]

هناك معنى آخر للخبير، فأنت في دنياك تتحرك وهناك أهداف ووسائل سمح بها الشرع لكسب المال وهناك وسائل غير مشروعة، فقد يبدو لك أن هذه الوسائل التي لم يسمح بها الشرع أسرع ونتائجها أضمن وهدفها أكبر وتتوهم أن الطريق التي رسمها الله لك طريق طويلة وهزيلة، فيُقبل هذا الإنسان الجاهل على وسيلة غير مشروعة من أجل كسب المال فيُفاجأ بتَلَف ماله ؛ لماذا يا رب ؟ فمِن أجل الوصول إلى دخْلٍ وفير أنت مكلف بتطبيق منهج الله، فالنجاح ليس بالذكاء وإنما بالتوفيق، والتوفيق بالطاعة، فالذي يسرع لوسيلة غير مشروعة ظناً منه أنها موصلة قبل المشروعة فهو واهم لأن الله خبير، وهو الذي أمرك بالإقبال عليه وأن الإنغماس في الشهوات شقاوة وأن كل السعادة بطاعة الله، فكل من اتبع الخبير يسعد، قال تعالى:

(وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

[الكهف:الآية ٢٨]

فحينما تسلك منهج الله تقطف الثمار اليانعة وحينما تحيد عن منهج الله تندم أشد الندم لأنك أسأت الظن بالخبير، فيما يخص الآلات الثمينة والمعقدة وعظيمة النفع تعتقد بالبداهة والفطرة دون توجيه أن الذي صنعها هو الوحيد الخبير بها، ولذلك تحتاج لكُتيّب، فإذا كان هذا في شأن هذه الآلة، فما بالك في شأن

نفسك التي تحوي أسراراً وخفايا لا يعلمها إلا الله فهي تحوي أفكاراً وشهوات وروحاً وجسداً وميولات وغرائز وطموحات وقيماً ومبادىء وكلها أمورٌ معقدة جداً، أفلا يجعلنا هذا نقول إن لهذه النفس منهجا يوجهها ويسددها، إنه منهج الله

(أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٤))

[الملك: الآية ١٤]

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى تكلم عن حظ العبد من اسم الخبير -هذا موضوع ثالث-ولقد سرنا في بحثنا هذا وفق النسق التالي: التعريف باسم الخبير، التطبيقات العملية لاسم الخبير، ومن ثم حظ العبد من اسم الخبير فقال: **يجب أن يكون العبد خبيراً بأحواله وبإيمانه وخبيراً بمشاعره وأحوال قلبه والخفايا التي يتصف بها قلبه وخبيراً بإخلاصه واستقامته،** فأقرب شيء منك جسمك ونفسك، فلا بد أن تكون خبيرًا بقلبك ؛ هذه الخواطر التي تأتيك أمِن قلبك أم من نفسك أم من الشيطان ؟ وهل هي وساوس أم إلهامات ؟ وهل هذا العمل باعثه الإخلاص أم الرياء ؟ ينبغي أن تكون خبيراً بأحوالك ونفسك وقلبك، وكسبك للمال وإنفاقِه فاسم الخبير يقتضي أن تكون خبيراً بما أنت عليه لأن أول حركة لمعرفة أيّ مشكلة، هي أن تعرفها أنها مشكلة ثم تحددها إذْ إنك لاتترك عملا إلا إذا علمت أنه ذنب فقبل أن تترك الذنوب ينبغي أن تعلم ما الذنوب؟ فأول خطوة نحو إصلاح النفس أن تعرفها وتعرف حقيقتها وألّا تنخدع بها.

لازلنا مع الإمام الغزالي في الحديث عن حظ العبد مع اسم الخبير قال: **يجب أن يكون العبد خبيراً بما يجري في عالمه، وعالمُه هو قلبه وبدنه والخفايا التي يتصف بها القلب من الغش والخيانة والتطوّاف حول العاجلة وإضمار الشر وإظهار الخير والتجمل بإظهار الإخلاص مع الإفلاس،** ولا يعرف ذلك إلا صاحب خبرة بالغة قد خبر نفسه ومارسها وعرف مكرها وتلبيسها فحاذرها وتشمر لمعاداتها، فذلك العبد جدير بأن يسمى بين العباد خبيرًا، لذلك من عرف أن الله خبير كان بزمام التقوى مشدوداً وعن طريق المنى مصدوداً، وقال أحدهم: من أراد عِزاً بلا عشيرة وهيبة بلا سلطان وغنىً بلا فقر فليخرج من ذل المعصية إلى عز الطاعة، وقال بعض العلماء: لا يَنال الحظ الأوفر من هذا الاسم الشريف **" الخبير"** إلا من كان خبيراً بدسائس نفسه بصيراً بخدائع حسه، يعرف الفرق بين خطرات الشيطان وإلهامات المَلَك بصيراً بإلهامات الرحمن ووساوس الشيطان، وبعض العلماء لهم دعاء يتعلق باسم الخبير، يقول هذا العالم الجليل: إلهي أنت الخبير بالدقائق والبصائر والمطّلِع على السرائر والناظر إلى الضمائر تجلّ لي بنور اسمك الخبير بلا حول مني ولا تدبير، حتى أكون خبيراً بالأمور الغائبة عن الجهال وأنجو من الشرك الخفي وما هو أخفى في الأقوال والأعمال، ويتجلى لي مولاي الخبير نِعْم المولى ونِعْم النصير، لذلك فإليك الآية الكريمة:

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى (٧))

[طه: الآية ٧]

فمضمون هذه الآية: من لوازم خبرته أنه يعلم ما خفي عنك.

أيها القارئ الكريم: هذا الاسم له تطبيقان أساسيان:

الأول: أن تعلم أنك مكشوف أمام الله، لا تخفى على الله منك خافية.

الثاني: أن تكون أنت خبيراً بأحوالك وخواطرك وقلبك وإيمانك ووساوسك وإلهامات الملائكة، فأنت خبير، وأن تعلم أنه خبير عندئذ تتحق لك الفائدة من هذا الاسم الجليل.

٣٩- اسم الله مالك الملك :

مع الاسم التاسع والثلاثين من أسماء الله الحسنى، والاسم هو مالك الملك. أيها الإخوة الكرام: فمالك الملك أحدُ أسماء الله تعالى الحسنى، قال تعالى:

(وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(الأعراف: الآية ١٨٠)

إذا قلت يا مالك الملك بك أستجير ؛ فهذا دعاء صحيح، ففي القرآن الكريم ورد اسم المَلِك، والمالك، والمليك، ومالك الملك حصراً، أما اسم المَلِك ففي، قوله تعالى:

(هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدّوسُ)

(سورة الحشر: الآية ٢٣)

وفي قوله تعالى:

(قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النّاسِ (١) مَلِكِ النّاسِ (٢))

(سورة الناس: الآية ١ ـ ٢)

وأما اسم المالك ففي الفاتحة الشريفة:

(بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢) الرّحْمَنِ الرّحِيمِ (٣) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤))

(سورة الفاتحة: الآية ٢ ـ ٤)

وأما المليك ففي قوله تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥))

(سورة القمر: الآية ٥٤ ـ ٥٥)

وأما مالك الملك فقد ورد هذا الاسم مرة واحدة في قوله تعالى:

(قُلِ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران: الآية ٢٦)

أيها القارئ الكريم: قبل أن نمضي في الحديث عن هذا الاسم الجليل ؛ أريد أن أقف قليلا عند خطورة هذا الموضوع. فالله سبحانه وتعالى لا تدركه الأبصار، وقد أمرنا أن نؤمن به، وأن نعبده، وأن نتوجه إليه، وأن نحبه، فربنا عز وجل تيسيراً لنا كي نعبده ؛ ذكر أسماءه الحسنى في كتابه الكريم، وجعل الكون كله دالاً عليه، وجعل الكون كله مظهراً لأسمائه الحسنى وصفاته العظمى. فأنت حينما تبحث في أسماء الله الحسنى، تتعرف إلى الله. وكلما ازددت معرفةً بأسمائه الحسنى، ازددت معرفة به. فالشيء المادي بإمكانك إدراكه باللمس، وأن تعرف وزنه، وطوله، وارتفاعه، وعرضه، وحجمه، ولونه، وخصائصه ؛ لكن إذا أردت أن تتعرف إلى الله عز وجل يستحيل أن تدركه بحواسك ؛ لا بد من أن

تدركه بعقلك. قد تقول إن هذا الكون يدل على خالق عظيم، ومسيّر حكيم، ومُرَبٍ رحيم. ولكن التفاصيل؛ ما صفاته ؟ وما هي أسماؤه ؟ هو رحمن رحيم، هو الله الذي لا إله إلا هو، الملِك، القدوس، السلام، المؤمن، المهيمن، العزيز، الجبار، المتكبر. فحينما تجول في هذا الموضوع، فأنت في الحقيقة تجول في أخطر موضوع على الإطلاق لأن الله سبحانه وتعالى هو كل شيء ؛ هو الأول والآخر، والظاهر والباطن، ابنَ آدم: **اطلبني ؛ تجدني، فإذا وجدتني، وجدت كل شيء.** يا رب ماذا فَقَد من وجدك ؟ وماذا وجد مَن فقدك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟.

إنّ باب الأسماء الحسنى من أخطر الموضوعات في الدين، لأنك من خلالها تتعرف إلى أسمائه وصفاته سبحانه وتعالى. والحقيقة أن الإنسان لا يحب جهة ما لاسمها ؛ ولكن يحبها لصفاتها. فكلما تعرفت إلى أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، كانت عبادتك أصح، وكانت خشيتك أكبر، وكان إقبالك أشد.

((يقول عليه الصلاة والسلام فيما روي عنْ أبي هُرَيْرَةَ لِلَّهِ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ وَإِنّ اللّهَ وِتْرٌ يُحِبُ الْوِتْرَ وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ عُمَرَ مَنْ أَحْصَاهَا))

[صحيح مسلم]

"إن لله تسعة.... وهو وتر يحب الوَتِر " بالفتح والكسر، فما معنى من أحصاها ؟ الله عز وجل قال:

(لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدّهُمْ عَدّاً (٩٤))

[مريم:الآية٩٤]

الإحصاء شيء والعدُّ أو التعداد شيء آخر، تقول: كم طالباً في الصف ؟ إذا ذكرت عددهم، كان هذا تعداداً. أما إن ذكرت أعمارهم، مستوياتهم، ورجاحتهم، أخلاقهم، طموحاتهم، اجتهادهم، أوصافهم، كان ذلك إحصاءً، فالعد كَمِّي، أما الإحصاء فهو نوعي. فالرسول صلى الله عليه وسلم في حديثه أراد منا الإحصاء لا التعداد ؛ لا أن تعدد أسماءه، بل أراد منا أن نحصيها ومن أحصاها دخل الجنة، هناك معنى ضمني ؛ وهو من أحصاها أيْ: من تعرف إليها فأقبل على الله واستقام على أمره، سعِد في الدنيا، وفي الآخرة أكرم بالجنة. فالنبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ؛ إذْ إنه في الحديث الصحيح يؤكد لنا أنك إذا أحصيت أسماء الله الحسنى، دخلت الجنة. إن لله تسعة وتسعين اسما مائة إلا واحداً مَن أحصاها دخل الجنة. نحن في أبحاثنا السابقة شرحنا ثمانية وثلاثين اسما من أسماء الله الحسنى، وفي نِيَّتِنَا أن نكمل هذه الأسماء لغاية التسعة والتسعين، كما ورد في الحديث الشريف. لكن بالمناسبة نقول: ليس كل الأسماء الحسنى وردت في الحديث الشريف، لعل النبي صلى الله عليه وسلم ذكر الأسماء الحسنى التي نحن في أمس الحاجة إلى معرفتها ؛ فهناك أسماء حسنى كثيرة وردت في كتاب الله ولم ترد في هذا الحديث، والأسماء الحسنى التي وردت في هذا الحديث

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً غَيْرَ وَاحِدٍ مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ الْغَفَّارُ الْقَهَّارُ الْوَهَّابُ الرَّزَّاقُ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ الْقَابِضُ الْبَاسِطُ الْخَافِضُ الرَّافِعُ الْمُعِزُّ الْمُذِلُّ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ الْحَكَمُ الْعَدْلُ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ الْحَلِيمُ الْعَظِيمُ الْغَفُورُ الشَّكُورُ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ الْحَفِيظُ الْمُقِيتُ الْحَسِيبُ الْجَلِيلُ الْكَرِيمُ الرَّقِيبُ الْمُجِيبُ الْوَاسِعُ الْحَكِيمُ الْوَدُودُ الْمَجِيدُ الْبَاعِثُ الشَّهِيدُ الْحَقُّ الْوَكِيلُ الْقَوِيُّ الْمَتِينُ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ الْمُحْصِي الْمُبْدِئُ الْمُعِيدُ الْمُحْيِي الْمُمِيتُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الْوَاجِدُ الْمَاجِدُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ الْقَادِرُ الْمُقْتَدِرُ الْمُقَدِّمُ الْمُؤَخِّرُ الأَوَّلُ الآخِرُ الظَّاهِرُ الْبَاطِنُ الْوَالِيَ الْمُتَعَالِي الْبَرُّ التَّوَّابُ الْمُنْتَقِمُ الْعَفُوُّ الرَّؤُوفُ مالك الملك ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ الْمُقْسِطُ الْجَامِعُ الْغَنِيُّ الْمُغْنِي الْمَانِعُ الضَّارُّ النَّافِعُ النُّورُ الْهَادِي الْبَدِيعُ الْبَاقِي الْوَارِثُ الرَّشِيدُ الصَّبُورُ))

[رواه الترمذي]

أيها القراء الكرام: اسمحوا لي أن أرويَ لكم هذا الدعاء النبوي، يروي عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

((قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا قَالَ عَبْدٌ قَطُّ إِذَا أَصَابَهُ هَمٌّ وَحَزَنٌ ؛ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ، نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ، عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ، أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَو اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجِلاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي، إِلا أَذْهَبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ هَمَّهُ، وَأَبْدَلَهُ مَكَانَ حُزْنِهِ فَرَحًا. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَعَلَّمَ هَؤُلاءِ الْكَلِمَاتِ ؟ قَالَ: أَجَلْ يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أَنْ يَتَعَلَّمَهُنَّ.))

[رواه أحمد]

إذًا ثمرة هذا الدعاء:

((إلا أذهب الله حزنه، وأبدله مكانه فرحاً))

فهذا الدعاء القيم ؛ لا بد من أن يحفظه المؤمن، حتى إذا أصابه مكروه أو هَمٌّ أو حَزَنٌ دعا به، والنبي صلى الله عليه وسلم صادق مصدوق.

قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

[آل عمران: الآية ٢٦]

المُلك هو الكون. والكون ما سوى الله ؛ فالله واجب الوجود، و الكون ممكن الوجود، وما سوى الله هو المُلك. لكنّ السؤال لِمَ جاء المُلك مفرداً ؟، مع أن هناك سماوات، ومجرات، وكازارات، ومذنبات،

وثقوب سوداء، ومسافات بينية شاسعة، والأرض فيها أودية، وجبال وصحراء وسهول وطيور وحيوانات وإنس وجن

خلقٌ كثير لا يعلمهم إلا الله: أسماك - نباتات -عوالم - في البحار وحدها أكثر من مليون نوع من السمك. كل هذا الكون سماه الله مُلكاً بلفظ المفرد فما حكمة ذلك ؟ هناك حكمة كبيرة جداً ؛ وهو أن الكون كله متناسق مع بعضه بعضاً، كل جزء فيه يعمل للمجموع، لأن الله سبحانه وتعالى صممه لذلك؛ فالحيوان للإنسان، والنبات للحيوان، والتراب للنبات، والماء للتراب، وحجم الأرض يتناسب مع طاقة الإنسان وسرعتها حول نفسها تتناسب مع إمكاناته وهكذا... أهم كلمة في هذا الكون أنه وَحدة متكاملة، والله سبحانه وتعالى مالك الملك وأمره نافذ فيه. يوم القيامة يقول الله عز وجل:

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣))

[الشورى:الآية ٥٣]

قد يسأل سائل بيد من كانت حتى آلت إليه ؟ الحقيقة: هي إليها ولاً و آخرًا ؛ ولكن أهل الدنيا والمشركين و الكفار، والفجار، والمنافقين، وضعاف الإيمان، يرون في الأرض آلهةً كثيرة ؛ مراكزَ قوى، وأشخاصاً أقوياء، يأمرون فيُطاعون، ويدمرون يعطون... يرفعون... يخفضون... أما المؤمن فلا يرى إلا الله في الدنيا، يرى:

(يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ)

(سورة الفتح: الآية ١٠)

يرى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

(سورة الحديد الآية: ٣)

يرى أنه

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ)

(سورة فاطر: الآية ٢)

يرى أنه:

(لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ)

(سورة الأعراف: الآية ٥٤)

يرى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢))

(سورة الزمر: الآية ٦٢)

يرى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود: الآية ١٢٣)

فهذه رؤية المؤمن، لا يرى مع الله أحداً، وهذا هو التوحيد، وما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، لكن العصاة والمشركين والكفار يرون أشخاصاً أقوياء إرادتهم نافذة فيحسبونهم أندادا، أما الحقيقة فهي أنه لا ينفذ في كون الله إلا إرادة الله. ما شاء الله كان، ومالم يشأ لم يكن.

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(سورة الرعد: الآية ٤١)

(مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَداً (٢٦))

(سورة الكهف)

فالمؤمن الصادق لا يرى مع الله أحداً، يرى صوراً ودُمَى تُحرّك في الخفاء، لكن الله هو كل شيء، قال تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ)

(سورة الحديد: الآية ٣)

لذلك:

(أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣))

(سورة الشورى: الآية ٥٣)

حتى الكفار يوم القيامة يرون أن الأمور كلها بيد الله. أما المؤمنون فهم وحدهم الذين يرون هذه الحقيقة في الدنيا، الكُفار تغيب عنهم هذه الحقيقة فيرون الأمور بيد زيد أو عبيد، تذكرون: أن التابعي الجليل الحسن البصري كان عند والي البصرة للخليفة يزيد بن معاوية، فجاءه البريد يحمل توجيهاً ؛ إنْ نَفّذه، أغضب الله سبحانه وتعالى، وإن لم ينفذه أغضب الخليفة وربما عزله من منصب الولاية. فوقع في حيرة شديدة فسأل الحسن البصري، فأجاب الحسنُ البصري جوابا جامعا: إن الله يمنعك من يزيد، ولكن يزيد لا يمنعك من الله. بمعنى أنه إذا غضب أهل الأرض جميعاً عليك والله راضٍ عنك، فلن يستطيعوا أن يفعلوا لك شيئاً يضرك.

" واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك"

فملخص الملخص: ما شاء الله كان ومالم يشأ لم يكن. ومعنى مالك الملك ؛ أن هذا الكون العظيم تحكمه إرادة واحدة نافذة فيه هي إرادة الله قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ)

(سورة يونس: الآية ٢٤)

أتاها أمرنا - لا أمرهم - يقال مثلاً: الدولة الفلانية عندها قنابل نووية كافية لتدمير الأرض خمس مرات الآن هي في الحضيض، في الوحول، هي الآن متفتتة، كل أنواع السقوط في هذه الدولة،
قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا)

(سورة يونس: الآية ٢٤)

فهذا المُلك العظيم ؛ فيه إرادة واحدة نافذة ؛ هي إرادة الله. برَبِّك أيها المؤمن ؛ إذا أيقنت هذا اليقين هل تتوجه لغير الله ؟ هل تخشى غير الله ؟ هل ترجو غير الله ؟ هل تطمح إلى غير الله ؟ هذا هو التوحيد ؛ طرقه كلها تؤدي إلى الله عز وجل.

يقول الإمام الغزالي: **مالك الملك ؛ هو الذي تنفذ مشيئته في مملكته كيف يشاء وكما يشاء** ؛ إيجاداً وإعداماً، إبقاءً وإفناءً، والمُلْكُ هنا ؛ بمعنى المملكة، والمالك ؛ بمعنى القادر التام القدرة. والموجودات كلها مملكة واحدة ؛ لأنها متناسقة مرتبط بعضها ببعض فإنها(يعني حجم الأرض)متناسب مع الإنسان، فمثلا لو وجدت قفلاً في بيت، ووجدت مفتاحاً في مكان آخر ؛ وهذا المفتاح فتح ذاك القفل، تقول: كلاهما من مصنع واحد، طالما فيهما انسجام.

أحياناً يشتري أحدنا قطعة لسيارته، تأتي هذه القطعة في مكانها الصحيح بالميليمترات. معنى ذلك ؛ أن المعمل واحد. والذي صمم واحد، والذي أعطى القياسات واحد. فهي وإن كانت كثيرة من وجه ؛ إلا أنها وَحدة واحدة، الكون كله يعمل بالتنسيق، فالانسجام دليل وَحدة الخلق.

هناك كلمة واسع، وهناك كلمة واحد ؛ وقد وصف الله ذاته بهما، فما معنى كل منهما: خمسة آلاف مليون إنسان كل واحد يحمل قزحية عَين تختلف عن الأخرى ؛ من أجل ذلك صممت أقفال لا تفتح إلا على قزحية العين. لأن إنساناً واحداً في الأرض لا يمكن أن يشبهك في قزحية عينك،معنى ذلك أن الله واسع. كما أن لكل إنسان رائحة جِلد لا يمكن أن يَشْرَكَه فيها أحد من الخلق وأساس عمل الكلب البوليسي رائحة الجسم، ونبْرَة الصوت كذلك لا يمكن أن تتشابه في الأرض نبرتان. تعرف الشخص من نبرة صوته، فأصبح لدينا قزحية العين، ورائحة الجلد، ونبرة الصوت، وبصمتين، وبلازما الدم، كذلك اكتشفوا الآن مليارين ونصف وحدة نسيجية. يعني أن هناك واحد فقط في الأرض وحدته النسيجية تشبه وحدتك، وبصمة اليد هذه الأنملة ـ بمعنى أنه لو وجد في الأنملة مئة نقطة بين جزيرة، وخليج، ورأس، ونتوء، وفرع، وغصن، هناك مئة صفة لبصمة اليد. ولو تشابهت سبع صفات في بصمتين لكانت لإنسان واحد ؛ وبصمة اليد توقيع. فهذه الاختلافات كلها تعني أن الله واسع. بالمقابل تجد أن شركة أدوية تصنع دواءً في بلد ما كندا مثلاً؛ فإذا استعمل هذا الدواء شخص من استراليا نفعه هذا الدواء ؛ ما معنى هذا ؟ إنه يدل أن الخلق واحد في البنى الأساسية، وفي الخصائص، إذاً هناك وَحدة في الخلق. تجد

طبيباً درس الجراحة ببلد ما، أمريكا مثلاً يقول في اختصاصه إن العصب الفلاني على بعد ٢سم من مكان كذا... بالتفاصيل الدقيقة ثم يجري عملية جراحية لإنسان ما بالخليج مثلا في عروقه وأعصابه كما درسها هذا الطبيب في أمريكا وتكون النتيجة كما لو أجراها لشخص في أمريكا، من هنا قال بعض العارفين: والله يا رب لو تشابهت ورقتا زيتون، لما سُمِّيتَ الواسع. وأقرب من هذا وجوه البشر فلكل سماته الخاصة به ؛ وكل واحد منا له شكل وطريقة في العيش فهذا يدل على سعة الخلق وحينما تكون الأجهزة واحدة ؛ القلب واحد، والرئتان، المعدة، الأمعاء، الشرايين، الأوردة، الأعصاب، العظام، خصائص العظام ؛ زمن التحامها، الطبيب مثلاً من مصر ودرس في روسيا، والمريض في أفريقيا والبنية لدى الجميع واحدة. معنى ذلك أنه يوجد قواعد عامة في الجسم.

فالله عز وجل واحد واسع، أما لو قلت لمهندس ما: صَمِّمْ لنا بناءً يمكن أن يرسم مخططاً وآخر وآخر ثم يتقف. ومثل ذلك هندسة السيارات يصممون شكلاً بيضوياً ثم شكلَ زوايا حادة ثم يعودون للشكل البيضوي. أي أن طاقة الإبداع محدودة عند البشر. أما في صنع الله ؛ إذا نظرت في أنواع أوراق الأشجار في الأرض تجد أموراً لا تصدق ؛ أوراقاً إبرية، وأوراقًا دائرية، وأوراقًا مسننة، وأوراقًا مفلطحة، أوراقًا خضراء مشربة بلون آخرمثلا، وأوراقًا واسعة، وأوراقًا صغيرة، وأوراقًا كبيرة، وتلك تحمل الألوان الجذابة ؛ فلو دققت في أنواع الأوراق، لأخذك العجب العجاب.

أيها القارئ الكريم: الله عز وجل مالك الملك ؛ أيْ تنفذ مشيئته في ملكه كما قاله الإمام الغزالي. وقيل مالك الملك ؛ هو المتصرف في ملكه كيف يشاء، ولا راد لحكمه، ولا معقب لأمره. والوجود كله من جميع مراتبه، مملكة واحدة لمالك واحد وهو الله وتبارك وتعالى.

لو لاحظت البشر في كيفية تملُكهم لوجدت أصنافاً شتى، فإذا قلنا: فلانٌ يملك هذا البيت وأجَّرَهُ، فهو يملك عينه ولا يملك منفعته، المستأجر تجده يملك المنفعة وليس العين المؤجرة، فإذا كنت تملك المنفعة والعين يعني البيت ؛ لكنك قد لا تملك المصير ؛ بحيث إنه لو صدر قانون استملاك، يضيع البيت من يدك. فهناك مُلك عين، ومُلك منفعة، ومُلك مصير. أما إذا قلنا: الله مالك الملك ؛ فهو مالك الوجود خلقاً، وتصرفاً، ومصيراً، مثلاً: بلدٌ يبيع بلداً آخر مجموعة طائرات. كان المعمل مالكاً للطائرات ؛ فلما باعها تملكها شاريها. وأصبحت هذه الطائرات بأمر شاريها. لكن الله عز وجل يقول:

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢))

(سورة الزمر: الآية٦٢)

كلمة مالك الملك تعني: ما شاء في هذا الملك كان، وما لم يشأ لم يكن، كل شيء وقع أراده الله، وكل شيء أراده الله وقع. هذا هو معنى مالك الملك.

قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران: الآية ٢٦)

إذا أعطى الله عز وجل الملكَ لإنسان، يعطيه الهيبة ؛ فكلهم يخافونه ؛ فإذا أراد أن ينزع منه الملك، ألغى هيبته ؛ فكلهم يجترىء عليه. أحد القواد العظام في العهد العباسي بلغت شهرته الآفاق حتى صارت الأمهات يُخوّفن أولادهن به، فلما دخل على هارون الرشيد، رآه صغير الجسم، قصير القامة نحيلاً، فقال له: أنت فلان ؟ ! فقال له: حبذا لو رأيتني وقد أسبغ الله عليّ الهيبة، لقد زلت قدمه فنزع الله عنه الهيبة فالإنسان إذا نزع الله منه الهيبة صار شخصاً تافهاً، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران: الآية ٢٦)

أروع ما في الآية ؛ أنه لو قال الله عز وجل:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ)

(سورة آل عمران: الآية ٢٦)

لصار هناك تناسب. لكن تؤتي الملك من تشاء ؛ وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء، وتذل من تشاء ؛ بيدك الخير، الخير فقط إذاً الإعزاز خير والإذلال خير، فمعنى الآية دقيق فالإعطاء خير والمنع خير، والإيتاء خير والسلب خير ؛ فكل هذا خير. ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك.

لذلك سنرى أنه يوجد أسماء لله متقابلة ؛ المعطي المانع، القابض الباسط، النافع الضار، الرافع الخافض، المعز المذل.

قال العلماء: هذه الأسماء بالذات لا يجوز أن تذكر وحدها، فيجب أن تقول الضار النافع، المذل المعز، المعطي المانع، القابض الباسط، مثنى مثنى، لماذا هذا الاقتران ؟ لأن الله يضر لِيَنْفَع، ويذل لِيُعِزّ، ويمنع لِيُعطي، ويقبض ليبسط، وأوضح مثال على ذلك: أن تجد الأب يقسو على ابنه في الصغر، كي يصنع منه رجلاً في المستقبل كل هذه الشدة من الأب هي لصالح الابن. وكل هذه الشدة صنعت منه إنساناً متفوقاً، فهذه الأسماء المتقابلة ؛ لا يجوز أن نذكر واحداً منها من دون ذكر ما يقابله، الضار النافع، المذل المعز، المعطي المانع، الرافع الخافض، قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦))

(سورة آل عمران: الآية ٢٦)

يقول أحد المفسرين: مالك الملك ؛ هو المَلِكُ الحقيقي. لذلك ورد في الحديث القدسي

((أنا ملك الملوك و مالك الملوك، قلوب الملوك بِيَدي فإن العباد أطاعوني، حوّلت قلوب ملوكهم عليهم بالرحمة والرأفة. وإن العباد عصَوْني، حوّلتها عليهم بالسخطة والنقمة ؛ فلا تشغلوا أنفسكم بسَبِّ الملوك وادعوا لهم بالصلاح فإن صلاحهم بصلاحكم))

يقول أحد المفسرين: مالك الملك ؛ هو المَلِكُ الحقيقي، المتصرف بما شاء وكيف شاء ؛ إيجاداً وإعداماً، إحياءً وإماتةً، تعذيباً ورحمةً، من غير مشارك ولا ممانع. وقد ذكر اسم مالك الملك مرة واحدة في القرآن الكريم في الآية الآنفة الذِّكر.

من أدب المؤمن مع هذا الاسم أن يكثر العبد من ذكره، وبذلك يغنيه الله عن الناس. لكن هناك وقفة عند كلمة مالك الملك، وهي: هل أنت تملك سمعك ؟ هل تملك بصرك ؟ هل تملك قوتك ؟ هل تملك أعصابك؟ هل تملك سيولة الدم ؟ هل تملك استقامتك ؟ هل تملك نمو خلاياك ؟ فأنت إذا أصابتك جلطة دموية، أوْدت بحياتك إلى الهلاك. فهذا بسبب تجمد نقطة في الدم، وكذلك نمو الخلايا العشوائي، إذاً أنت لا تملك شيئاً من جسمك، وإنما يعطيك الله صحة طيبة كي تستمتع بها، فهو سمح لك بالاستمتاع بها ولكنه هو المالك لها. روي لنا أن شخصا ذهب إلى فرنسا درس وحاز أعلى الاختصاصات، ثم عاد لوطنه وتوظف وارتقى وتنقل في مناصب مرموقة، حتى شغل منصب مساعد وزير. بعدها أصيب بذهاب بصره مما أدى إلى إخراجه من عمله، فزاره أحد الأصدقاء فقال له: أتمنى أن يُلقى بي على قوارع الطرقات، وأن يُرجع الله إليّ بصري. فكلمة مالك الملك تعني ؛ أنك لا تملك شيئاً، لأنك لو أصبت بخلل بسيط في القلب، أودى هذا بحياتك ؛ فأنت لا تملك شيئاً من جسدك، و لا تملك دماغك.كذلك أعرف شخصًا معرفة جيدة وهو من الأفراد المرموقين في البلد، أنه خرج مرة من بيته فنسي في عند عودته أين يسكن ! حتى تذكر بيت ابنه فدَلّه ابنه على بيته. فسبحان الله هناك بعض الحالات فيها عبر بالغة، مثلا موت مفاجئ، يموت الإنسان بلا أيّ سبب. أعرف شخصاً اشتغل لمدة خمسين سنة وجمّع ثروةً جيدة، وبعدها اشترى بيتاً في المَصِيف، وأصبح يشتغل إلى الظهر فقط ليتمتع ببيته هذا، وفي أحد الأيام ذهب إلى المصيف وهناك خطر بباله أن يهتف إلى ابنه، فوقع ميّتاً على الأرض بدون أيّ سبب قبل المهاتفة. ومنه فلا يمكن للعبد أن يكون مالكاً مطلقا. يروي الرازي عن سفيان بن عيينة هذه القصة قال: بينما أنا أطوف بالبيت إذْ رأيت رجلاً وقع في قلبي، حسبته أنه من عباد الله المخلَصين ـ هناك مخلِص ومخلَص تقول: أخلَص لله فأخلصه الله من الشوائب ـ فدَنَوْت منه فقلت: هل تقول لي شيئاً ينفعني الله به ؟ فلم يرد عليّ ومشى في طوافه، ولما فرغ صلى خلف المقام ركعتين ثم دخل الحِجر فجلس، فدنوت منه فقلت: هل تقول لي شيئاً ينفعني الله به ؟ قال: هل تدرون ماذا قال ربكم ؟ قلت: لا، فقال: لقد قال: **" أنا الحي الذي لا أموت، هَلُمُّوا أطيعوني أجعلكم أحياءً لا**

تموتون " فالإنسان إذا أطاع الله يكون موته تُحفَةً وعرساً و موته انتقال من الدنيا التي هو سعيد بها بمعرفة الله إلى جنة الله في الآخرة، لذلك من الأدعية اللطيفة: اللهم اجعل نعمك علينا متصلة بين الدنيا والآخرة. فالخط البياني للمؤمن في صعود، وموته نقطة على هذا الخط. أنا الملك الذي لا أزول هلموا أطيعوني، أجعلكم ملوكاً لا تزولون.

لو أنك أعرضت عن الدين و عن الآخرة وعن منهج الله ؛ فمهما كسبت من المال ومن المناصب، فكل هذا نهايته قبيحة وتجعلك في قلق. نعم هناك صعود، لكن هناك سقوط بعد الصعود، والموت هو السقوط. لكن المؤمن في صعود ليس بعده سقوط، وهذا الشعور لا يوصف ـ طمأنينة للمستقبل ـ المؤمن مطمئن، تمشي في طريق سالك إلى جنة الله، تمشي على طريق ينتهي بك إلى الجنة. أما أهل الدنيا، فالطريق عريض، ولكنه ينتهي إلى حفرة سحيقة، وفيها وحوش كاسرة وقلق دائم لذلك فالمبالغة بالنعيم، و المبالغة بالانغماس باللذات؛ عملية تعويض لما يصيبه من قلق و خوف. وهناك من يدفع أهل الدنيا أن يبالغ بالرفاه والاعتناء بمظاهر الحياة و كأنه سيعيش مئات السنين. هناك قلق و خوف أساسه الشعور بأنّ بَعْدَ هذا الصعود سقوطًا. أما المؤمن فهو مرتاح من هذا القلق لأن حياته صعود بلا سقوط، و نمو بلا تراجع، و سعادة بلا شقاء، و حياة بلا موت لقوله تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنّ الّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩))

[آل عمران: الآية ١٦٩]

((أنا الملك الذي لا أزول ؛ هلموا أطيعوني، أجعلكم ملوكاً لا تزولون.))

أنا الملك الذي إذا أردت شيئاً قلت له: كن فيكون ؛ هلموا أطيعوني، أجعلكم إذا أردتم شيئاً أن تقولوا له: كن فيكون، أيْ أصبحتم مستجابي الدعاء. إن أطعتَ الملك، كنت في معية الملك. وإن أطعت الغني، كنت مع الغني. وإن أطعت القوي، كنت مع القوي. لذلك قالوا: إذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك. إذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتق الله. وإذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكل على الله. فأنت قوي بالله، وغني بالله، وكريم بالله، وعزيز بالله،أما إن لمم تكن مع الله ؛ فعزّ بعده ذلّ، وغنى بعده فقر، وحياة بعدها موت، ورفاه بعده شقاء، و سعادة بعدها شقاء وهوان.

أيها القارئ الكريم، مما يتمم هذا البحث أن تعلم هذه الحقيقة وهي: أن هناك اسماً وهناك مسمى، تقول هذا المسمى كتاب فالشيء مسمى، أما الكلمة التي نلفظها من مقاطع صوتية ومصطلح عليها هي الاسم، فالاسم هو الذي يدل على المسمى، فإذا قلت: كتاب، دل هذا الاسم على الكتاب، وإذا قلت قمر، دل هذا على القمر، فالله جل جلاله كان ولم يكن معه شيء، ثم خلق الخلق ؛ فكلمة الله: اسم عَلَمٍ على الذات.

فالله اسم ذات، وغيرها من أسمائه أسماء صفات. فإذا قلنا: يا الله، يكون هذا عَلَم على الذات. فنحن نقصد الذات الكاملة المتصفة بكل الأسماء الحسنى جملةً، لذلك قالوا:

(الله)هو اسم الله الأعظم علم على الذات ولحكمة أرادها الله جل جلاله لا يستطيع أحد أن يسمي أحداً على الإطلاق(الله)فهو علم على الذات. أما باقي الأسماء، فهي أسماء صفات الرحمن الرحيم الملك القدوس. هناك بحث في اللغة وهو ـ الاسم، واللقب، والكنية، فإذا قلت: عمر ؛ فهذا اسم فالوَضْع الأول حينما وُلِد سمّوْه عمرُ. ولما شب صار عُمَيْراً، ثم صار عمر، ثم صار أمير المؤمنين، ثم صار خليفة المسلمين، ثم صار الخليفة العادل ؛ فسُمِّيَ الفاروق، فهذا الأخير الفاروق لقب. فاللقب: يدل على المدح أوالذم، بينما الاسم الأول يدل على الذات. فإذا قلت: راشد فأنت تعني شخصاً اسمه راشد، أما إذا قلت الراشد فأنت تعني شخصاً فيه صفة الرشاد فرق كبير بين أن تقول: راشد أو الراشد، فحينما يُعرّف الاسم فإنما يشير بعد التعريف إلى معناه لا إلى العلمية، كان عَلَماً على الذات، فصار اسم صفةٍ، فالله سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى. الاسم الذي هو علم على الذات هو الله. أما أسماؤه الحسنى التسعة والتسعون ؛ هي أسماء صفات ؛ الرحمن من الرحمة، العليم: من العلم، والغني: من الغنى، والقوي: من القوة، لكن كل هذه الأسماء منطوية تحت اسم الله. والكنية:تعني ما سَبَقَ الاسم مثل: أبو فلان أو ابن فلان، أب أو أم أو أخ أو أخت، فأبو حفص كنية، وابن الخطاب كنية. إذاً عندنا اسم ولقب وكنية. أما إذا كان يمارس عملاً وسُمي على ذلك العمل، فهذه شُهرة فإذا كان يشتغل بالحديد وسُمي الحداد فهذه شهرة، أما إذا قلت قرشي فهذا نَسَبٌ والله سبحانه وتعالى غني عن كل هذا، سواء أكان لقبًا أو كنية أو شهرة.

٤٠- اسم الله ذو الجلال والإكرام :

مع الاسم الأربعين من أسماء الله الحسنى، والاسم هو ذو الجلال والإكرام،

((عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قالَتْ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا سَلَّمَ لَمْ يَقْعُدْ إِلا مِقْدَارَ مَا يَقُولُ اللَّهُمَّ أَنْتَ السَّلامُ وَمِنْكَ السَّلامُ تَبَارَكْتَ يا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ وَفِي رِوَايَةِ ابْنِ نُمَيْرٍ يَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ))

[رواه مسلم]

صار معلوما عند القارئ الكريم أن أسماء الله الحسنى كلها تدل على صفاته، لكن اسما واحداً هو [الله]عَلَم على الذات، ويدل على كل أسمائه، إذا قلت: يا الله، معناه ؛ يا رحيم، يا رحمن، يا غني، يا ودود، يا قوي، يا متعال، يا قدير، يا حسيب، يا لطيف...إلخ ؛ فاسم (الله) اسم علَم على الذات، ويشير إلى كل أسمائه الحسنى ؛ لكن أسماءه الأخرى تدل على صفاته، أو على كمال صفاته، الغني القوي الحسيب المجيد المعطي المانع، تروي السيدة عائشة: **أن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يجلس بعد الصلاة إلا بقدر ما يقول:**

((اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام))

هناك نقطة دقيقة وهي ؛ أن أسماء الله الحسنى يمكن أن تقسم إلى قسمين: قسم يشير إلى قوته، وقسمٍ يشير إلى كماله. أنت كمؤمن تؤخذ بالقوي، وتؤخذ بالرحيم. فالكمالات بكل أنواعها يجمعها اسم (الإكرام)، والقوة بكل مظاهرها يؤكدها اسم (ذو الجلال). مثال ذلك: قد تحترم أشخاصاً احتراماً كبيراً وقد لاتحبهم ينتزعون إعجابك بقوتهم، أو بذكائهم، أو بخبراتهم، أو بتحصيلهم، أو بفطنتهم ؛ وقد لا تحبهم. وبالمقابل فإن هناك أشخاصًا آخرين يملؤون قلبك حباً، وقد لا ينتزعون إعجابك. الإنسان يميل قلبه لأمه، وقد تكون أُمِّيّة. يمتلىء قلبه حباً لها، لكن علمها وثقافتها وخبرتها وفطنتها وذكاءها لا ينتزع إعجابه. وقد يحب أستاذاً في الجامعة على عِلمٍ وفهم وثقافة ؛ ولكن حينما يتعامل معه لا يميل قلبه إليه. إذاً هناك صفات تُعجب بها، وهناك صفات تحبها. الصفات التي تُعجب بها، مجموعة في اسم (الجلال). والصفات التي تحبها، مجموعة في اسم (الإكرام). فإذا قلت **"تبارك ذو الجلال والإكرام"** فهذا يعني؛ أن كل صفات القوة والعظمة والجبروت يتصف الله بها. وكل صفات الإكرام والرأفة والرحمة يتصف الله بها. فكأن هذا الاسم المركب من اسمين، جمع الأسماء الحسنى كلها من زاويتن: زاوية القوة وزاوية الإكرام.

يقول الإمام الغزالي: **إن اسم (ذا الجلال والإكرام) هو الذي لا جلال ولا كمال إلا وهو له، لا جلال ولا كمال ولا كرامة ولا مكرمة ؛ إلا وهي صادرة منه ؛** فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه، كل أفعاله تجاه خلقه إكرام ظاهر جلي، أو باطن خفي. وهذا معنى قول الله عز وجل:

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

[لقمان: الآية ٢٠]

النِّعم الظاهرة هي الإيجابية، والنعم الباطنة هي المصائب. وفنون إكرامه خلقه لا تكاد تنحصر أو تتناهى. قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨))

[البلد: الآية ٨]

عينان صغيرتان تريان لك الأشياء على حجمه الحقيقي بألوانها الدقيقة ؛ الرؤية فَوْرية، شبكية العَين تحوي مائة وثلاثين مليون عصية، من أجل نقل أدق الصور، وبالعينين ترى جمال الكون، بالعينين ترى جمال الأشخاص، بالعينين ترى المظاهر التي تأخذ بالألباب.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨))

فالعَينان هما إكرام من الله عز وجل، هذه القناة الدمعية التي هي من أدق القنوات في الإنسان ؛ لو أنها سُدت وصار فائض الدمع يسيل على الخدين -على صغر هذه المشكلة فهي ليست خطراً -إلا أنها تجعل حياة الإنسان جحيماً، وسيحتاج دائماً إلى مسح خديه، مما سيؤدي إلى تخريش الخد. فهذا إكرام من الله. العينان إكرام، والأجفان إكرام، والمحجر إكرام، والعضلات التي تحرك العينين يميناً وشمالاً إكرام من الله عز وجل.

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥))

[الشعراء: الآية ١٩٥]

كذلك جعل الله لهذا الإنسان أذنين يستمع بهما إلى أدق الأصوات وأدق النبرات، يستمع بهما إلى الصوت، وإلى جهة الصوت، وإلى هوية الصوت ؛ هذا إكرام، مِفْصَلُ يدك إذا أُلغيَ كيف تأكل ؟ إلغاؤه سيؤدي إلى وضع الطعام على الأرض، والانبطاح من أجل أن تأكل الطعام كالهرة تماماً. وهذا الرسغ، وهذه الأصابع، وهذا الأنف، وهذه الأسنان، واللسان، ولسان المزمار، والحنجرة، والأمعاء، كل هذا إكرام من الله. قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

[الرحمن:الآية ٧٨]

ورد هذا الاسم مرتين في كتاب الله، المرة الأولى قوله تعالى:

(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧))

[الرحمن:الآية٢٧]

والمرة الثانية:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

نقف عند هذه المفارقة الدقيقة:

(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧))

ذو من الأسماء الخمسة مرفوعة بالواو. لماذا جاءت الآية الأولى بالرفع، والثانية بالجر ؟ الآية الثانية:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

الاسم عَرَض وليس جَوْهراً فجاءت ذي تابعة لربك.

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

أما الوجه من الذات.

(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧))

هذه هي اللغة العربية. قال تعالى:

(بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ (١٩٥))

[الشعراء: الآية ١٩٥]

لأن الاسم ليس جوهراً في الإنسان بل عَرَض، إذ بإمكانه تغيير اسمه، لكن وجهه جزء من ذاته ولا يمكن تغييره، فإذا قال الله عز وجل:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ)

قال:

(ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

أما إذا قال:

(وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ)

فالوجه من الذات.

هذا الاسم المركب من اسمين يوحي لنا بأن أسماء الله صنفان: صنفٌ يشير إلى قدرته، وكمال قدرته، وقهره، وجبروته، وقوته، وصنف يشير إلى كمالاته ؛ فكل الأسماء المتعلقة بالقوة يمثلها اسم الجلال. وكل أسمائه المتعلقة بكمالاته، وإكرامه، وإحسانه، ورحمته، ولطفه، ورأفته، يمثلها اسم الإكرام. فإذا قلت:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

فأنت جمعت بهذا الاسم أسماء الله الحسنى كلها.

لذلك فإن الإمام الغزالي يقول: **لا جلال ولا كمال إلا وهو له، ولا كرامة ولا مكرمة إلا وهي صادرة منه ؛ فالجلال له في ذاته، والكرامة فائضة منه على خلقه** ؛ فلو كان شخص ذو هيبة أمام الخلق؛ فهي من الله. ولو أراد الله نزعها، لصار حقيراً أمام الخلق جميعاً. فرعون قال: **" أنا ربكم الأعلى "** فلما

أغرقه الله عز وجل، أنجاه ببدنه، وقذف بجسده إلى الشاطىء، ليكون آية للعالمين. ولو أنه غرق لما صدق الناس أنه غرق و لكن شاءت حكمة الله أن يبقى جسده بعد غرقه كما هو، وأن تقذفه الأمواج إلى الساحل.

فُنونُ إكرامه لخلقه كثيرة لا تكاد تنحصر ولا تتناهى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ)

[الإسراء: الآية ٧٠]

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (٤))

[التين: الآية ٤]

بدْءاً من جهازه العظمي، وهناك مفصل نحو الداخل. الركبة مفصل نحو الخارج، والرأس يدور.والعمود الفقري يَتَمَفْصل تَمَفْصُلاً محدوداً. الجمجمة مفاصلها ثابتة، وعندما يصاب الشخص بضربة على رأسه فإن تداخُلَ هذه الأجزاء يقي كسر الجمجمة ؛ فكل هذا من إكرام الله له. وأتمنى لو يتفكر كل واحد منا بإكرام الله له.

النوم إكرام، تنام بضع ساعات وبعدها تشعر وكأنك حصان قوة و نشاطا، هضم الطعام إكرام تأكل وتتلذذ وانتهى الأمر ؛ لكن لو أن الله أوْكل إليك هضم الطعام فإذا تناولت وجبةً امتنعت عن مقابلة أيّ شخص كان ثلاث ساعات أو أربع ساعات، لماذا ؟ لأنك مشغول بهضم الطعام. فيضيع وقتك.

فوجْبة الإفطار تحتاج إلى أربع ساعات لهضمها، ووجبة الغداء تحتاج إلى خمس ساعات، ووجبة العشاء تحتاج إلى أربع ساعات. فأنت تقضي خمسَ عشرة ساعة للهضم، نقلت اللقمة إلى المري ثم إلى المعدة. أمرت الغدد بالإفراز. أمرت البنكرياس بصب الأنسولين في الدم. أمرت الصفراء بأن تفرز. نقلت اللقمة و الطعام إلى الاثني عشري. إلى الأمعاء. ولكن كأنه قال لك: كُلْ و لا تَهْتَمَّ بالباقي. كل ما يجري من تفاعلات الهضم والانحلالات لا دخْل لك فيها. هَب أن الله أوكل إليك التنفس، لن تستطيع أن تنام الليل، أبداً فالنوم يعني الموت. ولكن أنت نائمٌ والقلبُ يعملُ، والرئتان تعملان و لسان المزمار يعمل بلا كلل ولا ملل ؛ كل هذا وأنت نائم. وزن جسمك الجهاز العظمي والعضلات التي فوقه، تضغط على ما تحت الجهاز العظمي ؛ فتضيق لمعات الأوعية -وجعل الله عز وجل في الجسد أماكن للإحساس بالضغط ؛ وهذه الأماكن و المحسات تعطي إشارة للدماغ، فالدماغ يأمر الجسم بالتقلب وأنت نائم، فالإنسان يتقلب ثمانياً وثلاثين مرة في الليلة تقريباً، حتى لا يشعر الإنسان بتخدر جسمه، أو تَنَمُّلِه ذلك أن ضيق لمعات الأوعية تسبب ضعف التروية، وضعف التروية يشعرك بالتنميل. أما التقليب فهو من آيات الله.

إفراغ المثانة ؛ فهي لها عضلات، ولولا العضلات، لاحتاج الأمر إلى تنفيس هواء. أما بالعضلات فأنت تُفرغها بثوانٍ. فالمثانة هي من إكرام الله ؛ إذْ إنه في كل عشرين ثانية تقطر قطرة بول من كل كلية، وتتجمع في المثانة، خلال ساعتين، أو ثلاث، أو أربع، ثم تفرغ تلك الكمية في بضع ثوانٍ ولولا وجود المثانة لاحتاج الإنسان إلى فوطة يلف بها نفسه. فإكرامات كثيرة من الله عز وجل ؛ الزوجة إكرام، والابن إكرام، والطعام والشراب إكرام... أنواع متنوعة لا تعد ولاتحصى قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥))

(سورة البلد: الآية ١١-١٥)

قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ)

(سورة الإسراء: الآية ٧٠)

الإمام الرازي من كبار علماء المسلمين والمفسرين يفرق بين لفظ الجليل، ولفظ الكريم، فلفظ الكريم يكفي فيه الإكرام، والإكرام قريب من الإنعام ولكنه أخص منه ؛ فكل إكرام إنعام، وليس كل إنعام إكراماً، كيف ذلك ؟ قد تجد أن فلاناً من الناس، له كذا من الأولاد يأكلون جميعاً على مائدته ولكن أحد هؤلاء الأولاد بارٌّ ومطيع، فأنت تجد أنهم إذا صاروا على مائدة الطعام، فهذا الولد البار له معاملة خاصة من أبيه، فالأب يقدم له شيئاً استثنائياً ويبتسم في وجهه، ويرضى عنه ويدعوه له ؛ فالطعام وحده إنعام، أما الإطعام مع التكريم اللفظي والعملي صار إكراماً.

فالإمام الرازي يقول: **ليس كل إنعام إكراماً، ولكن كل إكرام إنعام، قال: وفي تقديم لفظ الجلال على لفظ الإكرام سر**،قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

(سورة الرحمن: الآية ٧٨)

فلماذا قدم الله لفظ الجلال على لفظ الإكرام ؟ لأن الجلال يعني التنزيه، تقول: جل جلاله ؛ أيْ تنزهت ذاته عن كل نقص، وإن الإكرام الصادر من الله عز وجل إكرام منزه عن كل غرض. قد تُدعى لطعام الغداء من قبل أحد الأشخاص، وبعد أن تنتهي، يطلب منك حاجة ؛ فهذه الدعوة إذاً ليست خالصة، وإنما دعوة هادفة، وهي مشوبة بمكسب، وغرض وتأمين حاجة ؛ لذلك قدم الله اسم الجلال على اسم الإكرام؛ لأن إكرامه منزه عن كل غرض.

((لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زادوا في ملكي شيئاً. ولو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقصوا في ملكي شيئاً))

أكرر فتقديم اسم الجلال على اسم الإكرام، لأن إكرامه منزه عن كل غرض.

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨))

[سورة إبراهيم: الآية ٨]

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ)

[سورة الزمر: الآية ٧]

أما الإمام القشيري فيذكر ؛ **أن جلال الله منزه عن الأنصار والأعوان**. أحياناً يستمد الإنسان هيبته ممن حوله، ومن أنصاره، وأعوانه، وجماعته، ومن القوة التي بيده، ومن الأشخاص الذين حوله ؛ لكن الله عز وجل منزه في جلاله عن الأعوان والأنصار. أما الإنسان ؛ فجلالته قد تكون من ماله، أو مكانته من علمه، أو مكانته من سلطته. هذه المكانة مشوبة ومفتقرة إلى شيء قالوا: من أحبك لشيء، كرهك لفقده. فجلال الله عز وجل منزه عن الأسباب ؛ لأنه ذو جلال بذاته من دون سبب منفصل عنه. جلاله يعني الرفعة والعزة والعلو. والإكرام كما قال الإمام الرازي: قريب من الإنعام، إلا أنه أخص منه ؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد ينعم على من لا يكرّم ؛ فهو سبحانه لا يحب الكافرين لكن يمنحهم المال والصحة، والأولاد والبيوت، والمتع والسيارات والمباهج ؛ فكل هذا إنعام وليس إكراماً. لكنه جل جلاله يكرم المؤمنين. فكل إكرام إنعام، ولكن ليس كل إنعام إكراماً ذلك لأنه ينعم على من لا يُكرِم، ولا يُكّرم إلا من يُنعم عليه. وقالوا: إكرام الله عز وجل نوعان: نوع معّجل في الدنيا، ونوع مؤجل إلى الآخرة. فالإنسان إذا أنه لم يكن له في الدنيا ما يريد، بل كانت دنياه مدبرة لا مقبلة، فهو ينتظر إكرام ربه بعد الموت، ورد في الحديث القدسي:

((إني والجن والإنس في نبأٍ عظيم ؛ أخلق ويُعَبَدُ غيري ؛ وأرزق وُيْشَكُر سواي ؛ خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إليّ، من أقبل عليّ منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب، لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد والسيئة بمثلها وأعفو، وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها.))

وقال بعض العارفين: **ذو الجلال والإكرام ؛ هو صاحب الجلالة، لأنه لا شرف، ولا مجد، ولا عزة، ولا قوة، إلا وهي له**، فهي له وبه ومنه أحياناً يهب الله تعالى لبعض الأشخاص هيبة، جلالة، مكانة،، وأحياناً يسلبها منهم فجأة. هو الأصل. فلا شرف، ولا مجد، ولا عزة، ولا قوة إلا وهي له وبه ومنه ولا كرامة ولا فضل ولا نعمة ولا إحسان، إلا وهي من مَدَدِهِ جل جلاله ؛ هذا معنى ذو الجلال والإكرام. وقال بعضهم: هذا الاسم الجليل جامع للجلال والجمال ؛ فإن الله تعالى له جلال رهيب، وجمال عجيب. وبالمناسبة أقول، إن المؤمن المتصل بالله جل جلاله له هيبة،

((عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ أَتَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

[رواه ابن ماجه]

كان عليه الصلاة والسلام من رآه بديهة هابه، ومن عامله أحبه. فالنبي وأصحابه والمؤمنون الصالحون الصادقون المخلصون ؛ هؤلاء يأخذون من هذا الاسم نصيباً وهو الهيبةُ ؛ من اتقى الله هابه كل شيء. وأيُّ إنسان اتصل بالله عز وجل كانت له هيبة.

الإمام الحسن البصري كان من كبار التابعين، وكان ذا هيبة عظيمة. ولعل قصة هذا الإمام تحوي على ما يدل على هذا المعنى ؛ لقد أدى واجب العلم، وذكر بعض الأخطاء التي صدرت عن الحجاج، ولما بلغ الحجاجَ مقالةُ البصري، غضب، وأرغى، وأزبد، وتوَعّد، وأمر بقتله وقال: ائتوني به -طبعاً حينما أمر بقتله جاء بالسَّيَاف ومُدَّ النِّطع أمامه في قصره - بل قال قبل ذلك لمن سمع مقالة الحسن البصري، ولم يرد عليه ؛ قال لهم: والله يا جبناء لأسقِيَنَّكم من دمه. فلما دخل الحسن على الحجاج ورأى السَيَّاف جاهزاً، والنِّطع ممدوداً، تكلم بكلمات لم يسمعها أحدٌ، فما كان من الحجاج إلا أن وقف له، واستقبله وما زال يقربه حتى أجلسه على سريره، وكان يكنى أبا سعيد قال له: يا أبا سعيد كيف أنت ؟ يا أبا سعيد، أنت سيّد العلماء. يا أبا سعيد يا أبا سعيد... وقيل: عطّره، واستفتاه في قضية ثم شيّعه. هذا السَيَّاف صُعِق جاءوا به ليقطع رأسه ومد النطع، وكأنه قرار القتل نهائي، فتَبِع الحاجبُ أبا سعيد فقال له: **يا أبا سعيد لقد جيء بك لغير ما فُعل بك ! فماذا قلت قبل أن تدخل؟** قال قلت: **يا ملاذي عند كربتي، يا مؤنسي عند وحشتي ؛ اجعل نقمته علي برداً وسلاماً، كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.**

صدقوني أيه القراء الكرام: هذا لكل مؤمن وفي كل زمان وفي كل مكان، للمؤمن هيبة. لا يستطيعون أن يتجاوزوا حدّهم عندك إن كنت مؤمناً مستقيماً، فمن اتقى الله، هابه كلُّ شيء، ومن لم يتق الله، هاب كلّ شيء.

((أَخْبَرَنَا جَابِرُ بْنُ عَبْدِاللَّهِ أَنّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنّ أَحَدٌ قَبْلِي نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمّتِي أَدْرَكَتْهُ الصّلاةُ فَلْيُصَلِّ وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلّ لأَحَدٍ قَبْلِي وَأُعْطِيتُ الشّفَاعَةَ وَكَانَ النّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النّاسِ عَامّةً))

[رواه البخاري]

فالنبي صلى الله عليه وسلم نُصر بالرعب وحينما تركت أمته سنته ؛ هزمت بالرعب لذلك ؛ من اتقى الله، هابه كلّ شيء ومن لم يتق الله هاب كلّ شيء.

وقال بعض العارفين: **ذو الجلال والإكرام ؛ هو المنفرد بالجلال والإكرام والعظمة، المختص بالإكرام والكرامة ؛ فكل جلال له، وكل كرامة منه سبحانه،** له الجلال في ذاته، والإكرام فيضٌ منه على خلقه ؛ فما من نعمة تأتيك إلا وهي من الله ؛ حتى لو أن عَينيك رأتا أن هذا الإنسان -فلان الفلاني -هو الذي أكرمك ؛ إذا كنت موحداً ترى أن الله ألهمه، وسمح له، وأن الله مكنه، وألقى حبك في قلبه فأكرمك. لذلك -المؤمن الصادق- إذا أصابه خيرٌ، بادىء ذي بدء يشكر الله عز وجل.

إنّ السيدة عائشة حينما لاك الناس حديث الإفك، وبقي الوحي منقطعاً قرابة شهر، والنبي صلى الله عليه وسلم في أشد حالات الضيق والحزن، ثم جاءت براءة الله عز وجل للسيدة عائشة -رضي الله عنها -فقال لها الصديق: **قومي لرسول الله فاشْكُرِيهِ** فَقَالَت: **لا والله، لا أشكُر إلا اللهَ** فابْتَسَمَ النبي وقال عليه الصلاة والسلام:

((عَرَفَتْ الْحَقَ لأهْلِه))

[رواه أحمد]

مادام كل كرامة من الله، وأيُّ إكرام مهما بدا لك أنه من فلان، فهو من الله لذلك أنت ينبغي ألاّ تشكر على الحقيقة إلا الله. فالمؤمن الصادق يُعَوِّدُ نَفْسَهُ سجود الشكر، فأحياناً يُسمح له، وقد كان ممنوعاً، يُمنح، ينال درجة أو شهادة أو مالاً، ويرى كل نعمة من زوجة وولد ومال وعطاء، ونجاح، هي منه سبحانه وتعالى، وهو المنفرد بصفات الكمال. والعظمة والجلال، المختص بالإكرام والكرامة ؛ فكل جلال له، وكل كرامة منه سبحانه، له الجلال في ذاته، والإكرام فيض منه على خلقه. عندي مثل أحب أن أطرحه على مسامع القراء الكرام:

بِمَعامل الحديد الضخمة، هناك رافعات كهربائية، مساحة كبيرة من الحديد؛ مربعة أو دائرية محاطة بوشيعة كهربائية، فإذا سرت الكهرباء في هذه الرافعة، تصبح ممغنطة. وهذه الرافعة ربما حملت خمسة أطنان. و الآن وهي ترفع هذا الثقل ؛ لو ضغط العامل مفتاحاً بمقدار ربع ميلي بحيث قطع تيار الكهرباء، فكل هذه الأوزان تسقط، أردت بهذا المثال أنه مهما كنت ذا لك هيبة، أو كنت ذا شخصية متألقة، ومحظوظاً ومحبوباً؛ فهذا من الله عز وجل، بدليل أنه أحياناً يُفقدك هيبتك، ويأتي أحقر الناس فيتطاول عليك، ويسيء إليك. فإذا شعرت بالمكانة والهيبة وأنك محبوب فهي من الله، والنبي -عليه الصلاة والسلام -علّمنا أن الله كلما زاد الله في إكرام عبده ؛ فالعبد الكامل يزيد في تواضعه لله عز وجل. لذة النصر لا توصف، فكفار مكة المكرمة بالغوا بالاساءة إليه صلى الله عليه وسلم إيذائه، وحاربوه ثلاث مرات في بدر وأحد والخندق، وحاولوا قتله وأخرجوه ونكّلوا بأصحابه وعذبوهم وقتّلوهم، وهي في استعلاء -وأذلوه، حتى إن سهيل بن عَمْرٍو لم يرض أن يكتب: هذا ما اتفق عليه محمد رسول الله قال: **امحُ رسول الله** ؛ ـ غَطْرسةً وكِبْراً ـ ثم فتحت مكة، عشرة آلاف سيف متوهجة

تأتمر بأمر النبي وقد دخلها منتصراً، كيف دخلها ؟ دخلها مطأطِىء الرأس ! ودخلها متواضعاً، وكادت دُؤابة عمامته تلامس عنق بعيره !!

فالله ذو الجلال والإكرام، وكلّ الجلال منه، وله، وبه وكل الإكرام منه وله وبه. فإذا تمتعت بهيبةٍ فاذكر ؛ أن الله هو الذي رفع لك ذكرك، وإذا تمتعت بإكرام فاعتقد أنه منه.

وها نحن بصدد معنى جديد ؛ فكوْنه ذا الجلال فينبغي أن تُجلّه. ولأنه ذو إكرام فينبغي أن تحبه، وأن تكرم عباده ؛ فرَدُّ الفعل عندك أن تجله، قال تعالى:

(وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ)

بعض الأحيان يتأدب الإنسان مع كتاب الله، ويضعه في مكان عالٍ، ولا يجعل رجليه باتجاهه وإذا قرأه قرأه جالساً، ويضعه على وسادة، فكل تعظيم لشعائر الله وكتابه وبيوته وأوليائه، هو من إجلال الله.

((عَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ))

[رواه أبو داود]

((إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم))

رجل متقدم بالسن، نشأ في عبادة ربه، ذو شيبة ؛ إكرام هذا الشيخ هو من إكرام الله، إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم. وإكرام العالم العامل، والإمام العادل، كل ذلك من إكرام الله وإجلاله، فالمعنى الجديد الذي مرّ معنا هو: مادام الله ذا الجلال والإكرام ؛ فينبغي أن تجله، وأن تكرمه بإكرام خلقه، وهو ردّ الفعل.

وبعد فقد رُوي أن اسم ذا الجلال والإكرام ؛ هو اسم الله الأعظم، ذلك بأنّ النبي عليه الصلاة والسلام، كان ماراً في طريقه فسمع أعرابياً يقول: **اللهم إني أسألك باسمك الأعظم العظيم الحنان المنان، مالك الملك، ذي الجلال والإكرام،**

((وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلا يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنَّ لَكَ الْحَمْدَ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ وَحْدَكَ لا شَرِيكَ لَكَ الْمَنَّانُ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ذو الجلال والإكرام فَقَالَ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ))

[رواه ابن ماجه]

" إنه دعا باسم الله الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا سُئل به أعطى " فهذا الحديث يؤكد أن اسم ذا الجلال والإكرام اسم الله الأعظم - طبعاً كما قلت في بداية البحث هذا الاسم ورد في كتاب الله مرتين- (أذكرهما) والمرتان في سورة الرحمن.

وقد جاء في بعض الأحاديث الشريفة :

((عن عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ يَحْيَى بْنِ حَسَّانَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا حَسَنَ الْفَهْمِ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ أَلِظُّوا بِيَا ذَا الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ))

[رواه أحمد]

أَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام ؛ أيْ اِلْتجِئُوا، فإذا حلت بالمؤمن مشكلة، أو ألمت به ملمة أو دهمه خطب أو حلت به محنة، دعا وقال: **" يا ذا الجلال و الإكرام برحمتك أستغيث "** أَلِظّوا: أيْ اِلْتجئوا وادعوا، قال ابن الأثير أيْ: **اِلْزَموه واثبتوا عليه، وأكثروا من قوْل ذلك في دعائكم.**

التطبيق الثاني: من عرف جلال الله تواضع له، لذلك لا يجتمع كِبْرٌ ومعرفةُ الله عز وجل تقول: أنا ؛ فمن أنت ؟ أنت لا شيء. لا تقل أنا. متى أكثر العبد من ذكره، ولاح نوره على سره، صار جليل القدر بين العوالم. ومن عرف جلال الله، تواضع له وتذلل ولقد جاء في الأثر: تخلقوا بأخلاق الله ؟ فكيف نتخلق بأخلاق الله ؟ باسم الجلال والإكرام ؟ الإكرام أن تكرم الناس وأن تجعل أساس حياتك العطاء، أما الجلال أن تترفّع عن السَّفَاسف. فمن كثر مزاحه،َقلّت هيبته لا تتعلق بالجزئيات والتفاصيل. لا تكن سخيفاً. إن الله يحب مَعالِيَ الأمور، ويكره سفسافها ودَنِيِّها. فاعتدالُك في الأمور وتوازنك واهتمامك بالقضايا الكبرى، وتعلقك بالآخرة، وترفعك عن السفاسف والدنايا، وترفعك عن السّفاهات، وعن كثرة القيل والقال، وإضاعة المال، وكثرة السؤال، وتعلقك بالآخرة، يجعلك ممن تخلق بأخلاق الله، وصار لك هيبة أساسها الاعتدال والسلوك الحسن، والترفع عن الدّنايا والسفاسف والسقطات والزلات والثرثرة والتعليقات والتدخلات الجانبية، وأن تحشر نفسك فيما لا يعنيك. هذا كله يضعف مكانتك. والإنسان الناضج له إحساس دقيق جداً ؛ فيشعر أن هذه الكلمة تصغّر شأنه، وهذه النظرة تصغر قدره، وأن هذا السؤال يجعله دنيئاً وأن هذا التذلل يجعله خنوعاً، وأن هذا التصرف يجعله طامعاً. فكلٌ عملٍ يجعلك أمام الناس صغيراً، عليك أن تترفع عنه، من أجل أن تتخلق بأخلاق الله. والنبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إياك وما يُعتذر منه))

أيُّ تصرف يدفعك إلى الاعتذار وتقول: لا تؤاخذوني، فلا تفعلْه، إذا فعلت هذا تخلقت بأخلاق الله و صارت لك هيبة، والهيبة نوعان: نوع كسبي ونوع وهْبي.

النوع الكسبي: التزامك بالأدب وضبط اللسان ؛ مَن كثر كلامه كثر غلطه، اضبط لسانك وجوارحك وكن معتدلاً، لا تتكلم كلاماً لست متأكداً منه، ولا تتهم أحداً قبل أن تتحقق، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦))

(سورة الحجرات:الآية ٦)

فعدم التسرّع وعدم الثرثرة، وفهم الأمر بتريُّث، وترك الدنايا، يجعلك ذا جلال. وإذا جعلت أساس حياتك العطاء والسخاء والدعْم، صرت ذا إكرام. إذاً ومرة ثانية أذكر أن التخلق بهذا الاسم له طريقان: كسْبي ووهْبي، إن أقبلت على الله واتصلت به، وهَبك الجلال. وإن اعتدلت في سلوكك، وترفعت عن الدنايا والسفاسف وأقللت من المزاح ومن الثرثرة، والتدخل فيما لا يعني، كنت كبيراً في نظر الناس. فكلِمةٌ ترفعك، وكلمةٌ تجعلُك أسفل السافلين. **" إن الرجل يقول الكلمة في سخط الله لا يلقي لها بالاً، يهوي بها سبعين خريفاً في جهنم "** فما دام الله عز وجل ذا الجلال والإكرام، ينبغي أن نجِلهُ وأن نحبّهُ، ومن جهة ثانية إذا صح القول:

((تخلقوا بأخلاق الله))

فباستقامتنا واعتدالنا وترفعنا عن السفاسف، نكتسب هيبة. وباتصالنا بالله عز وجل.

أجل نكتسب هيبة. الأولى كسبية، والثانية وهبية. والله عز وجل أكرمنا فيجب أن نحبه، وأن نكرم عباده. إذا أردتم رحمتي فارحموا خلقي.

جاء في بعض الأدعية: **أنت ذو الجلال والإكرام، صاحب الطّوْل والإنعام، لك جلالٌ يَدُكُّ الجبال، ولك جمالٌ يفتح باب القبول والوصال.**

وأنا يا أخي المسلم أتمنى أن يهزك جمال الله، كما يهزك جلاله، وأن تقبل عليه رهبةً ورغبة، رجاءً وخوفاً فإن جلاله مرغوب، وكماله محبوب.

بعضهم ناجى ربّه فقال: يا رب أشرِقَ نور هذا الاسم على لطائف قلبي، حتى تجنبت الرذائل، فكنت جليل القدر، وانشرح صدري بإكرامك، فكنت مُجَمّلاً بلطائف إنعامك، إنك على كل شيء قدير. وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير وسلم.

أيها القارئ الكريم: لعل هذا الاسم كما ورد هو اسم الله العظيم ؛ أَلِظّوا بيا ذا الجلال والإكرام، فكل صفات القوة والعظمة منطوية في يا ذا الجلال، وكل صفات الكمال والإكرام منطوية في الإكرام ؛ فإذا قلت: يا ذا الجلال والإكرام، فكأنك جمعت بهذا الاسم المركب، أسماء الله الحسنى كلها، ولكن من زاويتن ؛ زاوية القوة، وزاوية الكمال، والنبي عليه الصلاة والسلام ما كان يجلس بعد الصلاة إلا بمقدار قوله:

((اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام))

ومعنى يا ذا الجلال والإكرام ينبغي ؛ أن تعظِّمه بالقدْر الذي تحبه ؛ فإذا كان في حياتنا كما قلت في مطلع هذا البحث أناس نحبهم كثيراً ولا نقدرهم كثيراً، وأناس نقدرهم كثيراً، ولا نحبهم كثيراً، فالله عز وجل **ذو الجلال والإكرام بقدْر ما هو عظيم في قلبك، بقدْر ما هو كريم في تعامله معك.**

٤١- اسم الله الضار النافع :

مع الدرس الواحد والأربعين من دروس أسماء الله الحسنى، والاسم اليوم ؛ الضار النافع. الضار النافع: اسمان من أسماء الله الحسنى. دققوا في كلمة الحُسنى ؛ ولله الأسماء الحُسنى ؛ فالضار من أسماء الله الحُسنى، والمانع من الأسماء الحسنى، والقابض من الأسماء الحسنى، والمُذل من الأسماء الحسنى، وكُلُ أسماء الله حُسنى؛ ولكن قد يبدو للإنسان أحياناً أن الضرُّ يؤلمه، وهو كالدواء تماماً؛ طعمه مُر وعاقبته محمودة.

هناك توجيه لبعض العلماء، وهو أن تبقى هذه الأسماء مزدوجة، وأن تُدرّس معاً ؛ فلا تقول: الضار وحده ؛ قُل الضار النافع، والقابض الباسط، والمُعز المُذل، والمُعطي المانع، وهذا لسبب بسيط وهو أنه تعالى يضر لِينفع، ويذل ليعز، ويمنع ليعطي، ويخفض لِيرفع، ويقبض لِيبسط، لو كُشف الغطاء لهذا الإنسان - والله الذي لا إله إلا هو - الذي ساق الله له من الشدائد ما ساق، لَذاب كما تذوب الشمعة إذا أشعِل فتيلها، حُباً في الله عزّ وجل. ولو عُرفت حكمة الشدائد التي يسوقها الله لِعِباده، لَذاب الإنسان حباً وخجلاً من الله عز وجل، كما تذوب الشمعة إذا أشعل فتيلها.

لذلك يقول الإمام علي كرّم الله وجهه: **والله لو كُشِف الغطاء، ما ازددت يقيناً.** وهذا الإيمان وهذا الشعور هو أحد أكبر الأسباب سعادة الإنسان ؛

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا

فليس لي معدِلٌ عنهم وإن عَدَلُو

وإن فتّتوا في حبهم كبدي وإن عدلوا

باقٍ على عهدهم راضٍ بما فعلوا

***

شعور الرضا أيها الإخوة لا يوصَف ؛ أن ترضى عن الله. يطوف أحدهم حول الكعبة ويقول: يا رب، **هل أنت راضٍ عني ؟** وكان وراءه الإمام الشافعي فقال: **يا هذا وهل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟** وقف والتَفَت وراءه وقال: من أنت يَرْحمك الله ؟ **كيف أرضى عنه وأنا أتمنى رضاه ؟** فقال الإمام الشافعي: **إذا كان سرورك بالنِّقمة كَسرورك بالنعمة، فأنت راضٍ عن الله.**

لا تُصدِّق أن يكون الامتحان في الرخاء ؛ إنما الامتحان في الشِدّة. ولا يظهر إيمانك إلا في الشِدّة، ولا ترقى عند الله إلا في الشِدّة، لذلك المؤمن يُوَطِّن نفسه على أن يُمتحَن. وقد سُئل الإمام الشافعي ؛ أندعوا الله بالابتلاء أم بالتمكين ؟ فقال: **لن تُمكن قبل أن تُبتَلى**، قال تعالى:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران: الآية ١٧٩)

فأكثر المراجع الدينية، ترى أن هذه الأسماء المزدوجة ؛ ينبغي أن تذكر معاً ؛ الضار النافع لسبب بسيط، وهو أنه تعالى يضُر لِيَنفع.

في سورة القلم قِصة أصحاب الجنة: قال تعالى:

(إنّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنّهَا مُصْبِحِينَ (١٧) وَلَا يَسْتَثْنُونَ (١٨) فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِنْ رَبّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ (١٩) فَأَصْبَحَتْ كَالصّرِيمِ (٢٠) فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ (٢١) أَنِ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَارِمِينَ (٢٢) فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَنّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مِسْكِينٌ (٢٤) وَغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قَادِرِينَ (٢٥) فَلَمّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنّا لَضَالّونَ (٢٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٢٧)) (قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلَا تُسَبّحُونَ (٢٨) قَالُوا سُبْحَانَ رَبّنَا إِنّا كُنّا ظَالِمِينَ (٢٩) فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ (٣٠) قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنّا كُنّا طَاغِينَ (٣١) عَسَى رَبّنَا أَنْ يُبْدِلَنَا خَيْراً مِنْهَا إِنّا إِلَى رَبّنَا رَاغِبُونَ (٣٢) كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ(٣٣))

(سورة القلم: الآية ١٧ ـ ٣٣)

فأصبحت كالصريم انتهت. يعني أصابها الصقيع.

(فَتَنَادَوا مُصْبِحِينَ أَنْ اغْدُوا عَلَى حَرْثِكُمْ إِنْ كُنتُمْ صَارِمِين)

القصة طويلة.

(فَلَمّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنّا لَضَالّونَ)

ليس هذا بستاننا، فلما تأكدوا منه قالوا:

(بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ)

(قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ لَوْلا تُسَبّحُونَ)

لِضَعف إيمانكم بالله بَخِلتم ؛ فلما بَخِلتم عوقِبتم.

(قَالُوا سُبْحَانَ رَبّنَا إِنّا كُنّا ظَالِمِينَ)

انتهت القِصة، والآن إلى التعقيب: قال تعالى:

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

أيْ أنه ؛ أيٌّ عذاب أسوقه للعباد ؛ فَمن أجل هذا، ومن أجل أن أردهم إليّ، ومن أجل أن أحملهم على الصواب، ومن أجل أن أحملهم على التوبة.

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

والمؤمن الصادق يعتَقِد اعتقاداً راسخاً أن كُلّ شِدّة وراءها شَدّة إلى الله، وأن كل مِحنة، وراءها مِنحة وأن كُلّ شيء وقع أراده الله، وأن كل ما أراده الله وقع، وأن كل ما أراده الله وقع، وأن إرادة الله متعلقة

بالحِكمة المُطلقة، وأن حكمته المطلقة متعلِقة بالخير المطلق. ومعنى الحِكمة المُطلقة ؛ أن الذي وقع لو لم يقع، لكان الله ملوماً ؛ ولكان عدم وقوع الذي لم يقع نَقْصاً في حكمة الله عز وجل.

لذلك هناك من يقول: لِكل واقِع حكمة، فيما أن هذا الشيء وقع؛ فَمن وراءه حِكمة ما بعدها حِكمة، ولو أن الذي أوقعه كان أحمقاً، ولو أن الذي أوقعَه لم يكن حكيماً، ولو أن الذي أوقعه كان شريراً، ولو أن الذي أوقعه كان جاهلاً ؛ لِكلِّ واقعٍ حِكمة، لأنه لا يُمكن أن يقع في كَون الله إلا ما أراده الله، وإرادته متعلِقة بالحكمة المطلقة، هذه الفكرة وحدها، يُمكن أن تنفِيَ عن الإنسان كل أمراضه النفسية. يعني إذا كان هناك صحة نفسية ففي عالم الإيمان الآن. علاقتك مع الرحمن الرحيم، مع الحكيم، ومع العليم، ومع العادل، علاقتك مع ربٍ كريم، بيده كل شيء، ويعلم كل شيء، لا تخفى عليه خافية.

الإمام الغزالي والإمام الرازي والإمام القُشيري يقولون: **" اعلم أن الجمع بين هذين الاسمين أولى وأبلغ في الوصف بالقدرة على ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، لا نافع ولا ضار غيره ".**

دققوا معي الآن ؛ متى يُنافق الإنسان ؟ متى يُرائي ؟ ومتى يخاف ؟ ومتى ينهار ؟ ومتى يَخْنع ؟ ومتى يقبل الضيم ؟ إذا شعر أن إنساناً يمكن أن ينفعه، أو يمكن أن يضره، أمّا إذا أيقن أنه لا نافع إلا الله، ولا ضار إلا الله، رفع رأسه وقال: لا وذلك بملء فمِه، واعتقد أن الله لن يسلمه، ولن يتخلى عنه، وأن كلمة الحق لا تقطع رزقاً، ولا تقرّب أجلاً. كل أسباب القوة والمنعة، وكل أسباب العزة والجُرأة، بسبب أن تؤمن أنه لا نافع، ولا ضار، إلا الله، ألا يكفيك قوله تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

(سورة فاطر)

هذه الآية وحدها تكفي، ألا يكفيك حديث رسول الله الذي روي:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

(رواه الترمذي)

هكذا الإيمان.

يقول علماء اللغة: **" إن الضُر ضد النفع "**، والله جل جلاله هو الضار ؛ لكن لا ينبغي أن يغيب عن ذهنك كيف، أن الأب الجرّاح يُمسك بالمِبضَع، ويفتح البطن، ويخرج الدم، ويربط الأوعية، ويأتي إلى هذه الزائدة -التي جعلته يخرج من جلده -ويقطعها ويستأصلها، ثم يُضَمِّد الجراح. أب طبيب جراح مُفعم

قلبه بالرحمة، وممتلىء عقله بالعِلم، أُصيب وابنه بالتهاب الزائدة، ماذا يفعل معه ؟ يستأصلها ؛ استِئصالها مُؤلم، فهناك فتح بطنٍ وتخدير، وبعد انتهاء المخدر هناك آلام، لكن هذا الأب يفعل هذا لِصالح ابنه. لا يمكن أن نفهم الضر من الله إلا هكذا، وأيُّ فهمٍ آخر يُعَد كفراً وإلحاداً في أسماء الله عز وجل لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٨٠))

(سورة الأعراف)

لذلك المؤمن مستسلم وصابر لِحكم الله. وحينما يصبر المؤمن لِحكم الله عز وجل فإن الله جل جلاله يتجلّى على قلبه بالسكينة. فالله سبحانه وتعالى يُفقر ؛ وقد يكون الإفقار هو عَيْن العطاء. والله سبحانه وتعالى يُمرض ؛ وقد يكون في المرض الصِّحة النفسية التامة. والله سبحانه وتعالى يُخيف ؛ وقد يكون في الخوف الالتجاء إلى الله عز وجل. والله حكيم يعلم كيف يُداوي، و المكان الذي يُؤلم، ويعلم ما الذي يحمل عبده على التوبة.

أنا أعرف رجلاً مُتَفلِتاً تفلتاً كاملاً من منهج الله، وعقيدتُه فاسدة، ويستهزىء بالدين، ولا يُطبق شيئاً من أوامر الله عز وجل. وزوجته كذلك. أصيبت ابنته بمرض عُضال وخبيث في دَمها، فقام ولم يقعد، وأنفق كل ممتلكاته، واضُطرّ إلى بيع بيته، وأخذها إلى بلاد غربية ليعالجها لأنه متعلّق بها تعلقاً شديداً، ثم جاءه خاطر، والأوْلى أنه إلهام من المَلَك، أنْ يا فلان لو أنك تُبت إلى الله أنت وزوجتك، لشفاها الله، فهذا الخاطر حمله على أن يتوب؛ فحَجَّب زوجته، وبدأ يصلي، وحضر مجالس العِلم فشفا الله ابنته. وبعد سنوات عِدة - هو زميل لي في العمل - زارني لِمَركز عملي ودعاني لِحضور عَقْد قِران، فقلت له مُداعِباً: هي هي فقال: هي هي، هي التي مَرِضت وردّت أباها وأمها إلى الله، هذا المرض كالضيف؛ جاء فَحَمل أباها وأمها على التوبة، ثم انسحب.

(كَذَلِكَ الْعَذَابُ)

لا يمكن أن نفهم عذاب الله إلا بهذه الطريقة، العذاب ضيف، ولكنه ضيف مؤلم، يدخل ويخرج وقد حَمَلَ الإنسانَ على التوبة. لكن المصائب أنواع - وهذا الذي ذكرته في دروس سابقة - فهناك مصيبة قصم، وهناك مصيبة ردْع، وهناك مصيبة دفْع، وهناك مصيبة رفع، وهناك مصيبة كشف. الأنبياء إذا ساق الله لهم المصائب، فلِكَشف حقائقهم التي تفوّهوا بها. والمؤمنون إذا ساق الله لهم المصائب، فلِدفْعهم إلى بابه، أو لِرفعهم إلى جنابه. أما الكفار إذا ساق الله لهم المصائب، فإما قصماً إنهاءً لِحياتهم، وإما ردْعاً إذا كان فيهم بقية خير ؛ فالقصم والردع للكفار، والدفع والرفع للمؤمنين، والكشف للأنبياء، ولكل مصيبة حِكمة ما بعدها حِكمة.

في بعض الأدعية: إلهي، أنت الضار توقِع الضر والآلام لأهل الشرك والفجار، وأنت العدل في إضرارك، وكلهم كالمرضى في حكمك، فتداويهم حكمتك، وتوجِد من الضر النفع.

لو دققت النظر في أب أهمل ابنه، يأكل كما يريد، وينام إلى أي وقت يريد، ولا يدرس، ويُصاحب رفقاء السوء، هذا الابن سيكون في مؤخرة الركب. الأب الشديد الذي حمل ابنه على الدراسة، وضبط سلوكه، وقسا عليه ؛ أحياناً هذا الابن سيكون شخصيّة لامعة في المجتمع. هذا الابن لو رأى نفسه في أعلى مقام، ومكانة اجتماعية، ويحمل دكتوراه، وله بيت وزوجة، معززٌ ومكرّم، ألا يدعو لأبيه طوال حياته ؟ ألا يقول جزى الله عني أبي كل خير ؟ لولا شِدتُه لما كُنت هكذا. لذلك أيّ إنسان على الإطلاق، يُلخص علاقته بالله كلها يوم القيامة بكلمة: الحمد لله رب العالمين. قال تعالى:

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمّ وَتَحِيّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠))

(سورة يونس)

يُروى: أنّ سيدنا العباس كان مقيماً في مكة، وكان قد أسلم سِراً، وبَقي عين -النبي صلى الله عليه وسلم- تروي بعض كتب السيرة **أن النبي -صلى الله عليه وسلم -أمر أصحابه ألا يقتلوا عمّه العباس،** ثم إن الحقيقة انكشفت، بعضهم ظن أن النبي من باب التعصب ينهى أن يُقْتَلَ عمُه؛ لكن- النبي صلى الله عليه وسلم -يعلم أن عمه قد أسلم، ويعلم أيضاً أنه إذا ذكره كُشف أمرُه، وإذا لم يُشارك عمه في القتل كشِف أمرُه. لذلك أساء أحد الصحابة الظن بعض الصحابة الظن برسول الله -عليه الصلاة والسلام - وقال أحدهم: **ينهانا عن قتل عمِّه، وأحدنا يقتل أباه وأخاه.** ثم لما كُشفت الحقيقة قال: **بقيت أتصدق عشر سنين لعل الله يغفر لي سوء ظني برسول الله- صلى الله عليه وسلم -** فالإنسان إذا توهم أن الله يسوق الشدائد تَشَقِّياً ؛ فالله أسماؤه حُسنى قال تعالى:

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨))

(سورة إبراهيم)

ولكن يقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧))

(سورة النساء)

دعا بعضهم فقال: يا رب امنحني عيون التوحيد، حتى لا أطلب دفع الضر إلا من جنابك.

وبعض الأدعية تقول: اللهم صُن وجوهنا باليسار - بالغنى - ولا تبذلها بالإقتار ؛ فنسأل شر خلقك، ونُبتلى بحمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من فوقهم ولي العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء ؛ فامنحنا اللهم عيون التوحيد حتى لا نطلب دفع الضر إلا من جنابك، ولا نقف إلا عند أعتابك، أنت على كل شيء قدير.

الإنسان عندما يتضعضع أمام إنسان لِيتلافى الضر، فقد أشرك. وحينما يمتلىء قلبه حباً لِفلان لأن خيراً أصابه منه، فقد أشرك. والبطولة أن لا تعتقد أن أحداً في الكون بإمكانه أن ينفعك أو أن يضرك ؛ الله هو الضار النافع.

النافع لا يقتصر على الدنيا وإنما على الدنيا، والآخرة ؛ فالذي يمنح الصحة هو النافع والذي يمنحك الغنى والسعادة والحياة والهداية والتقوى هو النافع، وهو الذي أوصل كل هذه النعم إلى خلقه، ووصل نِعَمَ الدنيا بِنعَمَ الآخرة ؛ فالنافع يشمل منافع الدنيا، ومنافع الآخرة. ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم:

((اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا...))

معنى ذلك أن الدنيا تُكمل الآخرة، والآخرة تكمل الدنيا. والمؤمن يطلب حسنة الدنيا والآخرة، من أكثر الأدعية التي دعا بها النبي صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أَنَسٍ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُمَّ: (رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)))

(رواه البخاري ومسلم)

ما الذي يمنع أن تسأل الله حسنة الدنيا وحسنة الآخرة ؟

وفي بعض الأنوار القدسية في الأدعية: **إلهي أنت النافع لِجميع العوالم، وأنت بالجميع راحم.** والإنسان عندما يستقيم على منهج الله، يهده الله سُبُلَ السلام. فسُبحانه لا يُرضيه أن يُعذِّبك. تصوّر حالة أبٍ، له ابن يحبُّه حباً لا يوصف، ووجد معه خمساً وعشرين ليرة، فيقول له: من أين لك هذه ؛ فيقول: أخذتها من رفيقي وهو لا يدري، هذا الأب العاقل ألا يجد نفسه مضطراً إلى أن يؤدِّب ابنه ؟ أنا والله أعتقد أن الأب الرحيم حينما يؤدب ابنه، يتألم عشرة أضعاف آلام ابنه، ومع ذلك فلا بد من إيقاع الضرب فيه، أو التجربة المؤلمة. فالإنسان الرحيم يرى من الضرورة أن يوقع في الذي يحبه ألماً رادعاً، لا أدري من منكم ذاق هذه التجربة، وهو أن يضرب ابنه ويتألم أشد من أَلَمِ ابنه لرحمة. فالله عز وجل لا يُرضيه أن يُذِلّك، ولا يرضيه أن يُفقِرك لا يرضيه أن يحبس حرّيتك، ولا يُرضيه أن يُمرضك، وأن تكون في مؤخِّرة الركب. الإذلال، والإفقار، وحبْس الحرية، والخوف، والهم، والحزن ؛ هذه لا تُرضي الله عز وجل ؛ لأن الله **" حيي كريم يستحي من عبده إذا بسط إليه يديه أن يردهما فارغتين ".**

لكنّ الله سبحانه وتعالى لحكمته البالغة، لا بد أن يسوق لعَبده العاصي بعض الشدائد. زارني رجل عَقِب درس من دروس الأحد وقال لي: أريد أن ألتقيك، وقال لي بالحرف الواحد: أنا يا أستاذ تربيت عند رجل مُلحد، وذلك أنه كان يشتغل عنده. فكان يقول له: ليس هناك إله، وليس هناك آخرة، وافعل ما

تشاء. وبناءً على كلامه: ما من معصية تَعرفها إلا فعلتها، عدا القتل فما قتل، أما ما سوى ذلك فقد مارس كل شيء ! والأموال بين يديّ كثيرة، واللذائذ وفيرة، والمباهج كثيرة، وأنا منغمس في كل المعاصي والآثام إلى قِمة رأسي ؛ قصة طويلة جداً ولكن أسوق لكم ملخّصها: قال لي فجأة سُحب البساط من تحت قدميّ، خُتم المحَل، أودع شريكي في السجن بتُهمة كبيرة جداً. وانقطع دخْلي فجأةً، وعليّ ديون كنت أسدها من دخْل المحل، وكُشِف أمري، فاضطررت أن أعمل عملاً دون مكانتي بكثير، كي أُؤمن طعام يومي، وساق الله إلي الأمراض والشدائد، وقد وصف لي حالته وكأن مطرقة على رأسه وقال لي: والله لا أملك ثمن الدواء، ولا ثمن الطعام، وأذلني الله ذُلاً شديداً، ودخلت المسجد أول مرة بحياتي كي أُصلي، و تُبت إلى الله، واصطلحت معه. والله بعدما خرج دمِعت عيناي وقلت: يا رب ما أحكمك وما أرحمك، لو جعلت هذا الإنسان يمشي كما يريد إلى نهاية الطريق، لاستحق النار ؛ ولكن من رحمتك به أنك سُقت له هذه الشدائد، حتى حملْته على التوبة.

وكلما كان الانحراف، أشد كانت الضربة قاسية. فتجد أحياناً إنساناً بنظرة قاسية يرتجع وآخر بضربة يرتجع، والآخر بالكلام، والآخر بالضرب، وهناك من لا ينفع معه إلا الضرب المبرّح، والآخر بالتعذيب، فكلما كانت حساسية ورقّة ؛ قال له: يا رب عصيتك فلم تعاقِبني ! قال: **عبدي، قد عاقبتك ولم تدر ؛ ألم أحرمك لذة مناجاتي** ؟ إذْ هناك من إذا وجد في صلاته عدم الخشوع، يشعر وكأنه عوقب عقاباً أليماً. وهناك من لا يهتز حتى تأتيه المصيبة الكبيرة كي يتعظ.

أيها الإخوة: يقول بعض العارفين: **" يا إلهي، أسألك أن تشهدني اسمك النافع، فلا أركن على غيرك يا ولي يا واسع "**، أحياناً يركن الإنسان للأغنياء والأقوياء، ويركن لمن ينفعه وينسى ربه. أما الصاحي فلا يركن إلا لله لأنه لا يرى إلا الله عز وجل وحده هو النافع ؛ إلهي أسألك أن تشهدني اسمك النافع، فلا أركن إلى غيرك. ـ ومن بعض العِقاب الإلهي، أن يسوق الله لك بعض الخير، على بعض عباده، فتَركن إليهم، وتُحبهم وهم مُسَخرون لك ـ واجعلني نافعاً لِجميع عبادك، راضياً عنك في جميع مُرادك، إنك على كل شيء قدير.

قال بعض العلماء: **" الضار والنافع: اسمان أو وصفان يدلان على تمام القدرة الإلهية؛ فلا ضرّ ولا نفعَ ولا شرّ ولا خيرَ إلا وهو بإرادة الله "**، هذا الكلام لو نعقِله حقّ العقل، و نصدِّقه حقّ التصديق، لأزيلت من أنفسنا كُل المتاعب، وكل الهموم، ولذلك يقول الله عز وجل:

(قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ)

(سورة النساء: الآية ٧٨)

النفع من الله، والضر من الله. ـ الآن دخلنا في موضوع جديد ـ لكن سبب الضر مِمّن ؟ الفاعل هو الله. مثلاً لو أصدر الأستاذ قراراً بتَرسيب طالب، فالذي أصدر هذا القرار هو المدرّس أو المدير، لكن لماذا

رسّبه ؟ السبب من الطالب. لذلك ينبغي أن تُراعى الحقيقة في هذا الموضوع، فيجب أن تنسُب الضر - ولو أن الله هو الضار -لِنفسك، ويجب أن تنسب النفع إلى الله عز وجل والدليل قوله تعالى:

(الّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِين (٧٨) وَالّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِين (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِين (٨٠) وَالّذِي يُمِيتُنِي ثُمّ يُحْيِين (٨١) وَالّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدّين(٨٢))

(سورة الشعراء)

قال:

(وَإِذَا مَرِضْتُ)

ولم يقل وإذا أمرضني ؛ لأن أصل المرض خروج عن منهج الله، والآية الكريمة:

(مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنّاسِ رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً (٧٩))

(سورة النساء)

فالحسنة من الله فِعلاً، ومن الله تفضلاً. والسيئة من الله فِعلاً، ومن العبد سبباً. لذلك عُزيت السيئات للإنسان.

النقطة الدقيقة أن كل عمَلٍ منسوب إلى الله، حتى فاعلية الأشياء منسوبة إلى الله، فالله تعالى لو لم يشأ للسِّكين أن تقطع لما قطعت، لذلك سكين سيدنا إبراهيم لم تذبح ابنه إسماعيل. والنار التي وُضع بها لم تحرقه. ويجب أن نعتقد أن فاعلية الأشياء بيد الله لذلك علماء التوحيد لخّصوا هذه الحقيقة بكلمة: **" عندها لا بها "**، أيْ الأشياء تفعل فعلتها بمشيئة الله لا بقوة فيها، حتى الدواء لا يفعل فِعله حتى يشاء الله، لكُلّ داءٍ دواء فإذا أصاب دواء الداء، بَرِءَ بإذن الله، حتى الدواء لا يفعل فِعله إلا بمشيئة الله.

قال بعضهم: الضار ؛ الذي يضر من يشاء من خلقه، حيث هو خالق الأشياء خيرها وشرها، نافعها وضارها، والنافع ؛ هو الذي يوصل النفع إلى من يشاء من خلقه، حيث هو خالق النفع والضر، والخير والشر.

يقول الإمام الرازي: **إن الضار النافع وصفان: إما أن يُعتبرا في أحوال الدنيا، أو في أحوال الدين.** أما الأول فهو أن الله تعالى مُغنٍ هذا، ومُفقر ذاك ومعطٍ الصحة لهذا والمرض لذاك. وأما في أحوال الدين فهو يهدي هذا إذا شاء الهداية، ويُضِل ذاك إذا أصر على الضلال، تطلب الهدى فَيَهديك، وتطلب الضلال فيُضلك.

يقول الإمام القشيري: **" إن الضار والنافع ؛ اسمان من أسماء الله تعالى، وفي معناهما إشارة إلى التوحيد"** ؛ وهو أنه لا يصيب عبداً ضرٌ ولا نفع ولا خيرٌ ولا شرٌ إلا بمشيئة الله. وقضائه وقدرته ؛ فَمن استسلم لِحِكمة الله، عاش في راحة، ومن أبى وقع في كل آفة،

ورد في الحديث القدسي:

((أنا الله لا إله إلا أنا، من لم يستسلم لِقضائي، ولم يصبرعلى بلائي، ولم يشكر على نَعمائي، فلْيَطلب رباً سواي))

نختم الدرس ببعض الآيات المتعلقة بهذا الاسم، يقول الله عز وجل:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨))

(سورة الأعراف)

ويقول سيدنا رسول الله:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرّاً وَلَا نَفْعاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٤٩))

(سورة يونس)

وفي سورة النحل:

(وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣))

(سورة النحل)

وقال تعالى:

(وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ(٣٣))

(سورة الروم)

هذه الآيات تؤكد ؛ أن النافع هو الله، والضار هو الله، وأنّ الله يضر لِينفع، وأن الله سبحانه وتعالى غني عن تعذيب العِباد، إلا أنه يسوق لهم من الشدائد ما يحملهم على التوبة.

آخر فقرة بالدرس: حظ العبد من هذا الاسم، الله اسمه النافع الضار، فما حظ المؤمن من هذا الاسم ؟ المؤمن يجب أن يكون نافعاً لعِباد الله، وينبغي أن لا يقترب من المنحرفين لئلا يصيبه منهم الضُر، قال تعالى:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة: الآية ٥٤)

الأثر الثاني: والمؤمن حيال هذا الاسم الكريم ؛ ينبغي أن لا يرجوَ أحداً، وأن لا يخشى أحداً، وأن يكون اعتماده على الله كلياً. ومَنْ عَرَفَ أنّ الله مولاه، قد تفرّد بالإيجاد، وتوحّد في الإنعام، فوّض أموره إليه، فعاش في راحة، والخلق في راحة، وبذل النصح لكل أحدٍ، ولم يجد في قلبه غِشاً، ولا خِيانة لِغيره.

ومن الخير للذاكر ؛ أن يجمع بين اسمي الضار والنافع ؛ فإليهما تنتهي كل الصفات، فهو سبحانه وتعالى المالك للضر والنفع، ولا ضار ولا نافع سِواه قال تعالى:

(لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً)

(سورة الرعد: الآية ١٦)

وآخر حظٍ من هذا الاسم ؛ أن تُفَوّض أمرك كلّه لله، والاستسلام لله عز وجل، من المشاعر المُسعِدة التي هي ثمرة الإيمان بالله عز وجل.

٤٢- اسم الله الرقيب :

مع الدرس الثاني والأربعين من دروس أسماء الله الحُسنى و الاسم اليوم هو(الرقيب)، فالرقيب اسمٌ من أسماء الله الحُسنى إنّ المؤمن إذا آمن بهذا الاسم، انعكس هذا الإيمان على سلوكه انعكاساً واضحاً صارخاً ؛ فأنت إذا شعَرت أنك مُراقب فلابُد من أن تنضبط، فشعور الإنسان بأنه مُراقب، ولو من جهة أرضية، ولو من إنسان من بني جلدته لكنه أقوى منه إذا كنتَ مراقباً، فلا بد من أن تنضبط؛ فكيف إذا أيقنت أن الله -جل جلاله -هو الرقيب ! قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

(سورة النساء)

أيها الإخوة: أحياناً تكون العَقَبة عقبة معرفة، لأن فطرة الإنسان تُعينه إذا عرف، فَحُب السلامة، وحُب الفوز والكسبِ في الإنسان، كافِيان يَحمله على طاعة الله فيما لو أيقن أن الله رقيبٌ عليه، فالمراقبة حال ذكره العلماء كثيراً ؛ هذا الحال يُشعِرك أن الله معك دائماً. قال عليه الصلاة والسلام:

((أفضل إيمان المرء أن يعلم أن الله معه حيث كان))

قبل أن نتابع الحديث عن اسم الرقيب أريد أن أضع بين أيديكم مثلاً يوضح حقيقة هذه الأسماء ؛ أنت لو اِلتقيت عند صديق لك مع رجلٍ لا تعرفه تقول له: مَن الأخ الكريم ؟ يقول لك: فلان بن فلان، برَبِّك أن يذكر لك صديقك اسم هذا الرجل هل يكفي لكي تعرفه ؟ تشعر أنك سألت عنه كي تعرف كل شيء، قال لك اسمه. تقول له ماذا اسمك ؟ إلى أيّ مستوى دراسي وصلت ؟ وتحب أن تعرف شيئاً عن ثقافته، أو عن اختصاصه، أو عن سِنِّه، أو عملِه، هل هو متزوج ؟ وكم ولد له ؟ و أين يسكن ؟ هنا يمكنك أن تعرفه ؟ لكن إذا قلت لك: إن الله - جل جلاله - خالق السماوات والأرض، فهذا لا يكفي ؛ فأنت تحب أن تعرف أسماءه وصفاته، فما من موضوع يعلو على موضوع أسماء الله الحسنى، إذْ رأس الدين معرفة الله -عز وجل - ولكن كيف تعرفه ؟ هل تردد اسمه ؟ لا، أن تتعرف على أسمائه وصفاته الحسنى، فَلِذلك مشروعية هذا الدرس أنه لا يكفي أن تعرف أن الله خلق السماوات والأرض، إن هذه الحقيقة يعرفها كل الناس حتى الكفار، بل عُبّاد الأصنام بل حتى المجوس قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١))

(سورة العنكبوت)

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٦٣))

(سورة العنكبوت)

فالمشكلة ليست أن تتعرف أن الله خلق السماوات والأرض، وإنما المشكلة أن تتعرف إلى أسماء الله الحُسنى ؛ فهذه هي مشروعية هذا الدرس الذي يُعد في الدعوة إلى الله كالرأس من الجسد.

أولاً: الرقيب في اللغة بمعنى المُنتظر، قال تعالى:

(وَارْتَقِبُوا إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ (٩٣))

(سورة هود)

" **فارتقبوا** " أي انتظروا فالرقيب هو المُنتظر. ورقيب القوم هو الحارس الذي يُشرف على مراقبة العدو. ورقيب الجيش طليعته. والرقيب هو الله الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

(سورة النساء)

إذا أيْقنت أن الله يعلم، حُلّت كل مشكلتك ؛ ألم يقل الله –عز وجل-:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

(سورة الطلاق)

فالله اِختار من بين أسمائه اسمين فقال:

(لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْمًا)

فإذا علمت أن الله يعلم، فَبِدافع فِطرتك، وبدافع حُبك لذاتك، وبدافع رغبتك في السلامة والكسب والتفوّق، تستقيم على أمره.

زرتُ مرةً مَحَلاً تجارياً كي أشتري بعض الحاجات فلم أجد رغبتي فقال لي صاحب المحل: حاجتك موجودة ولكن بالمستودع فذهبت معه إلى المستودع وكان في الطابق الرابع فوجدت محاسِباً يجلس إلى طاولة وأمامه كاميرا تذكرت ما رأيته في محل ذاك الشخص فإنني رأيت شخصاً يكتب، عندها عرفت أن هذا الشخص موظف عند صاحب هذا المحل وقد وضع صاحب المحل جهاز مراقبة عليه، فهذا العامل لا يستطيع أن يتحرك ولا أن يأكل ولا أن يتمطى لأنه مراقب من طرف هذا الشخص، يقولون الطريق مراقب، كنت في بعض البلاد المخالفة فيها بخمس مئة درهم بمعدل سبعة آلاف ليرة سورية، فالاهتمام بالغ جداً بالسرعة لأن قيمة المخالفة سبعة آلاف ليرة تقريباً، لو جاوز العدّاد التسعين لصارت المخالفة بسبعة آلاف، فالمراقبة هي التي تجعل الحذر.

في الإدارات الحديثة صار البناءُ كله وحدة صوتية ومرئية فبِإمكان المدير أن يرى كل الموظفين، دخلت بعض المعامل السورية فوجدت كل الغرف بينها بِلّوْر فقط فالمدير العام يرى كل الموظفين ؛ ولكن المراقبة من الإنسان شيء والمراقبة من الواحد الديان شيء آخر. لذلك بعض علماء القلوب أشاروا إلى حال المراقبة، المؤمن الراقي يشعر دائماً أن الله يُراقبه،

وأنه تحت المراقبة قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ (١٤))

(سورة الفجر)

فالرقيب هو المُنتظر ؛ والرقيب هو الحارس ؛ ورقيب الجيش هو طليعته ؛ والرقيب هو الله تعالى الحافظ الذي لا يغيب عنه شيء. وفي الحديث الشريف::

((أُرقبوا محمداً في آل بيته))

أيْ راقبوا وانتبهوا أن تُؤذوه في آل بيته واحفظوه فيهم ؛ والرقيب هو الخَلَف يُقال: نِعم الرقيب أنت لأبيك، هذه كلها معاني الرقيب ؛ والترقب أي الانتظار، وارتَقَبه رَصَده، والرقوب الدوام على وجه الحفظ يُقال: أرقبت الشيء، أرقبه إذا راعيته وحفِظته، والرقيب من الناس الموكل بحِفظ المُتَرَقَب له، ويقال للملك الذي يكتب الأعمال ويحفظ الأقوال هو رقيب، وفي القرآن الكريم:

(مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨))

(سورة ق)

والرقيب العليم، وراقبْتَ الله إذا علِمت أنه مُطلّع عليك فَراعيْتَ حقه، هذا كل ما ورد في اللغة عن معنى الرقيب: فهو الذي ينتظر، والحارس، وطليعة القوم، الخَلَف، والمنتظر، والرّاصْد، والراعي، والحافظ ؛ الله جل جلاله هو الرقيب ؛ والمَلَك المُوكَل بكتابة الأعمال، وحِفظ الأقوال هو الرقيب.

إذا قلنا: الله هو الرقيب ؛ فماذا تعني الله هو الرقيب ؟ بمعنى الذي يعلم أحوال العِباد ويعُدّ أنفاسهم. والله الذي لا إله إلا هو وأنت مستلقٍ على فِراشك لو خَطر عليك خاطر أنّ غداً سَأفعل كذا، يجب أن تؤمن وأن تعلم وأن تعتقد اِعتقاداً جازماً قطعيّاً، أن هذا الخاطر اِطّلع الله عليه ولا يستطيع من العباد أن يفعل ذلك، إذْ لو أنك رأيت شخصاً مستلقِياً على فراشه لا يمكنك أن تقرأ أفكاره فهذا مستحيل. الله ستر لك أفكارك وأحوالك عن الناس. الناس لهم الظاهر لكن الله هو الخبير بالسرائر قال تعالى:

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦))

(سورة ق)

مرةً ثانية أقول: إن هذا الاسم من أقرب الأسماء إليك ؛ إنك إن اعتقدت أنّ الله هو الرقيب فمن اللوازم القطعية للإيمان بهذا الاسم الاستقامة على أمره ؛ ومتى اِستقمت على أمره ؛ انتهى كل شيء لقوله تعالى:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

فَيُمكن لهذا الاسم أن يكون سبب سعادتك الأبدية، آمنت أنه يراقبك، فاِستحييت منه، ولزمت أمره ؛ فَسَعِدت في الدنيا والآخرة. فقد يكون اسم الرقيب وحده سبب سعادة الدارين.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

فالمؤمن في بيته مُراقبْ، وفي عمله مُراقبْ، وهو يعالج المريض مُراقبْ، وهو يَرفع مذكرة للقاضي مُراقبْ ؛ وكلما اقترب من الله ؛ شَعَر بالعِتاب أحياناً ؛ فمثلاً أنت محامٍ أتقنت عملك ودافعْت عن هذا المُوكِّل دِفاعاً قوياً، وراجَعت القوانين كلها ؛ عالجتَ هذا المريض معالجة مُتقنة أم أنك مستعجل، ومشغول ولم تُدقق في حساسيته والأدوية التي أخذها.

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

تكلمت هذا الكلام فَهَل عرفت أبعاده ؟ فالإنسان كلما اِرتقى يَنشأ مع نفسه حساب دقيق. واللهِ الذي لا إله إلا هو لو أن الإنسان عرف الله حق المعرفة، لَحاسَب نفسه حساباً عسيراً لأنه تعالى مُطّلِع عليك. يعني أقول لكم هذا ولو كان جزئياً ؛ إذا كان طبق فاكهة موضوعاً أمام جماعة من الناس أليس من تمام المراقبة أن تؤاثر أخاك وتجعل الحبّة الكبيرة له لأنك تحت مراقبته في تفكيرك وحركتك، لكنّ الله تعالى لطيف، أحياناً تمشي مع شخصٍ فَتَتَضايَق نفسك منه لكن الله معك دائماً دون أن يُزعِجك، وهو معك بِلُطْفه فَمِن أسمائه اللطيف، فهو معك في بيتك، وعملك، وسفرك، وحضرك، وفي خلوتك، وجلوتك، ومع زوجتك، وأولادك، وعند كل كلام تقوله معك يراقبك لكنه لطيف.

الرقيب في حق الله ؛ هو الذي يعلم أحوالهم ويعد أنفاسهم ؛ وقيل: الحفيظ الذي لا يغفُل والحاضر الذي لا يغيب ؛ قد تملك معرفة بعض الأشخاص الأقوياء فَتَكون لديك أرقام هواتفهم وربما تقع في وقت حرج فإذا اِتصلت بأحدهم يقال لك: سافر، وذاك هاتفه مقطوع لأسباب مالية، وأنت في أشد الحاجة إليه لكنك لو إعتمدت على الله فهو دائماً معك في السرّاء والضرّاء، قل: يا رب يقلْ لك: لبّيْك يا عبدي لن تحتاج بهذا وصْلاً أو قَسَماً أو مذكرة ولا شهادة، قال تعالى:

(وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنّهُ يَعْلَمُ السّرّ وَأَخْفَى (٧))

(سورة طه)

اعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك ؛ هذا مقام الإحسان فاسم الرقيب يرفعك إلى مقام الإحسان، اِعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك والإنسان يستحي ؛ في كل أسرة من أُسَرنا هناك كبير القوم متقدم في السن ومثقف أحياناً، ذو وجاهة ومعتدل وحليم، لو أن هذا الإنسان زارك في العيد، كيف تستقبله أبالقميص الداخلي ؟ والله هناك أشخاص لا يستقبلون الضيوف إلا باللِباس الرسمي، يخجل حتى بِثياب البيت أن يستقبله، كيف تحدثه وكيف تجلس معه ؟ من عِلية القوم، تجد أنك تراقب نفسك بالكلام ؛ وتنتقي أفضل الثياب، وتجلس جلسة مؤدّبة فيها توقير، إذا كان كل هذا مع الإنسان فَكيف مع الواحد الديان ؟ فكلما اِرتقى مقام الإنسان دخل في حال المراقبة مع الله عز وجل ؛ فهو الحفيظ الذي لا يغفل والحاضر الذي لا يغيب، العليم الذي لا يعْزَبُ عنه شيء من أحوال خلقه،

قال تعالى:

(يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ (١٨))

(سورة الحاقة)

الإنسان مكشوف ؛ إذْ لا يوجد شيء يمكنك أن تخفِيَه على الله -عز وجل -، أما عن البشر فأنت تخفي عنهم ألف شيءٍ وشيء، تخفي عنهم ألف شعور، وألف فكرة، وألف قضية، وألف سر، تبقى صامتاً ولا يعلم أحدٌ شيئاً عنك أحياناً، لكن تكلُّمك وصمتك عند الله سواء، وبَوْحك وكِتمانك عند الله سواء، إعلانك وإخفاؤك عند الله سواء لأنه رقيب.

وقيل: الرقيب ؛ هو الذي يرى أحوال العباد ويعلم أقوالهم ؛ وقيل: الذي يراقب عباده، ويُحصي أعمالهم، ويحيط بمَكنونات سرائرهم، ولا يغيب عنه شيء. هذا من معاني اسم الرقيب، والإنسان إذا تحقق من اسم الرقيب، كان في حالٍ آخر، يستحي من الله- عز وجل-،(النبي عليه الصلاة والسلام اشتغل عنده عامل فاغتسل عنده عُرياناً، خذ أجَارتك لا حاجة لنا بك فإني أراك لا تستحيي من الله)فالإنسان يحفظ عَورته من أن يراها أحد وقد قرأت في بعض الكتب (حتى ولو كان وحده) فكلما ارتفع الإنسان شعر أن الله معه وشعر بمراقبة الله له.

اسم الرقيب جاء في القرآن الكريم في ثلاثة مواطن: ففي فاتحة سورة النساء قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً (١))

(سورة النساء)

واللهِ الذي لا إله إلا هو لو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الآية، لكَفَتْ. هذا الأعرابي الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: **عظني ولا تُطِل** فَتَلا عليه النبي هذه الآية:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨))

(سورة الزلزلة)

هذا الأعرابي قال: **كُفيتُ يا رسول الله** ؛ أيْ هذه الآية تكفيني مدى الحياة ؛ فالنبي تعجّب وقال: **فقُه الرجل** أيْ: أصبح فقيهاً وما قال عليه الصلاة والسلام: فقِه لأن فقِه بمعنى عَرَف الحِكم أما فقُه بمعنى أصبح فقيهاً، فأي شيء جعل هذا الأعرابي فقيهاً، والله الذي لا إله إلا هو، أكاد أقول: إن هذه الآية وحدها تجعل الإنسان فقيهاً:

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

هل تستطيع أن تكذب مع هذه الآية ؟ وهل تستطيع أن تُدلِّس ؟ وأن تغُشّ ؟ وأن تحتال ؟ وأن توهِم ؟ وهل تستطيع إيذاء الخلق؟

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

إذا كنت مراقباً من قِبَل مخلوق تجد أنك تتجنب كل ما يؤدي للهلاك فكَيف إذا كنت مراقباً من قِبَل الخالق ؟.

مقام المراقبة قد يصل بك إلى سعادة الدارين الدنيا والآخرة. الآية الثانية في سورة المائدة جاءت على لِسان سيدنا عيسى -عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام- قال تعالى:

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧))

(سورة المائدة)

فهذه الآية الثانية ؛ والآية الثالثة: في سورة الأحزاب قال تعالى:

(لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً(٥٢))

(سورة الأحزاب)

تُروى قصة مشهورة ذكرها الإمام الرازي: أن أحد الشيوخ كان له جمْع من التلاميذ، وكان قد خصّ واحداً منهم بالعناية الزائدة فسَأله بقيةُ التلاميذ عن سبب ذلك من شدة غيرتهم من هذا التلميذ الصغير وقالوا له: **لماذا تخصه بهذه العناية** ؟ فقال: **سَأبيّن لكم ذلك** ؟ أعطى لِكل واحدٍ منهم طائراً وقال له: **اذبح هذا الطائر حيث لا يراك أحد** ؛ فمَضى كل واحدٍ منهم إلى جهةٍ ثم رجع إلى شيخه وقد ذبح الطائر ما عدا ذلك التلميذ الصغير فقد رجع إلى شيخه والطائر في يده، وقال: **أنت يا سيدي أمرتني أن أذبح الطائر حيث لا يراني أحد ولم أجِد موضِعاً لم يرني الله فيه** فالتفت الشيخ لِبقية التلاميذ وقال: **مِن أجل هذا خصصته بمزيدٍ من العناية**

أما تستحي منا ويكفيك ما جرى ؟ أما تختشي من عُتْبنا يوم جمْعِنا

أما آن أن تقلِع عن الذنب راجِعاً وتنظر ما به جاء وَعْدنا

فيا خجلي منه إذا هو قال لي: أيا عبدنا ما قرأت كِتابنا ؟

***

فالمؤمن الصادق ؛ يرى أن الله معه، ويُراقبه، ويُحاسِبه فيَسْتحي منه، المحبون لله -عز وجل -لهم أحوال مع الله لا تُوصف، مناجاتهم له وتأدُّبهم معه فهناك من يتزيّن قبل أن يُصلي لأنه سَيَقِف -بين يدي -الله عز وجل -، أرى في بعض الأحيان أشخاصاً يصلون بالقميص الداخلي فهؤلاء لا يستحيون من الله حق الحياء ؛ يستحي أن يقابل إنساناً بقميص داخلي فكَيف يقابل الله -عز وجل -؟ فالأكمل أن ترتدي عباءة أو ثوباً فأنت بين يدي الله -عز وجل - فالعلماء قبل الآن كانوا يتزينون ويُرجّلون شعورهم قبل أن يصلوا لأنهم سَيَقِفون بين يدي الله -عز وجل -.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

ولدينا دليل قوي ؛ قال تعالى:

(يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ (٣١))

(سورة الأعراف)

أنا لا أقول هذا انتقاداً لأحد، لكنك تجده يأتي إلى المسجد بأقلّ ثياب عنده في حين أقل حفلة تجده يرتدي أجمل الثياب، المسجد بيت الله ويوم الجمعة عيد وأنت ضيفه، ومن السنة الاهتمام بهذا اليوم بهذا العيد.

يُروى أن عبد الله بن عمر مرّ بغلام يرعى غنماً فأشار لإحدى الشياه وقال: **بعني هذه الشاة يا غلام،** فأجاب الغلام: **إنها ليست لي.** فقال ابن عمر: **قل لصاحب الغنم إن الذئب أكل واحدةً منها،** فقال الغلام: **فأين الله ؟** أقول تعليقاً على هذه القصة: إن هذا الغلام الراعي وضع يده على جوْهر الدين، ومسك جوهر الدين ولو أن ثقافته محدودة فهذا راعٍ وقد تجد إنساناً عنده مكتبة من أربعة جدران بحيث أنك تُذْهل وتقول: هذا عالم كبير فوا لله لو أكل دِرهماً حراماً فلا قيمة لكل هذا العلم ؛ وهذا البدوي الراعي الذي قال: أين الله ؟ نحن بحاجة في هذه الأيام إلى أشخاص كهذا الراعي، بحاجة إلى وَرَع، وإلى مسلم يقيم الإسلام حقيقةً ؛ إلى بيت مسلم، و زوج مسلم، و زوجة مسلمة، وأولاد مسلمين، وإلى صدق، وأمانة، وإخلاص بدون غش، ولا كذب، ولا تدليس، هذا النموذج وهو ساكت يُعدُّ أكبر داعية والذي يصيح في الناس صباحاً ومساءً يا أيها الناس اتقوا ربكم ؛ وهولا يتقي ربه ؛ هذا أكبر منفِّر ؛ فالإنسان المستقيم والملتزم والتقي ولو كان ساكتاً فهو أكبر داعية ؛ والفصيح المتكلم، والمتحدث اللّبق؛ والخطيب المُسقع ؛ إن لم يكن ورعاً، فهو أكبر منفِّر ؛ فالقضية عند الله في الصدق، والإخلاص، والتطبيق.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

هل يمكن لمؤمن يعمل خبازاً أن يدخل لِدورة المياه ولا يُغسِّل يديه ؟ المؤمن لا يفعل هذا لأن العجين سيُصبح خطراً للناس، الأمر الذي جعل المؤمن يتصرف هكذا هو الوازع الداخلي إن الله كان عليكم رقيب.

أذكر أنني ألقيت في هذا المسجد درساً حول الأمانة وقلت: ليس الأمين الذي يؤدي ما عليه إذا كان هناك إيصال، أو سند، أو شهود، أو حساب ثابت، فهذا سلوك مدني لأنه إذا لم يؤدِّ فالطرف الآخر أقوى منه لوجود السند، ودعوى، وقضاء، وتشهير، أما الأمين عند الله ؛ فهو الذي يؤدي ما عليه من دون أن يكون مُداناً في الأرض ؛ والله جاءتني ورقة وأنا في هذا المسجد قال لي صاحبها: والله يا أستاذ أديت عشرين مليون ليرة لِورثةٍ وهم لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً، لأن الله رقيبٌ عليه ؛ هذا هو المؤمن ؛ مبلغ ضخم، وهناك آباء كثيرون أموالهم في سرٍّ لا يُعلِمون بها أولادهم ولا أزواجهم ؛ فإذا مات فجأةً

مات معه السِّر ؛ هناك أُناس كثيرون يُعانون من هذا يقولون: مات أبونا ولا نعلم عن أموال أبينا شيئاً ؛ فالذي معهم أموال هؤلاء إذا كانوا من الذين فقهوا قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

سيأتون لهم بالمال ويقولون هذا مال أبيكم.

قال لي: والله يا أستاذ أدّيت عشرين مليون ليرة لِورثةٍ وهم لا يعلمون عن هذا المبلغ شيئاً ؛ هذا هو الإيمان، الإيمان يصنع المعجزات، لو أننا شعرنا أن الله رقيبٌ علينا لاستقامت حالُنا جميعاً ؛ هل يستطيع سمان مؤمن إذا وقعت فأرة في صفيحة زيت أن يبيع الصفيحة ؟ لا يستطيع ! هل تستطيع أن تُخفيَ عَيْب بضاعتك ؟

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

هل يمكن أنْ تضع مادةً مُسرطنة لِغذاء حتى ترفع ثمنها ؟ لا تستطيع، وهل تستطيع أن تضع هرمونات لِنَبْتة كي تكبر حتى تكون كبيرة الحجم ويكون سعرها غالياً ؟ هذه مادة مسرطنة لا يمكن اِستعمالها إلا تهريباً ؛ لو آمنا بهذا الاسم لأُلغِيَ الغش من حياتنا جميعاً ؛ وهل يستطيع المحامي أن يقدِّم مذكرة للقاضي وهو يعلم أن مُوَكِّله كاذب ؟ لا يستطيع.

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

وهل يستطيع أن يرى الطبيب من المرأة موضعاً غير الموضع الذي تتألم منه المريضة ؟ إن الله كان عليكم رقيب، لقد رأيت أطباء ملتزمين يقومون بوضع رداء فيه فتحة صغيرة على المريض كي يُشَخِّصوا موضع الألم فقط، هل تستطيع وأنت كمؤمن إذا كنت في بيتك وحيداً، وخرجت جارتك تنشر غسيلها بالشرفة المقابلة لك، وهي بثياب متبذلة، وهي في النور وأنت في الظل ولا يراك أحد ؛ هل تستطيع أن تنظر وأنت تتذكر قوله تعالى إن الله كان عليكم رقيباً.

أخ معنا يعمل في دائرة ؛ واسمحوا لي أن أذكر قِصّته كان له فُسْحة مدتها ساعة أو أقل، في آخر الشهر قدّم إجازة بمدة ستة أيام لِرئيسه فقال: لقد استهلكت هذه الإجازة فقال: كيف ؟ قال: لأنني كنت أحضر كل يوم متأخراً تقريباً ساعة من الزمن فَجَمعت هذه الساعات فإذا هي بِمُعدّل ستة أيام ؛ فاِندهش هذا الشخص من هذا النموذج وقال لي أخونا والله يا شيخ لما قدِمت في الدرس القادم وجدته معي في درسك، هذه هي التربية الراقية ؛ تقديم طلب إجازة جعل المدير العام يحضر مجلس علم، هكذا الدين كلما كنت ورعاً كلما اِزددت مراقبة لله، وأقول لكم مرة ثانية: يمكنك أن تكون أكبر داعية في الأرض وأنت ساكت ؛ وذلك بِأمانتك ؛ واِستقامتك وإتقان عملك.

هناك أطباء من إخواننا أجْروا عمليات معقدة جداً، وله قِسم بِثمن مجاني، وقِسم بِثمن باهظ، أسمع عنهم أن عِنايتهم بالفقراء لا تقِل شعرة عن عنايتهم بالذي سَيَدفع مئتي ألف على العملية، عنده الأمور مجانية

وذلك لِفقر بعضهم ويَجري عملية السبْع أوثماني ساعات وهو واقف ويفتح القلب وغيرها من العمليات من دون مقابل وتلك بمئتي ألف والعِناية واحدة ولإتقان واحد.

(إنّ اللّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)

وهل يمكن لِمدرس أن يترك التلاميذ من أجل قِلّة الأجرة ؟ لا يمكن لذلك هذا الاسم يمكن أن يُطبّق في مليار حالة، إذا آمنتم أن الله رقيب فسَيَنعدم الغش والكذب ولا نظرة حرام، ولا ابتسامة،ولا إساءة...
العلماء يرون أن المرقبة حال يصير العبد فيه يذكر الله بقلبه ؛ لأن الله مُطلّعٌ عليه دائماً ؛ وشعور العبد أن الله مُطلّعٌ عليه دائماً ؛ هذا الحال اسمه حال المراقبة.

سئل بعض القوم بمَ يستعين الرجل على غض بصره عن المحظورات ؟ فأنت إذا مشيت بالطريق بعض النساء يُبرزن أحسن ما في أجسامهن وتراهنّ عاريات من الطراز الأول، فكيف تغض بصرك ؟ قال: لِعلْمه أن رؤية الحق تعالى سابقة على نظره ؛ علمك أن الله يراقبك هذا أسبق من نظرك إلى الحرام ؛ فبهذا تغض بصرك وتستحي من الله، وكثير من الإخوان لا يجتمعون مع امرأة في مصعد واحد، وينتظر للمرة الثانية أو يصعد الدرج ماشياً لأن المؤمن عفيف إن الله كان عليكم رقيباً.
الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك. والله سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنّ اللّهَ يَرَى (١٤))

(سورة العلق)

ذكر الإمام الرازي أن حظ المؤمن من اسم الرقيب، المقولة القائلة **" تخلقوا بأخلاق الله "**، فكَيف نتخلق بهذا الاسم ؟ يقول: مراقبة العبد لنفسه أساسها أن يعلم أن الله مطلع على نواياه ودخائل قلبه، وأن يستحضر من مراقبة الله له أن الله تعالى معه دائماً، ويرْقبه في كل أحواله وحركاته وسكناته وقال: هذه المراقبة مفتاح كل خير، لأن العبد إذا أيقن أن الحق مراقِب لأفعاله، مبصر لأحواله، وسامع لأقواله، مطلع على ضمائره وخفاياه، خاف عقابه في كل حال، وهابه في كل مجال،عِلماً منه بأن الرقيب قريب، وهو الشاهد الذي لا يغيب، ولذلك قال الشيخ: إن الرقيب الذي هو من الأسرار قريب، وعند الاضطرار مجيب.

وقال بعضهم: الرقيب: هو المُطلّع على الضمائر، والشاهد على السرائر، والرقيب يعلم ويرى، ولا يخفى عليه السر والنجوى.

وقال بعضهم: الرقيب: الحاضر الذي لا يغيب، بل رقابتُه قديمة مستمرة. ولهذا قيل: الرقيب الذي يسبق علمه جميع المحدثات وتتقدم رؤيته جميع المكونات.

الإمام الغزالي في إحيائه حينما عقد بحثاً حول مقام المراقبة قال: **" إن أدب المؤمن مع الله الرقيب ؛ أن يعلم أن الله رقيبه وشاهده في كل شيء، ويعلم أنّ نفسه عدوة له، وكذلك الشيطان اللعين، وهما**

ينتهزان منه كل فُرصة حتى يحملاه على الغفلة والمخالفة ؛ لذلك يجب أن يأخذ حذره منهما، ويسد عليهما المنافذ والمداخل، حتى لا يقع في فخّ واحدٍ منهما "، هذا هو رأي الإمام الغزالي في أدب المؤمن مع الله في اسم الرقيب.

ومن أدب المؤمن في هذا المجال أن يراقب نفسه وحِسه وأن يترقب أنفاسه ويجعل عمله خالصاً لِربه بِنِيّة طاهرة في أعماله ويراقب ربه في أخيه فلا يُظهر عَيْبه.

ويقول ابن عطاء الله السكندري عن اسم الرقيب: **أفضل الطاعات مراقبة الله على الدوام وفي كل الأوقات.**

وقال أبو حفص: **إذا جلستَ للناس فكُن واعظاً لِنفسك وقلبك ولا يغرنّك اجتماعهم عليك** ؛ فإنهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك.

قال عبد الله بن المبارك لِرَجل: **راقب الله -تعالى -فقال: كيف ذلك ؟ قال: كن أبداً كأنك ترى الله -تعالى -** فالدعاء النبوي الشريف يقول:

((اللهم اجعلنا نخشاك حتى كأننا نراك))

وبعضهم كان يدعو بهذا الدعاء: إلهي أنت الرقيب لِحركات الأكوان، العليم بخطوات قلوب الإنس والجان، أشرقْ على قلبي بنور اسمك الرقيب، حتى تتزكى نفسي فَتَتَحلى بالتقريب، وامنحني عيوناً تراقب نِعَمك الظاهرة، وتلاحظ أسرارك الباهرة.

فَحَال المراقبة حال إذا وصلت إليه، أوْصلك إلى الجنة، وسعِدت في الدنيا والآخرة لأن من لوازم هذا الحال الاستقامة على أمره والاستقامة على أمر الله سبب الجنة.

٤٣- اسم الله الخافض الرافع:

مع الدرس الثالث والأربعين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم، من أسماء الله الحُسنى الخافض الرافع.

الخفض في اللغة ضد الرفع، والخفض الانكسار واللِّين قال تعالى:

(وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً (٢٤))

(سورة الإسراء)

والانخفاض: الانحطاط، وتوصف به الواقعة قال تعالى:

(إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ (٣))

(سورة الواقعة)

الناس يتمايزون بمقاييس أرضية، مقاييس المال، القوة، والذكاء، وتحصيل العلم، والوجاهة، وغيرها من الأمور، فإذا وقعت الواقعة، تبدّلت هذه المقاييس، وتحكّمت في الخلق مقاييس رب العالمين، يُقاس الإنسان بعد الموت بقدر اِستقامته وطاعته لله -عز وجل -، وإحسانه للخلق. فلذلك تنقلب المقاييس فجأةً، فالذي كان في القمم ربما صار في الحضيض، والذي كان في الحضيض ربما صار في القمم.

الخفض من صفات الواقعة، والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة. أي أن الواقعة تخفض أقواماً بمعاصيهم فَيَصيرون إلى النار، وترفع أقواماً بطاعاتهم فيدخلون الجنة.

أيها الإخوة:

مادة الخفض وردت في القرآن في سورة الحجر، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨))

(سورة الحجر)

ووردت في سورة الشعراء قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥))

(سورة الشعراء)

هذا الفرق بين الآيتين هل يفيد معنى ثالثاً ؟ واخفض جناحك لِمن اتبعك من المؤمنين وقوله: واخفض جناحك للمؤمنين ؛ فالإنسان يميل إلى جماعته وإلى أتباعه ؛ فإذا مال إليهم، وتعصّب لهم، وأنكر من سِواهم، واِنحاز اِنحيازاً أعمى إلى من يلوذ به، فهذه نقيصة في الإنسان. فالله سبحانه وتعالى أمر نبيّه أن يخفض جناحه تارةً لِمن اِتبعه، وتارةً لكل المؤمنين. أما نحن فما علاقتنا بهاتين الآيتين ؟ يجب أن تحب إخوانك في المسجد، وإذا كنت مؤمناً حقاً فيجب أن تحب كل مؤمن في الأرض، من أيّة جهة كان، وهذا هو الإيمان وهو الذي يليق بالمؤمن.

إذاً مادة الخفض وردت في قوله تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ)

ووردت في سورة الإسراء:

(وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

ووردت في سورة الشعراء قال تعالى:

(وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنْ اتَّبَعَكَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ)

ابن الأثير يرى: أن الخافض هو الذي يخفض الجبّارين والفراعنة أيْ: يضعهم ويهينهم، ويخفض كل شيء يريد خفضه - الآن دخلنا في موضوع جديد - الإنسان له كيان مادي له جسم، وله كيان معنوي، الكيان المعنوي يرتفع وينخفض. فَمَثلاً إذا نجح الإنسان، ونال شهادةً عُلياً، يرتفع مقامه بين الناس. وإذا رسَب، ينخفض. وإذا نجح في عمله، يرتفع. وإذا أخفق، انخفض. وإذا نجح في زواجه، ارتفع. وإذا أخفق، ينخفض، وإذا ظهر صدقه للناس، يعْتَز بأخلاقه، فإذا ظهر كذبه، ينكمش. وإذا كُشِفت أسراره البيتية ولم تكن على ما يُرام، ينخفِض. فالإنسان بين أن يرتفِع وبين أن ينخفض. لكن صدِّقوا أن الإنسان حينما يرتَفِع بالحق يدخل على قلبه من السرور ما لا يوصف. النجاح مُسعِد في كل شيء. وحينما ينخَفِض ويُكشَف كذبهُ، ويُفْتَضَح في بيته، وتظهر عدم كفاءته، أو حينما يسيء الاختيار، وينال عِقاباً نظير عمله السيء ويصبح قِصة بين الناس، ينكمش وينخفِض. وقد يأتي على هذا الإنسان من الآلام ومالا يوصف لذلك الإنسان أكثر ما يعيش بِسُمْعَتِه. بل إن العرب حينما ذكروا العِرض، عرّفوه بأنه مَوْضِع المدح والذم في الإنسان. قد تكون فقيراً لكنك تقيٌّ مرفوع الرأس. قد يكون مريضاً ولكن نظيف الكَفّين، لا يوجد بحياته اِنحراف، ولا دَجَل ولا تطاول، ولا يخاف لا لأنه من جِنسٍ آخر وإنما هو من البشر لكن لا يخاف لأنه مستقيم، وما فعل شيئاً خِلاف شرع الله، ولا خِلاف القانون، لذلك أحدُ أسباب العِزة الإحسان وقال تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٦))

(سورة يونس)

إذا أنت أتقنت عَمَلك، وأدَّيْت وظيفتك على خير وجهٍ، تشعرُ بعِزة الإنجاز وعزة الإتقان والتفوُّق. أما إذا أدّيت عملك بغير إتقان، وكان عملك سيّئاً وغير مدروس، ويحمل أخطاءً كثيرة، وإكْتُشِفت الأخطاء عاتبك الناس، كَمَثَل الذي وَصَف دواءً لِطِفلٍ صغير أوْدى بحياته، ولما وُوجِه هذا الذي صنع الدواء صار صغيراً ومنكمِشاً، ويتمنى أن تنشقّ الأرض وتَبْتَلِعَه -كما يقول العوام -فالإنسان يَعْتز حينما يُتقِن عمله، ويُؤدي واجباته، وحينما يكون واضحاً، وتكون سريرَته كَعَلانيَتِه، وخلْوتُه كَجَلْوَتِه، وحياته

الخارجية كَحَياته الداخلية، وأسراره كَحَياتِه المُعْلنة، فالوُضوح يرفع الإنسان. وتشعُر هذا من الواقع حيث يجد الإنسان في بعض الأحيان اِنقباضاً من جراء عَمَلٍ أو كلام بذيء فلما اِنكشف الغطاء وجد حاله قد اِنكمش وما من إنسان إلا ويتمنى أن يرتَفِع. لا أقول الكِبَرْ ؛ وإنما إتقان العمَل يجعلك عزيزاً، فَصِدقك وأمانتك يجعلانك عزيزاً، أحياناً يأتي تَفْتيش مفاجئ على مَحَلِّك ومعملك - المواد الأولية كلها صحيحة وبمواصفات جيدة لا يجدون شيئاً مخالفاً، فيكون الأمر كله على التَّمام، فَتَشعُر بِعِزة ونشْوَة، فكل إنسان يبحث عن شيءٍ اسمه الرِّفْعة.

والله أيها الإخوة، لو أننا أيقنا أن رِفْعتنا بطاعة الله، وباِستقامتنا. واِنضباطنا لاستقامتنا في حياتنا، إنسان يحْتل منصِباً رفيعاً لكنه جَلَب أبقاراً مصابة بمرض عضال وسَبَّب حالات مرضية شديدة: فهذا لما كشف أمره للسجن مُكَبَّل اليدين وأُدخل قصر العَدْل لِينال جزاءه العادل، فهذه المكانة التي كانت لهذا الشخص اِنخفضت، لذلك الذل لا يُحتَمل وكذا الإهانة والانكماش أتساءل أحياناً إن هذا الذي يأكل مالاً حراماً، ويَغُشُّ المسلمين في غِذائهم، وهذا الذي يستَوْرِد لُحوماً للكلاب ويَبيعَها للبشر، وهذا الذي يضع أصبغة البِلاط في سكاكر الأطفال، وفي المواد الغِذائية فَماذا يلاقي هذا الذي يُكْشَف اختِلاسُه ؟ سَيَنْعَدِم ويصير لا شيء.

شعور الإنسان بالاستقامة والرِّفعة والنظافة والخلفِيات الواضحة هذا شعور لا يوصَف ؛ وهو شعورٌ يَرْقى بالإنسان وما منا واحد إلا ويتمنى أن يكون أمام الناس نظيفاً، ورافِع الرأس. فالخافض في أسماء الله كما يقول ابن الأثير: **" هو الذي يضع الجبارين والطغاة ويُهينُهم "** وسُبحان من قهر عِباده بالموت. الله عزّ وجل يخفِض الجبابرة، وكقاعدة عامة أقول: الإنسان إذا كان صُعوده سريعاً وحاداً فسَيَكون انخِفاضه مُريعاً، الإنسان إذا تكبّر بغير الحق وصعد صعوداً حاداً ومُفاجِئاً، فالله جل جلاله يجعله عِبرة لكل من اِعتبر، ويَخْفِضه ويذِله ويهينه ؛ هناك عذاب شديد، وهناك عذاب مُهين. برَبِّكم هل يوجد منّا واحد يتمنى الفضيحة والذُل والإهانة ؟ أقول لكم هذه الحقيقة وأتمنى أن تكون واضحة عندكم، أيّة خِيانة على الإطلاق، منذ خلق الله آدم وإلى يوم القِيامة، لابُدّ من أن تُفْتَضح والدليل:

(ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢))

(سورة يوسف)

والخائن حينما يُفْتَضح، لا يُفْتَضح بذكاء البشَر بل بِتَقْدير خالق البشر. فإذا الإنسان أيْقن بأن الله لن يسمح لإنسان أن يغُشّ الناس إلى أمدٍ طويل، ولا أن يغُشّ مجموع الناس إلى أمَدٍ قصير، عِنْدئذٍ يستقيم على أمر الله ؛ لأن الفضيحة، والانكشاف وسَرْدَ الأخبار غير المُريحة، هذا شيء لا يُطيقه الإنسان ؛ لكن كيف عِلاجُه ؟ لا تفعل شيئاً تستحي منه، ولا تفعل شيئاً تضطر أن تعتذِر منه، قبل أن تفعل شيئاً، فكِّر جيّداً، وتأمّل ملِياً، وعُدّ للآلاف قبل أن تأخذ هذا المبلغ لعلك وقبل أن تدخل إلى هذا البيت، وليس

في البيت إلا امرأة ؛ سل نفسك لعلك تُسأل لماذا دخلت البيت ؟ وأنت تعلم أن الزوج غير موجود في هذا البيت

فالإنسان حينما يتسرّع ويتحرّك بلا نور، وبلا منهج، وبلا أحكام شرعيّة، يقع في شرّ عمَلِه، وينخَفِض والله هو الذي يخفُضه ؛ والله من أسمائه الخافض أحياناً الإنسان يكون بأعلى درجة ؛ ثم ينخفض أحد علماء المسلمين في أمريكا أحد أكبر القساوسة. وهذا الرجل بعد حين، كُشِفت له فضيحة أخلاقية فصار يبكي، فالإنسان حينما تُكتَشف عثراته وسقطاته، ينكمش وكأن الله خفضه. على كل حال هذا من الفطرة. مثلاً لو فُقِد قلَم غالي الثمن بالصَف، فمَنَع المُدرّس خروج الطلاب، وفتّش الطلاب واحداً واحداً ؛ فإذا القلَم عند أحدهم، فقَبل أن يُعاقبه، وقبل أن يضربه، وقبل أن يستَدعي والده، و قبل أن يفصِله ستة أيام، ماذا يشعر هذا الطفل ؟ يشعر بألم وخزي، فشُعور الخِزي والعار لا يُحتَمل عِلاجُه أن تستقيم، وأن تعمل عملاً لا تستحي منه.

مرةً سألوا ألف زوجٍ ؛ لماذا لا تخون زوجتك ؟ فجاءت الإجابات كثيرة جداً ومتنوّعة. صنُّفت هذه الإجابات في زمرٍ أخلاقية، وكان إجابة أخفض صِنْفٍ: لا أستطيع لأنها تعمل معه وإجابة الذي أعلى منه: لا أحتمل الإحساس بالخِيانة، الإحساس بالخِيانة ضاغِط، والأرقى: لا أحب الخِيانة، وواحد يحبها ولكن لا يحتمل وخز الضمير، الأول لا يحب الخِيانة والأخير لا يستطيع أن يخون زوجته فعندما يتحرك الإنسان حركة واضحة ونظيفة، يشعر براحة، وهذه الراحة لا تُقدّر بثَمنٍ. قد تجد شخصاً يلبس أغلى الأثواب، ويركب أجمل المَرْكبات، ويسكن في أفسَح القصور والبيوت، ومع ذلك فهو من داخله مُنهار ؛ لأن نفسه تُحاسِبه حِساباً عسيراً. يعاني الانقِباض، والكآبة، والشعور بالذم ومُركّب النقص وهذا كله من الأعمال الخسيسة والدنيئة التي لا تُرضي الله. ففطرة الإنسان مُولّفَة - بالتعبير الفني - مع الإيمان فإن حادَ عن الإيمان وعن منهج الله عذّبته فطرته، مثلاً: مرْكبة حديثة جداً مُصمّمة للزفت، لو ركِبتها في الوَعْر، وفي طرق جبلية فيها وهداة ومنعرجات وفيها أتربة ورمل، تشعر بتَعَبٍ شديد وبِقَلَقٍ، وتشعر أن هذه المركبة ليست لهذا الطريق. ونفسك البشرية مصممة لمنهج الله، ومصممة لتكون على مستوى الشرع ؛ فإذا حِدت عن الشرع، تعثّرت نفسك وشعرت بالكآبة والضيق وما إلى ذلك.

وقيل: الخافض الذي يخفض بالإذلال من تعاظم وتكبّر، ضربت مثلاً فقلت: كيل اللبن يحتمل خمسة أكيال ماء ويصبح شراباً لذيذاً ويهدئ النفس ويشعر الإنسان براحة بعد شربه، كيلو لبَن يتحمل خمسة أكيال ماء، ولا يتحمل نقطة نفْط واحدة أبداً فهذه القطرة الواحدة تُفسِده أما خمسة كيلو ماء فتُطَيِّبُه، كذلك الإيمان: فذرّة كِبَر واحدة تتناقض مع العبودية، من صفات المؤمنين الأساسية التواضع لله، ترى المؤمن عزيز إلى أقصى درجة ورافع الرأس إلى أقصى درجة ؛ ولكنه أمام الله ذليل ؛ ويُبالِغ في التذلل أمام عَتَبَة ربه، ويُبالغ في رفع رأسه شامِخاً أمام أعداء الله، لذلك وصْف الله المؤمنين في كتابه بقوله:

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

(سورة المائدة)

بِقَدْر ما هو متواضع ومتذلل بينه وبين الله، يكون بينه وبين الخلق عزيز النفس.

الخافض: الذي يخفض بالإذلال من تَعاظَم وتكبّر، وشمخ بأنفِه وتجَبّر، يخفضُ أقواماً ويخفض الباطل:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (٨١))

(سورة الإسراء)

لو أننا تتبعنا تاريخ النظريات الوضعية التي اِبتُدِعت خِلاف منهج الله، فهل نجد نظرية بقِيَت شامخة إلى ما لا نهاية ؟ وهل هناك نظرية إلا ونزلت في الوَحْل وسقطت ؟ ولاكَتْها الألسن؟ وخاضت فيها الأقلام ؟ والأدلة أمامنا كثيرة، والتاريخ الذي بين أيدينا، سبعون عاماً في اِعتزاز بالباطل، واِعتزاز بالإلحاد، ثم أصبح هذا الإلحاد خُرافة، وأصبح المجتمع المُلحِد في مؤخرة الشعوب على الإطلاق:

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقا)

فالله- عز وجل -من أسمائه الخافض، فهو الذي يخفض بالإذلال من تعاظم وتكبّر، وشمخ بأنفِه وتجَبّر، العَرَب في الأندلس أسّسوا أكبر حضارة بالعالم ؛ فلما اِلتفتوا إلى القِيان وشربوا الخمور، واِستمعوا إلى المعازف، ومالوا إلى اللهو والتَّرَف، أُخرجوا من هذه البلاد وكان آخر ملوكهم يبكي، وهو يخرج من قصرِه في قُرطبة قالت له أمه عائشة: ابكِ مثلَ النساء مُلكاً مُضاعاً لم تُحافظ عليه مثل الرجال. فالله يخفض العصاة المتكبرين والمتجبرين .

وقيل الخافض: الواضع لِمن عصاه، والمُذِل لِمن غضِب عليه، ومُسْقِط الدرجات لِمن يستَحِق ذلك. يَخْفِض الكفار بالإشقاء، ويخفض أعداءه بالإبعاد، عدوٌ يخفِضه، ومتجبر يخفض وطاغِيَة يخفض ومستعلٍ يخفض، ويقول: أنا، ونَحن، ولِي، وعِندي، أربع كلمات مهلِكات، قال تعالى عن إبليس:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٥))

(سورة ص)

فأهلكه الله،

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ (٣٣))

(سورة النمل)

قالها قوم بَلْقيس فأذلهم الله عز وجل.

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف)

قالها فِرعون فَغَرِق:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصص: الآية ٧٨)

قالها قارون فَدَمَّره الله عز وجل ؛ فالله خافض يخفض أعداءه، ويخفض المتجبرين ويخفض الطغاة، ويخفض الظالمين، ويخفض الباطل كَفِكْرة وتسقط، وتُصبح في الوَحْل ولا يعتَدُّ بها أحد، ولا يُلقي لها بالاً، بعد أن كانت متألِّقة، يخفض الكفار بالإسقاط وأعداءه بالإبعاد والذل.

وقيل: هو الذي خفض أهل الكفر بعِزّه، وخفض أهل الكِبْر بجلاله، وخفض أهل الزور بإظهار تكذيبهم، والكاذب لابُدَّ من أن يفضحه الله ؛ وحينما يفضحه، ينسى الحليب الذي رضعه من أُمِّه. والكذب شرب و لا سيما الكذب في البيع والشراء، تجد الكاذب يُقسِم بالأيمان المُغلّظة، أن كُلفة هذه البضاعة يفوق هذا السِّعر، ثم تُكشَف الأوراق فإذا رأس ماله قليل جداً، وقد أقسم أيماناً كاذبة ؛ فهذا الإنسان سَقَط، سقط من عَيْن أهل الفضل والكمال.

ويخفض الله عز وجل كل خارجٍ عن شريعته مهما كان غنياً بالمال، أو عزيزاً بين الرّجال. وقد ذكر العلماء أن الله الخافض يخفض من قصُرت مُشاهداته على المحسوسات، يعني ما آمن بالغيب، وإنما آمن بالأشياء المادية، والذي يراه بعينه يؤمن به، أما الآخرة فما رآها ولذلك هو يُنكِرها، وكذلك عِقاب الله ما رآه فأنكره. فقال: يخفض من قصُرت مُشاهداته على المحسوسات، وقصَر هِمّته على ما تفعله البهائم من شراب وأكل ونكاح، وقد خفضه إلى أسفل سافلين، ولا يفعل ذلك إلا الله رب العالمين فهو الخافض والرافع.

أنت كمُؤمن، ما حظك من هذا الاسم ؟ قال: من أراد أن ينال حظاً من اسم الخافض فعَليه أن يخفض نفسه قبل أن يخفِضه الله، اِخفِضها طواعيةً لله وتواضعاً لله،

انظر إلى الأكحال وهي حجارة لانَت فصار مَقرُّها في الأعْيُن

***

تواضع قبل أن يضعك الله، فالتواضع عِبادة والتكبر نقيض العِبادة ؛ لذلك من أراد أن ينال حظاً من هذا الاسم فعَلَيْه أن يخفض نفسه بالتواضع، فيَراها أقل من جميع العباد، وهذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد دخل عليه رجل فارتعدت مفاصله فهوّن عليه:

((عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ أَتَى النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ فَكَلَّمَهُ فَجَعَلَ تُرْعَدُ فَرَائِصُهُ فَقَالَ لَهُ هَوِّنْ عَلَيْكَ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ))

(رواه ابن ماجه)

وكلما تواضعت، رفعك الله. وهذه علاقة عكسية فكلما تكبّرت، خفضَك الله، والعالم الحقيقي متواضِع، والإنسان الذي يُعتد به متواضع. لذلك ورد في الحديث القدسي:

((أحب ثلاثاً وحبي لِثلاث أشد: أحب الطائعين وحبي للشاب الطائع أشد. أحب المتواضعين وحبي للغني المتواضع أشد. أحب الكرماء وحبي للفقير الكريم أشد. وأبغض ثلاثاً وبغضي لِثلاثٍ أشد: أبغض

العصاة وبغضي للشيخ العاصي أشد. أبغض المتكبرين وبغضي للفقير المتكبر أشد. أبغض البخلاء وبغضي للغني البخيل أشد))

فالسخاء حسن لكنه في الفقراء أحسن. والصبر حسن ولكنه في الفقراء أحسن. والورع حسن لكنه في العلماء أحسن. والعدل حسن لكنه في الأمراء أحسن. والحياء حسن لكنه في النساء أحسن. المرأة ألزم ما يلزمها الحياء، والعالِم يلزمه الوَرَع، والحاكم يلزمه العدْل، والغني يلزمه السخاء، والفقير يلزمه الصبر، والشباب تلزمه التوبة ؛ وما من شيء أحب إلى الله من شابٍ تائب، ومتى سلِم العبد من شبهة الكِبْر فكل شيء بعد ذلك يزول ويهون.

((لو لم تُذنبوا لخِفتُ عليكم ما هو أكبر. فما هو الذي أكبر من الذنب ؟ العُجب العُجب))

((ولا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبْر))

كلما نزلت متواضِعاً إلى الله، رفعك الله. أنا لا أعتَقد أن على وجه الأرض إنساناً أشد تواضُعاً من رسول الله عليه الصلاة والسلام ؛ كما أنني لا أعتقِد أنه يوجد من أعزه الله ورُفِع ذِكره وشأنه كَرَسول الله صلى الله عليه وسلم، فَبِالقَدْر الذي تتواضع لله ترتفع إلى مراتب العُلو، ألم يقل الله عز وجل:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤))

(سورة الشرح)

فإذا ذُكِر الله الآن ؛ ذُكِر معه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالتطبيق الأول: أن تخفض نفسك بالتواضع، والتذلل، والانصياع، ولِين الجانب، ولين العريكة، وأن ترى نفسك واحداً من الناس، لا أن تراها فوقهم. كُن واحداً منهم، تكن سيّدهم. أما إذا جعلت نفسك فوقهم، يجعلونك في الحضيض. كُن واحداً منهم وبأخلاقك الفاضلة يرفعونك إلى الأوج. سيدنا عمر- رضي الله عنه -أراد أن يُعَيّن والياً فقال: أُريد رجلاً، إن كان أميراً، بدا وكأنه واحد من قومه، وإن كان ليس بِأمير عليهم، بدا وكأنه أمير. غيرةً وحِرصاً على مصلحة قومه.

التطبيق الثاني: أخفِضْ إبليس بِعَدم الإصغاء لوسوسته. فإذا أصغى الإنسان إلى وسْوَسَة الشيطان يكون قد رفعه. أما إذا أعرض عنه، وسفّه وسوسته، وابتعد عنه، ولعنه وأعرض عن كل ما يُلقيه في روعه يكون قد وضعه وانتصر على نفسه. فالتطبيق الثاني لاسم الخافض أن تخفِض إبليس وأعوانَه وكلّ وسوسته، وألا تُعَظم أهل المعصية، وأن لا تحترمهم احتِراماً بالِغاً، فهل يجوز أن يشرب الخمر إنسانٌ وتستقبله وتُعانِقه، وتُرَحِّب به، وتثني على ذكائه وعِلمه وخِبرته، وتجعلُه في صدر المجلس، وهو تارك صلاة وشارب خَمْرٍ ؛ بهذا تكون قد فعلت شيئاً لا يُرضي الله، ينبغي أن تُخْفِضه وأن تُشْعِره أنه عاصٍ لله –عز وجل -، إلاّ في حالة واحدة وهي أن تتوقع منه الخير فَتَتَألف قلبه بالتكريم. فالإنسان مُقَصِّر لكنه فيه خير، ولا يكره الحق، وليس بعيداً عن الحق، فَعَلى فرض أنه مقَصِّر ورَحَّبْت فيه دون أن

تُشعِر الناس أنه على حق، فصار إكرامك هادِفاً ويسمى إكرام التأليف، وهو مسموح به بشكل استثنائي. هذا وهناك التذلل والانخفاض للوالدين، قال تعالى:

(وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنْ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا)

كتب اليوم لي أخ كريم في درس مسجد الطاووسية قِصة عن أحد أقربائه، وطلب مني أن أُلقِيَها على الناس لما فيها من العِبرة البالِغة ؛ فقد كان له قريبٌ عاقٌ لِوالِديه، وجاء مرةً لأبنائه بالموز فقالت له ابنته: إن جدتي أكلت موزةً ؛ فَمِن شدة بُخلِه دفع أمه من أول الدرج إلى آخره، وبَيّنت له أمه أنها أكلت شيئاً فَضُل عن ابنته. وماتت بعد ذلك بشهرين. وعندما وافاه الأجل بَقِيَ ميّتاً في بيته أربعة أشهر، دخلوا عليه بالمُعَقِمات وأصبحت الجرذان تأكله. شيء لا يوصف فالله أذله إذلالاً ليس بعده إذلال. فالإنسان ربما يكون عاقاً لِوالِديه ولِمن رباه، أو عاقاً لإنسان كبير في السن ؛

((عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ اللَّهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ))

(رواه أبو داود)

من أدعية هذا الاسم: إلهي أنت الخافض للجبارين بِقَهرِك، المُذِلّ للمتكبرين بجبَروتك، المُتعالي العلي الكبير، المتجلي بنصرك، وأنت نِعم المولى ونِعم النصير.

ننتقل الآن إلى اسم: الرافع ؛ فالجبابرة والطغاة والمتكبرون والظلاّم والعُتاة ؛ هؤلاء يخفضهم الله عز وجل. وأنت يا أخي المُؤمن اخفض نفسك تواضعاً لله، واخفض أهل المعصية والفجور واخفض الشيطان وأعوانه، هذا من عمل المؤمن قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٩))

(سورة التحريم)

أنت تخطئ عندما تحترم إنساناً غارقاً بالمعاصي أمام أولادك - الطفل بريء - ينظر أمام أبيه يُبَجّل ويُكَرّم أهل الفجور ؛ فَبهذا العمل كأنك أوْحيت لابنك أن هذه ليست معاصي، والدليل التكريم المبالغ به لهؤلاء، فَيَجب أن يكون لك موقف سليم

الرفع يُقال تارةً في الأجسام الموضوعة إذا أعْلَيتها عن مقَرّها نحو قوله تعالى:

(وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ)

(سورة النساء: الآية ١٥٤)

الشيء المادي إذا رفعته نقول فيه: رفع، وقوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

(سورة الرعد)

ويُقال الرفع للبناء إذا طوّلته قال تعالى:

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧))

(سورة البقرة)

قال تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ (٣٦))

(سورة النور)

أن ترفع: أيْ: تعلو، وإذا عظّمْتَ إنساناً ونوّهْت بفضائله وذكرت شمائله فيُقال:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

فالمعاني متعددة ؛ معنى مادي:

(وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ)

وقوله:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا)

ومعنى الإطالة:

(وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ)

ومعنى رفعة الشأن والتنويه بالذّكر:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

هذه في المنزلة. والنبي صلى الله عليه وسلم قال:

((أنزلوا الناس منازلهم))

فإذا استقبلت أخاً مؤمناً، وأثنيت عليه فلا يوجد مانِع لهذا العمل من باب التشجيع له وتنويهاً بفضْله. والإنسان المغرور والحسود هو الذي يُعتّم على الآخرين. فإذا تفوّق أخ مسلم ونال شهادة عليا فعليك أن تُنَوّه به، وهذا له أيادٍ بيضاء، وخدمات جُلّى للمسلمين، ومتفوّق في اختصاص مُعَيّن، هذا إذا عَرّفت به، وذكرت فضائله، يكون من باب تأليف القلوب، النبي صلى الله عليه وسلم ذكر ذلك:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللَّهِ عُمَرُ وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ وَأَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ ابْنُ جَبَلٍ أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ))

(رواه الترمذي)

وقال لِخالد: **أنت سَيْف الله** - وهذا في روايات عند البخاري وغيره - وقال: **أنت يا أبا عُبيدة أمين هذه الأمة وأنت يا بن الزبير حَواريٌ هذه الأمة وأنت يا عمر لو كان نبي بعدي لكنتَ أنت، وأنت يا أبا بكرٍ ما سُؤْتني قط**، وما يوجد من صحابي إلا نوّه النبي بفضْله وبيّن شأنه ؛ لأنّ هذا من أخلاق النبوة. فإذا كان لأخٍ لك إنجاز جيّد، وتأليف جيد ؛ وَنَوّهت بفضْله ؛ فسَيَشعرُ بقيمَتِه عندك، وأنه محترم ؛ وهذا الفِعل من فضائل المؤمنين، قال تعالى:

(وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمّا يَجْمَعُونَ (٣٢))

(سورة الزخرف)

والله جل جلاله في كل كتابه الكريم لم يخاطب النبي باسمه قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ)

(سورة التحريم)

وقال:

(يَا أَيُّهَا الرّسُولُ)

(سورة المائدة)

ما خاطب الله النبي إلا بلقب النبوة أو الرسالة ؛ لكن ذكر اسمه في الخبر، ففي الخبر **" محمد رسول الله "**، وفي الخطاب قال تعالى:

(يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

(سورة المائدة)

وقال أيضاً:

(قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاسِ بِرِسَالَاتِي)

(سورة الأعراف)

وقال أيضاً:

(يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوّةٍ)

(سورة مريم)

خاطب الأنبياء بأسمائهم ؛ لكن النبي -صلى الله عليه وسلم -ما خاطبه الله إلا بألقاب النبوة والرسالة، وهذا تكريم من الله تعالى لِنَبِيّنا محمد -صلى الله عليه وسلم -، قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤))

(سورة الشرح)

لما عَرَجَ الله بالنبي إلى السماء، وأراه من آياته الكُبرى، فهذا أعلى رفْع للنبي، قال تعالى:

(لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى (١٨))

(سورة النجم)

والرافع: هو الذي يرفع الأولياء وينصرهم على الأعداء. ويرفع الصالحين إلى أعلى عِلِيين، ويرفع الحق، ويرفع المؤمنين بالإسعاد، ويرفع الأولياء بالتقريب والنصر، وكل من تولاه حقاً وعدْلاً، والرافع من تجلّى باسمه الرافع فَرَفَع السماء بغير عَمَد. إذاً الرفع مادي ومعنوي ؛ يرفع السماء بغير عمد، ويرفع ذِكر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعندما يستقيم الإنسان ويُخلِص لله عز وجل، تصبح له مكانة كبيرة في المجتمع، تفوق مرتبته العِلمية واختصاصه وحِرفته، فالعلماء قديماً كان أحدهم نجاراً، والآخر دولاتي، والآن أصبح لهم مكان رفيع في المجتمع، فقد كان الشيخ بدر الدين الحسني إذا غَضِب يغضب لِغَضْبته مِليون إنسان لا يسألونه فيم غَضِب.

والرافع من تجلّى باسمه الرافع فرَفَع السماوات بغير عَمَدٍ ورفع الغَمام على مَتْن الهواء ورفع الطيور في الفضاء، قال تعالى:

(أوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطّيْرِ فَوْقَهُمْ صَاقَاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنّ إِلّا الرّحْمَنُ إِنّهُ بِكُلّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩))

(سورة الملك)

والرافع: هو الذي رفع مقام الأولياء في الحياة ؛ بخُضوع القلوب لهم، وما أخلص عبْد لله، إلا جعل قلوب المؤمنين تهْفو إليه بالموَدّة والرحمة ؛ فهذا رفع، فهناك إنسان لا أحد يلتفت له، لا تتمنى دعْوته، ولا الجلوس معه منبوذ، ملعون، مُبْعَدْ، أما المؤمن فبإخلاصه لله وإقباله إليه واستقامته على أمره يخلق الله مَوَدّة في قلوب الآخرين له. إذا أحب الله عبداً أوْدع في قلوب العباد محبته، وهذا معنى قوله تعالى:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مِنّي)

(سورة طه)

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبّةً مِنّي)

أيْ أحبك الخلق بِحُبي لك، هذا الرافع.

أقسِم بالله ولا أحنث إن شاء الله، ما من أحد يطيع الله كما أراد، ويُخلص لله- عز وجل - كما يحب إلا رفع الله ذكِره ؛ ورفعه مادّياً ومعنَوياً، وفي كل شؤون حياته وهو من إكرام الله ومُكافأته بعض الردود الإلهية الكريمة على إخلاص المؤمنين واستقامتهم، فالرافع: المُدَبّر لشؤون خلقه ؛ يرفع من تولاه إلى أُفُق المقربين، كما يخفض من عصاه إلى أسفل سافِلين. يرفع شأن المستضعفين. لما خافت أم موسى عليه السلام أن يُذبح ابنها موسى وألْقته في اليَم بأمر الله عز وجل فالتقطه آل فرعون، ما من طفلٍ كان يولد في بني إسرائيل إلا وذُبح، إلا هذا الطفل فقد أراد فرعون أن يقتل كل أبناء بني إسرائيل، لأنه رأى في الرؤيا أن طفلاً منهم سَيَقضي على مُلْكِه، و الطفل الذي سَيَقضي على مُلْكِه رباه في قصره وهو لا يشعر، قال تعالى:

(فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوّاً وَحَزَناً إِنّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨))

(سورة القصص)

واللام هنا لام المآل وليست لام التعليل.

فالرافع يرفع من تولاه إلى أُفق المقربين، كما يخفض من عصاه إلى أسفل السافلين ويرفع شأن المستضعفين، قال تعالى:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥))

(سورة القصص)

كم من مستضعف، علاً شأنه، وتألّق نجمه، وارتفع مكانه ؟ وكم من فقير صار غَنِيا ؟ وكم من مستضعفٍ صار قوياً ؟ وكم من مهمَلٍ صار ذا شأنٍ ؟.

مادة الرفع وردت في القرآن الكريم في مواضِع عِدة ؛ ومن أبرز هذه المواضع قوله تعالى:

(تِلْكَ الرّسُلُ فَضّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلّمَ اللّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ)

(سورة البقرة)

وقوله:

(وَتِلْكَ حُجّتُنَا آَتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنّ رَبّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣))

(سورة الأنعام)

وقوله:

(وَهُوَ الّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنّ رَبّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥))

(سورة الأنعام)

فهناك مجند، وهناك رئيس أركان، وهناك ممرض، وهناك معلِّم بقرية وهناك أستاذ جامعة، كما يوجد بائع مُتَجوِّل وهناك رئيس غرفة تجارة ؛ ورفع بعضكم فوق بعض درجات. فإذا رفعك الله تعالى فيجب عليك أن تشكره على هذه الرِّفعة، وينبغي أن تُوَظِّفها في طاعة الله. وقال تعالى:

(وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنّ رَبّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ(١٦٥))

(سورة الأنعام)

وقال:

(إِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى إِنّي مُتَوَفّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيّ وَمُطَهّرُكَ مِنَ الّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الّذِينَ اتّبَعُوكَ فَوْقَ الّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمّ إِلَيّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ(٥٥))

(سورة آل عمران)

وقال تعالى:

(وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً نَبِيّاً (٥٦) وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيّاً (٥٧))

(سورة مريم)

أيها الإخوة:

إذا تجلّى الله إلى قلب المؤمن بنور اسمه الرافع رفعَ ذلك النور هذا المؤمن إلى العُلا الأعلى فصَار مُرْتَفِعاً في الأكوان، وإذا تجلّى الله إلى قلب المؤمن بنور اسمه الرافع جعله مُتَأَلِّقاً كالكوكب الدُريّ، وهذا الإنسان المؤمن لا ينظر إلى ما في أيدي الناس ؛ بل يرفع هِمّته إلى الله عز وجل.

أيها الإخوة:

اسم الرافع: من ألصق الأسماء بحياة المؤمن لأنّ حياة المؤمن بعد أن يمتحِنه الله تُصْبِح سلسلة إكرامات، و المؤمن كما قلت في دروس سابقة يمُرُّ بأطوارٍ ثلاثة: - طَوْر يُؤَدَّبُ فيه على تقصيره وبعض مُخالفاته، - وطَوْرٍ يُبْتلى فيه ويُمتحن ؛ فإذا نجح في الطورين وأظن هذا في الآخرة: ألم يؤذ موسى عليه السلام بعد طور التأديب والامتحان لقد أوذي في طور الرسالة من قبل البشر ... فالحياة

الطيبة في الآخرة ... استقرّت حياته على التكريم وهذا معنى قول الله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧))

(سورة النحل)

فاسم الرافع ينال من فضله تعالى كل مؤمن طائع لله، ومُخْلِص له، في التقرب إليه. وأيّةُ آية يختص بها النبي عليه الصلاة والسلام قال بعض العلماء: إن لكل مؤمن منها نصيباً بِقدْر إخلاصه وطاعته ؛ فقوله تعالى:

(ورفعنا لك ذكرك)

من معانيها: أن كل مؤمن يقتدي برسول الله، ويقتفي أثره، ويتبع سنته، يناله شيء من ما نال النبي من رِفْعة شأنٍ، وعلُو قدْر وسيرة العلماء العاملين الصالحين الصادقين والمخلصين في التاريخ الإسلامي تُؤكّد هذه الحقيقة.

من أدعية هذا الاسم: إلهي تجَلّيت باسمك الرافع ؛ فرَفَعْت قدْر أنبيائك وأولِيائك، أظهرت لهم المعجزات، وأبْرَزت لهم الكرامات، فَعَظّمتهم القلوب، ورفَعْتَ أعمالهم إليك بالقبول، ورفَعْتَ لهم أرواحك بالوصول، ورفَعتَ هِمّتهم فلَم يطلبوا سِواك، لأن عيون أرواحهم تراك، فاجعل لنا أوْفر حظ من نور اسمك الرافع، حتى يُرفع شأننا فنَرْفع أحبابك.

٤٤- اسم الله الحسيب :

مع الدرس الرابع والأربعين من دروس أسماء الله الحُسنى ومع اسم الحسيب، والحسيب: اسمٌ من أسماء الله الحُسنى معناه: المكافئ، أو من معانيه المكافىء، ومن معانيه أيضاً الاكتِفاء ؛ المكافىء المثيل، فلان حسيب فلان أي مكافِئة ومثيله ونِدُّه ؛ والحسيب أيضاً: الذي يكفي، من الاكتِفاء فالله -سبحانه- هو الكافي تقول: أكرمني فلان وأحسبني أيْ كفاني، وأعطاني فوق ما أريد. وتقول: حَسْبِي الله ونِعم الوكيل أيْ: أن الله سبحانه وتعالى كافيني ؛ أما حُسبانك على الله: بمعنى حِسابُك على الله ؛ فالمعنى الأول: المكافىء. والمعنى الثاني: الكافي. والمعنى الثالث: المُحاسب. مِن النِدّية والمِثلية، ومن الاكتِفاء، ومن الحِساب. ويكون معنى الحسيب في حق الله تعالى في أدق معانيه: الكافي ؛ تقول: حَسْبِي الله ونِعم الوكيل أيْ: يكفيني ولا أحتاج لِغيره. فالعِباد كلهم لو أطاعوا الله عز وجل، كَفاهم أمر دنياهم وآخرتهم.

والحسيب: هو السيد الذي عليه الاعتماد. وليس في الوجود حسيب سواه. قد تعتمد على إنسان يحبك، ولكنه ضعيف لا يستطيع أن يُنجيك مما أنت فيه، وقد تعتمد على إنسان قوي، ولكنه لا يحبك. وقد تعتمد على إنسان قوي ويُحبك، ولكنك لا تصل إليه ؛

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

(سورة فاطر)

فمَنْ اعتمد على غير الله، ضلّ، ومن اعتمد على غير الله، ذلّ. ومن اعتمد على ماله افتقر، ومن اعتمد على عِز إنسان، أُذِلّ.

اجعل لِربك كل عِزّ ِك يستقِر ويثبت

فإذا اعتززت بمن يموت فإن عزّك ميّت

***

الحسيب: الكافي. والحسيب: النِد. والحسيب: المحاسب. وليس في الوجود حسيب سِواه، فأقوى قَوِيٍّ في الدنيا لو اعتمدت عليه، ربما توفاه الله وأنت بأمسّ الحاجة إليه وربما تغيّر عليك فجأةً بلا سبب، وربما تنكّر لك. لذلك من الشِرك ؛ أن تعتمد على غير الله، كلمة حسبي الله ونِعم الوكيل: أيْ أنّ الله يكفيني وهو القوي. هو الرزاق، هو الغني، هو العليم، هو الكريم، هو السميع، هو المجيب، هو الرؤوف، هو الرحيم، هو المُعطي، هو المانع، هو الرافع، هو الخافض، هو المعز، هو المُذل. حسبي الله ونِعم الوكيل أيْ: أنّ الله يكفيني.

مثلاً: إذا تعَيّن إنسان بوظيفة دوامها ثمان ساعات، ومعاشُه ثلاثة آلاف ليرة ؛ فهذا لا يكفي. للعيش، تجده يبحث عن عَملٍ آخر، وعن طريقة أخرى لِكَسب المال فهذا المال لا يكفيه الجِهة لا تكفي كل حاجاته إذاً يزوغ عنها إلى جِهةٍ أخرى. لكنك إذا اعتمدت على الله، كفاك، وأغرقك بالنعيم، وطمأنك، كفاك وشَرّفك، كفاك ورفعك، كفاك وأعزّك، فكَلِمة حسبي الله ونِعم الوكيل مِن أفضل الأذكار، وهي من أذكار النبي عليه الصلاة والسلام. فإذا سعى الإنسان لِجِهة ولم يُوفّق فيها ؛ ماذا يقول ؟ حسبي الله ونِعم الوكيل. وإذا سلك طريقاً ثم رآه مسدوداً ؛ ماذا يقول ؟ حسبي الله ونِعم الوكيل. والمؤمن يرضى بقضاء ربه، فإذا كان مستقيماً على أمر الله، وسلك طريقاً ورآه مسدوداً، يعلم عِلم اليقين أن هذا الطريق ليس في صالح آخرته، لذلك وضع الله أمامه العراقيل والنبي عليه الصلاة والسلام عَلّمنا وكان يقول إذا جاءت الأمور على ما يريد. يقول: الحمد لله الذي بنِعمته تتم الصالِحات. وإذا جاءت على غير ما يريد يقول: الحمد لله على كل حال. ليس في الوجود حسيب سِواه .

(فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ)

(سورة يونس الآية: ٣٢)

إذْ إنه لا يوجد جِهة غير الله تُغني، إما أن تكون مع الله فأنت المكتفي، وإما أن تبتعد عنه فأنت في فقرٍ دائم. وأنت من خوف الفقر في فقر. وأنت من خوف المرض في مرض. وَتَوقُّع المصيبة مصيبة أكبر منها. حسبي الله ونِعم الوكيل، وليس في الوجود حسيب سِواه .

و قالوا الحسيب: هو الذي انتهى إليه كل شَرَفٍ في الوجود، وهذا معنى رابع تقول: فلان حسيب نسيب، بِمعنى مُشرّف ومكرّم.

فأول معنى للحسيب: النِّد. والمعنى الثاني: الكافي. والمعنى الثالث: المحاسب. والمعنى الرابع: الشريف. يكفيك شَرَفاً أن تنتسب إلى الله قال تعالى:

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ)

(سورة إبراهيم)

ملاحظة: هذه الياء ياء الإضافة وليست ياء النسب، ياء النسب كقولك(دمشقي)نسبة إلى دمشق والله أعلم.

هذه الياء ياء نَسَب، وأنت منسوب إلى الله عز وجل نِسبة تشريف وتكريم قال تعالى:

(قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ)

وقال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣))

(سورة الفرقان)

فأنت منسوب إلى ذات الله عز وجل نَسَبك الله وشرّفك وكرّمك قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠))

(سورة الإسراء)

فالله صانك فلا تبتذِل. ورفعك فلا تسقط. وشَرّفك فلا تسْفل. وأعزّك فلا تذِل. وأعطاك فلا تصدف عنه.

وقيل: الحسيب الذي يُحاسِب عِباده على أعمالهم، وهذا المعنى مرّ قبل قليل ؛ يُحاسِب الطائعين فيُثيبهم على طاعتِه، ويُحاسب العاصين فيُجازيهم على معصيتهم، وهو حسيب كل إنسان. ولا تُحاسب ؛ فالله هو المحاسب، وحِسابه دقيق، ويُحاسب على أدق الدقائق، وعلى أدق الكلِمات، وعلى أدق الذرات قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨))

(سورة الزلزلة)

وإذا أيْقنت أنه سَيُحاسبك فلا بد أن تخاف منه. وإذا خِفت منه. استقمت على أمره. وإن استقمت على أمره. أقبلت عليه. وإن أقبلت عليه. سَعِدت بِقُربه. وإذا سعِدت بِقُربه استَغنيت عن الدنيا وما فيها بعد أداء الأسباب، ومن عرف الله زهِد في ما سواه. فالحسيب: النِّد. والحسيب: الكافي. والحسيب: المحاسب. والحسيب: الشريف. وكل هذه المعاني لها وُجوه تليق بجلال الله وذاته.

بعض العلماء ذكر أن الحسيب فيه ثلاثة وُجوه: الأول: أنه الكافي، والعَرَب كانت تقول: نزلت بفلان فأكرمني ما كفاني. سألت امرأة أميراً أن يُعطِيَها من ماله فأعطاها وأجْزَل ؛ فقال له من في حضرته: لقد كان يكفيها القليل وهي لا تعرفك فقال هذا الأمير: إذا كان يُرضيها القليل، فأنا لا أرضى إلا بالكثير. وإن كانت لا تعرفني، فأنا أعرف نفسي.

فإن قُلت الله حسيب: بِمَعنى يُعطيك عطاءً عظيماً، إذا عاش الإنسان ثلاثاً وستين سنة، وأطاع فيها الله - عز وجل -فهو عاش كَعُمُر النبي -صلى الله عليه وسلم -وبالأربعين تاب إلى الله تعالى واستقام فيَكون قد أطاع الله تعالى ثلاثاً وعشرين سنة يستحِق جنة إلى أبد الآبِدين ؛ فَما معنى جنة إلى أبد الآبدين ؟ وما معنى الأبد ؟ العقْل لا يُمكن أن يتصوّر معنى الأبد، ذلك لأنه لا يفهم إلا حجماً معَيّناً، ووقتاً مُعَيّناً ؛ أما الأبد فلا يفهمه. بعض المجرات تبعد عنا أربعةً وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، والضوء يقطع بالثانية الواحدة ثلاثمائة وستين ألف كيلو، متر ضرْب ستين بالدقيقة، وضرب ستين بالساعة وضرْب أربعة وعشرين باليوم، وضرْب ثلاثمائة وست وخمسين بالسنة، ضرْب أربعة وعشرين ألف مليون سنة. كل هذا للنجم، إذا كان أحدنا في الأرض وإلى هذا النّجم أصفار وفي كل ملم متر صفر فما قيمة

هذا الرقم ؟ هذا الرقم قيمته صِفر إذا قيس إلى مالا نهاية، فكل شيء تراه بعيداً في هذا الكون فهذا النجم أبعد من أربعة وعشرون ألف مليون سنة ضوئية واحد في الأرض وأصفار إلى هذا النجم، هذا الرقم اجعله صورة أو بسطاً وضَعْ في مخرجه لا نهاية ؛ فقيمته صِفر. فكلما عدّ الإنسان إلى الأعلى مليار مليار مليار سنة كلما كان الأبد أكبر ؛ وهذا الأبد في النعيم ثمنه أن تطيع الله عشرين سنة أو ثلاثين سنة، وهذا هو معنى المُعطي فهو يعطي ويُجزل في العطاء. خلقك لِجنة عرضها السماوات والأرض ؛ على أن تُطيعه في هذه الحياة الدنيا. ومن نِعمته أنه ما حرمك شيئاً وكل شهوة أوْدَعها فيك، جعل لك طريقاً نظيفاً للتمتع بها فَسُبحانه وتعالى ما حَرَمنا النساء بل أمرنا أن نتزوج. وما حرمنا المال بل أمرنا بالعمل، وحرَم عليك الكذب، والزنى، والخمر، والمعاصي التي لا تليق بالإنسان ؛ فهذه الطاعات ثمنها الجنة، إذاً هو المكافئ يُعطي فَيَكْفي.

يقول سيدنا علي: **يا بني ما خيرٌ بعده النار بخيرٍ، والشر بعده الجنة بشَرٍ، وكل نعيم دون الجنة محقور، وكل بلاء دون النار عافية. فعطاءٌ في الدنيا لا يُمكن أن يسمى عطاءً ؛ لأنه ينتهي بالموت،** ولا أعرف إن كانت صورة الموت واضِحة، فهذا له قريب وصديق وجار تراه بالمغْتَسل وبعد ساعتين بالقبر. أين غُرفة النوم ؟ وسيارته ومكانته؟ ومنجزاته ؟ كل هذا انقطع، إخواننا الكرام: لا يمكن أن يُسمى عطاء الدنيا بالنسبة إلى الله عطاءً ؛ لأنها عَرَضٌ حاضِر يأكل منه البَر والفاجر، والآخرة وعْد صادِق يحكم فيه ملِك عادل.

((عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللَّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(رواه الترمذي)

هذا كلام مَنْ ؟ كلام من لا ينطق عن الهوى، لو أن الدنيا تعدِل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شرْبَة ماء، فإذا رأى أحدنا بيتاً ضخماً جداً، أو مَرْكبَة فخمة جداً، أو بُستاناً، أو مركزاً تِجارياً كبيراً، وقال: هنيئاً له فقد عظّم حقيراً، قال تعالى واصفاً قارون ومن اغترّ به عندما خرج على قومه في زينته:

(فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠))

(سورة القصص)

فالله تعالى حسيب: أيْ يكفي العبد ويكفيه كل مُؤنته. ورد في الحديث القدسي:

((أنْ يا عبدي كن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بما يُصلِحُك))

أيْ: لا تتكلف وتُبْلِغني الذي يُصلِحك ؛ فأنا أعرف ما يُصلِحك، وما يُرضيك وما يُسْعِدك. كن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بما يُصلِحُك، وهناك حديث آخر:

((كن لي كما أريد أكن لك كما تريد))

وفي حديث آخر:

((أنت تريد وأنا أريد، فإذا سَلّمت لي فيما أريد، كَفَيْتك ما تريد، وإن لم تُسَلِّمني فيما أريد، أتْعَبْتُك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

فالحسيب: هو الكافي فإذا قُلت: حسْبِيَ الله ونِعم الوكيل ؛ يكفيك مؤونة الدنيا والآخرة، ويكفيك كل الهم، مهما ضاقت عليك السُبُل ومهما أُحْكِمت حولك الحلقات.

ولَرُبّ نازلة يضيق لها الفتى ذَرْعاً وعند الله منها المَخرجُ
نزلت فلما استحكمت حلقاتها فُرجت وكان يُظنُ أنْ لا تُفْرَجُ

***

وقيل:

كُن عن همومك مُعْرِضا وَكِلِ الأمور إلى القضا
وابْشِر بخَيْر عاجِلٍ تنس به ما قد مضى
فلَرُبّ أمر مُسْخِطٍ لك في عواقِبه رضى
ولَرُبّما ضاق المضيقُ ولَربما اتسع الفضا
الله يفعل ما يشاء فلا تكن مُعْترضا
الله عَوّدَك الجميل فقِسْ على ما قد مضى

***

أنْ تقول: حسبي الله ونِعم الوكيل، وتردد ذلك، هذا ذِكْر بمَعْنى الله يكفيني. صِحتك بيده، وزوجتك بيده، والأقوياء بيده، والضعفاء بيده، ومن فوقك بيده، ومن تحتك بيده، وطعامك بيده ورزقك بيده، فإذا قلت: حسبي الله ونِعم الوكيل، انتهى الأمر.

الثاني: بمعنى حسيب. فالله يُحاسِب خلقه يوم لِقائه فهو تعالى يُحاسِبهم في الدنيا لِيُرَبيهم، ويُحاسِبهم في الآخرة لِيُجازيهم ؛ حِساب الدنيا تربية، وحِساب الآخرة جزاء. هناك قِصص كثيرة أسْمعها من إخواننا الأكارم.

ذكر لي أخ له معمل ألبسة، ما يلي لما علم أحد إخواننا من المسجد أنّ لي معمل ألبِسة لطلب مني ست قِطع، فاعتَذرت منه لأنّني لا أبيع إلا بالجملة وكأنني شعرت بالهوان فالكمية التي طلَبها قليلة ولا تملأ

العَين، فذكر لي هذا الأخ أن واحداً وثلاثين يوماً ما رأى زبوناً عنده في المعمل، عِقاباً له على هذا الصنيع، والله حاسَبَه على هذا الكِبر وهذا الاحتقار.

وذكر لي أخ من إخواننا عن إنسان كَبُرَ وكبر حتى ملك عدداً كبيراً من الطائرات المدنية والفنادق، ولما رأى حاله هكذا قال لقد وصلت لِفوق أنا حدودي السماء ولم يمض على كلامه اللحظات حتى سُحب منه البساط، وشُدّ الحبل، وقُبِضت روحه. فالله يُحاسب وهذا المعنى الثاني. فأول معنى: الله يكافئ. والمعنى الثاني: الله يُحاسب. فعلى الإنسان أن يضبط لِسانه وجوارحه ودخْله وماله وكل حركاته لأن الله يحاسب (حسيب) والحال أنه كلما كبر عقلنا وكبر إدراكنا يجب أن يزداد خوفنا من الله وكلما صغر المرء أمام ربه فالله يُكَبّره أمام الخلق وكلما صغرنا وتواضعنا وافتقرنا وأعلنا عبوديتنا لله عز وجل، وقلنا: يا رب أنا لا شيء، أنا جاهل، أنا ضعيف، أنا فقير، أنا لئيم يا رب، أنت الكريم، أنت الغني، أنت القوي، أنت العالم، كلما أعلنت عن ضعفك وافتقارك وعبوديتك رفعك الله، وكلما قلت أنا وأنا خفضك الله عز وجل. من أجل إعلانه للعبودية لله عز وجل، وأنه القوي، مرة ذكر أن رجلاً في أروبة قال: إذا حمل هذا الصفصاف أجاصا فأنا أُزاح عن مركزي، وبعد أيام أُزيح فجاء الناس ووضعوا الأجاص فوق الصفصاف. الله حسيب.

من الناس من يكون حِسابه يسيراً إذا كان مؤمناً، فهو من أهل النعيم الدائم. ومنهم من يكون حِسابه شديداً على الفتيل والقِطمير وهم الكفار.

معنى الحسيب الثالث: هو الشريف، تقول: هذا بيت حَسَب و نَسَبٍ بالتعبير الشائع. مَنْ هو الشريف ؟ هو الذي لا يرتكب المعاصي، ولا يبخل ولا يكذب ولا ينافق ولا يذل ولا يغتاب، فكلما تنزّه الإنسان عن المعاصي صار شريفاً وليس الأمر كما في بعض البلدان التي تتوارث الشرف الأسرة الحاكمة أشراف ولا يتزوّجون إلا من أشراف من أسرتهم أو قبلتهم:

لا تقل أصلي وفصلي أبداً إنما أصل الفتى ما قد حصل

***

شرف الإنسان بطاعته لله وشرف المؤمن قِيامه بالليل وعِزّه استِغناؤه عن الناس شرفك بطاعتك لله. ولا شيء آخر. فالمحاسب الكافي والشريف. والشريف: الذي له صفات الكمال والجمال والجلال. وبعض العلماء قال: **" الحسيب هو الذي يكفي بفضله، ويصرف الآفات بطوْله "**، وقيل: هو الذي إذا رُفِعتْ إليه حوائج قضاها وإذا حكم بقضية أبرمها وأمضاها وقيل: هو الذي يعُد عليك أنفاسك ويصرف بِفضله عنك بأسك.

القرآن الكريم ورد فيه اسم الحسيب كثيراً قال تعالى:

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْداً فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافاً وَبِدَاراً أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيراً فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٦))

(سورة النساء)

فإذا كان معك مال يتيم فإن كنت في حاجة فلك أن تأكل منه بالمعروف والعلماء قالوا: **" الأكل بالمعروف: أن تأخذ حاجتك أو أجر المِثل أيهما أقل "** فإذا كان مع اليتيم مئة ألف وأعْمَلْتَها في التجارة وربِحت عشرة آلاف تعطي خمسة لِصاحب المال وخمسة لك مثلاً. فأنت يكفيك أربعة دون الخمسة، فإذا كان يكفيك خمسة عشر ألفاً ونصيبك خمسة تأخذ الخمسة فأجر المِثل أيهما أقل هذا إن كنت فقيراً أما إذا كنت غنياً فَعَليك أن تستَعْفِف. من الذي سَيُحاسبك ؟ ومن الذي يعلم ما إذا كنت غنياً أو فقيراً ؟ هناك من تجده يحمل مال يتيم يضعه في التجارة فإن ربحت وضع ماله وإن لم تربح يقول لك: ذهبت في التجارة، هذا لا يجوز، والنبي قال:

((لا تجعل ماله دون مالك))

لا تجعل ماله دريئة أو حَقل تجارب. تجد تُجاراً معهم أموال غيرهم فإن جاءتهم تجارة ولم يكونوا واثقين منها وضعوا أموال صديقهم ويقولون لك هذه: قِسمة ونصيب والتجارة ربْح وخسارة، وإن ربحت أدخَل ماله في هذه الصّفقة، فمن الذي يعرف هذه الحقائق ؟ هو الله، الحسيب الذي يحاسب، هناك حالات بالتجارة، وحالات علاقة بالنساء، وحالات اجتماعية، فَلو كان معك أذكى إنسان على الأرض فلن يكْشِف نواياك، ولا تصرفاتك أحياناً لكن الله يعلم، فإذا جعَلت مالك في الصّفْقات الرابحة، المعرفة الثابتة التي إذا اشتريتها فبيعها مضمون، وربحها وفير ! فمالك في هذه الصفقة. ومعك مال اليتيم. ومال اليتيم تجعله حقل تجارب أين يوجد صفقة غير مضمونة النتائج تجعل هذا المال في مثل تلك الصفقات، فإن ربحت أدخلت مالك مكان هذا المال، وإن خسرت قلت للناس وأنت معذور هذه تجارة فيها ربح وخسارة. الخلفيات وهذه الحقائق من يعلمها ؟ هو الله. لذلك قال تعالى:

(وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا)

عندما يؤمن الإنسان أن الله رقيبُه، يصبح لديه دِقّة في معاملاته تكاد تكون خيالية، ويجعل كل شيء في الحُسبان. سَمِعت قِصة أظن أنكم سمِعْتموها مني ؛ إنسان تُوُفِّيت خالته فقال لي: مرّت ثماني سنوات وأنا أراها بالمنام تَحْتَرِق، فَيَقول لها مالك يا خالة ؟ فتقول له الحليبات، وما فَهِم عليها، وكانت خالة امرأة

أب وعِندها أولاد زوج فكانت تضع للحليب الذي كانت تسقيه لأولاد زوجها ماءً أما ابنها الذي من صُلْبِها فتُعْطيه حليباً كامل الدسم ؛ ثماني سنوات وهي تَلْتَهب، فمن الذي يعرف حقيقة هذه المرأة زوجها يراها تقدم كؤوس الحليب لأولاده جميعاً ولكن يعلم الحقيقة الله عز وجل. المنام ليس حجة في أحكام الشريعة ولكن يُسْتَأْنَس به.

فالله هو الحسيب المحاسب قالوا: لا تُحاسِب الله المُحاسب. وآخر كانت له أُخت عانِس ساكِنة ببَيْته وكانت زوجته تُبالِغ في إهانَتِها، فقال: كنت جالِساً مرة على سرير، وزوجته إلى جانبه، وأراد أن يشرب الماء فَرَكَل أخته وقال لها: أحضري لي الماء فَبَكَت من شدة إهانته لها أمام زوجَة أخيها، وفي اليوم الثاني كان لديه سَفَر إلى حَلَب حدث معه حادث سَيْر أُصيب برِجْلِه اليُمنى وأُصيب بمرض الغَرْغَرين فقُطِعت من أعلى الفَخِذ، وهي التي ركَل بها أخته لِيُهينها أمام زوجتِه. فإذا تكبّر الإنسان ؛ وأكل أموال الناس بالباطل، فالله هو الحسيب الكبير، وكلما ازداد عقلك وإدراكك ازداد خَوفك من الله، المؤمن يَنْخَلِع قلبه خوفاً من الله.

مرةً قال لي طالب: أنا لا أخاف من الله، فأردت أن أحجّمه وقلت: يا بني الفلاّح مرةً يأخذ ابنه الصغير إلى الحصاد وَيَضعه بين سنابِل القمح فَيَمشي ثعبان بجانِبه فَيَضع الطفل يده على الثعبان ؛ لماذا لأنه لا يخاف منه ؟ لأنه لا يوجد لديه إدراك ؛ فكُلما ضعُف الإدراك ضعف الخوف، وكلما ازداد الإدراك ازداد الخوف. أحياناً تجد الطبيب يُبالِغ بِغَسل الفاكهة وذلك من شدة ما يراه كل يوم من الجراثيم من الأعراض الإنتانية والالتهابات المعوية والإسهالات وأنواع الأمراض ؛ فهذا الذي يراه يدعوه للمبالغة في التنظيف والتعقيم ؛ فكلما ازداد العلم ازداد الخوف من الله. والله مُحاسب. وهذا أحد كبار صُنّاع الحلويات في لبنان، كان يُصدّر طائرة كلّ اليوم إلى دول الخليج، دخل يوماً إلى مصنْعِه ولم يُعْجِبه صنيع أحد العمال فأخذ تلك العجينة ودسّها تحت قدَمَيْه معلماً فقال له العامل مُنَبِّها إنك ترتَدي حِذاءً فأجابه: إن الناس يأكلون من تحت قدَمَيّ، بعد شهرين قُطِعت رجلاه اليمنى واليسرى وهو الآن مقيم في بريطانيا، وقصص كثيرة لا تُعد ولا تُحصى وأنا أذكر قِصصاً عادِية والإنسان لو أنّ لديه قُدرة على البحث والتنقيب والدرس لرأى العجب العُجاب. اعمل ما شِئت ؛ واعلم أنّ حِساب الله في الدنيا حِساب تَرْبوي. أما حسابه تعالى في الآخرة فهو حساب جزائي، بالدنيا يُحاسب لِيُربي أما بالآخرة لِيُجازي، هذه الآية الأولى.

الآية الثانية قال تعالى:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً (٨٦))

(سورة النساء)

فَمَشاعر الذين يردون التحية يعلمها الحسيب وحده هل هي تحية إسلامية دينية أم من كِبر أو تواضع أو رد جميل أم من كراهية أو محبة أو بروتوكولات كما يقولون أم من أسلوب حضاري غربي ؟ هناك أشخاص لديهم القُدرة على التمثيل قدرة كبيرة جداً قالوا عن الدِّبلوماسية: هي التعبير عن أسوأ النوايا بأجمل الألفاظ. وهي أحد تعريفاتها اللاذعة من الممكن أن تكون لك ابتِسامة شكليّة، ومصافحة حارة وأنت تغدر بهذا الذي تُصافِحه ؛ فهذا السلام ؛ وراءه محبة أو غَدْر ؟ أو إخلاص ؟ أو انتقام ؟ أو طعن بالظهر ؟ أو كراهية ؟ فمن يعرف ويعلم هذه الحقيقة ؟ وكل إنسان يقدِر على الابتِسامة، ولكن النوايا لا يعلمها إلا الله لذلك جاءت الآية الكريمة:

(وَإِذَا حُيِّيتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا)

بعد ردّ التحيّة، طبعاً معظم الناس السلام ويردون السلام لكن النوايا والخلفيات والحَيْثِيات وما بين السطور هذه لا يعلمها إلا الله. قال تعالى:

(الّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلّا اللّهَ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً (٣٩))

(سورة الأحزاب)

فإذا خشي الإنسان الله وحده، وتحمّل المشاق، وتجشّم المتاعب، لأنه خشي الله وحده، وبَلّغ رسالته، ولم يَعْبأ برضاء الناس. فمن الذي يعرف حجم تضحِيته ؟ وحجم ما يُعاني ؟ طبعاً من السهولة أن تُرضي الناس، وأن تنجُوَ منهم، وأن تُسْمِعهم ما يُحِبون. لكنك إذا كنت صادقاً، و مُخْلِصاً، ونطقْت بالحق، ولم تأخذك في الله لوْمة لائم، فربما أتعبك الناس وثاروا عليك وانتقدوك وطعنوا فيك ؛ والله هو الذي يعلم حجم تضحِيَتِك لذلك قال تعالى:

(الّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلا اللّهَ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيبًا)

وقال تعالى:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧))

(سورة الأنبياء)

الله يعلم أدق الأعمال، وأدق الذرات، والقِطمير، والفتيل، والنقير. رأس النواة المذبب، والقِطمير، غِشاؤها، والفتيل، الخيط بين فَلْقَتيْها، فلا تُظلمون فتيلاً ولا قِطميراً ولا ذرة ومِثقال ذرة من خردل، ولا ظُلْمْ اليوم وما كان الله لِيَظلِمهم، فالله حسيب، قال تعالى:

(وَمَنْ يَكْفُرْ بِآَيَاتِ اللّهِ فَإِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩))

(سورة آل عمران)

قال تعالى:

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤))

(سورة البقرة)

إن تكلمت أو لم تتكلم، وإن أبَحت أو لم تُبح، وإن ذكرت أو لم تذكر، فالله سُبْحانه وتعالى سيُحاسِبك، وقال تعالى:

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣))

(سورة آل عمران)

فمهما تقلّب عليك الناس، ومهما اجتمعوا وتآمروا فقُل: حَسْبي الله ونعم الوكيل. فكلهم بيد الله -عز وجل- قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧))

(سورة هود)

مهما اجتمع الناس على أن يضروك، وعلى أن يُوقِعوا بك الألم، فقُل: حَسْبي الله ونِعم الوكيل، أنت أقوى منهم بالله. يكفينا شَرَفاً هذه الآية:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤))

(سورة الأنفال)

وقال تعالى:

(وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آَتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ (٥٩))

(سورة التوبة)

من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعْطيناه، ومن اكتَفى بنا عن ما لنا كنا له وما لنا، قُل: حسبي الله، يكفيني الله، قال تعالى:

(وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣))

(سورة الطلاق)

يكفيه، فإذا كان لشخص قضية في القضاء، وكانت مُعَقّدة وصارت مُداخلات كثيرة وخصمه قوي فإذا قال حَسْبي الله ونِعم الوكيل ؛ فالله هو الذي يُدافِع عنه، وإذا شعر ببَوادر مرض خطرٍ عظيم وقال حسبي الله ونِعم الوكيل فالله يُزيح عنه المرض قال تعالى:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠))

(سورة الشعراء)

وهذا من أنواع الذِّكر الراقي جداً. أن تقول حسبي الله ونِعم الوكيل، يا رب التَجأت إليك واحتمَيْت بك واستعنت بك على من يُعاديني وتوكلت عليك، وأنت حسبي ورَجائي وذخري وملاذي.

الله -عز وجل - أمر النبي عليه الصلاة والسلام أن يقول ؛ قال تعالى:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩))

(سورة التوبة)

وقد أمرنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن نقول هذا الذكر سبع مرات في اليوم.

الآن توجد نقطة دقيقة في الموضوع ؛ يقول أحد العلماء: **" إن كِفاية الرب لِعَبْده أن يَكْفِيَه في جميع أحواله وأشغاله، وأجلّ هذه الكِفايات أن لا يُعْطِيَه إرادة الأشياء "**، يا رب خِر لي واختر لي ؛ فهذه أرقى درجة من أنواع التوكل. يَسِّر لي ما فيه صلاح لي في ديني ودُنياي وهو دعاء الاستِخارة، أساساً ألم يقل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك:

((عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ للَّهِ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَلِّمُنَا الاسْتِخَارَةَ فِي الأُمُورِ كُلِّهَا كَمَا يُعَلِّمُنَا السُّورَةَ مِنَ الْقُرْآنِ يَقُولُ إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ وَأَسْأَلُكَ مِنْ فَضْلِكَ الْعَظِيمِ فَإِنَّكَ تَقْدِرُ وَلا أَقْدِرُ وَتَعْلَمُ وَلا أَعْلَمُ وَأَنْتَ عَلامُ الْغُيُوبِ اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ خَيْرٌ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاقْدُرْهُ لِي وَيَسِّرْهُ لِي ثُمَّ بَارِكْ لِي فِيهِ وَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الأَمْرَ شَرٌّ لِي فِي دِينِي وَمَعَاشِي وَعَاقِبَةِ أَمْرِي أَوْ قَالَ فِي عَاجِلِ أَمْرِي وَآجِلِهِ فَاصْرِفْهُ عَنِّي وَاصْرِفْنِي عَنْهُ وَاقْدُرْ لِيَ الْخَيْرَ حَيْثُ كَانَ ثُمَّ أَرْضِنِي قَالَ وَيُسَمِّي حَاجَتَهُ))

(رواه البخاري)

فإذا علِم العبد أن الله هو الذي يكفيه، لم يَرْفع حوائجَه إلا إليه. ويُعاب من يشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم. إذا أيقنت أن الله وحده هو الذي يكفي، لا تَسْألُ غيره. فإن الله سُبحانه وتعالى سريع الإجابة لِمن انقطع إليه، إذاً أنت مُتَجه إلى الله تعالى بكليتك ولا تُعَلّق أملك بمن دونه فهو سريع الإجابة. وتوكل في جميع أحوالك عليه. فأما إذا كانت حاجته في حق الله خيراً محْضاً كطلب الهداية، والاستِقامة، والرزق الحلال، والكِفاية فهذا الطلب يُجاب فوْراً لأنه في حق الله وأما إذا طلبت الدنيا فهناك وضْعٌ آخر لعلها لا

تنفعك لعلها تُؤذيك وتُبْعِدك فلذلك قد يُجيبك وقد لا يُجيبك، فالأدعية المُتعَلّقة بالآخرة سريعة الإجابة.
ومن علِم أن الله كافيه لا يستَوْحِش من إعراض الخَلْق ولا يأنسُ بهم.

يذكر الإمام الغزالي في اسم الحسيب ؛ أنّ من كان الله له حسيباً، كفاه -والكِفاية - دقِقوا - والكِفاية التي يحتاج الإنسان إليها كِفاية دوام وُجوده وليس في الوجود شيء هو وحده كافٍ لِشيءٍ إلا الله سبحانه وتعالى، يحتاجه كل شيءٍ في كل شيء. ليس في الكون إلا الله وحده هو الذي يكفي كل الخلائق.

قال: فإنه وحده كافٍ لِكل شيء لا لِبعض الأشياء. وحده كافٍ يتحصل به وجود الأشياء، ودوام وجودها، وكمال وجودها، فإذا أردت الوجود، ودوام الوجود، وسلامة الوجود، وكمال الوجود، فقل: حسبي الله ونِعم الوكيل. إذا رأيت أن الرضيع يرضع من والِدته ؛ فاعلم أن الله أودع في قلب هذه الأم الرحمة وأسال من ثديها الحليب، ولولا ذلك ما كان هذا الطفل مَكْفِياً بِأمه فإذا بدا لك أن الطفل مكفِيٌ بِأمه فهذه كِفاية الله له .

من أدب المؤمن مع ربه ؛ أن يعلم أن الله سَيُحاسبه غداً على الكبير والصغير، ويُطالبه بالنقير والقِطمير، ومِن وراء عِلم العبد بهذا يُحاسِب نفسه إذا عَلِم أنه سَيُحاسَب، سَيُحاسِب ويحاسب نفسه قبل أن يُحاسبه غيره، ويُطالب قلبه بالقيام بالحقوق قبل أن يُطالبه سواه، ومتى راقب العبد معنى الحسيب، وتجلّى له نور القريب، انبثق في قبله نور فإذا نفسه تُحاسبه على تقصيره في الطاعة، وتُذكِّره بحساب يوم القِيامة.

أرسل رجل مؤمن طعاماً إلى البصرة عن طريق وكيل وقال: بِع الطعام بِسِعر يومه. ولما وصل هذا الوكيل إلى البصرة استدعى التجار ونصحوه أن يؤخِر البيع أسبوعاً فقط ؛ يرتفع السِّعر فأخر أسبوعاً ورَبِح أرباحاً طائلة وبشّر مُوَكِّله بهذه الأرباح وجاء الجواب: ادفع الثمن كله لفقراء البصرة فقد دخل على مالي الشبهة ؛ فهو حبس الطعام لِيزداد سِعره فصار مُحْتَكِراً والمحتكر خاطئ هذا قول رسول الحسيب، وآخر جاءته رسالة أُن قصب السكر قد تَلِف فاشترِ السكر، فذهب إلى السوق واشترى السكر، وبعدها ربح ثلاثين ألف دينار. وبعد ربحه تذكر أنّ هذا الذي اشترى منه السكر ما علِم أن السكر أصابته آفة فباعه بهذا السِّعر فقال له: يا هذا قد جاءتني رسالة من غلامي أن قصب السكر أصابته آفة فَأَقِل هذه البَيْعة، فقال له أنت الآن قد بلّغتني فقال له: كان ينبغي أن أُبَلِّغك قبل هذا وبَطُلَ شِرائي للبضاعة فقال البائع قد سامحتك على هذا، فقال: لن أقبل ولا أنام الليل إلا إذا أقلتني من هذه البضاعة.

فكان سلفنا الصالح يحاسبون أنفسهم حِساباً عسيراً، وهذا رجل تزوج امرأة ثم تزوج عليها خُفيةً، فلما عَلِمت الأولى سكتت ثم مات زوجها فأرسلت نصيب ضرّتِها من الإرث فقالت لها ضرّتها: والله لقد طلقني قبل أن يموت وليس لي عنده شيء. وذاك قال له: يعني هذه الشاة فقال: ليست لي فقال له: قل له

ماتت فقال: والله إني لفي أشد الحاجة إلى ثمنها ولو قلت له إنها ماتت أو أكلها الذئب لصدقني، عند صاحب هذه الشاة ولكن أين الله، هكذا كان السلف.

إخواننا الكرام:

إذا حاسبنا أنفسنا حساباً دقيقاً على الخطوات والهفوات وعلى مستوى القِرش والهفوات، سلمنا وسعدنا كان سيدنا عمر بن عبد العزيز إذا كلمه شخص بقضية شخصية يطفئ السِّراج الذي يوقد من بيت المال، وهذا عمر رأى إبلاً سمينة فقال: لِمن هذه الإبل فقالوا: هي لابن عمر قال: ائتوني به فقال لمن هذه الإبل فقال: هي لي اشتريتها بمالي الحلال وبعثت بها إلى المرعى لِتسمن فماذا فعلت ؟ فقال عمر: **وَيَقول الناس يا بني اِرعَوا هذه الإبل فهي لابن أمير المؤمنين، اسقوا هذه الإبل فهي لأمير المؤمنين، وهكذا تَسْمن إبلُك يا بن أمير المؤمنين، هل علمت لماذا هي سمينة ؟ لأنك ابني، بعْ هذه الإبل وخُذ رأس مالك ورُدّ الباقي إلى بيت مال المسلمين.**

فالله سُبْحانه وتعالى حسيب يُحاسب وحسيب يكفيك ؛ يكفيك أمر الدنيا والآخرة، وحسيب يُشرّفك إذا عرفته ويرفع لك قدْرك، فهذا الدرس إن رفعنا إلى هذا المستوى نكُنْ قد استفدنا منه لأنّ العلم في الدين ليس هدفاً لِذاته وإنما هو وسيلة لِسُمُوّ النفس، بالعمل به فكلمة حسبي الله ونِعم الوكيل تقال عند كل هم وحزن وعند كل موقف عُدواني، أو ناس تآمروا عليك فقُل: حسبي الله ونعم الوكيل. والله هو الذي يُدافع عنك أقوى دِفاع ويرفعك ويُعْلي قدرك وينصرك على خصومك ؛ حسبي الله ونعم الوكيل. فالذين عارضوا النبي أين هم ؟ في مزبلة التاريخ أبو لهب، وأبو جهل، وصفوان ابن أمية. والذين أيّدوه ونصروه أين هم الآن ؟ في روضات الجنات، فإيّاك أن تكون في خندقٍ مُعادٍ للدين ! وأن تتجاوز الحد إيّاك وإيّاك ! الله عز وجل حسيب ورقيب وخبير. قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ (٦٩))

(سورة النمل)

وفي آية أخرى قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذّبِينَ (١١))

(سورة الأنعام)

أحياناً المُكذّب الضالّ المُنحرف المُعتدي والطاغي يُمهله الله لِحِكمة يريدها تأتي ثم التي تفيد التراخي. وأحياناً يبطِش به سريعاً لِحِكمة يريدها فإذا تأخر الجواب وتأخر الجزاء جاءت " ثُمّ " وإن جاء سريعاً ذكرت الفاء التي تفيد التعقيب.

ومن أدعية هذا الاسم: إلهي أنت الكافي لِمن ركن إليك القدير والمُتكفّل لكل من توكل عليك أنت أسرع الحاسبين، وغوث الطالبين، أشْهدني نور اسمك الحسيب، حتى أتحلى بالسر العجيب ؛ فأُحاسِب نفسي

قبل أن أُحاسب، وأُطالبها بالقيام بالواجب قبل أن أُطالب، وحقِقنا بسِر قولك حسبنا الله ونعم الوكيل، واجعلني ممن اهتدَ سواء السبيل، وخَلِقني بمعنى باسمك الحسيب فأقوم بِحوائج إخواني من بعيد وقريب.
إذا ربّيت أولادك فاكفِهم، وإن أطعمت الفقير فاكفِهِ، وإن أعطيت زكاة مالك فأعطِ الفقير حتى يكتفي، الإمام الشافعي يرى كِفايَة العمر كله، أبو حنيفة يرى كِفاية عام. خمسمائة امرأة واقفة أين هويتك ؟ بصمتك كي نعطى مئة أو مائتين، إذا أعطيت فاكْفـِ، وأعطِ عطاءً جزيلاً واجعلني يا رب ممن اهتدَ سواء السبيل،، وخَلِقني باسمك الحسيب فأقوم بإخواني بحوائجهم من بعيد وقريب. حتى أتحقق بالشرف والحسب أنك على كل شيء قدير.

٤٥- اسم الله المقيت :

مع الدرس الخامس والأربعين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم هو المُقيت، فالمقيت اسمٌ من أسماء اللـه الحُسنى.

ورد في الحديث الشريف الذي عدّد الأسماء الحسنى. والقوت ما يُمسك الرّمق من الرزق، وما يُقيت الإنسان، وما يقيم أوَده، وما يجعله يقف على قدمَيه، وما يُعينه على مُزاولة نشاطه، هذا هو القوت، فالقوت هو ما يُمسِك الرّمق من الرّزق ؛ فالخبز من القوت، والحليب من لقوت لكن بعض أنواع الفاكِهة ليس من القوت هناك طعام أساسي وهناك طعام ثانوي فالطعام الأساسي هو القوت، والله سبحانه وتعالى من أسمائه المُقيت.

بعضهم قال: القوت هو ما يُقوّم بَدَن الإنسان من الطعام، ويجعله قائماً. قال ابن عباس رضي الله عنه: المقيت هو المُقْتَدِر ؛ كيف ؟ لأن هذا الإنسان يحتاج إلى طعام، والذي خَلَقه خلق له الطعام، وخلق له توافُقاً بين الطعام وبين جِسمه، وخلق أجهزةً في جسمه تأخذ هذا الطعام وتَمْتَصه، وتستفيد منه. هناك عملية خلق، وعملية توافق، وعملية استِقبال. لِذلك المقيت هو المقتدر عِلماً وقوة، فهذا الحليب الذي تُنتِجه البقرة آلِيّته مُعقدة جداً، خلِيّة الغُدّة لثدييّة يَمُرُّ فوقها أوعية شعرية فيها دم -وكأنها كائن عاقل - تختار من بين فَرْثٍ ودمٍ ؛ من بين الكريات الحمراء ومن بين البولة السائلة التي في الدم، العناصر الأساسية من بروتينات، وموادّ دسِمة ومواد شَحميّة، ومواد مُقَوّية، ومعادن، لِيَكُونَ الحليب منها. فالذي صمّم هذه الكائنات على إنتاج هذا الحليب، ثم توافق هذا الحليب مع جِسم الإنسان، ثم وجود أجهزة في جسم الإنسان تستقبل هذا الحليب، وتهضمه، وتمتصه، وتجعله طاقةً.

فالمقيت هو المقتَدر إذْ أنه خلق ووَفّق، وأفاد، خلق الطعام، ووفّق بينه وبين خصائص الجِسم، وهَيَّأ له أجهزة تمتصه لِتستفيد منه.

فابن عباس يقول: **المقيت هو المُقتَدِر.**

أبو عُبيدة يقول: **المُقيت هو الحفيظ**، ما الذي يحفظ لك هذا الجسم ؟ الطعام والشراب، فَلو انعدم الطعام لأدّى ذلك للمَوت. فَمِن أسماء الله المقيت ؛ وهو الذي يخلق القوت، ويحفظ بِالقوت الإنسان، وهو الذي يقتَدر بِعِلمه وقُدرته على خلق القوت المُناسب، وملاءمته مع الجِسم، وتهيئَة أجهزة تمتصّه. فَصار المقيت: الحفيظ. والمقيت: المقتدر عِلماً وقُدرةً. والمقيت: هو الذي يخلق القوت.

وقيل: المقيت هو الذي يعطي أقوات الخلائق. فَلَو تصوّر الإنسان وسأل نفسه ؛ كم من دابة تُذبح يومِياً لِتوفير طعام البشرية؟ فلو أخذ الإنسان خمسين غراماً من اللحم عِلماً أن عدد سكان العالم خمس مـليارات نسمة فَكم يكون التقدير ؟ والمحاصيل كم طُن ؟ بلادنا المتواضعة التي عدد سكانها إثنا عشر

مليوناً أنتجت ثلاث ملايين طناً. فماذا نقول عن بلاد مثل الصين التي عدد سكانها مليار ومئتا مليون ؟ وماذا نقول عن بلاد مثل الهند التي عدد سكانها أربع مئة وخمسون مليوناً ؟ وكم تُنتِج من قمحٍ ولحم وخضار وفواكه ؟ من خلق ومن صمّم وهيّأ؟ هذا هو معنى المقيت.

وقيل: المقيت: هو الذي يعطي أقوات الخلائق. وقيل: المقيت: هو الذي خلق الخلق وساق لهم الأقوات. لو أن أحداً قدّم لك سيارة ومنعك من شراء البنزين لم تستفد أنت شيئاً ! إذ أنه من لوازم تقديم هذه المركبة إعطاء قسائم للوقود من أجل أن تسير بها، فالتعريف دقيق ؛ هو الذي خلق الخلق، وساق لهم الأقوات. فما دام قد خلق، فقد رزق.

والشيء الدقيق قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكُمْ مِنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ(٤٠))

(سورة الروم)

لم يقُل ثم يرزقكم بل بالفعل الماضي تطميناً لكم. لو أنك أرسلت إنساناً إلى بلد أجنبي، وأمّنت له ما يحتاج إليه لِمدة خمس سنوات دُفْعة واحدة سَلَفاً حتى يطمئن ؛ فجاء الفعل ماضِياً ؛ الله الذي خلقكم ثم رزقكم.

فالمقيت هو الذي خلق الخلق، وساق لهم الأقوات. وهذه الغَنَمة التي خُلِقت خِصيصاً لنا كل شيء فيها ننتفع به ؛ بدْءاً من صوفها، إلى جلدِها، إلى لحمها، إلى شحمها، إلى دُهنِها، إلى عظمها، إلى أحشائها، إلى قرنيها، إلى رأسها ؛ فكل شيء في هذه الدابة ينتفع الإنسان منه، وهي مُصمّمة للإنسان خِصيصاً، ومُصممة كي تتوالد بسرعة كبيرة، وتحوي أجهزة كأجهزة الإنسان تماماً، من أجل أن تُعَلّمه ماذا في أحشائه.

فقيل المقيت: هو الذي خلق الخلق وساق إليهم الأقوات ؛ الله عزّ وجل رب العالمين، وأوْصَل إليهم الضروريات، والكماليات، ورزق قوت الأشباح، وقوت الأرواح – الآن دخلنا بمعنى أوسع –المقيت: ساق قوت الأشباح، وقوت الأرواح. والأشباح جمع شبحٍ وهو الجسم لأنه فانٍ والأرواح: المقصود بها النفس. كما أنه يوجد أقوات للأجساد ؛ هناك أقوات للنفوس، والنفس قوتُها بالاتصال بالله عزّ وجل، قوتُها بالسكينة التي يُنزلها الله على قلوب المؤمنين، وشعورها بأن الله راضٍ عنها، وبمعرفتها بربها وبالعمل الصالح الذي تتألق به ؛ هذا هو قوت النفس.

فالآن كلمة قوت، وكلِمة مُقيت هناك قفزة من قوت الأشباح إلى قوت الأرواح ؛ من قوت الأجساد إلى قوت النفوس، ومن الطعام والشراب إلى العِلم، ومن الفواكِه إلى السكينة، ومن الماء إلى التجلّي الإلهي الذي يهبط على القلب فَيَمْلؤه سعادةً. قالوا: المقيت هو الذي خلق الخلق، وساق إليهم الأقوات، وأوْصَل

إليهم الضروريات والكماليات، ورَزَقَ قوت الأرواح وقوت الأشباح. وقيل المقيت: هو المُتَكفّل. أحياناً الإنسان يُطعِم ولكنه ليس مسؤولاً، ولا مكلفاً، ولا مُلزَماً ؛ لكن الله عز وجل قال:

((وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ(٦))

(سورة هود)

و**" على "** تُفيد الإلزام الطوعي الذاتي والله عز وجل ألزم نفسه برزق العِباد ؛ **" ما من دابة إلا على الله رزقها "** فهو المتكفّل بإيصال الأقوات إلى الخلق.

وذكر الرازي: **المقيت من شَهِد النجوى فأجاب،** وعلِم البَلْوى فكشف واستجاب. فالمقيت هو الذي يخلق القوت، والمقيت هو الذي يحفظ الإنسان من الجوع، والهلاك جوعاً، والمقيت هو الذي صمّم قوتاً يُناسب الجسد، وخلق في الجسد أجهزةً تستقبل القوت، وجعل توافُقاً عجيباً بين بنية الإنسان ومُكوّنات الغِذاء. يُقال أحياناً: هذا الحليب متوافق مع السِّن الفلاني ؛ فهو مدروس مع البروتينات والشحوم والفيتامينات فصار هناك اقتِدار أساسه العِلم والقُدرة. وصار هناك حفظ وإطعام ثم هناك قوت القلوب. وقوت القلوب: معرفة علاّم الغيوب، والاتصال بالله عز وجل.

وقوت القلوب الأمن الذي يملأ الله به قلب عبده المؤمن، والمؤمن ممتلىء قلبه أمْناً، وممتلئة نفسه سكينةً ورِضاً واطمِئناناً ؛ هذا هو قوت القلوب.

وكلكم يعلم أنه تمر على الإنسان فترات يذهب أين شاء ويأكل ما يشاء ويستمتِع بطيبات الحياة الدنيا، ومع كل هذا الاستِمتاع يشعر بجوع روحي، يريد أن يتصل بالله، وأن يرضى الله عنه، فإشباع الجسد لا يُغْني الروح شيئاً، فروحك ونفسك بأمسّ الحاجة إلى قوتٍ خاصٍ بها. فلو أن شخْصاً صلى صلاة مُتقنة وانهمرت دموعه في الصلاة، أو قرأ القرآن فَشَعر بسعادَةٍ كبرى ؛ يشعر بالريّ، ويشعر بالاكتِفاء، وأنّ الله عز وجل قبِله، وأقبل عليه، وتجلّى على قلبه، وأنزل على قلبه السكينة، وكأنه حَفِظَهُ، وكأنه غَفَرَ له وهذا هو قوت القلوب.

مثلٌ آخر أقرب ؛ لو أنّ أباً في البيت، كلُ ألوان الطعام موجودة، وكل ألوان الألبسة موجودة، لكنه لا ينظر إلى ابنه إطلاقاً ولا يُكلّمه فهل يكتفي هذا الابن بالطعام الذي يأكله في البيت، وبالشراب اللذيذ، وباللباس الجيد ؟ لا يمكنه ذلك، لأنّ الابن بحاجة إلى ابتسامة من أبيه، وإلى كلمة عطف، وبحاجة إلى أن يضع الأب يده على كَتِف ابنه، وإلى أن يضمُّه ؛ فالضَمّ ليس طعاماً، وبحاجة إلى أن يُقَبّله أبوه، والتقبيل ليس طعاماً. ووضع يده على كتِفِه ليس طعاماً، وكذلك على رأسه، وأن يبتسِم في وجهه ليس طعاماً، أليس الطِّفل الصغير بحاجة ماسة إلى قوت من نوع آخر، يُسمّيه المربون: أن يستَقِيَ الحنان من أمّه وأبيه، وأن تضُمَّه أمه إلى صدرها، وأن يضعه أبوه في حجره، وأن يبتسم في وجهه، وأن يُضاحكه، وأن يُداعِبه، وأن يُلاعِبه، فهذه حاجة أساسية بالإنسان. وكلما ارتقى الإنسان تصبح حاجته

إلى هذا القوت المعنوي أشدّ من حاجته إلى القوت المادي. والإنسان عندما يقوى إيمانه لا يرى سعادةً أكبر من أن يشعر أن الله تعالى يُحِبُّه، وأنه في عَين الله ورعايته وتوفيقِه، ونحن بحاجة إلى قوت القلوب.

وحينما يفتقِر القلب إلى القوت يتصحّر لأنّ الحياة منعدمة، أحياناً البكاء يجعل الإنسان يشعر بسعادة، وإن أرقى بكاء الإنسان أن يبكي بكاء الرحمة، اُدخل لِعالم الإيمان وإلى عالَم القُرب من الله. كنت أدعو في بعض الأدعية: اللهم أخرجنا من وُحول الشهوات إلى جنات القُربات، القُرب جنة ؛ العِفّة والاستِقامة والصدق والأمانة والضبط وأداء العِبادات وتِلاوة كتاب الله، هذا قرب، وهذه جنة، أخرجنا من وُحول الشهوات إلى جنات القُربات. فإذا أكل الإنسان أطيب طعام حتى امتلأ بطنه، ونال من المباحات ما يشاء. وبعدئذٍ يشعر بالفراغ ويشعر بالملل والسّأم، لأنّ هذه الدنيا صغيرة ولا تُملأ قلب الإنسان، ولا تُملأ نفسه اللا متناهية ؛ فهذه

لا يملؤها إلا القُرب من الله عز وجل. فأخذ القوت معنىً آخر، فأصبح لدينا قوت للقلوب، وقوت للأجسام. فقُوت الأجساد الطعام والشراب، وقوت القلوب معرفة الله والإقبال إليه والقُرب منه، لذلك أكبر عِقاب يُعاقب به الإنسان يوم القِيامة قوله تعالى:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥))

(سورة المطففين)

لو فرضنا أباً على مودّة بالغة مع ابنه لو قال له: أخرج ولا ترني وجهك**!** والله هذا القول هو أكبر عِقاب للذي يملك حساسية والذي هو مدلل.

وفي بعض المعاجم المقيت هو الحفيظ. والحفيظ على وزن فعيل صيغة مبالغة، يعني حافظ وحفيظ شديد الحفظ، والمُقتَدِر عِلماً وقُدرةً، والقدير والمُقدِّر. فالأغذية متوازنة بدِقة بالِغة، ذكرت لكم من قبل أنّ الطفل الصغير إذا ماتت أمه قبل أن تُرْضِعه، أو طُلِّقت، أو خافت على رشاقتِها فلم تُرْضِعه وأسقَيْناه حليب البقر المعقم، هناك مُضاعفات خطيرة تحدث معه في المستقبل، لأنّ المادة البروتينية في حليب البقر أربعة أمثال ما تحْتَمله أجهزة الطفل الصغير لذلك يُصاب بآفات قلبية، وآفات وعائية، وآفات في الكبِد والكُليَتين، وتُعزى بعض الآفات القلبية والوعائية والكبِدية والكَلَوية ؛ إلى أن الطفل حُرِم الرّضاع من أمه، هل تُصَدّقون أن حليب الأم يتبدل تركيبه في أثناء الرضعة الواحدة ؟ والآن كل معامل أغذية الرُّضع، مكتوب على عَبْواتها لا شيء يُعادل حليب الأم في الدرجة الأولى، إذاً هناك تقدير وقدرة وعِلم وحِفظ.

وردت كلِمة المقيت في القرآن الكريم مرةً واحدة، في سورة النِّساء قال تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥))

(سورة النساء)

أي حفيظاً ويحفظ لكم أعمالكم كلها.

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً)

دَللْتَ إنساناً على الله، أو دَلَلْتَه على أخ مؤمن، أو عرّفته بأخٍ صادق، شفعْتَ شفاعةً حسنة أيْ: نَتَجَ عنها خيرٌ عميم.

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً)

َدللته على معصية أو مُخالفة أو على أسلوب لا يُرضي الله في التعامل، شفعْتَ له شفاعةً سيّئة، قال تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا)

له: اللام هُنا لام الملكية:

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا)

سَيَدفع نصيبه من هذا الأذى الذي سبّبه بشفاعتِه.

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥))

أيْ أنّ الله عز وجل يعلم كل شيء، ويُسجّل كل شيء،ويحفظ كل شيء، ويحفظ لك شفاعتك الحسنة أو شفاعتك السيئة. أحياناً تجد شخصاً ينصح آخر أن يرسِل ابنه إلى بَلد أجنبي وابنه مُراهق وفي مقتَبل العمر وهناك فساد كبير فالذي يحصل في هذه البلاد في صحيفة من نصح، لذلك قال تعالى:

(وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

(سورة الكهف الآية: ٢٨)

فأيّ نصيحة تُؤدي إلى المعصية ؛ فهذه هي الشفاعة السيئة أية نصيحة تؤدي إلى منفعة ؛ فهي الشفاعة الحسنة، قال تعالى:

(مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتاً (٨٥))

(سورة النساء)

فإذا نصحت أحداً أن يحضر مجلِس علم فكل خير يتأتى من هذا المجلِس في صحيفة الناصِح، ونصحتَ آخر على أكبر قِياس حتى يتحصل على مئتي محطة تِلفِزيونية فكل سقوطِه في الليالي الطويلة وراء هذه الأجهزة في صحيفة الناصح، تجده يقول لك: هذا الهوائي صغير حدّه سبعون نريد مئتين قال تعالى:

(وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا)

حفيظ أي مقتدِرٌ وحافظٌ وشاهدٌ وشهيدٌ.

وردت مادة القوت في سورة فصّلت ؛ نحن عِندنا كلمة وعندنا مادة، والمادة في اللغة مثلاً عين لام ميم مادة العِلم، هناك عِلم يعلم إعلم عالم معلوم معلم علامة تعليم، فمادة علِم تحوي اسم فاعل، واسم مفعول، واسم مكان، واسم زمان، واسم آلة، واسم تفضيل وصيغة مشبهة باسم الفاعل، وفعل الأمر، وفعل المضارع، وفعل ماضٍ مجرد ومزيد ؛ كل هذه الكلمات أعضاء أسرة لِجدٍ واحد مادة علِم، فكلمة مقيت وردت مرةً واحدة في القرآن الكريم قال تعالى:

(وَكَانَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا)

أما مادة القوت وردت مرة واحدة في سورة فصلت:

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ (١٠))

(سورة فصلت)

أربعة أيام أي في أربعة فصول ؛ لولا مَيْلُ المِحوَر لما كان هناك فصول ! لو أن الأرض مِحورها عمودي على مستوى دورانها لكانت الفصول ثابتة هنا صيف سرمدي لوجود شمس والأشعة هنا عمودية، وهنا خريف وربيع سرمديان إلى الأبد، أما ميل الأرض هكذا، والشمس من هنا، هنا عامودية فهنا صيف، وهناك مائلة شتاء، فلما عكست الآية صار هنا عامودية، وهناك مائلة، فَمِيْل المِحور جعل تقلّب الفصول وهذا هو قوله تعالى:

(وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ)

وبعض العلماء فرّقوا بين اسم المقيت، واسم الرزاق قالوا:

" المقيت: هو خالق الأقوات، وموصِلها إلى الأبدان وهي الأطعمة، وإلى القلوب وهي المعرفة، قوت القلوب المعرفة وقوت الأبدان الأطعمة ؛ خلقها ووفقها وأوصلها وانتفع الجِسم منها "، عملية معقدة. أحياناً تكون أمامك علبة لحم لكنك لا تستطيع أن تفتَحها فأنت لم تستفِد شيئاً، لكن الطعام الذي خلقه الله عزّ وجل يتوافق بشكل عجيب مع حاجات الجسم، وبشكلٍ أشد عَجَباً مع طبيعة الأجهزة التي تستقبِله. قال: **" إن المقيت هو خالق الأقوات، وموصِلها إلى الأبدان وهي الأطعمة، وإلى القلوب وهي المعرفة "** إلاّ أنه أخص من الرزاق إذ الرزق يتناول القوت وغير القوت قال تعالى:

(وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢))

(سورة الواقعة)

الرزق يتناول القوت وغير القوت ؛ لكن العلماء الآخرين قالوا: **" هناك قوتان ؛ قوت للروح وقوت للجسد ".**

ومن معاني المقيت ما يكتفي به في قِوام البدن ؛ أكل لُقمتين فِشبع واستطاع أن يمشي فهو بهذا الطعام استطاع التحرك.

ومعنى مقيت أي ؛ مُستولٍ على الشيء القادر عليه. تقول: مُقيت على هذا البيت بمعنى مُتَمَلِّك على زمامه، أو مُطّلِع عليه وقادِر على فهم كل خباياه. فإما قدرة، أو عِلم، أو حِفظ، أو إطعام.

وقال بعض العلماء: **" المقيت بمَعنى الرزاق إلا أنه أخص منه "**، فأنواع البهارات هذه ليست قوتاً ؛ ولكن تُحَسِّن الطعْم. وهناك قلوبات كما يقولون وهي كذلك ليست طعاماً ولكن تُحسن طعْمه. أنواع الفواكه كذلك فهناك أنواع لذيذة الطعم ؛ ولكنها ليست قوتاً ولكنها مبالغة في الإكرام.

يمكن أن نسمي خالق هذه الأطعمة التي لا يحتاجها الإنسان يمكن أن تنطوي تحت اسم الودود. ويمكن أن تنطوي الأطعمة الأساسية تحت اسم المقيت. يمكن أن يدعوك شخص إلى الطعام، ويُقدم لك نوعاً واحداً، ويمكنه أن يضع لك أنواعاً من حلويات، ومقبلات، وأزهاراً على الطاولة؛ هذا كله يزيد على حاجة الإنسان. فصار هناك مقيت، و ودود. فهناك أطعمة تنطوي تحت اسم الودود وهناك أطعمة تنطوي تحت اسم المقيت.

الآن مع أدب العبد مع اسم المقيت. ما علاقتنا بهذا الاسم الجليل ؟، قال: الأدب الأول أن لا يقبل إلا الحلال الطيب ؛ فالله يُطعِمنا فلا ينبغي أن تأكل إلا الحلال الطيّب. هناك قاعدة: لدينا شيء حرام لِذاته، وهناك شيء حرام لِغيره ؛ فأكْل الإنسان لحم الخِنزير، هذا حرام لِذاته أي لِذات الخِنزير. و أن يأكل لحم الغَنَم دون أن يدفع الثمن هذا حرام ولكن ليس لِذاته وإنما لِغيره. فالحُرْمة الأولى حُرمة لِذات الشيء، والحُرمة الثانية حُرمة لِغَير ذات الشيء وإنما لِطريقة تناوُلِه. وإن كان الطعام الذي خلقه الله قد خلقه لنا إلاّ أننا لابُدّ أن لا نأكل منه إلا حلالاً بكَسْبٍ صحيح مشروع.

فَمن أدب المؤمن مع اسم المقيت أن لا يقبل إلاّ الحلال الطيّب ؛ لِيَرتَفِع عند الله ذِكره، ويعظم أجره.

هناك حديث للنبي صلى الله عليه وسلم جامِعٌ مانِع:

((يا سَعْدُ أطِب مطْعَمك تكن مُسْتَجاب الدعوة.))

(رواه الطبراني)

فالمال الذي بِحَوْزَتِك ينبغي أن يكون حلالاً. فإذا كان حلالاً.

تشتري به طعاماً، عند الله هو طيّب. وإذا أكلت طعاماً طيّباً لأن ثمنه حلال بمعنى أن كسبه مشروع، خالٍ من الكذب، والغِش، والتدليس، والاحتِكار، ليس فيه تغيير مُواصفات، ولا إيهام، ولا حلْف كاذب، إذا كان الأصل حلالاً -مادةً وطريقة-كان المال حلالاً والطعام الذي تشتريه به طيّباً ؛ عِنْدئذٍ أطِب مطْعَمك تَكُن مسْتَجاب الدعوة.

رُوي أن سفيان الثوري: كان يتحرّى الحلال من الرزق، حتى كان أولاده يُعانون من الفقر فجاءه رجل موسِر بِصُرّة مالٍ وقال له: إن هذا مالٌ حلال ورجاه أن يقبله منه فقبِله سفيان. وبعد قليل ردّ المال إلى صاحِبه فقال أحد أبناء سفيان لأبيه: يا أبتِ أليس لك أولاد بحاجة إلى هذا المال ؟ فقال له سفيان: أتُريد أن تأكل وتتنعّم وأبوك يُسْأل عنه يوم القِيامة؟ أكاد أن أقول: إن تِسْعة أعشار الدين أن يكون الرزق حلالاً.

فأيُّ كسْبٍ للمال ؛ المادة مشروعة، والحديثُ فيه صِدق، ووفاء بالوعد، ودِقة للسعر، ونصيحة للشاري، ولا تدليس، ولا غِش، ولا كذب، ولا احتِيال، ولا مُبالغة، ولا تغيير مواصفات، وكل شيء مشروع صار هذا المال الذي تكسِبه مالاً حلالاً، وينفعك نفعاً لا حدود له، ويُبارِك الله لك فيه برَكَةً ما بعدها بَرَكة.

هناك أدب آخر، ذكر بعض العلماء أن من أدب هذا الاسم أنّه إذا أتاك الغَداء أن تشاهد المُنعِم من خلال النِّعمة ؛ فكلنا نأكل لكن إذا جلس الإنسان لِيأكل ورأى كأس شاي: من خلق الشاي بهذا الطعم الطيّب ؟ ومن خلق السكر ؟ ومن جعل الماء صافِياً ؟ ومن خلق شيئاً نوقِده أي نجعله يغلي ؟ فهذا الخبز: من خَلَق القمح ؟ وهذا الجُبن، وهذا اللبن، وهذا الزيتون من صمّمه؟ ؛ شجرة مُباركة. أكلتَ أرزاً من صمّم هذا المحصول ؟ أكلتَ فاكهةً، فإذا كان الإنسان مع الله يتأثر دائماً، لا يرى حين جلوسه إلى المائدة إلا نِعمة الله ؛ وهذا شعور راقٍ جداً، ولذلك يبدأ الإنسان بالبَسملة، ويحمد الله على هذا الطعام الذي خلقه الله له.

أحياناً: الإنسان: المئة ألف ليرة لا تساوي عنده رغيفَ خبز، فالإنسان أساس حياته الطعام والشراب ؛ فإذا حُرِمَهما وكان معه المال الوفير فهذا لا يساوي عنده ولا شيئاً. إذا كان الإنسان في الصحراء وكاد يموت جوعاً حانت منه التِفاتة فرأى بِركَة ماءٍ عن بُعدٍ فأشرق في نفسه نور الأمل، فلما وصل إليها شرب حتى اِرتوى. ثم حانت منه اِلتِفاتة فإذا بِكيسٍ مملوء، كاد يختل عقله من شدة فَرَحه، ظن أن فيه خبزاً، فلما فتحه لم يجد فيه إلاّ لآلىء فصاح واأسفاه هذه لآلىء ! إذْ إنه كان يتمنى الخبز. فاللؤلؤ بالمدينة له قيمة أما إذا كان بالصحراء وكاد يموت عطشاً ؟، فكأس الماء لا يعدِلُهُ شيء حتى إن وزراء بعض الخلفاء قال له: يا أمير المؤمنين بكم تشتري هذا الكأس من الماء إذا مُنِع عنك ؟ قال: بنصف ملكي قال: فإذا مُنِع عنك إخراجه قال بنِصف ملكي الآخر. هناك نِعم مشتركة لا أحد يعرف قيمتها ؛ فهناك ماء تشربه، وهذا الماء يخرج بيُسرٍ بلا انحِباس. وهناك طعام تأكله، وهذا الطعام تتمثّله ويخرج بلا انحِباس،

فتَلَقي الطعام والشراب، وخروج الطعام والشراب بشكلٍ مَيْسور هذه نِعمة لا يعرفها إلا من فقدها. إذاً: من أدب هذا الاسم ؛ أنه إذا أُتِيَ لك بغِداء تشهد المقيت الواسع، ومتى عَشِقَتْ روحُك المقيت فَنِيْتَ

في أنواره، واجتَهدْتَ في أذكاره، فتَأكل الطعام ويتجلّى لك واسِع الإكرام. النبي صلى الله عليه وسلم علّمنا أن نأكل ببُطء وأن نأكل ونذكر الله مع الأكل، وقال عليه الصلاة والسلام:

أخرج العقيلي والطبراني في الأوسط عن عائشة رضي الله عنها عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((أذيبوا طعامكم بذكر الله والصلاة، ولا تناموا عليه فتقسَو قلوبكم))

لأنّ الإنسان إذا ذكر الله وهو يأكل ذكر نِعَمه العظيمة، أحياناً يشتهي الإنسان أن يأكل طعاماً تجد أفقر الناس هم الذين يأكلونه، إذا صار اِلتهاب المفاصل مع شخص مُنِع من أكل الحُمص والفول، وبعض أنواع اللحوم عِندئذٍ يرى صحن الحمص أثمن صحن بالحياة، فَحِينما يُمنع، يشتهيه. لذلك عندما يأكل الإنسان من دون قيود ؛ فهذه نِعمة لا يعرفها إلا من فقدها. فالمؤمن إذا جلس ليأكل ينتقل من النعمة إلى المُنعِم، ومن القوت إلى المقيت. ومن هذا الإكرام إلى المُكَرِّم.

من التخلّق بهذا الاسم الكريم ؛ أن لا تطلب حوائجك إلاّ من الله تعالى، لأنّ خزائن الأرزاق بيَدِه. فعلى الإنسان أن يسأل حاجته ربّه كلها فهناك أشخاص تهون عليهم نفوسهم، ويبذلون ماء وجوههم لغير الله عزّ وجل لكنّ المؤمن لا يسأل إلاّ الله عز وجل.

ورد في الحديث الصحيح:

((أن يا موسى اسألني كل شيء حتى شِرْك نعلك ومِلح قِدرك..))

فأول أدب من اسم المقيت أن تتحرى الحلال الطيّب، والأدب الثاني ؛ أن تنتقل من القوت إلى المقيت، ومن النعمة إلى المُنعِم، والأدب الثالث ؛ أن لا تسأل حاجتك إلاّ الله تعالى.

بعض العلماء يذكرون أنواعاً من القوت ؛ منهم من جعل اللهُ قوتَه في المطعومات ؛ فهذا يعيش لِيأكل. حياتُه كلها طعام وشراب. ومنهم من جعل اللهُ قوتَه في الطاعات وهمّه طاعة الله عز وجل. ومنهم من جعل اللهُ همّه وقوتَه في المكاشفات والمشاهدات. فهناك إنسان يأكل، وآخر يُطيع، وآخر يُقبِل، فالإقبال قوت، والطاعة قوت، والطعام قوت.

وقد قال عليه الصلاة والسلام **أبيت عند ربي يطعِمني ويسقين.** لكنه طعام من نوع آخر. برَبّكم هناك جلسات - وأنا أعرف ذلك - مباركة وطيّبة وفيها تجلّي تخرج منها وأنت منتَعِش، وأنت في أعلى درجات السعادة فهذا قوت.

قال عليه لصلاة والسلام:

((عَن الأغَرّ أبي مُسْلِمٍ أنّهُ قالَ أشْهَدُ عَلى أبي هُرَيْرَةَ وَأبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيّ أنّهُمَا شَهِدَا عَلى النّبيّ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ أنّهُ قالَ لا يَقْعُدُ قوْمٌ يَذْكُرُونَ اللّهَ عَزّ وَجَلّ إلا حَفّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرّحْمَةُ وَنَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السّكِينَةُ وَذَكَرَهُمُ اللّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ))

(رواه مسلم)

فهذه الجلسات التي فيها ذكر الله وفيها صفاء وإخلاص وتواضع هي من القوت الذي ذكره بعض العلماء.

قال بعض العلماء: **" القوت ذِكْر الحيّ الذي لا يموت "**، وعلماء آخرون قالوا: **" إن الله جعل أقوات عِباده وخلقه مختلفة ؛ منهم من جعل قوته الأطعمة والأشربة على اختِلاف أنواعها، وهم الآدميون وبعض الحيوانات. ومنهم من جعل قوته الطاعة والتسبيح وهم الملائكة. ومنهم من جعل قوته المعاني والمعارف وهي العقول التي في الأجساد. وفي العقل "**، نِظام يجمع المحاسن كلها.

ورد في الأثر:

((أن جبريل عليه السلام جاء إلى آدم عليه السلام وقال له: إني آتيك بثلاثة أشياء فاختر واحدةً منها. فقال آدم: ما هي ؟ قال هي العقل والدين والحياء قال: اخترتُ العقلَ فقال جبريل للدين والحياء انْصَرِفا فقد اختار العقل، فقال الدين والحياء معاً: إنا أمِرنا أن نكون مع العقل حيث كان.))

بقي أن نعلم أيها الإخوة أنّ العبد إذا اشتغل بطاعة الله عزّ وجل، سَخّر له من يعينه على تأمين حوائجِه كلها. وأما من شُغِل بِشهواته، أوْكَله الله إلى ذاته. فالإنسان المشغول بِذِكر الله عز وجل قوتُه مُؤَمّن وحاجاته مُيَسّرة. وهم في مساجدهم والله في حوائجهم، وأما الذي يشتغِل بشهواته، يَكِله الله إلى ذاته - والإنسان ضعيف -وعندئذٍ يقع في حَيْرة وشُغلٍ وعناء، يقول عليه الصلاة والسلام في بعض أدعيته:

((اللهم اجعل رزق آل محمداً قوتاً))

وفي رواية: **كفافاً** فيما رواه عن أبي هريرة.

(رواه مسلم)

((اجعل رزق آل محمداً قوتاً))

وقال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُضَيِّعَ مَنْ يَقُوتُ))

(رواه أبو داوود)

فأكبر إثمٍ ؛ أن تُضيّع أولادك، وأن تضيّع نفوسهم، فلا تُعَرّفهم بربهم وأن تُضَيّع أجسادهم فتُهْمِل إطعامهم وكِسْوتهم ومُعالَجتهم، فالعِناية بالأولاد من أجَلّ العِبادات ؛

((كفى بالمرء إثماً أن يُضَيّع من يقوت))

و:

((اللهم اجعل رزق آل محمدٍ كفافاً))

إخواننا الكرام: اسم المقيت كل يوم ثلاث وَجْبات، وبكل مجلِس علم هناك مقيت، أنت في البيت تأكل الطعام والشراب ؛ ينبغي أن ترى أن هذه مائدة الله عزّ وجل. والأكمل أن تُفَكّر في كل أنواع الطعام، كيف خُلِقت ؟ وكيف نَمَت ؟ وكيف طُبِخت ؟ وكيف عولِجت ؟ فَيَجِب أن تعبّر النِّعمة عن المُنعِم، والقوت عن المقيت. وإذا دخلت المسجد ؛ فَهُناك قوت آخر. لعِلم قوت القلوب والاتصال بالله قوت، والعمل الصالح قوت فالله عزّ وجل يُقيت الأشباح بالطعام، ويُقيت الأرواح بالعلم والمعرفة ونحن عالّة على المقيت جلّ جلاله، خَلقنا وخلق لِهذا الفَم ما يملؤ هو خلق أنفسنا وخلق لِهذه الأنفس ما يُسْعِدها، فنحن بين لذّة الطعام، ولذّة القُرب من الله عزّ وجل. وهذا الاسم المقيت يدور مع الإنسان مادام حياً. لذلك النبي صلى الله عليه وسلم تَعظُم عنده النِّعمة مهما دقّت، وكلما عرفت اسم المقيت تحترِم هذه النِّعمة التي بين يديك، **" يا عائشة أكرمي مُجاورة نِعم الله فإن النِّعمة إذا نفرت قلّ ما تعود، يا عائشة أكرمي مُجاورة نِعم الله فإن النعمة إذا نفرت قلّ ما تعود "**، وقال تعالى:

(وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧))

(سورة إبراهيم)

وقال تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا)

(سورة إبراهيم)

أي أنتم عاجزون عن إحصائها ؛ فلأن تكونوا عاجزين على شكرها من باب أولى لأن الإحصاء سهل، فلو جاءتك مئة هدِية في مناسبة ولادة، جلوسك ربع ساعة يكفيك لِكتابة كل ما جاءك من هدايا، أما أن ترد كل هدية بِثمنٍ يُقابِلها ؛ فهذه تحتاج لِجهدٍ كبير. فالله عزّ وجل أشار إلى أننا عاجزون عن إحصاء النِّعم بل إننا عاجزون عن إحصاء نِعمةٍ واحدة فلأن نكون عاجزين عن شكرها من باب أولى.

٤٦- اسم الله الجليل :

مع الاسم السادس والأربعين من أسماء الله الحسنى: والاسم هو الجليل، أكثر الإخوة المؤمنين ؛ إذا قالوا الله، قالوا بعدها جل جلاله. وذلك من أدب المؤمنين مع ربّهم وسلامة فطرتهم، وفي اللغة: جَلّ يَجِلُّ أيْ عظم قدره ؛ والجليل من له الجلالة والعِزّ والغنى والنزاهة، والجليل: هو العظيم الذي يتنزه عما لا يليق به. والجليل: كاشف القلوب بأوصاف جلاله -قد يطّلِع قلب المؤمن، قد يكشف قلب المؤمن بإذن الله عن بعض أوصاف جلال الله -فهو سبحانه يكشف للقلوب المنيبة بعض أوصاف جلاله، ويكشف للأسرار بعض نعوت جماله. وكل ما في العالم من ؛ جلال وكمال وحسنٍ وبهاء ؛ فهو من أنوار ذاته، وآثار صِفاته. كلمة جلّ جلاله: أيْ عظم قدره وتنزّه عما لا يليق به.

وقال بعض العلماء: **" الجليل: هو المستَحِق للأمر والنهي، فهو وحده الذي يأمر وينهى، هو الذي يُشرّع. والجليل، هو الذي يصغُر دونه كل جليل، ويتّضعُ معه كل رفيع ؛ ".**

وقيل الجليل: الذي جلّ قدره في قلب العارف بالله. الجليل: هو الذي جلّ قدره في قلوب العارفين -لو شققتَ على قلب المؤمن لرأيت فيه تعظيماً لله لا حدود له وخشية لله لا حدود لها - ولقد عظم خطره في قلوب المحبين يعني:

لو قال تِيهاً جُز على جمر الغضا لمررتُ ممتَثِلاً ولم أتوقفِ
أو كان من يرضى بخَدّيَ مَوطِنا لَوَضَعْتهُ أرضاً ولم اسْتنكف

***

هذا إذا كان إنسانٌ يحب مخلوقاً، فكيف إذا كان المحب محباً لله عز وجل ؟ قال العلماء: هو الذي جلّ قدره في قلوب العارفين، وعظم خطره في نفوس المحبين، الجليل هو المستحق للأمر والنهي الذي يصغر دونه كل جليل، ويتّضع معه كل رفيع، كاشف الأسرار بنعوت جماله.

أيها القارىء الكريم ؛ والجليل هو الذي جل في علوّ صفاته، وتعذّر بكِبريائه أن يُعرَف كمال جلاله ؛ فعَظَمته أعظم من أن تُعرف، أو أن يُحاط بها. أحياناً تلتَقي بإنسان عِدّة لِقاءات فتكشِف بها كل جوانبه، وتسْتَوعِب كل إمكاناته لكن لا يمكن لِمخلوقٍ أن يحيط بِقدْر الله عز وجل. ولقد تحدّث بعض الأئمة عن الفرق بين الجليل، والكبير، والعظيم.

فذكر الإمام الغزالي **" أن الجليل: هو الموصوف بِنُعوت الجلال -ونعوت الجلال، الغِنى، والمُلك، والتقديس، والعلم، والقدرة".** فهُناك بعض الصِّفات تُحدِث في النفس تعظيماً. الجليل: هو الموصوف بنعوت الجلال، والجامع لِصفاتها جميعها، وهو الجليل المطلق، والجليل المطلق هو الله تعالى. والكبير: هو الذي يرجع في صفاته إلى كمال الذات. فهناك كمال للذات وكمال للصفات - مجموع الصفات التي

ترتبط بكمال الذات: الكبير. ومجموع الصفات التي تتعلق بكمال الصفات: الجليل. وأما العظيم: فهو الذي جمع صفات كمال الذات، وصفات كمال الأفعال.

إنّ الإنسان حينما يذكر الله سبحانه وتعالى يحب أن يُعَبِّر عن تعظيمه له فكان هذا الاسم جل جلاله حيث ما ذُكِر اسم الله العَلَم على الذات يُذكر بعد اسم الذات أي يقول المؤمن بعد اسم العَلَم على الذات كلمة الجليل أو كلمة جلّ جلاله.

حينما يُدْرِك الإنسان الصِّفات الظاهرة بِعَيْنِه فهذا هو البصر ؛ بِبَصَرك تدرك الجمال الظاهر، وبِبَصيرتك تُدْرِك الجمال الباطن. أحياناً تستمتِع بفِعلٍ كامل ؛ هو في حدِّ ذاته جميل والجمال ليس متعلِّقاً بالنواحي المادِّية فَحَسْب، بل قد يمتدّ إلى النواحي المعنوية، فالمَوقِف الكامل، هو من زاوية موقِف كامل ومن زاوية أخرى هو موقِفٌ جميل. تقول: فُلان يتمتَّع بجمال الخُلق. لذلك قال بعض العلماء: إن صِفات الحق أقسام ؛ صِفات الجلال وهي العظمة والعِزّة والكِبرياء والتقديس، وكلها ترجع إلى معنى الجليل، وصِفات الجمال ؛ وهي صِفات اللُّطف والكرم والحنان والعَفْو والإحسان ؛ وهذه هي صِفات الجمال.

إذا اجتمعت أيها القارىء الكريم ببعض من ذهبوا لأداء فريضة الحج يقولون لك: كنت وأنا في مكة المكرّمة أشعُر بالجلال، فإذا ذهبت إلى المدينة المنوّرة أشعر بالجمال، فهناك صِفات الجلال، وصِفات الكمال. صِفات الجلال ؛ صِفات العظمة والعِزّة والكِبرياء والتقديس، كلها ترجع إلى معنى الجليل. وصِفات الجمال؛ هي صفات اللُّطف، والكرم، والحنان، والعَفْو، والإحسان، وكلها ترجع إلى معنى الجميل.

يقول بعض العلماء: صِفات الكمال هي الأوصاف الذاتية التي دونها جميع العقول والأرواح، مثل اسمه القدوس، وصِفات ظاهرها جمال وباطِنها جلال مثل اسم المُعطي المُنعم، وصِفات ظاهرها جلال وباطِنها جمال مثل اسم النافع والضار، سأُوَضّح هذا بِشكلٍ مُفصّل:

إن الإنسان إذا أخذ من عطاء الله ولم يستَقِم على أمر الله، ولم يُوَظِّف هذا العطاء في الحق فوراء هذا جلال، أي قد يكون هناك عِقاب، أو شيء يدعو إلى الخوف. وهناك صِفات ظاهرها جلال، وباطِنها جمال ؛ أحياناً ربنا يوقِع الضّرر بإنسان لكن هذا الضرر ينتهي به إلى التوبة، والإقبال على الله. فالله سبحانه وتعالى له صِفات جلال، وله صِفات جمال، وله صِفات ظاهرها جلال وباطِنها جمال، فإذا أعطاك فهذا شيء جميل لكن إذا لم يكن مع هذا العطاء استِقامة سيكون بعد هذا العطاء تأديب. فيأتي الجمال أولاً والجلال ثانياً. أما إذا جاء التأديب فالإنسان يخاف، ويشعر بالرهبة، وأنّ الله تعالى كبير، وأنه ينبغي أن يُرْهَب جانبه، وبعد هذه الرهبة يأتي الجمال.

لذلك قالوا: حينما نقول الضار النافع، والمعطي المانع، والخافض الرافع، والمعز المذل ؛ هذه الأسماء ينبغي أن تُذكر معاً لأن الله سبحانه وتعالى لا يضر إلا لِيَنْفع، ولا يأخذ إلا لِيُعطي كما ورد في بعض الأحاديث:

((إن هذه الدنيا دار اِلْتِواء لا دار استِواء، ومنزل تَرَح لا منزل فرح، فمن عرفها لم يفرح لِرخاء ولم يحزن لِشقاء))

قد جعلها دار بلوى، وجعل الآخرةَ دارَ عقبى، فجعل بلاء الدنيا لِعطاء الآخرة سبباً، وجعل عطاء الآخرة من بَلْوى الدنيا عِوَضاً فيأخذ لِيُعطي، ويبتَلي لِيَجزي.

ينبغي أن تعتقد كما ورد في القرآن الكريم أن أسماء الله تعالى كلها حُسنى، حتى اسم الجبّار، القهار المنتقم هي أسماء لله حُسنى، لو عرفت حقيقتها لذابت نفسك محبّة لله عز وجل لكن هناك أسماء متعلِّقة بالجلال وأخرى بالجمال وهناك أسماء ظاهرها جلال وباطِنها جمال، وله أسماء ظاهرها جمال وباطِنها جلال والعكس.

يقول بعض العلماء: **" الجليل هو المستحق لأوصاف العُلُوّ والرِّفعة."** ويقول بعض العلماء: **" واعْلَم أنه تعالى يُكاشِف القلوب مرّةً بوَصف جلاله "** فأحْياناً يشعر الإنسان بحالٍ طيّبة وسُرور وانْطِلاق وبِفَرْحة ؛ فالله جل جلاله يتجلّى عليه باسم الجميل. وأحياناً يشعر بالخوف والقلق على مصيره هل له عند الله المكانة التي يتمناها ؟ وهل عملُه كما يُرضي الله عز وجل ؟ وهل نواياه بالشكل الذي يرضى الله عنه ؟.

أحياناً يقع الإنسان في موقف أقرب إلى الخَشْية منه إلى الطُمأنينة فإذا تجلى الله على الإنسان باسم الجليل امتلأ القلب خَشْيَةً. وإذا تجلى الله على عبده باسم الجميل امتلأ القلب فرحةً، وربنا عز وجل يُقَلِّب هذا القلب البشري بين الخشية وبين الطُمأنينة، إن ازدادت طمأنينته يُخيفُه، وإن ازداد خوفه يُطَمْئنه، قال تعالى:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٢١))

(•سورة النور)

هناك منهج وكِتاب مبارك وسنة وهناك آيات تدل على عظمة الله، كل هذا شيء طبيعي ولكن لولا أن الله يتولى بِمُعالجة القلب بِشَكلٍ مستمر لما زكا من عباده من أحدٍ أبداً قال تعالى:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ)

كل إنسان قريب من الله، يدرك أنّ على الله تربيتَه. كلمة تدل على اعتِداد بالنفس فبعدها تأديب الله تعالى، وكلمة تبدر منه تدل على افتِقار إلى الله فبعدها عطاء، فالمُفتَقِر إلى الله يَنْعُم باسم الجميل.

وهؤلاء الصحابة قالوا: لن نُغلب من قِلّة قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥))

(سورة التوبة)

فعلى الإنسان أن يُراقب قلبه، فليس الإنسان عقلاً وحده، ولا قلباً وحده، فالعقل غِذاؤه العلم، والقلب غِذاؤه الذِّكر والحب، فَالإنسان إذا شعر أن قناعاته قويّة، واطمِئنانه بالله زاد عن الحد المعقول فإن الله جل جلاله يتجلى باسمه الجليل فَيَخاف -وحينما يزداد خوفه إلى درجة قد يُقْعِده الخوف عن متابعة الطريق، يتجلى الله عليه باسم الجميل. وما سُمِّيَ الحال حالاً إلا لأنه يحول ويزول والإنسان يتقلب في الحال الواحد كما قال بعضهم: المنافق يثبت على حالٍ واحدة أربعين عاماً، بينما المؤمن من شدّة خشيته، وشدة حِرصِه، على طاعة ربه، وقلَقِه على مصيره عند ربه، يتقلب في اليوم الواحد أربعين حالاً.

مُلَخّص هذا الكلام ؛ أن هناك صِفات لله عزّ وجل ترجع إلى العظمة والقوة والقداسة والغِنى ؛ هذه الصفات يجمعها اسم الجليل. وهناك صِفات كالرحمة والإحسان واللُّطف والعفوِ والكَرَم ؛ فَهَذه الصفات يجمعها اسم الجميل. والإنسان بين جمال الله وبين جلاله. بين الخوف والترقب، وبين الطمأنينة والبشر، وعلى الإنسان أن يتأدب مع الله عز وجل، لا يحمله حاله مع الله على أن يتساهل لا بأقواله ولا بأفعاله، وينبغي ألا يحمله اسم الجليل الذي يرهبُه على أن يتراجع أو ينكمش ويقنط فالبُطولة أن تجمع بين الخوف والرجاء.

قال بعض العلماء: **" اسم الجليل يُحْتَمَل أن يكون بمعنى المُفْعِل ؛ الجليل: الذي يجل المؤمنين ويُكَرّمهم ".** فالمؤمن مُكَرّم، أحياناً تجد إنساناً مُهاناً معذّباً خنوعاً ذليلاً يُحْوِجه الله إلى أتعس خلقه وأشقاهم، ألم يقل الإمام علي كرّم الله وجهه: **" والله والله مرتين لَحَفْرَ بئرين بِإبْرَتين، وكنس أرض الحجاز في يوم عاصِفٍ بريشَتَين، ونقل بحرين زاخِرين بمِنخَلين، وغسْل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليّ من طلب حاجة من لئيم لِوَفَاء دَين "** فالله عز وجل قد يُحْوِج الإنسان أحياناً لِعَبْد لئيمفيردّه ويقنطه هذا اللئيم ليعرف إحسان ربّه إليه. سُئِل الإمام علي كرّم الله وجهه: ما الذلّ ؟ قال:

" أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردّه "

فالله اسمه الجليل. أي يُجِل المؤمن على أن يُحْوِجه لِلَئيم ألم يقل الله عز وجل:

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١))

(سورة النساء)

(وَلَنْ يَجْعَلَ اللّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا)

هؤلاء الأشخاص الشريرون، هؤلاء عِصيٌّ بيد الله عز وجل يسلِّطهم على من يشاء من عِباده، والآية الكريمة:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

لذلك قلت مرة: هؤلاء الذين يُذَلون ويُسْحَقون، و يسوق الله لهم من الشدائد ما لا يطيقون، هم في الغالب هان أمر الله عليهم، فهانوا على الله. وإذا أردت أن تعرف ما لك عند الله، فانظر ما لله عندك، هل أمر الله عندك عظيم ؟

حدثني أخ كان في بلدٍ من البلدان الأوروبية الشرقية وخرج من الفندق لِيَلْتَحق بالمطار الساعة الثانية بعد منتصف الليل وكان الفصل شتاءً قارصاً، والثلج يزيد على خمسة أمتار، الشيء الذي لا يصدق أنه رأى رتلاً من الأشخاص يزيد طوله على خمسمئة متر وكان هؤلاء واقفين ينتظرون أن يُوَزّع عليهم اللحم غداً الساعة الثامنة ؛ من الساعة الثانية ليلاً إلى الساعة الثامنة صباحًا وكل هذا من أجل أن يأخذوا قطعة لحم صغيرة يأكلونها مع أسَرِهم، فأحياناً تجد إنساناً مقهوراً ومعذّباً ومُهاناً وذليلاً ومصيره بيَد عدوٍّ له ويتفنّن بإيقاع الأذى به. فماذا نقول ؟ نقول: الله جليل: أي يجل المؤمن من أن يُذيقه هذا العذاب، ومن أن يُحوِجه إلى لئيم ؛ ومن بعض الأدعية في هذا المقام:

" اللهم صُن وُجوهنا باليسار ولا تبذِلها بالإقتار، فنَسْأل شر خلقِك، ونُبْتلى بحَمد من أعطى، وذم من منع، وأنت من فوقهم وليّ العطاء، وبيَدك وحدك خزائن الأرض والسماء ".

فأوّل معنى من المعنى اللغوي لاسم الجليل: هو المُفْعِل: أي يُجِلّ المؤمن عن أن يُذِلّه، أو عن أن يقهره وعن أن يُحْوِجه إلى لئيم، فالله جليل وإذا كنت مع الله فَلك العِزّ، ولك الكرامة لأنه يُجِلّ المؤمنين ويعظمهم ويكرمهم، وأرجو الله أن أوضّح للقراء الكرام هذه الحقيقة، المؤمن غالٍ على الله وليس بِهَيّن، وحياته مقدّسة، وعمله مقدّس، وحركاته وسكناته في حِفظ الله ويكفينا قوله تعالى:

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩))

(سورة الأنفال)

(أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ (١٢٣))

(سورة التوبة)

(إنّ اللّهَ مَعَ الصّابرينَ (١٥٣))

(سورة البقرة)

وهذه المعيّة الخاصة التي تعني: النصر والتأييد والحِفظ والتوفيق. بصراحَة: فللمؤمن خصوصية من الله عز وجل ؛ وَمِن كمال تربيته أن يجعل للمؤمن خصوصية ؛ وهي خصوصية النصر والتأييد والنصر والحِفظ والطمأنينة، قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١))

(سورة الأنعام)

النبي عليه الصلاة والسلام في مرضِه أعطيَ دواء ذات الجنب فَغَضِب وقال **ذاك مرض لم يكن الله لِيُصيبني به** وهذا من إحسان الظنّ بربّه، فالمؤمن لا يتألى على الله ولكنه يُحسن الظن بالله. والتألي على الله موضوع آخر. مثلاً هنيئاً لك أبا السائب لقد أكرمك الله فهذا تألٍ على الله. أن تقول فُلان مصيره إلى الجنة من غير العشرة المبشرين هذا تألٍ على الله. نحن نرجو له الجنة. فأكبر إنسان ليس ممن شهد لهم النبي صلى الله عليه وسلم بالجنة. نقول: نرجو له الجنة. فالرجاء هو الأدب. أما أن تقول: هو في الجنة، أو هو في النار، فَمن أنت ؟ أنت عبد والتألي على الله ليس من خلق المؤمن، ولكن من أخلاق المؤمن أن يدعُوَ لإخوانه بالمغفرة، والجنة. قبل أن ننتقل من هذه الصفة بمعنى المُفْعِل، الجليل بمعنى المُجِلّ أي: يُجِلّ المؤمن، ويرفع مقامه نقف عند قول الله بحقّ نبيّه، ألم يقل الله عز وجل:

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤))

(سورة الشرح)

فالله يرفع اسم المؤمن عالِياً. المؤمن متألِّق. وكل حظوظ النفس حِيادِية، فَلك أن ترتفِع بالباطل، والقهر، وبالقوة، والاستِعلاء، والغِنى، ولك أن ترتفع بالكمال، كلاهما رفْعَة، ولكن رِفعة الدنيا آيلة إلى زوال، ولكن رِفعة الكمال إلى استِمرار. فالقوي مرهوب الجانب، ويخافه الناس لكنه يخافونه مادام حياً، أما إذا مات تأتيه اللعَنات من كل جانب إذا كان يُؤذي العِباد. مثلا تجد معلِّماً قاسياً جداً. طلاب الصف كلهم يخافونه طِوال السنة الدراسية، أما حينما ينتهي العام الدراسي، وينصرف الطلاب يسخرون منه. قال الحكماء: الأقوِياء ملكوا الرّقاب، والأنبياء ملكوا القلوب. وأنت بقوتك تملك رِقاب الناس، ولكن بِكمالك تملك قلوبهم. مُلك الرّقاب يزول، ولكن ملك القلوب لا يزول. أوضح مثل أن تذهب إلى المدينة المنورة، وانظر هؤلاء الناس الذين جاؤوا من كل حدب وصوب، يقفون أمام رسول الله بكل أدبٍ وحُبٍ وبكاء وما عرفوه وما رأوه وما نالوا من عطاء الدنيا منه شيئًا.

فَلِذلك الأنبياء ملكوا القلوب وملكوها مُلْكاً مستَمِراً. والأقوياء ملكوا الرّقاب وملكوها زمناً مؤقتاً، فَبهذا الاسم يشعر الإنسان بالطمأنينة قال تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

قال العلماء: والجليل: بمعنى المَفْعول، كيف أنه مفعول ؟ أيْ ينبغي أن يَعْتَرف العاقل بِجلاله، وكِبريائه، وعظمته وقدسِيَّته، وتنزهه عن كل ما لا يليق به فالعاقِل ينبغي أن يقول جلّ جلاله، وعزّ نواله، بمعنى المفعول أي المجلّ المعزّ.

وهناك معنى ثالث في اللغة: بمعنى فَاعِل، الجليل أيْ هو الموصوف بالجلال، فإما أنه موصوف بالجلال فهو فاعل، أو ينبغي أن يُجَل فهو المفعول، أو بمعنى مُفْعِل يُجِلّ المؤمنين، ويرفع قدرهم، والله عز وجل إذا أحب عبداً ألقى محبّته في قلوب الخلق .

يُنادى له في الكون أنّا نحِبُه فيَسْمع من في الكون أمر مُحِبّنا

***

ولتعلمْ أيها القارىء الكريم يقينًا أنه، إذا أحبّك الله جل جلاله، سَخّر عدوّك اللدود لِخِدمتِك. وإذا غضِب الله على إنسان، ألْهَم أقرب الناس إليه بالتَنَكّر له. زوجته تتنكّر له وابنه الذي من صُلْبِه قد يضربه. إذا أحب الله عبداً، ألقى حبّه في قلوب الخلق. والإنسان لا يُعَلِّق أمله لا بزوجتِه ولا بوَلَده ولا بمخلوق، لو كنت متخِذاً من العِباد خليلاً لكان أبو بكرٍ خليلي ؛ ولكن أخ، وصاحب في الله. وهذا هو التوحيد، أحياناً تجد أباً يُعَلِّق كل آماله بابنه، ثمّ لا يكون من هذا الابن إلا أن يذهب إلى بلدٍ أجنبي وينال جنسية ذلك البلد، ويتزوّج بأجنبيّة، ويقطع علاقته بوالِدِه، وقد يُغَيّر دينه، وقد لا يستقبل أباه إن زاره، لذلك على الإنسان أن يعلِّق كامل ثقته بالله.

اسم الجليل لم يرد في القرآن الكريم، لكن مادته وردت قال تعالى في سورة الرحمن:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧))

(سورة الرحمن)

طبْعا يبقى وجه ويفنى ما سواه ؛ الوجه من الذات إذاً هو سبحانه ذو الجلال والإكرام وكذلك ورد في خِتام السورة في آخر آية منها:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

(سورة الرحمن)

أكرّر ؛ لم يرد اسم الجليل في القرآن الكريم إطلاقاً وإنما وردت مادته في سورة الرحمن في أولها وفي خِتامها.

هل يُقال لِفُلان جليل القَدْر ؟ نعم لا يمنع أن نقول هذا وتقول: فلان له قدر جليل وفلان جليل القدر، قال العلماء: يُقال هذا لمن حسُنت صفاته الباطِنة التي تستَلِذها القلوب أما الصفات الظاهرة فهي أقل قدراً، فمن حسنت صِفاته الباطنة ؛ تجد هناك أدب، وحِلم، ورحمة، وإنصاف، وتواضع، وغيرة، ومؤاثرة يمكن أن نصفه بأنه جليل القدر.

في الأثر:

((تخلّقوا بأخلاق الله))

فالله عز وجل جليل فإذا كنت مستقيماً وترفّعت عن النقائص، وعن اللغو، وعن كثرة المزاح، وعن سفاسف الأمور صِرت في نظر الناس جليلاً، يقولون: الأستاذ الجليل كما يُقال، وكذلك الأخ الكريم. فالإنسان حينما يترفع عن السفساف، وصغائر الأمور وعن الدنيا الدنية وعن حظوظهِ الدنيوية، وعن القيل والقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال، وعن الجزئيات. وعن إضاعة الوقت ؛ مِثل هذا الإنسان له قدر عند الناس جليل، فمِن باب تخلقوا بأخلاق الله يمكن أن تكون كاملاً، والكمال يجلب لك مكانة عند الله وعند الناس.

الإمام الرازي يقول: **" الجليل من العباد من خلا من العقائد الزائغة الأخلاق والذميمة "** فعَقَائده صحيحة، وأخلاقه كاملة. فإذا أُصيب بخلل بعقيدته لم يصبح جليلاً، وإذا كان هناك انحراف بسلوكه لم يصبح جليلاً كذلك، فاستِقامة العقيدة مع استِقامة السلوك، تجعل الإنسان جليل القدر. الحقيقة عندما يكون الإنسان سخيفاً وخفيفاً وثرثاراً ويَحْشُر أنفه في موضوعات لا تعنيه ليس له قدر عند الناس إطلاقاً. أما إذا كان هناك وقار، واستِقامة، وضبط للِّسان، والجوارح، واعتِناء بمظهره، ودقة بعَمَلِه، هذه الصفات الكاملة ترفع قدره، وتجعله جليلاً في نظر الناس. إذاً براءة الإنسان من العقائد الباطلة والأخلاق الذميمة تجعله جليلاً. واتِّصافه بِالمعارف الحقة، والأخلاق الفاضلة تجعله جليلاً.

ومن بعْدُ فها نحن أمام أدب المؤمن مع الجليل: فعليه أن يتحلى بالكمال لأن الله عز وجل كامل ويحب الكامل، وهو عفُوّ ويحِب العفو، وكريم يحب الكريم، فإذا أردت أن تقترب من الله عزّ وجل، فاقترب من صِفاته وأسمائه وتذكر أنه هو الذي أفاض عليك الجمال، سواء أكان جمال صورة، أم جمال حِسّ، أم جمال نفس. والإنسان إذا حدّثته نفسه بما لا يليق بالله عز وجل، وَوَسْوَس له الشيطان شيئاً، فلْيَذكُر اسم الجليل. ويجب أن تستحيي من الجليل وأن تستحيي من الله حق الحياء، قيل وما حق الحياء قالوا: **" أن تحفظ الرأس وما وعى، والبطن وما حوى، وأن تذكر الموت والبلى "، " ومن لم يكن له ورَعٌ يصدّه عن معصية الله إذا خلا، لم يعْبَأ الله بشيءٍ من عمله " ركعتان من ورع خير من ألف ركعة من مُخلِّط "، " ولا تجعل الله عز وجل أهْوَن الناظرين إليك ".**

فإذا كان الإنسان يستحي من الضيف، ويضبط كلامه، وصوته معتدل، ويرتدي لِباساً جميلا، وبيته مُرَتّب، فعليه ألا يجعل الله عز وجل أهْوَن الناظرين إليه، فإذا كان الإنسان بِخَلْوة فلا يتكلم بكلام غير لائق، ولا يتبذل إلى درجة غير معقولة بِثِيابه، ولا يعمل أعمالاً لا تُرضي الله ! فَمِن أدب المؤمن مع اسم الجليل ؛ أن يُوَقِّر الجليل في خلوته، والمؤمن الصادق يشعر دائماً أن الله معه وقد ورد في بعض الأحاديث:

((مَا الإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ...))

أيها القارىء الكريم: لا يستطيع الإنسان في عُجالَةٍ أن يتحدّث عن اسم الجليل إلا بالقدر الذي سمح الله به لِقوله تعالى:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ)

(سورة البقرة)

وقوله تعالى:

(وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥))

(سورة الإسراء)

لكن ملخص الملخص: أن هناك مجموعة من صفات الله عز وجل، تتعلق بعظمته، وقوته، وعِلمه، وقدرته، وغِناه، وقدسيّته، وهذه المجموعة من الصِّفات، مجتمعة في اسم الجليل. ومجموعة أخرى متعلِّقة برَحمته، و إحسانه، ولطفه، وبرّه، وعفوه، وعطفِه ؛ وهذه متعلِّقة باسم الجميل. وإذا قلنا إن الله جميل: أي أن البصائر تُدرك جماله والإنسان إذا كان مع الله، فالله يُجِلّه، ويُعْلي قدره، ويرْبَأُ به من أن يضعه في الوُحول، أو أن يُحْوِجه إلى عبدٍ لئيم، فأنت مع الجليل، جليل. وأنت مع القوي قوي.

وقد ورد في بعض الأدعية: إلهي كيف نُضام في سلطانك ؟! وكيف نذِلّ في عِزّك ؟! وكيف نفتقر في غِناك ؟! فحُسن ظنّنا بالله يجعلنا لا نفتقر في غِناك ولا نذِل في عِزّك ولا نُضام في سلطانك.

وكخلاصة موجزة: الجليل بمعنى المُفْعِل الذي يُجِل. وبعنى المفعول الذي ينبغي أن يُجَلّ، وبمعنى الفاعل وهو الجليل.

أرجو الله سبحانه وتعالى، أن تكون هذه الأبحاث أبحاث أسماء الله الحسنى -مُنطَلَقاً لنا للإقبال على الله وللاتصال به، والسعي إلى مرضاته لأن معرفة الله لا يعلو عليها شيء في الحياة، والمعرفة أصل الدين كما قال عليه الصلاة والسلام فيما ورد عنه، ولقد ذكرت من قبل أن الإنسان إذا عرف الله، تفانى في طاعته. أما إذا لم يعرفه وعرف أمره، تفنَّنَ في التفلّت من أمره وبين التفاني والتفنن بَوْن شاسِع، إذا عرفته تتفانى في طاعته، وإذا لم تعرفه، تتفنّن في التفلّت من أمره.

٤٧- اسم الله المجيب :

مع الاسم السابع والأربعين من أسماء الله الحُسنى ؛ والاسم هو المجيب، وفي اللغة: الإجابة والاستِجابة بمعنى واحد، قال تعالى:

(أجِيبُوا دَاعِيَ اللّهِ)

(سورة الأحقاف)

فالاستجابة والإجابة بمعنىً واحد، إلا أن الإجابة فِعلها رباعي، والاستجابة فِعلها سداسي ؛ أجاب، أو استجاب. و كلمة مُجيب كاِسم من أسماء الله الحُسنى لها معنيان:

- المعنى الأول: الإجابة.

- المعنى الثاني: أن يُعطي الله السائل مطلوبه.

فإذا سألت إنساناً، يُجيبك، وإن سألته حاجة، يُعطيك. فإما أن تكون الإجابة بيانيّة، وإما أن تكون الإجابة عطاءً ؛ إجابة بيانية، وإجابةٌ عطاء، معنيان من معاني الاستجابة التي وردت كاِسم من أسماء الله الحُسنى.

والمجيب في حق الله تعالى: هو الذي يُقابِل مسألة السائلين بالإسعاف، فأنت في العلاقات الاجتِماعية، لو سألت إنساناً يستمع ويرى ويتمتّع بأخلاقٍ عالية لو سألته شيئاً لا بد أن ترى استِجابة ؛ أو اعتِذاراً أو ترحيباً أو وَعداً أو بياناً: فالاستجابة صفة من صِفات الإنسان لكنها اسم من أسماء الله الحُسنى قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

(سورة البقرة)

لا أبالِغ إن قلت: إن أكثر ما يحتاجه الإنسان في الدين هو الدعاء، حينما يدعو ربه، يعلم أنه سميعٌ، وحينما يدعو ربه يعلم أنه بصير، وحينما يدعو ربه يعلم أنه قدير، و حينما يدعو ربه يعلم أنه رحيم، وحينما يدعو ربه يعلم أنه عفوّ، فبالدعاء يتوجّه الداعي إلى معانٍ كثيرة، فأنت حينما تسأل، تسأل غَنِياً، وحينما تسأل، تسأل قوياً. وحينما تسأل، تسأل رحيماً، وتسأل مُحِباً. فلو أن هناك شخصاً لا يحبّك لا تسأله، لو أنه ضعيف لا تسأله، ولو أنه فقير لا تسأله، لو أنه عدو لا تسأله، ولو أنه حاقد لا تسأله ؛ إذاً من تسأل ؟ تسأل من يسمع، تسأل من يحبك، تسأل من يقدر على إجابة طلبك تسأل من يستجيب لك تسأل من يُبْصر حالك، من يعلم ومن يسمع، وبِمُجرّد دعائك لله يعني أنك تعرفه، والإنسان له إحساس عام، فَأحياناً يمشي في طريق يسأل عن شخص، فَتَجِده يسأل البقال إذْ يقول هذا الذي يسكن هنا لا بد من أن يتردد على هذا البقال. فأنت لا تسأل إنساناً عابرًا في الطريق، وإنما تسأل بقالاً، مثلاً فرَاقِب

نفسك حينما تسأل ؛ تجد أنك تسأل من يعلم، ومن يبصر ومن يسمع، والذي يقتَدِر، والغني، والرحيم، المحب، العفوّ.

فَلِذلك المجيب: اسم من أسماء الله الحُسنى. وزوال الكون أهون على الله من أن تدْعُوَه فلا يستجيب لك ويستجيب لك بِشَكلٍ أو آخر، إما أن يُطمئنك، وإما أن يعطيك، وإما أن يُلقي في رَوْعِك أن هذه الحاجة لا تناسِبك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ))

(رواه الترمذي)

والمجيب في حق الله تعالى: هو الذي يُقابِل مسألة السائلين بالإسعاف، مثل أضربه لكم كثيراً وأردّدهُ، لو أنك في زمن الشتاء، وترتدي ثياباً سميكةً ومُحكمةً، وتحمل بيَدك اليمنى حاجة ويسألك الطفل الصغير كم الساعة ؟ أنت مضطرّ أن تضع حاجتك على الأرض لِتَرى الوقت وتجيبه، فهذا طِفل صغير يسألك فَتَشعر بالواجب أن تُجيبه، وأنت إنسان في قلبك ذرة من الرحمة لا تعدل شيئاً بالنسبة لرحمة الله ولا تستطيع إلا أن تجيبه ؛هو طفلٌ وقد يسألك ترَفاً أو عابثًا، وعن غير حاجة، كان فيك أيها الإنسان ولو ذرة كمال فلا تستطيع إلا أن تجيب، فكيف بخالق الأكوان وبالواحد الديان ؟

لذلك المجيب في حق الله تعالى: هو الذي يُقابِل مسألة السائلين بالإسعاف، ويقابل دعاء الداعين بالإجابة، ويُقابل ضرورة المضطرين بالكِفاية.

بل إن معنى المجيب يُنْعِم قبل النِّداء - وهذا معنى جديد من معاني المجيب الأب الرحيم المقتدر والغني إن رأى ابنه بحاجة إلى مِعطف في أيام البرد، هل ينتظر الأب أن يسأله ابنه شِراء هذا المِعطف ؟ يشتريه له ويُقَدّمه له قبل أن يسأله، فَمِن معاني المجيب أنه يُنعِم قبل النداء، ويتفضل قبل الدعاء، ولكن لماذا أحياناً يتأخّر العطاء إلى ما بعد الدعاء ؟ هنا نقطة دقيقة الدلالة جداً مفادها أن الله تعالى يحب أن تدعُوَه، وأن تلجأ إليه، وأن تتصل به، وأن تناجيَه، وأن تُمَرِّغ وجهك في أعتابه، ويحب أن يُسْعِدك بالاتصال به ؛ فَيَجْعل حاجتك وسيلة لِهدف هو الاتصال والتعبّد. وهذه نقطة مهمة جداً، قد يُحوِجك إلى شيء، وقد يخيفك من شيء، وقد يلوح لك شبح مصيبة من أجل أن تسأله، وتفزع إليه، وتتصل به، وتلوذ بِحِماه، ومن أجل أن تُصلي وتدعوه، ومن أجل أن ترجوه ؛ لأنك بهذا الدعاء، وذاك الاتصال، وهذا الرجاء تسعد، وإجابة السائل هي الوسيلة.

إنّ التضرّعُ في الدعاء هو الهدف، فأحياناً تمسك بيَدك حاجةً يحِبها ابنك الصغير وتلوّح بها، والقصد من هذا أن يأتِي إليك، فَإتيانه إليك هو الهدف، والحاجة هي الوسيلة، فإذا فهمت على الله قصده في إسعادك رأيت المصائب وسائل والاتصال بالله هو الهدف، فالله خلقك لِيُسعِدك، وهو تعالى يعلم حاجة

المحتاجين قبل سؤالهم، والدليل: خلقنا وخلق ما نحتاج إليه، هل تعلم مكوّنات الحليب ؟ فهي تتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الإنسان ! وهل تعلم مكونات الحِنطة تتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الإنسان ؟ وهل تعلم جوّ الأرض الطبيعي فهو يتوافق توافقاً تاماً مع حاجة الخلق ؟ وهل تعلم أن حجم الأرض الذي يقتضي لك وزناً في الأرض، فهو يتوافق توافقاً تاماً مع أنسب حالة تعيشها ؟ فلو وجدت الأرض مَلأى بكل ما تحتاجه ؛ فأنت تحتاج إلى معادن تنصهر بدرجة معيّنة كالرصاص مئة درجة، وتحتاج إلى معدن يتمدد عند التبريد من أجل أن تعامل الحديد مع الحجر، وتحتاج إلى معدن خفيف ومتين من أجل أن تصنع منه بعض الأواني والأدوات، وتحتاج إلى معدن ثمين يكون قِيَماً للأشياء، وتحتاج إلى معدن كثيف كالحديد ومتين، فلو درست حاجات البشر كلهم لعرفت أن الله علمها ووفّرها لهم قبل أن يخلقهم، وأنت بحاجة إلى أزهار تبعث فيك البهجة فَخَلَق لك أنواعاً منها لا يعلمها إلا الله، وبحاجة إلى مادة تُرمِّم جِسمك، خلق لك اللحوم والحيوانات التي ذلّلها لك ؛ فهذا كله قبل أن تسأله، فكِّر بظاهرة النبات فأنت بحاجة إلى أن تنظِّف أسنانك، خلق لك الخلة والسواك. وبحاجة إلى أن تنظف جِسمك، فخلق لك اللِيف الطبيعي. وبحاجة إلى ظلٍ ظليل، فخلق لك أشجار الزينة. وبحاجة إلى نبات يكون حداً بينك وبين جارك، فخلق لك النبات الحدودي. وبحاجة إلى الفواكه كي تتنعّم بها خلق لك الفواكه بأنواعها التي لا تُعد ولا تُحصى. وبحاجة إلى أولاد يُؤنسون وحشتك فشرع لك نِظام الزواج. وبحاجة إلى زوجة تكمّل وجودك خلق الذكر والأنثى....

فهذه كلها حاجات خلقها لك قبل أن تسأله إياها. أنت بحاجة إلى ماء وإلى هطول أمطار، فخلق المسطحات المائية الواسعة أربعة أخماس الأرض بحار، وخلق الشمس وجعلها قريبة بعيدة- فالمجال لا يتسع لذِكر كل شيء -ولو أمضيت حياتك كلها في تَعداد النِّعم التي خلِقت لك وأنت لا تعلم ! ومن قبل أن تخلق، لعرفت ما معنى أنّ الله يعلم ما تحتاج إليه قبل أن تسأله. هو مُجيب ومن معاني مُجيب أنه يجيبك قبل أن تسأله ! والشواهد حول هذا الموضوع تفوق الحصر ؛ الطفل الصغير يشرب الحليب من ثدي أمه، وحليب الأم ليس فيه حديد، وهو محتاج للحديد من أجل تكوين خُضاب الدم، إذاً أودع الله في طحال الوليد كمية حديد تكفيه سنتين إلى أن يأكل ! والوليد بحاجة إلى رضعات تذيب الشحوم التي أودعها الله في جهازه الهظمي ؛ فأول أربع وعشرين ساعة من عمر الطفل يأخذ من ثدي أمه مادة ليست حليباً، ولكن هي مادة مذيبة تذيب الشحوم التي في جهازه الهضمي. أنت بحاجة إلى دورة دم داخلية قبل أن تولد، الله جعل ثقب بوتال بين الأذَيْنَين ؛ فالدورة الدموية داخلية. فحينما يولد الطفل الصغير يحتاج إلى هواء تأتي جلطة تُغلِق هذا الثقب فَتَنْتَقِل الدورة من دورة صغرى إلى دورة كبرى فَبِيَدِ من هذا ؟ أنت بحاجة إلى قلب يدفع الدم وبحاجة إلى أوردة وشرايين مَرِنة ليندفع الدم فيها، فالله جلّ جلاله يجيب قبل أن تسأل، كل ما في الكون مصمّم ومسخّر للإنسان ؛ والدليل قوله تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (١٣))

(سورة الجاثية)

الكون كله مسخّر لك بدْءاً من الأرض وانتِهاءً بالمجرات مسخر لهذا الإنسان الذي قبِل حمْل الأمانة، قال تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(٧٢))

(سورة الأحزاب)

فهو يعلم حاجة المحتاجين قبل سؤالهم. يخلق الأطعمة والأقوات، ويُيَسِّر الأدوات والآلات الموصِلة إلى جميع المهمات. فهذه البقرة بحاجة إلى حليبها فكيف تستفيد منها ؟ لا بد من أن تكون مذللة، وكيف تعلم أنها مذللة؟ تُصاب أحياناً بمرض التوحّش فَتَقْتُل الإنسان مما يضطر صاحبها إلى قتْلِها لِيَمنع أذاها عن الناس. إذاً هي مذللة وينبغي أن تعلم أنها مذللة، خلق ثقب بوتال بين الأُذينَين وينبغي أن تعلم أن هناك ثقب لأن هذا الثقب يُغلق، بعشرة آلاف حالة يولد الطفل وثقبه مفتوح، وهذا المرض اسمه داء الزّرَق والطفل عندها يموت بعد حين، لكن الله تعالى له حِكم، وله أحكام، له خلق، وله تربية ولم يخلق الخلق عبثًا.

وقيل إن المجيب: هو الذي يقابل الدعاء بالقبول، والسؤال بالعطاء، تدعوه فَيَقْبَلُك تسْأله فَيُعْطيك، بدأنا البحث ببيان أنّ اسم المجيب يعني شيئين: الإجابة عن دعاء، والعطاء عن سؤال. تدعو فَيُجيبك، وتسأل فَيُعْطِيك. ثم إن الله سبحانه وتعالى يجيب دعاء المضطرين ؛ فهذا المضطر من له غير الله ؟ لا شك أن كل إنسان يمر بحالات اضطرار شديدة ويكون فيها، على أحَرّ من الجمر ؛ يا رب يا الله قال تعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٦٢))

(سورة النمل)

إنه المجيب فلا تَخيبُ لديه آمال الطالبين. قيل: هو الذي يجيب دعاء الداعين ويكشف ضرورة الطالبين، وحول هذه الكلمات آلاف وآلاف الوقائع والأحداث، بل إني متأكد أنه ما من واحد من خلقه، إذا كان صادِقاً مع ربه مؤمناً بوُجوده وبأسمائه الحُسنى وَوَحْدانِيَته، إلا وله تجربة مع الله. دَعَوْته فأجابك، وسألته فأعْطاك. والإنسان حينما يُعاني من مشكلة، وحينما تحلّ به محنة، لو سألت العارفين بالله ما حكمتها ؟ هذه المحنة التي تحل بالإنسان المؤمن لا بد من أن تنقله نقلةً نوْعِيَة على مِحورين ؛ مِحور معرفته، ومِحور محبّته. فكل مِحنة فيها نقلة على محور المحبة تزداد من خلالها حباً له، فعلى مِحور محبته تزداد حُباً له وعلى مِحور المعرفة تزداد معرفة. وهذه فيما أعتَقِد هي الحِكمة العظمى في سَوْق المصائب للناس، ولا سِيّما للمؤمنين. أنت في درجة فإذا أراد ربك أن ينقلك نقلةً إليه، يرسِل إليك

مشكِلة، تدعوه، وتسأله وتتوسّل إليه، وتلوذ به، وتستعيذ به، وتلجأ إليه، من أجل أن يجيبك فإذا أجابك تقول: لقد سمعني وهو يُحِبني وهاهو ذا قد أكرمني، ها هو قد استجاب لي.

أيها القارىء الكريم، إنّ مِحنة وراءها نقلة نوعِية على مِحور معرفته، وعلى مِحور محبّتِه. فوَراء كل مِحنة هناك معرفة جديدة، ومحبة جديدة. والله عزّ وجل رب العالمين، يُقلِّب حال عِباده من حال إلى حال، ومن مقام إلى مقام، ومن منزلة إلى منزلة، ومن درجة إلى درجة، إلى أن يصِل به إلى أقصى ما يُمكن أن يصِل إليه ؛ ليس في الإمكان أبدع مما كان.

الحقيقة: إن أسماء الله الحُسنى تتفاوت من حيث ذِكرها في كِتاب الله بين الكثرة والقِلّة. اسم المجيب ورد في كتاب الله كثيراً قال تعالى:

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ (٦١))

(سورة هود)

هو في السماء لكنك إذا دعوْته فهو معك قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤))

(سورة الزخرف)

أنت لا تنادي بعيداً، لا تنادي إلا قريباً، لا تنادي إلا من يسمعك، لا تنادي إلا من يقتدر على أن يُجيبك.

(إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

قال تعالى:

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنْ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ)

وفي سورة الصافات:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥))

(سورة الصافات)

أحياناً يضع ذو حاجة ثقته بإنسان، يزوره ويعرض عليه حاجته، يخرج صِفر اليَدَيْن، وخالِيَ الوفاض، يُخَيّب ظنه، قد يعتذِر له بأسلوب لطيف، أو بأسلوبٍ قاسٍ على كلٍ ليس هناك بأس إلا أنه قد خاب ظني، وندِمت على تلك الزيارة. أما الله عز وجل يقول:

(وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ)

نِعم الذي يجيب هو الله عز وجل، وقال تعالى:

(رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ

دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥))

(سورة آل عمران)

وفي سورة الأنبياء قال تعالى:

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ (٨٤))

(سورة الأنبياء)

وكَتَعْلِيق سريع على هذه الآية فقد يتبادر لبعض الناس أن يقول: هؤلاء أنبياء ؛ وبدوري أقول: فما داموا أنبياء فهم من جنس البشر وضرب الله الأمثال بهم لتعلم أن إجابتك كإجابتهم إذا توافر شرط السؤال:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً(١١٠))

(سورة الكهف)

ولولا أنهم بشر، وتجري عليهم كل خصائص البشر، لما كانوا سادة البشر- لِماذا ذكر الله لنا قصصهم؟ لِسببٍ بسيط وهو الاقتِداء بهم، والسّيْر على منهجهم، واقتِفاء أثرهم، وأن تجعلهم قُدوةً لك. قال تعالى:

(وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ)

ما الذي يمنعك إذا مسّك الضر ؛ أن تصلي قِيام الليل، وأن تقول يا رب إني مسَّنِيَ الضر، وأنت أرحم الراحمين. أنت تخاطب مَنْ بيَده ملكوت السماوات والأرض، وكل الجهات التي في الأرض بيده ناصِيَتُها أجلْ، بيَده، قال تعالى:

(مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا)

(سورة هود)

قال تعالى:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ(٨٤))

(سورة الأنبياء)

فالله عز وجل هو وحده أهلٌ أن تسأله ؛ أجَلْ، أهلٌ أن تسأله، وأن تدعُوَه، وأن ترجُوَه، وأن تحطّ رحالَكَ عِنده، وأن تُعَلِّق الآمال عليه، وأن تستجير به، وأن تلوذ به، وأن تستعيذ به، هو وحده الأهل. وحينما تضع الثقة في غيره -الله جل جلاله غيرةً عليك ومحبّةً لك، يلقي في قلب الذي وضعت الثقة به أن يُخَيّب ظنك تأديباً لك، وفي سورة النمل:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٦٢))

(سورة النمل)

وفي سورة الأنفال:

(إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩))

(سورة الأنفال)

وفي سورة البقرة:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

(سورة البقرة)

أيها القراء الكِرام: قوله سبحانه فليستَجيبوا لي، ولِيُؤمنوا بي لعلهم يرشدون. فيَجِب أن تؤمن به أوّلاً بوُجوده، وكماله، ووحْدانِيَّتِه، وأن تؤمن بأسمائه الحسنى وهذه الأبحاث من صُلْبِ العقيدة الصحيحة. ما من بحث أنت بأمسّ الحاجة إليه مثل أن تعرف الله عز وجل، كي تُقْبِل عليه قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِي فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

والحقيقة ورد في كتاب الله آيات كثيرة تزيد عن عشر آيات كلها تبدأ بكلمة يسألونك قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦))

(سورة البقرة)

قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥))

(سورة الإسراء)

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩))

(سورة البقرة)

يسألونك أكثر من عشر آيات وردَتْ بهذه الصيغة [يسألونك، قل] ثم يأتي الجواب مبدوءً بكلمة قلْ، إلا هذه الآية الوحيدة قال تعالى:

(وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ)

قالوا: لأنه في الدعاء ليس بين العبد وربه حِجاب، وليس بين العبد وربه وسيط، وليس بين العبد وربه وسيلة، هو قريب سميع مجيب، ما عليك إلا أن تسأله. لكن من أجل أن تعرف ماذا تسأله ؛ عليك أن تؤمن به أولاً، وأن تستجيب له ثانياً، حتى تُحسِن أن تسأله، وحتى يستجيب لك ثالِثاً. وقال: **" ربكم ادعوني استجِب لكم "** وبالمناسبة ما أمرك أن تدعُوَه إلا لِيَستجيب لك. يتوهَّم بعض الناس ويقولون دعَوْنا كثيراً ولم يستجب لنا، والمشكلة أنك ما دَعَوْتَه كما يريد، مثلاً قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنّ حَتّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهّرْنَ فَأْتُوهُنّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللّهُ إِنّ اللّهَ يُحِبُ التّوّابِينَ وَيُحِبُ الْمُتَطَهّرِينَ (٢٢٢))

(سورة البقرة)

أحياناً تدعو الله عز وجل من دون تضرّع، وبصَوْتٍ جهير هدفك أن تُسْمِع الناس، فأنت اِعْتَدَيْت على شرط التضرع، وشرط الخُفْيَة، واعتديت على خلقِه، أنّى يُستَجاب لك ؟ لذلك الذي يعتدي على خلق الله دُعاؤه لا يُسْتَجاب. والذي يأكل مال الحرام دُعاؤُه غير مُستجاب، الذي مطعمه حرام، ومَشربه حرام، وغُذّيَ بالحرام، أنّى يُستَجاب له ؟ أنا وأنا أبيّن هذه الشروط: أن يكون الدّخْل حلالاً، وعدم الاعتِداء، وعدم الجهر بالدعاء قال تعالى:

(ادْعُوا رَبّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنّهُ لا يُحِبُ الْمُعْتَدِينَ)

وقال تعالى:

(وَقَالَ رَبُكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنّ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنّمَ دَاخِرِينَ (٦٠))

(سورة غافر)

هناك بالآية ما يلفِت النظر، الإنسان على حَسَبِ تصوّره، فالله سبحانه لم يقل: إن الذين يستكبرون عن دعائي، بل قال: عن عِبادتي ؛ فُهِم أن الدعاء هو العِبادة. والعِبادة كلها في الدعاء، بل إن الدعاء مخ العِبادة، وهو أفضل ما في العِبادة.

وبعد فالاستِجابة في حق الله كما ترَوْن أيها القراء الكرام، وكذلك فالاستِجابة في القرآن وردت لِغير الله قال تعالى:

(وَقَالَ رَبُكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنّ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنّمَ دَاخِرِينَ (٦٠))

(سورةغافر)

أنت مؤمن دُعِيت إلى الله، فاسْتَجَبْت. وإلى عمَلٍ صالِح، فاستَجَبْت. وإلى إقامة الصلاة، فَصلّيت. وإلى دفع الزكاة، فزَكّيت. وإلى حج بيت الله، فَحَججت. وإلى مساعدة زيْدٍ أو عُبَيْدٍ، فَفَعلت، الاستِجابة وردت في كتاب الله منسوبة لِغير الله قال تعالى:

(وَيَسْتَجِيبُ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ)

وفي سورة الرعد قال تعالى:

(وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ (٢٦))

(سورة الشورى)

أما أجمل آية متعلِّقة بالاستِجابة:

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨))

(سورة الرعد)

أنتم حينما تُدْعَون إلى طاعة الله، فإنما تُدْعَون إلى الحياة. والمؤمن قبل أن يعرف الله ميّت قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤))

(سورة الأنفال)

وقال تعالى:

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢))

(سورة فاطر)

قيل:

ليس من مات فاستراح بمَيتٍ إنما الميّت ميّت الأحياء

****

الميّت الحقيقي: هو الذي يتمتّع بأعلى درجات الصحة، لكن قلبه ميّت، لا يعي على خير، ولا يستجيب، لا يذكر الله، لا يعطي لله، ولا يمنع لله، ولا يحب لله، ولا يبغض لله، قال تعالى:

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨))

(سورة الرعد)

وليعلم كلّ مؤمن أنّ استِجابة الله بالعطاء، وإجابته للدعاء على أنواعٍ كثيرة ؛ أحياناً ربنا عز وجل لِحِكمةٍ يُريدها يُجيب العبد قبل أن يَدعُوَه، بمعنى أنه يتفضل عليك لِتُقبِل عليه، هو الذي بدأ، إذْ إن المرء يغفل ويلهو فإذا أتاه فضل من الله من غير سؤال، تجد الذي معدنه طيّب حينما يغمره الله تعالى بِفضْلِه يستجيب، فهو

إما أن تدعُوَه فَيُعْطِيَك، وإما أن يُعطِيَك لِتدْعُوَه. فقد يأتي الدعاء قبل العطاء، وقد يأتي العطاء قبل الدعاء. فإن كان الدعاء قبل العطاء، فالمُبادرة منك. وإن كان العطاء قبل الدعاء، فهذه حِكمة بالِغة أراد الله أن يمتَحِنك بها. فَتُطيعُه لِيُكْرِمك، وأحياناً يُكْرِمك لتُطيعَه. ربما ضيّق عليهم الحال ابتِلاءً وامتِحاناً

ورفْعاً لِدرَجاتِهم بصَبْرهم وشكرهم في السراء والضراء. فهو تعالى يستجيب بعد الضيق أو يُكرم قبل الدعاء.

قال بعض العلماء: حتى إذا يئِسوا تداركهم بجميل عوائده وآلائه، قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ)

(سورة النحل)

أحد العارفين بالله نظم قصيدة بدأها: اشتدِّي أزمةُ تنْفَرجي، والأمور إذا ضاقت، اتَّسعت. أحياناً تضيق قال:

نزلت فلما استَحكِمت حلقاتها فُرجت وكان يظنّها لا تُفْرَج

***

البطولة ؛ أن تفهم على الله ؛ أن تفهم على الله حِكمته ؛ أن تفهم على الله كماله ؛ أن تفهم على الله رحمته. لكن الله يضمن للعبد إجابة الدعاء بما يعلم أنه خير للعبد بحَسَب عِلمه، لا بحسَب علمك. في الوقت الذي يريده الله، لا في الوقت الذي يريده العبد. فأنت لا تعلم والله يعلم. وأنت لا تدري والله يدري، وأنت لا تعرف ما يناسبك والله يعلم المناسب. دَعَوْتُك له أمر مرغوب ؛ لكن لا ينبغي أن تحدد متى يستجيب لك ؛ فهذا سوء أدبٍ مع الله، يستجيب لك في الوقت المناسب، وبالقَدْر المناسب، وفي الطريقة المناسِبة، فما عليك إلا أن تدعُوَه وكفى.

الآية الكريمة قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤))

(سورة الأنفال)

حدّثني أخ أنه كان مُسافراً من بلدٍ إلى بلد، يدرس في كلِية الطِب وحجمه صغير نسبيًا، ركِب في سيارةٍ عامة لِيَذهب إلى بلدِه فقال لي: جاء رجلان ضخما الجُثة فتح أحدهما باب السيارة، وحملني ووضعني على الأرض، وركِب هو وزميله مكاني. يقول هذا الأخ: تألّمت ألماً لا حدود له، وما تمنّيت في حياتي أن أكون مُجْرِماً إلا تلك الساعة، إذْ أن هذا هو منتهى الإهانة والقسوة. ثمّ قال: وبعد ساعة ركِبت السيارة الثانية، وأنا في الطريق إلى بلدتي كانت هناك تلة صغيرة، فرأيتُ تلك السيارة قد تدهورت وكل الركاب ماتوا، ثمّ قال: في ثانية واحدة انقلب حِقدي إلى شكر قال تعالى:

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

آن الأوان أن تستسلِم لله عز وجل، هذه الآية وحدها اِجعلها شِعارك. وقد ورد أن شخصين سألا الله حاجة، وكان الله يحب أحدهما ويكره الآخر. فأوحى الله إلى بعض ملائكته أن يقضِيَ حاجة البغيض مُسْرِعاً حتى يكُفّ عن الدعاء، لأن الله يبغض سماع صوته. وقال الله للمَلَك توقف عن حاجة فلان، لأني أحب أن أسمع صوته، قيل في مغزى هذه القصة: لو كشف الله الحجاب، لفرِح هذا وحزِن ذاك. فالذي استجاب الله له لا يحب أن يسمع صوته، والذي لم يستجِب له يحب أن يسمع صوته -هذه قِصة رمزِيّة - فإذا دعَوْت الله في صلاتك وبعدها، صباح مساء، وأُخِّرتْ الاستجابة فمعنى ذلك أن الله يحب سماع صوتِك.

ورد في بعض الأحاديث:

((إن الله عز وجل يحب أن يسمع صوت عبدِه اللهفان. فالدعاء هو مخ العبادة.))

أما التطبيق العملي لِهذا الاسم ؛ فيا أيها العبد، ينبغي أن تعلم أن الله مجيب، وينبغي أن تعلم أن الله تعالى دعاك إلى طاعتِه، وأنت تدعوه لِيُرْضيك، هو دعاك إلى طاعتِه، وأنت تدعوه لِيُرْضيك. فإن أجبت دعاءه، أجاب دعاءك. أي كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد. دعاك إلى طاعته، وأن تدعوه إلى حاجَتِك. استَجِب لِيَسْتَجِب. كن له كما يريد، لِيَكُن لك كما تريد. أنت تريد وأنا أريد ؛ فإذا سلّمت لي فيما أريد، كفَيْتُك ما تريد. وإن لم تُسَلِّم لي فيما أريد، أتْعَبْتُك فيما تريد، ثم لا يكون إلا ما أريد، قال تعالى:

(لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨))

(سورة الرعد)

أجِب دعاء الله، وأجِب دعاء الناس أيضاً. دعاك أحد الخلق، وضع أمله بك، وَوَضع ثِقته فيك، كُنْ ممّن يتخلّق بأخلاق الله، لولا التشهد - كما قال بعضهم يصِف النبي عليه الصلاة والسلام - ما قال لا قط إلا في تشهده - لولا التشهد كانت لاءَهُ نَعَمُ - ما قال: **"لا"** قطّ في حياته، فإذا وثِق أحدٌ فيك. ووضَع أمله فيك، وطمع فيك، تخلّق بأخلاق الله واسْتَجِب له. هذا هو تطبيق الاسم مع الناس.

قال فإذا سألك أحدٌ فلا تزجُره فإن الله تعالى يقول:

(حَتَّى إِذَا اسْتَيْئَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠))

(سورة يوسف)

حظ المؤمن من هذا الاسم أيضاً ؛ أن يقضِيَ حوائِج الطالِبين، لِيَقْضِيَ الله حاجَتَه. والله في عَوْن العبد ما كان العبد في عَوْن أخيه. عِبادي إن أردتم رحمتي، فارحموا خلقي.

الإمام أحمد يقول: **" اللهم كما صُنْتَ وجهي عن السجود لِغيرك، فصُن وجهي عن مسألة غَيْرك "**، أنا أدعو بعض الأدعية وأقول: اللهم صُن وجوهنا باليسار ولا تبذِلها بالإقتار، فَنَسْأل شرّ خلقِك، ونُبْتَلى بحَمد من أعطى وذمّ من منع، وأنت من فوقهم وليّ العطاء، وبِيَدك وحدك خزائن الأرض والسماء.

الإمام الغزالي يقول: **" إن العبد ينبغي أن يكون مجيباً لربّه تبارك وتعالى أولا فيما أمره به ونهاه، وفيما ندبَهُ إليه ودعاه، ثم لِعِباده فيما أنعم الله عليه بالاقتِدار، وفي إسعاد كل سائلٍ بما يسأله، وفي لُطْفِ الجواب إن عَجَزَ عن الإجابة "** فأنت اِسْتَجِب للناس ؛ دعاك، أجِبْهُ سألك، أعْطِهِ. فإذا طُلِب منك شيء لا تستطيع تنفيده ماذا تفعل ؟ رُدّه رداً لطيفاً. قل له: والله أتمنى أن أخدمك وأُلَبّيَ حاجَتَك، فالردّ اللطيف إجابة.

النقطة الدقيقة أنك لا تستَعْظِم شيئاً تسأله الله، فالله عز وجل لا يُعْجِزُه شيء، فهل يمكنني أن أشترِيَ بَيْتاً؟ وهل يمكن أن أصبح داعية؟ وهل يمكنني أن أحصل على شهادةٍ عُليا؟ وهل يمكنني أن أصبح في منصب رفيع ؟ كل هذا ممكن. ولا تستعظم السؤال إطلاقاً فالله على كل شيء قدير قال: إذا سألت فاسأل الله وإذا اِستَعَنت فاسْتَعِن بالله. وفي الحديث الشريف:

((إن الله يستحي أن يرد يدي عبده صِفْراً.))

من أدعية هذا الاسم ؛ إلهي أنت المجيب لِمن دعاك، والمغيث لِمن ناداك تنصِف المظلوم من الظالم ؛ لأنك فوق الكل حاكِم. الهي إن نفسي ظلمت روحي، فَحَجَبَتْها عن الأنوار ومنعتْها من الأسرار، فانصُر الروح على النفس، بِفضلك وأسْعِدها في رياض وصلِك. إلهي لا تردّ الدعاء فأنت المجيب، ولا تؤاخِذنا بما فرّطنا فَمَن دعاك فلا يخيب، واجعَل لنا نوراً مَوْروثاً من نور اسمك المجيب، فَنَسْتَجيب بِأمرك ونقوم بِشُكرك وذِكرك إنك على كل شيء قدير.

أعزائي القراء، أعتقِد أن هذا الاسم ولا أبالِغ من أقْرَب الأسماء إلينا ؛ المجيب اِجعل عنده كل حاجاتك. حُطّ حالَكَ عنده. اِلْزَمْه واسْأله وتذلل له ومَرّغ جبهتَك في أعتابِه فهو السميع المجيب، فلا تنْسَوا أنّ المجيب اسم من أسماء الله الحُسنى وينبغي أن يكون مثلاً في قلبك دائماً.

٤٨- اسم الله الوكيل :

مع الاسم الثامن والأربعين من أسماء الله الحسنى والاسم هو الوكيل فالوكيل أكرّر هو اسم من أسماء الله الحُسنى تبارك وتعالى، هذا الاسم بالتعريف الدقيق ؛ الوكيل هو القيّم الكفيل بأرزاق العباد وهو بتعريف العلماء هو: القائم بأمور عِباده يُدِير أمورهم ويتولى شؤونهم وتسخير ما يحتاجون إليه، حينما يسخّر لهم ما يحتاجون إليه فهو الوكيل أو هو الذي أوكِل إليه كل أمر بمعنى إليه يُرجع الأمر كله.

وقيل: الوكيل هو المُتَولي بإحسانه أمور عِباده المتقين المُوَكّول إليه كل أمرٍ من أمورهم لِقوله تعالى:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُلُمَاتِ إِلَى النُورِ وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُورِ إِلَى الظُلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧))

(سورة البقرة)

هذا معنى فرعي لِذلك قالوا: من توكّل عليه تولاه وكفاه ومن استغنى به أغناه وأرضاه، بتَعريف آخر الوكيل هو المَوْكول إليه أمور العباد ومصالحهم، فمثلا قد يسأل إنسان ويقول: الأمر بيَد من ؟ يُقال: بيَد فلان هو الرجل القوي وهو الآمر والناهي وهو الذي يقرر وهو الذي يوافق والذي يرفض ويسمح ويمنع ويعطي ويأخذ.

فالوكيل: الموكول إليه أمور العباد ومصالحهم والمُتصرف فيها كما يشاء، وعباد الرحمن أوْكلوا إلى الله أمورهم واعتمدوا على إحسانه لِعَجْزهم عن تحصيل مهماتهم، وهنا معنى جديد إذْ يجد المرء نفسه أحياناً عاجزاً عن متابعة هذه القضية في المحاكم، يجهل القوانين وأساليب رفع المذكرات وأسرارها فلِذلك يُوَكّل محامياً، يقول: أنا وكيلي فلان، فالوكيل إما أن الله سبحانه وتعالى يتولى أمر العباد كلّهم أو أنه يتولى أمر عِباده المتقين يُرضيهم ويُغنيهم ويكفيهم أو لأن الله عز وجل لِعَجْز عباده عن تحصيل شؤونهم وإدراك مصالحهم هم يوكِلونه في شؤونهم التي يعجزون عنها دائما وهذه المعاني كلها تحتملها كلمة الوكيل.

نعم إنّه المتولي لِشؤون عِباده يصرّفها كيف يشاء، لذلك قالوا: إذا تولى الله عبده بجميل العِناية كفاه كل شُغل وأغناه عن كل غَيْرٍ، هو الكافي لِمن توكل عليه، إذا اتجه العبد إلى الله مُتَوَكِّلاً تولاه بحُسن رعايته فإذا استقام ختم له بجميل وِلايته، لعل أحدًا يقول هذه تعريفات الوكيل أكثرها مُتَداخل ومُتشابك فالمؤمن من خصائص إيمانه أنه يكِل أموره إلى ربه ويعتَمِد عليه ويطمئِن، والإنسان في أصله ضعيف وضعفه سبب سعادته لو أن الله خلقه قوياً لاستَغنى بقُوّته فشَقِي باسْتِغنائه، خلقه ضعيفاً لِيَفتقِر إليه بضَعفِه فيَسْعد بافتِقاره.

إنّ الله جلّ جلاله ما أمرنا أن نتكل عليه إلا لِيَكْفِينا أمرنا كله والعجيب أن يُواجِه الإنسان الصِّعاب ولا يتوكّل على الله، ولِحِكمةٍ بالِغةٍ بالِغة أرادها الله عز وجل الحياة مُفْعَمة بالمُقْلِقات وبالمخاوف والإنسان

فوقه ألف سيفٍ وسَيْف ؛ من يدري ماذا سَيَكون حاله بعد حين ؟ ومن يملك هذه الخلايا ألا تنمو نُمواً عشوائياً ؟ ومن يملك هذه الدسّامات أن تبقى تعمل بانتظام ؟ ومن يملك هذا الدِّماغ ألا تتجمّد فيه خثرة فتُعَطّل بعض فاعِلية الإنسان ؟ من يدري ماذا سيَكون ؟ هذه المخاوف مَخاوف المرض، وهناك مُقْلِقات متعلِّقة بالرزق وبالأولاد والأهل والعمل وكسب الرزق، لماذا الدنيا مشحونة بالمخاوف ؟ الحِكمة ؛ من أجل أن تفِرّ إليه وتعتمد عليه وأن تثِق به وأن تُقْبِل عليه وأن تُدْفَع إلى باب عُبودِيَتِه وأن تكون عبداً له مُنيباً مُفْتَقِراً.

ولنعلم جميعًا أنّنا لسْنا في دار مُقام بل نحن في دار انتِقال ونحن في ممرٍ ولَسْنا في مقرّ وفي حياة إعْدادٍ لِحياة أبَدِية فالنَّعيم المطلق والسعادة التامة والطمأنينة التي لا يُخالِجها قلَق والصحة التي لا يُساورها مرض هي في الجنة، نحن في دار إعداد وفي حياةٍ دنيا صُمِّمت لِتكون مدرسةً لِحياةٍ أبدية خالِدة، لذلك ليس عجيباً أن تكون الحياة مُقْلِقة وعِلاجُها أن تلْتَجئ إلى الله حيث الأمن والطمأنينة والراحة والتوازن، إذا قلت في اللغة: أوْكَلت أمري إلى الله أيْ ألْجأته إليه ؛ هذا الأمر الذي أخافني أو هذا الأمر الذي أقْلَقني وعَجَزت عن حلّ مشكِلَتِه أحلته على الله سبحانه وأوْكَلْتُه إليه.

قال بعض علماء القلوب: دَبِّر فأنا لا أُدَبِّر، وقال بعضهم يُناجي ربه:

إذا كنت في كل حالٍ معي فعن حمْلِ زادي أنا في غِنى
فأنتم هو الحق لا غَيْركـم فيا ليت شِعري أنا من أنـا

***

وقال بعضهم:

كُن عن الهموم معرضا وكِلِ الهموم إلى القضا
وابشِر بخيرٍ عاجِـل تنسَ به ما قد مضـى
فلَرُبّ أمرٍ مُسْخِــطٍ لك في عواقبه رضـا
وَلَرُبّما ضاق المضيـق وَلَرُبما اتسع الفضــا
الله يفعل ما يشـــاء فلا تكونن مُعتَرِضـا
الله عَوّدك الجمـــيل فقِسْ على ما قد مضى

***

الذي أراه أن طبيعة الحياة شاءها الله أن تكون دار اِلْتِواء لا دار اِسْتِواء ومنزل تَرَح لا منزل فرَح ودار بلاء وتَعَبٍ ونَصَبٍ، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلَاقِيهِ (٦))

(سورة الانشقاق)

شاءها كذلك من أجل أن تلتَجِئ إليه وأن تُقبِل عليه وأن تعتمِد عليه وأن تتوكّل عليه.

وَكَلْتُ أمري إلى الله أيْ ألْجَأْتُه إليه، إذا كانت للإنسان قضية صغيرة ومِفتاحها بيَدِه لا يسأل أحداً ولا يسْتَعِنْ بأحد، لو أن كل الأمور نقدر عليها ولا تعجزنا لاستغنيْنا عن الله عز وجل، ولو أن الأمور أصغر من طاقتِنا ومن تدبيرنا حينها لا يشعر الإنسان بحاجة إلى الله عز وجل لكنه مُحتاج إليه دائماً، وهذه الحاجة تحتاج إلى إعمال عقل أما حينما تأتي الأمور أكبر مما نستطيع ونعجز عن مواجهة أمر وحينما نجد أنفسنا أمام شبح مشكلة كبيرة وحقل ألغام وأننا أضعف من أن نُواجِه عدُواً، ما حِكمة هذه المصاعِب المتكرِّرة وهذه المتاعب في الحياة الدنيا ؟ قد يقول أحدكم لماذا هذه الصعوبات يا رب ؟ لماذا الإنسان تحت سيوفٍ مشرعة كثيرة ؟ فتارةً يَقْلَقُ على صِحّتِه وتارة على دخْله وتارة على مستقبل أولاده وتارة على مستقبل بناته لماذا هكذا يا رب ؟ الجواب أنه تعالى أراد أن تلجأ إليه وأن تُقبِل عليه وأن تَفِرّ إليه وأن تُساق إلى باب العبودِية إليه وأن تكون مُوَكِّلاً له وأن يكون وكيلاً لك وأراد أن تَنْعُم بظل الاستِسلام له والإقبال عليه، فوَكَلْتُ أمري إلى الله: ألْجَأْتُه إليه واعتَمَدْت عليه.

لذلك قالوا: إن المُتَوَكِّل على الله هو الذي يعلم أن الله كافِلٌ رزقه وأمره، الحقيقة أنه لا يمكنك أن تتوكل على إنسانٍ ضعيف، ولا يُمْكِن أن تُوَكِّل إنساناً جاهِلاً لا يستَطيع أن يكتُب اسمه في دعوى عويصة في قصر العدل، تبحث عن أمهَر المُحامين وعن مُحامٍ مُخلِص ويتمتّع بكفاءة عالية جداً هذا شأنك مع محامٍ في قضية عويصة فلِذلك أنت لا تستطيع أن تتوكل على الله إلا إذا عرفته، وقد يقول أحدكم: أنا أتوكل على الله ؛ لا ؛ بل هذا مجرّد ادّعاء، فإنك إن لم تتعرف إلى أسماء الله الحُسنى وإن لم تعرف قدرته التي تتعلق بِكل ممكن وإن لم تعرف حِكمته ورحمته وعدالته وقدرته تتوكل عليه فأصل التوكل أن تعرفه فالإنسان مِن خلال معاملاتِه ومُمارساتِه يَثِق بأشخاصٍ عِدة ويقول لك: فلان يُعْتَمد عليه فإذا سافر سلّمه العمل في متْجره أو معمله هناك قبض ودفع وهناك مُوَظفون ومُشْكِلات ومالية وتموين يقول لك: يُعْتَمد عليه، فهل رأيت صاحِب معمَلٍ ضخمٍ يعتمِد على موظفٍ أحمقٍ أو موظف ضعيف التفكير ومحدود الأُفق ؛ مستحيل فأنت لن تتوكّل إلا على القوي ولن تتوكل إلا على العليم، لن تتوكّل إلا على القدير ولن تتوكّل إلا على الخبيرفلِذلك التوكل أساسه معرفة الله عز وجل، والإنسان الشارِد والتائه ربما يضع ثِقته بإنسان وإذا دَعَوْته إلى التوكل على الله لا يستجيب، كيف ؟ إنّ الله تعالى قال:

(يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ (٤٢))

(سورة القلم)

أنت إذا دعَوْت إنساناً يُعاني من مُشكِلة أومن مرضٍ أومن خطرٍ أومن قضية وقلت له توكّل على الله فلَن يفهم عليك ربما يُجامِلك ويقول توكلت ! لكنه في الحقيقة لا يتوكّل لأنه لا يعرف أن الناس جميعاً بيَدِ الله وأنّ الأقوياء جميعاً في قبضَتِه وأن خواطِر العِباد بيَدِه، قد تقف أمام إنسان يُلقي الله في روعه أن

سَهّل له الأمر على خِلاف عادَتِه، إنسان يُعَقِّد الأمور ويُقيم الحواجز وينصِب العَقَبات في وجوه الآخرين، لكنك تجِده من ألْطَف الناس معك رغم أنّك لا تعرفه ولا يعْرف اسمك فلماذا وقف هذا الموقف اللّيّن ؟ وماذا ألقى الله في قلبه ؟ لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((فعن عَبْدِ الرّحْمَنِ الْحُبُلِيّ أَنّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُول أَنّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ إِنّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمّ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ اللّهُمّ مُصَرّفَ الْقُلُوبِ صَرّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))

(رواه مسلم)

أحياناً إذا أراد الله أن يُؤدِّب مخلوقاً فيبعث الله إنسانًا طَيّبًا يتصدّى له، ويقيم النكير عليه ويُكَبِّر الأمور ويُقيم الحواجز ويضع العقبات ؛ تقول أنت: هذا غريب ! ليس هذا من أخلاق هذا الشخص، فاعلم إذًا أنّ العِباد حتى خواطِرهم ومشاعِرهم وتصوُّراتهم وحتى رغبتهم في الخير أو الشر بيَد الله عز وجل فإذا كنت مع الله فالله معك لذلك أقول دائماً هذه المقولة: يا رب ماذا فقَد من وَجَدك وماذا وجد من فقدَك ؟ وإذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فَمن معك، أريد أن أقف وقفةً مُتأنِّيَة عند هذه المقولة ؛ لن تستطيع أن تتوكّل على الله إلا إذا عرفْتَه وأن تتعرف إلى الله أكبر إنجاز في حياتِك لأنك موجود في الحياة الدنيا من أجل أن تعرف الله لذلك إن عرفته توكلت عليه ووَكّلت أمرك إليه وفوّضت، فلن يستطيع من أراد أن يتوكّل حقيقة التوكل إلا بعد أن يعرف الله، قد تجد إنساناً يخاف من إنسان أشد من خوفِه من الله لأنه لا يعرف الله.

الوكيل إما أن يتوكّل لبعض الأمور كما يحدث بين الناس والتي يسمونها وكالة خاصة مثلاً وكالة في بيع بيت فقط وكالة في قبض مبلَغ أوفي تحصيل دَيْن وكالة في مُخاصمة كل هذا يسمى وكالة خاصّة وأحياناً تكون الثِّقة بالِغة جداً بين شخصين يوكله وَكالة عامة المُوَكّل وكالةٌ عامة بإمكانه أن يبيع كل أملاكك وبإمكانه أن يطلق زوجتك بالمناسبة الوكالة العامة خطيرة جداً ؛ فهذه امرأة تملِك آلاف الدّنومات وكّلت محامياً قال لها اِجْعَليها وكالة عامة وهي لم تفهم ما قال لها فَجَعَلَتْها وكالة عامة، فَكُلّ الأراضي سجّلها باسمِه ولا تزال الدعوة قائمة بينه وبينها حتى الآن منذ عشر سنوات فالإنسان قبل أن يُوَقِّع وكالة عامة يجب أن يُفَكِّر أن يَعدّ للمِليون فالقضِيَة ذات أبعاد خطيرة، على كُلٍ هناك وكالة خاصة و وَكالة عامة والوكالة العامة تبقى وكالة محدودة، هل يستطيع المُوَكّل أن يقبض روح الإنسان ؟ طبعًا لا، لكن الله تعالى هو الوكيل المطلق، قال تعالى:

(ذَلِكُمُ اللّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢))

(سورة الأنعام)

بيَده حياتك ورزقك وبيَده من فوقك ومن تحتك وبيده أقرب الناس إليك وأبعد الناس عنك والذي يُحِبك والذي لا يحبّك وبيَدِه دقائق جسمك وأجْهزتك والله على كل شيء وكيل، لذلك ليس الوكيل المطلق إلا الله وليس من بني البشر من هو وكيل لك في أمورك لكن الله وكيل لك في كل الأمور و وكيل لك في كل الظروف، والمُتَوَكِّل في كل حياتِك.

هناك نقطة أخرى في الوكالة وهي أنه يُمكن أن يكون فلان ليس مُتَوَكِّلاً أمرك لكنك باختِيارك وَكَّلْتَه ليس هذا الشأن مع الله عز وجل لكن الله شئت أم أَبَيْت أَحْبَبت أم كَرِهت رَضيت أم لم ترْض أمرك كله بيَده تعالى، قد يوكِل إنسان إنسانًا وكالة محدثة، أنا وكّلت فلاناً أما قبل أن أُوَكِّله لم يكن وكِيلاً لي،فأنا الذي أحدثت هذه الوكالة لكن الله سبحانه وتعالى مُتَوكِّل لكل أمور العِباد وكالةً مطلقة، وهو على كل شيء وكيل وهذا المعنى الثاني.

أما المعنى الثالث: فالوكيل إما أن يؤدي المهمة على أتم وجه وإما أن لا يُؤَدِّيها وكم من إنسانٍ خاب ظنّه في مُحامٍ وَكّله قضيِّةً فَخَسِرها، قد يقول: إن قدراته ضعيفة وإنه لم يهتم اهتماماً كافِياً أو ما قدّم المذكرات القويّة أو اتفق مع الخصم، إذًا قد تُوَكِّل إنساناً يُخَيّب ظنك لكنك إذا وكّلت الله رب العالمين فهو الوكيل الحق الذي يُغنيك ويُرضيك ويكفيك، أرجو الله تعالى أن نتعامل مع هذا الاسم تعامُلاً حقيقياً لأنك لا تكتفي أن تعرف معنى الوكيل وما تعريفه، فالقضية أكبر من ذلك المهم أن تكِلَ إليه أمرك، صَدِّقوني أيها الإخوة: لا يوجد مؤمن على الإطلاق بإخلاصٍ شديد وبصِدقٍ بالِغ وكّل إلى الله شأناً من شؤون حياته إلا ويَتَوَلى الله أمره، ولقد ورد في بعض الأحاديث القدسية أنّ الله عز وجل يقول لِعَبْدٍ أعطاه الله المال:

((عبدي أعْطَيْتك مالاً ماذا صنَعْت فيه، يقول يا رب لم أُنْفِق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي، يقول الله ألم تعلم بأني أنا هو الرزاق ذو القوة المتين))

إن الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم،

((ويقول لِعبدٍ آخر عبدي أعطيْتُك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ يقول: يا رب لقد أنفقته على كل محتاج ومِسكين لِثِقتي أنك خير حافِظاً وأنت أرحم الراحمين))

فأحياناً الإنسان يَكِل إلى الله أمر أولاده وهو على فِراش الموت أو يكل إلى الله أمر بناته أو صِحته، وقد أعجزه العلاج وكان سييْأس وقد يتألم ويقول: يا رب توكّلت عليك وفوّضت أمري إليك أنت أعلم وأنت أرحم وأنت أكرم وأحكم، هذا الحال إذا توكّلت على الله حقيقة - والله - سَتَرى العَجَب العُجاب وسوف ترى أنك أقوى الناس.

لِذلِك قالوا: إذا أردت أن تكون أقوى الناس فَتَوَكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتّق الله وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فَكُن بما في يَدَيْ الله أوْثق منك مما في يديك فالذي يتوكل على الله هو

أقوى إنسان والدعاء سلاح المؤمن وكلنا ضعفاء ولكنّك قويٌ بالله وغني بالله وكريم بالله، فأنت كريم بطاعة الله وغنيٌ بالاعتِماد على الله وقويٌ بتَوَكّلِك على الله لذلك ما توكّل على الله أحدٌ وخَيّب ظنّه وما توكّل على الله أحدٌ إلا وكفَاه وأرضاه وأكرمه.

وها نحن مع الآيات التي ورد فيها هذا الاسم العظيم، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

(الّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إنّ النّاسَ قدْ جَمَعُوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إيمَاناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣))

(سورة آل عمران)

يقولون: فلان يتآمر عليك ويكيد لك ويُدَبّر لك لا تنجو منه وفلان يوغِر صدر رؤسائك عليك فقُل: حسْبنا الله ونِعم الوكيل ؛

(الّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إنّ النّاسَ قدْ جَمَعُوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إيمَاناً وَقالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فانْقلَبُوا بنِعْمَةٍ مِنَ اللّهِ وَفضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتّبَعُوا رضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فضْلٍ عَظِيمٍ(١٧٤))

(سورة آل عمران)

ألا تكفينا هذه الآية، مهما شعرت أنّ الناس يكيدون لك السوء وأنهم لك بالمِرصاد ويأتمِرون عليك قل:

(الّذِينَ قالَ لَهُمُ النّاسُ إنّ النّاسَ قدْ جَمَعُوا لكُمْ فاخْشَوْهُمْ فزَادَهُمْ إيمَانًا وَقالُوا حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

لما نزل النبي عليه الصلاة والسلام من الطائف وقد ردّه أهلها شر ردّ وقد كذّبوه وسَخِروا منه وأوْغروا صدر سُفهائهم فضَربوه قال له زيد الصحابي الجليل: **يا رسول الله كيف تدخل مكة وقد أخرجوك منها؟** فقال عليه الصلاة والسلام:

((إن الله ناصِر نبيّه))

يوم جاءت الأحزاب قال تعالى:

(إذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أسْفلَ مِنْكُمْ وَإذْ زَاغَتِ الْأبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ باللّهِ الظّنُونَا (١٠))

(سورة الأحزاب)

وقال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللّهَ عَلَيْهِ فمِنْهُمْ مَنْ قضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣))

(سورة الأحزاب)

وقال له سيدنا الصديق وهو في الغار: **لقد رأوْنا فقال له رسول الله يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى ؟**

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨))

(سورة الأعراف)

موضوع التوكل لا يبدو جليًا واضحًا ولا يظهر أبلج إلا في الشدائد وأما بالرخاء فلا توكّل فإذا كان الإنسان له دخْل وصِحة وأموره مُيَسّرة أنى يقول: يا رب توكّلت عليك ؟ مستحيل ! فالله عزّ وجل إذا أراد أن يسمع صوت عبده المؤمن يسوق له شبح مصيبة، من أجل أن يركض إلى الله ويلجأ إليه لذلك هذا الاسم لا يبدو إلا في الشدائد، هذا لغير المؤمن أما المؤمن فيتوكل على الله في جميع أحواله في الرخاء وفي الشدددائد، والمرء في الشدة تُعرف حقيقة إيمانه أو ضلاله وكفره، كما يعرف يقِينه من شكّه. وكذلك قال تعالى:

(ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢))

(سورة الأنعام)

هذا معنى جديد، فالله على كل شيء رقيب ومالِك فاعبُدوه لأنه على كل شيء وكيل، متوكّل أمره ورقيب عليه ومالِكٌ لِناصيِيَتِه وهذا هو معنى قول الله تعالى:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٥٦))

(سورة هود)

آية ثالثة قوله تعالى:

(فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢))

(سورة هود)

فالأمر بيَد الله وما عليك إلا أن تُبَلِّغ والباقي على الله فالذي يستجيب يُوَفِّقه الله والذي لا يستَجيب يؤدِّبه الله وأنت ما عليك إلا أن تُبَلِّغ أمر الله كما أمرك.

وهذه آية أخرى قوله تعالى:

(فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ (٦٦))

(سورة يوسف)

أي الله شاهد هنا بمعنى أن الله عز وجل شهيد على ما نقول. المعنى الأول مالك الأمور، والمعنى الثاني الرقيب، والمعنى الثالث الشاهد .

وفي سورة الزمر قال تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢))

(سورة الزمر)

لا يمكن أن يتفلت شيء من قبضة الله، فقد تجد إنساناً مُتَفَلِتاً ومُخيفاً ويثير الرعب بين الناس ولكنه في قبضة الله - هذا هو الإيمان الصحيح - الوحوش الفتاكة والأشخاص العتاة والشِرّيرون هؤلاء كلهم بيَد الله عز وجل لا يسمح لهم أن يفعلوا ما يفعلوا إلا بمشيئته وأمره قال تعالى:

(وَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً (٣))

(سورة الأحزاب)

الله جلّ جلاله يطلب منا أن نتخِذه وكيلا فهو رب المشرق والمغرب قال تعالى:

(رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ فَاتّخِذْهُ وَكِيلاً (٩))

(سورة المزمل)

جرت قصة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنّهُ حَدّثَهُمْ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمّا أَدْبَرَ حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ رُدُّوا عَلَيّ الرّجُلَ فَقَالَ مَا قُلْتَ قَالَ قُلْتُ حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِنّ اللّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

(رواه الإمام أحمد)

مثال ذلك طالب درس ورسب فقال: حسبي الله ونِعم الوكيل هذا قوله صواب وصحيح، فقوله تعالى حسبنا الله ونعم الوكيل لا تقولها إلا إذا بذلت كل شي تملِكه وبعد كل هذا البذل والجهد لم تنجح عندئذ قل: حسبي الله ونعم الوكيل ولا تقل: حسبي الله ونعم الوكيل قبل أن تستنْفِذ الجهد والعقل والتدبير وإلا كلام غير مقبول إذا لم يدرس وقال حسبي الله ونعم الوكيل أي كان كسولاً فقال:حسبي الله ونعم الوكيل وأهمل تربية أولاده فانحَرفوا فقال: حسبي الله ونعم الوكيل وما عالج ابنه فتَفَاقم المرض فقال: حسبي الله ونعم الوكيل فكل هذا الكلام غير مقبول إطلاقاً إذاً لا تقل حسبي الله ونعم الوكيل حتى تستفْرِغ جميع جهدِك وتستَوْفي كل عملك عندئذٍ قل هذا الكلام، قال تعالى:

(فَتَوَكّلْ عَلَى اللّهِ إِنّكَ عَلَى الْحَقّ الْمُبِينِ (٧٩))

(سورة النمل)

هذه نقطة دقيقة المعنى في بحثنا، فتَوَكّل على الله لأنك على الحق المبين وهذا يعني أنك إذا كنت منحرفاً ومُعْتَدِياً ومسيئاً ومُجانِباً للحق فلا يصحّ من التوكّل ؛ فتوكّل على الله إنك على الحق المبين فأحد أسباب التوكل أن تكون على الحق المبين.

شيء آخر قال تعالى:

(وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ(١٢))

(سورة إبراهيم)

معنى ذلك أنك إذا عرفت الله واندفعت في مشروع ينبغي أن تتوكّل عليه فَمِن لوازم معرفته واستِقامتك أن تتوكّل عليه.

قال بعض العلماء: **" التوكل الانخِلاع من التواكل والانخلاع والقوة "** وقال شفيق البلخي: **" التوكل أن يطمئن قلبك لِوَعْدِ الله "**، فإذا وعدك الله بالتوفيق والرزق والحياة الطيبة علامة التوكل أنك مطمئن لهذا الوعد، فأنت إذا وعدك إنسان قوي فقد تقول: من المعقول ألا يُنْجز الوعد: أما إذا وعدك الله بِحياةٍ طيبة ووعَدك بالنصر واليُسر والتوفيق والنجاح فمن علامة التوكل الاطمئنان لِوَعد الله.

وقال بعض العلماء التوكل: **" الاشتِغال عما لك بما عليك "** وقال بعضهم: **" قلوب الزاهدين أوعِيَة للتوكل "**، وقال بعضهم: **"التوكل انقِطاع المطامِع "** فالذي يطمع بما ليس له فهو غير متوكل أما المتوكل فهذا الذي يرضى بما قسمه الله له فهذا من علامات التوكل، توكّلْ على الله حتى يكون هو مؤنِسك ومعلّمك وموضِع شكواك فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك لذلك قال سيدنا يعقوب:

(قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٨٦))

(سورة يوسف)

كلما عظم إيمان المرء لا يشكو همّه إلاّ إلى الله، وكلما ضعف إيمانه تجده كثير الشكوى فهذا الذي يشكو همومه إلى كل من يلقاه ضعيف الثقة بالله ضعيف الإيمان إذاً توكّلْ على الله حتى يكون هو مؤنِسك ومعلّمك وموضِع شكواك فإن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك.

الآن مُوازنة سريعة بين من يتوكّل على مخلوق وبين من يتوكّل على الله إذا توكّلت على مخلوق طالبك بالأجر وقد يخونك وقد لا يُفْلِح وقد يكون أضعف من المهمة التي وكّلتَه بها أما إذا توكّلت على الله أعطاك الأجر توكِل إنساناً فَيُطالِبك بالأجر وإن كان مُخْلِصاً فقد لا يستطيع وإن كان يستطيع فهو لا يُخلِص وقد يخون وقد ينْحاز إلى خصْمِك أما إذا توكّلت على الله عز وجل فالله تعالى يُعطيك الأجر ويكفيك ويُرضيك ويُكَرّمك.

عزيزي القارىء موضوع التوكل موضوع كبيرٌ جداً وذكرنا ما ينبغي أن يُذْكر في هذا الدرس المحدود لكن الله تعالى نرجو أن تُتَرجم هذه الحقائق إلى مشاعِر وتصرّفات وإلى مواقِف لأن الاستِفادة الحقيقية من دروس أسماء الله الحسنى أن نتعامل مع الله بطريقةٍ أفْضل وبِمُستَوى أكبر وأن نتعامل مع الله بِمَعرفةٍ أساسها الطاعة والاستِسلام لله عز وجل.

أيها الإخوة: ما من اسم أقرب إلى العبد من اسم الوكيل وهو على كل شيء وكيل، لذلك وكّل الله وارتح ونم وأرح أعصابك ووكّله وابتَعِد عن هذه المقْلِقات فتَوَقُّعُ المصيبة مصيبة أكبر منها أنت من خوف الفقر في فقرٍ ومن خوف المرض في مرضٍ فتَوَقُّعُ المصيبة مصيبة أكبر منها والمتوكّل على الله عز وجل سوف يرى أن الله كفاه وأغناه وأرضاه.

٤٩- اسم الله الواسع :

مع الاسم التاسع والأربعين من أسماء الله الحُسنى وهو الواسع، فكلمة الواسع مُشتقة من السّعة، والسّعة تُضاف إلى العِلم إذا اتّسَع وأحاط بالمعلومات الكثيرة، وتُضاف مرةً أخرى إلى الإحسان وبَسْط النِّعَم. يقول أحد العلماء في أسماء الله الحُسنى " **اسم الواسع وهو الذي وَسِع غِناهُ كل فقير ورحمته كل شيء** " أحياناً تطلب من إنسان مبلغاً يقول لك: هذا فوق طاقتي إذْ أن دائرة مالِه لا تتّسِع لهذا الإنفاق وأحياناً تطلب من إنسان أن يُعينَك فيَقول لك هذا أمر لا أقدِر عليه فوق طاقتي ولا تتّسِع له سُلطتي ووَجاهتي، وأحياناً تسأله سؤالاً يقول لك لا أدري هذا لم يَبْلُغْه عِلمي فالإنسان محدود ؛ محدود في عِلمِه، ومحدود في قدرتِه وماله وجاهِه وكل إنسان هناك من هو فوقَه.

إلاّ أن الله سبحانه وتعالى هو الواسع فرَحْمَتُه وسِعت كل شيء وغِناه وسِع كل فقير وإحسانه شمَل كل مخلوق فلا تضيق دائرة علمه عن كل شيء ولا تضيق دائرة إحسانِه عن أيّ شيء ولا تضيق دائرة قوّتِه عما دونه فقوّته تتعلق بكل ممكن وإحسانه يتعلق بكل ممكن وعِلمه يتعلق بكل ممكن فكَلِمة واسِع وسِعت رحمتي كل شيء وسِع عِلمي كل شيء ووسِعت قدرتي كل شيء ووسِع غِناي كل شيء، لِذلك قيل الواسع هو الذي لا نِهايَة لِسُلْطانِه فنَحن لا نستطيع تصوُر اللانِهائي فالطريق له نِهاية وهذه المجرّة لها نهاية وهذا الغني مهما عظُم ماله ينتهي عند رقمٍ وهذا الإنسان مهما بلَغ من جاهِه هناك شيء لا يستطيعُه مثلاً ؛ أمهر طبيب بالعالم إذا مات المريض هل يُمكِنه أن يعيد له الحياة ؟ هذا شيء فوق طاقتِه:

إنّ الطبيب له عِلم يُدلّ بــه إن كان للناس في الآجال تأخير
حتى إذا ما انتهت أيام رحلتِه حار الطبيب وخانتْه العقاقير

***

إذًا فالواسع هو الذي لا نِهاية لِسُلْطانِه وبالمناسبة الإنسان مُصَمّم ومهيّأ إلى أن يتعرّف إلى الله إذْ لا تُملأ نفسه إلا معرفة الله أيّ شيء دون الله عزّ وجل بعد حينٍ يَمَلّ منه، يُحيط به أولا وينتهي من التفكير فيه لِذلك حينما يغفل الإنسان عن الله عز وجل بعد أن تتحدّد دنياه يشعُر بخيبَة الأمل ويشعر بالسّأم والضجر لا لِشيءٍ إلا لأن نفسه مصمّمة لِتَعْرِف اللانِهائي وتعرِف المطلق فإذا شغلها بغَير المطلق وهو النِّهائي والمحدود سئِمت هذا المحدود وملّته وضجرت منه، وقد تلاحِظ ببساطة أنّ الإنسان حينما كان شاباً يعيش بالأحلام يتصوّر بيتًا مُعَيّنًا ويتمنى زوجة معيّنة ومركَبة معيّنة فإذا وصل إلى نِهاية أهدافِه وتحدّدت حِرْفته وبيته وزوجته ودخْلُه وحُجّم في آماله وأحلامه، وصارتْ نفسك مصمّمة لِتَعرف غير المحدود والمطلق واللانِهائي لكنك شغلْتَها بالمحدود فالمحدود تسْتَوْعِبه سريعاً وتمَلّ منه.

أيها القارىء الكريم، لن تسعد في الدنيا إلا إذا تطلّعت إلى الله عز وجل وإلا إذا كان الهدف هو الله، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي ما سِوى الله يُمَلّ وما سِواه تسأمه النفس وقد تتبرّم به فهو محدود بينما النفس متشوّقة أبدًا لِذلك الواسع الذي لا نِهاية لِسُلْطانه والواسع الذي لا حدّ لإحسانِه فلا يُحَدّ غِناه ولا تنْفَد عطاياه ولا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأنٌ عن شأن.

أحياناً يتحدّث إليك شخص فتَقول لشخص آخر يريد أن يكلمك في أمر ما: انتظر إلى أن ينتهي من حديثي هذا كي أتمكن من الفهم عليك فلا يتّسِع إدراكه لِسَماع صوتين ولا إلى أن ينصرف إلى جهتين فهو غير واسِع أما ربنا عزّ وجل معنى أنه واسع أيْ لا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأنٌ عن شأن، لو أنّ كل العِباد دَعَوْهُ في وقتٍ واحدٍ لَسَمِعهم جميعاً فإذا دعا الإنسان ربه واستجاب له وسمِع دعائه هناك من يظن أن الله سمِعه وحده، ففي هذه اللحظة التي دعَوْت الله فيها كم مِن إنسان دعا الله تعالى فيها ؟ فإذا استَيْقظت إلى صلاة الفجر وذهبت إلى المسجِد وبعد الصلاة دَعَوْت الله فعلى مستوى البلد الواحد تجد آلاف المصلين في المساجد وبعد الفجر يقبل المصلون على ربهم بالدعاء، وكل إنسان يتوجه إلى الله متوسلاً، وكلهم يسعهم سبحانه في اللحظة ذاتها، بينما الإنسان لا يستطيع أن ينصَرف إلى جهتين معاً، حتى في علم النفس يقولون: إن الذي يبدو لك أنه يستمع إلى شخصين معاً إيّاك أن تصدِّق ذلك وإنما عنده ما يسمى سرعة التحوّل أما أن يستطيع أن يستوعِب حديثين معاً أو ثلاثة فهذا غير ممكن ففي سَهرة مثلا تجد كل اثنين يتكلمان معاً فهل تستطيع أن تستوعب ما يقوله كل من يتحدّث ؟ لا تستطيع إذْ أنك لو انصرفت إلى شخصين نسيت الآخرين لكنّ الله عز وجل واسِع لا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأن عن شأن ولا حال عن حال.

وقيل الواسع هو العالم المحيط علمه بكل شيء وسِع علمه كل شيء، أحياناً تركب بِمَركبة فترى كلّ شيءٍ أمامك مكشوفًا أما خلفك ما دون زاوية النظر لا تستطيع أن تحيط به، لِحِكمة أرادها الله عز وجل، عينا الطائر تُغَطِّيا ثلاثمئة وستين درجة ولكن قد لا تغطي تحته فهذه ثلاثمئة وستون درجة مستوية فالإنسان سمعه محدود، وبصره محدود، وقدرته محدودة وإحسانه محدود.

وقيل هو الذي وسع بِعِلمه جميع المعلومات ووَسِعت قدرته كل المقدورات واسِع الرحمة والغِنى والسلطان والعِلم والقدرة والإحسان.

وقيل هو الذي لا حدود لِمدلول أسمائه وصِفاته - هذا معنى جديد - فاسم الرحيم ليس له حدود، واسم الكريم ليس له حدود، واسم الغني والقوي كذلك وما معنى الله أكبر ؟ مهما عرفت عن أسمائه الحسنى فهو أكبر من ذلك النبي عليه الصلاة والسلام لما رأى زيد الخير قال له: **يا زيد: والله ما وُصِف لي رجل إلا رأيته دون ما وُصِف.**

أحياناً يقول لك الإنسان: المكان الفلاني قطعة من الجنة تذهب إليه وفي ذهنك تصوّر متنامٍ فإذا بك تجده أقل بكثير مما وُصِف لك، قال له يا زيد: **والله ما وُصِف لي رجل إلا رأيته دون ما وُصِف إلا أنت يا زيد،** قد تسمع عن إنسان فيتكوّن عندك صورة وحجم.

لقد كان أحد الصحفيين من يعمل في حقل الإعلام فكان إذا أراد أن يلتقي مع أديب يقرأ له الكثير قبل لِقائه به وهذا الأديب أو الشاعر لا يظن أن هذا الصحفي يعرف عنه الكثير فإذا التقى به وسأله وأجاب جواباً غير علمي يرد عليه بتحقظ ويقول: قاله أحد النقاد فَيَنْكَمش وَيَنْكَمش ولما عوتِب هذا الذي يُجري هذه البرامج لماذا تحرج السائلين بهذه الطريقة ؟ قال لأنني أحب أن أعيدهم لِحجمهم الطبيعي.

فالإنسان له حجم إلا أنّ هناك أشخاصًا لهم القدرة على الظهور بأحجام أكبر من أحجامِهم أما في بعض الظروف الصعبة يُحَجّمون ويعودون إلى حجمهم الأصلي وكل إنسان له حجم وله سقف، فعندما ذكر ربنا عز وجل مقالة سيدنا عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨))

(سورة المائدة)

فلو أننا وقفنا عند قوله تعالى:

(وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ)

يظن المرء أن ختام الآية فإنك أنت الغفور الرحيم " وليس كذلك بل قال فإنك أنت العزيز الحكيم ؟ قال بعض العلماء: **" ما من إنسانٍ يعفو إلا ويُسْأل لِماذا عَفَوْت "**، لو فرضنا موظف هل بإمكانه أن يطوي تكْليفاً لِمكلّف بضريبة معيّنة ؟ إذا طوى ضريبة وأعْفاه منها كُلِّياً يُسأل لماذا أعْفَيْتَه ؟ فالإنسان إذا أراد أن يعفوَ قد يكون عفوُه مأخذاً عليه أما الإله العظيم:

(وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

لا يستطيع مخلوق أن يسألك لِماذاعفوْت عنه ؟ أنت المطلق لِقوله:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وكثيرًا ما تأتي خواتم الآيات على غير ما نتوقع قال تعالى:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١))

(سورة الإسراء)

فما دام الذي أسرى بعبدهِ ليلاً فالسياق يتطلّب وهو على كل شيء قدير لكن ختمت الآية إنه هو السميع البصير، يا رب ما علاقة هاتين الكلمتين اللتين هما اسمان من أسماء الله الحُسنى بمضمون الآية ؟ فالنبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال بالطائف ؟ قال:

((رب إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي ولك العتبى حتى ترضى))

سمع الله دعاءه بالطائف فكان الرد الإلهي هذا التكريم: أي يا محمد سمِعْنا دعاءك في الطائف وهذا هو الجواب أنت الآن مُكرّم وقد أُريت ملكوت السماوات والأرض وقد نِلتَ المقام الأول الذي لا ينبغي إلا لِواحِدٍ من خلقي، فَختِام الآيات له معنى دقيق ودقيق دقيق.

فمعْنى الواسع أن رحمته لا حدّ لها وعلمه لا حد له وقدرته لا حد لها فهذا الاسم إذاً تعلّق بكل أسماء الله كاسم الرحمن قال تعالى:

(قُلِ ادْعُوا اللّهَ أَوِ ادْعُوا الرّحْمَنَ أَيّاً مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً(١١٠))

(سورة الإسراء)

اسم الواسع متعلق بكل أسمائه، قال: واسِع المغفِرة وقيل الواسع الذي لا حدود لِمدلول أسمائه وصِفاته؛ واسع العلم و واسع المغفرة و واسع الرحمة و واسع الملك.

بعض العلماء الذين تحدّثوا عن أسماء الله الحُسنى ذكروا أن الواسع الذي لا نِهاية لِبرهانه ولا غاية في سلطانه فهو واسِع في علمه فلا يجهل فأعلم عالم يقول لك مثلاً: غابت فكرة عني ويُؤلف كتاباً وبعد عشر سنوات تكون هناك مؤاخذات في الطبعة الثانية، غابت عنه هذه الحقيقة وهذه الفكرة، حتى الأئمة الكِبار أبو حنيفة النعمان غاب عنه حديث شريف ولو اِطّلع عليه لأدْلى بحكمٍ آخر غير الحُكم الذي حَكَمَ به في موضوع الوقف ؛ وفوق كل ذي عِلمٍ عليم، فالواسع الذي لا نهاية لِبُرهانه ولا غاية لِسُلطانه، واسِع في علمه فلا يجهل، وواسِع في قدرته فلا يعجل، والله قدير، والإنسان أحياناً يرى بعض المنحرفين يتحدّثون بِكلامٍ قبيح، ويتحدّون الذات الإلهية وينطِقون بالكفر، والله جلّ جلاله بِقُدرته أن يسحقهم في ثانية واحدة فهو واسِع في علمه فلا يجهل، وواسِع في قدرته فلا يعجل، من فقرات (التذكير) قبل صلاة الفجر يقول المؤذّنون: وهو العاطي الذي لا يسأل وهو الكريم فلا يبخل وهو الحليم فلا يعجل، فالإنسان أحياناً يعجل فَيَنْدم، فالله هو العاطي الذي لا يسأل، وهو الكريم فلا يبخل وهو الحليم فلا يعجل، وإذا أعطى أدهش.

قيل هو الواسع في علمه فلا يجهل، وواسِع في قدرته فلا يعجل، وقيل: الواسع الذي لا يغرب عنه أثر الخواطر في الضمائر، أنت قد تتأمل إنساناً وتتأمل قِوامه، ولون جِلدِهِ، ولون عَينَيه ولون شعره، وثِيابه وألوان ثِيابه وأناقتَه، وإنسِجام الألوان في ثِيابه، وحركته ونظرته ولَفْتَته ونبْرة كلامه، لكن هل تستطيع أن تكشِف بماذا يفكِّر ؟ أو ما الذي يخطر ببالِه ؟ لايمكن إذاً دائرة معلوماتك محدودة وقفت هنا، أما الواسع هو الذي لا يغرب عنه أثر الخواطر في الضمائر فَكُل الخواطر التي تخطر على بالك هي في علم الله عز وجل.

وقيل الواسع الذي أفضالُه شامِلة وعطاياه كامِلة ؛ إذا أعطى أدهش كما قيل الواسع هو المطلق، فنَحن عِندنا محدود ومطلق، فما سِوى الله محدود لكن هذا المحدود بالنسبة لنا غير محدود.

فالآن بعد مئات السنين من البحث والتأمل وصُنع المناظير العِملاقة والمراصِد الجبارة هل تصدِّقون أيها القراء الكرام أن بعض عدسات المراصِد يستمر تبريدها خمسة عشر عاماً، هناك مَرْصد بأمريكا استمرت مدة تبريده خمسة عشر عاماً من أجل أن يأتينا ببَعض الكواكب التي لا تُرى بالمناظير الصغيرة ومع ذلك يقولون لك: وصلنا إلى مجرّة تبعد عنّا أربعة وعِشرين ألف مليون سنة ضوئيّة !! تقول لهم يا تُرى هل هناك مجرّة أبعد من هذا ؟ يقولون لك نعم لكن عِلمنا وصل إلى هذا الحد، فهذا الكون الذي نعيش فيه هو نظرياً محدود، فما سِوى الله محدود، والله مُطلق، والكوْن بالنِسبة إلى الله محدود بينما هو بالنِّسبة إلينا غير محدود، فكيف خالق الكَون ؟

مثلاً من باب التوضيح وضعنا رقم (واحدٌ) في دمشق ولو وضعنا عند نقطة بدايته صِفراً ولفّ هذا المرء العالم كم سَيَكون بينه وبين النقطة التي ينتهي إليها والتي هي منطلق بدايته؟ لو أردت أن تحسِب هذا الرقم لَوَجَدْت أنه رقم خيالي ومع ذلك هو لا يساوي شيئا مع اللانهاية، فأكبر عدد على الإطلاق إذا نُسِب إلى المالانِهاية فهو صِفر، موضوع الأبد لا يستطيع العقل إدراكه فالجنة أبدية، والإله مطلق لا نِهاية له، وما سواه محدود.

سمعت بعض العارفين يقول: والله يا رب لو تشابهت ورقتا زيتون لما سُميت الواسع، فالأرض تحمل ستة آلاف مليون إنسان، ولنُجْر إحصاءً على مستوى بلد واحد، فهل هناك وَجْهٌ يشبِه وجهاً ؟ حتى لقد قيل لي: لو جِئنا بآلة تصوير ملوّنة ذات حساسية للألوان التي في البشر فلا تستطيع هذه الآلة أن تظهر الفروق التي بين الأشخاص، إذْ إن كل شخصٍ له لوْن أما هذه الآلة قد تظهر مئة شخصٍ بلونين أو ثلاثة فقط، في حين أن كل شخصٍ له لون ونبْرَة صوت ورائحة جسم وكيمياء دم وهي البلازما وله شكل بالقُزحيّة وله بصمة وزُمرة نسيجية، فأنت لا تُشبه في العالم كلِه إلا واحداً فالعلماء اكتشفوا الآن مليونين ونِصف مليون زمرة نسيجية، إذّا الله واسع ؟

ائتِ بالمهندس وقُل له صَمِّم لي بناءً تجد أن تصميمه لهذا محدود، كذلك لو رأيت المركبات هذه زاويتها حادة وبعد سنة منحنية وفي عام ثالث تصمم و لها خطوط...إلخ فتَجد أن الإنسان محدود إبداعه، لكن تصوّر كم ورقة نبات في الأرض ؟ هناك ورقة إبرية وتلك مسنّنة إلخ، ألف نوع من النبات الذي لا يُعد ولا يُحصى، وهذا النبات الذي يُوضع بالردهه أو بالليوان له خصائصه التي ينفرد بها، فالواسع الذي لا حدود لإبداعه، ونحن إبداعنا محدود، ولو قيل لنا اكتَشفنا إنساناً في المريخ لكان شكله معروفاً لدينا ؛ رأس ورجلين ويدين، وبالبحر مليون نوع من السمك فهناك سمك بشكل زهور وسمك شفاف ترى أمعاءه بداخِله والآخر أسود فاحِم وهناك من السمك الذي يلقي سحابة أمامه دِفاعاً عن نفسه

وهناك الذي يلقي تياراً كهربائياً بقوة ستة آلاف فولت، شيء عجيب، وأنواع الطيور لا تُعد ولا تُحصى، والزواحِف والوُرود، مرّة اطّلعت على ثمانية عشر مجلداً وكل مجلد ثمانين صفحة وكل صفحة حوت بصلة نبات وليس في الكتاب إلا الأبصال، أوضح مثل وُجوه البشر كلها ذات أنفٍ وعينين وفم، فهل تستطيع أن تصنع خمسمئة ألف مليون وجه دون تكرار ؟ هذه البصمة يمكن أن نكبّرها على مستوى متر مربع، ولو عرضنا خمسة عشرة ألف بصمة لا يُمكن أن تتشابه بصمتان، والبصمة تحوي مئة نقطة فلو تشابهت سبع نِقاط لكانتا لإنسان واحدٍ ومع ذلك هناك جزر وفروع وأغصان وخُلجان ورؤوس كل هذا بالبصمة، وبعض المجرمين استغل هذا الأمر واستأصلوها وضعوا من لحمهم رقعَةً حتى إذا ارتكبوا جريمة لا يعودون إليهم وبعد حين ظهرت على النسيج الذي وُضِع كرقعة خطوطُ البصمةِ الأصلية قال تعالى:

(بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ (٤))

(سورة القيامة)

البصمة تقوم عند كل إنسان مقام التوقيع التوقيع، وهناك الآن بعض الأقفال لا تفتح إلا على قزحيّة العَين نظراً لأنه ليس في الأرض إنسان واحد يشبهك في قُزحيّة العَين، إذْ ينعدم في الأرض وجود تشابه قُزَحيتن لإنسان، فالواسع لاحدود له، وكل أسمائِه لا حدود لها، فالله مُطلق بينما المخلوق محدود.

فالله هو الواسع ؛ إذا نظرنا إلى عِلمه فلا ساحِل لِبَحر علومه، وإذا نظرنا إلى إحسانه ونِعَمِه فلا نِهاية لإحسانه، وكل سَعَة وإن عظمت تنتهي إلى طرف، فأكبر محيط هو المحيط الهادي، فلو ركِبته بعد شهرين تصِل إلى شاطىء حيث ينتهي المحِيط الهادي، والقمر وصل إليه رُواد الفضاء وكذلك المشتَري وصلوا إليه، فكل شيء مهما بدا لك واسِعاً له حدّ ونِهاية.

ولنا من بعد وقفة مع الآيات الكريمة التي ورد فيها اسم الواسع قال تعالى:

(وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمّ وَجْهُ اللَّهِ إِنّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (١١٥))

(سورة البقرة)

عِلمه واسِع وقال تعالى:

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧))

(سورة البقرة)

في الآيتين السابقتين اقترنت السّعةُ بعِلمِه، وكذلك في الآية التالية، قال تعالى:

(مَثَلُ الّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبّةٍ وَاللّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١))

(سورة البقرة)

علِم إخلاصَك في هذا الإنفاق فهو واسِع في عطائه لك، وواسِع في عِلمه فلا يعزب عنه مثقال ذرة، قال تعالى:

(الشّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨))

(سورة البقرة)

وقال تعالى:

(وَلَا تُؤْمِنُوا إِلّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُوكُمْ عِنْدَ رَبّكُمْ قُلْ إِنّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣))

(سورة آل عمران)

هنا معنى دقيق الدلالة، ففي الحياة الاجتماعية والوظيفية هناك مناصِب ؛ فهناك مدير دائرة، وهناك موظف بالدرجة العاشِرة وهذا المنصب يقال لك: شُغِل ولا سبيل للارتِقاء إليه حتى يُزاح الذي فوقك فليس من شواغر فالعطاء ليس واسِعاً، لكن الله تعالى يَسَع فضله الخلق كله، فلا يحسد إلا الجاهِل:

قُل لِمن بات لي حاسِداً أتدري على من أسأت الأدبا

أسأت على الله في فِعله إذْ لم ترض لِي ما وهبـا

***

فليتق المرء بعطاء ربه و ليطلب منه فهو سبحانه واسع عليم، فالإنسان عطاؤه محدود لكن الله واسِع ولا حدود لِفَضْله فَبَدَلَ أن تحسد الناس اِسْعَ في طلب ما عند الله كما طلبوا من الله لذلك قال تعالى:

(وَلَا تُؤْمِنُوا إِلّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنّ الْهُدَى هُدَى اللّهِ أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُوكُمْ عِنْدَ رَبّكُمْ قُلْ إِنّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣))

(سورة آل عمران)

لو أن العِباد كلهم كانوا كَمُحمّدٍ صلى الله عليه وسلّم لأعْطاهم مِثل ما أعطى محمّداً طبعاً إلا النبوة، والله واسِع عليم، فاسم الواسع يتناقض مع الحسد لأن الحاسد لا يرى ما عند الله من خير عميم ؛ قال له:

((عن هُرَيْرَةَ قَالَ قَامَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فِي صَلَاةٍ وَقُمْنَا مَعَهُ فَقَالَ أَعْرَابِيّ وَهُوَ فِي الصّلَاةِ اللّهمّ ارْحَمْنِي وَمُحَمّدًا وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا فَلَمّا سَلّمَ النّبِيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ لِلأَعْرَابِيّ لَقَدْ حَجّرْتَ وَاسِعًا يُرِيدُ رَحْمَةَ اللّهِ))

(رواه البخاري)

اللهم ارحمني ومُحمّدا ولا ترحم معنا أحداً، فقال عليه الصلاة والسلام: لقد حجّرْتَ واسِعاً، لو أن الخلق جميعاً كانوا على أتقى قلب رجلٍ في البشر لوَسِعهم فضل الله عز وجل، كلمة واسع كلمة رائعة جداً ؛ والله واسع عليم قال تعالى:

(قُلْ إِنّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ)

أي: يعطيه من يشاء من عِباده.

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤))

(سورة المائدة)

لا تحسُد ولا تتمنّ ما عند أخيك بل اُطلب من الله ولا تتمنّ ما فضّل الله بعض الناس على بعضهم، وأصغِ سمعك لقول الشاعر ففيه معنى رائع في الموضوع الذي نحن فيه:

لا تسألَنّ عن السبب   مِلك الملوك إذا وَهَب

***

وأنا عدّلته وقلت:

ملك الملوك إذا وهب قُم فاسْألنّ عن السبب

الله يعطي من يشـاء   فقِف على حـدِّ الأدب

***

لاتحسدْ، وإنما تنافس مع أخيك دون أن تحْسُده قال تعالى:

(خِتَامُهُ مِسْكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ (٢٦))

(سورة المطففين)

لأن فضل الله واسِع يؤتيه من يشاء، وقال تعالى:

(وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٣٢))

(سورة النور)

لو كان إنسان يساعِد الفقراء لضَجِر تبرّم أحياناً، وقال كفاكم، لقد سَئِمت لأنه ليس واسِع، ولكنهم لو سألوا الله عز وجل لوجدوا عطاءه واسعاً دافقاً وقد قال رسول الله فيما يرويه عن ربه تعالى:

((يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمّ أُوَفّيكُمْ إِيّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنّ إِلا نَفْسَه))

(رواه مسلم)

كُن فيَكون وزُلْ فيَزول، هناك أشخاص لهم مبالِغ طائلة أربعة آلاف مليون دولار، فهذا الإنسان لو اشترى أفضل منزل وأفضل جزيرة وأفضل يَخْت، هناك يُخوت ثمنها عشرون مليون دولار، لربما ضاق ذرعًا خوفا على المال أن ينفد، والنبي عليه الصلاة والسلام ماذا قال فيما يرويه عن ربه:

((فَأَعْطَيْتُ كُلّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْر))

اركب البحر واغمس إبرة فيه وارفعْها ثم انظر ماذا أخذت من ماء البحر، فهذا الذي أخذته هي الدنيا والبحر هو الآخرة، و الله واسع عليم، فالإنسان مهما غنِيَ وتنَعّم وقوِيَ وانغمس في الملذات والشهوات كل هذا لا يساوي من الآخرة مثقال ذرة إطلاقاً:

((عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللّهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ))

(رواه الترمذي)

فالدنيا لا تعدل عند الله جناح بعوضة، قال تعالى:

(وَإِنْ يَتَفَرّقَا يُغْنِ اللّهُ كُلّاً مِنْ سَعَتِهِ وَكَانَ اللّهُ وَاسِعاً حَكِيماً (١٣٠))

(سورة النساء)

يعني إذا أساء الزوج إساءة بالِغة لِهذه الزوجة وتَفَرّقا يُرْسِل الله لِهذه الزوجة المظلومة زوجاً أغنى وألطف وأحب والله واسع عليم .

قال تعالى:

(وَحَاجّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونّي فِي اللّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلّا أَنْ يَشَاءَ رَبّي شَيْئاً وَسِعَ رَبّي كُلّ شَيْءٍ عِلْماً أَفَلَا تَتَذَكّرُونَ (٨٠))

(سورة الأنعام)

وسِع ربي كل شيء عِلماً: أيْ لا تخفى عليه خافِيَة، فالله يسمع دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، فهل تستطيع أنت أيها الإنسان أن تسمع دبيب النملة السمراء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء ؟ لذلك وسِع ربي كل شيء عِلماً، وهل تستطيع أن تقرأ خواطِر الحاضرين معك ؟ الله واسع عليم.

كل تلك الآيات تبيّن سَعَة فضْلِه وسَعَة عِلْمِه، أما هذه الآية فهي تبيّن سَعَة رحمته قال تعالى:

(وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآَخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦))

(سورة الأعراف)

فهذه الآية مطمئنة، تطمئن إليها النفوس حتى الجانحة منها فلعلها تئوب، فالله قال وسِعت رحمتي كل شيء فأنت داخِل رحمة الله عز وجل

قال تعالى:

(إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (٩٨))

(سورة طه)

وقال تعالى:

(الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آَمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧))

(سورة غافر)

فالإنسان العالم ليس بيَده شيء، والإنسان الرحيم ليس بعالم، أمّا أن تجتمع الرحمة مع العِلم فهذا فضل واسع ! فهناك رحمة مع جهل، وعِلم مع قسْوَة لكن ربنا:

(وَسِعْتَ)

كل شيءٍ رحمة وعِلماً فاجْتِماعُهما شيء تلتذ به النفوس و تنشرح له القلوب، تجد شخصاً من أذكى الخلق لكنه لئيم وقلبه كالصخر، وأحياناً يقابلك شخص قلبه يفيض بالرحمة ولكنه جاهِل فلا هذا يعجبك ولا ذاك، أما أن تجتمع هاتان الخصلتان قال تعالى:

(رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ)

وقال تعالى:

(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (٤٧))

(سورة الذاريات)

هذه الآية تتفق مع أحدث نظرية في الكون وهي تمدّد الكون.

الواسع هو المُطلق لا يشغله معلوم عن معلوم ولا شأنٌ عن شأن ولا مسموع عن مسموع ولا دعاء عن دعاء، وسِع إحسانه جميع الخلائق، ولا يمنعه إغاثة ملهوفٍ عن إغاثة غيره، وبعض الأئمة يُرجّحون أن اسم الواسع جاء عَقِب اسم المجيب، وأنّ التقدير إذا سأله سائل كيف يمكنه إجابة جميع الخلائق ؟ كيف يسمع أصواتهم مرة واحدة ؟ وكيف يعلم ضمائرهم دفعة واحدة ؟ وكيف يستطيع تحصيل مراداتهم جميعاً ؟ الجواب هو واسع عليم.

قد يسأل المرء نفسه أحياناً كيف أن الله يستمع لِجميع المخلوقات ويُجيب جميع الخلائق ويعلم كل الضمائر ؟ والجواب إنه واسِعٌ عليم وكأن السعة و العلم متعلقان متعلِّق بالمجيب والحديث الشريف:

((إنكم لن تسَعوا الناس بأموالكم فسَعُوْهم بأخلاقكم، المال يضيق ولكن الخلق أوسع))

ويحلو لي أن أختم البحث بما يلي:، من أدب التّخلّق باسم الواسع: أن يتّسِع خلُقُك ورحمتُك لجميع عباد الله ؛ فقد يكون عطفك كله لأولادك، وأحياناً لأقربائك وتضيق دائرة رحمته عن الغرباء، وتحب أسرتك وعشيرتك وقبيلتك أما المؤمن فكلما إزداد إيمانه تتّسِع دائرة رحمته لِكل الخلائق.

عندما جاء جبريلُ النبيِّ صلى الله عليه وسلّم بعد أن استَخَفوا به في الطائف وبعد أن سَخِروا منه وكذّبوا دعْوَته وأغْرَوا سُفهاءهم بإيذائه جاءه جبريل وقال:

((أنّ عَائِشَةَ رَضِي اللّه عَنْهَا زَوْجَ النّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَدّثَتْهُ أنّهَا قالتْ لِلنّبيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ هَلْ أتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أشَدّ مِنْ يَوْمِ أحُدٍ قالَ لَقدْ لقِيتُ مِنْ قوْمِكِ مَا لَقِيتُ وَكَانَ أشَدّ مَا لقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ العَقبَةِ إذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِيَالِيلَ بْنِ عَبْدِكُلالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إلى مَا أرَدْتُ فَانْطَلَقتُ وَأنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهي فلَمْ أسْتَفِقْ إلا وَأنَا بِقرْنِ الثّعَالِبِ فرَفَعْتُ رَأسِي فإذا أنَا بسَحَابَةٍ قدْ أظَلّتْنِي فَنَظرْتُ فإذا فِيهَا جِبْرِيلُ فنَادَانِي فقالَ إنّ اللّهَ قدْ سَمِعَ قوْلَ قوْمِكَ لكَ وَمَا رَدّوا عَلَيْكَ وَقدْ بَعَثَ إلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأمُرَهُ بمَا شِئْتَ فِيهِمْ فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فسَلّمَ عَلَيّ ثُمّ قالَ يَا مُحَمّدُ فقالَ ذلِكَ فِيمَا شِئْتَ إنْ شِئْتَ أنْ أطْبِقَ عَلَيْهِمُ الأخْشَبَيْنِ فقالَ النّبيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ بَلْ أرْجُو أنْ يُخْرِجَ اللّهُ مِنْ أصْلابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللّهَ وَحْدَهُ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا))

(رواه البخاري)

فالنبي عليه الصلاة و السلام قال: **لا يا أخي. اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون،** طبْعاً لا بد من باب الموازنة فما منا من أحد لو أساء إليه آخر إساءة نافذة إلا ويتمنى أن يُقَطِّعه إرْباً إرْباً لكن النبي صلى الله عليه وسلّم وسِعت رحمته خصومه وأعداءه والذين كذّبوه وسخِروا منه واستَخَفوا به والذين أغْرَوا سفهاءهم بإيذائه هؤلاء وسِعتهم رحمة النبي عليه الصلاة والسلام، فمن أدب التخلق بهذا الاسم أن تتّسِع رحمتك لِكل عِباد الله من كل الأجناس، والمؤمن أوسع مدى من ذلك فحتى الحيوانات يرحمها ؛ إنكم لن تسَعوا الناس بأموالكم فسعَوْهم بأخلاقكم لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام لما سمِع الأعرابي يقول: اللهم ارحمني ومحمّدا قال له: **لقد حجّرْت واسِعاً.**

الإمام الغزالي يقول: **" تأدُّباً مع اسم الواسع ينبغي أن تتّسِع دائرة عِلمك لأن الله عالم ويحب كل عالم وأن تتّسِع دائرة إحسانِك ودائرة عَفْوِك لتشمل كل الناس "،** فهناك قلب صغير وهناك قلب كبير يتّسِع لكل الناس ولكل التجاوُزات والعَنْعَنات والحماقات، بينما هناك من ينفجِر قلبه ويضيق ويكيل الصاع صاعين، والعوام يقولون: **" الوعاء الأكبر يتّسِع للأصغر"** فأنت كلما كبرت عند الله اِتّسعت نفسك لكل

الخلائق، والكبير يسَعُ الصغير، والحليم يسع الأحمق، والعالم يسع الجاهل، والغني يسع الفقير، فهذا هو التطبيق العملي لهذا الاسم وهو أن تتَّسِع في علمك ورحمتك وإحسانك وعَفْوِك.

الإنسان الواسع يتّسع للحسود مثلاً ولغيره، ولكل من أساء إليه لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

قال سهل بن عبدالله: كلم الله موسى بطور سيناء. قيل له: بأي شيء أوصاك ؟ قال: **بتسعة أشياء، الخشية في السر والعلانية، وكلمة الحق في الرضا والغضب، والقصد في الفقر والغني، وأمرني أن أصل من قطعني، وأعطي من حرمني، وأعفو عمن ظلمني، وأن يكون نطقي ذكرا، وصمتي فكرا، ونظري عبرة.**

قلت: وقد روي عن نبينا محمد أنه قال:

((أمرني ربي بتسع: الإخلاص في السر والعلانية والعدل في الرضا والغضب والقصد في الغنى والفقر وأن أعفو عمن ظلمني وأصل من قطعني وأعطي من حرمني وأن يكون نطقي ذكرا وصمتي فكرا ونظري عبرة.))

٥٠- اسم الله الواحد:

مع الاسم الخمسين من أسماء الله الحُسنى والاسم هو **" الواحد"**، وفي اللغة الواحد هو المُتَوَحِّد الذي لا يخالط الناس و لا يجالسهم، والتوحيد أن تؤمن بالله إلهاً واحداً لا شريك له وإحدى صفات الله جلّ جلاله **" الواحد"**،وقد خصّها بنفسه لا يَشْرَكُه فيها أحد، هو الواحد.

و في بعض الكتب ؛ الواحد هو الفرد الذي لم يزل وحده و لم يكن معه أحد من قبلُ، ولا يزال وحده إلى أبد الآبدين، واحدٌ قبْلاً وبعْداً أزَلاً وأبَداً، و في الحديث أنّ الله سبحانه وتعالى لم يرض بالوحدانية لأحد غيره، وفي اللغة أيضاً واحدٌ في هذا الباب، واحدٌ في هذا العِلم، واحدٌ في هذا الفّن، واحدٌ في هذه الخبرة، الواحد في اللغة التّقدم بالعِلم أو البأس أو غير ذلك ؛ أي التّفوق، هناك معنيان يليقان بحضرة الله عز وجل الوحدانية والتفوّق هو وحده، وواحدٌ لا شريك له وقبل أن نمضِي في الحديث عن هذا الاسم العظيم، نذكر ما قد ورد في الآثار من أنه اسم الله الأعظم، هناك واحدٌ وهناك أحد، الله جل جلاله واحد أحد، واحد لا شريك، له وأحد لا مثيل له ؛ لا شريك: واحد، ولا مثيل: أحد، فهو واحد أحد فرد صمد.

والعدد أحياناً يأخذ معنيين: معنىً كمِياً ومعنىً نوعِياً ؛ تقول: فلان ترتيبه الرابع في صفّه فَكَلِمة الرابع ليس هو أربعة أشخاص ولكن ترتيبه هو الرابع، وهو المعنى النوعي للعدد، أما إذا قلنا جاء أربعة أشخاص فهذا المعنى الكَمّي، فالعدد له معنى كمي وله معنى نوعي، إذا قلنا الله واحد أي لا شريك له، وإذا قلنا الله أحد أي لا مثيل له، فَكَأنّ أحد تشير إلى المعنى النوعي وكأن واحد تشير إلى المعنى الكمي.

على كُلٍّ التوحيد مشتق من الواحد وكل مؤمن يعلم أنه ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد، والتوحيد نِهاية العِلم على الإطلاق، وفَحْوى دعوة الأنبياء جميعاً، والتوحيد هو الدِّين، لذلك التوحيد مأخوذ من اسم الله الواحد. لكن التوحيد توحيدان: توحيد ربوبية وتوحيد ألوهِيّة، فَتَوْحيد الربوبية أن تشهد أن الله سبحانه وتعالى واحد في ملكه، وهو الذي خلق ورزق وأعطى، وهو الذي منع والذي رفع، وهو الذي خفض وهو الذي قبض و بسط وهو الذي أعزّ وأذلّ، هذا توحيد الربوبية، لا رازقَ، ولا معطيَ ولا مُحْيِيَ، ولا مُميتَ، ولا مدبرَ لأمر الكون كله ظاهراً وباطِناً إلاّ هو، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه ولا يحدث حادث إلا بعِلْمِه، ولا تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا يعزب عنه مِثقال ذرة في الأرض ولا في السماء، ولا أصغر ولا أكبر إلا أحصاها عِلمه وأحاطت بها قدرته ونفذت فيها مشيئته واقْتَضَتْها حِكمتُه، فتَوْحيد الربوبية أن تؤمن أنه الواحد في تدبيره وفي ملكه. أما توحيد الألوهية فَهُو أن تعبده ولا تعبد أحداً معه وألاّ ترى له نِداً ولا مُدبّراً ولا معطِياً ولا مانِعاً إلا هو، توحيد الربوبية رُؤية، لكن توحيد الألوهية أن تعبده وحده، والدين رؤية وعِبادة ؛ عِلم وعمل ؛ عقيدة وسلوك.

هناك رأي آخر عند بعض العلماء لِتوحيد الربوبية وهو أن تعتقد أن لهذا الكون خالِقاً واحداً، أما توحيد الألوهية أن تعتقد أن الله تعالى هو المستحق وحده للعبادة، فهو المُسّيِّر وهو المعز والمذل والمحيي والمميت.

على كلٍّ اختِلاف التسمية لا يقدِّم ولا يؤخر نحن أمام حقيقتين: حقيقة أن نشهد أن الله واحد في ذاته و واحد في صفاته و واحد في أفعاله وأنه الخالق والرازق والممدُّ والمحيي والمميت وأنه المعطي والمانع والرافع والخافض والقابض والباسط وهو كل شيء، والتوحيد: ألاّ تشهد أنّ مع الله أحداً، هذه كلمة تُلقى وفِكرة تُسْمع وتُدْرك لكنه شتان بين أن تُدْركها وبين أن تفهمها وبين أن تعيشها.

أيها القراء الكرام أحد أكبر مصادر الشقاء في الحياة الدنيا ألاّ تكون موَحِّداً قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

(سورة الشعراء)

ما الذي يُعذّب الإنسان ؟ أن يرى أمره بيَدِ عدوّه وأنه ضعيف وخَصْمُه قويّ وهو حاقِدٌ عليك. وما الذي يُريحه ؟ أن يرى أمره بيَد رحيم وبيَد إلهٍ عادِل وبيَد قدير وبيَد غني وبيَد رحيم وبيَد رؤوف، ما الذي يُريحك إذا كنت مُحِقاً ؟ يُريحك أن يكون القاضي عادِلاً، تقول مثلاً: أنا لا أُبالي فالقاضي يحكم بالحق وأنا معي الحق، وما الذي يُريحك وأنت مُوَظّفٌ في دائرة ؟ أن توقِن أنّ المدير العام مُنصِف لا يُلْقي بالاً للوِشاية يتحقق بِنَفْسه والذي يُريح الإنسان أن يرى أنّ أمره بيَد الله وأن الله لا يمكن أن يقول لك يا عبدي اُعْبُدني وأمرك بيَد غيره وحينما يكون أمرك بيد غير الله فأنت مضطر أن تعبد غير الله أما حينما يقول الله لك:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣))

(سورة هود)

لم يأمرك أن تعبده إلا بعد أن طمأنك بأن أمرك كله بيَدِهِ.

أيها القارىء الكريم: والله هذه الحقيقة لا أفْتَأ أُكرّرُها إلى يوم القيامة لأنّ القرآن الكريم كله يدور حولها قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً(١١٠))

(سورة الكهف)

انظر إلى نفسك ما الذي يُقلِقك ؟ ضعف التوحيد والإشراك وما الذي يُخيفك ويقبض قلبك ؟ الإشراك ولا أقول الجليّ إنما الخفيّ، وما الذي يُزْعِجك ؟ أن تعْتَقِد أن زيداً بيَدِهِ أمرك وهو لا يحِبّك وأن تعتقد أن

رزقك بهذه الجهة وربما تغضب عليك، لذلك حينما تُوَحِّد تسْتَرخي وترتاح أعصابك وتذهب عنك الشّدة النفسية وترى بأنك بيَد أرحم الراحمين، لو كانت لك قضية عند شخصٍ عادل رحيم لا تُبالي.

أكرر ثانية: هناك توحيد ربوبية وتوحيد ألوهية، والتوحيد ألا تشهد أن مع الله إلهاً آخر، لكن هناك حقيقة أخرى وهي أن هذه العَين تُريك أُناساً أقوياء يفعلون ما يقولون، والله عز وجل لا يمكن أن تراه بعَينك بل تُدْركه بعَقلك، فالإنسان بلا جهدٍ عقلي يرى شُركاء مع الله بل العالم كله الآن يقول: إن الدولة الفُلانية قويّة لأن معها سِلاحٌ نَوَوي وبيَدِها مصير العالم فالعَين الظاهرة تُريك الأقوياء من البشر ولكن العقل الراجح مع التأمل والتفكر والتدبر والقِراءة وحضور مجالس العِلم تُريك الواحد الأحد ألم يقل الله تعالى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤))

(سورة يونس)

هناك دولة لها من القنابل النوويّة ما تستطيع أن تُدَمِّر الأرض خمس مرات، لا أُنْكِر أن هذه العَين ترى الأقوياء من البشر لكن عقلك وإيمانك وتفكرك وتدبرك لآيات الله يُريك أنه بيده كل شيء ؛ رؤية التوحيد تحتاج إلى جهد وإلى إيمان بكتاب الله وإلى يقين واعلم أن رؤية التوحيد لها ثمن أما رؤية العَيْن بلا ثمن، كل إنسان إذا رأى بعَينه يقول لك: هذا قوي وذاك غني لكنك إذا قرأت القرآن وهو كلام خالق الأكوان وفهمت آياته وتدبَّرْته وصدّقته ورأيت الحوادث كيف تجري تستنبط أن كل الأقوياء عِصِيٌ بيَد الله عز وجل يُحَرّكها كيف يشاء قال تعالى على لسان نبيّه هود:

(فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥))

(سورة هود)

أيها القارىء الكريم: إذا وقفت عند إنسان ولك عنده حاجة وهو أقوى منك يجب أن تؤمن أن خاطِره وقلبه وعينه وطريقة تفكيره وكل ما يُلْقى في روعه من إلهامات بيَد الله فإذا أراد الله أن يرحمك ألقى في قلبه العطف عليك وإذا أراد أن يُؤدّبك ألقى في قلبه قسوةً عليك:

(وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي (٣٩))

(سورة طه)

من الذي ألقى في قلب امرأة فرعون محبة ذاك الطفل حينما رأت طِفلاً صغيراً في الصندوق؟ هو الله قال تعالى:

(وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢))

(سورة القصص)

فَمن الذي حرم على هذا الطفل كلّ هذه المراضِع ؟ هو الله، هذا تحريم منع وليس تحريم تشريع، أما حينما جاءت أمه اِلْتَقم ثَدْيَها، فالله عز وجل من خلال قصة سيّدنا موسى وسيدنا يوسف يُريك أنّ الفِعل بيَده والله الذي لا إله إلا هو أحياناً أستمِع إلى قِصة أشعر أنها غِذاءٌ لِقلبي لأنها في دلالتها تشير إلى أن الله بيده كل شيء، دلالة صارخة وقد يظهر فِعل الله للناس جميعاً وأحياناً يمتحن الله عبده بِأن تظهر أفعاله جلِيّة واضحة ويتبادر لنفسك أن هذا الإنسان يفعل ما يقول، فأين الله ؟ هذا امتِحان لِضعِاف التوحيد وأحياناً تبدو لك أفعال الله صارخة، فقد تسمع أنّ حريقاً التهم ثلاثين مَحَلاً تِجارياً والتفّ حول مَحَلٍّ واحد مخلفا إياه ؛ شيء واضِح جداً أن صاحب هذا المحل يدفع زكاة ماله في إحدى السنوات جاءت حمْلَة الجراد، وأعتَقِد أنها بالثلاثينات، فأكلت الأخضر واليابس وأتى على كل البساتين إلا واحداً في الغوطة إذ بقي كأنه قِطعةٌ من الجنة بأشجاره وأوراقه فلما سألوا صاحب البستان قال: أنا أدفع زكاة مالي وجاؤوا بكيسٍ من الجراد وألْقوْهُ في بستانه فتَطايَر في دقائق معدودات، إذاً أحْياناً ترى فِعل الله صارخاً وأحْياناً ترى فِعل الإنسان صارخاً واللهُ في كل الأحوال هو الفعّال لكن يُمْتَحن ضِعافُ التوحيد قال تعالى:

(إنّ السّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥))

(سورة طه)

أحياناً يتِم شِفاء ذاتي لِمرضٍ عُضال في حين أنّ الأطِباءَ جميعاً أجمعوا على أن هذا الإنسان لا محالة ميت، مرض خبيث من الدرجة الخامسة ؛ تصوير وتحليل ومخابر سورية ومخابر بريطانية وخمسة أطِباء فإذا بالمرض ينحسِر شيئاً فشيئاً ويعود المرء سليماً صحيحاً كما كان من قبل، فهذا فِعل الله المباشر فالله جلّ جلاله هو الفعال لِما يريد.

التوحيد هو الحُكم بأن الله تعالى هو الواحد وهذا الحكم يكون بالقول والعِلم وبالإشارة بالأصبع ففي الصلاة تقول أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً رسول الله، وهناك توحيد بالقول وتوحيد بالعِلم فأنت تُوَحِّد عِلماً وقوْلاً وإشارةً. وليعلم كل مؤمن أن التوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الحق لِنَفْسِه قال تعالى:

(فَاعْلَمْ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا اللّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ (١٩))

(سورة محمد)

هو يعلم أنه واحد ويُعْلِمُنا أنه واحد، وتوحيد العِباد لله جل جلاله حينما تقول أشهد أن لا إله إلا الله وتوحيد الحق للعبد، فالله عز وجل يَعْلم أنه واحد ويُعْلِم العباد أنه واحد وأمرك أن تعلم أنه واحد ؛ إذاً هذه ثلاثة توحيد الحق للعبد وتوحيد الحق للحق وتوحيد العبد للحق.

التوحيد: **" أن تعلم أنّ كل ما خطر ببالِك فالله جلّ جلاله بخِلاف ذلك "** والتوحيد أن تعلم أن الله واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، فالله له ذات وله صِفات وله أفعال ووحْدانِيَتُه تشمل هذه

المعاني كلها. أجل إنه: واحد في ذاته وواحد في صفاته وواحد في أفعاله، وهو واحد لا شريك له وبصِفاته متفرّد بها، وهو الرحمن ولا رحمن سِواه، أما أفعاله فهو القهار ولا قهار سواه، واحد في ذاته لا إله غيره، وواحد في صفاته لا رحمن غيره، وواحد في أفعاله لا قهار غيره، في أفعاله، وواحد في ذاته لا يتجزّأ ولا يتناهى ليس بِمُتَجَزّئٍ ولا بِمُتَبَعِّضٍ، فالله واحد، لكنك تجد أشياء من جزأين أو ثلاثة فهناك آلات تُفَكّك، لكن الله واحد في صِفاته لا يشبهه شيء وهو لا يُشْبِه شيئاً، وواحد في أفعاله لا شريك له.

وقال بعض العارفين: **" الواحد هو الذي تناهى في سُؤدَدِه فلا شبيه له ولا شريك يساويه "**، وقال بعض العارفين أيضاً: **" الواحد هو الذي يكفيك من الكُل والكُل لا يكفيك من الواحد، يحتاجه كل شيء في كل شيء "** .

لو أن ستة آلاف مليون إنسان ودُوَل الأرض كلها وقِواها أرادوا بِك سوءاً وكنت مع الله فالله يكفيك كل هؤلاء، فهذا الكلام دقيق ؛ هو الذي يكفيك من الكُلِّ والكُل لا يكفيك من الواحد ولو أن قِوى الأرض وأسلحتهم أرادوا بك خيراً لن تستطيع أن تنجُوَ من عذاب الله، لذلك كنت أردد لكم دائماً أنّ الحسَن البصري رضي الله تعالى عنه، حينما سأله والي البصرة عن توجيهٍ أتاه من يزيد، وكان تنفيذ هذا التوجيه يغضب الله عز وجل فقال ماذا أفعل ؟ فقال له الحسن: إن الله يمنعك من يزيد ولكن يزيد لا يمنعك من الله، فمهما اِحْتميْت بِقويٍّ فهذا القوي لا يمنعك من الله لكنك إذا احْتَمَيْت بالله يمنعك من أقوى الأقوياء وهذا هو التوحيد.

وقيل **" التوحيد، أيْ: أن الله الأحَد المنفرد بإيجاد المعدومات والمُتَوَحِّد بإظهار الخَفِيات"**، فالإنسان يصنع شيئاً من شيءٍ ؛ طاولة من خشب ومركبَةً من حديد لكن الله تعالى يُوجِد كل شيء من لا شيءٍ، وهذا الفعل لا يستطيعه إلا الله.

وقيل **" التوحيد أن ترى أن الله واحداً في ملكه لا يُنازعه أحد وفي صِفاته ولا يشبهه أحد "**، وقيل **" التوحيد الذي لا ثاني له في الوجود فهو المنفرد ذاتاً وصِفاتٍ وأفعالاً بالألوهية والربوبية والأزلية والأبدية ".**

وبعد فهل ورد ذكرُ هذا الاسم العظيم الذي قيل عنه أحياناً إنه اسم الله الأعظم هل ورد في كتاب الله عز وجل ؟ إليكم أيها القراء الكرام هذه الآيات الكريمة قال تعالى:

(كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آَبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣))

(سورة البقرة)

يجب أن نشعر أن إله إبراهيم هو إلهنا، وأن إله نبيّنا هو إلهنا وأن إله الصحابة الذين نصرهم على أعدائهم هو إلهنا، وأن الله تعالى الذي وعدنا بالتمكين بالأرض وبالاستِخلاف وبالأمن هو إلهنا، وهو في السماء إله وفي الأرض إله، وفي الأزل وفي الأبد، كيف أن الله سبحانه نصر المؤمنين وجعل رايَتيهم تُرفْرَف في مشارق الأرض ومغاربها ؟ هو الله. وهذه آية أخرى:

(وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (١٦٣))

(سورة البقرة)

وهذه آية ثالثة:

(إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْراً لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً (١٧١))

(سورة النساء)

وفي الأنعام يقول الله تعالى:

(قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآَنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آَلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩))

(سورة الأنعام)

يعني فعال واحد، وإرادة واحدة، ومعطٍ واحد، ومانع واحد ومعز واحد، ومذل واحد، ديننا كله توحيد، والأجانب فيما سمعته من الذين ذهبوا إلى بلادهم وجالسوهم، واستمتعوا إليهم، يدّعون أن الله تعالى خلاق وليس فعّالاً فقد خلق وأعطى قِوى للبشر، لكنه لم يُعْطِها بالتساوي فهناك القوي والضعيف ولكن المسلم يعتقد أن الله خلاق وفعّال.

وفي سورة يوسف:

(يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩))

(سورة يوسف)

قد يموت الأب وهو يملك معملا ويخلِف خمسة أولاد وهؤلاء الأولاد يتسلّمون هذا المعمل فالموظف الذي عندهم يتلقى الأمر من فلان وفلان أما إن كان للمعمل مدير واحد فالآمر واحد وتحدّدت المسؤوليّة، ومشكلة المشاكل أن يكون لك عدة رؤساء تتلقى منهم الأمر فتقع في حيرة ؛ تُرضي من ؟ وتُغضِب من ؟ وتهتم بأمر من ؟ وتُهمِل أمر من ؟ وعمن تقترب ؟ وعمن تبتعد ؟ فكلهم أقوياء وكلهم يأمرونك هذا مثَل تقريبي، ولو تعامل الإنسان في الحياة الدنيا مع جهاتٍ عديدة لتمزّقت نفسه ؛ إن أرضى فلاناً غضِب فلان وإن أعرض عن فلان استشاط الآخر غيْظاً فيبقى في حَيْرة من أمره لكنه لو

كان الأمر بيَد واحد لصار التعامل سهلاً جداً، لذلك أحد أسباب نجاح المؤمن بحياته عدم التشتّت والتَّمَزّق والتَّبعْثر فكل قِواه مُجمَّعة لإرضاء إله واحد قال الشاعر:

فلَيْتك تحلو والحياة مريــرة وليتك ترضى والأنام غِضاب

وليت الذي بيني و بينك عامـر وبيني وبين العالمين خـراب

إذا صح منك الوصل فالكل هَيّن وكل الذي فوق التراب تراب

***

تجد بعض الأحيان إنساناً شديد الحِرص على سُمعته وكرامته ؛ لكنه قد يواجه مواقف مؤذية ففلان لابد أن يعتذِر منه والآخر لابد أن يَدْعُوَه وثالث ورابع الخ، فهذا ذل وتمزّق، إنما الإرضاء هو إرضاء الرب والباقون يحاول أن يرضِيَ من رضيَ تحت مظلة الشرع لذلك قال سيدنا علي: من عرف نفسه ما ضره ما قاله الناس به، هو يحرص على سمعته لكنه لا يتمزق حينما يُتّهم ظلماً، فأمُنا عائشة رضي الله عنها اتهمت ظلماً والله برّأها، والنبي الكريم اتّهم أنه ساحر وشاعر وكاهن ولكن الله نصره وأعلى مقامه قال تعالى:

(يَاصَاحِبَي السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الواحد الْقَهَّارُ)

قال تعالى:

(مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلَا ضَرّاً قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦))

(سورة الرعد)

وفي سورة إبراهيم قال تعالى:

(يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨))

(سورة إبراهيم)

قد يجد المرء في نفسه أنه أقوى الأقوياء وينسى أنّ الله فوقه والله سبحانه وتعالى يقهره فالله عز وجل قهار، كيف هو قهار ؟ قال العلماء: سبحان من قهر عِباده بالموت، تجد شخصًا مِلء السمع والبصر وفي ثانية يصير في خبر كان، فالله قهار قال تعالى:

(هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢))

(سورة إبراهيم)

المشكلة ؛ التَّبَعْثُر بين أقوياء، المؤمن لا يرى أن مع الله أحداً وعليه أن يُرضيه وكفى وقال تعالى:

(إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ (٢٢))

(سورة النحل)

ورحمة بعباده وإرشاداً لهم قال تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (٥١))

(سورة النحل)

تقول له: هذا حرام فعله وذاك حرام بيعه فيقول: أبي يَوَدّ هكذا ! فهذا قد اتّخذ أباه إلها، وذكر لي أخ أنهم في محلهم يزن العامل بدل الأوقية مئة وخمسين غرامًا ويتقاضون ثمن مئتي غرام وإذا تكلمت طردني أبي !! فهذا هو الغش وأحياناً يجعل المرء زوجته إلهاً وهو لا يدري يخاف أن تغضب فلا يُعارضها ! قال تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

وأحياناً يرضي الإنسان من هو أقوى منه ويعصي الله فهذا يعني أنه اتخذ إلهين اثنين، حينما ترضي مخلوقاً وتعصي الله فقد اتّخذت إلهين أنا لا أقول أنك قلت هذا المرء هو إله ولكنك عاملت هذا المخلوق كما عاملت الإله فإن تُقِر أو لا تقِر، وإن ترضى أو لا ترضى، فقد اتخذت إلهين من دون أن تشعر لكن أستحلفك بالله أيها القارىء الكريم وهذا مثل منتزع من واقِعِنا لو كنت بخِدمة إلزامية وأمرك العريف بأمر ثم أمرك اللِّواء بأمر ونفّذت أمر العريف فماذا تكون النتيجة ؟ أليس حُمقاً ؟ فما بالك بمن يطيع المخلوق ويعصي الخالق فهذا المخلوق لا يملك لِنَفسه نفعاً ولا ضراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً، نبينا سيّد الخلق وحبيب الحق صلى الله عليه وسلم والله يعلمه، ومن خلال تعليمه تتعلم الأمة، أمره الله تعالى أن يقول:

(قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلَا ضَرّاً إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١٨٨))

(سورة الأعراف)

ولو انتزعت حكماً من لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم تكن محقاً ماذا يكون مصيرك يوم القيامة قال:

((عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِنَّكُمْ تَخْتَصِمُونَ إِلَيَّ وَلَعَلَّ بَعْضَكُمْ أَلْحَنُ بِحُجَّتِهِ مِنْ بَعْضٍ فَمَنْ قَضَيْتُ لَهُ بِحَقِّ أَخِيهِ شَيْئًا بِقَوْلِهِ فَإِنَّمَا أَقْطَعُ لَهُ قِطْعَةً مِنَ النَّارِ فَلا يَأْخُذْهَا))

(رواه البخاري ومسلم)

هذا هو الحق، وقال تعالى:

(وَقَالَ اللَّهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ)

وقال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

فإذا كان طبيب عليه إقبال شديد يقول لك ليس لك عندي موعد إلا بعد ثلاثة أشهر وهناك أشخاص أقوياء لا أمل لك بمُقابَلَتِهم أما ربنا تعالى فيقول:

(فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلا صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا)

الآية واضِحة في معناها ودلالتها، ولا يشرك بعِبادة ربه أحداً فأنت بحاجة إلى توحيد واستِقامة وعملٍ صالحٍ كي تجد نفسك مع الله، قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٨))

(سورة الأنبياء)

أي ماذا تنتظرون ؟ أنت بحاجة لِمعاملة ولا بد لك من سفرٍ والسفر ضروري جداً ومعروض عليك صفقة بالملايين صعدت الطابق ووقفت على باب مدير الهجرة ثم انصرفت تتذلل لغيره، أليس هذا هو الحمق ؟ فليس لك أن تذهب إلى من هو دون المدير وتريق ماء الوجه أمامه ؟ فكيف بالله ؟ قال تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)

أي ماذا تنتظرون ؟ أنى تصرفون وأنى تؤفكون ومالكم كيف تحكمون ؟ قال تعالى:

(وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكاً لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤))

(سورة الحج)

وقال تعالى:

(وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آَمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٤٦))

(سورة العنكبوت)

ديننا دين توحيد وفي سورة الزمر قال تعالى:

(لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤))

(سورة الزمر)

وفي سورة غافر قال تعالى:

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦))

(سورة غافر)

هذا اسم الواحد أما أحد لم يرد إلا مرة واحدة في قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١))

(سورة الإخلاص)

والواحد ورد في القرآن أكثر من عشرين مرة، هناك رأي لِبعض العلماء في التفريق بين واحد وأحد، لقد ذكرت في مطلع البحث أن الواحد لا شريك له وأحد لا مثيل له، والأحد له إشارة نوعية أما الواحد كميّة ؛ هناك تفريق آخر فإذا قلت: ما في الدار أحد يعني ليس فيها لا واحد ولا اثنان ولا ثلاثة فإذا نفيت الواحد نفيت العدد الذي بعده، أما إذا قلت ما في الدار واحد فقد يكون هناك أربعة هذا فرق في استِخدام كلمة واحد و أحد، ثَمّ شيء آخر ذو بعد واضح وهو أنك لا تقول رجل أحد، فكلمة أحد اختصّ الله بها فالأحد مما اختص الله به.

هناك فروقات أخرى بين الواحد والأحد ولكن المهم أن الله تعالى هو واحد وأحد في وقت واحد. بعد كل هذا الشرح والإيضاح فكيف نتأدب بهذا الاسم ؟، النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ عَاصِمِ بْنِ ضَمْرَةَ السَّلُولِيِّ قَالَ قَالَ عَلِيٌّ رَضِي اللَّه عَنْهم أَلا إِنَّ الْوَتْرَ لَيْسَ بِحَتْمٍ كَصَلاتِكُمُ الْمَكْتُوبَةِ وَلَكِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْتَرَ ثُمَّ قَالَ أَوْتِرُوا يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ أَوْتِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ وِتْرٌ يُحِبُّ الْوِتْرَ))

(رواه مسلم والترمذي)

أي يحب القلب المنفرد بمحبته تعالى فالله لا يقبل العمل المشترك ولا القلب المشترك فالعمل المشترك لا يقبله والقلب المشترك لا يُقْبِل عليه.

والدعاء: اللهم إني أسألك أن تملأ قلبي بحُبّك حتى لا يكون لي هم ولا شغل سِواك، فما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، أنا أغنى الأغنياء عن الشرك:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُرَيْدَةَ الأَسْلَمِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلا يَدْعُو وَهُوَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِأَنِّي أَشْهَدُ أَنَّكَ أَنْتَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ الأَحَدُ الصَّمَدُ الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ قَالَ فَقَالَ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَ اللَّهَ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ وَإِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى قَالَ زَيْدٌ فَذَكَرْتُهُ لِزُهَيْرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِسِنِينَ))

(رواه الترمذي وغيره)

والحقيقة أن هذا البحث في التوحيد بحث ثمين، والتوحيد عِلمٍ جليل مُقتَبَسٌ من اسم الله الواحد ونحن ديننا دين توحيد، ونبينا واحد، وإلهنا واحد، والحق واحد، وهناك نقطة دقيقة المعنى والدلالة وهي أنّ الله عز وجل ذكر النور مفرداً وذكر الظلمات جمعاً قال تعالى:

(اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧))

(سورة البقرة)

والله تبارك وتعالى ذكر الصراط واحداً وذكر الانحراف متعدداً قال:

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتّبِعُوهُ وَلَا تَتّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (١٥٣))

(سورة الأنعام)

فالمنهج واحد، والطريق إلى الله واحد، فالوحدانية مقتبسة من أن الله واحد، ومنهجه واحد، والطريق إليه واحد، ومهما تباعد المسلمون في أقطارهم فَقِبْلَتُهم واحدة، قال تعالى في وصْفِه بعض المنحرفين:

(وَمَنْ يُشَاقِقِ الرّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلّى وَنُصْلِهِ جَهَنّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (١١٥))

(سورة النساء)

ولتعلم أيها المؤمن أن سبيل المؤمنين سبيل واحد، فالمسلم يُحب الله ورسوله ولا يكذب ويغض بصره ويحب الخلق جميعاً يرحم الخلق ووقاف عند كتاب الله ورحيم بأهله ولا يأكل مالاً حراماً وهذا حال المؤمنين حيثما وجدوا، لقد صار واضحا ومعلوما أنّ ربنا واحد، وإلهنا واحد وكتابنا واحد، والطريق المستقيم واحد، والنور واحد، والقِيَم واحدة والمبادىء واحدة، والأهداف واحدة، ومما يجمعنا كأُمة واحدة أنّ القِبلة واحدة، ألا تعجب أن كل مسلم في الأرض يتجِه إلى مكانٍ واحد ألا ترى الكعبة وأنت في الحج ؟ وأن كل أقطار الأرض تتجِه إليها ؟ فينبغي علينا أن نتوحّد في تآخينا ولا نتدابر فإذا تفرّقنا فنحن أشقى الناس وأهونهم.

وبعدُ فإنّ موضوع التوحيد هو الدين كله وأختِم البحث بهذه المقولة: ما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد والتوحيد نهاية العلم والتقوى نهاية العمل.

٥١- اسم الله الحي :

مع الاسم الواحد والخمسين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم هو الحي القيوم.

الحي: اسمٌ من أسماء الله تعالى التي وردت في القرآن الكريم، والتي وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا بد من أن نذكر القارىء الكريم بقول النبي صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّه عَنْه أنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ إنّ لِلّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

وفرق كبير بين من يعدها وبين من يحصيها، فالعد شيء، والإحصاء شيء آخر، فالعد كمي وأي إنسان بإمكانه أن يعدها وأن يحفظها، لكن الإحصاء شيء آخر أن تقف عندها اسماً اسماً، أن تتعرف إلى مضمون الاسم، ماذا تعني كلمة الحي ؟.. ماذا تعني كلمة القيوم؟.. وهكذا بقية الأسماء الحسنى.

فأن تتعرف إلى أسماء الله الحُسنى فهذا يؤلف أكبر جزء من عقيدة المسلم، فلا يكفي أن تقول الله خلق السماوات والأرض، هذا الإيمان يستوي فيه الناس جميعاً على اختلاف اتجاهاتهم وانتماءاتهم، بل إن المقصرين، بل إن الكافرين، بل إن عباد الأوثان، بل إن إبليس، اعترف أن الله خلق السماوات والأرض ولكن التفاضل بين المؤمنين في معرفة أسماء الله الحُسنى؛ معانيها ومضامينها

لو أنك التقيت مع إنسان لا تعرف عنه شيئاً، قلت له عرفني عن ذاتك قال لك: أنا فلان، هل يكفي أن يذكر اسمه لتعرفه ؟.. بل أنت تريد أن تعرف ماذا يعمل ؟ ماذا يحمل من شهادات ؟ ماذا له من إنجازات؟ ما حجمه الاجتماعي ؟ ما حجمه الاقتصادي ؟ ما مستوى ذكائه؟.. أنت حينما تقول عرفني عليك، لا تقصد أن يخبرك باسمه الفلاني، بل تريد أكثر من اسمه، تريد كلّ إجابة عمّا سبق من أسئلة.

ضربت هذا المثل لأنتقل منه إلى حقيقة هي أن الذي يقول إن الله خلق السماوات والأرض، هذا الإيمان لا يكفي كي تستقيم على أمر الله فحجم الإيمان قد يكون أقل من قوة الشهوة.

لذلك يقع الإنسان في المعصية، لكن كلما زاد إيمان الإنسان بوجود الله، وأنه هو الفعال وبيده كل شيء، وهو الكامل وهو الواحد، والمصير كله إليه، وكل شيء بيده، هذا الإيمان كبر حجمه، وأصبح أكبر من شهوات الإنسان ؛ لذلك تصعب الاستقامة على ضعيفي الإيمان، وتهون على أقوياء الإيمان، فقوي الإيمان يستقيم بلا جهد لأنه يرى عظمة الله عز وجل والله سبحانه وتعالى حينما قال:

(وَمِنَ النّاسِ وَالدّوَابّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنّمَا يَخْشَى اللّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨))

(سورة فاطر)

وكلمة إنما دقيقة جداً، فهي كلمة تفيد الحصْر، مما يعني أن العلماء وحدهم ولا أحد سواهم يخشون الله، إذاً ما من طريق إلى طاعة الله، وإلى خشيته، وإلى الاستقامة على أمره إلا أن تعرفه، فكلما عرفته

خشعت له، كلما نمت معرفتك نمت استقامتك، وكأن مؤشر الاستقامة يتحرك مع مؤشر العلم والمعرفة بشكل دائم.

الاسم هو: الحي القيوم ؛ الحياة نقيض الموت، وشتان بين الحياة والموت، شتان بين إنسان ملء السمع والبصر، يتكلم، يتحدث، يبتسم يسأل، يجيب يفكر، يحاكم، ينتقل، يمشي، يعمل، وبين إنسان جثة هامدة ملقى على الطريق، شتان بين الحياة والموت، كما أن هناك فرقاً كبيراً بين الحياة والموت، فهناك فرق كبير بين قلب حي بذكر الله، وبين قلب ميت، قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١))

(سورة النحل)

قال تعالى:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢))

(سورة فاطر)

قال تعالى:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢))

(سورة الأنعام)

آيات كثيرة تؤكد أن الذي لم يعرف الله عز وجل ميت، وأن القلب يحيا بذكر الله:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨))

(سورة الرعد)

يحيا القلب بذكر الله ويطمئن بذكر الله، والإنسان المعاصر يفقد شيئاً ثميناً جداً وهو الطمأنينة، حوله كل شيء لكن عليه يحيط به ألف خطر، خطر السرطان، ولا بد من فحْص، وخطر بقيّة الأمراض، وخطر الحوادث أيضًا، لذلك تنمو شركات التأمين بنمو القلق في النفوس.

الإنسان من دون إله يعبده، من دون إله ينيب إليه، من دون إله يلجأ إليه، من دون إله يحتمي به، من دون إله يطمئنه، حياته جحيم أكبر ما فيها القلق، الخوف من المجهول، الخوف من أحداث مستقبلية تظهر فجأة، متى يصاب بهذا المرض ؟ لا أحد يدري، وكلما ابتعد الإنسان عن ربه امتلأ قلبه خوفًا.

سبعة وثمانون بالمائة من مواطني البلاد الغربية المتفوقة علمياً وحضارياً، يخاف وهو في البيت، ثمانون بالمائة لا يتجولون بعد غروب الشمس أبداً، ثلاثة وثلاثون بالمائة يرون أن كل قوى السلطة لا تحميهم، حياة القلق، حياة العذاب، قال تعالى:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤))

(سورة قريش)

أطعمك من جوع وآمنك من خوف، والأمن نعمة لا تعدلها نعمة لا يحوزها إلا المؤمن حصراً، والدليل:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(٨٢))

(سورة الأنعام)

للمؤمنين وحدهم، لذلك إذا آمنت بالله، وإستقمت على أمره، ولُذتَ بحماه وأويت إلى جنابه فأول ثمرة من ثمرات الإيمان أن الله يدخلك في رحمته، ويطمئن قلبك.. فهناك أشخاص قلوبهم بأعلى درجة من النشاط أوردتهم شرايينهم دماغهم أعصابهم، ومع ذلك فهو يقول لك أجريتُ فحوصاً كاملة..

إن الله يعطي الصحة والذكاء والمال والجمال، للكثيرين من خلقه ولكنه يعطي السكينة بقدر لأصفيائه المؤمنين، هذه السكينة خاصة بالمؤمنين، والله أيها الإخوة الثراء إكرام ؛ إنكم لترَوْن في قلب المؤمن من السكينة، والطمأنينة، والرضا بقضاء الله وقدره، والشوق إلى لقياه، والراحة إلى قضائه، ما لو وزع على أهل بلد لكفاهم.

المؤمن سر، الله عز وجل يضع سره في المؤمن، ترى أن دخله أقل من حاجته، وتراه مطمئناً، وهناك من يخزن الذهب والعملات الصعبة وإذا حدث خطر فله ببلاد أخرى أرصدة ضخمة، ومع كل هذه الأرصدة ومع كل هذه الإمكانات، ومع كل هذه الاحتياطات، فإن الخوف يأكل قلبه.

لو سألتني عن قانون الخوف، أقول لك إنه الشرك، قال تعالى:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١))

(سورة آل عمران)

الشرك يعني الخوف، قال تعالى:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

(سورة الشعراء)

فالله عز وجل حي، والحي نقيض الميت، الحياة نقيض الموت، ورد في القرآن الكريم كلمة الحي وان وتعني جنس الحياة قال تعالى:

(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآَخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٦٤))

(سورة العنكبوت)

أصل الحياة في القرآن يعني الحي وان قال تعالى:

(وَمَا هَذِهِ الحياةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحيوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

أي هو دار الحياة الدائمة، حياتنا في الدنيا حياة مؤقتة، كل إنسان له عمر، فكل هؤلاء الذين على الأرض بعد مئتي عام لا ترى منهم أحداً، فالخمسة آلاف مليون إنسان لا تجد بعد مئتي عام منهم أحداً في كل القارات الخمس.

قفْ في شرفة بناء وانظر إلى الشارع المزدحم بالسيارات والمشاة كل هؤلاء سيكونون تحت أطباق الثرى بعد حين، وسوف يطويهم الموت، فحياتنا حياة مؤقتة، أما الحياة الحقيقية، الحياة الأبدية الدائمة، الحياة التي لا موت معها، حياة الدار الآخرة.

سمعت بعض الفنانين بمصر، ما ركب طائرة في حياته، خشية أن تقع فيموت، اعتنى بنظام غذائه عناية تفوق حد الخيال، يأكل يومًا سمكًا ويومًا دجاجًا، طعامه لحم خفيف، لحم أبيض، ومساءً فواكه، ومع كل هذه العناية والحرص، وذلك الحذر فقد مات.

عش ما شئت فإنك ميت وأحبب ما شئت فإنك مفارق

واعمل ما شئت فإنك مجزي به

***

كل مخلوق يموت ولا يبقى إلا ذو العزة والجبروت.

الليل مهما طال فلا بد من طلوع الفجر

والعمر مهما طال فلا بد من نزول القبر.

***

حياتنا في الدنيا غير حقيقية، حياة مجازية، حياة مؤقتة، لأنه يعقبها موت، يعقبها زوال، يعقبها عدم. وبصراحة، يكون إنسان ملء السمع والبصر، متألقاً، ذكياً، قوياً غنياً سيد بيته، أولاده أمامه متأدبون، وزوجته خاضعة له، فإذا مات ؟.. حزن شديد، بعد أسبوع، يفك الحزن، بعد أسبوعين يبتسمون، ثلاثة أسابيع يُرفع الشّعار الأسود، بعد شهرين أو ثلاثة وكأنه لم يكن، يقولون إذا ذكِر المرحوم لقد انتهى، وكل واحد منا على هذا الطريق وكأنه لم يكن، لذلك فإن الله فرق بين الحيوان والحياة قال تعالى:

(وَمَا هَذِهِ الحياةُ الدُّنْيَا إلا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنّ الدّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الحيوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)

الحياة الحقيقية، الحياة الخالية من كل نغص، هل منا أحد ليس لديه منغصات ؟ هذه سنة الله في الحياة الدنيا: **" إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ومنزل ترح لا منزل فرح من عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لشقاء، قد جعلها الله دار بلوى.."**.

استعرض حياة الناس.. زوجة جيدة، لكن أولاد سيئون.. أو أولاد جيدون وزوجة سيئة، أو زوجة جيدة أولاد جيدون لكن الدخل قليل، أو دخل كثير ولكن عقم من دون أولاد.. أو دخل كثير وله أولاد لكن الصحة متردية، والمرض يُنغّص حياته.

طبيعة الحياة الدنيا قائمة على المُنغِصات، لذلك حياتنا الدنيا ليست حياةً أرداها الله لنا.. أرادها الله لنا ممراً، أرادها الله لنا معبراً أرادها الله لنا مدرسةً، أرادها الله لنا إعداداً، ما أرادها الله لنا استقراراً ولا ركوناً ولا خلوداً.

فكل إنسان يتحرك حركةً خلاف تصميم الله عز وجل يشقى.. الحياة الدنيا حياة مفعمة بالمنغصات، هكذا أرادها الله، هكذا صممت، من أجل ألا تركن إليها، من أجل أن تجعلها منطلقاً ومعبراً، لذلك ورد في الحديث:

((إن أشقى الناس فيها أرغبهم فيها، وإن أسعد الناس فيها أرغبهم عنها))

اتركها تأتك، أقبل عليها تَفر منك.

" أوحى ربك إلى الدنيا أنه من خدمني فاخدميه، ومن خدمك فاستخدميه" .

حياك الله، يعني أبقاك حياً، لنستعرض ماذا تعني كلمة حياة ؛ أحيا الله الأرض، أخرج منها النبات، أحياها بالغيث أنزل عليها المطر، الحي في صفة الله تعالى هو الباقي.. فإذا قلنا الله حي يعني حياةً دائمةً، وإذا قلنا فلان حي حياته مؤقتة.. شيء قد يلفت النظر، قد يشترك الإنسان في صفة مع خالقه ؛ الله حي والإنسان حي، ولكن يجب أن يؤمن إيماناً يقينياً أنه **" ليس كمثله شيء"..** كل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك.. إذا قلت الله حي، يعني حياة دائمة باقية، هو الباقي، فلان حي حياة مؤقتة.

النقطة الثانية ؛ الحي في صفة الله أنه باقٍ حياً بذاته، أما أنت وأنا وكل واحد منا حي لا بذاته، بل بإمداد الله له، فإذا قطع الله الإمداد صار جثةً هامدة، والواحد منا ألف سبب يسلبه حياته ويجعله خلال لحظة ميتاً.. ساعة سكتةٌ دماغية، ساعة سكتة قلبية، ساعة اضطراب بكهرباء القلب اختلف النظم ومات الإنسان، فإذا انتابته نوبة خفقان أذيني شديد يموت باسترخاء القلب، مئتوثمانون ضربه وبعدها يرتخي القلب ثم يموت الإنسان.

فالله عز وجل حي بذاته، حياته ليست مستمدة من جهة أخرى نحن حياتنا نستمدها منه، عمر الإنسان بعمر شرايينه، عمره متعلق بقلبه وشرايينه ودسامات قلبه، متعلق بجهازه العصبي، متعلق بعمل الدماغ، متعلق بالكليتين.. لو أن البول احتبس في الكليتين ست ساعات تتوقف الكليتان، وإذا توقفت الكليتان ينتهي الإنسان، لا يعيش الإنسان ثلاث ساعات من دون كبد، إذا تشمع تشمعاً كاملاً خلال ثلاث ساعات يموت الإنسان.

مرةً التقيت مع إنسان شديد الأذى للناس، والأذى في طبعه، قال بعض الشعراء في وصفه، ووصف أمثاله من الناس:

أنا حرٌ ومذهب كل حر مذهبي ما كنت بالغاوي ولا المتعصب

يأبى فؤادي أي يميل إلى الأذى حب الأذية من طباع العقرب

لي أن أرد مساءة بمســاءة لو أنني أرضى بظرف خلبـي
حسب المسيء شعوره ومقالـه في سره يا ليتني لم أذنــب

***

فمرة التقيت مع إنسان شعرت أنه يحب الأذى، كلما أوقع الأذى بإنسان شعر بنشوة، أردت أن أعظه وأن أضيق عليه لعله يرعوي، قلت له، إن الله عنده السرطان في كل أنحاء الجسم، بدءاً من الجلد إلى الدم إلى العظام إلى الأحشاء، إلى الدماغ.. والله عنده تشمع كبد، وعنده فشل كلوي، وعنده اضطراب نظم، ذكرت له أمراضاً وبيلة، كل مرض ينخلع القلب له، وهؤلاء الذين أمامك كلهم عباده، فإذا أسأت إليهم انتقم منك فانتبه.

المؤمن الصادق، أي إنسان أمامه يراه عبداً لله، دون أن تعرف من هو فإذا أردت أن تتقرب إلى الله فقدم لهذا الإنسان خدمة، والله وحده يجازيك. قال تعالى:

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٤٥))

(سورة البقرة)

هذا الإله العظيم، يقول لك أقرضني، أقرضني بخدمة أحد عبادي أما الآن من ضعف الإيمان، وانهماك الإنسان بالمال، غدًا لا يتحرك بلا مال ولا يردّ لهفة ملهوف إلا بمال

أحياناً الخدمة تكلفه هاتفاً، يريد " لحسة " يعني مالاً يتقاضاه مقابل هاتفه مثلاً، وأحياناً الخدمة تكلفه بطاقة، توصية كلمة، أحياناً تكلفه غض بصر فقط، ولكنه لا يرحمك، لا يرحمك إلا بمبلغ فوق طاقتك، تشعر بأنك ذبحت، حتى يرحمك، ليس له أجرٌ إطلاقاً، لأنها خدمة بأجر.

(مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)

اخدم العباد، وابتغ هذا العمل عند رب العباد، أعط العباد مما أعطاك الله ولا تخش لومة لائم ؛ أجل لا تخشَ فالله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

حياتنا غير ذاتية، حياتنا متوقفة على أجهزة كثيرة إذا توقف أحدها نموت.. فالإنسان عندما يكون مضطجعاً ويقف فجأة يضطرب جسمه بشكل لا يصدق، يأتي أمر عن طريق شوارد معينة في الدم، تضيق كل شرايين الجزء العلوي في الإنسان، لأن الإنسان إذا كان نائماً ثم وقف فجأةً، فالدم بحكم الجاذبية يهبط إلى الأسفل، فما الذي يبقي الدم في الرأس.. لو أن الدم نقص في الرأس يصاب الإنسان بالدوار ويقع.. إذا تقدم الإنسان في السن فإن نهض من السرير قد يصيبه الغثيان لأن جهاز ضبط الوقوف بعد الاستلقاء ضعف قليلاً.

فأنا لا أعرف كم جهازٍ في الجسم إذا تعطل أحدها تصبح حياة الإنسان جحيماً لا يطاق، حياتنا ليست من ذاتنا، حياتنا متوقفة على إمداد الله لنا، على حفظه لنا.

حدّثني مرّة أحد أطباء العيون فقال: العين فيها ماء، وهناك غدة تغذي هذا الماء كما أنّ هناك مصرفًا لهذا الماء، فالماء الذي يفيض من الغدّة يضاف إلى ماء العين، وهو يتناسب تماماً مع ما يخرج من ماء العين، وللعين ضغط وقد يقيس الطبيب ضغط العين، فإذا وجد الضغط مناسباً فالوضع سليم، إذا كان هذا المصرف مسدوداً والتغذية مستمرة يزداد الضغط وقد تسبب عمى، وقد تسبب أمراضاً وبيلة في الإنسان.. يعني حياتنا، استخدامنا لعينينا فلو أنّ ذرة بحجم الهباب وقفت في مجرى تصريف ماء العين، لَغَيّرَ الدمع كرة العين ولانتابها خلط مائي، لكن هناك غدّة تغذي لتجديد الماء، وهناك مكان يصرف وبهذا تبقى العين سليمة، ويبقى الإنسان سعيدًا بسلامة عينه.

فيا ترى كم جهازًا إذا تعطل تصبح حياتنا جحيماً فليعلم كلّ منا أنّ حياتنا غير أصيلة في وُجودها، وحياتنا ليست من ذواتنا، أما في الجنة، إذا أكرمنا الله في الجنة فحياة ما بعدها موت ولا يعروها مرض، ولا يخامرها خوف، ولعل الله سبحانه وتعالى أراد أن يضاعف سعادتنا في الجنة أضعافاً مضاعفة إذا تفضّل الله علينا بدخولها، وإذا قبل منا عملنا، وإذا عفا عنا.. فإذا سمح الله لمؤمن أن يدخل الجنة.. فالسعادة في الجنة أضعاف مضاعفة، فما كان من أعراض تنتابه في الدنيا كالقلق والخوف والمرض والحزن والانحدار المريع نتيجة تقدّم السنّ ليس له وجود في الجنة إذ لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

قال لي مرةً أخٌ: " كنت من خمسين سنة أنشط مما أنا عليه الآن " قلت له طبعاً الشاب مثلا يصعد أربع درجات معاً في سلّم البناء، أما الكبير فدرجةً، درجةً، ترى إنساناً متقدماً بالسن ماشياً ببطء، ولقد كان شاباً زمنًا طويلا ثمّ تقدمت به السن، وكل إنسان على هذا الطريق الإجباري سائر، وليس له اختيار.

إذا قلنا: إن الله حي أي متصف بالحي اة الأبدية، لا بداية لها ولا نهاية لها، هو الباقي أزلاً وأبداً، والحي الذي لا يموت، لأن الذي يجوز عليه الموت حكم عليه بأنه ميّت، دقق باللغة، قال تعالى:

((إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠))

(سورة الزمر)

الذي تنتهي حياته إلى الموت هو في حكم الميّت، أما إذا مات فعلاً يسمى مَيْت، ميّت أي سيموت ومَيْت مات فعلاً.

((أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢))

(سورة الأنعام)

فكل منا ميّت، أي محكوم عليه بالموت مع وقف التنفيذ، أما إذا قلنا فلان ميْت أي مات حقيقةً، ونحن إذا قلنا عن أنفسنا أحياء، حياتنا مزورة، لأننا ميّتون بأمر الله، ميتون بقضاء الله، ميتون بأصل وجودنا على وجه الأرض، قال تعالى:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)

الحي هو دائم الحياة له البقاء المطلق، الإنسان مهما عاش لابد من أن يموت، فحياته مقيّدة بعمره، أما من له البقاء المطلق هو الله عز وجل كلمة مطلق كبيرة جداً، ومدلولها واسع واسع.

الآن على الأرض ستّة آلاف مليون إنسان فمن زمن آدم إلى يوم القيامة كم إنسانًا ؟.. الله أعلم، وإذا إنسان واحد من هؤلاء البشر يظلم فالله عز وجل ليس عادلاً، لأن عدله مطلق وليس نسبياً، أما أي قاضٍ إذا فصل في ٩٩٩ حكمًا وكان في واحدٍ منها ظالماً فاسمه عادل، ولو أنه فصل في ٩٠بالمائة من قضاياه وكان عادلاً في عشرة منها ظلماً خطأً منه أو عدم إدراك الحقيقة اسمه عادل، والإنسان نسبي، يقال فلان مرتب فترتيبه نسبي، فلان نظيف، نظافة نسبية، فلان دقيق، دقة نسبية، فلان كريم، فكرمه نسبي، فالإنسان نسبي، أما الله عز وجل فهو مطلق، معنى مطلق، أي إذا قال الله تعالى:

(وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً(٤٩))

(سورة الكهف)

فلا يظلم أبدًا حتى ولا عصفورًا واحدًا، ولا دابة، فالله عز وجل مطلق، الحي هو دائم الحياة له البقاء المطلق، والإنسان عندما يربط وجوده أو سعادته أو أهدافه، أو مصالحه بإنسان يموت فقد ارتكب حماقة كبيرة، الإنسان إذا ربط سعادته بإنسان يموت، فسعادته منوطة بهذا الإنسان فإذا مات مات معه.

لذلك فالإنسان العاقل يربط مصيره مع الله، ولا يعتنق إلا مبدأ الله ولا ينضم إلا إلى أهل الله، ولا يتحرك إلا وفق الحق، لأن الحق هو الله، وإذا استقام على أمر الله، فالله هو الحافظ، وإذا كان في ظل الله فالله هو الذي يؤيده وينصره،فكل إنسان ربط مصيره مع الله فهو السعيد حقًا، هو الذي يتفوق ويفوز.

زلت في الحديث عن معنى كلمة الحي، الحي هو دائم الحياة الذي له البقاء المطلق، فأقول:

هو الذي لم يسبق وجوده عدم ولا يلحق بقاءه فناء، أيّ إنسان بالتاريخ القريب والبعيد ربط مصيره بإنسان، فلما وقع هذا الإنسان وقع معه ولما انهار انهارَ معه، فمغامرة ومقامرة، أن تربط مصيرك بمصير مخلوق يموت، أما بطولتك وذكاؤك وتفوقك ونجاحك في الحياة أن تربط مصيرك بالحي الذي لا يموت، فكل إنسان لو مات إنسان وكان مع الحي الذي لا يموت فهو لمْ يمُتْ. قال تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩))

(سورة آل عمران)

أنا لا أنسى في السيرة موقف النبي عليه الصلاة والسلام لما خاطب قتلى بدر من الكفار، خاطبهم بأسمائهم واحداً واحداً، يا فلان يا فلان يا فلان: **" هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً، لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، قالوا أتخاطب قوماً جيفوا ؟ قال: ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ".**

هم يسمعوني كما تسمعوني أنتم، فالحياة دائمة، والموت عبارة عن ثوب خلعته فقط، أنت أنت، مشاعرك ثقافتك، ذكرياتك، إقبالك معرفتك بالله هي هي، إلا أن الثوب الذي تلبسه نزع عنك وصار هناك ثوب آخر، لذلك خط المؤمن البياني صاعد حتى عند الموت يبقى صاعداً، وما الموت إلا نقطة على الخط الصاعد.

بصراحة أقول لكم: الزمن ليس في صالح الكافر، بل هو في صالح المؤمن، مضي الزمن، فالكافر كل البيض في سلة واحدة وضعه، كل أهدافه في الدنيا، كل سعادته في المال والشهوات والنساء والسهرات والحفلات، كل إنجازه مادي، فكلما تقدم به الزمن ضعفت قدرته على الاستمتاع بالحياة، فحركة الزمن ليست في صالح الكافر، لأن مضي الزمن أولاً يضعف قدرته على المتعة، يضعف قدرته على الاستمتاع بالحياة الدنيا، بالطيبات بالطعام بالشراب بالنساء، لذلك عنده قلق عميق يخشى الموت، يخشى ما يرتبط بالموت، يكره القرآن لأنه يُقرأ على الأموات، يكره بعض النباتات لأنها توضع على القبور.

أغرب شيء كنت مرةً في لبنان وجدت محلاً ضخماً يبيع لوازم الموتى يسمونه صالة كبيرة، لا أحد يرغب بأن يدخل لهذا المكان، إلا طبعاً التجار الذين يتعاملون مع هذه المواد.

فالموت لغير المؤمن مخيف جداً، نهاية حتمية، أما المؤمن مضي الزمن لصالحه، فكلما امتد به العمر قربه من سعادته المطلقة، كلما امتد به العمر قربه من لقاء الله عز وجل، كلما امتد به العمر قربه من عرسه، وكلما امتد به العمر قربه من تحفته التي هي الموت.

ما قولك في أنّ بعض الناس ينخلع قلبه ذكر الموت ؟ بينما بعضهم يتمنى لقاء الله عز وجل ؟! تصور أن النبي عليه الصلاة والسلام، لما خيّره جبريل بين أن يبقى حيًا في الدنيا وبين أن ينتقل إلى الرفيق الأعلى، قال بل الرفيق الأعلى ماذا رأى النبي ؟ فعندما تكون حياة الإنسان بذلاً واستقامة وعطاء وخدمة للناس والتزاماً بالشرع وورعاً، وهو يحيى ليرضي الله عز وجل فالموت عند هذا جزء من سعادته العظمى، لذلك هؤلاء الذين يأتيهم الموت وهم على طهارة يأتيهم بأحب الناس إليهم على الإطلاق، وموتهم نوع من السعادة لذلك قال الله عز وجل:

(وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَراً حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ(٧٣))

(سورة الزمر)

سلام.. إذا دعيَ شخص إلى وليمة وكان ضيف الشرف الأول، فإنك ترى حس الاستقبال، والترحيب المصافحة الابتسامة الشفافة العريضة يا أهلاً ويا سهلاً، نورتم نحن على شوق لهذا اللقاء، المكان واسع لائق، والماء البارد دونه، وأطباق الطعام على اختلافها ؛ ألوانًا مذاقًا فهذه صورة، فهذه يعني إذا إنسان كُرم في الدنيا، فكيف إذا كرّمك خالق الأكوان ؟! وشتّان بين تكريم زائل، وتكريم باقٍ أبدًا.

لذلك قال تعالى:

(لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ(٢٦))

(سورة يونس)

الزيادة رؤية وجه الله الكريم، ورد في الأثر وفي الأحاديث الصحيحة أن المؤمن ينظر إلى وجه الله الكريم فيغيب خمسين ألف عام من نشوة النظرة !! قال تعالى:

(وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ (٢٢) إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ (٢٣))

(سورة القيامة)

وأكبر عقاب لأهل الكفر، قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ (١٥))

(سورة المطففين)

محجوب عن الله عز وجل.

الحي، قال بعض العلماء: **" هو الموجود الواجب الوجود ".**

من المعلوم، أنّه في أبحاث مر معنا في العقيدة، من هو واجب الوجود، وما هو ممكن الوجود، وما هو مستحيل الوجود، فالكون كله ممكن الوجود، والله واجب الوجود.

وقال بعضهم: **" الحي هو الباقي من أزل الأزل إلى أبد الأبد "**، وأنت معه والأزل هو عمق الوجود ودوامه في الماضي، والأبد هو دوام الوجود وبقاؤه في المستقبل.

وقيل: الحي الذي ليس لحياته زوال والذي لا يموت، والإنس والجن يموتون، قال تعالى:

(وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٨))

(سورة القصص)

الإمام الغزالي يُعرّف الحي **" بأنه الفعال الذي لا يموت "**، فالحي الكامل المطلق وهو الذي يندرج جميع المدركات تحت إدراكه.

الفعّال ؛ الدّرّاك، والدراك صيغة مبالغة من الإدراك، يعني أن علمه مطلق، وفعله مطلق، وهو على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

أحياناً مدير دائرة تمر عليه ألف قضية من وراء ظهره، بذكاء تمرُّ من تحته، لا يشعر، ليس عنده إمكانية أن يعرف ما يجري بغير الغرفة التي هو فيها، تأتيه معلومات، من داوم ومن لم يداوم، يتفق موظف مع مراقب الدوام، يسجله موجودًا بينما هو مسافر، فأحياناً تجد إنسانًا على أعلى درجة من الذكاء وتمر عليه ألف قضية دون أن يعلم.

الإمام الغزالي يقول **الحي ؛ هو الفعال، الدّرّاك، يعني على كل شيء قدير وبكل شيء عليم**، يعني قدرته متعلقة بكل ممكن، وعلمه متعلق بالواجب والممكن والمستحيل.

يقول القشيري، الحي ؛ **" هو الله تعالى حي، وحياته صفة من صفاته زائدة على بقائه، فهو دائم البقاء الذي لا سبيل إلى فنائه ".**

اسم الحي القيوم ورد في القرآن خمس مرات، ورد في البقرة في آية الكرسي، وهي سيّدة آي القرآن، وأعظم آية فيه، قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥))

(سورة البقرة)

أحياناً شخص يكون ملء السمع والبصر، شخصية فذة، فإن سهر إلى الساعة الواحدة ليلاً غلبه النعاس وأضجعه، فمهما كان ذكياً ومهما كان قويا لم يعد لديه مقاومة، فانتباهه وذكاؤه مع الإرهاق تلاشى وأخذ يكبو. قد ترى سياره ثمنها خمسة ملايين، عشرة ملايين شاحنة ضخمة هَوَتْ جانبًا، بل تحطّمَت، فكل من سافر إلى حلب مثلا يشاهد حادثين أو ثلاثة، فالسيارات هوَتْ وانقلبَت لأنّ صاحبها نائم **" النوم سلطان وقدرته نافذة، فالله عز وجل لا تأخذه سنة ولا نوم أما نحن فبني البشر فنصف عمرنا نوم. لكن الله :**

(لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلا بِإِذْنِهِ)

الآية الثانية في آل عمران:

(الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢))

(سورة آل عمران)

في سورة طه:

(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١))

(سورة طه)

في سورة الفرقان:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً (٥٨))

(سورة الفرقان)

في غافر:

(هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥))

(سورة غافر)

روى الإمام الرازي أنه مات لبعضهم ابن فبكى عليه حتى عمي فقال بعضهم له: الذنب ذنبك، لأنك أحببت حياً يموت، ولو أحببت الحي الذي لا يموت لما وقعت في هذا الحزن، قال النبي الكريم:

((لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي))

أنا فيما أعتقد أنّه لا يوجد رجلان على وجه الأرض أحبا بعضهما حباً إلى درجة غير معقولة كحبّ أبي بكر لرسول الله صلى الله عليه وسلّم، أعطاه ماله كله، قال: **يا أبا بكر، ماذا أبقيت لنفسك؟** قال: **الله ورسوله..** قال **ما ساءني قط..** قال أيضًا :

((ما طلعت شمس على رجل بعد نبي أفضل من أبي بكر..))

((سدوا كل خوخة إلا خوخة أبي بكر..))

((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، إلا أخي أبا بكر..))

إذا أكرم الله عز وجل رجلاً بعمرة وزار المسجد النبوي فإنه يسلم أولاً على النبي، ثم ينتقل ليُسلّم على أبي بكر رضي الله عنه، فليسلم عليه وليذكر أقوال النبي فيه تضطرب نفسه ويبكي، قال:

((ما ساءني قط فاعرفوا له ذلك))

هذا الصديق، ومع ذلك:

((لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكر خليلي ولكن أخ وصاحب في الله حتى يجمع الله بيننا))

كل إنسان يضع كل أمله كل حبه، يعلق كل قلبه بإنسان من دون الله يسقط. لذلك عندما نزلت براءة السيدة عائشة من فوق سبع سماوات وفرحت فرحاً شديداً، وكان أبوها عندها، وقال لها **قومي إلى رسول الله واشكريه**، قالت: والله لا أقوم إلا لله، تبسم عليه الصلاة والسلام وقال:

((لقد عرفت الحق لأهله))

لقد عرفت الفضل لأهله.

الله هو الموجود، وكلما وحد الإنسان ربّه كثيرًا أحبه الله أكثر، والمؤمن لا يعبأ بأحد، أديب مع الناس كلهم، يحترمهم جميعاً، يخدمهم جميعاً أما قلبه لا يعلقه إلا بالله، هذا هو التوحيد، الله يغار، إن رأى قلبك مع غيره، هذا الغير ضايقك بإلهام من الله من أجل أن تفك ارتباطك معه فلتكن ذكياً ولا تعلق قلبك إلا بالله مباشرةً، وعامل الناس بالإحسان.

تحدثت مرةً عن بحث خطير جداً.. هناك حبٌ في الله وحب مع الله، الحب في الله من كمال الإيمان، فأنا أحب إخواني لأنني أحب الله أحب أخي المؤمن لأنني أحب الله، أحب زوجتي لأنها مستقيمة لأنني أحب الله أحبها، أما إذا أحببتها مع الله، يعني نفذت أمرها وعصيت الله، إذا أحببت إنساناً مع الله، أرضيته ولم ترض الله فقد هويْت منزلقًا، الحب مع الله عين الشرك والحب في الله من كمال الإيمان، يجب أن تفرق بدقة بالغة بين أن تحب مع الله، وبين أن تحب في الله.

محبة النبي محبة في الله، محبة أهل الحق محبة في الله، محبة إخوانك في الإيمان محبة في الله، محبة أهلك وأولادك محبة في الله أما إذا أطعت مخلوقاً وعصيت الخالق، بدافع الحب، فهذا حب مع الله وهو عين الشرك.

قصة مشابهة ؛ روى القشيري أن رجلاً قال: إن صديقي فلاناً مات فمن كثرة ما بكيت عليه ذهب بصري، فقيل له إن الذنب ذنبك حيث أحببت الحي الذي يموت، هلا أحببت الحي الذي لا يموت حتى كنت تستغني عن البكاء على صديقك.

وبعد فالإنسان يحب من حوله، يحب زوجته وأولاده وإخوانه، ثم يأتيه ملك الموت، سيبقى في القبر وحيداً، أشد الناس حباً له يشيعه حتى شفير القبر، طبعاً النساء يودعنه في المنزل، أما أولاده فوداعهم إلى شفير القبر يلقون عليه النظرة الأخيرة، ولكن بعد أن يضع الحفار تلك الرقاقة وبعد أن يهيل التراب، وينصرف الناس، من بقي مع هذا الإنسان الحي الذي لا يموت هو الذي لا يبقى.

((عبدي رجعوا وتركوك وفي التراب دفنوك ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

أليس من الذكاء أن تقيم علاقات طيبة مع الحي الذي لا يموت لأنك سوف تنفرد معه ولا أحد معك، والأهل ينصرفون إلى طعامهم إلى شرابهم بعد حين إلى نزههم ثم إلى متعهم، بعد حين كأنك لم تكن، الأولى أن تحب الله.

يقول لك: أنا من أجل أولادي لم أدفع زكاة مالي، لن ينجو من عذاب الله، ومن أجل ولد معين لم يعدل بين بقية أولاده لقي الله وهو عليه غضبان.

هل من إنسان يستاهل أن ترضيه وأن تسخط الله عز وجل ؟ هل من إنسان على وجه الأرض يستاهل أن ترضيه بسخط الله ؟ فمن يعتقد مثل هذا ويتصرف بغير الهوى من الله فهو أحمق.

أعرف آباء كثيرين من أجل بقاء المال مع الذكور يحرمون الإناث ويلقى الله وهو عليه غضبان، فهل أولاده ينفعونه أو يدفعون عنه عند الله عز وجل

سئل ابنٌ عاق إلى أين تذهب ؟ قال: ذاهب لأسكر على روح والدي.. السكر على روح والده، ترك له أبوه ثروة طائلة وحرم بناته، فهل نفعه هذا الولد بعد الموت.

لذلك ليس من مخلوق على ظهر الأرض يستأهل أن ترضيه بسخط الله.. في الأرض كلها.. أرض الله ولا تعبأ بأحد.

فليتك تحلو والحياة مريـــرة وليتك ترضى والأنام غضاب

وليت الذي بيني وبينك عامــر وبيني وبين العالمين خــراب

صح منك الوصل فالكل هيــن وكل الذي فوق التراب تـراب

***

بقي التخلّق باسم الحي، فاحذر أن تكون مع إنسان كالميت بين يدي غاسله، فالحذر الحذر أن تركن كلية لإنسان ما، ولكن قال العلماء **" لتكن بين يدي ربك كالميت بين يدي مُغسِّله".**

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا فليس لي عنهمُ معدل وإن عدلوا

والله وإن فتّتوا في حبهم كبدي باق على حبهم راض بما فعلوا

***

فالمؤمن إذا أعطاه، وإذا منعه، وإذا قربه وإذا أبعده..يبقى متعلقا بربه فعطاؤه ومنعه لخيره

كن مع الله ترَ الله معــك واترك الكل وحاذر طمعك

وإذا أعطاك فمن يمنعــه ثم من يعطي إذا ما منعك

***

ليس لك إلا الله عز وجل، فالمؤمن الصادق بين يدي الله كالميت بين يدي المغسل، راض بقضائه، راض بقدره راض برزقه، راض بعطائه لك إن فرقك أو إن جمعك، كيفما شاء فكن في يده .

في الورى إن شاء فذاً ذقته وإذا شاء عليهم رفعـك

هذه ملة طه خذ بهــا لا تطع عنها قصوراً دفعك

***

أيها القارىء الكريم كنت لقد استنفذ اسم الحي الجهد كله، وكنت أرغب في تكملة بحث الحي القيوم ولكنني أترك ذلك لبحثٍ قادم إن شاء الله تعالى أتحدّث فيه عن اسم القيوم، والله ولي التوفيق.

٥٢- اسم الله القيوم :

مع الاسم الثاني والخمسين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو القيوم، والقيوم كما تعلمون وارد في الحديث الصحيح اسمٌ من أسماء الله الحُسنى.

لنستعرض أوّلاً معاني القيوم في اللغة ؛ فاللغة لها أصول، لها أصل ثلاثي مجرد **" قوم" " و قيم "** فالقيّم هو السيد المدبر للأمور، سائس الأمور، القيم تقول قيم المكتبة، أمينها، سيدها، من بيده أمرها.

دين القيّمة ؛ الملة الحنيفية التي تتوافق مع الفطرة، والتي تميل النفس إليها، وعلامة أن هذا الدين دين الله أن النفس تميل إليه، وترتاح له، ويتوافق مع فطرتها، ومع خصائصها.

وفي النفس حاجة لا يرويها المال، ولا ترويها رفعة المكانة، ولا ترويها المتع، ولا ترويها الشهرة، لا يرويها إلا الإيمان بالله عز وجل والاطمئنان إليه، ومصداق ذلك يشير إليه قول الله عز وجل:

(الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨))

(سورة الرعد ٢٨)

وإذا كان بالإمكان، أن ترتاح النفوس والقلوب، وأن تطمئن، وأن تسعد، وأن تستقر بغير الله، فهذا قد يكون حتى حينٍ قريب، لأن القلوب لا ترتاح إلا لدين الله سبحانه وتعالى، ولا تسعد النفوس إلا به، ولا تركن إلا إليه، ولا تشعر بالأمن إلا في ظله ولا تشعر بالفوز إلا بطاعة الله عز وجل.

توافق النفس مع الدين شيء عجيب، الإنسان قد يحوز الدنيا بأكملها، لكنه قلق، ضائع، مشتت، مبعثر، أما إذا عرف الله عز وجل اطمأنت نفسه وسكنت وارتاحت، وأمنت، وتفاءلت، واستبشرت واستشرفت، وارتفعت وكبرت.

دين القيّمة ؛ دين الحنيفية، الذي تميل النفوس إليه، وتركن إليه، ولابدّ أنها قائلة: **" أنا بعد أن عرفت الله عز وجل سعدت بقربه،** شعرت بالأمن شعرت بالطمأنينة، شعرت بالتوازن، وعلامة إيمانك أن تقول هذا الكلام وتردّده في أعماقك، ويوم القيامة مشتق من قيم، ومن قوم، وهو يوم البعث الذي يقوم فيه الناس لرب العالمين، قال تعالى:

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤))

(سورة الصافات)

هل رأيتم مذنباً يُستجوب وهو جالس ؟.. أبداً، يريد أن يقف.

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

فيوم القيامة لشدة هول هذا اليوم يقف فيه الناس لرب العالمين، ليسألوا ليحاسبوا عن كل صغيرة وكبيرة.

والقيوم ؛ مبالغة من القائم بالأمر، إنسان مدير مستشفى مدير مؤسسة مدير معمل مثلا، دوامه من

الساعة الثامنة إلى الثانية ظهراً، ولكن هناك مدير امتزج حبّ هذا العمل مع دمه، يقتني سريراً بمكتبه وينام في مكتبه يسأل عن كل صغيرة وكبيرة، ويتابع كل أمر، ويضبط كل تصرف نقول هذا قيوم ؛ مبالغة من قائم، وذو المبالغة في تدبير الأمور وفي تسييرها وفي تنظيمها ؛ نصفه بأنّه قيوم.

فالقيوم، والقائم والقيم، هذه كلها من فعل ثلاثي، إما أن نقول قوّم أو قيّم، كلاهما صحيح، تقول قوّم الأمر وقيّم.

هذه اللغة، فما علاقة هذا الاسم بحقيقته ؟ القيوم، هو القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره، ما منا واحد على الإطلاق قائم بذاته، لا يدري ماذا يحدث بعد ساعة، ولا بعد دقيقة، لكن الله سبحانه وتعالى قائم بذاته وجودنا مفتقر إلى إمداد الله، إلى أن يسمح الله لنا أن نعيش ساعة أخرى، يوماً آخر، أسبوعاً آخر. وجودنا ليس ذاتياً، لذلك من عدّ غداً من أجله فقد أساء صحبة الموت، الله جل جلاله، هو القيوم، أي قائم بنفسه مطلقاً لا بغيره هذا شطر المعنى.

الشطر الثاني يقوم به كل موجود، كل شيء موجود في الكون قائم بالله، **" كن فيكون " " زل فيزول "**، إن رأيت الشمس طالعة فالله سمح لها بذلك، وأن تبقى فهي طالعة، وهي باقية بأمر الله.

(إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ (١) وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ (٢))

(سورة التكوير)

إن رأيت إنساناً أمامك، وهو واقف يحدثك، فلأن الله سمح له أن يبقى حياً، فالله قائم بذاته، وكل موجود قائم به إطلاقاً.

لذلك يرتكب الإنسان خطأ فاحشاً إذا قال أنا، أنت لا شيء، أنت شبح، إذا سمح الله لك أن تعيش يوماً عشته، وإن لم يسمح لك فلن تعيش، هذه الحقيقة مهمة جداً، كان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ من نومه يقول:

((الحمد لله الذي ردّ إلي روحي وعافاني في بدني وأذن لي بذكره))

لذلك المؤمن دائماً يرى هذه الحقيقة ؛ أن قيامه بالله، وجوده بالله، استمرار وجوده بالله، دقق وتأمّل فأنت تتمتّع بعينيك، لأن الله سمح لك بذلك، تمتعك بأذنيك، تمتعك بلسانك، تمتعك بفمك، تمتعك بعقلك، بجهاز هضمك، بجهاز دورانك بدسامات قلبك، بشرايين قلبك، تمتعك بكليتيك، تمتعك بكل خلية في جسمك، بإذن الله وإمداده وموافقته.

لذلك أجمل كلمة في تعريف القيوم ؛ القائم بنفسه مطلقاً لا بغيره وهو مع ذلك يقوم به كل موجود. قال العلماء: لا يُتصور وجود شيء ولا دوام شيء إلا به لأجل لا وجود ولا دوام إلا بالله تعالى فبربكم إذا كان كل شيء موجوداً بقيوميته، وإذا كان كل شيء مستمراً بقيوميته، فهل علاقتك مع القائم به كل شيء أم مع الذي لا يملك من أمره شيئاً ؟ هنا يكون التوحيد.

إذا أنت أرضيت إنساناً **" وقيامه بالله "** وعصيت الخالق وهو القيوم، عصيت الذي إن أراد له الفناء فني فوراً، وأرضيت الضعيف الفاني فأنت في ضياع لذلك فالحي القيوم، به حياة كل شيء وقيامه. حتى لا يتُصور وجود شيء ولا دوام وجوده إلا به، وقيل: القيوم هو الباقي الذي لا يزول، قيل: هو المقيم للعدل القائم بالقسط، قيل القائم بنفسه الغني عن غيره الذي لا ينام.. هذا معنى الله لا إله إلا هو الحي القيوم.

الإنسان المثقف المؤمن، لا يليق به أن يقرأ القرآن هكذا دون تدبّر، يقول قائل: اقرأ آية الكرسي فهي مفيدة.

(اللّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ)

ألا ينبغي أن تعرف من هو القيوم.. يقوم به كل شيء، وكل شيء مفتقر في وجوده واستمراره إليه، يحتاجه كل شيء في كل شيء، فإذا أيقنت بهذه الحقيقة، هل تلتفت إلى القيوم أم إلى الذي يقوم وجوده بالقيوم ؟ قطعًا.. إلى القيوم..

القيوم هو القائم بتدبير أمر خلقه، فبالإضافة إلى أن وجودك قائم بالله، وإلى أن استمرار وجودك قائم بالله، هناك معنى ثالث.. هو القائم برزق العباد، وأنت نائم، الأمطار تهطل، الرشيم يتحرك، المعادن تنحل والجذر ينمو، والقلنسوة تحفر الصخر، والماء أذيبت به المعادن، صعد إلى عروق الشجر، انعقد الزهر، نمت الأوراق، انعقد الثمر وأصبح ثمراً يانعاً.

المؤمن إذا أكل تفاحة أكل عنباً أكل تيناً، أية فاكهة يأكلها يجب أن يرى يد الله التي صنعتها، أنت ماذا فعلت، زرعت البذرة، وسقيت التربة وسمدت، فمن جعل الرشيم ينمو، ولابد من أن نعرف، ضع حبة فاصولياء في قطن مبلل وراقبها، بعد يوم أو يومين ينبت الرشيم ثم ينمو الساق ثم ينمو الجذير، اضغط على هذه الحبة.. تراها فارغة، هذا الغذاء كافٍ لنمو الرشيم والجذيع والجذير، ثم تأخذ الغذاء من التربة، هذا خلق الله ظاهرة النبات وحدها أكبر آية دالة على عظمة الله.

القطن نبات، السواك نبات، الخلة نبات، الليف في الحمام نبات الأصبغة نباتات، الأدوية نباتات، الأثاث نباتات، الأشجار المثمرة نباتات، وكذلك الخضار والفواكه، فكلمة **" نبات "** كلمة تلفت النظر.

إذاً: القيوم فضلاً عن أنه قائم بذاته، يقوم به كل موجود، يعني ما كل كائن حي فقط بل كل موجود، الشمس موجودة، القمر الجبال البحار.. يقوم به كل موجود ويستمر به كل موجود.

والمعنى الإضافي أن الله قائم بتدبير أرزاق العباد.

تأمّل في استهلاك العالم في اليوم الواحد من اللحم كم دابة ؟.. هذه الدواب تتوالد. إستهلاك العالم من الماء كم في اليوم ؟ هذا الماء أساسه أمطار وأنهار وينابيع، إستهلاك العالم من الخضار والفواكه ؟ يا ترى كم ألف طن من الحمضيات ينتج في العالم، نحن بلد متواضع لدينا ساحل ضيق، عندنا تسعون

ألف طن من الحمضيات تم تصديرها خارج القطر من الحمضيات، فإنتاج العالم كله من الحمضيات سنويا ؟.. إنتاج العالم كله من الموز كم ؟..معدّل نهر الأمازون ثلاثمائة ألف متر مكعب في الثانية، هذه المياه من أين جاءت؟ الغابات، الأخشاب التي يستهلكها النجارون في العالم من أين ؟ من الغابات، من أمدّ الغابات بهذه الأخشاب ؟ الله جل جلاله.

الحديد، أطنان الحديد في العالم من أين جاءت ؟ من الفلزات، من أودع في الأرض هذا المعدن النافع ؟ قال تعالى:

(وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢٥))

(سورة الحديد)

فكل إنسان مدْعو إلى أن يفهم أنّ الله سبحانه وتعالى هو القيوم، ولابدّ من فهم واسع وشامل لصفة القيوميّة فهو الذي يدبر أمر الخلق كلّهم بشرًا وحيوانًا ونباتًا بتأمين أرزاقهم، وحاجاتهم، وزروعهم، ومياههم.

وقال مجاهد: **القيوم هو القائم على كل شيء**، قال تعالى:

(اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢))

(سورة الزمر)

الخلق كلّهم في قبضته، وليس من مخلوق جامع، فقد تتصور أن الأمور متفلتة ويبدو لك أنّ فلانًا قلبه قاس، وأنّ يده طولى، وهو سيّد نفسه فالله مالكه، وقياده بيد خالقه، وأوضح آية في هذا، قال تعالى:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

حيوان شرس، حيوان مخيف، عقرب، أفعى، هذه الحيوانات المؤذية تتحرك بأمر الله، وكل مخلوق يتحرك بإرادة الله سبحانه وتعالى وليس له إرادة مستقلّة.

لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، القائم على كل شيء هو الله القيوم.

وقال بعض العلماء: **" القيوم هو القائم على خلقه، بآجالهم وأعمالهم وأرزاقهم "، " إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله عباد الله، وأجملوا في الطلب، واستجملوا مهنكم "، " كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرب أجلاً "**

وقيل: **" القيوم هو المدبر المتولي لجميع الأمور التي تجري في الكون "** فإذا سمعت خبر فيضان، خبر زلزال، خبر إعصار، خبر انهدام تفشّي مرض، تفشي وباء، حرباً أهلية قامت بين فئتين، أليس لله

علاقة بهذا الشيء ؟، قنبلة ألقيت على هيروشيما، أليس لله علاقة بهذه القنبلة ؟ بلى، وألف بلى ! والقيوم لا شيء يقع في الكون إلا بأمره، ومشيئته، وإرادته وحكمته وقدرته، وعلمه وتدبيره، يقول الله في القرآن الكريم:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩))

(سورة الأنعام)

قد تتجوّل بالخريف في بستان فترى ورقة زيتون سقطت، فاعلم أيّها القارىء أنّ الله تعالى في القرآن الكريم يقول:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

فما قولك فيما فوق الورقة، سقوط ورقة يعلمها، سقوط قنبلة، طبعاً هذه أهم، يعلمها، الإنسان متى يرتاح ؟.. إذا شعر أن الأمر كله بيد الله، وأن الله قادر وعادل ورحيم وحكيم، وأنت في ظله، وأنت في رعايته، منحك الأمن، والأمن نعمة لا تُقدر بثمن.

وقيل: القائم على كل نفس بما كسبت، يحاسب كل إنسان حساباً دقيقاً، قيوم.. الغشاش له معاملة، والصادق له معاملة، والخائن له معاملة، والمتقن عمله له معاملة، وغير المتقن له معاملة.

سمعت عن أخ عمل مهندساً في بعض دول الخليج، أخلص إخلاصاً منقطع النظير، أعطاه من يعمل عنده راتباً فلكياً، ثم شعر أنه ينبغي أن يستقر في بلده إلى جوار أمه وأبيه، فترك وعاد إلى بلده، ذهب زيارة طارئة لذلك البلد الخليجي لإجراء بعض المعاملات، فعرض عليه من كان يعمل عنده أن يقيم شهراً في الخليج وشهراً في موطنه، وعشرة آلاف درهم في الشهر يقدر بمائة وخمسين ألف ليرة تقريباً، وبيت مفروش، السبب في كل هذه المغريات والتنازلات استقامته، وإخلاصه وتفانيه في خدمة عمله، سبحان الله **" البر لا يبلى، والذنب لا يُنسى والديان لا يموت ".**

والنبي قال:

((الأمانة غنى))

طبعاً من معانيها الضيقة ألاّ يأكل الإنسان مالاً حراماً.. ومن معانيها الواسعة، أن تكون أميناً في عملك، أميناً في اختصاصك وأمايناً في كلّ شيء... فمثلا إنسان لا يحتاج إلى عملية إطلاقاً، يقول له طبيب غير أمين وغير مستقيم: إذا لم تجر العملية بعد يومين تموت، ويأخذ منه مبلغ أربعمائة وخمسين ألف ليرة، وهو لا يحتاج إليها إطلاقاً، هذا ليس أميناً على اختصاصه.

فموضوع الأمانة موضوع واسع جداً، إذا عمل الإنسان عملاً لِيزيد دخله، ولا ينفع الشخص الذي يتعامل معه، فقد خان الأمانة فأنت إذا عندك بلور ستة ميليمتر، وتركبه مكان ثلاثة ميليمترات من أجل منفعة ذاتيّة وتقول: هذه النافذة أنسب بِسَماكة ستّة ميليمترات، وتحمله ثمناً باهظاً وعبئاً ووزناً بلا فائدة، فقد خنت الأمانة. قال تعالى:

(إنّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إنّ اللّهَ نِعِمّا يَعِظُكُمْ بِهِ إنّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً (٥٨))

(سورة النساء ٥٨)

إذا كنت صاحب صيدلية، فالأدوية كلها أمانة برقبتك، إذا انتهى مفعول دواء لابدّ من تنسيقه، أعرف شخصاً اشترى دواء انتهى مفعوله، وكنت أظن أن الدواء الذي ينتهي مفعوله لا ينفع لكنه لا يضر، ثمّ تبيّن لي أنّ الدواء الذي ينتهي مفعوله له ضرر كبير جداً، هل تصدقون أنه يصيب الإنسان بالكآبة أحياناً، لما به من مواد مركبة، عندما تفككت أصبحت سامة، لما كانت مركبة كانت نافعة، فأن تبيع دواءً منتهياً مفعوله،فقد خنت الأمانة.

أنت محامي ؛ موكل في قضية، تقدم مذكرات غير مدروسة، ولم تراجع القوانين، خصمك أقوى منك، وخسرت الدعوى، فأنت خنت الأمانة.

المحامي أمين، الطبيب أمين، هناك أخطاء كثيرة جداً تُرتكب من أصحاب الاختصاصات العليا، فهم موثوقون، ولكنّهم هدروا هذه الثقة الممنوحة لهم بتقصيرهم.

تبيع خبزاً للناس، فعليك أن تتأكد أن هذا العامل يداه نظيفتان، وسمّان عنده تنكة زيت غالية جداً، وجد فيها فأراً، فهل يبيعها للناس؟ الناس لا يعلمون، إنه خان الأمانة.

الدين عظيم فهو رقيب على النفس، يتغلغل الدين إلى أدق التفاصيل، أضرب لكم مثلاً بسيطاً، نموذجياً: أخ من إخواننا كان يلف محركات، قال: قد يأتيني محرك محروق والشرط خمسة آلاف، أفتحه فأجد طاقاً مقطوعاً خارجياً، ألحمه بالكاوي بثانية واحدة، ثمّ يأتي صاحبه في اليوم الثاني ويتقاضى صاحب المحلّ منه خمسة آلاف، هذا قبل أن يعرف الله، لكن بعد أن عرف الله، أصبح يقول لمثل هذه الحالة اسمح لنا بخمس وعشرين ليرة، فيتساءل الزبون متعجّبا؛ ما هذا الكلام قد اشترطت خمسة آلاف ! يقول: نعم، لكن تبيّن لي بعد فتح الجهاز وفكّه أنّه غير محروق، بل فيه قطعة غير ملحومة، فلحمته وانتهى الأمر.

والله الذي لا إله إلا هو، لا يتبدّى الدين حقيقيّا، وجليّا إلا في عملك، الدين الحقيقي لا يتبدى في صلاتك ولا في صيامك، ولا في حجك، ولا في عمرتك، إنّه يتبدّى في العمل.

أن تضع مادة تؤذي أبناءنا الصغار، وأنت صاحب معمل غذائيات.. فقد خنت الأمانة، وخسرت معيّة الله تعالى، والله تعالى يقول: إنّ الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وعندئذ ضع صيامك وصلاتك في الحاوية، الذي يخون الأمانة في صناعته، لا عبرة لا بصلاته ولا بصيامه، فالعبرة أن تستقيم على أمره، إن استقمت على أمره، فالصلاة لها معنى، والصوم له معنى، والحج له معنى، لذلك قال تعالى:

(وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ)

فمن معاني القيوم: القائم على كل نفس بما كسبت، فالشاب المستقيم له معاملة خاصة، له زواج خاص، له مستقبل خاص، وشاب منحرف قبل الزواج، عنده زوجة بلاء من الله، أتته بلاء، لأنه قبل الزواج لم يكن عفيفاً.

إنسان دخله حرام يأتيه البلاء الأعظم كل يوم، يعاني ما يعاني كلّ حينٍ، وهذا جزاء وفاق يقول: ركبي عم تقصف **!**. طبعاً، لأنك عندما بعت الزبون لم تتق الله فيه لم تراقب الله فيه عندما بعت هذا الإنسان الساذج.. **" غبن المسترسل ربا، غبن المسترسل حرام "**، لم تتق الله في البيع، فلم تلبث أن جاءك رجل أخافك، " هات هويتك ". فالأمور دقيقة جداً، إنّ ربّك لبالمرصاد.

فالقيوم: القائم على كل نفس بما كسبت، امرأة محبة لله عز وجل مستورة محجبة، هذه لها زوج خاص، لها زوج يكرمها ويحفظها ويرفع شأنها، ويرحمها، وإمرأة فاسقة، متفلتة، لها زوج يهينها ويضربها ويضيّق عليها، هذه لها معاملة وهذه لها معاملة.

شاب أمين، يتهافت الناس على تشغيله عندهم، وشاب غير أمين يتنافس الناس في صده عنهم، طبعاً.

(أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣))

(سورة الرعد ٣٣)

وقيل الحفيظ على كل شيء، كل شيء مسجل عنده، صورة ملونة وصوت، وسوف تُعرض عليك يوم القيامة، قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤))

(سورة الإسراء)

ركبت مع أخ في سيارته، رأيت ورقة لديه فيها صورة السيارة مع التاريخ والسرعة، قلت له ما هذه ؟ قال هذه مخالفة، أرسلوها، يوم كذا الساعة كذا في شارع كذا بسرعة كذا، تفضل، إنسان صنعها، فكيف خالق الأكوان، قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

إذا كانت كل أعمالنا مسجلة، صوتاً وصورةً، وسوف تُعرض علينا عملاً عملاً يوم القيامة، أجب خالقك، وقفوهم إنّهم مسؤولون.

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥))

(سورة يس)

وقيل: القيوم الدائم القيام في تدبير الخلق وحفظهم الدائم، الإنسان أحياناً ينتبه إلى عمله فترة، ويرتاح فترة، ويأخذ إجازة أسبوعين وتأتي فترات يتعب فيها لا يتابع الأعمال.. القيوم بصيغة مبالغة، يعني القائم بتدبير خلقه على الدوام، بمعنى الاستمرار.

الإمام الغزالي له رأي لطيف في هذا الاسم، قال: **" اعلم أن الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف "**، فكلمة أحمر.. هذه جوهر أم عرض ؟ هذه عرض، فقد تحتاج إلى شيء يقبل هذا اللون، تحتاج إلى ماء ملون بالأحمر، تحتاج إلى جدار يطلى بالأحمر تحتاج إلى ضوء يخترق سطحاً أحمر، فكلمة أحمر هذه صفة ليست جوهراً، أما إذا قلنا مضدة فهذه جوهر.

قال: **" الأشياء تنقسم إلى ما يفتقر إلى محل كالأعراض والأوصاف "** فيُقال إنها ليست قائمة بنفسها، وإلى مالا يحتاج إلى محل، نقول: الشمس مثلاً، الشمس جوهر، القمر جوهر، الحصان جوهر.

لكن الحقيقة الدقيقة هي أن الشيء الجوهري، الذي لا يحتاج إلى محل، هو مفتقر في وجوده إلى الله، طبعاً نحن فيما يبدو لنا، أن هذا الرخام جوهر، أما لونه عرض، هذه السيارة جوهر، لونها سوداء عرض، هذا الضوء جوهر، اللون الأصفر فيه عرض، أما عند الإمام الغزالي وهو الحق، أن الأشياء التي تتوهمها جوهراً هي في حقيقتها مفتقرة في وجودها إلى الله، إذاً في الحقيقة كله عرض، لذلك الذين قالوا الكون كله وهم، شبح، من هنا انطلقوا، أي أنّ كل شيء قائم بالله.

لذلك فمن هو الذي لا يفتقر إلى ما سواه ؟ اسمعوا هذا الشرح ما ألطفه قال: وإن لم يحتج إلى محل **" شيء لم يحتج إلى محل، "** فإن كان في الوجود موجود تكفي ذاته بذاته، موجود قائم بذاته، ولا قيام له بغيره، ولا يشترط في دوام وجوده وجود غيره، فهو القائم بنفسه مطلقاً، فإن كان كذلك يقوم به كل موجود.

حتى لا يُتصور وجود شيء من دونه، ولا دوام وجود شيء من دونه، فهو القيوم، لأن قيامه بذاته وقيام كل شيء به.. قال: هذا الشيء، هذا الموجود، هذا القائم بذاته الذي يقوم به كل موجود ليس إلا الله.

ليس إلا الله وجوده ذاتي يقوم به كل موجود، ما سوى الله عز وجل، أعراض، وأشباح، وأوصاف، ولا شأن لها.

اسم القيوم ورد في قوله تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥))

(سورة البقرة ٢٥٥)

وفي آل عمران:

(الم (١) اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢))

(سورة آل عمران)

وفي سورة طه:

(وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً (١١١))

(سورة طه)

إذا قرأتم قوله تعالى، الله لا إله إلا هو الحي القيوم، فالمعاني التي وردَت كثيرة جداً، ودقيقة جداً، هكذا تعرف الله عز وجل، هذه معاني كلمة القيوم.

قال العلماء: من أدب المؤمن مع اسم القيوم، أن يعود قلبه، الانقطاع عن الخلق، مادام يعرف أن كل شيء قائم في الله، يعني إذا دخلت إلى دائرة، وجدت فيها ألف موظف، لا يستطيع موظف أن يخدمك بشيء إلا ليأخذ موافقة من المعلم، أتتحدث مع أحد ؟ عليك بالمعلم، ليس لك إلا هذا.

يعني: إذا كان ألف موظف لا يستطيع موظف أن يتكلم كلمة لا بالإشارة ولا بالموافقة، ولا بالحركة، إلا إذا وافق المعلم، فهل تتحدث مع هؤلاء ؟ وتضيع وقتك معهم ؟..

فإذا كان كل هؤلاء الناس مرجعهم بيد المدير العام، فأنت علاقتك معه، فلتخاطبه هو ذاته.

لذلك: من أدب المؤمن مع اسم القيوم، أن يعود الإنسان نفسه انقطاع قلبه عن الخلق، مادام يعرف أن الله سبحانه وتعالى، هو القائم والقيوم لذلك قال بعض العارفين: **" حسبك من التوكل ألا ترى لنفسك ناصراً غيره "**.

أحياناً يقول الإنسان، دبرتها، أنجزتها، عملت خطة محكمة وأفلحت بها، أقسم بالله إنّي أشعر أن هذا الإنسان مُشرك، الله سمح لك، الله وفقك الله جعل الآخرين يغضون نظراً عنك، الله خلق في قلبهم عطفاً عليك الله حجبهم عن معرفة هذه المخالفة أحياناً، لا تقل: دبرت حالي، حتى لو أن واحداً عاونك الله سمح له أن يعاونك، ألهمه، إما أنه خاف منك، وإما أنه استحيى، وإما أنه عطف عليك، لا تقل أنا دبرت أموري.

قال: **" حسبك من التوكل ألا ترى لنفسك ناصراً غيره، ولا لرزقك خازناً غيره، ولا لعملك شاهداً غيره "**.

المُخلص لا يحتاج إلى ضجيج، غير المُخلص إذا صنع وليمة يقول هل أعجبكم الطعام ؟ يريد أن يستجدي المديح، إذا عمل حفلة دائماً يسأل ليمدحوه، أما المؤمن لا يطلب على عمله شاهداً غير الله، ولا يرجو غير الله، ولا يعرف أن أحداً ينصره غير الله.

من أدب المؤمن مع اسم القيوم، أن من علم أن الله هو القيوم للأمور استراح من كد التدبير، وتعب الاشتغال بغيره، وعاش براحة النفس، ولم يكن للدنيا عنده قيمة.

يعني ما هو لك لك، وما هو ليس لك ليس لك، والله عز وجل لا ينسى، ولا يغفل، وأمرك بيده، فإذا تيسر فالحمد لله، وإذا تعسر لا حول ولا قوة إلا بالله.

قال بعضهم: يا رب لست سبحانك فلسْت محتاجاً إلى أحد، والكل محتاج إليك، يا عليم السر في أغواره، كيف للأسرار أن تخفى عليك ؟ كل شيء بك باق دائماً، والذي تقضيه مكتوب لديك، يا مضيء النجم، يا قيوم يا ناقل الأطيار من أيك لأيك.

في صحيح البخاري، أن النبي صلى الله عليه وسلم قام بالليل تهجد ودعا ربه فقال:

((عَنْ طاوُسٍ سَمِعَ ابْنَ عَبّاسٍ رَضِي اللّه عَنْهمما قالَ كَانَ النّبيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ إذا قامَ مِنَ اللّيْلِ يَتَهَجّدُ قالَ اللّهُمّ لكَ الْحَمْدُ أنْتَ قَيّمُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنّ وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنّ وَلَكَ الْحَمْدُ أنْتَ نُورُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنّ....))

(أخرجه البخاري)

أحياناً يقال: إنه حدثَتْ خلخلةٌ بطبقة الأوزون، وتفشّى سرطان الجلد إلى أن بلغ بالمائة سبعين، فيخاف الإنسان، ولكن الله موجود، الله عز وجل أليس قادراً على أن يرممها ؟ قادر، ولكن دون الإيمان بالله الحياة مخيفة تحمل هم الأوزون المتخلخل، القلق من التلوث، القلق من الأورام، القلق من أمراض القلب، القلق من فشل كلوي، ما هذه الحياة ؟.. لكن بالإيمان بالله هناك طمأنينة.

((عَنْ طاوُسٍ سَمِعَ ابْنَ عَبّاسٍ رَضِي اللّه عَنْهمما قالَ كَانَ النّبيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ إذا قامَ مِنَ اللّيْلِ يَتَهَجّدُ قالَ اللّهُمّ لكَ الْحَمْدُ أنْتَ قَيّمُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنّ وَلَكَ الْحَمْدُ لَكَ مُلْكُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنّ وَلَكَ الْحَمْدُ أنْتَ نُورُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَمَنْ فِيهِنّ وَلَكَ الْحَمْدُ أنْتَ مَلِكُ السّمَوَاتِ وَالأرْضِ وَلَكَ الْحَمْدُ أنْتَ الْحَقُّ وَوَعْدُكَ الْحَقُّ وَلِقاؤُكَ حَقٌّ وَقَوْلُكَ حَقٌّ وَالْجَنّةُ حَقٌّ وَالنّارُ حَقٌّ وَالنّبِيُّونَ حَقٌّ وَمُحَمّدٌ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ حَقٌّ وَالسّاعَةُ حَقٌّ اللّهُمّ لكَ أسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكّلْتُ وَإلَيْكَ أنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ وَإلَيْكَ حَاكَمْتُ فَاغْفِرْ لِي مَا قَدّمْتُ وَمَا أخّرْتُ وَمَا أسْرَرْتُ وَمَا أعْلَنْتُ أنْتَ الْمُقَدّمُ وَأنْتَ الْمُؤَخّرُ لا إلَهَ إلا أنْتَ أوْ لا إلَهَ غَيْرُكَ))

(صحيح البخاري)

هذا دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في صلاة التهجد.

عزيزي القارىء: أحد أكبر مهام الإنسان في الحياة الدنيا أن يعرف الله، ومن أبرز ما يقتضي أن تعرف الله به أن تعرف أسماءه الحسنى، واسم القيوم من أسماء الله الحسنى، وإذا تعمقت في اسم القيوم، تركت الخلق واتجهت إلى الحق، وارتاحت نفسك من القلق، ونجَوْتَ من الاضطراب.

٥٣- اسم الله الأول والآخر :

مع الاسم الثالث والخمسين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو: الأول والآخر، الأول والآخر اسمان من أسماء الله الحُسنى، كما ورد في الحديث الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أجاز بعض العلماء ذكرهما معاً الأول والآخر.

وللعلماء في هذا الموضوع، رأي لطيف، هو أن من أسماء الله الحُسنى، ما لا يجوز إلا أن يُذكر الاسم وما يقابله معاً ينبغي أن تقول المعطي المانع، والرافع الخافض، والمُعز المذل، والنافع الضار، والقابض الباسط، لأن القبض للبسط، والضر للنفع، والإذلال للإعزاز، والأخذ للعطاء، يؤكد هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته:

((يا أيها الناس إن هذه الدنيا دار التواء لا دار استواء، ودار ترح لا دار فرح فمن عرفها لم يفرح لرخاء، ولم يحزن لبلاء، ألا وإن الله تعالى خلق الدنيا دار بلوى، والآخرة دار عقبى، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضا، فيأخذ ليعطي ويبتلي ليجزي، فاحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها واحذروا لذيذ عاجلها لكربة آجلها، ولا تسعوا في عمران دار قد قضى الله خرابها، ولا تواصلوها وقد أراد منكم اجتنابها فتكونوا لسخطه متعرضين ولعقوبته مستحقين.))

(رواه الديلمي عن ابن عمر)

يضر لينفع، يمنع ليعطي، يخفض ليرفع، يذل ليعز.

بعض العلماء أجاز أن يُذكر اسم الأول والآخر معاً، كالنافع والضار وجمع بينهما القشيري مضيفاً إليهما الظاهر والباطن، لنا أن نقول الأول والآخر والظاهر والباطن معاً، أربعة أسماء.

وكما هي العادة دائماً نبدأ بالمعنى اللغوي الدقيق من كلمة الأول ؛ فالمعنى الأول للأول: هو الذي يترتب عليه غيره، شيء يُبنى على شيء ونتيجة تؤسس على مقدمة، الشيء الذي يترتب عليه غيره، هذا المعنى الجامع، التفاصيل: الأول المتقدم زمانه، طبعاً، شعبان ثم رمضان رمضان ثم شوال، محرم ثم ذو القعدة، الأول هو الذي يأتي أولاً زماناً يعني التقدم زماناً.

المعنى الثاني ؛ التقدم رتبة، فلان الأول على طلاب الصف، فلان الأول في التجارة، فلان الأول في الصناعة، الأول في العلم، هذا التقدم تقدم رتبي ومنه قوله تعالى:

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤))

(سورة الرحمن)

لا يُعقل أن يُعلم الإنسان القرآن قبل أن يُخلق، هذا التقديم تقديم رتبي وليس تقديماً زمنياً.

المعنى الثالث، المتقدم مكاناً، أنت في الطريق إلى حلب، حمص قبل حماة، وحماة قبل حلب، فحمص أولاً وحماة ثانياً وحلب ثالثاً، إذاً هناك تقدم زمني وتقدم مكاني وتقدم رتبي.

المعنى الرابع التقدم في الترتيب، وهذا يُستخدم في الصناعة ترتيب المحرك أولاً، ربطه بالعجلات ثانياً، ربطه بالكهرباء ثالثاً، إذاً هناك أولوية في الزمان، أولوية في المكان، أولوية في الترتيب، أولوية في التربية، هذه المعاني الأربع مستفادة من معنى الأول.

أما إذا قلنا ؛ الله هو الأول فلهذا معنى آخر، معناه أن الله سبحانه وتعالى لم يسبقه في الوجود شيء، لكن لا ينبغي أن تقول: زماناً، لأن الزمن من خلق الله، لم يسبقه في الوجود شيء هذا هو الذي ينبغي أن نقوله في شرح معنى اسم الله الأول.

هناك معنى آخر متعلّق بالله عز وجل ؛ الأول هو الذي لا يحتاج إلى غيره كل شيء يحتاج إلى غيره ليس أولاً، هذه المنضدة تحتاج إلى خشب، إذاً ليست هي الأول، الخشب يحتاج إلى أن ينبت، إذا ليس هو الأول، النبات يحتاج إلى بذر، ليس هو الأول، البذر يحتاج إلى نبات يخرج منه، النبات ليس هو الأول، فكل شيء يحتاج إلى غيره ليس أولاً.

فالمعنى الثاني إذًا: هو الشيء الذي لا يحتاج إلى غيره، هذا معنى الأول بالنسبة لله عز وجل.

المعنى الثالث: الشيء المستغني بنفسه في وجوده، لو أن شيئاً يفتقر في استمرار وجوده إلى شيء آخر ليس أولاً، المادة الأولية سبب استمراره، مادام هناك شيء يعين على استمرار الوجود فهذا الشيء ليس أولاً المادة الأولية هي الأول، فثلاث معانٍ مستفادة من اسم الله العظيم الأول هو أنه لم يسبق وجوده شيء، والثاني لا يحتاج إلى غيره، والثالث المستغني بنفسه، فهذه الثلاثة تشكّل معنى الأول.

أعرابي التقى النبي عليه الصلاة والسلام، قال **أين كان الله قبل الخلق ؟** فأجاب النبي عليه الصلاة والسلام:

((كان الله ولم يكن معه شيء))

كان هنا فعل ماض تام، كان الجو صاحياً، ناقص، كان الحديد فلزاً، ناقص، كان الجليد ماءً، ناقص، أما كان الله تام، إذاً هذه كان التامة الكاملة التي تحتاج إلى فاعل، وتكون بمعنى وجد، أما كان الناقصة لا تعني حدوث عمل.

بالمناسبة، هذه الورقة، إذا مزقتها، هذا التمزيق حدوث عمل الفعل التام يدل على حدوث عمل، أما الفعل الناقص لا يدل على حدوث عمل يدل على زمن فقط، إذا قلت الجو صاح، هذا تركيب اسمي، إذا قلت كان الجو صاحياً، ماذا أضفت ؟ المضي فقط، كان الناقصة لا تفيد حدوث العمل، تفيد مضي الزمن فقط، الجو ممطر، كان الجو ممطراً البارحة، فكأن **"كان"** شدت هذا التركيب الاسمي إلى الماضي

شداً، أما إذا دلت على حدوث عمل أصبحت كان التامة إعرابها فعل ماض تام، تحتاج إلى فاعل مرفوع، كان الله، وجد الله لفظ الجلالة نائب فاعل، طبعاً في أدلة كثيرة في كتاب الله.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣))

(سورة الأنفال)

اتق الله حيثما كنت، **" حيثما وجدت "** وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن.

فأجاب النبي عليه الصلاة والسلام:

((كان الله ولا شيء معه))

فسأله الأعرابي والآن ؟ فرد النبي عليه الصلاة والسلام بقوله:

((هو الآن على ما كان عليه))

والحقيقة، هذا الاسم العظيم ورد في كتاب الله عز وجل في قوله تعالى:

(هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣))

(سورة الحديد)

من معاني هذا الاسم مهما أوغلت في النهاية تصل إلى الله، الله وراء كل شيء، سبب كل مسبب، هو الأول والآخر، أحياناً يقع حدث ما سببه ؟ سبب آخر مادي، فما سبب هذا السبب ؟ سبب آخر مادي، من مسبب الأسباب ؟ الله وهو الأول، إذا تحركت نحو الوراء بسلسلة يجب قطعاً أن تنتهي إلى الله، هو الأول.

إنسان حرك يديه، كيف حركها ؟ لأنه حي، من أعطاه الحياة ؟ الله جل جلاله، إذاً هو الأول.

حصل زلزال، من أحدث هذا الزلزال ؟ هذا الزلزال نتيجة اضطراب القشرة الأرضية، من جعلها تضطرب ؟ الله هو الأول. لذلك قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠))

(سورة الفتح)

بالمناسبة هذا المعنى له تطبيق رائع، الإنسان أحياناً، يُصاب بمصيبة ؛ فمن ضعف توحيده، أو لضيق أفقه، يصب جام غضبه على من جاءته هذه المصيبة على يديه، لو تعقّل، لو كان توحيده أقوى لرأى يد الله هي التي عملت في الخفاء، لرأى يد الله فوق أيديهم.

لذلك ربنا عز وجل قال:

(يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ(١٧))

(سورة لقمان)

أن تصبر على ما أصابك، فإن ذلك من عزم الأمور، هناك آية أخرى:

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ (٤٣))

(سورة الشورى)

هذه اللام هي لام المزحلقة، وهي لام التوكيد، فهنا في الآية توكيد، معنى

(وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ)

يعني قضاء وقدر جاء على يد إنسان، الإنسان أحياناً ينقم على هذا الإنسان الذي أجرى الله على يديه هذه المصيبة.

يعني لو فرضنا لا سمح الله ولا قدر، طفل وقع عن الشرفة، نزل ميتاً، الأب يتألم أشد الألم، وقد يتفطر قلبه، لكن يحقد على من ؟ يقول هذا قضاء وقدر، أما لو أن سائقاً دهس طفلاً، الأب في ساعة غفلة، في ساعة غضب شديد ولنقص في توحيده يصب كل نقمته على هذا السائق، إذا عرف أن الله هو الأول في كل حادث، هو المسبب، هو مسبب الأسباب، طبعاً يأخذ حقه لكن لا يحقد، لأن الحقد من لوازم الشرك.

هناك رجل يملك محلاً تجارياً، اختلف مع أحد موظفي المحل، هذا الموظف يعرف الدخائل والمخارج، فأبلغ بعض الجهات عن بضاعة غير نظامية، فضبطت المستودعات، وكلف بمبلغ كبير جداً، غرامة لهذه المخالفة الجمركية، فصاحب هذا المحل، بساعة من ساعات الغضب، أخرج مسدساً وأطلق النار على هذا الموظف فأرداه قتيلاً فأودع في السجن ثلاثين عاماً، لو كان موحداً لما رأى هذه المصيبة في هذا الشخص، قد رأى يد الله فوق يديه، وأن الله هو الأول، هو مُسبب الأسباب، ولعلّ الله عز وجل يعوضه عن خسارته، ولعل الخسارة وقعَت لذنب اقترفه.

الخلاصة أنّك إذا آمنت أن الله بيده كل شيء، هو الأول، لا تحقد على أحد، كما لو أن إنساناً تلقى ضربةً بعصا، فهل يحقد على العصا ؟ أم على الذي ضربه ؟ العصا لا تقدم ولا تؤخر، وينبغي أن تعلم أن الناس جميعاً، حتى الأقوياء، وحتى الأشرار إنما هم عصي بيد الله عز وجل، ألم يقل الله عز وجل:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنِّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

وهذه الآية لها معنى دقيق جداً، يعني إذا كانت مجموعة وحوش وحوش كاسرة مربوطة بأزمّةٍ بيد إنسان عظيم رحيم عادل منصف حكيم فأنت ينبغي أن تخاف من هذه الوحوش أم من الذي يملك ناصيتها ؟

المشكلة كلها في هذا المثل، فالكافر المشرك ضعيف الإيمان يخاف من الوحوش، والمؤمن يخاف من الذي يملك أزمّتها، فإذا اصطلح معه أبعدها عنه، أما إذا عصاه، أرخى لها أزمتها فوصلت إليه، هو الأول والآخر والظاهر والباطن.

هذه الآية في سورة الحديد:

(هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

(سورة الحديد رقم ٣)

وقد يمكن أن نرد هذه الآية إلى المعنى الأول:

(نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠))

(سورة الواقعة)

يعني لم يسبقنا في الوجود أحد، وما نحن بمسبوقين، كان الله ولم يكن معه شيء، وسيدنا الإمام علي كرم الله وجهه، مرةً سئل: **"متى كان الله ؟ فأجاب إجابة رائعة: ومتى لم يكن ".**

والعلماء يقولون: **" لا ينبغي أن تسأل أين الله، لأن الله خالق المكان ولا متى كان الله لأنه هو خالق الزمان، هو خالق المكان والزمان والمكان والزمان من خلقه ".**

الأول بكل ما سواه، المتقدم على كل ما عداه، كل ما سوى الله يأتي بعد الله، من دون الله، هو الأول، والمتقدم على كل ما عداه هذه الأولوية ليست بالمكان ولا بالزمان، ولا بأي شيء في حدود العقل أو العلم.

يقول بعض العلماء: **" الله سبحانه ظاهر باطن في كونه أولاً، هو الأول أظهر من كل ظاهر، لأن العقول تشهد أن المحدثات لها موجد متقدم عليها وهو سابق الوجود".**

فكونه تعالى أولاً واضح جداً من هذه الجهة، أنّ كل شيء حدث، كل شيء محدَث له محدِث كل شيء موجود له موجد، فمن بديهيات العقل، أن الموجد قبل الموجود، وأن المحدث قبل الحادث وأن الخالق قبل الخلق، وأن المدبر قبل المدَبر وأن الرازق قبل الرزق.

وهو الأول أبطن من كل باطن، لأنك إذا توغلت في الشيء وتوغلت فيه وتوغلت فيه إلخ...، تصل إلى الله، هو الأول أظهر من كل شي وهو الأول أبطن من أي شيء.

قال: كل ما أحاط به عقلك وعلمك فهو محدود بعقلك وعلمك فيكون متناهياً فمثلاً ؛ نجمة تبعد عنا أربع سنوات ضوئية، مسافة بعيدة جداً نحتاج لقطعها في مركبة أرضية إلى خمسين مليون عام، هناك نجم أبعد فنجد نجم القطب يبعد عنا أربعة آلاف سنة ضوئية، هناك نجم أبعد بعده أربع وعشرون ألف مليون سنة ضوئية، يا ترى هذه المجرة هي حدود الكون ؟ لا.. والشيء اللطيف أن هذه المجرة التي اكتشفت

حديثاً، والتي تبعد عنا أربعاً وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، كانت في هذا المكان الذي وصل إلينا منه ضوؤها قبل أربع وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، أين هي الآن ؟ لا يعلم إلا الله.

يعني كل شيء نرصده بالمراصد فالمكان غير حقيقي، مثلا مجرة كانت في مكان، وأطلقت شعاعاً، هذا الشعاع سار بسرعة ثلاثمائة ألف كيلو متر، وصل إلينا بعد أربع وعشرين ألف مليون سنة ضوئية، هذا النجم أين صار الآن ؟ هل تصدقون أن بعض المجرات سرعتها تقترب من سرعة الضوء، سرعتها مائتان وأربعون ألف كيلو متر في الثانية، الضوء سرعته ثلاثمئة ألف، فإذا كان هذا النجم تحرك بسرعة مئتين وأربعين ألف كيلو متر في الثانية، وكان بهذا المكان قبل أربع وعشرين ألف مليون سنة، فأين هو الآن ؟ أين حدود الكون ؟ مهما تخيلت الكون واتساعه، فهو عقلاً محدود، لماذا هو محدود لأنه من دون الله، حادث، والحادث متناه، أما الله عز وجل غير متناه.

هناك مشكلة هي اجتماعية ونفسية ودينية في آن واحد، الإنسان يشعر بما يسمى سعادة، أو يتوهم السعادة ما دام شاباً لأنه يتحرك نحو المجاهيل، يريد شهادة عليا، أخذ شهادة عليا، أحاط بعلومها واستوعبها ثمّ سئِم منها، بحث عن زوجة، تزوج، أنجب أولاداً، اشترى بيتاً، اشترى مركبة، دخله، أكل، تنزه فعل، ثم شعر بالملل، لماذا ؟ لأن النفس فطرها الله فطرةً عالية، فطرها على أن تسعى للانهائي، فإذا قنعت بالنهائي سئمت.

تجد حقيقةً أن الإنسان بعد الأربعين، يغلب عليه السأم أكل أكلات طيبة حتى شبع، تنزه، وساح بالعالم، فلم يعد لديه شيء جديد، كله مكرر، صباحاً جلست للطعام ففوجئت بطعام لم تره من قبل وبطعام ما عرفته سابقاً، وفي اليوم التالي كأس شاي، قطعة جبن، وبيض، وفي آخر فول ومن بعده حمص، وبعد؟ فما هو الجديد في الطعام ؟ لم يعُد من جديد فهذه الخضر الموجودة، والطبخ، والفاكهة، والسرير سرير، والنوم نوم، والأكل أكل يعني حياة رتيبة تنتهي إلى سأمٍ فهذه النفس البشرية، بالأساس مصممة على أن تتجه إلى المطلق، فإذا قنعت بالمقيد فلن ترضى فهي أكبر من كل قيد لذلك تشعر بالسأم.

مثل بسيط: إنسان ذو طاقات كبيرة جداً، ضعه في مكان بلا عمل يتضجر ويتمزّق، طاقته كبيرة والعمل محدود، أما لما يلتجئ الإنسان إلى الله، يتبدّد السأم لأن الله مطلقٌ، لا نهائي، لذلك أنا أقول وأنا أصر على ما أقول، المؤمن لا يشيخ إطلاقاً، شاب دائماً، ما هو الشباب ؟ الشباب أن تكون أهدافك أكبر من حياتك، أن تكون أهدافك نبيلة تضيق بها حياتك، فأنت في شباب دائم، أما إذا كانت أهدافك كلها مادية، الأشياء المادية محدودة، أنت أكبر من المادة.

فلذلك منهومان لا يشبعان، طالب علم وطالب مال. لذلك إذا أردت ألا تشيخ وألا تهرم وأن تكون في شباب دائم فاتجه إلى الله، واجعل الله عز وجل مقصودك، ورضاه مطلوبك، اجعل هدفك الآخرة فأنت في شباب دائم ومتجدد.

حتى الناجحون في حياتهم حتى الأعلام المتألقون، في الصناعة في التجارة في العلوم في مراكز القوى أي إنسان متألق ما دام حيا فأهدافه المادية أصغر من طاقته الكبرى، فالإنسان الوحيد الذي يسعد طوال حياته هو إنسان اتجه إلى الله الله لا نهائي.

قال بعض العلماء: **" الأول في وصفه تعالى بمعنى القديم الأزلي لا ابتداء له "** وقيل: **" الأول بلا ابتداء الموجود بذاته قبل وجود مخلوقاته وكان الأول لأنه كان موجوداً ولا شيء معه"**، يعني مهما أوغلت في القدم، مثلاً نحن نعيش في القرن العشرين، توغل في القرن التاسع عشر، الثامن عشر، السابع عشر، السادس عشر، الخامس عشر، الرابع عشر القرن السابع الثالث الثاني الأول ما قبل التاريخ إلى نشوء العالم، أين تصل ؟ إلى الله هو الأول، هو الذي أنشأ العالم، كان الله ولم يكن معه شيء.

تحرك نحو المستقبل، القرن الواحد والعشرين، عام ألفين و عام ثلاثة آلاف، عام خمسين ألف، فكان كما قال النبي:

((قَالَ أَبُو حَازِمٍ سَمِعْتُهُ مِنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ صَاحِبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَذِهِ مِنْ هَذِهِ أَوْ كَهَاتَيْنِ وَقَرَنَ بَيْنَ السَّبَّابَةِ وَالْوُسْطَى))

(صحيح البخاري)

لو انتهت الحياة الدنيا، ماذا بعد الحياة الدنيا ؟ الله، هو الأول والآخر، لو تحركت نحو الماضي الله هو الأول نحو المستقبل الله هو الآخر.

قال أما الآخر فهو الباقي سبحانه، معنى الآخر أي الباقي بعد فناء خلقه، كل من عليها فان، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

الإنسان العاقل يربط مصيره بمصير الأزلي الأبدي، الباقي الآخر أما لو ربط مصيره بأي شيء آخر هذا الشيء الآخر سيفنى.

قال العلماء: الآخر هو الباقي بعد فناء خلقه، يعني الإنسان يعيش ويتعلم يكسب المال، يسكن ويأكل ويتحرك ويسافر ووو... ثم تُكتب نعوته، ثم يُوضع في القبر وهو صندوق العمل.

قال بعضهم: الآخر الدائم بلا نهاية، عندنا قلق عميق، فالإنسان قد تكون حياته منتظمة، حقق نجاحات في حياته، هناك موت، هناك نهاية لهذا النجاح، لكن كل عصر له تجار وصناع وموظفين وأقوياء وأغنياء وأذكياء عاشوا ترفهوا أكلوا شربوا تمتعوا ثم طواهم الردى.

قف أمام سوق الحميدية، وعُدْ بذاكرتك إلى المحلات التي على الصفين قبل ستين عاماً فكل أصحاب هذه المحلات لم يكونوا في هذه المحلات قبل ستّين سنة، وبعد ستين عاماً في الأعم الأغلب هناك طقم

آخر من الناس في هذه المحلات، البيوت المتنزهات المدن الساحلية، كان فيها الرومان، قبلهم الآشوريون الآراميون، بعدهم العرب المسلمون، جاء الصليبيون، جاء المسلمون ما لانهاية، الله هو الآخر.

قال العلماء: من أدب المؤمن مع هذا الاسم الآخر، أن يُكثر من ذكر هذا الاسم حتى يتجلى لقلبه نور الظاهر، وأن يفر من دار الفناء إلى دار البقاء.

وقف أحد الشعر أمام إيوان كسرى، وله قصيدة في وصف هذا الإيواء، فأين مصير هذا الإنسان ؟ فاعلم إذًا:

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغر بطيب العيش إنسان

هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساءته أزمان

وهذه الدار لا تبقي على أحد ولا يدوم على حال لها شان

***

ورد في بعض الأدعية: إلهي أنت الآخر لك البقاء، وأنت الدائم والجموع هباء، فاجعل لنا قسطاً من نور اسمك الآخر، فيحيي به الظواهر والسرائر فلا نشهد إلا الباقي بالباقي، ولا نصل إلا إلى مقام العالي الراقي.

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى، له في اسم الأول والآخر، تعليقات لطيفة جداً.

تقول فلان أول من فلان، دائماً الأول فيه تفضيل، فلان أول بالنسبة إلى إنسان آخر، هذا المعدن أول رتبةً، الذهب قبل الحديد من حيث القيمة، دائماً أول فيه تقدما وعلوًا ومن كلمة أول له فضيلة، كان أولاً عليه، يعني سابقًا له.

يقول الإمام الغزالي: **" اعلم أن الأول يكون أولاً بالإضافة إلى شيء والآخر يكون آخراً بالإضافة إلى شيء، وهما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً جميعاً ".**

ليس من المعقول أن تكون هذه اليد قبل الكأس، هي يد واحدة، وتكون بعدها أيضًا فهذا شيء خلاف المنطق، شيء مضاف إلى شيء، وهذا الشيء نفسه مضاف إلى شيء آخر، إلى الشيء نفسه، الأول مضاف أول، والثاني مضاف آخر، هناك تناقض عقلي، حل هذا الإشكال بالشكل التالي ؛ قال هما متناقضان فلا يتصور أن يكون الشيء الواحد من وجه واحد بالإضافة إلى شيء واحد أولاً وآخراً، يعني هذا المسجد هناك في الجهة الشرقية شجرة، هي قبله، هي نفسها أيمكن أن تكون بعده ؟ متسحيل هذا يتناقض مع مبدأ الهوية بالمنطق ! شجرة واحدة أول وآخر لا يصح.

فما دام الأول يجب أن يضاف إلى شيء، والآخر يجب أن يضاف إلى شي فينبغي أن يكون هذا الشيء شيئين، الأول بالنسبة لكذا وآخر بالنسبة لذلك.

ممكن أن نقول هذا الكأس قبل الكتاب وهذا الشريط بعد الكتاب، أما هذا الكأس قبل الكتاب وقبل الشريط ممكن، فإذا إختلف المضاف إليه ممكن أن نجمع بين الأول والآخر، الكأس بعد الشريط وقبل الكتاب واحد، أما شيء واحد مضاف مرةً إضافة أولوية ومرة أخروية لمضاف إليه واحد هذا الشيء يرفضه العقل.

قالوا: إذا نظرت إلى تركيب الوجود ولاحظت سلسلة الموجودات المرتبة فالله تعالى بالإضافة إليها أول، إذا نظرت إلى الموجودات الله تعالى أول الموجودات، إذ الموجودات كلها استفادت الوجود منه، فالله أوجدها، فهو أول وأما هو فموجود لذاته، وما استفاد الوجود من غيره الله عز وجل وجوده ذاتي أما وجود الكون كله يستفاد من وجود الله عز وجل، فالوجود ليس ذاتياً، وجود معلول بالموجب أما الله عز وجل وجوده ذاتي، ومهما نظرت إلى تركيب السلوك.

فهناك أحداث ومسالك ولاحظت مراتب منازل السائرين، فهو آخر في نهاية المطاف تجد الله أمامك، إذا أضفنا إلى الموجودات فهو الأول أما إذا أضفنا إلى الحركة فهو الآخر، نهاية المطاف، نهاية السعي، نهاية الحياة، نهاية كل عمل الله جل جلاله.

إذ هو آخر ما يرتقي إليه العارفون، وكل معرفة تحصل قبل معرفته فهي مرقاة إلى معرفته، لذلك قالوا نهاية العلم التوحيد، مهما تعلمت مهما درست، نهاية النهاية التوحيد، وأعلى مرتبة علمية أن تعرف الله فهو آخر بالإضافة إلى السلوك، بالإضافة إلى الموجودات فهو أول منه المبدأ أولاً وإليه المرجع والمصير آخراً.

هذا المعنى له علاقة بحياتنا، والإنسان فيهما، سافر وتاجر وجمع مالاً، أسس أعمالاً، ونجح، وتألق مصيره إلى الله:

(إنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥))

(سورة الغاشية)

إذهب أين شئت:

(وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللّهُ جَمِيعاً إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨))

(سورة البقرة)

هو الآخر، يجوز أن تركن لإنسان، تركن لجهة، تركن لجماعة تركن لمالك تركن لقوتك، في النهاية أنت مع الله، مصيرك إليه.

الإمام القشيري يقول: **" الأول في وصفه القديم الأزلي، الذي لا ابتداء له، والآخر في وصفه بمعنى لا انتهاء له، ولا انقضاء لوجوده هو الأول بإحسانه، والآخر بغفرانه، الأول بالهداية، والآخر بالرعاية ".**

الإمام الرازي يقول: **" الأول والآخر ؛ فذكر عدة عبارات منها: الأول بلا ابتداء والآخر بلا انتهاء، الأول لعرفان القلوب، والآخر لستر العيوب، الأول قبل كل شيء، والآخر بعد كل شيء، الأول قبل كل شيء بالقدم والأزلية، والآخر بعد كل شيء بالأبدية والسرمدية، الأول مبدي كل أول، والآخر مؤخر كل آخر، الأول بالوجود والقدم، والآخر للتوجيه عن الفناء والعدم ".**

يعني أينما ذهبت أوغلت في القدم فهو الأول، وأينما سعيت وتحركت وطرت وغصت وسافرت وتخطيت فهو الآخر، الإنسان أين ومتى مات فمصيره إلى الله.

الأول بالخلق، والآخر للرزق، الأول بلا مطلع، والآخر بلا مقطع الأول هو الذي ابتدأ بالإحسان، والآخر هو الذي تفضل بجميل الإحسان الأول بالإسعاد الآخر بالإمداد، هذه كلها معان فرعية تستفاد من الأول والآخر.

أما أدب المؤمن مع الأول، أن يكون أول الناس سبقاً بالخير، كن أول الناس بمعرفة الله، كن أولهم بطاعته، كن أولهم بخدمة عباده وآخرهم تعلقاً بهم.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يدعو بهذه الكلمات:

((يا كائن قبل أن يكون شيء، المكون لكل شيء، والكائن بعد ما لا يكون شيء أسألك بلحظة من لحظاتك، لحظاتك الحافظات الغافرات الراجيات المنجيات))

لحظة من لحظات الله الحافظات الغافرات الراجيات والمنجيات، الإنسان يكون في مجتمعه ملء السمع والبصر ثم بلحظة واحدة يصبح خبراً.

أيها الإخوة القراء الكرام، عود على بدء، ينبغي أن نذكر بعض أسماء الله الحُسنى مثنى مثنى، الأول والآخر، والظاهر والباطن، والمعز والمذل، والمعطي والمانع، والرافع والخافض، والنافع والضار والقابض والباسط، لأن الاسم السلبي، هو من أجل الإيجابي.

أحياناً الله عز وجل يفقر ليغني، يُذِلُّ ليتوب المرء من ذنوبه ثم يعزه أعلى أنواع العز، يفقره ليغنيه، يحجبه ليقربه، أحياناً يهينه ليعلي مقامه الإنسان المؤمن صابر على قضاء الله وقدره، وهو يعتقد اعتقاداً جازماً أن كل شيء في الحقيقة خير، لذلك قال تعالى:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧))

(سورة الأنعام)

دققوا في كلمتي، إن يمسسك وإن يردْك، ما الفرق بينهما.

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ)

لماذا جاء مع الخير الإرادة، ومع الشر الإمساس،، لأن الله عز وجل لا يريد إلا الخير، فإذا أنزل ضراً بإنسان فهذا الضر ليس مراده ولكنه لا بد منه أحياناً الابن غال جداً على والده، لكن في بعض الحالات النادرة يجد أنه لابد من تأديب هذا الغلام فيضربه وربما يتألم الأب أشد من تألم الابن بالضرب، لكن لا بد منه، فالضرب ليس مقصوداً، المقصود التربية، الضر ليس مراداً، لكنه لا بد منه.

مركبة صنعت فمن أجل ماذا صنعت ؟ من أجل إن تسير، أليس فيها مكابح ؟ المكابح تتناقض مع الهدف من صناعتها، صنعت لتسير وفيها مكابح ! لكن المكابح ضرورية لسلامتها، الإنسان خلق ليسعد، لكن المصائب والآلام كالمكابح تماماً ضرورية لسلامته قال تعالى:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧))

(سورة الشورى)

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١))

(سورة السجدة)

لو أدرك الإنسان أن كل شيء يبدو له شراً هو خير مبطن وأن وراءه هدف كبير لذابت نفسه محبةً لله عز وجل، لذلك كان عليه الصلاة والسلام إذا جاءت الأمور على ما يريد، قال الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا جاءت على خلاف ما يريد قال الحمد لله على كل حال، ودائماً حسن الظن بالله، ولنحسن الظن بالله ثمن الجنة.

٥٤- اسم الله الظاهر والباطن :

مع الاسم الرابع والخمسين من أسماء الله الحُسنى، ومع الاسمين المجتمعين الظاهر والباطن وقد كان موضوع البحث السابق: الأول والآخر وهما اسمان مجتمعان أيضًا.

الظاهر والباطن اسمان من أسماء الله الحسنى، والظاهر في اللغة من الظهور، وهو بدوٌ الشيء الخفي، شيء خفي ظهر يُقال له ظاهر والظاهر أيضًا هو الغالب.

المعنى الأول من فعل: بدا أي ظهر، والمعنى الثاني الغالب من فعل غَلَب يغلب، قال تعالى:

(فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ (١٤))

(سورة الصف)

أي أصبحوا غالبين والظاهر كذلك هو: الشيء الخارجي خلاف الباطن: الشيء الداخلي، نحن في مجال المعاني اللغوية الآن، والظهر: الركاب التي تحمل الأثقال على ظهورها، فلان عنده ظهر ؛ أي عنده دابة يحمل عليها، والظهير هو القوي، وفي الحديث:

((ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن))

الظهر لفظ الآية، والبطن تأويلها، هذه هي المعاني المتعددة التي يمكن أن تُستفاد من كلمة الظاهر. لكنّ الظاهر، اسم من أسماء الله الحُسنى، فيقول العلماء أن يكون غالباً لخَلقه، الله جل جلاله هو الغالب، هو القاهر، هو الفعّال لما يُريد، أمره هو النافذ، مشيئته هي المتحكمة، هو المهيمن، هو المسيطر، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، كل هذه المعاني مستفادة من كلمة ظاهر، ظهر على خلقه أي غلبهم، أمره هو النافذ بالقرآن الكريم آيات تؤكد هذا المعنى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٤))

(سورة العنكبوت)

يعني: هل يمكن من الكافر أن يفعل شيئاً لم يرده الله ؟ لا يستطيع لأن الله هو الظاهر، هو الغالب، الكافر هل يستطيع أن يتفلت من قبضة الله ؟ لا يستطيع، لأن الله هو الظاهر، فإذا قلنا الله ظاهر بمعنى أنه غالب، مهيمن، مسيطر، أمره نافذ، فعال لما يريد، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقد ورد هذا المعنى في قصة سيدنا يوسف عليه السلام، حينما وردت آية تشير إلى مغزى القصة، قال سبحانه:

(وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١))

(سورة يوسف)

فالإنسان قد يكون في دائرة لها مدير عام ولها معاون مدير، ولها موظفون ومكتب فني، ومكتب علاقات عامة فمن هو الرجل القوي في هذه الدائرة ؟ فيها واحد أمره هو النافذ وهو المدير العام، كذلك الله عز وجل -ولله المثل الأعلى- أمره وحده هو النافذ في الكون.

فمن طبيعتنا، إن وُجد في مكان، في تجمع، في دائرة، في مستشفى في معمل، رجلٌ هو القوي، هو المسيطر، أمره هو النافذ، الأنظار تتجه إليه، فالصفقات تُعقد معه، والقربات تُقدم إليه، لأنه لا يعنينا أي إنسان آخر لا يملك أن يفعل شيئاً، فكلمة الظاهر تعني الغالب المهيمن المسيطر، الفعال لما يريد، الذي تنفذ مشيئته، الذي لا يستطيع الكافر أن يتفلت من قبضته.

المعنى الثاني للظاهر: هو العالم بما ظهر، ظهرتُ على سره أي اطلعت على سره، الله عز وجل إضافة إلى قوته، وسيطرته وقدرته، وهيمنته، هو عليم بكل شيء، يتعلق علمه بكل ممكن، لذلك هو عالم بما ظهر.

الحقيقة أن الإنسان إن لم تكن لديه معلومات فهو ضعيف، يعني أحد أسباب القوة هي المعلومات الصحيحة، فلذلك الله عز وجل غالب بقوته مطلع بعلمه، ظاهر.

والمعنى الثالث لكلمة الظاهر: هو أن الله لكثرة البراهين الدالة عليه ولكثرة الدلائل التي تشير إليه ظاهر.. قيل يا إمام متى كان الله ؟ فقال الإمام علي، ومتى لم يكن ؟..

يعني الله عز وجل كل شيء يدل عليه، فأنتم أيها الإخوة القراء تلاحظون أن الهواء الذي نتنفسه لو قطع عنا لفقدنا حياتنا، ومع ذلك لا نراه، هو معنا نعيش بسببه، ومع ذلك لا نشعر بوجوده، فلذلك قالوا شدة القرب حجاب، وقال بعض العلماء: **"الظاهر هو الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه، وقيل عُرف بطريق الاستدلال العقلي ".**

أحياناً الشيء قد تظهر عينه فتعرفه بحواسك الخمس، قد تغيب عينه وتبقى آثاره فتعرفه بعقلك، وعقلك يدلك على الشيء الذي خفيت عينه وبقيت آثاره، وكأنه أمامك.

فالعقل الذي أودعه الله في الإنسان، مع الكون الذي هو مظهر لوجود الله ولوحدانيته ولكماله، هذا العقل إذا أُعمل في الكون بدا الله جل جلاله للعقول، طبعاً لا يبدو للأبصار لقوله تعالى:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣))

(سورة الأنعام)

ولكن الله جل جلاله بدا للعقول بشكل جلي.

وأحياناً كما تعلمون تقع قصة يتناقلها الناس، أحداث هذه القصة تشير إلى وجود الله، أحياناً يشعر الناس جميعاً أن هذا الشيء الذي حصل هو من فعل الله، يقولون إعجاباً أو تعظيماً لما حدث: **" الله كبير "** هناك أفعال لله عز وجل يفعلها دلالتها واضحة جداً، الناس على اختلاف أشكالهم وألوانهم ومشاربهم وانتماءاتهم وثقافاتهم، يشيرون إلى أن هذا فعل الله عز وجل.

وأحياناً لحكمة أرادها الله يظهر الأقوياء وكأنهم يفعلون ما يريدون، في هذا امتحان وفي ذاك امتحان، إذا ظهرت أفعال الله جلية واضحة للناس فهذا شيء يُطمَئن النفوس، وشيء يُثبّتُ الإيمان في القلوب

وأحياناً يبدو لنا أن زيداً أو عبيداً يفعل ما يريد، وكأنه يتصرف وحده، أيضاً هذا امتحان آخر، هذا امتحان لضعاف الإيمان، أحياناً يضعف إيمانهم فيقولون أين الله وأحيانًا تقع بعض أفعال الله عز وجل صارخة جليةً.

فمثلا مركبة فضائية أُتقنت إتقاناً خيالياً، أُمليَ عليها العد التنازلي مرات عديدة، سميت المتحدي، أطلقت بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب، العالم كله مؤمنهُ وكافره يشعر أن هذا فعل الله.

باخرة صُنعت في عام ألف وتسعمائة واثني عشر، وكتب عنها أن هذه الباخرة لا يستطيع القدر إغراقها، لأنها صنعت من طبقتين وهناك أبواب عرضية، فأي خلل أصاب جدارها الخارجي، فإقفال الأبواب الداخلية، يمنع تسرب الماء إليها، وضع في هذه الباخرة أجمل ما في العالم من أثاث ومن طنافس ومن ثريات ومن مسابح ومن مطاعم ومن ملاعب ومن مقاصف، ومن غرف من الدرجة الممتازة وركِب في هذه الباخرة أغنياء أوربا، رجال أوربا الأغنياء الأثرياء ونساؤهم، اتجهت في أول رحلة لها فيما أذكر من بريطانيا إلى بوسطن، وفي أول رحلة من رحلاتها ارتطمت بجبل ثلجي في عرض المحيط فغرقت وإنشطرت شطرين، وقبل سنتين فيما أذكر عُثر عليها في أعماق المحيط، لأن القدر لا يستطيع إغراقها حسب ما يدّعون، أغرقها الله تعالى من أول رحلة.

أحياناً الإنسان يشعر أن فعل الله ظاهر، وأحياناً لحِكمة يريدها الله عز وجل يبدو فعل البشر أنه هو الحقيقة وأن الإنسان هو الفعّال، لكن الله سبحانه وتعالى هو الفعّال دائماً هذا ما يراه المؤمن، لكن ضعاف الإيمان إذا بدت قدرة الله صارخة يكتفون بأن يقولوا سبحان الله، وإذا بدت قدرة البشر خارقة يتزلزلون وينكمشون ويضعفون، لكن الحقيقة أنّ الظاهر هو الله جل جلاله الغالب على أمر الخلق.

الظاهر العليم بما بطن، والظاهر هو الذي ظهر فوق كل شيء وعلا عليه، وقيل عُرف بطريق الاستدلال العقلي مما ظهر لهم من آثار أفعاله وأوصافه.

يعني لو فرضنا مكواة كهربائية، وُضع شريطها في المأخذ الكهربائي فلم تسخن، الاحتمالات بالفكر ؛ ليس هناك كهرباء في البيت نظرتَ فإذا المصباح متألق فالمعنى أنّ تيار الكهرباء متّصل، تساءلتْ يا ترى في المأخذ عطل ؟ جئت بآلة أخرى وضعتها في المأخذ فعملت هذه الآلة، فمن أين الخلل من المكواة جئت بشريط آخر وصلته بالمأخذ فعملت، أين الخلل حصراً في الشريط.

الفكر نفى انقطاع التيار عن البيت لوجود مصابيح متألقة، نفى أن يكون الخلل في المأخذ لاستعماله في آلة أخرى، نفى أن يكون الخلل بالمكواة لأنه عَملت بشريط آخر، إذاً الخلل محصور في الشريط، هذه محاكمة عقلية إلا أنه كأنك ترى هذا الحادث رأي العين، لشدة المنطقية والنتيجة الحتمية وكأن هذا الشيء ظاهر.

فالله سبحانه وتعالى بمحاكمة بسيطة تُوقِن أن الله موجود، أحياناً يفتح الإنسان آلة يرى فيها توصيلات، وصمّامات، ولوحات توصيل. العقل لا يتصور دقتها، يعني لو قطعوا الإنسان المنطقي إرباً إرباً هل يصدق أن هذه الآلة صُنعت وحدها ؟..

قاموس لاروس من أضخم المعاجم في العالم موجود في مطبعة فيها حروف إفرنسية، فلو جئت بمتفجرة وفجرت المطبعة هل يعقل أن ينتج من تفجير هذه المطبعة قاموس لاروس ؟ المواد اللغوية مرتبة وفق الترتيب الأبجدي، ثم ضمن المادة الواحدة فروع المادة مرتبة وفق الترتيب الأبجدي، ثم ضمن الفرع الواحد الفعل الثلاثي فالرباعي فالمجرد فالمزيد المصدر الاسم اسم الفاعل اسم المفعول لو كان باللغة العربية مثلا.

بصراحة القول لو أنّ مطبعة بالحروف العربية وهي من أدق المطابع جئنا لها بورق وجئنا بحروف وجئنا بحبر وجئنا بمتفجرة وفجرنا المطبعة، هل يُعقل أن ينتج عن هذا الانفجار معجم المورد مثلاً، معجم القاموس المحيط، مختار الصحاح المواد مرتبة وفق أوائل الحروف كل الكلمات أُرجعت إلى الأصل الثلاثي المجرد ثم رُتِّبت، ثم بُدئ بالفعل الماضي فالمضارع فالأمر، فالمصادر كلها السماعية والقياسية، ثم المشتقات بدأت باسم الفاعل، اسم المفعول، اسم المكان، اسم الزمان، اسم الآلة، الصيغة المشبهة باسم الفاعل ثم الأمثلة من كتاب الله، من السنة، من الشعر، هل بمَقدور الانفجار أن يفعل هذا ؟

ففي الخلق والكون أدق من ذلك بكثير، ولا من تفصيل فبالعين مائة وثلاثين مليون عصية ومخروط، والعصب البصري مؤلف من تسعمائة ألف عصب، لكل عصب ثلاثة أعمدة، وبالدماغ مائة وأربعين مليار خلية سمراء لم تُعرف وظيفتها بعد، وبالمعدة خمسة وثلاثون مليون غدة هاضمة، والأمعاء الدقيقة تتجدد كل ثمان وأربعين ساعة، والقلب يضخ في اليوم ثمانية أمتار مكعبة بدَسّامات وشرايين وأوردة، والغدة النخامية لا يتجاوَز وزنها نصف غرام تعطي اثني عشر أمراً هرمونياً، مسيطرة على كل غدد الجسم هذه وحدها، ماذا فعل الأب ؟ وضع الماء في رحم الأم وانتهى الأمر، من صنع هذا الحُوين وتلك البويضة، كيف انقسمت، كيف تشكلت الأجهزة ؟، محاكمة بسيطة جداً ترى الله وراء كل شيء، من أودع في هذا الإنسان الطباع ؟ من أودع فيه حسّ الجوع ؟ وحس الشبع ؟ الرغبة إلى الطرف الآخر مَن ؟ هذا معنى اسم الظاهر، يعني يُعرف وكأنه ظاهر بالاستدلال العقلي، يعرف معرفة يقينية وكأنه ظاهر.

العوام لهم كلمة لطيفة، يقولون لك، الله عز وجل **" لم يُر بالعين ولكن بالعقول عُرف"**، بالعقل نرى الله عز وجل.

وقيل: هو الظاهر وجوده لكثرة دلائله، وهو البادي بالأدلة عليه فلا يمكن أن يجحده جاحد، لذلك يوم القيامة يقسم الذين جحدوه وأنكروا وجوده: أنّهم ما أشركوا، ولا كفروا، ولا جحدوا، اقرأ قوله تعالى:

(ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣) انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ(٢٤))

(سورة الأنعام)

موضوع الجحود، جحود الله عز وجل، حالة مَرَضية شاذة نادرة عملية مكابَرة بالمحسوس، وهو الظاهر بحُجَجه الباهرة وبراهينه المنوعة، يعني الماء لو أنه على التبريد ينكمش شأنه شأن أي عنصر لما كانت حياة على الأرض، ولانعدمَت الحياة نهائيًا

قال العلماء: لقد خلق الله كل الكائنات لتظهر آثار قدرته فيها، وهو سبحانه وتعالى ظاهر عليها من جميع الجهات، يقال إن هذه المشكلة لم نستطع أن نسيطر عليها، فالثقب في طبقة الأوزون حتى الآن لم يستطع البشر أن يسيطروا عليها، فيروس الإيدز حتى الآن البشر جميعاً، الدول العظمى بإمكاناتها المالية المذهلة، بعلمائها بمخابرها، ببحوثها، كل هذه الدول تقف مكتوفة اليدين أمام أضعف فيروس عُرف على وجه الأرض، لم نستطع أن نسيطر عليه، ولو تمكنوا من أن يسيطروا عليه لكلّف علاج المريض الواحد أكثر من عشرة ملايين ليرة، لأن هذا الفيروس يحير، يغير شكله، يظهر وكأنه كرية بيضاء، عناصر الدفاع في الجسم تأنس به وكأنه واحد منها، فإذا دخل إليها دمرها جميعاً وهو أضعف خلق الله.

لذلك من أدق الكلمات وأوضحها أن يقال: الكون كله بما فيه ومن فيه مظهر لمظاهر أسمائه وصفاته وعلاماته، كل الكون يدل على الله، أبداً، كل الكون بمجراته، بالسماوات بالأرض بالنبات بالحيوان بالأطيار بالأسماك بالإنسان، بالطعام بالشراب، لذلك أكبر وظيفة للكون أن تتعرف إلى الله من خلاله، ولو لم تستفد منه، لكن الذي استفاد من هذا الكون ولم يتعرف إلى الله من خلاله ما حقق الهدف من وجوده.

وقيل في الاسم الظاهر: **" هو المتجلي بأنوار هدايته وآياته، المتنزه بمعاني أسمائه وصفاته "..** هدايته واضحة، وآياته واضحة، أما أسماؤه وصفاته فالعقول تعجز عن إدراكها، فهو ظاهر بهدايته وآياته، باطن بأسمائه وصفاته.. مهما تحدثت عن أسماء الله الحُسنى، لا يعرف اللهُ إلا اللهُ، ولا الأنبياء، ولا سيد الأنبياء لا يستطيع أن يحيط بالله، أعلى معرفة على الإطلاق معرفة النبي، ألا إنها معرفة ولكنها ليسَت المعرفة المطلقة.. سبحانك لا نحصي ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك.. فالظاهر هدايته وآياته، والباطن أسماؤه وصفاته.

قال العلماء: لا ترى ذرة في الوجود إلا وهي ناطقة بوحدانية المعبود، ولا ترى فاضلاً متخلقاً بصفات الرجال إلا وتشهد عليه أنوار صفات الكبير المتعال.. كل الخير من الله، كل الكمال من الله، كل الأعمال الصالحة بتوفيق الله، بإلهام الله، مصدر الكمال في الكون هو الظاهر.

قالوا: الظاهر لا يخفى على كل متأمل، أيُّ إنسان أراد الحقيقة فالله يظهر له.

قالوا: هو الظاهر فلا يخفى على كل متأمل، الظاهر لعيون الأرواح والكون مملوء بالجمال محلى بالكمال، وكل شيء فيه ينادي أشهد أن خلاقي ذو الجلال.. ظاهر.

العقبة أن تطلب معرفته فقط، أن تريد أن تصل إليه أن ينشأ في قلبك رغبة صادقة للوصول إليه هو ظاهر، لكن حب الدنيا يَعمي ويصم، الشهوات حُجُب، أما إذا أزيحت الشهوات فهو ظاهر.. صدقوني أيها الإخوة القراء الناس جميعاً وفي حالات كثيرة يرون أفعال الله صارخة كالشمس في رابعة النهار، لأنه ظاهر.

فمثلا مرة هبّت رياح عاتية على منطقة زراعية فدمرت ما يزيد عن مائة بيت زراعي، الناس جميعاً فيها على اختلاف مللهم ونحلهم ومشاربهم بفطرتهم، فالسيئ هو الذي دُمر بيته، والمستقيم هو الذي حفظه الله عز وجل، وكأن هذه الرياح مسيّرة، من أغرب الصدف أن بيتين متلاصقين، يعني جسم البيتين متصل، لأخوين من أم وأب، الأول صالح والثاني طالح، جاءت الرياح العاتية فقلعت بيت الطالح، وقلعت معه النباتات المحيطة به، والبيت الملاصق له نجا من الدمار.. فعل الله ظاهر.

أحياناً ترى أرضَين متجاورتين، الأولى قمحها نام نماءً رائعاً والثانية قمحها هزيل النماء، والتربة واحدة والنهر واحد، والزراعة فيها بشروط موحدة، ولكن هذا ينوي أن يعطي أولاد أخيه الأيتام من محصوله، فبارك الله له في محصوله، وهذا في نيته أن يأكل على صاحب الأرض بعض الغلة فدمر الله غلته، لأنه كما تروي القصة هناك علاقة سيئة بينه وبين من معه. فعل الله ظاهر.. محاكمة بسيطة تشعرك أن الله عز وجل ظاهر كأنك تراه، لذلك اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك.

قال العلماء: وأما الباطن، فهو المحتجب عن عيون خلقه، عن هذه العين فقط لشدة ظهوره قال تعالى:

(وَلَمّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقاتِنَا وَكَلّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرّ مُوسَى صَعِقاً فَلَمّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوّلُ الْمُؤْمِنِينَ (١٤٣))

(سورة الأعراف)

الباطن محجوب عن عين الرأس، ظاهر لعين القلب.

بعض العلماء يقول: **" إنه باطن من حيث إن كُنْه حقيقته غير معلوم للخلق "**، يعني لا يستطيع الخلق مجتمعين أن يصلوا إلى كُنه حقيقته، هو باطن، لذلك قال بعض علماء التوحيد: **" عين العلم به عين الجهل به وعين الجهل به عين العلم به ".**

يعني إذا سُئلت عن ذات الله، فإذا قلت لا أدري فأنت العالم، وإن قلت أدري فأنت لا تعلم، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥))

(سورة البقرة٢٥٥)

هذا معنى الباطن، كنه حقيقته محجوبة عن الخلق.

معنى آخر ؛ باطن أي أن الأبصار لا تحيط به، كما قال تعالى: لا تدركه الأبصار.

المعنى الرابع ؛ باطن بأنه يعلم ما بطن، أنت كإنسان لك ما ظهر والله عز وجل يعلم ما ظهر وما بطن، والإنسان أحياناً يكون ممثلاً بارعاً، وقد ينطلي تمثيله على الأذكياء، هؤلاء الذين أتوا النبي صلى الله عليه وسلم وطلبوا منه سبعين داعية وعالماً ليُعَلّموا قومهم في بئر معونة، وأرسل النبي معهم سبعين صحابيًا ليُعلموهم، وفي الطريق ذبحوهم، بقي النبي شهراً أو شهرين يدعو عليهم في الصلاة، النبي لا يعلم الغيب، والنبي له الظاهر، لكن الله يعلم الظاهر والباطن.

فأنت إذا لم تعرف الباطن لست مؤاخذاً، أحد أصحاب رسول الله في إحدى المعارك، كان على وشك أن يقتل مشركاً، فقال أشهد أن لا إله إلا الله فقتله، فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم غضب غضباً شديداً قال:

((لِمَ فعلت هذا ؟ قال يا رسول الله قالها تُقية ولم يَقُلها إيماناً، فقال عليه الصلاة والسلام أشققت على صدره ؟ نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر))

هذا موقف الإنسان الحقيقي أنت لك الظاهر.

معنى الباطن: أنه محتجب عن عيون خلقه.

باطن: إدراك كنهه مستحيل، باطن: الأبصار لا تحيط به، باطن يعلم ما بطن.

المعنى الرابع: باطن بمعنى أنه حَجَب الكافر عن معرفته ورؤيته وحجب المؤمنين في الدنيا عن رؤيته.

شيء عظيم المنال، الشيء الثمين ليس في متناول الأيدي، الجوهرة الثمينة موضوعة في صندوق محكم الإغلاق، فالله عز وجل باطن يعني عزيز، فالإنسان إذا لم يطلبه، ولم يطعه، وما جهد من أجل معرفته فلا يصل إلى شيء، الله عز وجل عزيز، سلعة الله غالية، هناك أشياء مبتذلة، كل إنسان يشتري قصة ويقرؤها، لكن ليس كل إنسان بإمكانه أن يصير دكتوراً، يحتاج إلى أكثر من عشرين سنة دراسة، أما أن يشتري قصة فممكن، أن يقيم حفلاً ممكن، وأن يشتري بيتًا ممكن، وأن يقوم بنزهة ممكن، هذا شيء مبتذل، لكن ليس كل إنسان يمكنه أن ينال دكتوراه ؟ فهذا يحتاج إلى جهد كبير.

وقيل: الباطن في حقيقة ذاته، فلا تدركها العقول أي حقيقة ذاته، ومع شدة ظهوره احتجب عن إدراك الحواس، وقيل تنزه في علو كبريائه فلا تحيط به بصائر المقربين الأطهار، وهو الظاهر بأسمائه وصفاته وأنوار آياته والباطن في حقيقة ذاته عن جميع مخلوقاته.

نحن في البحث السابق تحدثت عن الأول والآخر، وفي هذا البحث عن الظاهر والباطن، وليثق القارىء الكريم أن دراسة أسماء الله الحُسنى لا يعلو عليها شيء في الدين، إنك في أشرف مهمة وهي أن تعرف الله عز وجل لا يكفي أن تقول: **" الله خلق السماوات والأرض "** هذه معرفة بدائية يعرفها كل الخلق، ينبغي أن تعرف أسماءَه الحُسنى، وأذكركم دائماً بالحديث الشريف:

((عَنْ أبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللّه عَنْه أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ إنّ لِلّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إلا وَاحِدًا مَنْ أحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنّةَ))

(صحيح البخاري)

الإحصاء شيء والعد شيء آخر، الإحصاء فيه دراسة، أما العد عمل آلي، فمن قال: **" هو الخالق البارئ المصور وعدّها بنغم ممتع"** ليس كمن أحصاها، فمن أحصاها فقد قصَد مجالس العلم أو قرأ كتبًا في معانيها وشروحها، أو عكف على التأمل فيها ليعرف الله عز وجل، ولاحظ الفكر والنظر في أرجاء الكون كلّه.

أكثر العلماء يرون وقد ذكرتُ هذا من قبل أنّه ينبغي أن نلفظ بالاسمين معاً، أن نقول الظاهر والباطن، وقد ورد الاسمان في القرآن الكريم معاً في سورة الحديد فقال تعالى:

(هُوَ الْأَوّلُ وَالْآخِرُ وَالظّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣))

(سورة الحديد)

وفي مفردات القرآن نجد أنّ الظاهر والباطن في صفات الله تعالى لا يُقالا إلا مزدوجين، كالأول والآخر، والظاهر قيل إشارة إلى معرفتنا البديهية بالله عز وجل، كل الناس في كل الأرض يقول لك ؛ الله، الله وفقه مثلاً أو ما وفقه. فقد يكون شخص عادي معرفته محدودة جداً، يرى شخصًا منحرفًا يتردّى فيقول: الله لم يوفقه، الله حطمه. فكلمة الله على كل لسان.

فقالوا: إشارة إلى معرفتنا البديهية، إن الفطرة تقتضي في كل ما نظر إليه الإنسان أنه تعالى موجود، المعرفة الفكرية تقتضي أنّ الله موجود وهذا الظاهر، وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله، لكن بعض العلماء قال: **" مثل طالب معرفته مثل من طوّف في الآفاق في طلبِ ما هو معه. ذهب إلى أقصى الدنيا شرقاً وغرباً يبحث عن شيء وهو معه "**، فالله عز وجل ظاهر أما كلمة الباطن فهي توجب معرفته الحقيقية.

يعني المعرفة الظاهرة قد لا ترتبط باستقامة، شأنه شأن الناس جميعاً وربما كلمة الله يقولها الإنسان في اليوم ألف مرة، **" الله يعطيك العافية "** مثلاً، كلمة الله تدور على كل لسان، إلا أنّ الباطن تعني معرفة الله المعرفة الحقيقية التي تحملك على طاعته.

فالحقيقة أيها القارىء الكريم، مقياسك الدقيق فيما إذا كانت معرفتك بالله صحيحة وجيدة أو لا، التطبيق العملي فالمعرفة التي تحمل صاحبها على طاعة الله، هي المعرفة الحقيقية.

سيدنا الصديق قال: **" العجز عن إدراك الإدراك إدراك "**، يعني أن تصل إلى معرفة حقيقة الله هذا شيء مستحيل، فعجزك عن الوصول إليها أحد أنواع الإدراك، يعني أحد علامات الإدراك أن تقول لا أدري، إذا كان الموضوع متعلقًا بذات الله عز وجل.

قيل: ظاهر بآياته باطن بذاته، كلام لطيف، جميل جداً، لهذا النبي قال:

((تفكروا في مخلوقات الله ولا تَتَفكّروا في ذاته فتهلكوا))

ظاهر لأنه محيط بالأشياء مدرك لها، باطن من أن يُحاط به.

يروى عن سيدنا علي كرم الله وجهه، أنه قال: **" تجلى الله لعباده من غير أن يروه، وأراهم نفسه من غير أن يتجلى لهم، ومعرفة ذلك تحتاج إلى فهم ثاقب "**.

أحياناً أراهم نفسه بعقولهم، أيُّ إنسان أعمَل عقله بالكون وصل إلى الله ببساطة، وأحياناً يتجلى على قلوبهم بالسكينة من غير أن يروه، يتجلى عليهم ولا يروه، ويرونه بعقولهم ولا يتجلى عليهم، هذا معنى الظاهر والباطن عند الإمام علي كرم الله وجهه.

يقول الإمام الغزالي: كما ذكرت في البحث السابق **لا يقبل العقل أن يكون الله ظاهراً مضافاً إلى شيء، وباطن مضافاً إلى الشيء نفسه**، فهذا الشيء نفسه مثلاً يكون أول هذا وآخر هذا مستحيل، هو إما أنه هنا وإما أنه هناك، فإذا قلت أول هذا وآخر هذا وهذا واحد فقد وقع تناقض، العقل مفطور على مبدأ الهوية عدم التناقض، فلا بد من أن يكون أول شيئًا وآخر شيئًا آخر، وأيضاً هنا في الظاهر والباطن، ظاهر بالنسبة إلى شيء باطن بالنسبة إلى شيء آخر.

يعني ظاهر للعقول باطن مستحيل أن تدركه الأبصار.

قال بعضهم الله تعالى باطن إن طلبته عن طريق الحواس، لكنه ظاهر إن طلبته عن طريق العقول والاستدلال، ظاهر وباطن

يقول الإمام القشيري: **" الظاهر في وصفه سبحانه وتعالى بمعنى القاهر "**، ظهر فلان على فلان أي قدر عليه وقهره، **"والباطن في وصفه عز وجل بمعنى العليم بخلقه المدبر لأحوالهم "**، الظاهر للعقول السليمة بآياته وبراهينه ودلائل توحيده، والباطن المتعزز على القوم المحتجب عنهم حتى أنكروا

وجودهم وجحدوه، ظاهر للعقول السليمة باطن متعزز عن القوم إن لم يدفعوا ثمن هذه الرؤيا.

قيل ظاهر بنعمته، باطن برحمته.

قيل ظاهر بالكفاية باطن بالغاية.

قيل ظاهر بالقدرة على كل شيء باطن عالم بحقيقة كل شيء.

قيل ظاهر لكل شيء بالدلائل اليقينية، الباطن عن مظاهر الجسمية، فسبحان من احتجب عن خلقه بنوره وخفي عليهم بشدة ظهوره.

هناك معنى لطيف جداً قال عنه العلماء، وهو أن قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

(سورة لقمان ٢٠)

الإنسان كثيرًا ما يتألم من المصيبة، وقد تكون المصيبة نعمة باطنة، النعمة الظاهرة ؛ المال، الصحة، الوجاهة، راحة البال، الأمن الطمأنينة، الزوجة الأولاد، هذه كلها نعم ظاهرة، ولكن هذه النعم الظاهرة لا ترقى بالإنسان، الحُزن خلاّق، أما الراحة مَثبّطة، الراحة والمورد والطعام والشراب وراحة البال، والأمن والطمأنينة، هذه لا تخلق عظماء.

فهناك كلمة رائعة جداً " **الحزن خلاق** " العبقريات أحياناً تتفجر بالأحزان، والهموم، فالله عز وجل له نعمتان.. ترى شخص في بحبوحة، كسول، بارد، مشاعره باردة، صلاته جوفاء، معرفته سطحية، اتصاله بالله شبه معدوم، صفاته غير مقبولة، تأتيه مصيبة مخيفة، يدعو الله، يلجأ إليه، يصلي قيام الليل يتوسل إليه، يبالغ في طاعته، يقدم صدقات، لولا هذه المصيبة ما تألق هذا التألق، لولا هذه المصيبة ما سعى إلى الله هذا السعي، لولا هذه المصيبة ما جدّ إلى الله هذا الجد، فهذه المصيبة نعمة باطنة. وكن مطمئنًا أيها القارىء الكريم، وأنا لا أبالغ إن شاء الله، أعتقد أن ثلثي رواد المساجد المصطلحين مع الله الذين أحبهم الله وأحبوه كان انطلاقهم إلى الله بسبب مصيبة ألمّت بهم فحملتهم على التوبة، فهذه نعم أم ليست نعماً ؟ بل نعم باطنة، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

احفظوا هذه الكلمة ؛ " **الحزن خلاق** " أحياناً ينشأ طفل يتيم، لا أب ولا مال، وله أخ قاس وضعه بعمل مرهق، وطالبه بدراسة متعبة والأستاذ من جهة يطالبه، وصاحب العمل من جهة أخرى والأب غير موجود والأخ يمنُّ بعطائه، فهذا الطفل قد يصبح عبقرياً.. وبالمقابل أنظر إلى ولد آخر، كل شيء موفر له، الأكل الشرب، ترى صفاته النفسية خسيسة جداً، لأنه ما ذاق طعم الفقر، ذاق طعم الغنى وحده، فلذلك أيها القراء الكرام ؛ الله جل جلاله قال:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

هذه الآية من أدق الآيات، وهي تبث الفرحة في قلب المؤمن يعني عليك ألا تتألم من المصيبة، لعل الفقر هو المنطلق إلى الله، لعل المرض هو سبب التوبة، لعل شبح هذه المصيبة سبب إقبالك على الله هذه نعمة باطنة، والله عز وجل إذا أراد أن يعالج الإنسان يعرف كيف يعالجه، يأتيه من مأمنه، يأتيه من مكان طمأنينته، من مكان قوته بل يأتيه من حيث لا يحتسب، لذلك:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَوَاتِ وَمَا فِي الأرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

فالظاهرة ما نقف عليها، والباطنة لا نعرفها، من هنا أشار قوله تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنّ اللّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨))

(سورة النحل)

النعم الظاهرة والباطنة لا تحصى.

قالوا: النعم الظاهرة النصر على الأعداء بالناس، والنعم الباطنة النصر على الأعداء بالخوف، فالله عز وجل أحيانا يسبغ عليك هيبة يخاف منك عدوك، أحياناً تكون قوياً فعلاً، فإما أن ينصرك بقوة ظاهرة وإما أن ينصرك بقوة باطنة.

وبعد فهذه كلمات واعية فالإنسان مظهر لاسم الظاهر، ومظهر لاسم الباطن فالإنسان بجسمه مظهر نور الظاهر، وبروحه مظهر نور الباطن.

ومتى أكثر العبد من ذكر اسم الباطن خشعت نفسه، وأدرك أنه عاجز بالكلية فيعطف عليه الحق، يعني كلما ذكرت اسم الباطن وافتقرت إليه عطف عليك الله عز وجل.

من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ سُهَيْلٍ قَالَ كَانَ أَبُو صَالِحٍ يَأْمُرُنَا إِذَا أَرَادَ أَحَدُنَا أَنْ يَنَامَ أَنْ يَضْطَجِعَ عَلَى شِقِّهِ الأَيْمَنِ ثُمّ يَقُولُ اللّهُمّ رَبّ السّمَوَاتِ وَرَبّ الأَرْضِ وَرَبّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ رَبّنَا وَرَبّ كُلّ شَيْءٍ فَالِقَ الْحَبِّ وَالنّوَى وَمُنْزِلَ التّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرّ كُلّ شَيْءٍ أَنْتَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ اللّهُمّ أَنْتَ الأَوّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الظّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ وَأَنْتَ الْبَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ اقْضِ عَنّا الدّيْنَ وَأَغْنِنَا مِنَ الْفَقْرِ))

(صحيح مسلم)

٥٥- اسم الله السميع :

مع الدرس الخامس والخمسين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم السميع، السميع بموجب ما ورد في الحديث الشريف، اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، والله سبحانه وتعالى سميع: أي متّصف بالسمع لجميع الموجودات.

الله عز وجل واجب الوجود ما سواه ممكن الوجود سميع لكل الموجودات، كل ما سواه يسمعه، دون حاسة كبني البشر دون آلة كبني البشر، هناك آلة تلتقط الأصوات، أو هناك حاسة تسمع الأصوات، الله جل جلاله، ليس كمثله شيء، وكل ما خطر ببالك فالله بخلاف ذلك، سميع من دون حاسة أو آلة، سميع لمن ؟ لكل الموجودات على الإطلاق.

يقول بعض العلماء: **" الله جل جلاله سميع ؛ أي لا يعزُب عن إدراكه مسموع وإن خفي"**، قد يكون صوتاً في النفس، قد يكون حديث النفس للنفس، قد يكون خاطرة تَردُ على الخاطر، قد يكون تساؤلاً يرد على الفكر، تساؤلاً خاطراً، أي شيء يخفى على الناس لا يخفى على الله فالله سبحانه وتعالى سميع لا يعزُب عن إدراكه مسموع وإن خفي، فهو السميع بغير جارحة لذلك وسع سمعه كل شيء.

بالمناسبة ؛ ربنا عز وجل حينما كان ينعى على المشركين أنهم يعبدون من دون الله أصناماً، كان يقول لهم:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

(سورة فاطر)

المعنى المخالف أنه من لوازم الإله الذي ينبغي أن تعبده أن يسمعك، من دون واسطة، أحياناً أنت تتكل على شخص مهم، إذا ناديته أجابك، إن سألته أعطاك، لك عنده مكانة كبيرة، لكنك أنت في بلدة وهو في بلدة، قال لك هذا رقم هاتفي، لو أن هذا الهاتف معطل ما استفدت شيئاً، تناديه فلا يسمعك، هو يحتاج إلى آلة ليسمعك بها، إذاً لا قيمة له، الإله الذي ينبغي أن تعبده، ينبغي أن يسمعك بلا آلة ولا حاسة، ينبغي أن يسمعك وأنت في أي مكان وفي آية حالة، ينبغي أن يسمعك إن جهرت وإن أسررت:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً (٣))

(سورة مريم)

حدثني أخ أنهى خدمته الإلزامية، وهو لا يملك درهماً واحد، بحث عن عمل فلم يجد، أعطته أخته قطعة حُلِي لها، فباعها واشترى بثمنها بطاقة طائرة، إلى بعض دول الخليج، وسافر إلى هناك، أقسم لي أنه وهو في الطائرة، وهو ساكت، حدث نفسه حديثاً نفسياً، قال في نفسه: والله لإن أكرمني الله بهذه

السفرة لأبنينّ لله مسجداً، أقسم بالله هذا الخاطر ما ذكره بلسانه.. أخذ الله بيده وعاد إلى بلده، وبنى مسجداً، وصليت أنا في هذا المسجد، قال: هذا المسجد استجابة لنداء خفي ما ذكرته بلساني:

(إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا)

أنت بإمكانك أن تنادي ربك، وأنت ساكت، وشفتاك ملتصقتان، ولا أحد يعلم بهذا النداء، هذا الإله الذي ينبغي أن تعبده، خواطرك مكشوفة دعاؤك مسموع طلبك ملبّىً، استغفارك مغفور، توبتك مقبولة.

سيدنا يونس أين نادى ربه ؟ في بطن الحوت، والحوت في عمق البحر وفي ظلمة الليل:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨))

(سورة الأنبياء)

يسمعك، وأنت في بيتك وأنت في عملك، وأنت في طائرة، وأنت على ظهر سفينة، وأنت في أعماق الوادي، وأنت في غابة وحولك وحوش كاسرة، وأنت في أي وضع يسمعك، إن نطقت وإن سكت، إن ناجيته بخواطرك، وإن ناجيته بلسانك هو سميع مجيب.

قال: هو السميع بغير جارحة، وقيل وسع سمعه كل شيء، هو الذي يسمع نداء المضطرين، هو الذي يجيب دعاء المحتاجين:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٦٢))

(سورة النمل)

هو الذي يجيب دعاء المحتاجين:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ قَالَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ يُمْهِلُ حَتَّى إِذَا ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ الْأَوَّلُ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَقُولُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ هَلْ مِنْ تَائِبٍ هَلْ مِنْ سَائِلٍ هَلْ مِنْ دَاعٍ حَتَّى يَنْفَجِرَ الْفَجْرُ))

(صحيح مسلم)

سميع، سميع في كل أحوالك:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣) وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢١٥) فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠))

(سورة الشعراء)

يراك ويسمعك ويعلم ما في نفسك.

إذا تكلمت يسمعك، إن تحركت يراك، يراك حين تقوم، إن وقفت وسكت يعلم ما في نفسك، سميع بصير عليم، لا تحتاج إلى طلب، ولا إلى يمين، ولا إلى وثيقة، ولا إلى شاهد، ألك عند الله حاجة ؟ هذا قول سيدنا جبريل لسيدنا إبراهيم، قال: منك ؟ قال لا من الله، قال: علمه بحالي يغني عن سؤالي.

إذا كنت في كل حال معي فعن حمل زادي أنا في غنى

***

طالب ذكر لي أنه يحضّر دكتوراه في بلد غربي، وأستاذه صعب جداً، واختار موضوعاً عويصاً، وأمضى فيه أربع سنوات، ثم وصل البحث إلى طريق مسدود، فإن لم يفلح في متابعة البحث، يجد بحثاً في الرياضيات، في الفضاء الخارجي، فإن لم يصل هذا البحث إلى معادلة متوازنة فالموضوع كله مرفوض، ومضى له به أربع سنوات، قال لي: ضاقت نفسي في الإقامة بهذا البلد، وحينما تصورت أني سأعيد أربعة سنوات أخرى كبرُ الأمر عليّ. فجأة خر لله ساجداً، وقال يا رب، إن كنت تعلم أنني حضرت إلى هذه البلاد لأكتسب علماً أنفع به المسلمين وقد حرَمْتُ نفسي كل المنهيات، ما من بيت في هذه البلاد ويخلو من هذه المُلهيات، حَرَمْتُ نفسي هذه الملهيات خجلاً من وجهك الكريم إن كنت عملتُ هذا العمل خالصاً لك فيسر لي هذا البحث، والله إنسان صادق هو الآن.

فالله عز وجل ألهمه طريقة جديدة في حل هذه المعادلة، بعد حين وصل بها إلى التوازن، قال لي وأنا بين الطلاب في مكتبة الجامعة، لم أملك نفسي إلا أن خررت على الأرض ساجداً شاكراً لله عز وجل، حصّل دكتوراه، والآن هو أستاذ في الجامعة عندنا.

إلهٌ يقول لك: أدعُني أستجب لك أنا أسمعك، أنت حينما تصلي ألا تقول سمع الله لمن حمده، يعني يا عبدي أنا أسمعك، فإذا قلت له ربنا لك الحمد والشكر والنعمة والرضى، ربنا لك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً بعدد خلقك، وهو يسمعك، الإله الذي ينبغي أن تعبده ينبغي أن يسمعك، لأنه أمَرَك أن تعبده، والعبادة دعاء، والدليل:

(وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنّ الّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنّمَ دَاخِرِينَ (٦٠))

(سورة غافر)

يعني الدعاء عبادة.

إذاً هو الذي يسمع نداء المضطرين، يجيب دعاء المحتاجين يعين الملهوفين، يسمع حمد الحامدين، يسمع دعاء الداعين، يسمع دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، يسمع خطرات القلوب، يسمع هواجس النفوس، يسمع مناجاة الضمائر.

الآن هناك نقطة دقيقة في الدرس حول اسم السميع، إنك كإنسان إن خاطبك واحداً وخاطبك آخر تقول له انتظر أنا إنسان واحد.. لكن خالق السماوات والأرض لو أن خمسة آلاف مليون إنسان الآن دعوه معاً لسمع دعاء كل واحد منهم.

قال العلماء: **" لا تمنعه إجابة دعاء شخص عن إجابة دعاء شخص آخر، لا يشغله سماع مخلوق عن سماع مخلوق آخر ".**

نحن إمكانيتنا محدودة، حتى إذا رجل تصور أنه هناك إنسان يستطيع أن يفعل أشياء عديدة في وقت واحد فهذا وهم، الإنسان في وقت واحد لا يستطيع إلا أن ينصرف إلى شيء واحد، ولكن الذي يبدو للناس من أن فلاناً يستمع ويتصل ويأمر وينهى في آن واحد، هذا عنده قدرة نادرة اسمها سرعة التنقل من جهة إلى جهة، أما الإنسان في وقت واحد لا يستطيع أن يستمع إلا إلى شيء واحد، إلا أن الله سبحانه وتعالى لا يشغله سماع دعاء عن دعاء، ولا إجابة دعاء عن دعاء ولو أن الخلق كلهم توجهوا إليه، يسمعهم جميعاً ويتوجه إليهم جميعاً، لكن الإنسان يتوهم أنه إذا ناجى ربه فربه لا يستمع إلا إليه، هذا خطأ لا يشغله دعاء عن دعاء ولا سماع دعاء عن دعاء ولا استجابة دعاء عن دعاء.

يسمع كل نجوى، ولا يخفى عليه شيء في الأرض والسماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.. خائنة الأعين، كيف ؟ أوضح مثل طبيب بإمكانه أن ينظر إلى جسد المرأة لعلة العلاج، فلو شطحت عينه إلى مكان آخر ولا يستطيع أحد في الأرض أن يكشف هذه المخالفة لكن الله وحده يكشفها، أنت جالس في غرفة النوم وفي غرفة مظلمة خرجت جارتك من الشرفة، من يستطيع أن يعرف أنك تنظر إليها أو لا تنظر هي لا تراك أساساً، أنت في غرفة مظلمة وهي في الشرفة يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، خاطر قد يخطر لك.

أحياناً إنسان يُجري عقد نكاح في بلد غربي وفق الشريعة الإسلامية تماماً، إيجابٌ، وقبول، ومهر وشاهدان، وعند القاضي، والأمر كله وفق قواعد الشرع، لكن في نفسه أنه بعد أن ينهي دراسته يطلقها، من يعلم ذلك، هل يستطيع القاضي أن يكشف هذه الحقيقة، ليس على نية التأبيد على نية التوقيت، الله يعلم خواطر الإنسان، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والإنسان لما يعرف أنه مكشوف أمام الله خواطره مكشوفة، مناجاة ضميره مكشوفة، نواياه البعيدة مكشوفة، خطراته مكشوفة، عندئذ يستحي من الله، لذلك هنيئاً لمن أضمر الخير لكل الخلق:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

(سورة الشعراء)

قال الإمام الرازي عن اسم السميع: **" إن الله سبحانه وتعالى يسمع دعوات عباده، ويسمع تضرعاتهم إليه، ولا يشغله نداء عن نداء، ولا يمنعه إجابة دعاء عن دعاء، وقيل السميع هو الذي يسمع دعوتك**

عند الاضطرار، ويكشف محنتك عند الافتقار، ويغفر زلتك عند الاستغفار وقبل معذرتك عند الاعتذار".

واحد خرج من المسجد، أناس يجمعون مالاً لبناء مسجد آخر، قال لي والله معي مبلغ محدود لا أملك غيره، مئتا ليرة، هممت أن أضعه ثم قلت لا لا أملك غيره، لعلني أحتاج إليه قال لي: وقع في نفسي خطاب من الله، يعني يا عبدي حينما كنت تنفق هل قطعناك عن المال قال فاستحييت وألقيت المائتين في مكان التبرع، قال والله ما مضى ساعة أو ساعات إلا وجاءني مبلغ لم يكن يخطر على بالي إطلاقاً، هو لما امتنع شعر أن الله علم بامتناعه، شعر أن هذه الخاطرة (أنا لا أملك غير هذا المبلغ فكيف أنفقه). بالمناسبة كي لا تعدُوها حكماً شرعياً. الإنسان ليس مكلفاً أن ينفق كل ما يملك، دائماً نحن عندنا حكم شرعي وعندنا مواقف شخصية، نقطة دقيقة جداً من الله عز وجل قال:

(وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥))

(سورة البقرة)

قال المفسرون لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة إن أنفقتم كل أموالكم، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة إن لم تنفقوا، فأنت هالِكٌ مرتين، هالكٌ إن أنفقت المال كله وهالِكٌ إن لم تنفق شيئاً، لكن هناك حالات خاصة ليست حكماً شرعياً إنما هي مواقف شخصية.

الإنسان أحياناً يتعامل مع الله بطريق المؤاثرة، بطريقة البذل بطريقة التضحية، والله عز وجل لا يخيب رجاءه ولا يمنع عنه عطاءه، فإذا ذكرت هذه القصة لا لأدعوكم إلى أن تنفقوا كل أموالكم لا لكن الإنسان يجد موقفاً في أمس الحاجة إلى أن ينفق، وهو لا يملك إلا مبلغاً محدوداً، فإذا أنفقه ليحل مشكلة أخيه، مشكلة عويصة قد تكون، لكن هذه الحالات الاستثنائية، الله عز وجل يهيئ تعويضاً جزيلاً لهذا الذي آثر أخاه، لأن الله عز وجل قال:

(وَالّذِينَ تَبَوّءُوا الدّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(٩))

(سورة الحشر)

السميع هو الذي أجاب دعوتك عند الاضطرار، وكشف محنتك عند الافتقار، وغفر زلتك عند الاستغفار، وقبل معذرتك عند الاعتذار ورحم ضعفك عند الذلة والانكسار.

وقيل: السميع هو الذي يسمع المناجاة ويقبل الطاعات ويُقيل العثرات.

الآن السميع صفة لله عز وجل، يكشف بها كمال موصوفاته الله عز وجل كامل، كمالاً مطلقاً، إذا وُجِد شخص أمامك، محترم شخصية، وسيم الوجه، جميل الصورة، طليق اللسان، كلما قلت له كلمتين قال: بالله ما سمعت ارفع صوتك.. ضَعُفَ سمعه أليس نقصاً في كماله.

الله جل جلاله من لوازم كمال صفاته أنه سميع، لذلك نكشف بسمعه تعالى كمال صفاته، هذه الصفة تكشف حقائق المسموعات، كل شيء يُسمع أولا يُسْمَع الله جل جلاله يسمعه، انكشافاً تاماً ليس بأذن ولا جارحة، الله عز وجل نكشف نحن بصفة سماعه كمال ذاته، ويكشف الله بسمعه حالات كل مخلوقاته.

مثلاً: مدير مدرسة، جالس في مكتبه بالإدارة، عنده ثلاثون شعبة وثلاثون مدرّساً، هل بإمكانه أن يستمع إلى كل مدرس ماذا يقول في هذه اللحظة، أحياناً يخرج من مكتبه ويدخل إلى أحد الصفوف، إذا دخل يسمع ما يقوله هذا المدرس.

لكن لو فرضنا مثلاً، مدير وضع لَوَاقِطَ بكُلِّ شُعبة، بحيث إنه إذا أراد أن يستمع إلى ما يقوله فلان في هذه الشعبة، ضغط مفتاحاً يخرج صوت المدرس، نقول إن هذا المدير معلوماته أدق ومسيطر سيطرة جيدة على المدرسة، لكن هو نفسه المدير لو استمع إلى شعبة وضغط مفتاحاً آخر يضيع، هناك مسجلات فيها جهاز مضاعف، هل تستطيع أن تضع في كل جهاز شريط وتستمع إلى الاثنين، لا تستطيع، إن استمعت إلى هذا شوش عليك هذا، وإن استمعت إلى هذا شوش عليك هذا، الله عز وجل يسمع جميع خلقه في وقت واحد، هذا من كمال صفاته.

العلماء قالوا: **" إن صفة السميع زائدة على العلم "**، كيف ؟ يعني من باب التوضيح فقط، ممكن أن تستمع إلى دقات قلب مريض، فإذا سمعت هذه الدقات علمت مقدارها وقوتها وشدتها، فأنت الآن تعلم حقيقة قلب هذا المريض، فالعلم واضح.

لو أن هذا المريض له لغة غير عربية، وتكلم عن قلبه، وسمعت ما قال، سماعك لهذه اللغة غير علمك في وضع قلبه، لو أن المريض حدثك بلغته عن قلبه، فإن لم تكن أنت سميعاً، عِلْمك شيء وسماعك لما قاله عن قلبه شيء آخر، فلذلك العلماء قالوا **"صفة السميع صفة زائدة على العلم "**، الله عز وجل عليم وسميع وبصير.

الله مُطلّع على قلب كل مخلوق، ولو أن هذا المخلوق دعا الله بلغة غريبة، إضافة إلى أن الله يعلم ما في قلبه، يسمع قوله في أي لغة.

إذا سافر إنسان إلى بلد يجهل لغة أهلها، تراه ضائعاً لا يفهم شيئاً الصحف بهذه اللغة، المجلات بهذه اللغة، الإذاعة بهذه اللغة، كلام الناس بهذه اللغة، بالمطعم بهذه اللغة، لا يفقه شيئاً، فالإنسان إذا لم يسمع أو لم يفهم ما سمع، يضعف مركزه "كالأطرش " فمن كمال صفات الله أنه سميع، وسمعه زائد عن علمه، علمه شيء وسمعه شيء آخر.

يعني إن الله عز وجل يدرك كل مسموع وإن خفي صوته، فهو سبحانه وتعالى يسمع سواء أكان السمع من قبيل الأصوات أو من قبل الألوان، كيف نفهمها هذه ؟

الإنسان يسمع الأصوات فقط، فإذا لم يوجد صوت لا يوجد سمع، الأذن تلتقط الموجات الصوتية، هذه الموجات تصيب غشاء الطبل بالاهتزاز هذا الاهتزاز ينتقل إلى الأذن الداخلية فيسمع الإنسان ثم يُدرك ما سمع أما لو أن الذي أمامك بقي ساكتاً هل تسمع، هو واقف أمامك وهو ساكت لكن يقول في نفسه والله إني أحب فلاناً، هذا خاطر، الإله يسمع المسموعات ذوات الأصوات، كما يسمع ما خفي ومالا صوت له.

الإمام الغزالي، يرى أن الله يسمع، لكن سمعه مُنزّه عن تغيير يعتريه عند حدوث المسموعات، غشاء الطبل ساكن فإذا سمع الإنسان صوتاً قوياً هذا الغشاء يهتز، ولولا هذا الاهتزاز لما سمع الصوت نقول لقد أصاب هذا الغشاء تغيير اعتراه حتى نقل الصوت، قال: الله جل جلاله مُنزّه عن هذا، يعني لا يسمع بتغيير يصيب سمعه، هذا شيء مستحيل أن يليق بالله عز وجل.

والله سبحانه وتعالى مُقدّس عن أن يسمع بأذن أو آلة أو أداة والسمع في حقه جل جلاله عبارة عن صفة ينكشف بها كمال صفات المسموعات. الله عز وجل يكشف بسمعه أحوال خلقه جميعاً، من دون آلة ولا جارحة ولا اهتزاز ولا تغير يعتري سمع الله عز وجل.

لذلك السميع برأي الإمام الرازي هو صاحب الانكشاف والتجلي، الإنسان يضمر شيئاً، الله سميع: يكشف حال هذا المخلوق.

السمع أحياناً له معانٍ أخرى، أحد العلماء قال ؛ للسمع أربعة معان في حق الله عز وجل:

الأول: سمع الإدراك ويتعلق بالأصوات، يؤكد هذا المعنى قوله تعالى:

(قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّهِ وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١))

(سورة المجادلة)

امرأة اشتكت إلى النبي، قالت: يا رسول الله إن زوجي تزوجني وأنا شابة ذات أهل ومال وأولاد، فما كبرت سني ونفر بطني وتفرق أهلي وذهب مالي، قال: أنت علي كظهر أمي، ولي منه أولاد، إن تركتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، بكى النبي علي الصلاة والسلام، نزل قوله تعالى:

(قَدْ سَمِعَ اللّهُ قَوْلَ الّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللّهِ وَاللّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

هذا أول معنى من معان السماع، سماع الإدراك.

المعنى الثاني: سماع الفهم **" اسمع ما أقول "** في التعبير الدارج يعني أفهم، يتكلم الإنسان، يؤكده قول الله تعالى:

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٢١))

(سورة الأنفال)

السماع هنا معنى الإدراك، التفهم، الله عز وجل يعرف وضعك في أدق التفاصيل، يعرف ظروفك الصعبة، يعرف العقبات التي أمامك يعرف الصوارف التي تصرفك عن هذا الشيء، يعرف حجم التضحية سماع دعاءك **" يا رب أنا مضطر، يا رب استجب لي "** هذا كلام، لكن حجم اضطرارك يعرفه الله عز وجل، فالله عز وجل فضلاً عن أنه يسمع دعاءك كصوت يعلم حقيقة حالك كحال، فأول سماع سماع الصوت، السماع الثاني سماع الفهم.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤))

(سورة البقرة)

يعني افهموا.

إذا رجل قال للآخر انتبه، على كتفك عقرب بصوت واضح ونقي نبرات حادة ورفع الصوت فالتفت إليه بهدوء وقال له أنا أشكرك على هذه الملاحظة وتلك النصيحة وأرجو الله سبحانه وتعالى أن يلهمني أن أشكرك عليه، ولم يبادر إلى رميه، أيكون سمع ما قيل له ؟.. هذا سمع ولم يسمع، سمع صوت لكن لم يفقه ما معنى عقرب، لو فهم لقفز ولصرخ، ما دام بقي هادئ والتفت بهدوء وشكرك معناها لم يسمع بمعنى لم يفهم، الصوت وصل إليه، فهناك سماع صوت و هناك سماع فهم:

(وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لا يَسْمَعُونَ)

لم يفهموا.

(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٥))

(سورة الجمعة الآية ٥)

المعنى الثالث: سَمْع الإجابة وإعطاء ما سئل، كما في الدعاء المأثور **" اللهم اسمع "** يعني أجب وأعط ما سألتك.

المعنى الرابع: القبول والانقياد، قال تعالى:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ)

(سورة المائدة ٤٢)

إذا رجلٌ قال لك: فلان أمانته ضعيفة، معقول.. طبعاً معقول.. لن أعطيه شيئاً، أنت سمعته وصدقته، أحياناً تقول هذا الكلام غير مسموع لا أقبله، معنى سماعون للكذب منقادون له مصدقون له.

فصار أول معنى سمَاع الصوت، المعنى الثاني الفهم والإدراك المعنى الثالث الاستجابة، المعنى الرابع الانقياد، كل هذه المعاني وردت في كتاب الله عز وجل فيما يتعلق بالسمع.

يؤكد معنى أن السمع هو الاستجابة قول النبي صلى الله عليه وسلم في الدعاء المأثور:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ وَمِنْ دُعَاءٍ لا يُسْمَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ وَمِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَؤُلاءِ الأَرْبَعِ))

(سنن الترمذي)

يعني لا يُستجاب له.

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَسِعَ سَمْعُهُ الأَصْوَاتَ لَقَدْ جَاءَتْ خَوْلَةُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَشْكُو زَوْجَهَا فَكَانَ يَخْفَى عَلَيَّ كَلامُهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا) الآيَةَ))

(رواه البخاري)

عندما قال النبي في الطائف بعد أن دعاهم فكذبوه، بعد أن استعانهم خذلوه بعد أن استنصرهم فلم ينصروه، بعد أن قال كفوا عني فآذوه أغروا به صبيانهم ضربوه بالحجارة، دميت قدماه، رفع يديه إلى السماء، قال يا رب:

((اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس، يا رب المستضعفين وربي إلى من تكلني ؟ إلى عدو ملّكته أمري، أم إلى بعيد يتجهمني، إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، ولك العُتبى حتى ترضى لكن عافيتك هي أوسع لي))

هذا هو دعاء الطائف، مشهور.

في الإسراء، قال تعالى:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(١))

(سورة الإسراء الآية ١)

بحسب السياق، يتوهم الإنسان ما دام معجزة انتقالاً مفاجئاً من مكة إلى بيت المقدس، السياق يقتضي أن يقول الله عز وجل، إن الله على كل شيء قدير، قال:

(إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

يعني هذا الإسراء وذاك المعراج مكافأة لك وتكريماً لك، وتكريم السماء تعويضاً عن جفوة الأرض، لأن الله سمع دعاءك في الطائف، وجاء قوله تعالى:

(إِنَّه هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)

أحياناً الإنسان يدعو الله عز وجل، **" يا رب إني ضعيف، إني مغلوب فانتصر"**، يمضي سنة فالله ينصره، فكأن هذا النصر هو جواب الدعاء، فالإنسان يستخدم الدعاء.

هناك نقطة مهمة، يجب أن توقن بفاعليّة الدعاء، إله يقول لك ادعوني أستجب لكم، والدعاء مقبول والطلب معقول والهدف الآخرة أو السلامة من الفتن في الدنيا، فكل إنسان دعا الله عز وجل يسمعه ويستجيب له.

اسم السميع ورد في كتاب الله في أربعين آية:

(فَإِنْ آَمَنُوا بِمِثْلِ مَا آَمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧))

(سورة البقرة)

(هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨))

(سورة آل عمران)

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣))

(سورة الأنعام)

(وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠))

(سورة الأعراف)

(أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ(٤٢))

(سورة الأنفال الآية٤٢)

(خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٠٣))

(سورة التوبة)

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١))

(سورة الحج)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَداً وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢١))

(سورة النور)

(مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٢٨))

(سورة لقمان)

سميع، معكم أينما كنتم، في بيتك وفي أحرج الظروف، وفي أدق المواقف، وفي أحلك الليالي، وفي السماء وفي الأرض، بالطائرة في السفينة، تغوص في أعماق البحر، تصعد في أطباق الفضاء، في بيتك في بستانك في عملك.

سمعت طبيباً جراحاً مشهوراً، أنه لا يُجري عملية جراحية إلا إذا توضأ وصلى ركعتين لله عز وجل وفي السجود يسأله التوفيق، واللهِ سمعت عن هذا الطبيب نجاحات صعب أن نصدقها، يجري جراحات عصبية في الدماغ، يعني بالدماغ غلطة بواحد بالألف بالميلمتر يصاب طبعاً جراحة مكبرة تحت المجهر، فهذا الطبيب لا يجري عملية إلا إذا صلى ركعتين وفي السجود يسأل الله التوفيق والنتائج رائعة.

هكذا المؤمن يجب أن يكون، في كل أعماله، إذا عقد صفقة، قبل أن تشتري هذه الصفقة، قبل أن تُقدم على هذا العمل، قبل أن تلقي هذا الدرس، قبل أن تعقد هذا العقد قبل أن تتكلم. قُلْ: توكلتُ على الله، ادعُ الله.

(إنّه هُوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ)

الآن دققوا في آداب المؤمن بالنسبة لهذا الاسم، من علم أن الله يسمع كل شيء، هل بإمكانه أن يلفظ كلمة نابية ؟

يقول واحد عشت معه ثلاثين سنة ما سمعت منه كلمة نابية، شيء وارد ولا اسم عورة، ولا كلمة مغشوشة إطلاقاً، من أين جاء هذا الانضباط باللسان، من معرفة المؤمن أن الله يسمعه، لذلك من أدب المؤمن مع الله في الاسم السميع حفظ لسانه من الباطل إلا بخير، ومن عرف أن الله تعالى سميع كان من أدبه دوام المراقبة، ومطالبة النفس بالمحاسبة، وينبغي للعبد أن يعلم أن الله تعالى، لم يخلق له السمع إلا ليسمع كلام الله أولاً.

أدب ثانٍ الآن، هذه الأذن، إلى الآن طريقة عملها الدقيق مجهولة، يعني اهتزاز وصل إلى طبلة الأذن، نقل هذا الاهتزاز عبر عظيمات السمع إلى الأذن الوسطى، ثم إلى الأذن الداخلية، ثم نقل العصب السمعي هذا الأثر إلى الدماغ ففهمت الكلام المسموع.

شخص يحكي كلاماً هاماً، نعم.. صح.. يسمع، ينتقل الكلام إلى غشاء الطبل إلى الأذن الوسطى...إلى الدماغ، إذا كان نغم رائع تطرب، ضجيج تضجر، فما النغم وما الضجيج، معقول أن يكون عندك ذاكرة سمعية تعرف بها أصوات الناس جميعاً، الدليل على الهاتف، كلّما جاءتك مكالمة تعرف مَن المتكلم، مِن أول كلمة ! فلان.

الإنسان نبرة صوته هوية، لا يوجد إنسان في الأرض نبرة صوته كإنسان آخر، أبداً، قزحية العين، ونبرة الصوت ورائحة الجلد وبلازما الدم، والبَنان، بصمة الإصبع، هذه هوية الإنسان، فأنت عندك ذاكرة، يقول لك بعض الحواسب تقرأ أربعمائة وخمسين مليون حرف، هذا صنع الإنسان، أنت يكون في حياتك مائتا شخص تعرفهم، أحياناً شخص تاركه من عشرين سنة تقول له فلان.. معناها سمعته، طيب هذه الأذن التي تلفت نظر العلماء في دقتها، في أذنين من أجل أن تعرف جهة الصوت، في عينين

من أجل أن تعرف البعد الثالث، بعين واحدة بعد واحد، في العينين ترى العمق، في نغم في ضجيج في ذاكرة سمعية، يقول الأمام الغزالي:

" ينبغي للعبد أن يعلم أن الله تعالى لم يخلق له هذا السمع إلا ليسمع كلام الله "، الذي يجلب آلة طحن لحم أغلى نوع في العالم ثمنها ثماني آلاف ليرة هذه للشخت أم للحم، بل للحم لا يليق أن تستعملها لأشياء رخيصة أو مبتذلة، كذلك الذي خلق الله سمعاً لا يليق به أن يسمع الغناء والكلام البذيء والغيبة والنميمة والإفك والبهتان، والكلام المنحط وذكر العورات، لا بل هذه الأذن ينبغي أن تستمع إلى الحق وإلى كلام الله عز وجل، **" من استمع إلى قينة صُبّ في أذنه الآنُك يوم القيامة " قيل وما الآنُك قال: الرصاص المذاب "..**

الله عز وجل أعطاك سمعاً أعطاك بصراً، أنتم تصدقون من باب حسن الظن بالله، أن إنسان له عين يغض بها عن محارم الله، تنهمر منها دمعتان من خشية الله، تظنون أن هذا الإنسان يمكن أن يرث عينه أم أن ترثه عينه، وفهمكم كفاية، **" ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا ".**

فالإنسان المؤمن ترثه عينه، وأذنه وقوته وعقله، يعني يستمتع بسمعه إلى آخر لحظة في حياته، يستمع للحق، هذا السمع يجب أن يكون للحق، إذا كان في كلام باطل قال:

(وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨))

(سورة الأنعام)

قم.. مجلس فيه غيبة، فيه كلام بذيء فيه كلام فارغ، فيه لغو:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا مِنْ قَوْمٍ يَقُومُونَ مِنْ مَجْلِسٍ لا يَذْكُرُونَ اللَّهَ فِيهِ إِلا قَامُوا عَنْ مِثْلِ جِيفَةِ حِمَارٍ وَكَانَ لَهُمْ حَسْرَةً))

(سنن أبي داوود)

ينبغي أن تستمع إلى الحق، والعبد إذا تقرّب من ربه بالنوافل أحبه الله فأفاض على سمعه نوراً تنفذ به بصيرته،

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ))

(صحيح البخاري)

صار في سمعه نور، كيف يعني ؟ يعني الباطل لا يسمعه، كلام بخلاف القرآن لا يسمعه، هذا الكلام غير مسموع لا أسمعه، غيبة يرفضها، صار في سمعه نوراً.

جاء في بعض الأدعية **" إلهي أنت السميع لحركات القلوب وخطرات النفوس، السميع لنداء المضطرين، المغيث لجميع المحتاجين، أشرقْ على سمعي نوراً منك أسمع به تسبيح الكائنات في الأرض والسماوات ".**

((أعرف حجراً بمكة كما قال النبي كان يسلم عليّ وأسلم عليه))

امنحني قوةً روحية أسمع بها عهدك **" ألست بربكم "** إنك على كل شيء قدير.

الحمد لله رب العالمين

اسم السميع من أدق الأسماء الإلهية، وهو من أقرب الأسماء إليك لأنك كلما ناجيته يسمعك ويستجيب لك، هذا اسم السميع، وينبغي أن تعلم أنه ليس هناك معرفة في الأرض تعلو على أن تعرف الله في أسمائه الحُسنى، ما من معرفة في الأرض أعظم وأجل وأدق وأخطر في حياتك من أن تعرف أسماء الله الحُسنى، وهذا اسم السميع.

٥٦- اسم الله البصير :

مع الدرس السادس والخمسين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم البصير، البصير كما ورد في الحديث الصحيح اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، ومعنى هذا الاسم في اللغة:

البصر: هو العين، أو حاسة الرؤية، وقيل البصر: هو النور الذي تدرك به المبصرات، وكلكم يعلم أن العين مهما تكن حادة النظر ومهما يكن الشيء واضحاً لا بد من وسيط من النور يتيح للعين أن ترى هذا الشيء، ويمكن أن تُسحب هذه الحقيقة على العقل، فالعقل مهما كان حاد الذكاء، ومهما كانت الأمور واضحة وضوح الشمس، لابد من نور إلهي يكشف لهذا العقل حقيقة الأشياء، لذلك قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩))

(سورة الأنفال)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢٨))

(سورة الحديد)

والعقل من دون هداية الله، من دون وحي السماء، من دون خطاب الله للبشر، العقل يَضل ويُضل، وينحرف ويُحرف، فالبصير من البصر، والبصر هي العين، والبصر حاسة الرؤية، والبصر النور الذي تُدرك به المبصَرات، هذه المعاني وردت في معاجم اللغة.

والبصر نفاذ الحقيقة في القلب، والبصيرة قوة القلب المدركة للحقائق، نقول فلان ذو بصيرة أي في قلبه قدرة على كشف الحقائق، والمبصر هو العالم والحاذق، والتبصر هو التأمل والتعرف والثبات في الدين.

قبل أن نمضي في التعرّف على هذا الاسم العظيم ينبغي أن نضع بين أيديكم هذه الحقيقة، هذه الحقيقة، هي أن مشكلة الناس جميعاً هي في انحراف الرؤية وفي خطأ الرؤية، لأن الإنسان في الأصل مفطور على حب ذاته وحب وجوده، يحب ذاته، يحب سلامة وجوده، يحب كمال وجوده يحب استمرار وجوده، فكيف يسلك طريقاً فيه هلاكه، فكيف يقترف المعاصي والآثام، فكيف يهلك نفسه بمعصية ربه ؟ لأنه رأى خطأً أن المعصية مغنماً لا مغرماً، لأنه رأى خطأً أن كسب هذا المال ربح له الإنسان يحب ذاته فحرصه على سلامة وجوده، وحرصه على كمال وجوده، وحرصه على استمرار وجوده، يقتضي أن يحفظ طاعة الله عز وجل.

هؤلاء الذين يقترفون المعاصي والآثام، هؤلاء الذين يرتادون الأماكن المحرمة لماذا ارتادوها لماذا أقبلوا على المعصية ؟ لأنهم توهموا أنها تسعدهم، ولو عرفوا أن طاعة الله عز وجل هي وحدها التي تسعدهم وأن الإقبال عليه هو الذي يطمئنهم لما سلكوا هذا الطريق.

فما الفرق بين مؤمن مستقيم على أمر الله، وبين عاص متفلت من أمر الله ؟.. هناك فرق بينهما، الرؤية.

سيدنا يوسف حينما دعته امرأة ذات من منصب وجمال فقال **إني أخاف الله رب العالمين**، ما الذي جعله يحجم عن اقتراف هذه المعصية رؤيته لما تنطوي عليه من هلاك ومن بعد عن الله عز وجل، هذا الذي إذا دعته امرأة ذات منصب جمال أقبل على هذه المعصية ما الفرق بينه وبين هذا الطائع ؟.. الرؤية فقط.. إن صحت رؤيتك صح عملك وإن صح عملك سعدت في الدنيا والآخرة، وإن انحرفت رؤيتك فسد عملك وإن فسد عملك هلكت في الدنيا والآخرة، أكاد أقول إن الفرق الوحيد بين الشقي والسعيد، بين المستقيم والمنحرف، صحة الرؤية أو خطأ الرؤية.

لذلك ماذا كان يدعو النبي ؟ كان يدعو ويقول

((اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه))

لذلك أحدنا حينما يرى أن المعصية مهلكة له، وأن الطاعة مغنماً له هذه نعمة والله الذي لا إله إلا هو لا تُقدّر بثمن، لا تُقدر بثمن أن ترى الحق حقاً، لأن هناك من يرى الباطل حقاً، وأن هناك من يرى الحق باطلاً، أما أن ترى الحق حقاً، أما أن ترى الباطل باطلاً.

شيء آخر إن رأيت الحق حقاً، وإن رأيت الباطل باطلاً، الآن أنت بحاجة إلى إرادة قوية تحملك على اتباع الحق وترك الباطل، رؤية وإرادة، أرنا الحق حقاً، والباطل باطلاً.

والله آلاف مؤلفة، والله ملايين مملينة ترى الحق باطلاً، وترى الباطل حقاً، فإذا جاءت رؤيتك مطابقة لمنهج الله، إن رأيت الحق حقاً إن رأيت الباطل باطلاً، هذه نعمة لا تُقدر بثمن.

أيها الإخوة من عادتي أنني إذا رأيت شاباً مؤمناً مستقيماً، أقول له دائماً أعظم نعمة أنت فيها هي نعمة الهدى، نعمة أن رؤيتك صحيحة نعمة أن في قلبك نوراً يريك الحق حقاً والباطل باطلاً، الإنسان إذا اتصل بالله ولاذ بالله، وانطلق لتنفيذ أمر الله، الله يلقي في قلبه النور.

ففي اللغة إذاً ؛ البصر هي العين، والبصر حاسة الرؤية، والبصر نور يقذفه الله في القلب، والبصر هو النور الذي يتوسط بيننا وبين المبصَرات، والبصر قوة القلب في كشف الحقيقة، والبصير والمبصر والبصير هو العالم الحاذق، والتبصر هو التأمل والتعرف والثبات على الدين، هذا ما جاء في قواميس اللغة حول كلمة البصير.

أما البصير بمعنى المبصر فهو فعيل بمعنى مفعول، كأن تقول جريح بمعنى مجروح، وقتيل بمعنى مقتول، البصير ؛ بمعنى المبصر، في اللغة يأتي هذا المعنى.

الآن اسم البصير من أسماء الله الحُسنى، وهو المبصر لجميع المبصَرات كل ما في الكون إذا أمكن أن يبصر فالله سبحانه وتعالى يبصره، كل المبصَرات ربنا عز وجل بصير بها.

البصير ؛ هو الذي يشاهد الأشياء كلها، ظاهرها وخفيها من دون جارحة، في الدرس الماضي تحدثت عن السميع، وبيّنت لكم أن الله عز وجل عز وجل سبحانه وتعالى يسمع من دون أداة ومن دون جارحة تغير في ذاته، نحن إذا استمعنا إلى شيء لابد من أن يهتز غشاء الطبل حتى نسمع من دون آلة من دون جارحة من دون تغير في ذات الله عز وجل، والبصر في حق الله تعالى عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصَرات ؛ الشيء إذا انكشف لك انكشافاً تاماً فقد أبصرته، قد ينكشف لك ظاهره، إذا انكشف لك ظاهره فأنت لم تدرك كمال صفته.

قد تأتي أنت بقطعة ماس ثمنها نصف مليون ليرة تضعها في الوحل ثم تضعها في الشمس تبدو لك كَدَرة، فإذا رأيت ظاهرها ظننتها كدرة، لذلك كمال الإبصار أن ترى حقيقة الشيء.

لذلك قالوا هي الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت الأشياء، هذه الماسة التي يزيد ثمنها عن نصف مليون ليرة، إذا غمستها في وحل ثمّ جففتها تبدو لهذه العين كدَرَة، ما معنى اسم البصير ؟ معنى اسم البصير هو الذي تنكشف له كمال صفات الأشياء ؛ يعني أنت كإنسان بهذه العين تراها كدرة، لكن كمال اسم البصير يراها ماسة، فرق كبير.

يعني الله عز وجل يعرف كل شيء، لا يخفى عليه شيء، أما نحن فنرى ظاهر الأشياء، أما باطنها، أما حقيقتها فمحجوبة عنا، وقد ورد هذا عن النبي صلى الله عليه وسلم:

((نحن نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر))

الفكرة دقيقة، يعني اسم البصير ؛ هي الصفة التي ينكشف بها كمال صفة المبصرات، لو فرضنا إنسان قصير القامة أسمر اللون أحنف الرجل ناتئ الوجنتين غائر العينين مائل الذقن، وقد يكون أعلم علماء الأرض في علم من العلوم، فأنت إذا نظرت إلى شكله رأيته شيئاً عادياً، لكن لو علمت ما ينطوي عليه من علم لأكبرْته أعظم إكبار فإذا نظرت بعينك إليه فأنت لم تكشف كمال صفات هذا الإنسان، أما إذا أدركت علمه وأخلاقه، طبعاً هذا ورد في التاريخ عن أحد التابعين وهو الأحنف بن قيس وصفه من وصفه فقال: كان قصير القامة أسمر اللون مائل الذقن أحنف الرجل، غائر العينين، ناتئ الوجنتين، ليس شيء من قبح المنظر إلا آخذ منه بنصيب، وكان مع ذلك سيد قومه، إذا غضب غضب لغضبته مائة ألف سيف لا يسألونه فيمَ غضب

لو أن واحداً من الناس نظر إلى الأحنف بن قيس، فرأى فيه هذه الصفات التي لا تُرضي، فظن أنه شخصاً عادياً، هل أدرك بعينه هذه كمال صفات هذا التابعي الجليل ؟ لا.

معنى اسم البصير ؛ صفة لله عز وجل تتكشف بها كمالات نعوت الأشياء، بصير يعلم كل شيء، يبصر كل شيء، ظاهر الشيء وباطنه وخلفيته، وما ينطوي عليه، أحياناً، إنسان يضرب يتيماً، الله عز وجل قال:

(فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩))

(سورة الضحى)

هو يضربه، هذا حينما يضرب اليتم كأنه ارتكب معصيةً، كأنه سقط من عين الناس، لكن إذا ارتكب هذا اليتيم عملاً قبيحاً يقتضي أن يضربه ليأدبه، وقد سئل النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ أَنَّ رَجُلا أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي خَادِمًا يُسِيءُ وَيَظْلِمُ أَفَأَضْرِبُهُ قَالَ تَعْفُو عَنْهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً))

(مسند الإمام أحمد)

إنسان راق جداً عنده يتيم اقترف معصية كبيرة، أراد أن يؤدبه، لو أن إنساناً نظر إليه وهو يضربه لاحتقره.. هذا يتيم كيف تضربه ؟ لكن الله إذا نظر إلى نيته العالية لتأديب هذا في تأديب هذا اليتيم معناها أن الله مبصر. الله بصير، بمعنى أن الله تنكشف له بهذه الصفة كمال صفات هذا الضارب، هو يضربه لله، يضربه ليؤدبه، يضربه ليحمله على الاستقامة، الفكرة دقيقة، ينكشف بهذه الصفة كمال صفات الأشياء.

البصير إذاً هو المبصر لجميع المبصرات، والبصير هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخفيها من دون جارحة ولا أداة ولا تغير في ذات الله، والبصر في حقه تعالى عبارة عن الصفة التي تنكشف فيها كمالات نعوت الأشياء.

وقيل البصير هو المبصر، المتصف بالبصر لجميع الموجودات دون حاسة ودون آلة، فيعلم تعالى جميع المبصرات تمام العلم، وتنكشف له تمام الانكشاف.

ما علاقتنا بهذا التفسير، نحن نسعد كثيراً حينما نعلم أن الله يعلم الله يعلم نواياك، يعلم سلامة صدرك، يعلم حبك للخير، يعلم أن هذا الخطأ لا تقصده، يعلم أن هذا الوضع الحرج الذي وقعت فيه لا تريده، يعلم أن هذه الكلمة التي قلتها لم تكن تريد أن تقولها، أنت حينما تعلم أن الله يعلم حقيقة كل شيء، هذا مما يسعدك، لأن الله قال:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

(سورة الطلاق)

يجب أن تعلم أن الله يعلم، وحينما تعلم أن الله يعلم ترتاح نفسك.

أحياناً الإنسان الموظف، يجلس وراء الطاولة سبع ساعات يخرج ليقف على شرفة دقيقة واحدة، يراه المدير العام يقف على النافذة، فيغضب ويثور. حالة غريبة، سبع ساعات وراء الطاولة يعمل، وقف دقيقة واحدة على النافذة فدخل المدير العام فرآه يتنزه فعنّفه، لأنه لا يعلم ماذا فعل، رآه على النافذة فعنّفه.

فالإنسان علمه ناقص، لكنك مع الله، لماذا أنت مرتاح مع الله لأنه يعلم سلامة صدرك، يعلم أنك ما أردت هذا الذي حصل، يعلم أنك تُكِنُّ لهذا الإنسان كل خير، يعلم أنك بريء من هذه التهمة.

لذلك قال أحدهم كلمة رائعة، قال لي مرةً الحمد لله على وجود الله، والحمد لله على علم الله، موجود ويعلم، الله عز وجل لا يحتاج إلى إيصال ولا إلى شهادة ولا إلى حلف يمين، ولا إلى بينة، هو يعلم قال له: ألك عند الله حاجة، **" قل منك قال لا: قال علمه بحالي يغني عن سؤالي ".**

يعني: الله عز وجل بصره كامل، ينكشف باسم البصير كمال صفة المبصر، وهذا مما يسعد الإنسان أي سعادة.

كم من إنسان مظلوم متهم تهمة هو بريء منها، على نطاق الأسرة أحياناً يقول كلمة هو لا يقصدها تفسّر تفسيرات أخرى، يفعل فعلاً لا يريده صدفةً يفسّر تفسيرات أخرى، لكن الضمانة العظيمة هي أن الله يعلم.

لكن بالمناسبة، رحم الله عبداً جب المغيبة عن نفسه، نحن مضطرون أن نخرج قليلاً، **" النبي عليه الصلاة والسلام جاءته السيدة صفية إلى معتَكَفه، أراد أن يوصلها إلى البيت مر صحابيان جليلان قال النبي الكريم:**

((على رسْلِكما، وقفا، قال: هذه زوجتي صفية، قالوا أفيك نشك، قال لا، ولكن لئلا يدخل عليكما الشيطان))

صحيح الله يعلم لكنك مكلف أن تبين، أن توضح، الله جل جلاله يعلم، لكن لا يكفي أن تقول الله يعلم وتضع نفسك موضع التهمة، لا يكفي أن تقول الله ناظر إلي وأنت في وضع متهم فيه، لا هذا ليس من السنة، يجب أن تعلم أن الله يعلم، ويجب أن تدفع عن نفسك كل الشبهات.

يعني لو دخل رجل إلى بيت فيه امرأة لا تحل له، ليست من محارمه، وهو أنقى من ماء الثلج، وهو أطهر من الملائكة، وجودك في بيت مع امرأة موطن متّهم فيه، لا تفعل هذا، الخلوة محرمة في الإسلام، لذلك سد الذرائع باب عظيم. هناك مواقف لا شك أنك طاهر ومستقيم ومتملك لزمام نفسك، لكن أي موقف يضعك موضع التهمة الشرع يأمرك أن تبتعد عنه، أحياناً تدخل إلى محل تجاري لا

يوجد فيه أحد، يجب عليك أن تخرج فوراً.. أنا أنتظر صاحبه.. اُخرج، أنت الآن في موضع متهم فيه، لا يوجد أحد، وأنت لست صاحب المحل ما الذي يبقيك في هذا المحل ؟!

الله جل جلاله يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، رجل جالس في بيته، أمامه نافذة الغرفة ليست مضاءة، أمامه شرفة، خرجت امرأة إلى الشرفة، ليس في العالم كله إنسان يستطيع أن يحاسبه على إطلاق بصره إلى هذه المرأة، وليس هناك أحدٌ يكشف ما إذا كان ينظر أو لا ينظر إلا الله، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

لذلك أروع شيء أن تطيع الله في خلوتك، لأن طاعة الله في خلوتك علامة إخلاصك وصدقك، وقد ورد في الأثر:

((من لم يكن له ورع يصده عن معصية الله إذا خلا لم يعبئ الله بشيء من عمله))

العبرة أن تطيعه في خلوتك كما تطيعه في جلوتك، أن تطيعه سراً كما تطيعه علانية، يشاهد ويرى ولا يغيب عنه ما في السماوات العُلى وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى، وهو الحاضر الذي لا يغيب.

إنسان يغادر مركز عمله، إذا كان مديراً أو إذا كان مدير مسشفى أو مدير ثانوية، يعني أكثر الناس ينصرفون قبل الدوام، أحياناً المدير عمله أن يكون في مكان عمله، الإنسان إذا كان موجود يرى، أما إذا غاب لا يرى. لكن الله سبحانه وتعالى حاضر لا يغيب.

البصير: ورد في كتاب الله كما قلنا في اسم السميع في أربعين موضعاً. ففي البقرة:

(وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١١٠))

(سورة البقرة)

الآن في ضوء فهمنا الدقيق قبل قليل لمعنى البصير، يعني هذا العمل له ظاهر له خلفية له باطن له نية، له ملابسَات سبحانه وتعالى بصير بما تعمل، يعني يُبصر حجم علمك، مقدار تضحيتك مقدار الصراع النفسي الذي سببه هذا العمل، إن الله بصير به، بصير بكل أبعاده، بكل منحنايته، بصير بخلفياته، بصير بملابساته، بصير بأهدافه، بصير ببواعثه، هذا معنى بصير.

أما أنت تبصر عملاً أمامك، الإنسان العادي يراه، إنسان يضرب ابنه، أما النوايا والبواعث والأهداف والمقاصد والخلفيات والصراعات والتضحيات، هذا العمل لا يعلم حجمه إلا الله، ولا يعلم مقدار التضحية التي كانت من أجله إلا الله، ولا يعلم المتاعب التي تحملها صاحبه إلا الله، فربنا حين يقول:

(وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤))

(سورة الحديد)

يعني بصير بحجم أعمالكم، ونواياكم وبواعثكم ومقاصدكم وأهدافكم وتضحياتكم، والصراعات التي في أنفسكم.

(فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠))

(سورة آل عمران)

بصير ؛ هناك إنسان يكذب وإنسان لا يكذب، إنسان مغلوب على أمره، إنسان متأثر، والله بصير بالعباد.

قد يلقي إنسان كلمة على جمع غفير فإن صدى هذه الكلمة في علم الله هذا صدّق هذا استهزأ، هذا ما بالى، هذا ارتعدت فرائصه، هذا خاف.

لذلك:

(وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدْ اهْتَدَوا)

وفي المائدة:

(وَحَسِبُوا أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ فَعَمُوا وَصَمُّوا ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (٧١))

(سورة المائدة)

وفي الإسراء:

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧))

(سورة الإسراء)

مرة وقفت في هذا الجبل ونظرت إلى الشام ممتدةً يمنة ويسرةً شمالاً وجنوباً شرقاً وغرباً، هذه البيوت بطوابقها بأقبيتها ماذا فيها من طاعات أو معاصي من يعلم ؟ الله.

منظر هذه المدينة من الجبل مدينة هادئة وادعة أبنية مضاءة متلألئة. داخل البيوت يا ترى هناك صلوات أم موبقات ؟ هل هناك نكاح أم سفاح ؟ من يعلم ؟... الله الذي يعلم.

(وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَى بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (١٧))

(سورة الإسراء)

يعني أنت لا تعلم، وقد يسكن إنسان في مدينة وهو لا يعلم ما فيها هو مؤمن يرتاد بيوت الله عز وجل، له إخوة كرام، يحسن الظن في جميع الناس، لكن حجم المعاصي في أي بلدة، حجم الموبقات، الذين يشربون الخمر، الذين يقترفون جريمة الزنا، من يعلم ذلك ؟

لكن ما كنت أصدق في حياتي أن إنسانةً في مكان رفيع كأنها ملكة تحقد مؤتمراً صحفياً يُبَث في جميع أنحاء العالم تقول لقد زنيت مع فلان، نحن في أي عصر نعيش، قال تعالى:

(أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٢١))

(سورة النحل)

يعني إنسانة مرشحة أن تكون ملكة في بلاد الغرب تعقد مؤتمراً صحفياً وعلى كل أجهزة الإعلام وقد بُثت في محطات الفضاء لتقول للناس إنني خنت زوجي وزنيت مع فلان.. سبحان الله كم بيننا وبين أهل الفسق والفجور مسافات شاسعة، البيت المسلم بيت شريف، بيت طاهر، بيت نقي، حتى الإنسان لو زلت قدمه ينبغي أن يستر نفسه.

(وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (٢٠))

(سورة غافر)

(الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ(٥٦))

(سورة غافر)

وفي سورة الملك:

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩))

(سورة الملك)

إن هذا الاسم هو أقرب الأسماء إلينا، فكلمة غفور مثلاً، اسم رب العالمين، هذا الاسم هو أقرب الأسماء إلينا، واسم البصير لأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول أفضل إيمان المرء أن تعلم أن الله معك، وأرقى حالات المؤمن أن يشعر أنه تحت مراقبة الله عز وجل.

أفضل حالات المؤن أن يعبد الله كأنه يراه، فإن لم يكن يراه فإن الله يراه يعني أن تشعر أن الله يراك، هذه درجة في الإيمان عالية جداً أن تشعر دائماً أن الله معك، أن الله معك في خلوتك وفي جلوتك وفي مجلسك، ومع ذكرك ومع نطقك، وفي سفرك وفي حضرك، هذا الشعور المستمر من نِعَم الله العظمى وهو درجة من درجات الإيمان العالية.

الإمام الغزالي يرى: **أن البصير هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزُب عنه ما تحت الثرى.**

إبصاره منزّه عن أن يكون بحدقة أو أجفان، مقدّس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان كما ينطبع في حدقة الإنسان فإن ذلك من التأثر والتغيير المقتضي للحدثان.

كما قلنا في اسم السميع أنه لا يُعقل ولا يليق بالله عز وجل أن يبصر بحاسة ولا بأداة ولا بتغير، يعني الشبكية إذا سقط عليها ضوء تعريف الصورة ؛ هي مجموعة نقاط متفاوتة في الإضاءة، لو أتيت بصورة وكبرتها، ترجع إلى نقاط، وكلما كثرت هذه النقاط كانت الصورة دقيقة أكثر، أما هي في الحقيقة نقاط متفاوتة في الإضاءة، فهذه الصورة إما منبع ضوئي أو منعكس ضوئي إذا وقعت على حدقة العين وانكسر إلى الشبكية، فانطبعت عليها، الشبكية فيها مادة كيمائية، تتأثر بالضوء تأثرها

بالضوء يشكل تيار كهربائي، هذا ينتقل عبر العصب البصري إلى الدماغ، في الدماغ تكشف حقيقة الصورة.

بشكل مختصر، يعني في العصيات مائة وثلاثين عصية ومخروط، هذه العصيات والمخاريط فيها مواد كيماوية، تتأثر بالضوء، فإن تأثرت تشكل تيار كهربائي هذا التيار ينتقل عبر العصب البصري إلى الدماغ. الصورة تنطبع على شبكية العين إحساساً وتنتقل إلى الدماغ فتفسر هناك إدراكاً بحسب المفاهيم السابقة، فالإنسان متى يرى، يرى الصورة التي هي مجموعة نقاط مضيئة أو متفاوتة في الإضاءة هذه تؤثر في تركيب العصيات والمخاريط، من هذا التأثر والتأثير يتشكل تيار كهربائي، هذا التيار يسري عبر العصب البصري إلى الدماغ، في الدماغ تُفسر هذه الصورة في ضوء المفهومات السابقة، معناها لو لم يحدث تغيير في شبكية العين والعصيات والمخاريط، ولو لم يحدث تأثر هذه المواد الكيماوية في الضوء لما انتقلت الصورة.

الله جل جلاله منزّه عن أن يبصر بحاسة أو أداة أو تغيير في ذاته، وإذا نُزه الله جل جلاله عن ذلك كان البصر في حقه عبارة عن الصفة التي تنكشف بها كمالات المبصرات، صفة في ذات الله زائدة على علمه، تُكشف بها حقيقة كمالات صفات الأشياء.

الآن ما الأدب الذي ينبغي أن نتأدب به حيال هذا الاسم العظيم، الله عز وجل بصير، ولأنك إنسان مكرّم، مخلوق مكرّم، قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠))

(سورة الإسراء)

لأنك مخلوق مكرّم، الله بصير ومَنَحك حاسة البصر، لماذا، لماذا أودع الله فيك هاتين العينين ؟.

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨))

(سورة البلد)

العين السليمة لو درّجنا لوناً أخضر أو أحمر أو أي لون آخر ثمانمائة ألف درجة، العين السليمة تدرك الفرق بين درجتين.

والعين السليمة تبصر من دون وقف إصلاح الأفلام كما نعهد ذلك نحن، الفلم يحتاج إلى تحميض، العين تبصر مباشرة، وتدرك الشيء بحجمه الحقيقي، اُنظر إلى الجبل تراه بحجمه الحقيقي، أما انظر إلى صورة الجبل في الصورة تراه بحجم أربع سنتمر. العين تدرك الشيء بحجمه.

هذه العين فيها مطابقة والمطابقة شيء لا يصدق، ففي الفيزياء العدسة البللورية: لو وضعنا أمامها شمعة وخلف هذه العدسة في محرقها لوحة، لا ينطبع خيال الشمعة على اللوحة إلا في مكان واحد فقط،

فلو أزحناها قليلاً أصبح الظل أو المرتسم على هذه اللوحة غير واضح، إذا غيرنا مكان الشمعة نحتاج إلى تعديل مكان اللوحة لأنه تغيَّر المحرق لكن العدسة التي أودعها الله في الإنسان عدسة مرنة، فإذا رأيت الشيء يتحرك فبدلاً أن تحرك في الشبكية، العدسة يزداد إحددابها أو يقل هناك عضلات اسمها عضلات هدبية، تضغط على هذا الجسم البلوري فتزيد إحددابه أو تقلله، هذه العضلات تزيد الاحدداب أو تقلله بالمكرونات.

هناك سؤال كبير، كيف ضُغط هذا الجسم حتى جاء الخيال على الشبكية ؟ من حسب المسافة بينك وبينه ؟.. رأيته أولاً فحسبت المسافة، إن رأيته فقد رأيته، وإن لم تره كيف حسبت المسافة ؟ عملية المطابقة في العين من أعظم الأدلة الدالة على وجود الله وعلى عظمته، يعني يعجز عن فهمها العلماء، المطابقة، ضمن ستين متراً العين تجري مطابقة بعد ستين متر على اللانهاية، لذلك الإنسان إذا سكن في مدينة مكتظة يضعف بصره، يحتاج إلى نظارات، أما أهل البادية دائماً العين عندهم مستريحة تنظر إلى مسافات بعيدة.

الذي أريد أن أقوله لكم، هذه العين سُميت كريمة الإنسان لأن الله كرّمه بها، لماذا خلقها الله له ؟ ليرى بها العورات ؟! ليرى بها الموبقات ؟! ليرى بها المحرمات ؟! ليرى بها النساء الكاسيات العاريات ؟! أم ليرى بها آيات الله الدالة على عظمته، فالعين التي تغض عن محارم الله، والعين التي تحرس في سبيل الله، والعين التي ينهمر منها دموع من خشية الله هذه عين شريفة طاهرة مقدسة، الله سبحانه وتعالى في الأعم الأغلب لا يُفجعك بها **" ومتعنا اللهم بأسماعنا وأبصارنا وقوتنا ما أحييتنا".**

يعني أي عين تغض عن محارم الله وتبصر آيات الله، وتسبح الله وتكبره وتحمده، هذه العين المرجو من الله أن يحفظها لك إلى نهاية الحياة.

إذاً من أدبنا مع اسم البصير الذي منحنا نعمة البصر أن نستخدم العين في أن نبصر بها آيات الله الدالة على عظمته.

قال أحد الأنبياء: من كان نظره عبرة، ويقظته فكرة، وكلامه ذكراً فهو مؤمن، لذلك قال النبي الكريم:

((أمرني ربي بتسع (من هذه التسع) أن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرةً))

هذا أول شيء، يجب أن تستخدمها في رؤية آيات الله الدالة على عظمته، الشيء الثاني: يجب أن تعلم أن الله يبصرك، الذي خلق نعمة البصر ألا يبصر ؟.. قال تعالى:

(يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالاً لُبَداً (٦) أَيَحْسَبُ أَنْ لَمْ يَرَهُ أَحَدٌ (٧) أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١))

(سورة البلد)

الآية دقيقة جداً، أيحسب أن لم يره أحد وهو يرى، فالذي خلق لك البصر لا يراك ؟ أيحسب أن لم يره أحد، ألم نجعل له عينين يبصر بهما، فالذي خلق لك العينين يراك حين تقوم قال تعالى:

(وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٢١٧) الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨) وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٢٢٠))

(سورة الشعراء)

الآن هنا نقطة دقيقة جداً، المؤمن الكامل لا يستهين بنظر الله إليه واطّلاعه عليه، قال بعضهم: لا تجعل الله أهون الناظرين إليك الإنسان أحياناً أمام شخص يحسّن نفسه، يرجّل شعره، يتعطر، إذا دخل إلى بيته يرتّبه، لأنه يستحي منه، فلماذا الإنسان يقارف معصية وهو يعلم أن الله يراه، فكأنه جعل الله أهون الناظرين إليه.

قال: من أخفى عن غير الله ما لا يخفيه عن الله فقد استهان بنظر الله إليه، أحد ثمرات الإيمان أن تشعر أن الله معك وهو ناظر إليك..

الآن دققوا في هذه العبارة ؛ الإمام الغزالي: **" من قارب معصية وهو يعلم أن الله تعالى يراه فما أجراه على الله وما أخسره، وإن ظن أن الله لا يعلم فما أكفره وما أجهله "**، إن اقترف الإنسان معصية وهو يعلم أن الله يراه فما أجهله وأخسره.

مقترف معصية إن علم أن الله يعلم فهو مجترى وخاسر، وإن علم أن الله لا يعلم فهو جاهل وكافر، لأن الله يعلم.

لذلك قال النبي الكريم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَارِزًا يَوْمًا لِلنَّاسِ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ فَقَالَ مَا الإِيمَانُ قَالَ الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَبِلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ قَالَ مَا الإِسْلامُ قَالَ الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ قَالَ مَا الإِحْسَانُ قَالَ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ....))

(صحيح البخاري)

وإذا عرف الإنسان أن الله تعالى هو البصير وكان الإنسان عاقلاً زين باطنه بالمراقبة، وزين ظاهره بالمحاسبة.

وكان بعض السلف يقولون: إذا عصيت مولاك فاعصه في موضع لا يراك فيه.

دعا بعضهم فقال: **" إلهي أنت البصير بعيوبي الخبير بذنوبي المطلع على سري، بيدك زمام أمري، أسألك أن تجعل في قلبي نوراً وفي بصري نوراً لأشاهد حقائق الأشياء، وأتأدب معك بالظاهر والخفاء إلهي اجعلني لك من المشاهدين وفي حماك من القائمين إنك على كل شيء قدير ".**

وهناك أدعية كثيرة تتعلق باسم البصير، والآية الكريمة:

(لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣))

(سورة الأنعام)

أيها الإخوة الكرام أرجو الله سبحانه وتعالى أن يجعل من هذه الدروس دروس أسماء الله الحُسنى قفزة نوعية في معرفة الله والحقيقة أن تؤمن أن الله خالق السماوات والأرض دون أن تتحقق من أسمائه الحُسنى وصفاته الفُضلى، هذا الإيمان لا يرقى بك إلى النجاة ولا إلى السعادة، ومن أجل دروس العلم أن تتعلم أسماء الله الحُسنى وصفاته الفُضلى.

٥٧- اسم الله الرؤوف :

مع الدرس السابع والخمسين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم هو الرؤوف، فالرؤوف اسم ورد في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم المتعلق بأسماء الله الحُسنى، فهو اسم من أسماء الله الحُسنى.

الرؤوف في اللغة شديد الرحمة، والرأفة أشد من الرحمة، أو شدة الرحمة، ورأف به أي أشفق عليه من مكروه يحل به، والرأفة في اللغة نهاية الرحمة، والرأفة من الله دفع السوء.

وقد يسأل سائل: فيقول من أسماء الله الحُسنى الرحيم، ومن أسماء الله الحُسنى الرؤوف فما الفرق بينهما ؟.

إن حلّت المصيبة فإن الله سبحانه وتعالى رحيم بهذا الإنسان، أما رأفته فتقتضي أن يبعد عنه كل سوء قبل أن تحل به المصيبة، وأحياناً فاسم الرؤوف متعلق بالوقاية، واسم الرحيم متعلق بالعلاج، والله سبحانه وتعالى لشدة رحمته رؤوف، ومن لوازم رأفته أنه يحمل العبد على التوبة قبل أن يقع في المعصية، وحينما يقع في المعصية يستوجب العقاب، والآن تقتضي رحمته أن يرفع عنه العقاب.

الرأفة شدة الرحمة، وهي أشد من الرحمة، ورأف به أشفق عليه من مكروه يحل به، والرأفة نهاية الرحمة، والرأفة من الله دفع السوء، لذلك قيل، إن الرؤوف من أسماء الله هو المتعطف على المذنبين بالتوبة.

لأضرب لكم مثلاً يقرب هذين المعنيين: الأب حريص على أولاده ولاسيما في أيام الشتاء من أن يصيبهم البرد، من ألا يخرجوا من بارد إلى حار أو من حار إلى بارد لئلا يصابوا بأمراض الشتاء، فالحرص البالغ من الأب على ألا يصاب ابنه بمرض هذا من الرأفة، أما حينما يصاب الابن بمرض ويتفطر قلب الأب له رحمة فهذا من باب الرحمة، فالرحمة تخفيف الألم عن مصاب واقع، بينما الرأفة هي الحيلولة بين المتعطف عليه وبين الوقوع في الشدة، فالرأفة متعلقة بالوقاية، بينما الرحمة فمتعلقة بالعلاج.

وعلى كل فهذا التفريق هو تفريق لتقريب المعنيين، لكن أسماء الله تعالى كما قال الله عز وجل عن ذاته ولله الأسماء الحُسنى فأدعوه بها

وتقريب آخر ؛ فالله عز وجل يحذر ويبين وينبه ويرسل المواعظ، ويسخر الدعاة، ويظهر الآيات لئلا تعصيه، فإن عصيته فلا بد من عقاب رادع والعقاب الرادع هو الرحمة، لأنه هو الذي يحملك على التوبة، لكن الله حريص على ألا تقع في المعصية وبالتالي ألا تستوجب هذه العقوبة، والآن لعلي وضحت هذا المعنى الدقيق، الرأفة قبل أن يقع المصاب، والرحمة بعد أن يقع المصاب، والله عز وجل

أعطى الإنسان حرية الاختيار، فلو أن عبداً مؤمناً اختار عملاً سيئاً فالله جل جلاله يرسل له من يحذره ومن يبين له، ويقيم العقبات أمام عمله السوء، فإذا أصر الإنسان على عمله وتعلّقت نفسه به عندئذ يطلقه الله عز وجل، ويؤدبه، وبتأديبه يرحمه، فالرأفة فيها معنى الوقاية، والرحمة فيها معنى العلاج، والوقاية رأفة والعلاج رحمة، والله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم.

ولكن كل أب مثلاً يتمنى أن لا يقع ابنه في مخالفة تقتضي التأديب فإذا وقع في هذه المخالفة وأصر عليها فلابد من التأديب، والأب الطبيب يتمنى ألا يحتاج ابنه إلى عملية جراحية، أما إذا تفاقم أمر جسده إلى درجة يحتاج إليها فلا بد منها.

فأن تأخذ الاحتياطات رأفة، وأن تخفف المصاب رحمة، لذلك قيل إن الرؤوف من أسماء الله تعالى وهو المتعطف على المذنبين بالتوبة وعلى أوليائه بالعصمة،و كنت أتمنى أن لا ينسب إلى أوليائه بالعصمة لأن العصمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فالعصمة للأنبياء والمرسلين، والحفظ للأولياء والمؤمنين، وفرق كبير بين العصمة وبين الحفظ، فالأنبياء جميعاً معصومون عن أن يخطئوا بأقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، بينما الأولياء فغير معصومين، لكنهم محفوظون، ومعنى أنهم محفوظون أي أنهم إذا أخطؤوا فسريعاً ما يتوبون ويستغفرون ويعودون ويتراجعون، فمن اعتقد العصمة لغير رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنبيائه ورسله الكرام فقد زاغت عقيدته، ومن لم يعتقد العصمة للنبي عليه الصلاة والسلام فقد زاغت عقيدته، وعقيدة أهل السنة والجماعة أن النبي عليه الصلاة والسلام معصوم بمفرده، وأن أمته معصومة بمجموعها، وأن النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لا تجتمع أمتي على خطأ))

والخطأ يصحح، ولذلك فالأمة معصومة بمجموعها، والنبي صلى الله عليه وسلم معصوم بمفرده.

ويرى بعض العلماء أن الرؤوف بمعنى الرحمة مع المبالغة، أي شدة الرحمة، والمبالغة بالرحمة هي الرأفة، وما زلنا في ضرب الأمثال ؛ فالأمهات جميعهن يعطفن على أولادهن، إلا أن هناك بعض النساء عندهن فرط رحمة بأولادهن، أي مبالغة، فالإمام القشيري يرى أن الرأفة شدة الرحمة، أي هي رحمة في أعلى مستوى.

قال: **" من رحمة الله بعباده أن يصونهم عن موجبات عقوبته "، لذلك فالله عز وجل يحذّر وينذر".**

وهناك نقطة دقيقة، فالله عز وجل أعطانا عقلاً وأعطانا فطرة وسخر لنا هذا الكون بسماواته وأرضه وأعطانا حرية الاختيار وأودع فينا الشهوات وأنزل على رسله البينات، والله عز وجل قدم كل شيء، فالكون مسخر تسخير تعريف وتكريم،والعقل متطابق في مبادئه مع الكون، فطرة سليمة تكشف لك الخطأ وحرية اختيار تثمن لك العمل، وشهوة تدفعك إلى الله صابراً أو شاكراً، وقوة فيما يبدو تعينك على تحقيق اختيارك،و شرع يعد ميزاناً على ميزاني العقل والفطرة، وانتهى الأمر، لكن الله فوق كل

ذلك، فوق الكون الدال على وجوده وكماله ووحدانيته، وفوق العقل الذي هو أداة معرفة الله، وفوق الفطرة التي هي أداة كشف الخطأ، وفوق الاختيار الذي يثمن العمل، وفوق الشهوة التي تدفع إلى الله عز وجل، وفوق القوة التي تحقق بها الرغبات، وفوق الشرع الذي يُعد ميزاناً دقيقاً. فالله جل جلاله برأفته بعباده يتابعهم و يبين لهم، ويحذرهم، ينذرهم، ويجعل أفعاله مبينةً لشرعه، يعالجهم نفسياً، واجتماعياً، وجسدياً وأحياناً يسوق لهم المصائب، فيُلقي في قلوبهم الخوف و الطمأنينة إنه شديد المحال، وهذه كلها ليصون العبد عن أن يقع في الخطأ.

والإنسان الواعي العاقل الموفق لا يقع في الخطأ ولا يحتاج بعدها إلى معالجة هذا الخطأ، وقد سأل معاوية بن أبي سفيان أمير المؤمنين أحد دهاة العرب عمرو بن العاص من صحابة رسول الله ؛ قال **يا عمرو ما بلغ من دهائك،** قال: **والله ما دخلت مُدخلاً إلا أحسنت الخروج منه،** فقال معاوية **لست بداهية، أما أنا فو الله ما دخلت مدخلاً أحتاج أن أخرج منه.**

الرأفة تعني ألا تقع في الخطأ، والرحمة تعني إن وقعت في الخطأ فلا بد من معالجته، فمعالجة الخطأ رحمة، والحيلولة دون الوقوع فيه رأفة، فالله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم.

وأنت مُخير فإذا اخترت السوء حال بينك وبينه، ونبهك، وأنذرك وحذرك وخوفك، وأرسل إليك من يدلك على الصواب، وأراك في المنام شيئاً مخيفاً، أما إذا أصررت على الخطأ فعندئذ يطلقك إليه ثم تأتي رحمته ورحمته كمبضع الجراح، ورأفته كالمعالجة الفيزيائية، والحمية والرياضة و هذه تحول بينك وبين المرض لكن رحمته تشفيك منه و قد تكون قاسية، فاسمها رحمة لكنها علاج، لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠))

(سورة لقمان)

والنعم الظاهرة لا اختلاف فيها، لكن النعم الباطنة هي الشدائد التي يسوقها الله عز وجل للإنسان ليحمله على التوبة، وكم من إنسان اصطلح مع الله عز وجل إثر شدة باطنة، و خوف شديد، و مرض كبير، و ضائقة مالية خانقة، وعلى إثر هذه الشدائد تُحل العقد، ويصطلح الإنسان مع الله، فالحيلولة بين الإنسان وبين أن ينحرف رأفة، أما إذا أصر على الانحراف فمعالجته وهو منحرف رحمة، والله سبحانه وتعالى رؤوف رحيم.

هناك طبيب ينصحك، ويبين لك مضار التدخين، ويعطيك الأدلة، ويطلعك على أحدث الأبحاث، ويبين لك آلية ضرر التدخين مثلاً، فإذا أصر المريض على متابعة هذه العادة السيئة وأصيب بمرض عضال

فالطبيب نفسه جراح، يجري عملية جراحية، فإذا سمعت نصيحته فقد اتبعت اسم الرؤوف، وإن لم تستجب إلى نصيحته فأنت أمام اسم الرحيم، لذلك ورد في الحديث الشريف:

((إني والأنس والجن في نبأ عظيم ؛ أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إلي صاعد، أتحبب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم، ويتبغضون إلي بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي، من أقبل علي منهم تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني منهم ناديته من قريب، أهل ذكري أهل مودتي، أهل شكري أهل زيادتي، أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم))

إن تابوا فأنا رؤوف بهم، وإن لم يتوبوا فأنا رحيم بهم، الرأفة أن يحول بينك وبين الوقوع، لكن الرحمة أن يعالجك عند الوقوع، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب، الحسنة عندي بعشرة أمثالها وأزيد، والسيئة بمثلها وأعفو وأنا أرأف بعبدي من الأم بولدها.. ذلك الله رب العالمين، حبيب وطبيب، حبيب إن اتبعنا منهجه، وطبيب إن حدنا عن منهجه.

قال العلماء: **" ومن رحمته بعباده أن يصونهم عن موجبات عقوبته، وأن يعصمهم عن الزلة "،** وهذا أبلغ في باب الرحمن من غفران المعصية، فأن يحول بينك وبين المعصية أبلغ من أن يغفرها لك.

وربما رحم عبداً بما يكون في الظاهر مشقة وشدة، ولكنه في الباطن نعمة ورحمة، ولذلك فالإمام ابن عطاء الله السكندري يقول: **" ربما أعطاك فمنعك، وربما منعك فأعطاك ".**

ويا أيها الإخوة الأكارم حقيقة أضعها بين أيديكم فلقد قال العلماء: **" الحزن يصنع، أما اليسر والغنى والشبع والترف فهذه لا تصنع شيئاً "**، العبقريات تأتي من الفقراء غالباً، والأزمات أحياناً تولِّد تفوقاً، وتألقاً، إبداعاً، وابتكاراً، أما الرخاء والبحبوحة والطعام والشراب والأمن، فلا تولد شيئاً، و أحياناً يدفعك الخوف إلى باب الله.. وأحياناً تسوق الشدائد الناس إلى باب الله عز وجل، وتسمو و ترقى بهم.

ولذلك فالمجتمعات التي تنعم بالرخاء الكبير، تجده حجاباً بينها وبين الله، والمجتمعات التي تعاني ما تعاني، فهذه المعاناة لعلها سَوق من الله عز وجل الرؤوف إلى بابه، لا تقل أنا أعاني من مشكلات، والله الذي لا إله إلا هو، وأنا أقسم بهذا، لو أن الإنسان كشف الله له يوم القيامة عن حكمة المصائب التي ساقها إليه، فلابد من أن يذوب حباً لله عز وجل، فأفعال الله مدهشة.

وفي جامع النابلسي، انتهى الدرس فاقترب مني شاب، وقال: أريد أن ألتقي معك على انفراد، قلت مرحباً بك، فأخذته إلى البيت، فقال: لي بالحرف الواحد، أنا إنسان أعمل في صنعة، وصاحب هذه الحرفة ينكر وجود الله عز وجل، وكنت عنده صغيراً، وأقنعني أن هذا الكون ليس له خالق، وافعل ما تشاء، وقال لي: والله يا أستاذ، ما من معصية تخطر على بالك إلا فعلتها إلا القتل، وأنا في بحبوحة، والمال وفير، وعندي محل لتأجير أفلام منحطة، ويدر علي مبالغ طائلة، ونحن في أوج نشوتنا بهذا

الدخل الوفير، وهذا التفلّت من منهج الله، واللقاءات التي لا ترضي الله، والسفر بنية المعاصي، والقصة طويلة..... حل به وبشريكه مصاب جلل، ذكر لي أن هذا المصاب من باب التقريب كأن مطرقة أضرب بها على رأسي، حتى إن رأسي تهشم، وقال: لا مال، بل مرض أنا وزوجتي وأولادي، وأنا أقول هذا الكون ليس له خالق، إلى أن دخلت المسجد أول مرة في حياتي، وصليت وأنا أبكي واصطلحت مع الله عقب هذه المصيبة، وكانت هذه المصيبة سبب توبتي،وقد ذكرت لكم مقتطفات من هذه القصة، وحينما خرج والله الذي لا إله إلا هو قلت: يا رب ما أشد رحمتك بهذا الإنسان، فلو أنك تركته على حاله يأكل ويشرب ويتنعم وينغمس في الموبقات إلى أن جاءه الأجل فاستحق جهنم إلى أبد الآبدين.

أخ كريم آخر حدثني عن قصة ورجاني أن أرويها لكم، درس في فرنسا، وعاش مجتمع التفلت، فلما قدم إلى بلده، قال جعلت من بيتي ملهى، كل الموبقات في البيت، وأنا أعتقد أن الحياة هكذا.

(أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٣٦) أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى (٣٧) ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى (٣٨) فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى (٣٩) أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى(٤٠))

(سورة القيامة)

(أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ (١١٥))

(سورة المؤمنون)

قال لي فجأةً أصبت بمرض عضال، كل شيء أمامي يهتز وفقدت التوازن والتوافق الحركي، عشرون محاولة كي أمسك بكأس عشرون محاولة كي أمسك الملعقة،إنه عدم التوافق الحركي، وعدم التوازن والأشياء كلها تتحرك وترتجف، وقال لي: لقد التقيت بسبعة وثلاثين طبيباً في دمشق، وكلهم عجز عن معرفة هذا المرض، ثم ذهبت إلى بلد غربي، فقال لي الأطباء: إن هذا المرض يصيب الناس بنسبة واحد على ثلاثة عشر مليوناً، وجاؤوا بطبيب يُعد الأول في العالم في هذا المرض فبقي يعالجني ستة أشهر، ثم قال لي: أنا أعلم الأطباء بهذا المرض، وليس لك علاج إطلاقاً، فعد إلى بلدك أو اذهب إلى الهند فالتق ببعض البوذيين لعلك تألف هذا المرض، وانتهى الأمر.. عاد إلى الشام، وله قريب جلبه إلى بعض الدروس، حيث كنا في الحاجبية وقتها، وهو في الدرس قال: يا رب إن شفيتني لأصلينّ، وفي الدرس الثاني قلت: في سياق الحديث، إن الله لا يُجرّب ولا يشارط، فقال من توه والله يا رب لأصلين، وأول مرة يصلي بحياته في الدرس الثاني، أما حالته المرضية فلا تُطاق، وكل شيء أمامه يترك، اضطراباً في الصورة، وعدم توافق حركي ويقسم بالله العظيم أنه عاد إلى البيت وفجأةً ثبتت الصورة أمامه، ومن شدة فرحه اختل توازنه وصاح، ثم قام ليقف فوقع، فأمسك الكأس فوقع، أما الصورة فقد ثبتت، وبعد حين عاد له التوافق الحركي، والتوازن وهذا الإنسان هو الآن من طلاب العلم، ومن رواد

المساجد ! لقد اصطلح مع الله، وتاب توبةً نصوحاً.. ويقول لولا هذا المرض..لجعلت بيتي باراً، وجعلته كالنادي الليلي، وكل المعاصي أقترفها.

فربنا عز وجل عندما يصر الإنسان على المعصية رحيم، لكن الله حريص علينا ألا نقع، وحرصه ألا نقع رأفة منه، ومعالجتنا بدواء مر بعد أن نقع رحمة بنا، فهو رؤوف ورحيم.

وفي أكثر من أربعين آية:

(إِنّ اللّهَ بِالنّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ)

(سورة البقرة الآية ١٤٣)

كما تريد.. إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم.. لكن هنيئاً لمن استجاب لرأفته ونال عطاءه قبل أن تدركه المصيبة.

وقد سألني أحدهم مازحاً ما فحوى هذه الدروس التي تُلقيها من عشرين عاماً في هذه المساجد، فأردت أن أداعبه، فقلت له باللغة الدارجة **" إما أن تأتيه ركضاً وإما أن يجلبك ركضاً، فاختر واحدة من الاثنتين ".**

وأنا والله أرى من الشرف بالإنسان ومن الذكاء والتوفيق أن يأتيه طوعاً، وهو صحيح و معافى، وسليم، و آمن، وغني، وشاب، لا أن يأتيه قهراً وقسراً على أثر مصيبة طاحنة والله عز وجل علاجه مرّ:

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ (١٢))

(سورة البروج)

وأحياناً يحمّل الإنسان ما لا طاقة له به، فقد ذكر لي رجل: أنه أصيب بمرضين، مرض عضال في الجهاز الهضمي، ومثله في القلب، والشيء الذي لا يُحتمل أن أدوية القلب تؤذي جهاز الهضم وأن أدوية جهاز الهضم تؤذي القلب، ولذلك اجتمع الأطباء وقالوا: لا تأخذ أي دواء:

(لَا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦))

(سورة البقرة)

و أحياناً فقر وقهر ومرض وجوع معاً، فكلما كان الانحراف أشد كان العلاج مراً أكثر، والمؤمن يفهم على الله بالإشارة.

ورجل أساء إساءة، وهو يتوقع من الله العقاب فانتظر أياماً ما حدث شيء، فصحته وبيته و أولاده، كلها على ما يرام، ففي الصلاة ناجى ربه، وقال يا رب قد عصيتك فلم تعاقبني، ووقع في قلبه **أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر ألم أحرمك لذة مناجاتي.**

هذه الصلة هي روحية، يحرص عليها حرصه على روحه، فإذا انقطعت يُعد هذا أكبر عقاب له، الإنسان المستقيم المصطلح مع الله التائب إليه له منه مدد، وله سكينة، له ونور يقذفه في قلبه، وطمأنينة، إنه متوازن، في ظل الله ورحمته، وحفظه، وتوفيقه، وتأييده، و دعمه في الدفاع عنه، فإذا خرق الاستقامة خرج من مظلة الله، وحفظه فيُعامل كما يُعامل عامة الناس، أما وأنت مستقيم فلك معاملة خاصة، قال تعالى:

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١))

(سورة النساء)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨))

(سورة الحج)

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))

(سورة الروم)

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

(سورة آل عمران)

ومن رحمته بك أن يصونك عن ملاحظة الأغيار، فلا ترفع حوائجك إلا إليه، والله عز وجل إن رأى عبداً تعلق بعبد مثله فمن رحمته بهذا العبد أن يصونه عن الشرك، ولذلك فالذي تعلقت به يخيب ظنك دائماً والله يغار عليك أن تتجه إلى غيره وهو فقير، وإذا كان النبي عليه الصلاة والسلام لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضراً، و الله وحده هو الذي يملك فلذلك من رحمته أن يصونك عن ملاحظة الأغيار، فلا ترفع حوائجك إلا إلى الواحد القهار.

قيل لبعضهم: سل حاجتك، فقال من وضع قدمه على بساط المعرفة لا يحسن به أن يكون لغير الله عليه منة.

و أحد خلفاء بني أمية كان في الحرم المكي يطوف فالتقى بأحد كبار العلماء وأراد هذا الخليفة أن يتقرب من هذا العالم، فقال: سلني حاجتك قال: والله إني أستحي من الله أن أسأل في بيته غيره، فلما خرج التقى به خارج الحرم، فقال: سلني حاجتك، قال: والله ما سألتها من يملكها أفأسألها من لا يملكها، فلما أصر عليه، قال: حاجتي أن تنقذني من النار وأن تدخلني الجنة، قال: هذه ليست لي، قال: إذاً ليس لي عندك حاجة، فهذه حاجتي الوحيدة.

وقيل لبعض الصالحين: ألك حاجة، فقال: لا حاجة بي إلى من لا يعلم حاجتي لأن الذي يعلم حاجتي هو الله، يعلمها دون أن أسأله، قال سيدنا جبريل لإبراهيم الخليل: **ألك حاجة، قال: علمه بحالي يغني عن سؤالي.**

فالرؤوف: هو الذي جاد بلطفه، ومنّ بتعطفه، والرؤوف هو المتعطف على المذنبين بالتوبة وعلى الأولياء بالحفظ، وهو الذي صان أولياءه عن ملاحظة الأشكال وكفاهم بفضله مؤونة الأشغال، وقيل هو الذي ستر ما رأى من العيوب ثم عفا عما ستر من الذنوب.

والإمام الرازي رحمه الله تعالى يفرق بين اسم الرؤوف واسم الرحيم، فيقول: **واعلم أنه تعالى قدم الرؤوف على الرحيم والرأفة على الرحمة** في الآيات التي تلوناها، وهذا يقتضي وقوع الفرق بينهما، وأيضاً أينما ذكر الله تعالى هذين الوصفين قدم الرأفة على الرحمة، فلابد من بيان الفرق بين الوصفين، والفرق هو أن الرحيم في الشاهد إنما يحصل لمعنى في المرحوم من فاقة وضعف وحاجة، والرأفة تطلق عندما تحصل الرحمة في الفاعل من شفقة على المرحوم.

والمعنى دقيق سأشرحه لكم ؛ فالباعث في الرحمة هو المرحوم، وأما الباعث بالرأفة فهو الراحم، والمرحوم هو الإنسان إذا وقع في مصاب شديد يقتضي المصاب أن يحتاج إلى الرحمة، فالله رحيم أما هذا المخلوق قبل أن يُصاب فمن كمال الله عز وجل، حرصه على سلامته، وهذا الحرص يقتضي الرأفة، فالانطلاق في الرأفة من الله، وفي الرحمة من العبد، وهذا هو الفرق.

فمنشأ الرأفة كمال حال الفاعل في إيصال الإحسان، ومنشأ الرحمة كمال حال المرحوم في الاحتياج للإحسان، فالإنسان إذا احتاج إلى الرحمة فالله رحيم، وأما ربنا عز وجل فلأنه منزه ولأنه كامل يحول بين عبده وبين أن يقع في السوء، فالرأفة من الله والرحمة بسبب مصيبة ألمت بالعبد.

والرأفة والرحمة وردت في كتاب الله في أربعين موضعاً:

(وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٤٣))

(سورة البقرة)

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧))

(سورة البقرة الآية٢٠٧)

(يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠))

(سورة آل عمران)

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١١٧))

(سورة التوبة)

(أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٤٦) أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٤٧))

(سورة النحل)

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥))

(سورة الحج)

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (٢٠))

(سورة النور)

(هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ(٩))

(سورة الحديد)

(وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٠))

(سورة الحشر)

والملاحظ أن هذين الاسمين وردا معاً لأنهما من طبيعة واحدة، فواحد وقائي وواحد علاجي، والأول أشد والثاني أقل.

والآن ما الأدب الذي ينبغي أن نتأدب به مع اسم الرؤوف ؟:

أولا: ينبغي أن نكثر من ذكر هذا الاسم كي نحب الله عز وجل لأن الله أسماؤه حُسنى، وصفاته فُضلى، وكلما ذكرنا أسماءه الحُسنى مال القلب إليه واشتاق العبد إلى لقياه فمن الأدب أن نكثر من ذكر هذا الاسم.

والشيء الثاني: أن نتخلّق بأخلاق الله فنحول بين الناس وبين أن يعصوا ربهم، ونستخدم الأسلوب الوقائي لا العلاجي، وأقرب شيء الأولاد، فقبل أن يقع الابن في مشكلة ويمد الأب يده لينقذه هناك شيء أهم من ذلك، أن تحول بينه وبين أن يقع في هذه المشكلة، فالتربية الوقائية هي التخلق بأخلاق الله عز وجل، فبين أن تربي ابنك تربية علاجية وبين أن تربيه تربية وقائية، هناك فرق بين الرأفة والرحمة، لذلك تخلّق بأخلاق الرؤوف وحل بين الناس وبين أن يقعوا في مشكلة.

وافرض أنك صاحب محل وعندك موظف، وأمورك مسيبة فالدرج ليس له قفل، وأنت لا تدقق، وعندما لاحظ الموظف أنه لا يوجد تدقيق وهناك تسيب، سولت له نفسه أن يسرق فلما سرق وتابع في السرقة كشفت السرقة، وتريد أن تنكل به عندئذ، تريد أن تذيقه الأمرين، و أن تفضحه، وأن تشتكي

عليه، وأنت الذي ورطته، فالآن تريد أن تعالجه، وكان الأولى بك أن تحول بينه وبين هذه المعصية، وأن يشعر أن الأمور عندك مضبوطة، حسابات دقيقة، وصندوق يومي، ومبيعات مسجلة وحينما تضبط الأمور تحول بين الناس وبين أن يأكلوا مالاً حراماً فأنت بهذا رؤوف، أما عندما ورطته وفضحته حطمته وانتهى الأمر.

هناك إنسان يهمل زوجته و لا يقوم بواجبه تجاهها، إذ يغيب عن البيت عشرين ساعة، ثم يكتشف أنها خانته، و أنها منحرفة الأخلاق، وعندئذ يريد أن يفعل بها الأفاعيل، لا.. أنت لم تكن رؤوفاً بها، بل سببت الأمور وأهملت تربيتها حتى وقعت فيما وقعت به، فحطمتها، والتطبيق العملي.. أن تتخلق بأخلاق الله، حُلْ بين الناس وبين أن يقعوا في المعصية، وأن يفسدوا وهذا من أدب الإنسان مع اسم الرؤوف، والله عز وجل، جعلك خليفته في الأرض، لتتخلق بأخلاقه.

والقاعدة أن ؛ الإنسان إذا سرق.. فالسرقة جريمة،و الحديث لا أذكر نصه الحرفي، هذا الذي يعين الناس على أن يسرقوا لغفلته وعدم انضباطه ليس أقل إثماً منهم، إثمه كإثمهم، لأن أموره غير مضبوطة.

فإذا اتفقت مع شريك بلا عقد ولا تسجيل ولا توثيق، فهذا الشريك سولت له نفسه أن يجعلك خارج المحل، فسجل المحل باسمه، وارتكب جريمة الغدر، التي كنت السبب فيها، فلو قيدته بعقد أصولي، موثق في الجهات الرسمية، لما سولت له نفسه أن يغدر بك فأنت حينما تحول بين الناس وبين أن يقعوا في المعاصي تكون قد تخلقت باسم الرؤوف.

((فتخلقوا بأخلاق الله))

فأنت مع أولادك، و طلابك، أو مع صانع في المحل تزيل الحدود بينك وبينه فيتطاول عليك، فيطرده، فلولا أنك رفعت الحجاب وجرأته عليك، لما اجترأ و لو أبقيته في مكانه وأبقيت نفسك في مكانك لما احتجت أن تطرده وتوقع به الضرر.

فالذي يحول بين الناس وبين أن يسقطوا يتخلق بأخلاق الله، إذاً حل بين الناس وبين أن يسقطوا، واضبط الأمور، ودقق.

و تشتري من عند بائع، فتأتي آخر الشهر، فتسأله كم الحساب فيقول: ثلاثة آلاف، فتدفعها دون أن تدقق، وفي الشهر الثاني لا تدقق ولا تقول: أرني الحساب، فسولت له نفسه فضاعف المبالغ، فمن الذي حمله على السرقة ؟ أنت ! فلو أردت أن تحول بين الناس وبين أن يقعوا في المعاصي فتخلق بأخلاق الرؤوف.

و الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه بلغه أن رجلاً وراء النهر يروي أحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فرحل إليه ولما ورد عليه وجده يطعم كلباً، فسلم عليه، فرد الرجل السلام ثم اشتغل

بإطعام الكلب، ولم يلتفت إليه، حتى انتهى فقال: لعلك وجدت في نفسك إذ أقبلتُ على الكلب ولم أقبل عليك، قال الإمام أحمد: نعم، فقال الرجل:

((حدثني أبو الزناد، عن الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: من قطع رجاء من ارتجاه قطع الله رجاءه يوم القيامة فلم يلج الجنة))

ثم قال الرجل: وأرضنا هذه ليس فيها كلاب، وقد قصدني هذا فخفت أن أقطع رجاءه، فقال الإمام أحمد يكفيني هذا الحديث..

وقد ورد في بعض الأدعية ؛ اللهم أنت الرؤوف وقد انجذبت إليك القلوب بحسن العواطف وأنت الرحيم أحاطت رحمتك بالطائع والمخالف أشرق على قلبي بنور الرؤوف الحنان واجعلني أعطف على جميع بني الإنسان، فأستغفر للمذنبين، وأحب الهدى للكافرين، وأتمنى التوبة للعاصين، وأطلب الوسعة للمحتاجين، فأنال قسطاً وافراً من ميراث سيد المرسلين عليه أتم الصلاة والتسليم إنك على كل شيء قدير.

أيها الإخوة، هذه الدروس دروس أسماء الله الحُسنى لها هدفان كبيران، الأول أن تعرف الله، والثاني أن تتخلق بأخلاقه، الأول أن تعظمه، والثاني أن تسمو إليه، الأول أن تعرفه والثاني أن تكون كاملاً، متخلقاً بهذه الأسماء حتى تستحق جنة الله عز وجل.

٥٨- اسم الله الغفور :

مع الدرس الثامن والخمسين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم هو الغفور، الغفور كما ورد في الحديث الصحيح من أسماء الله الحُسنى، والغفور كما تعلمون أصله في اللغة من مادة غَفَرَ، وغفر بمعنى ستر، والغَفْرُ هو الستر.

أما معنى اسم الغفور فهو كثير المغفرة للذنوب، من مادة غفر، واسم الفاعل غافر، أما غفور فصيغة مبالغة لاسم الفاعل، يعني كثير المغفرة.

غفر فلان شيئاً أي ستره، والمغفرة التغطية على الذنوب والعفو عنها، وقد قال بعض العرب: أسألك الغفيرة والناقة الغزيرة، وعزة في العشيرة فإنها عليك يسيرة.. والغفيرة هي الستر.

والغفران من الله أن يصون العبد من أن يمسه العذاب، و مغفرة الله ستر بينك وبين العذاب، وقد يُقال: غفر له إذا تجاوز عنه في الظاهر ولم يتجاوز عنه في الباطن، فالسيئة مسجلة ولكن لم يعاقب عليها.

والغفور والغفار والغافر ؛ من أسماء الله الحُسنى.

(غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ (٣))

(سورة غافر)

فغافر من أسماء الله الحُسنى، وكذلك الغفار والغفور.

فيا أيها الإخوة الكرام: إن هذا الاسم من أقرب أسماء الله الحُسنى إليكم.. لأن العبد من شأنه أن يذنب، و الله من شأنه أن يغفر، وما أمرك أن تستغفره إلا ليغفر لك، وما أمرك أن تستغفره إلا لأن لمّا يعلم ضعفك، وغفلتك أحياناً، فالمغفرة علاج الضعف البشري أحياناً، أو الغفلة، ولولا أن الله تعالى غفور فما يحل بنا ؟ وما نفعل بذنوبنا، وكيف نواجه ربنا، لكن الله سبحانه وتعالى غفور أي يستر ذنبك عن الخلق ويعفو عنك ويحول بينك وبين العقاب.

و الآن هناك معان جديدة في الغفور.. فأنت لضعفك أحياناً تغفر إذ لا تستطيع أن تنال من فلان، فتسامحه، لكن شأن الله جل جلاله غير هذا الشأن، الغفور هو التام القدرة، يعني الله جل جلاله، قدير إلى درجة أن الخلق كلهم جميعاً كن فيكون، زل فيزول.. ومع تمام قدرته هو غفور.

وبالمناسبة، فهناك فضائل خلقية لا قيمة لها إلا إذا رافقتها القوة فالعفو مثلاً، من دون مقدرة لا قيمة له، لكن أن تملك عدوك ويصبح في قبضتك ويرى نفسه صغيراً، أو كأنه لا وجود له، فالآن تعفو عنه.

والنبي عليه الصلاة والسلام حينما دخل مكة فاتحاً.. وهي التي أخرجته ونكلت بأصحابه وناصبته العداء عشرين عاماً، وعزته مرات عديدة، ولم تدع أسلوباً ينال من رسول الله وأصحابه إلا سلكته، وقريش الآن كلها في قبضته.. مائة ألف سيف متوهج ينتظرون حركة من شفتيه، حياتهم رهن إشارته، فقال لأهلها **ما تظنون أني فاعل بكم**، قالوا أخ كريم وابن أخ كريم، قال:

((اذهبوا فأنتم الطلقاء))

و العفو من دون قدرة لا قيمة له، والحلم يحتاج إلى قدرة والأمانة لا قيمة لها إلا إذا لم تكن مداناً في الأرض، فإن كان معك مال لإنسان مات فجأة، ولم يعلم أحدٌ بهذا المال، فلست مداناً أمام الناس إطلاقاً، وليس في الأرض كلها جهة تحاسبك عليه، فأتيت الورثة ونقدتهم المبلغ، فهذه هي الأمانة، إنها خُلق ومن لوازمها أن لا تكون مداناً في الأرض، والعفو خلق من خصائصه أن تكون تام القدرة، والمغفرة كذلك، فالعفو والمغفرة والحلم ؛ ينبغي لك أن تكون تام القدرة حتى تكون لهذه الخصائص الخلقية قيمة في الميزان الأخلاقي.

الغفور كما قال العلماء هو السيد التام القدرة، وقد يغفر فضلاً وإحساناً منه قال تعالى:

(إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨))

(سورة المائدة)

فالمنطق وسياق الآيات.. فإنك أنت الغفور الرحيم، بل جاءت الآيات:

(فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ)

وإذا غفرت لهؤلاء فليس في الكون كله من يسأل الله لماذا غفرت لهم، و أنت أحياناً تلتمس العذر من إنسان قوي، فيقول لك أنا بإمكاني أن أعفو عنك ولكن أحاسب لِمَ عفوت عنك، لكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يغفر لعبد ذنباً فمن يحاسبه، ومن يسأله، ليس من شأن الإله أن يُسأل عما يفعل، قال تعالى:

(لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ (٢٣))

(سورة الأنبياء)

فلذلك الغفور هو السيد التام القدرة، وقد يغفر فضلاً وإحساناً منه من دون قيد أو شرط.

وأرجو أن أوضح لكم هذه الحقيقة من دقيقة دقيقة في علم التوحيد.. فالله سبحانه وتعالى طليق الإرادة لا يقيده شيء، والإنسان مهما علا في الأرض فهناك قواعد تقيد سلوكه، و شأن الإله أنه لا يُسأل عما يفعل، إذا عفا وإذا غفر وإذا أعطى وإذا منع، لكنه طمأننا، وقال:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

وقال:

((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته محرماً بينكم فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهديكم، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم))

فالله عز وجل طليق الإرادة، لا يقيد تصرفاته شيء، ولذلك يعفو من دون قيد أو شرط، ويعطي ويمنع، ولكن الله سبحانه وتعالى، ألزم نفسه إلزاماً ذاتياً بالاستقامة،

وقال:

(إنّ ربّي علَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

حرم على نفسه الظلم:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦))

(سورة فصلت)

(يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧١))

(سورة الإسراء)

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤))

(سورة النساء)

(يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣))

(سورة فاطر)

لا قطمير ولا فتيل ولا نقير.

فالله عز وجل إذا ألزم نفسه بالعدل فالإلزام ذاتي، وإذا ألزمها بالعفو فالعفو ذاتي، أما أن يكون هناك قاعدة تقيد الله عز وجل.. فهو وحده الذي لا تُقيده قاعدة.

وقيل: إن الغفار هو الذي إن تكررت منك الإساءة وأقبلت عليه فهو غفارك وسترك، والإنسان أحياناً يغلط، فإذا بلغ هذا الغلط إنساناً فيفضحه بين الناس، لكن الله عز وجل غفور، ويظهر للناس أحسن ما عندك ويخفي عنهم القبيح، وهذا من كمال الله عز وجل فقد جمّل الإنسان بهذا الجلد، فلو نظرت إلى جسم الإنسان عضلات فقط، فشيء مخيف، ففي وجهه مائة عضلة، وقد جمّله بهذا الجلد،و بهذه الثياب، وبستر العيوب، والإنسان قد يخطئ و ينحرف، ويزل، لكن ربنا عز وجل يغفر ويستر ويبدي للناس أحسن ما عندك.

وقد ورد اسم الغفور في القرآن الكريم في أماكن كثيرة، زادت عن تسعين آية تقريباً، قال تعالى:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٢٥))

(سورة البقرة)

ومعنى غفور كثير المغفرة، إذ يقع الإنسان بذنب فيغفر له، ومرة ثانية و ثالثة، وقد تقتضي الحكمة أن يفضحه، أو أن يعاقبه، لكن الغفور كثير المغفرة، ورد أن سيدنا عمر ضبط سارقاً فقال: والله يا أمير المؤمنين هذه أول مرة، فسيدنا عمر يعرف عن الله الشيء الكثير، قال: **"كذبت إن الله لا يفضح من أول مرة، فظهرت أنها الثامنة.. "**. ومن أخلاق الله عز وجل أنه حليم، فالإنسان إذا غلط، فحينما يألف

الغلط و ينقلب إلى قاعدة، و يستشري، فعندئذ يؤدبه، أو يفضحه.

أقرأ اليوم بالجريدة، أن باخرة إفرنسية رست في ميناء إفريقي فتسلل إليها تسعة زنوج من البلدة التي رست فيها خفية، واختبؤوا بين الآلات والباخرة في عرض البحر، فكشف ربان الباخرة، أن فيها تسعة رجال من هذه البلدة التي كان راسياً في مينائها، فانظروا إلى قسوة الإنسان، فربان الباخرة أصدر أمراً بقتلهم، فاستدرج واحد تلو الآخر وأُطلق عليه النار وتولى بحاران إلقاءهم في البحر، فهذه الجريمة إذا وقعت على تسعة أشخاص وتم إعدامهم وإلقاؤهم في البحر فليس لها أثر إطلاقاً، لكن: التاسع استطاع أن يختبئ في مكان لم يعثروا عليه و بعد أن رست في ميناء آخر، استطاع أن يهرب إلى ذلك البلد واتصل بالشرطة وأخبرهم، بالأمر فجرت محاكمة في فرنسا وحكموا على الربان بالمؤبد وعلى البحارة بعشرين سنة، لكن هذا الذي نجا أنجاه الله عز وجل ليكشف الأمر ويعاقب هؤلاء المجرمين.

فالله عز وجل حينما يفضح يكون هناك إصرار على الذنب وعلاقة هذه القصة بهذا الدرس، إن الله عز وجل لا يفضح من أول مرة، فالإنسان عندما يألف الذنب ويثبت عليه، ويصر ويجعله سلوكاً ثابتاً، فعندئذ يفضحه ربنا سبحانه وتعالى، ويؤدبه ويعاقبه، و أخلاق ربنا عز وجل إذا غلط إنسان ولجأ إليه مستغفراً، فالله عز وجل يغفر ذنبه، وقد قال تعالى:

(وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ)

يغفر ثم يغفر ثم يغفر، أما إذا كان هناك إصرار، واستمرار على المعصية، وعدم مبالاة فالله يفضح.

وفي آل عمران:

(قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١))

(سورة آل عمران)

هناك غفور حليم وهنا غفور رحيم، أي رحمته بكم دعته إلى مغفرة ذنوبكم، فلنلاحظ الأم وابنها، فمهما أخطأ في حقها فقلبها يتسع لأخطاء الولد كلها.

فالله عز وجل غفور حليم، حلمه يستدعي أن يغفر لكم المرة تلو المرة، أما هنا فرحمته تقتضي أن يغفر لكم.

وفي سورة المائدة:

(إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٤))

(سورة المائدة)

وهذه الآية إذا قرأها حقوقي فسوف يقشعر جلده، إذ بكل دساتير العالم مادة وهي أن القوانين لا يمكن أن تعمل بمفعول رجعي ؛ فشيء لم يكن محرماً ولم يكن ممنوعاً، ثم صدر أمر بمنعه، أيمكن أن نعاقب أناساً مارسوه قبل المنع، فهذا منتهى الظلم، أن تصدر قانوناً وتعمله بمفعول رجعي،

(إلا الّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

فإذا تابوا بعد أن قدرتم عليهم فتوبتهم كاذبة، لكنهم كانوا أحراراً وتابوا، ثم وقعوا في قبضتكم فليس لكم عليهم من سلطان.. وهذه الآية هي الوحيدة التي تشير إلى أنه لا يجوز أن تُطبق الأحكام بمفعول رجعي.

(فَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ)

وفي المائدة أيضاً:

(يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزّلُ الْقُرْآنُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا اللّهُ عَنْهَا وَاللّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ (١٠١))

(سورة المائدة)

هل لاحظتم الأسماء، فاسم الغفور يتناوب بين اسم الرحيم وبين اسم الحليم، فربنا سبحانه وتعالى حلمه يستدعي أن يغفر لكم المرة تلو المرة ورحمته تقتضي أن يغفر لكم.

(وَإِذَا جَاءَكَ الّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرّحْمَةَ أَنّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤))

(سورة الأنعام)

وهناك موضوع أرجو الله سبحانه وتعالى أن يمكنني من توضيحه في هذا الدرس بالذات، الذي يجذب النظر قوله تعالى:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنّي أَنَا الْغَفُورُ الرّحِيمُ (٤٩) وَأَنّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠))

(سورة الحجر)

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعاً إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَى رَبّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمّ لَا تُنْصَرُونَ (٥٤) وَاتّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرّطْتُ فِي جَنْبِ اللّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السّاخِرِينَ (٥٦))

(سورة الزمر)

فما الحكمة إذ، كلما ذكر الله عظيم رحمته، ومغفرته وحلمه ذكر شديد عقابه، فماذا يعني؟ يعني ذلك أن الله غفور إذا عدت إليه، وغفور إذا استغفرته، وغفور إذا تبت من ذنبك، و أصلحت وأخلصت، فهذه الأسماء الحُسنى، والصفات الفضلى في الله عز وجل لا يمكن أن تكون مبتذلة، وهذه الصفات غفور إذا أقبلت عليه وتبت ورجعت إليه، وأقلعت عن الذنب وندمت فهو غفور.

لذلك ورد أربع أو خمس آيات ثم إن ربك للذين تابوا وآمنوا وعملوا الصالحات إن ربك من بعدها لغفور رحيم، إذا من السذاجة وضيق الأفق والجهل أن تُعلق آمالاً على مغفرة الله وأنت مقيم على

معصية، فمن الغباء والحمق والجهل أن تقول الله غفور رحيم وأنت لا تفكر بالتوبة وإن لم تفكر بها فاقرأ تتمة الآية:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ)

(سورة الحجر)

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣))

(سورة الأعراف)

الآية واضحة:

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآَمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)

وفي الأنفال:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْراً يُؤْتِكُمْ خَيْراً مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠))

(سورة الأنفال آية ٧٠)

وأريد أن أقف قليلاً عند هذا المعنى، أي كل إنسان إذا علم الله منه الندم والألم على ما ارتكب، فالله عز وجل غفور رحيم والاستغفار من أسباب سعة الرزق:

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً (١٠) يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَاراً (١١) وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَاراً (١٢) مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً (١٣) وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً (١٤) أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً (١٦) وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً (١٧) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً (١٨))

(سورة نوح)

فالاستغفار من أسباب سعة الرزق، إنجاب الأولاد، نزول الأمطار.

و يروى أن الحسن البصري دخل عليه رجل قال له: يا إمام إن زوجتي لا تنجب فقال له: **استغفر الله**، ثم جاء رجل آخر، فقال يا إمام السماء لا تمطر فقال: **استغفر الله**، ثم جاء ثالث فقال يا إمام: إن الله قتر علي بالرزق، فقال له: **استغفر الله.** وأحدهم جالس بقربه، فقال عجب لأمرك يا إمام أوكلما دخل عليك رجل تقول له: **استغفر الله**، قال: **اسمع قوله تعالى:**

(فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلْ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا)

أي إن عظمتم ربكم حق التعظيم أمدكم بالأموال والبنين، والإنسان أحياناً يتألم لما يحل بالمسلمين في شتى بقاع الأرض من قلة المطر لكن لا ينبغي له أن يتألم ألماً شديداً، بل عليه أن يرجع، إلى أن هؤلاء لو أنهم استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقاً.

(وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آَمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦))

(سورة الأعراف)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧))

(سورة محمد)

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨))

(سورة الحج)

(الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١))

(سورة النساء)

(وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥))

(سورة النور)

وما الذي يمنع إذا قرأنا القرآن أن نستنبط آيات الوعد الإلهي للمؤمنين والله عز وجل هل يُعقل ألا يفي بوعده، وإذا وعد الله المؤمن بالحياة الطيبة، فهل يُعقل أن تكون حياة المؤمن غير طيبة، وإذا وعد الكافر بالمعيشة الضنك فهل يُعقل أن يسعد الكافر بالمال والنساء والآية تقول:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤))

(سورة طه)

مستحيل.. ولذلك لما أوحى ربنا عز وجل إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين، أمرها بأمرين ونهاها عن شيئين وبشرها ببشارتين وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون، وحرمنا عليهم المراضع، فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون، فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن ولتعلم أن وعد الله حق ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

دققوا في الآية:

(فَرَدَدْنَاهُ إِلَى أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣))

(سورة القصص)

(أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ)

فالله ماذا وعدنا، هذا موضوع لطيف جداً، ابحث في كتاب الله عن وعوده، ضعها في قائمة، ثم ابحث عن موجبات هذه الوعود، فالنبي كان يقول:

((اللهم إني أسألك موجبات رحمتك))

ابحث عن موجبات رحمة الله، إن إله خالق الكون، وأحياناً يخطف أشخاص طائرة، فتعدهم الدولة صاحبتها فلا تنقض وعدها وهي دولة مادية علمانية أحياناً، فلا يمكن لخالق الكون، خالق السماوات والأرض إلا أن يفي بوعده.

وقد اكتشف العلماء قبل شهر تقريباً مجرة بعدها عن الأرض ثلاثمائة ألف بليون سنة ضوئية، فما هذا الرقم، يعجز خالق هذا الكون أن ينجز وعده لا.

وإذا قرأ الإنسان القرآن الكريم واستنبط آيات الوعد الإلهي، الذي وعدنا بالنصر، و بالحفظ، وبالتأييد، و بالتوفيق، ألا يجعل لكافر علينا سلطاناً ومن وعدنا بالاستخلاف والتمكين، والتطمين، فأين هذه الوعود إنها لحق كلها.

و أخشى ما أخشاه أن تنطبق علينا الآية الكريمة:

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيّاً (٥٩))

(سورة مريم)

وقد لقينا ذلك الغي، فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً، وإذا أردنا أن نعرف كيف يتبع الناس الشهوات فلنصعد إلى سطوح بيوتنا ولتنظر ماذا على السطوح التي حولنا.

(فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا)

هان أمر الله عليهم فهانوا على الله، أما وإن الله غفور رحيم، ولكن بشرط أن تعود إليه، وأن تتوب إليه، وأن تؤوب، وأن تندم على ذنبك، وأن تقلع عنه، وهذه الآية أيها الإخوة لها في نفسي أثر كبير:

(وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٥٣))

(سورة الأعراف)

فهذه كلمة غفور رحيم إذ يقول المنحرف لا تدقق الله غفور رحيم فضع مخالفاتك في رقبتي الله، وهذا كلام الجهل، فهو غفور رحيم إذا تبت ورجعت إليه.

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧))

(سورة يونس)

دققوا في هذه الآية:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ)

المس، أحياناً تريد أن تمتحن حرارة المكواة ماذا تفعل، تضع اللعاب على إصبعك، وتضع إصبعك بأضيق مساحة وبأقصر زمن باللعاب، هذا هو المس، فالعذاب يمس الإنسان مساً.

قال:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ)

الخير مراد من الله، أما الضر غير مراد، فالضر علاج أما الخير فمراد.

(فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

و لما ذكر ربنا عز وجل اسمه الغفور في كتابه تسعين مرة من أجل أن تطمئن القلوب، قلوب العصاة وتسكن نفوس المجرمين أي بصراحة من لنا غير الله عز وجل، مهما فعلت من ذنوب فليس إلا الله، وفي النهاية نحن إليه، والدعاء الشريف:

((اللهم أنا بك وإليك))

أنا بك قائم بك وإليك..:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦))

(سورة الغاشية)

((عبدي رجعوا وتركوك، وفي التراب دفنوك ولو بقوا معك ما نفعوك ولم يبق لك إلا أنا وأنا الحي الذي لا يموت))

أعرف رجلاً من عشرين سنة طريح الفراش، وأقرب الناس إليه يتمنى أن يخفف الله عنه، وأعرف أناساً كثيرين، لا يشعرون بألم ولا يشكون شيئاً، وبثانية واحدة كانوا من أهل القبور، فالمغادرة سريعة، أنا ولا أجد أعقل من إنسان يستعد لهذه الساعة، بعلاقاته وحساباته وماله وما عليه، ومن الحقوق والواجبات، والتوبة النصوح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وبطلب العلم وبتعليمه، والأمور كلها متاحة.

((لو أتيتني بملء السماوات والأرض خطايا غفرتها لك ولا أبالي))

والله أيها الإخوة سمعت عن فتيات عملن في الفن في قطر عربي مشهور، ورقصن وغنون وفعلن كل أنواع الموبقات، ثم بعضهن تاب إلى الله توبة نصوحاً، وأسدلن الحجاب على وجوههن، وقد قرأت عنهن كتيباً يعبرن فيه عن مشاعر الإيمان بأسلوب يعجز عن وصفه الإنسان، هذه الراقصة التي أمضت كل حياتها في المعاصي وفي الموبقات وفي عرض صوتها الجميل ثم هي الآن تائبة منيبة محجبة فالله عز وجل لو لم يكن كذلك فمن لنا غيره، وليس الأمر أن أفعل الموبقات، لكن لا تيئس أبداً فاليأس يعني الكفر:

(يَا بَنِيّ اذْهَبُوا فَتَحَسّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْئَسُوا مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِنّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللّهِ إِلّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٨٧))

(سورة يوسف)

والقنوط يعني الكفر، والله عز وجل فتح باب رحمته لكل مخلوقاته قال:

(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلّذِينَ يَتّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزّكَاةَ وَالّذِينَ هُمْ بِآَيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦))

(سورة الأعراف)

والآية الآتية لا تنسوها.

فهي أرجى آية في كتاب الله:

(قُلْ يَاعِبَادِي الّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذّنُوبَ جَمِيعًا إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ)

فمهما كثرت الذنوب تعلّق باسم الغفور، ولا أريد أن يكون الذنب حجاباً بين المذنب وبين الله، ولا أقبل ذلك، لأن اليأس يعني الكفر. والله عز وجل قال:

(غَافِرِ الذّنْبِ وَقَابِلِ التّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطّوْلِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ)

إن لم تتب، فذو الطول.

الآية الثانية:

(وَإِنّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمّ اهْتَدَى)

وهنا تفرقة لطيفة لغوية بين اسم الغفور وبين اسم الغفار، الغفور ينبئ عن نوع مبالغة ناشئة بالإضافة إلى مغفرة متكررة فهذا مرتكب ثلاثمائة ذنب فالله غفور، يغفرها له كلها، وآخر له ذنب كبير، فالله عز وجل غفار، فغفار للنوع وغفور للكم.

وقد ذكرت لكم قصة قرأتها في قصص العرب، عن إنسان يطوف حول الكعبة، ويقول: ربي اغفر لي ذنبي ولا أظنك تفعل، ووراءه رجل مؤمن فقال له: يا هذا ما أشد يأسك من رحمة الله، قال له: ذنبي عظيم، قال ما ذنبك، قال: كنت في حملة مع أمير في قمع فتنة، فلما قمعت الفتنة أبيحت لنا المدينة، فدخلت أحد بيوتها، فرأيت فيها رجلاً وامرأة وولدين، فقتلت الرجل وقلت للمرأة أعطني كل ما تملكين فأعطتني دنانير ذهبية، فقتلت ولدها الأول، فلما رأتني جاداً في قتل الولد الثاني أعطتني درعاً مذهبة، فلما أمسكتها أعجبتني، فإذا عليها بيتان من الشعر قرأتهما فصعقت، كتب على هذا الدرع:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فويل ثم ويل ثم ويـل لقاضي الأرض من قاضي السمـاء

***

والله كبير، فلذلك كلمة غفور.. مهما كثرت، وكلمة غفار مهما عظمت، فهي صيغة مبالغة، والمبالغة نوعان، مبالغة كم، ومبالغة نوع.

غافر الذنب، أي إذا كان عليها ذنب واحد وغفره لك فهو غافر، وإن كانت ثلاثمائة ذنب وغفرها لك فهو غفور، وإن كان ذنباً لا يُحتمل فهو غفار، هذا الفرق بين غافر وغفور وغفار.

و كما تعلمون دائماً تخلقوا بأخلاق الله، فحظ المتخلّق باسم الغفور أن يداوم الاستغفار، والورد الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

((إني أستغفر الله في اليوم مائة مرة))

والأولى للإنسان أن يستغفر صباحاً ومساءً، صباحاً لما جرى في الليل، ومساءً لما جرى في النهار، لكن أخشى أن تفهموا أن الله غفور رحيم إذاً فالقضية سهلة، لا.. فهذه مغفرة وقائية، فاستغفر من أجل ألا تقع في الذنب وليس الأمر افعل ما تشاء واستغفر فهذا غير مقبول إطلاقاً، والإنسان حينما يفعل معصية ويعلم أنها معصية ينشأ حجاب بينه وبين الله، فالأمر صعب أن يستغفر.

وأن يغفر الأخ للعباد فيما يرتكبونه، فهناك شخص حقود وشخص غفور، فإذا غلط الإنسان مع غفور يحس أن القضية سهلة، إذ يقول لك كأن لم تكن، أما مع حقود فيقول لك أنا قلبي أسود لا أنسى. خطيئة جعلنا الله من الذين إذا أسيء إليهم غفروا.

و لا أعتقد إنساناً أساء كما أساء مسطح إلى سيدنا الصديق حينما اتهم ابنته السيدة عائشة زوجة رسول الله بالزنا، وكان الصديق يعطيه معونة فقطعها، فقال تعالى:

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢))

(سورة النور)

يعني اغفر ليغفر الله لك، أتعتقد أن هناك إساءة أبلغ من هذه الإساءة، أن يتحدث عن ابنتك الطاهرة أنها زانية، ومع ذلك أمره الله أن يعفو وأن يصفح وأن يعود إلى ما كان عليه من المعونة، بكى سيدنا الصديق وقال: **بلى أحب أن يغفر الله لي.**

المؤمن المتخلّق بهذا الاسم لا يرى عورة إلا سترها، ولا زلّة إلا غفرها، وإن اعتذر إليه أخ قبل منه وعامله بالإحسان، ويقابل جميع إساءته بالغفران، لأن صاحب الخلق حينئذ يصير بين الناس كالشجرة الظليلة، تُرجم بالحجارة وتلقي عليهم الثمار، وهكذا المؤمن.

ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم:

((حَدَّثَنِي شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهما عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيِّدُ الاسْتِغْفَارِ أَنْ تَقُولَ اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا أَنْتَ خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ

مَا صَنَعْتُ أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيّ وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي فَإِنّهُ لا يَغْفِرُ الذّنُوبَ إِلا أَنْتَ قَالَ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ النّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمْسِيَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنّةِ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنّةِ))

(صحيح البخاري)

ورد بالأثر وبالأحاديث الصحيحة:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ الصّلاةُ الْمَكْتُوبَةُ إِلَى الصّلاةِ الّتِي بَعْدَهَا كَفّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا قَالَ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ وَالشّهْرُ إِلَى الشّهْرِ يَعْنِي رَمَضَانَ إِلَى رَمَضَانَ كَفّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا))

(مسند الإمام أحمد)

والإنسان يوم الجمعة كأنه فتح مع الله صفحة جديدة بعد الصلاة فإذا غلط.. فكل صلاة تمحو ما قبلها، ونحن من شأننا أن نستغفر وما لنا غير الاستغفار، واليأس من رحمة الله كفر، وكل إنسان يقول ذنبي كبير فهو لا يعرف الله عز وجل، فعلينا أن نستغفر، والله ما أمرنا بالاستغفار إلا ليغفر لنا.

قال سيدنا الصديق للنبي: **علمني دعاء أدعو به في صلاتي**، قال قل:

((اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم))

وقال الأصمعي: **وقف أعرابي أمام الروضة الشريفة، فقال: اللهم هذا حبيبك، وأنا عبدك، والشيطان عدوك، فإن غفرت لي سُر حبيبك وفاز عبدك وغضب عدوك، وإن لم تغفر لي غضب حبيبك، ورضي عدوك وهلك عبدك، وأنت أكرم من أن تغضب حبيبك، وترضي عدوك، وتهلك عبدك.**

وقال يا رب إن العرب الكرام إذا مات فيهم سيد أعتقوا على قبره وإن هذا سيد العالمين فأعتقني على قبره.

وإذا كان للإنسان له مع الله مناجاة، فالصادق مع الله يغفر له، وإذا كان عند عزيمة أكيدة أن لا يرجع إلى الذنب، فليس إلا الله عز وجل في الوجود، وهذا الاسم يمحي الماضي كله، بلمحة البصر ولا يدع شيئاً.

والله عز وجل إذا غفر يستر، فمع المغفرة ستر، ويظهر للناس أجمل ما عندك ويخفي عنهم السيئات، والماضي لا ينقله الله للآخرين.

وهناك امرأة زنت وأقيم عليها الحد وتابت، وبعد حين جاءها خاطب، وأخوها أحب أن يكون ناصحاً، فاستشار سيدنا عمر، وقال: إن أختي خطبها فلان أفأذكر له ما كان منها، قال: **والله لو ذكرت له ما كان منها لقتلتك**، وهناك رواية لعلوتك بهذه الدرة.

وإذا شيء وقع وانتهى فالسكوت أولى.. فشخص غلط غلطة، فشاعت عنه وتمضي السنون إلى عشرين، وقد صار إنساناً فاضلاً، وكلما ذُكر ذكروا غلطة وهذا لؤم بالإنسان، اعفُ عن الماضي.

والنبي الكريم قال:

((أمرني ربي بتسع أن يكون صمتي فكراً ونطقي ذكراً ونظري عبرةً، وأن أصل من قطعني وأعفو عن من ظلمني وأعطي من حرمني))

٥٩-اسم الله المنتقم :

مع الدرس التاسع والخمسين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم هو المنتقم وكلمة المنتقم إذا وصف بها إنسان من البشر فالأمر يختلف عما إذا كانت اسماً من أسماء الله، لأن الله سبحانه وتعالى أسماؤه كلمها حُسنى، والدليل قول الله عز وجل:

(وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى)

(سورة الأعراف)

و قد يتصف إنسان بالانتقام فلا نحبه، لكن الله سبحانه وتعالى حينما يضع للظالم حداً، فيوقفه عند حده، ويحجزه عن أن يؤذي الآخرين فهذا المعنى يليق بحضرة الله جل جلاله، وهذا الاسم الجليل مشتق من الانتقام، والنقمة هي العقوبة، والله جل جلاله يعاقب ليؤدب، ويؤدب ليسعد.

وقد ذكرت لكم من قبل أن الشر المطلق لا وجود له في الكون لأن وجوده يتناقض مع وجود الله، ولأن الله جل جلاله ذات كاملة ولله الأسماء الحُسنى، ويمكن أن نصف هذه الذات الكاملة بالوجود والوحدانية والكمال، فأي اسم اتصف الله به أو سمى نفسه به، ينبغي أن نفهمه فهماً يليق بكمال الله.

والمنتقم من الانتقام، والنقمة هي العقوبة والمنتقم الذي يعاقب من يشاء، أما الإنسان فلا يستطيع أن يعاقب من يشاء إذ لا يعاقب إلا من هو دونه، ولا يستطيع أن يعاقب نداً أو مساوياً له، وأما أن يعاقب من هو أعلى منه فهذا مستحيل، لكن الله سبحانه وتعالى ينتقم ممن يشاء ؛ أي يعاقب من يشاء، فإذا كنت مع القوي فأنت قوي، مهما يكن عدوك كبيراً، أو قوياً أو جباراً، أو طاغياً، أو متطاولاً، فالله جل جلاله أكبر ينتقم منه ويوقفه عند حده، ويحجزه عن أن يؤذي خلق الله عز وجل وبهذا المعنى نفهم الانتقام.

فلو أنك في الدنيا رأيت إنساناً شارداً مجرماً عاتياً يقتل ويسرق ويفعل فحينما يُلقى القبض عليه وتُحجز حريته يشعر الناس جميعاً بالراحة لأنه حُجز عن أن يؤذي خلق الله عز وجل، فالانتقام في هذا المعنى يليق بكمال الله جل جلاله.

قال بعض العلماء: **" المنتقم في حق الله تعالى هو الذي يقصم ظهور الطغاة ويشدد العقوبة على العصاة**، والانتقام أشد من العقوبة العاجلة التي لا تمكن صاحبها من الإمعان في المعصية، لكن المنتقم هو الذي يعاقب عقوبة تمنع المعاقب من أن يقع في المعصية " وربنا عز وجل هو الطبيب.

وقد تجد إنساناً فتسأل كيف يصلح هذا الإنسان، و يعود إلى الله و يستقيم على أمره، فتجد أن الله جل جلاله عاقبه بعقاب أو ساق له شدةً تحار لها العقول إذاً هو يقف عند حده، ويرتدع ويعود إلى ربه ويسلك الطريق القويم، فالمنتقم كالمربي، ينتقم ليؤدب ويؤدب ليسعد.

قالوا: **" المنتقم له معنى آخر، هو الذي عُرفت عظمته فخشي العباد نقمته "** و تقريباً للمعنى ؛ دولة عظمى لديها سلاح نووي قد لا تستخدم هذا السلاح إطلاقاً، لكنها مرهوبة الجانب، فلا يفكر أحد أن يعتدي عليها، فالله سبحانه وتعالى لأنه إذا أراد أن يعاقب عاقب:

(إنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ (١٢))

(سورة البروج)

فإذا عرف الإنسان عظمة الله عز وجل تأدب معه، فكان تعظيم الله سبباً لطاعته ولخشية نقمته، فالنقمة هي العقوبة، فانتقمنا منهم أي عاقبناهم، ولكن أيها الإخوة أريد أن أوضح لكم بعض المعاني، الكلمة كما تعلمنا في اللغة هي كائن يولد وينمو ويهرم ويموت، وهناك كلمات ميتة كثيرة جداً، وأضرب لكم بعض الأمثلة، قال الشاعر:

مدحوصة بمحيص الدحص بازلها له صريف صريف القعو بالمسد

***

هل فهمتم شيئاً، هذه كلمات ميتة، وأحياناً، للكلمة معنى رفيع، وبعد حين تكتسب معنى آخر غير المعنى الذي وضعت له، كنت أضرب على ذلك المثل التالي، الجرثومة في اللغة أصل الشيء، وقد وقف شاعر كبير يمدح خليفة عظيمة كالمعتصم يصفه بأنه جرثومة الدين والإسلام والحسب، وهذا بيت في المديح، والخليفة تقبّل هذا البيت بنفس رضية، أما كلمة جرثومة الآن فماذا تعني ؟ الشيء الشرير إذا قلنا لأحدهم أنت جرثومة فهذا المكان هذه كلمة ذم، إذ تأخذ الكلمة معنى غير المعنى الذي وضعت له في أصل اللغة.

وكلمة استعمار ؛ من إعمار الأرض، يعني أنت مثلاً إذا بنيت الأبنية ونصبت الجسور، وأنشأت المدارس والمستشفيات وشققت الطرق فأنت مستعمر، أما حينما جاءت قوة غاشمة واحتلت البلاد وسلبت ونهبت وقهرت وطغت وبغت سُميت استعماراً، فكملة استعمار لها وقع سيء في النفوس.

وكلمة عصابة: تعني الجماعة، قال عليه الصلاة والسلام:

((إن تهلك هذه العصابة فلن تُعبد بعد اليوم))

أما إذا قلت الآن عصابة مجرمين أو عصابة قطاع طرق، فلها معنى آخر، فينبغي لك أن تفهم الكلمة كما هي في أصل اللغة، فالمنتقم هو المعاقب.

ولعلنا نفهم المنتقم من البشر الذي يحقد والذي يعاقب ليتشفى، فهذه المعاني التي نفهما من كلام الناس اليوم لا علاقة لها بهذا الاسم إطلاقاً و المنتقم هو الذي يعاقب، أو هو الذي يعاقب عقوبة تردع صاحبها عن أن يعصي الله عز وجل، والمنتقم هو الذي يعاقب ليوقف الباغي و الظالم عند حده، والناس جميعاً يرتاحون إذا ألقي القبض على مجرم عات باغ ووضع حد لإجرامه.

والمعنى الفرعي الذي قلته قبل قليل، هو الذي عُرفت عظمته فخشي الناس نقمته، ومن عرف رحمته رجا نعمته، فإن عرفت عقوبته خشيت معصيته، وإن عرفت رحمته رجوت نعمته.

و سيدنا عمر سأله بعض أصحاب رسول الله، إن الناس خافوا شدتك وبطشك، فبكى وقال: **لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه** ولكن هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى.

وربنا عز وجل أحياناً يريك من رحمته الشيء الكثير، فترتاح راحة كبرى، وتطمح، وتطمع، وتسترخي أحياناً، وتتساهل وتقصر، يريك من شدته فتخاف، فهو يعالج الناس، إن أقبلوا على رحمته فقصروا أو تساهلوا أراهم من شدته.

والإمام الغزالي رحمه الله تعالى يذكر **أن المنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة.**

ومن القصص، إن رجل جالس على أريكة، وزوجته أمامه، وله أخت عانس متقدمة في السن، ألجأتها الأقدار إلى أن تكون عند أخيها وكانت هذه الزوجة تبالغ في التنكيل بأخت زوجها، إلى حد غير مقبول من امرأة غريبة، أما أن ينكل بها أخوها، إذ ركلها بقدمه أمام زوجته، وقال: إتني بكأس من الماء، وفي اليوم التالي كان في سفر فأصيب بحادث فقطعت رجله اليمنى التي ركل بها أخته ليذلها من أعلى الفخذ..

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ)

وآلاف من القصص، ينتقم ربنا عز وجل فيضع حداً للطغيان.

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِي حَاجّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبّيَ الّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنّ اللّهَ يَأْتِي بِالشّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الّذِي كَفَرَ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ (٢٥٨))

(سورة البقرة)

تروي القصص أن بعوضة دخلت إلى أنفه واستقرت في أعلى خيشومه فصار الألم لا يطاق، والإنسان ضعيف، فلو أن قناة الدمع سُدت لأصبحت حياته لا تطاق، ولو أن المستقيم أصيب بالشلل أو أصيب بورم خبيث لاستؤصل، وإذا استؤصل فسوف تحوّل الفضلات إلى فتحة في جدار البطن وهذا شيء لا يُحتمل.. ولو أن هذه الجفون أطبقت على بعضها ولم ترتفع إلا بيدك، لغدا الأمر لا يطاق، وربنا عز وجل لديه آلاف الأدوية بل مئات ألوف الأدوية، فإذا كنت في طاعته فأنت في ظله وحفظه و رحمته، وفضله.

والمنتقم هو الذي يقصم ظهور العتاة، وينكل بالجناة ويشدد العقاب على الطغاة، ولكن بعد الإعذار والإنذار، إن الله جلت حكمته لا يبطش من أول مرة، بل يعطي فرصة، وزمناً كي تتوب، و ترجع،

وهناك إنسان ضبط متلبساً بالسرقة، فسيق إلى أمير المؤمنين، قال: والله يا أمير المؤمنين إنها المرة الأولى، قال كذبت، إن الله لا يعاقب من المرة الأولى، إذاً هي المرة الثامنة.

وبعد الإعذار والإنذار، فالله يعطي تنبيهاً، وهناك من يقود مركبته في أحد طرق دمشق، فأصيب بأزمة قلبية فانكب على المقود وزوجته إلى جانبه فصرخت، ومن غرائب المصادفات، أو من توفيق الله عز وجل أن صديقه خلفه، فخرج من مركبته وحمله على المقعد الخلفي وأخذه إلى المشفى فأدخل إلى غرفة العناية المشددة، وبعد يومين أو ثلاثة، شعر بالخطر وقال ائوني بالمسجلة، فقال: المحل الفلاني لأخي وليس لي لقد اغتصبته منه، والبيت الفلاني لفلان، والأرض الفلانية لفلان، وكل الأراضي والبيوت والحوانيت التي اغتصبها اعترف بها على هذا الشريط، وبعد يومين أو ثلاثة، شعر أنه عاد إلى ما كان عليه فهو طبيعي جداً، فقال أين الشريط ائتوني به، فكسره وعاد إلى ما كان عليه، وبعد ثمانية أشهر جاءت النوبة القاضية.

فالله عز وجل متى يبطش ؟ ومتى يهلك ؟ ومتى ينتقم ؟ حينما يعذر وينذر، وبعد الإعذار والإنذار وبعد التمكين والإمهال.

والإمام القشيري يرى أن الانتقام نتيجة الكراهية، كراهية وعقوبة لكنك إذا قلت إن الله يكره، فالله لا يكره الإنسان لأنه إنسان بل يكره عمله فقط، فلا يغضب منه ولا يغضب عليه، ولا يكرهه بل يكره عمله وتقريباً للمعنى، فالأب مع ابنه المنحرف يكره انحرافه وهو ابنه فإذا عاد إليه عاد إلى مكانته الطبيعية، وإذاً فالكراهية لشيء والعقوبة عليه أيضاً كراهية وعقوبة، إلا أن كراهية الله عز وجل لكماله ولحرصه ورحمته، يكره العمل الذي يفضي بصاحبه إلى النار، فانتقام الله تعالى للعصاة على ما كره منهم ليصلحهم وليوصلهم إلى أبوابه وأبواب طاعته، والكراهة في حق الله تعالى ذم الفاعل والحكم عليه بالعقوبة، أما أن يكره الله عز وجل إنساناً فيتحمل مشقة منه، فهذا لا يليق بالله أبداً، ولا شيء يصل إليه ولا شيء ينال منه، إنه فوق كل شيء.

وإذا غضب الله عز وجل فلا يغضب لنفسه ولا يغضب لخلقه، إنه غني عنهم، ولو أن العباد جميعاً على أتقى قلب رجل واحد منهم ما زاد في ملك الله شيء.

وقيل: المنتقم هو الذي يشدد العقوبة على الظالمين، ويسلط البلاء على المجرمين، وهو الذي يرسل رسله بالآيات والإنذارات، فمن لم ينتفع بالإنذارات سلط عليه العقوبات.

وشيء مألوف ؛ يقول لك الطبيب لا تدخن فالدخان يسبب الأمراض الخبيثة، وأمراض القلب والأوعية وأمراض الموات"الغرغرين " فإن لم تستجب لهذه النصيحة يأتي المرض المزعج.

فقال بعضهم: هو الذي يرسل رسله بالآيات والإنذارات فإن لم ينتفع بها الإنسان سلط عليه العقوبات والانتقامات.

الانتقام كمادة لغوية ؛ وردت في القرآن الكريم في آيات كثيرة قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْياً بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَاماً لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٩٥))

(سورة المائدة ٩٥)

ومن عاد، استمرأ المعصية وبالغ فيها ولم يرتدع فينتقم الله منه أي يعاقبه، يعاقبه ليرحمه.

كما وردت كلمة انتقمنا منسوبة إلى الله جل جلاله في الأعراف:

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦))

(سورة الأعراف)

رسول كريم جاء فرعونَ ليدعوه إلى الله العظيم، جاء بالبينات والمعجزات والآيات، جاء لينهاه عن قتل أبناء بني إسرائيل واستحياء نسائهم، فما كان من فرعون الطاغية إلا أن جمع جنوده ولحق بموسى ومن معه، قال:

(إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (٥٤) وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ (٥٥))

(سورة الشعراء)

تصور فئة قليلة خائفة وجلة وضعيفة مستضعفة وراءها فرعون بجبروته وقوته وطغيانه وجنوده والبحر أمامها وفرعون وراءها والهلاك محقق:

(فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (٦١) قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٦٢))

(سورة الشعراء)

ولحكمة بالغة بالغة، أنقذ الله جسده إلى الشاطئ، لأن هذا الجسد لو لم يصل إلى الشاطئ لما صدق الناس أنه غرق، وهو يدعي الألوهية، لذلك:

(فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آَيَةً وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آَيَاتِنَا لَغَافِلُونَ (٩٢))

(سورة يونس)

والذي سمعته أنه محنط في متحف مصر، وأغلب الظن أن هذا المحنط في متحف مصر الفرعوني هو نفسه فرعون موسى، لأن آثار الملح موجودة في فمه، هكذا يقول بعض العلماء.

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦))

(سورة الأعراف)

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُبِينٍ (٧٩))

(سورة الحجر)

الأنبياء على صراط واضح مستقيم كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ جَابِرِ ابْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِكِتَابٍ أَصَابَهُ مِنْ بَعْضِ أَهْلِ الْكُتُبِ فَقَرَأَهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَغَضِبَ فَقَالَ أَمُتَهَوِّكُونَ فِيهَا يَا ابْنَ الْخَطَّابِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً لا تَسْأَلُوهُمْ عَنْ شَيْءٍ فَيُخْبِرُوكُمْ بِحَقٍّ فَتُكَذِّبُوا بِهِ أَوْ بِبَاطِلٍ فَتُصَدِّقُوا بِهِ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنَّ مُوسَى صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلا أَنْ يَتَّبِعَنِي))

(مسند الإمام أحمد)

وفي سورة الروم:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧))

(سورة الروم)

ويقول الله عز وجل:

(وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣))

(سورة الصافات)

كن جندياً لله وانتظر وعد الله بالنصر، فلا يمكن لمن كان جندياً لله أن يُهزم، وإذا هزم الإنسان فذلك يرجع إلى خلل في جنديته لله عز وجل وليس معنى أن يكون جندياً لله أن يحارب، فالكلمة لها معنى واسع جداً، فأنت إذا وظفت علمك وخبرتك في سبيل الله، في سبيل إحقاق الحق فأنت جندي لله، أحياناً تقول لإنسان كبير نحن جنودك، وليس هناك حرب و نحن أعوانك، ونحن في خدمتك، و طاقاتنا في سبيلك، فكيف إذا كنت جندياً لله، والمؤمن الصادق، علمه وخبرته وماله و لسانه وقلمه واختصاصه وحرفته ومهنته ومكانته وميزاته وخصائصه كلها موظفة في سبيل الله، ومعظم الناس يأكلون ويشربون ويعملون ويتاجرون ويربحون إلا المؤمن، كل هذه الأفعال الاعتيادية التي يفعلها كل الناس ولا أجر لهم ولكن إذا فعلها المؤمن تُحسب له أعمالاً صالحة لأنه يبتغي بها وجه الله.

قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً(١٠٤))

(سورة النساء)

وعندما يسهر الكفار ويخططون ويبذلون الجهود الكبيرة والجبارة ليطفئوا نور الله عز وجل، وليضيقوا على المؤمنين ليضعفوا دوائر الحق فهذا جهد ووقت وطاقة وذكاء وعلم وإمكانات وأموال:

(إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمّ يُغْلَبُونَ وَالّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦))

(سورة الأنفال)

الشيء الدقيق جداً:

(إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ)

لكن:

(وَتَرْجُونَ مِنْ اللّهِ مَا لا يَرْجُونَ)

أضرب لكم مثلاً آخر ؛ شابان أزمعا أن يتزوجا، هل من السهل تأمين بيت، والله لا تصل إلى مفتاح بيت إلا بشق الأنفس، وقد يكون بيتاً مؤلفاً من غرفة واحدة في أطراف المدينة البعيدة، فإذا ملكت هذا المفتاح كأنك ملكت الجنة، فالبيت وتأسيه، وكسوته، على العظم يقول لك أخذناه وتأمين حاجاته، هذا الشاب الذي يسعى للزواج يبذل جهداً كبيراً جداً، فإذا أراد من الزواج المتعة واللذة فقط، فهو يألم كما يألم أي شاب مؤمن، ولكن المؤمن يرجو من الله في زواجه ما لا يرجوه غير المؤمن، فالمؤمن يرجو أن يرزقه الله ولداً صالحاً ينفع الناس من بعده، ويرجو زوجة يأخذ بيدها إلى الله، وأن يؤسس عشاً إسلامياً نموذجياً لكل من يقتدي به، وهذه هي النقطة الدقيقة، فالأعمال الاعتيادية التي يفعلها معظم الناس مكرهين لا أجر لهم عند الله عز وجل، إلا أن المؤمن كل نشاطاته، وكل طاقاته وإمكاناته موظفة في خدمة الحق.

وجاء في سورة الزخرف:

(فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥))

(سورة الزخرف)

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في معركة بدر خاطب قتلى قريش واحداً واحداً، يا فلان يا فلان بأسمائهم وكأنهم أحياء، هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني وجدت ما وعدني ربي حقاً لقد كذبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس، قالوا: يا رسول الله أتخاطب قوماً جيفوا، قال: **ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنهم لا يجيبونني:**

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (٢٥))

(فَلَمّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٥))

(سورة الزخرف)

تلاحظون طغياناً وبغياً وعدواناً وكبراً وغطرسة، وقد سمعتم قبل أسابيع كيف أنهم أرادوا في ليلة القدر أن يعتدوا عدواناً مجرماً، وكيف انتقم الله منهم، إنهم مئة وخمسون ضابطاً من نخبة الضباط لا يمكن أن يعوضوا في أقل من عشر سنين تدريباً، سمعوا ما في الصندوق الأسود فقال الطيار الأعلى إنني أهبط

ولا أدري لم أهبط، نزل فوق الطائرة السفلى فاحترقتا ونزلت الطائرتان فوق مستعمرة فأهلكت هؤلاء لقد أرادوا أن يعتدوا في ليلة القدر..

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ)

(فَلَمّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

وفي آل عمران:

(نَزّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقّ مُصَدّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٣) مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنّ الّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤))

(سورة آل عمران)

إخواننا الكرام هناك نقطة دقيقة، يجب أن يكون في قلبك خوف وتعظيم وحب في وقت واحد، وهناك حديث قدسي:

((قال يا رب: أي عبادي أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال: أحب عبادي إلي تقي القلب نقي اليدين لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني وحببني إلى خلقي، قال: يا رب إنك تعلم أني أحبك وأحب من يحبك فكيف أحببك إلى خلقك، قال ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

فالدعوة إلى الله يجب أن تتحرك في هذه الخطوط الثلاثة ويجب أن تبين للناس عظمة الله عز وجل، من أجل أن تطيعه تعظيماً وينبغي لك أن ترى فضله عليك من أجل أن تحبه، وينبغي لك أن ترى بطشه وشدته وانتقامه أحياناً من أجل أن تخاف منه، ولا بد من أن يجتمع في قلب المؤن الصادق تعظيم عن طريق الآيات، ومحبة عن طريق النعم وخوف عن طريق العقوبات، فالعقوبات لها معنى، والنعم لها معنى والآيات لها معنى، تعظمه وتحبه وتخاف منه، والآية الكريمة:

(فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ(٩٠))

(سورة ألأنبياء)

رغباً راغبين ورهباً خائفين، نرجوا رحمتك ونخشى عذابك.

ثم دقق في هذه الآية الكريمة في سورة إبراهيم:

(فَلَا تَحْسَبَنّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧))

(سورة إبراهيم)

(فَلَمّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ)

يرخي الحبل، فلا يضان الإنسان أن أحداً لن يستطيع أن يوقفه عند حده، يُشد الحبل فجأة فإذا هو في قبضة الله، فمن هو العاقل، ومن هو الموفق ؟ الذي يدخل في حساباته عظمة الله عز وجل، وقوته

وبطشه.

قال بعض العارفين: **" اسم المنتقم من أسماء الجلال والقهر "..** أما الرحمن الرحيم المنعم المتفضل الحنان المنان ؛ فهذه أسماء الرحمه.. وأما المنتقم الجبار المتكبر القوي ؛ فهذه من أسماء الجلال والقهر.

وإن البحر جميل جداً إذا كان هادئاً، فإذا هاج الموج فهو يمثل اسم الجبار، والله عز وجل يتجلّى على شيء باسم الجمال فإذا هو يأخذ بالألباب ويتجلى على شيء باسم القهر.. فانظر إلى الزلازل، فهناك شيء مخيف رهيب:

(فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤))

(سورة الحجر)

كل فترة هناك زلازل، يقال: ثلاثة آلاف متشرد، ألف وخمسمائة قتيل، في أربع ثوان، ستة رختر، انتهى، أبنية انهارت وأنابيب تفجرت وحرائق اشتعلت.

(فَلا تَحْسَبَنّ اللّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنّ اللّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ)

وفي الزمر:

(وَمَنْ يَهْدِ اللّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلِّ أَلَيْسَ اللّهُ بِعَزِيزِ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧))

(سورة الزمر)

والناس يستهزؤون أحياناً بكلمة إني سأشكوك إلى الله، وحبذا لو تعرفون أبعاد هذه الكلمة، فلو قال لك أحدهم سأشكوك إلى الله ولن أسامحك، والله لو تعرف أبعاد هذه الكلمة لارتعدت فرائصك.

وهذه امرأة كأنها تنتقد عمر بن الخطاب، فاستدعاها في اليوم الثاني وأعطاها مبلغاً كبيراً وكتبت له براءة عن تقصيره، فقال: **ضعوها في كفني، فأنا استسمحت منها.**

فسيدنا عمر كان مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما يتجولان في المدينة، فقال تعالى نحرس هذه القافلة ونذكر الله عز وجل جلسا لحراسة هذه القافلة، فبكى طفل صغير فقام عمر وهو عملاق الإسلام إلى أمه فقال أرضعيه، فأرضعته ثم بكى، ثم قام إليها ثانية فقال أرضعيه فأرضعته ثم بكى، وجاءها ثالثة، وقال يا أمة السوء أرضعيه، قالت له ما شأنك بنا، إنني أفطمه، قال ولم قالت: لأن عمر لا يُعطينا العطاء إلا بعد الفطام،**" هذا هو التعويض العائلي "** وتروي الكتب أنه ضرب جبهته وقال: **ويحك يا ابن الخطاب كم قتلت من أطفال المسلمين** بهذا التعويض الذي لا يُعطى إلا بعد الفطام، فكم من أم فطمت ابنها وهو في أمس الحاجة إلى حليبها، وصلى صلاة الفجر فلم يفهم أصحابه قراءته من شدة بكائه، وكان يقول: **رب هل قبلت توبتي فأهنئ نفسي أم رددتها فأعزيها.**

والإنسان حينما يعرف الله عز وجل ويقف عند حدوده، لا يؤذي أحداً من خلقه، لأن الله منتقم.

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

(سورة السجدة)

دخل على معمل الحلويات، صاحبه وهو أشهر معمل في لبنان، وكنت أسمع أن طائرة شحن تنطلق يومياً إلى دول الخليج، ليصدر إنتاجه فيها، إنها ملك الحلويات.. لم يعجبه عمل أحد العمال، فأمسك العجينة ووضعها على الأرض وعركها بأقدامه وحذائه، فقال هذا العامل: يا سيدي أتعركها بحذائك فقال إن الناس يأكلون من تحت قدمي، و مضى على هذا الحادث ثلاثون يوماً فأصيبت رجلاه بالغرغرين، فقطعتا من ركبتيه، فهو الآن في بلد غربي بلا أرجل.

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

والإنسان حينما يكون جاهلاً يتطاول ويتجاوز حدوده، وقد سمعت مئات القصص، عندما يتجبر الإنسان ويتكبر ويتعالى ويتغطرس، فالله جل جلاله لا بد من أن يري الناس فيه يوماً.

(وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنْ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ)

و لو رأيت إنساناً يبيع ويشتري ويربح ملايين ويركب أفخر المركبات ويستطيل على خلق الله، ويتحدى عظمة الله عز وجل، ولم يعبأ بشيء وعشت أمداً طويلاً فلم تر فيه يوماً فإن الله عز وجل يقول:

(فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (٤١))

(سورة الزخرف)

ولابد من أن ننتقم منهم، وسواء أرأيت هذا أم لم تر وكفاك نصراً على عدوك أنه في معصية الله:

(يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (١٦))

(سورة الدخان)

وهذه بلدة في الساحل الأطلسي من أفسق البلدان في المغرب، كلها نوادي عراة وخمور وزنى، وكل أنواع المعاصي، فيها بعشرين أو ثلاثين ثانية جعلها الله رأساً على عقب..

(فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ)

قال بعض العارفين: **" إن اسم المنتقم من أسماء الجلال والقهر "**، ومن لم يعرف أسماء الجلال وأخلاق الكبير المتعال وقع في الضلال والنكال، فإن عرفت أنه كريم رحيم فاعرف أنه منتقم شديد عظيم.. دققوا في هذه الآية:

(نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠))

(سورة الحجر)

زرت مرةً رجلاً في مرض شديد فقال لي والله ويكاد قلبه يعتصر أنا مصاب بمرضين، فأدوية هذا المرض تؤذي الآخر وأدوية الآخر تؤذي الأول ولا أدري ماذا أفعل.

وأحياناً تأتي المصائب من كل جانب و تحيط بالإنسان، لكن أيها الإخوة صدقوني هذه كلمة رائعة:

" من خاف الله دله الخوف على كل خير "

ونحن مؤمنون بأن هناك خوفاً مقدساً، فأروع أنواع الخوف أن تخاف من الله، والنبي عليه الصلاة والسلام سيد الرسل، أرسل خادماً بحادة فغاب طويلاً، فالنبي غضب لأنه بشر، فلما عاد هذا الخادم، قال:

((والله لولا خشية القصاص لأوجعتك بهذا السواك))

والسواك يؤلم الطفل، والإنسان بنيان الله، وملعون من هدم بنيان الله.

و أنت كإنسان كيف تتخلق بأخلاق الله عز وجل، ولا سيما باسم المنتقم، والمؤمن الكامل ينتقم من أعداء الله تعالى، فلا يجاملهم و لا يعينهم على معصية، و لا يغطي انحرافهم، ولا يباركه ويقف أمامهم بجرأة.

وهنا يصف الله عز وجل المؤمنين قال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤))

(سورة المائدة)

فلا تكن عوناً لإنسان منحرف، فمن أعان ظالماً سلطه الله عليه ومن أعان ظالماً ولو بشطر كلمة، جاء يوم القيامة مكتوباً على جبينة **" آيس من رحمة الله "**.

تخلّق بأخلاق الله، فهذا إنسان منحرف، فاسق فاجر، لا تبجله ولا تعظمه، ولا تقل فيه كلاماً لست قانعاً فيه.

وإليكم بعض الأدعية:

إلهي أنت المنتقم من أعدائك الظالمين القاهر بسطوتك المجرمين، قد انتقمت من النمرود وفرعون وهامان ومحقت أهل الظلم والطغيان.

فإذا خفت من الله وصلت إلى كل خير، وأعظم خوف أن تخاف الله ورأس الحكمة مخافة الله، والإيمان قيد الفتك، ولا يفتك مؤمن.

تصور هرة:

((حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النَّارَ مِنْ جَرَّاءِ هِرَّةٍ لَهَا أَوْ هِرٍّ رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشَاشِ الْأَرْضِ حَتَّى مَاتَتْ هَزْلًا))

(صحيح مسلم)

٦٠- اسم الله العلي :

مع الدرس الستين من دروس أسماء الله الحُسنى. والاسم اليوم ؛ هو اسم العلي، فالعلي كما ورد في الحديث الصحيح، اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، وهو مشتق من العلو، ويقابل العلو السفل، علوي وسفلي، والعلو من الارتفاع.

والعلو بالمعنى المجازي ارتفاع المنزلة. ارتفاع المكان، أو ارتفاع المنزلة، قد تجد في دائرة عشرة طوابق، الموظفون في كل الطوابق، وقد يكون المدير العام في الطابق الأول، لكنه منزلةً هو أعلى من هؤلاء جميعاً. فإما علو مكاني، وإما علو رُتَبي. والعلي من أسماء التنزيه، يعني الله جل جلاله، تعالى عن كل صفة لا تليق به، تعالى عن أن يشبه خلقه، تعالى عن كل ما خطر ببالك ؛ فالله بخلاف ذلك.

والعلي ؛ هو الذي علا فلا تُدرَكُ ذاته، ولا تُتَصَورُ صفاته. يعني لا يعرف اللهَ إلا اللهُ، علا، بحيث لا تُدرَك ذاته، ولا تُتَصورُ صفاته. العلي ؛ هو الذي تاهت الألبابُ في جلاله. العلي ؛هو الذي عجزت العقول عن أن تدرك كماله. كل هذه المعاني يمكن أن ترد حينما تقول: الله عليٌ ؛ عليٌ مكانةً، عليٌ تنزيهاً عليٌ عزةً، عليٌ أن أحداً لن يدرك ذاتَه، ولن يحيط بصفاته.

والعلي ؛ رفيع القدر، الله سبحانه وتعالى قال عن ذاته: إنه هو العلي الكبير عليُ كب ير ولا تنسوا أيها الإخوة: أن معرفة أسماء الله الحُسنى من أهم موضوعات العقيدة، لا يكفي أن تؤمن بالله خالقاً، ينبغي أن تعرف أسماءه الحُسنى، وصفاته الفُضلى، لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ)

(سورة الأعراف)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨))

(سورة الحشر)

(وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (١٩) لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآَنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢))

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٢٣) هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٤))

(سورة الحشر)

هذه آيات في القرآن الكريم، يعني أن تعرف أسماء الله، أن تعرف مضامين الأسماء، مدلولات الأسماء، مؤدى هذه الأسماء، هذا جزء من عقيدتك الأساسية وهو العلي العظيم، اليهود ماذا قالوا ؟

(وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ)

(سورة المائدة)

(لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

(سورة آل عمران)

الإنسان حينما يعتقد عقيدة صحيحة عن الله، وعن أسمائه، فقد حقق إنجازاً كبيراً ؛ لأنه مع الحقيقة لا مع الضلال، لأنه مع الحق لا مع الباطل، وصف الله سبحانه وتعالى نفسه فقال:

(وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣))

(سورة سبأ)

قد يسأل سائل، يعني على مستوى البشر، لا ينبغي للإنسان أن يتحدث عن نفسه، لأن الإنسان في الأصل ضعيف، وفقير، وجاهل. والإنسان مفتقر إلى الله عز وجل، لكن الله جل جلاله، حينما يحدثنا عن ذاته، وعن علوه، وعن كبريائه، وعن قهره، وعن جبروته، من أجل أن نحبه، وأن نرهبه.. نرهبه فنطيعه، نحبه فنقبل عليه، ورد في الآثار القدسية:

((قال: يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك، قال: أحب عبادي إلي ؛ تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي.))

من علامة محبتك لله ؛ أن تحب المؤمنين، أن تحبهم حباً حقيقياً. من علامة النفاق ؛ أن تبغض المؤمنين، قال رسول الله:

((عَنْ سَلْمَانَ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَا سَلْمَانُ لا تُبْغِضْنِي فَتُفَارِقَ دِينَكَ قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ أُبْغِضُكَ وَبِكَ هَدَانَا اللَّهُ قَالَ تُبْغِضُ الْعَرَبَ فَتُبْغِضُنِي))

(سنن الترمذي)

من أحب العرب فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني، يعني البغض ينتقل، والحب ينتقل.

أيها الإخوة: وصف الله جل جلاله نفسه بأنه عليٌّ كبير، ورد في الأثر القدسي:

((قال: يا رب، أي عبادك أحب إليك حتى أحبه بحبك ؟ قال: أحب عبادي إلي تقي القلب، نقي اليدين، لا يمشي إلى أحد بسوء، أحبني وأحب من أحبني، وحببني إلى خلقي، قال: يا رب، إنك تعلم أني أحبك، وأحب من يحبك، فكيف أحببك إلى خلقك ؟ قال: ذكرهم بآلائي ونعمائي وبلائي))

دققوا في هذا: هذه خطة لكل من يدعو إلى الله، ذكرهم بآلائي من أجل التعظيم، وذكرهم بنعمائي من أجل الحب، وذكرهم ببلائي من أجل الخوف، لا بد من أن يجتمع في قلبك تعظيم وحب وخوف. الآيات الكونية من أجل أن تعظمه، والنعم الظاهرة والباطنة من أجل أن تحبه، والمصائب والأمراض، والفقر،

والقهر، والزلازل، والبراكين، من أجل أن تخافه. لابد من أن ينطوي قلبك على تعظيم وحب وخوف. يعني من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام التي كان يدعو بها:

((اللّهُمّ إنّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمّيْتَ))

هناك أمراض تردع الإنسان. يعني من يملك لخلاياه ألا تنمو نمو عشوائياً ؟ لا يوجد قاعدة. عند ابن -الأثير هذا العالم الجليل - أن من أسماء الله تعالى، العليُّ والمتعالي. والعليُّ ؛ هو الذي ليس فوقه شيء في الرتبة والحكم. مهما تناهت الأمور ؛ فالله فوق الجميع في كل صفات الكمال. لذلك قالوا: الله مطلق. يعني مثلاً، القاضي أحياناً ؛ قد يحكم ألف حكم عادل، ويحكم حكماً واحداً غير عادل. هو عندنا قاض عادل، لكن الله سبحانه وتعالى، لو أن مخلوقاً واحداً منذ أن خلق الله الخلق وإلى يوم القيامة ظلم، لما كان الله عادلاً مطلقاً أبداً، قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨))

(سورة الزلزلة)

إذاً هناك عند ابن الأثير العلي، وهناك المتعالي العلي الذي ليس موته شيء في المكانة والترقية والحكم.

أما المتعالي: هو الذي جل عن إفك الأفّاكين، وافتراء المفترين، وعن توهم المتوهمين، وعن وصف الجاهلين. الله متعالٍ عن كل هذه الصفات.

الإمام الغزالي -رحمه الله تعالى - يرى: أن الله هو العلي المطلق ؛ فهو المُحيي للعالم، الخالق لعلوم العلماء، المنزه المقدس عن جميع أنواع النقص، هو البالغ غاية العلو في الرتبة، فلا رتبة لغيره إلاّ وهي منحطة عنه، وليس علوُه علوَ جهة، ولا كبرُه كبرَ جثة:

(سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يَقُولُونَ عُلُوّاً كَبِيراً (٤٣))

(سورة الإسراء)

قال بعض العلماء: **" العلي ؛ هو الذي استحق نعوت الجلالة والكبرياء، وبذلك التفسير لم يزل عالياً علياً ".**

أيها الإخوة: قبل أن نتابع الموضوع، النفس البشرية مفطورة على حب الأكمل. راقب نفسك ؛ إن وضعت لك عدة حاجات لتختار أحدها، تختار أجملها، تختار أسمنها. لو أن دفتراً أسطره مائلة ترده. لو أن كتاباً ورقاته منثنية ترده. لو أن حاجة فيها نقطة تشويه تبدله. هذه النفس البشرية. لذلك هذه النفس البشرية، لا يرويها ولا يسكنها ولا يملؤها إلا الكمال المطلق. لذلك ؛ المؤمن إذا اتجه إلى الله عز وجل،

سكنت نفسه. أما غير المؤمن، لو أن الإنسان اتجه إلى الدنيا، فبنى بيتاً وظن أنه من أجمل البيوت، فإذا رأى بيتاً أجمل صغر هذا في عينه.

والآن ؛ تبديل الأشكال والألوان والألبسة والمركبات وأنماط البيوت والحاجات والأثاث، هذا التبديل السنوي، أو الفصلي، أو الأقل من فصلي، هذا التبديل سببه ؛ أن الإنسان يحب الكمال. وكلما وصل إلى كمال، تاقت نفسه إلى الأكمل، وهو يلهث وراء الأكمل طبقاً المادي إلى أن يأتيه الأجل، وهو صفر اليدين من بضاعة الآخرة ؛ لكنه إذا عرف الله وهو في الدنيا ؛ فالله سبحانه وتعالى هو الكمال المطلق هو المطلق.

أنت إذا كان هناك شخصان ؛ قوي وأقوى ؛ تميل إلى الأقوى. انظر في جلسة إذا كان فيها رجلان ؛ الأول أعلم من الثاني. أو أقوى منه، أو أغنى، ترى جميع الحاضرين يتجهون إلى الأقوى، إلى الأغنى، إلى الأعلى، هذه طبيعة النفس البشرية، لا تحب الكمال فحسب بل تحب الأكمل.

يعني تفاحتان ناضجتان، ذواتا لون أصفر جميل، واحدة عليها مشحة حمراء، قيل لك تفضل تأخذ ذات المشحة الحمراء، هذه طبيعة النفس فلذلك يقول بعض العلماء بالنفس: يوجد **" فراغ لا يملأ هذه الفراغ إلا معرفة الله، لا يملأ هذا القلق إلا أن تركن لحفظ الله ".**

الإنسان مهما أخذ الاحتياطات، مهما سد الثغرات، يمكن أن يفاجأ من منطقة أمنه. من المنطقة التي أغلقها والتي ضبطها. لكنه إذا توكل على الله، كفاه الله كل مؤنة. من توكل على الله كفاه، اعمل لوجه واحد يكفك الوجوه كلها، يعني مثلاً: **" من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين".**

هؤلاء الذين يسعون بكل طاقتهم لمعرفة الله، لحضور مجالس العلم، لتعليم الناس الخير، لخدمة الخلق، لرعاية المؤمنين ؛ هؤلاء تأتيهم الدنيا وهي راغمة. فلذلك العلي، هو البالغ الغاية في علو الرتبة، فلا رتبة لغيره إلا وهي منحطة عنه. الإنسان إذا عرف الله فإنه يتحجم، يتواضع، يعرف أنه لا شيء. أما الإنسان إذا غفل عن الله يتعاظم، يتكبر بغير الحق، يكبر حجمه بلا مبرر، هو ضعيف - أذكر هذا كثيراً لكم - كل الحياة الدنيا منوطة بسيولة الدم، فلو أن هذا الدم تجمد في بعض الأمكنة، لانتهت حياة الإنسان أو لفقد حركته، أو لفقد بعض حواسه، أو لفقد بعض ذاكرته، فالإنسان لا يملك شيئاً لكن الله مالك الملك.

قال: من علوه ؛ أنه لا يزيده تعظيم العباد له وإجلالهم إياه شيئاً من علوه وكبريائه. فكرة دقيقة، أحياناً الإنسان بمستوى محدد ؛ إن في علمه، أو في ذكائه، أو في حكمته، فإذا أثنى عليه الناس جميعاً، وكالوا له المديح جزافاً، وعظموه، ووقروه ارتفع. ارتفع لا لأنه مرتفع، بل لأنه رُفع. أحياناً الإنسان قد يؤتيه الله حظاً، تخدمه به أصحاب العقول، قال بعض حكماء الجن: **" اللهم آتني حظاً تخدمني به أصحاب العقول، ولا تؤتني عقلاً أخدم به أصحاب الحظوظ".**

أحياناً الإنسان يؤتيه الله شيئاً من القوة، كل من حوله في خدمته؛ العلماء، الأطباء، والخبراء، كلهم في خدمته، استعان بعقول من حوله، وأحياناً كل عقلك وذكاؤك لا يقدم لك الشيء الكافي في الحياة الدنيا، فأنت عالة على غيرك. فالإنسان أحياناً له مستوى، فقد يمدحه المادحون، يعظمه المعظمون، يثني عليه الناس، يبالغون في الثناء، في المديح، في التعظيم، فيرتفع. هذا الارتفاع مفتعل. يعني ظهر بحجم أكبر من حجمه. هذا المعنى الذي يجري بين الناس لا يمكن أن ينطبق على الله عز وجل مهما عظمه الخلق، مهما أثنوا على كماله لا يزيده تعظيمهم علواً ولا كبرياءً هو عظيم.

الإنسان له حجم، ولكنه عند الناس بحجم أكبر من حجمه ؛ أحياناً في بعض الظروف والملابسات والمواقف الحرجة والأسئلة والأجوبة يُحجّم، يعني يعود إلى حجمه الحقيقي.

هناك قصة طريفة، ربما لم تكن صحيحة لكن لها مغزى، أن أحد العلماء يروى أن أبو حنيفة النعمان جالس في مجلسه، وكانت رجله تؤلمه معذور يعني فمدها بين إخوانه - أما النبي عليه الصلاة والسلام ما رؤي في كل حياته ماداً رجليه قط أبداً، أما إذا إنسان معذور لا مانع أما بلا عذر لا يجوز - فدخل شخص طويل القامة، عريض المنكبين، مشرق الوجه له هيبة، فأبو حنيفة النعمان استحيى منه ورفع رجله هذا لأنه غريب، فلعله لا يعرف أنه معذور، جلس في مجلسه، والدرس كان في الفقه عن صلاة الفجر، والحديث عن الفجر الكاذب والفجر الصادق، واختلاف العلماء في وقت الصلاة يا ترى في غلس أو بعد أن تتعارف الوجوه إلى آخره، فبعد أن انتهى الدرس، رفع أصبعه هذا الضيف الجليل، طويل القامة، عريض المنكبين، معتمّاً يرتدي رداءً مهيباً، قال يا سيدي كيف نصلي الفجر إذا طلعت الشمس قبل الفجر ؟ قال عندئذ يمد أبو حنيفة رجله.

أحياناً الإنسان تحس أن له مهابة، فإذا تكلم كلمة واحدة سقط، أحياناً الإنسان يصغر بكلمة، أحياناً بسؤال يصغر أيام ينكشف بتصرف الإنسان قد يبدو كبيراً ثم يحجم، يقول لك سقط من عيني، هو بالأساس ساقط، لكن توهمت أنه كبير، فلما تكلم كلاماً غير معقول سقط.

يقال: أن ملكاً دخل إلى بستان مرة رأى حصاناً يدور حول بئر، وقد عصب صاحبُه عينيه، ووضع الجلجل في رقبته، استغرب الملك وسأل صاحب البستان لم عصبت عينيه ؟ قال من أجل ألا يصاب بالدوار، ولم هذا الجلجل وضعته في عنقه، قال إذا وقف أعرف أنه وقف، مادام الجلجل يُصَوّتُ فهو يدور، فقال هذا الملك فإذا وقف وهز لك رأسه وأوهمك أنه يدور ؟ فأجاب هذا البستاني وقال له: وهل له عقل كعقلك ؟

أنا عرفت من هذا الكلام ؛ الإنسان قد يبدو كبيراً، أما بسؤال بامتحان ينكشف.

رجل يدعي أن كل حديث يسمعه يعرضه على النبي في الليل، يرى النبي ليلاً ويسأله هل قلت هذا الحديث، يقول نعم أو لا فواحد ذكي أراد أن يحجمه ادعاءه، يأخذ الحديث يراجع في الليل الكتب، يقول

لك هذا الحديث صحيح، يراجع الكتب يقول: هذا موضوع، فجاءه أحدهم بحديث ضعيف وعرضه عليه، وقال أجبني غداً، نم ورَ النبي -عليه الصلاة والسلام -وقل لي غداً ما رتبة هذا الحديث، هذا راجع فرأى أنه ضعيف قال: والله أخبرني أنه ضعيف.. فالنبي يقول لك قلته، أو لم أقله فالنبي أما ضعيف لا يوجد عند النبي، فبهذه الطريقة كشف هذا الكذاب.

هناك قدرات في الإنسان خاصة، فيه قدرات عامة، وقدرات خاصة، الذكاء قدرة عامة، أما أحياناً فيه قدرة خاصة، القدرة على إقناع الآخرين قدرة خاصة، القدرة على حسن التخلص قدرة خاصة، عند بعض الأشخاص قدرة أن يظهروا بحجم أكبر من حجمهم هذه قدرة و أقل من ذلك بكثير.

أما الفكرة هنا أن الله علي، مهما أثنى الخلق عليه، مهما عظموه، مهما مدحوه، مهما نزهوه، مهما سبحوه، مهما مجدوه، هو عليٌّ، كل هذا المديح لا يرفعه، ولا يزيده عظمة، هكذا يليق بالله عز وجل.

وقال بعض العلماء: **" إن علو الله تبارك وتعالى يرجع إلى واحد من ثلاثة أمور ؛ إلى أنه لا يساويه شيء في الشرف والعزة، فيكون هذا الاسم من أسماء التنزيه ".**

أسماء متعلقة بذات الله ؛ موجود، حي، مريد. و أسماء متعلقة بأفعال الله ؛ القهار، الجبار. في عندنا أسماء متعلقة بصفات الله. أسماء ذات وأسماء صفات، وأسماء أفعال، وفي أسماء تنزيه.

يقول بعض العلماء: **" أن اسم العلي من أسماء التنزيه، أو إلى أنه قادر على كل شيء، والكل تحت قدرته وقهره "**، فيكون هذا من أسماء الصفات، أو إلى أنه يتصرف في الكل بقدرته فهو من أسماء الأفعال. فيمكن أن يكون اسم العلي من أسماء الصفات، ومن أسماء الأفعال، ومن أسماء التنزيه.

وقال بعض العلماء: **" العلي ؛ هو المتعالي عن الأنداد والأضداد "**، نحن أنداد، في جراحة القلب، وهناك جراحو قلب آخرون، اختصاص في الفيزياء النووية، قد يوجد خمسة من نمرته لا يوجد اختصاص في الأرض إلا أنداد. هذا يمثل مثلاً أكبر كتلة نقدية في القطر، مثلاً ففي بلاد أخرى أغنى منه. فالإنسان مهما علا له أنداد. مهما ارتفع له أمثال. لكن العلي، الله عليّ أي متعال عن الأنداد والأضداد، لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطة عنه.

أنت بربك الكريم إذا أردت أن تختار ماذا تختار ؟ تختار أكمل شيء. لذلك الإنسان حينما يختار غير الله يكون أحمقاً، يكون غافلاً، يكون جاهلاً. معنى اختيار غير الله يعني ؛ أحب الدنيا، اختار الدنيا، يعني أحب جهة من الجهات غير الله، يعني عقد كل آماله على زوجته، عقد كل آماله على تجارته، عقد كل آماله على منصبه، عقد كل آماله على أولاده، رأى أن المال هو كل شيء، اختار المال، يعني أو رأى أن اللذائذ الحسية هي كل شيء.. صار زير نساء.. أو رأى أن اللذائذ المعنوية هي كل شيء، السيطرة والتفوق، الإنسان له اختيار، قد يختار المال، فالمال ديدنه، وقد يختار العلو فالعلو ديدنه، وقد يختار اللذائذ الحسية فهي ديدنه، لكن المؤمن الصادق، حينما يختار عز وجل.

قال: من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عّمالنا كنا له وما لَنا.

الشيء العظيم أنك إذا اخترت الآخرة، كسبت الدنيا والآخرة.

" ما ترك عبد شيئاً لله إلا عوضه الله خيراً منه في دينه ودنياه "، قيل: **" العلي: هو المتعالي عن الأنداد والأضداد، لا رتبة فوق رتبته، وجميع المراتب منحطة عنه "**، وقيل: **" هو الذي علا بذاته وصفاته عن مدارك الخلق، بالكنه والحقيقة ".**

هذا معنى جديد، يعني مهما تصورت الله عز وجل، فهو غير ما تصورته، هذا المعنى مستفاد من ؛ الله أكبر، يعني مهما قلت الله أكبر فهو أكبر مما تعرف. مهما تفوقت في معرفته، فهو أكبر من ذلك. مهما عرفت من رحمته فهو أرحم، مهما عرفت من كماله فهو أكمل، مهما عرفت من قدرته فهو أقدر، هذا معنى جديد لذلك العلي الذي علا بذاته وصفاته عن مدارك الخلق بالحقيقة.

" هو الذي علت عن الإدراك ذاته، وكبرت عن التصور صفاته " وقد ورد اسم العلي في القرآن الكريم مرات كثيرة، فقال تعالى:

(وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥))

(سورة البقرة)

صار في معاني كثيرة جداً للعلي.

(ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢))

(سورة الحج)

(وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣))

(سورة سبأ)

(ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢))

(سورة غافر)

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ (٥١))

(سورة الشورى)

إذاً: ورد هذا الاسم في القرآن الكريم مرات كثيرة.

(وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ)

ورد علي عظيم، وعلي كبير، وعلي حكيم، وقد ورد هذا الاسم مُنَكَّراً في سورة النساء، فقال تعالى:

(فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (٣٤))

(سورة النساء)

ورد هذا الاسم مرات كثيرة معرفاً، ورد مرة واحدة منكراً.

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يرى ؛ أنه لا تُفترض مرتبة شريفة، إلا والحق سبحانه وتعالى في أعلى الدرجات منها. يعني إذا شكرت فالله هو الشكور، وإذا أنت سخوت فهو السخي، إذا أنت تكرمت فهو الكريم.

ويوجد رأي آخر دقيق: هو ؛ أن الموجود إما مؤثر وإما أثر، يعني قد أمزق هذا المنديل، فهذا أثر، وهذه الحركة مؤثر. يرى الإمام الغزالي أن كل موجود مؤثر وأثر، والمؤثر أشرف من الأثر، هو الأصل، والحق تبارك وتعالى مؤثر في الكلِّ، والكُّل أثره، فكان أعلى من الكل في هذا المعنى، كل الكون أثر من قدرة الله، ومن إرادة الله، ومن علم الله، ومن كمال الله. الكون كله أثر من آثار أفعاله، وقدرته، وكماله. فالمؤثر وأثر. أيهما أشرف؟.. المؤثر.

والموجود كما قال الإمام الغزالي: **إما واجب، وإما ممكن. والواجب أعلى وأشرف من الممكن.** الله عز وجل واجب الوجود ؛ لكنَّ كل الكون ممكن الوجود ؛ يعني ممكن أن يكون وممكنٌ أن لا يكون، لكن الله سبحانه وتعالى واجب الوجود، أيهما أعظم ؟ واجب الوجود.

يعني توضيحاً ؛ بمركبة فيها أشياء، لا يمكن أن تتحرك المركبة إلا بها، وفيها أشياء لو غابت المركبة تتحرك مع غيابها، وجود الطاقة في المركبة أساسية، المحرك أساسي، فيها أشياء كثيرة لو أهملناها تمضي المركبة إلى هدفها.

وبعضهم قال: **" والموجود إما كامل مطلقاً وإما أن لا يكون "** كذلك أيهما أشرف ؟ الكامل الكمال المطلق، لذلك الله جل جلاله هو المؤثر، وهو واجب الوجود، وهو الكامل كمالاً مطلقاً إذا هو العلي العظيم.

الآن: من أدب المؤمن مع هذا الاسم، انطلاقاً من المقولة الشهيرة: **" تخلقوا بأخلاق الله "**، هنا الموقف معاكس، لأن الله وحده هو العلي الكبير، وهو العلي العظيم، وهو العلي الحكيم، أنت ينبغي أن تتواضع **" الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني شيئاً منهما أذقته عذابي ولا أبالي "**.

إيّاك ثم إيّاك أن تتعالى، أن تتعاظم، أن تتكبر، فهذا مقام الألوهية، هو الجبار، هو القهار، هو المعز، أما أنت فبقدر ما تخضع له وتفتقر إليه يرفعك. هنا العلاقة معكوسة، بقدر ما تخضع له يرفعك. بقدر ما تتذلل بين يديه يعزك. بقدر ما تفتقر إليه ينصرك.

قال: **" أدب المؤمن مع اسم الله العلي ؛ أن يتواضع وأن يتذلل بين يدي الله عز وجل، وعند ذلك يرفع الله قدره ".**

قال: حُكي أن رجلاً قال لمالك بن فضول: اتق الله، إنسان إذا قلت اتق الله، أخذته العزة بالإثم. قيل لعالم جليل اتق الله، قال فألصق خده بالتراب وقال سمعاً وطاعة، أقبل الكلام ولو كان من صغير.

يُروى الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى ؛ رأى طفلاً صغيراً أمام حفرة فخشي أن يقع الطفل فيها، فقال: **إحذر يا غلام أن تقع فيها**، وكان هذا الطفل من الفطانة بمكان، قال: **بل أنت يا إمام إيّاك أن تقع، إني إن وقعت وقعت وحدي، وإنك إن وقعت وقع العالم معك.**

هل تعرفون ما هي أكبر مصيبة على الإطلاق ؟.. أن يهتز مَثَلُكَ الأعلى. وضعت ثقتَك بشخص فخيّب ظنك، ظننته ورعاً تقياً، فرأيته غير ورع. ظننته منزهاً عن أغراض الدنيا، فرأيته مشوباً بها. اهتزاز المَثَل الأعلى. ما سبب ضياع الناس ؟ عدم وجود المثل الأعلى، الناس ماجوا واضطربوا، ولاكوا بألسنتهم كل إنسان دعا إلى الله بإخلاص.

أعداء الدين، خصوم الدين، نهشوا طعنوا فندوا، فأصبح يوجد نوع من أنواع عدم الثقة. فإذا اهتز المَثَلُ الأعلى انتهى الناس.

فلذلك قال: ومن أدب المؤمن المتخلّق باسم العلي.. الآن هنا أدب ثالث أول موقف أن تتواضع، أن تفتقر:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران)

ولكن يوم حنين تعاليتم قلتم لن نغلب من قلة.. قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(٢٥))

(سورة التوبة)

الأدب الأول التذلل والتواضع، الثاني ؛ أن تحب معالي الأمور، وأن تكره سفسافها ودنيها، أحياناً تشعر أن هذا الإنسان سخيف، موضوعاته سخيفة حديثه سخيف، اهتماماته سخيفه: **" إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها ".**

فمِن تخلّق المؤمن بأخلاق هذا الاسم العلي ؛ أن تحب معالي الأمور، أن تهتم بأمر آخرتك، أن تهتم بنشر الحق، لا أن تهتم بتزيين البيت لدرجة أنك تضحي بكل القيم من أجل ذلك.

أيام الإنسان كل اهتماماته دنيوية، وحتى حديثة في موضوعات سخيفة، مزاحه منحط، نظراته مريبة، حركاته شاذة.

روي: **" إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيها "**، يعني أي شيء إذا قسمته إلى درجات؛ فالله سبحانه وتعالى فوق الخلق فيها وحده، أي شيء ؛ بمكارم الأخلاق، بالقدرات، بالحكم، بالعلم، بالعقل، فهنيئاً لمن عرف الله، هنيئاً لمن اتجه إليه، هنيئاً لمن اكتفى به، حسبي الله ونعم الوكيل.

قال ملك لوزيره، والملك كان جباراً، قال: مَنْ الملك ؟ قال أنت: قال: لا.. الملك رجل لا نعرفه ولا يعرفنا، له بيت يؤويه، وزوجة ترضيه، ورزق يكفيه، إنه إن عرفنا جهد في استرضائنا، وإن عرفناه جهدنا في إذلاله.

لذلك الإنسان حينما يتجه إلى الله، ويُحسب على الله، ويكون الله حسبه، ومعرفة الله محط رحاله وغاية آماله، الإنسان إذا كان كذلك فقد سعد في الدنيا والآخرة.

الآن حظ آخر من حظوظ العبد مع هذا الاسم العظيم، قال: **" ألا يتصور أن له علواً مطلقاً "**، قال:

(وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦))

(سورة يوسف)

تروي الكتب: أن سيدنا موسى نبي من أولي العزم، قال مَنْ أعلم مني ؟ فجاء سيدنا الخضر وعلمه دروساً كثيرة.

(هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧))

(سورة الكهف)

سبحان الله، كلما قال الإنسان أنا، الله عز وجل يحجمه ! أعتقدْ؛ أنه فوق كل ذي علم عليم، فوق كل غني أغنى، كل قوي أقوى، كل عالم أعلم، هذا المعنى يجعلك متواضعاً.

لكن قال العلماء استثناء، **" هناك مرتبة ليس فوقها مرتبة على الإطلاق ؛ هي مرتبة النبي عليه الصلاة والسلام سيد الخلق وحبيب الحق "**.

قال بعضهم: **" في بعض الأدعية: إلهي، أنت العلي المنزه عن الحدود، والجهات، المقدس عن الأوهام والخطرات، جعلت الشرف الأعلى لمن لجأ إليك، وأعطيت المقام الرفيع لمن توكل عليك "**.

أيها الإخوة: اسم العلي ورد في القرآن كثيراً لكنه ورد في آية الكرسي وقد ختمت به آية الكرسي، قال تعالى:

(وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥))

(سورة البقرة آية ٢٥٥)

كن مع العلي، ولا تكن مع الدني. كن مع السرمدي ولا تكن مع الفاني. كن مع القوي ولا تكن مع الضعيف. كن مع الأرحم ولا تكن مع الأقسى.

أيها الإخوة: ورد في الحديث القدسي:

((من أحبنا أحببناه، ومن طلب منا أعطيناه، ومن اكتفى بنا عما لنا كنا له وما لنا.))

٦١- اسم الله الصمد :

مع الدرس الحادي والستين من دروس أسماء الله الحسنى، والاسم اليوم هو اسم الصمد، وكلُّكم يقرأ سورة الإخلاص:

((قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢))

(سورة الإخلاص)

فالصمد ؛ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، ورد في الأحاديث الشريفة ومعنى الصمد: القصدُ.

وفي حديث معاذ بن عمرو بن الجموح في قتل أبي جهل قال: فصمدّتُ له.. أي قصدّته حتّى أمكنتني منه غِرّة.

هذا المعنى الأول في اللغة.. الصمد: القصدُ.. صمدّتُ له: قصدّتُه.. والصمدُ: السيّدُ المطاع الذي لا يقضى من دونه أمر، سيّد متمكِّن، مطاع، أمره نافذ.. وأصمد إليه الأمر: أسنده إليه.

ويقول بعض علماء اللغة: **" إنّ الصمد في اللغة له وجهان: أنّه فعلٌ بمعنى مفعول "..** أي مقصود، صمدّتُ إليه أي قصدّته، أو هو المقصود، أي السيّدُ المقصودُ. المصمود في الحوائج: أي المقصود في الحوائج. ونقول ضمن قوسين " إذا أحبّ الله عبداً جعل حوائج الناس إليه"

هناك شخص أنا أسمّيه، وقد سمّاه الأوّلون العفريت النفريت.. يتملّص من كلّ عمل، يتملّص من كلّ عبء، يتملّص من كلّ موعد، يتملّص من كلّ بذل، ومن كلّ عطاء، يأخذ ولا يُعطي، وإذا أردّت أن تعرف ما إذا كنت من أهل الدنيا، أو من أهل الآخرة، فاسأل نفسك السؤال الدقيق: ما الذي يفرحك ؟ أن تعطي أم أن تأخذ.

أهل الدنيا يفرحهم أن يأخذوا، وأهل الآخرة يفرحهم أن يُعطوا. وهذا مقياسٌ دقيق، حتّى إنّ العرب في لغتهم يسمّون الذين أعْطوا: ارتاحوا، يسمّى هذا الإنسان أريَحيّ. هو أشدُ كرماً من الكريم ؛ يرتاح في العطاء. يعطي ليستريح، فإذا كنت من أهل الإيمان -ودققوا في هذه الكلمة - المؤمن حياته مبنيّةٌ على العطاء، وغير المؤمن حياته مبنيّةٌ على الأخذ.

والذي يعطي فإن الله جلّ جلاله يعطيه، أنفق بلالُ ولا تخشىَ من ذي العرش إقلالاً. عبدي أنفق، أُنفق عليك.

وهناك في القرآن كريم آيات عديدة -تزيدُ عن ثمانية آيات -تؤَكِّد أنّ كلّ نفقةٍ يعوّضها الله أضعافاً مضاعفة فقد قال تعالى:

(وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ)

(سورة سبأ الآية: ٣٩)

هذا كلام خالق الكون. فالصمد ؛ بمعنى المصمود: أي المقصود في الحوائج كلِّها. وإذا أحبّ الله عبداً جعل حوائج الناس إليه. والمؤمن لا يتأثّر لو طرق بابه في اليوم مئات مرّة، لو اتصلوا به عشرات المرّات، لو تزاحم الناس على بابه لا يتأثّر ؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى قادر على أن يجعلك تأخذ، على أن يجعلك تقف ذليلاً أمام باب إنسان، فإذا مكّنك الله ؛ أعطاك صحّة، أعطاك مالاً، أعطاك مكانة، أعطاك شيئاً يمكن أن تنفقه لا تبخل به، لأنّ الله سبحانه وتعالى يقرّك على النعم ما بذلتها، فإذا منعتها منعها عنك. والعرب تقول: بيتٌ مصمود: إذا قصده الناس في حوائجهم.تجد في الأسر رجلاً يسمّونه الآن عميدَ الأسرة، يقصده كلُّ أطراف الأسرة في زواجهم، في أعمالهم، في وظائفهم، في حلِّ مشكلاتهم، في كلّ ما من شأنه أن يتدخّل من أجله، هذا الإنسان محترم. وقال بعض اللغويون الصمد ؛ هو الذي لا جوف له، أي الشيء الأصم. حجر لو نقرته لا يعطيك صوتاً، فهو صَمَدٌ أي أصمّ. أما العلبة الفارغة لو ضربتها تحدث صوتاً، فالصمد هو الذي لا جوف له.

وقال بعض متأخِّري اللغة: الصمد هو الأملس من الحجر الذي لا يقبل الغبار، بمعنى ثقيل، ولا يدخله شيءٌ ولا يخرج من شيء، لا دخول ولا خروج ولا استقرار.. هو الصمد.. هذا كلُّه معنى كلمة الصمد في اللغة.

أما الصمد إذا كان وصفاً لله عزّ وجلّ، أو كان اسماً من أسمائه، فقال: الله سبحانه وتعالى صمدٌ ؛ لأنّ الأمور أُسندت إليه، يعني الأمور رجعت إليه وهذا المعنى ورد في القرآن الكريم فقد قال تعالى:

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ)

(سورة هود)

أحياناً تجد في دائرة أو مؤسسة أو معمل أو مدرسة، تبقى على حالها رجلاً قوياً لا يستطيع أي موظّف أن يبتّ في قرار، أو يتّخذ أي قرار، ما لم يرجع إليه فالأمر كلّه بيده، خيوط كلّ الموضوع مجموعةٌ بيده، فالله سبحانه وتعالى إذا قلنا أنّه صمد ؛ أي أنّ الأمور كلّها أصمدت إليه، أي أسندت إليه.

فما قولك أيّها الأخ الكريم إذا كان الأمر كلُّه بيد الله، أتسأل غير الله ؟ أو هل تتوجّه إلى غير الله ؟ أتعلِّق الأمل على غير الله ؟ أتخاف من غير الله ؟.. أبداً.

فقد سألني أحدهم مرّة: ما الذي يقوّي سيري إلى الله ؟ قلت له: التوحيد. ما الذي يقوّي إخلاصي ؟ التوحيد، ما الذي يقوي عزيمتي ؟ التوحيد. ما الذي يبعدني عن الشرك ؟ التوحيد. وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد. وكلّكم يعلم أنّ القرآن كلّه من دفته إلى دفته، من فاتحته إلى سورة الناس ؛ كلّه حول التوحيد والدليل قوله تعالى:

(قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ)

(سورة الكهف)

هذا هو الدين.. بل إنّ فحوى دعوة الأنبياء جميعاً من دون استثناء هو التوحيد، والدليل قوله تعالى:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥))

(سورة الأنبياء)

الدين كلّه عقيدة التوحيد والعبادة ؛ وحِّد.. واعبدْ، فزت بالدنيا والآخرة، وجمعت المجد من كلّ أطرافه.

قال: الصمد في وصف الله تعالى ؛ هو الذي أسندت الأمور إليه، فلم يقض فيها غيره. وهو الذي يصمد إليه في الحوائج أي يقصد. فانظروا إلى هذه الفكرة الدقيقة: الأمور راجعة إليه.. إذاً هو المقصود كنتيجة طبيعيّة.

فأنت بشكل طبيعي وعفوي، إذا دخلت إلى دائرة بحاجة إلى موافقة على طلب تسأل بيد من هذه الموافقة ؟ فإذا قيل أنّها بيد المدير العام؟ فلا يمكن أن تبذل ماء وجهك لغيره، ولا يمكن أن تسأل غيره ؛ لأنّك أيقنت أنّ الأمر بيد فلان، ما دام الأمر بيده أنت قصدّته. من أين يأتي القصد ؟ من التوحيد.. إن وحّدت، تتجه إلى الله.

لكن كفكرة إخواننا الكرام ... بعض الآيات والأحاديث.. كفكرة سهلة، وإدراكها سهل، وشرحها سهل، لكن أن تعيشها هنا المشكلة.. أن تعيشها.. فيا ترى هناك مشكلة مزلزلة عشتها؛ فأن ترى فلاناً هو الذي أوقعك بها، أو فلاناً من الناس هو الذي خلّصك منها، فهذا هو الشرك، فأفكار التوحيد أفكار سهلة وليست معقّدةً، أما ممارسات، فهذه تحتاج إلى جهد كبير.

إخواننا الكرام: التوحيد محصِّلة جهودك الكبيرة في طريق الإيمان. فأحياناً يقول لك عن سعر العملة..؛ محصِّلة الإنتاج الزراعي، والصناعي، والتجاري، وترشيد الاستهلاك، والقدرة على جلب رأسمالات من بلاد أُخرى، ورواج المبيعات، والثروات الباطنيّة، أي ألف عامل وعامل يدخل في تحديد سعر العملة. كذلك كلُّ عوامل الإيمان محصِّلتها التوحيد. وقال العلماء: **" الصمد ؛ هو الدائم الباقي بعد فناء خلقه "**، فقد قال تعالى:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧))

(سورة الرحمن)

وقال بعض العلماء: **" هو الذي خلق الأشياء كلّها، ولا يستغني عنه شيء "**.

بحسب تركيب الجسم المعقّد جداً ؛ فالقلب وما به من -دسّامات، وأذنين، وبطينين، ومراكز توليد الكهرباء - والأوعية، والشرايين، والأوردة.. والكبد، والبنكرياس، والغدد الصمّاء ومفرزاتها -بنسب دقيقة جداً - وبلازما الدم... قلت: والله، المعجزة أن يستيقظ أحدنا لا يشعر بشيء.. فهذه هي المعجزة، من شدّة تعقيد الجسم ودقته، فالإنسان يسلم جسمه من المرض هو المعجزة.

أيّ نسبة تتغيّر الحياة لا تطاق، لو أنّ الكُليّة قصّرت في وظيفتها تزداد نسب - الأوريه - في الدم، ومن مضاعفاتها ضيق، وتوتُّر عصبي، وردود فعل عنيفةٌ جداً.

الملح إذا زاد، يؤثِّر على الدم، وإذا أصبح الدم لزجاً، يتجمّد فوراً. والتجمُّد يعني الشلل، أو فقد البصر، أو فقد الذاكرة، فالإنسان شديد، الله هو الذي خلق الأشياء كلّها لا يستغني عنه شيء. الإنسان يربّي ابنه وعندما يكبر يستقل عن أبيه، وقد يغدو أقوى من أبيه وقد يغدو أغنى من أبيه، وقد يصبح أبوه بحاجةٍ إليه. الله الذي خلق كلُّ شيء، وكلُّ هذه الأشياء لا تستغني عنه.

الإمام الرازي له تعريفات أُخرى لاسم الصمد يقول: **" الصمد ؛ هو العالم بجميع المعلومات "..** هذه إشارة دقيقة.. فالإنسان إذا نقصته المعلومات ضعف وضعفت قوّته، فأحد أسباب القوّة ؛ المعلومات الدقيقة. فالإنسان إن كان يحتلّ موقعاً قيادياً ؛ إذا كانت معلوماته غير دقيقة، أو ناقصة، أو غير كاملة، يضعف مركزة، فأحد أسباب القوّة ؛ أن لا يغيب عنك شيء. وهذه صفةٌ لله عزّ وجلّ، فالإنسان قد يعلم شيئاً وقد تغيب عنه أشياء.

قل لمن يدّعي في العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

***

فالله سبحانه وتعالى من معاني اسم الصمد: أنّه يعلم كلّ شيء، ولا يخفى عليه شيء.

وقيل: الصمد ؛ هو الحكيم.. أولاً: يعلم كلّ شيء، لكن مع هذا العلم أفعاله فيها حكمة، فالحكمة هي أحد الأدلّة الكبيرة على وجود الله.. فقد يكون هناك أشياء متراجحة.. فإذا أنت خاطبت إنساناً فهل من الممكن أن ترفع الصوت إلى درجة ليسمع من مئتي متراً ؟ فلا يكون هناك حكمة. أو أن تهمس همساً من على بعد خمسة أمتار بحيث لا يسمعك، فلا بدّ من أن ترفع الصوت إلى درجة ليصله. فتعيير الصوت بحيث يصل إلى السامع دون أن يتجاوزه كثيراً، ودون أن يقصِّر عنه ؛ هذه هي الحكمة. فالحكمة ؛ وضع الأشياء في أماكنها. والحكمة ؛ أن تفعل الشيء المناسب، في الوقت المناسب، في القدر المناسب، للشخص المناسب على الشكل المناسب، فالله سبحانه صمد هو حكيم..

وقال: الصمد ؛ **" هو السيّد الذي عظم سؤدُده "**، أي مجدُه.

وقيل: الصمد.. **" هو الخالق للأشياء، فإنّ كونه سيّداً يقتضي ذلك"**.

تعريفات أُخرى للصمد، فعندما يقرأ الإنسان في صلاته:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

هذه المعاني كلّها ينبغي أن ترد إليه. فالإنسان يتدبّر في كلام الله عزّ وجلّ، ويتأمّل في المعاني الدقيقة التي يقرأها فيخشع قلبه، ويرقى إلى الله عزّ وجلّ بهذه المعاني.

قيل: الصمد ؛ **" هو المقصود إليه في الرغائب، المستغاث به عند المصائب "**. وقيل: الصمد ؛ **" الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد "**.

الإنسان يشاء ولا يفعل، لا يستطيع، الله عزّ وجلّ وصف ذاته بقوله تعالى، فالإنسان يريد تحقيق قضيّة ما لا يستطيعها.

ما كلُّ ما يتمنّى المرءُ يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفنُ.

***

أما الله عزّ وجل:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦))

(سورة البروج)

فقد تجد إنساناً يحبّك ولك عنده مكانة كبيرة، وتلجأ إليه فيقول لك: والله لا أستطيع كان بإمكاني قبل هذا الوقت. كان هناك شاغراً وظيفيّاً وقد سُدّ هذا الشاغر، كان هناك شخصاً أعرفه نقل من منصبه، على أنّك أثيرٌ عنده يعجز عن مساعدتك.

الدين أساساً صلة بالله. التجاء إلى الله. وغير المؤمن يلتجئ إلى إنسان، يعني إمّا أن تكون عبداً لله، أو إمّا أن تكون عبداً لعبد الله. فالله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، وما دام يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ولا معقِب لحكمه ولا رادّ لقضائه إذاً ؛ هو المقصود، هو القوي، هو الغني، هو القهّار. وقال بعض العلماء: **" الصمد هو الماجد الذي لا يتمُّ أمرٌ إلا به "، وقيل: الصمد.. " الكبير، الذي ليس فوقه أحد "**.

ففي ذات مرّة سُئِل أحدهم فقالوا له: هناك من أكبر منك ؟ فقال: نعم، والأكبر هناك من هو أكبر منه ؟ وأكبر وأكبر وهكذا.. والله أكبر من الجميع. وأنا مع الله. فالأكبر ؛ هناك من هو أكبر منه. فإن كنت عالماً ؛ فهناك أعلم منك، وإن كنت قوياً، فهناك أقوى. وإن كنت غنياً، فهناك أغنى. أما الكبير الذي ليس فوقه أحد، هو الله ؛ بالقدرة والعلم والغنى، فإذا كنت مع الله، فأنت أقوى الناس، وأنت أغنى الناس، وأنت أعلم الناس.

وقيل: الصمد.. **" الكامل في كلِّ الصفات، فيدخل فيه الكمال في العلم والقدرة والحكمة والغنى "**.

وقيل الصمد.. **" الذي يحتاج إليه كلّ أحد، وهو مستغنٍ عن كلِّ أحد "**.

الإنسان الغني يحتاجه الناس، وهو محتاج الناس من أجل أن يأكل، ومن أجل أن ينام، مهما كنت غنياً أنت بحاجة لكلِّ الناس، بحاجة لمن يقدِّم لك رغيف الخبز، بحاجة لمن يمسح لك سيّارتك، بحاجة لمن يمدد لك الكهرباء في البيت، فالغني يحتاجه الناس، ولكنّه في المقابل يحتاج الناس. أما الصمد.. هو الذي يحتاجه كلُّ مخلوق ؛ وهو مستغنٍ عن كلّ أحد، يحتاجه كلُّ أحد، وهو مستغنٍ عن كلُّ أحد.

وقيل: الصمد.. **" هو الذي تقدّست ذاته عن إدراك الأبصار والعِيان.. وتنزّه جلاله عن أن يدخل تحت الشرح والبيان "** فالأبصار والحواس لا تستطيع أن تُدركه، هذا الصمد والشرح مهما كان لا يفي بجلاله، وقيل: -كما قلت قبل قليل- الباقي بعد خلقه لا يموت، ولا يورث، هو الذي يرث الأرض ومن عليها، المطلق الأزلي، الأبدي، الذات الكاملة.

وقيل: الصمد.. **" الذي لا ينام، ولا يسهو، ولا يغفو "**.

أحياناً تجد برّاداً -ثمنه عشرون أو ثلاثون مليوناً -ومنقلباً على الطريق، وسبب ذلك أنّ السائق قد نام وهو يقود السيّارة، والنوم سلطان ولكنّ الله تعالى قال يصف نفسه:

(لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ)

(سورة البقرة)

وقيل: **" إنّ الصمد هو الذي يصمد إليه في الحوائج، ويقصد إليه في الرغائب "**، وقال القشيريّ: **" الصمد هو الذي لا يزول أبداً "**.

هذه المعاني كلّها مما وردت في ثنيّات الكتب التي تحدّثت عن أسماء الله الحُسنى، أو فسّرت كلامه جلّ جلاله، كلُّ هذه المعاني تشير إلى اسم الصمد.

لله عزّ وجلّ وصف نفسه بهذا الاسم ليكون مقصد عباده. أحياناً يسأل الإنسان قوياً، لكن القوي لا يرغب أن يلبّي الحاجة، فقد يحرج لكي يلبّي لك حاجتك، لكن الله عزّ وجلّ عندما قال لعباده: **يا عبادي، أنا صمد** في قوله تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

أي اقصدوني، إذاً هناك فرقٌ بين الله جلّ جلاله، وبين العبد فهو يغضب عليك إن لم تسأله:

لا تسألنّ بُنَيّ آدم حاجةً.. ... وسل الذي أبوابه لا تغلقُ

الله يغضب إن تركت سؤاله وبُنَيّ آدم حين يُسأل يغضب

***

لله قال لك: أنا صمد، أي اسألني، وهذا معنى قول النبيّ الكريم في الحديث الصحيح:

((عَنِ الأَغَرِّ قَالَ أَشْهَدُ عَلَى أَبِي هُرَيْرَةَ وَأَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ أَنَّهُمَا شَهِدَا عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُمْهِلُ حَتَّى يَذْهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ ثُمَّ يَنْزِلُ فَيَقُولُ هَلْ مِنْ سَائِلٍ هَلْ مِنْ تَائِبٍ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ هَلْ مِنْ مُذْنِبٍ قَالَ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ قَالَ نَعَمْ))

(مسند الإمام أحمد)

وهنا يقول الإمام الغزالي: **الله جلّ جلاله اختار هذا الاسم لذاته، ليقصده عباده في المهمات في دنياهم وفي دينهم.**

يقولون لك: دنيا.. نعم ولكن هناك دنيا ضروريّة للآخرة ؛ ففي الدعاء الشريف: اللهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، أصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردُنا.

وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا: إذا كان الإنسان صحّته طيّبة، ومعه مال يكفي حاجاته، وله أهل محصّن، وله أولاد، فهذه دنيا لكن صالحة، أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردنا. فالنبي واقعي، وهناك حديث آخر يقول عليه الصلاة والسلام:

((ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته، ولا من ترك آخرته لدنياه، إلا أن يتزوّد منهما معاً فإنّ الأولى مطيّة للثانية))

وقال بعض العارفين: **" إنّ من أراد أن يتحلّى بأخلاق الصمد، فليقلل من الأكل والشرب، وليترك فضول الكلام، ويداوم على ذكر الصمد ".**

ألم نقل قبل قليل: الصمد هو الذي يحتاجه كلّ شيء، وهو مستغنٍ عن كلّ شيء. فكلّما كان الإنسان شرهاً يريد أن يأكل، وأن يلبس، وأن يسكن، وأن يتزوّج، وشرهاً للشهوات، ابتعد عن التخلّق بأخلاق الصمد، لكن يقول أحد الأدباء:

لي صديق كان من أعظم الناس في عيني

وكان رأس ما عظّمه في عيني، صغر الدنيا في عينيه.

أي أن تتأدّب بهذا الأدب ؛ تصغر الدنيا في عينيك - فكان خارجاً عن سلطان بطنه.. كيف ؟ قال: لا يشتهي ما لا يجد ولا يُكثر إذا وجد.. كلام معيار دقيق..كان لا يشتهي مالا يجد الأكثر إذا وجد، تجد المؤمن مؤونته خفيفة، وظلّه خفيفاً، وحاجاته خفيفة. بل إنّ النبيّ- عليه الصلاة والسلام- وصف الزوجة الصالحة بأنّها قليلة المؤونة ؛ أي طلباتها قليلة تقنع بالقليل. ففي الحديث:

((عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنّ مؤونَةً))

(مسند الإمام أحمد)

والله أعرف رجالاً كثيرين جداً دمرتهم زوجاتهم. زوجاتهم حملنهم على أكل المال الحرام، وكُشِفوا وسُرّحوا وعوقبوا وسجنوا ؛ هذا معنى قول الله عزّ وجلّ:

(إِنّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوّاً لَكُمْ)

(سورة التغابن)

تحمله على كسب المال الحرام. أما الصحابيّة الجليلة كانت تقف مودعةً زوجها قبل ذهابه إلى عمله وتقول له: يا فلان، اتّق الله بنا فنحن بك، نصبر على الجوع، ولا نصبر على الحرام.

من أراد أن يتحلّى بأخلاق الصمد فليقلل من الأكل والشرب وليترك فضول الكلام، أي الهذر.. من كثر كلامه كثر خطؤه.. فكان صاحب هذا الأديب خارجاً عن سلطان بطنه، فلا يشتهي ما لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد، وكان خارجاً عن سلطان الجهالة، فلا يتكلّم بما لا يعلم، ولا يماري فيما علم، وكان لا يُدلي بحُجّةٍ إلا إذا رأى قاضياً فهماً، وشهوداً عدولاً، وكان يُرى ضعيفاً مستضعفاً، فإذا جدّ الجد فهو الليثُ عادياً.

فالتخلّق بأخلاق الصمد.. أن تُقلل تعلُّقك بالدنيا، أن تُقلل تعلّقك بحوائج الدنيا..قال دخلت امرأة إلى سوق من أرقى الأسواق في بعض المدن، فالأصناف التي فيه لا تُعدُّ ولا تُحصى، قالت هذه المرأة: يا إلهي كم هي الحاجات التي لا يحتاجها الإنسان **!!**

يقولون لك: فلان فقير، الفقير ساكن في بيت آكلاً وشارباً ولابساً، ولكن مقياس الفقر والغنى -الكماليّات؛ الأشياء الثانويّة، فعندما يقنع الإنسان بالقليل يكون غنياً.

وكنت أقول دائماً: هناك فقر القدر، وهناك فقر الكسل.. فقر الكسل مذموم، لكنّ فقر القدر مقبول. وهناك غنى البطر، وهناك غنى الكفاية، أسع لغنى الكفاية لا لغنى البطر. وأقبل فقر القدر، وارفض فقر الكسل.. فالفقر الذي أسبابه الكسل ينبغي أن ترفضه ؛ لأنّ علوّ الهمّة من الإيمان. أما الفقر الذي أسبابه القدر ينبغي أن ترضى به ؛ لأنّ هذه مشيئة الله. إن سعيت إلى المال لا تسعَ إلى غنى الترف والبطر، بل اسعَ إلى غنى الكفاية: اللهمّ من أحبّني فاجعل رزقه كفافاً.

ومَنْ تخلّق بأخلاق الصمد ؛ عليه أن يُكثر من ذكر الصمد. مِنْ أحبِّ السور إلى النبي سورةُ الإخلاص.. وقد ورد في بعض الأحاديث **أنّها تعدِل ثُلث** القرآن سورة الإخلاص، فنلاحظ في شهر رمضان ترك الإنسان الطعام والشراب تصفو نفسه.

قال: ومما نستفيد من اسم الصمد ؛ أنّ المؤمن يعرف جيّداً أنّ الله هو الذي يُطعِمُ ولا يُطعَم.. فإذا كان الله وحده هو الذي يُطعم ؛ توجّه إليه وتوكّل عليه، ورغب فيما عنده وأيسَ مما في أيدي الناس.

من عرف أنّ الله دائمٌ لا يزول، زهد في حطام الدنيا. كلّكم يرى رأي العين الإنسان عندما يغتني، كلُّ هذا المال لا يستطيع أن يأخذ منه شيئاً إلى القبر.. فإذا توقّف القلب قال الطبيب لأهله: لقد انتهى ومات، وعظّم الله أجركم، فكتبوا النعوات وقاموا بتشييعه، وهذا الميّت لم يعُد يملك شيئاً من الدنيا، ولا أدقّ الأشياء ولا أخصّها، ولا غرفته ولا أثاثه ولا مقتنياته الشخصيّة، فإذا الإنسان أنّ الله حيٌّ لا يموت، وأنّ الله لا يزول، وأنّ الله باقٍ على الدوام، وأنّه الباقي بعد فناء خلقه تعلق به وحده لأنه الباقي وغيره فاني.

موضوع الحوائج.. فلا تتعلّق بالفاني، ولكن تعلّق بالباقي. فهناك بيوت جميلة جداً، وهناك أذواق رفيعة، الإنسان يشتهي أن يسكنها ولكنّها هل تدوم ؟ لا.. لا تدوم، فلا بُدّ من أن يخرج منها أُفقيّاً.. مرّةً واحدة ولا يعود أبداً. والمشكلة أن توازن بين البيت وبين القبر فهناك تجد بوناً شاسعاً. وهذا هو مصير

كلّ حي، فإذا الإنسان أنّ اللهَ صمدٌ، بمعنى أنّه المقصود، يقصده. وإذا أيقن أنّ الله هو الصمد بمعنى الباقي، لا يتعلّقُ بالفاني – وطبعاً هذه الأشياء مهمّة جداً في الدرس ـ فالآن التطبيق العملي نتيجة هذه التعريفات.. في عندك باقي عندك فاني، فمن تعلّق بما سوى الله ؛ فعنده خبزٌ مؤلمٌ جداً ؛ وهو أنه يفارقه لا بدّ من الفراق. عش ما شئت فإنّك ميّت، وأحبب من شئت فإنّك مفارق، إن أحببت هذه الزوجة، لا بدّ من وقتٍ تفارقها أو تفارقك. إذاً كما قال عليه الصلاة والسلام:

((لو كنت متّخذاً من العباد خليلاً لكان أبو بكرٍ خليلي، ولكن أخٌ وصاحبٌ في الله.))

الآن الأدب الثالث.. من أدب المؤمن مع هذا الاسم ألا يقصد بحوائجه غير الله، وألا يُعوّل إلا على الله. ألا يقصد إلا الله، وألا يضع الآمال إلا بالله ؛ وهذا معنى الحديث الشريف:

((لا يخافنّ العبدُ إلا ذنبه، ولا يرجونّ إلا ربّه))

الاستدلال الرابع: أن يتخلّق الإنسان بهذا الاسم، فيجعل نفسه مقصوداً من قبل الناس للخير، معيناً لهم على حوائجهم، أي إذا الإنسان فتح بابه، واستقبل أصدقاؤه وإخوانه وأحبابه وأقرباؤه وجيرانه، وقام بحل مشكلاتهم، وأعانهم على حياتهم، ووفّق بينهم، وزوّج أعذبهم، وأصلح فيما بينهم، فإذا كان مقصوداً في حوائج الناس فقد تخلّق بهذا الاسم. ويقول عليه الصلاة والسلام:

((أحبُّ الناس إلى الله أنفعهم لعباده))

أيّها الإخوة... الإنسان إذا تفكّر في خلق السماوات والأرض، يرى جانباً من عظمة الله عزّ وجلّ، وقد يرى أسماؤه الحُسنى وصفاتِه الفُضلى، ظاهرةً في الكون، ظهوراً بيّناً واضحاً، فالله سبحانه وتعالى يحتاجه كلُّ مخلوق، يحتاجه كلّ شيء في كلِّ شيء، إذاً هو المقصود، وهو باقٍ على الدوام. إذاً تعلّق بالباقي لا بالفاني. وكلّما خففت من شهواتك ومتطلّباتك ورغباتك، اقتربت من خالقك. وكلّما فتحت بابك للناس لتقضي حوائجهم، تخلّقت بهذا الاسم.. أربع تطبيقات عمليّة لهذا الاسم الصمد:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)

٦٢- اسم الله العظيم :

مع الاسم الثاني والستين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو اسم العظيم.

هذا الاسم قد أورده النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في حديثيه الشهيرين الذين ذكر فيهما أسماء الله الحُسنى.

وأما المعنى اللُّغوي لكلمة العظيم، فإذا اشترك شيئان في قاسم مشترك، ورجح الأول نُسمِّي الأول عظيماً. إذا كان أحدهما زائداً على الآخر في ذلك المعنى المشترك، سُمي الزائد عظيماً، نقول هذا جسمٌ عظيم.. أي له أبعاد.. له طولٌ أطول، وعرضٌ أعرض، وعمقٌ أعمق، نقول هذا الشيء عظيم.

أيّها القارىء الكريم... يمكن أن نقول: فلانٌ عظيمٌ في العلم، أي يتمتَّع بعلمٍ غزير، ونقول فلانٌ عظيمٌ في المال، وفلانٌ عظيمٌ في الملك، وقد نقول عظيمُ القرية أي سيّدها، والعظيم مشتقٌ من العظم..

والعَظَمُ؛ هو الضخامة والعزُّ والمجد والكبرياء.. لا زلنا في اللغة.. الشيءُ العظيم الشيءُ القوي، الشيءُ الضخم، الشيءُ العزيز، الشيءُ الماجد، ذو الكبرياء.

أما إذا قلنا: إنّ الله سبحانه وتعالى عظيم، فمعنى ذلك: أنه عظيمٌ في وجوده. المخلوقات موجودة، فالجبل موجود، والبحر موجود، والسهل موجود، والإنسان كذلك موجودٌ، والحيوانات موجودة، والنبات موجود، لكن هذه الموجودات جميعاً سبقها عدم، وسوف تنتهي إلى عدم. أما إذا قلنا: إنّ الله عظيمٌ في وجوده ؛ أي ؛ وجوده أزليّ أبديّ، لا شيء قبله، ولا شيء بعده، هو الحيُّ الباقي على الدوام.

موضوع الفناء موضوعٌ يتَّصف به الخلق، بينما موضوعُ البقاء من صفات الخالق. موضوع الحداثة من صفات الخلق، أما موضوع القدم من صفات الخالق. أنت موجود والله موجود، وشتَّان بين الوجودين، أولاً: وجود الإنسان يسبقه عدم وينتهي إلى عدم، هو حادثٌ فانٍ، لكنّ الشيء الأهم أنّ وجود الإنسان مفتقرٌ إلى شروطٍ لا يملكها، فمن منا يملك استمرار وجوده ؟ لا أحد فقد قال تعالى:

(إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٣٠))

(سورة الزمر)

وجود الإنسان متعلِّقٌ بشروط، لو منعت عنه الهواء يموت، لو منعت عنه الماء يموت، ولو منعت عنه الطعام إلى أمدٍ معلوم يموت، لو حرمته من الزوجة يختلّ توازنه، لو حرمته من الأولاد يشعر بالقلق، وجود الإنسان وجودٌ قائم على غيره، على شروطٍ لا يملكها، لكنّ وجود الله سبحانه وتعالى ذاتي لذلك قال تعالى:

(قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢))

(سورة الإخلاص)

فشتّان بين الوجودين، فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في وجوده، عظيمٌ في علمه، عِلْمنَا الآن في هذا المكان، لا يمكن أن يتجاوز الجدران، ماذا يجري في الشارع ؟ لا نعلم، ماذا في البيت ؟ لا نعلم علمه

محدود متعلِق بالحواس الخمس، ومتعلِق بالحواجز، لكنّ علم الله سبحانه وتعالى علمٌ مطلق تعلّق بكلّ ممكن فقد قال تعالى:

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦))

(سورة الحجرات)

(وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون. فالله سبحانه وتعالى عظيمٌ في وجوده، عظيمٌ في علمه، عظيمٌ في قدرته، هو على كلّ شيءٍ قدير، لا يعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرض.

تصور إنساناً ينضوي تحت ظلّ القدير، هل يخشى قوياً ؟ إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان عليك فمن معك ؟ يا ربِّ ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟

الله عزّ وجلّ عظيمٌ في وجوده ؛ وجودهُ أزلي أبدي ذاتي. عظيمٌ في علمه ؛ بكلّ شيءٍ عليم.. يعلم الظاهر والباطن، ما جلا وما خفي، يعلم دبيب النملة السمراء على الصخرة الصمّاء في الليلة الظلماء، إنه بكلّ شيءٍ عليم.

على كلّ شيءٍ قدير عظيمٌ في قدرته، فمثلا بحسب علم الأطبّاء يقال لك: هذا مرضٌ عضال لا شفاء منه. الإنسان أحياناً يتوجّه إلى الله عزّ وجلّ بالدعاء ؛ فتقف هذه الخلايا التي تنمو نمواً عشوائياً، وينحسر المرض، ويظهر الله آياته.. عظيمٌ في قدرته. عظيمٌ في قهره ؛! سبحان من قهر عباده بالموت، قهر الجبابرة، قهر الطغاة، قهر الذين نازعوه الكبرياء والعظمة.

عظيمٌ في سلطانه، عظيم في قهره، فالله عزّ وجلّ سلطانه ممتدٌ إلى أيّ مكان، وفي أيّ زمان ومع أيّ مخلوق.. يعني مدير الدائرة، سلطانه على موظّفيه في أثناء الدوام، أما إذا تغيّبوا في البيت فسلطانه عليهم لا يزيد عن أن يحسم من رواتبهم، أما سلطان الله على الإنسان ؛ كلُّ أجهزته بيد الله، وكلُّ أعضائه بيد الله، كلُّ حواسِّه بيد الله، ذاكرته بيد الله، ودسّامات قلبه، وكليته بيد الله، يعني أن الإنسان إذا استيقظ صباحاً، ورأى أنّه قد سُمح له أن يعيش يوماً جديداً، وأنّه معافىً في جسمه، فهذه نعمةٌ لا يعرفها إلا من فقدها، الكليتان تعملان بانتظام، جهاز الهضم بانتظام، البنكرياس يفرز الأنسولين، القلب ينبض ثمانين نبضة في الدقيقة، الدسّامات في القلب لا تسمح للدم أن يرجع، فإذا رجع الدم إلى القلب أجرة العملية الجراحيّة لإصلاح ذلك تبلغ ستمائة ألف من الليرات، وقد تنجح وقد لا تنجح، وقد تجرى في القطر أو في خارج القطر، هذا إذا رجع الدم إلى القلب، فمَنْ ضبط الدسّامات ؟ فنحن تحت ألطاف الله عزّ وجلّ.

يقولون: أصيب فجأةً بعمى ألوان.. فتجده على إشارة المرور الحمراء ينطلق بسيّارته بدلاً من الوقوف، إذا أصيب الإنسان بعمى الألوان يمنع فوراً من قيادة السيّارة، وأنتم تسمعون.. وما أكثر الأمراض، وما أكثر الخلل الذي يصيب بعض الأجهزة، أو بعض الأعضاء، فالله سبحانه وتعالى عظيم، عظيمٌ في سلطانه.

يعني أنت لِكونك جسماً ونفساً.. فأحياناً تشعر بانقباض، وأحياناً ينشرح صدرك، وأحياناً يضيق صدرك، أحياناً تتفاءل، وأحياناً تتشاءم، أحياناً يعروك الهمّ: فإذا قصّر العبد في العبادة ابتلاه الله بالهمّ والحزن.

أحياناً تضعف معنويّاتك، تضعف أمام عدوّك، وأحياناً يقوّيك عليه، جسمك بيده، ونفسك بيده، ومن حولك بيده، وتجارتك بيده، وزوجتك بيده، وأولادك بيده.. قال بعضهم: أعرف مقامي عند ربّي من أخلاق زوجتي، قد يسلس قيادها وقد لا يسلس **!!**

أيّها الإخوة القراء الكرام، الله عظيمٌ في وجوده، عظيمٌ في علمه، عظيمٌ في قدرته، عظيمٌ في قهره، عظيمٌ في سلطانه، عظيمٌ في نفاذ حكمه.. قد يتمنّى الإنسان مثلا مئات الحاجات والأشياء فلا تتحقق، ولكنّ الله سبحانه وتعالى فعالٌ لما يريد، إذا أراد شيئاً يقول: كن فيكون. كلُّ شيءٍ وقع أراده الله، كلُّ شيءٍ أراده الله وقع، أي أنّ هذا العظيم، أيُنسى ؟ أيُنصرَف عنه ؟ أيُعرَضُ عنه ؟

أرى لزاما عليّ أن أقول هذه الكلمة: لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله. وما أكثر الناس الذين يعبدون عباداً لله من دون الله، إما أن تكون عبداً لله.. فعبد الله حُرّ، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم **!!**

وأشدُّ الناس خسارةً من ربط مصيره بمصير إنسان، لأنّ هذا الإنسان لا يملك له نفعاً ولا ضرّاً، ولا موتاً ولا حياةً ولا نشورًا، ولا رزقاً ولا عطاءً ولا حرمانا.

أرسل أحد الولاة إلى سيّدنا عمر بن عبد العزيز رسالةً قال فيها: يا أمير المؤمنين إنّ أُناساً قد اغتصبوا مالاً ليس لهم، لستُ أقدر على استخراجه منهم، إلا أن أمسّهم بالعذاب، فإن أذنت لي فعلته.

فقال هذا الخليفة الراشد: يا سبحان الله.. أتستأذنني في تعذيب بشر ؟ وهل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟ وهل رضائي عنك يُنجيك من سخط الله ؟ أقم عليهم البيّنة، فإن قامت فخذهم بالبيّنة، فإن لم تقُم فادعهم إلى الإقرار، فإن أقرّوا فخذهم بإقرارهم، فإن لم يُقرّوا فادعهم لحلف اليمين، فإن حلفوا فأطلق سراحهم، وايمُ الله لأن يلقوا الله بخيانتهم، أهون من أن ألقى الله بدمائهم، هل أنا لك حصنٌ من عذاب الله ؟

أيُّها القارىء الكريم... قيل: العظيم عظيمٌ لأنّ العقول لا تصل إلى كنه صمديّته. أيام يكون شيء عظيماً، لكن يُحاط به علماً، تُدْرَكُ أبعادهُ، لكن إذا قلت: إنّ الله عظيم.. العقول عاجزة عن أن تصل إلى كُنه صمديّته، لذلك لا يعرف اللهَ إلا اللهُ، وليس هناك نبيٌ بما فيهم سيّد الأنبياء والمرسلين- عرف الله المعرفة المطلقة، هو أعرفنا بالله ؛ لكنّ اللهَ لا يعرفه إلا اللهُ.

فالعظيم ؛ هو الذي تعجز العقول عن أن تُدرك صمديّته، وتعجز الأبصار عن أن ترى كما قال بعض العلماء: سُرادقات عزّته.

الآن هناك نقطة دقيقة المعنى جداً.. من الممكن أن يحيط البشر إنسانا عاديا بهالةٍ عظيمة، فبعض شعوب آسيا المتخلِفة يأتون كاهنا من كهانهم بطفل فيسمونه إلهاً، ويحاط بالتعظيم، والإجلال والإكبار والتقديس،.. فصار هذا الطفل عند كبره إلهاً لهم، ويعظّمه الناس، فهو عظيمٌ لأنّ الناس عظّموه، أما هو في ذاته ليس بعظيم، أما إذا قلت: إنّ الله عظيم ؛ لا لأنّ العباد عظّموه، لا لكن ؛ لأنّه عظيمٌ في ذاته، هو مستغنٍ عن تعظيم العباد له، ففي الحديث القدسي:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

(صحيح مسلم)

أحياناً لشدّة ما يُحاط الإنسان بالتعظيم ؛ يبدو للناس عظيماً، لكنّ الله سبحانه وتعالى ليس كذلك، فهو عظيمٌ، سواء أعظّمه الناس أو لم يُعظِّموه، أعرفوه أم لم يعرفوه، أقدّسوه أم لم يُقدِّسوه.

فقد تجد إنساناً يقال لك عنه: هذا عظيمٌ في المال، أي حجمه المالي كبير، إسأل وتحقق عن ماله فتجده مئتي مليون، أصبح محدوداً، أو يبلغ ماله ثلاثمائة، أو أربعمائة، أو ثمانمائة، أو ألف مليون، أو أربعة آلاف مليون، فقد تحدد الرقم، لكن إذا قلت إنّ الله عظيم، العلماء يقولون: **" لا حدود لعظمته "**.

عظمته لا نهائيّة. وليس في الإسلام كلمة تُعبّر عن هذا الإطلاق كقولك: الله أكبر. مهما عرفت من قدرته فهو أكبر، مهما عرفت من علمه فهو أكبر، مهما عرفت من رحمته فهو أكبر، مهما عرفت من سلطانه فهو أكبر، مهما عرفت من جلاله فهو أكبر.

وقيل: العظيم.. هو الذي ليس لعظمته بداية، على مستوى البشر يقولون لك: فلان هذا كان لا يملك شيئاً.. الآن عظيم بماله، وقد كان فقيراً، معنى هذا أنّ العظمة البشرية لها بداية.. فلان ملك، لقد كان

جندياً في بداية أمره مثلا، فلان دكتور من أساطين العلم، كان جاهلاً من قبل ذلك، فلهذه العظمة بداية، إذا قلت: إنّ الله عظيم.. فليس لعظمته بداية، ولا لجلاله نهاية، هذا معنى أن يكون الله عظيماً.

وقيل: العظيم الذي لا تهتدي العقول لوصف عظمته، ولا تحيط بكنهه بصيرة. أي يستحيل أن تحيط بعظمة الله، من المعاني الدقيقة جداً التي يمكن أن تفسِّر قوله تعالى:

(وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ)

(سورة غافر)

ما ذنب النبي عليه الصلاة والسلام ؟ وقد قال تعالى:

(لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ)

(سورة الفتح)

وقد قال تعالى كذلك:

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ)

(سورة التوبة)

(لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ)

ما الذنب الذي ارتكبه النبي ؟! قال بعض العلماء: **" هذه خاصّة برسول الله، لأنّه كلّما عرف جانباً من عظمة الله، استحى من المعرفة السابقة، وكلّما ارتقت معرفته بالله رأى أنّه أذنب في حقّ الله، حينما عرفه أقلّ مما ينبغي ".**

إذا كنت مثلاً ولله المثل الأعلى.. تتصوّر إنساناً يحمل شهادة الليسانس ثم تفاجأ بأنّه يحمل الماجستير، ظننته يحمل ماجستيرًا ثم تفاجأ أنه يحمل دكتوراه، ظننته يحمل دكتوراه ثم تفاجأ بأنّ له ثلاثين مؤلّفاً بعض هذه المؤلّفات فريد نوعها في العالم، فكلّما أدركت جانباً من علمه تكشّف لك علمٌ لا تعرفه، إذاً أنت تشعر أنّك مقصّرٌ في معرفته، فربّما كان ذنب النبيُّ عليه الصلاة والسلام، أنّه كلّما تكشّف له جانبٌ من عظمة الله عزّ وجلّ، شعر أنّ معرفته السابقة هي ذنبٌ وقع فيه فلزمه الاستغناء جراء ذلك.

وبعد فإنّ كلمة عظيم وردت في مواضع من القرآن الكريم، الموضع الأول:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥))

(سورة البقرة)

أما الآية الثانية:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٤))

(سورة الشورى)

الآية الثالثة:

(فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤))

(سورة الواقعة)

الآية الرابعة:

(إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ (٣٣))

(سورة الحاقة)

أيها القراء الكرام... ما من مخلوقٍ من بني البشر إلا ما ندر إلا وهو يؤمن بالله، لكنّ الإيمان الذي يُنجّي هو أن تؤمن بالله العظيم، إن آمنت أنّه عظيم ؛ استحييت أن تعصيه، وكبر عليك أن تعرض عنه، العبرة أن تؤمن بالله العظيم، إنّك إن لم تؤمن بالله العظيم، لن تُطيع الله عزّ وجلّ، اسأل هؤلاء الناس الذين يعصون الله عزّ وجلّ ليلاً ونهاراً في كسب أموالهم، وفي علاقاتهم بالنساء، وفي عدوانهم على الآخرين، وفي انحيازهم لمصالحهم، اسأل هؤلاء الناس: ألا تؤمن بوجود الله ؟ فستجده يقول لك: أعوذ بالله أنا مؤمن.

إذًا كيف تعصيه ؟! لأنّه ما آمن بالله العظيم.. هو آمن بالله ؛ لكنّه ما آمن بالله العظيم، آمن بأنّ لهذا الكون خالقاً، لكن ما آمن بالله العظيم، الإيمان بأنّ لهذا الكون خالقاً ؛ هذه ضرورةٌ فطريّة، أما الإيمان الكسبيّ الذي يبنى على جهدٍ بشريّ ؛ هو أن تؤمن بالله العظيم، لأنّ الإيمان بالله العظيم يحملك على طاعة الله العظيم، وأيُّ إيمان لا يحملك على طاعة الله لا قيمة له، لا يُقدّم ولا يؤخّر، أرأيت إلى إبليس، أليس مؤمناً فقد قال:

(قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي)

(سورة الحجر)

وقال في آية أخرى:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨١))

(سورة ص)

لكن هذه المعرفة وهذه الأقوال لم تغنه شيئًا، فقد عصى الله وكفر.

وأحياناً تجد راقصة تقول: الله قد وفّقها بأداء هذه الرقصة، إذاً فهي مثل أبليس تماماً

(فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

فهل هذ إيمان ؟! هذا إيمان إبليسي، أي إنّك أن آمنت أنّ لهذا الكون إلهاً فهذا إيمان، لكن لا يرقى بك إلى السعادة ؛ لأنّه ما حملك على طاعة الله، كيفَ أنّ إبليس:

(قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ)

وفي الآية الأولى:

(قالَ رَبِّ)

ولكنّه ما آمن بالله العظيم، فلو أنه آمن بالله العظيم لخشع قلبه لذكر الله.

فالإنسان أحياناً يتساءل يا تُرى حينما قال ربُّنا سبحانه وتعالى:

(خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ (٣٢) إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ(٣٣))

(سورة الحاقة)

يا ترى لِمَ استحقّ النار ؟ لأنّه ما آمن بالله العظيم ؟ إنّ الجواب الشافي أنّه حينما لم يؤمن بالله العظيم فقد هان أمر الله عليه، وعصى أمر ربّه العظيم، استحقّ النار على معصية، وعلى عدوان، وعلى انحراف، وعلى إغواء، فإن لم تؤمن بالله العظيم، فلن تطيع الله عزّ وجلّ، فالعذاب في النار على المعاصي والآثام، وعلى البغي والعدوان، وهذه نتيجة جهل الإنسان قدْر ربّه.

الآن ما هو المنعكس الذي ينعكس على المؤمن من هذا الاسم العظيم ؟ أجل ؛ أتساءل لأثير خواطر القارىء الكريم.

أنت مؤمن.. وهذا موضوعٌ دقيق بالغ الدقّة.. إن رأيت عظمة الله عزّ وجلّ، تلاشت عظمة نفسك. فأحياناً تجد إنساناً يملك مركبة صنعت في عام ثمانية وأربعين، فيها كلّ علّة، فلو رأى مركبة حديثة مصنوعة في العام ستّة وتسعين، ويبلغ ثمنها خمسة وعشرين مليوناً، فهل سيرى نفسه شيئًا بمركبته الأولى ؟ سيتضاءل وسيتلاشى !!

إذا كان مالكاً بيتاً مئة متر تحت الأرض، وله اتجاه شمالي، ودخل إلى بيت مساحته أربعمائة متر، في أرقى أحياء دمشق، وله إطلالة جميلة جداً، وفي كل أنواع الأثاث الفخم والتزينات، فهل بعد ذلك يفتخر ببيته ؟ ويتطاول قائلاً: بيتي. لا فبيته لا شيء إزاء ما رأى !!

إذا كان يخدم في الجيش، ويحمل رتبة وكيل العرّيف - يضع شارة سبعة على ذراعه - ثم جلس مع لواء ؛ فهل سيقول لك: أنا أخدم في السلك العسكري ؟ وأنا وكيل عريف أم سيسكت ؟ سيسكت قطعا.

إذا كان معلماً في قرية، وجلس أمام دكتور في الجامعة، وهو أعلى أستاذٍ في الجامعة، وله خمسون مؤلفاً، فهل يقول لك هذا المعلِم: أنا، وعلمي، وأقوم بالتدريس في القريّة الفلانيّة، أم سيسكت ؟ سيسكت بالطبع ويتطامن !!

بائع متجوّل قعد أمام عضو غرفة تجارة وحجمه المالي ثمانمئة مليون فهل سيقول: أنا تاجر ؟ ومثله ممرض أمام جرّاح للقلب، والأمثلة كثيرة فالإنسان أمام خالق الأكوان هل يقول لك: أنا.

فهذا حال الفناء.. إن رأيت الله عظيماً تلاشت ذاتك، فتجد المؤمن متواضعاً لأنّه رأى عظمة الله، فلا يقول: أنا فتذوب أناه، يا رب أنت العالم، ونحن الجهلاء، إليّ أنت القويّ ونحن الضعفاء، ربي أنت الغنيّ ونحن الفقراء، يا رب: نحن بك

فأوّل أدبٍ يتأدّبُ به المؤمن مع اسم الله العظيم.. أنّ الكبر والاستعلاء والغطرسة والاعتداد بالنفس يتلاشى، وحينما يتلاشى الكبر والاستعلاءُ والغطرسة والاعتداد بالنفس، يزيده الله عزّاً.

فهل تعتقدون أنّ هناك في الأرض إنساناً أعزّه الله، ورفع ذكره، وأعلى مقامه كرسول الله ؟ أنا لا أعتقد. اذهب إلى المدينة المنوّرة في أيّ وقت، فهل من المعقول أن ترى جامعاً يتّسع لثلاثة ملايين إنسان، جاؤوا من أقطار الدنيا ؛ من باكستان وأمريكا والفلبّين، ومن أستراليا من الصين من الهند وغيرها، جاؤوا ليزوروا هذا الإنسان، فمَنْ هذا الإنسان وماذا أعطاهم ؟ يقفون أمامه خاشعين يبكون، أنا لا أعتقد أنّ في الأرض كلِها إنساناً رفع الله ذكره وأعلى مقامه وأعزّه كرسول الله، وفي الوقت نفسه لا أعتقد أنّ إنساناً افتقر إلى الله، وتذلل له، وتلاشى أمامه كرسول الله.

فالقضيّة محيّرة.. كلّما ازدتّ افتقاراً إلى الله، أعزّك. كلّما ازدتّ افتقاراً وتذللاً وتواضعاً، رفع الله لك ذكرك. النبيُّ -عليه الصلاة والسلام -يُذْكَرُ كلّما ذُكرَ الله في قولك: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنّ سيّدنا محمّداً رسول الله، خمس مرات على مدار عقارب الساعة في الكون الرحيب هل هناك إنسان أقسم الله عزّ وجلّ بعمره كرسول الله:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢))

(سورة الحجر)

أنت حينما تفتقر لله، وحينما تتواضع، وحينما تقول يا ربِّ أنا لا أعلم، إنّك أنت العالم، أنا ضعيفٌ، في رضاك قوتي، أنا فقيرٌ أغنني، أنا جاهلٌ علِمني، أنا ضعيفٌ.. أنا أضعف خلقكك، يا ربِّ أنت الكريم العظيم.. يزيدك الله عزّاً.

الأدب الذي ينبغي أن تتأدّب به مع اسم الله العظيم، أن تشعر بالفناء أمامه. لذلك إن رأيت إنساناً متغطرساً، متكبّراً معتدّاً بذاته يقول لك: أنا فهو هباء لا يساوي شيئاً.. إنّك لم تؤمن بالله العظيم، لو آمنت بالله العظيم لتلاشت ذاتك، ولضعُفت قواك، ولذلّت نفسك، وسبحان الله.. هذه العلاقة المعكوسة.. كلّما ازدتّ تواضعاً، زادك الله عزّاً.

بالأرض كلها ما من فاتح على الإطلاق دخل مدينة، نكّلت به سابقاً، وناصبته العداء عشرين عاماً، إلا ويدخلها متغطرساً، متكبّراً متعجرفاً.. فتيمورلنك دخل إلى الشام ؛ فأمر أن يُبنى هرمٌ من جماجم الناس، خمسون ألف رأسٍ صفت من رؤوس البشر فوق بعضها، في المكان المسمّى الآن برج الروس. ليس هناك غازٍ دخل بلدةً إلا واستباحها، دخل متعجرفاً متغطرساً، إلا النبيّ- عليه الصلاة والسلام - دخل

مكّة فاتحاً، فكادت ذؤابة عمامته تلامس عنق بعيره، تواضعاً لله عزّ وجلّ، هذا من فضل ربّي. صدقني أيُّها الأخ الكريم... بكل انجازاتك قل: هذا من فضل ربّي، قل الله وفّقني، الله أكرمني، الله سمح لي أن أتكلّم عنه، الله أطلق لساني، الله أعانني على طاعته، أعانني على تربية أولادي، أعانني على كسب رزقي، أعانني على الاستقامة، هذا واقع ؛ لأنّه مَنْ قدوتك بهذا ؟ سيّدنا يوسف فقد قال:

(وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٣))

(سورة يوسف)

قد تجد إنساناً ذا شخصيَّةٍ مرموقةٍ جداً، يقع في شرك امرأةٍ لا تساوي واحداً بالألف من زوجته !! ويُذَلّ وتلوكه الألسن، ويعاديه أولاده، ويصبح في الوحل، أين مكانته ؟ وأين عقله ؟ وأين شخصيّته ؟ إذا القضيّة أن تتأدّب مع الله بالافتقار إليه، إذا كان الله عظيماً، ينبغي أن تتلاشى نفسك وتفنى. وأوضح مثلٍ على ذلك الصحابة الكرام ؛ ففي موقعة بدر قال تعالى عنهم:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمران)

أذلّة في العدة والعدد، ثلاثمئة رجل فقط من الصحابة، وقريش القبيلة العريقة القويّة، الأبطال الصناديد، الفرسان، والأسلحة، سيوفاً خيولاً..

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

أما بحنين.. فقد كان أصحاب النبي عشرة آلاف، أقوياء عُدّة وعددًا قال الله تعالى لهم: إذاً فانتظروا ما سيصيبكم بسبب عُجْبكم لنقرأ الآية الكريمة:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ(٢٥))

(سورة التوبة)

(ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

خطيب من نوادر الخطباء ألقى خطبة في يوم جمعة رائعة جداً، ثمّ نزل ليصلّي بالناس، فبعد أن قال: الله وأكبر.... نسي الفاتحة. فالله قد ينسيك.. ينسيك أهم شيء بالخطبة، أو بالصلاة، فاحذر أن تقول أنا. لذلك فالمؤمن الصادق إذا أقدم على عمل يقول: اللهمّ إني تبرّأت من حولي وقوّتي، والتجأت إلى حولك وقوّتك يا ذا القوّة المتين.

وهناك رواية ثانية: اللهمّ إنّي تبرّأت إليك من حولي وقوّتي وعلمي، والتجأت إليك بحولك وقوّتك وعلمك يا ذا القوّة المتين.

حدّثني أحد الأشخاص عن نفسه أنّه منذ أربعين عاماً قال: كنت أنا لا أصلّي لأني كنت آنذاك طالبًا، وكنت أستغل هذا الوقت الضائع بتقديري في الصلاة بقراءة صفحتين أو ثلاث.. فدخل لأداء الامتحان يوما وكان السؤال عن مؤتمر برلين، فأجاب بأنّه عُقد في باريس، الله توّه أفكاره وأضلّه، من ابتغى أمراً بمعصيةٍ، كان أبعد مما رجى، وأقرب مما إتّقى.

لا تؤاثر شيئاً على طاعة الله، لا تؤاثر شيئاً على مجلس علم، لا تؤاثر شيئاً على عمل صالح، على أداء صلاة.

يقول عليه الصلاة والسلام ما معناه:

((من تعلّم وعمل بما علم، ثم علّم الغير، فذلك يُدعى في السماء عظيماً))

هو بنظر نفسه فقيرٌ جداً، أما في السماء عظيم، لذلك دخل على النبيّ رجل فقال له النبيّ الكريم: **أهلاً بمن خبّرني جبريلُ بقدومه.** قال: أومثلي ؟! قال: **نعم يا أخي.. خاملٌ في الأرض، علمٌ في السماء.** فأنت قد تكون موظّفاً في الدرجة العاشرة.. كاتب.. تجلس إلى طاولة وعلى كرسي متواضعين، مراسلاً، حاجباً، معلِماً، موظفاً بسيطاً قد تكون علماً في السماء، قد تكون عند الله عظيماً، وعند الناس شخصاً مغموراً، لذلك النبيّ عليه الصلاة والسلام قال:

((ابتغوا الرفعة عند الله))

أجل، عند الله ؛ لأنّ مراتب الله عزّ وجلّ ؛ تنفعك بعد الموت، لكنّ مراتب الدنيا تفنى عند الموت، فقد يكتبون في النعوات مثلاً.. الطبيب الفلاني، أو المهندس، أو عميد أسرتهم ؛ فليكتبوا ما يشاؤون، لكنّ العبرة أن يكون عند الله مقبولاً، أحياناً يكتب في النعوة أكثر من مائة اسماً أقرباء كما يكتب آل فلان وفلان وفلان.... الخ ياترى هل هو عند الله عظيم ؟ إن لم يكن في طاعة الله، إن لم يكن يعرف الله عزّ وجل ؛ فأولئك لهم صغارٌ عند الله، فقد قال تعالى:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (١٠٥))

(سورة الكهف)

روى الإمام البخاري أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان يدعو عند الكرب بهذه الكلمات:

((عَنِ ابْنِ عَبّاسٍ رَضِي اللّم عَنْهمما قَالَ كَانَ النّبِيُّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَدْعُو عِنْدَ الْكَرْبِ يَقُولُ لا إِلَهَ إِلا اللّهُ الْعَظِيمُ الْحَلِيمُ...))

(رواه البخاري)

هذا دعاء النبيٌ عند الكرب.. وهذا الدعاء فيه علم.. فكل شيء بيد الله، فهو القوي الغني العليم الرحيم الغفور التوّاب.. حنّان، منّان.

لا إله إلا الله العظيم، لا إله إلا الله رب العرش العظيم، لا إله إلا الله رب السماوات ورب العرش العظيم، هذا دعاء النبي عند الليل.

وورد في الحديث القدسيّ:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ))

(سنن ابن ماجة)

أرسلوا مركبة فضائيّة وسموّها المتحدّي - اتشالنجر - وبعد سبعين ثانية أصبحت كتلةً من اللهب، وفي داخلها سبعة روّاد فضاء وامرأة طبعاً قمّةً في العلم والتقنية ومراجعات قبل إطلاقها وعد تنازلي، وكلّ جهاز مضاعف، سموها المتحدّي.. فمن تتحدّون ؟ بعد سبعين ثانية أصبحت كتلة من اللهب. وكلكم يرى كيف أنّ قلاعاً صامدةً جبّارةً، تهاوت كخيط العنكبوت!! وهناك غطرسة، إنسان فرد يرعب أمّة بأسرها كما تسمعون في الأخبار، وأنّ واحد فجّر نفسه فهزّ الكيان كلّه، فالله عزّ وجلّ أحياناً يقهر المتجبّر،

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي مَنْ نَازَعَنِي وَاحِدًا مِنْهُمَا أَلْقَيْتُهُ فِي جَهَنَّمَ))

(سنن ابن ماجة)

أيُّها القارئ الكريم... عود على بدء، العظيم ؛ قد لا تُدركه عامّة العقول ؛ لكنّ بعض العقول تدركه، فقل لأحد الناس ما هي الذرّة ؟ يقول لك: ذرّة قمح ذرة تراب. لا.. الذرّة ؛ شيء موضوعه كبير جداً، وهو موضوع في علم الفيزياء ذو تعقيد كبير جداً، كلّ عناصر الكون ذرّات، وهي تتكوّن من نويّة موجبة الشحنة، وجسيم سالب الشحنة - إلكترون - ومدارات يدور فيها هذا الإلكترون، الذرّة العقول البسيطة لا تحيط بها، أما دكاترة العلوم يعرفون عنها الشيء الكثير.

فالشيء العظيم هو الذي تعرفه بعض العقول.. الذي تستحيل أن تحيط به كلُ العقول.

المعنى الثاني.. إن رأيت أنّ الله عظيم ؛ ينبغي أن تُعظِّم أمره، إن رأيت أنّ الله عظيم ؛ ينبغي أن تتلاشى أمامه فأنت صغير صغير، إن رأيت أنّ الله عظيم ! ينبغي أن تعظم أمره، أن تعظِّم شعائره، أن تعظِّم كتابه، أن تعظِّم رسوله، أن تعظِّم الذي آمن به، فالناس من يعظِّمون ؟ الأقوياء والأغنياء أما المؤمن الضعيف، يقولون لك عنه أنّه درويش أي [أجدب]، لكن المؤمن الراقي يعظِّم المؤمنين ولو كانوا فقراء، ولو كانوا ضعفاء، النبيّ سيّد الخلق يقول:

((اللهمّ إنِّي أشكو إليك ضعف قوّتي وقلّة حيلتي وهواني على الناس.. يا ربّ المستضعفين إلى من تكلني ؟ إلى عدوٍّ ملّكته أمري.. إن لم يكن بك غضبٌ عليّ، فلا أبالي، ولك العتبى حتى ترضى، لكنّ

عافيتك أوسع لي.))

سيّد الخلق لما قدم الطائف سخروا منه وضربوه بالحجارة وكذّبوا دعوته، وقال له أحدهم: لو أنّك رسول كما تدّعي، لمزّقتُ أثواب الكعبة، ألم يجد الله إنساناً غيرك يبعثه رسولاً ؟! هو عظيم.

فيا أخي القارىء الكريم:

إن رأيت أنّ الله عظيم فعليك أن تعظِّمه، تُعظِّم أمره، تعظِّم نهيه، تعظِّم كتابه، تعظّم نبيّه، تعظِّم المؤمنين، تعظِّم الذين يُلقون العلم على الناس، لا تستخفّ بهم، لا تنهش أعراضهم، لا تُحقِرهم، فتجد شخصاً يتلذذ إذا حجّم إنساناً آخر له دعوة إلى الله، يظنُّ أنّه يفعل شيئاً عظيماً ويقول لك: صغّرته. ففي الحقيقة هو الصغير، فلو أنه عرف الله لعظّم أولياؤه، فقد قال تعالى:

(أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آَمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣))

(سورة يونس)

فلو كنت راكباً في سيّارة عامّة وصعد إليها رجل له زي إسلامي أجلسه مكانك وقف باحترام فأنت تعظِّم الدين لا تعظِّم شخصاً، فإذا رأيت إنساناً له مظهر دينيّ، أو مكانة دينيّة، لا ينبغي أن تحقره وتصغّره هذا مما يعاقبك الله عليه، هذا الذي يقع في أعراض العلماء يذُمُّهم يطعن بهم، يصغّرهم دون أن يبالي ؛ فيعاقبه الله عقاباً شديداً لتماديه وتطاولِه.

فأولاً يجب أن تعظم الله، تعظم كتابه، ورسوله وأمره ونهيه، وتعظِّم شعائره والدليل على ذلك قوله تعالى:

(ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢))

(سورة الحج)

وكذلك أن تعظِّم المصحف فهو كتاب الله تعالى، وليكن في مكان عالي مرموق في البيت، لا أن تضعه في أماكن مرذولة، تعظيم المصحف دليل تعظيمك لله. تعظيم الصلاة دليل تعظيمك لله. تعظيم الأمر والنهي دليل تعظيمك لله عزّ وجلّ، هذا الموقف الثاني الذي ينبغي أن يقفه المؤمن حينما يؤمن بالله العظيم.

بعض العلماء تكلّموا عن أدب المؤمن مع الله العظيم، فذكروا **" أنّ من غلب على عقله تعظيم الله عزّ وجلّ، خضع لهيبته، ورضي بقسمته، ولا يرضى بدونه عِوضاً، ولا يُنازع له اختياراً، ويبذل في رضاه كلّ مستطاع، لأنّ من أدرك عظمة ربّه، صغرت عنده الدنيا بما فيها، فإذا أهمّه أمرٌ قال: يا عظيم ".**

قال أحدهم لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لمن هذا الوادي ؟ قال: **هو لك.** قال: أتهزأ بي ؟ قال: **لا والله هو لك. قال: أشهد أنّك رسول الله تعطي عطاء من لا يخشى الفقر.**

إن عظّمت الله عزّ وجلّ حقّ التعظيم، يستوي عندك التبر والتراب، تبذل الشيء الكثير بلا وجل من أجل الله عزّ وجلّ.

وبعد فمن هم العظماء من العباد ؟ أنبياء الله، وأولياؤه، والمؤمنون، هولاء هم العظماء.. أما بيكاسوّ الرّسام الفنان الذي بلغ ثمن لوحته مائة مليون. فليس عظيماً..لأن العظيم ينبغي أن يكون عند الله عظيماً، فهناك رسّامون وأصحاب فنون، وملك الحديد في أمريكا، وملك الصلب، وملك البترول وغيرهم عظماء عند أهل الدنيا.. لكن العظيم هو النبيّ، والعظيم هو الوليّ. والعظيم هو الذي آمن بالله عزّ وجل، هؤلاء الذين يستحقون أن تقول عن أحدهم فلان عظيم.

وفي نهاية البحث فإنّي أؤكِّد على معنيين اثنين، أن تتلاشى نفسك أيها الأخ المؤمن أمام عظمة الله وأن تُعظِّم أمر الله ونهيه وكتابه ونبيّه وأولياءه، وإذا كان لأحد من الناس دعوةً إلى الله عزّ وجلّ فلا ينبغي أنتطلق لسانك لتنال منه، وهذا من لوازم إيمانك بالله عزّ وجلّ، فلو أن شخصاً له مظهرٌ إسلامي فمن المفروض عليك أن تحترمه احتراماً للدين.

هذه بعض المعاني التي تنطوي حول اسم الله العظيم، وأرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علّمنا وأن يُلهمنا الخير.

٦٣- اسم الله الحكم :

مع الدرس الثالث والستين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم اسم الحكم.

والحَكَم بفتح الحاء والكاف. والحَكَمُ، والحاكم بمعنىً واحد، إلا أنّ فقهاء اللغة يقولون: أيّة زيادةٌ في المبنى ؛ لا بدّ من أن يقابلها زيادةٌ في المعنى.

أصل الحَكَم المنعُ. حكمه أي منعه. والحكمةُ: هي الحديدة التي تمنع الفرس من السفاهة.. هكذا جاء في معاجم اللغة. والحَكَمُ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، ولا تنسوا أنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)

(سورة الأعراف)

أسماؤه حُسنى، صفاته فُضلى، كمال الله مُطلق، أيُّ اسمٍ، إن بحثت عن وجوه الكمال فيه فقد أصبت، وإن خطر ببالك غير ذلك فقد أخطأت، قال بعض العلماء: **" الحَكَم؛ صاحب الفصل بين الحقّ والباطل".**

أحياناً الباطل له جولةٌ وصولة، ربما سمح الله له أن يعلو، ربما أرخى الله له الحبل لكن إلى أمد. لأنّه حَكَم ؛ لا بدّ من أن يزهق الباطل، لأنّ الله موجود. لو أنّ الباطل استشرى وامتدّ وطغى وبغى إلى أمدٍ طويل، هذه الفكرة تتناقض مع وجود الله، أن يستشري الباطل، أن يمتدّ ويمتدّ أن يطغى أن يبغي، أن يضع كلّ الخطط فتنجح، هذه الحقيقة تتناقض مع وجود الله ؛ لا بدّ من أن يظهر الله آياته، وما أكثر الآيات، والآيات نراها كلّ يوم.

والله سبحانه وتعالى، ألقى على النبيّ هذا القرآن الكريم، فهو آياته، هي كلامه. وخلق الكون، والكون آياته. وأفعاله كلّها آياته. أفعاله كلّها تدلُّ على كمالاته، على عدالته وعلى حلمه، على رحمته، على قدرته، على علمه، فلك أن تعرف الله من آياته الكونيّة، ولك أن تعرفه من آياته القرآنيّة، ولك أن تعرفه من آياته التكوينيّة.

صاحب الفصل بين الحقّ والباطل.. أحياناً زوجان ؛ كلّ يدّعي أنّه مظلوم، وكلُّ طرفٍ معه الحجج والبراهين والقصص، لكنّ المظلوم فعلاً يوفّقه الله، والظالم يسحقه الله.. شريكان ؛ كلّ يدّعي أنّه على حق، وأنّ شريكه الآخر ظلمه. الإنسان أحياناً يتكلّم، ويأتي بالحجج الواهية، ويفتري ويخترع أدلّةً غير صحيحة، يوهم الناس، ولكنّ الله هو الحكم. فالشريكان ؛ الظالم يُهلكه الله، والمظلوم يوفّقه الله. توفيق الله للمظلوم ؛ هو حُكْمُ الله فيه. إهلاك الظالم حُكْمُ الله فيه. زوجان افترقا، توفيق أحدهما في زواج آخر، حُكْمُ الله فيه. هلاك الثاني في زواجٍ آخر، حُكْمُ الله فيه.

إنسان يدّعي أنّه ورع وأنّه على حق، علامة حكم الله له أنّه يوفّقه، وعلامة حكم الله على الآخر أنّه يخذله.. فطبعاً الحكم هنا توفيقه نصرٌ، وإهلاكه حكم. هو صاحب الفصل بين الحقّ والباطل، بين البارّ

والفاجر.

أيام يتوقّى أبٌ ويترك أولاداً، أحد أولاده الأقوياء يأخذ المال كلّه، ويحرم إخوته، تدور الأيّام هؤلاء المظلومون إخوة هذا الأخ الباغي الظالم، يوفّقون في أعمالهم، وهذا الذي أخذ المال الحرام، يُتلف الله ماله، وأحياناً يُضطرُ أن يعمل عند إخوته.. الذي أخذ المال كلّه وحرم إخوته منه، يخذله الله، ويتلف ماله، فيُضطرّ أن يعمل عند إخوته الذين حرمهم من إرث أبيهم، فالله هو الحَكَمُ.

فعندنا حكم يوم القيامة، لكن هناك حكم في الدنيا هو نصر الله أو خِذلانه، توفيقه أو عدم توفيقه، تيسيره أو تعسيره، وما أكثر الشواهد، حياتنا زاخرةٌ بهذه الشواهد.. الذي كسب مالاً حلالاً قليلاً، يبارك الله له فيه. والذي كسب مالاً حراماً كثيراً، يتلِفُ الله ماله. الذي برّ والديه يهبه الله أولاداً أبراراً. والذي عقّ والديه يهبه الله أولاداً عاقين ؛ هذا حكم الله له.

فالله سبحانه وتعالى هو الحكم، صاحب الفصل بين الحقّ والباطل، صاحب الفصل بين البارّ والفاجر، المجازي كلّ نفسٍ بما عملت، وهناك آيات كثيرةٌ جداً تؤكِّد هذا المعنى.. فقد قال تعالى:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١))

(سورة الجاثية)

وقد قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

(سورة السجدة)

وقال تعالى:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (٣٦))

(سورة القلم)

إخواننا الكرام... أرجو الله سبحانه وتعالى أن يّوفِّقني لترسيخ هذه الحقيقة.

يعني شابٌ مؤمنٌ مستقيمٌ، ويخاف الله ويرجو رحمته، ويتحرّى الحلال، ويبحث عن زوجةٍ صالحة، لا يكذب، ضابطاً لجوارحه، ضابط لدخله وإنفاقه، وشابٌ آخر متفلّتٌ ليس عنده عقيدة، ولا استقامة، ولا عبادة، ولا حلال ولا حرام، يفعل ما يشاء. فإذا تساوى هذان الشابّان في التوفيق وفي النصر والتأييد، وفي التمتُّع في الحياة الدنيا. إن تساويا ولم يكن هناك فرقٌ بينهما، هذه الفكرة تتناقض مع وجود الله.

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ)

إنسان دخله حلال ؛ أيعقل أن يُعامل كما يُعامل صاحب الدخل الحرام ؟! إنسان ضبط أهله وأولاده وبناته ؛ أيعقل أن يُعامل من قبلهم كما يُعامل إنسان تفلّت من أوامر الشرع، وأطلق لزوجته ولبناته العنان ؟!

هذا مستحيل فالحَكَمُ توفيقه حُكْمٌ، تيسيره حكم. تعسيره حكم إلقاء الأمن في قلب المؤمن حكم. إلقاء الخوف والفزع في قلب المشرك حكم. أن يُقدِّر للإنسان حياةً ضنك ؛ معيشةً ضنكاً حكم، أن يقدِّر للإنسان حياةً طيّبة حكم، أن ينصرك حكم، أن يخذلك حكم، إن دعوته فاستجاب لك فدعاؤك صادق ومخلص، وإن لم يستجب فهناك سببٌ حال دون أن يُستجاب لك حكم.

أيام أذكر لكم مثلاً أوضح.. أب عنده ولدان، ولد بار، والثاني عاق، فإذا دخل البار رحبٌ به وقال له: أهلاً وسهلاً قد اشتقنا لك، وأين أنت وكيف حالك ؟ وكيف أولادك ؟ وكيف أهلك ؟ هل تناولت طعام الغذاء ؟ فلاحظ أنت إذا أحبّ أب ابنه. وإذا دخل العاق يتمنّى أن لا يدخل عليه، فانكماش الأب من ولده العاق حكم، وترحيبه بولده البار حكم، التوفيق حكم والتعسير حكم، إلقاء الأمن في قلب المؤمن حكم، وإلقاء الفزع في قلب المشرك حكم.

والذي يقصد بينَ مخلوقاته.. أوسع.. ربما لم تصدِّقوا أنّ شاةً قرناء لو نطحت شاةً أُخرى لاقتص منها أبداً، الحكم بين مخلوقاته لا بين بني البشر فحسب، ولا بين الإنس والجنّ فحسب بل بين كلّ مخلوقاته بما شاء، أن يُميّز بين الشقيّ والسعيد فقد قال تعالى:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ)

(سورة آل عمران)

مؤمن مخلص، مؤمن مقصِّر هل هما عند الله سيّان ؟ لا.. لابدّ من أن يُميِّز الله بينهما، يضع الأول في ظرف فيتألّق، يضع الثاني في ظرف فيسقط، امتحنهما وفرّق بينهما.

المميّز بين الشقيّ والسعيد بالعقاب والثواب، ما من مخلوقٍ يعتصم بي من دون خلقي أعرف ذلك من نيّته، فتكيده أهل السماوات والأرض، إلاّ جعلت له من بين ذلك مخرجاً. أن يجعل الله له من بين ذلك مخرجا حكم. " وما من مخلوقٍ يعتصم بمخلوقٍ دوني أعرف ذلك من نيّته إلا جعلت الأرض هويّاً تحت قدميه، وقطّعت أسباب السماء بين يديه "، أن يجعل الأرض هويّاً تحت قدميه حكم.. هو حكم.

قال الغزاليّ: **" الحكم ؛ هو الحاكم المحكّم، والقاضي المسلّم، لا رادّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه ".**

في الدنيا قد يحكم القاضي، ولكنّ محكمة النقض تنقُض حكمه، وقد يحكم رئيس محكمة النقضّ، ولا يُصدّق حكمُه، لكنّ الله سبحانه وتعالى لا معقِّب لحكمه، وإذا أراد الله بقومٍ سوءاً فلا مردّ له لا تعقب لحكمه.

ذكرت البارحة في بعض الدروس.. أنّه لو التقيت رسولَ الله

- صلّى الله عليه وسلّم - وهو سيّد الخلق وحبيب الحقّ، وعرضّت عليه مشكلتك، وكانت خصومةٌ بينك وبين أحد الناس، وانتزعت من فمه الشريف حكماً لصالحك، من هو الحكم ؟ هو الله.. ولم تكن محقاً لا تنجو من عذاب الله، من هو الحكم ؟ هو الله.

لمّا نزلت براءة السيّدة عائشة قال لها أبوها: **قومي إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فاشكريه**. قالت: **لا والله لا أقوم إلا لله**. فقال عليه الصلاة والسلام:

((عرفت الحقّ لأهله.))

هو الحكم..

قال: **" الحكم ؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب "**، إذا وعد.. لأنّ ربنا عزّ وجلّ يطمئننا، إذا حدّثنا عن المستقبل، جاء الفعل ماضياً ففي قوله تعالى:

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ)

(سورة النحل)

(أَتَى أَمْرُ اللَّهِ)

لم يأت بعد..

(فلا تَسْتَعْجِلُوهُ)

معنى ذلك أنّه لم يأتِ، لكن ليقين وقوعه أتى، وقال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي)

(سورة المائدة)

لم يقل بعد.. قال: **" الحكم ؛ هو الذي لا يقع في وعده ريب، ومن أصدق من الله حديثاً، ومن أوفى بعهده من الله، ولا في فعله عيب.. لا في وعده ريب، ولا في فعله عيب ".**

" والحكم ؛ هو الذي حكم على القلوب بالرضى والقناعة ".. في واحد هذه الدنيا مرحلة إعداديّة في الحياة الأبديّة، والمؤمن عرف أنّها حياةٌ دنيا، حياة إعداد، حياة تمهيد، لذلك رضي عن الله، رضي عن جسمه، عن عقله، عن إمكاناته، عن دخله، عن بيته، عن زوجه، عن أولاده، عن بناته، راضي.. من الذي ألقى في قلبه الرضى ؟ الله سبحانه وتعالى، لقربه من الله ألقى في قلبه السكينة والرضى.

قال: **" الحكم ؛ هو الذي حكم على القلوب بالرضى والقناعة، وعلى النفوس بالانقياد والطاعة ".**

الحكم ؛ من بعض معاني هذا الاسم العظيم الحكم.. النّافذ حكمه، فالإنسان أحياناً يصدر تعليمات فلا تنفّذ، أو تنفّذ في مركز المدينة، وفي أطرافها لا تنفّذ، ما أكثر التعليمات التي تصدر والتي لا تنفّذ. فبالطبع ليس كلّ إنسان حكمه نافذ. أو لو أنّ الإنسان أراد أن ينفذ حكمه، لاحتاج إلى جهاز كبير جداً، يعني الساعة الثالثة في منتصف الليل لا يوجد شرطي، فإذا كانت الإشارة حمراء يمكنه أن ينفذ منها

ويتخطّاها، وبذلك نكون قد خرقنا حكم قانون السير، فمن غير المعقول وضع عند كلّ إشارة شرطي ليلاً ونهاراً. إذاً الحكم لم يُنَفَذْ، فالإنسان أضعف من أن يُنفِذ حكمه، أما الله سبحانه وتعالى، الحكم النافذ حكمه.

لذلك عظمة الدين.. أنّ الدين أساسه الوازع الداخلي، لأنّ المؤمن يعلم أنّ الله معه، وفي القصّة المشهورة عن سيّدنا عمر والراعي.. قال له: **بعني هذه الشاة**، قال: ليست لي، قال: **خذ ثمنها**، قال: **ليست لي.. والله إنني في أشدّ الحاجة إلى ثمنها، ولو قلت لصاحبها ماتت أو أكلها الذئب لصدّقني، فإني عنده صادق أمين ؛ لكن أين الله ؟**

وإني أعتقد أنّه ما من نظامٍ وضعيّ، إلا ويعتمد على الرادع لا على الوازع. والردع مرتبط بأشخاص، أو بأجهزة، أو بآلات، يعني ممكن إذا انقطعت الكهرباء في إحدى المدن التي توصف بالرقي، والمجتمع الحضاري، فمن الممكن أن ترتكب في ليلةٍ واحدة مائتا ألف سرقة، انقطعت الكهرباء في إحدى مدن الغرب وفي ساعاتٍ معدودة وارتكبت مائتا ألف سرقة، فلا يوجد الوازع، ولكن هناك الرادع. والرادع أساسه المراقبة، فلمّا انقطعت الكهرباء التغى الرادع فتفلّتت النفوس، أمّا عظمة هذا الدين، أنّه مبني على الوازع.

أرسل لي أخٌ أراد أن لا أعرفه، رسالةً قال لي فيها: والله لقد أرجعت لورثةٍ عشرين مليون ليرة، وهم لا يعلمون عنها شيئاً، وقد مات أبوهم فجأةً وأبوهم من النوع الذي لا يعلم عن أمواله إطلاقاً، وقد رددت المبلغ لهم كاملاً. ما الذي جعله يردُّ هذا المبلغ ؟ الوازع أم الرادع ؟ فالرادع غير موجودٍ فليس هناك إيصالاً بالمبلغ، ليس مداناً أمامهم إطلاقاً، فليس هناك إيصالاً وإيصال ولا هناك علمُ بالمبلغ، ولا خبرٌ أبداً، لكنّ الوازع الديني حمله على أن يردّ هذا المبلغ.

تجد في المؤمنين مواقف لا تصدّق، أما هي معقولةً جداً ؛ لأنّ المؤمن يراقب الله عزّ وجلّ. إنسان متزوج شعرت امرأته كأنّه متزوّج من أُخرى، هكذا شعرت وبعد أن تقصّت فإذا توقّعها في محلِّه، ولم تفاتحه في هذا الأمر، ثم توفي هذا الزوج ؛ فمن شدّة ورعها أرسلت حصّة ضُرُّتها بعد الوفاة، ومن شدّة ورع الثانية قالت: والله طلّقني قبل أن يموت. ولم تأخذ شيئاً، هذا هو الإسلام.

الحكم ؛ هو النافذ حكمه، الذي لا رادّ لقضائه، ولا معقِب لحكمه، والذي يفصل بين الحقّ والباطل.

الآن الحكم في نقطة مهمّة جداً.. لو أنّ أباً ارتكب ابنه غلطاً ما، فضربه ولم ينطق ببنت شفه، فالضرب لم يُفِدْ.. فمن لوازم إقامة العدل، ومن لوازم التربية الصحيحة، أن يُبيّن الأب لابنه لماذا ضربه، ماذا فعل، فعل كذا وكذا فاستحقّ العقاب، فقال: الحكم ؛ هو الذي يبيّن لكلّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ أو شر يبين، كيف يبيّن ؟.. أحياناً الإنسان يُلقى في روعه، فعندنا وحي للأنبياء،

وهناك وحي إلهام فقد قال تعالى:

(وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ)

(سورة القصص)

وهناك وحي غريزة، فقد قال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ)

(سورة النحل)

وأيضاً هناك وحي أمر لقوله تعالى:

(بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٥))

(سورة الزلزلة)

أما الوحي إلى النبيّ ؛ فهذا وحي الرسالة، وليس لنا علاقة به الآن. لكن أحياناً الإنسان تأتيه مصيبة، ويلقى في قلبه أنّها من أجل كذا.

فإنسان خالف مخالفة بسيطة، بحسب ثقافته الدينيّة، وأقوال أساتذته أنّه لا بدّ له من مصيبة بدأ ينتظر، فصحته سليمة، ولا شيء حدث لأولاده وزوجته، فلم يصبه شيء على الرغم من مخالفته البسيطة، ففي الصلاة ناجى ربّه فقال: يا ربّ، لقد عصيتك فلم تعاقبني قال: وقع في قلبه، ألقي في قلبه ؛ **أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدر، ألم أحرمك لذّة مناجاتي ؟**

فهناك أخ من إخواننا لديه معملُ بسيطٌ، زاره شخص من المسجد ليشتري من القطع من هذه الألبسة، وهذا الأخ يبيع بالجملة، فهذا الطلب رآه مهيناً، فلا يبيع أربع قطع، ولكنّه يبع خمسمائة دزّينة، فقال له: أنا لا أبيع بالمفرّق. فقال له هذا الأخ: لا تؤاخذني. يقول صاحب هذا المعمل: والله ثلاثون يوماً متوالية، لم يدخل معملي إنسانٌ، ثم وقع في قلبه لماذا لم تبع فلاناً ؟

فمعنى الحكم. الله عزّ وجلّ مربٍّ، يعاقب، ويُلقي في روع الإنسان لماذا فعل معك كذا وكذا.

أحد الأشخاص عليه زكاة ماله ولم يدفعها، سيّارته أصيبت بحادث وهذا شيء طبيعي أما أن يأتي ثمن التصليح مع الطلاء، قطع الغيار مطابقاً لمبلغ الزكاة بدقة على مستوى الليرة الواحدة - فكان مبلغ الزكاة - ١١٨١٥ ليرة سوريّة -، وهو نفسه مبلغ التصليح، فهذا تعليم من الله.. بخلت بزكاة مالك فدفعت المال بلا طائل، فالله عزّ وجلّ حكم يعاقب، ويُلقي في روع الإنسان أنّه فعل كذا وكذا.

شخصٌ تزوج امرأة في الشهر الخامس كانت هي حاملاً في الشهر التاسع، فبالطبع هذا الجنين ليس منه، وكان بإمكانه أن يفضحها أو يسحقها أو يطلِّقها، ولكنّه غلب على ظنِّه أنّها زلّت قدمها وتمنى على الله أن تتوب على يديه، فأخذ منها الغلام ودخل إلى أحد المساجد مع صلاة الفجر، ووضع الغلام خلف الباب، ودقق في المسجد بعد أن نوى الإمام الفرض، فلما انتهت الصلاة بكى الغلام، تحلّق المسلمون حوله، وجاء هو كواحدٍ منهم وسأل ما القصة ؟ فقالوا له: انظر هذا الغلام، فقال لهم: آتني به أنا أكفله،

وأعاده إلى أمّه. ولكن جاره رأى رسول الله في المنام قال له: قل لجارك فلان أنّه رفيقي في الجنّة. فالله أحياناً يشجّع العملَ الطيّب، فكان يمكن أن يطلقها، أو يفضحها أو يقتلها أهلُها، ولكنّه أدرك أن عملها هذا غلطة لن تتكرر، فاستوعب القضيّة، وأراد أن يرضي الله بأن يجعلها تتوب على يديه، فبشره رسول الله بأنّه رفيقه في الجنّة. فالله حكم، إن عملت عملاً طيّباً، يُلقي في روعك أنّه راضٍ عنك، وإن عملت لا سمح الله عملاً سيّئاً، يريك مناماً مخيفاً أحياناً، أو انقباضا فتشعر بضيق، والدنيا كلُها لا تسعه، فضيق القلب، أو انشراح الصدر هو من أساليب ربنا التربويّة، فهو يربّي، فإن كان عملك طيّباً تجدك منطلقاً، والناس قد يكونوا في همّ وغم، وأنت مستثنى وليس لك علاقة بشيء، وإذا لم يكن عملك طيباً فيكون هناك انقباضٌ.

أما من أجمل الآيات المتعلِقة بهذا الاسم قوله تعالى:

(أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَماً)

(سورة الأنعام)

أحياناً يكون معه وثائق.. فيقول لك: و معه وثائق، والقاضي أعرفه، ويترافع عني المحامي فلان، وما أدراك ما فلان، ومطمئن، هل اتّخذ هذا الإنسان الله حكماً ؟ لا.. لقد اتخذ القاضي حكماً، فقد يفاجأ بحكمٍ غير متوقّع.

(قل أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ مُفَصّلا)

فالإنسان ليس له الحق في أن يحتكم لغير الله، فلغير الله يصبح محكوماً، وليس حاكماً، فأحياناً الذي اعتمدّت عليه يخيّب ظنّك، وقد قال تعالى:

(وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩))

(سورة يونس)

لذلك أجمل دعاء أن تقول إذا ألمّ بك مكروه أو نزلت بك ظلامة: حسبي الله ونعم الوكيل. فالله ينصرك، والله عزّ وجلّ من أسمائه الحق.. فما معنى الحق ؟ معنى الحق أنّه لا بدّ من أن يظهر الحقّ، لا بدّ من أن يظهر الحقّ لأنّه هو الحق، فلا تخشَ، العاقبة للمتقين والأيام تدور ولا تستقر إلا على إنصاف المظلوم، وعلى إهلاك الظالم، وعلى رفعة المؤمن وعلى إذلال الكافر أبداً، وهذا التاريخ أمامكم.

أصحاب النبيّ - رضوان الله عليهم - الذين التقوا حوله، وعزّروه ونصروه، ودافعوا عنه، وآمنوا به، وأحبّوه، وافتدوه بأرواحهم، أين هم الآن ؟ في أعلى عليين، والذين حاربوه وخذلوه وأخرجوه، وقاتلوه وكذّبوه أين هم ؟ في اسفل السافلين، هذا هو التاريخ.

سيّدنا عمر بن عبد العزيز.. كيف اسمه ؟ كالنجم في السماء، كلّ شيء له نهاية، والعاقبة للمتقين، وقد قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

(سورة آل عمران)

كلمة:

(وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ)

معنى ذلك ؛ أنّ هناك وقتاً وفيه ظلمٌ فقد يكون الإنسان مظلوماً. فالسيّدة عائشة ألم تُظلم ؟ فلماذا أخّر الله الوحي شهراً ؟ من أجل أن تُكشف النفوس. أخّر براءتها شهراً بأكمله، المؤمنون ظنّوا بأنفسهم خيراً، والمنافقون روّجوا هذا الخبر وأشاعوه وأرجفوا في المدينة، الله عزّ وجلّ كشف النفوس على حقيقتها لو أنّ هذا الخبر أُشيع في المدينة، وفي اليوم الثاني جاءت البراءة، فبذلك يكون أربع أخماس الناس لم يمتحنوا، لكن لا، والخبر ينتشر ويزداد انتشاراً، والتهمة كبيرة جداً فهي تهمة الفاحشة ! وهي زوجة رسول الله وابنة الصدّيق، الطاهرة العفيفة والبريئة، ولكن الخبر شاع، والنبي مقيّد ليس معه دليل إثبات ولا دليل نفي، وزوجته، وهي أقرب الناس إليه، وهي عرضه، والخبر يمشي ويشيع، فانظروا إلى دقّة الله.

(وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ)

حتى حرف غاية.. أي أنّ هناك وقتاً فقد تكون مظلوماً، وقد يكون المبطل هو الأقوى، وكلمته هي النافذة، وأنت لا أحد يسمع لك، والناس كلّهم ضدّك، ممكن ذلك فعليك أن تصبر.

(وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩))

وبعد ثلاثين يوماً نزلت براءتُها.. وانتهى بذلك الأمر.

والآية تقول:

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ (٧) أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ (٨))

(سورة التين)

كأنه بقي الله عزّ وجلّ من سياسته مع عباده، أو بعبارة أدّق: من سننه مع خلقه ؛ أنَّه يُرخي الحبل للكل، بقي بإمكانك أن تفعل ما تشاء، أن تعصي الله، وأن تقول كلاماً غير معقول، وأن تأتي بالإفك والإثم، وأنت قوي وصحيح، والفحص الدموي مائة بالمائة مالك يزداد، قوّتك تزداد، ولكن هذا الشيء لا إلى ما لا نهاية، إلى حين، فالحبل مرخى إلى حين، ففي أيّة لحظة يُشدّ الحبل ؛ فإذا أنت في قبضة الله.

والله هذه القصّة - أيُّها الإخوة - تتكرر كلّ يوم... ممكن لإنسان أن يؤذي الناس، ويكون شديد الذكاء،

ويحتال عليهم إلى حين، ثم يقع في شرّ عمله، ثم يفضحه الله، فدائماً وأبداً ؛ الطائع لله هو الفائز. لذلك هناك مقولة تقول: " كفاك على عدوّك نصراً ؛ أنّه في معصية الله "، لو كنت أضعف منه لو كان هو الأقوى، وأنت الأضعف. لو كان هو الأغنى، وأنت الأفقر. لو كان هو الأذكى، وأنت الأقل ذكاءً. فالعاقبة للمستقيم.

دققوا في هذه الكلمة من الآية:

(وَاصْبِرْ حَتَّى)

أي اصبر إلى أن، فحتى حرف غاية..

(حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ)

حتى يتصرف، حتى يقصم الظالم، وينصر المؤمن.

(وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ)

فإنسان أساء إساءة بالغة للناس، وله عملٌ صغيرٌ في أطراف المدينة أساء إساءة بالغة للناس، ثم كُشف بشكلٍ - درامي بالتعبير الحديث - وأُهين إهانةً ما بعدها إهانة، جاء أمر الله، من هو الجاهل ؟ هو الذي يظُن أنّه يفعل ما يشاء، ولا أحد سيُحاسبه، لكنّ ربّك بالمرصاد.

(فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ)

سيّدنا يوسف.. ماذا حكم عليه إخوته ؟ أن يقتلوه، ألقوه في غيابت الجب ليموت.. بعد حين ماذا كانت النتيجة ؟ دخلوا عليه فإذا هو عزيز مصر، مقامه كبيرٌ جداً، فمصر كانت أكبر مملكة هو رئيس وزارتها فقالوا له:

(قَالُوا أَئِنَّكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (٩٠))

(سورة يوسف)

وقال أبوه سيّدنا يعقوب:

(إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧))

(سورة يوسف)

لذلك: إذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكّل على الله. وإذا أردت أن تكون أغنى الناس، فكن بما في يدي الله أوثق منك بما في يديك. وإذا أردت أن تكون أكرم الناس، فاتق الله.

من حكم الله في حقّ العباد:

الآن بعض أهم أحكام الله... قال: حُكم الله ؛ أنّه ليس للإنسان إلا ما سعى.. الله عزّ وجلّ ليس عنده تمنيّات، ولا محاباة، ولا تمييز فقد قال تعالى:

(لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

(سورة الحجرات)

وقال تعالى:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠))

(سورة النجم)

هذا من حكم الله.. ومن حكم الله، قال تعالى:

(إِنّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنّ الْفُجّارَ لَفِي جَحِيمٍ (١٤))

(سورة الانفطار)

وكذلك قول الله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنّهُ حَيَاةً طَيّبَةً)

(سورة النحل)

(مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ)

حكم الله..

(وَلَنَجْزِيَنّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

وقال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً)

(سورة طه)

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي)

حكم الله..

(فَإِنّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا)

وقال تعالى:

(فَمَنِ اتّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣))

(سورة طه)

(فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ)

حكم الله..

(فلا يَضِلُّ وَلا يَشْقَى)

من لم يتبع هدى الله عزّ وجلّ، حُكْمَ اللهِ، يضلُ عقلهُ، وتشقى نفسهُ.

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨))

(سورة البقرة)

(فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ)

حكم الله..

(فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ)

هذا أول حكم: من لم يتبع هدى الله عزّ وجلّ، يندم على ما فات ويخشى من ما هو آت.

هذا هو القرآن بين أيديكم، أي أنّ الله عزّ وجلّ أعطانا أحكاماً جاهزة، وقال تعالى:

(وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزّكَاةَ)

(سورة المائدة)

(وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصلاةَ وَآتَيْتُمُ الزّكَاةَ)

حكم، وقال تعالى:

(إِنْ تَنْصُرُوا اللّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧))

(سورة محمد)

(إِنْ تَنصُرُوا اللّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبّتْ أَقْدَامَكُمْ)

حكم، وقال تعالى:

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُمْ)

(سورة النور)

(وَعَدَ اللّهُ الّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنّهُم فِي الأَرْضِ)

حكم.

ما قولكم أن نقرأ القرآن ونتبع أحكام الله في خلقه، كلها قوانين فقد قال تعالى:

(كَذَلِكَ حَقّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ عَلَى الّذِينَ فَسَقُوا أَنّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٣٣))

(سورة يونس)

(إِنّ اللّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفّارٌ (٣))

(سورة الزمر)

(وَأَنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢))

(سورة يوسف)

أي: أية خيانة على وجه الأرض ؛ لا يمكن إلا أن تُكْشَفَ، هذا حكم الله، أيّة مخادعة تعود على صاحبها ؛ فقد قال تعالى:

(إِنّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ)

(سورة النساء)

وأيٌّ مكرٍ يعود على صاحبه فقد قال تعالى:

(وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ)

(سورة فاطر)

هذه كلّها أحكام الله عزّ وجلّ.. إن الله مع الصابرين، إن الله مع المتقين، إن الله مع الصادقين فقد قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ (١٥٣))

(سورة البقرة)

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ (١٩٤))

(سورة البقرة)

حكم الله على المعتدين ؛ أنّه لا يستجيب لهم لأنه لا يحبهم هذا حكم الله عزّ وجلّ.. فقد قال تعالى:

(ادْعُوا رَبّكُمْ تَضَرّعًا وَخُفْيَةً إِنّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ)

ما قولكم أن نقرأ القرآن ونتبع الآيات التي فيها حكم الله.. فقد قال تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)

(سورة الأحزاب)

هذا هو حكم الله، فالمؤمن.. مؤمن، قضيّة أعطى الله فيها حكماً، إن وضعتَ هذه القضيّة على بساط البحث، فلست مؤمناً..

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ)

هذا حكم الله عزّ وجلّ وكفى.

أيُّها الإخوة... حدّث الربيع بن نافع عن جدّه شريح عن أبيه هانئ أنّه لما وفد إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مع قومه، سمعهم النبي يكنونه بأبي الحكم، فدعاه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فقال:

((حَدّثَنَا الرّبِيعُ بْنُ نَافِعٍ عَنْ يَزِيدَ يَعْنِي ابْنَ الْمِقْدَامِ بْنِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدّهِ شُرَيْحٍ عَنْ أَبِيهِ هَانِئٍ أَنّهُ لَمّا وَفَدَ إِلَى رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَعَ قَوْمِهِ سَمِعَهُمْ يَكْنُونَهُ بِأَبِي الْحَكَمِ فَدَعَاهُ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالَ إِنّ اللّهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ فَلِمَ تُكْنَى أَبَا الْحَكَمِ فَقَالَ إِنّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ فَرَضِيَ كِلا الْفَرِيقَيْنِ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَا أَحْسَنَ هَذَا فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ قَالَ لِي شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ اللّهِ قَالَ فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ قُلْتُ شُرَيْحٌ قَالَ فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ))

(سنن أبي داود)

هذا من لطف النبيّ - اللهمّ صلّ عليه - فالله هو الحكم، وأنت لست حكماً.

لِمَ تُكنى أبا الحكم ؟ لأنّ قومي يحتكمون إلي وحكمي منصف فقال له الرسول: **ما أحسن هذا..** جيّد. وعرف منه أسماء أولاده واسم أكبرهم شريح فسماه أبا شريح.. هذا من أدب النبيّ مع ربّه. فهذا الاسم لله عزّ وجلّ، هو الحكم، أما الإنسان إذا صار حكماً أي صار قاضياً واستلم القضاء.

((حَدّثَنَا خَلَفُ بْنُ خَلِيفَةَ حَدّثَنَا أَبُو هَاشِمٍ قَالَ لَوْلا حَدِيثُ ابْنِ بُرَيْدَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ الْقُضَاةُ ثَلاثَةٌ اثْنَانِ فِي النّارِ وَوَاحِدٌ فِي الْجَنّةِ رَجُلٌ عَلِمَ الْحَقّ فَقَضَى بِهِ فَهُوَ فِي الْجَنّةِ وَرَجُلٌ قَضَى لِلنّاسِ عَلَى جَهْلٍ فَهُوَ فِي النّارِ وَرَجُلٌ جَارَ فِي الْحُكْمِ فَهُوَ فِي النّارِ لولا أن النبي قال ذلك لَقُلْنَا إِنّ الْقَاضِيَ إِذَا اجْتَهَدَ فَهُوَ فِي الْجَنّةِ))

(سنن أبي داود)

أي قاضيان إلى النار.. إنسان حكم بلا علم، وإنسان حكم على علم ظلماً، كلاهما في النار.. والذي عرف الحقّ فحكم به فهو في الجنّة.

أحدهم علّق على هذا الموضوع قائلاً: قاضيان في النار، وقاضٍ في جهنّم. أي لم يبقَ أحد إلا ودخل النار من القضاة.. على كلٍ القضاء شيء مخيف، لأنّ الظلم ظُلماتٌ يوم القيامة.

أيُّها الإخوة: اسم الله الحكم، يقتضينا أن نحتكم إلى الله أول موقف..أما إذا حُكِّمنا.. أن نحكم بالعدل، ينبغي أن نحتكم إلى الله لأنّه يعلم كلّ شيء، يعلم السرّ وأخفى، ويقتضينا إذا حُكِّمنا في قضيّة ألا ننحاز مع أحد.

أحد القضاة وكان معروفاً في مدينته أنّه يُحِبّ الرُطب في بواكيرها، طُرق بابه، فتح الغلام الباب، رأى رجلاً معه طبقاً رطب - وهذا شيء نفيس جداً في بواكيره، وهو غالٍ كثيراً، ومن نوع جيّد -، فرجع إلى القاضي قال له: يا سيّدي بالباب رجل ومعه طبقٌ رُطب. فقال له: صف لي إيّاه. قال: صفته كيت وكيت. فعرف أنّه أحد المتخاصمين، فقال: رُدّ الطبق إليه. بعد حين قابل الخليفة وطلب إعفاءه من منصب القضاء. قال: ولِمَ وأنت الورع النزيه العالم الفقيه المجتهد ؟ قال: والله جاءني قبل أيّام رجل قدّم لي طبق رطب، وفي اليوم التالي جاء مع خصمه ليحتكما إلي، تمنيّتُ أن يكون الحقُّ مع صاحب الطبق الذي قدّمه إلي، هذا مع أنّي رددته فكيف لو قبلته ؟.... كان القضاة هكذا يُحاسبون أنفسهم.

أنت حكماً بين ابنتك وصهرك، وتكلّمت البنت على كيفها، فزمجرت وأرعدت وغضبت وقلت: هذا الصهر ليس عنده أدب، وسوف أقوم بتربيته وحرمانه من زوجته ست' أشهر.. فهل أسمعت منه قبل أن تحكم.

قال أحدهم لأحد الشيوخ: يا سيدي قد لطمني أحدهم كفاً، فرددته له، أعَليّ شيء ؟ قال له الشيخ: لا ليس عليك شيء. ثمّ ظهر أنّ الذي ضربه هو أبوه. فالفتوى على قدر الوصف.

فالقضاء دقيق.. سمعت من ابنتك شيء وتكلّمت عن زوجها كلّ شيء، ألا يقتضي الحكم العدل أن تسمع من زوجها، ماذا فعلت به ؟ سمعت من والدتك، فاسمع من زوجتك رأساً طلقها دون سماعها، فأنت أحياناً تكون حكماً بين زوجتك وأمك، وبين ابنتك وصهرك هؤلاء أقرب الناس إليك، أو تكون رئيساً لدائرة وعندك موظفان متشاجران دوماً، فإذا سمعت من واحدٍ منهم، فاستمع للآخر، ولا تعاقب على الفور بعدما سمعت من الأوّل، فماذا تعلّمنا من سيّدنا سليمان ؟ فقد قال تعالى:

(قالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ (٢٧))

(سورة النمل)

فإذا كنت حكماً يجب أن تحكم بالعدل، وإن احتكمت فلا تحتكم إلا لله، فكيف تقول لله: يا ربِّ أنا حكّمتك لك ؟ كيف تحتكم لله ؟ الاحتكام لله بأن تنصاع لكتابه، والاحتكام لرسوله بأن تخضع لسُنَّةِ، إما لكتاب الله، وإما لسنّة رسول الله فقد قال تعالى:

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٦٥))

(سورة النساء)

يعني ورد في السيرة أنّ سيّدنا العبّاس، كان عين النبيّ في مكّة، ولحكمة أرادها النبيّ قال: **لا تقتلوا عمّي العبّاس في معركة بدر.** فبعضهم قال: **ينهانا عن قتل عمِّه وأحدنا يقتل أباه وأخاه !!** ثم كشفت حكمة النبيّ الكريم قال: **والله - بقيت عشر سنوات وأنا أستغفر الله، لسوء ظنّي برسول الله..**

(فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ)

وعند النزاع... قال تعالى:

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

(سورة النساء)

(فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ)

فردوّه إلى الله، أي إلى قرآنه وإلى رسوله أي سنّته. فإذا كنت مؤمناً، فتردُّ الأمر المتنازع فيه إلى الله ورسوله.

أما أكثر الناس عنده حاسّة سادسة، إذا كانت قضيّته تُحلّ بالقانون، يقول لك: نحن في بلد فيه حكم وقانون وقضاء ؛ فيذهب إلى المحكمة. وإذا كانت القضيّة القانون ضدّه فيها فتنحل عند العلماء ويذهب إليهم ويقول لك: أنا أريد حكم الشرع. لماذا تريد أن تحتكم للشرع، ومرّة لحكم القانون ؟ إذا كنت مؤمناً صادقاً، تحتكم إلى الله دائماً، إلى كتاب الله وإلى سنّة رسوله صلّى الله عليه وسلّم.

٦٤- اسم الله الشهيد :

مع الدرس الرابع والستين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو الشهيد.. وقد ورد هذا الاسم في الأحاديث الصحيحة التي عدد بها النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أسماء الله الحُسنى.

فالشهيد ؛ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، والنبيُّ - صلّى الله عليه وسلّم - وهو سيّدُ الخلق، وحبيبُ الحق سمّاه الله في كتابه الكريم شاهدًا وشهيداً فقد قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥))

(سورة الأحزاب)

وقال تعالى:

(فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً (٤١))

(سورة النساء)

والذي يقدّم أثمن ما يملك في سبيل الله، وفي ساحات القتال، سُمي شهيدا.. والجود بالنفس أقصى غاية الجود، والله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم حينما حدّثنا عن بذل المال والنفس في سبيله قدّم المال على النفس فقد قال تعالى:

(وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ)

(سورة الأنفال)

في معظم الآيات التي تحدّثت عن البذل، جاء بذل المال مقدّماً على بذل النفس لأنّه أسهل، وفي آية واحدة، قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ)

(سورة التوبة)

هنا تقديم أهميّة، قضيّة بيع قطعي فبدأ بالأهم فالمهم.

أيُّها الإخوة القراء... معنى شهيد صيغة مبالغة لاسم الفاعل، شَهد، يشهد، شاهد.. الشهيد صيغة مبالغة اسم الفاعل فمعنى شَهدَ أي حضر، شهد هذا الحفل فلان أي: حضره فلان. شهد هذه الصفقة فلان أي: حضرها فلان. شهد هذه الوليمة فلان أي: حضرها فلان. فالشهيد هو الذي يشهد أي: يحضُر.. والذي يحضُر يعلم، والذي يعلم يُعلِم.

فهناك معان ثلاثة تُستفاد من كلمة شهيد ؛.. حضر، وعَلِم، وأعلم. فالله سبحانه وتعالى بهذا المعنى شهيد، مع كل مخلوق أجل، مع كل مخلوقٍ شهيد بعلمه فقد قال تعالى:

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤))

(سورة الحديد)

(أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

إن كنتم في أطباق الجو، أو تحت أمواج الماء، أو في الصحراء، أو على ظهر اليابسة، في المدن، في السفر، أين ما كنت الله معك. قال العلماء: هذه معيّة عامّة، أي أنّ الله جلّ جلاله مع المخلوقات بعلمه. وقالوا: وهناك معيّة خاصّة فقد قال تعالى:

(وَأَنّ اللّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ (١٩))

(سورة الأنفال)

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ (١٩٤))

(سورة البقرة)

(إِنّ اللّهَ مَعَ الصّابِرِينَ (٤٦))

(سورة الأنفال)

(وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ)

معيّة عامّة.

(واعلموا أَنّ اللّهَ مَعَ الْمُتّقِينَ)

معيّة خاصّة. معيّة الله الخاصّة أي: معهم مؤيّداً، وناصراً، وحافظاً، وموفّقاً. إذا كان الله معك فمن عليك ؟ وإذا كان الله عليك فمن معك ؟ فلا أحد معك، أقرب الناس إليك يتنكّرون لك، لكنّ الله معكم مؤيّداً، معكم ناصراً، معكم موفّقاً، معكم حافظاً، فقد قال تعالى:

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ (٦٤))

(سورة يوسف)

في الحديث القدسي:

((عبدي أعطيتُك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال يا ربّ لم أنفق منه شيئاً مخافة الفقر على أولادي من بعدي. قال ألم تعلم بأنّي أنا الرزّاق ذو القوّة المتين، إنّ الذي خشيته على أولادك من بعدك قد أنزلته بهم "، يسأل عبداً آخر: " أعطيتك مالاً فماذا صنعت فيه ؟ قال يا ربِّ أنفقته على كلِّ محتاج ومسكين لثقتي بأنّك خيرٌ حافظاً وأنت أرحم الراحمين. قال: عبدي أنا الحافظ لأولادك من بعدك.))

فالله عزّ وجلّ يكون مع المؤمن حافظاً ومؤيّداً وناصراً وموفّقاً، وما توفيقي إلا بالله.

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ (٦٤))

وقد قال تعالى:

(إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ)

(سورة آل عمران)

وقال تعالى:

(هُوَ الّذِي أَيّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢))

(سورة الأنفال)

أيّدك.. ونصر. وحفظ.. ووفّق، هذه هي المعيّة الخاصّة، إلا أنّ المعيّة الخاصّة مشروطة فقد قال تعالى:

(وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً)

(سورة المائدة)

هناك ثمن.

(وَقَالَ اللّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمْ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمْ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمْ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا)

إذاً ؛ معنى شهيد أي: معك.. يا موسى أتُحبُّ أن أكون جليسك ؟ قال كيف ذلك يا ربّ وأنت ربُّ العالمين ؟! قال: أما علمت أنني جليس من ذكرني، وحيث التمسني عبدي وجدني.

هو معك، إن ذكرته هو معك، [وكن مع الله ترَ الله معك / وإذا أعطاك من يمنعه / واترك الكُلّ وحاذر طمعك / ثم من يعطي إذا ما منعك.

الشهيد مع كل مخلوق بعلمه، ومع المؤمن بتوفيقه، وحفظه، وتأييده، ونصره.. فهو شهيد، قال تعالى:

(قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٤٥))

(سورة طه)

فرعون، كان قتْلُ الإنسان عنده كقتل ذبابه، ولكن الله تعالى قال لكل من سيّدنا موسى وأخيه هارون:

(قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (٤٦))

(سورة طه)

أنا معكما..

(إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى)

وكل مؤمن إن شعر أنّ الله معه، يشعر بقوّة لا حدود لها.

قال الصدّيق لرسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - وهما في الغار: يا رسول الله: **لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآنا.** قال: يا **أبا بكر ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما** ؟ وهي معية الله عزّ وجلّ، الإيمان.. أفضل الإيمان ؛ أن تعلم أنّ الله معك حيثُ كنت.

إذاً الشهيد هو معك.. معك عِلماً إذا كنت مخلوقاً عاديّاً. ومعك حافظاً، وناصراً، وموفِّقاً، ومؤيّداً، إن كنت مؤمناً، أو صابراً، أو متّقياً.

من لوازم الشهيد ؛ أنّه يعلم.. ومن لوازم الشهيد ؛ أنّه يُعلِم. حَضَرَ، عَلِم، يُعلِم.. هو حاضرٌ مع كلّ مخلوق، في كلّ زمانٍ ومكان، وهو عالمٌ به.

قال بعض العلماء: **" الشهيد ؛ الأمين بشهادته، الأمين في أداء شهادته "** أي شهادة دقيقة جداً، فأحياناً الإنسان قد يحضر ويقول لك: والله لم أشعر ماذا فعلوا، كنت معهم ولكنّهم غافلوني وراغوا. إذا كان الله عزّ وجلّ شهيدًا فلا تخفى عليه خافية، ولا حركة، ولا سكنة، ولا خاطر، ولا صراع أبداً فنفوس العباد مكشوفةٌ له، فقد قال تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ)

(سورة الأنفال)

(وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦))

(سورة ق)

وبعد، فإنّ المعنى الفرعي الآن: الشهيد ؛ الأمين في شهادته، أي: لا يغيب عن علمه شيء، البالغ الغاية في علمه بالأمور الظاهرة. فهو شهيد حاضر، وشهيد يَعلم، والآن الشهيد يُعلِم.. فقد قال تعالى:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ)

(سورة آل عمران)

هنا السؤال كيف يشهد ؟.. إنسان من جنس البشر، يشهد لك بلسانه ؛ فيقول لك: أنا كنت في المكان الفلاني، وفعلاً حدث ما حدث، يشهد لك بلسانه ؛ ولكنّ الله جلّ جلاله كيف يشهد لك ؟

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ)

قال: عرفت الله من نقض العزائم. الإنسان الغافل الشارد المشرك ؛ يأخذ بكلّ الأسباب ويعتمد عليها، ويظنُّ أنّ الأمور تجري على ما يريد، ثم يفاجأ أنّ الله أبطل كلّ مسعاه.. عرفت الله من نقض العزائم.

ألا ترون في كلّ مكانٍ وزمان ؛ أنّ الله يشهد لخلقه:

(أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ)

أي بالتعبير المألوف - مع الله لا حيلة لِذَكِيّ -، النجاح بالتوفيق لا بالذكاء. نجاح الإنسان بتوفيق الله، وتوفيق الله باستقامته على أمره، فالله يشهد.

وأمثلة على ذلك... أب توفّي وترك خمسة أولاد، أكبر الأولاد أخذ كلّ الثروة، كيف يشهد الله:

(أَنّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ)

يوفِّقُ المظلومين ويمحق الظالم، أما بحسب قوانين الأرض، فالذي استولى على كل المال ينبغي أن ينمو كلّ هذا المال عنده، والذي حُرِمَ منه، ينبغي أن يعيش فقيراً بائساً، يشهد الله للناس أنّ الأمر بيده. هو أخذ المال كلّه.. أتلف الله المال وأتلف صاحبه، والذي حُرِمَ منه وليس له إلا الله وفّقه الله، وكم من أخ استولى على كلّ الثروة، ثمّ عمل عند إخوته فيما بعد أجيراً فقد أتلف الله ماله كلّه **!!** وعلى هذا فقس، يشهد الله لخلقه:

(أنّهُ لا إلهَ إلا هُوَ)

فالأمر بيده.

تجد الأقوياء.. يأتيهم بأس الله جلّ جلاله ويدمِّرهم أحياناً كثيرة والضعفاء ينصرهم. الأغنياء إن أدّوا زكاة مالهم، يبارك لهم في مالهم، إن لم يؤدُّوا الزكاة يمحق مالهم.

الإنسان أحياناً لا يملك من الدنيا شيئاً، لكن يملك استقامته، فالله عزّ وجلّ يكرمه ويعلي مكانه، يرزقه، ينصره، يؤيّده. فعندما ينصر ربنا إنساناً ضعيفاً وفقيراً، نَصْرُ اللهِ لهذا الضعيف الفقير شهادةٌ من الله لخلقه ؛ أنّ الأمر بيده، ليس بالمال، ولا بالسلطان، ولا بالذكاء، لا بالحسب، ولا بالنسب، ولكن بطاعة الله عزّ وجلّ.

وهأنذا أقدّم معنىً دقيقاً.. هناك بالحياة قواعد ماديّة، هذه القواعد الماديّة تخرق، فمثلاً: حسب إجراءات الآلة الحاسبة أربح - مئة ألف زائد ثمانية عشر بالمئة ؛ فالمجموع يساوي مئة وثمانية عشر - دفعتها مئة فقبضتّها مئة وثمانية عشر، وهذه حسابات على الآلة الحاسبة، ولكن الله قال:

(يَمْحَقُ اللّهُ الْرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ)

(سورة البقرة)

أقرضت إنساناً مئة ألف.. وبحسب التضخُّم النقدي رُدّت لك أقلّ بثمانية عشرة بالمئة، ردّت لك أثنين وثمانين ألفًا، لكن ربنا عزّ وجلّ بالطافه الخفيّة يحفظ المال، ويُنمِّي المال، ويحفظ صاحب المال، يحفظ له أهله، وأولاده، وصحّته، ويؤيّده، ينصره، يوفِّقه، فقد قال تعالى:

(مَنْ ذَا الّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ)

(سورة البقرة)

معناها أنّ الله شهيد أي: يشهد. أي: يحضر، وحاضر، وعالم والآن يُعلم، يُعلمنا أن الأمر بيده، لا بذكائكم ولا بأموالكم ولا بأحسابكم ولا بأنسابكم ولا بتجمعاتكم ولا بكل ماتملكون، الأمر بيد الله، الله مع المحسن ومع الطائع ومع المستقيم ينصره ويؤيده لأنه شهيد ويشهد لنا.

يعني أقرب الأمثلة التاريخية.. النبي - عليه الصلاة والسلام - أخرجه قومه إلى المدينة ؛ فقريش أقوى قبيلة في الجزيرة.. وكذلك فقريش لديها أموال وفيها أبطال وفيها عتاد وفرسان وعدد، والنبي ضعيفٌ مستضعف.

لم يستطع إنقاذ عمار بن ياسر من التعذيب يقول:

((صبراً آل ياسر إنّ موعدكم الجنة.))

لايستطيع أن يتدخل، وعندما هاجر هُدر دمه، لمن كانت العاقبة ؟

فما معنى أنّ الله شهيد ؟ أي أنّ قريش بخيلها وصولتها وقوّتها وفرسانها ومؤامراتها، وشدّة بأس رجالها ؛ دمّرها الله عزّ وجلّ، ونصر النبيّ -عليه الصلاة والسلام -.. وهذا الشيء يتكرر.

أي أنّك إذا أردت أن تكون أقوى الناس، فتوكّل على الله. فالله عزّ وجلّ شهيد.. حاضر، عالِم، مُعلِم.. شهيد، يشهد لك.

فمثلاً.. تجد شاباً مستقيمًا يعرف الله ويخافه، ويتحرّى الحلال، ويرجو رضى الله، ويخاف سخطه، لا يعصيه، يغُضُّ بصره، يضبط لسانه، يضبط سمعه وبصره، لكنّه فقيرٌ، وتجد شاباً آخر ذا قوّة ومنعة ومال وأهل ودعم، الله عزّ وجلّ ينصر المستقيم، ويُدمِّر المنحرف. ما معنى ذلك ؟ أنّ الله يشهد.. ألم يقل الله عزّ وجلّ:

(أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (٢١))

(سورة الجاثية)

شيء دقيق المعنى جداً.. فكلام ربنا كقوله تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً)

(سورة النحل)

فهذا قانون سماوي، أيها القارىء الكريم، زوال الكون، أهون على الله من أن يُضيّع مؤمناً. وزوال الكون، أهون على الله من أن يتبدّى لكم، أنّ هذا الإنسان القوي الكافر المنحرف، الذي يخطط لمستقبلٍ رائع. تحقيق ما خطط له يتناقض مع وجود الله - لذلك يفاجأ الإنسان بأحداث مذهلة.

فقِلاع عمّرت سبعين عاماً، تهاوت كبيت العنكبوت. أليس هذا من فعل الله عزّ وجلّ ؟ ليريكم آياته ؟ الله شهيد يشهد لنا.

(أنّهُ لا إلَهَ إلا هُوَ)

العوام يستخدمون هذه الكلمة: **" ما في غير الله.. الله كبير "**، فهذه الكلمات لها مدلول عميق.. يقولون لا إله إلا الله، هو المعطي، هو المانع، هو القابض، هو الباسط، هو المعز، هو المذل، هو الرازق هو الحافظ، إلخ... فهذه الكلمات لها مدلول عميق، فليس هناك سوى الله، فهناك إنسانٌ قويٌ جداً ويؤتى من مأمنه.. كقول الله تعالى:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢))

(سورة البروج)

الشهيد: هو الحاضر الذي لا يغيب عنه شيءٌ في ملكه.. فقد قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣))

(سورة فصلت)

والله قد قال لي ذات مرّة أحدهم كلمة أعجبتني كثيرا قال: الحمد لله على وجود الله ووجوده يفوّت على أهل المكر مكرهم، فأحياناً تجد الإنسان لئيماً يتجاهل إمكاناتك، يتجاهل عطاءآتك، يتجاهل ميّزاتك، يضايقك، ولكن الله شهيد، اصنع المعروف مع أهله ومع غير أهله، إن أصبت أهله أصبت أهله، وإن لم تُصب أهله فأنت أهله.

إذا كنت تعلم أنّ الله يعلم، فليست هناك مشكلة إطلاقاً. يكفيك أنّ الله يعلم.. فأحياناً يكون للإنسان عملٌ عظيمٌ لكنّه لا يظهر. ويُعتَّم عليه بشكل مقصود، ولكن الله شهيد. أهلا بمن خبّرني جبريل بقدومه قالها النبي عليه الصلاة والسلام لصحابي، فقال: **أومثلي!!** قال: **نعم يا أخي خاملٌ في الأرض، علمٌ في السماء.**

فإذا كان الله شهيداً، فليست هناك مشكلة... الحمد لله على أنّه يشهد كلّ شيء.

(أوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

فلو فرضنا موظفاً.. والمدير العام الذي بيده ترفيعه، وزيادة رواتبه، ودعمه، وتقليده المناصب العليا، يعلم إمكانات هذا الموظّف، ويعلم عطاءآته، ويعلم دقّته في عمله، فإذا كان الآذن لا يعرف.. فخيرٌ إن شاء الله عرف أم لم يعرف فذلك لا يضيره في شيء.

فأجمل كلمة قالها سيّدنا عمر - رضي الله عنه -عندما جاءه رسولٌ من معركة نهاوند، فقال: حدِّثني ماذا حدث ؟ قال له **والله مات خلقٌ كثير.** فقال له: من هم ؟ فذكر له بعض الأسماء. فقال له: من أيضاً؟ فقال له: **إنّك لا تعرفهم. فبكى عمر وقال: ما ضرّهم أني لا أعرفهم إذا كان الله يعلمهم.**

أنت عملت عملاً طيّباً، والناس لم يقدِّروك.. - ولم يقدِّروا عملك فخيرٌ إن شاء الله.

(أوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ)

فعلامة المخلص ؛ أنه لا يبحث عن تقدير الناس، ولا عن انتزاع إعجابهم.. لا بل يهمّه أنّ الله يعلم وانتهى كلّ شيء، إلهي أنت مقصودي ورضاك مطلوبي.

هو شهيد حاضر ويعلم... قال العلماء: إذا كان العلم مطلقاً فهو العليم.. شهيد يعني عليم علماً مطلقاً، أما إذا أُضيف إلى الأمور الباطنة فهو الخبير، أما إذا أُضيف إلى الأمور الظاهرة فهو الشهيد.

الله يشهد ما ظهر، وخبير بما بطن، ويعلم ما ظهر وما بطن.

العلم مطلقاً شهيد، العلم مطلقاً عليم، العلم بظواهر الأشياء شهيد، وببواطنها خبير.

بعض العلماء يقول: **" الشهيد ؛ الذي لا يغيب عنه شيء، ولا يعزُب عنه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السماء، مطّلعٌ على كلِّ شيء، مشاهدٌ له، عليمٌ بتفاصيله ".**

فأنت أحياناً تلتقي مع مدير عام بمؤسسة يعرف الأمور الكبيرة، أما دقائق ما يجري فلا يعرفها، ويقول لك ليس عندي علم. لكن مقام الألوهيّة يقتضي أن يعلم كلّ التفاصيل، أدق أدق خواطر الإنسان يعلمها

الله.

أحياناً الإنسان يعلن عن شيء ويُبطن خلافه. فيزوره شخص ويعلن أنّ لهذه الزيارة سبب، كأن يقول: لقد بلغني عنك أنّك مريض، ويكون قد أتى في الحقيقة لأن له ديناً عنده، وليطالبه به، فأظهر بذلك شيئاً وأخفى شيئاً آخر.. ولكن الله عزّ وجلّ يعلم السرّ وأخفى، يعلم ما أعلنت، ويعلم ما أسررت، ويعلم ما خفي عنك.. ما خفي عنك أنت ذاتك والله سبحانه وتعالى هو الشهيد ؛ لأنّه يشهد على الخلق يوم القيامة.

وبعد، فأحدث طريقة في التحقيق أن تصوّر المخالف وأن تعرض عليه الصورة، فانتهى الأمر بذلك ولا يستطيع أن يتكلّم بكلمة واحدة، يقولون له: أنت في الوقت الفلاني وفي الشارع الفلاني خالفت. فلو قلت لهم: لا.. لم أكن هناك. أظهروا لك صورة سيّارتك، وهذا هو التاريخ، وهذا هو الشارع. فينتهي كل شيء.. فإذا عُرض على الإنسان عمله مصوّراً، يصمت..

فقال بعض العلماء: **" الله شهيد، يشهد لعباده يوم القيامة، يُشهدهم أعمالهم "..** وهذا معنى جديد.. يُشهدهم أعمالهم فقد قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤))

(سورة الإسراء)

تفضّل هذه أعمالك، طلّقت ظلماً، قبضت هذا المال ظلماً، دلّست بهذه الصفقة، أخفيت هذا العيب، أكلت هذا المال ولا يحقُّ لك أن تأكله، سهرت في المكان الفلاني، أطلقت بصرك في المكان الفلاني، كل الأعمال، وبالتعبير الحديث أعمالك مسجّلة على هيئة فيلمٍ ملونٍ وناطقٍ مع التاريخ والساعات، والمكان والزمان. تكلم..

(كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا)

هذا معنى جديد ؛ يُشْهدكَ أعمالك يوم القيامة.

لذلك، إن علمت أن الله يراقبك ؛ فهذا أكبر دافع لك على طاعة الله.. قال الله تعالى:

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢))

(سورة الأحزاب)

(إِنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧))

(سورة الحج)

بالمناسبة ؛ هل تصدق أيها القارىء الكريم أنه من أجل أن تعلم ؛ علمُكَ أن الله يعلم؛ هو علّة وجودك على وجه الأرض فقد قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

(سورة الطلاق)

في الحقيقة ؛ أسماء الله تسعة وتسعون، لكنّ الله اختار من أسمائه كلها اسمين العلم والقدرة. إن علمت أن الله يعلم: و أنه سيحاسب، وأنه قوي، لابد من أن تستقيم على أمره.

أنا أضرب أمثلة كثيرة ؛ ممكن وأنت راكب مركبتك، والإشارة حمراء، والشرطي واقف معه دراجة، وسيارة الضابطة واقفه فيها ضابط، والقانون صارم، والعقوبة شديدة، وأنت إنسان عادي ليس لك قوة.. هل يمكن أن تتجاوز الإشارة ؟ لا، فهذا شيء مستحيل، إن علمت أن الله يعلم، وسيحاسبك ؛ مستحيل أن تعصيه ؛ فإن عصيته فلضعف في علمك أنه يعلم، أو لضعف في علمك أنه سيحاسب، أما إذا أيقنت أنه يعلم و سيحاسب .

لا يمكن أن تعصيه فهذا المعنى الثاني.

لو حللت المعصية تحليلاً علمياً.. الإنسان يتجاوَز الإشارة الحمراء الساعة الثالثة في الليل يقول لك: لايوجد أحد لأن الذي يحاسبك لايعلم، وينطلق بسيارته غير عابىءٍ بالإشارة الحمراء إذا كان أقوى من الشرطي ومن رؤسائه، أما إذا كان ضعيفاً، والشرطي يقف أمامه، هل يستطيع أن يتجاوز الإشارة ؟ لا، هذا قانون نفسي.. أي أنت لو علمت أن الله يعلم، ولا تخفى عليه خافية.. وأنه سيحاسب - لا بدّ من أن يحاسب - لا يمكن أن تعصيه، فالله عز وجل شهيد، حاضر، عالم، يُعْلِم.

ذُكِرَ اسم الشهيد في القرآن الكريم تسع عشرة مرة.. الله سبحانه وتعالى يقول في سورة النساء:

(إِنّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيداً (٣٣))

(سورة النساء)

كل حادث، وكل أمر، الله عزّ وجلّ شهيد، ويعلم، وسيفصل بين خلقه يوم القيامة. فأحياناً يكون الإنسان طليقَ اللسان، ولديه قوّة حجّة؛ ولو بالباطل فيقنع الآخرين، مثل هؤلاءِ إذا كانوا منحرفين في حياتهم وكانوا معتدين على الآخرين ؛ الله عزّ وجلّ يسلبهم هذا السلاح، يقول تعالى:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ)

(سورة يس)

شهيد الله عزّ وجلّ.. وقال تعالى:

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الّذِي أَنْطَقَ كُلّ شَيْءٍ)

(سورة فصلت)

وقال تعالى:

(وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

هذه أول آية.. أي هو رقيبٌ عليكم.

فبربّكم، إذا كنت بحضرة إنسان من علية القوم، فهل تتكلّم بأيّة كلمة أمامه ؟ إذا زارك ضيفٌ من علية القوم، وهو شخصٌ محترمٌ، عالم، عميد الأسرة مثلاً، مكانته كبيرة، منصبه رفيع، أخلاقه عالية، أي أنه شخصٌ متفوّق ؛ إن في علمه، أو في مرتبته، أو إلى آخر الصفات.. فهو ضيفك وأنت أمامه، فهل تتكلّم بأية كلمة ؟ هل من الممكن أن تتكلّم بكلمات بذيئة أمامه ؟ أيُمْكن أن تخاصم أهلك أمامه ؟ ممكن تُطلق لسانك بالسباب أمامه ؟ إنسان من جنسك ولكن له مكانة، فأنت إذا أيقنت:

(إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

وهو معك فلا يمكن أن تفعل، فأحد أكبر أسباب الانضباط شعور الإنسان أنّ الله معه.. أفضل إيمان المرء أن يعلم أنّ الله معه حيث كان.

(إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

أي كان رقيباً عليكم.

وفي آل عمران يقول تعالى:

(لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ (٩٨))

(سورة آل عمران)

بعضهم يقول لك: دبرت الأمر وعملت كل ما ينبغي وأوقعته فيها - لبسته إياها -، أخفيت عليه العيب، مرّتْ البضاعة بالرغم من العيب الخطير الموجود فيها ! يظن نفسه ذكياً، والله عزّ وجلّ:

(عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا)

(لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ)

أي شهيد، حاضر، يعلم يُعْلِم، سيُجازي، فمعنى ذلك إنّك لم تكن ذكياً.

والله آلاف الوقائع والحوادث، إنسان ظن أنّ هذا العمل يخفى على الله فعله، وظن نفسه ذكياً ثم كُشف ودفع ثمنه غالياً، ولقي جزاء عمله، ودمّره الله عزّ وجلّ، معنى ذلك أنّه لم يكن ذكياً.

هناك شخص كتبت عنه الصحف منذ فترة، وعنده نوع من الدجل في علاقاته مع الآخرين، يبتزُّ أموالهم، ويعمل في الطب، ودخله كلّ ثلاثة أيام مليون ليرة مقابل إجرائه لعمليّات جراحيّة كبيرة وضخمة، ثم كُشف، أي معنى ذلك إنّه لم يكن ذكياً.

أقول هذا مراراً.. الانحراف عدوان ؛ فقد يستمر ذلك إلى حين، أما دائما فلن يستمر، لا بدّ من أن يكشفه الله، وأن يلقى صاحبه جزاء عمله في الدنيا قبل الآخرة، وهذا من آيات الله، هذا من دلائل قدرته عزّ وجلّ، فقد قال تعالى:

(وَأَنّ اللّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ (٥٢))

(سورة يوسف)

سيّدنا عيسى عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام في سورة المائدة يقول الله سبحانه وتعالى سائلاً إيّاه ثمّ يجيب:

(وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنّاسِ اتّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنّكَ أَنْتَ عَلّامُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبّي وَرَبّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ(١١٧))

(إِنْ تُعَذّبْهُمْ فَإِنّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨))

(سورة المائدة)

في سورة النساء:

(رَسُولاً وَكَفَى بِاللّهِ شَهِيداً (٧٩))

(سورة النساء)

فهذا محمد صلى الله عليه وسلّم، فبالطائف كذّبوه، وسخروا منه، وردّوا دعوته، وأغروا سفهاءهم به، آذوه، وضربوه. وجاء بعد الطائف حادث الإسراء والمعراج، رفع الله نبيّه إلى أعلى عليين، أعلمه أنّه سيّدُ الخلق وحبيب الحق.. قال تعالى:

(إِنّه هُوَ السّمِيعُ الْبَصِيرُ (١))

(سورة الإسراء)

سمع دعاءك وأبصر ما جرى لك في الطائف، وقال تعالى:

(قُلْ أَيّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً)

(سورة الأنعام)

أحياناً الإنسان يجهّز شهوداً أقوياء، يقول لك: فلان يعرف الموضوع، وفلان كان حاضراً، وفلان معي منه إقرارٌ، وفلان كتب لي تصريحاً، ولكن هناك أقوى من كلّ هذه الشهادات ؛ وهي أن يشهد الله لك أنّك مستقيم.

(قُلْ أَيّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلْ اللّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ)

إذا شهد الله لك أنّك على الحق هذه أكبر شهادة.

هذه الآيات أيُّها القارىء الكريم وردت في كتاب الله إنّها تسع عشرة آية ورد فيها إسم الشهيد..
تومىء إلى شهادة الله لهذا الإنسان:

(وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُوداً إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٦١))

(سورة يونس)

وأنت تصلِّي يعلم الله أنّك تصلي، وتقرأ القرآن، تسبّح، تذكر، تستغفر، تغُضُّ البصر، تأمر بالمعروف، كلُّ عملك في علم الله، وهو يشهد عملك.. لكن الله يشهد بما أنزله إليك، أنزله بعلمه والملائكة يشهدون.

(وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا)

يكفي أنّ الله يشهد، وفي سورة يونس:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ (٤٣))

(سورة يونس)

وقال تعالى:

(فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩))

(سورة يونس)

وقال تعالى:

(وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤))

(سورة التوبة)

وقال تعالى:

(وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ)

(سورة الأنعام)

أي يشهد لما ظهر، ويعلم لما ظهر ولما بطن.. وقد قال تعالى:

(وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥))

(سورة التوبةالآية: ١٠٥)

وقال تعالى:

(وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩))

(سورة الرعد)

وقال تعالى:

(ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٦))

(سورة السجدة)

وقال تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦))

(سورة الزمر)

وقال تعالى:

(هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ (٢٢))

(سورة الحشر)

وقال تعالى:

(قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨))

(سورة الجمعة)

أيُّها الأخوة القراء... ملخّص هذا الاسم الجليل أنّ الله معكم أينما كنتم، معكم بعلمه، ومعكم بتأييده، إن كنتم على طاعته، معكم بعلمه، ومعكم بنصره وحفظه وتأييّده وتوفيقه ؛ إن أقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة، وآمنتم برسله، وعزّرتموهم، وأقرضتم الله قرضاً حسناً.

من لوازم أنّه معكم يعلم ما تفعلون، يعلم ظاهر العمل، وباطن العمل. ونوايا صاحب العمل ومؤدّى العمل، وخلفيّة العمل، عملك بكلّ تفاصيله، وملابساته، وخلفيّاته، وأهدافه، ومراميه، في علم الله عزّ وجلّ.

ثم هو يُنبئك عن عملك في الدنيا والآخرة، ينبئك عن ذاتة، يشهد لك أنّه لا إله إلا هو، أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

وقد ورد بالأثر القدسي:

((أن يا عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن، أفيُعييني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين ؟ وعزّتي وجلالي إن لم ترضَ بما قسمته لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة ثم لا يَنالُك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً، أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمتني فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تُسلِمني فيما أريد أتعبتُك فيما تُريد ثم لا يكونُ إلا ما أريد))

إذاً شهيد.. يعلم، وشهيد.. يُعْلِم، ينبئك أنه لا إله إلا الله، وينبئُك عن عملك بحبّه لك، فإذا كان هناك شخصٌ مستقيمٌ يشهد الله له أنّه مستقيم من خلال التوفيق، وإذا كان إنسان ماله حرام، يشهد الله له بأنّ ماله حرام من خلال التدمير.. يدمّر له ماله. فقد قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى)

المعيشة الضنك، شهادة الله للمنحرف ؛ بأنّ هذا القرآن كلامه، ثمّ هو يشهد لك عن ذاته، وعن أفعاله، وعن كلامه، ويشهدك عملك في الدنيا والآخرة، إذاً هو سبحانه حاضر.. ويَعْلَم.. ويُعْلِم، هذا هو الشهيد.
أخيرًا، أدب المؤمن مع هذا الاسم.. إذا علمت أنّ الله معك، وأنّه شهيدٌ عليك، وأنّه يسمع كلامك، ويرى حركتك ويعلم باطنك ؛ لا بدّ من أن تتأدّب معه. فالأدب مع الله من نتائج إدراك العبد أنه يوقن أنّ الله على أفعاله شهيد.

٦٥- اسم الله الغني والمغني :

مع الدرس الخامس والستين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم هو اسم الغني والمُغني.

الغنيُّ والمُغني: اسمان من أسماء الله الحُسنى، إلا أنّ أكثر الذين بحثوا في هذين الاسمين ؛ بحثوا فيهما معاً، وذكروهما معاً، فكان الجمع بينهما من تقليد العلماء الذين درسوا أسماء الله الحُسنى، لذلك الاسم اليوم الغني والمُغني، والأصح أن نقول الاسمان اليوم الغنيُّ والمغني.

الغنى - كما تعلمون - ضدُّ الفقر، والغنى له معانٍ عديدة.. أحدها عدم الحاجة إطلاقاً، وليس ذلك إلا لله تعالى. الله وحده الذي لا يحتاج إلى أحد، بل إنّ الله وحده يحتاجه كلُّ شيء في كلّ شيء. الله وحده لا يحتاج أحداً، إذاً غنيّ.. غنيٌّ عن خلقه، آمنوا، كفروا، أحسنوا، أساءوا، قدّروا لم يُقدِّروا، عرفوا جهلوا، جحدوا، ألحدوا، غنيٌّ عن خلقه، فقد قال تعالى:

(إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنّ اللّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨))

(سورة إبراهيم)

شأن المخلوق أنّه يحتاج ربّه في كلّ شيء، شأن العبد أنّه يحتاج ربّه في كلّ شيء، وشأن الربِّ أنّه لا يحتاج أحداً.

لذلك أيّها الإخوة: كتطبيقٍ سريعٍ لهذا الاسم.. كلّما استغنيت عن الناس، شعرت براحةٍ نفسيّة. كلّما استغنيت عن ما في أيدي الناس، أحبّك الناس. كلّما استغنيت عن أموالهم، وعن عطاءاتهم، وعن ما يخصُّونك به، شعرت بكرامة. دققوا في هذه الأقوال الثلاثة.. احتج إلى الرجل تكن أسيره، أحسن إليه تكن أميره، استغنِ عنه تكن نظيره. لذلك من بعض الأدعية اللطيفة: اللهمّ لا تجعل حوائجنا إلا إليك، ودُلّنا بك عليك.

الغنيُّ هو الذي لا يحتاج أحداً، وهذه ليست إلا لله. أما العبد فإنه يحتاج، إلا أنّه إذا احتاج إلى ربّه بقي عزيزاً، أما إذا احتاج إلى عبيده كان ذليلاً لهم.

الإمام الحسن البصري من كبار التابعين وله هيبةٌ لا توصف، وله مكانةٌ عليّة، سُئِلَ مرةً بِمَ نِلت هذا المقام ؟ قال: **باستغنائي عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمي.**

أما إذا تعلّم الإنسان العلم الشرعي، ثم احتاج إلى دنيا الناس واستغنوا عن علمه، فو الله هذا منتهى الذل.. أن يستغني الناس عن علمك، وأن تحتاج إلى دنياهم، لكنّ الإمام الحسن البصري نال هذا المقام الرفيع باستغنائه عن دنيا الناس، وحاجتهم إلى علمه.

والحقيقة: اسم الغني.. والمؤمن إذا أقبل على الله عزّ وجلّ، يشتقُّ من هذا الاسم شيئاً، يشعر أنّه غنيٌّ عن المطامع. الطمع أذلّ رقاب الرجال، غنيٌّ عن ما في أيدي الناس، لا يشتهي ما لا يجد.. لي صديقٌ كان من أعظم الناس في عيني، وكان رأس ما عظّمه في عيني صِغرُ الدنيا في عينيه، كان لا يشتهي ما

لا يجد، ولا يُكثر إذا وجد. خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً.. من أخذ من الدنيا فوق ما يكفيه أخذ من حتفه وهو لا يشعر.

الله غنيّ.. لا يحتاج إلى خلقه. المؤمن باتصاله بالله عزّ وجلّ يشتقُ من هذا الاسم شيئاً، يصبح غنياً عن الناس، لا ينظر إلى ما عندهم. الإنسان يدخل إلى أحد البيوت، تجده ينظر إلى كل ما فيه من أشياء ويسأل: كم ثمن هذه الثُريّا، ومن أين اشتريت هذه، وكيف حصّلت هذه ؟ تشعر بضعفه وتشعر بدنوّه.. أما هناك إنساناً لا يأبه بكلّ هذه المظاهر.. ربما يركب مركبة فخمة فلا بدّ من أن يسأل عن ميّزاتها وعن سرعتها، وعن مصروفها وعن ثمنها، وكيف طوّبْتَها، و هل مستأجرة أم هي ملكا لك ؟ أم سياحي وما وضعها ؟ يبدو أن نفسه قد تاقت لها.. المؤمن المتصل بالله يستغني، يشعر بغنى.

دخلوا على سيّدنا أبي عبيدة الجراح، وكان قائد الجيوش الإسلاميّة في بلاد الشام، رأوا في غرفته قدر ماءٍ مغطىً برغيف خبز، وجلداً يجلس عليه، وسيفّاً معلّقاً في الحجرة. قيل له: يا أبا عُبيدة ما هذا ؟ قال: هو للدنيا وعلى الدنيا كثير، ألا يُبلِّغنا المقيل.

ازهد بما في أيدي الناس، يحبُّك الناس.. ارغب بما عند الله، يُحبُّك الله، الله بالعكس إن أحببت ما عنده أحبّك، وإن زهدّتَ بما في أيدي الناس، أحبّك الناس.

فالغني هو الله الذي لا يحتاج أحداً، وجوده ذاتي أما الإنسان يحتاج ؛ لكن بين أن يحتاج الله عزّ وجلّ، ويحتاج إلى ما عنده، وبين أن يحتاج إلى خلقه. إذا احتاج ما عنده علا، إن احتاج إلى خلقه دنى.. احتج إلى الرجل تكن أسيره، استغن عنه تكن نظيره، أحسن إليه تكن أميره.

بالمناسبة إنّ أدقّ ما في هذا الموضوع ؛ حديثٌ صحيح قاله النبيُّ عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

(سنن الترمذي)

لا تنسوا.. أنْ، خذ من الدنيا ما شئت، وخذ بقدرها هماً. إذا كان لديك آلة بسيطة فتصليحها سهلٌ، أما إذا كانت تعمل بالحاسوب وتعطّلت، ولا يوجد من يصلحها لك، يأتيك الهم فكلّما كانت الآلة شديدة التعقيد، فتصليحها يكون صعباً وهمّاً أكبر.. هذه قاعدة.. خذ من الدنيا ما شئت وخذ بقدرها هماً.

يقول الله عن ذاته :

(فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

وهذه لها معنى دقيق.. فأحياناً الإنسان يستغني عن الناس، لأنّه مستغنٍ عنهم، يترفّع عنهم، ويستعلي عليهم، وأحياناً يحتقرهم، يؤذيهم بقوله لكنّ الله جلّ جلاله مع أنّه غنيٌ عن خلقه ؛ لكنّ كماله مطلق. تجد غنياً بعيداً عن الله، به كبرٌ، وغطرسة، واستعلاء، وتأفف.. وأحياناً تجد غنياً على حجمه المالي

الكبير متواضعاً، قريباً منك.. العظمة أن تكون مستغنياً عن الناس ؛ وأنت معهم، تصغي إلى حديثهم، تتعاطف مع مشكلاتهم، يعنيك ما يعنيهم، يؤلمك ما يؤلمهم، ترجو لهم ما ترجو لنفسك. وهذه صفة عالية جداً، الأنبياء كانوا مع الخلق، يمشون في الأسواق، يعيشون معهم، لذلك قالوا: هناك برجٌ عاجيٌّ فكري، وهناك برجٌ عاجيٌّ أخلاقي.. البرج العاجي مذموم.. يقولون لك: فلان يعيش في برج عاجي، ليس واقعياً، بعيداً عن هموم الناس، إذا ابتعدت عن هموم الناس وعن حياتهم اليوميّة، وعن مآسيهم، وعن آلامهم، وعن طموحاتهم فأنت في بُرجٍ عاجيٍّ فكري. أنت تعيش في الأحلام. أما إذا ابتعدت عن سقطاتهم وانحرافاتهم ومعاصيهم فأنت في برجٍ عاجيٍ أخلاقيّ.

فالمؤمن ينأى بأخلاقه عن سقطات مجتمعه، أما بفكره يعيش معهم ؛ يألم لألمهم.. سيّدنا عمر جاءته هديّةٌ من أذربيجان، فقال لرسول أذربيجان: **ما هذه** ؟ قال له: هديّةٌ.. طعامٌ أهداه إليك عاملك على أذربيجان، ففتح العُلبة، فوجد فيها طعاماً نفيساً جداً. فسأل رسول عامله على أذربيجان: **هل يأكل عندكم عامّة المسلمين هذا الطعام** ؟ قال: لا هذا طعام الخاصّة. أخرجها من فمه وقال: **قل لصاحبك كيف يعنيك أمر المسلمين إن لم تأكل مما يأكلون ؟ حرامٌ على بطن عمر أن يذوق طعاماً لا يطعمه فقراء المسلمين، خذ هذه الهديّة ووزعها على فقراء المسلمين في المسجد النبوي.** ولم يأكل منها.

سيّدنا عمر حينما كان هناك عام مجاعةٍ في المدينة، ترك اللحم أربعة أشهر، فقرقر بطنه فخاطبه قال: **قرقر أيُّها البطن أو لا تُقرقر، فو الله تذوق اللحم حتى يشبع منه صِبْيَةُ المسلمين.**

المعنى الأول.. أنّ الله هو الغني، أي هو الذي لا يحتاج أحداً. شأن الخالق أنّه غنيٌّ عن خلقه، وشأن المخلوقات أنّهم مفتقرون إلى ربّهم. لذلك قالوا: الربُّ ربٌّ، والعبد عبدٌ. شأنُك يا رب أنّك غنيٌّ عنا، وشأننا أننا مفتقرون إليك، لكن أيُّها الإخوة: ما أحلى وما أجمل وما أكرم أن تفتقر إلى الله، وما أصعب وما أقسى أن تفتقر إلى عبدٍ لئيم.

سيّدنا علي كرّم الله وجهه سُئِل ما الذل ؟ قال: **أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يَرُدُّه.** ويقول سيّدنا علي: **والله و الله مرتين لحفر بئرين بإبرتين - مستحيل -، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين - أيضاً مستحيل -، ونقلِ بحرين زاخرين بمنْخَلين، وغسلِ عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين.**

أيُّها الإخوة: المؤمن غنيٌّ بالله، عبارة في الفقه تُعجبني.. هل يجوز أن تُعطي طفلاً صغيراً زكاة مالك وله أبٌ غني ؟ قد يقول القائل ليس معه مال، لا يملك قرشاً واحداً في جيبه. يجيب الفقهاء عن هذه المسألة: الطفل الصغير الفقير غنيٌّ بغنى أبيه. فما دام أبوه غني هو غني، غنيٌّ بأبيه، ولو سحبنا هذه القاعدة على موضوع درسنا.. المؤمن فقير لكنّه غنيٌّ بالله، غنيٌّ بربّه، لذلك تجد أحياناً إنساناً مطمئناً

ويقول لك: أنا أملك خمسة كيلو ذهباً، وكل كيلو ثمنه نصف مليونٍ من الليرات.. أو معي عملة صعبة، القول الرائع: كن بما في يدي الله، أوثق بما في يديك.

فأحياناً تجد إنساناً معتمداً على توفيق الله وعلى حفظه، ومتوكِّلاً عليه يثق بما عند الله، هذا أغنى ممن يملك ملايين كثيرة، بالداخل وبالخارج جامداً وسائلاً، فهذا أغنى.

المعنى الثاني من معاني الغني.. قال: قِلّة الحاجات، وهو المشار إليه في قوله تعالى:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨))

(سورة الضحى)

أي أنّ الإنسان محتاج إلى طعام، إلى شراب، إلى مسكن، إلى ثياب، إلى أوانٍ، إلى سرير، الإنسان يحتاج إلى آلاف مؤلّفة من الحاجات، مثلاً لو اشترى بيتاً مَلَكهُ ومفروش، وعنده مركبة فرضاً، وله محل تجاري مورداً لرزقه، ويملك بيتاً في المَصيِّفِ، عنده ألبسة كثيرة جداً، عنده مال سائل ؛ هذا بالمعنى الثاني غني، فبيته ملكه البيت مفروش، في عنده وقود للتدفئة، في عنده أجهزة ومركبة وطعام، وعنده مال سائل. لكن هذا يحتاج إلى طبيب، ويحتاج إلى معلّم ابنه ضعيف بالرياضيات لكن حاجاته قليلة، أما أكثر الحاجات لديه موجودة.

فالمعنى الثاني للغني قالوا: قِلّة الحاجات.. وهو المشار إليه في قوله تعالى:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

أغناك، فإذا أغنى الله رسول الله لن يعُد النبيّ الكريم محتاجاً إلى الله ؟ لا.. الحاجة إلى الله ثابتة، و دائمة، ثم إنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام أشار إلى هذا المعنى بشقٍ آخر قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَيْسَ الْغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ وَلَكِنَّ الْغِنَى غِنَى النَّفْسِ))

(صحيح البخاري)

فأحياناً الإنسان يكون لديه نفسٌ عظيمة تبتغي الوصول إلى الله، وأمور الدنيا عندها ثانويّة، مستغني عن دنيا الناس ؛ لكنّه مفتقرٌ إلى فضل الله، هذا شأن الصدِّيقين، والمؤمنين الكبار، الغنى غنى النفس.

أحياناً تجد شخصاً ذا نفس عفيفة، تقول له: هل يلزمك شيء من المكان الفلاني ؟ يقول لك: شكراً. لا يطلب. وهناك شخصاً يقول لك: أين ذاهب ؟ أين أنت مسافرٌ ؟ أحضر لي كذا وكذا. يبحث ولا يترك إنساناً إلا وسخّره، يقول: هناك هذا الشيء رخيص أحضره لي. وهناك إنسانٌ لا يطلب شيئاً.. وكلّما قلّت طلباتك، ارتقى مقامك. حتى النبي الكريم قال:

((عَنْ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ أَعْظَمُ النِّسَاءِ بَرَكَةً أَيْسَرُهُنَّ مؤُونَةً))

(مسند الإمام أحمد)

من قبل عدّة أيّام، توفي شيخ الأزهر، وقد لفت نظري تحقيقٌ كتب عنه وعن بيته وهو شيء مدهش.. فهو يسكن في بيت صغير، ومكتبه طاولة من الفورميكا، و كتبه داخل العلب الكرتونيّة، فلا يوجد لديه مكتبة لوضعها فيها. كم تقدِّرون ما تحت يده من ميزانيّة ؟ تحت يده مبالغ كبيرةً جداً جداً، و يسكن في بيت في الطابق الرابع، وقد أجرى عمليّتين في ركبتيه، بسبب التهاب المفاصل، ولم يتمكّن من أن يبدل بيته. والذي مساحته صغيرة. وشيخ الأزهر تأتي رتبته بعد رئيس الوزارة، وتحت يده أموالٌ طائلة، ملايين مملينة، ولكن عنده غنى.. وهذا هو الغنى، وفيه عفّة، وخرج لجنازته خمس عشرة مليوناً من المشيعين.

فالغنى غنى النفس، فأحياناً الإنسان يستغني بالله ؛ فلا يحتاج لشيء ما دام طعامٌ يأكله، وشرابٌ يشربه، ولباسٌ يستره، وبيتٌ يسكنه ويؤويه انتهى الأمر.

المعنى الثالث: الغني ؛ الذي عنده الشيء الكثير من متاع الدنيا، فهو يملك بيتين أو ثلاث، وسيّارتين أو ثلاث، و مئة وكلّها أجنبية الصنع، و ثلاثمائة حذاء من الدرجة الأولى.. ثمن الحذاء ثمانية آلاف.

فالمعنى الثالث ؛ مَنْ عنده مقتنيات كثيرة فهو غني. المعنى الأول للغنى أن لا تحتاج إلى أحد.. من ؟ الله وحده.. شأن الله أنّه لا يحتاج أحداً، شأن العبد أنّه يحتاج، إن احتاج الله عزّ وجلّ علا، وإن احتاج إلى خلقه دنا.

المعنى الثاني: قلّة الحاجات.. عنده كلُّ شيء، حاجاته قليلة لكنّه يحتاج إلى طبيب لأسنانه، ولو كان معه ملايين ! يحتاج إلى طبيب صحّة، إلى أستاذ لأولاده، يحتاج إلى صاحب مهنة معيّنة لإصلاح خللٍ طرأ في بيته.

المعنى الثالث أن تكثُّرَ مقتنياتك.. هذا الغنى بالنسبة للمعنى الثالث وأشير إليه في قوله تعالى:

(وَمَنْ كَانَ غَنِيّاً فَلْيَسْتَعْفِفْ)

(سورة النساء الآية: ٦)

(وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ)

اليهود حينما سمعوا قول الله عزّ وجلّ:

(مَنْ ذَا الّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً)

(سورة البقرة)

قالوا:

(إنّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

(سورة آل عمران)

قالوا:

(قَالُوا إِنّ اللّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ)

فقال الله عزّ وجل:

(سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا)

هذه معاني الغنى في اللغة.. معانٍ ثلاث.

الإمام الغزالي يرى ؛ أنّه من معاني الغني: **هو الذي لا تعلّق له في ذاته.** أي أنّ ذاته لا تتعلّق بشيء. فأنت متعلِّق بالحرارة.. فإذا كان البرد شديداً ؛ فأنت بحاجة إلى معطف، متعلِّق بالبرودة، فإذا كان البرد شديداً كانت بحاجة إلى معطف، وإذا كان الحرّ شديداً ؛ فأنت بحاجة إلى جهاز تكييف، وإذا كنت جائعاً؛ فأنت بحاجة إلى الطعام، وإذا كان هناك عطشٌ ؛ فأنت بحاجة إلى ماء، وكنت بلا مأوى ؛ فأنت بحاجة إلى بيت، وبحاجة إلى سرير، وإلى أن تنام. فأنت ترى سيارة ثمنها ملايين، وقالبة على الطريق ؛ والسبب أنّ السائق قد نام ؛ فالنوم سلطان وحاجته للنوم أودت به في هذا الحادث ؛ فأنت محتاج للنوم، محتاج للطعام، وللشراب، ولجو مريح، ولهواء، ولثياب، ولمأوى، وتحتاج إلى زوجة.

فأحياناً. الإنسان يكون قد تعوّد على زوجته، فالأكل واللبس والطعام المطبوخ. وهي تؤنسه أحياناً، فإذا سافرت أو مرضت يقول لك: تغيّرت حياتي. فأنت مفتقر إلى زوجة كذلك مفتقر إلى طفل.. يقول لك: هذا الطفل ملأ البيت بهجة. فأحياناً لا ينجب الزوجان ؛ فتجد البيت أصبح مثل القبر، فالأطفال لهم ضجيج و لهم لعب و لهم مطاليب لكن يملؤه البيت فرحة.

فكم حاجة أنت تحتاجها ؟ تحتاج إلى زوجة، وإلى ولد، وأن تشرب، وأن تأكل، وأن تنام، ولثياب، وأن تأكل شيء ذي مذاق حلو، أو لكأسٍ من الشاي لتشربه، وتحتاج إلى فاكهة لتأكلها، فلو مكثت شهراً من غير أن تأكل الفاكهة، تشعر بحاجتك الأساسيّة لها.. فأنت محتاج إلى مليون حاجة، أما الغني الحقيقي ذاته لا تتعلّق بشيء، فأنت مربوط بمليون رابط.

مثلاً معك كميّة من الذهب، فتجدك متتبّعاً للأسعار هل غلي الذهب أم رخص سعره ؟ ولو اشتريت بضاعة فتسأل نفسك هل هناك بالسوق منافس لك ؟ وما هي أسعار البضاعة ؟ وأنت بحاجة إلى أن تربح، فيومياً لديك آلاف الحاجات، لكن الغني الحقيقي هو الذي لا يتعلّقُ بشيء.. ذلك هو الله ففي الحديث:

((لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَ آخِرَكُمْ وَ إِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنّ أَوّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا))

(صحيح مسلم)

وقيل: من تعلّق بغيره فهو محتاجٌ إليه

وقيل: الغنيّ ؛ هو الذي لا يحتاج إلى شيء، وهو المستغني عن كلّ شيء، المفتقر إليه كلُّ شيء.
وقيل: الغنيُّ ؛ هو الغنيُّ بذاته عن العالمين، المتعالي عن جميع الخلائق في كلّ زمنٍ وحين، الغنيُّ عن العباد، المتفضِّل على الكلّ بمحض الوداد.

هذا هو الغنيّ... ورد اسم الغنيّ في القرآن الكريم في مواطن كثيرة.. في سورة البقرة قال تعالى:

(قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣))

(سورة البقرة)

أي: إنّ الله عزّ وجلّ غنيٌّ عن صدقةٍ يتبعها أذى.. هذه الصدقة لك وليست لله، أمرك أن تدفعها من أجل أن تقبل عليه، فإن أتبعتها بالمنّ والأذى ؛ لا قيمة لها، هو غنيٌّ عنك، وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآَخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(٢٦٧))

(سورة البقرة)

أيضاً.. غنيٌّ عن صدقةٍ تكرهها.. أكلةٌ عافتها نفسك، وتصدّقت بها.. هذه الصدقة الله غنيٌّ عنها، أمرك أن تُعطي مما تحب ؛ من أجل أن تقبل عليه، من أجل أن ترقى عنده، فإن فعلت ما لا تُحِب، فهو غنيٌّ عن هذه الصدقة، وقال تعالى:

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧))

(سورة آل عمران)

(وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلا وَمَنْ كَفَرَ)

أي من لم يحُجَّ البيت.

(فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ)

فإن تحج فأهلاً وسهلاً بك، وإن كنت لا تريد أن تحج فلا تحج حرمت نفسك الخير، والمعاني دقيقة فكل آية لها معنى.

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

(سورة الأنعام)

انظر إلى أول آية:

(غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

مع أنّه غنيٌّ عنك، لا يعاملك معاملةً إلا وتحمده عليها، وفي هذه الآية:

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ)

مع أنّه غنيٌّ عنك يرحمك.. هذا الكمال.

وفي سورة يونس قال تعالى:

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ)

(سورة يونس)

الإنسان يتمنّى ولداً حتى يُعينه في الكِبَر، وهذه هي سنّة الله في خلقه. فتجد الشاب يصعد على الدرجات قافزاً كل عشر درجات معاً، وبعد فترة يصعد درجة درجة، ثم يضع رجله فوق الدرجة ويرتاح، دقيقتين ثم ينقل رجله الأخرى ويرتاح كذلك دقيقتين، ثم بعد ذلك لا يستطيع الصعود ؛ فينتقل إلى بيت غير مرتفع أرضي. فالله عزّ وجلّ غني أما الإنسان مفتقر.

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ)

فنحن بحاجة إلى أولاد لأنّ الإنسان فانٍ، وبابنه يشعر بامتداد أثره، الإنسان ابنه يُعوّض نقصه، فإذا لم يكن قد درس، فيكون حريصاً على أن يُدّرِسَ ابنه. وإذا لم يتاجر يقول لك: لا أريد أن أجعله موظفاً. وإذا لم يكن الأب متعلِماً للغة من اللغات، يقول لك: أريد أن أعلِم ابني للغة. فالإنسان أحياناً يحقق نقصه بابنه، ويحقق فيه امتداده لأنّه فاني ؛ فيقول لك: هذا من أثري، يخلفُني، ذِكْرٌ لي بعد أن أموت. فالإنسان بحاجة إلى ولد..

(قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ)

ليس بحاجة إلى ولد.

وفي سورة إبراهيم يقول تعالى:

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ)

وقال تعالى:

(يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ)

(سورة الحجرات)

وقال تعالى:

(وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ (٣٨))

(سورة محمد)

وفي سورة العنكبوت وقال تعالى:

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٦))

(سورة العنكبوت)

يقول لك: يا أخي أنا صليت التراويح كلها في رمضان ؛ فهذه لك.. دفعت نصف مالي صدقة، فهذه لك، عملت ختمة قرآن ؛ فهذه كذلك لك.

(وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ)

وقال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢))

(سورة لقمان)

وقال تعالى:

(لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٦))

(سورة لقمان)

معنى أنَّه غنيٌّ عنك ؛ هو كامل، لا يُعاملك معاملةً إلا تحمده عليها، فأحياناً الإنسان يكون مستغنياً ؛ ولا يلزمه أحد من الناس، فيطرق بابه فيستقبل القدوم ويرحِّب بهم ويضيّفهم، ويصغي ويتواضع ويخدم، وهو ليس محتاجاً لهم فهذا من كماله.

وفي سورة فاطر قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥))

(سورة فاطر)

(أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

إخواننا الكرام: لعلّي أقدّم لكم هذه الحقيقة: الله هو الغني، وأنت فقير حقيقةً وليس تواضعاً.. فإذا كان أحد الناس يملك مئة مليونٍ ونقطة من الدم تجمّدت في شرايين مخّه فشُلّ عن الحركة، ممكن أن يحدث ذلك لملك ؟ فتفضّل تحرّك امشِ !!

فقد درس رجل في فرنسا، وحصل على الدكتوراه في العلوم، ووصل إلى منصبٍ رفيعٍ جداً، وتزوّج وتملك بيتاً وسيّارات ؛ وأقام الحفلات والسهرات، وكان طليقاً في لسانه وجميلاً وأنيقاً. وبعد حين فقد بصره وهو في ريعان شبابه، فكان يأتيه البريد الخاص بعمله إلى البيت، ويقرؤونه له، ويشرحون له مضامين المعاملات، التي يريدون منه أن يوقِّعها. وهو يقول لمن يقرأ له المعاملة: اكتب مع الموافقة.. ثم يوقِّع عليها. ظل شهراً على هذا الحال، وبعد ذلك ليس من المعقول أن يستمر في مثل هذا العمل ؛ فأعفي من منصبه، زاره صديق لي.. فقال له: يا فلان والله أتمنّى أن أجلس على الرصيف، وأن أتسوّل ولا أملك من الدنيا إلا معطفاً على كتفي، وأن يُردّ لي بصري - والله كلمته وبالحرف الواحد .

أنت مفتقر إلى عين، مفتقر إلى سمع، مفتقر إلى توازن، مفتقر إلى كُليتين تعملان. ذهب شخص لغسيل كليته فقالت له الممرّضة: لا تشرب الماء طوال هذه الأسبوع ؛ فالجهاز معطّل عن العمل. فهل هذا قليل؟ فعندك كليّة تعمل بصمت، لا تحتاج للانتظار في الدور، ولا لأجرة تدفعها، ولا ضجيج ولا تثقيب

شرايين، وغسيل الكلية مرتين في الأسبوع كل اثنين وخميس وباستمرار فهل أنت غني ؟ أنت مفتقر لكلية ؟

الغدّة النخاميّة وزنها نصف غرام ؛ تفرز اثنا عشر هرموناً أحد هذه الهرمونات يحقق توازن السوائل، فتشرب في اليوم أربع أو خمس كاسات من الماء وتقوم بإخراجهم، فلو اختلّت هذه الغدة تحتاج لشرب أربع تنكات من الماء لتشربهم، فلا تستطيع مغادرة صنبور الماء ولا المرحاض وهذا هو يكون عملك ! فهل أنت غني ؟ !!

قال لي أحد الإخوة: زارني طبيب جلس عنده بالغرفة، وضع يده على مفتاح الكهرباء، وضغط عليه فانطفأت الثريا وقال له: هكذا الإنسان كبسة على الزر وينتهي.. أنت وأموالك ومكانتك وصلاحيّاتك ؛ بكبسة زر، وينتهي كل شيء، سكتة دماغية، فيصبح في عداد الأموات! فأين بيته الفخم ؟ ومركبته الفخمة ؟ ومنصبه الرفيع ؟ وأين مكتبه التجاري؟ وأين وجوده ؟ الصارخ بالمجتمع ؟ فهل أنت غني ؟! أنت فقير !! أنت فقير إلى شرايين مرنه، لو تصلّبت، تنتهي ويموت، فقير إلى شرايين مفتوحة، ولو أغلقت ؟ يقولون: خمس شرايين مسدودة ؛ فلا بدّ من عمليّة قلب مفتوح، فهل أنت غني ؟ أنت مفتقر إلى أي شيء !!

قال لي شخص: فجأةً اهتزت الصورة أمامي لمسافة عشرين سنتيمترٍ كل الصور من حولي، وفقدت التوازن الحركي، ولا بدّ من إنسان يسير بي، وكذلك فقدت التوافق الحركي، فلا أستطيع الإمساك بكأس، وإن أردت ذلك ذهبت يدي لمكان آخر ! ذهب إلى فرنسا مكث فيها ستة أشهر ولا أمل في الشفاء.. صورة مهتزّة، فقد للتوافق الحركي، وفقد التوازن.. فهل أنت غني ؟ مليون من القضايا أنت بحاجة لها.

من كان له خبرة بالطب، ونظر إلى التحاليل وقرأ: أسيد أوريك مرتفع، وكوليسترول زائد، وكذلك الشحوم الثلاثيّة، والمفاصل متيبّسة، والغضاريف مهترئة، فكيف تكون غنياً ؟ فالإنسان فقيرٌ!! وكلّما عرف ضعفه يصبح متواضعاً، فليس الإنسان غنياً ولكنه يتواضع، لا ولكن أنت فقيرٌ والله هو الغني، وإن اعترفت بفقرك أصبحت غنياً. أغناك الله وأمدّك بقوةٍ وبحيويّةٍ، وأعطاك عافية، أحد الأيام أعطاك ذاكرةً.

توفي منذ فترة أحد إخواننا، قال لي ابنه: خرج من معمله ولم يستطع التعرف على بيته وضاع عنه لمدة ساعة، أصيب بمرض فَقدِ ذاكرة جزئي، وليست الذاكرة كلّها ولكن فقد عنوان بيته. معمله بالقدم وبيته بخور شيد، وبعد ساعة من البحث عن بيته لم يجده ! وهو يتذكر بيت ابنه فذهب إليه وقال له: يا بني، أين بيتي دُلني عليه. لي قريبة في أعلى درجات الذكاء، وفجأةً فقدت الوعي، دخل عليها ابنها وهو

أقرب الناس لها، فقالت له من أنت ؟! فهل أنت غني ؟ بل مفتقر الله هو الغني وأنت الفقير. إن عرفت فقرك أغناك الله، وإن ادعيت الغنى أفقرك الله، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

(هَاأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ(٣٨))

(سورة محمد)

(وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤))

(سورة الحديد)

(وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ)

فأحياناً والعياذ بالله يكون الإنسان ضعيف التفكير، يحضر دروس العلم، ويلتقي مع إخوان مؤمنين فيُسرّ فتتغيّر حياته كلّها، فيصلي، ويقرأ القرآن، ويستقيم ويغُضّ بصره، ويدقق في دخله وإنفاقه ويعيش في جنّة. ويأتي إنسان يسيء له، فيريد أن ينتقم منه، فيترك الدروس كلّها ويترك الصلاة. فأين ذهب عقلك ؟ إذا إنسان أساء لك والجامع مفتوحاً للجميع، فليس عندنا اصطفاء في الجامع، والباب مفتوحٌ لمن يحضر فإذا أساء شخص لك ؛ فالله ليس له علاقة بذلك، فيريد أن ينتقم، فيترك الصلاة والدروس وانحرف لأنّ أحد الأشخاص أساء له، فعقلك صغير !!

فإذا كنت طالباً في كليّة الطب، ومعلِّق آمالاً كبيرة على هذه الكليّة، وأساء لك أحد الطلاّب، فهل تهجر الكليّة وتخرج منها ؟! كل مستقبلك في هذه الكليّة ؟ فستصبح طبيباً، وتفتح عيادة ويأتيك المرضى، وتأخذ ألوفاً مؤلّفة، إذا كان أحد الطلاّب أساء لك، لو أساء لك أستاذ، لا تترك ولو أساء لك عميد الكليّة فلا تترك، هذا المؤمن.

(وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

(لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

(سورة الممتحنة)

أيُّها الإخوة... هذا هو الغني، أما المُغني قال: هو الذي يُغني من يشاء أن يُغنيه:

ولو كانت الأرزاق تجري مع الجهل.... هلكنَ إذاً من جهلهنّ البهائم

تجد شخصاً شعلة من الذكاء، ولا يملك مالاً ! وإنساناً على بساطته وفطريّته، تجد رزقه وفيراً. فالله هو الرزّاق وهو الغني، فمعنى مُغني أنّه يُغني من يشاء.

(مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ)

(سورة الإسراء)

المُغني ؛ هو الذي يُعطي الغنى لعباده، إما أن يعطيهم الكفاية ؛ أي أغناهم عن السؤال، أو يُغني بعض عبادة عن بعض.. فالحقيقة إنّ الحوائج لله، لا تكون إلا لله، فعندما يهبها لك ربُنا عزّ وجلّ من خلال رزقٍ تملكه أعزّك. أما إذا جعلك تحتاج إلى إنسان أذلّك.. لذلك الدعاء يقول: **" اللهم اجمعنا عليك وفرّقنا عليك، اللهمّ لا تجعل حوائجنا إلا إليك ".**

ربُنا سبحانه وتعالى مُغني بمعنى: أعطى كلّ شيءٍ خَلْقَهُ ثم هدى أعطاك قدمين تمشي بهما، أعطاك سمعاً، أعطاك بصراً، أعطاك حركة، أعطاك يداً، مفاصل، أصابع، رسغاً، مرفقاً، كتفاً، أعطاك جهازاً للهضم، جهازاً للأمعاء، جهاز دوران، جهاز إفراز، أعطاك هيكلاً عظمياً.

(أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ)

أعطاه ما يصلحه، أعطاك إدراكاً وذاكرة.

(ثُمَّ هَدَى)

(ثُمَّ هَدَى (٥٠))

(سورة طه)

والمُغني ؛ هو الذي أفاض الغنى على عباده، وسهّل لهم المراد، وما من غنىً في الوجود، إلا وهو من جناب الحقّ ممدود، الغنى الحقيقي من الله عزّ وجلّ.. وهو المُغني لأوليائه من كنوز أنواره.. الآن غنى من نوع ثانٍ ؛ فقد أغناك بالعلم.

فقد أطلعني أخ على مجلّة فرنسيّة، فيها صورٌ عن مقاطعة في الهند، يعبدون- ليس الأبقار ولكن – الجرذان، وتبيّن الصورة معبداً ضخماً وأكثر من ثلاثمائة جرذٍ يقدِّمون لهم الحليب واللبن، القمح، البرغل، يأكلون مع الجرذان في طبقٍ واحد.. امرأة تضع على رأسها خماراً والجرذان يقفون على رأسها وكتفها، يعبدونهم كآلهة.. تحقيق علمي، موثّق.

فهل ذلك ممكنٌ ؟ ممكن ذلك ؟ فهناك من يعبد البقر وأشياء أخرى، ولكن الله عرّفك بذاته فتعبده هو، تعبد خالق الكون، خالق السماوات والأرض.. وهناك من يعبد البقر، أو الشجر، أو الحجر، أو الشمس، أو يعبد الموج.. والله سبحانه وتعالى كرّمنا وأغنانا عن هذه الخرافات، وعن هذه السخافات، وعن هذه التُرّهات.

إما أن يُغنيك بالدنيا، وإما أن يُغنيك بمعرفته، يُغنيك بتقريبك إليه، يُغنيك بإلقاء النور في قلبك، يُغنيك بأن يُعطيك رؤية صحيحة، حكمة بالغة، سدادٌ في الأقوال، وصوابٌ في الأفعال؛ هذا هو الغِنى.

الحقيقة إذا أردنا أن نصل إلى ملخّص الدرس.. المُغني ؛ هو الذي أغنى عبده بمعرفته.. فأنت غني بمعرفة الله، أغناه بمنهجه، معك منهجٌ صحيحٌ بالمائة، فليس لديك مفاجأة. أغناه بالقرب منه، أغناه بإلقاء النور في قلبه، أعطاه رؤية صحيحة، حكمة بليغة.

اسم المُغني لم يَرد بلفظه في القرآن الكريم. ولكن ورد في سورة التوبة في قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨))

(سورة التوبة)

الآن.. الله مُغني، غنيٌ ويُعطي الغِنى لمن يشاء. لكن صدِّقوني أيُّها الإخوة -الغِنى الحقيقي أن تعرفه، فسيّدنا ربيعة خدم النبيَّ أياماً عديدة، قال له: يا ربيعة سلني حاجتك. قال له: أنظرني. بعد أيام قال له: ماذا يا ربيعة ؟ قال إنّي أسألك أن أكون رفيقك في الجنّة فقال له: من علّمك هذا ؟ قال: والله ما أحد علّمني، لكن رأيت الدنيا فانية، ما قيمة الدنيا ؟ أنا أريد شيئاً ثابتاً في الجنّة، أن أكون معك في الجنّة. فلذلك الغنى الحقيقي ان تصل إليه، أن تعرفه، أن تُقبل عليه، أن تلوذ بحماه، أن يكون قلبك مهبطاً لتجليّاته، يطمئنك، يكرمك، يُفّقهك، يقرّبك منه، يسعدك، وفي سورة النور قال تعالى:

(وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحاً حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

(سورة النور)

(حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

فإخواننا المتزوّجون فالزواج ليس شيئاً سهلاً فمن عنده بيتٌ فلا يهم، وعنده ابنٌ، والبيت فيه طبخٌ أي طبخ. والثياب نظيفة، فالله أغناك بهذه الزوجة ؟ وجعلها ستراً لك فلا تقسوا عليها كثيراً، ولا تقرّحها فهي هديّة الله إليك، لا تكفر بنعمة الله، الزواج نعمة، هناك من يضايق زوجته حتى يجعلها تترك البيت!! هذه نعمة الله.

وأحياناً تجد زوجة عندها زوج، وعندها أولادٌ، تعمل أعمالاً إلى أن تُطلّق هذه كفرت نعمة الزواج !!

(حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

أحياناً يغنيك بالمال، تحصل على شهادة فتُعيّن، وتحصل على راتبٍ في آخر كلّ شهر، فلا تمدّ يدك لأحد، أو تتقن مهنة عليك طبعاً فيدخل لك مصروفٌ فتشتري أكلاً وشرباً وتأكل، فأغناك بالمال، وأحياناً أغناك بالعلم.. أغناك بالصحّة الأجهزة كلّها سليمة، أغناك بزوجة، أغناك ببيتٍ.

(حَتَّى يُغْنِيَهُمْ اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ)

وفي سورة النجم قال تعالى:

(وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَى وَأَقْنَى (٤٨))

(سورة النجم)

أعطى... وفي سورة الضحى:

(وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى)

هذه الآيات كلّها عن المُغني.. قال الإمام القُشيري: **" إغناء الله لعباده على قسمين ؛ منهم من يغنيه الله بتنمية الأموال وهم العوام - يقولون لك: الله متفضل، ربحنا عامودين أي مليونين ويضع يده على جبينه بعد أن يقبّلها - ومنهم من يغنيه بتصفية الأحوال وهم الخواص ".**

وهو الغني الحقيقي قريب من الله، عنده علم و عنده حكمة وعنده شفافية، فالنبيّ عليه الصلاة والسلام خطب على نخلة، قطعت له نخلة فخطب عليها، فلما صنعوا له منبراً، قال فخطب على المنبر فحنّت النخلة إليه، فوضع يده عليها إكراماً لها. وقال:

((أعرف حجراً بمكّة كان يُسلِّم علي))

((عَنْ الْحَسَنِ بْنِ سَعْدٍ مَوْلَى الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ قَالَ أَرْدَفَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَلْفَهُ ذَاتَ يَوْمٍ فَأَسَرَّ إِلَيَّ حَدِيثًا لا أُحَدِّثُ بِهِ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ وَكَانَ أَحَبُّ مَا اسْتَتَرَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِحَاجَتِهِ هَدَفًا أَوْ حَائِشَ نَخْلٍ قَالَ فَدَخَلَ حَائِطًا لِرَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ فَإِذَا جَمَلٌ فَلَمَّا رَأَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ وَذَرَفَتْ عَيْنَاهُ فَأَتَاهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَمَسَحَ ذِفْرَاهُ فَسَكَتَ فَقَالَ مَنْ رَبُّ هَذَا الْجَمَلِ لِمَنْ هَذَا الْجَمَلُ فَجَاءَ فَتًى مِنَ الأَنْصَارِ فَقَالَ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ أَفَلا تَتَّقِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ الَّتِي مَلَّكَكَ اللَّهُ إِيَّاهَا فَإِنَّهُ شَكَا إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُهُ))

(سنن أبي داود)

فأحياناً ؛ الله عزّ وجلّ يعطيك شفافية، فتتفاعل مع المخلوقات، وتتناغم مع الكون، وتتذوّق الجمال، جمال الفجر، جمال الشجر، جمال البحر، تتذوّق الجمال فهذا غنى، أحياناً يكون لديك نفس واسعة عندك قلب كبير، وعندك نفس صافية، وعندك رضا، وعندك حلم وتوازن فهذا غنى.

تجد شخصاً عنده من المقتنيات الثمينة، ويملك بيتاً فخماً ولكنّه إذا غضب، فيصبح مثل الوحش، فهذا فقيرٌ، أحمق، أرعن. الحلم غنى، الحكمة غنى، معرفة الله غنى، وطاعتك لله غنى ؛ أن تصلّى الصلوات الخمس غنى، أن تصوم رمضان غنى، العوام يغنيهم الله بتنمية الأموال، والخواص بتصفية الأحوال.

من أدب المؤمن مع اسم المُغني: أنّ من عرف أنّ الله تعالى هو الغنيّ المُغني، استغنى بالاعتماد عليه عن كلّ شيء.

قال سيّدنا جبريل لسيّدنا إبراهيم: **ألك حاجة. قال له: منك ؟ قال: لا، من الله. قال: علمه بحالي يُغني عن سؤالي.**

وما لي سوى فقري إليك وسيلة فبالافتقار إليك فقري أدفع.

إذا كنت في كلّ حالٍ معي فعن حمل زادي أنا في غنى.

***

من أدب المؤمن مع الله عزّ وجلّ أن تعتمد عليه وحده.

من مسالك التخلّق بالغنى والمُغني، أنّ التخلّق بالغنى يناسبه إظهار الفاقة والفقر إلى الله تعالى أبداً.
فأنت في الأصل فقير الله هو الغني، فإذا عملت إنجازاً ما، فقل هذا من فضل الله. وإذا نجحت لا تقل " **ذاب لب مخّي** " لا.. ليس كذلك بل قل: الله وفقني وأعانني ونجحت. أسست عملاً ما ونجحت، فلا تقل: أنا خططت له وجمّعت خبرات متراكمة، لا... لا تقل ذلك بل قل: الله عزّ وجلّ وفقني، وسمح لي أن أنجح في هذا العمل. فأنت في الأصل فقير، فإذا عزوت الغِنى إلى ذاتك، فأنت مخطئ. وهي حقيقة، إذا عزوت الفضل لله، فأنت الآن تأدّبت مع الله، الغني لفقرك في الأساس. وكلّما افتقرت إلى الله، زادك غنىً، وكلّما تذللت إليه، زادك عزاً. فهذه العمليّة معكوسة، كلّما خضعت إليه زادك رفعاً.
قال: التخلّق بالمعنى باسم الغني.. أن تكون بما في يدي الله، أوثق منك بما في يديك، وأن تُحسن السخاء والبذل لعباد الله تعالى، أن تثق بالله، وأن تُغني.. الله غني مُغني، أن تستغني بالله عمن سواه، وأن تُغني من حولك، أعطِ.. فمن لوازم التخلّق بأخلاق الله عزّ وجلّ؛ أن تُعطي. كما أنّ الله يُغني عباده، أنت أغن من حولك.
فإذا كنت تملك معملاً، أو مشروعاً ؛ فإذا كان العاملون عندك، ووسعت عليهم واشتروا بيوتاً، وتزوّجوا فهل هذا غلط ؟ تجد من يقول لك: أخذ العامل من لحمي. لا.. ليس هكذا فإذا كان عندك عاملٌ واشترى بيتاً وزوّجته فعل هذا غلط ؟ لا ليس غلطاً أبداً، فإذا أغنيت من حولك فأنت أغنى واحد، أنت تعرف الله عزّ وجلّ، بعض الناس يحبون أن يكون كلٌ من حولهم غنياً، يعطوا.
كثير من الإخوان لديهم معامل ومؤسسات. فإذا كان زوّج هذا، وأمّن لهذا بيتاً وأعطى هذا مساعدة، إن رزقه الله مولوداً، وهذا لديه مشكلةٌ أو مرضٌ فأجرى له عمليّة على حسابه الخاص، فهذا صواب. مثل ما أنّ الله مُغنٍ فتأدّب مع هذا الاسم وأغن من حولك، فتكن أنت أغنى واحدٍ فيهم.

٦٦- اسم الله العفو :

مع الاسم السادس والستين من أسماء الله الحُسنى والاسم هو العفوّ.. وقبل أن نمضي في الحديث عن هذا الاسم العظيم لا بدّ من وقفةٍ مع موضوعين، موضوع التوبة، وموضوع العفوّ.

فالله سبحانه وتعالى فتح لعباده باب التوبة، هو يعلم أنّ عباده يصيبون ويُخطئون، يقبلون ويدبرون، يحسنون ويُسيئون، ذلك لأنّ الله سبحانه وتعالى ركّب فيهم الشهوات، وما ركّب فيهم الشهوات إلا ليرقوا بها إلى الله، لكنّ هذه الشهوة إن لم يصحبها نورٌ من الله عزّ وجلّ ومنهجٌ قويمٌ تهتدي به فإنّها مدمِّرة، فالشهوات قوةٌ محرِّكة، أو قوةٌ مدمِّرة.

إذاً لا بدّ من أن تكون التوبة من أجل أن تُرَمم، ولو تصوّرنا أنّ الله سبحانه وتعالى لم يفتح باب التوبة، وإنسانٌ وقع في إساءة فماذا يفعل ؟ يزدادُ إساءةً، يفجر، لأنّه أيسَ من رحمة الله، لهذا يقول الله عزّ وجلّ:

(قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣))

(سورة الزمر)

أعظم ما في هذا الدين أنّ الإنسان مهما بلغت إساءته، ومهما بلغت ومهما تفاقمت ذنوبه، ومهما شرد عن ربّه، ومهما انغمس في المعاصي فلمجرّد أن يقول: يا رب لقد تُبت إليك. يقول الله عزّ وجلّ: لبّيك عبدي وأنا قبلت.

فباب التوبةُ مفتوح لمن غلبته نفسه، لمن زلّت قدمه، لمن طُمِست بصيرته، لم آثر الشهوة فباب التوبة مفتوح.. ماذا يُكمِّل فكرة أنّ هذا الباب مفتوح ؟ يكمّلها أنّ الله عفوّ.. لولا انّه عفوّ ما فتح باب التوبة.

أيُّها الإخوة القراء في القرآن آيةٍ كريمةٍ تتحدّث عن التوبة.. يقول الله تعالى:

(إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (١٧))

(سورة النساء)

الأكمل والأولى والأصح والأصوب أنّه لمجرّد أن وقع الإنسان في ذنب أن يتوب فوراً إلى الله عزّ وجلّ:

(مِنْ قَرِيبٍ)

فكلّما قلّت المسافة الزمنيّة بين الذنب والتوبة كلّما كانت التوبة أسهل، وكلّما جهل الإنسان أنّ هذا ذنب كانت التوبة أسهل، فإذا علم أنّه ذنب وفعله، ثم إذا فعله تراخى عن أن يتوب كانت التوبة أصعب، التوبة تسهُل إذا ضاقت المسافة الزمنيّة بين الذنب، وبين التوبة، وتسهُل إذا رافقها جهل، قال الله تعالى:

(وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءاً بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤))

(سورة ا لأنعام)

لأنّ الله عفوٌ كريم فتح لعباده باب التوبة، فالإنسان ليس له عذر في التراخي عن توبته فمهما ارتكب من ذنوب فقد قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً(٤٨))

(سورة النساء)

يغفر كلٌ الذنوب دون الشرك بالله:

(وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذلك)

وقد قال تعالى:

(قُلْ يَا عِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحِيمُ)

ولا يعرف قيمة التوبة إلا من ذاق طعم التوبة، حينما يتوب إلى الله يشعر إنّ الله قبله، وأنّ الله أنسى حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلّها خطاياه وذنوبه.

وبعد فإن اسم العفوّ ماذا يعني في اللغة ؟ العفوّ اسم من أسماء الله الحُسنى ورد في الأحاديث الصحيحة التي ذكّر فيها النبيّ عليه الصلاة والسلام أصحابه بأسماء الله الحسنى، ومن هذه الأسماء اسم العفوّ.. العفوٌ مشتق من العَفْو، فالعفوٌ اسم من أسماء الله الحُسنى، والمصدر هو العَفْو، ومعنى المصدر في المعاجم اللغويّة: القصدُ لتناولِ الشيء.

العفْو.. القصدُ لتناول الشيء. يُقال: عافاهُ.. و اعتفاهُ، أي قصده.. العافون القاصدون، القاصدون باب الكريم يقال لهم عافون، ورد هذا في الأشعار وفي لغة العرب. هذا معنى العافون أي القاصدون العطاء.

والمعنى الثاني.. هذا من عفو مالي: أي من حلاله وأطيبه، عفو المال حلاله وطيّبه

والمعنى الثالث.. أعطيته عفواً.. من غير سؤال.

والمنى الرابع.. عفا مال فلان.. أي كثُر.

والمعنى الخامس.. العافي هو الذي يمحو ويزيل.

خمسة معانٍ للعفو.. القصدُ، عفو المال حلاله، أعطيته عفواً من غير سؤال، عفا مال فلان أي زاد وكثُر، العافي هو الذي يمحو ويزيل، ومنه قولهم: عفت الرياح الآثار إذا محتها وأزالتها.. العفوُ محو الذنوب، وفي الدعاء: اللهمّ إنّي أسألك العفو والعافية. أي ترك العقوبة والسلامة.

وبالطبع البحث المنهجي في أسماء الله الحُسنى يقتضي أن نفهم المعنى اللغوي أصلاً، وفي قاموس تاج العروس العفوُّ أقلُّ من الصفح، لأنّ الصفح أبلغ من العفوّ، والصفحُ لا تأنيب معه، قد أعفو عن إنسان وأؤنِّبه. فقد يعفو إنسان ولا يصفح.

الإمام الغزاليُّ رحمه الله تعالى يقول:**" العفّوُّ منه العفوُّ "..** والآن قد دخلنا باسم الله الأعظم.. العفوُّ هو الذي يمحو السيّئات.

أحياناً يكون للإنسان في جهة من الجهات صحيفة مسجلّة فيها سيّئاته وسلبياته فإذا أُحرقت، أو شُطبت، أو طُويت، أو أهمِلت، انتهى الأمر وغدا أبيض الحائف، العفوُّ هو الذي يمحو السيّئات لهذا قال عليه الصلاة والسلام:

((إذا تاب العبدُ توبة نصوحا، أنسى الله حافظيه، والملائكة، وبقاع الأرض كلّها خطاياه وذنوبه))

لذلك فالمؤمن الصادق يُحدِثُ عند كلّ ذنبٍ توبةً، وكلّما ارتقى الإنسان تقِلُّ ذنوبه عدداً وتقلُّ حجماً، فإذا ارتقى أكثر يكادُ يبتعِدُ عن مقارفة الذنوب كلّيّة إلا ما كان عن غير قصدٍ أو عن زلةٍ لم تكن متعمّدة. العفوُّ هو الذي يمحو السيّئات ويتجاوز عن المعاصي، وهو قريبٌ من اسم الغفور ولكنّه أبلغ منه، فإنّ الغُفران ينبئ عن الشرّ، بينما العفو ينبئ عن المحو.. وجدت مشكلة فغفرت ولم يعاقب الله عزّ وجلّ عليها، هو غفور، أما عفوٌّ أبلغ من المغفرة فقد أنساها لصاحبها، ومحاها من ذاكرته، محاها من صحائفه.

المغفرة.. ذنبٌ وقعت فيه لكن ربُّنا سبحانه وتعالى لم يُعاقبك عليه لأنّه غفور، أما العفو.. أبلغ من الغفور، فهذا الذنب لعلّه يؤلِمك، لعلّك إذا تذكّرته تستحي من الله، لعلّه يُقلقك.. العفوُّ محا هذا الذنب كُليّةً من صفحة نفسك. فلو أنّ صحيفة مليئة بالذنوب وكلّ ذنب له عِقاب، نكتب في أسفلها: صاحب هذه الذنوب لا يُعاقب.. ونوقع في أسفلها، فمن بعد إما أن نأخذ هذه الصحيفة ونمزّقها ونُلغي وجودها، هذا عفو، فالمغفرة ألا تعاقب على ذنب، أما العفو أن يُمحى هذا الذنب من صفحة نفسك ومن ذاكرتك، فسيّدنا يوسف عندما التقى بإخوته الذين كادوا له حينما كان صغيراً، وألقوه في غيابة الجبّ وأرادوا له أن يموت، فعندما التقى بهم ماذا قال ؟

(قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٩٢))

(سورة يوسف)

هذه مغفرة.. لكن عندما قال الله عز وجل:

(وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّاً وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠))

(سورة يوسف)

(وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ)

ولم يقل من الجبِّ، الآن هل غفر لهم أم عفا ؟ لقد عفا.. لأنّه ما أراد أن يُذكِّرهم بعمله، فقد تجاهل عملهم كليّة، لو ذكّرهم بعمله ولم يُعاقبهم لكان غفوراً، لكنه لم يذكّرهم بعملهم إطلاقاً، وهذا من فضل الله عزّ وجلّ هو عفوٌ وغفور.

الإمام الرازي يرى أنّ العفوَ له معنيان.. **" المعنى الأول هو المحو والإزالة "..** عفت الديار إذا درست، فقد كان العرب ينصبون خيامهم في الصحراء، وهذه الخيمة يحفرون حولها خندقاً لئلا يدخل الماء إليها إذا هطلت الأمطار، ويسمّون هذا الخندق النُؤي، فإذا ارتحل العرب من مكان إلى مكان بقيت آثار الديار على شكل مستطيلات، ودوائر، ترمز إلى الخنادق التي حُفرت حول الخيام، بعد حين تأتي الرياح فتعفوها أي تمحو آثارها.. وهذا هو أصل معنى العفوّ.

فالمعنى الأول هو المحوِ والإزالة.. يقال عفت الديار إذا دَرَسَت وانطمست معالمها، وذهبت آثارُها.. وعلى هذا فالعفو في حقّ الله تعالى عبارةٌ عن إزالة آثار الذنوب، آثار الذنوب أي تذكّرها، وتذكّر الذنب يحجب عن الرب لو أنّ الله لم يُعاقب، لكن لمجرّد أن تذكر ذنبك تستحي من ربّك، فمن أسماء الله الحُسنى أنّه عفو يُنسيك هذا الذنب، وهذه من رحمة الله بنا.

فهل هناك أحد لم يقُل كلمةً غير مناسبة طوال حياته ؟ يقول لك: ظللت أسبوعاً كلّما ذكرت هذه الكلمة ذبتُ خجلاً.. وبعد ذلك نسيها، فلو أنّها بقيت ماثلة أمامه لأهلكت صاحبها، فمن رحمة الله بنا أننا ننسى، والنسيان رحمة كبيرة جداً، فأحياناً يقف موقفًا حرجًا ويتكلّم كلمةً غير لائقة، أو يسمع كلمة قاسية، جارحة فيقول لك: لم أنم الليل.. فكم ليلة لم ينم الليل ؟ ليلةً واحدة فقط، وفي الليلة الثانية تذكّرها ولكنّه نام، وفي الليلة الثالثة نسيها، وبعد أسبوع نسيَها تماماً.

لو إنّ المواقف الحرجة، والكلمات الجارحة، والمواقف المهينة التي ساقها الله للإنسان رحمةً به لا ينساها أبداً لأهلكتهُ، لكن الله عزّ وجلّ يُنسي، فالنسيان من العفوّ ومن دلائل عفوه أنّه يُنسيك هذا الذنب، ولعلّ فناء الإنسان في القبر ومع هذا الفناء يفنى دماغه، ومع فناء الدماغ تفنى ذاكرته، ومع فناء الذاكرة ينسى ذنوبه، فإذا أحياه الله يوم القيامة يُحي نفساً طاهرةً مشرقة محبة طائعة لله، فالماضي الذي سبق إيمانه وسبق اصطلاحه مع الله يصبح نسيًا منْسيًا.

وقد دخلنا الآن في موضوع دقيق.. فالإنسان كانت له في الدنيا جاهليّة ثم تاب إلى الله توبةً نصوحا، أعماله في جاهليّته فمع أنّه تاب منها توبة نصوحا وغفرها الله له وأنساه إيّاها لكنّه إذا ذكرها يتألّم أشدّ الألم، أما حينما يموت المؤمن تائبًا وتفنى ذاكرته، ومع فناء ذاكرته فنيت ذنوبه أصلاً فلم يعد لها وجود، فقلب المؤمن طاهر، نفسه التي بين جنبيه طاهرة منيبة ومستقيمة ومقبلة، أما الذاكرة فقد فنيت وفنيت معها الذنوب، فيأتي يوم القيامة ولأنّه مات تائباً لا يُذكِّره الله بذنوبه إطلاقاً.

فقد يقول أحدهم عن نفسه إنّه تائب منذ عشر سنوات، أو من عشرين سنة وأنا سائراً في طريق الإيمان، لكن قبل عشرين سنة لعلّه أخطأ، أو زلّت قدمه، فهذا الماضي في الدنيا تذكره، ولكن في يوم القيامة إن كنت قد تبْت فلا تذكره أبداً وهذا من رحمة الله بالإنسان.

لذلك العفو في حقّ الله تعالى إزالة آثار الذنوب بالكليّة، فيمحوها الله من ديوان الكِرام الكاتبين، فلو فرضنا أنّ إنسانًا له صحيفة أعمال سوداء، ومن يشرف على هذه الصحائف أراد أن يُكرمه فماذا يفعل؟ يأتي بهذه الإضبارة فيحرقها أمامه، فلم يبقَ أصل لهذه الذنوب فقد انتهت إلى فناء، وهذا للتقريب.

فالله سبحانه وتعالى يمحو ذنوب العبد التائب من ديوان الكِرام الكاتبين أي الملائكة الذين يكتبون، ولا يُطالبه بها يوم القيامة، ويُنسيهم إياها حتى من جذر قلوبهم كي لا يخجلوا عند تذكّرها، ويُثبّت مكان كلّ سيّئةٍ حسنة قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ تَابَ وَآَمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحاً فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً(٧٠))

(سورة الفرقان)

يجب أن نستفيد، وأن نسعد بهذا الاسم العظيم.

المعنى الثاني في حقّ الله تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩))

(سورة البقرة)

(وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ الْعَفْوَ)

العفوَ أي الفضل، فالله عزّ وجلّ يمحو ذنوب عباده ويتفضّل عليهم بفضله، هذا أسموه التخلية والتحلية، التطهير والتعطير، العفو والرحمة، يمحو ويُكرم، يطهّر ويعطِر، يشفي ويزكّي.. إذاً معنى العفو معنيان؛ معنى سلبي، ومعنى إيجابي، السلبي المحو، والإيجابي العطاء.

أحياناً يغسل الإنسان كأساً لها رائحة كريهة مثلاً، أو بقايا طعام، أو بقايا شراب، فإن غسلها بشكلٍ جيد وبعد أن غسلها ملأها شراباً طيباً فهذا من معاني العفو.. فالعفو لا يعني أنه محى الذنوب، وستر العيوب

فقط، لا.. بل أعطاك من فضله ما شاء فوق ما محا، هذا معنى جديد للعفو أي عفا محى، وعفا أعطى، هذا من عفوِ مالي.. أي من حلالهِ وطيّبِهِ، أعطيته عفواً.. أي من دون سؤال، فمن معاني العفو العطاء، والمعنى السلبي المحو، والمعنى الإيجابي العطاء.

وقال بعضهم **" العفو هو أن تزول عن النفوس ظلمة الزلاّت برحمته، و وحشة الغفلات عن القلوب بكرامته "**، وقيل **"العفو الذي أزال الذنوب من الصحائف، وأبدل الوحشة بفنون اللطائف "**.. إزالة، وعطاء.

الإمام القشيري يقول: **" العفوُ هو الذي يمحو آثار الذنوب، ويُزيلها بريح المغفرة، فهو يمحو الذنوب من ديوان الحفظة حتى إنّه يُنسيها من قلوبهم ومن قلوب المذنبين.. أو هو الذي يترك المؤاخذة على الذنوب ولا يُذكِّر بالعيوب "**.

هذه كلُّها من معاني العفو.. فما عليك إلا أن تقول يا رب لقد تُبت إليك.. وقد ورد أنّه إذا قال العبد: **يا ربِّ وهو راكع. قال الله: لبّيك يا عبدي. وإذا قال العبد: يا ربِّ وهو ساجد. قال: لبّيك يا عبدي فإذا قال العبد وهو عاصٍ: يا ربِّ تبتُ إليك وأنا عاصٍ. قال: لبيّكَ ثم لبّيك ثم لبّيك.**

فلتوضيح الفكرة.. الأب إن كان عنده أولاد أبرار طائعون وواحد منهم كان شارداً وعاقًا، ففرح الأب برجوع ابنه إليه وتوبته إليه أضعاف مضاعفة عن فرحه بهؤلاء الأبرار، لأنّهم سلكوا الطريق الصحيح وانتهى الأمر إلى خير، أما هذا الشارد فيتألّم الأب له أشدّ الألم، فإذا عاد فرح الأب بعودته، ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((لله أفرح بتوبة عبده من الضال الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد))

اسم العفوُ ورد في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة تزيد عن تسعٍ وثلاثين آية.. ومن هذه الآيات قال تعالى:

(فَأُولَئِكَ عَسَى اللّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللّهُ عَفُوّاً غَفُوراً (٩٩))

(سورة النساء)

كلمة:

(وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا)

أو كان الله عليماً حكيما. هذه الكينونة تفيد أنّ أسماء الله الحسنى قديمةٌ قدم الله عزّ وجلّ، منذ أن كان الله كان عفواً غفورا.. منذ أن كان الله كان عليماً حكيما.. منذ أن كان الله كان على كلّ شيءٍ قديرا، أي أنّ أسماءه متلازمة مع وجوده.

وقال تعالى:

(إنْ تُبْدُوا خَيْراً أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنّ اللّهَ كَانَ عَفُوّاً قَدِيراً (١٤٩))

(سورة النساء)

طبعاً المقولة الثابتة: تخلّقوا بأخلاق الله. فإذا كان الله عفواً ينبغي أن تكون أنت عفواً، إذا كان الله حليماً ينبغي أن تكون أنت حليماً

فقال تعالى:

(إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)

أي أنت ما تقرّبت إلى الله بمثل أن تتخلّق بأخلاق الله، وقد ورد في الأثر:

((أن تخلّقوا بأخلاق الله.))

وفي سورة الحجّ قال تعالى:

(ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنْصُرَنّهُ اللّهُ إِنّ اللّهَ لَعَفُوّ غَفُورٌ (٦٠))

(سورة الحج)

أي حينما يُظلم الإنسان. وفي سورة المجادلة قال تعالى:

(الّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْكُمْ مِنْ نِسَائِهِمْ مَا هُنّ أُمّهَاتِهِمْ إِنْ أُمّهَاتُهُمْ إِلّا اللّائِي وَلَدْنَهُمْ وَإِنّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَراً مِنَ الْقَوْلِ وَزُوراً وَإِنّ اللّهَ لَعَفُوّ غَفُورٌ (٢))

(سورة المجادلة)

أيُّها الإخوة القراء... هل أدركتم حكمة تلازم اسم العفوّ مع الغفور كثيرا ؟ الغفور لم يعاقبك، أما العفوّ أنساك الذنب كلّه، وهذا منتهى الإكرام.

(وَإِنّ اللّهَ لَعَفُوّ غَفُورٌ)

قال العلماء: ورد اسم العفو مع اسم الغفور وورد مع اسم القدير، ولله المثل الأعلى فالإنسان أحياناً لا يستطيع أن يعفو، فهناك من هو أقوى منه يحاسبه ويؤاخذه، فإن كان هناك من لا يستطيع أن يعفو، فإنّ الله عزّ وجلّ قال فإن الله كان عفوًّا قديرًا.. أي قدير أن يعفو عنك كلّ الذنوب، فقد قال تعالى:

(إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا)

ولذلك ورد في قوله تعالى على لسان سيّدنا عيسى:

(إِنْ تُعَذّبْهُمْ فَإِنّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨))

(سورة المائدة)

فالعزيز.. أي أنّك لو غفرت لهم فلا تستطيع أية جهة في الكون أن تسأل لما غفرت لهم ؟ لأنّ الله سبحانه وتعالى إلهٌ عظيم ومن شأن الإله العظيم ألا يُسأل عما يفعل، فالله وحده قديرٌ أن يعفو عنك دون أن يُسأل.

وهناك نقطةٌ بالغة الأهميّة في طريق الإيمان، يقول لك إنسان أحياناً أنا قد تبت إلى الله من هذا الذنب، لكن عندما تكون هناك توبة عقب توبة ويعقبها توبة للذنب نفسه، فتضعف ثقة الإنسان بنفسه، وربما وقعت بينه وبين الله جفوة، والإنسان حكيم نفسه فإذا وقع انهدام بينه وبين الله، أو جفوةٌ بينه وبين الله فما العمل ؟ دققوا النظر فيما سأقوله:

إنسان ارتكب إساءة في حقّ إنسان، فما دامت هذه الإساءة قد ارتكبها ولم يستسمح هي حجابٌ بينه وبين هذا الإنسان، لو أنّه قدّم له هديّةً ثمينة ففي الأعم الأغلب أنّ هذه الهديّة تُنسي الذي أساء إليه تلك الإساءة، فماذا حدث ؟ حدث ترميم وجبر، وإعادة توازن، وإعادة علاقات، وحدث محو.. وهذا معنى مهم جداً ويحتاجه كلُّ مؤمن.

قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّقِ اللَّهِ حَيْثُمَا كُنْتَ وَأَتْبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمْحُهَا وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ))

السيّئة هل ينبغي أن نتوب منها أم نتبعها بحسنة ؟ فأحياناً الإنسان يقع في الذنب نفسه مرّةً أو مرتين، ففي المرّة الثانية يخجل ولو تاب، فما الذي يُذهب عنه الخجل ؟ أن يُتبعها بحسنة. فعوّدوا أنفسكم أيها المؤمنون أنّ كلّ ذنب وقعت فيه عن غير قصدٍ بإمكانك أن تتبعه بعملٍ صالح، وهذا العمل الصالح يُنسي صاحبه هذا الذنب، واعتقد أنّ العمل الصالح الذي قام به سيفرحه.

فإذا الإنسان عند الحج أحرم بعمرةٍ ثم تمتّع إلى الحج، فعليه هديّ جبرٍ، أما إذا جمع بين الحج والعمرة قارناً فعليه دم شُكرٍ، لأنّ الله قد قوّاه ومكّنه أن يعتمر ويتابع إحرامه إلى الحجّ ثم يحُجّ، وهذا قارن وعليه دم شكرٍ، أما إذا اعتمر ثمّ تحلل من عمرته ولبس الثياب المخيطة وتعطّر وأكل وشرب وحلق رأسه واغتسل وقصّ شعره وأظافره، وفي اليوم الثامن من ذي الحِجّة أحرم بالحجّ، يقال له هذا متمتِّع، والمتمتِّع عليه هديٌ، هديُ جبرٍ.. و القارن عليه هدي شُكرٍ.. وسائر الكفّارات في الإسلام هدفها أنّ هذا الشرخ الذي وقع، وهذه الهوّة، واختلال التوازن الذي وقع يرمم بهذه الصدقة.

وقد ورد أنّ الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى ألزم نفسه أن يتصدّق بدينار ذهبٍ عن كلّ يمينٍ يحلفها صادقاً بها، لأنّ الله تعالى يقول:

(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)

في قوله تعالى:

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩))

(سورة المائدة)

فأهم شيء في هذا البحث أنّ الله عزّ وجلّ عفوّ، وغفور، فالغفور لا يُعاقب.. والعفو يُنسي الذنوب لكنّك أنت حينما تزلُّ القدم بك مرةً أو مرّتين في الذنب نفسه ينشأ بينك وبين الله حجاب، وهذا الحجاب ما الذي يَهتكه ؟ العمل الصالح.. فعوّد نفسك أن تعمل العمل الصالح كلّما غفلت، أو أخطأت، أو تسرّعت، أو تكلّمت كلمةً، أو فعلت شيئاً لا يُرضي الله عزّ وجلّ.

لذلك قال تعالى:

(وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ (١١٤))

(سورة هود)

وقال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ سِتَّةَ أَيَّامٍ ثُمَّ اعْقِلْ يَا أَبَا ذَرٍّ مَا أَقُولُ لَكَ بَعْدُ فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ السَّابِعُ قَالَ أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللَّهِ فِي سِرِّ أَمْرِكَ وَعَلَانِيَتِهِ وَإِذَا أَسَأْتَ فَأَحْسِنْ وَلَا تَسْأَلَنَّ أَحَدًا شَيْئًا وَإِنْ سَقَطَ سَوْطُكَ وَلَا تَقْبِضْ أَمَانَةً وَلَا تَقْضِ بَيْنَ اثْنَيْنِ))

وفي الحديث الشريف:

((عَنْ مُعَاذِ بْنِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ رَضِي اللَّه عَنْهم يَقُولُ عَلَى مِنْبَرِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ حِينَ ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ ثُمَّ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ فِي مِثْلِ هَذَا الْقَيْظِ عَامَ الأَوَّلِ سَلُوا اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ وَالْيَقِينَ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَى))

وكان سيّدنا عمر رضي الله عنه إذا أصابته مصيبة كان يقول: **الحمد لله ثلاثاً، الحمد لله إذ لم تكُن في ديني، والحمد لله إذ لم تكُن أكبر منها، والحمد لله إذ أُلهمتُ الصبر عليها.**

وبعد هذا الشرح الواضح فمن التخلّق بأخلاق العفو.. أن تعفو عمن ظلمك، وأن تُعطي من حرمك، وأن تصل من قطعك، هذه أخلاق المؤمنين فقد قال تعالى:

(وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥))

(سورة فصلت)

سيّدنا الصديق... إنسان افترى على ابنته السيّدة عائشة رضي الله عنها كذباً وروّج أنّ ابنته زانية في حديث الإفك.. فهل هناك إساءةً أشدّ من أن يُسيء الإنسان إلى عِرض أخيه وهي بريئةٌ وطاهرةٌ وعفيفة؟ ومع ذلك مسطح روّج هذه القصّة وأشاعها في المدينة وتأخّر الوحي في تبرئة السيّدة عائشة ثلاثين يوماً والنبيُّ عليه الصلاة والسلام لا يدري ماذا يفعل، وسيّدنا الصديق كان يُحسن لهذا الإنسان، فلمّا وقع في هذه الإساءة الكبيرة الإجراميّة نوى أن يَكُف عن الإحسان إليه فجاء قول الله تعالى:

(وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٢))

(سورة النور)

فقد ورد في الأثر أنّ الصدّيق عليه رضوان الله عليه:

((عَنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ لَهَا أَهْلُ الإِفْكِ مَا قَالُوا فَبَرَّأَهَا اللَّهُ مِمَّا قَالُوا كُلٌّ حَدَّثَنِي طَائِفَةً مِنَ الْحَدِيثِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالإِفْكِ) الْعَشْرَ الآيَاتِ كُلَّهَا فِي بَرَاءَتِي فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَكَانَ يُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ لِقَرَابَتِهِ مِنْهُ وَاللَّهِ لا أُنْفِقُ عَلَى مِسْطَحٍ شَيْئًا أَبَدًا بَعْدَ الَّذِي قَالَ لِعَائِشَةَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: (وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَى) الآيَةَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ بَلَى وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي فَرَجَعَ إِلَى مِسْطَحٍ النَّفَقَةَ الَّتِي كَانَ يُنْفِقُ عَلَيْهِ وَقَالَ وَاللَّهِ لا أَنْزِعُهَا عَنْهُ أَبَدًا))

وعاد إلى ما كان عليه وهذا شيء فوق طاقة البشر.. إنسان روّج عن ابنته الخبر السيّء وأرجف في المدينة، ثم يُعاتبه الله لماذا كفّ عن مساعدته ؟ هكذا أخلاق المؤمنين... وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم.

الحقيقة أنّ الله عزّ وجلّ لم يأمرنا أن نعفو عن المسيء فحسب بل أمرنا أن نُحسن إليه، فقد قال تعالى:

(وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤))

(سورة آل عمران)

(وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنْ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٣٤))

(سورة آل عمران)

وكذلك الآية الكريمة التي تقول:

(وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٣٥))

(سورة فصلت)

من كان حظّه عظيماً من الاتصال بالله عزّ وجلّ فليحمد الله كثيرًا، فسبحان الله عندما يعفو الإنسان عن أخيه يملأ الله قلبه أمناً وإيماناً، أما حينما ينتقم منه يملأ الله قلبه خوفاً وجفوةً، فالمنتقم يُعاقب من قبل الله عزّ وجلّ، باللعنة والطرد من رحمته وجفوة قلبه والقلق الذي يأكل قلبه، أما الذي يعفو يملأ الله قلبه أمناً وإيماناً، فما دمت قد عفوت عنه اشتريته، ولأن يربح الإنسان إنساناً خيرٌ له من أن يربح الدنيا وما فيها.

فالإنسان حينما تعفو عنه تربحه.. فسيّدنا النبيّ اللهمّ صلّ عليه أمر بقتل بضعة أشخاص لأنّهم أساءوا إساءةً ما أساءها أحدٌ قبلهم إلى الإسلام وإلى دين الله عزّ وجلّ، منهم عكرمه بن أبي جهل.. فلمّا جاء عكرمةُ مسلماً تائباً مستغفراً، قال عليه الصلاة والسلام:

((جاءكم عكرمةَ مسلماً، فإيّاكم أن تسبّوا أباه فإنّ سبّ الميّت يؤذي الحيّ ولا يبلُغ الميّت))

فالنبي بالغ بإكرامه ونهى عن أن يُسبّ أبوه إكراماً له.

فالخلاصة أنّ هذه الأسماء الحسنى ينبغي أن تزيدنا حباً بالله عزّ وجلّ وتخلُّقاً بهذه الأخلاق.

٦٧- اسم الله الجامع :

مع الدرس السابع والستين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو الجامع.. فقد ورد هذا الاسم في الأحاديث الصحيحة التي ذكر فيها الرسول صلّى الله عليه وسلّم أسماء الله الحُسنى.

أما معنى هذا الاسم في اللغة.. فالجمع هو الضمّ، جمعتُ يديّ أي ضممتهما، تجميع أجزاء الشيء بعضها إلى بعض هو الجمع، ويوم الجمع هو يوم القيامة، كلُّ الخلائق يجمعها الله عزّ وجلّ للحساب، فالله سبحانه وتعالى في هذا اليوم يجمع الأوّلين والآخرين، ويجمع الإنس والجن، ويجمع أهل السماء وأهل الأرض، ويوم الجمع أيضا يجمع الله سبحانه وتعالى العبد وعمله.

قد تلتقي بإنسان في مكانٍ ما يقول لك: أنا اسمي فلان وأحمل الشهادة الفلانيّة، ولي المؤلّف الفلاني، فلو طلبت إضبارته في دائرته لوجدت هناك عقوبات وأعمالاً لا تُرضي، فأنت لم تكتشف حقيقته، أما إذا جُمع مع أعماله كان التقييم صحيحاً.

أعود وأقول يوم الجمع يوم القيامة، يجمع الله فيه بين الأولين والآخرين، بين الإنس والجن، بين أهل السماء وأهل الأرض، يجمع بين العبد وعمله فقد قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤))

(سورة الإسراء)

الإنسان أحياناً يُفتضح في مكان فينتقل إلى بلدة أخرى، وفي هذه البلدة لا أحد يعرفه، أما إذا انتقلت المعلومات عنه إلى تلك البلدة فقد جُمع مع عمله، شيءُ مخيف أن يُجمع الإنسان مع عمله، أن يكون عمله كلّه مسطوراً في كتاب، وأنّ هذا الكتاب يرافقه إلى أيِّ مكانٍ انتقل إليه.

وسُمي يوم الجمع لأنّ الله سبحانه وتعالى يجمع بين الظالم والمظلوم، بين القوي والضعيف، بين المعطي والآخذ، بين المتكبّر والمتواضع، بين القوي الظالم والمستضعف المظلوم، يجمع بينهم ليقتصّ لله للضعيف من القوي، للمظلوم من الظالم، للمستضعف من المستكبر، ويجمع الله سبحانه وتعالى في هذا اليوم بين كلّ نبي وأمّته، كلُّ نبي يأتي مع أُمّته ليكون شهيداً عليهم فقد قال تعالى:

(مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللّهَ رَبّي وَرَبّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمّا تَوَفّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧))

(سورة المائدة)

ويجمع الله عزّ وجلّ في هذا اليوم بين ثواب أهل طاعته، وعقاب أهل معصيته، وسمّى الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يوم الجمع، لأنه يجمع فيه كلّ هذه الخلائق من أوّلها إلى آخرها، يجمع الإنس والجن، يجمع أهل السماء وأهل الأرض، يجمع كلّ عبدٍ مع عمله، يجمع بين الظالم والمظلوم، والمستكبر والمستضعف، والقوي والضعيف، ويجمع كلّ نبيٍ مع أمّته، ويجمع بين ثواب أهل الطاعة

وعقاب أهل المعصية، ذلك يوم الجمع.. فمن هذا الاسم يشتقُ إسم الجامع.. فمن الذي جمع هؤلاء ؟ فأحياناً تقف عقبة في سبيل إحقاق الحق، ذلك أنّ الطرف الآخر لم يُبلّغ لعدم وجود عنوان معروف للتبليغ عليه، فماذا يفعل المظلوم ؟ أقام دعوة، فكيف يحضر الطرف الآخر ويأتي به إلى ساحة القضاء وهو ليس له عنوان وإبلاغه مستحيل ؟ لكن الله سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى يجمع، يجمع القوي مع الضعيف، والظالم مع المظلوم، والمستكبر مع المستضعف، هذا معنى.. لأنّ يوم القيامة هو يوم الجمع فالله سبحانه وتعالى جامعٌ أي يجمع كلّ هذه الخلائق ليحاسبها.

والله سبحانه وتعالى جامعٌ بمعنىً آخر.. هو جمع الكمالات كلّها، ذاتاً، وصفاتٍ، وأفعالاً، وكما تعلم أيُّها القارىء الكريم أنّ كلّ إنسانٍ يتفوّق في جانبٍ من جوانب الكمال، أما أن يجمع الكمالات كلّها هذا مستحيل، أما أن يجمع الإختصاصات كلّها أشدُّ إستحالة، أما أن يجمع الحِرف كلّها فمستحيل كذلك أما أن يجمع الخبرات كلّها مستحيل.

فالحقُّ الإنسان له حرفةٌ واحدة، واختصاصٌ واحد، وتفوُّق واحد، واهتمام واحد، ونشاط واحد، أما أن يجمع كلّ الكمالات، يجمع كلّ الاختصاصات فلا، فعندما يتقن الإنسان عملين يُدهشنا.. نقول: ما شاء الله هذا له اختصاص علمي وحرفة يدويّة، أو تجارة وتدريس، يذهلنا أن يجمع الإنسان بين شيئين.

لكنّ الله سبحانه جلّ في عُلاه جمع الكمالات كلّها، أجل جمع كل ذلك أسماؤه كلّها حُسنى.. فالإنسان لا يستطيع إلا أن يتفوّق في جانب، إلا أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم جمع الكمالات كلِها، جمع الكمالات البشريّة كلّها، وكل صحابي من صحابته حاز على بعضها، فهذا تفوّق في شجاعته، وهذا في حلمه، وهذا في جوده، وهذا في عفوه، وهذا في عبادته، وهذا في قيادته، لكنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كان بطلاً في كلّ الاختصاصات، فلذلك مدح فقيل فيه:

وأجمل منك لم تر قطّ عيني وأكمل منك لم تلِدُ النساءُ

خُلقتَ مبرأ من كلّ عيبٍ... كأنّك قد خُلقت كما تشاءُ

***

كان عليه الصلاة والسلام في أعلى درجات الأدب، في أعلى درجات الحلم، في أعلى درجات الرحمة... ما رؤي ماداً رجليه قط حتى ولا بين أصحابه، في أعلى درجات الوقار، في أعلى درجات الهيبة، في أعلى درجات العلم.

يا أيُّها الأُميُّ حسبك رتبةً في العلم أن دانت لك العُلماءُ... فالنبيُّ جمع هذه الكمالات البشريّة كلها، والله سبحانه وتعالى جمع الكمالات كلّها في ذاته وفي صفاته، وفي أفعاله.

الإمام الغزالي رحمه الله تعالى له في اسم الجامع وقفةٌ متأنّية يقول: **" هو المؤلِف بين المتماثلات والمتباينات والمتضادات ".**

وكمثالٍ في حياتنا الواقعيّة أن يجمع إنسان مائة ألف من الناس دفعة واحدة فهذا مستحيل فقد يجمع خمسة آلاف، ثلاثة آلاف، فجمع الناس يحتاج إلى طاقات كبيرة جداً، يحتاج إلى ملكات قياديّة، يحتاج إلى تفوّق مذهل، من أجل أن تجمع الناس إليك الإمام الغزالي رحمه الله تعالى يقول: **الجامع في حقّ الله تعالى هو الذي جمع بين المتماثلات وبين المتباينات وبين المتضادات.**

كم إنسان في هذه الأرض ؟ ستة آلاف مليون كلُّهم من بنيةٍ واحدة، والدليل أنّ الدواء الذي يُصنع في كندا يستعمل في أستراليا، وأنّ المسكِّن الذي صنع في فرنسا يؤثِّر في اليابان، وأنّ الدواء المضاد للإلتهاب إذا صنع في اليابان يؤثِّر في البرازيل، فمعنى ذلك أنّ بنية الخلق واحدة، جمع بين المتماثلات، إلا أنّه من وسعة الله عزّ وجلّ أنّ كلّ إنسانٍ نسيج وحده، فالإنسان لكرامته على الله عزّ وجلّ جعله فرداً فهو فردٌ في شكله، فردٌ في قِوامه، فردٌ في ملامحه، فردٌ في لونه، فردٌ في قُزحيّة عينه، فردٌ في تركيب دمه، فردٌ في بصمته، فردٌ في رائحة جلده، فردٌ في نبرة صوته، فالله عزّ وجلّ جامع وواسع، جمع المتماثلات وواسعٌ جعل كلّ إنسانٌ نسيج وحده وله طابعٌ خاص لا يشركه فيه أحد.

أما المتباينات.. جمع بين السماء والأرض، والطول والعرض، وجمع الماء.. البحر واليابسة.. فعند الساحل تجد هذا هو البحر وهذه هي اليابسة، يجمع بين المتباينات.. ماءٌ ويابسة، بحرٌ ونهرٌ، جبلٌ وسهلٌ، سهلٌ وغورٌ، ساحلٌ وداخل.. فالأشكال متباينة، والطعوم متباينة، فكم لوناً موجوداً في الكون ؟ لو نظرت إلى باقة من الورد فكم لونًا فيها ؟ قرأت قبل ايّام أنّ في البحر وحده مليون نوع من الأسماك أي ألف ألف نوع من السمك، هذا جمع بين المتباينات.

فتجد سمكة شفافة صغيرة من أسماك الزينة، وسمكة سوداء، وأخرى عملاقة طولها ثلاثون متراً وتزن مائة وخمسين طناً وهو الحوت الأزرق ويعيش في المحيط الجنوبي، ويستخرج منه تسعون برميلاً من زيت الحوت، وخمسين طناً من الدهون، وخمسون طناً من اللحم، ويزن لسانه أربعمائة وخمسون كيلو غراماً مثلاً.. وإذا أرضع وليده فالرضعة الواحدة تبلغ ثلاثمائة كيلو غرام، وإذا أراد ان يأكل فيلتهم في الوجبة المعتدلة والمقننة أربعة أطنان، فبداخل الحوت بحر وتعوم فيه سمكةٌ سوداء طولها سنتيمتر واحد تزيينيّة.

وهناك سمكةٌ كأنّها باقة من الورد، وهناك سمك يمشي على أربع أرجل في أعماق المحيطات وقاعها، وهناك سمكٌ يدافع عن نفسه بشرارة صاعقة كهربائيّة تبلغ ستة آلاف فولط، وهناك سمك يهرب من عدوّه عن طريق سحابة سوداء كأنّه حبراً وهذا الذي يستخرج منه حبر المطابع، وهناك سمك له ضوء يهتدي به أثناء سيره في أعماق المحيطات ويجذب إليه فريسته ليأكلها، فإذا قرأ الإنسان موسوعةً عن البحار يرى العجب العجاب، وهناك سمكةٌ من نوع الأفعى طولها سبعة وعشرون متراً، وهناك خنزير البحر، وقنفذ البحر، والدلفين وهو من أذكى الحيوانات وهو صديق الإنسان، فسبحانه وتعالى جعله في

السواحل ومهمته أن يُنقذ الغرقى، وأن يدُلّ ربابنة السفن، فهو كالقائد، وهو أليفٌ للإنسان بدرجة غير معقولة وصديقٌ له، فإذا كان رأى غريقاً أنقذه، أو تائهاً أرشده وهو مشهور.

فكم نوعاً من الأسماك ؟ وكم نوعاً من الطيور ؟ وكم نوعاً من الأزهار ؟ كم نوعاً من الأبصال ؟ كم نباتًا ؟ الجواب أنّه كثير كثير.. فقد جمع الله بين المتماثلات كالإنسان، فهو متماثل في بُنيته مختلف في طباعه، والمتباينات كذلك.. فتخيّل كم شكلٍ لورقة النبات.. فهناك ورقة مثل الإبرة وورق دائري، وورق مثلّث الشكل، وورق مستطيل، وورق له طرف مسنن، وورق له طرف مستقيم، وورق له ثنيّات كورق بعض نخيل الزينة، فلو حاولت أن تستقصي أشكال أوراق النباتات فلن تنتهي منها، فورق صغير، ونبات دائم الخضرة، ونبات متساقط الأوراق، ونبات جذري، ونبات ساقي، ونبات أساسه الورق، شيء لا يُعدُّ ولا يُحصى، فإذا دخلنا في شرح نبات واحد كالقمح مثلاً فكم نوعاً له ؟ ثلاثة آلاف وخمسمائة نوع.. والعنب له ثلاثمائة وثلاثون نوعًا.. فليس هناك فاكهة أو محصول زراعي إلا ينقسم إلى مئات بل بضع مئات من الأنواع.

وبعد،... فاسم الجامع أنّه جمع بين المتباينات، وجمع بين المتماثلات، وجمع بين النتضادّات، فأحياناً هناك شيءٌ مضادٌ للشيء الآخر.. كالحرارة والبرودة، ظلامٌ دامس ثم بعد حين شمسٌ مشرقة.. يا رب أين الليل إذا جاء النهار؟! ففي العصر شمس جميلةٌ جداً وهي شمس الأصيل، وفجأةً غابت وأصبح الظلام دامساً، وأين النهار إذا جاء الليل ؟ ويقال: درجة الحرارة أربعون درجة مئويّة، وفجأة تأتي موجة من البرودة فتلطّف الجوّ كثيرًا، موجة من الحرّ فيتخفف الناس من ثيابهم وفجأة تعقبها موجة من البرد.. فحرٌ وبرد، ورطوبة ويبوسة، هذه كلُّها متضادّات يجمع بينها.

فهو سبحانه يجمع بين المتضادّات، وبين المتباينات، وبين المتماثلات.

شيء آخر.. الجمع مع الوساطة.. فمثلاً الحجر، وهو أساسي في حياتنا، فبناؤنا من الحجر، والحديد هذا أساسي كذلك في حياتنا، فكيف تستطيع أن تجمع بين الحديد والحجر ؟ لو أردت أن تُثبت سور حديديًا على جدار حجري فكيف ذلك ؟ خلق الله لك معدناً للجمع بينهما وهو معدن الرصاص، فتجد الرصاص ينصهر ببساطة عند الدرجة مائة مئويّة ويصبح سائلاً، فإذا حفرنا حفرةً في الجدار الحجري كشكل ثمرة الكمّثرى - الإجاصة - وسكب فيها الرصاص الذي من خصائصه التمدُّد بعد البرودة، فإذا تمدد ليس في الأرض جهةٌ تستطيع قلع هذا القضيب الحديدي من الحجر إلا بقطعه بالمنشار. فكيف جمع بين الحجر وبين الحديد ؟ عن طريق معدن الرصاص.

وقد تجد متضادّات جمعت بعضها مع بعض من خلال أجسام ثالثة وسيطة.

هناك شيء آخر بالاسم الجامع... فأحياناً سبحانه وتعالى يجمع ولكن مع الجمع هناك تنسيق.. فليس من السهولة أن تكون مديراً لمؤسسة ويعمل لديك مائتان من الموظّفين وكلّهم في مكان واحد، وكل إنسان

يعمل في عمله دون أن يتضارب عمل مع عمل آخر، أو أن يتناقض عمل مع عمل، أو يزدوج عمل مع عمل، الجمع مع التنسيق.

فكذلك الحيوانات والحشرات.. فالنحل يتحرّك نحو حقول الأزهار، فكيف يتحرّك ؟ تجد النحلات المستطلعات تتعرّف باديء ذي بدء إلى موقع الحقول وتعود وترقص، وطريقة رقص هذه النحلات يُحدِّد بعد الحقل عن خليّة النحل، وتواتر الرقصة يُحدِّد غزارة المحصول، وجهة الرقصة يحدِّد جهة المحصول، فهذه النحلات تنظر إلى الراقصات فتعرف جهة الحقل، وبُعد الحقل، وغزارة الحقل، فتنطلق.. النحلة وتقع على الزهرة وتمتصُ رحيقها، وبينما هي تمتصُ رحيقها تُلقِحها، فالنحل له وظيفة التلقيح أيضًا ولعلّها من أخطر الوظائف، النحلة حينما تعود إلى خليّتها.. إذا كان موسم الأزهار كثيفاً فلا تدخل إلى الخليّة بل تُعطي حمولتها من الرحيق وحبوب اللقاح لنحلةٍ على باب الخليّة من أجل توفير الوقت.. وهناك نحلةٌ حارسة، ونحلةٌ وصيفة، ونحلةٌ منظِّفة، تنظِّف الخلايا، ونحلات تصقلها، ونحلات تُلمِّعها.. تنظيف، وصقل، وتلميع.. هناك نحلات مستطلعة، وهناك نحلات مغذِّية، وظائف رائعة جداً وتنسيق بديع، فهناك ملكة واحدة في كلِّ خليّة فإذا نافستها ملكةٌ أخرى قُتِلت، والذكور لها وظيفة، والإناث لها وظيفة، والحارسات لها وظيفة، ونحلات موكّلة بتهوية الخليّة، فلا تسمح لنحلة بالدخول للخليّة إلا إذا ألقت كلمة السرّ وإلا تُقتل.. فكيف جُمعت هذه النحلات ؟ كيف كان التنسيق بينها ؟!

فصدِّقني.. أحياناً الإنسان إذا عنده عشرة موظّفين فإذا استطاع أن يجعلهم جميعاً يعملون بتنسيق فيكون إدارياً ناجحاً جداً، أحياناً يكون العاملون كثُرًا وهم قليلون في الإنتاج - كثيرون وقليلون - أحياناً القدرة على تشغيل أعداد كبيرة من الأشخاص من دون أي تضارب أو ازدواجية ومع التنسيق فهي قدرة عالية جداً، فالله عزّ وجلّ اسمه الجامع.. جمع الأجزاء ونسّق بينها.

فمثلاً الإنسان حراً في اختيار مهنته أليس كذلك ؟ فتجد مدينة مثل دمشق كم خطاطاً فيها ؟ لو فيها مثلاً عشرة آلاف خطاط لماتوا من الجوع.. ولكن ليس فيها سوى خمسة أو ستة خطاطين، فمن الذي حدد عددهم، تجد المهن النادرة أصحابها قلائل، وتجد المهن كثيرة جداً وكل إنسان حر في اختيار مهنته، ولكنّك تجد في النهاية تنسيقاً عجيباً، والمهن موزّعة توزيعاً بالتساوي، فتجد هذا له اتجاه لمهنة الميكانيك، وهذا للدراسة بالجامعة، وهذا للبيع والشراء، وهذا مهندس، وهذا طبيب، وهذا محام، وفي النهاية تجد المحصِّلة أنّ لدينا أطباء ومهندسين ومحامين وأصحاب حرف ومدرسين ودعاة، فتجد في هذا الكون تنسيقاً عجيباً والإنسان مخيّر، فبالرغم من أنّه مخيّر هناك تنسيق عجيب، فمعنى الجامع هنا أنّه جمع عباده وألّف بينهم، ومعنى التأليف هو التنسيق.

وإليك معنى آخر.. أنّ الله سبحانه وتعالى جمع قلوب الأحباب فقد قال تعالى:

(وَأَلّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنّ اللّهَ أَلّفَ بَيْنَهُمْ إِنّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣))

(سورة الأنفال)

فقد جمع القلوب.. فزوج وزوجة.. فهذا من أسرة وهذه من أسرة، هذا من بيئة وهي من بيئة أخرى، هذا له ثقافة مغايرة وهي لها ثقافة، يتزاوجان، فتجد أقرب إنسان للرجل في الحياة زوجته وأقرب رجل في حياتها زوجها، فمن ألّف بين القلوب فقد قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدّةً وَرَحْمَةً إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ (٢١))

(سورة الروم)

من آياته الدالّة على عظمته، أنّ الإنسان يلتقي مع شبيهه، مع مثيله أو صنفه، مع من يلتقي ؟ يلتي مع من يشبهه في فكره وفي قيمه وفي أخلاقه فمن ألّف بين القلوب ومن جمع بين الشتات ؟ هذا من معاني اسم الجامع.

لو فرضنا طائرة احترقت ومات فيها إنساناً، فكيف يجمع الله رفاته ؟ رفاته التي احترقت تجمع يوم القيامة فقد قال تعالى:

(بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوّيَ بَنَانَهُ (٤))

(سورة القيامة)

كيف ؟.. وقد قال تعالى:

(هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالْأَوّلِينَ (٣٨))

(سورة المرسلات)

الجمع واسع جداً.. جمع خلقه، جمعهم في الدنيا، فقهرهم على أن يجتمعوا.. ولندقق متأمّلين.. قهرهم على أن يجتمعوا، فالإنسان مهما كان ذكياً فهل بإمكانه أن يعيش وحده ؟ فهو يحتاج إلى خبزٍ ليأكله، فلو كان يعيش وحده لاحتاج إلى أن يزرع، أن يحرث الأرض وأن يسمّدها ويقلّبها ويحصد محصولها، وأن يطحن وأن يخبز فمعنى ذلك يبذل جهداً مستحيلاً، ويحتاج إلى ثياب، لكنّ الله سمح لك أن تُتقن حاجة وأن تفتقر إلى الكثير من الحاجات، فأنت مقهور أن تجتمع فهو الذي جمعنا مع بعضنا بعضاً، قال تعالى:

(وَقَدْ نَزّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ إِنّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنّمَ جَمِيعاً (١٤٠))

(سورة النساء)

(إنّ اللّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا)

يجمع ويُفرِّق، يؤلِّف ويُحبب.

وقيل: **" الجامع هو الذي يجمع أجزاء الخلق بعد تفرُّقها عند الحشر والنشر للحساب والجزاء، أو يجمع الخلق في موقف القيامة ".**

وقال بعض الأئمّة ومنهم الإمام الرازي في تعريف الجامع **" هو الذي يجمع قلوب أوليائه إلى شهود عظمته، ويصونهم عن ملاحظة الأغيار برحمته ".**

أيُّها القراء الكرام... اسم الجامع إسمٌ عظيم وهو اسم ذو معانٍ لا تنفُذ كثيرةٌ جداً.. ولعلّ من أجلّ معاني هذا الإسم أنّه يجمع الخلق ليحاسبهم، وأنت من أجل أن تعرف عظمة هذا الاسم حاول أن تدعو مائة شخص لعقد قران، فهذا يحتاج إلى اتصال هاتفي، وهذا ليس لديه هاتف، وهذا ذهبت إليه فلم تجده، فالأمر صعب ولا يعرف قيمة الجمع إلا من أراد أن يجمع حتى يخبر المائة مدعو يقول لك: هلكت.. فقد بذلت جهداً فوق طاقتي.. وهذا فقط للإعلام فكيف أن يأتوا جميعاً إليك.. فاسم الجامع لا يعرفه إلا من أراد أن يجمع الناس على احتفال أو لقاء، وهذه صورة مصغّرة جدًا، فالأمر صعب جدًا، أما ربنا عزّ وجلّ كلُّ هؤلاء الخلق يجمهم يوم القيامة ليحاسبهم في وقت يسير وعلى صعيد واحد.

قال القشيريّ: **" الجامع في وصفه تعالى بمعنى الحاشر للخلق والناشر لهم يوم القيامة للثواب والعقاب ".**. يجمعهم ويُحاسبهم.. بل إنّه يجمع لحومهم المتفرّقة.. هذا مات في البحر غرقاً، وهذا مات في الجو احتراقاً، وهذا دفن في صحراء، وذاك دفن في سفح جبل، حتى لحوم هؤلاء الموتى نفسها تجمع يوم القيامة.. وجلودهم المتمزّقة، وعِظامهم النخرة، وهو الجامع بين الأشكال والأمثال، وبين المختلفات والأضداد كالجماد والنبات والحيوان.

فمثلاً الماء.. فاسأل كل علماء الفيزياء والكيمياء فيقولون لك: أوكسجين وهيدروجين وهما غازان، ولكن الهيدروجين شديد الاشتعال والأوكسجين غاز يساعد على الاشتعال، والماء جمع بينهما وبه تُطفأ النار.. اسم الجامع فبالماء تطفأ النار، والماء أساسه غازان أحدهما شديد الاشتعال، والثاني يساعد على الاشتعال وقد جُمِعا في الماء، والدليل إذا كان لديك مدفأة تعمل على الوقود السائل فوضع عدّة نقاط من الماء مع الوقود يجعل الشعلة تتألّق ويحدث شبه إنفجارات لتحلل الماء إلى غازين وهذان الغازان ساعدا على الاشتعال، حتى أعلمني بعض الإخوة في بعض الأفران يضعون نقطة من الماء بنظام معيَن مع الوقود السائل ليزداد اشتعاله.. فكيف جمع الأوكسجين والهدروجين بالماء ؟

نضرب لكم أمثلة بسيطة لا تحتاج إلى بحوث علميّة.. فالدجاجة ماذا تأكل ؟ تأكل كل شيء حتى الفضلات، وحتى فضلات الإنسان، وتقدِّم لك بيضاً، وهذا البيض شيء مدهش فهو يحتوي على أربعة عشر فيتاميناً، وبروتينات ومواد دهنيّة، ومواد كلسيّة، والدليل أنّ هذه البيضة تنقلب إلى فرخ صغير -

صوص -، معنى ذلك أنّ فيها خلقًا كاملاً ففيها من العناصر التي يتكون منها هذا المخلوق كالمنغنيز والحديد والكالسيوم والمواد البروتينيّة والمواد الدهنيّة والعديد من المواد.. فلو أنت قمت بجمع طعام الدجاجة وضعته بين أيدي أكبر علماء الأرض وأعظم المخابر وتركته يعملون ليلاً نهاراً يطحنون ويضيفون مواد كما يشاؤون ولكن في النهاية هل يستطيع الخلق جميعاً أن يصنعوا من هذا الطعام التي تأكله الدجاجة بيضة ؟

الأبقار ماذا تأكل ؟ تأكل مواد نباتيّة وتعطيناً حليباً، فهل في إمكان أهل الأرض جميعاً أن يصنعوا من هذه الحشائش التي تأكلها البقرة حليباً خالصا سائغاً للشاربين ؟ مستحيل أن يفعلوه.. فكيف جمع هذه المواد ؟ فقد أطلعني أخ يعمل في هذا المجال على بحث عن حليب الأبقار، فثدي البقرة عبارة عن غدّة كالقبّة مغطّاةٌ بشبكة من الأوعية الدمويّة بالغة الدقّة وهذه القبّة مجموعة من الخلايا تسمّى الخلايا الثديية، وهذه الخليّة تأخذ حاجتها من الدم، والدم ماذا به ؟ به مواد كالبروتين والعناصر المعدنيّة الكالسيوم والمنجنيز والحديد، وفيه مواد سكريّة ومواد دهنيّة وشحوم، وحمض البول وهو الفرث، فالفرث يطلق على أنواع ثلاث.. فرث سائل، وفرث صلب، وفرث غازي، فالإنسان عندما يستنشق الأوكسجين وهذا الأوكسجين يتفاعل مع الدم فتحترق المواد بهذا الأوكسجين والناتج عن هذا الاحتراق هو غاز الفحم أي ثاني أوكسيد الكربون وهذا الغاز هو فضلات أي فرثٌ غازي، وحمض البول فرثٌ سائل، والروث فرثٌ صُلب فقد قال الله عزّ وجلّ:

(وَإِنّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشّارِبِينَ (٦٦))

(سورة النحل)

هذه الخليّة الثديية، كيف جمعت هذه المواد فيها بنسب رائعة تتناسب مع حاجة الإنسان، هذا عمل اسم الجامع.

قال: **" هو الجامع قلوب أوليائه إلى شهود تقديره ليتخلّصوا من أسباب التفرقة فيطيب عيشهم لأنّهم لا يرون الوسائط ولا ينظرون إلى الحادثات إلا بعين التقدير ".**

وقيل: **" الجامع سبحانه هو الذي جمع بين الكثيف واللطيف، جمع بين قلوب المؤمنين، ألّف بين أرواح المحبّين، هو الذي جمع في الإنسان روحاً من نور وجسماً من ظلمة، ونفساً أمّارةً وعقلاً مستضيئاً ".**

فأوضح شيء نأخذه اجتماع القلوب.. الأمُّ وابنُها.. ما هذا الجمع؟ فقد لا يهدأ لها عيش إلا إذا كان معافى، لا تشبع إلا إذا شبع، ولا تنام إلا إذا نام، لا تسعد إلا إذا سعد من جمع هذه العواطف والقلوب ووحّد بينها ؟

أيُّها القارىء الكريم... أحياناً يجمعك الله جلّ جلاله مع إنسان على غير ميعاد، فملاحظة دقيقة جداً فقد تركب سيّارة بعد انتظارك لها لفترة ثم تمشي على قدميك فإذ بهذا الإنسان تراه وجهاً لوجه، فكيف حرّك الله هذا الإنسان وحرّك الآخر وكيف التقيا في ذاك مكان ؟ وأحياناً هذا اللقاء قد ينتج عنه خير كثير، وهذا من تسيير الله عزّ وجلّ أن يجمعنا على غير ميعاد.

فقد ذكر لي أحد الإخوة وكنا في دعوة فوجدّته مهتماً اهتماماً كبيراً بما أقول، فقال لي: في إحدى المرّات كنت أسير من أمام مسجد الشيخ عبد الغني النابلسي فأذّن المغرب فدخلت لأصلّي فوجدت جمعاً غفيراً فجلست وقد ألقيت درساً.. وكنت أعاني من مشكلة وأقسم بالله لو أنني حدثتك عن مشكلتي مائة مرّة وكلّفتك أن تضع لها حلولاً ما سمعت معالجة لمشكلتي مع طرح حلولها كما سمعت في هذا الدرس.. وأنا والله لا أعرفه، فقلت سبحان الله الملهم فكيف ساقه الله إلى باب هذا المسجد وكيف دخل إليه وكيف أُلهمت أن أعالج قضيّة يُعاني منها، وأن أطرح حلاً لها.. هذا الجمع من قبل الله عزّ وجلّ.. فهذا الموضوع يمكن أن نذكر عليه ألف قصّة أو أكثر، كيف أنّ الله جمعك مع فلان ومع فلان، فقد قال تعالى:

(إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢))

(سورة الأنفال)

(ولو تَوَاعَدتُّمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ)

فأحياناً الإنسان قد يضيع منه شيء يقول: اللهمّ يا جامع الناس ليوم لا ريب فيه اجمع بيني وبين حاجتي.. فيلتقي بحاجته ويجدها.

ولقد ورد هذا الاسم في القرآن الكريم قال تعالى:

(رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩))

(سورة آل عمران)

سيجمعنا جميعاً ليحاسبنا.. وفي سورة النساء قال تعالى:

(وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا)

وفي سورة النساء أيضاً قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثاً (٨٧))

(سورة النساء)

وفي سورة الأنعام قال تعالى:

(قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢))

(سورة الأنعام)

وفي سورة الكهف قال تعالى:

(وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً (٩٩))

(سورة الكهف)

وفي سورة سبأ قال تعالى:

(قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦))

(سورة سبأ)

وفي سورة الجاثية قال تعالى:

(قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢٦))

(سورة الجاثية)

وفي سورة الشورى قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ (٢٩))

(سورة الشورى)

وفي التغابن قال تعالى:

(يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩))

(سورة التغابن)

وأخيرًا فإنّ من آداب العبد مع هذا الاسم كما قال الإمام الغزالي.. **أن تجمع بين الآداب الظاهرة في الجوارح، وبين الحقائق الباطنة في القلوب، فمن كمُلت معرفته، وحسُنت سيرته فهو الجامع.**

لذلك قيل: الكامل من لا يُطفأ نورُ معرفته، ونور ورعه، والجامع من جمع بين البصر والبصيرة، من جمع بين الحقّ وأهله، والدنيا والآخرة، والحقيقة والشريعة، هذا مما ينبغي أن نفعله إقتداءً باسم الجامع.

وبعد، هذا الذي تكلّمت عنه حول اسم الجامع هو غيضٌ من فيض، وكلٌّ واحدٌ منا ينبغي أن يسير في أنماط التفكير التي يمكن أن يستزيد منها في معرفة اسم الجامع.

٦٨- اسم الله الواجد :

مع الدرس الثامن والستين من دروس أسماء الله الحُسنى، الإسم اليوم الواجد، وقد ورد هذا الاسم في الأحاديث الشريفة التي ذكر فيها النبيُّ المصطفى صلّى الله عليه وسلّم أسماء الله الحُسنى.
الواجد أيُّها الإخوة من حيث اللغة.. فيه معنى الغنى من الجِدى أي الغِنى، والواجد فيه معنى العلم كما في قوله تعالى:

(وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى (٧))

(سورة الضحى)

وجدك أي علمك، والواجد أيضاً في معنى الشعور النفسي، فالوجد الغضب.. أوجدّت علي. قال نعم.
يُروى أنّ سيّدنا عمر رضي الله عنه كان عنده أبو الحسن سيّدنا عليٌ كرّم الله وجهه، فجاء رجل من أهل الكتاب يرفع شكوى إلى سيّدنا عمر على سيّدنا علي بن أبي طالب، فما من كان من هذا الخليفة العظيم إلا أن قال لسيّدنا علي: **يا أبا الحسن قم فقف إلى جنب الرجل.. ليستويَ الخصمان..** فلمّا حكم بينهما رأى سيّدنا علياً كرّم الله وجهه قد تغيّر فقال: **يا أبا الحسن أوجدت علي ؟** قال: **نعم.** قال: **ولِمَ ؟** قال: **لما ناديتني يا أبا الحسن ولم تقل لي يا علي، لقد كرّمتني وفضّلتني عنه. وليس هذا من العدل المطلق**، فقد كان أصحاب النبي رضوان الله عليهم يُحاسبون أنفسهم حساباً لا يُصدّق.
فسيّدنا أبو حنيفة النعمان وهو من التابعين رفض أن يقف في ظلّ بيتٍ مرتهنٌ عنده لئلا ينتفع بظلّ البيت، لأنّ كلّ رهنٍ جرّ نفعاً فهو ربا.. أي فيه شبهة الربا. وعلى كلٍ ركعتان من ورع خيرٌ من ألف ركعةٍ من مخلِّط، ومن لم يكن له ورعٌ يصدُّه عن معصية الله إذا خلى لم يعبأ اللهُ بشيءٍ من عمله.
الوجد.. شعور نفسي، إما أنّه الحب، وإما أنّه الغضب.. أوجدت علي.. أغضبت علي، أما: وجد فلانٌ بفلانه.. أي أحبّها.
فلا زلنا في اللغة.. فالواجد فيه معنى الغنى من الجِدى وهي السَعة والغنى، وفيه معنى العلم كما في قوله تعالى:

(وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى)

والقول: وجدتُ العلم نافعاً. وفيه معنى الحبُ، وفيه معنى الغضب.
الآن.. الموجود خلاف المعدوم، هناك المعدوم، وهناك الموجود.. فربُنا سبحانه وتعالى واجب الوجود وما سوى الله عزّ وجلّ ممكن الوجود أي سبقه عدم وسينتهي إلى عدم، فالله سبحانه وتعالى هو الأزليُّ الأبديُّ، هو القديم الباقي، هو الذي لا شيء قبله، ولا شيء بعده.
ما سوى الله عزّ وجلّ معدوماً أي سبقه عدم وسينتهي إلى عدم في الدنيا، أما النفس البشريّة سبقها عدم وسوف تبقى إلى أبد الآبدين في جنّة ربّها أو في النار، في الآخرة.. وهي وحدها النفس البشرية في

الدنيا قد سبقها عدم وستنتهي إلى عدم عند الموت، ولكنّ النفس البشريّة في الآخرة، سبقها عدم وهي خالدةٌ في جنّة ربّها في نعيمٍ لا ينفد، أو في عذابٍ لا ينفد.

هناك معنى آخر للوجد.. وجدّتُ طعم الشيء أي أدركته، لكن هناك معنيٍ أخرى لكلمة الوجد.. فالواجد هو الغنيُّ الذي لا يفتقر، فالمؤمن هو عبد الغنيّ، عبد الرزّاق، عبد الرحيم، عبد القويّ، عبد الحكيم، عبد الوليّ، عبد الرؤوف، فإذا كنت مع الله فهذه أسماؤه الحسنى.

الواجد.. الغنيُّ الذي لا يفتقر، والواجد هو الذي لا يضلُّ عنه شيء، فأحياناً الإنسان لضعفه يقول: بحثت عنه كثيراً فلم أجده، أي احترت في أمري فأين أجده، فاته الشيء غاب عنه، لكنّ الله سبحانه وتعالى هو الواجد الذي لا يضلُّ عنه شيء، ولا يفوته شيء، الله جلّ جلاله الواجد.. قال: **" هو الذي يجد كلّ ما يطلبه ويريده ".**

فالإنسان قد يطلب آلاف الطلبات ولا يجدها، يريد آلاف الأهداف ولا يُحصِّلها، لكنّ الله سبحانه وتعالى لا يضلُّ عنه شيء ولا يفوته شيء، وهو الذي يجد كلّ ما يطلبه ويريده ولا يُعوزه شيءٌ من ذلك، ولا يُعجزه شيء ذلكم الله ربُّ العالمين، أي شتّان بين من يكون عبداً لغير الله وبين من يكون عبداً لله.

ولندقق في معنى ما أقول.. ففي الإنسان ضعفاً فطرياً خَلقي، فقد أراده الله ضعيفاً، وهذا الإنسان الضعيف لا بدّ من جهةٍ يلجأ إليها، يعتمد عليها، يلوذُ بها، يحتمي بها، يتقوّى بها كي تطمئنّ نفسه، فإما أن تلوذُ بالله، فإما أن تلجأ إلى الله، فإما أن تعتزّ بالله، فإما أن تقبل على الله، وإما أن تكون عبداً لعبدٍ لئيم، تتوهّمه قوياً فتخضع له، تتوهّمعه يرفعك فتُقبل عليه، تتوهّمه قادراً على ان يفعل كلّ شيء فتبيعه دينك بدنياه، فلأنّ الإنسان في ضعف فلا بدّ من أن يُكمِّل ضعفه، فإما أن يعبد الله، وإما أن يعبد غير الله، فيعبد أحساناً الأقوياء أو الأغنياء أو الأشخاص الذين يتوهّم أنّهم يفعلون ما يُريدون وهذا هو الشرك بعينه.

الإمام الغزالي يقول: **" الواجد هو الذي لا يُعوزه شيء، والذي يحضره ما لا تعلّقَ له بذاته لا يُسمّى واجداً، والذي لا يحضره ما لا يتعلّقُ بكمال ذاته لا يُسمّى واجداً ".**

أما الذي يُعوزه شيء هو الفاقد وليس الواجد.. فأحياناً الإنسان يفتقد إلى أشياء كثيرة، فيفتقد إلى من حوله فقد يفتقدهم ولا يجدهم، يفتقد إلى حاجات كثيرة لا يُحصِّلها، لكن هناك تعليقاً لطيفاً وهو أنّه من فاته ما ليس بحاجةٍ به إلى وجوده لا يُسمّى فاقداً.. فلو أنّك فاتك شيء لا تحتاجه إنّك لا تُسمّى فاقداً، أما إذا فاتك شيءٌ أنت في أمسّ الحاجة إليه عند إذٍ تُسمّى فاقداً، فالإنسان فاقد، فقد يفقد مقوّمات حياته، قد يفقد صحّته، قد يفقد ماله، قد يفقد أهله، قد ينفضُّ الناس من حوله، قد يتخلّى عنه أولاده، فاقد، لكنّ الله واجد.. فإذا شيء أراده فهو في قبضته، وكل شيء طلبه قادرٌ عليه.

أما الواجد هو الذي يجد ما هو بحاجةٍ إليه، أو ما هو مكمِّلٌ له، لكنّ الله سبحانه وتعالى يحتاجه كلُّ شيء في كلّ شيء، وبه يكمل الشيء، ثم إنّ بعض العلماء يقول: **" الواجد كلُّ ما لابدّ منه في صفات الألوهيّة وكمالها فهو موجودٌ لله تعالى ".**

فمن بعض التعبيرات نقول: من لوازم كمال الله تعالى أنّه يعلم، ومن لوازم كمال الله أنّه قادر، من لوازم كمال الله أنّه مريد، من لوازم كمال الله أنّه فعّال، فالواجد هو الذي يجد كلّ صفات كماله، صفات كماله واجدةٌ له.

ليس إلا الله هو الواجد المطلق.. تعلمون أيُّها الإخوة أنّ الإنسان إذا اتصف بصفةٍ فهذا الاتصاف نسبي، أما إذا اتصف الله عزّ وجلّ بصفةٍ أو سمّى اسمه باسم فهذه التسمية أو ذاك الاتصاف مطلق. أي أنّ لو أنّ إنساناً واحداً من بين خمسة آلاف مليون إنسان الآن يعيشون في القارّات الخمس ظُلِم ظلماً حقيقيّاً لا ظلماً ظاهراً فالله سبحانه وتعالى لا يُسمّى العادل، أما هناك ظلم ظاهري كثير لقوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩))

(سورة الأنعام)

فالظالم لنفسه قد يسوق الله له ظالماً يظلمه ليُعيده إلى جادةِ الصواب، ليدفعه إلى باب العبوديّة، أما الظلم الحقيقي المطلق لا وجود له ولو وجد لما كان الله عادلاً، لأنّ الله عزّ وجلّ عدالته مطلقة، فلو حكم قاضياً مائة حكمٍ، لو كانت الأحكام تسعون بالمائة منها عادله يسمّى القاضي عادلاً، أما ربنا عزّ وجلّ لأنّه مطلق، فهو كمال مطلق، وعدل مطلق، وراحة مطلقة، وقدرة مطلقة، وغنى مطلق، فلا يليقُ بحقّ الله عزّ وجلّ النسبيّة في الأسماء ولا في الصفات، فالنسبيّة من شأن الإنسان، أما الإطلاق من شأن خالق الإنسان.

فربنا عزّ وجلّ عدالته مُطلقة وقدرته مطلقة فلا يُعجزه شيء، وعلمه مطلق فلا يغيب عنه شيء، واجدٌ لكلّ شيء، كلُّ شيءٍ في قبضته، كلُّ شيءٍ رهن إشارته، كلّ شيء مقهورٌ له.. ذلكم الله ربُّ العالمين. فأحياناً يكون الإنسان ضعيفاً، ولكن إذا كان الله معه ليس ضعيفاً.. فأحبُّ أن أضع فكرةً بين أيديكم ونحن في أمسّ الحاجة إليها.. فمن يراقب الأحداث قد يجد بين أُناسٍ وأُناسٍ آخرين بوناً شاسعاً، ومسافةً كبيرةً، والهوّة تتفاقم بينهما وكمثالاً على ذلك.. جهل، علم، ضعف، قوّة، تخلُّف، تقدُّم، يقول لك: نحن ضِعاف. لكن لو كنت مع الله وكان الله معك كنت أقوى من أقوى قويّ، لأنّ الإله المطلق مع المؤمنين، إذاً فمهما يكن هناك من أخطاء أو من ضعف فهذا الضعف يُرَمم، لأنّ الإنسان أحياناً حينما تضعُف معنويّاته يضعف عمله فقد قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

(سورة آل عمران)

(وَأَنْتُمْ الأَعْلَوْنَ)

وقال تعالى:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦))

(سورة آل عمران)

فأخطر شيء يصيب الأمّة أن تضعُف، أن تستخزي، أن تتطامن أمام عدوّها، المؤمن مع الله وإذا كان الله معك فأنت أقوى الأقوياء، وإذا كان الله معك فأنت أعلم العلماء، وإذا كان الله معك فأنت أحكم الحكماء.. فالله عزّ وجلّ قال:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ(٦٠))

(سورة الأنفال)

الله عزّ وجلّ ما كلّفنا أن نُعدّ القوّة المكافئة، لكن أمرنا أن نُعِدّ القوة المتاحة، وهناك فرقٌ كبير بين القوّة المكافئة والقوة المتاحة، إننا إن أعددنا القوة المتاحة تولّى الله بإمدادنا بما نحتاج إليه كي ننتصر على اعدائنا، فالقضيّة قضيّة إيمان، قضيّة شعور انّ الله لا يتخلّى عن المؤمنين، بل إنّ كلّ خطّةٍ يضعها الكافر وتبدو لنا محكمة، وتبدو لنا مدعّمة بقوّةٍ جبّارة، إنّ كلّ خطّةٍ يضعها الكافر تستوعبها خطّة الله عزّ وجلّ، ولا يُنفّذ منها إلا ما يسمح الله به.. هذا شعور المؤمن، هذا المؤمن الموحِّد، هذا المؤمن الذي لا تضعُف معنويّاته، ولا تتطامن نفسه أمام أعدائه.

إذاً الله عزّ وجلّ واجد مطلقاً.. يجب أن نقف على هذا التعبير.. اتصاف الله بصفاته الفُضلى، وأسمائه الحُسنى اتصافٌ مُطلق، أي عالم لا يُعجزه شيء ولا يغيب عنه شيء، قدير قدرته متعلِّقة بكلِّ شيء. هناك بعض الفرق الإسلاميّة كالصوفيُون الذين يستخدمون هذه العبارة: الواجد.. من الوجد، والوجد عندهم ما يجده الإنسان وما يُصيب قلبه من الأحوال.

والحقيقة نحن بحاجةٍ إلى علمٍ، وإلى حال، فالعلم شيء والحال شيء آخر، فالعلم هو إدراك الحقائق، أما الحال الاتصال بالله عزّ وجلّ، فالحال وقود والعلم مِقود، أنت بالعلم تُسيّر ذاتك تسييراً صحيحاً، لكنّ الحال يدفعُك إلى الله عزّ وجل.. الحال هو ثمرةٌ من ثمرات الاستقامة والعمل الصالح، فأنت استقمت، أنت عملت عملاً صالحاً.. ماذا تتوقّع من الله عزّ وجلّ ؟ أن يملأ قلبك غنىً، فغنى النفس حال، أن يملأ قلبك أمناً، أن يملأ قلبك رضاً، أن يملأ قلبك ثقةً بالله عزّ وجلّ، أن يملأ قلبك حُباً، أن يملأ قلبك قرباً، فحال الثقة بالله، والطمأنينة، والحب، والشوق.. هذه أحوال، وهذه الأحوال هي غذاء القلب، لأنّ الله عزّ وجلّ قال:

(الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨))

(سورة الرعد)

كما أنّ عقلك بحاجةٍ إلى علم، قلبك بحاجةٍ إلى ذكر، فالذكر يُطمئن القلب، لذلك جناحان لا يستغني المؤمن عنهما معاً، جناح العلم، وجناح الحال، الحال يُدّعى، لكن نحن نقول: الحال هو السكينة التي يُلقيها الله في قلب المؤمن مكافأةً له على استقامته وعلى طاعته وعلى عمله الصالح.. يمكن أن تدّعي أنّك قريب من الله، لكنّ هذه الدعوى لا قيمة لها، هذا شيء يعرفه من ذاقه.

فالوجد.. ما يجده الإنسان، ويصيب قلبه من الأحوال، وأنتم تعلمون علم اليقين أنّ الإنسان عقب عمل صالح، عقب تلاوة قرآن، عقب صلاة متقنه، عقب ضبط النفس، عقب ضبط اللسان، أو إذا ضحّى بشيء، قدّم شيء لله عزّ وجلّ يشعر بسعادة، وهذه السعادة هي الحال، فيصحّ أن تسمِّيها سكينة، أو تسمِّيها رحمة، أو تسمِّيها قرب، أو تجلِي، أو تسمِّيها أنّ الله سبحانه وتعالى قذف في قلبه نورا، فيقولون: فلان قلبه منوّر.. فلا شكّ أنّ المؤمن الصادق المستقيم المخلص له احوالٌ يتميّزُ بها سائر الناس، يتميّز بشكلٍ صارخ، بشكلٍ واضح، والدليل قوي وهو قول الله تعالى:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١))

(سورة المعارج)

أصل جبلّته هلوع.. فما معنى هلوع ؟ الله قد فسّرها لنا فقال:

(إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا)

أي شديد الجزع أي كثير الخوف.

(وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا)

يخاف مرّتين، يخاف من خطرٍ، ويخاف على ما في يديه، يخاف من خطرٍ داهم، ويخاف على ما في يده، الخوف من خطرٍ داهم يجعله جزوعاً، والخوف على ما في يديه يجعله بخيلاً حريصاً:

(إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً (٢١) إِلَّا الْمُصَلِّينَ (٢٢))

(سورة المعارج)

المصلِّي ليس جزوعاً وليس هلوعاً وليس منوعاً، هذا هو الحال، معنى الحال، أي أنت غير علمك وتصوُّراتك الصحيحة عن الكون وغير ثقافتك الإسلاميّة، وغير معرفتك لمنهج الله هناك شيء آخر، قلبك ممتليء محبّة لله، قلبك ممتليء طمأنينة، قلبك ممتليء سعادة، قلبك ممتلئ رضا، قلبك ممتليء رحمة، قلبك ممتلئ إنصاف، إنّ مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبّ الله عبداً منحه خُلقاً حسن.

إذاً الوجد في المصطلح هو الإنسان الذي أصابه الوجد، أي ما يجده من أحوال في قلبه، فأنتم بربكم

أحياناً يشعر الإنسان بإنقباض، أو يحسّ بكآبة، أو بإنطلاق، أو يحسّ بالغنى الحقيقي، يكون إنسان عادي ودخله محدود وهو من عامّة الناس، يشعر أنّه غنيّ وأنّ الله سبحانه وتعالى تفضّل عليه بالمعرفة، وتفضّل عليه بالقرب، وأمدّه بالتوفيق، هذا الشعور بالغنى والشعور بالطمأنينة، والشعور بالرضا، والشعور بالأمن، فقد قال الله عزّ وجلّ:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(٨٢))

(سورة الأنعام)

أيُّها الإخوة.. الآن خطر في بالي لو أنّ الإنسان تتبّع الآيات التي تشير إلى الحال.. فمثلاً المشرك قال تعالى عنه:

(سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١))

(سورة آل عمران)

(وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقاً تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقاً (٢٦))

(سورة الأحزاب)

معنى ذلك أنّ المشرك الله عزّ وجلّ يقذف في قلبه الرعب، المؤمن يقذف في قلبه الأمن فقد قال تعالى:

(وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمْ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ(٨٢))

(سورة الأنعام)

الآن الضيق.. قال تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨))

(سورة التوبة)

هناك ضيق.. إذاً فقد قال تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

(سورة آل عمران)

وقال تعالى أيضاً:

(وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ(١٤٦))

(سورة آل عمران)

أحوال القلب... القلب يضعف، يقوى يذلّ، يعتزّ، يتضعضع، يتماسك، ينهار، يصمد، يُحب ان يكره، ينقبض، ينشرح، هذه هي الأحوال، والحقيقة أنّ أحد أكبر ثمرات الإيمان عند المؤمن هذا الحال الذي في قلبه.. شعور الغنى.. المؤمن لا يخاف إذا خاف الناس وهذا أكيد، لا يقلق إذا قلق الناس، لا يستخزي إذا إستخزى الناس، لا يذِل إذا ذلّ الناس، لأنّه مع الله والله هو العزيز هو القوي.

اجعل لربّك كلّ عِزّك يستقرُّ ويثبت...

فإذا اعتززت بمن يموتُ فإنّ عزّك ميّتُ

***

قال بعضهم: **" الوجد.. مكاشفة الأسرار ومشاهدة المحبوب ".**

هناك شيء في الدين فوق الصلاة والصيام والحجّ والزكاة، وفوق غضّ البصر والتزام الأمر والنهي، هذا هو الإشراق، هذا القرب من الله.. هذا هو الدين.. مكاشفة الأسرار، مشاهدة المحبوب، ألم يقل لله: يا ربُّ لقد عصيتك فلم تعاقبني !! فوقع في قلبه: **أن يا عبدي قد عاقبتك ولم تدري، ألم أحرمك لذّة مناجاتي.**

بربّكم... إستقامتكم، وإخلاصكم، وإلتزامكم، وخوفكم من أن تعصوا الله عزّ وجلّ، هذا الحرص على طاعته ألا يُلقي في قلبكم الأمن والطمأنينة، والبشر والسعادة، هذا هو الوجد الذي تحدّث عنه بعضهم.

أيُها الإخوة... يقول الإمام الرازي رحمه الله تعالى: **الواجد إما أن يكون بمعنى الغنى، كما في الحديث الشريف:**

((ليُّ الواجد ظلمٌ.))

أي مماطلة الغنيُ ظلمٌ.. ليُ أي المماطلة، الواجد أي الغني.. ظلمٌ.

او بمعنى العلم.. كما في الآية الكريمة:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٣٩))

(سورة النور)

وجدتُ العلم نافعاً.. أي علمت العلم نافعاً، أو بمعنى الحزن.. وجد فلانٌ على فلان.. أي غضب منه وحزن منه.

بعض العارفين يقول: **الواجد هو الذي لا يحتاج إلى شيء، منزّهٌ عن أن يحتاج إلى شيء لأنّه يجد كلّ شيء**، ليس بحاجة إلى شيء من افتقد شيئاً احتاجه، لكنّ الله سبحانه وتعالى لا يفتقد شيئاً، إذاً هو الواجد، كلُّ الكمالات موجودٌ له.

فأحياناً يقولون لك: فلان ذو علم ولكنّه غضوب، حليم ولكنّه جاهل، يفتقد إلى أشياء كثيرة.

قال: **" الواجد نافذُ المراد "**، جميع أحكامه لا نقص لها، فكما قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤١))

(سورة الرعد)

الواجد.. هو الله وحده، وما سوى الله عزّ وجلّ لا يكون واجداً إنّما يُسمّى فاقداً، فالله واجد وما سواه فاقد، الله عزّ وجلّ لا يحتاج إلى شيء لأنّه يجد كلّ شيء، والإنسان يحتاج إلى كلّ شيء لأنّه فاقدٌ إلى كلّ شيء، هذه حقيقة الإنسان وهذا حجمه الحقيقي.

إن وجد في الإنسان بعض الكمالات، فهو فاقدٌ لأكثرها، إذا فهو يغلب عليه أنّه فاقد، وحينما توجد فيه بعض هذه الكمالات الله وحده الذي اوجدها فيه.. إنّ مكارم الأخلاق مخزونة عند الله تعالى فإذا أحبّ الله عبداً منحه خلقاً حسناً، حتى الصفات الأخلاقيّة في الإنسان هي من الله عزّ وجلّ.

قال: متى أشرق على قلبك نور اسم الواجد.. فهذه الأسماء الحسنى إذا اقترب الإنسان من الله عزّ وجلّ يشتقُّ منها بعض الكمال.. إذا أشرق على نفسك نور اسم الواجد وجدّت جميع الكمالات موجودةٌ لله تعالى مفقودةٌ لغيره.

لذلك المؤمن لا يرى الكمال إلا في الله، لذلك لا يحبُّ إلا الله، وما سوى الله يُحسن إليهم يفي بعهدهم يُنجز وعده معهم ويفعل كلّ شيءٍ معهم، أما قلبه معلّقٌ بالله عزّ وجلّ.

قالوا: الواجد.. هو الغني الواجد كلّ ما يطلب، المدرك كلّ ما يُريد، القادر على تنفيذ مراده.. يعلم كلّ شيء.. من العلم.. ويقدر على كلِّ شيء، ولا يفوته شيء، ولا يستعصي عليه مطلوب، رفيع القدر، عظيم الشرف، كامل القدرة، واسع الجود والعطاء.

هذا اسم الواجد.. لكن هناك وجود بمعنى علم، ووجود بمعنى غنى، الوجود بمعنى العلم.. أحياناً أنت من خلال الحواس تجد، تضع هذا الطعام على لسانك تقول طعام مالح، وجدّت ملوحته حينما تذوّقته، فوجدانك لطعم ملوحته عن طريق لسانك.. لمسته فرأيته ناعم الملمس هذا الوجدان عن طريق الحسّ، نظرت إليه فرأيته جميلاً، فهذا الوجدان بمعنى العلم عن طريق الحواس.. وجدّت طعمه بلساني، وجدّتُ خشونته ببناني، أو أحياناً الإنسان يجد بقوّة الشهوة.. يأكل فيشبع، يجد الشبع لأنّه يشتهي الطعام. أحياناً يجد بقوّة الغضب.. فيوجد عنده طبع نفسي معيّن يتألّم، أو يُسر، فإذا وجد الألم بسبب قوّة الغضب أو بقوّة الرضا، وأحياناً يجد عن طريق عقله.. يقول لك: فكّرت فوجدت.

فهناك وجدان حسّي، ووجدان غضبي، ووجدان شهواني، ووجدان عقلي.. لكنّ الله سبحانه وتعالى اسمه الواجد منزّهٌ عن أن يجد بأداة، أو بوسيلة، الله جلّ جلاله منزّهٌ عن الوسيلة، لأنّ الوسيلة تُعبّر عن ضعف.. أنا ضعيف لذلك أستعين بوسيلة، فالإنسان الذي يستخدم المنظار، لماذا يستخدمه ؟ لأنّ عينه لا تكفي لرؤية المسافات البعيدة فيستخدم المنظار.. إذا ضعفه تجسّد في استعانته بالمنظار.. هذا هو الضعف، فالله سبحانه وتعالى واجد، لكنّ هذا الإسم من أسمائه الحُسنى لا يليقُ به أن يكون عن طريق آلةٍ أو أداةٍ أو جارحةٍ أو ما شاكل ذلك.

أيُها الإخوة الكرام... الله سبحانه وتعالى وحده الواجد وما سواه فاقد.. لذلك قال بعضهم: الموجودات ثلاثة أضرُب.. موجودٌ لا مبدأ له ولا منتهى وهو الله وحده وليس ذلك إلا للباري تعالى، وموجودٌ له مبدأ ومنتهى كالناس في النشأة الدنيا، وموجودٌ له مبدأ وليس له منتهى كالناس في النشأة الآخرة، في جنّت الخُلد إلى أبد الآبدين.

بالمناسبة.. اسم الواجد لم يرد في القرآن الكريم وقد ورد في الحديث الصحيح، إلا أنّه ورد في القرآن الكريم مادّة الوجد فقد قال تعالى:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٣))

(سورة ص)

أي إنا علمناه صابر..

(نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ)

وقال تعالى:

(أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨))

(سورة الضحى)

الآن.. لكي يكون المؤمن موصولاً بنفحات اسم الواجد ينبغي أن يكون واجداً لكلّ ما يُراد منه.. أي تحرّى ليجد كلّ ما أراده الله تعالى منه، فالإنسان إذا سعى وإذا طلب قال تعالى:

(وَمَنْ أَرَادَ الْآَخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُوراً (١٩) كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠))

(سورة الإسراء)

أيُها الإخوة الكرام... اسم الواجد من أسماء الله الحُسنى، الواجد هو الغني، والواجد هو العالم، والواجد هو المستغني عن كلّ شيء، والواجد هو الذي لا يفوته شيء، وكلّما تعمّقنا في فهم أسماء الله الحُسنى كنّا أقرب إلى الله، وكنّا أكثر استفادة من معرفة الله لأنّ هذه المعرفة تنعكس علينا قرباً، وسعادةً وتوفيقاً.

٦٩- اسم الله المبدي المعيد :

مع الاسم التاسع والستين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو المُبدي المُعيد.

أيُّها الإخوة... فضلاً عن أنّ هذين الاسمين وردا في حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حينما ذكر أسماء الله الحُسنى، فإنّ هذين الاسمين يذكرا معاً دائماً، وقد نوّهت من قبل إلى أنّ العلماء في بعض الأسماء يرون أنه يُذكرا معاً، كأن تقول: المعطي المانع، القابض الباسط، الخافض الرافع، المُعزّ المُذل، الضار النافع، إنّه يضُرُّ لينفع، ويخفض ليرفع، ويُذلُّ ليُعز، ويقبض ليبسط، ويمنع ليعطي.

وهذان الاسمان.. المبدي المعيد ألِفا العلماء أيضا أن يذكروهما معاً في بحثٍ واحد، ولا بدّ من أن أنوّه مرّةً ثانية إلى أنّ معرفة الله عزّ وجلّ تقتضي أن تعرف أسماؤه الحسنى.. لذلك قال تعالى:

(وسعىوَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٨٠))

(سورة الأعراف)

والذي يدعوك إلى معرفة الله، أو الذي يدعوك إلى محبّته، والانقياد لأمره أن تعرف أسماؤه الحُسنى، لأنّ النفوس جبلت على حُبِّ الكمال، والله سبحانه وتعالى جمع الكمالات كلّها.

وسنتعرف أين ورد هذان الاسمان في القرآن الكريم ؟ وبالطبع فإنّ أسماء الله الحُسنى قد وردت في الكتاب والسنّة، لكن بعض الأسماء ورد بالنصّ الدقيق، وبعضها ورد بالجذر، أي بالفعل، كما مر بنا في البحث السابق، فالله سبحانه وتعالى واجد.. لكنه ورد في القرآن الكريم:

(وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثاً فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنّا وَجَدْنَاهُ صَابِراً نِعْمَ الْعَبْدُ إِنّهُ أَوّابٌ (٤٣))

(سورة ص)

فلم يرد في القرآن اسم الواجد لكن ورد فعل وجد، من الوجود أو الوجد، وقد ذكرت ماذا يعني كلمة الواجد.. أي الغني، الواجد الذي يعلم، الواجد الذي وجد عليه اي غضب منه، وقد بيّنت ما يتناسب مع أسماء الله الحُسنى من هذا المعنى.

يقول الله عزّ وجلّ:

(قُلْ أَمَرَ رَبّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ(٢٩))

(سورة الأعراف)

يقول بعض العلماء وهذا القول حق ورائع: **" الشريعة عدلٌ كلُّها، رحمةٌ كلُّها، مصلحةٌ كلُّها، فأيّة قضيّةٍ خرجت من العدل إلى الجور، من المصلحة إلى المفسدة، من الرحمة إلى خلافها فليست من الشريعة ولو أدخلت عليها بألف تأويلٍ وتأويل ".**

(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)

بدأكم... تعودون، المبدىء المعيد.

في هذه الآية وردت الإشارة إلى اسم الله المبدي وإلى اسم الله المعيد، وفي سورة الأنبياء قال تعالى:

(يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ(١٠٤))

(سورة الأنبياء)

وفي سورة النمل قال تعالى:

(أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٦٤))

(سورة النمل)

وفي سورة العنكبوت قال تعالى:

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٠))

(سورة العنكبوت)

وفي سورة الروم قال تعالى:

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١))

(سورة الروم)

وفي السورة نفسها قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧))

(سورة الروم)

وفي سورة البروج قال تعالى:

(إِنَّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣))

(سورة البروج)

فالإنسان أحياناً يقول: والله قد فعلت هذا الأمر ولكنّي لا أستطيع أن أعيده. أي جاءته معونةٌ خاصّة خارجةٌ عنه، فإذا كلفته أن يعيده لا يستطيع، فالإنسان من ضعفه أحياناً تأتيه بوارق، حالات إستثنائيّة، إشراقات، فهو لا يملك هذا الإشراق دائماً، فكل من يعمل في أعمال الفكر أو الإبداع، يعرف أن الإبداع لا يأتيهم متى يشاؤون، الإبداع قد يوافي الرجل، وقد لا يوافيه، فمعنى ذلك أنّ الإنسان مفتقر، أحياناً يبدع في إلقاء كلمة، يبدع في قراءة، يبدع في فكرة، يبدع في إكتشاف، لكن قد لا يبدع أحياناً.
قال بعضهم: **" العبقريّة تسعٌ وتسعون بالمائة عرق وواحد بالمائة إلهام"**، وهذا الشيء ثابت فكل الأدباء والكتّاب والشعراء، حتى كل الأعمال التي تتسم بالإبداع أصحابها يعترفون أنّه في بعض

اللحظات يأتيهم إشراق، في بعض اللحظات تأتيهم معونة، في بعض اللحظات يتألّقون، ولكنّ هذه اللحظات لا يملكونها، تأتيهم أو لا تأتيهم، ولذلك الذي فعلته اليوم بإشراقةٍ أو بإبداعٍ أو باستثناءٍ لا تملك أن تُعيده وهذا من ضعف الإنسان، لكنّ الله سبحانه وتعالى كلُّ شيءٍ خلقه يعيده مرّةً ثانية كما ورد في الآية الكريمة:

(وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ)

في اللغة العربيّة بدأ وابتدى بمعنى واحد.. ولكن لي تعليقٌ على هذا الكلام هو أنّ كلّ زيادةٍ في المبنى تدُلُّ على زيادةٍ في المعنى وهذا في أصل اللغة، فسوف غير السين فقط - س - سأفعل كذا غير سوف أفعل كذا ولا شكّ في ذلك، مثلاً: كتب غير إكتَتَبَ.. فكتب أي كتب رسالة، واكتتب أي إتّخذ الكتابة مهنةً له.

بدأ الله الخلق.. أي خلقهم وأوجدهم، فلانٌ لا يبدي ولا يُعيد أي ليست له حيلة، لا يفعل شيئاً باديء ذي بدء، وليس بإمكانه أن يُعيده، إذاً ضعيف ولا حيلةَ له، قاصر.

وفي سورة سبأ قال تعالى:

(قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ (٤٩))

(سورة سبأ)

الباطل ضعيف، الباطل زهوق وقد قال تعالى:

(وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً (٨١))

(سورة الإسراء)

والله عزّ وجلّ عندما قال:

(إِنّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقا)

زهوق على وزن فعول أي شديد الزهوق، وصيغة المبالغة دائماً في اللغة تعني شيئين، تعني الكمّ وتعني الكيف، أي أنّ أكبر باطل زهوق، وأكثر باطل زهوق، فلو كان هناك مليون باطل، وبالطبع هناك باطل إعتقادي، وباطل فكري، وباطل سلوكي، أي شيء خلاف المنهج فقد قال الله تعالى:

(وَأَنّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتّبِعُوهُ وَلَا تَتّبِعُوا السّبُلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصّاكُمْ بِهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ (١٥٣))

(سورة الأنعام)

فالحق واحد لا يتكرر، الحقُّ واحد كما أنّ بين نقتطين يمرُّ مستقيم واحد فقط، ولو مررنا مستقيم آخر لانطبق على الأول، فبين نقتطين يمرُّ مستقيم واحد، والحق كذلك واحد، فالحقُّ لا يتعدد، أما الباطل فإنه يتعدد.. فبين نقتطين يمرُّ ألف خط منحن وألف خط منكسر، فالباطل يتعدد أما الحقّ لا يتعدد.

والآية الكريمة التي وردت في سورة البقرة أيضا تؤدي المعنى ذاته قال تعالى:

(اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧))

(سورة البقرة)

الظلمات جمع.. والنور مفرد، فالحقُّ واحد، فهذا الذي لا يُبدي ولا يُعيد أي ضعيفاً، مفتقراً، ولا حيلة له، لكنّ الله سبحانه وتعالى يبدي ويعيد.

الحقيقة كلمة يُبدي.. تشير إلى معنى المبدع.. فالإنسان حينما يخترع شيئاً لا يمكن إلا وأن يكون لهذا الاختراع أصل، حتى إنّ الذي اخترع العجلة وكما قال بعضهم لا بدّ أنّه رأى شجرة تتدحرج على الأرض فاستنبط من الشجرة العجلة، والذي اخترع الغوّاصة رأى السمكة في أعماق البحر، فعلى مستوى البشر ليس هناك إنسان اخترع شيئاً وأبدع شيئاً إلا على مثالٍ سابق، حتى أنّ الكتّاب الخياليين إذا أرادوا أن يصوّروا قصّة خياليّة في العالم الآخر، يصوّرون أشخاصًا وهؤلاء الأشخاص على مثالٍ سابق، فيصوّرونه له رأس وله يدان وله رجلان وله جذع، ولكن مع بعض التعديلات.

والمهندسون الذين يصممون الأبنية هناك عدّة أشكال في ذهنه، فأول شكل، والثاني والثالث والرابع والخامس وبعد السادس مثلا تجده يعيد الشكل الأول، فالقدرة على إحداث شيء من غير مثال سابق عند الإنسان محدودة للغاية، فلا بدّ من مثال سابق، لكن ربنا عزّ وجلّ عندما قال عن نفسه إنّه هو المبدع أي خلق الكون على غير مثالٍ سابق.

فمثلاً فكرة النبات.. فأنت إذا أردت أن تصنع شيئاً يتكرر فكيف؟ تقول: نكثِرهم. لكن ربنا سبحانه وتعالى جعل بداخل الثمرة بذرة، وهذه البذرة تزرع وتنتج شجرة، والشجرة تثمر هذه الثمار، فمبدأ البذور في الكون هذا إبداع وهو على غير مثالٍ سابق، مبدأ الألوان كذلك.. فهناك ألوان والعين تحتاج إلى نور فالله خلق كل شيء على غير مثالٍ سابق.

فمعنى كلمة المبدئ فيها معنى المبدع، فالإنسان له رأس وجذع وله أطراف، وله يدان ورجلان، وهو يرى ويسمع، وينطق ويتحرّك، وهو ينام ويجوع ويعطش، من قال إنّ الإنسان بحاجة إلى أن يشرب ؟؟ الله عزّ وجلّ.. من صمم هذا الإنسان على أنّه يحتاج إلى أن يشرب ؟ من خلق الماء ؟ فالإنسان مصمم على أن يشرب أوجد الله ماء، فهو مصمم كذلك على أن يتنفّس وهناك هواء.

بل إنّ الجنين في بطن أمّه له رئتان وليس بحاجةٍ إليهما إطلاقاً لأنّ دمه يتجدد عن طريق الأم، فهذا الأوكسجين يأخذه من دم أمّه عن طريق المشيمة، فمعنى ذلك أنّ هناك خالقًا مبدعًا خلق له الرئتين ليستعملهما حينما يولد.

من صمم الكون على أنّه كُرات ؟ فالكرة شكل هندسي له خصائص، ومن صمم الكون على أنّه يتحرّك؟ هذه الحركات المغلقة، من صمم قوى الجاذبيّة ؟ من صمم النور والظلام ؟ من صمم أنّ الحياة أساسها

الماء ؟ فهذا كلّه مبدع على غير مثالٍ سابق.

نحن ألفنا الكون، ألفنا القوانين، ألفنا الخصائص، فإذا أردنا أن نتحرّك نتحرّك وفق مثلٍ سابق فقد قال الله تعالى:

(ثُمّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آَخَرَ فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

(سورة المؤمنون)

الله عزّ وجلّ سمّى الإنسان الذي يصنع شيئاً سمّاه مجازاً خالقاً وسمح لذاته العليّة أن يوازنها مع مخلوقاته فقال:

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

لكن بين خلق الإنسان وخلق الله بونٌ شاسع.

الإنسان يصنع من كلّ شيءٍ شيئاً، لكنّ الله سبحانه وتعالى يصنع كلّ شيءٍ من لا شيء، فقال تعالى:

(فَتَبَارَكَ اللّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

وربُّنا عزّ وجلّ سمح لذاته العليّة أن يوازنها مع مخلوقاته فقال تعالى:

(ثُمّ رُدُّوا إِلَى اللّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢))

(سورة الأنعام)

الآن هناك حاسوباً، وهذا الحاسوب الذي اخترعه الإنسان شيء مذهل، يقرأ أربعمائة وخمسين مليون حرفاً في الثانية الواحدة، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

أي أنّه ليس هناك زمناً فهو القائل سبحانه:

(إِنّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢))

(سورة يس)

فهنا أردت أن أقف قليلاً عند كلمة مبدئ.. أي مبدع، وأضيف على هذا المعنى معنىً آخر وهو أنّ الله سبحانه وتعالى لكرامة الإنسان عليه هو مبدع وصمم الكون بطريقةٍ يستطيع الإنسان بها أن يبدع. فمثلاً هناك نباتات مقزّمة فهذا إبداع، وكذلك شجرة فاكهة ضخمة تقزّم وتصبح في حجم صغير، وكثيراً من النباتات الآن مثل الليمون والبرتقال والرمان توضع في أُصص صغيرة جداً فهذا إبداع، ولكن ربّنا عزّ وجلّ صمم الكون بطريقةٍ إذا أراد الإنسان أن يبدع، إنه يُبدع فيه.

اللغة مثلاً مؤلّفةٌ من حروف معدودة، ولكن من هذه الحروف المعدودة يمكنك أن تبدع كلمات غير محدودة، فأصبح المبدئ هو المبدع، والمبدع هو الذي يوجد الشيء على غير مثالٍ سابق، فليس هناك مثال سابق للمبدع سبحانه.

فالإنسان يمشي وله يدان.. فهذا الشكل شيء رائع جداً، لكن هناك أكثر من ستة آلاف مليون إنسان، فلا يوجد إنسان مثل الآخر.. فالله يبدع، فبصمة الإبهام إبداع، وقُزحيّة العين إبداع، وكيمياء الدم إبداع، ونبرة الصوت إبداع، ورائحة الجلد إبداع، فالإنسان متميّز برائحة جلده، ونبرة صوته، وقُزحيّة عينه، وبصمة إبهامه ينفرد بها، والآن اكتشف العلماء الزمر النسيجيّة وهي غير الزمر الدمويّة، فأثناء نقل الأعضاء فلا بدّ من حدٍ أدنى من التوافق النسيجي وإلا هذا العضو المزروع يلفظ ولا يقبله الجسم، فكم زمرة نسيجيّة مكتشفة إلى الآن ؟ إثنان ونصف مليار زمرة نسيجيّة أي ليس هناك سوى شخص آخر في هذا العالم يشبهك من خيث الزمرة النسيجيّة.

فأنت عندك زمرة نسيجيّة، وزمرة دمويّة، وبصمة إبهام، وكيمياء دم، ورائحة جلد، ونبرة صوت وقُزحيّة عين تتميّز بها عمّن سواك، فالله عزّ وجلّ اسمه الفرد، ومن تفضّله على هذا الإنسان أن جعله فرداً لا مثيل له، فلك مكانتك عند الله عزّ وجلّ.

فالمبدي.. هو المبدع، أي خلق خلقاً على غير مثالٍ سابق.. كان الله ولم يكن معه شيء، ثم خلق الأشياء.

لو قلنا لك: صمم لنا ورقة شجر. فإذا قمت بإجراء المحاولة فسترسم ورقة دائريّة، أو ورقة مثلّثة، أو مستطيله، أو ورقة مسننه، أو ورقة نحيلة وطويلة، أو ورقة قصيرة وثخينه، عدّة أمثلة ترسمها، ولكنّك لو دخلت لحديقة وراقبت فقط أشكال أوراق النباتات تجد أعداداً لا تُحصى من أشكال أوراق النباتات، ودقق نظرك في الأزهار فهي كذلك لا تُحصى.

دخلت إلى أحد المعارض التي خصصت لعرض الفراشات بمصر وعلى ما أذكر فقد ضمّ المعرض أربع قاعات علقت على جدرانها كلِها فراشات وكل واحدة غير الأخرى، وكل واحدة أجمل من الثانية شيء لا يصدّق، أشكال متباينة، وألوان مختلفة فهو سبحانه مبدع على غير مثالٍ سابق.

ذكرت من قبل في أحد الأبحاث السابقة: أنّ القمح أكثر من أربعة آلاف وخمسمائة نوعاً، فصحح لي أخ كريم هذه المعلومة وقال لي: بل إثنى عشر ألف نوع من القمح. فالله مبدع والأنواع لا تُعدُ ولا تُحصى.

أيها القارىء الكريم... هذا الكون معرض لأسماء الله الحُسنى، فكلّما زدّت هذا الكون نظراً وتأمُّلاً تعرّفت إلى الله أكثر فأكثر، إنّ هذا الكون بابٌ واسع تدخل منه على الله، وطريقٌ قصير تصل به إليه.

فالمعنى الأول.. المبدئ.. المبدع الذي خلق فأبدع على غير مثالٍ سابق، أما الإنسان.. فقد قرأت موسوعة عن الطيور ففي المقدمة كتب المؤلِف قائلاً: إنّ أرقى طائرة صنعها الإنسان حتى الآن لا

ترقى إلى مستوى الطائر. فأحد أنواع الطيور يطير ستّة وثمانين ساعة طيران بلا توقّف، ونحن إذا طرنا بطائرة سبع عشرة ساعة فوق مياه المحيط الأطلسي نقول: هذا شيء يفوق عجائب الدنيا السبع.

وبعض الطيور تقطع سبعة عشر ألف كيلومتر ولا تضلُّ الطريق بلا بوصلة وبدون الاستعانة بمراكز البث المنتشرة في أنحاء المعمورة، فالطائرة تعرف موقعها من خلال هذه المراكز وبالاتصال المستمر مع هذه المحطات الأرضيّة، ويعرف منها حوادث الطائرات بالساعة والدقيقة ومكان الوقوع إذا انقطع اتصال الطائرة بالأرض، ولكن هذا الطائر الذي يطير من شمال الكرة الأرضيّة إلى جنوبها، من شمال بريطانيا إلى جنوب أفريقيا، وحينما يعود لو أنّه أخطأ في زاوية العودة بمقدار درجة واحدة لهبط في هولندا، ولو أخطأ زاوية أخرى لجاء في ألمانيا.

والأغرب من ذلك هذه الطيور التي تبني أعشاشها.. تُعشعش.. في البيوت والتي تهاجر إلى الجنوب ويعود، كطائر مثلاً وصل إلى جنوب أفريقيا وسيعود، وهو مثلاً في دمشق في بيت من بيوت الصالحيّة، لو أخطأ نحو اليسار درجة واحدة لجاء بمصر، ولو أخطأ نحو اليمين درجة لجاء بالعراق.. لكنه إذا عاد فإنّه يصل إلى عُشّه الذي بناه في دمشق، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يهدي.

أيها المؤمن... كلّما تأمّلت في خلق السماوات والأرض ذابت نفسك خشوعاً لله عزّ وجلّ وتعظيماً له.

وقال بعضهم: **" المبدئ هو الذي إبتدى العباد بالفيض والمدد، وهو نِعم السند ".**

أحياناً تقدم لك هديّة إبتداءً فتنتبه فتردُّ عليها، ولكن لمن الفضل؟ الفضل لمن بدأ.. لأنّ ردُّ الفعل أقلُّ من الفعل.. فربنا عزّ وجلّ أنعم عليك بنعمة الوجود، فأنت موجود، وبدأ فضله عليك بنعمة الإمداد ونعمة الإرشاد والهُدى، وهو قد بدأك بالفضل فقد قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٥٤))

(سورة المائدة)

لم يقل: يحبونه ويحبُّهم بل قال:

(يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ)

حينما خلق الإنسان ولم يكن من قبل شيئاً مذكورا بدأه بالفضل وقد قال تعالى:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠))

(سورة الرحمن)

إلى متى أنت باللذات مشغولُ   وأنت عن كلُّ ما قدّمت مسؤولُ

***

أيضاً المبدئ.. المُظهر. قال أظهر جميع الخلق من العدم إلى الوجود.

فالمعنى الأول للمبدئ.. هو المبدع. أي خلق على غير مثالٍ سابق.

المعنى الثاني للمبدئ.. هو الذي بدأك بالإحسان فأوجدك، المعنى الثالث.. هو الذي أظهرك، فقد كنت في حيّز العدم أي عدماً فأظهرك.

وقال بعض العارفين بالله: **" المبدي هو الذي يقذف في قلب عبده النور فيشرق "**، أي كان إنساناً خاملاً تافهاً بعيداً، ضائع شارد ضال، فلمّا ألقى في قلبه النور إنتبه وصار شيئاً مذكورا، فالله عزّ وجلّ يرفع الإنسان ويسمو به، ألم يقل في كتابه الكريم:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤))

(سورة الشرح)

كان إنساناً خاملاً.. فأحياناً تجلس مع إنسان تجد همومه سخيفة جداً، وأحياناً أخرى تجالس إنسانًا آخر فتدهش، فهناك أشخاص اتصالهم بالله ومعرفتهم باليوم الآخر وسعيهم إلى الدار الآخرة وبذلهم وتضحياتهم جعلت من شخصيّتهم شخصيّاتٍ فذّة.

فهذا الصحابي الجليل سيّدنا ربيعة مثّل ناطق فعندما خدم سيّدنا رسول الله وقد انتهى وقت الخدمة فقد أذّن العشاء وصلّى النبي وآوى إلى فراشه ولكنّ ربيعة لم يستطع أن يغادر بيت النبي ونام على عتبة الباب من شدّة تعلّقه به.

والحقيقة المؤمن كما قيل: **" أولياءُ أمّتي إذا رؤوا ذكر الله بهم "** فهناك سر، فهذا الاتصال بالله عزّ وجلّ، هذا النور الذي يسري إلى قلب المؤمن يجعله كالكوكب الدُريّ مشعاً من حوله، فسبحان الله المؤمن له هيبته وشخصيّته ووقاره، وله الأنوار من حوله، فكّل إنسان التقى بمؤمن صادق يسري في كيانه ما يشبه التيار الكربائي، ويشعر برعشة، ووجل.

فقد دخل على النبي الكريم رجل فأصابته رعدة، فقال له: هوّن عليك إنما أنا ابن إمرأةٍ من قريش كانت تأكل القديد بمكّة.

الظاهر بيبرس وهو بطل من الأبطال ردّ التتار ومع ذلك قال: والله ما استقرّ مُلكي حتى مات العزُّ بن عبد السلام، والعزُّ كان أحد العلماء في عصره، وقد كان له من قوّة الشخصيّة والهيبة وقوّة التاثير ما دعى الظاهر بيبرس إلا أن يقول هذا القول.

الحسن البصري عندما ألقى كلمة في جمع تنفيذاً لوصيّة النّبي ولأداء الأمانة، هذه الكلمة أزعجت الحجاج، فقال لجلسائه: يا جبناء، والله لأروينّكم من دمه، وأمر بقتله - بكلّ هذه البساطة -، طلب السياف، مدّ النطعُ، ذهب الحاجبُ وأتى بالحسن ليقتل، فلما دخل الحسن البصري على الحجاج حرّك شفتيه فإذا بالحجّاج يقف له ويستقبله ويدنيه حتى إنه أجلسه إلى جنبه على السرير، وقال له: يا أبا سعيد

أنت خيرُ العلماء، أنت سيّد العلماء يا أبا سعيد، وفيما تروي القصّة عطّره واستفتاه، ثم شيّعه إلى باب قصره، ولكن السيّاف دهش من هذا التصرُّف فقد أحضر ليقتل الحسن البصري، وحاجب الحجاج دهش كذلك فتبعه وقال له: **يا أبا سعيد ماذا قلت لربّك**، جيء بك بغير الذي فُعل فيك ؟ قال: والله قلت لربّي.. **يا ملاذي عند كُربتي، يا مؤنسي في وحشتي، إجعل نقمته عليّ برداً وسلاماً كما جعلت النار برداً وسلاماً على إبراهيم.**

فالمؤمن له هيبة كبيرةً جداً من اتصاله بالله.

وقد قيل للحسن البصري: بما نِلت هذا المقام ؟ قال: **باستغنائي عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمي.**

فعندما يكون العالم مريض النفس فيستغنى الناس عن علمه ويحتاجهم هو لدنياه.. تسقطُ مكانته، وتسقط قيمته.. فما نال الحسن البصري هذا المقام إلا بإستغنائه عن دنيا الناس وحاجتهم إلى علمه.

فمن بعض معاني كلمة مُبدي أنّ الله يُلقي على هذا المؤمن هيبةً، ويلقي في قلبه نوراً، مما يجعله كريماً عزيزاً.

أما إسم المعيد.. ففي اللغة: العَوْدُ هو الرجوع، كالعودة.. ومن كلمات السلف الصالح اللهمّ: ارزقنا إلى بيتك معاداً وعودةً، والعَوْدُ.. هو الرجوع إلى الشيء بعد الإنصراف عنه، والمُعيدُ من الرجال العالم بالأمور. ففي الجامعة عندنا مصطلح إسمه المُعيد، وقد كان الطالب المتفوّق يُعيد الدرس على زملائه، فلتفوّقه إستوعب الدرس، فإذا كان هناك طالب ضعيف فيستمع من المعيد إلى الدرس، وهو يُعيد الدرس على قُرنائه، فالمعيد هو العالم بالأمور.

والعائدة هي المعروف.. اللهمّ لا تحرمنا عوائد فضلك، فالعائد هو المعروف أي يعود نفعه على من فعله، فإذا فعل إنسان معروفاً فيعود عليه الخير.. فالعود هو المعروف لأنّ الإنسان إذا فعل المعروف عاد عليه الخير، والعائدة هي المعروف والصلة.

والمُعاد.. الآخرة، ففي الدعاء الشريف:

((اللهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمةُ أمرنا، وأصلح لنا دُنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها معادُنا))

فالمُعيد هو الذي يرجع بعد أن إنصرف عن الشيء.. والمُعيد هو العالم بالأمور، والعائدة المعروف لأنّه يعود على صاحبه بالخير، والمعاد هو الدار الآخرة، فقد قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَى وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٨٥))

(سورة القصص)

(لَرَادُّكَ إِلَى مَعَادٍ)

أي سوف يرجع بك أو يعيدك، وقد قال تعالى:

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى (٥٥))

(سورة طه)

أما المُعيدُ في صفة الله تعالى قال: **" هو الذي يُعيد الخلق بعد الحياة إلى الممات ".**

كلُّ الناس هلكى، كلُّ من عليها فان، كلُّ شيءٍ هالك إلا وجهه، فالإنسان مهما علا لابدّ من أن يعود إلى التراب، لا بدّ من دخول القبر، الليل مهما طال فلا بدّ من طلوع الفجر، والعمرُ مهما طال فلا بدّ من نزول القبر.

فالمُعيد هو الذي يُعيدنا إلى الموت بعد أن أحيانا فالموت نهاية كلّ حي، فالموت يأتي فجأةً والقبر صندوق العمل، هذا هو النهاية والمصير.

قال العلماء: **" ثم يُعيدهم بعد الموت إلى الحياة ":**

(يَقُولُ يَالَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي)

فهو ينقُلك من الحياة إلى الموت، ومن الموت إلى الحياة، لو كان الموت نهاية كلّ حي وهو فناء وأنتهى أمر الإنسان بعده لكانت القضيّة إذاً سهلة جداً، ولكن الموت بداية حياة فقد قال تعالى:

(يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي (٢٤) فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ (٢٥) وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ (٢٦))

(سورة الفجر)

قال العلماء أيضًا: المُعيد هو الذي يُعيد الخلق للحساب.. فقد قال تعالى:

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦))

(سورة الغاشية)

هناك عودة، وهناك سؤال، ومحاسبة، ودقّة بالغة وعرض للأعمال، والمعيد هو الذي يُجازي كلّ مخلوقٍ بعمله وقوله، ويُحاسبه على نعمه وطوله.

ورأي الإمام الرازي في هذا الموضوع **" أنّ المعيد هو الذي يُعيدُ الأشياء بأعيانها "**، فهذا الجسم الذي فني إلى ذرّات، فالذرّات نفسها تجتمع ويُعاد خلقها من جديد، فلو أنّ الإنسان أُحرق كما في الهند وألقي رماده في الآفاق، فهذه الذرّات يُعيده الله سبحانه وتعالى، لو أنّه أُلقي في البحر، أو لو أنه احترق في الجو، فذرّات الإنسان التي خلقها الله يُعيدها هي هي، وقد إستنبط الإمام الرازي هذا من قوله تعالى:

(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩))

(سورة يس)

فالذرّات نفسها يُعيد خلقها.. وقد قال تعالى:

(وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١))

(سورة فصلت)

معنى ذلك أنها نفس الجلود.

(لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ)

فإذا إرتكب الإنسان معاصي بأعضائه فهذه الأعضاء نفسها تجتمع ويُعاد خلق الإنسان منها ثانيةً وتشهد عليه.

يروى أنّ سيّدنا داوود كان يبكي فأوحى الله تعالى إليه قال: **لم تبكي يا داوود ؟! إن كان بكاؤك خوفاً من النار فقد أمّنتك، وإن كان رجاء الجنّة فقد أعطيتك، وإن كان لحديث الخصم فقد أرضيتك**، فزاد داوود بالبكاء وقال: **إنما أبكي لما فاتني من صفاء ذلك الوقت الذي ولّى، فاردده عليّ**. فقال له ربُّه جلّ جلاله: **هيهات يا داوود لا سبيل إلى ردِّ ذلك الوقت.**

فالوقت لا يعود.. الدنيا ساعة إجعلها طاعة، فمستحيل أن تستعيد الوقت، فالوقت إذا مضى لا يستعاد، لذلك ما مضى فات والمؤمّل غيب ولك الساعة التي أنت فيها.

أيُّها القارىء الكريم... من أدب المؤمن مع إسم المُعيد أن يّكثر من ترداد هذا الاسم كي يتذكّر العودة إلى الله عزّ وجلّ، فهناك عودة إلى الله..

أحد الأشخاص إتّفق مع شخص آخر على أن يقرضه ثلاثمائة ألف ويُسجّل له بستاناً جميلاً جداً كرهن، فلما لم يستطع المستقرض أن يرُدّ القرض، قال له الآخر: لا كلُّ إنسان معه حقّه، وكان ثمن البستان مليوناً. فصاحب هذا البستان تألّم ألماً شديداً لدرجة أنّه أصيب بأزمة قلبيّة وشارف على الموت، فأوصى ابنه قائلاً: يا بني إنِّي إن مِت سِرّ بالجنازة أمام هذا الذي اغتصب مني البستان وأوقف الجنازة أمام دكّانه، وأدخل إليه وأعطه هذه الرسالة، وبعد موت الرجل وكان بيته بطرف المدينة فانتقلت الجنازة للطرف الآخر وسارت إلى جانب دُكّان المغتصب، وأوقف ابنه الجنازة أمام الناس ودخل إلى هذا المغتصب وقال: هذه الرسالة من هذا الميّت، قبل أن يموت كتبها لك. ففتحها فقرأ ما كتبه المتوفّى فيها قائلاً: إنني ذاهبٌ إلى الله، فإذا كنت بطلاً فلا تأتي إلينا، سوف أُقاضيك هناك.

إذّا معنى المُعيد أننا لا بدّ من أن نعود إلى الله وسوف نُحاسب، لذلك **الغنى والفقر بعد العرض على الله.**

(إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ)

وقد قال تعالى:

(فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ (٧) وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ (٨))

(سورة الزلزلة)

وللمزيد من البيان... المُبدئ، أقول: إنّ الإنسان إذا عرف بدايته من ماءٍ مهين، وأنّه خرج من عورةٍ ودخل في عورة ثم خرج من عورة، هذه هي البدية، ثم بعد هذا الخلق سوف يُعيده الله إلى الموت، وبعد الموت يُعيده الله إلى الحياة، فالبدية أي أصل خلق الإنسان الأول من تراب، وأصل خلقه بالذّات من ماء مهين، والنهاية موت وبعد الموت هناك حياة أبديّة، فأدب المؤمن مع هذين الاسمين المبدي المعيد أن يذكر بدايته ونهايته.

لذلك.. طوبى لمن ذكر المُبتدى والمنتهى.. ذكر المبتدى أي أنّه كان نقطة من ماء مهين ثم صار طفلاً ضعيفاً ثم كبُر واشتدّ عوده ثم بدأ يقول: أنا وأنا، ثم يعود إلى ما كان عليه من الضعف والجهل، ثم يطويه الردى ثم يُعيده الله تارةً أُخرى ليحاسبه على كلّ أعماله.. فالله يبدأ الخلق ثم يعيده لتجزى كلُ نفسٍ بما تسعى فقد قال تعالى:

(اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١))

(سورة الروم)

(إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى (١٥))

(سورة طه)

فالله عزّ وجلّ هو مبدي والمعيد، بدأك بالإحسان إليك حيًا وأعادك إلى ما كنت عليه من العدم عند الموت، ثم أعادك من العدم إلى الحياة لتلقى جزاء عملك.

٧٠- اسم الله الحميد :

مع الاسم السبعين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو الحميد.. هذا الاسم ورد في أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم المتعلّقة بأسماء الله الحُسنى.

وبعد فهذا الاسم مشتقٌ من مادة الحمد، أما كلمة مادة، هذه كلمة معجمية.. أي المعجم مؤلّف من مواد، فالحمد: حاءٌ، وميمٌ، ودالٌ هذه مادة الحمد، فيها حَمِدَ، ويحْمَدُ، وحامد، ومحمود، الحمد، الحميد، هذه كلها مشتقات.. فكلمة الحميد مشتقةٌ من مادة الحمد، والحمدُ نقيض الذم، تحمده أو تذمُّه، الحمد متعلق بالكمال، والذم متعلق بالنقص، أنت بفطرتك تحمد الكامل وتذمُّ الناقص، فموطن الحمد الكمال وموطن الذم النقص فلأنّ الله سبحانه وتعالى كاملٌ كمالاً مطلقاً فهو يحمد ولأن الإنسان المنحرف منحرفٌ وناقصٌ فهو يذمُّ، فالحمد نقيض الذم، وعلينا أن لا ننسى أن القرآن الكريم كلُّه مجموعٌ في الفاتحة، وأن مطلع الفاتحة:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢))

(سورة الفاتحة)

إلا أن الحمد لله ربَ العالمين.. الحمد في هذه الآية مفروغٌ منه ولكن بعض الناس ضلّت بهم السّبل فجعلوا الحمد لغير الله تعالى، وهذا بيان ذلك:

إنّ الإنسان يشرب كأس الماء، ويأكل الطعام، ويأوي إلى بيت، ويلتقي مع أهل بيته، هذه نعمٌ لا يختلف فيها اثنان على وجه الأرض فالجائع يأكل فيشعر أن الطعام نعمة، والعطشان يشرب الماء القراح البارد فيرتوي ويشعر أن الماء نعمة، والمشرّد إذا أوى إلى بيته يشعر أن المأوى نعمة، فهذه النعم لا يختلف عليها اثنان على وجه الأرض ولكن أناسًا عزو هذه النعم إلى البقر فعبدوها من دون الله، وأناسًا عزوها إلى الشمس، لكنّ الله سبحانه وتعالى هو صاحب الحمد: وإنّ الحمدُ هو الشيء الثابت، والقاسم المشترك، والشيء الذي لا يختلف عليه اثنان..

(الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

المنعم هو الله، فالحمد نقيض الذم، وقيل الحمد والشكر لا فرق بينهما، والأصح كما يقول علماء اللغة: أنّ الاختلاف في المبنى، دليل الاختلاف في المعنى.. الشكر غير الحمد.

قيل: الفرق بين المعنييّن، أن الحمد يكونُ عن يدٍ وعن غير يد، أما الشكرُ فلا يكون إلا عن يد.. ما معنى ذلك ؟ أي إذا إنسان أسدى إليك معروفاً، أنت تشكره، أما إذا أسدى إنسان إلى إنسانٍ معروفاً فأنت بفطرتك العالية تقدّرُ هذا المعروف، فأنت تحمده، مع أن معروفه لم يصل إليك.

فنحنُ نحمدُ صاحب اليد، صاحب الإحسان، نحمدُ الكامل، أصابنا كماله أو لم يصبنا، ونشكرُ الذي أكرمنا، فالشكر متعلقٌ بنعمةٍ وصلت إليك، أما الحمد متعلقٌ بالإنسان الكامل وصلت إليك نِعَمُه أو لم

تصل.

والمعنى الثالث.. قيل: الحمد أعمُ من الشكر.. الحمد الشعور المتغلغل في أعماق النفس بالإمتنان.

حدثني رجل مُحسن، قال: طفل صغير أصيب بحادث وهو فقير وهذا المُحسن أجرى له سبع عشرة عمليةً جراحيّة إلى أن استطاع أن يقف على قدميه، فهذا الطفل الصغير عرف أن هذا الإنسان هو المحسن، فعبّر عن شكره بشكلٍ لا يوصف لهذا المُحسن وهو طفلٌ صغير، فالأجدر بك أيها الإنسان أن تعرف قدر الله الذي أحسن إليك كل الإحسان.

وإني أرجو أن أكون صادقًا فيما أقول: أحياناً تشعر أن كل خلية في جسمك تحمد الله عزّ وجلّ، بل أن كل قطرةٍ في دمك تحمدُ الله عزّ وجلّ، تحمده على أن أوجدك، لو لم يوجدْك هل لك عنده شيء ؟ أوجدك، وأمدك، وهداك إليه، وأراد أن يسعدك في جنةٍ إلى أبدِ الآبدين لذلك آخرُ دعواهم أن الحمد لله رب العالمين.. كما قال تعالى:

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمّ وَتَحِيّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠))

(سورة يونس)

إن لم يكن الحمدُ متغلغلاً في أعماقِ أعماقِ نفسك، وإن لم يلهج لسانُك بالثناء على الله عزّ وجلّ فأنت لست مؤمناً، لأنّك تقرأُ الفاتحة في اليوم أعتقد زهاء مئة مرّة، وفي كل مرة تقول الحمد لله ربّ العالمين، الحمد لله ربّ العالمين، فعندما يقرأ الإنسان الفاتحة ويستشعر هذه النعم، إذ أوجدك، وهداك إليه.

أي عندما أنت تقرأ أنّ أناساً في بعض البلاد في شرق آسيا يعبدون الجرذان، وأنت تعبد الله الذي خلق الكون، وزوّدك بمنهج، واضح، والطريق تعرف نهايته، تعرف ماذا بعد الموت، الله جلّ جلاله خلقك ليسعدك، فالحمد من ألزم لوازم المؤمن.. لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ الرّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ أَلا تَسْأَلُونِي مِمّ أَضْحَكُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللّهِ وَمِمّ تَضْحَكُ قَالَ عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنّ أَمْرَهُ كُلّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ))

أحياناً الإنسان يشربُ كأسَ ماءٍ بارد.. كان عليه الصلاة والسلام تعظمُ عنده النعمة مهما دقت.. ولا بد من قول الحمد لله، طريق سالك، والكليتان تعملان بانتظام، والماء موجود فاعتبروا يا أولي الأبصار.

أقام إنسان بإحدى دول الخليج لفترة طويلة، وهي قصة قديمة، أراد أن يعود إلى بلده أي إلى سورية لم يكن الطريق كما هو الآن معبّد فضلّ الطريقَ في الصحراء، ووجدوه على بعد خمسة كيلو مترات، وقد مزّق بأظافره جلد وجهه من شدة العطش، ووجدوا زوجته وأولاده في المركبةِ ميتين.

قطرة من الماء تعدل الحياة فأنت تشرب الماء القراح، فإذا الإنسان شرب كأس من الماء وقال: ولا بدّ من قول الحمد لله رب العالمين هذا إيمان.. كان سيدنا عمر مهما أكل حمد الله.. مرةً جاءه رسول من أذربيجان فأراد الرسول أن يتنعّم بتناول طعام الغداء عند سيدنا عمر - وقد كان خيّره - أتأكل مع فقراء المسلمين أم تأكلُ في بيتي ؟ قال له: في بيتك. فليست هناك نسبة في نظر الضيف بين طعام عمر وطعام فقراء المسلمين ! فإذا في بيته الملح والخبز فقط، فقراء المسلمين يأكلون اللحم الطيّب، قال: يا أمّ كلثوم ماذا عندكِ من طعام ؟ قالت: والله ما عندنا إلا خبزٌ وملح، قال: فأكل عمر وضيفه هذا الطعام وقال: الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا.

أحياناً إنسان يشكو لي همه، أقول له: هل لك مأوى تأوي إليه ؟ فيجيب: طبعاً، هل عندك قوتُ يومك ؟ فقال: طبعاً فأقول له: أنت إذاً ملك، لست مضطراً أن تغسل كليتيك، فيقول: هذا صحيح لست مضطراً أن تغيّر دساماتِ قلبك في بريطانيا وتدفع أجرة عملية مليون ليرة، فالسعادة عندما يكون الإنسان في صحة جيدة وعنده قوت يومه.

لذلك ذات مرة سأل ملك وزيره وكان ملكًا جبارًا قال له: من الملك ؟ فقال الوزير أنت. فقال له الملك: لا.. الملك هو رجلٌ لا يعرفنا ولا نعرفه له بيتٌ يؤويه، وزوجة ترضيه، ودخلٌ يكفيه. هذا هو الملك. النبيّ قال:

((عَنْ سَلَمَةَ بْنِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مِحْصَنٍ الْأَنْصَارِيِّ عَنْ أَبِيهِ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

استيقظت فوجدت أنّ أجهزة جسمك سليمة، قمت من فراشك، سرت إلى الوضوء توضأت وصليت إذاً أنت ملك، الله عزّ وجلّ سمح لك ان تعيش يوماً جديداً، عافاك في بدنك، أذن لك أن تذكره وتشكره. أحياناً تجد أثناء آذان الفجر إنسان يغسل سيارته في الساحات العامة، فهل هذا الوقت وقت غسيل السيارات !! أم وقت ذكر لله عزّ وجلّ ؟ فإنه لا يعرف الله، سيارته وغسيلها أهم عنده من أداء الصلاة.

لذلك قيل: ليس الولي الذي يطير في الهواء ولا الذي يمشي على وجه الماء، ولكنّ الوليّ كلّ الولي الذي تجده عند الحلال والحرام.. أن يجدكَ حيثُ أمرك، وأن يفقدك حيثُ نهاك.

فالحمد أعمٌ من الشكر.. فالحمد يعني أنّ كيانك، ذرّات جسمك، خلاياك، قطرات دمائك كلُّها عليها أن تشكر الله سبحانه وتعالى:

وجدناك مضطّراً فقلنا لك: أدعُنا نُجبك..فهل أنت حقاً دعوتنا ؟

دعوناك للخيرات أعرضّت نائياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا؟

فيا خجلي منه إذا هو قال لي : أيا عبدنا ما قرأت كتابنا ؟

أما تستحي منّا ويكفيك ما جرى؟ أما تختشي من عُتبنا يوم جمعنا ؟

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنا

إلى متى أنت باللذات مشغولُ.. وأنت عن كلّ ما قدّمت مسؤولُ

إلى متى ؟ ؟ ؟

***

الحمد أيها القارىء الكريم... يجب أن يدخل في كيانك كلِّه، يجب أن يتغلغل في ذرّات جسمك، في خلاياك، في قطرات دمك، لأن وجودك نعمة، وإمدادك نعمة، وهدايتك نعمة، وأنت نعمةٌ من نعم الله عزّ وجلّ، وقد قال الله تعالى:

(هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ (٦٠))

(سورة الرحمن)

حتى عندما يصلي الإنسان أيّة فريضة من الصلاة فليحمد الله أن وفّقه لطاعته، فهذه نعمة. أجل، الهداية نعمة، يقول الله عزّ وجلّ:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآَمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧))

(سورة النساء)

أي حينما تؤمن وتشكر، أنت تحقق الهدف من وجودك، لأن هذا الكون مسخرٌ لكَ تسخيرين، تسخيرَ تعريف، وتسخيرَ تكريم، إنك إن آمنت حققت المعرفة، وإنك إن شكرت حققت الشكران.

الحمد أن ترضى عن الله عزّ وجلّ، وقد قال الله تعالى:

(قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩))

(سورة المائدة)

ياربِّ هل أنت راضٍ عني. قال له رجل يمشي خلفه: **هل أنت راضٍ عن الله حتى يرضى عنك ؟** قال له: من أنت يرحمك الله ؟ قال: **أنا محمد بن إدريس الشافعي.** قال: **كيف أرضى عنه وأنا أتمنّى رضاه؟** قال: **إذا كان سرورك بالنقمة كسرورك بالنعمة فقد رضيت عن الله.**

طبعاً أيها القارىء الكريم: مرّت بنا هذه العبارة من قبل... الحزن خلاّق، المصيبة تفتِّق العبقريّات، أما الرخاء والنعيم والطعام والشراب يؤدي إلى الخمول والقعود والجمود، فالإنسان يجب ألا يتألّم من المصيبة، لعلّ المصيبة هي الباعث الحثيث إلى الله عز وجل.

فإنّك لاتكون مؤمناً إلا إذا رأيت أفعال الله كلّها تستحق أن يُحمد عليها، أحياناً يكون الموسم مطيراً، والفواكه رخيصة، والجو لطيف، أحياناً غلاء، أو حر شديد، أو زلزال، أو فيضان، أو براكين، أو يذيق الله بعض الناس بأس بعض، أفعاله كلّها يحمد عليها.

كن عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضى

وأبشر بخيرٍ عاجلٍ.. .. تنسى به ما قد مضى

فلَرُبَ أمرٍ مسخطٍ لك.. ....في عواقبه رضى

ولرُبَ ما ضاق المضيق .. ولرُبَ ما إتسع الفضا

الله يفعل ما يشاء.... ... فلا تكوننّ معترضا

الله عوّدك الجميل... .. فقس على ماقد مضى

****

وبعد: فالحمد.. هو الرضى، والحمد هو الجزاء، والحمد هو قضاء الحق، أن ترضى وأن تجازي وتكافىء وأن تقضي الحق، هذا من معاني الحمد.

والمحْمَدَة.. الخصلة التي يحْمَد عليها الإنسان، وجمع محمدة محامد، والتحميد.. هو حمد الله عزّ وجلّ، أو كثرة الحمد، حمّد، يُحَمِّدُ، تحميداً، محَمِّد، محمد صلى الله عليه وسلم، حَمِدَ فعل ثلاثي، أما حمّد فعل رباعي، مزيد بالتضعيف لقصد المبالغة.

هناك إنسان قد يحمد الله على إحدى النعم، أما إذا حمّده.. يحمدَه على كلّ النعم، فحمّد تفيد المبالغة، حمّد، يُحَمِّدُ، تحميداً، مُحَمِّد اسم فاعل، أما مُحَمَّد النبيّ عليه الصلاة والسلام فهو النبي المحمود.

والتحميدُ.. هو حمدُ الله أو كثرة الحمد، والحَمْدَلَةُ، فلان حَمْدَلَ أي قال: الحمد لله، سَبْحَلَ أي قال: سبحان الله، حَوقَلَ أي قال: لا حول ولا قوةَ إلا بالله، دَمْعَزَ أي قال: آدام الله عزّك، حَيْهَلَ أي قال: حيٌّ على الفلاح، هلّلَ أي قال: لا إله إلا الله، كَبَرَ أي قال: الله أكبر، هذه صيغة النحت في اللغة العربية، الحَمْدَلَةُ هي أن تقول الحمد لله ربِّ العالمين.

وليعلم كلّ مؤمن أنّه... لا بدّ من الإبتلاء، فإن ساق الله لهذا الإنسان مصيبة، وتلقّاها بصبرٍ جميل، وقال: الحمد لله ربّ العالمين، نجح مئة على مئة، والصبر عند الصدمة الأولى، لذلك المؤمن لا سمح الله ولا قدّر لو أنه ساق الله له مصيبة، لمجرد أن الله ساقها له يقول: الحمد لله ربّ العالمين.. نجح.

الإمام الرازي يرى أن معنى الحميد وهو اسم الله وهو اسمٌ من اسماء الله الحُسنى، أن الحميد بمعنى حامد، أي لم يزل سبحانه بثنائهِ على نفسه، أي يحمد نفسه، لماذا يحمد نفسه ؟ طبعاً الإنسان لا يحقُ له أن يحمد نفسه، لأنه ليس له هذه المرتبة، والمؤمن لا يتحدّث عن نفسهِ أبداً لمادا ؟ سيدنا الصديق مرةً أثنى عليه بعض الأشخاص، فدعا دعاء رائعاً، قال: **اللهم أنت أعلم بي من نفسي، وأنا أعلم بنفسي منهم، اللهمّ اجعلني خيراً مما يقولون، واغفر لي مالا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.**

والإنسان المؤمن الصادق لا يمدحُ نفسه أبداً، أي إذا كان فيه كمال، الناس يمدحونه، أما أنت فلتتهم نفسك دائماً كلّما بالغت في اتهامها كنت موفقاً أكثر، لكن الله يمدح نفسه ليعرّفنا بذاته، ولكي نصل إليه،

ولكي نقبل عليه، ولكي نطمع في مغفرته، ولكي نطمع في عطائه، ويمدح نفسه كي نطمع في جنّته، فهناك فرق بين الإنسان الضعيف الحادث الفاني الفقير الجاهل لا ينبغي أن يمدح نفسهُ، ولكن الله حميد بمعنى حامد، يحمدُ نفسه لخلقهِ، لكي يعرفوه يحمد نفسه لخلقه ليقبلوا عليه فيسعدوا بإقبالهم، ويحمد نفسه لخلقه ليتجهوا إليه، ويحمد نفسه لخلقه لينالوا من عطائه.. قال الله تعالى:

(لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآَخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٠))

(سورة النحل)

فمثلا إذا كنت إنسانًا كريمًا جداً، وكنت بمظهر لا يشير إلى غناك، وإنسان فقير يتلوى جوعاً، تجد نفسك مضطراً أن تقول له: أنا معي أطلب ما تشاء فأنا معي. أنت الآن تقول له: أنا معي مال، فهل هدفك أن تفتخر ؟ لا.. بل أنت تقدّم نفسك ليستعين بك، فهذه حالات نادرة.

الإنسان أحياناً يلبس ثيابًا لا تدلُّ على غناه يرى شخصًا يتلوى جوعاً يقول له: أنا معي أطلب ما تشاء معي مبلغ كبير أطلب وسأعطيك فهل هو يفتخر بهذا القول ؟! لا.. بل يعرّف هذا الفقير بأنه قادر على عطائه، فالله عزّ وجلّ.. حميد، أي حامد، يحمد نفسه لخلقه كي يعرفوه، وحميد بمعنى محمود، أي محمودٌ بحمد نفسه وبحمد عباده له، فالله عز وجل محمود، يحمده الخلق كله.

وقال الإمام الغزالي: **" الحميد هو المحمود، والله تعالى هو الحميد بحمده بنفسه أزلاً وبحمد عباده له أبداً، من قبل أن يخلق الخلق حمد ذاته، فلما خلق الخلق حمده خلقه ".**

إذاً هو محمود، فالحميد بمعنى حامد يحمد نفسه لخلقه، والحميد بمعنى محمود.

قال: **" الحميد يرجع هذا الاسم إلى صفات الجلالِ والعلوّ والكمالِ منسوباً إلى الله عزّ وجلّ "**، الله عز وجل له أسماء جلال، وأسماء كمال، وأسماء جمال، وأسماء قهر، فالله عزّ وجلّ جبار، قال تعالى:

(وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨))

(سورة الأنعام)

ومن أسمائه الجميل واللطيف والرحيم، وهناك أسماء جمال، وأسماء جلال، وأسماء قهر.. المتعالي والعزيز والمتكبر، فهذا الإسم اسم الحميد منسوب إلى أسماء صفات الجلال والعلوّ والكمال.

قالوا الحميد له معنى آخر: **" الحميد هو مستوجب الحمد ومستحقه ".**

إذا دعيت إلى وليمة غداء، والطعام نفيس جداً، وعلى المائدة عشرون شخصاً، بعد أن تنتهي من الطعام تشكر من ؟ تقول للشخص الذي يجلس بجوارك - دايمة - ؟ لا فهذا مدعو مثلك، أم تبحث عن صاحب الوليمة الذي دعاك وتكلف وجاء بهذا الطعام النفيس ودعاك إليه. فمِن حمق الإنسان أن يشكر إنسانا مدعوًا مثله، من هو المستوجب الحمد في هذه الوليمة ؟ صاحب الدعوة لذلك الإنسان يسأل من الدّاعي ؟ وعندما ينتهي يقول له: أكل طعامكم الأبرار، فهذا فيما بين الناس بعضهم بعضا.. فمن الذي

يستوجب الحمد وحده ؟ الله جلّ جلاله لأن كلّ النعم من عنده.

قال العلماء: **" هو مستوجب الحمد ومستحقُّه، وهو أهل الثناءِ بما أثنى على نفسه الذي يحمد على كلّ حال ".**

هناك عبارة شهيرة: الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروهٍ سواه .

يُحمد على كل حال، يُحمد على العطاء وعلى المنع، وعلى الرفعة، وعلى الخفض، وعلى الإعزاز، وعلى الإزلال يُحمد على كلّ شيء، وأذكر أنّ الله يذلّ ليُعزّ، ويضرّ لينفع.

وقيل الحميد: **" الذي يوفقك لفعل الخيرات ويَحمدُك عليها "..** هذا معنى دقيق جداً.. يُعينك على فعل الخير ويَحمدُك عليه.

إذا أراد ربك إظهار فضله عليك، خلق الفضل ونسبه إليك. أعطاك مالاً وأعطيت من هذا المال، وبعد هذا يحمدُك الله على إنفاقك والمال منه.

ألا ترون في بعض الأحيان، كما يجري في عيد الأم أن يأخذ الطفل من والده ثمن الهدية، ثم يقدمها لأمه، فنحن نشكر هذا الطفل على هذه البادرة الطيبة ولكن المال من الأب، والأب أثنى عليه، أعطاه ثمن الهدية وقدمها لأمه فإذا الأبُ يثني على أبنه على هذه الهدية، وثمن الهدية منه.

لذلك إذا أراد ربّك إظهار فضله عليك، خلق الفضلَ ونسبه إليك، أنت لك الطلب، يا ربّ أضرع إليك أن توفقني أن أدعوَ إليك، فالله تعالى يلهمك ويطلق لسانك، ويؤلِّف النّاس حولك، يجعل بعض الأفئدة تهوي إليك، فهذا فضل من الله عزّ وجلّ، فقال الله تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩))

(سورة آل عمران)

قال: **" الحميد هو الذي يوفقُك للخيرات ويحمدُك عليها، ويمحو عنك السيئات ولا يُخْجِلك بذكرها "،** أي ينسيك إياها.. فهل أحد مبرأ من موقف ارتكب فيه غلط في زمانه؟ لو لم ينسه لاحترق كلما ذكره، ولكنه بعد أيّام ينساه، فالله عز وجل يُنسيك ويمحو عنك السيئة، ويغفرها لك، ثم ينيسك إياها، من أجل أن تقبل عليه، هذا هو الحميد، وقيل **" الحميد.. هو الحامد بنفسه، المحمود بحمده لنفسه، وبحمد عباده له ".**

هذا الاسم العظيم ورد في آياتٍ كثيرة.. ورد في سورة البقرة.. قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧))

(سورة البقرة)

قد يقدّم إنسانٌ شيئًا يكرهه أو تعافه نفسه لفقير، فثوابه معدوم، طعام لم يعد محبب له، يقدمه إلى فقير، أما إذا لو قدمت طعامًا نفيسًا أو أكلة محببة عندك لإنسان فقير فالله تعالى يقبل عطاءك ويُثيبك عليه، قال تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ غَنِيّ حَمِيدٌ)

لا ينسى لك هذا المعروف.

يا داوود: **مرضت فلم تعدْني** ؟ قال: **يا رب، كيف أعودك وأنت ربُّ العالمين ؟!** قال: **مرض عبدي فلان فلم تعده، أما علمت لو أنّك عودّته لوجدتني عنده.**

أنت عندما تقدم شيئًا نفيسًا لإنسان مؤمن، فقير، جائع، الله عزّ وجلّ:

(غَنِيّ حَمِيدٌ)

يغنيك، ويحمدك على هذا العمل، لذلك قال الله تعالى:

(وَلا تَيَمّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنّ اللّهَ غَنِيّ حَمِيدٌ)

وفي سورة هود:

(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣))

(سورة هود)

إنّ أيّ إنسان دعا إلى الله، وبذل وقته، وماله، وصحّته، وطاقاته، لنشر الحقّ، فهل الله عزّ وجلّ يضيّعه وينساه من فضله، يسلمه لأعدائه، يخزيه ؟ قالت خديجة لرسول الله عليه الصلاة والسلام: **ما يُخْزِيك الله أبداً.**

إخواننا الكرام... السيدة خديجة أقوى دليل على الفطرة، أن هذه المرأة التي كانت زوجة النبيّ عليه الصلاة والسلام، حينما رأت من النبيّ الصدق، والأمانة، والعفاف، والطهر، وخدمة الخلق، كان عليه الصلاة والسلام يقري الضيف، يُعين الضعيف، يتصدّق، يعين على نوائب الدهر، قالت له السيدة خديجة: **والله ما يخزيك الله أبداً.**

هذه الكلمة أرجو أن يُصغي إليها كلّ مؤمن... والله زوال الكون أهون على الله، من أن يخزي مؤمناً، أنت آمنت، واستقمت، وعاهدته، واصطلحت معه، وتسعى جهدك لطلب رضاه، تتحرى الحلال، تبحث عما يرضيه فهل يخزيك ؟.. لا والله.. والله ما يخزيك الله أبداً.

تفاءلوا أيها المؤمنون، النبيّ كان يحب التفاؤل، لا يحبُّ التشاؤم، الله جلّ جلاله لا يتخلّى عن المؤمنين، لكن يؤدّبُهم، يبتليهم، أما في النهاية يكرمهم، ويعطيهم، الآية الكريمة التي يقشعر منها الجلد.. قال الله تعالى:

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥))

(سورة الضحى)

معنى ذلك أنّك الآن في طوْر المعالجة، انتظر

(وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى)

قال الله تعالى:

(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)

الله حميد، ويحمدكم على عملكم، هو يحمد، ومحمود كما قلنا حامد ومحمود، حميد بمعنى حامد أي يحمد ذاته ويحمد خلقه، إذا خلقه وإذا عباده المؤمنون أعطوا، بذلوا، ونصحوا، وآسروا، ضحوا، والتزموا، وصبروا فإن الله يحمدهم، يحمدُ نفسه ليعرفوه، ويحمدهم ليذكروه، وهو محمودٌ في أفعالهِ كلِّها.

في سورة إبراهيم قال تعالى:

(الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١))

(سورة إبراهيم)

هذا الصراط صراط الله عزّ وجلّ، الصراط المستقيم هذا يوصلك إلى العزيز الحميد، العزيز هو الذي لا ينال جانبه، العزيز القوي، العزيز الفرد الواحد الصمد، العزيز الذي لا إله غيره، وتشتدُّ الحاجة إليه وتصعبُ الإحاطة به من معاني العزيز، عزيزٌ حميد.. دقيق المعنى.. هو عليٌّ عظيم وفي الوقت نفسه يكافئ على كلِّ معروف.

قد يكون شخصٌ عالي المقام ولعلوّ مقامه، ليس لديه وقت ليعرف ماذا حدث معه، ماذا قُدِّمَ له ؟... أما ربّنا عزّ وجلّ على علوّ مقامه، وعلى عظمة ذاته، مع عباده إذا فعلوا معروفاً حمدهم عليه، عزيزٌ حميد.

وفي سورة الحج:

(وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (٢٤))

(سورة الحج)

أصعب شيء أنّ تُسدِي إلى إنسان معروف ثم تفاجأ أنّ هذا الإنسان تنكّر لك، وجحد فضلك، وأدار لك ظهر المِجَنّ..

أعلِّمه الرماية كلّ يومٍ فلما اشتدّ ساعده رماني

وكم عَلّمْتُه نظم القوافي فلما قال قافيةً هجاني

***

فإذا تعامل الإنسان مع الله، فلا تجد عنده مشكلة، لو تعامل مع قويّ، أو مع إنسان آخر، أحياناً يقول لك: أنا أخلصت له، وبذلت من أجله الغالي والرخيص، ومع ذلك كان لئيماً، وكان جحوداً، تنكّر ليّ، أدار لي ظهره، لم يعبأ بي، وتخلّى عني، فهذا شيء لا يحتمل أن تُسدي إلى إنسان معروفاً، ثمّ يتنكّرُ لك.. ولقد قال الله تعالى:

(وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنْ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ)

أما إذا أقبلت على الله، لن يضيّعك.. السيدة هاجر نادتْ زوجها سيدنا إبراهيم لما تركها وإسماعيل ولده في واد غير ذي زرع قالت له: **الله أمرك بهذا** ؟ قال: **نعم**، قالت: **إذاً لا يُضَيِّعُنا**، هذا هو شعور المسلم أنّ الله لن يضيع عبده، قال الله تعالى:

(لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤))

(سورة الحج)

هذا معنى جديد، هو غنيٌّ عنّا، ومع أنه غنيٌ عنّا يعاملنا معاملة نحمده عليها.

تجد إنسانًا أحياناً يغتني، فيترفّع، ويتأفّف، ويستغني، وينسى أقرباءه الفقراء، وينسى جيرانه، فهو إذّا غنيٌ غير حميد، أما ربنا عزّ وجلّ غنيٌ عنا، وعن عبادتنا، وعن طاعتنا، وعن ذكرنا، وعن إبتهالنا، ومع ذلك لا يعاملنا إلا بما نحمده عليه، الله هو **"الغني الحميد. عزيز حميد، حميد مجيد "**.

قال الله تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢))

(سورة لقمان)

هذه غني حميد دقيقة الدلالة جداً.. هو غنيٌ عنا ومع ذلك كاملٌ في معاملته، لايعاملنا إلا معاملة نحمده عليها.

في سورة سبأ قال تعالى:

(وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦))

(سورة سبأ)

إنّ علينا نحن المسلمين أن ندقق النظر عند كلمة " عزيز حميد، غنيٌ حميد، حميدٌ مجيد "، وندرك أبعادها وأثرها علينا، وفي سورة فاطر قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥))

(سورة فاطر)

وبعد، من الحميد من العباد ؟ قال العلماء: من استقامت عقيدته، واستقامت أخلاقه وأعماله وأقواله وأفعاله.

من هو الذي يُحمد على عقيدته وعلى أخلاقه وعلى أعماله وعلى أقواله ؟ هو النّبيُّ عليه الصلاة والسلام، رسول الله صلّى الله عليه وسلّم هو من العباد الحميد، سمّاه الله محموداً، محمودٌ عند ربّه، ومحمودٌ عند الخلق، ومحمودٌ عند نفسه، بعد النّبي عليه الصلاة والسلام يأتي الرُسل والأنبياء والصدّيقون والأولياء والعلماء، كلّ واحداً منهم كما يقول الإمام الغزالي **حميدٌ بقدر سلامة عقيدته واستقامة أخلاقه وصلاح أعماله وسداد أقواله.**

فأنت تُحمد على قدر سلامة عقيدتك واستقامة أخلاقك وصلاح أعمالك وسداد قولك، فكلّما ارتقيت في سلّم الكمال تحمد على هذا الكمال، أي هناك علاقة طرديّة بين الكمال وبين الحمد، من هو الحميد المطلق ؟ هو الله عزّ وجلّ.

الإنسان كامل في ألف موقف، فتزل قدمه في موقف يبقى عند الناس كاملاً، أما ربنا عزّ وجلّ كماله مطلق.. إذاً هو الحميد المطلق.

بعضهم يقول: **" الحميد من العباد هو من حسنت عقيدته، وأخلاقه، وأعماله، وأقواله، من غير نقصٍ ولا خلل ".**

قال العلماء: **" لم تظهر خصائص اسم الحميد في العباد جلية، واضحة في فردٍ في الوجود، إلا النّبي عليه الصلاة والسلام".**

وأجمل منك لم تر قطُّ عيني وأكمل منك لم تلد النساءُ

خلقت مبرأ من كلّ عيبٍ... كأنّك قد خلقت كما تشاءُ

***

قال: الناس على أطباقٍ ثلاثة في علاقتهم بحمد الله عزّ وجلّ، العامّة: يحمدونه على إيصال اللّذات الجسمانية. أكل، وشرب، وبيت وزوجة، ويقول لك الله مفضل، العوام يحمدون الله على اللذائذ الحسيّة.. والخواص يحمدونه على اللّذات الروْحانية. قرأت قرآن، وشعرت بتجليات وسكينة، أو صليت صلاة متقنة، شعرت أنّك اقتربت من الله، تفتّقت معان لطيفة حينما تقرأ القرآن.. قال هؤلاء الخواص:
يحمدونه على اللّذات الروحانية..

قال العلماء أيضًا: أما خواص الخواص المقربون يحمدونه لأنه أهلٌ للحمد. إما أن تحمده على نعمةٍ حسية، أو على نعمةٍ روحية، أو لأنه أهلٌ للحمد.

قالوا أدب المؤمن مع الحميد سبحانه.. هو أنّه يمدح الله عزّ وجلّ دائماً، ويثني عليه، ويحمده على كلّ شيء، إلا....ولندقق النظر بعد كل هذا الشرح فقد قال العلماء: " من حمد الله ولم يتحَقّق من هذه النعم حمده تقليداً، فهذا الحمد غير مقبولٍ منه "، ما الدليل ؟ قال تعالى:

(إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (١٦٩))

(سورة البقرة)

هل تحققت من نِعم الله ؟ لذلك الحمد لا يقبل إلا إذا كان عن تحقُّق.. فهل تحققت من نعمة الوجود، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، وإلا حمدك هو الحمد التقليدي.

أنا أحياناً أسأل إنساناً ملحداً أقول له: كيف صحتك ؟ يقول: الحمد لله. وهو ملحد ينكر وجود الله، يقول لك: الحمد لله. هذا الكلام لا معنى له إطلاقاً، لا بدّ من أن تقول الحمد لله وأنت متحقِّقٌ من نعم الله عزّ وجلّ.. أوجدك وأمدّك وهداك إليه.

لذلك كان النّبيُّ الكريم تعظم عنده النعمة مهما دقّت.

الفرق بين الكافر والمؤمن فرق بسيط، فالكافر يشهد النعمة ويستمتع بها، والمؤمن يشهد المُنعم من وراء النعمة، أو من خلالها.

الفرق بين المؤمن والكافر، الكافر مع النعمة، أما المؤمن مع المنعم، الكافر يستمتع بالدنيا، بيت فخم وأثاث جميل، وطعام طيب كلّ شيء من أعلى مستوى، يستمتع بها أشدّ الإستمتاع، هو مع النعمة، لا مع المُنعم، المؤمن مع المُنعم هذا هو الفرق، وهو فرق صارخ.

قال العلماء: **ورد أنّ داود عليه السلام قال لربه: يا إلهي كيف أشكرك ؟ وشكري لك نعمة منك عليّ. أي إذا شكرتك هذه نعمة جديدة تضيفها عليّ، فقال الله عزّ وجلّ لهذا النّبي الكريم: الآن شكرتني.**

إذا علمت أن هذه النعم من الله وأنك إذا شكرتهُ عليها، اكتسبت نعمة جديدة فقد شكرت الله عزّ وجلّ.. الحديث القدسي:

((ابن آدم، إنك إن ذكرتني شكرتني، وإذا ما نسيتني كفرتني))

آخر كلمة أقولها وأختم بها البحث: الشكر الحقيقي له ثلاثة مستويات، أول مستوى: أن تعرف أنّ هذه النعمة من الله، هذا مستوى جيد، الأرقى منه أن تقابل هذه النعمة بامتنانٍ وحمدٍ بلسانك وقلبك، أما الثالثة أرقى وأرقى وهي أن تقابل هذه النعمة بعملٍ صالح.. والدليل:

(يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آَلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ(١٣))

(سورة سبأ)

الخلاصة إذّا أن تعرف أن هذه النعمة من الله هذا مستوى، وأن تثني على الله بلسانك وبقلبك هذا مستوى آخر، أما أن تقابل هذه النعمة بعملٍ جليل لخدمة الخلق فهذا معنى قوله تعالى:

(اعْمَلُوا آَلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ)

أرجوا الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علمنا، وأن يلهمنا الخير.

٧١-اسم الله البر :

مع الاسم الواحد والسبعين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم هو اسم البَرّ.. البَرُّ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ورد في الأحاديث الشريفة التي أُدرجت فيها أسماء الله تعالى.

والبرُّ.. هذه الكلمة باؤها مثلّثة.. ومعنى ذلك أي أنّ هناك بَرٌ، وبُرٌ، وبر، فالبُرُّ هو القمح.. والبِرُّ هو الإحسان.. والبَرُّ هو اليابسة في الأصل، أما البَرّ إذا كان إسماً من أسماء الله الحُسنى هو بالفتح، أي فاعل البرّ، والبرّ هو الإحسان، أي المحسن فقد قال تعالى:

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨))

(سورة الطور)

أي هو المحسن.

البِرُّ هو الصِلة، والمعروف هو الخير، المبالغة في الإحسان، البَرُّ هو المُحسن، فلان ٌ بارٌ بأبويه إذا كان محسناً لهما، البَرُّ من الخلق من تتوالى منه أعمال البرّ، فهناك مبالغة فمن تتوالى منه أعمال البر من الخلق يسمّى براً، أما إذا كان هذا الإسم منسوباً إلى الله عزّ وجلّ فالبرُّ هو مطلق الإحسان.

البرّ بالكسر.. الصلة والإحسان، فلان يبَرُّ والديه أي يصلهما بإحسانه، وفلان يبَرُّ رحمه أي يصلهم، والصلة العطاء مع اتصال، عطاء مع زيارة، والله جلّ جلاله يقول:

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨))

(سورة الممتحنة)

هذه الآية أيُّها الإخوة القراء دقيقة المعنى جداً، قد تلتقي في عملك وفي محيطك، وقد تلتقي مع أقربائك بنماذج لا يُناصبونك العِداء، ولا ينكرون عليك تديُّنك، بل إنّهم أضعف من أن يتمسّكوا بما أنت عليه، هؤلاء يُقدِّرونك لكنهم ليسوا ملتزمين، لم يصطلحوا مع الله بعد، لم يقبلوا عليه ليسوا ملتزمين لكنَّهم لا يُناصبونك العداء، بل يقدِّرون فيك هذا الاتجاه الطيّب، هذا التديُّن الصادق، مثل هذه النماذج من الناس فمن الجريمة أن تُسيء إليهم، هؤلاء يقدِّرون منصفون، يتمنَّوْن، وهم غير ملتزمين، فلا تعنِّفهم، لا تناصبهم العِداء بل أمِل قلوبهم نحوك استمل قلوبهم إليك، لقوله تعالى:

(لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

أن تبَرُّهم أي أن تُحسنوا إليهم، فإذا لم يكن يصلّي ولكنه لا يُعاديك، أنت إن أحسنت إليه حملته على الصلاة، أنت إن أحسنت إليه حملته على حضور مجلس علم، أنت إن أحسنت إليه حملته على الطاعة. لذلك من الحُمق الشديد أن تجد إنساناً غير ملتزم لكنَّه لا يعاديك ويقدِّر فيك تدُينك، يكبر فيك استقامتك

لكنّه لم يصطلح بعد مع الله، هذا النموذج ينبغي أن تُحسن إليه، وينبغي أن ترعاه، ينبغي أن تُمِدّ إليه يد المساعدة، ينبغي أن يرى فيك تواضُعاً، وانفتاحاً وإحساناً لأنّه قد ورد في الحديث القدسي: أن يا داوود ذكِّر عبادي بإحساني إليهم فإنّ النفوس جُبِلت على حبِّ من أحسن إليها، وبغض من أساء إليها.

وليثق القارىء الكريم أنّ كثيرا من المؤمنين ممّن هم أرقى مستويات الإيمان سبب إيمانه وإلتفاته إلى الله وإقباله عليه موقفٌ أخلاقي من مؤمنٍ، فإنّه يوم كان متفلّتاً وغير ملتزم التقى بمؤمن فأحسن إليه وتلطّف معه وأكرمه فانشرح قلبه للإيمان.

فقد قرأت قصّة عن عدّة فتيات في بلد عربي اشتُهر بالفن، فهؤلاء الفتيات تُبن إلى الله عزّ وجلّ وتحجّبن واصطلحن معه، وشكّلن مجتمعاً صغيراً واعتزلن الفن، إحدى اللواتي لم تستقمن ولم تصطلح مع الله ولم تتُب بعد تاقت إلى أن تعرف حياة هؤلاء النسوة اللواتي اصطلحن مع الله، فذهبت لزيارتهن.. والنقطة الدقيقة في هذه القصّة أنّهنّ رحبن بها واستقبلنها ورأت بأمّ عينها مجتمع الصدق والوفاء والحب والاستقامة والطهر والعفاف والالتزام، ولأنّهُنّ استقبلنها ورحّبن بها وأرينها ما هنّ عليه من تواصل، ومن حب، ومن وئام، ومن مودّة، ومن عفاف ومن طهر، انضمّت إليهن، حينما طرقت بابهُن لم تكن ملتزمة، لو رفضنها وطردنها لبقيت شاردةً، بقيت بعيدةً في سكة التيه والضلال.

فأقول وبهذه الدقّة.. عليك إذا إنسان ليس ملتزماً إطلاقاً أراد أن يزورك أراد أن يلتقي بك، أراد أن يرى على أيّ شيءٍ أنت، فينبغي أن تفتح له صدرك وأن تُرحِّب به، وينبغي أن يرى من كمالك ومن تواضُعك، ومن كريم خصالك ومن حبّك له، هذا الموقف الأخلاقي هو الذي سوف يجُرُّه إليك، هذا الموقف المتواضع هو الذي يحمله على التوبة، ورحم الله القائل:

أحسن إلى الناس تستعد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسان.

***

أنت لم تكن ملتزماً وقد منّ الله عليك واصطلحت معه وأقبلت عليه، ألا تُحبُّ أن يكون الخير عاماً ؟ كيف كنت بعيداً عن الالتزام وجاء أُناسٌ تتقرّب منك وحملوك على طاعة الله، كما فُعِل بك افعل مع غيرِك، كما ذكّرك الله ذكِّر غيرك، كما أحسن الله إليك أحسن إلى عباده، كما أنعم الله عليك بنعمة الهدى أنعم على عباده بنعمة الهدى، لا تكن مغلقاً، لا تكن محدوداً، لا تكن متعصِّباً، لا تكن متشنِّجاً من هؤلاء غير الملتزمين، فماذا يحدث لو رأوا منك الكمال.

أبو حنيفة النعمان له جار يغني طيلة الليل، بحيث يعكّر على الإمام ليله، ولا يستطيع أن ينام، ويقول:

أضاعوني وأيٌ فتىً أضاعوا.. ليوم كريهةٍ وطِعانِ خلس.

***

أُلقي القبض عليه فذهب أبو حنيفة إلى السجن يشفع له، فلمّا رأى السجّان أبا حنيفة النعمان بمهابته يأتي ليشفع لجاره فأطلق سراح كلّ من في السجن إكراماً له، وفي طريق العودة إلى البيت قال: يا فتى هل أضعناك ؟ تقول دائماً أضاعوني وأيّ فتىً أضاعوا فهل أضعناك.. فكان هذا الموقف الأخلاقي سبب توبته.

يروى أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كان له جارٌ يؤذيه أبلغ الأذى، وفي أحد الأيام انقطع عنه أذاه.. فمعنى ذلك أنّه مريض.. فذهب إلى عيادته، فكانت هذه العيادة سبب إيمانه وإسلامه واصطلاحه مع الله.

فالبطولة لا أن تكون مكافئاً.. ليس الواصل بالمكافئ، لكنّ الواصل من إذا قطعه الناس وصلهم، بطولتك لا أن تردَّ على زيارةٍ بزيارة، أو هديّةٍ بهديّة، أو لقاءٍ بلقاء، أو وليمةٍ بوليمة فليس لك فضل بذلك، أما البطولة أن تبادر، ألم يقل النبيُّ عليه الصلاة والسلام:

((أمرني ربّي بتسع.. خشية الله في السرّ والعلانية، كلمة العدل في الغضب والرضا، القصد في الفقر والغنى، وأن أصل من قطعني، وأن أعفو عمن ظلمني، وأن أعطي من حرمني))

هذا الذي يقرب الناس إليك، وهذه الآية دقيقة دلالتها جداً قال تعالى:

((لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ))

((أَنْ تَبَرُّوهُم))

أي أن تحسنوا إليهم، وما دمنا في هذا الموضوع أذكر لكم آية أخرى يقول الله عزّ وجلّ:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨))

(سورة المائدة)

(وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألا تَعْدِلُوا)

لا تحملنّكم عداوة قومٍ.. وأعداؤكم هم الكفّار.. على ألا تعدلوا معهم.

(اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

إن عدلتم معهم قرّبتموهم إلى الله، وتقرّبوا منكم، أما إن ظلمتموهم أبعدتموهم عن الله.

فلو أن إنساناً يصلِّي وأساء لنفّر الناس من دينه، أو إنساناً يصوم وأساء نفّر الناس من دينه، إنسان يؤدِّي زكاة ماله لو أساء نفّر الناس من دينه، فأنت إما أن تكون مقرّبًا، وإما أن تكون منفِّرًا، إما أن تكون جامعًا، وإما أن تكون مفرّقًا.

وفي سورة آل عمران قال تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢))

(سورة آل عمران)

(الْبِرّ)

مطلق عطاء الله، إحسانه لكم في الدنيا، إحسانه لكم في الآخرة، سعادةٌ تملأُ القلب، صِحّةٌ تحفظ الإنسان، هيبةٌ تعين الإنسان على معيشته، كلُ أنواع الخير ينطوي تحت بكلمة البر

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ)

أي إذا توهّمت أنّ الجنّة ركعتان تؤدّيهما ودرهمان تنفقهما وانتهى الأمر عند ذلك الحد وأفعل بعدها ما تريد فأنت مخطىء كل الخطأ.. لا.. إنّ سلعة الله غالية، إنّ سلعة الله غالية،إنّ سلعة الله غالية فاسمع قول الله تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ)

الشيء النفيس، الوقت الثمين، المال الذي جمعته من كدِّك الحلال، الشيءُ الذي بذلت جهداً فيه للوصول إليه، هذا ينبغي أن تُنفقه..

(وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

شاهد آخر: الحجُّ المبرور، ونحن لا زلنا في كلمة البِر، والبَر، والبُر.. اسم الله تعالى البَرُّ.. أي المحُسن لأنّه يعطي البر ويعين عليه وهو الإحسان، الحجُّ المبرور هو الذي لا يخالطه شيءٌ من المآثم، والنبيُّ عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللّه عَنْهم أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ الْعُمْرَةُ إِلَى الْعُمْرَةِ كَفّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُمَا وَالْحَجُّ الْمَبْرُورُ لَيْسَ لَهُ جَزَاءٌ إِلا الْجَنّةُ))

أي حجٌّ لم يخالطه إثم، لا رفث، ولا فسوق، ولا جدال في الحج.. والحجُّ المبرور ليس له ثوابٌ إلا الجنّة فقد قال تعالى:

(الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنّ الْحَجّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوّدُوا فَإِنّ خَيْرَ الزّادِ التّقْوَى وَاتّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ(١٩٧))

(سورة البقرة)

البر.. التقوى، وهذا من معاني البر فقد قال تعالى:

(يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلّوا شَعَائِرَ اللّهِ وَلَا الشّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا آمّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنْ رَبّهِمْ وَرِضْوَاناً وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ

الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢))

(سورة المائدة)

وقيل البر.. التقوى.. التوسُّع في فعل الخير، وقيل إسمٌ جامعٌ لكلِّ الطاعات، ولكلِّ أعمال الخير المقرِّبة إلى الله، أو إسمٌ جامعٌ لمرضيّ الخصال.. وهذا شيء دقيق جداً فالتقوى.. إسمٌ جامعٌ لكلِّ الطاعات، إسمٌ جامعٌ لكلِّ القربات، إسمٌ جامعٌ لكلِّ الخصال الفاضلة، إسمٌ جامعٌ لكلِّ الأفعال المرضية.. والبر هو التقوى، وفي قاموس تاج العروس.. البر خيرُ الدنيا والآخرة.

خيرُ الدنيا ما يُيَسِّره الله تعالى للعبد من الهدى والصِّحة وراحة البال والطُمأنينة والرزق النفسي، وفيها من السرور والسعادة والهيبة، وفيها الزوجة الصالحة والأولاد الأبرار والدخل الحلال.

وخير الآخرة.. الفوز بجنّة الله وما فيها من النعيم المقيم، النعيم الدائم، ومن حورٍ عين، ومن وِلدانٍ مخَلّدين، من جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، من فواكهٌ وهم مكرمون، وفيها النظر إلى وجه الله الكريم، والفوز برضوان الله عزّ وجلّ الذي هو أكبر من كلّ شيءٍ في الجنّة فقد قال تعالى:

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢))

(سورة التوبة)

فالبر اسم جامع لخيريّ الدنيا والآخرة.

النبيُّ عليه الصلاة والسلام حينما قال:

((عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ قَالَ كَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ إِنَّ الْكَذِبَ لا يَصْلُحُ مِنْهُ جِدٌّ وَلا هَزْلٌ وَقَالَ عَفَّانُ مَرَّةً جِدٌّ وَلا يَعِدُ الرَّجُلُ صَبِيًّا ثُمَّ لا يُنْجِزُ لَهُ قَالَ وَإِنَّ مُحَمَّدًا قَالَ لَنَا لا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا وَلا يَزَالُ الرَّجُلُ يَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا))

خير الدنيا والآخرة منطو بكلمة البر.. فقد قال تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

عليكم بالصدق، فإنّ الصدق يهدي إلى البر، وأرقى أنواع الصدق أن تكون صادقاً مع الله، ثم يلي ذلك أن تكون صادقاً مع نفسك، ثم يلي ذلك أن تكون صادقاً مع الناس.

أن تكون صادقاً مع الله.. فأنّك إذا عاهدّته على التوبة ألا تنتكس بعد التوبة، وإذا عاهدّته على الطاعة ألا تعصيه بعد العهد، وإذا قبّلت الحجر الأسود وفاوضّته وزرفت عنده الدموع، وعاهدته وقتها ألا تعصيه في بلدك، الصدق أن تنفِّذ هذا العهد.

إنّ الصدق يهدي إلى البر... أي إلى الصلاح، إلى خير الدنيا، إلى خيري الدنيا والآخرة، إلى الخير المطلق.

قال العلماء: زمزم هذا النبع الذي تفضّل الله به على السيّدة هاجر وعلى المسلمين من بعد ذلك، يسمّى هذا النبع برّةً.. لكثرة منافعها وكثرة مائها وسعة خيراتها.

البَر أبلغ من البار.. نقول مثلاً علاّمة وعالم، العلاّمة أبلغ، البر أبلغ من البار وإن كانا بمعنى واحد وهو المحسن، فلو قلنا: فلان بارٌ بوالديه. وأما إذا قلنا: فلان بَرّ أي تتالى برُّه، وتوالى إحسانه، وكثر عطاؤه، وكثر خيره وطاب، البر أبلغ من البار.

أما البرُّ في حقِه تعالى فهو فاعلُ البرّ والإحسان، يحسن إلى عباده بالخير، فالله عزّ وجلّ لماذا خلق الخلق ؟ خلقهم ليسعدهم، خلقهم ليحسن إليهم، خلقهم ليكرمهم، أصل الخلق إحسان، ففي الحديث القدسي يقول الله تعالى: إني والإنس والجنّ في نبإ عظيم.. أخلق ويُعبد غيري، أرزق ويشكر سواي. مشروع الكون كلِه هدفه الإحسان فقد قال تعالى:

(إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩))

(سورة هود)

فالبَرُّ.. في حقِه تعالى أي فاعل البرّ والإحسان، يحسن إلى عباده بالخير.

والإمام الغزالي يقول: " **البَرّ.. المحسن بالبرّ المطلق** "، فأحياناً المصيبة إحسان فتجد إنساناً شارداً غافلاً تائهاً ومنحرفاً، والله عزّ وجلّ بَرّ أي إحسانه مطلق يسوق له بعض الشدائد ليحمله على التوبة، وإذا حمله على التوبة وتاب إليه قبله وأكرمه، فأحياناً كلُّ مصائب الدنيا تنطوي تحت اسم البَر. طفل يتيم تُوفِّي والده وله جار محسن، لمحة مرّةً يسرق فاكهةً من دكان، فأمسك بيده وعنّفه ووبّخه وذكّره بالقيم الأخلاقيّة وصار يتابعه، إلى أن انضبط هذا الطفل وتابع دراسته وكبرت سنُّه ونجح في حياته، فبقي سنواتٍ عديدة يقول: لولا هذا الإنسان المُحسن الذي أدّبني ونبّهني وراقبني وعنّفني ما كنت فيما أنا عليه.

وكذلك الله سبحانه وتعالى يكشف لعبده المؤمن يوم القيامة عن كلّ شيءٍ ساقه له في الدنيا من متاعب، لا شكّ أنّ هذا الإنسان يذوب من شدّة الامتنان إلى الله عزّ وجلّ.

(إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

لا أريد أن أطيل في هذا الموضوع لكن كل مسلم يعلم لولا أنّ الله تداركه باللطف، وبالتأديب أحياناً، وبالتخويف أحياناً، أحياناً مرضٌ يبدو أنّه عُضال، أحياناً فقرٌ مدقع، أحياناً إنسانٌ قاهر يُضيّق عليه هذه كلُّها تضيقاتٌ تنطوي على الرحمة ويؤكِّد هذا قول الله عزّ وجلّ:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧))

(سورة الأنعام)

قيل: البَر.. هو الذي لا يصدر عنه القبيح. وهذا التعريف سلبي، فالبر لا يمكن أن يصدر عنه شيءٌ قبيح.

وقد ذكر الإمام الرازي أقوالاً: **" البر.. هو الذي منّ على المريدين بكشف طريقه وعلى العابدين بفضله وتوفيقه ".**

أي أنّ عابداً منّ الله عليه بقبول العبادة، سالك إلى الله يسّر له الطريق إلى الله، وأنّ إنسانًا أراد الإحسان مكّنه من الإحسان، البر المحسن يعطي كُلاً سؤله فقد قال تعالى:

(كُلّاً نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً (٢٠))

(سورة الإسراء)

قيل: **" البَر.. هو الذي منّ على السائلين بحسن عطائه، وعلى العابدين بجميل جزائه.**

وقيل: **" البَر.. الذي لا يقطع الإحسان بسبب العصيان ".**

إذا قال العبد: يا ربِّ وهو راكع. قال له الله: **لبيك يا عبدي** فإذا قال: يا ربِّ وهو ساجد. قال له: **لبّيك يا عبدي**. فإذا قال: يا ربِّ وهو عاصٍ. قال الله له: **لبّيك ثم لبّيك ثم لبّيك.**

وأنت حينما ترى أمًّا لها ابنٌ شارد عنها بعيد، ولها أولاد بَررة معها دائماً، كلُّ قلبها مع الشارد، كلُّ تعلّقها مع الشارد، فإذا عاد هذا الشارد إليها فيوم عودته عيد عندها، لذلك الله عزّ وجلّ كما في الحديث الشريف: لله أشدُّ فرحاً بتوبة عبده من الضالّ الواجد، والعقيم الوالد، والظمآن الوارد.

وقيل: **" البَر.. هو الذي يحسن إلى السائلين بحسن عطائه، ويتفضّل على العابدين بجزيل جزائه، لا يقطع الإحسان بسبب العصيان وهو الذي لا يصدر عنه القبيح، وكلُّ فعله مليح ".**

مرّةً ثانية.. البَر هو الله عزّ وجلّ، أما البر هو خير الدنيا والآخرة، لذلك من الأدعية اللطيفة: اللهمّ اجعل نعم الآخرة متّصلة بنعم الدنيا، فهناك حالات رائعة جداً.. كإنسان متّعه الله بالصحّة، ومتّعه بالعمر المديد، ومتّعه بالعمل الصالح، ومتّعه باليقظة الفكريّة، ومتّعه بالحب فلما توفي انتقل إلى الجنّة، هذه النعم العظيمة في الآخرة اتصلت بنعم الدنيا، لأنّ الله سبحانه وتعالى يقول:

(مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا)

اسم البَر ورد في القرآن مرّةً واحدة فجاء في سورة الطور:

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

(إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ)

هم في الجنّة الآن ويتحدّثون عن ربّهم

(نَدْعُوهُ)

في الدنيا.

(إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ)

أي بَرٌّ رحيمٌ بنا في الدنيا والآخرة.

ورد مشتق هذا الإسم في سورة مريم، في قوله تعالى:

(وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبّاراً عَصِيّاً (١٤))

(سورة مريم)

وفي السورة نفسها ورد على لسان سيدنا عيسى:

(وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبّاراً شَقِيّاً (٣٢))

(سورة مريم)

معنى ذلك أنّ الإنسان إذا أراد الله تأديبه في حياة أُمِّه ربّما كان بعضُ هذا التأديب لأُمِّه. لذلك ورد في الأثر القدسي أنّه إذا ماتت الأم قال الله سبحانه وتعالى:

((عبدي ماتت التي كنا نكرمك لأجلها، فاعمل صالحاً نكرمك لأجله.))

أي أنّ جزءًا من إكرام الله لك في حياة أُمّك من أجل أُمّك، لأنّ الله إذا أدّب عبده في حياة أُمّه نصف التأديب لأمّه.

فأحياناً أباً يتألّم من ابنه فيدعو عليه، فإذا استجاب الله دعاءه تألّم ألماً أشدّ.. فلا تتمنّ ذلك..

(وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبّارًا شَقِيًّا)

أيُّها القارىء الكريم... شعور الأب حينما يكون ابنه شارداً منحرفاً، شقياً، بعيداً عن الدين شعور أسًى لا يوصف، فقد يتألّم ألماً يوجعه ويقعده، لو أنّ الدنيا كلّها بيديه وانفقها من أجل أن يصلُح ابنه لفعل، فمن رزقه الله ابناً صالحاً، وطاهراً، منيباً، مصلياً، عفيفًا، سلوكه حسن هذا الأب عليه أن يُقبّل الأرض شكراً لله عزّ وجلّ.

سبحان الله فالإنسان كلّما تذلل إلى الله ارتقى عند الله، فمنذ يومين أخ كريم له مشكلة كبيرة جداً، فلجأ إلى قيام الليل، يصلّي قيام الليل وفي السجود دعا ربّه لحلّ هذه المشكلة والقصّة من أغرب القصص حُلّت بشكلٍ هيّن ولا عنت فيه، وقد ذكر لي التفاصيل ومن غير المعقول أن تُحلُّ بهذه الطريقة، ومن شدّة تأثّره وبينما هو يجلس في المسجد قام وسجد لله عزّ وجلّ شكراً.

فالمؤمن إذا أصابه خير، أو له مشكلة حُلّت، له قضيّة فُرجت، أو شبح مصيبة أزيح عنه، أو شيء ناله، وقام وصلّى لله صلاة الشكر وسجد فهذا من مكارم الأخلاق، فقد تأثّرت.. قام وسجد وشكر الله على حلّ هذه المشكلة

(وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا)

ورد هذا الإسم مشتقاً في آيةٍ ثالثة في سورة عبس قال الله تعالى:

(بِأَيْدِي سَفَرَةٍ (١٥) كِرَامٍ بَرَرَةٍ (١٦))

(سورة عبس)

فالبَر أي المحسن، مطلق الإحسان.. يجوز أن تقول فلان بَرٌ سعيد.. فالنبي قال:

((عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا فَالنَّاسُ رَجُلَانِ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ تُرَابٍ قَالَ اللَّهُ: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)))

قال العلماء: يجوز أن تقول فلان بَر.. فالعبد يكون براً بقدر ما يفعل من البر، وأفضل إنسان عليك أن تبرّه أبوك وأمّك ومن علّمك ومن زوّجك، فقد أتألّم أشدّ الألم من صهر يناصب عمّه العِداء، فقد زوّجك ابنته وربّاها عشرين سنة، أطعمها وأسقاها وأكرمها وعالجها وأدّبها وقدمها لك هديّة، فليس لك هماً بعد ذلك إلا إغاظته، فهذا منتهى اللؤم.

لذلك قالوا: أبٌ أنجبك، وأبٌ زوّجك، وأبٌ دلّك على الله.

أبٌ أنجبك.. الأب النسبي، وأبٌ زوّجك.. وهو عمّك والد زوجتك، وأبٌ دلّك على الله وهو من أخذ بيدك إلى الهداية، فهذه الزوجة التي عندك في البيت، وهذا أبوها فإن أسأت إليه أسأت إليها، فليس هناك إنسان إلا وهو يحبّ أمّه وأباه، فإذا أسأت إلى أمّها وإلى أبيها أسأت إليها، فإذا أردتَها أن تموت في حبّك وأنت تسيء إلى أمّها وأبيها فهذا فعل إنسان غبي، واعلم أنّها لن تحبّك، فإذا أردّت أن تُكافئها على إخلاصها بإخلاصٍ أكرم أبويها.

أعلِّمه الرماية كلّ يومٍ فلما اشتدّ ساعده رماني

وكم علّمته نظم القوافي.. فلما قال قافية هجاني

***

إذا لم يكن في الإنسان خير لأمّه وأبيه ولمن علّمه ولمن زوّجه فليس فيه خير لأحد، لأنّ هؤلاء لهم فضلٌ كبير.

وقد ذكرت ذات مرّة مثلاً افتراضيًا والفقرة الأولى فيه واقعيّة.. شخص يمشي في الطريق رأى حركة داخل كيس أسود في حاوية للقمامة، فأمسك به فإذا بطفل ولد لتوّه.. وهذه القصّة وقعت، وهذا الطفل ابن زنى أُلقي في الحاوية.. فأخذه إلى المشفى وعالجه واعتنى به وأحضره إلى بيته، وجعله أحد أفراد أسرته وأدخله المدرسة، فاجتاز المراحل الدراسيّة من ابتدائي وإعدادي وثانوي فنبغ فأدخله كلِية الطب، ثم أرسله إلى أمريكا، وجاء بشهادة بورد وزوّجه ابنته واشترى له عيادة وأعطاه رأس مال، واشترى له جهازها، واشترى له سيّارة وبيتاً وفي ذات يوم كان عمُّه يمشي في الطريق فرأى صهره يركب مركبته، فقال له: يا فلان أوصلني إلى البيت. إنّ هذا الطبيب اللامع الذي كان داخل كيس أسود في الحاوية لو أنّه تردد في تلبية طلب عمِّه ثانية واحدة لكان في حقِه مجرماً.

سيّدنا عبد الله بن رواحة عندما رأى صاحبيه قد استُشهدا قال:

يا نفس إلا تُقتلي تموتي هذا حمام الموت قد صليتي

إن تفعلي فعلهما رضيتي وإن تولّيتي فقد شــقيتي.

***

لو حسبنا الوقت الذي قال فيهما البيتين لكان ثلاثين ثانية.. تردد، فلما قال النبي:

((أخذ الراية أخوكم زيد فقاتل بها حتى قُتل، وإنّي لأرى مقامه في الجنّة، ثم أخذها أخوكم جعفر فقاتل بها حتى قُتل وإني لأرى مقامه في الجنّة، ثم سكت.. فقال أصحاب النبي: ما فعل عبد الله ؟ فقال: ثم أخذها عبد الله فقاتل بها حتى قُتل وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه.))

درجته نزلت لتردد لعدة ثوانٍ.. ثم مات شهيداً، إحسان الله كبير جداً، فإذا ترددت في خدمة إنسان بإنفاق، أو بصدقة، أو ترددْت بأداء صلاة، أو بحضور مجلس علم فهذه مشكلة كبيرة.

قالوا: من أدب المؤمن مع هذا الإسم العظيم.. أن تكون أعماله كلُّها خيّرةً، أي يتخلّق بأخلاق هذا الإسم، إن فعل هذا غُرست محبّته في قلوب العباد.

ألوان برّ الله لعباده كثيرة.. قال بعض العارفين: **" سبحان ربّي الحنان المنّان، الذي منّ على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلِّمهم الكتاب والحكمة، والذي منّ على المؤمنين بأن جعلهم من أصحاب اليمين، وهو الذي ألهمهم القيام بالأعمال الصالحة، وهو الذي رزقهم القبول، وقبول أحسن ما عملوا، وهو الذي يتجاوز عن سيّئاتهم".**

فالله عزّ وجلّ عطاؤه كبير لذلك قيل:

وجدناك مضطّراً فقلنا لك: أدعُنا نُجبك..فهل أنت حقاً دعوتنا ؟

دعوناك للخيرات أعرضْت نائياً فهل تلقى من يحسن لمثلك مثلنا ؟

فيا خجلي منه إذا هو قال لي: أيا عبدنا ما قرأت كتابنا ؟

أما تستحي منّا ويكفيك ما جرى أما تختشي من عُتبنا يوم جمعنا

أما آن أن تقلع عن الذنب راجعاً وتنظر ما به جاء وعدنا

إلى متى أنت باللذات مشغولُ وأنت عن كلّ ما قدّمت مسؤولُ

****

قال العلماء: حظُّ العبد من هذا الإسم البَر أن يكون مشتغلاً بأعمال البر، كما قال العلماء: **" تخلّقوا بأخلاق الله ".**

الله عزّ وجلّ بَر.. أي محسن، أنت ينبغي أن تشتغل بأعمال البر، وقد جمع الله أعمال البر في آيةٍ واحدة في سورة البقرة قال الله تعالى:

(لَيْسَ الْبِرّ أَنْ تُوَلّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنّ الْبِرّ مَنْ آَمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنّبِيّينَ وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السّبِيلِ وَالسّائِلِينَ وَفِي الرّقَابِ وَأَقَامَ الصّلَاةَ وَآَتَى الزّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضّرّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتّقُونَ (١٧٧))

(سورة البقرة)

(لَيْسَ الْبِرّ أَنْ تُوَلّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنّ الْبِرّ مَنْ آَمَنَ بِاللّهِ)

لا بدّ من أن تقتطع من وقتك وقتاً كي تؤمن بالله.

فالجانب الاعتقادي..

(لَيْسَ الْبِرّ أَنْ تُوَلّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنّ الْبِرّ مَنْ آَمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنّبِيّينَ)

أما الجانب العملي أوّله البذل..

(وَآَتَى الْمَالَ عَلَى حُبّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السّبِيلِ وَالسّائِلِينَ وَفِي الرّقَابِ)

أما العبادات الشعائريّة..

(وَأَقَامَ الصّلاةَ وَآَتَى الزّكَاةَ)

وأما العبادات الأخلاقيّة..

(وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضّرّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُوْلَئِكَ الّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُتّقُونَ)

ولعلّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم مستلهما هذه الآية قال:

((عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ مَسْعُودٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى الله عَلَيْهِ وَسَلّمَ عَلَيْكُمْ بِالصّدْقِ فَإِنّ الصّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرّ وَإِنّ الْبِرّ يَهْدِي إِلَى الْجَنّةِ وَمَا يَزَالُ الرّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرّى الصّدْقَ حَتّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللّهِ صِدّيقًا

وَإِيّاكُمْ وَالْكَذِبَ فَإِنّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ وَإِنّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النّارِ وَمَا يَزَالُ الْعَبْدُ يَكْذِبُ وَيَتَحَرّى الْكَذِبَ حَتّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللّهِ كَذّابًا وَفِي الْبَاب))

قال العلماء: من شرط البر أن تبذل الأحسن.. كما قال الله تعالى:

(لَنْ تَنَالُوا الْبِرّ حَتّى تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ)

وفهمكم أيها القراء الكرام كفاية..

(تُنْفِقُوا مِمّا تُحِبُّونَ)

أحياناً أغلى شيءٍ عليك الوقت ينبغي أن تنفقه في سبيل الله، أحياناً أغلى شيءٍ عليك مكانتك يجب أن توظِّفها في خدمة الحقّ.

أيُّها القارىء الكريم... قال العلماء: من تخلّق العبد بهذا الاسم أن يكون مشتغلاً بأعمال البر واستباق الخيرات.. وهناك معنى سلبي.. وألا يضمر الشرّ لأحد وألا يؤذي أحدًا، فإنّ البَر هو الذي لا يؤذي.

((عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: البرُّ لا يبلى، والذنب لا يُنسى، والديّان لا يموت، اعمل ما شئت كما تَدين تُدان))

أي أنّ المؤمن معطاء، وغير المؤمن أخّاذ، المؤمن بالتعبير الحديث اتخذ قرارًا إستراتيجيًا أن يُعطي.. يُعطي من وقته ومن ماله ومن خبرته، والكافر بُنيته مبنيّة على الأخذ.

لا زلنا في الحديث عن أدب المؤمن مع اسم البَر.. قالوا: المؤمن متى عرف أنّ الله هو البَرُّ الرحيم ينبغي أن يكون باراً بكلّ أحد كما يقول الإمام القشيري، لا سيّما بوالديه لحديث: **رضا الربِّ في رضا الوالدين، وسخْطه في سخطهما.**

حُكي عن موسى عليه السلام لما كلّمه ربُّه رأى رجلاً في أعلى مكانةً عند الله فتعجّب من علوّ مكانته، فقال: **يا رب.. بِمَ بلغ هذا العبد ذاك المكان !؟** فقال: **إنّه كان لا يحسُد عبداً من عبادي على ما آتيته، وكان براً بوالديه.**

لأنّ الله عزّ وجلّ قال:

(وَقَضَى رَبُّكَ أَلّا تَعْبُدُوا إِلّا إِيّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمّا يَبْلُغَنّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً (٢٣))

(سورة الإسراء)

قالوا: من كان الله باراً به عصم عن المخالفات نفسه، وأدام بفنون اللطائف أنسه ووفّر في طريقه اجتهاده، وجعل التوفيق زاده، وجعل قصده سداده، ومنبع سلوكه إرشاده وأغناه عن أشكاله بأفضاله، وحماه عن مخالفته بيمن إقباله.

هذا الإسم متعلِّق بالإحسان، بالحركة، فأحياناً تجد المؤمن له خصائص عقائديَّة، أو خصائص أخلاقيَّة، وكذلك خصائص سلوكيَّة، أي أنَّك حجمك عند الله بحجم عملك الصالح، ماذا فعلت ؟

أنواع البر لا تُعدُّ ولا تُحصى، فهناك المساكين والفقراء، وهناك العناية بالأيتام والأرامل، وهناك معاونة العجزة، وأيضاً هناك الدعوة إلى الله، والأمرّ بالمعروف، وتعليم العلم وتعلُّم العلم، فأنواع البرّ لا تعد ولا تحصى، فالاسم حركي، أي أنّ هذا الإسم متعلِّق بأعمالك الصالحة، ولا تنس أن حجمك عند الله بحجم أعمالك الصالحة، وأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١٩))

(سورة الأحقاف)

٧٢- اسم الله الباعث :

مع الدرس الثاني والسبعين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم الباعث.. وقد ورد هذا الاسم في أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصحيحة التي ذكر فيها أسماء الله الحُسنى.

البعث في اللُغة.. الإثارةُ والإنهاض.. يقال: بعث بعيره فانبعث أي استنهضه فنهض.. أنهضه، وبعثه أرسله، وانبعث فلانٌ لشأنه أي سار لشأنه، بعث الناقة أثارها، بعث فلاناً من نومه أيقظه، البعث بعث الجنود إلى الغزو، البعث هو الجيش، البعث الإحياء من الله عزّ وجلّ، البعث: النشر. هذا ما ورد في معاجم اللغة حول معنى كلمة البعث كمصدر في اللغة.

وأما الباعث في حقّ الله تعالى.. فلهذا الاسم معانٍ كثيرة، ومن هذه المعاني أنّ الله سبحانه وتعالى باعث الخلق يوم القيامة كما يقول في سورة الحجّ، قال تعالى:

(وَأَنّ اللّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُور (٧))

(سورة الحج)

أي أنّ الله سبحانه وتعالى يُنهض الموتى من قبورهم ليحاسبهم، وقد قال تعالى في سورة الزلزلة:

(إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا (٢) وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا (٣) يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا (٤) بِأَنّ رَبّكَ أَوْحَى لَهَا (٥) يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ (٦))

(سورة الزلزلة)

هذا هو البعث.. فالمؤمن يؤمن بيوم البعث.

المعنى الآخر لاسم الباعث أنّ الله جلّ جلاله باعث الرسل إلى الخلق، يقول تعالى في سورة النحل:

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلّ أُمّةٍ رَسُولاً)

(سورة النحل)

إنهاض الناس من قبورهم باعث، وإرسال الرسل إلى الناس كافّة باعث.

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلّ أُمّةٍ رَسُولاً)

والمعنى الثالث أنّه تعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة أي أنّ الله عزّ وجل يُلهم الإنسان في حركاته وسكناته.. وذلك بالطبع لصالحه مكافأةً أو تأديباً.. قال تعالى:

(هُوَ الّذِي يُسَيّرُكُمْ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ)

(سورة يونس)

ألم يقل النبيُّ عليه الصلاة والسلام:

((حَدّثَنَا حَيْوَةُ أَخْبَرَنِي أَبُو هَانِئٍ أَنّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْدِ الرّحْمَنِ الْحُبُلِيّ أَنّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللّهِ بْنَ عَمْرِو ابْنِ الْعَاصِ يَقُولا أَنّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ إِنّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ

أصَابِعِ الرّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمّ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ اللّهُمّ مُصَرّفَ الْقُلُوبِ صَرّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))

هذا التقليب لصالح العباد، فالإنسان أحياناً يُلهَم أن يتحرّك، يُلهَم أن يسير في هذا الطريق، يُلهم أن يشتري، يُلهم أن يبيع، وقد يستجيب أحياناً لوسوسة الشيطان. والله سبحانه وتعالى لا يسمح لفعلٍ إلا إذا كان فيه صالحٌ للعبد نفسه، الله تعالى يُقلِب قلوب العباد بين إصبعيه.

فمثلاً لو أنّ الإنسان اختار طريق الحق أو اختار طاعة الله عزّ وجلّ، أو اختار التوبة النصوح، ربُنا سبحانه وتعالى يشرح له صدره، شَرْحُ صدره إعانةٌ لهذا العبد على طاعة ربّه فقد قال تعالى:

(نَحْنُ نَقُصّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقّ إِنّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣))

(سورة الكهف)

فالإنسان مثلاً إذا تحرّك نحو الله قليلاً فالله سبحانه وتعالى يبارك حركته ويشجّعه ويشرح له صدره ويُعينه على طاعته، ألم يُجمَع القرآن كلُه في الفاتحة ؟ ألا تُجمَع الفاتحة في آية

(إِيّاكَ نَعْبُدُ وَإِيّاكَ نَسْتَعِينُ)

ولو أنّ الإنسان اختار طريق الباطل، أو طريق الشهوة، أو طريق المكاسب الماديّة، أو طريق الأذى، فالله سبحانه وتعالى كيف يُعينه على أن يبتعد عن هذا القرار ؟ يجعل صدرّهُ ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعد في السماء كما ورد في قوله تعالى:

(فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً كَأَنّمَا يَصّعّدُ فِي السّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرّجْسَ عَلَى الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥))

(سورة الأنعام)

فهنا وقفة دقيقة.. إن اتخذت قراراً صحيحاً شرح الله لك صدرك وهو بهذا أعانك على متابعة هذا القرار، وإن اتخذت قراراً خاطئاً ضيّق الله عليك نفسَك.

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيّقًا حَرَجًا كَأَنّمَا يَصّعّدُ فِي السّمَاءِ)

لعلّك ترتدع عن متابعة هذا القرار.

فالله سبحانه وتعالى حينما جعل قلوب العباد بين إصبعيه ما جعلها كذلك إلا ليعين عباده على الخير، وليبعدهم عن الشرّ، فالباعث أحياناً هذا الانشراح، والمثبّط هذا الضيق، فالله سبحانه وتعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة.

هناك معنى آخر: إنّ الله سبحانه وتعالى أمر ونهى وكلّف، وأعطى الإنسان حريّة الاختيار، ولو أن الإنسان اتخذ قراراً خاطئاً وتابع خطأه إلى ما لا نهاية حتى جاءه الموت وهو متلبّسٌ بالمعصية والكفر، لاستحقّ جهنّم إلى أبد الآبدين، هذا محض العدل، ولكنّ الله سبحانه وتعالى رحيم يربّي هذا العبد، فلو

أنّه اتخذ قراراً خاطئاً وأراد أن يُؤدِّبه بعثه إلى عملٍ يستحقُّ عليه عقاباً شديداً.. إذا أراد ربُّك إنفاذ أمرٍ أخذ من كلّ ذي لبٍ لُبّه.

فمثلاً: إذا اتخذ إنسانٌ قراراً في أن يؤذي الناس، كأن يَغُشّهم في بضاعته، وأن يغتصب بعض أموالهم، وحاز هذا المال ؛ فلو أنّ الله تركه إلى نهاية المطاف لاستحقّ النار، لكنه يتحرّك حركةً خاطئة فيبعثه إلى عملٍ يستحقُّ عليه العقوبة كي يؤدّب، فقد قال تعالى:

(فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١٤٧))

(سورة الأنعام)

إذاً إنّ الله تعالى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة إما تحقيقاً لاختيارهم، أو تأديباً لهم، أو مكافأةً لهم، فلو إنساناً أدّى زكاة ماله يبعثه لشراء صفقةٍ رابحة، يُعوّض عليه كلّ ما دفع، و إنسان آخر بخل أن يُزكِّي ماله يبعثه إلى صفقةٍ خاسرة.

فالله عزّ وجلّ يبعث.. بالمعنى الأول يُحقق لك اختيارك، وبالمعنى الثاني يُكافئك على حسن اختيارك أو يؤدِّبك على سوء اختيارك، هذا التسيير الأول.. لتحقيق الاختيار.. أما الثاني لدفع ثمن الاختيار.

التسيير الأول هو أن تحقق اختيارك.. أما التسيير الثاني تسيير تربوي فإما أن يشجع وإما أن يعاقب، وهذا هو معنى يبعث عباده على الأفعال المخصوصة.

يبعث من في القبور.. ينهضهم.

يبعث الأنبياء والمرسلين.. يرسلهم.

يبعث عباده على الأفعال المخصوصة.. أي يخلق الإرادات والدواعي في قلوبهم.

والمعنى الرابع.. أنّ الله سبحانه وتعالى يبعث عباده عند العجز بالمعونة والإغاثة.

فالإنسان بين حالين لا ثالث لهما، حال الاعتداد بالنفس كما حدث للصحابة الكرام يوم حنين فقد قال تعالى:

(وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا)

(سورة التوبةالآية: ٢٥)

وحال الافتقار إلى الله مثلما حدث للصحابة الكرام في بدر فقد قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ)

(سورة آل عمرانالآية: ١٢٣)

أنت بين حال الاعتداد بالنفس أن تقول: أنا، وبين حال الافتقار إلى الله أن تقول: الله، إن قلت: أنا تخلّى عنك، **" فلم تغن عنكم شيئاً .**

(وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ)

والحالة الثانية حال أن تقول: الله وعندها يتولاّك الله بالرعاية والتوفيق. في حياة كلٍ منا كل يوم عشرات الدروس، إن قلت: أنا تخلّى الله عنك، وإن قلت: الله: تولاّك ورعاك وأيّدك ونصرك وأعانك وألهمك وحفظك ودافع عنك، شتّان بين أن تقول: الله، وبين أن تقول: أنا، ولا يخفى عليكم أنّ.. أنا، ونحن، ولي، وعندي أربع كلماتٍ مهلكات، فقد قالها إبليس فأهلكه الله في سورة ص مخاطباً ربه:

(قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)

(سورة ص)

وقال قوم سبأ فأهلكهم الله تعالى:

(قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ)

(سورة النمل الآية: ٣٣)

وقال فِرعون فأهلكه الله:

(أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ)

(سورة الزخرف الآية: ٥١)

وقال قارون فأهلكه الله:

(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

(سورة القصصالآية: ٧٨)

المعنى الرابع.. أنّ الله سبحانه وتعالى يبعث عباده عند العجز بالمعونة والإغاثة، وعند الذنب بقبول التوبة.

هذا مجمل المعاني التي وردت في الكتاب والسنّة عن اسم الباعث، وقيل: الباعث.. الذي يبعث مَن في القبور، باعثُ السّاكن، ساكنٌ يبعثه الله فيتحرّك، كلُّ شيءٍ ساكن يبعثه الله فيتحرّك، فالنبات في الشتاء ساكن يكون حطباً، ويأتي الربيع فيبعثه الله فيزهر ويورق ويُثمر، بعض الحيوانات تنام في الشتاء ويأتي فصل الصيف فيبعثها الله.

البذرة.. فيها رُشيم، فيها جُذَير، فيها سُويق، فيها حياةٌ يمكن أن تُخزّنها آلاف السنوات، القمح الذي وجد في الأهرامات زُرِع فأنبت وقد مضى عليه ستّة آلاف عام، فلما وضعت هذه البذرة في الأرض بعثها الله، نبتت..

وهذا معنى اسم الباعث مطلقاً.. باعث الساكن، شيء ساكن فيتحرّك.

باعث الهمم.. فالإنسان أحياناً تضعف نفسه فإذا استعان بالله عزّ وجلّ أعطاه همةً، وأعطاه قوةً وأعطاه اندفاعاً، لذلك فالمؤمن الصادق يدعو ويقول:

" اللهمّ تبرّأت من حولي وقوّتي والتجأت إلى حولك وقوّتك ياذا القوّة المتين".

يقول الإمام الغزاليّ: **" الباعث.. هو الذي يحيي الخلق يوم النشور ويبعث من في القبور، ويحصِّل ما في الصدور ".**

كلُّ أعمالك مسجّلة عليك، سوف تُبعث ونراها أمامنا واحدةً واحدة فقد قال تعالى:

(اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً (١٤))

(سورة الإسراء)

والبعث هو النشأة الآخرة، فالنشأة الأولى في الدنيا، والنشأة الآخرة يوم القيامة.

أيُّها الإخوة... قال بعض العلماء: **" الإنسان أحياناً يتوهّم أنّ الموت عدمٌ وأنّ البعث إيجادٌ ابتداءً "**، والحقيقة غير ذلك، الإنسان يموت ولكنّه في القبر إما أن يكون من أهل النعيم، وإما أن يكون من أهل الجحيم، إما أن يكون القبر روضة من رياض الجنّة، وإما أن يكون القبر حفرةً من حفر النيران، والدليل قوله تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩))

(سورة آل عمران)

الموت ليس فناءً ونهايةً ومن ثم يوم القيامة فيه بدءٌ جديدٌ لا -بل هناك حياة برزخية، ألم يقل الله عزّ وجلّ:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦))

(سورة غافر)

مضى على عذابهم أكثر من ستّة آلاف عام وإلى يوم القيامة غُدوّاً وعشياً، هذه الآية أصلٌ في عذاب القبر أو عذاب البرزخ مطلقاً.

أيُّها الإخوة... الموتى إما أن يكونوا أشقياء، وإما أن يكونوا سعداء، إن كانت أعمالهم سيّئة كانوا أشقياء في القبر وإلى يوم القيامة، وإن كانت أعمالهم صالحة كانوا سعداء في القبر وإلى يوم القيامة، لذلك فإن القبر كما قلت قبل قليل روضة من رياض الجنّة، أو حفرةٌ من حفر النيران.

ورد في بعض الأحاديث الشريفة:

((أنّ روح الميّت ترفرف فوق النعش تقول.. يا أهلي يا ولدي لا تلعبنّ بكم الدنيا كما لعبت بي، جمعت المال مما حلّ وحرُم فأنفقته في حِلّه وفي غير حلّه، فالهناء لكم والتبعة عليّ))

الإنسان بعد الموت كما ورد في السنّة والسيرة يسمع ويرى، ألم يخاطب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قتلى بدر قال: يا فلان يا فلان سمّاهم بأسمائهم واحداً واحداً، قال: إني وجدتُ ما وعدني ربّي حقاً، فهل وجدتم ما وعد ربُّكم حقا ؟ ولما قيل له: يا رسول الله كيف تُنادي قوماً قد جيّفوا !! فقال عليه الصلاة والسلام: **ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنّهم لا يجيبونني.**

((قالت عَائِشَةَ لَمّا أمَرَ النّبيُّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأُولَئِكَ الرّهْطِ فَأُلْقُوا فِي الطّوَى عُتْبَةُ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ جَزَاكُمُ اللّهُ شَرًّا مِنْ قَوْمِ نَبِيّ مَا كَانَ أَسْوَأَ الطّرْدِ وَأَشَدّ التّكْذِيبِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللّهِ كَيْفَ تُكَلِّمُ قَوْمًا جَيّفُوا فَقَالَ مَا أَنْتُمْ بِأَفْهَمَ لِقَوْلِي مِنْهُمْ أَوْ لَهُمْ أَفْهَمُ لِقَوْلِي مِنْكُمْ))

(مسند الإمام أحمد)

إذاً الإنسان يحيى فإذا جاء الموت.. أي عمليّة انفصال نفسه عن جسده عن روحه.. روح الإنسان هي القوّة المحرّكة، وجسده وعاؤه، ونفسه ذاته. النفس خالدةٌ إلى أبد الآبدين، إما في جنّات النعيم وإما في أعماق الجحيم، فقد قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧))

(سورة الزخرف)

فأنت خُلقت لتبقى، إما في نعيمٍ مقيم وهذا ما نرجوه إن شاء الله تعالى، وإما في جحيمٍ لا يُطاق ولا يُحتمل، فلذلك عندما يُؤثر الإنسان الدنيا على الآخرة يكون أحمق وغبياً.

مَن آثر دنياه على آخرته خسرهما معاً، ومن آثر آخرته على دنياه ربحهما معاً.

إني وجدت ما وعدني ربّي حقا، فهل وجدتُم ما وعد ربُّكم حقاً؟ خاطبهم.. أحدهم ألِف كتاباً اسمه الحياة بعد الموت.. وكان الباعث على تأليف هذا الكتاب أنّ مريضاً توقّف قلبه أمداً طويلاً ثم عاد ونبض، فذكر هذا الإنسان كيف أنّه تصوّر أعماله كلّها، وكيف أنّ نفسه ابتعدت عن جسده، وكيف أنّه ندم على أعماله السيّئة، هذا الوصف جعل مؤلِف الكتاب يتحرّك إلى أكثر المشافي وأراد أن يأخذ تقاريراً مشابهةً عن هذه الحالات، وقام بجمع هذه التقارير وألّفها في كتاب.

والملخّص.. أنّ الإنسان حينما يموت تبتعد نفسه عن جسده، المؤمن يستعرض حياته كلّها طيلة حياته، ويُقيّم أعماله كلّها وفق مقياسٍ واحد هو مدى ما ينفع بها عباد الله، ويرى أن أعماله ولو عظمت إن لم ينتفع بها أحد فلا قيمة لها فإن خير عباد الله أنفعهم للناس.

فالإنسان حينما يُدقق، أو حينما َيعلمُ علم اليقين أنّه سوف يدخل في القبر، وأنّ هذا القبر حياةٌ برزخيّة تسبق الحياة الأُخرويّة، وأنّ هذه الحياة في القبر نعيمٌ أو جحيم ينبغي ان يعُدّ ألف مرّة قبل أن يقترف المعصية.

الإمام القُشيري يقول: **" الباعث.. هو الذي يبعث الخواطر الخفيّة في الأسرار، فمن دواع ما يبعثها إلى الحسنات، ومِنْ دواع ما يبعثها إلى السيّئات "**

كما قلت قبل قليل.. العمل أساسه إرادة، الإرادة تتحرّك بالباعث والباعث هو الله سبحانه وتعالى يبعثنا إلى أعمالٍ اخترناها صالحة، أو إلى أعمالٍ اخترناها سيّئة، فلذلك حينما قال الله عزّ وجلّ:

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

(سورة البقرة)

(لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ)

ما هو الكسبُ ؟ أنت حينما تقول: أنا سأُصلِّي هذا هو الباعث، هذا هو الكسب. الله سبحانه وتعالى يُمِدُّك بقوةٍ منه، فالله جلّ جلاله حينما يراك تريد أن تُصلِّي يعينك على آداء الصلاة، هو الذي يحقق أفعال العباد، الأفعال بيد الله، والإنسان يملك الانبعاث، يملك الإرادة، يملك الاختيار، يملك الكسب، وما سوى ذلك من خلق الله عزّ وجلّ وهذه هي عقيدة أهل السُنَّة والجماعة.

وقيل: **" الباعث... هو الذي يبعث الهمم إلى الترقي في ساحات التوحيد".**

فالإنسان أحياناً إذا وصل إلى مستوى معيّن ولم يتجاوزه إلى مستوىً أعلى قد يصاب بالسأم والضجر والملل.. من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، فقرار الهُدى قرارٌ مستمرٌ فكلّما ازددت علماً ارتقيت عند الله، وكلّما ارتقيت عند الله ارتفع مستوى عملك، وكلّما ارتفع مستوى عملك زاد إقبالك، فهي سلسلة متتابعة، فالذي يبقى في مرتبةٍ واحدة هذا معرّض بأن يقول: مللت، والله سبحانه وتعالى لا يملّ حتى تملّوا، فإذا لم يكن هناك ازدياد علمي ورقي علمي فلن يكون رقي عملي، ولن يكون هناك عمل صالح ترقى به. وربّما انعكس هذا سلباً على مكانة الإنسان عند الله عزّ وجلّ.

وقيل: **الباعث.. هو الذي يبعثك على عليّات الأمور "**، أي إذا أراد ربُّك إظهار فضله عليك خلق الفضل ونسبه إليك.

الحقيقة أيُّها الإخوة، أن هناك في الدين حقيقة خطيرة جداً، أنت لا شيء، أنت ضعيف، أنت فقير، أنت جاهل، ولكنك إذا أقبلت على الله أصبحت عالماً، وإن أقبلت على الله عزّ وجلّ أمدك بقوةٍ من عنده، إن أقبلت على الله علمك مالم تكن تعلم.

فالإنسان بذاته ضعيف، أمّا بالله فهو قوي، بذاته جاهل، أمّا بالله فهو عالم بذاته ضعيف وجاهل وفقير، أمّا بالله فهو غني.

وبعد فملخص التوحيد ألا ترى مع الله أحداً، وألا ترى لنفسك شيئاً، حينما تفتقر ذاتُك إلى الله، تستحق كل مكرمة.. لذلك قالوا: الأبواب إلى الله كثيرة، وباب الانكسار: هو أعظم هذه الأبواب، فكلما ازددت افتقاراً إلى الله، رفعك الله إلى أعلى المراتب، والأمر هو أمر متعلق بالتوحيد. كلما رأيت أن الله هو الإله العظيم الذي لا نِدّ له وهو الواحد، وهو المعطي، هو المانع، هو المغني، هو الممد، هو القابض، هو الباسط، هو المعز، هو المُذل، تتوحد وجهتك.

أيها الإخوة... من أين يأتي الإخلاص ؟ من التوحيد، هناك علاقة بين التوحيد والإخلاص كلما ازددت توحيداً ازددت إخلاصاً، لأنه مادام هناك جهات أخرى تعطي وتمنع، ترفع وتخفض، تعز وتذل، فأنت موزع وبين ما تعتقده في هذه الجهات من أنها تعطي وتمنع، أما إذا أيقنت يقيناً قطعياً أن كلّ الجهات

عاجزة وهي لا تعطي ولا تمنع، لا ترفع ولا تخفض، لا تعز ولا تذل، وأيقنت أن الله هو وحده لا شريك له، وبيده كلّ شيء، إليه يرجع الأمر كلّه، عندئذٍ تعبده وتتوكل عليه.

أيها الإخوة.. ما تعلمت العبيد أفضل من التوحيد، قال الله عزّ وجلّ:

(فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آَخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ (٢١٣))

(سورة الشعراء)

أحدُ أكبرِ أسباب عذابات النفس، أنْ تدعوَ مع الله إلهاً آخر، وأحد أكبر أسباب الخوف أن تشرك بالله مالم ينزِّل به سلطاناً، فمثلاً قال الله تعالى:

(وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ)

(سورة الأحزاب الآية: ٢٦)

الرعب متعلِّق بالشرك، فهذا قانون، أنت تخاف بقدر ما تبتعد عن التوحيد فإذا وحدّت الله عزّ وجلّ نُزع من قلبك الخوف، لأن أمرك كلّه بيدي الله.. ولذلك فالإنسان إذا وحّد أخلص وإذا أخلص ارتقت همته

ورد أن اصنع المعروف مع أهله، ومع غير أهله، فإن أصبت أهلهُ أصبت أهله، وإن لم تصب أهله فأنت أهله.

الموحِّد لا يعلّق أهمية على ردود فعل الناس، أما غير الموحد فإن أسدى إليهم معروفاً ولم يتلقَ إستحساناً أو ثناءً يتألم، أما الموحد إنْ أسدى إلى الناس معروفاً فهو يدرك أنّ ما فعل ذلك إلا ابتغاء وجه الله.. قال الله تعالى:

(وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى (١٩) إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى (٢٠) وَلَسَوْفَ يَرْضَى (٢١))

(سورة الليل)

إخواننا الكرام التوحيد طريق مختصر، والإخلاص مسرّع، إلاّ أن التوحيد كلمة واحدة وتلخّص الإيمان كلّه، وتلخص العمل كلّه، وتلخص مجاهدة النفس والهوى كلّه، والتوحيد ملخص معرفتك بالله كلّها، وهو الهدف الكبير لهذا الدين، والآية الكريمة تقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥))

(سورة الأنبياء)

إذاً: الباعث أيضاً هو الذي يبعثك على عليّات الأمور، ويرفع عن قلبك وساوس الصدور، وهذا من تعريفات اسم الباعث.

وقيل: **" الباعث الذي يصفيّ الأسرار عن الهوس، ويسمو بالأفعال عن الدنس "**، أيْ أنّ الله عزّ وجلّ إن أقبلتَ عليه طهّر قلبك من الأدران.

لقد ذكرت اليوم نقطة دقيقة.. ذلك أن الله سبحانه وتعالى حينما قال:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

(سورة آل عمران الآية: ١٥٩)

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

الباء باء السبب أي بسبب رحمةٍ استقرت في قلبك. يا محمد من خلال اتصالك بالله لنت لهم، فلما لنت لهم التفوا حولك، وأحبّوك وأقبلوا عليك.

لو أن الإنسان انقطع عن الله خلا قلبه من الرحمة، فكان فظاً غليظاً، فلما كان فظاً غليظاً انفضّ الناس من حوله، فهل بالإمكان أن نستنبط قانوناً ؟ القانون: هو اتصالٌ.. رحمةٌ.. لينٌ.. التفافٌ، انقطاعٌ.. قسوة.. غلظة.. انفضاض، هذا هو القانون.

إن اتصلت بالله عزّ وجلّ تستقر الرحمة في قلبك، مُنْعَكَسُ هذا الاستقرار لين، وتواضع وإيناس وذوق، عندئذٍ يجتمع الناس حولك فلو أن القلب أقفر من الاتصال بالله عزّ وجلّ، أصبح قاسياً وعندئذٍ يصبح فظاً غليظاً، وينفض الناس من حوله.

ويا أيها الإخوة الكرام... هناك حقيقة أحبّ أن أضعها بين أيديكم: هي أن الدعوة إلى الله ليست المعلومات وحدها، بل هي الشرط اللازم لها، إن المعلومات شرط لازم وغير كافٍ، لكنّ القلب الكبير الذي يسع الخلق، القلب الكبير الذي يرحم الخلق، والقلب الكبير الذي يتواضع للخلق، القلب الكبير الذي يعطف على الخلق، هذا القلب هو أساس الدعوة إلى الله، لأن أصحاب النّبي عليه الصلاة والسلام أحبوه حباً لا يوصف.

سيدنا ربيعة حينما أراد أن يخدم النبي صلى الله عليه وسلم، وانتهت خدمته ذات ليلة وأمره أن ينصرف، بقي على عتبة دارهِ حتى الفجر من شدة التعلّق به، ما معنى ذلك؟ التعلّق له علاقة بالكمال كلّما كنت أكثر كمالاً تعلّق الناس بك، وكلما ابتعدت عن الله عزّ وجلّ انخفض مستوى الكمال، وعندئذٍ ينفضّ الناس من حولك.

قيل: **" الباعث هو الذي يبعثك على عليّات الأمور ويرفع عن قلبك وساوس الصدور، والباعث هو الذي يصفّي الأسرار عن الهوس وينقي الأفعال من الدنس ".**

وقيل: **" الباعث.. باعث الرسل بالأحكام، فبعث الله النبيّن مبشرين ومنذرين، وباعث الموتى بالقيام".**

قال الله تعالى:

(ثُمّ بَعَثْنَاكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ)

(سورة البقرة الآية: ٥٦)

وباعث النيام بيقظةِ الأجسام.. الإنسان ينام، ما هو النوم ؟ موتٌ مؤقت، قال الله تعالى:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا)

(سورة الزمر الآية: ٤٢)

النوم موت مؤقت، لهذا كان عليه الصلاة والسلام إذا أوى إلى فراشه، يقول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ إِذَا قَامَ أَحَدُكُمْ عَنْ فِرَاشِهِ ثُمَّ رَجَعَ إِلَيْهِ فَلْيَنْفُضْهُ بِصَنِفَةِ إِزَارِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ بَعْدُ فَإِذَا اضْطَجَعَ فَلْيَقُلْ بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ فَإِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ فَإِذَا اسْتَيْقَظَ فَلْيَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي فِي جَسَدِي وَرَدَّ عَلَيَّ رُوحِي وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ))

(سنن الترمذي)

وكان عليه الصلاة والسلام إذا استيقظ يقول:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا وَإِلَيْهِ النُّشُورُ))

ما من يومٍ إلا وينادي يابن آدم أنا خلقٌ جديد وعلى عملك شهيد فتزود مني فإني لا أعود إلى يوم القيامة.

ولقد ورد في بعض الأدعية: أن لا بورك لي في طلوع شمس يومٍ لم أزدد فيه من الله علماً ولا بورك لي في طلوع شمس يومٍ، لم أزدد فيه من الله قرباً، والإنسان بضعة أيام كلما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.

إذاً يبعثك من نومك، أي إذا استيقظ الإنسان ينبغي أن يعلم أن الله سمح له أن يعيش يوماً جديداً.. إذاً فهو يبعث الموتى، ويبعث الرسل، ويبعث النيام، ويبعث كلّ ساكن.

عند الإمام الغزالي تجد أن حقيقة البعث.. هي إحياء الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى.

والحقيقة كما قلت لكم دائماً، أنّ أسماء الله سبحانه وتعالى محققة كلها في الحياة الدنيا، كلُّ الأسماء الحُسنى الكون مظهرٌ لها، إلا أن اسم العدل لا يتحقق كاملاً إلا في الدار الآخرة لأن الله سبحانه وتعالى يبدأ الخلق ثم يعيده لتُجزى كلُّ نفسٍ بما كسبت.

في الدنيا قد يعاقب الله بعض المسيئين عقاباً تربوياً تأديبياً لبقية المسيئين، وقد يكافئ الله بعض المحسنين، مكافأةً تشجيعيةً لبقية المحسنين، ولكن قد تجد مسيئاً لا يعاقب، ومحسناً لا يكافأ ، لأن الحياة الدنيا دار عمل، ودار ابتلاء، ودار تكليف، أما الجزاء الأوفى، والحساب الكامل والرصيد في الآخرة.. قال الله تعالى:

(كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ)

(سورة آل عمران الآية: ١٨٥)

أي فأنت في دار عمل، ثم هناك دار جزاء، هنا عمل ولا جزاء، وفي الآخرة جزاء ولا عمل، أنت في دار تكليف، والآخرة دار تشريف، فإذا اختلطت عندك الأمور، وإذا ظننت أن الدنيا دار تشريف، وأن القوي مكرمٌ، والغني مكرمٌ، وقعت في وهمٍ كبير.

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ))

(سنن الترمذي)

أنت في دار ابتلاء، لا دار قرار، الآخرة هي دار القرار، والآخرة هي دار الجزاء، الآخرة هي دار النعيم، الآخرة هي الدار التي تُؤتى فيها ما تشتهي بدون عمل.. قال تعالى:

(لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ (٣٥))

(سورة ق)

أما الدنيا فهي دار سعي، لا بدّ من أن تسعى حتى تصل، لذلك الله عزّ وجلّ قال:

(وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٣٩) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى (٤٠))

(سورة النجم)

فحقيقة البعث عند الإمام الغزالي: هو أن الله سبحانه وتعالى يحيي الموتى بإنشائهم نشأةً أخرى. الإمام الغزالي يقول: **" الجهل هو الموت الأكبر "** أيْ الجاهل يفعل في نفسه مالا يستطيع عدوه أن يفعله به، والعلم هو الحياة العُليا، أيْ أعلى درجات الحياة أن تعرف الله، وأدنى درجات الموت أن تجهله فلا تعرفه، وقد ذكر الله تعالى العلم والجهل في القرآن وسماهما، حياةً وموتاً.. قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

(سورة الأنفال)

(إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

أي كنتم موتى بالجهل ثم أحياكم بالعلم، وكنتم موتى بالبعد وأحياكم بالقرب، كنتم موتى بالضياع فأحياكم بالوجدان، كنتم موتى بالإدبار فأحياكم بالإقبال، كنتم موتى بالتفلّت فأحياكم بالانضباط. لذلك فإن العلماء يقولون في تفسير هذه الآية: **" إن أعلى درجات الحياة أن تعرف الله وأن تتصل به"،** فقد قال تعالى:

(يا أيها الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

ليس مَنْ مات فاستراح بميتٍ إنما الميتُ ميت الأحياء.

***

سيدنا علي يقول: **" يا بني مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة وأمثالهم في القلوب موجودة، يا بني العلم خيرٌ من المال لأن العلم يحرسك، وأنت تحرس المال، والمال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق ".**

يقول الإمام الغزالي: **" الجهل هو الموت الأكبر والعلم هو الحياة العليا وقد ذكر الله تعالى الجهل والعلم في القرآن فسماهما حياةً وموتاً ".**

هناك معنى يضيفه الإمام الغزالي: " أنه مَنْ رقّى إنساناً من الجهل إلى العلم، ومن البعد إلى القرب، ومن الإدبار إلى الإقبال، فقد أنشأه نشأةً أخرى "، هناك نشأة حيوانية: جسم، قلب رئتان ومعدة أمعاء فم سمع بصر يتحرك يأكل ينام يتزوج، هذه حياة لا تليق بالإنسان، إلا أنّ هناك حياة أرقى، أن تفكر وأن تعرف الله وأن تعرف منهجه وأن تعرف من أين.. وإلى أين.. ولماذا ؟ هذا أكبر سؤال، فعندما يعرف الإنسان سرّ وجوده وغاية وجوده ويعرف ربّه ويعرف منهج ربّه، وأن هذه الحياة حياة دنيا، إعدادية لحياة عليا أبدية عندئذٍ يصبح في أعلى درجات الحياة.. قال تعالى:

(اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ)

قالوا: هذا هو التعليم الحق.. نقل الناس من الموت إلى الحياة، من الجهل إلى العلم، من الإدبار إلى الإقبال، من الضياع إلى الوجدان، فهذه رتبة الأنبياء والمرسلين، ومن ينوب منابهم من العلماء الصادقين لذلك قال الله تعالى:

(وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣))

(سورة فصلت)

أيها الإخوة... اسم الباعث لم يرِد في القرآن الكريم بصيغة الباعث ولكن ورد بصيغة الفعل.. قال الله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(٦٠))

(سورة الأنعام)

هذا الاسم ورد:

(يَبْعَثُكُمْ فِيهِ)

أي أن تبعث من النوم إلى اليقظة، وهو المعنى الأول، وفي سورة النحل قال تعالى:

(وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولا أَنْ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

المعنى الثاني: إرسال الأنبياء.

وفي سورة الإسراء قال تعالى:

(أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً (٧٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَاماً مَحْمُوداً(٧٩))

(سورة الإسراء)

وفي سورة الكهف قال تعالى عن أهل الكهف:

(ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَداً (١٢))

(سور الكهف)

وفي الحج:

(وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧))

(سورة الحج)

المعاني كلها التي وردت عن اسم الباعث وردت في هذه الآيات.. وفي سورة التغابن قال تعالى:

(زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧))

(سورة التغابن)

أيها الإخوة... هناك نقطة دقيقة، فالله عزّ وجلّ عندما قال:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١))

(سورة الفيل)

بربكم من منكم رأى هذه الحادثة ؟ لا أحد. لعل أحدهم يقول: لو أن الله عزّ وجلّ قال: ألم تصدق، ألم تسمع، بدل قوله: ألم تَرَ.

العلماء قالوا: " إنّ إخبار الله عزّ وجلّ لمصداقيته المطلقة ينبغي أن يقع منك موقع الرؤية، إن مصداقية الله عزّ وجلّ في أخباره ينبغي أن تقع هذه الأخبار منك موقع الرؤية، بل إن الفعل الماضي الذي يستخدم في القرآن الكريم في التعبير عن المستقبل كقوله تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

(سورة المائدة الآية: ١١٦)

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ)

هذا لم يقع بعد.

(أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ)

استخدام الفعل الماضي من أجل أن يقع هذا الخبر في نفسك موقع الوقوع الحتمي اليقيني، أتى أمر الله فعل ماض فلا تستعجلوه إذاً، لم يأتِ. أتى أمر الله فلا تستعجلوه، الفعل الماضي حينما يعبر به عن المستقبل وحينما يقول الله عزّ وجلّ:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)

أي ينبغي أن تقع أخبار الله التي أخبرك بها في كتابه موقع اليقين الشهودي.

أيها الإخوة... بقي من الدرس فقرةٌ أخيرة وهي ما حَظُ العبد من هذا الاسم الباعث ؟ كيف أن الله سبحانه وتعالى يبعث الموتى ؟ والإنسان قبل أن يعرف الله ميت، فإذا أحيا قلبه بالمعرفة، وبالطاعة فكأنه تخلّق بأخلاق الله هذا أول معنى.. ففي الآية الكريمة قال تعالى:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢))

(سورة الأنعام)

وفي سورة النحل قال تعالى:

(يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ (٢))

(سورة النحل)

فالعبد إذا سعى لمعرفة الله، وطاعته والإقبال عليه، والإستنارة بنوره، فقد بعث نفسه من الموت إلى الحياة، هذا من تخلّق أخلاق العبد باسم الباعث.

التخلّق الثاني: المتخلّق باسم الباعث ينبغي أن يبعث نفسه دائماً كما يريد مولاه فعلاً وقولاً أي أنْ تأتي أفعاله مطابقة لكتاب الله.

((عَنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامٍ قَالَ سَأَلْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ أَخْبِرِينِي عَنْ خُلُقِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَتْ كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ))

(مسند الإمام أحمد)

قالوا: الكون قرآنٌ صامت، والقرآن كونٌ ناطق، والنّبي صلّى الله عليه وسلّم قرآن يمشي.

فمن تطبيقات اسم الباعث على العباد أنّهُ مِن تأدُّبِ العبد باسم الباعث أن يبعث نفسه بما يُرْضي ربّه، وأن يجعل أعماله متوافقةً مع منهج ربّه.

الأدب الثالث: مِن أدب المؤمن مع اسم الباعث أنه إذا تحقق وأيقن، أن الله سبحانه وتعالى يبعث الناس بعد الموت ثم يجزيهم بالثواب والعقاب، فعندئذٍ يشغل وقته كلّه بطاعته، والتزود للدار الآخرةِ وتصفُّح أعماله ومحاسبة نفسه حساباً دقيقاً.

يروي ابن ماجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلّم كان يضع عند النوم يده اليمنى تحت خدِّهِ الأيمن ثم يقول: **اللهم قني عذابك يوم تبعث عبادك، وكان يقول وعند الاستيقاظ: الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشور.**

أيها الإخوة الكرام... اسم الباعث من أسماء الله الحُسنى، يبعث الله الرسل، يبعث الله من في القبور، يبعث الله العباد لأعمالٍ تحقق اختيارهم ثم تربيهم، ويبعث الله تعالى كلّ ساكن، وأدب المؤمن مع الله عزّ وجلّ بالنسبة لهذا الاسم كما ذكرت قبل قليل أن يبعث نفسه دائماً كما يريد فولاه فعلاً وقولاً.

٧٣- اسم الله القادر المقتدر :

مع الدرس الثالث والسبعين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم القادر والمقتدر.. وهما اسمان من أسماء الله الحُسنى وردا في الأحاديث التي ذكرت أسماء الله الحُسنى.

أكثر المصادر التي تحدّثت عن أسماء الله الحُسنى أوردت هذين الاسمين معاً في موضوع واحد، إلا أنّ بعضهم فصل، لكنّ أغلب المفسرين ودارسي هذا الموضوع جمعوا هذين الاسمين في موضوع واحد.

الحقيقة: القادر والمقتدر.. إما من القدرة أو من التقدير، وفرقٌ بين القدرة والتقدير، القدرة القوة، التقدير متعلّق بالعلم والمهارة، فلذلك جاء في بعض المعاجم أنّ القدير والقادر من صفات الله عزّ وجلّ، يكونان من التقدير ويكونان من القُدرة.

فأحياناً يجب أن تضع مبضع الجرّاح في هذا المكان بالذات، لو أخّرته قليلاً لانقطع العصب ولشُلّ الإنسان، فوضع هذا المشرط في المكان المناسب من التقدير.. أمّا أن يحتاج الشيء إلى قدرةٍ قادرة.. هذا من القدرة، فاسم القادر والقدير والمقتدر من موضوعين، من موضوع التقدير، ومن موضوع القدرة.

العلماء لهم بعض الملاحظات حول الفرق بين هذين الاسمين.. فالقادر هو الذي يقدر على إيجاد المعدوم وإعدام الموجود.

ومعلومٌ أنّ الله عزّ وجلّ واجب الوجود، لكنّ الكون كلّه ممكن الوجود، فالذي أوجد الممكن هو الله عزّ وجلّ، والذي سينهي هذا الممكن هو الله عزّ وجلّ، هو قادرٌ على إيجاد المعدوم، وإعدام الموجود.

أما المقتدر كما قال العلماء فهو الذي يقدر على إصلاح الخلائق على وجهٍ لا يقدر عليه إلا الله، فأحياناً تشعر بمشكلة ليس لها حلّ لكنّ الله سبحانه وتعالى مقتدر على أن يصلح الخلائق على وجهٍ لا يستطيعه إلا هو.

أيُّها الإخوة... القادر من مادة القُدرة، فهو قادرٌ ذو قدرةٍ ومقدرة، وفي التنزيل ورد اسم القادر في آياتٍ كثيرة، ففي سورة الأنعام قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

(سورة الأنعام)

أي ما وصفوه حقّ صفته. وقدَرَهُ: أي عرف قدْرَهُ، قدَرَهُ من التقدير، قدَرَهُ من التعظيم ومنها ليلة القدر فقد قال تعالى:

(إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ (١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ (٢))

(سورة القدر)

والقادر.. أيضاً في صفة الله تعالى معناه المتمكِّن من الفعل بلا واسطة، نحن جميعاً نقدر على أن نصل إلى حلب في خمس ساعات عن طريق السيَّارة، وفي نصف ساعة عن طريق الطائرة، نقدر أن نقطف ثماراً عن طريق زرع نباتاتها، نقدر أن نصل إلى الماء عن طريق حفر البئر، فالإنسان من خصائصه أنَّه ضعيف، فإذا وصل إلى غايته فمن خلال وسيلة أو واسطة، لذلك فالعلماء يقولون: **" إنّ العِلّة الغائيّة لا تليق بالله عزّ وجلّ ".**

فنحن مقهورون بالوسيلة.. فإذا أردنا أن نرى الجرثوم نحتاج إلى مجهر، وإذا أردنا أن نرى الكواكب البعيدة نحتاج إلى مرصد، وإذا أردنا أن نصل إلى الماء نحتاج إلى حفر البئر، إذا أردنا أن نأكل نحتاج إلى أن نزرع، إذا أردنا أن نصل نحتاج إلى أن نركب، فالإنسان الذي يصل إلى أهدافه عن طريق وسائل ووسائط، هذا ليس مقتدراً ولا قادراً، لكنّ الله سبحانه وتعالى:

(إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٢))

(سورة يس)

الإنسان ضعيف يكمِّل ضعفه بالأدوات..الميكروسكوب - يكمِّل به ضعف بصره، والتليسكوب - يكمِّل به قصر بصره، والمركبة والقطار والطائرة يكمِّل بها بُطْءَ سيره، والأداة التي بيده يكمِّل به ضعف يده كالمفك، هذه أدوات ووسائل، فالله سبحانه وتعالى منزَّهٌ عن العِلّة الغائيّة، منزّه عن أن يصل إلى أهدافه بوسيلة، أما الإنسان ليس منزّهاً.. فالله سبحانه وتعالى يقول:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ)

(سورة الزمر)

أيضاً قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧))

(سورة الأنعام)

والسؤال الذي يفرض نفسه الآن هو: لماذا ينبغي للإنسان أن يعرف الله، وأن يحبّه ؟ لأنّه قادر.. فالإنسان يحب القوي، وأذكر لكم مثلاً منتزعاً من حياة الناس، فإذا كان هناك إنسانٌ قويٌ تجد الناسَ ملتفِّين حوله ويصادقونه، ويدعونه إلى ولائمهم ويقدّمون له الهدايا من أجل أن يطمئنّوا أنَّهم على صلةٍ مع فلان.

فالإنسان أحياناً يزيل عن نفسه الخوف والقلق باعتماده على قوي من بني البشر، فكيف إذا كان اعتماده على الله خالق البشر، الحقيقة: إنّ الإنسان يحبُّ القويّ. والقويُّ محترم وأقوى الأقوياء هو الله عزّ وجلّ، لذلك سر قوّة المؤمن لا لأنّه قوي. هو أضعف الضعفاء، لكنّه يحتمي بقوي.

فأحياناً تجد طفلاً صغيراً لا تستطيع أن تتكلّم معه بكلمة أو بحرفٍ واحدٍ لأنّ أباه كبير، وإنّ الطفل ضعيف يمكن أن تضربه لكنّك تخشى والده، فهذا الطفل قويٌ بأبيه لا بذاته، المؤمن سرُّ قوّته رغم ضعفه أنّه قويٌ مستمدٌ من قوة الله، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله.

هناك نقطة دقيقة.. وهي إنك لو احتككت مع مؤمن ترى معنوياته عاليةً جداً، فما سر ذلك ؟ لا أحد يدعمه، وليس معه مال كثير يعتمد عليه، وليس حوله أناس يتّكيء عليهم، فما سر قوّته ؟ سرُّ قوّته إتكاله على الله، فإذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله.

فَتَصَوَّرْ جيشاً ضخماً على رأسه قائد فذ، وفي هذا الجيش بن القائد، برتبة جندي عادي، وعلاقة الابن مع الأب متينة جداً، فهذا الجندي الذي أبوه قائد الجيش هل يخشى أحداً في هذا الجيش كله مهما علت الرُتب ؟

فحال المؤمن مع الله.. أنّ كلّ الخلق بيد الله، وهو مع الله، فسرُّ معنويّاته العالية آتيةٌ من هذه النقطة، فقد قال تعالى:

(إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

وهكذا صار واضحاً أنّ الإنسان إذا شعر بالقوة يقوى على خصمه ويقوى على شهواته ويقوى على أعدائه، أما إذا شعر بالضعف يصبح منافقاً، فمع الضعف نفاق، ومع الضعف كذب، ومع الضعف مجاملة، وكلام الضعيف كلامٌ مخزٍ تجده يتصاغر يتذلل يخنع، الخنوع والتذلل والشعور بالنقص والخوف وبذل ماء الوجه سببه الشعور بالضعف، لو كنت مع الله لرفعت رأسك من دون كبر ومن دون استطالة على أحد ومن دون عدوان، ولكنّك تشعر أنّ الله معك وأنّ الله لن يتركك ولن يسلمك إلى خصومك.

ومعنى القادر أي ذو القدرة التامّة الذي لا يُعجزه شيء ولا يتقيّد بأسبابٍ أياً كانت. هو المقدِّرُ بقضائه، المدبّر لشؤون الكون بقدره وحكمته، فقد قال تعالى:

(فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ (٢٣))

(سورة المرسلات)

(إِنَّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩))

(سورة القمر)

إن الإنسان قد تُجرح يده، فإذا تناول طعاماً فيه حمض شعر بلذعة في يده معنى ذلك أنّ الأعصاب مقدّرة تقديراً دقيقاً جداً، والإنسان له عينان يرى بهما فلو أنّ الرؤيا تضاعفت لرأى الجراثيم وأنواع البكتيريا في الماء فعاف شرب الماء، ولرأى جلد وجه الأنثى كأنّه جبال وأخاديد لكن..

(إِنَّا كُلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

ولو أنّ عتبة السمع ازدادت لسمع الإنسان حركة أمعائه ولم ينم الليل كله فبالأمعاء حركة فإذا وضع الإنسان إصبعه بأذنه ينتقل الصوت عن طريق العظام فيجد دوياً كأنّ معملاً بجسمه.

فالعين لها قدرٌ معلوم، والأذن لها قدرٌ معلوم، وحساسية الجلد لها قدرٌ معلوم..

(إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ)

و قال تعالى أيضاً:

(قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعاً وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآَيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥))

(سورة الأنعام)

وهنا نقطة دقيقة... إذا كنت مع القدير تشعر بالقوّة، وإذا عرفت قدرة الله عزّ وجلّ تشعر بالضعف أمامه، فهناك معنيان ضروريّان.. أحياناً تغيب عن الإنسان قدرة الله عزّ وجلّ فيظلم الناس ويعتدي عليهم ويتحدّاهم ويأخذ ما في أيديهم ويُهينهم فيأتي عقاب الله الرادع له، فالإنسان إن إعتزّ بالله شعر بالقوّة، وإن رأى قوّة الله شعر بالضعف أمامه فتأدّب بأدبه، فأنت بحاجة إلى أن تعرف قدرة الله كي تقف عند حدّك، رحم الله عبداً عرف قدره فوقف عنده ولم يتعد طوره.

صدِّقوني أيُّها الإخوة... أحياناً ترى إنساناً يتطاول ويطغى ويعتدي وكأنّ الله غير موجود إطلاقاً، وربنا عزّ وجلّ يقول:

(إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢))

(سورة البروج)

فالذي يتحرّك وكأنّ الله غير موجود هو إنسان غبي وأحمق وجاهل لأنّ الله سبحانه وتعالى سيبطش به وسيُحجّمه وسيقفه عند حدّه، أنت بحاجة إلى أن تعرف القدير من أجل أن تعتزّ به وتقوى به، وأن تستمدّ منه القوة، وأنت بحاجةٍ وأقولها مرةً ثانية لتعرف الله القدير كي تتحجّم وكي تقف عند حدّك وكي لا تتعدى طورك.

لدينا الآن معنى سلبي، وآخر إيجابي.. المعنى الإيجابي أنت تقوى بالله القدير، والمعنى السلبي أنت تتحجّم أمام الله القدير.

قال تعالى في سورة الإسراء:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لَا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُوراً (٩٩))

(سورة الإسراء)

(الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ)

إنّ الله عزّ وجلّ أخبرنا أنه سوف يعيد خلقنا، وسوف تعرض علينا أعمالنا كلّها عملاً عملاً بكلّ تفصيلاتها، وسوف نحاسب على هذه الأعمال إن خيراً فخير، وإن شراً فشر، فإذا أنكرنا يوم البعث وأنّ الله سيحي من في القبور فهذا من ضعف تفكيرنا، أليس :

(الّذِي خَلَقَ السّمَوَاتِ وَالأَرْضَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلا لا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظّالِمُونَ إلا كُفُورًا)

وفي سورة يس قال تعالى:

(أَوَلَيْسَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلّاقُ الْعَلِيمُ (٨١))

(سورة يس)

وفي سورة الأحقاف قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنّهُ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٣))

(سورة الأحقاف)

وقد ورد بالحديث القدسي:

((أن عبدي خلقت لك السماوات والأرض ولم أعيَ بخلقهن أفيُعييني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين، لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي، لم أخالفك في رزقك، وعزّتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلّطن عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً، أنت أريد وأنا أريد فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد))

وفي سورة يس أيضاً قال تعالى:

(أَوَ لَيْسَ الّذِي خَلَقَ السّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ)

فيجب أن نؤمن أنّ الله سيعيد خلقنا وسيحاسبنا وهذا أكبر رادع للإنسان يحميه من أن ينحرف.

وفي سورة القيامة قال تعالى:

(أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى (٤٠))

(سورة القيامة)

وفي سورة الطارق قال تعالى:

(إِنّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨))

(سورة الطارق)

هل تلاحظون أنّ أكثر أسماء القادر وردت في قدرته على إحياء الموتى وبعث من في القبور ليحاسب الإنسان على أعماله إن خيراً فخير، وإن شراً فشر.

أيُّها الإخوة... إذاً القادر والمقتدر من القدرة والتقدير، والتقدير أيْ التعظيم، ومنها قوله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

والتقدير:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ)

أما القادرون جمع قادر فقد وردت في كتاب الله أربع مرّات ففي قوله تعالى:

(إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ)

(سورة المؤمنون)

(وَأَنزَلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الأَرْضِ)

بقدر حكيم، بقدر دقيق..

(وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)

تجد بلداً كلُّ قيمتِهِ بأنهارِهِ فإذا جفّت الأنهار انتهت قيمة هذا البلد، مثلاً: فدمشق كلُّها ما قيمتها لولا نبع الفيجة هذا النبع الذي يمدُّها بالماء على مدار العام

(وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ)

فالله عزّ وجلّ قادر على أن يعطي وقادر على أن يأخذ، فإذا أعطى أدهش وإذا أخذ أدهش.

(وَإِنَّا عَلَى أَنْ نُرِيَكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ (٩٥))

(سورة المؤمنون)

أي أنّ الله عزّ وجلّ وعد المستقيم بحياة طيّبة، ووعد المنحرف والمعرض بمعيشةٍ ضنك والله قادر على أن يُحقق وعده ووعيده لأنّ الفعل بيده، فلذلك أحد الأدلّة الكبرى على أحقيّة القرآن الكريم أنّ أفعال الله كلّها تطابق أقواله في كتابه، مطابقة أفعاله لأقواله شهادةٌ منه بأنّ هذا الكلام كلامه، وقال تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠))

(سورة المعارج)

قادرون على كلّ شيء.. فالله عزّ وجلّ تعلّقت قدرته بكلّ شيء.

أيُّها الإخوة: اسألوا أطباء كثيرين فهناك أمراضٌ عُضال لا يُرجى شفاؤها، وليس في علم الطب أنّها تشفى، وهناك حالات كثيرة تجد أنّ المرض قد تراجع بلا سبب، ألم يقل الله عزّ وجلّ:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠))

(سورة الشعراء)

شعور المؤمن أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير.

لي صديقٌ قد أصيب بورم خبيث في الرئتين وهذه القصة منذ عشرين سنة تقريباً، وأُخذت خزعة من رئته إلى كلّ المخابر حتى أنه قد أرسلت منها قطعة إلى بريطانيا للتحليل، وجاء التشخيص مرضٌ

خبيث من الدرجة الخامسة، ولا أمل في شفائه من مرضه إطلاقاً إلا بزرع رئةٍ في أمريكا ونجاح العمليّة نسبته عشرون في المئة، وتكلفة هذه العملية ثمن بيته الذي يسكنه ولا يملك غيره، وقد عاصرت القضيّة والذين فحصوا وحللوا وصوّروا وشخصوا أعرفهم معرفةً تامّة وكان قرارهم جميعاً أنّه لا أمل في الشفاء، لكن المرض تراجع بعد حين تلقائياً وفجأة وشفي المريض. وكيف تراجع هذا المرض تلقائياً والمريض الآن في صحةٍ جيّدة ولا يشكو شيئاً والحادثة منذ عشرين عاما.

أريد أن أقول لكم.. إذا اعتقدت جازماً أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير في كلّ موضوع يعطيك، يغنيك، يقوّيك، يحفظك، يؤيّدك، ينصرك، يشفيك، يحميك، إن اعتقدت ولم يساورك شك أنّ الله على كلّ شيءٍ قدير فأنت في كنف الله ورحمته ورعايته، و تعلّقت به، وقطعت الآمال ممن سواه، وتوجّهت إليه وأعرضت عن الخلق، هذا هو الدين، فالدين هو التوحيد الخالص و أن تقطع أملك من الخلق وأن تعلِّق أملك بالحق، أن تيأس من المخلوقين، وأن تتطلّع إلى ربِّ المخلوقين.

الإنسان له قدرة، ولكنّها ناقصة، ولماذا جعلها الله ناقصة ؟ ليكون مفتقراً في ضعفه، سعيداً بافتقاره، لو جعله قوياً لاستغنى بقوّته.. فالإنسان ضعيفٌ، فقد تجد إنساناً ملء السمع والبصر، بخثرة دمويّة في بعض شرايينه تجعله مشلولاً، وخثرةٌ أُخرى تجعله أعمى، وخثرةٌ ثالثة يفقد ذاكرته، فالإنسان ضعيف.

فلذلك الإنسان المؤمن لا يفتأ يقول: إن شاء الله، وإن جاءه خير قال: هذا من فضل الله، وإن نجح في عمله.. هذا بتوفيق الله، وإن رزقه الله مالاً.. هذا من كرم الله، وإن أدّبه الله عزّ وجلّ.. هذا من رحمة الله، هذا هو حال المؤمن.

الإنسان قدرته محدودة يكمِّلها بأدوات، والأدوات لا تفعل فعلها إلا أن يأذن الله لها.

أذكر لكم حديثاً شريفاً وهو في غاية الدقة.. فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ))

((لكلّ داءٍ دواء))

فتصور مريضاً يُعاني من مرضٍ قرأ هذا الحديث فبماذا يشعر ؟ يشعر بالثقة.. القضيّة سهلة، فكلُّ داءٍ خلقه الله خلق له دواءً، إذا قرأ هذا الحديث طبيب يشعر بالتقصير، إذا كانت هناك أمراضٌ حتى الآن لم يكتشف لها دواء فهذا من تقصير الإنسان، فهذا الحديث يحثُّ الطبيب على أن يكتشف الدواء، ويطمئن المريض، ثم يقول عليه الصلاة والسلام:

((فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله))

فالطبيب توفيق الله له أن يصيب في تشخيص المرض ووصف الدواء.

ليطمئنْ المريض وليثق الطبيب فإذا أُصيبَ دواءُ الداءِ، أي إذا شُخِّص المرض صحيحاً وصف الدواء صحيحاً.

فإذا أُصيب دواء الداء بريء.. لكن بإذن الله.. فالله عزّ وجلّ لا يسمح للدواء أن يفعل فعله إلا بإذن الله.

إن الله أعطى الإنسان قدرةً ناقصة ليفتقر.. إن الإنسان خلق هلوعا.. إن الإنسان خلق عجولا.. وخلق الإنسان كذلك ضعيفاً، وبهذه القدرة الناقصة يفعل ويفعل ويطغى ويطغي، هذا الإنسان الضعيف الذي لا يملك زمام نفسِهِ ولو ساعة، لا يعرف فيها ما سيكون، يتحدّى ويطغى ويتكبّر ويقول ويفعل ويقتل بلا رحمة كما نرى من أعدائنا الألداء كيف يقتلون الأبرياء والصغار، الإنسان على ضعفِهِ يجرم ويطغى، فكيف إذا كان قوياً ؟

لهذا قيل: سبحان من قهر عباده بالموت، فالموت يحل مليون مشكلة.

قال: ومن أدب المؤمن مع اسم القادر أن يستشعر حال ذكره هذا الاسم قدرة الله وتقديره وحكمته وتدبيره، فيشعر بعبوديّته وضعفه.

أول ما قلت لكم، أنت أيها الإنسان بحاجة ماسّة لأن تعرف من هو الله عزّ وجلّ ؟ من أجل أن تعرف من أنت أمامه ؟ أنت لا شيء.. فالذي يقول: أنا وأنا وينسى الكبير المتعال فقد سها وتعالى بغير حق، بئس العبد مَنْ سهى ولها ونسي المبتدى والمنتهى، بئس العبد عبدٌ عتا وتجبّر ونسي الجبّار الأكبر.

فإذا عرف الإنسان القدير وعرف القادر تحجّم، أما إذا عرف عبوديّته وافتقاره فعندئذٍ يرقى.

أما اسم المقتدر.. نحن عندنا قاعدة لغوية وهي أنّ كلّ زيادة في المبنى زيادة في المعنى، فالقادر... أربعةُ حروف وهي: قاف، ألف، دال، راء، اسم فاعل.

أما المقتدر.. خمسةُ حروف، فالمقتدر حروفها أكثر إذاً معناها أوسع، والعلماء قالوا هي مبالغة من اسم القادر، فماذا تعني المبالغة إذا نُسبت إلى الله عزّ وجلّ ؟ أي أنّ الله عزّ وجلّ على كلّ شيءٍ قدير مهما تعددت الأشياء، وقدير على أكبر شيء مهما كبر، فأما المبالغة مبالغة عدد أو مبالغة نوع.

فإذا قلنا إنّ الله عزّ وجلّ فعّال لما يريد.. فعّال صيغة مبالغة أي مهما كان الفعل كبيراً يفعله الله، ومهما كانت الأفعال كثيرة يفعلها الله كلّها أما اسم المقتدر فيفيد معنى القادر مبالغة وأكثر تعظيماً، المقتدر هو المستولي على كلّ شيء، المقتدر على جميع الممكنات، صاحب القدرة العظيمة، المسيطر بقدرته البالغة على خلقه، المتناهي في الاقتدار.

فمثلاً.. هل يوجد في الأرض قوةً مهما كبرت أن تزيح جبلاً كجبل قاسيون مئة كيلو متر؟ فلو طلبنا من أكبر جهة هندسيّة أن تنقل لنا جبل قاسيون بأكمله من دمشق إلى حلب هل تستطيع ؟ مستحيل، أما الله عزّ وجلّ.. كن فيكون.. قال تعالى:

(وَلَمّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقاتِنَا وَكَلّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أرِنِي أنْظُرْ إلَيْكَ قالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكّاً وَخَرّ مُوسَى صَعِقاً)

(سورة الأعراف)

(قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنْ اسْتَقَرّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمّا تَجَلّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرّ مُوسَى صَعِقًا)

فالله على كلّ شيء قدير.

وقد قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ والسماوات مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ)

فقد قرأت مقالة عن بناء في ألمانيا مؤلّف من عشرةِ طوابق، ولا بدّ من أن يُهدم ليشقّ شارع مكانه، فجاءت شركة وعرضت على صاحب البناء أن تأخذ منه نصفَ تكاليفِ البناء وأن تنقل البناء إلى مكان آخر، وقد نقلوه ثلاثين متراً، وبالفعل فهذا شيء لا يصدّق، وشعرنا باندهاش ما بعده اندهاش من أجل بناء مؤلّف من عشرةِ طوابق، نقلوه ثم قاموا بوصل المياه والكهرباء بعد أن حرّكوه على أسطوانات وهيئوا له أساسات وبذلك تم نقل البناء وأخذوا نصف تكاليفه.

أما الله عزّ وجلّ على كلّ شيء قدير.

(وَمَا قَدَرُوا اللّهَ حَقّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ والسماوات مَطْوِيّاتٌ بِيَمِينِهِ)

وفي مجال السفن البحرية، فهناك الآن سفنٌ حمولتها مليون طن، فقد قرأت عن بعض السفن أن قوتها تبلغ أكثر من ثلاثة آلاف حصان لتحريك الدفّة فقط فهي كالمدينة، وهناك سفن تأخذ الفلزات من قارة أستراليا وتقوم بتصنيعها في الطريق وتنقلها إلى قارةٍ أخرى وهي مصنّعة هذه السفن العملاقة التي هي كالجبال، موج بسيط يجعلها كريشةٍ في مهبِّ الريح، فبعض الأمواج يبلغ ارتفاعها أكثر من ثلاثين متراً، بارتفاع بناء، فهذه قدرة الله عزّ وجلّ.

أما في مجال الزلازل.. مدينة بأكملها ابتلعتها الأرض بفعل الزلزال في أربع ثوان، فمدينة بالمغرب اسمها أغادير وهي مدينة سياحية وساحليّة جميلة جداً، وفيها من الفسق والفجور ما لا يوصف كنوادي العراةِ وغير ذلك من الموبقات، أصابها زلزالٌ وفي خلال أربع ثوانٍ أصبحت تحت الأرض، وأبرز بناء فيها فندق من أضخم الفنادق في العالم خمس نجوم ومؤلّف من ثلاثين طابقاً، أصبح الفندق بأكمله تحت الأرض وبقي اسمه الذي على الطابق الأخير كشاهدةٍ على هذا الفندق.

ففي ثانية واحدة تجد مدينة استغرق بناؤها خمسين عاماً يبتلعها الزلزال في هذه الثانية الواحدة.. ألا تعلم إذاً أنّ الله قدير وأن قُدرتَهُ غير متناهية.

ويقولون عن مثلث برمودا.. إن سفناً عملاقة دخلت إليه فاختفت وليس لها أثر، وكذلك الطائرات دخلت في محيطه فسقطت وليس لها أثر وحتى الآن يصعب عليهم تفسير ذلك ولا أحد يعلم ما سر هذا المثلث الواقع في المحيط الهادي.. هناك أشياء يتحدّى الله بها عباده.

مدينة كان يسكنها الرومان حينما كانوا في أوج قوّتهم وسيطرتهم على العالم، تقع بالقرب من سفح أحد جبال إيطاليا اسمه فيزوف، يطل على هذه المدينة، سار في سفح الجبل بركان أرسل رماداً بركانياً حرارته ثمانمائة درجة وسمكه ثمانية أمتار غطى المدينة بأكملها بمن فيها كما يغطي شوارعها وبيوتها وقصورها وحمّاماتها، بدأ هذا البركان يثور بعد الظهيرة والطعام على الموائد، وهذا الرماد البركاني عندما غطى هذه المدينة مات كل شيء فيها ولكن بعد حين أصبح هذا الرماد صخرياً، وبعد مئة عام جاؤوا بهذه الصخور وثقبوها فوجدوا في داخلها فراغات فحقنوها بالجبس السائل، ولما جفّ هذا الجبس وجدوا أشكال الناس فيه، فأمٌ مثلاً تنحني على ابنها، كما وجدوا أنواع الطعام الموضوعة على الموائد، أناسٌ علائم الهلع على وجوههم استطاع العلماء بهذه الوسيلة أن يروا حالة مدينةٍ أهلكها الله دفعةً واحدة، حتى إن بعض النساء يأخذن الحلي ليضعنها في صدورهن حفاظاً عليها ظناً منهن أنهن سيبقين على قيد الحياة، وعندي مقالات واضحة جداً تتحدث عن هذه الصور، فقدرة الله عزّ وجلّ لا نهاية لها.

المقتدر عظيم القدرة المسيطر بقدرته البالغة على خلقه، المتمكّن بسلطانه..

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً (٤٥))

(سورة الكهف)

وقد ورد اسم المقتدر في آياتٍ كثيرة من كتاب الله ففي سورة القمر قال تعالى:

(كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (٤٢))

(سورة القمر)

أيها الأخ الكريم: أنظر إلى صور الأعاصير في أمريكا، فتجد إعصاراً يأتي على مدينة بأكملها فيها معامل وبنايات وحدائق ومتنزّهات وفيها آليّات ومركبات، هذه المدينة يَزَرُها قاعاً صف صفا لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، فسرعة الهواء ثمانمائة كيلو متر في الساعة، نحن بحمد الله ليس في بلادنا رياحٌ مثل هذه الرياح والأعاصير المدمّرة التي لا تبقي على شيءً أتت عليه، هذه كلّها من آيات الله عزّ وجلّ..

(فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ)

وقال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥))

(سورة القمر)

وقال تعالى:

(وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)

أوسع كلمة على الإطلاق في شمولية معناها كلمة شيء، وإنْ من شيءٍ إلا يسبّح بحمده وهنا قال تعالى:

(وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا)

والله بكل شيءٍ عليم، فالله عزّ وجلّ بكل شيءٍ عليم وعلى كلّ شيءٍ مقتدر.

وفي سورة الزخرف قال تعالى:

(أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ)

فإذا شعر الإنسانُ أنّ أحداً قادر عليه تعامل معه بالحسنى، فكيف إذا شعرت بأنّ الله في كلّ ثانية مقتدر عليك ؟

قال العلماء: من أدب المؤمن مع ربّه في اسم المقتدر أن يستحضر قدرة الله دائماً أمامه.

((عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ كُنْتُ أَضْرِبُ غُلَامًا لِي فَسَمِعْتُ مِنْ خَلْفِي صَوْتًا اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ فَالْتَفَتُّ فَإِذَا هُوَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ هُوَ حُرٌّ لِوَجْهِ اللَّهِ فَقَالَ أَمَا لَوْ لَمْ تَفْعَلْ لَلَفَحَتْكَ النَّارُ أَوْ لَمَسَّتْكَ النَّارُ))

(صحيح مسلم)

وقد خاطب الحجاج رجل يعظه فقال له عندما أوقف الحجاجُ رجلاً بين يديه: أسألك بالذي أنت بين يديه والذي هو أقدر عليك منك عليه أن تعفو عنه.

فعندما يتحرّك الإنسان ويعلم دائماً أنّ الله على كل شيء قدير، يكون في حركته رحمة.

كان عليه الصلاة والسلام يُعلِّم أصحابه الاستخارة في الأمور كلِّها كما يُعلِّم الصورة من القرآن يقول:

((.... إِذَا هَمَّ أَحَدُكُمْ بِالأَمْرِ فَلْيَرْكَعْ رَكْعَتَيْنِ مِنْ غَيْرِ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ لِيَقُلِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْتَخِيرُكَ بِعِلْمِكَ وَأَسْتَقْدِرُكَ بِقُدْرَتِكَ....))

(صحيح البخاري)

أي أستعين بقدرتك على تحقيق هذا الأمر.. و أطلبُ منك أن تجعل لي يا رب قدرةً على المطلوب لأنّي ضعيف.

ذكرت هذا الحديث لقول النبي.. فإنّك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك.. فالإنسان ضعيف والله هو القدير.

آخر كلمة في موضوع اسم المقتدر والقادر.. إن عرفت قدرته وقدره خضعت له واستعنت به، واعتمدت عليه، وتوكّلت عليه، فأصبحت أقوى الأقوياء، وإن عرفت قدرته صَغُرت نفسك ووقفت عند حدها، وافتقرت إليه وتحققت عبوديّتك، فأنت تعبده إن عرفته وتستعين به إن عرفته، وهذا ملخّص اسم القادر المقتدر.

٧٤- اسم الله الماجد المجيد :

مع الاسم الرابع والسبعين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو الماجد والمجيد.

فالماجد اسمٌ من أسماء الله الحُسنى ورد في حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الذي ذكر فيه أسماء الله الحُسنى عدّاً وإحصاءً.

قبل أن نبدأ بشرح هذا الاسم الجليل، ينبغي أن نعلم علم اليقين أن طبيعة النفس البشرية مفطورةٌ على حبِّ الكمال، وأن أسماء الله الحُسنى أسماءٌ حُسنى كاملة، فكمال الله عزّ وجلّ وفِطرة النفس التي فُطرت على حبِّ الكمال يتوافقان.

فلذلك لا يطمئن الإنسان، ولا تقبل نفسه على الله إلا إذا رأى في الله الكمال المطلق بينما الإنسانُ كمالهُ نسبيّ يصيب كثيراً وقد يخطئ قليلاً، ويبقى عند الناس كاملاً، لكن الله سبحانه وتعالى كماله مطلق، لذلك الشرّ المطلق لا وجود له، لأنه يتناقض مع وجود الله، لكن الشرّ النسبي يوظِّفه الله سبحانه وتعالى للخير المطلق.

فالماجد اسمٌ مشتقٌ من المجد، والمجد في لغة العرب نهاية الشرف، نهاية السمو نهاية الرفعة، نهاية الكمال، يقال رجلٌ ماجد أي رجلٌ شريف له آباء متقدِّمون في الشرف.

كلمة الماجد معناها: من حيث النسب ؛ ينتمي إلى أشرف أسرة، ومن حيث السلوك كثير الخير مفضال معطاء، فربنا عزّ وجلّ كماله مطلق وفعله خير كله.

والماجد في حق الله تعالى المتناهي في الكمال والعز، ونفس الإنسان تحبُّ الكمال لذلك النفس الإنسانية لا يملؤها إلا معرفة الله، فلو أنها اختارت غير الله، اختارت مادون الله فإنها تبقى في اضطراب، لا تسكن، ولا تستريح.

يمر الإنسان في مراحل مِنْ حياته في حالات متنوعة، يطلب المال مثلاً فإذا بلغه وجمعه سقط من عينيه وأصبح شيئاً تافهاً، يطلب اللذائذ فإذا اقتنصها صغرت في عينه، أما إذا طلب الله سبحانه وتعالى ومهما جدّ في الطلب يبقى سعيداً إلى أقصى درجة لأن الله لا نهائي، لأن الله كماله مطلق.

لذلك هناك نقطة دقيقة.. الشاب يوصف بأنه يعيش أحلاماً وإذ هو شاب في مقتبل العمر يتصور بيته ويتصور زوجته، ويتصور عمله، واختصاصه ومكانته، فهو لا يزال شاباً ويسعده الحلم، وتسعده الآمال، فإذا وصل إلى حدوده القصوى، أي إذا تزوج، أو توظف، أو اختار هذه الحرفة دون تلك وزوال العمل فيها فإنّ حياته أصبحت مغلقة، محددة، هذا بيته وهذه زوجته، وهؤلاء أولاده، وهذا دخله، وهذه مكانته. وهذه حرفته.

ومن ثمّ يشعر بالفراغ، كما يشعر بالرتابة.. لذلك الناجحون في الحياة المادية من عجيب أمرهم أنهم ينصرفون إلى الميسر أحياناً لأن حياتهم أصبحت مملة، بلغوا قمة النجاح، ماذا بعد النجاح ؟ لابُدَّ من التغيير.

فالإنسان إذا نجح في عمله، وفي زواجه وكان بعيداً عن الله عزّ وجلّ معرفةً وسلوكاً فإنه يبحث عن لذائذ مستجدة، فلذلك تراه ينحرف انحرافات خطيرة لا لأنه يحبها، بل لأنه يجدد من خلالها حياته.

أمّا المؤمن إذا عرف الله عزّ وجلّ فمعرفتُه بالله تملأ نفسه إلى أبد الآبدين، لأن النفس لا نهائية، لا يملؤها إلا المطلق، أما المحدود لا يملؤها، فهي أكبر، فالدنيا محدودة، والدنيا بكلّ لذائذها محدودة، فالشيء الثابت أن الإنسان يشتري بيتاً واسعاً، في الأسبوعين الأولين أو الثلاثة يسعد به أشد السعادة، أما بعد حين فيغدو لا معنى له، يتزوج أجمل امرأة ثم لا يلبث أن يركب أفخر مركبة وبعد حين تجده في سأم وفتور وتناقص، الأشياء الدنيوية محدودة، والنفس لا محدودة، فإذا طلبت السعادة في المحدود لن تجدها، وما سوى الله محدود، أجل كلّ ما سوى الله كلّه محدود، كلّ شيء ما سوى الله يخبو بريقه، تتناقص لذّته، تتناقص ثمرته.

إذًا إن أردت الله فأنت في سعادةٍ متنامية، وإن أردت ما سوى الله فأنت في سعادةٍ متناقصة، إذًا فالمشكلة ليست مع الشاب، فقط بل ومع كل إنسانٍ ولو بلغ كهولته وتوضحت معالم حياته وتحددت، إنّ نفسه لا نهائية، فإن أراد المحدود وتحلقت نفسه به، وقع في الحيرة وفي الضجر، فإما أن ينحرف، وإما أن يهديه الله إليه.

فالماجد في حق الله تعالى هو المتناهي في الكمال والعزّ، له الجمال في الأوصاف والأفعال، الذي يعامل عباده بالكرم والجود ويتجلى لهم بنور الوداد، ماجد وذاته ماجدة، أفعاله كريمة، مودته لعباده بالغة، ومن كلمات الدعاء.. اللهم أنت الماجد المجيد، الفعال لما يريد نسألك الأمن يوم الوعيد، أنت الماجد المجيد.

ومن الحقائق التي لا تخفي أن الإنسان إذا أحبّ شيئاً تغنّى به، فإذا أنت أحببت صديقاً فلتراقب نفسك خلال شهر مثلاً فأينما جلست تتحدث عنه وأنت لا تشعر، فمن أحبّ شيئاً تغنّى به ومن أحبّ الله تغنّى بكماله، والثناء على الله عزّ وجلّ مسعد، الله عزّ وجلّ عنده كل شيء يسعدك فيه، إذا أقبلت عليه أسعدك.

ذكرت في بعض الأبحاث نقطة دقيقة خلاصتها أنّ الدعاء وسيلة، والدعاء غاية،هو وسيلة لأنه سلاح بيدك، أما غاية لأنك لمجرد أن تدعو الله وأن تتصل به فأنت أسعد الناس، فإذا كان إقبالك على الدعاء ضعيف يخلق الله لك حاجة عنده من أجل أن تدعوه فإذا دعوته اتصلت به وسعدت بقربه.

الماجد هو الواسع الكرم، الغنيُّ المغني.

سمعت قصة من إنسان تأثرت لها.. رجل يحب الخير، وقد أصيب طفل صغير بحادث سير، ومات أبوه وأمه في الحادث وبقي الطفل الصغير حياً، فهذا المُحسن امتلأ قلبه رقةً لهذا الطفل المصاب فأجرى له في سبع أو ثماني سنوات سبع عشرة عمليةً جراحيةً بالغة التكاليف، نشأ هذا الطفل و هو يرى هذا المحسن يعطف عليه وينقله من مشفى إلى آخر، ومن بلدٍ عربي إلى بلد أجنبي، إلى أن استطاع هذا الطفل أن يمشي على قدميه، في أثناء الوداع عندما أراد أن يرسله إلى أهله الأباعد طبعاً، رفض أن يذهب حتى يودِّع عمه المُحسن، فلما التقى به أقبل عليه ليودعه فتعثرت قدمه فوقع من شدة محبته وتعلقه، قال لي هذا المحسن: لقد أعطاني الطفل علبة من العلكة -المسكة- ساعة وداعه، وأقسم لي هذا الإنسان أن هذه العلبة أغلى عندي من حي المالكي كله عندكم على الصفين أحد أحياء دمشق الراقية.. طفل ماذا يملك ؟ يملك هذه العلبة قدمها هدية رمزية لمن أحسن إليه..

فقد أردت أن أقيس وقائع هذه القصة على حالنا.. أنت ماذا قدّمت إلى الله ؟ الذي قدّم لك الوجود، قدّم لك الحواس الخمس، قدّم لك العقل، قدّم لك الأعضاء، قدّم لك زوجة صممها لك أجمل تصميم وأحسنه، قدّم لك بيتاً، وأولاداً ومكانةً، أمدك بكلّ ما تحتاج ثم هداك إليه.. فأنت ماذا قدّمت ؟ هذا الطفل لا يملك إلا هذه العلبة فقدمها، تكاليف سبع عشرة عملية جراحية أنفقها عليه، مئات الألوف بل بضع عشرات مئات الألوف حتى تمكّن من أن يمشي على قدميه، وهذا الطفل يشعر أن هذا الإنسان َقدم له كلّ شيء، فرفض أن يذهب إلى أهله قبل أن يودعه فلما التقى به ومن شدة فرحه تعثر وقدم له هذه العلبة، قال لي: والله تلك العلبة أغلى عندي من حيّ المالكي.. أقسم على ذلك، لأنه عبّر بها عن شكره.. فهل يا ترى أنت شكرت الله عزّ وجلّ ؟ لو أن الله لم يخلقنا لما كان لنا وجود، إذًا وجودنا منّة منه وتفضّلاً.. فقد قال الله تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١))

(سورة الإنسان)

أنت موجود فقد قال الله تعالى:

(الّذِي خَلَقَكَ فَسَوّاكَ فَعَدَلَكَ (٧) فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكّبَكَ (٨))

(سورة الانفطار)

وجعلك مكرّماً.. دخلت منذ يومين إلى مشتل فواجهتني لوحة يبلغ ارتفاعها من الأرض إلى ارتفاع المنبر، ورأيت فيها صفاً فيه ثلاثون صورة عرضاً، وفيه تسعون صورة طولاً، كلّ صورة تمثل نوعاً من النبات خلقه الله تعالى خصيصاً لتمتع عينيك بهذا النبات، هذا النبات نبات زينة لا يؤكل ولا يشرب لكنه مخلوقٌ لتمتع عينيك به، أنواع لا تعدُ ولا تحصى، كم نوع من الورود ومن نباتات الزينة، من ألوان الأطعمة من ألوان الفواكه، من أنواع الأطيار، هذا كلّه مخلوق للإنسان فقد قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠))

(سورة الإسراء)

فلذلك تجد الإنسان أحياناً يسأل نفسه: الله عزّ وجلّ منحك نعماً كثيرة.. نعمة الإيجاد والإمداد والهدى والرشاد، أنت ماذا قدمت لخلقه ؟.. أكبر سؤال ينبغي أن تسأل نفسك عنه ماذا فعلت من أجل ربي ؟ ماذا فعلت إرضاءً لربي ؟.

في الأعم الأغلب يأتي اسم الماجد بعد اسم الواجد.. الواجد هو الغني، والماجد هو المغني، أي غني مُغْنٍ، أما في بني البشر فهناك غني غير مغن، حريصٌ على المال يكدسُهُ أكداساً طائلة، يعيش فقيراً ليموت غنياً، وهذا من أندم الناس.. وبالمناسبة.. المال قوة، وبالمال بإمكانك أن تصل به إلى أعلى درجات الجِنان.

ذات مرة سألني أخٌ سؤالاً دقيقاً، قال لي: هل هناك من حرج أن ننفق على معيشتنا أموالاً طائلة بغير حساب، مادمنا نؤدِّي زكاة أموالنا، لا نقترف إثماً ؟ فقلت أنا لن أجيبك بكلمةٌ واحدة بنعم أو لا بل سأذكر لك مثلاً:

لو أنّ إنساناً معه مئة مليون، وعلم أن شركة استثمارية تعطي ربما على الليرة الواحدة(فرضاً)ملياراً - وهذا الكلام كلام افتراضي - رَبِحَ بكل ليرة ملياراً، وأنت معك مئة مليون، فهل تغامر وتشتري بأربعين مليوناً سيارة، وبستين مليوناً بيتاً وتمكث بدون أكل ؟، أم أنك تشتري بيتاً بعشرة ملايين ليرة وسيارة بمليونين وتضع باقي المبلغ بالاستثمار، فالأرباح مغرية، وكلُّ ليرة تربح ملياراً ؟ إن الذي معه كتلة نقدية يمكن أن يعيش حياة معقولة مكرّمة، ثمّ إذا كان عنده فائض من ذاك المال فلينفقه في طاعة الله، فهذا الفائض في الآخرة. كلّ ليرة منه بمليار، كلّ ليرة تعود عليه بألف مليار، كلّ ليرة مليار مليار هذا في الآخرة، فهل من المعقول أن أستهلك الفائض النقدي كله في النفقة اليومية ؟ لا.. فالقضيّة هذه قضية تجارية، الذي يمتلك كتلة نقدية زائدة من الممكن أن يصل بها في الجنة إلى أعلى عليين.

فللإنسان حق أن يأكل ويشرب ويسكن ويركب باعتدال، وما زاد عن حاجاته بإمكانه أن ينفقه في مرضاة الله، وسيرى اللقمة إذا أطعمها فقيراً في سبيل الله كجبل أحدٍ يوم القيامة، فهذه اللقمة الواحدة إذا أطعمتها معوزّاً، فلو قلت إذًا إنّ الليرة أعطتْ ربحًا مليارًا فإن الكلام معقول، حجم جبل مقابل حجم لقمة يفوق المليار.

فالواجد الماجد الغني المغني هو الله، والله عزّ وجلّ إذا أعطى أدهش، فقد أعطاك صحة.. يقول لك الطبيب هذا الدسّام مثلاً ثمنه ثمانون ألفًا تكلفة العملية أربعمائة وخمسون ألفاً، زرع كبد سبعة ملايين، زرع كلية ثمانمائة ألف.. فإذا عافاك الله عزّ وجلّ، فأنت إذاً تملك ألف مليون وأنت ماشٍ على رجليك،

حواس خمس، جهاز هضم، وجهاز دوران، وجهاز تنفس، وجهاز طرح الفضلات، وجهاز تصفية، وأعصاب، وعضلات، وهيكل عظمي، وعقل في رأسك، وجلد سليم، معنى ذلك أنّ ثمنك يعدل ألف مليون، فإذا أنعم الله عزّ وجلّ عليك بالصحة فقد أعطاك شيئاً ثميناً، والصحة تنتهي عند الموت، فعلى قدْرِ ما كنت معتنياً بصحتك يتحاشاك الموت إلى حين، إلاّ أنه لابد آتٍ ذات يوم.

ذكرتُ ذات مرة أن مغنيًا لم يركب طائرة في حياته، خوفاً من أن يموت في حادث طيران، أكَلُهُ أكلٌ مدهشٌ فيوماً يأكل سمكاً، ويوماً يأكل دجاجاً، مساءً فواكه متنوعة، أعتقد أنه عاش إلى التسعين، لكن بعد كلّ هذا العمر مات، ولقد قرأت عنه مقالة أن عنايته بصحته لا توصف، شيء مثل الخيال، ومع ذلك مات، معنى ذلك أن الموت يأتي على كل شيء حتى الصحة، فما الذي يبقى؟ العمل الصالح، لذلك أعظمُ نعمة، نعمة الهدى، ثم الصحة، ثم الكفاية، لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((... مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ مُعَافًى فِي جَسَدِهِ آمِنًا فِي سِرْبِهِ عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا))

(سنن ابن ماجة)

اسم الماجد لم يرد في القرآن الكريم، إلا أن الذي ورد هو المجيد، وبعد قليل ننتقل إلى اسم المجيد إن شاء الله، فالماجد أي رفيع الشرف، المتناهي بالمجد والكمال، الواسع العطاء الغني، المغنيُّ. المغني هذا هو الماجد.. أنت كمؤمن ما علاقتك بهذا الاسم ؟

فالمؤمن أيها القارىء الكريم.. وهذا كلام دقيق جداً.. لأنه عرف الله، كلّ حياته عطاء، يعطي من وقته، من جهده ومن ماله، ومن خبراته يقدم كلّ شيء فالأنبياء أعطوا ولم يأخذوا، إلا أن هذا العطاء أساسه إيمان، يعدُّ صاحبه لاجتياز عقبات الآخرة، فالمؤمن طموح جداً، فإذا إنسان قدّم لك خدمة وقال لك: أريد عليها مائة ألف، هناك أشخاص يأخذون الأجر المكافئ لجهدهم تماماً، فإنه يعرف قيمة جهده يقول لك: إن هذه العملية تكلف أربعمائة وخمسين ألفاً، لو فرضنا أن إنساناً قدمها لوجه الله. أيهما أكثر طموحاً ؟ الثاني الذي قدمها لوجه الله لأن الله عزّ وجلّ يعطيه عطاء لا يصدق يوم القيامة، فأساس الإيمان مبنيٌّ على العطاء لا على الأخذ، تعيش وتأكل وتشرب وتزوج أولادك، أما أساس إيمانك أن تعطي مما أعطاك الله، لذلك الله عزّ وجلّ قال:

(الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣))

(سورة البقرة)

أي أن أحد أركان حياة المؤمن، أحد سماته الأساسية، أحد ركائز حياته.

(وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ)

لكنك تعامل من ؟ تعامل الكريم، يعطيك عطاءً لا يصدق، أوّلاً: يعطيك في الدنيا رحمته وهي تشمل الصحة، وتشمل راحة البال، وتشمل الرفعة، والطمأنينة والثقة بالمستقبل، أما الكافر فكثيراً ما ترتعد فرائصه خوفاً من تقلبات الأيام وعثرات الزمان، مهما كان غنياً، فحسبه بؤساً أن سَلَبَهُ نعمة الأمن فقد قال تعالى:

(فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١) الَّذِينَ آَمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢))

(سورة الأنعام)

الله يعطيك المال وقد يأخذ منك نعمة الأمن، ويأخذ منك نعمة راحة البال، يأخذ منك نعمة الطمأنينة، يأخذ منك السعادة تعيش في لذائذ متناقصة تعقبها كآبات متنامية.

فالله عزّ وجلّ قال:

(وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (٣٢))

(سورة الزخرف)

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ)

(سورة فاطر)

فأنت كمؤمن إذا عرفت أن الله ماجد أي غنيٌّ مُغنٍ، متناهٍ في الشرف والرفعة والمجد وهو يعطي عطاءً لا نهائياً، إذّا فَتَخلّقْ بأخلاق الله.

فحظ العبد من هذا الاسم أن يعامل الخلق بالصفح والإحسان، والعفو والإكرام، واللين والبشاشة، وتجنّب الشقاق، وأن يعطي من ماله للفقراء، وأن يتواضع مع الخلق، وان يرفق بالضعفاء، وأن يعامل الناس كأنهم أهله وجيرانه.

فأنت عليك أن تَتَخلّق بأخلاق الله.. بالمناسبة دائماً عندما نضع قطعة من الحديد تحت أشعة الشمس، تكتسب منها شيئاً فتكتسب الحرارة، حارةً، ثمّ ضع هذه القطعة في البراد تجدها باردة، معنى ذلك أن هذه القطعة اكتسبت من هذه الثلاجة البرودة كما اكتسبت من تلك الشمس الساطعة الحرارة.. أنت إذا اتصلت بالله فلابد أن تكتسب شيئاً !! فقطعة حديد لا تعقل إن وضعتها تحت أشعة الشمس تكتسب الحرارة وإن وضعتها في ثلاجةٍ تكتسب البرودة، وأنت إذا اتصلت بالله ألا ينبغي أن تكتسب منه شيئاً ؟ فالصلاة التي هي عماد الدين وعصام اليقين ودرة الطاعات، وأعظم القربات، هذه الصلاة من أجل أن تكتسب الكمال من الله، لا يمكن أن تكون صلاتك صحيحة وتكون بخيلاً، معنى ذلك أنك غير متصل بالله، لا يمكن أن تكون الصلاة صحيحة وتكون جباناً، لا يمكن أن تكون الصلاة صحيحة وأنت حقود هذا شيء مستحيل حقد، جبن، بخل، لؤم، قسوة، قلب قاسٍ لايرقّ للناس هذا كله يتناقض مع الصلاة.

فقد قال الله تعالى:

(إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَر وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

(سورة العنكبوت الآية: ٤٥)

(إنّ الصّلاةَ تَنْهَى عَنْ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَر وَلَذِكْرُ اللّهِ أَكْبَرُ)

أي أكبر ما فيها.. فلذلك إذا أنت اتصلت بالله يجب أن تشتق لنفسك من اسمه صفة الكرم، فإنك إذا خرجت من البيت ساعياً لعملك فالتقيت بإنسان وسألك أجبته، أو طلب إعانة أعنته، أو وجدته ضالاً هديته، أو وجدته فقيراً أغنيته، همك الأول أن تسعد خلق الله عزّ وجلّ.

فأنا لي ملاحظة سأضعها بين أيدي القراء الكرام.. فأضربُ أمثلة من واقع الحياة.. أنت راكب بسيارة عامة وبجانبك صديق فدفعت عنه، فهل يظل ساكتاً ولا يتحرّك نحوك شاكراً لك، أم يبتسم ولا يقول لك شكراً ؟ فهل من المعقول أن تدفع ثلاث ليرات بهذه السيارة العامة ولا يلتفت لك شاكراً، مهما كان لئيماً، مهما كان عديم الإحساس، مهما كان جلفاً، وهل من الممكن أن تدفع عن إنسان بمركبة عامة ولا يبتسم لك ويقول لك شكراً؟! وهل من الممكن أن تقدم لإنسان هدية ويأخذها ويضعها بجواره ويقول لك: خير. نعم. ويبقى صامتاً، لا بل سوف يقول لك شكراً لقد كلفت نفسك من أجلي.. إنك لن تجد إنساناً تصنع معه معروفاً، إلاّ و يكون له ردّ فعل حميد نحوك، لن تجد إنساناً مهما كان لئيماً، مهما كان موقعه منك وقدمت له شيئاً إلاّ ويقدم لك شيئاً بالمقابل، فلو قلتَ له كلمة طيبة، لردّ عليك بكلمة طيبة، لو ابتسمت له ابتسامة، سيبتسم لك بابتسامة مثلها، لو صافحته مصافحة حارة لردّ بمصافحة حارة مثلها أو أحسن منها.

فخالق الأكوان ذو الكمال المطلق إذا أنت خطبت وده بالتوبة وخطبت وده بالطاعة، خطبت وده بالعمل الصالح، إن خطبت وده بالإحسان إلى خلقه وجدت جزاء ذلك عنده، فهل من الممكن أن تتقرب إلى الله وألاّ تجد ردّ فعل من الله؟! مستحيل.. فإذا الإنسان أحسن لخلق الله سوف يجد في نفسه الطمأنينة، والسعادة، والتوفيق، والحفظ، والتأييد، سوف يجد تكريما، والتكريم شيء استثنائي، شيءٌ مستثنى عن معاملة عامة الناس، مستثنى عن القواعد العامة التي تحكم البشر، هذه الكرامة دليل أن الله قبل هذا العمل. ألَمْ يقل النبي عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِنّ الصّدَقَةَ لَتُطْفِئُ غَضَبَ الرّبِّ وَتَدْفَعُ عَنْ مِيتَةِ السّوءِ))

(سنن الترمذي)

التعامل بهذا الدين كما قلت مرارًا تجارة رابحة.. كيف تكون التجارة ؟ ما أكثر ما يكون فيها من جهد ونشاط نشاط تجاري ؟ بدءاً من شراء المحل وتزيين المحل وترتيب المحل وتعيين الموظفين وشراء

مستودعات وفتح اعتمادات واستيراد بضاعة وعرض البضاعة ومندوب مبيعات ومندوب مُشتريات والتسويق، وبعد هذا قبض ثمن البضاعة ثم صفقة ثانية وثالثة الخ.... هذا النشاط الطويل العريض إذا لم ينتهِ بربح فهو سلوك مضحك لا معنى له، للتجارة هدفٌ واحد هو تحقيق الربح فإذا لم يتحقق الربح فكل هذا النشاط لا معنىً له، جهد ضائع وهو جهد غير ذي معنى..

فلو طبقنا ذلك على الدين.. قرأنا قرآن صلينا وصمنا وحججنا وزكّينا، وحضرنا مجالس العلم، وكانت عندنا مكتبة إسلامية، والكتاب الفلاني لابن فلان، وغيره لفلان الفلاني وهكذا، والطبعة حديثة، أحاديث الكتاب مخرّجة، هذا الكاتب رد عليه فلان هذا هو النشاط الديني، بين مطالعة وبين تأليف وبين استماع إلى أشرطة، بين حضور مجالس للعلم و بين أداء الصلوات هذا النشاط كلّه إجمالاً، إذا لم ينتهِ بك إلى أن تتصل بالله وأن تسعد بقربه لا معنى له إطلاقاً.

فأصبح الدين اليوم لدى الكثيرين من المسلمين ثقافة على فلوكلور على تقاليد وعادات على عاطفة جوفاء وهم بذلك يخدعون أنفسهم ويوردونها الموارد الآسنة، أما حينما تتصل بالله وتقطف ثمار القرب، وتجني الأمن والطمأنينة، وتجني سعادة القرب، عندئذٍ أنت متديّن، المشكلة في الدين: أنك لن تستطيع أن تتصل بالله إلا إذا كنت مستقيماً على أمره، هذا هو بيت القصيد، لكي لا يضيّع الإنسان وقته، ولكي يتحرك العبد حركة ناجحة ولكي لا يبدد نشاطه في حركة غير ذات طائل عليه أن يدرك حقيقة علاقته بالله تعالى ثم يخلص له العبادة.

ملخص الملخص يجب أن تعرفه وأن تستقيم على أمره حتى تسعد بقربه هذه هي العبادة فقد قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

(سورة الذاريات)

تعرفه، تطيعه، تسعد بقربه، وانتهى الأمر إلى رضوان الله ولا شيء غير ذلك.

شيء آخر.. من لوازم هذا الاسم أدب المؤمن مع هذا الاسم أن ترتفع همّته عن الخلائق، فمادام الله كمالُه مطلق وعطاؤه مطلق، دع الخلق إلى الخالق، دعهم، تجد الإنسان المنافق والمنحرف أرضيّاً مع الناس، ماذا تكلم فلان، لا أنا سوف أقوم بالرد عليه، أما المؤمن فهو تارك الناس، ويلتفت إلى رب الناس، هناك شيء أساسي في حياته. فالله هو الأساس والغاية.

أحياناً تدخل إلى دائرة لتقابل فلاناً المسؤولَ، وقد تجد في الممشى مائة شخص، وخمسين باباً مفتوحاً، وخمسين موظفاً جالساً لا تريد أحداً منهم، لكن تريد المدير العام فقط، هدفك واحد فقط وكل هؤلاء الذين في دربك تتجاوزهم والمؤمن كذلك هدفه الوصول إلى الله تعالى.

قيل: علاقة المؤمن بهذا الاسم: أن ترتفع همّته عن الخلائق مع تعلّقه بمولاه، فمن عرف أن الله هو الواجد الماجد سمت همته إليه واعتمد عليه في كلّ الأمور، أي أنّ المؤمن ربّاني، والمنافق شيطاني.

الحديث القدسي:

((إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

(صحيح مسلم)

وأنتقل بك أيها القارىء الكريم بعد هذا إلى اسمٍ آخر قريب من هذا الاسم وهو اسم المجيد.. الماجد على وزن فاعل، أما المجيد على وزن فعيل، المجيد صيغة مبالغة، أي سامع وسميع، ماجد ومجيد، حافظ وحفيظ، وزن فعيل من أوزان صيغ المبالغة.

وإذا قلنا مبالغة في حقّ الله عزّ وجلّ، فهذه المبالغة كماً وكيفاً، إذا قلنا إن الله عز وجل مجيد أي يتناهى في الرفعة في كلِّ صفاته هذا معنى المبالغة.. أما المبالغة النوعية فالله على كلّ شيء قدير مهما بدا كبيراً، وعلى الأشياء كلّها قدير مهما كثرت، مهما كثرت ومهما كبرت.

في اسم المجيد قالوا: المجد هو الشرف كما قلت قبل قليل لكن شرف الذات إذا قارنه حسنُ الفعال سمي مجداً.

مثلاً: إنسان درسنا نسبه ينتمي إلى أرقى أسرة لكن أفعاله سيئة لا يسمى ماجداً، إنسان آخر أعماله طيبة لكن لا نعرف أصله ولا الأسرة التي ينتمي إليها ولا ماضيه. فهو إذاً ماجد، أسرع به عمله، ولو بطأ به نسبه. شرف الذات إذا قارنه حسن الفعال سمي مجداً، والمجد المروءة والسخاء والكرم وكرم الفعال.

سيدنا سعد بن عبادة كان يقول: **اللهم هب لي حمداً ومجداً لا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال، اللهم لا يصلحني إلا هو، ولا أصلح إلا عليه.**

كلام دقيق.. إن من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، وبعض الناس مقاومته هشة إذا أغناه الله يعصيه على الفور، أي أنّه على الدخل الكبير يرتكب الموبقات، أما على الدخل المحدود مستقيم.

((وإن من عبادي من لا يصلحه إلا الفقر فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه))

هذا حديث شريف.. إلا أن الآية الكريمة تعطيك قاعدة عامة وثابتة، قال الله تعالى:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ)

(سورة الشورى)

معنى ذلك أن الله عزّ وجلّ إذا قنن، فإنّه يقنن تقنين تأديب لا تقنين عجز، إذا وجدتَ الأمطار قد شحّت، والموارد قلّت، والأعمال أصبحت عسيرة، والأمور غير ميسرة، معنى ذلك أنه تقنينٌ من الله عزّ وجلّ، وهذا التقنين لا يمكن أن يكون تقنين عجز إلا أنه تقنين تأديب.

إذا قطعوا مرافق الماء عن بيوتنا فالسبب أن المياه غير كافية، هذا تقنين عجز، إذا قطعت الكهرباء باليوم ساعة معنى ذلك يوجد تقنين عجز، أما إذا الله عزّ وجلّ قنن الموارد فلا يمكن أن يكون عجزاً لأن الله عنده خزائن كل شيء:

(وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ)

(سورة الحجر)

فإذا قنن فالتقنين تقنين تأديب، فهذا الصحابي الجليل قال داعياً: اللهم هب لي حمداً ومجداً ولا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال اللهم لا يصلحني إلا هو ولا أصلح إلا عليه.

فإذا رأيت إنساناً عظيماً وليس له عمل صالح فإن عظمته تكون فارغة، العظمة أساسها العمل العظيم، لا مجد إلا بفعال ولا فعال إلا بمال.

وبعد فإذا رجا إنسان ربّه أن يكون غنياً ليكون بهذا المال ماجداً انقلب هذا الطلب إلى عبادة، فلو أن شخصاً يبحث عن مال وهدفه إذا اغتنى أن يبني مسجداً، أو يبني معهداً شرعياً، أو يطعم الفقراء، أو يكرم الأيتام وينشئ ميتماً مثلاً، وينفق إنفاق الطامع برحمة الله ويرجو وجهه، أو يعلم الطلاب على حسابه لكي يصبحوا دعاة، فإذا كان هذا هدفه فعمله عبادة، وأي عبادة.

التقيت مرّة بإنسان بينما كنت في زيارات إحدى المحافظات فوجدت مسجداً قد أنشيء حديثاً على الساحل فأعجبني ودخلت وصليت فيه، ثم دعاني هذا الإنسان لشرب كأس من القهوة، فقال لي: أنا الذي بنيت هذا المسجد، حدثني عن قصته فسمعت كلاماً غريباً قال لي: لما أنهيت الخدمة الإلزامية من حوالي عشرين سنة، وكنت والله، لا أملك درهماً ولا ديناراً فأخذت من أُختي سوارها وبعته بثلاثمائة ليرة وسافرت إلى إحدى دول الخليج، وبينما أنا بالطائرة ما تكلمت بلساني إلا أنّهُ قد خطر في بالي خاطر: لو أن الله جبر خاطري في هذه السفرة لأعمِّرن مسجداً، أقسَم بالله أنه لم ينطق هذا بشفتيه، ثم قال لي: وأكرمني الله عزّ وجلّ إكراماً منقطع النظير ثم رجعت إلى بلدي واشتريت أرضاً مساحتها خمسة دونمات وتقدمت بطلب رخصة فلم يحصل عليها، قالوا: المنطقة غير منظمة ثم قابل مسؤولاً كبيراً هو المحافظ الذي قال له: عمِّر ولا بأس عليك ثمّ قال: وبكل بساطة عمّرنا مسجداً كبيراً ضخماً

ومرتب نظيف وهو الذي صليت فيه قبل قليل، وهو على مرأى من المسافرين قبل مدينة بانياس، لونه بني لطيف، أمنيته كانت إلى الله: إذا أكرمتني يارب فإني أعمر مسجداً، طلب بصدق النية فالله أعطاه، فإذا طلب أحد مال من الله لكي يعمرمسجدًا أو لينشئ معهداً شرعياً، أوليبني داراً للأيتام، لينفق على طلاب علم ولكي ينشر الدعوة إلى الله، هذا الغنى آل أمره إلى عبادة ولم يصبح غنى مطغياً أو غنىً منسياً لأنه أدّى حقّ الله في المال، لأن المؤمن القوي خيرٌ وأحبُ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف.. والمال قوة، لكن هذا المال يحتاج إلى نية ويحتاج إلى إيمان، والإيمان يفرز نية عالية، والنية العالية تحوّل طلب المال إلى عبادة.

أما إذا كان إنسان همه أن ينشئ هنا فيلاً، هناك شاليه، وأن يشتري السيارة الشبح ويستقلها زهواً، هذه لم تصبح عبادة بل أصبحت أعماله للدنيا.

فلذلك طلب المال من أجل الأفعال الصالحة يعدُ عبادة، يقول: اللهم هب لي حمداً ومجداً، ولا مجد إلا بفعال، ولا فعال إلا بمال اللهم لا يصلحني إلا هو ولا أصلح إلا عليه.

وإنّني أدعو أحياناً فأقول: اللهمّ صُن وجوهنا باليسار، ولا تبذلها بالاقتدار، فنسأل عندئذٍ شر خلقك ونبتلى بحمد من أعطى وذمّ من منع، وأنت من فوقهم وليُّ العطاء، وبيدك وحدك خزائن الأرض والسماء.

فإذا الإنسان أتقن عمله، أتقن مصلحته، أتقن تجارته، أتقن صناعته، أتقن وظيفته، أتقن طبه، أتقن هندسته، وجاءه دخل كبير وحل مشاكل الناس به فهو في أعلى درجات العبادة، إنه مستقيم، طاهر، ورع، كسب مالاً وزوج شاباً، واشترى بيتاً لإنسان فقير آواه به، حل مشكلة إنسان، وفّق بين زوجين، آوى إنساناً عليه دعوى إخلاء مثلاً، فتاة أمّن لها بيتاً وبعد هذا تقدم لها شاب ليتزوجها، أحياناً تجد البنت إذا ملكت بيتاً فإنها على الفور تتزوّج، إذا كنت ميسور الحال وعندك بنتٌ مستقيمة وطاهرة نقية وتقدم لها شاب لا بيت عنده ولا يملك ثمنه فاشتر لها بيتًا وزوجهما، فهناك آباء أعجلّ أفعالهم كثيراً. قال لي أخ أنا أمّنت بيتاً لهذه البنت فإذا تقدم أحد خطبها وتزوجها فله هذا البيت ولم يمض إلا وقت قليل حتى تزوجت، وانحلت مشكلة شابين بحاجة إلى زواج، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه..

((وَمَنْ فَرّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرّجَ اللّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

(صحيح البخاري)

فإذا أحد طلب المال من الله تعالى ليحل فيه مشاكل المسلمين نقول له: نِعم الطلب حباً وكرامة لطلبك، وهذا عملٌ من أرقى الأعمال وأرجاها عند الله تعالى.

الله عزّ وجلّ ذكر اسمه المجيد في القرآن الكريم، قال الله تعالى:

(ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١))

(سورة ق)

فالقرآن كتابنا المقررحدّث عنه ولا حرج، حدّث عن نظمه، وعن إعجازه، وعن تشريعه، وعن أخباره، وعن حلاله وعن حرامه، وعن وعده، وعن وعيده، وعن صوره، وعن مشاهد يوم القيامة فيه وعن قصص أنبيائه هذا الكلام كلام الله عزّ وجلّ.

فالله عزّ وجلّ قال:

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ)

(سورة الأنعام)

(الْحَمْدُ لِلّهِ الّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ)

(سورة الكهف)

الكون كله في كفّة والقرآن في كفة وهو بين أيدينا، والله الذي لا إله إلا هو لو وقفت عند حروفه حرفاً حرفاً لوجدت العجب العجاب، لو وقفت عند حركات الحروف لوجدت العجب العجاب، قواعد هامة.

قال تعالى:

(وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ)

أي الشريف، فلله الشرف والمجد والعلو والعظمة في ذاته وصفاته وأفعاله، ووصف الله تعالى قرآنه بأنه مجيد لكثرة فوائده، فالمجيد في صفة الله يدل على كثرة إحسانه وأفضاله، والمجيد هو الشريف بذاته الجليل بأفعاله الجزيل بعطائه، البالغ المنتهى في الكرم، وقيل المجيد المتناهي في الشرف في ذاته وصفاته وأفعاله وهو الجليل في نعوته والجميل في ملكه وملكوته.

جاء اسم المجيد في آيات آخرى فالله عز وجل في سورة هود قال:

(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللّهِ رَحْمَةُ اللّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (٧٣))

(سورة هود)

أي أنه كثير العطاء.

(إِنّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)

فإذا الإنسان تعرّف إلى الله واستقام على أمره يهديه سُبُل السلام، فهناك أزمات طاحنة.. ويوجد دعاء للنبي، اللهم صلّ عليه يقول فيه:

((اللّهم إني أعوذ بك من فجأة نقمتك، وتحوّل عافيتك، وجميع سخطك))

أحياناً يقع البلاء فجأةً، ويداهم المرض العُضال فجأةً.فاللهمّ إنا نعوذ بك من فجأة نقمتك، وتحوّل عافيتك، وجميع سخطك.. أحياناً تكون المفاجأة في الأولاد، أو المفاجأة في الزوجة، مفاجأة عنده خمسة

أولاد وعندما حلل إكتشف أنه لا ينجب، وعنده خمسة أولاد من غيره. فجأةً وقع الخبر عليه وقعْ الصاعقة !! فمثل هذا الخبر يكون مدمّراً وهو شيء لا يحتمل، ففي حياة الكافر والعاصي مفاجآت، وأخبار كالصواعق.

أما المؤمن فالله عزّ وجلّ يهديه سُبُل السلام، فهو في سلام مع نفسه، وفي سلام مع من حوله، وفي سلام مع ربُه، وفي سلام مع مستقبله:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا)

(سورة التوبة)

المؤمن في سلام، لن تجد عنده مفارقات وأخباراً صاعقة، ذات مرةٍ دعينا من قبل أحد الإخوان لمزرعة، وقال لي: هذه مزرعة عمّي، و بينما نحن في المزرعة دخل عمّه ولم يسلِم على الموجودين جميعاً وعددهم ثلاثون رجلاً، ولكنني ضقت ذرعًا من تصرُفه هذا، فقال لي هذا الأخ: عمي حضر من المشفى الآن حيث كان يقوم بتكرير دمه وغسل كليتيه. فلا تؤاخذه على تصرُفه فهو لم يعد يرى بعينيه من كثرة الألم، والغسيل كل أسبوع مرة، يمشِي دون أن يرى أحداً أو يحس بأحد، فالهم حجبه عن الناس كلّهم.

فقد يصاب الإنسان بمصيبة في جسده أو ماله أو عياله مما يجعله لا يرى شيئاً مما حوله، فإذا طمأنك الله عزّ وجلّ وقال لك:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور)

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

فلا تخف، فأنت موضع عنايتنا، فأحياناً تجد أن الله عزّ وجلّ يلقي بقلبك الطمأنينة وتشعر بالثقة، وتشعر بأنّ العناية تحوطك، فاحمد الله على نعمائه فالله قال:

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

فهل هذا شيء قليل أن يعتني الله بك ويدافع عنك ويطمئنك، ويُلقي السكينة بقلبك والسعادة فهل هذا قليل؟ والثمن بيدك وهو طاعتك، فأطعه وانظر متدبرا في قول القائل:

أطع أمرنا نرفع لأجلك حجبنا..   فإنا منحنا بالرضى من أحبّنا
ولُذ بحمانا واحتم بجنابنا..   لنحميك مما فيه أشرار خلقنا
وعن ذكرنا لا يشغُلنّك شاغلٌ   وأخلص لنا تلق المسرّة والهنا
وسلِم إلينا الأمر في كلّ ما يكُن   فما القرب والإبعاد إلا بأمرنا.

***

الله عزّ وجلّ قال:

(قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)

عطاؤه لا حدود له، فالله عزّ وجلّ أحياناً يعطي الإنسان قليلا من الدنيا قد يختلّ توازنه بسببه،كأن يعطيه بيتاً جميلاً، زوجة جميلة، تجارة رابحة، فكيف إذا أعطاك الله الجنّة.. ولندقق النظر في هذا الكلام، إذا ذهبنا إلى طرطوس، وركبنا زورقاً إلى جزيرة أرواد وأخرجت من جيبك إبرةً وقمت بغمسها في مياه البحر وسحبتها بعد ذلك فانظر مقدار ما حملته وتعلّق بها من ماء.. يقول النبي اللهمّ صلّ عليه:

((ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غُمِس في مياه البحر))

الدنيا بقصورها، بنسائها، بمركباتها، بمياهها، بأماكنها الجميلة.. ما أخذت الدنيا من الآخرة إلا كما يأخذ المخيط إذا غُمِس في مياه البحر.

((أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ وَلا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ))

(صحيح البخاري)

لذلك الموت عند المؤمن تُحفته وعُرسُه، لأنّه دخل الجنّة وقد رأى مقامه فيها:

(إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ)

فالله يهيّئ لنا مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إذا أكرمنا بالجنّة فهناك كل ما لا يتصوّره العقل، والثمن طاعته فقط.

وفي سورة البروج قال تعالى:

(وَهُوَ الْغَفُورُ الْوَدُودُ (١٤) ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦))

(سورة البروج)

فلا إرادَةَ فوقَ إرادةِ الله أبداً، فالله هو المريد، هو القادر، هو الفعّال، هو الحكم، هو العدل، لا رادّ لما أمر، ولا معقِب لحكمه، وقد وصف الله سبحانه وتعالى عرشّه بأنّه مجيد، ملكه ملك عظيم.

وهناك آية ثالثة قال تعالى:

(بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢))

(سورة البروج)

معنى قرآن مجيد أي كثير الخير، إن قرأته، إن تعلمْت أحكام تلاوته، إن فهمته، إن طبّقته، إن تعلّمت منه، لا حدود لفضائل القرآن، لذلك من أُوتي القرآن ورأى أنّ أحداً أُوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظّمه الله، من تعلّم القرآن متّعه الله بعقله حتى يموت، أكرر من أوتي القرآن فرأى أنّ أحداً أُوتي خيراً منه فقد حقّر ما عظّمه الله.

قال: من تخلّق باسم المجيد، ينبغي أن يكون كريماً في جميع الأحوال مع ملازمة الأدب، فمن المستحيل أن ترى مؤمناً بخيلاً.. بل تجده كريماً يعطي ولا يضنُّ بعلمه ولا بخبرته.

حدّثني أخ.. عافاه الله من مرضه، وهذه القصّة منذ ثلاثين عاماً.. عنده محل لصناعة الحلويات -الكاتو-، دخل عليه شخص من أقاصي الجزيرة وببساطة قال له: أتعلمني صنع الكاتو ؟ فقال له: على العين، تفضّل للداخل، وقام بعمل العيارات والأوزان المناسبة أمامه، وطبخها أمامه وبعد أن انتهى من العمل طلب منه أن يقوم بعمل مثلها أمامه.. ثم أقسم هذا الأخ.. أنّه منذ ثلاثين سنة وإلى الآن يزوره ذاك الأخ ويحضر له هديّة من الحسكة، فقد أسس محلاً هناك في بلده وأخذ الله بيده ولم ينس الفضل لثلاثين سنه فيحضر له كل سنة تنكة من السمن.

الإيمان أساسه العطاء، وقد حدّثني طبيب متخصص في الأورام الخبيثة قال لي: جاءت امرأة شابّة في ريعان الشباب مصابة بمرض خبيث في الحنجرة وكادت تختنق، ولا أمل في شفائها، وقد قامت مع ذويها بزيارة مشافي وعيادات عدة جامعات بما فيها الجامعة الأمريكية في لبنان والكل أجمعوا على أنه لا أمل بشفائها، قالوا لزوجها، لا أمل في شفائها.. ولكن بعد أن غادر العيادة رجع إلى الطبيب ليحاول مرةً أخرى وقال له: أنا سوف أقوم بإجراء محاولة أخيرة، ولكن الأمل ضعيفٌ جداً، وأقاموا بفندق قريب وأجرى الطبيب للمرأة جلسة أشعة يومياً، وبعد حين تحسنت حالها، وبعد ثمانية أشهر تقريباً بدأ شبح هذا المرض الخطير يتراجع، ثمّ أذن الله بشفائها وعافاها وأنجبت الأولاد.. وهذه القصة منذ أكثر من خمسٍ وعشرين سنة.. ويقول الطبيب لي: كل سنة يأتي الزوج للطبيب بخروفين صفيحة من السمن. فقال له الطبيب أخيراً: والله لقد رددت الجميل بالجميل الكثير فوفيّتْ، بل أكثرت، فيقول له الزوج: والله لئن مت أنا، فأولادي من بعدي يتابعون هذا العمل وفاءً منا لحسن صنيعك.

فقد كان ميؤوساً من شفائها ولم يتقاصَ الطبيب شيئاً على علاجها، وكان هذا الزوج فقيراً جداً وأغناه الله بعد ذلك، ونظير علاجه وخدمته طيلة ثمانية أشهر وتراجع المرض وشفاء الزوجة بفضل الله، ومَنِّهِ ولم ينس الزوج هذا الفضل، فإذا كان الفضل لإنسان فَلَمْ ينسه الزوج.

(وَلا تَنسَوْا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)

فكيف إذا كان الفضل لله عزّ وجلّ ؟؟ فقد قال تعالى:

(وَلَا تَنْسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ)

(سورة البقرة)

الماجد والمجيد اسمان من أسماء الله الحُسنى.. وبشكلٍ ملخّص.. الشريف بذاته، الحميد بأفعاله، الغنيٌ المُغني، الذي يعطي الخير الجزيل.

أخلاق المؤمن نحو هذين الاسمين يترتّب عليه.. أن يقصد وجه الله الكريم لأنّه المُغني وحده، وأن يُحسن للمخلوقات تأسياً بأخلاق الله، فاِتجِهْ إلى الله وحده وأكرم خلقه إن كنت آمنت بهذا الإسم الجليل.

٧٥- اسم الله المحيي المميت :

مع الدرس الخامس والسبعين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم المحيي المميت، وأكثر الذين ألّفوا عن أسماء الله الحُسنى جمعوا بين الاسمين في موضوعٍ واحد لأنّ الله سبحانه وتعالى في أكثر الآيات التي ورد فيها اسم المحيي المميت ورد المحيي المميت معاً في آيةٍ واحدة.

المعنى الأول لاسم المحيي أنّ الله سبحانه وتعالى يُحيي الأجساد بإيجاد الأرواح فيها.

يعني العلقة في رحم الأم تنمو، لكن بعد أن تنمو يلقي الله فيها الروح، فتتحرّك والقلب ينبض، والأجهزة تتكامل إلى أن يصبح الجنين طفلاً سوياً، دماغ جمجمة أعصاب للحس أعصاب للحركة، جهاز هضم متكامل، جهاز للتنفس، جهاز دوران، جهاز لطرح الفضلات عظام عضلات أربطة، طفل صغير كان قبل تسعة أشهر نطفة من الماء المهين، كان حويناً من خمسمائة مليون حوين بعد تسعة أشهر والأم غافلةٌ عن ما في بطنها إذا طفلٌ يخرج من رحم أمِّه سويٌّ مكتمل الخلق.. من أودع فيه الروح ؟ قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً (٨٥))

(سورة الإسراء)

يعني لو درسنا مكوّنات الحليب وجئنا بكلّ هذه المكوّنات هل نستطيع أن نصنع حليباً ؟ لو جئنا بكلّ مكوّنات البيضة هل نستطيع أن نصنع بيضة ؟ ماذا يجري في بطن الدجاجة ؟ وماذا يجري في الخليّة من الخلايا الثديية للبقرة ؟ هذه الروح.

الكبد.. ما دامت الروح في الإنسان له خمس آلاف وظيفة، فإذا مات الإنسان ألقي في المهملات، كبد الدجاج.. والدجاج حيّ له وظائف خطيرة، فإذا مات الدجاج أصبح - سودة - ويؤكل، فما سر هذه الحياة؟

هذه المعدة.. ما دامت الحياة فيها لا تهضم نفسها، أما إذا ذبح الخروف تأكلها وتهضمها معدتك، والحياة فيها لا تهضم بعد أن ماتت تهضم ؟ هناك أمثلة لا تُعدُ ولا تحصى... فأول معنى من أسماء المحيي.. هو الذي يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها.

وردة صنعت من مادةٍ بلاستيكيّة كبيرة ولها ألوان زاهية تجد أنّ النفس تعافها، الوردة الطبيعيّة تشعر وتحس بتعاطف معها عجيب، فيها حياة، فالطبيعي فيه حياة، أما الوردة البلاستيكيّة لا يوجد فيها حياة.

وقد نرى في واجهات المحلات التجاريّة أجساماً توضع عليها الأقمشة، تشعر أنّها بلاستيك أو شمع ليس فيها حياة، أما إنسان أمامك يتكلّم يتحرّك يتفاعل يبتسم يضحك يفكِّر، يعتقد لا يعتقد، يناقش، يأكل يهضم يتنفّس، إنسان.. فرقٌ كبير بين الدُمية وبين الإنسان، من الذي أوجد الروح في الإنسان ؟ الله جلّ جلاله هو المحيي، فهل هناك أحد من الحاضرين ليس له أبٌ أو أم أو لا يعرف قصّة خلقه، قصّة خلقه هو أنّ

أباه تزوج أمِّه وخرج واحد خمسمائة مليون حوين مع البويضة هذا الحوين له غلاف نواة لها غلاف والنواة فيها خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، وخمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة بالبويضة، ويدخل الحوين إلى البويضة ويبدأ الانقسام، تنقسم البويضة الملقّحة إلى عشرة آلاف قسم وهي في طريقها إلى الرحم من دون أن يزداد حجمها، لو ازداد حجمها لوقفت في الأنبوب وتعثّر سيرها، كيف تغرس في الرحم ؟ كيف تأتي الدماء غزيرةً إلى الرحم ؟ كيف يتشكّل هذا الجنين ؟ بدءً من دماغه إلى قلبه إلى أحشائه إلى أطرافه إلى أن يكون في الشهر التاسع والأيام العشر بعد التاسع طفل مكتمل، يتثائب، يضحك يبكي، يتنفّس، يهضم الحليب، فيه حياة، فالمحيي هو الذي يوجد الأرواح في الأجسام.
أو المحيي خالق الحياة ومعطيها لمن يشاء، أحياناً إنسان تجده في بيته مصدراً لسعادة البيت كلّه، إذا دخل تلاقي البيت صار عيداً كله، الأولاد يتراكضون إليه يتعلّقون عليه يجلسون في حضنه الزوجة تستقبله الضيوف يرحّب بهم، فإذا مات خاف أقرب الناس إليه الدخول إلى غرفته، فأين هو ؟ أقرب الناس إليه زوجته أولاده الضيوف، ما الذي فقده ؟ لو وزناه قبل أن يموت وبعد أن يموت وزنه هو هو، انسحبت الروح فأصبح مخيفاً، هناك من يخاف أن ينظر إلى ميت، من الذي أودع فيه الروح ؟ الله جلّ جلاله.
الله عزّ وجلّ من أسمائه المحيي أي أنّه خالق الحياة في كلّ شيءٍ حي، في النبات.. الشجرة حطب يابس يأتي الربيع تزهر، تورق، تثمر، من دبّ فيها الحياة ؟، هرّة تولد أمامك أربع هرر صغيرة تنمو ترضع، من أودع فيها الحياة ؟ الله جلّ جلاله هو المحيي، أتعبد مخلوقاً يحتاج إلى من يحييه ؟ أتعبد مخلوقاً سوف يموت ؟ أم تعبد الخالق المحيي المميت ؟
خالق الحياة في كلّ شيء، النبات فيه حياة، لو توسّعنا أكثر: هذه الطاولة التي تبدو لكم جماداً لا يتحرّك ولا يدرك ولا يسمع ولا ينظر، اسألوا علماء الفيزياء فيها حياة ؟ هذه الطاولة تتألّف من ذرّات، والذرّة عبارة من نواة وكهارب تدور حول النواة، وكل ذرّة لها معينة الكهارب ومسارات معيّنة وسرعات معيّنة، وقد ينتقل العنصر من الطبيعة الغازيّة إلى الطبيعة الجموديّة باختلاف كهروبٍ واحد على السطح الخارجي، فحتى الجماد فيه حياة، قال تعالى:

(كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣))

(سورة الأنبياء الآية: ٣٣)

(وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٤٠))

(سورة يس)

كلٌ ما في الكون يسبح في أفلاك مغلقة، بدأً من الذرّة وانتهائاً بالمجرّة، من الذي أودع الحياة في الجماد؟ الجماد حيّ والنبات حي والحيوان حي والإنسان حي والله هو المحيي.

أما الجماد.. يشغل حيّزاً له طول وعرض وارتفاع، لكنّه لا ينمو ولا يتحرّك، أما النبات.. يشغل حيّزاً وله وزن إلا أنّه ينمو، والحيوان.. يشغل حيّزاً وينمو ويتحرّك.

أما الإنسان.. له وزن يشغل حيّزاً، وينمو ويتحرّك ويفكّر. قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤))

(سورة الرحمن)

من الذي أودع الحياة ؟ هو الله جلّ جلاله هو المحيي.

الآن.. يحيي الخلق من العدم، ويحيي الخلق بعد الموت.. إحيائين. قال تعالى:

(قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ)

(سورة غافر)

الإحياء الأول الإحياء من العدم، والإحياء الثاني الإحياء بعد الموت، أمتنا اثنين وأحييتنا اثنين، معنى الإحياء أنّه يحيينا من العدم، سبقنا عدم في بطون أمهاتنا، والإحياء الثاني يحيينا يوم القيامة، يبعثنا من قبورنا ونحيا مرّةً ثانية.

الآن.في حياة معنى آخر، تجلس مع إنسان كتلة من لحم ودم لا يعي خير يوجد، يريد أن يأكل وأن يشرب وأن يتمتّع، لا يعبأ بقيمة ولا بخلق ولا مبدأ ولا بدين ولا بعقيدة، كائن يبحث عن طعامٍ وشراب وعن لذّةٍ يقتنصها، تشعر أنت بكل خليّةٍ في جسمك وبكل قطرةٍ في دمك أنّ هذا الإنسان ميّت، أما قلبه في أعلى درجة ونبضه نظامي، تنفسُه جيّد، ضغطه جيّد لو فحصته فهو في أحسن حال مئة في المئة، لكنّه ميّت، قلبه ميّت.

معنى المحيي معنىً جديد.. هو الذي يحيي القلوب بمعرفته والاتصال به، يحيي الأجسام بالأرواح، ويحيي النفوس بمعرفته وطاعته.. تجلس مع مؤمن فيه حياة فيه مبدأ فيه خُلق فيه خجل من رحمة من إنصاف من تواضع وعلم، قال تعالى:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ)

(سورة الأنعام)

بالمعنى الثالث.

أول معنى.. يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها وهي من عدم .

المعنى الثاني.. يحيي النفوس بعد موتها، المعنى الثالث.. يحيي القلوب بمعرفته والإقبال عليه.

المؤمن حيّ.. يا بُني مات خُزّان المال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر أعيانهم مفقودة وأمثالهم موجودة.

أيُها الإخوة.

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

هذا المعنى الثالث.. تجد المؤمن حيّ القلب، إذا قرأ القرآن تدمع عينيه، إذا قرأ القرآن يقشعرُ جلده، يَجِفُ قلبه ويضطرب، يحبُ ربّه، يحبُ طاعته، يحبُ الخير، يصغي إلى الحق، ينطق بالحق، يذكر الله، يذكِّر بالله يدعو إلى الله يفصِّل يبيّن يشرح، له أهداف كبيرة سامية جداً يسعى إلى مرضاته.

يحيي الأجسام بإيجاد الأرواح فيها، ويحيي القلوب بمعرفته والإقبال عليه، قال تعالى:

(يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

(سورة الحديد)

(وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥))

(سورة النحل)

(وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ(٩))

(سورة فاطر)

(وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(٥))

(سورة الجاثية)

(فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

بإنزال المطر.

والمحيي كما قال بعض العلماء: **" يحيي العوالم بسرّه "**، العوالم جمع عالم كما في قوله تعالى:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (١) الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢))

(سورة الفاتحة)

(الْعَالَمِينَ)

جمع عالَم، عالَم الحشرات، عالَم الفيروسات، عالم البكتيريات، عالم الأحياء الدقيقة، الآن توجد بحوث جديدة تشير إلى أنّ هناك مسببات للمرض هي كائنات حيّة أقلُّ من الفيروس، أصغر مخلوق هو الفيروس، الآن في مسببات تسببها هذه الكائنات التي هي أصغر من الفيروس مرض جنون البقر، أقل من الفيروس وهو كائن حي.

أحياناً ترى على صفحة الكتاب نقطة تمشي أقل من عُشر الملّيمتر فلو قسمنا المليمتر إلى عشر أقسام لكانت هذه الدويبية عشر المليمتر تمشي، ولو وضعت يدك أمامها لوقفت، ومعنى ذلك أنّها أدركت أنّ هناك حاجز أمامها، والجرثوم أصغر منها، والفيروس أصغر من الجرثوم وبعض مكوّنات الأمراض أصغر من الفيروس، أودَعَ فيها الحياة.

وهناك الحوت الأزرق يزن مئة وخمسين طناً، ووجبته المعتدلة أربعة أطنان، وإذا أرادت أُنثاه أن ترضع وليدها ترضعه في الرضعة الواحدة ثلاثمائة كيلو من الحليب، أي طناً من الحليب في الرضعات الثلاث، يستخرجون منه تسعين برميلاً من الزيوت، خمسين طناً من اللحم، خمسين طناً أخرى من الدهون، ودماغة كتلة كبيرة جداً، وهذا الفيروس فيه حياة، أقل من الفيروس في حياة، والحوت الأزرق فيه حياة، هو المحيي.

إذاً أحيا العوالم بسرّه.. عالم الأسماك، عالم الطيور، عالم الحشرات، عالم الفراشات، عالم البكتيريات، عالم الفيروسات، عالم الإنسان، عالم الحيوانات البريّة، عالم النباتات، كل شيء بيده.

قال أحيا العوالم بسرِّه، وغمر الموجودات بوافر برّه، فهل هناك مخلوقٌ لا يأكل أو لا يشرب ؟ ببعض قمم جبال هيمالايا توجد ينابيع ماء، فما معنى أن تجد ينبوع ماء في قمّة جبل، كطالب دارسٍ للفيزياء بحسب معلوماتك عن قانون الأواني المستطرقة ؟ ما معنى وجود حاء في جبل ؟ معنى فيه مستودعات للمياه وهناك تمديدات إلى الجبل الأدنى ارتفاعاً، لأنّ هناك أنواعاً من الوعول تعيش في قمم الجبال، رحمةً بها جعل الله لها بعض الينابيع في قمم الجبال.

إذاً.. هو الذي أحيا العوالم بسرّه، وغمر الموجودات بوافر برّه، فلو مسكت بسنبلة من القمح فهي غذاء كامل، ساق هذه السنبلة بفرمِهِ يصبح تبناً، وهذا التبن هل تصدِّق أنّ ساق السنبلة غذاء كامل للحيوان، وهو أرقى أنواع العلف، وأغلى أنواع العلف، كيف أنّ القمح غذاءٌ كامل، ساق السنبلة غذاءٌ كامل، من صمّم السنبلة للإنسان وساق السنبلة للحيوان؟ قال تعالى:

(وَفَاكِهَةً وَأَبّاً (٣١))

(سورة عبس)

الفاكهة للإنسان، والأبُّ للحيوان.

قال: وجمّل نفوس المخلصين بالمجاهدة.

بقي شيء الحقيقة أنّ المؤمن حيّ تنجذب نحوه ماالذي يَجذبُ فيه ؟ أنت ضع في إناءين باقة من الورد البلاستيك وباقة من الورد الطبيعي وانظر إليهما تجد نفسك منجذباً للطبيعي، تشمُّها وتنتعش، تنظر إليها وتستمتع، فيها حياة نضارة في ألوانٌ رائعة، كذلك المؤمن كالوردة الطبيعيّة.

فقد تجد إنساناً ذكياً وعاقلاً ومتجمّلاً وأنيقاً لكنه كالوردة البلاستيكيّة. النفوس لا تنجذب إليها، لذلك أمدّ أحبابه بنور المعرفة والمحبّة، منح المخلصين أنوار القربات، أوصلهم إليه بعد الغربة، قال تعالى:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النّاس)

أيُّها الإخوة... أنت بإمكانك أن تملأ قلبك حياةً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك غنىً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك طمأنينة بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك قناعةً بالاتصال بالله، أن تملأ قلبك أمناً بالاتصال بالله، القلب

الموصول حيّ، والاتصال ثمنه الطاعة، قضيّة سهلة بسيطة جداً أطع واتّصل، فأنت مؤمنٌ حيٌ القلب، لا سمح الله أعص وانقطع. القلب ميّت، حقدٌ على ضغينةٍ على لؤم على كبر على أنانية، على استعلاء، على كذب على جحود، على خيانة القلب مقطوع وميّت.

قال: أدب المؤمن مع هذا الاسم هو الإكثار من ذكر الحيّ، أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحيّ القيوم وأتوب إليه. نقولها بعد الصلاة، أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم بعد الصلاة الحيّ القيوم مصدر حياة قلوبنا، مصدر حياة أرواحنا.

قال: أدب المؤمن مع هذا الاسم هو الإكثار من ذكر الحيّ حتى يحيي القلب بنور المعرفة، وتُضيء النفس بأسرار المكاشفة، والإكثار من ذكره ولا سيما في جوف الليل.

كانت إحدى المؤمنات التقيّات وهي السيّدة رابعة العدويّة إذا كانت في جوف الليل قالت: يا رب أغلقت الملوك أبوابها، وخلا كلُ حبيبٍ بحبيبه، وها أنا ذا بين يديك أتوسّل إليك، أرجوك أن تغفر لي ذنبي، أن تحيي قلبي، أن تقيل عثرتي، أن تقبل توبتي، أن تمدّني بمدد من عندك.

إذا لم يكن للإنسان مع الله مناجاة وصلة في جوف الليل، في الصلوات المكتوبات، في السجود، فليس هناك شيء أجمل من أن تناجي خالق الكون من أن تتصل به، لكن الله عزّ وجلّ كلّنا عباده وليس هناك فرقاً بين عبداً وآخر إلا بالطاعة، أطعه وادخل عليه، أطعه، أطعه وأقبل عليه، أطعه وناجِه، أطعه وابتهل إليه ترَ بابه مفتوحاً لك أبداً.

قال أحد العارفين بالله الفضيل بن عياضٍ كان مضرب المثل بالصبر سُئل مرةً يا فُضيل ممن تعلّمت الصبر؟ قال: **من طفلٍ صغير.** قالوا: كيف ؟ قال: **كنت في أحد سكك المدينة، فإذا بابٌ يفتح ويلقى منه طفلٌ صغير ويغلق الباب، هذا الطفل بدلاً من أن يعدو مبتعداً عن بيته وقف على عتبة البيت يبكي ويستعطف ويرجو ويعِد، إلى أن فتحت له أمُّه الباب وضمّته وقالت: يا ولدي من لي غيرُك ! الفضيل صار يبكي، قال: سبحان الله لو صبر الناس على باب الله لفتحه لهم.**

لو صبر الناس على باب الله.. صليت وما شعرت بشيء أعد الصلاة، قرأت القرآن وما شعرت بشيء فأعد القراءة، جلست لذكر الله وبعد المئة تسبيحة الأولى اكتفيت.. لم تصبر، سلعة الله غالية، سلعة الله لا تأخذها مباشرةً إلا بعد تعطيش لنفسك وتأخير، قال: سبحان الله لو صبر الناس على باب الله لفتحه لهم.. لذلك:

أخلِقْ بذي الصبر أن يحظى بحاجته

ومدمن القرع للأبواب أن يلجأ

***

أخلق.. إخواننا الكرام... صدقوني ما في أعظم من إنسان له صلة بالله، فأحياناً إذا كان هناك إنسانٌ عظيمٌ ينادونه قائلين: سعادة فلان.. وقديماً دولة فلان.. لأنّه دولة، فالله سمّى إبراهيم: أمّة فقد قال تعالى:

(إنّ إبْرَاهِيمَ)

(سورة النحل)

وإذا كان من له صلة بالله، فالصلة فيها علم، فيها حلم، فيها توازن، فيها طمأنينة فيها حكمة، فيها رحمة، فيها إنصاف، فيها عدل، فعلاً صار أمّة.

(إنّ إبْرَاهِيمَ كَانَ أُمّةً)

فالقضيّة بسيطة جداً، لا يكلِف الله نفساً إلا وسعها، أطعه واتصل به فأنت حي.

لو تفلّتّ من منهجه وانقطعت عنه فأنت ميّت، ولو كنت في أوج حياتك، في أوج شبابك، في أوج نشاطك.. ميّت.

(أوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ)

(وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ)

قال تعالى:

(وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إنّ اللّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢))

(سورة فاطر)

مرة التقيت بإنسان من بلد أجنبي فقلت بنفسي لعليّ أذكّره بالله، فذكرت له بعض الكلمات فقال لي: هذه المعلومات لا تهمّني ولا أهتمُ بها ولا تعنيني ولا أبحث عنها، أنا يعنيني امرأةٌ جميلة، وسيّارةٌ فارهة ومنزلٌ واسع. وانتهى الأمر بحياتي لم أشعر بإنسان ميّت كهذا الإنسان، منتهي، فأحياناً يأتي الطبيب فيجس النبض فلا يجد نبضاً فيطلب مرآة فيضعها أمام الأنف فلا يجد بخاراً من الماء خارجاً مع التنفّس، ويأخذ كاشفاً للضوء فيفتح عينه ويسلط عليها الضوء فلا تصغر الحدقة إذاً هذا ميّت انتهت حياته، وعظّم الله أجركم، فالفحص الأول بالنبض، وبالتخطيط الدماغي إذا كان الخط مستقيماً فهذا ميّت، فطالما هناك تعرُجاً فهناك حياة، فموت الدماغ ولو كان قلبه يعمل إذا ظهر التخطيط خطاً مستقيماً ينتهي ! فلم أشعر بإنسان ميّت كهذا.. فقد تكلّمت معه عن خلق الله وهن إعجاز الكون، قال: هذه المعلومات لا تعنيني ولا أعبأ بها ولا أكترث لها، فقط ثلاثة تعنيني: امرأةٌ جميلة، وسيّارة فارهة، ومنزلٌ واسع.. وقد مات منذ حوالي سنتان بحادث.. فقال تعالى:

(فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً (١٠٥))

(سورة الكهف)

هان الله عليه فهان على الله.

ورد اسم المحيي في القرآن الكريم، فجاء في سورة الروم:

(فانظُرْ إلى آثار رَحْمَةِ اللّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

(سورة الروم)

ألم تدخل إلى بستان في الربيع ؟ قطعة من الجنة، انظر إليه في الشتاء موت، ترى الأرض جرداء، شجر كأنه حطبٌ يابس، أدخل إلى البستان في الربيع.

(فانظُرْ إلى آثار رَحْمَةِ اللّهِ كَيْفَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إنّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

وفي سورة فصلت قال تعالى:

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٣٩))

(سورة فصلت)

وفي سورة البقرة:

(فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٧٣))

(سورة البقرة)

وفي سورة آل عمران قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(١٥٦))

(سورة آل عمران)

وفي سورة الأعراف قال تعالى:

(قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ(١٥٨))

(سورة الأعراف)

آياتٌ كثيرةٌ جداً ورد فيها اسم المحيي والمميت معاً يحيي ويميت.

كلٌ منا يتمتع بصحته والحمد لله، هل يدري متى سيموت ؟ وفي أي مكان سوف يموت؟ وبأي سببٍ سوف يموت ؟ يموت في بلده أم في بلدٍ آخر ؟ يموت ليلاً أو نهاراً ؟ يموت صبحاً أو مساءً ؟ يموت وحوله أهله أم وحده ؟ من يدري.. يحيي ويميت، ومادام الإنسان لا يدري متى يموت، ينبغي أن يستعدّ للموت، فقد قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٠٢))

(سورة آل عمران)

أي لا يأتيكم الموت إلا وأنتم في أعلى درجات الاستسلام إلى الله عزّ وجلّ.
الآن الموت ضد الحياة، ماتت الريح إذا ركدت وسكنت، مات الإنسان إذا نام، سُمي النوم موتاً لأنّه يزول معه العقل والحركة تمثيلاً وتشبيهاً لا تحقيقاً، والموات الأرض التي لم تُزرع.. من أحيا أرضاً مواتاً فهي له، وفلان موتان الفؤاد أي بليد غير ذكي.

ليس من مات فاستراح بميّتٍ إنما الميّتُ ميّتُ الأحياء

***

المميت في حق الله تعالى هو مُقَدِّرُ الموت على كلّ من أماته، ذكرت قصّة أعيدها كثيراً لأنّها مؤثِّرة، جلست مع إنسان ساعة تقريباً حدّثني عن طموحاته إلى عشرين عاماً.. سيسافر من البلد الفلاني إلى البلد الفلاني إلى البلد الفلاني إلى الفلاني، وسيعود وسيفتح محلاً تجارياً، ويكبر أولاده، وفي اليوم نفسه رأيت نعوته على الجدران مساءً.
لا أحد منا يعرف متى سيموت ؟ هل سيموت في الستين من عمره أم في الخامسة والخمسين أم في الثامنة والأربعين، أم في الثالثة والسبعين، أم في التسعين من عمره ؟ لا أحد يعرف، فهناك شبابٌ يموتون.
إنسان مات قبل عامين ترك ألف مليون، أحد الورثة نصيبه تسعين مليون، أغلق محلّه التجاري وبدأ في متابعة المعاملات فذلك أربح من كل عمله، و ستّة أشهر بالتمام والكمال من دائرة إلى دائرة لاستخراج براءة الذمّة، ودخل إلى الحمام فإذا به يموت فجأة قبل أن يقبض قرشاً واحداً، فيا ترى وهو يبحث من مكان إلى مكان هل كان يتصوّر أنّه سيموت قبل أن يقبض هذا المبلغ ؟ الذي مات مسكين ما زال شاباً لن يدركه الموت بعد.
من منا يعرف متى سيموت ؟ تجد شخصاً بذهنه بخطط يستغرق عشر سنوات لتحقيقها، ويأتي الموت فجأةً:

كم من عروسٍ زيّنوها لزوجها وقد قُبضت أرواحهم ليلة القدر

***

ليلة العرس ماتت.. فما دام الموت ليس بيدنا فالإنسان العاقل هو الذي يكون مستعداً للموت، وهو شاب يدرس يؤسس عملاً ما يتزوّج، فالموت ليس معناه أن لا يعمل الإنسان ولكن إن حسب للموت حساباً يستقيم، فإذا قال: أنا سوف أموت فجأةً سيستقيم، أيّةُ ساعةٌ جاء الموت أهلاً وسهلاً، مرحباً بالموت. وا كربتاه يا أبتِ. قال: **لا كرب على أبيكِ بعد اليوم، غداً نلقى الأحبّة محمداً وصحبه.**
شيء عند معظم الناس مصيبة ولكنّ عند المؤمن عرس هو الموت، والله سمّاه في القرآن مصيبة الموت لأنّ الإنسان في حياته الدنيا ينمو، قد يكون طالباً فيحصل على الليسانس ثم الدكتوراه فيصبح دكتوراً،

يتعيّن بمشفى وظيفة ويشتري بيتاً ويتزوّج، ثم ينتقل إلى بيت أكبر ثم يضع جهازاً للتكييف، ثم يشتري سيارة، وبعد ذلك يأخذ بيتاً في المصيف، ينمو ويكبر، من بيت كانت مساحته مئة متراً إلى بيت مساحته مائتان من الأمتار وبمنطقة جميلة، فهو ينمو يحسّن أثاثه، ويزين بيته وبالسجاد فهو ينمو، ثم يأتي ملك الموت ويخلِّصه من الدنيا وينزعه منها في أقل من ثانية التي قام بجمعها في خمسين سنة أو بثمانين سنة درجة درجة، ويقبض روحه في ثانية واحدة ولا يأخذ شيئاً معه، حتى لو كان في فمه سناً من الذهب لخلعوه - بالبنسة - ويقولون من حرصهم الحي أبقى من الميّت.. لذلك: الله محيي مميت.
قال: مقدِّر الموت على كلّ من أماته ولا مميت سواه.. يجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً أنّه ليس في الكون جهةٌ تقرر إنهاء الحياة إلا الله، ولو بدا لك بالعين أنّ فلاناً أنهى حياته.. لا مهما بدا لك بعينك القاصرة وعقلك الضعيف أن فلاناً أنهى حياة فلان، فلاناً قتل فلان، لا يموت الإنسان إلا بأجله الذي حدده الله له.
لذلك كلمة الحق لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً، الذي أودع الحياة هو وحده الذي يقرر الموت علاقتك مع الله، إن آمنت هذا الإيمان تغدو شجاعاً، تغدو جريئاً، تغدو صادقاً، تعتمد على الله لا تخاف أحداً، أما إذا توهّمت أنّ فلاناً يمكنه أن ينهي الحياة عبدّته وأنت لا تشعر، عبدّته من دون الله، وأرضيته بسخط الله، وأشركته مع الله.
ولا مميت سواه... قَهَر عباده بالموت، مهما كبر الإنسان وعلا سيموت.
فقد قرأت كتاباً لطبيبٍ لامع حوالي مئتي مقالة كل واحدة أروع من الأخرى، كيف يجب عليك أن تتجنّب الملح، وكيف تقوم بأداء التمارين الرياضيّة، والمحافظة على المفاصل الجلد المعدة الأمعاء القلب، والفيتامينات، والمواد السيللوزيّة الفواكه الخضراوات، نضارة الجلد، نضارة القلب، فمعنى ذلك أنّه لو قرأ أحد الكتاب وقام بتطبيق ما فيه من تعليمات فلن يموت أبداً.. لكن المؤلِّف بعد ذلك هو الذي مات.
فسبحان الذي قهر عباده بالموت، فالطغاة يموتون، الأنبياء يموتون، كذلك الصالحون الأشرار يموتون، الأذكياء يموتون، الأغبياء يموتون، النساء تموت والرجال يموتون أبداً فسبحان من قهر عباده بالموت.
فقد قرأت كتاب قصص العرب وهو كتاب ممتِع جداً، فيه قصص واقعيّة وقعت في العالم العربي، وبعد ما قرأته نظرت نظرة كانت بالغة الموعظة، قلت كلُّ هؤلاء ماتوا، الأغنياء والفقراء، الأقوياء والضعفاء، الأصحاء والمرضى، الأذكياء والأغبياء، الظُلاّم والمظلومين كلُّهم ماتوا، وسيأتي يومٌ بعد حين كلُّ من تراه عينك في الطريق سيموت.. فنحن الموجودين هنا بعد مئة سنة لن تجد أحداً هنا وكلّنا تحت رحمة الله، وتحت أطباق الثرى، وقبل مئة سنة لم يكن أحد منا موجوداً.. محيي مميت، سبحان من قهر عباده بالموت.

الإنسان يكون كل شيء بيده وكل الأطباء في خدمته، أي دواء من أي مكان يأتي فوراً، ومع ذلك يموت الإنسان، فالله قدّر الموت على العباد، فالأنبياء ماتوا وسيّدنا النبي محمد مات اللهمّ صلِّي عليه، فالموت هذا مما قهر الله به عباده.

فعادوا إلى الأرض وطواهم التراب.. فأكبر موعظة إن كان لديك وقت فراغ ورأيت جنازة فامش وراءها، فلاحظ عندما يضعون النعش على قبرين ويرفعوا الغطاء ويحملون الميّت، وينزل شخصٌ إلى القبر ليستلقيه ويضعونه ويكشفون عن وجهه ويلقِنونه، ويطلع الحفّار من حفرة القبر ويضع بلاطات من الأحجار ويجرف عليها التراب، ويقف أولاده يتقبلون التعازي في والدهم وصفحة انطوت.. وفي بيته لا أحد يتسائل لماذا فلان لم يَعُد ؟ لن يرجع وانتهى الأمر بموته، أما إذا كان حيّاً يسألون عنه وعن سبب تأخيره حتى الساعة الثانية عشر فأين هو، وإن كان يزور أخته فيخبرونه ويسألون عنه، أما إذا مات ودفن فلن يسألوا عنه، حتى ملابسه لكي لا يتذكّروه يعطونها للفقراء على الفور، فأكثر الأسر لا يتركون له غرضاً من أغراضه من ألبسة أو من أحذية أو أي شيء له حتى لا يتذكّروه، فكأن صفحة وانطوت.

فالإنسان عندما يولد كلٌ من حوله يضحك وهو يبكي وحده، وإذا مات كلٌ من حوله يبكي.. فإذا كان بطلاً يضحك وحده، فالآن يجب علينا جميعاً أن نعمل ونشتغل بطاعة الله وبذكره بالعمل الصالح بطلب العلم بتعليمه، بالأمر بالمعروف بالنهي عن المنكر، بالأذكار بالأوراد، بالتلاوة للقرآن، فباب الله مفتوحٌ للكل.. يجب أن نستعدّ للموت بطاعة الله، أن نستعدّ للموت بالتوبة إلى الله، أن نستعدّ للموت بالعمل الصالح، ومفهوم الغِنى والفقر بعد العرض على الله، هو الغنى غنى العمل، والفقر فقر العمل.

فهناك أغنياء تركوا مبالغ خياليّة.. ثلاثين مليار دولار، وابنته انتحرت، فبالعالم الغربي أغنياء مخيفة تبلغ أموالهم أرقاماً فلكيّة.. كملك الحديد، وملك الصلب، وغيرهم ماتوا كلُّهم.

المميت.. قال: هو الذي أمات الجبابرة رحمةً بأحبّابه، أمات الظلمة لعدم احترامهم لجنابه، أمات الأرض إذ خلت من النبات.

هو المميت.. فأحياناً تجد أرضاً ميّته لعدم هطول الأمطار.. فقد رأيت صورة عن أفريقيا. شيء مخيف، الأشجار يابسة والحيوانات كلّها نافقة، والشعب هاجر من البلاد وتركها لعدم سقوط المطر، فأمات الجماد وأمات الحيوان وأمات النبات وهجّر الإنسان، تجد فلاحاً يملك بقرة ثمنها سبعين ألف وتموت فجأةً، ففي ثانية واحدة أين ثمنها ؟ فقد ذهبت وذهب ثمنها.. فالحياة بيد الله عزّ وجلّ.

لذلك الله عزّ وجلّ مميت ليعلم الناس أنّ الله قادرٌ على التصرُّف بالإحياء وبالإماتة متى شاء ومتى أراد. جاء من أمريكا وهو يحمل شهادة الدكتوراه والبورد، أنزل حقائبه من السيارة، وكان السائق ليس منتبهاً فرجع للخلف فصدمه وحصره بين السيارة والجدار، ودون أن يبلّغ أهله بمجيئه.

أو يموت يوم عرسه، أو أخذ شهادة ويموت، فالقصص مذهلة سبحان من قهر عباده بالموت، شخصٌ خطب وذهب إلى أمريكا مسافراً وقد مات وهو في المطار ترك خلفه ملايين من الأموال، ولو كان العقد مكتوباً بينه وبين زوجته لربحت نصف المبلغ، ففاتها عليها كل شيء لعدم كتابة العقد، فلا أحد يعرف متى موته ولا بأي طريقة سيموت أو في أي مكان.

هناك إشكالٌ في موضوع المميت.. إذا كان الله تعالى هو المميت، فما معنى قوله تعالى:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ)

(سورة السجدة الآية: ١١)

ومعنى قوله تعالى توفته رسلنا أيضاً:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (١١))

(سورة السجدة)

يجيب بعض العلماء عن هذا التساؤل: خَلقُ الموت في الحقيقة من الله عزّ وجلّ، خلق فعل الموت من الله، لكنّ الموت في عالم الأسباب مفوّضٌ إلى ملك الموت أو إلى أتباع وأعوان.

الفاعل في الحقيقة هو الله، أحياناً يضاف ملك الموت إلى فعل الموت أو يضاف إلى الأعوان.

(تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا)

إذا قال الله عزّ وجلّ:

(قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ)

الفاعل الحقيقي هو الله، أما في عالم الأسباب عن طريق ملك الموت أو.

(تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا)

ففي الحقيقة الله المتوفّي، وفي المجاز توفّاه ملك الموت، أو توفّته رسلنا، إلا أنّ الموت ورد في القرآن الكريم بمعاني متعدِّدة، وهي خمسة معانٍ تقريباً.

أولاً.. الموت: انعدام القوّة النامية في الإنسان والحيوان والنبات لقوله تعالى:

(يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا)

(سورة الحديد الآية: ١٧)

حينما تنمو الأرض بالنبات هي الحياة، وحينما لا تنمو بالنبات هو الموت.. وهذا هو المعنى الأول للموت.

المعنى الثاني.. زوال القوّة الحساسة في الإنسان كما جاء في القرآن الكريم على لسان السيّدة مريم:

(يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا)

(سورة مريم الآية: ٢٣)

(يَالَيْتَنِي مِتُّ)

يا ليتني لم أحِسّ بهذا الحمل.

النوع الثالث.. زوال القوّة العاقلة كما قال تعالى:

(أوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)

كان مغفّلاً وكان جاهلاً فاستيقظ وأصبح حيّاً، فعدم النماء موت، عدم الإحساس موت عدم الإدراك موت.

النوع الرابع.. الحزن والألم والكدر، والضيق موت قال تعالى:

(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ)

(سورة إبراهيم الآية: ١٧)

(وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ)

الطريق مسدود فبالبيت جحيم، والشغل متوقِف أصدقاء تخلّوا عنه،ويأتيه الموت من كل مكان.

(وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ)

انعدام السعادة انعدام التوفيق انعدام الحفظ، انعدام النجاح في الحياة، الطرق كلها مسدودة.. موت، يقول لك: الحياة مثل الموت هذا النوع الرابع.

النوع الخامس.. النوم، فالنوم موتٌ خفيف، والموت نومٌ ثقيل:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَوَى أَحَدُكُمْ إِلَى فِرَاشِهِ فَلْيَنْفُضْ فِرَاشَهُ بِدَاخِلَةِ إِزَارِهِ فَإِنَّهُ لا يَدْرِي مَا خَلَفَهُ عَلَيْهِ ثُمَّ لِيَضْطَجِعْ عَلَى شِقِّهِ الأيْمَنِ ثُمَّ لِيَقُلْ بِاسْمِكَ رَبِّي وَضَعْتُ جَنْبِي وَبِكَ أَرْفَعُهُ إِنْ أَمْسَكْتَ نَفْسِي فَارْحَمْهَا وَإِنْ أَرْسَلْتَهَا فَاحْفَظْهَا بِمَا تَحْفَظُ بِهِ عِبَادَكَ الصَّالِحِينَ))

(صحيح البخاري)

فأحدنا إن نام إما أن يصحو من النوم أو لا يصحو، فإذا لم يصحُ من نومه الله يرحمه وإذا صحا من نومه الله يحفظه من المعاصي، قال تعالى:

(اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢))

(سورة الزمر)

حظّ المؤمن من اسم المميت أن يذكره كثيراً، قال عليه الصلاة والسلام:

((أكثروا ذكر هازم اللذات مفرّق الأحباب مشتت الجماعات))

وقال صلّى الله عليه وسلّم:

((عش ما شئت فإنّك ميّت، أحبب ما شئت فإنّك مفارق، اعمل ما شئت فإنّك مجزيٌّ به.))

وقال:

((عَنْ شَدّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنّى عَلَى اللَّهِ))

(سنن ابن ماجة)

إنّ أكيسكم - يعني أعقلكم - أكثركم للموت ذكرا، وأحزمكم أشدّ استعداداً له، وإنّ من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار الخلود، والتزوّد لسكنى القبور، والتأهُّب ليوم النشور.

أيُّها الإخوة... هذا بعض ما في جعبة هذا الدرس من حقائق حول المميت والمحيي.. الله يحيينا بالإيمان، ويميت الشهوات من قلوبنا.

٧٦- اسم الله المقدم المؤخر :

مع الاسم السادس والسبعين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو المقدِّم والمؤخِّر.

شاءت حكمة الله جلّ جلاله أن يكون الناس درجاتٍ في حياتهم الدنيا قال تعالى:

(انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ)

(سورة الإسراء الآية: ٢١)

من حيث الشكل أشكال متباينة، ومن حيث المال مستويات متباينة، من حيث القوّة مستويات مختلفة، من حيث الذكاء مستويات متفاوتة، فربنا عزّ وجلّ قدّم إنساناً وأخّر إنساناً.

كلُّكم يعلم أنّ الإنسان مكلّف، وهو مخيّر فيما كُلِّف، لكنّه مسيّر في أشياء كثيرة فالإنسان مسيّر من حيث والداه، من حيث مكان ولادته، من حيث زمن ولادته، من حيث قدراته من حيث إمكاناته، أشياء كثيرة قدرها الله عزّ وجلّ على الإنسان لكن يجب أن يعلم الإنسان علماً يقينياً أنّ هذا الذي قدّره الله عليه لصالحه، وليس في الإمكان أبدع مما كان، وإذا كُشِف الغطاء اخترتم الواقع، فالإنسان إذا صدّق الله عزّ وجل وعلم أنّ حكمة الله حكمةٌ مطلقة وأنّ حكمته تقتضي أنّ كلّ شيءٍ لو كان على غير ما كان عليه لكان نقصاً في حكمة الله يرضى ويستسلم.

قد يفضل الله عزّ وجلّ إنساناً بالشكل، وقد يفضّله بالذكاء، وقد يفضِّله بالمال، أو يفضِّله بالقوّة، أو يفضِّله بأن يكون ابناً لملك، أو يكون ابناً لإنسان عادي جداً، فالله عزّ وجلّ يقدِّم ويؤخِّر، إما أنّه يقدِّم رُتبةً أو أنّه يقدِّم زمناً... إنسان قبل فلان جاء زماناً أو مكانة، فقد نجد أنفسنا نذهب لنعزي أناساً في عميد أسرتهم وفي نفس اليوم قد نذهب ونهنئ أناساً آخرين بمولودٍ جديد، من قرر أنّ هذا الذي توفّاه الله اليوم مثلاً ولِد قبل هذا الذي ولد اليوم بسبعين سنة؟ تقديم زمني، و تقديم رُتبي، فالله عزّ وجلّ هو المقدِّم وهو المؤخِّر.

إذا أيقنت بحكمته، وإذا أيقنت برحمته، وإذا أيقنت بعدالته تستسلم وترضى.

فأولاً: **" التقديم كما قال بعض العلماء ضدُّ التأخير، والمقدِّم لُغةً هو الذي يقدِّم الأشياء ويضعها في موْضعها، فمن استحقّ التقديم قدّمه "..** وبعد فلدينا معنى جديد وهو أن الله يقدِّم استحقاقاً، ويؤخِّر استحقاقاً، يقدِّم رتبةً استحقاقاً ويؤخِّر رتبةً استحقاقاً، ويوجد مع التقديم حكمة، ومع التقديم عدالة، ومع التقديم علم.

والله تعالى هو المقدِّم الذي قدّم الأحبّاء بخدمته.. فهل من الممكن أو من المعقول أنّ إنساناً خطب ودّ الله عزّ وجلّ والله لا يقدّمه ؟! إنسان أطاع الله والله لا يقدِّمه ؟ فإذا لم يقدِّم الله عزّ وجلّ الطائعين واستوى عند الناس الطائع والعاصي، فالطائع عندئذ فقد الباعث والحافز والعاصي فقد الرادع، وإذا لم يقدِّم الله الطائع ولم يؤخِّر العاصي، وإذا لم يقدِّم المحسن ولم يؤخر المسيء، وإذا لم يقدِّم المستقيم ولم

يؤخر المنحرف، وإذا لم يقدِّم الرحيم ولم يؤخر القاسي.. فالرحيم يَمَلُّ من عمله والمنحرف يستمرء عمله.

لذلك هناك بعلم التربية قاعدة أساسيّة.. ما لم يُكافأ المحسن ويُعاقب المسيء فالأمور تصبح فوضى.

على مستوى مدرسة، على مستوى مشفى، على مستوى معمل.. فمثلاً يتأخر عامل كل يوم ساعة ولا يعاقب، وعامل ينضبط أشدّ الانضباط ولا يكافأ ! بعد حينٍ نجد المنضبط يتفلّت والمقصِّر يزداد تقصيراً.

فكأن اسم المقدِّم والمؤخِّر مرتبطٌ باسم المربي.. والله يقدِّم ويؤخِّر، فهل من المعقول أنك شابٌ تستقيم ولا يقدِّمك ؟ ليس هذا معقولاً بل يقدِّمك ويكرمك، فالله عزّ وجلّ قال:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤))

(سورة الشرح)

فهل تجد إنساناً بالأرض يُذكر مع الله إلاّ رسول الله ؟ ألا تقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله.

(رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

كلمة محمد الآن في العالم ضمن خمسة آلاف مليون إنسان كم إنسان يذكر كلمة محمد ؟

(وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ)

الله تعالى هو المقدِّم الذي قدّم الأحباء بخدمته.. أجل لقد قدّمهم، دائماً أريد من المؤمنين أن تكون معنوياتهم عالية، اللهمّ صلِّ عليه ذهب إلى الطائف بعد أن أخرجته مكّة وكذّبته ونكّلت بأصحابه، ذهب إلى الطائف يستنصرهم فكذّبوه وردّوا دعوته وسخروا منه وأغروا سفهاءهم بإيذائه، فلما عاد قال له سيّدنا زيد: **يا رسول الله أتعود إلى مكّة وقد أخرجتك؟** قال:

((إنّ الله ناصر نبيّه.))

حينما كان في طريقه إلى الهجرة تبعه سُراقة بن مالك قال: **كيف بك يا سُراقة إذا لبست سواري كِسرى،** معنى ذلك أنّ النبيّ واثقٌ من نصر الله عزّ وجلّ، فأنت كمؤمن يجب أن تؤمن أنكّ إذا استقمت على أمر الله، وإذا أحببته وإذا أخلصت له، وإذا أقبلت عليه فلا بدّ من أن يُقدِّمك أبداً.. هكذا حكمة الله وهكذا عدالته وهكذا رحمته.

قال العلماء: **" الله تعالى هو المقدِّم قدّم الأحباء بخدمته، وعصمهم من معصيته".** وقال بعض العارفين: **"المقدِّم هو الذي قدّم أحبابه وأسعدهم بالفهم والحِكم، والذي قدّم العارفين على الجاهلين ".** الله عزّ وجلّ قال:

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

(سورة الزمر الآية: ٩)

(هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ)

ليس هناك نسبة.. فهل يكون إنسان طائع كالعاصي، أو أن تجد إنساناً مستقيماً كالمنحرف، فالله يقدِّم المستقيم ويدافع عنه.

فقد حدّثني أخ يعمل في دائرة له مدير غير ملتزم إطلاقاً، لكنّه يحترم هذا الموظّف أشدّ أنواع الاحترام لأنه ملتزم، ويتورّع هذا المدير عن أن يرتكب مخالفة للشرع أمام هذا الموظّف.. ففي ظاهر الأمر أنّ هذا موظف بسيط والمدير لا شك أعلى مرتبة منه، فانظر إلى الأعلى يحترم الأدنى لدينه، فالله قدّمه، فبدينك واستقامتك قد تكون مكانتك أعلى من مرتبتك.

قد يكون هناك في البيت شاب، وله أربعة أو خمسة إخوة متفلتون يأتون في ساعة متأخرة ليلاً لهم أصدقاء وأصحاب منحرفون، هذا الشاب الورع المستقيم له مكانة في البيت لا تقل عن مكانة والده، هذا المقدّم.. الله قدّم، كل إنسان في عمله و في حيّه و في أسرته إذا كان مستقيماً له اتصال بالله عزّ وجلّ الله يقدِّمه، هو المقدِّم.

قال العلماء: قدّم العارفين على الجاهلين وفتح لهم أبواب اليقين، قدّم العلماء على الجهلاء، وجعلهم نجوم الاهتداء، قدّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بدءاً وختاماً.

سيّدنا عمر عندما وقف على المنبر ليخطب بعد أن تولى الخلافة نزل درجة، وقال: **ما كان الله ليراني أضع نفسي في مقام أبي بكر..** معنى ذلك أنّ مقام أبي بكر محفوظ أشدّ الحفظ.

الله عزّ وجلّ قدّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على كلّ الرسل والأنبياء، قال تعالى مخاطباً رسله وأنبياءه:

(ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ)

(سورة آل عمران الآية: ٨١)

قدّمه ليلة الإسراء حيث صلّى بجميع الأنبياء.. أريد أن أستخلص من هذا الشرح أنّك لك مكانة عند الله بحجم عملك الصالح، هذه المكانة تنالها بدقةٍ بالغة وبعدالةٍ مطلقة، لا يمكن أن يستوي عند الله إنسانان

متفاوتان في عملهما أبداً، إذا كان عملك أصلح فمرتبتك أعلى، ورعك أكثر فمرتبتك أعلى، محبّتك أسمى فمرتبتك أعلى، استقامتك أبلغ فمرتبتك أعلى، فقد قال تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ(١٣٣))

(سورة الأنعام)

كل واحد منا له عند الله مرتبة.. له درجة، له مكانة من خلال هذه المكانة يعامل، قد نرى إنساناً غالياً على الله، وقد نرى إنساناً هيّناً على الله، فالكفار لهم صغارٌ عند الله.. قال تعالى:

(فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا(١٠٥))

(سورة الكهف)

(فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا)

يسقطون من عين الله، هناك أناس كما قال بعضهم: ومعنى هذه الكلمة محصور، لله رجال إذا أرادوا أراد. دعاؤهم مستجاب.

فالله يقدِّم.. وإذا قدّم الله فالأمر عجيب مذهل، وإذا ألقى محبّتك في قلوب الخلق هذه سعادةً كبيرةً جداً، الإنسان المؤمن كيفما تحرّك يكون محبوباً، كيفما مشي يكون محترماً، في غيبته يُثنى عليه، وفي حضرته يُثنى عليه، فالله قدّمه.. لماذا قدّمه ؟ لعمله الصالح، لطهارته قدّمه لإخلاصه وقدمه لاستقامته، الله مقدِّم ومؤخِّر.

يؤخِّر إنساناً.. هو يعمل لكن في عمله شرك خفي، هو يعمل ليرضي زيداً أو عُبيداً، لكنه لا يستطيع أن يرضي زيداً أو عُبيداً، فيؤخِّره الله عزّ وجلّ، إما أن يؤخِّره رُتبةً، أو أن يؤخِّره زمناً.

في القرآن الكريم في سورة ق قال تعالى:

(قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيّ وَقَدْ قَدّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدّلُ الْقَوْلُ لَدَيّ وَمَا أَنَا بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩))

(سورة ق)

أتظن أن الله عزّ وجلّ يظلمك ؟ ! أو يبخسك عملك ؟ ! ويقلل مكانتك التي تستحقُّها ؟! أو يطمس لك تألّقك ؟ هذا شيء مستحيل، أنت بعلمك وعملك وإخلاصك واستقامتك تحتلُّ عند الله مرتبةً تتناسب مع أحوالك.

فمثلاً.. أتجد إنساناً قوياً جداً وتقول له افعل بي ما تشاء ؟ لا يمكن فلعل عندك أخطاءً سابقة فينتقم منك انتقاماً شديداً، أما سيّدنا هود قال لقومه:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

بالمناسبة: الإنسان يمتحن مكانته عند الله بالدعاء، يقع في أزمة وفي شدّة، فيدعو الله بإخلاصٍ شديد، إن أستجيب له معنى ذلك أنّ له شأناً عند الله، دائماً كما قيل: ابتغوا الرفعة عند الله.

بعض الناس يبتغي الرفعة عند الخلق.. يُحسِّن بيته يزيّن بيته، ويشتري أثاثاً فخماً ويركب مركبةً فخمةً ويرتدي ثياباً قشيبة غالية، يزهو بثيابه بمركبته ببيته، هو يحول أن ينتزع إعجاب الناس بهذه المظاهر الفارغة يسعى ليسمو مكانةً عند الناس، ومن علامات آخر الزمان أنّ قيمة المرء متاعه.

عشرة أشخاص يملكون مركبات من ماركة واحدة لكن يتباهون.. فهذه مرسيدس مئة وتسعون، وهذه مئة وثمانون، وهذه مائتان وثمانون، هذه ستمائة.. فالإنسان ينتزع مكانته فقط من مركبته، من موقع بيته، من مساحة بيته، من ثيابه، وهذا كله من علامات تخلُّف المجتمع القول الرائع النافع **" ابتغوا الرفعة عند الله ".**

سُلَّمُ الرفعة عند الله بيد كلِّ إنسان، فهو بيدك.. ألا تستطيع أن تقيم الإسلام في بيتك ؟ ألا تستطيع أن تقيمه في عملك ؟ ألا تستطيع أن تضع متع الدنيا ومغرياتها تحت قدميك إرضاءً لله عزّ وجلّ ؟ ألا تستطيع أن تكون صادقاً، ألا تستطيع أن تصلِّي الصلوات على وقتها ؟ ألا تستطيع أن تضبط لسانك ؟ أن تضبط جوارحك، أن تربي أولادك ؟ سلّم الرفعة إلى الله بيد كل واحد فالقول الدقيق ابتغوا الرفعة عند الله، هذا هو العاقل، إن هذه الرفعة تراها شيئاً لا يُقدّر بثمن حينما ينتهي الأجل قال تعالى:

(قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧))

(سورة يس)

الله هو الذي يقدِّم.. أنت ُتقدِم على الله فيقدمك، وتتأخر عن الله فيؤخرك، إذا الإنسان أخلص لله ألقى الله في قلب الناس محبته وهيبته، من اتقى الله هابه كل شيء، والإنسان إذا ازَوَّر عن الله، وأعرض عنه انتزع هيبته من قلوب الخلق، تطاولٌ، مزاحٌ رخيص، يمزح معه مَن هو دونه وقد ينال من كرامته. المؤمن لا يبتغي الرفعة في الدنيا بل يبتغي الرفعة عند الله لكن الله عزّ وجلّ أجلّ وأكرم من أن يكافئه في الآخرة فحسب، ويدعه في الدنيا هيناً، فالدنيا تأتيه وهي راغمة تكرمةً له من ربه.

مادام الله عزّ وجلّ يقدم ويؤخر، أنت كعبد ألا تستطيع أن تتخلق بأخلاق الله ؟ أنت أمام ألف خيار ما الذي ينبغي أن تقدمه ؟ وما الذي ينبغي أن تؤخره ؟ المؤمن الصادق يقدم أعمال الآخرة، ويؤخر أعمال الدنيا.

إذا كان منهمكاً في عمل ودخل وقتُ الصلاة، فإذا أخر الصلاة وتابع العمل فقد تخلف عن أن يتخلق بأخلاق الله، أما إذا قدم عمل الآخرة وأخر عمل الدنيا يكون عرف قيمة الدنيا، وعرف أنها مزرعة الآخرة، فكن ممن يقدم الأعمال الصالحة ففيها رفعة شأنك، ومن آثر الآخرة على الدنيا رح الدنيا والآخرة.

هناك أشخاص أرى نفسي معجباً بهم ففي حياتهم أولويات مثلاً حفاظه على أوقات صلواته، طلبه للعلم، طاعته لله عزّ وجلّ، فهو برمج حياته كلّها وفق هذه الأهداف، ووقته الزائد يصلح فيه شأن دنياه، فلن يؤثر نزهة على صلاة الجمعة ؟ ولن يقدم جلسة تافهة على مجلس علم ؟ دنياه مرتبتها الثانية في كل أحواله، يؤثر مرضاة ربه على سائر متطلباته.

ما معنى مقدم ومؤخر ؟ لقد تحدّثنا قبل قليل عن أن الله جلّ جلاله يقدّم ويؤخرّ.. يقدم الصالح ويؤخر الطالح، يقدم العالم يؤخر الجاهل، يقدم المحب ويؤخر المبغض، ويقدّم الطائع ويؤخر العاصي، يقدم المقبل ويؤخر المعرض، يقدم مرتبةً ويقدم زمناً، وهذا كله عدل منه سبحانه.

إذا أدركت أنك عبد لله حقاً فما حظك من هذا الاسم ؟ أنت أمام خيارات كثيرة ينبغي أن تقدم ما كان لله ورسوله، أن تقدم ما كان للآخرة، تلاحظ بائعاً مثلاً لديه زبون فيهتم به اهتماماً بالغاً، فلو طلب منه شخص خدمة لله، فمادام عنده ازدحام زبائن، يقول له - مشغول ليس لدي فراغ - أي هو بحسب رؤيته أن هذا الزبون يأتيه منه ربح نقدي، وأما الآخر ربما يدعو له فماذا سيجني من الدعوة ؟ أما لو عرف قيمة حياته الدنيا وعرف أنها مزرعة الآخرة، لأقبل على العمل الصالح أكثر من إقباله على الربح المادي.

وثق أن هناك أشخاصاً يقدمون خدمات لله دون أن يرجو أحدهم أجراً، وإذا علموا ستقدم لهم أجراً لتألّموا أشدّ الألم، ولسارع قائلاً لك: أنا فعلت هذا لله، لا أريد جزاء ولا شكوراً.

قال لي يوماً أخ كريم.. لديه أزمة في قلبه، يحتاج إلى عملية، تكلِف مبلغاً ضخماً - فوق الثلاثمائة ألف- تلقى اتصالاً هاتفياً من امرأةٍ محسنة، قالت له اتصل غداً بالطبيب الفلاني إنه سيجري لك العملية مجاناً، دفعت ثمن العملية...... بينما هناك إنسان آخر يقيم احتفالاً يكلف ملايين ليزهو أمام الناس ويضنُّ أن يتصدّق بمئة ليرة.

الذي قدّم العمل الصالح كان مقدّماً عند الله، والذي قدم شهواته على أعماله الصالحة كان مؤخراً عند الله، فالله سبحانه وتعالى يقدِّم ويؤخِّر.

في الحقيقة ينبغي أن يكون مسارك في الحياة واضحاً جلياً.. فكثير هي المقاييس الماديّة فإنسان يتقدّم بماله، يتقدم بمرتبته، أحياناً يتقدم بنسبه، أو بقوّته، يتقدم بذكائه، يتقدّم تقدماً مبدئياً أو تقدُّماً مؤقّتاً، فإن لم يكن مطيعاً لله أخره الله، هذا التقديم تقديم امتحان، أو تقديم استدراج إن لم يكن في مستوى هذا التقديم أخره الله عزّ وجلّ، إما أن يؤخره بفضيحةٍ، أو بكفِّ يدٍ، أو بإهمالٍ وإزراء، أو بخطأٍ فاحشٍ يرتكبه يعاقب عليه، أما المؤمن فدائماً خطُّه البياني صاعدٌ صعوداً مستمرا.

فالكافر قد يصعد خطُّه البياني صعوداً حاداً ليسقط سقوطاً مريعاً، أما المؤمن يصعد خطه صعوداً منتظماً بطيئاً مستمراً، وهذا الصعود إلى أبد الآبدين، الله مقدم ومؤخِّر، يقدم أُناساً ويؤخِّر أُناساً.

كلُّكم يعلم قصة سيدنا عبد الله بن رواحة عندما عيّنه النبي قائداً ثالثاً لجيشٍ إسلامي، وكيف أنّ القائد الأول سيدنا زيد تقدّم وأخذ الراية فقاتل بها حتى قُتل، وقد قال عنه النبي: إني لأرى مقامه في الجنة، وكيف أنّ سيدنا جعفراً رضي الله عنه أخذ الراية وتقدّم بها فقاتل حتى قُتل وقال عنه النبي: **وإني لأرى**

مقامه في الجنة، وتروي بعض الروايات أنّ القائد الثالث سيّدنا عبد الله بن رواحة لما رأى صاحبيه قُتلا في وقتٍ قصير تردد في أخذ الراية و قال بيتين من الشعر:

يا نفسُ إلا تُقتلي تموتي   هذا حِمام الموت قد لَقيتِ

إن تفعلي فعلهما رضيت ِ..   وإن توليتِ فقد شَقيتِ.

***

حدّث النبي أصحابه عن سيدنا زيد وسيدنا جعفر ثم سكت. قال أصحابه: يا رسول الله ما فعل عبد الله بن رواحة ؟! قال:

((ثم أخذ الراية أخوكم عبد الله، فقاتل بها حتى قُتل وإني لأرى في مقامه ازوراراً عن صاحبيه))

لأنه تردد.. فالله يقدم ويؤخر، فقد قال صلّى الله عليه وسلم:

((ما طلعت شمسٌ على رجلٍ بعد النبيين أفضل من أبي بكر، الله قدمه وجعله سيد الصحابة.))

وقال صلّى الله عليه وسلم:

((ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له كبوة، إلا أخي أبا بكر لم تكن له كبوة.))

وقال كذلك:

((تسابقت أنا وأبو بكر فكنا كهاتين))

فالله قدمه.. ما أخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلم من أحدٍ ماله كلّه إلا أبا بكر.

لذلك أنت حينما تعتمر تقف أمام مقام النبي ثم تقف أمام مقام سيدنا الصديق، ثم أمام مقام سيدنا عمر.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وسلم في حقهما:

((أبو بكر وعمر مني مثل السمع والبصر))

الله قدّمهما.. ففي كل مجتمع مقدّم ومؤخّر، الله يقدم الطائع، فقد تجد إنساناً يعمل بلا ضجيج، وهؤلاء الأتقياء الأخفياء يعملون بصمت يعملون بلا ضجيج، يبذلون جهوداً كبيرة يعلِّمون، يتصدقون، يمسحون عن الناس جراحاتهم، هؤلاء قد تراهم في الظل وفجأةً يتقدمون.. فالله قدمهم، الله هو المقدِّم وهو المؤخِّر.

حتى في عملك إذا كنت من المحبوبين عند الله يقدمك في عملك، يلهمك من الأساليب التي لا يلهمها غيرك، يلهمك تصرُّفات لا يعرفها الآخرون، يدافع عنك في غيبتك فهو المقدِّم، يقدمك.

ورد في بعض الكتب أن سيدنا جبريل خاطب النبي عليه الصلاة والسلام قال: **بلِّغ صاحبك أنّ الله راضٍ عن أبي بكر. أهذه قليلة ؟** فالله قدمه.

المؤمن إذا أراد أن يتخلّق بأخلاق الله، يقدم أمور الآخرة على أمور الدنيا.. فقد تجد إنساناً مستعداً لأن يترك صلاة ومجلساً للعلم لإصلاح آلة تافهة في بيته.. أليس كذلك ؟ أو يترك صلاة ومجلس علم

لاستقبال ضيف بسيط حديثه فارغ، يستحي أن يقول له لدي الآن درس وهيا نذهب معاً إلى المسجد لسماعه..

المؤمن إذا أراد أن يتخلّق بأخلاق الله يقدم أعمال الآخرة على أعمال الدنيا، ففي حياته أولويات.. تلاحظ أن أصحاب الأعمال الناجحين أحدهم يمضي وقتاً معيناً يقرأ جريدة، ويشرب كأساً من الشاي، لكن إذا جاءه زبون ترك الجريدة وترك كأس الشاي، وقام بإقناع الزبون بالبيع.. معنى ذلك أن هذا المحل تجاري وأساسه الربح، فإذا جاء زبون يجب أن نهتم جميعاً به، وليس من المعقول أن ينتظر الزبون حتى تنتهي المقالة التي نقرؤها ؟ لا أحد يفعل ذلك، الأهم على المهم، وإذا أنت فعلت ذلك فمن باب أولى أن تقدم الأهم على التافه، فأمور الدنيا تافهة.

قمنا بتشييع جنازة يوماً ودخلنا إلى المقبرة في الباب الصغير، قلت لمن كان إلى جانبي: كل هؤلاء الموتى ماتوا وفي دفاترهم قوائم لأعمال طويلة وكثيرة لم تنتهِ بعد.

الإنسان يُنتزع من بيته، من عمله، لم يفرغ بعد من صب سقفٍ لبيته، أو لم ينتهِ من دراسته الجامعية، فكل هؤلاء الموتى تركوا الدنيا وتركوا همومها ومتاعبها، كما تركوا قوائم أعمال لم تشطب بعد.. فعلى الإنسان أن يقدِّم الآخرة على الدنيا.

ومن معاني المؤخر في حقّ الله تعالى كما يقول بعض العارفين: الذي يؤخِّر المشركين.. القتلى المشركون في بدر.. خاطبهم النبي واحداً واحداً وبأسمائهم قائلاً لهم: **يا أمية بن خلف، يا فلان، يا فلان، يا فلان، هل وجدتم ما وعد ربُكم حقا ؟ فإني وجدت ما وعدني ربي حقا، لقد كذّبتموني وصدقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس، وخذلتموني ونصرني الناس،** قالوا: يا رسول الله أتخاطب قوماً جيّفوا **!!** قال: **ما أنتم بأسمع لما أقول منهم.**

((عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ لَمَّا أَمَرَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ بِأُولَئِكَ الرَّهْطِ فَأُلْقُوا فِي الطُّوَى عُتْبَةُ وَأَبُو جَهْلٍ وَأَصْحَابُهُ وَقَفَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ جَزَاكُمُ اللَّهُ شَرًّا مِنْ قَوْمِ نَبِيٍّ مَا كَانَ أَسْوَأَ الطَّرْدِ وَأَشَدَّ التَّكْذِيبِ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تُكَلِّمُ قَوْمًا جَيَّفُوا فَقَالَ مَا أَنْتُمْ بِأَفْهَمَ لِقَوْلِي مِنْهُمْ أَوْ لَهُمْ أَفْهَمُ لِقَوْلِي مِنْكُمْ.))

(مسند الإمام أحمد)

الله أخّرهم.. ماتوا حتفَ أنوفهم، ماتوا كالجيف، أما أصحابه الكرام تألّقوا كالنجوم.

فنحن نذكر اسم سيدنا عمر أكثر من مئات المرات، ونترضى عنه كل يوم وكل ساعة، وفي كل مسجد، وفي كل بلد إسلامي.. استحق ثناء الخالق والمخلوقين، بينما هناك من استحقّ لعنة الله والملائكة والناس أجمعين كأبي جهل وأمثاله.

قال: المؤخِّر في حقّ الله تعالى هو الذي يؤخر المشركين، ويرفع المؤمنين، يؤخر العصاة ويرفع الطائعين.

أبو سفيان.. كان سيد قومه، طبعاً أسلم في آخر حياته، ولكنه وقف على باب سيدنا عمر ساعات طويلة يريد الدخول عليه وما أذن له، أما بلال وصهيب فكانا يدخلان بلا استئذان فلما دخل عليه عاتبه قائلاً له: **سيد قريش يقف على بابك ساعات طوالاً وبلال وصهيب يدخلان بلا استئذان ؟! فقال له: أأنت مثلهما ؟!**

الله قدم بلالاً وصهيباً وأخّر أبا سفيان.. أسلم متأخراً ورضي الله عنه، ولكن ليسوا سواءً، فمن خاض ضد رسول الله المعارك أكثر من عشرين سنة ثم بعد ذلك أسلم، كَمَنْ قام بنصره منذ البداية، فهناك فرقٌ كبيرٌ جداً بينهما ولكلٍ حسابه.

إذاً.. يؤخر المشركين، ويقدم المؤمنين، ويؤخر العصاة ويقدم الطائعين.

وأحياناً من معاني المؤخر.. أنه يؤخِّر العقوبة لحكمةٍ بالغةٍ، قد يكون إنسانٌ مرتكباً لمعصية، ومتلبساً بها ولكن في علم الله فيه خير، لو أن الله عاقبه بمعصيته لأهلكه، فالله عزّ وجلّ يعلم حقيقة نفسه فيؤخر عنه العقوبة فلعلّه يتوب، فيكون التأخير منه سبحانه لحكمةٍ بالغة.

لذلك فالمصائب خمسة أنواع: مصائب المنحرفين، والعصاة، نوعان.. مصائب قصمٍ ومصائب ردعٍ، القصم كما قال الله عزّ وجل عن قوم نوح:

(وَأُوحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آَمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (٣٦))

(سورة هود)

هناك أشخاصٌ في علم الله لا يهتدون، لذلك يقصمهم الله عزّ وجلّ، أشخاص فيهم بقيّة خير، فالله عزّ وجلّ يسوق لهم بعض الشدائد ليردعهم لكن لا يقصمهم، فالله يقدِّم هلاك إنسان ويؤخر هلاك إنسان، لذلك أخر فَتْحَ مكة قال الله عزّ وجلّ:

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

(سورة الفتح الآية: ٤٥)

(وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ)

أناس مؤمنون ضعفاء خافوا أن يُعلنوا إيمانهم في مكة فالله عزّ وجلّ أخّر فتح مكة ومنع الصحابة الكرام من قتال أهل مكة إكراماً لهؤلاء.. معنى ثالث.. يقدم العقوبة أو يؤخرها، يقدم المكافأة أو يؤخرها.

أحياناً قد يقدّم له الله المكافأة لإنسان فيرتاح ويقعد ويتوانى ويتكاسل، وأحياناً الله يؤخر لإنسان المكافأة فييأس.. ولحكمةٍ أرادها الله يقدِّم المكافأة أو يؤخرُها، يقدم العقاب أو يؤخره.. فمن أسمائه المقدم

والمؤخر.

قال العلماء: متى أشرق في قلبك نور اسمه المؤخر، صرت في كلِّ الأمور متدبّراً فتؤخِّر كلّ ما أخره الله، فما أخره الله تؤخره، وما قدمه الله تقدمه.

فالله يقدم ويؤخر.. وأنت كمؤمن من لوازم تأدُّبك مع اسم المقدم المؤخر أن تقدم أهل الإيمان، وأن تؤخر أهل الدنيا، فإذا دعي الإنسان العادي من قبل إنسانٍ غني تراه يلبي الدعوة مئة في المئة، أما إذا دعي من قبل إنسانٍ فقيرٍ يسكن في أطراف المدينة اعتذر متعللاً بعمله وانشغاله وبعدم فراغه وأنه محمي عن الطعام.. تلبية دعوة الأغنياء والأقوياء من الدنيا، وتلبية دعوة المؤمنين من الآخرة، قال عليه الصلاة والسلام:

((لو دُعيت إلى كُراع لغنيمٍ لأجبت.))

والنبي عليه الصلاة والسلام بهذه المناسبة حضّنا على تلبية الدعوة فقال:

((من دُعي ولم يُلبِ فقد عصى أبا القاسم))

وفي رواية أخرى:

((عَنْ نَافِعٍ قَالَ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ دُعِيَ فَلَمْ يُجِبْ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ دَخَلَ عَلَى غَيْرِ دَعْوَةٍ دَخَلَ سَارِقًا وَخَرَجَ مُغِيرًا))

(سنن أبي داوود)

دعي أحد الصحابة ذات مرة إلى وليمة فقال: إني صائم، فقيل له: اذهب معنا وصّلِ وقت طعامنا.

معنى ذلك أن ليس القصد من الدعوة أن تملأ البطن، القصد من الدعوة أن تلتقي بإخوانك، أن تجتمع إليهم، أن تذْكُر الله معهم، يعني أنّك لو كنت صائماً فلبِّ الدعوة وإن لم تأكل شيئاً، فإذا كان الهدف الأكل ليس للدعوة أية قيمة في أن يلبي صائمٌ الدعوة، وأما إذا كان الهدف اللقاء مع إخوانك وأن تتذاكر معهم أمور الدين فالأكل أصبح شيئاً ثانوياً، فإذا كنت صائماً فلبِّ الدعوة واجتمع إليهم وصلّ وقت الطعام، وإذاً من دعي ولم يلبِ فقد عصى الله ورسوله من دعي ولم يلبِ فقد عصى أبا القاسم.

حتى إن الرسول صلّى الله عليه وسلم قال لأحد الصحابة وكان صائماً: **أفطر، أخوك دعاك وتكلّف لك وتقول إني صائم، أفطر وصم يوماً مكانه،** إذاً المؤمن يقدم أهل الإيمان ودعوة أهل الإيمان.

سرّني أن أحد الأشخاص وصل إلى منصب رفيع جداً، وزاره أستاذه وهو رجل علم ودين، فنزل من الطابق الثالث وفتح له باب السيارة واحترمه أمام الناس ورافقه في صعوده لمنزله، فهذه القصة بقيتْ في ذهني وانطربت لها، أن إنساناً على مستوى رئيس وزارة يزوره أستاذه في التعليم الثانوي مُفْتٍ في بعض المحافظات، له قيمته، رجل وقور مُعمّر فنزل من الطابق الثالث، وفتح له باب السيارة أمام الناس كلهم، فاحترام العلم من الدين، طبعاً، وإن من إجلال الله إجلال ذي الشيبة المسلم.

فأنت عندما تقدم أهل الإيمان تنعشهم، ألم يقل رسول الله: إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، رضاً بما يصنع.. أنت عندما تتخلق بأخلاق الله، تقدم المؤمن وتحترمه، وإذا وجدت فاسقاً أو فاجراً تؤخره، تأخيرك إياه له معنى ردع له وتحجيم لحاله، أمّا أكثر الناس يعظمون أهل الدنيا، ويثنون عليهم، وقد يكون لا يصلي، بل ويشرب الخمر.

ولقد سمعنا عن أدباء في مصر من خلال كتاباتهم أنهم كانوا زُناة في أوروبا، والآن يوصف بأنه الأديب الكبير، المسرحي الكبير، فهذا إنسان غير ملتزم بقيم دينه، مقترف لأكبر المعاصي، فأنت كمؤمن عليك أن تتخلّق بأخلاق الله، أن تقدم المؤمنين، أن تقدم الورعين، أن تقدم الأتقياء، وأن تؤخر أهل الدنيا العصاة، الفساق، لأن الله عزّ وجلّ كما ورد:

((إنّ الله ليغضب إذا مُدح الفاسق.))

أي إذا مدحت فاسقاً فإنك قلبت الأمور رأساً على عقب، ابنك يعرفه مثلاً منحرفاً، يعرف بيته متفلتاً، وأنت تثني عليه أمام ابنك، وابنك في الصف السابع... تقول عنه: ما شاء الله فهم وذكاء ولباقة وعلم وأدب وأسرة راقية ونسب رغم أنه لا يصلي،سلوكه منحرف وكلامه أحياناً بذيء، والابن يراه أمامه، فهذا المديح لأشخاص ينبغي أن يؤخّروا استهتار منك وهدر للقيم، أنت كمقدِّم يجب أن تقدم أهل الإيمان، وكلّ إنسان يقدم أهل العلم وأهل الإيمان، يكون ذا إيمان قوي، وإذا وَجَدَ إنساناً عاصياً ومنحرفاً وفاجراً أخّره.

لذلك من السُنّة ألا تحترم المبتدع، فالإنسان المبتدع عقيدته فاسدة، ويروّج فكراً منحرفاً، ويروّج ضلالات. تحترمه وتعظمه وتبجله وتثني عليه ؟ أنت أحدثت في الناس فتنة وبلبلت الأمور، فإن الله ليغضب إذا مُدح الفاسق.

من تطبيقات هذا الاسم: يجب أن تقدم المستقيم المؤمن الورع، فإذا كانت قيمنا مادية، نقدم الأغنياء، ونقدم الأقوياء، أما إذا كانت قيمنا إسلامية نقدم أهل العلم، تقدم أهل الفضل، نقدم الورعين، الطائعين.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَائِشَةَ أَنّ قُرَيْشًا أَهَمّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيّةِ الّتِي سَرَقَتْ فَقَالُوا مَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَقَالُوا وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلا أُسَامَةُ حِبُّ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَكَلّمَهُ أُسَامَةُ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللّهِ ثُمّ قَامَ فَاخْتَطَبَ فَقَالَ أَيُّهَا النّاسُ إِنّمَا أَهْلَكَ الّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشّرِيفُ تَرَكُوهُ وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدّ وَايْمُ اللّهِ لَوْ أَنّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا))

(صحيح البخاري)

هذا هو ديننا، لو أن فاطمة بنت محمدٍ سرقت لقطعت يدها.

لذلك فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم.. فالنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((اللهمّ لا تجعل لي خيراً على يد كافرٍ أو منافق))

لا تخضع لكافر، لا تقبل منه عطاء أو نحوه كأن يقوم بإيصالك بمركبته ويستعلي عليك، فأنت عزيز، أما إذا كان مؤمناً فلا مانع من ذلك، لكن إذا كان إنساناً منحرفاً ومتفلِّتاً يمنّ عليك ويتفضّل عليك أو تقبل عطاءه ؟ لا فلا تقبل منه شيئاً.

قال العلماء: من أدب المؤمن مع اسم المؤخر.. أن يؤخر حظوظ نفسه، وأن يؤخر نزواتها، أن يؤخر أهواءَها، إنّ اتباع الهوى هوان وضلال.

واخجلتي من عتاب ربي إذا قال لي أسرفت يا فلان

إلى متى أنت في المعاصي .. تسير مرخى لك العنان

عندي لك الصلح وهو برّي .. ولي عندك السيف والسنان

ترضى بأن تنقضي الليالي وما انقضت حربك العوان

***

يجب أن تؤخر حظوظ النفس، وقد ذكرت كثيراً: ضع حظوظ نفسك تحت قدميك، إذا كنت تحب الله ورسوله.

قال أحدهم لسيدنا عمر: أتحبني. فقال له: **لا والله لا أحبك.** فقال له: وهل يمنعك بغضك لي من أن تعطيني حقي ؟ قال له: **لا والله، أنت تقدم الحق لأصحابه.**

بعض العلماء يقول: **" المقدم والمؤخر.. هو الذي يقدم من شاء ويؤخر من شاء على بابه ".**

ففي بعض الأيام يفتح لك بابه، وفي بعضها الآخر يغلقه، وأحياناً يحجبك، وأحياناً يفتح قلبك، ويتجلّى، أولا يتجلّى، هو المقدم والمؤخر.

فأنت لا تكن عبد الفتح بل كن عبد الفتاح، فالله إذا فتح فاحمد الله على ذلك، وإن لم يفتح فأنت مستقيم ولا تضجر، لا يفتح تعطيشاً لك ثم يفتح عليك فتحاً كبيراً، يضر لينفع، يأخذ ليعطي، ويذل ليعز، ويقبض ليبسط.

أحياناً الإنسان يكون صادقاً مع الله صدقاً من مستوى عالٍ، فالله يقدِّم له قدرات تتناسب مع هذا الصدق.

فلدينا سؤال له جواب وهو: لم أعطى الله فلاناً قدرات عالية ولم يعطها لفلان ؟ يكون هذا المُعطى له طلبٌ عالٍ جداً، الشاب إذا كان طموحاً جداً فيعطى إمكانات تتناسب مع طموحاته، فالله إذا أخر وقدم فالتقديم أولاً متعلِّق بتطلعات الإنسان ومتعلِّق بحكمة وعدالة، فقد تشعر بإنسان في نفسه طموحات عالية جداً، هذه الطموحات تحتاج لقدرات عالية فيمنح هذه القدرات، هذه القدرات قُدِّم بها ولكن لم يقدم بها ظلماً، أو تخصيصاً لا معنى له، بل قدم بها لسببٍ يعلمه الله عزّ وجلّ، فكن أديباً مع الله عزّ وجلّ.

فإذا قدم الله عليك إنساناً في باب الخير معنى ذلك أن صدقه أكبر من صدقك، ومعنى ذلك أن الله عنده علم أن هذا الشخص له قدم صدق عند ربه أعلى مما تتحلى أنت به، من صدق.

قال العلماء: **" هو الذي قدم الأبرار وأخّر الفجار، قدم الأبرار وشغلهم به، وأخّر الفجار وشغلهم بالأغيار ".**

فإذا استرذل الله عز وجل عبداً شغله بالدنيا، حتى لكأنه يعيش في قنوات المجاري، أما إذا أحب الله عبداً شرّفه بمعرفته، فالنبي الكريم بالأفق الأعلى منزلة، وهناك من يعيش في تفاهات الناس وقصصهم وخلافاتهم وصراعاتهم، في قلبه حسد وغيرة، وحشري في أمور الآخرين، ويدخل فيما لا يعنيه، فإذا غضب الله على إنسان شغله بتوافه الأمور، قال تعالى:

(وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤))

(سورة المؤمنون)

اللغو كلُّ حديث فيما سوى مرضاة الله، إن الله يحب معالي الأمور ويكره سفسافها ودنيّها، فليلاحظ أحدنا ما الذي يشغله ؟ قد تشغله معرفة الله وخدمة الخلق، ونشر الحق والأمر بالمعروف، وقد تشغله هموم المسلمين، وقد يشغله بيته، وأثاث بيته وطلبات زوجته ونزوات أولاده، فمن كان هذا مستواه فهو بالرثاء جدير، فكلما كبر الإنسان عند الله عزّ وجلّ تكبر همومه، وكلما صغر يصبح شغله الشاغل في تفاهاتٍ لا تقدِّم ولا تؤخر.

الإمام الغزالي يقول: **" المقدم والمؤخر هو الذي يقرّب ويبعد، يقرّب أحبابه، يبعد أعداءه ".** فأكبر عقاب يناله أعداؤه أنه يلعنهم، يحجبهم، وأكبر مكافأة ينالها أحبابه أنه يتجلّى على قلوبهم. قال: **" يقرّب أنبياءه وأولياءه بتقريبهم وهدايتهم، ويؤخر أعداءه بإبعادهم وضرب الحجاب بينه وبينهم ".**

أيها القارئ الكريم... الإنسان يوم القيامة يُنبّأ بما قدم وأخر.. مثلاً استحق على هذا الإنسان زكاة ماله، وبيته يحتاج إلى طلاء، فإذا قدم أداء زكاة ماله فهو مؤمن، أما إذا قدم طلاء بيته على أداء زكاة ماله أخّر ما ينبغي أن يقدِّمه وقدّم ما ينبغي أن يؤخّره.. ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر.

بعض الناس قد يقدِّم مصالحه الشخصيّة على دينه، ويقدم دخلاً مشبوهاً على نزاهته، يقدم شيئاً ينفعه في دنياه لكن يغضب ربّه، ينبأ الإنسان يومئذٍ بما قدّم وأخّر.

قد يقدِّم شهوته على طاعة ربه، يُقْدِم على كسب مال غير مشروع على طاعة ربّه، وكل إنسان يوم القيامة يُنبّأ بما قدّم وأخّر، هذا قدمته وهذا أخرته، هذا فضلته وهذا أهملته، هذا أعطيته وهذا منعته، هذه الشهوة فعلتها خلاف منهج الله، وهذه الطاعة تركتها خلاف منهج الله، فقد قال تعالى:

(يُنَبّؤا الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدّمَ وَأَخّرَ (١٣) بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ (١٤) وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ(١٥))

(سورة القيامة)

من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام أنّه كان يدعو ويقول:

((عَنِ ابْنِ أَبِي مُوسَى عَنْ أَبِيهِ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ كَانَ يَدْعُو بِهَذَا الدّعَاءِ رَبّ اغْفِرْ لِي خَطِيئَتِي وَجَهْلِي وَإِسْرَافِي فِي أَمْرِي كُلّهِ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنّي اللّهُمّ اغْفِرْ لِي خَطَايَايَ وَعَمْدِي وَجَهْلِي وَهَزْلِي وَكُلُّ ذَلِكَ عِنْدِي اللّهُمّ اغْفِرْ لِي مَا قَدّمْتُ وَمَا أَخّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ أَنْتَ الْمُقَدّمُ وَأَنْتَ الْمُؤَخّرُ وَأَنْتَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ))

(صحيح البخاري)

قدّم كل ما يُرضي الله وأخّر شهوتك وكل ما لا يُرضي الله، تكن من أسعد الناس في الدنيا والآخرة.

٧٧- اسم الله المانع :

مع الاسم السابع والسبعين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو المانع.

فالله سبحانه وتعالى مانع، قد تفهم من كلمة مانع أنّه يُعطي ويمنع، يخفض ويرفع، يُعزّ ويذل، ولهذا الاسم معانٍ كثيرة غير المعنى الأوليّ الذي يتبادر إلى ذهنك.

المنعُ في اللغة ضدُّ الإعطاء.. في البلاغة ما يسمّى بالمطابقة.. كأعطى ومنع، ضرّ ونفع، خفض وأعلى، قبض وبسط، هذه بالأفعال، أما بالأسماء.. حرّ وقر، عدلٌ وجور، صالحٌ وطالح، كريمٌ وبخيل.. إلى آخره.. إذا جاءت الكلمات متعاكسة في معانيها فهذا ما يسمّى بالمطابقة، فإذا جاءت مجموعة كلمات تعاكس مجموعة كلمات في جملة واحدة فهذا ما يسمّى بالمقابلة.

فالمانع في اللغة.. المنع ضدُّ الإعطاء، منع ضدُّه أعطى، والمنع ضدُّ العطيّة، يعطي أو يمنع، والمعنى الذي قد لا يخطر في البالي: هو المانع بمعنى الحماية.. يمنعك من خصومك، يمنعك من أعدائك، يمنعك من أن ينزل بك شر، يمنعك من الأشرار، يحميك، يحفظك، أنت في حمايته، أنت في مَنَعة، لا أحد يصل إليك، لا أحد يستطيع أن ينال منك، فهذا معنى آخر من معاني المانع.

المانع: هو الذي يمنعك من كلِّ ما يؤذيك، يمنعك من العطب في دينك ودنياك، الله عزّ وجلّ مانع للمؤمنين، يدافع عنهم ويحفظهم ويوفِّقهم، ويؤيّدهم.

المانع بشكل مطلق.. هو الذي يجعل الحيلولة بين شيئين، إنسان هجم على إنسان لينال منه فاحتمى بإنسان قوي، فهذا القوي منع الأول من أن يعتدي على الثاني فهو مانع أي جعله في منعة وحماية، وهذا غير معنى المانع ضدُّ الإعطاء، المانع هو الحافظ.

قولهم.. حصنٌ منيع أي لا يستطيع أحدٌ أن يصل إليه، فلانٌ في عزٍّ ومنعة، أي هو عزيز ممتنع على من يرومه، الشعور بالمنعة شعور رائع جداً تشعر أنّك في حماية الله، أنّ الله معك، أنّ الله يحفظك، أنّ الله يؤيّدك، أنّ أحداً لا يستطيع أن يصل إليك، هذا الشعور يقابل الطمأنينة، يقابل الشعور بالأمن. فأحياناً الإنسان يركب بمركبة حديثة جداً فيشعر بعدم وجود مشكلة فيها ولن تقطعه بالطريق، وأحياناً يركب مركبةً قديمةً جداً وقد يصل بسلامة لكنه طوال الطرق يكون قلقاً يخشى أن تتعطّل، فالمنعة شعور بالأمن والاطمئنان، عدم توقُّع المصيبة.. وقد قالوا: توقُّع المصيبة مصيبةٌ أكبر منها.

وقالوا: أنت من خوف الفقر في فقر، وأنت من خوف المرض في مرض. لذلك فالله عزّ وجلّ إذا أراد أن يعاقب المعرضين ينزع من أحدهم شعور الأمن، هم أغنياء وأقوياء وأذكياء ومع ذلك خائفون، يقذف الله في قلوب المشركين الرعب بسبب شركهم، وعلامة الإيمان الطمأنينة لأنّك مع الله، والله معك، ومن

كان مع الله لا يخشى أحداً إلا الله، وللأنبياء مواقف صعب تفسيرها.. فهذا سيّدنا هود يخاطب قومه قائلاً لهم:

(مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمّ لَا تُنْظِرُونِ (٥٥) إِنّي تَوَكّلْتُ عَلَى اللّهِ رَبّي وَرَبّكُمْ مَا مِنْ دَابّةٍ إِلّا هُوَ آَخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنّ رَبّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٦))

(سورة هود)

فبالنهاية لك مشاعر نفسيّة، هذه المشاعر النفسيّة مهمة جداً جداً في حياتك، وفي معادك إلى الله، لأنّ هذه المشاعر الراقية تقودك إلى أن تعمل عملاً صحيحاً، والعمل الصحيح سبب سعادتك في الدنيا والآخرة، والمشاعر السوداويّة تثبّط عزائمك، فأحياناً الإنسان يصاب بمرض نفسي، هذا المرض يقعده في البيت، يمنعه من العمل، فيلجأ إلى التدخين، إلى المخدرات أحياناً، وبهذا المرض النفسي يتوهّم أنّ الناس كلّهم أعداؤه، فالحالة النفسيّة مهمّة جداً، أهم شيء تعيشه حالتك النفسيّة، فالمؤمن له حالة شعورية عالية جداً، وأساسها أنّه ممنوع، أي أنّ الله منع خصومه أن يصلوا إليه، ومعنى قوله تعالى:

(فَإِنّكَ بِأَعْيُنِنَا)

(سورة الطور)

أي بحفظنا وتوفيقنا ورعايتنا.

وفي بعض المعاجم.. المانع في أسمائه جلّ ذكره هو الذي يمنع من يستحقُ المنع، ما كلُ واحدٌ من الناس يستحقُ المنع، فهناك إنسان لا يستحقُ المنع بل يستحقّ أن يتورّط، يستحقُ أن يكون مكشوفاً، يستحقُ أن يصل أعداؤه إليه، فقد قال تعالى:

(رَبّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلّذِينَ كَفَرُوا)

(سورة الممتحنة)

إذا لم يستقم الإنسان يفتن بالكفّار، ينالون منه، لهم عليه ألف سبيلٍ وسبيل، لأنّ الله لم يمنعه، لأنّه ما استحقّ المنع، استحقّ أن يصلوا إليه، استحقّ أن ينالوا منه، استحقّ أن يتحكّموا فيه، استحقّ أن يقهروه، أما إذا كنت مطبّقاً لمنهج الله، إذا كنت مع الله عزّ وجلّ فأنت ممن يستحقّ المنع، عندئذٍ يمنعك الله عزّ وجلّ.

وبعد، فالعوامل الممرضة موجودة في الدنيا، إنسان يصاب، إنسان آخر لا يصاب، الذي لم يُصب ممنوع من قبل الله عزّ وجلّ، والذي أُصيب سمح الله لهذا الجرثوم ولهذا المرض أن يفعل فعله، كلمة (ممنوع) شيء دقيق الدلالة جداً، يعني أنت تحوطك رعاية الله، لا يسمح الله لأحدٍ أن يصل إليك، إنّك

معه، هو يحميك.. فقد قال تعالى:

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ)

(سورة يوسف)

سبق أن ذكرت كيف أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام اتجه إلى بني النضير مع ثُلّة من كبار أصحابه ليطالبهم بما عليهم من عهدٍ وقّعه معهم، فجلس في مكانٍ في حيهم وأسند ظهره إلى جدار بيت فأتمروا به بأن يصعد أحدهم إلى السطح ويلقي عليه صخرةً يقتله ويستريح منه الناس بزعمهم، فجاءه الوحي بالخبر فنهض النبيّ من مجلسه وتبعه أصحابه وفوّت الله على العدو تدبيرهم، وأنت كمؤمن لن يأتيك الوحي ولكن يأتيك من الله إلهام.

امرأة صالحة تطهو طعامها في قِدْر تعمل بالبخار- طنجرة بخار - يبدو أن فيها خللاً وصارت على وشك الانفجار، وإذا انفجرت شيء مخيف جداً، وقبيل أن تنفجر بدقيقةٍ واحدة قُرع الجرس، ذهبت لتفتح فلم تجد أحداً، كان طفل صغير يلهو فقرع الجرس وهرب، في أثناء فتحها للباب انفجرت القِدر - الطنجرة - فالله مانع، منع المرأة أن تصاب بأذى.

إخوةٌ كُثُر.. حدّثوني وكانوا في طريقهم في سفر، وبعد أن قطع أحدهم ألفاً وخمسمائة كيلو مترٍ من الطريق وأوقف السيارة أمام البيت تفككت بعض قطع السيارة وتساقطت على الأرض - فرطت - لو أنّها أصابها الخلل أثناء السير لهلكوا كلّهم، من الذي منع وقوع الحادث ؟ الله جلّ جلاله.. الله يمنعك من الحوادث.

قال لي أحد الطلاب الذين يدرسون الطب.. ركب سيارة عازماً على السفر إلى محافظة إدلب.. فجاء إنسان فظ غليظ وشأنه غير معقول فهو كالوحش، فتح الباب وبدلاً من أن يقول لهذا الطالب اسمح لي بهذا المقعد، وهذا الطالب حجمه صغير، فحمله ووضعه على الأرض وركب بدلاً منه وأخذ مكانه، فقال لي هذا الطالب: امتلأت غيظاً إلى حد كبير وغير معقول، ومضت ساعة ونصف حتى تمكّن من ركوب سيارة أخرى، وعند قرية – تفتناز وهي إحدى قرى محافظات الشمال- وجدت السيارة الأولى قد تدهورت وفيها أربعه قتلى من ركابها الخمسة، والناس متجمِّعون حولها.. كان أحد ركاب تلك السيارة المنكوبة لكنه أرغم على النزول.. من الذي منعه وأنزله منها ؟ الله جلّ جلاله، إما عن طريق إلهام، أو عن طريق سبب آخر.

ولقد وقع قديماً حادثٌ بمكان سمعت أنّ كل من كان في هذا المكان قُتلوا، ولي صديق موظّف في المكان نفسه وتوقّعت أنه في عداد القتلى، ثم فوجئت به في الطريق بعد أيام فسألته عن أحواله فقال لي: قبل خمس دقائق من الحادث خطر لي أن أشتري ربطة من الخبز من مكان قريب فخرجت، وأثناء غيابي وقع الحادث.

قد يحدث حريق أو انفجار لأسطوانة الغاز، أو يكون الشخص بمطعم فتنفجر أسطوانة الغاز ويكون مقدراً لها أن تقتل عشرة أشخاص وفيهم شخص ممنوع فيخطر في باله بالخروجُ لشراء شيء ما وأثناء خروجه تنفجر، فليس هناك شيء يقع صدفةً في الكون كله أبداً، فالله عزّ وجلّ مانع.. يمنع الخطر.

لذلك فالمؤمن يشعر بطمأنينة لا يعلمها إلا الله لأنّه لم يؤذِ أحداً، ولم يكن سبباً في ألم إنسان أو ترويعه، ولم يكن سبباً في ابتزاز إنسان أو سبباً في إدخال الرعب على قلب أحد، لم يبن مجده على أنقاض الآخرين ولم يبن غناه على فقرهم، بل هو محسن في كل عمل فالله عزّ وجلّ يمنعه.. فمن أسماء الله الحسنى المانع.. يمنع كثيراً.. وفي هذا المجال توجد أكثر من ألف واقعة وحادثة.. فأحياناً يكون سنتيمتر أو مليمتر أو دقائق بينه وبين الخطر.. فالله يمنعه وينجيه، فاعتبروا يا أولي الأبصار.

قال العلماء: **" هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع "**، فكن أنت مستحقاً للمنع، ما رأيت دعاءً يقطُر أدباً كدعاء النبي:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الأَسْلَمِيِّ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللَّهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ لِيَقُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْبًا إِلا غَفَرْتَهُ وَلا هَمًّا إِلا فَرَّجْتَهُ وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلا قَضَيْتَهَا لِي ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ))

(سنن الترمذي)

أي كُن أهلاً للمنع فيمنعك الله من خصومك، لن يسمح بك، فسيدنا سُراقة بن مالك قبل أن يسلم أراد قتل النبي ليأخذ مئة ناقة وضعت مكافأة لمن يأتي به حياً أو ميّتاً، هل استطاع أن يصل إليه ؟ اقترب منه غارت قوائم فرسه في الرمال، مرة أولى، وثانية، وثالثة.. فقال: إنّه ممنوعٌ مني.

فإذا كان الله مع أحد فهنيئاً له، فلا يخشى أحداً، ولكن بأدب وليس بوقاحة كأن يقول: أنا لا أخاف من أحد.. فهذا من سوء الأدب، اجعلها بينك وبين ربّك.

فأحد الأشخاص فهم ذات غلطاً وقال: أنا لا أخاف من أحد ولا من فلان ولا من فلان طوّل بالك.. لا فهذا اسمه تحدٍ، وسوء فهم، فكن أديباً، فهذا الحال شعور بينك وبين الله، فإذا كنت مع الله كان الله معك، إذا كنت مع الله أشعرك بالأمن وأشعرك بالمودّة.. إذاً هو الذي يمنع من يستحقُّ المنع.

قال العلماء: هو يمنع أهل دينه.. هل تجد إنساناً ينتمي إلى جماعة متنفذة وليس له ميّزات ؟ مستحيل.. فكيف إذا انتميت إلى أهل الله ؟ أو إلى الدين، ليكن انتماؤك إلى الله فهو الركن الركين.

أحد العلماء المشاهير في إحدى الدول العربيّة، أراد أن يجري عمليّة في بريطانيا، فوضعت أربع طائرات في خدمته ليختار إحداها، وصل إلى بريطانيا وأجريت له العملية، ولم يلبث أن وصلت إليه

هواتف كثيرة ورسائل بأعداد غير معقولة وبالآلاف مما لفت إليه أنظار المسؤولين، وأجرى معه مذيع من إذاعة لندن مقابلة، قائلاً له: ما هذه المكانة التي تتمتّع بها، الأمر غير معقول كأنك أسمى مكانة من الملوك.. سمعتها من شخص.. فبماذا أجاب هل سيقول: لأنني مخلص أحظى بهذه المكانة، أو لأنني عالم، أو لأنني محبوب ؟.. هذا افتخار وادعاء.. ولكنّه قال: لأنني محسوبٌ على الله.

كلمة فيها أدب بالغ جداً، فهو قد قال: أنا لست أهلاً لذلك، ولكنني محسوبٌ لا على أهل الأرض ولكن على رب السماء، أنا محسوبٌ على الله.

المؤمن ربّاني.. فقد تجد شخصاً ينتمي إلى فلان أوفلان أوفلان أي ينتمي إلى شيء مآله إلى الزوال.. انتهى أمره فهو مجيّر لصالح فلان، معروف كم هو سعرك، أما أن تكون محسوباً على اللّه.. فوالله الذي لا إله إلا هو أيها الأخوة القراء والأخوات: لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، ولكن كونوا ربّانيين، لا تكن لصالح زيد أو عبيد، لصالح فلان أو علاّن، لا تكن محسوباً على أهل الأرض، ولا على جهات الأرض، ولا على قِوى الأرض، ولا على تجمُّعات الأرض، كن محسوباً على الله..لكن الذي يحسب على الله يجب أن يكون مطيعاً لله.

إذاً هو الذي يمنع أهل دينه.. أي يحوطهم وينصرهم..

وقيل: هو الذي يردُّ أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان.. كما كان يدعو النبيّ عليه الصلاة والسلام:

((اللهمّ أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا دنيانا التي فيها معاشُنا، وأصلح لنا آخرتنا التي إليها مردُنا، وأجعل الحياة زاداً لنا من كلّ خير، وأجعل الموت لنا راحةً من كلّ شر))

أيها القارئ الكريم... قد يكون الإنسان مستقيماً ويمشي ببطء إلى الله.. والله عزّ وجلّ سيمنعه من التقصير.. وهذا معنى جديد.. فالمعنى الأول.. يمنع أي لا يُعطي، والمعنى الثاني: يمنع أي يحفظ من الشر.

وإليك المعنى الثالث: يمنعك من التقصير.. فقد يكون أب حريص على أن ينال ابنه الدرجة الأولى، ليس حريصاً على أن ينجح ابنه فحسب.. لا.. حريص على أن ينال الدرجة الأولى، أكثر معالجات المؤمن أن يمنعه من التقصير، فكلما قصّر يأتي الله له بمشكلة، كلما قصّر يلوح له شبح مصيبة، كلّما قصّر يحبط الله بعض عمله فيفرُّ المؤمن إلى الله عندئذٍ ينوب وبضرع.

فمن معاني اسم المانع.. يمنعك من النقص في دينك.. والله عزّ وجلّ هو الرب، هو ربُّ العالمين.

وقيل: **" هو الذي يمنع البلاء حفظاً وعناية، ويمنع العطاء عمن يشاء إبتلاءً وحمايةً ".**

لا يُعطي لأنّه يعلم، كما أنّ الأب الطبيب الماهر الذي يعلم أنّ ابنه مصابٌ بالتهابٍ في معدته، وأنّ هذه الأكلة تؤذيه، يمنعه من هذا الطعام بحزمٍ وقسوةٍ، والطعام شهي وطيّب وإخوته يـأكلون في حضوره،

لكن الأب مصرٌ على منع هذا الابن من هذه الأكلة الشهيّة الطيّبة لأنّها تؤذي معدته، فهو يمنعه.. ولكن هذا المنع لحكمةٍ بالغة.

ابن عطاء الله السكندريُ يقول: **" إذا فتح الله بصيرتك رأيت المنع عين العطاء ".**

أحياناً قد بيعدك الله عزّ وجلّ عن مجال معين، لأن هذا المجال فيه دنيا، كأن يعمل شاب في محل تجاري فخم والراتب مُغرٍ جداً والبضاعة والبيع للنساء وهو شاب في أوّل نشأته، ومقاومته هشّة ضعيفة، فلسببٍ أو لآخر يصرفه صاحب العمل، ما وافق وضعه صاحب المحل فوضع دونه شرطاً تعجيزياً، أو لعدم التزامه صرفه، فيبدو آنياً أنّه قد منع من هذا المرتب الضخم، ولكن هذا المكان مكانٌ موبوء وهذا الشاب طاهر ومقاومته هشّة لا تحتمل هؤلاء الغاديات والرائحات، فالله عزّ وجلّ صرفه عن هذا العمل، وهو في ظاهر الأمر وباطنه منعه.. والأمثلة في هذا المجال كثيرة لا حصر لها، كيف أنّ الله سبحانه وتعالى صرف عن أحبابه ما يبدو لهم أنّه منعٌ وهو في الحقيقة عطاء.. صَرفه عنهم عين العطاء.

قد تجد ابناً نشأ بالنعيم، والأب غني ومتساهل مَرِن فيعطي ابنه مايشتهي، وأحياناً ينشأ ابن يتيم في حرمان وفقر وله أم حازمة مربيّة، ودخلُهم قليلٌ جداً، فتحضّه على الدراسة، لا تنيمه الليل تحثّه، ليس في البيت مغريات أو ملهيات ولا ماديّات، فبحسب الظاهر أنّ الأول مدلل وابن أسرة غنية يأكل ما يشتهي ويذهب إلى حيث يشتهي ويريد، والثاني طفلٌ يتيمٌ ومحرومٌ، ولكن بعد حين ترى أنه شتّان بين الاثنين، اليتيم في تألّق كبير ورفعة، والآخر في شقاءٍ وتراجع، فاليتم والحرمان مع أمٍّ حازمةٍ مربيةٍ دفعته إلى أن يبني نفسه بناءً صحيحاً وغرست فيه القيم الأخلاقيّة فأصبح إنساناً عظيماً بهذه النشأة المتقشّفة، وذاك الطفل الذي نشأ برخاء منقطع النظير، ينام في غرفة خاصة فيها حاسوب- كمبيوتر - كما حوت غرفته كل الألعاب، وقد يشحن أبوه سيارته من الخليج إلى الشام ليستمتع بها في المصايف والمنتزهات، دون أن يكلف نفسه عناء قيادتها ولا أسرته متاعب السفر.

فهناك شباب يعيشون حياةً خياليّة، يحمل هاتفاً - تليفوناً - خلوياً ثمنه ثمانون ألف ليرة، وله هاتفان أو ثلاث، وسيارتان أو ثلاثة، فتجد ذاك الشاب الذي نشأ في أسرة فقيرة ولكن فيها الكثير من القيم تجده إنساناً عظيماً.. لذلك لو كُشف الغطاء لاخترتم الواقع.

يقول سيدنا على رضي الله عنه: **" والله لو كُشف الغطاء ما ازددتُ يقيناً "**، يقينه قبل كشف الغطاء كيقينه بعد كشف الغطاء.

وكذلك يقول سيدنا علي كرّم الله وجهه: **" والله لو علمت أنّ غداً أجلي ما قدرت أن أزيد في عملي"..** لشدّة مسارعته إلى الله.

إذاً العطاء قد يكون منعاً، ولكن هذه تحتاج إلى ثقة بالله، وإلى إيمان، وإلى يقين بحكمة الله، وبمحبّة الله.

فالإنسان هو خاطيء.. فإذا اجتمع للإنسان مال وكانت صحّته سليمة وهو بعافية، وفي حال مبسوط النفس، وبيته ممتاز فإنه يظن أنّ الله يحبّه، وإذا كان بيته داني المستوى ودخله قليل وصحّته معلولة ظن أن الله لا يحبّه قال تعالى:

(فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ (١٥) وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ (١٦) كَلَّا بَل لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ (١٧))

(سورة الفجر)

(كَلا)

كلا كلامكم غلط، كلامكم غير صحيح، ليس عطائي إكراماً، ولا منعي حرماناً، إنّ عطائي إبتلاء، وحرماني دواء.

أيُّها القراء الكرام... لا بدّ أن تعلموا علم اليقين أنّ الفقير المؤمن أفضل عند الله ألف مرّة من الغني العاصي.. لأنّ الدنيا عرضٌ حاضر يأكل منه البرُّ والفاجر، وعندنا أدلّة قويّة جداً.. منها قارون، قال تعالى:

(إِنّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآَتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوّةِ)

(سورة القصص)

أعطى الله سبحانه وتعالى المال لقارون وهو لا يُحبّه، وأعطى فرعون الملك وهو لا يُحبُّه.. الدنيا لا قيمة لها.

إذاً.. هو الذي يمنع البلاء حفظاً وعنايةً، ويمنع العطاء عمن يشاء ابتلاءً أو حماية.. ويعطي الدنيا لمن يُحبُّ ولمن لا يُحب، ولا يُعطي نعيم الآخرة إلا لمن يُحب.

أجل يعطي الدنيا لمن يحب ولمن لا يحب.. فقد قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم:

(وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَداً آَمِناً وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثّمَرَاتِ مَنْ آَمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦))

(سورة البقرة)

(قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

تجد بعض الناس يقع في غلط فاحش فيقول: لأن الله يحبني أعطاني هذا البيت فيجعل عطاء الدنيا مقياساً لمحبة الله، فالله أعطى شخصاً كافراً منزلاً أكبر من منزلك بمئة مرة، يوجد ملوك الحديد والصُلب، وملوك المعامل الضخمة في أوروبا وأمريكا، معهم أموال خيالية، وبيوتهم مدن بأكملها،

قصره في غابة، فهل معنى ذلك أنه يحبه ؟ لا.. لا تجعل الدنيا مقياساً للمنع والعطاء، فالدنيا لحقارتها عند الله، لم يشأ أن يجعلها علامة رضوانه، ولا علامة بغضه، إن الدنيا لصغر شأنها عند الله أبى أن يجعلها علامة رضوانه، وأبى أن يجعاها علامة سخطه، فلا علاقة لها برضوانه ولا بسخطه، لكن لها علاقة بحكمةٍ يريدها الله عزّ وجلّ.

إنّ من عبادي من لا يصلح له إلا الغنى، فإذا أفقرته أفسدت عليه دينه، وإنّ من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر، فإذا أغنيته أفسدت عليه دينه.

في أسماء الله تعالى المانع.. قال: هو الذي يدفع عن أهل طاعته، يدفع عنهم البلايا، ويحوطهم وينصرهم، يمنع ما يريد من خلقه مما يريد.

المانع هو الله.. فمثلاً باليابان منطقة صناعية فيها أضخم المعامل والشركات كشركة - سوني، ومستوبيشي، ومازدا - وقد قاموا بتركيب أجهزة للإنذار المبكِّر للزلازل مربوطة بالكمبيوتر، فالله سبحانه أنزل بها أضخم زلزال وتعطل الكمبيوتر عن أداء وظيفته، فهل من مُدّكر ؟

فكلمة.. يمنع من يريد ما يريد، لا مانع إلا الله، ما الذي يمنعك من المرض ؟ الله.. ما الذي يمنعك من حادث في الطريق ؟ الله.. من الذي يمنعك من شرّير ؟ الله.. من الذي يمنعك من الخوف ؟ الله.. يمنع من يريد ما يريد، لا مانع إلا الله.

الإمام الغزالي يقول: **" المانع هو الذي يردُ أسباب الهلاك والنقصان في الأديان والأبدان، بما يخلق من الأسباب المعدّة للحفظ ".**

ولا تنسى أن الله جعل نواميس وأسباباً.. أي يمنعك ولكن لا يمنعك بلا سبب، بل إن هناك للكون نظاماً،فالكون فيه نظام ولكل ما يقع أسباب.. فقد قال تعالى:

(وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً (٨٣) إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَباً (٨٤) فَأَتْبَعَ سَبَباً(٨٥))

(سورة الكهف)

(وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا فَأَتْبَعَ سَبَبًا)

فإذا أراد الله عزّ وجلّ أن يمنع إنساناً وأن يكون نظامه سائداً في المجتمع وفي الحياة، يلهم هذا الممنوع من هذا الشر أن يأخذ بالأسباب.. فكذلك منعُ الله علمي وليس منعاً عشوائياً، وفي بعض الحالات يمنع بلا سبب كما ورد في قوله تعالى:

(أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ(٦٢))

(سورة النمل)

(أَمّنْ يُجِيبُ الْمُضطرّ إِذَا دَعَاهُ)

أما الأصل أنّه إذا أراد أن يمنعك يلهمك أسباب المنع.

فمن فهم معنى الحفيظ فهم معنى المنع، المانع هو الحافظ.. قد يتبادر للمرء أنّ المانع هو الذي لا يُعطي، فهذا معنى، وكذلك المانع هو الحافظ، أنت في حصنٍ منيع، أنت في حرزٍ حريز، أنت لا أحد ينالك.

قال بعض العلماء: **" المنع يضاف إلى السبب المهلك، والحفظ يضاف إلى المحروس عن الهلاك "**، أي لو إنساناً محروساً من أن يهلك فهذا محفوظ، وإنسان يمكن أن يهلك فهذا ممنوع.. فقد قال تعالى:

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ)

قال: **" كلُ حافظٍ مانع، وما كلُ مانع حافظ "**.

كلُ حافظٍ مانع.. ما دام أنّ الله حفظك فهو يمنعك من خصومك، وليس كل منع حفظاً.. أحياناً يكون المنع عقوبة، قد يحرم المرءُ بعض الرزق بالذنب يصيبه، قد يُحرم المرءُ بعض العلم بالذنب يصيبه، الذنب يمنعك من العلم ويمنعك من الرزق.

يقول بعض العلماء: **" المانع يعني أنّ الممكنات بالنسبة إلى تأثير قدرته على السويّة.. فدخول بعضها في الوجود دون البعض يكون بتخصيصه أو ترجيحه "**، فكل شيء بيد الله عزّ وجلّ، والله دائماً قادر على أن يمنعك من أعدائك.

فدخول بعضها في الوجود دون البعض يكون بتخصيصه أو ترجيحه.. كلُ المؤثرات بيد الله عزّ وجلّ، فإذا أطلق واحدة ومنع واحدة فهناك ترجيح عند الله لحكمة، فلو أن شخصاً في جسمه ثلاث جراثيم حرّك الله واحدة منها والاثنتان لم يحركهما، أجل ثلاث جراثيم، فربما واحدة منهم فعلت فعلها فكل الممكنات بيد الله عزّ وجلّ، وكل الأسباب بيد الله أطلق جرثوماً ومنع جرثومين.

وبعد، فالمانع في وصفه سبحانه وتعالى منع البلاء عن أوليائه، أو منع العطاء عمن شاء مطلقاً، فإما أن يمنع العطاء تأديباً أو تحصيناً أو وقايةً بحسب الممنوع منه أو يمنع البلاء عن أوليائه.

الأولياء يُمنعون من البلاء فهو مانعهم، وهو المانع أي الحافظ، أما المخطئون فيمنعون من العطاء تأديباً لهم، والمؤمنون يمنعون من بعض حظوظ الدنيا وقايةً لهم تأديباً للعصاة ووقايةً للمؤمنين، هذا المنع الثاني، وقد عرفنا من قبل أن المنع الأول: الحفظ.

قال العلماء: **" إذا منع البلاء عن بعض أوليائه كان ذلك لطفاً جميلاً، وإن منع العطاء عنهم كان ذلك فضلاً جزيلاً "**، منع البلاء لطف، ومنع العطاء فضل.

لذلك المؤمن كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ صُهَيْبٍ قَالَ بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَاعِدٌ مَعَ أَصْحَابِهِ إِذْ ضَحِكَ فَقَالَ أَلا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ وَمِمَّ تَضْحَكُ قَالَ عَجِبْتُ لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ إِنْ أَصَابَهُ مَا يُحِبُّ حَمِدَ اللَّهَ وَكَانَ لَهُ خَيْرٌ وَإِنْ أَصَابَهُ مَا يَكْرَهُ فَصَبَرَ كَانَ لَهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ كُلُّ أَحَدٍ أَمْرُهُ كُلُّهُ لَهُ خَيْرٌ إِلا الْمُؤْمِنُ))

(مسند الإمام أحمد)

بعض العلماء قال: **" الله جلّ جلاله يعطي كلّ شيءٍ ما هو في مصلحته، بمعنى أنّ حكمة الله مطلقة، وبمعنى أنّه ليس في الإمكان أبدعُ مما كان. ويمنع ما هو سبب فساده، يغني من يشاء بالعطاء ويمنع من يشاء بالابتلاء، سبحانه يغني ويفقر، يسعد ويشقي، يعطي ويحرم، يمنح ويمنع فهو المعطي المانع ".**

إنسان ليس عنده أولاد (عقيم) لايترك طبيباً للمعالجة، ولكن لا جدوى فالمنع إلهي، إنسان آخر رزقه الله ذكوراً فقط، وإنسان آخر نسله إناث فقط، بينما إنسان رابع نسله ذكور و إناث، رجل أولاده نجباء، ورجل أولاده كالبلاء.

فقد قال لي أحد الإخوة الكرام يوماً وقد أقسم بالله: إن مات ابنه فلسوف يقيم احتفالاً بمناسبة موت ابنه لشدة عقوقه، فابن يكون بلاءً ونقمة، وابن يكون عطاءً ونعمة قال تعالى:

(وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ)

(سورة الأنعام)

والله سبحانه وتعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولكنّه لا يحمي قلب عبدٍ عن المخالفات إلا وهو من خواصّ أوليائه.

قد تكون غالياً على الله وقريباً منه، و في ساعة غفلة تفكِّر بعمل لا يرضي الله تجد أن الله عزّ وجلّ وضع أمامك العراقيل منعك ولم يوافق المسؤولون لك على السفر مثلاً، فهناك منع قاسٍ وظاهره من البشر لكن حقيقته من ربِّ البشر، فالمؤمن محفوظٌ من المخالفات، فلعلّه بهذا السفر تضعف مقاومته، أو عنده هشاشة في مقاومته فالله عزّ وجلّ يعلم سرّه وعلانيته.

قال بعض العارفين.. وهذا الكلام يشبه كلام الإمام الغزالي: **" المانع هو الذي يدفع أسباب الهلاك والنقص في الدين والدنيا، وذلك بخلق الأسباب التي تحفظ من الهلاك والنقصان ".**

يمنع الهلاك بأسباب النجاة من الهلاك، ويمنع النقصان بأسباب النجاة من النقصان، المنع بأسباب.. الله عزّ وجلّ يخلق بعض الممكنات، ويمنع وجود بعض الممكنات، يعطي الله لشخص مؤهّلات ليتفوّق، وقد لا يعطيها لآخر، فيعطي لحكمة ويمنع لحكمة، مرة أخرى: يعطي كلّ شيءٍ ما هو في مصلحته

ويمنع ما هو فيه فسادٌ لدينه فقد قال تعالى:

(وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَكِنْ يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٧))

(سورة الشورى)

يعني أنا أريد في هذا البحث أن أبين أن المؤمن المتصل بربه يتلقى المنع برضى، والمؤمن المتفتح يرى يد الله فوق أيديهم، يرى يد الله تعمل في الخفاء، يتلو قوله تعالى:

(وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى)

(سورة الأنفال الآية: ١٧)

المؤمن البصير يذكر الحديث الشريف وهو قوله صلّى الله عليه وسلّم:

((عَنْ أبي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ وَمَا بَلَغَ عَبْدٌ حَقِيقَةَ الإِيمَانِ حَتَّى يَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَهُ وَمَا أَخْطَأَهُ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَهُ))

(مسند الإمام أحمد)

لا يندم ولا يحقد ولا يتألّم ولا يتذلل ولا يتضعضع، ولا يستخزي، ولا يُلح، اطلبوا الحوائج بعزّة الأنفس، فإنّ الأمور تجري بالمقادير.

وما كان لمؤمنٍ أن يهون، بل لا ينبغي للمؤمن أن يُذِلّ نفسه، هذا بسبب إيمانه أنّ العطاء من الله والمنع من الله، فقد قال تعالى:

(مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ(٢))

(سورة فاطر)

الشيء الدقيق جداً في هذا الموضوع.. هو أنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ يَا غُلامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتِ الأَقْلامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ))

(سنن الترمذي)

هذا هو التوحيد...

وقال بعضهم: **" المانع هو الذي يمنع من شاء ما يشاء، وقد يكون باطن المنع عطاء وهنا الدقة "..** قد يمنع العبد كثرة الأموال ويعطيه الكمال و الجمال، وقد يمنع العبد صحة الأجسام ويعطيه الرضى عن الأحكام.. المانع هو المعطي فقد يكون باطن المنع عطاءً وقد يكون في ظاهر العطاء بلاءً.

كثيراً ما يطغى الإنسان في حال الغنى قال تعالى:

(كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآَهُ اسْتَغْنَى (٧))

(سورة العلق)

النبي عدّ الغنى بلاء فقال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ بَادِرُوا بِالأَعْمَالِ سَبْعًا هَلْ تَنْتَظِرُونَ إِلا فَقْرًا مُنْسِيًا أَوْ غِنًى مُطْغِيًا أَوْ مَرَضًا مُفْسِدًا أَوْ هَرَمًا مُفَنِّدًا أَوْ مَوْتًا مُجْهِزًا أَوِ الدَّجَّالَ فَشَرُّ غَائِبٍ يُنْتَظَرُ أَوِ السَّاعَةَ فَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ))

(سنن الترمذي)

قال العلماء: اسم المانع قريب في معناه من اسم الحفيظ، ولكن الفرق بينهما أن الحافظ مضاف إلى معنى والمانع مضاف إلى معنى آخر.

المانع مضاف إلى سبب مهلك يمنعك من هذا السبب، أما الحافظ مضاف إلى شيء محروس في الأصل من قبل الله عزّ وجلّ.

هذا الاسم الكريم ورد في الحديث الشريف، إلا أنه لم يرد في القرآن الكريم بل ورد معناه ليس المطابق ولكنه المقابل، لذالك قال تعالى:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧))

(سورة يونس)

الآية الكريمة أيها القارئ الكريم عميقة الدلالة جداً.

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ)

لم يقل: وإن يمسسك بخيرٍ.. بل قال:

(وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

وبعد... فينبغي لمن يتخلّق باسم المانع ألا يسأل غير الله، لأنه هو وحده المعطى المانع، لا أحد يمنعك، ولا أحد يعطيك إلا الله، فالتخلُّق بهذا الاسم يعني أن تعقد الأمل على الله، وألاّ ترجو غير الله، وألاّ تغترّ بإعطاء الإنسان، لأن عطاء الإنسان من عطاء الله.

لذالك فالنبي الكريم كان يرجو ألا يجعل الله له خيراً على يد كافر أو منافق لأنّ العطاء من الله عز وجل، وفي ساعة غفلة ترى أن العطاء أتى من زيد أو عبيد، والمؤمن إذا مُنِع شيئاً لا يرى هذا المنع إلا من الله، ولو رآه من زيد أوعبيد لوقع في حرج شديد، اللهم لا معطيَ لما منعت ولا مانعَ لما أعطيت. وينبغي ألاّ تحقد على الناس لأنهم منعوا عنك شيئاً، فالله هو الذي منعه، العطاء من المعطي الحقيقي وهو الله، والمنع من المانع الحقيقي وهو الله، هذا ملخّص الملخص للبحث.

العطاء.. مطلق العطاء من المعطي الحقيقي وهو الله، والمنع مطلق المنع من المانع الحقيقي وهو الله، علاقتك مع الله فلا تحقد على أحد.. لا تحْمَدَنّ إنساناً على فضل الله، ولا تذمنّه على ما لم يؤتك الله، إذا منعك إنسان لاتحقد عليه هو مانع صوري، أما المانع الحقيقي فهو الله، الله هو المعطي وهو المانع الحقيقي، وأحياناً يعطي مباشرةً ويمنع مباشرةً، وأحياناً يعطي من خلال عباده، ويمنع من خلال عباده، إن وافق لك المسؤول على السفر أو لم يوافق لك فقل: حسبي الله ونعم الوكيل، ولكن على يقين أن المانع والمعطي هو الله سبحانه، قال تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ)

(سورة النور)

ملخص البحث أيُّها القراء... أنّ المعطي الحقيقي هو الله والمانع الحقيقي هو الله، قد يعطي مباشرةً، أو عن طريق خلقه، وقد يمنع مباشرةً، أو عن طريق خلقه، المؤمن موحِّد إن أُعطي مباشرة يحمد الله، وإن أُعطي عن طريق خلقه يحمد الله، إن مُنِع يرضى بقضاء الله، إن مُنِع عن طريق خلقه يرضى بقضاء الله، والمؤمن لا يحقد أبداً، وهذا هو التوحيد، وما تعلّمت العبيد أفضل من التوحيد.

ورد في أدعية النبي عليه الصلاة والسلام من حديث أخرجه البخاري:

((اللهم من منعت فهو ممنوع. أي من حرمت فهو محروم لا يستطيع أحد أن يعطيه))

كقوله تعالى:

(وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِم)

(سورة الحج)

(وَمَنْ يُهِنْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ)

سبحانك فإنّه لا يذِلُ من واليت ولا يعزُّ من عاديت.. أيْ أنْ ليس لنا إلا الله عزّ وجلّ، فلا تبذل ماء وجهك أمام أحد، كن عزيزاً، لا تبذل ماء وجهك إلا أمام ربّك، لا تبذل دموعك إلا لله، إلا في السجود لله عزّ وجلّ، لا تبكِ أمام الناس لن يعطوك ولن يمنعوك، المانع هو الله، والمعطي هو الله، صُنْ ماء وجهك، احفظ ماء وجهك، لا تتضعضع لغني، تضعضع لله عزّ وجلّ، تذلل له، مرّغ جبهتك في أعتابه، أما أمام الناس كن عزيز النفس.

هذا هو ملخص البحث، واعلم علم اليقين أن الله عزّ وجلّ مانع بمعنى يمنعك من كلّ ما يؤذيك، يحفظك، ويمنعك من كل ما يطغيك، ويمنعك تأديباً لك، فهو مانع بالمعاني كلّها، وإذا أراد أن يمنعك مما يؤذيك ألهمك أسباب الحفظ والمنع، ووجهك وجهة الخير وقذف في قلبك الرضى.

٧٨- اسم الله المقسط :

مع الاسم الثامن والسبعين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو المقسط.

في اللغة.. أقسط فلانٌ إذا عدل، وقسط فلانٌ إذا جار.. أقسط: عدل، وقسط: ظلم وجار.. المقسط: العادل، القاسط: الظالم، قال تعالى:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً (١٥))

(سورة الجن)

قال بعض علماء اللغة: " المقسط هو العادل في حكمه قال تعالى: وأقيموا الوزن بالقسط: أي بالعدل، والقِسْطُ أيضاً هو النقيض "، القِسْطُ.. أقساط، أجزاء، أنصبة.

ذكر بعض علماء اللغة أنّ القَسْطَ: " هو أن يأخذ الإنسان قِسط غيره أي يظلم ".. فالقَسْطَ مصدر.. أي يأخذ نصيب غيره، أن يأخذ ما ليس له فهو ظالم.

والإقساطُ أن يُعطى قسط غيره فهو عادل.. أن تعطي حقّ الناس إلى الناس فأنت عادل، أن تأخذ ما ليس لك بحق فأنت ظالم.. أن تأخذ قِسْطَ غيرك هذا ظلم، أن تعطي الآخرين قِسْطَهم هذا عدل.. هذا الفرق بين قسَطَ وأقسَطَ.

دخل رجل على الحجّاج فسأله الحجاج من أنا ؟ فقال له الرجل: أنت قاسطٌ عادل. فظنّ الحاضرون أنّه يمدحه، فقال: أتدرون ماذا قال لي؟ لقد قال لي أنت ظالمٌ كافر، قالوا كيف؟ قال: أما قاسط فقد قال تعالى:

(وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا)

وقال أيضاً:

(ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ)

أي عدل عن الحقّ إلى الباطل، وعن الجنّة إلى النار.. في قوله تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١))

(سورة الأنعام)

فأحياناً كلمة "قاسط عادل" لا تعني مدحاً، بل تعني ذماً، كما قيلت للحجاج أعلاه.

المُقسِطُ في حقّ الله تعالى هو العادل في الأحكام، الذي يتصرّف في العوالم بكلّ نظام.

ذكرت ذات مرة أنّ إنساناً كان يطوف حول الكعبة ويقول: ربِّ اغفر لي ذنبي ولا أظُنُّك تفعل. فمشى وراءه الإمام الشافعي وقال: يا هذا ما أشدّ يأسك من رحمة الله. قال: ذنبي عظيم. قال: ما ذنبُك ؟ قال: كنت جندياً في حملةٍ لقمع فتنة، فلما قُمِعت أُحِلّت لنا المدينة، فدخلت أحد البيوت فرأيت فيه رجلاً وامرأةً وطفلين، قتلت الرجل وقلت للمرأةَ أعطني كلّ ما عندك من مال، أعطتني كلّ ما لديها، فقتلت ولدها

الأول فلما رأتني جاداً في قتل الثاني أعطتني درعاً مُذْهبة - من الذهب -، أعجبتني، تأملتُها فإذا عليها بيتان من الشعر:

إذا جار الأمير وحاجباه وقاضي الأرض أسرف في القضاء

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماءِ.

***

أحياناً يكون الظالم زوجاً يقول لنفسه: إن زوجتي ليس لها سند، ومقطوعة من الأهل.. فيظلمها أشدّ الظُلم، ويضغط عليها أشدّ الضغط، فنقول له:

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ.... لقاضي الأرض من قاضي السماءِ.

***

أحياناً تكون بوظيفة يمكن أن تؤذي الناس من خلالها، تستخدم هذه الثقة التي مُنحت إيّاها لحفظ مصالح الأمة في سبيل ابتزازِ أموال الأمة، فيقال لك:

فويلٌ ثم ويلٌ ثم ويلٌ لقاضي الأرض من قاضي السماءِ.

***

وما أكثر أنواع الظلم، والظلم ظلماتٌ يوم القيامة والله سبحانه وتعالى من أسمائه المُقسط، لذلك فالمؤمن يعُدُّ للمليون قبل أن يظلم إنساناً لأنّه يعلم أنّ الله أقدرُ عليه منه على هذا الإنسان.. وقد ورد هذا في نصّ حديث رسول الله عليه الصلاة والسلام عندما رأى أحد أصحابه يضرب غلاماً له فقال:

((اعلم أبا ذر أنّ الله أقدر عليك منك عليه.))

وقال بعضهم:

إذا دعتك قدرتك إلى ظلم الناس تذكّر قدرة الله عليك.

ذات مرّة أراد الحجّاج أن يحاكم إنساناً ليقتله فقال هذا الإنسان: أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ منّي بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي فتفكر الحجاج م عفا عنه، فالإنسان كلما ازداد علماً ازداد خوفاً من الله، إذا ظنّ أنّه قوي وأنّه يفعل ما يريد فاستخدم هذه القوّة في غير العدل فقد استوجب سخط الله عزّ وجلّ، وإذا سخِط الله عليه فبطشُ الله شديد كما ورد في الآية الكريمة قال تعالى:

(إِنّ بَطْشَ رَبّكَ لَشَدِيدٌ (١٢) إِنّهُ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ (١٣))

(سورة البروج)

من ذكريات الماضي المقدس أنه: يوم أرسل النبيُّ الكريم عبد الله بن رواحة إلى اليهود ليأخذ منهم ما اتُفق على أن يعطوه للنبي من ثمارٍ وزروع، فأراد هؤلاء أن يرشوا عبد الله بن رواحة لعلّه يترفّق بهم في قِسمة الزروع بينهم وبين النبي - فقال عبد الله بن رواحة: **والله لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إلي**

- من عند رسول الله - وأنتم أبغض إليّ من عددكم من القِردة والخنازير، ومع ذلك لا يحملني حبي لرسول الله وبغضي لكم أن أظلمكم، أو أن أفعل معكم غير الحق. فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا تغلبوننا، بهذا العدل تغلبوننا.. فأنا أشعر أنّ قيمة العدل هي أخطر قيمة في المجتمع.

يروي التاريخ المعاصر أنّ بريطانيا عقب الحرب العالميّة الثانية هُدِّمت كلياً، وقف أحد زعمائها في مجلس العموم يسأل وزراءه وزيراً وزيراً، كيف الصناعة عندك يا فلان ؟ يقول له المعامل مدمّرة، كيف الزراعة عندك يا فلان ؟ يقول له: لا ثمار ولا غلال، كم في الخزينة عندك يا فلان ؟ يقول له: لا شيء خواء. فكل ما عندهم دمر.. فالتفت إلى وزير العدل وقال: كيف العدل عندك يا فلان ؟ قال: بخير. قال: كلّنا إذاً بخير.

يبدأ هذا العدل من داخل أسرتك لا تظلم لا تميّز ولداً على ولد، لا تميّز زوجة على زوجة إن كانت لك زوجتان، لا تميّز أخاً على أخ، السماوات والأرض لا تقومان إلا بالعدل، والعدل أساس الملك، أن تملك زمام أولادك فأساس هذا الملك العدل، أن تملك قياد الموظفين العاملين عندك فأساس هذا الملك العدل، قيمة العدل هي أفضل قيمة، يمكن أن تأكل أخشن الطعام، وأن تلبس أخشن الثياب، وأن تشعر أنّك قد أخذت حقك، أما حينما يشعر الإنسان بالظلم عندئذٍ تنقلب حياته إلى جحيم من هنا قال الله عزّ وجلّ في الحديث القدسي:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِنِّي حَرَّمْتُ عَلَى نَفْسِي الظُّلْمَ وَعَلَى عِبَادِي أَلا فَلا تَظَالَمُوا كُلُّ بَنِي آدَمَ يُخْطِئُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ثُمَّ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ وَلا أُبَالِي وَقَالَ يَا بَنِي آدَمَ كُلُّكُمْ كَانَ ضَالا إِلا مَنْ هَدَيْتُ وَكُلُّكُمْ كَانَ عَارِيًا إِلا مَنْ كَسَوْتُ وَكُلُّكُمْ كَانَ جَائِعًا إِلا مَنْ أَطْعَمْتُ وَكُلُّكُمْ كَانَ ظَمْآنًا إِلا مَنْ سَقَيْتُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ وَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ وَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ وَاسْتَسْقُونِي أَسْقِكُمْ...))

(مسند الإمام أحمد)

الظلم ظلماتٌ يوم القيامة، الظلم مرتعه وخيم، والله عزّ وجلّ مقسط، الإمام الغزالي يقول: **" المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم ".**

فقد ذكرت من قبل قصّةً سابقة ولكن لا بدّ من أن أذكرها هنا.. إنسان يركب مركبة ويسير بها في طريق المطار، وكلبٌ صغير في أيام الشتاء القارس وجد أنّ الطريق المزفّت أدفأ له من التراب لسواد لونه، فاللون الأسود يمتصّ الحرارة فقبع على طرف الطريق، وهذا الذي يقود المركبة عنّ له أن يظهر براعته في القيادة أمام من إلى جواره، فاستطاع بدقّةٍ بالغة أن يقطع يديّ الكلب دون أن يقتله وأطلق ضحكةً هيستيريّة، يذكر لي الذي كان إلى جانبه أنه في أول أيام الأسبوع التالي وفي المكان نفسه تعطّلت مركبته إذ أصيبت إحدى العجلات فنزل لإصلاحها، فرفع المركبة بالأداة الرافعة وأزال

البراغي من العجلة وبينما هو يسحب العجلة اختلّ توازن المركبة فوقعت فوق العجلة والعجلة فوق رُسغيه فهُرستا، فإلى أن وصل إلى المشفى كان قد وصل الموات إلى أطراف أصابعه، فأمر الطبيب بقطع كفّيه من رُسُغيه، كما فعل يوم السبت الماضي بالكلب، وقال لي هذا الذي كان بجوار قائد المركبة: رأيته بعيني بعد أسبوع بلا يدين.

أيها القراء الكرام: أليس هذا جزاءً وفقاً، فالله عزّ وجلّ مُقْسِط.. وكلّما عرفتَ عدله تأدّبتَ معه، وكلّما أكبرتَ عدالته ازددت معه أدباً.

قال الإملم الغزالي: **" المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم "**، قد يكون المظلوم هرّة.. فقد قال صلّى الله عليه وسلّم:

((حَدّثنَا أَبُو هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا وَقَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ دَخَلَتِ امْرَأَةٌ النّارَ مِنْ جَرّاءِ هِرّةٍ لَهَا أَوْ هِرّ رَبَطَتْهَا فَلَا هِيَ أَطْعَمَتْهَا وَلَا هِيَ أَرْسَلَتْهَا تُرَمْرِمُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ حَتّى مَاتَتْ هَزْلاً))

(صحيح مسلم)

أيدخل إنسان النار في هرّة ؟.. نعم فدققوا النظر متأملين.. قبل أن تقتلوا حيواناً فقد قال تعالى:

(وَالّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللّهِ إِلَهاً آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النّفْسَ الّتِي حَرّمَ اللّهُ إِلّا بِالْحَقّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَاماً (٦٨))

(سورة الفرقان)

سُمِح لك أن تقتل الفأرة، وأن تقتل العقرب، أن تقتل الحيّة، أما أي حيوان تدعسه وتدوس عليه وأنت في راحة تامة ؟ لا.. فهناك حيوانات لا يجوز أن تقتلها لأنّها ما فعلت شيئاً.

وكلّكم يستمع إلى آلاف الوقائع والحوادث عن إنسان تعدّى على حيوان.. فقد بصره، أو فقد حركته بشلل أصابه، إنسان غضب من هرّة فألقاها من الطابق السابع، بعد حينٍ اختلّ توازنه في المشي، وأمضى حياته كلّها على عُكّازين.. فالظلم ظلماتٌ يوم القيامة.

الإمام الغزالي يقول: **" المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم، وكماله في أن يضيف إلى إرضاءِ المظلوم إرضاءَ الظالم".**

أكمل شيء بالمُقسط.. أنّ الله عزّ وجلّ ينتصر للمظلوم من الظالم، وبعد ذلك يرضي الظالم، بعدما قام بتأديبه ورجع إلى الحق يكرمه، والدليل الآية الكريمة:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ (٦))

(سورة القصص)

فإذا طغى عبدٌ على عبد، انتصر للمظلوم من الظالم، فإذا رجع الظالم عن ظلمه وتاب إلى الله أكرمه الله، فالإمام الغزالي يقول: **" المقسط هو الذي ينتصف للمظلوم من الظالم، وكماله في أن يضيف إلى إرضاءِ المظلوم إرضاءَ الظالم ".**

أدقّ نقطة أنّ الله جلّ جلاله لا يُبغض الكافر، ولكن يُبغض عمله، فإذا قال الله عزّ وجلّ:

(فَإِنّ اللّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ)

في الآية الكريمة:

(قُلْ أَطِيعُوا اللّهَ وَالرّسُولَ فَإِنْ تَوَلّوْا فَإِنّ اللّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢))

(سورة آل عمران)

العلماء أجمعوا على أنّ الله عزّ وجلّ لا يُحبُّ عملهم، فإذا تابوا وأنابوا أحبّهم، والمؤمن الصادق المخلص.. لو أنّ له خصماً عنيداً كافراً فاجراً منحرفاً إلى آخر هذه الأوصاف، إذا أناب إلى الله وتاب إليه واصطلح معه فبأقل من ثانية ينقلب حاله فيكون أقرب الناس إليه، والدليل على ذلك:

عندما جاء عمير بن وهب إلى المدينة المنوّرة، فرآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان عملاق الإسلام، قال: هذا عدوُّ الله عمير جاء يريدُ شراً، فأمسكه وقيّده بحمّالة سيفه وساقه إلى النبي وأدخل إليه صلّى الله عليه وسلّم، قال: يا رسول الله إنّ عدوّ الله عمير جاء يُريد شراً. قال: **يا عمر أطلقه..** فأطلقه.. **يا عمر ابتعد عنه..** فابتعد عنه. وسأله: **يا عمير ما الذي جاء بك إلينا ؟** قال: جئت أفدي أخي. قال: **يا عُمير وما هذا السيفُ الذي على عاتِقك؟** قال: يا محمد قاتلها الله من سيوف وهل نفعتنا يوم بدر. قال: **ألم تقُل لصفوان بن أميّة.. لولا ديونٌ ركبتني وأطفالٌ أخاف عليهم العنت لذهبت إلى محمدٍ وقتلته وأرحتكم منه** فهبّ واقفاً وقال: أشهد أنّك رسول الله، لأنّ هذا الذي جرى بيني وبين صفوان لا يعلمه أحدٌ إلا الله وأنت رسول الله حقاً، وأسلم.

فاستمعوا أيها القراء الكرام إلى ما قاله عمر قال: دخل عُمير على رسول الله والخِنزيرُ أحبُّ إليّ منه، وخرج من عنده وهو أحبُّ إليّ من بعض أولادي.

في ثانية... المؤمن ليس له عدو، فإن كره الكافر يكره عمله، إن كره الظالم يكره ظلمه، إن كره الفاسق يكره فسقه، إن كره المعتدي يكره عُدوانه، أما إذا عاد المعتدي إلى جادّة الصواب، وترك الفاسق فسقه، وترك الكافر كفره.. صار أقرب الناس للمؤمن، ولقد جاء في الأثر:

((تخلّقوا بأخلاق الله))

إنّ الله عزّ وجلّ لا يُبغض الكافر لذاته، بل يُبغِضُ عمله.

قال: لا يقدر على الانتصاف من الظالم للمظلوم ثم إرضاء المظلوم والظالم إلا الله، هذا من اختصاص الله.. إليكم هذه القصّة:

بينما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم جالسٌ ضَحِكَ حتى بدت ثناياه، فقال عمر: **بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما الذي أضحكك!؟** فقال عليه الصلاة والسلام: رجُلان من أمّتي جَثيا بين يدي ربِّ العزّة يوم القيامة فقال أحدهما: يا ربيّ خذ مظلمتي من هذا - يوم القيامة - فقال الله عزّ وجلّ للظالم: رُدَّ على أخيك مظلمته. فقال: يا ربِّ لم يبقَ من حسناتي شيء. فقال عزّ وجلّ للمظلوم: كيف تصنع بأخيك ولم يبقَ من حسناته شيء ؟ قال: يا ربّي ليحمل عني من أوزاري.. فالمظلوم أخذ كلّ حسنات الظالم، ولم تفِ بحقِه، فقال المظلوم: ليحمل عني أوزاري.. قال: ففاضت عينا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالبكاء وقال: إنّ ذلك ليومٍ عظيم، يوم يحتاج الناس أن يُحمل عنهم من أوزارهم قال عليه الصلاة والسلام: فيقول الله عزّ وجلّ للمتظلِّم ارفع بصرك فانظر في الجِنان. فقال يا ربّي أرى مدائن من فضّة وقصوراً من ذهبٍ مكلّلة باللؤلؤ لأيّ نبيٍ هذا القصر **!؟** أو لأيّ صدّيقٍ هذا القصر**!!؟** أو لأيّ شهيدٍ هذا **!!!؟** قال الله عزّ وجلّ: لمن دفع الثمن. فقال المظلوم: يا ربّ ومن يملك ذلك الثمن **!؟** فقال: تملكه أنت. قال: بماذا يا ربّي **!!؟** قال: بعفوك عن أخيك. إذا عفوت عنه دفعت ثمن هذا القصر. فقال: يا ربِّ لقد عفوت عنه. يقول الله عزّ وجلّ: خذ بيد أخيك فأدخله الجنّة.. ثم قال عليه الصلاة والسلام:

((اتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم، فإنّ الله يعدل بين المؤمنين يوم القيامة.))

فالله عزّ وجلّ مختص بهذا وحده، وهو الذي يستطيع أن ينتصر للمظلوم من الظالم، فإذا رجع الظالم عن ظلمه أرضى الظالم أيضاً وشملته رحمته.. هذه ليست لغير الله.. لأنّ الإمام الغزالي يقول: **" إنّ أكمل درجات الإقساط، العدل أن تعامل كِلا الطرفين معاملةً يرضيان عنها ".**

حقيقة تملأ جوانحي.. المؤمن لا يحقد **!!** لأنّه يرى الأمراض التي أمامه من بني البشر هي أمراض وليست سجايا، أمراض الإعراض، أعراض الإعراض، فكما أنّ الطبيب لا يحقد على مريضٍ مصاب بمرضٍ معدٍ، كذلك ولله المثل الأعلى، فالله جلّ جلاله يعلم أنّ هذه الأخطاء والرُعونات والانحرافات هي أعراضٌ لمرضٌ واحد هي الإعراض عن الله عزّ وجلّ، وأكبر دليل أنّ الإنسان عندما يقبل تراه لطيفاً ومنصفاً، وقّافاً عند حدود الله، فسبحان من يغير ولا يتغير.

وسرعان ما نعود إلى المُقسِط فقد ورد المعنى في بعض آيات القرآن الكريم ففي سورة المائدة قال تعالى:

(سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئاً وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٤٢))

(سورة المائدة)

(وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

جاء رجل إلى النبي وهو البشير بن النعمان قال: يا رسول الله اشهد أنني نحلت ابني هذا حديقة. فقال: **ألك ولدٌ غيره** ؟ قال: نعم. قال: **أنحلت كلاً منهم ما نحلته** ؟ ولندقق ملياً الآن.. قال: لا. قال النبي عليه الصلاة والسلام للبشير: **اشهد غيري، فإنّي لا أشهد على جَوْر.**

وقد ورد في بعض الأحاديث:

((حَدّثنِي شَهْرُ بْنُ حَوْشَبٍ أَنّ أَبَا هُرَيْرَةَ حَدّثَهُ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ إِنّ الرّجُلَ لَيَعْمَلُ وَالْمَرْأَةُ بطاعَةِ اللّهِ سِتّينَ سَنَةً ثُمّ يَحْضُرُهُمَا الْمَوْتُ فَيُضَارّانِ فِي الْوَصِيّةِ فَتَجِبُ لَهُمَا النّارُ))

(سنن الترمذي)

((عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ أَنّ النّبِيّ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ قَارِبُوا بَيْنَ أَبْنَائِكُمْ يَعْنِي سَوُّوا بَيْنَهُمْ))

(مسند الإمام أحمد)

من أعجب ماسمعت أن أسرةً توفي الأب وترك أولاداً وبنتاً وحيدة متزوّجة، وهذه البنت الوحيدة نصيبها من الميراث ستّة عشر مليوناً لم يُعطها إخوتها شيئاً، لأنّها متزوّجة، فوراً فطلّقها زوجها فوراً، فأهلُها ظلموها، وزوجها ظلمها، أعطِ كلّ ذي حقٍ حقّه.. لا علاقة لك بغني أو فقير، فموضوع الحق ليس له علاقة بالغنى أو الفقر.

(وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ)

لو ظلمتْ ابنتك صهرك وجارت عليه، فكن عادلاً وأنصف المظلوم، وإذا بغى ابنك على صديقه فرد الباغي: كن عادلاً، وخذ بيد المظلوم.

لكن أكثر الناس مع ابنه على حقٍ أو على باطل، ومع ابنته على حقٍ أو على باطل، ما الذي يميّز المؤمن من الكافر ؟ العدل.. وساعة عدلٍ خيرٌ عند الله من أن تعبد الله ثمانين عاماً.

ساعة عدل.. كلمة عدل خير من الدنيا وما فيها النبيُّ عليه الصلاة والسلام استعرض أسرى بدر فإذا صهره بين الأسرى... أُلقي عليه القبض وأسر لأنّه كان في عِداد المحاربين يريد أن يقتل المسلمين، فلما استعرض الأسرى قال عليه الصلاة والسلام: **والله ما ذممناه صهراً**، فهو صهر ممتاز.. لكنه الآن مشرك وجاء ليقاتل وقد وقع أسيراً، هذه الكلمة التي أنصفه بها فعلت فيه فِعل السحر وانتهت به إلى الإيمان.

من السهل جداً أن تُحبّ إنساناً محبّة عمياء.. ومن السهل جداً أن تبغضه بغضاً أعمى، ولكنّ الإنصاف يفرض عليك أن تحبّه وأن تبغِضه بالعدل، أن تحبّه منصفاً، وأن تبغضه منصفاً، معظم االناس إذا أحبّوا إنساناً ستّروا كلّ عيوبه، وإذا أبغضوا إنساناً ستّروا كلّ فضائله، فهذا ظلم.

تعامل أحد أولادك معاملة جيدة وتسيء لأخيه هذا ظلم وتعامل إحدى بناتك بغير ما تعامل أختها هذا ظلم، تعامل موظفاً في المكتب بغير ما تعامل الموظف الآخر فهذا ظلم.. ثم وسّع الأمر كما شئت.
وفي سورة الحجرات قال تعالى:

(وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩))

(سورة الحجرات)

كثير من الناس يرى أن معاملتك للكافر الفاجر الفاسق الملحد لا غبار عليها مهما أسأت إليه، فلا عليك مثلاً أن تأخذ ماله وأن تضطهده وأن تظلمه، أن تغُشّه، هذا هو الجهل بعينه، وهذا هو الخطأ بعينه، وهذا هو الظلم بعينه، قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (٨))

(سورة المائدة)

(وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألا تَعْدِلُوا)

يخاطب الله المؤمنين ويحضهم على العدل: من هم أعداء المؤمنين التقليديين ؟ الكفّار، الفجّار، العصاة، الفاسقون، المارقون، هؤلاء الكفّار، الفجّار، العصاة، المارقون قال تعالى:

(وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى ألا تَعْدِلُوا)

مع هؤلاء

(هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى)

إن عدلتم معهم قرّبتموهم إلى الله، وإن عدلتم معهم قرّبتموهم إليكم، أما إن ظلمتموهم زدّتموهم بعداً، زدّتموهم كفراً.

يسألني أخ وهو في حيرة من أمره: لي ولدان.. أحدهما فاسق والآخر طائع، أريد أن أعطي الطائع نصيباً أوفر من أخيه. أقول له وبلا تردد: لا تفعل.. إنّك إن ظلمت الثاني زدّته عقوقاً، اعدل بينهما والله سبحانه وتعالى يبارك للبار بما أعطيته.

أنا وقاف عند كلمة "يبارك" لأنني أطرب لسماعها ويهزني معناها.. يقولون: رجل مبارك، رزق مبارك، زوجة مباركة، بيت مبارك، بارك الله لك، الله يبارك عليك، تباركنا فيك، هذه الكلمات.. تستخدم على أوسع نطاق في العالم الإسلامي، ما معنى بركة ؟ الخير الكثير، ما معنى تبارك الذي بيده الملك ؟ أي ما أعظم خيره وأكثره.

الله عزّ وجلّ أحياناً يبارك لك بمالك أي ينتج لك من الشيء القليل الخير الكثير، مال يكون قليلاً فتنتفع به ببركة الله، تتزوّج به، تأكل منه تشرب، تلبس، وهو مال قليل، وأحياناً المال الكثير يمحق الله بركته فإذا هو نقمةٌ على صاحبه..

أما المستقيم فالله عزّ وجلّ يبارك له في ماله، وأحياناً يبارك لك بوقتك، في الوقت القليل تفعل الشيء الكثير.

أحد العلماء ترك كُتُباً من تأليفه وعُدّت صفحاتها وقسّمت على سنيّ حياته فكان نصيب كل يوم تأليف تسعين صفحة، وقد ورد في بعض الأحاديث: أنّه من أخّر الصلاة عن وقتها، أذهب الله البركة من عمره، وأنّ أحبّ الأعمال إلى الله الصلاة على وقتها.

فهناك وقت مبارك.. أنت إذا صلّيت، إذا اقتطعت من وقتك الثمين وقتاً لخدمة الخلق، وقتاً لنشر الحق، وقتاً لنصرة الضعيف، وقتاً لمواساة المسكين، هذا الوقت الذي اقتطعته من وقتك كأنّه زكاة وقتك.. ومن أدّى زكاة ماله حفظ الله له بقيّة ماله.. حصّنوا أموالكم بالزكاة، ومن أدى زكاة وقته حفِظ الله له بقيّة وقته، تجد فيما تبقى له من وقت يفعل خلاله الشيء الكثير رغم أنه قصير.

أحياناً تتعسّر أمور الإنسان، يطلب أحد أصدقائه فلا يجده فيذهب وأضاع وقته.. أو بعد أن يقوم بإصلاح محرّك لآلة فينسى أن يضع قطعة صغيرة في محلها، فيفك أجزاءه مرّةً أخرى وقد أخذ من وقته الساعات الطوال، أحياناً الله عزّ وجلّ يذهب لك زبدة وقتك وخلاصته وخيره في أتفه الموضوعات، فقد ينقصك قطعة تبديل لآلة معطّلة والعمال ينتظرون إحضارها، فتقوم باستيرادها وقد تأتي ناقصة من الخارج - وذلك بأنك ضننت بوقتك على أن تصلِّي أو على أن تحضر مجلس علم، أو أن تطلب العلم، أو أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر أذهب الله البركة من وقتك.. وضيعه سُدى بلا طائل.

دائماً نعجب من المؤمن.. فالله يوفّقه بأن يبارك له بوقته ؟ يفعل أشياء كثيرة في وقت قصير هذه هي البركة، ومن هنا كان دعاء القنوت: اللهمّ اهدنا فيمن هديت، وعافنا فيمن عافيت، وتولّنا فيمن تولّيت، وبارك اللهمّ لنا فيما أعطيت.

يعطيك دخلاً يكفيك ويغطي جميع نفقاتك، يكفي أن يكون الإنسان معافى في صحّته، فقد خلّص نفسه من الذهاب إلى الأطباء والمشافي والتصوير الإشعاعي والطبقي المحوري والمرنان، والتحاليل، والذهاب للخارج وتبديل دسام قلبه، أو الكلية، كل ذلك بمئات الألوف، بالملايين.

إذا استقام الإنسان على أمر الله حفظ الله له صحّته، إذا أدّى زكاة ماله حفظ الله له ماله، فلا حريق، ولا ضياع، ولا مصادرات، ولا مخالفات، ولا استملاك، والله ينجيه من كل ذلك.

فقد سمعت عن رجل والشيء بالشيء يُروى.. له دكّان صغير في سوق شعبي وهو مستقيم طوال حياته، لم يأكل مالاً حراماً إطلاقاً، جاءه رجل وبتطفّل وبأسلوب عدواني يريد شراء دكانه والرجل يرفض بيعها لأنّها مورد رزقه. فقال له: أحببت هذا الدكان ويجب أن تبيعني إيّاها.. فقد وقعت في قلبي، وإلا أحسدك، وما زال به حتى باعه إيّاها بسبعمائة ألف. وهي في سوق شعبي في طرف دمشق، قبض الثمن منه، وبعد عشرة أيام استُملك السوق، فأعطوا الشاري الجديد سبعة آلاف ليرة تعويضاً.

فالمالك الأول كان صادقاً طوال حياته مع الناس ولم يكذب عليهم، ولم يغشّهم. فكافأه الله سبحانه بأن حفظ له ماله، سأجعل هذه الدكان تحلو بعين فلان.. فما زال به يلح إلى أن باعه إيّاها بسبعمائة ألف ثم قبض الآخر تعويضاً لهذه الدكان سبعة آلاف ليرة.

فلذلك أركِّز على البركة.. فإذا أنت اتقيت الله عزّ وجلّ بارك الله لك بوقتك، وبارك لك بصحّتك، وبارك لك بمالك، وبارك لك بزوجتك.

فقد حضرت تعزية بوفاة امرأة، وزوجها حيّ وعمره يقارب السبعين وزوجته المتوفاة في الستين، فقد بكى بكاءً غير معقول على الإطلاق.. فهو في السبعين وزوجته المتوفاة في الستين.. فلما انتهى وقت التعزية وذهب المعزّون جرى حديث بغية وعظ الزوج عن البكاء الشديد وأن عليه أن يصبر ويحتسب. فقال: والله عِشتُ معها خمسةً وأربعين عاماً ما نِمت ليلةً واحدة وأنا غاضبٌ عليها.

فقد بارك الله له بزوجته.. وقد تجد شخصاً يقول لك: لم أرتح يوماً واحداً معها.. فلا توسط في الزواج لنا الصدر دون العالمين أو القبر، فالزوجة إما بلاء من الله وإما أنها هي الدنيا وزينتها كما في قوله تعالى:

(وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١))

(سورة البقرة)

(رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ)

العلماء فسّروا حسنة الدنيا بالزوجة الصالحة، التي إن نظرت إليها سرّتك، وإن أمرتها أطاعتك، وإن غِبت عنها حفظتك في مالك ونفسها.. وهي ستّيرة، وإذا خلا بها بذلت له ما أراد منها، فبارك الله لك في مالك، وبارك الله لك في وقتك، وبارك الله لك في زوجتك، وبارك الله لك في أولادك..

تجد ابناً باراً مع أبيه دائماً، فوالله أرى هذه نعمة كبرى، هوفي خدمته، وبأدب وتواضع هذا من فضل الله، فأشعر أن هنالك أسراً ناعمة البال راغدة تاعيش ببر بعضهم لبعض، ففي حياتهم بركة.

فإذا استقام الإنسان على أمر الله ينال البركة من الله.. وإذا مُحقت البركة يصبح المال نقمة، قد يُقتل من أجل ماله، وقد تكون الزوجة شؤماً قد ينتحر من أجلها وبسببها، وقد يكون الابن شؤماً كذلك.. وهكذا تقلب له الحياة ظهر المجد.

أيها القارئ الكريم.... أحياناً يكون لك قريب تقول عنه لا دين له، إنه لا يُصلّي ومغموس في الملذّات إلى قمّة رأسه، لكنه يحترمك كثيراً، ويُكبر فيك إيمانك واستقامتك ولك مكانة عنده، فيأتي المؤمن الجاهل أحياناً يسيء إلى هذا الإنسان غير الملتزم بدعوى أنّه غير ملتزم فاستمع إلى هذه الآية قال تعالى:

(لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨))

(سورة الممتحنة)

هو لا يعارضك ولا يحاربك، ولا يطعن بك، ولا يذُمُّك بليقدِّر فيك استقامتك وإيمانك وصلاتك وهو مقصِّر وغارق في الشهوات، هذا الإنسان ينبغي أن يرى منك كلّ استقامة وكلّ بر وكلّ إقساط كما في الآية السابقة.

وهأنذا أؤكِّد أنّ آلاف الحالات.. حالات التوبة أساسها عمل ذكي بسبب إحسان بادر به مؤمن، فعندما قال الله عزّ وجلّ:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠))

(سورة الشورى)

يسألني أحياناً أحدهم: هل أستطيع أن أعطي زكاة مالي لقريب لا دين له ؟ فأقول: إن غلب على ظنِّك أنّ إعطاءه هذا المال يقرّبه منك ومن الدين فافعل.. أما إذا كان هذا المال يزيده بعداً عنك وعن الدين فلا تفعل.. فالضابط المنظِّم لهذا العمل هو: ما إذا غلب على ظنِّك أنّ إحسانك إليه يزيده قرباً من الله. فدائماً وأبداً.. العدل العدل، فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

((عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّه عَنْهمَا أَنّ النَّبِيّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ اتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ))

(صحيح البخاري)

الأبلغ من ذلك.. أنّك إذا ظلمت مسلماً، المسلم أبغضك أي أبغض ذاتك، أما إذا ظلمت غير مسلم فإن المظلوم يبغض دينك، ويقول: الإسلام ظلمني.. ينسى الإنسان ويتّهم الدين كلّه بالظلم لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((أنت على ثغرةٍ من ثُغر الإسلام فلا يؤتَيَنّ من قبلك))

الآية الرابعة في المقسط قال تعالى:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧))

(سورة الأنبياء)

قال: أوفر الناس حظاً من هذا الاسم من ينتصف من نفسه، فلو أخطأت وأنت القوي جداً مع إنسان ضعيف جداً وظلمته فقل له: أنا أخطأت معك وسامحني. فهذا أرقى ما يتصف به أحد بالعدل، أن تنتصف لنفسك ممن هو أضعف منك، أن تنتصف من نفسك وليس لنفسك، أن تنتصر لمن هو أضعف منك.

أحياناً يكون الزوج في البيت هو كل شيء وعنده زوجة ضعيفة إذا أخطأ قال لها: أنا أخطأت وهذا خطئي.. فهذا أعلى درجات الإنصاف.

وقد يكون عندك صانع يعمل لديك في الدكان، وهو شاب وإخراجه من ممكن المحل بكلمة واحدة: اذهب ولا تعد.. وأخطأت معه والصانع خاف منك، فعليك أن تقول أنا أخطأت وهذا الخطأ خطئي ؟ هذه أعلى درجة من أنواع الكمال والإنصاف.. ألم يرد في الأثر وكرره العلماء كثيراً:

((تخلقوا بأخلاق الله))

والإمام الغزالي يقول: **" إنّ أوفر الناس حظاً من هذا الاسم من ينتصف أولاً من نفسه ".**

فقد يكون الإنسان بموقع لا أحد يستطيع محاسبته، فكماله أن ينتصف من نفسه، وأن يعترف بخطئه.

سمعت عن طبيب في مصر، وصف دواء لطفل صغير الجرعة منه تعطى لكبير، وبحسب علمه لو تناول هذه الجرعة لمات الطفل من فوره، فماذا يفعل؟ لا يوجد عنده عنوانه وهو في مستوصف عام فاتصل بوسائل الإعلام وقال أرجو أن تبلغوا المواطنين أن رجلاً وابنه دخلا إلى المستوصف الفلاني وقد أعطيتهما وصفة فليمتنعا عن أخذ الوصفة وإلا يموت الطفل، فهو إذا سكت لا أحد يعلم وقد يموت الطفل دون أن يكون مداناً لكنه أعلن على الملأ أمام خمسين مليون أنني أخطأت والشيء الذي لا يصدق أن الذي أخذ هذا الدواء وصله الخبر قبل أن يعطي لإبنه الدواء، فالذي حصل عكس ماتصور الطبيب، فإنه اكتسب سمعة وشهرة تفوق حد الخيال.

الإمام الغزالي يقول: **" إن أوفر الناس حظاً من هذا الاسم من ينتصف أولاً من نفسه ثم ينتصف من غيره نعم، أولاً من نفسه ثم من غيره ".**

وقال بعض العارفين: **" متى أكثر العبد من ذكر اسم المقسط أشرق عليه نوره، فسرى في جوارحه، فعدل فيها ".**

يهودي دخل على سيدنا عمر يشكو سيدنا علياً، فقال له: **قم يا أبا الحسن فقف إلى جانب الرجل..** فأصبح علي خصماً في قاعة القضاء وهو من المقربين لعمر.. فوقف، وتغيّر لون سيدنا علي، فلما حكم

له وانصرف اليهودي قال له: **أوجدت عليّ يا أبا الحسن** ؟ فقال: **نعم.** فقال له: لِمَ ؟ فقال: **لأنك قلت لي يا أبا الحسن ولم تقل لي يا علي، لقد ميّزتني عليه.....** ما هذه النزاهة ؟ لِمَ لم تقل لي قم يا على فقف إلى جانب الرجل قلت لي قم يا أبا الحسن ؟ بهذا قامت السماوات والأرض، نعم قامت بالعدل.

أعيد على مسامع القراء قصة ذكرتها في أول البحث ليكون عوداً على بدء عندما أرسل سيدنا رسول الله إلى بني النضير عبد الله بن رواحة ليأخذ ما اتفقوا عليه من ثمارهم وزروعهم، أرادوا أن يرشوه ليترفّق بهم، فعلم ذلك فقال: لقد جئتكم من عند أحبِّ الخلق إليّ، ولأنتم أبغض خلق الله إلي من عددكم من القردة والخنازير، ومع ذلك لا يحملني حبي لمحمد عليه الصلاة والسلام ولا بغضي لكم إلا أن أعطيكم حقكم وأن آخذ حقي فقال اليهود: بهذا قامت السماوات والأرض، وبهذا تغلبوننا.

وأنت تقوم وتقوى بالعدل، وتسقط بالظلم.. ألا ترون معي أنّ العالم كله يَئِنُّ من أن الظلام يكيلون بمكيالين، ومن أنهم يقيسون بمقياسين، يشددون التنكير على من يُهتمّ بقتل إنسان ولا ولا يحاسبون من يتهمون بقتل شعب، ألا يشعر بالظلم كلٌّ العالم اليوم.

لذلك كما قال سيدنا رسول الله:

((عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تُمْلأُ الأَرْضُ جَوْرًا وَظُلْمًا فَيَخْرُجُ رَجُلٌ مِنْ عِتْرَتِي يَمْلِكُ سَبْعًا أَوْ تِسْعًا فَيَمْلأُ الأَرْضَ قِسْطًا وَعَدْلا))

(مسند الإمام أحمد)

هذا الاسم من أخطر الأسماء في دنيا الناس.. بهذا قامت السماوات والأرض، لاتصلح سواء أكنت زوجاً، أو تاجراً، أو موظفاً إلا بالعدل، والعدل أساس الملك، والعدل يزيدك قوةً، والعدل أن تنتصف من نفسك قبل أن تنتصف من غيرك، أن تقول أخطأت على الملأ فهذا الذي يرفعك عند الله عزّ وجلّ.

من أدعية هذا الاسم: إلهي أنت المقسط في الأحكام، المتفضّل بالإسلام، عدلت في أقدارك الأزلية، وتفضّلت في حِكَمِك العلية.

٧٩- اسم الله الوالي :

مع الاسم التاسع والسبعين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو اسم الوالي، والوالي اسمٌ من أسماء الله الحُسنى.

هذا الاسم من مادة الولاية.. والوليّ، والمولى، والوالي هذه الأسماء الثلاثة مشتقةٌ من مادةٍ واحدة وهي ولي، والولاية.. تدبير الشؤون، ففي الأسرة الأبُ يدبّر شؤون أسرته، وفي أيّ مجتمعٍ، وفي أيّ مؤسسةٍ من على رأس هذه المؤسسة يدبّر شؤونها.

فالوالي هو الذي يدبّر شؤون خلقه.

جاء في بعض المعاجم، أنّ الوالي مالك الأشياء جميعها والمتصرف فيها، أي مالك ومتصرف، قد تطلق يدك في بيت ولا تملكه، وقد تملكه وليس لك الحقُ أن تتصرف فيه، أما مطلق الملكيّة والتصرُف يسمى الولاية، وليُ الأمر يملك ويتصرف، فلانٌ وَليُ أمر المسلمين، يملك مقدّراتهم ويتصرف فيها ويدبر شؤونهم.

فالوالي هو المالك للأشياء جميعها المتصرف فيها.

أكرر والوالي من الولاية.. تشعر بالتدبير، والقدرة، والفعل في خطة، وهذه الخطة تنفّذ، لابد من أن تملك الشيء، ولا بدّ من أن تملك التصرف فيه، ولا بدّ من أن تدبر شأنه، ولا بد من أن تفعل ما تريد، إذا اجتمعت هذه المعاني كلها في جهة ما يمكن أن نسمي هذه الجهة الوالي.

قلت قبل قليل الولاية يشتقُ منها المولى، يشتق منها الولي، يشتق منها الوالي، والوالي اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، الإمام الغزالي يرى أن الوالي هو الذي يدبّر أمور الخلق ويتولاها.

لهذا الكون مدبّر، لهذا الكون مشرف، لهذا الكون مربٍّ، الوالي يجمع هذه المعاني كلِها.. لابد من أن يكون عليماً، لابد من أن يكون مقتدراً، لابدّ من أن يكون خبيراً.

والحقيقة أن الخبرة مهمة جداً في الولاية، العلم شيء والخبرة شيءٌ آخر، في بعض الأحيان تصمم آلة وفق أعلى درجات العلم، عند التطبيق والممارسة تكتشف بعض الأخطاء فتتلافاها في الآلة القادمة، حينما تكشف الأخطاء وتتلافاها نقول إن خبرتك حادثة تتأتي من التجربة، مهما وضعت الخطط النظرية المحكمة، مهما انطلقت من علمٍ غزير، مهما أحكمت الصنعة، فعند التدريب ومع الاستعمال تظهر بعض الأخطاء، تظهر نقطة ضعفٍ في هذه الآلة، سريعاً ما تنكسر فيقويها في التصميم اللاحق.. نقول خبرة الإنسان خبرة حادثة تتنامى بالتجربة، أما خبرة الله خبرة قديمة.

وما زلنا نتحدّث عن الوالي.. الوالي هو المدبّر، المالك، المتصرّف، الفعّال لما يريد، هذه المعاني كلِها ينبغي أن تستند إلى خبرة، والخبرة أعمق وأشمل من العلم، يمكن أن تعلم كلّ شيء، ويمكن أن تصنع

آلةً وفق علمٍ غزير، أما حينما تجرّب هذه الآلة، وتضعها موضع الاستعمال تتبدّى لك بعض الأخطاء التي لا بدّ من معالجتها، وتجد أن الأكمل مثلاً أن يكون هذا الشيء في مكانٍ آخر، تجد أن الأكمل أن تُفتَح في هذه الآلة فتحة من هذا المكان، كلُّ شيءٍ تكتشفه في أثناء التطبيق، وإن التجريب يعدُّ خبرة وهي زيادةٌ على العلم.

الشيء الذي ينبغي أن نعتقده أن علم الله وخبرته قديمان، بينما علم الإنسان وخبرته حادثان، العلم والخبرة تتناميان وتتكاملان عن طريق الخطأ والصواب، والتجربة والتطبيق..

لذلك الوالي هو المدبر لشؤون خلقه، لا بد من أن يملك، ولابدّ من أن يتصرف، ولا بدّ من أن يدبر، ويقدر، وينفذ، يفعل.. كلُّ هذا ينبغي أن يستند إلى خبرة وخبرة الله قديمة.

وقد يتساءل الإنسان كم من التعديلات المتجددة طرأت على صنع الآلات ؟ ولنأخذ مثلاً المركبة.. فالمركبة التي صنعت في عام ألفٍ وتسعمائة، والمركبة التي صنعت في عام ألفٍ وتسعمائةٍ وستةٍ وتسعين فإذا أجرينا مقارنة بينهما، كم هو الفرق بينهما ؟ كبيرٌ وشاسع وهذا يعني أن خبرة الإنسان تتنامى، وخبرته حادثة وتتكامل.

أما هل طرأ على الإنسان تعديل منذ أن خلق ؟ لعل هذا المفصل الذي في يده أو رجله يقربه إلى هناك قليلاً أو إلى هنا قليلاً، لعل هذه الأصابع نختصرها، لعل هذا الرسغ نثبّته، لعل هذه العين نضعها في مكانٍ آخر، ولعل قائل يقول نكتفي بأذن واحدة، فهل طرأ تغييرٌ على خلق الإنسان ؟ لا ز ثم لا، معنى ذلك أن خبرة الله عزّ وجلّ قديمة وكاملة.

قال: **" الولاية تشعر بتدبير الأمور، تشعر أن الله يتولى أمور خلقه "**.

أحياناً قد تجد أباً مهملاً، أباً غائباً عن ساحة التربية، أباً مشغولاً، لكنّ الله سبحانه وتعالى هو الوالي لأمور خلقه يرعاهم، ويرشدهم، يبين لهم، أحياناً يؤدِّبهم، يردعهم، يشجعهم، ويكافئهم ويعاقبهم، يتولى أمر أجسادهم، ويتولى أمر نفوسهم، يتولى أمر دينهم، يتولى أمرّ دنياهم.

قالوا: **" الولاية ومنها الوالي تشعرك بالعلم والخبرة وبالتدبير والقدرة والفعل "**، ومالم تجتمع هذه الصفات في جهةٍ ما لا يمكن أن يطلق عليها اسم الوالي.

الله عزّ وجلّ والٍ، ولا والي للأمور إلا الله تعالى.. لذلك كلما تعمّقت في الإيمان ترى أن يد الله هي وحدها التي تعمل، وكلما ابتعدت عن خصائص الإيمان رأيت أيادي الخلق هي التي تعمل، اقرأ قوله تعالى:

(إِنّ الّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنّمَا يُبَايِعُونَ اللّهَ يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠))

(سورة الفتح)

أحياناً تجد طفلاً يتيماً، ففي الحقيقة إن اليتيم وليُّه الله جلّ جلاله وليه وواليهِ ومتولي أمره، بالمعنى المطلق لا والي للأمور إلا الله، ولا متولي لها إلا الله، لا مدبر للشؤون إلا الله.

قال العلماء: **" إنه المتفردُ بتدبيرها أولاً، والمنفرد بتدبيرها حقاً ".**

وإن من علامات الإيمان أن تتجاوز الخلق إلى الحق، أن تتجاوز النعمة إلى المنعم، أن تتجاوز التسيير إلى المسيّر، التكوين إلى المكوّن، الخلق إلى الخالق، التنظيم إلى المنظِّم، هذا التجاوز هو الإيمان، وإن أهل الدنيا عند التنظيم لا عند المنظِّم، عند الخلق لا عند الخالق، فالوالي هو المتفرّد بالتدبير أولاً، المتكفِّل بتنفيذ التدبير والتحقيق ثانياً.

أحياناً الإنسان يدبّر ويأتي إلى التطبيق فلا يستطيع، ويقول لك لم أستطع.. هناك عقبات، هناك موانع، هناك صوارف، فالله تعالى:

(فَعّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦))

(سورة البروج)

الإنسان يريد أشياء كثيرة وقد لا يستطيع أن يفعل بعضاً منها، لكنّ الله هو الوالي، أي مدبّر، وعالم، وخبير، ومالك، ومتصرّف، ومع خلقه يدبّر أمر حياتهم، أمر مماتهم، أمر دنياهم، أمر آخرتهم، أمر أنفسهم، أمر أجسادهم، أمر من حولهم، أمر ما حولهم.

ولابدّ من ولله المثل الأعلى.. فأحياناً تجد أباً كاملاً يدبّر شؤون أسرته من أكبر الأشياء إلى أدقّ الأشياء فيركن إليه جميع أفراد الأسرة، أما المؤمن فحينما يشعر أنّ الله هو الوالي، هو المدبّر، هو المتكفِّل، هو العليم، هو الخبير، هو الفعّال لما يريد، وأنّ الله سبحانه وتعالى لا يغيب عن علمه شيء، ولا يُعْجزه شيء، عندئذٍ يركن إلى الله.

ولعلّ من سمات العصر البعد عن الله، ومن سمات المعصية والبعد عن الله عزّ وجلّ القلق الشديد، فغير المؤمن يعيش في وحشة، لأنّ الحياة شديدة التعقيد، والظروف التي تتداخل وتتفاعل في حياة الإنسان لا تُعدُّ ولا تحصى، القِوى المحيطة بالإنسان كبيرةً جداً، المتغيّرات سريعة جداً، العقبات كثيرة ومحبطة، فما الذي يحُلُّ هذه المشكلة ؟ فأنت أمام ركام من المشكلات، من القوى المتضاده، ومن البيئات الجاذبة، لا يُعينك على أن تنجو من هذه الحياة المعقّدة إلا أن تستسلم لله عزّ وجلّ، الحالة النفسية الآن وراء أكثر الأمراض، يعبّر عنها الأطباء بالشدّة.. الشدّة النفسيّة التي تضغط على الإنسان ربما كانت سبب أكثر أمراضه، وكلّما تقدّم العلم اليوم، وكلّما تقدّم علم الطب وجد أنّ الشدّة النفسية وراء أكثر الأمراض المستعصية.

أما حينما تستسلم للمدبّر، وحينما تستسلم لمن بيده الخلق والأمر تستطيع أن تنجو من هذا الضغط النفسي.

وقيل أيضاً: **" الوالي هو المالك للأشياء المتصرّف فيها، بمشيئةٍ وحكمةٍ ينفذ فيها أمره، ويجري عليها حكمه ".**

ذكرت من قبل: أنّ الوالي والولي والمولى.. هذه الأسماء الثلاثة مشتقةٌ من الولاية، والولاية علمٌ، وقدرةٌ، وملكٌ، وتصرٌفٌ، وتدبيرٌ وخبرةٌ.

بالتعريف البسيط.. الوالي هو الذي يتولى أمور الخلق، أو هو الذي يباشر كلّ ما من شأنه إصلاح المتولِّي عليه.

وبعد فنحن الآن أمام معنى جديد.. أحياناً الإنسان يملك، ويتحكّم لصالحه، لا لصالح المتحكّم به، فقد يملك الإنسان شيئاً وهذه الملكيّة يرجّح من خلالها مصلحته على مصلحة المملوك، كم من إنسانٍ ملك، كم من إنسانٍ يتصرّف بقوته في شأنٍ من شؤون الحياة، لكنّ هذا التصرٌف أساسه مصلحته، قد يبني مجده على أنقاض الناس، قد يبني غناه على إفقارهم، قد يبني أمنه على خوفهم، نقول عنه مالك متصرّف، لكنّ الوالي الله جلّ جلاله يملك ويتصرّف ويدبّر ويعلم وهو الخبير ولكن لمصلحة خلقه.. من هذه النقطة قارن بين إنسانٍ قوي تولى أمر أُناسٍ آخرين وربٌ كريم تولى أمر عباده، فولاية الإنسان لمصلحة القوي، لمصلحة المتولي، ولكنّ ولاية الله عزّ وجلّ لمصلحة المتولّى الذي يتولى الله أمره.

لذلك كنت سابقاً أقول: الإنسان مخيّر في دائرة التكليف، وهو في الحقيقة في دائرةٍ أوسع مسيّر، هل كان باختيارك أن تأتي من هذه الأم أو هذا الأب ؟ لا.. أنت مسيّر في أمّك وأبيك، أنت مسيّر في قدراتك العامة، أنت مسيّر في زمن ولادتك، أنت مسيّر في مكان ولادتك.. فالمكان والزمان والأم والأب والمحيط والقدرات هذه أنت لا تملكها، ولكن لأنّ الله تولى أمرك فهذه النقاط البارزة في حياتك لمصلحتك، كلٌ ما لا تملك فيه أمراً هو لصالحك.

فالوالي.. هو الذي يتولى أمور الخلق، أو هو الذي يباشر كلّ ما من شأنه إصلاح المتولّى.. أي هو الحاكم على الإطلاق لا يزْحَمه أحد.

(وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

فقد قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(٤١))

(سورة الرعد)

أما الإنسان فأحياناً يحكم، ثم تأتي ضغوط، وتتلاحق وسائط، وتتوالى عليه رجاءات، وضغطٌ شديد فيجد نفسه مرغماً على التراجع في الحكم، لكنّ الله سبحانه وتعالى.

(يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ)

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ)

فقد قال تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد)

الحسن البصري كان عند والي البصرة فجاءه أمرٌ من الخليفة يزيد إذا نفّذه أغضب الله، وإن لم ينفّذه أغضب يزيد، فوقع كما يقولون - في حيص بيص - فاستشار الحسن البصري فقال هذا الإمام التابعي الجليل: **" إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيد لا يمنعك من الله "...** والله هذه الكلمة على إيجازها لو عقلناها.. فأيةُ جهةٍ قويةٍ مهما كانت ضاغطة، وتجعلك أمام خيار صعب: إما أن ترضي زيداً وتعصي الله، وإما أن تطيع الله وتغضب زيداً، فما العمل ؟... الجواب: إنّ الله يمنعك من يزيد، ولكنّ يزيد لا يمنعك من الله.

فالإنسان إذا استيقظ صباحاً معافىً في جسمه، هذا من فضل الله عليه، ولو أنّ الله سبحانه وتعالى تخلّى عنه أيُّ خلل في جسمه يجعل حياته جحيماً لا يطاق.

وقيل الوالي **" هو المنفرد بالتدبير، القائم على كلّ شيء، ولا دوام ولا بقاء إلا بإذنه ".**

المنفرد بالتدبير فنحن يهمنا التوحيد.. فالله عزّ وجلّ موجود، وواحد، وكامل، أي واحدٌ في ذاته، واحدٌ في صفاته، واحدٌ في أفعاله، واحدٌ في ذاته لا إله إلا الله.. واحدٌ في صفاته إذا قلنا الوالي المتفرد بالولاية، إذا قلنا الرحمن المتفرّد بالرحمة.. الآن في الأفعال هو وحده الجبّار، هو وحده القهّار، فقد قال تعالى:

(إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢٤))

(سورة يونس)

(أَتَاهَا أَمْرُنَا)

لا أمرهم.

وبديهي جداً أن الإنسان يميل للأقوى، فلو عرضوا عليك أن تعمل مع إنسان ضعيف أم مع إنسان قوي؟ فإنك تؤثر الأقوى لأنّه إذا وعدك ينفّذ، وإذا أمر ينفّذ، وإذا منع ينفّذ، أما الضعيف ولو أنّه يحبُّك لكنه ضعيف ولا يقدر أن يتصرف.. فإذا تيقّنت أنّ الله وحده متفرّدٌ بالولاية، انتقلت من أن تكون خاضعاً لإنسان يتولّى أمرك لصالحه، وبين أن تخضع للواحد الديّان يتولى أمرك لصالحك، فرق كبير، فقد

يتولى أمرك إنسان ويكلِفك أعمالاً لا تطيقها، يأخذ من مالك، هو قويٌ عليك، يبتزُ مالك ليزيد ماله أو يبتز مالك ووقتك وطاقتك، لكنّ الله سبحانه وتعالى كماله مطلق فقد قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

(سورة الرحمن)

بقدر ما هو عظيم بقدر ما هو كريم، بقدرما ينبغي أن تخافه بقدر ما ينبغي أن تحبّه، كما تعلمون قد تحبُ جهةً ولا تقدِّرها، وقد تقدرها ولا تحبها، أما الذات الكاملة، الله جلّ جلاله تعظمه لأنه قوي، تعظمه لأن الأمر كله بيده، لأنه ولي، لأنه والٍ، لأنه متولي أمرك، وفي الوقت نفسه تحبه لأنه رحيم.

المعنى الثاني.. أنه يتولى أمرك لإصلاح شأنك.

والمعنى الثالث.. أنه يتولى أمرك لينقلك من حالٍ إلى حال، القائم على كل شيء، المنفرد بالتدبير، ولا دوام ولا بقاء إلا بإذنه، وكل شيءٍ يجري بحكمه وبأمره.

وقال بعضهم **" الوالي هو المنعم بالعطاء، الدافع للبلاء، يدفع البلاء وينعم بالعطاء ".**

إنّ بعض الذين كتبوا عن أسماء الله الحسنى ذكروا اسم الوالي مستقلاً عن بقية الاسماء، ذلك أن هذا الاسم لم يرد كثيراً في القرآن الكريم.. ولعل القارئ الكريم قد علم أن بعض الأسماء الحسنى قد يرد كثيراً، وبعضها قللما يرد، وبعضها ترد مادته ولا يرد لفظه، لم يرِد في القرآن الكريم ولكنه مجمعٌ عليه وقد ورد في سورة الرعد في قوله تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

هناك معقباتٌ أو ملائكة يسجلون عليه كل حركةٍ وسكنة، وكل أقواله وأفعاله، أما هنا معنى آخر يحفظونه من أمر الله، فقد تجد أحياناً طفلاً صغيراً يقع مئات المرات، ومن الممكن أنه في كل مرة يقع، فقد يصاب بمرضٍ عُضال، لكنّ الذي يحفظه هو الله عزّ وجلّ من خلال الملائكة، فقد قال تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

المؤمن محفوظ، والنبي معصوم، وبما أن المؤمن محفوظ، فقد تجد أن أخطاراً كثيرة تحدق به، سنتيمتر واحد وكاد أن يموت، مسافة قصيرة كاد أن يدهس، خطأ طفيف كاد يقتل، من الذي يحفظ الإنسان من هذه الأخطار ؟ هو الله عزّ وجلّ.

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

من بين يديه من أمامه، من خلفه من ورائه هؤلاء الملائكة الذين يحفظونه هم من أمر الله، يحفظونه بأمر الله.

قال الله تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

وما دمنا قد قرأنا هذه الآية، فوالله الذي لا إله إلا هو إن هذه الآية وحدها.. لو عقلها المسلمون لكانوا في حالٍ غير هذا الحال، أنت مؤمن هذه الكرة أنت مالكٌ لها، كرةٌ أكبر لا تملكها فيها قِوى مسيطرةٌ تمنعك.

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ)

أنت إذا أقمت أمر الله فيما تملك، كفاك ما لا تملك، لا تحلُّ مشكلة المسلمين إلا بهذه الآية، فيما أنت فيه، فيما أنت قادرٌ عليه، فيما أنت مسيطرٌ عليه، فيما وكّلك الله به، فيما أناطه الله بك.. هذه الدائرة بيتك فيها، عملك فيها، حركتك فيها، سكونك فيها، سفرك فيها إقامتك فيها، كسب المال فيها، إنفاق المال فيها، وقت الفراغ فيها، أفراحك فيها، أتراحك لا سمح الله فيها، الشيء الذي أنت مسيطرٌ عليه، الموكول إليك، المناط بك مملكتك، منطقة نفوذك، إذا أقمت أمر الله في هذه المنطقة، إذا أقمت أمر الله فيما تملك، كفاك ما لا تملك.

والإنسان محاط بقوى لا يملكها.. بقوى ماديّة ومعنوية، وقوى لا يراها بالعين المجردة.. فالجراثيم، والفيروسات، ومسببات الأمراض هذه لا يراها، لا يملك زمامها وكذلك الزلازل، الفيضانات، الصواعق، البراكين، القذائف، الألغام، الأمراض.

(إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

واقع المسلمين اليوم عكس ذلك، أهملوا ما هم مالكون له، تطلّعوا إلى ما لا يملكون فأصابهم اليأس.. تفلّت في البيت، تفلّت في العمل، عدم انضباط شرعي، يقابل ذلك ضعفٌ أمام القوي، يأسٌ أمام المتملّك، فلماذا أنت فيما تملك مقصّر، وفيما لا تملك متطفّل ؟

(لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلا وُسْعَهَا)

فقد قال تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦))

(سورة البقرة)

وهانحن أمام آيةٍ أخرى: هي قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥))

(سورة المائدة)

الأصل أن تأمر بالمعروف وأن تنهى عن المنكر، الأصل أن تحمل هموم المسلمين، ولكن قبل أن تأمر وقبل أن تنهى وقبل أن تحمل هموم المسلمين عليك أن تعتني بنفسك، عليك أن تهذّبها، عليك أن تحملها على طاعة الله، عليك أن ترقى بنفسك، عندئذٍ يكفيك الله ما لا تملك، أقم أمر الله فيما تملك، يكفك ما لا تملك.. هذا المعنى ورد في حديث قدسي:

((عبدي.. خلقت السماوات والأرض ولم أعي بخلقهن، أفيُعييني رغيفٌ أسوقه لك كلّ حين ؟ لي عليك فريضة ولك عليّ رزق، فإذا خالفتني في فريضتي لم أخالفك في رزقك، وعِزّتي وجلالي إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا، تركض فيها ركض الوحش في البريّة، ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموماً.. أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلِّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد، خلقت لك السماوات والأرض من أجلك فلا تتعب، وخلقتك من أجلي فلا تلعب، فبحقِّي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضتُه عليك))

قديماً كانت في دمشق مدرسة ثانوية ضخمة جداً وكانت الأولى في القطر، وهي مدرسة التجهيز الأولى، وكنت في الخمسينات طالباً فيها، القسم العلوي يشتمل على أضخم مكتبة في دمشق وقاعات للمطالعة ومهاجع، والقسم الشمالي مطعم.. كانت الدراسة فيها داخليّة فيأتي الطلاب إليها من كلّ المحافظات ليكونوا طلاّباً داخليين، فيجد الطالب سريراً وثيراً والطعام الجيّد، ويوجد طبيب مقيم، ومسجد وإمام، فتقريباً كأنّها جامعة.. خطر في ذهني ذات مرة أنّ هؤلاء الطلاب لهم مواعيد دقيقة جداً، فيستيقظون في وقت معيّن، وطعام الإفطار يكون جاهزاً الساعة السابعة والربع، وكل شيء معد وجاهز، وينطلقون إلى قاعات التدريس الساعة الثامنة، وينتهي الدوام فيصلّون صلاة الظهر ثم إلى مهاجعهم، وفي تمام الساعة الثانية يكون طعام الغذاء جاهزاً، وبعد الطعام والقيلولة يذهبون إلى قاعات المطالعة ليدرسوا، ويحضّروا، ويذاكروا حتى الساعة العاشرة.

لو أنّ طالباً ترك قاعة المطالعة وقد كلِف أن يدرس، ترك المذاكرة وقد كلِف أن يذاكر، ترك حفظ هذا الدرس وقد كلِف أن يحفظه، ترك حلّ هذه المسألة وقد كلِف أن يحُلّها، ترك مراجعة دروسه وقد كلِف أن يراجعها وذهب إلى المطبخ ليتفقّد أحوال الطبّاخين.. ماذا فعلتم ؟ هل أنجزتم هذا العمل، هل قطّعتم هذه الخضراوات، هل وضعتم الملح في الطعام ؟ ماذا يقال له ؟ عُد إلى قاعة المطالعة، واشتغل بما

أنت مكلفٌ به وسوف ترى الطعام جاهزاً في الساعة الثانية بعد الظهر، إذاً فهذا طالب ترك مهمته الأساسيّة ووضع نفسه في موضوعٍ لا علاقة له به، في حين أن كل شيء معد وجاهز.

لذلك: لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك، وهذا مرضٌ خطير من أمراض المسلمين، يتشاغلون بما ضمن لهم، ويتغافلون عما طُلب منهم، المضمون يشتغل به، والمطلوب يتساهل فيه.

لذلك فأنت في الدنيا من أجل أن تعرف الله، أنت في الدنيا من أجل أن تعمل صالحاً تتقرّب إليه، وقد تكفّل الله لك برزقك، تكفّل الله لك بأمرك.. يحمل هموم الدنيا وينسى هموم الآخرة، يحمل همّ العيش وينسى همّ الإيمان والعمل بمقتضاه.. فبحقي عليك لا تتشاغل بما ضمنته لك عما افترضته عليك.

لذلك فالإمام أبو حنيفة رحمه الله تعالى قرأ حديثاً شريفاً، هذا الحديث أحدث في حياته إنعطافاً خطيراً.. ما هذا الحديث ؟ قال:

((من طلب العلم تكفّل الله له برزقه))

ليس معنى هذا أن تستيقظ فتجد تحت الوسادة خمسين ألفاً..لا.. معنى ذلك أنّك إذا طلبت العلم يسّر الله لك رزقاً حلالاً بجهدٍ قليل ومردودٍ كثير.

ما من إنسان يطلب العلم ويخطب ودّ الله عزّ وجلّ، ويعمل الأعمال الصالحة، ويحرص على التقرُّب إلى الله، إلا يسّر الله له رزقاً حلالاً طيّباً بجهدٍ قليل، والله عزّ وجلّ قادر على أن يجعل الإنسان يعمل عشرين ساعة ليأكل فقط، وليحصّل لقمة العيش فقط.. فقد قال تعالى:

(كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ (٥٠) فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ (٥١))

(سورة المدثر)

((وعزّتي وجلالي.. إن لم ترض بما قسمته لك فلأسلِّطنّ عليك الدنيا تركض فيها ركض الوحش في البريّة ثم لا ينالك منها إلا ما قسمته لك ولا أبالي وكنت عندي مذموما...))

الله قادر على أن يعينك فتبذل جهداً معقولاً وتعيش حياةً مريحة إذا طلبت العلم، لذلك هذا الوقت الذي أنت فيه له زكاة، زكاة الوقت أن تطلب العلم، زكاة الوقت أن تعمل فيه عملاً صالحاً، أن تدعو إلى الله، أن تصل رحمك، أن تُعين الآخرين، أن ترعى الأرملة واليتيم، زكاة الوقت تضمن لك حفظ بقيّة الوقت من أن يتبدد، كما أنّ زكاة المال تضمن لك حفظ بقيّة المال من أن يتلف.. إذا أديت زكاة الوقت فطلبت العلم حفِظ الله لك بقيّة الوقت.

وبالمناسبة فإن الله قادر على أن يصرف الإنسان لتبديد عشرين ساعة بلا طائل.. ففي يوم مثلاً قد ترتفع حرارة أحد أبنائه لأربعين درجة، فيذهب للطبيب الأول ولم يستفد، ثم للطبيب الثاني، ثم للثالث ويطلب منه أن يحلل ويصوّر، وتصوير طبقي محوري - مرنان - بستة عشر ألف ليرة، وتصوير - بالإيكو - ويقوم بدفع خمسة وعشرين ألفاً ولمدة أربعة أو خمسة أسابيع ولا ينام الليل ثم بعد ذلك يتعافى

ابنه من المرض فكم أضاع من الساعات ؟ وكم من الساعات قام بانتظار المحل، والمصور، والطبيب، وكم من الساعات وقف في الدور لحين وقت دخوله على الطبيب، وكم من المبالغ دفع ؟

إخواننا الكرام... هذا كلام دقيق، فالله قادر على أن يتلف لك وقتك ومالك، فإن لم تدفع زكاة مالك، وإن لم تدفع زكاة وقتك تلف الوقت والمال معاً، ألا يقولون: فلان مبارك. أي أنّ الله عزّ وجلّ بارك له في ماله، بالمال القليل رأى الخير الكثير، وبالوقت القليل أنجز الفعل الكبير.

كان السلف الصالح أوقاتهم مباركة، فقد عملوا من الأعمال التي تفوق حدّ الخيال، فإذا عندك فراغ فأقرأ كتب الإمام النووي في الفقه، وفي الحديث، وفي الأذكار، وفي شرح مسلم، متى كتب هذا كلّه ؟ لم يصل عمره إلى الخمسين عاماً.

قال لي أحد الإخوة الكرام: حدثتني نفسي ذات مرةً أن أترك مجلس العلم، فذهب هو وأهله إلى نزهة فوصل إلى مكان فيه نبع، فأراد أن يملأ الوعاء فجاء شاب له مظهر أديب أخذ منه الوعاء وعبّأه له، أثنى على أخلاقه وأدبه.. فإذا هويّته ومحفظته وفي داخلها شهادة قيادته وبطاقة السيارة وهويته الأساسيّة الشخصية، ومبلغ ثمانمائة ليرة أخذها منه هذا الشاب دون أن يدري بعد مغافلته.. فقال لي: بقيت ستّة أشهر أذهب من دائرة إلى دائرة لأجدد هذه البطاقات الضائعة.. ثم قال لنفسه: لعله عقاب من الله لأنه ترك الدرس.

وبالطبع ليس كل إنسان يعامل هذه المعاملة.. فقط القريب من الله يعامل، والملتزم الحريص على طاعة الله إذا غلط أو اتخذ قراراً غلطاً، فالله عزّ وجلّ يحاسبه حساباً دقيقاً.. **" ما ترك عبدٌ شيئاً لله إلا عوّضه الله خيراً منه في دينه ودنياه ".**

هذا الكلام أتأثر به كثيراً.. هم في مساجدهم، والله في حوائجهم.

قال لي رجل: لابدّ من أن أسافر إلى حلب أبحث عن مورّد لبضاعة معيّنة ولا أملك عنوانه الدقيق، ولا بدّ من أن أنام ليلةً هناك وتستغرق المهمة يومين.. ركوب ذهاب وإياب، وفندق وطعام وشراب وإنفاق.. فكلِّف بعمل لله فأنجزه عن طيب خاطر، فإذا بهذا الرجل الذي كان ينبغي أن يسافر إليه إذا به أمامه في متجره في الشام.

أنت أنفقت ساعتين في خدمة الخلق فوفّرت ثلاثين ساعة،.. فهناك وقت يذهب هدراً، بلا طائل، ومع الألم، فمثلاً أنت تقصد شخصاً فتركب السيارات الواحدة تلو الأخرى وتتردد على بيته ويقولون لك: الآن خرج من البيت.. فلا حول ولا قوّة إلا بالله. أو يعِدُك إنسان لإنجاز عمل ما، وبعد أن تأتيه في الموعد المحدد يقال لك: لم ينتهوا بعد من إنجاز العمل وئتَ غداً.

تتابع قضيّة في دائرة فيأخذ الموظف المسؤول إجازة ثمانية أيام فتنتظر، أو ترسل لاستيراد قطعة تبديل من الخارج لمعملك فتأتي والقياس خطأ، فتعيدها مرةً أخرى لجلب غيرها، فالله قادر أن يهدر لك

الوقت، وقادر أن يتلف لك المال، فأدِ زكاة وقتك بطلب العلم، وأدِ زكاة مالك بالإنفاق يحفظ الله لك وقتك ومالك.

(إِنّ اللّهَ لا يُغَيّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتّى يُغَيّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

الوالي هو الله وحده ولا والي إلا الله.

وقيل الوالي: **" هو المتصرّف بمشيئته في العوالم، دبّر شؤون خلقه أزلاً، وأبرزها أبداً بحكمة الكريم الراحم، هو الذي يوالي عباده بالإحسان، ويفيض عليهم ممداً بالحنان، عطاؤه يتكرر بغير انقطاع، ويتكرر دون امتناع ".**

وقيل الوالي: **" هو المتولي أمور خلقه بالتدبير والقدرة والفعل ".**

وقيل الوالي: **" المالك للأشياء المتكفِّل بها، القائم عليها بالإدامة والإبقاء، المنفرد بتدبيرها، المتصرّف بمشيئته فيها، ينفذ فيها أمره ويجري عليها حكمه فلا والي للأمور سواه ".**

الإنسان من أجل أن يتأدّب بهذا الاسم عليه أن يذكر اسم الوالي، وعليه أن يتخلّق بأخلاق الله، فيعتني بمن دونه، أي أن يكون والياً لأسرته، والياً في محيط عمله أن يدبّر، وأن يرتّب، وأن يعطي، وأن يمنع، وأن يذكِّر، وأن يؤنِّب، وأن ينصح، وأن يُكرم، وأن يعاقب.. كما أنّ الله سبحانه وتعالى تولاّك فنقلك من الظلمات إلى النور، تولّ أنت عباده فانقلهم من الضياع إلى الهدى، من الشقاء إلى السعادة، فتخلّق بأخلاق الله.

وبعد أن ذكرت موضوع الوقت، وتأدية زكاته، والمال وتأدية زكاته، وكيف أن الإنسان إما في تعسير، وإما في تيسير فإني أريد بعدها أن أذكِّر بقوله تعالى:

(فَأَمّا مَنْ أَعْطَى وَاتّقَى (٥) وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧))

(سورة الليل)

(أَعْطَى)

أعطى من وقته لطلب العلم، أعطى من ماله.

(وَاتّقَى)

أن يعصي الله عزّ وجلّ.

(وَصَدّقَ بِالْحُسْنَى)

آمن، آمن واستقام وأعطى عطاءً مطلقاً.. قال:

(فَسَنُيَسّرُهُ لِلْيُسْرَى)

هذا هو التيسير، فلا تقل لي: فلان محظوظ، فلان يده خضراء، فلان كيف ما تحرّك أصاب فهذا كلام لا معنى له، ولكن قل لي: هذا أموره ميسّرة، وهذا أموره معسّرة، والتيسير له قانون، والتعسير له قانون.

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى)

آمن واستقام وأعطى من وقته وماله.

(فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠))

(سورة الليل)

(وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ)

لم ينفق لا وقته ولا ماله.

(وَاسْتَغْنَى)

عن أن يطيع الله.

(وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)

للتيسير قانون، وللتعسير قانون.

واسم الوالي يصلح لمن يتولى أمور العباد، الله يتولى أمور العباد لصالحهم، والإنسان الشارد أحياناً يتولى أمرهم لصالحه، وشتّان بين الولايتين، إذا توليت أمر عشرة فَتَوَلّ أمرهم لصالحهم، فإذا أمّرت عليهم من ليس أهلاً لهذه الإمارة فقد خُنت الله ورسوله.

سيدنا عمر كان إذا أراد أن يعيّن والياً امتحنه وقال له: **ماذا تفعل إذا جاءك الناس بسارقٌ أو ناهب ؟** قال: أقطع يده. قال: **إذاً فإن جاءني من رعيّتك من هو جائعٌ أو عاطل فسأقطع يدك، إنّ الله قد استخلفنا على خلقه لنسدّ جوعتهم، ونستر عورتهم، ونوفِر لهم حرفتهم، فإن وفينا لهم ذلك تقاضيناهم شكرها، إنّ هذه الأيدي خُلقت لتعمل، فإذا لم تجد في الطاعة عملاً التمست في المعصية أعمالاً، فاشغلها بالطاعة قبل أن تشغلك بالمعصية.**

فلو عيّن معلم في الإبتدائي مثلاًعريفاً على هؤلاء الطلاب في الصف الأول، وفيهم من هو خيرٌ منه فقد خان الله ورسوله. عينه لأنه ابن اخته فقد خان الله ورسوله وقِس على هذه الحقيقة ما شئت.

فإذا كنت والياً عليك أن تتخلّق بأخلاق الله الوالي.

٨٠- اسم الله الباقي :

مع الاسم الثمانين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو الباقي.

هو الحيُّ الباقي على الدوام، البقاء أخي القارئ الكريم ضدُّ الفناء، شأن الخلق الفناء، و شأن الله البقاء، شأن الخلق أن كلّ من عليها فان، و شأن الخالق أنه باقٍ على الدوام، إلا أن كلمة (بقيّة) تعني طاعة.. قال تعالى:

(بَقِيّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ (٨٦))

(سورة هود)

(بَقِيّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)

أي طاعته خيرٌ لكم، من أين استنبطنا أن البقية هي الطاعة ؟

الله جلّ جلاله أودع في الإنسان الشهوات، هذه الشهوات حيادية يمكن أن نستخدمها وفق منهج الله وبخلاف منهج الله، إن مارست الشهوات وفق منهج الله فأنت أخذت بقية الله، كسب المال أنواعٌ كثيرة محرمة، يكون اغتصاباً، سرقةً، تدليساً، كذباً، غشاً، خداعاً، أما التجارةُ الشرعية عن قبولٍ ورضىً وصدقٍ وأمانةٍ هذه بقية الله خيرٌ لكم، هذه المرأة الأجنبية محرمٌ أن تنظر إليها، وهذه وتلك، إلا أن الزوجة والمحارم بقيّة لك من النساء فلك أن تنظر إليهن.

فالبقيّة هي الطاعة.. وسرُّ تسمية البقية الطاعة أن الله سبحانه وتعالى أودع في الإنسان شهوات يمكن أن نتحرك من خلالها بشكلٍ واسعٍ جداً، إلا أنّ من هذا التحرك الواسع تحركاً منهجياً، تحركاً شرعياً، تحركاً وفق ما أمر الله،

(بَقِيّةُ اللّهِ خَيْرٌ لَكُمْ)

لذلك المؤمن لو عرض عليه مالٌ كثير إن لم يكن شرعياً يركله بقدمه يقول الله هو الغني، ويسأل الله الغني أن يغنيه الله مالاً حلالاً من فضله.

أحياناً تدعو امرأةٌ ذات منصبٍ وجمال شاباً طائعاً لله يقول: معاذ الله إني أخاف الله رب العالمين، بقية الله لهذا الشاب زوجته.

إذاً البقاء ضدُّ الفناء، وبقية الله طاعته وانتظار ثوابه.. أحياناً الطاعة تكون مجهدةً ومتعبة وفيها كلفة، ماسمي التكليف تكليفاً إلا لأنه ذو كلفة، لكن هذه الكلفة تمضي ويبقى الثواب، أما المعصية ممتعة، والمتعة تمضي ويبقى العقاب، فهذا كله شيء عابر، متاعب الطاعة عابرة، متاعب المعاصي عابرة.. ماالذي يبقى إلى أبد الآبدين ؟ ثواب الطاعة، وجزاء المعصية. فالمؤمن يفكر فيما سيبقى، لا فيما سيفنى.

لذلك.. ألا يا رُبَّ شهوة ساعةٍ أورثت حزناً طويلاً.. أحياناً شهوة ساعةٍ تسبب مرضاً جلدياً مزمناً إن لم

يكن قاتلاً فيصيب قلب هذا الإنسان المنحرف: الآلامِ والحزن والغمّ والضيق والقلق والخوفِ ما لا سبيل إلى وصفه. اللّذة انتهت في ربع ساعة، وبقيت الآلام إلى عشرين عاماً.

لذلك فالعاقل هو الذي يتحرّك وفق منهج الله.. فلدينا آيةٌ دقيقة جداً في هذا المعنى وهي قول الله تعالى:

(فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ(٥٠))

(سورة القصص)

هناك معنى مخالف لهذا المعنى.. أي أنّك إذا انطلقت وفق هدى الله عزّ وجلّ فلا شيء عليك، وفق منهج الله لا حرج عليك ولا إثم.

تتوق نفسك للنساء فتزوّج، لا شيء عليك، يمكن أن يلتقي بأهله، وأن يصلي قيام الليل وأن يبكي في قيام الليل لأنّه لم يفعل شيئاً خلاف منهج الله، يمكن أن تكسب مالاً حلالاً تشتري به طعاماً وشراباً وثياباً لنفسك ولأهلك ولأولادك ولزوجتك، ويمكن أن تستمتع بجمال الطبيعة وأنت تصلّي وتُقبَلُ لأنّك وفق منهج الله، إنّك تتبع الهوى وفق ما أمر الله عزّ وجلّ..

(وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنْ اللَّهِ)

المشكلة أن تتبع الهوى من دون منهج الله، أن تتحرّك حركةً عشوائيّة، أن تنطلق إلى حيث تريد دون أن تنظر إلى قواعد الشرع.

وهناك معنى ثالث للباقيات وهي الباقيات الصالحات، وهي نتاج الاستقامة مع الله.. البقاء ضدُّ الفناء وهذا ورد في اللغة، وقد عرفت أيضاً أن بقيّة الله طاعته أو انتظار ثوابه، أما الباقيات الصالحات:

فالإنسان يجتهد ويجتهد ويؤدي امتحاناً و ينتظر النتائج.. ينتظر التكريم، ينتظر احتفالاً تكريمياً له، ينتظر أن يدخل إلى الجامعة، ينتظر أن يصبح ذا مرتبة علمية عاليه، ينتظر أن يكون مرموقاً في المجتمع، هذا الذي ينتظره.. لذلك قال عليه الصلاة والسلام في كلام دقيق ولطيف جداً:

((أما الأنصار فقد أدّوا ما عليهم وبقي الذي لهم))

وأنت كمؤمن تعيش في زمنٍ صعبٍ، في زمن الفتن، في زمن النساء الكاسيات العاريات، في زمن الشهوات المستعرة، في زمنِ القابض على دينه كالقابض على جمر، في زمن ترى أنّ كلّ ما حولك يدعوك إلى المعصية، في زمن ترى أنّ استقامة الإنسان على أمر الله مجهدة.

أنت إذا فعلت هذا وضبطت نفسك، وحملت نفسك على طاعة الله ماذا بقي لك ؟ بقي لك ثواب الطاعة، بقي لك الإقبال على الله، بقي لك التوفيق.

ولنعلم جميعاً أن هناك خيراتٍ لا يعلمها إلا الله تنتظر المؤمن.. لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ ثَوْبَانَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلاةَ وَلا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلا مُؤْمِنٌ))

(سنن ابن ماجة)

أي لن تستطيعوا أن تُحصوا الخيرات التي سوف تأتيكم من طاعتكم لله.

أنا أخصُ بكلامي هذا الإخوة الشباب.. شاب في ريعان شبابه، لا أحد في الأرض يمنعه من أن يطلق بصره في الحرام، وأذكر في هذه النقطة الدقيقة أنّ هناك في منهج الله عزّ وجلّ محرّمات، وفي القوانين الوضعية لكلّ مجتمعٍ محرّمات، أحياناً تنطبق بنود المحرّمات في منهج الله على بنود المحرّمات في قوانين البلاد.

فالسرقة حرّمها الشرع والقوانين الوضعية تحرّمها، والرشوة حرّمها الشرع والقوانين تحرّمها، وهناك كثير من البنود تتفق فيها القوانين مع الشرع، فترك السرقة قد يكون خوفاً من الله وحده، وقد يكون ترك السرقة خوفاً من العقاب الأليم الذي ينتظر السارق بحسب القوانين، إلا أنّ الله سبحانه وتعالى شاءت حكمته أن يبقي في الدين بنودٌ لا تتفق مع القوانين أبداً، منها غضُ البصر.. فليس في الأرض كلِها قانونٌ يمنعك أن تنظر إلى امرأةٌ لا تحلُ لك.. فإذا غضضتّ بصرك عن محارم الله فالدافع إلى هذا ؟ خوف الله وحده.

فهناك حالات.. كأن تكون في البيت والنافذة مفتوحة، وامرأة الجار خرجت إلى الشرفة بثيابٍ متبذِّلة، ليس في الأرض كلِها جهةٌ يمكن أن تحاسبك إذا نظرت إليها، لا هي تعلم ولا أحد يعلم، لكنّك إذا قلت كما قال سيدنا يوسف.. قال تعالى:

(وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ(٢٣))

(سورة يوسف)

لو قلت:

(إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ)

وغضضتّ البصر، فأنت بهذا تخاف ممن ؟ الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ثق أيها القارئ الكريم ولا أتألى على الله أنه في هذا الزمن الصعب أنّ كلّ غضّ بصرٍ يرقى بك إلى الله كالصلاة تماماً.

الباقيات الصالحات.. الأنصار أدّوا الذي عليهم وبقي الذي لهم.. والشاب التائب قد أدّى ما عليه من صلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ وطاعةٍ لله وتلاوةٍ وذكرٍ وغضٍ للبصر وصدقٍ في الحديث، وعفةٍ عن المحارم، وتحريرٍ في الدخل، وإنفاقٍ شرعيّ أدّى الذي عليه.. والذي بقي له ؟ كلٌ خير..

لذلك: **" إستقيموا ولن تُحصوا ".**

أما الباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة التي تبقى، وما سواها يفنى.

بيتك مهما كان فخماً عند الموت تتركه، زوجتك مهما أحسنت اختيارها عند الموت تتركها، الإنسان في الدنيا له ثلاثة أشياء: ماله، وأهله، وعمله.. ماله يبقى في البيت، وأهله يشيّعونه إلى شفير القبر ثم يرجعون، أما الذي يدخل معه عمله.

يا قُيّس إن لك قريناً تدفن معه وهو حي ويدفن معك وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ألا وهو عملك.

قالوا: **" القبر صندوق العمل، إن كان العمل كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ".**

الآية الكريمة:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦))

(سورة الكهف)

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

تقام وليمة فيقول لك: كلّفتني ثمانين ألفاً.. شيء بالفعل نفيس، يدعو الناس ويفتخر بماله وبأذواقه، تشتري مركبة فخمة جداً يتيه بها على الناس، يسكن في بيت فخم ويعرضه على كلّ زائر ويتكلّم عن مساحته وأبهائه، وغرفه، وأثاثه.. المال والبنون، أولاد يرتدون أجمل الثياب متألّقون، وهو يقول لك: هذا ابني، وهذه ابنتي.

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

فقد عرّف الله المال والبنين أما قوله تعالى:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

فهي محط الرجاء. وفي القرآن ما يسمّى بمفهوم المخالفة.. فقد قال لك:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا)

لم يقل لك تبقى أو لا تبقى، فالغناء ضمني، فمادام زينة الحياة الدنيا فهذا يفنى لا محالة ولكن قال:

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

أي الذي يبقى الأعمال الصالحة.

أيّها القارئ الكريم... بعد أن تعرف الله حقاً، وبعد أن تستقيم عقيدتك، وبعد أن تستقِرّ قناعاتك فليس أمامك إلا العمل الصالح، ويتفاوت الناس عند الله بأعمالهم الصالحة والدليل قول الله عزّ وجلّ:

(وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٣٢))

(سورة الأنعام)

أنت لك عند الله درجة بقدر عملك الصالح.. أي أن حجمك عند الله بحجم عملك، وكلّما كنت صادقاً في خدمة الخلق أجرى الله على يديك الأعمال الصالحة.

أقول مرةً ثانية وثالثة... كلّنا ضعفاء، كلّنا فقراء، كلّنا عاجزون، إلا أنّ الله سبحانه وتعالى يمنحنا من الأعمال الصالحة بقدر سلامة توجهنا نحوه، وبقدر صدقنا، فقد قال تعالى:

(مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً (٢٣))

(سورة الأحزاب)

إنّ الدنيا لها سقف، فمهما كان حجمك المالي كبيراً لا تستطيع أن تأكل إلا ما تملأ به معدتك، لا تستطيع أن ترتدي إلا ثوباً واحداً، لا تستطيع أن تنام إلا على فراشٍ واحد، لا تستطيع إلا أن تكون في مكانٍ واحد في وقتٍ واحد، ففي الدنيا سقف، إلا أنّ العمل للآخرة بلا سقف، يمكن أن يهدي الله بك رجلاً، أو رجلين، أو ثلاثة، أو أربعة، أو خمسة، ولكل أجر فأنت في مزيد.

سيدنا محمد كان رحمة للعالمين، سيدنا الصديق كان المؤسس الثاني للدولة الإسلاميّة، حينما ظهرت حروب الرِّدة وقف الموقف الحازم فكان بحقٍّ المؤسس الثاني، سيدنا عمر أكثر هذه البلاد فتحت في عهده، وكلٌّ هؤلاء المسلمين في شتى أقطار البلاد في صحيفته، فأنت كن طموحاً فبإمكانك أن تصل إلى مراتب عالية، فإلههم إلهنا، وإلهنا إلههم، والمنهج واحد.. الكتاب واحد، والنبي واحد وما عليك إلا أن تسير في طريق الإيمان.

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

وهناك تفسير آخر ولكنه مركّب.. الباقيات الصالحات هي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، أي إذا سبّحته، وحمدّته، ووحدّته، وكبّرته، معنى ذلك فقد عرفته، وإن عرفته أطعته، إن أطعته سعدت بقربه.

أما التفسير الأول فهو أسهل.

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ)

الأعمال الصالحة.

(خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلا)

أما الباقي حقيقة فهو الله عزّ وجلّ.. فسبحان من له البقاء، أما نحن فلنا الفناء.

فهل هناك أعظم من سيدنا رسول الله ؟ فقد مات.. ماذا فعل الصدّيق ؟ وأنا لا أعتقد أنّ في الأرض إنسانين أحبا بعضهما كما أحبّ الصديق رسول الله، وكما أحبّ النبيّ الكريم الصدّيق، أحبّه حباً لا حدود له، إلا أنّ هذا الحب ما حمله على أن يشرك به، حينما كشف عن وجهه الشريف وقبّله، وقال: **طِبت حياً**

وميّتاً يا رسول الله، ثم خرج وقال: **من كان يعبد محمداً فإنّ محمداً قد مات، و من كان يعبد الله فإنّ الله حيٌّ لا يموت.**

أرأيت إلى التوحيد !! فأعلى درجات الحب ما نقلت هذا الصديق إلى الشرك، فالتوحيد هو الأصل.. فالله سبحانه وتعالى له البقاء، والبقاء صفةٌ من صفات ذاته.. فنحن نعرف صفات الذّات، وصفات الأفعال.. البقاء صفةٌ من صفات ذاته، الباقي أيضاً هو الواجب الوجود بذاته..

فأنا وأنت وأي شخص غيرنا باقٍ ولكن بإمداد الله له، فإذا قطع الله الإمداد حصلت الوفاة، فوازن بين إنسان حيّ ينظر ويتحرّك، عيناه تتألّقان، وينطلق لسانه، ويحرّك يديه، ويمشي، وكلّه آذان، وشعور وإحساس، يفكِّر، يلقي محاضرة، فإذا مات يصبح جثة هامدة، لا شيء، مسافةٌ كبيرةٌ جداً بين إنسان يتحرّك أمامك وبين جثةٌ هامدة، إن لم تدفنها في أقرب وقت تتفسّخ.

فأحياناً يدفع الإنسان مليون ليرة لإصلاح شريان بقلبه، أما إذا مات انتهى كل شيء، وبعد أيام تتفسخ هذه الأجهزة.

فمن شأن الله عزّ وجلّ البقاء، ومن شأن الإنسان الفناء، أما الباقي هو الواجب الوجود، أما نحن فممكن الوجود، واجب الوجود بذاته، أما نحن إذا كنا موجودين فوجودنا لا بذواتنا بل بإمداد الله لنا، أوضح من ذالك وجودنا متوقفٌ على تناول الطعام والشراب.

سمِعتُ أن بعض المساجين في تركيا أضربوا عن الطعام ثمانية أسابيع، مات منهم أكثر من عشرة أشخاص، فبدون طعام تموت فهل يعد الوجود ذاتياً ؟ أبداً، إن وجودك متعلِّق بكأس الماء هذا، وباللقيمات التي تأكلها والتي يقمن صلبك، فمن كان وجوده متعلقاً بالطعام والشراب فليس وجوده ذاتياً، فحركتك متعلقةٌ بسيولة دمك، فلو تجلط الدم انتهت الحركة.. يقولون: جاءته خثرةً في دماغه، أو احتشاء في الدماغ أو جلطة في الدماغ، أو نقطة في الدماغ، أصبح جثةٌ هامدةً.

وجودك متوقفٌ على إمداد الله لك، وفي أية لحظةٍ يقطع الله عنك الإمداد.

مثلاً: إذا كانت آلة تعمل على الكهرباء وعندك المفتاح الذي به تعمل أو تتوقف فإذا تبجّحت الآلة مثلاً وقالت: أنظروا إلى حركتي. فإنك تضغط يدك على الزر فتتوقف، فهذه شأن الآلة الكهربائية، وهناك ألعاب للأطفال منها سيارات كهربائية لها حركة طائشة، فتجد صاحب الملعب يضغط ضغطة قليلة على مفتاح الكهرباء يقطع الكهرباء عن هذه السيارات فتستمر كل واحدة في مكانها وانتهى أمرها إلى السكون.

هذا تعريف.. الباقي الواجب الوجود بذاته، وهناك تعريف ثان.. الدائم الوجود، الموصوف بالبقاء الأبدي والأزلي، أزلاً وأبداً، هو الأول بلا بداية، وهو الآخر بلا نهاية، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، هو الموجود أزلاً والموجود أبداً.

وقال بعضهم: **" هو الموجود من أزل الأزل إلى الآبدين "**. فكما أنه لا بداية فهو بلا نهاية كذلك، أما نحن فلنا بداية ولنا نهاية.

لكن البشارة أن المؤمن غالٍ على الله، فإذا حسن عمله في الدنيا وتوفّاه الله عزّ وجلّ فهو في جنّة الخلد إلى أبد الآبدين، فبداخل الإنسان رغبة جامحة لأن يعيش طويلاً، فلا يوجد إنسان على وجه الأرض إلا ويتمنى أن يعيش مئة عام، أو مئة وعشرين، ولا يرغب في أن ينتهي أجله، فلدينا شيء فطري.. نحبُّ وجودنا، ونحبُّ سلامة وجودنا، ونحبُّ استمرار وجودنا، ونُحبُّ كمال وجودنا.

فإذا آمن الإنسان واستقام على أمر الله وجاءته منيّته وهو مؤمنٌ فقد حقق استمرار وجوده، هو في جنّات الله إلى أبد الآبدين، والمشكلة الخطيرة أنّ الذي لا يستقيم على أمر الله يستحقّ النار قال تعالى:

(وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ (٧٧))

(سورة الزخرف)

أصعب شيء أن تكون في حالة لا حرب ولا سلم، لا يموت فيها ولا يحيا، فالموت مريح، لا يحيا حياةً مريحة، ولا يموت فيستريح، هذه هي المشكلة، فهذه المعاني الخطيرة التي جاء بها القرآن كيف نغفل عنها ؟ كيف نتحرّك في الحياة دون أن نحسب حساباً لهذه الحقائق؟ شيء خطير، فالله هو الذي خلق ويقول لك:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥))

(سورة القمر)

ويقول لك أيضاً:

(وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦) يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ (٢٧) مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ (٢٨) هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ (٢٩) خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (٣٠) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ (٣١) ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعاً فَاسْلُكُوهُ(٣٢))

(سورة الحاقة)

هذا كلام خالق الكون، والله الذي لا إله إلا هو لو قيل لك تعالَ إلينا يوم الخميس للتحقيق معك لا تنام ليلتين، وهو إنسان سيسألك لكنّه قوي فلا تنام الليل، فكيف إذا قال الله عزّ وجلّ:

(فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٣))

(سورة الحجر)

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢))

(سورة ابراهيم)

(فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧))

(سورة إبراهيم)

الإمام الغزالي يقول: **" الباقي هو الموجود الواجب الوجود بذاته "..** ولكنّ واجب الوجود إذا أضيف إلى المستقبل فهو الباقي.. وإذا أضيف إلى الماضي سميَ قديماً.

واجب الوجود من زاوية الماضي قديم، ومن زاوية المستقبل باقٍ، معنى الله قديم وباقٍ، هو في الحقيقة واجب الوجود بذاته، وكل شيء بلا إمداد خارجي لا يستمر.

فالسيارة تحتاج إلى وقود فإذا قطع عنها الوقود تتوقف عن الحركة، فهل حركتها ذاتية؟ لا.. حركتها متوقفة على إمداد خارجي.

الباقي المطلق هو الذي لا ينتهي تقدير وجوده في الاستقبال إلى آخر، يعبّر عنه أنه أبدي، والقديم المطلق هو الذي لا ينتهي تمادي وجوده في الماضي إلى أول ويعبر عنه أنه أزلي.. وقولنا واجب الوجود أي أبديٌ أزلي.

الإمام الرازي يقول: **" إن الله تعالى واجب الوجود أي غير قابل للعدم"**، ففي المنطق هناك شيء واجب وجود، وممكن وجود، ومستحيل الوجود، إذاً مستحيل، وواجب، وممكن.. كلُ ما سوى الله ممكن ومعنى ممكن أي ممكنٌ أن يكون وممكنٌ ألا يكون.

أما معنى واجب الوجود أي لا بدّ من أن يكون، لكن مستحيل الوجود أي يستحيل عقلاً أن يكون.. فمن المستحيلات أنّ الله سبحانه وتعالى غير قابلٍ للعدم بوجهٍ من الوجوه.

فكلُ ما كان ذاتيّ الوجود في الأزل والأبد فدوامه في الأزل هو القدم، ودوامه في الأبد هو البقاء، فالله قديمٌ وباقٍ، أزليٌ وأبديُ لأنّه واجب الوجود بذاته، هذا هو المعنى.

وقيل الباقي: **" هو الذي لا ابتداء لوجوده، ولا نهاية لوجوده ".** فكل شيء من الخلق له بداية وله نهاية، فأنت لك بداية، فقد قال تعالى:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً (١))

(سورة الإنسان)

تمسك كتاباً طبع قديماً، وأنت مولود في سنة الأربعين والكتاب قد انتهى طبعه عام ثمانية وثلاثين مثلاً، معنى ذلك أنّهم حينما انتهوا من طبعه، أنت أيُّها القاريء للكتاب لم تكن في الأصل موجوداً، ليس لك وجود.

(هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا)

وبعد أن يموت الإنسان تقام له التعازي لمدة ثلاثة أيام، وتلقى كلمة تأبين يتحدث فيها المتحدثون عن أعماله، وبعد فترةً من الزمن يطويه النسيان وكأنّه ما كان، فأنت بين عدمين، بين عدمٍ يسبق وجودك، وبين عدمٍ ينتهي به وجودك.. إذاً فانٍ.

فالمشكلة أنّ الإنسان بضعة أيّام فقد تجد من يعيش ثلاثين سنة أو أربعين، أو خمسين أو ستين سنة، فلو عاش ستين سنه وضربنا هذه السنين في عدد أيام السنة - ثلاثمائة وخمسة وستين يوماً - وكذلك نستطيع حسابها بالساعات، ويمكننا أن نعد وجبات طعامه التي تناولها، وكم نزهة ذهب إليها، وكم احتفال حضره، وكم تعزية حضرها، وقد أنجب أربعة أولاد وزوّجهم، كلّه محدود ويعد عداً، فالإنسان بضعة أيّام كل ما انقضى يومٌ انقضى بضعٌ منه.

فالتعريف الدقيق الفلسفي العميق للإنسان أنّه زمن، ومشكلة الزمن أنّه يتحرّك، وتحرُّك الزمن يستهلك الإنسان، كائن يتحرّك نحو هدف ثابت، كل ثانية يقترب من هدفه، فمعنى ذلك أنّك زمن، أنت فانٍ.

الباقي الذي لا ابتداء لوجوده ولا نهاية لوجوده، الباقي هو الأول بلا ابتداء، والآخر بلا انتهاء، والحقُّ باقٍ ببقائه، والخلق باقٍ ببقائه.

فأنت موجود لا لأنّك ذكي، ولا لأنّك تعتني بصحّتك، ولا لأنّ أجهزة جسمك تعمل، أنت موجودٌ لأنّ الله يمدُّك بالوجود، فإذا أوقف إمداده بالوجود كنت لا شيء.. كن فيكون، زُل فيزول..

ففي الحديث القدسي يقول رب العزّ:

((عَنْ أَبِي ذَرٍّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيمَا رَوَى عَنِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعِمُونِي أُطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي أَكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَتْقَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوَفِّيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلا يَلُومَنَّ إِلا نَفْسَهُ))

(صحيح مسلم)

قال العلماء: الباقي: **" هو الموجود الدائم الذي لا يقبل الفناء، ومنه استمداد البقاء، والذي لا إبتداء لوجوده هو الذي يكون في الأبد على ما هو عليه في الأزل".**

يكون الإنسان طفلاً صغيراً ثم يكبر، فما دام يتطوّر فليس باقياً، ثم يصبح هرماً.

(وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا)

فقد قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ(٥))

(سورة الحج)

منذ سنوات كان الناس يعرفون إنساناً رياضياً لو أمسك بمركبة مهما كانت قويّة تقف في مكانها ولا تتحرك، ولكن عندما أصبح في أرذل العمر صار ضعيف البُنية هزيلاً يئنُ ويشكو.. فكلُ حالٍ يزول، فما دام هناك تطوُّر فلا بقاء معه.

وهذا معنى جديد.. الباقي: هو الذي يكون في الأبد على ما هو عليه في الأزل.. فأنت كلّ يوم تتطوّر، يضاف إلى معلوماتك معلومات، ينمو جسمك وتزداد خطوط وجهك، ويشيب شعرك، وينحني ظهرك، ويضعف بصرك، أي تتطوّر، أما ربنا عزّ وجلّ باقٍ لأنّه كما هو في الأبد هو في الأزل.

إلاّ أنّ اسم الباقي لم يرد بلفظه في القرآن الكريم، ولكنّ مادة البقاء وردت منسوبةً إلى الله عزّ وجلّ في مواطن كثيرة من التنزيل المجيد، ومن أبرز هذه المواطن قال تعالى:

(قَالَ آَمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آَذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آَمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى (٧٣))

(سورة طه)

أخي الكريم تعال معي إلى مثل أضربه لعله يقرب الفكرة، فلو خُيّرت أن تركب سيارة لمدة ربع ساعة، وبين دراجةٍ تتملّكها، فماذا تختار ؟ لا شك أنك تختار الدراجة لأنّها أبقى، ولو خيّرت بين مركبتين الأولى تركبها ربع ساعة، والثانية تتملّكها، فماذا تختار ؟ تختار المركبة الثانية التي يبقى ملكها لك.. فكذلك الآخرة.

(خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

إذا اخترت ما عند الله خير إلى درجة غير معقولة وأبقى، الدنيا دار ابتلاء وإنها فانية، لذلك فكل إنسان يختار الدنيا على الآخرة متهماً بعقله.. والآية الثانية تقول:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧))

(سورة الرحمن)

مَن العاقل ؟ أهو الذي يتعلّق بالفاني أم بالباقي ؟ إن تعلّقت بإنسانٍ فهو فانٍ، إن تعلّقت بمتاع الدنيا فهو فانٍ، إن تعلّقت بالغرائز والشهوات فهي فانية، أما إذا تعلّقت بالواحد الديّان فهو أبديٌّ باقٍ، وما لك عند الله فهو خير وأبقى.

وفي سورة طه.

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

قال تعالى:

(وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى(١٣١))

(سورة طه)

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

فعطاء الله عزّ وجلّ للمؤمن خيرٌ وأبقى.

وفي سورة الشورى قال تعالى:

(فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آَمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(٣٦))

(سورة الشورى)

والمؤمن يقوده رجاحة عقله إلى أن يختار الآخرة فيعمل لها، وعندئذٍ ربنا عزّ وجلّ يكرمه في الدنيا والآخرة. وفي سورة مريم قال تعالى:

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً (٧٦))

(سورة مريم)

(وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا)

إذاً كلمة الباقي لم ترد في القرآن الكريم إنما وردت مادّة البقاء في هذه الآيات.

(وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

(وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى)

وفي غير ذلك من الآيات التي ذكرناها.

أما التطبيق العملي لهذا الاسم الجليل... فقد قال العلماء: حظُّ العبد من ذكر اسم الباقي أنّك إذا أكثرت من ذكر اسم الباقي كاشفك الله بالحقائق الباقية وأشهدك الآثار الفانية.

فمعنى ذلك أنّ في هذه الحياة شيئين: شيئاً باقياً، وشيئاً فانياً، كيف ؟ فهناك شيء مهما كان الإنجاز عظيماً ينتهي عند الموت، وهناك شيء يبدأ عند الموت، العاقل هو الذي يتعلّق بالذي يبدأ بعد الموت: (الباقي)، ولا يعبأ بالذي ينتهي عند الموت.

فمثلا يمكنك تزيين بيتك تزييناً عالياً، مهما كنت ذا ذوقٍ رفيع في تزيين البيت فهذا التزيين حينما يموت الإنسان ينتهي مفعوله، يمكن أن تأكل أطيب الطعام، وأن تجلس في أجمل مكان وهذا كلّه ينتهي عند الموت.

أما إذا دعوت إلى الله، إذا ساهمت في نشر الحق، إذا ساهمت في ترسيخ الفضيلة، إذا ساهمت في إصلاح ذات البين، إذا ساهمت في تعليم العلم، إذا أمرت بالمعروف، إذا نهيت عن المنكر، إذا كنت سبب سعادة الأسر، إذا بثثت الحقّ بين الناس، إذا كنت موفِّقاً بينهم، تجمع ولا تفرِّق، تحببهم بالله ولا تنفِّرهم، هذا كلّه باقٍ بعد الموت ويكبر حجمه ومردوده، أحدكم يضع لقمةً في فم زوجته يراها يوم القيامة كجبل أُحد، فإذا هديت إنساناً فكلُّ الخير الذي يأتي من هذا الإنسان إلى يوم القيامة في صحيفتك، قد تتفاجأ في أن ثمانمائة ألف إنسان مثلاً من ذريّة هذا الذي هديته إلى الله كلُّهم في صحيفتك.

فلذلك لا يليق بالإنسان أن يكون لغير الله، لا يليق به أن يعمل لغير الله، لا يليق به أن يتوجّه لغير الله، لا يليق به أن يكون محسوباً على غير الله.. لا يليق بك أن تكون تابعاً لغير الله لأنّه هو الباقي وسواه فانٍ.

إذاً إذا توجّهت إلى الله صادقاً أشهدك الله الباقيات والفانيات، فتعلّقت بالباقيات وتركت الفانيات.

فلو كان عندنا فقاعة من الصابون وألماسة، فالفقاعة بحركة واحدة تتلاشى وتفنى، أما الألماسة فثمنها ثمانية ملايين ويزداد سعرها يوما بعد يوم وعلى الدوام غالية.. فكل إنسان يتعلّق بالفانيات كمن يتعلّق بفقّاعة الصابون ويدع قطعة ألماس.

أيُّها القراء... أرجحكم عقلاً أشدُّكم لله حباً.. فالقصد من هذا الشرح أن تتعلّق بالباقي، وألا تهتمّ بالفاني، إما إذا نظرت إلى عامّة الناس تجد العجب العجاب، كلُّهم متعلِّقون بالفاني، معرضون عن الباقي.. شهوات، أجهزة لهو، تفاخر، انهماك في الملذّات هذه كلُّها فانيات، أما الباقيات فقد أداروا لها ظهورهم وأشاحوا بوجوههم فدفعوا ثمن جهلهم.

٨١- اسم الله الرشيد :

مع الدرس الواحد والثمانين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم الرشيد.

صيغة الرشيد.. فعيل، وصيغة فعيل في علم الصرف تعني المبالغة، فهناك اسم فاعل، وهناك اسم فاعلٍ مبالغ فيه. تقول مثلاً.. صادق، صدوق أي كثير الصدق، فاعل، فعول.. فهذا الاسم الرشيد على وزن فعيل، وماذا يعني اسم المبالغة في حقّ ذات الله عزّ وجلّ ؟

يعني شيئين.. فهو يعني عدداً ونوعاً.. كلُّ أفعال الله عزّ وجلّ رشيدة، والرشيد إذا وصف الله بهذا الوصف فهو الرُشد المطلق، الله عزّ وجلّ مطلق، فعلمه مطلق، قدرته مطلقة، رحمته مطلقة، يجب أن تعلم علم اليقين أنّ الله سبحانه وتعالى في كلّ أسمائه وصفاته مطلق.

بينما أسماء الإنسان وصفاته نسبية، قد تقول: هذا القاضي عادل إذا حكم تسعة وتسعين حكماً من أصل مئة بشكل صحيح، وهذا الوصف نسبي، وكلُّ وصفٍ يوصف به الإنسان هو وصفٌ نسبيّ، و أوصاف الله عزّ وجلّ كلُّها مطلقة.

على الأرض يعيش خمسة آلاف مليون إنسان، إذا ظُلم إنسان واحد فالله سبحانه وتعالى لأنّه مطلق يصبح ليس عادلاً، فقد قال تعالى:

(وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ (٤٧))

(سورة الأنبياء)

وقال تعالى:

(الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنّ اللّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧))

(سورة غافر)

وقال تعالى أيضاً:

(وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيراً(١٢٤))

(سورة النساء)

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصّلَاةَ وَآَتُوا الزّكَاةَ فَلَمّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النّاسَ كَخَشْيَةِ اللّهِ أَوْ أَشَدّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً (٧٧))

(سورة النساء)

(وَلا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا)

(وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا)

ولا قطمير.. ولا تظلمون شيئاً.. ولا ظلم اليوم.. وما كان الله ليظلمهم.

الإنسان حينما يؤمن بالمطلق تطمئن نفسه، الإيمان أنّ الله بيده كلُّ شيء، وأنّه فعّال لما يريد، وأنّه في السماء إلهٌ وفي الأرض إله، وأنّ كلّ شيءٍ خلقه وهو عليه وكيل هذا الإيمان يُلقي في نفس الإنسان طُمأنينةً لا يعرفها إلا من فقدها، لأنّه كما يقال إنّ الله يعطي الصحّة والذكاء والمال والجمال للكثيرين من خلقه، ولكنّه يعطي السكينة بقدرٍ لأصفيائه المؤمنين.

إذاً اتفقنا على أنّ الله في أسمائه وصفاته مُطلق، فمن أين يأتي الفساد ؟ يأتي الفساد من إنسان أعطاه الله حريّة الاختيار، وأمدّه بقوةٍ فيما يبدو فتحرّك هذا الإنسان بخلاف منهج الله، ومثل ذلك.. السكّر مادةٌ أساسيّة، والملح مادة أساسيّة، والمنظفات مادة أساسيّة في حياة كل أسرة.. الآن إذا وضعت في طعامك النفيس جداً والغالي الثمن مسحوقاً للتنظيف فستلقيه لا محالة، لأنّه فسد، المواد التي بين أيدينا كلُّها جيّدة ورائعة وكاملة ولكن سوء استخدام المواد سبب الفساد، الزنى فساد فالأصل الزواج، كسب المال الحرام فساد، معنى ذلك أنّ الفساد ليس له وجود أصلي، بل وجوده طارئ ناتج عن سوء الاستخدام.

إخواننا الذين يعملون في المركبات يقولون: لو وضع في المحرك كيلو غرام من مادة السكّر ثمنها ثلاثين ليرة يكلِّف إصلاحه ثلاثين ألف ليرة، فالسكر ثمين والمحرك ثمين ولكن من أين طرأ الفساد ؟ طرأ من سوء الاستخدام، لماذا أنت بحاجة إلى الدين ؟ من أجل أن يعطيك الله الذي خلق هذه المواد أصول استخدامها.. أفعل ولا تفعل، هذا منهج الله عزّ وجلّ.

أنت حينما تستجيب لأمر الله هل تدري ماذا فعلت ؟ أنت تملّكت خبرة الخبير، وعلم العليم، وقدرة القدير، ورحمة الرحيم،لأنك تقبل منهج الله، ولأنك تقبل على تطبيق منهج الله دون أن تشعر تملّكت خبرة الخبير قال تعالى:

(إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤))

(سورة فاطر)

(وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ)

وعندما تملّكت قدرة القدير، ورحمة الرحيم، وحكمة الحكيم، سهل عليك أن تتحرّك.

إنسان عظيم وعليه أن يتّخذ قرارات هامة تجد حوله عدداً كبيراً من الخبراء بالعشرات والمئات يشيرون عليه أليس كذلك، فيجمع حوله خبراء قمم في تخصصاتهم فتجد خبراء في علم النفس، وعلم الاجتماع، والطب، والهندسة، والتاريخ، والجغرافيا، والفلك، والرياضيّات، لو أراد أن يتخِّذ قراراً فسأل الخبير فأعطاه خلاصة العلم ماذا نقول ؟ هذا الذي استعان بالخبير تملّك كلّ علمه.

أن تُقبل على منهج الله تملّكت قدرة القدير وأنت لا تدري، وعلم العليم، ورحمة الرحيم، وحكمة الحكيم، فلذلك أسعد إنسان هو الذي يبحث عن منهج الله ليطبّقه في حياته، لن يفاجأ، ولن يشعر بالإحباط إطلاقاً، خطّه البياني صاعد صعوداً مستمراً لأنّه يتحرّك وفق خبرة الخبير.

إخواننا الكرام... ما في الأرض إنسانٌ على الإطلاق إلا ويتمنّى شيئين السلامة والسعادة، والسلامة والسعادة لا تكون إلا بطاعة الخبير.

فحينما يحبُّ الإنسان ذاته حباً لا حدود له ينطلق إلى طاعة الله فقد قال تعالى:

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

(سورة الأحزاب)

ذكر لي أخ اليوم مفارقة أعجبتني.. قال لي: لي جار مضى على زواجه من زوجته خمسةٌ وستون عاماً وما نام ليلةً غاضباً على زوجته، وقد أنجبت سبعة عشر ولداً هم أعلامٌ في المجتمع، لأنّ هذا الذي تزوّج بحث عن امرأةٍ صالحة..

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللّهم عَنْه عَنِ النّبيّ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لأَرْبَعٍ لِمَالِهَا وَلِحَسَبِهَا وَجَمَالِهَا وَلِدِينِهَا فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ))

(صحيح البخاري)

ويبدو أنّه كسب مالاً حلالاً وأنفقه في طاعة الله فرزقه الله هذه الذريّة الصالحة.

المفارقة.. في أحد الفنادق الكبرى في دمشق، في ستّة أشهر تمّ فيه ستّة عشر عقد قِران لم يبق من هذه العقود في خلال ستّة أشهر إلا ثلاثة وهي في طريقها إلى الطلاق، وآخر عقد أقيم في هذا الفندق كلّفته فيما سمعت أربعين مليون، وبعد أيام تمّ الطلاق، لأنّ هذا الزواج لم يُبنَ على منهج الله، أيُّ زواجٌ بُني على طاعة الله تولّى الله التوفيق بين الزوجين، وأيّ زواج بني على معصية الله تولّى الشيطان التفريق بينهما، القصد من ذلك أن يكون الإنسان رشيداً.. فالنبي قال:

((تخلّقوا بأخلاق الله.))

قال: الرُشد هو الصلاح والاستقامة، والرشد خلاف الغَيّ والضلال. الاستقامة.. أن تتحرّك تحرُكاً صحيحاً، أن تصل إلى قصدك النبيل بأقصر الطرق، ألا تحيد يمنةً ولا يسرة، الغَيّ.. الانحراف، والضلال.. التيه.

والرشيد كما يذكر الإمام الرازي على وجهين أحدهما فعيل بمعنى فاعل، رشيد أي راشد.. صيغة مبالغةٍ من اسم الفاعل راشد.

والراشد هو الذي له الرشد، أي يتمتّع برؤية صحيحة.. بالمناسبة فلسفة الرشد.. الإنسان متى يكون رشيداً ؟ إذا كان مبصراً، فأي إنسان لا على التعيين أعطه مصباحاً وضّاءً وقل له: سر في غابةٍ ليلاً،

فما دام معه مصباح وضّاء فسيرى كل شيء أمامه، هل يعقل أن يقع في حفرةً بل يحيد عنها، ولا يعقل أن يدوس على أفعى تلدغه بل يبتعد عنها، انطلاقا من حبّه لذاته يسلم، فقضيّة الرشد أساسها الرؤيا.. بالمناسبة.. النبيُّ عليه الصلاة والسلام قال:

((عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الطُّهُورُ شَطْرُ الإِيمَانِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلأُ الْمِيزَانَ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ تَمْلآنِ أَوْ تَمْلأُ مَا بَيْنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالصَّلاةُ نُورٌ وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَايِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا))

(صحيح مسلم)

أنت حينما تتصل بالله تطهر نفسك من كلُّ أدرانها.. فالمصلي لا يحقد ولا يتكبر ولا يبخل ولا يظلم.. لأنّ مكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى فإذا أحبّ الله عبداً منحه خُلقاً حسناً.

فأنت أخلاقيٌّ بقدر اتصالك بالله.

ومؤمن لأن رؤيتك صحيحة وقد ألقى الله في قلبك نوراً فرأيت الحق حقاً فسلكت طريق الحق فأصبحت رشيداً.

إذا ركب أحد مركبته متوجهاً إلى بلدة ولم يخطيء إطلاقاً فهذا دليل على قراءته للعلامات وللوحات الإرشادية الموضوعة على جوانب الطريق وهو قد قرأها واستوعبها وسار وفق توجيهاتها، فوصل إلى البلد المقصود في أقرب وقت وفي أيسر حال، إذا هو رشيد.

الرشد أن تسير مستقيماً دون أن تحيد يمنةً ولا يسرة، وأن تصل إلى هدفك بأقلّ جهدٍ وأقصر وقتٍ،

((وتخلّقوا بأخلاق الله))

فالرشيد هو الراشد، الرشيد حكيم وقد يلتقي هذا الاسم مع اسم الحكيم من خلال الرؤية الصحيحة.

في ذهني حقيقة.. المجرمون حينما يرتكبون الجرائم، ماذا رأوا قبل أن يرتكبوا الجريمة؟ رأوا في الجريمة مغنماً، فالمجرم يقتل ضحيّته فتختفي معالم جريمته، ويأخذ هذا المال الكثير.. فقد قتل عدّة مجرمين صائغاً في بلدة على طريق حمص، وسرقوا ثلاثة عشر كيلو غراماً من الذهب من مكانه، وبعد أقلّ من أربع وعشرين ساعة ألقي القبض عليهم، وبعد أقلّ من شهرٍ تمّ إعدامهم في مدينة يبرود، كانوا يظنون أنفسهم أذكياء، لأن منهم من يحمل شهادة عليا في الهندسة، فحينما أقدموا على هذا العمل ماذا رأوا ؟ رأوا أنّ في هذا العمل مغنماً كبيراً، وجهداً يسيراً، وغنىً فاحشاً، واستمتاعاً بالحياة، هل تحقق هدفهم ؟ إذّ كانوا ضالين.

فالإنسان حينما ينطلق من حبّه لذاته، يتصِّل بالله، فيلقي الله في قلبه النور، وهذا النور يطهّر نفسه من الدرن، ويريه الحقّ حقاً فيتّبعه، ويريه الباطل باطلاً فيجتنبه، فصار بذلك رشيداً.. وإذا كنت رشيداً كنت في أعلى درجات الكمال.

نقرأ بعض الآيات لو وقفنا عندها وقفة متأنّية لرأينا العجب العجاب.. قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩))

(سورة البقرة)

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

هنا الرشد يلتقي مع الحكمة، الرشد والحكمة يقتربان من بعضهما بعضاً، أساسهما رؤيةٌ صحيحة، أساس هذه الرؤية اتصال بالله، قال تعالى:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

تذكرت مزارعاً ينمي محصوله بالبيوت المحمية والتي إنتاجها غالٍ جداً يبلغ خمسمائة ألفاً تقريباً، فلا بدّ من أن يشتري سماداً لتسميدها، وإنطلاقاً من رغبةٍ أن يكون النماء شديداً ضاعف السماد، أصبح في اليوم التالي كل النبات أسود اللون.. هو أراد أن يربح، وأراد أن يكثر رزقه فمحق رزقه لأنّه جاهل، هل كان رشيداً ؟ أبداً..

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

العلماء قالوا: **" إنّك بالحكمة تصلح الزوجة الفاسدة، وبالحُمق تفسد الصالحة "**، أنت بالحكمة تكسب المال، وبالحمق تبدِّده، أنت بالحكمة ينمو جسمك وتنمو مداركك، وتعيش سعيداً، وبالحمق تدمِّرُ ذاتك، فالحكمة هي الرشد.

أحياناً يقول لك أحد الأشخاص: والله اتخذّت قراراً هو أكثر قراراتي حكمة، هذا القرار المصيري قد تُبنى عليه سعادة أبديّة.

وثاني هذه المعاني أن يكون بمعنى مُفْعِل.. أي مُرْشِد، فإما يأتي بمعنى راشد، أو بمعنى مرشد، راشد صفة ذات، مرشد صفة أفعال، الله عزّ وجلّ في حقيقة الأمر رشيد بمعنى فعيل، ومفعِل، أي راشد ومرشد.ابنك الصغير ذو إدراك محدود يقترب من المدفأة، وسيحترق وأنت أب قلبك مليء بالرحمة لن تبتسم وتبقى مكانك دون ضربه ! فقد أجاز لك الشرع أن تقطع صلاتك من أجل أن تنقذ ابنك، ماذا في قلب الأب ؟ رحمة صغيرة.. أرحم الخلق بالخلق النبيُّ الكريم فقد قال له الله تعالى:

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ(١٥٩))

(سورة آل عمران)

(فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ)

كلٌ هذا القلب الكبير، وكلٌ هذه الرحمة التي وسعت الخلائق جعلها الله في كتابه نكرةً.

وفي آيةٍ أخرى قال تعالى:

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً (٥٨))

(سورة الكهف)

(وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ)

وربُّنا الذي خلقنا أرحم بنا.

حدّثني أخ دخل إلى معمله شخص لشراء بعض المنتجات من معمله وهو يبيع ما ينتجة بالجملة، فطلب منه أربع قطع فقط فشعر صاحب المعمل بمهانة من هذا الطلب المتواضع فمبيعاته مئتا دزّينة تقريباً، فرفض أن يبيعه قائلاً له: لا أبيع بالمفرّق، فقال لي هذا الأخ الكريم: ثلاثون يوماً لم يدخل معملي إنسان، وكأنّ الله أدّبه.. وأرشده ؟ رشيد يرشد بقرآنه فقد قال تعالى:

(قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٣٠))

(سورة النور)

هذا إرشاد بالآيات.. ويرشد بحديث نبيّه فقد قال تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى (٤))

(سورة النجم)

فقد قال صلّى الله عليه وسلّم:

((النظرة سهمٌ مسموم من سهام إبليس... من ملأ عينيه من الحرام ملأهما الله من جمر جهنّم... من غضّ بصره عن محارم الله أورثه الله حلاوةً في قلبه إلى يوم يلقاه))

فالله مُرشد، قد أرشدنا إلى طاعته من خلال حديث نبيّه.

والله مُرشد بأفعاله.. أعرف رجلاً يسكن بأحد أحياء دمشق، وهو موظّف ولديه أبناء شباب وفتيات كلّهنّ متزوجات.. فهو جد.. له هواية أن يسير في عصر كل يوم على طريقٍ في دمشق مليءٍ بالكاسيات العاريات الغاديات الرائحات، وليس له هواية غير ذلك فينزل من المزّة إلى طريق الصالحيّة ثم يرجع إلى بيته بعد أن يمتّع عينيه بمنظر الحسناوات، أصيب بمرض وهو من أغرب الأمراض واسمه - ارتخاء الجفون - فمن أجل أن يرى يمسك جفنه بيده فإذا تركه عاد جفنه مغمضاً.. فالله عزّ وجلّ يرشد بالقرآن ويرشد بالسنّة، ويرشد بالفعل يؤدّبه.. أحياناً يريه مناماً مخيفاً.

إذاً المعنى الأول.. رشيد بمعنى راشد، أي حكيم، ورشيد بمعنى مرشد يرشد عباده إلى الصواب.

إخواننا الكرام.. صدّقوني لا يمكن لإنسان منحرف إلا أن يرشده الله عزّ وجلّ بطريقةٍ أو بأخرى، وكلّما ارتقى الإنسان فهناك إرشاد بياني وهو أرقى شيء، كأن تستمع إلى خطبة، وتقرأ القرآن وتقرأ الحديث.. كحديث:

((عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ بَلَغَهُ أَنّ رَجُلا يَنُمّ الْحَدِيثَ فَقَالَ حُذَيْفَةُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُولُ لا يَدْخُلُ الْجَنّةَ نَمّامٌ))

(صحيح مسلم)

فتتعوّذ بالله من أن تنمّ وتمتنع، وهذا هو أرقى أنواع التعليم، أن تتلقى من الله بياناً قرآناً، أو من النبيّ سُنةً، أو من عالمٍ توجيهاً فترتدع.

ولدينا إرشاد من نوع آخر.. إرشاد تأديبي عن طريق مشكلة، مصيبة.

ولدينا نوع ثالث من الإرشاد.. وهو إكرام استدراجي.

والإرشاد الرابع.. هو القصم.

أربع مراحل.. الدعوة البيانيّة أكمل شيءٍ فيها أن تستجيب إلى الله عزّ وجلّ، والإرشاد التأديبي أكمل شيءٍ فيه أن تتوب إلى الله، والإكرام الاستدراجي أكمل شيءٍ فيه أن تشكره وتتوب، فإن لم يُجدِ معك لا البيان، ولا التأديب، ولا الإكرام، فأصبح هذا الإنسان ينتظر القصم فيهلكه الله.

(فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ)

كما قال تعالى:

(أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكّنّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَاراً وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ (٦))

(سورة الأنعام)

وكما أبعد الله قوم عاد كما أبعد ثمود قال تعالى:

(وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنّ عَاداً كَفَرُوا رَبّهُمْ أَلَا بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ (٦٠))

(سورة هود)

إرشاد الله تعالى يرجع إلى هدايته قال تعالى:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الّذِي أَعْطَى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى (٥٠))

(سورة طه)

(ثُمّ هَدَى)

هدى إلى ماذا ؟ عندنا أربعه أنواع من الهداية:

فالإنسان هداه الله تعالى أولاً إلى مصالحه، الطفل يولد دون أن يكون عنده أيّةُ مهارة على الإطلاق.. هكذا درسنا في الجامعة وتعلّمنا.. إلا منعكساً واحداً ولولا هذا المنعكس لما كنّا في هذا المسجد، وهو

منعكس المص وهذا المنعكس شديد التعقيد، فالطفل يضع شفتيه على حُلمة ثدي أمِّه ويحكم الإغلاق ويسحب الهواء فيأتيه الحليب، وهو قد ولد على التو واللحظة، فلولا هذا المنعكس لجاء المولود وثدي أمِّه مليء بالحليب ولا يستطيع الرضاع، فهل تستطيع أن تفهّم هذا المولود كيف يرضع ؟ فيموت الطفل وما سوى هذا المنعكس كلّه يأتي بالتدريج.

فالله عزّ وجلّ هدانا إلى مصالحنا، إذا رأيت راكباً لدرّاجة فكيف يستقيم عليها دون أن يقع؟ لوجود جهاز التوازن بالأذنين، وهو ثلاثة أقواس فيها أهداب وسائل فعندما يميل إلى جهة ما فالسائل الموجود في الأذن يرتفع فيمس هذه الأهداب فيتنبّه فيعدل الراكب عن طريق جسمه توازنه، ولولا هذه القنوات الثلاث لا يستطيع إنسان أن يركب درّاجة، فلو مال لوقع.

ألاحظ في بعض المحلات التجارية وجود تماثيل لتعليق الألبسة عليها، أنظر إلى قاعدة التمثال تجدها سبعين أو ثمانين سنتيمتراً، فهي قاعدة إستناد عريضة جداً وإلا لوقع التمثال، فانظر لرجليك ما ألطف حجمها، فلو كانت الأرجل كبيرة مثل خف الجمل ولبست حذاء يزن خمسة كيلو غرامات، لأصبحت الحياة غير معقولة أن يمشي برجل تزن خمسة وعشرين كيلو غراماً فإذا مشى في الطين وحمل حذاءه يشعر كأنّه يقوم بأعمال شاقة، فإذا لم تكن هذه القنوات الدائرية بالأذن لإضطّر إلى أقدام ذات قاعدة استناد عريضة جداً ليستطيع الوقوف، ومن أجل أن يستقر فلا بدّ من قاعدة عرضها من سبعين إلى ثمانين سنتيمتراً، أما قدما الإنسان فلطيفتان.

الله هداه إلى توازنه، هداه إلى طعامه، هداه إلى شرابه، فإذا دخلت نقطة من الماء وهو يشرب إلى الرئة يسعل لإخراجها، فأساس السعال حركة تشنجيّة تدفع الأجسام الغريبة والسوائل التي في القصبة الهوائيّة إلى الأعلى ثم إلى الخارج، وبهذه المناسبة عادة التدخين وهذا الدخان الذي يستنشقه شاربه يشلُّ هذه الأهداب، فالنيكوتين الموجود في هذا الدخان يشلُّ هذه الأهداب الموجودة في القصبة الهوائيّة المصممة من أجل طرد الأجسام الغريبة.. فهذه هي الهداية الأولى قد هداك الله إلى مصالحك.

الهداية الثانية.. هداك إليه عن طريق الوحي، فقد أرسل الرسل وأنزل القرآن، والرسل تكلّموا.

أما الهداية الثالثة.. هداية التوفيق، فأنت حينما أردت أن تكون مؤمناً هداك الله فقد قال تعالى في سورة الكهف:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣))

(سورة الكهف)

والهداية الرابعة.. إلى الجنّة..، هداية المصالح.. وهداية الوحي.. وهداية التوفيق.. وهداية إلى الجنّة.. هذه هي الهداية.

معنى رشيد أي راشد، حكيم، معنى رشيد أي مُرشد.. يرشد عباده إلى سُبُل السلام إلى سعادتهم، إلى نجاتهم.

والإمام الغزالي يرى أنّ الرشيد هو الذي تساق تدبيراته إلى غاياتها، من غير إشارة مشير ولا تسديد مُسدد.

فقد تسلك طريقاً أحياناً تصل به إلى الهدف لكنّك تستعين بإشارات المرور، واللوحات الفوسفوريّة والأسهم وما يكتب عليها من أسهم أو ممنوع للمرور، أو المنعطف خطر، أنت وصلت إلى هدفك بسلامة ولكنّك استعنت بإشارات كثيرة.

أما إذا قلنا الله رشيد قال: هو الذي تساق تدبيراته إلى غاياتها، من غير إشارة مشير ولا تسديد مُسدد.. أي حركة ذاتيّة صحيحة، وهو الله تعالى.. هو الرشيد.

وقيل الرشيد: الذي أسعد من شاء بإرشاده، وأشقى من شاء بإبعاده، رشيد أرشدنا إلى محبّته.

ذهب شخص إلى بلاد الهند ونزل في أحد الفنادق فاستيقظ في الصباح الباكر على جلبة وضجيج، فسأل عن السبب فعرف أن هناك جنازة، فنظر فوجد نعشين، النعش الثاني عليه امرأة مسجّاة على خشب وتتحرّك، فسال عن ذلك فقيل له: إنّها زوجته ولا بدّ من أن تُحرق معه، هذا في ديانتهم إن مات الزوج يجب أن يحرق وكذلك ينبغي أن تُحرق الزوجة معه، أما إذا ماتت الزوجة فيحق له أن يتزوّج غيرها.. فهل هذا دين ؟ الله هدانا إلى دين قويم وأرشدنا إلى دينه، وهذه من أكبر النعم.

وهناك تدخل بقرة إلى دكان للفواكه فتأكل كل ما لذّ وطاب، وبعض أنواعها يصل سعرها إلى مئتي ليرة، وصاحب المحل سعيدٌ أشدّ السعادة بما يحدث، فقد دخل لمحله إلهه ليأكل وهذا شيء عظيم عندهم.. سبع مئة وخمسين مليوناً هذا دينهم ؟ وفي يوم العيد يضعون على أثاث البيت روث البقر وبول البقر كالعطر، بول البقر عطرهم وروث البقر حلواهم.

الله مُرشد أرشدنا إلى دينه، أرشدنا إلى نبيّه، أرشدنا إلى الحقيقة، أرشدنا إلى ذاته، أرشدنا إلى محبّته.

في إحدى المجلات الفرنسيّة تحقيق عن طائفة في الهند أعوانها يعبدون الجرذان، معبد فخم جداً وشاهق الارتفاع وبه زخارف وأحجاره منحوته وبداخله أكثر من خمسمائة جرذ، وأتباع هذا المذهب يأتون إلى هذا المعبد وتقف الجرذان على رؤوسهم وتقفز فوق أكتافهم ويأكلون معهم في صحن واحد.

الله عزّ وجلّ أرشدنا إلى ذاته، والله أيُّها الإخوة.. ما من سعادةٍ أعظم من نعمة الهُدى، تعرف الله، ولماذا أنت في الدنيا، تعرف ماذا بعد الموت، فبعد الموت جنّة عرضها السماوات والأرض.

يقول بعض العارفين: **" الرشيد هو المتّصف بكمال الكمال، عظيم الحكمة، بالغ الرشاد الذي تتجه تدبيراته إلى غاية الصواب والسداد، والذي يرشد الخلق ويهديهم إلى فيه صلاحُهم، الرشيد يوجّهم بحكمته إلى ما فيه خيرهم ورشادهم في الدنيا والآخرة ".**

قولٌ آخر: **" الرشيد هو الذي أسعد من شاء، وأرشد الأولياء إليه لا يوجد سهوٌ في تدبيره ولا في تقديره، وهو الموصوف بالعدل، والمتجلِّي بالفضل ".**

والرشيد هو الذي يُلهم أهل الرُشد إلى طاعته، والذي أرشد الخلائق إلى هدايته، ذو الحبل الشديد والأمر الرشيد.

هذا الاسم ورد في القرآن الكريم في قوله تعالى:

(إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آَتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً (١٠))

(سورة الكهف)

(وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)

الرشد والرُشد من رَشَدَ راشد رشيد.. رَشَدَ ورُشْدَ مصدران، والفعل رَشَدَ يَرْشُدُ، راشد اسم فاعل، رشيد بمعنى راشد أو مرشد.

الآية الثانية قال تعالى:

(وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آَيَاتِ اللَّهِ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيّاً مُرْشِداً (١٧))

(سورة الكهف)

(مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)

من يضلل نفسه عن الله لن تجد له ولياً مرشداً.

فمثلاً.. كل التوجيهات في الجامعة، الخبراء الأطباء والعلماء فإذا إنسان ترك الجامعة واتجه إلى الملعب، هل يُعقل أن يجد في الملعب مرشد ؟ المرشدون في الجامعة.. فإذا الإنسان أضلّ نفسه عن الله فقد المرشد، إذا إنسان ترك المدرسة فقد المُعلِم، ترك المشفى فقد الطبيب، ترك المحكة فقد القاضي، ترك بيته فقد المأوى، أليس كذلك ؟

(وَمَنْ يُضْلِلْ)

أي أضلّ نفسه عن الله.

(وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا)

والإنسان يكون رشيداً بقدر اتصاله بالله، فاتصاله بالله يكسبه نوراً والدليل على ذلك قوله تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ(٢٨))

(سورة الحديد)

آيةٌ ثانية قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩))

(سورة الأنفال)

(يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا)

تُفرّقوا به الحقّ من الباطل.

من أدعية النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

((عَنْ دَاوُدَ بْنِ عَلِيٍّ هُوَ ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ سَمِعْتُ نَبِيّ اللَّهِ صلّى اللهم عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ لَيْلَةً حِينَ فَرَغَ مِنْ صَلَاتِهِ اللَّهُمّ إِنِّي أَسْأَلُكَ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِكَ تَهْدِي بِهَا قَلْبِي وَتَجْمَعُ بِهَا أَمْرِي وَتَلُمُّ بِهَا شَعَثِي وَتُصْلِحُ بِهَا غَائِبِي وَتَرْفَعُ بِهَا شَاهِدِي وَتُزَكِّي بِهَا عَمَلِي وَتُلْهِمُنِي بِهَا رُشْدِي وَتَرُدُّ بِهَا أُلْفَتِي وَتَعْصِمُنِي بِهَا مِنْ كُلِّ سُوءٍ اللَّهُمّ أَعْطِنِي إِيمَانًا وَيَقِينًا لَيْسَ بَعْدَهُ كُفْرٌ وَرَحْمَةً أَنَالُ بِهَا شَرَفَ كَرَامَتِكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ اللَّهُمّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْفَوْزَ فِي الْعَطَاءِ وَنُزُلَ الشُّهَدَاءِ وَعَيْشَ السُّعَدَاءِ وَالنَّصْرَ عَلَى الْأَعْدَاءِ...))

(سنن الترمذي)

هذه رحمة الله:

(وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧))

(سورة آل عمران)

دعاءٌ آخر.. اللهمّ هذا الدعاء وعليك الإجابة، وهذا الجُهد وعليك التُكْلان، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم، ذي الحبل الشديد، والأمر الرشيد.

فإذا كنت مع الرشيد فلن تضلّ أبداً.. لا تُخطيء لأنّك مع التوجيه الإلهي، مع الخبير، ولا ينبّئك مثل خبير.

فيا أيّها الإخوة الكرام... تخلّقوا بأخلاق الله وكونوا راشدين فقد قال تعالى:

(وَاعْلَمُوا أَنّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ(٨))

(سورة الحجرات)

فالراشد هو الذي عرف الصواب من الخطأ فاتّبع الصواب، وتحرّك نحو الهدف بأقلّ جهدٍ وأقلّ وقت، سار إلى هدفه مستقيماً، هذا معنى الراشد.

٨٢ -اسم الله الوارث :

مع الدرس الثاني والثمانين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم هو الوارث.

الوارث اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، ومعنى هذا الاسم الوارث هو الباقي، لأننا في حياتنا الدنيا الذي لم يمُت هو الوارث، ولأنّ الله سبحانه وتعالى حيٌّ باقٍ على الدوام فهو الوارث، كلُّ ما بيدك مصيره إلى الله.

قد تقول إنّ هذا البيت ملكي، هذا كلامٌ فيه مجاز، البيت لله.. سُئل أحد الأعراب وهو يقود قطيعاً من الإبل لمن هذه الإبل ؟ قال: لله في يدي.

إخواننا الكرام..كل شيء تحت يدك تملكه من بيت وتجر ومركبة وممتلكات ليست لك، إذا أردت الكلمة الصحيحة التوحيديّة التي ليس عليها مأخذ قل كما قال هذا الأعرابي: لله في يدي.

بعض الأبنية يكتبون عليها الملك لله، حينما تشعر أنّ يدك على ممتلكاتك يدُ الأمانة، وأنّ يدك على مالك يدُ الأمانة هذا الشعور يجعلك بنفسيّة من سيحاسب، هذا المال وضع بين يديك موقتاً لينظر الله كيف تعمل وأنت مستخلفٌ فيه، وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى فقد قال الله تعالى:

(آَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧))

(سورة الحديد)

أنت أمين صندوق مؤتمنٌ عليه، والله مطلعٌ عليك سيحاسبك وسيُنبّئك بما عملت.

وكلّ شيءٍ في حوزتك مصيره إلى الله هو الوارث.

الوارث سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه.. هذا المعنى نشعر به في حياتنا الدنيا، ندخل إلى بيت في أعلى المستويات وصاحبه تحت التراب، أولاده هم الذين يستمتعون الآن بهذا البيت هم الورثة، وإذا تابعنا نجد أنّ أحفاده يرثون آبائهم، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، فالوارث ؟ هو الباقي.. حدثني رجل قال إنسان من أهل العلم يملك مكتبة نادرة في بيته له، صديقٌ حميم رجاه أن يستعير كتاباً لليلةٍ واحدة فلم يوافق لأنّ الكتاب أغلى عليه من أولاده، هذا الصديق الحميم أقسم بالله العظيم أنّه بعد موت هذا العالم رأى الكتاب في الحاوية، كيف كان صاحب هذه المكتبة حريصاً على كتبه، فلما مات أصبح الكتاب ملك أهله، لم يعبأوا به فألقوه في الحاوية.

الشيء بالشيء يذكر.. أتمنى على كل أخ مؤمن عنده مكتبة متواضعة أن يحرص حرصاً لا حدود له على تعليم أولاده لئلا توضع هذه المكتبة في مكان مهمل من البيت، ولئلا يكون من سقط المتاع فتلقى خارج البيت بشكلٍ أو بآخر، حبب إليهم الكتاب ولا تجعلهم أعداء له كثير من الأسر المثقف فيها هو الأب وحده وكلٌ من حوله يناهضون الكتاب، عوّدهم أن يقرأوا، اجعل القراءة أعلى متعةٍ في البيت، إنّ

أرقى هوايةٍ يهواها الإنسان هواية القراءة، لأنّك بالقراءة تأخذ عقول النابغين، عقل النابغ كلّه في مئة صفحة، فإذا قرأتها اطلعت على خبرات الكبار.

عود على بدء.. الوارث هو الباقي بعد فناء خلقه، وهو الوارث لجميع الأشياء بعد فناء أهلها فقد قال تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ (٤٠))

(سورة مريم)

تدبر معي هذه القصة التي تكاد تكون من نسج الخيال ذلك أنّ أغنى أغنياء العالم سبائكه الذهبيّة يضعها في صناديق على مستوى غُرف، أي غرفة لها باب حديدي، وهذا الباب محكم الإغلاق، دخل إلى غرفته وقد أُغلق عليه الباب خطأً، هو رجل لا يكاد يلقي عصا الدجال فظنّ أهله أنّه مسافر، فمات من الجوع وقبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة جرح أُصبعه وكتب على الحائط أغنى رجل في العالم يموت جوعاً.

نمضي معاً في رحاب قصة واقعية رجل ركب ناقته ليقطع بها الصحراء، فضلّ الطريق ونفد طعامه وزاده وشرابه، وأيقن بالهلاك، ثمّ لمح عن بعدٍ واحةً فأشرق في نفسه الأمل، هُرع نحو الواحة فإذا فيها بركة ماءٍ شرب منها حتى ارتوى ثم تولّى إلى الظل، حانت منه التفاتة فإذا كيسٌ إلى جانب البركة فسرّ به سروراً عظيماً وهو يحسب أنّ فيه خبزاً ليأكل ففتحه فقال: وا أسفاه هذه لآليءُ.. ما قيمة الآليء في الصحراء. هو يحتاج إلى رغيف خبز لا يقدر ثمنه بمال الدنيا.

والإنسان ضعيفٌ أمام الله عزّ وجلّ كلُّ شيءٍ تملكه قد يتلاشى أمام شربة ماء، وقد وصف الله تعالى نفسه بأنّه الوارث من حيث أنّ الأشياء كلّها صائرةٌ إليه، فماذا نفهم من قوله تعالى:

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣))

(سورة الشورى)

بيد من كانت الأمور حتى قال الله عزّ وجلّ:

(أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ)

أجاب العلماء: بأنّ الأمور كلّها بيد الله دائماً.

(وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ)

فقد قال تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ(١٢٣))

(سورة هود)

ولكنّ هل الدنيا هؤلاء الذين انقطعوا عن الله عزّ وجلّ وانطمست بصيرتهم يرون الأقوياء في الدنيا بيدهم الأمور، هم يعبدونهم من دون الله، هم يرون أن الأقوياء بيدهم كلُّ شيء، أما يوم القيامة هؤلاء الذين انقطعوا عن الله عزّ وجلّ وتوهّموا أنّ الأمر بيد الأقوياء يرون أنّ الأمر بيد الله عزّ وجلّ، يصير الأمر بيد الله يوم القيامة بمعنى أنّ هذا الإنسان الجاهل كان يتوهّم أنّ الأمر بيد زيدٍ أو عُبيد أما يوم القيامة لا يرى الأمر إلا بيد الله عزّ وجلّ.

يقول الله عزّ وجلّ:

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠))

(سورة الحديد)

(وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

بالمناسبة.. النبي عليه الصلاة والسلام لم تورّث درهماً ولا ديناراً، ولكن ماذا ورّث ؟ ورّثت هذا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافر.

لذلك الإنسان حينما يكون حظّه من الدنيا مالاً كمال قارون نقول له: إنّ الله أعطى قارون المال وهو لا يحبُّه، ثم سلبه منه فجأةً فقد قال تعالى:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (٨١))

(سورة القصص)

وحينما يكون نصيبك من الدنيا كنصيب فرعون نقول لك: إنّ الله أعطى الملك لفرعون وهو لا يُحِبُّه، وسلبه منه فجأةً حينما غرق وقال:

(آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ)

في قوله تعالى:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْياً وَعَدْواً حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩٠))

(سورة يونس)

ولكنّ الله إذا أحبّك أعطاك في الدنيا من مثل ما أعطى الأنبياء فقد قال تعالى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢))

(سورة يوسف)

فإذا كان نصيبك من الدنيا علماً صحيحاً، معرفة بالله عميقة، فكراً نيّراً، قلباً طاهراً، استقامة على أمر الله، عملاً طيّباً، إخلاصاً لله، هذا الذي نال من الله عزّ وجلّ أكبر نصيب لأنّه نال من ميراث النبي.

ماذا يقول بعضهم إذا أرادوا الثناء على عالم يقولون عنه: هذا وارث محمّدي. أي ورث عن النبي صلّى الله عليه وسلّم العلم، والحكمة، والعمل.. فينبغي أن يكون كلٌ واحدٍ منا وارثاً محمدياً، يأخذ من ميراث النبي وهو العلم.. إنّ الأنبياء لم يورّثوا درهما ولا ديناراً ولكن ورّثوا هذا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظٍ وافر.

أحد الصحابة الكرام ذات مرة قال لمن حوله: **أنتم هنا في الأسواق وميراث النبي في مسجده يوزّع ! فطاروا إلى المسجد ليأخذوا بعض ميراث النبي، فراشه مثلاً، عمامته، رداءه، رأوا في المسجد حلقة علم، فسألوه: أين ميراث النبي ؟! قال: هذا العلم، هذا الذي ورّثه.**

لما يأتي إنسان من مكان بعيد ويستغرق منه الطريق ساعة ليحضر مجلس علم، ليأخذ من هذا المسجد بعض ميراث النبي.. معنى ذلك أنّه اخذ بحظٍ وافر، أخذ من ميراث النبي.

سبحان الله.. جمال القرآن الكريم أنّ الله عزّ وجلّ كلّما أشار إلى شيء يعقِب بالقانون.. فقد قال تعالى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢))

(سورة يوسف)

شيء جميل، لكن ماذا قال الله بعدها ؟

(وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ)

فهذا قانون، أي إذا أردت أن تنال علماً وحكماً كن مُحسناً، ثمن العلم والحكمة الإحسان.

قال تعالى:

(وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠))

(سورة الحديد)

وقال أيضاً:

(وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣))

(سورة الحجر)

لذلك ينادي ربُنا جلّ جلاله يوم القيامة:

(لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ)

فيجيب الخلائق جميعاً:

(لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

فقد قال تعالى:

(يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦))

(سورة غافر)

إذا كنت أنت في الدنيا على صلةٍ محكمةٍ مع الله عزّ وجلّ وهو راضيٍ عنك وأنت محبٌّ له متفانٍ في خدمة خلقه هذا هو الفوز العظيم، أن يكون لك مكانٌ عند الله عزّ وجلّ فقد قال تعالى:

(إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥))

(سورة القمر)

والله هذا هو الفوز العظيم، هذا هو الفلاح، هذا هو النجاح، هذا هو التفوُّق، هذا هو الفوز، هذا هو التألّق، هذه هي البطولة.

ليس من يقطع طُرقاً بطلاً إنما من يتقي الله البطل

***

في معجم تاج العروس: الوارث صفة من صفات الله تعالى وهو الباقي الدائم بعد فناء خلقه، وهو يرث الأرض ومن عليها، إذا قلنا: يرث الأرض ومن عليها.. أو وما عليها، للعاقل ولغير العاقل.

يجول في خاطري قصة سأرويها يوجد رجل من أصحاب النشاطات الصناعيّة الكبيرة، له ثروة طائلة جداً، وقد رأيت بيته في بعض المدن الشمالية عام أربعة وسبعين، في ذاك الوقت ثمنه خمسة وثلاثين مليوناً، وتبلغ قيمته الآن خمس مئة مليون، وقد توفّي في عمر الثانية والأربعين وكان مديد القامة، وضع في قبرٍ لعلّه كان صغيراً فما اتسع القبر لقامته المديدة فاضطرّ الحفار أن يدفعه في صدره، فأصبح رأسه مع جسمه يشكِّل زاوية قائمة وهو الذي يملك أفخم قصر في إحدى مدن الشمال، بلاط أرضياته من الرخام الشفاف - الأونكس - وهو من أغلى أنواع الرخام، لمن هذا المنزل الفخم ؟ لغيره، وبعد غيره ؟

(لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ)

إخواننا الكرام... معنى أنّ يدك على كلِّ شيء يد الأمانة فهذا معنى هام جداً، البيت مؤقت، والمركبة مؤقّته، والمتجر كذلك مؤقّت كلُّ شيءٍ تحوزه يداك يدك عليه يدُ الأمانة، يد الإستخلاف والله ينظر كيف تعمل، وفي النهاية هذا كلّه يؤول إلى الله عزّ وجلّ.. لأن الله عزّ وجلّ ملكه للأشياء أوسع أنواع الملكية، إذا قلنا: الله هو المَلِك، أو المالك، مالك خلقاً، ومالك تصرُّفاً، ومالك مصيراً.

هو الذي خلق، وهو المُتصرّف ومصير هذا الشيء إليه فهذا هو المالك، نحن نملك تملّكاً مجازياً، قد تشتري بيتاً وتعطي ثمنه نقداً، والبيت فخم لم تبنه أنت، قد تنتفع به، وقد لا تنتفع به، إما أن تتركه وإما أن يتركك.

(وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْداً وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩))

(سورة الأنبياء)

الله عزّ وجلّ كما قلت لكم من قبل سمح لذاته العليّة أن يوازنها مع خلقه في عدّة مواضع، من هذه المواضع.

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

في قوله تعالى:

(ثُمّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ (١٤))

(سورة المؤمنون)

وكذلك من هذه المواضع:

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

في قوله تعالى:

(ثُمّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢))

(سورة الأنعام)

في بعض أجهزة الحواسب يقرأ أربعمائة وخمسون مليون حرف في ثانية، أما الحواسب الشخصيّة التي بين أيدي الناس يقرأ مليون حرف في الثانية، هل هناك حسابٌ أسرع من هذا الحساب ؟ ومع ذلك ربنا عزّ وجلّ لعلمه أنّه سيكون هناك حواسب ذات سرعات عالية سمح لذاته العليّة أن يوازنها مع خلقه فقال:

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

هذا الذي يأخذ الحديد من فلذّات الأرض ويجعله صفائح ويشكّله على شكل مركبة وهذه المركبة تزوّد بمحرّك وعجلات وأبواب وفرش وكهرباء وتكييف.. إلى آخره من المستلزمات، هذه المركبة سمّى صانعها مجازاً خالق.

قال تعالى:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

فأقرب شيء وازن بين كلية صناعيّة وكلية طبيعيّة، الكلية الصناعية حجمها كبير ولها صوت من أجل أن تصفِّي الدم تحتاج إلى ثماني ساعات، أما الكلية الطبيعية حجمها كقبضة الكف فيها طريق طوله مليون كيلو متراً وتعمل بصمت تام وأنت مستلقٍ، وأنت تمشي، وأنت تركب، وأنت نائم، وأنت يقظ، وأنت تحاضر في الناس وهي تعمل، والدم يمرُّ في هذه الكلية خمس مراتٍ في اليوم يقطع طريقاً يزيد عن مئة كيلو متر وأنت لا تدري، وازن بين كلية طبيعيّة وكلية صناعيّة.

وازن بين آلة تصوير وبين العين، آلة التصوير تريك الصور صغيرة أما عينك تريك الأشياء بحجمها الحقيقي، فتريك الجبل جبلاً، وملوّناً، العين تدرك الفرق بين درجتين من ثمان مئة ألف درجة من لونٍ واحد، فلو أخذنا لوناً واحداً وقمنا بتدريجه ثمانمائة ألف درجة فالعين السليمة تدرك الفرق بين لونين، ربنا عزّ وجلّ قال:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

وازن بين الحاسب وذاكرة الإنسان.. فقد قال بعض العلماء ذاكرتنا بحجم حبّة من حبوب العدس، هذه الذاكرة تتسع لسبعين مليار صورة، الإنسان الذي يعيش سبعين سنة تقريباً مخزّن في ذاكرته سبعين مليار صورة كلُّها جمعت في مكان مقدار حبّة العدس، فهذا خلق الله، ولو نظرنا إلى أي ارشيف أو أي إضبارات تجد معلومات قليلة موضوعة في حجم كبير، وتحركها بالغ الصعوبة، هذه الذواكر الموجودة في الدماغ مفروزة، ذاكرة سمعيّة، ذاكرة بصريّة، ذاكرة للمشمومات، ذاكرة ألوان، ذاكرة روائح، ذاكرة أرقام، ذاكرة وجوه، وهذه الحيّزات في الذاكرة في مكان قريب كثير الاستعمال، وهناك مكان متوسِّط، ومكان بعيد، وهناك مكان ممحو الذاكرة وحدها من آيات الله الدالة على عظمته، فوازن بين أرشيف، أو دفتر، أو حاسوب، وبين الذاكرة البشريّة.

وازن بين الحاسوب وبين الذاكرة البشرية، وبين آلة التصوير والعين الطبيعيّة، وبين كلية صناعية كلية طبيعية، وازن بين الأرض وبين مركبةٍ فضائيّة قال تعالى:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

والآن وازن ربنا عزّ وجلّ بينه وبين خلقه فقال:

(وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

تحضرني قصة ترك أحد الأشخاص في الشام مبلغاً ضخماً يبلغ الألف مليون، أحد الورثة نصيبه من هذا الميراث تسعون مليوناً، فترك محلّه التجاري وبدأ يسعى من دائرةٍ إلى دائرة ليأخذ براءات الذمّة وينهي أمور الماليّة والتركات، وهو في زحمة العمل من دائرةٍ إلى أخرى، ومن مكتب إلى مكتب، ومن مستشار إلى مستشار ليحصل على هذا المبلغ الضخم البالغ تسعين مليوناً، وفي أحد الأيام دخل إلى الحمام فوافته المنيّة قبل أن يقبض درهماً واحداً.. هل هذا وارث جيّد ؟ لم يستطع أن يتنعّم بمال مورّثه إطلاقاً.

ومن الورثة من يستمتع بالمال عدد سنين، و في النهاية ما من وارثٍ إلا وسيموت، لأنّ كلّ مخلوقٍ يموت ولا يبقى إلا ذو العزّة والجبروت، الله عزّ وجلّ فهو خير الوارثين.

أصبح لدينا ثلاث موازنات:

(فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ)

(وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ)

(وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ)

أنت مع قصة جديدة إنسان اشترى بيتاً مع أخته مناصفةً، ودفع كلٌ طرفٍ الثمن بالتمام والكمال، إلا أنّ البيت سُجّل باسم أخته لأنّها هي المعنيّة في الجمعيّة التعاونيّة، ثمن البيت خمس مئة ألف أصبح بعد حين ثمنه ثمانية عشر مليوناً، وتعمل أخته في المحاماه، فقالت له: لابدّ من أن تأخذ مليوناً واحداً وأن تخرج فالبيت باسمي، فخرج منه.. فهي ذات قوّة وتعرف دخائل القوانين فأخرجته بطريقةٍ ذكيّةٍ قانونيّة، وعنده أكثر من أربعة عشر ولداً فشردتهم بين أهل زوجته وأهله وبقيت وحدها في البيت.. أصيبت بمرضٍ خبيث في أمعائها وعانت منه شهرين ثم توفيت وأخوها هو وريثها الوحيد، فرجع إلى البيت وأولاده معه واستأثر به، الله عزّ وجل قال: **" وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ "**.

الإمام الغزالي يرى أنّ الوارث هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء المُلاّك، إذ هو الباقي بعد فناء خلقه، وإليه مرجع كلِّ شيءٍ ومصيره، وهو القائل إذ ذاك: لمن الملك اليوم ؟ وهو المجيب: لله الواحد القهّار.

إذا وقف أحدنا أمام سوق الحميديّة وقرأ الأسماء على الصفّين وغاب خمساً وعشرين سنة، سوف يجد الأسماء كلّها مختلفة، فقد استلم هذه المحلاّت أشخاص جدد، كل خمسين سنة تتبدّل الأشخاص ويستلم الورثة الجدد، الأراضي، والمزارع، والمحلات، والبيوت من واحد إلى آخر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يتوهم الأكثرون أنّ لأنفسهم مِلكاً، ينكشف لهم في ذلك اليوم حقيقة الحال أنّ الملك ليس لهم لكنّه للواحد القهّار.

إخواننا الكرام... المؤمن يرى وهو في الدنيا ما سوف يراه جميع الناس عند الموت، هذه هي بطولته.. والله لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقيناً.. المؤمنون الكِبار يرون وهم في الدنيا ما لو كشف الغطاء قبل كشف الغطاء، أما غير المؤمنين هم هنا في الدنيا في أوهام وفي ضلالات، أما إذا انكشف الغطاء بدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون كما في قوله تعالى:

(وَلَوْ أَنّ لِلّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧))

(سورة الزمر)

أيُها الإخوة... بطولة المؤمن أنّه يرى الحقائق قبل فوات الأوان، يراها في الوقت المناسب فينتفع منها، بينما كلُّ الناس بعد فوات الأوان يرون جميع الحقائق قال تعالى:

(آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩١))

(سورة يونس)

وقال تعالى:

(هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْراً قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ (١٥٨))

(سورة الأنعام)

فبذلك طوبى لمن رأى أنّ كلّ ما في يديه مستخلفٌ فيه، محاسب عليه، وأنّ الله سبحانه وتعالى ينظر ماذا يفعل به، لذلك يحاسب نفسه حسابا شديداً، أما الجاهل هو الذي يظنُّ أنّ الذي بين يديه ملكه وحصّله بجهده وعرق جبينه، فهو في هذا كقارون الذي قال:

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨))

(سورة القصص)

قال تعالى:

(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنْ الْمُنْتَصِرِينَ)

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)

أي خبرات متراكمه وقد حصّلت هذا المال بجهدي وبذكائي، وبخبراتي، وبمتابعتي، وغاب عنه أنّ الله سبحانه وتعالى وفّقه وهناك أذكى منه ولم يحصّل هذا المال.

ولو كانت الأرزاق تجري رجع الحِجى هلكن إذاً من جهلهنّ البهائم.

***

فالبطولة أن ترى الشيء قبل أن تصل إليه، أو أن تصل إلى الشيء بعقلك قبل أن تصل إليه بجسدك، أن تعيش المستقبل، فهذا كلّه صائرٌ إلى الله عزّ وجلّ.

الإمام الرازي يقول: **" الوارث مالك جميع الممكنات هو الله سبحانه وتعالى ولكنّه بفضله جعل بعض الأشياء ملكاً لبعض عباده، فالعباد إنما ماتوا وبقي الحقُّ سبحانه وتعالى، فالمراد يكون وارثاً هو هذا الله جلّ جلاله "**، أي أنّ الله عزّ وجلّ مالك الملك، كل شيء يُمَلّك هو مالكه وهبه لك ليمتحنك، إذاً هو ملك الله في يدك، وهذا الجواب ابلغ جواب.

وقال بعضهم: **" الوارث هو الذي تسربل بالصمديّة بلا ثناء، وتفرّد بالأحديّة بلا انتفاء ".**

وقيل: **" الوارث الذي يرث بلا توريث أحد، الباقي الذي ليس لملكه أمد "**، وذكر القشيري: **" أنّ الوارث هو الباقي بعد فناء الخلق ".**

ويقول بعض العارفين: **" الوارث هو الذي تفرّد بالأحديّة بلا انتهاء "**، أي وارث واحد أحد وليس له وارث، يرث كلّ خلقه وليس له وارث، وتسربل بالصمدية بلا فناء الذي لا يرثه أحد ولكنّه يمنح من يشاء من عباده الولاية والمدد.

اسم الوارث ورد في مواضع عدّة من كتاب الله ففي سورة الحجر قال تعالى:

(وَإِنّا لَنَحْنُ نُحْي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُون)

وفي سورة مريم قال تعالى:

(إِنّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ)

وفي سورة القصص قال تعالى:

(وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنّ عَلَى الّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥))

(سورة القصص)

فهنا معنى جديد.. إنّ الأرض لله يرثها عباده الصالحون، أحياناً الله عزّ وجلّ يورث الممتلكات لعباده الصالحين إذا إستقاموا على أمره.

وفي سورة الأنبياء قال تعالى:

(وَزَكَرِيّا إِذْ نَادَى رَبّهُ رَبِّ لا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِين)

النبيُّ عليه الصلاة والسلام من دعائه الشهير:

((عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ أَنّ ابْنَ عُمَرَ قَالَ قَلّمَا كَانَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتّى يَدْعُوَ بِهَؤُلاءِ الدّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ اللّهُمّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنّتَكَ وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدّنْيَا وَمَتّعْنَا بِأَسْمَاعِنَا وَأَبْصَارِنَا وَقُوّتِنَا مَا أَحْيَيْتَنَا وَاجْعَلْهُ الْوَارِثَ مِنّا وَاجْعَلْ ثَأْرَنَا عَلَى مَنْ ظَلَمَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى مَنْ عَادَانَا وَلا تَجْعَلْ مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا وَلا تَجْعَلِ الدّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّنَا وَلا مَبْلَغَ عِلْمِنَا وَلا تُسَلِّطْ عَلَيْنَا مَنْ لا يَرْحَمُنَا))

(سنن الترمذي)

إذا الإنسان فقد بصره قبل أن يموت من ورث الآخر ؟ هو ورث بصره، إذا فقد سمعه قبل أن يموت هو ورث سمعه، أما إذا استمتع ببصره وبسمعه وعقله وقوّته إلى أن مات هذه هي التي ورثته ومتّعنا اللهمّ بأسمعنا، وأبصارنا، وقوّتنا، وعقولنا ما أحييتنا، واجعلها الوارث منا.

وفي بعض الأدعية: إلهي أنت الوارث للعباد، المتجلّي بهذا السرّ لأهل الوداد، أشرق على قلبي نور اسمك الوارث الدائم حتى أرى الكلّ لك وأقبل عليك بقلبٍ هائم، ورّثني يا رب علوم أنبيائك، وأسرار أصفيائك، ومواهب أهل سمائك، ورثني أرض العبوديّة في نفسي حتى أتكمّل......، إنّك على كلّ شيءٍ قدير وصلّى الله على سيّدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم.

ملخص الدرس.. اسم الوارث أي هو الذي يرث خلقه بعد فنائهم لأنّه الباقي بعد فناء خلقه، كلٌ شيءٍ آيلٌ إليه.

علاقتنا بهذا الاسم.. أن تشعر أنّ الذي بين يديك ليس لك صائرٌ إلى غيرك يدك عليه يد الأمانة، وأنت مستخلفٌ فيه، وعليك أن تحاسب نفسك حساباً عسيرا لأنّ الله ملّكك ما ملّكك لينظر ماذا ستفعل.

اسم الوارث يجعل علاقة الإنسان بما في يده علاقة الاستخلاف لا علاقة التملّك.

٨٣- اسم الله القوي المتين :

مع الاسم الثالث والثمانين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو القوي، وقد ورد في الكتب التي تناولت هذه الأسماء بالدراسة الاسمان معاً القوي المتين، فهذا الاسم في ترتيب أسماء الله الحُسنى يأتي مع المتين.. القويُّ المتين، وبينهما مشاركةٌ في أصل المعنى فلنبدأ باسم القويّ.

الإنسان يعجب بالقوّة، ويتأثّر بالكمال، وأحياناً يتأثّر بالقوّة وأصحابها، فالله سبحانه وتعالى يجمع في أسمائه بين الكمال والجلال، فقد قال تعالى:

(تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨))

(سورة الرحمن)

قد تجد مجموعة صفات أساسها الرحمة، كاللطف والشفقة، والعناية، والحرص، وهناك أسماء أساسها القوّة كالقهّار، والجبّار، والقوي، والمتين، فالإنسان كما يتأثّر تأثّراً بالغاً بالكمال الإلهي فهو أيضاً يتأثّر تأثراً بالغاً بالجلال الإلهي، لأنّ الإنسان ضعيف، وكل إنسان ضعيف يميل إلى أن يحتمي بقويّ.

منذ يومين حدثت مناقشة عن سر هذه الديانات الوثنيّة ؟ كمن يعبد الشمس، أو يعبد البقر، أو إله مختلف كبوذا، ذلك لأنّ الإنسان مفطور على تعظيم القويّ، ولأنّه ضعيف لا تركن نفسه إلا أن يستعين بقوي، فإذا ضلّ الإنسان عن الله يلجأ إلى ما يتوهّم أنّه قوي، لذلك الحاجة إلى التديُّن حاجة أساسيّة.

لك صديق قوي تطمئن له، وتقول: معي رقم هاتفه، وتشعر أنّ أية مشكلة ستحل عن طريقه، وهذا بالطبع شرك وجهل وخطأ، وعليك أن تشعر أنّك عبد لقوي، عبد لغني، فلله الذي تعبده بيده كلُّ شيء، الذي تعبده إليه مرجع كلُّ شيء، الذي تعبده قادرٌ على كلُّ شيء، الذي تعبده غني وقوي وحكم عدل، فهذا سر توازن نفسيّة المؤمن لأنّه يركن لقوي.

المؤمن ضعيف بنفسه ولكنّه قوي بربّه، وهذه القوّة ليست ذاتيّة ولكنّه قوي بقوّة الله، غنيٌّ بغنى الله، مطمئنٌ لأنّ الله طمأنه، متوازنٌ لأنّ الله يبشّره.. فلذلك الاسم القوي اسمٌ يبعث في النفس الطُمأنينة.

أحياناً تكون علاقة الإنسان مع شخص ضعيف، يقول له: والله لم أستطع خدمتك، فقد كان بودّي أن أفعل ولكن عيني بصيرة ويدّي قصيرة، فلا بدّ لمعاملتك من موافقة الجهة الأعلى، ولكنّها لم تتأمّن معي، فأنت معتمد عليه وواضع كل الثقة فيه، وتعتقد أنّه يستطيع أن يقوم لك بهذه الخدمة ولكنّه اعتذر لأنّه ضعيف فصغر في عينيك، وما عُدّت تعتزُ به.

أما إذا الإنسان اعتزّ بالله عزّ وجلّ فهو أقوى الأقوياء، أنا ملك الملوك ومالك الملوك، فليس من الصعب أن تكون عبداً لله لقوي، اصدق في التوجه إليه واعتمد عليه وعندئذٍ أنت قويٌّ من قوّة الله، غنيٌّ من غنى الله عزّ وجلّ.

قال العلماء: مادّة القوّة تدلُ على شدةٍ خلافَ الضعف، فالقويُّ عكسُ الضعيف، ورجلٌ شديد القِوى أي شديد أسر الخلق.

أحياناً تركب مركبة ومعك خمسة أشخاص في طريق صاعد صعوداً شديداً ولكنّها تسير، معنى ذلك أنّ المحرّك قوي، أحياناً تجد في الميناء البحري رافعة ترفع حاوية كبيرة - كونتينر - زنة عشرين أو ثلاثين طناً فالرافعة قويّة، وأحياناً ترى باخرة تبلغ حمولتها مليون طن كبعض ناقلات النفط، تسير بمحرّك جبّار.

تجد آلات تقوم بهدم بناء بأكمله، هذه أمثلة أمامنا، ولكن هذا الجبل من يزحزحه ؟ تجد بعض الجبال تؤخذ منها الرمال - مقالع - فمنذ أربعين سنة يؤخذ منه يومياً مائة سيّارة ولا يزال شكله كما هو، فبمحافظة السويداء يوجد جبل نادر في القطر يمدُّنا برمل مفرّغ مثل الإسفنج، وأعرف منذ أكثر من عشرين سنة تعبأ منه كل يوم مئة سيارة من الرمال السوداء والجبل ما يزال كما هو، فمن يستطيع أن يزحزح جبلاً ؟

توجد شركة بألمانيا قامت بنقل بناء كان يجب أن يُهدم، فقامت هذه الشركة بتقديم عرض تنقل هذا البناء بنصف كلفة بنائه، فقامت بفصل الأساسات ورفعها على عجلات وربطت المجاري وأسلاك الكهرباء والهاتف وبشرط أنّ السكان لم يغادروه ونقل ثلاثين متراً وهذا البناء مؤلّف من ستة طوابق، فهذه الشركة العملاقة التي قامت بهذا العمل تشعر بأنها شركة جبّارة، وهذه الأمثلة أرضيّة.

لكن حينما ترى أنّ الأرض تدور بسرعة ألف وستمائة كيلو مترٍ في الساعة.. أسرع طائرة تسير بسرعة من تسعمائة إلى ألف كيلو مترٍ وبعض الطائرات الأسرع من الصوت كطائرة - الكونكورد - تقترب من سرعة الأرض حول نفسها، الأرض كم يبلغ وزنها ؟ فانظر إلى موقع سوريا على خارطة كبيرة تجدها لا تتسع لكلمة دمشق العاصمة وبحروف صغيرة، فما بالكم بقارة آسيا، أو قارة أفريقيا، أو قارة أمريكا، أو قارة أستراليا، القارات الخمس وهذه القارات تبلغ خمس اليابسة في المساحة وأربعة الأخماس الباقية بحراً، فهذه الكرة الأرضية من يديرها ؟ ومنذ كم من السنين ؟ والشمس تتسع لمليون وثلاثمئة ألف كرة من حجم الأرض، والشمس والمجموعة الشمسية كلها نقطة على درب التبابنة، ودرب التبانة مجرّة على شكل عضلة، تراها في أيام غياب القمر كسحابة بيضاء في السماء على شكل مغزلي وهذه هي مجرّتنا، والمجموعة الشمسية بأكملها بجميع كواكبها كالأرض والمشتري وعطارد والمريخ والزهرة وبلوتو وزحل وإلى آخرة نقطة على هذه المجرة، فمن يدير هذا الكون ؟ فأنت مع القوي.. الذي بيده كلُّ شيء.

قال: القوة تدلُ على القدرة التامة..

الإنسان يحمل علبة مكعبة الشكل طولها مثل عرضها مثل ارتفاعها ويبلغ ضلعها ستين سنتيمتراً، أما لو حمّلْناهُ علبة بداخلها مواد ثقيلة فتجده لا يقوى على حملها، ولو حمل إنسان صندوقاً من الحديد وزنه ثلاثمائة كيلو غرامٍ فتجد نفسك قد عظّمته كيف حمله ؟ ولو أنّ صخرة مكعبة الشكل، طول ضلعها خمسة أمتار، وطلبت من إنسان أن يزحزحها فلن يستطيع، فهذا فوق طاقته، فما بالك بالجبال ؟.. جبال الهيمالايا مثلاً يبلغ ارتفاعها اثني عشر ألف متر، ولها قاعدة تغوص تحت الأرض أربعة وعشرين ألف متر، فجميع الجبال ثلثها فوق الأرض وثلثاها تحت الأرض، فمن خلق هذه الجبال ؟ ومن ألقاها في الأرض رواسي أن تميد بكم ؟ من جعلها أكناناً ؟ من جعلها أوتاداً؟ ومن جعلها مصدّاتٍ للرياح ؟ من جعلها مستودعاتٍ للمياه ؟ من جعلها قمماً عالية ذات مناخ لطيف ؟ الله عزّ وجلّ.

الإنسان عندما ينسى الله ويخضع لقوي من بني البشر ويمحضه كلّ ودّهِ، وكلّ ولائه وهو ليس على حق، يكون هذا الإنسان قد ضيّع نفسه وباعها بثمنٍ بخس، أما إذا عرف الله وجعل كلّ طاقاته لله عزّ وجلّ يكون عرف قيمة نفسه.. أساساً ما عرف قيمة نفسه إلا من باع نفسه لله، لأنّه أحسن الاختيار.

قال العلماء:**"القوة تدلُ على القدرة التامة، والمتانة تدلُ على شدّة القوة ".**

أحياناً نريد قوة تحمل هذه الطاولة، القوة تدلُ على القدرة التامة، أما لو رفعت هذه الطاولة رافعة بإمكانها أن ترفع خمسين طناً، تكون هذه القوة تامّة ومتينة، تامة أي كافية لإنجاز هذا العمل، أما عندما يكون معها احتياطي يبلغ مائة ضعف تكون متينة.

فقالوا: القوة تدلُ على القدرة التامة، والمتانة تدلُ على شدّة القوة.. إلاّ أنّه في المصطلحات الحديثة.. المتانة والقساوة، فالقساوة هي تحمُّل قوى الضغط، أما المتانة هي تحمُّل قوى الشد، فعندنا قوى للشد وقوى للضغط، فلو وضعنا يدنا فوق مكعب من الفخار موضوعاً على الطاولة وضغطنا فإذا كسر نقول أنّ قوى الضغط الواقعة عليه عالية وكبيرة جداً حتى إنّ هذا المكعب سحق، أما إذا كان لدينا خيط وأردنا أن نمتحن متانته نشدُّه فإذا قُطع نقول متانته ضعيفه، فالقسوة تحمل قوى الضغط، أما المتانة تحمل قوى الشد.

لا بد من وقفة قصيرة عند عظمة الخالق، لا تخطر على بالك أن أسنانك فيها قوة بالغة، فميناء الأسنان هو ثاني عنصر قاسٍ في هذا الكون بعد الماس، لا يزيد عليه في قسوته إلا الماس، وهذا الإنسان خلق من ماءٍ مهين، وهذا الماء صار عظاماً قاسية وصار ميناء قاسياً.

إذاً: تمام القوة أن تؤدي مهمتها، أما متانة القوة أن تكون هذه القوة بالغة الشدّة، فالله تعالى من حيث إنّه بالغ القدرة تامُّها قوى، ومن حيث إنّه شديد القوة متين، إذاً هو قويٌ متين، فكلمة قوى أي تعلّقت قوّته بكلّ ممكن، فكل شيء ممكن قدرته تغطيه، وقوته شديدة أي متينة.

الله جلّ جلاله صاحب القدرة التامّة البالغة الكمال.

(إنّ رَبّكَ هُوَ الْقوِيُّ الْعَزِيزُ)

قال تعالى:

(فلَمّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجّيْنَا صَالِحاً وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنّ رَبّكَ هُوَ الْقوِيُّ الْعَزِيزُ(٦٦))

(سورة هود)

فالضعيف ليس عزيزاً، الضعيف تضعف عزّته أمام أيّ شيء، فقد يخجل الإنسان أحياناً فخجله ضعف، وإذا لم يعرف يصغر ويضعف، وإذا لم يتمكّن من حمل شيء يصغر، وإذا كانت آلته توقفت أمام عقبةً كأداء يصغر، أما العزّة ألا ينالك أحد فمعنى ذلك أنت عزيز، فمن لوازم العزّة القوة، فالله سبحانه وتعالى قويٌ عزيز.

(إنّ رَبّكَ هُوَ الْقوِيُّ الْعَزِيزُ)

ولا ننسى أن كلمة (هو) تفيد الحصر والقصر.

وقيل القوي: **" هو المتناهي في القوة التي تتصاغر كلّ قوةٍ أمام حضرته، ويتضاءل كلُ عظيمٍ عند ذكر عظمته "**، فالله تعالى أعطى الملائكة قوةً كبيرة يستطيع المَلك بها أن يقتلع الجبال ويقلب المدن.

بعض الأمثلة على ذلك.. فمنأن الممكن يأتي إعصار على أمريكا ويدمِّر مدينة بأكملها ولا يُبقي فيها شيئاً، فقد قرأت عن إعصار قبل ثلاثين عاماً بلغت سرعته ألف كيلو مترٍ وهو من أعتى الرياح أتى على مدينة، وكان فيها بناء ضخم ومتين، فصاحبه لم يجد أثراً لبنائه، وقد وجد محرّك مركبته بعد أكثر من خمسة كيلو مترات من موقع البناء.

وأحياناً المياه تدمِّر كلّ شيء، والنار تحرق كلّ شيء، تجد حريقاً بالغابات قضى على مئتين وخمسين دونماً، أو على ألفين وخمسمائة دونم، فالله عزّ وجلّ قوي.

ومن الشيء الغريب أنّ الأشياء الأساسيّة في حياتنا تنقلب إلى قوى مدمِّرة، فالهواء مثلاً أساسي في حياتنا ينقلب إلى مدمِّر كالرياح المدمرة، والماء أساسي في حياتنا ينقلب إلى قوة مدمِّرة.

فقد ذكر الله تعالى في القرآن عن هذا الذي أتى بعرش بلقيس ملكة سبأ من اليمن إلى سيدنا سليمان في بيت المقدس فقال:

(أَنَا آتِيكَ بِهِ قبْلَ أَنْ يَرْتَدّ إِلَيْكَ طرْفُكَ)

فقد قال تعالى:

(قالَ الّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قبْلَ أَنْ يَرْتَدّ إِلَيْكَ طرْفُكَ فلَمّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِنْدَهُ قالَ هَذَا مِنْ فضْلِ رَبّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فإِنّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فإِنّ رَبّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ (٤٠)!)

(سورة النمل)

عندما أرادوا إنشاء السد العالي بمصر كانت البحيرة خلف السد ستغمر تمثالاً أثرياً بالمياه، فتعاونت أكثر من سبعين دولة على نقل هذا التمثال بعد أن قطِع على شكل مكعبات، واشترك في ذلك شركات عملاقة وبروافعها العملاقة ثم نقله من مكانه لمكان آخر، فقلت سبحان الله هذا عرش بلقيس نقل من سبأ في اليمن إلى بيت المقدس في أقلّ من لمح البصر، وهذا ما يذكره القرآن الكريم، لهذا فالملائكة والجن أُعطوا قدرات تفوق حدّ الخيال، لذلك قال تعالى:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ (٣٣))

(سورة الرحمن)

لماذا بدأ بالجن ؟ قال: لأنّ الجنّ أقدر من الإنس على خرق السماوات والأرض، والنبي الكريم في بعض الروايات رأى جبريل ملء الأفق، ملء السماء، فالملائكة أُوتوا قدراتٍ عالية المستوى.

ومع ذلك يخشون سطوته سبحانه، ويرتعدون من هيبته، وقيل القوي **" هو الذي له كمال القدرة والعظمة "**، له كمال القدرة لا يعجزه شيء، فأحياناً تجد رافعات تقف أمام عقبة كأداء، أو تجد سيارات في طريق شديد الصعود تقف ولا تكمل الطريق، وآلات تعجز عن متابعة المهمّات، والله بالغ القدرة لا يعجزه شيءٌ في السماوات ولا في الأرض، فأنت مدعو لأن تكون عبداً للإله القوي، فإذا كنت عبداً له كنت قوياً بقوّته.

قال العلماء: **" غالب لا يغلب، يجير ولا يُجار عليه، فقوّته فوق كلّ قوة "**.

قد تجد في الحروب الحديثة دولة قوية عندها من الأسلحة المتطوّرة فتأتي دولة أقوى منها تحيّد أسلحتها كلّها، يكون لديها سلاح ذو فاعليّة شديدة جداً، كأن يقولوا مثلاً: قنبلة تركب من أشعة الضوء المركز - أشعة الليزر -، أو قنابل عنقودية أو قنابل ذكيّة، فهذه الدول المالكة للأسلحة الفتّاكة تتفوّق على الدول الأقل منها قوةً، إذاً الدولة الضعيفة ليست عزيزة. **" غالب لا يغلب، يجير ولا يُجار عليه، فقوّته فوق كلّ قوة "**.

وقيل: **" هو الذي لا يلحقه ضعفٌ في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله "**.

ألا ترون إلى مصارعين أشدّاء، رياضيّين، عدّائين، ففي الرياضة كثير من الفروع، انظر إلى هذا البطل في سنّ الثمانين تجد ظهره قد انحنى ويده ارتجفت، وصعد درجات السلّم درجة درجة، فقد كان في بلاد الشام رجل قوي إذا أمسك عربة يجرُّها حصانان قويان وشديدان يوقفها.

حدثني رجل توفي رحمه الله كان يركب في مركبة عامة وصعد إلى جانبه هذا البطل الشديد فرجا السائق أن يوقف له المركبة أمام بيته لأنّه لا يقوى أن يمشي مسافة عشرة أمتار، رجاه رجاء طفولياً.. أين قوّته ؟ تلاشت.

اسم القوي جاء في سبع آيات.. الآية الأولى في سورة هود قال تعالى:

(فَلَمّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجّيْنَا صَالِحًا وَالّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنّ رَبّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

أنا أركِّز على كلمة " **هُوَ** " أي هو وحده القوي العزيز، فما بال الأقوياء في الأرض ؟ قوّتهم مستمدّة من قوة الله، فلو تخلّى عنهم لأصبحوا ضعفاء.

أضرب لكم مثلاً على ذلك.. ففي معامل الحديد توجد رافعات تعمل بالجذب الكهربائي المغناطيسي، سطح مربع كبير جداً محاط بوشيعة كهربائية يمر بها تيار كهربائي، فيمكن أن تحمل عشرة أطنان من الحديد، ولسهولة العمل في هذه المعامل تنتقل الرافعة من مكان إلى مكان، ويكفي أن تسري الكهرباء في الأسلاك فتحمل عشرة أطنان، والعامل في هذه الرافعة لو ضغط على زر في أقل من عشر المليمتر من الثانية يفصل الكهرباء عن هذه الخطوط فتجد كل ما علق في الرافعة يسقط، وذلك عن طريق عملية الضغط على الزر.

الله عزّ وجلّ قوي وإذا منح القوة لأشخاص فبأي ثانية يجعلهم ضعاف لا يقدرون على شيء، إن الله هو القوي، فقوة الأقوياء من قوته وفي أية لحظةٍ يسلبهم هذه القوة والله إذا أعطى أدهش وإذا سلب أدهش.

جاء في الآية الكريمة كلمة ربك التي تذكرني بأنها، أقرب اسم للإنسان فالرب هو الذي يربيك، هو الذي يرعاك، هو الذي يربي جسدك، ويربي روحكَ، ويربي نفسك، ويعطيك ويمنعك، ويقلبك على أحوال شتّى، إن ربك الذي يربيك هو وحده.

(الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ)

فاطمئن، فتوكل عليه، واِلتفت إليه، وأقبل عليه، وأخلص له، ولا تلتفت إلى أحدٍ سواه، لأنهم لاشيء إلى جانبه.

والآية الثانية في سورة الشورى كما قال تعالى:

(اللّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ (١٩))

(سورة الشورى)

ربي ما أعظمك سبحانك، يا قوي يا لطيف، هناك قوي غير لطيف، أعماله كلها قاسيةً.. أما ربنا عزّ وجلّ مع أنه قويٌ عزيز لطيفٌ بعباده، فالهواء لطيف، والماء لطيف، والأرض فيها لطف إلهي كبير، وإذا ربنا عزّ وجلّ أراد أن ينزع سن طفل دون أن يشعر بأي ألم على الإطلاق ينزعه وهو يأكل يراه في فمه مع لقمة الطعام، أما أي طبيب إذا أراد أن ينزع سن طفل فلابد من أن يؤلمه فالله لطيف.

فالماء له سيولة عالية جداً ولكنّه مدمر أحياناً، والهواء لاتراه بعينك ولكنّه يحمل طائرة وزنها ثلاثمائة وخمسين طناً، فالهواء يحملها.. فاللُطف الإلهي واضح جداً في كل شيء.

وفي سورة الأنفال قال تعالى:

(كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ(٥٢))

(سورة الأنفال)

في الآيتين الأولى والثانية القوي ورد مع العزيز، فيها تناسب، أما في الآية الأخيرة قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

عقابه أليم لأنه قوي، والإنسان لايخاف تهديد الضعيف.. فقد قيل:

زعم الفرزدقُ أن سيقتل مربعاً .. أبشربطولِ سلامةٍ يامربع

***

إذا هددك إنسان ضعيف لا تعبأ بتهديده، أما القويُ إذا هدد فهذا شيء مخيف.

(إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

لا تعاند من إذا قال فعل.

وقد قال تعالى في سورة الحج:

(الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠))

(سورة الحج)

(لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

(قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ)

(لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

وقال الله تعالى في سورة الحج أيضاً:

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤))

(سورة الحج)

قال بعضهم: **" عرفت الله من نقض العزائم "..** أحياناً جهةٌ في الأرض قوية جداً ترتب وتخطط وتحكم، فإذا كلُّ إحكامها وخطتها وتدبيرها هباءً منثورا.. عرفت الله من نقض العزائم.

(مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

فالإنسان في حركتهِ اليومية في الحياة يجب أن يدخل في حساباته أنه ماشاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

فقريش جاءت عن بكرة أبيها ومعها حليفاتها من القبائل، جاؤوا ليستأصلوا الإسلام في معركة الخندق، فالمسلمون لم يحاربوا أحداً ولكن الله أرسل على عدوهم رياحاً عاتيةً اقتلعت خيامهم وقلبت قدورهم وأطفأت نيرانهم فلم يحتملوا، هذه الرياح وما نتج عنها: قد قال تعالى:

(وَرَدّ اللّهُ الّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً (٢٥))

(سورة الأحزاب)

في برمودا مثلث إلى الآن هو سر، طائرات عملاقة تطير فوقه فتسقط في المياه بلا أي خبر يعرف عنها، بواخر عملاقة تدخل فيه فتختفي، وحتى الآن لايزال هذا المثلث سراً من أسرار الأرض، كل ما قيل من تحليلات فهي غير كافية لما يجري في هذا المثلث،

(إِنّ اللّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ)

وقد قال تعالى في سورة الأحزاب:

(وَرَدّ اللّهُ الّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا)

و موضوع قوة الله عزّ وجلّ أكثر ما تبدو في الحروب.. فتجد أنه رغم الإعداد الشديد للحرب يخسرها طرفٌ دون آخر لأسبابٍ تافهة.

يحضرني خاطرة: الحروب ثلاث: حربٌ لا تكون، وحربٌ لا تطول، وحربٌ لا تنتهي.. الحرب بين حقين لا تكون، فالحق لا يتعدد، والحرب بين حقٍ وباطلٍ لاتطول لأن الله مع الحق، والحرب بين باطلين لاتنتهي لدخول العوامل الأرضية، الأقوى والأذكى ومن عنده سلاح أكثر جدوى.

وقد قال تعالى في سورة غافر:

(ذَلِكَ بِأَنّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ إِنّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢))

(سورة غافر)

وقد قال تعالى في سورة الحديد:

(لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ(٢٥))

(سورة الحديد)

فإنك تجد أحياناً سريراً معلّقاً على سلاسل، آخر السلسلة يوجد حرف إس - S - قطره أقل من أربعة مِليمترات يحمل هذا السرير وعليه خمسة أشخاص وهو يتحرك، ألا تعجب لهذا الحديد الذي يحمل هذا الوزن ؟ وقد تجد أحياناً - تلفريك - وهو مؤلف من غرف ما بين الغرفة والغرفة خمسون مترًا، مئتا غرفة محمولة على شريط حديدي، المصاعد الكهربائية تعلّق بالفولاذ المضفور وهو متين جداً، هذا هو الحديد الذي أنزله الله فيه بأس شديد ومنافع للناس.

وقد قال تعالى في سورة المجادلة:

(كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢١))

(سورة المجادلة)

(كَتَبَ اللّهُ)

الله ليس عنده كتابة، لكن كلمة كتب لإقناع عباده أن هذا شيءٌ ثابت.. نحن في حياتنا الشيء المكتوب ثابت، يقول لك معي عقد، أو معي إيصال، أو معي سند، معي تصريح، معي إقرار، كل شيء مكتوب ثابت، أما الشفهيف ضعيف، فالله عزّ وجلّ ليس عنده كتابة.. عنده كن فيكون.. ولكن تقريباً لأذهان عباده.

قال الله تعالى:

(كَتَبَ اللّهُ لأَغْلِبَنّ أَنَا وَرُسُلِي إِنّ اللّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ)

آخر آية وهي دقيقة جداً كما قال تعالى:

(وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَتّخِذُ مِنْ دُونِ اللّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبّاً لِلّهِ وَلَوْ يَرَى الّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنّ الْقُوّةَ لِلّهِ جَمِيعاً وَأَنّ اللّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥))

(سورة البقرة)

الإنسان غير المؤمن قد يخضع لقوي لتأثره بالقوة ولا يخضع لله، يتأثر بقوة الجمال فيخضع لهذا الجمال ولا يخضع لله، يتأثر بقوة العطاء فيخضع للمعطي ولا يخضع لله.

فهذا الذي عصى الله من أجل الناس، من أجل الأقوياء، أو الكرماء، أو من أجل المتع الرخيصة.. هذا الذي عصى الله من أجل الناس لو كان يعلم قبل أن يعصيه أن القوةَ لله جميعاً، قوة العطاء من عند الله، وقوة الجمال من عند الله، وقوة كل شيءٍ من عند الله، لو كان يعلم هذا حق العلم لما عصاه.

فلو عرفت أن مصدر القوة هو الله عزّ وجلّ ما عصيته وأطعت مخلوقاً.

قال الله تعالى:

(وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللّهُ لَا قُوّةَ إِلّا بِاللّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلّ مِنْكَ مَالاً وَوَلَداً (٣٩))

(سورة الكهف)

انظر إلى عبارة.

(لا قُوّةَ إلا باللّهِ)

ورد في بعض الأحاديث:

((عن عبد اللّه بن علقمة بن وقاص قال:إني لَعِند معاوية إذا أذّن مؤذنه فقال معاوية كما قال مؤذنه حتى إذا قال: حيّ على الصّلاةِ قال: لاَحَولَ ولاَقُوة إلاّ باللّهِ ولما قال: حيّ على الفلاح قال: لاَحَولَ ولاَقُوة إلاّ باللّه (ولا حول ولا قوة إلا باللّه قيل معناه لا حول عن المعصية ولا قوة على الطاعة إلاّ

بتوفيق اللّه وقيل الحول الحركة تقول حال الشخص إذا تحرك فالمعنى لا حركة ولا استطاعة إلا بمشيئة اللّه).))

أنـت بحاجة إلى قوة على طاعته.

(وَإِلا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنّ أَصْبُ إِلَيْهِنّ)

قال الله تعالى على لسان يوسف:

(قَالَ رَبِّ السّجْنُ أَحَبُّ إِلَيّ مِمّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنّ أَصْبُ إِلَيْهِنّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ(٣٣))

(سورة يوسف)

أنت بحاجة إلى قوة على طاعته، لاقوة إلا بالله، لاقوة على وجه الأرض من آدم إلى يوم القيامة إلا بالله، الله هو القوي، وكلّ الأقوياء يستمدون قوتهم من الله عزّ وجلّ.

قال الله تعالى:

(فَأَمّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنّا قُوّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنّ اللّهَ الّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوّةً وَكَانُوا بِآَيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥))

(سورة فصلت)

فأحياناً الإنسان لجهله يتكلّم كلمات توحي بكفر، يقول لك: لو أنّ الله عزّ وجلّ شاء لم أفعل هذا الشيء، يقولها الجهلة، هذه الكلمة كلمة كفر، فالله عزّ وجلّ قادر بلحظة أن يفنيه.. كن فيكون زُلْ فيزول، لكن بعض الجهلة يقولون مثل هذه الكلمات التي هي كفر بواح وهم لا يشعرون بما يقولون.. فالإنسان كلما ازداد علمه ضبط لسانه واستقام كلامه وسلوكه.

وقد قال الله تعالى في سورة الذاريات:

(إِنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ (٥٨))

(سورة الذاريات)

يرزق لأنه قوي، فالضعيف لا يرزق.

وبعد فماذا نستفيد من هذا الاسم (القوي)... نستفيد من هذا أن الإنسان المؤمن إذا عرف قوة الله تواضعَ، لا يجتمع كبر مع معرفة قوة الله عزّ وجلّ، أنت لاشيء إزاء قوة الله عز وجل، فكلما تمت معرفتك بقوة الله تلاشت قدراتك أمام قوّته، فأصبحت متواضعاً، والتواضع علم، المتواضع يعلم حجمه أنه لاشيء وأن الله هو كل شيء.

إذا عرف قدرة الله عزّ وجلّ وقوته يتواضع له فيزيده الله قوةً إلى قوّته، أما إذا وضعه الله في مكانٍ قوي واعتدّ بقوّته فالله عزّ وجلّ يجعله مثلاً في الضعف ليتّعِظ العباد به، يجعله عبرة لغيرة.

إنّ الإنسان أحياناً يعتدُّ بقوّته أو بماله أو بعمله، فإذا اعتدّ بقوّته ونسي قدرة الله.. عليه أن يتذكر مقولة الرسول صلى الله عليه وسلم:

((إعلم أبا ذر أنّ الله أقدر عليك منك عليه))

وقف رجل أمام الحجّاج فقال له: أسألك بالذي أنت بين يديه أذلُّ منّي بين يديك، وهو على عقابك أقدر منك على عقابي، فما كان إلا أن عفا الحجّج عنه.

ثم لنذكرْ المعنى الثاني.. إذا نسيت قدرة الله عزّ وجلّ جعل الله هذا القوي المتعالي عبرةً لخلقه، فمن أجل أن تزداد قوةً إلى قوّتك اعرف حجمك الحقيقي وتواضع لله عزّ وجلّ، واعترف أمامه بضعفك يزدك قوةً إلى قوّتك.

ما من اسمٍ من أسماء الله الحُسنى إلا وله تطبيقات، ففي الحقيقة عندما يتعرّف الإنسان إلى الله عزّ وجلّ يسلك سلوكاً صحيحاً، فيصبح كلامه سديدًا، وحركته أديبة، وطاعته لله متينة، وإخلاصه شديداً لأنّه عرف الله، وأصل الدين معرفة الله عزّ وجلّ، والإنسان إذا عرف الله عرف نفسه، أما إذا جهل ربّه جهل سرّ وجوده وغاية وجوده، فتجاذبه قوى الأهواء واردته صريعا.

٨٤- اسم الله المتين :

مع الدرس الرابع والثمانون من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم المتين.

أيُّها الإخوة قبل أن نمضي في الحديث عن هذا الاسم الجليل أريد أن أنوّه إلى أنّ النبيّ عليه الصلاة والسلام حينما كانت تنزل النوازل يقول: لا إله إلا الله الرحمن الرحيم.

ماذا نفهم من هذا الثناء الذي هو في معرض الدعاء، الثناء دعاء، حينما كان سيدنا يونس في بطن الحوت نادى في الظلمات قائلاً:

(لا إلَهَ إلا أنْتَ سُبْحَانَكَ إنِّي كُنتُ مِنْ الظَّالِمِينَ)

قال تعالى:

(فاسْتَجَبْنَا لَهُ)

فالثناء دعاء.. وذلك ورد في الآيتين الكريمتين:

(وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨))

(سورة الأنبياء)

فالنبي عليه الصلاة والسلام حينما كانت تشتدُّ به الأمور يقول:

((عَنِ الْحَارِثِ عَنْ عَلِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَلا أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ إِذَا قُلْتَهُنّ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَإِنْ كُنْتَ مَغْفُورًا لَكَ قَالَ قُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ))

(سنن الترمذي)

ماذا يعني هذا الدعاء ؟ يعني شيئين.. التوحيد والتسبيح، أي أنّ أمرك بيد جهة واحدة وهذه الجهة كاملة، هل من حقيقة تُلقى على نفس الإنسان أشدُّ تطميناً له من هذه الحقيقة، أمرك كلُّه بيد الله ولا يستطيع أحدٌ غير الله أن يتدخّل في أمرك مع الله، والله سبحانه وتعالى صاحب الأسماء الحُسنى والصفات الفُضلى، رحمن رحيم، عليٌّ عظيم، حليمٌ كريم، فنحن إذا عرفنا الله وصلنا إلى كلّ شيء.

للإمام علي كرّم الله وجهه قولٌ رائع يقول: **" أصل الدين معرفته".**

أيْ معرفة الله سبحانه وتعالى.

الذي أتمنّى على إخوتنا الكرام أن يعقلوه هو أنّ النبي حينما دعا الناس إلى الله بماذا بدأ ؟ بدأ بتعريف الناس بالله ثلاث عشرة سنة وهو يعرّفهم بالله، أما حينما انتقل إلى المدينة نزلت آيات التشريع، الطريق الطبيعي أنّك إذا عرفت الله تشعر باندفاع قوي إلى طاعته، إلى التقرُّب إليه، إلى الأعمال الصالحة التي ترضيه، إلى معرفة منهجه، إلى معرفة أمره ونهيه، أما حينما تضعف معرفتك بالله عزّ وجلّ تتحايل

لأنك لا تجد رغبةً في طاعته، لا تجد رغبةً في الانصياع لأمره.. إذاً أيّةُ دعوةٍ معاصرة إن لم تسلك طريقة النبيّ عليه الصلاة والسلام في الدعوة إلى ربّه لا تنجح.

فلذلك كنت أقول دائماً: إنّ الإنسان إذا عرف الأمر الموجه إليه من الله ولم يعرف الآمر وهو الله تفنن في التفلّت من أمر الله، تفنن بالحيل الشرعية، بالتقصير، بدعة الصعوبة، وبدعوى الاستحالة، وبدعوى لأوامر فوق طاقة الإنسان، بدعوى البلوى العامة، فهناك كثير من الدعاوى تطرح للتفلّت من طاعة الله لا لسببٍ وجيه بل لأنّ الإنسان عرف الأمر ولم يعرف الآمر، أما حينما نعرف الآمر قبل الأمر نتفانى في طاعته.

وهذا هو السبب الذي حملني على تدريس أسماء الله الحُسنى لسنواتٍ عدّة، نحن مع الاسم الرابع والثمانين أي أكثر من سنة، ففي السنة اثنان وخمسون أسبوعاً، أي نحن ندرس قريباً من سنتين أسماءَ اللهِ الحُسنى من أجل أن نعرفه، لأننا إذا عرفناه أطعناه، إذا عرفناه تقرّبنا إليه، إذا عرفناه أخلصنا له، إذا عرفناه بذلنا من أجله الغالي والرخيص، والنفس والنفيس، أما إذا ضعُفت معرفتنا به نبحث عن الحيل الشرعيّة وعن الفتاوى الضعيفة، وعن الرُخص، وعن الخلافيّات، ونبحث عن الأعذار الواهية، وعن كل ما من شأنه أن يغطي انحرافنا وتقصيرنا.

فلذلك من أوجَهِ الدروس التي ينبغي أن نحافظ عليها دروس أسماء الله الحُسنى، في الحقيقة ؛ العلم ميسّر إلى درجة مذهله، فمن الممكن أن نقتني هذه الأشرطة التي مضت دراستها أو أن نستعيرها لنعود إلى الدروس السابقة كلِّها، لو أنّ الإنسان خصص من وقته كل يوم سماع شريط واحد، وعاد إلى سماع أسماء الله الحُسنى اسماً اسماً.لاستفاد كثيراً من خصائص هذه الأسماء، ولتذكر الكثير مما قد يكون انتسى.

إخوتنا الكرام... صدِّقوني إنّ الإنسان إذا نمت معرفته بالله عزّ وجلّ عن طريق حضور دروس العلم، من دون أن يتكلّف عناء الكشف والبحث، من دون أن يجاهد نفسه ويحمل المشقة بل يكتفي بالسّماع يرى نفسه على الطريق الصحيح، يرى نفسه منضبطاً، يرى نفسه مطبقاً والتلقي عن غيره للشرع، يرى نفسه مع الله وقريباً منه عزّ وجلّ، فالقضيّة أخطر من أنّ درساً في هذا المسجد ألقيت فيه موضوعاتٌ عن أسماء الله الحُسنى، القضية أخطر من ذلك لأنّ أصل الدين معرفة الله عزّ وجلّ وقد تمت بإذن الله، بالتلقي والاستماع، وإذا عرفت أنّ الله لا إله إلا هو وعرفت أنّ أسماءَهُ حُسنى، وأنّ أمرك بيده وحده انتهى الأمر بك إلى وضوح منهجك واستقامة سبيلك.

اليوم ذكرت في الدروس التي ألقيتها في جامع الطاوسيّة أنّ الله عزّ وجلّ قال:

(اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢))

(سورة الزمر)

(إنّ رَبّكُمُ اللّهُ الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللّيْلَ النّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنّجُومَ مُسَخّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤))

(سورة الأعراف)

(اللّهُ خَالِقُ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ وَكِيلٌ)

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

لو أنّ الله عزّ وجلّ قال: الخلق له، أو لو أنّه قال: نعبد إيّاك ولو أنّه قال: مفاتح الغيب عنده لكان هناك بعدٌ في المعنى عن معنى الآيات الحقيقي وهو بعد فيه خلل كثير في أداء المعنى، فماذا نستنبط من قوله تعالى:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

(إِيّاكَ نَعْبُدُ)

(لَهُ الْخَلْقُ)

إذا قلنا: الخلق له.. لا يمنع أن يكون لغيره، إذا قلنا: مفاتح الغيب عنده، لا يمنع أن تكون عنده وعند غيره، إذا قلنا نعبد إيّاك لا يمنع أن نعبد غيرك، أما إذا عكسناها وقلنا: إيّاك نعبد، وعنده مفاتيح الغيب، له الخلق.. أي إيّاك نعبد وحدك يارب، وعندك مفاتح وحدك يارب، ولك الأمر وحدك يا رب، له الخلق وحده، فتقديم الخبر إذا كان شبه الجملة على المبتدأ يعني الحصر والقصر.

إذاً نحن حينما ندرس أسماء الله الحُسنى نريد من هذه الأسماء أن تزيدنا معرفةً بالله عزّ وجلّ، وإذا عرفنا أنّ الله هو الفعّال وهو الكامل انتهى الأمر، فأمرنا بيده وهو وحده يفعل ما يشاء، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، وهو كاملٌ كمالاً مطلقاً..ومن ثَمّ ما عليك إلا أن تتحرّك في المهمّة التي أُنيطت بك وهي كما قال تعالى:

(بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (٦٦))

(سورة الزمر)

الآية الكريمة قال تعالى:

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ(٦٦))

(سورة الزمر)

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ)

أي إنّ هذه سنّة الله في خلقه، إنّ هذه حقيقةٌ قديمة، وهي حقيقةٌ مستمرّة.

(لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنّ عَمَلُكَ)

ما معنى إحباط العمل ؟ إمّا أن يسقط من حيث القيمة، وإما أن يسقط من حيث النوعيّة.. لو فرضنا أن إنساناً يعبد المال من دون الله، أشرك المال في حبّه مع الله فكيف يحبط عمله ؟ قد يجد أنّ أكثر المشاريع ربحاً هي الملاهي فيقوم بإنشاء ملهى والأرباح طائلة ولكنّه مبني على معاصي الله، كيف يحبط العمل؟ حينما تعبد من دون الله المال وتجعله إلهك كما قال الله عزّ وجلّ:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣))

(سورة الجاثية)

(أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ)

عندئذٍ تبحث عن عمل مربح وقد تجد بعض الأعمال الساقطة المنحرفة التي تُبنى على إفساد المجتمع هي أربح المشاريع إذاً.

(وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ)

وقد يكون العمل في ظاهره راقياً، إلاّ أنّ النوايا ليست تعبُّداً لله عزّ وجلّ بل النوايا المكاسب الماديّة، كما لو أنشأت مشفى.. فالغاية المردود المادي لا مساعدة المرضى، إذاً إن إحباط العمل من حيث النوع.. إنشاء ملهى مثلاً.

وأمَا إحباط العمل من حيث القيمة.. إنشاء مشفى ولكن الهدف مادي محض، لذلك قد تجد من التصرُفات الماديّة ما يتقزز منها الإنسان ويؤول أمرها إلى أن يحبط العمل، والعمل يسقط ويتهاوى.

فالعمل إمّا أن يكون له شكل إنساني تسقط قيمته لأنّ المادّة من ورائه، وإما أن يكون له شكل منحط ساقط، وعلى كلٍ فالمشرك يسقط عمله، أياً كانت قيمته أو نوعيته وأياً تقوم بعملك: **يا قُيس إنّ لك قريناً يُدفن معك وهو حي وتدفن معه وأنت ميّت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك ألا وهو عملك**، تقول له: من أنت ؟!! فيجيبك: عملك.. أما هذا الجسم يفنى، والطعام الذي أكلته يفنى، البيت الذي سكنته تغادره، الأهل الدين عشت معهم تتركهم، المال الذي كان في حوزتك لا تستطيع أن تحافظ عليه بعد الموت.. لذلك ماذا يبقى لك ؟ عملك، وعملك أساسه العلم.

نرجع إلى الأفكار المضغوطة... الدين أن تعرف الله، وأن تعمل صالحاً في سبيله تقرُّباً إليه، فلذلك لا يمكن أن يصلح العمل إن لم تصلح العقيدة، والعقيدة أساسها العلم.

نعود إلى اسم الله المتين.. أصل المادة في اللغة يدلُّ على صلابةٍ في الشيء، فقد لفت نظري ذات مرّة قوله تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨))

(سورة الذاريات)

وهناك آية فيها:

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (٤٥))

(سورة القلم)

في العلوم الحديثة.. الحبال التي تقاوم قوى الشد تسمّى متينة، وأمتن عنصر في الأرض هو الفولاذ المجدول - المضفور - متين لذلك ترفع به المصاعد، وتعلّق عليه الغرف المتحرّكة التي تسير بين الجبال - التليفريك - لمتانته، فهو يقاوم قوى الشد، إنّ الشيء القاسي يقاوم قوى الضغط وأقسى شيء هو عنصر الماس، وبعده ميناء الأسنان، فالقساوة مقاومة قوى الضغط، والمتانة مقاومة قوى الشد، فما الحكمة من قول الله عزّ وجلّ:

(إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ)

أي كأنّ الإنسان مربوط بحبلٍ متين لا يمكن أن يُتفلّت منه مهما تحرّك، مهما قوي، مهما ذاع صيته، أو كثر ماله، مهما نجحت صحّته، إنّه مربوطٌ بحبلٍ متين ففي أيّة لحظةٍ يشدُّ الله الحبل في الإنسان بين قبضة الله عزّ وجلّ.

إخواننا الكرام... قلت لكم في درسٍ سابق إنّ هناك دعاءً للنبي عليه الصلاة والسلام يقصم الظهر، كان عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ كَانَ مِنْ دُعَاءِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ وَجَمِيعِ سَخَطِكَ))

(صحيح مسلم)

تجد أشخاصاً كثيرين أحدهم مثلاً في تمام صحّته فجأةً يشعر بشيء ينمو نمواً طارئاً وغير عادي يسارع إلى الطبيب فيجد هذا الشيء ورم، فهل يا ترى هذا الورم خبيث أم حميد، فيحلل فتظهر النتيجة أنّه ورم خبيث في أماكن مميتة بلا سبب.

فالإنسان تحت رحمة الله عزّ وجلّ فإذا لم يكن مصطلحاً معه ومطيعاً له، ومنيباً، ومقبلاً، ومخلصاً، ومشتاقاً، ويقدّم للأعمال الصالحة ما تمكّنه عند الله فمشكلته مع الله خطيرة.

إذاً: أصل المادة في اللغة يدلُّ على صلابةٍ في الشيء مع إمتدادٍ وطول.... صلابة مع إمتدادٍ وطول.. فيمكن لسنتيمترٍ مكعبٍ واحدٍ من الإسمنت أن يحمل تقريباً في الحالات الخاصة خمسمائة كيلو غرامٍ، أما على قوى الشد فلا يتحملّ أكثر من خمسة كيلو غرامات شداً، فالإسمنت ضعيفٌ على الشد ويحتاج لذلك إلى تسليح، أما على الضغط فهو قاسٍ ويتحمّل ضغوطاً عالية جداً، إذاً فلا بدّ من إسمنتٍ مسلّح، فالحديد ضمن الإسمنت ليقاوم قوى الشد، والإسمنت نفسه ليقاوم قوى الضغط، هذا معنى قول الله عزّ وجلّ:

(إنّ كَيْدِي مَتِينٌ)

أي أنّ كل واحدٍ منا شاء أم أبى في قبضة الله دائماً، شعر أم لم يشعر، أحسّ أم لم يُحس، أدرك أم لم يدرك.

(إنّ كَيْدِي مَتِينٌ)

والمَتْنُ ما صلب من الأرض وارتفع.

المتن.. المنطقة الصُلبة في الأرض المرتفعة، نقول: أرضٌ متينة، والمُماتنه المباعدة في الغاية.. أي أنّ هدفه بعيد، تشعر أن المتين الشيء الممتد الطويل مع الإحكام، ومع القوة، ومع المتانة، والمُماتنه المباعدة في الغاية، وسار سيراً مماتِناً أي شديداً وبعيداً.

والمتين على وزن فَعيل.. اسم فاعلٌ مبالغٌ به مشتقٌ من المتانة، وهي شدّة الشيء واستحكامه وصلابته. أحياناً من الممكن أن تضع عشرة أطنان من الحديد، أو تضع خمسة أطنان منه أو ثلاثة أطنان، فإذا كان بداخله شوائب فَحْميّة فبالتالي لا يصبح متيناً فيضاعفون الكميّة، أما إذا كان خالياً من الشوائب الفحمية فالحديد متين، ويكفي أقل كمية ممكنة منه وحسب التصميم لتوضع في البناء، فإذا الإنسان لم يتقن عمله وأنتج حديداً غير متين وغير متقن وبه شوائب فيكلِف الإنسان ثلاثة أضعاف ثمن الحديد حتى يطمئن المهندس على البناء، ولكنه حَمّل صاحب البناء ثلاثة أمثال ثمن الحديد لعدم متانة الحديد، وكما قلنا في دروس سابقة: إتقان العمل جزءٌ أساسيٌ من الدّين.

حضر النبي عليه الصلاة والسلام ذات مرة دفن بعض أصحابه الكرام، فالذي حفر القبر ثم ردمه أبقى فرجة صغيرةً، فقال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ اكْلَفُوا مِنَ الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ فَإِنّ اللّهَ لا يَمَلُّ حَتّى تَمَلُّوا وَإِنّ أَحَبّ الْعَمَلِ إِلَى اللّهِ أَدْوَمُهُ وَإِنْ قَلّ وَكَانَ إِذَا عَمِلَ عَمَلا أَثْبَتَهُ))

(سنن أبي داوود)

إتقان العمل جزءٌ من الدّين..

اليوم تذاكرتُ مع صديق لي وجودَ كسادٍ عند بعض الحرفين، وتوقف أعمالهم أحياناً فأما المتقن عمله فلا يتوقف، فبكل حرفة درجات، فتجد شخصاً من الدرجة الأولى، أو الثانية، أو الرابعة، أو الخامسة.. وهكذا.. فالذي في الدرجة الأولى لا يتوقف عن العمل إطلاقاً لأنّ الطلبات عليه أشد وأكثر من الوقت المتاح له، وكل ما تدنّت درجة الإتقان فكاد عمله أكثر والطلب عليه قليل ويعاني عندئذٍ من بطالة، يشتغل أسبوعاً ويتوقف شهراً، فهذه بطالة مقنّعة، وعندئذٍ دخله لا يكفيه، وهذه قاعدة.. فإتقاننا للعمل هو الذي يسبب التفوّق، وأنت ادرس الأمر وهذه سنّة الله في خلقه أينما ذهبت فالمتقن متفوّق ويعمل عملاً مستمراً، والمتقن دخله كبير وفي بحبوحة، فالإتقان سبب من أسباب زيادة الرزق.

بالمناسبة.. أهم موضوع بعد حياة الإنسان هو رزقه، فهناك أولويّات للإنسان.. فأول شيء سلامته، فإذا كان صحيحاً من كل الأمراض فقد حقق السلامة، وبعد السلامة الرزق، والإنسان إذا أيقن أنّ الله سبحانه وتعالى لم يسمح لمخلوقٍ أن يتدخّل في شأن الحياة والرزق اطمأنّ قلبه، فهذه الروح التي أودعها الله في الإنسان لا يمكن لمخلوقٍ كائنٍ من كان أن ينزعها منه، أما إذا بدا لك بالعين المجرّدة أنّ فلاناً قتل فلاناً فالمقتول قُتل في أجله، ففي علم العقيدة: المقتول يقتل في أجله لا في أجلٍ قبل أجله، فأمر الحياة منوطٌ بالله عزّ وجلّ، وأمر الرزق منوط بالله عزّ وجلّ.

أخطر شيء بوجودك حياتُك ورزقُك، فالحياة والرزق أمران مقطوع قضاء الله فيهما عن أن يتسلّمهما إنسان، ولو بدا لك أنّ هذا الإنسان قويٌ أو أمره نافذ، ولو بدا لك أنّه يفعل ما يريد، إلا أنّ الحقيقة أنّ أمر الحياة وأمر الرزق لم يُتح لمخلوقٍ أن يتسلّمهما، فبهذا قالوا: كلمة الحقّ لا تقطع رزقاً ولا تقرّب أجلاً.

وبعد فإنّ المتين كما قلنا قبل قليل: مُشتقٌ من المتانة وهي شدّة الشيء واستحكامه وصلابته، وقيل المتين هو الشديد، يقال: هو متين القِوى أي شديد القِوى.

ومن المجاز أن نقول: رأيٌ متين، خطبةٌ متينة، مقالةٌ متينة أي متماسكة، فقد يكون الأسلوب قوياً فيُقال لك: التراكيب متينة، أي مشدودة، متراصة، محكمة، فتشعر بتركيب قوي، وأحياناً تجد التركيب ضعيفاً مهلهلاً غير محكم، وهذا استخدام مجازي للمتانة.. ومن المجاز رأيٌ متين.

وقيل المتين بمعنى القوي، فهو على ما يشاء قدير.

إذا قلنا أنّ الله قويٌ متين.. أي لا يحتاج في إمضاء حكمه إلى جندٍ أو مدد، ولا إلى معينٍ أو عضد.. ولا إلى من يعضده.. لأنّ الله سبحانه وتعالى قويٌ بذاته، متينٌ بذاته.

وبالمناسبة.. فالإنسان يحب القوي ويلتفت إليه، فالله سبحانه وتعالى صاحب الأسماء الحُسنى، فمن القوة قوي، ومن الغنى غني، ومن الحكمة حكيم، وفي الرحمة رحيم، من اللطف لطيف، فكلّما اشتدّت معرفتك بأسماء الله الحُسنى اشتدّ حبُك له، وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((أرجحكم عقلاً أشدُكم لله حباً))

الآن.. ماذا يعني أن نعرف أنّ الله قويٌ متين ؟ قال العلماء: إذا عرفت أنّ الله قويٌ متين وأنّ الأمر كلّه بيده قطعت الرجاء عمن سواه، فانظر إلى ما الذي يهلك الناس ؟ الناس يحتاجون إلى بعضهم بعضاً، فيقفون على أبواب اللئام، فقد سُئل الإمام علي كرّم الله وجهه: ما الذل ؟ قال: **أن يقف الكريم بباب اللئيم ثم يردّه..**

والإمام علي كرّم الله وجهه يقول مرةً ثانية: **" والله والله مرّتين لحفر بئرين بإبرتين، وكنس أرضُ الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين، أهون عليّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين ".**

ولئن عرف الإنسانُ: أنّ الله هو القوي.. فقد تبددت أمام ناظريه كل العقبات. ومعنى القوة واسع فسيح ؛ فالقوة لله جميعاً، حتى القوة في الجمال، والقوة في العطاء، والقوة في العلم، وحتى القوة في الحكمة فأعلى الصفات المتعلِقة بأسماء الله الحُسنى قد توصف بالقوة.. فحينما تعلم علم اليقين أنّ الله قويٌ متين تقطع الرجاء من غيره.

و الحقيقة أيُّها الإخوة... أن الإنسان ما دام يرجو غير الله فالطريق إلى الله مسدود، وأحياناً لحكمة بالغة ما دامت هناك منافذ أرضيّة فالطريق إلى الله مسدود، ومتى تلتجئ إليه ؟ حينما تغلق الأبواب كلُّها، فأحياناً يطرق الإنسان أول باب فيجده مغلقاً، والثاني كذلك مغلقاً، والثالث والرابع مغلقان فيضجر، عندئذٍ لا يجد إلا الله ملجأ له، فهو إذا كان عاقلاً فمنذ البداية يجب أن يعلم انّه لا إله إلا الله.. لكن بسبب ضعف الإيمان في قلبه، وضعف التوحيد في عقيدته يتجه إلى زيد وإلى عبيد، وإلى فلان أو علاّن فيجد إن الطرق جميعها مغلقة، فيخيب ظنُّه بالناس جميعا، فيلجأ بعد ذلك إلى الله.

تُروى قصة لها موعظة في أيام العهد العثماني.. عن إنسان في دمشق افتقر الافتقار الشديد، فضاقت به السُبُل ولم يجد قوت يومه، وكان له قريب يعمل في منصب رفيع جداً لدى السلطان العثماني في عاصمة الخلافة العثمانية إسطنبول، فخطر في نفسه أن يذهب إليه ليعمل هناك في وظيفة معيّنة فتحل بذلك مشكلته، فذهب إلى إسطنبول ودخل على قريبه فرحّب به، وكتب قريبه استدعاء إلى السلطان لتعيين هذا القريب في منصب جيّد، وكلما دخل على السلطان يرى هذا الاستدعاء غير ممهورٍ بخاتم السلطان فيضعه على أعلى الأوراق فيفاجأ بعدم توقيع السلطان له لأكثر من أسبوعين وهو ينتظر، وكان يبدو أنّ هذا الموظف الكبير على شيء من التوحيد وسلامة الاعتقاد فذهب إلى قريبه وتجهّم به وأسمعه كلاماً قاسياً، وأن الضيافة ثلاثة أيام لا مثل هذه المدة فكفاك هذا وأذهب عنا.. فحينما سمع الضيف هذا الكلام القاسي وهذا الطرد البشع خرج من بيت قريبه هائماً على وجهه وهو يبكي فقد كان هذا القريب أمله الأخير.. لكنّ هذا القريب أرسل وراءه خادما يتبعه ليعرف أين سيذهب، فذهب إلى خان - فندق - ولكن المفاجأة أنّ السلطان في اليوم التالي وافق على المعاملة المقدّمة ووقع عليها، فاستدعاه وأبلغه النتيجة بأن قضيّته قد حُلّت.

وتفسيرها أن كل هذه الأيام كان هذا الضيف الذي أتى من الشام يعلِّق الآمال كلّها على قريبه، نسي الله، لذلك لم يلهم السلطان أن يوقِع على الكتاب، فلما طرد هذا المسؤول قريبه شرّ طردة، وقطع الأمل منه لجأ إلى الله عزّ وجلّ، وعندما أخلص رجاءه إلى الله أُلهم السلطان أن يوقِع على الكتاب.

فهذه قاعدة مهمة جداً.. كلما علقت الأمل على إنسان خاب ظنك لأن الله يغار أن تعلِّق الأمل بغيره، أن تعتمد على غيره، أن تنقاد إلى غيره، أن تريق ماء وجهك لغيره، فالمؤمن فيما بينه وبين الله ليبالغ في التذلل، أما فيما بينه وبين الناس فليبالغ في العزّة، أنت مع الناس عزيزٌ، أما فيما بينك وبين الله ذليل تقطعت بك الأسباب، وهذا شأن المؤمن.

(أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ)

فقد قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٥٤))

(سورة المائدة)

فالإنسان مع الله يتذلل ويمرّغ جبهته في التراب، أما حينما يقف أمام إنسان يقف عزيز النفس: **" لذلك رأى النبي عليه الصلاة والسلام أحد أصحابه في بعض المعارك يمشي متبختراً، فقال عليه الصلاة والسلام:**

((إنّ الله يكره هذه المِشية إلا في هذا الموطن))

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَمَا رَجُلٌ يَتَبَخْتَرُ فِي حُلَّةٍ إِذْ أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِ الأَرْضَ فَأَخَذَتْهُ فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِيهَا أَوْ يَتَجَرْجَرُ فِيهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

(مسند الإمام أحمد)

المؤمن لا ينبغي أن يضعف أمام كافر، أن يتوسّل إليه، أن يتضعضع له.. من جلس إلى غنيٍّ فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.

إذاً أول تطبيق عملي لهذا الاسم.. مادام الله هو القوي المتين اقطع الأمل ممَن سواه، فلا تجد مؤمناً صادقاً إلا وله مناجاة لله عزّ وجلّ يناجيه، يسترضيه، يستغفره، يتوب إليه، يسأله.. إنّ الله يحبُّ من عبده أن يسأله حاجته كلّها.. إنّ الله يحبُّ من عبده أن يسأله مِلح طعامه.. إنّ الله يحبُّ من العبد أن يسأله شسْعَ نعله إذا انقطع.. مَن لا يدعوني أغضب عليه، إنّ الله يحبُّ الملحّين بالدعاء.

وقيل المتين: **" هو الكامل القوّة، الذي بلغت قدرته أقصى الغايات ولا يعجزه شيءُ في الأرض ولا في السماوات ".**

وقيل المتين: **" البالغ الشدّة، فالله شديد القوّة والقدرة، والله متمُ قدرته، وبالغٌ أمره ".**

وقيل المتين: **" المتناهي في المتانة، يؤثِّر في الأشياء ولا تؤثِّر فيه الأشياء ".**

ذكر اسم المتين في القرآن الكريم مرةً واحدة في قوله تعالى في سورة الذاريات:

(إِنّ اللّهَ هُوَ الرّزّاقُ ذُو الْقُوّةِ الْمَتِينُ)

ووصف كيده بأنّه متين فقال تعالى:

(وَأُمْلِي لَهُمْ إِنّ كَيْدِي مَتِينٌ)

وفي بعض الأدعية: إلهي أنت المتين المعين، تمدُّ الوجود بالقوّة، وتجعل أحبابك في حصنٍ حصين، أعطنا متانة في أجسامنا نصبر بها على الطاعة، وامنحنا قوةً في قلوبنا نكن بها على السنّة والجماعة، أعطنا مدداً من غيب قدرتك نهزم به النفس والشيطان والكفّار وأهل العصيان إنّك على كلّ شيءٍ قدير.

يقولون: مَن علم أنّ مولاه على كلّ شيءٍ قدير قطع الرجاء مِمّن سواه وأفرد له سرّه كما قال الخليل إبراهيم عليه السلام.

(رَبّنَا إِنّي أَسْكَنتُ مِنْ ذُرّيّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرّمِ)

أراد أنّي سهّلت طريقهم إليك، وقطعت رجاءهم عمّن سواك ثم قال.

(رَبّنَا لِيُقِيمُوا الصّلَاةَ)

أي شغلتُهم بخدمتك خاصةً، وأنت أولى بهم مني ومنهم.. لذلك قال.

(فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنْ النّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ)

أي إذا احتاجوا إلى شيء ذللت عبادك لهم فإنّك على كلّ شيءٍ قدير.

وهذا في الآية الكريمة:

(رَبّنَا إِنّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرّيّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرّمِ رَبّنَا لِيُقِيمُوا الصّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثّمَرَاتِ لَعَلّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧))

(سورة إبراهيم)

الإمام الجُنيد قال: **سمعت السريّ يقول: إنّ في قُرى بغداد لله تعالى أولياء لا يعرفهم الخلق،** كنت أدور في قرى بغداد لعلّي أرى منهم واحداً، فقال الإمام الجُنيد: **هيهات أن تراهم، ولكن كُن منهم تراهم وأنت في بيتك.**

إخواننا الكرام... من تطبيقات هذا الاسم أنّ اللائق بالإنسان ألاّ يغترّ بقوّته لأنّه أمام قوّة الله لا شيء، بل يطالبه الأدب بإظهار الضعف أمام ربّه القوي مهما كان المرء غنياً، وأنت مهما كنت قوياً، مهما كنت صحيحاً، يجب أن تظهر ضعفك أمام الله عزّ وجلّ..

سيدنا عمر كان يوماً على المنبر يخطب وهو أمير المؤمنين، فجأةً قطع الخطبة وقال: **يا ابن الخطاب - يخاطب نفسه - كنت ترعى غنيماتٍ على قراريط لبني مخزوم.** فهذا الكلام ليس له معنى إطلاقاً وليس له علاقة بالخطبة، فلما نزل سأله عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه قال: يا أمير المؤمنين ما حملك

على ما قلت ؟!! قال: **قالت لي نفسي وأنا أخطب أنت أمير المؤمنين، ليس بينك وبين الله أحد - أنت القِمّة - فأردْتُ أن أعرّف نفسي حقيقتها.. - أن أحجّمها -.**

فإذا كنت ضعيفاً وربّك قوي متين فلا تخف. فأنت عبد القوي، عبد المتين، وإذا أعطاك ربّك قوة فكنت قوياً، والقوة لله وحده فلا تغتر بقوّتك لأنّ الله عزّ وجلّ كما يدهش في العطاء يدهش في الأخذ.

فكان سيّدنا عمر يقول: **اللهمّ كبرت سنّي وضعفت قوّتي، إنّه لا حول ولا قوة إلا بالله.**

وكان من أدعية النبي عليه الصلاة والسلام: **أعوذ بعزّة الله وقوّته.**

والآن لديّ تعليقٌ دقيقٌ أتمنى أن تدققوا فيه.. قالوا: هذا الاسم ؛ اسم القوي المتين لا يتعارض مع سعي الإنسان ليكون قوياً لأنّ الله عزّ وجلّ يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠))

(سورة الأنفال)

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

أي أن ضعفك وتذللك وافتقارك، وعبوديتك، وتمريغ وجهك في التراب تواضعاً لله عزّ وجلّ هذا فيما بينك وبين الله، أمّا أمام أهل الدنيا، أمام المنحرفين، أمام الكفّار يجب أن تظهر قوياً فقد قال تعالى:

(وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ(٤٠))

(سورة الشورى)

قال تعالى:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا وَلَكِنْ قُلْ قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ))

(صحيح مسلم)

" رحم الله عبداً أراهم منه قوةً ".

هذا افتقارك فيما بينك وبين الله، الصحابة كانوا في الليل رهباناً، أما في النهار فهم فرسان، أما إذا الإنسان تمسكن أمام الناس وأظهر الضعف أمامهم فحنى ظهره مثلاً.. فقد باء خاسراً مهزوماً في عهد عمر بن الخطاب كان من حنى ظهره علاه عمر بالدّرة وقال له: إرفع رأسك يا أخي متى موّت علينا ديننا.

فالإنسان ينبغي أن يسير رافع الرأس، ينبغي أن يظهر أنّه قوي، أما فيما بينه وبين الله فإنه يتذلل.

يروى إنّ سيدنا عمر كان شديداً جداً فالناس اشتكوا، فجاءه أبو ذر وقال له: **إنّ الناس هابوا شدّتك يا أخي. فقال له: والله يا أبا ذر لو يعلم الناس ما في قلبي من الرحمة لأخذوا عباءتي هذه، ولكنّ هذا الأمر لا يناسبه إلا كما ترى.**

إذاً: **" المؤمن القوي خيرٌ وأحبُ إلى الله تعالى من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خير ".**

يذكر الإمام البخاري أنّ من صفة أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّهم كانوا أهل قوّة، وطريق القوّة والمتانة هو طريق الله، لأنّ الكتاب الإلهي حبل الله المتين، ودينه هو الدين المتين.

" إذا أردت أن تكون أقوى الناس فتوكّل على الله، وإذا أردت أن تكون أغنى الناس فكن بما في يد الله أوثق منك بما في يديك، وإذا أردت أن تكون أكرم الناس فاتق الله ".

تجد الإنسان أحياناً من ضعف إيمانه ومن ضعف توحيده يعلِّق الآمال بالآخرين، ويعلِّق الآمال بكفّار، يريقُ ماء وجهه دونهم، ويتذلل لهم، ويتمسكن أمامهم، فيسقط من عيونهم وقد سقط من عين الله قبل أن يسقط من أعينهم.

يا أيها الإخوة الكرام.. لأن يسقط الإنسان من السماء إلى الأرض فتتحطم أضلاعه أهون من أن يسقط من عين الله.

قالت العلماء: ويعاب أن تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم، فكلما قوي إيمان الإنسان يصبح عزيزاً، ويصبح رافع الرأس، وكلّما قوي إيمانه زاد اعتماده على الله وهو أهل التقوى وأهل المغفرة، وقال تعالى:

(وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً (٣))

(سورة الطلاق)

٨٥- اسم الله الستار :

ان أسماء الله الحُسنى كثيرةٌ جداً، والتي وردت في القرآن الكريم تزيد عن بضع المئات من الأسماء، سألقي على مسامعكم بعض هذه الأسماء التي لم ترد في حديث رسول الله: الأحد، المعطي، الحنّان، المنّان، الرّب، المطعم، المدبّر، الشافي، الستّار، المحيط، القديم، المسخِّر، الجاعل، الكافي.. إن شاء الله تعالى سنشرح بعضاً من هذه الأسماء التي يمكن أن نستفيد منها فائدةً كبيرة.

مع الدرس الخامس والثمانين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم الستّار، وهو من أحبُ الأسماء إلى المؤمن، الستّار اسمٌ من أسماء الله الحُسنى، وهو اسمٌ زائدٌ على الأسماء التسعة والتسعين المشهورة.

السِتر في اللغة ما يُستر به، اسم.. وجمعه أسْتار، وسَتَرَ الشيء أخفاه فانستر، انستر مطاوع من سَتَرَ.. يَسْتَتِرُ.. انْسَتَرَ، قبِل أن يُستر، تستَّر أي تغطّى، السِتر هو الحياء، يقال: ما لفلانٍ سِتْرٌ ولا حِجْر أي لا حياء ولا عقل، السِتْر هو الحياء، فلان لا يسْتتر من الله بستر أي لا يستحيي من الله بنوع من الحياء، والستر هو العقل، من كان عقله برأسه تصرّف بحكمةٍ فحجب عن الناس مغيبته.. والسِتارة.. ما يُسْتَتَر به من شيءٍ كائناً ما كان، وفي الحديث الشريف:

قال أبو حنيفة وأصحابه، قالوا: **إذا خلا بها خلوة صحيحة يجب كمال المهر والعدة**، دخل بها أو لم يدخل بها؛ لما رواه الدار قطني عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((من كشف خمار امرأة ونظر إليها وجب الصداق))

وقال عمر: **إذا أغلق بابا وأرخى سترا ورأى عورة فقد وجب الصداق وعليها العدة ولها الميراث.**

وعن علي: إذا أغلق بابا وأرخى سترا ورأى عورة فقد وجب الصداق.

فانتبهوا إلى ذلك.. إذا خطب أحدكم وقد كُتب العقد، وزار خطيبته، وأغلق الباب وأرخى الستار، ثم أراد أن يتنصّل من هذا الزواج وجب عليه المهر كاملاً ولو لم يدخل بها.. ولندقق في قول النبيّ صلّى الله عليه وسلّم:

((أيّما رجلٍ أغلق بابه على امرأةٍ، وأرخى دونها أستاره فقد تمّ صداقُها))

أي وجب صداقها..

إذا عقد إنسان على امرأةٍ ولم يدخل بها وجب عليه نصف المهر، أما إذا دخل بها وجب عليه كلُّ المهر، أما إذا عقد عقده عليها وزارها وأغلق الباب وأرخى السِتر ولو لم يدخل بها وجب المهر كاملاً، هكذا قال عليه الصلاة والسلام.

فلانٌ هتك سِتر فلان.. أي أطلعه على معايبه، والاستتار الإختفاء،

وفي التنزيل قال تعالى:

(حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْراً (٩٠))

(سورة الكهف)

والستّار في حقّ الله تعالى كثير السّتر لعيوب عباده، الستّار صيغة مبالغة، سَتَرَ، يَسْتُرُ، ساتر، ستّار، الستار صيغة مبالغة أي كثير الستر، أو شديد الستر، أي مهما تكن الأعمال مشينة.

((لله أفرح بتوبة التائب من الظمآن الوارد، ومن العقيم الوالد، ومن الضال الواجد، فمن تاب إلى الله توبة نصوحا أنسى الله حافظيْهِ وجوارحه وبقاع الأرض كلها خطاياه وذنوبه))

[التخريج(مفصلا): أبو العباس بن تركان الهمذاني في كتاب التائبين]

فإذا جاء اسم الله مبالغاً به، فالمبالغة على نوعين.. كمّيّة، ونوعيّة.. أي أنّ الله غفّار يغفر مليون ذنبٍ، ويغفر أكبر ذنب، فإذا استخدمنا صيغة المبالغة في أسماء الله الحُسنى فالمبالغة على نوعين، مبالغة نوعٍ، ومبالغةُ عددٍ.

الستّار في حقّ الله تعالى كثير السَتر لعيوب عبادة، فسبحان الله.. الإنسان العادي من شأنه أن يظهر القبيح ويخفي المَليح، وقد دعا النبيُّ عليه الصلاة والسلام فقال:

((تعوذوا بالله من ثلاث فواقر: جار سوء إن رأى خيرا كتمه، وإن رأى شرا أذاعه؛ وزوجة سوء إن دخلت عليها لسنتك، وإن غبت عنها خانتك ؛ وإمام سوء إن أحسنت لم يقبل، وإن أسأت لم يغفر.))

[التخريج(مفصلا): البيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة]

لذلك فأصغ سمعك وقلبك لزوجةِ القاضي شريح عندما قالت له: أما بعد.. فيا أبا أميّة إني امرأةٌ غريبة لا أعرف ما تحبُّ ولا ما تكره، فقل لي ما تحبُّ حتى آتِيَه، وما تكره حتى أجتنبه، ويا أبا أميّة لقد كان لك من نساء قومك من هي كفؤٌ لك، وكان لي من رجال قومي من هو كفؤٌ لي، ولكن كنتُ لك زوجةً على كتاب الله وسنّة رسوله ليقضي الله أمراً كان مفعولا، فاتّق الله فيَّ وامتثلْ قوله تعالى:

(فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ)

ثم قعدت، قال فألجأتني إلى أن أخطب فقلت لها:

أما بعد.. فقد قلت كلاماً إن تصدقي فيه وتثبتي عليه يكن لك ذخراً وأجراً، وإن تدعيه يكن حجة عليكِ، أحِبُّ كذا وكذا، وأكره كذا وكذا - الشاهد من هذا الكلام هو - وما وجدّتِ من حسنةٍ فانشريها، وما وجدّتِ من سيّئةٍ فاستريها:

(الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آَتَيْتُمُوهُنَّ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ(٢٢٩))

(سورة البقرة)

إخواننا الكرام... من أرقى صفات المرأة المؤمنة أنّها ستّيرة، فالإنسان في بيته أحياناً يغضب، وأحياناً يفتقر فلا تجد بين يديه مالاً فيأكل أخشن الطعام، وأحياناً ينضغط من الخارج فينفجر في الداخل، والمرأة المؤمنة لا تفضح زوجها، لا تنشر قصصه بين الناس، لا تعطي الناس أسوأ صورة عن زوجها، المرأة المؤمنة ستّيرة، يقول عليه الصلاة والسلام:

((إنّي أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها ".. أكرهها.. " لا ينظر الله إلى إمرأةٍ لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه))

فالستّار في حقّ الله تعالى كثير الستر لعيوب عباده قال تعالى:

(أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٤))

(سورة الشورى)

من كمالِ ربنا عزّ وجلّ أنّه يظهر الحسن ويستر القبيح، الإنسان من لؤمه يظهر القبيح ويستر الحسن، فالمؤمن كلّما اقترب من الله يتخلّق بأخلاق الله، الله ستّار والمؤمن ستّار، يستر العيوب.

وبعدُ، أدبُ الإسلام يدعو المؤمن إلى أن يستتر ولا يجاهر بالمعصية، كلُّكم يعلم أنّ هناك عاصياً، وأنّ هناك فاجراً، فالعاصي مثلاً كالذي يفطر في رمضان، من هو الفاجر ؟ الذي يفطر في الطريق أمام الناس، إذا جاهرت بالمعصية فالمجاهر فاجر، والفاجر لا غيبة له، لأنّه لا يستحي من هذه المعصية فهو يذكرها للناس، هو يُري الناس معصيته.. وقد ورد:

((إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا))

على من يقع حدّ الرجم ؟ يقع على الزانية الفاجرة التي استطاع أربعة من الرجال أن يَرَوها وهي تزني، أي أنّها لا تُبالي، فحدُّ الرجم ليس على الزانية المحصنة فحسب بل على الزانية المحصنة التي تمكّن أربعةُ رجالٍ من أن يروها وهي تزني، ما اسمها إذاً ؟ فاجرة.. فقد قال تعالى:

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَاداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ(٣٣))

(سورة المائدة)

(إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا)

هل من فسادٍ أشدّ من أن يزني رجل محصن له زوجة وأولاد بامرأةٍ محصنة لها زوجٌ وأولاد جهاراً حتى تمكّن الشهود من أن يروها وهي تزني ؟ إذاً:

((إذا بُليتم بالمعاصي فاستتروا))

وقد نعى القرآن الكريم على الذين لا يستترون من غيرهم أو من جوارحهم فقال تعالى:

(وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١) وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢))

(وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤))

(سورة فصلت)

أيُّها الإخوة... قال تعالى:

(الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥))

(سورة يس)

يُروى أنّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام استأجر أجيراً فرآه يغتسِلُ عُرياناً لا يستتر بستر فقال له عليه الصلاة والسلام:

((خذ أجارتك لا حاجة لنا بك إني أراك لا تستحيي من الله.))

بالمناسبة.. الإسلام أمر بالتستُّر في مواضع، منها التستُّر عند الغُسل، وعند اللقاء الزوجيّ، وعند قضاء الحاجة.

فقد حدّثني صديق ذهب إلى بلد شرقي من البلاد التي يؤمن أهلها بأنّه لا إله، كان يدرس في جامعة من أضخم الجامعات، فدورات المياه في هذه الجامعة بهو كبير جداً يتسع لمئة دورة مياه بلا سِتر، كلُّ الناس يقضون حاجاتهم أمام بعضهم بعضاً. أدب الإسلام ينبغي أن يستتر الإنسان في مواضع، عند الغُسل، وعند اللقاء الزوجيّ، وعند قضاء الحاجة.

وقد روى أبو داوود والنسائي وأحمد أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال:

((عَنْ عَطَاءٍ عَنْ يَعْلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأَى رَجُلا يَغْتَسِلُ بِالْبَرَازِ فَصَعِدَ الْمِنْبَرَ فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَقَالَ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ فَإِذَا اغْتَسَلَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَتِرْ))

(رواه أبو داوود والنسائي وأحمد)

ستّار، وستّير، فعّال، وفعّيل.

فالإنسان كلما اقترب من الإيمان يزداد تستُّراً، وكلما تفلّت من قواعد الشرع يقلُّ تستُّره، فالآن جاءتنا مظاهر من الغرب وتفشّت في بعض الناس، تجد إنساناً يسافر من بلد إلى بلد آخر ببنطال قصير، وممكن أن يخلع معظم ثيابه ويقوم بعمل ما.

وقد ورد في الحديث الصحيح أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول:

((عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إلا الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ))

(صحيح البخاري)

أليس في بيوت المسلمين الفتيات الشابّات يقمن بثيابٍ رقيقة أمام إخوتهنْ، وهناك إخوةٌ يقومون بثياب داخليّة أمام أخواتِهمْ، وأمام أمّهاتهم وآبائهمْ، هذا التبدُّل في البيت فيما بين الإخوة، وفيما بين الأخوات، وفيما بين الإخوة والأخوات، وفيما بين الآباء والأبناء، والأبناء والآباء، والبنات والأمّهات، هذا مخالفٌ للشرع، كلّما ازداد إيمانك ازداد التستُّر، وكلّما بعُد عن الإيمان تفلّت من السِتر، وإنّ من المجون أن يعمل الرجل بالليل عملاً ثم يصبح فيقول: يا فلان عمِلت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه ويكشف هو سِتر الله عليه.

من أخطر الأعمال أن يُحدِّث الناس بعضهم بعضاً بما لا ينبغي أن يتحدثوا به، الأسرار الزوجيّة أسرار مصونة لا ينبغي أن تشيع، في أكثر من مجتمع يتحدّث الأزواج عن زوجاتهم وعن لقاءاتهم، وتتحدّث الزوجات عن أزواجهنّ وعن لقاءاتهنّ، وهذا من أكبر المعاصي، لأنّ هذا ينبغي أن يبقى سراً بين الزوجين.

ذكرت لكم سابقاً أنّ امرأةً تعمل في الفن في بلدٍ غربيّ وهي امرأة فاسقة فاجرة لكنّها تكلّمت بصدق سُئِلت عن شعورها وهي على خشبة المسرح - وقد حفظت كلامها لدقته البالغة - قالت: إنّ شعوري شعور الخزيّ والعار، وهو شعور كلّ امرأةٍ تعرض مفاتنها على الناس، إنّ الحبّ يجب أن يبقى بين الزوجين وفي غرفٍ مُغلّقة.

فموضوع السِتر إذاً أنّه كلما تفلّت الناس وكلّما اقتربوا من طباع الغرب وعاداته، وكلّما تغذّوا بالثقافات الغربية التي تأتيهم عبر الصحون التي على أسطح المنازل، وكلّما تفلّتوا من ثيابهم في بيوتهم، وكلّما تفلّت الإنسان من ثيابه كان هناك إحتمال الإنزلاق، والذي لم نكن نعرفُهُ إطلاقاً وبدأنا نعرفه، بلادنا والحمد لله لا تعرف ما يسمّى بزنى المحارم، أي أخٌ وأخته، وأبٌ وابنته، وأمٌ وابنها، لكن بدأت تظهر هذه الحالات والكلام مؤلمٌ جداً بدأت تظهر هذه الحالات في بلادنا، فحالات زنى المحارم أصبحت موجودة، فحينما يأمر الشرع الحنيف ألا تظهر امرأةٍ على أُختها بملابس فوق الركبة هناك حكمةٌ بالغة، حتى بين الأخوات، حتى بين البنت وأمِّها، هناك حدود أما إذا رفعنا الحدود ربّما انزلق الناس إلى ما لا يُحتمل.

حدثني رجل وهو يبكي.. فقلت له خيراً إن شاء الله ! قال: لي: ابنةٌ في البيت، فقد تركت بيت زوجها

لمشكلةٍ بينها وبينه، وابني في البيت أيضاً وهناك مشكلةٍ بينه وبين امرأته، فجأةً بدأت ابنتي تتألّم من بطنها، فأخذتها أمُّها إلى الطبيب فطلب منها الطبيب فحصاً للحمل، فإذا هي حامل، وظهر أنّ الحمل من أخيها وهي متزوّجة وأخوها كذلك، وحينما علم المسؤولون بالأمر أُودِعَ الابن في السجن، والبنت في السجن، فهذه مصيبةٌ من أكبر المصائب.. إذا كان هناك تفلّت، وتكشّف، فالشرع ليس قيوداً لحريّة الإنسان، ولكنّه ضمانٌ لسلامته، تماماً كما لو كنت في مكان ورأيت لوحة كتب عليها انتبه حقل ألغام، فهل تعدُّ هذه اللوحة تقييداً لحريّتك، أم ضماناً لسلامتك ؟ إنّها ضمانٌ لسلامتك، أنا لا أتكلّم من فراغ فبحكم عملي في الدعوة إلى الله تأتيني قضايا كثيرة، قضايا زنى المحارم وردت بشكلٍ غير معقول، بسبب التفلّت.

قد ذكرت لكم أنّ أحد خطباء دمشق ألقى من على منبر النبي عليه الصلاة والسلام خطبةً ذكر فيها ما يلي قال: جاءني رجل وحدّثني بمشكلةٍ وقعت في بيته ورجاني أن أعرضها على الناس من على المِنبر لأنّها وقعت معه، ليأخذ الآباء حذرهم فما الذي حدث ؟ أنّه كان يتابع بعض المحطّات الغربية من خلال هذا الصحن المشؤوم فظهر منظرٌ لا يُحتمل فأدار المؤشر إلى محطةٍ أُخرى.. الابن حفِظ رقم المحطة.. ثم يقول: في الساعة الثانية ليلاً سمعت أنيناً فاستيقظت فإذا ابني فوق ابنتي وابني الآخر فوق ابنتي الأخرى في غرفة الجلوس، وقال للخطيب معي حدث هذا وأذكر قصّتي من فوق المنبر لعل الآباء يعتبرون.

أقول هذا الكلام لأنّ هناك أخطاراً بدأت تهدد المسلمين، فأكبر شيء يجر الإنسان إلى المعاصي موضوع النساء، وموضوع المال وقد ذكرت هذا من قبل.

وفي حديث مسلم رحمه الله تعالى عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال:

((عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَقُولُ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًى إِلا الْمُجَاهِرِينَ وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهَرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ فَيَقُولَ يَا فُلانُ عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ))

(رواه مسلم)

فإذا تفضّلَ الله عزّ وجلّ تفضّل بستره على عبدٍ في الدنيا فإنّ هذا السِتر يستمر إلى يوم القيامة. وروى أبو داوود عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنّه:

((حَدَّثَنَا ابْنُ أَخِي ابْنِ شِهَابٍ عَنْ عَمِّهِ قَالَ أَخْبَرَنِي أَبُو إِدْرِيسَ عَائِذُ اللَّهِ أَنَّ عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ مِنَ الَّذِينَ شَهِدُوا بَدْرًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمِنْ أَصْحَابِهِ لَيْلَةَ الْعَقَبَةِ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ وَحَوْلَهُ عِصَابَةٌ مِنْ أَصْحَابِهِ تَعَالَوْا بَايِعُونِي عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا وَلا تَسْرِقُوا وَلا تَزْنُوا وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ وَلَا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ وَلا تَعْصُونِي

فِي مَعْرُوفٍ فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ لَهُ كَفَّارَةٌ وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَسَتَرَهُ اللَّهُ فَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَاقَبَهُ وَإِنْ شَاءَ عَفَا عَنْهُ قَالَ فَبَايَعْتُهُ عَلَى ذَلِكَ))

(رواه أبو داوود)

دققوا أيُّها الإخوة... لو أنّ إنساناً اقترف معصية ليس مكلّفاً إطلاقاً أن يبلّغ عن هذه المعصية أحداً، فما دام لم يدر به أحد فمعنى ذلك أنّ الله أسبل عليه ستره، ويقترف معصيةً كبيرة حينما يفضح نفسه.

في عهد النبي سأل النبي أصحابه قائلاً: من له سُؤال ؟ قال أحدهم: **إنني نؤوم يا رسول الله.** فقال عمر: **ويحك فضحت نفسك !** قال:

((دعه يا عمر فضوح الدنيا خيرٌ من فُضوح الآخرة، اللهمّ أذهب عنه النوم إذا شئت.))

فإذا اقترف الإنسان ذنباً فليس مكلفاً شرعاً أن يُبلّغ عن نفسه، ما دام لم يدرِ به أحد معنى ذلك أنّ الله أسبل عليه ستره، فإذا فضح نفسه كأنّه ارتكب معصيةً جديده.. هذا حكم شرعي.. أنت لست مكلّفاً أن تفضح نفسك ما دام الله قد سترك.

شيء آخر.. لو لم تكن مِمّن يُكلّف بتنفيذ أمر الله، فأنت إنسانٌ عاديٌ لست كالإمام فإذا اقترف إنسان آخر معصيةً أمامك لست مكلّفاً أن تُبلّغ عنه، أما الإمام إذا بلغه أحد أنّه قد انتُهك حدٌ من حدود الله فلا عفا الله عنه إن عفا، فالإمام شيء والمؤمن شيء، فالمؤمن ليس مكلّفاً أن يفضح نفسه ولا أن يفضح غيره، أما الإمام إذا بلغه عن أحد أنّه قد اقترف حداً أو اقترف ما يوجب الحد فلا عفا الله عنه إن عفا. لذلك ورد في البخاري:

((عَنِ ابْنِ شِهَابٍ أَنَّ سَالِمًا أَخْبَرَهُ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يُسْلِمُهُ وَمَنْ كَانَ فِي حَاجَةِ أَخِيهِ كَانَ اللَّهُ فِي حَاجَتِهِ وَمَنْ فَرَّجَ عَنْ مُسْلِمٍ كُرْبَةً فَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرُبَاتِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))

(رواه البخاري)

وهذا الذي بلّغ النبي عن إنسان يزني فقال عليه الصلاة والسلام:

((ألا سترته ولو بثوبك فكان خيراً لك.))

فهذا حكم شرعي.. ليس القصد أن تقطّع الأيدي ولا أن يُجلد الناس، فالقصد أن تكون الحدودُ الشرعيّة رادعة للمسلمين، لذلك حينما يطالب الشرع بأربعة شهود رأوا حالة الزنا رأي العين هذا شرط شبه مستحيل وهو شرط تعجيزي. الهدف منه أن يكون هذا الحدُ رادعاً لا أن يكون مطبّقاً.

ومما يدلُّ على محبّة الله الستّار بإخفاء الذنوب والمعاصي قوله تعالى:

(إنّ الّذِينَ يُحِبُّونَ أنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (١٩))

(سورة النور)

أي أنّ هذا الذي يحبُّ أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا له عذابٌ أليمٌ في الدنيا والآخرة.. ماذا فعل ؟ لم يفعل شيئاً إلا أنّه تمنّى أن تشيع هذه الفاحشة، معنى ذلك أنّه في خندق المنافقين، لو كان في خندق المؤمنين لآلمه هذا الأمر أيّما إيلام، فلمجرّد أنّه رضي أو تمنّى أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا معنى ذلك أنّه ليس مؤمناً.. فقد قال تعالى:

(إنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً إنّ اللّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ(١٢٠))

(سورة آل عمران)

قال ابن كثير: **" هذه الآية تأديبٌ لمن سمع شيئاً من الكلام السيئ فقام بذهنه منه شيءٌ وتكلم به ".**
سمعت قصة لا تليق بمؤمن و لا ينبغي أن تروّجها، لا ينبغي أن تنقلها، لا ينبغي أن تفرح بها، إن فرحت بها فلست مؤمناً، وإن روجتها فقد سببت فتنة لا يعلم إلا الله متى تنتهي.. ففي بعض الأحيان خطأ بسيط قد ينتهي بجريمة ،

أنا ذكرت لكم نقلاً عن أحد مخابر التحليل أنّ إنساناً توجد بينه وبين ابنته مشكلة، شك بابنته، فطلب منها إجراء تحليل. فالموظف في هذا المخبر وقعت منه العيّنة فانكسرت فخاف من سيده فكتب نتيجة التحليل حمل إيجابي، فلما جاء الأب مساءً وتلقّى النتيجة أنّها إيجابيّة فذهب وقتل ابنته مع أن النتيجة غير صحيحة والبنت بريئة.. فهؤلاء الذين يسمعون قصةً لعلها كاذبة، و قذف محصنةٍ يهدم عمل مئة سنة ولعلها قصة كاذبة، إذا نقلها وروّجها فما أدراك قد تقع جريمة من أجلها، فقضايا الأعراض خطيرة جداً، فلذلك هؤلاء الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات عليهم أن يجلدوا ثمانين جلدة وأن يفقدوا حقّهم المدني فلا تُقْبَل شهادتهم أبداً لعظم حقّ المرأة المؤمنة عند الله.

هناك معنىً آخر ذكره بعض العلماء وهو أنّ الذي يفعل شيئاً قبيحاً ويحدّث الناس به كأنه أراد أن تفشو الفاحشة في الذين آمنوا، ألم تسمعوا بالقول: رحم الله عبداً جبَّ الغيبة عن نفسه .

الآن إليك معنى آخر: إنسان فعل فاحشة، والفاحشة انتقلت وشاعت وسرت بين الناس، ما الذي حصل؟ إن هذا العمل القبيح شاع بين الناس، وكلما شاعت الفواحش استمرأها الناس، وأقبل عليها ولم يروا بها شيئاً خطيراً.. أيضاً هذا المعنى آخر.

وعن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

((عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لا تُؤْذُوا عِبَادَ اللَّهِ وَلا تُعَيِّرُوهُمْ وَلا تَطْلُبُوا عَوْرَاتِهِمْ فَإِنَّهُ مَنْ طَلَبَ عَوْرَةَ أَخِيهِ الْمُسْلِمِ طَلَبَ اللَّهُ عَوْرَتَهُ حَتَّى يَفْضَحَهُ فِي بَيْتِهِ))

(مسند الإمام أحمد)

يوجد أشخاص - سبحان الله - همُّهم تتبع العورات، قنص الزلاّت، همُّهم أن يصطادوا في الماء العكر، أن يبحثوا عن زلةٍ فيشيعوها، هؤلاء يتتبعون عورات الناس.. من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه في عقر داره.

وقد قال عليه الصلاة والسلام حينما أمر أن يستر الإنسان ذنبه قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي الْيَسَرِ قَالَ أَتَتْنِي امْرَأَةٌ تَبْتَاعُ تَمْرًا فَقُلْتُ إِنّ فِي الْبَيْتِ تَمْرًا أَطْيَبَ مِنْهُ فَدَخَلَتْ مَعِي فِي الْبَيْتِ فَأَهْوَيْتُ إِلَيْهَا فَتَقَبَّلْتُهَا فَأَتَيْتُ أَبَا بَكْرٍ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ قَالَ اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ وَلا تُخْبِرْ أَحَدًا فَلَمْ أَصْبِرْ فَأَتَيْتُ عُمَرَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ اسْتُرْ عَلَى نَفْسِكَ وَتُبْ وَلا تُخْبِرْ أَحَدًا فَلَمْ أَصْبِرْ فَأَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لَهُ فَقَالَ أَخَلَفْتَ غَازِيًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فِي أَهْلِهِ بِمِثْلِ هَذَا حَتَّى تَمَنَّى أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَسْلَمَ إِلا تِلْكَ السَّاعَةَ حَتَّى ظَنَّ أَنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ قَالَ وَأَطْرَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طَوِيلا حَتَّى أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهِ: (وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ) إِلَى قَوْلِهِ: (ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ)))

(سنن الترمذي)

وفي حديث الدعاء:

((عَنْ جُبَيْرِ بْنِ أَبِي سُلَيْمَانَ بْنِ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ قَالَ سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ يَقُولُ لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدَعُ هَؤُلاءِ الدَّعَوَاتِ حِينَ يُمْسِي وَحِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي دِينِي وَدُنْيَايَ وَأَهْلِي وَمَالِي اللَّهُمَّ اسْتُرْ عَوْرَتِي وَقَالَ عُثْمَانُ عَوْرَاتِي وَآمِنْ رَوْعَاتِي اللَّهُمَّ احْفَظْنِي مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ وَمِنْ خَلْفِي وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي وَمِنْ فَوْقِي وَأَعُوذُ بِعَظَمَتِكَ أَنْ أُغْتَالَ مِنْ تَحْتِي))

(سنن أبي داوود)

أيها الإخوة أعتقد أن المؤمن الصافي حينما يسمع قصةٍ ويكتمها يشعر بسعادةٍ لا يعلمها إلا الله، فالنفس تميل للفضائح، الإنسان يميل إلى أن يُضحك الناس فيقول: هل سمعتم فلاناً ماذا فعل ؟ هل عرفتم لماذا طلق زوجته، هل عرفتم فلاناً عندما صاحب فلاناً كيف خانهُ مع زوجته، هذه قصص يراها مرضى القلوب ممتعة ويحب الناس أن يرووها ويتحدثوا بها في مجالسهم، دائماً التكليف يتناقض مع طبع الإنسان، لكنّ الفطرة تتوافق مع التكليف، عندما ينفذ الإنسان أمر الله عزّ وجلّ يشعر في البداية بمجاهدة، أما حينما ينتصر على نفسه ترتاح نفسه.. فالتكاليف سمّاها الله تكاليف لأنها ذات كُلفة، أما

الأعمال الكاملة والصالحة تتوافق مع الفطرة، فالتكاليف تتناقض في البداية مع الطبع المتعلِّق بالجسم، وتتوافق في النهاية مع الفطرة المتعلقة بالنفس، لذلك المستقيم مرتاحةٌ نفسه لعل جسمه يتعب أما نفسه مرتاحة.

من الأدعية المتعلِّقة باسم الستار: اللهمّ أنت الحليم الستار، وأنت عالم الغيوب والأسرار، أمدُّ إليك يدي تحت ستار الليل وقد مدّ الليل أستاره ومددت لعبادك يَدا الحليم الغفار، فاستر اللهمّ عورتي، وامحُ حوْبتي، وآمن روعتي، وشدّ من عزيمتي، فإني استحيي منك، وأنا في الدنيا تشغلني عنك، فكيف بحالي يوم لقائك ياغفار الذنوب وستار العيوب بضعفي أمام قوتك، وعجزي أمام قدرتك، أسألك العفو والصفح، والمغفرة والرضوان ياذا الجلال والإكرام.

إخواننا الكرام... أرجو الله سبحانه وتعالى، أن يكون من هذا الاسم الستار مبدأ لنا بقدر ما نستطيع هذا المبدأ **" طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس ".**

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ))

(سنن الترمذي)

((من ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة))

موضوع الستر أحد أخلاق المؤمن الأساسية والله عزّ وجلّ هو الستار، فإذا تاب العبد توبةً نصوحاً أنسى الله حافظيه والملائكة وبقاع الأرض كلّها خطاياه وذنوبه.. فالله عزّ وجلّ يظهر الحسن ويخفي القبيح، والإنسان المؤمن يتخلّق بأخلاق الله، ويقتدي برسول الله، والإنسان الكافر والعاصي يبحث عن العيوب ويُخفي الصفات الطيّبة في غيره، فهو قنّاص، فحينما يعثر على خطيئة كأنّه عثر على كنزٍ ثمين يأخذها ويفضح بها وينشرها في الناس.

فأنت مؤمن بمعنى أنّك ستّار، مؤمن تستُر على إخوتك أخطاءهم حتى النصيحة إن كانت أمام ملأ كانت فضيحة، لا تكون النصيحة نصيحةً إلا إذا كانت بينك وبين أخيك.. فإذا أحببت أن تنصح يجب أن تختار الوقت المناسب والمكان المناسب، أما إذا نصح الناصح أمام ملأٍ فربما انقلبت النصيحة فضيحة وابتعد عن اسم الستّار، والنبي قال:

((تخلّقوا بأخلاق الله))

فأحياناً يخطب شاب فتاة ثم تفسخ هذه الخطبة، فتجد معظم الماس يتكلّمون عن أشياء كانت وأشياء لم تكن حتى يبرروا انسحابهم من هذه الخطبة، ما كان ينقصهم لو قالوا كلاماً موجزاً: لا يوجد نصيب، والله هم أحسن منا ولكن لا يوجد نصيب، لكنهم طلبوا أشياء لا نقوى على تحمُّلها، فانقطع النصيب، فلا تدخل في الأعراض والأخطاء.

فكلّما ارتقى الإنسان في مراقي الإيمان يظهر الحسن ويخفي القبيح، وكلّما هبط يظهر القبيح ويُخفي الحسن، ودائماً وأبداً أو دعو أذهانكم هذا القول:

((تخلّقوا بأخلاق الله))

الله عزّ وجلّ ستّار، وستّار صيغة مبالغة تعني أنّه كثير الستر نوعاً وكماً، وكلّما كنت أقرب إلى الله كنت أكثر سِتراً على إخوانك.

٨٦- اسم الله الرب :

مع الدرس السادس والثمانين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم الرب.. وهو من أقرب الأسماء إلى العبد، والربُّ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى إلا أنّه من الأسماء الزائدة على الأسماء التسعة والتسعين التي وردت في أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

الربُّ في اللُغة هو المالك، هو السيّد هو المُنعم، هو المربّي، ولعلّ أقرب المعاني إلى الإنسان أنّه المربّي، ولا يطلَقُ غيرَ مضافٍ إلى على الله تعالى، رب، أو الرب، لا يُطلَق إلا على الله تعالى، أمّا إذا أُضيف يطلق على الله تعالى وعلى عباده، كقولنا: ربُّ الدار أي صاحبها، إذا أُضيف.. مشتركٌ بين الذات الإلهيّة وبين الإنسان، أمّا مِن دون إضافة.. ربٌ أو الربُّ لا يطلق إلا على الله تعالى.

عالمٌ ربّانيّ أي راسخٌ في العلم، إنسانٌ ربّانيّ: أيْ كلُّ حياته محصورةٌ في معرفة الله وذكره وخدمة عباده، فالربّاني هو الذي لا يتحرّك إلا وفق منهج الله، لا يقف موقفاً، ولا يُعطي، ولا يمنع، ولا يغضب، ولا يرضى، ولا يصل، ولا يقطع، إلا وفق مرضاة الله، عالمٌ ربّاني.. أي راسخٌ في العلم، وكما يقول سيدنا علي: الناس ثلاث.. عالمٌ ربّانيّ، ومستمعٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رَعاع أتباع كلّ ناعق، لم يستضيؤوا بنور العلم ولم يلجؤوا إلى ركنٍ وثيق.

العالم الربّاني الراسخ في العلم، الإنسان الربّاني هو الذي لا يتحرّك إلا وفق مرضاة الله، كل حركاته في حياته بما يرضي الله عزّ وجلّ.

لفظ الربّ مشتقٌ من التربية، فالله سبحانه وتعالى مربٍ ومدبّر لخلقه، المربي له صفتان أساسيّتان.. أنّه مُمِدّ، وأنّه يرعى، الذي يمدّنا بما نحتاج هو ربُّنا، والذي يُمدُّ أجسادنا هو ربُّنا، والذي يربّي نفوسنا، يهدينا إلى صراطه المستقيم، يُلْجئنا إلى بابه هو ربُّنا.

تقريباً ولله المثل الأعلى الأب يوفِّر لأولاده حاجاتهم الماديّة، طعام، شراب، كِساء، حاجات ثم يربّيهم بمعنىً آخر يرعى أخلاقهم، يرعى دينهم، يرعى تعليمهم، يرعى مستقبلهم، ففي معنى الربوبيّة المشتقّة من التربية معنىً ماديّ ومعنىً روحيّ.

قالت العلماء: وإذا أُدخِلت - ال -على كلمة رب اختصّ الله تعالى بها الرب هو الله لأنّها للعهد، أي الربّ المعهود ولا ربّ سواه.

الله سبحانه وتعالى مالك المُلك، مالك المالك والمملوك، فما معنى قوله تعالى:

((الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٢))

(سورة الفاتحة)

أي مالك المالك ومالك المملوك، مالك السيّد ومالك العبد.

الرب من معانيه أنّه خالقٌ ورازقٌ، وكلُّ ربٍ سواه غير خالقٍ وغير رازقٍ.

الأب يربّي أولاده لكن لم يخلقهم ولم يرزقهم، فإذا قلنا فلان مُرَبٍّ، والأب مُرَبٍّ، والمعلِّم مُرَبٍّ أي يقدِّم توجيهات، يتابع، يحاسب، يضيّق، يشدد، يكافيء، يعاقب أما إذا قلنا: الله ربُّ العالمين أي خلقنا وأمدّنا ووجّهنا.

لذلك أنت في نعمٍ ثلاث.. نعمة الإيجاد، ونعمة الإمداد، ونعمة الهدى والرشاد، أوجدك ولم تكن شيئاً مِن قبل، وأمدّك بما تحتاج، ثم هداك إليه.

كلمة الرب وردت في القرآن الكريم بضع مئاتٍ من المرّات، حتى إنّ بعض المصاحف التي تُلوّن كلمة الله باللون الأحمر، تلوّن معها كلمة رب لأنّه ورد أنّ الرب هو اسم الله الأعظم، فأقرب اسم لك هو ربُّ العالمين.

والحقيقة أن كل واحد من الإخوة الحاضرين، وبشكلٍ موسّع كل مؤمن يتحدّث عن ربوبيّة الله الشيء الكثير، فيقول لك: فعلت كذا فأدّبني، فعلت كذا فكافأني، دعوته فاستجاب لي، ظلمت فظُلِمتُ، اعتديتُ فاعتُدي علي، أكلت مالاً مشبوهاً فأتلف الله مالي.. كل واحد فيما بينه وبين الله يعلم أنّ الله سبحانه وتعالى يحاسبه حساباً دقيقاً، هذه هي التربية الروحية، ففي سورة الفاتحة قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

فالله عزّ وجلّ قوي، وقدير، وعليم، وجبّار، ومتكبّر، وقاهر، أما أنت كعبد الله عزّ وجلّ ربُّك هو الذي خلقك ورزقك ودلّك عليه.. قال الله تعالى حكاية عن سيدنا إبراهيم:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢))

(سورة الشعراء)

الحقيقة كلمة(رب)..ذات خصائص جمة أولاً من خصائص التربية العلم والرحمة، ومن خصائص التربية القدرة، يعلم، وهو على كل شيء قدير، وهو رحيمٌ بنا، أما معنى قول الله عزّ وجلّ في سورة الفاتحة:

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

أيْ أنّه خالق الأكوان وجميع العوالم التي خلقها، فالعلاقة بين خالق الأكوان وبين جميع العوالم التي خلقها - الأكوان - علاقة تربية أي خلق وإمداد وإكرام وعناية، علاقة حب، علاقة عناية، فأحياناً يكون هناك علاقة بين شخصين علاقة محاسبة، علاقة انتقام، علاقة قسوة.

وأوضح مثل: علاقةُ أيّةِ أمٍ على وجه الأرض بابنها علاقة حب، علاقة رحمة، علاقة صلاح، فإذا قلنا الله ربُّ العالمين، أو:

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

أيْ أنّ الله سبحانه وتعالى هو خالق الأكوان، وما سوى الله عوالم، والعلاقة بين الخالق وبين العوالم التي خلقها علاقة رحمة، فالرحمة عطاء فيها علم، وفيها قدرة، وفيها جمال، وفيها لطف، وفيها عناية.
لذلك يقول سيدنا علي كرّم الله وجهه: **" والله لو كُشِفَ الغطاء ما ازدتُ يقيناً "**، والحقيقة لن تكون على نحوٍ يَرضَى الله عنك إلا إذا أيقنت بربوبيّته لك.

لقد سمعت ذات مرة كلمة.. فقد كان إنسانٌ يصيح في الطريق ويبدو أنّ لديه مشكلة ما، فصاح غاضباً وقال: - يعني: إذا لم يكن له أب أما له رب!- هذه الكلمة تركت في نفسي أثراً كبيراً، فالمربّي هو الله، قد تجد يتيماً تولاّه الله بالعناية ففاق كلّ الأطفال الذين ربّاهم أهلوهم.

في الفاتحة:

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وكلمة ربّ العالمين لا تعني أنّه ربُّ الإنسان فقط، فأحياناً الإنسان لضيق نظره، ولضيق أفقه، ولمحدوديّته يظُنُّ أنّ الله له وحده، أو له ولإخوانه، أو له ولجماعته، أو له ولمسجده، ألا فاعلم أن ربَّنا عزّ وجلّ لكلّ عباده، لكلّ المؤمنين هو ربُّهم، لكلّ الناس، لكلّ الحيوانات، لكلّ النباتات، لكلّ الجمادات، لكلّ العوالم.

يقولون: عالم الحشرات، عالم النبات، عالم الأسماك، عالم الأطيار، عالم الفضاء الخارجي، عالم الأرض، عالم الجبال، عالم البحيرات، عالم البحار، كل المخلوقات المتجانسه اسمُها عالم، واللهُ ربُّ العالمين.

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

وفي سورة الأنعام قال تعالى:

(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبّاً وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (١٦٤))

(سورة الأنعام)

ما من كلمةٍ في اللُغة أوسع شمولاً وأكثر استغراقاً من كلمة شيء.. فالذرة شيء، وجزئيّات الذرة شيء، النواة شيء، والكُهيرب - الإلكترون - شيء، المدار شيء، الفيروس شيء، عوامل المرض وهي أقلّ من الفيروس شيء، الشمس شيء، المجرّات شيء، الكون شيء، ما من كلمةٍ في اللُغة أوسع شمولاً ولا أكثر استغراقاً من كلمة شيء.. قال الله تعالى:

(قُلْ أَغَيْرَ اللّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

فإذا أردت أن تقيم علاقة طيّبة ؛ أتُفَضِّلُ أن تقيمها مع شُرْطيٍّ وتسترضيه وأنت تعرف أن عمله محدودٌ بساحة من الساحات وهو فقط ينظم شؤون السير، ولا يملك أيَّ شيء آخر، أم تقيمها مع ملك يملك البلاد كلّها بخيراتها وبمواردها، وبثرواتها وسائر شؤونها.. أيهما تتخذ وليّاً لك ؟!!

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

ليس ربَّ الناس، ربّ العوالم، ربّ المخلوقات جميعاً.

فربما ينام أحد في خيمة في الصحراء، وقد يخاف من وجود أفعى ليلاً وهذا ممكن في الصحراء، ولابد أن ينام لأنه متعب مرهق، فينام متوكلاً على الله. وأنت حينما تنام على من تتوكّل ؟ تتوكّل على ربِّ العالمين، هذه الأفعى بيد الله عزّ وجلّ وهو الذي يحول بينها وبينك إن تتوكل عليه، أنت حينما تتعامل مع خالق الكون كلُّ المخلوقات بيده.

(رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ)

وفي سورة الأعراف قال الله تعالى:

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(٥٤))

(سورة الأعراف)

كأنّ هذه الآية أشارت إلى تعريف الربوبيّة.. أحياناً نصنع طائرة ونبيعُها، فنحن صنعناها. أما أمرها الآن فبيد من اشتراها، قد يستخدمها لعدوان، أو يستخدمها لنقل، أو يستخدمها في أعمال الاستطلاع، أو يجعلها على أرض المطار جاثمة، أو يخفيها، الذي اشتراها هو الذي يملك أمرها، نحن صنعناها ثم بعناها، لكنّ الله سبحانه وتعالى ولله المثل الأعلى أيُّ شيءٍ خلقه بيده، بملكوته.

(ألا لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

هناك شيء آخر.. فهذا الشيء الذي خلقه الله عزّ وجلّ: صلاحُ أمرِهِ وكل الأحوال منوطٌ بخالقه، التوجيه الذي يسعده توجيه خالقه، التوجيه الذي يحفظه توجيه خالقه.

(ألا لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ)

أي ينبغي أن تتبع أمر الذي خلق.

فالمعنى الأول.

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ)

أي خَلْقهُ ويأمرُه دائماً، أي أمره بيده، تحت سيطرته، في قبضته، في ملكوته.

المعنى الثاني.. أنّ هذا الشيء الذي خُلق لا يصلُح ولا يستقيم أمره إلا إن اتبع أمر الذي خلق.

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ)

ربُّ العالمين هو الذي

(لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ)

وقال الله تعالى في سورة التوبة:

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩))

(سورة التوبة)

(لا إِلَهَ إِلا هُوَ)

هو الرب أي ما من حركةٍ، ولا من سكنةٍ، ولا خفضٍ، ولا إعزازٍ، ولا إذلالٍ، ولا قبضٍ، ولا بسطٍ، ولا سكينةٍ، ولا خوفٍ، ولا قلقٍ، ولا طُمأنينةٍ إلا بيده.

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلا هُوَ)

أي يكفيني.

إذا أعطينا إنساناً شيكاً مفتوحاً وموقّعاً وتركنا له الخيار في أن يضع فيه ما يشاء من المبالغ، فلو سجل مليوناً أو ألف مليون أو مليون مليون كلُّه نافذ، فمن يملك هذا الشيك المفتوح والذي سجل فيه أكبر رقمٍ حتى لو كان رقماً فلكياً.. أم من يفرح بعدد من الليرات الحديد التي ترن في جيبه ؟

(فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ)

فإذا قال المؤمن:

(حَسْبِيَ اللَّهُ)

فأنت مع القوي، ومع الغني، ومع الرحيم، فأنت مع الخالق، ومع القديم، ومع الأبدي، أنت مع من بيده كلُّ شيء.

(حَسْبِيَ اللَّهُ)

ونعم الوكيل.. فهذه آية، وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول:

(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)

(الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ(١٧٣))

(سورة آل عمران)

قرأت عن سيدنا الصديق قال: **ما ندم على شيءٍ فاته من الدنيا قط، لأنّ الله حسبه، ومن كان الله حسبه كفاه أمر الدنيا كلّها.**

فقد قال أهل الكهف:

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهاً لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً (١٤))

(سورة الكهف)

لا أدري ما إذا كنت قد أوضّحت هذه النقطة.. أنت حينما تكون مع إنسان فإنّ هذا الإنسان محدود مهما علا شأنه، لكن حينما تكون مع الخالق ربُّك هو ربُّ السماوات والأرض.

ذات مرة هاجت عاصفة شديدة جداً ولعل سرعتها كانت تزيد عن مائة كيلو متراً فاقتلعت مئات البيوت المحميّة.. ولكن حدثت حادثة شديدة الغرابة.. بيتان متلاصقان، فالقوس الأول ملتصق بالقوس الثاني، وهذه البيوت مزروع بداخلها ثمار، والثمار في أيام البرد ترتفع أسعارها ارتفاعاً كبيراً، فحجم إنتاج البيت مئتا ألفاً من الليرات تقريباً، وهذه العاصفة الهوجاء هبّت فاقتلعت أحد البيتين وأبقت الآخر، والبيتان لأخوين أحدهما صالحٌ والآخر شرير، فالشرير اقتُلِع بيته وأُتلف محصوله، وأصبح بيته أنقاضاً على بعد أمتار من مكانه، والشيء الذي لا يصدّق ؛ فالعاصفة عاصفة والمنطقة واحدة بل إنّ البيتين متلاصقان، فكلمة الفتية.

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ)

فكلمة الفتية هذه تعني غاية التوكل والتفويض.

أي ربُّك الذي يرعاك بيده الرياح، بيده العواصف، بيده الأعاصير، بيده الأمطار، بيده إنبات النبات، بيده مسببات الأمراض، بيده الفيروسات، كل شيء بيده.

(لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا)

أيّ إلهٍ تعبده يكون دون الله عزّ وجلّ، فأحياناً يكون دوناً بدرجة أو بدرجتين أو بثلاث أو بأربع، أما إذا وازنا بين جهةٍ قويةٍ تمحضها ودّك وبين خالق الكون فليس هناك نسبة تجمع بينهما.

(مِنْ دُونِهِ)

فالله عزّ وجلّ فوق الخلق جميعاً وخلقه لا شيء أمامه، لذلك قالوا:

(وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا)

وقال الله تعالى في سورة الرحمن:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨))

(سورة الرحمن)

هناك ظاهرة لا أحد ينتبه لها.. افتح تقويما وقلِّب أوراقه وافتح على يوم ثمانية وعشرين تشرين ثان فتجد أنّ شروق الشمس عند الساعة الخامسة وسبع دقائق، وهذا التقويم من خمسين سنة ويمكن أن يكون من مائة سنة وهو صالح لمليون سنة قادمة، فحركة الأفلاك بمعشار الثانية:

(اللّهُ الّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَاراً وَالسّمَاءَ بِنَاءً وَصَوّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطّيّبَاتِ ذَلِكُمُ اللّهُ رَبّكُمْ فَتَبَارَكَ اللّهُ رَبّ الْعَالَمِينَ (٦٤))

(سورة غافر)

فثبات حركة الأفلاك، دليل واضح على أن حركتها وسكونها بيد الله تعالى. حتى إنّ أضخم ساعة في العالم في العاصمة لندن - بيج بن - تضبط على نجم، فقد تؤخِّر أو تُقدّم في السنة عدة ثوانٍ فقط، فمن يصححها ؟ النجم وهو أدقُّ منها، تضبط عليه، فهذا معنى قوله تعالى:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ)

فإذا كان للإنسان بيتاً مشرفاً على جهة الغرب أو جهة الشرق يقول لك: في الشتاء الشمس تشرق من ها هنا، وفي الصيف تشرق من هاهنا، فهناك مسافة كبيرة جداً بين المشرقين، فالقوس الذي يسع أقصى المشرق وأقصى المشرق على مدار الفصول قوسٌ واسعٌ جداً، فهو في آية.

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

هو الذي جعل الشمس تشرق وجعلها تغيب، أما ربُّ المشرقين النهاية العظمى صيفاً والعظمى شتاءً.

إذا كان بيت الإنسان يطل على الغرب فإنه يرى الشمس تغيب في الشتاء بالاتجاه الغربي الجنوبي، أما في الصيف فاتجاهها غربٌ تقريباً، السبب في ذلك أن الشمس تكون في فصل الصيف عامودية، أما في فصل الشتاء تدخل إلى أقصى الغرف لإنها تكون في فصل الشتاء مائلة.. فمن جعلها هكذا ! لو أنها دائماً عامودية كنا في صيفٍ دائم، لو أنها مائلة دائماً كنا في شتاءٍ دائم، أما أن تتنوع بين العامودية وبين المائلة فهو سبحانه الذي جعلها هكذا.

هذا معنى:

(رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ)

أما إذا قال الله عزّ وجلّ:

(فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنّا لَقَادِرُونَ (٤٠))

(سورة المعارج)

فكل يوم لها شروق معين، يتحرك على مدار العام من أقصى اليمين إلى أقصى الشمال وبالعكس، كل يوم لها زاوية تشرق منها، وربُّ العالمين أي مالكهم.. وكل من ملك شيئاً فهو ربه، ربُّ الدار أي صاحب الدار، ربُّ البيت أي صاحب البيت، ربُّ الأسرة أي مالك الأسرة، ومعنى آخر فالربُّ هو

المالك.

وفي الصحاح: الرب اسمٌ من أسماء الله تعالى، ولا يقال في غيره إلا بالإضافة.

الرب هو الله، أما ربُ البيت قد يكون إنساناً، والربُ هو المُصْلِح، والربُ هو السيّد، والربُ هو المدبّر، والربُ هو الجابر، والربُ هو القائم.. ويقال لمن قام بإصلاح شيءٍ وإتمامه ربّه يرُبّه فهو ربٌ له والرب هو المعبود.

أيها الأخوة... أذكِّركم مرة ثانية بأن أقرب اسم من أسماء الله الحُسنى إلى المؤمن هو اسم ربُ العالمين على الحكاية، أو اسم ربِ العالمين على الإعراب، هذه لها تعليق فلك أن تقول سورة المؤمنون وبالإعراب سورة المؤمنين، لكن لك أن تقول المؤمنون اسمٌ للسورة. لك أن تلفظها بالرفع دائماً تقول سورة المؤمنون، العلماء يقولون: " على الحكاية أي تحكى هكذا فلا نخضعها للإعراب "، فلك أن تقول سورة المؤمنون و سورة المؤمنين وكلاهما صحيح.

في بعض التفاسير شرحت كلمة رب العالمين بما يشعر بأنها تعني الثناء المطلق على الله، مثلاً هناك إنسان جلاد عمله أن يجلد الناس، وهناك مربيٍ، وهناك سارق، وهناك معتدٍ أثيم، أما إذا دخلت إلى مدرسة فمدير المدرسة ماذا يمثِّل الأذى أم الخير ؟ طبعاً الخير، والتربية والتعليم والتهذيب، وتفقُّد الطلاب، ورعايتهم، رعاية سلوكهم وأخلاقهم وصحتهم وعلمهم ورعاية علاقاتهم الاجتماعية، فمدير مدرسة ومدير مشفى هذا منصب خيري فيه خيريّة وفيه رحمة، لكن قد يكون السجّان له وظيفة ثانية، قد يجلد قد يعذب، لكن علاقة السجّان مع السجين علاقة تعذيب لا علاقة رعاية، علاقة تعذيب، علاقة قهر.

فالمعنى الذي أريد أن أقوله كلمة ربِ العالمين هي ثناءٌ مطلق على الله.. ربّ العالمين أي هو خالق، رب العالمين أي هو رازق، رب العالمين أي مُمِد، رب العالمين أي رحيم، رب العالمين أي عليم، رب العالمين أي قدير، رب العالمين أي محب، رب العالمين أي رؤوف، فأجمع الخلق والرزق الإمداد والعلم والرحمة والقدرة والحب والإكرام والرأفة كلها جمعت بكلمة رب العالمين.

فقد قال بعض المفسرين: **" كلمة رب العالمين تعني الثناء المطلق على الله "**، إذا قلت:

(الْحَمْدُ لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)

فإنك تثني على الله عزّ وجلّ.

الآن التربية تربية الله لعباده تأخذ منحيين اثنين: تربية خَلَقيّة، وتربيةٌ شرعيةٌ تعليمية.

فأنت بشكل عام والجو برد قارص وابنك الذي تحبه بلا معطف، تذهب وتشتري له معطفاً، هذه تربية خَلَقِيّة، يحتاج إلى غرفة خاصة، يحتاج إلى مال، يحتاج إلى كتب، يحتاج إلى أقساط، يحتاج إلى أشياء

ثانوية.. فتعطيه إياها هذه كلها تربيةٌ خَلقية.. لكن أحياناً رأيته يكذب فتؤدبه، رأيته لا يصلي فتأمره بصلاة، رأيته يلهو بأشياء سخيفة تنهاه عنها، أنت الآن عملك شرعي.

يوجد تربية خَلقية وتربية شرعية، فربنا عزّ وجلّ يربي أجسامنا بإمدادها بما تحتاج، ويربي نفوسنا بتزكيتها لتكون أهلاً لجنّته، فتربية الله تربيتان، لذلك ليس لغير ربّ الناس جهة يمكن أن تشرّع للعبادة أبداً، العبادة لربِّ العالمين.

شيء آخر.. قالوا: الله عزّ وجلّ يربي نفوس العابدين بالتأييد، ويربي قلوب الطالبين بالتسديد، ويربي أرواح العارفين بالتوحيد، ويربي الأشباح بوجود النِعَمْ، ويربي الأرواح بشهود الكرم، الأرواح يربيها، والأشباح يربيها بالطعام والشراب، والعارفين يربيهم تربية رفيعة جداً، كلما ارتقى الإنسان يحاسب حساباً دقيقاً، أحياناً يحاسب على ابتسامة.

فبمستوى الدكتوراه في بعض البلاد، إذا أخطأ المتقدم لنيل هذه الشهادة في مناقشته بحركة يعيد العام ويؤخّر إلى عامٍ قادم، كلما ارتقى مستواه يحاسب حساب أدق، فالعارفون بالله لهم حساب دقيق، كلما ارتقى الإنسان في سُلّم الإيمان يحاسب على الخطرات، وكلما هبط مستواه يحاسب على الكبائر.

أيضاً من معاني الربوبية قالوا: **" إصلاح أمور العباد وهذا مشتق من ربّيْت العديم "..** أربّه فأنا أصلحته، فالله سبحانه وتعالى يصلح أمور الزاهدين بجميل رعايته، ويصلح أمور العابدين بحسن كفايته، ويصلح أمور الواجدين بقديم عنايته، ويصلح أمور قومٍ يستغنون بعطائه، ويصلح أمور الخلق جميعاً.

الآية الكريمة تقول:

(وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً(١١٣))

(سورة النساء)

(وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا)

ربّاك وساقك إلى مجالس العلم، ساقك إلى طاعته، ألقى في قلبك محبته، حبب إليك الإيمان وزينه في قلبك، وكرّه إليك الكفر والفسوق والعصيان هذه تربية.

إذا كان أب يسمع وابنه تكلم كلمة بذيئة أمامه، فضحك له، فإن الولد يكررها ويتفوّه بما هو أفحش وأسوأ، أما إذا تكلم كلمة بذيئة فنهره وزجره، فإن هذا الابن لن يعود للكلام البذيء أبداً، أما إذا وجده يقرأ القرآن فكافأه، معنى المكافأة والعقاب هذه تربية، وأساساً أول صفة من صفات المربي، أن تكافئ المحسن وأن تعاقب المسيْ، وربنا عزّ وجلّ بمجرد أن تفكر في التحرُك نحوه تجد أن الله شرح لك

صدرك، ألقى في قلبك السكينة والطمأنينة، وتيسرت أمورك وعاملك معاملة جديدة وأشعرك أنه يحبك، ولمجرد أن ترتكب معصية يلقي في قلب العاصي الضيق والكآبة والحيْرة، فالله يربينا عن طريق قلوبنا..

((عَنْ عَائِشَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ عَفّانُ فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ إِنّكَ تُكْثِرُ أَنْ تَقُولَ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ وَطَاعَتِكَ قَالَ وَمَا يُؤْمِنُنِي وَإِنّمَا قُلُوبُ الْعِبَادِ بَيْنَ أُصْبُعَيِ الرّحْمَنِ إِنّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُقَلِّبَ قَلْبَ عَبْدٍ قَلّبَهُ قَالَ عَفّانُ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللّهِ عَزّ وَجَلّ))

(مسند الإمام أحمد)

فأنت حينما تتخذ قراراً حكيماً في صالح إيمانك يشرح الله لك صدرك، وحينما تنحرف قليلاً عن طريق الحق يملأ قلبك ضيقاً وقلقاً وحيرةً. فلذلك ؛ القضية دقيقة جداً.

بعض العارفين قال الرب: " **هو اسم الله الأعظم لكثرة دعوة الداعيين به** ".. فقد قال الله تعالى:

(لَا يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦))

(سورة البقرة)

لكثرة ورود كلمة رب في الدعاء استنبط بعض العارفين أن الرب هو اسم الله الأعظم، وقد قال الله تعالى:

(الّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكّرُونَ فِي خَلْقِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النّارِ (١٩١) رَبّنَا إِنّكَ مَنْ تُدْخِلِ النّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (١٩٢) رَبّنَا إِنّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبّكُمْ فَآمَنّا رَبّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفّرْ عَنّا سَيّئَاتِنَا وَتَوَفّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ (١٩٣) رَبّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ) (إِنّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤) فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبّهُمْ أَنّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنّ عَنْهُمْ سَيّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنّهُمْ جَنّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَاباً مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَاللّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثّوَابِ(١٩٥))

(سورة آل عمران)

إخواننا الكرام... تعقيبٌ أخير على اسم الله رب العالمين، صدّقوني أنّ أحدكم إذا شعر أنّ الله يتابعه، ويحاسبه على حركاته وسكناته، ويعاقبه سريعاً ويؤدّبه سريعاً فهو في موطن عنايةٍ مشددة، أما إذا ارتكب الإنسان المعاصي ولم يحاسبه الله عزّ وجلّ، ولم يتابعه فاعلموا أنّه خارج العناية الإلهيّة لأنّ الله علم فيه انحرافاً شديداً، وتمرداً وعتواً وإصراراً على انحرافه، فأحدنا إذا كان الله يؤدّبه ويحاسبه

ويحصي عليه أنفاسه، يحاسبه على كلمةٍ أو على نظرةٍ، أو على حركةٍ لا ترضيه ويؤدِّبه سريعاً فهذا محضُ ربوبيّة الله عزّ وجلّ وفي هذا الإنسان خيرٌ كبيرٌ وهو مطلوبٌ لرحمة الله، والله عزّ وجلّ يؤهِّله لرحمته.

لذلك ورد في الحديث القدسي:

((وعزّتي وجلالي لا أقبض عبدي المؤمن وأنا أحبُ أن أرحمه إلا ابتليته بكلّ سيّئةٍ كان عملها سقماً في جسده، أو إقتاراً في رزقه، أو مصيبة في ماله أو ولده حتى أبلُغ منه مثل الذّر، فإذا بقي عليه شيء شددتُ عليه سكرات الموت حتى يلقاني كيوم ولدته أمُه.))

هذه تربية الله لنا، وصدقوني أيُها الإخوة.. أنّ المصائب كلّها لو كُشِفت حكمتها لكم لكنتم في درجةٍ من قبولها لا توصف، فأنا أعرف أُناساً كثيرين سبب توبتهم، وسبب دخولهم في حظيرة الإيمان، وسبب سعادتهم وتوفيقهم مصيبةٌ ساقها الله لهم فأرجعتهم إلى الله، قال تعالى:

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢١))

(سورة السجدة)

(وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الأَدْنَى)

بالدنيا.

(دُونَ الْعَذَابِ الأَكْبَرِ)

بالآخرة.

(لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ)

فلنفهم: أن الله إذا ساق لنا بعض الشدائد فهذا من أجل أن نتوب إليه، لذلك ورد في القرآن الكريم.

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

في قوله تعالى:

(وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨))

(سورة التوبة)

أي أنّ الله ساق لهم الشدائد ليحملهم بها على التوبة، فإذا قلنا: تابوا فتاب عليهم، أي قبل توبتهم، أما إذا قلنا:

(ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا)

أي أنّ الله ساق لهم الشدائد ليحملهم بها على التوبة.

فالإنسان المؤمن لا يتضجر إذا الله عزّ وجلّ أدّبه ومعنى ذلك أنّه مطلوب، فإذا قال أحدهم لصديقه: أنا لست في راحة من كثرة الوظائف والتبعات والتكاليف، فأنا في الصف الرابع في الجامعة والدروس علينا مكثّفة والكتب صعبة، والوظائف متتالية، وعلينا تقديم أطروحة في آخر العام الدراسي، ودوام كثير ودروس عملية، فلست في راحة.

وقال له الآخر: أنا ليست لدي أية مشكلة، فأنا أنام إلى الظهيرة، لأنّه بالطبع لا يدرس وهو خارج الجامعة، وبدون عمل ولا مستقبل، فليست لديه أي مشكلة وفي راحة، فهذه الراحة راحة الموتى، وتعب الأول تعب الأحياء، إن الله عزّ وجلّ إذا علم فيك خيراً، ووضعك ضمن العناية المشدّدة ويتابعك، فلا توازن نفسك مع من هو شارد ثائه، كالدابة المتفلّته، قوي، غني، صحيح ويمارس كل شهواته بحريّة بلا قيد أو شرط، فلا توازن نفسك معه فأنت طالب علم، أنت ترجو رحمة الله، أنت تطلب الجنّة، أما ذاك شرد على الله شرود البعير، قال تعالى:

(فَلَمّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤))

(سورة الأنعام)

وقد قال تعالى:

(لايَغُرّنّكَ تَقَلُّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الّذِينَ اتّقَوْا رَبّهُمْ لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨))

(سورة آل عمران)

(لايَغُرّنّكَ تَقَلُّبُ الّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمّ مَأْوَاهُمْ جَهَنّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الّذِينَ اتّقَوْا رَبّهُمْ لَهُمْ جَنّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللّهِ وَمَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨))

(سورة آل عمران)

(آمَنَ مِنْهُمْ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ)

فقط المؤمن يا ربي، فقال له الله تعالى:

(وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلا ثُمّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ)

ملخّص الدرس.. إذا ساق الله لأحدنا بعض الشدائد ليعلم علم اليقين أنّه مطلوب لرحمة الله، وأن فيه خيراً، وأنّه في العناية المشددة.. فإذا الطبيب رأى مريضاً مصاباً بالسرطان من الدرجة الخامسة ومنتشر في كل أحشائه، فبماذا ينصح المريض ؟ يقول له: ليست هناك مشكلة فكل ما شئت.. وإذا سأله المريض عن نوع من حبوب الدواء هل يتناوله ؟ فيجيبه: كيف ما تريد وتحب وعلى حسب راحتك..

فتجده متساهلاً معه كثيراً، أما إذا كان مريضاً بالتهاب في المعدة تجده ثائراً عليه فيما إذا تناول طعاماً غير مناسب، فإذا كان هناك أملٌ في الشفاء فتجد الطبيب يعامله بشدةٍ بالغة، أما إذا لم يكن هناك أملٌ في الشفاء فتجده يسيّب له الأمور، فإذا كان الله يتابع الإنسان فمعنى ذلك أنّ الله يحبه وهو في العناية المشدّدة.

لذلك.. إذا أحبّ الله عبده عجّل له بالعقوبة.. إذا أحبّ الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، فإن شكر اقتناه.. إذا أحبّ الله عبده جعل له وازعاً من نفسه.. إذا أحبّ الله عبده جعل حوائج الناس إليه.

فالإنسان لا يتضجر ولا يتأفف من تضييقٍ من الله عزّ وجلّ، فهذا التضييق محض رحمة، ومحض إكرام، وهو النعمة الباطنة التي فسّرها المفسّرون.

(وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)

في قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠))

(سورة لقمان)

٨٧- اسم الله الحافظ :

مع الاسم السابع والثمانين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو الحافظ.

الحافظ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى وهو اسمٌ زائدٌ على الأسماء التسعة والتسعين التي وردت فيها الأحاديث الصحيحة، الحافظ في اللُغة هو الحارس، وحفِظه حفظاً أي حرسه حراسة، وحَفِظ المال أي رعاه، وحَفِظ القرآن أي استظهره، وهذا حافظٌ من قومٍ حُفّاظ أي من الذين رُزقوا حفظ ما سمعوا.

والحقيقة من نعم الله الكبرى على الإنسان أن تكون له حافظةٌ قويّة أو ذاكرةٌ قويّة، لأنّ الإنسان إذا استمع كثيراً ونسي الذي استمعه، فماذا يستفيد منه ؟ حينما تجلس في مجلس، أو حينما تُلقي كلمة، أو حينما تتحدّث إلى صديق، فإذا خانتك ذاكرتك فلم تحفظ النصوص ولا القصص، ولا الوقائع، ولا الأفكار، ولا التحليلات، ولا التعليقات كيف تستطيع أن تصول وتجول ؟ لذلك نعمة الذاكرة القويّة من أعظم النعم على الإنسان، إلا أنّ العلماء يرون أنّ الذاكرة متعلِّقةٌ بالاهتمام، وهذا تعلّقٌ عادل فالشيء الذي تهتمُ به تحفظه.

ادخل إلى محلٍ تجاري فيه خمسون ألف قطعة وكل قطعة لها اسم ولها قياس، ولها سعر، ولها وضع معيّن، ولها مصدر، ولها منشأ، فتجد صاحب المحل لأنّ رزقه متعلِّقٌ بهذه البضاعة يحفظها جميعاً، يحفظ حالاتها وأنواعها، وقياساتها، ومصدرها، ومنشأها، وأسعارها كل ذلك في ذاكرته، بل قد يقول أحياناً لغلامٍ في المحل: اصعد تجد قطعة واحدةً بقيت من هذا الصِنف فائتني بها.. معنى ذلك أنّ المحل كلّه في ذاكرته.

فقل لي ما الذي تهتمُ له، أقُل لك إنّك تحفظه، ففي ذلك عدل فقد قال الله تعالى:

(سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى (٦) إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى (٧))

(سورة الأعلى)

كان عليه الصلاة والسلام إذا أنزل الله على قلبه الشريف سورةً من كتاب الله حفظها من أوّل مرة، والذي يحفظ دليل أنّه مهتم بما يحفظ، فالأشياء التي لا تعنيك لا تحفظها بل إنك تنساها، بل إنّ الذاكرة صُممت بشكلٍ عجيب، فالذاكرة كما قال لي بعضُ الإخوةِ العلماءِ المختصّين في علم التشريح والفيزيولوجيا - علم وظائف الأعضاء - **" أنّ مكان الذاكرة في الدماغ يتّسع لسبعين مليار صورة، وهذه الصور مبوّبة ومصنّفة، والذواكر أنواع كثيرة لا حصر لها، منها الذاكرة السمعية، والذاكرة الشمّية، والذاكرة البصريّة، وذاكرةٌ للألوان، وذاكرة للوجوه، وذاكرة للأسماء، وذاكرة للأرقام، وأنّ هذه الصور مرتّبة ترتيباً زمنياً "** فالذي تحتاجه كلّ يوم موضوع في أقرب مكان، والذي تحتاجه قليلاً يوضع في مكان متوسّط، والذي تحتاجه نادراً في مكان بعيد، والذي لا تحتاجه أبداً يمحى من الذاكرة، بل إنّ طريقة الحاسوب في قراءة المعلومات تقليدٌ لطريقة الذاكرة في استرجاع المعلومات.

أنت إذا شممت رائحةً تحاول أن تتعرّف إلى هذه الرائحة، فما الذي يحدث في الذاكرة؟ أنّ أثر هذه الرائحة يمرُّ على كلِّ ذاكرات الشم أكثر من مائة ذاكرة شمّية، فحيثما يكن التوافق تقل: إنها رائحة الياسمين، أو الفل.. وإلى آخره من الروائح.

الذاكرة وحدها من آيات الله العجيبة الدالة على عظمته، وأنت تتذكّر الشيء الذي تهتمُّ به، وهذا عدلٌ من الله عزّ وجلّ.

قد تجد إنساناً، أنا أسمّيه نسّاء، كثير النسيان في موضوعات لا تعنيه، أما في الموضوعات التي تعنيه كأنّ ذهنه مسجّله، سريعاً ما يحفظ، فلذلك إذا اهتمّ أحدنا بكتاب الله عزّ وجلّ يحفظه، وإذا اهتمّ أحدنا بالحديث الشريف يحفظه، وإذا اهتمّ أحدنا بالمعاني الدقيقة التي هي كنزٌ ثمين والمتعلّقة بكتاب الله يحفظها.

وقد يقول أحدهم: والله ما سمعت معنىً دقيقاً متعلِّقاً بكتاب الله إلا حفظته، وهذا الإنسان نفسه قد ينسى أشياء واضحة جداً وقريبة جداً لأنّها لا تعنيه، فالمؤمن مشغول بموجبات الإيمان.

قلنا: هذا حافظ من قومٍ حفّاظ، أي من الذين رزقوا حفظ ما سمعوا، والقاعدة: أكتب أجمل ما قرأت، وأحفظ أجمل ما كتبت.

لذلك، فالإنسان أحياناً يأتي إلى مجلس علم، فلماذا يطرب لما سمع ؟ لأنّ هذا الذي ألقي شفاهاً من الذاكرة أجمل ما كُتب، والذي كُتب أجمل ما قُرىء، والذي قُرِيء أجمل ما سمع.. فهناك كلام يسمع، وهذا المسموع كلام فيه الشيء الحسن، فيه أيضاً كلام يلقى على عواهنه، ولكن المكتوب أرقى لأنّه مدروس وهو خلاصة المسموع، وخلاصة المكتوب يُحْفَظ.

فأحياناً تجد إنساناً يصغي إلى درس إصغاءً تاماً، لأنّ الأمور كلّها التي تطرح في الدرس هي أجملُ ما تحويه ذاكرة المتحدث، وهي أجمل التحليلات، وأجمل التعليقات، وأجمل الإرشادات.

فقد حدثني أخ قال لي: كنت في أمريكا وهم الآن يسجلون الكتب الثمينة على أشرطة بصوت يحبونه، فالإنسان أحياناً يكون لديه وقت ميت؛ وهذا تعريف للوقت الضائع بالتعبير الاقتصادي، وهذا الوقت هو وقت انطلاقه بمركبته إلى عمله، ووقت الرياضة أيضاً، فأصبح هناك بين كل الناس سلوكٌ شائعٌ، وهو أن يمضي هذا الوقت في طريقه إلى عمله وفي عودته من عمله وفي ساعات الرياضة في سماع شيءٍ ثمين، وهذا الشريط من نعمة الله على الناس، فيمكنك أن تستمع إلى درس علم، أو إلى تفسير، أو حديث، أو إلى درس سيرة، وأنت في بيتك، أو وأنت تعمل، أو وأنت في مركبتك، أو وأنت في السفر، المؤمن الموفّق لا يُضيّع ثانية من وقته، فبإمكانه حتى في الأوقات الميّته أن يستفيد منها في طلب العلم.

قالوا: **هناك رجلٌ حافظُ العين، أي لا يغلبه النوم لأنّ العين تحفظ صاحبها "** فهو أثناء جلوسه في

مكان، يكون هذا المكان تحت سيطرة عينيه، أما في الليل فالمكان يصبح تحت سيطرة أذنيه، أرأيتم إلى نعم الله عزّ وجلّ، لذلك أصغ بسمعك للآيات التي قال الله تعالى فيها:

(قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَداً إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢))

(سورة القصص)

(اللَّيْلَ)

إن الحاسّة الأولى فيه السمع.

(أفَلا تَسْمَعُونَ)

والعكس.. الحاسة الأولى في

(النَّهَارَ)

هي العين.

(أفَلا تُبْصِرُونَ)

أنت في النهار مسيطرٌ بعينيك.. وفي الليل مسيطرٌ بأذنيك، فإذا دخلت فويسقة إلى بيتك - الفأرة - وقد سماها النبي فويسقة، وماتت تحت السرير فلا تراها عينك ولا تسمعها أذنك، فالحاسة الثالثة التي تكشفها لك حاسة الشم، فأنت بالحواس الخمس مسيطرٌ على العالم الخارجي، والآلات الحديثة استطالةٌ للحواس.. فالمجهر.. استطالةٌ للعينين، وكذلك المنظار - التليسكوب -.

رجلٌ حُفَظَة أي كثير الحفظ.

فمن منكم اطلّع على كتاب الإحياء وهو من أعظم الكُتب التي تركها الغزالي، هذا الإمام العظيم، فالإحياء يعدُّ أوّل كتاب في علم النفس الإسلامي، ففيه أحوال النفس، ودقائق النفس، وأمراض النفس، وفضائل النفس، ومناهج لتحلية النفس بالكمال، وهو من أروع ما كُتب ولكن هل تصدِّقون أيها القراء الكرام أنّ الإحياء كتبه الإمام الغزالي من ذاكرته وهو في بلاد الشام ؟!!

إذاً من أوتي حافظة جيّدةً فقد أوتي خيراً كثيراً.. وقد علّمونا ونحن في الجامعة أنّ الذكاء شيء والذاكرة شيءٌ آخر، فما كلُّ ذكيٍ ذا ذاكرةٍ قويّة، وما كلُّ ذي ذاكرةٍ قوية ذكي.. قالوا: إلاّ أنّ هناك منطقةٌ مشتركةٌ بين دائرتين متداخلتين وهذه المنطقة هي القاسم المشترك بين الذكاء والذاكرة، فكل إنسان يتمتّع بذكاء فلا بدّ من أن يستعين بذاكرة، وكل إنسان عنده ذاكرة جيّدة لا بدّ من أن يكون على حدٍ ما من الذكاء، إلا أنّ الذاكرة شيء، والذكاء شيءٌ آخر.

قيل مرةً للإمام الغزالي فيما أذكر: إنّ فلاناً حفظ كتاب الأم للشافعي. فتبسّم وقال: **زادت نسخةُ نسخة. فالحفظ وحده لا يقدِّم ولا يؤخِّر، لكنّ العقل والتدبُّرَ والفهم العميق هو الذي يرقى بالإنسان.**

الحافظ.هو الذي يثبّتك على الطريق البيّن المستقيم الذي لا ينقطع، ويحفظك على المواظبة عليه، أمّا الحَفَظةُ الذين يحصون أعمال العباد ويكتبونها عليهم هم من الملائكة، والمحافظة المواظبة على الأمر.. أحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قلّ.

المحافظة تصنع تراكم المعلومات أو غيرها، والإنسان بلا تراكم لمعلوماته لا يحقق شيئاً..

((عَنْ عَائِشَةَ أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ سَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَاعْلَمُوا أَنْ لَنْ يُدْخِلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنّةَ وَأَنّ أَحَبّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللّهِ أَدْوَمُهَا وَإِنْ قَلّ))

(صحيح البخاري)

فلو ثَبَتّ على المجيء لحضور درس ما من دروس العلم فاثْبُتْ عليه تتراكم لديك الحقائق، وإذا ثبتّ على صلاة أو على صدقة، أو ثبتّ على ذكر، أو على تلاوة.. فأحبُّ الأعمال إلى الله أدومها وإن قل.

المحافظة.. أي المواظبة على الأمر ومنه قوله تعالى:

(حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٨))

(سورة البقرة)

وقيل: المحافظة هي المراقبة، والمحافظة الذّبُّ عن المحارم، أي: الدفاع عن المحارم، والمحافظة على العهد الوفاء به والتمسُّك بالودّ.. هذه اللُغة، فإذا قلنا الله جلّ جلاله هو الحافظ، فقد حفظ خلقه وعباده من كلِّ سوء، وحفظ عليهم ما يعملون، وحفظ السماوات والأرض بقدرته.

(وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

فقد قال تعالى:

(اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥))

(سورة البقرة)

أحياناً يقول أحدهم: هذا الأمر فوق طاقتي، لا أستطيع ان أستوعبه، ولا أن أُحيط به، ولا أن أديره فهو يحتاج إلى خمسة أشخاص لإنجازه، ولكن الله جل يقول:

(وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ)

وقد قال تعالى في سورة يوسف:

(قَالَ هَلْ آَمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤))

(سورة يوسف)

وإذا العناية لاحظتك جفونها نَمْ فالمخاوف كلُّهُنّ أمانُ.

***

إذا حفظك الله عزّ وجلّ سخّر لك كل شيء حتى أعداءك هم في خدمتك.

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ)

فالإنسان قد يُحكم الأقفال.. كما حدّثوني عن أحد الصاغة وهو يعدُّ الأول في صنعته وليس له شبيهٌ قام بتصميم صندوقٍ وصنعه من الحديد بحيث لا يمكن أن يُفتح، وبقدرة قادر دخل اللصوص وفتحوه وأخذوا كلّ ما فيه.. فهو قد ظنّ أنّ هذا الصندوق

(خَيْرٌ حَافِظًا)

لكنّ الله هو خير حافظ.

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ)

الإنسان كثيراً ما يأخذ بالأسباب إلى حدّ غير معقول ويعتمد عليها، وينسى أنّ الله هو

(خَيْرٌ حَافِظًا)

فيؤتى من مأمنه، يُؤتى وهو في أعلى درجات اليقظة، يُؤتى الحَذِرُ من المنطقة المطمئن إليها، وهذا من آيات الله فقد قيل: عرفت الله من نقض العزائم.. جميلٌ جداً أن تأخذ بالأسباب وأن تأخذ الاحتياط، ولكنّ الأجمل من ذلك أن تأخذ بالأسباب وأن تعتمد على الله الواحد القهّار، أن يكون اعتمادك على الله حقاً مع الأخذ بالأسباب.

أحياناً يقولون: قمنا بعمل مراجعة كاملة على السيارة فاطمَئِنْ، فتقطعه في الطريق، وأحياناً تُجرى عليها مراجعة كاملة ويقول صاحبها أنت يا رب المسلِّم وأنت الحافظ.. فالقضية قضية دقيقة ؛ فاعقل وتوكل. فيجب أن تأخذ بكلِّ الأسباب وألاّ تعتمد في حفظها لك إلا على الله عزّ وجلّ.

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا)

إعراب حافظاً: تمييز.. أي: اللهُ خيرٌ، خيرٌ معطياً، خيرٌ آخذاً، خيرٌ حافظاً و"خيرٌ" لفظٌ مبهم، لولا التمييز لصدق على أشياء كثيرة.

(فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ)

أي حفظٌ مطلق.

قد يسافر الإنسان ؛ فهَلْ في الأرض جهةٌ يمكن أن ترافقه وأن تخلفه في بيته وسفره معًا وفي وقت واحدٍ ؟ مستحيل ذلك إلا على الله، فإذا سافر الإنسان يقول: اللهمّ أنت الرفيق في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد.

وقد يتعرض طفل صغير لحادث ؛ كأن يقع على رأسه إبريقٌ من الشاي الساخن قليلاً ويشوّه وجهه، وكلّما ألقى الأب على ابنه نظرةً شعر بحرقةٍ في قلبه، فالإنسان أثناء سفره يفكر هل أهله بخير، ويضرع لله ألاّ تكون هناك مشكلة لديهم، ويتساءل هل هم مستقرّون في البيت، وهل حدث لهم حادث مزعج.. فمن الذي يحفظ أهلك في غيبتك ؟ الله جلّ جلاله. فأنت إذا سافرت حتى تكون مطمئناً فوّض الأمر إلى الله وادعُ بهذا الدعاء: اللهمّ أنت الرفيق في السفر، والخليفة في الأهل والمال والولد. كلام ربنا كلام رائع جداً:

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا)

يحفظ لك صحّتك، ويحفظ لك مالك.. وقد يسافر المرء إلى بلد بعيد ومعه أموال طائلة وفيه يقظة وحرص وانتباه ولا ينقصه شيء فتسرق محفظته وفيها كل لوازمه الشخصيّة من جواز للسفر، للشيكات المصرفية، والمعاملات والوثائق الضرورية وبطاقة الطائرة فيصبح شريداً متسكّعاً في الطرقات.

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا)

أي يحفظ لك صحّتك، ويحفظ لك أهلك وأولادك، ومالك، وبيتك، ومحلّك، ومستودعك، وبضاعتك، وسمعتك، ومكانتك.

(فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا)

كن لي كما أريد أكن لك كما تريد.. كن لي كما أريد ولا تُعْلِمني بما يُصلحك.

وهذه الآية الكريمة وردت على لسان سيدنا يعقوب فقد قال تعالى:

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ)

أي فالله خيرٌ حافظاً يحفظ ابني يوسف، وسيرحم كِبَري وضعفي ووجدي بولدي، وأرجو من الله أن يردّه علي ويجمع شملي به إنّه أرحم الراحمين.

لذلك فاليأس من رَوْح الله كُفر، اليأس والقنوط يساويان الكُفر، قال تعالى:

(إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ)

وقال تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩))

(سورة الحجر)

هذا قرآننا الكريم الذي نزل على سيّد المرسلين هو هو الذي بين أيدينا، ليس فيه حرفٌ زائدٌ ولا حرفٌ ناقصٌ، وجميع المحاولات التي جرت لتغيير كلماته أخفقت، فقد طُبع في العهد العثماني خمسون ألف نسخة حذفت منها كلمة واحدة من سورة آل عمران في قوله تعالى:

(وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥))

(سورة آل عمران)

وقد حذفوا كلمة واحدة ولم يطبعوها وهي كلمة " **غَيْرَ** " فأصبحت الآية: " **وَمَنْ يَبْتَغِ... الإِسْلامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنْ الْخَاسِرِينَ** " فأتلفت النسخ وأحرقت، فالله عزّ وجلّ تولّى بذاته حفظ كلامه، فلا يمكن لجهةٍ في الأرض أن تُبدِّل أو أن تغيّر فيه، وليس معنى هذا أنّه لا تجري محاولات بل تجري وما أكثر ما تجري، ولكنّها لا تنجح، ولن تنجح بإذن الله.

وقد قال العلماء أيضاً " **من لوازم حفظ القرآن الكريم حفظ سنّة رسول الله لأنّها مبيّنه** "، فالقرآن قانون والسُّنة معه كمرسوم تفسيري تشريعي، إذا حافظنا على القانون ولم نحافظ على المرسوم فلم نستفد من ذلك شيئاً لأنّ القانون مُقنِّنٌ والمرسوم مفسِّر.. فمن لوازم حفظ كلامه حفظ سنّة نبيّه..

لذلك هؤلاء العلماء الأجلاء أمثال البخاري ومسلم وابن ماجة والترمذي والإمام مالك وغيرهم، هؤلاء العلماء الذين شمّروا ودرسوا حديث رسول الله ودرسوا أحوال الرجال، وصنّفوا، وعدّلوا وجرّحوا، واعتمدوا قواعد دقيقة جداً لتدوين الحديث، هؤلاء أعانهم الله على أعمالهم، ويسّر الله لهم عملهم، لأنّه تولّى بنفسه حفظ كتابه وحفظ سُنّة نبيّه.. لقوله تعالى:

(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ)

وفي سورة الأنبياء، يقول الله عزّ وجلّ:

(وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢))

(سورة الأنبياء)

أي مدققين فيما يعملون ومراقبين لهم. والحفظ له معنيان إما أن أحفظ كلّ ما تفعله وكلّ ما تقوله، وأسجل عليك كلّ ما تفعله وكلّ ما تقوله، وإما أن أحفظك من كلّ مكروه.. فالمعنى الأول هو العلم، والمعنى الثاني هو التربية، أي حفظٌ في الذاكرة وإحصاء، وحفظٌ من كل مكروه وأذيّة.

قال الله تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد)

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ)

من كل سوء.

(يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

يعني أن هؤلاء الحفظة يؤدون عملهم بأمر من الله.

وفي سورة البروج، قال الله تعالى:

(بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ (٢٢))

(سورة البروج)

فهذا اللوح المحفوظ، اختلف العلماء في تفسيره، فأقرب ما يكون أن المبادئ الكبرى التي خلق الله الخلق وَفقها، والسنن العظمى التي سنَّها الله في تعامله مع خلقه، هي في اللوح المحفوظ، ومن باب التقريب والتوضيح ؛ أن أمة عظيمة لها دولةٌ كبيرة ولها أجهزةٌ بالغة الدقة، لا بد لها من دستورٍ فيه كلُّ الأمور الأساسية، ويصدر مع هذا الدستور قوانين كثيرة ومراسيم تشريعية، ومراسيم تفسيرية، ومراسيم تنظيمية، إلا أن الأصل أن كلّ القوانين تنطلق من الدستور، مثلاً حرية الكلمة، حرية العمل، حرية التعلّم، حرية التعبير هذه كلها في الدستور، ثم القوانين تفسرها وتوضّح كيفية الأخذ بها، فاللوح المحفوظ يضم المبادئ العظمى، والسنن الكبرى التي يتعامل الله بها مع خلقه في اللوح المحفوظ.

الإمام الحسن البصري يقول: **" إن هذا القرآن المجيد عند الله في لوح محفوظ يُنَزّل منه ما يشاء على من يشاء من خلقه ".**

ويقول الله تعالى في سورة النساء عندما يتحدث عن الأسرة وقوامة الرجل في بيته وأهلِهِ:

(الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيّاً كَبِيراً (٣٤))

(سورة النساء)

فأرقى صفة في المرأة أنها تحفظ زوجها، تحفظ عرضها في غيبة زوجها، وتحفظ مال زوجها في غيبته، وتحفظ سرَّ زوجها، وتحفظ نفسها.

المرأة الصالحة تحفظ نفسها، لا تسمح لأجنبي أن ينظر إليها، لا تلين ولا تخضع بالقول للبائع إذا اشترت، لا تضرب برجلها ليظهر ما يَخْفى من زينتها، كلامها جاد، مشيتها جادة، نظراتها مستقيمة لا يزيغ بصرها، لا تسمح لأحداً أن يطمع فيها.. فقد قال تعالى:

(يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَعْرُوفاً (٣٢))

(سورة الأحزاب)

(وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آَبَائِهِنَّ أَوْ آَبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ)

(وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِنْ زِينَتِهِنّ وَتُوبُوا إِلَى اللّهِ جَمِيعاً أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلّكُمْ تُفْلِحُونَ(٣١))

(سورة النور)

أما هذه التي تبدو بأجمل زينة، تثير كلّ الناس حولها، لسان حالها يدعو الآخرين إلى التحرش بها، هذه المتبرجة، المتفلِتة التي لا ترعى حقّ الله في خروجها، فلسان حالها يدعو الناس إلى الدنو منها والطمع فيها، فالمرأة المؤمنة تحفظ نفسها، وتحفظ مال زوجها، وتحفظ سرّ زوجها.

يقول عليه الصلاة والسلام:

((إني أكره المرأة تخرج من بيتها تشتكي على زوجها))

((عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ قَالَ الْمُخْتَلِعَاتُ هُنّ الْمُنَافِقَاتُ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِالْقَوِيّ وَرُوِيَ عَنِ النّبِيّ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ قَالَ أَيّمَا امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ لَمْ تَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنّةِ))

(سنن الترمذي)

وأخرج البزار والحاكم وصححه عن ابن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا ينظر الله إلى امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه))

فالآية الكريمة:

(الرّجَالُ قَوّامُونَ عَلَى النّسَاءِ بِمَا فَضّلَ اللّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللّهُ وَاللاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنّ فَعِظُوهُنّ وَاهْجُرُوهُنّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنّ)

حدثني أخ يعمل في طلاء البيوت قال لي: كنا مجموعة من العمال نعمل في البيت وبه غرفة مغلقة من الداخل، الرجل حريص على أهل بيته وفي تلك الغرفة زوجته، قال: **"سبحان الله "** في أثناء غيبته خرجت بثيابٍ لا يعقل أن يراها فيها إلا زوجها، ثياب شفافة، إنها متفلِتة خرجت بين الشباب في غيبة زوجها، فإن هذا السلوك لا يكون من مؤمنة، المؤمنة تحفظ نفسها وتحفظ سرّ زوجها وتحفظ مال زوجها وتحافظ على سمعته وكرامته من خلال حشمتها وصونها لذاتها.

وقد قال عليه الصلاة والسلام:

((عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (خير النساء التي إذا نظرت إليها سرتك وإذا أمرتها أطاعتك وإذا غبت عنها حفظتك في نفسها ومالك) قال: وتلا هذه الآية "الرجال قوامون على النساء" إلى آخر الآية.))

والحفظ أيضاً ورد في القرآن الكريم:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ (٦) وَحِفْظاً مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧))

(سورة الصافات)

أي إذا استرق الشيطان السمع أتبعه شهابٌ ثاقب.

أيها الإخوة القراء... مامنا واحدٌ إلا ويتمنى أن يحفظه الله.. إلا أن النبيّ عليه الصلاة والسلام كان أديباً مع الله كان يدعو ويقول:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى الأَسْلَمِيِّ قَالَ خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَنْ كَانَتْ لَهُ حَاجَةٌ إِلَى اللَّهِ أَوْ إِلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ فَلْيَتَوَضَّأْ وَلْيُصَلِّ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ لِيَقُلْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ الْحَلِيمُ الْكَرِيمُ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ وَعَزَائِمَ مَغْفِرَتِكَ وَالْغَنِيمَةَ مِنْ كُلِّ بِرٍّ وَالسَّلامَةَ مِنْ كُلِّ إِثْمٍ أَسْأَلُكَ أَلا تَدَعَ لِي ذَنْبًا إِلا غَفَرْتَهُ وَلا هَمًّا إِلا فَرَّجْتَهُ وَلا حَاجَةً هِيَ لَكَ رِضًا إِلا قَضَيْتَهَا لِي ثُمَّ يَسْأَلُ اللَّهَ مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ مَا شَاءَ فَإِنَّهُ يُقَدَّرُ))

(سنن ابن ماجة)

والحفظ له موجبات ؛ احفظ الله يحفظك، هذا هو أهم ما في البحث الذي نحن بصدده، احفظ أمر الله يحفظك الله عزّ وجلّ.. إذا سألت فاسأل الله، وإن استعنت فاستعن بالله.. أما الأساس أنّك لن تستطيع أن تصل إلى حفظ الله عزّ وجلّ إلا إذا حفظت أمره، يراك حيث أمرك ويفقدك حيث نهاك، إن حفظت أمر الله عزّ وجلّ فالله يحفظك، وحفظ الله شامل يحفظ لك عقلك من أن يصيبه الخلل، يحفظ لك حواسّك وأعضاءك، يحفظ لك زوجتك وأولادك، يحفظ لك بناتك، يحفظ لك مالك، يحفظ لك سُمْعتك، يحفظ لك دينك، يحفظ لك كرامتك.

يا ابن عمر لا يغرنك ما سبق لأبويك من قبل، فإن العبد لو جاء يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم، يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك، فانظر عمن تأخذ، خذ الدين عن الذين استقاموا، ولا تأخذ عن الذين مالوا.

أيضاً هذا الاسم محبب للإنسان.. فالإنسان حينما يرى كل شيء له محفوظاً فهذه هي الاستقامة، وعزة الاستقامة، الاستقامة عين الكرامة، أنت إذا استقمت على أمر الله حفظ الله لك كلّ شيء، أنت في ظلّ الله.

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

فقد قال الله تعالى:

(وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨))

(سورة الطور)

هذه الآية موجّهةٌ للنبي عليه الصلاة والسلام، وكلّ آيةٍ موجهةٍ للنبي عليه الصلاة والسلام، للمؤمن منها نصيبٌ على قدر استقامته وإيمانه وإخلاصه.

(فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا)

وإذا كان الله معك فمن عليك، وإذا كان عليك فمن معك، وحفظ الله يغني عن كلّ شيء.

فالنبي عليه الصلاة والسلام وهو في غار ثور كان دمه مهدوراً، مائتا ناقة لمن يأتي به حياً أو ميتاً، ودخلا إلى غار ثور، قال الصديق: لو نظر أحدهم إلى موطيء قدمه لرآنا. قال النبي الكريم: **يا أبا بكر لا تحزن إن الله معنا.**

نظروا إليه فوقعت أعينهم على عينه، قال: **يا رسول الله لقد رأونا. قال يا أبا بكر ألم تقرأ قوله تعالى:**

(وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ)

قال تعالى:

(وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (١٩٨))

(سورة الأعراف)

حفظه الله، فقد تبعه سراقة على حصانه، غاصت قوائمه في الرمل، طلب الأمان لكنه عاد ثانيةً فغاصت قوائم فرسه في الرمل ثانية فاستسلم لأمر النبي.

فإذا كان الله معك فمن عليك ؟ إذا حفظك الله فأي شيء يضرك.. واللهِ ليس في الأرض كلها جهة مهما قويت تستطيع أن تصل إليك، وإذا تَخلّىَ الله عنك، فقد أسلمك لعدوك، فقد قال الله تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥))

(سورة التوبة)

أرجو الإخوة القراء أن يصغوا إليّ وأنا أنهي البحث بهذه الحقيقة.. أنت في كلّ يوم لك حالان مع الله، حال التولِي، وحال التخلِي، إذا قلت: أنا، أصابك التخلِي، وإذا قلت: الله ؛ نالك التولِي، أي إذا وحّدت الله تولاّك الله، إذا اعتددتَ بنفسك، بمالك، بقوتك، بعلمك، بذكائك، بخبرتك تخلّى الله عنك، تخلّى عن أصحاب رسول الله يوم حنين وفيهم النبي.

(لَقَدْ نَصَرَكُمْ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ)

بينما في بدر قال الله تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣))

(سورة آل عمران)

فقد كانوا يوم بدر في غاية الضراعة والذلّة بين يدي الله عزوجل فنصرهم وأيّدهم.

أمّا ملخص الملخص... فإنه مامنا واحدٌ من دون استثناء إلا ويتمنى أن يحفظه الله، أن يحفظ له صحته، هناك أمراض عُضالٌ إذا ألمّت بالإنسان جعلت حياته جحيماً لا يطاق، يتمنّى كلٌ منا أن يحفظ الله له صحته، وأهله وأولاده وبناته وأصهاره وبيته وماله وتجارته وسمعته ومكانته.

قد تسمع أخباراً كأنها الصاعقة يرتجف منها كل إنسان عاقل.. قال لي رجل ابنتي حاملة والأصح أن نقول حامل، إذا قلنا امرأةٌ حاملة أي على ظهرها، أما حاملٌ في بطنها، ابنتي حاملٌ من ابني. أين مكانته أمام الأسرة، الابن في السجن والبنت في المشفى هذه مشكلة، مشكلة كبيرة جداً، وإني أعقب على هذا فأقول: لقد قصّر في تربية أولاده ومراقبتهم والالتجاء إلى الله ليعينه على توجيههم، وتخلى عن الله، فتخلى الله عنهم وعنه ! بينما هنالك إنسان سمعته طيبة بيته نظيف، علاقاته كلها إيجابية، وعمله جيد، محفوظ في مكانته وسمعته، موفّق في عمله ولعل هذا حفظ اللهَ فحفظ اللهُ عليه بيته وأهله فقد قال يعقوب لأولاده كما حكى الله عنه:

(قالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إلا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرّاحِمِينَ)

لا تعتمد على غير الله في الحفظ ولا في أيّ أمر من أمورك، أما القول الفيْصل: احفظ الله يحفظك، أي كن لي كما أريد، أكن لك كما تريد، عبدي أنت تريد وأنا أريد، فإذا سلّمت لي فيما أريد كفيتك ما تريد، وإن لم تسلّم لي فيما أريد أتعبتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

٨٨- اسم الله الأكرم :

مع الدرس الثامن والثمانين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم الأكرم، قال الله تعالى:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤))

(سورة العلق)

الأكرم: من أسماء الله الحُسنى، لكنّ هذا الاسم زائدٌ على الأسماء التسعة والتسعين المعروفة، قريبٌ من هذا الاسم اسم الكريم، وقريبٌ من هذا الاسم ذو الجلال والإكرام.

أيها الإخوة... يجب أن نعلم علم اليقين أنه ما من موضوعٍ في الدين يرقى إلى مستوى أن تعرف أسماء الله الحُسنى، لأنّ الله عزّ وجلّ هو القصد.. إلهي أنت مقصودي.. ورضاك مطلوبي، ولأن الإنسان سوف يكون في حضرة الله عزّ وجلّ إلى أبد الآبدين، فكلّما ازدادت معرفته في الدنيا بربِّ العالمين سعد بقربه وكان في عداد أوليائه المقرّبين، فقد قال الله تعالى:

(إِنّ الْمُتّقِينَ فِي جَنّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (٥٥))

(سورة القمر)

أيها الإخوة... انظروا إلى الإنسان أحياناً كيف أنه يفخر إذا كانت له مكانةٌ عند إنسانٍ قوي، لا يفتأ يتحدّث عنه وعن علاقته به وعن مكانته عنده وعن حظوته بين يديه، فكيف إذا كانت لك مكانةٌ عند خالق السماوات والأرض، الله جلّ جلاله يقول:

(إِنّ الّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحْمَنُ وُدّاً (٩٦))

(سورة مريم)

أنت في الدنيا تتعرف إلى الناس بعينيك، ترى قامته، ولون جلده لون عينيه، شعره، أناقته، ثيابه، تحدِّثه ويحدِّثُك، تكلِّمه ويكلِّمُك، تعامله ويعاملك، تسافر معه، تجاوره تعرفه جيداً، كيف السبيل إلى معرفة الله من أجل أن تحبه، من أجل أن تخاف منه، من أجل أن تعظمه، من أجل أن تخضع له، من أجل أن تجعله نهاية المطاف، وأن تجعله هدفك الأول والأخير، من أجل أن تعرف أنه هو الأول والآخر والظاهر والباطن وأنّه بكلّ شيء عليم، من أجل أن تعرف الله، من أجل أن تسعد بقربه، من أجل أن تُفني شبابك في طاعته، من أجل أن تُمضي حياتك في خدمة خلقه يجب أن تعرفه، لذلك ما من عملٍ، ما من جهد، ما من نشاطٍ فكريٍ يعلو على عمل يؤدي بك إلى أن تعرف الله.

الحقيقة وهذه أقولها كثيراً.. المعرفة المختصرة لا تقوى على حملك على طاعته، فلابُدّ من أن تتبحر في المعرفة من أجل أن تعرف من هو الله.. الله عزّ وجلّ يقول:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

(سورة الطلاق)

(وَاللّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٦٥))

(سورة النحل)

(اللّهُ الّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوّةً ثُمّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوّةٍ ضَعْفاً وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ(٥٤))

(سورة الروم)

ماذا يريد الله من هذه الآيات ؟ أي: يا عبادي اعرفوني، بيدي الشمس والقمر، بيدي الليل والنهار، بيدي خلقكم وبعثكم، حياتكم وموتكم ورزقكم، بيدي المطر، بيدي المرض، بيدي كلّ شيء فلا تلتفت إلى سواي.

فلذلك عندما يعرف الإنسان الله عزّ وجلّ وهو يدري من هو ويقدر لله قدره، وهو يعلم علم اليقين أنه رب وخالقه، تجده قد التزم منهجه بشكلٍ صحيح، أقبل عليه، ابتغى مرضاته، سعى إلى طاعته.

إذاً: هذه المقدمة لا شيء يعلو على أن تعرف الله، إنك إن عرفته أطعته، وإن أطعته أقبلت عليه، وإن أقبلت عليه سعدت بقربه، وإن سعدت بقربه تاقت نفسك إلى الجنة.

سيدنا عمر بن عبد العزيز يقول: **تاقت نفسي إلى الإمارة فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الخلافة، فلما بلغتها تاقت نفسي إلى الجنة،** معنى ذلك أنه أراد الإمارة والخلافة لتكونا مطيّتين إلى الجنة.. فلما بلغتهما تاقت نفسي إلى الجنة.

إخواننا الكرام.. في مقتبل العمر الأمور متشابهة عند جميع الناس إلى حد بعيد..فالشاب في أول حياته الخط البياني في حياته صاعد، أما عندما يبدأ الخط البياني الصاعد يسير مستقيماً ثم يبدأ ينحدر، فإن الخط البياني عندئذ يؤذن ببدء النهاية، نهاية المطاف وهي صعبة جداً، إلا لمن أمضى حياته في طاعة الله، المغادرة لا تحتمل إلا لمن قدم بين يديه أعمالاً صالحة كبيرة.

الاسم اليوم الأكرم، والأكرم اسم تفضيل.. قال الله تعالى:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ)

من الكرم، والكرم ضدُّ اللؤم.

بالمناسبة الأخلاق لها مفردات مثلاً مثل الشجاعة، أو الصبر، أو الحلم، وتحمل بعض الصفات الإنسانية معاني جامعة، مثلاً المروءة.. صاحب المروءة كريم، صاحب المروءة عفيف، صاحب المروءة شجاع، صاحب المروءة يلبّي حاجة الضعيف، صاحب المروءة صاحب نجدة، صاحب المروءة صاحب إغاثة للهفان، كلمة مروءة، كلمة تشمل عشرات الصفات.. أما اللؤم والعياذ بالله، بخل على جبن على كِبْر على أَثَرَةٍ على قسوة على دناءة.

فكما قال سيدنا عليٌ بن أبي طالب: **والله والله مرتين لحفر بئرين بإبرتين.. هل يمكن حفر بئر بإبرة؟!! حفر بئرين بإبرتين، وكنس أرض الحجاز في يومٍ عاصفٍ بريشتين، ونقل بحرين زاخرِين بمنخلين، وغسل عبدين أسودين حتى يصيرا أبيضين.. قال: أهون عليّ من طلب حاجةٍ من لئيمٍ لوفاء دين.**

هل تعلمون أيها الإخوة ما هو الذل ؟ الذل أن يقف الكريم باب اللئيم ثم يرده، أنت كريم احتجت إلى لئيم.. الآن هناك إخوان كرام لا يسمح أحدهم لنفسه أن يقف موقف ضعف أمام لئيم ولو ضاعت منه الدنيا بأكملها.

فإذا كنت واقفاً على إشارة المرور الحمراء انتظر دقيقتين حتى تلوح الخضراء خير من أن تقف موقفاً أمام إنسانٍ سيحاسبك بقسوة، الإنسان المؤمن كريم، لا ينبغي للمؤمن أن يُذل نفسه ولا ينبغي له.. أطلبوا الحوائج بعزّة الأنفس فإن الأمور تجري بالمقادير.. من جلس إلى غني فتضعضع له ذهب ثلثا دينه.

إليكم هذه القصة التي من المناسب أن أذكرها لكم.. إنسان جاء إلى النبيِّ عليه الصلاة و السلام يطلب منه مساعدة، سبحان الله: النبي الكريم أراد أن يعلِّمه درساً ويعلِّم الناس درساً، قال له: **أعندك شيءٌ في البيت** ؟ قال له: والله ما عندي إلا قعبٌ أشرب به وحلسٌ أجلس عليه - القعب: (إناء)، والحِلس (بساط) - **قال إئتني بهما** - فلم يبقَ في بيته شيء - قال الرجل: فأتيته بهما، فقال عليه الصلاة والسلام: من يشتري هذين منكم ؟ قال أحد الصحابة: أنا أشتريهما بدرهم، قال عليه الصلاة والسلام: من يزد على درهم ؟ من هنا شُرعَت المزايدة، فقال صحابي آخر: أنا أشتريهما بدرهمين، قال: **هات الثمن**، باعه الحلس والقعب وأخذ الدرهمين، قال عليه الصلاة والسلام للرجل السائل: **اذهب إلى أهلك فاشتر لهم بدرهمٍ طعاماً فامدده إليهم، وائتني بالدرهم الآخر بقدُوم** - هذه خطة النبيّ: **فاشتر بدرهمٍ طعاماً فامدده إلى أهلك، وائتني بالدرهم الآخر بقدّوم** -، جاءه بقدوم شدّ عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عصاً بيده الشريفة، وقال: **اذهب واحتطب ولا أرَيَنّك لخمسة عشر يوماً.**

العلماء فسروا هذا الموقف.. أن الإنسان إذا أهله جياع لا ينتج، أما حينما يؤمِّن الطعام لأهله ينتج.

النبي عليه الصلاة والسلام قال له: **اشتر بدرهمٍ طعاماً فامدده لأهلك وائتني واشتر بهذا الدرهم قدُوماً واذهب واحتطب..** عاد بعد سبعة أيام وقد جمع عشرة دراهم، قال: هذا خيرٌ لك من أن تسأل الناس. علمه درساً في التعفف عن المسألة كما عليه أن يقرع أبواب الرزق التي شرعها الله لعباده.

فالإنسان إذا فتح على نفسه باب مسألةٍ، فتح الله عليه باب فقرٍ. لأن الذي أعطى غيرك سوف يعطيك.. أنا الذي يلفت نظري أن شاباً مؤمناً تكون الطرق كلها أمامه مغلقة، فيطرق باب الله تعالى قائلاً: ياربّ الأمر بيدك وقد تعلق قلبه ورجاؤه بالله فهل يرده الله خائباً ؟

قال لي أخ كريم: صليت قيام الليل ودعوت الله من أعماقي أن يرزقني كي أتزوج، وذكر لي: أنه يملك محلاً في أطراف المدينة لتصليح مكيّفات، ولكنه لا يجد زبوناً واحداً مردوداً ولا تجد شيء على الإطلاق،من أسباب الرزق قال: وأنا على أحر من الجمر أريد الزواج، وخطبت فتاة صالحة وممتازة، لكن تنتظر مني أن أقدِّم لها شيئاً، وأن أخطبها بشكل رسمي وأن أعقد العقد ولكن لا أملك شيئاً، فلم يجد إلا الله ملجأً وملاذاً، قال لي: والله صليت ركعتين في جوف الليل، وسألت الله في السجود أن يرزقني رزقاً حلالاً طيباً كي أتزوج، ولم يلبث وهو يقص القصة أن بكى، وقال: والله خلال مدة عشرين يوماً حَصلت على سبعين ألف ليرة من المحل نفسه وقال لي: وصار عنده تصليح وتركيب وبيع كثير، وقد مضى على المحل مفتوحاً سنتان، كانت أموري خلالها بائسة، ثم بالدعاء والابتهال فتح الله ما كان مغلقاً، والأمر بيد الله عزّ وجلّ.

إن الحديث الذي أقوله لكم دائماً وهو من أدقّ الأحاديث:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ الْوُضُوءِ وَلأَخَّرْتُ الْعِشَاءَ إِلَى ثُلُثِ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفِ اللَّيْلِ فَإِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ أَوْ نِصْفُ اللَّيْلِ نَزَلَ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا جَلَّ وَعَزَّ فَقَالَ هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأُعْطِيَهُ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ هَلْ مِنْ دَاعٍ فَأُجِيبَهُ))

(مسند الإمام أحمد)

الأيامِ طويلة ربنا عزّ وجلّ لحكمةٍ بالغة يُقَطِّعُ آمالك من الخلق فإذا يئست منهم فتح لك بابه، فأنت كن ذكياً ألمعياً واتجه إليه مباشرةً ولا تطرق باب الخلق أصلاً.

إذاً: الكرم ضدُّ اللؤم.. والكرم في أدق تعاريفه فِعلُ ما ينبغي لا لغرض.

أكثر الأجانب أذكياء جداً قد ينتزعون إعجابك بدقّة مواعيدهم بإتقان صنعتهم، لكن غرضهم الربح، غرضهم التنمية بالتعبير الاقتصادي الحديث، غرضهم رفع مستوى الأرباح، لذلك يعتنون جداً بصناعتهم وبتجارتهم وبمواعيدهم وباتقان صنعتهم. هم يفعلون ما ينبغي ولكن يفعلونه لغرض.. أما الكرم فهو أن تفعل ما ينبغي لا لغرض قال الله تعالى:

(إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُوراً (٩))

(سورة الإنسان)

فمن وهب المال لجلب النفع، أو لدفع الضُرّ، أو للخلاص من ذمٍ فليس بكريم، وبعد، إذا عمل الإنسان عملاً بطولياً، يقول لك لأغراض انتخابية انتهى العمل، هذا ليس بطولياً.. والآن وفي العالم كله إذا عمل إنسان عملاً بطولياً فهو بمقياس الإنسانية عمل إنساني، ما الذي يفرغه من مضمونه؟ أنه لأسبابٍ

انتخابية فقط، سقط العمل، هذا معنى إحباط العمل.. أما المؤمن يفعل الأعمال الصالحة ابتغاء مرضاة الله لا لمديحٍ ولا لثناءٍ ولا لمكافأةٍ ولا لذكرٍ يجري بين الناس.

قالوا: من وهب المال لجلب نفعٍ أو دفع ضرٍ أو خلاصٍ من ذمٍ فليس بكريم.. والجمع كُرَماء.. وأكرمه إكراماً أي عظّمه ونزّهه والكريم هو الصفوح عند الذنب، والكرم إذا وصف به إنسان فهو اسمٌ لأخلاقٍ عديدة وأفعالٍ محمودة تظهر منه، اسم جامع كالمروءة، كاللؤم، اللؤم اسم جامع لمفردات من الأخلاق الخسيسة، والكرم اسم جامع لعدد كبير من الأخلاق الفاضلة.

قالوا: الكرم يقترب من الحرية، الحرية صفة مديح، فلان حرّ، الإنسان إذا خضع لنزواته ليس حراً فهو عبد، كما قال عليه الصلاة والسلام: تعِس عبد الدرهم، - أي عبد المال-.

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ وَالدِّرْهَمِ وَالْقَطِيفَةِ وَالْخَمِيصَةِ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ وَإِنْ لَمْ يُعْطَ لَمْ يَرْضَ..))

فالإنسان أحياناً يخضع لنزواته، إذاً هذا ليس حراً بل هو عبدٌ، الإنسان يخضع إلى عصبيته الضيّقة، فابنه مثلاً على حق ولو كان أسوأ الناس، ورفيق ابنه على باطل ولو كان أحسن الناس، وهذا الشيء يظهر عند النساء تثني على ابنتها وتمدح ابنتها، وابنتها ليس أرقّ ولا أحسن منها بين بنات الناس منها، وابنتها فهيمه، وابنتها طبّاخة، وابنتها مثقّفة، وابنتها وابنتها.. وحينما تتزوج هذه البنت يبدو منها مالا تحمد عقباه، فهذه المرأة ليست حرة لأنها تزوّر الحقائق بدافع من عصبيةٍ ضيقة.

من هو الحرّ ؟ الذي ينطق بالحقيقة ولو أنها مرة. من هو الحرّ؟ الذي ينصف الناس من نفسه، فكلمة حر أي لا يخضع لهوى، لا يخضع لنزوة، لا يخضع لضغط، لا يخضع لفقر، لا يخضع لطمع، الطمع أذلّ رقاب الرجال، كاد الفقر أن يكون كفراً، الإنسان يحبُ عشيرته، وأبناء ملّته، وأبناء جلدته يحبهم إلى درجة الكذب والنفاق، ويكره أعداءه إلى درجة الظلم يجحف بحقِّهم، من هو الحرّ ؟ الذي ينطق بالحق ولو كان مراً.

إلاّ أن العلماء قالوا: **" الحرية تقال في المحاسن الصغيرة والكبيرة، والكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيرة، كمن ينفق مالاً في تجهيز جيشٍ في سبيل الله "..** اللهم صلّ على محمد وآله، حينما جهّز عثمان بن عفّان رضي الله عنه الصحابي الجليل جيش العسرة بأكمله قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **ما ضرّ عثمان ما فعل بعد اليوم،** فالنبي عليه الصلاة والسلام كان يقدِّر المعروف.

جاء رجل اسمه تميم الداري كان في الشام واشترى سرُجاً، وحبالاً، وزيتاً، وجاء مع غلمانه وعلّق القناديل في المسجد ربطها بحبال ثم حينما دخل وقت العشاء أسرجها، فدخل النبيّ عليه الصلاة والسلام وسُرّ بهذا سروراً بالغاً قال من فعل هذا ؟ قالوا: تميم الداري، فقال عليه الصلاة والسلام: **يا تميم نوّر الله قلبك كما نوّرت هذا المسجد لو أنّ لي بنتاً لزوّجتك.** من شدةٍ تقديره لهذا العمل.

أحياناً يقدم إنسان خدمات إلى المسجد مثلاً، يقدم خدمات لدعوة، يقوم بعمل طيب، يسهم في خدمة الآخرين، فالله سبحانه وتعالى لا يضيع أجر من أحسن عملاً، وأنا لا أنسى أبداً الآية الكريمة التي تذكر أن امرأة عمران قالت: ربِّ إني وهبت إليك ما في بطنك محرراً.. في قوله تعالى:

(إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥))

(سورة آل عمران)

هل يوجد بيننا نحن الحاضرين شخصٌ وأنا معكم ليس له ميزة ؟ مستحيل، هذا يتقن الرياضيّات، مثلاً هذه المرأة تتقن الطبخ.. وهكذا أصيبت امرأة بمرضٍ خبيث في دماغها وشفاها الله عزّ وجلّ فنذرت لله عزّ وجلّ أن تعمل صالحاً، فقيرة لا تملك من حطام الدنيا شيئاً، ماذا تملك ؟ إستأجرت غرفة وصارت تطبخ الطعام الشهي النفيس وتبيعه للأسرّ الغنية التي تحب أن تأكل طعاماً بيتياً، وبالربح صارت تعالج المرضى، هذا مثل.. امرأة لا تملك إلا فنّ الطبخ وظفت هذه القدرة في العمل الصالح وبدأت تدفع نفقات عمليات وخدمات للفقراء المرضى، هذه تقرّبت إلى الله بطبخها.

هل يوجد إنسان ليس له ميزة ؟؟. امرأة عمران ماذا تملك ؟ تملك ما في بطنها قالت: ربِّ إني نذرت لك ما في بطني محرراً.

عندنا أخ محامٍ، وأخ طبيب، وأخ مهندس، وأخ مدرس، وإنسان حالته المادية جيدة، وإنسان عنده قدرة على الإقناع، وإنسان عنده خبرات معيّنة، فتجد الحياة تحتاج إلى تعاون، قدّم شيئاً ما لله عزّ وجلّ ولا تعجز

قال له: يا بشر: **لا صدقة ولا صيام ولا جهاد فبمَ تلقى الله إذاً؟.**

والله أنا أحياناً أكون ممتن جداً ومسروراً من بعض الإخوان يقول لي أحدهم: أنا محامٍ إذا اتصل بك أخ فقير له قضية فابعثه إليّ، الله يجزيك الخير.. ويقول لي آخر: أنا محلل في مخبر إذا علمت بأخ فقير يريد أن يحلل فأنا جاهز.. أنا طبيب لو أرسلت لي أخاً فقيراً أعالجه مجاناً.. ذات مرةٍ أخ من إخواننا الكرام جرّاح، قال لي: أنا مستعد أن أستقبل أيّ أخ يريد إجراء عملية، بعثنا له أول أخ عمل له عملية، بالمشفى وفي الدرجة الثانية ونجحت العملية، بعثنا له أخاً ثانياً وأخاً ثالثاً.. هذا أدى زكاة اختصاصه، يجب أن نتوَسّع في مفهوم الزكاة، فهناك زكاة مال، وهناك زكاة وقت، و زكاة خبرة الخ.

لنا قريب عنده محل للحلويات في المرجة، وهذه القصة من ثلاثين سنة دخل لمحله شخص أرمني، قال له: هل تعلِّمني الكاتو ؟ قال له: على عيني تفضل.. عمل أمامه طبخة - خلطة - وأدخلها إلى الفرن وقال له: اكتب الكميّات والمعايير، ثم كلفه أن يعمل واحدة أمام صاحب المحل، فعمل واحدة أمامه، ثم أقسم: والله يا أستاذ منذ ثلاثين سنة كل سنة يزورني ويحضر لي هدية من القامشلي ويقول: كل هذا الخير من فضلك.. لم يَضيعْ معه المعروف.. هذا ماذا فعل ؟ أدى زكاة خبرته، ومن الممكن أن تؤدي

زكاة مالك، زكاة وقتك بدرس علم، زكاة خبرتك علِّم، بعث لك ابنه بدون أجر ليعلم الصنعة فلا يعلِّمه، لكن يشغله فقط، عندما يريد أن يفك المحرك يقول له: اذهب خارج المكان، يا أحمق.. علِّمه، والله هو الرزّاق، أدِّ زكاة خبرتك، أدِّ زكاة مالك، أدِّ زكاة وقتك، أدِّ زكاة صحتك عاون المرضى، أدِّ زكاة وقتِ فراغِك، عاون الضعفاء.

إذاً مَنْ الحرّ ؟ قد يقال فلان حر إن صدرت عنه محاسن صغيرة وكبيرة، أما لا يقال له كريم إلا إن صدرت عنه المحاسن الكبيرة، كمن ينفق ماله في تجهيز جيشٍ بأكمله، كمن يتحمّل ديّات القتلى ويحقن دماء المسلمين هذا عمل جليل.

أما النقطة الدقيقة أيها الإخوة... ليس المهم أن تقرأ الآية وتجري على اللسان كثيراً لكن المطلوب منك دقق في معانيها.. قال الله تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣))

(سورة الحجرات)

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

أعلاكم مكانة عند الله أشرفكم أقربكم إلى الله أتقاكم.. المعاني مفهومة واضحة، فهل عملت بها ؟ الله عزّ وجلّ قال لك إن المقياس عندي التقوى أي الطاعة، قال الله تعالى:

(يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً (٧١))

(سورة الأحزاب)

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)

أتحب أن تكون عند الله أكرم الناس ؟ أطعه.. الشيء بين يديك مبذول، آلاف الناس لن تستطيع أن تصل إليهم، ولن تستطيع أن تخطب ودّا أحدهم، ولن تستطيع أن تقابله، لكنّ الله جلّ جلاله خالق الكون يقول لك:

(إِنّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ)

فأيّ إنسان يطيع الله عزّ وجلّ الله يقربه ويرفع له مكانته، أما إذا وصف الله عزّ وجلّ بالكرم، فإنما هو اسمٌ لإحسانه وإنعامه المتلاحق..

جاء اسم الأكرم في قوله تعالى في سورة العلق:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤))

أي هو أكرم الأكرمين، هو المعطي، هو المسعد، هو المحسن، والناس والعياذ بالله لا يرون إحسان الله.

أحياناً تدفع عن إنسان أجرة الركوب في السيارة خمس ليرات تكرمة له، فتجده طوال الطريق يتشكّرك بتعبيرات وهو ممنون منك كأن يقول لك: غلّبت نفسك، وجزاك الله الخير، قد خجّلتني ويعيدها لك عدّة مرّات من أجل خمس ليرات دفعتها عنه.

فالذي منحك نعمة الوجود بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، نعمة الإيجاد، نعمة الإمداد، نعمة الهدى والرشاد، خلق لك من جنسك امرأة هديّة لك بها آية سكن ومودة ورحمة، آواك في بيت، أطعمك ألوان الطعام، خلق لك أنواع الفواكه، رزقك ابناً يملأ عليك البيت فرحاً وسروراً، أعطاك أجهزة دقيقة فقد قال تعالى:

(أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠))

(سورة البلد)

فهذا الذي خلق كل هذه النعم ألا يستحقُّ أن تشكره، أن تذكره.. إنّك إن ذكرتني شكرتني.

وفي سورة الرحمن أيضاً آية ثانية:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧))

(سورة الرحمن)

العلماء قالوا: لا ينبغي أن تقول:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ)

وتقف بل ينبغي أن تتابع الآية فتقول:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

أي أنّ الله عزّ وجلّ هو المكرّم هو الكريم، هو المعطي، منحك كل النعم، أما هذا الإنسان الجاهل الغافل فهو مسكين إذ يعزو هذه النعم إلى غير الله، فيعزوها تارةً إلى ذكائه..

(قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (٧٨))

(سورة القصص)

(وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ(٥١))

(سورة الزخرف)

وما إلى ذلك كأن يعزوها إلى مهارته في العمل أو حسن حظه.

والإنسان ينبغي أن يعلم حقيقة الألوهية.. فالكون كله عطاءً من عطاءاته.. فأنا أذكر ذلك كثيراً.. فهل من الممكن أن تصدِّق أنَّ هناك مليون مليون مجرّة، وفي كل مجرّة فيها مليون مليون نجم، أي لو كتبنا رقم واحد وأمامه أربعة وعشرون صفراً فما هذا الرقم !!! إنه رقم خيالي وكل هذه الكواكب والنجوم مسخّرةٌ للإنسان، الله عزّ وجلّ قال:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنّ اللّهَ سَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠))

(سورة لقمان)

فإذا قرأ أحدكم قوله تعالى:

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الّذِي عَلّمَ بِالْقَلَمِ (٤))

ألا يشعر برعشة، بخفقان، بجلد يقشعر، بقلب يخفق.

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الّذِي عَلّمَ بِالْقَلَمِ (٤))

إخواننا الكرام... الدين أساسه الحب، إذا ألغي الحب من الدين صار الدين ثقافة، وطقوس، وفلكلور، وعادات، وتقاليد، ومعلومات، مشاعر، وكتب وهكذا، أما إذا كان في الدين حُبٌّ فإنه يفعل كل مستحيل.

النبي عليه الصلاة والسلام من أدعيته الشريفة:

((يا حيّ يا قيّوم، يا بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت برحمتك نستغيث، أصلح لنا شأننا كلّه ولا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين، ولا أقلّ من ذلك))

وكان عليه الصلاة والسلام يُكثر من قراءة هذه الآية:

(كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ)

أيُّها الإخوة... من إجلال الله عزّ وجلّ، من إجلالك لكرمه قال: المؤمن يُجلُّ الله فلا يعصيه، ويطيعه فلا يخالفه لأنّه ذو الجلال والإكرام وذو العظمة والكبرياء، فلا أريد أن أطيل عليكم.. الكافر يقف عند النعمة، ويعمى عن المنعم، والمؤمن يتجاوزها إلى المنعم.

النبي عليه الصلاة والسلام كانت تَعْظُم عنده النعمة مهما دقّت، والمؤمن يتقلّب في نعم الله، والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((أحبُّوا الله لما يغزوكم به من نعمه، وأحبُّوني بحبِّ الله، وأحبّوا آل بيتي لحبي.))

وأخرج البيهقي عن ابن عباس، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

((إن داود عليه السلام قال فيما يخاطب ربه عز وجل: يا رب، أي عبادك أحب إليك أحبه بحبك؟ قال: يا داود أحب عبادي إلى نقي القلب، نقي الكفين، لا يأتي إلى أحد سوءً، ولا يمشي بالنميمة، تزول الجبال ولا يزول، أحبني وأحب من يحبني، وحببني إلى عبادي، قال: يا رب إنك لتعلم أني أحبك وأحب

من يحبك، فكيف أحببك إلى عبادك؟! قال: ذكرهم بآلائي وبلائي ونعمائي، يا داود إنه ليس من عبد يعين مظلوما، أو يمشي معه في مظلمته، إلا أثبت قدميه يوم تزل الأقدام))

ذكِّرْهم بآلائي كي يُعظِّموني، وذكِّرهم بنعمائي كي يحبُّوني، وذكِّرهم ببلائي كي يخافوني. فالملخّص: أنّه لا بدّ من أن يجتمع في قلب المؤمن تعظيمٌ لله، وخوفٌ منه، وحبٌّ له، تعظيم بالآلاء.. وخوف بالمصائب.. محبّة بالنعم.

كأس من الماء تشربه وطريق الخروج سالك نعمة كبرى، فلو كان غير سالك فآلام حصر البول لا تُحتمل، فيلزمه الذهاب للإسعاف في الساعة الثالثة ليلاً لفتح مجرى البول، أكلت طعاماً.. والطريق سالك نعمة أخرى كبرى، أيضاً لو كان هناك انسداد.. قال تعالى:

(مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥))

(سورة محمد)

(وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ)

فالأمعاء ليس بها إحساسٌ لا بالحر ولا بالبرد، فلو وضعت فيها ماءً يغلي، أما آلام الضغط داخلها لا يُحتمل، إذا أكلت طعاماً وكان الطريق سالك، مشيت متوازناً. فلو اختلّ جهاز التوازن لاحتجت إلى عصا لتمشي مستعيناً بها، فأنت تمشي متوازناً، والأجهزة تعمل بانتظام، والحواس الخمس سليمة.. فهذه من نعم الله العظمى.

إخواننا الكرام مرة ثانية... الآلاء للتعظيم، والنعم للحب، والمصائب للخوف.. بالخوف تتقي أن تعصيه، وبالحب تقبل عليه، وبالتعظيم تتابع الرُقِيِّ إليه.. وهذا من بعض الخواطر الإيمانيّة المتعلِّقة باسم الله الأكرم.

(اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤))

في النهاية أنت إنسان أودع الله فيك قوةً إدراكيّة فإن لم تتعرّف عليه عطّلتها، وإذا عطّلت القوة الإدراكيّة هبطت إلى مستوىً لا يليق بك.

٨٩- اسم الله المضل :

مع الدرس التاسع والثمانين من دروس أسماء الله الحُسنى، والاسم اليوم المضل.

قبل أن نشرع في الحديث عن هذا الاسم لابدّ من مقدِمة، هذه المقدمة لغويّة.. الكلمة تحتمل من المعاني بقدر ما يملك الإنسان من خبرات، كأنّ الكلمة مشجبٌ يعلِّق عليه كلُّ إنسانٍ ما يملكه من خبرات حول هذه الكلمة، لذلك هناك خطرٌ كبير أن نملك مفهوماً خاطئاً عن كلمة، فكلّما ذكرنا هذه الكلمة حمّلناها ذلك المفهوم.

مثلاً.. كلمة جرثومة في استعمالاتنا اليوميّة هي كلمةٌ تشير إلى المرض، أمّا أن يقف شاعر يقول وهو يخاطب خليفة كبيراً:

أنت جرثومة الدين والإسلام والحسب..

معنى ذلك أنّ كلمة جرثومةٌ وقت ما مدح الشاعرُ الخليفة بها كانت تعني شيئاً كبيراً، كانت تعني أصل الشيء، فلمّا سميّنا تلك الكائنات المجهريّة التي هي سبب الأمراض جراثيم فلم يعد من المناسب أن تمدح إنساناً وتصفه بأنّه جرثومة، إذاً هذه الكلمة حملت معنىً في حقبةٍ ما غير المعنى الذي تحمله الآن.

فكلمة استعمار، ليست هذه الكلمة محببة، لأنّ أقوياء منحرفين معتدين احتلوا بلاداً ونهبوا ثرواتها وقهروا أهلها واستعبدوهم فسمّوا أنفسهم مستعمرين بمعنى أنّهم أرادوا أن يُعَمِّروا الأرض الممارسة المؤلمة الخاطئة والتي أُلصقت بهذه الكلمة أعطتها معنىً لا يقبل الآن ككلمة يمكن أن يمدح بها إنسان.

أردت من هذه المقدِمة أن نحرر مفاهيم الكلمات مما لصق بها من خبرات. ربّما كانت الكلمة لها معنىً في اللّغة غير هذه المعنى.

العلماء قالوا: **" لا ينبغي أن نذكر اسم المُضل إلا مع اسم الهادي، ولا ينبغي أن نذكر اسم الضار إلا مع اسم النافع، ولا اسم المُذِل إلا مع اسم المُعز، ولا اسم الخافض إلا مع اسم الرافع، ولا اسم القابض إلا مع اسم الباسط.. فهو يقبض ليبسط، ويخفض ليرفع، ويُذل ليُعز، ويأخذ ليعطي، ويضلُ ليهدي "**، ما دامت أسماء الله حُسنى وصفاته فُضلى.. إذاً لا بدّ من تفسيرٍ يليقُ بكمال الله لهذه الأسماء الحُسنى، ويليق بعظمته، ويليق بقدرته، ويليق بعدالته، ويليق برحمته.

الاسم المضل ربّما من خلال الممارسات وجدنا أنّ إنساناً يُضلُ إنساناً آخر، فهذا العمل ليس محبوباً عندنا، ليس عملاً مستحسناً أن يُضلّ إنسانٌ إنساناً، إنّه عملٌ مخالفٌ للفطرة، مخالفٌ للقيم الإنسانيّة الرفيعة، أما إذا قلنا أنّ الله هو المضل فلا بدّ لهذا الاسم من معنىً يليق بكمال الله.

كما هي العادة نقف وقفةً متأنّية عند اللّغة.. فالمُضِلُ اسمٌ من أسماء الله الحُسنى التي تضاف إلى التسعة والتسعين اسماً التي وردت في الأحاديث الصحيحة.

الضلالُ النسيان والضياع.. فقد قال تعالى:

(قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (٥٢))

(سورة طه)

وضلّ الكافر.. إذا غاب عن الهدف الذي خلق من أجله.

إنسان ذهب إلى بلد غربي لينال الدكتوراه، فتنته هذه البلاد بمسارحها ومقاصفها ونواديها وحدائقها وشهواتها فانغمس في هذه الشهوات وضلّ عن هدفه الذي أُرسل من أجله، فيقال: هذا الطالب ضالّ: أي غاب عن الهدف الذي جاء من أجله، وقد يكون الضلال هو الانحراف عن الطريق المستقيم.. الطريق المستقيم إذا خرج الإنسان عنه فقد ضلّ ضلالاً مبيناً.

أضلّه.. جعله ضالاً.. إذا قلنا فلانٌ أضلّ فلاناً أي جعله ضالاً، أما إذا قلنا الله جلّ جلاله أضلّ فلاناً أي وجده ضالاً وعلِمَه ضالاً.. هذا معنى آخر.

يقال: **" الضلالُ كلُّ عدولٍ عن المنهج عمداً أو سهواً، يسيراً أو كثيراً".**

في الحقيقة: وردت كلمة الضلال في القرآن الكريم كثيراً، وورد أنّ الله يضلُّ الكافرين، فكيف نفسِّر هذا الاسم الذي هو بالتأكيد من أسماء الله الحُسنى، وبالتأكيد لو عرفت مضمونه لذابت نفسك محبةً لله عزّ وجلّ ؟

قال بعض العلماء: **" إنّ إضلال الله تعالى للإنسان على أحد وجهين، أحدهما أن يكون الإنسان ضالاً"..** أي اختار الضلال فقدّر الله عليه الضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري.. هذا ذكرته كثيراً، إذا عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري.. إذا قلنا إنّ رئاسة الجامعة قد طردت هذا الطالب من الجامعة فليس معنى هذا الكلام إلاّ أنّ الطالب رفض أن يدرس، ورفض أن يُداوم، ورفض أن يُقدِّم الامتحان، ورفض أن يجيب على الإنذارات، وتجاهل كلّ دعوةٍ إلى أن يعود إلى الجامعة، عندئذٍ لم تجد رئاسة الجامعة بداً من أن تصدر قراراً يجسِّدُ سلوك الطالب، يُجسِّد اختيار الطالب، فإذا عُزِيَ الإضلال إلى الله فهو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري.

لو فتحنا معجم اللُغة وأردنا أن نستشِفّ معنى فعل أَفْعَلَ، فعندنا فِعْلُ فَعَلَ وهو فعل لازم، وأما أَفْعَلَ قد يأتي للتعدية.. ذهب أذهب، ضلّ تاه، أَضَلّ.. من معنى الفعل الثلاثي المزيد بهمزةٍ في أوّله " أَفْعَلَ " الوجدان، العلم، كأن نقول: اختبرت هذه القبيلة فما أجبنتها.. أي ما وجدّتها جبانةً، أو نقول: عاملتها فما أبخلتها.. أي ما وجدّتها بخيلة، إذاً معنى أضلّه.. هناك معنى آخر أي أنّه وجده ضالاً، علمه ضالاً، أعطاه الخيار فاختار الضلال فحكم الله عليه بالضلال فأضلّه.

الشيء الدقيق.. لو أخذنا جامعة كمثال.. فليست البطولة أن ينجح جميع الطلاّب بعلاماتٍ تامّة، ولكنّ كمال هذه الجامعة أن تأتي علامات الطلاّب مطابقةً لمستوياتهم العلميّة، فتطابق النتائج مع المقدِّمات هو الكمال، أما أن ننتظر من جامعةٍ ما أن يكون طلاّبها جميعاً في الدرجة الأولى الواحدة هذا يتنافى مع طبيعة الإنسان المخيَّر، إلا أنّ النتائج إذا جاءت، ومطابقةً للمقدمات فهذا هو الكمال.

فالإنسان حينما يختار الضلال يذكِّره الله فلا يذكَّر، يُنذره فلا يتأثّر، يدلّه فلا يسلك، يخيفه فلا يتوب، يكرمه فلا يشكر، كما تعلمون ؛ إن الله جلّ جلاله يهدي الإنسان بياناً ثم يأتيه تأديباً ثم يهديه إكراماً.. لم يستجب في البيان، ولا في التأديب تضرّع، ولا في الإكرام شكر، إذاً أصرّ على الضلال فبحسب قوانين الله عزّ وجلّ وبحسب سننه في الكون هذا الإنسان الذي اختار الضلال بمحض مشيئته سوف يسلك الله به إلى النار ليدفع الإنسان به ثمن اختياره.

الشيء الثاني.. معنى الإضلال كما قلت قبل قليل: الحكم على هذا الإنسان بأنّه ضال والعدول به عن طريق الجنّة إلى النار وهذا العدول حقٌ وعدل.

وهناك معنى ثالث.. هو أنّ الله سبحانه وتعالى جَبَلَ نفسيّة الإنسان جِبِلةً بحيث إذا اختارت طريقاً تألفه ويصعب أن تحيد عنه، فمَنْ شبّ على شيءٍ شاب عليه، ومن شاب على شيءٍ مات عليه، ومن مات على شيءٍ حُشِر عليه، فلو أنّ الإنسان اختار طريق الضلال، وألِفَ الضلال ومارسه، وانغمس بالمعاصي والآثام ألِف هذه الحياة، يصعب عليه بناءً على جبلّته أن يغير ما ألفه، هذه الجبلّة التي يصعب عليها أن تُغيّر المألوف عندها، هي في الأصل لمصلحة الإنسان.

في علوم الفيزياء قانونٌ يسمى: **" قانون العطالة "**، فالأشياء المتحرّكة ترفض السكون، والأشياء الساكنة ترفض الحركة، فلو كنت تركب مركبةً وأوقف السائق المركبة فجأةً أنت كراكب ترفض أن تقف فتتابع الحركة، هذا الذي يدفع صانعي السيارات لوضع أحزمة الأمان في المقاعد لتكون مرتبطاً بالمركبة ولست حراً، فالمركبة حينما تقف فجأةً يبقى الراكب مندفعاً نحو الأمام وقد يموت بهذا الاندفاع فلا بدّ من حزام الأمان، وهذا أساس مبدأ العطالة، والأشياء الساكنة ترفض الحركة، فلو كنت جالساً في مركبة وأقلعت تشعر أنّ شيئاً دفعك نحو الأمام، فالمقعد دفعك نحو الأمام لأنّك ترفض الحركة والمركبة تحرّكت.. فهذا القانون لصالح الإنسان. فلو أن الإنسان هُديَ هدايةً كبيرة جداً ولسببٍ تافهٍ يعدل عن هذه الهداية، فهذه مشكلة كبيرة تواجهه وتحدث عنده خللاً.

فأنت جبلّتكِ تقترب من مبدأ العطالة، فإذا ألفت الهدى تابعت الهدى، أما بالمقابل إذا ألف الإنسان الضلال تابع الضلال، فهذا القانون قانونٌ ذو حدّين لصالح المؤمن، كذلك ليس لصالح الكافر، المؤمن يزداد به إيماناً والكافر يزداد به كفراً، والحياة أساسها الاختيار، فكل شيء حيادي، فهذا القانون يمكن أن يكون لصالح المؤمن، ويمكن أن يكون لغير صالح الكافر.

ففي جبلّة الإنسان، أنّ الإنسان إذا سلك طريقاً محموداً أو مذموماً ألفه واستطابه ولزمه وتعذّر عليه صرفه أو انصرافه عنه، لذلك أهون شيءٍ أن ترشد الصغار لأنّهم ليّنوا العود، أما الكبار فقد ثبتوا على طريقةٍ معيّنة فمن الصعب جداً أن تغيّر سلوك الكبير لأنّه ألف شيئاً يصعب عليه أن يتركه.

فالإنسان الجاهل بالله عزّ وجلّ والجاهل بمعاني الكلمات قد يفهم الإضلال فهماً لا يليق بكمال الله عزّ وجلّ، قد يفهمه أنّ الله أضلّه أي جعله ضالاً وخلق فيه الضلال، يا ربي إذا خلقت فيه الضلال لماذا تحاسبه ؟ هذا المعنى لا يليق بالله عزّ وجلّ.. فبناءً على أنّ المقدّمات لابدّ لها من نتائج متوافقة معها. فمن اختار الضلال بمحض مشيئته وأصرّ عليه خلقه الله فيه جزاءً لا ابتداءً.. هذا معنى.

والمعنى الثاني أنّ طبيعة الإنسان ذات عطالة فإذا ألفت الخير ثبتت عليه، وإذا ألفت الشر ثبتت عليه، فهذا القانون حيادي يمكن أن يكون لصالح المؤمن، وقد لا يكون لصالح غير المؤمن.

لذلك أيُّها الإخوة... الإنسان إذا انتبه للهدى في وقتٍ مبكّرٍ، فهذا من نعم الله العظمى لأنّه سيبني بيتاً إسلامياً، وسيختار عملاً إسلامياً، أما إذا تأخّر في البداية فقد يجد نفسه ضائعاً فبيته ليس إسلامياً، وعمله ليس إسلامياً، وقد ألف حياة التفلّت عندئذٍ يصعب عليه أن يعود إلى الله كما لو كان شاباً.

لذلك يقول الله عزّ وجلّ:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٥))

(سورة التوبة)

فعندما يختار الإنسان الهدى واللهُ سبحانه ييسّر له سبيل الهدى يستحيل على كمال الله عزّ وجلّ أن يضلّه بعد أن اهتدى إليه.. لذلك:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ)

والمؤمنون كما قال الله عنهم فلن يضلّ أعمالهم سيهديهم ويصلح بالهم قال تعالى:

(فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنّاً بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥))

(سورة محمد)

ومعنى آخر.. إن الكافر أحياناً يُضلُّه الله لا عن ذاته تعالى بل عن شركائه، فلو أنّ إنساناً أشرك جهةً مع الله أيّةَ جهةٍ فمِن تربية الله له ومن تأديب الله له أنّ هذه الجهة التي أشركها مع الله يسخّرها الله لتخييب ظنّه، ويجب أن يحبط عملُ هذا الإنسان الذي اعتمد فيه على شريكٍ لله عزّ وجلّ، كأنّ الله أضلّه عنه ولم يبق له إلا الله.

والحقيقة: ما أكثر ما يقع هذا الشيء. فكلما عَلّقتَ الآمال على جهةٍ أرضيّة على ابنٍ مثلاً، أو على زوجة، أو على أخٍ، أو على صديقٍ علّقتَ عليه الآمال ونسيت الله عزّ وجلّ لا بدّ من هذا الذي علّقتَ عليه الآمال أن يخيّب ظنّك، قد يكون هو وفياً لكن يُلهمه الله أن يخيّب ظنّك ليضلّك عنه، كي تتجه إلى الله وحده لا إلى شركائه في الأرض.

فلو أنّ إنساناً له صديقٌ قوي يعمل في منصبٍ حساس وقال له أنا في خدمتك، فأيّة قضيةٍ آلمتك تعالَ إليّ، فهذا الإنسان يتّكىء على هذا الصديق ويشعر بالأمن والقوة، أشرك وهو لا يدري، ونسي الله وهو لا يدري، فلو أنّه استجاره مرةً، وطرق بابه مرةً قد يجد خلاف ما يظن قد يتخلى عنه، قد يقف منه موقفاً قاسياً، هذا التخلي أو تلك القسوة بإلهام الله لهذا القوي كي يضلّ هذا المشرك عن شريك الله عزّ وجلّ.

فإذاً، كلّما قلت: أنا، أو نحن، أو زيد، أو عُبيد تخلّى الله عنك، وإذا قلت: الله.. تولاّك، فأنت دائماً وأبداً بين التولي والتخلي، إذا وحدّت الله تولى أمرك، وإذا أشركت معه تخلى عنك.. وهذا الدرس نحتاجه كلّ يوم.

كل إنسان له عمل، له خبرات، عنده مال، عنده مراكز قوّة، عند إيجابيّات، عند ه قدرات، عنده ملكات، إذا اعتمد على ملكاته، على قدراته، على أمواله، على جماعته، على أقربائه، على إمكاناته، على شأنه، على وجاهته، على ذكائه، على قدرته، على رصيده كلّما اعتمد على شيءٍ أرضي تخلى الله عنه.

أضلّه عن هذا الشريك ليوحِّد، فالمؤمن لو أنّه أخذ بالأسباب لا ينسى مسبب الأسباب، لو أنّه وسّط فلاناً في قضيّةٍ ما لا ينسى أنّ الله هو الملهم وأن الخير والتوفيق بيده.. فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. الكافر.. قال تعالى:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨))

(سورة محمد)

إذاً: لماذا لم يرد في القرآن إطلاقاً أنّ الله أضلّ مؤمناً ؟ فهذه النقطة نقطة إيجابية دقيقة.. لأنّ المؤمن آمن فقد قال تعالى عنه:

(وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ مَرَدّاً (٧٦))

(سورة مريم)

وقال تعالى عن أهل الكهف:

(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آَمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى (١٣))

(سورة الكهف)

أي أنّ قضاء الله وقدره مع المؤمن ومع الكافر، فالمؤمن إذا اختار الهدى يزداد هدىً، إذا آمن يلقي الله في قلبه السكينة ليزداد إيماناً مع إيمانه، إذا اتخذ قراراً يرضي الله عزّ وجل شرح الله له صدره، أما إذا

اتخذ قراراً يسخط الله عزّ وجلّ ضاق صدره وأصبح صدره حرجاً ضيّقا كأنّما يصّعد في السماء كما قال تعالى:

(فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥))

(سورة الأنعام)

(يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ)

من هنا قال النبي عليه الصلاة والسلام:

((حَدَّثَنَا حَيْوَةُ أَخْبَرَنِي أَبُو هَانِئٍ أَنَّهُ سَمِعَ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحُبُلِيَّ أَنَّهُ سَمِعَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ يَقُولُ إِنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ))

(صحيح مسلم)

إذاً: معنى الإضلال معنى دقيق جداً، الله جلّ جلاله هو الكامل فأيُّ فهمٍ لكلام الله عزّ وجلّ على غير الكمال الذي يليق بالله هذا فهمٌ خاطئ.

في معجم ألفاظ القرآن الكريم قال: أضلّه.. وجده ضالاً.

العامي قد يتوهّم أضلّه أي خلق فيه الضلال.. كما قيل في بيتٍ من الشعر:

ألقاه في اليمّ مكتوفاً وقال له ..إيّاك إيّاك أن تبتلّ بالماء

***

عقيدة الجبر عقيدةٌ زائغة، عقيدةٌ مرفوضة، عقيدةٌ لا تليق بالله عزّ وجلّ، لا تليق بكماله، وتتناقض مع تكليف الإنسان، ومع حريّة اختياره، ومع كسبه، ومع الثواب والعقاب، ومع الجنّة والنار، عقيدة الجبر تنفيها آيةٌ كريمة قال تعالى:

(سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ(١٤٨))

(سورة الأنعام)

قال علماء اللغة: **" أضلّه.. وجده ضالاً "**، كأن تقول أحمدّته وأبخلته، أي وجدّته محموداً وبخيلاً.. أحمدته وجدته محموداً، أبخلته وجدّته بخيلاً.

عندنا قاعدة في أصول الفقه.. الآيات المتشابهات مهما كثُرت تُحمَل على الآيات المحكمات مهما قلّت.. كيف ؟ الكلمة المتشابهة تشبه معنىً ومعنىً آخر، إذا قلنا كلمة: خطير.. القمح مادةٌ خطيرة، فما معنى

خطير ؟ فالقنبلة خطيرة لأنّها مدمِّرة ونقول عنها سلاحٌ خطير.. واللحم مادة خطيرة أي أساسيَّة في حياة الإنسان، فيا تُرى كلمة خطيرة التي وصف بها القمح أو اللحم هل تعني أنّها مدمِّرة أو أساسيَّة ؟ فلو قلنا: القمح مادةٌ خطيرة ماذا نقصد بها ؟ لو قلنا بعد حين: القمح مادةٌ مهمةٌ في حياة الإنسان، فكلمة مهمّة تعبير محكم واضح جلي، كلمة القمح مادةٌ خطيرة كلمة متشابهه، كيف نفهم كلمة خطيرة، إذا قرأنا جملة ثانية أنّ القمح مادة أساسيّة، فنحمل كلمة خطيرة على أنها أساسيّة، لأنّ الكلمات المتشابهة تحمل على الكلمات المحكمة.. هذه قاعدة.

فإذا نطق القرآن الكريم بأنّ الله سبحانه وتعالى خلقنا ليرحمنا، وخلقنا ليهدينا، وإنّ الله لا يأمر بالفحشاء فقد قال تعالى:

(وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً فَإِنّ اللّهَ لَغَنِيّ حَمِيدٌ (٨))

(سورة إبراهيم)

والله.

(وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ)

قال تعالى:

(إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنّ اللّهَ غَنِيّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمّ إِلَى رَبّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُور (٧))

(سورة الزمر)

مادامت آيات كتاب الله تؤكِّد أنّ الإنسان مخيّر، وأنّ الشر ليس إيجابياً بل هو شيء سلبي، وليس مقصوداً لذاته فهو موظّف للخير المطلق، عندئذٍ يجب أن نفهم معنى الإضلال لا على أنّ الله خلق في الإنسان الضلال بل على أنّه أعطاه حريّة الاختيار فاختار الضلال فوجده الله ضالاً، ولأنّ هناك قوانين إلهيّة فالضلال له نهاية والهدى له نهاية.

يضلُ الله من يشاء.. عندنا آية تقوّي هذا المعنى قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنّي رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمّا زَاغُوا أَزَاغَ اللّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥))

(سورة الصف)

(فَلَمّا زَاغُوا)

زيغاً ابتدائياً مختارين به أزاغ الله قلوبهم.. زيْغاً جزائياً.

وأذكِّركم مرة ثانية بمثل الجامعة، طالب بمحض اختياره ترك الدوام، فإنه لم يداوم، ولم يؤدِّ الامتحان، ولم يشترِ الكتب، ولم يرد على الإنذارات، ولم يستجب للدعوة للعودة إلى الجامعة، أصر على هذا الموقف، الآن يصدر من إدارة الجامعة قرار بترقين قيده، هذا القرار تجسيدٌ لإرادته الحرة، نقول

الجامعة طردته، الجامعة رقنت قيده، الجامعة جهة خيرةٌ حكيمة أنشأت الجامعة ليتعلّم الطلاب، لا لتطردهم منها، ولا لتُرَقِّن قيودهم منها.

إذاً: نفهم أن ترقين القيد والطرد من الجامعة نفهمه فهماً جزائياً لا فهماً جبرياً، فهناك فرقٌ بين الفهم الجزائي والجبري.

(يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ)

ومن يشاء الهدى يهديه الله.

(وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

فقد قال تعالى:

(وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آَمَنُوا إِيمَاناً وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلِيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَرِ (٣١))

(سورة المدثر)

هناك معنى سادس للإضلال.. إنسان يتجه إلى حمص، وقبل حمص رأى طريقين بلا لافتات، ورأى رجلاً فسأله قائلاً: مِن فضلك: من أين طريق حمص ؟ قال له الرجل: من هذا الطريق. فقال: هذا السائل لهذا المسؤول جزاك الله خيراً، بارك الله بك، فلما قبل هذه النصيحة وقبل هذا الإرشاد قال له الآخر: انتبه هناك حاجز، وهناك طريق فرعي، وهناك مقطع من الطريق شديد السوء انتبه.. عندما قبل منه هذا الإرشاد أمدّه بكثير من التفاصيل.. لو أنّ إنساناً آخر وصل لهذا المفترق الذي دون لافتات، وسأل هذا الرجل: من أين طريق حمص؟ قال له: من هنا. قال: أنت كاذب، هذا الذي يقف على مفترق الطرق هل بإمكانه أن يقدّم له تعليمات تفصيليّة ؟ رفض دعوته كلياً، رفض نصيحته كلياً، رفض دلالته. معنى ذلك أنّ الإنسان حينما يرفض أصل الدين، حينما يرفض أصل الشريعة، حينما يرفض منهج الله عزّ وجلّ فلن يستفيد من منهج الله وكأنّ الله أضلّه.

هناك ألف ميزة لطالب الجامعة.. مكتبة مجّانيّة، وإعارة كتب وتعويض، ولباس مجّاني، وبطاقات تخفيض للمطاعم وفي السفر وفي الطائرات، إذا رفض الإنسان دخول الجامعة هل يتمتع بهذه الميزات؟ إذاً هو حُرم منها كلياً.. هذا معنى سادس للإضلال.. أنت حين ترفض أصل الدين لن تقبل من الله توجيهاته، لن تقبل شرعه، لن تقبل أمره، لن تقبل نهيه، لن تقبل القيم التي أرادها لخير الإنسان، فأنت الذي رفضت الدين إذاً فرفضت كل ميزاته وكل ثمراته.

إذاً.

(يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ)

من يشاء الضلالة يضلّه الله، يشاء الضلال اختياراً يضلّه الله جزاءً، أي يحرم من ثمرات الدين. وقد قال تعالى في الآية الكريمة:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ(٢٣))

(سورة الزمر)

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

أي أنّ الإنسان حينما يختار الضلال لا يستطيع أحدٌ في الكون أن يهديه.. أبو لهب مثلاً ألم يعش مع رسول الله، ألم يرَ دلائل نبوّته، ألم يَرَ كماله **!!؟** هو رفض الحقيقة كلياً، فلا تتعب نفسك فقد قال تعالى:

(إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (٥٦))

(سورة القصص)

(إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ)

مالهداية ؟ فالهداية قرار داخلي.

أقول لكم هذه الكلمة.. أنت إذا أردت الحقيقة كلُّ شيءٍ في الكون يدلّك عليها، وإذا رفضتّها.. فقوم موسى رأوا البحر وقد أصبح طريقاً يبساً، ورأوا العصاة وقد أصبحت ثعباناً مبيناً، رأوا يد سيدنا موسى بيضاء للناظرين، فلما أتوا على قومٍ يعكفون على أصنامٍ لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة.. كما ذكر في قصة سيدنا موسى مع قومه في الآية الكريمة:

(وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨))

(سورة الأعراف)

فالإنسان إذا لم يتّخذ قراراً داخلياً بالبحث عن الحقيقة، ليس في الكون كلِّه شيءٌ يمكن أن يهديه إليها، أُناس عاشوا مع رسول الله في الوقت الذي كان القرآن يَنزل عليه والمعجزات تتوالى، والآيات واضحة، والدلائل كثيرة، ومع ذلك ناصبوا النبيَّ العِداء.

إذاً.. ومن يضلل الله أي من يتّخذ قرار الضلال، من يُرد الشهوات، من يُرد الدنيا، من يعرض عن الله عزّ وجلّ لن يستطيع أحدٌ في الأرض ولا الأنبياء أن يهدوه إلى الله، لأنّ الهدى ذاتي، وهو قرار داخلي. أضرب لكم مثلاً.. الإنسان قد يكون شديد الذكاء، وقد يكون عبقرياً، وقد يكون كإنشتاين، هذا الذكاء يشبه آلة للتصوير عالية التقنية، فهناك آلات ثمنها ألوفٌ، وآلات أُخرى ثمنها ملايين من الليرات كالآلات التي تستخدمها محطات التليفزيون وقد يصل ثمنها إلى أكثر من مليونين من الليرات، فلو كانت هذه الآلات ليس في داخلها فيلمٌ فما قيمتها ؟.

الإنسان إذا أراد الحقيقة يكون في داخل آلته فيلمٌ ينطبع عليه كل شيء، أما إذا لم يُرد الحقيقة آلته غالية الثمن جداً ولكن بدون فيلم.. فما قيمة التصوير وضبط العدسة وضبط المسافة والسرعة، لا قيمة لهذه الآلة كلِّها، إما إن أردت الحقيقة أي في داخل آلتك فيلم فكل شيء تلتقطه، وإذا لم ترد الحقيقة مهما تكن آلتك غالية الثمن ولكن بدون فيلمٌ في داخلها، هذا معنى قول الله عزّ وجلّ.

(وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

في الآية الكريمة:

(اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ)

إذاً أضلّ الإنسان نفسه عن الله فأراد الدنيا وأراد الشهوات فلن تجد له في الأرض من يهديه. أما المؤمنون قال تعالى:

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ)

مستحيل ذلك فكلُّكم يعلم إنَّ هذه الصيغة من أشدِّ صيغ النفي، فهذا نفي الشأن وفرقٌ كبير بين نفي الشأن وبين نفي الحدث.. ما كان له أن يسرق.. لا يسرق، ولا يحبُّ أن يسرق، ولا يريد أن يسرق، ولا يتمنّى أن يسرق، ولا يفكِّر أن يسرق، ولا يرضى أن يسرق، ولا يرضى لأحدٍ أن يسرق.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ)

هذا المعنى الذي يلقيه الجهلة على الناس فيه مكر. فهم يقولون: قد تَعبُدُ الله طوال حياتك وقبل أن تموت بقليل يقدِّر عليك الضلال فتزِلّ قدمك فتستحقّ النار، هذا قنص، هذا غدر.

(وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ)

كن في طُمأنينة، الله جلّ جلاله ينمّي الخير القليل فيجعله كثيراً، ينمّي الطلب القليل ليجعله طلباً كبيراً. وفي آيةٍ أُخرى قال تعالى:

(فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥))

أي فأنت رأس مالك أن تبحث عن الحقيقة، فإذا اتخذت قراراً صادقاً مخلصاً في البحث عن الحقيقة وصلت إليها وربِّ الكعبة، وزوال الكون أهون على الله من أن تبحث عنها فلا تصل إليها..

فقد قال تعالى:

(وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ (٦٩))

(سورة العنكبوت)

وقال تعالى في آيةٍ أخرى:

(وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥))

(سورة الأعراف)

أي أنّ الله عزّ وجل دائماً من سننه في معاملة خلقه، أنّه ما كان ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيّب كما في قوله تعالى:

(مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ(١٧٩))

(سورة آل عمران)

فلابدّ من فرزٍ مستمر.. فحديث الإفك فرزٌ للمؤمنين، فمنهم من صدّق ومنهم من كذّب، منهم من سكت توقيراً للنبي وزوجه المصون، ومنهم من خاض في حديث الإفك.. قصّة الإسراء والمعراج فرزٌ للمؤمنين، منهم من ازداد إيماناً برسالة النبي، ومنهم من انتكس بهذا الخبر.. فهذا الفرز دائم، فإذا كنت أمام خمسين طالباً بدون إجراء مذاكرات وامتحانات فتصبح مشكلة، فتجدهم كلّهم يرتدون ثياباً موحّدة، وكلّهم يطلبون العلم، ولكن بعضهم لا يدرس أبداً، وبعضهم في راحة، وبعضهم عبء على أهله.. فلا بدّ من مذاكرةٍ من حين لآخر، فهذه المذاكرة تفرز الطلاّب ومن خلالها يتم إعلام الآباء بمستويات أبنائهم، فهذا كسلان في الدراسة، وهذا علاماته متدنيّة في الرياضيّات مثلاً فبذلك يتلافى القصور، ونشجع المجتهد.. أما أن يكون كامل العام الدراسي بلا مذاكرات، وبلا فرز، وبلا تقييم فهذه مشكلة.

فلحكمةٍ أرادها الله دائماً هناك امتحانات قال:

(إِنْ هِيَ إلا فِتْنَتُكَ)

الفتنة الامتحان.

(تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ)

أي أنّ الضال الذي يخفي الضلال ويظهر الهداية نفاقاً يكشفه الله، والمهتدي الذي ينطوي على هداية، وعلى استقامة وعلى إخلاص لِلّهِ عزّ وجلّ يكافئه.. هذا معنى هذه الآية.

وقال تعالى:

(وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ(٢٧))

(سورة الرعد)

هنا معنى مخالف.

(وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ)

من يضلُّ إذاً ؟ من أعرض، فالمنيب يهديه الله، أما المعرض لا يهديه الله عزّ وجلّ، وقال تعالى:

(يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً (٣١))

(سورة الإنسان)

وهذا معنى آخر.. من يشاء هكذا ؟ قال:

(وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا)

معنى ذلك يشاء الله غير الظالمين، وهذا بالمقابل.

وقال تعالى:

(وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (٩٧))

(سورة الإسراء)

أيُّها الإخوة... آياتٌ كثيرة يُعْزَى فيها الإضلال إلى الله هو الإضلال الجزائي المبني على ضلال اختياري، أو أنّ الله يضلُّ الإنسان المشرك عن شركائه.. بيده الخير، فهذا الإنسان متجه نحو شريك ضعيف يضلُّه عن شركائه ليهتدي إلى الله.

هناك أشياء قد تقع كثيراً وقد يكون عند الإنسان منافذ لمواجهتها.. فإذا ضاقت به الأمور يقول سألجأ إلى فلان أو فلان، وإذا كان ابنه مسافراً مثلاً يقول له: ابعث لي ويلتجئ بعضهم إلى أخيه، أو ابنه، أو صديقه، أو إلى شيء يبيعه ليفرج أزمته المالية التي ألمت به، إنه يركن إلى الدنيا، ويتمسك بأهدابها على ضعفها، وتقلب أهلها ويبقى غافلاً عن الله الذي يقدر وحده على رد لهفته وإيماناته.

وأحياناً يقع في شدّة فيسأل ابنه فيعتذر إليه الابن، ويطرق باب فلان فيعتذر، يحاول السفر فلا يسمح له، يعرض البيت للبيع فلا يأتيه أحدٌ ليشتريه منه، يغلق الله عليه كلّ المنافذ ليتجه إلى الله أي أضلّ الله هذا الإنسان عن شركائه.. مشرك متّكيء على فلان وعلى زيد وعلى عُبيد وعلى مال وعلى وساطة وعلى وجاهة ونسي الله، فإذا قلنا فلان أضلّه الله أي أضلّه عن هذه الجهات الأرضيّة ليتجه إلى الله خالق البريّة.

أيُّها الإخوة الكرام... حسن الظنّ بالله ثمن الجنّة.. إن أردت أن تصل إلى الجنّة فعليك أن تحسن ظنّك بالله، وأن تفهم أسماء الله الحُسنى على نحوٍ يليق بكماله، ويليق بجلاله، والله سبحانه وتعالى يقول:

(وَلِلّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ(١٨٠))

(سورة الأعراف)

ويقول أيضاً:

(وَيُعَذّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظّانّينَ بِاللّهِ ظَنّ السّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السّوْءِ وَغَضِبَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدّ لَهُمْ جَهَنّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً (٦))

(سورة الفتح)

وقال أيضاً:

(ثُمّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمّ أَمَنَةً نُعَاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقّ ظَنّ الْجَاهِلِيّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنّ الْأَمْرَ كُلّهُ لِلّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُورِ (١٥٤))

(سورة آل عمران)

فكلّما ازددت معرفة بالله ارتاحت نفسك وانعقدت صلتك به وأقبلت عليه وسعدت بقربه، وكلّما ابتعدت عن حسن الظن به صار حجاباً بينك وبينه، لذلك:

((عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلّ مُسْلِمٍ وَوَاضِعُ الْعِلْمِ عِنْدَ غَيْرِ أَهْلِهِ كَمُقَلّدِ الْخَنَازِيرِ الْجَوْهَرَ وَاللّؤْلُؤَ وَالذّهَبَ))

(سنن ابن ماجة)

فليس للإنسان عذرٌ إن أساء الظنّ بالله أن يظل ساكتاً فقد حضّنا الله على أن نسأل.

(فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا)

(فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

قال تعالى:

(الّذِي خَلَقَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتّةِ أَيّامٍ ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً (٥٩))

(سورة الفرقان)

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلّا رِجَالاً نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٤٣))

(سورة النحل)

أرجو الله سبحانه وتعالى أن ينفعنا بما علّمنا، وأن يلهمنا الحقّ والخير.

٩٠- اسم الله عالم الغيب والشهادة :

مع الاسم التسعين من أسماء الله الحُسنى، والاسم هو عالم الغيب والشهادة، وهذا الاسم كما تعلمون زائدٌ عن التسعة والتسعين اسماً، التي وردت في أحاديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

عالم الغيب، الغيب مصدر غاب أي استتر عن العين، غابت الشمس أي استترت وراء الأفق.. بل إن الغيب ستعمل في كلّ غائبةٍ تغيب عن الحواس، أيةٌ غائبةٍ تغيب عن الحواس فهي غيبٌ بالنسبةِ إلى الإنسان، وكلُّ شيء غاب عن علم الإنسان فهو غيب.. لكن هذه الكلمات، وتلك هي التعريفات بالنسبةِ إلى الإنسان فقط.

لو أنّ إنساناً يقف خلف حاجز، هذا حاجز يُغَيِّبُ عنه ما وراءه، أما الذي يقف أمام الحاجز فإنه يرى كل ما غيّبه ذلك الحاجز، نقول هذا المكان غيبٌ بالنسبة لمن يقف وراء هذا الحاجز، أما الذي يرى من قبلُ ومن بعدُ فليس غيباً بالنسبة إليه، هذا كلام سوف ينفعنا كثيراً بعد قليل.

عالم الغيب، الغيب بالنسبة إلينا، لا أحد من بني البشر يعلم الغيب، وقد ذكرت في بحث سابق أن الغيب أنواع.. نوعٌ من الغيب استأثر الله به، لا يُعْلِمُه أحداً من خلقه كائناً من كان.. من هذا الغيب موعد يوم القيامة، ومن هذا الغيب قيامة الإنسان الصُغْرى: الموت ولحكمةٍ بالغةٍ جداً أنّ الإنسان لا يعلم متى يموت، وهذا لصالحه، فلو علم تباطأ بالتوبة وخسر الآخرة.. فكلُّ شيءٍ يغيب عن علم الإنسان هو غيب، لكن ربنا عالم الغيب والشهادة.

مثلٌ بسيطٌ جداً من يقف هنا في هذه الغرفة لا يعلم ماذا يجري في الغرفة التي تليها، أما ربنا جلّ جلاله كلّ شيء أمامه مكشوف، عالم الشهادة التي تشهده، وعالم الغيب الذي يغيب عنك.

في بلدٍ مجاور وقعت مآسٍ كثيرة، استمرت هذه الحروب أكثر من ستة عشر عاماً، أكلت الأخضر واليابس، أعرف واحداً يسكن في ذاك البلد المجاور، وله معمل، وله تجارة، وقبل أن يقع أي حادث ضاقت عليه نفسه وضاق به ذلك البلد أشدّ الضيق وتعثرت أموره، إلى أن انتقل إلى الشام هو وتجارته ومعمله، وبعد أن انتقل، بدأت المشكلات واحترقت المعامل وأُتْلِفَ المال، وانتهى كلُّ شيء إلى دمار و خراب.

مَن الذي سيعلم ما سيكون ؟ الله جلّ جلاله، فإذا كنت معه ألهمك رشدك، ألهمك تصرفاً يحفظك به، أو ألهمك تصرفاً ترضى بنتائجه لأن الغيب معلوم لديه، فأنت لا تعلم الغيب، قد تشعر بحاجة إلى أن تغادر هذا المكان، فتغادره، وبعد أن تغادره تنشأ مشكلة أنت عاجز عن مواجهتها، كذلك قد تشعر بانقباض في أن تسافر على هذه الطائرة، فتحجم عن السفر عليها فتسقط الطائرة، من الذي يعلم الغيب ؟ الله وحده، إذا كنت مع الله فهو الذي يعلم الغيب ويحفظك بهذا العلم، يعلم الغيب ويوفِّقُكَ، يعلم الغيب ويلهمك

رشدك، يعلم الغيب ويكيد لك، يعلم الغيب ويدبّر أمراً يحفظك به.. الغيب عند الله كالشهادة، عَلِمَ ما كان وعَلِمَ ما يكون، وعَلِمَ ما سيكون، وعَلِمَ مالم يكن لو كان كيف كان يكون.

إذاً لا يَعْزُبُ عن الله جلّ جلاله مثقال ذرةٍ في السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.. إذا كنت معه وهو الذي لا يغيب شيءٌ عن علمه يوجهك إلى الخير ويدفع عنك الشر قبل أن يقع

هناك حوادث كثيرة جداً تغني هذا الموضوع.. إنسان قبل اجتياح الكويت بأيام سحب أمواله كلها دون أن يشعر لماذا فعل ذلك، حَفِظَ الله له أمواله، يبدو أنه كان يؤدي زكاة ماله.

شيء لا يصدق أحياناً، الأحداث أحداث خطيرة تقع، أنت قبل أن تقع يحفظك الله منها، يلهمك أن تغادر، يلهمك أن تنقل مالك من مكان إلى آخر، من جهةٍ إلى جهة، من عُملةٍ إلى عُملة، وأنت لا تدري، لأن الله يعلم الغيب، فإذا كنت معه وتؤدي حقوق العباد، وتقيم منهج الله يحفظك، وعلمه للغيب يفيدك به إذ ربنا جلّ جلاله يصرّف الأحوال ويقبلها لصالح عباده المؤمنين.

أما الشهود والشهادة، الحضور مع المشاهدة، عالِمِ الغيب والشهادة، أي أنت حاضر وتشهد، عالَم الغيب أي غاب عنك، عالَم الشهادة حضرت وشهدت، إما بالبصر أو بالبصيرة، البصر رؤية العين، والبصيرة رؤية القلب، قال الله تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣))

(سورة الأنعام)

ذُكر اسمه هذا في آياتٍ كثيرة.. طبعاً الحضور والشهود هو الأصل، أما العلم والشهود فهو فرع، قد تحضر وتشاهد بأمّ عينك، وقد تعلم وكأنّك تشاهد.

لكن من اللطائف في قوله تعالى:

(أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١))

(سورة الفيل)

مع أن هذا الحادث لم نره نحن، فالله سبحانه وتعالى قال:

(أَلَمْ تَرَ)

قال بعض العلماء: **" يجب أن يقع إخبار الله لك موقع الرؤية لمصداقية الله عزّ وجلّ "**.

شهَدُه كسمِعَه، شهده شهوداً أي حضره، أنا شهدت الجنازة أي حضرتها، شهدت هذا الحفل أي حضرته، شهدت هذا المأتم، شهدت هذه المشكلة أو الواقعة أي حضرتها، عالم الغيب والشهادة.

ومن ثمّ فما معنى قوله تعالى:

(الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣))

(سورة البقرة)

أي أن الله جلّ جلاله لا تدركه الأبصار، غابت عنا ذاته وبقيت آثاره، نحن من آثاره نتعرف إليه وهذه مهمة العقل.. أدواتٌ ثلاث للمعرفة، إما أن ترى بحواسك، وإما أن تدرك بعقلك، وإما أن تتلقى خبراً بأذنك، هذه هي أدوات المعرفة وليس هناك أداةٌ أخرى.. إن كان هناك أداةٌ أخرى كالإشراق، أو الإلهام أو الرؤيا الصالحة يجب أن تكون مقيدةٌ بالشرع ولا نقبل لا رؤيا ولا إلهاماً، يخرم الشرع قيد أنمُلة.. ديننا دينٌ كاملٌ تام.. قال تعالى:

(حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣))

(سورة المائدة)

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمْ الإِسْلامَ دِينًا)

ديننا دينٌ كاملٌ تام.

لو أنّ رجلاً رأى النبي عليه الصلاة والسلام طبعًا في المنام، هكذا قال العلماء، وأمره بما يخالف الشرع، تردُّ الرؤيا ويثبت الشرع.. بل لو أنّ قاضياً رأى في الرؤيا أنّ هذا الشاهد كاذب لا تقبل شهادته، وهو عنده في اليقظةِ صادق يجب ألا يأخذ بالرؤيا.

الرؤيا يستأنس بها ولا يعتمد عليها إطلاقاً، لا في حكمٍ شرعي، ولا في إثبات قضية، ولا في تصحيح حديث، ولا في تقييم إنسان.. الرؤيا والإلهام مصادر فرعية للمعرفة، إلا أنها يجب أن تنضبط بالشرع.

من معاني الغيب أيضاً، يؤمنون بالغيب، يؤمنون بشيءٍ غاب عنهم، ذات الله لا نراها لكن نرى آثار خلق الله، مصير الإنسان لا نراه، لكن الله أخبرنا عن مصير الإنسان إما في جنةٍ يدوم نعيمها، أو في نارٍ لا ينفد عذابها.

الخلاصة أن الغيب بالمعنى الثاني الدقيق، مالا يقع تحت الحواس أبداً، الشيء الذي يقع تحت الحواس عالم الشهادة، والشيء الذي لا يقع تحت الحواس عالم الغيب، لكنّ الله عالم الغيب والشهادة. فإذا الإنسان لم يؤمن بالغيب أصبح كافراً، من لوازم المتقين أنهم يؤمنون بالغيب، أي عقلك يعطيك دليلاً قطعياً، على أنه لا دخان بلا نار النار، لا تراها، لكنّك رأيت الدخان، وعقلك يعطيك دليلاً قطعياً

على أنّ في المسجد كهرباء وأنت لا ترى الكهرباء ترى آثارها، ترى حركة المراوح وتسمع تكبير الصوت، وترى تألّقَ المصابيح فقط، تحكم على سريان تيار الكهرباء من آثارها.

بعضهم قال إنّ الغيب هو القرآن الكريم أو إنه القدر، لكن الغيب كلّ شيء غاب عن حواسِّك، أو كلُّ شيء غاب عن علمك، وعالم الشهادة كلُّ شيء تشهده.

لقد ذكرت في بداية البحث أن الغيب أنواع، نوع من الغيب استأثر الله به، ونوعٌ أطْلَع بعض أنبيائه عليه.

قال الله تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧))

(سورة الجن)

لذلك فإنّ النبي عليه الصلاة والسلام، في أحاديث كثيرة حدثنا عن أشراط الساعة، الكُبْرى والصُغْرى، وحدثنا عن آخر الزمان، وكيف أن الأمَةَ تلد ربَّتها، وكيف أن الحفاة العراة، رعاء الشاة يتطاولون في البنيان، وكيف يوسَّد الأمر إلى غير أهله، وكيف يكون المطر قيظاً والولد غيظاً ويفيض اللئام فيضاً، ويغيض الكرام غيضاً، وكيف يُأمر بالمنكر، ويُنهى عن المعروف، وكيف يُصدَّق الكاذب، ويُكذّب الصادق، ويخَوَّنُ الأمين ويُؤتمن الخائن، وكيف تركب ذوات الفروج السروج، وكيف تكثر الأشجار وتقلُّ الثمار..

هناك أحاديث كثيرة جداً عن أشراط الساعة، من أين جاء بها النبي عليه الصلاة والسلام ؟ هو لا يعلم الغيب بذاته وأكبر دليل لمّا جاءه وفدٌ ليأخذ القُرّاء، أعطاهم النبي سبعين قارئًا ثم غدروا بهم في الطريق وقتلوهم، لم يعلم النبي بهذه الواقعة، وهذه الواقعة لها دلالة كبيرة جداً، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام لا يعلم الغيب بذاته إلا أن يُطلعه الله عليه.. بل إنه حينما اختار موقع بدر، جاء صحابي جليل اسمه الحُباب بن المنذر، قال يا رسول الله: **أهذا الموقع وحيٌ أوحاه الله إليك، أم هو الرأي والمشورة؟ قال: بل هو الرأي والمشورة،** فقال هذا الصحابي الجليل انطلاقاً من غيرته على الإسلام و المسلمين: **يا رسول الله ليس هذا بموقع،** الله عزّ وجلّ أطلع النبي على آلاف القضايا التي هي أقل من هذا الموضوع، ولكن شاءت حكمته أن يعلِّمنا النبي أدب الإصغاء إلى النصيحة، يعلمنا النبي وهو قدوتنا وأسوتنا أدب الإصغاء إلى النصيحة فلما سأله **أين الموقع الذي تختاره ؟** قال هناك يارسول الله، وأشار إليه وأعطى الرسول صلى الله عليه و سلم أمراً بالانتقال إليه.

إذاً: الغيب لا يعلمه إلا الله، والشهادة يعلمها الإنسان في حدود إمكانه.. فالغيب الذي يمكن أن يُطلع الله نبيه عليه، أنواعٌ ثلاثة: غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل.. غيب الماضي قبل الوقت

الذي تعيش فيه، وغيب المستقبل بعد الوقت الذي تعيش فيه، وغيب الحاضر غير المكان الذي تجلس فيه.

مثلاً: أنا في دمشق لا أدري ماذا يجري في حلب، حلب بالنسبة إلي غيب حاضر، أما قبل مئة عام غيبٌ ماضٍ، وبعد مئة عام غيبٌ مستقبلٍ، والله سبحانه وتعالى، يعلم غيب الماضي، وغيب الحاضر، وغيب المستقبل.

قال الله تعالى:

(ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤))

(سورة آل عمران)

هذا غيب الماضي.. أما غيب الحاضر.. قال الله تعالى:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ(٣٠))

(سورة الأنفال)

أما غيب المستقبل.. قال الله تعالى:

(غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤))

(سورة الروم)

أيها الإخوة القراء أريد أن أركِّز على هذه الحقيقة وأوضِّحها ؛ فأنت إذا كنت مع الله، والله يعلم الغيب، يعلم غيب الحاضر، فالطرف الآخر وهم خصومك ؛ يعلم ماذا سيفعلون بك، كما يعلم ماذا سيخططون، يعلم ماذا يأتمرون، وهو يعلمهم، ويلهمك شيئاً يقيك تخطيطهم، يلهمك تدبيراً يحميك من غدرهم، يلهمك خطة تنجو بها من مكرهم وتدبيرهم، فأنت إذا كنت مع الله أنت مع عالم الغيب والشهادة الذي يفسد على الآخرين مكرهم، و ما أحداث ليلة البحرة مجهولة لديكم.. لذلك قال الله تعالى:

(قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١))

(سورة التوبة)

لكن قد توجد مفاجآت، الحقيقة هناك آلاف الوقائع والأحداث، والإنسان المتخلِّي عن الله في بضع دقائق قد يفقد كلّ ماله، أحياناً في دقائق قد يفقد أهله، أما الإنسان المتولي ربّه حينما يكون مع الله فهو عالم الغيب والشهادة، يعلم ما كان، ويعلم ما سيكون، ويعلم ماهو كائن في أيّ مكانٍ آخر.

ذكر لي أخ مشكلة كبيرة جداً وقعت في مكان، وكان هو في المكان نفسه والمشكلة مدمرة، قال لي والله قبل خمس دقائق، أُلهمت أن أخرج لكي أشتري الخبز، ما إن خرجت مئات الأمتار، حتى رأيت المشكلة

قد نشبت، شيء مدمِّر، فربنا عزّ وجلّ.. إذا كنت مع الله كان الله معك، والله عزّ وجلّ إذا قال إن الله مع المؤمنين، أو مع المتقين، أو مع الصابرين.. فهذا يعني أي أنّه معهم حفظاً، وتأييداً، ونصراً، وتوفيقاً.

لذلك فعلى الإنسان إذا همّ بعمل شيء أن يصلِّي صلاة الإستخارة فيقول: يا ربِّ إنّك تعلم ولا أعلم، إن كان في هذا الأمر صلاحٌ لي في ديني ودنياي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسِّره لي.

هو يعلم أنّ هذه المرأة لا تُسعدك فيصرفها عنك ويصرفُك عنها، هو يعلم أنّ هذه التجارة لا تُغنيك بل تُسْقط في يدك، هو يعلم أنّ هذا السفر ليس في صالح إيمانك.. هو يعلم الغيب وأنت لا تعلم، فإذا فوّضت، فقد فوّضَ الذي لا يعلم لمَنْ يعلم.. يكون في أعلى درجات الذكاء، الذي لا يعلم يفوّض الذي يعلم.

قد تقف عند بائع تثق به وتقول له: أنت اختر لي، فقد سلّمت أمري إليك وفوّضت أمري إليك واختر لي ما يُعجبك.. هذا مع إنسان تثق به تفوّضه فكيف مع الواحد الديّان ؟!

بالمناسبة.. كلما ارتقى الإنسان في سُلّم الإنسانيّة يخاف بالغيب، وكلما هبط إلى مستوى البَهيميّة يخاف بالشهود.. وهذه فكرة دقيقة.. كلما ارتقى الإنسان في سُلّم الإنسانيّة يخاف بعقله، وكلما هبط إلى مستوى البَهيميّة يخاف بعينه، أي إلى أن يرى الخطر ماثلاً عندها تخاف، علمًا بأن الخطر يدرك بالعقل.

فمثلاً يقول الأطباء: إنّ الدخان يسبب سرطان بالرئة، وهذا النيكوتين الموجود فيه تسرّع القلب، ويزيد من خفقان الرئتين، ويضيّق الأوعية، فيرفع نسب السكر في الدم، وترفع نسبة هرمون التجلّط، فاحتمال التجلط في دم المدخِّن كبيرٌ جداً، الأمراض القلبية عند المدخنين عشرة أمثالها عند غير المدخنين، هذا كلّه بالعقل يُدرك، أما المدخِّن الذي يخاف بعينه لا يقلع عن الدخان إلا بعد أن يصاب بمرض السرطان، فبعد أن يصاب على الفور يقلع.. فمعنى هذا أنّه إنسان بهيمي.. كلما ارتقى مستواك الإنساني خفت بعقلك، وكلما تدنى المستوى الإنساني إلى المستوى البهيمي خاف بعينه.

قد تجد الدابة إن رأت حفرة في الأرض تقف لقد رأت بعينها..، بينما قد يجد إنسان طريقاً واسعاً وممهّدًا ومعبّدًا ويجد لوحة كتب عليها انتبه الطريق مغلق فالإنسان العاقل لا يكمل السير، فالطريق تراه بعينيك مفتوحاً أمامك، ولكنّ قراءتك للوحة صغيرة تفيدك أنّ الطريق بعد قليل مغلقٌ فلا تكمل المسير، فأنت الآن لم ترَ الإغلاق ولكن رأيت فكرة الإغلاق، فكلما ارتقى الإنسان يتعامل مع الأفكار، أما إذا هبط إلى مستوى البهيميّة يتعامل مع الصور.

قد ترى دُوراً للهو ذات فخامة كبيرة، فيها أجمل أنواع الثريات والتزينات والأناقة لكنّ المعاصي كلّها تُرتكب فيها، فالمؤمن يكرهها بعقله، بينما ضعيف التفكير يقدِّرها ويُعظِّمها بعينيه فيمدح فخامتها.. فكلما إرتقى الإنسان تَعامل مع الأفكار بعقله، وكلما هبط مستواه تَعامل مع الصور بعينيه.

إذًا فأخطر شيء على الصغار أن تريهم قصّة مُمَثّلة.. فلو أريناهم إنسانًا متديّنًا أحمق أو امرأة متديّنة حمقاء مثلاً مهملة أولادها، فهذا الصغير يكره الدين بلا سبب فهو في كل الأحوال لا يتعامل مع الأفكار، فليس عنده إدراك أو عمق أنّ هذه تمثيلية والذي كتب هذه التمثيلية أراد تشويه صورة الدين، فهو قد رأى أنّ الإنسان الذي يمثّل الدين إنسان غير جيّد بينما الإنسان الجيّد هو الذي أسبغ عليه الكاتب كلّ صفات الرجولة فهو إنسان شجاع ووفي إلا أنّه يشرب الخمر، فخطورة أجهزة اللهو مع الصغار خطيرة جداً، لأنّ الصغير لا يتعامل مع الأفكار بل يتعامل مع الصور، فيكفي أن تريه امرأةً سيّئة جداً بزيٍّ إسلامي، فيكره الإسلام كلّه، ويكفي أن تريه امرأةً تحبُّ أولادها حباً جماً لكنّها متفلّتِه من الدين فيحب الصغير التفلّت من الدين، هنا الخطورة أن نسمح لأطفالنا أن يشاهدوا كل ما هبّ ودبّ، فالطفل الصغير يتعامل مع الصور، وقد نستطيع أن نفسد عقيدته بالصور، وأن نشوّه له كلّ شيءٍ يعرض عليه بالصور.

فلدينا غيب وكذلك شهادة.. وهناك أمثلة كثيرة جداً.. إنسان ينتظر إلى أن تأتي موجة من البرد قارصة فيهيّء المدافيء ويشتري الوقود السائل للتدفئة، وإنسان آخر تجده وهو في أشهر الصيف يُهيّء المدافيء ويشتري الوقود السائل اللازم ويجهّز كل شيء لفصل الشتاء دون مشقة ودون ازدحام على الوقود، أما حينما تأتي الموجة القارصة فجأةً تجد صعوبة بالغة عند شراء الوقود السائل، فالذي يتعامل مع الأشياء بإحساساته فهو ذو إدراك ضعيف، أما الذي يتعامل معها بإدراكه فهو ذو إدراك عالٍ.

كتاب الله جلّ جلاله أشار إلى كلمة عالم الغيب والشهادة في آياتٍ كثيرة..فقد قال تعالى:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩))

(سورة الأنعام)

ذكرت في أبحاث سابقة حكمة.

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

لو قال الله تعالى: ومفاتح الغيب عنده، أي هي عنده وقد تكون عند غيره، أما حينما يقول الله عزّ وجلّ:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ)

أي مفاتح الغيب عنده حصراً.

وفي سورة الفاتحة ورد قوله تعالى:

(إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (٥))

(سورة الفاتحة)

فلو قال: نعبد إيّاك يا رب، فهذا يعني أننا قد نعبد غيرك أيضًا، أما قولنا.

(إِيّاكَ نَعْبُدُ)

أي نعبدك وحدك يا رب، هذا هو القصر، فأحياناً التقديم يفيد القصر والحصر.

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ)

إن كان لديك مجلة قديمة صدرت من قبل عشرين سنة فإقرأها فستجد أنّ الأحداث التي وقعت بعد إصدار هذه المجلة لو عشت في تاريخ صدورها لا يمكن أن تتصوّر أنّ الذي وقع يمكن أن يقع، كان غيباً، حينما تُهدُّ عروش، وحينما تدكُّ معسكرات كبيرة وضخمة جداً، فاقرأ في هذه المجلة القديمة وتصوّر أنّ الذي وقع لو تنبّأت به قبل أن يقع لأودعوك في مشفىً للمختلين عقلياً - للمجانين - لكنّه وقع فعلاً.. فمن يعلم الغيب ؟ الله جلّ جلاله هو وحده يعلم الغيب.

فقد يقول لك أكثر الناس: قد عُرض علي شراء أرض مساحتها مائتا دونمٍ وسعر الدونم يومذاك ليرتان فقط ولكنني لم أشترها والآن ثمن الدونم الواحد مليونان.. لو أنّك تعلم الغيب لكنت الآن من أغنى أغنياء العصر.. أراضٍ شاسعة وواسعة ومئات الدونمات بثمن بخس، فقد ذكر لي شخص أنّه قد باع خمسين دونما بدابة صغيرة - حمارة صغيرة - كان بحاجة إليها وهذه الأرض ماذا يفعل بها فهي عبء عليه، أما الآن فسعر الدونم الواحد مليونان.. هذا كان في علم الغيب.

لذلك التجّار يقولون كلمة لطيفة: تاجر ومنجّم لا يجتمعان.. لا أحد يعلم ما سيكون، أحياناً تجد الأمور تسير في طريق مسدود إلى أن نيأس، فقد كان في بلادنا جفاف مخيف كاد حوض دمشق يجف، وكادت دمشق تعاني من العطش ولكنّ الله جلّ جلاله أنزل أمطاراً غزيرةً في الأعوام التالية، وهذا كان غيباً.. فموضوع الغيب موضوعٌ دقيقٌ جداً.

فأحياناً يقال لك: إنّهم تمكنوا من معرفة الجنين ذكراً أو أنثى، فأين قول الله عزّ وجلّ:

(إِنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤))

(سورة لقمان)

(وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ)

فلم يقل الله: يعلم من في الأرحام ذكراً كان أو أنثى. قال:

(وَيَعْلَمُ مَا)

فالحوين المنوي يوجد على النويّة خمسة آلاف مليون معلومة مبرمجة، فهذا الجنين هل سيكون عالماً كبيراً، أو استاذاً في الجامعة، أو مؤلِفاً خطيراً، أو بائعاً متجوّلاً، أو مجرما، أو سجيناً، أو مصلحاً، فاسداً مثلاً وهل ياترى سيكون صاحب ملهى أم صاحب دارٍ للنشر، مَن سيكون ؟ من سيتزوّج ؟ من سينجب؟ ما دوره في الحياة ؟ هل يكون دوراً هامشيًا أم دورًا قصيرًا فمن يعلم هذا ؟ إذا وجد على النويّة خمسة

آلاف مليون معلومة مبرمجة لا يعلمها إلا الله، فما نسبة معرفة ذكورته أو أنوثته إلا واحد لخمسة آلاف مليون.

أحياناً تجد أباً لديه خمسة أولاد لا يعلم من هو المتفوّق، وبعد ثلاثين سنة تجد ولداً منهم قد تألّق تألّقاً كبيراً جداً، وولداً آخر أصبح في الدرجة الدنيا من المجتمع مَن الذي يعلم الغيب ؟ الله وحده يعلم الغيب.. علم ما كان، وعلم ما يكون، وعلم ما سيكون، وعلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون، فقد قال تعالى:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إلا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

هل أنت مرتاح إلى أنّ الله الذي تعبده يعلم كلّ شيء، وعلمه لصالحك فقد قال تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد)

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ)

فأحياناً يقول لك أحد الأشخاص أثناء قيادة مركبة لو تقدمت سنتيمتراً واحداً لكان وقع لي حادث حادث أليم، فمن يعلم الغيب.

أحياناً الله عزّ وجلّ يصرفك عن شيء مدمّر فيلهمك رشدك.. إنسان له تجارة معيّنة والبضاعة موجودة والطلب عليها شديد والتصدير ميسّر ولكنّه قال لي بالحرف الواحد: والله شعرت بضيق وإنقباض بصورة غير معقولة وبلا سبب أو تعليل واشتدّ الضيق علي إلى درجة أنّني أحجمت عن تصدير هذه البضاعة، ثم كان الذي كان، فُرض على الذي قاموا بالتصدير ضرائب أكلت أخضرهم ويابسهم ونجّاه الله من هذه الضرائب التي لم تكن في الحسبان، والسبب أنّه أنفق مالاً وفيراً في خدمة بيوت الله عزّ وجلّ.. ولأنّ الله عزّ وجلّ يعلم الغيب صرفه عن هذا العمل، وهناك آلاف الشواهد المشابهة فأنت حينما تعبد الذي يعلم الغيب فعلمه للغيب كلّه لصالحك وأنت لا تدري.. من هنا قال الله عزّ وجلّ:

(كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦))

(سورة البقرة)

سألني أخ ذات مرة عن قضية فيها شبهة، فأخبرته بأن فيها شبهة، فقال لي: ليس لي دخل إلا منها. فقلت له: هذا شأنك لا شأني وقد سألتني فأجبتك. ولكن يبدو أن خوفه من الله غلب عليه فامتنع عن هذه الطريقة في التعامل وكان امتناعه لله، في حين أنها كانت رائجة جداً وتدر عليه دخلاً كبيراً جداً، وكان في بحبوحة كبيرة، فلما امتنع عن هذه الطريقة المشبوهة في البضاعة التزاما بشرع الله سبحانه،

ومضى عليه أكثر من ثلاثة أشهر ودخله قليل جداً ثم مُنِعت هذه الطريقة من أصلها قصراً، فجاءني وقال: الحمد لله الذي تركتها لله، ولكن بعد حين كنت سأتركها مقهوراً ومجبوراً مع الإثم و الوزر، أما الآن وقد تركتها رجاء مرضات الله وأنا في الأوج، ثم كافأني الله بأن فتح لي باب رزقٍ وفير لم يكن بالحسبان.

موضوع أنّك تعبد الذي يعلم الغيب موضوع دقيق، فأنت في راحة لأنّ كل ما سيكون هو في علم الله، لذلك يوجّهك الله توجيهاً لصالحك، فالمؤمن يُلهمُه المَلك، والمنافق يدفعه الشيطان، يدفعه إلى أن يبخل، يدفعه إلى أن يحقد، يدفعه إلى أن يخاصم زوجته، يدفعه إلى كلّ المشكلات.

آيةٌ ثانية قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّور عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ)

(وَهُوَ الْحَكِيمُ)

الحكيم كما تعلمون يضع الشيء بالقدر المناسب، وفي المكان المناسب، وفي الوقت المناسب، وليس في الإمكان أبدع مما كان، وكل شيءٍ وقع أراده الله.

و:

(الْخَبِيرُ)

الخبرة هي العلم الذي يتعلّق بالمستقبل.. فأحياناً تقوم ببناء آلة بمعرفة وعلم على علم عالٍ جداً، لكن مع الاستعمال تكشف أنّ فيها أخطاء لم تكن في الحسبان، فالعلم مع المستقبل يصبح خبرة.

وفي سورة التوبة قال تعالى:

(يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤))

(سورة التوبة)

وفي السورة نفسها قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥))

(سورة التوبة)

فالآيتان متشابهتان.

وفي سورة الرعد قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩))

(سورة الرعد)

وفي سورة المؤمنون قال تعالى:

(عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمّا يُشْرِكُونَ (٩٢))

(سورة المؤمنون)

وفي سورة السجدة قال تعالى:

(ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحِيمُ (٦))

(سورة السجدة)

وفي سورة الزمر قال تعالى:

(قُلِ اللّهُمّ فَاطِرَ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦))

(سورة الزمر)

وفي سورة الحشر قال تعالى:

(هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ هُوَ الرّحْمَنُ الرّحِيمُ (٢٢))

(سورة الحشر)

وفي سورة الجمعة قال تعالى:

(قُلْ إِنّ الْمَوْتَ الّذِي تَفِرّونَ مِنْهُ فَإِنّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمّ تُرَدّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨))

(سورة الجمعة)

وفي سورة التغابن قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨))

(سورة التغابن)

ممكن أن نلخِّص المواقف العملية للمؤمن من خلال هذا الاسم أنت إذا استقمت على أمر عالم الغيب والشهادة لن تفاجأ بغيبٍ مدمِّر، أنت إذا استقمت على أمر عالم الغيب والشهادة كان علم الله للغيب لصالحك، يحميك من كل سوء، يقيك شرّ أعدائك، يُلهمك رشدك، يُلهمك الخير وأنت في حرزٍ حريز.

أيّها القارئ الكريم... حينما تعلم أنّ الله يعلم.. وهذه الحقيقة وردت في قوله تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

(سورة الطلاق)

أي إنّك إذا علمت أنّ الله يعلم استسلمتَ وارتحتَ، لذلك يقول المؤمن أحياناً: اللهمّ خِر لي واختر لي.. أي يا رب أنت اختر لي.

دُعيت لعقد قران ذات مرة فدعوت بهذا الدعاء: اللهمّ ما رزقتني مما أحب، فاجعله عوناً لي فيما تُحب، وما زويت عني ما أحب، فأجعله فراغاً لي فيما تحب..فكان إلهاما من الله فيه خير لي.

((عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ يَزِيدَ الْخَطْمِيّ الأَنْصَارِيّ عَنْ رَسُولِ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ أَنّهُ كَانَ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ اللّهُمّ ارْزُقْنِي حُبّكَ وَحُبّ مَنْ يَنْفَعُنِي حُبُّهُ عِنْدَكَ اللّهُمّ مَا رَزَقْتَنِي مِمّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ قُوّةً لِي فِيمَا تُحِبُّ اللّهُمّ وَمَا زَوَيْتَ عَنّي مِمّا أُحِبُّ فَاجْعَلْهُ فَرَاغًا لِي فِيمَا تُحِبُّ))

(وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ)

وأقول مرة أخيرة... أنت تقف هنا، لا تعلم هناك ما سيكون، فقد يكون لك عدو كبير خطير مخيف يدبّر لك أمراً ما، لكنّ الله يعلم ما أنت فيه وما خصمك فيه، فإذا كنت مع الله عزّ وجلّ ألهمك رُشدك، ألهمك الخلاص من هذا العدو، أو ألهمك تدبيراً مضاداً لتدبيره، أو ألهمك سلوكاً يُعطّل عليه مكره لأنّه يعلم الغيب، وهذه هي أهم فكرة في هذا البحث، أنت إذا كنت مع الله فأنت مع عالم الغيب والشهادة، الغيب لصالحك فلا توجد لديك مفاجأة، فتجد المؤمن الصالح كل شيء يسيّره الله به لصالحه والغيب يكشف له الحقيقة.

وتجد الإنسان غير المستقيم يخطط.. فذات مرة فكّر إنسانٌ وأكثرَ من التفكير الجاد ثم باع كلّ ما يملك واشترى به عملة لبنانية، فمن يعلم أنّ هذه العملة سوف تصبح متدنية وسيصل سعر كل دولارٍ واحدٍ يساوي ثلاثة آلاف وثمانمائة ليرة لبنانية ؟ باع كل أملاكه وتاجر في العملة الصعبة فكانت خسارته دمارًا ووبالاً، فمن يعلم الغيب ؟ الله عزّ وجلّ وحده هو الذي يعلم.

فحينما يكون الإنسان مع الشيطان ومنحرفاً عن الخط الإسلامي الصحيح فالغيب ليس في صالحه، فيفكِّر ثم يفكِّر حتى يجهد نفسه تقليبا للأمور واستكشافًا لخفاياها ثم يجعل الله تدميره في تدبيره لأنّه لا يعلم الغيب، و تخلى عمن بيده الخير.

أحياناً تجده يضع كل أمواله في مشروع غير ناجح، لو علم الغيب لما أقدم على هذا المشروع، أما المؤمن فهو لا يعلم الغيب ولكنّ الله يدافع عنه، لكنّ الله يسيّره، لكنّ الله يحفظه، لكنّ الله يلهمه، لكنّ الله يصرفه عن هذا الشيء، و قد قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ يُدَافِعُ عَنِ الّذِينَ آمَنُوا)

(سورة الحج)

فأدق ما في بحثنا هذا النقطة التالية: أنت إذا كنت مع الله فهو يعلم الغيب، ويعلم ما سيكون فلذلك يلهمك رُشدك حيال ما سيكون، فاللهمّ اجعلنا من هؤلاء الذين يستسلمون لك يا ربّ، ويفوّضون إليك كل أموره.

٩١- اسم الله المدبر :

مع الاسم الواحد والتسعين من أسماء الله الحُسنى والاسم هو اسم المدبّر، والمدبر هو أحد أسماء الله الحُسنى، وهو زائد عن الأسماء التِّسعة والتسعين المعروفة والتي وردت في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم.

المدبر: اسم فاعل من التدبير و التدبير مصدر وفي اللغة التدبير مأخوذ من لفظ الدُّبر ؛ لأنه نظر في عواقب الأمور ؛ تدبّر الأمر أيْ نظر في عواقبه ؛ العاقل يتدبر الأمر وينظر في عواقب الأمور ؛ قد تُعجبه امرأة حسناء رقيق دينها فتجده يرفض هذا الزواج ! لماذا ؟ لأنه تدبر عاقبة الأمر فهي أم أولاده مستقبلاً وستُربيهم تربيَةً فاسدة وسَيَخْجلون بِأمهم إذا كَبِروا، فَتَدَبُّر الأمر: هو النظر في عواقبه.

قد يذهب الإنسان إلى بلدٍ غربيّ ويجد بحْبوحَة كبيرة: جمال طبيعي ما بعده جمال ورخاء في المواد والأسعار، ورُخْصٌ في المركبات وبيوت فخمة جداً، فَطَبيعة الحياة تُغريه أن يذهب إلى هناك ويستقر فيه، فالعاقل يتدبر عاقِبة هذا الأمر، سوف يكبر أبناؤه هناك، وسوف ينشؤون نشأةً لا تُرضي الله، وسَيَجِد مع ابنته صديقاً فماذا يفعل ؟ وماذا يفعل إذا كبر أبناؤه في مجتمعٍ فاسدٍ وسيّيء ولا حرج على أحدهم أن يمارس الزنى فالأمر سهل كَشَرْبة الماء ؟ فإذا أردت تنفيد أمْرٍ تدبّر عاقبته.

قد يسافر الإنسان فما عاقبة هذا السفر ؟ وقد يعمل عملاً ما فما عاقِبة هذا العمل ؟ وقد يقبِض المال الحرام فما عاقِبة هذا المال ؟ وقد يتزوج هذه المرأة اللعوب فما عاقبة ذلك ؟ فالتدبر هو التفكر في عواقب الأمور، والتفكر في نتائجِها، فالمؤمن لا يقبل على أمر حتى يتدبّر عاقِبته، فهناك أناسٌ كثيرون يُغْريهم العمل بما يُخالِف القوانين فيربحون ثم يخسرون كل شيء ولو أنهم تدبّروا عاقِبة الأمور لَمَا فعلوا ذلك، و لما وقعوا في سوء أفعالهم.

أمثلة كثيرة ؛ فَلو أن الإنسان رفض أن يتعلم فإذا تدبر عاقِبة هذا الأمر ورأى نفسه جاهِلاً تائهاً وشارداً وضعيف الشأن في المجتمع لما أحجم عن التعلم. فالإنسان العاقل هو الذي يفكر في عاقبة الشيء قبل أن يصل إليه فهو يخاف بعقله ؛ والإنسان الأقل عقْلانيةً أو الضعيف العقل أو الذي يُعطِّل عقله فهو يخاف بعيْنِه، وهذا هو الفرق بين الإنسان والحيوان ؛ فالإنسان يخاف بعقلِه والحيوان يخاف بِعَيْنِه، فالذي يُدَخِّن لا يُقْلِع عن التدخين حتى يُصاب بمَرَضٍ عُضال فعند فحص العينة بالمخبر ويأتي الجواب مرض خبيث بالوَرَم، بسبب الدخان عِندئذٍ يُقْلِع عن التدخين، أما العاقِل فيعرف عاقبة التدخين قبل أن يصل إليها، فالعقل يريك النتيجة قبل أن تصل إليها، وتصِل إليها بِعَقْلِك قبل أن تصل إليها بِجِسْمِك، فإذا كان هناك طريق مغلق بعد خمسة كيلو مترات فهل تُكْمِل المسير ؟ فالذي يتحرك بِعَيْنِه يقول الطريق سالم ويسير فإذا به بعد قليل يجد الطريق محفورًا ومغلقًا، فلو قرأت اللوحة لَوَصَلْت إلى هذه النتيجة

بيسر و أرحت نفسك، فاللوحة تعطيك النتيجة قبل المجازفة، فهذا هو العاقل. أما غير العاقل فإنه يقرأ اللوحة ويكمل سَيْرَه لِأنه يرى الطريق سالِمًا إلى أن يجد الحفر فيقول: لا حول ولا قوة إلا بالله ويعود راغمًا، فإذا تحركتَ بحواسك الخمس فأنت دون مستوى البشر أما إذا تحركت بِعَقْلِك ووصَلت إلى النتائِج مسبقًا فأنت عاقِل حقًا.

إنسان ذهب إلى بلَدٍ وزلّت قدمه فعانى من مرضٍ جِنسي عشرين عاماً وهو يتمزّق كي يُخْفِيَه عن أولاده وزوجَتِه وكيف يُعالِجه ؛ فهذا لو تدبَّر الأمر قبل أن يفعله لما فعله فهذا هو التدبر ؛ التفكر في عواقِب الأمور والتفكر في نتائِجها ومُؤداها وعقابها، أحياناً يكون الإنسان في أوْج شبابه يعيش لحظته يأكل ويشرب ويستمتِع ولا يتعلّم ولا ينضَبِط ولا يسأل عن شيء فإذا تقدّمت به السِّنّ يجد نفسه بعيداً عن مراتب البطولة وفي مُؤَخِّرة الرّكْب وفي الدرجة الدنيا في المجتمع فهذا عطّل عقله ولم يفكر، وتجد آخر يفكر ويتروّى ويبني مستقبله لبنةً لَبِنَة ويجعل لنفسه بدايَةً مُحْرِقة فتكون له نِهايَة مشرقة.

التدبر هو النظر في عواقب الأمور وأدبارها، والتدبير هو أن يحسن المرء التدبُّر والتفكّر، وهو النظر في عاقِبة الأمر، أو ما يؤول إليه وعاقِبتُه أيْ مؤداه ومنتهاه والتدبر قريب من التفكر، أما الدَّبْر فهو النَّحْل والزنابير سِلاحها في أدبارها، وقيل سُمِّيَت دَبُراً لِتدبيرها وتألقها في العمل العجيب، ومنه بناء بيوتها فلذلك سُمِّيَت بهذا الاسم هذا في اللغة، فإذا قلنا: الله جل جلاله مُدَبِّر كان لدينا معنى آخر قال تعالى:

(إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٣))

(سورة يونس)

فما معنى يُدبّر الأمر؟

آية ثانية: قال تعالى:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١))

(سورة يونس)

قال ومن يدبر الأمر.

آية ثالثة: قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢))

(سورة الرعد)

وقال تعالى في سورة السجدة:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٥))

(سورة السجدة)

ففي هذه الآيات القرآنية ورد قوله تعالى (يدبّر الأمر) فهو المدبّر، هنا التدبير إذا عُزِيَ إلى الله عز وجل كان له معنىً آخر ؛ قال: هو التوفيق بين أوائل الأمور وبين عواقِبِها، فإذا طلب المرء الزواج فالزواج يبدأ بِنِيّة ؛ فهذا نوى أن يتزوّج فمن الذي يُيَسِّر له البيت والزوجة الصالحة وأن يملك المهر والمال كي يُؤَسِّس بيتًا يضمهما وأن يقترن بهذه المرأة وأن يُنْجِب منها أولاداً صالحين، وبعد حين يجد نفسه في بيت يزدان بزوجة وأولاد، وغدا ذا مكانة في المجتمع، وقد كان بالأمس شاباً لا يملك من حُطام الدنيا شيئاً، فَمَنْ دَبَّرَ أمره ؟ ومن أوْصَلَه من مُبتدأ رغْبَتِه بالزواج إلى نِهاية المطاف ؟ هو الله عز وجل.

وذاك أراد أن يُتاجِر فمن يسّر له رأس المال والمحل والرُّخص وشِراء البضاعة والبَيْع والرِّبْح وتأمين الحاجات فمن يدبّر الأمر ؟ هو الله تعالى وهذه كلمة واسِعة جداً، وأنت تنام وتذهب إلى فِراشِك فمن يُحَرّك الأرض حول ذاتها من أجل أن يُشْرِق الصباح ؟ هو الله سبحانه ومن الذي يجعلها على خط سَيْرها حول الشمس ؟ هو الله سبحانه، ومن الذي يُنزل من السماء ماءً فيُحْيي به الأرض بعد مَوْتِها ؟ هو الله سبحانه. وأنت ما عليك إلا أن تُلقي حبّة في الأرض فهذه الحبّة من الذي أعطاها شروط النمو ومن الذي أودع فيها هذه القوة ؟ حبّةٌ صغيرة تُصبْح بعد حين شجرةً كبيرة فمن نَمّى هذه الحبة ومن الذي جعل لها سُوَيْقاً وجُذَيْراً وكذلك الرُّشَيْم ؟ هو الله سبحانه، فهو يُدبّر الأمر في النبات والحيوان والإنسان فإذا تمّ اللقاء بين الزوجين خرج حُوَيْصل وتم لِقاح في البُويضة وما عليك بعد ذلك من شيء، فأنت في حالك وزوجتك في حالِها، إن الله هو الخالق للنطفة والمدبّر لها ثم يخرجه طفلاً.

فكيف لقحت هذه البُوَيْضة وكيف انقسمت وكيف سارت إلى الرحم وكيف انغرست في جِدار الرّحم وكيف جاء الدم الكثيف وكيف نمت هذه البويضة فأصبحت على شكل ورقة ثم كيف اتّضح الدِّماغ والجِذع وكيف نبتت الأطراف وبعد تِسْعَة أشهر تجد طِفلاً كامِل الخلق ؛ رأسٌ وجُمْجُمَة وبصر وأعصاب حِسٍّ وأعصاب حركةٍ وعضلات وعِظام وجِهاز هضم وجِهاز تنفّس وجِهاز دوران وإفراز وغدّة صماء وغدّة درقية وغدة نخامية وغدة البنكرِياس ؛ في تسعة أشهر وعشرة أيام من حُوَيْصِل لا يُرى بالعَين إلى طِفلٍ كامل الخلق، فمن يُدبّر الأمر ؟ يدبّر الأمر يعني يوصِل المقدِّمات إلى النتائج فالمقدّمات حُوَيْصِل والنتائج طِفل، المقدّمات رغبة في الزواج والنتائج زوجة وأولاد وبيت، المقدّمات مشروع تِجاري والنتائج تِجارة رابحة ؛ يدبّر الأمر، إنه الله.

قالوا: التدبير إذا عُزِيَ إلى الله عز وجل هو التوفيق بين أوائل الأمور ومبادِئها وأدبارها وعواقِبِها ؛ فالطِفل في بطن أمِّه مُعَرَّض إلى أخطار كبيرة وكثيرة، فإذا به يولد سليماً ومُعافىً، فمن دبَّر أمره ؟ هو الله جل جلاله والمقدّمات يجعلها الله تؤدي ما يجب من الغايات.

شيء آخر وهو أنه يُدبّر الأمر أيْ يهدي عِباده إلى ما أرادهم لهم فهذا تدبير روحي ؛ يُدَبّر أمرهم في إمدادهم بما يحتاجون بالهواء والماء والطعام والشراب والحاجات والمعادن وما إلى ذلك فهذا تدبير عيشي،لكنه أيضًا يُدبّر أمْرَهم الروحي بإيصالهم إليه، أحيان يبعث إليه من ينصحه وأحياناً يبعث إليه من يضغط عليه ويسوق له شِدّةً ويُخيفه ويُريه مناماً مُزْعِجا و يجْمَعُهُ الله مع إنسانٍ طيّب ويرزقه رزْقاً وافِياً كي يستحيي ويُقتِّر عليه في الرزق ويحيطه بخَوْفٍ شديد ويطمئِنه، ويُمرِضُه أحيانًا ثم يشفيه ؛ فمن الذي يُدبّر أمره حتى يصِل إليه هو الله.

والحقيقة أن أدق المعاني وهو أن الله يُدَبّر أمر عِباده أيْ يهديهم إليه، فأحياناً تجد إنساناً أشرك بالله، وهذا الذي أشرك به يُلْهِمُه أن يتخلى عنه تأديباً لِمن أشرك بالله فمن الذي لقّن هذا الإنسان المشرك درساً قاسِياً ؟ هو الله عز وجل، فهو تعالى يُدبّر الأمر ؛ يعطي هذا مالاً، وذاك عِلماً، فالأول ينفعه المال فيعطيه المال، وذاك ينفعه العلم فيعطيه العلم، وهذا ينفعه الذكاء فيعطيه الذكاء، وذاك يضره المال يجعله فقيراً، إنّ من عِبادي من إذا أغْنَيْتُه أفْسَدت عليه دينه وإن منهم من إن أفْقَرته أفسدت عليه دينه ؛ من يُدَبّر الأمر؟ ومن الذي يعطي الإنسان الشيء المناسب في الوقت المناسب بالكم المناسب وفي المناسبة المناسبة ؟ هو الله جل جلاله.

هناك شيء دقيق بالنسبة لمفهوم المدبّر، وهو أن الله عز وجل لِماذا خلَقنا ؟ خلقنا لِنَعرفه ونسعد بِقُرْبِه، فكل أفعال الله هي سَوْق العباد لهذا الهدف، مدبّرٌ أي يسوقهم من بداياتهم إلى الغايات التي أرادها لهم ؛ هذا معنى المدبّر.

هناك بعض الكلمات يقولها بعض الإخوة لها معنى لطيف: توكّل دَبّر أو لا تُدَبّر واستسلم لله عز وجل فهو المدبّر. وهو الذي يُدبّر أمور عِباده، والحقيقة أن الوحي الذي جاءنا من السماء هو من التدبير وإرسال الرسل من التدبير وإلهام الدعاة إلى الله لإيصال الحق إلى الناس هو من التدبير وأن تجِفّ السماء من التدبير وأن تنهمر أمطارٌ غزيرة من التدبير ؛ يدبّر الأمر ثم قال تعالى:

(يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ)

(سورة السجدة)

ويقول الله عز وجل في خِتام هذه الآيات: " أفلا تذكّرون " أي أتجهلون أن هذا هو الحق المبين ؟. قال بعضهم في معنى قوله تعالى:

(ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

(سورة الحديد: الآية ٤)

أي توحّد بجلال، بالكِبرياء، في وصف الملكوت، كما قال الإمام مالك: الاستِواء معلوم والكيف مجهول؛ هذا لا نعلمه إلا أن الذي نعلمه هو أنه استوى على العرش، أحياناً كل شيءٍ جاهز وما علينا إلا الضغط على مفتاح التشغيل وتتحرك كل الأمور، فهذا تصميم وتشغيل وتهيئَة وفِعْل، فمعنى استوى على العرش: يُدَبِّر الأمر.

أيضاً يُدَبِّر الأمر أي أن كل الحوادِث تصدر عن تقديره وحاصِلةٌ بِتَدْبيره، وهذا شيء أساسي في التوحيد، وهو أن كل شيء وقع في الكون أراده الله ولا يقع حادِث إلا بأمر الله ومشيئته لأنه المدبّر.

هناك معنىً إضافي وهو أن الله هو المحدِث فلا يقع حادِث إلا بأمر الله أما المدبِّر يسوق الحوادِث إلى أهدافِها الصحيحة، أحياناً تجد حركة عشْوائيّة دون هدف، فلُعَبُ السيارات الكهربائية تمشي دون هدف أما الإنسان إذا أقلع بسيارتِه هناك هدف يريد أن يصل إليه، فالحركةُ تعني أنّ الله هو المحدِث. أما إذا قلنا: المدبّر يعني هذه الأحداث تَتَّجِه كلها إلى غاياتٍ رسمها الله لها، أحياناً تجد اهتِماماً بليغاً من الأب لِدفْع ابنه إلى الدراسة فَتَجِده يُكافِئه مرةً ويُؤَنِّبه أخرى ويدفع له ما يشاء من أجل تحصيل القمة في الدراسة فكل هذه الأفعال المختلِفة الصادرة من الأب وذات الهدف الواحد هي من أجل تحصيل مستوى في الدراسة.

فالتدبير له معنى بلوغ الهدف. أما المحدِث فله معنى الحركة فالحادِث له محدِث هو الله عز وجل أما المدبِّر هو أن يُساق هذا الحادِث لِما خُلِق له ومن هنا قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَلِيٍّ قَالَ بَيْنَمَا نَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ إِذْ رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمّ قَالَ مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلا قَدْ عُلِمَ وَقَالَ وَكِيعٌ إِلا قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنَ النّارِ وَمَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنّةِ قَالُوا أَفَلا نَتّكِلُ يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ لا اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ))

(رواه الترمذي)

كل إنسان خُلِق للجنّة فهو مُيَسّرٌ لها فإما أن يأتِيَها طائعاً وإما أن يُساق إليها بالسلاسِل قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ أَبِي غَالِبٍ عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ اسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ يَوْمًا فَقِيلَ لَهُ يَا رَسُولَ اللّهِ مَا أَضْحَكَكَ قَالَ قَوْمٌ يُسَاقُونَ إِلَى الْجَنّةِ مُقَرّنِينَ فِي السّلاسِلِ))

(رواه أحمد)

((عجِب ربكم إلى قومٍ يُساقون إلى الجنة بالسلاسل))

إما أن تأْتِيَها طائِعاً مُبادِراً وإما أن يسوقك الله إليها بالسلاسل بالامتِحانات والتأديبات والشدائِد. قال بعض العلماء: المُدبِّر: لا شريك له تعبُدُه، وما قضى فما أحدٌ يَرُدُّه وما من شفيعٍ إلا من بعدِ إذنه،

وهو الذي ينطِق من يخاطِبه، وهو الذي يخلق ما يشاء على ما يشاء إذا التَمَس يُطالِبُه "، هذا من معاني المدبّر قال تعالى:

(ذَلِكُمْ اللّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلا تَذَكّرُونَ)

وفي سورة يونس عليه السلام:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣١))

(سورة يونس)

أحياناً تأتي موْجة حرٍّ في الربيع فهناك بعض النباتات لا تنضج إلا بهذا الحر فمن المدبّر ؟ هو الله جل جلاله، ذهبنا مرةً إلى بلدةٍ في محافظة القنيْطِرة ووجدت أنواعاً من الدِّيدان لا تعدّ ولا تحصى وغير معقول عددها فسألت فقيل لي: هذا العام لم يأتِ ثلج كافٍ فَحِينما ينزل الثلج بشكل كاف تموت الديدان هناك تدبير إلهي، وَحِينما يداهم الحر هناك تدبير إلهي، وحينما تأتي الرياح هناك تدبير إلهي، وأحياناً لا بد من تلقيح النباتات فتأتي الرياح اللواقِح، فالحرّ له وظيفة في إنضاج الثمار، وهناك بردٌ له وظيفة في قتْل الحشرات، وهناك رياح لها وظيفة في تلقيح النباتات فَمَن المدبّر ؟ الله هو المدبّر فهو تعالى يسوق كل شيءٍ إلى هدَفِه.

قوله تعالى:

(قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ)

وقوله:

(أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ)

هذا من التدبير، وقوله:

(وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنْ الْمَيِّتِ)

هذا من التدبير، وقوله:

(وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنْ الْحَيِّ)

ومُلخّص كل هذا: من يُدَبِّر الأمر، فالخلق تدبير والهداية تدبير والرزق تدبير والمصائب تدبير قال تعالى:

(فَسَيَقُولُونَ اللّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتّقُونَ)

ماذا تنتظر ؟ فما دام الله هو المدبّر، فأنت ماذا تفعل ؟ ومن الذي يمنعك من أن تطيعه ؟

أحد العلماء يتساءل: أين كانت تكمُن السنبلة في الحبّة ؟ أحياناً تجد حبّة صغيرة بذرة خيار، يقول لك البائع هذه البذرة تُنْتِج خِيارًا طوله ثمانية عشر سنتِمتر لونه أخضر داكن ومُلمّع وإنتاجه كثير وغزير ومديد، فهذه الكلمات التي ينطق بها بائع البذور، لو أمْسَكت هذه البِذرة أين ترى هذه الخصائص ؟ قد تجد عشرين خاصيّة لِبذرةٍ فهل عندما تأتي البذور في الأغلِفة أيكون مكتوبًا عليها هذه الخصائص ؟، فلو أنك فتحت هذه البذرة وقمت بتَشْريحها ؛ هل ترى هذه الخصائص ؟ ما عليك إلا أن تزرعها وهي تنبت بمواصفات عالية كثيفة وغزيرة ومديدة بحجمٍ مُعَيّن وبلَوْنٍ مُعَيّن وبخصائص مُعّيّنة وتُقاوِم أمراضًا مُعَيّنة، فمن جعل هذه الخصائص في هذه البِذرة ؟ الله جلّ جلاله ؛ يدبّر الأمر.

قال: أين كانت تكمن السنبلة في الحبّة ؟ وفي النواة أين يكمن اللّب واللِّحاء ؟ فالتِّين مثلاً كم تحوي الواحدة من بذرة ؟ وهل تستطيع عدّها ؟ فهناك ما يقرب عشرة آلاف حبّة، البِذرة الواحدة يُمكنُها أن تُنْبِت شجرة تين بكامِلها، لها ساق مُعَيّن وجِذع معيّن ولون معيّن وأغصان معيّنة وشكل معيّن وأوراق معيّنة وطبائع معيّنة فقد تجدها تحمل أوراقًا متساقِطة أو دائمة الخضرة، فكل هذه الخصائص في هذه البذرة التي لا تُرى بالعَيْن وتحوي كل خصائص التّين، وهذا تين بعْل وذاك تين أسود وهذا حجمه كبير وذاك حجمه صغير وهذا سكّره جارح وذاك سكّره قليل، فكل هذه الخصائص أين هي ؟ هو المدبّر، وهذه البيضة التي تحوي صفاراً بعد عشرين يوماً تصبح فرخاً صغيراً فيه عينٌ وأذن ومِنقار، وقالوا: هذا الصوص حينما يأتي وقت خروجِه من البيضة ينبت على مِنقاره نتوءٌ كالإبرة تماماً يكسِر به البيضة وبعد أن يخرج يضمر هذا النُتوء ويعود المِنقار كما هو عليه في الأصل ؛ مِنقار ينبت له نتوء مدبّب كالإبرة تماماً وبه يكسر البيضة ويخرج ولما تنتهي مهمّة هذا المِنقار يرجِع إلى وضعه الطبيعي.

ومن أوضح آيات التدبير أن الجنين في بطن أمِّه ليس لديه تنفّس فالرِّئة معطّلةٌ، عنده دوْرة دمويّة إلا أن التنفس معطّل، فربُّنا عز وجل خلق ثقباً بين الأُذينين فالدم بَدَلَ أن ينتقل من الأذين إلى الرئتين ثم إلى البُطيْن ينتقل من أُذين إلى أُذين لأن طريق الرّئتين مسدود، فما دام الطفل في بطن أمه فالهواء منعدم، لكن بعدما الطفل يولد قال الأطباء: فتأتي جلطة تُغلِق هذا الثقب في الوقت المناسب وإلا يصاب هذا الطِفل المولود حديثاً بِمَرَضِ الزّرَق، فلا يستطيع أن يتحرّك لأن دمه أزرق ولا يذهب الدم للرئتين لِيَطْرح غاز الفحم ويأخذ الأكسجين ويبقى في الدم غاز الفحم وبذلك تنعدم القوة على الحركة، وأغلب هؤلاء الأطفال يموتون في عشر سنوات تقريباً ما لم تُجْر لهم عمليّة باهِظة التكاليف لإغلاق هذا الثقب بين الأُذَيْنين، فمن المدبّر ؟ الله عز وجل.

وهذا الكائن البشري أين هو في البُوَيْضة ؟ أين كانت تكْمُن ملامِحه ؟ وأين كانت تكمن نبَرات صوته ؟ ونظرات عَيْنَيه ولفتات جيدِه واستِعدادات الأعصاب ومُوَرّثات الجِنس ؟ أين كانت تكمن كل هذه

الصِّفات في البُوَيْضة وفي الحُوَين ؟ فمن المدبّرومن الذي أخرجها إلى حَيّز الوجود؟ هل تصدِّقون أن على الحُوَيْن خمسة آلاف مليون أمر مُبَرْمَج ؟ وهذا هو معنى قوله تعالى:

(إنّ اللّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَةِ وَيُنَزّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (٣٤))

(سورة لقمان)

ويسوق الحوادِث إلى غاياتِها ويسوق الإنسان إلى ما خُلِق له ويحرِّك الشمس والقمر ويولِج الليل في النهار وينزل الماء من السماء وينبت النبت، لقد كان وزنك ثلاثة كلغ عند الولادة فإذا وزنت نفسك عند الكِبر ربما تجدها ثمانين كلغ فكيف تم لك هذا الوزن ؟ ومَن حوّل الطعام والشراب والتفاح والخبز والجبن والسكر إلى لحْمٍ وعِظام ونُسُج وأجهزةٍ ؟ إنه المدبّر.

وهناك أمر آخر في هذا الباب فلو أنك دخلت لِعالم النحل لَوَجَدْت العَجَب العُجاب أيضًا؛ ولو دخلت لِعالم النّمل لوجدت العجب العُجاب ؛ تعقيدات اجتِماعية لِحَشَرة النحل والنمل لا تصدّق، وشيء لا يُصدّق أن تبني هذه النحلة بيتاً بشكل سداسي، والسداسي هو الشكل الهندسي الذي لا يأخذ فراغات بينِيَّة ويُكْتَفى بالسُّداسي بأقصر ضِلع، ومعنى ذلك أنه متين كلما طال الضِّلع كلما ضعفت المتانة فهناك مُواصفات رياضِيَة لِشَكل السداسي، فمن الذي ألهم النحلة أن تبني بيتها على شكلٍ سُداسي ؟ ومن الذي ألهمها أن تذهب للحقول وتمتصّ رحيق الأزهار؟ ومن الذي ألهَمها رقصَة بها تحدِّد جهة الأزهار وبُعدها وكثافَتَها ؟ الله جل جلاله. ومن الذي ألهم النحلة أن هذه الزهرة ممتصّة الرحيق فلا تقع عليها لأنها قد امتُصّ منها الرحيق ؟ من الذي يدبّر الأمر ؟ وهل تعتقِد أن النحلة بها عقل ؟ لا، لكنها تقوم بعَمَلٍ مذهِل في عقلانِيَتِه وتعقيداته، إذاً من الذي يدبر أمر النحلة ؟ هو الله عز وجل.

وفي سورة الرعد:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّى يُدَبّرُ الْأَمْرَ يُفَصّلُ الْآيَاتِ لَعَلّكُمْ بِلِقَاءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ)

فالله تعالى كلما أورد التفاصيل وساقها للإنسان أوجزها بكلمة يدبّر الأمر ؛ فخلقهُ تدبير ورزقه تدبير وهدايته تدبير وفي النهاية يدبر الأمر قال تعالى:

(قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الّذِي أَعْطَى كُلّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمّ هَدَى (٥٠))

(طه: الآية ٤٩-٥٠)

رجل كان في بستان فرأى قنفداً يأكل أفعى كلما أكل جزءاً ذهب إلى نباتٍ وأكل ورقاً من هذا النبات فهذا البُسْتاني كان ذا فضول فقام لِهذا النبات واقتَلَعَه فلما عاد القنفد وأكل جزءًا من تلك الأفعى ذهب

لِيَأكل من هذا النبات فلم يَجِده فمات ! فمن الذي ألهم هذا القنفد أن لهذا النبات أثرًا متوزيًا مع لحم الأفعى ؟ الله جل جلاله، قال تعالى:

(قالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى (٤٩) قالَ رَبُّنَا الَّذِي أعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى (٥٠))

(سورة طه)

وفي قوله تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأنَّ اللَّهَ قَدْ أحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

(سورة الطلاق)

فقوله:

(يَتَنَزَّلُ الأمْرُ بَيْنَهُنَّ)

هذا من التدبير، يجب أن تعلموا أن الله تعالى هو الذي يسوق كل شيء لِكل شيء.

إخواننا القراء الكِرام ؛ من تطبيقات هذا الاسم ؛ إذا رأيت يد الله تعمل في الخفاء فهو المدبّر وإذا رأيت يد الله فوق أيديهم فهو المدبّر وإذا رأيت أن كل شيء لا يقع إلا منه تعالى فهو المدبّر.

لذلك توكّل على هذا المدبّر الحكيم الرحيم العليم القدير فهو حكيم في كل تدبيره رحيم عليم قدير بيَدِه الأمر كله قال تعالى:

(وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٢٣))

(سورة هود)

وأنت الذي من فَضْلٍ ومن رحمةٍ بعثت إلى موسى رسولاً مُنادِياً
فقلت له اذهب وهارون فادعُوا إلى الله فرعون الذي كان طاغِيا
وقولا له هل أنت سوّيْت هذه بلا وَتَدٍ حتى اطْمَأنّت كما هي
وقولا له أأنت رفعْتها بلا عَمَدٍ أرْفِقْ إذًا بك بانِياً
وقولا له هل أنت سَوّيْت وسطها منيراً إذا ما جَنّك الليل هادِيا
وقولا له من يرسِل الشمس غدوة فيُصبح ما مسّت من الأرض ضاحِيا
وقولا له من ينبت الحب في الثرى فيُصبح منه العُشب يهتزّ رابيا
ويُخرج منه حبّه في رؤوسِه ففي ذاك آيات لِمن كان واعِيا

والحقيقةُ - واللهِ - فيما يبدو أن كل ما في الكون ينطق باسم المدبّر خلقاً وتَصرّفاً ومصيراً نباتاً وحيواناً وإنساناً وجماداً وشمساً وقمراً وكواكبَ ومجرات ومذنّبات وليلاً ونهارًا ورزقًا وهِداية وتوفيقًا ألم يقل الله عز وجل:

(وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ (٨٨))

(سورة هود)

فمن الذي يستطيع أن يسوق الحوادث إلى غاياتِها ؟ هو الله عز وجل.

ومن ثَم فإنه يمكننا أن نستنبط استِنباطاً أن الله جل جلاله جعلك خليفةً في الأرض وينبغي أن تدبّر أمورك فأنت أبٌ وعليك أن تُدَبّر أمر أسْرَتِك ؛ بناتك وأولادك وأعمالك، وأنت طبيب فعليك أن تدبّر أمر مرضاك، وأنت محامي فعليك أن تدبّر أمر موكِّليك، فالذي يُهمِل عمله لا يتخلق بأخلاق الله.

فالمدبّر يوحي بحكمة بالغة، أذكر أنني اشتريت مرة عِنَبا من منطقةِ باردة وظننته من شكله حُلوَ المذاق فلما سألت البائع لِم لمْ يكن حُلوَ المذاق ؟ قال: لم يأتِنا حرٌّ في هذا العام، فالحرُّ هو الذي يرفع كثافة السكر في الفواكِه، فمن المدبّر ؟ إذّا يتضح لكم أنه تعالى هو المدبّر وأنت خليفته في الأرض، واللهُ وكّلك بهؤلاء الناس فعليك أن تُدَبّر أحوالهم.

تجد أحياناً أباً يعتني بأولاده في أجسادهم وأفكارهم ودراستهم ودينهم، هذّبهم وعلّمهم وأحسن علاقتهم بغَيْرهم ومنحهم بعض الإمكانات إلى أن يُزَوّجهم ؛ نقول: هذا الأب مُدَبّر، وكذلك الأم فهي مدبّرة ترعى أولادها وتخيط لهم و تطبخ لهم وتعتني بأخلاقهم وتُحاسِبهم وتراقِبهم وتسهر على راحتهم وتعالِجهم إن هم مرضوا، فكما أن الله تعالى مدبّر فإذا وكّلك بأسرةٍ فَكُن لها مدبّراً، ووكّلك بطلابٍ فكن مدبّراً لهم، جاء لِيَشْتريَ من متجرك فأعْطِ له الشيء الجيّد.

فَمِن التطبيقات العمليّة لِهذا الاسم ؛ كما أن الله تعالى دبّر أمر عِبادِه وأنت خليفته في الأرض، ما عليك إلا أن تدبّر أمر من دونك، فمدير المدرسة والمستشفى والمؤسسة كل من حوله ومن دونه تحت سمعه وبصره ؛ فلان زوجته حامِل فهو يحتاج إلى مُساعدة، وفلان يحتاج إلى توجيه، والآخر إلى طبيب، فأنت إذا كنت في منصِبٍ أعلى كُن مدبّراً، كما أن الله تعالى يُدَبّر أمور عِباده، فهذا من التطبيقات العملية لاسم المدبّر وكلما كنت من الطِّراز الرفيع كلما كنت أكثر إيماناً وإتقاناً، فإتقان العمل هو التدبير والمؤمن يتقِن عمله، وليكن أخي المؤمن لك حظك من اسم المدبّر.

٩٢- اسم الله الشافي :

مع الاسم الثاني والتسعين من أسماء الله الحُسنى والاسم هو الشافي، ولكن قبل أن نخوض في دقائق هذا الاسم العظيم لا بد من وقفَةٍ متأنِّيَة حول موضوع آخر يتَمِّم هذا الاسم ويُكمِّل المعاني التي سوف تُساق فيه، المرض في الأصل ليس من الله لأن الله عز وجل يقول حكاية عن سيدنا إبراهيم:

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠))

(سورة الشعراء)

قال الذي خلقني وأطعمني وما قال الذي أمْرَضَني ؛ بل قال:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠))

(سورة الشعراء)

فنسب إبراهيم عليه السلام المرض لنفسه.

(الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ (٨١) وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ (٨٢))

(سورة الشعراء)

أصل المرض خروج عن منهج الله، وإن صحّ أن نقول هناك مرض للأجسام ومرض للقلوب، المَرَضان بِنَوْعَيْهما مرض الأجسام ومرض القلوب أصلها خروج عن منهج الله، لأن الله تعالى كامِلٌ كمالاً مطلقاً فإذا خلق شيئاً فقد خَلَقَه كامِلاً، ما ترى مَن خلق الرحمن من تفاوُت، من الذي يُخْطِىء ؟ ومن الذي يُفسد ؟ ومن الذي يطغَى ؟ ومن الذي يظلم ؟ ومن الذي يُسيء ؟ هو مخلوقٌ أوْدَعَ الله فيه الشهوات لِيَرْقى بها صابراً تارةً وشاكِراً تارةً أخرى إلى رب الأرض والسماوات، وهذه الشهوات إذا أُودِعت في مخلوق ولم يكن هذا المخلوق مُتَّصِلاً بالله ولم يَسِر على منهج الله يفسُد.

فالشيء الجامد إذا وضعته في مكانٍ لا يتحرك، فليْس ضرورياً أن يعلم هذا الشيء الجامد، أما إذا مشى ولم يكن هناك مِقْوَد فالدّمار حتْمي، ومن الذي يُعَبّر عن حركات الإنسان ؟ شهواته ؛ والإنسان مندفِع لِتَلْبِيَة حاجاته وشهواته وهذا الاندِفاع يُشبه الحركة، إنه إندِفاع دون منهج يسير عليه، ومن دون مِقْوَدٍ وهو العلم، ومن دون اتِّصال بالله وهو الهدى، وهذه الحركة دون منهج ودون هدى ستُدَمِّر صاحِبها، إذاً الإنس والجن وحدهما اللذان أوْدَعَ الله فيهما حُرّية الاختيار وأودع فيهما الشهوات اقرأ قوله تعالى:

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(٧٢))

(سورة الأحزاب)

وفي آيات أخرى تجد الجن تشترك مع الإنسان في حمل الأمانة هذان المخلوقان تحمّلا الأمانة، والأمانة نفْسُ الإنسان ؛ وعليهِ أن يُزَكِّيَها وكيف يزكيها ؟ بِتَعْريفِها بالله وحمْلِها على طاعته، فالدِّين

يحمل جانِباً سُلوكِياً وآخر معرفيًا وثالثا جماليًا الجانب المعرفي هو السبب والجانب السلوكي هو الثمن والجانب الجمالي..

(إلّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمّتْ كَلِمَةُ رَبّكَ لَأَمْلَأَنّ جَهَنّمَ مِنَ الْجِنّةِ وَالنّاسِ أَجْمَعِينَ (١١٩))

(سورة هود)

هذا المخلوق (الإنسان) فيه شهوات وفيه اختِيار ولكن مع هذه الحريّة أعطاه الله عقلاً، بِمَثابَة ميزانٍ دقيق، وأعطاه على هذا الميزان الدقيق ميزاناً مهيمنًا هو الشرع، فأرْسَل إليهم الأنبياء ومعهم الكتُب فرغم وجود أنبياء وكتب وشريعة وعقل ومع كل هذا وضع الإنسان كل شيء وراء ظهره وانطلق مع شهواته بِلا منهج وبلا هدى وبلا كتاب منير فَفَسَد، ومن مُقْتضَيات حياة الإنسان أنّ فساده مُحْتَمَل لِذلك هَيّأ له شِفاءين، هَيّأ له القرآن الكريم شِفاءً لِنَفْسِه وهيّأ له الأدوية شِفاءً لِجِسْمِه، فالشّفاء يقتضي المرض، والمرض في الأصل خروج عن منهج الله عز وجل.

فإذا قلنا: إن هناك مرضًا للقلب كالضغينة والحِقد والكِبر والكراهِيَة والأثَرَة والجحود والإجحاف والظلم هذه كلها أمراض القلب، وهناك مقولةٌ رائِعة وهي: إن أمراض القلب ليست بأمراض، بل هي أعراض لِمَرَضٍ واحِد ألا وهو الإعراض ؛ إن أعْرَضْت عن الله عز وجل تَكَشّفت أمراض القلب، فكل أمراض القلب وكل الصِّفات الخسيسة في الإنسان هي أعراضٌ لِمَرَضٍ واحِد هو الإعراض فالإنسان ما لم يتّصِل بالله عز وجل لن تَزْكُوَ نفسُه قال تعالى:

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكّاهَا (٩) وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسّاهَا (١٠))

(سورة الشمس)

فلو أنه أعرض عن الله ولم يطبّق منهجه وشَرَدَ عنه شروداً بعيداً، فعندئذ تكون قد نفْسُه تعلّقت بِشهواتٍ وأُصيبَتْ بِأمراض، والقرآن الكريم شِفاءٌ لِهذه النّفْس إذا قرأ القرآن عاد إلى الله وسار على منهجه، كذلك هذا الجسم حينما يُخالِف منهج الله عز وجل المُتَمَثِّل بتوْجيهات النبي عليه الصلاة والسلام في التعامل مع الجِسم يمرَض، وما خلق الله داءً إلا وخلق له دواءً، فبحثنا يتناول اسم الشافي، وهو اسمٌ من أسماء الله الحُسنى وهذا الاسم زائد عن الأسماء التِّسعة والتسعين المشهورة والتي وردت فيها الأحاديث الصحيحة.

الشّفاء في اللغة: البُرْء من المرض، يُقال شفاه الله يشفيه، إشْتَفى: افْتَعَل منه، فللمُبالغة في الشّفاء نقول: اشْتفى ؛ فعندنا إذّا شَفِيَ وإشْتَفى، ومن هنا نقول: مشفى ومسْتَشْفى، والشيء الذي ينبغي أن يكون لدى القراء الكرام واضِحاً هو أن أمراض القلب أخطر من أمراض الجِسم لأن أمراض الجسد مهما تفاقمَت ومهما كانت خطيرةً تنتهي عند الموت، والموت يُنْهي كل ما له علاقة بالجسم، ويُنْهي المرض ويُنْهي

الصِّحة ويُنْهي القوة ويُنْهي الضعف ويُنْهي الغِنى ويُنْهي الفقر والوَسامة والدمامة والذكاء والغباء يُنْهي كل شيء، إلا أن أمراض النفس خطورتُها وآثارها الخطيرة تبدأ بعد الموت ومن هنا قال الله عز وجل:

(يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ (٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٩))

(سورة الشعراء)

فالقلب له في حياة المؤمن شأن كبير، والقلب منظر الرب يصفو ويتعكّر ويسمو ويسْفُل ويكبُر ويَضْعُف ؛ يكبُر القلب ولا ترى كِبَره فيَتَضاءل أمامه كل كبير، ويصغر القلب ولا ترى صِغَره فيَتَعاظم عليه كل حقير، قلبٌ صفا وآخر انحرف، وقلب استَعْلى وقلب كان في تَجَلِّيات الله عز وجل وقلبٌ عرف الله، فلِذلك من الأقوال الشهيرة لسيدنا عمر رضي الله عنه: " تعاهَدْ قلبَك " أنظر إلى قلبك على ماذا ينْطوي، وورد في بعض الأحاديث القدسية:

((أنْ عَبْدي طهّرت منظر الخلق سنين أفلا طهّرت منظري ساعة))

القلب منظر الرب لذلك أعلى درجات الإيمان أن تتعامل مع الله مباشرة، وأن تنظر إلى الله عز وجل وهو ناظِرٌ إلى قلبك ؛ هل فيه غِلٌ لأحد؟ وهل فيه حِقدٌ لأحد ؟ وهل فيه ضغينة وكراهيّة وكِبْر واستِعلاء وأثَرَة وعجْرَفة ؟ فكُلما طهُر القلب تَجَلى عليه الرب، وصدّقوني أيها الإخوة القراء أن أسعد الناس من كان قلْبُه موْصولاً، يُقال مثلاً: إن فلانًا له قلب كبير، أيْ قلبٌ موصولٌ بالله، ومعنى موصول أنّ القلب اصْطَبَغ بصِبْغَة الله، تجد أن من علامات المؤمن إذا رأيْتَه تذكّرت الله

((أولِياء أمّتي إذا رُؤوا ذُكر اللـــه بهم))

وإذا عاملْتَه أحْبَبْته وحَدّث ولا حرج عن تواضُعِه وعن لُطْفِه وعن حيائه وعن كَرَمَه وبذْلِه وعن عطائِه وعن حُبّه وعن غيْرَته، فَلِذلك نتفيّأ مظلة اسم الشافي في بحثنا هذا ؛ إنه يشْفي أجْسادنا ويشفي قلوبنا، لكن النبي عليه الصلاة والسلام حينما قال فيما رواه:

((عَنْ جَابِرٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ فَإِذَا أُصِيبَ دَوَاءُ الدَّاءِ بَرَأَ بِإِذْنِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ))

(رواه مسلم)

ولعله معلوم لدى كل مؤمن أنّ هذا الحديث وحده يُعَدّ من أعظم الأحاديث الشريفة، لأنه ذو صلة بكل الأمراض قاطبة، فلو سمِعه طبيب ولم يهتدِ إلى تشخيص بعض الأمراض يتّهم نفسه بالتقصير، فكأن هذا الحديث يدفع العلماء والأطباء والمخترعين إلى البحث عن الدواء، ولأن الله عز وجل يقول فيما أخبرنا عنه النبي صلى الله عليه وسلم

((لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءٌ))

فإذا سمع هذا الحديث أيُّ مريض وقرأه يمتلىء قلبه أمَلاً بالله عز وجل أن يشفيه، فما من داءٍ خلقه الله إلا وخلق له دواء.

قال العلماء: فإذا أُصيب دواء الداء ؛ أيْ إذا وُفِّق الطبيب إلى تشخيص المرض أولاً ثم وُفِّق الطبيب إلى اخْتِيار الدواء المناسب ثانياً برئ ولكن لابُدّ من أن يأْذَن الله عز وجل، فالمريض ارْتَبَط من جِهَةٍ بالعلم والبحث والدراسة الجادة وأنّ هذا المرض له دواء في مخابر الباحثين و العلماء وارتَبَط بالله عز وجل لأنه إذا أُصيب دواء الداء بَرِئ ولكن بإذن الله فلا بد من أن يأْذَن الله حتى يبْرَأ المريض.

بعضهم قال: **" الشِّفاء هو الدواء لأنه أحد نتائج الدواء "**، يقول العرب: رعينا الغَيْث، والغيْث لا يُرْعى ولكن رَعَيْنا كَلأً سبَّبَه الغَيْث.

فَبَعْضهم قال الشِّفاء هو الدواء نفسُه وتعريف الشِّفاء: البُرْء من المرض، ثم وُضِع مَوْضِع العِلاج والدواء، أمّا اسْتَشْفى يعني طلب الشِّفاء، والكل يعلم أنّ الفعل الذي يبدأ بألِفٍ وسينٍ وتاءٍ فيه معنى الطلب ؛ اسْتَشفى: طلب الشِّفاء، واسْتَغْفر: طلب المغفرة واسْتَعْلم: طلب العِلم، واسْتَرْحم: طلب الرحمة.

وقد ورد ذِكْر الشِّفاء في مواطِن كثيرة من كتاب الله فقال تعالى في سورة التوبة:

(قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤))

(سورة التوبة)

معنى ذلك أنّ المؤمن حينما ينتصِر الحق ويعْلو، وحينما يسقط الباطل ويُغْلب، تَرْتاح نفسُه وهذه هي فِطْرة الإنسان السّليمة.

وهذا القرآن سماه الله عز وجل شِفاءً لما في الصدور، أحياناً تجد أن الكفار أقْوِياء وأغْنِياء ويعيشون حياةً فوق التصوّر وهم مسْتَهْتِرون ولا يطيعون الله ولا يصلّون ويأكلون الربا ويزنون ومع ذلك بلادهم جميلة وهم أغْنِياء ومعيشَتُهُم فيما يبْدو راقِيَة وفيها هناءة ورغد فهذا المنظر يُحْدِث اِخْتِلالَ توازنٍ وإذا فَتَحْتَ القرآن يقول الله عز وجل:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨))

(سورة آل عمران)

وتفتح القرآن وتجد قوله تعالى:

(فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤))

(سورة الأنعام)

فترتاح عندئذٍ وتستعيد توازنك، تفتح القرآن الكريم تجد قوله تعالى:

(وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢))

(سورة إبراهيم)

فترتاح كذلك، ترى أن الدنيا جميلة وَنِضرة وخَضِرة وكل شيء فيها مُغرٍ فإذا فتحت القرآن الكريم تجد قوله تعالى:

(إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦))

(سورة محمد)

فالله نبّهك وكل الأمراض التي تنشأ في نفس الإنسان يعالجها القرآن ويحُلّها، أحياناً يكون الإنسان في بدايته لا يملك شيئًا ؛ لا مالاً ولا بيتًا ولا عملاً ولا دخلاً، ويبدو أن الطرق مسْدودة أمامه ولكنه مستقيم في سلوكه مع الله فتبعث الآيات في نفسه الآمال الكبار عن طريق الثقة بربه الذي بيده الخير، ثم يقرأ القرآن فيجد قوله تعالى يزيده تفاؤلاً وسكينة:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧))

(سورة النحل)

فيطمئن ويقرأ قوله تعالى:

(وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً (١٤١))

(سورة النساء)

وقوله تعالى:

(وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣٩))

(سورة آل عمران)

وقوله تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠))

(سورة فصلت)

وهذا كله شِفاءٌ لِما في الصدور وقوله تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٦١))

(سورة القصص)

وقوله تعالى:

(لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْأَبْرَارِ (١٩٨))

أيّة آيةٍ تقرؤها تجد أنها تشفي النفس من بعض أمراضِها، فَرَبُّنا عز وجل جعل هذا القرآن شِفاءً لِما في الصدور قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧))

(سورة يونس)

فالذي أنزل الشِّفاء هو الشافي، المؤمن متوازن والمؤمن ليست عنده مشْكِلات فكرية، ولو أنه رأى كافِراً قوياً ورأى مؤمناً ضعيفاً، ولو أنه رأى منْحَرِفاً غنياً ورأى مسْتَقيماً مُتَقَشِّفاً فله موازين خاصة، قد تجد موازين الناس تدعو للإنقِباض فهناك من يرى أن المال هو الذي يثقل الميزان، وكذلك الطيش والقوة الرعناء، أما عند الله فالعمل الصالح فيه رجاحة الميزان.

لما سيّدنا موسى سقى للمرْأتين اِبنتي سيدنا شُعيب ماذا قال: قال تعالى:

(فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤))

(سورة القصص)

فَفُهم من هذه الآية أن الغِنى عند الله غِنى الأعمال الصالحة وأن الفقر هو فقْرُ الأعمال الصالحة. والحقيقة أنّ حجْمَك عند الله لا بحجْمِ أمْوالِك ولكن بحجْم أعمالك، والعُمُر لا قيمة له إلا بِمَضْمونِه الصالح، قد تعيش عمراً قصيراً مُفعماً بالأعمال الصالحة، وقد يعيش آخر عُمُراً مديداً فارغاً من العمل الصالح ؛ فهذه كلها موازين أيها الإخوة القراء، والإنسان لمّا يجعل الغلط ميزانه يقع في المتاهات والضيق والتشاؤم والحَيْرة والاضطِراب.

وفي سورة النحل قال تعالى:

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ (٦٨) ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٦٩))

(سورة النحل)

قال العلماء: **" هناك شِفاءان: شِفاء النفوس كلام الله ؛ وشِفاء الأبْدان العَسَل "** لكن لو أن الله عز وجل قال: فيه الشِّفاء للناس لَصار العسل شِفاء من كل مرض، أمَا و قد جاءت الكلمة نكِرة فيه شِفاءٌ للناس ؛ يعني شِفاءٌ من بعض الأمراض التي تصيب الناس. وعلى كلٍّ فالعسل كما يقولون: صَيْدَلِية

ثانية، فعدد الفيتامينات والمعادن والأنزيمات التي في العسل لا تعد ولا تحصى، ومع ذلك ربنا عز وجل قال: " فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ "، وفي سورة فصلت قال تعالى:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآناً أَعْجَمِيّاً لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤))

(سورة فصلت)

فقارىء القرآن لا يحزن، وَمن تعلّم القرآن متّعه الله بعَقْلِه حتى يموت ؛ من أكثر من تلاوة القرآن متّعه الله بعَقْلِه حتى يموت، والقرآن الكريم لا يَقِلّ في عظمته عن عظمة الكَوْن قال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١))

(سورة الأنعام)

وقال تعالى:

(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً (١))

(سورة الكهف)

فهذا كِتابنا المقرر ومنهجنا ودُسْتورنا وحَبْل الله المتين والصراط المستقيم والعمل بأمره ونهيه ويرفعنا إلى أعلى عِلِيّين، قال تعالى:

(قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٤٤))

(سورة فصلت)

المعنى المُخالِف لِهذه الآية أنّ المؤمن يُنادَى من مكانٍ قريب، إذاً أحد أسباب فهم كلام الله أنْ تكون قريباً من الله، وإن كان الإنسان بعيداً عن الله فماذا يكون حاله مع القرآن ؟:

(وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ)

أما إذا كان قريباً من الله عز وجل يفهم كلام الله كما أراد الله، فعلى الإنسان أن يُشَمِّر لِيَكون قريباً من الله عز وجل حتى يفهم عن الله تعالى كلامه، ومن هنا قال بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلّم: " أوتينا الإيمان قبل القرآن " فإذا اتّصلت بالله عز وجل وأقْبَلت عليه وقرأت القرآن كنت قريباً من المعاني التي أرادها الله عز وجل، والقرآن مع ذلك لا تنقضي عجائبه.

أيها القارئ الكريم ن بمناسبة الحديث عن العسل، فقد ورد عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ إِنَّ أَخِي اسْتَطْلَقَ بَطْنُهُ - يعني أصيب بإسهال شديد –

((فقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْقِهِ عَسَلًا فَسَقَاهُ ثُمَّ جَاءَهُ فقالَ إِنِّي سَقَيْتُهُ عَسَلًا فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا فقالَ لَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ جَاءَ الرَّابِعَةَ فقالَ اسْقِهِ عَسَلًا فقالَ لَقَدْ سَقَيْتُهُ فَلَمْ يَزِدْهُ إِلَّا اسْتِطْلَاقًا فقالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَدَقَ اللَّهُ وَكَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ فَسَقَاهُ فَبَرَأَ))

(رواه مسلم)

قرأت مقالة عِلمية لِطبيب مُتَفَوّقٍ جداً في تحليل هذا الحديث أن الإسهالات الإنتانيّة يكون الدواء المناسب لها المواد السّكرية ففي بِداية الأمر يزداد البطن إسْهالاً إلى أن تذهب هذه المواد التي سبّبت الإنتان بعدئذٍ تُمْسِك الأمْعاء ما فيها ويعود الوضْع إلى الشكل الطبيعي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((صدق الله وكذب بطْن أخيك))

هذا الحديث يُمكن أن نقيس عليه أشياء كثيرة، مثلاً الله عز وجل قال:

(يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦))

(سورة البقرة)

لو قال لك واحدٌ أنا دفَعْت صدقاتٍ كثيرة وأنا فقير وما عوّض الله علَيَّ نقول له: صدق الله العظيم وكذبْت أيها الإنسان لأن زوال الكَوْن أهْوَن على الله من أن يَعِد إنساناً ثم يُخْلِف وَعْدَه.

أحد العلماء قال: من دعا إلى الله ولم يُوَفّق فكَأنّه يُكذّب قولَه تعالى:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١))

(سورة غافر)

لعلّك تظن أن المكافأة على الصدقات وأنها تربو يوم القيامة لا في الدنيا، نقول: لا. فهذا يكون في الحياة الدنيا، قال تعالى:

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١))

(سورة غافر)

إذا دَعَوْت إلى الله بِصِدْقٍ وإخلاص وطبّقْت منهج الله وكانت السريرة كالعلانية فلا بد من أن تُوَفّق فإن لم تُوَفّق فقد صدق الله، وابْحَث عن خلل في دعْوَتِك ؛

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٥١))

(سورة غافر)

فإذا كان هناك خلل فإما في النوايا وإما في المنهج، وحاش أن يكون في منهج الله عز وجل أيٌّ خلل، وقبول الصدقات منوط بشرطين:

- أن تكون خالِصة لله تعالى أولاً.
- ثم أن تكون وَفق السنة.

فإن كانت خالصة ولم تكن وَفق السنة راجع حِساباتك وإن كانت وفق السنة ولم تكن خالِصة عليك أن تُراجِع حِساباتك، وأنا أقول لكم كلاماً دقيقاً فأنتم أيها القراء الكرام مؤمنون ولا أُزكي على الله أحداً وكل واحِدٍ منكم من طُموحاتِه أن يستخْدِمه الله تعالى في نشْر الحق ويُلهِمَه الصواب وأن يُجْرِيَ الخير على يَدَيْهِ وأن يستخْدِمه ويسْتَعْمِله في الخير، فإذا تحرّكْت حركَةً سريعةً ومُكَثّفة ولم تلقَ نجاحاً في الدنيا يجب وأقول يجب أن تعْزُوَ عدم النجاح إلى ذاتك إما إلى خلل في النوايا وإما إلى خلل في المنهج فإذا قلت النوايا طيّبة والمنهج صحيح ولم أُوَفّق هل تدري أنك وقعْت في الكفر ؟ وهو ردُّ آيةٍ في كِتاب الله، والإنسان إذا ردّ آية في كِتاب الله فقد كفرو الله عز وجل يقول:

(إنّا لَنَنصُرُ رُسُلَنا وَالّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ)

فإذا لم تنْجَح الدعوة اِبْحَث عن الخلل وعن التقصير لعل هذا يُذكّرنا بمَوْقِف نبيّنا عليه الصلاة والسلام يوم بدْرٍ ؛ وهو سيّد العالمين وسيّد الخلق وأقرب الخلق إلى الله فقد وقف قُبَيْل المعركة ورفع يَدَيْه إلى السماء حتى بدا بياض إبطَيْهِ أو حتى وقع الرّداء من أعلى مِنْكَبيْه كما روى ذلك

((عُمَرُ بْنُ الْخَطّابِ قَالَ لَمّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ لَمّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ نَظَرَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ وَأَصْحَابُهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلًا فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللّهِ صَلّى اللّهُ عَلَيْهِ وَسَلّمَ الْقِبْلَةَ ثُمّ مَدّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبّهِ اللّهُمّ أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي اللّهُمّ آتِ مَا وَعَدْتَنِي اللّهُمّ إِنْ تُهْلِكْ هَذِهِ الْعِصَابَةَ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ لَا تُعْبَدْ فِي الْأَرْضِ فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبّهِ مَادّا يَدَيْهِ مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ حَتّى سَقَط رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى مَنْكِبَيْهِ ثُمّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ وَقَالَ يَا نَبِيّ اللّهِ كَفَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبّكَ فَإِنّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ فَأَنْزَلَ اللّهُ عَزّ وَجَلّ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ فَأَمَدّهُ اللّهُ بِالْمَلَائِكَةِ......))

(رواه مسلم)

وقد يسأل سائلٌ أيَكون الصدّيق أكثر ثِقة بالله من رسول الله عليه الصلاة والسلام ؟ مُسْتَحيل كيف نُفَسِّر هذا المَوْقِف إذاً ؟ النبي عليه الصلاة والسلام مُتَأدّبٌ مع الله أشد التأدّب وكان النبي يخْشى أن يكون هناك تقصير في الإعداد ؛ وهو يعلم أنّ الأمر بيَد الله ولكن النبي عليه الصلاة والسلام خشِيَ أن يكون هناك تقصير في الإعداد لأن الله عز وجل يقول:

(وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوّ اللّهِ وَعَدُوّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمْ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠))

(سورة الأنفال)

وبعد فإني أتَمَنى على الله أن تكون هذه الحقيقة واضِحة تماماً ؛ العمل لا يُقْبَل إلا بشَرْطين: الشرط الأول أن يكون خالِصاً، و الشرط الآخر أن يكون صواباً، فخالِصاً ما ابْتُغِيَ به وجه الله، وصواباً ما وافق السنّة.

دَعَوْتَ إلى الله فلم تنجح معك الدعوة دقِق في نواياك ؛ من تعلّم العِلم لِيُباهي به العلماء أو لِيُماري به السّفهاء أو لِيَصْرِف وُجوه الناس إليه فَلْيَتَجَهَّز إلى النار، قد تقول وأنت صادق: أنا أعلم نفسي حق المعرفة إنني أنْطوي على نِيّة طيّبة خالصة إذاً الخلل في المنهج لعلك خالفْت منهج رسول الله فلم تنْجَح الدعوة فكل إنسان من عزا عدم نجاح الدعوة إلى الله ويدّعي أنه كان خالِصاً لله فهو يُكّذِّب قوله تعالى:

(إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ)

المؤمن نقاد، وأول نقْده يجب أن يتّجه إلى ذاته، وكل إنسانٍ يتعامى عن أخْطائه يتداعى وينتهي، والنجاح أمثِلُه بِقِمّة جبل، فَبُلوغ القمّة صعبٌ جداً، فلابد من جُهْدٍ كبير وعرقٍ كثير واجتياز عَقَبات متلاحقة وصعود طويل عسير ومُثَبّطات عظيمة، لو أنك استْطعت أن تصِل إلى قِمة الجبل فهذا جُهْد كبير، فهل أنت بطل ؟ لا إذْ إنّ بطولتُك أن تبقى في القمة لأن فيها طرقًا زَلِقةً بحكم منحدراتها تجعلك إن لم تحزم أمرك في الحضيض في ثوانٍ معدودات ؛ فاحذر الغرور والكِبَر وعدم الانْصِياع للحق، إذاً ربنا عز وجل يقول في الحديث عن موضوع الشّفاء، قال تعالى:

(وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ)

فالله هو الشافي والمُعافي، والحقيقة أن كلمة الشّفاء تتعلق بالمرض والإنسان يمرّض حينما يستهين بصحة جسده، وحينما ينْحَرِف في تعامله مع ربه فرَحْمة الله عز وجل تقْتَضي أن يعالجه، هو الشافي والمعافي فالله سبحانه وتعالى يشفي ويُعافي، والمصلي ماذا يقول في الصلاة:

(اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧))

(سورة الفاتحة)

فلم لم يقل: غير الذين غَضِبْت عليهم، إنما قال:

(غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (٧))

فالإنسان ينْحرف فَيَغْضَب الله عليه ويستقيم فَيُثْني الله عليه.

وفي سورة يونس قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٧))

(سورة يونس)

ألا فاعلم أيها المؤمن أنّ: من أوتِيَ القرآن فظن أنّ أحداً أوتِيَ خيراً منه فقد حقّرَ ما عظّمَه اللهُ، فالذي يُؤْتَى القرآن تِلاوةً وفهْماً وتفْسيراً وتطبيقاً فقد بلغ قِمّة المجْدِ لأن السيّدة عائشة رضي الله عنها سُئلت عن أخلاق النبي عليه الصلاة والسلام فقالت كان خلقه القرآن، قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرّحْمَنِ الّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣))

(سورة الفرقان)

تابع هذه الآيات تجد أنها أخلاق عِباد الرحمن فاعلم بها و تخلق بأخلاقها.

وقال تعالى:

(إِنّمَا الْمُؤْمِنُونَ الّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبّهِمْ يَتَوَكّلُونَ (٢))

(سورة الأنفال)

اِقْرأ القرآن وإبْحث عن أوْصاف المؤمنين فإذا كانت هذه الأوصاف مُنْطَبِقَة عليك فأشْكُر الله عز وجل وإلا فابْحَث عن الخلل.

النبي عليه الصلاة والسلام كان إذا عاد مريضاً يدعو له ويقول كما جاء في حديث

((عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّه عَنْهَا أَنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبّ النّاسِ اشْفِ وَأَنْتَ الشّافِي لا شِفَاءَ إِلاّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا))

(رواه مسلم)

أنت الشافي وحْدَك، وربنا عز وجل أحياناً يشفي مريضًا بمرضٍ عُضال وقد كان مُسْتَعْصيًا، ولِحِكْمَةٍ بالِغةٍ ورحْمَةٍ غامِرةٍ يشفي هذا المريض شفاءً ذاتيًا على الرغم من أنّ مرضَهُ عُضال، فمِن أجْل ماذا ؟ مِن أجْل ألاّ تعتَقِد أنّ الدواء هو الشافي، إذْ الشافي هو الله، فالله عز وجل يسْمَح للدواء أن يفْعلَ فِعْلَه، فكل مريضٍ نَسِيَ الله وبَحَثَ عن الدواء فقط لا يُشْفى، والمريض لا يُشْفى إلا إذا اِعْتَقد أنّ الله هو الشافي.

ومعنى آخر من معاني الشفاء: لو أنّ إنساناً كان منْحرفاً ثم تاب إلى الله عز وجل فقد شفاه إذا أقبل عليه تائبًا، قال تعالى:

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢٢))

(سورة الأنعام)

التوبة تُحيي القلب، فالله شافٍ، ويشفي جسدك ولو أُصيب بأيّ مرضٍ، ويشفي قلبك من كل مرضٍ، فما عليك إلا أن تبادر إليه وتأوي إليه مستسلمًا، قال تعالى:

(فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠))

(سورة الذاريات)

وما عليك إلا أن تتصل به وأن تتجه نحوَه وأن تُخْلِص له هو الشافي يشفي جسدك ويشفي قلبك، شِفاء الجسد مُريحٌ في الحياة الدنيا، لكن شِفاء القلب سبب سعادة المرء إلى أبدِ الآبدين. ومن هنا تتجلّى أهمية الدعاء الشريف: **" اللهم إهدنا فيمن هديت وعافنا فيمن عافيت وتولّنا فيمن تولّيت ".**

((عَنْ عَائِشَةَ رَضِي اللَّه عَنْهَا أَنّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا أَتَى مَرِيضًا أَوْ أُتِيَ بِهِ قَالَ أَذْهِبِ الْبَاسَ رَبّ النّاس اشْفِ وَأَنْتَ الشّافِي لا شِفَاءَ إِلاّ شِفَاؤُكَ شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا))

(رواه مسلم)

أحْياناً أشْعُر أنّ الشِّفاء يخْلُقه الله خلْقاً، كما أن المرض يُخْلق، فقد تجد المرْءَ بعد مرضٍ عُضال يعود كما كان قبل المرض فلا شِفاء إلا شِفاؤك.

إخواننا القراء الكرام، اسم الشافي اسمٌ عظيم، وأنا لا أُقلِّل من قيمة شفاء الجِسم، لأن الإنسان يَحْيى بهذا الجسد، واحفظ قوله عليه الصلاة و السلام في دعائه الشريف: واجْعَلْه الوارث منا " لأن شِفاء القلب قمة أنواع الشِّفاء، وهذا الشِّفاء سبب سعادة المرء إلى أبد الآبدين، فالبُطولة أن يكون قلبك مُعافىً من كل أمراضِه، لأن القلب المريض لا يستطيع أن يُقْبِل على الله عز وجل.

اللهم علِّمنا ما ينْفعنا وانْفعنا بما علّمتنا وزِدْنا عِلما

٩٣- اسم الله المسخر :

مع الدرس الثالث والتسعين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم هو اسم المسخِّر وهو اسم كما تعلمون ليس من الأسماء التِّسْعة والتِّسْعين التي وردت في الحديث الشريف لكنَّه زائِدٌ على هذه الأسْماء.

التسْخير هو سِياقةٌ إلى الغرض المُخْتَصّ قهْراً والمُسَخِّر هو المُقيِّد للفِعْل هذا في التعريف اللغوي والتسْخير هو التذليل وكل ما ذل وانْقاد وتَهَيّأ هو مُسَخّرٌ وسَخّرَه أيْ ذلّلهُ وكلّفَه وكل مقْهورٍ مُدَبَّرٍ لا يمْلِك نفْسَه يُعَدّ مُسَخّراً وقبل أن نُتابِع الحديث عن موضوع التسْخير لابد من حقائق أضَعُها بين أيْديكم تُلْقي ضوْءاً على سِرّ التسْخير.

أوّلاً جعل الله الإنْسان المخلوق الأوّل قال تعالى:

(إنّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً(٧٢))

(سورة الأحزاب)

فالإنْسان قبِل حملَ الأمانة والإنْسان كرّمه الله لأنه قبِل حمْل الأمانة قال تعالى:

(وَلَقَدْ كَرّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطّيّبَاتِ وَفَضّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً (٧٠))

(سورة الإسراء)

لأنّهُ قبِل حمْل الأمانة كرّمَهُ الله أعْظم تكْريم وقد كلّفَهُ أنْ يَعْبُدَهُ قال تعالى:

(وَمَا خَلَقْتُ الْجِنّ وَالْإِنْسَ إِلّا لِيَعْبُدُونِ (٥٦))

(سورة الذاريات)

فأوّلُ مُقوّمات العِبادة أنّه سَخّر له الكوْن فالمُسَخِّرُ هو الله والمُسَخّر هو الكوْن، والمُسَخّر له هو الإنْسان والشيء البديهي أنّ المسَخّر له أكْرم من المسَخّر فالكوْنُ مُسَخّر أما الإنْسان مُسَخّر له فالإنسان مُسَخّرٌ له الكوْن والدليل قوله تعالى:

(وَسَخّرَ لَكُمْ مَا فِي السّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكّرُونَ (١٣))

(سورة الجاثية)

فالله عز وجل ذلّلَ ؛ فالجَمَلُ مُسَخّرٌ لنا وَوَزْنُهُ خمسة أطنان والفيل والحوت الأزرق والبقرة وحيواناتٌ أخْرى ضَخْمَة لو أنّها مُتَوَحِّشَة هل نسْتَطيع أن نتعامل معها ؟ ومن المعروف أن مرضاً أصاب بعض البقر في السنوات الأخيرة في بعض البلاد، وهو عبارة عن اِعْتِلالٍ دِماغي اسْفَنْجي وبنتيجته صار سلوك البقرة عُدْوانياً إذْ أصبح عندها اِهْتِياج عضلي فهذه البقرة حينما جُنّت من المُسْتحيل أن تنْتَفِع بها، أحد إخْواننا حدّثني عن بقرةٍ جُنّت في غوطة دِمشْق قَتَلَتْ رجلين وعطبَت الثالث فاضْطرّ صاحبها أن يقْتُلها بالرصاص، فلما يقول ربنا عز وجل:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ)

ولمّا يقول سبحانه:

(وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢))

(سورة يس)

فإنام يشير إلى نعمة كبرى أنعم بها على الإنسان، فَنِعْمَةُ التسْخير نِعْمَة كبيرة جداً، فمثلاً عقْربٌ صغير من شِدّة خوْفِك منه تكاد تخرج من جِلْدِك وهذه الأفعى تَرْتَعِد ساعاتٍ طويلة من رؤْيَتِها أما الجمل فإنك لا تخاف منه وكذلك البقرة فالتسْخير نِعمَة وهذه الحيوانات سخَّرَها الله لنا نألَفُها وتألفُنا أما الحيوانات غير المُسَخَّرة فإنها تُعَرِّفنا بِقيمة التَّسْخير.

لو أنّ الله سبحانه وتعالى ركَّبَ في الغَنَم أخلاق الضّبْع فهل نسْتَطيع أنْ نذْبَحها وأن نأكل من لحْمِها وأن نُسَخِّرَها لنا ؟ إذاً فالله عز وجل تكْريماً لِهذا الإنْسان الذي قبِل حمْل الأمانة سخَّرَ له ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه والله عز وجل سخّر الحديد كيف سخَّرَهُ لنا ؟ جعَلَهُ فِلِذات لو جعله حديداً صِرْفاً من سابع المُسْتَحيلات أنْ نسْتَفيد منه جعله مع التراب تُعَبِّئُ التراب وتنْقُلُه إلى الفرْن العالي وهذا الفُرْن يصْهر الحديد وينقيه من الشوائب فالحديد مُسَخَّر والبحر مُسَخَّر فكيف سخَّرَهُ الله لنا ؟ إنّ في هذا الماء قوّةً تدْفع نحوَ الأعلى ولولا هذه القوة لما أمْكننا أن نركب البحر قال الله عز وجل:

(وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥))

(سورة الرحمن)

فهذه السُفن كالأعلام فَلَوْلا قوة الدفع إلى الأعلى لما كان البحر مُسَخّراً لنا ومن جعله مالِحاً ؟ مُلوحَتُهُ تسْخيرُ لنا والسمك كذلك كيف تصْطاد السمك ؟ توضَعُ الشبكة على شكْل جِدار والسمك لا يرْجِع إلى الوراء فإذا جذب الصياد الشبكة التي كانت باتجاهه، جَمَّعَ كلَ هذا السمك وكان صيد ه وفيراً، ولو أنّ السمكة ترْجِع القهْقَرى لما أمْكَنَك أن تصْطادَها فكيف سُخِّرت لك ؟ سخرت بهذه الواسِطة إذ ليس في استطاعتها الرجوع، ولو تدَبَّرْت كل شيءٍ سَخّره الله لك لوجدت أمراً عجباً وتكريماً خصّك الله به...

أحْياناً تجد كلّ الأشياءِ أحْجامها مُعْتَدِلة الثِّمار دانِيَة فلو أنّ هناك أشْجاراً عِمْلاقة لما أمْكنك أن تَجْنِيَ ثِمارها ولو كانت هذه الفواكِه تحوي كل المواد المُغَذِّية ولكن طعمها مُرٌّ لكانت بهذه الحال غير مُسَخَّرة؛ طَعْمُها طيّب وشكْلها جميل ورائِحَتُها عَطِرة ومذاقُها حُلْوُ وفيها معادن وفيتامينات وسُكَّريات وغيرها من الفوائد، فَمَوْضوعُ التسْخير أمر جليّ واضح، و الكَوْنُ كلّهُ مُسَخَّرٌ لنا وكذلك المِياه مسَخَّرة لنا ومن جعل الماء الأجاج عذْباً ومُسْتَساغاً ؟ عن طريق التبخُّر والأمطار والأنهار والينابيع إنَّك لو فكَّرْت في خلق السماوات والأرض لَوَجَدْتَ الهواء مُسَخَّراً لك فالله جعل نِسَب الهواء حكيمةً جداً.

رفعت نسبة الأكسِجين أكثر لأحْرَقَ الهواء كل شيء ولو كان للهواء حركة عنيفَةً لدَمَّرَتْ كل شيء والله جعل للهواء أحياناً أن يتحَرّك حركَةً عنيفة ليريك حكمته أثناء سكونه ! فالهواء مُسَخَّر والماء مُسَخَّر والنبات مُسَخَّر والمحاصيل مسَخَّرةٌ لك والفواكِهُ تَنْضُج تِباعاً أما المحاصيل فإنها تنضُج في يومٍ واحد ولو أن المحاصيل تنْضُج تِباعاً لكانَ من المُسْتَحيل أنْ تَجْنِيَ المحاصيل ولو أنّ الفواكِهُ تنْضُج في يومٍ واحدٍ لكان من المسْتَحيل أن تنْتَفِع بها ؛ يوجد إلهٌ عظيمٌ يُصَمِّمُ كلّ شيءٍ وهذا هو معنى سَخَّر لك النبات والماء والهواء وهذه الحيوانات.

إذاً: التسْخير هو التذليل والإنسان أحْياناً يمُرّ على الأشْياء مرور الكِرام ولا يَنْتَبهُ لِحِكْمَتِها البالِغة فهذا عُنْقود العِنَب لو أردْتَ أنْ تَقْطِفَهُ وجذبته نحوَ الأسْفل لعُصِرَ في يَدِك ولما انْقَطع فهو مُصَمَّمٌ تصْميماً رائِعاً ولكن لو جذبته عند قطفهُ نحْوَ الأعلى أصْبَحَ بيَدِك فمن سخَّرَهُ ؟ وهذا البطيخ كلُّه ماء فَمَن جعل له هذه القِشْرة السميكة ؟ تجد شجرة منه تحْمِل عشرين طنّ بطيخ الذي في الأسْفل قويٌّ يحْمِل ثلاثة أو أربعة طُن فمن جعلهُ بهذه القِشْرة الكرويّة القاسِيَة ؟ الله عز وجل فالتسْخير قضيَة واسِعة جداً.

وردت مادة المُسخِّر في مواضِع كثيرة من كِتاب الله تعالى ففي سورة الرعد قال الله تعالى:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمّى يُدَبّرُ الْأَمْرَ يُفَصّلُ الْآيَاتِ لَعَلّكُمْ بِلِقَاءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ (٢))

(سورة الرعد)

هل نسْتَطيع أن نحْمِل هذا السّقْفِ بِغَيْر أعْمِدة ؟ وهل هناك هنْدسَةٌ تُتيحُ لنا أن نبْنِيَ سَقْفاً بِغَيْر أعْمِدة ؟ مُسْتَحيل وإذا كان الأمر كذلك لكَلّفنا هذا الكثير ؛ سَقْفٌ بِلا أعْمِدةٍ ولا جُدْران يَعْتَمِد إليها هذا فوق طاقَةِ البشر فالله هكذا قال:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ)

هذه قِوى التّجاذُب فالأرض مرْبوطةٌ بالشمس بِقُوّةِ جذْبٍ تُساوي اثنَي مليون طن ضَرْب مليون مليون طن أيْ رقم اثنين أمامه ثمانِيَة عشر صِفْراً وهذه القوة تُمَثِّل مليون مليون حبْل فولاذي وقُطْر الحبْل خَمْسَةُ أمتار وكل حبْل يُقاوِم من قِوى الشدّ اثني مليون طن وكل هذه القوة لا نراها، فهل تسْتَطيع أنت أن تسير داخِل هذه الدِّعامة ؟ أعوذ بالله، وهل بِإمْكانِك أن تصنْنَع دِعامةً لا تُرى وتسير في داخِلِها ؟ دِعامةٌ لا تُرى هكذا قال الله عز وجل:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمّى يُدَبّرُ الأمْرَ يُفَصّلُ الآيَاتِ لَعَلّكُمْ بِلِقَاءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ)

يعْني بِعَمَدٍ لا تَرَوْنَها، أنّ الكوْنُ كلّه مُتَرابِطٌ بِقِوى التجاذب ولولا هذه القِوى لأصْبَح الكوْن كلّهُ كُتْلةً واحِدة ؛ قِوى تجاذب وقِوى نَبْذ حركةٌ شكّلتْ قِوى نبْذٍ والجاذِبِيَة هي التجاذب بين الكُتَل التي في السماء بِحَسَبِ حجومِها ومسافاتِها وأبْعادِها وحركاتِها وسكناتِها

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ)

أرْضُنا مُسَخَّرةٌ لنا فلو أنها تَفَلّتَتْ من جاذِبِيَة الشمس لانْتَهت الحياة عليْها لو أنها تَفَلّتَتْ من جاذِبِيَة الشمس لأصْبَحت حرارتُها مئتين وسبْعين تحت الصِّفر المطْلق وهو يعْني المَوْت المطلق لكل الكائنات الحيّة.

ما معنى مُسَخَّرة لنا ؟ أيْ مرْبوطةٌ بالشّمْس كل ثلاث ميلي مثرات في الثانِيَة يجْعل مسار الأرض مُغْلق حول الشمس ولولا أنّ مسارها مُغْلَقٌ حوْل الشمْس لما سُخِّرت لنا، حسناً، لو أنها دارتْ بِسُرْعَةٍ كبيرة صار الليل ساعةً والنهار ساعةً لكانت غير مُسَخَّرة ولو أنّ الدورة خمسُ سنواتٍ لصار الزمن خمسُ سنواتٍ نهاراً وخمس سنواتٍ ليلاً و لكانت غير مُسَخَّرة الحرُّ الذي بِجِهة الشمس ثلاثمئة درجة فوق الصِّفْر وفي الجِهة الأخرى مئتان وسبعون تحت الصِّفْر لانْتَهَتِ الحياة عندئذٍ فَمَعْنى مُسَخَّرة تدور ومعنى مُسَخَّرة تدور باعْتِدال ومعنى مُسَخَّرة تدور بِمِحْور مائل ومعنى مُسَخَّرة خصائصها ثابِتة فهذه أوّل آية:

(اللّهُ الّذِي رَفَعَ السّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخّرَ الشّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّ يَجْرِي لأجَلٍ مُسَمّى يُدَبّرُ الأمْرَ يُفَصّلُ الآيَاتِ لَعَلّكُمْ بِلِقَاءِ رَبّكُمْ تُوقِنُونَ)

العلماء يقولون الشمس مُتَّقِدة منذ خمْسَةِ آلاف مِلْيون عام وقالوا سوف تسْتَمِرّ بِحَسَبِ دِراساتِهم إلى خمْسَة آلاف مِلْيون أخرى ولِسان اللّهب من الشمس طوله مليون كيلو مِتْر هذه الطاقة من أين ؟ هل يوجد مِدْفأة من دون تشْغيل بِالوَقود ؟وهل هناك مَرْكَبَة تسير بِلا وقود ؟ وهل يوجد شيءٌ يشْتَعِل بلا وقود ؟ خمسة آلاف مليون سنة مضت ولِخمْسة آلاف مليون سنة قادِمة وحرارتُها في باطِنِها عشرون مليون درجة وعلى سطْحِها سِتّةُ آلاف فَمِنْ أيْن هذه الحرارة؟ ومن سَخَّرها لنا ؟ ضوء الشمس فيه دِفءٌ وثانِياً نور وثالِثاً تَعْقيم.

وورد أيْضاً التسْخير في سورة يس قال تعالى:

(وَالشّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨))

(سورة يس)

وذكر الشمس والقمر لِأنهما أظهر الكواكِب السيارة والتي هي أشْرف وأعْظم من الكواكِب الثوابت فالشمس أمامنا والقمر أمامنا والليل مُسَخَّر والنهار مُسَخَّر، الله تعالى سَخَّر لنا الليل فهو سكينَةٌ لنا

وظلام وهُدوء وراحة ونَوْمٌ وسِتْرٌ والنهار معاش ولولا دوْرة الأرض حول الشمس لما كان ليلٌ ولما كان نهار.

وفي سورة إبراهيم قال تعالى:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢))

(سورة إبراهيم)

أرَأيْتُم إلى التسْخير ؟ جمع اسم المُسَخِّر، والمسخَّر والمسخَّر له بآيةٍ واحدة:

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنهَارَ)

كلمة " لكم " بحَثْتُ عنها في القرآن الكريم ببَرْنامج خاص فوَجَدْتُ أنها وردت أكثر من مئة وثمانين مرّة ؛ أنت أحْياناً تُقيمُ مأدُبَة على شَرَفِ إنسان هذا الإنسان يجلس على هذه المأدُبة ويأكل فإذا طُرِق الباب وكان القادم ضَيْفاً تقول له هلُمّ وكُلْ معنا فَيأكل لكن هذه المأدُبة أقيمَت خِصيصاً لِضَيْفِ الشّرف أما الثاني أكل عَرَضاً فكَلِمة " لكم " تعني أنّ هذا الكَوْن مُسَخّرٌ خِصيصاً لكم وليس المعنى أنّك عِشْتَ على هذه الأرض فاسْتَفَدْت مما فيها ! كل ما في الأرض من شيءٍ مُسَخّرٌ للإنسان خِصيصاً وكلمة " لكم " تُفيد هذا المعنى

(اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنهَارَ)

طبْعاً الفُلْكُ مُسَخَّرة حسب قانون أرْخَميدِس، والأنهار مُسَخَّرة من خلال هذه الجِبال التي جعلها الله مُسْتَوْدَعاتٍ للمِياه قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الأَنهَارَ)

فالله هو المُسَخِّر وأنت دائماً مُسَخَّرٌ لك ؛ المُسَخَّر له أشْرف وأعْظم من الشيء المسَخَّر.

ووردَ أيْضاً التسْخير في آياتٍ كثيرة والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((فيما رواه عَنْ أَبِي أُمَامَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا رَفَعَ مَائِدَتَهُ قَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ غَيْرَ مَكْفِيٍّ وَلا مُوَدَّعٍ وَلا مُسْتَغْنًى عَنْهُ رَبَّنَا))

(رواه البخاري)

نحن لا نسْتَغني عن الله أبداً ونحن مقهورون مرَّتَيْن مرة عند الايجاد، ومة عند البعاد، وقد ذكرْتُ لكم أنّ الله عز وجل يقول:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦))

(سورة فصلت)

وقال تعالى:

(وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣))

(سورة الفرقان)

طبْعاً ؛ العِباد جمْعُ عَبْدٍ والعبيد جمعُ عَبْدٍ ولكن العِباد جمْعُ عِبدِ الشُكْر بينَما العبيد جمْعُ عَبْدِ القَهْر ونحن كلّنا عبيدٌ لله بمعنى أننا مقْهورون وبمعنى أنّ حياتنا مُتَوَقِّفَةٌ على إمْداد الله وكذلك وجودنا وأنّ حياتنا وأرْزاقنا لا تقوم إلا بالله وأنّنا بحاجةٍ إلى الهواء ونحن مُفْتَقِرون إلى الله.

إذاً نحن عبيدٌ له أما العِباد فهم الذين عرفوه وأتَوْهُ طائعين وأحبُّوهُ وأقْبَلوا عليه وتَقَرّبوا إليه وهذه العبودِيَة لله عز وجل لها معنىً آخر، فالنبي عليه الصلاة والسلام يُخْبِرنا أنَّهً لا يسْتَغْني عن ربّهِ أبَداً.

قال تعالى:

(أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى (٩) عَبْداً إِذَا صَلَّى (١٠))

(سورة العلق)

وقوله تعالى:

(فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى (١٠) وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى (١١) إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣))

(سورة الليل)

بعض الناس يظن أنه يسْتَغْني عن الله فهو بِحُمْقِهِ أو بغبائِه أو بِكُفْرِهِ أو بجَهْلِه يرى أنَّهُ قويٌّ وغَنِيٌّ عن الله لكن الله سبحانه وتعالى يؤدّبُه ويُحَجّمه أما المؤمن فمُفْتَقِرٌ دائماً إلى الله عز وجل ولا تَنْسَوا أيها الإخوة أنّ الإنسان حينما يسْتَغني عن الله حسب ظنه يَلْقى أشَدّ أنواع التأديب ولْيَكُن كائناً من كان ففي بدْرٍ الصحابة الكِرام أعْلَنوا فقْرَهُم إلى الله قال تعالى:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣))

(سورة آل عمران)

ومعنى أذِلة هنا الافْتِقار أما في حُنَيْن قال تعالى:

(لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥))

(سورة التوبة)

فأنت حينما تسْتَغْني ولو كان اسْتِغناءً خَفياً ولو كان اِعْتِداداً بالصحة أو المال أو القوة أو الذكاء هذا كلُّهُ في ظاهره نوْعٌ من الاسْتِغناء، والاسْتِغْناء مِن لوازمِهِ التخلي فالله عز وجل يتَوَلاك أو يتخلى عنك

يتَوَلاكَ إذا افْتَقَرْتَ إليه ويتَخَلى عنك إذا اسْتَغْنَيْتَ عنه وليس شرطاً أن تقول أنا مُسْتَغْنٍ عن الله فحينما تعتمِد على شيءٍ من قُدْراتِك الخاصّة وتنْسى أنّ الله تعالى سَخّرَها لك وأكْرَمَك بها فهذا أحد أنواع الاسْتِغناء وتأديبُهُ سريع ولا سِيَما المؤمن فالله عز وجل لا يسْمَحُ للمؤمن أن يغْفَلَ عنه لأنه يُحِبُّهُ ولا يسْمَحُ له أنْ يُشْرك به، أنا أغنى الأغنياء عن الشِرك والقلب المُشْتَرك لا يُقْبِلُ الله عليه والعمل المُشْتَرك لا يَقْبَلُهُ الله.

لِذلك أخْطر شيء في الإيمان قضِيّةُ الشِرْك الخَفيّ، فالإنسان أحْياناً يشْعُر أنه يَمْلِك شيئاً قد يمْلِك المال وقد يملِك القوة وقد يمْلِك الذكاء وقد يَمْلِك طلاقة اللِسان فهذا الذي تشْعُرُ أنّك تَمْلِكُهُ هو أحد أسْباب الاسْتِغْناء عن الله وأحد أسْباب الشِرك الخفيّ فبمُجَرّدِ أنّ تَشْعَر أنّك على شيءٍ وأنّك تمْلِك قدْرةً ذاتِيَة إما عِلميَة أو مالِيَة وقوة تسْتَعْلي بها على الناس فالله عز وجل سريعاً ما يُؤَدِّبُك ويَتَخلى عنك فهذا التخلي هو التربية فكُلما كنت أكثر تَعَمُّقاً في الدين وأكثر توْحيداً لله وإخْلاصاً له تجْعَل من نفسِك أكثر اِفْتِقاراً دائماً ولهذا الاِفْتِقار الدائم يَجْعَلُ الله سبباً لمَعونَتِك.

ورد في الأثر أنّ النبي داود قال يا رب: كيف أشْكُرُك وشُكْرُي لك نِعْمَةٌ منك عليّ ؟ وسؤال داوود يذكرنا بهذا الحديث أيضاً:" إذا أراد ربك إظهار فضْلِه عليك خلق الفضْل ونَسَبَهُ إليك " بعد حين الإنسان يشْعُر أنّهُ لا شيء وكلما ازْددت إفْتِقاراً إلى الله زادك الله إمْداداً وقُوّةً وعِلْماً وصِحّةً ويقيناً وقُدْرَةً على التمييز، وكلما اعْتَدَدْت بِقُدْراتِك الذاتيَة كلما تخلى الله عنك ؛ كيف أشْكُرُك وشُكْرُي لك نِعْمَةٌ منك عليّ ؟ فقال الله تعالى: الآن شَكَرْتَني يا داود لأنّ العَجْزَ عن الإدْراك إدْراك ولما يقول الإنسان سُبْحانك لا نُحصي ثناءً عليك أنت كما أثْنَيْتَ على نَفْسِك فهذا شُكْر فحينما تعْجَزُ عن الشُكر فأنت شاكِر وحينما تعْجَزُ أن تُعَبّر عن شُكْرك لله عز وجل فأنت الآن تشْكُرُهُ أما الغافِل فهو الكافِر

فيا أيها الإخوة، بما أنّ الكَوْنُ مُسَخّرٌ تسْخيرَيْن:

- تسْخير تعْريف، - وتسْخير تكْريم.

ردُّ فِعْل التعريف أنْ تؤمن به وردُّ فِعْل التكريم أنْ تشْكُرَهُ فإذا آمنْتَ به وشَكَرْتَهُ حقّقْتَ الهَدَفَ من وُجودِك لذلك يقول الله عز وجل:

(مَا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللّهُ شَاكِراً عَلِيماً (١٤٧))

(سورة النساء)

وبالمُناسبة بمُجَرّدِ أنْ تَعْرِف هذه النِّعمة أنها من الله فهذا نوْعٌ من الشُكْر، و لِمُجَرّدِ أنْ تَعْرِف هذه النِّعمة أنها من الله فهذا أحد أنواع الشُكْر فأهْلُ الدنيا تجد أحدهم يسْتَمِع في الأخبار مثلاً أنّ مُنْخَفَضاً جوّياً في طريقِهِ إلى الشرق الأوسط فإذا لم يَخْطُر ببالِهِ أنّ الله تعالى رحْمَةً منه بالبَشَر ساق هذه المُنْخَفَضات لِتَكون في النِّهايَة أمْطاراً ترْوي الزرع ويشرب منها الإنسان ويسْقي منها زرْعَهُ ويسْقي

بهائِمَهُ هذا التفكير بِأنّ هذا مُنْخَفَض يسير بِسُرْعة كذا إلى المكان الفُلانـي ولا يَذْكُر الله معه كان ذلك نوْعاً من الشِّرك لِذلِك فلا بد أن تعْتَرِف أنّ كلّ شيءٍ أمامك نِعْمَةٌ عُظْمى يَنْبَغي أنْ تحْمَدَ الله تعالى عليْها.

استِنْشاق الهواء نِعْمَة وكم من جِهازٍ في الإنسان يعْمَلُ بانْتِظام وهذه العَيْنُ تعْمَلُ بانْتِظام وهي من أكبَر النِّعَم التي أنْعَمَ الله بها علينا ترى الألوان كلّها والأشياء بِحَجْمِها ولا تَحْتاج إلى تَحْميض فِلْمٍ ولا إلى انْتِظار حتى ترى ولا إلى ألوان باهِتَة فالعَيْن البشَرِيَّة تُفَرِّق بين ثمانمائة مئة نوع من اللون الأخْضر وتُفَرِّق بين درجتين من بين ثمانمئة ألف درجة فَهِيَ حسّاسَةٌ جداً فالعَيْن نِعْمة والشّم نِعْمة والسمع والنطق نِعمة والقلب والرئتان والأوعِيَة والأمعاء كلها نعم كذلك فالإنسان مغمورٌ بالنِّعم وكلما فكّر في هذه النّعم كلما أحب الله عز وجل والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَن ابْنِ عَبّاسٍ قالَ قالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّهم عَلَيْهِ وَسَلّمَ أحِبُوا اللّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ وَأحِبُونِي بِحُبِّ اللّهِ وَأحِبُوا أهْلَ بَيْتِي بِحُبّي))

(رواه الترمذي)

((أحِبوا الله لِما يغْدوكم من نِعَمِهِ))

وحالةُ المؤمن دائماً الشُّكر لأنّ الله عز وجل سخّر له جِسْمَهُ وأنت شيء غير جِسْمِك والدليل قوله تعالى:

(وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قالُوا أنْطَقَنَا اللّهُ الّذِي أنْطَقَ كُلّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أوّلَ مَرّةٍ وَإلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢١))

(سورة فصلت)

فَجِلْدُك خلايا والخلايا نفْسٌ لها مسؤولِيَة وتنطِق يوم القيامة وتشْهد فَجِسْمُكَ مُسَخَّرٌ لك والإنسان نقطة ماءٍ في هَيْكَلٍ عظمي وعظْم عُنُق الفخذ يتحمّل مئتين وخمسين كيلوا حُمولة فالعظام يتحملان نِصْف طن وهذا الحُوَيْن المَنَوي الذي هو كالماء مِن أين جاء بهذه المتانة في العِظام ؟ هذا يعْني أنّ هناك في العِظام كِلس متين فَمَن أعْطاه هذه المتانة ؟ فالمواد الكِلسِيَة تترسّب في العِظام وبطريقةٍ لا يعْلَمُها إلا الله تعالى يُصبِح هذا العظْم متيناً بل إن ميناء الأسنان تأتي بعد الألماس في قساوَتِها والعِظام لها متانَةٌ كبيرة.

انظر إلى القصاب يرْفَع الساطور إلى أعلى ويَهْوي به بِكُلّ قُوّتِه لِيَكْسِرَ عظْما من عِظام الخروف ما معنى ذلك ؟ أيْ أنّ الله عز وجل أعْطاك هَيْكَلاً عظمياً وعضلاتٍ تتَحَرّكُ بها ولو لا العضلات لما كانت هناك حركة ولا مَشْي ولا تَكَلّم ولا نُطْق ولا تَنَفّس ولا نَبْض قلب ولتوقف كلّهُ فالله تعالى أعْطاك عضلاتٍ تتحرّك وهَيْكَلاً عظمياً هو قِوامُ جِسْمِك وأعْطاك الله عز وجل أجْهِزَةً دقيقة جداً.

ذكرت لكم مرةً أنّ في الدِّماغ جهازاً يكْشِف تفاضُل وُصول الصَّوْتَيْن للأذُنَين فإذا دخل صوْتٌ من هنا قبل هنا بِقدْر واحد على ألف وسِتمئة جزء بالمئة حينها يعْلَم الإنسان أنّ الصوت جاء من هنا فإذا كان يقود سيارة مثلاً فإنه يَنْحَرِف نحو اليسار استجابة لذلك الصوت فهذا جهازٌ مُعَقّد جداً وهناك جِهاز توازن السوائل وجِهاز ضبط فالإنسان يَنْطَوي على آلاف الأجْهزة ؛ الغُدّة النُّخامِيَة وزنها نِصْف غرام وتُفْرز اثنى عشر هِرموناً.

أيها الإخوة، التسْخير يعني أنّ جِسْمَك مُسَخَّرٌ لك والطعام مُسَخَّر والشراب مُسَخَّر والأنعام مُسَخَّرة والبِحار مُسَخَّرة والأمطار مُسَخَّرة والرياح مُسَخَّرة ولولا الرياح اللّواقِح ما حمَل النبات ولا أثمَر قال تعالى:

(وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢))

(سورة الحجر)

والتسخير كذلك ورد في سورة النحل قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ(١٢))

(سورة النحل)

فلوْ أنّ الله تعالى جعل لكم النهار سَرْمَداً إلى يوْم القِيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بِلَيلٍ تسْكُنون فيه ؟ لو أنَّهُ جعل لكم الليل سرْمَداً إلى يوم القِيامة من إلهٌ غير الله يأتيكم بنهارٍ تنْتَشِرون فيه ؟ إنه الله، فالليل مسَخَّر والنهار مُسَخَّر، وهذه دَوْرة الشمس والأرض فلَو دارت الأرض على مِحْوَر مُوازٍ لِمُسْتوى دورانِها لما كان هناك ليلٌ ولا نهار فالدِّقة التي جعلها الله بينهما تدلّ على حِكْمَةٍ بالغة وخلق دقيق لو أنّ المِحور عمودي على مُسْتَوي الدوران لما كان هناك فصول ولكنه مائل وهذا المَيَلان يُسَبِّب الفصول وهذا هو التسْخير قال تعالى:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

فالله جعل القمر ضِياء والشمس جعلها سِراجاً وهاجاً والقمر نوراً، قرأت أن القمر يُعطي ثمانِيَة عشر بالمئة مما تعطيه الشمس فَيُمْكِن للقمر أنْ يُؤدي وظيفة إضاءة تُساوي ثمانِيَة عشر جزءاً بالمئة من الشمس، وذات مرةً كنت بالطائرة فرأيت في ليلةٍ مُقْمِرة وأنا مار على بلاد رأيت كل ما فيها على ضوء القمر فالقمر مُسَخَّر وجعله الله تقْويما للإنسان فالآية الكريمة:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

قد تكون نجْمَةٌ مُتألِّقة حجْمُها يزيد مئة مليون مرة عن حجم الشمس وهناك نجوم تَتَّسِع للأرض والشمس مع المسافة بينهما وهناك نجوم تبْعُد عنا ثلاثمئة مليون سنة ضوئيّة:

(وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ)

وما ذرأ (أيْ وما خلق) لكم في الأرض مُخْتَلِفاً ألوانُهُ، ففي الفواكِه تجد لوناً أصْفر مع خدٍّ أحمر وأحمر غامِق داكِن وأخضر غامِق وفاتِح فالفاكِهة ألوانُها من آيات الله الدالة على عظمتِهِ وألْوان الخُضَر والجِبال وألْوان البحار فهذا كلّه من فضْل الله عز وجل، قال تعالى:

(وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٣))

(سورة النحل)

فالبحر أربعة أخْماس اليابسة وفي أعْمق نِقاطِه تقْريباً اثني عشر كيلو متراً في المحيط الوادي المعروف بوادي مَرْيانة فالكَمُّ المائي كبير جداً فإذا أربعة أخْماس اليابسة على عُمْق متوسِّط خمسة كيلومترات، كم هي كُتْلة الماء في البحار ؟ فالبحر الأبيض المتوسِّط يُعَدّ بُحَيْرة إذا ما قيس بالمحيطات أما المحيط الهادي والأطْلسي فهي محيطات كبيرة جداً قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٤))

(سورة النحل)

فالسمك مخلوقٌ خِصيصاً للإنسان وهناك مليون نوع من السمك في البحار ولولا أنّ الأسماك الكبيرة تأكل الصغيرة لصار البحر كلّه أسْماكاً وقال تعالى:

(وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)

هذا اللؤلؤ شيء دقيق ؛ حيوانٌ إذا شعر أنّ في محارهِ جِسْماً غريباً مهما كان دقيقاً أفْرز عليه مادّةً فسفورية ِكلْسِيَة يُدافِع بها عن نفسِه ويُحَجِّم هذا الجِسم الغريب وهذه المادة الفسفورية ِالكلْسِيَة هي اللؤلؤ واللؤلؤ غالٍ جداً قال تعالى:

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

كل البضائع هذه الأيام اسْتيرادٍ وتصْديرٍ تنقل عبْر السُّفُن وهناك الآن حامِلات بواخِر تَحْمِل مليون طن؛ مُدُن تسير في البحار وهناك الآن معامِل لِصُنْع سْتانْلِس هي بواخِر تأخذ المواد الأولِيّة من أسْتراليا وفي طريقها إلى الشرق الأوْسَط تُصنِّعُها وتبيعُها مُصَنَّعَةً خالِصَة فالبواخِر مُدُنٌ تمشي في الماء قال تعالى:

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

أذْكر مرةً أننا كنا في سَفَرٍ وكان الطريق طويلاً وساحِلِياً ومن الممكن أن نقْطَعَهُ في البحر كانت تقِف أمامنا بواخر تُستعمل ناقِلاتٍ للسيارات فيها سيارات كبيرة وشاحِنات وبولْمانات وتكْسيات تحمل عدداً

كبيراً من السيارات ؛ كيف تتحرك هذه الباخِرة بهذا العدد ؟ وكيف يحْمِلها الماء ؟ إذا قلت البترول قلنا لك من خلق البترول ؟ الله جل جلاله، قال تعالى:

(وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

وقال:

(وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥))

(سورة النحل)

فالجِبال هذه يبدو أنها مُوَزّعة توزيعاً دقيقاً جداً بحيث أن الأرض تدور دَوْرَةً مُسْتَقِرة تجد بناءً عمره سبعمائة سنة ليس به بأس ولو كانت هناك حركة لانْهَدم فالأرض مُتَحَرّكة وكأنها ساكِنة وهذا من آيات الله الدالة على عظَمَتِه اسْتِقرار مُطْلَق مع حركة مذهلة قال تعالى:

(أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَئِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ(٦١))

(سورة النمل)

من جعلها مسْتَقِرة ؟ ومن جعل الأشياء تسْتَقِرّ عليها ؟ الله جل جلاله قال:

(وَأَلْقَى فِي الأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ)

كل شيء له علامة تميزه وتعلن عن حقيقة بواطنه، إذا كان هناك جُرْثوم بالإنسان فإنها ترتَفِع حرارته فارْتِفاع الحرارة علامة وإذا الفاكهة نضجت يصْفَرُّ لوْنُها وهذا اللون الأصْفر علامة وأحْياناً الزيتون يَسْوَدّ والحب يشْتَدّ والعِنب يصْفَرّ كل شيءٍ خلقه الله عز وجل جعل له علامة تدلّ على باطِنِهِ حتى الأمراض كلها لها علامات ولولا هذه العلامات لما عرف الأطِباء الأمراض وكل شيء باطِن له علامة ظاهرة قال تعالى:

(وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ (١٦))

(سورة النحل)

وقال تعالى:

(وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٨))

(سورة النحل)

أيْ أنتم عاجزون عن إحْصاء النِّعم فلأن تكونوا عاجزين عن شُكْرها من باب أوْلى ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: إن الله لغفور رحيم.

وفي سورة الأنْبياء قال تعالى:

(فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلّاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ(٧٩))

(سورة الأنبياء)

أيْضاً هذه الآية وما بعدها تُبيّن تسْخير الله تعالى لِهذا النبي الكريم.

وفي سورة الحج قال تعالى:

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦))

(سورة الحج)

فهذه الناقة قرأت عنها بعض المقالات في مجلاتٍ عِلْمِيّة تستطيع أن تسْتَغْني عن الماء ثلاثة أشْهر فهي تسْتطيع أن تسْتَهْلِك ماء خلاياها وتسْتطيع أن تستغني عن الطعام أكثر من ستة أشهر لأنّ سنامها مُدّخَرٌ غِذائِيٌ لها فهذا الحيوان مُسَخّرٌ للإنسان ولا سِيَما في الصحراء أخْفافُها آية لها رُموش تمْنَع دخول الغُبار إلى عَيْنِها وعَيْنُها آية وتُريها البعيد قريباً والصغير كبيراً عَيْن الناقة كالميكروسكوب تماماً فَعَيْنُها آية وشَفَتاها آية وأعْضاؤها آية وتجْلِس جلْسَةً نِظامِيَة وترْتاح ولها ثفنة في بَطْنِها وعلى أيْديها وأرْجُلها جَلْسَتُها النِّظامِيَة تُتيح لك أن تُحَمّل عليها.

وربنا عز وجل يقول:

(أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧))

(سورة الغاشية)

آية كريمة، قال تعالى:

(وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ)

درسنا اليوم يتناول كلِّ حركةٍ من حركاتِك ؛ ويريك كل ما سخره الله لك من خلال ذلك، خرجْت من المسجد ولَبِسْتَ حِذاءك من جِلْد الأنْعام فهذا الجِلد مُسَخّرٌ لنا، ركِبْتَ مرْكَبَةً تتحرّكُ بالبِترول فالبِترول مُسَخّر لنا، دخلت إلى البيت وشَرِبت كأساً من ماء فالماء مُسَخّرٌ لنا ومن جعلهُ عذْباً فُراتاً؟ وكان من قبل مِلْحاً أجاجاً فالماء مُسَخّرٌ لنا رأيْتَ زوْجَتَك فمن سَخّرها زوجَةً مُطيعَةً لك ورأيْتَ أوْلادك واسْتَلْقَيْت على فِراشٍ وفير فمن خلق الصوف ؟ والله هذا الاسم العظيم اسْم المُسَخِّرْ يدور معك في كلّ ثانِيَة من حياتِك ؛ كيْفَما تحرّكْت وَجَدْت الأشياء مُسَخَّرة لك أعْظم تسْخير ألا تسْتَحْي من الله:

إلى متى أنت باللّذات مشْغول وأنت عن كلِّ ما قدّمْتَ مسؤولَ

تعصي الإله وأنت تُظهر حُبّهُ هذا لَعَمْري في المقال بديــعُ

لو كان حُبُّك صادِقاً لأطـعْتَهُ إنّ المُحِبّ لِمن يُحِب يطيــعُ

وفي سورة العنكبوت قال تعالى:

(وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (٦١))

(سورة العنكبوت)

وفي سورة لُقمان قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٢٠))

(سورة لقمان)

أذكُر مرةً كنت بالخليج وكان هناك سِباق للهُجْن يَعْتنون به كثيراً ولكنّ الذي لَفَت نظري أن الذي يرْكَب على هذه الناقة طِفْلٌ صغير وهذا الطِفل من شِدّة الاهْتِزاز يَنْعَطِب عمودُهُ الفقري ورأيْت العَكْس في هذا الموقف فالإنسان هنا مُسَخَّرٌ لِهذه الناقة والأصل أنّ الناقة هي المُسَخَّرة للإنسان فالإنسان حينما يُسَخِّر لِمَخْلوقٍ أدْنى منه ما عرف قيمَة نفسه وإنسانيته لِذلك الله عز وجل قال:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠))

(سورة البقرة)

هناك أشياء كثيرة قد ترْفُضُها لأنها لا تُعْجِبُك ولأنّك تَحْتَقِرها إلا أنّك إذا رفضْت الدِّين فإنّك تَحْتَقِر نفسَك قال:

(وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنْ الصَّالِحِينَ)

حينما يحتَقِر الإنسان نفْسَهُ يُعْرِض عن الدِّين، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ)

وفي سورة الزمر قال تعالى:

(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥))

(سورة الزمر)

وفي سورة الزخرف قال تعالى:

(وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢))

(سورة الزخرف)

مِن أجل أن تعرف قيمة البِتْرول ؛ سيارة فيها خمسة رُكاب وتحْمِل أغْراضاً وأمتعة وتسير في طريق صاعِد فلو أنّها وقفَت وأُطْفِيءَ مُحَرّكُها وكَلّفناك أنْ تدْفَعها إلى الأعلى مع رُكابها وحاجاتِها فهل تسْتَطيع؟ فلو كان هناك خمسة رجال أقوياء لما اسْتطاعوا تحريك هذه السيارة بطريقٍ صاعِد لكن هذا البترول كيف ينْفَجِر وكيف يدْفع هذا الوزْن الثقيل من المركَبَة مع ما فيها من ركاب بطريقٍ صاعِدٍ

هكذا؟ سبحان الذي سخّر لنا هذا وإذا ركِبت باخرة من الذي جعل الماء يحْمِلها ؟ الله عز وجل وكذلك الطائرة في الهواء وهناك دعاء قرآني كلما ركِبْت مرْكَبَةً أو دابّةً أو سيارَةً تقول:

((كما روي أنّ أنّ ابْنَ عُمَرَ عَلّمَهُمْ أنّ رَسُولَ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ كَانَ إذَا اسْتَوَى عَلَى بَعِيرِهِ خَارِجًا إلَى سَفَرٍ كَبّرَ ثَلاثًا ثُمّ قَالَ " سُبْحَانَ الّذِي سَخّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنّا لَهُ مُقْرِنِينَ وَإِنّا إلَى رَبّنَا لَمُنْقَلِبُونَ "...))

(رواه مسلم)

أيها الإخوة، اسم المُسَخِّر اسم يدور في حياتِنا كلِّها ولك أن تُفَكِّر فيه في كلِّ ثانِيَة فكُلّ شيء تراه أمامك مُسَخَّرٌ لك وكل ما تراهُ أمامك هو من نِعَم الله عز وجل وقد سخّره لك ولولا أنك ذو شأنٍ عند الله عز وجل لما سَخَّر لك الكوْن من أجْلِك قال تعالى:

(وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥))

(سورة النحل)

لذلك مُلَخّص الدرس أحِبوا الله لِما يَغْدوكم به من نِعَمِه وأحِبوني بِحُب الله وأحِبوا آل بيتي بِحُبي.

٩٤- اسم الله المريد :

مع الدرس الرابع والتسعين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم المريد ولِهذا الاسم خُصوصِيَةٌ كبيرة جداً وهو اسم كما يبْدو لكم زائد عن الأسماء التِّسْعة والتِّسْعين التي وردت في الأحاديث الصحيحة.

نبْدأ بمعنى المُريد في اللغة ؛ المُريد اسم فاعِل من فِعْلٍ رُباعي أراد يُريد فهو مُريد من مادة الرّوْد والرّوْد معناه الطلب أراد أيْ طلب والفِعْل راد يرود والإرادة أيضاً هي المشيئة ؛ شاء وأراد بمعنى واحد والإرادة من معانيها الفرعِيَة السّعْيُ في طلب الشيء.

قال بعض العلماء: **" الإرادة في الأصل إرادةٌ مُرَكّبة من شهوة وحاجَةٍ وأملٍ هَدَفٌ أمامك وشهوة تُحَرّكُكَ وحاجة أنت بحاجَةٍ إليها "** شهوةٌ وحاجَة وأملٌ أو بِتَعْريفٍ آخر الإرادة نزوع النفس إلى شيءٍ، فمثلاً أردت أن أذهب إلى حلب وتاقتْ نفسي أو نزعَتْ أو مالتْ أو اتّجَهَتْ إلى أن تُسافِر إلى حلب إذاً نُزوع النفس إلى شيء ما يعني إرادة.

والمعنى الثاني الدقيق: الحُكْمُ على الشيء والحقيقة النُزوع إلى الشيء هذا المعنى يَليقُ بالإنسان ولكن لا يليق بالواحد الدّيان ؛ شيءٌ بعيدٌ عنك تتّجِهُ إليه شيءٌ ليس بين يدَيْك تبْحَثُ عنه مكانٌ بعيد تُسافِر إليه ومَنْصِبٌ رفيع تسْعى إليه ومكاسِب كبيرة تمْشي في طريقِها فالإرادة نزوعُ الإنسان إلى شيء هو معنى أساسي من معاني الإرادة ولكن لا يليق إلا بالإنسان أما الواحِد الديان لا يُمْكِن أن نقْبل هذا المعنى فيما يتعلق بالله عز وجل وبالنسبة لله جلّ جلاله إرادَتُهُ: أيْ حُكْمُهُ فإذا أراد الله كذا حَكَمَ على هذا الشيء بكذا قال تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١))

(سورة الرعد)

إذاً: إذا قُلنا الإنسان أراد: أيْ نزعَ إلى شيءٍ واتّجَهَ إلى شيءٍ وأقبل على الشيء وأغْلبُ الظن أنّ هذا الشيء بعيد عنه ولابُدّ له من وسيلة؛ فالله عز وجل مُنَزّهٌ عن العِلّة الغائِيَة أي أنْ يتّخِذ إلى غاياتِهِ وسيلةً أما الإنسان يُكَمِّلُ ضَعْفَهُ بوسيلةٍ فمثلاً مِن أجل أن يصِل إلى بلْدَةٍ بعيدة يتّخِذ سيارة أو طائرة، ومن أجل أن يصِل إلى الماء يجب أن يحْفِر البئر، ومن أجل أن يأكل يجب أن يزْرع، وهذه هي العِلّة الغائِيَة أما ربنا جلّ جلاله فهو مُنَزّهٌ عن العلّةِ الغائيّة.

إذاً: من معاني الإرادة نُزوع النفس إلى شيء وأنّ هذا الشيء بعيد ولابُدّ لكي أصِل إليه من وسيلة والوسائل لا تُعَدّ ولا تُحصى فإذا كان النزوع مكانياً فإنه يحتاج إلى مَرْكَبة وإذا النُزوع عِلمياً فهو يحْتاج إلى دِراسَة وإذا كان النزوع مالياً فهو يحتاج إلى عَمَل. فالإنسان حينما ينْزِع إلى شيء يبْحَث عن وسيلةٍ

يُكَمِّل بها نقصَهُ، أنا أريد أن أرى الخَلِيّة فأنا عاجِز فأَسْتَخْدِم الميكروسْكوب لأرى الخليّة فهنا نَزَعَت نفسي إلى أن أرى الخَلِيّة فاحتجت إلى ميكروسْكوب فالنّفْس التي نزعَتْ إلى شيء تتَّخِذ وسيلة وهذا من ضعفِ الإنسان أما ربنا عز وجل إذا أراد شيئاً حَكَمَ عليه أنه هكذا قال تعالى:

(لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

فإرادة الله هي الحُكْم.

أيها الإخوة ؛ اِسْمَحوا لي فإنّ أناساً كثيرين تَخْتَلِط عليهم الأمور، الكوْن فيه أشياءٌ مُسَخَّرة وأشياء مُخَيَّرة والإنسان مُخَيَّر والجماد مُسَخَّر والحيوان مُسَخَّر وكذا النبات فإرادة الله في المُسَخَّرات هي نُفوذ حُكْمِهِ أما إرادة الله في المُخَيّرات فهي تعني السماح لأن الله عز وجل حينما جاء بالإنسان إلى الدنيا حَمّلَهُ الأمانة والأمانة من لوازِمِها حُرِيّة الاخْتِيار والفِعْل بيَد الله عز وجل فكَيْفَ نُوَفِّق بين أنّ الفِعل بيَدِ الله وبين أنّ الإنسان مُخَيَّر ؟ نقول: إذا تعلّقت إرادة الإنسان بشيءٍ بِمعنى أنه اخْتار تَعَلّقت إرادة الله بِتَحقيق هذا الشيء فإرادتُهُ سماح، أيُعْقَلُ أن يسْرِق سارِقٌ في الأرض خِلافَ مشيئة الله ؟ لا يُمْكِن وهل يُعْقَلُ أنّ الله أمرهُ أن يسْرِق ؟ قال تعالى:

(وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٢٨))

(سورة الأعراف)

كيف نُوَفِّقُ بين المعْنَيَيْن ؟ أيَقَعُ في مُلْكِه ما لا يريد ؟ حاشا لله، هناك شر يقع كيف يقع هذا الشر ؟ إرادة الله مع المُخَيَّر إرادة سماح لكن مع المُسَيَّر إرادة أمر فإذا اِقْتَرف أحدٌ معْصِيَةَ معنى ذلك أنّ الله تعالى سَمَح له ولِماذا سمح له ؟ لأنه مُخَيَّر ولأنه جاء إلى الدنيا لِيَفْعَل أفْعالاً اِخْتِيارِيَة والاختِيار يُكَمِّل عمله إذاً يليق بالله عز وجل أن تكون إرادتُه في الكَوْن إرادة حُكْم إلا أنّ إرادَتَهُ مع الكائن المُخَيَّر من الإنس والجن إرادة سماح.

شيء آخر وهو معنى من معاني الإرادة، قال تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥))

(سورة البقرة)

الله عز وجل يأمركم أن تكونوا مُيَسِّرين، أريد منك كذا يعني آمُرُك بكذا، صار أول معنى عندنا هو النزوع مُتَعَلِّق بالإنسان، والمعنى الثاني الحُكْم وهو مُتَعَلِّق بالله تعالى والحُكم مع المُسَخَّرات أمر ومع المخَيّرات هو سماحٌ، والآن هذا معنى فرعي من معاني الإرادة أراد الله كذا أيْ أمر بكذا.

معنىً آخر من معاني الإرادة وهو القصْد قال تعالى:

(تِلْكَ الدّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتّقِينَ (٨٣))

(سورة القصص)

فالقصْد والأمر والحُكْم والسماح والنزوع هذه هي معاني الإرادة لكن هناك آياتٌ كثيرة في كتاب الله تُوَضِّحُ تفاصيل هذا المعنى ؛ يقول الله عز وجل:

(فَمَنْ يُرِدِ اللّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيّقاً حَرَجاً كَأَنّمَا يَصّعّدُ فِي السّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥))

(سورة الأنعام)

أنت إذا قرأت هذه الآية لعلك تظن أنّ الله شرح صدْر إنسانٍ للإيمان فآمن وضَيّقَ صدْر إنسانٍ آخر فلم يُؤْمِن وكأنّ المعنى يوحي بالجَبْر والحقيقة خِلاف ذلك كما قلنا قبل قليل إذا أراد الإنسان شيئاً تعلّقت إرادة الله بالسماح بأن يفْعَل هذا الشيء، إذا أراد الإنسان شيئاً ولأنه مُنِح حُريّة الاخْتِيار ولأن الإرادة من صِفات الإنسان فإذا أراد الإنسان شيئاً تعلّقت إرادة الله بالسماح بأن يفْعَل هذا الشيء إلا أنّ هناك تَحَفُّظاً واحداً وهو أنّ الإنسان مُخَيّرٌ أن يفْعَل ما يشاء ولكنّهُ لا يسْتَطيع أنْ يصُبّ اِخْتِياره على من يشاء فَلَهُ أن يسْرِق ولكن ليس له أن يسرق ممن يشاء يسْرِق ممن يَسَيّرُهُ الله تعالى لِسَرِقَتِهِ وهذا هو معنى قوله تعالى:

(وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٢٩))

(سورة الأنعام)

وهذا هو معنى قول الله تعالى:

(إِنّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(٤))

(سورة القصص)

وهناك معنىً فرعِيٌ آخر يجب أن أُضيفَهُ لِهذا المعنى ؛ لو أنّ إنساناً أراد شيئاً شِريراً أراد أنْ يعصي مثلاً أو أن يأخذ مالاً ليس له أراد أن يفْعل فاحِشَةً فماذا يفْعل معه ربنا سبحانه وتعالى؟ إن لم تكُن هذه الشهوة مُسْتَحْكِمة وإن لم تبْلُغ هذه الشهوة درجة الحِجاب فالشهوات تتنامى في نفسِ الإنسان وهناك حدٌّ إذا وصلَت إليه هذه الشهوة بَلَغَت حدّ الحِجاب وحَجَبَتْهُ عن كل شيءٍ ؛ حُبُّكَ الشيءَ يُعْمي ويُصِمّ فإذا بلغ الإصْرار على شهوةٍ مُنْحَرِفة درجةً عالِيَةً جداً تعلّقَتْ إرادة الله بهذا العبْد بأن يسْمَح له بأن يفْعَل ما اخْتار أما إذا إرادتُهُ ضعيفَةً فالله سبحانه وتعالى لا يسْمَح له بل يُنَبِّهُهُ ويُحَذِّرُهُ فصار هناك قَضِيتان:

القَضِية الأولى أنّ الله لا يُطْلِق إنساناً وِفْقَ إرادَتِهِ إلا إذا كانت الحِكمة المُطْلَقة أنْ يفْعَل هذا الشيء إذ السماح بِيَد الله عز وجل أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد.

إذاً الإرادة التي يريدُها الإنسان إن كانت ليست في صالِحِهِ ربنا سبحانه وتعالى لا يسْمَحُ له أن يفْعَلَها أما إذا بلغَتْ إرادَتُهُ درجَةً عالِيَةً من الإصرار عِنْدئذٍ ربنا سبحانه وتعالى يسْمح له أنْ يُنَفِّذها لا على من يشاء الإنسان ولكن على من يشاء الله عز وجل فأنت كن مطمئناً، ولو أنّ إنساناً شِرِّيراً ويَبْدو لك أنَّهُ مُخَيَّر وأنَّهُ طليق اليدين وأنه يفْعل ما يشاء فالله جل جلاله لن يُسْلِمْك لأحدٍ فهذا الشِّرّير طليق اليدين لا يسْتطيع أن يفْعل شيئاً إلا إذا أرادَهُ الله عز وجل شاءت والله يسوق ظالِماً لِظالِمٍ ومُنْحَرِفاً لِمُنْحَرِف أو يسوق إنساناً لا يعْرِفُهُ لِيُؤدِّب من يعْرِفُهُ ؛ إذا عصاني من يعْرفني سلّطْت عليه من لا يعْرِفُني فالإنسان مُخَيَّر والفِعل فِعْل الله وإرادة الله مع غير المُخَيَّر إرادة أمر لأنَّهُ مُسَخَّر أما إرادة الله مع الإنس والجِن إرادة سماح لأنّ الإنسان مُخَيَّر ؛ سماحٌ أن يفْعل حينما تَعْلو الشهوة ويعْلو الإصْرار إلى درجَةٍ أن الحِكمة المُطْلَقة تنْقَلِب إلى عملٍ أما إذا أمْكَنَ عدم وُجود الإصرار فربنا عز وجل يصْرِف عنه هذه الشهوة المُنْحَرِفة رحْمَةً به أما إذا أصرّ عليها يُطْلِقُهُ إليها.

والمعنى الثاني: أنَّهُ حينما يُطلق الله هذا العبد لِفِعل شيءٍ ما يُطْلِقُه على من يسْتَحِق أو على من يكون التسْليط عليهِ حِكْمَةً في حقِهِ فهذا هو فِعْل الله عزوجل.

في ضوءِ هذه المقدّمة قوله تعالى:

(فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أنْ يَهدِيَهُ)

الإنسان أراد الهُدى وأرادهُ ابْتِداءً بحثاً عن الحقيقة وطلب معرفة الله عز وجل وحيثما عُزِيَت إرادة الهداية أو إرادة الضلال إلى الله عز وجل هي إرادة جزائِيَة تأتي عَقَب طلب هِدايَةٍ شخصيّ أو إضلال جزائي مبنيٌ على ضلال اخْتِياري.

القضِيَة دقيقة جداً إذاً عُزِيَت إرادة الهداية أو إرادة الإضْلال إلى الله عز وجل فهي الإرادة الجزائِيَة المبْنِيَة على إرادةٍ اخْتِيارية وفي ضوْءِ هذا التفسير:

(فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أنْ يَهدِيَهُ)

الإنسان أراد الهُدى فشاءِتْ إرادة الله أنْ يَهْتدي ؛ كيف يُعينُهُ الله على هذا الطلب الرفيع ؟ قال: يشرح صدْرُهُ للإسلام لأن القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن فيشْرَح الله صدْرُهُ للإسلام، وماذا نُسَمي هذا الشرْح ؟ إنه مَعُونَةٌ من الله تعالى ؛ مثلاً أبٌ عِنده ولدان أحدهما طلب أن يدْرس فأفْرَدَه بغُرْفَةٍ خاصّة وأعْفاهُ من بعض المال وشَجَّعَهُ وكافَأَهُ فهذا تشْجيعٌ من الوالد لولده والإنسان حينما يريد الهدايَة ويصْدُق في طلبها تتعَلّقُ إرادة الله في أنْ يهْتَدي والله يُشَجِّعُهُ على ذلك ويشْرح صدْره للإسلام وهذا شيءٌ ثابت فبِمُجَرَّد أنْ تبْحَثَ عن الخير وعن الهدايَة وبمُجَرَّد أنْ تعْمَل عملاً صالِحاً تشْعُرُ براحَةٍ كبيرةٍ جداً وهذه الراحة تشْجيعِيّة من الله عز وجل وقوله تعالى:

(فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)

طبْعاً يضِلّهُ الضلال الجزائي المَبْني على ضلال اخْتِياري ؛ أراد الضلال فَسَمَحَ الله تعالى له به لأنّهُ أصرّ عليه فيجْعَل صدْره ضيّقاً حرجاً وهذا أيْضاً ترْبِيَة، لو أنّه شرح صدْرهُ للضلال لكان الله تعالى مُعيناً لِهذا العَبْد على الضلال أما الأمر عكس هذا لو أراد الإنسان الضلال تضيق نفسُهُ وتتعَسّرُ أمورُهُ ويُؤدّب ويُعاتَب ويُوَبّخ قال تعالى:

(فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)

أعَرَفْتُم الآن ما حِكمة الله في أنّ قلوب العِباد بين إصبعين من أصابع الرحمن ؟ الحِكْمة أنّ القلب إذا كان بين أصْبعين من أصابع الرحمن يُقَلِّبُهُ لِصالِح عبْدِهِ المؤمن كما يشاء، شاء الهُدى فشرح الله صدْرهُ للهدى وشاء الضلالة فضيّقَ الله له صدْرهُ.

إذاً: شرْح الصّدْر وتضييق الصدر لِصالِح العَبْد فأنت مُخَيّر إذا أصبْتَ في اخْتِيارك شَجّعْناك ودَعَوْناك إلى مُتابَعَة الخير وأما إذا اخْتَرْتَ شيئاً سيّئاً وبّخْنا وضيّقْنا عليك من أجل أن تكُفّ عن هذا الشيء فهذه الآية أساسية:

(فَمَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ)

آيةٌ أُخرى وهي قوْله تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦))

(سورة النساء)

قد يبْحث الإنسان عن مَوْقِفِ إنْسانٍ منه ويقول له: ماذا تريد أن تفعل بي ؟ وماذا تريد مني؟ فَرَبُّنا عز وجل يُطَمْئِن عِبادهُ قال تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧))

(سورة النساء)

يعني إرادَتُهُ مُتَعَلِّقة بِهدايَتِكم، فقوْلُه تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ)

هناك معنى دقيق ولأنّكم مُخَيّرون فَدَوْرُ المُرَبي مع المُخَيّر التوْضيح فالداعِيَةُ مثلاً بالنِّسْبة للمدْعُوّين أن يتركهم لاختيارهم فهم مُخَيّرون يسْتَجيبون أو لا يسْتَجيبون يؤمنون أو لا يؤمنون، يسْتَقيمون أو لا يسْتَقيمون ؛ فما دوْر الداعِيَة في الدعوة إلى الله حِيال إنسانٍ مُخَيّر ؟ عَلَيْهِ أنْ يُقْنِعَهُ بالإيمان فالإنسان

مُخَيَّر ليس علَيْك هُداهم وإنك لا تهدي من أحببْت ولسْتَ عليهم بمُسيْطِر وما أنت عليهم بوَكيل وما يوجد إجْبار إلا أنّ مُهمّة الأنبياء والرسل ومُهمّة الذين يُنوبون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في تبْليغ الحق البيانُ والتوْضيح لِتَحْمِله على أنْ يَحْمِل الحق.

أحْياناً البائِع يعْرِض على الشاري بضائع كثيرة ولو أنّ البائِع اسْتَحْسَن أنْ يبيعَه نوعاً من البضاعة وهي جيّدة جداً وسِعْرُها رخيص وهذا الذي يشْتَري يُحِبُّهُ فإن البائع يُعينُهُ على أن يَخْتار ويقول له: اخْتر ما شِئت هذه هي الأنواع وهذه هي الأسْعار وأنت مُخَيَّر أما البائع الرحيم يقول له: أنا سَأَنْصَحُكَ خُذْ هذه وهي جيّدةٌ جداً وسِعْرُها مُناسِب وعلى الاسْتِعمال متينَةٌ فالبائع هنا تدخّل فربنا عز وجل أعْطانا حُرِيَّة الاخْتِيار وأعْطانا عقْلاً في رؤوسِنا وكوْناً ينْطِق بوُجود الله وعَدْلِهِ ورَحْمَتِهِ وكمالاتِهِ وأعْطانا شرْعاً دقيقاً وشهواتٍ نرْقى بها وحُرِيَّة اخْتِيار نُكمِّل بها عملنا فلو تركنا لضاع منا كل شيء وعلى الرغم من أنه أعْطانا كلّ شيءٍ فإذا اتَّخَذْنا قراراً صحيحاً شرح صُدورنا وشَجّعنا وكافَأنا وأكْرَمَنا وإن اتَّخَذْنا قراراً خاطِئاً ضيّقَ صدْرنا وعسّر أمْرنا وعاقبَنا ونبّهَنا فالله هو رب العالمين يُرَبّينا ومن هنا كان القلب بيَدِه من أجل أن يُرَبِّيَ عبْدَهُ فإذا اتَّخَذَ قراراً صحيحاً شرح الله صدْره، فإذا أردْت أن تعرف ماذا يريد الله جل جلاله منك ؟ قال تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

وقوله تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا)

لذلك كن من الذين قال فيهم الله تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

(سورة الكهف)

هذا كلام رب العالمين فالله تعالى قال:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا)

شيءُ آخر وهو أنّ الإنسان أحْياناً يُحَمِّل نفْسَهُ مالا يُطيق ويُحَمِّل نفْسَه من الأعْباء والذنوب والخطايا ما لا يُطيق أنْ يُواجِهَ بها الله يومَ القِيامة فهو لا يدري وهو غافِل فجاءت الآية الكريمة:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً (٢٨))

(سورة النساء)

قد يحْمِل الإنسان من الأوْزار ما لا يُطيق وهو غافِل لكنّ الله يعلم فلو أنت رأيت إنساناً يشتري بضاعةً ممنوعاً نقْلُها إلى داخِل البِلاد يشْتريها من بلَدٍ آخر ولن يستطيع إدْخالها وبقيت ساكِتاً تكون من الذين

خانوهُ أما إذا أردت أنْ تنْصَحَهُ ونبّهْتَهُ أنّ هذه البضاعة غير مسْموح أنْ تنْقُلها إلى بلدِك خفّفْتَ عنه لأنه سَيَدْفَعُ ثمنها وسوف تُصادر من قبل موظفي جمارك بلاده، فالله عز وجل إذا رأى عبْداً يُحَمِّلُ نفْسه ما لا يُطيق من المعاصي والانْحِراف فهو الآن غافِل، أما حينما يأتيه ملَكُ الموت يُصْعَق قال تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا)

وقال تعالى:

(خُلِقَ الإنسان من عجَلٍ)

ثلاث آياتٍ في سورة النساء

(يريد ليتوب عليكم)

و

(يريد ليبيّن لكم)

و

(يريد أن يخفّف عنكم)

يبيّن لكم كي تتوبوا وإذا تُبْتُم خفّف عنكم.

هناك آيةٌ أساسِيَةٌ في هذا الموضوع، يقول الله عز وجل:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ(١٠٧))

(سورة يونس)

الشيء الذي يَلْفِتُ النظر هو قوله تعالى:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ)

وقوله:

(وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ)

فالخير مُراد من قِبَل الله عز وجل أما الشر ليس مُراداً لذلك لم تأت كلِمة يُرِدْك بِشَرٍ إنما قال:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادّ لِفَضْلِهِ)

مثَلاً مُدير مدرسة يُمْكِنُهُ أن يُعاقِب طالِباً ويُمكن أن يفْصِله لكنّ الأصل في المدرسة هو تعْليم الطلاب وليس طرْدُهُم ؛ أردْنا من إنشاء هذه المدرسة تعليم الطلاب أما إذا شذ طالِب نفْصِلُهُ فالفَصْل غير مُرادٍ من قِبَل مدير المدرسة أما الفصْل أحْياناً عِلاجٌ طارئ نسْتَخْدِمُهُ ولا نُريدُهُ وهذا الأب تجِدُهُ يُحِبُّ ابنه حُباً جماً فإذا أخطأ الولد خطأً كبيراً يحْتاج إلى تأديب يضْرِبُهُ لكنه يتمنى ألاّ يضْرِبَهُ ؛ يضْرِبُهُ لِيُؤَدِّبَهُ وهو يتألّمُ أشَدّ الألَمِ حينما يضْرِبُهُ فالحِكْمَة اقْتَضَت أنْ يضْرِبَهُ وهذا هو معنى قول الله عز وجل:

(وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ)

يقول عليه الصلاة والسلام: " اُطلُبوا الخير دهْرَكُم " يعني طول دهْركم وهذا من أنْدَر الشواهد وهو أنّ ظرف الزمان قد يأتي له نائب فَدَهْرَكم تنوب عن ظرف الزمان والتقدير يعْني: اُطلُبوا الخير طوال دهْركُم، وتعَرّضوا لِنفَحات الله إن طلبْتم الخير تعرّضْتُم لِنَفَحات الله عز وجل: إنّ في دهْركم لَنَفَحات ألا فَتَعَرّضوا لها " فإن لله نفحاتٌ من رحْمَتِهِ يُصيب بها من يشاء من عِبادِه واسْألوا الله أنْ يَسْتُر عوراتِكم وأنْ يؤَمّن رَوْعاتِكم، والرّوْعَات جمْع رَوْعة وهي الخَوْف فَنِعْمة الأمن لا تعْدِلها نِعمَةٌ على الإطلاق فإذا كان هناك خوْفٌ وقلَقٌ تَنْقَلِب معيشَتَهُ إلى معيشَةٍ ضنكا والله عز وجل قال:

(الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤))

(سورة قريش)

ويقول الله عز وجل في سورة هود:

(يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ (١٠٥))

(سورة هود)

الاستثناء هنا عائِد إلى العُصاة من المؤمنين لأنّ النار يدْخُلُها العُصاة ولا خلود لهم فيها أما الخلود فهو للكفار أما من كان فيه ذرة من إيمان في النِّهاية يخْرُج من النار:

(يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

أيْ بعضهم سعداء وبعضهم أشْقِياء والحقيقة أنّ هذا المصير خطيرٌ قال تعالى:

(أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ (٦٠) وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ (٦١))

(سورة النجم)

الإنسان في النِّهاية إما إلى شقاءٍ أبَدي وإما إلى سعادَةٍ أبَدِيّة وهناك حالات خاصة ؛ مؤمنٌ مُقَصِّر ومات عاصِياً يَدْخل النار ولكن إلى حين وهذه الآية هي التي تؤكِّد هذا المعنى:

(يَوْمَ يَأْتِ لا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ)

فمن كان في قلبِهِ مثقال ذرةٍ من خيرٍ يخرج في النِّهاية من النار وقد يبْقى ملايين السِّنين وقد يبْقى آلاف ملايين السِّنين لكنه لا يخْلد في النار إلا من شرد على الله شرود البعير.

وفي سورة النحل قال تعالى:

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٠))

(سورة النحل)

حتى العلماء قالوا: **" كن هي حركة فيَكون حركتَّان وهناك ثلاث حركات إلا أنّ أمر الله تعالى أسْرع من هذا وليس فيه زمن فكلمة كن لِمُجَرّد أن تتعلّق مشيئة الله في أن يكون شيءٌ هو كائِن بلا تأخر "** ولكن الأمر تقْريب لأذْهانِنا قال تعالى:

(إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)

التطبيق العملي لِهذا الاسم العظيم هو أنّك إذا تعامَلْت مع الأشْخاص فهُم مَحْدُودُ والقُدرات فقد يتمَنَّوْن أنْ يُعْطوك شيئاً ولا يسْتَطيعون لكن الله سبحانه وتعالى إذا أراد شيئاً قال لهُ كن فيكون فإذا كنت مع المُريد أو مع الفعال لِما يُريد تحقق لك كل شيء، واسمع قوله تعالى:

(فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ (١٦))

(سورة البروج)

لديْنا شيءٌ آخر الآية الكريمة:

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً (١٦))

(سورة الإسراء)

فالقريَة حينما تفْسُد يعاقب أهلها، وبعض معاني هذه الآية أنّ آخر عِلاجٍ قبل أنْ يُهْلِك الله هذه القرية يُؤَمِّرُ مُتْرَفيها فهو آخر عِلاجٍ وهو عِلاجٌ مُرٌّ ؛ أنْ يتَأمَّر المُتْرَف الغافل المُنْحَرِف فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ خِيَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ سُمَحَاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ شُورَى بَيْنَكُمْ فَظَهْرُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ بَطْنِهَا وَإِذَا كَانَ أُمَرَاؤُكُمْ شِرَارَكُمْ وَأَغْنِيَاؤُكُمْ بُخَلاءَكُمْ وَأُمُورُكُمْ إِلَى نِسَائِكُمْ فَبَطْنُ الأَرْضِ خَيْرٌ لَكُمْ مِنْ ظَهْرِهَا))

(رواه الترمذي)

المعنى الأول أنّ الله سبحانه وتعالى إذا أراد أن يُهْلِك قرْية لِعِصْيانِها وانْحِرافِها واسْتِغْنائِها عن منهج الله هناك قِراءةٌ تُناسِب هذا المعنى هي: " أمَّرْنا مُتْرَفيها " جعلنا مُتْرَفيها أُمراء فَفَسَقوا فيها وبالتالي هؤلاء الذين أُمِّرَ عليهم المُتْرَفون وساموهُم سوء العذاب لم يتوبوا وقد تعْجَبُ أحْياناً أنَ مصيبَةً طاحِنَةً حلّتْ ببَلَدٍ فإذا ذهَبْت إليه رأيتهم أشد تَفَلُّتاً مما كانوا وقد قيل: من لم تُحْدِث فيه المصيبَةُ موعِظَةً فَمُصيبَتُهُ في نفْسِهِ أكبر، فَقَرْيَةٌ انْحَرَفت واسْتَحَقّت الهلاك وضلّتْ سواء السبيل بِحَسَب قوانين الله عز وجل وآخر عِلاج أمَّرْنا مُتْرَفيها فَفَسَقوا فيها ولم يَعُد الذين كانوا عُرْضَةً لِهذا الفِسْق والفُجور، لم يعودوا عن ضلالتهم، فَحَقّ عليهم القول فدَمَّرْناها تدْميراً.

والمعنى الثاني: وإذا أردْنا أنْ نُهْلِك قرْيَةً قبْل أنْ نُهْلِكها نُنْذِرُها وأَمَرْنا مُتْرَفيها أنْ يسْتقيموا فلَم يسْتقيموا ولِما قال الله مُتْرَفيها ؟ المُتْرَفون هم المُبَذِّرون الذين يعيشون لِشَهَواتِهم والأغْنِياء الذين يُنْفِقون أمْوالَهم على المعاصي والآثام والعُلُوّ في الأرض والمُتْرَفون في آياتٍ ثمانِيَة اِقْتَرَنوا بالكفار وكفروا مثلهم

وأثْرَفْناهم في الحياة الدنيا والمُتْرَف هو إنسان يعيش للدنيا فقط وهؤلاء المُتْرفون معْقل أنظار الناس والناس تَبَعٌ للأقوِياء والأغنياء

(وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا)

وهو المعنى الثاني فإذا أرَدْنا أن نُهْلِك قرْيَةً لا نُهْلِكها ابْتِداءً إنما نُنْذِرها قبل أن نُهْلِكها والإنذار أمرْناهم أن يسْتقيموا من خلال كِتابِهِ وسُنَّةِ نبيّه ونصيحة الناصِحين ودَعْوة الداعين وخُطَب الخُطباء وكُتُب المؤلِفين أمرنا مُتْرَفيها ففَسقوا فيها أمرْناهم بالطاعة ففَسَقوا فيها فحقّ عليها القَوْل فَدَمَّرْناها تدْميراً.

أيها الإخوة الشيء الذي يُمْكِن أن نستَفيد منه كثيراً في هذا الدرس أنْ نُنَزّهَ الله عما لا يليقُ به بمعنى: إذا خطر ببالِك معنىً أنّ الله أراد الضلال للناس قال تعالى:

(إِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً)

هذه الآية تحْتاج إلى شرْح ؛ أراد الهلاك أو أراد الضلال يجب أنْ تعْلم أنّ الإرادةَ إذا كانت مُنْصَرِفَةً إلى الإنسان فهي إرادة سماح أو تأديب أما إذا عُزِيَ الإضْلال إلى الله عز وجل فهو الإضْلال الجزائي المبْني على ضلالٍ اخْتِياري.

شيءٌ آخر في هذا الموضوع وهو أنّ الله تعالى كلُّ شيءٍ أرادَهُ وقع وهو الفَعّالُ لِما يريد أما نحن نتمنى ونريد ولا يُحَقّقُ مما نريد إلا اليسير لأننا ضُعفاء و محْدودون وكلُّ إنْسانٍ له قُدرةٌ مَحْدودَة أما ربنا عز وجل فعّالٌ لِما يريد والمعنى الثاني أنّ كلّ شيءٍ أرادَهُ الله وقع وأنّ كلّ شيءٍ وقع أرادَهُ الله فالأول واضِح قولُه تعالى:

(وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ)

أما الثاني أيُّ شيءٍ وقَع أرادهُ الله فالعِبارة هذه تُعْكَس أراد ووقع، ووقع وأراد فإن أراد وقع وإنْ وقع الشيء أرادهُ الله فَهَذه الفِكْرة على أنّها موجَزَة تَمْلأ قَلْبَكَ رضىً، إنسان ارْتكب حماقة كبيرة وسافر بوَقتٍ مُعَيّن فأصيب بمُشْكِلة لا نقول لو لم يُسافِر لم يُصَب إنما نقول: ما دام هذا الشيء وقع في مُلْك الله إذاً أرادَهُ فإذا كان مع الجماد أرادهُ فِعْلاً ومَع المُخَيَّر أرادَهُ سماحاً. لذلك قالوا: لِكُلّ واقِعٍ حِكمة وقد يكون الإنسان غيرُ حكيم لكن ربنا عز وجل لِحِكْمَةٍ بالِغة يُوَظِفُ شر الناس إلى حِكَمٍ فالشر لا وُجود له إلا في النفوس أما في العالم المادي فالشر هو مُداواة والشّرير يريد أن يفْعَلَ شيئاً مُزْعِجاً ويريد أنْ يُؤذي لكنه لا يُؤْدي إلا من يسْتَحِقّ الأذى أو لا يؤذي إلا من يستَحَقّ التأديب أو لا يؤْذي إلا من يكون إيذاؤُهُ حِكْمَةً بالِغةً ففي الواقِع المادي لا يوجد شرّ والشرّ المطلق غير موجود والشرّ من مخلوق مُخَيّر مقطوع عن الله بالنفوس أما الأفْعال فهي أفْعال الله عز وجل وكُلّها تُوَظِّف الشر إلى الخير المطلق فالأفْعال توظيفُ الشرّ للخير المطلق.

لذلك: كلُّ شيءٍ وقع أراده الله وهذه المَقولة تُلغي كلمة لَوْ ولِكلّ شيءٍ حقيقة وما بلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعْلم أنّ ما أصابَهُ لم يكُن لِيُخْطِئهُ وما أخْطَأهُ لم يكن لِيُصيبَهُ وكلّ شيءٍ وقع أرادَهُ الله وكلّ شيءٍ أرادهُ الله وقع وإرادة الله مُتَعَلِّقةٌ بالحِكمة المطلقة والإنسان أحْياناً يريد شيئاً غير صحيح والسبب إما أنّه وقع تحت إغْراءٍ شديد فَطاشَ صوابُهُ أو تحت ضَغْطٍ شديد اِخْتَلّت رؤْيَتُهُ أو لأنّهُ يجْهل والجهل والإغراء والضغط يُشَوّشان حِكمة الإنسان لكن هذه المعاني التي تقع من الإنسان لا تليق بالله عز وجل لذلك يجب أن نقول إرادة الله مُتَعَلِّقةٌ بالحكمة المطلقة وحِكمتُهُ المطلقة مُتَعَلِّقةٌ بالخير المطلق وإذا عقَلْتَ هذه فالمقولة في آخر الدرس فإذا نظرت إلى كلّ ما يجْري في العالم بادئ ذي بدء تشْعُر براحَةٍ كبيرة والسبب أنّ كلّ شيءٍ وقع أراده الله ومعنى أنّ الله أرادهُ أنّهُ لو لم يقع على نحو ما وقع لكان الله تعالى ملوماً في ذلك ولكان الذي وقع على نَحْوٍ آخر نقْصاً في حِكْمَة الله عز وجل فالذي وقع أراده الله والذي أرادَهُ الله وقع والإرادة الإلهية مُتَعَلِّقةٌ بالخير المطلق والحِكمة المطلقة والحكمة المطلقة مُتعلِّقةٌ بالخير المطلق.

وآخر شيءٍ أنّ لِكل واقِعٍ حِكمةً قد تُكْشَف بعد حين، قد تنشأ مشكلة من سببٍ بسيط والإنسان لِضَعْفِ إيمانِهِ لَيْتَهُ بقِيَ ساكِتاً ؛ فالله عز وجل أراد شيئاً كثيراً مثلاً السيّدة عائشة رضي الله عنها كانت في إحدى الغزوات مع رسول الله صلى الله عليه وسلّم فهيَ كما يرْوي كُتابُ السيرة كانت خفيفة الوزْن فلما قادوا جمَلَها ظنوها في الهَوْدَج وساروا وقد خلفوها وراءهم فلما فاتَها الجيش التَفَت أحد الصحابة المُتَأخرين فرآها فَعامَلَها كأُمّهِ وغضّ بصره عنها وسار بها حتى أدرك الجيش، فأراد المنافقون أن يُثيروا فِتْنَة وحديث الإفك معْروفٌ عِندكم، قد يقول أحدكم لو أنّ الذي قاد الجمل تَفَقّدَها ولو أنّها اسْتَيْقَظت ولو لم تغْفُ لما كان هناك حديث إفْك ؛ مشْكِلةٌ طويلة عريضة بَقِيَت أربعين يوماً وأهْل المدينة يُرْجِفون في المدينة والمنافقون وجدوا مادة دسِمَة جداً وتكلّموا وأخذوا حُرّيَتَهُم والمؤمنون سكتوا وتألّموا ووقعَت مشْكِلة وفِتْنَة، هذا الحديث وهذه القضيَة الكبيرة سبَبُها غفْلَةٌ من السيّدة عائشة رضي الله عنها والذي قاد الجمل لَيْتَهُ تفقّدها ولما اسْتَيْقَظت وجدتْ نفْسَها بعيدةٌ عن الجيش وأحدُ الصحابة في أعلى درجات الأدب والحياء أخذها إلى ما ينْبَغي أن يكون فصارتْ هناك مُشْكِلة ماذا قال الله عز وجل ؟:

(إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرّاً لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١١))

(سورة النور)

فالله تعالى اِمْتَحن الناس وكانت عَمَلِيَة فرْز و هذا هو الأمر الأول فالمؤمن ظنّ بِنَفْسِهِ خيراً والمنافق عبّر عن حِقْدِهِ وضغينَتِهِ وفَرَحِهِ والمؤمن سكت والكافر تكلّم والأمر الثاني: لِئلاً نتَوَهّم أنّ الوحي قضِيَة

مُتَعَلِّقةٌ بالنبي وأنه أمْرٌ سهْل فَلَوْ أنّ النبي صلى الله عليه وسلم يمْلِك أمر الوحي لَحَلّ المسْألة بدقيقة واحدة وبِآية واحدة فالوَحْيُ تأخّر أرْبعين يوْماً وليس مع النبي أدِلّة إثبات وليس معه أدِلّة نفْي والمنافقون يَمْرحون ويتكلّمون ما يشاءون والنبي عليه الصلاة والسلام يتألّم أشَدّ الألَم والسيّدة عائِشَة أصابَها مرضٌ شديد وأمُّها مرتَبِكة وأبوها وكذلك، رسول الله ! أيُعْقَلُ أنْ تفْعل زوْجَتُهُ ما يقولون ؟ وما شُعور الزوج إنْ تحدّث الناس عن زوْجَتِهِ أنّها زانِيَة ؟ وما شُعور والِدة الفتاة ووالِدُها ؟ وما شُعور المؤمنين ؟ تقول: يا رب لو أنّها ما غَفِلت لما وقع حديث الإفكِ كلّهِ؛ فمادام الشيء وقع نقول: قد أرادَهُ الله وقد يبْدو لك أنّ شيئاً كبيراً وقع لِسَبَبٍ يسير وهذا السبب الصغير مُقَدَّر من الله عز وجل اِمْتَحن المؤمنين وفرزَهُم وارْتَقى بعضهم وسقط بعْضُهُم وظهرت نُبُوّة النبي عليه الصلاة والسلام وظهر أنّ الوحيَ شيء مُسْتَقِلّ عن إرادة النبي ولا يمْلِك له جلْباً ولا دفْعاً وتأخُّر الوحي أربعين ليلة فيه حِكْمَةٌ بالِغة وقِسْ على هذا كلّ شيءٍ.

وفي صُلْح الحُدَيْبِيَة أمليت على النبي شروط غير معْقولة وافق عليها النبي صلى الله عليه وسلم لكن الصحابة ما ارتاحوا لِهذه الشروط، سيّدنا عمر قال: أو َلسْنا مؤمنين ؟ قال النبي: بلى أو َليْسوا مُشْركين؟ قال النبي: بلى ؛ قال عمر: فَعَلام نُعْطي الدّنِيَة في ديننا ثم ظهر فيما بعد أنّ وثيقة صُلْح الحديبِيَة كانت فيها حِكمة ما بعدها حِكْمَة وكان فيها سِياسة ما بعْدها سِياسة وانْعَكَس الأمر على كُفار قُريْش.

أردت من هذا كلّه أنّ الشيء إذا لم يُعْجِبْك فانتظر ولا تتعجل في إبداء رأيك وما دام أنّه وقع فقد أرادهُ الله وقُلْ هذه المقولة: لكل واقِعٍ حِكمة وقد يكون الذي أوْقع هذا الأمر من الناس ليس حكيماً وقد يكون أحْمَق ومُنْحَرِفاً فَلِأنه وقع أراده الله أما عظمة الله عز وجل تتبَدى في أنه يُوظِّف الأشياء غير الحكيمة في حِكمةٍ لا تعْلَمُها أنت ولِحِكْمَةٍ مطلقة فإنسان يفْحص صدر فتاة تطلب التوظيف ويُعْطي نتيجة خاطِئة يلْتَبِس عليه الاسم فيُعْطي نتيجة المُصابة بمرضٍ عُضال للفتاة الصحيحة فهذه الفتاة حينما تعلم أنّها مُصابة بهذا المرض وقد ابْتَعَد عنها أهْلُها لذلك وعزلوها عنهم واسْوَدّت الدنيا في وجْهها فهذا الذي أعطى النتيجة مُتَسَرّعاً ألم يقع في خطأ كبير؟ فهذه الفتاة حينما علِمت بهذه النتيجة انْهارت ثم أرادت أن تتوب إلى الله عز وجل فَتابَتْ وصلّت وتحَجّبَتْ ثم علِمت بعد حين أنها صحيحة وليست مريضة فربنا وظّفَ خطأ هذا المُوظّف في الخير المطلق فهذه نقطة دقيقة جداً لكل واقِعٍ حكمة وما دام أنّهُ وقع فاطْمَئِن والله عز وجل لا يريد إلا الخير أما الشرّ المطلقٌ في الكون غير موجود ولا يُمْكِن أن يكون مع الله شرٌ مطلق أما أن يكون شرٌ نِسْبي مُوَظّفٌ للخير المطلق فهذا موجود.

ابن آدم اُطْلُبني تجِدْني فإذا وجدْتني وجدتَ كلّ شيء وفي بعض الآثار القُدْسِيَة:" أنت تريد وأنا أريد فإذا سَلّمْت لي فيما أريد كَفَيْتُك ما تريد وإنْ لم تُسَلِّم لي فيما أريد أتْعَبْتُك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد.

٩٥- اسم الله المصطفي :

مع الدرس الخامس والتسعين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم هو اسم المُصطفي، فهو اسمٌ من أسماء الله الحُسنى وهو زائدٌ عن الأسماء الحُسنى التي وردت في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم والتي بلغت في أحاديثه التِّسْعة والتِّسْعين.

الاصطفاء في اللغة تناوُل صَفْوِ الشيء كما أنّ الاخْتِيار تناول خيْره أنْ تأخذ أصْفى ما في الشيء اصطِفاء وأنْ تأخذ أخْيَر ما في الشيء اخْتِيار، وصَفْوَة الشيء ما صفا وخلص والنبي عليه الصلاة والسلام كما تعلمون جميعاً صفْوَة الله من خلقِه ؛ من الذي اصْطفاه ؟ المصْطفي الله جل جلاله هو الذي اِصْطفى النبي صلى الله عليه وسلّم وجعَلَه صفوة خلْقِه، وتقول: صَفَا الجوّ لم تكُن فيه لطْخَة غَيْمٍ سماءٌ صافِيَةٌ زرقاء واصطفاه أخذَ منه صفْوَه أيْ خِيارَه.

ولو اِصْطَفَيْت الفاكِهة أخَذْت أطْيَبَها وأكْبَرها إن كان الكِبر فيها له ميزة أو أصْغَرَها إن كان الصِّغَر له فيها ميزة أو أشدّها زُهُواً إن كان اللون أجمل ما فيها، والصَّفِيّ هو الحبيب المُصافي وصافاه مُصافاةً صدَقَه في الإخاء والموَدّة، والعسَل المُصفى كما تعلمون الذي أزيل عنه الشمع والقذى، واصْطَفَيْت كذا على كذا أيْ اخْتَرت كذا على كذا وهي بعض معاني الاصْطِفاء في اللغة.

اصْطفى الله بعض عِباده قد يكون بإيجادِه صافِياً وقد يكون باخْتِياره من بين عِبادِه المُتَفَوّقين قال تعالى:

(إنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣))

(سورة آل عمران)

أيها الإخوة موضوعٌ دقيق دقيق، لو أن الله سبحانه وتعالى خلق في الإنسان الصّفْوة والخِيرة عن غير قصْد منه وعن غير إرادةٍ واخْتِيار لما كان لِكلمة الاصْطِفاء معنىً، لكن لِخلْق الله الناس من نفْسٍ واحدة أيْ من خصائص واحدة ومن جِبِلّةٍ واحدة ومن فِطرةٍ واحدة ولأن الله عز وجل خلق البشر جميعاً من صِبْغةٍ واحدة وخصائص واحدة وانْطلقوا بِحَسَب اخْتِيارهم وأهْدافِهم، فإن الله تعالى بعد ذلك اِصطفى منهم خِيارَهم قال تعالى:

(إنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣))

إذاً هناك بالاصطِفاء شيء كَسْبي وشيء وَهْبي وأوْضح مثَلٍ لو أننا نريد أن نعَيّن إنساناً في وظيفة مرموقةٍ جداً وهذه الوظيفة تحتاج إلى لغةٍ وإلى قُدْراتٍ وقوة شخصية وإلى ثقافة عامة وإلْمامٍ بالعلوم والحقوق وأجْرَيْنا مُسابَقة واشْتَرطْنا فيها إجازة في اللغة الإنجليزية وإجازة في العلوم والحقوق وهَيئات معيّنة ومَلَكات معيّنة وخصائص ومن كل هذا الحشد نخْتار من بين المائة واحداً وهو كله كسْبي كَسبه المتسابِقون أما حينما نختار أحدهم ونُعْطيه مُهمّة ومَرْكَبة وراتِباً ضَخْماً وصلاحيات كبيرة وهذا وهْبي. في الاصْطِفاء هناك جانب كسْبي وجانِب وهْبي ولو أن الاصْطِفاء كله وهْبي لفَقَد الاصْطِفاء معناه

فَمَثَلاً لو أعْطَيْنا الأسْئِلة لِطالِبٍ ثم طرَحْنا السؤال على كل الطلاب فإذا بهذا الطالب ينال الدرجات التامة عِنْدَئذٍ نقول: هذا نصْطَفيه فهذا الاصْطِفاء لا معنى له إذْ ليس هناك تكافؤ فُرَص وليس هناك تساوٍ بين الطلاب أما حينما تكافؤ الطلاب جميعا في عدد الأسْئلة ويفوز أحدهم بالدرجة الأولى عن جدارةٍ وأهْلِيّةٍ عندها نقول: فلان اصْطَفَيْناه لِيُتابع تعليمه في جامِعات الغرب.

فهذا الاصطِفاء له معنى، إذاً عندما ينعدم تكافؤ الفُرَص ولم يكن تساوٍ بين المطلوب، ولم تتوفر خصائص مُشْتَركة فالاصْطِفاء لا معنى له، الاصْطِفاء فيه جانِب كسبي وآخر وهْبي فالجانِب الكسبي أنّ الله سبحانه وتعالى عَلِم من بين خلقِه أكثرهم معْرفةً وأكثرهم استِقامة وتضْحيَةً وإيثاراً وأكثرهم قرباً وأكثرهم إقْبالاً فاصْطَفاه وجعله نبياً لذلك قال عليه الصلاة والسلام:

عن أنس: إن الله اختارني واختار لي أصحابا واختار لي منهم أصهارا وأنصارا فمن حفظني فيهم حفظة الله ومن آذاني فيهم آذاه الله

الاصْطِفاء فيه جانِب كسبي وآخر وهْبي فإذا ألْغَيْنا الكسبي أبْطَلْنا معنى الاِصْطِفاء وإذا ألْغَيْنا الوَهْبي أبْطَلْنا ميزات الاصْطِفاء يقول الله عز وجل:

(وَوَصّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيّ إِنّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدّينَ فَلَا تَمُوتُنّ إِلّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ(١٣٢))

(سورة البقرة)

فما معنى هذه الآية ؟ معنى ذلك أنّ الدين صافٍ من كل شائِبة ومن كل ريْبٍ وشكٍ وتطرّفٍ وغُلُوّ ومن كل بعدٍ عن الحقيقة قال تعالى:

(ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتّقِينَ (٢))

(سورة البقرة)

وقال تعالى:

(الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً)

(سورة المائدة)

إن الله اصْطفى لكم الدين فلا تموتُن إلا وأنتم مسلِمون، كل من يعْتَقِد أن هذا الدين يحتاج إلى تبديل إلى إضافة أو تعديل أو حذف أو تغيير هو إنسان يرد كلام الله عز وجل ؛ إن الله اصْطفى لكم الدين فلا تموتُن إلا وأنتم مسلِمون أيْ أنّ القضايا التي عالجَها الدين قضايا تامّة وأن طريقة المعالجة طريقة كاملة.

وفي آل عمران قوله تعالى:

(إِنّ اللّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣))

أيّة قِصةٍ تنال من الأنبياء وتجعلهم كَبَقِيّة البشر ينْحَرِفون ويرْتَكِبون المعاصي والآثام كما ورد في الكتب القديمة المقدّسة التي نُحِلت وأُضيف عليها وحُذِف منها هذه قِصصٌ باطِلة لا تقوم على أساس لأن الله سبحانه وتعالى يقول:

(إنّ اللّهَ اصْطفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣))

اخْتارهم على عِلْمٍ، أيْضاً اصْطفى النبي عليه الصلاة والسلام لِيَكون سيّد البشر وخاتم الأنبْياء ولِيَكون صَفْوة البشر لذلك فالنبي عليه الصلاة والسلام حبيب الله وخليل الله وصَفِيُّ الله وخيرة الله من خلقه.

وقال تعالى:

(وَإذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إنّ اللّهَ اصْطفَاكِ وَطَهّرَكِ وَاصْطفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢))

(سورة آل عمران)

أول اصْطِفاءٍ واضِح ولكن ما معنى الاصْطِفاء الثاني ؟ إن الله اصْطفاك وطهّرك واصْطفاك على نساء العالمين.

قال بعض المفسّرين: " الاصطفاء الأول هو إصْطِفاء القُرْب من الله والاصْطِفاء الثاني أن هذه السيّدة اِخْتَصّها الله بأن تُنْجِب ابنها من دون زواج " أنى لكِ هذا ؟ قالت هو من عند الله.

وقال تعالى:

(قَالَ يَا مُوسَى إنّي اصْطفَيْتُكَ عَلَى النّاسِ برِسَالَاتِي وَبكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (١٤٤))

(سورة الأعراف)

لو أردنا أن نُوَسّع الدائرة ؛ فأنت حينما تريد أن تُخْلِص لله عز وجل وحينما تطلب العلم حثيثاً وحينما تعمل بما علمت وتتقي الشبهات وتنطلِق إلى الله بهمّةٍ عالية فلعلّ الله يصطفيك ويسمح لك أن تُعَرّف به وهذا شرفٌ عظيم، فالإنسان الصادِق إذا دعا إلى الله لا يرى إلا أنّ الله تعالى تفضّل عليه وسَمَح له أن يَدْعُوَ إلى الله وأن يتحدّث عن الله وإلا كان في وضْع آخر.

(قَالَ يَا مُوسَى إنّي اصْطفَيْتُكَ عَلَى النّاسِ برِسَالَاتِي وَبكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (١٤٤))

هذه آية دقيقة جداً أيْ أنّ مهمّة العبد تنتهي حينما يُطيع الله عز وجل ثم يتلقى الخير بالشكر والامتنان ؛ تنتهي مهمّتُك عند الطاعة والشكر وما سِوى ذلك فهو من شأن الله لا من شأنِك:

(قَالَ يَا مُوسَى إنّي اصْطفَيْتُكَ عَلَى النّاسِ برِسَالَاتِي وَبكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (١٤٤))

طبّقْ ما أمَرْتُك به، ويُؤَيّد هذا المعنى قولُه تعالى:

(بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (٦٦))

(سورة الزمر)

فالإنسان أحْياناً يحْمِل هموم الأرض وأحْياناً يتمَزّق ولكن لو عرف أنّه ليس مُكَلّفاً إلا أن يُطيع الله عز وجل وأن يشكُرَه لحُلّت مُشْكِلاته ؛ أنت تريد وأنا أريد والله يفعل ما يريد ؛

(وَلِلّهِ غَيْبُ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبّكَ بِغَافِلٍ عَمّا تَعْمَلُونَ(١٢٣))

(سورة هود)

(إِنّ الّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنّمَا يُبَايِعُونَ اللّهَ يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (١٠))

(سورة الفتح)

(وَاللّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ (٢٠))

(سورة البروج)

(وَهُوَ الّذِي فِي السّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (٨٤))

(سورة الزخرف)

(بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (٦٦))

(قَالَ يَا مُوسَى إِنّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (١٤٤))

وقد يقول أحدكم ما علاقتنا بهذا الدرس إذْ الاصْطِفاء للأنبياء ونحن لسْنا أنْبياء ولا صِدّيقين؟ اِسْتَمِع أيها الأخ الكريم وأبْشِر بقولِه تعالى:

(اللّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النّاسِ إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥))

(سورة الحج)

لا تجد إنساناً دعا إلى الله إلا وسَمَح له ؛ فإن كانت دَعْوَتُه صادِقة يُوَفِّقه ويصرف قلوب الناس إليه و من ثم تهْفو إليه القلوب وتسْتَفيد منه وتنْعَقِد صِلَتُها بالله عن طريق تَوْجيههِ فهذا نَوْعٌ من الاصْطِفاء قال تعالى:

(فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوّ وَالْآَصَالِ (٣٦))

(سورة النور)

أيْ أذِن الله تعالى أنْ تُرْفَع وأذِن لِمن فيها أن يذكروا اسمه، دائِما الأشياء التي تخصّ الأنبياء يُمكن أن تُوَسّع الدائرة لتشمل كل صادِقٍ ليعمل مثل عملهم ولعل الله سبحانه وتعالى يُطْلِق لِسانك ويُلْهِمك الصواب والكلام السديد والحِكْمَة وقلْباً مُتَأَجّجاً وتهْفو إليه القلوب كل هذا نوعٌ من الاصْطِفاء وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى:

(إِنّ اللّهَ اصْطَفَى آَدَمَ وَنُوحاً وَآَلَ إِبْرَاهِيمَ وَآَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣))

(وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنّ اللّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢))

(قَالَ يَا مُوسَى إِنّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آَتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشّاكِرِينَ (١٤٤))

وقال تعالى:

(اللّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النّاسِ إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥))

كل هذه الآيات فِعْلها في الماضي إلا هذه الآية الله يصطفي فَفِعْلها في الحاضِر وهو فعلٌ مضارع يدل على الاستِمرار فالله دائِماً يصطفي فإذا كنت من عباد الله الذين اصْطفاهم الله عز وجل وسَمَح لهم أن يَنْطِقوا باسْمِه وأن ينْقُلوا للناس الحقائق وأن يكونوا دعاة خير لا دعاة شر ومفاتيح خير لا مفاتيح شر فهذا من أعظم العطاءات.

سمعْت أنّ أحد الذين اخْتَرعوا برامِج الحاسوب وتَفَوَّقوا جداً في مجالها كان أحدهم رغم أنه شابٌ في مقتبل العمر يمْلِك ثلاثة وعشرين مليار دولارٍ أما حينما يصْطفيك الله عز وجل لِتَنْطِق بالحق ولِيَكون عمَلُك في خِدْمَة الخلق فإن هذا الاصطفاء هو العطاء الكبير الذي يربو على كل المليارات قال تعالى:

(أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (١) وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ (٢) الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ (٣) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (٤) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْراً (٦) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ (٧) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ(٨))

(سورة الشرح)

وقال تعالى:

(وَالضُّحَى (١) وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى (٢) مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى (٣) وَلَلْآَخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى (٥) أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيماً فَآَوَى (٦) وَوَجَدَكَ ضَالّاً فَهَدَى (٧) وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَى (٨) فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ (٩) وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ (١٠) وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ(١١))

(سورة الضحى)

هذا إصْطِفاء وقال تعالى:

(لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢))

(سورة الحجر)

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ(٦٧))

(سورة المائدة)

ولم يقل يا محمد. بل خاطبه وناداه يا أيها الرسول، كل هذا اصْطِفاء، ولقد أُسْرِيَ بالنبي صلى الله عليه وسلّم إلى بيت المقدِس وعُرِج به إلى السماء وعلِم وهو في السماء أنه سيّد الخلق وحبيب الحق هذا كله من الاصْطِفاء، بل قل غاية الاصطفاء.

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ

لِي الْوَسِيلَةَ فَإِنّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنّةِ لا تَنْبَغِي إِلا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِي الْوَسِيلَةَ حَلّتْ لَهُ الشّفَاعَةُ))

(رواه مسلم)

أما البِشارة ألَيْس بعد النبي علماء أجِلاء أليس هناك دعاة مُخْلِصون وفقهاء ومُحَدِّثون ألَيْسَ هناك من دعَوا إلى الله، كل هؤلاء بالمعنى الواسِع اِصْطَفاهم الله وأجْرى على أيْديهم الخير وأنْطق لِسانهم بالحق وجعل قلوب الناس تهْفو إليهم ؛ هذا نوْعٌ من الاصْطِفاء.

لعلّ من أعظم طموحات المؤمن أن يَصْطَفِيَهُ الله عز وجل لِيَكون داعِيَةً إليه ؛ يا رب لقد شَرّفْتني بمَعْرِفَتِك والدعْوَة إليك فإن علِمْتَ صِدْق نِيّتي فاحْفظْها لي واحْفَظْني لها وإن علِمْتَ خِلاف ذلك فعالِجْني قبل أن أموت، فعَلى الإنسان أن يطْمَح ؛ ما هو دوْرُكَ في الحياة ؟ هل هو الأكل والشرب والنوم والراحة واللهوُ واللّعِب ؟ أم هو معْرِفة الله ولِنُشَمّرُ من أجل أن نُطيعَهُ ونتقرّب إليه ؛ هذه بِشارة:

(اللّهُ يَصْطَفِي مِنْ الْمَلائِكَةِ رُسُلا وَمِنْ النّاسِ إِنّ اللّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ)

هؤلاء الذين عكفوا على العِلم وتَركوا مؤلّفاتٍ قيّمة تجدها في كل بيْتٍ، الإمام النووي ألّفَ كِتاباً بالفِقْه يُعَدُّ فريداً في بابه وهو مُغْني المُحْتاج وألّفَ كِتاب الأذْكار ورياض الصالحين وهذا الإمام الشافِعي أوّل من ألّف في أصول الفِقْهِ وله كِتاب الأم وله المذهب الشافِعي هؤلاء الذين اصْطفاهم الله ومكّنَهم من العِلم وجعَلَ لهم بَصَماتٍ واضِحَةٍ في الحياة فهؤلاء أيْضاً بالمعنى المُوَسّع ممن اصْطفاهم الله عز وجل.

إذا كنت ممن اِصْطفاه الله عز وجل فلَقَد علِم فيك الإخلاص والصِّدق والحب والطاعة والوَرَع فكُنت ممن اِصْطفاهم الله عز وجل، ماذا ينتظِرك في الدنيا والآخرة قال تعالى:

(قُلِ الْحَمْدُ لِلّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الّذِينَ اصْطَفَى آَللّهُ خَيْرٌ أَمّا يُشْرِكُونَ (٥٩))

(سورة النمل)

فإذا كنت ممن اصْطفاه الله عز وجل فأنت في سلامٍ ؛ في سلامٍ مع نفْسِك وفي سلامٍ مع من هم حوْلك وفي سلامٍ مع ربك وحياتك سلامٌ وتنْتَقِل بعْدها إلى دار السلام وتَتّصِل نِعَمُ الدنيا بِنِعَم الآخرة.

ومِن تَكْرِمَة الله للنبي عليه الصلاة والسلام أنّ الله اصْطفاه واصْطفى له أصْحابَه، فإذا كنت تعيش ببَلَدٍ وحوْلك مؤمنون أطْهار طيّبون وأتْقِياء مخلِصون ومُحِبون هذه حياةٌ مُتَمَيِّزَة وهذه الحياة قدّرها الله لك وليس هناك إنسان أسْعَد من أن يعيش مع أناس يتفاهمون فيما بينهم تحدوهم في علاقاتهم مرضاة الله.

ومع من يكون على شاكِلَتِه ومع الذي يُقَدِّر ما يُقَدِّر ويُبْغِض ما يُبْغِض لا تُصاحِب من لا يُنْهِضك حاله ولا يدُلّك على الله مقالُهُ ولا تُصاحِب من لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له.

فمِن نِعَم الله الكُبْرى على المؤمن أنّه يعيش بين المؤمنين ؛ هو طاهِرٌ وحالُه بين الأطهار وهو صادِق وهو بين الصادِقين وهو مُحِبٌ لله ورسولِه وهو بين المُحِبين فأَجْمَل ما في الحياة أن تعيش مع إنْسانٍ هو

على شاكِلَتِك يفهمك سلوكاً وعملاً، ويفهم منك وتفهم منه، هذه هي الحياة الحقيقية، لذلك حينما اخْتار النبي عليه الصلاة والسلام سيّدنا الصدِيق لِصُحْبَتِه في الهجْرة بَكى من شِدّة الفَرَح، قال تعالى:

(قُلْ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

إذا كان الله صَفِيُّكَ وإذا كانت مودّتُك وحُبُّك وطاعَتُك لله عز وجل هذا خيرٌ لك أم أن تكون لإنسانٍ لئيمٍ قويٍّ لا يَعْرِف حجْم تضْحِيَتِك من أجْلِه فرْقٌ كبير

(آاللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ)

هذا استِفهام إنْكار وليْسَ هناك شيءٌ يجْمع بين حالتين قال تعالى:

(أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْداً حَسَناً فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ(٦١))

(سورة القصص)

وقال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

(سورة السجدة)

وقال تعالى:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥))

(سورة القلم)

وقال تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩))

(سورة الزمر)

قال تعالى:

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ(٣٢))

(سورة فاطر)

فإذا آتاك الله الكِتاب تِلاوةً وفَهْماً وتطبيقاً فقد أوتيت خيراً كثيراً ومن أوتِيَ القرآن وظن أن أحداً أوتِيَ خيْراً منه فقد حقّر ما عظّمَهُ الله فالقرآن غِنىً لا فقْر بعْده، قال تعالى:

(ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ)

من العِباد حِيال الكِتاب من هو ظالِمٌ لِنَفْسِه ومنهم من هو مقْتَصِد في فِعْل الخيرات ومنهم من هو سابقٌ بالخيرات بِإذْن الله، أتُلاحِظون الاصْطِفاء ؟

مثلاً لدَيْنا مئة طالِبٍ يريدون أن يتخرجوا من الجامعة ونريد أن نصطفي واحداً منهم ليكون في منْصِبٍ رفيع لِيَكون عميد كلِيَّة مثلاً أو أُسْتاذاً في الجامِعة أو رئيس المجْمَع العلمي العربي فَحِينما يُصْطفى من بين المُتَفَوِّقين فهذه هي الجِهَة الكسْبِيَة ويُمْنَح اِخْتِصاصات ومُكافآت وميزات وهذه الجهة الوَهْبِيَة، ففي الاصْطِفاء جانِبٌ كسْبي وإلا لا معْنى للاِصْطِفاء وفي الاصْطِفاء جانِب وهْبي وإلا لا ميزَة له عِنْدئذٍ.

وفي القرآن الكريم يتحدّث الله عن الأنبياء الكِرام قوله تعالى:

((وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ (٤٦))

(سورة ص)

الأنبياء مُصْطَفَوْن فَهُم قِمَمٌ في الكمال ونُخْبَة البشَرِيَّة وقِمَمُ المجْتَمَع البشري وملوك البشر هؤلاء الصحابة الكِرام ملوك المسلمين بالمعنى الروحي والأنبياء والمُرْسلون صَفْوة الله من خَلْقِه قال تعالى:

((وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٤))

(سورة ص)

رُؤْيَتُهم عميقة وأعْمالُهم طيِّبة ؛ واذْكر عِبادنا إبراهيم واسحق ويعقوب أولي الأيْدي والأبْصار فهم بِقَدْر ما هم مُتَفَوِّقون في رؤْيَتِهم بِقَدْر ما هم طيِّبون في أعمالهم.

أيها الإخوة الكرام، عُلُوّ الهمّة من الإيمان، حينما يسْمح الله لك أنْ يصْطَفيك أو أن يُقَرِّبك أو أنْ يُلْهِمك أو أن يجْعَلك تنْطِق بالحق أو أن يجعل هداية الناس على يَدَيْك أو أن تهْفو قلوب المؤمنين إليك هذا نوْعٌ من الاِصْطِفاء وما عِند الله لا يُنال بمَعْصِيَة الله ألا إنّ سِلْعة الله غالية ألا إن سلعة الله الجنة ويجب أيها الإخوة أن تتأكّدوا أنه لا بد من الابْتِلاء والإنْسان كما تعْلمون يمُر بمراحِل ثلاث:

- مرحَلة يؤدّب
- مرحلة يُبْتلى
- مرحلة يُكَرّم

ففي مرحلةٍ يؤدّب وفي مرْحلة يبْتلى وفي مرْحلةٍ يُكرّم وهذه المراحل قد تتداخل وقد تتمايَز لكن لا بد من التأديب ولا بد من الابْتِلاء ولا بد من الإكرام والعطاء لأنّ هذه سُنّة الله في خلْقِه وقد ورد في تفسير قوْلِه تعالى:

((وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦))

(سورة الرحمن)

جنّة في الدنيا وجنّة في الآخرة.

التطبيق العملي أو موْقِف المؤمن من هذا الاسم العظيم المُصْطفي، فَمَوْقِف المؤمن أنه يطْمَح في اِصْطِفاء الله له لِخِدْمة خلْقِه، ومن هنا قال الله عز وجل:

(إنّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنّ لَهُمُ الْجَنّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(١١١))

(سورة التوبة)

حينما اصْطفى الله عبْده المؤمن فهذا المؤمن باع نفْسَه لله، أريد أن أُوَسّع الموضوع ؛ الأنبياء مُصْطَفَوْن والرسل مُصْطَفَوْن الرسل قِمَم البشر والرسل صفْوة البشر ولكن المؤمنين لهم قدْرٌ يسير على قدْر إخلاصِهم وعلى قدْر طاعَتِهم لله فالله يُكَلِّف الإنسان أعْمالاً يُجْريها على يَدَيْهِ ويَرْفَعُهُ بها فهذا نوْعٌ من الاصْطِفاء.

أعرف شخْصاً قرأ القرآن في الخامِسَة والخمْسين من عمُره وحَفِظَه وكان طُموحُهُ أن يكون إماماً في مَسْجِد وسُبْحان الله قرأ القرآن وحَفِظَه وعُيِّن إماماً لِمَسْجِدٍ جيّد فصار يُصلي الصلوات الخمْس وله بعد الصلوات كلِمَةٌ يُلْقيها على الناس هذا طُموحُهُ فاصْطَفاه الله عز وجل فالأمور دقيقة عند الله تعالى بِحَسَبِ صِدْق الإنسان وطاعَتِه لله يصْطَفيه قال تعالى:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ (٢٤))

(سورة السجدة)

فالصّبر إذاً طريق الاصْطِفاء هذا أوّلاً وقوله تعالى:

(وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمّهُنّ قَالَ إِنّي جَاعِلُكَ لِلنّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِنْ ذُرّيّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظّالِمِينَ (١٢٤))

(سورة البقرة)

فَتَطْبيق الأمر والطاعة مع الإخلاص سبيلٌ إلى الاصْطِفاء هذا ثانِياً، وقوله تعالى:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠))

(سورة يس)

فالترفُّع عن حُطام الدنيا وعن مُتَاعِها ومالِها وعن مُكْتَسَباتِها سبيلٌ إلى الاِصْطِفاء هذا ثالثاً وقوله تعالى:

(شَهِدَ اللّهُ أَنّهُ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨))

(سورة آل عمران)

فطِلِبُ العِلم طريق إلى الاصْطِفاء، تَصَوّر إنساناً درس الابتدائي والإعدادي والثانوي ونال درجاتٍ عاليَة جداً ثم دخل كلِّيَة الطِّب وتخرّجَ طبيباً ثم تابَع دِراسَتَهُ العُلْيا وعاد بأكبر شهادة في العالم ؛ ماذا ينْبَغي أن يفْعَل هذا الإنسان بعْد أنْ تخرّجَ ونال الدرجة العُلْيا ؟ ينْبَغي أن يُطَبِّب الناس ويفْتَح عِيادة وإلا لا معْنى لِهذه الدِّراسة.

دقِق الآن ! أنت حينما تطلب العلم تُؤَهِّل نفسَك لِماذا ؟ للدعْوَة إلى الله ومن الذي سوْف يسْمَح لك أن تَدْعُوَ إلَيْه ؟ هو الله، فالله عز وجل بطريقةٍ أو أُخْرى بِشَكْلٍ معروفٍ أو غيرِ معْروف يُيَسِّر لك طريق الدعوة إليه لأنّك تعلّمْت العِلم فَصِرْتَ مؤَهَّلاً أن تدْعُوَ إلى الله، فكل إنسان يطلب العلم بإخلاص ويسْعى لِطاعته تعالى بإخلاص ويحْرُص على رضْوان الله وعلى القُرْبِ منه يصْطَفيه الله عز وجل ويُجْري على يَدَيْه الخير بل بالتعْبير الشائِع: " الله جبار الخواطِر ".

عندما يتعلم الإنسان يتعلّم عِلماً صحيحاً ويلْزَم مجالِس العِلْم ويجْلِس على رُكْبَتَيْه ويطْلب العلم لا بد من أن يصْطَفيه الله عز وجل بالمعنى الواسِع فَيَجْعَلُه بِشَكْلٍ أو بآخر باباً للخير، لذلك من أدْعِيَة النبي عليه الصلاة والسلام:

((اللهم ارْزُقْني طيّباً واسْتَعْمِلني صالِحاً))

حُدِّثَ عن بعض العلماء بأنه: اشْترى الصابون كَفَنَهُ والصابون الذي ينْبَغي أن يُكَفّن به من بلَدٍ ليس فيه مالٌ مُغْتَصَبٌ من شِدّة الورَع.

فالإنسان عليه أن يدْعو: " اللهم ارْزُقني طيّباً واسْتَعْمِلني صالِحاً " ما معنى: واسْتَعْمِلني صالِحاً ؟ أيْ الله يصْطَفيك لِعَمَلٍ صالِحٍ وما معنى الحِكْمَة القائلة: إذا أردْت أن تعرف فيمَ أقامك فانْظر فيمَ اسْتَعْمَلك ؟ يعني الله اصْطَفاك، تجد شخْصاً آتاه الله حِكْمَة يتصَرّف فيها وفهْماً دقيقاً وخِبْرات مُعَيَّنَة وعِلماً ودعْوَةً وجاهاً وقوةً وطلاقة وحِكْمَة فكل إنسان يهيئ نفسه لِفِعْل الخير الله جل جلاله لابد من أن يجْبر كسْرَه ويُجْري على يَدَيْهِ فِعْل الخير، قد تقول: أنا من أنا حتى اُصْطفى ؟ أنت إنسان ومُؤَهَّل أن تكون من المصْطَفين هذا بالمعنى الواسِع ؛ إن قلت بالمعنى الواسِع هذا للمؤمنين وإن قلت بالمعنى الضَيِّق فهم الأنبياء والمُرْسلون لأن الله يصْطَفي من الملائكة رُسُلاً ومن الناس فلَما يطلق الله تعالى لِسانك ويجْعَل قلوب الناس تهفو إليك فهذا هو معنى الاصْطِفاء وهو المعنى المُوسّع فإذا مكّنَكَ الله من بناء مسْجِد فهذا نوع من الاصطفاء، وتُطْعِم الناس من مالك الحلال فهذا نوع من الاصطفاء كذلك وإذا سَمَح لك أن تُعْطي وقدّر لك من يأخذ وسَمَح لك فهذا كذلك نوع من الاصطفاء، تكون في بيتٍ من بيوت الله وليس في ملهى من ملاهي الشياطين.

أنا لا أنْسى أني كنت مَدْعُواً وعليك أن تحمد الله ذات مرة لافْتِتاح مسْجِد وجلس بِجانبي مدير الأوقاف الذي سَيَفْتَتَح هذا المسجِد، فقلت له اُشْكُر الله عز وجل على أنه قد قدّر الله على يدَيْك أن تفْتَتح هذا المسْجد إذْ هناك من يفْتَتِح الملاهي ودور القِمار، قد تسعى وتهنأ فيكون عملُك مع العلماء فهناك من يعمل مع الفنانين ومع طبقاتٍ أخرى من الناس لهم انحرافاتهم فيشقى بهم ومعهم، وهناك من يرْعى شؤون المساجد فليحمد الله وهناك من يرعى شؤون الملاهي فليبتئس وليندب نفسه، وآخر يُفَكِّر كيف

يدْعو إلى الله وذاك يُفَكِّر كيف يدعو إلى الشيطان وإلى المعاصي والآثام فلما يُجَنِّد الإنسان نفسه لِطاعة الله يصْطَفيه الله تعالى فالله إذا أعْطى أدْهَش.

هل تجد إنساناً في الأرض أعَزّه الله كالنبي عليه الصلاة والسلام ؟ شيءٌ غير معْقول أربعة ملايين إنسان يذهبون إلى الحج كل عامٍ ويزورون جميعاً النبي عليه الصلاة والسلام ويَقِفون أمام مقامِه يبْكون ولم يلْتَقوا به ولا سمِعوا من كلامه ولا نالوا من ماله وبينه وبينهم آلاف الكيلومترات فما الذي هداهم إلى أن يأتوا إلى مقامِه الشريف ؟ مُتَذلِّلين باكين مُتَضرّعين ؛ هذا اِصْطِفاء فالله تعالى لما قال:

(وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ)

جعل الصبر طريق الاصْطِفاء وقوله تعالى:

(وَإِذْ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)

فالطاعة التامة المُخْلِصة طريق الاِصْطِفاء وقوله تعالى:

(وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْراً وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١))

(سورة يس)

فالترَفّع عن الدنيا طريق الاصْطِفاء وقوله تعالى:

(شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨))

(سورة آل عمران)

فَطَلب العِلم طريق الاصطفاء، وقوله تعالى:

(الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً (٣٩))

(سورة الأحزاب)

فعليك ألاّ تخشى إلا الله، فهذا طريق الاصْطِفاء ؛ فلا أريد أن يكون درسي نظرياً وإنما أريده عملِياً ؛ كُن طموحاً لقد قلت البارحة كلِمة: أحْياناً يتوَهَّم الإنسان أنّ الدعاة هم خطباء المساجد دون غيرهم ! لا... أنت لدَيْك أقْرِباء وأصْدِقاء وجيران وزملاء وأولاد وإخوة وأخوات... ألا تسْتطيع أنْ تنْصَحهم وأن تجْلِس معهم وأن تُعَلِّمهم وبِهَدِيَّةٍ إليهم تكسب ودهم وقلوبهم وإصغاءهم لحديثك، ولك أن تكون من المُصْطَفَيْن الأخْيار إذا كنت مُخْلِصاً لله الكبير ؛ إذاً طريق الاصْطِفاء يحْتاج إلى طاعة وإلى طلب عِلْمٍ وإلى إخْلاص وإلى حُبٍّ وإلى شجاعةٍ وإلى جُرْأة فلعَلّ الله تعالى يصْطَفيك قال تعالى:

(أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كَانَ فَاسِقاً لَا يَسْتَوُونَ (١٨))

(سورة السجدة)

وقال تعالى:

(أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (٣٥))

(سورة القلم)

إنسان همُّه الوحيد أن يُرَسِّخ الحق في المجْتَمع ويُدْخل السعادة على المؤمنين وآخر هدفه أن يبْني مجْدَه على أنقاض الآخرين وغِناه على فقْرهم وحياته على موْتِهم وأمْنَه على خوْفِهم شتانَ بين هؤلاء وهؤلاء**!** فلِذلك ضَعْ نفْسَك موْضِعاً يصْطفيك الله في هذا الموْضِع وليس الوليُّ الذي يطير في الهواء ولا الذي يمْشي على وَجْه الماء ولكن الوليّ كل الوليّ أن يجدك الله حيث أمرك ويفْقِدُك حيث نهاك فإذا كنت في مَجْلِسٍ وكانت هناك غيبة سكتّ أو قُمْت وفارقت أهل المجلس فأنت الآن تَتَوَسّل أن يصْطَفِيَك الله عز وجل والله تعالى من أسْمائه المُصْطَفي يصْطَفي وإذا اِصْطَفى مؤمنا فهو في سلامٍ معه والمؤمن في سلام إذا كان قد اصْطفاه الله عز وجل لكن قال تعالى:

(أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ (٢))

(سورة العنكبوت)

لابد من الابْتِلاء.

أيها الإخوة الكِرام: اسْم المصْطفي من أسماء الله الحُسنى وهذا الاسْم مُرْتَبط أشدّ الارْتِباط بالمؤمنين وكلما جهدوا بطاعَتِه والفَوْز برضاه اصْطفاهم وكرّمهم وأجْرى على أيديهم الخير والغِنى الحقيقي أن يجْعَلَك الله مِفْتاحاً للخير مِغْلاقاً للشرّ ؛

((عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن في بعض ما أنزل الله في الكتب: إني أنا الله لا إله إلا أنا، قدرت الخير والشر فطوبى لمن قدرت على يده الخير ويسرته له، وويل لمن قدرت على يده الشر ويسرته له.. إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أسأل عما أفعل وهم يسألون، فويل لمن قال وكيف))

٩٦- اسم الله الديّان :

مع الدرس السادس والتسعين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم الدّيان، كثيراً ما يقول العلماء في كلِماتِهم: الواحد الدّيان الذي يدين له الخلق أجْمعون، والدّيان هو اسم من أسْماء الله الحُسنى وهو زائِدٌ كما تعْلمون عن الأسماء التِّسعة والتِّسْعين كما ورد هذا في أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

في اللغة الدِّين بِكَسْر الدال ؛ الدّيْن شيء والدِّين شيءٌ آخر فالدّين هو الجزاء والمُكافأة والدِّين هوالعِبادة والعِبادة خُضوعٌ لله عز وجل غاية الخُضوع مع غاية الحب وكلُّكم يعْلم أنّ في اللغة عِبادٌ وعبيد، العِباد جمْع عبْدِ الشُّكر بينما العبيد جمع عبد القهر وكلُّ إنسانٍ عبدٌ لله عز وجل بمعنى أنّ ناصِيَتَهُ بيد الله عز وجل وأنّه مقْهورٌ في وُجودِه وفي استِمرار وُجودِهِ وفي سلامة وُجودِه وفي كمال وُجودِه لله عز وجل ؛ وُجودُهُ مُتَوَقِفٌ على إمْداد الله له وكذا استِمرار وُجودِه وسلامة وُجودِه مُتَوَقِفٌ على حِفْظ الله له وكمال وُجودِه مُتَوَقِفٌ على إكْرام الله له.

إذاً عَبْد القهْر العبْد الذي لا يَمْلِك لأمْرِهِ شيئاً والعبد الذي هو في قبْضَة الله وأقْرب شاهِدٍ لِهذا الكلام أنّ نُقْطَةً من الدم إذا تجمّدَت في أحد أوْعِيَة الدِّماغ انْقلبَت حياة الإنسان إلى جحيم وصار طريح الفِراش ؛وإذا تجمدت في مكانٍ آخر يَفْقِد ذاكِرَتَهُ ولا يعْرِف أوْلاده وفي مكانٍ ثالث يفْقِد سَمْعَهُ وبصَرَهُ فالإنسان لا يمْلِك شيئاً قال تعالى:

(قُلِ اللّهُمّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنّكَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ(٢٦))

(سورة آل عمران)

فهذا عبْد القَهْر فمن هو عبْد الشكر ؟ هو الذي عرف الله ابْتِداءً وعرف منهجَهُ اكْتِساباً وأقْبل عليه شَوْقاً وخضع إلى أمره عبودية هذا عبْد الشكر وعبد الشكر يُجمع على عِباد قال تعالى:

(وَعِبَادُ الرّحْمَنِ الّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً (٦٣))

(سورة الفرقان)

أما عبد القهر يُجمع على عبيد قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلّامٍ لِلْعَبِيدِ (٤٦))

(سورة فصلت)

فالعِباد شيء والعبيد شيء آخر، والدِّين بِكَسر الدال العِبادة ويعني الخُضوع والطاعة والدِّين الطاعة والحِساب قال تعالى:

(إِنّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ (٢٥) ثُمّ إِنّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ (٢٦))

(سورة الغاشية)

من الذي يُحاسب ؟ هو المقهور أما القاهِر فلا يُحاسب ؛ المُوظّف إذا فرغ صندوقُهُ يُحاسب لأنّهُ مقهور ولِماذا الصندوق مكسور ؛ يُحاسب ويوضعُ في السِّجن فالذي يُحاسَب مقهورٌ دائِماً فالدِّين الطاعة والحِساب والقهْر والدِّين الغَلَبَة والاسْتِعْلاء والدِّين المِلّة والمذهب تقول: فلانٌ دينُهُ الإسلام ؛ هذا ما ورد في معاجِم اللغة حوْل كلمة الدِّين ؛ الجزاء والمُكافأة والعِبادة والطاعة والحِساب والقهْر والغَلَبَة والاسْتِعْلاء والمِلّة، أما الدّيان فهُو اسمٌ من أسْماء الله الحُسنى وقيل هو القهار والحافِظ وهو القاضي:

إذا جار الأمير وحاجِبـاهُ وقاضي الأرض أسْرَفَ في القضاء

فوَيْلٌ ثم وَيْلٌ ثمّ ويْـــلٌ لِقاضي الأرض من قاضي السماء

قال تعالى:

(إنّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ (١٢))

(سورة البروج)

الإنسان حينما يتوَهَّم أنّهُ طليق وأنّهُ يفْعل ما يريد، ففي ثانِيَةٍ واحدة تجده في قبْضَة الله.

الدّيان صيغَة مُبالَغَة على وزْن فَعّال وصيغة المُبالَغَة إذا اقْتَرَنَت باسمٍ من أسْماء الله الحُسنى لها معنى خاص وصِيَغُ المبالغة في أسماء الله عز وجل لا تعْني الذي نحن نعْنيه ؛ تقول: بالغ فلان أيْ يعْطي الأشياء حجْما زائِداً وفلان يزيد عن الحقيقة أشْياء كثيرة أما المُبالَغَة في حقّ الله عز وجلّ التّعْظيم ؛ التّعْظيم الكمي والتعْظيم النّوْعي.

فالدِّيان على وزْن فعّال شدّاد قهّار وغفّار ومعْنى الدّيان الدقيق الذي لا يُضَيِّعُ عمَلاً بل يجْزي عليه بالخير أو الشّر ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم:

((أنّه ما أحْسن من مُسلمٍ أو كافر إلا وقع أجْرُهُ على الله في الدُّنْيا أم في الآخرة))

فَأيُّ عمَلٍ له جزاء ولو كان ابْتِغاء الدنيا فلهُ جزاء في الدنيا ؛ أيُّ عمَلٍ على الإطْلاقِ صالِحاً كان أم طالِحاً صغيراً أو كبيراً لو أنّ الإنسان ترفّق بِنَمْلَةٍ وهو يتوَضّأ فَنَجاها من الغرق فهذا العمل له جزاؤُهُ ولو رأى قشّةً في المسْجد فَحَمَلَها ووضَعَها في جَيْبِهِ هذا العَمَل له جزاؤُهُ ولو أنّهُ قبّل ابْنه فهذا العمل له جزاؤه ولو أنه ذلّل مُسْتذِلّ فهذا العمل له جزاؤُه ؛ الدّيان هو الذي لا يُضَيِّعُ عمَلاً قال تعالى:

(فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ (٣٥))

(سورة محمد)

البرّ لا يبْلى والذّنْب لا يُنسى والدّيان لا يموت اِعمْل ما شِئت كما تدين تُدان، كنت مرّةً مع أحد الأصْدِقاء فارْتَكَبَ حادِث سَيْر، خلاصته أنه رجع إلى الوراء دون أنْ ينْتَبِه وكانت وراءه سيارة فَدَخَل في مؤَخّرتِها وكسر مصابيحَها وأتْلف بعض أجْزائِها فَنَزَلَ صاحِب السيارة التي ضُرِبَت فَنَظَر إليه فقال: أنا أُسامِحُك اذْهب وشأنَكَ ؛ لم أفهْم أنا الذي جرى ! فإذا بي أرى مِن صديقي دمْعَةً تنْحَدِر على

خَدّيْه، فقلت: لعله رجُلٌ مَيْسور الحال سامحك، هلاّ وفّرْت على جيبك ألف ليرة أو ألفَيْن ؟ فقال: ليس الأمر كذلك بل إنني قبل عامَيْن كنت في بلَدٍ مُجاوِر فصدمت مرْكَبَةٌ سيارَتِي وأصابَتْها بالعَطَب وكان صاحِب المرْكبة الصادمة رجُلٌ ديّن وزوْجَتُهُ مُحَجّبة وكذا بناتُهُ فما أردْت أنْ أفْسِد عليهم نُزْهَتَهُم فقُلْت له: انْطَلِق أنا أُسامِحُك فذاك العمل لم يضِع ثوابه بل بعد عامَيْن جنيت ثواب ما قدمت، وهو ما رأيته الآن ! وعلى هذا فَقِسْ.

البرّ لا يبْلى والذّنْب لا يُنسى والدّيان لا يموت اعْمل ما شِئت كما تدين تُدان، وما أكْرَمَ شابٌ شَيْخاً لِسِنِّهِ إلا سَخّر الله له من يُكْرِمُهُ عند سِنِّه فهذا شابٌ وقف بمَرْكَبَةٍ عامة لِشَيْخٍ كبير قد تدور الأيام وتَمْضي على هذا الحادِث خَمْسون عاماً ولا بد من أنْ يَقِفَ شابٌ بغايَة الأدب لِهذا الشّيْخ الذي كان شاباً ويُقَدِّم له آيات التَّبْجيل والاحترام ؛ بل إنّ القَرْض يُؤَدى وما قَوْلُكم أنّ الله سُبْحانه وتعالى وَصَف كلّ عَمَلٍ صالِحٍ على الإطْلاق تِّجاه أيّ مَخْلوقٍ كائِناً مَن كان بأنّهُ إقْراضٌ لله عز وجل قال تعالى:

(مَنْ ذَا الّذِي يُقْرِضُ اللّهَ قَرْضاً حَسَناً فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافاً كَثِيرَةً وَاللّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٢٤٥))

(سورة البقرة)

حدّثني أخٌ أنّهُ جَهِد في إنْقاذ حياةِ هِرّةٍ من المَوْت وفي اليوم التالي كاد ابْنُهُ أنْ يسْقُط تحت مَرْكَبَةٍ وتَشْطُرُهُ شَطْرَين لكِنّ إنْساناً اندفع من مَحَلٍّ تِجاري فأمسك ابنه وأنْقذه من الحادِث، البرّ لا يبْلى والذّنْب لا يُنسى والدّيان لا يموت اِعْمل ما شِئت كما تدين تُدان حتى قوْله تعالى:

(إِنّ الّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِناً يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٤٠))

(سورة فصلت)

(اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ)

هو فعل أمرٌ يُفيد التّهْديد فَكُلُّ شيءٍ له ثَمَن وكُلُّ عملٍ له جزاء إنّ لِكُلِّ حَسَنَةٍ ثواباً ولِكُلّ سيّئةٍ عِقاباً وما من عَثْرَةٍ ولا اخْتِلاج عِرْقٍ ولا خدْش عودٍ إلا بما قدّمت أيْديكم وما يَعْفو الله عنه أكثر قال تعالى:

(وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ (٣٠))

(سورة الشورى)

لكن نحن نرى حوادِث كثيرة مُتَفَرّقة لا نعْلم خلفِياتِها ومُقَدِّماتِها ولا نعْلم الفُصول الأولى من هذه القِصّة وقد تنْتهي هذه القِصّة بحادِث مُؤْلم وبمُصابٍ كبير أو بإتْلاف مالٍ وقد تنْتَهي بتَدْمير إنسان ولكن لو أنّ لك نَفَساً طويلاً ومُتابَعَة دقيقة وتَقَصّيْتَ أحْوال ما يُصيب الناس لَوَجَدْت العجب العُجاب ولَوَجَدْتَ يد الله تعمل في الخَفاء ولَوَجَدْت يد الله فوق أيْديهم قال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٧))

(سورة الأنفال)

قال: " الدّيان في صِفَة الله عز وجل هو المُجازي والذي لا يُضَيّع عمَلاً بل يَجْزي بالخير والشرّ "، وقيل: " هو فعّال من الفعل دانَ الناس يدينهم أيْ قَهَرَهم على الطاعة " وهنا القَهْر قَهْرٌ تَرْبَوي، لو فَرَضْنا: ابن مُشاكِس وأبٌ حازم وهذا الأب حمَلَ ابْنه على الدِّراسة إلى أنْ صار إنْساناً ذا مَكَانة مَرْموقة في المُجْتَمَع وهو من رحمة أبيه الشديدة حمل ابنه على طاعته فهذا الحَمْل مُؤَداهُ إلى الخير عِنْدَئذٍ ينْقلب الشعور بالقهْر إلى شُعورٍ بالرّضى والامْتِنان.

دِنْتُهُم فَدانوا ؛ أخْضَعْتُهم فَخَضَعوا وقد جاء في الحديث الشريف وهو من أدق الأحاديث :

((عَنْ أبي يَعْلَى شَدّادِ بْنِ أَوْسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمّ تَمَنّى عَلَى اللَّهِ))

(رواه ابن ماجة والترمذي)

دان نفسَهُ أيْ ضَبَطَها وأخْضَعَها وألْزَمَها كلمة التقْوى وحمَلَها على طاعة الله وجعلها مُسْتَقيمَةً:

((الْكَيّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا ثُمّ تَمَنّى عَلَى اللَّهِ))

العاجِز يقول لك: نسْأل الله تعالى أنْ يرْحَمَنا وأنْ يَغْفِر لنا ونحن مُقصِّرون ونحن عبيد إحْسان ولسْنا عبيد امْتِحان ولا تَسَعُنا إلا رحْمة الله عز وجل ؛ يقول هذا وهو كلامٌ حق لكن يُراد به الباطِل ؛ فهو لا يخاف الله ولا يَنْزَجِر ولا يأْتَمر بما أمر الله ولا يحْمِل نفْسَه على طاعة الله ولا يَحْرِص على رضْوانِه وهو يُطْلِق لشهواتِهِ العِنان ويُرْخي لِنَفْسِهِ الحَبْل ويقول: نحن عبيد إحْسان ولسْنا عبيد امْتِحان وهذا هو العاجِز الذي أتْبَعَ نفْسَه هواها وتمنى على الله الأماني، الكَيِّس من دان نفْسَه والقِصّة المعْروفة التي ذكَرْتُها لكم كثيراً.

السّمَكاتُ الثلاث التي رآها أحد الصيادين فقد توَعّد أنْ يرْجِع مع صديقِهِ لِيَصْطاد هذه السَمَكات فَسَمِعتْ السمكات قوْلَهُما قال: هذه السمكات كيّسَة والثانية أكْيَسُ منها والثالثة عاجزة أما أكْيَسُهُنّ فإنها ارْتابَتْ وتخَوّفَتْ وقالت: العاقِل يَحْتاط للأمور قبل وُقوعِها ثمّ إنها لم تُعَرِّج على شيءٍ حتى خَرَجَت من المكان الذي يدْخل منه الماء من النهْر إلى الغَدير فَنَجَتْ وأما الكيّسَة الأقل عقْلاً وذكاءً فَبَقِيَت في مكانِها حتى عاد الصيادان فذَهَبتْ لِتَخرج من حيث خرجَت صديقَتُها فإذا بالمَكان قد سُدّ فقالت: فَرّطْت وهذه عاقِبَة التفْريط غير أنّ العاقل لا يقْنَط من منافع الرأي ثم إنها تماوَتَت فطَفَتْ على وَجه الماء فأخذها الصياد ووضَعَها على الأرض بين النهر والغدير فَوَثَبَت في النهر فَنَجَتْ وأما العاجزة فَلَمْ تزَل في إقْبالٍ وإدْبار حتى صيدَتْ وهذه السّمَكات الثلاث تُمَثِّل ثلاثة نماذِج بشَريَّة ؛

إنسان يحتاط للأمور قبل وُقوعِها وإنسانٌ يحتاط لها حين وُقوعِها وإنسانٌ لا يَحْتاط لها لا قبل وُقوعِها ولا حين وُقوعِها ولا بعد وُقوعِها.

قال تعالى:

(وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً (٢٨))

(سورة الكهف)

والنبي عليه الصلاة والسلام يقول:

((عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ حَدَّثَهُمْ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ فَقَالَ الْمَقْضِيُّ عَلَيْهِ لَمَّا أَدْبَرَ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ فَقَالَ مَا قُلْتَ قَالَ قُلْتُ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

(رواه أحمد)

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ))

الخُنوع والاستسلام والضَّعْف وعدم السَّعْي وعدم التدْبير وهذا النَّمط الكسول والمُسْتَسْلِم والمُسْتَخْذي هذا النمط يلوم الله عليه:

((إِنَّ اللَّهَ يَلُومُ عَلَى الْعَجْزِ وَلَكِنْ عَلَيْكَ بِالْكَيْسِ فَإِذَا غَلَبَكَ أَمْرٌ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ))

لو أنَّ إنساناً أُصيب بمَرضٍ شديد جداً قبل الامتحان ماذاَ يفعل ؟ هذا قهْر الله عز وجلّ ولا تقُل حسْبيَ الله ونِعْم الوكيل إلا إذا غُلِبْت على أمْرك ؛ على الإنسان أنْ يسْعى وليس عليه إدْراك النَّجاح والله أيها الإخوة ؛ هذا الحديث وحْدَهُ لو فَهِمَهُ المُسْلِمون في شتى أقْطارِهم ولو فهموا أبْعادَهُ لكانوا في حالٍ غير هذا الحال وينْتَفي عندئذٍ عنهم الكَسَل والتَّواكُل والاستسلام والانهزام والخُنوع والخُضوع ؛ هو ليس بيَدَك شيءٌ وإنما بيَد الله كلُّ شيءٍ فإذا كنت مع الله كان الله معك وإذا استعنت به أعانك وإن اسْتَنْصَرْتَهُ نصرَك وإنْ اسْتَهْدَيْتَهُ هداك وإن استَرْشَدْتَهُ أرشَدَك وإنْ اسْتَلْهَمْتَهُ ألْهَمَك:

أوحى الله تعالى إلى داود: ما من عبد يعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات بمن فيها إلا جعلت له من بين ذلك مخرجا، وما من عبد يعتصم بمخلوق دوني أعرف ذلك من نيته إلا قطعت أسباب السماء بين يديه وأرسخت الهوى من تحت قدميه، وما من عبد يطيعني إلا وأنا معطيه قبل أن يسألني، وغافر له قبل أن يستغفرني.

لذلك قالوا: إذا كان الله معك فَمَن عليك وإذا كان الله عليك فمن معك.

((الْكَيِّسُ مَنْ دَانَ نَفْسَهُ وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ))

أكثر الناس الآن يعيشون وقتَهُم ولحْظتَهم ويوْمَهُم وساعَتَهم ويُعْطون أنفسَهُم ما تشْتَهي أما الغد فلا يُفَكِّرون فيه إطْلاقاً ؛ فمِن علامات العاقل الفذ أنَّهُ يعيش الغد ومِن علامات الأقلّ عَقْلاً أنَّهُ يعيش الحاضِر ومن علامات الجاهِل أنَّهُ يتغَنى بالماضي

ألْهى بني تغْلِبٍ عن كلّ مكْرُمَةٍ   قصيدةٌ قالها عمرو ابن كلثوم

فالجاهِل يتغَنى بالماضي والأقل عقلاً يعيش لحْظَتَهُ والعاقِل جداً يعيش المُسْتَقْبل.

لذلك هناك من يُخَطِّط لِمُسْتَقْبَلِهِ وهناك من تكون حياتُهُ رُدود فِعْلٍ دائِماً، يكون الفِعْل من خَصْمِهِ ويُفْرض عليه مكان وزمان الفِعْل ومُهِمَّتُهُ ردّ الفِعل ؛ فهو إنسانٌ ضعيف لا يُخَطِّط للمُسْتَقْبل أما المؤمن فإنه يعيش المُسْتَقْبل وساعة فِراق الدنيا وهذه الساعة التي يغْفَل عنها الناس قال تعالى:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

أما الصحابة الكِرام فقد قال أحدهم: والله لو كُشِفَ الغِطاء ما ازْدَدَت يقيناً وقال أحد الصحابة للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله كأني بأهل الجنة يتنعَّمون وبأهل النار يتصايَحون فقال عليه الصلاة والسلام: عبدٌ نوَّرَ الله قلْبَهُ بالإيمان عَرَفْتَ فالزم ؛ فالمؤمن يعيش المُسْتَقْبل والمصير وهذه الساعة التي لابد منها ما نجا منها أحدٌ لا نبيّ ولا ملِك ولا غنيّ ولا قويّ ولا ضعيف ولا صحيح ولا مريض ولا عاجِز ولا وسيم ولا دميم... ساعة المَوْت المؤمن يسْتَعِدّ لها بالعَمَل الصالح بإنفاق عِلْمِه ومالِهِ ووقْتِهِ وعضلاتِهِ وخِبْراتِه وطاقاتِهِ وبكُل ما يمْلك ؛ يسْتَعِدّ لِهذه اللحْظة كي يكون القبر رَوْضَةً من رياض الجنّة فإن لم يسْتَعِدّ للقبر أصبْح القبر حُفْرَةً من حُفَر النار، قال تعالى:

(النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آَلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٦))

(سورة غافر)

في الحديث الشريف أنّ النبي عليه الصلاة والسلام دعا على قوْمٍ فقال: اللهم دِنْهُم كما يدينونا " أيْ اجْزِهِم بما يُعاملون به من قِبلهم، طبْعاً كلمة: مالك يوم الدين كلمة كبيرة جداً فيَوْم الدين يومُ الدَّيْنونَة وأسْماء الله الحُسنى كلُّها مُحَقّقة في الدنيا أما اسم العادِل يُحَقّق في الدنيا ويبْدو أشَدّ جلاءً في الآخرة ؛ هناك تَسْوِيَة حِسابات وهناك غنيٌّ وفقير وهناك مُسْتَغِلّ ومُسْتَغَلّ ومُحْتالٌ ونصاب وطاغِيَةٍ وظالِمٍ وهناك من يغْتَصِب أمْوال الناس وهناك من يغْتَصِب أعْراضهم ويَحْتال عليهم بذَكائِهِ أو بقُوَّتِهِ والمُؤدّى واحد إما احْتِيالاً أوْ قهْراً ؛ فهذا الذي أخذ ما ليس له متى سَيُحاسَب ؟.

سَمِعْتُ مرّةً من أحد الدعاة مثلاً أعْجَبَني ؛ لو أنّ أحداً كان في مَسْرَحِيّة - ليس هذا من باب الإقرار - ثمّ أُرْخِيَ السِّتار لم تجد أحداً قام من مكانه، لِماذا ؟ لأنه ما انتهت المَسْرَحِيّة فكُلّ بداية لها نِهاية وكُلّ

مُقدِّمة لها نتيجة ؛ وهذا الذي اغْتَصَب وسرق أمْوال الناس بالباطِل متى توزن له الأعمال ؟ إنها توزن يوم الدِّين ؛ حيث توفى كل نفس ما كسبت، هذا اليوم إذا غَفَلْنا عنه نحن أشْقى الأشْقِياء، قال تعالى:

(مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (٤))

(سورة الفاتحة)

هناك سؤال وهو ألَيْسَ الله هو مالك الدنيا ؟ وهل معنى مالك يوم الدِّين أنَّهُ لا يمْلِك الدنيا ؟ الجواب: لا فَهُو تعالى يمْلِك الدنيا والدين والآخرة لكن في الدنيا من يَدّعي أنّه مالِكُها فهُناك من يدّعي أنّ الأمر بيَد فلان وأساساً مُعْظم الذين وقعوا في الشّرك الخَفيّ يَرَوْن الناس ولا يرَوْن الله عز وجل ويرَوْن أنّ الأقْوِياء بيَدِهم الحلّ والعَقْد والعطاء والمَنْع والإعْزاز والإذْلال وبيَدِهم الحياة والموت فيما يبْدو لهم وهناك من يدّعي أنّ الأمر بيَدَه في الحياة الدنيا وهو المُشْرك لكن في الآخرة لا يسْتطيع أحَدٌ أنْ يدّعي أنّ الأمر بيَدِه هناك آيةٌ تُشْبِهُ هذه الآية قال تعالى:

(صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ (٥٣))

(سورة الشورى)

بحَسَب الظاهر إن الأمور صارتْ إلى الله ؛ فبيَدِ من كانت ؟ كانت بيَد الله فما معنى هذه الآية إذاً ؟ في الدنيا الأمر بيَد الله وحْده وليس لأحد من الأمر شيء إلا أنّ هناك في الدنيا من يدّعي من الناس أنّ الأمر بيَدِه أما في الآخرة يبْدو الأمر جَلِياً أنّهُ بيَد الله عز وجل ولا أحد يدّعي أنّ الأمر بيَدِهِ فهي قضيّةٌ نِسْبِيّة.

إذاً مالك يوم الدِّين يومٌ لا يمْلِكُهُ أحدٌ أما أنت في الدنيا قد تجد أنّ إنساناً قُتِل وآخر قُهِر وذاك أُخذ مالُهُ والقويُّ هو الذي أخذ ماله ؛ هناك في الدنيا من يدّعي أنّ الأمر بيَدِه أما في الآخرة لا يسْتطيع أحدٌ أنْ يدّعي أنّ الأمر بيَدِه فهو مالك يوم الدين وهناك قِراءة ملِكِ يوم الدِّين فالمالك هو الذي يمْلك ولا يَحْكم والملِك هو الذي يحْكُم ولا يمْلِك والله ملِكٌ ومالِك يَمْلِك ويحْكُم أنت أحْياناً تنتفع بشيء ولا تمْلِكُ رقَبَتَهُ وقد تمْلِكُ رقبَتَهُ ولا تنْتَفِع به والشيءُ الثالث أنّك قد تمْلِكُهُ وتنْتَفِعُ به ولا تمْلِكُ مصيرهُ لكنّ الله سبحانه وتعالى مالك يوم الدين وملك يوم الدين ويمْلِك كلّ شيءٍ خلْقاً وتَصَرّفاً ومصيراً.

ابن عباس رضي الله عنه: يفسِّر معنى قول الله عز وجل: مالك يوم الدّين يقول: لا يملك أحد في ذلك اليوم معه حُكماً كَمُلْكِهم في الدنيا، حيث كانوا يضعون أيديهم على الكثير ويمتلكونه ويوم الدين يوم الحِساب للخلائق وهو يوم الآخرة يدينُهُم بأعْمالِهم، إنْ خيراً فَخَيْرٌ وإنْ شراً فشَرٌ إلا من عفا الله عنه.

العلماء يقولون: **" تخصيص المُلك بيَوم الدين لا ينْفي عما عداه "** وهذه نُقْطة دقيقة جداً فإذا قلنا: الله مالك يوم الدّين لا يعْني أنّهُ لا يَمْلِك الدنيا لكن في هذا اليوْم يتَّضِح لكل إنْسان أنّهُ تعالى مالك يوم الدين

أما في الدنيا فيتَّضِح للمؤمنين فقط أنّ الله مالك يوم الدين، فما الفرق بين المؤمن والمُشْرك ؟ المؤمن يرى أنّ الله وحْده هو الفَعّال بينما المُشْرِك يرى أنّ آلِهةً كثيرةً تفعل ما تريد.

أيُّهما أبْلَغ: أن تقول مالك أم ملك ؟ قال بعْضُهُم إنّ مالِك أبْلغ في مدْح الخالق من ملِك وملِك أبْلَغُ في مدْح المخلوقين من مالِك فالملِك لا يمْلك لكنّه يحْكم فهو لا يمْلك سمْعه ولا بصره ولا دِماغَهُ ولا شرايينه ولا دمه ولا قلْبه ولا أمْعاءه فهو لا يمْلك شيئاً لكنَّهُ يحْكم فإذا أردْت أنْ تمْدح إنْساناً فقُل له ملِك أما إنْ أردت أنْ تثني على الله عز وجل فهو تعالى المالك قال تعالى:

(قُلْ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)

لذلك الأبلغ في الثناء على الله عز وجل أنْ تقول: مالك يوم الدِّين والأبلغ في مدْح الإنسان أن تقول ملِك، في الحديث الشريف:

((يقْبِض الله الأرض يوم القِيامة ويَطْوي السماء بيَمينه ثم يقول أنا الملِك وأين مُلوك الأرض))

كان في الأندلس ملِك شهير جداً كان ملِكاً على أكبر مُقاطعة في إسْبانيا اسمُهُ ابن عبّاد وكان ذا عِزٍّ وشأنٍ وسُلطان وكان ذات يوم يتمشى في حديقة قصْره فرأى برْكَة ماءٍ وقد أثرت فيها الرّيح فشَكّلت خُطوطاً مُتعارِضَة وكأنّها زَرَد فقال هذا الملك وكان شاعِراً: نسَجَ الرّيح على الماء زرد، فلَما أراد أنْ يُتَمِّمَ البيت ما اسْتَطاع وتعَثَّرَتْ به شاعِرِيَّتُهُ وكانت وراءهُ جارِيَة فقالت له:

نسج الرّيح على الماء زرَد   يا له دِرْعاً منيعا لو جمَد

فَأُعْجِب بها وتَزَوَّجَها وأكْرمها أيّما إكرام لأنها زوْجة ملِك واشْتَهَت يوْماً أنْ تعيش حياة الجواري كما كانت قبل أن يتزوجها الملك، وأنْ تدوس في الطِّين فجاء لها بمِسْكٍ وكافور ومزَجَهُما بماء الوَرْد وجعل من المِسْك والورد طيناً وقال هذا هو الطِّين فَدوسي فيه ثمّ جاء ملِك من مُلوك إفريقيا اسْمه ابن تاشْفين وغزا إسبانيا ووضَع كلّ هؤلاء المُلوك في السِّجن مُلوك دُوَل الطوائف والتاريخ يرْوي هذه القِصّة فهذا الملِك صار سجيناً وصار فقيراً ومُعَذَباً وشَكَتْ بناتُهُ الجوع وزوْجَتُهُ العريّ وضاقتْ به هذه الجارِيَة ذرعاً إلى أنْ صارَت تقسو عليه وقالت له مرّةً: ما رأيْتُ منك خيراً قطّ فقال لها ولا يوْم الطِّين فاسْتَحْيَتْ وسكَتَتْ.

لِهذا ورد في بعض الأحاديث أنّ النِّسْوة غير المؤمنات يَكْفُرْنَ العشير إذا أحْسَنْتَ إلى إحْداهُنّ الدهْر كُلّه ثم رأتْ منك شيئاً قالت: لم أرَ منك خيراً قطّ ؛ وإنْ قُلتَ لها كلِمة قاسِيَة لا تنْساها إلى الأبد أما كلُّ الإكْرام تنْساه هذه المرأة ما عرَفَتْ ربّها وأيُّما امْرأةٍ لا تشْكر لِزَوْجِها وهي لا تسْتَغْني عنه ترحْ رائِحة الجنّة.

((عَنْ ثَوْبَانَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ الْمُخْتَلِعَاتُ هُنَّ الْمُنَافِقَاتُ قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَلَيْسَ إِسْنَادُهُ بِالْقَوِيِّ وَرُوِيَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ أَيُّمَا امْرَأَةٍ اخْتَلَعَتْ مِنْ زَوْجِهَا مِنْ غَيْرِ بَأْسٍ لَمْ تَرِحْ رَائِحَةَ الْجَنَّةِ))

[سنن الترمذي]

والنبي عليه الصلاة والسلام قال:

((إني أكْره المرأة تخْرج من بيْت زوْجِها تشْتَكي على زوْجِها ومن صِفات المرأة المؤمنة أنّها ستِّيرة))

وفي الحديث قال عليه الصلاة والسلام فيما يرْويه عن ربّه:

((عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله يقول: " أنا الله لا إله إلا أنا مالك الملوك وملك الملوك قلوب الملوك بيدي، وإن العباد إذا أطاعوني حولت قلوب ملوكهم عليهم بالرأفة والرحمة، وإن العباد إذا عصوني حولت قلوبهم عليهم بالسخط والنقمة فساموهم سوء العذاب، فلا تشغلوا أنفسكم بالدعاء على الملوك ولكن اشغلوا أنفسكم بالذكر والتضرع، أكفكم ملوككم))

وفي القرآن الكريم قال تعالى:

(وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ(٢٤٧))

(سورة البقرة)

فالإنسان يوصَف بأنّهُ ملِك وفي الحديث قال صلى الله عليه وسلّم:

((عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْأَنْصَارِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَنَسًا رَضِي اللَّهُ عَنْهُ يَقُولُ دَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ابْنَةِ مِلْحَانَ فَاتَّكَأَ عِنْدَهَا ثُمَّ ضَحِكَ فَقَالَتْ لِمَ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَقَالَ نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي يَرْكَبُونَ الْبَحْرَ الْأَخْضَرَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَثَلُهُمْ مَثَلُ الْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ فَقَالَتْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ اللَّهُمَّ اجْعَلْهَا مِنْهُمْ ثُمَّ عَادَ فَضَحِكَ فَقَالَتْ لَهُ مِثْلَ أَوْ مِمَّ ذَلِكَ فَقَالَ لَهَا مِثْلَ ذَلِكَ فَقَالَتِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ قَالَ أَنْتِ مِنَ الْأَوَّلِينَ وَلَسْتِ مِنَ الْآخِرِينَ))

[صحيح البخاري]

هناك سؤال وهو: كيف نقول مالك يوْم الدِّين و يوْم الدِّين لم يأْتِ بعْد ؟ يُجيب الإمام القُرْطبي عن هذا التساؤل فيقول: اعْلم أنّ مالك اسم فاعل من ملِك ومن ملَكَ يَمْلِكُ واسم الفاعِل في كلام العرب قد يُضاف إلى ما بعْده بِمَعنى الفِعل المُسْتقبل ويكون عندهم هذا كلاماً سديداً ومَعْقولاً صحيحاً كَقَوْلِك: هذا ضارب زيْدٍ غداً أيْ سَيَضْرِبُهُ غداً واللغة العامِّيَة كذلك تُشير إلى هذا المعنى.

إذاً إذا قُلنا مالِك يوْم الدّين أيْ الله جلّ جلاله حينما يأتي ذاك اليوم فلا مالِك سِواه، وعلى كلّ إنّ لِكُلّ سيّئَةٍ عِقاباً ولِكُلّ حسنَةٍ ثواباً واعْملوا ما شِئتم فالبرُّ لا يبْلى والذّنبُ لا يُنْسى والدّيانُ لا يموت اِعْمل ما شِئت كما تدينُ تُدان والدّيان هو الذي لا يُضيّع على مخْلوقٍ عملَهُ.

لي صديق يُقيم ببَلَدٍ عربي له قريبٌ حالُهُ وسَط من حيث التَدَيُّن والأخلاق والاسْتِقامة وله أوْلاد أقلُّ من الوَسَط من حيث البرّ وهذا القريب أصيب بمَرَضٍ قبل وفاتِه فرَأى الناس من برّ أبْنائِهِ به الشيء الذي لا يُصدَّق فلا هو يسْتَحِقّ هذا البرّ ولا أولادُهُ في هذا المُسْتوى الراقي ؛ من الذي جعَلَهم يُقْبِلون على خِدْمَتِهِ بِشَكْلٍ لا يوصَف ؟ فهو وسَطٌ في تدَيُّنِه واسْتِقامتِهِ وفي أُبُوّتِهِ وأوْلادُهُ أقلّ من الوسَط في أخْلاقِهم وتَدَيُّنِهم أما حينما مرِضَ مرَضاً عُضالاً أقبلوا على خِدْمَتِهِ إقْبالاً مُنْقَطِع النظير حتى أصْبَحَت خِدْمَتُهُم له مضرب المثل فهذا الصديق بقِيَ أشْهُراً يُحَلِّل هذا الموضوع إذْ يصْعُبُ تفْسيرُه وتفْسير هذه القِصّة أنّ هذا المريض كان باراً بأبيه فبرّه أولاده، البِرّ لا يبْلى والذنب لا يُنسى.

إخواننا الكِرام:

كلُّ عمَلٍ له جزاؤُهُ إنْ خيراً فخيرٌ وإنْ شراً فَشر الدّيان هو الذي يدين خلْقه أيْ يُخْضِعُهُم أو يُجازيهم ويكافئهم أو يَحْمِلهم على طاعَتِه أو يُحاسِبُهم فالله سُبحانه وتعالى هو المُحاسِب والشيء الدقيق أنّ الله تعالى له أوامِر تَكْليفِيّة وأوامر تَكْوينِيّة.

وهذا أخٌ كان له أُخْتٌ عانِس ويُبالِغ في إهانَتِها هو وزَوْجته وينفجر أمام أولادِهِ وزوْجَتِه عليها ويؤنبها وهذه الأخت صابرة ليس لها إلا هذا الأخ، وفي إحدى الليالي كانت جالِسَة على الأرض وهو على كُرسي وزوْجَتُهُ إلى جَنْبِهِ فأراد أنْ يشْرب كأس ماء فَرَكَلَ أُخته برِجْلِه وقال: ائتني بكأس ماء، وفي اليوم التالي سافر فوَقَعَ ضحية حادث فقُطِعَتْ رِجْلُهُ التي ركل بها أخته من أعلى الفَخِذ، فالله هو الدّيان وهذا رجل آخر كان يقود مَرْكبة في الطريق فوَجَد كلباً صغيراً يقْبَع في زاوية الطريق ففَكّر هذا السائِق أن يُجَرّب براعَتَهُ في السِّواقة فقطَع يدي الكلب دون أنْ يقْتُلَهُ وأطْلق ضَحْكَةً اسْتِهْزائِيّة، أقسَم لي رجل أعْرِفُهُ وهو عندي صادِق وكان يرْكب مع هذا الإنسان أنه في الأسبوع الثاني و في اليوم نفسه من الأسبوع التالي انْفجرت معه عجلة السيارة فأَوْقفَها على الطريق لِيُصْلِحها ورفع السيارة بِجِهاز الرّفْع وفَكّ العجلة وفي أثناء فكّ العجَلة من مكانِها اخْتَلّ جِهاز الرفْع ووقَعَتْ السيارة على يدَيْهِ عند الرّسغين وإلى أنْ وصَل إلى المُسْتَشْفى اسْوَدّت يداه فاضْطُرّ الطبيب إلى قطْعِهما ؛ هو الدّيان وهو الواحد الدّيان والبِرُّ لا يبْلى والذّنبُ لا يُنْسى والدّيانُ لا يموت اعْمل ما شِئت كما تدينُ تُدان.

٩٧- اسم الله العالم :

مع الدرس السابع والتسعين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم هو العالم، فالعالم اسمٌ من أسماء الله الحُسنى يُضمّ إلى الأسْماء التِّسْعة والتِّسْعين التي وردت في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلّم.

العالم من مادّة العِلْم والعِلْم إدْراك الشيء على ما هو عليه مع الدليل ؛ إدْراك الشيء على ما هو عليه بالدليل أو هو مَقولةٌ مقْطوعٌ بصِحّتِها تُطابق الواقِع عليها دليل، فَلو لم يكن عليها دليل لكانت هذه المقولة تقْليداً، ولو لم تُطابِق الواقِع لكانت هذه المقولة جهْلاً، ولو لم يكن مقْطوعُ بصِحّتِها تُعَدُّ هذه المقولةُ وهْماً أو شَكاً أو ظناً، فالعِلْم ليس شكاً ولا ظناً ولا وهْماً ولكنّه قطْعي، والعِلم ما طابق الواقِع وما كان عليه دليل وبِشَكْلٍ مُخْتَصَرٍ إدراك الشيء على ما هو عليه بالدليل.

أيها الإخوة الكِرام، لا أُبالِغ إذاً قُلت إنّ من أخَصّ ما يخْتَصّ به الإنسان العِلْم وأكثر صِفات الإنسان مُشْتَرِكةٌ بينه وبين بقِيّة المخْلوقات إلا أنّهُ يتمَيّز بقُوّةٍ إدْراكِيّة وكَرّمَهُ الله بالعِلم وفي أثناء الحديث عن الكرامات يُعَدّ العِلم أعظم كرامة ينالُها الإنسان من الله عز وجل مع أنّ هذه الكرامة ليس فيها خرْقٌ للعادات.

وبعد فإنّ الله عالم يُحِبّ كُلّ عالم والناس رجلان: عالِمٌ ومُتَعَلِّم ولا خير فيمن سِواهُما، كُن عالِما أو مُتَعَلِّما أو مُسْتَمِعاً أو مُحِباً ولا تكُن الخامِسَة فَتَهْلِك فالعِلم إدْراك الشيء على ما هو عليه لو أنّ الناس أدْركوا الحقائق على ما هي عليها لما اخْتَلَفوا ولما تحاربوا ولما تخاصَموا ولما عاشوا في شقاءٍ ما بعْده شقاء.

فالقضِيّة قضِيّة عِلْم بل إن الإنسان الكافر وهو في النار يتلوّى من الحريق يُنادي ويقول:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ (١٠))

(سورة المُلك)

فالذي بينك وبين أهل الدنيا هو العِلم لِذلك إذا أرَدْت الدنيا فعَلَيْك بالعِلْم وإذا أردت الآخرة فعليك بالعِلم وإذا أردْتهما معاً فعَلَيْك بالعِلم والعِلْم لا يُعْطيك بعْضَهُ إلا إذا أعْطَيْتَهُ كُلّك فإذا أعْطَيْتَهُ بعضك لم يُعْطِك شيئاً ويَظَلّ المرء عالِما ما طلب العِلم فإذا ظنّ أنّه قد علِم فقد جهل.

قال العلماء: العِلم عِلمان: إدراك ذات الشيء، والحُكْمُ على الشيء، تقول هذه طاولة فالآن تُدْرِك ذات الطاولة أو تقول: هذه الطاولة مُتْقَنَةٌ فأنت بهذه العبارة أطلقت حكمك عليها، إذاً: فإما أنْ تُدْرِك حقيقة الشيء وكُنْهَ الشيء وهويّته وإما أنْ تحْكُم على هذا الشيء فالعِلم عِلمان: إدراك الذات وإدْراك الصّفات.

والعِلم عِلمان: عِلم نظري وعِلم عملي ؛ عِلم تَقْتَبِسُهُ بِإلْقاء السّمْع أو إعْمال الفِكر أو قِراءة الكِتاب أو سماع المُحاضرة وعِلم تسْتَنْبِطه من الحركة والعمل، فالعلم الذي تسْتنبطه من الحركة والواقِع العملي هو العِلم العملي والعِلم الذي تسْتقيهِ من الدروس والكُتُب وإلْقاء المُحاضَرات هو العِلم النظري.

أيها الإخوة ؛ والعِلم عِلمان: عقليٌ وسَمْعي ؛ إما أنْ تصِل إليهِ بذاتِك وعن طريق التأمّل وإما أنْ تُصْيغ السّمع إلى غَيْرك عن طريق التلقي، فإما أنْ تُفَكِر وإما أنْ تُصْغي قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)

تفكِّر وتتأمّل وتتدبّر أو تُصْغي ؛ تأْخُذُهُ جاهِزاً عن طريق السمْع وتَصْنَعُهُ أنت عن طريق العَقْل، عِلْمٌ يُؤخذ عن طريق العقل وعِلمٌ يؤخذ عن طريق السمع وعِلْمٌ تتلقاهٌ نظرياً وعِلمٌ تسْتَنْبطهُ عملياً وعِلم أساسُهُ إدْراك ذات الشيء وعِلمٌ أساسُهُ إدْراك صِفات الشيء.

وبالمُناسَبة أقول: هناك قِيَمٌ كثيرة يتفاضل بها الناس ؛ فالمال قيمَةٌ تفاضُلِيّة بين البشر والوَسامة والذكاء والقوة والوجاهَة والنَّسَب فهذه كلُّها قِيَمٌ تفاضُلِيّة ولكنّ الله تعالى لم يَعْتَمِدْها فالله جلّ جلاله اعْتَمَدَ قيمة العِلم وهي التي رفع شأنها قال تعالى:

(قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (٩))

(سورة الزمر)

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا فِي الْمَجَالِسِ فَافْسَحُوا يَفْسَحِ اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١١))

(سورة المجادلة)

وقيل رُتْبَةُ العِلم أعْلى الرُّتَب، والدليل أنّ أقْوى إنسان فيما يبْدو لكم في الأرض لا يسْتطيع أنْ يتَّخِذ قراراً إلا إذا سأل الخُبراء ؛ يُؤلِف لجنة من كِبار العلماء في موضوعٍ ما ويطْرح عليهم سؤالاً فيُعْطونَهُ خِيارات فَيَخْتار بين هذه الخيارات فَمَن الذي يَحْكم العالم إذاً ؟ هم العلماء ؛ فالذي بيَدَهِ إصْدار القرار يَحْتاج إلى خِبرة العالم.

وقد قال العلماء: **" هناك فرْقٌ بين أن تُعْلِم وبين أنْ تُعَلِّم "** فالإعْلام إلقاء الفِكرة بسُرعة لكن علّمْتُهُ: إلْقاء الفِكرة مع التّكْرار ومع الإتْقان ومع التعْليم والتّحْفيظ.

وقال بعضهم التعليم تنْبيهُ النفوس لِتَصَوُّر المعاني أما التعلم تنبُهُ النفس لِتِلْك المعاني فالتَنَبُّه الذاتي تعلّم والتنْبيه القسري تعليم وقد حلّت نظريات التعلم مكان نظريات التعليم فالإنسان لا يتعلّم إلا إذا أراد أنْ يتعلّم وعُنْصر الاختيار أساسي جداً في التعلّم لذلك بعض الجامِعات الآن تُعَلِّم الحقائق لا عن طريق التلْقين بل عن طريق البحث الذاتي والبحث العلمي ينمو في الجامِعات المتقدمة.

هذا الاسم العظيم اسم العالِم ورد في كِتاب الله عز وجل بصِيَغ كثيرة قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآَنَ (٢))

(سورة الرحمن)

أيُعْقَل أنْ يُعلم الإنسان القرآن قبل أنْ يُخْلق ؟ قال بعْضهم: قُدِّم تعْليم القرآن على خلق الإنسان تقْديماً رُتَبِياً لا تقْديماً زمنِياً بمعنى أنّ الإنسان لا معنى لِوُجوده دون منهجٍ يسير عليه " فالإنسان الشارِد الضائع الذي لا يعْلم هو دابّةٌ مُتَفَلِّتة، قيمة الإنسان بالعِلم ؛ دخل على مَجْلِس عمر ابن عبد العزيز وُفود المُهَنِّئين وتَقَدَّمَهُم وفْد الحِجازيّين وتقدّم هذا الوفْد غلام يافع لا تزيد سِنُّهُ على اثنتَي عشْرة سنة فانْزَعَجَ الخليفة من هذا الغلام الذي يتَقَدّم هذا الوفْد قال: أيها الغُلام اِجْلِس أنت ولْيَتَقَدّم من هو أكْبرُ منك سِناً فقال هذا الغُلام: أصْلَح الله الأمير المرْءُ بِأصْغَرَيْهِ قلبِهِ ولِسانِه فإذا وهب الله العبْدَ لِساناً لافِظاً وقلباً حافِظاً فقد اسْتَحَقّ الكلام ولو أنّ الأمر كما تقول: لكانَ في الأمة من هو أحقُّ منك بهذا المجْلِس فَدُهِشَ الخليفة.
وصبيٌ آخر دخل على عبد الملِك ابن مرْوان فانْزَعَج عبد الملِك وقال لِحاجِبِهِ ما شاء أحدٌ أنْ يدْخل عليّ إلاّ دخل حتى الصِبْيان فقال هذا الصبيُّ الناشئ: أيها الأمير إنّ دُخولي عليك لم يُنْقِص من قدْرِك شيئاً ولكِنّهُ شرّفني أصابَتْنا ثلاث سنين: سَنَةٌ أذابت الشّحْم وسَنَةٌ أكلت اللحم وسَنَةٌ نقّت العظم ومعكم فُضول مالٍ فإن كانت لكم فتَصَدّقوا بها علينا فإنّ الله يجْزي المُتَصَدِّقين وإن كانت لنا فَعلام تحْبِسُها عنا ونحن أوْلى بها وإنْ كانت لله فَنَحن عِبادُهُ فقال عبد الملِك: والله ما ترك هذا الغلام لنا في واحِدَةٍ عُذْراً.
لِذلك قالوا: جمال الرجل فصاحَتُهُ، وسيّدنا عمر ابن الخطاب عِمْلاق الإسلام والخليفة العظيم كهْف العدالة كان إذا مشى في الطريق من شِدّة هَيْبَتِهِ تَفَرّق الناس أمامهُ بل إنّ الصِّغار إذا رأوْهُ تفرّقوا ودخلوا إلى بُيوتِهم وذات مرّةً مشى في سكك المدينة ورأى غِلْماناً صِغاراً فلما رأوْهُ هربوا إلا واحِداً منهم بقِيَ رابط الجأش فلما وصَل إليه قال يا غُلام لِمَ لم تهْرب مع من هرَبَ ؟ فقال: يا أمير المؤمنين لسْتَ ظالِماً فأخْشى ظُلْمَك ولسْتُ مذْنِباً فأخْشى عِقابَك والطريق يَسَعُني ويَسَعُك، فأعجب الخليفة بجرأته وحسن كلامه، ثم إنّ الله عز وجل يقول:

(اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ(٥))

(سورة العلق)

أيُّها الإخوة: لِكرامةِ الإنسان على الله أنّهُ علّمَهُ البيان (اللغة)، والشيء الذي يألَفُهُ الناس لا يثير اهتمامهم لألفته لديهم، ولا توقظ فيهم حسّ تعظيم الله الذي تكرم به عليهم. فأنت باللُّغة تتَّصِل مع كلّ الناس فأنت صباحاً تستمع لِنَشْرة الأخبار وكلّ ما في العالم فيتجمّع لدَيْك الكثير من المعلومات، فمثلاً: هُنا سَقَطت طائرة وهنا مذْبحة وهنا قامت حرْبٌ أهْلِيّة وهنا خُطِفت طائرة وهنا عُقِد مؤتمر وهنا... ألَيْسَ كذلك ؟ بهذه الأذُن وبهذا النُّطْق بدقائِق معْدودات أحطت بالمعلومات كغيره وفي بلاد متعددة فاللغة أداة اتِّصال بين أفْراد النوْع ويُمْكن أنْ تُعَبّر عن مشاعِرك وعن أفْكارك باللُّغة قال تعالى:

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيراً وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ(٩١))

(سورة الأنعام)

لا زلنا في مادّة علِم والاسم اليوم عالِم قال تعالى:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩))

(سورة البقرة)

وقال تعالى:

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣١))

(سورة البقرة)

فهذه كُلُّها أفْعال العِلم التي وردت في القرآن الكريم وسيّدُنا موسى لما التقى بالعبد الصالح استأذنه في مصاحبته ليتعلم منه ورغم نبوته وفضله، قال تعالى:

(قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦))

(سورة الكهف)

وقال تعالى:

(وَإِذَا قِيلَ انْشُزُوا فَانْشُزُوا يَرْفَعْ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ)

أقول لكم هذه الفِكرة: وهو أنّ الله سبْحانه وتعالى له أسْماءٌ كثيرة فَمِن أسْمائِه العليم وعلاّم الغيوب ومن أسْمائِه العالم ولِكرامَة الإنسان على الله أعْطاهُ قُوّةً إدْراكِيّة يُصْبِح بها عالِما والحقيقة كُشوفات الإنسان العلمية تفوق حدّ الخيال.

فأينشتاين هذا العالِم الفيزْيائي الذي اكْتَشَفَ ما يُسَمى بالنظريّة النِّسْبِيَة وهي أنّ الخطوط في الفراغ ليْسَت مُسْتقيمة لكِنّها مُنْحَنِيّة وأنّ كلّ جسم يسير بسُرْعة الضوء يُصْبِحُ ضوءً والضوء كُتْلَتُهُ صفِر وحجْمُه لا نِهائي فأيُّ جِسْمٍ سار بسُرعة الضوء صار ضوْءاً بل إنَّهُ إنْ سبَق الضوء تراجع الزمن ؛ إن سار الجِسم بسُرعة الضوءِ صار ضَوْءً وتوقفَ الزمن فإن سبق الضّوْء تراجع الزمن وإنْ قصّر عن الضوء تراخى الزمن فلو أمْكَنَك أنْ تنْطَلِق من مَوْقِع معركة اليرْموك.

مثلاً: وأنْ تصْعَدَ إلى الفضاء الخارجي بسُرْعَةٍ أعْلى من سُرْعة الضّوء بعد حين ترى المعْركة وهي تقع لأنها حينما وقعَت صدر عنها مَوْجات ضَوْئيّة إلى الفضاء الخارجي قبل ألف وأربعِمائة عام تقريباً، فلو أنت سبَقْتَ الضوْء لرَأَيْت هذه المعْركة كما هي وكأنّها تقع الآن أمامك ولو سِرْت مع هذه المعركة

لصارَت هذه المعركة أبَدِيّة وتوَقّف الزمن ولو قصّرْت عنها لكانت رحْلةٌ في الفضاء ساعةٌ كألفِ سنَةٍ على الأرض وهو بعض معاني قوْلِهِ تعالى:

((وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنّ يَوْماً عِنْدَ رَبّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمّا تَعُدُّونَ (٤٧))

(سورة الحج)

فإذا ركِبْتَ مرْكَبَةً فضائِيّة وسِرتَ بِسُرْعَةٍ أقلّ من الضوء قليلاً ولتعلم أن الساعة في الفضاء الخارجي تُساوي مائة عام في الأرض، فالله عز وجل سمَح لِهذا الإنسان أنْ يعْلم وإنّ الله عالِمٌ يُحِبُّ العالِم ورُتْبَةُ العِلْم أعْلى الرُّتَب فَلِذلك حينما يُغْفِل الإنسان قيمة العِلم في حياتِهِ أو حين لا يعْتني بإدْراكِهِ ولا يعْتَني بالعِلْم ولا يطْلُبُهُ يَهْبط عن مُسْتوى إنْسانِيَتِهِ إلى مُسْتوى لا يليق به والشيء الدقيق أنّ:

((وَفَوْقَ كُلّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ (٧٦))

(سورة يوسف)

يُرْوى قبل ستّين عاماً فيما أذْكر وفيما سَمِعْت أنّ أحد شيوخ الأزهر قدِم إلى الشام وشَيْخ الأزهر في مِصْر يُساوي مَرْتَبَةً علمية وله أيضاً مرتبة إدارية مرموقة عالِيَةٌ جداً فَجَلَسَ في بعض مجالِس الشيوخ في دمشق وهو الشيخ بدْر الدين وكان يَمْلأ هذا الكرسي لأنّ مرْتَبَتَهُ العلمية العالية، ومرتبته الإدارية تسمحان له بذلك، فلما سَمِع عِلْم الشيخ بدْر الدين غَيّر من جَلْسَتِهِ إلى أنْ تطامَنَ

(وَفَوْقَ كُلّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ)

وأحْياناً يكون الإنسان في مجلس لا يسْتطيع أحدٌ أنْ يردّ عليه فيَتَكلّم بما يشاء فإذا اكْتَشَفَ أنّ في المجْلِس من هو أعْلم منه يسْكُت ولسان حاله يقول: سكَتُ إجْلالاً لِعِلْمِك والإنسان من حِكْمَتِهِ البالِغة أنّه إنْ كان في المجْلِس من هو أعْلم منه عليهِ أنْ يلْزم الصمْت فإذا تكلّم في حضْرة من يعْلم فقد أساء الأدب ولكن الذي يعلم قد زانه أدب العلم، فتراهُ يُصْغي للحديث بِسَمْعِهِ وبِقَلْبِهِ ولعَلّهُ أدْرى بِهِ.

من الآيات التي وردت فيها كلِمة العالِم قوله تعالى: عالم الغيب فلا يُظهر على غيْبه أحداً إلا من ارْتضى من رسول، والنبي عليه الصلاة والسلام حدّثنا عن آخر الزمان قال:

((إذَا رَأَيْتَ شُحّا مُطَاعًا وَهَوًى مُتّبَعًا وَدُنْيَا مُؤْثَرَةً وَإِعْجَابَ كُلّ ذِي رَأْيٍ بِرَأْيِهِ فَعَلَيْكَ بِخَاصّةِ نَفْسِكَ وَدَعِ الْعَوَامّ فَإِنّ مِنْ وَرَائِكُمْ أَيّامًا الصّبْرُ فِيهِنّ مِثْلُ الْقَبْضِ عَلَى الْجَمْرِ لِلْعَامِلِ فِيهِنّ مِثْلُ أَجْرِ خَمْسِينَ رَجُلا يَعْمَلُونَ مِثْلَ عَمَلِكُمْ))

[رواه الترمذي]

وإذا وُسِّدت الأمور لِغَيْر أهْلِها فانتَظِر الساعة ومن علامات قيام الساعة أنْ يكون المطر قيْظاً والولد غيْظاً ويفيض اللِّئام فيْضاً ويغيض الكِرام غيْضاً ومن علامات قيام الساعة أنْ يُصَدّق الكاذِب ويُكَذّب الصادِق وأنْ يؤْتَمَنَ الخائن ويُخَوّن الأمين أحاديث كثيرة نبّأنا بها النبي صلى الله عليه وسلّم قال:

((عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صِنْفَانِ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ أَرَهُمَا قَوْمٌ مَعَهُمْ سِيَاطٌ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ وَنِسَاءٌ كَاسِيَاتٌ عَارِيَاتٌ مُمِيلاتٌ مَائِلاتٌ رُءُوسُهُنَّ كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ الْمَائِلَةِ لا يَدْخُلْنَ الْجَنَّةَ وَلا يَجِدْنَ رِيحَهَا وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ كَذَا وَكَذَا))

[رواه مسلم]

كيف أنّها كاسِيَة عارِيَة ؟ إما إنّ ثِيابَها تشِفُّ عما تحْتها هي كاسِيَة فيما يبدو ولكِنها عارِيَة لما يشفُّ عمّا تحت ثيابها أو أنّها ضيّقة تصِف حجْمَ أعْضائِها فهي كاسِيَة عارِيَة ومائِلَةٌ مُميلَة فَالْعَنوهُنّ لأنّهن ملْعونات كما قال عليه الصلاة والسلام ؛ قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦))

(سورة الجن)

((عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ قَالَ أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُمْ بِهِنَّ وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا بِهَا إِلا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَضَتْ فِي أَسْلافِهِمِ الَّذِينَ مَضَوْا وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ وَلَمْ يَمْنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلا مُنِعُوا الْقَطْرَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَوْلا الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللَّهِ وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلا سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ وَمَا لَمْ تَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلا جَعَلَ اللَّهُ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ))

[رواه ابن ماجة]

أليس هذا الحديث من دلائل نُبُوّة النبي عليه الصلاة والسلام ؟ فهذا الحديث من أرْوَع الأحاديث وكأنّ النبي عليه الصلاة والسلام معنا.

أيها الإخوة الكِرام، هذا الاسْم العالِم ورد كثيراً مع الغيب والشهادة فقد قال عز وجل:

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣))

(سورة الأنعام)

عالِم الغيب والشهادة فكُلّ ما هو واقِع هو من عالم الشهادة وكلُّ ما لم يقع هو من عالَم الغيب فالله سبحانه وتعالى عالم الغيب وعالِم الشهادة ؛ عالِم الغيب والشهادة فَهُناكَ شيءُ يغيب عنك لِبُعْد مكانِه وهناك شيءٌ يغيب عنك لِبُعْد زمانِهِ، فأنت الآن في الشام لا تدْري ما هو الآن كائِنٌ بِحلب وفي الساحة الفُلانِيّة وفي المكان الفلاني لا تدْري ما يكون في حلب هو من عالم الشهادة ولكنّه بعيدٌ عنك فالذي بيْنك وبيْنه مسافاتٌ طويلة لكن عالم الغيب الزّمني ؛ الماضي السحيق أو المُسْتقبل البعيد فَهُناك غَيْب الماضي هو بُعْد زماني وغيْبُ المُسْتَقْبل بُعْد زماني ولكنّ غيْب الحاضِر بُعدٌ مكاني فالله سُبْحانه وتعالى عالِم الغيب والشهادة ومن هنا كان سيّدنا علي ابن أبي طالب رضي الله عنه أو رسول الله صلى الله عليه

وسلّم إذا سافر دعا بهذا الدعاء: " اللهم أنت الرفيق في السفر والخليفة في الأهل والمال والولد " هو معك لأنه عالِم الشهادة وهو مع أهْلِك لأنه عالم الغيب فإذا دعا الإنسان بهذا الدعاء قبل أنْ يُسافر يُلْقي الله في قلبهِ الطُمأنينة والسكينة لأنّ الله تعالى كما يقول:

(قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٦٤))

(سورة يوسف)

تَرْوي بعض الأحاديث أنّ الله يوقِفُ عَبْدَيْن يوم القِيامة ؛ عبْداً أعْطاه مالاً فيَقول له: قد أعْطيْتُك مالا فماذاَ صنعْتَ فيه ؟ يقول: يا رب لم أنْفِق منه شيئاً مخافَة الفقْر على أولادي من بعْدي يقول الله عز وجل: ألم تعْلم أني أنا الرزاق ذو القوة المتين ؟ إنّ الذي خشيتَهُ على أوْلادِك من بعْدِك قد أنْزَلْتُهُ بهم ويقول لِعَبْدٍ آخر قد أعْطيْتُك مالا فماذاَ صنعْتَ فيه ؟ يقول يا رب أنْفَقْتُهُ على كلّ مُحْتاج ومِسْكين لِثِقَتي أنّك خيْرٌ حافِظاً وأنت أرْحم الراحِمين يقول الله عز وجل: أنا الحافِظ لأوْلادِك من بعْدِك، وفي قوْلِه تعالى:

(قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦))

(سورة الزُمر)

بإمْكانِك أنْ تُسافِر وأنت مُطْمَئِنٌ على أهْلِك لأنّك دعَوْت الله وهو الذي يعْلم الغَيْب والشهادة أنْ يحْفَظهم في غَيْبَتِك، قال تعالى:

(وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ(١٠٥))

(سورة التوبة)

وقال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ(١١٦))

(سورة المائدة)

أحد مصادر قوة المؤمن أنّ الله تعالى عالِم الغيب والشهادة فقد يُلْهِمُهُ أنْ يأخذ الاحْتِياط من عدُوِّهِ لأنّ الله يعْلم الغيب والشهادة ؛ يعْلم الشهادة التي يشْهَدُها المؤمن ويعْلم ما يغيب عن المؤمن مثلاً لو كان هناك فريقان وكلاهما يكيد للآخر وكلا أعضاء الفريقين لا يعلم ما يفعل خصْمُهُ فإذا كان أحد الفريقْين مع الله فالله يعْلم ما يَفْعل أعْضاء الفريق الآخر فيُلْهِم الأوّل أنْ يفْعل كذا وكذا

قال تعالى:

(إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آَمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨))

(سورة الحج)

فإذا كنت مع الله فمن يستطيع أن يكون عليْك ؟ وإذا كان الله معك فَمَن عليْك ؟ لأن الله مع خصْمِك يَعْلَمُ سِرَّهُ ونَجْواه ويُلْهِمُك الصواب في كلِّ مَوْقِف وتأخذ لنفسك الحيطة وتحذر، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩))

(سورة الرعد)

الله جلّ جلاله هو العَلِيّ الأعلى الوهاب، قال تعالى:

(عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢))

(سورة المؤمنون)

وقال تعالى:

(يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ(٢))

(سورة سبأ)

فإذا تولّى إنسانٌ أمْراً وغاب عن عِلْمِهِ فيجري فيُقال عنه جاهِل وسَيِّبَ عملَهُ وضعيف الضبط وما استطاع أنْ يضبِط أمورهُ، أما الله سبحانه فكُلُّ شيءٍ يدْخل إلى الأرض يعْلَمُهُ وكلُّ شيءٍ يخْرُجُ منها يعْلَمُهُ ولا تخفى عليه خافية، وقال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٣))

(سورة سبأ)

وقال تعالى:

(وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩))

(سورة الأنعام)

تصَوَّر أنَّكَ تمْشي في بُسْتان أيام الخريف ؛ كم من ورقة تسقط في الخريف ؟ إذا كان أرْبَعَةُ أخْماس الأشْجار أشْجارٌ مُتَساقِطة الأوْراق فكَم ورقة تسقُط في الخريف ؟ عددها كبير جداً والصيغَةُ صيغة قصْرٍ لو قال سبحانه يعْلم سُقوط الأوْراق كان له معنى معين، وإنما قال: " وما تسْقط من ورقة إلا يعْلمها " فإذا كان يعْلم سُقوط ورقة ألا يعْلم ما يدور في ذِهْنِك ؟ وما تنْوي أنْ تفْعَل ؟.

لِذلك أيها الإخوة، من الآيات التي تلفِت النظر أنّ الحجّ كلّهُ من أجْل أنْ تعْلم أنّ الله يعْلم أن المؤمنين سيملئون جنبات هذا المكان المقدس ويكذبون مصدر رزق لسكانه الذي سكنوه وهو غير ذي زرع، والكَون كلّهُ من أجْل أنْ تعْلم أنّ الله يعْلم قال تعالى:

(اللّهُ الّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنّ يَتَنَزّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنّ لِتَعْلَمُوا أَنّ اللّهَ عَلَى كُلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنّ اللّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلّ شَيْءٍ عِلْماً (١٢))

(سورة الطلاق)

وقال تعالى:

(وَقَالَ الّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبّي لَتَأْتِيَنّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرّةٍ فِي السّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ)

وقال تعالى:

(إِنّ اللّهَ عَالِمُ غَيْبِ السّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُور (٣٨))

(سورة فاطر)

إن الله سبحانه يعلم ما تنطوي عليه النفسُ البشريّة وما تُكِنُّ وما تُسِرّ وما يَخْفى عليها وما تَحْلم به وما يدْفعُها وبواعِثُها:

(إِنّ اللّهَ عَالِمُ غَيْبِ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِنّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصّدُور)

وهو سبحانه لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء

وفي الزمر قال تعالى:

(قُلْ اللّهُمّ فَاطِرَ السّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)

وفي سورة الحشر قال تعالى:

(هُوَ اللّهُ الّذِي لَا إِلَهَ إِلّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ هُوَ الرّحْمَنُ الرّحِيمُ (٢٢))

(سورة الحشر)

وفي سورة الجمعة، قال تعالى:

(قُلْ إِنّ الْمَوْتَ الّذِي تَفِرّونَ مِنْهُ فَإِنّهُ مُلَاقِيكُمْ ثُمّ تُرَدّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ فَيُنَبّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٨))

(سورة الجمعة)

وفي سورة التغابن، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشّهَادَةِ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨))

(سورة التغابن)

وفي سورة الجنّ، قال تعالى:

(عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦))

(سورة الجن)

وقال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١))

(سورة الأنبياء)

آياتٌ كثيرةٌ جداً وردَتْ فيها كلِمة عالِم وهناك علاّم وعليم ؛ علام الغيوب سميع عليم، أما الدرس اليوم العالِم اسْمٌ من أسْماء الله الحُسْنى ويَبْدو أنّ أكثر الآيات التي وردت فيها كلِمة العالِم وهو اسْمٌ من أسْماء الله الحُسْنى ورَدَت هذه الكلِمة مُقْتَرِنة بِعالِم الغيب والشهادة أيْ أنّ الغيب ما غاب عنك والشهادة ما تشْهَدُهُ فإذا وكَّلْتَ أمْرك إلى الله فهُو يُدافِعُ عنك فيما تشْهَدُهُ وفيما هو غائِبٌ عنك.

أيها الإخوة الكِرام، مُلَخَّصُ هذا الدرس أو التطبيق العملي له هو كما يلي:

راقِبْ نفْسَك ؛ لو طرق بابك إنْسان كريم له هَيْبَة ومكانة وعالِم ووَقور ودخل إلى البيت كيْفَ ستَتَصَرّف ؟ تَصَرُّفٌ حكيم تَنْتقي أجْمل الألفاظ وتَرْتَدي أجْمل الثِّياب وتَجْلِس أمامهُ جلْسَةً مُؤَدّبة فإذا كنت تهابُ رجلاً من بني جِلْدَتِك له مكانةٌ في قوْمِهِ وتتأدّبُ في مَجْلِسِه فكَيْف إذا علِمْت أنْ الله يعْلم ؟ وكيْف إذا علِمْت أنّ الله علاّم الغيوب ؟ وكيف إذا علِمت أنّ الله لا يخْفى عليه شيءٌ في الأرض ولا في السماء ؟ وكيف إذا علِمت أنّ الله أقْرب إليك من حبْل الوريد ؟ وكيْفَ إذا علِمْتَ أنّ الله يحولُ بين المرْء وقلْبِهِ ؟ وكيف إذا علِمْت أنّهُ يعْلم السِّر وأخفى ؟ وكيف إذا علِمْت أنّ الله يعْلم ما كان وما يكون وما سَيَكون ويعْلم ما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

لذلك يقول عليه الصلاة والسلام:

((أفضل إيمان المرء أنْ يعْلم أنّ الله معه حيثما كان))

وهذا يخفر المؤمن أن يعرف قدر ربه فيها به ويستجدي رحمته وتوفيقه.

هل يُمْكِن أنّهُ إذا كنت ترْكب مرْكَبَةً والإشارة حمْراء والشرْطي واقِف والضابط موجود والذين على الدراجة جاهِزون ؛ هل يُمكن أن تتجاوز الإشارة الحمراء ؟ لأنك تعْلم أنّك لن تنْجُوَ منهم جميعا فكيْف إذا علِمت أنّ الله معك دائِماً وأنّك في قبْضَتِهِ ولن تسْتطيع أنْ تتفلّت من عِقابِهِ أبداً.

فيجب أنْ تعْلم أنّ الله يعْلم فإذا علِمْت أنّ الله يعْلم اسْتَقَمْتَ على أمْرِهِ وإنْ اسْتَقَمْتَ على أمْرِهِ سَعِدْتَ بِقُرْبِهِ في الدنيا والآخرة.

٩٨- اسم الله المبين :

مع الدرس الثامن والتسعين من دروس أسماء الله الحُسنى والاسم اليوم المبين، الله جلّ جلاله يقول في سورة الرحمن:

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤))

(سورة الرحمن)

البيان هو الإفصاح والتعبير والكشف والإبانة والتوضيح وورد في الأثر أنّ البيان يطرد الشيطان ؛ وضِّح بيّن فصِّل ونَوّه واشْرح ائت بالدليل.

لذلك فإن النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان مع زوْجتِه صَفِيّة مرّ صحابيان جليلان به في الطريق فقال: على رِسْلِكما هذه زوْجَتي صَفِيّة قالوا: أفيك نشُكّ يا رسول الله ؟ قال لئلا يدْخل الشيطان عليكما فإنّ الشيطان يَجْري في الإنسان مجْرى الدم ؛ البيان يطْرد الشيطان وأنا أعرف أناساً كثيرين تجد أحدهم أكثر مُشكلتِهِ في صمتِهِ يسْكت ولا يُوَضِّح قد يكون بريئاً وطاهِراً وسليم الصدر حسَنَ النِيّة لكنّ صمْتَهُ الدائم هو الذي يُثير حوْله الشبهات ؛ وضِّح، بيّن، هذه زوْجَتي صَفِيّة أفيك نشُك يا رسول الله ؟ قال: لا لئلا يدْخل عليكما الشيطان فإنّ الشيطان يجْري من ابن آدم مجْرى الدم.

البيان هو الإظْهار إظْهار المقصود بأبلَغ لفظ وهو الفهْم وذكاء القلب بل إنّ صِفَة البيان من امْتِنان الله عز وجل على الإنسان ومن أخَصّ خصائص الإنسان البيان والقُدْرة عن التعبير، والتعبير عن الأفكار وعن التصَوُّرات والمشاعر وعن العواطِف، والتعبير عن الحاجات وعن الطموحات وكلُّ ما يَعْتلج في نفْس الإنسان من أفْكار وتصَوُّرات وأهْداف وطُموحات وآلام ومن مشاعر وعواطِف وخواطِر يمكِن أنْ يُعبّر عنها فالبيان من أخصّ خصائص الإنسان فَيُمْكِن أنْ يُعَبّر عنها بِلِسانِه ويُمْكن أنْ يُعَبّر عنها بقَلَمِهِ ويُمْكن أنْ يُصْغي إليها بِأُذُنِهِ ويُمكن أنْ يفْهَمَها بعقلهِ فإذا كان الكلام إلْقاءً وتَلَقِياً بقِيَ محْصوراً في المُتعاصِرين أما إذا كُتِب وقُرِئ انْتَقَل من جيلٍ إلى جيلٍ ومن أمّةٍ إلى أمّة ومن قارّةٍ إلى قارّة لِذلك قال تعالى:

(الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤))

ثمانِيَةٌ وعِشْرون حرْفاً يُمْكن أنْ يُصْنع منها بلايين الكَلِمات وملايين وملايين الأفكار والمشاعر والمقولات.

من أسْماء الله الحُسنى المبين واللغة تذكر أنّ البَيّنة هي الدلالة الواضِحة قال تعالى:

(لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ (١))

(سورة البيّنة)

هذه الآية إشارةٌ إلى مجيء سيدنا عيسى عليه وعلى نبيّنا أفْضل الصلاة والسلام ؛ البَيّنة الدلالة الواضِحة عَقْلِيَةً كانت أم محْسوسة وفِطْرِيَّةً كانت أم واقِعِيَة، كلُكم يعْلم أنّ هناك دليلٌ فطْري ودليل عَقْلي ودليل نقْلي ودليل واقِعي وكنت أكْثر الحديث حول هذه الفِكرة.

الحق دائرة يتقاطع بها خط النقل مع خط العَقْل مع خط الفِطرة وخط الواقِع، الحق الذي ينْبغي أن تعتقِد به جاء بِهِ النقْل الصحيح وأيَّدَهُ العقْل الصريح واطْمَأنَّتْ إليه الفِطرة السليمة وأكَّدَهُ الواقِع المَوضوعي ؛ الحق الذي ينْبغي أنْ تعْتَقِده وتؤمن به وأن تُدافِع عنه وأن تُفْنِيَ شبابك من أجْلِهِ وأنْ تسْتَهْلِك عمرك الثمين في سبيلِهِ ؛ هو الذي جاء بِهِ النقل الصحيح وأقَرَّهُ العقْل الصريح السليم واطْمَأنَّت إليه الفِطرة السليمة وأكّدَه الواقِع الموضوعي والحق هو الله والله من أسْمائِه الحق الله جل جلاله خلق الكوْن فالكون خلقُهُ وأنزل القرآن والقرآن كلامه وجبل النفوس جِبِلّةً خاصّةً فالفِطرة ما جبلنا عليه، والعمل مِقْياسُهُ أوْدعَهُ في الإنسان وخلق الواقِع على نِظامٍ دقيق فالواقع خلقه والقرآن كلامه والعقل أداةٌ أودعه فينا والفِطرة جِبِلّة جُبِلْنا عليها فالحق هو الذي يأتي به النقل الصحيح مع العقل الصريح مع الفِطرة السليمة مع الواقع الموْضوعي.

أيها الإخوة الكرام، سُمِّيَ الكلام بياناً لأنه يكْشِف عن المعنى المقْصود ؛ مثلاً طِفْلٌ صغير دخل في جِسْمِهِ من قِماطِهِ دبوس بكى بُكاءً مُراً فحار أهْلُهُ في سبب البكاء ساعاتٍ طويلة أطْعموه فلم يقْبل وسَقَوْهُ فلم يقبل وحملوه فلم يسكت ؛ لو قال: إنّ في جِسْمي دبوس انْزعه مني انتهى الأمر عِوَض أربع ساعاتٍ من البكاء لكن الطِفل الصغير لا يُبين ولا يسْتطيع أنْ يُعَبِّر عن حاجاتِهِ إلا بالبُكاء والبُكاء لغةٌ ضبابِيّة عامّة فهو يبْكي يا ترى جائِع أو عطْشان أو مُتَألِّم أو مَغْص هضمي لا ندْري ؛ فالبيان من أخص خصائص الإنسان.

وقال بعضهم التِّبْيان هو الكشْف والإيضاح والتبْيين والتثَبّت وقد وردت مادة البيان والإبانة في مواطن من القرآن الكريم قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ(١٥٩))

(سورة البقرة)

الإنسان أحْياناً يتوَهّم جهْلاً أو تجاهُلاً أو تقْصيراً في البحْث العِلمي أو غباءً يَتَوَهّم أنّ الدين لا يقوم على شيء بل إنّ كلّ شيءٍ سِوى الدين لا يقوم على شيء ؛ لَسْتم على شيء ولسْتم على حقيقة ولا على بيّنة ولسْتم على دليل ولا على برهان، من أخصّ خصائص الإنسان أنّهُ يمْلك الحجة البالِغة والدليل القاطِع ويتحرّك وِفْقَ مبادئ ويتَّجِهُ نحوَ أهداف ثابتة ولا يُمكن أنْ يُفاجأ المسلم في وقْتٍ من الأوقات أنه اعْتَقَد خطأً ما دامت عقيدتُهُ مُسْتَمَدَّةً من كِتاب الله وسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلّم قال تعالى:

(إنّ الّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أنزَلْنَا مِنْ الْبَيّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيّنّاهُ لِلنّاسِ فِي الْكِتَابِ أوْلَئِكَ يَلْعَنُهُمْ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمْ اللاعِنُونَ)

يقولون لكم أحْياناً: إنّ فلاناً إيمانُهُ في قلْبِهِ ولا يسْتطيع أنْ يجْهر بِهِ؛ ما قيمة هذا الإيمان إذا بَقِيَ على شاكِلَةِ أُناسٍ مُتَفَلِّتين ؟ وقال أنا إيماني في قلبي ! هذا كلام غير مقْبول والإيمان إذا اسْتَقَرّ في القلب حقيقة لابد أنْ يُعبّر عن وُجودِهِ بكلامٍ ينْطِقُهُ أو بسُلوكٍ يسْلُكُهُ أو بدَعوةٍ ينْشُرها أو بعَملٍ يُمارسُهُ أو بصداقةٍ يُنْشئها أو بخبر يفْعَلُهُ وعلامة الإيمان التحرّك والإيمان حركة ولا يوجد مؤمن سكوني وباقٍ في بيْتِهِ ومؤمن لا يتدخّلُ في شيء ولا هناك مؤمن لا يتمنى هِداية الخلْق ولا يبْحث عن طريقةٍ يُعَرّف الناس برَبّهم لذلك ما إنْ تسْتَقِرّ حقيقة الإيمان في قلب المؤمن حتى يُعَبّر عن إيمانِهِ بحَرَكة وبدَعْوةٍ وكلام ونُصْح وأمْرٍ ونهْيٍ وإعْطاء وبمَنْع وبصِلة وبقَطيعَةٍ وولاءٍ وبراءٍ فلا بد من حركة قال تعالى:

(إنّ الّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأمْوَالِهِمْ وَأنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أولَئِكَ بَعْضُهُمْ أوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتّى يُهَاجِرُوا وَإنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدّينِ فَعَلَيْكُمُ النّصْرُ إلّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ(٧٢))

(سورة الأنفال)

لذلك أنْ تَكْتُم علما ولا تُبيّنُهُ وقعْت في كبيرةٍ من الكبائر ؛ كِتْمان العِلْم أمر خطير، لذلك ربنا عز وجل وصَفَ دُعاتِهُ الصادقين بصِفَةٍ واحدة وهذه الصّفة تُغْني عن آلاف الصّفات ؛ الداعيَة الصادِق لا يخْشى إلا الله فلَو خَشِيَ أحداً غير الله لتَكَلّم بالباطِل إرْضاءً لِمن يخافُهُ ولسَكَت عن الحق خوْفاً ممن يخافُهُ فإذا تكلّم بالباطِل وسكَتَ عن الحق ماذا بقِيَ من دعْوَتِهِ إلى الله تعالى قال تعالى:

(الّذِينَ يُبَلّغُونَ رِسَالَاتِ اللّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أحَداً إلّا اللّهَ وَكَفَى بِاللّهِ حَسِيباً (٣٩))

(سورة الأحزاب)

أذكر مرّةً أني قرَأتُ حدثاً واحداً لكِنّهُ مُعبّر ؛ وذو دلالة بالغة، والي البصْرة جاءَهُ كِتابٌ من يزيد يَأمُرُه بشيءٍ لا يُرْضي الله عز وجل وكان عنده الإمام الحسن البصْري من الأئمّة الأعلام ومن التابعين ووقع هذا الوالي في حَيْرة أيُنَفّذ أمْر يزيد ويُغْضِب الله عز وجل ؟ أم يرفُض أمْر يزيد فيرضي الله ويُغْضِب يزيد ؟ ولعَلّهُ يخْلَعُهُ من عمَلَهَ فاسْتشار الإمام الحسن البْصري قال هذا الإمام كلِمَةً تُكْتَبُ بماء الذهب قال: إنّ الله يمْنَعُك من يزيد ولكِنّ يزيد لا يمْنعك من الله، وفي الحديث الصحيح:

((عَنْ أبي هُرَيْرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللّهِ صَلّى اللّه عَلَيْهِ وَسَلّمَ مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ))

[رواه الترمذي]

لكن بالمقابل لو سُئلت عن شيءٍ وأنت لا تعْلَمُهُ قل: لا أدْري بمِلء فمِك ولا تسْتحي لأنّ نِصْف العِلم لا أدْري والإمام أحْمد كما ذكرْت لكم جاءَهُ ثلاثون سؤالاً من وَفْدٍ جاءَه من أقْصى المغرب لعلّ هذا الوفد

أمْضى أشْهُراً ثلاثة في السفر أجاب عن سبْعة عشرَ سؤالاً ولم يُجِب عن الأسْئِلة الباقِيَة فلما قيل له: والباقِيَة قال: لا أعْلم، قالوا له: الإمام أحْمد لا يعْلم قال قولوا: لِمن أرْسَلَكم الإمام أحْمد لا يعْلم ؛ كُنْ مَوْضوعِياً فهذا النبي عليه الصلاة والسلام حينما كان يُسْأل عن أمر أو مسألة لم ينزل عليه الوحي فيه لا يُجيب وهو سيّد العلماء وسيّد الخلق، من سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عَلِمَهُ ثُمَّ كَتَمَهُ أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ.

لذلك قال العلماء: **" أمانة الأنبياء أمانة التبْليغ أما أمانة العلماء أمانة التبْيين فالأنبياء أمانتُهم تبْليغ والعلماء أمانتُهم تبْيين ".**

وفي الآية الكريمة قال تعالى:

(شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ(١٨٥))

(سورة البقرة)

بيّنات كما قال عليه الصلاة والسلام:

((عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرٍو السُّلَمِيِّ أَنَّهُ سَمِعَ الْعِرْبَاضَ بْنَ سَارِيَةَ قَالَ وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَوْعِظَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةُ مُوَدِّعٍ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا قَالَ قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلا هَالِكٌ وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الأَنِفِ حَيْثُمَا انْقِيدَ انْقَادَ))

[رواه أحمد]

فَلِلمؤمن ميزة قد يغْفَل عنها أنت معك الحق وأنت معك الدليل والحجّةُ القاطِعة وأنت معك نورٌ من الله وتقرأ الوحي الذي أنْزِل على النبي عليه الصلاة والسلام والوَحْي نِداء السماء إلى الأرض، فأنت حينما تجْلِس إلى آلَةٍ بالِغة التعْقيد وتُحاوِل أنْ تفهمها من خلال تحْريك الأزرار قد تُعْطِبُها وقد لا تفْهم حقيقة عمَلِها ولا طريقة اسْتِعْمالِها ولا طريقة إيقافِها ولا طريقة صيانَتِها، وقد تسْأل فتَأتيك أجْوِبَةٌ مُتناقِضة وقد تأتيك التعْليمات فلا تفْهَمُها وقد تسْأل من عنده مثل هذه الآلة ويَغْفَل عن بعض حركاتِها أما إذا جلسْت إلى مُختَرِعها وصانِعِها وسألْتَهُ فجوابه صحيح، حقٌ مئة بالمئة.

لذلك هناك علوم تجْريبية وعلوم دينِيّة أصلُها الوحي فالوَحْيُ قطْعِيٌ في صِحّتِه لأنه من عند الله عز وجل ولا يُنَبِّئك مثل خبير، أحد الأطِباء وهو من العلماء اسْتَنْبَط من حديث رسول اله صلى الله عليه وسلّم أنّ للإنْسان أنْ يشْرب ما شاء مع الطعام من قوْل النبي عليه الصلاة والسلام:

((مَا مَلأَ آدَمِيٌّ وِعَاءً شَرًّا مِنْ بَطْنٍ حَسْبُ الآدَمِيِّ لُقَيْمَاتٌ يُقِمْنَ صُلْبَهُ فَإِنْ غَلَبَتِ الآدَمِيَّ نَفْسُهُ فَثُلُثٌ لِلطَّعَامِ وَثُلُثٌ لِلشَّرَابِ وَثُلُثٌ لِلنَّفَسِ))

[رواه ابن ماجة]

وبَقِيَ هذا الطبيب وهو أستاذ جامِعِيّ يُؤكِّد لِطُلابِهِ خِلال عِشْرين عاماً أنَّهُ لا مانِع من شُرْب الماء مع الطعام بِالقدْر الذي تريد بيْنما بقِيَّة الأطِباء يُرَدِّدون نظريَّة درسوها في الجامِعات الغَرْبِيَّة من أنّ شرب الماء مع الطعام يُمَدِّد العُصارات الهاضِمة ويُضْعِفُ الهضْم فلا بد من أنْ تنْتظر ساعاتٍ ثلاث حتى تشْرب من الماء ما تشاء وهذا الأسْتاذ الذي اسْتَنبط من حديث رسول الله هذه الحقيقة يُدافع عن رأيهِ بِشَكْلٍ مُخْتَصَر.

النبي لا ينْطِق عن الهَوى إن هو إلا وحْيٌ يوحى والنبي ينْطِق عن الوَحي والله الخبير إلى أنْ ثبَتَ علْمِياً قبل سنَةٍ ونَيّف وقد نُشِر هذا في مجلّة أبْحاث عِلمِيّة مرموقة جداً أنّ شُرب الماء مع الطعام يُعين على الهضْم مهما أكْثرت من شُرب الماء لأنَّهُ يحُثّ العُصارات الهاضِمة على الإفْراز وأنّ الطعام إذا تخَلّلهُ الماء أمْكن للعُصارات الهاضِمة أنْ تتَغَلْغَلَ في كلّ أنْحائِهِ وأنْ تُعين على هَضْمِهِ فالأصْل هو الوَحي فكُل شيءٍ يُخالِف الوَحي فيهِ خطأٌ ؛ بَدَتْ لك حقيقَتُهُ أو لم تبْدُ ؛ المؤمن يُصَدِّق الله عز وجل.

قال تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آَيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ(١١٨))

(سورة البقرة)

المُشْكِلة حلقة مُفرغة فالجاهِل ينتَظِر أنْ يَهْدِيَهُ الله وأنْ تأْتِيَهُ مُعْجِزة وأنْ يرى الله جهْرةً وأنْ يرى كِتاباً أُنْزِل من السماء وأنْ يرْجِع ميّتٌ من قبْرِهِ فَيُحَدِّثه:

(وَقَالَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ لَوْلا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ)

بيّناها وانتهى الأمر والكَون كلّه ينْطِق بعَظَمة الله وبوَحْدانِيَة الله وبِكمال الله والقرآن كلّه ينطق أنّه كلام الله من خلال إعْجازِهِ والقرآن ينْطِق أنّ هذا الذي جاءَهُ الكِتابٌ هو رسول من عند الله فالله بيّنَ وانتهى

قال تعالى:

(إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى (١٢) وَإِنَّ لَنَا لَلْآَخِرَةَ وَالْأُولَى (١٣))

(سورة الليل)

فالله هدى الناس وبقِيَ أنْ تستَجيبوا أنْتم قال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآَخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآَخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨))

(سورة التوبة)

وقال تعالى:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ(٢٤))

(سورة الأنفال)

بَقِيَ لك أنْ تسْتجيب ؛ هداك بالكون وأعْطاك العَقْل وجَبَلَك على فِطْرةٍ سليمة وجعل الحوادث كلّها تؤيّد كلامه في القرآن بل إنّ حوادث الكَوْن تأويلٌ للقرآن الكريم، النقْطة الدقيقة هنا أنّك إذا أرَدْت الهدى وجَدْتَهُ في كلّ شيء وإذا أعْرَضْت عنه لم تجِدْهُ في أوْضَح الأشياء فهُناك من عاش مع النبي صلى الله عليه وسلّم ؛ ألَمْ يرَ النبي وكمالَهُ ومنْطِقَهُ وأخْلاقه ومُعْجِزاتَه ألَمْ يقْرأ هذا الكِتاب الذي أُنزل عليه ومع ذلك لم يؤمن وقد يأتي إنْسان في آخر الزمان ولم ير النبي ولم يجْلِس إليه ولم يسْتَمِع إلى أقْوالِهِ ولم ير مُعْجِزاتِه والنورانيات التي كانت تُشِعُّ منه صلى الله عليه وسلّم ومع ذلك يؤمن به قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آَيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٩٧))

(سورة يونس)

والحقيقة أنّ الإنْسان كلّما ارْتقى يخافُ بِعَقْلِهِ وكلّما هبط مُسْتواهُ يَخافُ بِعَيْنِهِ الحيوان يخافُ بِعَيْنِهِ والإنسان الذي أنْكر إنْسانِيَتَهُ وعطّل عقله، لا يخافُ إلا بِعَيْنِهِ والكافر متى يَفْزع ؟ حينما يأتيه ملك الملك ومتى يخاف؟ حينما يقرب أجلُهُ ومتى يضْطرب ؟ حينما تأْتيه المُصيبة أما وهو في البَحْبوحَة والرخاء لا يُبالي إطْلاقاً بهذا الحق ؛ لذلك الذي يخاف بِعَيْنِه أقلّ مرْتَبَةً من الإنسان الذي يخاف بعقله أما الذي يخاف بِعَقْلِهِ فهو الإنسان العاقِل.

الشيء الثاني قال تعالى:

(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ(٢١٩))

(سورة البقرة)

هناك معنى دقيق جداً، أحْياناً يتناوَل الإنسان مادّة أوّلِيَة لِيُصنِّعَها فهو لا ينْتَفَعُ بها إلا إذا صنّعها فالخشب مثلاً لو اشْترى إنْسان شجرة ووضَعَها في البيت ماذا يفْعل بها ؟ إنّ هذه الشجرة تُشْرح إلى ألواح وتصنع قِطعة أثاث يجْلِس عليها وتُطْلى بطِلاء جميل فهناك مواد أوّلِيّة كثيرة جداً ليْسَت لها قيمة بذاتِها إلا إذا صُنِّعَت، وبعض النبات لا يُؤكل إلا إذا طُبِخ فهذه الآية دقيقة جداً يقول الله عز وجل:

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

(لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الْأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٨٩))

(سورة المائدة)

يجب أنْ تتناولوا هذه الآيات بالدراسة وتُفَكِّروا بها كي تَعْقِلوها وتسْتَفيدوا منها وكي تكون مُتَّكَأً لكم للوُصول إلى الله عز وجل.

إذاً عليك مُهمّة فالشمس مَوْجودة وكلُّ إنسان يرى الشمس ساطِعة لكنَّك مُحْتاجٌ إلى أنْ تُفَكِّر فيها بل إنّ بعض الحيوانات حينما تميل الشمس للغُروب تتَّجِه إلى إسطبلها ؛ البقر والدواب والأنعام حينما تميل الشمس إلى الغروب تتَّجِه إلى إسطبلها معنى ذلك أنّ الحيوان يُدْرِك أن الشمس مالتْ للغروب أما الإنسان فعليه أنْ يُفَكِّر من خلقها ومن كوّنَها ومن رفعها ومن جعلها مُلْتَهِبة ويدرك أنها مصْدر حراري للأرض وإنارة:

(كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)

والله أيها الإخوة هناك بالكَون آياتٍ لا تُعَدّ ولا تُحْصى وأيْنما اِلْتَفَت المرء وسار واتَّجَه وجلس ونظر رأى الآيات تُحيط به من كلّ جانِب لِذلك العِبْرَة أنْ تعكف على هذه الآيات وتُفَكِّر فيها ومن هنا قال الله عز وجل:

(إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (١٩٠))

(سورة آل عمران)

هناك آيةٌ تحمل العظة والدلالة واضحة جداً في سورة النِّساء، يقول الله تعالى:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦))

(سورة النساء)

البيان الإلهي من ثمرات إرادة الله عز وجل ؛ أحْياناً الإنسان يضْرب ابْنه ولا يريد أنْ يضْرِبه وأحْياناً يتناوَلُ الدواء وكان يتمنى ألا يتناوَلَهُ فلَيْسَ كلُّ فِعْلٍ مُتوافِقٌ مع الإرادة فالإنسان يفْعل أشْياء مضْطَرّاً لكنّ هنا الآية دلالتها دقيقة جداً فالله يريد لِيُبَيِّن لنا ولِيُعَرِّفَنا وأنْ ينْقُلنا من الجهْل إلى العِلم وأنْ يُخْرِجنا من الظلمات إلى النور ومن الضّياع إلى الوجدان ومن الضلال إلى الهدى ومن الشقاء إلى السعادة:

(يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)

وقال تعالى:

(وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧))

(سورة النساء)

يقول لك لِمَ لا تُصلي يا أخي ؟ تجد الجواب إلى أنْ يَهْدِيَني الله فهذا الكلام مُضْحِك وغير عِلمي فالله عز وجل خلقكَ لِيَهْدِيَكَ.

الذي أراه أنّ الله سبحانه وتعالى رحْمَة بِعِبادِهِ يُنَوِّعُ لهم أساليب الهدى وأوْدَعَ فيهم العُقول لِيَهْتَدوا وأوْدَعَ فيهم الفِطَر السليمة لِتَكون مِقْياساً لهم لأعْمالِهم وسَخَّر لهم السماوات والأرض لِيَكون هذا الكون مظْهراً لأسماء الله الحُسْنى وصِفاتِهِ الفضلى وجعل أفْعاله مُتَطابِقَة مع أقْوالِهِ كي يحْصل الانْسِجام في الكون، فالله وعد المُرابي بحرب قال تعالى:

(فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ(٢٧٩))

(سورة البقرة)

تجد دائِما وأبداً الذي يجْمع المال الحرام يُدَمَّر مالُهُ ؛ توافُقُ أفْعال الله مع كلامِهِ شيءٌ مُهِمٌّ جداً قال تعالى:

(مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧))

(سورة النحل)

حياة المؤمن طيبة وهو شيء جميل ينوه الله تعالى إليه في القرآن وتؤكده الدِّراسة المَيْدانِيَة فإذا اجْتَمَعْت مع الشباب المؤمن تجِدُهُم حقاً يعيشون حياةً طيِّبَة قال تعالى:

(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤))

(سورة طه)

لو تتبّعْتَ أحْوال أهْل الدنيا لوَجَدْتهم يعيشون معيشَةً ضنكا تطابق أفْعال الله مع كلامِهِ نَوْع من البيان فالكلام نظري والتطبيق عملي.

ويقول الله عز وجل:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ(١٥))

(سورة المائدة)

كلِمَة سلام ؛ فالسلامُ مُريحٌ جداً والسلام الذي أرادَهُ الله عز وجل هو السلام الذي من أسْمائِهِ تعالى لأنّ الله جلّ جلاله أصْل كلّ سلامٍ في الأرض والإنْسان قد يسْلم مع نفْسِهِ هو مُطْمَئِنٌ لها قال تعالى:

(يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي(٣٠))

(سورة الفجر)

والإنسان قد يكون في سلامٍ مع من حَوْله وعلاقاتِهِ واضِحة وصادِقٌ وأمين وليس بينه و بين من حوْله مشْكِلة ومُرْتاح البال وهو في سلامٍ مع من حوْله والإنسان المُطيع في سلامٍ مع ربّه قال تعالى:

(يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنْ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)

من أسْماء الله المُبين يُبَيِّن بأقْوالِه وأفْعالِهِ وأنواره وتجلِّيه وخلْقِهِ والفِطَر والعُقول والله عز وجل يُعَلِّمنا دائِماً ومن هنا قال بعض العلماء تفْسيراً لِهذه الآية ولهم فيها وِجْهَة نظر، قال تعالى:

(وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢))

(سورة البقرة)

يَفْهَمها بعض المُسْلِمين على الشكل التالي: إنْ اتَّقَيْتم الله يُعَلِّمْكم فَلَو كان المعْنى هكذا لَجاء النصّ على الشكل التالي واتّقوا الله يُعَلِّمْكم الله جواب الطّلب أما الآية واتّقوا الله ويُعَلِّمُكم الله ؛ يعْني لِم لا تتّقون الله والله يُعَلِّمُكم دائِماً يُعَلِّمكم بالوَحْي والعقول والفِطَر وخلْقِه وأفْعالِه وأنْواره آلاف الطرُق.

وفي سورة المائدة يقول الله عز وجل:

(مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٧٥))

(سورة المائدة)

والحقيقة أنّ التناقض بين ما يعْتَقِدُهُ الإنسان وبين سُلوكِهِ لا يُحْتَمَل تجد أُناساً يسْتَمِعون إلى خُطْبة في مسْجِد أو إلى كلِمة في عقْد قِران أو إلى موعِظة موْت يتأثّرون بها فإذا انْطلقوا إلى بُيوتِهم كأنّ شيئاً ما سَمِعوه أبداً، وهذا شيءٌ مُريع أنْ تسْمع للحق وأنْ تفْعل عكْسَهُ وأن تأتي إلى بيْت الله ويكون بيْتُك على خِلاف ما أمر الله تعالى وأنْ تطّلب العلم ولا تعْمل به وأنْ تتزيا بزَيّ المسْلمين ولا تفْعل ما يفْعل المسْلمون وأن تدّعي أنّك مؤمن ولم تُدْرك حقيقة الإيمان ؛ فهذا هو الذي ورد في هذه الآية قال تعالى:

(انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمْ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ)

وفي سورة الأنعام قال تعالى:

(أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ لَكُنَّا أَهْدَى مِنْهُمْ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ)

(سورة الأنعام)

شيءٌ جميلٌ جداً أنّ الله سبحانه وتعالى أنزل كِتابه على النبيّ وفيه كلُّ الحق وفيه البيّنات والنور والمنْهج ثم مِن العجيب جداً ألا يأخذ منا كلام الله تعالى مأْخَذَ التطبيق.

وفي سورة الأعراف قال تعالى:

(أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤))

(سورة الأعراف)

من هو المجنون ؟ هو الذي عصى الله تعالى فالمجْنون الذي نراه في الطريق ليس مجْنوناً هذا مُبْتلى بِعُصاب ذِهني أو بِمَسٍ شيْطاني لكنّ المجنون حقيقةً هو الذي عصى الله تعالى لذلك قال تعالى:

(مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ (٢))

(سورة القلم)

وقال تعالى:

(قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآَتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ (٢٨))

(سورة هود)

المؤمن على شيءٍ من الهدى والمؤمن مُنْغَمِسٌ في رحْمة الله تعالى لكنّ هذه الرحمة عُمِّيَت عن الخلق والخلْق مادِّيون يُقَيّمون كلّ شيءٍ بِمِقْياسٍ مادي فأنت مهما كنت على خلقٌ عظيمٍ ومِقْياسٍ عظيم أو على معْرِفَةٍ بالله أو على إخلاصٍ شديد لا تُقَيّم إلا من خِلال دخْلِك عند هؤلاء المادّيين.

وفي سورة يوسف عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام:

(الر تِلْكَ آَيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ (١))

(سورة يوسف)

المبين يعني: الواضِح لذلك ليس من المُناسِب أنْ تفْهم كلام الله فهماً لم يرده الله ولم يقصد إليه علماً بأن والقرآن الكريم نزل بِلُغَة العرب وبِلِسَانٍ عرَبِيّ مبين ؛ هناك أُناسُ المعنى الجَلِيّ الواضِح يصْرِفون عنه النظر ويبْحثون عن معانٍ لا تُدْرَك إلا بِشِقّ الأنْفس أو بالتَكَلُّف الذي لا يُحْتَمَل لذلك من أخْطاء المُفَسِّرين أنْ تُؤول الآية لِغَير ما تُفْصِح عنه فهذه التأْويلات التي ما أنزل الله بها من سُلْطان هي التي شَتَّتَتْ المسْلِمين وفرّقَتْهم مع أنّ هذا القرآن نزل بِلِسانٍ عرَبِيّ مُبين ؛ بعض القِراءات المُعاصِرة فَسّرت قوْله تعالى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً (٤٦))

(سورة الكهف)

البنون البِناء ؛ هل في العالم العربي من يفْهم كلمة البنون أنها تعني البِناء ؛ المال والبنون زينة الحياة الدنيا وهذا القرآن نزل بِلُغَة العرَب فَيَنْبَغي أنْ نفْهَمَهُ وِفْق لُغَة العَرب.

وفي سورة النحل قال تعالى:

(وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٦٤))

(سورة النحل)

هناك اخْتِلاف أساسُهُ نقص المَعْلومات وهذا اختِلافٌ طبيعي والوحيُ يحْسُمُ هذا الأمر قال تعالى:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْياً بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(٢١٣))

(سورة البقرة)

وهناك اختِلاف أساسُه البَغْي والحسد قال تعالى:

(إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ(١٩))

(سورة آل عمران)

الاخْتِلاف الأول طبيعي وهو الاختلاف القائم على نقص المعلومات أما الاخْتِلاف الثاني فهو قَذِر أساسُهُ الحسد والبغي والعُدْوان أما الاخْتِلاف الثالث اختِلافٌ محْمود وهو التنافُس في حقْل الدين وفي دائرة الحق، وفي سورة النور قال تعالى:

(وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٨))

(سورة النور)

الحق واضِح لكنّ الناس في الدنيا نِيام وإذا ماتوا انْتَبَهوا وعند الموت يُكْشَف الغِطاء قال تعالى:

(لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢))

(سورة ق)

وفي سورة النمل قال تعالى:

(فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ (٧٩))

(سورة النمل)

أيها المؤمن لا تَخَفْ، فإنّ النبي صلى الله عليه وسلّم خاطب عدِيّ ابن حاتِم فقال له: لعلّك يا عدِيّ إنما يمْنَعُك من دُخولِ في هذا الدين ما ترى من كَثْرة عَدُوِّهِم كما هي الحال الآن ؛ وَأَيْمُ الله لَيُوشِكَنّ أنْ تسْمَعَ بالقُصور البابِلِيّة مُفَتَّحَةً لهم ولعلّك يا عدِيّ إنما يمْنَعُك من دخولٍ في هذا الدين أنّك ترى أنّ المُلك والسُلطان في غيْرِهم وَأَيْمُ الله لَيُوشِكَنّ أنْ تسْمَعَ بالمرأة البابِلِيّة تَحُجّ البيت على بَعيرِها لا تخاف ولعلّك يا عدِيّ إنما يمْنَعُك من دخولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجَةٍ بهم وَأَيْمُ الله لَيُوشِكَنّ المال أنْ يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأْخُذه ؛ فَتَوَكّل على الله إنك على الحق المُبين وعلامة المؤمن الصادِق لو أنّ الناسَ جميعاً تنَكّروا للدين ولم يعبئوا به ولم يلْتَزموا بتعاليمِهِ يَكْفيهِ أنّهُ على الحق المُبين والإنسان العاقِل لا يأخذ بالكَثْرة

قال تعالى:

(وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ(١١٦))

(سورة الأنعام)

وقال تعالى:

(وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (٢٨))

(سورة النجم)

وقال تعالى في سورة الحديد:

(اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآَيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧))

(سورة الحديد)

فالآيات تحْتاج إلى تفكّر و إعمال عَقْل والآيات إنْ صَحّ التعبير مواد أوّلِيّة تحْتاج إلى تصْنيع ولا بد أنْ تُصنِّعَها بعَقْلِك وبفِكْرِك ولا بد أنْ تتفكّر بها أو أنْ تتذكرها، قال تعالى:

(لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ (١٦) إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآَنَهُ (١٧) فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآَنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩))

(سورة القيامة)

أحْداث العالم كلِّهِ تتّجِهُ لِتَأكيد ما في القرآن.

إخْواننا الكِرام: لا يغيب عن بالِكم أنّ العالم فيما سبَقَ شرْقاً وغرْباً ؛ كان شرْقاً يؤمن بالمجْموع والقُيود وغرْباً يؤمن بالفرْد والحُرِّيَة والآن الشرق والغرْب عادا إلى الإسْلام قهْراً لا عِبادةً واضْطُروا إلى أنْ يعودوا إلى أصول الدين ؛ فمثلاً في بِلادٍ طويلَةٍ عريضة عاتِيَةٍ بعيدة حَرّمت الخمر والآن في بعض الجامِعات بِأمْريكا تُحَرّم الاخْتِلاط بين الطلاب والطالِبات فكُلّما تقدّم العِلم ونضج في البشَرِيّة تتّجِهُ قهْراً إلى تعاليم الدِّين لا إيمانا ولا تَعَبُّداً لِذلك الشرْق والغَرْب عاد إلى وَسَطِيّة الإسلام والشرق عادا مقهوراً لا مُخَيّراً والغرب كذلك وسوْف تَرَوْن بعد حين أنّ هذا الدين العظيم هو دين المُسْتَقْبَل قال تعالى:

(هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣))

(سورة التوبة)

قال تعالى:

(فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآَنَهُ (١٨) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ (١٩))

(سورة القيامة)

حتى الآيات الكَوْنِيَة في القرآن الكريم كلما تقدّم العِلم تكشّفت له حقائق الإعْجاز القُرآني العِلمي.

من أدْعِيَة هذا الاسم الجليل: اللهم أنت المُبين للحق والهادي إليه والمُوَفّق لإتباعه فاجْعَل بين أيْدِيَنا نوراً من قُرْآنِك وهِدايَةً من بيانِك فإنّك أنت الحق المُبين.

أيها الإخوة الكِرام: ليس هناك أسْعَد من إنسانٍ عرف الحق ونِعْمَةَ الهُدى أعْظم نِعْمة بل إنّ بعض العلماء قالوا في تفْسير قوْلِه تعالى:

(مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلّكُمْ تَشْكُرُونَ (٦))

(سورة المائدة)

قالوا: تمام النِّعمة الهُدى.

٩٩-اسم الله مؤتي الحكمة :

مع الدرس التاسع والتسعون والاسم اليوم: مُؤْتي الحِكمة.

أوّلُ شيءٍ في هذا الاسم إنّ الله حكيم ويُؤْتي الحِكمة وحليمٌ يؤتي الحِلم ورحيم يؤتي الرحمة ومن هنا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلّم " أنْ تخلّقوا بأخلاق الله " ومن هنا كان اسْتِخْلاف الإنسان في الأرض قال تعالى:

(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠))

(سورة البقرة)

أيها الإخوة الكِرام: قبل أنْ ندْخل في تفاصيل هذا الدرس لابد من وَقْفَةٍ قصيرةٍ حوْلَ الحِكْمة ؛ الحِكْمة تَدُلّ على الترْجيح ولا ترْجيح بلا مُرَجّح يعْني شيءٌ يُمْكن أنْ يكون في أوْضاع كثيرة وأنت اخْتَرْتَ هذا الوَضْع المُناسِب فهذا العمل اسمه ترْجيح ؛ رَجّحْتَ هذا المكان على هذا المكان فهذا الترْجيح يَحْتاج إلى مُرَجّح وأوْضَحُ مثَلٍ مِفْتاح الكهْرباء يُمْكن أنْ يوضَع في أسْفل الحائِط ويُمْكن أنْ يوضَع في أعلى الحائط أما حينما وُضِع في مكانٍ مُعْتَدِل يتناسَبُ مع طول الإنسان وحركَة يدِهِ نقول هذا المكان فيه حِكْمَة أو فيه ترْجيح ولا ترْجيح بلا مُرَجّح.

ولعلّ دليل الحِكمة من أكبر الأدِلّة على وُجود الله وعلى عَظَمَتِهِ فَمَثَلاً الطير الصغير الذي في البَيْضة كيف سَيَخْرُج منها ؟ في وَقْتٍ مُناسِبٍ جداً وفي مكانٍ مُناسِبٍ جداً يَنْمو له نُتوءٌ مُدَبّب ويَثْقب به جِدار البيْضَة وبعد حينٍ يتلاشى هذا النُّتوء ويعود مِنْقارُه إلى ما كان عليه في الوَقْتِ المُناسِبِ وفي المكانِ المُناسِبِ وفي الحجم المناسب وفي الشكل المُناسب ظهر هذا النُّتوء ونقول: هذا الترْجيح يَحْتاج إلى مُرجّح والعَقْل لا يقْبل أنّ هذا الشيء تَمّ وَحْدَهُ.

الماء إذا برّدْناهُ شأنُهُ كشأن أيّ عُنْصر ينْكَمِشُ حجْمُهُ إلى درجة زائد أربعة تنْعكِس الآية ولولا هذه الخاصّة لما كان على الأرض حياة ؛ يتَمَدّدُ الماء إذا بلغَ درجة زائِد أربعة، حِكْمَةٌ مُطْلَقَة ولوْلاها لما قامَتْ حياة فالحِكمة ترْجيح ولا ترْجيح بلا مُرَجّح.

قد يذهب إنسانٌ إلى بلدٍ في أقْصى الشمال وقد تصِل الحرارة إلى سَبْعين تحت الصِّفر كلُّ شيءٍ يُمْكن أنْ تُغَطّيه تُغَطي يَدَيْك ورِجْلَيْك وجِهازك التنفّسي وترْتدي الألْبسَة الصوفِيّة والمِعْطف والقُبّعة فَكُلُّ شيءٍ يُمْكن أن تُغَطيه إلا العَيْن إذا غَطّيْتها فقدْتَ البصر والهواء الذي يُلامِسُها سبْعين تحت الصِّفر إذاً لا بدّ من أنْ يتَجَمّد ماء العَيْن ويفقد الإنسان البصر ؛ من أوْدع في العين مادّةً مُضادّةً للتَجَمُّد ؟ هذه حِكْمَةٌ مُطْلَقَة ولولا هذه المادّة لَفَقَد كلُّ الذين يعيشون في المناطِق الباردة أبْصارهم لا ترْجيح بلا مُرجّح ولا حِكْمة بلا مُحْكِم ولا حِكْمَة بلا حكيم.

فالله سُبْحانَهُ وتعالى هو الحكيم فَهُو تعالى حِكْمَتُهُ مُطْلَقة والإنسان حِكْمَتُهُ نِسْبيّة وأحْياناً يفْعلُ فِعْلاً غير حكيم بِسَبَب ضغْط أو إغراء أو بِسَبب جهْل فإما تحَمّل ضغْطاً كبيراً فتَكَلّمَ كلِمَةً غير حكيمة أو وقف مَوْقِفاً غير حكيم أو سلك طريقاً غير مَشْروع أو خضع لإغراءٍ شديد فاخْتَلّ عَقْلُهُ وانْساقَ مع شهْوَتِهِ أو يجْهل حقيقة هذا الشيء فيرْتَكَبَ حماقة، فالإنسان إذا بدا لك حكيماً فهُو حكيمٌ أحْياناً أما الحكيم مُطْلقاً هو الله عز وجل لأنه مُنَزّهٌ عن الضغط والإكْراه والجهْل فأفْعالُهُ تعالى تُلابِسُها الحِكْمة المُطْلقة.

وهذه الحقيقة أيها الإخوة أنّ كُلّ شيءٍ وقع له حِكْمة حتى إنهم قالوا لِكُلّ واقعٍ حِكْمة فِكْرة مُريحة جداً وبسيطة وهي أنّكَ لن تُعاني أزْمة نفْسِيّة ولن تُعاني حِقْداً ولا ضيقاً ولا كراهِيَةً ولا ندَماً، لا تقول: لو أنّني فعَلْتُ كذا وكذا فهذه الفِكرة البسيطة وهي كُلُّ شيءٍ وقع أراده الله لأنه لا يليق بالله أنْ يقع شيءٌ لا يُريدُه وكُلُّ ما أرادَهُ الله وقع وأفْعال الله مُتَعَلِّقَةٌ بالحِكْمة المُطلقة والحِكمة المُطلقة مُتَعلِّقَةٌ بالخير المُطْلق وبذا انتهى النّدَم والحِقد وانتهت كلِمة ليْتَ.

لا تَقُل: لو أنّني فعَلْتُ كذا وكذا ولكن قُل: قدّر الله وما شاء فعل فإنّ كلِمة لو تفْتَحُ عملَ الشيطان أتَرى أيها الأخ الكريم ما يحْدث في العالم، هناك شرور ومجاعات وآثام وزلازل وبراكين تنْفَجِر وفَيَضانات وصقيعٌ لا يُحْتَمَل وإتْلافٌ للمحاصيل وحُروبٌ أهْلِيّة، يجب أنْ تؤمن وهذا الإيمان يَحْتاج إلى جُهْد أنّ كُلّ شيءٍ وقع لِحِكْمَةٍ بالِغةٍ مُطْلَقة وهذه كُلُّها للخير المُطْلق، ولكنّك أنت ترى هكذا رؤية محْدودة فتَرى الشر ولكنّ الله يُريد من أفْعالِهِ كلِّها الخير المُطلق.

تصَوّر أنّ غلاماً يُضْرب من قِبَل أبٍ شديد وبعد أنْ ضُرب كثيراً أصبْح هذا الغلام الطالب في مُسْتَقْبَلِهِ من ألْمَع الشّخْصِيات، بالنظر القريب والقصير هناك قَسْوة وشرّ وبالنظر البعيد هناك خير كثير فبعد أنْ ضُبُط هذا الغلام ودرس وأخذ شهاداتٍ عُلْيا وشغل مناصِب رفيعَة وصار دَخْلُهُ وفيراً - من باب الدنيا - فهذا حينما ينعَمُ ببَحْبوحَة ومَكانَة اجْتِماعِيّة وبيْت مُريح ومرْكبة وزوْجة واحْتِرامات من قِبَل الناس سيُقَبِّلُ يد أبيه التي ضَرَبَتْهُ يوْم كانَ صغيراً فعلى المدى القصير قد يبْدو لك الشر أما على المدى البعيد فيبْدو لك الخير المُطْلق لِذلك أيُّ إنْسانٍ على وَجْهِ الأرض من آدم إلى يَوْم القِيامة حينما يقِفُ بين يدي الله عز وجل يُلَخِّص علاقة الله به بِكَلِمَةٍ واحِدة هي: الحمد لله قال تعالى:

(دَعْوَاهُمْ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللّهُمّ وَتَحِيّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ وَآَخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلّهِ رَبّ الْعَالَمِينَ (١٠))

(سورة يونس)

أرَأيْت إلى هذه الفِكْرة ؛ والله أيها الإخوة أكاد أقول: إنّ تِسْعة أعْشار الأمْراض العُضال أسْبابُها نفْسِيّة ؛ ضغْط نفْسي وقلَقٌ وخوْفٌ وحَيْرة وحِقْد فإنْ آمنت بهذه الحقيقة تشْفى من كلِّ أمْراضِك النّفْسِيّة ولا ترى إلا يد الله تعْمل في الخَفاء ولا ترى مع الله أحداً وتقول: الله هو كلُّ شيء وبالتعبير الدارجْ: ما في إلا الله، والله كبيرٌ وتتعامل معه وحْده وتُخْلِصُ له وتَمْحَضُهُ وُدّك وحُبّك وإخْلاصَك وطاعَتَك وتُقَدّم له

حياتَك وشبابك ومالك وعِلمك ولِسانك وقلمَك وخِبْرتك وهذا هو الإيمان فَلِكُلّ واقِعٍ حِكْمة ولكن هذه الرؤية يصْعُب أن تُنقل بصورتِها اللفظيّة فالإيمان والسلوك في طريق الإيمان ومُجاهَدَة النّفْس والهوى ولُزوم مجالِس العِلْم وتِلاوة القرآن ومَعْرِفة السنّة والاسْتِقامة والعمل الصالح وفي نِهاية هذا المَطاف سترى أنّ يَدَ الله وحْدها تعْمل في الخفاء وفي النِّهاية ترى أنّ يد الله فوق أيْديهم قال تعالى:

(فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَناً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(١٧))

(سورة الأنفال)

لذلك لا ألم ولا خَوْف ولا قلَق والحِكمة أن نضع الشيء المُناسِب في المكان المُناسِب في الحجم المُناسِب وفي الوقت المُناسِب وبالقدْر المُناسِب وبالأسْلوب المُناسب والله هو وحْده الحكيم ولا حكيم سِواه وحكْمة البشَر مُسْتَنْبَطةٌ من حِكْمة الله ؛ وحينما فتح النبي عليه الصلاة والسلام مكّة ماذا قال أبو سُفْيان ؟ قال: ما أحْكَمَك وما أعْقَلك وما أرْحَمَك وما أوْصَلَك.

إخْواننا الكِرام، لمّا يقول الله عز وجل:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩))

(سورة البقرة)

فَرَبُّنا يقول: "خيراً كثيراً "، الخير الكثير لا بِحَجْم رصيدِك فيه من المصارف ولا ببَيْتٍ فَخْم ولا بزَوْجَةٍ رائِعة ولا بِدَخْلٍ كبير ولا بصِحّةٍ جيدة إنما الخير الكثير أنْ تُؤْتى الحِكْمة لأنّك بالحِكمة تسْعد وبالحِكمة تُصْلِحُ الزوجة السيّئة وبالحُمْق تُفْسِد الصالِح وبالحكمة تَجْلِب المال وبالحُمْق تُبَدِّد المال وبالحِكْمة تكْسِب الأصْدِقاء وبالحُمْق تُفَرّقُهم:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ)

فالله عز وجل حكيم ويُؤتي الحِكمة.

بعْضهم قال: الحِكمة لَيْسَتْ كَسْبِيّةً لا تُكْتَسَب ولكِنّها تؤتى، وبعْضُهم قال: المؤمن حينما يسْتقيم على أمْر الله ويُخْلِص له يُكافِئهُ بالحِكمة، والله أيُّها الإخوة، أسْتَنِد فيما أقول لِقِصَصٍ من أزواج وزوْجات ومن إخوة وأخواتٍ ومن شُرَكاء حُمْقٌ ما بعْده حُمْق وانْحرافٌ ما بعْده انْحِراف إنْسانٌ يُدَمِّر نفْسَهُ بيَدَيْه ويُخَرِّب بيْتَهُ بيَدَيْه ويُدمِّر سعادتَهُ بيَدَيْه لِعَدَم وُجود الحِكمة ؛ كلِمة غير مُناسِبة وهذا الكلام مؤلم ويحمل نتائج قاسِيَة، قال قائل:

إنّ القلوب إذا تنافر وُدُّها مثل الزجاجة كسْرُها لا يُجْبَرُ

هناك شيءٌ في الأدب يُسَمى التّشْطير وهو أنْ يأتي شاعر فيَجْعل من شَطْر البَيْت الشطْر الأول ويَصوغُ شَطْراً ثانِياً وشَطْراً ثالِثاً ويأتي بالشّطْر الثاني ليجعله شطْراً رابعاً:

إنّ القلوب إذا تناثر وُدُّها مثل الزجاجة كسْرُها لا يُجْبَرُ

فَأخذ الشَطّر الأول هذا البيْت فقال:

إنّ القلوب إذا تناثر وُدُّها عند الأكارم جَبْرُها لا يَعْسُرُ

قلوب أرْذال الأنام إذا اِلْتوت مثل الزجاجة كسْرُها لا يُجْبَرُ

ثم جعل من الشطر الثاني من البيت السابق سطراً رابعاً.

في بعض الأحْيان كلِمَةٌ تُنْهي شركة وكلِمَةٌ تُشَرّدُ أسْرةٌ ومَوْقِفٌ تَخْسَر عملك فيه قال تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذّكّرُ إلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ)

أحْياناً تجد إنساناً يعَمَل عملاً مرموقاً، وله مكانة رفيعة، ودَخْل كبير فَيَخون صاحِب العَمَل فَيُنْهي عَمَلَهُ ويُصبْح مُتَشَرّداً في الطرقات، ارْتَكَب حماقة كبيرة، أيها الإخوة أنا أُصَدِّق الله عز وجل:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذّكّرُ إلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ)

في بَيْتِك قد تُؤتى الحِكْمة وتعيش مع زوْجَةٍ عُمُراً مديداً تسْعَدُ بها وتَسْعَد بك أما بالحُمْق تُطَلِّقها وتَخْسَرُها وتَخْسَرُك.

أحْياناً تجد إنساناً عنده مال يُبَدّدُهُ بأساليب تافِهَة ثمّ يبْقى بلا مال وأحْياناً يغْضب المرْء فَيُطَلِّق زوْجَتَهُ ويُصبْح على أبْواب المُفْتين فالذي تساهَلَ معه منهم يشُكُّ في عِلْمِهِ والذي تشَدّد عليه يشُكُّ في رحْمَتِه، ومن بابٍ إلى باب ومن مُفْتٍ إلى مُفْتٍ وكان يُغْنيك ألا تُطَلِّق هذه الزوْجَة وأنْ تبْقى عِصْمَتُها بيَدِك أما حينما طلّقْتَها أصْبَحت عِصْمَتُها بيَدِها وأنت لا تدْري ؛ فالحِكْمَة أيها الإخوة كما ورد عِلْمٌ مُطَبّق والله عز وجلّ قال:

(أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٢٣))

(سورة الجاثية)

فقد تُحَصّلُ عِلماً كبيراً ولا تكون حكيماً أما الحِكْمَة أنْ تسْتَفيد من عِلْمِك وأنْ تجْعَل من عِلْمِك عِلماً عمَلِياً ؛ إذْ هناك عِلْم عملي وآخر نظري فأنت حينما تسْتَفيد من عِلْمِك تكون حكيماً فالحِكْمَة حقيقةٌ مُطَبّقَةٌ في حيّز الواقِع، والحِكمة إصابة الحقّ والحق ما طابق الواقِع إذْ الضلال أنْ تتوَهم شيئاً غير واقِعي وأن تظنّ شيئاً غير صحيح والمِقياس هو الواقِع فالحِكْمة أنْ تكون واقِعِياً فالإنسان إذا ابْتَعَد عن الواقِع وقع في الوهْم وصارَتْ أفْكارُهُ وهْماً وظناً وشكاً وغلبة ظنّ أما الحِكمة أنْ تبْلغ حدّ اليقين:

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كثيراً)

اسْمع إلى قوْلِه تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ(١٢))

(سورة لقمان)

الحِكمة كلّها أنْ تشْكر الله لأنّ الله أنْعم عليك بِنِعْمَة الإيجاد وأنْعم عليك بِنِعْمَة الإمْداد وأنْعم عليك بِنِعْمَة الهُدى والرشاد فالحِكْمَة أنْ تشْكر الله والكَوْنُ مُسَخَّر تسْخير تعْريف ومُسَخَّرٌ تسْخير تكْريم فإنْ آمنت وَشَكَرْتَ حققْتَ الهَدَف من وُجودِك، ألَيْس الله بِأحْكم الحاكِمين، فَحِكْمَة الحُكَماء مُسْتَمَدَّةٌ من حِكمة الله يُعْطي الحِكمة أو لا يُعْطيها والدليل أنَّهُ إذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كُلِّ ذي لُبٍّ لُبَّهُ فهذا أبو لَهَب لو ذهب إلى النبي صلى الله عليه وسلّم وقال يا رسول الله صلى الله عليه وسلّم أشْهد أن لا إله إلا الله وأشْهد أنّ محمّداً رسول الله لنجا إلى الأبد، ولما أنزل الله فيه، قال تعالى

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ (٣) وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (٤) فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (٥))

(سورة المسد)

فَطَريق الإرادة لأبي لهَبٍ بيَدِ الله عز وجل، ومن أجْل أنْ تعْلم أنَّ كُلّ مخْلوقٍ أمر بيَد الله سبحانه، فهؤلاء السُّفهاء قال تعالى:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ(١٤٢))

(سورة البقرة)

كأنّ الله يُخاطِب الناس من أهل مكّة، واليهود ويقول أنتم سُفَهاء وسَوْف تقولون هذا الكلام قال تعالى:

(سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنْ النَّاسِ مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمْ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ)

حسناً، هؤلاء الذين سُمُّوا سُفهاء لو فكّروا قليلاً ثمّ سكتوا فَلَو أنّهم سكتوا أبْطلوا كلام الله، ولكنهم تكلموا وقالوا كما أخبرت به الآية، من أجل أن تعلَم أنّ الله بيَدِه كُلُّ شيء وناصيَة كلِّ شيءٍ وإذا أراد الله إنفاذ أمر أخذ من كلِّ ذي لُبٍّ لُبَّهُ والله عز وجل طليق الإرادة ولا شيءَ يقِفُ أمامه سُبحانه ؛ فهذا السَّفيه الذي وُصِف بِأنَّهُ سفيه ولأنَّهُ سفيه سَيَقول كذا وكذا ولو أنه فكّر قليلاً وسكت لألْغى مصداقية القرآن الكريم ولكن حاشا وكلاّ، إذاً الحِكمة أنّ كلّ شيءٍ بيَدِ الله يُؤتي الحكمة من يشاء أو يُؤتي الضلال من يشاء، قال تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١))

(سورة محمد)

أعْمالُهم لا تُحَقِّق أهْدافها ولا تصِل إلى غاياتِها ؛ فحَرَكة الإنسان الكافِر عَشْوائِيَّة حَرَكَتُهُ كبيرة ولكن عندما يأتيه ملَكُ المَوت ليتوفاه ويخرجه من الدنيا بعد أن بدأت تنْتظم حياته ويعْلو شأنُهُ وبعد ما أخذ يزْداد مالُهُ وقد تَمَكَّن بعَمَلٍ مرموق، ومكانة وأصْحاب وأعْوان يقول له ملَكُ المَوت تَفَضّل، فالحِكمة أنْ تأتي أعْمالك مُطابِقَة لأهْدافِك لكن الإنسان أحْياناً يُنْجِزُ عمَلاً كبيراً دون أن يكون له غاية في مرضاة الله، بل تكون غايته سمعة شخصية، وعلواً في الأرض، لذا يقول ربنا عز وجل:

(وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً (٢٣))

(سورة الفرقان)

يقول الله عز وجل في سورة البقرة:

(فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ(٢٥١))

(سورة البقرة)

أنا ذكرْتُ من قبْل أنّ الله قد يُؤتي المال لِمَن يُحِبّ ولمن لا يُحِبّ فقد آتاه لِمَن لا يُحِبّ وهو قارون وقد آتاه لِمَن يُحِب وهو سيّدُنا عثمان ابن عفّان رضي الله عنه فهُو من أغْنى أغْنِياء الصحابة فقد جهَّز وحْدَهُ جيْش العُسْرة وهذا ابنُ عَوْفٍ كذلك من أغْنى أغْنِياء الصحابة سَمِع مرّةً من السيّدة عائِشَة تقول: والله لَيَدْخُلَنّ عبد الرحمن الجنّة حَبْواً فقال هذا الصحابيُّ الجليل والله لأدْخُلَنّها خَبَباً وماذا أفْعل إذا كنت أُعطي مئة في الصباح فيُؤْتيني الله ألفاً في المساء فالله أعطى المال لِمَن يُحِبّ ولمن لا يحب، وأعطى الملك لمن يحب، وهو سيّدُنا سُليمان ولِمن لا يُحبّ وهو فِرْعون ولكِنّ العِلم والحِكمة لا يُعْطيهما إلا لِمَن يُحِب قال تعالى:

(وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٢٢))

(سورة يوسف)

فالإنسان إذا تلقى العِلْم الصحيح وتفقّه بكِتاب الله وقرأ سُنَّة رسول الله وسيرَتَهُ وقف على الحق وعرف مَوْقِعَهُ ولِماذا هو في الدنيا ومن أين أتى ؟ وإلى أيْن سَيَذْهب ؟ وما غاية وُجودِهِ وماهِيَتُهُ ؟ فهذا أوتِيَ الحِكمة، فالمؤمن هدَفُهُ واضِح وهو مُطْمئِنّ لأنّه عرف حقيقة الحياة الدُّنيا وعرف حقيقة الكَون وحقيقة الإنسان وجَوْهَرَهُ قال تعالى:

(فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ وَلَكِنّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)

والآية الثانِيَة الشهيرة هي قوْله تعالى:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذّكّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ)

يدْعو الإنسان ربَّهُ فَيَقول يا رب سدِّدْ قوْلي ووَفِّقني وألهمْني الصواب والله أيها الإخوة ما من دُعاءٍ أرجو أن تدْعوا به جميعاً أحب إلي من هذا الدعاء: اللهم ألهمنا الصواب ؛ قد يقِف الإنسانُ أياماً مواقِفَ نبيلة سليمة ويتكَلّم الكلِمة الصحيحة ويتَحَرّك الحركة المُناسِبَة ويغْضب في مَوْطن الغَضَب ويحلُم في موْطِن الحِلْم ويُعْطي في مَوْطن العَطاء ويُمْسِك عنْدما ينْبغي أنْ يُمْسِك فهذه المواقِف المُتَنَوّعَة إذا كانت مُتناسِبَةً مع عِلَلِها وأسْبابها يشْعر براحة ؛ فماذا يُقابِل الحِكمة ؟ الحُمق فالحِكمة يتْبَعُها راحة أما الحُمْق يتْبَعُهُ ندَم قال تعالى:

(الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ)

ألَم تسْمعوا بدُعاء رسول الله صلى الله عليه وسلّم: " اللهم اجْعل تدْميرهم في تدْبيرهم "، فبعض الناس يُفَكِّر ويُفَكِّر ويُفَكِّر ويحْسب ويجْمع ويطْرح ويقْسم ثمّ يرْتَكِب حماقةً تُدَمِّرُهُ باختياره لأنه ركن إلى ذاته واطمأن إليها.

لذلك

(وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا)

فإذا دخل الإنسان المسْجد قد لا يجد مقْعداً ولا يتوقع راحة ولا استِضافة ولكنّ الذي يُعْطيهُ الله في هذا المسْجِد وفي أيّ مسْجِدٍ آخر ؟ الحِكمة تجِد أنّك إذا دخَلْت المسْجِد تقول: اللهم افْتح لي أبْواب رحْمَتِك ؛ تجد أنّك في بيْتِكَ حكيم وتعْقِد صفْقة مَعْقولة وبالمُقابل تجد من يعْقد صفقة يخْسر بها وتهْوي به ويُدَمّر فالإنسان لما يكون مع الله فالله معه والحقيقة أنت أحَدُ شخْصَين: " شخْصٌ يُلْهِمُه ربه سبحانه صلاحه وخيره وشخْصٌ يُوَسْوِسُ له شيْطان "، فالشيْطان يَدُلُّك على الشر وعلى المعْصِيَة ويُحَبِّب لك الدنيا ويُلْقي بينك وبين الآخرين البَغْضاء ويُزَيِّن لك الحرام، قد تجد أشْخاصاً كثيرين عندهم زوْجات من الدرجة الأولى ومع ذلك يطْمعون بنساءٍ غير زوْجاتِهم لأنّ الشيْطان يُزَيّن أحدهم هذه المرْأة الأجْنَبِيّة التي لا تحِلّ له ويُزَهِّدُه بزوْجتِه فهذا حُمْق ويُدَمِّر نفْسَهَ فالشيء الطاهر والحلال والنقِيّ الذي لا شائِبَةَ فيه زاهِدٌ فيه ويلهث وراء الحرام الذي يُسَبِّب دمار أُسْرة وتَفْرقة وعاراً كلُّ هذا دليل على عدم وُجود الحِكمة:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ)

تجد الإنسان يتسَرَّع بدون تحقق فإذا به يقعُ في شرِّ عملِه وقد يحْكم حُكْماً سريعاً على بعض أعماله فيندم على ما فعل وقد يكون ردُّه أكثر مما ينْبغي فَيُفَجِّر المَوْضوع ؛ أراد أنْ يُصْلِح فأفْسَد وأن يُرَمِّم فَدَمَّر.

فأيها الإخوة الكِرام من علامة أنّك حكيم أنّكَ لا تنْدم والنّدم يُرافِق عدم الحِكمة وعدم الحِكمة تعْني أنّهُ مقْطوعٌ عن الحكيم ولا يوجد له اتِّصال بربه إذْ لو كان هناك اتِّصال لما كنت غير حكيمٍ فالله هو الحكيم

وأيٌّ عبْدٍ اتَّصل به يشْتَقُّ من حِكْمَتِه، أحد الصحابة سُرِق بعض مالِهِ فماذا قال؟ قال: اللهم إنْ كان الذي أخَذَهَ أخذه عن حاجَةٍ فَبارِك له فيه وسامِحْه وإن كان قد أخذه بطراً فاجْعَلْهُ آخر ذُنوبِهِ.

إني أعْرِف إنْساناً فَصَلَ مُوَظَّفاً عنده عن العمل وانْتَقَم منه انْتِقاماً شديداً بل أدَّى به الأمر إلى قتْلِهِ من أجل قضِيَّة تافِهَة ؛ غَضَبٌ شديد حَمَلَهُ على ارْتِكاب جريمة قتل وهذه الجريمة أوْدَت به إلى السِّجْن ثلاثين عاماً أما لو كان حكيماً لقال: قدَّر الله وما شاء فعَل والله هو المُعَوِّض يرى كلّ ذلك من حِكْمة أرادَها الله فلَعَلَّهُ أكل مالاً حراماً من قبل فالله تعالى عاقبَهُ وانْتهى الأمر به إلى السجن ثلاثين عاماً، فالشيطان هو الذي يدْفعه إلى الحركات العَشْوائِيّة، قال تعالى:

(أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزّاً (٨٣))

(سورة مريم)

حركة عشْوائِيّة وطائِشَة ومُؤْذِيَة وهدَفُها الإيقاع بين الناس، ذكرْتُ مرّةً قِصّة فريدة مذهلة كانت امرْأةٌ تعْمل بالقضاء وكانت مُلمّة بالقوانين وكان لها بيتٌ تملكه شركة مع أخيها وكان معها وثيقة بمِلْكِيَّة نِصف هذا البيت والنصف الآخر لأخيها فتَوَهَّمت أنه بإمْكانِها أنْ تأخذ منه البيْت بطَريقَة ذكِيَّةٍ جداً وبِأسْلوبٍ يحْتاج إلى خِبْرة والقِصة طويلة جداً واسْتطاعَت بمكرها أنْ تجْعَلَهُ في الطريق هو وأولاده وزوْجَتُهُ، وأن تملك البيت وحدها، عِنْدها أُصيبَتْ بمَرَضٍ خبيثٍ في أمْعائِها وانْتهى بها الأمر إلى الموت العاجل فكان أخوها وأولاده هم الوارثين وعادوا إلى البيت واسْتَحَقّت لعْنة الله والملائِكة والناس أجْمعين ؛ من الذي دفعها إلى هذا العمل ؟ الشيْطان أخْرَجَت أخاها الذي أعْطاها ثمن نِصف البيت تماماً ولكن ما خطر في باله أنْ يأخذ منها إيصالاً وابن هذا الأخ الكريم هو أحد إخْوانِنا ؛ آلاف القِصص من هذا النوع.

فالإنسان وهو بعيدٌ عن الله تعالى أحْمَق ويرْتَكِب حماقة لا توصف وعملاً طائِشاً فإذا به يتدَمّر فالخُلاصة إذا كنت مع الله فأنت في ظِل الله ورِعايَتِهِ وحِمايَتِه وتَرْبِيَتِه ؛ تجد شخْصاً حياتُهُ مُتواضِعة ولكنّه حكيم وشخْصاً آخر حياته مترفة ولكنه مُدَمَّر ألا ترى أشْخاصاً جمعوا أمْوالاً طائِلة ثم كُشِف أمْرهم فإذا هم بالسِّجن فالقضِيّة هي قضِيّة توْفيق من الله عز وجل:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُوْلُوا الأَلْبَابِ)

إنْسان خرج من بيْتِهِ يقول فيما روي:

((عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ قَالَ بِسْمِ اللَّهِ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ أَزِلَّ أَوْ أَضِلَّ أَوْ أَظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ))

[رواه النسائي]

تحدُثُ معك أمور تقول بعدها ما انْتَبَهْت لكن الله ألْهَمني وصَحَوتُ من غفلتي، الفِكرة الدقيقة التي أُريد أن أنبه إليها: أنْ تقِف في الوَقت المُناسِب وأنْ تُراجِع الأمر وأنْ تتريّث وأن لا تحْكم عشوائياً فكُنْ مع الحكيم تغْد حكيماً وكُن مع العليم تغْد عليماً وكُن مع الرحيم تغْد رحيماً فكُلّ إنسان يرْتَكِب حماقة يكون وقتها غافلاً، يعْني أنّهُ وقتَ ارْتِكابِه لها كان مقْطوعاً عن الله عز وجل:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ)

قال تعالى:

(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آَتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ(٨١))

(سورة آل عمران)

الحكمة تُؤْتى تفضُلاً من الله الحكيم، والعلماء قالوا: **" الكِتاب هو القرآن والحِكمة هي سُنّة النبي عليه الصلاة والسلام "** قال تعالى:

(وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ)

أيها الإخوة اُطْلُب من الله عز وجل كُلّ يومٍ أنْ يُلْهِمَك الحِكمة وألا تقع في شرّ عملِك وأنْ تفْعل الشيء الصواب والحَسَن والحِكمة ضالّةُ المؤمن والحقيقة أنّ الإنسان إذا افْتَقَر إلى الله ألْهَمَهُ الحِكمة فإذا اعْتَدّ برَأيِهِ تخَلى عنه فوقع في الشرّ بينما أنْ تسْتَلْهِم الله فيؤتيك الحكمة وبين أنْ تنْقَطِع عن الله فينفرد بك الشيطان ويُوَسْوِس لك.

برَبِّكم هؤلاء المُجْرمون يوم قتَلوا ضحيتهم أما فكّروا في المصير ؟ أربعة ذهبوا إلى صائغ في بعض الأبنِيَة في دِمشق وقيَّدوه وأخذوا منه ثلاثة عشر كيلوا ذهباً وبعد أسبوع أُعْدِموا في قرْيَتِهم جميعاً هل معْقول أنْ يَخْسر الإنسان نفْسه من أجل كمّيَة من الذهب تبقى لديه سبْعة أيام ؟ لذلك المُجْرِم غَبِيّ طبعاً صعْبٌ أنْ ترْتَكِب جريمة لكن هناك أخْطاء تُدَمِّر سعادَتَك.

أعْرِف شخْصاً اشْترى هذا الصحْن وأنا أقول دائِماً كُلّما كثرت الصحون على السطوح قلّت الصحون على المائِدة وكلما قلّ ماء الحياء قلّ ماء السماء وكلما رخُص لحْم النِّساء غلا لحْم الضأن ؛ كان يُصلي الفجْر والعِشاء مع أهْله بعْدها أصْبح يسْهر إلى الخامسة صباحاً وبذلك صار صغيراً أمام أهْله ؛ أين الحِكمة ؟.

وأعْرِف رجُلاً هِوايَتُهُ أنْ يمْشي في الطُرق المُزْدَحِمة ويُمَتِّع عَيْنه بالحَسْناوات فأُصيب بمَرض ارْتِخاء الجُفون فلا يسْتَطيع أنْ يرى إنساناً إلا إذا أمْسك جفْنه بيَدِه أين الحِكمة ؟ هل تُصَدِّقون من هو الحكيم ؟ الذي يُطيع أمْر الله عزّ وجل ؛

أطِعْ أمْرنا نرْفع لك حُجْبَنــا فإنا منَحْنا الرضى من أحَب

ولُذْ بحِمانا واحْتمي بجنابنـا لِنَحْميك مما فيه أشْرار خلْقِنا

وعن ذِكْرنا لا يشْغُلَنّك شاغِلٌ وأخْلِص لنا تلْقى المَسَرّة والهنا

اسْمع قِصص الناس ترى العَجَب ؛ أزْواج مُتَباغِضون وأعْمال مُنْحَرِفة وخُصومات ففي البيوت مُشْكِلاتٍ لا يعْلَمُها إلا الله ونُفور وعَصَبِيّة لأنه مقْطوع عن الحكيم فكلامُهُ قاسٍ ورُدود فِعْلِه عنيفَة جداً فلا هناك حبٌ ولا وئام ولا تسامُح ولا سُرور تجد بيتاً يحْوي كلّ شيء إلا الحب فهو بذلك خاوٍ من كل شيء ؛ فالإنسان بالحكمة يسْعد ومن دون الحِكمة يشْقى سمِعْتُ أنّ أحد العلماء ألّف حَوْل هذه الآية كِتاباً من دَقّتِه إلى دَقّتِه:

(يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فقدْ أوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذّكّرُ إلا أوْلُوا الألْبَابِ)

والله هناك زوْجاتٌ بالحِكمة أصْبحن أودّ وأرحم زوْجات وهناك زوْجات بالحُمق أصْبحن أسْوأ زوْجاتٍ كلّ هذا من الزوج ؛ فهذا كلّ يوم يُقسو على زوْجته ويغلظ لها القول، وليل نهار وراء عُيوبها حتى يحطّ من شأنها ويُحَطِّمها وحتى تُجابهُهُ وتردّ عليه ردّاً عنيفاً وحتى يدمِّر الوُدّ الذي بيْنه وبينها أما المؤمن فيحْمد الله على كلّ شيء لن تجد إنساناً له كمال مُطلق أما الحكمة فإنها تجْعل النّقص كمالاً والحُمق يجْعل الكمال نُقْصاً فانتبه اتِّصالُك بالله يُعْطيك الحكمة وذِكْرك الله عز وجل يُعْطيك الحكمة وتِلاوة القرآن تعطيك الحكمة والبطولة أن تسْعد في الدنيا والآخرة والسعادة أن تكون مع الحكيم وأنت تحْتاج إلى الحكمة كلّ ساعة بل كلّ دقيقة وبلا حِكمة يشْقى الإنسان ويَردى.

أيها الإخوة الكِرام بهذا نكون قد أنْهَيْنا الحديث حول هذا الاسم من الأسماء الحسنى والله المُوَفِّق.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس